الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد الخامس



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٨)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي العشرون

دمشق
١٩٩٥ ـ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

— من وفيات الأعيان لابن خلكان

—من التاريخ المظفري لابن أبي الدم الحموي

—من التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي

—من التاريخ الصالحي لابن واصل الحموي

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا من قبل أن عددا كبيرا من المؤرخين العرب عاصروا بداية قيام الحروب الصليبية ، وعاشوا أحداث ذروتها في حطين وتحرير الساحل والقدس وملحمة عكا حتى وفاة صلاح الدين ، لكن بعض كتابات هؤلاء المؤرخين ماتزال بحكم المفقود، ثم ان الصراع ضد الصليبيين مرّ ـ بعد صلاح الدين ـ بمراحل متميزة انتهت بتحرير عكا من قبل الأشرف خليل، وعاش أيضا هذه الاحداث مجموعة من المؤرخين العرب الكبار لم يقتصر نشاطهم على التأريخ لما عاصروه، بل نقلوا عن كتابات الذين تقدموهم ، وعلى هذا لنتاجهم أهمية مزدوجة ، ويتصدر جيل القرن السابع من المؤرخين العرب الشاميين أربعة هم: ابن خلكان، وابن أبي الدم الحموي، وابن نظيف الحموي، وابن واصل الحموي.

وابن خلكان هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الإربلي كان يكنى أبا العباس، ولد بمدينة إربل سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١م بدأ في تحصيل العلم في بلدته ثم قصد سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩ م مدينة حلب لتلقي العلم فيها، خاصة على ابن شداد، صاحب صلاح الدين والمؤرخ لحياته، وذكر ابن خلكان هذا لدى ترجمته لحياة ابن شداد في كتابه وفيات الأعيان.

غادر ابن خلكان مدينة حلب الى دمشق، وقد اتخذها داراً له، فيها أكمل تحصيله العلمي، وفيها تسلم منصب قاضي القضاة، وبات في مقدمة أعيانها لاسيما أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس، وفي دمشق مات سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢ م . وبالنسبة للمهتم بالتاريخ ، ان مكانة ابن خلكان وشهرته صادرة عن تصنيفه لكتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهذا الكتاب من أهم كتب التراجم العامة وأشهرها، صنف من ترجم له حسب حروف المعجم ألفبائياء ودعاه بوفيات الأعيان ، على أساس أن معظم الشخصيات لاتعرف بالتأكيد سنوات ولادتهم، بل سنوات وفياتهم، لأنهم يحظون بالاهتمام بعد نيلهم الشهرة، وهكذا تضبط سنوات وفياتهم.

وفضلا عن المعاصرة، عاد ابن خلكان الى محتويات المكتبة العربية في بلاد الشام ومصر، فهو قد عاش بالقاهرة سبع سنوات عمل فيها بالتدريس بالمدرسة الفخرية، ونال كتاب وفيات الأعيان شهرة واسعة واتخذ قاعدة اما للاكمال أو لاستدراك بعض مافات المصنف، وقد قمت بانتزاع جميع التراجم التي حواها الكتاب لأعلام تاريخ الحروب الصليبية ومقدماتها، وهي غنية المادة كثيرة الفوائد، فيها أمانة بالنقل ونزاهة ، ذلك أن سلوك ابن خلكان الصارم في القضاء انعكس ايجابيا على عمله في التاريخ.

ولدى عرض مواد موسوعتنا حول الدولة الايوبية أيام صلاح الدين رأينا أن هذه الدولة فقدت مركزيتها وتحولت الى عدة ممالك، كان ابرزها وأطولها عمراً مملكة حماه.

وتعد مدينة حماه من أهم مدن بلاد الشام وأقدمها ، وغالبا ما تنافست مع حمص لقصر المسافة بينهما ولارتباطهما بنهر العاصي،

ونظراً لموقع حمص المتميز، فقد تفوقت على حماه قبل ظهور الاسلام وبعيد نجاح حركة الفتوحات العربية، لكن الفتوحات العربية غيرت كما ـ هو معلوم ـ البنية الاستراتيجية: السياسية والعسكرية لمدن بلاد الشام، حيث سرعان ما تقدمت كل من دمشق وحلب نحو الصدارة، وتراجعت القدس وأنطاكية، ومع الأيام قام تنافس شديد بين حلب ودمشق حول السيادة في بلاد الشام، ولم يحسم هذا لصالح أي من المدينتين، وفي الوقت نفسه عانت حمص من الاهمال وتعرضت لكوارث عسكرية الأمر الذي أفاد حماه، حيث تولت دور الحاجز بين دمشق وحلب ،وبين قلاع جبال بهراء إلى الغرب منها والبادية في الشرق، وإلى حماه هاجر كثير من علماء معرة النعمان، لابل قدم إليها علماء من العراق ومن الأندلس أيضا ولدى استقرار الحكم الأيوبي فيها رعى هذا الحكم العلم والعلماء، وتوفرت اهتمامات كبيرة بعلم التاريخ حتى من قبل ملوك المدينة، فقد كتب الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، ثاني ملوك حماه [٥٦٧ ــ ٦١٧هـ/ ١١٧٢ـ ١٢٢٠م] كتاباً كبيراً في التاريخ اسمه «مضمار الحقائق وسر الخلائق » ، وصلتنا قطعة منه نشرت بالقاهرة عام ١٩٦٨، وسيمر بنا أبو الفداء المؤرخ والجغرافي الكبير .

ومن أوائل المؤرخين الحمويين شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم ففي حماه ولد سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م ، وبها نشأ وتربى وتثقف ، وقد تسلم القضاء في حماه وتكلف بأكثر من مهمة رسمية مما مكنه من زيارة حلب ودمشق والقاهرة، ونال مكانة علية في حماه، وعاصر أربعة من ملوكها الأيوبيين هم: تقي الدين عمر، ثم ابنه المنصور محمد، ثم ولده الملك الناصر قليج أرسلان (٦٢٦ ـ ٦٤٢هـ/ ١٢٢٠ـ ١٢٢٩م) وأخيرا أخيه الملك المظفر الثاني محمود (٦٢٦ــ ٦٤٢ هـ/ ١٢٢٩ـ ١٢٤٤م).

وكـانت عـلاقة ابـن أبي الدم جيـدة مع هـذا الملك ، علـى عكس عـلاقته مـع قليج أرسـلان، وهذا واضح مـن خلال كتـابـه في التـاريخ الذي نقـدم للقسم المتعلق بـالحروب الصليبية منـه، وبما أن عـلاقات المنصور الثـاني كـانت جيدة مع الكـامل الأيوبـي ، فقد سـوغ ابن أبي الـدم تسليم الكـامل القـدس الى الصليبيين، وهذا التسـويـغ ضعيف يتنـافـى مع مـوقـف علمـاء الاسلام آنـذاك من هـذا الحـدث الجلـل ويتعارض تماما .

ولعلاقات ابن أبي الدم الجيدة بـالمظفر الثاني فقد أسهم في شؤون حماه السيـاسية وسواها، وهـذا الجانب واضح بعض الشـيء من خلال مـادتـه التاريخيـة وكتـب ابن أبـي الدم بـالقضـاء وبـالتـاريخ والفقـه والحديث والملل والنحل ، وأهـم ما كتبه بالتاريخ: التـاريخ المظفري، والتـاريخ الكبيـر أو المقفى، ثم اختصـر المظفـري بكتـاب عرض فيـه للتاريخ الاسلامي حتى أيامه.

وكنت قـد رأيت في مكتبـة أياصـوفيا نسخـة مخطوطـة من التـاريخ المظفري في مجلدتيـن ، لكن ترجمة فارسية لـه، وليس النص العربي ، ووصلنـا مـن مختصـره للتـاريخ الاسـلامي أكثـر مـن نسخـة خطيـة ، اعتمدت منها نسخة مكتبة البودليان مارش ٦٠ ، وفيها / ١٨٧/ ورقة.

وكان الدكتور حامد زيان غنيم قـد نشر في القاهرة عام ١٩٨٩ قطعة صغيرة من الكتاب، وأبلغنـي مؤخرا أن في نيته متابعة العمـل في نشرته وأخبرته بدوري أنني قد أعمد الى نشر الكتاب دفعة واحدة.

وعاش ابن أبي الدم حتى سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، وعلى هذا عاصر جملـة احداث العصـر الأيـوبي ، وكـان شـاهد عصـر لهـا، ومن هـذا المنطلق تتـأتى أهميـة ما كتبـه عن عصـره، وإن كـان مختصراً ، وانهـا المرة الأولى التي تنتشر بها هذه المادة في موسوعتنا.

ومن الحمويين الذين عاصروا ابن أبي الدم محمد بن علي بن نظيف ، ونحن لانعرف عن هذا المؤرخ سوى الاشارات التي أشار بها إلى نفسه في كتابه التاريخ المظفري، لانعرف متى ولد ، ولاسنة وفاته بالتأكيد ، وإن كنا نرجح أنها كانت سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ، وابن نظيف لم يمض حياته في حماه بل في الجزيرة وسواها، وعاش فترة طويلة في حمص، وتوطدت علاقته بملكها المنصور ابراهيم بن المجاهد [ت: ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م]، وله أهدى كتابه « التاريخ المنصوري».

وجاء هذا الكتاب بمثابة اختصار لكتاب كبير بالتاريخ اسمه «الكشف والبيان في حوادث الزمان » ، وهو كما يبدو تاريخ عام للاسلام ، أهم ما فيه ماعاصره المؤلف.

ونعرف من كتاب « التاريخ المنصوري » نسخة خطية واحدة تحتوي على ٢٢٧ ورقة، سلف أن نشرت كما هي صورة طبق الأصل في موسكو عام ١٩٦٠، وقام فيما بعد د. أبو العيد دودو بنشر قطعة من الكتاب تتضمن ما حدث بعد وفاة صلاح الدين حتى نهاية الكتاب ، وطبعت هذه القطعة بدمشق عام ١٩٨٢، وقد اثقل المحقق نص الكتاب بحواشي لا طائل تحتها لا فائدة تذكر منها، واستعار أحد الاصدقاء مني صورة المخطوطة وأعلمني عن نيته بتحقيق نص الكتاب كله، وسيكون هذا مفيدا، والذي قمت به الآن أنني أعدت تحقيق ما نشر بدمشق عام ١٩٨٢ مضيفا إليه ما تعلق بأحداث الحروب الصليبية ومقدماتها قبل وفاة صلاح الدين.

ولدى ابن نظيف بعض الروايات قد انفرد بها،إنما حوادثه تدعم على العموم روايات المؤرخين الآخرين، وفي ذلك فائدة كبيرة.

وأشهر ممن قدمنا ذكرهما من الحمويين ابن واصل جمال الدين ، أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل، الذي ولد بحماه سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٨ م وفيها توفي سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨ م لقد زار ابن واصل مدن بلاد الشام وبغداد والقاهرة والحجاز، وأقام بالقاهرة عدة سنوات أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وكان من شهود حملة الملك الفرنسي لويس التاسع ، وعاش سقوط الحكم الأيوبي في مصر ثم في الشام وتأسست له صلات متينة بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ، الذي أرسله سفيراً إلى منفرد بن فردريك الثاني ملك صقليية وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة.

كان ابن واصل موسوعي المعارف، كتب بالأدب، والهندسة وعلم الهيئة والجغرافيا والطب والتاريخ، واختص بالتأريخ لبني أيوب ، ويحكى أنه أرخ لجزيرة صقيلية، وتعد جل مؤلفاته بحكم المفقود، ونظر إلى كتابه« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» على انه أهم ما صنفه بالتاريخ ، وقد شرع في نشر هذا الكتاب بالقاهرة منذ مايزيد على الأربعين سنة، ومايزال جزء منه لم ينشر بعد، قيل لي إنه بالمطبعة منذ أكثر من عامين.

وعلى أهمية كتاب مفرج الكروب، أرى أن أصالة ابن واصل في التدوين التاريخي تظهر في كتاب آخر له بالتاريخ اسمه « التاريخ الصالحي»، وهو كتاب في التاريخ الاسلامي العام، عرض مواده بشكل مختصر، فابن واصل في كتابه مفرج الكروب مصنف جماعة لروايات الآخرين، لكنه هنا شخص آخر ، هو فعلا مؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة بالمقاييس الاسلامية.

وعرفت من كتاب التاريخ الصالحي نسخة غير كاملة تضم بعض أول الكتاب وهي محفوظة بالمكتبة البريطانية (المتحف البريطاني

بلندن) وأخر ى كاملة موجودة في مكتبـه الفاتح باستانبول، ومن نسخة استـانبول هـذه انتـزعت ما تعلـق بموضـوع الحـروب الصليبية وحققتـه ونشرته ، ولا أعرف أنه سلف لغيري أن نشر منه شيئا.

من اللـه تعالى أرجـو التوفيق والعـون وله جـل وعلا الحمـد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين

١٣ ـ جماى ا لأولى ١٤١٦هـ

دمشق ٧/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

من وفيات الأعيان

لابن خلكان

-٩٤٧٢-

أرتق بن أكسب جد الملوك الأرتقية

هـو رجل مـن التركمان تغلب على حلـوان والجبل ثـم سار إلى الشـام مفارقا لفخر الدولة أبي نصر محمد بـن جهير،خائفا من السلطان محمد بن ملكشـاه وذلك في سنـة ثمان أو تسـع وأربعين وأربعمائة، وملك القـدس من جهة تاج الدولة تتش السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولما توفي أرتـق في التاريخ المذكور فيـه تولاه بعده ولـداه سكمان وإيل غـازي ابنـا أرتق، ولم يـزالا بـه حتـى قصـدهما الأفضل شـاهنشـاه أمير الجيوش الآتي ذكره إن شـاء الله تعالى من مصر بالعسـاكر،وأخذه منهما في شوال سنـة إحدى وتسعين وأربعمائة، وتـوجها إلى بـلاد الجزيرة الفـراتية وملكـا ديار بكـر، وصاحـب قلعة مـاردين الآن مـن أولاده، وملك ولـده نجم الـدين إيـل غازي مدينـة ماردين سنة إحـدى وخمسمائة وكان ولاه السلطان محمد شحنكيـة بغداد، وتوفي سكمان بن أرتـق بعلة الخوانيق في طريق الفرات بين طرابلس والقدس سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

وكان أرتق رجلا شهما ذا عزمة وسعادة وجد واجتهاد، وتوفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعـالى، وهو بضـم الهمزة وسكـون الراء، وضـم التاء المثناة مـن فوقها بعدهـا قاف، وأكسب بفتح الهمـزة وسكون الكاف وفتح السين المهملـة وبعدها بـاء موحدة، وقيل هـو كسك بالكـاف بدل الباء والله أعلـم.

ابـو الحارث أرسلان بن عبـد الله البسـاسيري التركـي مقدم الأتراك ببغداد

يقال إنـه كان مملوك بهاء الدولـة بن عضد الـدولة بن بويـه والله أعلم. وهو الذي خـرج على الإمام القائم بأمـر الله ببغداد، وكان قد قـدمه على جميـع الأتـراك وقلـده الأمـور بـأسرهـا وخطـب لـه على منابـر العـراق وخوزستان، فعظم أمره وهابته الملـوك، ثم خرج على الإمام القائم وأخرجه من بغداد وخطب للمستنصر العبيدي صـاحب مصر، فراح الإمام القائم إلى أمير العـرب محيـي الـديـن أبي الحارث مهـارش بـن المجلي العقيلي صاحـب الحديثة وعانة فـآواه، وقام بجميع مايحتـاج إليه مدة سنة كـاملة حتـى جاء طغـرلبك السلجـوقي المذكـور بعـد هذا، وقـاتل البسـاسيري المذكور، وقتلـه وعاد القـائم إلى بغداد، وكـان دخولـه إليها في مثـل اليوم الذي خرج منها بعد حول كامـل، وكان ذلك من غرائب الاتفاق وقصته مشهورة وقتله عسكـر السلطان طغرلبك السلجوقي ببغـداد يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة.

وقال ابـن العظيمي: يوم الثلاثـاء حادي عشر ذي الحجة سنـة احدى وخمسين وأربعمائة، وطيف برأسه في بغداد، وصلب قبالة باب النوبى.

والبسـاسيري بفتح البـاء الموحدة والسين المهملـة، وبعد الألـف سين مهملة مكسورة ثـم ياء ساكنة مثنـاة من تحتها، وبعدهـا راء، هذه النسبة إلى بلـدة بفارس يقـال لها بسا، وبـالعربيـة فسـا، والنسبة إليهـا بالعـربي فسوي، ومنها الشيخ أبو علي الفارسي النحـوي صاحب الايضاح، ويقال له فسـوي أيضا وأهـل فارس يقـولون في النسبـة إليها البسـاسيري، وهي نسبـة شاذة على خـلاف الأصـل، وكان سيـد أرسـلان المذكـور من بسـا فنسب المملوك إليـه، واشتهر بالبساسيري هكذا ذكره السمعـاني نقلا عن

الأديب أبي العباس أحمد بن علي بن بابه القاساني، وفي هذه اللفظة زيادة ليست في الأصل.

ومات الأمير مهارش بن المجلي في صفـر سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقد نـاهز ثمانين سنـة وهو مهارش بـن المجلي بن عكيـث بن قبـاث بن شعب بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المهنا، وبقية نسبه ستأتي في ترجمة المقلد بن المسيب إن شاء الله تعالى.

أبو الحارث أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر صاحب الموصل المعروف بأتابك الملقب الملك العادل نور الدين وسيأتي ذكر جماعة من آل بيته إن شاء الله تعالى كل واحد في حرفه

ملك نور الدين المذكور الموصل بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور هناك،وكان ملكا شهما عارفا بالأمور وانتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه، ولم يكن في بيته شافعي سواه، وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قل ان توجد مدرسة في حسنها،وتوفي ليلة الأحد التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستمائة في شبارة بالشط ظاهر الموصل، والشبارة عندهم هي الحراقة بمصر، وكتم موته حتى دخل به إلى دار السلطنة بالموصل ودفن في تربته التي بمدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وخلف ولدين: هما الملك القاهر عز الدين مسعود، والملك المنصور عماد الدين زنكي، وهما مذكوران في ترجمة جدهما عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، فليطلبا منه إن شاء الله تعالى.

وقام بالمملكة بعده ولده الملك القاهر، كما هو مشروح هناك، وهو أستاذ الأمير بدر الدين أبي الفضائل لؤلؤ، الذي تغلب على الموصل وملكها في سنة ثلاثين وستمائة في أواخر شهر رمضان، وكان قبل نائبا بها، ثم استقل وهو المذكور في ترجمة عماد الدين بن المشطوب.

أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل، وهو والد عماد الدين زنكي بن آق سنقر الآتي ذكره إن شاء الله تعالى

كان مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي هو وبزان صاحب الرها،ولما ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السجوقي في مدينة حلب استناب فيها آق سنقر المذكور، واعتمد عليه لأنه مملوك أخيه فعصى عليه، فقصده تاج الدولة وهو صاحب دمشق يومئذ فخرج لقتاله وجرى بينهما مصاف وحرب شديد، وانجلت عن قتل آق سنقر المذكور، وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وأربعمائة، ودفن بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب رحمه الله تعالى، ورأيت عند قبره خلقا كثيرا يجتمعون كل يوم جمعة لقراءة القرآن الكريم، وقالوا: إن لهم على ذلك وقفا عظيما يفرق عليهم، ولاأعلم من وقفه، ثم إني وجدت الذي وقفه ولد ولده نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وسيأتي في ترجمة تاج الدولة تتش خبر آق سنقر المذكور، على خلاف هذه الواقعة والله أعلم بالصواب.

والزجاجية بناها أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب، وكان أولا مدفونا بقرنبيا، فلما ملك ولده عماد الدين زنكي حلب نقله إلى المدرسة ودلاه من سور البلد، وكان قتل آق سنقر على قرية يقال لها رويان بالقرب من سبعين من أعمال حلب، ذكرها ياقوت الحموي.

أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي الملقب قسيم الدولة سيف الدين

صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي، وملكها بعد اسباسلار مودود، وكان مودود بها وببلاد الشام من جهة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فقتل مودود بجامع دمشق يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسمائة، وكان قد وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وآق سنقر يومئذ شحنة بغداد، كان ولاه إياها السلطان محمد المذكور في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة لما استقرت له السلطنة بعد موت أخيه بركياروق.

وفي سنة تسع وتسعين وجهه السلطان محمد لمحاصرة تكريت وكان بها كيقباذ بن هزارسب الديلمي المنسوب إلى الباطنية، فأصعد آق سنقر إليه في رجب من السنة المذكورة، وحاصره إلى المحرم من سنة خمسمائة، فلما كاد أن يأخذها أصعد إليه سيف الدولة صدقة فتسلمها، وانحدر كيقباذ صحبته، ومعه أمواله وذخائره، فلما وصل إلى الحلة مات كيقباذ، فلما وصل خبر قتل مودود تقدم السلطان محمد إلى آق سنقر بالتجهز إلى الموصل والاستعداد لقتال الفرنج بالشام، فوصل إلى الموصل وملكها وغزا ودفع الفرنج عن حلب وقد ضايقوها بالحصار، ثم عاد إلى الموصل وأقام بها إلى أن قتل.وهو من كبراء الدولة السلجوقية، وله شهرة كبيرة بينهم، قتلته الباطنية بجامع الموصل يوم الجمعة التاسع من ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة.

وذكر ابن الجوزي في تاريخه أن الباطنية قتلته في مقصورة الجامع بالموصل سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقال العماد: سنة عشرين وذكر أنهم جلسوا له في الجامع بزي الصوفية، فلما انفتل من صلاته قاموا إليه

وأثخنوه جراحا في ذي القعدة، وذلك لأنه كان تصدى لاستئصال شأفتهم وتتبعهم وقتل منهم عصبة كبيرة رحمه الله تعالى.

وتولى ولده عز الدين مسعود موضعه ثم توفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة رحمه الله تعالى وملك بعده عماد الدين زنكي بن آق سنقر المذكور قبله كما سيأتي في حرف الزاي إن شاء الله تعالى.

والبرسقي بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم السين المهملة وبعدها قاف ولاأعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي، ولم يذكرها السمعاني، ثم إني وجدت نسبته بعد هذا إلى برسق، وكان من مماليك السلطان طغرلبك أبي طالب محمد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وتقدم في الدولة السلجوقية، وكان من الأمراء المشار إليهم فيها، المعدودين من أعيانهم.

تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي.

كان صاحب البلاد الشرقية، فلما حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي مدينة دمشق، من جهة صاحب مصر، وكان صاحب دمشق يومئذ أتسز ابن أوق الخوارزمي التركي، سير أتسز المذكور إلى تتش، فاستنجد به، فأنجده وسار إليه بنفسه، فلما وصل إلى دمشق خرج إليه أتسز، فقبض عليه تتش، واستولى على مملكته، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر،وكان قد ملك دمشق في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة.

ورأيت في بعض التواريخ أن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين، والله أعلم.

ثم ملك حلب بعد ذلك في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم في ترجمة آق سنقر، واستولى على البلاد الشامية، ثم جرى بينه وبين ابن أخيه بركياروق، المقدم ذكره منافرات ومشاجرات أدت إلى المحاربة، فتوجه إليه فتصافا بالقرب من مدينة الري، في يوم الأحد سابع عشر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فانكسر تتش المذكور، وقتل في المعركة ذلك النهار.

ومولده في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وخلف ولدين- أحدهمافخر الملوك رضوان، والآخر شمس الملوك أبو نصر دقاق، فاستقل رضوان بمملكة حلب، ودقاق بمملكة دمشق، وتوفي رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة.

وتوفي دقاق في ثامن عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة،

ودفـن في مسجد بحكـر الفهاديـن بظـاهر دمشـق الذي على نهر بـردى، وكان قـد حصل له مـرض متطاول، وقيـل إن أمه سمته في عنقـود عنب، فلما مـات قام بـالملك ظهير الـدين أبـومنصور طغتكين، وكـان أتابكـه وتزوج أمه في حياة أبيه، زوجه إياها، وهو عتيق تتش، رحمهم الله تعالى.

وأولاد الملك رضوان المقيمـون بظاهر حلب هـم أولاد رضوان المذكور، ولم يزل ظهير الدين طغتكين مالـك دمشق، إلى أن توفي يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتـولى الأمر بعده ولده تاج الملـوك أبو سعيـد بـوري إلى أن تـوفي يوم الاثنين الحادي والعشريـن مـن رجب سنـة ست وعشريـن وخمسمائة من جـراحة أصـابته مـن الباطنيـة، وتولى بعـده ولده شمـس الملوك اسماعيـل إلى أن قتل يـوم الأربعاء رابـع عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشريـن وخمسمائة قتلته أمه خاتون زمرد بنت جـاولي، وأجلست أخاه شهـاب الدين أبا القـاسم محمود بـن بوري فتولى الأمر بعـده بدمشق إلى أن قتل ليلـة الجمعة الثالـث والعشريـن من شوال سنـة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، قتله غـلامه البقش ويـوسف الخادم والفـراش الخركاوي، وصبيحـة قتله وصـل أخـوه جمال الديـن محمد بـن بوري مـن بعلبك، وكـان صاحبهـا فملك دمشـق، وأقام بها إلى أن تـوفي ليلة الجمعة ثـامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وتـولى بعده مملكة دمشق ولـده مجير الدين أبق بـن محمد بن بوري بـن طغتكين إلى أن نزل عليها نور الدين محمود بن زنكـي في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى وأخـذها منه وعرضه عـوضه عنها حمص، فأقـام بها يسيرا ثم انتقل الى بالس التي على الفرات بأمر نـور الدين وأقام بهامدة ثم توجه الى بغـداد واقبل عليـه الامام المقتفـي ولا أعلم متى مـات، ولما كـان بـدمشـق كـان مـدبـر دولتـه معيـن الـديـن انـر بـن عبـد الله مملـوك جده طغتكين، وهـو الـذي ينسب إليـه قصر معين الـدين ببـلاد الغـور مـن أعمال دمشق، وتـوفي معين الـديـن المذكـور في ليلة الثـالـث

والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وهو الذي تزوج نور الدين محمود ابنته، تزوجها من بعده السلطان صلاح الدين رحمهم الله اجمعين، وله بدمشق مدرسة ثم وجدت تاريخ وفاة مجير الدين أبق فذكرتها في ترجمة نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين

وقد تقدم ذكر أبيه وأخيه تاج الملوك، وهو أخو السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، وكان أكبر منه وكان السلطان يكثر الثناء عليه ويرجحه على نفسه، وبلغه أن باليمن انسانا يسمى عبد النبي بن مهدي يزعم أنه ينتشر ملكه حتى يملك الأرض كلها، وكان قد ملك كثيرا من بلادها، واستولى على حصونها وخطب لنفسه، وكان السلطان قد ثبتت قواعده وقوي عسكره، فجهز أخاه شمس الدولة المذكور بجيش اختاره وتوجه إليها من الديار المصرية في أثناء رجب سنة تسع وستين وخمسمائة، فمضى إليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجي الذي كان فيها، وملك معظمها وأعطى وأغنى خلقا كثيرا، وكان كريما أريحيا، ثم إنه عاد من اليمن والسلطان على حصار حلب، فوصل إلى دمشق في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، ولما رجع السلطان من الحصار وتوجه إلى الديار المصرية استخلفه بدمشق، فأقام بها مدة ثم انتقل إلى مصر.

وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الدين أنه توفي يوم الخميس مستهل صفر، وقال في موضع آخر من السيرة أيضا: خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة بثغر الاسكندرية المحروس، ونقلته أخته شقيقته ست الشام بنت أيوب إلى دمشق ودفنته في مدرستها التي أنشأتها بظاهر دمشق، فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين، وقبر زوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وكانت تزوجته بعد لاجين رحمهم الله أجمعين، وكانت وفاة حسام الدين المذكور ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وهذا حسام الدين المذكور هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد الله

الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشبلية اللتين في ظاهر دمشق على طريق جبل قاسيون، ولهما شهـرة في مكانهما وله أوقاف كثيرة ومعروف نـافع في الـدنيا والآخـرة، وكـانت وفـاتـه في رجب سنـة ثلاث وعشريـن وستمائة ودفن في تربته المجاورة لمدرسته المذكـورة وسيأتي ذكر ناصر الدين محمد بن شيركوه في ترجمة أبيه في حرف الشين إن شاء الله تعالى.

وتوفيـت ست الشام المذكـورة في سادس عشر ذي القعدة سنـة ست عشرة وستمائة.

وبعد الفـراغ من هـذه الترجمة وجدت بخـط بعض الفضـلاء ممن لـه عنايـة بهذا الفن زيادة على ماذكـرته ههنا، فتركـت ماهو مذكـور في هذا المكان، وأتيت بتلك الزيادة فقال: لما تمهـدت بلاد اليمن لشمس الدولة، واستقامـت له أمورهـا كره المقام بها لكـونه تـربية بلاد الشـام وهي كثيرة الخير، واليمن بـلاد مجدبة من ذلـك كله، فكتـب إلى أخيه صلاح الـدين يستقيـل منها ويسـأله الأذن لـه في العود إلى الشـام، ويشكو حـاله ومـا يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج إليهـا فأرسل إليه صلاح الدين رسولا مضمون رسـالته ترغيبـه في الإقامة، وأنها كثيرة الأمـوال ومملكة كبيرة، فلما سمع الرسـالة قال لمتولي خزانتـه: أحضر لنا ألف دينار فـأحضرها، فقال لأستاذ داره والرسول حاضر عنـده: أرسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بمافيه قطعة ثلـج، فقال أستاذ الدار: يامولانا هذه بـلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج، فقال: دعهم يشترون بها طبـق مشمش لوزي، فقال: من أين يـوجد هذا النوع ههنـا، فجعل يعدد عليـه جميع أنواع فواكـه دمشق وأستاذ الدار يظهر التعجـب من كلامه،وكلما قال له عـن ذلك نوع يقول له:يـامولانا من أيـن يوجد هـذا ههنا؟ فلما استوفى الكلام إلى آخـره قال للرسول: ليـت شعري ماذا أصنع بهذه الأمـوال إذا لم أنتفع بها في ملاذي وشهواتي، فإن المال لايؤكـل بعينه بل الفائدة فيه أنه يتـوصل به الانسان

إلى بلوغ أغراضه، فعاد الرسول إلى صلاح الدين، وأخبره بما جرى، فأذن له في المجيء وكان القاضي الفاضل يكتب إليه الرسائل الفائقة ويودعها شرح الأشواق، فمن ذلك أبيات مشهورة ذكرها في ضمن كتاب، وهي:

لا تضجرن مما أتيت فإنه
صدر لأسرار الصبابة ينفث

أما فراقك واللقاء فإن ذا
منه أموت وذاك منه أبعث

حلف الزمان على تفرق شملنا
فمتى يرق لنا الزمان ويحنث

كم يلبث الجسم الذي ما نفسه
فيه ولا أنفاسه كم يلبث

حول المضاجع كتبكم فكأنني
ملسوعكم وهي الرقاة النفث

ولما وصل إلى دمشق في التاريخ المقدم ذكره، ناب عن أخيه صلاح الدين بها، لما عاد صلاح الدين إلى الديار المصرية، ثم انتقل إلى الديار المصرية في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وكان أخوه صلاح الدين قد سيره في سنة ثمان وستين وخمسمائة إلى بلاد النوبة ليفتحها، قبل سفره إلى اليمن، فلما وصل إليها وجدها لاتساوي المشقة فتركها، ورجع وقد غنم شيئا كثيرا من الرقيق، وكانت له من أخيه اقطاعات، ونوابه باليمن يجبون له الأموال، ومات وعليه من الديون مائتا ألف دينار، فقضاها عنه صلاح الدين.

وحكى صاحبنا الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحلي، نزيل مصر، الأديب الفاضل، قال: رأيت في النوم شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وهو ميت فمدحته بأبيات، وهو في القبر، فلف كفنه ورماه إلي وأنشدني:

لاتستقلـن معـروفنـا سمحـت بـه
ميتـا فـأمسيـت منـه عـاريـا بـدني

ولاتظنـن جـودي شـابـه بخـل
مـن بعـد بـذلي ملـك الشـام واليمـن

إني خـرجـت مـن الـدنيـا وليـس معـي
مـن كـل مـاملكـت كفـي سـوى كفنـي

ولما كان في اليمن استناب في زبيد سيف الـدولة أبا الميمون المبارك بن منقذ الآتي ذكره في حرف الميم، إنشاء الله تعالى.

وتوران بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو، وبعـدها راء ثم بعد الألف نون، وهو لفـظ أعجمي، وشاه بالشين المعجمة، هو الملـك باللغة العجميـة، ومعنـاه ملـك المشرق، وإنما قيـل للمشرق تـوران، لأنـه بـلاد الترك، والعجم يسمون الترك تركمان،ثم حرفوه فقالوا: توران، والله أعلم.

-٩٤٨٦-

أبو سليمان داود الملقب الملك الزاهر مجير الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمهم الله تعالى.

كان صاحب قلعة البيرة التي على شاطىء الفرات، وكان يحب العلماء وأهل الفضل ويقصدونه من البلاد، ولما ولد بالقاهرة كان السلطان صلاح الدين بالشام، وكان الثاني عشر من أولاده، فكتب إليه القاضي الفاضل رسالة يبشره بولادته من جملتها: « وهذا المولود المبارك هو الموفى لاثني عشر ولدا، بل لاثني عشر نجما متقدا فقد زاده الله تعالى في أنجمه عن أنجم يوسف عليه السلام نجما، ورآهم المولى يقظة ورأى يوسف تلك الأنجم حلما، ورآهم يوسف ساجدين له، ورأينا الخلق لهم سجودا، وهو تعالى قادر أن يزيد في جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدودا» وقد ألم القاضي الفاضل في آخر هذا الكلام بقول البحتري في مدح الخليفة المتوكل، وقد ولد له المعتز من قصيدة:

وبقيت حتى تستضيء برأيه
وترى الكهول الشيب من أولاده

وحكى عنه جماعة أنه كان يقول من أراد أن يبصر صلاح الدين فليبصرني فأنا أشبه أولاده به، وكانت ولادته لسبع بقين من ذي الحجة، وقيل القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وهو شقيق الملك الظاهر الآتي ذكره في حرف الغين المعجمة إن شاء الله تعالى، وتوفي بالبيرة في ليلة التاسع من صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب وقد وصل نعيه اليها فتوجه الملك العزيز ابن الملك الظاهر أخيه إلى القلعة المذكورة وملكها رحمه الله تعالى، والبيرة بكسر الباء الموحدة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة، وهي قلعة بقرب سميساط من ثغور الروم على الفرات من جانب الجزيرة الفراتية. وسميساط في بر الشام بين قلعة الروم وملطية ، والفرات يفصل بين الجهتين والله أعلم.

-٩٤٨٧-

أبو الأغر دبيس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري الملقب نور الدولة

ملك العرب صاحب الحلة المزيدية، كان جوادا كريما عنده معرفة بالأدب والشعر، وتمكن في خلافة الإمام المسترشد، واستولى على كثير من بلاد العراق، وهو من بيت كبير وسيأتي ذكر أبيه وأجداده في حرف الصاد إن شاء الله تعالى، ودبيس المذكور هو الذي عناه الحريري صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: أو الأسدي دبيسٌ لأنه كان معاصره كما نذكره في حرف القاف إن شاء الله تعالى، فرام التقرب إليه بذكره في مقاماته،وبجلالة قدره أيضا، وله نظم حسن، ورأيت العماد الكاتب في الخريدة وابن المستوفي في تاريخ إربل وغيرهما قد نسبوا إليه الأبيات اللامية التي من جملتها:

أسلمه حب سليمانكم
إلى هوى أيسره القتل

ورأيت ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة قد ذكرها لابن رشيق القيرواني،وقد ذكرتها في ترجمته في حرف الحاء، والظاهر أنها لابن رشيق لأن ابن بسام ذكر في الذخيرة أنه ألفها في سنة اثنتين وخمسمائة، وفي هذا التاريخ كان دبيس شابا يبعد أن يصل شعره في ذلك السن إلى الأندلس، وينسب إلى مثل ابن رشيق مع معرفة ابن بسام بأشعار أهل المغرب، وذكر ابن المستوفي في تاريخه أن بدران أخا دبيس كتب إلى أخيه المذكور وهو نازح عنه:

ألا قل لمنصور وقل لمسيب
وقل لدبيس إنني لغريب
هنيئا لكم ماء الفرات وطيبه
إذا لم يكن لي في الفرات نصيب

فكتب إليه دبيس:

إلا قل لبدران الذي حن نازعا
إلى أرضه والحر ليس يخيب
تمتع بأيام السرور فإنما
عذار الأماني بالهموم يشيب
ولله في تلك الحوادث حكمة
وللأرض من كأس الكرام نصيب

وذكرغير ابن المستوفي أن بدران بن صدقة المذكور لقبه تاج الملوك، ولما قتل أبوه تغرب عن بغداد ودخل الشام فأقام بها مدة، ثم توجه إلى مصر ومات بها في سنة اثنتين وخمسمائة، وكان يقول الشعر، وذكره العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة: وكان دبيس في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهم نازلون على باب المراغة من بلاد أذربيجان، ومعهم الإمام المسترشد بالله لسبب سنذكره في ترجمة مسعود المذكور إن شاء الله تعالى، فهجموا خيمته أعني المسترشد بالله وقتلوه يوم الخميس الثامن والعشرين.

وقال ابن المستوفي: الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وخاف أن تنسب القضية إليه وأراد أن تنسب إلى دبيس المذكور فتركه إلى أن جاء إلى الخدمة وجلس على باب خيمة السلطان، فسير بعض مماليكه فجاءه من ورائه وضرب رأسه بالسيف فأبانه، وأظهر السلطان بعد ذلك أنه إنما فعل هذا انتقاما منه بما فعل في حق الإمام، وكان ذلك بعد قتل الإمام بشهر رحمه الله تعالى، وذكر المأموني في تاريخه أنه قتل في رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة على باب خوي، وكان قد أحس بتغيير رأي السلطان فيه منذ قتل المسترشد، وعزم على الهرب مرارا وكانت المنية تثبطه.

وذكر ابن الأزرق في تاريخه أن قتله كان على باب تبريز، وأنه لما قتل

حمل إلى ماردين إلى زوجته كهار خاتون فدفن بالمشهد عند نجم الدين إلغازي صاحب ماردين، والد كهار خاتون المذكورة، ثم تزوج السلطان المذكور زبيدة بنت الوزير نظام الملك، وسيأتي ذكر ذلك في ترجمة فخر الدولة بن جهير إن شاء الله تعالى.

والناشري بفتح النون، وبعد الألف شين معجمة مكسورة، وبعدها راء ثم ياء، هذه النسبة إلى ناشرة بن نصر، بطن من أسد بن خزيمة.

أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب

كان صاحب الموصل، وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الهمزة، وكان من الأمراء المقدمين، وفوض إليه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وكان لما قتل آق سنقر البرسقي المذكور في حرف الهمزة، وتوفي أيضا ولده مسعود حسبما ذكرناه في ترجمته ورد مرسوم السلطان محمود من خراسان بتسليم الموصل إلى دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة، وقد تقدم ذكره أيضا فتجهز دبيس للمسير، وكان بالموصل أمير كبير المنزلة يعرف بالجاولي، وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي، فطمع في البلاد وحدثته نفسه بتملكها، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد اليغسياني لتقرير قاعدته، فلما وصلا إليها وجدا الإمام المسترشد قد أنكر تولية دبيس، وقال: لاسبيل إلى هذا، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان محمود في ذلك، وآخر ماوقع اختيار المسترشد عليه تولية زنكي المذكور، فاستدعى الرسولين الواصلين من الموصل وقرر معهما أن يكون الحديث في البلاد لزنكي، ففعلا ذلك وضمنا للسلطان مالا وبذل له على ذلك المسترشد من ماله مائة ألف دينار، فبطل أمر دبيس وتوجه زنكي إلى الموصل وتسلمها، ودخلها في عاشر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسمائة كذا قال ابن العظيمي في تاريخه، وقد قيل إن انتقاله إلى الموصل كان في سنة اثنين وعشرين وخمسمائة، والأول أصح وسيأتي ذكر السلطان محمود في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

ولما تقلد زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه ألب أرسلان، وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما، فلهذا قيل له أتابك، لأن الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك وقد تقدم ذكر ذلك في حرف الجيم

عند ذكر جقر، ثم استولى زنكي على ماوالى الموصل من البلاد، وفتح الرها يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين الأرمني، ثم توجه إلى قلعة جعبر وملكها يوم ذاك سيف الدولة أبو الحسن علي بن مالك، فحاصرها وأشرف على أخذها، فأصبح يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مقتولا، قتله خادمه وهو نائم على فراشه ليلا، ودفن بصفين.

وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الأتابكي أن زنكي المذكور لما قتل والده كان عمره تقديراً عشر سنين، وقد تقدم تاريخ قتل والده في ترجمته، فيكو ن مولده سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وصفين بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي أرض على شاطىء الفرات بالقرب من قلعة جعبر إلا أنها في بر الشام، وقلعة جعبر في بر الجزيرة الفراتية بينهما مقدار فرسخ وأقل وفيها مشهد في موضع الوقعة التي كانت بها المشهورة التي بين على بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعاوية بن أبي سفيان، وبهذه الأرض قبور جماعة من الصحابة رضي الله عنهم حضروا هذه الوقعة وقتلوا بها منهم عمار بن ياسر رضي الله عنه.

وتوفي القاضي بهاء الدين الشهرزوري الرسول المذكور يوم السبت سادس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بحلب، وحمل إلى صفين ودفن بها رحمة الله تعالى عليه.

-٩٤٩٢-

أبو الفتح عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي المذكور قبله المعروف بصاحب سنجار

قد ملك حلب بعد ابن عمه الملك الصالح نور الدين اسماعيل بن محمود بن زنكي، وكانت وفاة الصالح المذكور في سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ثم إن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب نزل على حلب وحاصرها في سنة تسع وسبعين، وآخر الأمر وقع الاتفاق على أنه عوض عماد الدين زنكي المذكور سنجار وتلك النواحي، وأخذ منه حلب، وذلك في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وانتقل زنكي إلى سنجار، ولم يزل بها إلى أن توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

أبو الحارث شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى.

قد تقدم من حديثه نبذة في أخبار شاور، وكان شاور قد وصل إلى الشام يستنجد بنور الدين في سنة تسع وخمسين وخمسمائة،وذكر بهاء الدين بن شداد أن ذلك كان في سنة ثمان وخمسين، وأنهم وصلوا إلى مصر في الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، حكاه في سيرة صلاح الدين، فسير معه جماعة من عسكره وجعل مقدمهم أسد الدين شيركوه، وقدموا مصر، وغدر بهم شاور، ولم يف بها وعدهم به فغادروا إلى دمشق، وكان رحيلهم عن مصر في السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة، ثم إنه عاد إلى مصر، وكان توجهه إليها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين لأنه طمع في ملكها في الدفعة الأولى، وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند أطفيح وكانت في تلك الدفعة وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه السلطان صلاح الدين إلى الاسكندرية، واحتمى بها، وحاصره شاور وعسكر مصر، ثم رجع أسد الدين من الصعيد إلى بلبيس، وجرى الصلح بينه وبين المصريين وسيروا له السلطان صلاح الدين، وعاد إلى الشام، ولما وصل الفرنج إلى بلبيس وملكوها وقتلوا أهلها في سنة أربع وستين سيروا إلى أسد الدين، وطلبوه ومنوه ودخلوا في مرضاته لأن ينجدهم، فمضى إليهم وطرد الفرنج عنهم،وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وعزم شاور على قتله، وقتل الأمراء الكبار الذين معه فبادروه وقتلوه كما تقدم في ترجمته، وتولى أسد الدين الوزارة يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين، وقال الروحي يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة بالقاهرة ، ودفن بها ثم نقل إلى مدينة الرسول

صلى الله عليه وسلم بعد مدة بوصية منه رحمه الله تعالى وتولى مكانه صلاح الدين.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: إن أسد الدين كان كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في التاريخ المذكور، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب الملك القاهر، ولما مات أسد الدين أخذ نور الدين حمص منهم في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة، فلما ملك صلاح الدين الشام أعطى حمص لناصر الدين المذكور ولم يزل ملكها حتى توفي يوم عرفة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب إلى تربتها بمدرستها بدمشق ظاهر البلد ودفنته عند أخيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب المقدم ذكره، وملك حمص بعده ولده أسد الدين شيركوه ومولده في سنة تسع وستين وخمسمائة، وتوفي يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب سنةسبع وثلاثين وستمائة بحمص، ودفن في تربته داخل البلد، وكانت له أيضا الرحبة وتدمر وماكسين من بلد الخابور، وخلف جماعة من الأولاد، فقام مقامه في الملك ولده الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم، ولم يزل حتى توفي يوم الجمعة عاشر صفر سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب من غوطة دمشق، ونقل إلى حمص ودفن ظاهر البلد في مسجد الخضر عليه السلام من جهتها القبلية، وترتب مكانه ولده الملك الأشرف مظفر الدولة أبو الفتح موسى، وأخبرني الأشرف المذكور بدمشق في أواخر سنة إحدى وستين وستمائة أن مولده في السنة التي كسر فيها الخوارزمية بالروم وأن والده بشر به وهم راجعون من هناك، وكانت الوقعة في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة حسبما هو مشروح في ترجمة الأشرف بن العادل، وقال لي: إن والده لما بشر به قال للملك الأشرف بن العادل: ياخوند قد زاد في مماليكك واحد،فقال: سمه باسمي فسماه الأشرف مظفرالدين ابا الفتح

موسى، وكانت وفاة الأشرف بن المنصور المذكور بحمص يوم الجمعة عاشر صفر سنة اثنتين وستين وستمائة، ودفن عند قبر أسد الدين شيركوه جده داخل حمص، فيكون تقدير ولادته في شوال أو ذي القعدة سنة سبع وعشرين، وشيركوه لفظ عجمي تفسيره بالعربي أسد الجبل، فشير أسد وكوه جبل، وحج شيركوه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة من دمشق على طريق تيماء وخيبر، وفي تلك السنة حج زين الدين علي بن بكتكين على طريق العراق واجتمع بالخليفة.

-٩٤٩٦-

سيف الاسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين صاحب اليمن

كان أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملك الديار المصرية قد سير أخاه شمس الدولة توران شاه المقدم ذكره في حرف التاء إلى بلاد اليمن،فملكها واستولى على كثير من بلادها، ورجع عنها حسبما هو مذكور في ترجمته، ثم سير السلطان إليها بعد ذلك أخاه سيف الاسلام المذكور، وذلك في سنة سبع وسبعين وخمسمائة وكان رجلا شجاعا كريما مشكور السيرة، حسن السياسة، مقصودا من البلاد الشاسعة لاحسانه وبره، ورحل إليه شرف الدين أبو المحاسن بن عنين الدمشقي الآتي ذكره في حرف الميم، ومدحه بغرر القصائد فأحسن إليه وأجزل صلته، واكتسب من جهته مالا وافرا، وخرج به من اليمن، فلما وصل إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته فعمل في ذلك:

ما كل من يتسمى بالعزيز لها ... أهل ولا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين بون في فعالهما ... هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

وكانت وفاة سيف الاسلام في شوال التاسع عشر من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمنصورة، وهي مدينة اختطها باليمن رحمه الله تعالى.

وتولى بعده ولده الملك المعز فتح الدين اسماعيل، وللمعز المذكور صنف أبو الغنائم مسلم بن محمود بن نعمه بن أرسلان الشيزري كتابه الذي سماه «عجائب الأسفار وغرائب الأخبار» وأودع فيه من أشعاره وأخبار الناس كثيرا، وذكر العز بن عساكر أنه مات بالحمراء من بلاد

اليمن، وذكر أبو الغنائم المذكور في كتابه الذي سماه « جمهرة الاسلام ذات النثر والنظم» أنه مات بتعز ودفن بها بالمدرسة، ثم قال: وقتل ولده فتح الدين أبو الفداء اسماعيل في رجب سنة ثمان وتسعين بمكان يقال له عجبي شامي زبيد، وتولى مكانه أخوه الملك الناصر أيوب.

وكان أبو الغنائم المذكور أديبا شاعرا، وكان موجودا في سنة سبع عشرة وستمائة، فقد توفي في هذه السنة أو بعدها، وكان أبوه أبو الثناء محمود نحويا متصدراً بجامع دمشق لاقراء النحو، وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير، وذكره العماد الكاتب في كتاب الخريدة، وقال: توفي بعد سنة خمس وستين وخمسمائة، وقال شرف الدين بن عنين: أنشدني محمود المذكور لنفسه:

يقولون كافات الشتاء كثيرة
وما هي إلا واحد غير مفترى
إذا صح كاف الكيس فالكل حاصل
لديك وكل الصيد يوجد في الفرا

وكان جده أرسلان مملوك ابن منقذ صاحب شيزر.

وطغتكين بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، وهو اسم تركي.

أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح وزير مصر

كان واليا بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، فلما قتل الظاهر اسماعيل صاحب مصر كما تقدم في حرف الهمزة، سير أهل القصر إلى الصالح واستنجدوا به على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة ومعه جمع عظيم من العربان فلما قربوا من البلد هرب عباس وولده وأتباعهما ومعهما أسامة بن منقذ المذكور في حرف الهمزة أيضا، لأنه كان مشاركا لهما في ذلك على مايقال، ودخل الصالح إلى القاهرة وتولى الوزارة في أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة، وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وكان فاضلا سمحا في العطاء، سهلا في اللقاء، محبا لأهل الفضائل جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين ومن شعره قوله:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه
عبرا وفينا الصد والإعراض
ننسى الممات وليس يجري ذكره
فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن شعره أيضا:

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى
أعطافه النشوات من عينيه
ماضي اللحاظ كأنما سلت يدي
سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكة
في خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وإنما
أصداغه نفضت على خديه

النـــاس طـــوع يـــدي وأمـــري نـــافـــذ
فيهـــم وقلبـــي الآن طـــوع يـــديـــه
فـــأعجـــب لسلطـــان يعـــم بعـــدلـــه
ويجور سلطـــان الغـــرام عليـــه
والله لـــولا اســـم الفـــرار وأنـــه
مستقبـــح لفـــررت منـــه إليـــه

وروى عنه أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الملقب زين الدين الحنبلي، المعروف بابن نجية الواعظ المشهور الدمشقي، قال أنشدني طلائع بن رزيك لنفسه بمصر:

مشيبـــك قـــد نضـــا صبـــغ الشبـــاب
وحـــل البـــاز في وكـــر الغـــراب
تنـــام ومقلـــة الحدثـــان يقظـــى
ومـــا نـــاب النـــوائب عنـــك نـــابي
وكيـــف بقـــاء عمـــرك وهـــو كنـــز
وقـــد أنفقـــت منـــه بـــلا حســـاب

وكان المهذب عبد الله بن أسعد الموصلي نزيل حمص قد قصده من الموصل، ومدحه بقصيدته الكافية التي أولها:

أمـــا كفـــاك تـــلافي في تـــلافيكـــا
ولســـت تنقـــم الا فـــرط حبيكـــا

وهي من نخب القصائد ومخلصها:

وفيـــم تغضـــب إن قـــال الـــوشـــاة سـلا
وأنـــت تعلـــم أني لســـت أسلـــوكـــا
لانلـــت وصلـــك إن كـــان الـــذي زعمـــوا
ولاشفـــى ظمئـــي جـــودابـــن رزيكـــا

وهي طويلة طائلة، ولولا خوف الاطالة لكتبتها.

ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه،استمر الصالح على وزارته، وزادت حرمته، وتزوج العاضد ابنته فاغتر بطول السلامة، وكان العاضد تحت قبضته وفي أسره، فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة في قتله، فاتفق مع قوم من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعي، وتقرر ذلك بينهم، وعين لهم موضعا في القصر يجلسون فيه مستخفين فإذا مر بهم الصالح ليلا أو نهارا قتلوه، فقعدوا له ليلة وخرج من القصر فقاموا ليخرجوا إليه، فأراد أحدهم أن يفتح غلق الباب فأغلقه وما علم، فلم يحصل مقصودهم تلك الليلة لأمر أراده الله تعالى في تأخير الأجل، ثم جلسوا له يوما آخر فدخل القصر نهارا فوثبوا عليه وجرحوه جراحات عديدة بعضها في رأسه، ووقع الصوت، فعاد أصحابه إليه فقتلوا الذين جرحوه وحمل إلى داره مجروحا ودمه يسيل، وأقام بعض يوم ومات يوم الاثنين تاسع عشر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وكانت ولادته في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وخرجت الخلع لولده العادل محيي الدين رزيك المقدم ذكره في ترجمة شاور يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاة أبيه، وكنيته أبو شجاع، ولما تولى الوزارة لقبوه العادل الناصر، ولما مات رثاه الفقيه عمارة اليمني بقصيدة أولها:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله

سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله

فهل من جواب يستغيث به المنى
ويعلو على حق المصيبة باطله

وقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله

فهل غاب عنه واستناب سليله
أم اختار هجرا لا يرجى تواصله

فـإني أرى فـوق الـوجـوه كـآبـة
تـدل على أن الـوجـوه ثـواكلـه

ومنها:

دعـوني فما هـذا أوان بكـائه
سيـأتيكـم طـل البكـاء ووابلـه
ولا تنكـروا حـزني عليـه فـإنني
تقشـع عنـي وابـل كنـت آملـه
ولم لا نبكيـه ونندب فقـده
وأولادنـا أيتـامـه وأراملـه
فيـا ليـت شعـري بعـد حسـن فعـالـه
وقـد غـاب عنـا مـا بنـا الله فـاعلـة
أيكـرم مثـوى ضيفكـم وغـريبكـم
فيمكـث أم تطـوى ببين مـراحلـه

وهي طـويلة، وكان قـد دفن بالقـاهرة، ثـم نقله ولده العـادل من دار الوزارة التـي دفن فيهـا وهي المعـروفة بـانشاء الأفضـل شاهنشـاه المقدم ذكـره، وكـان نقله في تـاسـع عشر صفـر سنـة سبع وخمسين في تـابـوت، وركب خلفـه العاضـد إلى تربتـه التي بـالقرافـة الكبرى، فعمل في ذلـك الفقيـه عمارة أيضـا قصيدة طـويلـة وأجـاد فيهـا، ومن جملتهـا في صفـة التابوت:

وكـأنـه تـابـوت مـوسـى أودعـت
في جـانبيـه سكينـة ووقـار

وله فيـه مراث كثيرة، وهذا الصـالح هـو الذي بنى الجامـع الذي على باب زويلة بظاهـر القاهرة، وأما ولده العادل رزيـك فقد ذكرت في ترجمة شاور تاريخ هربه من القاهرة وكـان قد حمل معه من الذخائر مالايحصى ومعـه أهلـه وحـاشيتـه، واستجـار بسليمان وقيـل بيعقـوب بـن البيـض

اللخمي، وكان من خواص أصحابهم وحصل من جهتهم نعمة وافرة، فأنزلهم عنده وهو بأطفيح، وسار من ساعته إلى شاور وأعلمه بهم، فندب معه جماعة ومضوا إلى العادل وأخذوه أسيرا وأحضروه إلى باب شاور، فوقف زمانا طويلا، ثم حبسه ثم قال شاور لابن البيض: لقد خبأك الصالح ذخيرة صالحة لولده، وأنا أخبوك أيضا لولدي ثم شنقه، وبقي العادل في الاعتقال مدة مديدة، ثم قتله وأخرج رأسه لأمراء الدولة.

ومن العجائب أن الصالح ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولتهم في التاسع عشر، ورزيك بضم الراء، وتشديد الزاء المكسورة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها كاف.

وكانت ولادة زين الدين الواعظ المذكور سنة ثمان وخمسمائة بدمشق، ونشأ بها، وقدم بغداد مرارا، وصاهر أبا الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد البلنسي الانصاري الانـدلسي على ابنته أم عبد الكريم فاطمة، وانتقل قبل وفاته إلى مصر وحدث بها، وتوفي يوم الاربعاء ثامن رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمصر، وهو المعروف بابن نجية رحمه الله تعالى.

-٩٥٠٣-

الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

كان نائبا عن أبيه في الديار المصرية، لما كان أبوه بالشام، وتوفي أبوه بدمشق، فاستقل بملكها باتفاق من الأمراء كما هو مشهور، فلا حاجة إلى شرحه وكان ملكا مباركا كثير الخير، واسع الكرم محسنا إلى الناس، معتقدا في أرباب الخير والصلاح، وسمع بالاسكندرية الحديث من الحافظ السلفي، ويقال إن والده كان يؤثره على بقية أولاده، ولما ولد له الملك المنصور ناصر الدين محمد، كان والده بالشام، والقاضي الفاضل بالقاهرة فكتب إليه يهنئه:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دام رشده وإرشاده وزاد سعده وإسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده، واشتد باعضاده فيهم اعضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك، وهذه أولاده، وينهى أن الله تعالى، وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولدا مباركا عليا ذكرا سريا برا زكيا نقيا من ذرية كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء، ومماليكه ملوكا في الأرض».

وكانت ولادة الملك العزيز بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان قد توجه إلى الفيوم، فطرد فرسه وراء صيد، فتقنطر به فأصابته الحمى من ذلك، وحمل إلى القاهرة فتوفي بها في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

نقلت من خط القاضي الفاضل فصلا يتعلق بالملك العزيز بن صلاح الدين رحمه الله تعالى، ما مثاله:« لما كان يوم السبت تاسع عشر المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة اشتد المرض بالملك العزيز، وخيف عليه، وأدركه في ليله فواق وأخذ نبضه في الضعف، وأصبح الطبيب على ياس

منه، ثم لما كـان وقت الظهر وقعت البشرى أنه أفـاق وحضر ذهنه، وكلم من حوله، وحضر إليه الأمراء والخواص» ثـم قال بعد ذلك:« إلى أن كان وقت العتمـة من ليلـة الأحد فبـدت قوتـه تصغر، والفـواق يشتد، وبغتـه الأمر، وعظمت الحمى، وصغر النبض، وكثر عليه الغشي وكانت وفاته في الساعة السابعـة من ليلة الأحد، ولما كان في آخر الليل خـرج فخر الدين جهاركس، وأسـد الدين سراسنقر وجماعـة من المماليك واستدعـوا الأمراء فأحضرت، وأعلمـت بوفـاته، وقـال المذكورون: إنـا قد اجتمعـت كلمتنا على أن يكون ولد العـزيز الأكبر، وتقدير عمـره عشر سنين واسمه محمد، ولقبه ناصر الدين المنتصب في السلطنة، والقـائم بالأمر، وأن يكون أتابكه بهاء الـديـن قراقـوش، وقـالـوا قد كـان السلطـان استنـاب هذا الـولـد، واستخلف على تـربيته قـراقوش، ونريـد أن نجمع الأمـراء ونخرج الخدام يبلغونهم رسـالة عن السلطـان، وأنه حي ومعنى الـرسالة: إن هـذا ولدي سلطانكم من بعدي، فاحلفوا له واحفظوني فيه، فقلت لهم: فإن طالبكم الأمراء بسماع هذه المقـالة من السلطان مـاالذي تقولون لهم؟ فـرجعوا إلى أن يخاطبوا الأمـراء إذا حضروا بأن السلطان وصـى بهذه الوصية، وأنـه قد قضى ويدخلون عليهـم من جانب الموافاة لجد هذا الصبـي وأبيه، فقلت لهم: لاتنتظروا اجتماع الأمراءفـإنهم إن حضروا جملة فلا تأمنـوا أن يتمنعوا جملة، بل كـل من حضر من الأمراء تقولـون له قد اتفقنا فكـن معنا، وقد حلفنا، فـاحلف كما حلفنا، وقدمـوا المصحف وأسرعوا في تلقينـه، فجرى الأمر على هذا، فلما تكـامل الحلف أو أكثره أحضروا الولـد، فبكى الناس لما رأوه وصاحـوا وقامـوا إليه ووقفوا بين يـديه، جميـع ذلك قبـل أن يسفر صباح الأحد، ثـم صليت فريضة الفجـر، وشرعوا في تجهيز الملك العـزيز إلى قبره، وغسـل في مكان مـوته، واجتمـع الناس فيما بين الظهـر والعصر للصلاة عليـه، وكثر الـزحام وقـامت الـواعية، فلـم يخلص مـن دفنه إلى قـريـب المغرب، وخـوطـب ولـده بـالملـك الناصر بلقـب جـده في هـذا اليـوم»،ولما مات كتـب القاضي الفـاضل إلى عمـه الملك العـادل رسـالـة

-٩٥٠٥-

يعزيه مـن جملتها:« فنقول في توديع النعمـة بالملك العزيـز لاحول ولاقوة إلا بالله قول الصابرين، ونقول في استبقـائها بالملك العادل الحمد لله رب العالمين قول الشاكرين ، وقد كان مـن أمر هذه الحادثة ماقطع كل قلب، وجلـب كل كـرب، ومثل وقـوع هذه الـواقعة لكـل أحد ولاسيما لأمثـال المملوك، ومواعظ الموت بليغة وأبلغها مـاكان في شباب الملوك، فرحم الله ذلك الوجه ونضره ثم السبيل إلى الجنة يسره.

وإذامحاسـن أوجـه بليـت
فعفـا الثـرى عـن وجهـه الحسـن

والمملـوك في حـال تسطير هـذه الخدمـة جـامـع بين مـرضي قلـب وجسد،ووجع أطـراف وغليل كبد، فقد فجـع المملوك بهذا المولى، والعهد بوالده غير بعيد، والأسـى في كل يوم جديد، وماكان لينـدمل ذلك القرح حتـى أعقبه هـذا الجرح، فالله تعـالى لايعـدم المسلمين بسلطانهم الملـك العادل السلوة،كما لم يعـدمهم بنبيهم صلى الله عليه وسلـم الأسوه» ودفن في القرافـة الصغرى في قبـة الإمام الشـافعي رضي الله عنـه، وقبره معروف هناك.

أبو هاشم علي الملقب الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم ابن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله صاحب مصر.

وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته.كانت ولايته بعد فقد أبيه بمدة،لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى، وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر من السنة المذكورة، وكانت مملكته الديار المصرية وإفريقية وبلاد الشام، فقصد صالح بن مرداس الكلابي مدينة حلب وحاصرها، وفيها مرتضى الدولة بن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل بن شريف بن سيف الدولة الحمداني، نيابة عن الظاهر المذكور، فانتزعها منه واستولى على مايليها، وتغلب حسان بن مفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام، وتضعضعت دولة الظاهر وجرت أمور وأسباب يطول شرحها، واستوزر نجيب الدولة أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، وكان أقطع اليدين من المرفقين، قطعهما الحاكم والد الظاهر في شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة على باب القصر البحري بالقاهرة المحروسة، وحمل إلى داره، وكان يتولى بعض الدواوين، فظهرت عليه خيانة قطع بسببها، ثم بعد ذلك ولي ديوان النفقات سنة تسع وأربعمائة، ثم وزر للظاهر سنة ثماني عشرة وأربعمائة، وهذا كله بعد ان تنقل في الخدم بالأرياف والصعيد، ولما استوزر كان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاعي صاحب كتاب الشهاب، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكانت علامته:« الحمد لله شكرا لنعمته» واستعمل في وزارته العفاف والأمانة الزائدة والاحتراز والتحفظ، وفي ذلك يقول جاسوس الفلك:

يـــــــا أحمقـــــــا اسمـــــــع وقـــــــل
ودع الـــــرقـــــاعـــــة والتحـــــامـــــق

-٩٥٠٧-

أأقمت نفسك في الثقات وهبك فيما قلت صادق

فمن الأمانة والتقى قطعت يداك من المرافق

وهو منسوب إلى جرجرايا بفتح الجيمين، بينهما راء ساكنة، ثم راء مفتوحة، وبين الألفين ياء مثناة من تحتها، وهي قرية من أرض العراق، وكانت ولادة الظاهر في يوم الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالقاهرة، وتوفي آخر ليلة الأحد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وسمعت أنه توفي ببستان الدكة، وكان بالمقس في الموضع المعروف بالدكة، وتوفي وزيره الجرجرائي سنة ست وثلاثين وأربعمائة في سابع شهر رمضان، وكانت مدة وزارته للظاهر وولده المستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما.

أبو القاسم عيسى الملقب الفائز بن الظافر بن الحافظ ابن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز ابن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي.

وقد تقدم ذكر والده، وجماعة من أهل بيته وكيف قتل نصر بن عباس أباه حسبما شرح هناك، وهذا نصر ابن عباس هو الذي قتل العادل بن السلار، وقد رفعت هناك نسبه، فمن أراد معرفته، فلينظر هناك، ولما كان صبيحة ليلة قتل فيها الظافر أقبل عباس إلى القصر على جاري عادته في الخدمة، وأظهر عدم الاطلاع على قضيته، وطلب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله بعد، فإنه خرج من عندهم في خفية كما ذكر ثم، وما علم أحد بخروجه، فدخل الخدم إلى موضعه ليستأذنوا العباس، فلم يجدوه فدخلوا إلى قاعة الحرم فقيل إنه لم يبت ههنا، وحاصل الأمر أنهم تطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقعوا له على خبر، فتحققوا عدمه فأخرج عباس المذكور أخوي الظافر وهما جبريل ويوسف، وهو أبو العاضد المقدم ذكره في جملة من اسمه عبد الله وقال لهما: أنتما قتلتما إما منا ومانعرف حاله إلا منكما، فأصرا على الإنكار، وكانا صادقين في ذلك فقتلهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ثم استدعى ولده الفائز المذكور، وتقدير عمره خمس سنين وقيل سنتان، فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وأمر أن تدخل الأمراء، فدخلوا فقال لهم: هذا ولد مولاكم، وقد قتل عماه أباه، وقد قتلتهما به كما ترون، والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس، وسموه الفائز وسيروه إلى أمه واختل من تلك الصيحة، فصار يصرع في كل وقت ويختلج، وخرج عباس إلى داره ودبر الأمور، وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده، يد، وأما أهل القصر فإنهم اطلعوا على باطن الأمر وأخذوا في إعمال الحيلة في قتل عباس وابنه نصر، وكاتبوا الصالح بن رزيك الأرمني المذكور في حرف الطاء، وكان اذ ذاك والي منية ابن خصيب

بـالصعيد، وسـألوه الانتصـار لهم ولمولاهـم، والخروج على عباس وقطعـوا شعورهـم وسيروها في طي الكتاب، وسـودوا الكتاب، فلما وقف الصـالح عليه أطلـع من حـوله من الأجنـاد وتحدث معهم في المعنـى فأجـابوا إلى الخروج معه، واستمال جمعـا من العـرب، وساروا قـاصدين القاهـرة، وقد لبسوا السواد فلما قـاربوها خرج إليهـم جميع من بها من الأمـراء والاجناد والسودان، وتـركوا عبـاسا وحـده، فخرج عبـاس في ساعتـه من القـاهرة هاربا ومعه شيء من ماله، وخرج معه ولـده نصر قاتل الظافر وأسامة بن منقـذ المذكور في حـرف الهمـزة، فقد قيـل أنـه الـذي أشار عليهما بقتـل الظافـر، وشرح ذلك يطول ، وقد تقـدم في ترجمة العادل بن السـلار ذكره ايضا وأنـه الذي أشـار بقتله، والله العـالم بالخفيـات، وكان معهـم جماعة يسيرة من أتبـاعهم، وقصدوا طريـق الشام على إيلة وذلـك في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

أما الصالح بن رزيك فإنه دخـل القاهرة بغير قتال، وماقدم شيئاً على النزول بدار عباس المعروفة بدار المأمون بـن البطائحي، وهي اليوم مدرسة للطائفة الحنفيـة،وتعرف بالسيوفيـة، واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعـة قتله، وسأله عن الموضع الذي دفن فيـه فعرفه به، وقلع البلاطـة التي كانت عليـه وأخرج الظافـر ومن معه من المقتـولين، وحملوا وقطعـت لهم الشعور وانتشر البكـاء والنـواح في البلـد، ومشى الصـالـح والخلق قـدام الجنازة إلى موضع الـدفن، وهو تـربة آبائه، وهي معـروفة في قصرهم، وتكفل الصالح بالصغير، ودبر أحواله.

وأما عباس فـإن أخت الظافر كـاتبت فرنج عسقـلان بسببه، وشرطت لهم مـالا جزيـلا إذا أمسكـوه فخرجـوا عليـه وصادفـوه فتـواقعوا وقتلـوا عباسـا، وأخذوا مالـه وولده وانهزم بعض اصحـابه، إلى الشام وفيهـم ابن منقذ، فسلموا، وسيرت الفرنج نصر بن عباس إلى القاهرة تحت الحوطة في قفص حـديد، فلما وصل تسلـم رسولهم مـاشرطوا لهم من المال، فـأخذوا

-٩٥١٠-

نصرا المذكور وضربوه بالسياط، ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة، ثم أنزلوه يوم عاشوراء من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وأحرقوه. هذه خلاصة الواقعة وإن كان فيها طول.

وكان دخول نصر بن عباس إلى القصر بالقاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج من القصر يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وكان قد قطعت يده اليمنى، وقرضوا جسمه بالمقاريض، والله أعلم، وقيل كان ذلك اليوم يوم الجمعة ثامن الشهر المذكور، ولم تطل مدة الفائز في ولايته، وكانت ولادته يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وتولى في تاريخ وفاة والده وهو مذكور في ترجمته في حرف الهمزة، واسمه اسماعيل وتوفي ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتولى بعده العاضد، وقد سبق ذكره وهو آخرهم.

-٩٥١١-

الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق.

كان عالي الهمة، حازما شجاعا مهيبا فاضلا جامعا شمل أرباب الفضائل، محبا لهم، وكان حنفي المذهب متعصبا لمذهبه، وله فيه مشاركة حسنة، ولم يكن في بني أيوب حنفي سواه، وتبعه.أولاده، وكان قد حج إلى بيت الله الحرام في سنة إحدى عشرة وستمائة، سار من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة في جماعة من خواصه، وسلك طريق العلا وتبوك، وفي هذه السنة أخذ المعظم صرخد من ابن قراجا، وأعطاها مملوكه عز الدين أيبك المعروف بصاحب صرخد، ولم يزل بها إلى أن أخذها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل في سنة أربع وأربعين وستمائة، وحمله إلى القاهرة واعتقله بدار الطواشي صواب.

وكان المعظم يحب الأدب كثيرا، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا في مدحه، وكانت له رغبة في فن الأدب، وسمعت أشعارا منسوبة إليه ولم اتثبتها فلم أثبت منها شيئا، وقيل إنه كان قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة، ورأيت بعضهم بدمشق، والناس يقولون إنه كان سبب حفظهم له هذا، وقيل إنه لما توفي كان قد انتهى بعضهم إلى أواخره، وبعضهم إلى أثنائه وهم على قدر أوقات شروعهم فيه، ولم أسمع مثل هذه المنقبة لغيره، وكانت مملكته متسعة من حدود بلاد حمص إلى العريش، يدخل في ذلك بلاد الساحل الاسلامية منها وبلاد الغور وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد وغير ذلك، وكانت ولادته في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

وذكر أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان أن المعظم ولد في سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة، وولد أخوه الأشرف

موسى قبله بليلة واحدة، وتوفي المعظم ليلة مستهل ذي الحجة سنة أربع وعشرين وستمائة، والله أعلم بالصواب.

وقال غيره: بل توفي يوم الجمعة ثامن ساعة من نهار سلخ ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة بدمشق، ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى جبل الصالحية ودفن في مدرسة هناك بها قبور جماعة من أخوته، وأهل بيته تعرف بالمعظمية، وكان نقله ليلة الثلاثاء مستهل المحرم سنة سبع وعشرين، وكان كثيرا ماينشد هذا المقطوع:

ومورد الوجنات أغيد خاله
بالحسن من فرط الملاحة عمه
كحل العيون وكان في أجفانه
كحل فقلت سقى الحسام وسمه

وهذا ينظر إلى قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي المقدم ذكره:

زادت على كحل العيون تكحلا
وبسم نصل السيف وهو قتول

رحمه الله تعالى،فلقد كان من النجباء الأذكياء، أخبرني جماعة عن شرف الدين بن عنين بأمور كانت تجري بينهما، تدل على حسن الإدراك وإصابة القصد، منها أنه كان ابن عنين قد مرض فكتب إليه:

انظر إلي بعين مولى لم يزل
يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي أحتاج مايحتاجه
فاغنم ثوابي والثناء الوافي

فجاء بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلاثمائة دينار فقال: هذه الصلة، وأنا العائد، وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو في ممارسته

طول عمره لاستعظم منه لاسيما مثل هذا الملك، وأشياء كثيرة غير هذه يطول شرحها، وكان المقصود ذكر نموذج منها ليستدل به على الباقي.

وتولى موضعه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وتوفي في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة في قرية يقال لها البويضا على باب دمشق ودفن عند والده، وكانت ولادته يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستمائة بدمشق، وتوفي عز الدين أيبك صاحب صرخد المذكور في أوائل جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وستمائة، في موضع اعتقاله بالقاهرة، ودفن خارج باب النصر في مدرسة شمس الدولة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه ثم نقل إلى تربته في مدرسته التي أنشأها ظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير.

-٩٥١٤-

الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف ابن القاسم بن عيسي بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

هكذا أملى علي نسبه ولد ولد أخيه، ويقال له الهكاري الملقب ضياء الدين.كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية، كبير القدر وافر الحرمة، معولا عليه في الآراء والمشورات، وكان في مبدأ أمره يشتغل بالمدرسة الزجاجية بمدينة حلب، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين المقدم ذكره، وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه الأمير أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة بها كما سبق شرحه، كان في صحبته.

ولما توفي أسد الدين اتفق الفقيه عيسى المذكور والطواشي بهاء الدين قراقوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، على ترتيب السلطان صلاح الدين موضعه في الوزارة، ودققا في الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود، وشرح ذلك يطول، فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك، واعتمد عليه ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الادلال عليه يخاطبه بهالا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس،نفع بجاهه خلقا كثيرا، ولم يزل على مكانته وتوفر حرمته إلى أن توفي يوم الثلاثاء عند طلوع الشمس التاسع من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة بالمخيم بمنزلة الخروبة، ثم نقل إلى القدس ودفن بظاهرها رحمه الله تعالى، وكان يلبس زي الأجناد، ويعتم بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين، ورأيت أخاه الأمير مجد الدين أبا حفص عمر أيضا على هذه الصفة، والخروبة بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء وضمها وسكون الواو وفتح الباء الموحدة، وبعدها هاء ساكنة، موضع بالقرب من عكا.

-٩٥١٥-

وكـانت ولادة أخيـه مجد الديـن عمـر في رجب سنـة ستين وخمسمائة، وتـوفي في الثالـث والعشرين مـن ذي الحجة سنـة ست وثـلاثين وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم وحضرت الصلاة عليه رحمه الله تعالى.

-٩٥١٦-

سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الزاء وأنه قتل على حصار قلعة جعبر، فلما قتل وكان معه ألب أرسلان ابن السلطان محمود المعروف بالخفاجي السلجوقي المذكور في ترجمة عماد الدين زنكي، اجتمع أكابر الدولة وفيهم الوزير جمال الدين محمد الأصبهاني المعروف بالجواد، والقاضي كمال الدين أبو الفضل محمد الشهرزوري، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى، وقصدوا خيمة ألب أرسلان المذكور، وقالوا له: كان عماد الدين زنكي غلامك ونحن غلمانك، والبلاد لك وصمتوا الناس بهذا الكلام، ثم إن العسكر افترق فرقتين، فطائفة منهم توجهت صحبة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الآتي ذكره، إن شاء الله تعالى إلى الشام، والطائفة الثانية سارت مع ألب أرسلان وعساكر الموصل وديار ربيعة إلى الموصل، فلما انتهوا إلى سنجار تخيل ألب أرسلان منهم الغدر فتركهم، وهرب فلحقه بعض العسكر وردوه، فلما وصلوا إلى الموصل وصلهم سيف الدين غازي المذكور، وكان مقيما بشهرزور لأنها كانت إقطاعة من جهة السلطان مسعود السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فلما استقر بالموصل قبض على ألب أرسلان المذكور، وسيره إلى بعض القلاع وملك الموصل، وماكان لأبيه من ديار ربيعة، وترتبت أحواله، وأخذ أخوه نور الدين محمود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى حلب وماوالاها من بلاد الشام، ولم تكن دمشق يومئذ لهم، وكان غازي المذكور منطويا على خير وصلاح، يحب العلم وأهله وبنى بالموصل مدرسته المعروفة بالعتيقة، ولم تطل مدته في المملكة حتى توفي آخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقد قارب من العمر أربعين سنة، ودفن في مدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وتولى بعده أخوه قطب الدين مودود، وسيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

-٩٥٦٧-

سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل.

وهو ابن أخي المذكور قبله، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر، ولما توفي والده في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته بلغ الخبر نور الدين وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل، فوصل إلى الرقة في المحرم سنة ست وستين وخمسمئة، وملكها، وسار منها إلى نصيبين فملكها في بقية الشهر، وأخذ سنجار في شهر ربيع الآخر منها، ثم قصد الموصل، وقصد أن لايقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد وهي بلدة بقرب الموصل، وسار حتى خيم قبالة الموصل، وراسل ابن أخيه سيف الدين المذكور وعرفه صحة قصده فصالحه، ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر صاحبها فيها، وزوجه ابنته وأعطى أخاه عماد الدين زنكي المذكور في ترجمة جده عماد الدين زنكي سنجار، وخرج من الموصل، وعاد إلى الشام ودخل حلب في شعبان من السنة المذكورة، ولما مات نور الدين، وملك صلاح الدين دمشق ونزل على حلب يحاصرها، سير سيف الدين المذكور جيشا مقدمه أخوه عز الدين مسعود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى،والتقوا عند قرون حماة، وسيأتي تفصيل ذلك هناك، فلما انكسرعز الدين مسعود تجهز سيف الدين بنفسه، وخرج إلى لقائه، وتصافا على تل السلطان وهي قرية بين حلب وحماة، وذلك في بكرة الخميس عاشر شوال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.

قال العماد الأصبهاني في البرق الشامي، وابن شداد في سيرة صلاح الدين إنه انكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين فإنه كان في ميمنة سيف الدين، ثم حمل صلاح الدين بنفسه، فانهزم جيش سيف الدين وعاد إلى حلب، ثم رحل إلى الموصل، ومظفر الدين المذكور هو صاحب إربل، وترجمته في حرف الكاف وأقام غازي في المملكة عشر

-٩٥١٨-

سنين وشهورا، وأصابه مرض مزمن وتوفي يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتولى بعده عز الدين مسعود، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان مرضه السل، وطال به وعاش مقدار ثلاثين سنة.

أبو الفتح غازي ويكنى أبا منصور أيضا ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب.

كان ملكا مهيبا حازما متيقظا،كثير الاطلاع على أحوال رعيته، وأخبار الملوك، عالي الهمة حسن التدبير والسياسة باسط العدل،محبا للعلماء مجيزا للشعراء، أعطاه والده مملكة حلب في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، بعد أن كانت لعمه الملك العادل، فنزل عنها وتعوض غيرها كما قد شهر، ويحكى عن سرعة ادراكه أشياء حسنة، منها أنه جلس يوما لعرض العسكر، وديوان الجيش بين يديه، وكان كلما حضر أحد من الأجناد سأله الديوان عن اسمه لينزلوه حتى حضر واحد فسألوه عن اسمه، فقبل الأرض فلم يفطن أحد من أرباب الديوان لما أراد، فعاودوا سؤاله، فقال الملك الظاهر: اسمه غازي، وكان كذلك، وتأدب الجندي أن يذكر اسمه لما كان موافقا لاسم السلطان، وعرف هو مقصوده، وله من هذا الجنس شيء كثير لاحاجة إلى التطويل فيه، وكانت ولادته بالقاهرة في منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة، وهي السنة الثانية من استقلال أبيه بمملكة الديار المصرية، وتوفي بقلعة حلب ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة، ودفن بالقلعة، ثم بنى الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم أتابك ولده الملك العزيز مدرسته تحت القلعة، وعمر فيها تربة، ونقله إليها رحمه الله تعالى، والعجب أنه دخل حلب مالكا لها في الشهر بعينه، واليوم من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ورثاه شاعره الشرف راجح بن اسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلي، وكنيته أبو الوفاء بهذه القصيدة، ومدح ولديه السلطان الملك العزيز محمدا وأخاه الملك الصالح صاحب عين تاب، وماقصر فيها وهي:

مضـى مـن أقـام النـاس في ظـل عـدلـه
وآمــن مـن خطـب تـدب عقـاربـه
فكـم مـن حمى صعـب أبـاحـت سيوفـه
ومـن مستبـاح قـد حمتـه كتـائبـه
أرى اليـوم دسـت الملك أصبـح خـاليـا
أمـا فيكـم مـن مخبر أيـن صـاحبـه
فمـن سـائل عـن سـائل الـدمع لم جـرى
لعـل فـؤادي بـالـوجيـب يجاوبـه
فكـم مـن نـدوب في قلـوب نضيجـة
بنـار كـروب أججتهـا نـوادبـه
أسلـم ولم يحطـم صـدور رمـاحـه
بـبذب ولم يثلـم بضرب قـواضبـه
ولا اصطـدمـت عنـد الحتـوف كماتـه
ولا ازدحمت بين الصفـوف جنـائبـه
ولاسيـم أخـذ الثـار يـوم كـريهه
يشـق مثـار النقـع فيهـا سـلاهبـه
فيـا ملبسي ثـوبـا مـن الحزن مسبـلا
أيحسـن بي أن التسلي سـالبـه
خـدمتـك روض المجـد تصفـو ظـلالـه
علي وحـوض الجود تصفـو مشـاربـه
وقـد كنـت تـدنينـي وتـرفـع مجلسي
لمفـروض مـدح مـا تعـداك واجبـه
فما بـال اذني قـد تمادى ولم يكـن
إذا جئـت يثنين عـن البـاب حـاجبـه
أرى الشمـس أخفـت يـوم فقـدك نـورهـا
فـلا كـان يـومـا كـاشـف الـوجـه شـاحبـه
فكيـف نبـا سيـف اعتـزامـك أو كبـا
جـواد مـن الحزم الـذي أنـت راكبـه

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه
بمن علقت أنيابه ومخالبه
نشدتك عاتبه على نائباته
وإن كان ينأى السمع عمن يعاتبه
لي الله كم أرمي بطرفي ضلالة
إلى أفق مجد قد تهاوت كواكبه
فمالي أرى الشهباء قد حال صبحها
على دجى لا تستنير غياهبه
أحقا حمى الغازي الغياث بن يوسف
أبيح وعادت خائبات مواكبه
نعم كورت شمس المدائح وانطوت
سماء العلا والنجح ضاقت مذاهبه
فمن مخبري عن ذلك الطود هل وهت
قواعده أم لان للخطب جانبه
أجل ضعضعت بعد الثبات زعزعت
بريح المنايا العاصفات مناكبه
وغيض ذاك البحر من بعد ماطمت
وطمت لغيبان البلاد غواربه
فشلت يمين الخطب أي مهند
برغم العلا سلت وفلت مضاربه
لئن حبس الغيث الغياثي قطره
فقد سحبت في كل قطر سحائبه
فأنى يلذ العيش بعد ابن يوسف
أخو أمل أكدت عليه مطالبه
فلا أدركت نيل المنى طالباته
ولا بركت في أرض يمن ركائبه
ولا انتجعت إلا بعيس حقيبة
من الجدب لا تثني عليه حقائبه

فمن لليتامى يا غياث يغيثهم
إذا الغيث لم ينفع صدى العام ساكبه

ومن للملوك كنت ظلا عليهم
ظليلا إذا ما الدهر نابت نوائبه

أيا تاركي ألقى العدو مسالما
متى ساءني بالجد قمت ألاعبه

سقت قبرك الغر الغوادي وجاده
من الغيث ساريه الملث وساربه

فإن يك نور من شهابك قد خبا
فيا طالما جلى دجى الليل ثاقبه

فقد لاح بالملك العزيز محمد
صباح هدى كنا زمانا نراقبه

فتى لم يفته من أبيه وجده
إباء وجد غالبا من يغالبه

ومن كان في المسعى أبوه دليله
تدانى له الشأو الذي هو طالبه

وبالصالح استعلى صلاح الدين رعية
لها منه رعي ليس يقلع راتبه

فحسب الورى من أحمد ومحمد
مليكان من عاداهما ذل جانبه

هما احرزا علياء غازي بن يوسف
وما ضيعا المجد الذي هو كاسبه

فافق الورى لولاهما كان أظلمت
مشارقه من بعده ومغاربه

ستحمي على رغم الليالي حماهما
عوالي قنا تردي الاسود ثعالبه

فكم من ملم جل موقع خطبه
فساءت مباديه وسرت عواقبه

فيا قمري سعد أطلا على الدجى
فولى وما ألوى على الأرض هاربه

أيمكث في الشهباء عبد أبيكما
ومادحه أم تستقل نجائبه
فإن شئتها بعد الغياث أغثتها
مصاب سهام فوقتها مصائبه
كأن لم أقف أجلو التهاني أمامه
وتضحك في وجه الأماني مواهبه
فهنئتها ما نلتها وبقيتها
لاعلاء ملك ساميات مراتبه

وهذه القصيدة مع جودتها فيها مواضع مأخوذة من مرثية الفقيه عمارة اليمني في الصالح بن رزيك، وبعضها مذكور في ترجمة الصالح، وكأنه قد نسخ على منوالها فإنها على وزنها، وإن كان حرف الروي مختلفا، فقد استعمل بها الوصل كما استعمله عمارة، والظاهر أنه كان قد وقف عليها، فقصد مضاهاتها.

وقام بالأمر في مملكة حلب من بعده ولده الملك العزيز غياث الدين أبو المظفر محمد بن الملك الظاهر، ومولده يوم الخميس خامس ذي الحجة سنة عشر وستمائة بحلب، وتوفي بها يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب في ذلك الوقت، ودفن بالقلعة، وترتب مكانه ولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن الملك العزيز، واتسعت مملكته فإنه ملك عدة بلاد من الجزيرة الفراتية لما كسر الخوارزمية، وكان مقدم جيشه الملك المنصور صاحب حمص، وذلك في أواخر سنة إحدى وأربعين وأوائل سنة اثنتين وأربعين، ملك دمشق والبلاد الشامية يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة، ومولده بقلعة حلب في تاسع عشر رمضان

سنة سبع وعشرين وستمائة، وقصده التتر وملكوا الشام، فخرج من دمشق في صفر سنة ثمان وخمسين وقتل في الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين بالقرب من المراغة من أعمال أذربيجان على مانقل الناقل، والله أعلم، وقصته مشهورة.

وتوفي عمه الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر صاحب عين تاب في شهر شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة،وكانت ولادته في صفر سنة ستمائة بحلب، ومات بعين تاب رحمهم الله تعالى أجمعين، وإنما قدموا العزيز، وهو الأصغر على أخيه الصالح، لأن أمه ضيفة خاتون بنت الملك العادل بن أيوب، فقدموه في الملك لأجل جده وأخواله أولاد العادل وأما الصالح فإن أمه جارية، وتوفي الشرف الحلي المذكور في ليلة السابع والعشرين من شعبان سنة سبع وعشرين وستمائة بدمشق، رحمه الله تعالى، ودفن بظاهرها بجوار مسجد النارنج شرقي مصلى العيد، ومولده في منتصف ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بالحلة، وهو من مشاهير شعراء عصره.

أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين

كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه، وقد تقدم ذكره في ترجمة الفقيه عيسى الهكاري، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلا مسعوداً، وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر ومابينهما، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وعمر بالمقس رباطا على باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، وله وقف كثير لايعرف مصرفه، وكان حسن المقاصد جميل النية، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها حصل أسيرا في أيديهم ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف دينار.

وذكر شيخنا القاضي بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين أنه انفك من الأسر في يوم الثلاثاء حادي عشر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ومثل في الخدمة الشريفة السلطانية، ففرح به فرحا شديدا، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام والمسلمين، واستأذن في المسير إلى دمشق ليحصل مال القطيعة، فأذن له في ذلك، وكان على ماذكر ثلاثين ألفا، والناس ينسبون إليه أحكاما عجيبةفي ولايته، حتى أن الأسعد بن مماتي المقدم ذكره له جزء لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمدا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته مافوضها إليه، وكانت وفاته في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وخمسمائة بالقاهرة، ودفن في تربته المعروفة به بسفح المقطم رحمه الله تعالى بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق.

-٩٥٢٦-

وقراقوش بفتح القاف والراء، وبعد الألف قاف ثانية ثم واو بعدها شين معجمة، وهو لفظ تركي تفسيره بالعربي العقاب الطائر المعروف، وبه سمي الانسان.

- ٩٥٢٧ -

أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل.

كان والده زين الدين علي المعروف بكجك صاحب إربل، رزق أولادا كثيرة، وكان قصيرا ولهذا قيل له كجك، وهو لفظ عجمي معناه بالعربي صغير، أي صغير القدر، وأصله من التركمان وملك إربل وبلادا كثيرة في تلك النواحي، وفرقها على أولاد أتابك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ولم يبق له سوى إربل، والشرح يطول وعمر طويلا، يقال إنه جاوز مائة سنة، وعمي في آخر عمره، وانقطع بإربل إلى أن توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: مات في ذي الحجة من السنة، ودفن في تربته المعروفة به المجاورة للجامع العتيق داخل البلد رحمه الله تعالى، وكان موصوفا بالقوة المفرطة والشهامة، وله بالموصل أوقاف كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها.

قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير، الذي عمله لبني أتابك ملوك الموصل: إن زين الدين المذكور سار عن الموصل إلى إربل سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وسلم جميع ماكان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية، وقلاع الهكارية جميعها، وتكريت وشهرزور وغير ذلك، وماترك لنفسه سوى إربل، وكان قد حج هو وأسد الدين شيركوه بن شاذي في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

ولما توفي ولي موضعه ولده مظفر الدين المذكور، وعمره أربع عشرة سنة، وكان أتابكه مجاهد الدين قايماز المذكور في حرف القاف، فأقام

أخاه زين الدين أبا المظفر يوسف، وكان أصغر منه، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد فتوجه إلى بغداد، فلم يحصل له بها مقصود، فانتقل إلى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود المقدم ذكره في حرف العين، فاتصل بخدمته وأقطعه مدينة حران فانتقل إليها، وأقام بها مدة.

ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وحظي عنده، وتمكن منه وزاده في الإقطاع الرهافي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأخذ صلاح الدين الرها من ابن الزعفراني وأعطاها مظفر الدين مع حران، وأخذ الرقة من ابن حسان وأعطاها ابن الزعفراني، والشرح في ذلك يطول، ثم أعطاه سميساط وزوجه أخته الست ربيعة خاتون بنت أيوب، وكانت قبله زوجه سعد الدين مسعود بن معين الدين صاحب قصر معين الدين الذي بالغور، وتوفي سعد الدين المذكور سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وشهد مظفر الدين مع صلاح الدين مواقف كثيرة، وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزة، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره، على ماتضمنته تواريخ العماد الأصبهاني وبهاء الدين بن شداد وغيرهما وشهرة ذلك تغني عن الإطالة فيه، ولو لم يكن إلا وقعة حطين لكفته، فإنه وقف هو وتقي الدين صاحب حماة المقدم ذكره، وانكسر العسكر بأسره ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين، وفتح الله سبحانه عليهم، ثم لما كان السلطان صلاح الدين منازلا عكا بعد استيلاء الفرنج عليها، وردت عليه ملوك الشرق تنجده وتخدمه، وكان في جملتهم زين الدين يوسف أخو مظفر الدين، وهو يومئذ صاحب إربل فأقام قليلا ثم مرض وتوفي في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة بالناصرة، وهي قرية بالقرب من عكا، يقال إن المسيح عليه الصلاة والسلام ولد بها على الاختلاف الذي في ذلك، فلما توفي التمس مظفر الدين من السلطان أن ينزل عن حران والرها وسميساط ويعوضه إربل فأجابه إلى ذلك وضم إليه شهرزور، فتوجه

إليهـا ودخـل إربـل في ذي الحجـة سنـة سـت وثمانين وخمسمائة، هـذه خلاصة أمره.

وأما سيرتـه فلقد كـان له في فعـل الخيرات غرائب لم يسمـع أن أحدا فعل في ذلك مافعله، لم يكن في الدنيـا شيء أحب إليه من الصدقة، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفـرقها على المحاويج في عدة مواضع من البلـد، يجتمع في كـل موضع خلـق كثير يفرق عليهـم في أول النهار، وكان إذ نزل من الـركوب يكون قد اجتمع عند الـدار جمع كثير فيدخلهم إليه ويـدفع لكل واحـد كسوة على قـدر الفصل من الشتـاء والصيف أو غير ذلك، ومـع الكسوة شيء من الذهـب من الدينار والاثنين والثـلاثة، وأقل وأكثـر وكان قد بنى أربـع خانقاهات للـزمنى والعميان وملأهـا من هذين الصنفين، وقرر لهم مايحتاجون إليـه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل عصريـة اثنين وخميس، ويـدخل عليهم، ويـدخل إلى كـل واحد في بيته ويتفقده بشيء من النفقة ويسأله عن حاله، وينتقل إلى الآخر وهكذا حتـى يدور على جميعهـم، وهـو يباسطهـم ويمـزح معهم ويجبر قلـوبهم، وبنى دارا للنسـاء الأرامل، ودارا للصغار الأيتـام، ودار للملاقيـط، رتب بها جماعة مـن المراضع، وكل مولـود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنـه وأجرى على أهل كـل دار مايحتاجـون إليه في كل يوم، وكـان يدخل إليهـا في كل وقـت ويتفقد أحـوالهن ويعطيهن النفقـات زيـادة على المقرر لهن، وكـان يـدخل إلى البيمارستـان ويقف على مـريض مـريـض ويسألـه عن مبيتـه وكيفية حاله ومـايشتهيه، وكان له دار مضيف يدخـل إليها كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كـان يمنع منها كل من قصد الـدخول إليها ولهم الراتـب في الدار في الغداء والعشـاء، وإذا عزم الانسان على السفر أعطوه نفقة على مايليق بمثله.

وبنى مدرسـة رتب فيها فقهاء الفـريقين من الشافعية والحنفيـة، وكان كل وقـت يأتيهـا بنفسه ويعمـل السماط بها ويبيت بها، ويعمـل السماع،

وإذا طاب خلع شيئا من ثيابه وسير للجماعة بكرة شيئا من الإنعام، ولم يكن له لذة سوى السماع، فإنه كان لايتعاطى المنكر، ولايمكن من إدخاله إلى البلد، وبنى للصوفية خانقاهين فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين، ويجتمع في أيام المواسم فيهما من الخلق مايعجب الانسان من كثرتهم، ولهما أوقاف كثيرة تقوم بجميع مايحتاج إليه ذلك الخلق، ولابد عند سفر كل واحد من نفقة يأخذها، وكان ينزل بنفسه إليهم ويعمل عندهم السماعات في كثير من الأوقات وكان يسير في كل سنة دفعتين جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل، ومعهم جملة مستكثرة من المال يفتك بها أسرى المسلمين من أيدي الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئا وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصيةمنه في ذلك، وكان يقيم في كل سنة سبيلا للحاج، ويسير معه جميع ماتدعو حا جة المسافر إليه في الطريق، ويسير صحبته أمينا معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويج وأرباب الرواتب، وله بمكة حرسها الله تعالى آثار جميلة، وبعضها باق إلى الآن، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف، وغرم عليه جملة كثيرة، وعمر بالجبل مصانع للماء، فإن الحاج كانوا يتضررون من عدم الماء، وبنى له تربة أيضا هناك.

وأما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفا منه، وهو أن أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقادة فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل مثل بغداد، والموصل، والجزيرة، وسنجار، ونصيبين،وبلاد العجم وتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولايزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب، كل قبة، أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة، وأكثر منها قبة له والباقي للأمراء وأعيان دولته لكل واحد قبة فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة، وقعد في كل قبة جوق من الأغاني وجوق من

أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق حتى رتبوا فيها جوقا، وتبطل معايش الناس في تلك المدة، ومايبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم، وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاورة للميدان، فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر، ويقف على قبة قبة إلى آخرها، ويسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم ومايفعلونه في القباب، ويبيت في الخانقاة ويعمل السماع فيها، ويركب عقيب صلاة الصبح يتصيد، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر، هكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد، وكان يعمله سنة في ثامن الشهر، وسنة في ثاني عشره لأجل الاختلاف الذي فيه، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً كثيرا زائدا عن الوصف، وزفها بجميع ماعنده من الطبول والأغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يسرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان المختلفة، فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات، بعد أن يصلي المغرب في القلعة، ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع أشك في ذلك، من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي إلى الخانقاه، فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة ، وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر، فينزل من ذلك شيء كثير لاأتحقق عدده، ثم ينزل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بياض الناس، وينصب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس، والكرسي وشبابيك أخر للبرج أيضا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند، وتارة إلى الناس والوعاظ، ولايزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السماط في الميدان للصعاليك، ويكون

سماطا عاما فيه من الطعام والخبز شيء كثير لايحد ولايوصف، ويمد سماطا ثانيا في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي، وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحدا واحدا من الأعيان والرؤساء والوافدين لأجل هذا الموسم ممن قدمنا ذكره من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء، ويخلع على كل واحد منهم، ثم يعود إلى مكانه، فإذا تكامل ذلك كله حضروا السماط وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره، ولايزالون على ذلك إلى العصر أو بعدها، ثم يبيت تلك الليلة هناك، ويعمل السماعات إلى بكرة،هكذا دأبه في كل سنة، وقد لخصت صورة الحال فإن الاستقصاء يطول، فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعود إلى بلده، فيدفع لكل شخص شيئاً من النفقة، وقد ذكرت في ترجمة الحافظ أبي الخطاب بن دحية، في حرف العين وصوله إلى إربل وعمله لكتاب«التنوير في مولد السراج المنير» لما رأى من اهتمام مظفر الدين به، وأنه أعطاه ألف دينار غير ماغرم عليه مدة إقامته من الإقامات الوافرة، وكان رحمه الله متى أكل شيئا واستطابه لايختص به بل كان إذا أكل من زبدية لقمة طيبة قال لبعض من بين يديه من أجناده: احمل هذا إلى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح، وكذلك يعمل في الحلوى والفاكهة وغير ذلك من المطاعم والمشارب والكساء، وكان كريم الأخلاق كثير التواضع حسن العقيدة، سالم البطانة، شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة، لاينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين، ومن عداهما لايعطيه شيئا إلا تكلفا، وكذلك الشعراء لايقول بهم ولايعطيهم إلا إذا قصدوه، فما كان يضيع قصدهم ولايخيب أمل من يطلب بره، وكان يميل إلى علم التاريخ وعلى خاطره منه شيء يذاكر به، ولم يزل رحمه الله تعالى مؤيدا في مواقفه ومصافاته مع كثرتها، لم ينقل أنه انكسر في مصاف قط ولو استقصيت في تعداد محاسنه لطال الكتاب وفي شهرة معروفة غنية عن الإطالة، وليعذر الواقف على هذه الترجمة، ففيها تطويل، ولم يكن سببه إلا ماله علينا من الحقوق التي لانقدر على القيام

بشكر بعضها، ولو عملنا مهما عملناه، وشكر المنعم واجب فجزاه الله عنا أحسن الجزاء، فكم له علينا من الأيادي ولأسلافه على أسلافنا من الإنعام، والانسان صنيعه الإحسان، ومع الإعتراف بجميله فلم أذكر عنه شيئا على سبيل المبالغة بل كل ماذكرته عن مشاهدة وعيان، وربما حذفت بعضه طلبا للايجاز، وكانت ولادته بقلعة الموصل ليلة الثلاثاء السابعة والعشرين من المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي وقت الظهر يوم الأربعاء ثامن عشر شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة بداره في البلدة التي كانت لمملوكه شهاب الدين قراجا فلما قبض عليه في سنة أربع عشرة وستمائة أخذها وصار يسكنها بعض الأوقات فمات بها، ثم نقل إلى قلعة إربل ودفن بها، ثم حمل بوصية منه إلى مكة شرفها الله تعالى

وكان قد أعد له بها قبة تحت الجبل في ذيله يدفن فيها، وقد سبق ذكرها، فلما توجه الركب إلى الحجاز سنة إحدى وثلاثين سيروه في الصحبة، فاتفق أن رجع الحاج تلك السنة من لينة ولم يصلوا إلى مكة، فردوه ودفنوه بالكوفة بالقرب من المشهد رحمه الله تعالى، وعوضه خيرا وتقبل مباره، وأحسن منقلبه.

وأما زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب فإنها توفيت في شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وغالب ظني أنها جاوزت ثمانين سنة، ودفنت في مدرستها الموقوفة على الحنابلة بسفح قاسيون، وكانت وفاتها بدمشق، وأدركت من محارمها من الملوك من أخوتها وأولادهم أكثر من خمسين رجلا، غير محارمها من غير الملوك ولولا خوف الإطالة لذكرتهم مفصلا، فإن إربل كانت لزوجها المذكور، والموصل لأولاد بنتها، وخلاط وتلك الناحية لابن أخيها، وبلاد الجزيرة الفراتية للأشرف ابن أخيها، وبلاد الشام لأولاد أخوتها، والديار المصرية والحجاز واليمن لأخوتها وأولادهم ، ومن تأمل ذلك عرف الجميع.

وكوكبوري بضم الكافين بينهما واوا ساكنه، ثم باء موحدة مضمومة، ثم

واوا ساكنة، وبعدها راء، وهو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق، وبكتيكين بضم الباء الموحدة وسكون الكاف، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، هو اسم تركي أيضا، ولينة بكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح النون وبعدها هاء ساكنة، منزلة في طريق الحجازمن جهة العراق، وكان الركب في تلك السنة قد رجع منها لعدم الماء، وقاسوا مشقة عظيمة.

أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين أخو السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الهمزة، وسيأتي ذكر أخيه صلاح الدين في حرف الياء إن شاء الله تعالى،وكان الملك العادل قد وصل إلى الديار المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه المقدم ذكره، وكان يقول لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى جرمدان(١) فطلبته من والدي فأعطاني، وقال: ياأبا بكر إذا ملكتم مصر أعطني ملأه ذهبا، فلما جاء إلى مصر قال: يا أبا بكر أين الجرمدان؟ فرحت وملأته من الدراهم السود وجعلت أعلاها شيئا من الذهب وأحضرته إليه، فلما رآه اعتقده ذهبا فقلبه فظهرت الفضة السوداء، فقال: يا أبا بكر تعلمت زغل المصريين.

ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه في حال غيبته في الشام، ويستدعي منه الأموال للانفاق في الجند وغيرهم، ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أن الحمول تأخرت مدة، فتقدم السلطان إلى العماد الأصبهاني أن يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على إنفاذها حتى قال: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فلما وصل الكتاب إليه ووقف على هذا الفصل شق عليه وكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك، فكتب القاضي الفاضل جوابه وفي جملته:« وأما ماذكره المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة ماالمقصود بها من الملك النجعة وإنما المقصود بها من الكاتب السجعة، وكم من لفظة فظة، وكلمة فيها غلظة حيرت عي الأقلام، وفسدت خلل الكلام، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة، وقد فات لسان القلم منها أي سكتة، وكان المملوك حاضرا وقد جرت قوارع الاستحثاث، وصرصر البازي، وقوت نفس العماد قوة نفس البغاث والسلام».

ولما ملك السلطان مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة كما تقدم في ترجمة عماد الدين زنكي أعطاها لولده الملك الظاهر غازي، ثم أخذها منه وأعطاها للملك العادل، فانتقل إليها وقصد قلعتها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ثم نزل عنها للملك الظاهر غازي ابن السلطان المقدم ذكره لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين وخرج منها في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، ثم أعطاه السلطان قلعة الكرك، وتنقل في الممالك في حياة السلطان وبعد وفاته وقضاياه مشهورة مع الملك الأفضل، والملك العزيز، والملك الظاهر، فلا حاجة إلى الإطالة بشرحها، وآخر الأمر أنه استقل بمملكة الديار المصرية، وكان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة، واستقرت له القواعد.

وقال أبو البركات بن المستوفي في تاريخ إربل في ترجمة ضياء الدين أبي الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الوزير الجزري مامثاله: «وجدت بخطه خطب للملك العادل أبي بكر بن أيوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة، وخطب له بحلب يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وملك معها البلاد الشامية والشرقية، وصفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة اثنتي عشرة وستمائة، وسير إليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المعروف بأطسيس ابن الملك الكامل الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميافارقين وتلك النواحي، فاستولى على مدينة خلاط وبلاد أرمينية، واتسعت مملكته وذلك في سنة أربع وستمائة، ولما تمهدت البلاد له قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية، والملك المعظم البلاد الشامية، والملك الأشرف البلاد المشرقية، والأوحد في البلاد التي ذكرناها، وكان ملكا عظيما ذا رأي ومعرفة تامة

قد حنكته التجارب، حسن السيرة، وجميل الطوية، واف العقل، حازما في الأمور،صالحا محافظا على الصلوات في أوقاتها متبعا لأرباب السنة مائلا الى العلماء حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب «تأسيس التقديس» وذكر اسمه في خطبته، وسيره إليه من بلاد خراسان، وبالجملة فإنه كان رجلا مسعودا، ومن سعادته أنه خلف أولادا لم يخلف أحدا من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، ودانت لهم العباد، وملكوا أخيار البلاد، ولما مدح ابن عنين المقدم ذكره الملك العادل بقصيدته الرائية المذكور بعضها في ترجمته جاء منها في مديح أولاده المذكورين قوله:

ولـه البنـون بكـل أرض منهـم
ملـك يقـود إلى الأعـادي عسكـرا

مـن كـل وضـاح الجبين تخالـه
بـدرا وإن شهـد الـوغـى فغضنفـرا

متقـدم حتـى إذا النقـع انجلى
بـالبيـض عـن سبـي الحريـم تـأخـرا

قـوم زكـوا أصـلا وطـابـوا محتـدا
وتـدفقـوا جـودا وراقـوا منظـرا

وتعـاف خيلهـم الـورود بمنهـل
مـا لم يكـن بـدم الـوقـائع أحمرا

يعشـوا إلى نـار الـوغـى شغفـاً بها
ويجل أن يعشـو إلى نـار القـرى

وكم للشعراء فيهم من القصائد المختارة لكن ذكرت هذه لكونها جامعة لجميعهم ومن جملة هذه القصيدة مدح الملك العادل قوله ولقد أحسن فيه:

العـادل الملـك الـذي اسماؤه
في كـل نـاحيـة تشرف منبرا

وبكـــل أرض جنـــة مـــن عـــدلـــه الـــ
ـــضافي أســال نــداه فيهـــا كـــوثـــرا
عـــدل يبيـــت الـــذئب منـــه على الطـــوى
غـــرثـــان وهـــو يـــرى الغـــزال الأعفـــرا
مـــافي أبي بكـــر لمعتقـــد الهدى
شـــك مـــريـــب أنـــه خير الـــورى
سيـــف صقـــال المجـــد أخلـص متنـــه
وأبـــان طيـــب الأصـــل منـــه الجوهـــرا
مـــامـــدحـــه بـــا لمستعـــار لـــه ولا
آيـــات ســـؤدده حـــديـــث يفترى
بين الملـــوك الغـــابـــريـــن وبينـــه
في الفضـــل مـــابين الثـــريـــا والثـــرى
نسخـــت خـــلائقـــه الحميـــدة مـــا أتـــى
في الكتـــب عـــن كسرى الملـــوك وقيصرا
ملـــك اذا خفـــت حلـــوم ذوي النهـــى
في الـــروع زاد رصـــانـــة وتـــوقـــرا
ثبـــت الجنـــان تـــراع مـــن وثبـــاتـــه
وثبـــاتـــه يـــوم الـــوغـــى اسـد الشرى
يقـــظ يكـــاد يقـــول عما في غـــد
ببـــديهة اغنتـــه أن يتفكـــرا
حلـــم تخف لـــه الحلـــوم وراءه
رأي وعـــزم يحقـــر الاسكنـــدرا
يعفـــو عـــن الـــذنـــب العظيـــم تكـــرمـــا
ويصـــد عـــن قـــول الخنـــى متكبرا
لاتسعمـــن حـــديـــث ملـــك غيره
يـــروى فكـــل الصيـــد في جـــوف الفـــرا(٢)

وبالجملة فإنها من القصائد المختارة، ولما قسم البلاد بين أولاده، كان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى، وكان بالغالب يصيف

بالشام لأجل الفواكة والثلج والمياة الباردة، ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد، وعاش في أرغد عيش، وكان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد حتى يقال إنه يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا، وكان له في النكاح نصيب وافر، وحاصل الأمر أنه كان ممتعا في دنياه، وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين، وقيل ثمان وثلاثين وخمسمائة، وتوفي في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعالقين ونقل إلى دمشق، ودفن بالقلعة ثاني يوم وفاته ثم نقل إلى مدرسته المعروفة به.
ودفن في التربة التي بها، وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك رحمه الله تعالى.

وعالقين بفتح العين المهملة، وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضا وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون، وهي قرية بظاهر دمشق، وكان ذلك عند وصول الفرنج إلى ساحل الشام،وقصدوا أولا لقاء الملك العادل فتوجه قدامه إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب إلى لقائهم، فلما وصل إلى الموضع المذكور توفي به، فحينئذ أعرض جميع الفرنج عن الشام وقصدوا الديار المصرية فكانت وقعة دمياط المشهورة في ذلك التاريخ وتاريخها مضبوط في ترجمة يحيي بن منصور المعروف بابن جراح في حرف الياء، وأطسيس بفتح الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر السين المهملة وبعدها ياء مثناة من تحتها، ثم سين ثانية، وهي كلمة تركية معناها بالعربية ماله اسم، ويقال إنما سمي بذلك لأن الملك الكامل ماكان يعيش له ولد، فلما ولد له المسعود المذكور قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأتراك: في بلادنا إذا كان الرجل لايعيش له ولد سماه أطسيس، فسماه أطسيس، والناس يقولون أقسيس بالقاف وصوابه بالطاء كذا قالوا والله أعلم، ثم ظفرت بتاريخ تسلم حلب محررا وهو أن عماد الدين زنكي نزل من قلعتها يوم الخميس الثاني والعشرين من صفر، وصعد صلاح الدين إليها يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر المذكور، والله أعلم.

-٩٥٤٠-

أبو المعالي محمد ابن الملك العادل المذكور الملقب بالملك الكامل ناصر الدين

قد سبق في ترجمة والده طرف من خبره، ولما وصل الفرنج إلى دمياط كما تقدم ذكره كان الملك الكامل في مبدأ استقلاله بالسلطنة، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء وفيهم عماد الدين أحمد بن المشطوب المذكور في حرف الهمزة، فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين ابراهيم ابن الملك العادل، وانضموا إليه وظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض السلطنة إليه وخلع الملك الكامل واشتهر ذلك بين الناس، وكان الملك الكامل يداريهم لكونه في قبالة العدو، ولايمكنه المناظرة والمنافرة وطول روحه معهم ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم صاحب دمشق المذكور في حرف العين يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمائة، فأطلعه الملك الكامل في الباطن على صورة الحال وأن رأس هذه الطائفة ابن المشطوب، فجاءه يوما على غفلة إلى خيمته واستدعاه فخرج إليه، فقال له: أريد أن أتحدث معك سرا في خلوة، فركب فرسه وصار معه وهو جريدة وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق إليهم، وقال لهم: اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعد عن المخيم، ثم قال له: ياعماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئا من النفقة وقال لأولئك المجردين: تسلموه حتى تخرجوه من الرمل، فلم يسعه ، إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال، ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ماجرى، ثم جهز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار، وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرها لاطوعا، وجرى في قضية دمياط ماهو مشهور، فلا حاجة

إلى الإطالة بذكره، ولما ملك الفرنج دمياط وصارت في قبضتهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر، ونزلوا في رأس الجزيرة التي دمياط في برها، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعروفة بالمنصورة، والبحر حائل بينهم وهو بحر أشموم،ونصر الله سبحانه وتعالى بمنه وجميل لطفه المسلمين عليهم كما هو مشهود،وجلا الفرنج عن منزلهم ليلة الجمعة سابع شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة، وتم الصلح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور، ورحل الفرنج عن البلاد في شعبان من السنة المذكورة، وكانت مدة إقامتهم في بلاد الاسلام مابين الشام والديار المصرية أربعين شهرا وأربعة عشر يوما، وكفى الله شرهم والحمد لله على ذلك، وقد فصلت ذلك في ترجمة يحيى بن جراح فيكشف هناك، فلما استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدو تفرغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد وبدد شملهم وشردهم، ودخل إلى القاهرة وشرع في عمارة البلاد واستخراج الأموال من جهاتها، وكان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء، متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشرا لأرباب الفضائل حازما في أموره لايضع الشيء إلا في موضعه من غير اسراف ولااقتار، وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم، ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن وهو معهم كواحد منهم، وكان يعجبه هذان البيتان وينشدهما كثيرا وهما:

ماكنت من قبل ملك قلبي ... تصد عن مدنف حزين

وإنما قد طمعت لما ... حللت في موضع حصين

وبنى بالقاهرة دار حديث، ورتب لها وقفا جيدا، وكان قد بنى على ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه قبة عظيمة، ودفن أمه عنده وأجرى إليها الماء من النيل ومدده بعيدا، وأنفق على ذلك مالا عظيما، ولما مات

أخوه الملك المعظم صاحب الشام في التاريخ المذكور في ترجمته، وقام الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصريةقاصدا أخذ دمشق منه، وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى، فاجتمعا على أخذ دمشق بعد فصول جرت يطول شرحها، وملك دمشق في أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين، فلما ملكها دفعها إلى أخيه الملك الأشرف وأخذ عوضها من بلاد الشرق: حران، والرها، وسروج، والرقة، ورأس عين، وتوجه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان المعظم من السنة، واجتزت بحران في شوال سنة ست وعشرين وستمائة والملك الكامل مقيم بها بعسكر الديار المصرية، وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك محاصر خلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصرية ثم تجهز في جيش عظيم وقصد آمد في سنة تسع وعشرين وستمائة فأخذها مع حصن كيفا وتلك البلاد من الملك المسعود ركن الدين مودود ابن الملك الصالح أبي الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود بن نور الدولة سقمان، ويقال سكمان بن أرتق، وقد تقدم ذكر جدهم أرتق.

أخبرني بعض أهل آمد ممن عنده معرفة أن آمد انبرم أمرها وتسلمها الملك الكامل في تاسع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، ودخلها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب في العشرين من الشهر المذكور، ودخلها الكامل في مستهل المحرم سنة ثلاثين وستمائة، ولما مات الملك الأشرف في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في ترجمته جعل ولي عهده أخاه الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، فقصده الملك الكامل وانتزع منه دمشق بعد مصالحة جرت بينهما وذلك في التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأبقى له بعلبك وأعمالها وبصرى وأرض السواد وتلك البلاد، ولما ملك البلاد الشرقية وآمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أبا المظفر أيوب،

واستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية وقد تقدم في ترجمة الملك العادل أنه سير الملك المسعود إلى اليمن وكان أكبر أولاد الملك الكامل، وملك الملك المسعود مكة حرسها الله تعالى وبلاد الحجاز مضافة إلى اليمن، وكان رحيل الملك المسعود عن الديار المصرية متوجها إلى اليمن يوم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستمائة، ودخل مكةشرفها الله تعالى في الثالث من ذي القعدة من السنة، وخطب له بها وحج ودخل زبيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة، ثم ملك مكة شرفها الله تعالى في ربيع الآخر من سنة عشرين وستمائة أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسني، واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال:« مالك مكة وعبيدها واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين» وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود، ولقد رأيته بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عند رجوعه من بلاد الشرق واستنقاذه إياها من يد علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان ابن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب الروم، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها، في خدمته يومئذ بضعة عشر ملكا منهم أخوه الملك الأشرف، ولم يزل في علو شأنه وعظم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق ولم يركب، وكان ينشد في مرضه كثيرا:

يا خليلي خبراني بصدق
كيف طعم الكرى فإني نسيت

ولم يزل كذلك إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن في القلعة بدمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين

وستمائة، وكنت بدمشق يومئذ، وحضرت الصبحة يوم السبت في جامع دمشق لأنهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلما حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش الذي بين يدي المنبر وترحم على الملك الكامل، ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر، وكنت حاضرا في ذلك الموضع فضج الناس ضجة واحدة، وكانوا قد أحسوا بذلك، لكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم، وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق عن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق، ثم بني له تربة مجاورة للجامع ولها شباك إلى الجامع ونقل إليها وكانت ولادته في سنة ست وسبعين وخمسمائة في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول كذا وجدته بخط من يعتني بالتاريخ، والله أعلم.

وتوفي ولده الملك المسعود بمكة شرفها الله تعالى في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة، ومولده في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان بمكة رجل من المجاورين يقال له الشيخ صديق بن بدر بن جناح، من أكراد بلد إربل، وكان من كبار الصالحين، فلما حضرت الملك المسعود الوفاة أوصى أنه إذا مات لايجهز بشيء من ماله بل يسلم إلى الشيخ صديق يجهزه من عنده بما يراه، فلما مات تولى الشيخ صديق أمره وكفنه في إزار كان يحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة،وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته، وكان أوصى أنه لايبنى عليه قبة بل يدفن في جانب المعلى جبانه مكة شرفها الله تعالى، ويكتب على قبره هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى أطسيس بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب، ففعل به ذلك ثم أن عتيقه الصارم قايماز المسعودي الذي تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة.

ولما بلغ الملك الكامل مافعله الشيخ صديق كتب إليه وشكره، فقال:

مافعلت ماأستحق به الشكر، فإن هذا رجل سألني القيام بأمره فساعدته بما يجب على كل أحد القيام به من موارارة الميت، فقيل له: تكتب جواب الملك الكامل فقال: ليس لي إليه حاجة، وكان قد سأله أن يسأله حوائجه كلها فما رد له جوابا، أخبرني بذلك كله من كان حاضرا ويعرف مايقول، والله أعلم.

وأماولده الملك العادل فإنه أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي الحجة سنةتسع وثلاثين وستمائة، فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس وطلبوا أخاه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الصالح قد صالح الملك الجواد على أن أعطاه دمشق، وعوضه عنها سنجار وعانه، وقدم الصالح دمشق متملكا لها في مستهل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة، ثم إن عمه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بعلبك اتفق مع الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أخذ دمشق اغتيالا، وكان الملك الصالح نجم الدين قد خرج منها قاصدا الديار المصرية ليأخذها من أخيه الملك العادل، فلما استقر بنابلس وأقام بها مدة جرت هذه الكائنة في سنة سبع وثلاثين وستمائة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر، فهجما دمشق بعساكرهما وأخذاها وهي قضية مشهورة، فلما أخذا دمشق رجعت العساكر التي كانت مع الصالح نجم الدين إليها ليدرك كل واحد منهم أهله وبنيه، وتركوا الملك الصالح بنابلس وحيدا في نفر قليل من غلمانه وأتباعه، فجاءه الملك الناصر ابن الملك المعظم صاحب الكرك وقبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، ثم إنه أفرج عنه في ليلة السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وشرح ذلك يطول، واجتمع هو والملك الناصر على نابلس، فلما قبض الملك العادل في التاريخ المذكور، طلب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب فجاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك، ودخلا القاهرة في

الساعة الثانية من يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكنت إذ ذاك بالقاهرة، وأدخل أخاه الملك العادل في محفة وحوله جماعة كثيرة من الأجناد يحفظونه، وحمله من خارج البلد إلى القلعة واعتقله عنده في داخل الدار السلطانية، وبسط العدل في الرعية، وأحسن إلى الناس، وأخرج الصدقات ورمم ماتهدم من المساجد، وسيرته طويلة، ثم إنه أخذ دمشق من عمه الملك الصالح في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وأبقى عليه بعلبك، ومضى بعد ذلك إلى الشام في سنة ست وأربعين بعد أن كان عاد إلى مصر، ودخل دمشق في أوائل شعبان من السنة، وسير العساكر لحصار حمص، وقد كان الملك الناصر صاحب حلب أخذها من صاحبها الأشرف ابن صاحب حمص، ثم رجع في أوائل سنة سبع وأربعين وهو مريض، وقصد الفرنج دمياط وهو مقيم بأشموم ينتظر وصولهم، وكان وصولهم إليها يوم الجمعة العشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة، وملكوا بر الجزيرة يوم السبت، وملكوا دمياط يوم الجمعة ثلاثة أيام متوالية لأن العسكر وجميع أهلها تركوها وهربوا منها، وانتقل الملك الصالح من أشموم إلى المنصورة ونزل بها وهو في غاية المرض، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفي هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة، وحمل إلى القلعة الجديدة التي في الجزيرة، وترك بها في مسجد هناك، وأخفي موته مقدار ثلاثة أشهر والخطبة باسمه إلى أن وصل ولده الملك توران شاه من حصن كيفا على البرية إلى المنصورةفعند ذلك أظهروا موته، وخطب لولده المذكور، ثم بعد ذلك بني له بالقاهرة إلى جنب مدارسه تربة ونقل إليها في رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وكانت ولادته في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة هكذا وجدته بخط ابنه مكتوبا، ورأيت في مكان آخر أنه ولد في ليلة الخميس الخامس عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وفي

مكان آخر أنه ولد في الرابع من المحرم سنة أربع وستمائة، والله تعالى أعلم، وأمه جارية مولدة سمراء اسمها ورد المنى رحمه الله تعالى.

وكانت ولادة الملك العادل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة بالمنصورة، ووالده في قبالة العدو على دمياط،وتوفي في الاعتقال يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة بقلعة القاهرة، ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر رحمه الله تعالى.

هذه الفصول ذكرت خلاصتها، ولو فصلتها لطال الشرح، والمقصود الاختصار، وطلب الايجاز مع أني كنت حاضرا أكثر وقائعها.

وكان للملك العادل ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيما بالقلعة، فلما وصل ابن عمه الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة سيره من هناك، ونقله إلى قلعة الشوبك، فلما جرت الكائنة على المعظم أحضر متسلم قلعة الكرك الملك المغيث من الشوبك وسلم إليه الكرك والشوبك وتلك النواحي، وهو الآن ملكها، ولم يزل مالكها إلى سنة إحدى وستين وستمائة، فنزل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس المذكور في ترجمة القاضي مجلي صاحب كتاب الذخائر بالغور، وراسله وبذل له من تسليم البلد بدلا وحلف له، ويقال إنه ورى في اليمين ولم يستقض فيها فنزل إليه إلى منزله بالطور من الغور فقبض عليه ساعة وصوله وجهزه إلى قلعة الجبل بمصر، واعتقله بها، وكان للمغيث ولد ينعت بالعزيز فخر الدين عثمان صغير السن، فأمره الملك الظاهر ولم يزل في خدمته أميرا إلى أن فتح أنطاكية في شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة، وتوجه من الشام بعد ذلك إلى مصر، فلما دخل إليها قبض عليه واعتقله وهو الآن معتقل بقلعة الجبل المذكورة، وهذه قلعة الكرك هي المذكورة في ترجمة القاضي المجلي أيضا، وكان الملك الظاهر يخاف على أولاده فكان يبالغ في تحصين القلعة المذكورة، ويملؤها بالذخائر ووجدها عونا له على زمانه، ولما توفي

الملك السعيد ابـن الملك الظاهر في الكرك كما ذكـرنا في الترجمة المذكورة ملكها بعـده أخوه الملك المسعـود نجم الديـن خضر ابن الملك الظـاهر باتفـاق ممن كـان بها من ممـاليك أبيـه، ومن أمـرائه، وهو الآن متملكهـا مقيم بها، ثـم نزل بالأمـان بعد حصاره فيهـا في مدة الأمير حسام الـدين طربطـر المنصوري كـان نائب المملكة، وتقـدم العساكـر ونزل معـه أخوه الملك العادل سلامش بعد أخيه الملك السعيد، وتوجه إلى الديار المصرية إلى خدمة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي المذكور في تـرجمة القـاضي مجلي في أوائل هـذا الحرف، فـأحسـن السلطـان إليهما، وجعـل الملـك خضرا وأخـاه سـلامـش أميريـن، وأقطعهما الاقطـاعـات الجيـدة، وأسكنهما بقلعـة الجبـل المنصورة واستمـر الأمـر على ذلـك وهما مختلطان بـه في جملة أهلـه ملازمـان للركـوب مع ولـديه السلطـان الملك الصالح علاء الـدين والملك الأشرف صلاح الدين خليـل، ولم يزل الأمر كـذلك إلى سنـة ثمان وثمانين وستمائة فجرى مـن الأمـر مااقتضـى الحال معـه القبض على الأميريـن: نجم الـدين خضر وبـدر الديـن سلامـش المذكورين واعتقالهما بقلعة الجبل، والملك الصالح الملك المنصور المذكور فإنه كان ولي عهـد أبيه وكان حازما شديد الـرأي وتوفي في حياة والده في شهر شعبـان سنة سبع وثمانين وستمائة، ثـم إن والده جعل ولايـة العهد إلى ولده الملـك الأشرف المذكور، وقلـده الملك في شهـر شوال سنـة سبع وثمانين المذكورة، وهو من الملوك المشهـورين بعلو الهمة والسعادة والحزم، وتوفي الملـك المنصور قـلاوون في يوم السبـت من شهـر ذي القعدة سنـة تسـع وثمانين وستمائة في دهليزه بمسجـد التين، وكان قـد خرج على نيـة الغزاة إلى عكـا فعرض لـه مرض فقضـى به نحبـه، وعادت العسـاكر إلى مستقرهـا واستقر ولـده السلطان الملـك الأشرف بالمملكـة يجمع المعـاقل والبلاد، ولم يـر في الملوك أكثـر سعادة منـه ولا أعلى همة، ولاأكرم نفسـا، ولاأكثر وفاء لمن خدمه ولاذ به.

وفي أيام الملك المنصور فتحت طرابلس الشـام يوم الثلاثاء تاسع ربيع

الآخر سنة ثمان وثمانين وستمائة، وكان نازلها بنفسه وعساكره، وفتحها قهرا بالسيف، واستولى القتل والأسر والنهب على أهلها، وملك ماجاورها من قلعة جبيل والبترون وغير ذلك.

ثم إن الملك الأشرف المذكور بعد استقلاله بالملك بمدة يسيرة خرج بنفسه، وجمع عساكره وتوجه إلى عكا فنازلها في يوم الخميس ثالث ربيع الآخر، وكان خروجه من مصر في يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول واجتمع على عكا جميع الناس الجند والمتطوعة وغيرهم من سائر البلاد، ويسر الله فتحها في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنةتسعين وستمائة في مثل الساعة من اليوم من الشهر الذي أخذت فيه من المسلمين إلا أن الشهر كان الأولى، وأخذت من المسلمين في أيام صلاح الدين يوسف ابن أيوب في الآخرة سنة ثمان وخمسين، وإن السلطان الملك الأشرف صلاح الدين أخرج أهلها منها وقتلهم جميعا بالسيف، وكذلك عمل الفرنج بالذي كان فيها من المسلمين لما ملكوها في أيام صلاح الدين، فانظروا إلى هذا الاتفاق العجيب في أمور كثيرة، كما أخذت من صلاح الدين ملكها صلاح الدين ، وقتل المسلمون بها ثم قتل الكافرون بها، وأخذت من المسلمين ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، ثم ملكها المسلمون ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى فسبحان مقدر الأمور، ثم أخوت عزائم الفرنج بأخذ عكا، فهرب من كان ببيروت وعثليت وهما حصنان عظيمان لاتطرق الأوهام إليهما، وملكها المسلمون بحول الله وقوته من غير منازع، وملكوا أيضا بيروت وحيفا، فلم يبق للفرنج من الساحل قلعة ولابلد ولاقرية ولاجزيرة إلا وملك المسلمون ذلك جميعه.

وتوفي المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة والله تعالى أعلم.

-٩٥٥٠-

أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي الملقب مغيث الدين أحد الملوك السلجوقية المشاهير

وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته، وسيأتي ذكر جده وغيره منهم إن شاء الله تعالى، وتقدم طرف من خبره في ترجمة العزيز أبي نصر أحمد بن حامد الأصبهاني عم العماد الكاتب، تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده، وخطب له بمدينة بغداد على جاري عادة الملوك السلجوقية يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة في خلافة المستظهر بالله، وهو يومئذ في سن الحلم، وكان متوقدا ذكاء قوي المعرفة بالعربية، حافظا للأشعار والأمثال، عارفا بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وكان حيص بيص الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها:

ألق الحدائج ترعى الضمر القود
طال السرى وتشكت وخدك البيد
يا ساري الليل لا جدب ولا فرق
فالنبت أغيد والسلطان محمود
قيل تألفت الاضداد خيفته
فالمورد الضنك فيه الشاء والسيد

وهي طويلة من غرر القصائد، وأجازه عليها جائزة سنية، وقد كان تزوج بنتي عمه سنجر المقدم ذكره حسبما شرحناه في ترجمة العزيز الأصبهاني، واحدة بعد الأخرى، وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له يوما بعض صناديق الخزانة حتى باعها، وصرف ثمنها في حاجته، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد ثم خرج منها، فمرض في الطريق واشتد به

المرض وتوفي يوم الخميس خامس شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

وذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه مات خامس عشر شوال سنة أربع وعشرين بباب أصبهان، ودفن بها، وولي السلطنة أخوه طغرلبك، ومات سنة سبع وعشرين، وتولى أخوه مسعود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وابنه محمد شاه بن محمود بن محمد هو الذي حاصر بغداد ومعه زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين صاحب إربل في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة.

وقال شيخنا ابن الاثير في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال ذلك في تاريخه الصغير المعروف بالأتابكي: ومات محمد شاه المذكور في ذي الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وتاريخ وفاة زين الدين المذكور مذكور في ترجمة ولده مظفر الدين صاحب إربل في حرف الكاف، ومات محمد شاه بباب همذان، ومولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر الملقب الملك العادل نور الدين

قد تقدم ذكر أبيه في حرف الزاي، ولما حاصر أبوه قلعة جعبر حسبما تقدم ذكره في ترجمته، كان ولده نور الدين المذكور في خدمته، فلما قتل أبوه سار نور الدين وفي خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني وعساكر الشام إلى مدينة حلب فملكها في ذلك التاريخ، وملك أخوه سيف الدين غازي المذكور في حرف الغين مدينة الموصل وماوالاها من تلك النواحي، ثم إنه نزل على دمشق محاصرا لها وصاحبها يومئذ مجير الدين أبو سعيد أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين، وهو أتابك الملك دقاق بن تتش المقدم ذكره في ترجمة تتش في حرف التاء، وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور وعوض مجير الدين أبق عوضا عن دمشق حمص، ثم أخذها وعوضه عنها بالس فانتقل إليها وأقام بها مدة، ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي، وكان أتابكه معين الدين بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين هناك أيضا،

ثم استولى نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حماة وبعلبك،وهو الذي بنى سورها ومابين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا وتلك الأطراف، وكان فتحه مرعش في ذي القعدة من سنة ثمان وستين وخمسمائة والبهسنا في ذي الحجة من السنة، وافتتح أيضا من بلاد الفرنج حارم، وكان فتحها في أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وفتح عزاز وبانياس وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا، ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه المقدم ذكره إلى مصر ثلاث دفعات، وملكها السلطان صلاح الدين في الدفعة الثالثة نيابة عنه، وضرب باسمه السكة والخطبة، وهي قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها، وسيأتي ذلك في ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى، وكان ملكا عادلا زاهدا عابدا ورعا مستمسكا بالشريعة مائلا إلى

أهـل الخير مجاهـدا في سبيـل الله تعـالى، كثير الصـدقـات بنـى المدارس بجميـع بلاد الشـام الكبـار مثـل دمشق وحلـب وحماة وحمص وبعلبـك ومنبـج والرحبـة، وقـد تقدم ذلـك في ترجمة الشيـخ شرف الـدين بـن أبي عصرون، وبنى بمدينة الموصل الجامع النـوري، ورتب له مايكفيه وبحماة الجامع الذي على ظهر العاصي، وجامع الـرها، وجامع منبج، وبيمارستان دمشـق، ودار الحديـث بها أيضـا، ولـه مـن المناقـب والمآثـر والمفـاخـر مـا يستغرق الـوصف، وكـان بينـه وبين أبي الحسن سنـان بن سليمان بـن محمـد الملقب راشـد الديـن صاحـب قـلاع الاسماعيلية، ومقـدم الفرقـة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية مكاتبات ومحاورات بسبب المجـاورة، فكتب إليـه نـور الديـن في بعـض الأزمنة كتـابـا يتهدده فيـه ويتوعده لسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتا ورسالة وهما:

يـــاذا الـــذي بقـــراع السيـــف هـــددنـــا
لاقـــام مصرع جنبـــي حين تصرعـــه
قـــــام الحمام إلى البــــازي يهدده
واستيقظـــت لأســـود البر أضبعـــه
أضحـــى يســـد فـــم الأفعـــى بـــاصبعـــه
يكفيـــه مـــاقـــد تـــلاقـــي منـــه أصبعـــه

وقفنا على تفاصيلـه وجمله، وعلمنا ماهددنـا به من قولـه وعمله، فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعـوضة تعد في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قـوم آخرون فدمرنا عليهـم وماكان لهم من نـاصرين، أو للحق يدحضـون، وللباطل تنصرون(وسيعلم الـذين ظلموا أي منقلـب ينقلبون) وأمـا ماصـدر مـن قولـك في قطـع رأسي، وقلعك لقـلاعـي من الجبـال الرواسي، فتلـك أماني كاذبة، وخيـالات غير صائبة، فإن الجواهـر لاتزول بالاعراض، كما أن الأرواح لاتضمحل بالأمـراض، كم بين قوي وضعيف، ودني وشريف، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن

والمعقولات، فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله:«ماأوذي نبي ماأوذيت» ولقد علمتم ماجرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ماحال، والأمر مازال ولله الحمد في الأولى والآخرة إذ نحن مظلومون لاظالمون، ومغصوبون لاغاصبون، وإذا جاء الحق (زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، ومايتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت قل (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط، فهيء للبلايا جلبابا، وتدرع للرزايا أثوابا، فلأظهرن عليك منك، ولأغنينهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، «وماذلك على الله بعزيز» وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة، ورأيت في نسخة زيادة على هذا وهي:«فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، وأقرأ أول النحل، وآخر صاد» والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والله أعلم، ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الأبيات الثلاثة وهو:

يا للرجال لأمر هال مفظعه
ما مر قط على سمعي توقعه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه وقد جرت بينهما وحشة:«

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت
بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى
مغارسها منا وفينا حديدها

وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة، وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة احدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بقلعة دمشق بعلة

الخوانيق، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيبا فما روجع، ودفن في بيت بالقلعة كان يلازم الجلوس فيه والمبيت أيضا، ثم نقل إلى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب سوق الخواصين، وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون ان الدعاء عند قبره مستجاب ولقد جربت ذلك فصح رحمه الله تعالى.

وكان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، وليس بوجهه شعر سوى ذقنه، وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، فقام بالأمر من بعده وانتقل من دمشق إلى حلب، ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب، ولم يزل الصالح بها إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة والله أعلم .

وكان مبدأ مرضه في تاسع شهر رجب من السنة المذكورة، وحدث له قولنج في مستهل جمادى الأولى، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس، وتأسفوا عليه لأنه كان محسنا محمود السيرة ودفن في المقام الذي في القلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك، رحمه الله تعالى.

وتوفي مجير الدين أبق المذكور في سنة أربع وستين وخمسمائة ببغداد، ودفن في داره، كذا وجدته في بعض المسودات التي بخطي ، والله أعلم ، ومولده يوم الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ببعلبك، والله تعالى أعلم.

-٩٥٥٦-

أبو الفتح وأبو المظفر مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر أتابك صاحب الموصل الملقب عز الدين

قد تقدم خبر جده وجد أبيه وخبر ولده نور الدين أرسلان شاه وغيرهم من أهل بيته، وسيأتي ذكر أبيه في هذا الحرف إن شاء الله تعالى، ولما توفي والده قام بالملك ولده سيف الدين غازي المقدم ذكره لأنه كان أكبر الأخوة، وكان قد خلف هذين الولدين وعماد الدين زنكي صاحب سنجار المذكور عقيب ترجمة جده عماد الدين زنكي، وكان عز الدين المذكور مقدم الجيوش في أيام أخيه غازي، ولما خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود المقدم ذكره، وأخذ دمشق، وتقدم إلى حلب وحاصرها فخاف غازي منه، وعلم أنه قد استفحل أمره، وعظم شأنه، واستشعر أنه متى استحوذ على الشام تعدى الأمر إليه، فجهز جيشا عظيما، وقدم عز الدين مسعود المذكور، وسار يريد لقاء السلطان وضرب المصاف معه ليرده عن البلاد، فلما بلغ السلطان خروجه رحل عن حلب وذلك في مستهل رجب الفرد سنة سبعين وخمسمائة، وسار إلى حمص وأخذ قلعتها، وكان قد أخذ البلاد في جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد خروجه من دمشق قاصدا حلب، ووصل عز الدين مسعود إلى حلب لينجد ابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب هذا ماكان في الصورة الظاهرة، وفي الباطن كان غرضهم ماذكرناه من خوفهم على بلادهم، فانضم إلى عز الدين مسعود عسكر حلب، وخرج في جمع كثير، ولما عرف السلطان مسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد في أن يصالحوه فلم يفعلوا، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور لايشعرون بها،·فقام المصاف بين العسكرين، وقضى الله تعالى أن انكسر جيش عز الدين وأسر السلطان جماعة من أمرائه، ثم أطلقهم وذلك يوم الأحد التاسع

عشر من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة، ثم سار السلطان عقيب الكسرة إلى حلب ونزل عليها وهي الدفعة الثانية، فصالحه الملك الصالح اسماعيل على أخذ المعرة وكفر طاب وبارين، ثم رحل عنها، وشرح ذلك يطول، وتتمة هذه القضية مذكورة في ترجمة أخيه سيف الدين غازي.

ولما توفي أخوه سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته استقل عز الدين المذكور بالملك من بعده، ولم يزل إلى أن حضرت الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الوفاة في التاريخ المذكور في ترجمة أبيه نور الدين، فأوصى بمملكة حلب وما معها لابن عمه عز الدين مسعود المذكور، واستحلف له الأمراء والأجناد، فلما توفي وبلغ الخبر عز الدين مسعود بادر متوجها إليها خوفا من صلاح الدين أن يسبقه فيأخذها، وكان وصوله إليها في العشرين من شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وصعد القلعة واستولى على مابها من الخزائن والحواصل، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة وأقام إلى سادس عشر شوال، ثم علم إنه لايمكنه حفظ الشام والموصل، وخاف من جانب صلاح الدين، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات وتبسطوا عليه في المطالب، وضاق عنهم عطنه، وكان المستولي على أمره مجاهد الدين قايمازالزيني المقدم ذكره في حرف القاف، فرحل عن حلب وخلف بها مظفر الدين ولده، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل المذكور في حرف الكاف، ولما وصل إلى الرقة لقيه بها أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فقرر معه مقايضة حلب بسنجار، وتحالفا على ذلك وسير عماد الدين من يتسلم حلب، وسير عز الدين من يتسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة صعد عماد الدين إلى قلعة حلب، وكان قد تقرر الصلح بين عزالدين المذكور وابن عمه الملك الصالح وبين صلاح الدين على يد قليج أرسلان صاحب الروم، وصعد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية واستناب بدمشق ابن أخيه عز

الـدين فـروخ شـاه بن شـاهنشـاه بن أيـوب، فلما بلغـه خبر وفاة الملـك الصالح وهذه الأمور المتجددة عـاد إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق في سـابـع عشر صفـر سنـة ثمان وسبعين، وبلغه بها أن رسـول عـز الـديـن مسعود وصل إلى الفـرنج يحثهم على قتال السلطـان ويبعثهم على قصده، فعلم أنـه قد غـدر به ونكـث اليمين، فعزم على قصـد حلب والموصـل، وأخذ في التـأهب للحرب، فبلـغ عماد الديـن صاحب حلـب ذلك فسير إلى أخيه صـاحـب الموصـل يعلمه ذلك ويستـدعي منـه العساكـر، فسار السلطان صـلاح الدين مـن دمشق ونزل على حلـب في ثاني عشر جمادى الأولى سنـة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأقام عليهـا ثلاثـة أيـام ثم رحـل في الحادي والعشريـن من الشهـر، ثـم جاء مظفـر الـدين بـن زيـن الديـن صاحب إربل، وكـان يوم ذلك في خدمة صاحب الموصـل وهو صاحب حـران، وكان قـد استوحـش مـن عز الـديـن مسعود صـاحب الموصـل، وخاف من مجاهـد الدين قايماز الـزيني المذكور في حرف القـاف، فالتجأ إلى السلطـان صلاح الـدين، وقطـع الفـرات وعبر إليه وقـوى عزمـه على قصـد بلاد الجزيـرة وسهـل أمـرها عليـه، فعبر السلطـان صـلاح الديـن الفرات، وأخذ الـرها والرقة ونصيبين وسروج، ثم أشحـن على بلاد الخابور وأقطعهـا، فـأقـام أيـامـا وعلـم أنـه بلـد عظيـم لايتحصـل منـه شيء بالمحـاصرة، وأن طريـق أخذه أخـذ قلاعـه وبلاده وإضعـاف أهله على طول الـزمان، فرحل عنهـا ونزل على سنجار في سادس عشر شعبـان من السنة وأخذها في شهر رمضان المعظم، وأعطـاها لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر المقدم ذكره، وشرح ذلك يطول، وخلاصة الأمر أنه رجع إلى الشام، فكان وصـوله إلى حران في أول ذي القعدة، ثم عـاد إلى منازلة الموصل وكان وصـوله إليها في أول شهر ربيـع الأول سنة إحدى وثمانين، ونزلت إليـه والدة عز الدين ومعها جماعـة من نساء بني أتابـك وابنة نور الدين أرسـلان شاه بن مسعود، وقـد سبق ذكره في حرف الهمـزة، وطلبت منه المصـالحة فردها خـائبة ظنا منـه إلى أن عز الـدين أرسلها عجـزا عن

حفظ الموصل، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك، وبذل أهل الموصل نفوسهم في القتال لكونه رد النساء والولد بالخيبة، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن ابراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده، وطمع فيه من جاوره من الملوك وعزموا على قصده فسير إلى السلطان وأطمعه في خلاط، وقرر معه تسليمها إليه وأن يعوضه عنها مايرضيه، وكانت وفاة شاه أرمن يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، فرحل السلطان صلاح الدين عن الموصل لهذا السبب في العشرين من الشهر المذكور، وتوجه نحو خلاط في مقدمته مظفر الدين، فنزلوا بالطوابة البليدة التي هي بالقرب من خلاط، وسير الرسل إلى بكتمر لتقرير القاعدة فوصلت الرسل إليه وشمس الدين بهلوان بن ألدكز صاحب أذربيجان وأران وعراق العجم قد قرب من خلاط ليحاصرها، فبعث إليه بكتمر يعرفه أنه إن لم يرجع عنه وإلا سلم البلاد إلى السلطان صلاح الدين فصالحه وزوجه ابنته ورجع عنه، وسير بكتمر إلى السلطان صلاح الدين يعتذر عما قاله من تسليم خلاط، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين يحاصرها فقاتلها قتالا شديدا، ثم أخذها عن صلح بالخديعة في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان صاحبها قطب الدين غازي بن ألبي بن تمرتاش بن غازي بن أرتق، فمات وتركها لولده حسام الدين يولق أرسلان وهو طفل صغير فطمع في أخذها من واليها، فأخذها ولما أيس السلطان من خلاط عاد إلى الموصل وهي الدفعة الثالثة، ونزل بعيدا عنها، بموضع يقال له كفر زمار، فأقام به مدة، وكان الحر شديدا فمرض السلطان مرضا شديدا أشفى على الموت، فرحل طالبا حران في مستهل شوال من السنة، ولما علم عز الدين مسعود المذكور بمرض السلطان وأنه رقيق القلب انتهز الفرصة وسير القاضي بهاء الدين بن شداد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الياء، ومعه بهاء الدين الربيب فوصلا إلى حران في الرسالة والتماس الصلح،

فأجاب إلى ذلك، وحلف يوم عرفة من السنة، وقد تماثل الصحة ولم يتغير عن تلك اليمين إلى أن مات رحمه الله تعالى، ثم رحل إلى الشام فأمن حينئذ عز الدين مسعود، وطابت نفسه، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة بعلة الاسهال، وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية فدفن بهذه المدرسة في تربة هي داخلها رحمه الله تعالى، ورأيت المدرسة والتربة وهي من أحسن المدارس والترب، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها وبينهما ساحة كبيرة، ولما مات خلف ولده نور الدين المذكور، وقد تقدم ذكره في حرف الهمزة، ولما مات نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمته خلف ولدين: أحدهما الملك القاهر عز الدين مسعود، والآخر المنصور عماد الدين زنكي، ولما حضرته الوفاة قسم البلاد بينهما فأعطى الملك القاهر، وهو الأكبر الموصل وأعمالها، وأعطى عماد الدين العمادية والعقر وتلك النواحي، فأما الملك القاهر، فكانت ولادته في سنة تسعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي بها فجأة يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة، وكان قد بنى مدرسة أيضا فدفن بها، وأما عماد الدين فإنه أخذ بعد موت أخيه الملك القاهر قلعة العمادية، ثم أخذت منه وهي من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل، وكذلك عدة قلاع مما يجاورها، وانتقل إلى إربل، وكان زوج ابنة مظفر الدين صاحب إربل، فأقام بها زمانا وكنا في جواره، وكان من أحسن الناس صورة، ثم قبض عليه مظفر الدين لأمر يطول شرحه، وسيره إلى سنجار إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فأفرج عنه الملك الأشرف، وعاد إلى إربل وقايضه مظفر الدين عن العقر بشهرزور وأعمالها، فانتقل إليها وأقام بها إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وستمائة، وخلف ولدا أقام بعده قليلا ثم مات رحمهما الله تعالى، ولما مات عز الدين مسعود بن أرسلان شاه خلف ولدين: نور الدين أرسلان شاه، وكان سمي عليا في حياة جده

أرسلان شاه، فلما مات جده نور الدين سموه باسمه، وناصر الدين محمود فتولى بعده نور الدين المذكور وكان تقدير عمره عشر سنين، وبقي بعد أبيه قليلا، وتوفي في بقية السنة، وتولى أخوه بعده ناصر الدين محمود، والمدبر لأمر المملكة بدر الدين لؤلؤ الذي ملك الموصل فيما بعد، وتوفي بهلوان بن ألدكز المذكور في سلخ ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتوفي والده شمس الدين ألدكز الأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتوفي والده شمس الدين ألدكز الأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بنقجوان، ودفن بها رحمه الله تعالى، وكان أتابك السلطان أرسلان شاه بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه بن محمد السلجوقي، وبعد ألدكز بمقدار شهر توفي أرسلان شاه المذكور بهمذان رحمه الله تعالى، وقتل قزل بن ألدكز المذكور في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وكان ملكا كبيرا وهو ابن ألدكز المذكور، رحمهم الله تعالى أجمعين، والله تعالى أعلم بالصواب.

أبو علي المنصور الملقب الآمر بأحكام الله بن المستعلي ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي المذكور قبله

وقد تقدم بقية نسبه، وذكر والده في الأحمدين في حرف الهمزة، وبويع الآمر بالولاية يوم مات أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته، وأقام بتدبير دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش المذكور في حرف الشين، وكان وزير والده، وقد ذكرنا في ترجمته طرفا من أخبار الأمير المذكور، ولما اشتد الآمر وفطن لنفسه قتل الأفضل حسبما تقدم شرحه، واستوزر المأمون أبا عبد الله محمد بن أبي شجاع فاتك البطائحي، فاستولى هذا الوزير عليه وقبح سمعته وأساء سيرته، ولما كثر ذلك منه قبض عليه الآمر أيضا ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، واستصفى جميع أمواله، ثم قتله في رجب سنة إحدى وعشرين وصلب بظاهر القاهرة وقتل معه خمسة من أخوته أحدهم يقال له المؤمن، وكان متكبرا متجبرا خارجا عن طوره وله أخبار مشهورة، وكان الآمر سيء الرأي جائر السيرة مستهتراً متظاهرا باللهو واللعب.

وفي أيامه أخذ الفرنج مدينة عكا في شعبان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، وكان أخذهم لها بالسيف ونهبوا مافيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها وكتب دار علمها وماكان في خزائن أربابها مالايحد ولايحصى، وعوقب من بقي من أهلها واستصفيت أموالهم، ثم وصلتها نجدة المصريين بعد فوات الأمر فيها، وفي هذه السنة ملكوا عرقة، وكان نزولهم عليها أول شعبان من السنة المذكورة، وفيها ملكوا بانياس وفيها تسلموا جبلة بالأمان وتسلموا قلعة تبنين يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ثم تسلموا مدينة صور يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وكان الوالي بها

من جهة الأتابك ظهير الدين طغتكين المذكور في حرف التاء في ترجمة تتش بن ألب أرسلان، وكان يومئذ صاحب دمشق وماوالاها، ولما ملكوا صور ضربوا السكة باسم الآمر المذكور مدة ثلاث سنين، ثم قطعوا ذلك، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ثلاث وخمسمائة بالسيف، وأخذوا صيدا لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسمائة.

وفي أيام الآمر أيضا سنة أربع وخمسمائة وقيل سنة إحدى عشرة والله أعلم قصد بردويل الفرنجي الديار المصرية ليأخذها، وانتهى إلى الفرما ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها، ورحل عنها وهو مريض، فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش، فشق أصحابه بطنه، ورموا حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم، ورحلوا بجثته فدفنوها بقمامة، وسبخة بردويل التي في وسط الرمل على طريق الشام منسوبة الى بردويل المذكور والحجارة الملقاة هناك والناس يقولون هذا قبر بردويل إنما هي هذه الحشوة، وكان بردويل صاحب بيت المقدس وعكا ويافا وعدة بلاد من ساحل الشام، وهو الذي أخذ هذه البلاد المذكورة من المسلمين.

وفي هذه السنة أيضا خرج المهدي محمد بن تومرت المقدم ذكره من مصر، وصاحبها الآمر المذكور إلى بلاد المغرب في زي الفقهاء، وجرى له هناك ماسبق شرحه في ترجمته.

وكانت ولادة الآمر يوم الثلاثاء ثالث عشر محرم سنة تسعين وأربعمائة بالقاهرة، وتولى وعمره خمس سنين، ولما انقضت أيامه خرج من القاهرة صبيحة يوم الثلاثاء ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ونزل إلى مصر وعدى على جسر الجزيرة التي قبالة مصر، فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على قتله في السكة التي يمر فيها إلى فرن هناك، فلما مر بهم وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسيافهم، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عدة

قليلة من غلمانه وبطانته وخاصته وشيعته، فحمل في النيل في زورق، ولم يمت وأدخل القاهرة وهو حي وجيء به إلى القصر فمات من ليلته، ولم يعقب، وهو العاشر من أولاد المهدي عبيد الله القائم بسجلماسه المقدم ذكره، وانتقل الأمر إلى ابن عمه الحافظ عبد المجيد المقدم ذكره رحمهم الله تعالى.

وكان قبيح السيرة ظالما للناس يأخذ أموالهم ويسفك دمائهم، وارتكب المحظورات، واستحسن القبائح فابتهج الناس بقتله، وكان ربعة شديد الأدمة جاحظ العينين حسن الخط والمعرفة والعقل، وأما المأمون ابن البطائحي الوزير المذكور فهو الذي بنى الجامع الأقمر بالقاهرة سنة خمس عشرة وخمسمائة، وكان الأفضل ابن أمير الجيوش قد شرع في عمارة جامع النيل بظاهر مصر عند الرصد المطل على بركة الحبش في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ولم يكمله فأكمله المأمون بعده في مدة وزارته والله أعلم.

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر المعروف بالأعرج صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر طرف من خبره في ترجمة أخيه نور الدين محمود صاحب الشام، وذكر أولاده الثلاثة وهم سيف الدين غازي الذي تولى السلطنة بعده، وعز الدين مسعودوعمادالدين زنكي صاحب سنجار، واستوعبت في ترجمة غازي ماجرى من نور الدين عقيب موت قطب الدين، وأنه قصد الموصل، ثم قرر أمر غازي المذكور فيها ورتب أحوال أولاد أخيه كلهم، وفي تلك السفرة بنى نور الدين الجامع النوري داخل الموصل، وهو مشهور هناك تقام فيه الجمعة، وكان سبب عمارته ماحكاه العماد الأصبهاني في البرق الشامي عند ذكره لوصول نور الدين إلى الموصل أنه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة، وقد أشاعوا عنها ما ينفر القلوب منها وقالوا: ماشرع في عمارتها إلا من ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدولة عمرالملاء وكان من كبار الصالحين بابتناء الخربة، وبنى بها جامعا وأنفق فيها أموالا جزيلة، ووقف على الجامع ضيعة من ضياع الموصل، وكان قطب الدين قد تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد عقيب موت أخيه سيف الدين غازي الأكبر المقدم ذكره أيضا، وكان حسن السيرة عادلاً في حكمه، وفي دولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الأصبهاني المعروف بالجواد المقدم ذكره، وهو الذي قبض عليه حسبما سبق شرحه، وكان مدبر دولته وصاحب رأيه الأمير زين الدين علي كجك، والد مظفر الدين صاحب إربل، وكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده، مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة، وقد تقدم أيضا ذكره في ترجمة ولده مظفر الدين في حرف الكاف، ولم يزل قطب الدين المذكور على سلطنته ونفاذ كلمته إلى أن توفي في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة وقيل في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة.

-٩٥٦٦-

وذكر أسامة بن منقذ في كتاب له صغير ذكر فيه من أدركه في عمره من ملوك البلاد أن قطب الدين المذكور توفي سلخ شهر ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة، وليس بصحيح فإن أخاه نور الدين كان بالموصل في شهر ربيع الآخر، وجاءته رسل الخليفة وهو مخيم على الموصل في الشهر المذكور، ولم يتوجه نور الدين إليها إلا بعد وفاة أخيه قطب الدين، وكانت وفاته بالموصل ومدة عمره أكثر من أربعين سنة بقليل، وخلف عدة أولادة وأكثرهم ملك البلاد، وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجماعة من أهل بيته رحمهم الله كلهم.

أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب الملقب الملك الأشرف مظفر الدين

أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرها سيره إليها والده من الديار المصرية في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ثم أضيفت إليه حران، وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب من يومه لقي نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل المذكور في حرف الهمزة، وكان يوم ذاك من الملوك المشاهير الكبار وتواقعا في مصاف فكسره، وذلك في سنة ستمائة وهي وقعة مشهورة، فلا حاجة إلى تفصيلها، ولما توفي أخوه الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب خلاط وميا فارقين وتلك النواحي، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافة إلى ملكه، وذلك في سنة تسع وستمائة، وكان الملك الأوحد قد ملك خلاط في سنة أربع وستمائة، فاتسعت حينئذ مملكته وبسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحسانا لم يعهدوه ممن كان قبله، وعظم وقعه في قلوب الناس وبعد صيته، وكان قد ملك نصيبين الشرق في سنة ست وستمائة، وأخذ سنجار سنة سبع، وكذلك الخابور، وملك معظم بلاد الجزيرة، وكان يتنقل فيها، وأكثر إقامته بالرقة لكونها على الفرات.

ولما مات ابن عمه الملك الظاهر صاحب حلب في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الغين عزم عز الدين كيكاوس صاحب الروم على حلب، فسير أرباب الأمر بحلب إلى الملك الأشرف وسألوه الوصول إليهم لحفظ البلد فأجابهم إلى سؤالهم وتوجه إليهم ، وأقام بالياروقيه بظاهر حلب مدة ثلاث سنين، وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك الأفضل صاحب سميساط وقائع مشهورة لاحاجة إلى الإطالة في شرحها، ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة ست عشرة وستمائة حسبما شرحناه في ترجمة الملك الكامل توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية لانجاد الملك الكامل، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما، فجاءه

أخوه الملك المعظم المقدم ذكره في حرف العين بنفسه وأرضاه، ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه فصادف عقيب وصوله إليها انتصار المسلمين على الفرنج وانتزاع دمياط من أيديهم، وكانوا يرون ذلك بسبب من غرته.

ولما مات الملك المعظم في التاريخ المذكور في ترجمته، قام بالأمر من بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، فقصده عمه الملك الكامل من الديار المصرية ليأخذ دمشق منه، فاستنجد بعمه الملك الأشرف، وكان يومئذ ببلاد المشرق، فوصل إليه واجتمع به بدمشق، ثم خرج منها متوجها إلى أخيه الملك الكامل واجتمع به، وجرى الاتفاق بينهما على أخذ دمشق من الملك الناصر وتسليمها إلى الملك الأشرف، ويبقى للملك الناصر الكرك والشوبك ونابلس وبيسان وتلك النواحي، وينزل الملك الأشرف عن حران والرها وسروج والرقة ورأس عين ويسلمها إلى الملك الكامل، فاستتب الحال على ذلك ، وتسلم الملك الأشرف دمشق لاستقبال رجب سنة ست وعشرين وستمائة، وانتقل الملك الكامل إلى بلاده التي تسلمها بالشرق ليكشف أحوالها ويرتب أمورها، واجتزت في التاريخ المذكور بحران وهو بها، وانتقل الأشرف إلى دمشق واتخذها دار إقامة وأعرض عن بقية البلاد، ونزل جلال الدين خوارزم شاه على خلاط وحاصرها وضايقها أشد مضايقة وأخذها في سنة ست وعشرين من نواب الملك الأشرف، وهو مقيم بدمشق، ولم يمكنه في ذلك الوقت قصدها للدفع عنها لاعذار كانت له، ثم عقيب ذلك دخل إلى بلاد الروم بالاتفاق مع سلطانها علاء الدين كيقباذ أخي عز الدين كيكاوس المذكور، وتظافرا على قصد خوارزم شاه، وضرب المصاف معه، فإن صاحب الروم أيضاً كان يخاف على بلاده منه لكونه مجاوره، فتوجها نحوه في جيش عظيم من جهة الشام والشرق في خدمة الملك الأشرف وعسكر صاحب الروم، والتقوا بين خلاط وأرزنكان بموضع يقال له باسي حمارة في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة،

وانكسر خوارزم شاه وهي وقعة مشهورة، وعادت خلاط إلى الملك الأشرف وقد خربت، ثم رجع إلى الشام وتوجه إلى الديار المصرية وأقام عند أخيه الملك الكامل مدة، ثم خرج في خدمته قاصدين آمد، ونزلوا عليها وفتحوها في مدة يسيرة ، وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة، وأضافها الملك الكامل إلى مملكته ببلاد الشرق، ورتب فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب المذكور في ترجمة والده، وفي خدمته الطواشي شمس الدين رضوان الخادم العادلي ثم عاد كل واحد إلى بلاده، ثم كانت واقعة ببلاد الروم وهي مشهورة، ورجع الكامل والأشرف ومن معهما من الملوك بغير حصول مقصود، ولما رجعا خرج عسكر صاحب الروم على بلاد الكامل بالشرق فأخذها وأخربها، ثم عاد الكامل والأشرف وأتباعهما ومن معهما من الملوك إلى بلاد الشرق واستنقذوها من نواب صاحب الروم، ثم رجعوا إلى دمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكنت يومئذ بدمشق في تلك السفرة، ورأيت الكامل والأشرف وكانا يركبان معا ويلعبان بالكرة بالميدان الأخضر الكبير كل يوم، وكان شهر رمضان، وكانا يقصدان بذلك تعبير النهار لأجل الصوم، ولقد كنت أرى من تأدب كل واحد منهما مع الآخر شيئاً كثيراً، ثم وقعت بينهما وحشة، وخرج الأشرف عن طاعة الكامل، ووافقته الملوك بأسرها، وتعاهد هو وصاحب الروم وصاحب حلب وصاحب حماه وصاحب حمص وأصحاب الشرق على الخروج على الملك الكامل، ولم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية، فلما تحالفوا وتحزبوا و اتفقوا على الخروج على الملك الكامل، مرض الملك الأشرف مرضا شديداً وتوفي يوم الخميس رابع المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة بدمشق ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى التربة التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالديار المصرية بالقاهرة، وقيل بقلعة الكرك رحمه الله تعالى، هذه خلاصة أحواله، وكان سلطاناً

كريما حليما واسع الصدر كريم الاخلاق، كثير العطاء لايوجد في خزائنه شيء من المال مع اتساع مملكته، ولا تزال عليه الديون للتجار وغيرهم، ولقد رأى يوماً في دواة كاتبه وشاعره الكمال أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن النبيه المصري قلما واحداً فأنكر عليه ذلك، فأنشده في الحال دوبيت

قال الملك الأشرف قولا رشدا
أقلامك ياكمال قلت عددا
جاوبت لعظم كتب ما تطلقه
تحفى فتقط فهي تفنى أبدا

وطرب ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاهي، فقال لصاحب الملهى: تمن علي، فقال تمنيت مدينة خلاط فأعطاها، وكان نائبه بها الأمير حسام الدين المعروف بالحاجب علي بن حماد الموصلي، فتوجه ذلك الشخص إليه ليتسلمها منه فعوضه الحاجب عنها جملة كثيرة من المال وصالحه عنها، وكان له في ذلك غرائب، وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح، ويحسن الاعتقاد فيهم، وبنى بدمشق دار حديث فوّض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين عثمان المعروف بابن الصلاح المقدم ذكره.

وكان بالعقيقة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجاري قد جمع أنواع أسباب الملاذ، ويجرى فيه من الفسوق والفجور ومالاً يحدّ ولا يوصف، فقيل له عنه إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين فهدمه وعمره مسجداً جامعا غرم عليه جملة مستكثرة، وسماه الناس جامع التوبة، كأنه تاب إلي الله تعالى وأناب مما كان فيه، وجرت في خطابته نكتة لطيفة أحببت ذكرها وهي أنه كان بمدرسة ست الشام التي خارج البلد إمام يعرف بالجمال البستي،أعرفه شيخا حسناً، ويقال كان في صباه يلعب بشيء من الملاهي، وهي التي تسمى الجغانة، ولما كبر حسنت طريقته، وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدوداً في الاخيار، فلما

احتاج الجامع المذكور إلى خطيب ذكر للملك الأشرف جماعة وشكر الجمال المذكور، فتولى خطابته، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ، وكان يتهم باستعمال الشراب، وكان صاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب، فكتب إليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زوتينية الرحبي أبياتاً وهي:

يـــا مليكـــا أوضـــح الحــــ
ــــق لـــديـنـــا وأبـــانـــه
جـــامـــع التـــوبـــة قـــد
قلـــدني منـــه أمـــانـــه
قـــال قـــل للملـــك الصـــا
لـــح أعلى الله شـــانـــه
يـــا عماد الـــديـــن يـــا مـــن
حمد النـــاس زمـــانـــه
كـــم إلى كـــم أنـــا في
ضر وبـــؤس وإهـــانـــه
لي خطيـــب واسطـــي
يعشـــق الشرب ديـــانـــه
والـــذي قـــد كـــان مـــن قبـــ
ــــل يغنـــي بجغـــانـــه
فكما نحـــن فما زلـــ
ــــنا ولا أبـــرح حـــانـــه
ردني للنمـــط الأ
ول واستبـــق ضمانـــه

وهذه الأبيات في بابها في غاية الظرف، وكان الرحبي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية في رسالة من عند صاحب حمص، وأنشدني هذه الأبيات وحكى السبب الحامل عليها، وذلك في بعض شهور سنة سبع وأربعين وستمائة.

- ٩٥٧٢ -

ومدح الملك الأشرف أعيان شعراء عصره وخلدوا مدائحه في دواوينهم، فمنهم شرف الدين محمد بن عنين وقد سبق ذكره، والبهاء أحمد النجار وقد سبق ذكره أيضاً والشرف راجح الحلي، وقد ذكرته في ترجمة الملك الظاهر، والكمال بن النبيه المذكور، وكانت وفاته سنة تسع عشرة وستمائة بمدينة نصيبين الشرق، وعمره تقديراً مقدار ستين سنة، كذا أخبرني صهره بالقاهرة، والمهذب محمد بن أبي الحسين بن يمن بن علي بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الحميد الأنصاري، المعروف بابن الاردخل الموصلي الشاعر المشهور، ومولده سنة سبع وسبعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وستمائة بميافارقين رحمه الله تعالى.

- ٩٥٧٣ -

ياروق بن أرسلان التركماني

كان متقدما جليل القدر في قومه، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطىء قويق فوق تل مرتفع هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة وعمائر متسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية وسكنها هو ومن معه وهي إلى اليوم معمورة مسكونة آهلة يتردد إليها أهل حلب في أيام الربيع، ويتنزهون هناك في الخضرة على قويق وهو موضع كثير الانشراح والأنس، وتوفي ياروق المذكور في المحرم عام أربع وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى، هكذا ذكره بهاء الدين المعروف بابن شداد في سيرة السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى.

وياروق بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة، ثم واوساكنة، وفي الآخر قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع، وينقطع في الصيف وقد ذكرته الشعراء في أشعارهم كثيراً خصوصاً أبا عبادة البحتري فإنه كرر ذكره في عدة قصائد فمن ذلك قوله في جملة قصيدة:

يا برق أسفر عن قويق فطرتي
حلب فأعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغة
في كل ناحية ومجنى الآس
أرض إذا استوحشت ثم أتيتها
حشدت عليّ فأكثرت إيناسي (٤)

وبطياس بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها، وبعد الألف سين مهملة، وهي قرية كانت بظاهر حلب،

ودثرت، ولم يبق لها اليوم أثر، وكان صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب رضي الله عنهم قد بنى بها قصراً، وسكنه هو وبنوه وهو بين النيرب والصالحية وهما قريتان في شرق حلب، وكان القصر على الرابية المشرفة على النيرب، ولم يبق منه في هذا الزمان سوى آثار دارسة، هكذا وجدته مضبوطا بخط بعض الفضلاء من أهل حلب، والله تعالى أعلم .

-٩٥٧٥-

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد ابن عتاب الأسدي قاضي حلب المعروف بابن شداد الملقب ببهاء الدين الفقيه الشافعي

توفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم، وكان شداد جده لأمه، وكان يكنى أولا أبا العز، ثم غير كنيته وجعلها أبا المحاسن كما ذكرته، ولد بالموصل ليلة العاشر من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وحفظ بها القرآن الكريم في صغره، ثم قدم الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي المقدم ذكره إلى الموصل فلازمه، وقرأ عليه بالطرق السبع، وأتقن عليه القراءات

قال أبو المحاسن المذكور في بعض تواليفه، أول من أخذت عنه شيخي الحافظ ضياء الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، رحمه الله تعالى، فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة، فقرأت عليه معظم مارواه من كتب القراءات وقراءة القرآن العظيم ورواية الحديث وشروحه والتفسير، حتى كتب لي خطه بذلك وشهد لي بأنه ماقرأ عليه أحد أكثر مما قرأت، وعندي خطه بجميع ما قرأته عليه في قريب من كراسين، وفهرست مارواه جميعه عندي، وأنا أرويه عنه ومما يشتمل عليه الفهرست البخاري، ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث وغالب كتب الأدب وغيره، وآخر روايتي عنه شرح الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام قرأته عليه في مجالس آخرها في العشر الأخير من شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة، قلت: وهي السنة التي مات فيها الشيخ القرطبي حسبما ذكرته في ترجمته.

ثم قال: ومنهم الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن الشيرجي، سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي، وأجازني أن

أروي عنه جميع مارواه على اختلاف أنواع الروايات، وكتب لي خطه بذلك في فهرست سماعي مؤرخاً بخامس جمادى الأولى سنة ست وستين وخمسمائة، وكان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه، ولي قضاء البصرة ودرس بالأتابكية القديمةيعني بالموصل.

ومنهم الشيخ مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب بالموصل، وهو مشهور بالرواية حتى يقصد لها من الآفاق، وعاش نيفاً وتسعين سنة، قلت: وكانت ولادة أبي الفضل /ابن الطوسي الخطيب المذكور في منتصف صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ببغداد بباب المراتب، وتوفي ليلة الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بمقبرة باب الميدان رحمه الله تعالى.

رجعنا إلى تتمة كلام أبي المحاسن بن شداد: وسمعت عليه يعني على الخطيب المذكور كثيرا من مسموعاته وأجاز لي جميع مارواه في السادس والعشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ومنهم القاضي فخر الدين أبو الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري سمعت عليه مسند الشافعي رضي الله عنه، ومسند أبي عوانة ومسند أبي يعلى الموصلي، وسنن أبي داود، وكتب لي خطه بذلك وهو في فهرستي، وسمعت عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي وأجاز لي رواية مارواه، وكتب لي خطه بذلك في شوّال سنة سبع وستين وخمسمائة، ومنهم الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي، وأجاز لي جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه، وفي فهرستي خطه بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وفهرسته عندي بذلك.

قلت: توفي أبو محمد عبد الله الأشيري المذكور في شوّال سنة إحدى وستين وخمسمائة بالشام، ودفن ببعلبك ظاهر باب حمص شمالي البلد.

ومنهم الحافظ سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجياني قرأت عليه صحيح مسلم من أوله إلى آخره بالموصل، والوسيط للواحدي وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فهذه أسماء من حضر في خاطري، وقد سمعت من جماعة لم تحضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب كشهدة الكاتبة في بغداد وأبي الغيث في الحربية، والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية، وجماعة شذت عني طرقهم، فلم أذكرهم إذ كان في هؤلاء غنية.

هذا آخر ما ذكره عن نفسه وقال غيره: إنه قرأ الفقه على أبي البركات عبد الله بن الشيرجي المذكور، فقيه الموصل، وكان عالماً زاهداً متقشفاً وتوفي في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بظاهرها، ثم اشتغل بالخلاف على الضياء بن أبي حازم صاحب محمد ابن يحيى الشهيد النيسابوري، ثم باحث في الخلاف متفنني أصحابه كالفخر النوقاني والبروي والعماد النوقاني والسيف الخواري والعماد المنابجي، ثم انحدر إلى بغداد بعد التأهل التام، ونزل بالمدرسة النظامية وترتب فيها معيدا بعد وصوله إليها بقليل، وأقام معيداً نحو أربع سنين والمدرس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبيد الله بن محمد الشاشي، وكانت ولاية ابن الشاشي المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، وعزل عنها في سلخ شهر رجب سنة تسع وستين وتولاها بعده رضي الله عنه أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزويني في التاريخ المذكور، وأبو المحاسن المذكور مستمر بها على الإعادة، وكان رفيقه في الاعادة السيدمحمدالسلماسي،وقد تقدم ذكره، ثم أصعد إلى الموصل في سنة تسع وتسعين، فترتب مدرسا في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري المقدم ذكره، ولازم الاشتغال، وانتفع به جماعة، وله كتاب في الأقضية سماه ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، ذكر في أوائله أنه حج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام بعد الحج

والزيارة للرسول صلى الله عليه وسلـم، ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكـب، فذكر أنه سمع بوصوله فـاستدعاه إليه فظن أنه يسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الـدين المقدم ذكره، فإنه كان أمير الحاج في تلـك السنة مـن جهة صـلاح الديـن، وقتل على جبـل عرفـات لأمر يطول شرحه وليـس هذا موضع ذكره، فلما دخل عليه ذكـر أنه قابله بـالاكرام التـام، ووما زاد على السؤال عن الطـريـق، ومن كـان فيه مـن مشـايخ العلـم والعمل، وسـأله عـن جـزء من الحديـث ليسمعه عليـه، فأخرج له جـزءاً جمع فيه أذكار البخاري وأنه قرأه عليـه بنفسه، فلما خرج من عنـده تبعه عماد الديـن الكاتب الأصبهـاني وقال له: السلطـان يقول لك إذا عدت من الزيارة وعزمت على العـود فعرفنا بذلك فلنا إليك مهم فأجـابه بالسمع والطـاعة، فلما عاد عـرفه بوصـوله فاستدعـاه وجمع له في تلك المدّة كتـابا يشتمل على فضائل الجهـاد وما أعد الله سبحانـه وتعالى للمجاهـدين يحتـوي على مقدار ثـلاثين كراسـة، فخرج إليـه واجتمع بـه بقلعة حصن الأكراد وقدم له الكتاب الـذي جمعه وقال إنه كان عزم على الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل إذا وصل إليها.

ثم إنه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم ولاه قضاء العسكر والحكـم بالقدس الشريف، ولما كنت متـولي الحكم بدمشـق المحروسة جـاءني في بعض شهور سنـة ست وستين وستمائة اسجـال قد ثبـت مضمـونه عنـد القـاضي أبي المحاسـن المذكور، وهـو يومئذ قـاضي العسكر الصلاحي، وقـد انقطع ثبوتـه بموت شهوده فتعذر إثباتـه عندي لذلك وتأملته إلى آخره لأننـي استغربته، فقد كان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته.

عدنا إلى بقية مـا ذكره أبو المحاسن المذكور فقـال : إنه كان قد حضر إلى خـدمة صـلاح الديـن في صحبة شيـخ الشيـوخ صدر الـدين عبـد الرحيم بن اسماعيـل، والقاضي محيي الدين بن الشهـرزوري لما وصلا إليه

في رسالة، واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس ، كان بمصر في مدرسة منازل العز، وخطيب مصر، وأن صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة المذكورة فلم يفعل، وأنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران، وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ، وذكر أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين، وتحليف بعضهم لبعض، وأن الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب كتب إلى أخيه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه، فأجابه إلى ذلك، فأرسله الظاهر إلى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين بن صلاح الدين، وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك، فلما عاد من هذه الرسالة، كان القاضي بحلب قد مات فعرض عليه فأجاب، هكذا ذكره في كتاب ملجأ الحكام.

وذكر القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم في تاريخه الصغير الذي سماه زبدة الحلب من تاريخ حلب ما مثاله، وفي سنة إحدى وتسعين يعني وخمسمائة اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر، وقدم إليه إلى حلب، وولاه قضاءها ووقوفها وعزل عن قضائها زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي نائب محيي الدين بن الزكي، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشاورة. انتهى كلامه.

قلت: وهذا القاضي نبأ هو ابن الفضل بن سليمان الحميري يعرف بيتهم بدمشق ببيت البانياسي، وكان السلطان صلاح الدين قد ولى القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن الزكي الدمشقي المقدم ذكره القضاء بحلب، فاستناب فيها زين الدين نبأ بن البانياسي المذكور، واستمر بها إلى التاريخ المذكور، وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة

المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان الملك الظاهر قد قرر له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، ولم يكن له خرج كثير فإنه لم يولد له، ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى للشافعية، ورأيت تاريخ عمارتها مكتوبا على سقف مسجده وهو الموضع المعد لإلقاء الدروس، وذلك في سنة احدى وستمائة، ثم عمر في جوارها داراً للحديث النبوي ، وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها، ولها بابان باب إلى المدرسة، وباب إلى دار الحديث وشباكان إلى الجهتين، وهما متقابلان بحيث أن الذي يقف في أحد المكانين يرى من يكون في المكان الآخر، ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد، وحصل بها الاشتغال والاستفادة، وكثر الجمع بها، وكان بين والدي رحمه الله تعالى وبين القاضي أبي المحاسن المذكور موانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من زمن الاشتغال بالموصل، فجئت إليه وكان أخي قد سبقني بمدة قليلة، وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين رحمه الله تعالى، المقدم ذكره في حرف الكاف كتابا بليغاً في حقنا يقول فيه: أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين، وإنهما ولدا أخي، وولدا أخيك ولاحاجة مع هذا إلى تأكيد وصية ، وأطال القول في ذلك، فتفضل القاضي أبو المحاسن وتلقانا بالقبول والإكرام، وأحسن حسب الامكان، وعمل ما يليق بمثله وأنزلنا في مدرسته، ورتب لنا أعلى الوظائف، وألحقنا بالكبار مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال،وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخوله إلى حلب فأغنى عن الاعادة، ولم نزل عنده إلى أن توفي في التاريخ الآتي ذكره، ولم يكن في مدرسته في ذلك الزمان درس عام لأنه كان المدرس بنفسه، وكان قد طعن في السن وضعف عن الحركة وحفظ الدروس والقائها، فرتب أربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الإعادة، والجماعة

يشتغلون عليهم وكنت أنا وأخي نقرأ على الشيخ جمال الدين أبي بكر الماهاني لأنه كان من بلدنا، ورفيق والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين أبي حامد محمدبن يونس المقدم ذكره،فمات في ثالث شوّال سنة سبع وعشرين وستمائة وقد نيف على ثمانين سنة، فترددت إلى الشيخ نجم الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز الموصلي الفقيه الإمام، وهو إذ ذاك مدرس المدرسة السيفية، فقرأت عليه من أول كتاب الوجيز للغزالي إلى الاقرار، وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده لسبب اتصال الكلام.

وكان القاضي أبو المحاسن المذكور بيده حل الأمور وعقدها، لم يكن لأحد معه في الدولة كلام، وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر محمد إبن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين، وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه ومتولي أمور الدولة باشارة القاضي أبي المحاسن لايخرج عنهما شيء من الأمور، وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة، خصوصاً جماعة مدرسته، فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه، وكنا نسمع عليه الحديث ونتردد إليه في داره، وقد كانت له قبة تختص به وهي شتوية لايجلس في الصيف والشتاء إلا فيها لأن الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف لايقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة، وكانت النزلات تعتريه في دماغه فلا يفارق تلك القبة، وفي الشتاء يكون عنده منقل كبير عليه من الفحم والنار شيء كثير، ومع هذا كله لا يزال مزكوما وعليه الفرجية البرطاسي والثياب الكثيرة وتحته الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخينة بحيث كنا نجد عنده الحر والكرب، وهو لايشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف، وكان لايخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ وإذا قام إلى الصلاة بعد التجهد يكاد يسقط، ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة كأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما، وكان عقيب صلاة الجمعة

يسمع المصلون عنده الحديث عليه، وكان يعجبه ذلك، وكان حسن المحاضرة جميل المذاكرة، والأدب غالب عليه، وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه:

إن السلامة من ليلى وجارتها
أن لا تمر على حال بناديها

وكان يتمثل أيضاً كثيرا بقول صردر الشاعر المقدم ذكره في حرف العين، وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة وهو:

وعهودهم بالرمل قد نقضت
وكذاك ما يبنى على الرمل

فأنشده في بعض الأيام فقال له بعض الحاضرين: يا مولانا قد استعمل ابن المعلم العراقي هذا المعنى استعمالا مليحا فقال: ابن المعلم هو أبو الغنائم؟ فقال : نعم فقال: صاحبنا كان، فكيف قال فأنشده:

نقضوا العهود وحق ما يبنى على
رمل اللوى بيد الهوى أن ينقضا

فقال : ما أقصر، ولقد تلطف في قوله: «بيد الهوى» فقال له: يا مولانا، وقد استعمله في قصيدة أخرى، فقال: هات، فأنشده

ولم يبن على الرمل
فكيف انتقض العهد

فاستحسنه.

وكان كثيراً ما ينشد أبيات أبي الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص بيص المقدم ذكره، وكان يقول إنه سمعها منه ويرويها عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة الحيص بيص فأغنى عن الإعادة وأولها:

لا تضع من عظيم قدر وإن كنـ
ـت مشاراً إليه بالتعظيم

وكان يقول: أنشدني القاضي الفاضل لبعضهم ونحن نزول على قلعة صفد:

قلـــــت للنـــــــزلــــــة لما
أن ألمت بلهـــــــــــــــــــاتي
بحيـــــاتي خــــل حلقـــــي
نهر دهليــــــــز حيــــــاتي

قلت: هذان البيتان منسوبان إلى ابن الهبارية المقدم ذكره والله أعلم

وكان كلما نظر إلى نفسه على تلك الحالة من الضعف والعجز عن القيام والقعود والصلاة وسائر الحركات ينشد:

مــــن يتمــــن العمــــر فليـــدرع
صبرا على فقــــــد احبـــــائه
ومــــن يعمــــر يـــــرفي نفســـه
مــــا يتمنـــــاه لأعـــــدائه

ثم وجدت هذين البيتين للظهير أبي اسحق ابراهيم بن نصر بن عسكر قاضي السلامية المقدم ذكره في هذا الكتاب، والله أعلم.ذكر ذلك صاحبنا الكمال بن الشعار الموصلي في كتابه عقود الجمان في ترجمة الظهير المذكور، وهذا ينظر إلى قول أبي العلاء المعري

تــدعــو بطــول العمــر أفــواهنــا
لمن تنـــاهـــى القلـــب في وده
يسر إن مـــدبقـــاء لـــــه
وكـــل مــــا يكـــره في مــــده

والأصل في هذا قول الآخر:

كـــانـــت قنـــاتي لا تلين لغـــامـــز
فـــألانها الإصبـــاح والامســـاء

ودعـــوت ربي بـــالســـلامـــة جـــاهـــداً
ليصحنـــي فـــإذا الســـلامـــة داء

ودخل عليه يوماً رجل من أهل المغرب يقال له: أبو الحجاج يوسف، وكان قريب العهد ببلاده، ورد حلب في تلك الأيام وكان فاضلا في الأدب والحكمة، فلما رآه على تلك الهيئة من الهزال والنحافة أنشده:

لـــو يعلـــم النـــاس مـــا في أن تعيـــش لهم
بكـــوا لأنـــك مـــن ثـــوب الصبـــا عـــاري

ولـــو أطـــاقـــوا انتقـــاصـــا مـــن حيـــاتهم
لما فـــــدوك بشيء غير أعمار

فأعجبه ذلك ودمعت عيناه، وشكر له.

وقال لي بعض أصحابنا: سمعته يوما وهو يحكي للجماعة الحاضرين عنده، قال: لما كنا في المدرسة النظامية ببغداد اتفق أربعة أو خمسة من الفقهاء المشتغلين على استعمال حب البلاذر لأجل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعوا ببعض الأطباء وسألوه عن مقدار ما يستعمل الانسان منه، وكيف يستعمله، ثم اشتروا القدر الذي قال لهم الطبيب الجاهل وشربوه في موضع خارج عن المدرسة، فحصل لهم الجنون، وتفرقوا وتشتتوا ولم يعلم ما جرى عليهم، وبعد أيام جاء إلى المدرسة واحد منهم، وكان طويلاً وهو عريان ليس عليه شيء يستر عورته، وعلى رأسه بقبار كبير له عذبة طويلة خارجة عن العادة، وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه وهو ساكت ساكن عليه السكينة والوقار لا يتكلم ولا يعبث، فقام إليه من كان حاضراً من الفقهاء وسألوه عن الحال فقال لهم: كنا قد اجتمعنا وشربنا حب البلاذر، فأما أصحابي فانهم جنوا وما سلم منهم إلا أنا وحدي وصار يظهر العقل العظيم والسكون وهم يضحكون منه وهو لا يشعر بهم ويعتقد أنه سالم مما أصاب أصحابه، وهو على تلك الحالة لا يفكر فيهم، ولا يلتفت إليهم.

وأخبرني جماعة ممن كانوا عنده قبل وصولنا إليه أنه قدم عليه الأديب نظام الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن مسعود القيسي القرطبي المعروف بابن خروف الشاعر المشهور، فكتب إليه رسالة، وفي أولها أبيات يستجديه فروة قرظ(٥) وهي:

بهاء الدين والدنيا
ونور المجد والحسب

طلبت مخافة الأنوا
ء من نعماك جلد أبي

وفضلك عالم أني
خروف بارع الأدب

حلبت الدهر أشطره
وفي حلب صفا حلبي

ذو الحسب الباهر، والنسب الزاهر، يسحب ذيول سير السرى، ويحب النجاة من أجل الفرا، ويمن على الخروف النبيه بجلد أبيه، قاني الصباغ، قريب عهد بالدباغ، ماضل طالب قرظة ولا ضاع، بل ذاع ثناء صانعه وضاع، أثيث خمائل الصوف، يهزأ من الرياح بكل هو جاء عصوف، إذا ظهر إهابه يخافه البرد ويهابه، مافي الثياب له ضريب، إذا نزل الجليد والضريب، ولا في اللباس له نظير إذا عري من ورقه الغصن النضير، لا كطيلسان ابن حرب، ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، كأنه من جلد حمل الحرباء، الذي يراعي البدر والنجم، لا من جلد السخلة الجرباء، التي ترعى الشجر والنجم، فرجي النوع، أرجي الضوع لتكون تارة لحافا، وتارة بردا وهو في الحالين يحيي حراً، ويميت برداً، لا يزال مهديه سعيداً، ينجز للأولياء ، وعداً، وللأعداء وعيداً، إن شاء الله تعالى والسلام.

قلت: وقد ذكرت في ترجمة أبي الفتح محمد سبط ابن التعاويذي رسالة كتبها إلى عماد الدين الكاتب الأصبهاني المقدم ذكره يطلب فروة قرظ أيضاً، وكل واحدة من الرسالتين بديعة في بابها، وفي هذه الرسالة كلام يحتاج إلى ايضاح، وهو قوله: لا كطيلسان ابن حرب، وهو أن أحمد بن حرب ابن أخي يزيد المهلبي أعطى أبا علي اسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه البصري الحمدوي الشاعر الأديب طيلسانا خليقاً، فعمل فيه الحمدوي مقاطيع عديدة طريفه، سارت عنه وتناقلتها الرواة، فمن ذلك

قوله من أبيات:

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
مل من صحبة الزمان فصدّا
طال تردده إلى الرفو حتى
لو بعثناه وحده لتهدا

وقوله أيضاً من أبيات

لقد حال الف الرفاء حتى كأنه
يحاول منه أن يعلمه الرفوا

وقوله أيضاً:

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
أنحلته الأزمان وهو سقيم
فإذا ما رفوته قال سبحا
نك محيي العظام وهي رميم

وقوله أيضاً:

يا ابن حرب أطلت وتري برفوي
طيلسانا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العر
ض على النار بكرة وعشيا

وله أيضاً:

رأينا طيلسانك يا ابن حرب
يزيد المرء للضعة اتضاعا
إذا الرفاء أصلح منه بعضاً
تداعى بعضه الباقي انصداعا
يسلم صاحبي فيقد شبرا
به وأقد في ردي ذراعا
أجيل الطرف في طرفيه طولا
وعرضا ما أرى إلا رقاعا
فلست أشك أن قد كان دهرا
لنوح في سفينته شراعا
وقد غنيت إن أبصرت منه
بقاياه على كتفي تداعى
ففي قبل التفرق يا اضباعا
ولا يك موقف منك الوداعا

وله فيه أيضاً:
يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
يزرع الرفو فيه وهو سباخ
مات رفاؤه ومات بنوه
وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا

وقال فيه أيضاً، وكتبها إلى بعض الرؤساء:
دعني أبكي كسوتي إذ ودّعت
فلأزمعن على البكاء إذا أزمعت
يا ابن الحسين أما ترى دراعتي
سملا تردت بالبلى وتدرعت

فيها من التمزيق ما لو أنه
مرت بها ريح الصبا لتقشعت
يحكي تخرق طيلساني أنها
منه تعلمت البلى فتضعضعت
لا فرج الرحمن عنه إنه
أعدى ثيابي كلها فتقطعت
فلتحمد الله الجبال فإنها
لو قارنته لخشعت وتصدعت

وقال فيه أيضاً:

طيلسان لو كان لفظاً إذن ما
شك خلق في أنه بهتان
فهو كالطور إذ تجلى له الـ
ـله فدكت قواه والأركان
كم رفوناه إذ تمزق حتى
بقي الرفو وانقضى الطيلسان

وله فيه أيضاً:

يا ابن حرب إني أرى في زوايا
بيتنا مثل ما كسوت جماعة
طيلسان رفوته ورفوت الر
فو منه وقد رقعت رقاعه
فأطاع البلى فصار خليعاً
ليس يعطي الرفاء في الرفو طاعه
فإذا سائل رآني فيه
ظن أني فتى من أهل الصناعة

وله في ذلك أيضاً:

قـــــل لابـــــن حـــــرب طيلســـــا
نـــك قـــوم نـــوح منـــه أحـــدث
هـــــو طيلســـــان لم يـــــزل
عمـــن مضـــى مـــن قبـــل يـــورث
فـــــإذا العيـــــون لحظنـــــه
فكـــأنـــه بـــاللحـــظ يحرث
يـــــودي إذا لم أرفـــــه
فـــإذا رفـــوت فليـــس يلبـــث
كـــالكلـــب أن تحمـــل عليـــ
ـــيه الـــدهـــر أو تتركـــه يلهـــث

ويقال إنه عمـل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع في كـل مقطوع معنى بديـع ، وأما قـوله ولا جلـد عمرو الممـزق بالضرب، فيريـد قول النحـاة ضرب زيـد عمـرا فـإنهم أبـدا يستعملـون هـذا المثـال ولا يمثلـون غيره، فكأنهم يمزقـون جلده لكثرة الضرب، وكان الأصـل الذي حمل الحمدوي المذكور على عمـل هذه المقـاطيع أنه وقـف على أبيات عملهـا أبو حمران السلي ـ بضـم الحاء المهمله ـ في طيلسانـه، وكان قـد أخلق حتـى بلي فقال فيه:

يـــا طيلســـان أبي حمران قـــد بـــرمـــت
منـــك الحيـــاة فما تلتـــذ بـــالعمـــر
في كـــل يـــومين رفـــاء تجدده
هيهـــات ينفـــع تجديـــد مـــع الكبر
إذا ارتـــداه لعيـــد أو لجمعتـــه
تنكـــب النـــاس أن يبلى مـــن النظـــر

وهذا البيت الثالث أخذه من قول النظـام ـ بفتح النون وتشديد الظاء المعجعة ـ أ بي اسحق ابراهيم بن سيـار البلخي المتكلـم المعتز لي ، في وصف غلام رقيق البشرة:

رق فلــــو بــــزت سرابيلــــه
عقلـــه الجو مـــن اللطـــف
تجـــرحـــه النـــاس بـــألحاظهـــم
ويشتكـــي الايماء بـــالكـــف

وأنشدني بعض الأدباء بمدينة الموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة في هذا المعنى لبعض الشعراء:
تـــوهمهـــا طـــرفي فـــأصبـــح خـــدهـــا
وفيـــه مكـــان الـــوهـــم مـــن نظـــري أثـــر
وصـــافحهـــا قلبـــي فـــأدمـــى بنـــانهـــا
فمـــن لمس قلبـــي في انـــاملهـــا عقـــر

وأنشدني الشيخ أيدمر الصوفي السلمي ابراهيم لنفسه دو بيت في هذا المعنى:
كلفـــت صبـــا العـــراق لما خطـــرت
أن تحمـــل لي تحيـــة مـــا قـــدرت
قـــالـــت لي خيفتـــي على وجنتـــه
إن جـــرت بها جـــرحتهـــا فـــاعتـــذرت

ولبعض الادباء الفقراء من جملة أبيات شكا فيها رقة حاله، ورثاثة ثيابه مايقرب من هذا المعنى، وهو قوله:
ولي ثيـــاب رثـــاث لســـت أغسلهـــا
أخـــاف أعصرهـــا تجري مـــع الماء

وقد قيل في هذا المعنى شيء كثير، والاختصار أولى والله أعلم

عدنا إلى ما كنا فيه، وكان القاضي أبو المحاسن المذكور سلك طريق البغاددة في ترتيبهم وأوضاعهم، حتى أنه كان يلبس ملبوسهم، والرؤساء يترددون إليه، وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد

منهم مكان معين لا يتعداه، ثم أنه تجهـز إلى الديار المصرية لاحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العـزيز صاحب حلب، وكان قد عقـد نكاحـه عليها، فسـار في أول سنـة تسع وعشريـن أواخر سنـة ثمان وعشرين وستمائة، وعاد وقد جاء بها في شهر رمضان من السنة، ولماوصل كان قـد استقل الملـك العزيز بنفسـه، ورفعوا عنه الحجـر، ونزل الأتـابك طغرل من القلعـة إلى داره تحت القلعة واستولى على الملك العـزيز جماعة مـن الشباب الـذيـن كانـوا يعـاشرونه ويجالسـونـه، واشتغل بهم، ولم يـر القاضي أبو المحاسـن وجها يرتضيه، فلازم داره إلى حين وفاتـه، وهو باق على الحكم واقطاعه جـار عليه غاية ما في الباب أنه لم يبـق له حديث في الدولة، ولا كانوا يراجعونه في الأمـر، فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين، وظهـر عليه الخوف بحيث أنه صـار إذا جاءه الانسان لا يعرفـه، وإذا قام سأل عنه ولا يعـرفه، واستمر على هذا الحال مـديدة، ثم مـرض أيامـا قلائل، وتـوفي يوم الأربعـاء رابع عشر صفـر سنة اثنتين وثـلاثين وستمائة رحمه الله تعالى بحلـب،ودفـن في التربـة المقدم ذكـرهـا، وحضرت الصلاة عليه، ودفنه وما جرى بعد ذلك.

وصنف كتاب ملجـأ الحكام عند التباس الأحكام يتعلـق بالأقضية في مجلديـن، وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيـه على الأحاديث المستنبـط منها الأحكام في مجلـدين، وكتـاب الموجز الباهـر في الفقه وغير ذلـك، وكتاب سيرة صلاح الديـن بن أيوب رحمه الله تعالى وجعل داره خانقـاه للصوفية لأنه لم يكن له وارث، ولازم الفقهاء والقراء تربتـه مدة طويلة يقرأون عند قبره، وكان قد قرر قدام كل واحد مـن الشباكين المذكورين اللذين للتربة سبعة قـراء، وكان غرضه أن يقـرأ عنده كل ليلـة ختمة كاملة، فكـان كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصـف سبع بعد صلاة العشاء الآخرة، وفـارقت حلـب متوجهـا إلى الديـار المصريـة في الثالـث والعشرين مـن جمادى الآخـرة سنـة خمس وثـلاثين وستمائة والأمـور جـاريـة على هـذه

الأوضاع، ثـم بعد ذلـك تغيرت تلك الأمور وانتقضـت قواعـدها، وزال جميع ذلك على ما بلغني.

وتوفي الشيخ نجم الـدين بن الخباز المذكور في السابـع من ذي الحجة سنـة إحـدى وثـلاثين وستمائة بحلـب، ودفـن بظـاهـرهـا خـارج بـاب الأربعين، وحضرت الصـلاة عليه ودفنـه رحمه الله تعالى، وكـان مولـده في التـاسـع والعشريـن من شهـر ربيـع الأول سنـة سبـع وخمسين وخمسمائة بالموصل، وتوفي الأتابك شهاب الدين طغرل المذكور ليلة الاثنين الحادي عشر مـن محرم سنـة إحـدى وثـلاثين وستمائة بحلـب، ودفـن بمـدرسـة الحنفية خـارج باب الأربعين، وكـان خادمـاً أرمني الجنـس أبيض حسـن السيرة محمود الطريقة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى، وتوفى أبو الحسن بن خروف الأديب المذكور بحلب في سنة أربع وستمائة مترديا في جب، رحمه الله تعالى.

أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والعراقية واليمنية

قد تقدم في هذا الكتاب ذكر أبيه أيوب، وجماعة من أولاده، وعمه أسد الدين شيركوه، وأخيه الملك العادل أبي بكر محمد وجماعة من أولاده وغيرهم من أهل بيته، وصلاح الدين كان واسطة العقد، وشهرته أكثر من أن يحتاج إلى التنبيه عليه.إتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دُوين —بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون —وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وأنهم أكراد روادية، بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مشددة وبعدها هاء ـ والروادية بطن من الهذانية، بفتح الهاء والذال المعجمة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ـ وهي قبيلة كبيرة من الأكراد، وقال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين أن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان ـ بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف، وبعد الألف الثانية نون أخرى ـ وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد أيوب والد صلاح الدين بها وشادي أخذ ولديه منها:أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها وعلى قبره قبة داخل البلد، ولقد تتبعت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شادي أبا آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب، فلم أرفيها سوى شيركوه بن شادي وأيوب بن شادي لاغيره.

وقال لي بعض كبراء بيتهم: هو شادي بن مروان، وقد ذكرت ذلك في ترجمة أيوب وشيركوه، ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن غريب بن عمران الجرشي يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن

عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن نهش بن حارثة ـ صاحب الحمالة ـ بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث ابن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب حتى انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح المتنبي، ويعرف بالخراساني وفيه يقول من جملة قصيدته

شرف الجوّ بالغبار إذا سا
ر علي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم ابن سنان، وفيهما قال زهير بن أبي سلمى المزني قصائد منها قوله:

على مكثريهم حق من يعتريهم
وعند المقلين السماحة والبذل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجة
وتغرس إلا في منابتها النخل

هذا آخر ماذكره في المدرج، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة، والله أعلم. انتهى ما نقلته من المدرج.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك

اليمن إدعى نسباً في بني أمية وإدعى الخلافة، وسمعت شيخنا القاضي بهاء الدين ـ عرف بابن شداد ـ يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال: ليس لهذا أصل أصلاً

قلت: ذكر شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بابن الاثير الجزري صاحب التاريخ الكبير في تاريخه الصغير الذي صنفه للدولة الأتابكية ملوك الموصل في فصل يتعلق بأسد الدين شيركوه ومسيره إلى الديار المصرية فقال: كان أسد الدين شيركوه، ونجم الدين أيوب وهو الأكبر ابنا شادي من بلددوين، وأصلهما من الأكراد الروادية، قدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي شحنة العراق.

قلت: وهذا مجاهد الدين كان خادما روميا أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدّم ذكره، وذكر والده وجماعة من أهل بيته، وكان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة، وعمارة البلاد واسع الصدر والصبر في البذل والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض، وكانت تكريت إقطاعاً له، وكان خادم السلطان محمد والد مسعود المذكور وبنى في بغداد رباطا وقف عليه وقفاً جيداً، ومات يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة أربعين وخمسمائة ـ وبهروز بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي —وهو لفظ عجمي معناه يوم جيد علي التقديم والتأخير على عادة كلام العجم — قال شيخنا ابن الاثير فرأى مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلاً ورأيا حسنا وحسن سيرة فجعله دز دار تكريت إذ هي له ـ قلت: دز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة، وبعد الألف راء ، وهو لفظ عجمي، معناه حافظ القلعة وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ ـ فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه فلما انهزم

أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بالعراق من قراجا ـ قلت: وهي قصة مشهورة ـ وخلاصتها أن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم ذكره، وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الامام المسترشد فأرسل إلى قراجا الساقي واسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به، فأتاه وكبس عسكرهما، وانهزموا ما بين يديه وانكسروا، وذكر في تاريخ الدولة السلجوقية أنها كانت في شهر ربيع الآخر يوم الخميس ثاني عشر الشهر المذكور من سنة ست وعشرين وخمسمائة على تكريت.

وقال أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه: أنه حضر هذه الوقعة مع زنكي في التاريخ المذكور، وذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل والثاني في ترجمة تكريت.

رجعنا إلى ما كنا فيه: فوصل زنكي إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين إليهم وسيرهم، وبلغ ذلك بهروز فسير إليه وأنكر عليه وقال له: كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته، ثم إن أسد الدين شيركوه قتل إنسانا بتكريت لكلام جرى بينهما فأرسل مجاهد الدين إليهما فأخرجهما من تكريت فقصدا عماد الدين زنكي.

قلت: وكان إذ ذاك صاحب الموصل، قال: فأحسن عماد الدين إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطع لهما إقطاعا حسناً، وصارا من جملة جنده، فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، فلما قتل زنكي— قلت: وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته ـ قال: فحصره عسكر دمشق ـ قلت: وكان صاحب دمشق يومئذ مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ابن الاتابك ظهير الدين طغتكين وهو الذي حاصره نور الدين

محمود بن زنكي في دمشق وأخذها منه ـ قال شيخنا ابن الاثير: فأرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وقد قام بالملك بعد والده ينهي إليه الحال، ويطلب منه عسكراً ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه، وهو مشغول بـا صـلاح ملوك الأطراف المجاورين لـه فلم يتفرغ لـه، وضاق الأمر على من في بعلبك من الحصار، فلما رأى نجم الدين أيوب الحال، وخاف أن تؤخذ قهراً أرسل في تسليم القلعة، وطلب اقطاعاً ذكره فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم له القلعة، ووفى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الأقطاع والتقدم، وصار عنده من أكبر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل أبيه زنكي.

قلت: هو نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه نور الدين، وأقطعه، وكان يرى منه في الحروب آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجراءته، فصارت له حمص، والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره .

قلت: ثم خرج شيخنا ابن الاثير بعد هذا إلى حديث سفر أسد الدين إلى الديار المصرية، وما تجدد لهم هناك وليس هذا موضع هذا الفصل، بل نتم حديث صلاح الدين صاحب هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخره إن شاء الله تعالى، ويندرج فيه حديث المملكة وما صار حالهم إليه، وإن كان قد سبق في ترجمة أسد الدين شيركوه طرف من أخبارهم، لكن ما استوفيته هناك اعتمادا على استيفائه ههنا إن شاء الله تعالى.

قلت: اتفق أرباب التواريخ أن صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها، والظاهر أنهم ما

أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين إلا مدة يسيرة لأنه قد سبق القول أن نجم الدين وأسد الدين لما خرجا من تكريت كما شرحناه وصلا إلى عماد الدين زنكي فأكرمهما وأقبل عليهما، ثم إن عماد الدين زنكي قصد حصار دمشق فلم تحصل له فرجع إلى بعلبك فحاصرها أشهراً وملكها في رابع عشر صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، كما ذكر أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها.

وذكر أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي الدمشقي في تاريخه الذي جعله ذيلا على تاريخ أبي الحسين هلال ابن الصابىء أن عماد الدين حاصر بعلبك يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين، ثم ذكر في مستهل سنة أربع وثلاثين ومائة وورود الخبر بفراغ عماد الدين من ترتيب بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها والله أعلم، وإذا كان كذلك فيكونون قد خرجوا من تكريت في بقية سنة اثنتين وثلاثين التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة سنة ثلاث وثلاثين لأنهما أقاما عند عماد الدين بالموصل، ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين كما شرحته فيتعين أن يكون خروجهم من تكريت في المدة المذكورة تقريبا والله أعلم.

قلت: ثم أخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته: هل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال: سمعت جماعة من أهلنا يقولون إنهم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وما تعلمون، فكان كما قال والله أعلم، ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته، وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة ونور الدين يرى له ويؤثره،

ومنه تعلـم صلاح الدين طـرائق الخير، وفعل المعروف والاجتهـاد في أمور الجهـاد حتـى تجهـز للمسير مـع عمه شيركـوه إلى الـديـار المصريـة، كما سنشرحه إن شاء الله تعالى.

ووجدت في بعـض تواريخ المصريين أن شـاور المقدم ذكره هـرب من الديار المصرية من الملك المنصور أبي الأشبـال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري، لما استـولى على الديار المصرية، وقهره وأخذ مكـانه في الوزارة لعادتهم في ذلك وقتل ولـده الأكبر طي بن شـاور، فتوجـه شاور إلى الشـام مستغيثا بـالملـك العادل نـور الديـن أبي القـاسـم محمـود بـن زنكي، وذلـك في شهـر رمضـان سنـة ثمان وخمسين وخمسمائة، ودخل دمشق في الثـالث والعشرين من ذي القعـدة من السنة فوجه معـه نور الدين الأمير أسد الـدين شيركوه بن شـادي في جماعة من عسكره، كان صـلاح الدين في جملتهم في خـدمة عمه، وهو كـاره للسفر معهم، وكـان لنور الـدين في إرسال هـذا الجيش غـرضان أحـدهما قضاء حق شاور لكـونه قصده ودخل عليه مستصرخا، والثـاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنـه كان يبلغه أنها ضعيفة في جهة الجند، وأحـوالها في غاية الاختـلال، فقصـد الكشـف عن حقيقـة ذلـك، وكـان كثير الاعتماد على شيركوه لشجـاعته ومعرفتـه وأمانتـه، فانتدبـه لذلك وجعـل أسد الـدين شيركوه ابن أخيه صـلاح الدين مقدم عسكره، وشاور معهـم فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنـة تسع وخمسين، فـدخلوا مصر، واستـولوا على الأمر في رجب من السنة.

وقال شيخنـا القاضي بهاء الديـن أبو المحاسن يـوسف المعروف بـابن شداد المقدم ذكره في كتابه الـذي وسمه بسيرة صلاح الدين : إنهم دخلوا مصر في ثـاني جمادى الآخـرة سنـة ثمان وخمسين وخمسمائة، والقـول الأول أصح لأن الحافظ أبا طاهر السلفـي ذكر في معجم السفر أن الضرغام بن سـوار قتل في سنـة تسع وخمسين وخمسمائة، وزاد غيره فقـال يوم الجمعـة

الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فيما بين القاهرة ومصر واحتز رأسه وطيف به على رمح وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل، وعمرت عليه قبة.

قلت: والقبة باقية إلى الآن في موضعها تحت الكبش المستحدث بناؤه ورأيت فيها جماعة من الفقراء الجوالقية مقيمين بها، وقد قيل إن الضرغام قتل في رجب سنة تسع وخمسين، وقد اتفقوا أن الضرغام إنما قتل عند وصول أسد الدين شيركوه وشاور إلى مصر فما يمكن أن يكون دخولهم في سنة ثمان وخمسين لأن الضرغام لاخلاف في قتله سنة تسع وخمسين، وأنه كان في أول وصولهم، والحافظ السلفي أخبر بذلك لأنه كان مقيما بالبلاد أول وصولهم، وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه، وهو من أقعد الناس به، ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام، وحصل الشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده، واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه، وحصروه في بلبيس، وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وأنها مملكة بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام، والمحال، فطمع فيها، وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين.

وقال شيخنا ابن شداد: في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين بناء على ما قرره أولا أن دخولهم البلاد كان في سنة ثمان وخمسين وأقام أسد الدين بالشام مدة مفكراً في تدبير عوده إلى مصر محدثا نفسه بالملك لها، مقرراً قواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها، وعلم أن أسد الدين لا بدله من قصدها، فكاتب الفرنج، وقرر معهم أنهم يجيؤون إلى البلاد، ويمكنهم منها تمكينا كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه، وبلغ

نور الدين وأسد الـدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقـرر بينهم، فخافا على الديار المصرية أن يملكـوها، ويملكوا بطريقها جميع البـلاد، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الـدين معه العساكر، وصلاح الدين في خـدمة عمه أسد الدين شيركـوه، وكان توجههم من الشام في شهـر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وكـان وصول أسـد الـدين إلى البـلاد مقـارنـا لوصـول الفرنج إليهـا ، واتفق شاور والمصريون بـأسرهم والفرنج على أسـد الدين وجـرت حروب كثيرة، ووقعـات شـديدة، وانفصـل الفـرنـج عن البـلاد، وانفصل أسـد الدين راجعـاً إلى الشام، وكان سبـب عود الفرنـج أن نور الديـن جرد العساكـر إلى بلادهم وأخذ المنيطـرة منهم في رجب مـن هذه السنة، وعلم الفرنج ذلك فخافـوا على بلادهم، فعادوا إليها، وكان سبب عـود أسـد الـديـن إلى الشـام ضعف عسكـره بسبـب مـواقعـة الفـرنـج والمصريين وما عـاينوه من الشـدائد، وعانوه مـن الأهوال، وما عـاد حتى صالـح الفرنـج على أن ينصرفوا كلهم عـن مصر، وعاد إلى الشـام في بقية السنة وقـد انضاف إلى قوة الطمع في الـديار المصرية شـدة الخوف عليها من الفرنج لعلمـه بأنهم قد كشفوها، كما قد كشفها، وعرفـوها كما عرفها، فأقام بـالشام على مضض وقلبه قلق، والقضـاء يقوده إلى شيء قدر لغيره وهو لا يشعـر بذلـك، وكان عوده في ذي القعـدة من السنـة المذكورة إلى الشام وقيل إنه عاد في ثامن عشر شوّال من السنة والله أعلم.

ورأيت في بعض المسودّات التي بخطي، ولا أعلم مـن أين نقلته، أن أسد الـدين لما طمع في الديـار المصرية توجه إليهـا في سنة اثنتين وستين وسلـك طريـق وادي الغـزلان، وخرج عنـد أطفيح، فكـانـت فيها وقعـة البابين عنـد الأشمونين، وتوجـه صلاح الديـن إلى الاسكندرية، فـاحتمي بها وحاصره شـاور في جمادى الآخرة من السنـة، ثم عـاد أسد الديـن من جهـة الصعيـد إلى بلبيـس، وتم الصلـح بينـه وبين المصريين، وسيروا لـه صلاح الدين فساروا إلى الشام، ثم إن أسد الدين عاد إلى مصر مرة ثالثة.

قال: شيخنا ابن شـداد وكان سبب ذلـك أن الفرنـج جمعوا فـارسهم وراجلهم وخـرجوا يـريدون الديـار المصرية ناكثين لجميـع ما استقـر مع المصريين وأسد الديـن طمعا في البلاد ، فلما بلغ ذلك أسد الـدين ونور الديـن لم يسعهما الصبر دون أن سارعـا إلى قصد البلاد، وأمـا نور الـدين فبالمال والـرجال، ولم يمكنه المسير بنفسـه خوفـا على البلاد من الفـرنج، ولأنه كـان قد حـدث له نظـر إلى جانـب الموصل بسبـب وفاة علي بـن بكتكين.

قلت: هو زيـن الدين والد السلطان مظفـر الدين كوكبـوري صاحب إربل، وقـد تقدم ذكـره في ترجمة ولده كـوكبوري، قـال:فإنـه توفي في ذي الحجـة سنة ثـلاث وستين وخمسمائة وسلم مـا كان في يـده من الحصـون لقطب الدين أتابك ما عدا إربل فإنها كانت له من أتابك زنكي.

وأما أسد الدين فسار بنفسه ومالـه وأخوته وأهله ورجاله، ولقد قال لي السلطان صـلاح الديـن قدس الله روحـه:كنت أكـره الناس للخـروج في هذه الـوقعة وما خرجـت مع عمي باختيـاري، وهذا معنى قولـه تعالى: (عسى أن تكـرهوا شيئاً وهو خير لكـم) ، وكان شـاور لما أحس بخـروج الفرنج إلى مصر على تلك القاعدة سير إلى أسـد الدين شيركوه يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا، وكان وصـوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما علم الفرنج بـوصول أسد الدين إلى مصر على اتفاق بينـه وبين أهلها، رحلوا راجعين على أعقـابهم ناكسين، وأقـام أسد الديـن بها يتردد إليه شاور في الأحيـان، وكان وعـدهم بمال في مقابلـة ما خسروه من النفقة، فلم يـوصل إليهم شيئاً وعلقت مخالب أسـد الدين في البلاد، وعلم أنه متـى وجد الفرنج فرصة أخـذوا البلاد، وأن شاور يلعب به تـارة، وبالفـرنج أخـرى، وملاكهـا وقد كـانوا على البـدعة المشهـورة، وتحقق اسد الدين أنه لاسبيل لاستيـلائه على البلاد مع بقاء شـاور فأجمع رأيه على القبـض عليه إذا خـرج إليه، وكـان الأمراء الـواصلين مع أسـد

الـدين يترددون إلى خـدمة شـاور، وهو يخرج في بعـض الأحيان إلى أسـد الدين يجتمع بـه، وكان يركب على عادة وزرائهم بـالطبل والبوق والعلم، ولم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعـة إلا السلطان بنفسه، وذلك أنه لما سار إليـه تلقاه راكبـا وسار إلى جنبـه،وأخذ بتـلابيبه، وأمـر العسكر بـأن يقصدوا أصحابه ففروا ونهبهم العسكـر فأنزل شاور إلى خيمة مفردة، وفي الحال ورد توقيع على يد خادم خاص مـن جهة المصريين يقول: لابد من رأسه جريـا على عادتهم في وزرائهم فحز رأسـه، وأرسل إليهم وسيروا إلى أسـد الديـن خلـع الوزارة فلبسهـا، وسـار ودخـل القصر ورتب وزيـرا، وذلـك في سابـع عشر ربيع الأول سنـة أربع وستين وخمسمائة، ودام آمـراً وناهيـاً، والسلطان صـلاح الديـن رحمه الله تعالى يبـاشر الأمور مقـرراً لها لمكـان كفايتـه ودرايته وحسـن رأيه وسيـاسته، إلى الثـاني والعشرين مـن جمادى الآخرة من السنة المذكورة فمات أسد الدين.

قلـت: وقد تقـدم حديـث أسد الـديـن وصورة مـوته فـلا حاجـة إلى شرحها هنـا، وكذلك وفـاة شاور، وهذا كله نقلتـه من كلام شيخنـا ابن شداد في سيرة صـلاح الديـن، لكنني أتيت بـالمقصود، وحـذفت البـاقي ورأيت بخطي في جملة مسوداتي أن أسد الديـن دخل القاهرة يوم الأربعاء سـابع شهـر ربيـع الآخرة مـن سنـة أربـع وستين وخمسمائة، وخرج إليـه العاضـد عبد الله العبيـدي آخر ملـوك مصر المقدم ذكـره، وتلقاه وحضر يوم الجمعـة التاسـع من الشهـر إلى الإيوان وجلـس إلى جانـب العاضـد وخلع عليه، وأظهر لـه شاور ودا كثيرا فطلب أسد الدين منـه مالاً ينفقه في عسكره فدافعه، فأرسل إليـه إن الجند تغيرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقـة فإذا خـرجت فكـن على حذر منهـم، فلم يكترث شـاور بكلامـه وعزم على أن يعمـل دعوة يستدعـي إليها أسد الديـن والعساكر الشـامية ويقبض عليهـم فأحـس أسد الديـن بذلـك، فاتفق صـلاح الديـن وعز الـدين جـورديك النـوري وغيرهما على قتل شـاور، وأعلموا أسـد الديـن فنهاهم عنه، وخـرج شاور إلى أسد الدين، وكانت خيـامهم على شاطىء

النيل بالمقس، فلم يجده في خيمته، وكان قد راح إلى زيارة قبر الامام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة، فقال شاور: نمضي إليه فالتقوه فساروا جميعاً فاكتنفه صلاح الدين وجورديك فأنزلاه عن فرسه وكتفوه، فهرب أصحابه فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله بغير إذن، وجعلوه في خيمة ورسموا عليه جماعة، فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه، وسيروا رأسه على رمح إلى العاضد، وذلك يوم السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وقيل إن أسد الدين لم يحضر ذلك بل لما قصد شاور جهة أسد الدين لقيه صلاح الدين وجورديك ومعهما بعض العسكر، فسلم بعضهم على بعض، وساروا ثم فعلا به هذه الفعلة، والله أعلم.

ثم إن العاضد استدعى أسد الدين عقيب قتل شاور، وكان في المخيم، فدخل القاهرة فرأى جمعا كثيراً من العامة فخافهم فقال لهم إن مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور فتفرقوا ومضوا لنهبها، ودخل على العاضد فتلقاه وأفاض عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، ثم إنه مات يوم الأحد لسبع بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعلة الخوانيق، وقيل إنه سم في حلل الوزارة لما خلع عليه، وكانت وفاته بالقاهرة ودفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة السلام، فكانت مدة وزارته شهرين وخمسة أيام، وقيل إن أسد الدين دخل على العاضد يوم الاثنين التاسع عشر من شهر ربيع الآخرة من السنة المذكورة والله أعلم.

قلت: قد تقدم في ترجمة كل واحد من شاور وأسد الدين ذكر شيء من هذه الأمور التي ذكرتها ههنا، وإنما أعدت الكلام فيها لأني استوفيتها ههنا أكثر من هناك، وأيضاً فإن المقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته وما جرى له من أول أمره إلى آخره، فأحببت ذكر ذلك على سياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتر فأقول: ذكر

المؤرخون أن أسـد الدين لما مات استقـرت الأمور بعده للسلطـان صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وتمهـدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضـاع وبذل الأمـوال وملـك قلوب الـرجـال، وهانـت عنـده الدنيـا فملكهـا، وشكـر نعمة الله تعـالى عليـه فتـاب عـن الخمر وأعـرض عـن أسباب اللهـو، وتقمص بقميص الجد والاجتهاد، ومـا زال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات.

قال شيخنا ابن شداد: سمعتـه يقول رحمه الله تعالى: لما يسر الله تعالى لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتـح الساحل لأنه وقع ذلك في نفسي، ومن حين استتـب له الأمر ما زال يشـن الغارات على الفرنـج إلى الكرك والشـوبـك وغيرهما مـن البـلاد، وغشي النـاس مـن سحـائب الافضـال والانعام مالم يؤرخ عن غير تلك الايام، وهـذا كله وهو وزير متابع القوم، لكنـه يقول بمـذهـب أهـل السنة، مـارس في البـلاد أهـل الفقه والعلـم والتصوف والديـن والناس يهرعون إليه مـن كل صوب ويفدون عليـه من كل جـانب وهـو لايخيب قـاصدا، ولا يعـدم وافداً إلى سنـة خمس وستين وخمسمائة، ولما عرف نـور الديـن استقرار السلطـان صلاح الـدين بمصر، أخـذ حمص من نـوّاب أسد الـدين شيركـوه، وذلك في رجـب سنة أربـع وستين.

ولما علم الفرنـج ما جرى من المسلمين وعسـاكرهم، وما تـم للسلطان مـن استقامـة الأمر بـالديـار المصرية علمـوا أنه يملـك بلادهـم ويخرب ديارهـم، ويقلع آثـارهم لما حدث لـه من القوة والملـك، واجتمع الفـرنج والـروم جميعاً، وقصـدوا الـديار المصريـة، فقصـدوا دمياط، ومعهـم آلات الحصار ومـا يحتاجون إليـه من العدد، ولما سمع فـرنج الشام ذلـك اشتد أمرهـم فسرقوا حصـن عكار مـن المسلمين وأسروا صاحبـه، وكان مملـوكاً لنور الـدين يقـال له خطلخ العلـم دار، وذلك في شهـر ربيع الآخـر من سنة خمس وستين، ولما رأى نـور الدين ظهـور الفرنج ونـزولهم على دمياط

قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية، وكانت وفاته بحلب في شهر رمضان سنة خمس وستين، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي اخربت كثيرا من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوّال منها، فسار يطلب حلب، فبلغه خبر موت أخيه قطب الدين بالموصل.

قلت: وقد ذكرت ذلك في ترجمته واسمه مودود.

قال: وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل، ولما بلغ صلاح الدين قصد الفرنج دمياط استعد له بتجهيز الرجال وجمع الآلات إليها ووعدهم بالامداد بالرجال إن نزلوا عليهم وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً، لايرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها، وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله تعالى المسلمين به وبحسن تدبيره فرحلوا عنها خائبين فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل من رجالهم خلق كثير،واستقرت قواعد صلاح الدين، وسير يطلب والده نجم الدين أيوب ليتم له السرور، وتكون قصتة مشاكله لقصة يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده إليه في جمادى الآخرة من سنة خمس وستين.

قلت: هكذا ذكر ابن شداد في تاريخ وصوله إلى مصر، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته، وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه، وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كفؤ له، ولا ينبغي أن تغير موضع السعادة فحكمه في الخزائن كلها، ولم يزل وزيراً حتى مات العاضد في التاريخ المقدم ذكره.

قلت: أكثر ماذكرته في هذا الفصل منقول من كلام شيخنا ابن شداد في سيرة صلاح الدين، وفيه زوائد من غير ها، والذي ذكره شيخنا الحافظ عز الدين بن الأثير المذكور قبل هذا في تاريخه الأتابكي أن كيفية ولاية صلاح الدين: أن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، يعني بعد موت أسد الدين، منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن بليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل.

قلت: وهو صاحب المدرسة القطبية التي بالقاهرة، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري،جده كان صاحب القلاع الهكارية.

قلت: هو المعروف بالمشطوب والد عماد الدين أحمد بن المشطوب، وتقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين ، وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه، وقد جمعها ليغالب عليها، فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين والقصة مشهورة،أردت عمرا وأراد الله خارجة(٦).

قلت: هذا المثل مشهور بين العلماء وسيأتي الكلام عليه بعد الفراغ من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى.

عدنا إلى تمام الكلام الأول فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن

هذا المقام فلزمه وأخذه كارهاً، إن الله تعالى يعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه .

قلت: وقد سبق ذكره في ترجمة مفردة، وقال ابن الاثير: فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه ولم يصل إليك، فلم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه، ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ووعده وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين، وعدل أيضا إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم ينفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبدا، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه، وقد فات الأمر (ليقضي الله أمراً كان مفعولا) وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير إلا سفهسلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيما أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال

الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد فكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

قال ابن الأثير في تاريخه الكبير: قد اعتبرت التواريخ، ورأيت كثيراً من التواريخ الاسلامية، فرأيت كثيراً ممن يبتديء الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه منهم في أول الاسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك عن اعقابه إلى بني مروان من بني عمه، ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد فيهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه، ثم يعقوب الصفار، وهو أول من ملك من أهل بيته وانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو، وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته، ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه معز الدولة وركن الدولة، ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرلبك، ثمم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ، ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب، ولو لا خوف الاطالة لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولته يكثر القتل فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به، لهذا يحرم الله أعقابه ويفعل ذلك لاجلهم عقوبة له.

نعود إلى ذكر صلاح الدين: وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر، وفيهم أخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب.

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له نور الدين:إن كنت تسير إلى مصر وتنظر

إلى أخيك أنـه يوسـف الذي كان يقـوم في خدمتك، وأنـت قاعـد ، فلا تسر فـإنك تفسـد البـلاد، وأحضرك حينئـذ وأعاقبـك بما تستحقـه، وإن كنـت تنظر إليـه أنه صـاحب مصر، وقـائم مقامـي، وتخدمه بنفسـك كما تخدمني فسر إليه، واشـدد أزره وساعده على ما هو بصـدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطـاعة ما يتصل بك إن شاء الله تعـالى، فكان معه كما قال.

ثم قال شيخنـا ابن الأثير بعد هذا بأوراق، في فصل يتعلـق بانقراض الـدولة المصريـة وإقامـة الدولـة العباسيـة، فقال: في المحـرم سنة سبـع وستين وخمسمائة قطعـت خطبة العـاضـد صـاحب مصر، وخطـب فيهـا للإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وكـان السبب في ذلك أن صلاح الـدين يـوسـف بـن أيوب لما ثبـت قـدمـه في مصر، وأزال المخالفين لـه وضعف أمر العاضد، ولم يبق من العسـاكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نـور الدين محمود يـأمره بقطع الخطبة العـاضدية، وإقامـة الخطبة العباسية، فاعتـذر صلاح الدين بالخوف من وثـوب أهل مصر، وامتناعهم من الاجـابة إلى ذلك لميلهـم إلى دولة المصرين، فلـم يصغ نور الـدين إلى قوله، وأرسـل إليه يلزمه بذلك إلـزاماً لافسحة له فيه، واتفـق أن العاضد مرض، وكـان صلاح الـدين قد عـزم على قطع الخطبـة، فاستشـار أمراءه كيف الابتـداء بالخطبة العبـاسية، فمنهم مـن أقدم على المساعـدة وأشار بها، ومنهم مـن خاف ذلك إلا أنـه لم يمكنه إلا امتثـال أمر نور الـدين، وكان قـد دخل إلى مصر رجـل عجمي يعرف بـالأمير العالم، وقـد رأيناه بالموصـل كثيراً، فلما رأى ما هـم فيه من الاحجـام قال: أنـا أبتدىء بها، فلما كان أول جمعة مـن المحرم صعد المنبر قبل الخطيـب ودعا للمستضيء بأمـر الله تعالى فلم ينكـر أحد ذلك، فلما كان الجمعـة الثالثة أمـر صلاح الـدين الخطبـاء بمصر والقـاهرة بقطـع خطبـة العاضـد وإقـامة الخطبـة للمستضيء بأمـر الله ففعلوا ذلـك، ولم ينتطح فيها عنـزان، وكتب بـذلك إلى سائر الديار المصرية، وكان العاضد قـد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله

وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره وجميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه،

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمته أيضاً ، قال: وجعله كأستاذ دار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في إيوان بالقصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان فيه من العبيد والإماء فأعتق البعض، ووهب البعض ، وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره مر الأيام وتعاقب الدهور، ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين فظن أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

وكان ابتداء الدولة العبيدية بإفريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين، وأول من ظهر منهم المهدي أبو محمد عبيد الله، وبنى المهدية وملك إفريقية كلها —قلت: هكذا ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخ استيلاء المهدي عبيد الله على إفريقية، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته فيكشف منه— ثم إنه قال: ولما مات المهدي عبيد الله قام بالأمر بعده ولده القائم أبو القاسم محمد، ثم ذكرهم واحداً واحداً حتى انتهى إلى العاضد المذكور فقال: وانقرضت دولتهم، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثماني سنين، وملك منهم أربعة عشر، وهم المهدي، والقائم، والمنصور والمعز، والعزيز والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد آخرهم.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من هؤلاء في ترجمة مستقلة في هذا الكتاب فمن اختار الوقوف على أحوالهم فليطلبه في اسمه ولاحاجة إلى ذكره ههنا، قال: شيخنا ابن الأثير: وقد أتينا على ذكر ما أجملنا مستقصى في التاريخ الكبير، يعني كتابه الذي سماه الكامل، وهو مشهور، ومن أنفع الكتب في بابه، قال: ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله ما أراد، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين، وممر الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قصبة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة، والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد، ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل نور الدين إليه يعرفه ذلك فحل عنده أعظم محل وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراما له ، لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك أيضاً سير خلعا لصلاح الدين إلاّ أنها أقل من خلع نور الدين، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر وكانت هذه أول أهبة عباسية قد دخلت مصر بعد استيلاء العبيديين عليها، انتهى ما قاله شيخنا ابن الأثير.

قلت: ولما وصل الخبر إلى الامام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن الامام المستنجد، وهو والد الامام الناصر لدين الله بها تجدد من أمر مصر، وعود الخطبة والسكة بهاباسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة، نظم أبو الفتح محمد سبط ابن التعاويذي المقدم ذكره قصيدة طنانة، مدح بها الامام المستضيء، وذكر هذه الفتوح المتجددة، وفتوح بلاد اليمن أيضا، وهلاك الخارجي بها الذي سمى نفسه المهدي، وذلك في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئاً كثيراً وأولها:

قــــل للسحــــاب إذا مرتـــــــه يــــد الجنــــائب فــــارحجــــن
عج باللوى فاسمح بدمــــــعك للمعــــاهــــد والــــدمــــن
يــــا منــــزل الانــــس الجميـــــــع وملعــــب الحي الاغــــن
سكنــــت بــــك الآرام مــــن بعــــد الاحبــــة والسكــــن
أيــــن استقلــــت بالحبيـــــب ركــــابــه ومتــــى ظعــــن
شــــوقــــي إلى زمــــن الحمــــى سقــــى الغــــوادي مــــن زمــــن
شــــوقــــي المغــــرّب شرد تــــه العبــــاد عــــن الــــوطــــن
ولقــــد عهــــد تــــك والــــزمــــا ن يشملنــــا بــــك مــــا قطــــن

وتــــراك مــــا اغبرت مســــا رحــــه ومــــاؤك مــــا أجــــن
وظبــــاؤك الاتــــراب لي وطــــر وتــــربــــك لي وطــــن
لام العــــذول ومــــادرى وجــــدي وبلبــــالي بمــــن
وجــــدي بمــــن فضــــح القضيـــــب وأخجــــل الــــرشــــا الأغــــن
مــــاضر مــــن هــــو فتننــــي لــــو كــــان يــــرحــــم مــــافتــــن
دمعــــي طليــــق في محبـــــته وقلبــــي مــــرتهن

يـــــا محتشـــــي أودى الصـــــدو
دلعــــاشـــق بـــــك ممتحـــــن
غـــــادرتــــه وقفــــا على الــــــ
ـــــعبرات بعـــــــدك والحزن
كـــــان الفــــؤاد معـــــذبـــــا
بين الاقـــــامـــــة والظعـــــن
عطفـــــا على قـــــرح الجفـــــو
ن بعيـــد عهـــد بـــالـــوســـن
لاتبخلي فـــــالبخـــــل يـــــذ
هـــب بهجـــة الـــوجـــه الحســـن
ولـــــرب ليـــــل بيـــــث فيـــــ
ـــه صريـــــع بـــــاطيـــة ودن
لكننـــــي كفـــــرت لــــــ
ـــيلة زرتـــه عنـــي وعـــن
بمـــــدائحـــــي للمستضيء
أبي محمـــــد الحســـــن
المستقـــــر مـــــن الخلا
فـــة في الشـــواهـــق والقنـــن
يـــــا جـــار يـــافي العـــدل مـــن
سنـــن النبـــي على سنـــن
يـــــا جـــامعـــا خلـــق النبـــو
ة والخلافـــــة في قـــــرن
دانـــــت لهيبتـــــك المـا
لـــك والمعـــاقـــل والمدن
بـــا لمشرفيـــات الصـــوا
رم والمثقفـــة اللـــدن
وأتتـــك أســـلاب الملـــو
ك مـــن الصعيـــد إلى عـــدن
سلـــب الـــدعـــي بـــأرض مصـــ
ـــر والمضلـــل في اليمـــن

ممـــــا اقتنـــــاه ذو رعـــــ
ـــين في القـــديـــم وذو يـــزن
وشفيـــت منهـــم بـــالظبـــا
تلـــك الضغـــائن والأحـــن
لم تغـــن عنهـــم حين رعـــ
ـــتهم الحصـــون ولا الجنـــن
أمســـت سبـــايـــاهـــم تقـــا
د أذلـــة قـــود البـــدن
غـــادرت عـــرض بـــلادهـــم
عـــرض النـــوائب والمحـــن
في كـــل يـــوم مـــن جيـــو
شـــك غـــارة فيهـــا تشـــن
وأعـــــدت سر الأوليـــــا
ء المؤمنين بها علـــــن
ورحضـــت مـــا أبقتـــه آ
ثـــار الخوارج مـــن درن
فكـــأن دعـــوتهم على
تلـــك المنـــابـــر لم تكـــن (٧)

وهي طويلة فنقتصر منها على هـذا القدر ففيه كفـاية، ومدحـه أيضاً بقصيدة أخرى أشار فيهـا إلى هذا المعنى وليس على خـاطري مـن هذه القصيدة سوى غـزلها فأحببت ذكره لكونـه في غاية الحسن واللطـافة وهو قوله:

أهـــلا بطلعـــة غـــادة
فضـــح الـــدجـــى بضيـــائهـــا
سمـــح الـــزمـــان بـــوصلهـــا
فـــدنـــت على عـــدوائهـــا
بـــاتـــت تعـــاطينـــي المدا
م وكنـــت مـــن أكفـــائهـــا

فسكرت من ألحاظها
وغنيت من صهبائها
بيضاء قتلي دأبها
في نأيها وثوائها
فإذا رنت بجفونها
وإذا نأت بجفائها
لا تلتقي أبدا موا
عدها بيوم وفائها
الشمس من ضراتها
والبدر من رقبائها
والصبح فوق لثامها
والليل تحت ردائها
مضرية تتمسى إذا انـ
ـتسبت إلى حمرائها
باتت وأطراف الرما
ح تجول حول خبائها
فالموت دون فراقها
والموت دون لقائها
ولقد مررت بربعها
بعد النوى وفنائها
والعين في الأطلال سا
كبة على أطلالها
فوقفت أنشد في مطا
لعها بدور سمائها
وبكيت حتى كدت أعـ
ـطف بانتي جرعائها
يا موحش العين التي
أنست بطول بكائها

غـــــادرت بين جـــــوانحـــــي
نفســـــا تموت بــــــدائهـــــا
تشتـــــــاق عينـــــــي أن تـــــرا
ك وأنـــــت مــــن ســــودائهــــا
وإذا بخلــــــــت بنظــــــــرة
سمحـــــت بجمـــــة مــــائهــــا
فسكـــــانها كـــــف الخليـــــــ
ــــفة أسبلــــت بعطـــــائهـــــا(٨)

وبعد هـذا شرع في المديح وأبدع فيها جميعهـا، وسأذكر بعد هـذا عند أواخر هذه الترجمة شيئاً من مدائحه في صلاح الديـن إن شاء الله تعالى، فقد كـان يسير قصائده إليه من بغـداد فتصل أولا إلى القاضي الفـاضل، ومعها مـديح للفـاضل، وهـو الذي يعـرض قصائده على صـلاح الديـن رحمه الله تعالى.

ثم ذكر شيخنا ابن الأثير بعد هـذا فصلا يتضمن حصول الوحشة بين نور الدين وصـلاح الدين باطناً فقال: وفي سنـة سبع وستين أيضاً حدث ما أوجب نفرة نور الدين عن صـلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الـدين يأمره بجمع العساكـر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنـج والنزول على الكـرك ومحاصرته ليجمـع أيضاً هـو عساكـره ويسير إليـه، ويجتمعان هنـاك على حرب الفـرنج والاستيـلاء على بلادهـم، فبرز صلاح الديـن من القاهرة في العشريـن من المحرم، وكتب إلى نـور الدين يعرفه أن رحيلـه لا يتأخر، وكان نور الـدين قد جمع عساكـره وتجهز، وأقام ينتظـر ورود الخبر من صـلاح الديـن بـرحيله ليرحـل هو، فلما أتـاه الخبر بذلك رحـل من دمشق عازما على قصـد الكرك، فوصل إليـه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليـه، فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الـوصول باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعـض شيعة العلويين، وأنهم عازمون على الـوثوب بها، وأنـه يخاف عليها مـع البعـد عنها أن يقـوم أهلها على مـن

تخلف بهاء فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه، وتغير عليه، وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين —قلت: وقد تقدم ذكره أيضاً في ترجمة مستقلة —وقال: إذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وعقل وقال لتقي الدين: اقعد وسبه وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فكيف يكون غيرنا، وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، وإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب إليه كتاباً وتقول: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا ، يرسل المولى نجابا يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك فما ههنا من يمتنع عليك، وقال لجماعته كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريده فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر، ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على سرك وما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه، وأولا ها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحداً

من هـذا العسكر، وكـانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هـذا المجلس فسيكتبون إليه، ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل إليه في المعنى، وتقول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واستعمل ما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن، والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب، وتوفي نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وهذا كان من أحسن الآراء، وأجودها. انتهى ماذكره ابن الاثير.

وقال شيخنا ابن شداد في السيرة: لم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الاحسان وإفاضة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة، فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكرك والشوبك وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لايمكن أن تعبر قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها فحاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات وعاد ولم يظفر منها بشيء، فلما عاد بلغه خبروفاة والده نجم الدين أيوب قبل وصوله إليه.

قلت: وقد ذكرت تاريخ وفاته في ترجمته، قال: ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوّة عسكره، وكثرة عدده، وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي، فسير أخاه توران شاه إليه فقتله وأخذ البلاد منه، وقد بسطت القول في ذلك في ترجمته، ثم توفي نور الدين في سنة تسع وستين حسبما شرحته في ترجمته فلا حاجة إلى إعادته.

وبلغ صلاح الـدين أن إنسانا يقـال له الكنز جمع بأسـوان خلقا كثيراً من السـودان، وزعم أنـه يعيد الدولـة المصرية، وكـان أهل مصر يـؤثرون عـودهم فـإنضافـوا إلى الكنز المذكـور، فجهز صـلاح الديـن إليه جيشـاً كثيفاً، وجعل مقدمه أخاه الملك العـادل وساروا فالتقوا وكسروهم، وذلك في السابـع من صفـر سنة سبعين وخمسمائة، واستقرت لـه قواعـد الملك، وكان نور الدين رحمه الله قد خلف ولـده الملك الصالح اسماعيل المذكور في ترجمة أبيـه، وكان بـدمشق عند وفـاة أبيه، وكـان بقلعة حلـب شمس الدين علي بن الداية وشاذبخت، وكان ابـن الداية قد حدّث نفسه بأمور فسار الملك الصالـح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظـاهرها في المحرم من سنـة سبعين ومعه سابـق الدين فخـرج بدر الديـن حسن بن الـداية فقبـض على سابـق الـدين ولما دخـل الملك الصـالـح القلعة قبـض على شمس الـدين وأخيه حسن المذكـور، وأودع الثلاثة في السجـن وفي ذلك اليوم قتل أبو الفضل ابن الخشاب لفتنة جرت بحلب، وقيل بل قتل قبل قبض أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا تدبير ذلك.

ثم إن صلاح الديـن بعد وفاة نور الدين علم أن ولـده الملك الصالح صبي لايستقل بالأمر ولا ينهض بأعبـاء الملك، واختلت الأحوال بالشام، وكاتـب شمس الـدين المقدم ذكـره صلاح الـدين، فتجهـز من مصر في جيش كثيف وترك بها مـن يحفظها وقصد دمشق مظهراً أنه يتـولى مصالح الملك الصالـح، فدخلها بالتسليم في يـوم الثلاثاء سلخ ربيـع الآخر سنة سبعين وخمسمائة، وتسلم قلعتهـا، وكان أول دخولـه دار أبيه، قلـت:وهي الدار المعـروفة بالشريـف العقيقي، وهي اليوم في قبـالة المدرسة العـادلية مشهورة هنـاك بالعقيقي، قـال: واجتمع الناس إليـه وفرحوا بـه وأنفق في ذلك اليوم مـالاً جزيلاً، وأظهر السرور بالدمشقيين، وصعـد القلعة وسار إلى حلـب، فنازل حمص وأخـذ مـدينتهـا في جمادى الأولى من السنـة ولم يشتغل بقلعتها وتوجه إلى حلـب ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى مـن السنة، وهـي الوقعـة الأولى، ثم إن سيـف الـدين غـازي بن قطـب

الديـن مودود بن عماد الـدين زنكي صـاحب الموصل لما أحـس بما جرى علـم أن الرجـل قـد استفحل أمـره وعظـم شأنـه، وخـاف إن غفل عنـه استحوذ على البـلاد واستقرت قـدمه في الملـك وتعدى الأمـر إليه فـأنفذ عسكراً وافراً وجيشـاً عظيماً وقدم عليه أخاه عـز الدين مسعود بـن قطب الديـن مودود، وسـاروا يريـدون لقاءه ليردوه عـن البلاد، فلما بلـغ صلاح الدين ذلـك رحل عن حلب في مستهل رجب مـن السنة عائداً إلى حماه، ورجع إلى حمص فأخـذ قلعتها ووصل عز الدين مسعـود إلى حلب وأخذ معه عسكر ابن عمه الملك الصالح بن نـور الدين صاحب حلب يومئذ، وخـرجوا في جمع عظيـم، فلما عرف صـلاح الـدين بمسيرهـم سار حتـى وافاهم على قرون حماه، وراسلـوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نـالوا به غرضهم، والقضـاء يجر إلى أمور وهـم بها لايشعرون، فتـلاقوا فقضـى الله تعالى أن انكسروا بين يـديه، وأسر جماعـة منهم فمـنّ عليهم، وذلـك في تاسع شهـر رمضان مـن السنة عنـد قرون حماه، ثـم سـار عقيب كسرتهم، ونـزل على حلـب وهـي الـوقعة الثـانيـة فصالحوه على أخذ المعرة وكفر طاب وماردين، ولما جرت هذه الوقعة كان سيف الدين غازي يحاصر أخاه عماد الديـن زنكي صاحب سنجار وعزم على أخذهـا منه لأنه كـان قد انتمى إلى صلاح الـدين، وكان قـد قارب أخذها، فلما بلغه الخبر أن عسكره انكسر خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمـره ويقوى جـأشه فراسلـه وصالحه، ثـم سار مـن وقته إلى نصيبين واهتـم بجمـع العسـاكر والانفـاق فيهـا، وسـاروا إلى البيرة وعبر الفرات وخيم على الجانب الشـامي، وراسل ابن عمه الصالـح نور الدين صاحـب حلب حتـى تستقر لـه قاعـدة يصل عليهـا، ثم إنـه وصل إلى حلـب، وخرج الملـك الصالـح إلى لقـائه وأقام على حلـب مدة، وصعـد قلعتها جريـدة، ثم نزل وسار إلى تـل السلطان —قلت: وهي منـزلة بين حماه وحلـب ـــ قـال: ومعه جمع كبير، وراسـل صـلاح الـديـن إلى مصر يطلب عسكرها فـوصل إليه، وسار به حتى نزل إلى قـرون حماه ثم تصافوا.

بكرة الخميس العاشر من شوّال سنة إحدى وسبعين، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين— قلت: هو صاحب إربل المقدم ذكره —قال: فإنه كان على ميمنة سيف الدين، فحمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده ومنع صلاح الدين من تتبع القوم، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيامهم، فإنهم تركوا أثقالهم وانهزموا، ففرق صلاح الدين الاصطبلات، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه ـ قلت: هو ابن شاهان شاه ابن أيوب وهو أخو تقي الدين عمر صاحب حماه وفرخشاه صاحب بعلبك وهو والد الملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك ـ قال: وسار إلى منبج فتسلمها، ثم سار إلى قلعة عزاز يحاصرها، وذلك في رابع ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين.

وفيها وثب جماعة من الاسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله سبحانه منهم وظفره بهم، وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشر ذي الحجة من السنة، ثم سار حتى نزل على حلب في سادس عشر الشهر المذكور وأقام عليها مدة، ثم رحل عنها، وكانوا قد أخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين سألته عزاز فوهبها لها.

ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين، وكان أخوه شمس الدولة توران شاه قد وصل إليه من اليمن، فاستخلفه بدمشق، ثم تأهب للغزاة، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم ـ قلت: وذلك الأمر يطول شرحه ـ قال: فلما انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق

وتبددوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري، وكان ذلك وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة.

وأما الملك الصالح صاحب حلب فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله، فلما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها وذلك في جمادى الأخرى من السنة، فلما رأى أهل قلعتها الخطر من جهة الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من شهر رمضان من السنة، فرحل الفرنج عنها، وأقام صلاح الدين بمصر حتى لم شعثها وشعث أصحابه من أثر كسرة الرملة، ثم بلغه تخبط الشام فعزم على العودة إليه واهتم بالغزاة، فوصله رسول قليج أرسلان صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن، فعزم على قصد بلاد ابن لاون ـ قلت: وهي بلاد سيس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل —قال: لينصر قليج أرسلان عليه، فتوجه إليه واستدعى عسكر حلب لأنه كان في الصلح انه متى استدعاه حضر إليه، ودخل بلاد ابن لاون وأخذ في طريقه حصناً وأخربه ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم، ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم فأجاب إلي ذلك، وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة، وعاد بعد تمام الصلح إلى دمشق، ثم منها إلى مصر، ثم توفي الملك الصالح بن نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمة والده، وكان قد استحلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ـ قلت: وقد تقدم ذكره وهو ابن عم قطب الدين مودود ـ فلما بلغ عز الدين خبر موت الملك الصالح، وأنه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين فيأخذها، وكان أول قادم إليها مظفر الدين ابن زين الدين ـ قلت: هو صاحب إربل وكان إذ ذاك صاحب حران، وهو مضاف إلى المواصلة لأن تلك البلاد كانت لهم ـ قال: فوصلها مظفر

الدين في ثالث شعبان سنة سبع وسبعين. وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود، وصعد إلى القلعة فاستولى على ما فيها من الحواصل، وتزوّج أم الملك الصالح في خامس شوّال من السنة.

قلت: ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا أموراً ذكرتها في ترجمة عز الدين مسعود بن مودود، وترجمة أخيه عماد الدين زنكي، وترجمة تاج الملوك بوري أخي صلاح الدين فلا حاجة إلى إعادتها ههنا، فمن أراد الوقوف عليها يكشفها في هذه التراجم.

قلت: وحاصل الأمر أن عز الدين مسعود قايض أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عن حلب بسنجار، وخرج عز الدين عن حلب، ودخلها عماد الدين زنكي، فجاءه صلاح الدين وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

وقال ابن شداد: نزل عليها في سادس عشر المحرم والله أعلم فتحدّث عماد الدين زنكي مع الأمير حسام الدين طمان بن غازي في السر بما يفعله، فأشار عليه بأن يطلب منه بلاداً، وينزل له عن حلب بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال، فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي، ثم اجتمع حسام الدين طمان بصلاح الدين في السر على تقرير القاعدة في ذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب، ودفع له سنجار، والخابور، ونصيبين، وسروج، ودفع لطمان الرقة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة، وكان صلاح الدين قد نزل على سنجار وأخذها في ثامن شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأعطاها لابن أخيه تقي الدين عمر، فلما جرى الصلح على هذه الصورة أعطاها عماد الدين، وتسلم صلاح الدين قلعة حلب، وصعد إليها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين

وخمسمائة، وأقام بها حتى رتب أمورها، ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وجعل فيها ولده الملك الظاهر المقدم ذكره في ترجمة مستقلة، وكان صبياً وولى القلعة سيف الدين يازكوج الأسدي، وجعله يرتب مصالح ولده، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق في التاريخ المذكور.

قال ابن شداد: وتوجه من دمشق لقصد محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة المذكورة، وسير إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه بجمع كثير وجيش عظيم واجتمع به على الكرك في رابع شعبان من السنة، فلما بلغ الفرنج الخبر حشدوا خلقا كثيراً، وجاؤوا إلى الكرك ليكونوا في قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسير إليها ابن أخيه تقي الدين عمر، ورحل عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة، واستصحب أخاه الملك العادل معه ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة وأعطاه حلب ودخلها في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة، وخرج الملك الظاهر ويازكوج ودخلا دمشق في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوّال من السنة، وكان الملك الظاهر أحب أولاده إليه لما فيه من الخلال الحميدة، ولم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها في ذلك الوقت، وقيل إن العادل أعطاه على أخذ حلب ثلاثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد والله أعلم.

ثم إن صلاح الدين رأى عود الملك العادل إلى مصر، وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح، قيل كان سبب ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جند ر قال لصلاح الدين وكان بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد، وقد سايره يوما، وكان من أمراء حلب، والملك العادل لا ينصفه ويقدم عليه غيره، وكان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل، وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك، فلما عوفي رجع إلى الشام واجتمعا في

المسير،قال له وكان صلاح الدين قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد:بـأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأنك كنـت خارجاً إلى الصيد وتعود فـلا يخالفونك،أما تستحي أن يكون الطـائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال: وكيف ذاك وهو يضحك؟ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصـد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنـت سلمت الحصون إلى أهلـك وجعلت أولادك على الأرض، هـذه حلب وهـي أم البلاد بيـد أخيـك، وحماة بيـد ابـن أخيـك، وحمص بيد ابـن أسـد الـديـن، وابنـك الأفضل مع تقي الـدين بمصر يخرجه متى شاء، وابنك الآخـر مع أخيك في خيمة يفعـل به ما أراد، فقال لـه: صدقت فـاكتم هذا الأمر، ثـم أخذ حلب من أخيـه وأعطاها ولده الملـك الظاهر، وأعطى الملـك العادل بعد ذلـك حران والـرهاوميـا فارقين ليخـرجه مـن الشام، ويتـوفر الشـام على أولاده فكان ما كان.

قلت: وقـد تقدّم في تـرجمة عز الديـن مسعود بن قطـب الديـن مودود صاحب الموصل فصل يتعلق بنزول صـلاح الدين على الموصل وحصارها ثلاث مـرات، ولم يقدر عليها. قال شيخنـا ابن الأثير في تاريخه: إنـه نزل عليها في الدفعة الثـالثة، وكان زمن الشتاء، وعزم على المقـام واقطاع جميع الموصل وكـان نزولـه في شعبان من سنـة إحدى وثمانين وخمسمائة، فـأقام شعبـان وشهر رمضـان، وتـرددت الرسـل بينـه وبين صـاحبها فبينما هـو كذلك مرض صـلاح الدين فعاد إلى حران ولحقته الرسل بـالإجابة إلى ما طلب، ثم الصلح على أن يسلم إليـه صاحب الموصل شهر زور و أعمالها وولاية قـالي قلا ومـاوراء الزاب من الأعمال، وأن يخطـب له على المنـابر وينقش اسمـه على السكة فلما حلف أرسـل صلاح الـدين نوّابـه وتسلم البـلاد التي استقـرت القـاعـدة على تسليمها، وطـال المرض على صـلاح الديـن بحران، واشتد بـه حتى يئسـوا منه، فحلف النـاس لأولاده، وكان عنده منهم الملـك العزيز عماد الديـــن عثمان وأخوه العادل جـاءه من حلب وهو ملكها يـومئذ وجعل لكل واحد شيئاً مـن البلاد وجعل الملك

العادل وصياً على الجميع، ثـم إنه عـوفي وعاد إلى دمشـق في المحرم مـن سنة اثنين وثمانين، ولما كـان مريضاً بحران كـان عنده ناصر الديـن محمد ابـن عمه، ولـه من الاقطـاع حمص والـرحبة، فسـار من عنـده إلى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعـة من الأحداث ووعدهم وأعطـاهم مالاً على تسليم دمشـق إليه إذا مـات صلاح الـدين فعـوفي فلم يمـض إلا قليل حتى مـات ناصر الـدين ليلـة عيد النحـر من السنـة، فإنـه شرب الخمر فأكثر منه فـأصبح ميتاً، وقيل إن صلاح الدين وضـع عليه إنساناً فحضر عنده ونـادمه وسقـاه سما، فلما أصبحوا من الغـد لم يروا ذلـك الشخص، وكان يقال له الناصح بن العميد، فسألوا عنه فقالوا : إنه سار من ليلته، وكـان هذا ممـا قـوّى الظن والله أعلـم، فلما تـوفي أعطى اقطـاعـه لولـده شيركوه، وعمـره اثنتا عشرة سنـة، وخلف مـن الأموال والـدواب والأثاث شيئـاً كثيراً، فحضر صلاح الـديـن إلى حمص، واستعـرض تركتـه، وأخـذ أكثرها، ولم يترك إلاّ ما لا خير فيه.

ثم قـال شيخنا بعـد هذا كله: وبلغنـي أن شيركوه حضر عنـد صلاح الدين بعد مـوت أبيه بسنة، فقال له: إلى أين بلغـت في القرآن؟ فقال له: إلى (إن الـذين يـأكلون أمـوال اليتامـى ظلما إنما يأكلـون في بطونهم نـاراً وسيصلون سعيراً) فعجـب الجماعة وصلاح الـدين من ذكـائه، والله أعلم بصحة ذلك.

قـال ابن شـداد: ولما وصـل صلاح الـدين إلى دمشـق عقيـب مرضـه وابلالـه، سير طلب أخـاه الملك العـادل فخرج مـن حلب جـريدة يـوم السبت الرابـع والعشرين مـن شهر ربيـع الأول من سنـة اثنتين وثمانين، ومضى إلى دمشق فـأقام في خدمة السلطان صلاح الـدين، وجرت بينهما أحاديث ومراجعـات وقواعد تتقرر إلى جمادى الآخرى من السنـة، فاستقر الأمر على عـود الملك العادل إلى مصر، وأخـذت حلب منه، وسـار الملك الظاهر إليها ودخل قلعتها يوم السبت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

وقد ذكرت في تـرجمة الملك الظاهر أنـه دخل حلب مالكـاً لها في مثل يوم وفـاته، وعينت هنـاك التاريخ واسم اليـوم، هكذا وجدتـه، وما أدري مـن أين نقلتـه وسلـم السلطان ولـده الملك العـزيـز إلى العادل وجعلـه أتابكه.

قـال ابـن شداد: قـال لي الملـك العـادل لما استقـرت هذه القـاعـدة: اجتمعت بخـدمة الملك العـزيز والملـك الظاهر، وجلسـت بينهما، وقلت للملك العـزيز: اعلم يـا مولانـا أن السلطان أمرني أن أسير في خـدمتك إلى مصر، وأنا أعلـم أن المقدمين كثير ومـا يخلو أن يقـال عني مـالا يجوز ويخوفونك مني فـإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقـل لي حتى لا أجيء؟ فقال: كيف يتهيـأ لي أن أسمع منهـم أو أرجع إلى رأيهم، ثـم التفت إلى الملك الظاهـر، وقلت له:أنا أعرف أن أخاك ربما سمـع فيّ أقوال المقدمين وأنا فمالي إلاّ أنت وقد قنعـت منك بمنبج متى ضاق صدري مـن جانبه فقـال: مبـارك، وذكر لي كـل خير، وزوّج السلطـان ولـده الملك الظـاهـر غازيـة خاتون ابنـة أخيه الملك العـادل ودخل بها يوم الأربعـاء السادس والعشرين من رمضان من السنة.

ثم كـانت وقعـة حطين المباركـة على المسلمين، قال: وكـانت في يـوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخـر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العـدوّ في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بـدعاء المسلمين والخطباء على المنـابر، فسـار في ذلك الوقـت بمن اجتمع لـه من العساكـر الاسلاميـة وكانت عـدّة تجوز العدّ والحصر على تعبية حسنة وهيئـة جميلة، وكان قد بلغـه عن العدو أنه اجتمـع في عـدّة كثيرة بمـرج صفـوريـة بـأرض عكـا، عنـدمـا بلغهـم اجتماع العسـاكـر الاسلاميـة، فسار ونـزل على بحيرة طبرية على سطـح الجبل ينتظـر قصد الفرنج لـه إذا بلغهم نزوله بالموضـع المذكور، فلم يتحركـوا ولم يخرجوا من منزلتهـم، وكان نـزولهم بالموضع المذكـور يوم الأربعـاء الحادي والعشرين

من شهر ربيع الآخر، فلما رآهم لا يتحركون عن منزلتهم نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة العدوّ، ونازل طبرية وهجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما بها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة محتمية بمن فيها، ولما بلغ العدوّ ما جرى على طبرية قلقوا لذلك، ورحلوا نحوها، فبلغ السلطان ذلك، فترك على طبرية من يحاصرها، ولحق بالعسكر فالتقى بالعدوّ على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، وحال الليل بين العسكرين فباتا على مصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال، واشتد الأمر، وذلك بأرض قرية تعرف بلوبيا، وضاق الخناق بالعدوّ وهم سائرون كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون، وقد أيقنوا بالويل والثبور، وأحست نفوسهم أنهم في غد يومهم ذلك من زوّار القبور، ولم تزل الحرب تضطرم والفارس مع قرنه يصطدم، ولم يبق إلاّ الظفر ووقع الوبال على من كفر، فحال بينهم الليل بظلامه، وبات كل واحد من الفريقين بمقامه، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد العدوّ، وأنهم لاينجيهم إلاّ الاجتهاد في القتال، فحملت أطلاب المسلمين من كل جانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقا عليه نصر المؤمنين، ولما أحس القومس بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر وقصد جهة صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وكفى الله شره، وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحكموا فيهم السيوف، وسقوهم كأس الحمام، وانهزمت طائفة منهم فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها أحد، واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون، وأشعلوا حولهم النيران، واشتد بهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كادوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل لما مر بهم، فأسر مقدميهم،

وقتل الباقون، وكان ممن أسر من مقدميهم الملك كي وجفري أخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبرية ومقدم الديوية، وصاحب جبيل، ومقدم الاسبتار.

قال ابن شداد: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان.

ثم إن القومس الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس، فأصابه ذات الجنب فهلك منها، وأما مقدما الاسبتارية والديوية فإن السلطان قتلهما، وقتل من بقي من صنفهما حياً وأما البرنس أرناط، فإن السلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك لأنه كان قد عبر به عند الشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ، صلى الله عليه وسلم، وبلغ ذلك السلطان فحملته حميته ودينه على أن يهدر دمه، ولما فتح الله عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد، وعرضت عليه الأسارى، وصار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله تعالى على يديه للمسلمين، ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكراً لله تعالى على ما أنعم به عليه واستحضر الملك كي وأخاه والبرنس أرناط وناول السلطان كي شربة من جلاب وثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها البرنس وقال السلطان للترجمان:قل للملك أنت الذي سقيته، وأما أنا فما سقيته، وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن، فقصد السلطان بقوله ذلك، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم، فمضوا بهم إليه، فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم، وأقعد الملك في دهليز الخيمة، واستحضر البرنس أرناط، وأوقفه بين يديه وقال له: ها أنا

أنتصر لمحمد منك ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل فسل النمشاة، فضربه بها فحل كتفه، وتمم قتله من حضر، وأخرجت جثته ورميت على باب الخيمة، فلما رآه الملك كي على تلك الحالة لم يشك في أنه يلحقه به فاستحضره وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء.

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بحمد الله تعالى وشكره وتهليله وتكبيره حتى طلع الفجر، ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر، وتسلم قلعتها في ذلك النهار، وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء، ثم رحل طالباً عكا، فكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين فأخذها، واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين، وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس، وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة، وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم، ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأساراها سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فنصب عليها المناجيق، وضيق بالزحف خناق من فيها، وكان فيها أبطال معدودون، وفي دينهم متشددون، فقاتلوا قتالاً شديداً، ونصره الله سبحانه وتعالى عليهم، فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشر عنوة وأسر من بقي فيها بعد القتل، ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها عند نزوله عليها، وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وأقام عليها ريثما قرر قواعدها، وسار حتى أتى بيروت ، فنزل عليها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، وركب عليها المجانيق وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر

المذكور، وتسلم أصحابه جبيل وهو على بيروت، ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها، ثم رأى أن العسكر تفرق في الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه، وكانوا قد ضرسوا من القتال، وملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الفرنج، فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها أيسر من صور، فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة، وتسلم في طريقة إليها مواضع كثيرة كالرملة والدارون، وأقام على عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديداً وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من السنة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون من غير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، هكذا ذكر شيخنا ابن شداد في السيرة، وذكر الشهاب ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعاوالمختلف صقعاً أنهم أخذوها من المسلمين في رابع عشر جمادى الآخرة من السنة.

قال ابن شداد: لما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار نحوه معتمدا على الله تعالى مفوّضاً أمره إليه منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله صلى الله عليه وسلم: من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه، وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وكان نزوله بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، وحزر أهل الخبرة ممن كان معه من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفا خارجاً عن النساء والصبيان، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب المناجيق، وضيق البلد بالزحف والقتال

حتى أخـذ النقب في السـور مما يلي وادي جهنـم، ولما رأى أعداء الله مـا نـزل بهم من الأمـر الذي لامـدفع لـه عنهم، وظهـرت لهم أمارات فتـح المدينـة، وظهور المسلمين عليهـم، وكان قـد اشتـد روعهم لما جـرى على أبطالهم وحماتهم مـن القتل والأسر، وعلى حصونهم من التخـريب والهدم، وتحققوا أنهم صائرون إلى مـا صار أولئك إليه فاستكانـوا وأخذوا في طلب الأمان، واستقـرت القاعـدة بالمراسلـة بين الطـائفتين، وكان تسليمـه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلتـه كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم، فانظر إلى هذا الاتفاق الغريب العجيب ، كيف يسر الله تعـالى عـوده إلى المسلمين في مثـل زمـن الأسراء بنبيهـم صلى الله عليه وسلـم، وهذه علامـة قبول هذه الطاعـة من الله تعالى، وكـان فتحه عظيما شهده من أهل العلم خلق ومـن أرباب الحذق والزهد عالم، وذلك أن الناس لما بلغهم مـا يسره الله تعالى على يده من فتح السـاحل، وقصد القدس، قصـده العلماء من مصر والشـام بحيث لم يتخلـف أحد منهـم، وارتفعت الأصـوات بالضجيـج بالدعـاء والتهليل والتكبير، وصليـت فيه الجمعة يوم فتحه، وخطب الخطيب.

قلت: وقد تقـدم في ترجمة القاضي محيي الدين محمـد بن علي المعروف بابن الزكي ذكر الخطبة التـي خطب بها ذلك اليوم، فيكشف منه، ورأيت في رسـالة القـاضي الفاضـل المعـروفة بـالقـدسية أن الخطبـة أقيمت يـوم الجمعة رابع شعبـان، وإذ قد ذكرنا فتـوح القدس، وقد تقدم ذكـر الخطبة التي خطـب يوم الجمعـة بها يليق أن نذكـر الرسالـة التي كتبهـا القاضي الفـاضـل إلى الامــام النـاصر لـديـن الله أبي العبـاس أحمد ابـن الامـام المستضيء بأمـر الله تتضمن الفتوح فـإنها بديعـة بليغة في بابها ولم أذكـرها بكمالها بـل اخترت منها أحسنهـا، وتركـت البـاقي لأنها طـويلة، وهـي : «أدام الله تعـالى أيـام الـديـوان العزيـز النبـوي ولازال مظفـر الجد بكـل جاحـد، غنيا بـالتوفيـق عن رأي كل زائد، مـوقوف المسـاعي عـن اقتناء مطلقـات المحـامـد، مستيقظ النصر والنصـل في جفنـه راقـد وارد الجود

والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلفى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنيل غوي ورئيس راشد، لازالت غيوث فضله إلى الاولياء أنواء إلى المراتع وأنوار إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الاعداء خيلاً إلى المراقب، وخيالاً إلى المراتب، قد كتب الخادم هذه الخدمة تلوما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير لصبح هذه العزمه، والعنوان لكتاب وصف النعمه، فإنها بحر للاقلام فيه سبح طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في اظهارها مشارب، ولله تعالى في إعادة شكره رضاء وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى، ولقد صارت أمور الاسلام إلى أحسن مصائرها وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه، والفوز معروضا قد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر الحق وكان مستضعفا وأهل ربعه، وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، وأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عند حسان الجبين، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بحالم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة، قلوبهم كما يشفي الماء عللهم، ولما قدم الدين عليها عرق منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من يستملكه في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتفادى في عتبه إلا لتكون الكلمة مجموعة، فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسن ربما

سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفاها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر، وإلا فإن العقود تلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الجهاد، ولا يراعى به حقه في العباد، ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوّقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وكانوا يعدلون، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يتساءلون لا جرم أنهم أورثوا اسرهم وسريرهم، خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطليعتهم المنيفة، وعنوان صحيفة فضلهم لاعدم سواد القلم وبياض الصحيفة، فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً، ومنه مقبولاً، وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ماعبقت به جيوبها، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا، والنهار به بصيرا، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأنواره فإنه نور لا تكتنه اغساق السدف، وذكر لاتوازيه أو راق الصحف، وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدوّ الذي تشظت قناته، وطارت من فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته، وكان الأكثر عددا وحصا، وكلت حملاته، وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان، وعقوبة من الله ليس لصاحب بيتها يدان، وعثرت قدمه، وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطق الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو زاعقة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث والرب الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومه، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في الحديد لهم عصر، ولا في

نار الألفة لهم نصر، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة، إلى أيدي أصحاب الميمنة، وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى، فأمده الله بمداركته وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعد هاجبر، وصرعهم صرعة لاينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن المصاف بخيل فالة قتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الاكسار، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقاوض الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القران على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخاً، وكان الاسلام مولودا، وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلاّ وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلاله خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عهد وأوثقه، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه، وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، وذهبت دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا القومس،وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، مليا يوم الخذلان بالاختبال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك.وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطوا ها بها نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً البيضاء صنعا، الخافقة هي وقلوب أعدائها الغالبة هي

وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارهـا، إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلاد كذا وكذا وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفـدن، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجـوامع ومنابر، وجموع وعساكر، يتجـاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه، بعـد أن ينتهزها، ويحصد منها كفـراً، ويزرع ايماناً، ويحط من جوامعهـا صلبا، ويرفع أذانـا، ويبدل المذابح منابـر، والكنائس مساجـد، ويبوىء أهـل القرآن بعـد أهل الصلبـان، للقتال عـن دين الله مقاعـد، ويقر عينه وعين أهل الاسـلام أن يعلق النصر منه ومـن عسكره بجار ومجرور، وأن يظفر بكل سور ما كان يخاف زلزلة ولا زايله عسراً إلى يوم النفـخ في الصور، ولما لم يبـق إلا القدس وقد اجتمـع إليه كـل شريد منهم وطريـد، واعتصم بمنعته كل قـريب منهم وبعيد، وظنـوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله سبحانه شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلـدا كبلاد، وجمعـا كيـوم التنـاد، وعزائم قـد تـألبـت على الموت فنزلت بعرصتـه، وهان عليهـا مورد السيـف وأن تموت بغصته، فـزاول البلد مـن جانـب فإذا أودية عميقـة، ولجج وعر غريقـه، وسور قد انعطـف عطف السوار، وأبـرجة قد نزلـت مكان الواسطـة من عقر الدار، فعـدل إلى جهة أخـرى كان للمطـالـع عليها معـرج، وللخـيل فيهـا مفـرج، فنزل عليهـا وأحـاط بها، وقرب منهـا وضرب خيمته بحيـث ينالـه السلاح بـأطرافـه، ويزاحمه السور بأ كنافـه وقابلها ثم قاتلها ونزلها ، ثم نـازلها وحاجزها، ثم ناجـزها وضمهـا ضمة ارتقب بعـدها الفتح، وصـدع جمعها فـإذا هم لا يبصرون على عبـودية الحد عـن عنـق الصفح، فـراسلـوه ببذل قطيعـة إلى مدة، وقصـدوا نظرة مـن شدة، وانتظـار النجدة، فعـرفهم الخادم في لحن القول، وأجـابهم بلسان الطـول، وقدم المنجنيقـات التي تتـولى عقوبـات الحصون عصيها وحبالها، وأوتـر لهم فيها التي ترمي ولا تفارقهـا سهامها، ولكن تفـارق سهامهـا نصالها، فصـافحت السـور فإذا سهمهـا في ثنايـا شرفـاتها سواك، وقـدم النصر شرا مـن المنجنيـق يخلد خـلاده إلى الأرض

ويعلو علوه إلى السماك فشبح مرادع أبراجها، واسمع صوت عجيجها صم أعلاجها، ورفع منار عجاجها فأخلى السور من السياره، والحرب من النظاره، وأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سربه بأنياب معموله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة الأنملة، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه باستغاثته إلى أن كادت ترق لمقلته وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن يبرح الأرض، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده (الكافر ياليتني كنت تراباً) فحينئذ يأس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ، وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوه، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكه، وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة، وطرح جنبه على التراب، وكان جنبا لايتعاطاه طارح، وبذل مبلغا من القطيعة لا يطمح إليها أهل طامح، وقال: ههنا أسارى مسلمون يتجاوزون الالوف، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار بدأبهم فعجلوا وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ثم استقتلوا فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولا يفك سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف، فأشار الأمراء بأخذ الميسور من البلد المأسور، فإنه لو أخذ حربا فلا بد أن يقتحم الرجال الأنجاد وتبذل نفوسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفلكات، وأثقل الحركات، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون، وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان لا جرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم فإنهم خذلهم الله حموها بالأسل والصفاح، وبنوها بالعمد والصفاح

وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوبة والاسبتارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي لا يطر دماؤه، ولا يتطرد لألاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه وتفنن في توشيعة إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد كالذهب الذي فيه نعيم عتيد،فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق، وأوعز الخادم بردّ الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات يتفطرن للنجوم لا للوجوم، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بربمن بر، وخفق علما في حفافيه فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ماضاق بتمادي الحرب من الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشقاء قد أوردت مواردها، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها، وأكلت غلالها فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد، ينفق عليها ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها وتقام المرابط بساحلها، وبدأ في عمارة أسوارها، ومر مات معاقلها، وكل مشقة بالاضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولامعتزله، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع ، ولن يفكوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع، وهذه البشائر الزبد، لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتخلص، فلذلك نفذ الخادم لسانا شارحاً، ومبشرا صادحاً يطالع بالخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته، وهو فلان والله الموفق». هذا آخر الرسالة الفاضلية وكان في عزمي اختصارها،

والاقتصار على محاسنها، فلما شرعت فيها قلت في نفسي : عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها، ورجعت عن الرأي الأول، وهي قليلة الوجود في أيدي الناس، وكانت النسخة التي نقلتها سقيمة، ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صحت هذه الصورة حسب الا مكان وقد عمل عماد الدين الاصبهاني الكاتب رسالة في فتح القدس أيضاً، فلم أر التطويل بكتابتها، فتركتها، وجمع كتابا سماه « الفيح القيسي في الفتح القدسي» وهو في مجلدين ذكر فيه جميع ما جرى في هذه الواقعة، ورأيت منذ زمان رسالة مليحة أنشأها ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف النون، تتضمن فتح القدس أيضاً، وكل واحد من أرباب صناعة الإنشاء كان يريد أن يمتحن خاطره بما يعمل في ذلك.والقاضي الفاضل رئيس هذا الفن،وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يجاريه ولا يباريه، فلهذا أتيت برسالته، ورفضت غيرها خوف الإطالة.

وكان قد حضر الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النابلسي الشاعر المشهور هذا الفتح فأنشد السلطان صلاح الدين قصيدته المشهورة التي أولها:

هذا الذي كانت الأيام تنتظر
فليوف لله أقوام بما نذروا

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدحه ويهنيه بالفتح، وإذ قد نجز المطلوب من هذا الأمر فلنرجع إلى تتمة ما ذكره شيخنا بهاء الدين بن شداد في السيرة الصلاحية قال: ونكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيما، ونصر الله الاسلام على يده نصراً عزيزاً.

قلت: وقد تقدم في ترجمة أرتق طرف من أخبار القدس، وأن الأفضل أمير الجيوش بمصر أخذه من ولديه سقمان وايل غازي، ثم أن الفرنج

استولوا عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقبل في ثاني شعبان، وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة، ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه صلاح الدين في التاريخ المذكور.

نعود إلى كلام ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرين ديناراً، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل ذكر صغيراً وأنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه، وإلا أخذ أسيراً وأفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما، وأقام به يجمع الأموال، ويفرقها على الأمراء والرجال، ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه، وتقدم بايصال من أقام بقطيعته إلى مأمنه، وهي مدينة صور، ولم يرحل عنه ومعه من المال الذي جبي له شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان رحيله عنه يوم الجمـ ة الخامس والعشرين من شعبان من السنة.

ولما فتح القدس حسن عنده فتح صور، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما عسر عليه، فسار نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها، ونظر في أمورها، ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من السنة، فنزل قريبا منها، وأرسل لإحضار آلات القتال، ولما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتلها وضايقها قتالاً عظيما ، واستدعى اسطول مصر فكان يقاتلها في البر والبحر، ثم سير من حاصر هونين، فسلمت في الثالث والعشرين من شوّال من السنة، ثم خرج أسطول صور في الليل فكبس أسطول المسلمين وأخذوا المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين وقتلوا خلقا كثيراً من رجال المسلمين، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور، وعظم ذلك السلطان، وضاق صدره، وكان الشتاء قد هجم، وتراكمت الأمطار، واستشارهم فيما

يفعلون فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال، ويجتمعوا للقتال، فرحل عنها وحملوا من آلات الحصار ما أمكن وحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله لكثرة الوحل والمطر، وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة من السنة، وتفرقت العساكر، وأعطى كل طائفة منها دستورا، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم نزلوا على كوكب في أوائل المحرم من السنة، ولم يبق معه من العسكر إلا القليل، وكان حصناً حصيناً، وفيه الرجال والأقوات، فعلم أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد، فرجع إلى دمشق ودخله في سادس شهر ربيع الأول من السنة.

قال ابن شداد: ولما كان على كوكب وصلت إلى خدمته، ثم فارقته ومضيت إلى زيارة القدس والخليل عليه السلام، ودخلت دمشق يوم دخول السلطان إليها —قلت: وقد ذكرت هذا في ترجمته— وأقام بدمشق خمسة أيام، ثم بلغه أن الفرنج قصدوا جبيل واغتالوها فخرج مسرعا وكان قد سير يستدعي العساكر من جميع المواضع، وسار يطلب جبيل ، فلما عرف الفرنج بخروجه كفواعن ذلك، وكان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه فسار نحو حصن الأكراد.

قال ابن شداد في السيرة إنه اتصل بخدمة السلطان في مستهل جمادى الأولى من سنة أربع وثمانين، وجميع ما ذكرته بروايتي عمن أثق به، ومن ههنا ما أسطر إلا ما شاهدته، وأخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان، قال: لما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبية حسنة، ورتب الأطلاب وسارت الميمنةأولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين فوصل إلى أنطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ينظر إليها لأن قصده كان جبلة فاستهان أمرها فسير من

رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر والميسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعه والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين فركبوا وقاربوا البلد، وزحفوا واشتد القتال وباغتوها فما استتم نصب الخيام حتى صعد المسلمون سورها وأخذوها بالسيف، وغنم المسلمون جميع ما فيها وما بها، وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين، فما زال يحاربه حتى أخربه، واجتمع به ولده الملك الظاهر لأنه كان قد طلبه فجاءه في عسكر عظيم، ثم سار يريد جبلة وكان وصوله إليها في ثاني عشر جمادى الأولى،فما ستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد، وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً، ثم سار عنها إلى اللاذقية، وكان نزوله عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، وهو بلد خفيف على القلب غير مسوّر وله مينا مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، واشتد القتال إلى آخر النهار وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار، وجدّوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول النقب ستين ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لا ذوا يطلبون الأمان وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة نفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ماخلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب فأجابهم إلى ذلك، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم السبت، وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر، فرحل عنها إلى صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من الشهر، واجتهد في القتال، فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادى الأخرى، ثم تقدموا إلى القلعة وصدقوا القتال فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان، فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير، ومن كل صغير ديناران الذكر والانثى سواء، وأقام السلطان بهذه الجهة حتى أخذ عدة

قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المنيعة المتعلقة بصهيون، ثم رحل عنها وأتى بكاّس، وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها يوم الثلاثاء سادس جمادى الأخرى، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر، ثم يسر الله فتحها عنوة، فقتل أكثر من بها، وأسر الباقون، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها، ولها قلعة تسمى الشغر وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بجسر وليس عليها طريق فسلطت المناجيق عليها من جميع الجوانب، ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، ثم سألوا المهلة ثلاثة فأمهلوا، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشر الشهر، ثم سار إلى برزية وهي من الحصون المنيعة في غاية القوّة يضرب بها المثل في بلاد الفرنج، يحيط بها أودية من جميع جوانبها وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً، وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر، ثم أخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه، ثم سار إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة، وقاتلها قتالاً شديداً، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب وأعطاها الأمير علم الدين سليمان ابن جندر، وسار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من الشهر، ونزل على بغراس وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، قاتلها مقاتلة شديدة وصعد العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر من البيكار، وكان الصلح معهم لا غير على أن يطلقوا كل أسير عندهم، والصلح إلى سبعة أشهر فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد، ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه إلى ذلك فوصل حلب في حادي عشر شعبان وأقام بالقلعة ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام، وسار من حلب فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماة، وصنع له طعاماً وأحضر له سماعا من

جنس ما تعمل الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية، وسار على طريق بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صفد فنزل عليها، ولم يزل القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوّال، وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك، سلمها نواب صاحبها وخلصوه بذلك فإنه كان أسيراً من نوبة حطين.

قلت: هكذا ذكره، وهذا لا ينتظم مع ما قبله، فقد تقدم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين، ثم قتله السلطان بيده فيكشف عن هذا في مكان آخر ليتحقق.

قال: ثم سار إلى كوكب وضايقوها وقاتلوها مقاتلة شديدة، والأمطار متوالية والوحول والرياح عاصفة، والعدو متسلط لعلوّ مكانة، فلما تيقنوا أنهم مأخوذون طلبوا الأمان فأجابهم اليه وتسلمها منهم في منتصف ذي القعدة من السنة، ثم نزل الغور وأقام بالمخيم بقية الشهر وأعطى الجماعة دستوراً، وسار مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر، ودخل القدس في ثامن ذي الحجة وصلى بها العيد، وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر إلى أمورها، وأخذ ها من أخيه العادل، وعوّضه عنها الكرك، ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها، ثم دخل عكا، فأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين، وأصلح أمورها، ورتب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة سورها.

وسار إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر من السنة وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة ثم خرج إلى شقيف أرنون، وهو موضع حصين، فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع عشر شهر ربيع

الأول، وأقام أياماً يباشر قتاله كل يوم، والعساكر تتواصل إليه، فلما تحقق صاحب الشقيف أنه طاقة له به نزل إليه بنفسه فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته، فأذن له في دخوله إليه وأكرمه واحترمه، وكان من أكبر الفرنج وعقلائهم، وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث، وكان حسن التأتي لما حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام،ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب،واشترط أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لايقدر على مساكنة الفرنج، واقطاعا يقوم به وبأهله، وشروطا غير ذلك، فأجابه إلى ذلك، وفي أثناء شهر ربيع الأول وصله الخبر بتسليم الشوبك، وكان السلطان قد أقام عليه جمعاً يحاصرونه مدة سنة كاملة إلى ان نفد زاد من كان فيه فسلموه بالأمان ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فرسم عليه، ثم ظهر له أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة خمس وثمانين، وفي ذلك اليوم سير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة، وأتى عكا ودخلها بغتة ليقوي قلوب من بها، وسير استدعى العساكر من كل ناحية فجاءته، وكان العدوّ بمقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل، ثم تكاثر الفرنج، واستفحل أمرهم، وأحاطوا بعكا، ومنعوا من يدخل ويخرج، وذلك يوم الخميس سلخ رجب، فضاق صدر السلطان لذلك، ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدوّ لينفتح الطريق ففعلوا ذلك وانفتح الطريق، وسلكه المسلمون، ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية، وهو مشرف على عكا، وفي هذه المنزلة توفي الأمير حسام الدين طمان المقدم ذكره في هذه الترجمة، وذلك ليلة نصف شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وكان من الشجعان.

ثـم إن شيخنا ابـن شـداد ذكر بعـد هذا وقعـات ليـس لنا غـرض في ذكرهـا، وتطول هذه الترجمة باستيفـاء الكلام فيها إذ ليس الغـرض سوى المقاصد لا غير، وإنما ذكرت فتوحات هـذه الحصون لأن الحاجة قد تدعو إلى الوقوف على تـواريخها، مع أني لم أذكر إلاّ ما يكثر التطلـع إلى الوقوف عليه، وأضربت عن الباقي. قال ابـن شداد: سمعت السلطان ينشد وقد قيل له أن الوخم قد عظم بمرج عكا، وأن الموت قد فشا في الطائفتين

اقتلـــــوني ومــــــالكـــــا

واقتلــــوامــــالكـــــامعـــــي

يريد بذلك أنه قد رضي أن يتلف كما أتلف الله أعداءه

قلـت: وهذا البيـت لـه سبب يحتـاج إلى شرح، وذلـك أن مـالك بـن الحارث المعروف بـالأشتر النخعي كـان من الأبطـال المشهورة، وهـو من خواص أصحـاب علي بن أبي طالـب رضي الله عنه، تماسك في يـوم وقعة الجمـل المشهورة هـو وعبـد الله بـن الزبير بـن العـوّام، وكـان أيضاً مـن الأبطال، وابـن الزبير يومئذ مـع خالته عائشـة أم المؤمنين رضي الله عنها، وطلحة والـزبير رضي الله عنهم، وكـانوا يحار بـون عليا رضي الله عنـه فلما تماسكـا صار كـل واحد منهما إذا قـوي على صـاحبه جعلـه تحته وركـب صدره، وفعلا ذلك مراراً، وابن الزبير ينشد:

اقتلـــــوني ومــــــالكـــــا

واقتلــــوامــــالكـــــامعـــــي

يريد الاشتر النخعي، هذه خلاصـة القول في ذلك وإن كانت القصة طويلـة، وهي في التـواريخ مبسـوطة، وقـال عبد الله بـن الزبير: لاقيـت الاشتر النخعي يوم الجمل، فما ضربته ضربـة حتى ضربني ستا أو سبعاً، ثم أخذ برجلي وألقاني في الخندق، وقـال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضـو إلى عضو أبداً، وقال أبو بكر ابـن أبي شيبة: أعطـت عائشـة رضي الله عنها الـذي بشرها بسـلامة ابـن

الـزبير لما لاقى الاشتر النخعي عشرة آلاف درهـم،وقيل أيضـاً إن الاشتر دخـل على عائشـة رضي الله عنها بعـد وقعة الجمـل، فقالـت له:يـا أشتر أنت الذي أردت قتل ابن أختي يوم الوقعة، فأنشدها:

أعـائش لـو لا أننـي كنـت طـاويـا
ثـلاثـا لألفيـت ابـن أختـك هـالكـا

غـداة ينـادي والـرمـاح تنـوشـه
بـآخـر صـف اقتلـوني ومـالكـا

فنجـاه منـي أكلـه وشبـابـه
وخلـوة جـوف لم يكـن متماسكـا

وقـال زهير بن قيـس: دخلت مـع عبد الله بـن الزبير الحمام، فـإذا في رأسـه ضربة لـو صب فيهـا قارورة دهـن لاستقر، فقـال لي: أتدري مـن ضربني هذه الضربة؟ قلت: لا،قال ابن عمك الأشتر النخعي.

رجعنا إلى مـا كنا فيه، قـال ابن شداد: ثم إن الفـرنج جاءهـم الأمداد من داخـل البحر، واستظهـروا على الجماعة الإسـلامية بعكـا، وكان فيهـم الأمير سيـف الديـن علي بن أحمد المعـروف بـالمشطوب الهكـاري والأمير بهاء الدين قـراقوش الخادم الصلاحي، وضـايقوهم أشد المضـايقة إلى أن غلبوا على حفـظ البلد، فلما كان يـوم الجمعة سابـع عشر جمادى الأخرى من سنة سبع وثمانين وخمسمائة، خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب من المسلمين يـذكـرون حالهم ومـا هـم فيـه، وأنهم قد تيقنـوا الهلاك، ومتـى أخـذوا البلد عنـوة ضربت رقـابهم، وأنهم صـالحوا على أن يسلموا البلـد وجميـع مـا فيـه مـن الآلات والأسلحة والمراكـب، ومـائتـي ألـف دينـار وخمسمائة أسير مجاهيـل، ومـائة أسير معينين مـن جهتهـم، وصليـب الصلبـوت ، على أن يخرجوا بـأنفسهـم سالمين، ومـا معهـم من الأمـوال والأقمشة المختصة بهم وذرار يهم ونسائهم، وضمنـوا للمركيس لأنه كان الواسطة في هـذا الأمر أربعة آلاف دينار، ولما وقـف السلطان على الكتب المشار إليهـا أنكر ذلك انكاراً عظيماً، وعظـم عليه هذا الأمر، وجمع أهل

الرأي مـن أكابـر دولته وشـاورهم فيما يصنـع، واضطربـت آراؤه، وتقسم فكـره، وتشوّش حـالـه، وعزم على أن يكتـب في تلـك الليلـة مع العوّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجـه، وهو يتردد في هذا، فلم يشعر إلاّ وقد ارتفعت أعلام العدوّ وصلبانـه وناره وشعاره على أسوار البلد، وذلك في ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة مـن السنة، وصاح الفرنج صيحـة عظيمة واحـدة، وعظمت المصيبـة على المسلمين، واشتـد أمرهـم وحزنهم، ووقع فيهم الصياح والعويل والبكاء والنحيب.

ثـم ذكر ابـن شداد بعـد هذا أن الفـرنج خـرجوا مـن عكا قـاصديـن عسقلان ليأخذوها، وساروا على الساحـل والسلطان وعساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسـوف وكان بينهما قتـال عظيم ونـال المسلمين منه وهـن شديد، ثم ساروا على تلك الهيئة تتمـة عشرة منازل من مسيرهم من عكا، وأتـى السلطان الـرملـة وأتـاه من أخبره بـأن القـوم على عـزم عمارة يافـا وتقويتهـا بالرجال والعـدد والآلات، فأحضر السلطان أر باب مشـورته، وشاورهـم في أمر عسقـلان، وهل الصـواب خرابها أم إبقـاؤها فـاتفقت آراؤهـم أن يبقى الملـك العـادل قبالـة العدوّ، ويتـوجـه السلطان بنفسـه ويخربها خـوفا مـن أن يصـل العدو إليهـا ويستولي عليهـا وهـي عامـرة، ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريـق مصر وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جـرى على المسلمين بعكا، ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خـرابها من عـدة جهـات، وكان هـذا الاجتماع يوم الثـلاثـاء سابـع عشر شعبان سنـة سبع وثمانين وخمسمائة، ، فسـار إليها سحـرة الأربعاء ثـامن عشر الشهر.

قال ابن شـداد: وتحدث معي في معنى خرابها بعـد أن تحدث مع ولده الملك الأفضـل في أمرها أيضـاً، ثم قـال: لأن أفقد ولدي جميعهـم أحب إلي من أن أهـدم منها حجـراً، ولكن إذا قضى الله تعـالى ذلك وكـان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلـة في ذلك، قال: ولما اتفق الـرأي على خرابها

أوقـع الله تعالى في نفسـه ذلـك، وأن المصلحـة فيه لعجـز المسلمين عـن حفظها، وشرع في خرابها سحرة يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة وقسـم السور على المسلمين، وجعـل لكل أمير مـن العسكر بـدنة معلومة وبرجـا معينا يخر برنه، ودخل الناس البلـد، ووقع فيهم الضجيج والبكاء، وكان بلداً خفيفـا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنـه، فلحق النـاس على خـرابـه حزن عظيـم، وعظـم عـويل أهـل البلد عليه لفراقهم أوطانهم وشرعوا في بيـع مالا يقدرون على حمله، فباعوا مـا يساوي عشرة آلاف بـدرهم، وبـاعـوا اثني عشر طير دجـاج بدرهـم واحد، واختبط البلـد وخرج الناس بأهلهم وأولادهـم إلى المخيم وتشتتوا، فذهب قـوم منهم إلى مصر، وقوم إلى الشام، وجرت عليهـم أمور عظيمة، واجتهـد السلطـان وأولاده في خـرابها كـي لايسمـع العـدو فيسرع إليـه، ولايمكـن من خـرابها، وبات النـاس على أصعـب حال وأشـد تعب ممـا قاسوه في خرابها.

وفي تلك الليلـة وصل من جناب الملـك العادل من أخبر أن الفـرنج تحدثوا معه في الصلـح، وطلبوا جميع البلاد السـاحليـة، فرأى السلطان أن في ذلك مصلحة لما علم من نفوس النـاس من الضجر من القتال، وكثرة ما عليهـم من الـديون، وكتـب إليه يـأذن له في ذلـك، وفوض الأمـر إلى رأيه، وأصبح يـوم الجمعة العشرين من شعبـان، وهو مصر على الخراب، واستعمـل الناس عليـه وحثهـم على العجلة فيـه وأبـاحهم مـا في الهري الذي كان على الميرة مذخـوراً خوفاً من هجوم الفرنـج والعجز عن نقله ، وأمر باحراق البلد فأضرمت النيران في بيـوته، وكان سورها عظيماً، ولم يزل الخراب يعمل في البلـد إلى سلخ شعبـان من السنـة، وأصبح يـوم الاثنين مستهـل شهر رمضـان أمر ولـده الملـك الأفضل أن يبـاشر ذلك بنفسـه وخـواصـه، ولقد رأيتـه يحمـل الخشـب بنفسـه لأجل الاحـراق، وفي يـوم الأربعاء ثـالث شهر رمضـان أتى الرملـة ثم خرج إلى لـد، وأشرف عليها وأمر باخـرابها وإخراب قلعة الرملـة، ففعل ذلك، وفي يوم السبـت ثالث

عشر رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لاحضار ما يحتاجون إليه ، ودار السلطان حول النطرون وهي قلعة منيعة، فأمر باخرابها، وشرع الناس في ذلك.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الانكتار، وهو من أكابر ملوك الافرنج، سير رسوله إلى الملك العادل يطلب الاجتماع به، فأجابه إلى ذلك، واجتمعا يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة وتحادثا معظم ذلك النهار، وانفصلا عن مودة أكيدة، والتمس الانكتار من العادل أن يسأل السلطان أن يجتمع به فذكر ذلك العادل للسلطان فاستشار أكابر دولته في ذلك، ووقع الاتفاق على أنه إذا جرى الصلح بيننا يكون الاجتماع بعد ذلك، ثم وصل رسول الانكتار وقال إن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودّتك وأنت تذكر أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس، وأطال الحديث في ذلك فأجابه السلطان بوعد جميل، وأذن له في العود في الحال، وتأثر لذلك تأثراً عظيماً.

قال ابن شداد: وبعد انفصال الرسول قال لي السلطان: متى صالحناهم، لم نأمن غائلتهم ولو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر، وتقوى الفرنج، والمصلحة أن لا نزول عن الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه، وإنما غلب على الصلح.

قال ابن شداد: ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح، وأطال القول في ذلك، فتركته إذ لا حاجة إليه، وجرت بعد ذلك وقعات أضربت عن ذكرها لطول الكلام فيها، وحاصل الأمر أنه تم الصلح بينهم، وكان الانجاز يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ونادى المنادي بانتظام الصلح وأن البلاد الإسلامية والنصرانية

واحـدة في الأمن والمسـالمة، فمن شـاء مـن كل طـائفة أن يتردد إلى بـلاد الطـائفـة الأخـرى مـن غير خوف ولا محذور، وكـان يـومـاً مشهـوداً نـال الطائفتين فيـه من المسرة مالا يعلمـه إلاّ الله تعالى، وقد علـم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاته وايثـاره، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكـر ومظاهـرتهم بالمخـالفة، وكـان مصلحـة في علم الله تعـالى فإنـه اتفقت وفاتـه بعد الصلح، فلو اتفـق ذلك في أثناء وقعاتـه، كان الاسلام على خطر.

ثـم أعطى العسـاكر الـواردة عليه مـن البـلاد البعيدة بـرسم النجـدة دستوراً، فسـاروا عنه وعزم على الحج لما فـرغ بالـه من هذه الجهـة، وتردد المسلمـون إلى بلادهـم وجاؤوا هـم إلى بـلاد المسلمين، وحملت البضـائع والمتـاجـر إلى البلاد، وحضر منهـم خلـق كثير لـزيـارة القدس، وتـوجـه السلطـان إلى القدس ليتفقـد أحوالها، وأخـوه الملـك العادل إلى الكـرك، وابنه الملـك الظاهر إلى حلب، وابنـه الأفضل إلى دمشق، وأقـام السلطان بـالقدس يقطـع الناس ويعطيهـم دستـوراً، ويتأهـب للمسير إلى الديـار المصرية، وانقطع شـوقه عن الحج، ولم يزل كذلـك إلى أن صح عنده سير مـركب الانكتـار متوجهـاً إلى بلاده في مستهـل شوّال، فعنـد ذلك قـوي عزمه على أن يـدخل الساحل جريـدة يتفقد القلاع البحريـة إلى بانياس، ويدخل دمشق ويقيم بها أياما قلائل، ويعود إلى القدس، ومنه إلى الديار المصرية.

قال شيخنا ابـن شداد: وأمرني بالمقـام في القدس إلى حين عوده لعمارة مارستان أنشـأه به، وتكميل المدرسة التي أنشـأها فيه، وسار منـه ضاحي نهار الخميس السادس من شـوّال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ولما فرغ من افتقاد أحوال القـلاع وإزاحة خللها، دخل دمشق بكـرة الأربعاء سادس عشر شوّال، وفيهـا أولاده: الملك الأفضل، والملك الظـاهر والملك الظـافر مظفر الـدين الخضر المعروف بـالمشمر، وأولاده الصغار، وكـان يحب البلد

ويؤثـر الإقامـة فيه على سائر البـلاد، وجلس للنـاس بكرة يـوم الخميس السابـع عشر منه وحضروا عنـده وبلوا شوقهـم منه، وأنشـده الشعراء ولم يتخلـف أحد منهـم عنه مـن الخاص والعـام، وأقام ينشر جنـاح عدلـه، ويهطل سحـاب انعامـه وفضله، ويكشـف مظالم الـرعايـا، فلما كان يـوم الاثنين مستهـل ذي القعدة عمـل الملك الأفضـل دعوة للملـك الظاهـر لأنه لما وصـل إلى دمشق، وبلغـه حركة السلطـان أقام بها ليتملى بـالنظر إليه ثـانيا، وكـأن نفسه كـانت قـد أحست بـدنوّ أجلـه، فودعـه في تلك الدفعـة مرارا متعـددة، ولما عمل الملك الأفضـل الدعـوة أظهر فيهـا من الهمم العالية مـا يليق بهمته، وكأنه أراد بذلك مجازاتـه عما خدمه به حين وصـل إلى بلده وحضر الـدعوة المذكـورة أربـاب الدنيـا والآخرة، وسـأل السلطان الحضـور فحضر جبراً لقلبه، وكان يـوماً مشهوداً على مـا بلغني، ولما تصفح الملـك العادل أحوال الكرك، وأصلـح ما قصد اصلاحـه سار قاصداً إلى البلاد الفراتية، فوصـل إلى دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعـدة، وخـرج السلطـان إلى لقـائه، وأقام يتصيـد حـوالي غبـاغـب إلى الكسوة حتى لقيـه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخـولهما إلى دمشق آخر نهار الأحـد حـادي عشر ذي الحجـة سنـة ثمان وثمانين، وأقـام السلطـان بدمشق يتصيـد هو وأخوه وأولاده، ويتفرجون في أراضي دمشـق، ومواطن الصبا وكـأنه وجد راحـة مما كان بـه من مـلازمة التعب والنصـب وسهر الليل وكان ذلك كالوداع لأولاده، ونسي عـزمه إلى مصر، وعرضت له أمور أخر وعزمات غير ما تقدم.

قال ابـن شداد: ووصلني كتابـه إلى القدس يستدعيني لخدمتـه، وكان شتاء عظيماً، ووحلا شديـداً، فخرجت من القدس في يوم الجمعـة الثالث والعشرين من المحـرم سنة تسع وثمانين، وكان الوصـول إلى دمشق في يوم الثلاثـاء ثاني عشر صفـر من السنـة، وركب السلطـان لتلقي الحاج يـوم الجمعة خامس عشر صفـر، وكان ذلك آخر ركوبه، ولما كـان ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، وما تنصف الليل حتـى غشيته حمى صفراوية، وكانت

في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت متكسلاً عليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو قلقه في الليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل، ولم يكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف، ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ السماط، وابنه الملك الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وما كانت لي قوّة في الجلوس استيحاشاً له وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه، ثم أخذ المرض يتزايد من جسده، ونحن نلازم التردد طرفي النهار، وندخل أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضرا ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع، فاشتد مرضه، وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلب عليه اليبس، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل المرض يتزايد ويغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت له غشية، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق، وعلا الناس من الكآبة والحزن مالا يمكن حكايته، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين، وحصل من الحقن بعض الراحة، وفرح الناس بذلك، ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء، ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس، ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله، منذ فقد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وغشي القلعة والبلاد والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوّز

والترخص إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء، وغسله الدولعي.

قلت: الدولعي المذكور هو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن يزيد بن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل التغلبي الأرقمي الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق، توفي ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وسئل عن مولده فقال: في سنة سبع وخمسمائة، ثم ذكر غير هذا، والله أعلم ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: وأخرج بعد صلاة الظهر رحمه الله تعالى على تابوت مسجى بثوب فوطة، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وأخذ الناس في البكاء والعويل وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم أطال ابن شداد القول في ذلك فحذفته خوفاً من الملالة، وأنشد في آخر السيرة بيت أبي تمام الطائي وهو:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

رحمه الله تعالى وقدس روحه، فلقد كان من محاسن الدنيا وغرائبها.

وذكر سبط ابن الجوزي في تاريخه في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما مثاله: وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر، فنزل البركة قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوداعه، وأنشده الشعراء أبياتا في الوداع فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيمة:

تمتـــع مـــن شميـــم عـــرار نجـــد
فما بعـــد العشيـــة مـــن عـــرار

فطلب القائل فلم يوجد ، فوجم السلطان وتطير الحاضرون، فكان كما قال: فإنه اشتغل ببلاد الشرق، والفرنج ولم يعد بعدها إلى مصر.

قلت: وهذا البيت من جملة أبيات في الحماسة في باب النسب.

وذكر شيخنا عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير هذه القضية على صورة أخرى فقال: ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز عن القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر، وعنده أعيان دولته، والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودع له وسائر معه وكل واحد منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد هذا البيت، فانقبض صلاح الدين وتطير بعد انبساطه، وتنكر المجلس على الحاضرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة.

وذكر ابن شداد أيضاً في أوائل السيرة أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلاّ سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرماً واحداً ذهبا صوريا، ولم يخلف ملكا لاداراً ولا عقاراً ولابستانا ولاقرية ولا مزرعة.

وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: «(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد

قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المغمدة مالا يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء، وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يايوسف لمحزونون، وأما الوصايا مما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها ، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام».

قلت: لله دره فلقد أبدع في هذه الرسالة الوجيزة مع ما تضمنته من المقاصد السديدة في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الإنسان عن نفسه.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من أولاده المذكورين، وهم الأفضل والظاهر، والعزيز في ترجمة مستقلة، وعينت تاريخ مولده وموته سوى الملك الظافر المشهور بالمشمر فإني لم أذكر له ترجمة مستقلة، وقد ذكرته ههنا فيحتاج إلى ذكر شيء من أحواله فأقول: لقبه مظفر الدين وكنيته أبو الدوام وأبو العباس الخضر، وإنما قيل له المشمر لأن أباه رحمه الله تعالى لما قسم البلاد بين أولاده الكبار، قال: وأنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده بالقاهرة في سنة ثمان وستين وخمسمائة في خامس شعبان، وهو شقيق الملك الأفضل، وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف ابن الملك العادل، ولم يكن الأشرف يومئذ ملكا، وإنما كان مجتازا بها عند دخوله بلاد الروم لأجل الخوارزمية.

قال غير ابن شداد: ثم إن السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بقي مدفونا بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة، التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قلت: ولقد دخلت هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترحمت عليه، وأحضر لي القيم ومتولي القبة بقجة فيها ملبوس بدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير، ورأس كميه باسود فتبركت به.

قال: ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء، وكان الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ورتب عنده القراء ومن يخدم المكان، ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان المقدم ذكره لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بني إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية، ووقف عليها وقفا جيداً، وللقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة، وهي من أعيان مدارس دمشق، وزرت قبره في أول ساعة من رمضان سنة ثمانين وستمائة، فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته ما مثاله« اللهم فارض عن تلك الروح وافتح له أبواب الجنة فهي آخر ما كان يرجو ه من الفتوح» وذكر قيم المكان أن هذا من كلام القاضي الفاضل.

قلت: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية، لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء،فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة نجم الدين الخبوشاني، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وجعل عليها وقفاً كبيراً، وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاه، ووقف عليها وقفاً طويلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل ابن السلار مدرسة للحنفية، وعليها وقف جيد كبير أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفا على الشافعية، وقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستانا، وله وقف جيد، وله مدرسة بالقدس أيضاً ووقفها كثير

وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية، ولقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي بالقرافة ما تسميها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد لا يقولون أيضا إلا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضا لا يقولون إلا مدرسة المالكية، وهذه صدقة السر على الحقيقة، والعجب أن له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها أيضاً الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة للمالكية أيضاً ولا تعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى به، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريبا من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحن إليهم، وكان يميل إلى الفضائل ويستحسن الاشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيرا ما ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن اسحق الحميري، وقيل إنها لأبي محمد أحمد بن علي بن خيران العامري، كان أميرا بالمرية من بلاد الاندلس وكان جده خيران من سبي المنصور بن أبي عامر، فنسبت إليه والله أعلم وهي هذه:

وزارني طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تخيل لي
نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول نشو الملك أبي الحسن علي بن مفرج

المعروف بابن المنجم المعري الأصل، المصري الدار والوفاة، وهو في خضاب الشيب، ولقد أحسن فيه وهو:

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا: فكان إذا قال مات الشباب يمسك كريمته، وينظر إليها، ويقول أي والله مات الشباب

وذكر العماد الكاتب الاصبهاني في كتاب الخريدة أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه، كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين:

أيها الغائبون عنا وإن كنـ
ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

وأما القصيدتان اللتان ذكرت أن سبط ابن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد ، فإن إحداهما وازن بها قصيدة صردر المقدم ذكره، وقد ذكرت منها أبياتا في ترجمة الوزير الكندري وأولها:

«أكذا يجازي ودكل قرين»

وقصيدة سبط ابن التعاويذي أولها

إن كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطي برملتي يبرين

والثـم ثـرى لـو شـارفـت بي هضبـه
أيـدي المطـي لثمتـه بجفـوني
وأنشـد فـؤادي في الظبـاء معـرضـا
فبغير غـزلان الصريـم جنـون
ونشيـدتي بين الخيـام وإنما
غـالطـت عنهـا بـالظبـاء العين
لـو لا العـدا لم أكـن عـن ألحاظهـا
وقـدودهـا بجـوازىء وغصـون
لله مـا اشتملـت عليـه قبـابهم
يـوم النـوى مـن لـؤلـؤ مكنـون
مـن كـل تـائهـة على أتـرابها
في الحسـن غـانيـة عـن التحسين
خـود تـرى قمـر السماء إذا بـدت
مـا بين سـالفـة لها وجبين
غـاديـن مـا لمعـت بـروق ثغـورهـم
إلا استهلـت بـالـدمـوع شـؤوني
إن تنكـروا نفـس الصبـا فـلأنها
مـرت بـزفـرة قلبـي المحـزون
وإذا الـركـائب في الجبـال تلفتـت
فحنينهـا التلفتـي وحنينـي
يـا سلـم أن ضـاعـت عهـودي عنـدكـم
فـأنـا الـذي استـودعـت غير أمين
أو عـدت مغبـونـاً فما أنـا في الهوى
لكـم بـأول عـاشـق مغبـون
رفقـاً فقـد عسـف الفـراق بمطلـق الـ
ـعبرات في أسر الغـرام رهين
مـالي ووصـل الغـانيـات أرومـه
ولقـد بخلـن علي بـالماعـون

وعــلام أشكــو والــدمــاء مطــاحــة
بلحــاظهــن إذا الــويــن ديــوني
هيهــات للبيــض في ود امــرىء
أرب وقــد أربــى على الخمسين
ومــن البليــة أن تكــون مطلبــي
جــدوى بخيــل أو وفــاء خــؤون
ليــت الضنين على المحــب بــوصلــه
لقــن السماحــة عــن صــلاح الــديــن (٩)

وأما القصيدة الثانية فهي قوله
حتــام أرضــى في هــواك وتغضــب
وإلى متــى تجنــي عليّ وتعتــب
مــا كــان لي لــو لا مــلالــك زلــة
لما مللــت زعمــت أني مــذنــب
خــذ في أفــانين الصــدود فــإن لي
قلبــا على العــلات لا يتقلــب
أتظننــي أضمــرت بعــدك سلــوة
هيهــات عطفــك مــن سلــوي أقــرب
لي فيــك نــار جــوانــح مــا تنطفــي
حــرقــا ومــاء مــدامــع مــا تنضــب
أنسيــت أيــامــا لنــا وليــاليــا
للهــو فيهــا والبطــالــة ملعــب
أيــام لا الــواشي بعــد ضــلالــة
ولهي عليــك لا العــذول يــؤنــب
قــد كنــت تنصفنــي المودة راكبــا
في الحب مــن اخطــاره مــا اركــب
واليــوم أقنــع أن يمــر بمضجعــي
في النــوم طيــف خيــالــك المتــأوّب

مــا خلــت أن جــديــد أيــام الصبــا
يبلى ولا ثــــوب الشبيبـــة يسلـــب
حتــى انجلى ليــل الغــوايــة واهتــدى
ســاري الــدجى وانجــاب ذاك الغيهــب
وتنــافــر البيــض الحسان فــأعــرضــت
عنـــي سعـــاد وأنكـــرتنـــي زينـــب
قــالــت وريعــت مـن بيــاض مفــارقــي
ونحــول جسمـــي بــان منــك الأطيــب
إن تنقمـــي سقمـــي فخصرك نـــاحـــل
أو تنكـــري شيبـــي فثغــرك أشنـــب (١٠)

قلت: لله دره فلقد أجاد في هذ القصيدة كـل الإجادة، غير أنه قد ظن أن الشنب بياض الثغر وعليـه بنى هذا المعنى حتى تم لـه مقصوده فإنها لما عيرته بالسقـم قابلها بنحول الخصر فقـال لها إن كنت نحيلا فخصرك أيضا نحيـل، فلما أنكرت شيبه قـابلها بأن ثغرهـا أشنب، فكأنـه قال لها بياض شيبي في مقابلة ثغرك الأشنـب، وليس الأمر كما ظن، فإن الشنب في اللغـة ليـس هـو البيـاض، وإنما هـو حـدة الاسنـان، ويقـال بـردهـا وعذوبتهـا والصحيح أنه حـدتها، وهو دليل على الحداثـة لأن الاسنان في أوّل طلـوعها تكـون حـادة، فإذا مـرت عليهـا السنـون احتكت وذهبـت حـدتها، وهذا المعنـى ينظـر إلى قول النـابغـة الذبيـاني في جملـة قصيدتـه المشهورة وهو:

ولا عيـــب فيهـــم غير أن سيـــوفهـــم
بهن فلـــول مـــن قـــراع الكتـــائب (١١)

وقد تقـدم ذكر هـذا البيت في تـرجمة عروة بـن الزبير فيكشـف هناك، ومثله أيضـا ما أنشدني بهاء الـدين زهير بن محمـد الكاتب المقـدم ذكره لنفسه من جملة أبيات وهو قوله:

مـــا فيـــه مـــن عيـــب ســـوى
فتـــور عينيـــه فقـــط (١٢)

رجع وقوله:

يـا طـالـب بعـد المشيـب غضـارة
مـن عيشـه ذهـب الـزمـان المذهـب
أتـروم بعـد الأربعين وعـدهـا
وصـل الـدمـى هيهـات عـز المطلـب
لـولا الهوى العـذري يـا دار الهوى
مـا هـاج لي طـربـاً وميـض خلـب
كـلا ولا استجـديـت أخـلاق الحيـا
ونـدى صـلاح الـديـن هـام صيـب (١٣)

وقد مدحه جميع شعراء عصره وانتجعوه من البلاد فمنهم العلم الشاتاني واسمه الحسن، وقد تقدم ذكر مدحه بقصيدته الرائية التي أوّلها:

أرى النصر مقـرونـا بـرايتـك الصفـرا
فسروا ملـك الـدنيـا فـأنـت بها أحـرى

ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر المعروف بابن الشحنة الموصلي الشاعر المشهور بقصيدته التي أوّلها:

سـلام مشـوق قـد بـراه التشـوّق
على جيرة الحي الـذيـن تفـرقـوا

وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران أحدهما:

وإني امـرؤ أحببتكـم لمكـارم
سمعـت بها والأذن كـالعين تعشـق

وقد أخذه من قول بشار بن برد المقدم ذكره وهو:

يـا قـوم أذني لبعـض الحي عـاشقـة
والأذن تعشـق قبـل العين أحيـانـا (١٤)

والبيت الثاني من قصيدة ابن الشحنة قوله:

وقالت لي الآمال إن كنت لاحقا
بأبناء أيوب فأنت الموفق

ومما قيل فيه لبعض أهل المشرق:

الله أكبر جاء القوس باريها
ورام أسهم دين الله راميها
فكم لمصر على الأمصار من شرف
باليوسفين فهل أرض تدانيها
فبابن يعقوب هزت جيدها طربا
وبابن أيوب هزت عطفها تيها
قل للملوك تخلي عن ممالكها
فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

فلما أنشدها إياه أعطاه ألف دينار، ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي، وابن المنجم ، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي.وابن البحراني الإربلي، وابن دهن الخصى الموصلي، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان الخيراني، وغير هؤلاء وقد ذكرت أكثر هؤلاء الجماعة في هذا التاريخ، وعذري في تطويل هذه الترجمة قول المتنبي:

وقد أطال ثنائي طول لابسه
إن الثناء على التنبال تنبال (١٥)

التنبال الرجل القصير، وهو بكسر التاء المثناة من فوقها، وبعدها نون ساكنة، وباء موحدة، وبعد الألف لام.

قلت: وقد تقدم في هذه الترجمة عند ذكر إرسال العاضد إلى صلاح الدين، وطلبه إياه ليخلع عليه ويوليه الوزارة ذكر المثل المشهور، وهو أردت عمراً و أراد الله خارجة، وقد يقف عليه من لا يعرف سبب هذا المثل ولا المراد منه، فأحببت أن أشرحه كيلا يحتاج من يقف عليه إلى

كشفه من مكان آخرة أقول: عمراً المذكور هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، كنتيه أبو عبد الله، وقيل أبو محمد أحد الصحابة رضي الله عنهم، أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة، ومكة فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من هذه السنة ، وقيل بل أسلم بين الحديبية وخيبر، والأوّل أصح، وقدم هو وخالد بن الوليد المخزومي، وعثمان بن طلحة القرشي العبدري على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة مسلمين ، فلما دخلوا عليه ونظر إليهم قال للصحابة: قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها، وقال الواقدي: قدم عمرو بن العاص سلما على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلم عند النجاشي ملك الحبشة، وقدم معه عثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد فقدموا المدينة في صفر سنة ثمان من الهجرة، وقيل إنه لم يأت من أرض الحبشة إلا معتقداً الاسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك، فوالله إنه لرسول الله حقا، قال: أمتحقق ذلك؟ قال: أي والله فأطعني، فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية إلى الشام يدعو أخوال أبيه إلى الاسلام فبلغ السلاسل من بلاد قضاعة، وهو ماء بأرض جذام، وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، وكان معه مائة رجل، فخاف عمرو فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فأمده بجيش مائتي فارس من المهاجرين والأنصار وأهل الشرف منهم : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم وإنما أنتم مددي، فقال أبو عبيدة بل أنت أمير من معك، وأنا أمير من معي فأبى عمرو فقال أبو عبيدة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليّ إذا قدمت على عمرو فتطاوعا ولا تختلفا فإن خالفتني أطعتك،قال عمرو،فإني أخالفك فسلم إليه أبو

عبيدة وصلى خلفه في الجيش كله، وكانوا خمسمائة، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على عثمان، وفي سنة إثنتي عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان الأموي، وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى الشام وسار إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق، وأوّل شيء فتحه من الشام بصرى صلحاً، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، واستخلف عمر رضي الله عنه أبا عبيدة فولي الجيش، وفتح الله تعالى عليه الشام، وولى يزيد بن أبي سفيان على فلسطين وهي كورة قصبتها الرملة، ولما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، ومات معاذ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان، ومات يزيد، فاستخلف أخاه معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه عمر رضي الله عنه بعهده على ما كان عليه أخوه يزيد وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس في سنة ثمان عشرة من الهجرة، وعمواس بفتح العين المهملة والميم، وفي آخرها سين مهملة وهي قرية بالشام بين نابلس والرملة، وكان الطاعون بها في العام المذكور، وقيل بل مات يزيد بن أبي سفيان في ذي الحجة من سنة تسع عشرة بدمشق ، والله أعلم وذلك بعد فتح قيسارية، وكان عمر رضي الله عنه قد ولى عمرو بن العاص بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن، وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء، وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص ، ثم جمع الشام كلها لمعاوية، وكتب إلى عمرو فسار إلى مصر فافتتحها في سنة عشرين للهجرة، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر رضي الله عنه، فأقره عثمان رضي الله عنه أربع سنين أو نحوها، ثم عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان أخا عثمان من الرضاعة فاعتزل عمرو بن العاص في ناحية فلسطين، وكان يأتي المدينة أحيانا، فلما قتل عثمان رضي الله عنه سار إلى معاوية باستجلاب معاوية إياه، وشهد صفين مع معاوية، وكان منه في صفين و قضية التحكيم ما هو مشهور عند أهل العلم بهذا الفن، وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر يوليه

مصر، وكتب إليه في بعض الأيام يطلبها من معاوية:

معـــاوي لا أعطيــك دينـــي ولم أنـــل
بـه منـك دنيـا فـانظـرن كيـف تصنـع

فـــإن تعطنــي مصرا فــاربــح بصفقــة
أخـــــذت بها شيخـــا يضر وينفــــع

ثم ولاه معاوية مصر، ولم يزل بها أميرا إلى مات يوم عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين، وقبل سنة إحدى وخمسين، والأول أصح ، وعمره تسعون سنة، ودفن بسفح المقطم، وصلى عليه ابنه عبد الله ، ولما رجع صلى بالناس العيد، ثم عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص، وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان، فمات عتبة بعد سنة أو نحوها، فولى معاوية مسلمة بن مخلد، وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، وكان من الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي، وكان عمر رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه، قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد، يريد الأضداد.

وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له: يا أبا عبد الله كنت أسمعك كثيراً تقول: وددت لو رأيت رجلاً عاقلاً حضرته الوفاة حتى أسأله عما يجد، فكيف تجد؟ فقال: أجد كأن السماء مطبقة على الأرض، وكأني بينهما، وكأنما أتنفس من خرم إبرة، ثم قال: اللهم خذ مني حتى ترضى، فدخل عليه ولده عبد الله فقال له: يا ولدي خذ لك الصندوق، قال: لاحاجة لي به فقال إنه مملوء مالاً، فقال: لاحاجة لي به، فقال: ليته مملوء بعراً، ثم رفع يديه وقال اللهم إنك أمرت فعصينا، ونهيت فارتكبنا، فلابريء فاعتذر، ولا قوي فانتصر، ولكن لا إله إلاّ أنت، ثم فاض.

قلت: يقال فاض وفاظ بالضاد والظاء أي مات، قال الشاعر:
لا يـــدفنـــــون منهـــم مـــــن فـــاضـــا

فأما خارجة المذكور في هذا المثل فإنه خارجة بن حذافة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي، شهد فتح مصر، وكان أمير ربع المدد الذين أمد بهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص في فتح مصر، واختط بمصر، وكان على شرطة مصر في إمرة عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان الأموي، قتله خارجي بمصر سنة أربعين للهجرة، وهو يحسب أنه عمرو بن العاص، وهكذا قاله ابن يونس في تاريخ مصر.

وذكره في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر وساق نسبه على هذه الصورة ثم قال: يقال إنه كان يعد بألف فارس، ثم ذكر بعض أهل النسب والأخبارأن عمرو بن العاص كتب إلى عمر رضي الله تعالى عنه يستمده بثلاثة آلاف فارس، فأمده بخارجة بن حذافة، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود الكندي، وشهد خارجة فتح مصر، وقيل إنه كان قاضيا لعمر و بن العاص بها، وقيل إنه كان على شرطة عمرو بن العاص، ولم يزل بها إلى أن قتل قتله أحد الخوارج الثلاثة الذين كانوا انتدبوا لقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فأراد الخارجي قتل عمرو فقتل خارجة هذا وهو يظنه عمراً، وذلك أنه كان قد استخلفه عمرو بن العاص على صلاة الصبح ذلك اليوم، فلما قتله أخذ وأدخل على عمرو بن العاص، فقال: من هذا الذي أدخلتموني عليه؟ فقالوا: عمرو بن العاص، فقال: ومن قتلت؟ فقالوا :خارجة، فقال: أردت عمراً وأراد الله خارجة، وقيل إن الخارجي الذي قتله لما أدخل على عمرو قال له عمرو: أردت عمراً وأراد الله خارجة، والله أعلم بمن قال ذلك منهما، والذي قتل خارجة هذا هو رجل من بني العنبر ابن عمرو بن تميم يقال له دادويه، وقيل إنه مولى

لبني العنبر، وقد قيل إن خارجة الـذي قتله الخارجي بمصر على أنه عمرو ابن العـاص رجل يسمى خـارجة من بني سهـم رهط عمرو بـن العاص، وليس بشيء انتهى ما قاله صاحب الاستيعاب.

وقال غيره إن عمرو بـن العاص أصابه شيء في بطنه فتخلـف في منزله تلـك الليلة، وكـان خارجـة يعشي النـاس فضربه الخارجـي فقتله، وكـان عمرو يقول: ما نفعني بطني قط إلا تلك الليلة.

قلت: فهـذا أصل المثـل في قولهم: أردت عمـراً وأراد الله خارجـة وإلى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في قصيدته التي رثى بها بني الأفطس ملوك بطليوس التي أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر بقوله:

وليتهـا إذ فـدت عمـراً بخـارجـة
فـدت عليـا بمـن شـاءت مـن البشر (١٦)

وهي من غرر القصائد جمعت تـاريخاً كبيراً، وشرحها الأديب أبو مروان عبد الملك بـن عبد الله بن بدرون الحضرمي الاشبيلي شرحا مستـوفيا، وهذا البيـت يحتاج إلى شرح أيضـا وهـو من تتمـة الكـلام على المثل المذكـور لكننـي أذكره مختصراً فـإنه طـويل ، ذكـر أهل التـاريخ، أن علي بـن أبي طالـب رضي الله عنه لما بويـع بالخلافة في اليـوم الذي قتل فيـه عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج عليه من قاتلـه في وقعة الجمل، وقد ذكرت طرفا من هذه الـوقعة في ترجمة يموت بـن المزرع ساقها الكلام هنـاك، فذكرت المقصود منـه، ثم كانـت وقعة صفين عند خـروج معاوية بـن أبي سفيان الأمـر ،بعمـرو بـن العاص على عليّ بـن أبي طـالـب رضي الله عنهـم، فتـوجه . بهـم مـن العراق وجـاؤوه مـن الشـام والتقوا على صفين، وهـو موضـع على شاطـىء الفرات بـالقرب مـن الرحبـة، وهي وقعـة مشهورة، وكانت في سنة سبـع وثلاثين من الهجرة، ولما غلب أهل الشـام طلبوا من

- ٩٦٧١ -

علي بن أبي طالـب رضي الله عنه التحكيم، فأجـابهم بعد معاودات كثيرة فخرج على عليّ جماعـة من أصحابـه، وقالوا : حكمـت في دين الله، و لا حكم إلاّ لله، ورحلوا إلى النهروان، فمضى إليهم وقاتلهم، واستأصلهم إلاّ اليسير منهـم، وهي أيضا وقعة مشهـورة بقتال الخوارج، ولما طال الأمر في ذلك اجتمعوا وقالوا: إن عليا ومعاويـة وعمرو بن العاص قد أفسدوا أمر هذه الأمة، فلو قتلناهم لعاد الأمر على حقه، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي أنـا أقتل عليـا، قالـوا، فكيف لـك بذلك؟ قال: أغتـاله، وقـال الحجاج بـن عبد الله الصيرمي:أنـا أقتل معـاوية، ويعرف هـذا الصيرمي بالبرك، وقال دادويـه وقيل زادويه، وقد تقدم الكـلام عليه في الكلام على خارجـة بن حذافـة: أنا أقتل عمراً واجمعـوا أمرهم على أن يكـون ذلك في ليلة واحـدة، فدخـل ابن ملجـم الكوفـة وعلي رضي الله عنه بها، واشترى سيفا بألـف درهم فسقاه السم حتى لفظه، فلما خـرج عليّ لصلاة الصبح كان ابن ملجم قـد كمن له فضربه به على رأسه، وقـال: الحكم لله يا علي لا لك، وقيل إنه ضربه في صلاة الصبح، وذلك في صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت مـن شهر رمضان في سنة أربعين مـن الهجرة، وقيل غير هذا التـاريخ، وقدم البرك الصيرمـي على معاويـة بدمشق فضربـه فجرح إليته، وهـو في الصلاة، ويقال إنـه قطع عـرق النسل، فما أحبل بعـدها، وأما عمـرو فقد سبـق الكلام عليه عنـد قتل خـارجة، وهـذا تفسير المثل والبيت الشعر على سبيل الاختصار والله أعلم.

من تاريخ ابن أبي الدم

ودخلت سنة تسعين وأربعمائة

فيها: فتح قوام الدولة الرحبة وفيها فتحت الفرنج أنطاكية وسميساط. وفيها فتح الأفضل أمير الجيوش دمشق، وفيها ولد الآمر بن المستعلي، وفيها كان الغلاء العظيم المعروف بعام الجماجم. وفيها استولى بركيارق إبن ملكشاه على خراسان ورتب بها أخاه سنجر، وفيها قتل برسق الكبير، قتله ديلمي باطني، كان متمرضاً في مطبخه.

ودخلت سنة إحدى وتسعين

فيها : ملكت الفرنج الرها والحديثة، ومرعش، وكيسون، وقتلوا من المسلمين خلقاً عظيماً، واستنفر المسلمون لهم، واجتمعت ملوك الشام: دقاق بن تتش ، وأتابكه طغتكين، وحسين صاحب حمص، وصاحب الموصل في عدد عظيم، وحصروا أنطاكية، وكان الفرنج فيها في قل فسألوا الأمان على نفوسهم ليخرجوا فلمْ يجيبوهم، فخرجوا إليهم محاربين فانكسر المسلمون من غير قتال، وفيها فتح الفرنج المعرة بعد حصار شديد، وأقاموا بها ستا وثلاثين سنة، إلى سنة سبع وعشرين وخمسمائة، ففتحها المسلمون ، وسنذكره إن شاء الله تعالى، وضربوا الجزية على أهلها ، وأظهروا فيها عدلاً كثيراً طمعاً في بقائها في أيديهم وفتح غيرها[1] وجلا من أهلها خلق عظيم.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها : فتحت الفرنج بيت المقدس، ويقال أنهم قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس.

١ ـ كذا بالأصل وهو وهم ذلك أن الفرنجة أبادوا سكان المعرة، وهدموا المدينة.

ودخلت سنة ثلاث وتسعين

فيهـا: مات ابـن جـزلة الطبيـب صـاحب المنهـاج، وكـان من العلـم والفضل بمكانٍ عالٍ.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فيها: ملك الفرنج سروج من المسلمين.

ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها: توفي المستعلي صاحب مصر، وقام بالأمـر بعده ابنه الآمر بأحكام الله وكنيته أبو علي، وسنه يومئذ سبع سنين.

ودخلت سنة ست وتسعين

فيها: تـوفي الملك دقـاق، وقيل بـل مات في سنـة ثمان وتسعين، وفيها توفي عماد الـدولة أبو المظفر إبـراهيم طغماج خان بن نصر إيليـك. وفيها جرت حـروب بين بركيـارق وبين أخيه محمـد، وكان الأمـر قد استقـر أن يكون : بركيارق السلطان، ومحمد الملـك، ويكون لمحمد كنجة وأزرنكان، وديار بكـر، وديار مضر، وربيعـة، ثم غـدر محمد وحـارب أخاه بـركيارق بالقـرب من الري، فكسر محمـد وجاء إلى أصفهـان ملك كاشغـر وكيش وما يتصـل بهما إلى بلا سفـون، وكان متدينـاً ورعاً لايأخـذ من أحـدٍ مالاً حتـى يستفتي الفقهـاء، وورد عليـه أبو شجـاع العلوي الـزاهـد فوعظـه وعنفه، وقـال له: أنت لاتصلـح لما أنت فيه، فغلـق بابـه قاصداً العـزلة، فـاجتمع النـاس بسمـرقنـد وقالـوا: أخطـأ هذا الـزاهـد، وأنـت صالـح ولاتسمـع بما أشار بـه عليك، ففتـح بابـه، وفتـح فرغـانة، وأقـام مالكـاً

لسمرقنـد وأعمالها والأماكـن المذكورة تسعـاً وعشرين سنـة وولي ابنه أحمد أرسلان خان.

وفيهـا ظهر في السماء بـالمغرب كـوكب أبيـض له ذؤابـة، مقدارهـا في العين مائة وخمســون ذراعاً. وفيها قتلت الاسماعيليـة جناح الدولة بجـامع حمص.

ودخلت سنة تسع وتسعين

فيها: استـولى الملك رضوان على أفـامية، واستولى أتـابك طغتكين على صلخد وبصرى.

ودخلت سنة خمسمائة

فيها: فتـح السلطان محمد قلعـةً للباطنيـة منيعة، واستنزل منهـا رئيس البـاطنية أحمد بـن عبد الملـك بن عطـاش، وقتله وسلخـه، وقتل ابنـه ، وألقت زوجتـه نفسها مـن أعلى القلعة فهلكت، وكـان لابن عطـاش فيه اثنتي عشـرة سنـة، وصار كل مـن في نفسه ضغـن على صاحبةادعـى عليه هذا المذهـب فيقتل. وفيهـا تسلم سيـف الدولـة صدقـة بن منصـور بن دبيس قلعـة تكريـت ووقع بين السلطـان أبي شجاع محمـد وبين صدقـة حـروب ومكاتبـات حتـى قتل صـدقة، وحمل قسيـم الـدولة ، آق سنقـر البرسقـي شحنة بغـداد إلى السلطان محمـد قاتـل صـدقة بـزعش الأشـل وسعيدا بـن صدقة ، وكـان عمر صدقة تسعـا وخمسين سنة ومدّة إمـارته إحدى وعشرين سنة، وكـان صدقة تاريخ الأماجد الكـرماء في العرب له حلـم ووفاء بـالعهد، ومحافظـة، وكانـت داره ببغـداد حرمـاً لكل خـائف وملاذا لكل ملهوف.

ودخلت سنة إحدى وخمسمائة

فيها تسلم ينال بانياس.

ودخلت سنة ثلاث وخمسمائة

وفيها: سلمت الموصل إلى مودود، وفيها مات الخطيب أبو زكريا يحيى ابن بري النحوي، الإمام في علم النحو واللغة وغيرهما، صاحب أبي العلاء بن سليمان وتلميذه، وفيها مات ابن الخازن الخطاط واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين.

ودخلت سنة خمس وخمسمائة

فيها توفي الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله، مولده سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، تفقه على أستاذه إمام الحرمين ولازمه إلى أن مات إمامه ، وقد علت درجته في العلم ثم تجول، وولي التدريس بالنظامية ببغداد وكان تزهد وأقام بدمشق وبيت المقدس وبمكة مدة طويلة سالكاً طريق الزهد والعبادة، وصنف في مدة زهده كتباً جمةً في علوم الورع والزهد، كإحياء علوم الدين، وجواهر القرآن، وكيمياء السعادة،ثم طلب من بغداد وولي التدريس بالنظامية . وصنف في علم المذهب والأصولين ثم توجه إلى بلده طوس فبني له خانكاه، وأقبل على علم الحديث وسماعه إلى أن مات ودرس بنيسابور، وبطوس مدةً، وكان رضي الله عنه عالماً زاهداً عاملاً، جمع بين العلم والعمل، وأنجب من أصحابه خلق، وأسعد في تصانيفه، ودفن بطوس.

وفيها تسلم الفرنج طرابلس الشام من القاضي ابن عمار بعد محاربة سبع سنين، وفيها أو في التي قبلها تسلم الفرنج جبلة من المسلمين، وفيها تسلم الفرنج بيروت وصيدا، وفيها كان بدء أمر المهدي أبي عبد

الله محمد بن تومرت وقيل إن نسبه يصل إلى الحسين عليه السلام. وكان فقيهاً في ابتداء أمره، ورافق الغزالي والكيا ، والطرطوشي، وكان رأى في منامه كأنه يشرب ماء البحر، وروي أنه ظفر بكتاب الجفر من بعض الخزائن، ورأى فيه صفة عبد المؤمن بن علي، وأنه يملك فحج ومضى إلى المهدية وسلطانها يومئذ يحيى بن تميم، ونزل في مسجد، وليس معه إلاّ ركوة وعصا، فبلغ يحيى خبره وأحضره وسأله الدعاء، فدعا له ، وتسامع أهل البلد وقرأ عليه العلم، ثم انتقل إلى المنستير، فنزل بالقصر، ثم انتقل إلى قرية من قرى بجاية يقال لها ملالة، فلقيه أبو محمد عبد المؤمن بن علي فصحبه فأخبره المهدي عن اسمه وقبيلته فأخبره باسمه، وأنه من قيس من سليم من شعب بني الشريد،فقال له المهدي أنت الذي بشر بك النبي « صلى الله عليه وسلم» في قوله: « إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمن برجل من قيس، فقيل له من قيس يارسول الله؟ فقال: من سليم»فاستبشر عبد المؤمن بذلك، وعلم أنه مقيم دعوته، فلم يزل المهدي مصاحباً له حتى توفي المهدي.

ودخلت سنة سبع وخمسمائة

فيها توفي الملك رضوان ملك حلب، وفيها ملك حلب تاج الدولة الأخرس بن رضوان، وفيها قتل مودود بجامع دمشق، وفيها تسلم أتابك طغتكين صور من المصريين، وفيها قتل الآمر بأحكام الله صاحب مصر، في الجزيرة بمصر، قتله الاسماعيلية، وفيها مات أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين الشاشي صاحب المستظهري، الفقيه الشافعي مولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة، أخذ العلم عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي، وكان إماماً عالماً، وولي التدريس بنظامية بغداد، وفيها مات وزير المستظهر بالله، أبو القاسم علي بن محمد بن جهير.

ودخلت سنة ثمان وخمسمائة

فيها : زلزلت الأثارب وخسف بمرعش وسميساط. وفيها كانت وقعة في الشام بين آق سنقر البرسقي وبين إيلغازي بن أرتق واتفق إيلغازي، وأخذ ابنة طغتكين صاحب دمشق، وخالفا السلطان فأفرج عن إيلغازي وأخذ ابنه اياز وحبسه، ونفذ السلطان العساكر إلى الشام مقدمها برسق، وتقدم إليهم أن كل بلد يفتحونه يسلمونه إلى بركات بن قراجة، ويعقد له إمارة الشام، فكان ذلك مما أوجب مخامرة العساكر، وقالوا: أي حظ لنا في فتح البلاد وتسليمها إلى هذا، فخرج عليهم بروجيل الفرنجي صاحب أنطاكية، في خمس مائة فارس، وألفي راجل، فتخاذلوا وانهزموا على كثرة جمعهم، وقتل الفرنج من المسلمين جماعة وأحرقوا الأساری.

ودخلت سنة تسع وخمسمائة

فيها: فتح برسق حماه.

ودخلت سنة عشر وخمسمائة

فيها: مات السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، واستقرت السلطنة لولده محمود. وفيها قتل لؤلؤ االخادم صاحب حلب، قتله قوم من الأتراك وهو متوجه إلى قلعة جعبر.

ولما دخلت سنة اثنتا عشرة وخمسمائة

توفي المستظهر بالله بها لسبع بقين من ربيع الآخر ، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وأشهراً، فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبامنصور الفضل ، المسترشد

بالله، وولي الخلافة بعد أبيه، وأبا عبد الله محمد، المقتفي لأمر الله، وأبا الحسن، وأبا طالب، وإبراهيم، واسماعيل وعيسى، وابنتين.

خلافة المسترشد بالله

أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله ، ولد في رابع ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد، تدعى طرفة ، بويع بالخلافة يوم موت أبيه في سابع عشرين ربيع الآخر، سنة اثنتي عشرة وخمسمائة . وفيها فتحت الفرنج أعزاز والرها، وتسلم إيلغازي حلب.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها: ورد سنجر بن ملكشاه من خراسان إلى الري فملكها وتسمى بالسلطنة. وفيها عبر نجم الدين صاحب ماردين الفرات، فكسر فرنج أنطاكية، وقتل ملكهم روجال، وأسر منهم على تل عفرين على ما قيل عشرة آلاف ما بين فارس وراجل، ثم بعد ستة أيام وقعت حرب بين المسلمين والفرنج على دانيث من أرض سرمين. فكسر المسلمون نصف الفرنج، وكسر الفرنج نصف المسلمين، وهلك من الفريقين خلق عظيم، ثم بعد ذلك نصر الله المسلمين، وأخذوا قلعة الآبار.

ودخلت سنة أربع عشرة

فيها: تسلم أتابك طغتكين تدمر، والشقيف، وفيها كسر إيلغازي الفرنج على البلاط من أعمال حلب،وأخذ صاحب أنطاكية أسيراً، وفيها أطلق نجم الدين بن أرتق لأهل حلب جميع ماكان جدده عليهم الملك رضوان من الكلف، فكان مقداره في كل سنة اثني عشر ألف دينار، وزاد الكيل والذراع.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها قتل الأفضل أمير الجيوش بمصر، وفيها تسلم الفرنج أعزاز من المسلمين.

ودخلت سنة ست عشرة

فيها: مات الحريري، صاحب المقامات، وهو أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان، ولد في حدود سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكان السبب في عمله المقامات أنه كان يوماً جالساً بمسجده بالبصرة، ويعرف بمسجد بني حرام، فدخل عليه شيخ، عليه أهبة السفر، رث الحالة، فصيح اللهجة، فسأله من أين هو فقال من سروج، وكنيتي أبو زيد، فعمل الحريري المقامة الحرامية، فبلغ أنو شروان بن خالد، وزير المسترشد بالله، وزير السلطان محمد ذلك، وطالع المقامة فأمره أن يضم إليها غيرها، فامتثل أمره وعمل المقامات المشهورة به، وفيها في صفر قتل السلطان محمد وزيره خواجا بزرك.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها: برز المسترشد بالله لحرب دبيس بن صدقة، فخرج لابساً قباء أسود ، وعمامة وبردة النبي — صلى لله عليه وسلم — وعلى رأسه طرحة، وتهيأ، دبيس للقتال وهو بالحلة ، وكان في عساكر دبيس البغايا والمخانيث، والملاهي يضرب بها، ولايسمع في عسكر المسترشد إلاّ قراءة القرآن والتسبيح،فهزم دبيس أقبح هزيمة، بعد أن قتل منهم خلق عظيم، ونصر الله المسترشد وأصحابه، ونهبوا الحلة، وكان سبب ذلك عصيان دبيس وسفكه الدماء، وقطعه الطريق، حتى بطل الحجيج في سنة ست عشرة خوفاً، وبعث المسترشد إليه يخوفه ويعظه ويحذره فلم ينته فأوقع به النهب والقتل، ولما كسر دبيس انهزم إلى الملك طغرلبك

ابن أخي السلطان محمود، لما علم من طغر لبك من طلبه الملك، فسار طغر لبك ودبيس معه بعسكرهما نحو بغداد. وفيها تسلم الفرنج قلعة الأثارب، وأقامت في أيديهم إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وفيها حاصر بلك حلباً وتسلمها.

ودخلت سنة ثماني عشرة

فيها: وصل طغر لبك ودبيس إلى القرب من بغداد، ولم يشعر المسترشد بذلك، فمرت جمال عليها أمتعة ومال للمسترشد فأخذها دبيس، وكان المسترشد مبرزاً على الدسكرة ، فلما بلغه ذلك سار حتى أشرف على دبيس وأصحابه، فلما علم دبيس أنه لامفر له نزل وقبّل الأرض بين يدي المسترشد وقال: أنا العبد المطرود المذنب، أما آن له أن يعفى عنه، فلم يجبه أحد، فعاود القول والتضرع ، فرق له المسترشد وهم أن يعفو عنه،فصرفه الوزير عن ذلك، فلما رأى دبيس ذلك أخذ أصحابه وانصرف، وعاد المسترشد إلى بغداد. وفيها تسلم البرسقي حلباً، وفيها جمع الجوسلين الرومي عساكر الفرنج ونزل على حلب، وأقام أربعة أشهر، وخرب المشاهد والضياع ، وخرج جماعة من أهل حلب إلى تمرتاش سألوه نصرتهم فلم يجبهم، فساروا إلى آق سنقر البرسقي، وكان قد مرض مرضة، ونذر إن عافاه الله تعالى ليفرجنّ عن حلب الشدة، فسار مع شيوخ الحلبيين في جيش قاصداً حلب، فلما علم الفرنج بذلك رحلوا عن حلب مرحلة إلى جبل جوشن، وضربوا الخيم عليه، ووصل آق سنقر إلى حلب في ذي الحجة من السنة ، وصعد قلعة حلب، وتحولت الفرنج إلى الأثارب، وتحول المسلمون إلى السعدي. وفيها قتل بلك ملك، ضربه مجير الدولة البعلبكي صاحب منبج في ودجه فهلك، وفيها قتل الفرنج محمود بن قراجة صاحب حماة على أفامية، وفيها نزل آق سنقر البرسقي. بمجمع المروج بين حمص وحماه، وعزم المسلمون على الجهاد، فأول موضع حاصروه وفتحوه كفر طاب، فتحها آق سنقر البرسقي

وسلمها إلى صاحب حمص، ثم حاصر قلعة أعـزاز ونقبوها وهرب الفرنج منها، وفيهـا في نصف ربيع الآخر قتـل القاضي أبو الفضل بـن الخشاب رحمه الله ، تبعـه قوم بعـد صلاة العشـاء الآخرة فقتلـوه ، فأمـر آق سنقر البرسقي بقتل جماعة من أهل حلب ممـن اتهم بالباطنية لأجله. وتوجه آق سنقر إلى الموصل.

ودخلت سنة عشرين وخمسمائة

فيهـا: دخل السلطـان محمـود بغداد، ونقـل المسترشـد باللـه الحرم إلى الجانـب الغـربي، ونـزل السلطـان محمـود بـالجانـب الشرقـي، ونهب دار الخلافة، وجـرى قتال ونهب، ثـم اتفق الصلـح، وحلف السلطـان محمود للمسترشد بالله، واختلط الجيشان على إتفـاق. وفيها وصل قتلغ آبه غلام السلطان محمود بتوقيع من مسعود بـن آق سنقر البرسقي إلى نائبه بحلب تومـان، حتى يسلـم إليه حلـب فلم يقبـل التوقيـع، وكان بصحبتـه مجد الديـن الطويل، صـاحب حران فدفـع قتلغ آبه التـوقيع إليه مـن مسعود وفيه صورة غـزال وطال الأمر على قتلغ آبـه، فعاد إلى مسعود فوجـده قد مات على باب الـرحبة، وهو مطروح على نطع، وقد اشتغـل الناس بنهب بعضهـم بعضاً، فعـاد قتلغ آبـه إلى حلب وحلـف لتومـان وتسلم قلعـة حلب منه .

وفيها : قبض السلطان سنجر بن ملكشاه على دبيس بن صدقة، وكان نازلاً عليه، واعتقله في قلعـة تقرّباً إلى المسترشد بالله، وفيهـا قفز جمع من الباطنية على آق سنقـر البرسقي فقتلوه بجامع الموصـل في يوم جمعة ، فلما قتـل ورد رسول السلطـان سنجر بـن ملكشاه إلى بغـداد يأمـرهم بتسليم الموصل إلى دبيس بن صـدقة، وجميع ما كان بيد آق سنقـر البرسقي فتهيأ دبيس للمسير، فبعـث المسترشد إلى السلطـان محمود لايكـون ذلك أبـداً، ووقـع اختيار المسترشـد على أن يولي الموصـل لعماد الديـن زنكي بـن آق

سنقر، وزنكي يومئذ شحنة بغداد، وبذل المسترشد للسلطان محمود مائة ألف دينار على تولية زنكي الموصل، فتسلمها وسار السلطان محمود إلى همذان.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين

فيها: تسلم أتابك زنكي قلعة حلب والرحبة.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

وفيها عاد السلطان محمود إلى بغداد فدخلها وانحدر إليه أتابك زنكي من الموصل بهدايا، ثم عاد إلى الموصل ومعه توقيع السلطان محمود بالموصل والجزيرة وحلب والشام والعواصم وما اتصل بذلك، وفيها نزل الفرنج دمشق بقرية السعادة. وفيها تسلم الفرنج بانياس من الاسماعيلية، وفيها قتل المزدقاني بقلعة دمشق، وفيها قتل اخواجا بهرام ومعه جماعة كثيرة بوادي التيم، وفيها خرج سيف الدين سوار بعسكر حماه وأوقع بالفرنج على كفر طاب، فقتل منهم خلقاً عظيماً ، وفيها وصل أسطول الفرنج في البحر، وسمعوا خبر دمشق وخلوها من سلطان فطمعوا بها فجمعوا خمسين ألف فارس وراجل، وخرجوا من البحر، ونزلوا على دمشق ثم أناخوا بحوران، فأنفذ تاج الملوك إلى سيف الدين سوار، وإلى العرب، فجاء الأمير مرى بن ربيعة، ومعه خلق من العرب وضربوا مع الفرنج مصاف القتال، فقتلوا من الفرنج أمماً لاتحصى، وأحرقوا خيمهم ورجالهم ورحلو هم عن بلد دمشق عرياً، وفيها مات السلطان محمود بباب أصفهان، وولي أخوه مسعود مكانه، هكذا ذكره بعض المؤرخين، وقيل إن وفاته كانت في سنة خمس وعشرين.

ودخلت سنة أربع وعشرين

فيها قتلت الباطنية الآمر بالله أبا علي، صاحب مصر ابن المستعلي بالله، وعمره يومئذ أربع وثلاثون سنة، وتولى مكانه أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم المستنصر ولقب بالحافظ الكفيل، وفي ثالث يوم من جلوسه تغلب الأفضل أبو علي ابن أمير الجيوش ، بدر على الدولة، وقبض على الحافظ واعتقله بالقصر، فتحالف جماعة من مماليك الأمير على قتل أبي علي، فقتلوه بسيفه، واحتزوا رأسه، ويقال إنه كان سيف الحسين بن علي عليهما السلام، وأخرجوا الحافظ من ساعتهم وبايعوه، وفيها كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن تومرت المهدي صاحب بلاد المغرب.

ودخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها قتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، وقتلت أم ولده شمس الملوك إسماعيل بعده. وفيها قبض دبيس بن صدقة بحلّة حسان بن مكتوم من أعمال دمشق، وقد ضل عن طريقه إلى صرخد، وتقطع أصحابه فلم يكن له مهرب من العرب، فقبضوا عليه وحملوه إلى دمشق، فقايضه أمير دمشق ابن طغتكين من عماد الدين زنكي وكان عدواً لدبيس، فظن دبيس أنه سيهلكه، فلما حصل في قبضته أكرمه وعظمه وخوله المال والسلاح والرجال حتى قدمه على نفسه، وكان المسترشد بالله لما بلغه أسر دبيس بدمشق بعث ابن الأنباري كاتب الإنشاء إلى دمشق ليأخذ دبيس من الأسر، للعداوة التي كانت بين دبيس وبين المسترشد، فلما وصل ابن الأنباري إلى الرحبة في الماء علم بحصول دبيس في يد زنكي ثم نفذ زنكي عسكرا إلى الرحبة، قبضوا على ابن الأنباري وحملوه إلى قلعة الموصل.

ودخلت سنة ست وعشرين

فيها وصل الملك مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، وورد إليها قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان، ومعه سلجوق شاه بن محمد وهما يطلبان السلطنة . وقراجا أتابك سلجوق، وانحدر زنكي بن آق سنقر من الموصل لينضم إلى الملك مسعود، فلما بلغ إلى تكريت جهز قراجا إليه ألفي فارس، فهزموا زنكي وقتلوا من أصحابه جماعة، وأسروا جماعة، وأصلح المسترشد بالله بين الملك مسعود وبين أخيه سلجوق شاه، وخطب لهما جميعاً، وقطعت الخطبة لسنجر بالعراق، واستقر الحال على أن يخرج المسترشد بنفسه مع مسعود وسلجوق لمحاربة سنجر، وقد خطب له على منابر الشام وديار ربيعة، ومضر، وديار بكر والعراق وأصفهان وفارس، وأما خراسان فله خاصة دون سائر الناس حتى سمي ذا القرنين سنجر، وورد سنجر بالعساكر العظيمة، من خراسان، والتقى الجمعان وقامت الحرب، فقتل قراجا وانهزم مسعود وسلجوق شاه، وأما المسترشد فإنه كان بخانقين ولم يشهد حرباً، وقصد محاربة زنكي بن آق سنقر ودبيس، فالتقوا على فرسخين من غربي بغداد، ووقع بينهم الحرب نصر فيها المسترشد وكسر عسكر زنكي ودبيس، وانهزما، وعاد المسترشد إلى بغداد منصوراً، وأما سنجر فإنه عاد إلى بلاده وأخذ البلاد التي بيد قراجا، وهي بلاد فارس وخوزستان، وكاتب زنكي بن آق سنقر ودبيس ابن صدقة ليقصدا بغداد ويفتحاها، فتوجها إليها في سبعة آلاف فارس، فلما شارفاها لقيهما المسترشد بألفي فارس وحاربهما فانتصر عليهما وغنم عسكرهما وانهزما.

ودخلت سنة سبع وعشرين

وفيها دخل السلطان مسعود بن محمود إلى بغداد، فخطب له بالسلطنة بها، وبعده لابن أخيه داود، وخرج المسترشد بالله ومعه

السلطـان مسعود وابـن أخيه داود فخيـم على بغـداد، ثم سير السلطـان مسعـود وداود إلى أذربيجـان لحرب طغـرل بن محمـد، صـاحـب همذان، فساروا ولقـوه وهزموه، واستقر مسعـود بهمذان، وفيها توجـه المسترشد إلى الموصـل بنفسه لمحـاربـة زنكي، فـأغلق زنكـي بـابها في وجه المسترشـد، فضرب المسترشد عليها خيمه.وجمع عليها عالماً لايحصـى، وحاصرها قريباً من ثـلاثة أشهر، فبعث إليـه زنكي ، وضمن لـه أن يحمل له عوضـاً عن جميع ما خرج منه، ويذل له الطاعة.

ودخلت سنة ثمان وعشرين

فيها مات ابن تومرت بالمغـرب، وظهر عبد المؤمن، وفيها مات القاضي أبو علي الحسن بن إبـراهيم بن علي بن برهون الفارقـي، الشافعي، ولد في سنـة ثلاث وثـلاثين وأربعمائة، ودرس العلم في شبيبتـه على يد أبي عبـد اللـه الكازروني، صـاحـب المجـاملي، فلما توفي الكـازروني في سنـة خمس وخمسين وأربعمائة، قصد الشيخ أبا اسحـق الشيرازي، إلى بغداد، والشيخ أبـا نصر بن الصبـاغ وتفقـه عليهما، وحفـظ المهذب للشيـخ أبي اسحـق والشامـل للشيخ أبي نصر، وكـان يقول لأصحـابه كـررت البارحـة الربـع الفلاني من المهـذب، والربع الفلاني من الشامـل، وقد نيف على التسعين سنة، وولي القضاء بواسط، وتوفي فيها، وقد قارب المائة سنة ، وفيها قطع المسترشـد ذكر السلطـان مسعود مـن الخطبـة، وسار إلى همـذان قاصـداً محاربته، فـالتقوا وكسر المسترشد مـن غير قتال، وأخـذ جميع ما معـه من خيلٍ ومالٍ وأسلحـة، وأسروا جميع كبار الدولـة ، وضرب السلطان مسعود في دهليزه خيمة أقعد فيها المسترشد وعليـه الموكلون به، وبعث شحنة له إلى بغداد فلم يرده أحـداً، ثم أعاد الراشد باللـه، وهو ولي عهد المسترشد باللـه، الخطبة للملك مسعـود، وأعاد النـوبة التي تضرب بـدار المملكة، وقطع خطبة داود.

ودخلت سنة تسع وعشرين

فيها قتل شمس الملوك بدمشق، قتلته أمه، وفيها قتل محمود بن بوري ابن طغتكين أخاه اسماعيل صاحب دمشق، وتقلدها بعده، وفيها قتلت الاسماعيلية بوري صاحب دمشق.

وفيها سار السلطان مسعود إلى أذربيجان والمسترشد معه أسير موكل به حتى نزلوا قريبا من مراغة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لقتله، فدخلوا عليه لقتلوه وقتلوا معه ثلاثة من أصحابه، فلما علم السلطان مسعود بذلك ركب خائفاً وقتل الباطنية جميعهم، وأحرق جثثهم بعد أن كان الصلح استقر بين المسترشد وبين السلطان مسعود، على مال يحمل إلى السلطان مسعود ، واستقر عود المسترشد إلى بغداد، ومشى السلطان مسعود بين يدي المسترشد حاملاً غاشيته، وبينما هم كذلك، إذ قتل المسترشد كما ذكرناه، وحملت جنازته إلى مراغة، فدفن بها ، وخرج أهل مراغة حفاةً، حاسري رؤوسهم، وكسروا المنابر، وعطلوا المساجد، ولما ورد الخبر بقتل المسترشد إلى بغداد كسروا منابر الجوامع، واقتلعوا أبواب المساجد، وناحوا في الطرقات وجهروا بسب الملكين سنجر ومسعود، وكان قتله في سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان المسترشد بالله عالماً فصيحاً مدبراً ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وكان شديد الهيبة، مشهوراً بالشجاعة، كتب إليه مرةً وزيره الحسن بن علي بن صدقة، وقد نقم عليه أمراً فصرفه:

ستعلم إن أقصيتني أي خادم
يفوتك إن سارت بليل كتائبه
وتندم إن ظلت لغيرك أنعم
علي وقادتني إليه مواهبه

فكتب المسترشد إليه بخطه تحت لفظه قوله: خادم « مثله كثير» ،

وتحت قوله تندم : « ياهذا الندم أولى بك» . وكتب الوزير إليه مرة كتاباً أوله:

حتى متى أنا موقوف على ظمأ
بين السبيلين لا ورداً ولا صدرا

فأجابه المسترشد بالله بخطه تحت هذا البيت « إذا عاودت فكرك فيما شطرته، اعترفت بوجود الغلط والزلل فيما أثبته والسلام»، وكانت مدة خلافه المسترشد بالله سبع عشرة سنةونصف وأياماً.

خلافة الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد

مولده في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسمائة، بويع ببغداد حين قتل أبوه بمراغة، وكوتب السلطان مسعود بولايته فأجاب، ولما قتل أبوه كان هو ببغداد مستولياً عليها، وكان أبوه ولاه العهد، وهم بعزله فلم يقدر، وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتل دبيس بن صدقة، قتله السلطان مسعود، بعث إليه غلاماً فقتله في خيمة النوبة وأبان رأسه، وذلك بعد ثمانية وعشرين يوماً من قتل المسترشد بالله، وفي هذه السنة توفي مالك بن سالم بقلعة جعبر، قتله محمود بن بوري.

ولما دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

تظاهر الراشد بمباينة السلطان مسعود، فلما بلغ السلطان ذلك قصد بغداد وحاصرها ثلاثة أشهر، فقلق الراشد من الحصار، وخرج من بغداد خفية يريد الموصل،فلما توجه من بغداد، اجتمع الوزير أبو القاسم علي ابن طراد الزينبي وسديد الدولة ابن الأنباري الكاتب، وأحضرا القضاة والفقهاء، وكتبوا محضراً أخذوا فيه خطوط جماعة من العدول بما فعله الراشد من الظلم وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وأنه فسق بذلك، وأخذوا خطوط الفقهاء بأنه إذا ثبت فسقه جاز لسلطان الوقت خلعه

والاستبدال بغيره من أهل بيته، ممن يصلح للخلافة، وعرضت الفتوى والمحضر على السلطان مسعود فقال: هذا أمر قد قلدتكموه،وأنا منه بريء عند الله تعالى، فخلعوه، ووقع اتفاقهم على أبي عبد الله محمد بن المستظهر فبايعه السلطان مسعود، والجماعة الحاضرون، ولقبوه المقتفي لأمر الله، ثم عاد السلطان مسعود إلى داره، وفتح الباب ، وبايعه الفقهاء وأعيان الناس، وبعث السلطان مسعود الفتوى والمحضر إلى الآفاق، ليتمهد عذره عند الناس، وكان خلعه في منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت مدة خلافته، إلى أن خلع أحد عشر شهراً وأياماً، وأما الراشد فإنه أقام بالموصل، فراسل السلطان مسعود أتابك زنكي في القبض على الراشد، وانفاذه إليه إلى بغداد، فامتنع من ذلك لكونه ضيفاً عنده، وجهز أتابك زنكي الراشد إلى مراغة، ليخرج من ولايته، فتوجه الراشد فوصل إلى مراغة، وملكها ، وأقام بها ثم سار نحو الري، ثم طلب خراسان ولما قرب من ولاية الباطنية جرد السيف وقتل منهم جماعة كبيرة، ثم عاد يطلب همذان وخرج السلطان مسعود إلى الراشد يحاربه، فاتفق الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزيبه صاحب خوزستان على محاربة السلطان مسعود، فحاربوه، فكانت الكرّة على السلطان مسعود، وقتل من أصحابه خلق عظيم، ثم توجه الراشد إلى أصفهان في شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، فقتلوه، وقيل إنه سم بها ودفن بموضع يقال له شهرستان على فرسخ من أصفهان، وقيل بل دفن بجامع المدينة القديمة التي يقال لها جي بأصفهان، وكان قتله في سابع وعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

خلافة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله

أمه أم ولد تدعى ياغي، وتلقب بست السادة ، مولده في سنة تسع

وثمانين وأربعمائة، وبويع بالخلافة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، بايعه السلطان مسعود والأكابر والعامة.

ولما دخلت سنة اثنتين وثلاثين

ولد فيها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى، وفيها كانت زلزلة عظيمة هدمت الأثارب، وفيها خيم أتابك زنكي على حماه، ثم ملك حمص، ومضت الروم إلى شيزر فحصروها، فسار إليهم أتابك زنكي ومعه داود، وحسام الدين ابنا أرتق، فرحلوا الروم عن شيزر، ونهبوا منهم شيئاً كثيراً.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام، ونزلوا على حلب، فلقيهم أتابك زنكي ومعه العساكر.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين

فيها كان بحلب زلزلة عظيمة أتت على مائتي ألف نفس فهلكوا.

ودخلت سنة أربع وثلاثين

فيها ولد الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تعالى.

ودخلت سنة خمس وثلاثين

فيها مات أبو بكر عبد الباقي المعروف بقاضي البيمارستان عن نيف وتسعين سنة، وكان محدّثاً عالماً عالي الاسناد، عالماً بالمنطق، وعلم الهيئة، مشهوراً، وفيها توفي أبو القاسم بن أفلح الشاعر الكاتب.

ودخلت سنة سبع وثلاثين

وفيها ولد الملك العادل سيف الدين، أبو بكر بن أيوب، وقيل بل ولد في سنة إحدى وأربعين، وفيها مات سيف الدين بدمشق.

ودخلت سنة ثمان وثلاثين

فيها مات الوزير أبو القاسم بن طراد الزينبي عن ست وسبعين سنة، وكان عظيماً جليلاً، وفيها قتل السلطان داود بن السلطان محمود بن ملكشاه، على يد جماعة اغتالوه ولم يعرف قاتله، وفيها مات الزمخشري الامام في علم النحو ، وهو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وأخذ علم النحو عن أبي نصر النحوي، وكان هذا ـ أبو النصر ـ عالماً فاضلاً، وفيه يقول الزمخشري لما مات أبو النصر:

وقائلة ما هذه الأدمع التي
تساقط من جفنيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي قد حشا به
أبو نصر أذني تساقط من عيني

ودخلت سنة تسع وثلاثين

فيها فتحت الرها، ودخل علي كوجك إلى الموصل، في ذي القعدة منها، وفيها تسلم أتابك زنكي سروج من الفرنج، وفيها مات الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، المعروف بابن الجو اليقي، الامام في علم النحو واللغة، ولد في سنة ست وستين وأربعمائة، وكان عالماً، فاضلاً، ورعاً، ديّناً، ثقةً، أخذ العلم عن أبي زكريا الخطيب التبريزي وغيره، وكان يصلي بأمير المؤمنين المقتفي لأمر الله، ويؤدب أولاده، وصنف في علم الأدب تصانيف جمة.

ودخلت سنة إحدى وأربعين

فيها قتل أتابك زنكي بن آق سنقر على قلعة جعبر، وهو محاصرها، قتله بعض غلمانه، وكانوا جماعة سلف منهم ذنب، فتوعدهم فخافوه، فقتلوه، وكان له سطوة وبأس، وخلف من الأولاد الذكور أربعة : نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير ميران، وقام بالأمر بعده ابنه سيف الدين غازي بالموصل واكثر الولاية.

ودخلت سنة ثلاث واربعين

فيها : قتل شاهنشاه بن أيوب في حملة حملها على الفرنج، وفيها أخذ نور الدين محمود أفامية من الفرنج، وفيها نزل ملك الألمان على دمشق، في يوم السبت، ورحل يوم الأربعاء، فكانت مدة مقامه خمسة أيام، وفيها أيضاً حاصرت الفرنج دمشق، فجاء سيف الدين غازي بعسكر عظيم، فرحل الفرنج عنها، وجهز أخاه قطب الدين مودود بعسكر كبير إلى أخيه نور الدين محمود فنزلا على البارة، وأخذاها في هذه السنة.

ودخلت سنة أربع وأربعين

فيها: توفي الأمير سيف الدين غازي بن أتابك زنكي، وفيها تسلم نور الدين حمص، وتل باشر، وفيها مات خليفة مصر أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، الملقب بالحافظ، وقيل بل مات في سنة ثلاث وأربعين، وجلس بعده ولده أبو المنصور إسماعيل الظافر، بنص أبيه، وكان أصغر الأولاد سناً، فأقام متولياً مدةً ثم قتله وزيره عباس بن تميم المغربي وابنه ناصر الدين خفية، وأخفيا قتله، وأنكراه، وأجلسا مكانه للخلافة الفائز، فكتب أهل القصر كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان في الصعيد الأدنى، وأصحبوا الكتاب شعور النسوان، فلبس

طلائع السواد، وجند جمعاً عظيماً وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر، فساعدوه، فتوجه إلى مصر،فلما سمع عباس وابنه بذلك هربا بأموالهما وكانت عظيمة، فلما وصلا إلى منهل يعرف بمرة وأم كعب قاصدين الشام، خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً، وأخذوا جميع أموالهما، وأما طلائع بن رزيك فإنه وافى القاهرة، فدخلها وأجلسه أهلها للوزارة، ولقبوه الملك الصالح، واستقام أمره، واستقل بتدبير الدولة ،ثم كاتب الفرنج وبعث رسولاً من الفائز ومن عنده، وبعث لهم معه هدايا وأموالاً جزيلة، وطلب منهم نصر بن عباس فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وعاد به إلى القاهرة، فأخذه الصالح طلائع وسلمه إلى النساء فأقمن يضربنه بالقباقيب، والأمدسة أياماً متوالية، ثم قطعن لحمه وأطعمنه إياه مدة شهر حتى مات، ثم صلب على باب زويلة، ثم أحرقوه، وفيها غزا نور الدين محمود بن زنكي فقتل البرنس ملك أنطاكية، ففتح كثيراً من قلاعهم، وفيها وزر عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان يلقب قبل ذلك بجلال الدين.

ودخلت سنة خمس وأربعين

فيها تسلم نور الدين محمود من الفرنج قورص والراوندان، وتسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان بهسنا، وكيسون وقونية ورعبان والمرزبان، وفيها تسلم نور الدين من الفرنج أعزاز، وفيها تسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان من الفرنج عين تاب.

ودخلت سنة ست وأربعين

فيها قتل علي بن مالك صاحب قلعة جعبر بموضع يقال له وادي العوسج.

ودخلت سنة سبع وأربعين

فيها مات السلطان مسعود بن محمود بهمذان، وفيها توجه السلطان سنجر إلى أتراك بأطراف خراسان، يسكنون البر في خركاوات، عدة بيوتهم مائة ألف خركاه، فأعطوه لكل خركاه شيئاً من الذهب عينوه فلم يقبل، وصافوه فنصروا عليه وكسروه وقوي أمرهم، وخربوا البلاد وأخلوها وقتلوا أهلها، وأتوا مرو فقتلوا كل من فيها، وجاؤوا إلى نيسابور فقتلوا كل من فيها من الفقهاء والعوام وقتلوا في تلك النوبة الامام محيي الدين محمد بن يحيى الشافعي صاحب الغزالي ـ رحمه الله ـ وكان تاريخ العلوم الخلافية، واسروا سنجراً.واحتاطوا عليه، وخطبوا له، وقالوا له أنت السلطان ونحن عسكرك، ومازال أسيراً في أيديهم حتى مات، وفيها مات أبو منصور المظفر بن أزدشير العبادي الواعظ، كان عظيم القدر في الزهد والوعظ، له كلام مدون مذكور، وكان قد مضى من دار الخلافة في رسالة إلى الملك محمد بن محمود فمات في الطريق، وحمل تابوته إلى بغداد، ودفن بها، وفيها أطلق نور الدين من جميع البلاد المكوس والمؤن في شهر رمضان.

ودخلت سنة ثمان وأربعين

فيها نقل رأس الحسين ـ عليه السلام ـ من عسقلان إلى مصر، وبنى عليه الظافر مشهداً عظيماً، وكانت عسقلان للمسلمين إلى أن نقل الرأس عنها، فبعده بقليل أخذت الفرنج عسقلان.

ودخلت سنة تسع وأربعين

فيها: فتح نور الدين محمود دمشق، وفيها قتل الظافر صاحب مصر، وولي الفائز.

ودخلت سنة خمسين

فيها: وصل الملك سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد عبداً وضيفاً وتلقي بولد الوزير عز الدين ابن هبيرة، ولم ينزل أحدهما للآخر، فنزل سليمان شاه وقبّل عتبة إلباب النوبي، وعطف عليه المقتفي لأمر الله، وقضى ذمامه وخطب له بالسلطنة، وجهزه المقتفي بجيش من عنده، فقصد أذربيجان، والتقاه ملكها ملكشاه بن محمود وتصافا، وقصدهما محمد شاه بن محمود بعساكره فانهزم سليمان شاه بجيشه وعاد طالباً العراق، فوقف له كوجك صاحب الموصل على رأس الدربند، فلما اجتاز سليمان شاه به قبض عليه كوجك، وعلى خوارزم شاه أخي زوجة سليمان شاه، وأعتقلهما بالموصل، وذلك في سنة إحدى وخمسين، واستديمت الخطبة ببغداد لسليمان شاه مع اعتقاله، وفيها مات الملك مسعود، سلطان الروم ابن قلج أرسلان، وهو حمو نور الدين محمود بن زنكي، وفيها ولى نور الدين محمود مجد الدين أبا بكر بن الداية حلباً وجميع بلادها ،وفيها ولى نور الدين محمود أسد الدين شيركوه دمشق وأعمالها.

ودخلت سنة اثنتين وخمسين

فيها فتح نور الدين محمود بانياس، وتسلم قلعة شيزر، وفيها نزلت الفرنج شيزر، وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وفيها توفي صلاح الدين الشيخ بحمص، وكانت حماه له قبل ذلك، وفيها كانت الزلزلة الكبيرة المعروفة بزلزلة حماه، هدمت حماة، وشيزر، وبعض طرابلس واللاذقية وجبلة ومصياف، والقدموس وغيرها، ونبعت عين حارم ماء أحمر كالدم، وخسف بخمس ضياع من اللاذقية، غابت في الأرض، وخرب من حلب شيء كثير، وإنما عرفت هذه بزلزلة حماه لأن أثرها فيها كان أكثر من غيرها، وكانت في ثالث يوم من رجب.

وفيها ولـد الامام النـاصر لديـن الله أبـو العباس أحمد بـن المستضيء بأمر الله تعالى، وفيهـا مرض نور الدين محمود مرضاً شـديداً بحلب حتى أشرف على الموت، فسمع أخـوه نصرة الديـن بمرضه فقصـد حلباً، فـأمر مجد الدين بن الداية بغلق الأبـواب في وجهه، فصاح نصرة الدين في باب قنسرين: أنا مثل أحدكم لم تغلقـون الأبواب في وجهي فكسر العوام باب المدينـة ودخل نصرة الـدين المدينـة وقـت العصر، وجاء إلى تحت القلعـة وصاح إلى مجد الدين بـن الداية وهو والي قلعة حلب: إن كـان أخي نور الدين في عافيـة فأنا غلامه وجميع العساكر عبيـده، وإن كان أصابه شيء فأي معنـى ترموني بالنشـاب، فرموه بـالنشاب، فحلّف نصرة الديـن أهل حلب أن يكونوا يداً واحدةً فحلفوا لـه، ونهبوا دار الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وآدر جماعة ، وبقي باب القلعة مغلقـاً على نور الدين، ومجد الديـن ستة عشر يومـاً، ولم يخطب بجـامع حلب خطيـب، وجمع المؤذين على أذان حيّ على خير العمل، ففعلوا ، وبقي السنة واقفون مع الحلبيين مـع نصرة الديـن، وتحالـف أهل حلـب على أن عدوّهـم مجد الـدين بـن الداية، ففصل أسـد الدين شيركوه من دمشق، فصعـد القلعة وتوسط أن يأخـذ نصرة الديـن حرّان وعشرة آلاف دينـار أميرية، ويمضي إليهـا بغير اختيـار الحلبيين، فـرضي نصرة الـديـن بذلـك، ورحـل إلى حـران، وتـرك الحلبيين وشأنهم.

ودخلت سنة ثلاث وخمسين

فيها كان المقتفي لأمر الله بايع لابنه المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بـولاية العهـد، فلما دخلت سنـة ثـلاث وخمسين قتل عـامل للمقتفي على نهر ملك يعـرف بالجويري، فتحدث النـاس أن الجويري قتل بوضـع من ولي العهد يوسـف، ووقر في ذهن المقتفي شيء من ذلـك، فكتب المقتفي، إلى وزيـره عون الـدين يحيـى بن هبيرة رقعـة: « يـايحيى قـد تحقق عنـدي أن الجويري قتل بـوضع من ولدي أبي المظفر يوسـف، وإني مراجع في نفسي

في نقض عهده، وجعل الخلافة في أخيه أبي علي فما ترى في ذلك؟»
فكتب إليه الوزير عون الدين: «العبد يقبل الأرض ويعفر الخد، ويسأل مولانا، إمام المسلمين، وأمير المؤمنين ثبت الله دعوته، التثبت فيما عرض له، فإن الدعوة قد سارت في أقطار الأرض بولاية عهده لولده وقد أخرجت في ذلك أموال جمة، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يأخذه بقول متحرض واشٍ، فقد قيل في الشك رب واشٍ غاش ، والرأي أسمى وأعلى». فلما وقف المقتفي على جواب عون الدين أغضى وصفح عن ولده أبي المظفر يوسف، وبهذا الجواب الصادر عن عون الدين، انتفع عون الدين به نفعاً عظيماً حين أفضت الخلافة إلى يوسف المستنجد بالله،فإنه وقف على هذه الورقة بخط عون الدين، فشكره على صنيعه، وأعفاه من الوزارة بعد أن طلبه لها، وألح عليه فلم يفعل، وأكرمه واحترمه، وشكر له ذلك.

وفيها وهي سنة ثلاث وخمسين

مات بدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن الخجندي، رئيس أصفهان ومفتيها، وفيها مات ابن منير الشاعر الطرابلسي، كان شاعراً مفلقاً مجوداً، وله ديوان مشهور وأخبار مستطرفة معروفة ، وفيها مات القيسراني الشاعر، كان شاعراً مجوداً.

ودخلت سنة أربع وخمسين

فيها مات السلطان محمد شاه بن محمود.

ودخلت سنة خمس وخمسين

فيها مات ملكشاه.وفيها أفرج علي كوجك على سليمان شاه بن محمد، وخطب له بالسلطنة، وفيها في رجب مات الفائز صاحب مصر، وكان

صبياً عمره احدى عشرة سنة، والمدبر أمرة طلائع بن رزيك، وأقام مقام الفائز العاضد، وهو صبي، وفيها في أول شوال،اتفقت العساكر بباب همذان على القبض على سليمان شاه، فقبضوا عليه وخطبوا لرسلان شاه ابن طغرل وكان بكنجة، وقطعت خطبته ببغداد في محرم سنة ست وخمسين،وفيها ـ وهي سنة خمس وخمسين ـ توفي المقتفي لأمر الله في مستهل ربيع الأول من السنة، فكانت مدة خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبا المظفر ، وأبا جعفر.

خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله

ولد في ربيع الأول سنة ثمان عشرة وخمسمائة، أمه أم ولد تدعى طاووس، بويع بالخلافة في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة وكان مهيباً عالماً، أظهر السيرة الجميلة في ولايته، ورد الأموال المغصوبة إلى أهليها، وأسقط المكوس والضرائب ببغداد، وكانت مضمنه في كل سنة بجملة عظيمة، ولما ولي الخلافة خافه عون الدين ابن هبيرة الوزير للمقتفي، فجمع منه ومن ولديه ثلاثين ألف دينار وحملها مع غلمانه إلى المخزن الشريف، وسأل قبولها وكتب صحبتها: « العبد كان في مبدأ أمره خامل الذكر، وضيع القدر، قدم إلى دار الخلافة المعظمة، وليس له من عرض الدنيا شيء سوى قميص وعمامة يساويان ديناراً يستتر بهما، فسما ذكره ورفع قدره بما شمله من الانعام النبوي، والآن فهو يضرع ويسأل مولانا أمير المؤمنين أن يأذن له في لزوم زاوية مسجدٍ، يعبد الله سبحانه فيه، ويدعو لأيامه الزاهرة، والرأي أعلى وأسمى» فقبل ما حمله، وكتب المستنجد بالله الجواب بخطه: « وقفنا على ما ذكره، وشكرنا سعيه، فأما ما سأله في اعتزاله فلا، لكونه شفيقاً علينا، خالصاً في محبتنا من شبه الريب، حافظاً لنا بالغيب، وهو أحق بمجلسه ممن سواه، ومن يك رأيه

فينا هذا فهو أحرى أن يحفظ ويلحظ، » ثم بعث إليه بالرقعة التي كتبها إليه المقتفي ـ أبوه ـ وقد ذكرناها، وفيها جوابه إلى المقتفي أن لايغير عليه ذلك، ولايستبدل به أحداً، فعلم الوزير أن الله سبحانه نفعه بحسن سفارته ومشورته، وينبغي كل واحد أن لايصدر منه إلاّ خير في حق أعدائه فكيف بأوليائه، ويتوكل على الله سبحانه في جميع أموره، ففيه كفاية.

ودخلت سنة ست وخمسين

فيها : قتل الملك الصالح طلائع بن رزيك، قتله سبعة أنفس من الحاشية قطع أرزاقهم في دهليز القصر، وولى العاضد موضعه ولده رزيك الوزارة، ولقبه الملك العادل مجد الاسلام وخلع عليه، وكان الصالح طلائع متشيعاً موالياً لأهل الحسين عليهم السلام ، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور، من جملة شعره قصيدته التي وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي التي أولها:

مدارس آيات خلت من تلاوةٍ
ومنزل وحي مقفر العرصات

وأول قصيدة طلائع:

أعاذل دع لومي على صبواتي
فما مات يمحوه الذي هو آتي
وما جزعي من سيئاتٍ تقدمت
ذهاباً إذا أتبعتها حسناتي
إلا أنني أقلعت عن كل شبهةٍ
وجانبت غرقى أبحر الشبهات
شغلت عن الدنيا بحبي لمعشرٍ
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وقال في آخرها:

أعـــارض مـــن قـــول الخزاعـــي دعبـــل
وإن كنـــت قـــد أقللـــت مـــن مـــدحـــاتي

مـــدارس آيـــات خلـــت مـــن تـــلاوة
ومنـــزل وحـــي مقفـــر العـــرصـــات

ولما ولي رزيك بن طلائع أظهر العدل، وتمكن من الدولة، فأشير عليه بعـزل شاور السعدي وكان أبـوه طلائع ولاه الصعيـد الأعلى، فقبل منهـم وكتب كتاباً إلى شـاور يستدعيه فأوجس في نفسه خيفـه وكتب إلى رزيك كتاباً أظهر فيـه الطاعة واستعطفه وذكره بسابق خـدمته، فلما وقف رزيك على كتابه شـاور أهله فيه، فقالـوا: إن أبقيته طمع فيك فخـالفهم وقال: المصلحة تـركه، فقـالوا: لابـد من عزلـه فأحضر رزيـك نصير الديـن بن شيخ الدولـة ، وولاه قوص، وكتب على يده كتـاباً إلى شاور يأمـره بتسليم قوص إليه، واستـدعاه إليه، فلما وصل نصير الدين إلى أخميـم بعث كتاب رزيك إلى شاور، فلما وقف عليه بعث إلى نصير الدين يقول له:

أنت صاحبي فارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فعاد نصير الدين إلى القاهـره، وجاهر شاور حينئـذ بالعداوة والعصيان، وأحضر خلقـاً من العرب وحـالفهم فحشد وقصد مصر ومعـه خلق فانهزم رزيك بخـاصته وأمواله متشتتين في كل نـاحية وأخذ رزيك نحو جهة القبلـة ، فوصل إلى جزيـرة تعرف بسليمان بن البيص اللخمـي، فقبض عليه أهلهـا، وأعلموا سليمان به فسجنه وسار بليلته إلى شاور وعـرفه بقبض رزيك فبعث شاور خمسين فارسـاً فقبضوا على رزيك وأتـوه به مقيداً، وأمـا شاور فإنـه دخل القاهرة، وحضر بين يـدي العاضد فخلع عليه، وحنكـة، واستوزره، ولقبه أمير الجيوش، وحلف له واستحلف الناس له.

-٩٧٠٢-

وفيها وهي سنة ست وخمسين

حج أسد الـدين شيركوه وبث في الحرمين معروفـاً كثيراً، وحج في هذه السنة علي كوجك صاحب الموصل.

ودخلت سنة سبع وخمسين

فيهـا: استولى الضرغـام على ديـار مصر، وطـرد شاور عـن الـوزارة إلى الشـام، وتبعه الضرغـام ليدركـه فلم يـدركه، فلما عـاد الضرغام استـوزره العاضـد وحنكه ولقبه الملـك المنصور، وقتل الضرغـام من الأمراء الـذين كاتبوا شاور مايزيد على سبعين أميراً سوى أتباعهم.

ودخلت سنة ثمان وخمسين

فيها: خـرج شاور إلى الشام، ووصل إلى دمشـق، واجتمع بنور الـدين محمود،ووصـف له ديـار مصر، وضعف أهلهـا، وضمن لـه إن بعث معـه عسكراً أخـذها له، فندب نـور الدين محمود أسـد الدين شيركوه لـذلك، فسار أسد الدين، وشاور في خدمتـه، إلى أن أتوا بلبيس وأخذها، ثم أخذ مصر فلما رأى شاور ذلـك دبر نفسه، وأصلـح شأنـه ، مع المصريين سراً ورام إخراج أسـد الدين ، فلـم يطق إلاّ بمظافرة الفـرنج، فكاتـب ملك الفـرنج ــ صاحـب القدس ــ وأمـراء الساحـل من الفـرنج وضمـن لهم أموالاً، إن هـم جاؤوا إلى مصر وأخرجوا أسـد الدين، فأتـوا مصر وانحاز أسد الدين إلى بلبيس وتحصن بها، ثم قـرر شاور للفرنج على إخراج أسد الـدين أربعمائة ألـف دينـار مصرية، وهـادنهم بعـد هذه القطيعـة خمس سنين، ونزل الفرنـج على بلبيس وحاصروا أسد الـدين ثلاثة أشهـر، وبنوا على بلبيس بـرجاً، وزحفـوا إليها ، هذا كلـه وأسد الديـن لم يقاتلهـم، ثم راسلهم أسد الـدين في الصلح، على أن يخرج بنفسه وعسـاكره إلى الشام مودعـاً فأجابوه، وحلفـوا، فخرج أسد الـدين ومن معه إلى الشـام، وأخذ

شاور يحث الفرنج على أن يحملوا على أسد الدين ويقللهم في أعينهم فقالوا:

لانفعل لاطاقة لنا بقتاله هو رجل عظيم، ومعه أبطال، ووصل أسد الدين سالماً إلى الشام، وأما شاور فإنه لما عاد إلى مصر، وأحاط بها، علم الضرغام أنه قد أحيط به في القصر، فصاح: يامولانا، يامولانا، فلم يجبه أحد، وبرزت إليه رقعة فيها: « خذ لنفسك وانج بها» فخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلوه، وقتلوا أخويه معه: ملهماً والحسام.

وفيها وهي سنة ثمان وخمسين

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش إلى سلا ، فتوفي بها في العشر الأواخر من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكانت ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وشهراً، وخلف خمسة عشر ولداً ذكراً، وكان حسن السيرة محموداً في مملكته، ولما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال: إن ابني محمداً لايصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف فبايعوه، ودعوه بأمير المؤمنين، فلما مات عبد المؤمن كتموا موته وحملوه إلى مراكش ثم أظهروا موته، واستقرت ولاية أبي يعقوب يوسف، وكان فقيهاً عالماً حافظاً، وسار بالناس السيرة الجميلة، وفيها كسرة الفرنج نور الدين محمود على البقيعة بكبسةٍ تحت حصن الأكراد.

ودخلت سنة تسع وخمسين

فيها مات جمال الدين محمد ابن الأصفهاني وزير الموصل المشهور بالكرم والإفضال، وحمل تابوته إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفن بها، وفيها مات الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، صاحب كتاب الافصاح عن معاني الصحاح، ذكر في أوله خلافيات المذاهب الأربع، وكان عالماً، عفيفاً، محباً لأهل العلم، محسناً إليهم ، ووزر

لخليفتين سبع عشرة سنـة، وفيها فتـح نور الـدين بـانياس، وحـارماً مـن الفرنج.

ودخلت سنة اثنتين وستين

فيهـا: سار أسـد الدين بجيش كثيـف إلى مصر في ربيع الأول منهـا، ونـزل بالجيـزة، وأقام محاصراً لها نيفـاً وخمسين يـوماً، ومعـه الملك النـاصر صلاح الـدين يوسـف بن أيوب، فاستنجـد شاور بالفـرنج، وأذن لهم أن يدخلـوا مصر لنجدته، فقـدموا قاصـدين حـرب أسد الديـن، فلما عرف أسد الدين بمجيئهـم رحل من بين أيديهم إلى موضع يعـرف بباب البابين، وعبأ أصحـابه فيه، وجـرى بين أسد الديـن والفرنج وبينهـم حروب نصر بها المسلمون عمـوماً والملـك الناصر صلاح الـدين وأصحـابه خصـوصاً وقتلوا من المصريين والفرنج ألوفاً ، وأسروا سبعين فارساً من بارونيتهم، ثم قصد أسـد الدين وصـلاح الدين الاسكنـدرية فـدخلوها ووجـدوا أهلها مسـاعديـن لهم على الفـرنج والمصريين، وأقـام الفـرنج بـالقـاهرة، حتـى استراحـوا وجددوا آلات الحرب، وولى أسـد الديـن الاسكنـدرية صـلاح الدين، وتـوجه أسد الدين إلى الصعيـد فجبى خراجه، وتوجـه الفرنج إلى الاسكندريـة وحاصروا صلاح الديـن بها أربعة أشهر، فلـم يظفروا ، وجمع أسد الـدين الجمـوع وتوجه إلى لقـاء الفرنج، فلما قـرب منهم رحلـوا عن الاسكندرية ، وأما شاور فإنه عند ذلـك راسل أسد الدين وهادنه على أن ينصرف عنهم إلى الشام، فطلب أسـد الدين منهم عوض ما غـرمه فبذلوا خمسين ألـف دينار ، وأجـابوه إلى كـل ما سـأل، فبعث أسـد الديـن إلى صلاح الدين وهو بالاسكندرية يستدعيه فأتاه وعاد إلى الشام.

ودخلت سنة ثلاث وستين

فيها: أنعم نور الدين محمـود على أسد الدين بحمص وأعمالها فمضى إليها وتسلمها.

ودخلت سنة أربع وستين

توجه الفرنج إلى مصر، وسببه أنهم لما دخلوها مرتين قبل ذلك اطلعوا على معايبها ومقاتلها وجهاتها فطمعوا في أخذها، وجمعوا جموعاً عظيمةً،ومضوا إليها في المحرم من عسقلان، فلما وصلوا إلى بلبيس حاصروها وملكوها وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم نزلوا على القاهرة، ومقدمهم الملك أمري، فقال شاور لأصحابه: أيحسب الملك أن بلبيس جبنة يأكلها فبلغ أمري ذلك، فبعث إليه أمري: نعم بلبيس جُبنة، والقاهرة زبدة، فلما حاصروا القاهرة أحرق شاور مصر خوفاً عليها فلما ضايقوها بالحصار أرسل شاور إلى الملك أمري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها معجل وبعضها منجم، فأجابه أمري وحلف على ذلك، فعجل له شاور مائة ألف دينار، ومطله بالباقي، وكاتب نور الدين محمود يستصرخ به وسود كتبه وجعل في باطنها شعور النساء وذوائبهن، وواصل كتبه بذلك إلى نور الدين محمود، وهو يومئذ بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلةٍ واحدةٍ، وجمع هو ونور الدين جموعاً عظيمةً ومضيا إلى دمشق، وعرضا العساكر على الفوار، ثم دخل أسد الدين إلى مصر، ومعه سبعون ألفاً أو قريباً منها، فلما بلغ الفرنج مجيء أسد الدين رحلوا عن مصر صاغرين، عائدين إلى الساحل، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الإيوان، وخلع عليه، ومعه صلاح الدين، وأقام شاور بضيافة العساكر وأكثر التردد إلى خدمة أسد الدين وطلب أسد الدين منه مالاً ينفقه على الأجناد، فماطله به، فبعث إليه الفقيه عيسى بن محمد يقول له: إن الأجناد طلبوا نفقاتهم، وماطلت بها، وقد تغيرت قلوبهم عليك، فإن أتيتني فكن على حذرٍ منهم، فلم يؤثر ذلك شيئاً عند شاور وركب على عادته وجاء إلى أسد الدين مسترسلاً، فاعترضه صلاح الدين يوسف، في الأمراء النورية، وقبض عليه فجاءه من القصر من يطلب رأسه، فقتل

وحمل رأسه إلى العـاضد وذلك في يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر ، من هـذه السنة، وقلد العاضـد أسد الديـن الوزارة، وكتب العاضـد عليه بخطه ما نسخته: « هذا عهد لم يكتب لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند اللـه تعالى بها أوضحه لكم من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بخـدمتك بنـوة النبوة،واتخذ للفـوز سبيلا، «ولا تنقضـوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا» (النحل: ٩١) .

ونسخـة أول المنشور: « مـن عبـد الله ووليـه أبي محمـد عبـد الله بـن يـوسف الحافـظ، إلى السيد الأجـل الملك المنصـور، سلطان الجيـوش ولي الأئمـة، مجير الأمة، أسـد الديـن، كـافل قضـاة المسلمين، وهادي دعـاة المؤمنين، أبي الحارث شيركـوه العاضـدي، عضـد الله بـه الـدين، وأمتـع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى الله كلمته:

سلام عليكم ، فإنا نحمد إليكم اللـه الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على جدي محمد خـاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطـاهرين الأئمة المهـديين، ويسلم تسليماً» ثـم يتلو كـذلك خطبتـان بليغتان فيهما مـواعظ ووصـايا وتقليـد الـوزارة، وتدبير الـدول بـألفاظ حسنـة طويلـة اختصرناها في هذا المختصر.

وفيهـا: توفي أسـد الـدين شيركـوه بعد وزارتـه بخمسـة وستين يومـاً، وكـانت وفـاته في يـوم الأحد ، ثـاني عشرين جمادى الآخـرة من السنـة ، وكانت مـدة مرضه يوماً وليلة، وعمـل له بالقاهرة عـزاء عظيم، وفيها ولي النـاصر صلاح الـديـن أبو المظفـر يـوسف بـن أيـوب رحمه الله الـوزارة للعاضد بمصر، وذلك أن أسـد الدين لما توفي سأل العاضـد أصحابه عن عسكر أسـد الديـن ومن فيـه يصلح للـوزارة . فقيل لـه: شهاب الـدين

محمود خال الملك الناصر صلاح الدين، فأحضر، وقال أريد أوليك مقام أسد الدين، فقال لا أصلح لها، وإنما يصلح لها ابن أختي ، صلاح الدين يوسف، وكان بموافقة الأمراء النورية وغيرهم فعقد العاضد الوزارة لصلاح الدين، وخلع عليه، وكتب له منشوراً ولقبه الملك الناصر، واستقل الملك الناصر في تدبير الدول . وفيها قتل الخصي الأسود المعروف بمؤتمن الخلافة ، وكان زمام قصر الخلافة ، ومطاعاً فيهم، فاتفق مع جماعة غلمان القصر أن كاتبوا الفرنج مستدعين لهم إلى مصر ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر وأصحابه من مصر، وبعثوا بالكتاب مع إنسان خفية ، فاتفق أن بعض التركمان رأى ذلك الإنسان ومعه نعلان جديدان فاستنكرهما، وأخذ النعلين منه على سبيل الامتحان وجاء به إلى الملك الناصر، فأمر بفتق النعلين فوجد في طباقهما خرقاً مكتوبة، وإذا فيها مكتوب من القصر إلى الفرنج يستدعونهم إلى قتال الملك الناصرفقال الملك الناصر: دلوني على كاتب هذا الخط، فدلوه على رجل يهودي، فأحضره، فلما رأى الكتابة تلفظ بالشهادتين خوفاً من العقوبة، واعترف أن الخط خطه، وأن مؤتمن الخلافة أمره بكتابة ذلك، فأطلقه الملك الناصر لا سلامه، وأخفى الملك الناصر ذلك وجعل مؤتمن الخلافة لايخرج من القصر، وإن خرج لايبعد، فخرج يوماً متنزهاً ظناً منه أن ما فعله نسي، فبعث الملك الناصر جماعة قتلوه وأخذوا رأسه، ولما قتل مؤتمن الخلافة غضب السودان لقتله، وتجمعوا في خلقٍ كثير يزيدون على خمسين ألفاً، وكانوا ذوي شوكة ما تمالؤوا على وزيرٍ إلا قتلوه، فباشر الملك الناصر صلاح الدين قتلهم بنفسه وعساكره، فقتلهم واستباح دماءهم، وهرب من سلم منهم، وكان لهم محلةً كبيرة على باب زويلة تسمى المنصورة، فأمر الملك الناصر بتعفية أثرها فخربت ، وجعلت بستانا.

ودخلت سنة خمس وستين

فيها: كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب، حدثت في بكرة يوم الاثنين ، ثاني عشر شوال، بعد طلوع الشمس، وتعرف في الشام بزلزلة حلب، لأن تأثيرها في حلب أكثر من بقية البلدان، وهلك تحت الردم بحلب على ما روي خمسة عشر ألف آدمي، واضطربت قلعة بعلبك، وتهدم بعضها، وتهدم حصن شيزر، وجانب من قلعة حماه، وقطعة من حصن الأكراد، وحصن بارين ، وانشقت منارة حلب، وانشق جبل لبنان شقاً عظيماً مسيرة ثلاثة أيام ، وروي أن طوله لايعرف له منتهى، وقيل إنها عمت أكثر الأرض حتى جاءت من سبتةمن بلاد المغرب، وفيها نزل الفرنج دمياط في مستهل صفر، فأقاموا عليها أحدا وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين، وفيها توجه الأوحد نجم الدين أيوب، والد الملك الناصر صلاح الدين إلى مصر، ولما عزم على ذلك فرق جميع أمواله وأملاكه، ولم يكن له سهم في ملك له فيه شريك إلا وهب شريكه سهمه، ولم يستصحب معه شيئاً من موجوده، بل أطلقه، وعجب الناس من فرط كرمه وسخائه، فلما قرب من مصر خرج للقائه العاضد بنفسه، والملك ، ومن دونهما، وكان يوماً مشهوراً، ودخلها في رابع وعشرين رجب من السنة ، وفيها حاصر نور الدين محمود سنجار وأخذها صلحاً بعد قتال شديد.

ودخلت سنة ست وستين وخمسمائة

فيها: أمر نور الدين محمود ببناء الجامع النوري، المعروف بالجامع العتيق بالموصل، وفيها توفي المستنجد بالله في تاسع ربيع الآخر من السنة، فكانت خلافته إحدىعشرةسنة وسبعة أيام، وخلف من الولد أبا محمد حسن المستضيءبأمر الله، وأبا القاسم، وكان رحمه الله عالماً حسن المحادثة، كثير الفكاهة، قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه

الله: حدثني ابن شبيب قال: لقيني أمير المؤمنين المستنجد بالله فقال مصحفاً علي: أين شتيت؟ فقلت مصحفا: عندك ياأمير المؤمنين، وهذا أحسن ما يكون من التصحيف، وأراد المستنجد بقوله: أين شتيت، ابن شبيب كأنه يناديه، فأجابه ابن شبيب بقوله: عندك، أي عبدك ياأمير المؤمنين.

خلافة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله

بويع بالخلافة يوم وفاة أبيه في تاسع ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة، وكان عالماً فاضلاً ذا سياسة وتدبير، أظهر العدل والإحسان، ورد أملاكا كانت غصبت إلى ملاكها، ونشر العدل والانصاف، وأمر مناديا ينادي بكشف الظلامات، وفيها جهز نور الدين محمود بن زنكي الشيخ شرف الدين أبا سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون رسولاً إلى المستضيء مهنيا له بالخلافة.

ودخلت سنة سبع وستين

فيها مات العاضد صاحب مصر في يوم عاشوراء، وكان صلاح الدين أمر بالخطبة للمستضيء بأمر الله في أول جمعة من المحرم بمصر، ثم مات العاضد بعده بيوميات، ثم خطب للمستضيء بالقاهرة في ثاني جمعة ، وانقضت دولة المصريين، وتسلم صلاح الدين القصر بما فيه من الأموال والذخائر، وقبض على جميع أهل العاضد وولده وأقاربه، وجعلهم في موضع، وأجرى عليهم مؤنتهم. وفيها وردت البشائر من الملك الناصر صلاح الدين إلى نور الدين محمود بإقامة الدعوة المستضية والخطبة له، وموت العاضد، فاشتد سرور نور الدين، وجهز شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رسولاً إلى بغداد، مبشراً بالدعوة القائمة بمصر، والخطبة للدولة العباسية في الخلافة المستضية.

وفيها ولد الملك المنصور أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب في ذي الحجة ، وفيها ولد الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين.

ودخلت سنة ثمان وستين

فيها توفي الملك الأوحد نجم الدين أيوب والد الملك الناصر صلاح الدين يوسف، في سابع عشرين ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فدفنا بها.

ودخلت سنة تسع وستين

فيها : توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، رضي الله عنه، في شوال بدمشق، ودفن بها، وكان رزؤه عظيما في ركن المسلمين، بعد أن أثر في الاسلام المآثر الحميدة، والآثار الجميلة، وهي أشهر من أن تذكر ، ولما توفي رثاه العماد الكاتب الأصفهاني فقال:

عجبت من الموت كيف اهتدى
إلى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير
في الأرض والارض وسط الفلك

وصدروا كتابا من ولده الملك الصالح اسماعيل تعزية إلى الملك الناصر صلاح الدين، انشاء العماد الكاتب، ثم توجهوا بالملك الصالح إلى حلب صحبة الأمير كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل بن الخازن.

وفيها فتح شمس الـدولة ابن أيوب اليمن بعساكـر الشام، وقبض على مدعي الخلافة بها يومئذ، رجل يسمى عبد النبي بن علي بن المهدي.

ودخلت سنة سبعين

فيها كـاتب كمشتكين، وسابـق الديـن عثمان، واسماعيل الخازن الأمير سيف الـدين غازي، صـاحب الموصـل في تسليم حلب إليـه، واستحثوه سراً، وكان ذلك بوضع من الأمير شمس الـدين بن المقدم ورجالته، فبلغ الملك الناصر صلاح الدين ذلـك، فخرج من مصر إلى الشام، ووصل إلى دمشق فتسلمها، ثم خرج إلى حمص، فعصت قلعتها عليه فتوجه إلى حماه فتسلمها في جمادى الآخرة مـن السنة ، وسار إلى حلب ، فحـاصرها جميع الشهر، ولما أشتد الحصـار عليهم استغاثوا بالاسماعيلية، ووعـدوهم، فجاء منهم جماعة ، فعرفهم الأمير ناصـح الدين خمارتكين، فقتلوه وقتلوا جماعة من النـاس، ثم قتلوا عـن آخرهـم. وعاد الملك النـاصر إلى حمص، فنزلها ونصب عليهـا المجانيق، وحاصرهـا بقية شهر رجب وتسلمهـا في شعبان بعد قتال شديد، ثم توجـه إلى بعلبك فتسلمها أول شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

وأمـا الحلبيـون فـإنهم خـرجـوا جميعهـم إلى حماه وحـاصروهـا حصـاراً شديـداً، وتقدم الملـك الناصر إلى حماه فنزلها، وتـزاحف الفـريقان، ونصر الملـك الناصر عليهـم، وتعـرف هـذه الكسرة بكسرة المواصلة عنـد قـرني حماه، ولما كسروا أمـر الملك النـاصر بحقـن دمـائهم، ونهب أمـوالهم، ثـم تقدم إلى تل السلطـان من عمل حلب، ووقـع الصلح بينه وبين الحلبيين على أن يكـون ما بيـده من الشـام إلى آخـر بلد حماه والمعـرة وكفر طـاب مضـافتان إليـه، وحلفـوا على ذلك، وعـاد الملـك الناصر إلى حماه، فنـزل عليها، ووصلته رسل المستضيء بالله بـالتهنئة بالظفر والتشريفات السنية،

والتحف الجليلة، وأفيض على الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعة جميلة ، أفردت له من الديوان العزيز.

ثم تجهز الملك الناصر إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد، وأقطع حماة خاله شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على الأمير ناصر الدين محمد، وتوجه إلى دمشق.

ودخلت سنة احدى وسبعين

فيها تجهزت المواصلة ووافوا تل السلطان، في جمع عظيم، فخرج إليهم الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان، وألقى الله على المواصلة الرعب، وقذفه في قلوبهم، فولوا مدبرين، واستولى الملك الناصر عليهم أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على سرادق سيف الدين غازي، ونزل فيه، ثم أحضر أسراهم، وخلع عليهم وأطلقهم.وفيها: فتح الملك الناصر منبج، واستولى عليها بعد كسره المواصلة بتل السلطان.وفيها فتح حصن أعزاز، بعد أن هزمت المواصلة ، وحاصره ثمانية وثلاثين يوماً.وفيها قفز على السلطان قوم من الحشيشية، وجرحه واحد منهم في وجهه، وكان ذلك في حصار عزاز، وقتلوا عن آخرهم.

وفيها عاد شمس الدولة من اليمن إلى الشام، بعد أن قتل ناشر بن بلال صاحب عدن، وفيها هدم أمير الحاج كمشتكين حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها مات نجم الدين بن حسام الدين ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين مكانه. وفيها قتلت الاسماعيلية أبا صالح بن العجمي بحلب في يوم الجمعة بباب الجامع الشرقي. وفيها توفي شيخ الاسلام هبة الله بن البوقي، المفتي الشافعي الواسطي، صاحب القاضي أبي علي الفارقي.

ودخلت سنة اثنتين وسبعين

فيها مات السلطان طغريل بن مسعود.

وفيها حاصر الملك الناصر حلباً مديدة، ثم وقع الصلح العام بينهم وبين المواصلة وبينه، وأبقى الملك الناصر حلباً في يد الملك الصالح اسماعيل، ورد عليه حصن أعزاز، وعاد الملك الناصر إلى مصياف، ونصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم وتخريب ديارهم، فتضرعوا إلى خال الملك الناصر شهاب الدين محمود بن تكش، فسأل فيهم، فرحل عنهم، ثم توجه إلى دمشق، ومضى إلى مصر ، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط على القاهرة ومصر، وبانشاء القلعة بجبل المقطم، وببناء المدرسة على تربة الشافعي رحمة الله عليه، وفوض نظرها إلى الشيخ نجم الدين الخبوشاني، ثم توجه الملك الناصر في هذه السنة إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي رحمه الله، فكان يتردد إليه لسماع الحديث في يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ، فأقام لذلك مدة، ثم عاد إلى مصر. وفيها توفي قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، قاضي دمشق.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كانت نوبة عسقلان والرملة: خرج الملك الناصر للقاء الفرنج، فنزل عسقلان وسباهم وقتل جمعاً منهم، ثم استقل بالرملة طالباً بلاد الفرنج، فخرجت الفرنج على المسلمين، وجرى بينهم قتال عظيم هلك فيه جمع من المسلمين، وضلوا عن الطريق، وماتوا جوعاً وعطشاً، وأسر الفرنج الفقيه عيسى وأخاه ظهير الدين علي، وأقاما أسيرين سنتين حتى افتداهما الملك الناصر بسبعين ألف دينار، ودخل الملك الناصر إلى القاهرة وقد دفع الله سبحانه عنه بلاءه ، بعد أن أشرف على الهلاك.وفيها توفي شهاب الدين محمود بن تكش خال الملك الناصر.

ودخلت سنة خمس وسبعين

فيها توفي المستضيء بأمر الله في أول ليلة من ذي القعدة، فكانت خلافته تسع سنين ونصف وواحد وعشرين يوماً، وخلف من الأولاد الامام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد، وأبا منصور.

خلافة الامام الناصر لدين الله تعالى أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله

مولده في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، بويع في أول يوم من ذي القعدة سنة خمس وسبعين، وكان المتولي لعقد البيعة ذو الرئاستين مجد الدين أبو الفضائل بن الصاحب استاذ الدار ، وظهير الدين أبو بكر بن العطار، صاحب المخزن، ثم بعد ثلاثة عشر يوماً، قبض على ظهير الدين أبي بكر، ثم مات بعد أيام قلائل، فمضت أخته لتدفنه ليلا خلسة من الناس لشدة بغضهم له أنه ضمن جهات المكوس، وكان يمنع من نقل الغلال في سني المحل، فلما خرج تابوته من باب النوبي علم به بعض العوام، فألقوه عن رأس الحمالين، وكسروا التابوت، ومزقوا أكفانه وربطوا في رجله حبلاً وسحبوه في الأسواق، وقطعوا خنصره وأذنه، وذلك في نصف ذي القعدة.

وفيها استدعى الامام الناصر لدين الله فخر الدولة بن المطلب، وطلب منه أن يستوزره لعلمه وورعه، وكان المستنجد والمستضيء طلباه للوزارة فامتنع، فلما حضر بين يدي السدة الشريفة قبل الأرض وخدم وقال: ياأمير المؤمنين المملوك رجل شيخ ما يجوز له أن يفتح كتاباً بعد العصر، فقال له بهاء الدين صندل الخادم: أجب أمير المؤمنين، فقال: له فخر الدولة: ليس لك في اجابتي مصلحة لأنني لو قبلت هذه الولاية ما كنت أقرك على ما بيدك من الاقطاع والولايات، بل كنت أجريك على

قاعدة بلال الحبشي، وأزيل عنك هـذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيـوف مشهورة ، فضحك الامام الناصر وأعفـاه وقال:تشير علينا بمـن يصلح، فقـال: هذا يصلـح، وأشار إلى مجد الـدين بـن الصاحـب فضاق صدر مجد الدين لقوله وقـام، فقال له الامام الناصر: لم لا يرضيك قـوله والـوزارة أرفـع درجات أربـاب الـدول؟! فقال: يـامـولانا لا أبيـع حضوري في هـذه الخدمة بـالدنيا ومـا فيها، وسـأل أن يقر على خـدمته، فأقره عليها، وقال لفخر الدولة بـن المطلب: أشر علينا بمن نوليه، فقال: إن رأى مـولانـا أن يـولي سليمان بـن جـاووش نـائب وزارة، فـرأيـه أولى وأعلى، فأمر الامـام الناصر باحضار سليمان بن جـاووش، ويلقب بحسام الدين، فأحضر، وخلع عليـه ورتب نـائب وزارة فـأقـام كـذلك أشهـرا.

ودخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها حسـن مجد الدين بـن الصاحـب لـلامام الناصر عـزل سليمان بن جاووش لكبر سنـه، وتقدم إليـه الامام النـاصر أن يستبدل بـه من شـاء، فأحضر مجد الدين بن الصاحب جلال الدين أبا المظفر هبـة الله بن محمد ابن البخـاري وولاه نائب وزارة. وفيها تصدق الامـام الناصر بعشرة آلاف دينـار في شهـر رجـب على الفقهـاء والعلماء والصـوفيـة ببغـداد وأثبـت أساميهـم في دستور ، وقرر ذلك في كـل رجب في كل سنة، وجعـل ذلك عوضاً عـن دعوة كانت الخلفاء تـأمر بعملها للمذكوريـن في كل سنة في رجب في دار دفن المستضيء بها.

وفيها أسقـط الامام الناصر ببغداد وجميـع بلاده من المكـوس والحقوق المضروبة على التجار وأربـاب الصنائع والمؤن، وكان قدر مـا يحصل منها في كل سنـة ما يزيد على مـائة وخمسين ألف دينار، وبسـط العدل ونشره، وأمر بكسر الملاهي وإراقة الخمور، وإقامة الحدود.

وفيها توجه الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الأرمن وبلد الروم ، فنزل على حصن يقال له المناقير ببلاد الأرمن ، ففتحه ثم هدمه، وصاحب الأرمن يومئذ ابن لاون، ثم وقع الصلح بينهم على خمسمائة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون، وعاد الملك الناصر إلى حمص فنزل عليها، وأتته رسل الحلبيين مهنئين له بالنصر والظفر، وأتته رسل الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم، وشهاب الدين بشير الخادم، فاجتمعا بالملك الناصر بدمشق ومعهما التفويض والتقليد والتشريف له بتقليد السلطنة والزعامة فركب الملك الناصر بالتشريف، وكان يوماً مشهوداً، ثم أعاد الملك الناصر شهاب الدين بشير الخادم إلى بغداد وأصحبه رسولاً معه وهو القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري جواباً عن رسالة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم، وجعل الملك الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم عنده، ثم سار الملك الناصر ومعه شيخ الشيوخ إلى الديار المصرية، لزيارة قبر الامام الشافعي، فلما قضى زيارته توجه إلى مكة حرسها الله تعالى.

وفيها مات شمس الدولة بن أيوب بالاسكندرية في مستهل صفر، وفيها بنيت قلعة القاهرة.

ودخلت سنة سبع وسبعين

فيها توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي. وفيها وصل إلى حلب عز الدين مسعود صاحب الموصل، فاستولى عليها وعلى خزائنها، ورغب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار في حلب، وتعوض منه عنها سنجار لعلمه أن أمره لايستقر بحلب، ولما بلغ الملك الناصر ما جرى في أمر حلب ، قلق لذلك ، وكان بالديار المصرية ، فكتب إلى الملك المظفر تقي الدين وكان بحماه يأمره بالتوجه إلى حلب، وكتب كتابا إلى الديوان العزيز يشكو صاحب الموصل وما فعله ،

وطمعه في أخذ حلب، وذكر عصيانه ومساويه، وعرض في كتابه بأن هذا الذي صدر منه لايصدر إلاّ عن اذن شريف، وسأل فيه ردعه وزجره وازالة يده عن حلب.

وفيها بعث الملك الناصر أخاه ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين إلى اليمن، فتوجه إليها بجيوشه ، وكان والي عدن يومئذ الأمير عثمان الزنجيلي، ووالي زبيد الأمير حطان بن منقذ، فأما عثمان فإنه فارق اليمن وهرب منها ، وأما حطان فإنه تحصن بقلعة يقال لها قوارير، ثم راسل سيف الاسلام في ذهابه إلى الشام،فأذن له، فجمع حطان أمواله وذخائره وغلمانه وتوجه نحو الشام، فجهز سيف الاسلام إليه من قبض عليه، وعلى سائر ما معه، ثم قتل حطان، وأخذت جميع أمواله، وكان قيمه المأخوذ على ما قيل من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وأمتعة ألف ألف دينار.

وفيها أو في التي قبلها توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد صاحب الموصل ، وملكها أخوه عز الدين مسعود. وفيها خرجت الفرنج في مراكب من إيلة وسارت إلى عيذاب ثم إلى جدة، وأخذت عدة مراكب من المسلمين، فتعقبهم الحاجب (لؤلؤ) في المراكب إلى الحجاز، فأخذهم أجمعين، وكانوا ألفاً وخمسمائة نفر، وعاد بهم إلى القاهرة ، فضرب رقابهم أجمعين.

وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، وكان عنده علم وافر ودين ظاهر، وله مصنفات في علم القرآن وغيره.

ودخلت سنة ثمان وسبعين

فيها برز الأمر الشريف أن لا يستخدم ذمي في جهات التصرف ، لأن الله نهى أن يكون للكافر على المسلم سبيل، فلا يستخدم أحد من

الكفـار في شيء من أعمال الـديـوان، ويرتـب عوضهـم مـن يصلح مـن المسلمين، وكان كاتب ديوان العرض ذميا يعـرف بابن الأشقر، فشفع ابن البخاري فيـه، فكتب مطالعـة يصف فيها ثقته وأمـانته وكفايتـه، ويشفع به، فوقع الامام الناصر عليها: هـذا ابن الاشقر قد مات، فما الذي يصنع بعده في ديـوان العرض، فعرض على ابن الأشقـر الاسلام فامتنـع، فعزل، وكان لابـن الأشقر ولد بـالغ، فدخل على ابـن البخاري وهو جـالس في الديوان، فقال: يـامولانا أنا رجل قد رغبت في الاسـلام لأجل خدمة أمير المؤمنين، وأنا أشهـد أن لا إله إلاّ الله وأشهـد أن محمداً رسـول الله، وأن كل دين غير دين الاسـلام باطل، فكتب ابن البخاري مطـالعة بما جرى، فوقـع أمير المؤمنين فيها: إنما منعناه من استخـدام الكفار لكفرهـم، فمن أسلم يعـاد إلى خدمته، ويخلـع عليه ويستخـدم في ديوان العرض عـوضا عن أبيـه، ويقال لكـل من صرفنـاه من خـدمتنا: مـن أحب الـدخول في الاسلام فيعاد إلى خدمته ويشرف ومن لم يفعـل لايمكن من خدمة تتعلق بنا ، والسلام.

وفيها أحضر الامام الناصر الشيخ عبد الجبـار صاحب الفتوة، وأعطاه خمسمائة دينـار وخلع عليـه وعلى ولـده شمس الـديـن، وكـان هذا عبـد الجبار شيخـاً حسناً لـه أتباع كثيرون، ثم تفتـى إليه بعـد ذلك خلـق من الملوك والأكابر ، وكان هذا الفعل مستحثا للناس على التعاضد والتناصر وحفظ العهد، وكتمان السر، وصدق اللهجة، والعفـة عن المحارم، وأرباب الفتـوة يسندونها بعنعنـة إلى أمير المؤمنين علي كـرم اللـه وجهه، ونـاهيـك بذلك شرفاً ، وفخرا وعظمة وقدراً.

ودخلت سنة تسع وسبعين

فيها مـازال الملك النـاصر مقيما بالـديار المصريـة إلى المحرم مـن هذه السنة، فخـرج إلى دمشق، ثـم خرج بجيـوشه غـازيا إلى طبريـة وبيسان،

فجرى بين المسلمين وبين الفرنج قتال شديد استشهد فيه جماعة من أبطال المسلمين، وقتل من الفرنج خلق لايحصون ، ثم خرج الملك الناصر طالباً حلب، فلما فارق حماه وصل إليه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي بن كوجك، فأشار عليه بقطع الفرات وأخذ ما وراءه من الموصل ونصيبين والخابور وحران والرها، ثم بعد ذلك يحاصر حلب ويتملكها، فشكره الملك الناصر على رأيه وتوجه إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى حران ففتحها، ثم فتح الرقة بعد حصار، ثم فتح عربان، ثم سار إلى نصيبين ففتحها بعد حصار ، ورتب هذه البلاد وأزال ما بها من المكوس، ثم توجه إلى الموصل، وأناخ بها بجميع عساكره، وصاحبها يومئذ عز الدين مسعود، ونائبه مجاهد الدين قايماز، فكاتب عز الدين مسعود الديوان العزيز باستصلاح أمره مع الملك الناصر ، فجهز الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم رسولاً إلى الملك الناصر وشفيعا في المواصلة، وصحبته شهاب الدين بشير الخادم، وخاطب شيخ الشيوخ الملك الناصر بالشفاعة ، فصرح الملك الناصر بالامتناع وعدم القبول، وأدام الحصار وتهيئة أسبابه، وأصحاب الملك الناصر يقاتلون ، وشيخ الشيوخ ينهاهم عن القتال، ثم أتى شيخ الشيوخ الملك الناصر وقال: أتيتك مستشفعاً، فقال: السمع والطاعة، ثم خرج من الموصل جمال الدين محاسن، ومجد الدين الشريف نقيب الطالبيين، وأتيا شيخ الشيوخ، فبعث للملك الناصر يطلب منه ثقة يسمع كلامهما، فبعث إليه القاضي الفاضل والفقيه عيسى بن محمد، فأقاموا يوما لم يحصل فيه مقصود، ثم أقاموا كذلك قريب شهر يمضون الأوقات، وغرضهم مكاتبة الملوك سراً، والاستنجاد بهم، وأجابوا إلى تسليم حلب إلى الملك الناصر بشرط أن يعيد إليهم ما أخذه من بلادهم، فتوقف الملك الناصر في الاجابة، ثم أجاب ، ثم بعد اجابته عادوا ندموا في قولهم إنهم يسلمون إليه حلب، وآخر الأمر أن الملك الناصر قال لشيخ الشيوخ : نحن قد عزمنا على الرحيل، ونهب لهم الموصل شفاعتك فيهم، وهذه

أشهر شريفة ، ثم رحل إلى سنجار ومعه رسل الخلافة ، فنازلها في شعبان، ونصب عليها منجنيقاً، فلما دخل شهر رمضان أمر بالاحجام عنهم، والاحتراز من اراقة الدماء، ثم راسلوه في تسليمها إليه، فتسلمها منهم، وأسقط عنهم المكوس، وتجهز شيخ الشيوخ وأصحابه للمضي إلى بغداد، وأصحبهم الملك الناصر تحفاً وهدايا سنية، وعاد الملك الناصر إلى حران، فنزل بها، وأما المواصلة فانهم تجمعوا، ونجدهم شاه أرمن ملك أخلاط بنفسه وعسكره، وخرجوا من الموصل، ووافوا حرزم، ضيعة من ضيع ماردين، ووافاهم عسكر حلب والياروقية، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن، وصاروا في جمع عظيم، فلما علم الملك الناصر بهم كتب إلى أمرائه الغائبين، فوصل إليه الملك المظفر تقي الدين من حماه في خمسة أيام، وسار إلى رأس العين، فلما سمعوا خبره ولوا منهزمين من غير قتال، وذلك في يوم عرفة من السنة المذكورة، ومضى صاحب أخلاط إلى بلاده، وكل ملك مضى إلى ملكه.

وكان الملك الناصر قد كتب إلى الإمام الناصر، طلب منه اذنا في قصد آمد وأخذها، فوصله تقليد بها، فتوجه الملك الناصر إلى آمد فنزلها في سابع عشر ذي الحجة من السنة، وحاصرها حتى دخلت سنة ثمانين ففتحها، وتملكها في المحرم منها، وعاد إلى حلب ونازلها وحاصرها، وجرت حروب كثيرة، وأصيب في هذه السنة على حلب تاج الملوك أخو الملك الناصر بسهم مات منه، ثم اصطلح الملك الناصر وعماد الدين زنكي بن مودود على أن يعوضه عن حلب سنجار ونصيبين والخابور ، وكتب الملك الناصر خطه بذلك، وتسلم حلب في ثاني عشر صفر سنة ثمانين، ومدحه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي دمشق بقصيدة قال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
مبشراً بفتوح القدس في رجب

ووقع هـذا بطريق الاتفـاق وسوق العـافية. ولما فتح القـدس في رجب من سنـة ثلاث وثمانين قيل لـه في ذلك، فقال: سـاقتني القافيـة، وفوض الملك الناصر إلى محيي الدين ابن زكـي الدين قضاء حلب، فحكم فيها، واستناب بها نـائبه زين الـدين نبأ بن الفضـل بن سليمان بن البـانياسي، وأسقط الملك النـاصر مكوس حلب وضرائبها، ثم توجـه بنفسه إلى حارم ففتحها، وأخذها من مملوك من المماليك النورية كان قد عصا فيها.

وفيها مـات فخر الـدولة بـن المطلب، وكـان أوحد زمـانه علماً وورعـا وزهـدا ورئاسة ، وعمـر مـدرسـة تسمى دار الـذهـب ببغـداد، وجامعـاً وخانكـاه، ووقف على ذلـك وقوفـاً سنيه. وفيهـا مات الأمير أبـو منصور أخو الامام النـاصر، وغسله العدل الحراني وأخذ سلبه، وكان مـن جملة ما أخـذه مسند زركـش، وطراحـة زركش فيهـا ألـف دينار، وأخـذ جميع مـا استعمل في غسله مـن طاسات فضة وطشت فضـة، وآلات وأمتعة، قيمة الجميع على ماروي عشرة آلاف دينار.

وفيها حضر شهاب الدين الطوسي الفقيـه الشافعي دار مجد الدين أبي الفضل بن الصـاحب، واتفق الحديث أن علي بـن أبي طالب ـ كـرم الله وجهه ـ ما ملك من الـدنيا شيئاً، وكان فقيراً، حتـى أنه كان يأكـل خبز الشعير، فقال الطـوسي: هذا مـا يقولـه ذو معرفـة، قد نقـل أن عليا أدى زكاة أربعين ألـف دينار، وكـانت له نعمـة ومال كثير، وإنما المبغضـون له يقولـون هذا، وقصـد الطوسي بهذا مهادنـة مجد الدين، فـإنه كـان يبغض الطوسي، ويقصـد اهلاكـه لأنه كان صـاحب ابـن العطار، فقـال له مجد الديـن: فكيف مـدح علي عليه السلام على إيثـاره خبز الشعير، وتصـدقه بخاتمه في الصلاة؟ فقال الطوسي:هذا كان في ابتـداء حاله، ثم ملك بعد ذلك ، فقال له مجد الدين: أريد أن أقف على هذا النقل ومن الذي نقله، فقال لـه سمنديـار الواعظ: لم يسمـع هذا قـط، فقال لـه الطوسي: يجوز أنك مـا سمعته، وخـرج وقد علم أنـه خاطـر بدمـه، وبلغ أمير المؤمنين

الامام الناصر ذلك فأنكر على مجد الدين كيف لم يكلف الطوسي احضار الحجة، وأظهر الطوسي المرض أياماً، واشتد الأمر في اظهار التشيع حتى روي أن الشيخ أبا الفرج بن الجوزي قال يوماً: ما اكثر ما يسألوني عن معاوية ويزيد ويكلفوني شرح أحوالهم، أما يكتفون مني في هذه الأيام أن أزاحم لهم بأبي بكر وعمر، وأنا مخاطر، وعلم الطوسي بخطابه، فاستأذن في الحج، فأذن له، فحج ومضى إلى الديار المصرية.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

فيها برز الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، فترك ولده الملك الأفضل على رأس الماء، فجمع العساكر، وتقدم الملك الناصر إلى الكرك والشوبك، فقطع شجرها وزرعها، وبعث الملك الأفضل عساكره إلى صفورية للغارة، ومقدمهم مظفر الدين بن زين الدين، فخرج الفرنج إليهم، والتقوا وكانت الكرة على الفرنج، وقتل منهم خلق عظيم، وسار الملك الناصر حتى خيم على عشترا، ووصل الملك الأفضل إليه، وجمع الملك الناصر العساكر، ومضى إلى طبرية ففتحها، واحتمت عليه قلعتها وصاحت الفرنج عن يد واحدة، وركبوا قاصدين منع طبرية، وجرى قتال كانت الغلبة فيه للمسلمين، وأما الفرنج فأووا إلى جبل حطين معتصمين به، وأحاطت جيوش المسلمين بهم، فلما أحس القومص بالكسرة انهزم وحده ومن بعده أتباعه، واحتوى المسلمون على بقية الفرنج أسراً وقتلاً.

وجلس الملك لعرض الأسرى، فقدم إليه ملك الداوية والملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري والابرنس أرناط صاحب الكرك، وكان الملك الناصر قد نذر دم صاحب الكرك هذا، فقرعه الملك الناصر على غدره وكذبه، وكان ملك الفرنج قد اشتد عطشه، مع ما عنده من خوف القتل، فأحضر له السلطان ماء بثلج، فشربه الملك

وسقى صاحب الكرك منه، فقال لـه الملك الناصر: لِمَ لَمْ تأخذ مني اذنا في سقيـه، فـلا أومنـه، ثـم مضـى الملـك النـاصر إلى سرادق ضرب لـه ، واستدعـى بصاحب الكرك، فلما استقبلـه قام الملك الناصر إليـه، وضربه بيده بالسيف فحـل عاتقه، وأمر بقطع رأسه ، فقطع ، فـارتاع الملك من ذلك، وعرف الملـك الناصر ما حل بـالملك من الخوف والفزع فـاستدعاه وأدناه وقال له: صاحب الكرك غدر ونكث ففعلت به هذا.

وتعـرف هـذه الكسرة بكسرة حطين، وأخـذ منهـم السلطـان صليـب الصلبوت وكان أخذه أعظـم عليهم من جميع ما حل بهم، ثـم نزل الملك الناصر على طبريـة، وبقلعتها صـاحبتها السـت، فتسلمها الملـك الناصر منها بأمـان، وخرجت الست آمنة إلى طـرابلس بلد زوجها القـومص، ثم رحـل الملك النـاصر إلى عكـا، فخيم قـريباً منهـا في سلـخ ربيع الآخـر، فخرج أهـل البلد إليـه يطلبون الأمان، فـآمنهم وخيرهـم بين المقام آمنين والانتقـال، وأمهلهم أيـامـا، ولما دخل جنـد الاسلام إليهـا نـزلوا آدرهـا، وجعل الملك الناصر للفقيه عيسى كلما يتعلق بـالداوية من منازل وضياع بما فيها من غـلال ومتاع ، ووهب ولده الأفضل عكـا، ودخلها المسلمون في يـوم الجمعـة مستهـل جمادى الأولى، فـأقـامـوا الجمعـة بها بكنيستهـا العظمـى، وخطـب الخطبـة جمال الـدين عبـد اللطيـف بـن الشيـخ أبي النجيب السهروردي، وتولى القضاء والخطابة بها.

وأقام الملك الناصر مخيما بباب عكـا، ووصل الملك العادل من مصر ، وبث الملك النـاصر عساكره لفتح الساحـل، ففتح مظفر الديـن بن زين الناصرة، وعاد بـالأسرى والأموال، وفتح بدر الـدين دلدرم وغرس الـدين قليج قيساريـة، فتحوها بالسيف، وسـار حسام الدين محمد بـن عمر بن لاجين إلى سبسطية وتسلمها، ووجـد فيها مشهد زكريا عليـه السلام، قد اتخذه القسوس كنيسة نفيسـة مرصعة بآلات المصبـوغات فأخذ مـا به من ذلك، واتخذه مشهـداً، وأقام به منبراً، ثم مضـى إلى نابلس فقاتلهـا حتى

تسلمها بأمان، وفتح في أثناء ذلك قلعة الفولة، ودبورية، وخفسين، وزرعين، واللجون، والطور وبيسان،، والقيمون، وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات. وفتح الملك المظفر تقي الدين تبنين بأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، وبعث صاحب صيدا مفاتيح صيدا، وفتحت بيروت، وجبيل، وعسقلان، والداروم، بأمان بعد قتال شديد، واستشهد من الأمراء ابراهيم بن حسين النهراني، وتسلم المسلمون الرملة، وبيت لحم، والخليل، وحصن الداوية، والنطرون، وبيت جبريل.

ثم رحل الملك الناصر إلى القدس، ونزل عليه، ونصب المجانيق، واشتد عليه الحصار، واجتمع طاغية الكفر وتعاقدوا وتعاهدوا، وجرت حروب كثيرة، فبرز ابن بارزان طالبا الأمان من الملك الناصر، فامتنع الملك الناصر من إجابته، فقال ابن بارزان: إذا لم تؤمنا، فنقاتل قتال الدم، ونحرق الدور، ونخرب القبة ونقطع الصخرة، ونقتل كل من عندنا من المسلمين الأسرى، وهم ألف، ونتلف ، ولا فائدة لكم في هذا الشح، فاستشار الملك الناصر أمراءه، واستقر الأمر على أخذ قطيعة قررت على كل رجل: عشرة دنانير، وعلى كل امرأة : خمسة دنانير، وعلى كل صغير ديناران، وبذل ابن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشر من رجب من السنة المذكورة، وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على هذه الوظيفة، وكان بالقدس أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، ووكل بكل باب أمير يحصي الخارجين، ولو حفظ هذا المال لفاز منه بيت المال بأعظم حظ، لكن وقع التفريط، وعم التخليط، فكل من رشامشي، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل مختفيا في الرحال، ومنهم من خرج بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة، وكان بالقدس ملكة رومية مترهبة، لها مال ومتاع وأتباع، فمن الملك الناصر عليها، وعلى كل من معها، وخرجت بذلك، وكذلك زوجة الملك المأسور، ابنة الملك أماري، كانت مقيمة بالقدس مع مالها من الأموال والخدم، فخرجت بمن معها، وكذلك الابرنساسية

ابنة فليب أم هنفري أعفيت من الوزن، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمس مائة أرمني، ذكر أنهم من بلده، واستطلق مظفر الدين ألف أرمني، ذكر أنهم من الرها، وخان النواب فيا ضبطوه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وجلس الملك الناصر للهناء على هيئة التواضع ، وهيئة الوقار بين الفقهاء، وأهل العلم والدين، وأخذ القراء في القراءة، والفقهاء في المناظرة ، والشعراء في الانشاد، وروى المحدثون، وتحدث الرواة ، وكثر ضجيج الخلائق إلى الله سبحانه، وتضرعهم إليه بالشكر له، والثناء عليه بما هو أهله.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، رشح أهل الفضل أنفسهم لتولية الخطبة وغيرها، فلما دنا وقت الزوال، أمر الملك الناصر القاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، ففعل وتمم الخطبتين، وصلى بالمسلمين، ثم جلس للوعظ بعد الصلاة زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فوعظ وأبلغ، وكان يوماً مشهوداً، ومجمعاً موروداً، وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه، ويؤثر عنهم من الأفعال الجميلة، فما منهم إلاّ من تصدق وعمر وبنى وأحسن، فمنهم الملك المظفر تقي الدين ، حضر إلى القبة وكنسها بيده، ثم غسلها بالماء مراراً، ثم أحضر أحمالاً من ماء الورد غسلها به، وفعل ذلك بحيطانها وجدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب. وعين الملك الناصر الكنيسة المعروفة بصندحنة مدرسة، ودار البطرك رباطاً، ووقف عليهما وقوفاً كثيرة، وولى الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد القدس وأعماله ،فاستناب فيه أخاه ظهير الدين علي، وجهز الملك الناصر القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري رسولاً إلى بغداد، ومبشراً بالفتح.

وتسلم الملك الناصر ما حول القدس من الحصون، وعاد إلى عكا فنزلها في أول شهر رمضان من السنة، وحرضت الأمراء الملك الناصر على قصد صور، وكان أكثرهم تحريضاً الأمير سيف الدين المشطوب، وكانت معه صيدا وبيروت، وخاف من فوتها، ولم يفكر في قوتها، بانتقال

رجال الساحل إليها، وكان المركيس لعنه الله حال اشتغال المسلمين بالقدس، قد أحكم صور ، وحفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، فرحل الملك الناصر بجيوشه قاصداً صور، فوصلها في تاسع شهر رمضان، وخيم عليها، وجرت حروب كبيرة، فلم يتفق فتح، وهجم الشتاء ، فاتفقت الآراء على ترك القتال حتى ينقضي الشتاء، ويستريح الجند، وتألم الملك الناصر لفوت ذلك،وعاد إلى عكا، وسكن بها، كل ذلك في سنة ثلاث وثمانين.

وفيها: في آخر ليلة من شوال استشهد محمود بن أخي جاولي على كوكب، وكان دائم التهجد ، زاهداً شجاعاً.

وفيها وصل تاج الدين أبو بكر ــ أخو العماد الكاتب ــ رسولاً من الامام الناصر إلى الملك الناصر يعاتب الملك الناصر على احداث أشياء نقلت عنه، منها: أنه نعت نفسه بالملك الناصر، ومنها أنه لما فتح الساحل جهز في الابتداء مبشراً به شاباً جنديا مستحقراً، وكان العماد الكاتب وغيره أشاروا أنه لايمضي مبشراً بالفتح إلاّ رجل كبير مميز، فقال الملك الناصر: نحن ننفذ هذا الشاب الجندي في الابتداء، ثم نرسل بعده رجلاً كبيراً. ومنها أنه لما فتح القدس جهز لبشارته نجاباً، وما يليق إلاّ انفاذ عالم كبير، وإنما نفذ الامام الناصر تاج الدين أخا العماد الكاتب رجاء أن يطلع من أخيه على الأسرار، فإن الكاتب يطلع على أسرار الملك، فلما وصل تاج الدين أكرمه الملك الناصر، وبالغ، فلما أدى عليه رسالته وقرأها في تذكرته، وكان في ألفاظها غلظة وشدة، قال الملك الناصر: ما أسعدني إذا شرفت بالعتاب، والمملوك ينفعه التأديب، ويزعه التهذيب، على أنني لم أزل في طاعة أمير المؤمنين، ولم أزل في نصرة المسلمين، أما أنا فتحت مصر، ودعوة الداعي قد باضت بها وفرخت، واستأنفت بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت، أما أنا استخلصت اليمن والساحل، وفتحت البيت المقدس، وأما النعت الذي

أنكـر عليّ فهو مـن عهد الامـام المستضيء وقـد اشتهر في الآفـاق، والآن فكلما يشرفني بـه أمير المؤمنين من السمة فهـو اسمي الـذي أتشرف به ، وإني أفترض طاعة أمير المؤمنين للدين لا للدنيا، وذكـر كلاماً طويلاً هذا خلاصته، ثم أعاد تاج الدين بجواب رسالته، ومضى.

وفيها توفي شمـس الدين بن المقدم بعرفـة، وسببه أن طاش تكين أمير الحج أنكر عليـه ضرب الطبل ، فـامتنع ، فأمـر طاش تكين أصحـابه أن واقعوا شمس الديـن وأصحابه فتواقعوا وذهب شمس الـدين غـلطاً، ولما عاد طاش تكين إلى بغداد غضب الامام الناصر عليه بسبب ذلك، وعزله عن إمارة الحاج، ثم اعتقله بعد مدة.

ودخلت سنة أربع وثمانين

والملك الناصر مقيم بعكا، فسار إلى كـوكب رأى حصانتها، ووكل بها قـايماز النجمي، وجهـز إلى صفد طغـريل الجانـدار، وكان سعـد الديـن الأسدي مـوكلاً بقلعـة الكرك، وقـد ذكرنـا أن الملك النـاصر ضرب عنق صاحب الكرك بيـده، وكانت زوجته ابنة فليب مقيمـة بالقدس، وحصل ولدها هنفـري في الأسر، فلما فتح الله سبحانـه القدس، خرجت صـاحبة الكرك ابنـة فليب طـالبة الملـك الناصر بـاكية على ولـدها، حـاسرة والهة راغبـة في فك ولـدها، وخـرجت معهـا زوجـة ابنها بـاكية نـادبة زوجهـا هنفري، فـأكرمها السلطان، وتقـرر مع صـاحبة الكرك اطـلاق ابنها على تسليم قلعتـي الكرك والشـوبك إلى المسلمين، واستحضر السلطـان ابنها هنفـري من دمشـق، وسـار معهـم جماعة مـن الأمـراء لتسليـم المعاقـل، ومضت الملكة مع ولدها حسنة الظن بمـن بالمعاقل، من أهل دينها، فلما وصلـت إليهم منعـوها وقـاطعوهـا وشتمـوها، فـذكرتهم وخـوفتهم، فلـم يصغوا إلى مقالتهـا، فعادت إلى السلطان خائبة ، فقبل عـذرها، وأعلمها

أن ولـدها محفـوظ ملحوظ إلى أن يتسلـم منها الحصـون، ويسلمه إليهـا، فمضت إلى صور وسكنت بها.

ثم أخذ السلطان يستشير في أمـر عكا وتهديمها أو عمارتها، واختلفت الآراء فترجح عنـده عمارتها ، فقال: مـا أرى لها إلا بهاء الديـن قراقـوش، فبعـث كتاباً أحضره، وسلمها إليـه لعمارتها، وعـاد السلطان إلى دمشـق، ودخلهـا في سادس ربيـع الأول، وكان الصفـي بـن القابـض، قد ابتنـى للسلطـان داراً على بعـض أبـراج قلعـة دمشـق، وأذهـب في نضـارتها وزخـرفتهـا مـالاً عظيماً، ظنـا منه أن هـذا يعجـب السلطـان، فلما دخـل السلطـان إلى دمشق اجتهـد الصفي في دخـول السلطان إليهـا، وتوسـل وتـوصـل، فما التفت السلطـان ولا دخلهـا وقـال: السعيد مـن يبنـي دار الآخرة، ثم عزل الصفي عن ديوانه بسببها، وأبقاه على الخزانة.

قال العماد الكاتب: سمعت السلطـان يقول: كان خير ذنوب الصفي عندي بناؤه تلك الـدار، وما يعمل بالدار من يتوقـع المنية، وما خلقنا إلا للعبـادة، والسعي في السعـادة، ومـا يخطر لنـا خلـود في هـذه الدار، ثـم وردت الأخبـار بوصـول عسكـر الشرق إلى حلـب، فتوجـه السلطـان إلى بعلبك، ووصل عماد الـدين زنكي بن مودود بـن زنكي إلى بحيرة قدس، وخيم عليهـا، فخرج السلطـان إلى قدس، وتلقاه عماد الـدين، ثـم دخلا إلى السـاحـل، ونهب المسلمون من الأغنـام شيئاً كثيراً، وقطعوا أشجـارهم وخربـوا ديارهم، وفتحوا حصـن يحمور، وساروا إلى أنطرطـوس في سادس جمادى الأولى، وزحفـوا إليهـا وهـدمـوهـا ونهبـوا مـا فيهـا مـن الأنفـس والأموال، وامتنـع منها برجـان في أحدهما الـداوية ، وفي الآخر جملـة من المنهزمين، فسلم مظفـر الدين برج المنهـزمين وتسلمه منهم وهدمـه ورمى بحجارته إلى البحـر، وامتنع برج الداويـة فتركه خوفاً مـن فوات غيره، ثم سار نحـو جبلة وتسلموها بـأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، ثـم مضوا إلى صهيون، ونصب المجانيق عليها، واشتـد عليهـم الحصار حتى صاحوا الأمـان، فأخـذهـا السلطـان منهم بما فيهـا مـن العـدد والأموال، وقطـع

عليهم مثل قطيعة القدس، ثم سلم السلطان صهيون بجميع ما فيها إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، ثم تسلم السلطان قلعة العيد، ويوم السبت قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلا طنس، ثم مضى إلى الشغر بكاس فتسلمها بالأمان، وكان من نوادر ألطاف الله تعالى تيسر هذه الفتوحات الخمسة المتتالية في أيام الجمع الخمس المتتالية، ثم سار السلطان إلى برزية وفتحها بعد حروب كثيرة في جمادى الآخرة أيضاً،ثم توجه إلى الدربساك وتسلمها في ثاني عشر رجب، ثم تسلم من الداوية حصن بغراس وعجب من ذلك، وسلم الحصنين إلى سليمان بن جندر، وكان له حصن عزاز، ثم عزم على قصد أنطاكية، فوصله رسول صاحبها يسأله الهدنة على أنطاكية وما في يده ثمانية أشهر، فأجابه على ذلك، وتوجه السلطان إلى حلب فدخلها، ثم توجه إلى معرة النعمان قاصداً زيارة الشيخ أبي زكريا الزاهد رحمه الله، فزاره وتبرك به، ثم مضى إلى حماه، وتوجه إلى دمشق فدخلها في آخر شعبان من السنة، وظن الناس أنهم يقيمون بدمشق للصوم عند أهاليهم، فما لبث السلطان ولا مكث، وخرج في أوائل شهر رمضان، وقصد صفد وقاتلها مدة شهر إلى ثامن شوال فتسلمها بالأمان بعد قتال شديد، فلما كان منتصف ذي القعدة فتح السلطان كوكب بعد حروب عظيمة، وتوجه السلطان إلى القدس في مستهل ذي الحجة وعيد به عيد الأضحى، وودعه الملك العادل ومضى بعسكره إلى مصر، وخرج السلطان إلى عكا.

ودخلت سنة خمس وثمانين

والسلطان مقيم على عكا يرتب أمورها ويصلحها، فلما كان العشرون من شعبان زحف الفرنج عن يد واحدة، واقتتل المسلمون وهم قتالاً عظيما استشهد فيه الأمير مجلي بن مروان، وظهير الدين علي أخو الفقيه عيسى، وطلبوا مخيم السلطان فانهزم المسلمون، ووصل بعضهم إلى

طبرية، وبعضهم إلى عقبة فيق، ومنهم من وصل إلى دمشق، وخيف على السلطان ، واشتغل كل بنفسه، ثم ورد الخبر أن السلطان صادف جمعاً من الفرنج فقاتلهم وانتصر عليهم، فتراجع الناس إليه، ووقعوا على ميسرة العدو ووضعوا فيهم السيف، ولم ينفلت منهم إلاّ الآحاد

قال العماد الكاتب: حكي أن الفرنج اعرضوا في مائة ألف وعشره آلاف ،ومن العجب أن الذين ثبتوا من المسلمين لم يكونوا ألفا، فردوا مائة ألف، وحكى بعض المنهزمين قال: انهزمت من فارس كافر وفرسه يجري جري الريح، ولزني حتى آيست من البقاء، ثم أبطأ عليّ فعله بي فالتفت وإذا به وبحصانه ملقيان وليس هناك أحد، فعرفت أنه نصر إلهي. واستشهد في هذه الوقعة الفقيه جمال الدين أبو علي ابن رواحة، ثم وقع الاتفاق على تأخير القتال، وتأخر السلطان إلى اخروبة، وشرع العدو في حفر خندق على معسكرهم من البحر إلى البحر، فحفروه وعمقوه.

وفيها توفي الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، موته في يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بدمشق، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فكان عمره أربعاً وتسعين سنة، كان عالما بمذهب الشافعي، عظيما فيه، أخذ العلم عن القاضي أبي علي الفارقي وقرأ الفارقي على الشيخين أبي اسحق الشيرازي، وأبي نصر بن الصبّاغ، وقرأ أصول ابن برهان على ابن برهان، وقرأ تعليق أسعد على أسعد،وأنجب من أصحابه خلق عظيم، وهو كان السبب لعمارة المدارس واشتهار العلم بالشام.

وفيها وصل أمر أمير المؤمنين الامام الناصر إلى السلطان الملك الناصر بالخطبة لولده ولي العهد عدة الدين أبي نصر محمد، فخطب له بدمشق في يوم الجمعة ثالث عشر صفر، ونثرت الدنانير على الخطيب، وأمر بذكر اسمه في السكة والخطبة ففعل.

وفيها في تاسع ذي القعدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد، وحمل من يومه إلى القدس فدفن به، وفيها توفي عز الدين بن ال[illegible] في بكرة الجمعة منتصف شعبان.

ودخلت سنة ست وثمانين

والسلطان مقيم على الخروبة، والملك العادل والأفضل معه، والفرنج محاصرون عكا،ودام الحصار جميع السنة.

وفيها كانت وقعة الرمل: كان السلطان يركب أحيانا للصيد فركب يوما لذلك، فطاب له وأبعد، فخرج الفرنج طالبين بعد العصر، وحملوا حملة واحدة على المسلمين، وفني نشاب المسلمين، واستشهد منهم جماعة.

وفيها في نصف ربيع الأول تسلم السلطان شقيف أرنون، وفيها صح الخبر أن ملك الألمان عبر من خليج القسطنطينية ، وكان معه خلق لايحصون ، فقيل إنهم أقاموا في موضع شهراً عدموا فيه الطعام فهلك منهم خلق، وتوصل الباقون إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود، فقاتلهم فهزموه ودخلوا قونية ثم راسلهم وصالحهم على العبور إلى بلاد الشام، فاصطلحا على ذلك، وبعث مليح بن لاون معه عشرين أميراً ليوصلوه إلى مأمن، فلما وصل ملك الألمان إلى المأمن، غدر بالأمراء، وساقهم معه مقيدين إلى طرسوس، فمكث بها مدة، ثم قيل إنه عنّ لملك الألمان أن يسبح، وكان شيخاً مسناً، فسبح في الماء البارد، فخرج منه مريضاً، ومات إلى لعنة الله تعالى، وقيل إنه غرق ، وقيل إنه لما مات سلقه أصحابه في قدر حتى تخلصت عظامه، ثم جمعوها في كيس وراموا انفاذها إلى القدس ليدفنوها في قمامة اكراما له على ما وصاهم به، وقام ولده مقامه، ووصل إلى السلطان كتاب اللكوتاغيكوس صاحب قلعة الروم يبدي نصيحة، وأرعد فيه وأبرق بقضية ملك الألمان، وحكى له ما

جرى له معه، فذكر أنه بذل لملك الألمان مائة قنطار ذهب وفضة نضفين،ومن الثياب الطلس المعدنية ما يبلغ آلافا، وكثر في ذلك وشدد وأنه توفي بعد استحمامه بماء بارد، وقد خلف ولده، وقد عرض في اثنين وأربعين ألف فارس، وأما الرجالة فلكثر تهم تعذر العرض.

فلما بلغت هذه الأخبار اضطربت الديار، ثم قدر الله سبحانه مرض ولد ملك الألمان ، ومات أصحابه جوعاً، وتواصل من سلم منهم إلى أنطاكية ، وتفرقت بقية منهم التقطهم المسلمون والتركمان، وباعوهم بحلب في الأسواق، حتى أن فلاحي القرى طمعوا بهم واستأسروهم، فتوجه ملك الألمان بنفر يسير إلى عكا، فاختلط مع الفرنج عليها.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان توفي زين الدين يوسف ابن ايتكين صاحب إربل ، وسر أخوه مظفر الدين بوفاته. وقال العماد: قصدناه معزين وإذا به في رواقه واحتاط على جميع ما يحويه، وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ إربل وبلادها، ونزل عن حران والرها وسميساط، وزاده السلطان شهر زور.

وفيها وقعة رأس الماء، في رابع عشر شوال، وسببها أن الأسعار غلت عند الفرنج حتى هلكوا جوعاً، وبلغت الغرارة مائة دينار، فخرجوا بحدهم وحديدهم وعدّهم وعديدهم، وعبأ السلطان عسكره، والتقى الجمعان، وقام اياس الطويل في هذا اليوم مقاماً عظيما، ووقف بين الصفين يدعو إلى المبارزة، فما برز إليه أحد إلاّ صرعه.

ثم هجم الشتاء وأذن السلطان للأجناد الغرباء والملوك بالإنصراف، فعادوا إلى منازلهم، وأقام بخاصته على قدم الغزاة.

وفيها في ثاني عشر ذي الحجة هلك ولد ملك الألمان، ولحق بأبيه لعنهما الله تعالى.

ودخلت سنة سبع وثمانين

فيها وقعت وقائع على عكا آخرها يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، فهجم الفرنج عكا واستولوا عليها، وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين سر باريك وأخذا أمانا من الفرنج على أن يخرجا بأنفسهما وأموالهما على تسليم البلد ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة أسير من المعروفين، وصليب الصلبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس، وأربعة آلاف لحجابة، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره إلى الملك المظفر تقي الدين، حيث سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بقصد أخلاط وغيرها.

وغدر الفرنج بالمسلمين بعد الأمان، وأسروا بهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب، ثم لما استقروا بعكا خرجوا إلى قيسارية، ووقعت وقعتها في تاسع شعبان، واستشهد اياس الطويل. ثم في رابع شعبان كانت وقعة أرسوف ،وثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين، ونزل الفرنج على يافا، وتوجه السلطان إلى عسقلان فهدمها في تاسع عشر شعبان، ثم توجه إلى الرملة فنزلها بعد هدم عسقلان.

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان، وهو محاصر ملازكرد، وقد ذكرنا أن مولده في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وشهوراً.

وفيها توفي حسام الدين محمود بن عمر بن لاجين ـــ وهو ابن أخت السلطان الملك الناصر ـ بدمشق، في يوم الجمعة تاسع عشر رمضان في يوم وفاة الملك المظفر. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر. وفيها

توفي الصفي بن القابض في ثالث عشرين رجب. وفيها توفي نجم الدين الخبوشاني، وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الشافعي رحمه الله، ووقف السلطان عليها رباعاً، فلما توفي الخبوشاني طلب المدرسة جماعة، وشفع الملك العادل في صدر الدين شيخ الشيوخ ابن حموية، فسلمها إليه، ثم عزل بعد ذلك بمدة قليلة.

وفيها مات قزل صاحب خراسان، وملك ابن أخيه أبو بكر.

وفيها تسلم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب بهسنا، وكيسون ورعبان والمرزبان. وفيها قتل الملك الظاهر شهاب الدين السهروردي وتلميذه لفساد دينه واعتقاده.

وفيها توفي القاضي محيي الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بالموصل، وفيها توفي الفقيه علاء الدين الكاشاني بحلب، مدرس مدرسة الحلاويين، وكان رئيس أصحاب أبي حنيفة بها.

ودخلت سنة ثمان وثمانين

وصل السلطان إلى القدس، وشرع في تحصينه وعمارته، ثم وصله الأمير سيف الدين المشطوب من الأسر، وكان لما أسر قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار، أدى منها ثلاثين ألفا، ودفع رهائن بعشرين ألفاً، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها لمصالح القدس، وترك عماد الدين أحمد بن المشطوب بنابلس، وأبقي عليه فيها.

وفيها: هلك المركيس لعنه الله بصور، قتله كافران بالسكاكين في ثالث عشر ربيع الآخر. وفيها في ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى، المعروف بابن الفراش ، قاضي العساكر.

وفيها أخذ الفرنج الداروم عنوة، وقتلوا كل من به من المسلمين، قيل كانوا خمسمائة نفس وفيها مضى السلطان إلى يافا ونقبوها وهجموها، وذلك في شهر رجب، وفيها قريب من ألف نفس من الفرنج، وطلبوا الأمان فبطل السلطان عنهم القتال طمعا في أخذهم، فجاءهم صبيحة يوم السبت نجدة من عكا، ستون مركبا موسقة بالرجال، وقاتلوا المسلمين، وقتلوا منهم جماعة، وعند ذلك ظفر السلطان بهم، فطلبوا الصلح، وطلب السلطان منهم عسقلان وغيرها فردوه فأجابوا فتسلم منهم مدينة عسقلان وهدمها، بعد أن غرم الفرنج على عمارتها مائة ألف دينار.

ودخلت سنة تسع وثمانين

كان السلطان دخل دمشق، فلما دخل صفر مرض ثم توفي في السابع والعشرين من صفر، رضي الله عنه، وقد ذكرنا أن مولده في سنة اثنتين وثلاثين، فكان عمره ستا وخمسين سنة وأشهرا، وخلف من الولد سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة، وكان الملك العادل يومئذ بالكرك فحضر بعد أيام إلى دمشق، ثم توجه إلى بلاد الجزيرة، فإن السلطان كان قد جعل له كل ماشرقي الفرات من البلاد، ولم يخلف السلطان في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، هكذا ذكره العماد الكاتب.

قال العماد الكاتب: حسب ماوهبه السلطان من الخيل لمن حضر معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين اثني عشر ألف رأس من الخيل، من حصان واكديش وحجرة، غير ما أطلقه من المال لشراء الخيل، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب او موعود بهبته، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا جاهد عليه، فإذا نزل أعاده إلى صاحبه، وكان لايلبس إلا مايحل لبسه من قطن وكتان وصوف، وكانت محاضره مصونة، وخلواته

مقـدسة، عـالما بعلـوم الشرائع، وكان المجـالس لـه لايعلـم أنه جليـس السلطان بل جليس لأخ من الأخوان.

قـال العماد: ومما أذكـر لـه أنـــه تـوجـه إلى مصر سنـة اثنتين وسبعين فحوسب صاحب ديوانه، فكانت سياقة الحساب سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبهـا ولا ذكرهـا مع أن صاحـب الديـوان معترف بها، ووصله كتاب سيـف الدولة ابـن منقذ مـن مصر يخبره أن شخصا ضمن معـاملة بمبلغ فاستقـص منها ألفي دينار وهرب، وربما وصـل إلى الباب الشريف وتمحل وتحيل وكذب، فـأخبر السلطان أنه بالباب، فقال السلطـان: قولوا له: ان ابـن منقذ يطلبك فـاجتهد ان لاتقع في عينـه، فتعجب الحاضرون من كرمه وحلمه.

قال العماد: وقـال لي بحرّان في سنة إحدى وثمانين: اكتـب إلى الصفي ابن القابض يتصدق بدمشق بخمسـة آلاف دينار صورية، فقلت الذهب الـذي عنده مصري، فقـال: يتصدق بخمسـة آلاف دينـار مصرية، قـال العماد: وأشفق من صرف المصري بالصوري لما فيـه من الربا، قال العماد: فسمعت بعد ذلـك من الصفي يقول: أحصيت فقهـاء المدارس بدمشق، فكانوا ستمائة فقيه، فأطلقت لكل فقيـه شيئا من ذلك، قال العماد: وقال لي يوم الرحيـل من حران: انظر كـم بقي من الوافـدين بالباب مـن أبناء السبيـل، وهـذه ثـلاثمائة دينـار فرقهـا عليهـم، وفضـل مـن شئـت على أقدارهم، فعينـت لكل واحد منهم قسما، فبلغـت القسمة أربعمائة دينار، فجعلت أفكـر وأطيل النظر إليـه، فقال: مالـك؟ قلت: قد جـرى القلم بقسمة أربعمائة دينـار فهل أنقص من كـل قسم ربعا؟ فقـال: لا، أجري ماجرى به القلم، وأحسن صنعا، وكانـت مماليكه وخواصه وأجناده أعف من الزهاد.

قال العماد: ورأى يـوما دواتي محلاة بالفضة، فـأنكرها، فقلـت: أوليس

تحل حليـة السلاح، فـدواتي أنفع، ويـراعـي أطول، وسـلاح قلمي أجـد وأجد، ومـا اجتمعت هـذه العساكر الاسـلامية إلا بقلمـي، فقال: مـاهذا دليل، فقلـت: إن الشيخ أبا محمـد الجويني والد إمـام الحرمين أبي المعالي قد ذكـر وجها في جـواز تحلية الدواة، وأنـا أتبعه، ثم بعـد ذلك مـاعدت كتبت منها، إلا من دواة شبه خوفا منه.

وكـان محافظـا على الصلـوات الخمـس في أوقـاتها، وعلى أداء سننهـا، ولايصغي إلى قول منجم ولامنطقي، ولايفضل يـوما على يوم ولازمانا على زمان، هذا خلاصـة ماذكره العماد الكاتب، وبالجملـة كان السلطان رحمه الله أعظم من أن يوصف بالصفـات الجميلة والآراء الحميدة، وكل ماذكره العماد الكاتب عنه مقبولا ولايمكن دفعه ،وأول من جمعه.

ولما مـات السلطـان قدس الله روحـه قـام بـالملـك بعده ولـده الملـك الأفضل نـور الدين علي، واستقـل بدمشـق، وكان السلطان عهـد إليه في حياته واستحلف الجنود له.

وفيها توفي عز الدين مسعود بن قطـب الدين مودود، وقام بالأمر بعده ولده نـور الديـن، وفيها تسلـم الملك العـادل قلعة جعبر وسروج والـرقة، وصالح صاحـب الموصل، وصاحب سنجار، وأخذ العسـاكر، ودخل إلى بـلاد أخلاط فكسره صـاحبها وقتـل مـن أصحاب الملـك العادل جماعـة وأسر جماعة، وهجم الثلج، فعاد الملك العادل إلى حران.

وفيها فـارقت الياروقيـة الملك الظاهر مـن حلب، وانتقلت إلى خـدمة الملك العادل.

وفيها قتل سلطـان همذان طغرل شاه بن أرسـلان شاه، وحمل رأسه إلى بغـداد على قنـاة، وعلـق على البـاب النوبي، وفيهـا أخـذ الإمـام النـاصر

البوازيج من صاحب إربل وسلمها إلى صاحب الموصل، وفيها ذكر أن خليجا من نيل مصر أصبح دما عبيطا وفيها ورد الخبر بأن ذئبا كلبا هجم دنيسر، وعض اثنين وتسعين نفرا فماتوا جميعا، وفيها وقع بأرض بالس برد كبار، وزن البردة على ماقيل مائة وعشرون درهما، هلك به الوحش والطير والنعم والماشية والخلق والضياع والأشجار، وأخرج من الماء برد بعد خمسة عشر يوما من وقوعه في الماء مثل بيضة الحمام، وجاء عقيب ذلك رعود طارت العقول منها، وفقعت فقعة كان منها صاعقة نزلت في اصطبل بالياروقية أحرقت سبعة أنفس كانوا منتبهين، وإلى جانبهم ثلاثة انفس نيام لم تصبهم وسلموا.

ودخلت سنة تسعين

فيها نزل الملك العزيز عثمان صاحب مصر إلى دمشق يحاصرها، وأقام عشرة أشهر وقطع الماء عنها، فبعث الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل وأخيه الملك الظاهر يستنجدهما فوصلا إليه ورحلا العزيز عنها، واصطلحوا جميعا، وعاد العزيز إلى مصر، وأخذ الملك الأفضل من الفرنج جبلة واللاذقية.

ودخلت سنة احدى وتسعين

ففيها توفي القاضي مجد الدين أبو القاسم هندي بن يوسف بن هندي، الحاكم بمدينة حمص، وصلى عليه الخطيب ضياء الدين الدولعي بجامع دمشق، ثم صلى عليه القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري خارج باب الصغير، ثم صلى عليه الحافظ ضياء الدين ابن عساكر بالمصلى، ثم صلى عليه القاضي محيي الدين قاضي دمشق، ابن القاضي زكي الدين بمسجد النارنج ودفن به، وكانت الجنازة عظيمة وافرة جدا، وكان رحمه الله عالما فاضلا عظيما مهيبا، وقام بالقضاء بعده القاضي زين الدين أبو

الفضل محمد، وكان في زمن والـده ينوب عنه في القضاء بحمص وأعمالها في غيبته وحضوره، ثم استقل بالقضاء بحمص وأعمالها بعد وفاة والده.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها نـزل الملك العـادل أبو بكر بـن أيوب على مـاردين، وحـاصرها، وأخذ الربض في ذي الحجة من السنة.

ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها تـوفي الملك العـزيز عثمان صـاحب مصر وقـص به فـرسه فمات، واتفقت الصـلاحية على توليـة الملك العادل بمصر، فحضر إليهـم سيف الـدين يـازكش، وأشـار بإحضـار الملك الأفضـل وتوليتـه، وكان يـومئذ بصلخد، واتفقوا على ذلك وأحضروه وولوه السلطنـة بمصر، واستقر حاله بها، ثم بعد ذلـك خرج فخر الديـن جهاركس والصلاحيـة مغاضبين إلى القدس، وأخذوه، وبعث الملـك الظاهر صاحب حلب، والملـك المجاهد اسـد الديـن شيركوه صـاحـب حمص إلى الملك الأفضـل، وأشاروا عليـه بقصد دمشق وأخذها وأنهما ينجدانـه، فخرج الأفضل قاصدا دمشق، ولما بلغ الخبر الملـك العادل سيف الـدين أبا بكر، وهـو يومئذ بماردين ساق مستحثا طالبا دمشـق، فدخلها في أيام قلائل قبل وصـول الملك الأفضل إلى دمشـق، وسببه أن الأفضـل اعتـاق في الطـريق لالضرورة، ولـو كـان استحـث نفسـه سبـق إلى دمشق، ولما وصـل الأفضـل إلى دمشـق جـاءه الملك الظاهر وصاحب حمص، وأناخا على دمشق محاصرين عمهما الملك العـادل، فحاصراه والملـك الأفضـل مدة، ثـم هجم الشتـاء فـرحلا عـن دمشـق، وكان الملـك العـادل في خلال الحصـار استـدعـى ولده الملـك الكامـل، وهو على ماردين بالعساكر، فجـاء العادل بعساكـره إلى دمشق ودخلهـا، ولما رحل الملـك الظـاهـر والملك الأفضـل عـن دمشـق توجـه

الظاهر إلى حلب، والأفضل إلى مصر، وعاد الملك الكامل إلى جهة الشرق، ثم توجه الملك العادل إلى مصر تابعا للأفضل فوصلها، وكانت عساكر مصر قد باطنت وخامرت ونكثت أيمانها، فملك العادل مصر، وخرج الملك الأفضل إلى صلخد.

وفيها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن البيساني في الليلة التي دخل الملك العادل فيها إلى مصر بعلة السكتة.

ودخلت سنة ست وتسعين

لم يزد فيها نيل مصر، واشتد عليهم الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا وأكل بعضهم بعضا.

وفيها وليّ القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء القضاء ببغداد، وفيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل محمد بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حمص إلى مدينة حماة مفارقا حمص وقضائها، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماة بالإكرام والإعظام واستقضاه وبعثه رسولا في سنته إلى الديار المصرية إلى الملك العادل سيف الدين.

ودخلت سنة سبع وتسعين

كان الملك العادل أقطع ابن أخيه الملك الظافر خضر السواد من الشام، فبلغ الملك العادل أنه يكاتب أخوته باطنا، فأقطع الصلاحية السواد وأمر عليهم عز الدين سامة، وأمرهم بقصد صلخد ومحاصرة الأفضل ففعلوا، ثم أقطع الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أخيه الملك الأفضل ميافارقين وجبل جور، ونفذ في الباطن إلى ولده الملك

الأوحد المقيم يومئذ بميافارقين يأمره أن لايسلمها إليه، فخرج الملك الأفضل في جمادى الآخرة من السنة، ومضى إلى حلب واستنجد بأخيه الملك الظاهر، فأكرمه، وجند الملك الظاهر الجنود وخرج بنفسه وعساكره وأخرج معه خزانة السلاح محمولة على مائتي جمل، وقصد منبج، فأخذها، وصاحبها يومئذ شمس الدين عبد الملك بن المقدم، وقبض عليه وبعثه إلى حلب، فاعتقله بها، ثم توجه إلى قلعة نجم فأخذها وسلمها إلى نواب أخيه الأفضل، وعاد إلى جهة حماة ومعه من العرب أمم عظيمة، فنهبوا القرى وأجلوا أهلها وسفكوا دمائهم، وأكثروا الفساد في الأرض، وأخافوا السبيل، ثم مضوا إلى حماة فحاصروها في شعبان وشهر رمضان من سنة سبع وتسعين، ثم اصطلح الملك الظاهر والملك المنصور، وتوجه الملك الظاهر والملك الأفضل إلى حمص وصاحبها يومئذ(اسد الدين شيركوه) ابن احمى الملك الأفضل، والكل متفقون باطنا، ثم مضيا إلى بعلبك، فأعطاهما صاحبها مالا، ثم توجها إلى دمشق في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين، فنزلا في ميدان الحصا والمقابر، وزحفا مرة، ثم زحفا مرة ثانية فملكا العقيبة وهدماها، وملكا خان الملك المظفر تقي الدين، وخرج إلى الملك الظاهر الخطيب الدولعي والأمير عز الدين سامة ولطفا به ووعداه أنه اذا توجه إلى عمه الملك العادل وبلغ مقصوده منه وعاد سلموا إليه دمشق صلحا.

وفي أثناء ذلك وقع فيما بين الملك الظاهر والملك الأفضل، وفسد الحال ورحلا عن دمشق في أول صفر سنة ثمان وتسعين، ولما عاد الملك الظاهر إلى حلب صالح الملك الأفضل عمه الملك العادل على سروج وسميساط والموزر، فدفعها الملك العادل إليه، وخاف الملك(المنصور) صاحب حماة من الملك الظاهر على المعرة، فراسل الملك العادل في استدعائه للمقام بظاهر حماة، ونزل ظاهرها، ثم اتفق الصلح بين الملك العادل وبين الملك الظاهر.

وفيها توفي حسام الدين صاحب ماردين، قيل إن غلامه قد سقاه سما، فمات منه، وفيها عزل القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري عن قضاء بغداد، وفسح له في العودة إلى وطنه.

وفيها توفي جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي إمام وقته في علم الوعظ والحديث والجرح والتعديل والتفسير والتاريخ والسير، والفقه على مذهب أحمد بن حنبل، صنف في كل علم وطبق الأرض ذكره، واشتهرت تصانيفه وكان من العلم والفضل بمحل عال وأما الوعظ ومواده فهو مسلم إليه.

وفيها زلزلت الدنيا زلزلة عظيمة بالشام والسواحل هدمت صور وعرقة وأبراجا من عكا وهلك فيها خلق عظيم ووقع رأس منارة دمشق والكلاسة وأبراج من قلعة حماة وبارين وشعثت شيزر وبعلبك.

وفيها تزوج السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة الست وحشية خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ووصلت إلى حماة وكان يوما مشهوداً ،وتوفيت السنجارية زوجة الملك المنصور قبل ذلك بثلاثة أيام فكان موتها راحة لها.

دخلت سنة تسع وتسعين

فيها في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان ولد الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك منصور والدته وحشية خاتون بنت الملك العادل سيف الدين.

وفيها ولي القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء حماة في صفر وتوفي في العشر الاوسط من رجب من السنة فكانت مدة ولايته خمسة

أشهر فيها شهر واحد صحيح الجسم ، والباقي مريض، وفيها توفي القاضي محيي الدين أبو المعالي بن القاضي زكي الدين قاضي دمشق المحروسة.

ودخلت سنة ستمائة

فيها توفي الحافظ بهاء الدين بن عساكر بدمشق.

ودخلت سنة خمس وستمائة

فيها جاءت زلزلة عظيمة هائلة في الثلث الأخير من الليل هدمت شراريف من برج القلعة بحماة المحروسة وهدمت أبراجا بقلعة بارين وهدمت غالب قلاع الساحل وحكي ان البحر غار قطر منه وعمت معظم البلاد في الأقطار.

ودخلت سنة ست وستماية

فيها توجه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الى سنجار فنزل عليها وصحبته الملك المنصور صاحب حماة وغيرها وذلك مدة أشهر.

وفيها توفي الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي المعروف بابن خطيب الري صاحب الكتب المصنفة في الحكمة والمنطق والأصولين وغيرُ ذلك، طبق ذكره الأرض واشتهر فضله وسارت مصنفاته وعلت منزلته عند خوارزم شاه حتى كان يقرأ عليه ويقعد بين يديه، وتوجه الى عند شهاب الدين الغوري وحظي عنده بالحظوة العليا وله أخبار منقولة وسير مشهورة ومولده في حدود سنة خمسين وخمس مائة،

وأخـذ العلم عـن والـده الخطيب بـالري وعـن مجد الـدين الجيلي وأخـذ الحكمة وعلم الكلام عن الحمّصي — بميم مشددة.

ودخلت سنة سبع

فيهـا وردت رسـل البـاطنيـة الى بغداد مـن ألموت وبقيـة بـلادهـم، وخبروا عنهـم أنهم اسلمـوا وأظهـروا شعائر الإسـلام وبعثـوا بمفـاتيـح بلادهـم وقلاعهم الى دار الخلافـة وبعثوا ذهبـا مضروبا عليه اسـم الإمام الناصر لدين الله تعالى وزَفّت في جوانب بغداد.

وفيها تـوفي نور الـدين زنكي صـاحب الموصل وتقلـد السلطنة بـالموصل بعده الملك القاهر.

ودخلت سنة ثمان وستمائة

فيها تـوفي شيخنا الإمام عماد الـدين أبو حـامد محمـد بن يونـس إمام أصحاب الشافعي في وقته، مولـده في حدود سنة اثنتين وخمس مائة وكان رحمه اللـه جامعـا بين العلم والعمـل انتهت اليـه رئاسـة الديـن والدنيـا وصنف في أصول الفقه وفـروعه، وكان إذا مرض يعوده نور الـدين أتابك صاحب الموصل في منـزله، وكان نور الدين حنفـي المذهب، فعاد الشيخ عماد الديـن مرة في مرضـه وسأله حاجـة فقال: ارى أن تعود الى مـذهب الشافعـي فعاد من وقتـه وبنى لأصحاب الشافعـي مدرسة لم يـر الراؤون أحسـن منها، ودفعهـا للشيخ عماد الـديـن رحمه الله، وكـان الشيخ هـو المعتمد للترسـل الى دار الخلافة، ولما تـوفي نور الـدين انحـدر الشيخ الى بغداد رسـولا وأخذ التقليـد الشريف بالسلطنـة بتملك القـاهر بـن نور الدين أتابك، وبعد هذه السنة خال الى:

سنة اثنتي عشرة

فيها حج الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ومهد طريق تبوك وفتحها فانقطع الحاج عن طريق تيماء وسلكوا طريق تبوك.

ودخلت سنة ثلاث عشرة

فيها مات الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب في العشرين من جمادى الآخر وكان رزئا عظيما في الإسلام.

ودخلت سنة اربع عشرة

فيها خرج التتر الكافر الى بلاد خراسان وماوراء النهر، وأسروا خوارزم شاه، واستولوا على بلاد المسلمين،وتسلموا خوارزم وهدموها، وقتلوا كل من بها، وفعلوا ذلك ببخارى، وتلك الأقاليم حتى روى جماعة من التجار والفقهاء الواردين من تلك الجهات أنهم هدموا مائتي مدينة ونيف، وقتلوا من الفقهاء آلافا كثيرة، فكيف بالعوام، وانقطعت السبل في تلك النواحي سنين عديدة.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بعالقين على فراسخ من دمشق وقد ذكرنا ان مولده في سنة سبع وثلاثين، فكان عمره سبعا وسبعين سنة وشهورا.

ودخلت سنة ست عشرة

في يوم الثلاثاء خامس وعشرين شعبان تسلم الفرنج دمياط بعد محاصرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما، فإنهم نزلوا عليها في ثالث ربيع الأول سـنة خمس عشرة، وأقام السلطان الملك الكامل في مقابلتهم بمن معه من الملوك والعساكر الاسلامية مدة طويلة بالمنزلة المشهورة بالمنصورة وجرى بين الفريقين من القتال برا وبحرا مالايمكن وصفه واشتد الغلاء بدمياط في حالة حصار الفرنج لها حتى لم يبق يوجد شيء وإن وجد كان أضعاف أضعاف ثمنه ونفدت نفقاتهم ووقع فيهم الفناء فماتوا، ولما تسلم الفرنج دمياط في التاريخ المذكور مازالت بأيديهم والمسلمون يحاصروهم ،ويوم الأربعاء سابع عشر شعبان سنة ثماني عشرة وستمائة فتحها المسلمون وتسلموها من الفرنج كل ذلك بحول الله وقوته وبعزم السلطان الملك الكامل وحسن نيته وجميل طويته، وكان ذلك يوما مشهودا عظيم البركة على المسلمين، وكانت مدة مقام دمياط في يد الفرنج سنة كاملة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها في يوم الاثنين سابع وعشرين ذي القعدة توفي الملك المنصور صاحب حماة رحمه الله تعالى، ومولده كما ذكرناه في سنة سبع وستين، وابتدأ ملكه حماه في أوائل سنة ثمان وثمانين فكان عمره خمسين سنة وشهوراومدة ملكه تسعا وعشرين سنة تقريبا ولما نزل به المرض أمر خاصته بتحليف الجند والخاصة والعامة لولده الاكبر الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود ففعلوا ذلك، وحلف الناس له اولا ثم من بعده لأخيه الملك الناصر قليج أرسلان،وكان الملك المظفر تقي الدين يومئذ بالديار المصرية بالغزاة في خدمة خاله السلطان الملك الكامل، والملك الناصر قليج أرسلان بدمشق تخلف بها، فلما اشتد المرض بالملك المنصور

تعصب بعض الخاص للملك الناصر قليج أرسلان لقربه من حماة وأحضروه وجرت أمور لم تخف عن أهل الأمر خلاصتها أنهم صعدوا به الى القلعة في يوم الإثنين وأحضروا الذي كان حلف من الخاصة للملك المظفر أولا والأمراء والخواص وطلبوا منهم ان يحلفوا للملك الناصر قليج أرسلان ، فامتنعوا وقالوا للمستحلف إنك حلفتنا بالأمس للملك المظفر بالعهود وبالنذور وبالأيمان المغلظة بالطلاق والعتاق فبأي فتوى ننكث أيماننا ويقع علينا الطلاق والعتاق فأجابهم بما اشتهر، وجرت أمور عجيبة حتى حلفوا ونقضوا الأيمان بعد توكيدها وكان من لطف الله سبحانه أنني كنت مريضا في تلك المدة لم أحضر شيئا من ذلك، ودفن الملك المنصور في يوم الإثنين المذكور، وأظهروا موته في بكرة الثلاثاء، وعملوا عزاء عاما في الجامع الأعلى، واستقل بتدبير الملك من غلب على الملك الناصر ممن هو معروف لم يخف على الناس أمره وحاله.

ودخلت سنة ثماني عشرة

فيها فتح المسلمون دمياط وملكهم يومئذ الفاتح لذلك المولى السلطان الملك الكامل، وكان فتحا مشهودا لم يكن في الإسلام أعظم منه، وبعد هذه السنة خال من الحوادث الى :

سنة اثنتين وعشرين

فيها توفي الامام الناصر لدين الله تعالى ابو العباس أحمد في ليلة السبت سابع شهر رمضان، ومولده كما ذكرناه في سنة اثنتين وخمسين وولي الخلافة في ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين، فكان عمره سبعين سنة وشهورا، وكانت مدة خلافته ستا وأربعين سنة وأحد عشر شهرا تنقص يومين، ولم يخلف ولدا ذكرا سوى ولده الإمام الظاهر أبي نصر محمد، وسنذكر ولايته، وكان الإمام الناصر عظيما مهيبا عالما، سياسيا

حازما وقد سقنا من أخباره جملا في التاريخ الكبير، وهذا المختصر لايليق به التطويـل، وقد حكي أنه لما عـزل وزيره نصير الدين العجمـي القمي وقبض عليه اسكنـه في دار منعه من الخروج منها وأجرى عليه مـايقوم به وبأولاده فكتب الوزير اليه:

ألقنــــي في لظـــى فـــإن غيرتنــــي
فتيقـــن أن لســـت بـــاليـــاقـــوت
عــــرف النســـج كـــل مـــن حـــاك
لكـــن نسيـــج داود ليـــس بـــالعنكبـــوت

فكتب اليه الامام الناصر جوابا:
نســج داود لـــم يفـــد صـــاحـــب الغـــار
وكـــان الفخـــار للعنكبــــوت
وبقـــاء السمنـــد في لهب النـــار
مـــزيـــل فضيلـــة اليـــاقـــوت

وهذا جـواب فائق وشعر مفلـق، ومعنى بـديع، وكان رضي اللـه عنه يحب علي بـن أبي طـالـب رضي اللـه عنـه ويحب اولاده ويميـل اليـه ويمتدحهم ويقدمهم ويفضلهم.......

خلافة الامام الظاهر بأمر الله

عدة الـدين أبي نصر محمد بـن الإمام النـاصر لدين اللـه أبي العباس أحمد. بويـع بالخلافة في يـوم عيد الفطـر من سنة اثنتين وعشريـن، وكان والده قبض عليه مدة طويلة خـوفا على نفسه، ولما ولي كان قد أناف على الخمسين سنة وظهـر الشيب في لحيتـه، وحكي عنـه انه قـال،كم يقعـد المعلم في المكتب إذا فتحه بعد العصر، فكان كما قال فلما دخلت:

سنة ثلاث وعشرين

توفي في ثالث عشر رجب فكانت مدة خلافته تسعة أشهر وثلاثة عشر يوما٠

خلافة الامام المستنصر بالله أبو حسن المنصور بن الامام الظاهر بأمر الله .

بويع بالخلافة يوم موت أبيه، واستبشر الناس بخلافته وتيمنوا ولايته، ورد على الناس أموالا وأملاكا كانت قبضت عليهم. وتظاهرت الرعية بالأموال، وظهر من العدل مالا يمكن وصفه، واكثر من الصدقات بالأموال الجزيلة، ومنع أصحاب الأخبار والتخبر لما فيه من الفساد والضرر، وكان صاحب خبر كتب مطالعة اليه فكتب في جوابها: إن عاد كتب مطالعة أو خبّر خبرا ضربت عنقه، ومنع أهل الفساد من ذلك ووصل الحق الى مستحقه ومنع الظالم من تعديه وظلمه٠

ودخلت سنة أربع وعشرين

في سلخ ذي القعدة منها توفي الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، وولي مكانه الملك الناصر صلاح الدين داود.

ودخلت سنة خمس وعشرين

فيها في شعبان تجهز السلطان الملك الكامل الى الشام والسواحل للقاء الفرنج خذلهم الله تعالى، حين علم تحشدهم وتجمعهم ولترتيب أمور المسلمين وبلادهم، فوافى تل العجول، وأناخ به، وتوجه الملك الأشرف الى خدمته،ومضى صاحب دمشق الملك الناصر صلاح الدين

داود معه لنجدته،واجتمعت عساكـر المسلمين هناك،وكان الانبروز طاغية الفرنجة وعظيمهـم خرج بجمع كثير الى الجزائر والسواحـل، وخيف على بلاد الاسلام منهم فاجتهد السلطان الملك الكامل رأيه وصالحهم صلحا تـامـا رآه مصلحـة للمسلمين وغنيمـة لهم، فكـان راعـي هـذه الأمـة المحمدية، وسلطان الملـة الاسلامية، ومن أعز الله تعالى بـه الدين وأهله، والمأمون عليهـم، والناصـح المشفق عليهم، ففعـل مارآه مصلحـة وغبطة ترجحـت في نظره راعـاها، وصـالح الفـرنج على ان يسلـم اليهم البيـت المقدس حرسه الله تعالى وحـده،من غير تسليم شيء من أعماله ولا بلاده قليـلا ولا كثيرا، وشرط عليهـم ان لايجددوا فيـه شيئـا ولاسـورا ولادورا ولايتجاوزوا خنـدقـه، وأن تقـام فيـه الجمعـة للمسلمين المقيمين بـه، ولايمنـع مسلم مـن زيارتـه كيف أراد، ولايـؤخذ مـن زائر مال أصـلا، وكـان ذلك إن شـاء الله تعـالى من أكبر مصـالـح المسلمين وأعظمها ممـا لايخفى عن ذي البصيرة، فإن البيت المقدس مـوضع عبادة لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الناس، فسلم السلطان الملـك الكامل ذلك إليهم مع تهدمه وعدم حصانته حفظا لبقية الثغور والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردد إليـه المصلـون، وعقـد معهـم عقد الهدنـة الشرعيـة المدة المرعيـة في نظـر سلطان المسلمين وملكهـم ومتولي أمورهم، وانـدفع عن المسلمين بـذلك شر عظيـم، وخوف وحصـل الأمن مـدة الهدنـة فلا مصلحـة للمسلمين أعلى مـن هذه المصلحـة، ولاغبطـة لهم أعظم مـن هـذه الغبطة، ودخـل البيـت المقدس أنـاس قليلون مـن الفرنـج لاشوكـة لهم ولاعدد ولاعـدة، وكـان ذلك في سنـة ست وعشرون وستمائة، ومتـى مهـد السلطان الملـك الكامل بـلاد المشرق، واتفقت كلمة الملوك استعاد البيت المقـدس من يد من هو فيه مـن الفرنج في يوم واحد، بل في ساعـة واحدة حتى روي أنه وجـد في المسلمين جماعـة قتلـوا ورمـوا في بئـر هنـاك، فنسـب المسلمـون المقيمون بجبـال القدس قتلهم إلى الفرنـج، وهجموا عليهم البلـد وقتلوا منهـم مقتلـة عظيمـة يقـارب خمس مـائة نفـس كما روي، وحجـزوهـم

وأرهبوهم واختلفوا فيهم، وصاروا في غاية مايكون من الذل، وعاد اللانبروز بعد الصلح التام إلى بلاده، ومازال السلطان الملك الكامل مقيما بتل العجول يمهد الأرض ويملأها عدلا.

وفيها عاد الملك الأشرف من تل العجول فأناخ على دمشق في أوائل ربيع الأول وحاصرها مدة ربيع وجمادين، وجاء السلطان الملك الكامل فخيم عليها، وجرت حروب كثيرة اشتهرت إلى أن ضاق الأمر بالبلد، فلم يكن للملك الناصر صلاح الدين داود إلا الترامي على السلطان الملك الكامل واستمطار مراحمه، فخرج إليه خفية وأكب على قدميه قبلهما، فرحب به السلطان وأكرمه ورأى له سعيه، وطيب قلبه ووعده بالدخول في أمره، وأعاده إلى دمشق إلى أن يفصل القضية وصلح الحال بينه وبين الملك الأشرف على أن الملك الأشرف يتسلم دمشق، فدخلها في أول يوم من شعبان من السنة في يوم الاثنين، ووهب السلطان الملك الكامل للملك الناصر صلاح الدين داود الكرك بما فيه من أموال ونابلس وبيسان وبلاد كثيرة وستة وعشر ين ألف دينار مصرية كما قيل، وأحسن إليه إحسانا لم يخطر بباله وتوجه إلى بلاده وقلاعه، وفيها تسلم السلطان الكامل من الملك الأشرف حران والرها ورأس عين، وجملة من بلاد الشرق، وفيها نزل السلطان الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك المنصور على حماة في يوم الجمعة في شهر رمضان ونازلها وقاتلها بالمجانيق وغيرها، واستمر الحال هكذا إلى ليلة الخميس سابع عشر شهر رمضان فخرج الملك الناصر قليج أرسلان من حماة ليلاً وتوجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل إلى سلمية، وكان قد وصل إليها في ذلك اليوم، فوصل إلى المعسكر المنصور الملكي الكاملي على سلمية متذللا مذعنا مستسلماً، فرحب السلطان به، وبعد يومين من ذلك وصل كتاب الملك الناصر إلى نوابه بقلعة حماة أن يسلموها إلى نواب الملك الكامل وعرفهم أنه قد طاب قلبه ورضي بها وهبه السلطان الملك الكامل عوضا عن حماة سروج، وماله بحماة من مال وغيره وأن

ذلك أنعم عليه من السلطان، فلما وصل الكتاب إلى نوابه بحماة تهيئوا لنقل الأثقال، ثم شغبت جماعة من الخدم والمماليك، وقالوا لانسلم القلعة والمدينة إلى نواب الملك الكامل ولانخرجها عن بيت الملك المظفر تقي الدين وعن أولاده وأولاد أولاده، كل ذلك ظنا منهم أن السلطان الملك الكامل قد أخذ البلد لنفسه ولم يكن الأمر كما ظنوه، ولاكما توهموه، فوصلت كتب السلطان الملك الكامل ثانيا: لم نرد هذه المدينة لأنفسنا، ولو رمنا ذلك لما امتنع علينا، فإن البلاد بلادنا والأولاد أولادنا،ونحن نتصرف في ذلك كيف شئنا، وقد اطلقنا البلاد والأقاليم انعاما وتطوعا، فإذا كنتم تؤثرون مصير هذا الأمر إلى أولاد الملك المنصور فالملك المظفر عندكم وقفوا الحال معه، فإن الملك الناصر تضرع إلينا وطلب منا أن لايصير الملك لأخيه الملك المظفر فإذا اخترتم انتم خلاف مااختاره وآثرتم الملك المظفر فشكر الله سعيكم وتقبل منكم وجزاكم الخير كيف حفظتم بيت استاذكم، وأنتم فسلموا المدينة والقلعة إلى الملك المظفر، فهو كبير البيت ومربيه، وكان والده الملك المنصور رحمه اوصى له به وفوضه إليه، وهو مصالح أخاه كما يتفق معه، وقد أخرجنا أنفسنا من الوسط، وتوجه السلطان الملك الكامل إلى الشرق في ثالث عشرين شهر رمضان، ووكل أمر الصلح إلى نوابه المحاصرون لحماة: الملك المجاهد صاحب حمص، والملك العزيز صاحب بانياس، والأمير عثمان، والأميرفخر الدين البانياسي وجماعة من الأمراء واستقر الحال والحمد لله وانتظم الصلح، واستدعاني من بالقلعة المحروسة من النواب وقالوا قد تقرر الصلح ودخول المولى السلطان الملك المظفر إلى المدينة وتسلمه لها، ونؤثر منك المضي إلى خدمته مع العسكر المنصور وطلب الأمان للأجناد والرعايا وتطييب قلوبهم وأخذ يده الكريمة على ذلك وتقبيلها، فتوجهت مع جماعة من العدول إلى المخيم في يوم الإثنين سابع عشرين رمضان، فلما دخلت عليه في الخيمة زاد في الإكرام والإنعام، ورأيت مايملأ العين قرة والقلب ابتهاجا ومسرة، وحصل عندي من

الفـرح والجزل والسرور بسلطنته وولايتـه مـالايمكنني والله وصفـه لنفسي وللمسلمين، وسـألته أن يـؤمـن الرعـايـا والأجنـاد والنواب على أنفسهـم وأموالهم، فـأمنهم وطيب قلـوبهم ووعدهـم بـالخير، وأخذت يده الكـريمة على ذلك فقبلتها، ثم دخل المولى السلطان الملك المظفر إلى البلد في تلك الليلة ليلـة الثلاثـاء ثامـن عشرين شهـر رمضان فنـزل في الدار المعـروفة بدارالأكرم وجلس للناس في بكرة الغد جلوسا عـاما وكان يوما مجموعا له الناس، ويوما مشهورا بكثرة الفرح والإينـاس لم يبق با لمدينة خاص ولاعام إلا ودخل إليه وقبل يده، واستبشر النـاس بقدومه وسروا بمملكته وتيمنوا بسلطنته وعيد في دار الأكـرم عيدا مشهودا لم يشاهدوه فيما تقـدم من كثرة الخلع والخيرات، ومـد سماط للناس على طبقاتهم وحضره خلـق لايحصون ولما كانـت ليلة الجمعة ثـاني شوال صعد القلعة المحـروسة المباركـة ليلا، وجلـس بكرة الجمعـة جلوسـا عامـا، ونـادى في البلاد بـإزالة المنكـرات وإسقـاط المكـوس والضمانـات، وخلـع على القضـاة والأمـراء والنـواب والخزندارية والمقـدمين والرؤساء واستقر الملك والحمد لله تعـالى له، وثبت وتضاعفت أدعية الخلق وحمده له تعالى وكثـر ثناؤهم بما أنعم عليهم من سلطنة السلطـان الملك المظفر ومملكته وولايتـه عليهم، وأمر بـدار العدل ففتحت وأصلحت، وجلس بها وقصده الناس مـن كل جانب وكف اليد المعتديـة، ومنع الظلم، وأوصـل الحق إلى مستحقه، ورجع إلى المدينـة من كان رحـل منها، ورفعـت إليه القصـص، فوقـع عليها بـالعدل الشـامل، والإنعام الكامـل ووصل إلى خدمته الأمير الكبير العالم سيف الـدين أبو الحسن علي بن أبي علي الهذباني، وفوض إليـه السلطان الملك المظفر جميع أموره في بـلاده وقلاعـة ورعاياه وأجنـاده فاعتذق ذلـك، وقام بـه أحسن قيـام ونظم شمـل الـدولة أجمل نظـام، ورتب أحـوال المملكـة ومهدهـا، وشيد أركانها ووطدها، وقرب أهـل الخير والصلاح وأدناهم وأحسن إليهم وآواهم، ورتـب ذوي الأمانـات والكفايـات في مراتبهـم وولاهـم، وأبعـد أهل الفساد والشر وأقصاهم، وطهر البلـد منهـم ونفاهـم، وأظهر للشريعة

رونقا وهيبـة، وفخم أمرهـا وأعظم في النفوس قـدرها، وتقدم إلى كـل من عليه حق بالخروج منـه إلى السعي مع الخصم إلى مجلس الحكم كـائنا من كـان من أمير أو كبير، وخـوفهـم من المخـالفـة وحذرهـم وأكـد الوصـاة عليهم وأنـذرهم، وكـان السلطان الملـك المظفر لما ملـك سلمية في سنـة ست وعشريـن وستمائة فوض أمـورهـا إليـه فسـاسهـا أحسن سيـاسـة، وعمرها بالعـدل أعظم عمارة، وبلغني من جماعة أنه مـذ وليها لم يثبت في ديوانها درهم واحـد من جناية ولامـن مظلمة وابتنى قلعتها، وأعـادها إلى أحسـن ممـا كـانـت عليـه، ورتب فيهـا مـن أمـور القـلاع مـن الأجنـاد والمستخـدمين وغيرهم مـااشتهر ذلـك وشاهـده من شـاهده، ووصـل في خدمة السلطان الملك المظفر كاتبه الوزير الكبير العالم الذكي نجم الدين أبو القاسـم عبد الرحمن بن عبـد الوهاب أبي الحسن بـن علي الزهري ذو الفضائل الغزيرة والعلوم الكثيرة، وأطلق له ألف دينار مصرية كان وعده بها، وحكى الوزير نجم الدين المسمى أن المولى السلطان الملك المظفر لما أطلقها له اعتذر استقلالا لها وأنه قال له:يـاخوند من جملة انعام السلطان وفضله أنه يعطي الآلاف ويعتذر.....

من التاريخ المنصوري
(تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)

تأليف

أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي العظيم، الولي الحكيم، الأزلي القديم، الدال على أزليته حدوث الحوادث، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الصاحبة والولد والثاني والثالث، محيي الأموات، ومميت الأحياء فهو الوارث لكل وارث، خلق السموات بغير عمد ترونها قائمات، وأمسكهن أن يقعن على الارض، فهن بقدرته دائمات مواكث، ودحا الأرض على الماء، وباين بينها في السفل والعلاء والحزون والرمائث. أحمده على نعمه المقيمات اللوابث، ودفاعه النائبات الكوارث، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل رسول أرسله.

وبعد فقد قال أبو الجلد: الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفاً للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة لفارس، وألف للعرب.

وقال يحيى بن كثير: خلق الله ألف أمة، فأسكن ستمائة البحر وأربعمائة البر والله أعلم .

فلنذكر الآن ابتداء التناسل، التناسل بمقتضى ماورد في السير والتواريخ حاكيا ماذكروه وسطروه كما سطروه والله أعلم.

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

خرجت الفرنج ، وزحل بالسنبلة، والمشتري في الميزان. ومات منصور بن نصر بن مروان، صاحب ديار بكر، وانقرض به البيت.

سنة أربعمائة وتسعين:

فتح قوام الدولة الرحبة. وفتحت الفرنج أنطاكية وسميساط، ، وفتح أمير الجيوش دمشق، وولد الآمر بن المستعلي.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة:

ملكت الفرنج الرها، والحدث ، ومرعش ، وكيسون.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس. وخطب لتتش بالموصل. وأخذت الفرنج المعرة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

مات عميد الدولة بن جهير، وابن جزلة الطبيب.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

خُطب لبركياروق بالجزيرة، وأحرقت رسائل أخوان الصفا في بغداد. وقُتل جماعة من الاسماعيلية ببغداد بالمعسكر، منهم عين القضاة الصوفي.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

جُعلت البيعة التي بتكريت جامعاً. وتوفي المستعلي صاحب مصر.

سنة ست وتسعين وأربعمائة:

مات الملك دقاق . وفي سابع عشر جمادى الآخرة ظهر في الغرب كوكب أبيض له ذؤابة من شرقيه ، بعيدة عن الشمس في نصف برج الحوت، طول ذؤابته مائة وخمسين ذراعاً.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

خالية

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

استولى رضوان على أفامية . ومات يوسف بن تاشفين صاحب المغرب. واستولى أتابك طغتكين على صلخد وبصرى.

سنة خمسمائة:

توفي الشلول صرخاب بن بدر بن المهلهل صاحب شهر زور ونواحيها. وفتح السلطان قلعة دز، وقتل صاحبها.

سنة إحدى وخمسمائة:

تسلم ينال بانياس.

-٩٧٦٠-

سنة اثنتين وخمسمائة:

سلمت الموصل لمودود. وملكت الفرنج طرابلس. ومات ابن الخازن الكاتب، واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين.

سنة ثلاث وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع وخمسمائة:

فتحت الفرنج صيدا، وبرزية، وشيح.

سنة خمس وخمسمائة:

توفي سليمان النجمي ببالس.

سنة ست وخمسمائة:

خالية.

سنة سبع وخمسمائة:

وفاة الملك رضوان. وقُتل مودود بجامع دمشق. وتسلم أتابك طغتكين صور من المصريين. وملك حلب تاج الدولة الأخرس بن الملك رضوان.

سنة ثمان وخمسمائة:

زلزلت الأثارب وما حولها ، وخسف بسميساط ومرعش.

سنة تسع وخمسمائة:

فتح برسق حماه.

سنة عشر وخمسمائة:

قُتل كامل بن منقذ، وحريق النظامية، ومقتل أحمد يل صاحب أذربيجان.

سنة احدى عشرة وخمسمائة:

خالية

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة:

تسلم ايلغازي حلب، وفتحت الفرنج أعزاز. ومات المستظهر وبويع المسترشد.

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع عشرة وخمسمائة:

تسلم أتابك طغتكين تدمر والشقيف. وكسر نجم الدين إلغازي الفرنج على موضع يسمى البلاط ، وأخذ روجال، صاحب أنطاكية،

أسيرا ، وفتح زردنا، وطلبت الاسماعيلية من نجم الدين قلعة الشريف بحلب، وكانت عامرة، فبعث كتاب الطير إلى حلب بخراب قلعة الشريف.

سنة خمسمائة وخمس عشرة:

مقتل الأفضل أمير الجيوش، ومات القاضي عماد الدين . ومات توفيق المهندس بدمشق. ومات توفيق الحاسب ببغداد، ومات فيها أبو القاسم الحريري صاحب المقامات.

سنة ست عشرة وخمسمائة:

خرج ملك الخزر، ومَلَكَ تفليس، وبقيت في ذريتهم إلى أن ملكها جلال الدين بن خوارزم شاه في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة:

مات ملك الخزر، وكان له نظر عظيم في شرع الاسلام، وجرى له مناظرة مع القاضي الكنجي في الكلمة أهي مخلوقة أم قديمة ؛ وأكل القطا زرع الشام.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة:

ملك البرسقي حلب، وهبت ريح حملت الرمل من أرض الرصافة إلى قلعة جعبر . وفتحت الفرنج صور، وفتح بلك منبج. ومات حسن الصباحي رئيس الاسماعيلية.

سنة تسع عشرة وخمسمائة:

أخـذ ملك الخزر مـدينـة دوين، وقتـل عـالماً لايحصـى. ومات نـاصر الدولـة بن طـرخان الشيباني بحلـب، وهو دمشقـي. وقتل داعـي الحلبية بحلب.

سنة عشرين وخمسمة:

سنة قران . ودخل ابن تومـرت بغداد في طلب التفقة، وقرأ على الغزالي أحد عشر مصنفاً، من جملتها الوسيط والبسيط، وتهافت الفلاسفة[١].

سنة احدى وعشرين وخمسمائة:

دخـل أتـابك الشهيـد الموصـل، والخليفـة يـومئذ بمصر عبـد المجيـد الحافظ.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة:

دخل أتـابك حلـب. وملك ابـن تومـرت الجبل. وقتـل اخواجـا بهرام داعي النزارية بوادي التيم.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة:

قُتل الـوزير ابـن المزدغاني وقتلـت معه الاسماعيليـة بدمشـق[٢]. قران المريخ وقلب الأسد.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة:

خطب للسلطان محمود بـألَمُوت، مقر ملك الاسماعيلية. وقتل ابن البيمند صاحب أنطاكية، وكان الرصد بظاهر بغداد بالدار السلطانية.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة:

قُتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، فأُمّر ولده شمس الملوك اسماعيل، وفيها قتل ناصر الدين ابن أوشر بن يوسف بن فيروز بميدان دمشق. وفك ابن تاج الملوك(٣).

سنة ست وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك الموصل

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

نزل المسترشد الموصل حادي عشر رمضان ورحل عنها عاشر ذي القعدة .

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة:

مات ابن تومرت، وظهر عبد المؤمن. ومات أبو علي الحسن بن ابراهيم الفارقي شيخ ابن عصرون.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

مولد يوسف بن أيوب.

سنة ثلاثين وخمسمائة

وقعة المسترشد والسلطان مسعود، وأسر المسترشد ، وقتل، وخطب للراشد، وقتل سيف الدولة دبيس بن مزيد، وفيها جلس المقتفي سابع عشر ذي القعدة ، ووصل الراشد إلى الموصل مخلوعاً.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

صاف السلطان بُزابة، وكانت الكرة لبزابة. واستولى بنو الصوفي على رئاسة دمشق.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

مقتل الراشد.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

زلزلت حلب، وخرج ملك الروم إلى الشام. وخرج ضياء الدين جغري من دمشق. وقتل شهاب الدين بها، وولي جمال الدين بن تاج الملوك، وأخذت الروم بزاعا، وسبوا مقدار خمسة آلاف نفس، وجعلوها في خندق الأثارب، وكان يطعمونهم الباقلي والحشيش، ورحل ملك الروم طالباً شيزر، ونزل في القرمينية.

وخرج سيف الدين سوار بن أيدكين من خيل في معسكر حلب، فخلص الأسرى جميعهم.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

استجار الزينبي بدار السلطان. ومات جمال الدين، وولي ولده. ومات شرف الاسلام اسماعيل بن أبي المعالي قاضي المالك.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

مات قرا سنقر صاحب أزربيجان، وفتح أتابك زنكي بعلبك، وآمن أهل قلعتها وغدر بهم، فصلب الجميع ، فكانوا مقدار ثلاثمائة نفر، ونزل على دمشق بعشرين ألف نفر.

ومات ابن أفلح قاضي البيمارستان فيلسوف عصره، وكسر سيف الدين سوار الفرنج بكبسة، وأخذ الكند اصطبل قاطع الجسر الحديد بأنطاكية.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

مات ايكلدي بن ابراهيم صاحب آمد، ورأس بالوزارة المؤيد بن نيسان، وجلس في الامارة بآمد هذه السنة محمود بن ايكلدي، شمس الملوك.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

وفاة ملك الروم بأذنة، قتله خنزير برّ ي في الصيد، وكان معه ولده منويل، فمضى على وجهه من أذنه بجماعة يسيرة إلى قسطنطينية في ثمانية أيام، وتملك بعد أبيه، ومات سيف الدين اكتدي.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

خالية.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فتحت الرها خامس وعشرين جمادى الآخرة . ودخل زين الدين علي كوجك الموصل في العشرين من ذي القعدة . ومات تاشفين بن علي (ابن يوسف) بن تاشفين. ومات داود، وولي ولده فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

سنة أربعين وخمسمائة

كسرت الفرنج نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ على بغراس[٤].

سنة احدى وأربعين وخمسمائة

قتل أتابك الشهيد على قلعة جعبر، وملك ولده سيف الدين الموصل، ووزر له جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالكرم والجود والصدقات، وملك نور الدين حلب.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

خالية.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

نزل ملك الألمان على دمشق. وكسر نور الدين الفرنج على إنب، وقتل

الابرنس صاحب أنطاكية، وعمل قحف رأسه وضببه بذهب وفضه، وبعثه إلى المستنجد. فلما نزل ملك الالمان على دمشق ، وعاد غير مسرور، ركب قسيس لهم حماراً وجعل الانجيل قدامه، وفي يده صليب وخلفه قليل خيالة، والفرنج تزعم أنه يملك دمشق، فلما وصل بين القنوات اشترك في قتله رجلان من أمراء دمشق: ابن الدورسي، وابن حُمار ، وقتلوا جميع من كان معه.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

وفاة تاج الدولة قرواش بن شرف الدولة. ووفاة الحافظ، وخلافة الظافر، وتوفي سيف الدين غازي وملك أخوه قطب الدين مودود.

سنة خمس وأربعين وخمسسمائة

سنة ست وأربعين وخمسمائة

خاليتان.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

مقتل عباس ببغداد. ومات العبادي الواعظ، وتملك عبد المؤمن بالغرب على ولاية بني حماد. وكان الجراد بالموصل، ومكث سبع سنين بدمشق، وقحطت الجزيرة وديار بكر.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

مات حسام الدين تمرتاش. وأخذت الفرنج عسقلان . وقتل الرئيس زين الدولة بن الصوفي بدمشق وأولاده.و فيها قتل عطاء صاحب بعلبك.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فتح محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ دمشق، ووقع الحريق ببغداد في دار الخليفة بصاعقة، وقتل الظافر، وولي الفائز ، ووردت مراكب من صقلية نهبت تنيس. ومات مؤيد الدين بن الصوفي رئيس دمشق.

سنة خمسين وخمسمائة

اتفق محمد شاه السلطان، وزين الدين علي كوجك على حصار بغداد.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

خطب لسليمان شاه ببغداد، خامس عشر محرم. ومات ابن نيسان بآمد ، وولي ولده أبو القاسم علي، جمال الدولة.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

قبض علي كوجك على سليمان شاه في دربند ابن القراملي،واجتمع هو ومحمد شاه،ورجعاالى حصاربغداد،وضايقوها. وزلزلت حماه وشيزر. واستولت الغز على خوزستان ، وأسروا السلطان سنجر، ومات في أيديهم[٥]،واوقبضوا على محمد خان قرابة سنجر وكحلوه، وانقطعت خطبة سنجر. وفتح عبد المؤمن المهدية. وفيها مات الفائز وجلس العاضد.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

مات ابن منير الشاعر وابن القيسراني، واستولت الغز على خراسان،

ونهبوا مرو، وسألوا عن ذخائر سنجر. ومات صدر الدين الخوجندي رئيس أصفهان، وهو المشهور.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

مات المقتفي، ثم غرقت بغداد، ووصل الماء إلى قبلة الجامع بالرحبة، وتساقطت جميع العماير، وفار الماء من البلاليع والآبار. وملك المستنجد عند نزول الشمس أول الحمل(٦).

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

هم ألدكز بحصار بغداد، فخاف الخليفة المستنجد، فأمر الوزير عون الدين بن هبيرة أن يكتب إلى ملك الخزر بأن يخرج إلى بلاد اللان وأذربيجان فهي اقطاعه، فخرج ملك الخزر إلى مدينة دوُين المسماة بأردبيل ففتحها عنوة، وقتل عالما من المسلمين، ورجع .

سنة ست وخمسين وخمسمائة

خالية.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

استولى الضرغام على ديار مصر، وطرد شاور عن الوزارة إلى الشام، ومات ذو النون صاحب ملطية، وياغي سيان صاحب سيواس.

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

استدعى الضرغام أمراء مصر، وأحضرهم ، ثم أمر أن يدخل إليه

واحد بعد واحد، وأوهمهم الخلع عليهم، وكان يضرب رقابهم أولاً فأولاً حتى قتل أربعين أميراً، ثم نهب دورهم، وهتك حريمهم.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

توجه أسد الدين شيركوه إلى مصر مع شاور بعساكر الشام، والسلطان يومئذ الملك العادل، نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله، وهو من جملة أصحابه، فملكوا مصراً وقتلوا الضرغام، ثم غدر شاور بأسد الدين شيركوه، وكاتب الفرنج ومناهم بكل أمر، فأتاه ملك الفرنج بخلق عظيم، فخرج أسد الدين شيركوه إلى بلبيس، فحاصرته الفرنج بها ستة أشهر، وقتل فيها سيف الدين بن بُزان مجاهد الدين، وفي هذه السنة كسرت الفرنج لمحمودبن زنكي على البقيعة بكبسه تحت حصن الأكراد، وقتل الأمير عزيز بن جندر، ثم نصر عليهم.

ومات جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني، وزير الموصل، المقدم ذكره، رحمه الله، وحمل تابوته إلى مكة كرمها الله وحماها، فدفن بها، وفيها مات ابن هبيرة عون الدين.

وفيها فتح نور الدين بانياس وحارم من الفرنج، وفيها كسر نور الدين الفرنج على حارم، وقتل وأسر مقدار عشرين ألف نفر، وأخذ البرنس وأكثر أبطالهم.

سنة ستين وخمسمائة

طلع أسد الدين شيركوه مرة ثانية إلى مصر، وكاد يفتحها، ورجع.

- ٩٧٧٢ -

سنة إحدى وستين وخمسمائة

اتفق قران في برج الجدي بزحل والمشتري والمريخ.

وغيرت الاسماعيلية مذهبهم، وشربوا الخمر، وبطلوا الصلاة والصيام، فلا رحم الله سنان، ولعنه الله.

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

خرجت الفرنج، خذلهم الله إلى ديار مصر، فحاصروا القاهرة، واضطروا إلى أسد الدين شيركوه أن ينجدهم، فكتبوا إليه ، ومنوه فطلع إليهم بعساكر الشام، وطرد الفرنج عنهم، وقتل شاور ، وملك أسد الدين شيركوه مصر، ومكث خمسة وخمسين يوما وزيرها ومات ، ثم ملك بعده السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، والخليفة يومئذ العاضد.

وفيها أحرق شاور مدينة مصر فرقاً من الفرنج أن يملكوها. وفيها كسرت السودان بمصر وقتل أكثرهم، وخرج الباقي من القاهرة.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

حاصرت الفرنج دمياط في البر والبحر، وفيها خرج زين علي كوجك من الموصل غضبانا، فوصل إلى إربل ، فمكث بها، وظهر عليه مرض بقي شهراً ومات.

سنة أربع وستين وخمسمائة

في شهر أيار كثرت الأرياح والأهوية ، والغيوم بإربل ، وظهر في خلال الغيم تنين عظيم أسود، فكان يقرب من الارض، ثم يرتفع، ولم تدركه حقيقة النظر لعظم الغيوم والضباب، ولم تزل الرياح تطرده إلى بحيرة أرمية من كورة أذربيجان، وهلك هناك.

سنة خمس وستين وخمسمائة

زلزلت حلب وبعلبك يوم الاثنين عاشر شوال وخربتا، وهلك فيهما عالم عظيم، وانشق جبل لبنان المطل على بعلبك شقاً عظيماً مسيرة أيام، وكانت هذه السنة كثيرة الزلازل بحيث كان في بعض الأوقات أن تجيء الزلزلة في اليوم والليلة عشرين مرة، وحسب من مات بحلب تحت الردم، فزاد عن خمسين ألفاً ما بين صبي وشيخ وامرأة.

وفيها بطل الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر جميعها، من دمياط إلى أسوان.

سنة ست وستين وخمسمائة

وفيها ابتدى صلاح الدين يوسف بن أيوب ببناء سور القاهرة.

وفيها ظهر ملك الخزر فحاصر دوين فأخذها ، وقتل بها من المسلمين ثلاثين ألف نفراً وزيادة ، وفيها توفي المستنجد، وجلس بعده الامام المستضيء.

سنة سبع وستين وخمسمائة

قطعت خطبة العاضد بمصر، وخطب للمستضيء من بني العباس، ومات العاضد آخر خلفاء المصريين، وانقضت دولتهم، واستولى صلاح الدين على القصور، واستخرج ذخائرهم ظاهرها وباطنها، وقبض أهله وسائر الفاطميين، وصلب من أهل مصر جماعة منهم قاضي القضاة العوريس، وشبرما الداعي، وعمارة الشاعر، والشريف الجليس، والقاضي ضياء الدين بن كامل، وكسفت الشمس كسوفاً كلياً. بحيث ظهرت الكواكب.

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فتح شمس الدولة توران شاه بن أيوب ابريم من بلاد النوبة، وفتحت برقة وسنترية وجبل نفوسة بعساكر الشام، على يد قراقوش المظفري، ابن أخي صلاح الدين، وفتحت قفصه على يد ابراهيم سلاح دار.

وفيه كانت وقعة الكلمان مع مليح بن لاون، وكسر الكلمان، ووقع وقتل، وأسر أكثر جيشه.

سنة تسع وستين وخمسمائة

مات نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين، ونور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وفتح شمس الدولة ابنه اليمن بعساكر الشام، وقبض على الخليفة بها، وهو يومئذ عبد النبي بن علي، ومات فخر الدين داود، وولي ولده نور الدين.

وفي هذه السنة ظهر بضيعة من بلد دمشق رجل يدعي النبوة، وضل جماعة به، فخرج إليهم العسكر، فلم يظفر به ولا بهم، وأرسل صلاح الدين رسولاً يناظره، وكان من جملة من خرج إليه ابنان للفقيه ابن عبد الدمشقي، وتسحب إلى كفرند من بلد حلب، فقتله كمشتكين الخادم.

سنة سبعين وخمسمائة

خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب، وملك دمشق، وأكثر الشام، ونافق الكنز بالصعيد، فخرج إليه الملك العادل بن أيوب فقتله بمدينة من الصعيد تعرف بطود، ومن كان معه.

وفيها: خرجت مراكب من جزيرة صقلية حاصرت الاسكندرية ، فظفر بهم المسلمون ولم ينج منهم إلاّ القليل.

وقتل ابن البصار، وفيها خرج أبو الفضل بن الخشاب رئيس حلب، وحاصر القلعة مستهل محرم، واجتمع إليه الحلبيون، ثم خذلوه وتفرقوا عنه، فأخذه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بالأمان، فقتله بالقلعة.

وفيها صلب عبد النبي بن علي بن مهدي، صاحب اليمن. وفيها ظهر المؤيد من خراسان إلى طبر ستان، فخرب جرجان وميشه والميزوان، ومدينة الملك ساوه، وأحرق هذه المدن، وقتل عالماً لايحصى، ورجع عنها، وقتل ملك طبرستان ونهب خزانته، وهو يومئذ بساوه، حسن بن رستم بن علي.

سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

كسفت الشمس حتى ظهرت الكواكب، ونزل شمس الدولة من

اليمن إلى الشام بعد قتله لناشر بن بلال ، صاحب عدن، وأخرب أمير الحاج حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها قفزت الاسماعيلية على صلاح الدين بن أيوب في حصار عزاز، ونجاه الله، وفيها كسر سيف الدين مودود، كسره صلاح الدين مرة ثانية ونهب عسكره .

وفيهاخرج المؤيد من خراسان يريد أن يحاصر خوارزم، فوصل من المفازة إلى رأس حد خوارزم، وقد تفرقت العساكر في طلب الماء، فصادف عسكر خوارزم ، فأوقع بهم، وظفروا به فقتلوه، فكان في نحو من ثلاثمائة مملوك من مماليكه، وحمل رأسه على رمح، وطوف به في ولاية خوارزم.

وفيها مات نجم الدين بن حسام بن ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين.

سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

مات كمال الدين بن الشهر زوري قاضي دمشق. ومات فيها ألدكز أتابك السلطان. ومات السلطان طغرل بن مسعود. وقتلت الاسماعيلية شهاب الدين أبو صالح بن العجمي بحلب، بباب الجامع الشرقي، بعد صلاة الجمعة.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

هبت ريح شديدة في بلاد القفجق، ووصلت إلى سنجة وتفليس، وبيلقان، ووصلت إلى همذان وأصفهان وإلى بلاد كوهستان، وأخربت البيوت الضعيفة ، وقتلت الغنم والبقر، ورئي في دهستان، رجل خزري

عليه زيهم، ولباسهم، وزعم أنه كان في بلده نهار أمس ، فحملته الريح المذكورة في ليلته، ورمته في دهستان، ولا يعلم ما كان ولا يدري، إلاّ أنه بالتقريب يكون نحواً من خمسة عشر يوماً.

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

قران زحل والمريخ في السرطان. ومات المستضيء ، وبويع ولده الناصر، وكسرت الفرنج صلاح الدين على الرملة، وقتلوا عالماً من المسلمين، وأسرت الفقيه عيسى. ويوم كسوف الشمس ظهر رجل بضيعة من أعمال حلب، يقال لها كفرند ادعى النبوة، فقتلوه. وفيها قتل كمشتكين الخادم.

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

فتح قصر يعقوب بالسيف ، وكسرت الفرنج، وقتل أكثرهم، ونافق جلدك الشهابي واستولى على الواحات الداخلية، فأرسل إليه أبا الهيجاء ـ المعروف بالسمين ـ وقراقوش الخادم، فأخذاه سلما.

سنة ست وسبعين وخمسمائة

مات شمس الدولة بن أيوب مستهَل صفر بالاسكندرية، وقبر بها ، وبنيت قلعة القاهرة ، ومات الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود، رحمه الله، صاحب حلب، وتسلمها عز الدين مودود بن زنكي ابن آق سنقر.

وفيها ظهرت الغز وعليهم صاحبهم مالك بن دينار، فحاصر طبرستان، وخرّب جرجان واستراباد، وأحرقهما، وانهزموا في البراري والقفار. وولدت امرأة غراب بمصر، هكذا نقل، والعهدة على الناقل.

سنة سبع وسبعين وخمسمائة:

فيها تسلم عماد الدين قلعة حلب من أخيه عز الدين. وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، مصنف اللحن الخفي.

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

نزل صلاح الدين الشام، وحمل تابوت شمس الدولة ، وقبره بدمشق، وعبر صلاح الدين الفرات إلى الجزيرة ، ففتح سروج والرها، وحران، والرقة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وكاتب عز الدين صاحب الموصل، ولشاه أرمن ، فجمع العساكر، وقصد صلاح الدين ، فوصل إلى ماردين ، ومكث هناك شهوراً لايقدم على صلاح الدين، ثم إنه اجتمع مع عز الدين بقلعة ماردين، وكان خائفاً منهم، ثم إن شاه أرمن وعز الدين صاحب الموصل ، وقطب الدين صاحب ماردين اختلفوا فيما بينهم وتفرقوا ، ورجع صلاح الدين إلى آمد ففتحها وأعطاها لنور الدين بن فخر الدين، وكان قد حاصر الموصل ، ولم يقدر عليها.

سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ملك صلاح الدين حلب، وقتل أخوه تاج الملوك، ونزل عماد الدين من قلعة حلب في العشرين من ربيع الأول، وتسلم عماد الدين سنجار، والخابور عوض حلب.

وفي هذه السنة مضى إلى الكرك فحاصره ، وفيها كتب للملك المظفر تقي الدين عهداً على مصر، وكتب عهداً لسيف الاسلام أخيه باليمن، واستدعى أخاه سيف الدين من مصر وأقطعه حلب.

وفي هذه السنة ، ظهر بقرية بمصر يقال لها أبو صير، بيت هرمس

الثاني، فتحه القاضي ابن الشهر زوري، وأخرج منه أشياء من جملتها: كباش ،وقرود،، وضفادع بأزهر، وقوارير دهنج، وأصنام نحاس وغلبهم السافي(٧) على الباقي فلم يصلوا إليه.

سنة ثمانين وخمسمائة

فتح سيف الاسلام فتوحات باليمن.

ووقع بين الكرد والترك، وقتل بينهم عالم عظيم، وكانت الغلبة للأتراك. وفيها مات الفقيه ابن عوف بالاسكندرية ، مالكي فقيه عصره.

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

مات الفقيه علاء الدين الكاساني، إمام الحنفية بحلب.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

فيها عبر صلاح الدين الفرات، وحاصر الموصل وضايقها ولم يفتحها، وانتظم الصلح بينهم. ومات شاه أرمن . ومات قطب الدين صاحب ماردين. ومات نور الدين صاحب آمد، ابن فخر الدين، واختلفت ديار بكر والجزيرة، ووقع خلف كثير بين العالم: بين الترك والكرد، وبين الفرنج والروم، وبين الاسماعيلية والبنوية، وقتل بينهم عالم عظيم بالباب، والبارة من أعمال حلب، وقتل في هذه السنة من سائر أجناس الأمم مالا يحصى.

وفيها فتح صلاح الدين ميافارقين، بعدما قتل عليها خلق عظيم. ومات كثير من الأمراء المشهورين مثل ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، صاحب حمص ، والرحبة، وتدمر. وقتلت الاسماعيلية ابن نيسان، ومات

محمود بن ايكلدي، وهو شمس الملوك صاحب آمد، لأن صلاح الدين أخذ آمد تسليما، وسلمها إلى نور الدين ، وأخرج صاحبها بجميع ماله، فمضى إلى سلطان الروم، ومعه وزيره ابن نيسان، فقتل ابن نيسان، ومات صاحبها شمس الملوك محمود بن ايكلدي بن ابراهيم.

وهذه السنة كان قد أرجف بها المنجمون من سائر الارض بأنه يكثر الهواء ويهلك أكثر الخلق ويكون طوفان هوائي، فلم يكن له صحة، بعد أن كان قد أخاف الناس سنة. وفيها تسلم صلاح الدين يوسف شهر زور، والبوازيج. وفيها نزل الملك العادل سيف الدين من قلعة حلب، وتسلمها الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين . وفيها توجه الملك العادل إلى مصر . وفيها مات سعد الدين بن معين الدين.

سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة

اتفق طالعها العقرب ، وفيها خرج الملك الناصر صلاح الدين بعساكر المسلمين من ديار مصر وعساكر الشام والجزيرة، وديار بكر، والموصل، وكان زحل والمشتري في الميزان، ففتح مدينة طبرية عنوة يوم الخميس ثالث وعشرين ربيع الآخر على تل حطين، الكسرة المشهورة ، وقتل من العالم مالا يحصى، وأسر السلطان الملك الناصر ملكهم الأعظم، وسائر ملوكهم، ومقدميهم، وأحصوا ذلك فكان زيادة على عشرين ألفاً ثم سار من بعد أخذهم وقتلهم إلى مدينة عكا فأخذها ، وتسلمها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، ثم شرع فتسلم قيسارية ، وحيفا، ويافا وأرسوف، وتبنين ، وهونين ، والناصرة ، واسكندرونة، وبيسان، والفولة، وجميع تلك البلاد، ثم سار إلى مدينة صيدا فتسلمها.

ثم سار إلى مدينة بيت المقدس فحاصرها.

واستقر بين صلاح الدين وبين الفرنج الذين كانوا فيها على شراء

أرواحهم، بأن يزن الرجل عشرة دنانير مصرية، والغلام خمسة دنانير، وكذلك الامرأة والطفل والجويرية دينارين، ومن لايقدر على شراء روحه يؤخذ أسيراً ، فحصي الذي لايقدر على فكاك روحه، ولا اشتراه أحد من الفرنج خمس عشرة ألف نفر من رجل وامرأة وصبي وجويرية، فأخذوا جميعهم أسارى، وخلص في هذه البلاد التي فتحها صلاح الدين مما أحصي بالتقريب ، فكان عشرة آلاف نفر ممن كان له في الأسر السنة والعشرة والعشرين، وكان الذي قبض من مفاداة الفرنج عن أنفسهم ثلاثمائة ألف دينار مصرية.

وفي هذه السنة توجه قراقوش المظفري إلى الغرب، واستولى على القيروان والتقاه ابن عبد المؤمن ظاهر مدينة تونس فكسره قراقوش يوم الجمعة سادس عشرين ربيع الأول، واستولى على البلاد ، وخطب فيها لصلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم رجع ابن عبد المؤمن مفلولاً ، فجمع أطرافه وجموعه، وحشد خلقاً، ورجع إلى قراقوش في هذه السنة وصافقه فكسره، وانفض عنه جيشه ، ومضى قراقوش هاربا في البرية.

وفي هذه السنة قتل شمس الدين بن المقدم أمير الحاج الشامي على جبل عرفات قتله كماشتكين أمير الحج العراقي، والخليفة يومئذ الناصر لدين الله.

سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فيها خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب وخرب مدينة أنطرطوس، وفتح جبلة ، واللاذقية، وفي الشهر المذكور أيضا فتح صهيون، وحصن بكاس، وقلعة السرمانية وحصن شغر، وبرزية عنوة، قتل فيه وسبى. وفي شهر رجب فتح دربساك، وبغراس.

وفي رمضان تسلم الكرك بعد حصاره أشد حصار ومقاتله ، كان

بعض عسكر صلاح الدين محاصروه قبل ذلك بسنة ونصف. وفي شوال من هذه السنة تسلم صفد ، وفي شهر ذي الحجة تسلم قلعة كوكب بعد قتال شديد ، وفيها أطلق الملك الناصر الملك الذي كان أسره نوبة حطين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وفيها صالح الابرنس صاحب أنطاكية على أن يطلق كل أسير من المسلمين في أنطاكية ، فكان عددهم ألف أسير، وفيها مات عيسى بن بلاشو.

سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ظهرت الفرنج بالشام ، وجاءوا من بلادهم براً وبحراً ، فحاصروا عكا، وكان نزولهم عليها مستهل رجب والقمر يومئذ بالدلو، ثم سمع صلاح الدين ، فقصدهم بسائر العساكر الاسلامية، فخندقوا على أنفسهم، وكان المسلمون يقاتلونهم من عكا، والعساكر مع السلطان يقاتلونهم من برّا من وراء خنادقهم.

ثم إنهم اجتمعوا يوم الأربعاء العشرين من شعبان، وخرجوا بكليتهم إلى المسلمين، والمسلمون يومئذ على غره، فوصلوا إلى خيمة صلاح الدين فقتلوا من كان حول السرادق، ثم نهبوا سوق العسكر، وقتلوا من لحقوه ، وقتلوا في خيمة السلطان لأبي علي بن روا حة ، الشاعر المجيد الحموي، ومكبس السلطان، وظنوا أنهم قد ظفروا ، ثم عاد صلاح الدين والعساكر فكبروا عليهم تكبيرة واحدة، فنصرهم الله، فهزموهم فقتلوا منهم خلقاً لايحصى فلما رجع صلاح الدين أمر أن تحصى القتلى، فكانوا أربعة آلاف وسبعمائة وستون نفراً، كلهم قتلى، ولم يفقد من المسلمين إلاّ القليل، وفيها تسلم السلطان الشوبك.

سنة ست وثمانين وخمسمائة

هذا والفرنج مقيمون على عكا يحاصرونها، وتقاتلوا براً وبحراً،

والسلطان كما ذكرنا من وراء خنادقهم يقاتلهم صباحاً ومساء.

وفي هذه السنة تسلم شقيف أرنون، وكان الفرنج خذلهم الله قد نصبوا أبرجة الخشب والمناجيق والدبابات، ونقبوا سور عكا، وأشرف المسلمون على الهلاك، ثم نصرهم الله، فأحرقوا مناجيقهم ودباباتهم وأبراجهم الخشب، وذلك يوم السبت العشرين من ربيع الأول، ثم خرج المسلمون عقيب الحريق، وقتلوا منهم خلقاً، ونهبوا من مخيمهم ماقدروا عليه، وأخذت الشواني عليهم في البحر.

وفي هذه السنة طلع ملك الفرنج، وهو ملك الألمان على قسطنطينية، ثم على بلاد قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي، فمنعهم ولده قطب الدين، وضرب معهم مصافاً فهزموه، وهجموا قونية ونهبوها وقتلوا منهم عالماً، حتى أنهم أخذوا النساء من الحمامات ، ثم رحلوا عنها، فأهلك الله ملك الألمان في الطريق، وقام مقامه ولده، ووصلوا مدينة أنطاكية في جمادى الآخر، وكان الذي وصل إلى أنطاكية نحواً من مائة ألف انسان ، ثم مضوا إلى عكا، وخرجوا لمحاربة السلطان صلاح الدين رحمه الله يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، فهجموا خيم الملك العادل، ثم تراجع عليهم المسلمون من كل جانب فردوهم، وقد قتل منهم عالماً بحيث طبق تلك الأرض الدم والقتلى، فأمر السلطان صلاح الدين احصاءهم، فكانوا اثني عشر ألف قتيل، وكان عدد الذين خرجوا إلى القتال من الفرنج يومئذ اثنان وستون ألفا.

ثم وصلت في هذه السنة جميع ملوك الفرنجة في البحر، بحيث توهم صلاح الدين شراً كثيراً لكثرة عدد الفرنج، فخرب طبرية ، وقيسارية، وحيفا ، ويافا، وصيدا، وجبيل ،وأرسوف، وسائر بلاد الساحل على البحر ،ما خلا عسقلان.

وذكـر أن الفرنجيـة الذيـن اجتمعوا على حصـار عكا في البر والبحـر كانوا مائتي ألف وأربعين ألفا، مع قلة خيلهم.

سنة سبع وثمانين وخمس مائة

أخذت السفينة التـي أرسلها صلاح الديـن ، وكان قد شحنها بـالعدة والميرة والمال والرجال، فغرق المسلمون أنفسهم في البحـر ورموها أنفة من الأسر، وهي كـانت زيادة على ضعـف عكا عما كـانت في السنة المتقـدمة مـن الـذخيرة والرجـال، وأكثـروا عليهـم القتـال وهجمتهـا الفرنـج يـوم الخميس بعـد وصولهم نصف البلـد، وقتلوا منهم جماعـة من الخيالـة، ثم أعادوا عليهم القتـال، ونصبوا عليهم المجانيـق من كل جانـب، وفتحت فيهـا مواضـع عدة حتـى خربـت وصارت مثـل الطريـق، فغلبوا وطلبـوا الأمـان لأنفسهم، وأخـذتها الأفرنـج يـوم الجمعة سـابع وعشريـن جمادى الآخرة تسليماً، ثـم غدروا بهم وقتلوهـم ولم يسلم منهم إلاّ القليـل، وقتل الفرنج للمسلمين يوم الثلاثاء سابع وعشريـن رجب تغمدهم الله برحمته، وأسر بهاء الدين قـراقوش، وسيف الديـن المشطوب وابن باريـك، وذكروا ان عدة من كان داخل مدينة عكا من المسلمين سوى من خرج منها في المـراكب خمسـة آلاف وسبعمائة، ومـا كان في الاسـلام مدينـة إلاّ وكـــــان فــــي عكـــــا مــــن اهلهـــــا جماعـة، وكان سبـب قوة الفـرنج عليهـم ـ خـذلهم اللّه ــ أن جماعة مـن المسلمين خرجوا عليهم من عكا، مـن جملتهم رجل حلبي منجنيقي يقال له ابن الوشيئة عمل مناجيق وعرفهم الأسهل منها.

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

فيها مات الموفـق خالد بن القيسراني الكـاتب، وكان مجيداً في كتـابته، ووزر لنور الـدين ، وكـان ناسخـاً مجلداً، وبذلـك توصـل إلى نور الـدين رحمه الله.

وفيها قتل الملك الظاهر الفقيه أبا الفتح السهروردي المشهور، بعد فتاوى الفقهاء له بقتله، وأحرق خوفاً من أفاسده، فإنه كان عالما، وقتل بعده بأيام تلميذه ، لأنه كان يوافقه في أقواله ودعاويه.

وفيها مات قطب الدين بن العجمي بحلب، ومات المجد بن الخشاب. ومات ابن الحلي. ومات القاضي المؤتمن بن كاسبيويه وزير الملك الظاهر صاحب حلب ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. ومات جمال الدين أحمد بن فياض وزير الظاهر أيضاً.

وفيها أخذ ابن لاون البرنس هو وابنه وزوجته وابنته بحيلة، وبقيت أنطاكية بلا صاحب .

وفيها قصد الملك الظاهر صاحب حلب بلد صافيثا.

وفيها رحل الملك المظفر تقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب لتسليم ما شرقي الفرات من البلاد التي كانت مع مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك مضافة إلى ميافارقين فصارت معه: جبلة ، واللاذقية، والمعرة ، وسلمية، والرها، وحران ، وسميساط، والموزر، وشرط عليه الملك الناصر القيام بحفظ معاهدي تلك الخطة لاسيما صاحب آمد.

وفيها وصل ملك الفرنسيس لنجدة الفرنج على عكا، واسمه فليب، ومعه من الأموال ما لا يوصف.

وفيها وصل الخبر بملك الانكلتيز، واسمه جبلرت إلى قبرس، واستولى عليها، وكان قد تقدمه إلى الجزيرة عدة مراكب وشواني، ونفذ يطلب من الفرنج من عكا نجدة، فنفذوا إليه جفري أخا الملك العتيق، فأدخل صاحب الجزيرة جماعة معه في الصلح فصالحه، وحمل إليه الهدايا والإقامة فأخذه بعد ذلك من مأمنه وغله وقيده، واستولى على الجزيرة، ثم وصل

بعد ذلك إلى عكا، وصحبته خمس وعشرين بطسه، كل واحدة تضاهي القلعة.

وفيها كان خرج سيف الدين المشطوب، واجتمع بالمركبس لسماع رسالته، وترددت الرسل بينهم بسبب عكا، وكانوا قد اشترطوا اعادة جميع البلاد في صلحهم، وإطلاق الأسارى، فبذل لهم السلطان عكا بما فيها، فلم يفعلوا ، وسمح لهم باعادة صليب الصلبوت.

وفيها تسلم الفرنج عكا، وكان المشطوب قد خرج إليهم، وبذل لهم عند تحقيقه أخذهم لعكا مائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة من المعروفين، وصليب الصلبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس لعنه اللّه ، وأربعة آلاف دينار لحجاب المركيس، وما فعلوا ؛ وهم في ذلك ، وإذا قد طلعت أعلام الفرنج على عكا، فجرى على السلطان ما لايحكى، ونسب ذلك إلى غيبة الملك المظفر تقي الدين في ديار بكر، واشتغاله بأخلاط وغيرها.

وفيها غدر الانكلتيز ــ لعنه اللّه ــ بالأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ، فأحضرهم في الحبال قبالة المسلمين، وحملوا عليهم حملة واحدة ، فقتلوا اجميع قتلة واحدة، وذلك بعد أن كان قد تقرر مع السلطان ـ رحمه الله ـ فديتهم بأموال وأسارى غدر بهم، وكان ملعونا غداراً، وحمل السلطان عليهم بالعسكر حملة واحدة، وجرى في ذلك النهار من القتال مالا يحكى ، وتصرف السلطان بالمال الذي كان أعده للفداء، والأسارى أعادهم ـ بعد أن كان قد اعدهم في الصلح ـ أيضا إلى البلاد.

وفيها رحل الفرنج إلى عسقلان ليعمروها، فلما رحلوا كان للملك الأفضل اليزك، فوقع عليهم، ونال الغرض منهم وقتل جماعة ، وساروا نزلوا على حيفا، ووصل الخبر إلى السلطان بذلك، وكان قد هلك من الفرنج أربعمائة فارس على عكا وحيفا.

وفيهـا استشهد ايـاز الطويـل، أفرس المسلمين والفرنج، كـان مملوكـا للسلطان، صلاح الدين رحمه الله.

وفيهـا اجتمع الملـك العـادل بالانكلتيـز بعد عـدة مـراسلات جـرت بينهـم، وكان الترجمان بينهما سير هنفـري، وقـال: تصـالحونا وتـردوا إلينـا البـلاد، فقال لـه الملك العـادل: هذا لايمكـن والرمـاح دون ذلك، فثـار الانكلتيز وقام مغضبًا كالجمل الهائج.

وفيها أخـذت أرسوف بعـد مقاتلـة عظيمة . وفيهـا سار السلطـان إلى عسقلان ليخـربها، فأحضر الجماعة وشـاورهم في ذلك، فقـال سليمان بن جندر: المصلحـة أن تخرب للعجز عـن حفظها، وكان السلطـان بالـرملة، والفرنـج قد نـزلوا يـافا، وتمكنـوا منها، فـأوقف الملـك العادل جماعـة من الأمراء قريبا من يافا، وسـار السلطان إلى عسقلان، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميـس تاسـع شعبان مـن هذه السنـة ، وعاد السلطـان منها وأمـر بخراب حصن الرملة ، ويبنا، ولد.

وفيها وصل صاحـب ملطية الملك معز الدين قيصر شـاه ابن سلجوق ملتجئاً إلى السلطان الملـك الناصر صلاح الدين من أبيـه وأخيه ، فتلقاه الملك العادل، وأقامـوا له بما يجب لمثله، وبقي مده وصاهـر الملك العادل ليتقوى على أبيه وأخيه ببني أيوب.

وفيها هـدم حصن نطرون. وفيها كـان قد تقرر زواج الملـك العال على أخـت الانكلتيـز، وكان ذلـك بعـد رضـاهـا، فلما اتفق السلطـان الملـك النـاصر والملك العـادل على ذلك، ولم يبـق إلاّ العقـد، اجتمع القسـوس والمطارنـة وأحرفوها عـن ذلك، واعتذروا عنهـا بأن قالوا هـي إنما وافقت بشرط الدخول في دينها.

وفيهـا اجتمـع الملـك العـادل بـالانكلتيـز مـرة ثـانيـة، وجـرت بينهما محادثات ومطاولات ، وافترقا عن أتم صداقة.

وفيهـا شرع السلطان ــ رحمه الله ــ في عمارة البيت المقـدس، وأحضر الصناع مـن الموصل وغيرها، وتـولاها بنفسه الكريمـة ـ رحمه الله ــ وكان يعمل كـأحد الفعـالة ، فـأنشأ سوراً جـديداً بـالحجارة الكبـار والعمد، وعمق الخنادق، وأنفـق من الاموال ما لا يحصى، ابتغـاء وجه الله، رضي الله عنه وأرضاه.

وفاة الملك المظفر تقي الدين رحمه الله

وفيها توفي الملك المظفـر تقي الدين ، المقدم ذكره، يـوم الجمعة تاسع عشر رمضان على ملا زكرد، وكان محاصرها ، وهـي من بلد أرمينية، وكان قد أخذ السويداء، وحاني من صـاحبها، وأخاف أخلاط وغيرها من تلك الممالك، وكان موته قد كتمه ولده الملك المنصور محمد إلى حين خرج من ذلـك الاقليـم، بأتـم حـزم وسيـاسة، وبقـي في بـلاده، وجـاءته رسـالـة السلطان صـلاح الديـن بإبقاء مـاكان لأبيه عليـه، فطلب مـن السلطان يميناً بعـد عدة شروط ، فما أجابه، فخـاف حينئذ الملك المنصور، فـدخل في صلاح حـاله الملك العادل، ووصـل هو بنفسه إلى الـرها، وأحضره إلى السلطان صـلاح الدين ، وهـو على عكا، فـأحسن إليه السلطـان، وأقبل عليه.

وترك تقـي من الأولاد: الملـك المنصور محمـد، وأسد الـدين ابـراهيم، والملك الصالح محمود، والملك المعظم نجـم الدين اسحق، والملك الفائز أسد الـدين خضر، والملـك القاهـر شمس الـدين عبـد الرحيـم، والملك الغالـب فتح الدين. وفيهـا توفي حسام الـدين محمد بن عمـر بن لاجين، وهو ابـن أخت السلطان صـلاح الدين، وكان شجـاعاً. وفيها تـوفي علم الدين سليمان بـن جندر، من أكابر أمـراء الدولة. وفيها قتل أتـابك مظفر

الديـن، قتله أرسـلان بن ايلـدكز في همذان ليلـة الأحد مستهـل شعبان، وكان قـد تولى الملك بعـد وفاة أخيه المعـروف بالبهلوان، وكـان السلطان طغرل السلجـوقي تحت ولايته وحكمه، وهـو ابن أخيه ، لأمه وأبيـه اسم السلطنة، ولقزل حكمها.

وفيهـا توفي أبـو الفتـح الصفي بـن القابـض، كـان عظيما عند الملـك الناصر ، ووجيهـا، ووزيراً، وأخـا، وغير ذلك، وفيهـا توفي الحكيـم الموفق ابن المطـران في ربيع الأول، وكان نصرانيا، وأسلـم وحسن اسلامـه ، كان طبيبا فـاضلاً للملك النـاصر صلاح الديـن. وفي هذه السنة تـوفي الفقيه العالم الصـالح الورع نجـم الدين الخبـوشاني بمصر، وهو الـذي بنى على الشافعي ـ رحمه الله ـ المدرسة العظيمة، فشفع الملك العـادل بعد موته لشيخ الشيـوخ صدر الـدين بـن حموية بـأن يكون متـوليها ، فكتـب له بذلـك، وذلك في أواخر سنـة ثمان وثمانين وخمسمائة، ثم صرفه بعـد ذلك السلطان من المدرسة ثم أعاده.

وفي هذه السنة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

كان السلطـان مقيما في القدس لاتمام عمارتها. وفيها عزم الفـرنج على عمارة عسقلان فما مكنوا.

وفيهـا خـرج المشطـوب علي بـن أحمد مـن الاسر، بعـد مشترى نفسـه بخمسين ألف دينار، وفيها وصل إلى الملك النـاصر صلاح الدين ، فتلقاه وأحســن إليه، وأعطـاه نابلـس، وعاش إلى آخـر شوال مـن هذه السنـة، ومات.

وفيهـا هلـك المركيـس بصـور ، وذلك أنـه أكـل وشرب وطـرب عنـد الأسقف فـركب، قفز عليـه اسماعيلي فضربه بسكين، فقـال : احملوني إلى الكنيسة ، فلما حملـوه إليها قفـز عليه فيهـا شخص آخـر فضربه بسكين،

فمسكوه أيضـاً، فوجدوهما اسماعيلية مـرتدين فسألـوهما من وضعهما على تدبير هـذا ، فقالا: ملك الانكلتيـز، وذكر عنهما أن لهما مدة ستـة أشهر ، وقد دخلا في ترهب وتنصر.

وفيها استـولت الفرنـج على قلعة الروم. وفيهـا نزل السلطان على يـافا وحـاصرهـا ، وأشرف على أخـذهـا ، ودخـل المسلمـون إليهـا ، وسـألـوا السلطان الأمـان، فأجابهم، فجـاء الانكلتيز إليهـم في البحـر ، وطلع إلى القلعـة، وقويـت شوكتهـم، فعادوا عما كـانوا عنـه، وأخرجـوا منها عنـوة للمسلمين، وأسروا جماعة ،ورحل السلطان عنها، ونزل على نطرون.

وفيها كـانت الهدنـة العامـة مع الفـرنج، وذلـك باتفـاق من المسلمين والفرنـج، وفيها عزم السلطان على أشيـاء، وطلب الانكلتيز مـن السلطان زيارة البيـت المقدس، فـاعتذر السلطـان إليه، وفي ضمنهـا مرض مـرضاً أشغله، فأقلع وسار بمن معه من الفرنج.

وفيها عزم السلطـان على الحج، وكاتب البلاد بـذلك ، فما زال الناس بـالسلطان إلى أن أحـرفوه عـن الحج، خوفـا مـن غدرة الفـرنج، فـولى في القدس ورتبـه، وسار مـن القدس ضحوة نهار الخميـس خامـس شوال، ولقي بهاء الـدين قراقـوش، وقد خـرج من الأسر بطبرية. وفيهـا دخل إلى بيروت ، وجاءه بيمنـد صاحـب أنطاكية ، دخـل عليه مستجيراً فـأدخله عليه وأكـرمه ، وخلع على مـن معه، وكتب منـاصفات أنطاكيـة بعشرين ألف دينار، وفارقه.

ورحل السلطان قـاصداً دمَشق، فدخلهـا وكانت مدة غيبتـه عنها في الجهاد أربـع سنين ، وخرجـت السنة والسلطـان على أتم عـافية، ورسـل الممالك من أصحـابها يخطبونه ويرغبـون إليه بأموالهم وبـلادهـم وأولادهـم وأنفسهم.

وفي هذه السنة توفي سلطان الروم قلج أرسلان بن السلطان مسعود ابن قلج السلجوقي، وله عشرة من البنين، فولى كلا منهم اقليما، فقوي كل منهم في ثغره، وكان الكبير منهم قطب الدين ملك شاه.

وتوفي فيها القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش ، وهو قاضي العسكر الصلاحي.

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

والسلطان رحمه الله مقيم بدمشق في داره.

وفيها مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قدس الله روحه في بكرة الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر، فلما تحقق العماد الكاتب الأصفهاني - وكان كاتبه - موته، أنشد ارتجالاً.

قلت لضوء الصبح لما بدا
ونوره منكسر حائر
مالك لا تسفر عن بهجة
فقال: مات الملك الناصر

خلف رحمه الله سبعة عشر ولداً، وابنة صغيرة، ولم يخلف في خزائنه سوى دينار واحد لاغير.

وكان ولي عهده بالشام ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده. والملك العزيز ولي مصر وأعمالها، وما أضيف إليها، واسمه عثمان فأحسن في مملكته أحسن من كل محسن في الممالك. والملك الأفضل دمشق وأعمالها والساحل وما يجري مع ذلك.

والملك الظاهر غازي حلب ، وما يضاف إليها.

وفيها سـار الملك العـادل إلى بلاد الجزيـرة بعد وفـاة أخيه مـن خوفـه عليها. وبقي سيف الاسلام على حاله باليمن.

وفيها كـان ابتداء تفاهـم أمر المماليك الصـلاحية واتفاقهـم وسعادتهم بالديار المصرية مع الملك العزيز.

وفيها كان الملك العادل قد نفـذ إلى الملك الأفضل يطلب عسكراً منه ومـن إخوتـه ليفتـح بـلاد الجزيرة ، فجهـز لـه الملـك الأفضل العسكـر، وكـذلك سير إلى الملـك العزيـز فجهز لـه العسكر، وكـان مقدمـه الأمير فخر الـدين جهـاركس مملوك صـلاح الدين فـوصل إلى دمشـق، والملك العادل قد فتح سروج، وأعاد عسكر الملـك الأفضل إليه، فعاد جهاركس بمن معه إلى مصر بعدما تقرر معه ما يشافه به صاحبه.

وفي سنة تسعين وخمسمائة:

برز الملك العـزيز الى البركـة (٨) وسير إلى أخيه الملك الأفضل بأن يخطب له ويضرب السكـة باسمه ، فما وافقه على ذلـك، فجاء إلى دمشق وحـاصرهـا ، وأخذهـا منـه بعملـة من أولاد أبي غـالـب الحمصي، لأنهم فتحوا بـاب شرقي، ولما تملكها سأل الملـك العادل يازكوج أن يطلبهـا له من الملـك العزيز، فطلبها لـه فأعطاه إياهـا لولده الملك المعظـم عيسى. وكان مع يازكوج في الحجبة بها جهاركـس وسنقر الكبير وعز الدين سامة وسرا سنقر.

وفيها بعـد عوده من دمشـق جد في نقـض الأهرام ورمى أحجـارها في البحر إلى دمياط ليبني بها أبراجاً.

وفيهـا وصل الملـك المعظم والملـك الأشرف من قلعـة جعبر إلى أبيهما العادل بدمشق.

وفيها نـزل الفرنج على تبنين وجـرى عليها مـن الزحف والقتـال وأخذ النقوب مـالا يوصف . ووصـل الملك العزيز بعسـاكره واستنقذهـا منهم عنوة وعاد إلى بلاده بعد أن كانت أشرفت على الأخذ.

وفيها سير الملك العزيز هدية إلى ابن سيف الإسلام.

وفيها كـان ظهر بـدمشق رجل ادعـى النبوة وخيـل للناس أشيـاء من عمل السيمياء فقتل لئلا يفتن الناس.

سنة ثلاث وأربع وتسعين وخمسمائة:

خاليتان

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة:

كان الملك المنصـور محمد بن تقي الديـن عمل الجسر على حماة خارج بلده بالجانب الشرقي بالمدينة السفلى.

وفي أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة:

جاء للملك المعظم ولد ذكر هو أول أولاده.

وفيها مات الملك العزيز بن الملك الناصر سلطان مصر، وكان سلطاناً جـواداً حليماً مليـح الصـورة حسن السيرة، وكـان الملـك الظـافـر خضر المعروف بالمشمـر عنده بمصر، فاجتمع الأمـراء وأقاموه في البلاد سلطـاناً إلى حين وصل أخـوه الملك الأفضـل من صرخد ، لأنـه أقام بها وبـأهله وعيـال صلاح الـديـن حين أخذ (العـزيـز) دمشقَ منـه فسيروا أحضروه

إليهم، وجرى ما جرى عند وصوله، من كونه لم ينزل عند فخر الدين جهاركس أولا ، ونزل في خيمة أخيه الملك المؤيد وأكل، ثم منها انتقل إلى خيمة جهاركس. فما طاب لجهاركس ذلك وخشي من عملة عليه مع المماليك الأسدية مثل ياز كوج وجماعته من الأمراء الأسدية. فاتفق جهاركس وزين الدين قراجا على مفارقة ديار مصر، فسارا عنها وتبعهما سرا سنقر . وهذا سبب تفرقة الصلاحية أولا وتسحبوا واحداً بعد واحد إلى الشام.

هذا والملك العادل على ماردين يحاصرها، وكان اجتماع الأمراء عند نزولهم من مصر في القدس المحروس، فسيروا إليه واستدعوه، حتى إن قراجا وسرا سنقر توجها إليه، فرتب ولده الملك الكامل محمد (٩) والأمراء عنده، ومن جملتهم عماد الدين بن المشطوب ، وتوجه إلى دمشق بعد ذلك ، وكان أهل ماردين قد استنجدوا بأتابك نور الدين صاحب الموصل، فلما رحل الملك العادل جاء إليهم ونجدهم، فرحل الملك الكامل عنها عنوة . ووصل إلى حران بعد أن كان تسحب إلى آمد بـ ؛ معه من العسكر.

وفيها وصل الملك الأفضل من الديار المصرية بعد تملكه إياها بيسويات، ونزل على دمشق ، وضرب خيمته في الميدان، وذلك في رابع عشر شعبان ، واستمر الحصار، فسير الملك العادل طلب ولده الملك الكامل فجمع العساكر، وأنفق الأموال، وتوجه قاصداً أباه، ووصل الخبر إلى الملك الأفضل والملك الظاهر، لأنه كان قد اتفق معه وجاء إليه من حلب، فاتفق رأيهما على الرحيل عن دمشق، وسار الملك الظاهر إلى بلاده ، والملك الأفضل عاد هارباً إلى ديار مصر بعد أشياء جرت وأمور تجددت ليس هذا المختصر موضع شرحها لما شرطنا من اختصاره.

وكان الحصار عليها. والملك العادل يقوي نفسه ويخبز البقسماط ويعمل القرب والروايا ويقول: «لابد لي من ديار مصر» . والناس

يعجبون من قوله وفعله ، فقدر اللّه ما قدره من هروب الملك الأفضل ، وساق الملك العادل خلفه ، وجمع بينهما السائح، وجرى من القتال ما لا جرى في الإسلام، وكسر الأفضل وساق الملك العادل خلفه إلى القاهرة ، وبقي الملك العادل عليها ثمانية أيام ، وصالح الملك الأفضل وعين له ما يعوضه وحلف له، وملك الملك العادل الديار المصرية . وكان قد حلف للملك الأفضل على ميافارقين ، ورأس عين الخابور ، وسميساط ، وحاني ، وجبل جور.

سنة ست وتسعين وخمسمائة:

فيها تقرر أن الملك المنصور بن الملك العزيز عثمان يكون هو السلطان والملك العادل على ذلك وسلطنه وحملت الغاشية له كما جرت العادة، ثم بعد ذلك عاد الملك العادل سير رسله إلى البلاد واستحلف الناس لنفسه، وضرب الخطبة والسكة باسمه، فما اختلف عليه أحد وأجابه الناس كلهم رغبة في دينه وتدبيره واسمه وحزامته.

وفيها أحضر الملك العادل ابنه الملك الكامل إلى الديار المصرية ورتبه فيها وجعله ولي عهده وحلف الناس له.

وفيها حاصر جهاركس بانياس وأخذها من حسام الدين بشارة.

وفيها حلف ابن المشطوب وجهاركس وقراجا وميمون القصري على أن يولوا الملك الأفضل ، ووصل عز الدين سامة من الحج فأطلعه الملك الأفضل على ما جرى من المذكورين وثوقا منه ، فأظهر له سروراً وفرحاً وحمد الله على ذلك ، وفارقه وكاتب الملك العادل به إلى الديار المصرية ، ثم ما كفاه ذلك حتى سار بنفسه إلى ديار مصر عرفه ما جرى شفاها.

- ٩٧٩٦ -

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة:

والحالة هكذا.

وفيها قصر النيل في طلوعه إلى الغاية فغلت الغلة بمصر إلى أن أبيع إردب القمح بخمسة دنانير وأكل الناس بعضهم بعضا، بحيث كانت المرأة تأكل ولدها بسائر الألوان ، وخلت مصر والقاهرة من أكثر أهلها ، بحيث إن الناس يموتون ومالهم من يدفنهم ، فيبقون على حالهم شهوراً.

وفي أوائل هذه السنة جلبت الغلال في البحر من الشام والساحل، ووقع الفناء أيضا فانقرض الناس فناء وجوعا.

وفيها ندم الملك العادل على كونه مكن جهاركس من أخذ بانياس وتبنين والملك المعظم، فاطلع جهاركس على ذلك، فاجتمع هو وألطنبا الجحاف، وفارس الدين ميمون القصري ، وعلاء الدين شقير، وزين الدين قراجا،وسيروا إلى الملك الأفضل وإلى الملك الظاهر، وحثوهما على الحركة ، ليملكوا دمشق للملك الأفضل . وكان إذ ذاك الملك العادل بالديار المصرية ، وشرع سامة يكاتبهم، ويظهر لهم أنه معهم، وكان كذاباً في ذلك. فتجهز الملك الأفضل وأخوه الملك الظاهر ، وخرجا من حلب بالعساكر ، ووصلا إلى حماة ، وحاصراها في رمضان وقاتلاها قتالا عظيما وما حصلا على طائل منها لشهامة صاحبها وحمية أهلها، واتفق الحال بعد الإياس منها على أن يحمل الملك المنصور محمد صاحبها ثلاثين ألف دينار، وإن أخذا دمشق كان في خدمتها، فقبلا ذلك منه، ورحلا قاصدين دمشق، فجدا تارة وقصرا تارة إلى أن وصلاها بعد أن كانا عزما على العود عنها غير مرة، فجدا على قصدها ووصلاها ونازلاها وحاصراها مدة، ولم ينالا منها غرضاً ، وذلك لسوء نياتهما وحسد بعضهما بعضاً ، وغدر المماليك الصلاحية بهما لما سمعوا من الملك الظاهر ، وكان

الملك العادل مقيما بنابلس ، وكان جهار كس قد أخذ من الملك الأفضل ثلاثين ألف دينار، ورهناً على تمام أربعين ألف دينار. وأخذ قراجا صلخد وأنزل الملك، الأفضل أمه وعيال أبيه منها، وكل هذا رغبة في الملك وطمعا ولإتفاق جهاركس وقراجا عليه. وكان في الجملة قد قال الملك الظاهر: إنه متى أخذ دمشق ما يسلمها للملك الأفضل ، فسمع الأفضل بذلك ، فأفكر في نفسه وراسل عمه السلطان الملك العادل على الصلح معه، واتفق معه على ما يعطيه باطناً ، ولم يطلع على ذلك سوى عماد الدين بن المشطوب ، والمهذب بن نظيف، وكان وزيره يومئذ ،.وهو حموي ، ثم شاع ذلك في المماليك ، ومحا الملك الأفضل ما قاله الظاهر فأقصروا عن القتال ، حتى إن العسكر كان قد بلغ من دمشق أتم غرض، بحيث إن بعض العسكر كان قد دخل دمشق وشرب فقاعاً ، وخرج من باب الفراديس ، ولم يبق إلا هجمها ، فعاد الملك الأفضل سير إلى الجماعة ومنعهم من المبالغة في القتال، بحيث أعيد ابن المشطوب من باب الحديد . فلما اجتمع به قال له الملك الأفضل قول الملك الظاهر.

وكان الظاهر أبداً يكارم فارس الدين ميمون ويعظمه ويحترمه ، وهذا أيضا مما كان جهاركس ينقمه على الظاهر وكذلك قراجا ، فانضم جهاركس وقراجا إلى الملك الأفضل وأطلعهما على قول الظاهر ، وشاركاه في الذي فعله من رجوعه إلى عمه في الباطن . ثم هرب جهاركس وقراجا بمواطأة من الأفضل وبقوله ، فعلم الملك الظاهر - وكان يشرب في بقية الليل ــ هربتهم ، فخاف على نفسه ، فشجعه ابن المشطوب، وأصبحوا وجدوا في القتال ذلك النهار ، واحتاطوا بدمشق من كل جانب ، ونزل الملك الظافر، ونصب سنجقه على جسر باناس ، وابن المشطوب عبر جسر الحديد ، والملك المعظم في دار العدل وهو مريض، فكفهم الملك الأفضل أيضا بمجد الدين مرزبان، وعادوا إلى

خيمهم ، ورجعوا عن غرضهم ، ثـم جاءت رسل السلطان الملك العادل باطناً إلى الملك الأفضل بما كـان عين له، وهو رأس عين الخابور ، وجملين والموزر ، وسميساط ، وميـافارقين، وحاني، وذو القرنين، ويحمـل إليه في كل سنـة من مصر قماشـاً بخمسين ألف دينـار، وخمسين ألف دينـار عينا ذهباً ، وحلـف له سراً ، ولم يعلـم الملك الظاهـر ، ونقل الملـك الأفضل بيته وعياله ووالدته إلى حمص .

وكان الملـك الظاهر قـد أخذ من التجار مـائة ألف دينار وزيـادة من القماش وفرقـه على العسكر ، ويكتب لهم خطه ، ويستـوفونه مـن حلب. وكان الملـك الظاهر قد اتفـق مع الجماعة على استدعـاء عز الدين سـامة إليهم إلى المخيم ، فلما خرج عاتبوه وقالـوا له كل قول فما أفاد معه. وعاد من عندهم بعد أن قال للملك الظاهـر: « أنت غدار مالك قول ولا يثق بك أحد أبـداً» . ودخل (دمشق) وعرف الملك المعظم مـا جرى ، وكتب إلى الملك العـادل بذلك. واتفق أن الجحـاف عمل دعوة للملك الظـاهر والجماعـة الأمـراء ، فسكـر الظاهـر وطـرب وغطـى على عقلـه الشراب ، بحيث إنه رمى سنورا على الجحاف وأنشده:

ستعلـــم ليلى أي ديـــن تـــدينـــت......

ففهم شقير والجحـاف ذلك، فأسراه في أنفسهما وتـوهما بأنه قـد تحقق صورة الحال مع السلطان الملك العادل فهربا في ليلتهما ، ودخلا دمشق ، ومعهما يـاقوت العـزي . فلما بلغ الملـك الظاهـر ، ركب هـو ومن عنـده عازمين على الـرحيل مـن دمشق، وركب جميـع العسكر ، وسـاق الناس على حمية ، وطلعـت شمس نهار تلـك الليلة وهـو الاثنين من سنـة ثمان وتسعين وخمسمائة. وساق الملـك الظاهـر بمن معـه . وفي الطريـق أقطع ابن المشطوب منبج وقلعة نجم ، ولسرا سنقـر بهسنا ، وكان ذلك بواسطة ميمـون القـصـري. وكـان قبـل ذلك قـد أعطـى قلعـه نجم للملـك. الأفضل، فسير ابن المشطـوب يتسلم قلعة نجم، فما سلموهـا إليه وساروا

ودخلوا في السوق. فدخل الملك الأفضـل إلى حمص والملك الظاهر ساق بمن معـه . وكان فـراق الملك الأفضـل لأخيه الملـك الظاهـر من مجمـع المروج. ثـم نزل الملك الظاهر على حماة فقاتلهم بعض الجماعة ، فسير إليه الملك المنصـور وعاتبـه على غدره بيمينـه له، فـاعتذر الظـاهر عـن ذلك وكف أصحـابه ، وسار إلى بلـده بعد أن كان الملـك الظاهر قـد ركب في عسكـره وجـرح في رجلـه اليسرى . ولما وصـل إلى حلـب طـالبــه ابـن المشطوب بـوعده لـه بمنبج، وحصـارها وأخـذها لـه، وكان قـد جاء إلى منبج الملـك الفائز بن العـادل وابن الجراحي فأخـذاها في غيبة الظـاهر، وكانت إذ ذاك لابـن المقدم عز الديـن، ورثها لأخيه شمس الـدين عبد الملك ، لأنها وقعت إليهـم في مقايضتهم لصاحب حماة، ابن تقـي الدين بيارين وكانت بـارين لهم وكفر طاب وفامية ـ وقد ذكـرنا ذلك مطولاً في المطول ـ فمغلطـه عنها إلى وقت ثم وفى لـه بها ، فأخذها ابـن المشطوب وفي يده خرب قلعتها.

وفيها وصـل الملك المؤيد والملـك المعز ولدا صـلاح الدين مـن حبس الكرك ، لأن الملـك العادل كـان حبسهما ، فلما أخذ دمشـق وأمن عليهـا أطلقهما من الحبس.

وفيها وصـل السلطان الملك العادل قـاصداً حماة ومتوجهـاً إلى حلب، فنـزل حماة، وصـارت المراسـلات بينـه وبين الملـك الظـاهـر إلى أن وقـع الصلح بينهما.

وفيها أخرج القاضي نجم الدين عبد الرحمن بن أبي عصرون من حماة ـ وكان قاضيها،وزيرهايومئذ ـ إلى حلب بعد أخذ عدة دراهم منه وحبسه مدة فـأخرج بشفاعة دلـدرم بن ياروق، صـاحب تل باشر، وذلـك لبغضة السلطان الملك العادل له.

وفيها: حدث على القاضي محيي الدين بـن الزكي ، قاضي دمشق ، من الخلط مـا شوش عقله وغيره، وكـان عالماً فاضـلاً فقيهاً كامـلاً ، ذا عقل ورزانة ، وورع وديانة ، وكان خرج راكباً ، فوقع عن دابته فمات رحمه الله.

وفيها أحضر السلطـان الملك العادل ولـده الملك الأشرف موسـى من القدس ، لأنـه كان به مقـامه ، وكذلك الملـك المعظم ، وهذا بعـد عوده مـن حماة ، وقـد عـاد إلى حمص . فقرر الملـك الأشرف بحـران والـرهـا، ويكون مقيما في الجزيرة وعساكرها في خدمتـه ، أسوة بأخيه الملك الأوحد كان مقيماً بميافـارقين وديار بكر ، وعين الملك المعظم بـدمشق ، والملك الكامل بالديار المصرية ، كما قدمنا ، وهو يتردد إلى الممالك بنفسه.

وفيهـا : حلـف الملـك الظـاهر للملـك العـادل أن لايستخـدم ابـن المشطوب وقطـع خبزه ، فوصل إلى عنـد السلطان فما استخدمـه، بل أذن للملك الأوحد أن يستخدمه ، فما اتفق بينهما ، فاستخدمه الملك الأشرف وأحسن إليه.

وفيها : جـاءت الزلـزلة العظيمـة التي أخـربت السـاحل وأكثـر بلاد الفرنـج . وأشرف الفرنج على أخذ طـرابلس بحيث إنهم عبـوا قماشهم في المراكب للهرب من المسلمين ، فما أقدم المسلمون عليهم.

ودخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة:

فيها : طلع النيل دون كفايـة البلاد، وزرع الزرع ، وانحطت الأسعار ، وصار يـزيد السعـر وينقص إلى سنـة تسع وتسعين وخمسمائة طلـع النيل ورويت البلاد وزرعوا وتباشر الناس بها.

وفي سنة ثمان وتسعين أخرج سيف الإسلام ولـده الملك المعز اسماعيل من اليمن خرجة ثانية بعدما كان أخرجه إلى الشام وعاد منه إليه . وذلك

كله خوفاً على نفسه منه، فسار فاتصل بالسرين من بلاد اليمن، وهي آخر اليمن وأول الحجاز ، فأقام بها أياما وتوفي سيف الاسلام . فسير جمال الدولة كافور خادم أبيه ياقوت العجمي ، وياقوت الجمالي، ومحمود السيرواني ، والأسعد بن الحارس ، (فساروا) إلى الملك المعز عرفوه بموت أبيه واستدعوه إلى زبيد، فحضر معهم ، وسلموها إليه، وأقام بها أياماً وسلموا إليه جميع القلاع. ثم توجه منها إلى قلعة تعز ، فأقام بها مدة، ثم توجه إلى الدملوة ، فأقام بها شهرين، ثم طلع إلى حب[11] ، فأقام بها، ثم توجه إلى لحج وأبين ، فأقام بها أياما، ثم توجه إلى عدن ، فأقام بها ستة أشهر ، ثم توجه إلى صنعاء . فلقيه الشريف عبد الله بن عبد الله الحسني ، فصافقه تحت حب ، فكسر الشريف المذكور ، وتوجه إلى صنعاء ، فلقيه مماليك أبيه ، عدتهم ثمانمائة مملوك، فاعتصموا بصنعاء وقاتلوه، فكسرهم ، وأخذ صنعاء ، وأقام بها أربعة أشهر ، ثم نزل إلى تعز ، فأقام بها أربعين يوما، ثم إلى زبيد، فأقام بها أياما . ثم استحلف الناس ، وفصل له الثياب الخضر ، والعمائم الخضر المذهبة ، واستسلم من كان في بلاده من النصارى واليهود ، وخطب له بالخلافة في زبيد ، وادعى أنه من الأمويين ، فأول خطبة خطب الملك المعز المذكور في داره المعروفة بعبد النبي بن مهدي . ثم سير إلى البلاد ، وأمرهم أن يخطبوا له على المنابر بأمير المؤمنين ، وأبطل الخطبة لبني العباس . ولم يزل هو يخطب بنفسه مدة حياته ، وذلك في تعز ، وفي الدملوة، وفي كل موضع له حصن ، وكان قد أقام سلطاناً من غير دعوى خلافة سنة كاملة ، وبقي خليفة إلى أن مات أربع سنين، وكانت مدة ولايته خمس سنين وشهيرات.

ثم تجهز طالبا مكة المحروسة ، وجهز ياقوت الجمالي، والمجاهد الجمالي، وسنقر العزي إلى مكة بأن تعمل له دار ، ويقام له إقامة ليكسو البيت ، فلما تحقق الشريف أبو عزيز قتادة ذلك أمر غلمانه أن ينهبوا جميع من كان من أصحاب الملك المعز وأسروهم، فسمع الملك المعز

ذلك فشق عليه، وتجهز طالبا مكة إلى أن وصل إلى المهجم تقاعد عنه جماعة من أصحابه وخذلته ، فتعكس وتشوش ، فعاد إلى اليمن إلى بلد يقال له الكدراء من أعمال زبيد ، فأقام بها خمسة أيام ، ثم استدعى مملوكا يقال له سيف الدين سنقر واستحضره عنده في الدار بمحضر من جماعة ، فسقاه الخمر بعد أن تركها مدة زمانية وقال له :

« ياسنقر، قد كبر جوفك وسمنت» ودعا بمعتوق الزراق الحلبي وقال له : « يامعتوق ، طيب لي قارورة نفط!» فأحضرها بين يديه، وقال له: «قم ياسنقر !» وأمر معتوق أن يضربه بها ، فقام إليه مملوك يقال له أبو شامة كبير من مماليك أبيه ، كان له صنعاء في حياة والده ، واستوهبه منه فوهبه له ، ثم قعدوا على شرابهم ساعة، ثم دعا بسنقر مرة ثانية وجذب عليه سكينا وقال له: « أريد أشق مصارينك ! » فقال له : «ياأمير المؤمنين ، أنا مملوكك » فعاتبه ساعة، ثم قام سنقر من بين يديه بعد أن قبلها، وقعد في مكانه ساعة ، ثم خرج ، فقال له الملك المعز : «إلى أين ؟» فقال : « في حاجة ياأمير المؤمنين (إلى) البرية أقضيها وأعود » فقال له : « دع رهنك على العود ، كما جرت عادة من يشرب مع الندماء» فترك منديله وخرج إلى خيمته لقي جماعة من المماليك فقال لهم: « قد قتلت الخليفة! » وكان ليلاً فركبوا في خمسمائة مملوك ، ثم دخلوا إلى الكدراء ونهبوها، وأخذوا خزانتها ، فبلغ ذلك الملك المعز ، وهو على شرابه ، فبطل الشراب وتجهز في ليلته هاربا إلى زبيد ، ثم قصد سنقر موضعا يقال له المهجم ، فنهبه وأحرقه وأخذ خزانة فيه، ثم توجه إلى المحاليب فأحرقها وأخذ خزانتها ، ثم صعد إلى الشريف عبد الله بن عبد الله في بلاده منتصراً به، فأقام عنده خمسة أيام ، فتجهز الملك المعز خلفه، فنفذ إليه هذا سيف الدين سنقر المذكور وقال له : « بالله عليك ياأمير المؤمنين ، لاتخرج ، فإن العسكر منافق عليك » فوصله الكتاب وهو راكب ، فقال : « يهددني هذا الفاعل الصانع!» وساق من وقته بجيشه إلى أن خرج إلى موضع يقال له الجنابذ[١٤] ، وهي أرض يقال لها

عجى ، فتحالف العسكرعليه، وتشاوروا على قتله ، وهم كبار الأكراد مثل : شمس الدين الدقيق، وجمال الدين ابن أخيه، وابن أخته ، وابن بركات، وهندو، وروبك أخوه، وسيف الدين نجد أمير آخور ، وباخل ، ومن الأتراك : شمس الدين القرابلي. فحمل عليه هندو وروبك أخوه . فلما قربا إليه بالحملة قال لهما: « لاتفعلا وأغنكما » فجفلت به البغلة في مثل ذلك الوقت من الرماح فرمته ، فبقي متخبطا في ثيابه وأكمامه ، وذلك أن ثياب الخليفة كانت عليه ، طول أكمامها كل كم خمسة وعشرون شبراً ، وسع الكم ستة أشبار ، فسبقه شمس الدين الدقيق والقرابلي ، وابن بركات ، وهو يخبط في ثيابه فقتلوه وأخذه ابن بركات فقطع رأسه ، وحمله على رمح ، وأعطاه للداعي الذي كان بين يديه . فأقاموا في المدينة ثلاثة أيام يدورون برأسه في البلد.

ثم نهبت زبيد سبعة أيام نهبا شنيعا ، ثم اختلفت الأكراد لعدم مقدم عليهم . هذا وسيف الدين سنقر لم يعلم بذلك ، فاتصلت به الأخبار ، وعند اختلاف الأكراد ، نفذوا إلى سنقر إلى صعدة باخل الكردي الحميدي ، فطلبوه لتمليكه ، فحضر إلى زبيد ، ودخلوا به إلى دار إلى الرباع بباب شحاد ، ونزل في دار يوسف العروي ، ثم تقدم شمس الدين القرابلي من الأتراك وابن الدقيق من الأكراد وسلطنوا سنقر ، وحملوا الغاشية بين يديه ، وأدخلوه راكباً إلى دار ابن سيف الاسلام . فأقام بزبيد ثلاثة أيام . وأمر جماعة منهم . ثم عاد إلى تعز ، وأقام بها أربع سنين . فكتب كتابا إلى زبيد يطلب من الأكراد المقيمين بها مائة ألف دينار ، وكان عند سلطنته قد قنع منهم بالاسم لا غير؛ وترك لهم البلد وقال : « أقنع بتعز لاغير » فخادعهم إلى أن قوي وجيش وتمسك بجماعة عاهدهم ، ونفذ يطلب المال ، فأحضروا خمسة أحمال صناديق وعملوا فيها اللوالك [١٥] المقطعة والخفاف والجلود المقطعة وأسنة مكسرة ومسامير وحديد مكسر ، وختموها وسيروها إليه. فلما رآها شق عليه ذلك ، ونفذ في الوقت والحال يعلمهم وصوله إليهم قبالة هديتهم ،

فخرج في ليلته قاصداً زبيد. فلما سمع الأكراد خروجه ، خرجوا إلى ضيعة يقال لها المعزية كان بناها الملك المعز بن سيف الإسلام ، وسماها القاهرة المعزية ، وهي ضيعة كبيرة جيدة كثيرة الخيرات ، فوصل سيف الدين سنقر إليها ، فلما قرب منها انهزم الأكاريد ونزلوا في ضيعة يقال لها الزريبة ، فأقاموا بها خمسة أيام ، ورحلوا منها إلى زبيد ، ورحل سنقر طالبهم إلى زبيد، فنزل وخيم عليها ، وقفلوا أبوابها . وكان قد ذكر لأصحابه أنه « إذا أخذناها بالسيف انهبوها » فخرج الأكراد وقاتلوه يومين ، فما منهم يوم إلا ويخسرون فيه، فلما كان اليوم الثالث ركب سنقر بجماعته . وزحف إلى باب يقال له باب القرتب فوقعت إحدى البواشير، فقفز سيف الدين سنقر هو وبدر الدين ابن تميرك ، فقال سنقر عند ذلك : « الحمد لله رب العالمين » وهو واقف في وسط الثلمة ، وقال للعسكر : « يا أصحابنا كنا قد أمرنا أنكم إذا أخذتم هذه المدينة بالسيف انهبوها ، وقد عمل الله لنا مالا كان في حسابنا من هدم هذه الثلمة . فأنا أشتري منكم نهبها بمائة ألف دينار » فأبوا إلا نهبها، فزادهم خمسين ألف دينار وحلفهم بالطلاق أنه إن سمع أنهم تعرضوا لنهب أو غيره من أذية البلد آذاهم . ثم دخل مدينة زبيد وأقام بها، فخرجت الأكراد من باب ولا فقه ، ثم قصدوا ضيعة يقال لهاة الحصبى ، فنزلوا عند رجل يقال له علي الكناني ، وهو من غفراء البحر، فأضافهم وأحسن ضيافتهم ، فطلبوا منه نبيذاً يشربونه، فأحضر لهم نبيذ النخل، وهو يقال له الفضح، فشربوا منه وسكروا ورقدوا فقام مضيفهم علي الكناني وأخذ خيولهم وربط غلمانهم ، وأخذ ما كان معهم من المال ، وكتف الأكراد إلى أن أصبح الصباح واجتمع قومه بنو كنانة وساروا بهم على الإبل في المحائر إلى أن وصلوا بهم إلى زبيد ، فشنق سنقر علي الكناني وأخاه محمداً ، وقال لهم: « قبحكم الله ، غدرتم بضيوفكم » . ثم أخذ جماعة الأكراد ورماهم الحبس ، واستدعى بهم في اليوم الثالث إلى القصر ، فنصب لسيف الدين سنقر شبرمة ، وهي قاعدة من خيزران مثل السرير،

واستحضر ولد سيف الإسلام يقال له الملك الناصر ، كان صغير السن ، واستدعى الدقيق فضرب رقبته ، ثم من بعده علم الدين ابن أخيه ، ثم من بعده لهندو ، ثم بعده روبك ، ثم بعده عيسى بن أجول الزرزاري وسبعة من إخوته ، ثم بعده النظام بن عيسى الجزري وجماعة ، فكانت القتلى في ذلك النهار سبعمائة بالضبط . وعفا عن القرابلي وأولاده وعن باخل وعن ابن بركات ، ثم قعد في مملكته وفعل من العدل وحسن السيرة مالا رآه أهل اليمن ولا رعية ، وسلطن الملك النا صر ، وصار هو أتابكه ، وخطب للملك الناصر في بلاد اليمن ، ثم بقي في السلطنة (والأتابكية) أربع سنين إلى أن توفي بتعز فجأة ، وذلك أنه كان ليلة موته قد أكل لحم فرس ولحم بقر ، وشرب عليه شراباً مطبوخاً ، فغسل ودفن في جامع تعز ، وخلف ولداً أخرس وولداً آخر من أم الملك الناصر ، لأنها كانت زوجته ، ثم تزوج إبراهيم غازي بن جبرائيل أم الملك الناصر بعد وفاة سيف الدين سنقر ، وصار أتابكاً أيضاً للملك الناصر . وبقي الملك الناصر مدة ، ثم توفي في الجند وحمل إلى تعز فدفن فيها. وكان سبب موته أن غازي بن جبرائيل سمه بكوز فقاع ، فبقي غازي صاحب البلاد مدة يسيرة وقتل في حب ، قتلته حمير وخولان وبنو عبد الوهاب ، ورموا برأسه من قلعة حب، وسبب ذلك اتهامهم له بقتل الملك الناصر فبقيت البلاد بلا صاحب إلا الخواتين لاغير . فجاء الشريف عبد الله بن عبد الله بخلق كثير وملك زبيد مدة يسيرة ، ثم سمع بركب الحجاز ووصوله فقال في نفسه: « لايخلو هذا الركب من أحد من بني أيوب » فخاف على نفسه وعاد إلى بلاده . ووصل ركب الحجاز إلى زبيد ، فنزل المهتار كدكل العزيزي من عند أم الملك الناصر يتفقد الركب الحجازي ، فلقي سليمان شاه بن سعد الدين بن الملك المظفر تقي الدين بن شاهان شاه بن أيوب ، وكتب كتاباً إلى أم الملك الناصر يخبرها بخبره وقال : « هذا من بني أيوب وهو حسن الشباب » فأحضرته وخلعت عليه وتزوجت به وسلطن وملك البلاد، وملأها فسقاً

وجوراً وفجوراً ، وأخذ نسـاء الناس وما شكر ما أنعم الله عليـه به ، فإنه كـان فقيراً لايملـك درهما ، بحيـث حـج مـاشيـا مـع الفقـراء يكـدون ويطعمونه ، فلما بغى سلبه الله ما كان خـوله . بعد أن وصلت مكتوباته إلى السلطان الملـك العادل وإلى عمه الملـك المنصور صاحـب حماة جهز الملك الكـامل ولـده الملك المسعود إليـه ، وأخذ البـلاد منه عنـوة . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في تاريخنا الكبير المرسوم (بالبيان في حوادث الزمان) وإنما ذكرنا هذه اللمعة لسياقة الحديث والله أعلم.

ودخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة:

والملك الأشرف قـد تجهز لقصد مـاردين ، واستخدم ابـن المشطوب ، وسير إلى الملك الأفضـل يحضره من سميساط إلى البيكـار عنده ، ووردت الأخبـار بأنهم قـد تـأهبوا في مـاردين للحصـار واللقـاء ، ووصل الملـك الأفضـل إلى حران . ورحلـوا وأخـذوا رأس عين الخابـور وسلمها الملـك الأشرف للملـك الأفضل ، وسـاروا إلى مـاردين ، فـراسـل أهـل مارديـن السلطان الملك العادل على أن يحملـوا للملك الأشرف خمسين ألف دينار فعجلوا ذلـك . فعاد الملـك الأشرف عنهم راجعـاً إلى حران ، وأعطـى الملك الأفضل جملين .

وفيها نزل الملـك العادل على خربة اللصوص بسبب الفـرنج . وفيها : أخـذوا رأس عين الخابـور مـن الملـك الأفضل وكـذلـك جملين بكـذبـة كذبوها عليه لاستعادة البـلاد منه، ولم يبقوا سوى سميساط لاغير وأعطوا رأس عين لابن المشطوب .

وفيها : كـان عند أتابـك نور الديـن صاحـب الموصل عدة أمـراء من الشاميين ، مثل المبـارز خطلخ الحلبي ، والمبارز سنقر الحلبي وعـز الدين كر ، حملـوه على لقاء الملـك الأشرف وقووا عزمـه على ذلك ، فبلـغ الملك

الأشرف ذلك، فسير إلى السلطان الملك العادل عرفه ذلك ، ويستأذنه فيما يفعله على لسان ابن المشطوب ، فأعاده سريعاً وقال له: « إن قصدكم صاحب الموصل لاتلاقوه ، الله الله ، ولا تغتروا بقول صاحب سنجار وآمد والجزيرة » فعاد ابن المشطوب ، فوجد أتابك قد خرج من الموصل . ووصل الملك الأوحد إلى عند أخيه الملك الأشرف . وقال ابن المشطوب رسالة الملك العادل للملك الأشرف . واجتمعوا على دارا ، ومنها رحل الملك الأشرف بمن معه ووصلت الأخبار بقصد أتابك لهم ، فرتب الملك الأشرف أصحابه ومن معه ميمنة وميسرة كما جرت العادة » ورحل طالبا باشزا ووصل أتابك بعساكره يوم الجمعة سادس عشر شوال من سنة ستمائة ، فنزل الملك الاشرف دون باشزا ، وسير أتابك رسولاً أمين الدين ياقوت الكاتب إلى الملك الأشرف يطلب المصاف ، وفي عقيبه حمل أتابك بمن معه ، ووصل إلى أن شارف الملك الأشرف ، فضرب أتابك دهليزه، وذلك بكرة نهار السبت ، ولم يقم بها ، وساق ووقع القتال، وحمل أتابك حملة بنفسه ورمي أكثر أصحابه في وقتهم ، وأخذوا قتلاً وأسراً ، ونجا بنفسه وكانت وقعة عظيمة مشهودة . ونزل الملك الأشرف بعد الكسرة واستحضر الأمراء ومن أخذوهم من عسكر الموصل ؛ فكان في الجملة سنقر الحلبي وولده ، والأسد بن عبد الله ، وحسين الطويل ، ووصل أتابك إلى الموصل في هزيمته في يوم واحد ، وسير الملك الأشرف البشائر إلى أبيه فاستعظم الملك العادل ذلك.

ودخلت سنة ستمائة:

فيها : اتفق الصلح بين أتابك والملك الأشرف وتحالفا.

وفيها : كان الملك العادل قد رحل من خربة اللصوص ونزل مرج عيون ، وراسله الفرنج إلى أن تقرر الصلح، وعاد الملك العادل إلى دمشق ، وأمر الملك الأشرف بالعود إلى حران ، وسمع برحيل الملك العادل إلى مصر ، فوصل إليه إلى دمشق.

وفيها : طلب الملك المجاهد صاحب حمص نجدة من الملك العادل.

وفيها : كانت واقعة شرف الدين قراقوش المظفري في المغرب مع بوزبا المظفري أيضاً ومسكه وسيره إلى ابن عبد المؤمن .

وفيها : عاد الملك الأشرف من وداع أبيه.

سنة إحدى وستمائة:

جاءت الفرنج إلى حماة بالفارس والراجل ، فأخذوا وقتلوا وسبوا خلقاً وحملوا إلى الباب القبلي فاختنق فيه جماعة . وفيها أسروا الفقيه الشهاب ابن البلاعي ، كان شاطراً شجاعاً . وساروا به في جملة الأسرى فبات في طرابلس ليلة واحدة ، وهرب ونجاه الله منهم ووصل إلى بلاده . وذلك من أطرف ما وقع لمأسور ، وبلغ السلطان الملك العادل نوبة حماة ، فشق عليه ذلك.

وفيها : سير الملك المعظم العسكر إلى حمص وحماة ولم يفارقوا إلى أن تقرر الصلح.

وفيها: طلع الملك المنصور صاحب حماة إلى الملك العادل بالديار المصرية ، فتلقاه وسر به سروراً كاملاً ، بقي مدة وعاد.

وفيها: قطع الفرنج العاصي ، ودخلوا إلى أرض حمص ، فقتلوا جماعة وأسروا ، فبلغ ذلك الملك العادل ، فوعد بنزوله إلى الشام وبرز إلى البركة وسار أولاً فأولاً ووصل إلى دمشق .

وفيها: كانت واقعة السلطان شهاب الدين الغوري مع محمد خوارزم شاه بن خوارزم شاه، وذلك أن السلطان شهاب الدين الغوري وقع بينه

وبين خوارزم شاه، فجاء أخذ نشاوور [١٧] وولى فيها ملكاً من أصحابه ، وهو ابن أخته يقال له ضياء الدين ، وعاد إلى غزنة. وسبب ذلك أن البلاد تخبطت عليه من الهند فسمع خوارزم شاه بذلك، فجمع وقصد نشاوور ونزل عليها وحاصرها مائة يوم، وأن الهنود قاموا على السلطان شهاب الدين، فانشغل بهم وما نجدهم، فأخذها خوارزم شاه بالأمان . ونزل ضياء الدين المذكور منها ، وضرب خيمته بقرب خيمة خوارزم شاه، والأمراء الذين كانوا معه طلبهم يخدمونه فما أجابوا إلى ذلك . قالوا: « إذا لم نحفظ الأول ما نحفظ الآخر» . وفارقوا وتوجهوا إلى السلطان شهاب الدين الغوري ، فسألهم : « كيف جرى» فقالوا له : «سيرنا عدة كتب ما جاءنا لها جواب» فاستحضر وزيره وأنكر عليه وقال له: « كيف كنت تخفيني مثل هذا وقد حوصروا ثلاثة أشهر ، لعلي كنت أنجدهم» . وسخط عليه . وجند السلطان شهاب الدين بعد ذلك وطلب خوارزم شاه . وعملوا مصافا واقتتلوا ، فانكسر خوارزم شاه إلى البلد ، وبقي بين السلطان الغوري وبين خوارزم شاه مسافة يومين ، فعمد خوارزم شاه وكسر من سيحون وجيحون ساقية ماء ، وأدارها في الخندق فمنعت من العبور إلى البلد ، فطال مكث السلطان على ذلك الماء ، وشرع في عمل زواريق ليعبر إلى البلد في الماء. فأنفذ خوارزم شاه إلى أخواله الخطا وقال لهم : « قد جاء من يأخذ البلاد منا ومنكم فأنجدوني » . فجمع الخطا وركبوا في أربعين ألف فارس جرائد ، كل واحد وجنيبه ، وقصدوا السلطان ، فسمع بهم السلطان فانتقل عن الماء وطلبهم ، فبقي بينهم وبين الماء مسافة أربعة أيام؛ وبقي بين السلطان والماء مسافة ثلاثة أيام . فقال الأمراء للسلطان : « إن سبقونا إلى الماء ظفروا بنا وإن سبقناهم ظهرنا عليهم » فجد السلطان في السوق فسبقهم إلى الماء بدقيقة . فوصلت بوادر عسكرهم، وأشرفت على الماء ، والسلطان نازل عليه، فقال له أمير من أمرائه : « تعطيني رجالاً ودستوراً لألقى من وصل من عسكرهم ، لأنهم قد وصلوا تعاباً إلى غاية» . فقال

السلطـان : « لابل نصبر حتـى يصلوا » . ومـا قبـل منه ، فقـال : « إلى غد» فتيقنوا ضعفـه، فطمعوا فيه وضربوا معـه مصافاً ، وأرسل اللـه هواء عظيماً في وجـه السلطـان وأصحـابـه، فـانتصر عليهـم الخطـا ، وقـاتـل السلطان شهاب الدين بنفسه أشد قتال بحيث إنه غير على عشرين دابة غير أنه كسر، ولكن بعد أن قتل كل واحد من أصحابه جماعة من الخطا . فانهزم السلطـان إلى قرية صغيرة يقال لها بنـدخوي(١٨) . وكان مع الخطا السلطان عثمان ، سلطان سمرقند ، وصعـب عليه كسرة السلطان شهاب الديـن ، وذلك لإسـلامه . غير أنـه لم يكن لـه حيلة في دفـع ذلك عـن المسلمين. وقصـدوا محاصرة الربـاط وأخذ السلطـان منه، فـأشار عليهـم السلطان عثمان بأن مـا هذا مصلحة ، فإن له عدة غلمان وممـاليك معهم العساكـر الكثيرة مثل تاج الـدين الدز، وأيبـك لاشك ، وقطب الـدين ، فيسمع هؤلاء فيقصدونكم والمصلحة عندي رواحكم وآخذ لكم منه فيلاً من فيلته وحمل ذهـب . قالوا: « افعل » فنفذ إلى السلطان شهـاب الدين وأطلعه على القضية فسير لـه ما طلب، وعاد السلطان إلى غـزنة مكسوراً، واجتمعت اليه ممـاليكه من جميع الأطراف وأنفـق في العسكر عن سنين ، فلما كان هـو في بعض الليـالي في الصلاة اختصـم مملوكـان صغير وكبير، فخاصمهما السلطـان وهددهما إلى بعـد صلاتـه ، فأخـذ أحدهما سكينـة صغيرة وقفز على السلطـان شهاب الـدين فقتلـه وخرجـت مصارينـه في وقتـه، وقبر في غزنـة ولم يعقـب ولا بشر بـولد، كـان عـاقـراً . وكان هـذا السلطان عثمان المقدم ذكره ، وهو صاحب سمرقند أحسن الناس بحيث إن نساء سمرقند إذا ركـب يدعون له ويقلن : « اللهم تقبـل مهورتنا منا صدقة عن شباب السلطان عثمان». والله أعلم.

وفي أوائل سنة ثلاث وستمائة:

كانت الكرج قـد تحركوا لقصد أخلاط . والملك الظاهـر قد خاف أن

تكون حركة عمه إليه فسير إلى البلاد وأفسد عسكراً مثل ابن المشطوب ، وعز الدين كر ، وسنقر الحلبي. وتراسل الملك العادل والملك الظاهر ، وتقرر الصلح بينهما. ووصلت الأخبار برحيل الكرج فخاف الملك الظاهر ، ونزل على غرض الملك العادل ، ونزل السلطان الملك العادل على بحيرة قدس بأرض حمص ، فوصل إليه الملك المنصور ، صاحب حماة ، وولده الملك الأشرف والملك المعظم ، وولده الملك المغيث ، والملك الأمجد صاحب بعلبك، وعسكر سنجار، وعسكر آمد.

وفيها : وصل وزير آمد ضياء الدين ابن شيخ السلامية [١٩] إلى البحيرة إلى السلطان يستحلف لصاحبة الملك الصالح ليصل إلى الخدمة بنفسه.

وفيها: دخل السلطان بمن معه إلى الساحل فنهب وخرب وأحرق ، وسبى وأشرف على أخذ البلاد، وأخذ القليعات وخربها وكذلك طاحونة أعناز [٢٠]، وكان ذلك عظيماً .

وفيها : قفز أهل بعلبك على واليهم فقتلوه ، فأمر السلطان الملك الأمجد بمسيره إلى بلده ، فسار ولم يدخل الساحل معه.

وفيها : عزل البدر بن الأبيض قاضي العسكر ورتب عوضه في القضاء النجم خليل بن المصمودي الحموي ، وذلك بتعصب من الوزير صفي الدين بن شكر ، وسيره رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله وإلى غيره.

سنة أربع وستمائة.

دخلت والسلطان الملك العادل بعدما خرج من الساحل ، وكتب الكتب إلى البلاد بالبشائر .

وفيها: كان الملك المجاهد قد سير كاتبه الشمس الكشغريدي ، إلى الملك الأفضل يطلب ابنته لابنه الملك المنصور إبراهيم فمات.

وفيها : وصل إلى السلطان الملك العادل صبي من بحنين نصراني أسلم على يده، فسلمه إلى الملك المجاهد، فرباه وكبر عنده ، فكثر منه وولاه ورسله إلى الملوك.

وفيها : مات زين الدين قراجا صاحب صلخد المملوك الصلاحي.

وفيها : عاد الملك الأشرف إلى بلاده ، فعبر بحلب واجتمع بابن عمه الملك الظاهر وكان عظيماً. وفيها : توجه الملك المجاهد صاحب حمص إلى الرحبة لعمارة قلعة استجدها، وخرب القلعة العتيقة التي كانت للرحبة، لأنها كانت قد خربت.

وفيها: وصل ابن أبي الحجاج والقاضي الأشرف بن عثمان إلى عند الملك المجاهد يستشفعونه إلى الملك العادل.

وفيها: أمر السلطان بعمارة قلعة دمشق ووظف على صاحب حماة الملك المنصور والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهما عمارة أبرجة في قلعة دمشق .

وفيها: سير الملك العادل مملوكه أستاذ داره الدكز وصحبته النجم قاضي العسكر رسولاً إلى الإمام الناصر.

وفيها: عاد بالجواب وصحبتها رسل الخليفة بالخلع والتقليد وخلعة لوزيره ابن شكر ولأولاده : الملك المعظم والملك الأشرف ، وذلك بدمشق ، ونصبوا منبراً ، وقرأ ابن شكر التقليد قائما على الناس ، والسلطان أيضا قام إجلالاً لذكره صلى الله عليه.

- ٩٨١٣ -

سنة خمس وستمائة:

بلـغ الملك العـادل اتفاق أتـابك الموصـل مـع الملك الظـاهر وجميـع الشرقيين.

وفيهـا: مات الأمير جنـاح الديـن الهكـاري أخو المشطـوب. وتغيرت أحوال عماد الديـن بن المشطوب ، فأجمع السلطـان الملك العادل على أن يجمع جميع العسـاكر وأصحابها ويقصد الكـرج ، فكاتب الملوك بـوصوله إلى حران ، والجمـع عليها، فـاجتمع النـاس إليه فـأول من وصلـه الملك المنصـور صـاحـب حماة ، والملـك المجـاهـد صـاحـب حمص ، والأمجد صاحب بعلبك ، والملك الصـالح صاحب آمد ، وعسكر الملك الظاهر ، وعسكـر الملك المنصـور صاحـب سنجـار . فلما وصل الجمـع إليه سـار قاصـداً الكرج، فنزل على ماردين وأقام. وتجدد له قصد سنجـار ، وذلك لتخلف صاحبها عن وصولها بنفسه ، فخاف فأرسل نساءه في الاستشفاع في حقه وذلـك برأس عين الخابور فما قبـل ذلك ولا أجـاب . فسير ولده الملـك الأشرف ، والملـك المنصـور صاحـب حماة ، وصحبتها العسـاكـر فأخـذوا نصيبين ، وولى فيها ، ثم بعد ذلـك وصل الملك العـادل ووصل إليه ولـده الملك الأوحـد صاحـب أخلاط ، فلما قـارب سنجار جـاء إلى السلطان مـن سأله في تسليم سنجـار إليه بشرط العوض عنها، فـأجابهم إلى ذلـك . ثم (مـا) بـدا لهم إلا الحصـار ، فحنق السلطـان عليهـم ، فحاصرهـم ونزل عليهـم، وقطعت أشجارهـم ، وأخذت الملـوك منازلهم ، ونصبوا المجانيق وقـاتلوهم وضايقوهم ، وأقطـع السلطان الخابور جميعه ، وفرقـه على الملوك الـذين كـانوا في خدمتـه مثل الملـك المنصور صـاحب حماة، والملك المجـاهد صاحـب حمص وغيرهما. فلما أشرف السلطان على أخذها عنوة جاءت رسل الإمام الناصر لـدين الله شافعة في ترك سنجار على صاحبهـا وأخذ الخابور ونصيبين ومـا يتعلق بـذلك ، فقبل شفـاعته وبادر إليهـا طاعة ، وخـرج صاحبهـا الملك المنصور إلى السلطـان الملك

العادل فأحسن تلقاءه، ورحل عنها ، وتفرق الملوك إلى بلادهم ، حتى إن أخا صاحب سنجار نور الدين صاحب قرقيسيا كان في خدمة السلطان. ولما سار السلطان من سنجار ، لحقه العماد بن يونس رسولاً من الموصل ، فقضى شغله وأعاده.

و (في رأس العين) حرد وزير الملك العادل ابن شكر المعروف بصفي الدين على السلطان لإنكار كان أنكره السلطان عليه، فما ثبت له، فهرب صنعة ، فتبعه الملك المنصور صاحب حماة، وكان عانيا بابن شكر حتى إنه أول من مشى إلى ابن شكر من الملوك. وتبعه فخر الدين جهاركس ودارا عليه في برية رأس عين، إلى أن أحضراه إلى خدمة السلطان ، فعفا عنه، ومنها انحطت منزلته.

وفيها: مات الملك المؤيد بن صلاح الدين برأس عين لما عاد في جواب رسالته من عمه إلى أخيه الملك الظاهر. سبب موته أنه غم عليه البيت الذي كان فيه فمات هو ومن كان عنده في البيت،

وفيها: أعطوا لابن المشطوب المجدل من الخابور.

وفيها: عاد الملك الأوحد إلى أخلاط.

وفيها: وزر جمال الدين بن شيخ السلامية للملك الأشرف ، كان ممولاً إلا أنه كان عامياً جداً.

وفيها: وصل من سيف الدين سنقر أتابك اليمن عشرة آلاف دينار باسم السلطان الملك العادل.

وفيها: كاتب الملك الظاهر الأمراء ، وقويت شوكته بعد وصول عمه الملك العادل إلى حران ، وبرز إلى السموقة من بلد حلب، وترددت

الرسل بينهما، ووقع الصلح بعد إفساد الملوك والأمراء من الجهتين، وسار السلطان إلى دمشق، وهو كثير الشكر من صاحب آمد، لأنه جاءه عند حاجته وانتفع بوصوله إليه.

وفي سنة سبع وستمائة:

سير الإمام الناصر يطلب مملوكه مظفر الدين المعروف بوجه السبع يستعيده من الشام ، لأنه كان قد هرب منه، وذلك لخوفه من كلام كلمه (به) الوزير النصير بن مهدي العلوي، فأعيد إلى الخليفة وتكمل رضاه عنه لعقله ولحفظه كلامه.

وفيها: قويت عزيمة الملك المعظم على عمارة الطور.

وفيها: كاتب الظاهر سامة.

وفيها : وقع الصلح مع الفرنج والسلطان.

وفيها: سير الفرنج بعد صلحهم إلى البحر يعرفونهم بأن الطور يعمرونه وهو قوي به يملكون الساحل . فجد الفرنج في وصولهم من البحر والمعظم يجد فيه.

وفيها :تجدد للسلطان الملك العادل الطلوع إلى ديار مصر ، فسار وبقي في الكرك أياماً، فبلغ الملك الكامل ذلك فوصل إليه إلى حوران، واجتمع به بها، وكان قد رتب له الإقامات إلى القاهرة.

وفيها: عزم عز الدين سامة على الطلوع إلى مصر ليستريح من معاندة الملك المعظم له. فأشار عليه جهاركس ترك ذلك فما قبل منه وكان جهاركس مريضاً ، وسار سامة فمات جهاركس . وبلغ سامة موته فضاق صدره وندم على مفارقته ، ووصل الملك العادل إلى القاهرة.

وفيها: بلغه حركة الفرنج، فتجهز الملك العادل للعودة إلى الشام، فبلغ ذلك الملك الظاهر، فظن أنه لأجله ، فجهز القاضي بهاء الدين ابن شداد رسولاً واستحلف السلطان له.

وفيها: كفت يد الوزير ابن شكر عن العمل .

وفيها: كان الملك الأوحد قد مرض ، وسار إليه الملك الأشرف ، ومات الملك الأوحد، فأخذ البلاد الملك الأشرف ، وبلغ السلطان موته، وهو على البركة، وفيها عمل عزاءه.

وفيها : وصل كليام التاجر الجنوي ـ لعنه الله ـ وقدم للسلطان وصادقه، فأحسن السلطان إليه، وكان في جملة إحسانه إليه، أنه يأخذه معه إلى أين اتجه، وكان الملعون (في ضمن ذلك) يكشف الأحوال أولاً فأولاً ويكاتب بها الفرنج، وقيل للسلطان فما التفت.

سنة ثمان وستمائة:

فيها توفيت أم الملك الكامل، فدفنها في الشافعي ، ورتب عليها القراء والصدقات ، حتى إنه ساق الماء إلى الشافعي، ولم يكن قبل ذلك، ووجد عليها وجداً عظيماً.

وفيها: وقع بين الأدفنش، ملك الفرنج، وبين ابن عبد المؤمن في الغرب ، وأخذ قلعة رباح(٢١)، وقتل خلقاً عظيماً.

وفيها :توجه الملك العادل إلى الإسكندرية لكشف أحوالها وكليام صحبته.

وفيها : بلغ الملك العادل أن مراكب واصلة ، فشرق عز الدين سامة إلى الملك الظاهر .

وفيها : أشير على سامة أن يسلم كوكب وعجلون إلى الملك االمعظم ويأخذ عوضها الفيوم، فما أجاب إلى ذلك .

وفيها : كان الملك المعظم قد وصل إلى أبيه بالديار المصرية ، فخاف سامة فهرب سامة، وأوهم أنه قاصد الصيد والسلطان وهرب في البرية، ولم يعلم أحد بخبره . فبلغ الملك المعظم ذلك، فركب خلفه واستركب الناس، وما زال سائقا ومن كان معه انقطعوا عنه، فخرج من أرض الداروم، ونزل يقضي شغلا، عجز عن الركوب وذلك لوجعه بالمفاصل . فرآه بعض الصيادين ، فدل عليه الملك المعظم لما وصل خلفه، فجاء إليه، فأخذه وسير لوقته عرف السلطان به، وأخذ منه الحصون قهرا بعد حصار وقتال، وحبسه وولده في قلعة الكرك .

وفيها : نزل الملك العادل الشام، وسار الى الجزيرة، رتب أحوالها، ورتب شهاب الدين غازي في الرها، وعاد إلى دمشق وكل هذا وكليام الفرنجي صحبته .

وفيها: هبت في بغداد ريح من قبل الغرب، معها رمل أحمر، وقوي وتعلق بالجو إلى أن أوقد الناس الشموع وغيرها ، واختنق جماعة منه ، وبقي كذلك إلى اليوم الثاني.

وفيها: وصل الخبر بأن بعض مماليك الديوان عصى، فجهز إليه رسولا فقتله واستجار بخوارزم شاه، فأعانه على عصيانه فسير الخليفة إلى مظفر الدين بن زين الدين عرفه ذلك، فاستنجد بعسكر الملك الأشرف وغيره، وقوي عليه وحصل الغرض منه.

وفيها : نقل إلى الخليفة .« أن ولي العهد قد عزم على قتلك» فعزله وحبسه، وجرى له معه عدة أقوال . ومال الخليفة عنه إلى أخيه الأمير

الصغير ، فمات، فنقـــل أولاده الى ششتر (٢٢) ، ثم أعادهم وسلمهم إلى عمهم ، ولي العهد، فأحسن إليهم إحسانـا ما توهمه الخليفة، وصاهرهم، وطاب قلب الخليفة عليهم.

سنة إحدى عشرة وستمائة

كان قد تجهز خوارزم شاه إلى العراق .

وفيها : وصلـت رسل خـوارزم شاه، تطلـب الدار ببغـداد والخطبة وأن يخاطب بمخاطبة السلجوقيـة ويقال له في الخطبة «قسيم أمير المؤمنين» . فما أجيب إلى ذلك وأنكره عليه غاية الانكار.

سبـب عزل الخليفـة لـوزيـره نصير الديـن العلـوي أنـه كان قـد سير ثلاثمائة جمل عليها قـواصر التمر، وأودع كل جمل ألف دينـار، فتعرض لها بعض ولاة الخليفة وطلـب شيئا من ذلك التمـر يأكله فامتنعـوا عليه من ذلـك، إلا أنه ألـح عليهـم ، فأخـذ جملين وفتـح قـوصرة تمر يفرقهـا على الجماعة، فوجد الذهب، ففتح الثانية فوجد كذلك فضبط الجميع، وطالع به الخليفة فـأنكر ذلك عليه وعـزله ونقله إلى دار الخليفة هـو وأولاده بعد أن أخذ جميـع الذي كان له ، فما وجـد إلا القليل، لأنه كان قـد نقل إلى العجم ، وقد استوفينا قصته في البيان.

وفيها : وصل الخبر بموت سيف الدين سنقر ، صاحب اليمن .

وفيها : عاد الملك العادل إلى الديار المصرية وكليام لا يفارقه .

سنة اثنتي عشرة وستمائة

كان الملك العادل بالقاهرة، والملك الأشرف بأخلاط ، وشهاب الدين غازي في الرها. وكان الملك العادل قد تشوش مزاجه ، والملك الظاهر قد سير إليه القاضي بهاء الدين بن شداد رسولا، وفي ضمن رسالته يتوقع ما يكون من مرضه، ورتب بريدا من حلب إلى الديار المصرية، فاتصل بالسلطان الملك العادل من البريد الواصل من حلب أن الملك الظاهر قد مات، وذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ومات الملك الظاهر وترك من الأولاد الملك العزيز، اسمه (غياث الدين محمد) ، من ابنة السلطان الملك العادل ، والملك الصالح أحمد من بعض المغاني . وكان الملك المشمر خضر مقيما بحلب يومئذ . فقال الملك العادل لابن شداد قاضي حلب : «ما عندك من أخبار صاحبك ؟» قال له : « ما أعلم من يوميات أخباره» . فقال له : «قد مات» . فعزاه وفارقه وعاد . وقعد الملك العادل لعزائه كما جرت العادة .

من جملة سبب موته مع فراغ أجله كان قد أكل لحم قديد بعدس وهو في الصيد ، وشرب عليه الخمر، فأوصى عند موته إلى الأمير سيف الدين بن علم الدين ليكون أتابك ولده ، وكذلك عين شهاب الدين طغرل الخادم ، فما وافق ابن علم الدين على أن يكون أتابكا . واتفق مع الأمراء على أن بقي شهاب الدين أتابكا ولا يعمل شيئا إلا باتفاق من هؤلاء: ابن علم الدين و القاضي بهاء الدين وسيف الدين بن قلج ، واستمر الحال في أحسن سيرة.

وفيها : قصد الملك الأشرف الوصول إلى حلب فعزم الحلبيون على إحضار الملك الأفضل من سمسياط (ويكون أتابكا للملك العزيز) فعاد ابن علم الدين أنكر ومنع من ذلك، ووصل الملك الأشرف واطلع على ذلك .

سنة أربع عشرة وستمائة

فيها : تواترت الأخبار بجمع الفرنج ودخولهم عكا ونقضوا الصلح وقصدوا الشام ، فلما تحقق السلطان العادل ذلك خرج من الديار المصرية إلى الشام بجميع أمواله التي كانت بمصر ، فوصل إلى نابلس إلى أن تكامل عسكره فجاءه الخبر بقصد دمشق

وفيها : وصل فخر الدين بن شيخ الشيوخ من (بغداد في) جواب رسالته إلى الخليفة الناصر

سنة خمس عشرة وستمائة

(فيها): قوي الخبر بحركة كيكاوس سلطان الروم السلجوقي إلى البلاد الشامية ، باتفاق من الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام. هذ ا والملك الأشرف بحلب، فوصل الرومي إلى الشام ، فوصل إلى منبج وأخذ تل باشر، ورعبان، وقويت شوكته ، وكان الشرط معه أنه مهما ملك يسلمه إلى الملك الأفضل نور الدين ، فما أقام بقوله وسلمها إلى أصحابه، فوقف الناس عنه ، وتحققوا غدره، فجذبوا عنه، ووقع العربان بفرقة من عسكره ، أخذوهم قتلا وأسراً ونهباً ، وعاد إلى بلاده مكسورا، وكان به خروج دم مفرط، إلا أن الملك الأشرف عند دخوله حلب أحضر الأمراء المأسورين من عسكر الرومي وخلع عليهم وأطلقهم ، وسير إلى السلطان الملك العادل يخبره بكسرة الرومي

وكان الفرنج– خذلهم الله– قد فعلوا في حركتهم وقتالهم للملك العادل واندفاعه من قبالتهم، وعملوا في الغور ما عملوه من قتل وأسر وخراب، وقوي عزمهم على قصد الديار المصرية فقصدوها وحاصروا

دمياط وأخذوها بعد كل جهد وفراغ مـا فيها من إقامة وغيرها، وكان قبل هذا قد جـرى على الطور ما جرى مـن قتال وغيره، وخربه الملـك المعظم بعد عمارته أحسن عمارة ، وقد غرم عليه من الأموال ما تجاوز الحد .

وفيهـا : وصل ابـن شيـخ الشيوخ وصحبـه رسـل الخليفة النـاصر إلى الملك الكامل على دمياط، فظن النـاس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فبين أنه لأجـل رمي البنـدق وكونه يـريد أن يكون هـو قبلته لا يـزدجرد، فتعجب الناس من إمام العصر وهمته.

وكان نزول الفـرنج ـ خذلهم اللـه تعالى ـ على ثغر دميـاط ـ حماه الله ـ في ثالث ربيـع (الأول) ستة عشر من حزيـران ، واعيدت إلى المسلمين في رجـب من سنـة ثمان عشرة وستمائة ، سـابـع عشرين آب ، ووافـق وفـاة السلطان الملك العـادل ـ رحمه الله ـ من شهور الـروم آخر آب مـن هذه السنـة وسارت إليها العساكر الشامية.

وفيها : مات السلطـان الملك العادل رحمه الله وتـرك من الأولاد:الملك الكامل محمد ،الملك الفائز ابراهيـم، الملك المعظم عيسى، الملك الحافظ أرسلان شـاه ، الملك المظفر غازي، الملـك العزيز عثمان، الملك الصـالح إسماعيل، الملك المعز يعقوب ، الملك الأشرف مـوسى ، الملك تاج الملوك. الملك عبـاس، الملك المفضـل قطب الديـن ، فنقل إلى دمشـق ، وأخذ الملك المعظم جميع ما كان معه.

وفيها : طلـع المعظم إلى مصر، واجتمع بـالملك الكامـل على دمياط ، فشكا إليه عماد الدين بن المشطوب ، فأخـرجه المعظم من الديار المصرية كما لايحب ، فوصـل إلى الشام بـأربعة نفـر لا غير ، وأقام بحماة، وتجهـز منها بعسكـر، (ورحل عنهـا بسبعمائة فارس) ووقـع بجشار حلـب ونهبه،

وخرج السلطان الملك الأشرف إليه وأخافه وآمنه بعد ذلك وأعطاه رأس عين الخابور وزلبيا ملكا

سنة ست عشرة وستمائة

فيها : وصل الملك الفائز بن السلطان العادل إلى أخيه الملك، الأشرف رسولا من أخيه السلطان الملك الكامل، فضبطه عنده بعد الاحسان إليه، لأنه كان الغرض أن لا يكون بالديار المصرية .

وفيها : تحجب ابن المشطوب برأس عين لصاحب ماردين وهي في يده، فعوضه عنها وتسلمها صاحب ماردين، وأعطى ابن المشطوب زلبيا ملكا وأرجيش إقطاعا.

وفيها سار الملك الأشرف إلى الموصل وعليها مات الملك الفائز رحمه الله.

وفيها : عرف ابن خوشترين حسام الدين أحوال ابن المشطوب وأعطاه مجلسه بجملة كبيرة إلى أن جرت أمور أوجبت للملك الأشرف القبض عليه وعلى ابن خوشترين وأودعهما السجن وماتا فيه بحران وقد استوفينا ذلك بتفاصيله في تاريخنا المطول البيان .

سنة سبع عشرة وستمائة

وفيها : مات الملك عز الدين كيكاوس ملك الروم، وولي بعده أخوه الملك علاء الدين كيقباذ وهو الذي كان محبوسا بقلعة المنشار وقد ذكرنا قصته

وفيها : وردت كتب الخليفة الناصر إلى الممالك بنجدة الملك الكامل بدمياط .

وفيها : كان خروج التتر من بلادهم وقصدهم بلاد العجم، وخربوها، ونهبوها وفتكوا فيها فتكا عظيما لم يسمع به في الزمان. وكان انهزم منهم خوارزم شاه بعد عدة وقعات معهم، ولم يظفروا به. وكان سبب خروج الكافر في سنة سبع عشرة وستمائة إلى مقاتلة السلطان محمد خوارزم شاه ابن خوارزم شاه أن الطريق من طمغاج وكاشغر(٢٣) إلى سمرقند مقطوعة من مدة سنة وخمس عشرة ، لا يجسر أحد يركبها، فقلت الكساوي عند أهل طمغاج وجميع ما كان يحمل إليهم. فنفذ الملك الذي للكافر ، وهو الترجمي، ويعرف بكشلوخان (٢٤) أيضا ثلاثة رسل وصحبتهم عدة تجار إلى خدمة السلطان خوارزم شاه بسمرقند . فلما وصلوا إلى رأس الحد الذي لبلاده إلى بلد يقال له أطرار فيه أمير يقال له رسلان ملك من قبل السلطان، فأعاقهم وسير إلى السلطان عرفه خبرهم، وعدتهم ثلاثة رسل وصحبتهم تجار لواجية، فجاوبه السلطان أن « من المصلحة أن لايمكن هؤلاء من دخولهم بلادنا وكشفها ولا يؤمنوا ، فتجهزهم وتسيرهم يومين ثلاثة في الطريق وتسير إليهم من يأخذهم ويقتلهم حتى كأن الحرامية قد فعلوا بهم ذلك » فعمل بقوله وما سلم منهم إلا شخص تركوه قصدا ليعود إلى صاحبه ملك الكافر يخبره بما جرى . والذي كان مع الرسل والتجار صحبتهم ما يناهز مائة وخمسين فرسا محمل عليها نقرة الفضة، فأخذوا الجميع . فلما وصل إلى الملك وخبره بما جرى سير رسولا إلى السلطان وقال له : « أنت رجل مسلم وما نفذنا إليك إلا مسلمين موحدين حجاجا، فكيف جاز لك في دينك ما فعلته من قتلهم وأخذ مالهم ، والله لا بد لنا منك . إما أنك تحييهم كما كانوا وتسيرهم إلينا. وإلا فنحن واصلون إليك قولا وفعلا» فأخذ خوارزم شاه ذلك الرسول وقطع من سائر أطرافه ، وقال له : «ما لكم عندي إلا هذا الجواب» . فلما عاد إلى الملك بذلك ، وكان بين السلطان وبين هؤلاء الكفرة مسيرة سنة، لأنهم كانوا في صحارى مر غزارات، وهي برية وأودية داخلة الصين معروفة بالحشيش اليابس والرطب شتاء وصيفا، فجمعوا وقصدوا

السلطان خوارزم شاه فسمع بهم السلطان ، فركب في سبعين ألفا وطلبهم ، وافترق الكفار ثلاث فرق. فالملك الكبير الترجمي وولده ركبوا بالعساكر ، فأخذ الملك الكبير فرقة ، والولدان كل واحد منهما فرقة . وكان لهم في كاشغر مملوك يقال له جنكز خان . ومملوك يقال له كشلوخان ، وكان في خدمته أ ربعون ألف راكب، فقصدت فرقة الملك الكبير مملوكه بكاشغر، فضرب مع مملوكه مصافا فكسره مملوكه وقبضه وقتله، وابن السلطان خوارزم شاه وقع بابن الملك الكافر الواحد ، فسير ابن الملك إلى خوارزم شاه يقول له : « ما معي من أبي أمر بأن أقاتلك» . فلج السلطان خوارزم شاه عليه وساق إليه ، فاندفع قدامه مسير ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الثالث نفذ إلى السلطان وقال له: «قد ألزمتني بقتالك وما معي فيه إذن، لكن أقاتلك» فالتقى بخوارزم شاه وكسره، فانكسر السلطان خوارزم شاه ورجع على أنحس قضية ، ووصل إلى بلاده وما معه إلا نفر قليل من عسكره ، فعبر جيحون وعاد ابن الملك الكافر إلى أبيه وأخوه ، واجتمعوا كلهم، وعرفهم ما جرى له مع السلطان وكسره فقويت أنفسهم وتجهزوا وطلبوا بلاد السلطان، فوصلوا بخارى وكان فيها أخو قمر الدين وكشلو أمير أخور السلطان معهم عشرة آلاف فارس، ونزلوا على بخارى وكان سورها خرباوعوامه غير معترفين بقتال وحصار ،فقاتلوا ثلاثة أيام فكسروا أمير آخور وكشلو وأخذوا بخارى بعد أن انهزم أمير آخور وأخو قمر الدين، وخرج العسكر الذي كان فيها في الليل منهزما وتسلموا البلد، وكان له قلعة، فعصت عليهم خمسة أيام فجمعوا كل ما في بخارى من قطن وخشب وبهيمة وأجمال ، ورموه في الخندق حتى سدوه، فقاتلوهم وتسلموها بالسيف بعد ذلك ، وقتلوا واليها جمال الدين بعد أن قاتل قتالا عظيما ويقول:« ما أجاهد إلا المسلمين » لأنهم كانوا عليهم مع الكافر، وتوجهوا إلى سمرقند، فنزلوا عليها، وكان فيها أمير آخور السلطان معه عسكر عظيم وثلاثون ألف راجل ، فأخذها الكافر، وأحضر الملك الذي كان فيها إلى

بين يدي الملك جنكز خان فقال :« يا سبحان الله معك هذا العسكر كله والرجالة وما قدرت تحفظه» أكان معك في البلد من يحكم عليك؟ قال: «لا» . قال: «فكم لك واليا؟» قال:«ثلاث عشرةسنة؟» قال: «فما كنت حفظته أياما بعدد السنين؟! » فقتله حنقا عليه وأخذ سمرقند بالسيف، وقتل جميع حاشية السلطان وغيرهم من الأجناد ما خلا العوام، فسمع السلطان وهو على ترمذ بأخذ سمرقند، فقال العسكر:«إن انتصر الكافر على السلطان وأخذ ما وراء النهر قمنا نحن عليه وأخذنا السلطان» ، وذلك لكثرة حنقهم على خوارزم شاه لما كان قتل منهم، فاجتمع امراء السلطان على ذلك، وتحالفوا، وكان في جملتهم خال خوارزمشاه، معهم وما طاب له هلاك السلطان،فنقش على يده صورة ما حلفوا عليه وأنهم في تلك الليلة يريدون قتله في الخيم ، فلما حضروا الخوان سأل السلطان خاله: «ما على يدك مكتوب؟» فقال : «اقرأه ، فإنني لا أقدر على قوله لك ليميني » . فلما قرأه كتم ذلك الى الليل ، وألبس مملوكا له ثيابه وأجلسه موضعه وتودد هو إلى اليزك، فلما كان نصف الليل قتلوا المملوك اعتقادا منهم أنه هو السلطان وسروا بذلك، فلما أصبحوا والسلطان على رأسه الجتر [٢٥] وهو في الموكب .فخافوا منه على أنفسهم وقالوا وأجمعوا رأيهم على أن حملوا عليه. فانهزم منهم فتبعوه ودخل نشاوور فتبعوه فما قدر يقيم بها لعدم العسكر بها ، فانهزم إلى الري وكان وزيره عماد الدين عراق قال له : «يا مولانا المصلحة أن تنهزم وأنا أكسرهم لك » فبقي أربعة أيام وتلاقوا فكسرهم السلطان في ميمنتهم فجاء خال السلطان إلى الوزير فضرب رقبته،وذلك أنه كان قد قتل ولده ، فانهزم السلطان خوارزم شاه بعد قتل الوزير ووصل همذان هو وولداه غياث الدين وجلال الدين ، وتبعوه إلى همذان، ومنها ركب برية قفراء وطلب مكانا يقال له أوسخن على جانب البحر وأفكر فيما تم عليه وعلى الاسلام فانفطرت نفسه ومات فيها فدفنوه هناك . وطلب ولده جلال الدين خوارزم شاه فما فتحوا له الباب وقالوا له : «هذا البلد لأبيك» وما علموا بموته ، فساق وطلب نشاوور، فلما وصل اليها غبر

فيهـا وأقـام بها ونادى : « مـن أراد الـرواح يـروح فـإنني ما أقـدر آقيـم بالغرباء وأهـل البلد». وسار عنها يومين ، فالتقـاه الكافر فكسروه وأخذوا جميع ما كان معـه، وتم إلى هراة منهزما ، وهم في أثـره، فما قدر يقيم بها ، فتم إلى غـزنة ، فلما وصلها التقى رجـلا بلخيـاً مسلما، وكان قـد سمع بما تم على السلطان وعلى المسلمين فقـال له : «تقف لنضرب معهم مصـافا ونكسرهم»، فوقف البلخي وضرب المصـاف وكمن لهم فكسرهم، ووقعت الغنيمـة للبلخي فحسـده ابـن السلطان على ذلـك وتقـاول هـو وولـد البلخـي فضربـه ابن السلطـان قتله على الكسـب، فصعب على البلخي وفارقـه . وانتزح عنـه، فسمع الكافـر بانتزاح البلخي عن ابـن السلطان فطمعوا به وعادوا إلى ابن السلطان، فضربوا معه مصافا فكسروه ورموه في ماء السند ، ولم يفلت إلا هو بنفسه وعجـز الكافر عن عبور الماء خلفه ،

فعادالـى البلاد جميعهـا أخذها وخـربها لعـدم السلطان ومـن بها، وملكـوا العراق البـراني وغيره، ومـا امتنع عليهم بلـد وقتلوا واقتسمـوا فـرقتين : فرقـة عـادت إلى ما وراء النهـر ومـا عـادت ، وسكنوا بخـارى وسمرقند وعنـدهم من المسلمين الذيـن كانوا بها مقيمين، يأخـذون منهم الجزية، وكل من كـان يعمل صنعة في تلك البلاد التي أخذوهـا وخربوها نقلوهـم إلى عندهم وسيروهم إلى بـلاد هم وهي الصين وطمغـاج وغيرها وفرقة توجهت إلى الكرج وإلى البلاد الشمالية وغيرها

وفيها : مات الملـك المنصور محمد بن الملـك المظفر تقي الديـن عمر ابن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله .وترك من الأولاد الملك المظفر محمود والملك النـاصر قلج أرسلان ، والملـك العزيـز، والملك المجاهـد، والملك المسعود، والملك المؤيد، والملك الصالح، والملك المعز. كان حسن السيرة عـالمـاً بـالسير والتـواريـخ وعلـم الكـلام ، حصـن قلعـة حماة، وعمـق خندقها ووسعـه وأدار خندق البلد وعمر الجسر عليهـا. وكان رحيما ما رد أحدا من بابه لاستخدام من جـرى أو هدى . رحمه الله تعالى .وكان عند

موته قد أوصى بعتق عبيده وإمائه وإخراج كل من في حبوسه حتى إنه قال :« في الحبس من قد ظلمنا، وفيه من قد ظلمناه» . وكان أوصى أولا إلى ولده الكبير الملك المظفر محمود، واتفقت غيبته عند خاله الملك الكامل نجدة من والده لدمياط ، فعاجله الموت، فوصل ولده الملك الناصر قلج أرسلان من عند خاله الملك المعظم ، كان عنده نجدة أيضا فملك حماة وصارت بيده ومنعت من الأول ، وقد استوفينا في تاريخنا المطول ذلك .

سنة ثمان عشرة وستمائة

وصل الملك المعظم إلى أخيه الملك الأشرف وأخذه مستنجدا به لدمياط، والملك الحافظ أرسلان صاحب قلعة جعبر وعسكر الشرق وصاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم من الأمراء الأكابرفطلعوا إلى دمياط واستنقذوها من الفرنج ، ووقع الصلح بعد عدة مقاتلات وحروب جرت وأشياء على الأسارى الذين كانوا عند الفرنج وعلى النزول عن القطائع والمناصفات مدة ثماني سنين. ومنَّ الله تعالى على المسلمين بهذه الفتوح ، وبه عاد الاسلام جديدا.وعاد الناس إلى بلادهم وتفرقوا الى أماكنهم وأعيدت دمياط إلى ما كانت عليه أولا بعد خرابها، فكان نزول الفرنج - خذلهم الله - على دمياط ثالث ربيع الأول من سنة خمس عشرة وستمائة، ورحيلهم عنها بعد تقرير الصلح في شهر رجب تاسع عشره من سنة ثمان عشرة وستمائة .

وفيها: مات الملك الصالح صاحب آمد ابن أرتق بالقولنج، وملكها ولده الملك المسعود.

وفيها : وصل الملك الناصر صاحب حماة إلى الرقة إلى خدمة الملك الأشرف ، وكذلك الملك المظفر شهاب الدين غازي واجتمعوا كلهم بالرقة ، وعاد كل إلى بلده .

-٩٨٢٨-

سنة تسع عشرة وستمائة

فيها : مات ملك الكرج وبقوا بلا ملك كبير ، وسيروا إلى الملك الأشرف عرفوه بذلك .

وفيها : مات ابن جميل صاحب المخزن في بغداد .

ومات ابن البختري، وكان مشارف مخزن.

ومات شرف الدين معد .

وفيها : سار السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل. وأقام عنده في رمضان.

وفيها : كان نزول الملك المعظم على حماة وانتقل إلى المعرة وعاد إلى سلمية وجاءته رسالة الكامل والملك الأشرف وسألاه والحاجب حسام الدين علي كان عنده، فأجاب وكف عنها وعاد إلى دمشق .

وفيها :اجتمع الملك الحافظ وأخوه الملك المظفر غازي على سنجار باتفاق من الملك الأشرف .

وفيها : مات الوزير نصير الدين بن مهدي الشريف وزير الناصر لدين الله، وأقيم عوضه أيام عزله نائبه المكين العجمي وكان ذا نهضة ودراية ولقب بمؤيد الدين، ثم توفي الناصر . وولي ولده الظاهر أبقاه على مكانته ، ثم توفي الظاهر وولي المستنصر أبقاه على مكانته، وفي كل الأحوال هو نائب وزارة لا مطلق الوزارة .

وفيها : منع الملك المسعود بن الملك الكامل صاحب اليمن أعلام

الخليفـة الناصر مـن طلوعهـا قبل سنـاجق والـده الكامـل وكاد أن يقـع السيف في الحاج ، ثم بعد ذلك اتفـق الحال ووقع الصلح بينه وبين أمير الحاج، واعتذر إليه ولبـس خلعة الخليفة وركب الفـرس المسير برسمه كما جرت العادة.

وفيها : ملك عليهـم الأرمن بعد موت ابن لاوون ابن الأبـرنس ودخل في مذهبهـم، ثم عـزلوه بعـد مدة قليلـة إلى الفرنـج واعتقلوه وطلبـوا منه أموالا وطلقوا ابنة الملـك منه وزوجوها غيره وقد استوفينـا ذلك في تاريخنا الكبير .

وفيها : مات صـاحب حصون الاسماعيلية بـالشام أسد الديـن ووليها أخوه صـلاح الدين بقي مـدة ومات ثم وليهـا أخوهما تاج الديـن، فبقي مـدة وسيروا من ألموت عـزلوه واستـدعوه إليهـم وولوا غيره محيـي الديـن أعجمي حسن السيرة .

وفيهـا : أمـر السلطـان الملك الأشرف بـأن تبنـى لـه دار على القلعـة الجديدة التي كان السلطان الملك العـادل قد أسسها وأبطلها فبنيت عدة آدر . وغرم عليها من الأمـوال ما يزيد عن الحد، وعمل قبـالتها بستانا في الجانب القبلي.... الشامي لم ير مثله، فيه أنـواع الفواكه الشامية والمصرية والعراقية وغيرها.

وفيها : عاد الملك الأشرف من الديـار المصرية وتلقته الملوك في طريقه ووصل إلى حلب وسلطـن الملك العزيز بـن الملك الظاهر وألبسـه خلعة الملك الكامل ورفع سنجقا منه أيضا وحمل له الغاشية وكان يوما عظيما .

وفيها : وصـل الملك الأشرف إلى قلعـة جعبر وشرب عند أخيـه الملك الحافظ فيها ونزلا في الماء إلى الرقة .

وفيهـا : تقررت سلميـة للملك المظفـر عوضـا عن حماة التـي كانـت (مقررة له) [٢٦]

سنة عشرين وستمائة

فيهـا : وصـل الملك المسعـود إقسيـس إلى عنـد أبيه وصحبتـه الفيلـة والتحف الهندية واليمنية .

وفيها : وصـل رسول مـاردين لإتمام الـزيجة بينه وبين الملـك المعظم . وكان الملك الأشرف الولي عن أخيه الملك المعظم .

وفيها : تأخرت الأمطار لاسيما عن الجزيرة .

وفيها : مـات الشيخ أبـو محمد الأنتـاني[٢٧] بتونـس من بلـد افريقيـة فوصـل الخبر إلى ابن عبد المؤمـن أبي يعقوب بن يـوسف بن عبـد المؤمن فسير إلى الموحدين بالإقـامة بتونس السيد أبا العلى، عـم أبيه ، وهو من أولاد السيد أبي حفـص بن عبـد المؤمن ، وتحالـف العربـان وكاتبـوا أمير المسلمين المايرقـي . وكان بسجلماسـة السيد أبـو زكريـا ء من أولاد عبـد المؤمن والسيد أبو عبد الله بسلا ، وكان ديانا صالحا.

ومات السيد أبو زيد بإشبيلية .

وفيها : دخـل الملك الأنبروز إلى جـزيرة صقليـة ، وكان بها قـائد من المسلمين وهو الحاكم عليها وسلطانها على جبـالها وغيرها وبعض وطاها، وكان أصله مـن بلدة المهدية ، دخلها دون البلوغ ، وكـان لما دخل اتصل بابن فاخر صـاحبها فقدمه عنده حسن سيرته وأفعالـه وشجاعته وصدق لسـانه، .فـأزوجه ابنتـه إليـه الملك، وأقـام كـذلك إلى آخـر التاريـخ المذكـور . فلما دخـل إليـه الأنبروز من بلـد الألمانيـة في البحـر في عـدة

مراكـب وبألفـي فارس وستين ألـف راجل، وأقـام يحاصره ثمانيةشهـور، فاختلف عليه بعـض أصحابه وقواددولته ، فخاطبـوه على لسان بعضهم بما قالـوه له يقـوله وهـم على الأسوار في الحصـار، فلما خاطبـه بما لايليق أنكره عليه وقـال له: « كيف تقدم علي بهذا الخطـاب؟» فقال: « تعودون إلى الأسوار كما كنتم » . فلما خرجوا من عنـده قتل ذلك الشخص القاتل.

فبلغ أولئـك فلبسوا عـددهم ودخلـوا على الأنبروز وقالـوا له :« تجيء تأخذ البلد» . ودخـل إلى ابن عباد ولد القاضي قاضي صقليـة وقال له:« المصلحة أن تخرج إلى طاعة الملك » وكان ابـن عباد متمرضا في نفسه من القتال والسهـر فقال :« والله لا فعلـت ذلك خـوفا من العـار» . فلما كان صبيحة تلـك الليلة ، خـرج القاضي وابـن عباد معـه إلى الأنبروز وحضر بين يديـه فانتهره وضربـه برجله وفيها المهماز شـق جبينه وتركـه في خيمة ناحيـة ، ثم بعـد سابـع يوم قتله وشـق بطنه وأخـذ مالـه وربط أولاده في أذنـاب الخيل وتملـك الأنبروز الجزيـرة ، وبقيت بقيـة مـن القلاع في يـد المسلمين، في يد بعـض أقارب ابـن عباد مثل القـائد مرزوق وهـو ختنه، عمل حيلـة حسنة، وهي أنـه سير إلى الأنبروز وقال له : « تعلـم أن ابن عباد قـد راح وما بقـي لنا إلا أنت، فنفـذ إلي ثقاتـك وخواصـك لأسلم البلاد إليهم والقلاع وننزل إليـك فما لنا إلا أنت» . فسير الأنبروز أخص الناس عنده وأقربهم إليه مقدار مـائة وخمسة عشر نفرا، فقتل الجميع وأخذ دوابهم وغلمانهم وقال: « هؤلاء عوض ابن عباد ياعـدو الله». فجرى على الأنبروز ما لا يوصف، وبقي الأنبروز على هذه الحالة.

وفيهـا: كان في الغـرب من الغـلاء ما لا يعبر عنـه بحيث إنهم أكلـوا الميتة جميعها، وذلـك أن المطر انحبس عنهـم من سنـة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة وستمائة .

واختلفت القبائل سنتين، سنة عشريـن وسنة إحدى وعشرين وستمائة. وقلت الخيول عندهم، بحيث أن أكثر الموحدين رجالة وكذلك العربان .

وكان لهم في الأرض عرق يسمى الرنا شديد البياض كانوا يطبخونه طول ليلهم وما ينضج فإذا أكلوه ما ينهضم عنهم ، فهلك أكثرهم بهذا العرق. وكانوا مدة هذا الغلاء يصانعون ملوك الافرنج مثل الأذفنش، والبرشنوني، والنبري، وولد الرنك والبابوج (٢٨) والدوك، عن كل يوم ألف ومائتا دينار، الألف مقررة للملوك، والمائتا دينار لفارس يصل يقبضها منهم ، جعلوها عوضا عن حصان وعدة . وصرف هذا الذهب نصف دينار بمصري. وكان صاحب البلاد يومئذ السيد أبو اسحاق أخو المنصور والمسير لهذه الجملة في كل يوم للفرنج السيد أبو عبد الله. وأولاد عبد المؤمن أبدا يهادنون صاحب غانة ويهادونه، وهو ملك السودان ، والبرابر يهدون إليهم الخيل البلق تسمى عندهم الحبارية . والجواري والروم، والثياب الأشكري، ويهدون هم لأولاد عبد المؤمن عوضها التبر في أرقاب الجمال، ويسيرون درق اللمط ، وحمار الوحش والزرافات، والخدم البابوجيات وهن أحسن من الهنود وأطيب.

سنة إحدى وعشرين وستمائة

كان الغيث قد انحبس في الجزيرة . وفي أول شباط وقع الغيث والثلوج وعمت البلاد ورويت بعد الإياس.

وفيها : ظهر في السماء نجم بذؤابة كبيرة طويلة في كبد الغرب ، بقي اثنتي عشرة ليلة.

وفيها : اشترى الملك الأشرف من تجار حجر بلخش (٢٩) وزنه ستون درهما غير نصف درهم، يعرف هذا الفص بالجبل، وهو الذي كان لسليمان شاه بن سلجوق، بثلاثمائة ألف درهم وصحبته فص آخر وزنه خمسة عشر درهما . وكان عند الملك الأشرف فص بلخش وزنه تسعة وثلاثون درهما ونصف ، تكملت الحجران مائة درهم، وهذا لم يرلملك في

هـذه الممالك ، وقـد كـان التجار شروه مـن أتابـك أزبـك، وهو الحجـر المذكور في التواريخ بالجبل

وفيها : قـويت الأراجيف بعصيان الملـك المظفر شهاب الديـن غازي على أخيـه الملك الأشرف بـأخـلاط ، وهو يمغلـط ولا يصـدق فيه قـولا ويراسله ويهاديه ويلاطفه بالرسـل والهدايا ولا يسمع ما يقال عنه والناس يحملونـه على قصده، وتمادى الحال في ذلك إلى أن ظهـر له عصيانـه قولا واحـدا، ، فراسلـه وخوفـه قصده لـه فما أفاد، فجمـع العساكـر من كـل مكان، وكـان قد وصـل إلى الرقة أخـوه شهاب الديـن من أمـه وأبيه إلى أخيهـم السلطـان الملـك الأشرف، وتـوجـه قـاصـده ومـا زال سـائرا إلى ماردين، فنزل تحت ماردين ووصـل إليه السلطان الملك المنصور ولي أبيه السلطان الملـك المجاهـد صاحـب حمص إلى دنيسر، وجاءتـه الإقامـات منها، ونـزل صاحبهـا إليه واجتمع بـه وبات عنـده بحرزم، وعمـل دعوة للسلطان الملـك الأشرف في موضع جـدده تحت ماردين في الجبـل، وقدم للسلطان ولأصحابه وإخوته التقادم وغيرها .وجرد عسكره في خدمته، ثم توجه منهـا وجاءه صاحب آمـد الملك المسعود وقدم لـه التقادم وغيرها ، وفي جملتهـا خيمة لم يـر لأحد مـن الملوك مثلهـا ، عملت في أربـع عشرة سنة، سيرها الملك الأشرف لأخيه السلطان الملك الكامل وجرد عسكره في خدمته أيضـا، وساق إلى أخلاط وقد كـف عن حصار ميافـارقين احتراما لنساء أبيه ، وسـار ونازل أخلاط وخرج إليـه جماعة من مقدميهـا وغيرهم وزحف إليهـا، فأخذهـا من غير مداومة قتـال وملكها وآمن أخـاه الملك المظفر شهـاب الدين غـازي وأحسن إليه وقبـل عذره وعفا عنـه، وأعطاه بعـد أن حلف لـه ميـافارقين وحـاني، وجبـل جـور، وذو القرنين، وقلـب والسناسنة.

وكان ابـن زين الـدين مظفـر الديـن قد نـازل الموصل محاصرا فنـدب السلطـان أخاه الملـك الحافظ نـور الديـن وسير في خدمتـه العساكـر إلى

نجدة بدرالدين لؤلـؤ أتابك الموصل، وتوجه إليها بكـرة نهار الجمعة ثالث يوم فتح أخلاط، فلما بلـغ ابن زين الدين أخذ أخـلاط خاف على نفسه، ورحـل عـن الموصل، وسـار الحافـظ إلى أن وصـل الجزيرة أقـام بها مـدة وخدمه صاحبها أتم خدمة بحيث إنه لعب عنده في الميدان بالكرة، فنزل الملك المعظم معز الـدين بن سنجر شاه ابن أتابك صـاحب الجزيرة عن حجرة مثمنة وقدمهـا بيده وقال: « هذه يعز عليها السلطـان». وكان هذا من أعظم المكارمات. ولم يزل الحافـظ إلى أن وصله كتاب السلطان الملك الأشرف إليه فتوجه واجتمع به على حـرزم وهناك عيد الملك الأشرف عيد الفطر، وعنده البانياسي رسول الملك الكامل.

وفيها : مـات عز الدين مسعـود بن سابق الـدين صاحب شيـزر وهو آخر من كان بقي من أولاد الدايـة المعروفين بغلمان نور الدين محمود رحمه الله، ووليها بعد ولده شهاب الدين الأعرج.

وفيها : وقع من قلعـة حلب تسعة أبرجة وأبدانها فبناهـا شهاب الدين أتابك الخادم في أسرع مـدة ، وهمّ همة ما قدر عليهـا غيره، وحسب جميع ما أنفق عليها من ماله تطوعا.

وفيها : مـات شمس الـدين محمـود بن قلج مـن أكابـر أمراء الـدولة الحلبية.

سنة اثنتين وعشرين وستمائة

مات فيها الشهاب خطيب منبج ، وكان عالما مجيدا .

ومات خطيب الرقة وقاضيها المجد إلياس.

ومات ابن التيمية(٣٠) شيخ الحنابلة وعالمهم بحران .

وفيها : وصلت رسـل الملك الكامل إلى ملوك الشرق جميعهـم بالاتفاق في خدمة الملك الأشرف وتحالف الجميع.

وفيها : قوي جلال الـدين بن السلطان خوارزم شاه بـن محمد خوارزم شاه، ودخل العـراق ونهب وقتل وسبى، وكان قد شـارف بغداد ،أقام على قرب بغداد ثمانيـة عشر يوما، وكان الخليفـة الناصر لما علم بوصـوله سير الفدن إلى الأرض التي تحقـق وصوله منها فحرثها وقلبهـا بحيث لا يبقى لدوابهم مـا تأكله ، فهـذا كان سبب عـوده عن قصد بغـداد، ووصل إلى دقوقا فأخـذها وخربها وقتل جميع أهلها وانتقل إلى البـوازيج أخذ أموالهم وأطلقهـم، وأخـذ خمسة عشر ألـف فـدان وسيرهـا بفلاحيهـا إلى بـلاده، ووصـل إلى الـزاب، فخاف صـاحـب إربـل فهـاداه وحمل إليه وكـاتبـه وحلف له فعاد عنهـا ونزل بمروج شهرزور وتوجه إليـه عماد الدين زنكي ابن أتابك وقدم ووعده بالموصل وعاد من عنده .

وفيها: كـان الملك المعظـم قد سير ولـده الملك النـاصر داوود إلى عند ابن زيـن الدين زيـادة في تأكيد المودة والوثـوق ، وكان ذلك بطلـب ابن زين الدين له ، لأنه قال: «أريد أجعله ولي عهدي».

وفيهـا وصل الشيـخ شهـاب الديـن السهـروردي رسـولا من الخليفـة الناصر لدين اللـه إلى الملك الأشرف بالرقة بهدايا وتحف وأشيـاء ما سمح خلفـاء بني العبـاس لأحد مـن ملوك الأطـراف من أقـوال جميلة وطـرف جليلة.

وفيها : مات الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر صلاح الدين رحمة الله. كان جوادا عالما كريما محبا لأهل العلم والدين، أجرى جميع ما كان والده أجراه للناس من صـدقة ورسوم رحمه الله ، وزيجته للضرورة في الستمائة إلى سلاطين الروم بني سلجوق حماية لـه ممن يقصده. فجاء ولده

إلى السلطـان الأشرف فخلـع عليـه وقبـل عزاءه، وطلبـوا رسـولـه يسمـع الخطبـة بـاسمـه في سمسيـاط فما وافـق وقـال : « لا تغيروا الخطبـة عـن سلطان الـروم السلجوقـي والزمـوا ما كـان والدكـم عليه في ذلـك وطيبوا قلوبكم مني»

وفيها: وصـل رسول أرزن الـروم ركن الـدين واسمـه أبو الفتـح جهان شاه بـن طغرل بـن قلج أرسلان ، إلى الملـك الأشرف، وهو ابـن سلجوق يطلب رسولا مـن عنده يقف على سماع الخطبة باسمـه ، لأن أباه مات ، وهو عم السلطـان علاء الدين كيقباذ ، فأرسـل معه الأمير شروة المعروف بسبع مجانين ، بهدية حسنة

وفيها مات الصفي محمد بن اسماعيل الكاتب المصري وكان مجيدا.

وفيها : مات الحكيم صدقة السامري، وكان فاضلا في فنه.

وفيهـا : هـرب أمير الحاج العـراقـي المعروف بـأبي فـراس إلى الـديـار المصرية .

وفيها أغـارت العربان وقتلوا مـن التراكمة خلقا عظيما وأخـذوا جشار الرقة.

وفيها: كسر السلطان عـلاء الدين سلطان الـروم الأشكري (٣١) وأخذ من قلاعه. وكذلك كسر ألكس أيضا الرومي ومسكه.

وفيها : وصـل الملك الجواد مظفر الـدين بـن مودود بن الملـك العادل إلى عمه الملك المعظم بدمشق هاربا مـن البحر. وتخيل الملك الكاملُ من أمراء دولته فمسك منهم جماعة ووقع عنده الاحتراز على الطرقات وغيرها

وفيها : مات الـوزير صفي الدين بـن شكر بالديار المصريـة لأنه كان وزر للملك الكامل بعد موت السلطان العـادل، كان جبارا ظالما جباها متهكا للنـاس، متعصبا للأراذل ومتعصبا على الأمـاثل، فأخـذ السلطان الكامـل أولاده، واستخرج منهـم ما كـان أكله أبـوهم ، وعصروا وضربـوا ووجدوا بعض ما عملوا.

وفيها : أمر الملـك الأشرف بخراب خمسة أبرجـة من سور الرقـة قبالة الأدر التي عمرها في القلعة الجديدة.

وفيهـا : كـان الغـلاء قـد كثر في البـلاد الشرقيـة وخلـت البـلاد مـن فلاحيها وأهلها وحصل في البلاد الغلاء والوباء والمرض المختلف، إلا أن أكثره بـالبرسام بحيث لا يـؤخر المريـض إلا بعض أسبوع ويمـوت وفني أكثر الماشية .

وفيهـا : مات الأمير سيـف الديـن بن علـم الـدين بـن جندر، كـان جـوادا شجـاعـا صـالحا ورعـا كثير الخير عمارا للمسـاجـد والمدارس والخانات.

وفيها : أمـر الملك المعظـم بقطع طـريق بـاب الفرج إلى بـاب الحديد وسيب الماء في الخندق بحيث منع .

وفيها : أدار العمارة لسور دمشق وعرضه .

وفيهـا : تنكر على أخيـه الملك الصـالـح وأحضره من بصرى وأسكنـه دمشق وكان مقامه بصرى لأنها بلده.

وفيهـا : نقـص نيل مصر وخـاف النـاس الغـلاء، فأحسـن السلطـان الملك الكامل التدبير ثم عاد زاد بعد ذلك .

وفيها : وصل مجد الدين قاضي المماليك الحنفي رسولا من ابن خوارزم شاه إلى الملك الأشرف،ثم إلى الملك المعظم،ثم إلى الملك الكامل،وشرب الخمر مع الملك الأشرف والملك المعظم،وأحسنا في عطائه وحرمته غاية الإحسان .

سنة ثلاث وعشرين وستمائة

كان الحاج فيها في غاية الأمن والرخاء وكثرة المياه وغيرها، وكان الحاج الشامي أكثر من العراقي والمصري.

وفيها : كان الشريف قاسم بن مهدي قد حاصر مكة مجدها الله وحماها، وجمع عليها من العربان خلقا وما حصل على بعض غرض منها . وكان لما نزل من الديار المصرية ألطن بغا قد ترك قماشه وزرده وغيره في البحر، ضرب قاسم على الجميع أخذه . وهذا قاسم هو صاحب المدينة المحروسة . وكان قد نزل صحبة هذا ألطن بغا زيادة على من في مكة من العسكر المصري سبعمائة فارس وراجل، فقويت بهؤلاء أيضا. وكان هذا قاسم قد أخلى المدينة من أهله وقماشه وجماعته وسيرهم مع العربان إلى العراق خوفا على أهله.

وفيها : وردت الأخبار بموت الإمام الناصر لدين الله الخليفة، وولي بعده ولده ولي العهد الإمام الظاهر بأمر الله، بقي في الولاية تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، ثم مات ، وكان حسن السيرة كريما ورعا ، في زمانه ترك الحقوق وغيرها ، وأعاد على الناس ما أخذ لهم في زمان أبيه من مال وملك ، وطابت قلوب الناس وسار سيرة حسنة رحمه الله. وولي بعده ابنه الإمام المستنصر بالله أبو جعفر بعد أبيه الظاهر. فأول ما سمع من الإمام المستنصر بالله تعالى صلوات الله عليه :« نستمد من الله المعونة» هذه أول كلمة سمعت منه عند مبايعته بالخلافة في السنة المذكورة .

وكانت قد وردت رسل الإمام الظاهر إلى البلاد الاسلامية ، وخطب له فيها ، فكانت رسله إلى الشام محيي الدين يوسف بن أبي الفرج ابن الجوزي ومملوك من مماليك الخليفة تركي يقال له شمس الدين،وكان رسول الملك الأشرف إلى الإمام الظاهر في العزاء والهناء بدر الدين عثمان. وسير الملك المعظم في ذلك القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل رحمه الله، فأكرم إكراما زائدا ، وذلك لأبيه زيادة على مرسله . وسير الملك الكامل في ذلك المعين ابن شيخ الشيوخ ابن حموية . واتفق موت الظاهر وخلافة المستنصر وهو عند الملك الأشرف وسير استأذن الكامل فيما يفعله، فأمره بالمسير وتعزية الإمام المستنصر بوالده وجده وتهنئته فسار .

الكلمات التي قالها ابن شيخ الشيوخ رسول الكامل بين يدي الوزير مؤيد الدين نيابة عن الملك الكامل : « عبد الدولة المقدسة النبوية المستنصرية يقبل العتبات التي يستشفي بتقبيل ثراها، ويستكفي بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها، ويوالي شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء الذي عم مصابه بصبح الهناء الذي تم نصابه حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الاشفاق، وصوح بيت رد كأنفق النفاق، وامتازت الخلافة المعظمة من مستنصرها بالمثل الأعلى وفاز عبد دولتها من ولاتها بالقدح المعلى، فجعل الله كلمتها العليا وكلمة معاديها السفلى، وزادها شرفا في الآخرة والأولى» . ثم قعد

ثم سير الملك الأشرف إلى الامام المستنصر للهناء والعزاء فلك الدين ابن المسيري المصري المعروف ، فأكرم غاية الإكرام وبولغ في تلقيه والاحسان إليه . وسير الملك المعظم ناصرالدين بن أيمر أحد خواص دولته.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة

مرض الملك المعظم مرضته التي كان بلغ فيها الموت، ولما أبل عمل الناس الهناء وزينوا البلد أحسن زينة بالمغاني وغيرهن ودام الناس على ذلك ليلا ونهارا مدة عشرة أيام وكان عنده قاضي الممالك الخوارزمي فرأى من ذلك ما أهاله، ووردت عليه الرسل بالهناء من البلاد حتى إنه خشي على تشويش الساحل ، فسير كاتبه عرفهم أنه في عليّ عافيته ، ورسل الخليفة الظاهر لما وردوا عليه كان في عقابيل مرضته.

وفيها : وصل رسول كبير من ابن خوارزم شاه إلى الملك المعظم وخلع على المعظم وأعطاه سنجقا وأضاف إلى السنجق حربتين وسيفا ، وصار الملك المعظم يركب بسنجق الخليفة وسنجق ابن خوارزم شاه بمحضر من رسل الخليفة.

وفيها : ورد رسول سلطان الروم علاء الدين بقود كثير وتقدمه للملك الكامل والمعظم، وأدى رسالته على المعظم، فما أجاب عنها فما قبل طعامه ، ولا هو قبل هديته، وتوجه إلى الكامل .

وفيها : عاد القاضي النجم قاضي العسكر الدمشقي من عند سلطان الروم.

وفيها : مات القاضي الجمال المصري الذي كان وكيلا أولا وصار قاضيا بدمشق ، وقبر في داره، وتحدث جماعة في القضاء من الأماثل وغيرهم وبذلوا أموالا وما قبل منهم، وولي القضاء لرجل أعجمي يقال له الشمس الخوئي ، كان في بعض المدارس وذكرت عنه أشياء ، وذكر أن المعظم رآه وسمعه فيها، وولاه أيضا مع ذلك مدرسة والده وحضر دروسه .

وفيها : ورد الملـك الأمجد صاحب بعلبك لهنـاء الملك المعظم بعـافيته وكتب مهـر ابنته على الملك المغيـث بن الملـك المغيث بن الملـك العادل وكان عظيما ، وكل هذا وقاضي الممالك حاضره.

وفيهـا : قبض الملـك الأشرف على صاحـب ديوانـه علاء الـدين بـن الرام، ثم أفرج عنه ومسك جماعة من ولاته.

وفيها : قبض الملـك الناصر صاحب حماة على قـاضي بلد ه(المعروف بـ)ابـن القطب و(بـ) ابن المقيشـع ، وأهانه وعصره بالمعـاصير ، وهرب منه، لما كان شاع عنه من أعمال لا يليق به فعلها .

وفيها : تـوجه قـاضي الممالك إلى صـاحبه ، وقـد أكرمـه المعظم غـاية الاكرام، حتى إنه سير معه لمخدومـه ثـلاثة آلاف قوس عمل دمشق وهذا قاضي الممالـك الذي كان أرسلـه الخوارزمي إلى ملـوك الشام كان فـاسقا خمارا زانيـا محللا شرب الخمـر وغيره، كثير التبرج بـالمحارم. ولما عـاد إلى مخدومه الخوارزمي أنكـر عليه ذلك وأخذ أمـواله وقبض عليه ، بقـي مدة ثم شفـع في حقه فأطلقـه، ومات بعـد موت الخوارزمي بمـدة يسيرة بعد وصوله إلى حلب وأخذ صدقة من أتابك حلب طغرل .

وفيها : عـاد الشرف بن عنين الشاعر المعـروف بالهجاء الدمشقـي من جواب رسالته من إربل.

وفيها : مـات القاضي نجم الـدين نائب قـاضي حلب المعروف بـابن الحجاج ، وولي بعده الزين بن الاستاذ.

وفيها ولي القضاء بحماة الشهاب ابراهيم بن أبي الدم .

وفيها : وقـع الارجاف بـأن صاحـب حماة وقع وهلـك ، وطلبوا أخـاه

بكتاب زور وهو بدمشق، فتوجه بعد ذلك برأي الملك المعظم وتجهيزه ، وعاد من غير صحة .

وفيها : كان الملك المعظم بعد عوده من هذه القضية قد نزل على قرية من قرى دمشق يتصيد بها ، فورد عليه رسول مظفر الدين صاحب إربل بـ « أنني قد خرجت إلى الموصل ، فتخرج إلى البلاد وتأخذها » . فقبل رأيه وتجهز ووصل إلى حمص ، فأقام عليها مدة محاصرا، وتراسل هو وصاحبها الملك المجاهد عدة طرق فلم يجب.

وكان أعطاه بانياس ونابلس وخمسمائة فارس وقال له: « اطلع إلى عندك إلى القلعة وخذني بخادم واحد ، واستحلفني على ما تريد، وأنا ما أحلفك ، ولا أريد أن تسير صحبتي إلا بعض أولادك لا غير » فما وافق على ذلك .

وكانت النجدة قد وصلته من حلب في غاية القوة ، فأخربوا بلدها وطواحينها وأفسدوا فيها ، وتراسل الملك الأشرف وأخوه الملك المعظم ، بعد أن كان الملك الأشرف قد توجه إلى ماردين وغيرها من معاهدي المعظم ، فاتفق الحال بينهم على الاجتماع وكل منهما يرحل عن الموضع الذي هو محاصره، ووقع الاتفاق بينهما على ذلك، ووصل الملك الأشرف وتلقاه أخوه الملك المعظم على القريتين من بلد حمص وتصيدا ودخلا إلى دمشق ثاني عشر رمضان من هذه السنة المذكورة، ووصلت رسل حمص وحلب وحماة إليهما. أقاموا عندهم مدة طويلة وحلف الملك المعظم بحماة وبحلب وما حلف بحمص ولا أزال نوابه عن قارا ، ولا عن الوادي الشرقي الذي للملك المجاهد ، وكذلك النبك ، ثم أقاما بدمشق وعادا إلى القريتين للصيد والرسل ترد عليهما من الأطراف ، ووصل إليهما الزكي بن العجمي من جواب رسالة الخوارزمي ، ووصل

فلك الدين بن المسيري في جواب الخليفة أيضا . كل هؤلاء وصولهم إلى القريتين .

وفيها : عاد العماد وزير الجزيرة من الملك الكامل في جواب ما كان سيره به الملك الأشرف وكذلك بدر الدين عثمان.

وفيها : مات أبو سعيد الجعبري الذي كان والي قلعة دمشق بدوز نطاريا ، كان شيعيا سبابا جباها كذابا دهريا وولي بعده الخادم شبل الدولة .

وفيها : مات الخادم شبل الدولة المعروف بست الشام أخت السلطان صلاح الدين كان دينا صالحا ، عمر المدرسة المعروفة بالصالحين بظاهر دمشق ، حنفية وأحسن وقفها وعمارتها .

وفيها : مات المبارز المعتمد الذي كان شحنة دمشق وسيرته مشهورة معروفة.

وفيها : عاد الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل إلى اليمن بعد كل جهد من والده.

وفيها : وردت الأخبار بأخذ ابن خوارزم شاه تفليس وقتل أكثر الكرج .

وفيها : عزم الملك الأشرف على طلوعه الديار المصرية غير مرة ما يمكنه المعظم من ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والملك المعظم والملك الأشرف على ما هما عليه بدمشق من الاجتماع في الملاذ وغيرها .

وفيها : وردت الأخبار أن عسكر الخوارزمي في أواخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة كانوا قد قصدوا خلاط وهجموها وبلغوا فيها سوق الدقيق ، وأن الناس تحايوا ونصحوا وقاتلوا أشد قتال وأخرجوهم منها عنوة ، ورحلوا عنها لكن بعد خراب كثير وقع في البلد .

وقيل : إن أهل أخلاط هم الذين كانوا استدعوا الخوارزمي ليسلموها إليه ، ثم عادوا عن قولهم ، فعاد الحاجب علي بعد رحيلهم حصنها ونقل إليها العدد والغلال وحشدها خيالةً ورجالة وبقيت في أتم حصانة .

وفيها : عاد الملك الناصر داوود من إربل إلى أبيه الملك المعظم وتلقاه عمه السلطان الأشرف .

وفيها : كانت الأخبار قد حققت بعود علاء الدين من حصار صاحب آمد بعد أن أخذ الكختين (٣٢) ومواضع أخر مثل حصن منصور وغيرها إلى بلاده. وكان الملك الحافظ نور الدين قد توجه منجدا لصاحب آمد ، هو وعز الدين أيبك الأشرفي ، ووقع ابن بدر وأخذه العسكر الرومي ، وكان في سنة ثلاث وعشرين وقع هذا .

وفيها : كان صاحب ماردين قد خطب للرومي وعاد في خدمته.

وفيها : وصل قاضي حصن كيفا إلى الملك الأشرف يخبره أن صاحب آمد في خدمته وأنه ما عاد إلى الرومي كما نقل عنه.

وفيها : وصل بدر الدين عثمان أخو الحاجب علي والغرس مبارك المعظمي برسالة [٣٣] إلى الملك الناصر صاحب حماة وإلى أتابك حلب لا غير ، فما وقع مرضيا لقولهما .

وفيها : عاد النجم خليل الحموي قاضي العسكر من عند خوارزم شاه، وقد كان له عنده مدة تسعة شهور، وحكى من جوره وظلمه وجبروته وعظمته ما لا سمع عن غيره ، وفارقه متوجها الى كنجة وسار صحبته مملوك المعظم المعروف بالبركين

وفيها : مات المهذب السامري الحكيم الذي كان عند الملك الأمجد صاحب بعلبك، الذي كان الناس قد عملوا الأشعار في الأمجد بسبب عشقه له ومحبته ، فمن جملتهم الشهاب فتيان النحوي الشاغوري رحمه الله، عمل :

الملك الأمجد الذي شهدت
له جميع الملوك بالفضل
أصبح في السامري معتقدا
معتقد السامري في العجل

فيها : وصل الكمال بن مهاجر من بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، إلى الملك الأشرف والملك المعظم بقود وهديه وأقمشة وغيرها ، وهو كبير القدر كثير المال والمعروف ، وله الصدقات الدارة وبناء الطرقات والخانات وأوقف الوقوف ، فتلقي بحلب أحسن تلق ، وتلقاه الملك المجاهد صاحب حمص ، وحمل له وأضافه وبالغ في إكرامه ووداعه.

وفيها : كان وصل إلى صاحب الموصل رسالة من الإمام المستنصر يطيب قلبه ، ويبسط أمله ويغده بكل جميل لا سيما عن صاحب إربل ، ووصل إليه أيضا رسول السلطان علاء الدين كيقباذ سلطان الروم، في

معنى التعاضد على الخوارزمي، والتعجب من تأخر الملك الأشرف عند أخيه في مثل هذا المهم .

وفيها : قبض بدر الدين لؤلؤ على أولاد بلس وذلك بعد اتفاقه مع ابن زين الدين صاحب إربل على ذلك ، وأخذ جميع أموالهم وكانت كثيرة .

وفيها: عاد ناصر الدين بن أيمر من عند الإمام المستنصر إلى مخدومه المعظم .

وفيها : عاد كريم الدين المعروف بالخلاطي من عند سلطان الروم كيقباذ إلى صاحبه .

وفيها : كانت الوقعة بين الأمير مانع بن حديثة وابن عمه الأمير منيع على يرعم ببلد بارين ، فطعن منيع طعنة بلغت منه، وحمله مانع إلى بيوته، وسير الملك المجاهد جرائحيا من عنده لعلاجه فصلح . ومات الأمير حلو من أصحاب منيع ، وطرح منهم جماعة مانع مائة وثمانين شخصا ، وكانت وقعة عظيمة ، كان أصلها منيع ، لأن مانع قال له عند الالتقاء : « كف الشر واحقن الدماء » فأبى إلا السيف والغي ، فحمل مانع بجماعته على منيع وأصحابه فرموهم إلى الأرض وجرى من القتل والجرح والموت والهرب ما اشتهر في الناس وهذه عاقبة البغي . ثم رحل بقية أصحاب منيع إلى بلد بعلبك وصاروا يتخطفون الناس ، فمن جملة فعلهم وإقدامهم أنهم وقعوا على البهاء بن رسلان بغا وهو في قرية يقال لها قطينة بقرب بحيرة قدس من بلد حمص ليلا ، فأخذوا قماشه وجرحوه ومماليكه وأصبح فقيرا ، وكم لهم من فعل قبيح هذا أقله .

وفيها : كان الملك المعظم والملك الأشرف قد توجها إلى الغور للصيد والتفرج وغيره ، أقاما مدة ثم عادا إلى خربة اللصوص بدمشق أقاما فيها

وفيها في آذار في العشرين منه وقع من الثلج والأمطار والأهوية ما لا يحد ولا رؤي من الأعمار، وتلف بعض الأشجار.

وفيها : شرعوا في إعادة عمارة البرج الذي كان بسلمية وخربه الملك المنصورمحمدبن تقي الدين رحمه الله، وذلك بأمر الملك الكامل واشارته لصاحبها ، وهو الملك المظفر محمود المقدم ذكره

وفيها : شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في حفر خندق القلعة وتعميقه، وتوسعته وحصانته لأنه من الثغور الإسلامية المندوب إلى حصانته، وقد كانت قلعة حمص أيضا قبل ذلك مترجلة صغيرة فعلاها وكبرها وحصنها وكم عني بها من أتم عناية لله تعالى وساق إلى حمص المياه وأطاعه في ذلك العاصي الذي لم يطع قبله لغيره من الملوك.

وفيها : وقع بين صاحب حماة الناصر وصاحب شيزر شهاب الدين الأعرج على ضامنة اللطف وقصده الناصر وخرب شيزر ونهبها وقتل منها إلى أن وصل من الملك الأشرف رسول بالصلح بينهما .

وفيها : عاد الحجاج ووصفوا من الرخص وكثرة المياه والأمن ما تجاوز الوصف وانباع الليمون الأخضر في الطريق برخصه في الساحل

وفيها : وقع الصلح بين مانع بن حديثة وابن عمه منيع بن توبة، وذلك بإشارة السلطان الملك المجاهد صاحب حمص.

وفيها عاد الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر لدين الله بن صلاح الدين رحمه الله من عند أولاد عمه العادل من دمشق فأحسن إليه الملك المجاهد وأعطاه نفقة سنية وحمل إليه الاقامة الكثيرة إلى حين انفصاله.

وفيها : عاود الملك المعظم بن العادل مرضه وهو نازل بخربة اللصوص من بلد دمشق .

وفيها : وردت الأخبـار من البحـر أن البابـا أعطى الملـك الذي كـان صاحب عكا اثني عشر بلدا، وكان الملك الامبراطور قد تـزوج ابنة هذا الملك المذكور وبقيت عكا له ورتب نائبه فيها .

وفيهـا : مـات ملك الإفـرنـس وكـان يحاصر بلـد صنجيل وهـو بلـد البطلانيـة ، والبطلانيـة عند الفرنـج كـالنصيريـة عند المسلمين ، فـاجتمع أكابر ومحتشمو الخيـالة ورتبوا ولده في الملك عليهم ، ولازمـوا حصار من كانوا عليهم ورتبوا الصبي بالا وهو مثل أتـابك العسكـر.

وفيهـا : عـاد خصبك ابـن صـاحـب تكـريت مـن العجـم وخبر أن الخوارزمي تأخر عن حركته بسبب من قام عليه في تلك الخطة .

وفيها : توفي نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا بدمشق .

وفيها : وردت الأخبـار بأن الاسماعلية قتلـوا خال الخوارزمـي ووصلت رسلهم إلى الأشرف بذلك .

وفيهـا : اتفـق الأشرف وأخـوه المعظـم على مـا جـرى بينهما ، وسيروا الكمال بن مهاجر إلى السلطان الملك المجاهد وإلى الناصر صاحب حماة وأتابك حلـب بصورة ما وقع به الاتفـاق بينهما، فما وافقوا على شيء منه ، وشرعوا في عمارة بلادهم وتحصينها .

وفيها : وردت الأخبار بإنفاق السلطان الكامل في عسكره وخروجه .

وفيها : وردت الأخبـار أن الخليفة المستنصر بـالله قتـل رشيق الشرابي ورتب عـوضه كـافور أحـد خدام أبيـه، ثم بعـد ذلك تـوجه الخليفـة إلى الحديثة للتفرج بقي أياما فغلا السعـر ببغداد، بلغه ذلك فعاد إليها وأعاد السعر إلى حاله .

وفيها : في شهـر جمادى الآخرة ودع الأشرف أخـاه المعظم مـن المنزلـة عائدا إلى بلاده الشرقية بعد الإرجاف بقبض المعظم له قطعا.

وفيهـا : في الشهـر بعينـه بعـد انفصـال الأشرف عـاد كيميـار رسـول الـرومـي إلى مخدومـه. فتلقـاه الملك المجاهـد وأولاده ولي عهـده الملـك المنصور ابراهيم واخوته ، وأحسن إليه .

وفيها : في الشهر أيضا غارت العـرب، وهم غزية البطنين وغيرهم على بلد حمص وأخـذوا حتى غنم أهل البلـد، فوقع الصوت وركـب العسكر وتبعوا العربان إلى معظـم الطريق، وكان فيهم قوة ومنعـة لكثرتهم ، فعاد عنهم بمـراسلة جرت بينهـم ، وذلك توفيقـا من اللـه لحقن الدمـاء . ثم بعـد ذلـك أمـر المعظـم عـربـه أن يغيروا على بلـد حمص وحماه وسلميـة وبـارين فجـاءوا ونزلـوا الزراعـة من أرض حمص وأرض جـوسيه الخربـة والقصب ومكثـوا أياما يغيرون والملـك المجاهد مهمـل لهم ، فلما طمعوا ركب إليهم بمـن معه وأولاده ، وأذن لأهل بلده في النهـب وأطمعهم فما كان بـأقل من نصف نهار حتـى نهبوهم وسبـوهم وقتلوا وجرحـوا خلقا ، وكان مانـع بن حديثة يومئـذ قد وصل إلى خدمته فحضر الـوقعة أيضا ، وكان عنـد العرب المذكـورين مملـوك المعظم سنجـر أمير العرب فـرحلوا غضبا ، وكـاتبوا المعظم بما جـرى فصعب عليه وأمـرهم بنزولهم الغـوطة خوفا عليهـم ، وعاتب الملك المجاهد في ذلـك فأجابه جوابـا سادا، ثم تـوجـه المعظـم في ضمـن هـذا إلى صفـت ، وكـوكـب ، وتبنين، وغيرهـا ليخرب بقيـة أساساتها وسـد صهاريج الماء بالقـدس خوفا لما بلغـه من حركة الفرنج .

وفيهـا : توجـه السلطان الملـك المنصور ابـراهيم بـن السلطان الملـك المجـاهد صـاحب حمص ، وهـو ولي عهـد أبيه، إلى حلـب والى الأشرف

طالبا نجدة ، ليجهز إليه من العسكر العدة المقررة لالتقاء المعظم وعاد، ووصل من العدة جماعة من عسكر حلب إلى حمص مثل شهاب الدين ابن مجلي الهكاري ومظفر الدين بن جرديك وغيرهما.

وفيها : عاد رسول الملك المجاهد صاحب حمص من عند الرومي وأخبره بمن عنده من الرسل المجتمعة من الخليفة وسائر الملوك ، وأنه حلف لصاحب آمد، وقد كان رسوله أقام مدة ، فلما تحقق وصول رسول الأشرف، وهو الزكي بن العجمي، حلف قبل وصوله حنقا على الأشرف، وأنهم في ترقب وصول كريم الدين الخلاطي من المعظم .

وفيها : توجه رسولا من أتابك حلب إلى الرومي ، بدر الدين ابن أبي الهيجاء الدقيق.

وجملة ما كان قد أخذه السلطان الملك المجاهد، ومانع عنده والتركمان، من العربان خمسة آلاف جمل خارجا من الأغنام والخيول والأقمشة وغيرها . وعاد مانع إلى أصحابه على الفردوس من بلد حلب بعد وقعة كانت جرت لعربه ولأخيه علي على عسكر حماة، وظفرهم بهم ، ولولا عسكر حلب لم يبق من عسكر حماة بقية ، وخربوا بلد حماة والمعرة وقطعوا الطرقات .

وفيها : طهر السلطان الملك المجاهد بقية أولاده الصغار، وهما الملك الزاهر داوود والملك الأفضل موسى .

وفيها : كان مجد الدين متولي حصون الإسماعيلية بالشام قد سير إلى ملك الروم علاء الدين كيقباذ يطلب منه المقرر عليه ، وهو ألفا دينار التي كانت جرت عادتهم بحملها إلى ألموت، فأبوا ذلك ، وسير الرومي

إلى جلال الدين (٣٥) بالموت في ذلك ، فقال له : « تحملها إليهم بالشام، فقد عيناها لهم ذخيرة » ، فحملوها .

وفيها : وصل نجم الدين رسول الروم، وهو المهمندار، واجتمع به السلطان الملك المجاهد في جواب رسالته وفاوضه وقال : « قد وصلت من صاحبي في قضاء شغلك مع المعظم وإزالة اعتراضه على جميع مالك» وكان عند وصوله قد تجهزت سرية عظيمة إلى بلد حماة وغيرها من عرب المعظم ، فأخذ خبرهم الملك المجاهد وركب خلفهم وتبعهم بنفسه وأولاده فأخذوهم وقتلوا منهم عالما واستعادوا غنائم كانوا قد غنموها من حماة وغيرها .

وفيها : في شعبان وصل ولدا شيخ الشيوخ وهما الكمال والمعين من عند السلطان الملك الكامل وقاضي العسكر المصري الشريف الحسيني رسلا إلى المعظم ، وأن الرسالة تؤدى بعد أن يقف عليها الكمال بن شيخ الشيوخ، ثم يعود قاضي العسكر إلى مصر ، ويتم الكمال والمعين إلى حمص ، ويؤدي الكمال الرسالة إلى السلطان الملك المجاهد، فتلقاهم الملك المجاهد بأولاده وأنزلهم في دار الملك المنصور تحت القلعة وأكرمهم غاية الاكرام ، وأدى الكمال رسالته وسار أخوه المعين إلى بغداد لأنه ما كان معه رسالة إلى غير الخليفة . وأما الكمال فإنه تأخر بحمص، وقال ما كان حمله وفي جملته:« إن مخدومي قال : تعرف الملك المجاهد صورة ما جرى منا ومن المعظم ، ومهما أشار به يكون العمل بمقتضاه » فقرر الملك المجاهد معه ما وقع الاتفاق عليه وتوجه إلى حماة وإلى الأشرف وإلى بدر الدين لؤلؤ الموصل ، وأخبر المذكور بأن قد وصل رسول الأمبرطور، ومعه من التحف وغيرها والخيول ما لا يحد ولا يوصف، وأن السلطان الملك الكامل اهتم له غاية الاهتمام من حسن ترتيب وإقامة وغيرها ، وأنه أحضر له من مراكيبه عدة بالذهب وغيره ، وأن الكامل سير فرس الامبرطور الخاص بعينه إلى ابن الملك الظاهر بحلب

وأشيـاء معه، وأنـه قد شرع في عمـل هديـة لم يسمع بمثلهـا ، ويسير بها جمال الـدين اسماعيـل بـن منقذ في الجواب، وقـد ذكـرنـا هذا وغيره مـن الوقائع في كتابنـا التاريخ الموسوم « بالكشف والبيـان في حوادث الزمان» لأن هذا التاريخ في غاية الاختصار كما شرطنا .

وفيهـا : وصـل رسـول الأشكري في البحـر إلى السلطـان الملـك الكامل وبذل من نفسه .

وفيها : وصل رسـول من الامبرطور، وهو نائبه بعكـا إلى المعظم بهدية حسنة ، وكان رسول الامبرطور وصل وطلب الساحل من الكامل .

وفيها : أصلح هذا الـرسول بين الأبرنس والديويـة والاسبتارية فإنهم كانوا قد حرموه.

وفيها : وصل رسول الخوارزمي واجتمع بـالملك المجاهد وعلى يده إليه كتاب إليـه من وزيـره خواجا جهـان يتضمن ما جـرى لهم مع الكـافر ، وأنه في عزم المضي إليه لاستقصاء شأفته، وذكـر أنه كان على يده هدية في جملتها أسارى مـن الذين أخذوهم وعدة إلى المعظـم وأنهم اتهموا بغدي مملوك أتابك أزبك بأنه تبعهم بعد انفصاله عن الأشرف وأخذهم

وفيهـا : وصـل رسـول الامبرطـور إلى الإسماعيلية بـالحصـون الشـاميـة بجواب رسالتهم إليـه وعلى يده هدية بها يناهز ثمانين ألـف دينار ، فقال لهم مجد الديـن متولي الحصون : « الطـريق إلى ألموت وجلال الـدين غير طيبة مـن الخوارزمي وغيره ونخـاف إلى حين صلاح الطـريق واتـركوا مـا معكم عندنا وديعة لكم ، والغرض حفـظ نفسه وأماننا له » . وحلفَ لهم وأعطاهم قميصه أمانا وهذه عادتهم

وفيهـا : سير الاسبتار يطلبـون قطيعة مـن الاسماعيليـة ، قالـوا لهم : «

ملككم الامبرطور يعطينا وأنتم تأخذون منا» ومنعوهم ، فأغاروا عليهم وأخذوا من بلدهم جملة .

وفيها : اتفق عيد رمضان وعيد اليهود وعيد النصارى وهذا عجيب عجيب .

وفيها : كانت وقعة بين التركمان وصاحب آمد وظهر عليه التركمان .

وفيها : كان قد اجتمع الملك المنصور صاحب ماردين والملك المسعود صاحب آمد ، وجاء كل واحد منهم إلى بعض الطريق وأكلا وشربا وتحالفا واتفقا بعدما كان بينهما من الشحناء والبغضاء .

وفيها : حج الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل على البرية وودعه أخوه الأشرف ، ولما عاد تلقاه، أقام عنده أياما وعاد إلى بلده ميافارقين وغيرها .

وفيها : اهتم الفرنج بعمارة قيسارية الشام .

وفيها : ورد الخبر بأن الحاجب علي بن حماد صاحب الدولة الأشرفية توجه إلى بلاد العجم فنزل سقماواناه (٣٦) فبلغه بأن الوزير خواجاجهان وصل إلى شميران (٣٧) بثلاثة آلاف فارس ونزل عليها ، فجرد الحاجب علي العسكر من أول الليل ،وأصبح عليهم بشميران وساق عليهم فكسرهم وأخذ أحمالهم وكوساتهم ، ولم يفلت منهم إلا خواجا جهان بستة نفر وتسلم الحاجب علي خوي (٣٨) وسار يتسلم غيرها .

وفيها : كان موت الملك المعظم بدمشق وولي ولده الملك الناصر.
وفيها : وصل العماد ابن موسك إلى سنجار ، وصحبته رسول الخوارزمي الذي كان بدمشق لما مات المعظم

وفيها : هرب بغـدى من حران إلى الخوارزمي وسبب ذلك أنـه كان له حوالـة وصار كـل وقت يطلبهـا، فقال بـدر الديـن قابيـا الأشرفي ، وهو يومئذ نـائبه في البلاد، قولا قبيحـا عن بغدي ، فلما بلغه ، هـرب والتحق بالخوارزمـي، وكان بغـدي في غايـة الوبـال على الناس هـربته، وكـان قد عرف البلاد وتحقق العساكر بها ومن فيها .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

والأشرف بسنجار

وفيها : وصل رسول الاربلي يستصلحه فانصلح له .

وفيها : وصل إليه الملك المنصور بن الملـك المجاهد والركن الهيجاوي ووصل كتاب مجير الدين الملك المعز بـن العادل بأنهم قد ملكوا نقجوان ومدينة أرمية وخطبوا للأشرف فيها .

وفيها : ورد الخبر بأن بغدي تملك ثـلاث قلاع ، وكذلك ورد الخبر أن الرومـي ملك قلعة عظيمـة بعد حصارها ثمانيـة أيام ، ثم عـاد الأشكري صافقه فكسر الرومي وأخذ جماعة من عسكر الرومي وقهره .

وفيها : عاد الحاج وقد وجدوا شـدة عظيمة من موت أجمالهم والعطش.

وفيها تـوجهت أم الملك النـاصـر بن المعظم من دمشق الـى الكرك.

وفيها : عمر الفـرنج صيدا بغير رضى من في الساحـل ، لأن الفرنج الغرباء الذين وصلوا من الجزائر عمروها .

وفيهـا : وصـل الحاجـب علي بـن حماد إلى الأشرف بنصيبين ، وعـرفـه

صورة ما جرى له في العجم ويحثه على نزوله إلى خلاط لا غير ليملك العجم ، فان أهل توريز وغيرها قالوا : « إذا جاء الملك الأشرف سلمنا إليه البلاد» ومع هذا فأنكر عليه الأشرف وصوله إليه خوفا على االبلاد ووعده بنزوله إلى خلاط وأعاده إليها فعاد . وسير الملك الأشرف إلى أخيه الحافظ يأمره بأنه ينزل ويقيم بحران وأن عز الدين نفذنا إليه بمن معه يكون عندك بها، وكذلك الكمال بن مهاجر» فامتثل أمره وسير أصحابه إلى حران.

وفيها : وصل فخر الدين أبو شعرة وابن شيخ الشيوخ من السلطان الكامل بالخلع والسنجق . وسلطنوا الملك الناصر وحملوا في خدمته الغاشية ، وكذلك أعمامه الملك العزيز والصالح ووصل معهم خلعة للسلطان الملك المجاهد أيضا ، وأصلحوا بينه وبين الملك الناصر .

وفيها : حلف الأشرف لابن أخيه الناصر ولصاحب آمد أيضا .

وفيها : سير الأشرف الركن أمير جانداره [٣٩] بهدية إلى الخليفة ، وعاد جواب الخليفة إلى الأشرف بسنجار يأمره بأن لا يتغير منها إلى أن يأمره، فتأخر بعد تحقيق حركته إلى العجم، وكان ذلك سبب حرمانه العجم .

وفيها : أفرج الناصر عن الوادي الشرقي وجميع ما كان لصاحب حمص السلطان الملك المجاهد.

وفيها : أغار الملك العزيز عثمان بن العادل على صور وأخذ منها جماعة أسارى وفعل في ذلك فعلا عظيما .

وفيها : زاد ظلم الملك الناصر بحماة إلى غاية ، وطرح على الرعية أغناما وغلة ما يناهز خمسة آلاف مكوك بأكثر الأسعار .

وفيها : خرب داراً لأحد بني قرناص كانت عامرة حسنة .

وفيها : هجم الملك العزيز بن العادل بعلبك طامعا بمخامرة من أهلها لكراهيتهم في الملك الأمجد صاحبهم لظلمه وعسفه لهم وفسقه وجوره، فلما علم بهم قتل من بلده جماعة بسبب ذلك .

وفيها : وقع بين ناصر دمشق وعمه العزيز ومملوك أبيه أيبك صاحب صرخد وسير الملك الناصر إلى عمه الأشرف يستنجده .

وفيها : عاد الأشرف من نصيبين بعد استصلاحه لصاحب ماردين بحيث أنه بذل له بلد نصيبين أو رأس عين الخابور أو الموزر وجملين ليحلف له ، ولم يوافق لأنه طلب دارا فأعطاه بلدها . فأبى وقال : « أريد القلعة وأخربها وأحلف » فما وافقه الأشرف عليها . وكان رسول الديوان أيضا قد دخل في هذه القضية وما وافق. وكان الأشرف قد جهز عسكرا إلى خلاط بعد كسرة كسروها ، وكان الحاكم فيها بغدي وخواجاجهان .

وفيها : أخذ صاحب الروم كيقباذ أرزنجان (٤٠) بعملة طريفة ذكرناها في التاريخ الكبير وغيرها لما شرطنا ها هنا من الاختصار .

وفيها : عاد الامبرطور إلى قبرص وملكها وعمل عملة على صاحب بيروت ليقبضه فما تمت عليه وقبض المال(٤١) الذي فيها وخافته الديوية وجميع من في الساحل .

وفيها : وصل سيف الدين بن قلج بحران يخبر الأشرف بصورة الرسالة التي وردت إليهم من السلطان الملك الكامل ويطلب ألف فارس ، وأنهم ما وافقوه على ما طلبه ، وان الناصر بحماة ما وافق أيضا .

وفيها : عاد ابن قاسم الدين من بعلبك وحمص لاصلاح ما كان بينهما .

وفيها : توجه أبو منصور بن الزُبد رسول الإسماعلية إلى حلب يخبرهم بصورة رسالة الامبرطور إليهم بما طيب به قلوبهم ووعدهم ، ويقول لأتابك حلب :« إن أنتم اتفقتم مع الساحليين انتصرتم عليه ، وإن كنتم عاجزين عرفونا لنصلح أحوالنا معه » .

وفيها : وقعت واقعة بين عسكر خلاط وبغدي على بيكري (٤٢) وكسر عسكر الأشرف بهم وجرحوا تاج الملوك بن العادل في خده جرحا نسر ومات منه عند أمه بميافارقين ،وكان الحاجب علي قد جمع العسكر قاصدا الخوارزمي فأعاقه الرومي بأخذه لأرزنجان خوفا على أرزن الروم، لأن صاحبها كان في خدمة الأشرف وكان قد خطب له كما تقدم .

وفيها : وصل الملك الكامل بعساكره ونزل على تل العجول، فخافه الناصر صاحب دمشق فتحصن وحلف رعيته، وعاد إليه عمه الصالح وكذلك عز الدين أيبك مملوك والده وتخلف عنه عمه العزيز ، فسير الناصر ابن القاضي الفاضل إلى عمه الأشرف يستحثه للوصول إليه .

وفيها : ورد الخبر بمضي الخوارزمي إلى ألموت في طلب أخيه غياث الدين لأنه كان انهزم منه وقال لهم : « ان دفعتم أخي إليَّ فلا كلام ، وإلا خربت بلادكم وغيرها » فما سلموه إليه .

وفيها : في ثالث رمضان وصل الأشرف قاصدا دمشق إلى نجدة الناصر كما طلبه ، فاجتمع به في الطريق بأرض سلمية الناصر بحماة وحمل إليه وقدم له ذهبا وغيره ، ثم إجتمع به السلطان الملك المجاهد ، وحمل له وقدم جملة، وكان عمل شغله ليسير في خدمته فمنعه من ذلك ، وقال له :« المصلحة إقامتك بحمص فإن دعت الحاجة إلى حضورك

نطلبك » فأجابه وعاد إلى حمص بأولاده وعسكره ، ووصل الأشرف إلى دمشق وتلقاه الناصر وأنزله في القلعة وحمل إليه جميع مفاتيح خزائن القلاع وأحضر أخواته إليه وقال : « نحن مماليك مولانا وعبيده وأيتامه مهما حكمت سمعا وطاعة »·

وورد الخبر بأن الأمبرطور يشتي في الجزائر وسار إليه الإبرنس، بعد أن كان قد أخافه .

وكان الملك العزيز قد توجه إلى أخيه السلطان الكامل إلى الديار المصرية فتلقاه في بعض طريقها وقدم له الكامل وأعطاه عطاء لم يسمع بمثله ، وكتب له خطا ببعلبك لابنه وله زيادة في خبزه . وكان الملك الكامل عند وصوله منع أحداً من الأذية في بلد الناصر، فاتفق أن صاحب بعلبك ، بعد مضي العزيز إلى الكامل ، قد دخل بلد العزيز ونهبه ، فلما بلغ الكامل ذلك أمر بنهب بلد الناصر .

وكان الحافظ قد رتب معه الأشرف ومع أيبك أنه إن قصدهم صاحب ماردين، وإلا فلا يقصدونه هم ، وإن احتاج صاحب آمد إلى نجدة بسبب الرومي يروحون إليه ينجدونه.

وفيها : أغار صاحب ماردين على حصن كيفا ، أخذ ونهب وأحرق وكذا أغار صاحب آمد المسعود على التاخ .

وفيها : وصل رسول الامبرطور، وهو الكند توماس وصحبته صاحب صيدا إلى السلطان وقالوا له : « الملك يقول لك إن الجيد للمسلمين والمصلحة لهم أنهم كانوا قد بذلوا لنائبي اللكان الساحل جميعه وإطلاق الحقوق هذا في حصارهم لدمياط وما فعلوا ، وفعل الله بكم ما فعله وأعادها إليكم . ومن كان للكان هو إلا أقل نوابي وعبيدي ، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له » . فقال السلطان الكامل لابن قلج،

وكـان عنده يـومئـذ ، لأن الأشرف كـان قد سيره إلى عنـده: « تكتـب إلى الملك الأشرف تعرفه صـورة هذه الرسالة وتقول له يقـول ما عنده فيها » فقال الأشرف : « يا سيف الدين ، مـا يقول عبد مملوك هو وجماعته، مهما رسمه السلطان الكـامل كان ، لأنه هو سلطان البـلاد ولا يخرج أحد عن أمره، بل تسأله اتفاق الكلمـة ، لتجمع العساكـر من البلاد إلى خـدمته ويقرر مـا فيه الصلاح للمسلمين وللبيـت ، وقد اشتاق المملـوك إلى تلك الطلعـة السعيـدة » . وهـذا في العشر الأول من ذي القعـدة مـن السنـة المذكورة .

وفيها : مـات وجه السبع مملـوك الخليفة صـاحب ششتر فوليهـا بعده بهمان .

وفيها : غلا السعر ببغداد . ثم عاد رخص

وفيهـا : أزوج الخليفة المستنصر مملـوكـه الـدويدار بـابنـة بـدر الديـن صـاحب الموصـل، وخـرج معها مـن الأقمشة والـذهـب والفضة مـا لا يوصف .

وفيها : سير صاحـب ماردين الى الرومي يقول لـه : « ما لمضيك إلى أنطاكية معنى . البلاد خالية ، الملك الأشرف عند الملك الكامل في قبالة الفرنج ، والجزيـرة ما فيها سوى الحافـظ وأيبك وصاحب آمـد ، ومن هو بحلب فتسير إليّ عسكراً لآخـذ تلك البلاد » . فقوي عـزم الرومي وسير إلى والي الكختين سيـف الدولـة عدة أمـراء . فجـاء الوالي وركـب الماء، ودخلوا إلى بلد قطينـا والسويداء ، وأخذوا منها جماعـة ، ثم عادوا فسير صاحب آمد طلب الحافظ لنجدتـه فجهز إليه ، فعاد الآمدي إليه شكره ومنعـه مـن قصـده ، فعـاد هذا ، وقـد وصـل كتـاب الأشرف إلى أخيـه الحافظ يخبره بأنه قد توجه صحبـة ابن قلج إلى السلطان الكامل لإصلاح حال الناصر بن المعظم .

وفيها : وصل كتاب الحاجب علي وفي عطفه نسخة كتاب الخوارزمي ووزيره خواجاجهان إلى حسام الدين خضر صاحب سرماري، لأنه كان يظهر للخوارزمي أنه في جملته ويظهر للأشرف كذلك .

ووصل كتاب الآمدي يخبر أن عسكر الرومي قد عادوا إلى بلادهم .

وفيها : وصل كتاب الحاجب علي وشهاب الدين غازي يخبران أن الخوارزمي وصل إلى ملا زجرد ، وكاتبوا الأشرف بذلك ، وهو بدمشق ، حتى أن الحاجب قال في كتابه للكمال بن مهاجر: « اعلم أن الخوارزمي يسبق خبره، وقد ذكر أنه يريد يشتي بالرقة، لأنها أشبه ببلاده . فلا تتمم قراءة هذا الكتاب الا بقلعة حرّان أو الرها». فاجتمع الحافظ وأيبك وابن مهاجر وقايبا على أن جمعوا أهل حرّان عند الحافظ واستحلفوهم وأمروهم بالاستخدام والعدد مهما قدروا، وتعرّف الحافظ وأيبك أبرجة القلعة بحرّان والبلد ورتّبوا آلة الحصار، وطلب الحافظ زَرَدْخاناه من حلب وغيرها لقلعة حرّان ونقل جميع ماكان في الرقة من مال وغيره إلى قلعة جَعْبر، ثم بعد ذلك وصل الخبر بأن بغدي وصل إلى جبل جور وعاد منه لأجل الثلج وكثرته.

ووصل كتاب الحاجب علي وطيه كتاب صاحب سرّ ماري الواصل من الخوارزمي ووزيره، مضمونه ما نسخته. كتاب الوزير:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه:محبة علي بن القاسم.

المجلس السامي الشريف الملك الكبير العادل المؤيد المظفر المجاهد، شرف الدولة والدين، نصرة الإسلام والمسلمين، عضد الملوك والسلاطين

قامع الفجرة والمتمردين، شهريار أرمن، دام شريفاً مخصوصاً بالتحية والثناء والأشواق الى كريم محياه متوافر.

والذي نعلم به أن أمور السلطنة في غاية الرونق والطراوة، وما لها عزم الا الانصراف الى بلاد الأرمن والشام، وان كان جماعة من الحساد الذين يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواههم، يظهرون أصواتاً، فما ذاك الا مُنَى زور، وسؤل غرور، فلا يلتفت المجلس الى ذلك، ولايصغي اليه، ولايفوّت مصلحته. ولو أن السلطان كان يُهمل أمرَ بلبان، صاحب خَلْخال، ويتوجه الى الأرمن والشام، لكان تنسد طرقات العراق وخراسان، فرأى أن يطفىء شرَّ شرِّه، ولما تحقق قصد العساكر المنصورة إلى المذكور، وبطل طِلَّسم إمرته؛ وكان اجتمع عنده ثلاثة من الباوكسية، تفرقوا وأكثرهم انتظموا في سلك عبودية الدولة، وقد وصل معتمد المجلس الشريف الأجل تاج الدين حميد الدولة، وشاهد أحوال القلعة التي فيها بيت المذكور وأولاده، وفي هذين اليومين نفتحها ان شاء الله.

وحيث خلا وجه سلطان هذا العالم من هذه الجهة، فلاشك ولا شبهة في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد الأرمن والشام،وقد وصل الأجل الأغر بهاء الدين؛ جمال الإسلام والمسلمين، رضي الملوك شرف الأماثل، مشهور خراسان أعزّ الله نصره عائداً من جهة المجلس الشريف، وشرح ماشاهد من اختلال أحوال بلاده. وإنني وإن تأذّى قلبي من المجلس فما استحسنت ولا استحسن أن يتأذى المجلس، وساعة وصول قاصده قدمته إلى سرير السلطنة وأدّيت شرائط التهنئة عن لسان المجلس بالقدوم، وطالعت بما أنعم على المجلس بمثال موشح بالمواعيد الحسنة. وتعلم أن عاطفة السلطان ورحمته تشمل من اليوم إلى أسبوع، فيتحقق هذه المعاني ويتصورها. والظاهر أن بهاء الدين يرجع الينا ويجتمع بنا في حدود أذربيجان،فيكتب المجلس أحوال الملوك والأطراف مشروحاً، وقد

ذكرنا على لسان بهاء الدين مايعيده عليه فيسمعه ويعلم انها نذكره قولنا ويتيقن أننا مانجازيه على فعله ونحن كما قال قُرَيط بن أُنَيْف:

يَجْزُونَ مِن ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مغفرةً
وَمِنْ إساءةِ أَهْلِ السُّوءِ غُفْرَانا .(٤٤)

وهذه نسخة كتاب الخوارزمي الوارد إلى صاحب سُرَّ ماري، وهو بالفارسية والعربي. ترجمته:

«جلال الدنيا والدين أبوالمظفر مَنْكُبرتي بن السلطان محمد بن تكش خوارزم شاه ناصر أمير المؤمنين.

عنوانه: النصرة من الله وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك الكبير العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد شرف الدولة والدين سعد الإسلام والمسلمين، نصرة الملوك والسلاطين، قاهر الفجرة والمتمردين، خسروا شهريار أرمن سميدار إيران أذكره دام عزه وتأييده مخصوص بعزّ الاستمالة وشرف الاستخبار والتفات الضمائر إلى نظم مصلحته. وتعلم أن جوامع أمر السلطنة جارية على وفق إرادة ممالكنا وممالكنا. وعند وصولنا أذربيجان كانت العزيمة مصممة على قصد الأرمن والشام، ولكن لما تجاوزت فتن عز الدين بلبان الحد، وكان يرى غيبة الرايات المنصورة فرصة فينتهزها ويشوّش هذه الأطراف، اقتضت آراؤنا التي هي مرآة الأسرار أن تقطع أولاً أصول فتن المذكور ليخلو خاطرنا الأشرف من أمور هذه البلاد، فجهزنا فوجاً من الحشم لقصد المذكور في نصف شهر رمضان، فانهزم ودخل قلعة فيرزر (٤٥) آباد وتحصن فيها. ونحن أقمنا بحدود خلخال لأجل العلوفة إلى آخر شهر رمضان، وتوجهنا بعد العيد إلى قلعة فيزور آباد، فنازلتها ممالكنا

وعساكرنا وأحدقنا بها بحيث كان يتعذر عبور الطيور إليها وهبوب الريح من جهتها، وأمرنا بترتيب المجانيق وتقدمنا إلى كل عشر نفر من العساكر باتخاذ ماممكن من جلود البقر، فحصل في اليومين التاليين من العُدد والآلات ما لايُعد، فلما عاين أهل القلعة تلك العُدّة والاستعداد، علم بلبان أنه لايمكن خلاصه من تلك الورطة إلا بالاعتذار والاستغفار، والتجأ إلى ظل الأمان، وتمسك بأركان الملك، وتشفع بهم، ففتحت عواطفنا له باب القبول على معذرته، وسترت هفواته بذيل المغفرة لتعلم الملوك الذين يهبون الذهب والفضة، وقد انتظم بلبان منذ ثلاثة أيام في سلك مماليكنا وتقدمنا بأن يرتب في كل قلعة والياً. ولما انقطعت مواد تلك الفتن بانعطاف العنان المبارك، وأي شر لاينطفىء، وأخذ بصدر من ضميرنا الأشرف، وقد أمرنا بإعادة معتمد الملك الكبير شرف الدولة الذي وصل إلى أبوابنا العالية أعلاها الله وشُرّف بتقبيل اليد الكريمة المباركة في صحبته معتمد ديوان الوزارة، أجله الله وأكرمه وهو الأجل الأخص بهاء الدين، نجم الإسلام، عميد خراسان، أعزه الله،ليبلغ هذه البشارة ويعرّف مملوكنا المخلص الكبير الأشرف شرف الدولة والدين شهريار أرمن دام عزه وتأييده أحوال الدولة، ويعلم أنه إذا حصل للرايات المنصورة فراغ من ضبط هذه الحدود ورتب في كل قلعة مملوكاً، يتحرك إلى صوب الأرمن والشام. وعند وصولنا إلى تلك الحدود نجازي الأولياء والأعداء بالواجب وقد أحاطت علومنا الشريفة بما اعتقده جماعة المشركين ومخالفي دولتنا من التعدي على بيته، وأصبح خاطرنا الشريف ملتفتاً إلى نظم أحواله وقد انقضى وقت فراغ معانديه وحاسديه ومضت مدة استيلائهم، وسيجري عليهم من صواعق غضبنا وقهرنا وعواطف سخطنا من اليوم إلى مدة يسيرة مايصيره عِبرَة وتنقطع مدة التعرّضات لمماليكنا المخلصين، فليتصور هذه المعاني ويستظهر بأنواع من اصطناعات وأصناف ترتيبنا وقوّتنا أن يُنير بالأمر العالي أعلاه الله هذا المثال العالي الصاحبي المعظمي الصدري الأعظمي العادلي المؤيدي

- ٩٨٦٤ -

المظفري المجاهدي الفخري الذخري اليميني القامعي القاهري المنصفي المتصفي العُهْدتي العدّتي القوامي النظامي الكهفي الخالصتي، شرف الملك، كريم الأنساب والأطراف، مظهر العدل والإنصاف، ذُو المناقب والمناصب، قدوة صدور العرب والعجم، ملك ملوك وُزَراء الشرق والغرب، دينورا إيران أتوران، أصغر زماك اينانج قتلغ الثُغ ملكاً خواجا جهان لازال عالياً. الثاني عشر من شوال سنة خمس وعشرين وستمائة».

وهذه نسخة كتاب الحاجب علي بن حماد على هذين الكتابين:

«المملوك علي الأشرفي تقدّمت كتبه ومطالعاته غير مرة.

المملوكُ يعرّف أن يوم السبت خامس شوال وصلني كتاب بأن الخوارزمي عاد لكثرة الثلوج بعد أن كان بلغ إلى جبل جور وأخذ غنائم كثيرة».

وفيها: وصل قاصد صاحب ماردين إلى الكمال بن مهاجر يطلب من يصل يحلفه للأشرف، فأجمعوا رأيهم بعد مراسلة الأشرف بذلك على أن اتفق الكمال بن مهاجر والملك الحافظ وعز الدين أيبك وقابيا نائب السلطان الأشرف على محمد بن نظيف الكاتب الحموي كاتب الحافظ ووزيره والأمير شمس الدين خاص بك التكريتي يحضر اليمين، فحلفه ولم يطلب شيئاً مما كان بذله الأشرف له وقال:«الآن رأيت فعل هذا من تلقاء نفسي، فما أريد جزاء عليه».

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

والأشرف عند السلطان الكامل قبالة الامبرطور.وغلت الأسعار في الساحل ودمشق.

وفيها: تفرّقت عساكر النجد من خلاط إلى أصحابها بوقوع الثلوج.

وفيها : وقعت الأخبار بوقعة الرومي مع الأشكري وأنه استظهر على الرومي وقفز من الرومي جماعة إليه مثل ابن أخت ماتريدون، وقبض الرومي على شخص يقال له قَزَل.

وفيها: وصل المظفر غازي إلى دمشق كأنه في حجة الغزاة،واجتمع بإخوانه وعاد غير طيب. وكان السلطان الملك المجاهد صاحب حمص وأولاده عندهم وكذلك عسكر حلب وحماة.

وفيها:قفز أيدَمُر المُعظمي من عند ابن أستاذه الناصر إلى الكامل.

وفيها: استدعى الرومي المجد البَهْنسي فسار إليه بغير كتاب إلى الأشرف.

وفيها:وصل رسول أرزن الروم وهو حسام الدين بهدية إلى الأشرف ويعتذر عن ميله وحلفه للرومي.

وفيها: عاد الناصر قلج صاحب حماة من قصده خدمة السلطان الكامل مظهراً أنه قد مرض.

وكان الحاج في سنة خمس وعشرين قد انقطع من العربان وعاد أكثر الناس على الشام فوجدوا شدة من العطش على طريق أيلة ومات عدة جمال، وكان في جملة الحاج زوجة الخوارزمي التي كانت في قلعة قطور(٤٦)،وهي بنت البهْلَوان وقد كانت زوجة أزبك صاحب توريز، وأنفقت أموالاً كثيرة ومعروفاً، حجت على العراق وعادت على الشام، وكانت كبيرة السن وتوجهت أقامت عند الخليفة ببغداد وعليها منه الراتب.

وفيها: وقع الصلح بين السلطان الكامل والامبرطور على القدس، وتهادنوا وتأكدت بينهم صداقة، والذي تولى الحديث في الصلح فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وقاضي العسكر المصري، والصلاح الإربلي ومن عند السلطان الملك المجاهد الأمير صفي الدين سودان بن ابراهيم بن سودان المعروف، وكان قد طلب من يعرف علم الهيئة فسيّر إليه العلم قيصر المعروف بالحنفي المشتهر بتعاسيف، وهو أفضل المتأخرين في هذا العلم.

ثم جرى بعد ذلك من محاصرة دمشق ماجرى إلى أن وقع الصلح ومقايضة الملك الأشرف بالجزيرة للسلطان الكامل على دمشق وبعلبك وانتقال الملك الناصر صاحب دمشق إلى الكرك مابيناه وشرحناه مستوفى في تاريخنا الكبير، وأن أيبك أستاذ دار المعظم يعطى الكرك وأن الملك العزيز وأيبك يكونان في خدمة السلطان الكامل خارجاً عن تبعية دمشق وكذلك الملك الناصر.

وفيها: سيّر الكامل شمس الدين صواب الخادم وفخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الجزيرة يتسلمانها من الملك الحافظ ومن بدر الدين قايبا فوصلا وتسلماها، وخاف علي بن جرير الرقي على نفسه من قبضه فسار مع العرب في البرية وكان إذ ذاك متولي الرقة وقد كتب خطه بارتفاعها بزيادة كثيرة إلى غاية لم تكن، فخاف عند تحقيقها على نفسه، فهرب واتصل بالسلطان الأشرف بدمشق.

وفيها: وصل كتاب الحاجب علي بن حماد يخبر أن خواجا جهان وبُغدي في خوي والخوارزمي بنفسه في كرميان وإن لم يلحق الأشرف البلاد وإلا فهي غير مأمونة البقاء.

وفيها: وصل الجمال الكاتب المعروف بابن أبي دبوقة إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة في تسكين العالم عقيب الصلح على القدس.

وفيها: وصل كتاب الحاجب علي يخبر أن الخوارزمي قصد بلاد الكرج لاختلافهم ونزل على قلعة لهم يحاصرها يقال لها كاك، بقي يحاصرها مدة ثم رحل عنها عجزاً، بعد أن كان قد خرب من سورها مقدار قامتين. ووصل كتاب صاحب سُرّ ماري إلى قاضي خلاط يخبر أن الخوارزمي رحل عن قلعة كاك. ووصل كتاب الأشرف بالاستخدام، ونزل صاحب ماردين إلى حرزم يستخدم.

وفيها: في آخر جمادى الأولى عاد الامبرطور إلى بلاده.

وفيها:وردت الأخبار بعود الرومي إلى ملطية ووصلت غوّارته إلى جسر العادل، فنهبوا وخرّبوا ودخل بعضهم على الجسر ووقع بعضهم. فجمع الحافظ العربان وأيبك وقصدوهم فما لبثوا وأمر الأشرف مملوكه أيبك بالنزول إلى خلاط وحثه على ذلك، وكان مريضاً فقبل أمره ونزل إليها فلما وصلها بعد يومين أو ثلاثة وصل كتابه بوصوله، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة وصل كتابه بالقبض على الحاجب علي وذلك أنه قال:«ماوجدت في القلاع ذخيرة ولا غيرها، ولما قلت للحاجب عن هذا اعتذر عذراً غير سائغ فقبضت عليه»، ثم بعد أيام وصل كتاب مجير الدين يخبر أن الحاجب علي مات بالإسهال،وكان الأمر غير ذلك وقد ذكرنا ذلك في تاريخنا الكبير. وبلغ الأشرف هذا فقبض على أخيه عثمان وأخذجميع ماله وبقي في الاعتقال مدة ثم أطلقه وأحسن إليه وكان وصل الجمال الكاتب ومعه أيبك التغلبي ولاّه قلعة خلاط وعزلوا الزكي العجمي من ولايتها.

وفيها: نقلوا بيت الأشرف، زوجته بنت الملك العزيز ابن عمه إلى سنجار ونقلوا زوجته بنت أتابك الموصل إلى دمشق.

وفيهـا: وصـل الملك المظفـر بـن المنصـور إلى حماة يحاصرها بعسـاكـر الكامل وبـأمره والسلطان الملك المجـاهد صاحب حمص، ونقـل إليه من عنـده جميع آلـة الحصـار مثـل مجانيق وغيرهـا والـرجـالة، وكـان النـاصر صاحبها قـد تحصن غاية التحصين، ووصل السلطان الكـامل إلى سلمية بعـد ذلـك، وكـان المتـولي لحصـار حماة فخـر الـديـن عثمان أستـاذ الدارالكاملية والملـك المجاهد والملك العزيز وأقامـوا المجانيق على الباب الغـربي وهدّمـوا بعضه، وتحدث النـاصر بها يحمله إلى السلطـان الكامـل مصانعة ثـم عاد عن ذلك، ونـزل بنفسه إلى السلطان الكامـل إلى سلمية مستسلماً جريـدة تلقاه، ثم وكل عليـه وسير علامة بتسليـم حماة فما قبلوا منـه، فراسـل المظفر مـن بحماة وهـو بشير الخادم ومن كـان معه وتقـرر الحلف بينهم على ثلاثمائة ألف دينار تحمل للنـاصر وجميع ماله من خيل وعدة ورخت(٤٧) وزيت وصـابون وغير ذلك، فلما وقـع الصلح والأيمان، وأدخلوا المظفر إلى حماة، وكـان قد نقل بعض قماش الناصر وأنـزل به من القلعـة، فلما طلع المظفـر ليلة عيـد رمضـان عاد عـن ذلك جميعـه وحمل للناصر بـالتوكيـل إلى الرها، بقـي فيهامدة، ثـم لما تقرر حـال حماة وصل منشور السلطان الكامل بها للمظفر.

وفيها:وصـل الحافظ بأولاده إلى سلميـة إلى الكامل، فتلقـاه وأحسن في حقه وتوجه إلى الجزيرة فعبر من قلعـة جعبر فحمل إليه مفاتيحها على يد أصغر أولاده فقبلهـا، ثم أعادهـا إليه وأعطاه ألف دينار، وجـرى في هذا وغيره مالايليق ذكره هاهنا لما شرطناه من الاختصار.

ولما وصل الكـامل إلى الرّقة بقـي يوميات ثم سار إلى حـرّان أقام بها، ووردت عليه الـرسل من الأطـراف جميعها ففيهـم من قبل منهـم ومنهم من لاقبلـه. ووصل إليه الملـك المعظم صاحـب الجزيرة فتلقاه وبـالغ في إكـرامـه واحترامـه، وأعطـاه عطـاء كثيراً فيـه في جملتـه عشرة آلاف دينـار مصرية خـارجاً عـن قماش وخيول وغيرهـا. ثم عـاد بعد مـدة إلى بلاده،

ووصل أيضاً المظفر صاحب حماة فأحسن تلقيه، وكتب مهر ابنته عليه وكان صداقاً مشهوداً.

وفيها: وصل رسول صاحب إربل يشير بأن يسيّر السلطان الكامل رسولاً إلى الخليفة في نعي البيت المقدس والعذر عنه، فقال الملك الكامل:«نحن مماليك هذا البيت المقدّس وآباؤنا وخدماتنا له معروفة مانُرائي ولانماذق» ثم بعد ذلك جهز فخر الدين ابن شيخ الشيوخ رسولاً إلى الخليفة.

وفيها: وصل كتاب من خلاط يخبر بأن الخوارزمي قد أحاط بها وضايقها من كل مكان، ووقع بينهم القتال وربحوا الخوارزمي مازالت كتبه تصل تارة بقوة الخوارزمي، وتارة بقوتهم عليه، وطالت مدته وأكلوا جميع ما في خلاط، وعدم كل شيء عندهم، وأكلوا لحم الكلاب والحمير والبغال وغيرها والخطمي والأشراش وجلود اللوالك، ينقعونها ويأكلونها، وانصب عليهم عدة مجانيق وخرّب السور وبنوا بطانة له، وصبر أهل خلاط وصابروا وكان الخوارزمي عزم على المسير عنها فقفز مملوك للزكي ابن العجمي الذي كان بها والياً إلى الخوارزمي وعرّفه ضعف البلد، وأنه مابقي فيه خمسون فرساً، فعاد عن رحيله وشد القتال، وتوهموا في الزكي أنه سيّر مملوكه قاصداً فأعدموه نفسه أيضاً، ثم وصل رسول الخليفة إلى الخوارزمي وسأله الرحيل عنها وتقرير الصلح فما وافق عليها. وقال:«هؤلاء قد فنيت رجالي عليهم وأموالي عليهم وماكفى هذا حتى يشتموني أقبح شتيمة،لأصابرنّها حتى آخذها عنوة». ثم حفر له السرابات وقطع الأشجار وعملوها بيوتاً، وصارت دوابهم تأكل الأشجار ولم يزل كذلك إلى أن أخذها وقيل بعَمْلَةٍ من ابن محسن دَلْدَرُمُ ورفيقه، وكان قدوصل إليه صاحب سرَّ مَارَي المقدم ذكره، فأعطاه أرجيش والآل[٤٨] .وكان وصله صاحب أرزن الروم وهو حمل إليه جميع المجانيق وغيرها، وكان الرومي قدسيّر إليه هدية عظيمة من جملتها خمسمائة فرس

وعشرون مملوكاً كبارا بعدتهم وعدة خيولهم خارجاً عن تلك الأفراس، وكان غرضه، كما قال، الصلح بينهم. فقال لرسوله:«رسولي يصل إلى الرومي» ،فعاد بهذا القول، ثم بعد ذلك سير الخوارزمي رسوله إلى الرومي بمائة وعشرين فرساً ، فأحضره الرومي وماقام له ولاتلقاه أحد من عنده، بقي أياماً ، فلما كان وقت وداعه ماقام له وأعطاه يده باسها وكلمه منه إليه، وعادة الرومي أن لايكلم أحداً ، وقال له:«إذاأنكر صاحبك هذا التلقي لك وقلّة الاهتمام فقل:إن هذه عادة أبي مع أبيك وجدّي مع جدّك» وودّعه.

وأما عز الدين أيبك ومجير الدين بن العادل والأمجد تقي الدين عباس وجماعة فطلعوا إلى القلعة، وبعد ذلك صعد حسام الدين القيمري، بقوا يوييات، ففرغ ماعندهم. وأما الخوارزمي فإنه وَفَى لأهل خلاط ،وقتل من قتل ونهب من نهب، ثم أفكر في القلعة والعجز وأنه يأخذهم عنوة، فوقع رأيهم على أن يستأمنوا، فأمنّهم الخوارزمي، وأول من نزل إليه تقي الدين عباس، فأكرمه وأطلق أنفسهم من القتل، وحاسن أيبك بحيث لعب معه بالأكرة، وشرب معه. وهذا كله خديعة لعله يحصل على تسليم باقي القلاع، وقال له:«تسير تسلم إليّ ملازجرد» فسير إلى من فيها، فما التفتوا إليه، وكان فيها بهاء الدين صاحب السويداء، وفتح الدين بن دَلْدُرم الياروقي، وعدة مماليك. وقالوا:«ومن أيبك وغيره هو مملوك مثلنا، ومهما وصلنا خط صاحبنا عملنا به».

وفيها: ظهر وطلب خوابي في ملطيّة عدتها سبع خوابي في سرداب.

وفيها: توجه فخر الدين عثمان إلى بعلبك ليأخذها بمن معه من العساكر التي كانت تحاصر حماة، بعد رحيلهم عن حماة.

وفيها: وقع برد وصواعق، فنسفت برد كبار بمنبج، وآذت جماعة، وذلك في أيلول.

وفيها: خطب صاحب ماردين للكامل، وعاد عن الرومي وضرب السكة باسمه.

وفيها: كان الكامل قد توجه إلى الرّها، وعاد منها بعد نظرة في أحوال قلعتها وأمر بعمارة جدّدها فيها.

وفيها: عاد العزيز من بعلبك وتولى حصارها أخوه الصالح إسماعيل.

وفيها: في ذي الحجة غارت الفرنج على بارين، وأخذوا جملة من مواشٍ ورجال ونساء وغير ذلك وست قرايا بجميع من كان فيها، ولم يكن الملك المجاهد بحمص، وكان بتدمر هو وأولاده، فلما سمع هذا عاد غائراً من طريقه، وسيّر عرّف السلطان الكامل فشق ذلك عليه.

وفيها: أمر الأشرف بعمارة قلعة زلبيا بعد أخذها من الحافظ.

وفيها: كان قد جهّز الكامل الناصر وأطلقه من حبس الرُّها، وقال له:«بارين لك تروح إليها» فلما وصل قنسرين وجد أخاه المظفر قد توجه إليها من حماة يحاصرها، فأقام موضعه، وسير عرّف الكامل، فأنكر ذلك، ثم بعد ذلك سار إليها ودخلها.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

والسلطان الكامل بالجزيرة، والخوارزمي بخلاط، والأشرف على بعلبك يحاصرها.

وفيها: وصل بحرّان رسول الامبرطور إلى الكامل، وعلى يده كتب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ بما نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه ترجمته: قيصر المعظم امبرطور رومية فردريك بن الامبراطور هنريك بن الامبرطور فردريك المنصور بالله المقتدر بقدرته، المستعلي بعزته، مالك ألمانية ولمبردية وتسقانة وإيطالية وانكبيرده وقلورية وصقلية، ومملكة الشام القدسية، معز إمام رومية، الناصر للملة المسيحية.

بسم الله الرحمن الرحيم.شعر:

رَحَلْنَا وَخَلَّفْنَا القُلُوبَ مُقِيمَةً
تَخَلَّتْ عَنِ الأَجْسَامِ والجِنْسِ والنَّوعِ
وآلَتْ عَلَى أنْ لا تُخِلَّ بِوُدِّكُمْ
مَدَى الدَّهْرِ وانْسَلَّتْ تُنَكِّبُ عَنْ طَوْعِي

لو ذهبنا إلى وصف مانجده من عظم الشوق، ونكابده من أليم الاستيحاش والتوق، إلى المجلس السامي الفخري أدام الله أيامه، وسرمد أعوامه،وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وإكرامه، وأجرى على سبيل النجاح مرامه، وسدد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه، وجدد مع الجديدين سلامه،للزمنا في الخطاب شططا، وجدنا عن الصواب غلطا، إذ منينا بروعة استيحاش؛ بعد سكون وإيناس،ولوعة فراق، في إثر غبطة واشتياق، فرأينا السلو ممتنعاً، وحبل التجلد منقطعاً، ومأمول التباسك قد عاد، وشمل الاصطبار مُنصدعا:

وَقَدْ كُنْتُ لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ فِرَاقِكُمْ
وَبَيْنَ حِمَامِي قُلْتُ يُدْرِكُنِي نَحْبِي

وتخاله، أكرمه الله، ملّنا، واعتاض بغيرنا، واختار فراقنا، وتناسى ودادنا، فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب:

إذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا
أَلاَّ تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ(٤٩)

وبعد، فعلمنا أنـه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنـا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البـابا—باء بالغدر والخديعة— أخذ إحدى قـلاعنا المنيعة تسمى منت قسين، أسلمها لـه أبّاطها اللعين، وعند ذلك رام المزيد، فلـم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لـرجوعنا السعيد، فـاضطـر إلى أن زعم أننـا متنـا، وحلـف القـردناليـة على ذلـك وعلى أن رجوعنـا مستحيل، وراموا خـداع العامة بمثل هـذه الأباطيل، وأنـه ليس أحد بعدنا يحسن حـراسة بلادنا وحفظها برسم ولدنـا مثل البابا، فلإيمان هؤلاء الـذين هـم أئمة الديـن وخلفاء الحواريين، انخـدعت جماعـة من الطغام والمفسدين، فعنـد وصولنا إلى ميناء برنديس المصـونة، ألفينا الملك جُـوَان واللمبرديين في الـدخـول في ملكنـا معانـديـن، وقـع خبر ورودنـا متشككين ، لما قرره القـردناليـة عندهم بـاليمين، وكتبنا ورسلنـا بوصـولنا سالمين. داخـل أعداءنا الجزع، وحل بـه الروع والفزع ونكصـوا إلى ورائهم خـاسرين مسـافة يـومين ، وارتـد أهل طـاعتنـا إلينا طـائعين، وكذلـك اللمبرديين الذين كـانوا معظم عسكرهـم لم يرضوا لأنفسهم أن يـوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبـارهم أجمعين، وأمل الملك المذكـور وأصحابـه، فـأحاط بهم الحيـاء والخوف، واجتمعـوا إلى موضـع ضيق يخافـون الانصراف عنه، والخروج منه، بل لايقـدرون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قـد عادت لنا وإلى طاعتنا. ونحن في خـلال ذلك قد جمعنا عسكراً مـديداً من الألمانية الـذين كانـوا معنا في الشام، والذيـن انصرفوا قبلهـم ورمتهم الـريـح إلى بـلادنا وغيرهـم مـن أمنـائنا ورؤسـاء دولتنـا، واستعددنا نجدّ السير إلى بلاد أعدائنا.

وبعد فمّما نؤثر من المجلس مواصلـة كُتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحـاجاتـه، وأن يقري سلامنـا على جميع أكـابر العسكـر وغلمانه ومملوكيه ودخلتـه، والسلام عليه ورحمة الله وبركـاته. كتب ببرلتّ المصـونة بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسّو للأندقتنس الثاني».

وهذه نسخة الكتاب الثاني. الترجمة كالأول:«فيه من الأخبار بما نشعره به. أنا قد جمعنا عسكراً كثيراً، وأنا نجدّ السير إلى قتال من هم بانتظارنا، ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ونصبوا عليها المنجنيقات وماشابهها من الدبابات والآلات، فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم وبيننا، لم يتمهلوا إلي، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهزموا هاربين أمامنا، ونحن نجدّ السير في طلبهم وتفريق شملهم، وتبديد جمعهم، وطلب البابا حيثما وجدناه، وردّه خاسئاً على قفاه، نادماً على مانواه، ومانجده من الأخبار فنحن نكاتب المجلس إن شاء الله».

الغرض من إثبات هذه الكتب تحقيق ممالك هذا الملك الأمبرطور وقدرته، فما ملك من النصرانية مثله من زمن الإسكندر وإلى الآن، لاسيما قدرته وإهماله لخليفتهم البابا وقصده له واطّراحه إيّاه.

وفيها: وصل إلى الكامل بحرّان شخص يقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرّمان من جزيرة صقلية، من أهل مشايخ غلو من جبال صقلية، وهي غير ماهو على رأس صقلية مُطل على البحر، والجزيرة كلها بيد الامبرطور، إلا هذه الجبال التي فيها القلاع الخارجة عنه التي فيها هذا الرجل المذكور، وهن غلو، وجنش، وجاطو، وأنطلة، وغلو خراب وأهلها في الجبل، والباقي عامرة.

وسبب وصوله أن الامبراطور غدر بأصحاب الجبال هنالك،وعدّتها أحد عشر جبلاً ، فيها هذه الحصون المذكورة، وذكر هذا الحاج المذكور أن الامبرطور من جملة من أخذهم إلى البر الكبير، وأخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالهم ، مائة ألف وسبعون ألفاً، وقتل من الشطار مثلهم، وخلت هذه الجبال. والذي يطلب من السلطان الكامل ردهم

إلى أوطانهم، فـان كان الامبر طـور لايفعل، فيمكنـا من الخروج إلى ديـار مصر ولايؤذي أحداً».

فكتب له السّلطان الكامل كتابـاً إلى الامبر طور بذلك وسار عائداً من حران.

وفيها: حلف الكامـل للعزيز صاحب حلب دون أتـابكه، وسيّر التاج ابن الصفي بن شكر إلى حلب حلّف العزيز له.

وفيهـا: كـان سيّر السلطـان الكـامـل القـاضي الأشرف بـن القـاضي الفاضل رسولاً إلى الخليفة، وعاد إلى الـرقة أقام. وسيّر فخر الدين عثمان يحث الأشرف على وصوله إلى الجزيرة.

وفيها: سيّر الرومي يخبر السلطان الكامـل أنه قد سيّر خمسةعشر ألف فـارس إلى أرزنجان وعشرة آلاف إلى ملطية، وأنـه حيث يـأمـره الكامـل، فطاب قلب الكامـل بذلك، وكان الرومي قد سيّر حلّـف الكامل وحلّفه الكامل بـالشهاب أحمد والجمال الفقيه الإسكندري مـدرس الشافعي رحمه الله بمصر.

ووصل ا لخبر بـأن رسول الخليفـة واصل مـع ابن الفـاضل،فـرتبوا لـه إقامة من رأس عين الخابور،وأخلوا دار أتابك في الرقة فنزل بها.

وفيها: في العشر الأخير مـن ربيع الآخر تسلم الأشرف بعلبـك وعوض صاحبها بخبز وداره بدمشق، واستخدم أولاده.

وفي الشهر المذكور وصل الأشرف إلى السلطان الكامل بالرقة.

وفيها: وصل مانع وغنّام وبذلوا من أنفسهم ورجالهم الخدمة للكامل.

وفيها أورد الكمال كيميار رسالة الرومي التي كان سيرها إلى الخوارزمي، بمحضر من الملوك الكامل والأشرف والحافظ وغيره ورسول الخليفة محيي الدين بن الجوزي وماقاله له. وهي أنه قال له: «المولى من بيت كبير ومازلتم ماشين الحال إلى أن غيّر والدك نيته، وخبط على نفسه، فآل به الحال إلى مآل، والآن فقد فضلت هؤلاء بيت أيوب. وتجنيت عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصل من سنين، ولهم الإحسان الى الجند والرعايا والمجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقوة؛ وأنت فلا أموال ولا رجال ولا قوة، وبلادك خربة، ونحن نعرف حالك أكثر منك، ولاتظن أني عدوهم، لاوالله، بل صديقهم ونسيبهم بمابيننا من الأهلية والمصاهرة واختلاط الدم، ولعمي معز الدين منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولاشك جرى بيننا قضية عاتبتهم عليها وعدنا إلى ماكنا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحك، فتصالحهم وتعتد بهم أصدقاء ، فنحن.نعرف ماوراءك من الأعداء، يعينونك على عدوك، ويقع الاتفاق وشأنك وشأن الكرج وغيرهم، وهذا نصحي لك، فلا تغتر بمن يكاتبك ويحلف لك فكله زور وتدفيع للأوقات، وقد والله قلت جميع مايلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجوا ب أن قال لرسولي: عد إلى صاحبك والجواب يصل مع قاصدي».

وفيها: وصل خادم من حلب إلى الكامل يخبر أن العزيز جاءه ولد ليلة الاثنين العاشرجمادى الأولى من سبع وعشرين وستمائة.

ولما ملك الخوارزمي خلاط كانت رسل الديوان عند الكامل بالرقة، وصارت الرسل تتردد بينهم وبين السلطان الكامل، وحلف الكامل للخليفة في الرقة بمحضر من السلاطين وباقي الجماعة وحضور بهاء الدين مروان بن قابيا رسول السلطان الملك المجاهد، وخلع عليهم وعادوا إلى بغداد، وسيروا في الماء من الرقة إلى بغداد شَبَّارة، معرفة بما جرى قبل وصولهم بأنفسهم.

وفيها: مات الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر رحمه الله،كان كريماً جواداً شجاعاً، هو أول من سنّ القندس العريض الجامكية وجراية الخبز واللحم وحوائج طعام وغير ذلك، من بني أيوب، دُفن بحرّان.

وعند تمليك الخوارزمي خلاط سيّر هدية للخليفة أرمغانـا ابن العادل تقي الديـن عباس في قيوده إلى العراق، فلما وصل بغداد أزيـل ذلك عنه وأكـرمه الخليفـة، وبقي عنـده إلى أن كُسر الخوارزمـي ووصل الكمال بـن المهاجـررسولاً مـن الأشرف، فسيره الخليفة صحبتـه وأعطاه عطـاء عظيماً، وأمّره، وأعطاه جميع مايحتاج إليه مثله، وفي جملة الحوائج الحطب والكُزبرة والبصـل وغيرهـا، وعـاد مـع الكمال بن مهـاجـر إلى أرجيـش بعـد كسرة الخوارزمي.

وفيهـا: قويـت حـركـة الكامـل إلى الـديـار المصرية، وتحدث بـذلـك بمحضر مـن رسـل الـديـوان، فما أعجـب الأشرف هــذا ولا الجماعـة، فقال:«لابـد لي من هـذا وأعود سريعـاً بالخزائن والـرجال، ولابـد لي من فتح العجـم». فما قدر أحـد على منعه من قصـده. وكان وصـل إليه خبر مـوت ولده أقسيـس صـاحب اليمـن، وهو بحـرّان، فما أشـاعه وكتمـة، ولاخاطبـه أحد بعـزائه. وقد كـان فيها شخـص يقال لـه ابن رسـول من أصحابه تقدم عند الملك المسعود أقسيس وعظم، فلما مات حفظ اليمن، وقيـل له في تسليمـه إلى من يعيّنـه الكامـل فـأبى وقـال:«لاأفعل لأننـي محلـف لابـن أستاذي بـأن الأمـوال يصـل مـن يتسلمها،ويسير ديـوانـاً لذلك، ماعدا ولاية القلاع، فلا أمكن منها لأنها لابن أستاذي».

وقـرّر[الكامـل] مع الأشرف مـايفعل مـع الخوارزمي مـن الاتفاق مـع الرومي ثـم توجه.

وفيهـا: بعد مسير الكـامل وصـل حسـام الديـن القيمري زوج أخـت

الأشرف هارباً من خلاط إلى الرقة، وحكى عن ضعف الخوارزمي وقلة من معه وأنهم غير عاجزين عنه، فسيره إلى الكامل في بعض طريقه بدمشق فعرّفه ثم عاد.

وفيها: وصلت كتب أيبك بتشديد الخوارزمي وفي عزمه خنقهم بعد هربة القيمري لحنقه و«أن الخوارزمي توجه من خلاط ونحن صحبته إلى بلاد ملازجرد».

وفيها: وصل إلى الأشرف بعد مضي الكامل الغرس خليل، والزكي بن السكري الحموي رسلاً من السلطان الملك المجاهد يخبرانه خبر الصلح مع الفرنج وصحبتهما سيمون رسول بيت الاسبتار.

وفيها: توجه ابن كريم الدين الخلاطي إلى الرومي وحلفه له وعاد من عنده وصحبته الكمال كيميار من الرومي، مضمون رسالته أنه قال:«مخدومي السلطان علاء الدين كيقباذ يخدم المولى، ويقول له: محبتي ومودتي وصداقتي ماتغيرت بل زادت، وإنما لعن الله من كان السبب، ولايحسب المولى أنني[ما] ذكرته في نجد السلطان الكامل إلا لتأكيد مودة وغرض أبلغه. والآن فبلادي وأموالي بحكمك، فتصل قولاً واحداً بالعساكر إلى قُرْشِهر، وتنجرد وحدك وتصل إلى عندي بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك،ونصل أنا وأنت إلى العسكربالعساكر، فوالله لاقنعت لك بخلاط، بل بجميع البلاد».

ثم عاد وصل كتابه إلى كيميار يقول له:« لاتجيب الأشرف إلا إلى سيواس حتى لايتعب ويبقى العسكر في قر شهر». ومعه نسخة يمين فإن لم يصل الأشرف بنفسه قبل عساكره. قال الأشرف:«ماأحلف بهذا اليمين، بل أنا أصل بنفسي جريدة إلى خدمته».

وفي شعبان من السنة توجه الأشرف إلى الرومي جريدة وصحبته

كيميار، فوصل إليه بسيواس، فتلقاه وسرّ به، وتبعته العساكر الشامية، فلما وصلوا خرجوا إليهم إلى الملّوحة (٥٠)، وتلقوهم فأنزلهم مواضعهم، وحمل لهم من الإقامات والتقادم النفقة مالاً عظيماً في مرتين، عند وصولهم إلى سيواس وبعد كسرة الخوارزمي بأرزن الروم بحيث حمل إلى الأشرف أربعمائة ألف درهم سلطانية وعشرين ألف مكوك غلة وعشرة آلاف رأس غنم، ولإخوته على طبقاتهم مايناهز مائة ألف درهم لكل واحد، وعدة خيول وبقج من أثواب ومراكيب وغيرها، وكان ذلك عظيماً، وأقاموا عنده بسيواس سبعة أيام.

وفيها: وصل الخبر بوصول السلطان الملك المجاهد من حمص، وأسرّ الأشرف بذلك، وعاد وصل الخبر بعوده بسبب أشياء جرت فعاد من بلد حلب، وأن ولده السلطان الملك المنصور إبراهيم ولي عهده واصل بعسكره، وأحضر الرومي زوجته ابنة العادل من قيسارية إلى سيواس، أبصرت إخوتها، وقدموا لها وقدمت لهم أشياء، ولعبوا معه بالأكرة غير مرة، وبالغ الأشرف في خدمة الرومي، بحيث أنه كان يبوس له الأرض فلما يخدمه الرومي على ذلك، وتعاظم عنهم الرومي تعاظماً زائداً بحماقة، ثم سمعوا بحركة الخوارزمي إلى أرزن الروم، وأن الخوارزمي كان مريضاً، وأبلّ من مرضه، حتى إنه لولا مرضه كان سبق إلى البلاد الرومية وحصل على غرض منها، وهذا كان من لطف الله، فتجهز الرومي والأشرف وساقوا إلى لقائه، وسير صاحب الروم إلى عسكره بأرزنجان يستدعيه، ولم يعرف الأشرف بذلك، وكان قد وصل من أخبر أن الخوارزمي قد وصل، فنزل في مرج يقال له ياصجمن، وسار الرومي طالبه، فلما قارب ذلك المرج وبلغ الخوارزمي وصول عسكر أرزنجان إلى صاحبهم، جرّد سبعمائة فارس، التقتهم فقتلوا منهم عالماً ماينـاهز ثلاثة آلاف فارس، ونهبوا وأسروا خلقاً، وبقي الغبار طالعاً، وفي الأخير عُلم ماالسبب. فشق على الأشرف ذلك وقال:«ليت كان المولى عرّفنا بطلبهم، كنا لقيناهم». وخجل الرومي. وفي ذلك اليوم كان وصول السلطان الملك

المنصور ناصر الدين ابراهيم بن السلطان الملك المجاهد بعسكره، فتلقاه الأشرف والملوك، وسُرَّ به سروراً كاملاً، وفي صبيحة تلك [الليلة] ركب العساكر وأشرفوا عليهم من رأس ذلك المرج، وطاردتهم العربان، وأخذوا منهم عدة خيول وقتلوا جماعة، وذلك في ثامن وعشرين رمضان، ثم ساقت العساكر وطلبوا العقبة المطلة على منزلة الخوارزمي، ورتبوا الميمنة والميسرة، والرومي هو الدُّبَنْدَار (٥١)، وله الميمنة والميسرة، والأشرف في القلب، وله الأجنحة وغيرها كما جرت عادة تعبئة العسكر، وكان مع الرومي من الخلائق ماطبق الأرض وملأها من التركمان والأرمن والفرنج والمسلمين وغيرهم من الشاميين، فكان من جملة أجنحة الرومي أرتق شاه ابن صاحب خرتبرت، ومن أجنحة الأشرف الملك المنصور ابن الملك المجاهد صاحب حمص. وكان يوم الجمعة. وألبس الخوارزمي في قتالهم ورتب جماعاته، فلم يزالوا كذلك كل في قبالة صاحبه إلى الليل، وكان الخوارزمي قد أخفى أصحابه في الأودية نكداً منه، وطلع بنفسه على الجبل، وطمع الأشرف وساق وملك عليهم أكثر منزلتهم. فلما كان الليل عاد الأشرف والرومي إلى منازلهم، ورتبوا اليزكية كما جرت العادة، ثم قوي عزم الخوارزمي على كبسة العسكر، وقفز إليه جماعة قالوا له: «ان الرومي والأشرف قد خافاك وتأخرا عن ذلك التل». فقوي عزمه أيضاً، ثم عاد أفكر، فما قويت نفسه على الكبسة. فلما كان صبيحة تلك الليلة تعبأ الخوارزمي والأشرف والرومي وكان في قلب الشاميين عسكر حلب وعسكر الجزيرة: صواب، وبعدهم المظفر غازي، والملك العزيز، والأشرف والرومي بعدهم. فوقع الجاليش، فظهر أصحاب الخوارزمي وشالوا ميسرة الرومي ثم عادوا على الخوارزميين ثم عاد الخوارزميون ثانياً فكسروا الرومي، فأردف الأشرف الميسرة بأخيه الحافظ والرومي بصاحب خرتبرت، ووقعت الواقعة، وعمل الملك المنصور ابن الملك المجاهد ذلك اليوم عملاً عظيماً، هو وأصحابه، وفقد جماعة منهم دون باقي جمع السلاطين، وذلك لنشبه بما كان فيه من دون غيره، فلما عاين من مباشرته

الخوارزمي كثرة العساكر وقوتها وشدتها أيقن بالغلبة، فأومأ بيده يمنة ويسرة وقلباً، وساق منهزماً بجماعة يسيرة، من جملتهم قلج الخادم الذي كان يحبه ، ورُمي جماعة من أصحاب الخوارزمي، منهم صاحب ألتي وغيره من الخانات وصاحب أرزن الروم وأخوه وصهره، وأحضرهم إلى الرومي، وتفرق الخوارزميون في الجبال والأودية والشعاب، وبلغوا إلى درابزون، وفي ذلك الوادي شقيف وقع فيه مايناهز ألفاً وخمسمائة رجل وأبغال بأحمالها وجمال، وصار الناس يطلعون منه الأجمال والأبغال بأحمالها، وفيها الجواهر والكساوي والذهب والأطلس وغيره، وكأن معظمه كان خزانة للخوارزمي أو لأصحابه من خواصه. وبقي في الطريق من العدد والآلات والأقمشة مالايوصف. وكب الناس ومسك العربان جمدارية الخوارزمي ومعهم أثوابه وتلاكشه (٥٢) جميعها مطرزة.وأما الخوارزمي بنفسه، فإنه في يوم وليلة بلغت هزيمته إلى خمربرت بات بها ليلة. ودخل الحمام هو وقلج الخادم، وسار إلى خلاط واجتمع بخواجا جهان وزيره وعرفه صورة الكسرة، وكان خواجاجهان يحاصر ملازجرد، وقد أشرف على فتحها فسار عنها وترك طعامه في القدور. وحمل الخوارزمي بقية أثقاله وبيته وتوجه إلى العجم. وكان علم الدين سنجر الألفي الأشرفي مقيماً ببدليس، فضرب على الأمير اختيار الدين قبض عليه لأنه ماكان بلغه كسرة الخوارزمي، ولو كان مع تقدير الله تسوق العساكر خلف الخوارزمي ماكان يسلم، بل ظنوا أن له عدة أمكنة، لأنه انكسر من غير قتال. فقالوا:«هذه خديعة مانثق بكسرته».

ثم عيَّد الناس عيد الفطر، وخلع الرومي على الأشرف وعلى باقي الجماعة، وساقوا إلى أرزن الروم، وكل الجماعة قلعوا خلعة الرومي إلا الأشرف لبسها عدة أيام، وقد جافت الأودية والجبال من رمم الموتى وأركب الرومي صاحب أرزن الروم وأخاه وصهره على أبغال تبن بفردات التبن بالقيود، وساقوا بهم، فسبحان مالك الملك، وكذلك من كبسوه من جماعة الخوارزمي، منهم مشاة وركبان والتواكيل عليهم، وكان قد وصل

رسـول آمِد مكـاسرة ويطلب أن يُحلـف لـه. فقيل لـه: « تخدم صاحبك وتهنّيه بهذه الكسرة التـي تعزّ عليه» فكتبـت الكتب إلى الكامـل والخليفة وجميـع الأطـراف، ووصلـوا إلى أرزن الـروم، ونـزلـوا عليهـا، وأحـاط بها العسكر، وشرعوا في قتالها، وأظهروا العصيان والممانعة أول يوم، وقوتلوا من جماعـة بعض قتـال، ثم سيّروا سراً إلى الأشرف فقـال لهم:«أنا أدخـل في الكفّ عنكـم ورفع الأذى من السلطـان عنكم». وأرسلـوا الرومي بـاطناً، ودخـل إليهـا بكرة هـو والأشرف، وإخـوتـه، والملـك المنصور صـاحـب حمص، إلى قصرها وذلـك يوم الثـلاثاء، ووقـع العوض عنهـا، وحلف لـه الرومي بالسلامة على نفسه—أعنـي لصاحب أرزن الروم— وأخذ زوجته أخت صـاحبها، وكـان قد منعـه منها، وأقـاموا يـوميات هو والأشرف في أكـل وشرب ولذةووداع وتقـرير ممـالك، وأجـرد الرومـي مع الأشرف مـن عسكره خمسـة آلاف فارس قـدّم عليهم نجـم الديـن الجاشنكير، وودّعه، وسـار الأشرف، وقد أعطـاه جميـع العَجـل التي كـان عليهـا الـزردخانـاه بإيفـادها ذخيرة لخلاط، وعـرض القلاع التـي كانـت الكرج أخـذتها من خلاط، وهـي جملة، فما أخذ إلا قلعة التـي لاغير، وهي أجودها، ثـم سار ووصل إلى خَربرت فعرّفـه أهلها بوصول الخوارزمي وأن قلج كـان مريضاً ودخل هو وهو الحمام، ثم سار إلى ملازجـرد فتلقاه من كان بها من أهلها وعسكره، وسيّر إلى خلاط رتبهـا ورتب والياً وديوانـاً الشهاب أخا الجمال الكاتب، ثم بقي ثلاثة أيـام وسار إلى أرجيش، فتلقاه من بها ووصل إليه فيها الملك المعظم صاحب الجزيرة، فكرمه غاية المكارمة.

وفيهـا: وصل الكمال بـن المُهـاجر وصحبتـه الملـك الأمجد عباس بـن العادل وتلقوه كما جرت العادة.

وفيهـا: رتب الأشرف اليـزك، وذلك أن خـواجاجهـان كان قـريباً مـن بيكري، والخوارزمـي في خويّ، وكان قلـج الخادم المقدم ذكره الـذي يحبه الخوارزمي قـد مرض مرضـاً شديداً فمات بخـوي وجرى عليه منـه أعظم

من كسرتـه، كان مليـح الصورة إلى نهايـة، وبقي أيـاماً لايـركب ولايـراه أحد، وقيل إنه قطع بعض شعره عليه لحزنه.

وهـمّ الأشرف في عبوره بـلاد العجـم ليبلغ أولئـك، وتـارة يقدم وتـارة يحجم، واتفق أنه أحضر اختيار الدين المقـدم ذكره، وطيّب نفسه وفاوضه وقـال لـه:«كيـف نعمـل بجلال الـديـن»؟قال:«إذا أذن للمملـوك قـال ماعنـده»،ثم تركه وأحضر مـن كان عنده من أسراه مـن الخوارزميين يقال له جُتر خان وأعطـاه أماناً وقال:« تمضي إلى جـلال الدين تعرّفـه إحساننا إلى من عندنـا منكم من الأسرى ومالكـم من راتب ونفقة وحـرْمَة ليفعل مع من لنـا عنده كذلك» فسـار إليه واجتمع به فطلـب الخوارزمي رسولاً من الأشرف ليحـادثه، فلما عـاد جتّرخان وذكر قـوله وطلبـه، قال الأشرف لجُتّرخان:«مـاعندنـا مثلك وأنـت أميننا ونسمـع ماتقـوله». فلما عـاد إليه وعرّفـه، قال له:«تقـول للأشرف ياخوانـد، أنا ماأسـأت أولاً، ولاشك أني سيّرت المجير قاضي الممالك إليكم فما أحسن السفـارة، وأفسد بيننا، ومع هذا فقـد كنت طلبـت المسالمة مـا أجبتم إليهـا، ودخل الحاجـب بلادي وخرّبها وأخذ حرمـي، وفعل ماقد علمتموه. وطلبت الصلـح مافعل، ثم ولي بعده أبيـك طلب الصلح مافعـل وجرى ماجرى بقـدر الله وقضائه وعندي الآن ملوك وعندكم مماليـك، فإن اخترتـم الصلح بسم الله». فكان جواب الأشرف لجترخان بـ«أن تخدم عني المولى السلطـان وتقل: ياخواند أنت سلطـان وابن سلطان ومـاأردنا لك سُـوءاً وقد بالغـت فيما فعلته في بلادنـا من خـراب ونهب وقتل، والـذي كان قصـد بلادك، كما زعمـت؛ فقد قابلناه على فعلـه، وأنت فما أبقيت في سوء المعاملة وإراقتـك الدماء فبلادنـا قد خربت فصلحنـا على أي شيء يكون، فإن أردت ذلك فـانزل عـن هذه البـلاد التي مـاكانـت لـك ولا لأبيك، لنعمـر نحن بـالعامـر الخراب. ونحـن فما اشتهينـا نتمـم أذيتك، لأن خلفـك أعـداء كثيريـن، وأنت أبتر، فهـذا موجـب إبقائنا عليـك رحمة. وأما قـولك: عنـدك ملوك وعندنامماليك،فالذي عندك مماليك أيضاً. وأخي مجير الدين أقدّر أنه قد

مات، ولي عدة إخوة وأولادهم جماعة، وأهلي مايناهز ألفي فارس من بيتنا، ولي من يكفلني ويخلفني ويكفيني ماورائي، وأنت فمالك أحد». وسيّر جُترخان إليه في الجواب، وكان خواجاجهان نازلاً بمنوشهر (٥٤) .

فيها: كما تقدم كان وصل الكمال بن مهاجر وصحبته تقي الدين. وحكى أن زوجة الخوارزمي، التي كانت عند الخليفة، كان قد جهزها إليه قبل الكسرة، وأعطاها عطاء لم يُسمع بمثله، وسلمها إلى رسل الخوارزمي الواصلين إليه بسببها، بعد أن توثق لها منه غاية التوثق، فلما وصلوا إلى إربل، سمعت بكسرة الخوارزمي، فقالت:«مابقيت أروح من هاهنا، إلى أين». فجهدوا بها، فأبت. فقال صاحب إربل لغلمان الخوارزمي:«تروحون من عندي، وإلا إن طلبكم الأشرف ماأقدر أحميكم». ثم نفاهم من عنده، وعادت زوجة الخوارزمي إلى العراق أقامت به.

وفيها: طلب المظفر غازي من الأشرف أرزن، فأنعم عليه بأخذها ورسم بتوقيعها، ووصل قاضي أرزن ابن الشهرزوري العماد بهدية إلى الأشرف وتهنئة بالكسرة، ويعتذر بمرضه عن تخلفه، فقبل هديته وقال له:«حديثكم مع أخي المظفر، إن رضي فلا أي كلام» فلما توجه هذا القاضي المذكور إلى المظفر اعتقله يومين ثم قال له:«هذه أرزن لي مابقي فيها كلام، والمصلحة تسليمها إليّ، ونعطيه مايتبلغ به بقية عمره». وزوجة صاحب أرزن ابنة الأوحد بن العادل فما رعيت في ذلك، ثم إن المظفر سيّر إليها حاصرها، ونصب مجانيق عليها، وسير الأشرف الجمال الكاتب إلى صاحبها فما أجابه، فلما تواتر الحصار وعاين أخذها وعجزه، قال صاحبها:«ماأسلمها إلا إلى الأشرف، وثوقاً بأنه ربما أبقاها لبيته وكبره ولأخته ولخدماته، حتى إنه أسر بخلاط ومشى مدّة مع كبره راجلاً في ركاب الخوارزمي.

وفيها: سيّر الأشرف شمس الدين التكريتي إلى الكرج وإلى صاحب الدَّربند شروان. فقال له شروان:«تعرّف صاحبك أنه كان عندي جماعة من الخوارزمي ليتناولوا من مُغل بلادي الثلث فقتلتهم جميعهم، وقد سيَّرت إلى الكرج أيضاً استنجدتهم، والخوارزمي فقد توجه إلى توزير بعد أن كان قد جمع واستخدم زيادة على من عنده ألف فارس، ولاشك في خوفه من التتر، والتتر قد خرجوا عليه، فتعرّفه ذلك.

وفيها:وصل ابن صاحب سُرّمَارَي الأصيلي وتلقاه الحافظ وكريم الدين وقابيا.

وفيها: قبض الأشرف على حسام الدين خضر وابنه صاحب سُرّمَارَي المقدم ذكره، لأنه كان قد أساء كثيراً عند تمليك الخوارزمي وإعطائه له أرجيش، وحمله بعد ذلك إلى دمشق.

وفيها: بأرجيش أيضاً وصل كتاب إيواني ملك الكرج، حمو الأشرف مضمونه:« إن كتاب الخوارزمي قد وصلني ابتداء لاجواباً، وقد سيرته على مافيه. وعلى رأس الكتاب ترجمته:

داعيه مَنْكبرتي بن السلطان محمد بن السلطان سنجر. وإنما ابنتي تبعث تقول لي:«دار الخوارزمي لأجلي» وكان قد بعث إيواني هذا سيفاً للأشرف صحبة الكتاب، لأن عادة الكرج إذا ظفر جارهم سيروا له سيفاً. وقال:«قد عرفتك صورة الحال، وأنا على ماتعهده من المعاهدة».

وفيها:شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في عمارة قلعة ببلد سلمية، كانت قديمة على رأس جبل يعرف بشُمَيميس، وما طاب ذلك لصاحب حماة، واجتهد في إبطالها ظاهراً وباطناً، فجمع السلطان الملك المجاهد غلمانه وأصحابه وعسكره ورعيته وجماعة من العربان، وكان قد

حصل جميع الآلات، وشرع فيها جملة واحدة بنفسه وأولاده أيضاً ماخلا الملك المنصور ولي عهده، لأنه كان بأرجيش بعسكره، وأدارها بالعمارة وتسوير سورها في سبعة أيام، بحيث إنها صارت تمنع من يقصدها، ودار الحرس عليها تلك المدة، ثم بعد ذلك كمل عمارتها كما ينبغي؛ ورتب الولاة والأجناد وحمل إليها الذخائر في تلك السنة وسماها ماردين الشام، وهي كذلك لأنها في غاية المنعة والحصانة وحفر فيها عدة آبار، وعمل عدة صهاريج وملأها ماء، وخرّب برجاً كان قد عمل في سلمية قديماً

في وسط البلد، وكان قد خرّبه الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله قديماً، فلما صارت سلمية لولده المظفر بأمر السلطان الكامل أعاد عمارته، كما كان أولاً، فنظر الملك المجاهد في أمره فخرّبه ونقل حجارته وآلته إلى قلعة شُمَيميس، وقد كانت انتقلت من المظفر المذكور بأمر الكامل إلى الملك المجاهد، فعمرّها وحصنها، وكم له من عمارات حميدة، وآثارات سديدة. وكذلك عَمّر قلعة حمص ورفعها عما كانت عليه، وحصنها وعمق القنوات وأجرى الماء في المدينة وعمل البساتين، وتجرفت المياه في جميع أرضها الغربية، وزرع الأرز عليها وغير ذلك، وأطاعه العاصي، وهذا لم يقدر عليه سواه من الملوك الذين تملّكوا حمص. وكذلك عمَّر قلعة الرحبة كما تقدم، وكذلك أنشأ قلعة بتدمر على جبل عال منيع حصين، وخرّب برجها الذي كان في المدينة. كل هذا خوفاً على الرعايا، وجدّد بحمص بيمارستاناً عظيماً، ورتب فيه مايحتاج إليه. وأوقف عليه وقوفاً، ولم يكن قبل ذلك. وعمّر مدرسة جميلة غير المدرسة النورية أولاً. وهذا وكم له من اصطناع وصدقة ومعروف وبرّ لاسيما إلى من يقصده، وكم له من واقعة مع الفرنج صارت تواريخ، وكذلك مع العربان السرايا وغيرهم، وأبداً يسترد منهم الغنائم ويطاردهم هو وأولاده في البرية اليومين والثلاثة.

وفيها: بأرجيش كان خواجاجهان قد طلب من يصل إليه يحدّثه فيما

يتفق بينهم، واتفق الأمر على أن المظفر غازي يسيّر إليه من عنده رسولاً فعاد المذكور من عند خواجاجهان وصحبته رسول من عنده، واتفق وصول هذا الرسول بكرة نهار عيد النحر، فأمر الأشرف العساكر والملوك وعسكر الرومي أن يلبسوا ويتجملوا، وأن يدخل بين يديه جميع الأكابر في الحلقة، وأن يحضروا رسول خواجاجهان لاعن قصد وترتيب، يتفرج عند وصوله برانية من الطريق؛ فحضر وأوقف بمعزل بمن معه ورأى العالم وكثرته وحسن ترتيبه، ثم حمل إلى مخيم المظفر، ونزل بخيمة لُبَّاد، كان قدَّمها له الملك المعظم صاحب الجزيرة، وحضر الناس الخوان، ثم انصرفوا وفي غد العيد أحضر رسول خواجاجهان عند الأشرف، وسمع رسالته وإخوة الأشرف كلهم قيام في الخدمة، وأكابر الأمراء تعظيماً لحاله، وصرف الرسول بعد ذلك، واجتمع آراء السلاطين على الجواب، وسيروا به الحكيم سعد الدين بن الموفق الدمشقي طبيب الأشرف الدمشقي لأنه يعرف بالعجمي، وسار إليه.

وفيها: في عشرين ذي الحجة بأرجيش قبض الملك الحافظ على كاتبه محمد بن علي بن نظيف الحموي، وأخذ جميع مايملكه من مماليك ودواب وذهب وقماش ورخت وغيره، وحمله إلى قلعة جعبر ليلاً، وذلك لكثرة سكره. وكان سبب ذلك أنه طلب أحد مماليكه فما امتنع عليه. وقيل له غير مابذله من نفسه في ذلك القبول، ووقع النشب به، فلما أفاق من سكرته، ندم، ومابقي يمكن إلا الإتمام لما فعله.وكان هذا كله بعد أن خلع عليه خلعة العيد، وأخوه أيضاً.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

فيها انتقل الأشرف إلى خلاط ليرتب أحوالها وينتظر رسول

الخوارزمي، فوصل الرسول صحبة الحكيم سعد الدين وحلّف الأشرف في البلد. ثم بعد ذلك أطلعه القلعة وشرب معه وأنعم عليه وأعاده. ورتب الأشرف مماليكه والعسكر والديوان بها، وكان قد نقم على حسام الدين القيمري، وفتح الدين بن دلدرم الياروقي، ففارقاه وخدما لصاحب آمد، ثم توجه الأشرف إلى أرزن فتسلّمها، وسلّمها إلى المظفر وأعطى دستوراً للعساكر، وسار صحبته الحافظ وصاحب الجزيرة ووزراؤه، وفارقه السلطان الملك المنصور إلى الرحبة، لأن والده السلطان الملك المجاهد كان قد وصل إليها، فأقام الأشرف بدارا يومين ثلاثه، ثم انتقل إلى نصيبين وبقي كذلك، ثم توجه إلى سنجار وبقي مدة يفرّج بها صاحب الجزيرة وقال له:«تجيء إلى دمشق فتفرج فيها أياماً» فما أمكنه مخالفته، فسار معه، فلما وصل إلى قرقيسيا بلغه أن السلطان الملك المجاهد وقع في الصيد عن فرسه، فساق إليه جريدة افتقده، فأطلعه إلى قلعة الرحبة وقدّم له كما جرت العادة، واستحسن القلعة وشكرها كثيراً، ثم سار إلى دمشق، وفارقه أخوه الحافظ إلى قلعته، فأقام الأشرف أياماً يسيرة بدمشق، ثم توجه، وبقي الملك المعظم مقيماً بدمشق يتفرج، إلى أن سيّر إليه استدعاه للطلوع إلى مصر، فسارا إليها، فتلقاهما السلطان الملك الكامل، وضاعف احترام صاحب الجزيرة وأعطاه عطاء كثيراً، ثم تركه والأشرف، وسار إلى الاسكندرية، ثم عاد وفرّج صاحب الجزيرة في دمياط وغيرها.

وفيها: شفع صاحب الجزيرة بمصنف هذا التاريخ محمد بن علي بن نظيف إلى الأشرف بمكاتبته إلى مخدومه الحافظ بإطلاقه، فكتب الأشرف في ذلك، وأمر الحافظ بإعادة جميع ما أخذ له عن آخره، وأن يحسب جميع ماله ولمماليكه من حين قبض وإلى حين الإفراج عنه، ويعطاه جملة ويضاعف حرمته وماكان له،«ولاتمكنه من المفارقة لنصل ونحسن إليه» فقبل شفاعته وأطلقه بعد تحليفه ألا يفارق خدمته. وجميع ماردّ عليه من

جميع ماأخذه له: مملوكان كبيران لاغير، وأربعة دوابّ. وكان كل وقت يمنيه ويعده، فأطال عليه وخاف من غدره، فتسحَّب ليلاً إلى الرحبة من قلعة جعبر، فوجد المولى السلطان الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم ولي عهد والده فيها، فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة جميلة، وحمل له جميع مايحتاجه، ورتّب له بعد ذلك راتباً معتبراً من طعام وحلاوة وشمع وقصيم دواب، ثم كاتب السلطان المجاهد به، فوصل كتابه إلى الولاة بتقرير راتب كفايته وزيادة، وأطلق له أشياء، وبسط أمله وأمره بالمقام فيها، إلى حين وصوله فبقي في خدمة السلطان الملك المنصور في أحسن كرامة إلى أن استدعيا إلى حمص. فتلقى ولده السلطان الملك المجاهد إلى سلمية، ولقيه المذكور، فبسط أمله وأحسن إليه، وأطلق له جملة، ورتب راتبه الذي كان له بالرحبة، وأطلقوا له أولاده كلهم على طبقاتهم، وأحسنوا في حقه إحساناً كثيراً. ونقل بيته إلى تحت ظله بحمص، ورتب جامكية تكفيه وزيادة مع الإحسان المتتابع أولاً وآخراً. وكم له مثل هذا مع من يقصده.

عدنا إلى حديث الأشرف بمصر وصاحب الجزيرة، وهم في ضمن لذتهم دخل التتر إلى البلاد، فلما تحقق الخوارزمي قَصْدَ التتر له أطلق مجير الدين بن الملك العادل الذي كان في إساره ومملوك الأشرف بكتمر الأحول، وسيّر صحبتهما رسولين من عنده، وقال له: «نفسك لك. فتعرّف أخاك الأشرف بالتتر، فما هم قليل، وهم أعداء الدين» فوصل مجير الدين وتلقاه صاحب ماردين وأحسن إليه، ثم تلقاه الحافظ إلى قرب حرّان وحمله إلى قلعته، وضاعف إليه الإحسان وإلى الأمراء الخوارزمية، ثم سار بهم قاصداً الأشرف، فأقام بدمشق أياماً، ثم طلع إلى مصر هو وأخوه تقي الدين عباس فأحسن السلطان الكامل إليهما، وأما الخوارزمي فإنه تسحّب بمن كان معه إلى آمد من خوفه من التتر، فقصد آمد وقال لصاحبها: «ماتكلفك نجدة ولا إقامة، بل إن تبعنا التتر واحتجنا تكن

آمد ظهرنا» قال:« نعم وكرامة» فلما وصل التتر وأغاروا على الخوارزمي وكبسوه ليلاً، ومعه الآمدي في عدة له يحمل أثقاله وقماشه، وسار خائفاً، وتفرقت أصحابه في تلك الخطةلايهتدون على مسير. أما الخوارزمي فإنه ماعلم أي جهة أخذ وقالوا:«قتل»وقالوا:«لابل في الحياة» وتسحب خاله ومعه جماعة إلى المظفر غازي والباقون تشعبوا في الجبال لاسيما جبل ليسون. وزوجة الخوارزمي وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره، طلبوا أماناً من صواب. فأمّنهم ثم غدر بهم، فنهبهم هو وعسكره، وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعة حرّان، وبعد ذلك استدعيت إلى دمشق أقامت بها.

وأما التتر فإنهم قصدوا الجهة التي قصدها الخوارزمي ودخلوا الجزيرة ونهبوا وقتلوا وسبوا وعاثوا في البلاد، وبلغت غوّارتهم إلى الجبال بسنجار، وقاتلوا نصيبين، وجرى لهم بسعرد من القتال والقتل والغدر ماتجاوز الحد. ومايعلم مقدار من قتلوه منها ومانهبوه، وكذلك دنيسر قتلوا أهلها وسبوهم وأحرقوا الجامع وكان قد احتمى به جماعة فحرقوهم في الجملة، وعادوا عن حمية إلى مواضعهم، وماوجدوا في الجزيرة من رد ثَمَّ لهم نشاباً، وقد ذكر أن هؤلاء الغوارة مابلغوا ألف فارس، وفعلوا في البلاد مافعلوه وأخافوا الناس وارتحلوا من الجزيرة إلى الشام، وجلا أهل رأس عين الخابور وغيرهم ودُرِّبَت دروب أكثر البلاد وامتنعوا من فتحها وكل هذا والأشرف وصاحب الجزيرة عند السلطان الكامل بمصر.

وفيها: قفزت الباطنية على أحد رسولين جاءا من الخوارزمي، أحدهما يقال له المخلص، قتلوه بدمشق، وكان له أموال، فأخذ الجميع الملك الصالح، وقالوا: إن الباطنية كان بينهم وبين والد المخلص عداوة أوجبت مافعلوه. واتفق وصول رسل التتر، واجتمع بهم السلطان الملك المجاهد بحمص، ووصلوا إلى دمشق، فخاف عز الدين بلبان الرسول

الآخر من الخوارزمي على نفسه، فهرب بجماعة معه، وتسحب إلى شاطىء فرات الرحبة، فنزل عند عرب غدروا[به] وأخذوا ماكان معه. وكان معه جماعة قطعوا الفرات وبقي هو، وسيّر الصالح بن العادل خلفه، فقبض بوالي قرقيسيا وكان السلطان الملك المنصور في الرحبة إذ ذاك، فأحسن إليه، وجُهّز إلى دمشق من الرحبة.

وفيها: وصل رسول الخليفة إلى الديار المصرية بالخلع والتقليد، بقي مدة لم يجتمع بالسلطان الكامل، وكان الغرض من تأخيره ماقد استوفيناه في تاريخنا الكبير، ثم بعد ذلك وصل السلطان الملك الكامل في البحر، وخلع عليه وقلد تقليداً لم يقلد به غيره من سائر الملوك من بيت العباس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة له والقول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصالح، ولمن عينوه، وخلعة للوزير. فقال:«مالي وزير» قيل:«هذه عادتنا معكم» فبقي أياماً. ثم أعطاها لكاتبه الفخر سليمان بن الخباز ا لدمشقي؛ لأن أباه كان خبازاً بها مشهوراً.

وفيها: خرج الملك العزيز صاحب حلب ودار في جميع بلاده، وذلك أول خروجه إلى البلاد.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها كثر الإرجاف بعود التتر إلى الجزيرة، بعد أخذهم كنجة وقتل كل من فيها، لأنهم كانوا قد تديّروا موغان وبها شتّوا، وصاروا يغيرون ويعودون إليها، واهتم الخليفة اهتماماً عظيماً، وكثرت رسله إلى الكامل والأشرف في نزولهم الشام، واستخدم الخليفة عرباناً كثيرة وغيرهم من أجناد، وبذل الأموال، وبقي في نفسه فعل التتر في بلاد الجزيرة.

ثم إن التتر عادوا إلى الجزيرة طمعاً بأهلها، فنهبوا أيضاً وقتلوا وسبوا ووصلوا إلى جسر بدّايا، ودخل بعضهم عليه، وأخافوا كل البلاد من قوتّهم وإقدامهم وتسحّبوا من بين أيديهم. فنزل الأشرف إلى الشام، وصحبته صاحب الجزيرة، وقد وعده السلطان الكامل بلحاقه، وتقدم الكاملَ نزول العساكر المصرية إلى الشام، وتجهّزوا وقدم عليهم فخر الدين عثمان أستاذ داره، فلما وصل الأشرف تلقاه إخوته والسلطان الملك المجاهد وأولاده، ووصل الملك المظفر صاحب حماة للقاء الكامل، فلما وصل الأشرف قدم له الملك المجاهد تقدمة حسنة على يد الأمير صفي الدين سودان، وفارق صاحب الجزيرة الأشرف عائداً إلى بلاده، وتحمل للبيكار. ونزل الكامل في هذا الشهر إلى الشوبك، أقام به مدة،ثم وصل إلى دمشق وتلقاه الناس، وأمر المظفر بأخذ ابنته والدخول بها في دمشق، ففعل ذلك. ووصلت ابنته أيضاً زوجة صاحب حلب الملك العزيز، وسار معها قاضي العسكر المصري وفخر الدين البانياسي، وتلقاه عسكر حلب مع بعض أهلها إلى حماة فكان عرساً عظيماً.

وفيها: استبد الملك العزيز صاحب حلب برأيه، ورفع أتابك شهاب الدين يده ولسانه، فقطع العزيز جماعة أمراء وأخذ أخبازهم.

وفيها:صالح صاحب الروم الأشكري، وأخذ أموالاً كثيرة من بلاده بسبب خروج التتر.

ووصل عسكر الكامل، وفي مقدمته ولده الملك الصالح، وكان فوّض ولاية العهد عند نزوله من مصر إلى ابنه الصغير الملك العادل، ورتب وزيره المعين ابن شيخ ا لشيوخ، ثم صارت العساكر تتبع بعضها بعضاً أولاً فأولاً، فأخذ الملك المجاهد دستوراً وتقدم إلى حمص لإتمام أشغاله. ووصل الكامل إلى سلمية. وحمل له من الإقامات حاجاته، وكذلك حمل إلى سائر الملوك. ثم سار وعيّد في الطريق، ووصل حرّان ونزل بها، ووصل عسكر حلب. هذا والتتر قد أحاطوا بقلعة خلاط ولم يبق إلا تسليمها، فرحلوا عنها يداً واحدة خوفاً من السلطان، ونزل من كان بها مثل شيرون سبع مجانين أحد الأمراء الأشرفية وقال:«لو صبروا يومين ثلاثة أخذوها، وإنما فرّج الله عنا ببركات السلطان».

وفيها:سيّر الملك الكامل عماد الدين[ابن] شيخ الشيوخ إلى الخليفة من حرّان.

وفيها: وصل مملوك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ من مكة يخبر أن صاحبه أخذ مكة واستحلفها،فما أعجبه وقال:«نحن أمرناه بأن يصل اليَنبُع لاغير، مَن أمره بأخذ مكة؟» فما طاب له ذلك.

وفيها: بحرّان كتبوا مهر ابن سلطان الروم الذي من ابنة العادل على ابنة الأشرف.

وفيها: وصل الخبر بوصول ابن الجوزي من الخليفة، فاهتموا بلقائه. وكان الأشرف غير طيب القلب لصاحب آمد، وقد نزل الكامل على

قصده، وكان قد سير الآمدي وزيره شرف العلاء إلى الملك الكامل بتقدمة، وإلى الأشرف، فقبلها الكامل ولم يقبلها الأشرف، وضبطوا شرف العلاء عندهم بحرّان مدة مقامهم، وصاروا يهتمون بقصد آمد، وشرف العلاء يمغلط مخدومه ومايصدقه ذلك. والآمدي يواصل بالهدايا ولايحترز لنفسه، ووصل إليه رسول الرومي وطيب قلبه وقال:«لاتخف أنا أصل إليك بنفسي» فلما كان قويت عزيمتهم على قصد آمد، فسار السلطان الكامل إلى الرُّها، وأمر العساكر بالرحيل أولاً فأولاً على تعبئتها ميمنة وميسرة وقلباً. ثم أمر بتلقي رسول الخليفة ابن الجوزي، وإتيانة إلى أي موضع كان به، وهذا وقع إهانة له، فلم يجتمع به إلا على السويداء على السماط أيضاً، ولم يخرج على الطريق أحد له، وتسحب على السويداء، رحل طالباً آمد، فحينئذ تحقق الآمدي القصد له. فرتب بلده كما جرت العادة من غير أجناد ولارجّالة ولا من هو طيب قلب منه، ووصل رسوله إلى السلطان الملك المجاهد ليعمل نوبته مع السلطان الكامل، ولم يبذل إلا ذهباً، ولاطلب بعض البلاد ولا نزل عن شيء، ولوكان طلب ذلك لهان، ولم يزل في قلة عقله، إلى أن إحتاطت العساكر بها من كل مكان، وحمل شرف العلاء إلى الرها تحت الحوطة، فلما نزل عليها جاءت تقدمة الماريديني ورسله، ثم وصل من عسكره ألف فارس كما ينبغي، وبذل من نفسه أشياء، وسيّر دسوس خيم معتبرة من أكسية مغربية ولباد للسلطان والأشرف والملك المجاهد والناصر بدمشق.

ثم شرع الأشرف في عمل آلات الحصار والزحف وكذلك الكامل والملك المجاهد وكل الملوك، وشرعوا في عمارة آدر للكامل والأشرف،

وفيما هم في مثل ذلك، وقع عزم السلطان الكامل على الزحف؛ ورتبوا المجانيق واتفق الزحف عليها من كل جانب بعد صلاة الظهر إلى قبل العصر، فأخذت النّقّابون النقوب في الباشورة، وكشف الرماة الأسوار

بنشاب أكثر من المطر، بحيث دخل معظمه في أحجار السور، ثم شرعوا في نقب السور الكبير، فطلب أهل البلد الأمان واستغاثوا فوقعت الرحمة لهم من الكامل ومن سائر الملوك والناس، فأمنهم وطلب صاحبها الأمان فلم يجبه، ثم بعد ذلك سأل الأمان ليلاً بصاحب حماة المظفر، وشمس الدين صواب على نفسه، فأجابه إلى ذلك وأعطاه منديله. وكان الناس قد هجموا البلد، ونهبوا معظمه، فخرج المسعود صاحب آمد، ومنديل السلطان الكامل في رقبته، ومعه صاحب حماة وصواب، ووصل إلى عند الكامل فأمكنه من النزول، وتلقاه وأنزله عنده أ وّلاً، وصارت الملوك يسلمون عليه عنده، ثم نقله بعد ذلك إلى الخيمة، التي كان سيّرها المارديني للكامل بدهليزها وبيوتها وكان عنده شهاب الدين أحمد، ثم انتقل الكامل إلى البلد، ونزل في آدرها، وكذلك الأشرف وأخلى الملك المجاهد البيمارستان، والناصر والعزيز ودخل البلد من قدر على دخوله، ورتّب لصاحب آمد في الخيم مطبخه،لم يغيره ولا منع منه بعض غلمانه وجمداريته وأمير جانداره وفرس النوبة في الكرد آخُر،كما جرت عادته،وكتب به خطه وأعطى السلطان أوراقاً بعلائم قلاعه جميعها بالتسليم، ماخلا حصن كيفا فإنه قال:«ماهو لي ولا في حكمي ،ولايقبل شيء في أمره» ثم بعد ذلك سيّر الكامل إلى القلاع وتسلم بعضها، وخطر له أنه يخرب معظمها ووصل أولاد صاحب ماردين إلى الخدمة، ولي عهده وأخوه، للتهنئة، فتلقاهم وأكرمهم، وأنزلهم عنده في تلك الآدر، ثم نقل الملك المسعود صاحبها إلى البلد وأنزله في طيارته التي يحبها، و[رتب] الجاووش والجاندارية والسنجق والدوشاخ (٥٥) والجمدارية كعادته. وبالغ في إكرامه، وصار له من الراتب جملة، وأطلق له جميع ذخائر القلعة، وكان فيها جملة، فحملها إلى بيته بالقصر، وأباع

نوابه جملة، وكان نازلاً في القلعة صاحب الجزيرة وصاحب حماة، ثم سير الكامل حجّارين إلى قلعة الجبابرة (٥٦) خرّبها ، وإلى أكِلّ خرّبها، واتفق

أن صاحب [الـروم]أفسد عليه قلعة كـركر، وعصت بعد أن كـان قد سيّر إليهـا مثقـال الجمـدار وابـن قيسـوم يتسلمانها، فعصـت فطلبا(٥٧) مـن الأشرف أن يسير إليهـم مـن عنـده إلى نـائب صـاحـب الـروم بحكـم الصداقـة، فسير إلى صاحـب السويداء مـرتين، فما قبلوا منـه، وقيل: إن الرومي شراها بألفي ألـف درهم وخمسين ألف درهـم. فعادوا أشاروا على السلطان الكـامل ترك بـاقي القلاع ولايخربها فتركهـا وندم على ماخـرّبه، وصـار الكامـل يشرب عند صـاحب آمـد، ويـوعده منـه إليه بكـل خير ويطيب قلبـه، وسير الصلاح الإربلي والبانيـاسي بألف فـارس إلى حصن كيفا وفـاوضهم ووعدهـم بأشيـاء يبقيها عليهم، فلـم يقبلوا، وأصروا على العصيـان، ثم سيّر صـاحب آمـد أمـه صحبة قـاضي العسكر الحسنـي، شتموهـا وما أجابـوها، وعاد قـاضي العسكر مريضـاً، وصار كلما لجّوا في العصيان، حنق الأشرف والكامل، فـاقتضت الحال التضييق على صاحب آمد والإهـانة لـه وعصره، ففعلوا به ذلـك، وعصروه وقيدوه. وهـم في هذا وصل محيي الـدين بن الجوزي من الخليفـة يهنىء بآمد ويشفـع لصاحب الموصل وإربل، فقبل الشفاعـة وحلف لهم، وطلب أبو فراس أمير الحاج العراقـي دستوراً إلى بغداد وقـال:«أريد تظهـر آثار نعمة مـولانا عليّ في العـراق» وكان قبـل ذلـك قـد عاد والـده إلى العـراق. وسلـم إليه جميـع أملاكه، فوعـده الكامل عند عوده إلى الشام يعطيـه دستوراً، وتجهز رسول الخليفة عائداً إلى بغداد والشيخ عماد الدين ببغداد مريض.

ثم إن السلطـان الكامل حنق على الـرومي لأشياء منهـا منعه التركمان من الوصـول بغنم أو غلّة ، وقضية كركـر وكرفازاك، وكان قـد عصى مع حصـن كيفا عـدة قـلاع مثـل الجديدة، والقـرشيـة، وقلعـة نجم والهيثـم وباتـاسا وغير ذلك. قـالوا:«خذوا الحصـن ونجم تسلم مـن غير قتال» فـاتفق الحال على الـرحيل عـن آمد بعـد أن رتّـب الملك الصـالح فيهـا

وصواب وتعيين من عينّه من العساكر فيها والذين يستخدمونه عليها، ويتوجه الملك الأشرف بنفسه إلى الحصن يفاوضهم، فإن سلموا فلا كلام، وإلا تركوا عسكراً ورجالة إلى الربيع. وأعطى السلطان لعسكر ماردين دستوراً قبل باقي العساكر، واتفق أن السلطان الملك المجاهد يرحل أيضاً، أما الأشرف فإنه قطع الشط سائراً إلى الحصن، وبعده إلى سنجار يشتي بها ويعود إلى الحصن، وبات عنده السلطان الكامل، وودّعه ليلة مسيره، وفي بكرة تلك [الليلة] تبعه الملك المجاهد ودّعه، وكان قد سار هو والمظفر والحافظ وابن المغيث إلى الحصن، فلما عاد الملك المجاهد حمل ماينا هز مائة خلعة معتبرة لأصحاب السلطان الكامل بعد إذنه له على يد بهاء الدين مروان بن قابيا، وحملها وودَّع الكامل إلى رأس عين الخابور، ومنها قصد الرحبة وأعطى دستوءاً بعد أن أطلق لهم وأحسن إليهم وسار هو وجميع أولاده إلى الرحبة. وأما السلطان الكامل فإنه كان قد قدم عليه القاضي شهاب الدين قاضي الرقة، فأحسن إليه غاية الإحسان وفاوضه في أحوال الرقة وظلم الجواد لأهلها، وأنه مابقى فيها خمسمائة نفر، فرفع يد الجواد منها وسلمها إليه، وكتب له توقيعاً بإعادة من كان نزح منها، وفاوضه في كمال الدين بن شيخ الشيوخ، وذكر أنه قد عزله لما قيل عنه من ظلم وجهل بالعمل وأخذ الأموال وغيرها، والله المطلع على صحة ذلك وسقمه. ثم سار الكامل وترك الملك الصالح مريضاً، ورتب عنده أطباء وسار إلى السويداء أبصرها، وتلقاه كمال الدين إليها بالإقامات كما جرت العادة، ثم قصد الرها نظر في أحوالها وولّى وعزل ورتب، ثم وصل حران، فقبض على كمال الدين ووكل عليه، ثم نقل بيته إلى الرها، ونقله هو إلى قلعة حران. وقبض وكيل بيت المال النجم الفقيه المغربي، أخذ منه أموالاً وقبض على السامري الذي كان أسلم على يد الملك الأشرف وأخذ منه عشرة آلاف درهم، ثم قطع يده، ثم من الجمال بن الصلاح شيخ الخوانك ومشهد الذهباني، وأخذ منه ستة آلاف درهم، وغير هؤلاء، كل هذا

بسبب كمال الديـن. وولى البلاد لتاج الدين بن شكـر والتقي بن حمدان مستوفي البلاد.

ومات في هذه السنـة فخر الدين عثمان أستاذ الدار بحـران بعد مرض طويل.

ومـات النجم بـن الحمصي مشدّ الـديوان بمصر كـان ثم بـآمد عنـد فتحها.

وابن الشها ب أحمد.

ومات والي الإسكندرية.

ومات ابن الملك المغيث بن العادل ونقل إلى دمشق.

ومات خلائق أُخر على آمد.

ومات شمس الملـوك ابن ابن صلاح الـدين، كان الكامـل ربّاه، يحبه ويثق به.

ولما دخلت سنة ثلاثين وستمائة

كان السلطان الملـك الكامل قد رتـب ولده ا لصالح بها كما قـد تقدم ذكر هـذا، وأما الأشرف فـإنه سـار إلى حصن كيفـا بمن ذكـرناهـم وتبعه الصـلاح الإربلي وصحبته صـاحب آمـد (٥٨) مقيـداً، فلما حضر عندهـم تحت الحصن قـال لهم:«سلّموه إلى نواب السلطـان الملك الكامـل، فقد والله أحسن إلي غـاية الإحسان، ووعـدني وعوداً جميلـة، فلا تحرموني إيـاها

وبقية إحسانه» فقالوا له:«أنت أحلفتنا لك ولولدك، أحضر لنا فُتْيا بأن ماتلزمنا اليمين» فأحضر لهم فتيا، فما قبلوا وهم أربعة ولاة، وأركبوا ولده في الحصن، ورفعوا السنجق على رأسه، وسلطنوه ومشوا في ركابه، ثم اختلفوا على التسليم وعدم التسليم، وفتحوا الخزانة، وأخذوا باطية ذهب من ستين ألف دينار مصرية، قطعوا منها قطعاً وتقاسموها بأمر أمّ ولده. واتفق نزول واحد من الحصن حضر عند الأشرف فأعطاه عطاء كثيراً وخلع عليه خلعة عظيمة، فسار تحت الحصن ورأوها عليه فرمى الناس أنفسهم من الحصن، وعلقوا الملك المسعود فقام قبالتهم، فأجابوا إلى التسليم وحثوا الأشرف على جمع ما للمسعود فيها من أموال وعيال وأن يرتبهم على أخبازهم، ففعل وحلفوا هم، وفتحوا الحصن وأنزلوا جميع أصاحبهم وطلع الأشرف إليها دارها. ومابات بها ليلة، وتسلمها صواب، وكذلك بقية الحصون وولّوا فيها كما جرت العادة. ووصلت كتب الأشرف إلى السلطان الكامل بذلك، فتوقف إلى أن وصل الأشرف، وطلع هو وهو إلى دمشق، فأقام يُوَيمات، ثم سار إلى مصر.

وكان قد وصل رسول من الفرنج يقال له سير ريمون على يده طير يقال سنقر قال: إنه شراه من داخل البحر بثلاثمائة أوقية ذهب بأمر الكامل، والعهدة عليه في قوله. وخبرّ أن كسرة الأمبرطور كانت صحيحة، غير أنه مابالى بها، وأنه قوي على البابا وغيره. والبآبا في طلب مراضيه.

ثم وصل الصلاح الإربلي وصحبته صاحب آمد، أقام بدمشق أياماً، وشرى الآمدي فيها داراً وبستاناً وأباع بقية تيك الباطية، وقال صاحب آمد:«والله إن السيف الآمدي رجل عالم، كان قد عزم على الوصول إلينا» فلما سار عن دمشق، عزل الأشرف السيف الآمدي و أمر بخروجه من دمشق فشفع في حقه، فبقي فيها معزولاً وسكن المزة لايدخل البلد.

وفيها: كان مانـع بن حديثة قد خاف على نفسه مـن الكامل وتسحب إلى العراق وعمل معه الخليفة من المكارمة مالا عمله مع غيره.

وفيها:كان السلطان الكـامل قد أمر الملك المظفر صـاحب حماة بأخذ بارين وهـم في آمد، فلما وصل إلى حماة اتفق نحس صاحبهـا الناصروسوء مخيلته وبخله، نفـر من سائر جماعته ونفـروا منه، وانقضوا كلهم عليـه مع أخيه المظفـر وعملوا العملة ثـم سيروا إلى المظفر فحضر ليلاً ومـا أصبح الصبـح إلا وهو محاصرهـا، ونصـب المجـانيق عليهـا، ورتـب الـرجالـة، وراسله المظفر بـالتسليم، فأبى وعصى تسعـة أيام ثم لما عايـن الظّفر به طلب الأمـان بنفسه وهم برمي نفسـه من القلعة في هلعـه، فأمنـه المظفر وسكن روعَـه ووعده بالإقـامة فأبى وقـال:«لابد لي من مصر» فمكنـه من أخـذ أهلـه، وسـار إلى دمشـق فما مكّنـه الأشرف مـن المقـام بها ولا رآه، وقال:«يمضي إلى السلطـان الكامل مهما رسم عملنـا بمرسومه» وقـد كان منتمياً إلى الأشرف من حيـث ملك حماة، وطلع إلى الديـار المصرية، وأقام بها ذليلاً حقيراً لايلتفت إليه ولا يلوى عليه.

وفيها:طلب الملك العـزيز بن الظاهر بحلب شيزر، فـأنعم بها الكامل عليه على لسان سيف الدين بن قلج، فجـاء إليها وحاصرها يومين ثلاثة، فلما وصل العزيـز بنفسه طلب صاحبهـا أمانه على نفسه وجميـع الأموال، فأجـابه إلى ذلك، فحلفـه ونزل منهـا بجميع الأموال وولى في قلعتهـا ابن عثمان زردك وفي بلدها ابن دينار الكردي.

وفيها: أخـذ الملك العزيـز صاحب حلـب من أتـابك شهاب الـدين طغرل تـلّ باشر غصبـاً ورفع يده مـن القلعة وولى فيها مملـوكاً لـه، ونزل شهاب الدين إلى المدينة.

وفيها: وصـل الخبر بأن صـاحب مكـة جمع خلقاً مـن عرب وغيرهـم،

وأعانـه ابن رسول من اليمـن فأخرج ابن شيـخ الشيوخ فخر الديـن منها هارباً إلى اليَنْبُع وماكاد يسلم.

وفيهـا: مات الملـك العزيـز بن الملـك العـادل بدمشـق، وطلع ولـده الظاهر إلى عمه السلطان الكامل، فأحسن إليه وكتب له بخبر أبيه جميعه وبقي عنده مدة، ثـم طلع الملك الناصر من الكرك إلى السلطـان الكامل شاكياًفتلقاه، وودع ابن الملك العزيز.

وفيها:جدّد الأشرف داراً للحديث وهي دار قايماز النجمي.

وفيها: قبض على نواب دمشـق مثل الشرف يعقوب وعلى القضاة وجمع المتولين وأخذ منهم جملة أموال.

وفيها: عـاد مانـع من العراق وانصلـح حاله مـع الأشرف ونزل بـأهله الغوطة.

وفيها: عـاد الملك المجـاهد من الـرحبة بـأولاده إلى بلده، فمـرض بعد وصوله.

وفيها: وصـل محيي الدين بـن الجوزي من الخليفة إلى الديـار المصرية، وتلقاه الملك المنصور بحمص.

وفيها: خرّب الملـك المظفر صاحب حماة مدرسة الحنفيـة التي في سوق الأسفـل، وكذلـك المسجد المعـروف ببني نظيـف على العاصي الـذي لم يكن مثلـه في العمائر، وأمر بسد أبواب الأدر النهـرية وبنى سوراً قـدّامها وسدّ بـاب الجسر الشمالي، وحوّل بـاب الثقفي من مكـانه وبـالغ غـاية المبالغة في الحصانة.

وفيها: شرع يعمل نعلة لقلعة بارين وحسّن خندقها وحصنها.

وفيهـا: شرع المظفر أيضـاً يعمل بـرجـاً في الفحيم بـوادي البرية مـن أرض حماة وحلب وسلميـة،وكذلك عمـل قلعة بـالمعرّة لم تكن قـط وفرغ منها في بقية سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

وفيها: صالـح المظفر صاحب حماة الفرنج بحصـن الأكراد على نصف ماكان لهم على بارين أولاً.

وفيها: وقـع الإرجاف بموت مظفـر الديـن صاحب إربـل، وجرى في مـوته مـاقـد استوفينـاه مشروحاً في تـاريخنـا الكبير. وعلى الجملة ففتحهـا عسكر الخليفـة بعد عصيانها عنوة. وقتـل خلقاً كثيراً، وأحرقوا ونهبـوا نهباً عظيماً. وبقي فيها الشرابي وقُشْتَمِر وخواص الدولة.

وفيها: كان قد عبر الملك الصالح بن الملك العادل إلى سنجار بعسكر الأشرف ذخيرة لمن هـم بـآمـد، فتلقـاه المـلـك المنصـور وإخـوتـه وكـان السلطـان الملك المجـاهـد عاجـزاً لمرضـه عن تلقيـه، ثـم عاد تلقـاه إلى البساتين وأطلعه إلى القلعة بحمص وقدم له أشياء ثم سار.

وفيها: ألـح الأشرف بطلب السلطـان الملك المجـاهد إلى دمشـق. فلما صلح من مرضـه طلع إلى دمشق، فتلقاه وقدم كل لصـاحبه أشياء وعمل لـه دعـوتين ثـلاث في القلعـة وفي بستـانـه وخـرج الأشرف إلى الصيـد بالحارثية وغيرها. وكان غنّام ومانع ومنيـع وجميع العربان نزولاً في الغوطة، عملوا دعـوة للأشرف فخرج إليهـم بقي أيامـاً والسلطان الملك المجـاهد بدمشق في البلـد، واتفق أن خفاجة وغزيـة نزلوا بتدمر لـلأذية في البلاد، فـاتفق الأشرف والمـلك المجـاهد وأمـراء العـرب على قصـدهم ونهبهـم، ففعلوا ذلك، وجهّز الملك المنصور مـن حمص من كان عنده بها لأنه كان مقيماً بها، ولم يكن مـع أبيه بـدمشق، فأخـذوا ونهبوا نهبـاً عظيماً من جمال

وغيرها. وكان أعاريب قد أغاروا على عرب الملك المجاهد من خالد، فاستعاد لهم أجمالهم في طلعته إلى دمشق.

وفيها: مات الأمير مانع بالغوطة فحملوه ودفنوه بسلمية واتفق الأشرف والملك المجاهد على تأمير ابنه مُهنا وخلعا عليه.

وفيها:مات نجم الدين حسن بن الملك الحافظ وأبوه في غاية المرض.

وماتت أم الملك الصالح بن العادل.

وماتت ابنة الأمجد زوجة المغيث.

ومات ابن الملك العزيز الظاهر بدمشق، بعد أن كان قد خلع في العيد الكبير على جمع أصحاب أبيه مايناهز مائتين وأربعين خلعة.

وفيها: عاد ابن الجوزي من مصر، فتلقاه الملك المجاهد وأولاده وأكابر أهل دمشق والقضاة والفقهاء وأنزلوا بدار سامة والأشرف بالجارثية.

وفيها: وردت الأخبار بتمليك الرومي خلاط، وأمر بعمارتها ونقل إليها الفلاحين والغلال وزرعها، ومتولى هذا جميعه حسام الدين القيمري، لأن الأشرف كان قد أحنقه لما قطعه ولابن دَلْدَرُم وخدما لصاحب آمد، فأما ابن دلدرم فمات. وأما القيمري، فأمر الأشرف صاحب آمد أن يمسكه، ثم عاد أطلقه، فسار إلى الرومي وخبّره على ماقد فعل وقال:« أنا أفتح لك البلاد» وشرع في شيء بعد شيء، وخاف الناس بعد تمليكه بخلاط من الطمع بغيرها. لأن الرومي أخذ كركر وكُرْفَزَاك وبَابَلُوَا (٥٩) وجميع البحيرات التي لآمد وهذا في غاية القوة، وانضاف إلى ذلك خلاط وعنده جماعة من العساكر الشامية وأتباع ابن كريم الدين الخلاطي.

ثـم عـزم السلطان الملـك المجـاهـد على العـود إلى بلده، فـركـب إلى الأشرف وودّعـه في البريـة، وقد جمع الخيـول للسبـاق. ولما كـان في وادي المضحين استهلّ هلال سنة إحدى وثلاثين وستمائة ليلة الجمعة.

وكـان الأشرف بجيرود وفي عـزمـه لقـاء رسـول الخليفـة بقـارا، وكـان الكامل والناصر بن المعظم عنده بدمشق، والمظفر غازي والملك الصالح وصواب بـآمد، والملك الصالـح إسماعيل بسنجار، والملك الحافـظ وأخوه مجير الديـن وتقيّ الديـن عباس مرضـى بدمشق وقـد أبلّوا من مـرضهم، والملك العـزيز بحلب بحارم، والملـك المظفر صاحب حماة بـالمعرَّة لعمارة القلعة، والملك المنصور إبراهيم قد تلقّى أباه إلى النبك.

وفيها: مات الإبرنس وسيّر الملك المجاهد يعزي ولده ويهنيه.

وفيها: مات للملك المظفر بن الملك المجاهد ابنان، وكان بحمص من الوباء والموت والأمراض مالايُعبر عنه ولا سمع بمثله.

وفيها: مات أتـابك شهاب الديـن، طغرل أتابك حلـب، وسار الملك العزيز إلى تلّ باشر يعشرها.

وفيها: مـرض السلطان الملك المجـاهد صاحـب حمص وهو بظاهـرها وأبلّ.

وفيها: كـان قد وصـل من السلطـان الملك الكـامل هـدية مـن قماش وخيل وغيرها للملك المجاهـد، فسير بعضها للملك الأشرف وقال:«هذه تصلح لطريق مصر».

وفيها: كان الملـك الأشرف قد اجتمع برسـول الخليفة ابن الجوزي على قارا.

وفيها: سار الملك المجاهد إلى الأشرف واجتمعا في الوادي الشرقي.

وفيها: وصل بدر الدين قابيا رسولاً من الأشرف إلى الملك المجاهد، بقي عنده أياماً بظاهر حمص ثم توجه.

فهذا جميع ماقد وقع في الاختصار من المتجددات إلى آخر هذا التاريخ وهو في ثاني عشرين صفر من سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ومهما تجدّد فالمملوك يذيله ببقاء مولانا السلطان إن شاء الله.

وفيها: توجه الملك الأشرف إلى الديار المصرية.

وفيها: وردت الأخبار بأن ابن الكامل وصواب أغارا على بعض بلد آمد، الذي كان قد أخذه الرومي منه، بلد كركر وبابلّوا وكُرْفَزَاك ونهبوا، وكذلك عسكر الرومي أغاروا على بلد الحصن وأرزن وميّافارقين، وأن الطائفة التي تأخرت من الخوارزميين عن الخوارزمي وبقوا في البلاد، جاءوا إلى خلاط أخذوا المدينة وشرعوا في حصار قلعتها. والله أعلم.

وفيها: ورد على الملك المجاهد بحمص رسول كيقباذ صاحب الروم في شهر ربيع الأول، وكان الملك المنصور في الصيد، فاستدعاه والده بهذا السبب.

وفيها: سير الملك المجاهد هدية للفرنج وللإسماعيلية في الشهر المذكور.

وفيها: وصلت رسل التتر إلى إربل والموصل، واشتروا جمالاً وأقمشة، وأقيم لهم الراتب في الموصل بإذن الخليفة لهم في ذلك.

وفيها: سلطن لؤلؤ بالموصل، لابل أمر بسنجق بعصابتين وخلع عليه.

وفيها: في شهر جمادى الآخرة وصل ابن الجوزي من بغداد وخلع على ابن بدر الدين لؤلؤ وعليه لأنه ماكان خلع عليه مع أبيه أولاً.

وفيها: استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس من الخوارزمية كما نقل الناقل.

وفيها: أمر الخليفة قُشْتَمر أوقع ببني خفاجة وشاح بن درّاح فأغار عليهم وأخذ بقية رحلهم ونقله إلى بغداد، ثم ساروا طالبين الشام، فانصلح لهم الخليفة وسير إليهم بأن قال:«نعقد لكم جسراً بين الحديثة وعانة». فخافهم بقية العربان، آل عضية وآل يسار وزُبيْد والحَرِيث، واندفعوا إلى الجزيرة وغيرها. ولقد وقعت الإغارة على أسامة بن إبراهيم أمير بني كلاب في جسر الرقة، لأنهم عقدوه لهؤلاء العربان من خوف خفاجة.

وفيها: صالح الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب الفرنج الديوية على نصف قطعة بلد شيزر، على يد سيمون كاتب الأسبتار.

وفيها: كان قد جاء لهذا العزيز بنت من ابنة السلطان الكامل، فما طاب له، وسارمن حلب يومين ثلاثة من حنقه ثم عاد.

وفيها: مات بهاء الدين مروان بن قابيا أحد أكابر أصحاب السلطان الملك المجاهد بالقاهرة.

وفيها: وصل السلطان الأشرف إلى دمشق من الديار المصرية إلى دمشق مهتما بالحركة

وفيها: خاف صاحب خرتبرت من الرومي، وسير إلى صواب بآمد يستصلحه.

-٩٩٠٧-

وفيها: كان الصالح بن السلطان الكامـل قد وصل من آمد إلى الزرّاعة بحـرّان قاصـداً الرقـة للتفـرج، فوصـل كتـاب السلطان الكـامل أعـاد ه وكتاب صواب، فعاد وأقام أياماً برأس عين الخابور.

ثم لما أراد التـوجه إلى آمـد عبر بحرّان وأخـذ قماشاً كثيراً وفـراء وغيرها نهباً من غير ثمن، وغلقت الأسواق وانتقل إلى الـرها وفعل كذلك، وأخذ قماشاً، أخذه له الوالي بها، ثم سار إلى آمد.

انتهى التاريخ المبارك بحمد الله وله الحمد والمنة

تمّ

من

التاريخ الصالحي — لابن واصل الحموي

-٩٩١٠-

سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على القدس، وكان من حديث ذلك أن الفرنج لعنهم الله خرجوا إلى بلاد الإسلام في ألف ألف فيما قيل، فملكوا أنطاكية وهجموا معرة النعمان بعد حصار شديد، وقتلوا أكثر أهلها، ولم تزل بأيديهم إلى سنة ست وعشرين وخمسمئة، فاستنقذها منهم أتابك الشهيد رحمه الله، ثم ساروا إلى الرملة فملكوها، وكان ابتداء خروجهم سنة إحدى وتسعين، ولما ملكوا الرملة خيَّموا على بيت المقدس وقاتلوا أهله أشد قتال ثم ملكوه، وجمعوا من فيه من اليهود إلى بيعة لهم وأضرموها ناراً عليهم وقتلوا بها من المسلمين مايزيد على سبعين ألف إنسان، وأخذوا من عند الصخرة نيِّفاً وأربعين قنديلاً فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، ونيِّفاً وعشرين قنديلاً من ذهب، فما رُزِء المسلمون بأعظم من ذلك، ولم يزل القدس بأيديهم إلى أن استنقذه منهم الملك الناصر في سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة على ماسنذكره مشروحاً في موضعه إن شاء الله تعالى، فكان مدة مقامه بأيديهم إحدى وتسعين سنة.

ابتداء أمر السلطان غياث الدين محمد بن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي

وكان من خبر ذلك أن السلطانين محمد وسنجر، كانا أخوين لأب وأم، فلما توفي السلطان جلال الدولة كما ذكرناه، خرج محمد مع أخيه السلطان محمود، فلما اقتتل السلطانان محمد وبر كيا روق كانت أم محمد في عسكر السلطان بركياروق، فخرج محمد إلى أمه مختفيا، فأكرمه أخوه السلطان بركياروق فأقطعه كنجة وأعمالها، ولما دخل السلطان بركيا روق إلى بغداد وملكها توَجَّه محمد إلى كنجة عامداً إليها، فاستولى على

إقليمها، واجتمع إليه خلق عظيم، وخطب لنفسه، وطمع في السلطنة، وعظم شأنه، وخرج إليه أكثر عسكر السلطان بركياروق فصاروا معه، فلما بلغ السلطان بركياروق ذلك خرج لقتال أخيه محمد، وبعث السلطان محمد إلى بغداد رسولاً يطلب الخطبة له فخُطب له في ذي الحجة من هذه السنة، وجرت له مع أخيه السلطان بركياروق وقائع نذكرها واحدة واحدة إن شاء الله تعالى.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة قدم السلطان بركياروق بن ملكشاه بغداد، وقُطعت خطبة أخيه محمد و خُطب له بها، وحَشَدَ واجتمع إليه خلق كثير، وخرج للقاء أخيه السلطان محمد فالتقيا بمكان بقرب همذان، وكان الظفر للسلطان محمد، وانهزم السلطان بركياروق في خمسين فارساً. فقُطعت خطبة بركياروق وأعيدت خطبة السلطان محمد، وذلك في رابع عشر رجب، ثم اجتمع إلى السلطان بركياروق خلق كثير فلقيه أخوه سنجر بعسكر فانهزم سنجر وأَسَر السلطان بركياروق أم أخويه محمد وسنجر، وكان سنجر قد أسر جماعة من أصحاب بركياروق فقال بركياروق لأمّ أخويه: إنما أسرتُكِ ليطلق أخي مَن عنده من الأسارى من أصحابي فأطلق سنجر مَن كان عنده، وأطلق بركياروق أم سنجر.

سنة أربع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة التقى بركياروق ومحمد، فانهزم محمد وأصحابه، وعاد السلطان إلى بغداد فأُعِيْدَتْ خطبتُه وقُطعتْ خطبة أخيه السلطان محمد.

وفيها تسلَّمتِ الفرنج حيفا بالسيف وأرسُوف بالأمان، وصارت بأيديهم أكثرالبلاد الساحلية.

سنة خمس وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستعلي بالله صاحب مصر، وذلك سابع عشر صفر، وكانت مدة ملكه سبع سنين وأشهراً وأياماً، ولما تولى المستعلي هرب أخوه أبو المنصور نزار بن المستنصر بالله إلى الاسكندرية وواليها يومئذٍ أفتكين مملوك الأفضل أمير الجيوش فادعى نزار بالاسكندرية الإمامة وتلقَّب بالمصطفى لدين الله، وبايعه أفتكين على ذلك، فتوجّه إليه الأفضل، فحاصره إلى أن فتح الاسكندرية، وعاد نزار وأفتكين فحبسهما ولم يظهر بعد ذلك لهما خبر، وإلى نزار هذا نُسب النزارية من الإسماعيلية.

بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، بُويع له بالخلافة بمصر يوم توفي والده المستعلي، وعمره يومئذ خمس سنين، والقيِّمُ بأمره ووليّه الأفضل أمير الجيوش، وإليه الحرب والأموال، وجميع الممالك.

وفي هذه السنة نازلت الفرنج طرابلس فحاصروها أشد حصار وصاحبُها يومئذ فخر الملك ابن عمار، فاستصرخ بالمسلمين، فنهض إليه عسكر دمشق مع الملك شمس الملوك دُقاق، وجناح الدولة حسين

صاحب حمص، فالتقوا بالفرنج، فكانت الغلبة للفرنج، وانهزم المسلمون أقبح هزيمة.

سنة ست وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة نازل السلطان بركياروق أخاه السلطان محمد بأصفهان وحاصره بها، وكان قد توجه إليها عقب الوقعة التي كانت بينه وبين أخيه، فاشتد عليه وعلى أصحابه الحصار، وضاقت عليهم الأمور، لقلة الميرة، فخرج السلطان محمد سراً في بعض أصحابه من بعض الأبواب، فأصبح على فراسخ من أصبهان، فبلغ السلطان بركياروق ذلك فجهز وراءه رجلاً من غلمانه يقال له إياز فلحقه وقد نزل لضعف خيله من قِلَّةِ العلوفة فذكَّره محمد اليمين الذي له في عنقه فتركه، ومضى السلطان محمد فحشد وجمع واستخدم ثم كانت وقعة بينه وبين أخيه السلطان بركياروق فانهزم إلى بعض بلاد أرمينية، ثم سار إلى أخلاط، واستمرت الخطبة للسلطان بركياروق ببغداد.

وفيها كان استيلاء الملك شمس الملوك دقاق على حمص، وحدث ذلك أنه كان بحمص رجل يقال له جناح الدولة حسين، وكان من أصحاب الملك فَخْرُ المُلْكِ رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب ونائباً عنه بحمص، ثم تَغيرَّ عليه الملك رضوان فصار مع الملك دقاق وأتابك طغتكين، وانتسب إليهما، وخلع طاعة الملك رضوان، وكان مع الملك رضوان بحلب رجل من الباطنية فندب ثلاثة من أصحابه لقتل جناح الدولة، فقدموا إلى حمص في زِيِّ الصوفية، ووثبوا على جناح الدولة وقد جاء إلى الجامع لصلاة الجمعة فقتلوه ثم قُتلوا.

ولما قُتل جناح الدولة بلغ الخبر إلى أتابك طغتكين، والملك شمس

الملوك دقاق، وكاتبهما أكابر أهل حمص بأن يُنْفِذا من يتسلم حمص قبل انتهاء خبر قَتْل جناح الدولة إلى الفرنج، فسارا من فورهما إلى حمص، وتحصنا بقلعتها ووافق ذلك وصول الفرنج إلى الرستن قاصدين أخذ حمص، فلما بلغهم وصول الملك دقاق والملك طغتكين إلى حمص واستقرارهما بها نكصوا على أعقابهم راجعين.

سنة سبع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك شمس الملوك أبي نصر دقاق بن تاج الدولة تتش ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ن سلجوق صاحب دمشق، وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وكان سبب ذلك أنه حدث به مرض تطاول به، وقد ذكر بعض المؤرخين أن وفاته كانت في سنة ثلاث وتسعين وأن أمه زوجة أتابك طغتكين رَتَّبَتْ له جارية فَسَمَّتْه بعنقود عنب معلق في شجرته، ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم، وأن أمه ندمتْ على ذلك بعد الموت، وأومأت إلى الجارية أن لاتفعل، فأشارت إليها أنْ قد كان، وتهرَّى جوفه، فمات.

ولما تُوفي دقاق غَلَبَ على المُلْك بدمشق وأعمالها أتابك طغتكين الملقَّب ظهير الدين، وقد ذكرنا ابتداء أمره وقيامه بتدبير مملكة دقاق.

وفي هذه السنة كان استيلاء الفرنج على عكا، وكان من حديث ذلك أنّ بادوين ملك الفرنج المتغلب علي بيت المقدس سار في جموعه إلى ثغر عكا ومعه الجَنَوِيُّون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها براً وبحراً، وكانوا في نَيِّفٍ وتسعين مركباً، فحاصروها من جميع جهاتها وملكوها بالسيف، وكان مُتَوَلِّيها يومئذ زهرة الدولة نبا الجيوشي من جهة صاحب

- ٥٠

مصر، فخرج منها من خوفه وعجزه عن ضبطها، وهرب إلى دمشق ثم إلى مصر.

سنة ثمان وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب العراق وبلاد العجم، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة، بعد أن عهد بالسلطنة لولده جلال الدولة ملكشاه بن بركياروق بن ملكشاه، وعمره يومئذ أربع سنين وقام إياز مملوك أبيه بتدبير ملكه.

ولما بلغ السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وفاة أخيه السلطان بركياروق، قَدِمَ غياث الدين محمد على أمور جرت بينهما، ودخل السلطان محمد إلى بغداد، واستقرت له بها السلطنة، فلما استتب أمره قبض على إياز فقتله، وَصَفَتْ له الدنيا فلم يبق له منازع، وخلع عليه أمير المؤمنين المستظهر بالله خِلَعَ السلطنة، وقلّده العهد على ماوراء بابه.

سنة احدى وخمسمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على طرابلس بالأمان، وكانت مدة حصارهم لها سبع سنين فإنهم نازلوها في سنة خمس وتسعين، وقد ذكرناه، وذلك بعد أن فَنِيَ من فيها بالجوع والضائقة، وقُتل خلق عظيم، وكانت مدينة عظيمة مملوءة من المسلمين والعلماء.

-٥٠٣هـ-

سنة ثلاث وخمسمئة

في هذه السنة جاءت الفرنج لعنهـم الله إلى رفنية، وذلك بعد أن فتحوا طـرابلس، فسـار الأمير ظهير الـدين أتـابـك طغتكين صـاحب دمشـق بعسكـره إليهم، ونـزل بـإزائهـم ثم جـرت بينهـم مـوادعة على أن يكـون للفرنج ثلث مغل البقاع ويُسَلَّـم إليهم حصن عكار وحصن المنيطرة، وأن يكـون حصن مصيـاف، وحصن الطـوبان، وحصن الأكـراد للمسلمين، ويحمل أهلهـا للفرنج قطيعـة مبينة، وأقام الفـرنج مدة على هـذه الموادعة ثم نكثوا وغدروا.

وفيها تسلمـت الفرنج بيروت وملكتها بعـد حصار شديد، وفيهـا توفي قراجا صاحب حمص فملكها بعده.

سنة سبع وخمسمئة

في هذه السنـة تسلمت الفـرنج صيـدا وزردنا واستفحـل أمرهـم ببلاد الشام، وصـارت بأيديهم جميـع السواحل، فجهـز السلطان غياث الـدين محمد بـن ملكشاه لحربهم رجلاً من قـواده يقال له مـودود، فلما وصل إلى دمشق وثب عليه باطني بالجامع فقتله، وكان قتله في سنة سبع وخمسمئة.

وفي هذه السنـة كانت وفـاة الملك فخر الديـن رضوان بن الملـك تاج الدولة تتش (١) بن رضوان بن تتش المعـروف بالأخـرس

سنة ثمان وخمسمئة

في هذه السنـة قتل تاج الـدولة تتش بن فخـر الملك رضوان صـاحب

حلب بالقلعة، فتسلم البلد والقلعة لؤلؤ خادم تاج الدولة، لكن الخطبة واسم المملكة لسلطان شاه بن رضوان بن تتش.

سنة تسع وخمسمئة

في هذه السنة سار ظهير الدين أتابك طغتكين صاحب دمشق إلى بغداد، لخدمة الخليفة المستظهر بالله والسلطان غياث الدين محمد، فأكرماه وخلعا عليه، ثم رجع إلى دمشق.

سنة عشر وخمسمئة

في هذه السنة قتل لؤلؤ صاحب حلب قريباً من بالس، وكان قد توجه من حلب مُريداً قلعة جعبر، فجلس بقلعة حلب بعده كاتب الجيش أبو المعالي ابن الملحي.

سنة احدى عشرة وخمسمئة

في هذه السنة سُلِّمَت حلب إلى الأمير ايل غازي بن أرتق فأقام متملكاً لها خمس سنين.

وفي هذه السنة كانت وفاة غياث الدين محمد بن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وذلك بأصبهان في ذي الحجة، وعمره سبع وثلاثون سنة بعد أن عهد بالسلطنة لولده السلطان

أبي القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وخلَّف في خزانته أحد عشر ألف ألف دينار عيناً، ومن العروض مثلها، فخطب لابنه السلطان محمود ببغداد يوم الجمعة لسبع بقين من المحرم.

سنة اثنتي عشرة وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستظهر بالله أمير المؤمنين لسبع سنين بقين من ربيع الآخر، فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وشهوراً، وكان بين وفاة السلطان محمد ووفاة الخليفة المستظهر أربعة أشهر وأربعة أيام.

سيرته: كان رضي الله عنه كريم الأخلاق، ليّن الجانب، سخي النفس، مُؤْثِراً للإحسان، محباً للعلماء، حافظاً للقرآن مُنكراً للظلم، كثير الصدقة، وله شِعْرٌ من جملته قوله:

أذابَ حَرُّ الهوى في القلب ما جمدا
يوماً مَدَدْتُ على رسم الوداع يدا

فكيف أسْلُكُ نَهْجَ الاصطبار وقد
أرى خلائق في مهوى الهوى قِدَدَا

قد أخْلَفَ الوعد بدرٌ قد شُغفت به
من بعد ما قد وَفَى دهري بما وَعَدا

إن كنتُ أنقضُ عهد الحب في خَلَدِي
من بعد هذا فلا عاينْتُهُ أبدا

- ٩٩١٩ -

خلافة المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بن المقتدي بن الذخيرة بن القائم ابن القادر، وأمه أم ولد يقال لها طرفة، بويع له بالخلافة يوم توفي والده المستظهر، ولما بُويع له صلى على المستظهر وعجل في دَفْنِهِ لأنه رآه في النوم كأنه يقول له:أخرجني من عندك وإلا أخذتك إلى عندي، فعجَّل في إخراجه.

سنة ثلاث عشرة وخمسمئة

في هذه السنة انفصل الأمير أبو الحسن علي بن المستظهر بالله من الحِلَّة، وقد هرب من بغداد إليها، فصار إلى واسط ودعا إلى نفسه بالخلافة، فتبعه جماعة كثيرة، فجهز إليه أخوه المسترشد بالله الأمير دُبَيْس ابن صَدَقَة بن مَزْيَد صاحب الحِلَّة في جيش من العرب وغيرهم، فانهزم أبو الحسَن منهم وتَاهَ في البريَّة ثم قُبض عليه بعد أن كاد يهلك من العطش وسُقي شربة من ماء، وأُتي به إلى الخليفة أخيه فحبسه في دار الخلافة، وكان أبو الحسن هذا شاعراً فاضلاً ولما حبسه أخوه المسترشد بالله[قال] يستعطفه:

فَأَشْمَتَّ أعدائي وأَوْهَنْتَ جانبي
وهِضْتَ جناحاً رَيَّشَتْهُ يَدُ الصَّبْرِ
وما كنت عندي بالملوم ولا الذي
له الذَّنْبُ هذا قَدْرَ حَظِّيَ من الدَّهْرِ

ومن جملة شعر أبي الحسن بن المستظهر قولُه أيضاً:

قد جَدَّدَ الدهرُ في الورى محنا
وأَودَعَ الهجر في الحَشَا حَزَنَا

لو كان شخصٌ يموتُ من أَسَفٍ
على حبيبٍ نَأى لكنتُ أنا

في هذه السنة ورد السلطان سنجر بن السلطان جلال الدين ملكشاه الريَّ وملكها، وانهزم منه ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بعد حرب جرت بينهما، وكان مع السلطان سنجر خمسة ملوك على خمسة أسِرَّةٍ منهم ملك غزنة، وكان معه من الباطنية ألف، وكان معه نحوٌ من أربعين فيلاً، ثم عاد محمد إلى عمه السلطان سنجر فأمَّنَهُ وخدمه.

سنة أربع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة خُطب للسلطان محمود بن محمد وعمه سنجر ببغداد وجميع الممالك وتلقب كل واحد منهما شاهان شاه.

وفيها انضم إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان جماعة كثيرة، واحتشد وأظهر الخلاف على أخيه السلطان محمود ابن محمد، ثم اقتتلا وكانت الكَرَّةُ للسلطان محمود، وانهزم السلطان مسعود إلى جبلٍ فاختفى به، ثم بَعَثَ إلى أخيه محمود يطلب منه الأمان فأمنه، ولما كان الخُلْفُ واقعاً بين السلطانين مسعود ومحمود اغتنم سيف الدولة دبيس بن سيف الدولة صدقة بن مَزْيَد صاحب الحِلَّة اختلافهما، فسعى في أذيَّة بغداد، وعصى ونهب وسبى وافترش أصحابُه النساء، وأفسدوا إفساداً كلياً، وجبى أموال السلطان، فلما ظهر السلطان محمود على أخيه مسعود وكَسَرَهُ، أحرق دبيس ما استولى عليه من الغلات والأنهاب خوفاً من السلطان محمود، ومضى إلى بغداد قاصداً للنهب، وتهدد دار الخلافة بنهبه، ثم عاد إلى الحِلَّة، ولما بلغ السلطان محمود ذلك أقبل إلى بغداد فدخلها، وسأل الخليفة المسترشد إطلاق أخيه أبي الحسن

ابن المستظهر بالله من الحبس فبذل الخليفة ثلاثمئة ألف دينار ليسكت عن هذا ولا يطلبه، فأجابه وسكت.

سنة خمس عشرة وخمسمئة

في هذه السنة وثب ثلاثة أنفس على الأفضل أمير الجيوش بمصر فقتلوه عند الجسر، وذلك ليلة عيد الفطر، وفيها كسر أتابك طغتكين صاحب دمشق الفرنج، وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها أخربت الفرنج جرش.

سنة ست عشرة وخمسمئة

في هذه السنة توفي الأمير نجم الدين ايل غازي بن أرتق، صاحب حلب، وقد ذكرنا تَمَلُّكَهُ لها، فملكها بعده ابن أخيه بدر الدين سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق. كانت وفاة أيل غازي بمدينة ميافارقين.

سنة سبع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة سَلَّمَ سليمان بن عبد الجبار بن أرتق مدينة حلب وقلعتها إلى عمه بلك بن أرتق، فتسلمها وملكها.

وفيها وُلِّي وزارة مصر رجل يقال له المأمون بن البطائحي، وكان أول

أمره فراشاً، وشوهد في صغره وهو يرشّ الماء بين القصرين بالقاهرة.

سنة ثمان عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قُتل بلك بن أرتق على منبج، فتسلَّم حلب ابن أخيه تمرتاش بن ايل غازي بن أرتق، ثم مضى منها إلى ماردين، فجاء الفرنج لعنهم الله ونازلوها، وصحبتهم الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة بن مَزْيَد صاحب الحلة وأشرفوا على أخذ البلد لأنها كانت قد خَلَتْ من الرجال والميرة ولم يبق فيها غير مئتين وستين رجلاً، وأَجَّلَتْهُم الفرنج عشرة أيام، فلما كان اليوم التاسع عزم أهل حلب على الهزيمة في الليل بالنساء، فأرسل الله تعالى سيلاً عظيماً في قويق وذلك قبل العصر، فاقتلع خيم العدو وأغرق منهم خلقاً عظيماً وأتلف لهم مالاً جزيلاً، ولما كان بعد العشاء وصل آق سنقر البرسقي فكسر الفرنج في صبيحة تلك الليلة وملك البرسقي حلب واستقر له الملك، وكانت طائفة من الفرنج في هذه السنة قد نازلوا حماه، فلم يقدروا عليها ورجعوا.

فتحت الفرنج ثغر صور بعد حصار شديد وكان متوليها رجل يقال له عبد الملك من جهة المصريين فباعها للمصريين.

سنة تسع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قبض الآمر بأحكام الله صاحب مصر على وزيره المأمون بن البطائحي وعلى أقاربه واعتقلهم.

نزل آق سنقر البرسقي صاحب حلب على أعزاز، فرحَّلَتْهُ الفرنج عنها مكسوراً، وقتلوا جماعة من أصحابه، وفيها قُتل محمود بن علي بن قراجا صاحب حماه على أفامية في قتال عظيم جرى بينه وبين الفرنج.

سنة إحدى وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بين الخليفة المسترشد بالله، وبين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وجرى بينهما اقتتال كبير ونهبٌ وحروب، ثم وقع الصلح بينهما، واتفق مرض السلطان فرحل إلى بغداد.

وفيها ولّى السلطان محمود شَحَنكِيَّة بغداد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر، وفيها وثب جماعة من الباطنية على آق سنقر البرسقي صاحب الموصل وحلب فقتلوه بجامع الموصل في يوم جمعة، فولي مكانه ولده مسعود بن آق سنقر، وتسلم حلب رجل يقال له خطلبا، سلمها إليه رئيس حلب فضائل بن بديع فملكها من يده، ثم تسلمها أتابك زنكي وسنذكر ذلك.

-٥٢٤-

ابتداء الدولة الأتابكية

كان جد بني أتابك زنكي: آق سنقر قسيم الدولة المعروف بالحاجب، وكان من أمراء الدولة السلجوقية ومقدميها، وقد ذكرنا استيلاءه على حلب في زمن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان، ثم صيرورته مع تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ومفارقته له بعد ذلك، وأنه خطب للسلطان بركياروق وانتمى إليه، ثم ذكرنا مقتله واستيلاء تاج الدولة، ثم تَوْلِيَةُ السلطان محمود بن محمد ولده زنكي بن آق سنقر شَحنكية بغداد.

ولما قُتل آق سنقر البرسقي صاحب الموصل، وولي ولده مسعود، سار القاضي بهاء الدين بن الشهرزوري، ونصير الدين جقر، وصلاح الدين محمد الأغسياني إلى بغداد، وحملوا معهم خزانة مال للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لِيُقِرَّ مسعود بن آق سنقر البرسقي بالموصل، فلما وصلوا ارتأوا في القِصَّة وفكروا فيها وقالوا: هذا مسعود (٢) صبي، وربما لايقوم بالملك، فاجتمعوا بزنكي بن آق سنقر، وهو يومئذ شحنة بغداد من جهة السلطان محمود، وقرروا معه أنهم يسعون له في تملك الموصل بشرط أن يكون [القضاء]بها وبأعمالها للقاضي بهاءِ الدين بن الشهرزوري، ويكون النظر في المصالح والخاصة لنصير الدين جقر، والحجبة ونظر العساكر لصلاح الدين الأغسياني، فأجابهم إلى ذلك فقرروا مع الخليفة المسترشد بالله أن يكون زنكي أميراً على ا لموصل، وأشاروا إليه بأن يطلب ذلك من السلطان،وكتب السلطان إلى الخليفة في تسليم الموصل لسيف الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد، فأجابه الخليفة بأن دبيساً مايصلح أن يكون جاراً لنا، وأظهر له كراهة ذلك، وأنه يختار زنكي بن آق سنقر، وبذل الخليفة المسترشد بالله مئة ألف دينار للسلطان محمود على أن يولي زنكي الموصل، فأجاب السلطان إلى ذلك، ولدين له يقال لهما ألب أرسلان والخفاجي ووقَّع لهما بالأموال والبلاد، وجعل

زنكي بن آق سنقر شحنة بغداد أتابكاً لهما، ثم قيل لزنكي أتابك، ثم سار أتابك زنكي وولدا السلطان وبهاء الدين بن الشهرزوري وجقر وصلاح الدين الأغسياني جميعاً إلى الموصل في شهر رمضان، وبقي ولدا السلطان بالموصل مع زنكي يخطب لهما ويُظهر أنه قائم بتدبير ملكهما، ثم توفيا ولم يملكا.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كان استيلاء أتابك زنكي على حلب، وخبر ذلك أنَّا كنَّا قد ذكرنا أنه استولى على حلب بعد قتل البرسقي رجل يقال له خطلبا، ولما كانت هذه السنة واستقرت قدم أتابك زنكي بن آق سنقر بالموصل وملكها سار إلى حلب فسلّمت إليه فملكها واجتمعت إليه الموصل وحلب وعظُمت مملكته، واتسعت خطته، وقد قيل إنَّ تملُّك أتابك لحلب كان في سنة إحدى وعشرين، والصحيح ماذكرته.

وفي هذه السنة كانت وفاة أتابك طغتكين صاحب دمشق، فملك بعده ولده تاج الملوك بوري بن طغتكين.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة فتحت الفرنج بانياس، وكانت في يد الإسماعيلية، وذلك بعد قتال شديد، وفيها وقعت حرب بين السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه وبين سيف الدولة دبيس بن صدقة صاحب الحلة، وذلك بعد فتن وقعت بين دبيس والخليفة المسترشد بالله، فأفسد وحرق ونهب

وعاث، وأخرب البلاد، فقصده السلطان فهرب منه ومامر ببلد ولا قرية إلا أفسدها ونهبها، ومضى إلى البصرة ففعل ذلك، ثم مضى إلى الكوفة ففعل مثل ذلك.

سنة أربع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة قصدت الفرنج لعنهم الله دمشق، وصاحبُها يومئذ تاج الملوك بوري بن طغتكين، فخرج إليهم بعساكره وبأهل البلد وقاتلهم وكسرهم وقتل منهم زُهاء عشرة آلاف نفس ولم يُفلت منهم إلا أربعون رجلاً.

وفيها فتح أتابك زنكي بن آق سنقر مدينة حماه واستولى عليها، وفي هذه السنة كان مقتل الآمر بأحكام صاحب مصر وكان من حديث ذلك أنه وثب عليه عشرة من المماليك ومقدمُهم مملوك أرمني فقتلوه ومَلَكَ الأرمني القاهرة، وفرّق الأموال والعساكر وأراد أن يتأمّرَ عليهم فخالفوه ومضى بعضهم إلى أمير الجيوش أحمد بن الأفضل وطلبوا منه أن يقاتل الأرمني، ويملك القاهرة، وهم معه ففعل، وأتى القاهرة، وحاصر القاهرة حصاراً شديداً حتى ملكها، ونهبها ثلاثة أيام، وظفر بالأرمني فقتله، واستقر له الأمر بها وبايع بالخلافة للحافظ. وكان مقتل الأرمني في ذي القعدة فكانت مدة ملكه ثمانياً وعشرين سنة، وتسعة أشهر وأياماً.

سنة خمس وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كانت بيعة الحافظ لدين الله وهو أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، وغلب على أمره أمير الجيوش أحمد بن الأفضل، ثم قبض على الحافظ من بعد مُدَيْدَةٍ من توليته، فلم يزل في اعتقاله إلى سنة ست وعشرين.

وفي هذه السنة ضَلَّ الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة عن الطريق، وذلك لما انهزم من الخليفة والسلطان محمود، وكانا قد بَثَّا طائفة من العرب خلفه، فلم يزل يتنقل في حلل العرب فمنهم من يَرُدُّه ومنهم من يُجِيْرُهُ ويقوم معه، فلما كان قريباً من أراضي الشام ضَلَّ الطريق فقُبِضَ عليه وأُتِيَ به إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، فقبض عليه تاج الملوك وباعه من أتابك زنكي بن آق سنقر صاحب حلب (٣) والموصل بخمسين ألف دينار فأكرمه أتابك زنكي وأحسن إليه، وخَوَّلَهُ المال.

وفيها كان مقتل تاج الملوك بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق، وذلك أنه قفزت جماعة من الباطنية فقتلوه، فملك من بعده ولده شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، فقُلِّد الملك بَعدَهُ ولده السلطان داود بن محمود بن محمد وخُطب له بالجبل وأذربيجان، وجعل أتابكة الأحمديلي، ووزيره أبا القاسم الوزير، فَدَبَّرا أمره، وقاما بأحوال عساكره، ثم تجملا وحشدا لحرب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه عم السلطان داود، ولما بلغ السلطان مسعود ذلك تقدم بقطع الجسور التي في طريقهم فقطعت.

سنة ست وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة وثب على أحمد بن الأفضل أمير الجيوش بمصر صِبْيَانٌ من الخاصة فقتلوه، وأخذوا رأسه ودخلوا به إلى القصر، وأخرجوا الحافظ من الإعتقال، وعاد إلى ولايته واسْتَوْزَرَ يانس ولقَّبَه بألقاب أمير الجيوش.

وفي هذه ا لسنة كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان، وبين أخيه السلطان مسعود بن محمد وقراجا الساقي.

ذِكْرُ الخبر عن هذه الوقعة

قيل وصل السلطان مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، ووصل قراجا ومعه سلجوق شاه بن محمد وكل واحد منهما أعني السلطان مسعود وأخاه سلجوق شاه يطلب السلطنة لنفسه، وانحدر زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل وحلب ليكون مع السلطان مسعود، فلما بلغ تكريت خَلَّفَ قراجا سلجوق شاه في عدد يسير ليكون في في مقابلة السلطان مسعود، وأسرى في يوم وليلة إلى تكريت فواقع أتابك زنكي فهزمه، وأسر جماعة كثيرة من أصحابه وعاد ثم دخل السفراء بين الأخوين مسعود وسلجوق شاه فاصطلحا واجتمعا وتحالفا ودخل قراجا معهما في اليمين واستحلفا الخليفة المسترشد بالله على التوافق والتعاضد، وكان قراجا يتحكم على مسعود وسلجوق جميعاً. ولما بلغ السلطان سنجر ذلك قصد بغداد بعساكره فخرج مسعود وسلجوق وقراجا إلى لقائه، وخرج المسترشد بالله بنفسه إلى مضارب ضُربت له بظاهر بغداد، وقُطعت خطبة السلطان سنجر، ثم ساروا إلى خانقين ووصل السلطان سنجر إلى همذان ومعه مئة ألف وستون ألفاً، ومع مسعود وسلجوق

ثلاثين ألفاً، فالتقوا بموضع قريب من الدينور فاقتتلوا فقُتل من الفريقين أربعون ألفاً، وقُتل قراجا الساقي، ثم عاد السلطان سنجر إلى بلاده ثم كاتب السلطان زنكي وسيف الدولة دبيس بن صدقة في قصد بغداد وفتحها، فتجمعا وقصدا بغداد في سبعة آلاف فارس، والمسترشد بالله إذ ذاك بخانقين فعاد منها وقد شارف أتابك زنكي بغداد من غر بيّها، فَعَبَر الخليفة إلى الجانب الغربي في ألفي فارس، وضعف عن لقائهما، وانكسرت ميمنته فكشف الطرحة عن رأسه ولبس البُرْدَة، وجذب السيف وحمل في عسكره فانهزم زنكي ودبيس وقتل من أصحابهما مَقْتَلَةً عظيمة، ثم طلب أتابك زنكي من المسترشد تكريت وطلب دبيس سقي الفرات.

سنة سبع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بغداد وخُطب له بها بالسلطنة، ولابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد من بعده، وخلع عليهما الخليفة المسترشد بالله.

وفيها سار المسترشد إلى الموصل لأخذها في اثني عشر ألف فارس، فوصلها في العشرين من شهر رمضان وبها أتابك زنكي بن آق سنقر فحصرها ثمانين يوماً، ثم رحل عنها بغتةً، فقيل لأنه بلغه غَدْرُ السلطان مَسْعُوْدٌ به وأنه قد عزم على مصالحة دبيس بن صدقة، وقيل بل كان ذلك لأن أتابك زنكي بذل له الطاعة، وأن يحمل إليه ما غَرِمَهُ من الأموال.

- ٩٩٣٠ -

سنة ثمان وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة مال أكثر الجند والقواد إلى السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، وتقررت قواعده، وملك همذان وغيرها، وصار أكثر العسكر معه، ولم يبق مع أخيه السلطان مسعود بن محمد إلاّ القليل، وكان السبب في ذلك أن الخليفة المسترشد بالله بعث إلى خوارزم شاه خِلَعَاً، فأشار دبيس بن صدقة على ا لسلطان محمد بن طغرل بن محمد بأن يقطع الطريق على الرسل ويأخذ منهم الخلع ويلبسها، ويُظْهر أن الخليفة بعث إليه بها ففعل ذلك، فمال أكثر العساكر إليه ولم يبق مع السلطان مسعود إلاّ القليل، فانزعج الخليفة من ذلك وكتب إلى السلطان يستحثه في القدوم عليه ليرفع من قدره، فقدم بغداد متنكراً خوفاً من أخيه السلطان طغرل، فخلع الخليفة عليه وطوّقه وسوَّره، وَتَوَّجهُ، وبعث إليه تُحفاً بثلاثين ألف دينار، فلما بلغ السلطان طغرل ذلك أقبل إلى بغداد في جموعه فمات في الطريق وذلك في ثالث المحرم سنة تسع وعشرين.

سنة تسع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل شمس الملوك صاحب دمشق، وكان من حديث ذلك أن والدة شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين أتابك طغتكين المُسَمَّاة بياقوت خاتون أمرت بولدها شمس الملوك فقُتل بين يديها وهو يستغيث إليها: الصنيعة الصنيعة، زنهار زنهار، ولما قضى نحبه جعلته في بساط ملفوف ثم أمرت الأمراء بالدخول عليه، فدخلوا فنظروا إليه مقتولاً، فقالت: انظروا إلى سلطانكم وما عمل به من

ظلمـه للناس، ثـم أحضرتْ لـه أخاً لـه صغيراً يلقّـب بشهـاب الديـن، فَعَقَدتْ له السلطنة، وقامت بتدبير مملكته.

وفي هـذه السنة سـار السلطـان مسعـود بن محمـد إلى همذان واستقـر ملكه بها، ثـم عزم على قصد بغـداد وتملكها ونفذ مقـدمته أمامـه، وأظهر التغّير الكلّي، ولما بلـغ الخليفـة المسترشـد ذلـك جهـز العسـاكـر وبعـث مقـدمتـه في ألفين وخمسمئـة فـارس إلى المرج، وتجهـز للقـاء السلطـان مسعود، فبعث السلطان مسعـود سيف الدولة دبيس بن صـدقة في خمسة آلاف فارس، فكبسـوا مقدمة الخليفـة وأخذوا خيلهم وأمـوالهم فعادوا إلى بغداد عُراة مشاة فكساهم الخليفة وأطلق لهم ثمانين ألف دينار، وقُطعت خطبـة السلطـان مسعـود ببغـداد، وخُطب لعمـه السلطـان سنجـر بـن ملكشاه بن ألـب أرسلان، وبعده لابن أخيه السلطان داود بـن محمود بن محمد.

ولما كـان ثامـن شعبـان رحل الخليفـة في عسـاكـره وهم سبعـة آلاف، وكاتَبـه أصحاب الأطراف بـالطاعة، وكـان السلطان مسعود بـن محمد في همذان في ألف وخمسمئة فارس فما زال يستخدم وتميـل إليه العساكر حتى صار في خمسة عشر ألف فارس، وتسلل إليـه من أصحاب ا لخليفة ألف فارس، فصـار الخليفة في ثمانية آلاف فـارس، ثم التقوا في عـاشر رمضان فأسر الخليفـة المسترشد بـالله، وانهزم أصحابـه، واستبيح مـاكان معـه من الأمـوال، ونادى السلطـان في أصحـابه: المال لكـم والـدم لي فمن قَتَـل أَقَدْتُهُ، فلم يُقْتل من الصفين سـوى خمسة أنفس غلطاً، ونادى السلطان في أصحاب الخليفة: مـن أقام بعد الوقعة ضَرَبْتُ عنقـه فهرب الناس إلى رؤوس الجبـال، فتخطفهم التركمان والأكـراد وأُفلـت منهـم جماعة عـراة، فتوصلوا إلى بغداد، وقد تشققت أرجُلُهـم من المشي والحفا.

ولما بلـغ أهل بغـداد أَسْرُ الخليفة كسروا المنـابر، ومنعـوا الخطيب مـن الخطبـة، وحَثُوا على رؤوسهـم التراب، وضَجُّـوا بـالبكاء والنحيـب، فسَيَّر

السلطـان مسعود شحنـة إلى بغداد، فجـرى قتال فقُتـل من العـامة مئـة وثـلاثون ألفـاً وخمسـون رجلاً، ونـادى في النـاس: إنَّـا جئنا لنُصْلِـح وإن السلطـان مسعود قـد سار بين أيـدي أمير المؤمنين وعلى كتفـه الغاشيـة، فسكن الناس وهجعوا، وسـار السلطان مسعود إلى باب مراغة طـالباً ابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمـد، والخليفة المسترشد بالله معه، وقد ضرب له دهليز خيمة أقعده فيها.

مقتل المسترشد بالله

ثـم إنـه ورد كتاب مـن السلطـان سنجـر بـن ملكشاه إلى ابـن أخيـه السلطـان مسعود بـن محمد بـأن يَرُدَّ الخليفـة إلى مستقر عِـزِّه، ويبالـغ في تعظيمه ويفعل في ذلك ماجرت به عادة آبائهم في خدمة هذا البيت، وأن يُسَلِّم إلى الخليفـة دبيساً ليرى رأيه فيه، فـأمر السلطان مسعـود فضُربت سرادق للخليفة، ونُصبـت له سُـدَّةٌ عاليـة، وأحضر إليه مـركوب فـركب متـوجهـاً إلى السرادق المضروب لـه والسلطـــان بين يـديـــه، وعلى كتفـه الغاشيـة، واللجام بيده، وجميـع الأمراء مشـاة إلى أن دخل السرادق وبين الموضعين نصف فرسـخ، ثم سلم إليه دبيس وهـو يتضرع ويبكي، فعفا عنه الخليفة، ثم وصلت رُسُل السلطـان سنجر تَسْتَحِثُّ السلطان مسعود على إعادتـه إلى داره، ووصل مـع الرسل عسكـر كثيف ووصـل صُحْبَتُهم سبعة عشر رجـلاً من الباطنيـة، وكان ظـاهر الأمر أن السلطـان سنجر لم يعلم بهم، وفي الباطن كان ذلك بتـدبير السلطان سنجر ومسعود، فخرج السلطـان مسعـود في عسكـره ليلتقي رسـل السلطـان سنجـر فهجمـت البـاطنية على الخليفـة المسترشـد بالله فقتلـوه وضربـوه بالسكـاكين إلى أن قتلوه، وقتلـوا معه جماعة مـن أصحابـه وذلك يوم الخميـس لثلاث عشرة ليلة بقيـت من ذي القعده، وقُبض على البـاطنية فقُتلوا وأظهـر السلطان

- ٩٩٣٣ -

مسعود القلق العظيم وجلس للعَزاء، ووقع البكاء والنحيب وذلك على باب مراغة، فغُسِّلَ وكُفِّنَ، وحُمِل إلى بغداد، وكان فيها من البكاء والنحيب والضجيج مايتجاوز الوصف. وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، وكان عمره خمس وأربعين سنةوشهوراً.

سيرته: كان له همة عالية وشجاعة وافرة وإقدام زائد، وكان له شعر حسن من جملته قوله في قصيدة:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم
ومن يملك الدنيا بغير مزاحم
ستبلغ أقصى الروم جندي وتنتضى
بأقصى بلاد الصين بيض صوارمي

- ٩٩٣٤ -

خلافة الراشد بالله

أبو حفص المنصور بن المسترشد بن المستظهر بن المهتدي بن الذخيرة ابن القائم بن القادر، وأمُّه أم ولد، بويع له الخلافة ببغداد في العشر الأخير من ذي القعدة من هذه السنة، وكوتب السلطان مسعود بن محمد بالبيعة له فأجاب، وأمر شحنته ببغداد بأخذ البيعة ففعل ذلك.

وفيها قَتَل السلطان مسعود سيف الدولة دبيس بن صدقه، فقيل كان السبب في ذلك أنه وَجَد له السلطان كتاباً إلى أتابك زنكي صاحب الموصل يقول فيه: لاتجيء إلى السلطان واحفظ نفسك منه.

وكان بين قتل المسترشد وبين قتله ثمانياً وعشرين يوماً.

سنة ثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان خَلْعُ الراشد بالله، وكان من حديثه أنه قَدِمَ أتابك زنكي بن آق سنقر ويرنقش الباز دار إلى بغداد واتفقا مع الراشد بالله على محاربة السلطان مسعود، واستخدم الراشد بالله أجناداً كثيرة وتهيأ هو ومن معه للقاء السلطان، ثم كاتب السلطان محمود أتابك زنكي سراً واستماله، وكذلك فعل مع يرنقش، فأشير على الراشد بالتوقف، وأقبل السلطان بجيوشه فدخل بغداد وذلك في ذي القعدة ونهب دواب الجند وأظهر العدل وشحن المحال، ومنع من النهب واستمال الرعية وجمع القضاة والشهود، فَقَدَحُوا في الراشد بأنه صدرت منه سيرة قبيحة وسفك الدماء المعصومة، وفعْل مالا يجوز، وشهدوا بذلك وحكم قاضي بغداد بخلعه فخُلع من الخلافة لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة

بحكم الحاكم، وبويع المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر وهو عم الراشد.

وأما الراشد و أتابك زنكي فإنهما هربا إلى الموصل قبل دخول السلطان بغداد، وأقام الراشد بالموصل، فكتب السلطان إلى أتابك زنكي في القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فامتنع أتابك زنكي من ذلك لكونه ضيفه وجَهَّزه إلى مراغة، فمضى الراشد إلى مراغة فوصل إليها وملكها وأقام بها أياماً، ثم خرج منها يطلب خراسان، فلما قَرُبَ من بلاد الباطنية جَرَّد السيف فقتل منهم جماعة، ثم عاد يطلب همذان.

ولما بلغت السلطان أخبار الراشد سار خلفه إلى همذان فاجتمع الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزبه صاحب خوزستان على قتال السلطان مسعود وحاربوه فكانت الكَرَّةُ على السلطان فقُتل من أصحابه خلق عظيم وأُسر مثلهم، ثم طُعن منكورس اتفاقاً بعد أن كان له الظفر، فانهزم أصحابه، وسار الراشد إلى أصبهان فدخل عليه جماعة من الباطنية فقتلوه وهو مريض، وقيل بل سُمَّ بها ودفن بمكان يقال له شهرستان على فرسخ من أصبهان، وقيل بل دفن في جامع أصبهان بالمدينة العتيقة التي يقال لها جي، وكانت وفاته في سنة اثنتين وثلاثين، وكانت مدة خلافته إلى أن خُلع سنة واحدة إلاَّ أياماً، وكان عمره إحدى وعشرين سنة.

صفته: كان أبيض جسيماً تشوبه حُمرة، حَسَنَ الوجه.

سيرته: كان مُفَوَّهاً فصيحاً عنده شهامة ورِجْلَةٌ وكَرَمْ، ولم يُخْلَع بعده أحد من الخلفاء إلى هذه الغاية، وذكر بعض المؤرخين شيئاً عجيباً، وهو أنه كل سادس من خلفاء الإسلام قام بأمر الناس فإنه لابُدّ وأن يُخْلَع أو يُقتل وذلك أنّه أول قائم بأمر الناس محمد رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر،ثم

عمر، ثـم عثمان، ثم علي، ثـم كان السـادس الحسن بـن علي فخُلع مـن الخلافة، ثـم ولي معاوية، ثم يـزيد بن معاويـة، ثم مروان بن الحكـم، ثم عبد الملك بن مروان ثم كان عبـد الله بن الزبير السادس فخلع وقتل، ثم ولي الوليـد، ثم سليمان ثم عمر بـن عبد العزيز ثـم يزيد، ثم هشـام، ثم كان الوليد بن يزيد فخلع وقتل، ولم ينتظم لبني أمية أمر بعده.

وقام السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، ثـم الهادي، ثم الرشيد، ثم كان الأمين السادس فخلع وقتل، ثم ولي المأمون، ثـم المعتصم، ثم ولي الواثق ثم المتـوكل، ثم المنتصر، ثم كـان المستعين السادس فخلع وقتـل، ثم ولي المعتز، ثـم المهدي، ثم المعتضـد، ثم المكتفـي، ثم كان المقتـدر السادس فخلع مرتين ثم قُتل،

ثم ولي القـاهر، ثم الـراضي، ثم المتقي، ثـم المستكفي، ثم المطيـع ثم كان السـادس الطائع فخلع مـن الخلافة، ثـم ولي القادر، ثم القـائم، ثم المقتـدي، ثم المستظهـر، ثم المسترشـد، ثم كـان الراشـد السادس فخُلـع وقُتل.

ثم ولي المقتفي، ثـم المستنجد، ثم المستضيء، ثم الناصر، ثـم الظاهر ثم مولانـا أمير المؤمنين المستنصر بالله وهو السادس، فنسـأل الله تعالى أن يخلد ملكه ويَخْرِقَ به العادة التي ذكرتُ، فإنـه لم يكن مثله في كرمه وعدله وإحسانه وقيامه بجهاد الكفرة، وذَبِّهِ عن الدين الحنيفي.

- ٩٩٣٧ -

خلافة المقتفي لأمر الله

هو أ بو عبد الله محمد بن المستظهر بن المقتدي بن الذخيرة بن القائم ابن القادر، وأمه أم ولد تُدعى ياغي وتُلقَّبُ ستُّ السادة، بويع له بالخلافة يوم خُلع ابن أخيه الراشد بالله، ولُقِّب المقتفي وسبب تلقيبه ذلك أن المقتفي رأى رسول الله ﷺ في النوم قبل خلافته بستة أيام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقْتَفِ بي، فلُقب لذلك، وخطب لأمير المؤمنين المقتفي، وبعده للسلطان محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان، ونادى السلطان في الناس ببغداد بالعدل ونهى عن النهب، ثم أخذ جميع ماكان في دار الخلافة من خيل وبغال، وآلات وفضة وغيرها، ولم يترك للخليفة في الاصطبل الخاص سوى أربعة أفراس وثلاثة بغال برسم الماء، وكانت البيعة للمقتفي على ان لايكون عنده ولا له آلة فرس.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة تزوج أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بنت السلطان محمد، أخت السلطان مسعود، ونُثرت الجواهر وتماثيل العنبر والكافور.

وفيها قدم السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه لمحاربة عمه السلطان مسعود، فخرج إليه السلطان مسعود من بغداد، وضربا مصافاً بينهما، فقُتل من أصحاب السلطان مسعود خلق عظيم، وكانت الغَلَبَة للسلطان داود ثم عاد كل فريق إلى عسكره.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كسر أتابك زنكي بن أق سنقر [الفرنج] على رفنية، وأخذ منهم بارين، وكان ذلك فتحاً جليلاً.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة توفي شهاب الدين بن تاج الملوك بوري صاحب دمشق فغلب على الأمر الأمير بهرام شاه، ثم قدم أخوه جمال الدين محمد من بعلبك وتسلم دمشق وجعجع بأخيه بهرام شاه، وجمال هذا هو والد مجير الدين ومعين ا لدين(٤) .

سنة أربع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة توفي جمال الدين محمد صاحب دمشق فملكها بعده ولده مجير الدين [وجعل] إلى أخيه معين الدين التدبير.

سنة ست وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان وخوارزم شاه وهو علاء الدين أتسز، ودخل خوارزم شاه مَرْوْ وَوَلِيَهَا.

وفيها كانت الوقعة العظيمة بين السلطان سنجر وكافر ترك، وكان سببها أن السلطان سنجر لما واقع خوارزم شاه قتل أخا خوارزم شاه،

فبعث خـوارزم إلى كافر تـرك مستنجداً بهم، وكـان سير لهم خدمه فـأتوا قاصـدين السلطـان سنجر والتقوا بها وراء النهـر فانهزم السلطـان سنجر وبلغـت هزيمتـه إلى تـرمـذ، وأفلت في نفـر قليـل، ودخـل بلخ في ستـة أنفس، وقتـل من اصحابـه مئـة ألف أو يزيـدون فيقال أنه ممـن قتله كافر ترك أحد عشر ألف وأربعة آلاف أمير.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيـل بن سلجوق، قتله جماعة اغتالوه ولم يُعرفوا.

سنة تسع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنـة كان فتح الرهـا ،وكان من حديثهـا أنه نازلها أتابـك بن آق سنقر، وهي بيد الفرنج على حين غفلة منهم، ونصب عليها المجانيق ونقب سورهـا، وطرح فيها الحطب والنار فتهدم، ودخلهـا عنوة، فحاربهم فظفر المسلمون بهم وغنمـوهم، وكان فيها من أسـارى المسلمين أكثر من خمسمئة فاستنقذوهم.

سنة إحدى وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل أتابـك زنكي الشهيد رحمه الله، وكان من خبر ذلك أنه نازل قلعة جعبر وكان صاحبهـا يومئذ علي بن مالك، ولما أشرف على أخذها اتفـق أنه توعَّد بعض غلمانـه فخافوا منه، وكان شـديد الهيبة مخوفاً فـوثبوا عليـه وهو نـائم فقتلوه، فحمـل إلى الرقـة، ودفن في مشهـد هناك.

سيرته: كان رحمه الله عادلاً مجاهداً في سبيل الله، حسن السيرة، شديد الاهتمام بمصالح الرعية واثر آثاراً حسنة، ووقف وقوفاً كثيرة بالموصل من المدارس والربط وغيرها، وخلف بنين أربعة هم: الملك العادل نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير أميران.

استيلاء الملك العادل نور الدين على حلب

ولما قتل أتابك زنكي الشهيد بن آق سنقر، سار ولده الملك العادل، ومعه صلاح الدين الأغسياني إلى حلب وكانا عند أتابك لما قتل، فأخذا خاتمه ومضيا إلى حلب فسلماه إلى النائب بها فعرف الخاتم، وسلم حلب إلى الملك العادل، فملكها واستولى عليها.

وأما سيف الدين غازي بن أتابك زنكي فإنه لما قُتل والده، وكان في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، كتبوا إليه من الموصل يطلبونه لها، فركب من وقته، وسار إليها ودخلها وملكها، وكان بالموصل ألب أرسلان والخفاجي ابنا السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وقد ذكرناهما فقيل لهما: إن سيف الدين غازي قد عزم على القبض عليكما، فاجتمعا في مماليكهما واعتدا للقتال، وجرى بينهم وبين غازي وأصحابه حرب كثير، ثم اتفق رأي الجماعة على خديعة السلجوقيين وأحضروا قاضي القضاة فمضى إليهما وقال لهما: البلاد لكما، والمصلحة أن تصعدوا إلى القلعة وتوليا فيها من تريدان فلما صعدا إلى القلعة ضُبطت عليهما وقُيِّدا أياماً، وبُعثا إلى قلعة بقرب سنجار فخنقا بِوَتَرِ قَوْسٍ، وقيل بل فُعل ذلك بالخفاجي فقط (٥).

واستتب الملك بالموصل وأعمالها لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي،

وبحلب وأعمالها لأخيه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي.

وأما نصرة الدين أمير أميران فحبسه أخوه سيف الدين في قلعة الموصل.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة دخل ثلاثة ملوك من الفرنج إلي بيت المقدس، فصلوا فيه صلاة الموت، ثم انحدروا إلى عكا، فاجتمعوا فيها يقال في سبعمئة ألف وعزموا على قصد بلاد المسلمين، فخافهم أهل الشام خوفاً شديداً، فلما كان سادس ربيع الأول لم يشعر أهل دمشق إلا وعلى بابها ستة آلاف فارس، وستون ألف راجل فخرج إليهم المسلمون وقاتلوهم فقتل من المسلمين خلق ومن الفرنج كذلك.

فلما كان خامس يوم نزولهم وصل الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله إلى حماة نجدة للمسلمين في نحو عشرة آلاف فارس، ووصل أخوه سيف الدين غازي صاحب الموصل في قريب من ذلك، ثم أنزل الله نَصْرَهُ على المسلمين وانهزم الفرنج عن دمشق خائبين، وقُتل من الفرنج مالا يُحصى.

وكان من جملة من استشهد في هذه النوبة شاهان شاه بن نجم الدين أيوب، أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله.

وفي هذه السنة تسلَّم الملك العادل نور الدين رحمه الله حصن أفامية من الفرنج بعد حصار شديد، وقَتَل صاحب أنطاكية، واستولى على عسكره، وفتح قلاعاً كثيرة من بلاد الفرنج.

-٩٩٤٢-

سنة أربع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وكان قد قصد حصار ماردين وهي بيد الأمير حسام الدين تمرتاش بن ايل غازي بن أرتق، وكان سبب ذلك أن أتابك زنكي كان صديقاً لحسام الدين هذا، فاتفق أن حسام الدين عمل لأتابك يوماً ضيافة بقلعة ماردين واجتمعا فيها فقال له أتابك: لاترجع تصعد إلى قلعتك مثلي فإني أنصحك. فقال له حسام الدين: وأنا أنصحك لاترجع تسلّم نفسك إلى مثلي، ثم افترقا، فلما قُتل أتابك اشتفى به حسام الدين، فبلغ ابنه سيف الدين ذلك فقصده وأغار عليه، ثم ا صطلحا وتزوج سيف الدين غازي بنت حسام الدين، ولم يدخل بها، ثم مرض في عودته فمات في الطريق قريباً من الجزيرة، فقيل أنه سُمَّ، وقيل مات حَتْفَ أنفه.

ولما توفي سيف الدين مَلَكَ الموصل بعد ذلك أخوه قطب الدين مودود بن زنكي.

وفي هذه السنة كانت وفاة الحافظ لدين الله صاحب مصر، فكانت مدة ملكه ثمان عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً.

-٩٩٤٣-

بيعة الظافر بالله

هو أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ، بويع له بالخلافة في القاهرة يوم توفي والده الحافظ وقام بوزارته سليم بن مصال ويلقب بالأفضل، فخرج عليه الملك العادل أبو الحسن علي بن سباسلار الملقب بالمظفر فقتله، وولي الوزارة إلى أن قتله ابن امرأته نصر بن عباس بن تميم المغربي في سادس محرم سنة ثمان وأربعين، وولي الوزارة بعده عباس بن أبي الفتوح وتلقب بالأفضل.

وفي هذه السنة استوزر الخليفة المقتفي لأمر الله الوزير يحيى بن محمد ابن هبيرة، ولقَّبَهُ عون الدين.

سنة سبع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وذلك بباب همذان.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً بعيد الهمة، أبِيَّ النفس، متيقظاً بصيراً بالحروب، ولما مات عقد العسكر السلطنة لابن أخيه السلطان ملكشاه ابن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وقام بأمره خاص بك التركماني.

ولما استقر لهما الأمر قال خاص بك لملكشاه: إني أريد أن أقبض على أخيك محمد شاه وأسلمه إليك، فَطَرِيقُهُ أن أقبض عليك وأخبره أني قد قبضت عليك لأسلمه إليك، فقال له ملكشاه: إفعل ما تريد، فقبض خاص بك على ملكشاه وكتب إلى محمد شاه يستدعيه إلى السلطنة فجاء

إلى همذان، وتلقاه خاص بـك وحمل إليه جُمَلاً كثيرة من مال وخيـل فقبل ذلك، وجـاءه الأمراء وغيرهـم يخاطبونـه في حوائجهـم فقال لهم: مـالكم معـي كلام وإنما كـلامكـم مع خـاص بـك فمهما أَشَارَ بـه فهـو الوالـد والصـاحـب، والكـل تحت أمـره. فوصـل هـذا الكـلام إلى خـاص بـك فـاسترسل إليـه فقبـض عليه محمـد شاه في الـوقـت وقتله، واستـولى على ذخائره، و«من حفر لأخيه المؤمن قَلِيْباً ألقاه الله فيه قريباً».

سنة ثمان وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كـانت الوقعة العظيمة بين السلطان سنجـر بن ملكشاه وبين الغُـزّ، فكُسر سنجـر كسرة عظيمـة، واستبيـح عسكـره قتـلاً وأَسْرَاً، وهجموا نيسـابور فقتلوا معظـم من فيهـا من الجند والعلماء والعـوام، ثم توجهوا إلى بلخ فملكوها، وكانت عُدَّتُهُم فيما ذُكر مئة ألف خركاه.

ثم أسروا سنجْر واحتاطـوا به، وخطبوا له لما ملكوا بلاده، وقـالوا: أنت السلطان ونحـن أجنادك ولكنَّا لانـأمنك فبقي في أَسْرِهِ محُوطـاً عليه مُقيماً في أيديهم إلى أن مات.

سنة تسع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الظافر بـالله صاحب مصر، وحديث ذلك أنه وثب به عبـاس بن تميم وابنه نصر فقتـلاه وأخفيا مكانه، وذلـك في سلخ شعبان وعمره إحدى وعشرون سنة وأيام.

ولما قتله نصر وعباس أخفيا قَتْلَه وأنكراه، وأجلسا ولده أبا القاسم عيسى بن الظافر، ولقَّباه الفائز بالله، ولما بلغ أهل القصر قَتْلُ الظافر كتبوا كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان بالصعيد وأصحبوه شعور النسوان، فلبس طلائع السواد وحشد حشداً عظيماً، وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر فساعدوه، وتوجه إلى مصر قاصداً إليها.

ولما سمع عباس وابنه نصر بذلك هربا بأموالها، وكانت عظيمة فلما وصلا إلى مَنْهَل يُعرف بموه وأم العب خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباسا ، وأسروا نصراً.

بيعة الفائز بالله

هو أبو القاسم عيسى بن الظافر بن الحافظ، بويع له بالخلافة بالقاهرة يوم قتل أبوه الظافر، ولما وصل طلائع بن رزيك إلى القاهرة أجلسه أهلها للوزارة، ولُقِّب الملك الصالح، واستقام أمره واسْتَبدَّ بتدبير الدولة ثم بعث إلى الفرنج يطلب منهم نصر بن عباس، وبذل لهم في ذلك أموالاً جزيلة، فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وأتى به إلى القاهرة فسلمه الملك الصالح إلى النساء فَأَقَمْنَ يَضْرِبْنَه بالقباقيب الآمدية أياماً متوالية وقَطَّعن لحمه وأَطْعَمْنَهُ إياه مدة ثم شووه حتى مات ثم صلبوه بباب زويلة ثم حَرَّقُوه، وأقام الملك الصالح مدة مدبراً مملكة الفائز.

وكتب الخليفة المقتفي لأمر الله إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يأمره بالمسير إلى مصر، وأَخْذَها، وكتب له عهداً عليها وولاه الشام ومصر والسواحل.

وفي هـذه السنة كـان استيلاء الملـك العـادل نور الـدين على دمشـق وتملكه لها، فَعَظُمَ أمره، وقويت شوكته وتأطدت دولته.

سنة خمسين وخمسمئة

في هـذه السنـة وصـل السلطـان سليمان شاه بـن محمـد بـن ملكشـاه السلجوقي إلى بغداد ضيفاً للخليفة المقتفـي ومستجيراً به، فأكرمه ووصله وبَجَّلَهُ وبعث إليه مايبعث إلى مثله، وإنما استجار به لتغلب إخوته وعمه على البلاد وخوفه منهم.

سنة إحدى وخمسين وخمسمئة

في هذه السنـة خطب الخليفة للسلطـان سليمان شاه بن محمـد ببغداد بعد خطبتـه لعمه السلطان سنجـر بن ملكشاه بـن ألب أرسلان، وتـوَّجَهُ وطَوَّقَهُ وَسَوَّرَهُ، وأعطاه عشرين ألف دينـار، وأحلَفَهُ على الطاعة والمناصحة وأن لايَقْصِدَ بغداد بمكروه، وأن العراق جميعـه يكون بيد الخليفة، وأن له مايفتحـه من بلاد خـراسان، فَتَوجَّهُ سليمان شـاه قاصداً البـلاد وانضاف إليه ابـن أخيه ملكشاه بـن السلطان محمـود بن محمد، واحتشـدوا فسمع بهم السلطـان محمد بـن محمود بـن محمد بـن ملكشاه بـن ألب أرسـلان فسار إليهـم فانهزمـوا بين يديه، واستبـاح السلطان محمـد شاه عسكـرهم وسلبهـم، وعادوا إلى بغداد عراة، ومضى سليمان شـاه هارباً إلى بغداد عن طريق الموصل فقبـض عليه زين الدين علي كوجـك واعتقله عنده وكتب إلى السلطـان محمد شـاه يحثه على قصـد بغـداد، فقصدهـا واضطربـت

العساكر بها وبعث الخليفة إلى زين الدين على كوجك يستدعيه لنجدته فتخلف عنه.

وفي هذه السنة تسلم الملك العادل نور الدين بعلبك وأبا قبيس وملكهما.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة وصل زين الدين علي كوجك صاحب إربل والموصل نجدةً للسلطان محمد شاه بن محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي فنازلا بغداد وحاصراها حصارا شديدا، ونصب الخليفة عليها المجانيق والعرادات، وفرّق الجواشن، فيقال أنه فرّقَ سبعة آلاف جوشن ونصب مئتين وسبعين عَرَّادَة، ونصب السلطان محمد شاه خارج البلد أربعمئة سلم ليصعدوا على الأسوار فلم تمكّنهم أهل البلد.

وبينما هَمْ على الحصار إذ وردت الأخبار بدخول السلطان ملكشاه بن السلطان محمود همذان ونهبها، وقتل أصحاب محمد شاه، فضعف أمر محمد شاه، وأقام على الحصار مدة فلم يتحصل على غرض، فرحل طالباً بلاده ورجع زين الدين علي كوجك إلى بلاده.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وبين الفرنج على صفد، فنصره الله تعالى عليهم وبعث برؤوس القتلى وتحفاً إلى بغداد.

وفيها فتح عسكر مصر غَزَّةَ واستعادوها من الفرنج، وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حماه هدمت ثلاث عشرة مدينة: حماه،

وحلب، والمعرة، وشيزر، وكفر طاب، وأفامية، وحمص، وتل عرن، وحصن الأكراد، وعرقة، واللاذقية، وطرابلس، وانطاكية إلا أن تأثيرها بحماه كان أشد، فانها أقلبتها، ومعظم أهلها، ولم تُبْقِ منهم إلاّ القليل.

وفيها كانت وفاة السلطان سنجر بن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكانت مدة جلوسه على سرير الملك إحدى وأربعين سنة، وكان قبل ذلك في عز وسلطنة، ومَلَكَ قريباً من عشرين سنة، فذلك قريب من ستين سنة، وخُطِبَ له على أكثر منابر الاسلام، وصَفَتْ له خراسان وملكها وحارب أعداءه حروباً كثيرة إلاّ أنه في آخر أمره استأسره الغُزّ، وضيقوا عليه وأجروا عليه راتباً لايصلح لسائسه، وكان يركب معهم بتوكيل وحَفَظَة، ويُسَمُّونه بالسلطان ويقولون: نحن رعِيَّتُكَ ويظهرون تعظيمه.

وكانت وفاته لست بقين من ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وسبعين سنة وشهوراً وعشرة أيام، ودفن في قبة بناها لنفسه، وسماها دار الآخرة.

سيرته: كان ملكاً عظيماً، جليل القدر، مهيباً كريماً رفيقاً بالرعية حليماً عنهم، وكانت البلاد آمنة في أيامه. ولما توفي السلطان سنجر قُطعت خطبته ولم يُجلَسَ له في العزاء.

وفي هذه السنة تسلَّمَ الملك العادل نور الدين بانياس من الفرنج، وفيها تسلَّم أيضاً شيزر، وكانت بيد بني منقذ، وصَفَتْ له البلاد الشامية بأسرها، ثم ملك بعد ذلك الموصل واستتب أمره، ولم يبق له بهذه البلاد كلها منازع.

وفيها نزلت الفرنج على شيزر فحاصروها وقتلوا منها خلقاً عظيماً، ثم عادوا إلى بلادهم.

سنة أربع وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي بباب همذان، وذلك في ذي الحجة، وكان ملكاً بعيد الهمة شجاعاً.

سنة خمس وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة أفرج الأمير زين الدين علي كوجك عن السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان معتقلاً عنده كما تقدم ذكره، وتوجه إلى همذان وملكها وخُطب له بالسلطنة، ثم توفي في ربيع الآخر من هذه السنة وهو آخر من بلغني خبره من السلاطين السلجوقية ببلاد العجم، ولاشك أنه ملك بتلك الناحية منهم جماعة بعده، ولم يتصل بي خبرهم إلاّ أني أعلم أن آخر من مَلَكَ منهم هناك السلطان طغرل الأصغر بن السلطان أرسلان شاه بن السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود ميكائيل بن سلجوق.

وقُتل السلطان طغرل هذا في سنة ست وتسعين وخمسمئة فكانت مدة ملك السلاطين السلجوقية من حين ظهر السلطان طغرل بك بن ميكائيل إلى أن قتل طغرل الأصغر مئة سنة وأربعاً وستين سنة.

وأما السلاطين المستولون على بلاد الروم فقد رأيت جماعة من المؤرخين أنكروا أن يكونوا من السلجوقية، وقالوا إن نسبهم إلى سلجوق غير صحيح، ورأيت جماعة منهم أثبتوا لهم في السلجوقية، منهم العماد الكاتب، وسنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً من أمورهم في مواضعه.

وفي هذه السنة كانت وفاة المقتفي لأمر الله، وذلك في مستهل ربيع

الأول فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، وكان عمره ستاً وستين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً، وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة، وهو الذي أقام حِشْمَةَ الدولة العباسية، وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم من المتغلبين، من أيام المقتفي صارت بغداد والعراق بيد الخلفاء، ولم يبق بها منازع، وقبل ذلك من أيام المتقي كان الحكم للمتغلبين وليس للخلفاء معهم إلا الإسم.

سيرته: كان رضي الله عنه كريماً سَمْحَاً، محباً لقراءة الحديث النبوي وسماعه معتنياً بالعلم، كثير الإكرام لأهل الفضل، محباً لأهل الخير.

-٥٥١ه-

خلافة المستنجد بالله

هو أبـو المُظَفَّر يوسـف بن المستظهر بـن المقتدي، وأمه أم ولـد تسمى طاووس، بـويع له الخلافـة لليلتين مضتا مـن ربيع الأول بعد وفـاة والده المقتفي بيوم واحـد، وكتم موته، وكان أول مـن بايعه عمه أبو طـالب بن المستظهر، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفـي، ثم الوزير ابن هبيرة، ثم قاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء، واستتب له الأمر.

وحكى الوزيـر عون الدين يحيى بـن هبيرة قال: حكى لي أمير المؤمنين المستنجد بـالله قال: رأيت رسـول الله ﷺ في النوم منـذ خمس عشرة سنة فقال لي: يبقى أبـوك في الخلافة خمس عشرة سنة، فكان كما قـال، ورأيته ﷺ قبل مـوت أبي بأربعـة أشهر فدخـل بي في باب كبير، ثـم ارتقى إلى الجبـل، فصلى بي ركعتين وألبسني قميصـاً، وقال لي: أللهـم اهدني فيمـن هديت، وذكر دعاء القنوت.

وفي هـذه السنة كـانت وفـاة الفـائز بالله صـاحب مصر وعمـره عشر سنين وشهوراً، وكانت مدة ملكه ست سنين وشهوراً.

بيعة العاضد لدين الله

هو أبـو محمد عبد الله بـن يوسف بـن الحافظ، بُويـع له يوم تـوفي ابن عمه الفائز، وأُجلس على سرير الملك وخُطب له بالديار المصرية، وزوَّجَهُ الملك الصالح طلائع بن رزيك وزيره ابنته، واستولى عليه الملك الصالح استيلاءً كلياً، وَوَلَّى الصعيد الأعلى شاور البدوي.

-٩٩٥٢-

سنة ست وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الملك الصالح بن رزيك، وكان من حديث ذلك أنه قطع أرزاق الحاشية، فتحالفوا على قتله، فقصد القصر قاصداً الاجتماع بالعاضد فوثب عليه سبعة مماليك قبل وصوله إلى العاضد فضربوه بالسيوف، وحُمل إلى بيته حياً فمات تلك الليلة.

سيرته: كان جواداً فاضلاً غزير الأدب شاعراً مُجيداً، وأكثر أشعاره في مدح أهل البيت، ومن جملة شعره قصيدته التي يعارض فيها قول دعبل ابن علي الخزاعي:

مدارس آياتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وَحْيٍ مُقْفِر العَرَصَاتِ

وأول قصيدة الصالح:

أَعَاذِلُ دَعْ لَوْمي على صَبَوَاتي
فما فاتَ يمحوه الذي هو آت
وما جزعي من سيئات تقدمت
ذهاباً إذا أتبعْتُها حَسَنَاتِ
ألا إنني أقلعتُ عن كل شُبْهَةٍ
وجانَبْتُ غرقى أبحر الشبهات
شُغِلْتُ عن الدنيا بحبِّي لمعشرٍ
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وآخرها:

أُعارض قولاً للخزاعيّ دعبلٍ
وإن كنتُ قد أقللتُ من مدحاتي
مدارس آيات خَلَتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وحيٍ مُقْفِر العرصات

ولما قُتل الملك الصالح ولي العاضد وزارته ولده الملك العادل رزيك ابن طلائع، وخلع عليه خِلَعَ الوزارة.

ولما ولي الملك العادل رزيك بن الملك الصالح الوزارة بسط العدل في الرعية وتمكّن من الدولة.

استيلاء شاور على مصر

ثم أُشير على الملك العادل رزيك بعزل شاور عن ولاية الصعيد، فكتب إليه يستدعيه، فأوجس في نفسه خيفة، وكتب إلى الملك العادل كتاباً أظهر فيه الطاعة واستعطفه، وذكّره سابق خدمته لأبيه، فعزم الملك العادل على إبقائه فألح عليه أهله في عزله وقالوا: إن أبقيتَه طمع فيك. فولى الملك العادل رزيك الصعيد لنصير الدين ابن شيخ الدولة، وكتب معه كتاباً إلى شاور باستدعائه إلى القاهرة وتسليم قُوص إلى نصير الدين، فلما وصل نصير الدين إلى إخميم كتب إلى شاور كتاباً وجعل كتاب الملك العادل رُزيك في طيه، فكتب إليه شاور: أنت صاحبي فارجع من حيث جئتَّ فهو خير لك فعاد نصير الدين إلى القاهرة، وجاهر شاور بالعصيان، وجمع العرب واستحلفهم وتوجه إلى القاهرة، فانهزم العادل رزيك ثم قُبض عليه فأُتي به إلى شاور مقيداً، ودخل شاور القاهرة، وحضر بين يدي العاضد فخلع عليه وحنكه واستوزره ولقّبه بأمير الجيوش المظفر واستحلف الناس له، وجلس شاور للناس فدخلوا عليه ثلاثاً وانشدوه شعراً، ثم حَبَسَ العادل رزيك وضَيّقَ عليه.

سنة ثمان وخمسين وخمسمئة

ذكرابتداء الدولة الأيوبية: ثبَّتَ الله أركانها وأطَّدَ بنيانها ونَصَرَ أعوانها وخلد سلطانها ومازالت راياتها منصورة ولمعانديها مقهورة ماكرَّ الجديدان وتعاقب النيران، آمين، وكان من حديثهم فيما بلغني أن والدهم شادي بن مروان رحمه الله كان أميراً عظيم القدر، وكان مقامه بتكريت وبها توفي، وكان له ولدان هما: أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، فاتفق أن نجم الدين أيوب ولي قلعة تكريت مدة، ثم عُزل عنها وطُلب منه المقام بتكريت من غير ولاية فامتنع، وتجهز هو وأخوه وأصحابهما وأهل بيتهما إلى الموصل فخدموا بها امراءها.

ولما وصلت المملكة إلى العادل نورالدين محمود بن زنكي قصده نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين وأهل بيتهما، فقربهم، وأكرمهم غاية الإكرام وقدمهم على غيرهم من الأمراء، وصاروا من أكابر أصحابه وأعظم أرباب دولته.

ولما ملك نور الدين البلاد الشامية، واستولى عليها، كانوا في صحبته وملازمين له في سفره وحضره لايفارقونه في وقت من الأوقات.

وكان العادل نور الدين رحمه الله إذاحَزَبهُ أَمْرٌ فَزِعَ في المشورة إلى نجم الدين أيوب رحمه الله وتيمن برأيه.

وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب يقوم يومئذ على رأس نور الدين رحمه الله في الخدمة مع جملة خواصه وأولاده، وكان نور الدين يعظِّمه ويكرمه، وينزله منزلة الولد، وينزل أباه وعمه منزلة الإخوة والأهل لما كان يعرفه منهم من جميل الطريقة ومحمود السيرة وطهارة الأصل وشرف المحتد، واقتبس صلاح الدين من نور الدين من مبادىء الخيرات وجميل الصفات ما اتصف بها، وزاد عليها وجاوزها.

ولما كـانت هـذه السنة قَـدِمَ شاور وزيـر العاضـد صاحـب مصر إلى دمشق، وذلـك لستٍّ مضين من ربيع الأول واجتمـع بالملك العـادل نور الديـن رحمه الله، ووصف له الـديار المصريـة، وضُعْفَ أهلها، وضمـن له أنه إن بعث معه عسكراً أخذها له.

وكـان السبب في قصـد شـاور إلى الشام وإطماعـه نور الـديـن بديـار بمصر أن شـاور كـان لما استقَـلَّ بـالملـك بمصر نَقَـصَ أرزاق الجنـد وعَسَفَهُم فتعـاقدوا على قتله ومـن جملتهم رجـل يقال له الضرغـام، فبلغ شـاور ذلك فخـرج ليـلاً طـالباً الشـام، فخـرج الضرغـام وجماعة خلفـه ليقبضوا عليه فلـم يدركوه، وعاد الضرغام إلى مصر فخلع عليـه العاضد واستوزره ولقَّبه الملـك المنصور، واستحلف له الأمراء، فَقَتَـل الضرغام من الأمراء الـذين كـانوا مـع شاور وكـاتبوه مـايزيـد على سبعين أميراً سوى اتباعهم.

مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ثم إن الملك العادل نور الديـن رحمه الله جهز جيشاً كثيفاً لفتح مصر وقَـدَّم عليهم الملـك المنصـور أسد الـديـن شيركـوه بن شـادي رحمه الله، فتوجه إلى مصر وفي خدمته شـاور، ولما وصلوا إلى مصر علم الضرغام أنه قد أُحيط بـه فأتى إلى قصر الخلافة ونادى:يـامولانا يامـولانا، فلم يُجَبْ، ووردت إليه رقعـة مكتوب فيها خذ لنفسـك وانج بها. فيَئِسَ مـن الحياة وخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلـوه وقتلوا معه أخويه ملهماً والحسام، ولم يَتَأَتَّ لأسد الـدين الاستيلاء على مصر في هذه السنة، وأعـاد العاضد شاور إلى وزارتـه، فانحـرف عن أسـد الديـن وَبَايَنَـهُ، واستنصر بالفـرنج عليه، فلما رأى ذلك أسد الدين كرَّ راجعاً إلى الشام.

-٩٩٥٦-

سنة تسع وخمسين وخمسمئة

في هـذه السنة كسر الملـك العـادل نور الـديـن رحمه الله الفرنـج على حارم، وتَسَلَّمها وأخذ القـومص والإبرنس أسيرين، وكان ذلـك من فتوح الإسلام الجليلة.

سنة اثنتين وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الدين الثاني إلى مصر، وكان من حديث ذلك أن الملـك العادل نور الـدين رحمه الله جهز أسـد الدين شيركـوه بن شادي في عسكـر كثيف مـن العساكر النـوريّة إلى مصر، وذلـك في ربيع الأول فسـار إلى مصر، ونزل بـالجيـزة وأقـام محاصراً لها نيفاً وخمسين يـوماً ومعه ابن أخيه صـلاح الدين يوسف بن أيـوب رحمه الله، فاستنجد شاور بـالفرنـج وأَذِنَ لهم في دخـول مصر لنجدتـه، فقـدموا طـالبين مصر، فلما عـرف أسد الـديـن بمجيئهـم رحل مـن بين أيـديهم إلى مـوضع يعـرف بـالبابين، فعبـأ أصحابـه وجرى بينـه وبين المصريين حرب نصر الله فيهـا أسـد الـدين وقُتـل مـن الفـرنج ألـوف وأسر منهـم سبعـون فارسـاً مـن بارونيتهم، ثـم سار أسد الديـن وابن أخيه صلاح الـدين رحمهما الله تعالى إلى الاسكندرية فملكها، وولى فيهـا أسد الدين ابن أخيه صـلاح الدين، وخرج أسد الدين إلى الصعيد فأقام به يجبي الخراج.

وأقام الفرنج بالقاهـرة حتى استراشوا وجددوا آلات الحرب، ثم قصدوا الاسكندرية وبها صلاح الـدين يوسف بن أيوب فحـاصروها أربعة أشهر، وكـان أهل الاسكنـدريـة مؤثـريـن للغُـزّ كارهين للـدولـة المصرية، لميـل الاسكندرانيين إلى السُّنّةِ وكراهيتهم للبدعـة، فقاموا بنصرة صلاح الـدين أحسن قيام.

وسارأسد الدين من الصعيد بجموعه طالباً للفرنج، فلما قرب منهم رحلوا، ثم وقعتْ هدنة بين أسد الدين وشاور على أن ينصرف أسد الدين إلى الشام، ويحمل إليه شاور عوض ماأنفقه فبذل له خمسين ألف دينار، فأخذها ورحل بجموعه إلى الشام.

سنة ثلاث وستين وخمسمئة

في هذه السنة أنعم الملك العادل نور الدين على أسد الدين شيركوه ابن شادي بحمص وأعمالها، فتسلمها وصار فيها.

سنة أربع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الدين الثالث إلى مصر، وخبر ذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية، وذلك لأنهم دخلوها مرتين، كما سبق ذكره، واطَّلَعوا على عوراتها، وعرفوا جهاتها، وطمعوا في أخذها، فجمعوا جموعاً عظيمة، وأظهروا أنهم قاصدين حمص، وكان الملك العادل مشغولاً بجهة الفرات والشمال، فتوجهوا من عسقلان في المحرم فوصلوا إلى بلبيس فحاصروها وملكوها، واستولوا على أهلها قتلاً وأسراً.

ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفاً من الفرنج، فلما ضايقوا القاهرة بعث شاور إلى ملك الفرنج مُري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها مؤجل وبعضها معجل فأجابه مُري إلى الصلح، وحلف له عليه، فحمل إليه شاور مئة ألف دينار، وماطَلَهُ بالباقي، وكتب إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستصرخ

به، وسَوَّد كتبه، وجعل في طيّها ذوائب النساء، وواصل كتبه إلى الملك العادل نور الدين، وكان مقيماً بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة واحدة فجمعا العساكر وسارا إلى دمشق وعرضا العساكر على الفور، ثم سار أسد الدين إلى مصر في سبعين ألف فارس وراجل(٦) فلما بلغ الفرنج قدومه رحلوا عن مصر راجعين إلى الساحل.

استيلاء أسد الدين على مصر

ثم دخل أسد الدين القاهرة لثلاث عشرة مضين من ربيع الآخر، وجلس في الإيوان وخلع عليه خلع السلطنة، ثم ولاه العاضد وزارته وكتب له عهداً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليّه أبي عبد الله بن يوسف، الامام العاضد لدين الله، أمير المؤمنين، إلى السيد الأجلّ الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة مُجير الأمّة أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأَمْتَعَ بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك فإنا نحمد إليك الله الذي لا اله إلا هو ونسأله أن يصلي على عبده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين ويسلم تسليماً .

ثم اتبع ذلك خطبتين فيهما مواعظ ووصايا، وأنه قد قلده الوزارة وفوض إليه تدبير الدول، بألفاظ رائقة ومعان فائقة كرهنا ذكرها مفصلة خيفةً من التطويل.

وكتب العاضد بخطه على أعلى المنشور ماصورتُهُ:

هذا عهد لم يعهد بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بنوة النبوّة واتّخِذْهُ للفوز سبيلاً، (ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليها كفيلا (٧)).

مقتل شاور

وكان مقتله قبل أن يستوزر العاضد أسد الدين، وحديث ذلك أن أسد الدين لما دخل القاهرة قام شاور بضيافة عسكره وأكثر من التردد إلى خدمة أسد الدين، فطلب منه أسد الدين مالاً ينفقه على الأجناد فماطله شاور به، فبعث إليه الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري يقول له: إن العسكر طلبوا نفقاتهم وقد مطلتهم بها وتغيرت قلوبهم عليك، فإذا أتيتني فكُنْ على حذر منهم. فلم يؤثر ذلك عند شاور شيئاً وأتى أسد الدين مسترسلاً فاعترضه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجماعة من الأمراء النورية فقبضوا عليه، فجاءهم رسول العاضد يطلب رأس شاور فقتل وحمل رأسه إلى العاضد وذلك في اليوم الذي دخل فيه أسد الدين القاهرة، فقلد العاضد حينئذ أسد الدين الوزارة كما ذكرناه وولاه ماوراء بابه.

وفاة الملك المنصور أسد الدين رحمه الله

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور أسدالدين أبوالحارث شيركوه بن شادي قدس الله روحه، وذلك يوم الأحد لثمان بقين من جمادى الآخرة فكانت مدة استيلائه على الديار المصرية خمسة وستين يوماً.

- ٩٩٦٠ -

استيلاء الملك الناصر صلاح الدين على مصر

ولما توفي الملك المنصور أسد الدين قلّد العاضد الوزارة بموافقة من الأمراء النورية للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ابن شادي، ولقبه الملك الناصر، وخلع عليه، وكتب له منشوراً بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقام الملك الناصر بالوزارة وتدبير الممالك أحسن قيام، واستمال قلوب الناس بالخلع والهبات وجهز الكتب والخلع إلى الشام، وساس الناس أحسن سياسة.

نوبة السودان وقتلهم

وكان من حديثهم أن خصياً يقال له مؤتمن الخلافة، كان زمام القصر بمصر، فاجتمع بمن في القصر وحالفهم، وكاتبوا الفرنج ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر، فظفر الملك بالكتاب ووقف عليه فأنهض إلى مؤتمن الخلافة جماعة فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوه به، فغضب السودان لذلك واجتمعوا فيما يزيد على خمسين ألفاً، فقاتلهم الملك الناصر بعساكره، فكسرهم واستباح دماءهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وهرب من سلم منهم.

وكانت لهم محلة كبيرة على باب زويلة فأمر الملك الناصر بتعفيتها فحرثها بعض الأمراء وجعلها بستاناً، وضعف أمر العاضد من حينئذٍ.

سنة خمس وستين وخمسمئة

في هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط في مستهل صفر فحاصروها واحداً وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين.

-٩٩٦١-

قدوم نجم الدين رحمه الله إلى مصر

في هذه السنة قدم الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن شادي قدس الله روحه إلى مصر، فخرج العاضد إلى لقائه بنفسه ومعه الملك الناصر صلاح الدين ومَنْ دُونَهُما، وكان يوماً مشهوداً، وكان ذلك لستٍّ بقين من رجب.

استيلاء الملك العادل نور الدين على سنجار والموصل

وفي هذه السنة توجه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى سنجار فحاصرها حصاراً شديداً ثم تسلمها بالأمان، ثم توجه إلى الموصل فحاصرها وقطع الميرة عن أهلها فوقع الصلح بينهم على تسليمها لنور الدين فدخل نور الدين الموصل ورتب أمورها وبنى بها الجامع النوري، ووقف عليه الوقوف الجليلة.

وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال، فيقال أنه هلك بها تحت الروم خمسة عشر ألف إنسان، ذكر أنها عمت معظم البلاد حتى جاءت في سبته من بلاد المغرب.

سنة ست وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستنجد بالله وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وأياماً، وكان عمره ثمانياً واربعين سنة.

سيرته:

كان رضي الله عنه محباً للعلم منكراً للظلم كثير الصدقات مهيباً

مخوفاً، ذا سطوة وعزيمة، وبأس شديد، وله شعر جيد من جملته قوله في الشمعة:

وصفراءُ مثلي في القياس ودَمْعُها سِجامٌ على الخدَّين مثل دموعي
تذوب كما في الحبِّ ذُبْتُ صَبابةً وتحوي حشاها ما حَوَتْهُ ضلوعي

خلافة المستضيء بنور الله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي ابن الذخيرة بن المنذر بن القائم بن القادر، وأمه أم ولد أرمنية تدعى غَضَّة، بويع له بالخلافة يوم توفي والده المستنجد بالله، ومدحه الحيص بيص بقوله:

أقول وقد تولى الأمر خَيْرٌ وَلِيٌّ لم يزل بَرّاً تَقِيّاً
وقد كُشِفَ الظلام بمستضيء غدا بالخلق كلهم حفيا
وفاض الجود والمعروف حتى حسبناه غُبَاباً أو أتِيّا
بَلَغْنا ما كنا نُرجِّي هنيئاً يابني الدنيا هَنِيّا
سألنا الله يرزقُنا إماماً نُسَرُّ به فأعطانا نَبِيّا

ولما استوسق الأمر لأمير المؤمنين المستضيء، بعث رسله إلى الأقطار مبشرين بخلافته، ومهنئين بإيالته.

إقامة الدعوة العباسية بمصر

في هذه السنة خطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر لأمير المؤمنين المستضيء بنور الله رضي الله عنه في أول جمعة من المحرم والعاضد حي، ثم كانت وفاة العاضد لدين الله في يوم عاشوراء بعد إقامة الخطبة بأيام قلائل، وهو آخر خلفاء مصر.

فلما كانت الجمعة الثانية خطب بالقاهرة للمستضيء ورجعت الدعوة العباسية بمصر بعد أن كانت قطعت بها أكثر من مئتي سنة (٨) ، وتسلم الملك الناصر قصر الخلافة بالديار المصرية، واستولى على ماكان به من الأموال والذخائر، وكانت عظيمة الوصف، جليلة القدر، وقبض على أولاد العاضد وأهل بيته واعتقلهم في مكان واحد بالقصر، واحتاط عليهم وأجرى عليهم مايمونهم، وعفا آثارهم وقمع مواليهم وسائر أسبابهم.

قلتُ: وكانت هذه الفعلة من أشرف أفعال الملك الناصر رحمه الله، وأقربها إلى الله تعالى، فلنعم مافعل فإن هؤلاء القوم كانوا باطنية زنادقة (٩) دعوا إلى مذهب التناسخ واعتقاد حلول الجزء الإلهي في أشباحهم.

وقد ذكرنا ان الحاكم قال لداعيه: كم في جريدتك؟ قال: ستة عشر ألفاً يعتقدون أنك إله. وقد مدح بعضُ الشعراء بعضَهم، وأظن الممدوح الحاكم (١٠) ، حكم الله عليه بالنقمة بقصيدة أولها:

ماشئتَ لا ماشاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

فلعَنَ الله المادح والممدوح وليس هذا في القبح إلا كقول فرعون: (أنا ربكم الأعلى) (١١)

وقال بعض شعرائهم يذكر ظهور مهديهم فيما يزعمون، الذي هو في الحقيقة مُضِلُّهُم وقائدهم إلى النار برقادة (١٢) من عمل القيروان:

حَلَّ رَقَّادَةَ المسيحُ حَلَّ آدمٌ ونوح
حَلَّ بها اللهُ في عُلاهُ وما سوى اللهِ فهو ريح

وهذا أعظم كفراً من النصارى بكثير، لأن النصارى يزعمون أن الجزء الإلهي حل بناسوت ابن مريم فقط، وهؤلاء يعتقدون حلوله في جسد آدم ونوح وسائر الأنبياء وجميع الأئمة فلعن الله قائل هذه المقالة لعنة لاتفارقه إلى يوم الدين.

هذا اعتقادهم، فأما نسبهم فَأَئِمَّةُ النسب يجمعون على أنهم ليسوا من ولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ولا من قريش أصلاً، وقد ذكرنا فيما مضى أن القادر بالله كتب محضراً يتضمن القَدْحَ في أنسابهم ومذاهبهم، وأنه شهد في ذلك المحضر خلق من الأكابر منهم الشريفان الرضي والمرتضى وأبو حامد الاسفرائيني، وأبو جعفر القدوري وغيرهم.

وكان عمارة الشاعر اليمني متوالياً لهم، فلما زالت دولتهم قال يرثيهم بقصيدة أولها:

رَمَيْتَ يادهر كف المجد بالشلل
وَجِيدَهُ بعد حُسْنِ الحلى بالعَطَلِ
سعيتَ في منهج الرأي العَثُور فإنْ
قَدِرتَ من عثرات الدهر الجَلْي فَاسْتَقِلِ
جَدَعْتَ مارنك الأقنى فَأَنْفُكَ لا
يَنْفَكُّ مابين أمر الشَّيْنِ والخجل
هَدَمْتَ قاعدة المعروف عَنْ عَجَلِ
سُقِيْتَ مُهْلاً أما تمشي على مَهَلِ
لهفي ولهف بني الآمال قاطبةً
على فجيعتها في أكرم الدُّوَلِ

قدمت مصر فأولاني خلائفها
من المكارم ما أربى على أَمَلي
قومٌ عرفتُ بهم كَسْبُ الأُلُوف ومن
كَمالِها أَنَّها جاءت ولم أَسَلِ
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمةٍ
لك الملامة إن قصَّرْتُ في عَذَلِ
بالله زُرْ ساحة القصرين وَابْكِ معي
عليهما لا على صِفِّينَ والجمل
وَقُلْ لأهليهما والله ما الْتَحَمَتْ
فيكم جراحي وما قَرْحي بمندمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلةً
في نسل آل أمير المؤمنين علي
وقد حصلتم عليها واسم جَدِّكُمُ
محمدٌ وأبوكُمْ خَيْرُ مُنْتَعِلِ
مررتُ بالقصر والأركان خاليةٌ
من الوفود وكانت قِبْلَةُ القُبَلِ
فَمِلْتُ عنها بوجهي غير مُنْتَقِد
من الأعادي وَوَجْهُ الودِّ لم يَمِلِ
أسبلتُ من أسفي دمعي غداة خَلَتْ
رحابكم وَغَدَتْ مهجورة السُّبُلِ
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم
ولا نجا من عذاب النار غَيْرُ ولي
ولا سقى الماء من حَرٍّ ومن ظمأٍ
من كفٍّ خير البرايا خاتم الرسل
أَئِمَّتي وهُداتي والذخيرة لي
إذا ارتهنتُ بما قَدَّمْتُ من عملي
بالله لَمْ أُوفِهِمْ في المدح حَقَّهُمُ
لأن فَضْلَهُم كالوابل الهطِلِ

وإن تضاعفت الأقَوال واستبقت
ماكنت فيهم بحمد الله بالخجل

بانّ النجاة فَهُمْ دُنْيا وآخرةٌ
وحُبُّهمْ فهو أصل الدين والعمل

أَئِمّةٌ خلقوا نوراً فَنُورُهُمُ
من نور خالص نور الله لم يُفلِ

نور الهدى ومصابيح الدجى ومَحـ
ـلُ الغيث إنْ وَنَتِ الأنواء في المَحَلِ

والله لو زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخرَّ الله لي في مُدَّةِ الأجَلِ

سنة ثمان وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن شادي رحمه الله، وذلك بمصر في سابع عشر من ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه الملك المنصور قدس الله روحهما، وأدام النعمة على خلفهما، ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فَدُفِنَا بها قريباً من الحجرة النبوية.

سنة تسع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك العادل نور الدين رحمه الله ورضي عنه، وذلك بمدينة دمشق في شهر شوال بعد أن عهد بالسلطنة إلى ولده الملك الصالح اسماعيل بن محمود زنكي.

سيرته:

كـان رحمه الله ملكـاً عـابـداً زاهـداً ورعـاً مجاهـداً في سبيـل الله، كثير الصـدقات والبر والاحسـان، بنـى الجوامع والبيمارستـانـات في أكثر بـلاد الشام والموصـل، وبنى الربـاطات للصـوفية والفنادق في المنـازل، وأثّرَ في الاسلام آثـاراً لم يَسْبقه أحـد من الملـوك إليها، وكـان سخياً كـريماً صالحاً معـدوداً مـن الأبدال، وانتـزع مـن الكفـار نَيِّفَاً وخمسين مـدينـة رحمه الله، ورضي عنه.

ولما تـوفي أجلس في الملـك بَعْـدَهُ ولدُه الملـك الصـالـح اسماعيل بـن محمود، ثم مضى بجموعه إلى حلـب ومعه الأمير كمشتكين وسابق الدين عثمان واسماعيل الخازن، واستخلـف بدمشـق الأمير شمس الـدين محمـد ابن المقدم.

سنة سبعين وخمسمئة

في هذه السنة كـان استيلاء الملك الناصر على دمشق، وحـديث ذلك أن الملك الناصر صلاح الدين يوسـف بن أيوب رحمه الله سار من الديار المصريـة بجموعـه إلى دمشق، فـوصـل إليها وتسلمهـا بغير قتال، وكـان ذلك بوضـع من شمس الدين ابـن المقدم وبطانته، ثم خـرج منها الملك الناصرمتـوجهاً إلى حمص فَعَصَتْ عليـه قلعتها، فتوجـه إلى حماه، وملكها في مستهل جمادى الآخـرة، ثم سار إلى حلب حـاصرها جميع هـذا الشهر، واشتـد على الملـك الصالـح وأصحـابـه الحصار فـاستغـاثـوا بالبـاطنيـة وواعـدوهم بـالأمـوال، فجاء نفـر منهـم فعـرفهم الأمير نـاصـح الديـن خمارتكين صـاحب أبي قبيس فقتلوه وقُتلوا عن آخرهم.

ثم عاد السلطـان الملك الناصر إلى قلعة حمص فحاصرهـا بقية رجب، وتسلمهـا بالأمـان في شعبـان بعـد قتال شـديـد، ثـم تَوجَّـه إلى بعلبـك فتسلمها في شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

كسرة المواصلة على القرون:

ثم اجتمع الحلبيون والمواصلة، وتوجهوا إلى حماه فحاصروها حصاراً شديداً، وتقدم الملك الناصر إلى حماه فنزلها والتقى الفريقان بقرني حماه فكانت الكَرَّة للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله، وانهزم المواصلة أقبح هزيمة فحقن السلطان دماءهم ونَهْبَ أموالهم، ثم تقدم إلى قرا حصار من عمل حلب، ثم وقَعَ الصلح بين السلطان والمَوَاصِلَة والحلبيين على أن يكون له مابيده من الشام إلى آخر بلدحماه والمعرة وكفر طاب، مضافة إليه، وحلفوا له على ذلك وعاد فنزل على حماه ووصلته رسل أمير المؤمنين المستضيء رحمه الله بالتهنئة والتحف الجليلة والتشريفات، ثم تجهز السلطان إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد وأقطع حماه خاله شرف الدين محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ثم توجه إلى دمشق.

سنة إحدى وسبعين وخسمئة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على تل السلطان، وحديث ذلك ان المواصلة نكثوا عهدهم وحنثوا في يمينهم التي حلفوها للسلطان الملك الناصروروافوا من الموصل في جموع كثيرة فخرج إليهم السلطان الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان يوم الخميس العاشر من شوال، فكسر المواصلة فولوا مدبرين لايلوون على شيء واستولى عليهم السلطان أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على خيمهم وأمتعتهم، ثم أحضر الأمراء الذين أسرهم، فخلع عليهم وأطلقهم، ثم صار إلى بزاعه فتسلمها، ثم إلى منبج ففتحها واستولى عليها، ثم سار إلى حصار عزاز.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

في هذه السنة حاصر السلطان الملك الناصر صلاح الدين حلب مدة، ثم وقع الصلح بينه وبين الحلبيين، وأبقى على الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين، و دّ عليه حصن عزاز، وعاد السلطان إلى مصياف بلد الباطنية، فنصب عليه المجانيق وأباح قتلهم وتخريب بلادهم فتضرعوا إلى شهاب الدين صاحب حماه خال السلطان فسأل فيهم فرحل عنهم إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر، فأمر ببناء السور الأعظم المحيط بالقاهرة ومصر، وبإنشاء القلعة بجبل المقطّم، فشرع فيه، ثم توجه إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي فكان يتردد إليه الخميس والسبت، ثم عاد إلى مصر وبنى تربة الشافعي رضي الله عنه، ثم خرج إلى الفاقوس فخيَّم بها إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين (١٣) .

سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة الرملة وكان من حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله خرج من القاهرة لثلاث مضين من جمادى الأولى لجهاد العدو، وخيَّم ببلبيس، ثم سار إلى عسقلان فسبى وغنم وأسر من الفرنج جماعة، وضرب أعناقهم، ثم مضى إلى الرملة فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت أثقال عساكر المسلمين في العبور عليه، وبينما هم كذلك وإذا الفرنج قد أشرفت على المسلمين بأطلابها، وحملوا على المسلمين فانهزموا وتفرقوا وثبت السلطان الملك الناصر وابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وأبليا بلاء حسناً واستشهد من المسلمين جماعة منهم شهاب الدين أحمد ولد الملك المظفر رحمه الله، ثم جاء الليل وقد احتوت الفرنج على أثقال المسلمين، فلم

يبـق لهم قدرة على مـاء ولا زاد ودليـل، وتعسفوا في تلـك الـرمال حتـى وصلـوا إلى مصر، وقـد هلـك خلـق من النـاس والـدواب، وضَـلَّ خَلْـقٌ فأخذهم الفرنج أسرى، وجملة الأمر أنها كانت نوبة صعبة على المسلمين.

في هذه السنـة نزلت الفـرنج على حماه، وهـي يومئذ بيـد الأمير شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطـان، وكان مريضاً مجهوداً، وكان الأمير سيف الـدين المشطـوب قريباً مـن حماه فدخلهـا واجتمعت إليـه رجال، وزحفت الفرنـج إلى حماه فقاتلهم المسلمون قتـالاً شديدا مدة أربعـة أيام ثـم رحلـوا عنهـا، فنـزلـوا على حارم ونصبـوا عليهـا المجـانيـق والسـلالم وحاصروها حصاراً شديداً مدة أربعة أشهر، ثم رحلوا عنها إلى بلادهم.

ولما عاد السلطـان من الرملـة إلى مصر بمن معه أقـام بها إلى السادس والعشرين مـن شعبان ثـم خرج منهـا بعد أن استخلـف على مصر أخاه الملك العـادل، فأقـام مخيماً على البركة بقيـة شعبان وجميـع شهر رمضـان حتى تكاملت عنده العساكر وَعَيَّدَ بالبركة عيد الفطر.

وكـان قـد بلغـه نـزول الفـرنـج على حماه، فـأسرع في السير رجـاء أن يُدركهم فيُوقِـع بهم، وكان وصوله إلى دمشق لِسِتٍّ بقين مـن شوال فأقام بها إذ تحقق رحيل الفرنج عن حماه.

وفي هذه السنـة عصى الأمير شمس الديـن محمد بن المقـدم ببعلبك، وامتنع مـن الحضور عند السلطان، فكـاتبه السلطان ورَفَقَ بـه فلم يُجب، ولم يَزَلْ على امتناعه إلى أن دخلتْ سنة أربع وسبعين وخمسمئة.

وفي هذه السنـة سار السلطان الملـك الناصر صلاح الـدين إلى حمص ليكـون في مقابلـة الفرنـج لأنـه بلغه أنهم اجتمعـوا تحت حصن الأكـراد وعزمـوا على الغارة، ولما أَمِنَ مِـنْ غارتهم سار إلى بعلبـك ونزل بظاهـرها

على رأس العين التي بها، فأقام عليها أشهراً يُراوِدُ شمس الدين على الرجوع إلى طاعته، وهو يأبى عليه، ولايزداد إلا عصياناً ولجاجاً، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن دخل شهر رمضان، فأجاب شمس الدين بن المقدم لتسليم بعلبك إلى السلطان على عَوَضٍ طلَبَهُ، فتسلمها السلطان، وأَنْعَمَ بها على أخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب.

ثم سار السلطان إلى دمشق في شهر شوال، ثم رَغَّبَ السلطان أخاه الملك المعظم في إقطاع أَقْطَعَه إياه بالديار المصرية، فمضى إلى مصر وتسلم السلطان بعلبك وذلك في ذي القعدة.

وفي هذه السنة أنعم السلطان الملك الناصر على ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب بحماه، والمعرة، وأفامية، ومنبج، وقلعة نجم، فتسلمها، وبعث نوابه إليها، وذلك بعد أن توفي شهاب الدين خال السلطان.

سنة خمس وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة مرج العيون، ومن حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب كان نازلاً بتل بانياس، يبعث سراياه إلى الفرنج، ولما كان ثاني شهر المحرم ركب السلطان في جمع يسير ووقف في بعض الطرق، فرأى راعي أغنام وأبقار قد جفلت، فسأله السلطان عن الفرنج فأخبره بقربهم، فعاد السلطان إلى مخيمه، وأمر ا لعسكر بالركوب فركبوا، وسار بهم السلطان إلى أن أشرف على الفرنج وهم ألف قنطارية، وعشرة آلاف مقاتل مابين فارس وراجل وفيهم بارزان وابنه بادين وأود مقدم الداويَّة، وجماعة فحملوا حملة عظيمة على المسلمين فثبتوا لهم، ثم حمل المسلمون عليهم فولوا الأدبار

منهـزمين، وركب المسلمـون أكتافهـم فقتل أكثـرهم، ونجـا منهم الأقـل وأُسر منهم مئتان ونيّف وسبعون أسيراً، منهم بـادين بن بارزان، وأود ابن القومصيـة وأَخَوَا صاحـب جبيل، فحملـوا إلى قلعة دمشق فـاعتقلوا بها، فأما ابن بارزان فاستَفَكَّ نفسه بجملة عظيمة وبألف أسير من المسلمين، واستفك ابن القومصية نفسه أيضا بجملة، ومات أود في السجن.

وفي هذه السنـة كانـت وفاة المستضيء بنـور الله، وذلك لليلتين مضتـا من ذي القعدة، وكانت خلافته تسع سنين وأشهراً.

سيرته: كان رضي الله عنه عادلاً جـواداً، مؤثراً للخير بعيداً، عن الشرّ كثير الصدقات والمعروف، متكثراً من العلماء محبـاً لهم، وخُطب له بالديار المصرية واليمـن، وكانت الـدعوة العباسيـة منقطعة بها من زمـن المطيع، وقد ذكرنا ذلك.

ولما ولي المستضيء بـالخلافة أظهـر من العـدل والكرم ببغـداد مالم يُـرَ مثلُه في السنين المتطاولـة، ونادى برفع المكوس والمظـالم، وردَّ أملاكاً كثيرة كانـت غُصِبت من مُـلاَّكها إليهم، وفَـرَّقَ أموالاً جـزيلة على بني هـاشم والفقهاء والصوفية وغيرهم.

خلافة الناصر لدين الله أمير المؤمنين

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر، وأمه أم ولد يقال لها[زمرد خاتون] بويع له بالخلافة ببغداد يوم توفي والده المستضيء وكان عمره يوم بويع له ثلاثا وعشرين سنة وشهوراً.

ولما بويع مدحه أمين الدولة أبوالفتح[سبط] ابن التعاويذي بقصيدة أولها:

طاف يسعى بها على الجُلاَّسِ
كقضيب الأراكة الميَّاس
ورأى الغانيات شيبي فأَعْرَضْـ
ـن وقُلْنَ الشباب خير الناس
كيف لا يفضُلُ السواد وقد أضحـ
ـحى شعاراً على بني العباس
أمناء الله الكرام وأهل الجـ
ـود والحلم والتقى والباس
ولقد زُيِّنَتِ الخلافة منهم
بإمام الهدى أبي العباس
مَلِكٌ جَلَّ قُدسُهُ عن مثالٍ
وتعالت آلاؤه عن قياس
يا لها بيعةً أَجَدَّتْ من الاسـ
ـلام بالي رسومه الأدراس
وَلِيَ اللهُ أمرَهَا فَلَهُ المنَّـ
ـةُ فيها عليه لا للناس (١٤)

سنة ست وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة بسط الإمام النـاصر لدين الله أمير المؤمنين العدل، وأَمَرَ بإراقـة الخمـور، وكَسْرِ الملاهـي وإزالـة المكـوس والضرائب، فعمـرت البلاد، وكثُـرت الأرزاق، وقصد النـاس بغداد مـن أقطار الأرض، وتَيَمَّـنَ الناس بخلافته وتبركوا بإيالته.

وفيها تَـوَجَّه السلطـان الملك الناصر صـلاح الدين يـوسف بـن أيوب رحمه الله إلى بلاد الأرمـن فنزل على حصـن المناقير ففتحـه وهدمـه، وكان صاحب الأرمن يومئذ ابـن لاون، ثم وقع الصلح بين السلطان وابن لاون على خمسمئة أسير مـن المسلمين أطلقهم ابن لاون، ثم عـاد السلطان إلى حمص فنزلها، وأتته رسـل الخليفـة الإمـام الناصر لـديـن الله أمير المؤمنين بالتقليـد والتشريف له بـالسلطنة والزعـامة، وركب السلطـان في الخلعة، وكان يوماً مشهوداً، ثم سار السلطان إلى الديار المصرية.

سنة سبع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الديـن محمود بن زنكـي بن آق سنقر صاحـب حلب، فوصـل إلى حلب ابن عمـه عز الـدين مسعـود بن قطب الـدين مـودود بن زنكـي بن آق سنقر صاحب الموصل، واستولى على خـزائنها، ثم علم أن الأمر بها لايتم له مع وجود السلطـان الملك الناصر، فطلب من أخيه عماد الـدين زنكي ابن مـودود بن زنكـي صاحب سنجـار أن يعطيه سنجـار ويعوضـه عنها حلـب ففعل، وأقـام عماد الديـن زنكي بحلـب، ومضى عـز الديـن إلى سنجار فتسلمها.

- ٩٩٧٥ -

وفي هـذه السنـة بعـث السلطـان السلطان أخاه ظهير الـديـن سيـف الإسـلام طغتكين بن أيوب إلى ا ليمن، فملكها واستولى على بلادها.

سنة تسع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنـة توجه السلطان الملـك الناصر من مصر إلى دمشـق، ثم خرج إلى بيســان وطبرية غازيـاً، وجرلى بينه وبين الفـرنج قتال، ثـم سار السلطان إلى البيرة وقطع منها الفرات، وسار إلى الـرّها ففتحها، ثم مضى إلى الـرقة ففتحهـا ثـم إلى نصيبين ففتحها، ثـم سـار إلى الموصل فنـازلها وصاحبهـا عز الدين مسعـود بن مودود بن زنكـي ، فاستشفع عز الـدين بـالخليفة النـاصر لـدين الله فشفـع فيـه فرحـل عنـه السلطان ونـزل على سنجار فحاصرها، ثم تسلمها وأسقط عنهم المكوس.

ثـم عادالسلطـان إلى حران فـأقام بها، ثـم توجـه إلى حرزم وكتـب إلى الخليفـة يطلب منـه تقليداً شريفـاً بآمـد، فوصلـه التقليد في ذي الحجـة، فسار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة.

سنة ثمانين وخمسمئة

في هذه السنـة فتح السلطان آمـد، وذلك بالأمـان في العشر الأوّل من المحرم وسلمها إلى نور الدين محمد بـن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، لأنه كـان وعده بها، وكتـب له بها وبأعمالها تقليـداً، فتسلمهابما فيهـا من الذخائر.

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب ابن أخي السلطان، فاشتد حزن السلطان عليه وكان نائبه بدمشق، ففوض السلطان نيابته بها إلى شمس الدين محمد بن المقدم.

استيلاء الملك الناصر على حلب

ولما فتح السلطان آمد ووهبها لنور الدين محمد سار إلى حلب فحاصرها أشد حصار، ثم وقع الصلح بين صاحبها عماد الدين زنكي والسلطان على أن يُعَوِّضَهُ السلطان عن حلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وتسلم السلطان رحمه الله حلب في ثاني عشر صفر من هذه السنة، فامتدحه القاضي محيي الدين بن القاضي زكي الدين قاضي القضاة بدمشق بقصيدة منها:

وَفَتْحُكُم حلباً بالسيف في صفرٍ
مُبَشِّرٌ بفتوح القدس في رجب

فتفاءل السلطان بذلك، واتفق وقوع الأمر على ما أخبر، فإن القدس فتح في سنة ثلاث وثمانين في شهر رجب كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولما فتح حلب واستولى على معاقلها جميعها، ولم يبق منها معقلٌ غير حارم مع أحد المماليك النورية، فسار إليها السلطان وتسلمها، ثم أنعم السلطان بحلب على أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب.

ثم جمع السلطان وسار إلى الكرك فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ثم وردت الأخبار إلى السلطان باجتماع الفرنج فترك الكرك وسار إليهم بعد أن كان قد أشرف على أخذه فخالفوه الطريق إلى الكرك، وأتوا إليه بجموعهم ففات على الناس أمر الكرك فسار إلى نابلس ثم إلى الفوار، ثم دخل دمشق.

-٩٩٧٧-

سنة إحدى وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قاصداً الموصل، ولما قارب حلب تلقاه صاحبها أخوه الملك العادل سيف الدين رحمهما الله، ثم توجه إلى حَرَّان وكان صاحبها الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران تكون برسم النفقات، ولما وصل السلطان وأقام أياماً لم ير لذلك أثراً، فغضب على مظفر الدين واعتقله ثم عفا عنه بعد أن تسلم منه قلعتي الرُّهَا وحَرَّان، ثم أعادهما إليه في آخر السنة.

ثم صار السلطان إلى الموصل فحاصرها وضايقها، ثم وردت الأخبار على السلطان بوفاة شاه أرمن صاحب أخلاط، ووفاة نور الدين محمد بن أرسلان، فَتَقَسَّمَ فكر السلطان فيما يفعله، واختلفتْ آراء أصحابه اختلافاً كثيرا، فمنهم من أشار عليه بالمقام على حصار الموصل ومنهم من أشار عليه بقصد تلك البلاد.

وبيناهم على ذلك إذ وصلت إلى السلطان رُسُل أمراء أخلاط وأكابر دولتها بتعجيل السير إليهم، فرحل قاصداً أخلاط وقَدَّمَ في مقدمته ابن عمه ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ومظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، فمضى الأميران ناصر الدين ومظفر الدين إلى أخلاط فوجدا بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخل إلى أخلاط وملكها وعصى بها.

ووصل شمس الدين البهلوان محمد بن ايلدكز في عساكر أذربيجان وغيرهم قاصداً أخلاط فنزل قريباً منها، وكان الوزير مجد الدين بن الموفق بن رشيق بأخلاط فجعل يكاتب البهلوان مرة والملك الناصر مرة

أخرى، ولماوصل السلطـان إلى ميافـارقين نـازلها وكتب إلى مظفـر الديـن ونـاصر الديـن يـأمرهما بـالعـود إليـه فعادا إليـه، واجتمعـوا على منازلـة ميافارقين،ثم تسلمها بالأمان وسلمهـا إلى مملوكه سنقر الخلاطي وذلك في أول جمادى الأولى، ثم رحل عنها السلطان فنـزل على القرمان، وأتته رسل البهلوان بما فيـه من الصلاح، وأن يـرجع السلطـان عن أخلاط، فـأجاب السلطان على أن يرحل البهلوان عن أخلاط إلى بلاده.

ثم رحـل السلطان إلى الموصل فحاصرهـا وضايقها، فخرج إليـه جماعة من النسـاء الأتابكيـات فخضعن لـه وسألنـه الصلح فـأنزلهن في خيمـة وأكرمهـن وقَبِلَ شفاعتهن، واستقـر الأمر على أن يكون في المتـوسط عماد الدين زنكي بـن مودود بن زنكي صاحب سنجـار، فتوسط بين السلطان والمَوَاصِلَـةُ على أن تكون بـلاد شهْـرَزُوْر وحصونها وضيـاعهـا والبوازيـج والرستـاق للسلطان، وضربـت السكة في الموصـل باسمـه وخُطب لـه بها وأقرَّ الموصل على صـاحبها، ثم رحل إلى حـران فأقام بها مريضـاً إلى آخر السنة.

وفي هذه السنـة كانـت وفاة نـاصر الديـن محمد بـن شيركوه صـاحب حمص، فأنعم السلطـان بحمص وبلادها بعده على ولده الملـك المجاهد أسد الـدين شيركـوه بن محمـد، وعمره يـومئذ اثنتـا عشرة سنة أو ثـلاث عشرة سنة يقيناً.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملـك الناصر رحمه الله بحرَّان، وقد صح مزاجـه فرحل منهـا ومعه أخـوه السلطان الملك العـادل رحمه الله، والملك الظاهر، والملك العزيز ولدا السلطان، فتوجهوا إلى دمشق.

- ٩٩٧٩ -

استيلاء الملك الظاهر على حلب

وكنا قد ذكرنا أن السلطان الملك الناصر لما فتح حلب أنعم بها على أخيه الملك العادل، ولما كانت هذه السنة وصل السلطان إلى دمشق ومعه الملك العادل، نزل الملك العادل عن حلب وبذلها لأحد أولاد أخيه السلطان الملك الناصر، فشكره السلطان على ذلك وسلمها وبلادها إلى ولده السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايلغازي بن يوسف بن أيوب رحمه الله.

ثم خرج السلطان إلى نواحي البلقاء فخيم بالزرقاء، وذلك في جمادى الآخرة، ثم سيَّر أخاه الملك العادل رحمه الله إلى مصر لتدبير أموالها والقيام بأحوالها، ثم عاد السلطان إلى دمشق فأقام بها متهيئاً لجهاد الفرنج، مستعداً لقتالهم إلى أن خرجت السنة.

سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة كتب السلطان الملك الناصر إلى الأقطار يستدعي الأجناد إلى الجهاد، وخرج من دمشق في مستهل المحرم وخيَّم على قصر سلامة من بُصرى مرتقباً وصول الحاج خوفاً عليهم من الفرنج، فوصلوا بُصرى في أول صفر فأمر السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين رحمه الله بالنزول على رأس الماء لتجتمع العساكر عنده، فتوجه إليه ونزل به.

ومضى السلطان إلى الكرك والشوبك فأحرق كرومهما وضياعهما، وأقام هناك شهرين، واجتمعت الأمراء برأس الماء عند الملك الأفضل نور الدين، فجهز السرايا والغارة على طبرية، وقَدَّم على العساكر الشرقية مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ثم على عسكر

حلب الأمير بدر الدين دُلـدرم، وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي،فسروا مدلجين حتى صَبَّحُوا صفورية.

وعلمت الفرنج خبرهم فخرجوا إليهم والتقوا فنصر الله تعالى المسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة منهم: [مقدم] الاسبتار، وأُسر منهم خلق، ثم سار السلطان من الكرك مُجِدًّا حتى خيَّم بعشترا، واجتمعت إليه بها العساكر جميعها فعرض العسكر وبذل فيهم، ثم سار بهم وَقَدْ ملأ الفضاء حتى أتوا الأردن، فنزل على ثغر الأقحوانة، وقد اصطفت الفرنج بصفورية فرتَّب السلطان جُمْلَةً من العساكر في قبالتهم، ومضى إلى طبرية فتسلمها عنوة، ولما علمت الفرنج تَسَلُّمهُ لها تهيأوا لقصده، فعلم السلطان ماقد أجمعوا عليه، فسار بجموعه إليهم، ورتَّبَ أطلابه في مقابلتهم ثم صابحهم وبايتهم وضيَّق عليهم فآووا إلى جبل حَطِّين.

وقعة حطين

فأحاط المسلمون بهم من كل جانب وصاروا في قبضتهم، وهرب القومص لعنه ا لله لما أيقن بالهلكة، واسْتَمرَّتِ الحرب فكانت الدائرة علي الفرنج، فأخذوا أخذاً باليد، وحصل في الأسر الملك كي وأخوه جَفْري، وصاحب جبيل، وهنفري والإبرنس أرناط صاحب الكرك ، فقتل السلطان ارناط صاحب الكرك بيده، ثم كُبِّل جميع الاسارى وحملوا الى الحصون الاسلامية ، والحبوس السلطانية ، واخذ السلطان من الفرنج يومئذٍ صليب الصلبوت ، وهي الخشبة التي تزعم النصارى ان المسيح عليه السلام صُلب عليها .

وكانت هذه الموقعة يوم السبت نصف شهر ربيع الآخر ، ولم يُفْلِت من الفرنج فيها إلا آحادٌ ، وكانت من أعظم فتوح الاسلام وأشرفها .

ثم بعث السلطان من تسلم حصن طبرية وكان بيد امرأة فأُومنت على مالها ورجالها وتُسُلِّم الحصن منها .

فتح عكا : ثم رحل السلطان رحمه الله الى عكا فوصلها يوم الخميس لعشر بقين من ربيع الآخر فتسلمها بالأمان وملكها .

ولما نصر الله تعالى السلطان على الفرنج كتب الى اخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر بالبشرى فخرج من مصر بجنوده قاصداً السطان، فاجتاز بمجدل يابا ويافا ففتحها عنوة، وغنم من الأموال مايعظم قدره، ثم فتح الله سبحانه الناصرة وصفورية على يد مظفرالدين بن زين الدين عنوة، وقيسارية على يد الأمير بدر الدين دُلدرم والأمير غرس الدين قلج عنوة، ونابلس على يد الأمير حسام الدين لاجين بالأمان بعد قتال كثير، ثم فتح حصن الفولة بالأمان، ثم نازل السلطان تبنين ففتحها، وفتح صيدا ثم بيروت ثم جبيل.

فتح عسقلان

ثم سار السلطان الى عسقلان فحاصرها حصارا شديدا ونصب عليها المجانيق ثم فتحها بالأمان.

ذكر الفتح القدسي

ثم سار السلطان رحمه الله إلى البيت المقدس فنزل غَرْبِيَّه، وذلك يوم الأحد لخمس عشرة ليلة مضت من رجب، وكان في القدس يومئذ ستون ألف مقاتل فقاتلهم المسلمون أشد قتال، ثم انتقل السلطان إلى الجانب الشمالي من القدس وخَيَّم هناك ونصب المجانيق، وطلب الفرنج الأمان فأُومنوا بعد امتناع كان من السلطان، وقرر على كل رجل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة دنانير، وعلى كل صغير دينارين، وشرط عليهم أن من عجز عما وجب عليه بعد أربعين يوماً ضُرب عليه الرِّق، فأجابت الفرنج إلى ماقُرِّر عليهم.

وتسلم السلطان البيت المقدس، وذلك لثلاث ليال بقين من رجب، وكانت مدة مقامه بيد الفرنج إحدى وتسعين سنة.

ولما كان يوم الجمعة لأربع مضين من شعبان أُقيمت الجمعة بالمسجد الأقصى، وخطب بالناس القاضي محيي الدين بن زكي الدين، ثم شرع السلطان في إصلاح المسجد الأقصى والصخرة حتى أعادهما على ماكانا عليه قبل استيلاء الفرنج عليهما، وأزال ماكان فيهما من آثارهم.

ثم تنافست ملوك بني أيوب فيما يؤثر عنهم من المآثر الحسنة، ففعل السلطان الملك العادل كل فعل جميل وصنع جليل، وأتى الملك المظفر تقي الدين عمر بما عَمَّ به العُرْف، وعَمر فبنى ونهى وأمر .

وفعل الملك الأفضل كل فِعْلٍ مُفَضَّل، وفعل أخوه الملك العزيز من المآثر الحسنة ما استنطق به أَلْسِنَةَ الشُّكْر وَحَازَ بِهِ جميل الأَجْر، رحمهم الله أجمعين، وقَدَّس أرواحهم.

منازلة صُوْر

ثم تَـوجَّه السلطـان إلى صور فنـازلها ونصب المجـانيق عليهـا، وذلك لاثنتي عشرة ليلـة مضت مـن شهر رمضـان، وكان قـد اجتمع في صـور خلق لايحصون من الفرنج، فقاتلهـم السلطان قتالاً شديداً، وبقي محاصرا لها إلى أن انقضت السنة.

وفي هذه السنة فُتحت هونين على يد الأمير بدر الدين دلدرم بالأمان.

سنة أربع وثمانين وخمسمئة

في هذه السنـة رحل السلطـان الملك النـاصر عن صـور، وذلك لأنـه تعذر عليه فتحها لكثرة من فيها وقـوة شوكتهم، فنزل على حصن كوكب، وذلك في العُشْر الأوسط مـن المحرم، فوجده حصناً لايُرام، فَـرتَّبَ قايماز النجمي في خمسمئـة فارس، ثم رحل السلطـان إلى دمشق فدخلهـا وأقام بها مُدَيْـدَةً يسيرة، ثم رحـل منها إلى بعلبك فـرتب أمـورها، ثـم سار إلى الزراعة، فوصـل الخبر أن عماد الدين زنكي بن مودود بـن زنكي صاحب سنجار قـد وصل إلى بحيرة قدس قـاصداً خـدمةالسلطان لأجـل الغَزَاةِ، فسار السلطان ملتقيـاً له وعانقه، ثم نـزل ببحيرة قدس وخيما عليها، ثم سار السلطان بـالعساكر حتى نزل البقيعة تحت حصـن الأكراد وذلك في أول ربيع الآخر، وبـث العساكر في تخريب بـلاد الفرنج وقطع أشجـارهم ونهب أموالهم، ثـم رحل السلطـان إلى طرطوس ففتحهـا عنوة وقتـل من ظفر به فيها.

فتح جبلة واللاذقية

ثم مضى السلطان إلى جبلة فتسلمها بالأمان وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ثم رحل منها إلى اللاذقية فحاصرها حصاراً شديداً إلى أن طلب أهلها الأمان فأمنهم وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى.ثم رحل منها إلى صهيون ففتحها بالأمان على قطيعة قررها عليهم، ثم توجه إلى الثغر فتسلمه بالأمان،ثم تسلم أيضاً بكاس وسلمها إلى الأمير غرس الدين قلج الساقي والد الأميرين سيف الدين وعماد الدين، ثم سيّر السلطان ولده الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب قلعة سرمانة فهدمها وقرر على أهلها قطيعة أخذها منهم.

ثم سار السلطان لست بقين من جمادى الآخرة فخيّم على حصن برزيّة وضربه بالمجانيق، فطلب أهله الأمان، فأمنهم وسلّم هذا الحصن إلى الأمير عز الدين بن شمس الدين بن المقدم، ثم رحل السلطان إلى دربساك فتسلمها، ثم رحل إلى حصن بغراس فَتَسَلَّمَهُ أيضاً، ثم عزم على قصد أنطاكية فرغب الإبرنس صاحبها في الهدنة فهادنه السلطان، ثم رحل السلطان لثلاث مضين من شعبان على سمت حلب فودعه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعساكر الشرق، وعادوا إلى بلادهم.

ودخل السلطان إلى حلب فأقام بقلعتها أياماً، ثم سار إلى حماه فأقام بها يوماً، ثم سار إلى دمشق فأقام بها أياماً، ثم خرج منها في أوائل شهر رمضان طالباً للغزاة.

وفي هذه السنة كان فتح الكرك والشوبك، وكان من حديث ذلك أن السلطان الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب كان مقيما بتبنين في عساكره متحرزاً على البلاد من غائلة العدو، وكان صهره كمشبه الأسدي

موكـلاً بحصار الكرك، فضـاقت الميرة عليهم ويئسـوا من نجدة تـأتيهم، فتوسلـوا إلى الملك العادل وتضرعوا إليـه، ومازالت الرسـائل تتردد بينهم وبينـه حتـى دخلـوا تحت حكمـه، وخـرجـوا مـن الحصـن وسلمـوه إلى المسلمين، ووردت البشـائر بفتحه على السلطـان الملك النـاصر وقد بـرز من دمشق، ثم تسلم أيضاً الشوبك.

فتح صفد

ثم سـار السلطان إلى صفـد فنازلها، ووصل إليـه أخوه الملـك العادل واجتمعـا على حصارهـا ودار الحصـار والقتال إلى ثـامـن شوال، فطلبـوا الأمان فأُمنوا ودخلها المسلمون وتسلموها.

فتح كوكب

ولما فتح السلطان صفـد سار إلى حصن كوكب، ونازلـه ونصب عليه المجانيـق، فطلب أهـل الحصن الأمان، وتَسَلَّـمَ الحصن منهـم، وذلك في منتصف ذي القعدة.

ثـم سار السلطـان ومعه أخـوه الملك العـادل قاصـداً بيت المقـدس، فوصله في ثـامن ذي الحجة فَعَيَّدَ به، ثـم سار إلى عسقلان فرتـب أمورها وجهز أخاه الملك العادل إلى مصر، ثم رحـل صوب عكا فوصلها في آخر ذي الحجة.

وفي هذه السنة كان مقتل شمس الديـن محمد بن المقدم غَلَطاً في فتنة وقعـت بينه وبين أمير الحاج العـراقي بـالموسم، وكـان سببها أن شمـس الدين أراد تقـديم طبوله على طبـول الخليفة الناصر لديـن الله، فَمُنِعَ من ذلك، وجرى ماذكرناه.

-٩٩٨٦-

سنة خمس وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة صار السلطان الملك الناصر رحمه الله من عكا متوجهاً إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر، ثم رحل منها لثلاث مضين من ربيع الأول متوجهاً إلى شقيف أرنون فأقام بمرج برغوث حتى اجتمعت إليه عساكره، ثم رحل حتى أتى مرج عيون وذلك لاحدى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، فخيم بمرج عيون على قرب من شقيف أرنون، وهو يومئذٍ بيد أرناط صاحب صيدا، فنزل إلى خدمة السلطان وأظهر الطاعة وسأل أن يُمهل ثلاثة أشهر ليتمكن فيها مَنْ بِصُوْر من أهله، فأجابه السلطان إلى ذلك، وخلع عليه وأكرمه، فشرع أرناط في إصلاح الحصن وترميمه، والمسلمون في غفلة عنه، فلما بلغ السلطان ماهو بصدده من عمارة الحصن وتقويته انتقل من المرج إلى سطح الجبل ليلاحظ أرناط ويطلع على حاله، وأظهر إنما هو انتقل لأن المرج وَخِيْمٌ، فعلم أرناط بذلك فنزل إلى السلطان طائعاً متذللاً متضرعاً فكَذَّبَ السلطان ماقيل عنه، ثم دَنَتْ المدة فسأل السلطان أن يزيده في مدة الإمهال، فعلم السطان غَدْرَهُ وَنَكْثَهُ فقبض عليه وسيره إلى دمشق فحبس بها، ووكل بالحصن يحاصره صيفاً وشتاء.

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد حشدوا وجمعوا وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، فرحل السلطان إليهم فكانت بينهم وبينه وقعة كانت الكرة فيها للفرنج، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم كَرَّ المسلمون عليهم فَرَدُّوهُم حتى ازدحموا على جسر هناك، فغرق منهم مئتا رجل، ثم سار السلطان إلى تبنين فرتب أمورها، ثم سار منها إلى عكا ورتبها، ثم عاد إلى معسكره فأقام به.

- ٩٩٨٧ -

نزول الفرنج على عكا

وفي هذه السنة قصدت الفـرنج عكا، ونازلتها فرحـل السلطان الملك الناصر رحمه الله حتـى نزل قبـالتهم بمكـان يقال لـه الخروبة، ثـم وقعت الحرب بينهـم وبينــه إلى أن انقضـت السنــة، وكـان فيهــا وقعـات بين المسلمين والفرنج يطول الكلام بذكر تفصيلها ويخرج الكتاب عن حَدِّهِ.

سنة ست وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والفرنـج يحدقون بعكا محاصرون لها، والقتال مستمر بين الفريقين فتارةً يظهر المسلمون وتارة يظهر الفرنج.

وفي هذه السنة قَدِمَتْ العساكر من جميع الأقطار مدداً للسلطان الملك الناصر رحمه الله، فكان أول واصل الملك المجاهـد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركـوه صاحب حمص، والأمير سابـق الدين عثمان بن الـداية صاحـب شيزر، والأمير عز الـدين بن المقـدم وغيرهم، فكثرت العسـاكر واشتدت الحرب بين الفريقين، ثم وصل مظفر الـدين كوك بوري بن زين الديـن علي كوجـك، ثم عماد الديـن زنكي بن مـودود صاحـب سنجار، ومعز الدين سنجـر شاه بن غازي، ثم علاء الدين خُـرَّ مشاه بن مسعود في عساكـر الموصل، ثـم وصل زيـن الدين يـوسف بـن زين الـدين علي كـوجـك صـاحـب إربل في جنـود كثيرة، واشتـدت الحرب، وضـايَقَـتِ الفرنج عكا، وجاءتهم الأمداد من البحر.

وفي هـذه السنة تـوفي زين الـدين يـوسـف بن علي كـوجك، ففـوض السلطان مملكة إربل إلى أخيه الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين.

-٩٩٨٨-

سنة سبع وثمانين وخمسمئة:

دخلت هذه السنة وقد اشتدت مضايقة العدو خذله الله لعكا، والقتال بينهم وبين السلطان الملك الناصر رحمه الله مستمر،وأمداد الفرنج من البحر متواصلة،ولما اشتد الحصار على أهل البلد واحيط بهم ولم يبق الا تسلّمهُ، وضعفت قوة المسلمين به وقلت منعتهم، ونقبت بدنه من الباشورة، ويئس الناس من بقاء البلد، خرج الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري الى ملك الفرنج وطلب منه الامان فأبى ملك الفرنج الا النزول على حكمه، فقال له المشطوب: نحن لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ورجع عنهم مغاضباً.

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الاخرة زحف الفرنج الى عكا زحفا شديدا، واشرفوا على الاستيلاء عليها فطلب المسلمون منهم الامان على ان يسلموا اليهم البلد، ويعطوهم: مئتي الف دينار، ومئة أسير من المعروفين، وخمسمئة أسير من المجهولين وصليب الصلبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس واربعة آلاف لحجابه، فأجابهم الفرنج الى ذلك وتسلموا البلد واحتاطوا على من كان بها رهينة على القطيعة المقررة.

فلما كان ثامن من رجب جاءت رسل الفرنج الى السلطان لأخذ القطيعة، فأحضر السلطان مئة ألف دينار وصليب الصلبوت والأسارى المطلوبين، وشرط عليهم أن يطلقوا جميع من أخذوا من المسلمين وأن يأخذوا على بقية المال رهائن، فأبوا الا الجميع ومازال الأمر يختلف بينهم ويتردد تتمة شهر، ثم حضرت رسل الفرنج فوجدوا المال موقورا، ووجدوا صليب الصلبوت، وقد كانوا ظنوا أن السلطان قد سيره الى الخليفة ولاوجود له عنده، فخروا له سجدا حين رأوه، ثم ظهر للسلطان مكرهم وغدرهم فتوقف في اعطاء المقرر، وكان من جملة مابان له من غدرهم ان

ملك الانكتير ركب بالفرنج الى البحر، فركب السلطان قبالتهم فأحضر الفرنج جماعة من أسارى المسلمين وحملوا عليهم فقتلوهم أجمعين، فحمل المسلمون عليهم فأزالوهم عن مواقعهم وقتلوا منهم جماعة، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم تصرف السلطان في ذلك المال المقرر.

ولما دخل شهر شعبان رحلت الفرانج بخيلهم ورجلهم، فعرف السلطان ان مقصدهم عسقلان فرحل بالمسلمين في قبالتهم، ومازال يترك المسلمين يقاتلونهم مرحلة مرحلة، ثم كانت وقعة بنيهم وبين السلطان بنهر القصب واستشهد من المسلمين في هذه الوقعة إياز الطويل، وكان شجاعاً مقداماً.

ثم كانت وقعة بأرسوف كانت الكرة فيها على الفرنج ووصل السلطان عسقلان فشرع في هدمها وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، ثم رحل السلطان الى يبنى، فأمر بتخريب حصنها، وتخريب لُدّ، ثم مضى جريدة الى القدس فزاره ثم عاد.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين أبي الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً عادلا كريما بطلا كميا ضرغاما، ولما توفي فوض السلطان الملك الناصر عمه الملك بحماه، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، الى ولده الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب وبعث اليه منشوراً بذلك فتسلم هذه البلاد وملكها.

وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين لاجين وهو ابن أخت السلطان، وكانت وفاته لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وهو اليوم الذي توفي فيه الملك المظفر، فأصيب في يوم واحد بابن أخيه وابن

اخته، وكـان هذا حسام الـدين أميرا عظيم الشأن عـاقلاً عادلاً شجـاعاً، وهو الذي تـولى فتح نابلس من الفرنـج فأقطعه السلطان إياهـا، فكانت في يده الى أن مات.

سنة ثمان وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنـة قسم السلطان الملـك الناصر رحمه الله عمارة سـور بيت المقدس على أخيـه واجناده واولاده، ولم يزل رضي الله عنه جـادا مجتهدا في عمارتها حتى علت وارتفعت، شكر الله سعيه وأحسن جزاءه.

وفيها كان خلاص الأمير سيف الديـن المشطوب من أسر الفرنج على مال قرره لهم، فـأقطعه السلطان نابلـس، ثم عاش سيف الـدين الى آخر شوال من هذه السنـة ثم توفي فعين السلطان ثلث نابلـس لمصالح البيت المقـدس، وابقى بـاقيهـا على الأمير عماد الديـن احمد بـن سيـف الديـن المشطوب.

وفيها قصـد الفرنج قلعـة الداروم فحاصروها ثـم فتحوها عنـوة، وقتلوا من أهلها جماعـة، وأسروا جماعة، وذلك في شهر جمادى الأول، ثـم كانت في هـذه السنــة وقعـات بينهــم وبين المسلمين في كلهـا يكـون الظفـر للمسلمين إلا وقعـة واحدة كـان مقدم المسلمين فيهـا فلك الـدين أخـا السلطان [العـادل] فإن الفرنـج دهموهم على غـرة فهزموهـم واحتووا على أثقالهم.

وفيها نزل السلطان على يافا ففتحها عنوة ونهبها وقتل جماعة منهم بها، وامتنعت عليـه قلعتها فطلب أهلهـا الأمان أن ينزلـوا تحت حكم الأسر، ويسلموا جميع الأموال والذخائر على أن يطلـق كل واحد منهم بأسير من المسلمين فأجيبـوا الى ذلك، وخـرجوا آحـادا وعشرات، وطولـوا ساعـات الانتقال، حتى دخل الليل، فاستمهلـوا الى الصباح ومازالوا في التسويف

حتى وصل اليهم ملك الانكتير ليلاً من جانب البحر، ودخل القلعة فنادوا بشعار الغدر، فاكتفى المسلمون منهم بمن حصل في أسرهم، ورحل السلطان الى الرملة.

ذكر الهدنة: ثم وقعت الهدنة بين السلطان والفرنج مدة ثلاث سنين وثمانية اشهر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية، واستعاد منهم الداروم.

ثم رحل السلطان رحمه الله الى البيت المقدس فأقام به منشغلاً باتمام أسواره، ثم رحل الى دمشق فدخلها في أول ذي القعدة.

وفي هذه السنة قتل سلطان الروم قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهو من السلاطين السلجوقية على ماذكره العماد الكاتب، وكان أولاده غالبين عليه، وليس له معهم الا مجرد الاسم، فلما مات ملك ولده غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان.

-٩٩٩٢-

سنة تسع وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شادي، رحمه الله، وقدس روحه، وذلك بكرة يوم الاربعاء لثلاث بقين من صفر، فكانت مدة عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً فمات بموته الرجال، وفات بوفاته الافضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الارزاق، وادلهمت الآفاق وخاب الراجون، وغاب اللاجون، وخاف الآمن، وخاب الآمل، وطردت الضيوف، ونكر المعروف ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه، ورزيء الاسلام بمشيَّد أركانه.

سيرته رضي الله عنه: كان رضي الله عنه خائفاً من ربه تعالى، شديد التمسك بالشريعة، محباً للعلم والعلماء، مواظباً على الجهاد في سبيل الله، مقبلاً على تحصيل مايقربه من الله زلفى، مقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن السيئات،كريماً لين الجانب متواضعاً،حسن الاخلاق طيب الاعراق، ضحوكا بمهابة، مخوفا بجلالة، يغضب للكبائر، ولايسامح بالصغائر، غزير البذل كثير العطاء، وأقل شاهد على صحة ذلك أنه كان جامعاً بين مملكة الشام واليمن وديار مصر وبلاد المشرق، ومات وليس في خزائنه درهم ولادينار، ومات دفن بالقلعة المحروسة في داره وأظلم الدهر بعد ضياء أنواره، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى مأواه.

-٩٩٩٣-

خبر أولاده وأهل بيته بعد وفاته رحمه الله:

ولما توفي السلطان الملك الناصر رحمه الله استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أيوب، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف ابن أيوب وبحلب وأعمالها ولده الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي ابن يوسف بن أيوب. وكانت حران والرها وكل ماهو شرقي الفرات من الولايات بيد السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وحماه والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم بيد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وبعلبك وأعمالها بيد الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب. وحمص وأعمالها بيد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شاذي.

وكان السلطان الملك العادل رحمه الله حين بلغه وفاة أخيه الملك الناصر بالكرك وهي حصنه ومستقرة، فقدم الى دمشق وأقام بها العزاء، ثم توجه الى قلعة جعبر حذراً على البلاد الشرقية من غائلة العدو، فأقام بقلعة جعبر، وبعث النواب الى حران، والرها، وميافارقين، وحاني، وسميساط، ورتب امورها.

ولما بلغ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة السلطان الملك الناصر خرج بالعساكر الكثيرة الى نصيبين وبها أخوه عماد الدين زنكي، واجمعوا على حرب الملك العادل واخراجه من البلاد، وكان الأمير بكتمر صاحب أخلاط قد ضرب البشائر حين بلغه موت السلطان ، وعظم سروره بذلك، وتسمى بالملك الناصر، وكاتب صاحب الموصل وصاحب سنجار، وصاحب ماردين، لينجدوه على حرب الملك العادل، فبينما هو في تيهه وطغيانه وقد حدثته نفسه بها لم يظفره القدر به اذ وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وكفى الله السلطان الملك

العادل شره، وكان هذا عنوان السعـادة ودليلها، وكان مقتله لست عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى.

وكتب الملـك العادل الى بنـي أخيه: الملـك الافضل، والملـك العزيـز والملـك الظاهـر يستصرخ بهم، فـأنجدوه بـالأمداد والعسـاكـر، وجاءتـه عساكـر: بعلبك ، وحمص، ودمشـق، مع الملـك الظافـر خضر بن الملـك الناصر.

وأمـا المواصلة فـإنهم وصلوا الى رأس عين، ومضـى الملك العـادل الى حران وخيم بها، فاتفـق مرض عز الدين مسعود صـاحب الموصل فحمل اليها في محفة، وعاد عماد الدين صاحـب سنجار راجعاً، وراسل صاحب ماردين الملك العادل في الصلح فرضي عنه.

ثم أمر الملـك العادل ابن أخيه الملـك الظافر بمنازلـة سروج، وكانت لعماد الدين صاحب سنجار، فنازلها وجهـز اليه الملك العادل مددا الملك المنصور صـاحب حماه، والأمير عـز الدين ابـراهيم بن المقـدم، فنازلـوها وفتحوها لثـلاث مضين من رجب، ثـم رحل السلطـان الملك العادل رحمه الله في منتصف رجـب الى الرقة فحاصرهـا وتسلمها في العشرين منـه، ثم رحل الى الخابـور فملكة، ثم رحل الى نصيبين فنـزل بظاهرها، وأتتـه رسل صاحب سنجار في طلب الصلح.

واتفقت وفاة عـز الدين صاحـب الموصل في هذا الشهر، فملـك بعده ولده نـور الديـن رسلان شـاه بن مسعـود بن مـودود بن زنكـي، وجرى الصلح بينهـم وبين الملك العـادل، ثم قصـد السلطان العـادل أخلاط، فخاف من البرد إن نازلها فأخر أمرها الى الربيع وعاد الى الرها وحران.

ذكر ابتداء الوحشة بين الاخوين الملك الافضل والملك العزيز:

كان للملك الافضـل وزير من أهل الجزيـرةغاش، فأشار عليـه بإبعاد أمراء أبيـه وأكابـر أهل دولته، وحملـه على ان يستجد أمـراء وأصحابـا من مماليكه المستجدين، واخبره ان أمراء أبيـه يشتطون عليه ولايرضون منه إلا بالكثير، وأعمال دمشـق لاتسعهم، وانما تسعهـم أعمال مصر، وان الغربـاء والمستجـديـن مـن ممـاليكـه يرضـون منـه بـالقليـل وأي شيء أعطـاهـم استكثـروه، فـاغتر الملك الأفضـل بقـولـه، وكـان ذلك مـن الخطـأ البين والتدبير الفاحش السيء، فأبعد أمراء أبيـه والعظماء من أتباعه حتى أبعد القـاضي الفاضـل مع جـلالة قـدره وغـزارة فضله، والعماد الكـاتب مـع فصاحته وبراعته واستخدم أمراء مجهولين ومماليكا خاملين.

وأشـار عليه ايضـا باخـلاء البيـت المقدس، وتسليمـه الى نواب اخيـه الملك العزيـز، وأخبره أنه يحتاج الى مؤن عظيمة وكلـف كثيرة ففعل ذلك الملك الافضل، وكاتب أخاه في تسلم القـدس فقبله الملك العزيز وسربه وشكره على فعلـه، وكان السلطان الملـك الناصر رحمه الله قد جعـل ثلث ارتفاع نـابلس وقفـا على عمارة القدس ومصـالحه، فخان الـولاة بنابلـس وأكلـوا، ولما بلغهم عـزم الملـك الافضـل على تسليم القـدس الى الملـك العزيز خافـوا منه أن يحاققهم ويحاسبهم ويصرفهم عن ولايـاتهم، فكاتبوا الملك الأفضل يبـذلون له القيام بسـائر مصالح القدس مـن وقفه، وأنهم لايحوجون الى بذل شيء آخر من ماله.

فأجابهم الملـك الأفضل الى ملتمسهم، وبدا له فيما كان كـاتب الملك العزيز به، فتألم الملك العزيز من ذلك واستوحش بسببه.

وكان الملـك الافضل كلما أبعـد أميراً وكبيراً من أصحـاب أبيه، أدنـاه الملك العـزيز، وقـربه، وفسح أملـه، وأجزل عطـاءه، وأقطعه الاقطـاعات

الكثيرة، وأحسن الى أمراء أبيه وأصحابه المعتبرين، وحفظ عهودهم القديمة فأحبوه ولاذوا بكنفه وعاضدوه فتمكنت دولته وتشيدت مملكته، وكانت سيرته بالعكس من سيرة اخيه.

وكان من جملة الأمراء الذين صاروا الى الملك العزيز، وفارقوا أخاه الملك الأفضل الأمير فخر الدين جهاركس، فجعله الملك العزيز استاذ داره، وقدمه على أمرائه، والأمير فارس الدين ميمون القصري، والأمير شمس الدين سنقر الكبير، وهؤلاء الثلاثة من عظماء الدولة وأكابرها.

وقويت الوحشة بين السلطانيين الافضل والعزيز، واجتمعت كلمة الامراء الصلاحية على أن يكون الأمر مجتمعا للملك العزيز إذْ هو محيي سنة والده وسالك طريقته، فاختلت امور الملك الأفضل واضطربت أحواله، ولو كان مع تقدير الله سبحانه، سلك طريق الرأي والحزم لكان الأمر بخلاف ماوقع، لكن لكل مقدر سبب.

سنة تسعين وخمسمئة:

في هذه السنة خرج السلطان الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر الى البقاع وخيم بها، فقيل للسلطان الملك العزيز: ان توانيت ذهبت بلادك، فبرز الى البركة وبذل الاموال وقصدته الرجال وعظم أمره، وسار في الارض ذكره، فخاف الملك الافضل لما بلغه ذاك، واستشعر ونزل برأس الماء، واستشار أصحابه فاختلفت آراؤهم واضطربت، وفارقه الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وصار الى الملك العزيز، فجعله من أكبر امرائه، فكاتب الأفضل اخاه الظاهر صاحب حلب وحالفه على الاتفاق والمعاضدة، وكاتب عمه السلطان الملك العادل يستنجده ويستصرخه.

حصار دمشق: وقدم الملك العزيز في جحافله فلما وصل الى الفوار ، وكان أخوه الأفضل نازلاً بها، خالطت مقدمته ساقة عسكر دمشق، فولوا منهزمين لايلوون على شيء، ودخل الملك الأفضل دمشق على أقبح صورة، ونزل الملك العزيز بالكسوة، وذلك لست مضين من جمادى الآخرة، ثم نزل في سابع جمادى على دمشق محاصرها، والأفضل يدافع ويمانع الى أن وصل عمه السلطان الملك العادل رحمه الله، وكتب الى ابن اخيه الملك العزيز يسأله الاجتماع به فاجتمعا راكبين بصحراء المزة، وسأله الاقلاع عن قتال اخيه، وان يكف عنه، فأجاب الى ذلك وامتثل أمره.

وقوع الاتفاق بين الملوك: ثم تأخر الملك العزيز مرحلة الى صوب داريا والاعوج، وكان بدمشق عند الملك الأفضل الملك المنصور صاحب حماه، والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك.

ثم وصل الملك الظاهر بن الملك الناصر صاحب حلب الى دمشق، ووقع الاتفاق على عقد الصلح بين الجميع، ورحل الملك العزيز الى مرج الصفر فنزل به، وكتبت نسخة يمين مضمونها: أنه يكون كل واحد من الملك الأفضل والملك العزيز، والملك الظاهر، والملك العادل ببلاده وأجناده آمناً من أن يقصده صاحبه، وان الملك المجاهد أسد الدين، والملك الامجد يكونان مع الملك الأفضل مؤازرين له، وأن الملك المنصور صاحب حماه يكون مع الملك الظاهر مؤازرا له.

وحلف الملك العزيز بمقتضى هذه النسخة وزال الخلاف وسكنت الدهماء، وخطب الملك العزيز ابنة عمه الملك [العادل] فأجيب الى ذلك، وعقد عقد النكاح وكان متوليه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق، وحلفت الملوك، ورجع الملك العزيز الى

مصر بعد ان خرج الناس من دمشق لوداعه، وذلك في شهر شعبان ورجع كل ملك الى بلده.

ورجع السلطان الملك العادل الى البلاد الشرقية، وأقبل الأفضل على الشرب واللهو وأعرض عن الاشتغال بمصالح الرعية، والامور كلها معذوقة بوزيره الجزري، وكان الجزري هذا سيء الرأي، فاسد التدبير، رديء السيرة، فتشعثت بسببه الأمور، وفسدت المملكة، ففارق الملك الأفضل الأمير عز الدين سامة، وشمس الدين ابراهيم بن السلار، ومن الأعيان جمال الدين بن الحسين، والقاضي محيي الدين بن زكي الدين لما شاهدوه من الأحوال الفاسدة، وحرض الأمير عز الدين سامة وابن السلار الملك العزيز على محاربة الملك الأفضل، والمسير الى الشام واستحثاه استحثاثاً شديداً، وكذلك فعل غيرهما من أكابر الأمراء والملك الأفضل مع ذلك غافل عن صلاح حاله مستهتر بلهوه، وبينما هو على ذلك إذ اصبح ذات يوم مظهرا للتوبة، من غير سبب، ونادى بذلك، وأراق الخمور، ولازم الاعتكاف والصلوات والعبادات والصدقات ولبس القطن والكتان، ونهى عن المنكر، وأمر بالمعروف، وجالس الفقراء، وآكلهم وبالغ في التقشف الى ان صار يصوم النهار ويقوم الليل.

سنة احدى وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وردت الاخبار الى دمشق بعزم السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب مصر على قصد دمشق وحصارها، فأشار العقلاء على الملك الأفضل بمراسلة اخيه الملك العزيز واستعطافه وملاطفته، وأشار عليه وزيره الجزري بأن يتوجه الى عمه الملك العادل، ويستنصر به ويستنجده على أخيه الملك العزيز، فأصغى إليه ومال الى قوله، ورحل من دمشق لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى في خواصه متوجها الى الرقة، فتلقاه عمه السلطان الملك العادل رحمه الله

بصفين، فسأله الملك الأفضل المعاضدة والمساعدة، وان يصير معه الى دمشق ليمتنع أخوه من قصده، فأجابه الملك العادل الى ذلك، وسار من صفين متوجها الى دمشق، وكان دخوله اليها لليلة بقيت من جمادى الآخرة ومضى الملك الأفضل الى حلب مستنصرا بأخيه الملك الظاهر، فتحالفا على الاتفاق والمساعدة.

ثم توجه الملك الأفضل الى حماه فأضافه صاحبها الملك المنصور وتحالفا، ثم صار الى دمشق فدخلها وأقام بها هو وعمه الملك العادل رحمه الله، متوافقين متعاضدين.

ورأى السلطان الملك العادل من قبح سيرة الملك الأفضل، وسوء تدبيره ماشتدت كراهيته له، وكان ينهاه عن أفاعيله فلاينتهي، ويعظه فلايتعظ. ولم يأل الملك العادل رحمه الله جهده في الذب عنه، ودفع مايقال فيه، فلم يجد ذلك كله ولاأثر شيئاً.

ولما تطاول ذلك وكثر تغير عليه رحمه الله وتنكر، وظهر ذلك عليه، وكتم الملك الأفضل سببه، وصار الملك الأفضل تحت يد الملك العادل وتحكمه، متصرف فيه أمره ونهيه، فنفذت فيه سهام الملك العادل، وعلم أن ملكه صائر إليه لامحالة، فكاتب الأمراء ولاطفهم واستمالهم.

وكانت الأمراء الأسدية مائلة الى عثار الأمراء الصلاحية، مؤثرة بوارها وهلاكها، وكان السبب في ذلك تقدم الصلاحية عليهم عند الملك العزيز، فاستمالهم الملك العادل، وكاتبهم سرا، وكاتب الملك العزيز بالتخويف والتحذير منهم، وكانوا إذا ركبوا الى خدمة الملك العزيز رأى التنكر في وجوههم منه، ورأوا منه مثل ذلك، فتنافرت القلوب، وتم للملك العادل في تدبيره ماأراد.

ولما اطلعت الأمراء الأسدية على نفرة الملك العزيز منها خافوه،

وحسنوا للأكراد مخالفته، وكان أميرهم المقدم عليهم أبا الهيجاء السمين، فوافقوه سراً على المصير الى الملك العادل، والملك الأفضل، وأن يقاتلوا معهما الملك العزيز ويحاربوه، وخوفوه إن لم يفعل ذلك أن تفسد الصلاحية عليه قلب الملك العزيز، ويكون ذلك مؤديا الى هلاكه، فخالفهم هو ومن تبعه من الأكراد على ذلك.

ولما عيد الملك العزيز عيد الفطر بمصر توجه يريد الشام لحصار دمشق وتملكها، فحين بعد عن الديار المصرية فارقه أبو الهيجاء السمين والأكراد والمهرانية والأسدية، ولحقوا بالملك العادل، وذلك ليلا لأربع خلون من شوال، وأصبح الملك العزيز في قلة من العدد فرجع الى مصر على طريق اللجون والرملة، وخاف من بقية الأسدية الذين معه الاقتداء بمن فارقه وأن يكونوا عينا لهم، وكان من الأمور المولدة للاضطراب أن الملك الظاهر صاحب حلب كان لما صالح عمه السلطان الملك العادل وأخويه الأفضل والعزيز، شرط أن يكون الملك المنصور صاحب حماه والأمير عز الدين بن المقدم صاحب بارين، والأمير بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر ومن معه من الياروقية في خدمته، ووقع الحلف على ذلك.

وكان الملك الظاهر قد اعتقل بدر الدين دلدرم بذنب نسبه اليه، واعتقل معه جماعة من أهل بيته ومضى الى تل باشر فحاصرها فلم يقدر عليها، فلما اجتمع الملك العادل بالملك الظاهر شفع في دلدرم وأهل بيته، وضمن له أنهم يكونون في خدمته، فشفع الملك الظاهر عمه فيهم وأفرج عنهم، وعاد من حصار تل باشر، واستصحبهم الملك العادل ليكونو ا في نجدته.

فلما صار الملك العادل بدمشق وجرى ماذكرناه من استمالته أمراء

مصر ومكاتبتهم استخدم بدر الدين دلدرم وأصحابه لنفسه، واقتطعهم عن الملك الظاهر.

وكان الملك المنصور صاحب حماه، قد حلف لابن عمه الملك الظاهر على البلاد التي في يده، وهي :حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج ، وقلعة نجم، وزاده الملك الظاهر جبلة واللاذقية وبلاطنس، وبكسرائيل، وصهيون، وحلف له على ذلك كله، وأنه يستخلص هذه البلاد التي وهبها للملك المنصور ممن هي في يده، وان احتاجت الى حصار حاصر، فلما جرى من اضطراب الحال بين الملك العزيز والملك الافضل وعمهما الملك العادل ماوصفناه، خاف الملك المنصور، والامير عز الدين بن المقدم من اجتماع الملك الأفضل والملك العادل، فوصلت كتبهما الى الملك العادل بالاعتصام به، والتمسك بخدمته، وفارقا الملك الظاهر، فوافقهما الملك العادل وتحالفوا على ذلك.

ولما رأى الملك الظاهر أن عمه الملك قد استجلب اليه من كان في خدمته، كاتب أخاه الملك العزيز يستحثه على الخروج الى الشام، ومقابلة الملك العادل والملك الأفضل، فخرج من مصر كما ذكرناه، وفارقته الأسدية والمهرانية وغيرهم وصاروا الى الملك العادل، وعاد العزيز الى مصر كما سبق ذكره لقلة عدده، وحرض ابو الهيجاء السمين والأسدية الملك العادل على قصد مصر وأخذها، وهو نوا عليه أمر الملك العزيز.

قصد الملك العادل والملك الأفضل مصر: فتحالف الملك الأفضل وعمه الملك العادل على قصد مصر وتملكها، وان يكون للافضل الثلثان وللملك العادل الثلث، وكان ذلك سراً، ولم يصح ولم يتثبت وانما حدس وظن.

ثم رحل السلطانان العادل والأفضل بجموعهما قاصدين الديار المصرية، واستخلف الملك الأفضل بدمشق أخاه قطب الدين موسى،

وحرصت الأسدية على أن تسبق الملك العزيز الى الديار المصرية ليمنعوه منها فلم يقدروا على ذلك، واجتهدوا فلم يدركوه.

وسر السلطان الملك العادل بوصول العزيز واستقراره بمصر، لأنه في الباطن لم يكن من رأيه محاصرة الملك العزيز ولاأخذ مصر، وإنما قصده خوفا من شولة(١٥) الأمر ان لم يوافقهم على قصده وحربه أن يصيروا الى الملك العزيز ويستولوا على الديار المصرية، ولايبقى للعزيز معهم إلا مجرد الاسم، لحداثة الملك العزيزوصغر سنه، وعدم تجربته للأمور، فكان يصعب انتزاع مصر من أيديهم، فأجابهم الى قصدهم وقال في نفسه: إن غلب القوم الملك العزيز فمصر لي وللملك الأفضل، وإلا فهي للملك العزيز على مانؤثره، فكان هذا رأيه، غير أنه أبطنه وكتمه، فسار بجموعه الى مصر، ونزلوا على بلبيس محاصرين لها، وكان بهامن الأجناد الصلاحية والعزيزية خلق كثير.

وكان نزول الملك العادل والملك الأفضل عليها في وقت زيادة النيل، وكانت الأسعار غالية، والعلف معدوم، ومنعت الزيادة من نقل المؤن والعلوفات إليهم، فغلت الأسعار، وارتفعت أثمانها، وبذل الملك العزيز الأموال واستخدم الرجال وحصن البلاد.

وقوع الاتفاق بين الملك العادل وابني أخيه العزيز والأفضل: ثم ندم الملك العادل على مافعل، وكذلك الأسدية، وأخذوا في إصلاح الأمر وتلافيه، وبعث السلطان الملك العادل الى القاضي الفاضل رحمه الله يستدعيه ليستشيره، فامتنع حتى أذن له السلطان الملك العزيز، فخرج الى الملك العادل فاحترمه غاية الاحترام واستشاره فيما يفعل، فأشار بصلاح ذات البين فاصطلحوا ووقع الاتفاق، وعفا الملك العزيز عن الأمراء الأسدية وطيب قلوبهم وردّ اليهم اقطاعاتهم وأجازهم وحلف لهم وحلفوا له، وحلف كل من الملوك الثلاثة: الملك العادل والملك

الافضل والملك العزيز لصاحبه، وتوثقوا بالايمان، وعادت الأسدية الى خدمة الملك العزيز، وعاد الملك الأفضل الى دمشق ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين، وكان قد ولاه بيت المقدس.

وأقام السلطان الملك العادل بمصر، واستوطن القصر، وأخذ في اصلاح الديار المصرية جندها وأرباعها وضياعها، وأظهر من محبته لابن اخيه الملك العزيز وشفقته شيئا كثيرا، وقام بأموره كلها صغيرها وكبيرها.

سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وصل السلطان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر الى دمشق، وكان دخوله اليها في غرة المحرم. وفي هذه السنة خرج السلطانان الملك العادل والملك العزيز متوجهين من الديار المصرية الى دمشق لأخذها من الملك الأفضل، وكان السبب في ذلك انه اتصل بالملك العادل أخبار الجزري وزير الملك الأفضل، وفساد دولة الملك الأفضل بسوء تدبيره وكثر شاكوه، وقل شاكروه، واختلت الامور بذلك غاية الاختلال، وتخوف الملك العادل اضطراب المملكة بسبب ذلك، وأداء ذلك الى مايكره، فحملته الحمية على الخروج لتمهيد البلاد، وضبط الأمور وإزالة ماعرض من المفاسد، فسار الملك العادل والملك العزيز من مصر، وقد امتلأ الفضاء بعساكرهما كثرة، وصارا الى الدواروم وغزة فنزلا بها.

وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد بعث أخاه الملك الزاهر محيي الدين داود بن الملك الناصر الى مصر لإصلاح أحوالهم، وبعث أيضا قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن شداد رحمه الله، ولما رجعا من مصر اجتازا بدمشق وأخبرا الملك الأفضل بعزم الملك العادل والملك العزيز

على قصده، فضاق بذلك ذرعا، وأشار عليه عقلاء أهل دولته بملاطفة أخيه وعمه ومكاتبتهما، إلا وزيره الجزري فإنه بجهله أشار بمقابلتهما ومقاومتهما، وقال له: إن دمشق حصينة لاترام وأهلها يحبونه، وكذلك أشار عليه أخوه الملك الظافر خضر ابن الملك الناصر وقال له: لاتحزن فالبادىء أظلم والمسلم الى الله اسلم.

وتولى الملك الظافر تهيئة أسباب الحصار واستكثر من العدد والعدة، ووافت رسل الملك الظاهر الى اخيه الملك الافضل بالصبر والمصابرة، ووعده بالمؤازرة والمظاهرة والنجدة والمساعدة، وبعث الملك الأفضل الأمير فلك الدين أخا الملك العادل رسولا الى السلطانين الملك العزيز، والملك العادل يدعوهما الى الصلح فأجابا بشروط التمساها.

وعاد فلك الدين الى دمشق مسرورا بالتئام الشمل واذا الجواب قد عاد بأن الملك الأفضل امتنع من الصلح وأنه لايجيب الى ماشترط، وانه قد سور بلده وخندقه، فعجب الملك العادل والملك العزيز وتألما له، وسارا من منزلتهما الى دمشق.

منازلة الملك العادل والملك العزيز دمشق: فوصلا اليها ونازلاها، وأقاما شهرا لم يحدثا قتالا ولا احراقا ولا افسادا، رجاء وقوع الألفة وانتظام الشمل، وأكابر الدولة يشيرون على الملك الأفضل بالخروج الى عمه وأخيه واستعطافهما، فيأبى ذلك ويعمل برأي وزيره وأخيه الملك الظافر، فلما رأى الأكابر ذلك فسدت نياتهم وكاتبوا الملك العزيز سرا واصلحوا أمورهم معهما، ووصلت كتبهم اليهما بتعجيل القتال وانتهاز الفرصة.

استيلاء الملك العزيز على دمشق: فركب الملك العادل والملك العزيز، وضرب البوق، وقصدا دمشق وذلك لأربع بقين من رجب فما ردهم راد

ولاصدهم صاد الا الملك الظافر خضر بن الملك الناصر فإنه قاتلهم فهزموه.

ووصل الملك العزيز الى الميدان الأخضر، ووصل الملك العادل الى باب توما ففتحه له أمير كان عليه، فدخل الملك العادل وأصحابه منه ومن باب شرقي، ودخل الملك العزيز من باب الفرج وبات عند عمته الحسامية، وبات الملك العادل في دار عمه أسد الدين.

ولما دخل الملك العزيز خرج اليه أخوه الملك الأفضل فتلقاه، وأقام الملك العزيز بمخيمه في الميدان الأخضر الى أن انتقل الملك الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، ونزل بمسجد خاتون ومايجاوره من الدور، ومعه وزيره الجزري خائفا على نفسه.

ووقعت واقعة عجيبة لو أحسن فيها الملك الأفضل التدبير لحمد العاقبة لكنه فرَّط فجنى ثمرة تفريطه، وهي أنه كان استقر من الملك العادل والملك العزيز أن الملك العزيز يقيم بدمشق ويكون الملك العادل نائبا عنه بمصر، فلما فتحت دمشق ندم الملك العزيز على ماقرر وخاف من استيلاء الملك العادل على الديار المصرية، فبعث الى الملك الافضل سرا يعتذر اليه ويشير عليه بما هو عين المصلحة، وهو أنه إذا طالبناك فامتنع ولاترض الا بالسكة والخطبة لك، فإني أجيبك اليهما ولاأمنعك منهما وأعطيك ماتريده، ويكون امتناعك لي عذرا لي عند عمي، فأظهر الملك الأفضل هذا السر لأصحابه وأفشاه، وقالوا: لاتخدع بهذا القول واطلع عمك الملك العادل عليه فإنه كأبيك في الشفقة، فأرسل الملك الأفضل الى عمه فعرفه بذلك فقامت قيامته، وعتب بسببه على الملك العزيز، وقال له: أنا أبني وأنت تهدم فأنكر ذلك الملك العزيز، وحلف على بطلانه.

وبعث الملك العزيز الى الملك الأفضل فأزعجه بالعتب والخصومة

وأخرجه من دمشـق الى صرخد فسكنها بعائلته، وكانـت بصرى بيد الملك الظافر فأخذهـا منه أخوه الملك العزيز مقابلة له على مـافعله من المقاتلة والمحاربة، فسار الى أخيه الملك الظاهر فأكرمه.

استيلاء السلطان الملك العادل رحمه الله على دمشق: ولمـا ملك السلطـان الملك العـزيـز دمشق جلـس في دار العـدل، فكشف المظـالم، وأبطل المكوس، فظن النـاس أنه يقيم بدمشق ويستوطنهـا فلم يشعروا به إلا وقد أزمـع الرحيـل فبرز الى مسجد القدم، ثـم الى الكسوة، وقـرر عمه الملـك العـادل سيـف الـدين أبـا بكـر بـن أيـوب رحمه الله في دمشـق وبلادها، وسلمها اليه، فملكهـا السلطان الملك العادل رحمه الله، وأحسن القيام فيهـا، وكان أحق بها وأهلها، لما كـان رحمه الله مختصا به مـن حسن السياسـة وصواب التـدبير، فابتهجت بـه الممالك الشـامية، وأشرق نـورها واستبشرت بتملكه الرعايا، وتضاعف سرورهـا، لازالت الرحمة مضاعفة له مـن الرحيـم الغفـور، ولابرحـت ذريتـه ملوك هـذه الأمـة الى يوم البعـث والنشور آمين.

ثم سـافر السلطـان الملك العزيـز متوجهاً الى الـديار المصريـة وودعه عمه السلطـان الملك العادل وذلك لأربـع عشرة ليلة مضت مـن شعبان وكانت مدة ملكه لدمشق عشرين يوما.

ولما عـاد السلطـان الملك العـادل الى دمشـق بعـد وداعه لابـن أخيـه السلطان الملـك العزيـز، قرأ منشـوره على رؤوس الاشهاد، وأبقـى الخطبة والسكة للملك العزيز، وأظهر أنه نائبه.

-١٠٠٠٧-

سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة:

في هـذه السنـة وردت الأخبـار بعـزم الفـرنـج خـذلهم الله على قصـد بيروت، فخرج السلطـان الملك العـادل رحمه الله من دمشـق في عساكـره، فخيم قـريبا من صـور، وبعث الى بيروت مـن تولى اخراب مـدينتها دون قلعتها ليكفي المسلمون عـاقبة أمرها، فخربت المدينـة حتى بقيت كأن لم تكن، وأمر بتحصين قلعتها فتـولى ذلك الأمير عز الدين سامـة، وبالغ في تحصينها، وترك فيها جماعة من مماليكه وأصحابه.

استيلاء الفرنج على بيروت: ولما انفصل عز الدين سامة عـن بيروت، خافـت الجند المرتبـون بها من الفرنـج، فخرجـوا منها منهـزمين، ووصلت الفرنـج فملكوهـا، واستولـوا عليها، وعـزموا على قصـد جبلة والـلاذقية، فبعث السلطان الملك العادل الى ابن أخيه الملـك الظاهر صاحب حلب يعلمـه بما عزمـت الفرنـج عليه، فـوصلـت كتبه بـأنه قـد جمع خلقاً مـن التركمان، وبرز لحفظ البـلاد الساحلية، وطلب من عمـه نجدة ليقوى بهم على العدو.

وأما الفـرنج فـإنهم رحلوا مـن بيروت الى صيدا، فنـزلوا عليهـا، ونزل بعضهـم على تبنين فحـاصروهـا وضـايقـوها مضـايقـة شـديـدة، فسـار السلطان الملـك العادل الى تبنين، وأقام بها في مقـابلة الفرنـج، وكتب الى ابن اخيـه السلطان الملك العزيـز يخبره بذلك، فبرز من مصر وجهـز من عساكره مقـدمة، وسار في إثرها بجحـافله، ثم رحلت الفـرنج خذلهم الله عن تبنين، ورجع الملك العزيز الى مصر.

ـ ١٠٠٠٨ ـ

سنة أربع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنـة سار السلطان الملك العـادل رحمه الله الى الشرق، ونازل حصن ماردين وصاحبها يومئذ أرتـق بن ارسلان بن ايل غازي بن أرتق، فملك السلطان العـادل الربض بعد حصار شديـد وقتال كثير، ثم شرع في حصـار القلعـة وذلـك في العشر الاوســط مـن ذي الحجـة، ولم يـزل محاصرا لها الى ان خرجت السنة.

وفي هـذه السنة كـانـت وفاة سيـف الاسـلام طغتكين بـن أيوب بـن شادي صـاحب اليمـن رحمه الله، وكان ملكـا جليلا عظيـم القدر، فقـام بالملك باليمن بعده ولده الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن ايوب.

سنة خمس وتسعين وخمسمئة

دخلـت هذه السنـة والسلطان الملـك العـادل رحمه الله محاصر قلعـة ماردين ومضايقها وقد اشرف على اخذها.

وفي هذه السنة كـانت وفاة الملك العـزيز عماد الدين عثمان بـن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيـوب رحمه الله،وحديث ذلـك انه عزم على المضي الى الاسكنـدريـة لـلاشراف على احـوالها ثـم المضي منهـا الى دمياط، وكان ذلك في شهر ذي الحجة من السنة الماضية، فاتفق انه خرج من مخيمه عازما على التصيّد في الفيوم ثـم العودة الى مخيمه، والرحيل بعد ذلك الى الاسكندرية فتوجه الى الفيوم فـوصله في مستهل المحرم من هذه السنة ونزل بقرية يقال لها ذات الصفا، فاقام بها متصيدا الى سابع المحرم فرحـل منها وهـو يتصيد في طـريقه فاتفـق ان ذئبا خـرج فركـض في اثره فعثر بـه فرسه فسقط، ثـم ركب وهو محمـوم، فعاد الى مخيمه وقد قـويت

حماه، ودخـل القـاهـرة في عـاشر المحرم فبقـي مـريضـا الى ليلـة الحادي والعشرين من المحرم فانتقل فيها الى رحمة الله ورضوانه.

سيرته رحمه الله

كـان رحمه الله ملكـا كـريما رحيما حسـن الأخـلاق طيـب الأعـراق، شجاعاً، حسـن العقيدة جميل الطويـة، شديد الخوف من الله تعـالى، محباً للعلماء، متكثـراً بـالفضـلاء، كثير الاحسـان اليهـم والاستحضـار لهم الى مجالسته، واستماع كـلامهـم، والعمل بما يشيرون بـه، سريـع الانقيـاد الى الخير، كثير البذل مفرط السخـاء تغمده الله برحمته، واسكنـه الفردوس من جنته.

ولما تـوفي اجلس في السلطنـة بمصر ولـده الملـك المنصور محمـد بـن عثمان بن يـوسف بن أيوب، واجتمعـت عليه كلمة الأمـراء، وامتنع عماه الملك المؤيـد، والملك المعز مـن الحلف إلا بشرط أن يكون الملـك المؤيد أتابكه.

وعزم الملك المؤيـد على المخالفة، واشترى اسلحة في البـاطن فعقدت الأمراء مجلسا وحضر فيـه: الملك المؤيد، والملك المعز، والملك الظـافر، ثم طـولب الملـك المؤيد بـالحلف، فـامتنع فـأغلظ لـه أخوه الملـك الظافـر وتهدده، فحلـف كـارهـاً، وحلـف أخـوه الملـك المعـز، واستتـب الأمـر، واجتمعت الكلمة على أن يكون مـدبر الأمر الأمير بهاء الـدين قـراقوش الى أن يصل السلطان الملك العادل فيفعل مايراه.

- ١٠٠١٠ -

استيلاء الملك الأفضل على الديار المصرية

ثم إن الأمراء كاتبوا الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك الناصر صلاح الدين ليصل اليهم، ويرتّب أتابكا لابن أخيه الملك المنصور ابن الملك العزيز. فساق الملك الأفضل من صلخد الى مصر سَوْقاً حثيثاً، ودخل القاهرة لسبع مضين من ربيع الأول، فحلفت له الأمراء، ولم يبق لولد الملك العزيز معه إلاّ بالإسم، ومعنى السلطنة له.

ولما استقرت قدم الملك الأفضل بالديار المصرية كتب الى عمه السلطان الملك العادل، وهو على محاصرة قلعة ماردين يعزيه بالملك العزيز ويخبره أنه قد صار الى مصر، واستقل بتدبير أحوالها حفظا لدولة ولد الملك العزيز.

قصد الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق وحصارهما لها

ثم إن الملك الأفضل والأمراء اتفقوا على قصد دمشق وأخذها لغيبة الملك العادل عنها، وكاتبوا الملك الظاهر بذلك، فوافقهم وصار معهم، وأيضا الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماه.

وتوجه الملك الأفضل من مصر بعساكره طالباً دمشق، ووصلت الأخبار بذلك الى السلطان الملك العادل رحمه الله، وهو على محاصرة قلعة ماردين، فرتّب على حصارها ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد، وسار الى دمشق مجدّا ليسبق الملك الأفضل إليها، فوصلها لإحدى عشرة

ليلـة مضت مـن شعبان، وذلـك قبل وصـول الملك الأفضـل اليها بيـوم واحد.

ونـازلها الملك الأفضـل في ثـالـث عشر شعبان وفي رابع عشر زحـف اليها، وكانت الغلبة له أولاً، وكاد أن يملـك البلد، وفتح له باب السلامة مخامرة مـن الأمير الذي كـان يتولاه، فـدخل جماعـة من أصحـاب الملك الأفضـل المدينة مـن جملتهم الفقيـه مجد الديـن أخو الفقيـه عيسى، ثـم خرجوا من باب الفراديس ولم يحصـل غرضهم، والسعادة إذا كانت مقبلة لم يضر صاحبها شيء، ولو اتفق أهل الأرض قاطبة عليه.

وفي شعبان وصـل الملك الظـاهر مـن حلب، واتفـق مع أخيـه الملك الأفضل على حصـاردمشق، ثـم وصل المجاهـد صاحـب حمص وعسكر من عند الملك المنصور صاحب حماه نجدة للملك الأفضل، ونازل الملك المنصور في شهر رمضان حصـن بارين وصاحبه الأمير عز الـدين ابراهيم ابن شمس الدين بن المقدم، وكان في خـدمة الملك العادل ومن أصحابه، فنصب عليه المجـانيق، وحاصره بقية شهر رمضـان وشوال وذي القعدة، وفتحه لليلـة بقيت من ذي القعدة، بعـد أن جرح الملك المنصور جـراحة مثخنة.

سنة ست وتسعين وخمسمئة

دخلت هـذه السنة والملك الأفضـل نور الديـن وأخوه الملك الظـاهر محاصران مدينـة دمشق، وبها عمهما السلطان الملـك العادل رحمه الله، ولما كان اليـوم العاشر مـن شهر ربيـع الأول وصل السلطـان الملك الكـامل ناصر الدين محمـد ابن السلطان الملك العادل بمن معـه من العساكر الى دمشق، فـاستظهر به أبـوه السلطان الملك العـادل، وضعف بذلـك قلب الملك الأفضـل والملك الظـاهر، ثـم تأخرا عـن دمشق . رحلة، ثـم رحل

- ١٠٠١٢ -

الملك الظاهر جريدة الى حلب في البريَّة، وذلك لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، لشغب واختلاف وقع بينه وبين أخيه.

ولما رحل الملك الظاهر رتب السلطان الملك العادل ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائبا بها، وأعاد ولده الملك الكامل في عساكره إلى حران، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله متَّبعاً لابن أخيه الملك الأفضل، فكان كلما رحل الملك الأفضل من منزلة، نزلها السلطان الملك العادل.

كسرة الملك الأفضل بالسايح

ثم التقى العسكران عسكر الملك العادل وعسكر الملك الأفضل بموضع يقال له السايح، وكانت أكثر العساكر الأفضلية مخامرين على صاحبهم في الباطن، فلما وقع القتال انهزموا وولوا الأدبار، وركب الملك العادل أقفيتهم الى أن وصل البركة فنزل بها مخيما ثمانية أيام، والرسل تتردد بينه وبين ابن أخيه الأفضل.

استيلاء الملك العادل على مصر

وآخر الأمر أنه تقرر أن السلطان الملك العادل يملك مصر، وينعم على الملك الأفضل بميافارقين وحاني وجبل جور وغيرها.

ثم دخل السلطان الملك العادل القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر، واستتب له الأمر، وصفت له المملكة بالديار المصرية

ودمشـق وأعمالها، وتـوجه الملـك الأفضـل بـأهلـه الى صرخد، فـأقـام بها وبعـث نـوابه ليتسلمـوا ديـار بكـر فتسلمـوا مـاوقع الاتفـاق عليـه، إلا ميافارقين، فإن الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل لم يوافق على تسليمهـا إليه، وظـن الملـك الأفضل أن ذلـك بمـواطـأة من عمـه، فتوجه الى حلب مستصرخا بأخيه الملك الظاهر.

ولما ملـك السلطـان الملك العـادل مصر. كـرهـت الأمراء الصـلاحيـة ذلك، وشـق عليهم خـروج الأمر عن ولـد الملك النـاصر صلاح الـدين، فكاتبوا الملك الأفضل سراً، ووعدوه القيام معه وبذل الجهد في نصرته.

وكان الأمير عز الـدين سامة أميراً على ج في تلـك السنة، فلما عاد اجتمع به الملك الأفضل وأخبره بمكاتبة الامراء له، واستحلفه فحلف له كرهـاً، وكتب الى الملك العـادل يخبره بموافقـه الأمراء الصلاحيـة للملك الأفضل ومكاتبتهم له، فشكره العادل على ذلك

سنة سبع وتسعين وخمسمئة

دخلـت هـذه السنـة والملـك العادل بـالـديـار المصريـة متملـك لها، وبـدمشق ولـده الملـك المعظم شرف الـديـن عيسى نـائبـا عنه، والملـك الأفضل بحلـب عند أخيه الملك الظـاهر مستنصراً به على عمـه العادل، ووصلتهما كتب الأمراء الصـلاحية يستحثونهما على قصد دمشـق، وأخذها ويعدونهما بالنصرة والمعاضدة، ومن جملتهـم الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زيـن الديـن قراجـا، والأمير عماد الـدين ابـن المشطوب وميمـون القصري، وغيرهـم، وتحالـف هـؤلاء الامـراء سراً على رد الأمـر الى أولاد الملـك الناصر وتمليكهـم ماأخـذ منهـم وشاركهـم في سرّهم الأمير عـز

الديـن سامة وأوهمهـم أنه من جملتهم، وجعـل يكاتب السلطـان الملك العادل بأسرارهم ومايتجدد لهم.

ثم سار الملك الظاهر الى منبج وصاحبهـا شمس الدين عبد الملك بن شمس الدين بـن المقدم، وكان في خدمة الملك العـادل، فتسلمها وقبض على صاحبهـا شمس الـدين، ثـم سار الى قلعـة نجم، وكـانت لشمـس الديـن أيضاً فتسلمها، وراسل الملـك المنصور صاحب حماه، وطلـب منه أن يكون معـه فلم يجبـه الملك المنصـور الى ماطلـب، وأبى إلا الانتماء الى السلطان الملـك العادل، والاستمـرار على طاعتـه ومتابعتـه، فسار الملـك الظـاهر الى المعـرة واستـولى على ماكـان بها مـن الحواصـل ثم مضـى الى كفرطاب فنزل بها وسيرَّ الى نائب شمس الديـن بن المقدم بأفاميه يتهدده ويتواعـده إن لم يسلم إليـه الحصن فلـم يفعل، فســار الملك الظـاهر إلى أفاميـة فنزلها واستحضر شمس الـدين بـن المقدم، وأمر بـه فضرب ضرباً مبرحاً بمرأى من أهـل الحصن ليسلم نوابه الحصن، فلـم يجد ذلك شيئا، فرتـب على حصارها عماد الـدين بـن المشطوب، ثم سـار الى حماه فنازلها مدة، ثم وقعت بينه وبين صاحبها الملك المنصور هدنة على شيء بذله له الملك المنصـور، أنَّ الملك الظـاهر والملك الأفضـل إذا أخذا دمشـق كان الملك المنصور في خدمتهما.

منازلة الملك الظاهر والملك الأفضل دمشق

ثم رحل الملك الظـاهر ومعه أخوه الملك الأفضل الى دمشـق فنازلاها، وبلغ ذلك السلطـان الملك العادل وهو بـالديار المصرية، فســار منها الى نابلس فأقام بها.

وبينما الملك الظاهـر والملك الأفضل محاصران لدمشـق إذ قفز الأميران

- ١٠٠١٥ -

فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، وكانا في عسكر الملك الظاهر الى الملك العادل، فتناقصت عند ذلك أمور الملك الظاهر والافضل.

وكاتب الملك العادل في السر أكابر الأمراء الذين معهما، فوعدهم السلطان الملك العادل، وسوفهم، واصلح قلوبهم له وأفسدها على الملك الظاهر والملك الأفضل.

سنة ثمان وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملكان الأفضل والظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، ووالده العادل نازل بنابلس، وقد تخذل أصحاب الظاهر والأفضل وضعفت شوكتهما، وكلَّ حدهما، ووقع الخلفُ بينهما، وذلك أن الملك الظاهر قال سراً: إن أخذت دمشق أخذتها لنفسي ولا أعطيها لأخي الملك الأفضل، فراسل الملك الأفضل عمه السلطان الملك العادل ماكان عينه له من البلاد الشرقية، وان يعطيه في كل سنة مئة الف دينار، نصفها عيناً، ونصفها عروضا، فتحالفا على ذلك سراً، وشاع في العسكر أمر الصلح من غير وقوف على حقيقة تفصيله فتخاذلوا وضعف أمرهم.

ثم رحل الملك الظاهر لما رأى اضطراب الأحوال وذلك في أول محرم ومعه فارس الدين ميمون القصري، وعماد الدين بن المشطوب، وسراسنقر. ورحل الملك الأفضل الى الشرق، ودخل السلطان الملك العادل رحمه الله دمشق، وكان يوما مشهودا. وكان الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل قد تسلم منبج في غيبة الملك الظاهر، فتسلمها الملك الظاهر لما عاد، واقطعها لعماد الدين بن المشطوب، وتسلم أفاميه من نواب شمس الدين بن المقدم على عوض اقطاعها.

- ١٠٠١٦ -

سنة تسع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق الى حماه فنزلها، وجرت بينه وبين ابن أخيه الملك الظاهر مراسلات آخرها أنه وقع الصلح بينهما وتحالفا على أن يكون للسلطان الملك العادل دمشق والسواحل وأعمال البيت المقدس، والديار المصرية، ومابيده، وبيد أولاده من بلاد الشرق، وأن يكون للملك الظاهر مدينة حلب وأعمالها، وللملك المنصور حماه والمعرة ، وسلمية، وبارين، وللملك المجاهد أسد الدين حمص والرحبة وتدمر، وللملك الأمجد بعلبك وأعمالها.

ولما وقع الاتفاق على ذلك عاد السلطان الملك العادل الى حمص ونزل على بحيرة قدس وعين لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى حرّان والرّها، ولولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ميافارقين، ولولده الملك المعظم شرف الدين عيسى السواحل وأعمال البيت المقدس، ولولده السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد الديار المصرية.

وكان في اليمين المقترحة على الملك الظاهر ان يقطع خبز عماد الدين ابن المشطوب ولايستخدمه، فقطع الملك الظاهر خبزه، فصار الى السلطان الملك العادل فلم يستخدمه، وقال تخدم بعض أولادي، فقصد الملك الأوحد فلم يستخدمه واستخدمه الملك الأشرف وحلف له على أربعمائة فارس وخبزها من بلاد ماردين إذا فتحها، فقصدها عماد الدين، واستحضروا الملك الأفضل نور الدين وأخذوا رأس عين من صاحب ماردين، وسلمها ابن عمه الأشرف إليه، وساروا الى ماردين، فبعث صاحب ماردين الى الملك الأشرف خمسين الف دينار ليرحل عنه، وعاد الى حران وأعطى الملك الأفضل جملين، ثم أخذ منه كل موضع وقع التقرير عليه، ولم يترك له غير سميساط، فأقام بها الى أن مات.

وفي هـذه السنة كـان مقتل الملـك المعـز إسماعيل بـن سيف الاسـلام طغتكين بن أيـوب بن شادي صـاحب اليمـن، وكان قد ادعـى الخلافة، وتسمى بأمير المؤمنين، وزعـم أن نسبه ينتهي الى بني أمية، وجـرى له مع مماليـك أبيه خبط كثير، وتحزبـوا عليه، وآخر الأمـر أنه وثب عليـه جماعة مـن الجند، فحمـل عليـه أحـدهم، وكـان راكبـاً على بغلـة وعليه ثيـاب الخلافة طول الكمّ قريباً من عشريـن شبراً وسعته قريب من ستة، فنفرت البغلة ورمته فتخبط في ثيابه وأكمامه، فنـزلوا إليه فقتلوه، ورفعوا رأسه على رمح وداروا بـه في بلاد اليمن وملكـوا عليهم سيـف الدين سنقـر، مملوك سيف الاسـلام، فجند الجنود وحشـد الرجال وقصد مـن خالفه، فـأعطي النصر عليه، وتمهدت له بلاد اليمن وقتل جماعة كبيرة من الأمراء.

وكان الملـك المعز قـد خلف ولـداً صغيراً، فلقبه سيـف الديـن سنقر الملك الناصر، وخطب له بالسلطنة في بـلاد اليمن، وتزوج أمه، وأظهر أنه أتابكه وحافظ دولته، فبقي كذلـك مدة اربع سنين، ثم توفي سيـف الدين سنقر، وخلف ولداً صغيراً من أم الملك النـاصر بن الملك المعز، فتزوج بها بعد وفاة سيـف الدين غازي بن جبريـل أحد امراء تلك الـدولة، وغلب على البلاد.

وبقي الملك الناصر مدة، ثم سمَّ في كوز فقاع، فمات وبقي غازي ابن جبريل مدة بعـد ذلك، ثم قتلته حمير وخولان وجماعة مـن العرب، وذلك لأنهم اتهموه بـأنه هو الـذي قتل الملك النـاصر، فقتلوه به، وبقيـت بلاد اليمن بغير سلطان.

وكانت أم الملك الناصر حاكمـة على زبيد، فقصدها الشريف عبد الله ابـن عبد الله الحسنـي، وكان متغلبـاً على بعـض تلك البـلاد، فلم يظفـر بطائل، ورجـع الى بلاده، واتفق أنه قـدم الحاج وفي جملتهم الأمير سليمان شاه بن سعـد الدين شاهـان شاه بن الملك المظفـر تقي الدين عمـر بن

شاهان شاه بن أيوب بزي الفقراء، فأعلمت به أم الملك الناصر فخلعت عليه وتزوجته، وسلمت اليه البلاد فملأها ظلماً وجوراً وفسقاً وتجبراً.

وكتب الى السلطان الملك العادل رحمه الله كتاباً يقول في أول: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)[١٦].

واهتم السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بأمره، فسيرَّ الى اليمن ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمئة بعسكر، ففتح بلاد اليمن، وقبض على سليمان شاه وبعث به الى مصر تحت الحوطة فاعتقل بها، ثم أفرج عنه بعد مدة.

ودوخ الملك المسعود بلاد اليمن حتى أطاعه أهلها، وكان شجاعا أبي النفس عالي الهمة، واعلم ان هذه الحوادث وإن وقع اكثرها بعد هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين فإنما قصد سياقة الحديث دعانا الى ذكرها كراهة أن يتبتر.

سنة ستمئة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على يد السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن السلطان الملك العادل رحمهما الله، وحديث ذلك أنه خرج نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل الى قتال الملك الأشرف، ولما بلغ الملك الأشرف ذلك كتب الى والده الملك العادل، وكان نازلاً بخربة اللصوص يستشيره فيما يفعله، فكتب اليه يشير عليه بأن لايضرب مع صاحب الموصل مصافاً وحذّره من ذلك غاية التحذير، وسار السلطان الملك الأشرف رحمه الله

الى دارا، فنزل بها واستدعى اخاه الملك الأوحد من ميافارقين، وصاحب آمد وصاحب الجزيرة، ورحلوا قاصدين باشزى(١٧) ووصل نور الدين الى باشزى بجموعة قبلهم، وبعث إلى السلطان الملك الأشرف رسولاً يطلب منه المصاف.

ثم وقع القتال فحملت المواصلة على عساكر الملك الأشرف فزحزحتها قليلاً، وحملت عساكر الملك الأشرف بعد ذلك عليهم فكانت الهزيمة، وأباح الله تعالى الملك الأشرف أكتافهم فاستولوا عليهم قتلاً وأسراً ، ودخل نور الدين الموصل هزيماً، ثم جرت بينه وبين الملك الأشرف مصالحات واتفاقات.

وقد كان الملك الأشرف رحمه الله مقرونة براياته السعادة أين توجه، وكانت هذه الوقعة أول سعاداته وعنوانها.

سنة ثلاث وستمئة

في هذه السنة نزل السلطان الملك العادل رحمه الله على البحيرة بظاهر مدينة حمص، واستدعى ابن اخيه الملك المنصور صاحب حماه، وابن أخيه الملك الأمجد صاحب بعلبك، ووصل عسكر آمد وسنجار وحلب، ودخل الساحل فأخرب القليعات وأحرق ونهب للفرنج شيئاً كثيراً.

سنة أربع وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل الى دمشق، فأقام بها وأمر

بتجديد عمارة قلعتها، ووظف على كل ملك من ملوك أهل بيته وأكابر أمرائه برجاً، فعمروها بأموالهم خدمة له.

سنة ست وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله الى سنجار، ومعه ملوك أهل بيته بعساكرهم فأقام محاصراً لها مدة طويلة ثم عاد عنها ولم يظفرمنها بشيء، ودخر الله تعالى فتحها لولده الملك الأشرف، فإنه فتحها سنة سبع عشرة وستمئة، وبعد رحيل السلطان عنها سيرّ ولده الملك الأشرف، وفي خدمته ابن عمه الملك المنصور صاحب حماه الى نصيبين ففتحها، واستولى عليها، وكانت لصاحب الموصل.

سنة سبع وستمئة

في هذه السنة قبض السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل على الأمير عز الدين سامة واعتقله بحصن الكرك، ونازل حصْنَيه عجلون وكوكب، وكان قبل ذلك قد طلبهما منه على أن يُعَوَّض عنهما الفيوم من أعمال مصر فامتنع ففتح الملك المعظم حصنيه واستولى عليهما.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك العادل بأخلاط، وكان قد استولى عليها وعلى حصونها ومعاقلها.

- ١٠٠٢١ -

استيلاء الملك الأشرف على أخلاط

وكان الملك الأوحد رحمه الله لما احتضر كاتب أخاه السلطان الملك الأشرف ليحضر عنده، فمضى اليه وأقام عنده مدة، فاتفق أن الملك الأوحد تعافى من مرضه، وتكامل بُرْؤُهُ. فودَّعه الملك الأشرف عازماً على العود، فأخبره منجم أخلاطي، كان عند الملك الأوحد بأن الملك الأوحد يموت لامحالة ونهاه عن المضي، فأقام اسبوعاً فمات الملك الأوحد في ذلك الاسبوع، فاستتب الملك بأخلاط للسلطان للملك الأشرف شاه أرمن موسى بن الملك العادل، وأقبلت السعادة له من كل جانب.

سنة عشر وستمئة

في هذه السنة ولد السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وأمه خاتون ابنة السلطان الملك العادل.

سنة ثلاث عشرة وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الظّاهر غياث الدين ايل غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قدس الله روحه، وذلك لعشر بقين من جمادى الآخرة وعمره أربع وأربعون سنة وشهورا، وكانت مدة ملكه بحلب احدى وثلاثين سنة.

سيرته:

كان رحمه الله ملكا جليل القدر، حسن السيرة، عادلاً في رعيته، كثير الاحسان إليهم والمحبة واستجلاب قلوبهم، والتكثر بأماثلهم وأكابرهم،

حتى أنه كان إذا مرض أحد من أكابر أهل بلدة ومعمميهم عاده بنفسه وافتقده بالنفقات، ومتى عوفي من المرض خلع عليه.

وكان له سماط في شهر رمضان يحضره غالب فقهاء البلد، وكان في الأعياد يجلس في الهناء، ويسمع من الشعراء مدائحهم، ويمد سماطاً عظيماً، يحضره غالب الناس، ويخلع على الأعيان والأمراء وأرباب البيوتات.

ولما توفي الملك الظاهر رحمه الله عقد الملك بحلب لولده السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وعمره يومئذ سنتان وكسر بوصية أبيه إليه في ذلك، وترتَّبَ أتابكاً له الأمير شهاب الدين طغريل خادم أبيه، فضبط المملكة، ونشر العدل، وأكثر من الاحسان الى الرعايا، وقام بحفظ مملكة الملك العزيز أحسن قيام.

- ١٠٠٢٣ -

ذكر بدء ظهور التتر لعنهم الله

كان السلطـان خوارزم شاه محمد بـن السلطان خوارزم شاه تكـش قد تملك ماوراء النهـر، وكان هؤلاء الطائفة المعروفـون بالتتر مقيمين بصحراء متاخمة بـلاد الصين، يقال لها جين مـاجين، فاتفـق أنهم ملكوا من : بلاساغون،مدينتي طمغاج وكاشغـر، فقويت شوكتهـم بذلك، وكانـت هذه البلاد متاخمة لسمرقند وهي يومئـذ بيد خوارزم شاه، فوقعت الحرب بينهم وبين خوارزم شـاه مدة قبـل هذه السنة، فقلـت عندهـم المؤن والنفقات ومنع خـوارزم شاه مـن نقل شيء منهـا إليهم، فبعـث ملك التتر واسمـه جنكيزخـان رسلاً ثـلاثة، وصحبهم تجار منهـم على خوارزم شـاه، وبعث الى خوارزم شـاه فأعلمه بهم، فبعث خـوارزم شاه من قتلهُم سـوى رجل واحـد، وأظهر خـوارزم شاه أن ذلـك وقع بغير أمـره. ونهب متوليّ أطـرار ماكان مـع أولئك التجار، وكانوا أربعين تـاجراً ومعهم مئة وخمسـون فرساً عليها فضة نقرة ليبتاعون بها مايحتاجون اليه من السلع والبضائع.

ولما بلغ ذلـك ملك التتر بعث الى خوارزم شـاه ينكر عليه هـذا الفعل ويتهدده إن لم يبعـث اليه بأولئـك الرسـل والتجار أحياء، فقطـع خوارزم شاه أطراف رسلـه، وقال: مالكم عندي إلا هذا الفعـل. فاجتمعت التتر في عـالم لايحصـى، وقصدوا بـلاد الاسـلام وهـؤلاء القوم كفـار يعبـدون الشمس، ولايعتقدون صحـة شيء من الشرائع، وقد ذكر أن عـدة جمعهم كان يومئذ أربعمئـة الف مقاتل، وافترقوا ثلاث فـرق، فخرج خوارزم شاه في سبعين ألفاً فضرب مع ملك كـاشغر، وهو احد ملوكهم مصـافاً وكان عدة من معه أربعين ألفاً، فهزم أصحاب ملك كاشغر وأسره خوارزم شاه وقتله.

ثم طلـب خوارزم شاه من ابـن ملك التتر جنكيزخـان أن يضرب معه مصافاً فـامتنع وقال: مامعـي أمر من والدي بـذلك، فألحَّ عليـه خوارزم

شاه فانـدفع ابن كشلو خـان قدامه مسيرة ثلاثـة أيام، ثم ردت التتر على خوارزم وأصحـابه فهـزموهـم أقبح هـزيمة، وطمعـت التتر عند ذلـك في البـلاد الاسـلامية، فبعثـوا الى بخـارى عشرة آلاف فـارس فنـازلـوهـا وحاصروها حصـاراً شديداً ثم فتحوهـا بعد ثلاثة أيام وبـذلوا السيف في أهلها فأبـادوهم وعصت القلعة عليهم خمسـة أيام ثم فتحوهـا وقتلوا من كان بها وهـدموها، وكـان ببخارى من العلماء والأكـابر مالايحصـى كثرةً، فذهـب أكثرهم تحت السيف، ثـم مضوا الى سمرقنـد فأخذوها بـالسيف وقتلوا جميع اجنادها وعوامها وفقهـائها، وهذه مدينة لم يكن بها وراء النهر مدينة أعظم منها.

وأما خوارزم شاه فإنه صار الى تـرمذ، فاختلفت أصحابه، وتحالفوا على قتله لما رأوا مـن استيلاء الكفـار عليه وغفلته عنهـم، وعزمـوا على تمليك شخص منهم يقوم بذب الكفار عـن حوزة المسلمين، فاطلع خوارزم شاه على ماأجمعـوا عليه، فـانهزم الى نيسابـور واتبعه أجنـاده يطلبون قتلـه، ثم انهزم الى همذان وهم في اثـره، ثم انهزم منها وسـاق سوقاً حثيثـاً في البرية فأدركته منيتـه على شاطىء البحر فـدفن هناك لاأحسن الله عـن الاسلام جزاءه، فلقـد كان هلاك معظـم بلاد الاسـلام على يديه وبسببـه، وقصد ولده جـلال الدين منكبرتي بـن محمد مدينة خـوارزم فلم يفتح لـه بابها، فعـاد الى نشـاوور، وأقـام بها أيـامـاً فـالتقـاه التتر فكسروه كسرة قبيحـة، وأخذوا مـاكان معه، وانهزم الى هـراة وهم في أثـره فمضى الى غزنـة فلقيه رجل مـن أهل بلخ فسـأل جلال الـدين أن يعطيه العسكـر ليصافَّ بهم التتر فأعطـاه إياه، فصاف البلخـي التتر فهزمهـم، فحسده جلال الـدين على ذلك فقتلـه، فسلط الله تعـالى الكفار على جـلال الديـن فهزمـوه الى ماوراء السنـد، واستولى الكفـار على بلاد العجم، واستبـاحوا أهلهـا قتلاً وأسراً، فهذا مابلغني من ذكر ابتداء أمرهم.

ثم إن جلال الـدين بعد ذلك عاد الى بـلاد العجم وجمع خلقاً عظيماً،

ثم إنـه قصد أخلاط وملكهـا على ماسنـذكره إن شاء الله تعـالى، فقصده السلطان الملك الأشرف وكسره وفَلَّ جمعه، ثم كـانت بعد ذلك بينه وبين التتر حروب كـان الظفر فيهـا للتتر، وانهزم منهم جلال الـدين نحـو آمد، ودياربكر، فقيض الله مـن اغتاله وأراح المسلمين منه، فإنه وأبـاه كانا على النـاس شراً مـن التتر لما كـان يبـدو منهما من الظلـم الفـاحـش وسفـك الدماء، وانتهاك الحرمات وإخراب البلاد واهلاك الحرث والنسل.

ولم تـزل شـوكة التتر تعظـم وأمـرهـم يتفـاقم الى أن ملكـوا أصبهـان، وكانت قـد امتنعت عليهم مدة طـويلة، فقتلوا من أهلهـا مقتلة عظيمة، ثم قصـدوا إربل فحاصروهـا، ثم ملكوها وقتلـوا جميع أهلها، ثـم قصدوا العـراق فقـام الخليفـة الامـام المستنصر بـالله أمير المؤمنين أعـز الله نصره بقتالهم، وتشمـر لحربهم والأمر على ذلك الى وقتنـا هذا، فنسـأل الله تعالى أن يعجل دمارهم وهلاكهـم، وينزل جنود النصر على مولانا أمير المؤمنين وأن يحسم بطول بقائه مادة الكافرين آمين.

ولولا خشيـة خروج هـذا المختصر عن حَدِّهِ لـذكرنـا أمورهـم جميعها، لكنّا كرهنا ذلك لطولها، ولأنها أيضاً معلومة لقرب العهد بها.

سنة خمس عشرة وستمئة

في هذه السنة خرج سلطان الروم عز الـدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلـج أرسلان بن مسعـود بن قلج أرسـلان طالبا بـلاد الشام ليملكهـا، واظهر أنـه إنما خرج نجـدة للملك الأفضـل نور الـدين ابـن الملك الناصر صلاح الـدين، فوصل الى تل باشر، وكـانت بيد الأمير بدر الـدين دلـدرم اليـاروقـي فنازلها وفتحهـا وتسلمهـا لنفسـه، وكان الملـك الأفضـل يعتقد أنـه كلما استولى سلطـان الروم على بلـد سلمه اليـه، فلما

تسلم تـل باشر لنفسه اعتـذر إلى الأفضل بأن تـل باشر ليست مـن بلاد الظاهر ولامن بلاد إخوته.

ولما بلغ شهاب الدين أتابك الملك العـزيز صاحب حلب أمر سلطان الروم، بعـث الى السلطان الأشرف موسـى ابن الملك العـادل يستنصر به، وكـان يومئـذ بظاهـر مـدينة حمص في مقـابلـة الفرنـج، فتوجـه رحمه الله بعساكره للقاء سلطان الروم، فانهزم منه سلطان الروم طالباً بلاده.

وساق السلطان الملك الأشرف تبعاً له الى أن أخـرجه من بلاد الشا م، وتسلّم تل باشر، ورعبـان، وسلمها الى شهاب الدين أتابـك، وكانت هذه النوبة مـن سعادات الملك الأشرف العجيبة ووقعـاته الغريبة، فـإن الملك الأشرف يومئذ كان في جمع قليل، وكـان سلطان الروم في جموع كثيرة العدد غـزيـرة المدد، ولم يكن في ظـن أحـد أنـه يَفُـلُّ حـدَّهُم بهذا الجمـع بـل ولابأضعافه.

وفي هذه السنـة كانت وفـاة السلطان الملـك العادل سيف الـدين أبي بكر بـن أيوب قدس الله روحه بمخيمـه بخربة اللصوص، وذلـك بعقب خروج الفـرنج خـذلهم الله تعالى ووصـولهم الى الغور قـاصديـن الاستيلاء على البيت المقدس واسترداد ماأخذ منهم من البلاد السـاحلية.

ولما توفي السلطـان الملك العـادل كُتم مـوته إلى أن أدخـل في محفة الى قلعـة دمشق، ودفـن بها، ثـم أُظهـر موتـه، وجلـس ولـده الملك المعظـم للعزاء، وكانت مـدة عمره ثلاثاً وسبعين سنة وشهوراً، وكـانت مدة ملكه من حين ملـك مصر واستتب له الأمـر ثمان عشرة سنة وشهوراً، وكـانت وفاته في جمادى الآخرة.

سيرته رضي الله عنه:

كـان رضي الله عنه جميـل السيرة، حسـن الطويّـة، وافـر العقل حـازم الـرأي، كثير التجـارب، ذا معـرفـة بـدقـائق الأمـور، مـواظبـاً على أداء المفترضـات والنـوافـل، محافظاً على الصلـوات في أوقـاتها، متبعـاً لأوامـر الشرع المطهرِّ منـزجراً بزواجـره، حسن العقيدة محبـاً للدين وأهلـه، متبعاً للسنة كارهـاً للبدعة، مبالغاً في إطفـاء نارها وإخفاء منـارها، كثير التلاوة والصيام والقيـام على كبر سنه، مجاهـداً في سبيل الله عـز وجل، ذابـاً عن دينـه، مائلاً الى العلماء وأهـل الخرق، وكـان مـع ذلك مسعـوداً في جميـع أموره مظفراً على من ناوأه منجحاً في كل أمر قصده ونواه.

ومن جملة سعـادتهْ أنه خلَّفَ أولاداً لم يخلف أحد مـن الملوك مثلهم في بسالتهم وإقدامهـم، وعظم شأنهم، وجلالة قدرهـم وبعد صيتهم، وعلو هممهم، وهيبة أهـل الأرض قاطبة لهم، كل منهم إذا جُردَ النظـر إليه ظُنَّ أنه أفضل أهل دهره، وأنه لاشبه له في عصره:

مـن تَلْـقَ منهـم تَقُـلْ لاقيـتُ سيـدهـم
مثـل النجـوم التـي يَسْرِي بها السَّـاري

ولما تـوفي السلطـان الملـك العـادل استقـر في السلطنـة بعـده ولـده السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الديـن أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب، فخطـب له إخـوته وهـم أهل بيتـه، في بلادهـم، وضربوا السكـة باسمه.

وأما الذي كان يختص به من البلاد عنـد موت والده فالديار المصرية، وبلاد اليمن، ونائبه بها ولده السلطان الملك المسعود وقد ذكرناه.

واستقر في الملك بدمشق وأعمالها السلطـان الملك المعظم شرف الدين عيسى، وببـلاد الشرق السلطان الملـك الأشرف مظفر الـدين شـاه أرمن موسى.

-١٠٠٢٨-

نزول الفرنج على دمياط

وفي هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط، وزحفوا إليها براً وبحراً فخرج السلطان الملك الكامل رحمه الله لقتالهم فنزل في دمياط المقابل لها الى بورة(١٨)،ونزل الفرنج في الجانب الآخر والنيل بين الفريقين.

وكان نزول الفرنج على دمياط لثلاث مضين من شهر ربيع الأول، وذلك قبل وفاة السلطان الملك العادل بثلاثة أشهر وأربعة أيام.

واشتد زحف الفرنج على دمياط ومحاصرتهم لها، وكانت أكثر عساكر المسلمين قد جهزوا خيولهم الى الربيع، وبقي اكثرهم رجالةً فضعفت نفوسهم بسبب ذلك، وخافوا من عدوهم، وجرت أمور مع ذلك أوجبت خروج السلطان ومن معه من المخيم ليلاً إلى أشمون، ولما أصبح الصباح دخل الفرنج مخيم المسلمين واستولوا عليه، واحتاطوا بدمياط وأحدقوا بها براً وبحراً، فعظم البلاء واشتدت الرزيّة.

وأما السلطان رحمه الله فإنه لما وصل إلى أشمون أخرج الأموال وأنفقها في الناس، وعوضهم عما ذهب منهم، ثم وصل أخوه السلطان الملك المعظم صاحب دمشق بعسكر كثير من فارس وراجل، فاجتمعت العساكر الاسلامية، وعادت الخيول من الربيع فعاد السلطان رحمه الله فنازل الفرنج، والفرنج منازلون دمياط.

ونشب القتال بين الفريقين، وحفر الفرنج عليهم خنادق يمتنعون بها من السلطان، وجدوا في حصار البلد ومضايقته الى أن خرجت السنة.

سنة ست عشرة وستمئة

دخلت هـذه السنة والمسلمون محدقون بـالفرنج محاربون لهم، والفـرنج محاصرون لدميـاط، وقد اشتدت مضايقتهـم لها، فَقَلَّتِ الأقوات بـدمياط حتى هلك أكثر أهلها، وضعفوا ووقع فيهم الوباء والفناء.

استيـلاء الفرنـج على دميـاط: ولما طالـت مـدة الحصار على دميـاط، وعدمت عندهـم الميرة، وكثر الوباء عندهـم حتى هلـك أكثر مقاتليهم لم يبق لأهـل البلد منعـة، ولابمصابـرة العدو طـاقة، وزحـف الفرنـج اليها فملكوهـا واستولـوا عليها، واسترقّـوا من وجـدوه بها وذلك يـوم الثلاثـاء لخمس بقين مـن شعبان فكانت مـدة حصار الفرنج لها ستـة عشر شهراً واثنين وعشـريـن يومـا. .

ولما ملـك الفـرنـج دميـاط تـأخـر السلطـان رحمه الله بـالمسلمين الى جوجر[١٩] فنزل هنـاك وبنى بها دوراً وأمـر الناس بـالبناء فصـارت هناك مـدينـة عظيمة وسماهـا المنصـورة، وأعطـى أخـاه الملك المعظـم دستـوراً بالمضي الى الشام، وبجمع العساكر لجهاد العدو.

سنة سبع عشرة وستمئة

دخلت هـذه السنة والفرنج خـذلهم الله متملكون لدميـاط، والسلطان رحمه الله بمنزلته المسماة بالمنصورة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المنصـور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقـي الديـن صاحـب حماه، وذلك لثـلاث بقين من ذي القعـدة، فكانت مدة عمره خمسين سنة وشهوراً، وكـانت مدة ملكه تسع وعشرين

سنة وشهوراً، فعُقد الملك بحماه بعده لولده الملك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان بن محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، ولم تكن الوصية بالملك إليه، وإنما كانت لأخيه الملك المظفر تقي الدين محمود الذي هو ملكها اليوم، لكنه كان عند وفاة أبيه بمصر عند خاله السلطان الملك الكامل رحمه الله، وكان الملك الناصر قلج أرسلان بدمشق، فاستحضره زين الدين وزير صاحب حماه، واستحلف الناس له، وملكه على بلاد أبيه وهي حماه والمعرة وسلمية وبارين.

سنة ثمان عشرة وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق الى أخيه السلطان الملك الأشرف مظفر الدين رحمهما الله مستنجداً به على الفرنج خذلهم الله، فجمع السلطان الملك الأشرف العساكر، وجاءتها نجدة صاحب ماردين، ثم سار الى حمص مخيماً على البحيرة، ووصلهم عسكر حلب، والملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ثم توجهوا قاصدين الديار المصرية نجدة للسلطان رحمه الله.

وأما الفرنج فإنهم خرجوا من دمياط ونازلوا السلطان في المنصورة وبينهم وبينه بحر أشمون، واستمر القتال بين الفريقين براً وبحراً.

فتح دمياط

ولما وصل السلطان الملك الأشرف والملك المعظم بمن معهما من

العساكر، بعث السلطان في بحر المحلة أسطولاً فدخلوا الى بحر دمياط ليمنع الميرة عن الفرنج، وأمر السلطان فبنيت الجسور عبر عليها المسلمون الى جزيرة شر مساح التي الفرنج مخيمون عليها.

وكان الفرنج قد عزموا على الرحيل في الليل، فأحاطت بهم العساكر وقد دخلوا أرض السرمون، ودارت الحرب بينهم وبين المسلمين، ووقع أسطول المسلمين من كل جانب على أسطول الفرنج خذلهم الله وشوانيهم، وقُتل منهم خلق عظيم حتى لم يبق لهم سبيل الى الهرب بوجه من الوجوه، وأيقنوا بالهلكة فراسلوا السلطان الملك الكامل رحمه الله يبذلون له النزول عن دمياط على أن يؤمنهم، فأجابهم الى ذلك وشرط عليهم اطلاق من في أيديهم من أسرى المسلمين، وأخذ منهم رهائن ملوكهم على تسليم البلد وتقرر بينهم صلح عام مدة ثمان سنين.

وتسلم السلطان دمياط لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب، فكانت مدة تملك الفرنج لها سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان هذا الفتح أعظم الفتوح وأجَلَّها، فإنهم لو استمر تملكهم لها لكان ذلك سبباً لاستيلائهم على أكثر البلاد الاسلامية، لكن أبى الله تعالى إلا إعزاز هذه الملة ونصرها، وجعل ذلك على يد أهل البيت الأيوبي الذين استنقذ الله تعالى بسلفهم بيته المقدس من أهل الطغيان، وترجو أن يقُر بفتحه على أيدي خَلَفِهم عيون أهل الإيمان آمين.

ولما تسلم السلطان رحمه الله دمياط دخلها المسلمون وأقيمت الجمعة بها يوم الجمعة لسبع بقين من رجب، فَضَجَّ المسلمون بالبكاء من فرحهم، وأكثروا من الثناء على الله سبحانه شكراً على ماأولاهم من هذه النعمة التي يعجزون عن بلوغ شكرها، وتكِلُّ ألسنتهم عن وصف كُنْهِ قدرها.

- ١٠٠٣٢ -

سنة تسع عشرة وستمئة

في هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حماه، فأغلق صاحبها الملك الناصر أبوابها وحفظ أسوار بلده بالمقاتلة.

وكان الملك المعظم قد أظهر أنه لم يأت للمحاربة وإنما أتى طلباً للمجاهد إقبال، وهو أمير من أمراء السلطان الملك الكامل كان قد هرب منه، وتقدم الى أخيه الملك المعظم بطلبه.

ولما جرى ماذكرناه من احتفاظ الناصر صاحب حماه بالأسوار، وغلقه الأبواب في وجه خاله الملك المعظم، اتخذ ذلك الملك المعظم حجة وسيلة الى الاستيلاء على بلاده، فمضى الى سلمية وشحنها، ثم مضى الى المعرة وقبض ماكان بها من الحواصل وشحنها أيضاً، ثم مضى إلى سلمية فأقام بها الى أن خرجت السنة.

سنة عشرين وستمئة

في هذه السنة وصلت كتب السلطان الملك الكامل والملك الأشرف إلى أخيهما الملك المعظم، وهو بسلمية، ينكران عليه مافعل من قصده صاحب حماه وتشحينه على بلاده، فاعتذر إليهما، ثم عاد الى دمشق وفي قلبه أثر من ذلك، فكاتب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل صاحب ميافارقين، وكان نائب أخيه الملك الأشرف بأخلاط يدعوه الى مخالفة الملك الأشرف والعصيان عليه، وكاتب أيضاً مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك أيضاً واستماله إليه.

- ١٠٠٣٣ -

سنة إحدى وعشرين وستمئة

في هـذه السنة عصـى الملك المظفـر شهـاب الديـن غازي على أخيـه السلطـان الملك الأشرف بـأخـلاط، وجمع عسكـراً كثيفاً فقصـده الملـك الأشرف، وخرج السلطـان الملك المعظم في عساكـره الى العطنة[٢٠] فنزل بها طالبـاً أن يمنع الملـك الأشرف من قصـد أخيه شهـاب الديـن غازي فلم يقـدر على ذلك، والتقى الملك الأشرف وأخـوه شهاب الديـن غازي فكسره الملـك الأشرف رحمه الله تعالى كسرة قبيحـة وتسلّـم أخلاط، وعفـا عن أخيـه الملك المظفـر شهاب الـدين وأبقـى عليه ميـافارقين، ثـم عاد السلطان الملك المعظم الى دمشق وسيرَّ ولده الملـك الناصر صلاح الدين داود الى إربل، وتحالف هو وصاحبها مظفر الدين بن زين الدين واتفقا.

وفي هذه السنـة كانت وفاة الملـك الأفضل نور الديـن أبي الحسن علي ابن الملـك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب رحمه الله بسميساط رحمه الله، مولده في سنـة أربع وستين وخمسمئة فكان عمره قريبـاً من سبع وخمسين سنة.

كان عنده رحمه الله فضـل وأدب، غير أنه كان فاقداً للسعـادة، ناقص الحظ، ولـه أشعار حسنـة جيدة مـن جملتها قـوله يخاطـب الخليفة الإمـام الناصر لـدين الله في أول كتاب كتبـه إليه يشكـو إليه فيه عمـه السلطان الملك العادل، وأخاه الملك العزيز عثمان حيث أخذا منه دمشق.

مـولاي إنَّ أبـا بكـر وصـاحبَـهُ
عثمان قـد أخـذا بـالسيْـفِ إرث علي

فـانظـر الى حَـظِّ هـذا الاسـم كيـف لقـى
مـن الأواخـر مـا لاقـى مـن الأولِ

فأجابه الخليفة الإمام الناصر عن كتابه بكتاب كتب في أوله:

وافى كتابك يابن يوسف معلناً
بالصدق يُخبر أنَّ أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فناصرك الإمام الناصر

وللملك الأفضل رحمه الله في هذا المعنى:

أما آن للسعد الذي أنا طالب
لإدراكه يوماً أَيَدِيْ وهو طالبي
تُرى يريني الدهر أيدي شيعتي
تمكّنُ يوماً من نواصي النواصب

سنة اثنتين وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الناصر لدين الله، وذلك في ليلة عيد الفطر، وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً إلا يومين، وكان عمره نحواً من سبعين سنة.

سيرته: كان صاحب رأي وتدبير وسياسية، وكان فاضلاً متميزاً أديباً جيد الفكرة حاضر البديهة، فيروى أن وزيره نصير الدين العجمي لمّاحبسه في داره ومنع من الوصول اليه، وأجرى عليه مايقُوتُه كتب إلى الخليفة كتاباً يقول في أوله:

أَلَقَنِي في لظى فإن غَيَّرتْني
فتيقَّنْ أنْ لستُ بالياقوت

- ١٠٠٣٥ -

عرفَ النَّسْجُ كلُّ من حاكَ لكن
نَّ نَسْجَ داودَ ليسَ بالعنكبوت

فأجابه الخليفة بخطه:

نَسْجُ داودَ لم يفد صاحبَ الغَار وكان الفخار للعنكبوت
وبقاء السَّمَنْدِ في لهب النَّار مزيلٌ فضيلة الياقوت

- ١٠٠٣٦ -

خلافة الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين

هو أبو محمد بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي وأمه أم ولد، بويع له يوم توفي والده الإمام الناصر، وكان والده قد خطب له بولاية عهده في سائر المنابر الإسلامية، ثم نقم عليه بعد ذلك لشيء بلغه عنه فأسقط اسمه من ولاية العهد وحبسه وضيق عليه تضييقاً شديداً، ومال الى ولده الأصغر علي وعزم على الخطبة له ونقش السكة باسمه، فاتفقت وفاة الأمير علي في حياة أبيه وخلَّف أولاداً أطفالاً فبعث بهم الإمام الناصر الى سينيز(٢١) فأقاموا بها، ثم رضي الخليفة عن ولده الظاهر فَعَهد إليه وبايع له الناس، وكتب الى سائر الآفاق بإعادة الخطبة له إلا أنه لم يُخرجه من محبسه خوفاً منه، فإنه كان أيداً شديد القوة عالي الهمة.

ولما توفي الناصر لدين الله أخرج الظاهر بأمر الله من محبسه، وبويع له بالخلافة البيعة الخاصة، ثم بويع له البيعة العامة لليلتين مضتا من شوال من هذه السنة فأظهر العدل ونشره، وأزال الظلم ودحضه وردَّ على الناس أموالاً جزيلة كانت قد أخذت منهم، وأزال مكوساً كثيرة كانت قد جُددَتْ عليهم.

وفي هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حمص، ونزل عليها فشعث بلدها، واستغل منه جملة، فجاء الملك الأشرف إليه وسأله أن يرحل عنها ،فرحل عنها راجعاً الى دمشق ومعه أخوه الملك الأشرف رحمها الله، فأقام عنده مدة بدمشق ثم رجع الى بلاده.

ـ ١٠٠٣٧ ـ

سنة ثلاث وعشرين وستمئة

في هذه السنة كـانت وفاة الإمام الظـاهر بأمر الله، وذلـك لأربع عشرة ليلة مضـت من شهـر رجب، وكـانت مـدة خلافتـه تسعة أشهـر وأربعة عشر يوماً، وكان عمر نيفاً وخمسين سنة.

وقد رويَ أنه لما بُويـع قال: كيف يَليق أن يفتح دكانـا بعد العصر من قد نيف على الخمسين سنة وتقلّد الخلافة(٢٢).

سيرته: كان رحمه الله عادلاً حسن السيرة، كارهـاً للظلم، وكان شجاعاً بعيد الهمـة ذا رغبة في الخير، عقد على دجلـة ببغداد جسراً عظيماً، فـأنفق عليـه أموالاً عظيمـة، فصار لبغـداد جسران، ولم يكن لها قبـل ذلك مـن مئتي سنة وكسور غير جسر واحد.

ويـروى أنه كتـب اليه بعـض أصحاب الأخبـار بحادثـة وقعت فيهـا سعاية ببعض أرباب الدولة، فكتب بظـاهرها الى الوزير: إن عاد صاحب خبر كتب مطالعة ضربت عنقه، فامتنع المفسدون من السعايات، ولم يزل رحمه الله متمسكا بالعدل، سالكاً طريق الخير إلى أن توفي.

خلافة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين

خليفة الوقت وإمام العصر خَلَّدَ الله دولتـه وأعلى كلمته هو أبو جعفر المستنصر، بن الظـاهر بـأمر الله أبي نصر محمد، بـن الناصر لـدين الله أبي العباس أحمد، بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمـد، بن المستظهر بـالله أبي العباس أحمد، بـن المقتدي بـأمـر الله أبي القاسـم عبد الله، بـن ذخيرة الدنيا والدين أبي عبد الله محمد، بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله، بن القـادر بالله أبي العبـاس أحمد، بن اسحـاق، بن المقتـدر بالله أبي الفضل جعفر، بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد، بن الموفق بالله أبي احمد طلحـة، بـن المتوكـل على الله أبي الفضـل جعفـر، بن المعتصـم بـالله أبي اسحـاق محمد، بـن الرشيـد أبي جعفـر هارون، بـن المهدي أبي عبـد الله محمـد، بـن المنصـور أبي جعفـر عبد الله ، بـن محمـد الإمـام، بـن علي السجاد بن عبد الله الحبر، بن العباس عـم النبي صلى الله عليه وسلم، بن عبد المطلب، بن هـاشم، بن عبد مناف، بن قصي بن كـلاب، بن مرة بن كعب، بـن لؤي بن غالـب، بن فهر - وهـو قريش في قول الأكثـر - بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خـزيمة، بن مدركة، بن الياس، بن مضر، ابن نـزار، بن معـد، بن عدنـان،بويـع أعز الله أنصاره بـالخلافة يـوم توفي والده الإمـام الظاهـر بأمر الله أمير المؤمنين وعمـره يومئـذ عشرون سنة أو إحدى وعشرون سنة، وأول كلمة سمعت منه لما ولي: «نستمد المعونة بالله تعالى» فأظهـر من حسن السيرة والعدل أضعاف ماأظهـره والده، وأفاض من الصدقـات، وأجزل من العطاء والأنعـام مافاق به على مـن سبقه من الخلفاء الراشديـن والأئمة المهديين، فلاتجد أحداً ممن ورد بغـداد في أيامه إلا ناشراً لفضلـه، شاكـراً لبرّه، داعياً الى الله تعـالى في تخليد دولتـه وتشييد مملكتـه راغبـاً إليـه في أن يمتع المسلمين بطـول بقـائه، وأن يجعـل النصر والتأييد من قرنائه آمين.

- ١٠٠٣٩ -

سنة أربع وعشرين وستمئة

في هذه السنة كـانت وفاة السلطان الملك المعظم شرف الـدين عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيـوب، وذلك يوم الجمعة بدمشق سلخ ذي القعـدة، فكان عمره تسعاً وأربعين سنـة وشهوراً، وكانـت مدة ملكه لدمشق تسع سنين وشهوراً.

سيرته: كان رحمه الله شجاعاً عالي الهمة أبي النفس غزير الفضل عالماً. ولما تـوفي استقر في الملـك بعـده بدمشـق وأعمالها ولـده السلطان الملـك صلاح الدين أبو المظفر داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب.

وكان عمه الملك العزيز قد قصد بعلبك ليأخذها من صاحبها، فمنعه من ذلك الملك النـاصر، وبعث إليه يتهدده إن لم يرحل عنهـا فَتَوَغَّر قلبه بسبـب ذلك، واستـوحـش منه وفـارقه وصـار الى أخيـه السلطان الملـك الكامل.

سنة خمس وعشرين وستمئة

في هذه السنة خـرج السلطان الكبير الشهيد الملك الكـامل قدس الله روحه من الديار المصرية في عساكـره، فوصل الى نابلس ونزل بها، ووصل إليـه أخوه السلطـان الملك العـزيز عماد الـدين عثمان بـن الملك العـادل صاحب بانياس رحمه الله متلقياً له، فأكرمه غاية الإكرام وأحسن إليه.

وكان ملك الألمان المعروف بالانبرطور قـد وصل مدينة عكا في جمع من الفرنجية طالبـاً بلاد الاسلام، قاصداً الاستيلاء عليهـا، ولما صار السلطان الملك الكامل بنابلس خاف الملـك الناصر ابن الملك المعظم منه، فبعث

إلى عمه السلطان الملك الأشرف يستنجد به ، ويسأله المصير إليه، فوصل السلطان الملك الأشرف إلى دمشق، ودخلها في العشر الأخير من شهر رمضان، فاجتمع بالملك الناصر، وقال له: لايمكنني مقابلة السلطان وإنما أنا أتوجه اليه وأصلح الحال معه، فتوجه إليه واتفق رحيل السلطان من نابلس الى تل العجول ليكون في مقابلة الفرنج، وأما الانبرطور فإنه نزل بجموعه إلى يافا، والرسل تتردد بينه وبين السلطان.

وصل السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل، ثم وصل بعده الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ووصل الملك الناصر داود الى نابلس فنزل بها وجرى بينه وبين عز الدين أيدمر مملوك أبيه أموراً أوجبت أن عز الدين فارقه وصار الى السلطان فاستخدمه، وأحسن إليه، وأقطعه اقطاعاً كثيراً.

سنة ست وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان بتل العجول والملك الناصر داود بنابلس والرسل تتردد بين السلطان والفرنج في أمر الهدنة والصلح.

ذكر الهدنة

واقتضى الحال أن الأمر انبرم بين السلطان رحمه الله والفرنج على أن يُسَلِّم اليهم البيت المقدس داخل الخندق فقط، ولا يكون لهم من بلده إلا قريات معدودة، وإنما فعل ذلك لأن الفرنج كانوا في كثرة من العدد وأمدادهم متواصلة إليهم من البحر، وخاف على البلاد من غائلة العدو، فرأى تسليمه إليهم إلى أن تقوى كلمة الإسلام ويحصل الاتفاق بينهم، وكان ذلك من المصلحة فإن الإمام يجوز له تسليم بلد من البلاد

الإسلامية الى الكفار إذا رأى في ترك التسليم إليهم ضرراً ظاهراً لايمكن تلافيه.

منازلة السلطانين الأشرف والكامل دمشق

ثم إنه استقر الحال بين السلطان الملك الكامل والسلطان الملك الأشرف على أن يؤخذ من الملك الناصر دمشق وأعمالها، ويعوض عنها: حران، والرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، وغيرها، وأن تكون دمشق ومايتصل بها من الأعمال الى عقبة فيق للملك الأشرف، وأن يكون للسلطان الملك الكامل من فيق الى العريش، وأن تؤخذ حماه من صاحبها قلج أرسلان ابن الملك المنصور، وتعطى للملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور، إذ هو وصيُّ أبيه، والمعهود إليه بالسلطنة، وأن تؤخذ بعلبك من صاحبها الملك الأمجد وتعطى للملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب بانياس، وأن يعطى الملك المجاهد أسد الدين سلمية، فإنها كانت اقطاعاً لأبيه ناصر الدين.

ولما وقع الاتفاق على ذلك توجَّه السلطان الملك الأشرف، ومعه الملك المجاهد نحو الملك الناصر فاجتمعا به بالقصر وخاطباه فيما وقع الاتفاق عليه، وأخبراه أن السلطان غير قانع منه إلا بتسليم مافي يده، وأخذ مابذل له عوضاً عن ذلك، فحمله أمراؤه وأصحابه على المخالفة، وأن لايجيب الى ماطلب منه، وحملوه على الرحيل الى دمشق والتحصن بها، فرحل في أصحابه الى دمشق وساق إليها سوقاً حثيثاً.

ورحل السلطان الملك الأشرف في إثره، وفارق الملك الناصر عمه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل صاحب بصرى وابن عمه الملك المغيث شهاب الدين ابن الملك المغيث ابن الملك العادل، وصارا

مع الملك الأشرف، ودخل الملك الناصر دمشق فستر أسوارها، وحفظ أبوابها، واستحصن بها، ونزل الملك الأشرف بمرج الصفر، فبعث اليه السلطان رحمه الله الأمير فخر الدين عثمان في ألف فارس، ثم بعث مع الملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور ألف فارس أخرى، فوصلوا الى الملك الأشرف، وقد نزل بجسر الخشب، وتواصلت إليه الأمداد بعضها يتلو بعضاً، ثم سار السلطان الى خربة اللصوص فنزل بها، ثم إن السلطان الملك الأشرف بعث الى أخيه السلطان الملك الكامل يستحثه على القدوم فبعث اليه يقول له: تعلمُ أن الكرك والشوبك وهي من جملة البلاد التي تعينَّتْ لي حصينة فإن تعسَّرَ أخذها كيف يكون الحال؟ فاتفق الحال بينهما على أنه إن تعذَّر أخذهما بعد فتح دمشق كان للسلطان الملك الكامل البلاد التي كانت عينت للملك الناصر عوضا عن دمشق، فرضي السلطان بذلك وقدم الى دمشق، واتفق هو وأخوه الملك الأشرف على محاصرتها، وضايقوها مضايقة شديدة، وآخر الأمر أنهما تسلماها صلحاً في مستهل شعبان.

استيلاء السلطان الملك الأشرف على دمشق: ولما ملك السلطان الملك الكامل رحمه الله دمشق سلمها إلى أخيه السلطان الملك الأشرف، وأخذ منه عوضاً عنها من بلاد الشرق: حران ، والرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، وجملين، والموزر، وأبقى على ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم: الكرك، والبلقاء، ونابلس، والأغوار، وأعمال القدس، وبيت جبريل، والصلت.

وتسلم السلطان الكامل رحمه الله البلاد الساحلية جميعها: طبريه، وكوكب، والخليل، والشوبك، ثم برز السلطان الملك الكامل الى القابون، متوجهاً نحو البلاد الشرقية، فسار الى سلمية ونزل بها، وسيرَّ السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور خلَّد الله ملكه الى حماه في شعبان ليأخذها من أخيه الملك الناصر، فسار اليها ومعه خاله الملك

العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، والملك المجاهد صاحب حمص، فنازلها مستهل شهر رمضان، ونصبوا عليها المجانيق.

ولما كان اليوم السادس عشر من شهر رمضان، نزل الملك الناصر صاحب حماه بنفسه جريدة، ومضى إلى خاله السلطان الملك الكامل وهو بسلمية، وبذل له مالاً عينةُ ليبقي عليه حماه، فلم يجبه الى ذلك، فسأله أن لايعطي حماه لأخيه الملك المظفر بل يأخذها السلطان لنفسه، فأظهر له الإجابة الى ذلك، وبعث السلطان نوابه ليتسلموا البلد فامتنع النواب بحماه من ذلك، ونصبوا الملك المعزّ ابن الملك المنصور للسلطنة، وقالوا: لانسلّم البلد لغير أولاد الملك المنصور.

ولما رأى السلطان ذلك رحل الى الشرق واستصحب معه الملك الناصر قلج أرسلان تحت الحوطة مضيقاً عليه، إذْ ظنَّ السلطان أن امتناع النواب من التسليم بمواطأة منه، وأذن السلطان للملك المظفر في تسلم البلد إذ هو المعهود اليه بالسلطنة من أبيه، فراسل الملك المظفر النواب في ذلك، فأجابوه وسلموا البلد إليه، وكان أحق به من أخيه، وأولى إذ هو أكبر أولاد أبيه سناً وقدراً، ووصي أبيه بالملك دونهم.

وكان تسلمه لحماه لليلتين بقيتا من شهر رمضان، ثم توجه السلطان الملك الكامل رحمه الله الى الشرق، فرتَّبَ أمورها ثم عاد الى مصر.

ولما فتحت حماه رحل العسكر الذي كان مرتباً لحصارها الى بعلبك فنازلوها، وأقاموا على حصارها إلى أن تسلموها.

-١٠٠٤٤-

سنة سبع وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محاصر قلعة بعلبك، وكان قد استقر أن الملك الأشرف يأخذها لنفسه، وكنا قد ذكرنا مسير عسكر السلطان الملك الكامل إليها، ونزولهم عليها، وتسلمهم لها، ولم يبق إلا القلعةفنزل العسكر المصري إلى الديار المصرية، وتولى الملك الصالح محاصرة القلعة بمن معه من عساكر السلطان الملك الأشرف، ولم يزل مضايقاً للقلعة محاصراً لها إلى أن تسلمها صلحاً، وعوّض صاحبها الملك الأمجد بهرام شاه خيراً من عمل دمشق، وسلم إليه كل مافي القلعة وتسلم ذلك، ومضى الى دمشق، ودخل نواب السلطان الملك الأشرف الى القلعة واستولوا عليها.

منازلة خوارزم شاه أخلاط وأخذه لها

وفي هذه السنة نزل خوارزم شاه منكبرتي بن خوارزم شاه تكش على أخلاط، وحاصرها وضايقها مضايقة شديدة، وشتا عليها، وحديث ذلك أن خوارزم شاه بعد أن هزمته التتر، وكان من أمره ماقد ذكرناه في موضعه عاد الى بلاد العجم وجمع جمعاً عظيماً، وقوي أمره، وطمع في الاستيلاء على بلاد العراق، وقصدهُ سنة اثنتين وعشرين وستمئة قبل وفاة الإمام الناصر، ولما علم الخليفة به خاف منه فبعث أبقاراً كثيرة فحرثت المراعي التي في طريقه وقلبت الزراعات، ولما وصل خوارزم شاه الى أطراف العراق لم يجد مرعى، فتوجه الى دقوقا فنهب وسفك وأفسد، ثم مضى الى مرج شهرزور فصالحه الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ووصلت إليه كتب الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق يظهر فيها الميل إليه والانتهاء إلى طاعته، واستحثاثه على أخذ البلاد من الملك الأشرف.

وكان سبب ذلك ماكنا ذكرناه من الوحشة التي وقعت بينه وبين أخويه: الملك الأشرف والملك الكامل، فراسل خوارزم شاه الملك المعظم ومال إليه، وبعث إليه خلعة فلبسها وركب بها.

ولما توفي الملك المعظم، وجرى من تفاصيل الأمور ماذكرناه قصد خوارزم شاه أخلاط ونازلها، وكان نائب الملك الاشرف بها عز الدين أيبك مملوكه، وكان بها أيضاً أخو الملك الأشرف الملك المعز مجير الدين يعقوب، وتقي الدين عباس ابنا الملك العادل.

وطالت مدة الحصار بأخلاط وقلَّت بها الأقوات حتى أكل أهلها لحم الكلاب، وبلغ الرطل الشامي من الخبز بها ديناراً مصرياً، وكان بأخلاط

جماعة من اللاوية، فأخذوا سناجق خوارزم شاه ورفعوها على الأسوار على حين غفلة من أهلها، فخذل الناس عند رؤيتها وانهزموا يقتل بعضهم بعضاً، ودخل جلال الدين المدينة وملكها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، ثم حاصر القلعة حتى تسلمها بالأمان، واحتاط على أخوي السلطان الملك الأشرف، وعز الدين أيبك.

كسرة الخوارزمي جلال الدين

ولما طارت الأخبار الى السلطان الملك الأشرف باستيلاء خوارزم شاه على أخلاط، وتملكه لها، توجه الى بلاد الروم مستنصراً بصاحبها السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، فاجتمع به بإبلستين(٢٣)، ثم خرج هو والسلطان علاء الدين بجموعهما إلى آق شهر فنزلا بها.

وكان لعلاء الدين عشرة آلاف فارس في ارزنكان، فبعث إليهم يستدعيهم، فوقعوا على ألف فارس كان خوارزم شاه قد جهزهم للغارة وقاتلوهم، فقتل من عسكر الروم أربعة آلاف فارس، وامتلأت الأدوية والجبال منهم، ثم تقدم خوارزم شاه في عساكره ووقعت الحرب بين الفريقين في يوم الجمعة، واستمرت الحرب الى أن حجز بينهم الليل، وباتوا على تعبئتهم، والتقوا يوم السبت فأنزل الله تعالى نصره على السلطان علاء الدين صاحب الروم والملك الأشرف، وانهزم خوارزم شاه أقبح هزيمة وقتل من أصحابه مالايحصى كثرة وأسر مثلهم، وتوجه خوارزم شاه هزيماً إلى خوي، وبعث تقي الدين عباساً أخا السلطان الملك الأشرف الى الخليفة مقيداً هدية، فأكرمه الخليفة وخلع عليه، وبعث به إلى أخيه، ثم اطلق خوارزم شاه مجير الدين بعد ذلك، وأما عز الدين ايبك فقتله.

ثــم قصدت التتر بعـد هذه الكسرة جـلال الـدين طمعاً فيـه فكسروه، وقدم الى دياربكر هـارباً، وهم في إثره الى أن اغتاله بعـض الأكراد، وكان من أمره ماذكرناه، وكان مقتله في سنة ثمان وعشرين او تسع وعشرين.

سنة ثمان وعشرين وستمئة

في هذه السنة وثب على الملك الأمجد بهرام شاه بـن عز الدين فرخشاه ابن شـاهان شاه بـن أيوب صاحـب بعلبك، كـان بعض مماليكـه فقتله، وذلك في داره بدمشق، وكان عالماً فاضـلاً أديباً شاعراً، وله ديوان مشهور في أيدي الناس كثير.

سنة تسع وعشرين وستمئة

في هـذه السنـة خرج السلطـان الملـك الكـامـل رحمه الله من الـديـار المصرية متوجهاً الى الشرق لأخـذ آمد من صاحبها، فإنـه كان ظالماً سيء السيرة كثير العسف للـرعايـا، فوصـل اليها السلطـان رحمه الله، ونازلها في شهر ذي الحجة، وزحف اليهـا فأخذها في يوم واحد، ووقفـت على رسالة لبعض الفضلاء تتضمن كيفية أخذها فكتبت المقصود منها وهو:

«فان السلطان أعـز الله أنصاره لم يقصده إلا غضباً لله، لما انتهكـه من محارمه، وإقامة لمنار العدل الـذي شرع في هدم معالمه، وشفقة على خلق الله الذين بسط عليهم، منـذ وليهم، أيدي مظالمه، ولما أبى إلا التمادي في الطغيـان، والإيغال في مهـالـك العصيـان، وظنَّ ان الثلـوج تنجـده، وأن السلطان يفي له بوعده، وطال ماأخلف مـن يعدهُ، وأغر بأصحابه الذين

وقعوا معه بذنوبهم، أمر السلطان أعز الله أنصاره، أبطاله بالزحف فتقدمت وزحفت، وعساكره بالتحرك فتزلزلت الأرض لحركتهم، ورجفت، ودنا الجيش المنصور من السور فدنا وتدلى، ورأى الخصم عين القصم فعبس وتولى، وأطلق الجاليش عقائل التراكيش فكسفت السور وهتكت حجابه، وأماط الزراقون لثامه، وسفر النقابون نقابه، وأرسلت عليهم الحنايا رسل المنايا، وخرجت لهم خبايا البلايا من الزوايا، وأوردتهم الرماح السرع مسارع الحتوف، وتفرقت منهم الصفوف لما سلت عليهم السيوف، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة كل راية صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين».

سنة ثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان رحمه الله ببلاد الشرق، وقد استولى على آمد وبلادها، ومعه ملوك أهل بيته وهم: السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى، والملك الناصر داود، والملك المظفر تقي الدين صاحب حماه، والملك العزيز عثمان، وأخوه الملك الصالح اسماعيل، والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم، ثم توجه السلطان راجعاً الى الديار المصرية، ورجع كل ملك الى بلاده.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وذلك في شهر رمضان، وكان ملكاً شجاعاً كريماً كثير البر والاحسان والصدقات.

ولما توفي أقر السلطان بلاده على ولده الملك الظاهر نجم الدين أيوب، ثم توفي بعد والده بمدة يسيره، فعين السلطان الصبيبة (٢٤) قلعته لأخيه الملك السعيد بن الملك العزيز، وهي بيده الآن.

ـ ١٠٠٤٩ ـ

سنة إحدى وثلاثين وستمئة

في هـذه السنة خـرج السلطـان الملك الكـامـل قـدَّس الله روحه مـن الديـار المصرية، متوجهـا الى دمشق، فـوصلها واجتمعت إليـه بها الملوك والعساكـر، ثم بـرز منها طـالباً لبلاد الـروم لقتال السلطـان علاء الـدين والاستيلاء على بلاده.

وكان سبب ذلك تعدِّي علاء الـدين باستيلائه على أخلاط، وتملكه لها فعـزم السلطـان أولاً على دخـول بـلاده من جهـة الـذربنـدات، فقطـع بعضهـا ثم رأى أن في ذلـك خطـراً لاتؤمـن غـائلته، فـرجـع منها ونـزل بـالسويـداء، ونزل صـاحـب خـرتبرت الى خـدمته، وسـأله أن يُسيِّرَ معـه عسكراً إلى خـرتبرت ليمنعوا صـاحب الروم مـن أخذهـا، فسيَّر السلطان الملك المظفر صاحب حماه، وشمس الـدين صواب في جماعة من الأمراء، فدهمهـم عسكر علاء الـدين في عـالم لايحصى، فثبت لهم الملـك المظفر، وقاتـل قتالاً شديـداً غير أنه كان في قلـة من العـدد، وذلك بالقـرب من خرتبرت، فأسر أكثـر أصحابه وقتل منهم جماعة، وصعـد الملك المظفر في بقية مـن معه الى قلعة خرتبرت في حميـة، وحاصره سلطان الروم مـدة، ثم طلب الملك المظفر الأمان فأمنه وأصحابه، وتوجه راجعاً الى السلطان.

سنة اثنتين وثلاثين وستمئة

في هـذه السنـة رجـع السلطـان الملـك الكـامـل رحمه الله الى الـديـار المصرية، وذلك لأنـه دخل الشتاء، وحال الثلج بينـه وبين بلاد الروم وفي هذه السنـة جهز سلطـان الروم عسـاكره الى الشرق، فنـازلوا قلعـة الرهـا ونصبـوا عليها المجـانيق وضـايقوهـا مضـايقة شـديدة حتـى فتحوهـا، وأخذوا ماكـان بها للسلطان الكامل من الذخـائر والاموال، وسيروا ذلك

الى سلطـان الـروم، وفتحـوا أيضاً قلعـة حـران، وولـوا عليها وحفظـوهما بالرجال والعدد.

ولما بلغ السلطان ذلـك خرج من مصر في عساكـره، فقدم الى دمشق، ثم خرج منهـا هو وأخوه السلطان الملـك الأشرف رحمها الله متوجهين الى المشرق، ولما بلغ عسـاكر الروم قـدوم السلطان كروا راجعين الى بـلادهم، ومضى السلطان الى الشرق، ونازل قلعتي حران والرها.

سنة ثلاث وثلاثين وستمئة

في هذه السنة فتح السلطان رحمه الله قلعتي الرها، وحران، وقبض على من كـان بها من أصحاب سلطـان الروم، فبعـث بهم مقيدين الى الـديار المصرية، ثم رجع السلطان رحمه الله الى دمشق فأقام بها.

وفي هـذه السنة سير سلطـان الروم عسكـراً كثيفـاً إلى آمد فنـازلوهـا، وصاحبها مـولانا السلطان مالك الـرق الملك الصالح نجم الـدين أيوب ابـن السلطان الملـك الكامـل خلـد الله ملكه، فلـم يظفروا منهـا بشيء، وقاتلهم السلطان الملك الصالح، فأنكى فيهم نكاية عظيمة.

ولما بلغ ذلك السلطـان الكامل رحمه الله خرج من دمشـق في عساكره، ودخل الشتاء فرجعت عساكر الروم الى بلادهم.

سنة أربع وثلاثين وستمئة

في هذه السنـة رجع السلطان رحمه الله الى دمشـق، وكان قد بعُـدَ عنها

مقدار ثلاث مراحل، ثم خرج من دمشق متوجهاً الى الديار المصرية.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، وذلك لعشر مضين من ربيع الأول، فكانت مدة عمره ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وشهوراً.

سيرته: كان عادلاً كريماً حسن الاعتقاد، لين الجانب، كارها للظلم، متجنباً لسفك الدماء، مائلاً إلى الخير وأهله رحمه الله ورضي عنه.

ولما توفي أُجلس في الملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن ايل غازي بن يوسف بن أيوب، وقام بتدبير ملكه وحفظ دولته جدته خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة وقعت وحشة بين السلطانين: الملك الكامل والملك الأشرف رحمهما الله لأشياء باطنة كانت بينهما، لم تقع الاحاطة بتفصيلها، فأدى الأمر في ذلك إلى أن اتفق مع السلطان الملك الأشرف الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص واستمالا الملك الناصر داود صاحب الكرك فمال اليهما أولاً وكاتبهما، ثم فارقهما وتوجه الى السلطان الكامل فالتقاه وأكرمه.

واستمال السلطان الملك الأشرف الملك المظفر صاحب حماه، والحلبيين، وعلاء الدين صاحب الروم، والأمير عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد، فاتفق هؤلاء كلهم وتحالفوا، وتوجهت الى مصر رسل الملك الأشرف، والملك المجاهد، والملك المظفر، والحلبيين، فاجتمعوا بالسلطان الملك الكامل وأنهوا إليه رسالة مضمونها أنهم في خدمته،

وتحت طاعته مـا أقام بالديار المصرية، ولم يخرج الى الشـام لفتح شيء من البلاد.

ثم اتفقـت وفاة عـلاء الديـن سلطان الـروم في شهر شـوال من هـذه السنة، فقام بالملك بعده ولده السلطـان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ ابـن كيخسرو بن قلـج أرسلان بـن مسعـود بن قلـج أرسلان، فسير اليـه السلطان الملك الأشرف القـاضي شمس الدين الخوئي رسـولاً، وسير اليه الملـك المظفـر صـاحـب حماه أيضـاً رسـولاً، وكـذلـك الملـك المجـاهـد والحلبيون، وتوجه هؤلاء الرسل الى الروم جملة، ومضمون رسالتهم واحدة، وهي: التعزيـة بأبيه، والتهنئة بملكـه، وتجديد ماكان قـد تقرر بينهم وبين أبيه، مع الاتفاق عنهم، والحلف لهم.

وفي هذه السنة مـرض السلطان الملك الأشرف ولم يزل مرضـه في تَزَيُّد الى [أن] خرجت السنة.

سنة خمس وثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنـة والسلطان الملك الأشرف مريض مثقـل في مرضه، وقد عهد بالملك بعده إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل، واستحلف لـه الملك المجـاهد أسد الـدين صاحـب حمص، وعز الـدين ايبك المعظمـي، وكانا يـومئذ بدمشق واستحلـف له أيضاً الملـك المظفر صاحب حماه والحلبيين، ثـم كانت وفاة السلطـان الملك الأشرف رحمه الله مظفر الـدين أبي الفتـح موسى بـن السلطان الملـك العادل أبي بكـر بن أيوب، وذلـك بكرة يوم الخميـس لأربع خلون مـن المحرم، فكانـت مدة ملكه لـدمشق ثماني عشرة سنة وخمسة أشهـر وأربعة أيام، ومدة ملكـه من حين مات أبوه تسع عشرة سنة وشهوراً.

سيرته رحمه الله: كان رحمه الله جواداً مفرط السخاء غزير البذل، كثير الصدقات والبر والاحسان لاسيما في آخر عمره، فإنه أوقف بدمشق وقوفاً جليلة وأثر آثاراً حسنة، ولو لم يكن إلا الجامع الذي أسسه بالعقيبة لكان عظيماً قدره، نبيلاً أمره، فإنه رحمه الله عمد إلى خان يعرف بخان ابن الزنجاري تشرب فيه الخمور، وتؤجر فيه القيان، فهو من أشهر المواضع بالفسق والفساد وانتهاك الحرمات، فهدمه وصيرهُ جامعاً تقام فيه الصلوات في أوقاتها، ويواظب فيه بقراءة القرآن، وتقام فيه الجمعة، وصار يُعرف بجامع التوبة، ووقف أيضاً داراً لسماع الحديث النبوي، وأوقف عليها، وعلى جامعه وقوفاً عظيمة، الى غير ذلك من الآثار الحسنة.

ولما مرض مرض وفاته لم يزل ذاكراً الله تعالى بلسانه وقلبه، مستغفراً لما سلف من ذنبه، تائباً متضرعاً مكثراً من تلاوة القرآن الى أن توفاه الله الى رضوانه، ونقله الى ماأعده له من جنانه.

ولنشرع في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف معتمدين في ذلك على مانقلناه من رسالة ألفها الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي الحنفي، فإني لم أكن حاضراً بدمشق يومئذ.

لما توفي السلطان الملك الأشرف تقرر في الملك بعده أخوه الملك الصالح اسماعيل، وتواترت الأخبار بعزم السلطان الملك الكامل قدس الله روحه على التوجه من الديار المصرية الى الشام، فأخذ الملك الصالح في تحضير دمشق وتهيئة أسباب الحصار، وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص الى بلده، والتزم بإنفاذ الأموال والرجال، ونزل بدمشق ولده الملك المنصور ابراهيم، وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولاً من الملك الصالح الى الروم لطلب النجدة والمساعدة،

وتوجه عزالدين أيبك المعظمي إلى صرخد لتدبير أمورها ويعود.

وتزايدت الأخبار بوصول السلطان رحمه الله أن تحقق نزوله بعجلون، فجدَّ الملك الصالح في تحصين البلد وقطع الأخشاب وعمل الستائر.

وكان قد وصل من حلب ستة من أمرائها نجدة للملك الصالح، منهم الناصح الفارسي، وأما الملك المظفر صاحب حماه فإنه راسل السلطان الملك الكامل ورجع الى طاعته، ووردت إليه كتب السلطان بتطبيب قلبه ووعده فيها كل وعد جميل.

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لايبقى أحد من الأجناد بظاهر دمشق، وتقدم بأخذ دور كل من هو من أصحاب الملك الكامل، ودور جماعة أيتام وغيرهم، ونودي بأن لايبقى أحد بالعقيبة ولاقصر حجاج وتهددوهم بالنهب، فلقي الناس من ذلك شدة، ثم أمر الملك الصالح بأن يُعمل في كل مكان سد وأمامه خندق، واستخدم رجالة كثيرة، وفرَّق السلاح ورتب الأجناد والأمراء على الأسوار.

منازلة السلطان الملك الكامل دمشق وتملكه لها

ثم وصل السلطان رحمه الله الى دمشق ونازلها لعشر بقين من ربيع الأول، وعمل اليزك عند مسجد القدم، وشرعت اللاوية في النهب والخراب، ووصل عز الدين أيبك المعظمي من صرخد، ودخل البلد في تلك الأيام، وكان دخوله في يوم شديد على الناس، قال عفيف الدين المقدم ذكره: فلقد رأيته يوم دخوله من باب الفراديس وهو قائم حائر لايستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة وأقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها، ولايستطيع أصحابها منعهم من ذلك.

ودخل عـز الديـن وحده بعد الشـدة ولم يقدر الجمـدار الذي لـه من الدخول معه لفرط الزحمة، وضاقت لـذلك صدور الناس وأيقنوا بالحصار الشديـد، ولزّوا في الدخول إلى المدينـة وشرعوا في اخراب الخانات بظـاهر البلد.

وبقي الأمـر على ذلك أيامـاً، ثم ضرب البـوق وخرج العسكر فـالتقوا عند ميـدان الحصا وأخذ مـن كل واحد مـن الفريقين جماعة، وخـرج من الرجالة خلق، ثـم بعث الملك الصالح يستدعى الملك المجـاهد صاحب حمص فاعتـذر بأنـه خائف على بلاده مـن صاحـب حماه ولم يأت، وسيرّ مئتي رجـل نجدة فـأخذ بعضهم في البسـاتين، وسيروا الى الملك الكـامل فشنق منهـم في يوم واحـد نحواً من خمسين رجـلاً، ووصل بعضهـم وهـم مجروحـون، واستمر الخراب والقتـال بظاهـر دمشق مـن الدور والخانـات والجواسق والقنى، وقطع الأشجار، وصار كل مـن له غرض مع أحد وهو غائب، خرج الى داره فأخربها وربما حرقها.

ثم ضرب البوق وخـرجت المفاردة فالتقـوا عند الميدان من بعـد الظهر الى صلاة المغـرب، وأخذ مملـوكان من ممـاليك السلطـان وشيخ يقـال له الشخوصي، واصبـح الناس يخربـون وينهبون، ثـم ضرب البوق بعـد أيام وخرج جميـع العسكر الى قصر حجاج والتقـوا، فكانت الغلبـة للدمشقين وأخذوا مـن العسكر المصري خمسة عشر فارسـاً من جملتهـم سيف الـدين ابن الغـول، صورة أخـذهـم أنهم دخلوا خـاناً ليأخـذوا جمالاً كانـت فيه، فغُلـقَ عليهم البـاب وأخذوا وعُـرُّوا، وعُـرضوا على الملـك الصالـح، ولما عرضـوا عليه ابـن الغول كـان عريـاناً مكشـوف الرأس في أقبـح صورة، أنشد:

لاتـــزدرينـــي بـــأن تـــرى خلقـــي
فـــإنما الـــدُّرر داخـــل الصـــدف

فضحك منه الملك الصالح وأمر بحبسه، ثم أمر جماعة فضمنوه وأخرجه وأنعم عليه بعد ذلك بخلعه وعشرة دنانير وثلث، وأعجب شيء جرى لابن الغول هذا أنه لما أغلق عليه وعلى من معه الخان، كان معه كيس فيه دراهم فَحلَّهُ من وسطه ودفنهُ في الخان، فلما خرج من الحبس وضمنه الجماعة ذهب ونبشه وأخذه.

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الآخر ضرب البوق وقت صلاة المغرب الى الصبح، وفُتحت الأبواب، وخرج العسكر فالتقوا في الميدان الى ارتفاع النهار.

وفي ذلك اليوم قتل سيف الدين بن شجاع الدين جلدك من أمراء ديار مصر، وجاؤوا به الى القلعة وبه رمق يسير، فكلمه الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب، ومات في تلك الليلة فغسِّل وكُفِّن، ثم سُيِّر الى العسكر فدفن هناك رحمه الله، وأحرقت في ذلك اليوم مدرسة عز الدين أيبك الوَّراقه وتلك الأماكن كلها.

ولما كان مستهل جمادى الأولى ضرب البوق، وزحف الملك الناصر داود صاحب الكرك من العقيبة الى أن قارب باب الفراديس، وزحف الأمير ركن الدين اليحياوي من جهة باب توما، ووصلوا الى جسر الباب بحيث كان النشاب يقع في المدينة، وربما قتل بعض العامة في المدينة، ولم يشك أحد في أن المدينة تهجم.

واستمر القتال الى الليل، وفي وسط الليل بعث السلطان الكامل فرحل الملك الناصر من العقيبة، ولما أصبح الصباح خرج الملك الصالح بالحجارين والزَّارقين والحرافشة فحرقوا ونهبوا وخربوا وردموا: العقيبة، وقصر حجاج، والشاغور، وباب توما، وباب السلام، واضطرب الناس في

المدينة اضطراباً شديداً خوفاً من أخذها بالسيف، وكان أشد ماعلى الناس بدمشق الطحين فإن الانسان كان يشتري غرارة القمح بخمسة وعشرين درهما ويطحنها بثلاثين درهماً، فمنّ الله سبحانه بالرحمة ودخل محيي الدين بن الجوزي وكلم الملك الصالح في الصلح فأجاب الى ذلك، وعوَّضهُ عن السلطان رحمه الله بعلبك وأعمالها، مضافاً الى ماكان بيده من بصرى وأعمالها، وجمع الله الكلمة، وتم الصلح يوم الثلاثاء لتسع مضين من جمادى الأولى، ودخل السلطان رحمه الله الى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين منتصف جمادى الأولى، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً مارأى الراؤون مثله في عظمته وجلالته.

ثم تقدم السلطان الى عسكر حلب بأن لايقيموا بدمشق غير ثلاثة أيام، وعفا عمن خامر عليه، ودخل الى دمشق.

ولما ملك السلطان الكامل دمشق بعث الى الملك المظفر صاحب حماه منشوراً بسلمية، وكانت للملك المجاهد، وأمره بالتبريز إلى جهة حمص لتصل إليه العساكر ويجتمعوا على أخذها، فبرز إلى الرستن ونزل به وبعث نوابه الى سلمية فتسلموها، وأمر السلطان الملك الكامل عساكره بالنزول في ظاهر حماه، فنزلوا بالقابون، وبعث الملك المجاهد أهله الى دمشق يلتمس الصلح وبذل جملة عظيمة من المال فنزل أهله بالقصر، ولم يؤذن لهم في الدخول الى دمشق، وكان المتولي لأمرهم والساعي في الصلح بينهم الأمير سيف الدين بن قلج.

وجهز السلطان رحمه الله في تلك الأيام العساكر الى خدمة مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين خلَّد الله ملكه، نجدةً له على حرب التتر، وجعل المقدم عليهم الملك المظفر تقي الدين بن الملك الأمجد صاحب بعلبك وأخاه الملك السعيد.

-١٠٠٥٨-

وفاة السلطان الملك الكامل رحمه الله

واتفـق مـرض السلطان الملـك الكـامـل قدس الله روحـه، وتمادى بـه المرض واشتد إلى أن اختـار الله له ماعنـده، وقبضه إليـه، وتوفاه، وكـانت وفاتـه يوم الأربعـاء آخر النهـار، ودفن في غـده يوم الخميـس في الساعـة الثانية منـه، وذلك لتسع بقين من شهر رجب ولإحـدى عشرة ليلة مضت مـن آذار، ولست عشرة ليلـة مضـت مـن برمهـات، وكـانـت مدة ملكـه لـدمشق شهـريـن وإحدى عشرة ليلـة، ومدة ملكـه مـن حين توفي أبـوه عشرين سنة وشهـراً، وكان بين موته، ومـوت أخيه الملك الأشرف رحمهما الله ستـة أشهر وستة عشر يـومـاً، وكـانـت مـدة ملك الملـك الصـالـح اسماعيل من هـذه المدة أربعة أشهر وخمسة أيام، ومن العجـب أنه ملك دمشـق في هذه المدة أربعـة ملوك أولهم الملـك الأشرف، وآخـرهم الملـك الجواد بن مودود.

سيرته رحمه الله:

كـان السلطان الشهيـد الملك الكـامـل رحمه الله ملكاً عظيماً، حسـن التدبير جيد السياسة، فاضلاً عالماً محبـاً لأهل العلم مائلاً إليهـم، وكانت له هيبة عظيمة في قلوب أعدائه، وكانـت السبل في أيامه آمنة لكثرة قمعه المفسديـن، وردعه لهم ومعاقبتهـم بأشد العقوبـة بحيث كان المتـوجه إلى الـديـار المصريـة والخارج منهـا يمـر في تلـك الـرمـال المقفـرة والبراري الموحشـة مـع بعـدهـا عن العمارة مـن غير حـاجـة إلى أنيـس أو خفير، ويحمل معـه من الـذهب والفضـة ماأراد فـلايتعرض لـه أحد مـن قطاع الطـريق، ولايخاف إلا الله تعـالى، وليـس سبب ذلـك إلا حُسْـنُ سياسـة السلطان وجودة ضبطـه للأمور، وآتاه الله مـالم يؤت أحداً من ملـوك أهل زمانـه، وخافته ملـوك الأرض قاطبة، ثـم زال ذلك كأن لم يكـن فسبحان الباقي في ملكه الدائم في سلطانه.

ولـــو خَلّـــدَا الملـــك العقيـــم خُـــلاحـــلاً
حـــوى الملـك وانقـــادت الـى أمـــره الأمـــم
لَخَلَّـــدَ فينـــا الكـــامـــل الملـــك الـــذي
لـــه خضعـــت غُلْـــبُ الممالـــك والقمـــمْ
وحســـن قضـــاء الله مـــا عنـــه معْـــدلٌ
ولا مـــوجـــل ممـــا بـــه الله قـــدْ حكـــم
فمـــن بعـــده حـــار الـــدليـــل وأظلمـــت
مســـالـــك آمـــال العـــزائم والهمـــم
ونـــادى لســـان الحال جهـــراً وقـــد دجـــى
صبـــاح المعـــالي وانقضـــت دولـــة الكـــرم
فمـــن لبنـــي الآمـــال بعـــد محمـــد
فقلـــت لهم أيـــوب قـــالـــوا: نَعَـــمْ نَعَـــمْ
صـــدقـــت وأبـــدوا فـــرحـــةً ومسرَّةً
وعـــادوا الى مـــا عُـــوِّدُوهُ مـــن النِّعـــم
ومـــا كـــان إلا الشمـــس غـــابـــت وقـــد بـــدا
لنـــا بعـــدهُ بـــدرٌ جَـــلا الشـــكَّ والظلـــم
فَحُسْـــنٌ وحُـــزنٌ تـــرحـــةٌ قبـــل فـــرحـــة
بـــذا الملـــكُ البـــاقـــي وذاك الـــذي انصرم
فـــلا بَـــرَحَ البـــاقـــي سعيـــداً مُخَلَّـــداً
وجـــاء ثرى الماضي حَيَـــاهـــا طِـــلّ الـدِّيَـــمْ

فرحم الله السلطان الملك الكامل وقدس روحه، فلقد رزىء الاسلام بمماته، وفات الأمن بوفاته، وأبقى ولده مولانا السلطان العالم العادل مالك الرق الملك الصالح نجم الدنيا والدين، ما اختلف العصران، وتعاقب الجديدان، مظفراً على أعاديه، وأضداده، فائزاً بمنتهى أربه، وغاية مراده.

ذكر الحوادث الكائنة بعد السلطان الملك الكامل قدس الله روحه

ولما توفي السلطان الملك الكامل رحمه الله كان ولده مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفضل أيوب أعز الله أنصاره بالبلاد الشرقية، وهي البلاد التي كانت بيده في حياة والده، وكان ولده الملك العادل سيف الدين أبو بكر بالديار المصرية، وكان بدمشق ابنا أخيه الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل، والملك الناصر، فاجتمعت كلمة الأمراء على أن يقرر الملك الجواد بدمشق نائبا عن الملك العادل وقائماً مقامه بالبلاد الشامية، فدخل القلعة وأحضر الامراء واستحلفهم قاطبة للملك العادل، وبذل فيهم أموالاً كثيرة، وكان الملك الناصر بداره المعروفة بعز الدين سامة، فخرج منها إلى قصره بالقابون، فأقام به مديدة، ثم توجّه إلى بلاده، وسيّر الملك الجواد الحلقة وأكثر الأمراء إلى الديار المصرية، وترك بقية العسكر عنده مع عسكر دمشق.

واتفق أن الملك الناصر نزل الى البلاد الساحلية، ووضع يده على غلاتها وشحنها، وجمع العساكر واستخدم وانضمت إليه طائفة عظيمة من العربان واللاَّوية، وعزم على قصد دمشق وتملكها، ونزل بغزة.

ولما بلغ ذلك الجواد خرج من دمشق فيمن كان عنده من العساكر المصرية والدمشقية، وأمده الملك الصالح صاحب بعلبك بعسكر، ونزل إليه عز الدين أيبك بنفسه، ومضى الملك الجواد اليه الى عين جالوت فنزل بها، فقصده الملك الناصر في جمع قليل من أصحابه، وأكثر عسكره متفرقون في أخبازهم، فأوقع بهم عسكر دمشق على غرة قريباً من سبسطية في العشر الأوسط من ذي الحجة، فهزموهم وأخذوا جميع ماكان معهم من الأثقال والأموال.

ووصل الملك الجواد الى نابلس فنزل بها مخيماً وشحن عليها، ولم يزل مقيماً بها الى آخر السنة، وفارقته العساكر المصرية وتوجهوا الى الملك العادل.

وأما الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور صاحب حماه أبقاه الله فإنه بلغه وفاة خاله السلطان الملك الكامل قدس الله روحه، وهو مقيم بالرستن في مقابلة الملك المجاهد صاحب حمص، فرجع الى حماه وأقام بها العزاء بالجامع الأعلى، وظهر عليه من الحزن والأسف مايتجاوز الوصف والحدّ، إذ كان الملك المظفر للسلطان رحمه الله بمنزله الولد حنواً عليه واشفاقاً به ومحبة له.

ولما بلغ الملك المجاهد وفاة السلطان رحمه الله، بعث ولاته إلى سلمية فوضعوا أيديهم عليها، وشرع في الإغارة على بلد حماه واخراب ضياعها، واراد قطع النهر العاصي عنها فلم يتمكن إلا من قطع بعضه مدة ثلاثة أيام، ثم رجع قسراً بعد أن خرب لصاحب حمص مواضع كثيرة من أراضيه وضياعه.

ولما بلغ الحلبيين وفاة السلطان رحمه الله وصل عسكرهم الى المعرة، فاستولوا عليها، وأخذوا ماوجدوه بها من الحواصل، وإنما فعلوا ذلك لميل الملك المظفر عنهم الى السلطان رحمه الله، ونصرته له، وانتمائه اليه، ثم نازلوا قلعة المعرة وحاصروها حصاراً شديداً وضربوها بالمجانيق ثم فتحوها بالعشر الأخير من شهر شعبان بعد أن قتل من الحلبيين عليها جماعة كثيرة.

وقبيل فتحهم لها أوقع أصحاب الملك المظفر بجماعة من عسكرييهم المقيمين بشيزر بين شيزر وكفر طاب وقعة عظيمة، أخذ فيها منهم جماعة كبيرة أسرى، وأدخلوا إلى حماه في أقبح صورة، وقد أثخنت فيهم الجراحات، وانهزم الباقون الى شيزر، وقد كاد الرعب أن يقضي عليهم.

ولما دخل شهر رمضان اجتمعت العساكر الحلبيون كلهم بشيزر، وأخذوا في الإغارة على بلد حماه، وإخراب ضياعها ونهب زراعاتها، وفي كل مرة يقتل منهم الملك المظفر قتلاً عظيماً، ويهزمهم أقبح هزيمة، ثم يشن الغارات على بلادهم ورساتيقهم فينال منهم أضعاف مانالوا منه.

ولم يزل الأمر مستمراً على ذلك الى آخر شهر رمضان، ولما دخل شهر شوال جاء العسكر الحلبي الى حماه فنزلوا قريبا منها من جهة الشمال، واستمر القتال بينهم وبين الملك المظفر، وفي كل وقعة ينتصف منهم ويظهر عليهم هذا مع ضعف جنده، وقلة عددهم وقوة عدوه، وكثرة مددهم، ولو كان معه مثل ربعهم لم يثبتوا قط في مقابلته.

واستمرت الحرب والمقاتلة بين الفريقين الى آخر السنة، ثم رجعوا عنه الى بلادهم وقد يئسوا من بلوغ مرادهم وأما الجواد (٢٥)...لكائنة بالشرق في هذه السنة، فإن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قصد سنجار مريداً حصارها، وبها مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح خلد الله ملكه، فنازلها عسكر الموصل وزحف إليها.

وبينما هم في ذلك وقد حدثتهم أنفسهم بما لم يظفرهم القدر به إذ أتت إليهم عساكر مولانا السلطان المعروفون بالخوارزمية، وهم عالم لايحصى ولايعد ولايحصر ولايحد، فرحل عسكر الموصل خائبين وولوا على الأعقاب منهزمين، واستأذنت الخوارزمية مولانا السلطان في قصدهم ومقابلتهم ومفاجأتهم بالمحاربة ومناجزتهم، فأذن لهم فأوقعوا بهم وقعة طبق آفاق الدنيا ذكرها، وطاب خبرها للأسماع، كما راق الأخبار بصرها، فاستولوا على جميع ماكان معهم من الأثقال ونفائس الذخائر والأموال.

ثم جرت بين المواصلة وبين مولانا السلطان مراسلات آخرها أنهم انقادوا لأوامره ومراسمه تابعين، ودخلوا في الطاعة فظلت أعناقهم لها

خاضعين، وكانت هذه الوقعة من الوقائع الغريبة، بل من أقوى الدلائل على سعادات مولانا العجيبة، وكانت نفوس أوليائه أعز الله نصره متحققة من لطف الله أنه ولابد وأن سينصره، ومستشهدةً بما سلف لهم من معجزات سعده الباهر أنه على أعدائه انه سيظهره، لكنهم أحبوا تعجيله ليجتمع لهم مع رؤية القلب رؤية البصر فإن الاعتقاد وإن كان يقيناً، لكنه ليس كالنظر.

سنة ست وثلاثين وستمئة

في هذه السنة ورد الأمر من مصر الى الملك الجواد بالرحيل عن نابلس [فقام] بالرحيل عنها متوجها الى دمشق، ورجعت إلى نابلس ولاة صاحبها الملك الناصر داود، ووصل الملك الجواد الى دمشق في مستهل صفر.

كسرة الروم

وفي هذه السنة خرجت عساكر سلطان [الروم] في عالم عظيم مُدلين بزعمهم الإيقاع بالخوارزمية ليمنعوهم من إنجاد الملك المظفر صاحب حماه، فأوقعت بهم الخوارزمية وقعة عظيمة، أقرّ الله بها عيون أولياء مولانا السلطان بما منحه فيها من الظفر والفتح، وشرح قلوباً من أوليائه استعجم عليها الأمر، فاحتاجت إلى الشرح، وأوضح للراسخين في العلم بسعادة مولانا الفراسة ونسج آمال الأضداد فنسوها فاعجب لقلوب تنسيها الدراسة.

وفي هذه السنة قدم الأمير عماد الدين ابن شيخ الشيوخ من مصر

رسولاً الى الملك الجواد، فأنزل بالقلعة بدار المسرة، وكان مضمون رسالته فيما شاع على الألسنة طلب تسليم دمشق الى نواب الملك العادل على أن يعوض الملك الجواد خبزاً بمصر، وأن يخرج الملك المجاهد صاحب حمص من دمشق وكان بها، وأن يُطالبَ بحمل ماكانَ بذَلهُ للسلطان الملك الكامل قدس الله روحه، فلم تقع الإجابة إلى ماطلب.

وكاتب الملك الجواد ابن عمه مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح خلَّد الله ملكه، وسأله سرعة القدوم، فسار إليها خلَّد الله ملكه، والتقاه الملك المظفر صاحب حماه في عسكره، وسار في خدمته الى دمشق، وذلك في العُشر الأخير من جمادى الأولى.

وفي يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الأولى وثب على الأمير عماد الدين بن الشيخ ثلاث نَفَر، وقد خرج من دار المَسَرَّة يريد التنزه بظاهر البلد فقتله أحدهم غيلة، ثم قُبض عليهم بعد أن جُرح القاتل جراحة مثخنةً، واعتقلوا وذلك وقت العصر من اليوم المذكور.

وفي غُدوة هذا اليوم، توجه صاحب حمص الى بلده وكانت مدة مقامه بها قريباً من ستة أشهر، ولما كان يوم الجمعة لليلة بقيت من الشهر وهو السابع من كانون الثاني أقيمت الخطبة بدمشق لمولانا السلطان الملك الصالح مالك الرق خلد الله ملكه، ونثر نثاراً كثيراً، فتزينت بذكره المنابر وانجلت بملكه ظلمات الظلم، وشمس العدل تجلت.

استيلاء مولانا السلطان الملك الصالح العالم العادل مالك الرق خلَّد الله ملكه على دمشق

ولما كان يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة وصل السلطان الملك

الصالـح الى دمشق ودخلها في الساعـة الخامسة من النهـار في أكمل زي وترتيب، وزينت البلدة لقدومه بكل نفيس من الزينة وغريب، فالحمد لله على مامنَّ به من هذه الدولـة التي شيِّد بها منار الكرم والعدل ونفقت في زمنها بضائع الأدب والفضل.

وكان يوم دخـوله الى القلعة يوماً مشهـوداً، أقرَّ الأعين، وأبهجها وشرح الصدور وأثلجها، فيـالهُ من يوم ماكـان أحسن موقعه مـن قلوب الأولياء وأشدَّه إرغـاما لمعـاطس الأعـداء، فتشرفت بملكـه أعز الله نصره الممالـك وزاد بهاؤها وتشربت به السلطنة وأشرق ضياؤها.

ذكر بعض مناقب مولانا السلطان الملك الصالح خلد الله ملكه، وفضائله

إن الله تعالى وَلـهُ المنةُ، قـد جمع لمولانا السلطان الملـك الصالـح العالم العـادل نجم الـدنيـا والـدين أعـز الله أنصـاره، وضـاعف اقتـداره، مـن الصفات الجليلة، والأفعال الجميلة، وكـرم الاخلاق، وطيبة الأعراق، وفرط السخاء، والبـذل، وحسن السيـاسة والعـدل، وصحة الطـويَّة، وخـلاص النيـة، والشجاعـة التي تضرب بها الأمثـال، وتفـرقُ لها في حومـة الوغـى الأبطال، مافاق به سائر ملـوك العصر، بل جمع من سلف من الملوك على تقادم الدهر فهو أحق بقول السلامي:

يـزورنـا ئلـك العـافي وصـارمـك الـعـاصي فتحـويهما أيـد وأعنـاق

في كـل يـوم لبيـت المجـد منـك غنـىً وثـروة ولبيـت المال إمـلاق

كـم خُفـت مـن لجة للنقـع زاجـرة مـاءُ المنـون بها حـاشـاك دفـاق

في فتية من ليوث الحرب قد حفظت
بالمرهفات لهم في الروع أرماق،
من كل بعل حياة ولا يعاقدها
إلا على أنه في الحرب مطلاق
إمامُ كل خميس يوم كل وَغَى
كأنه في سطور الخيل إلحاق
رُم أين شئت من الدنيا تنلهُ فما
للبر عرض ولا للبحر أعماق
من شك أنك مخلوق لتملكه
كمثل من شك ان الله خلاق
فللسماء سماء من علاك وللآفـ
ـاق من ذكرك المحبوب آفاق

فأما الكرم فقد جدَّده بعد أن درس معناه واعتقد أنه لفظٌ لم يخرج الى الوجود قط معناه، فأفاض عليه الدَّعة منذ وليهم سيب نواله، وعمَّهمُ بمترادف برده وجزيل أفضاله، وأما الشجاعة فقد بلغ منها أعز الله نصرة غاية لايبلغُ قط مداها ولايدرك أبد الدهر منتهاها.

وأما العدل فقد أنسي به كسرى صاحب الايوان، وأما حسن السياسة فقد نسخ بها ماسطر في الكتب عن ملوك الزمان، فهو خلد الله ملكه إذا كان غيره من الملوك مستغرقاً في القيان والمعازف كان مشغولاً بالعلوم والمعارف، وإن أفنوا أوقاتهم بالخمر والقمر، أنهى أوقاته بالنهي والأمر.
مليكٌ إذا ألهى الملوك عن النهى
خمار وخمر هاجر الدلَّ والدُّنا
ولم تنسه الأوتار أوتار فتنة
إذا ما دعاه السيف لم يدعه المثنى
ولو جاد بالدنيا وعاد بضعفها
لظن من استصغارها أنه ضنا

-١٠٠٦٧-

ولا عيب في أنعامه غير أنه
إذا منَّ لم يتبع مواهبه منّا
ولا عيب في إقدامه غير أنه
لبوس إلى أعدائه الضرب والطعنا

ولو لم يكن من صفاته الحسنة الحميدة ومآثره الرضية السديدة إلا مواظبته على الصلوات المفترضات ومحافظته على آدابها في جميع الحالات، وتجنبه لارتكاب الفواحش المحرمات، وعفته التي توجب له عند خالقه تعالى أسنى الرتب وأرفع الدرجات، لكفى بذلك سؤددا، ونبلا وشرفاً وفضلاً، فلقد حدثني لخير واحد ممن أثق به أنه خلد الله ملكه ماترك صلاة مفترضة ولاأخرها عن وقتها، ولو كان في مجلس لهوه، ولاارتكب فاحشة مذ نشأ إلى يومنا هذا، فأوجب لي هذا والله لما سمعته طربا، وقضيت لما حكي لي عجبا، إذ لم أسمع بمثل ذلك عن ملك شاب من الملوك الماضين، ولاأحد من السلاطين المتقدمين، فلله هو ماأشرف هذه الحالة الرضية، وماأشد صفاء هذه النفس الزكية، واعلم إنَّا إن رمنا استقصاء مآثر مولانا السلطان خلد الله ملكه لكنا قد رمنا حصر مالانهاية لعدده ولامطمع في بلوغ غاية أمده، فليكن هذا آخر ما أردنا اثباته في هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم

وكان الفراغ من....

ـ١٠٠٦٨ـ

حواشي وفيات الأعيان

١ـ اي كيس للذهب او الفضة

٢ـ ديوان ابن عنين ـ ط. دار صادر بيروت ص ٣ ـ ٨

٣ ـ توفي أنر قبل استيلاء نور الدين على دمشق.

٤ـ ديوان البحتري ـ ط. دار صادر ـ بيروت ج ١ ص ٤٣٥

٥ـ اديم مقروظ : دبغ او صبغ بالقرظ، وهو ثمر السنطـ أو ورق السلم القاموس

٦ـ مشهورة قصة مؤامرة الخوارج لاغتيال كل من الامام علي كرم الله وجهه، ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص، وفي الموعد المحدد لاغتيال عمرو لم يخرج الى المسجد وناب عنه القاضي خارجه، فتعرض للاغتيال، وحين واجه الخارجي عمرو بن العاص، وعرف ما حدث قال : اردت عمراً ، واراد الله خارجة.

٧ ـ ليست في ديوانه المطبوع

٨ ـ ديوان سبط ابن التعاويذي ـ ط . دار صادر بيروت ص ٤٧١ ـ ٤٧٣

٩ــديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

١٠ــ ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٢ ـ ٢٣ .

١١ــ ديوان النابغة الذبياني ـ ط . دار صادر بيروت ص ١١ .

١٢ــديوان بهاء الدين زهير ـ ط . دار صادر بيروت ص ١٩٠ ,

١٣ــ ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٣ .

١٤ــديوان بشار بن برد ـ ط. بيروت ١٩٩٣ ص ٦١٢ .

١٥ــديوان المتنبي ـ ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢١٣ .

- ١٠٠٦٩ -

١٦ــــديوان ابن عبدون - ط . بيروت ١٩٨٨ ص ١٣٩ - ١٤٤ هذا وشرح قصيدة ابن عبدون أكثر من شارح، ولعل أهم الشروح وأوفاها، ماقام به ابن الأثير الحلبي، وحمل شرح ابن الأثير عنوان « عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار» وجرى تحقيق هذا الشرح في رسالة ماجستير قدمت باشرا في كلية الآداب في جامعة دمشق عام ١٩٩٢ .

حواشي تاريخ المنصوري

١—المرجح عدم التقاء ابن تومرت بالغزالي.

٢—تفاصيل ذلك لدى ابن القلانسي ص ٣٥١—٣٥١ .

٣—سونج بن بوري اعتقله زنكي ثم أطلقه مقابل تسليمه دبيس بن صدقة. ابن القلانسي ص٣٦٦—٣٦٧ .

٤—كذا وهو وهم، فنور الدين بدأ نشاطه بعد مقتل أبيه في العام التالي.

٥—كذا وهو وهم، حيث أسر سنجر من قبل كافر ترك سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م في خراسان، وبقي في الأسر ثلاث سنوات، هرب بعدها، ووصل إلى مرو حيث توفي بعد وقت قصير انظر زبدة التواريخ لأبي الحسن علي بن ناصر الحسني—ط لاهور ١٩٣٣ م ص٨٤—٩٦ .

٦—بويع المستنجد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

٧—أي التراب والغبار.

٨—بركة الجب خارج القاهرة في الجبهة البحرية منها.

٩— أي على ماردين لمتابعة حصارها.

١٠—حصنٌ منيع في اليمن هو ومدينة دملوه خرائب وأطلال. معجم المدن والقبائل اليمنية.ط.صنعاء, ١٩٨٥

١١—حب حصن من أمنع معاقل اليمن وأصعبها مرتقى. معجم المدن والقبائل.

١٢—مدينة تهامية كانت قائمة بالشرق من الزبيرية على شط ميزاب وادي سردد, وكانت تعد قديماً عاصمة تهامة الشمالية. معجم المدن والقبائل اليمانية.

١٣—بلدة وناحية دون زبيد. معجم البلدان.

١٤—كذا بالأصل، وفي معجم ياقوت«الجنابذ ناحية من نواحي نيسابور» ولعل الاسم تصحيف «الجنات»وهي بلدة في جبل الصلو شمال الدملوه. معجم المدن والقبائل اليمنية.

١٥—لم أقف على معنى هذه الكلمة، ولعلها بعض الأشياء المصنعة من الجلد.

١٦—باشزا بين جزيرة ابن عمر ونصيبين. معجم البلدان.

١٧— هي نيسابور الايرانية.

١٨—هي عند ياقوت «اندخوذ» بين بلخ ومرو.

١٩—السلامية أكبر قرى الموصل ينسب إليها أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن أحمد السلامي المعروف بضياء الدين ابن شيخ السلامية، ولد بها بسنة ٥٤٦ أو٥٤٥، ونشأ بالموصل وتفقه بها وحفظ القرآن، عمل وزيراً لصاحب آمد، وكان حيا سنة ٦٢١ . معجم البلدان.

٢٠—بلد بين الساحل وحمص. معجم البلدان.

٢١—كانت قلعة رباح من أعمال طليطلة. معجم البلدان.

٢٢—هي تستر، أكبر مدن خوزستان. معجم البلدان.

٢٣—هي في أطراف شمال الصين.

٢٤—عند النسوي في سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٩«الترجي» هو اسم قبيلة جنكيز خان، ويتضح من سياق رواية المؤلف بعض التداخل في الأسماء.

٢٥—الجتر كلمة فارسية تعني المظلة، وكانت تشبه القبة من الحرير الأصفر المزركش على رأسها طائر من الفضة طلي بالذهب، وهي شعار السلطنة. النسوي ص ٥٤ .

٢٦— فراغ بالأصل، استدرك من سياق ماتقدم من أخبار سنة سبع عشرة وستمائة.

٢٧—كذا بالأصل وهو تصحيف صوابه«الهنتاتي». انظر الحلل الموشية ص١٦٠ .

٢٨—البشنوني هو بيدرو الثاني ملك أراغون. والنبري هو سانجو السابع. وولد الرنك هو ألفونسو هينر بكيز ملك البرتغال، والبابوج هو ألفونسو التاسع ملك ليون.

٢٩—من أنواع الياقوت الفاخر.

٣٠—فخر الدين بن تيمية، له ترجمة في وفيات الأعيان لابن خلكان.

٣١—الأشكري هنا هو الامبراطور البيزنطي.

٣٢—قلعة شرقي حلب، وهي الكختا.

٣٣—من الملك المعظم والملك الأشرف.

٣٤—الامبراطور فردريك الثاني.

٣٥—كذا بالأصل وهو وهم لأن جلال الدين حسن توفي سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م وخلفه علاء الدين محمد[٦١٨—٦٥٣/ ١٢٢١—١٢٥٥].

٣٦— لعلها سكيا ناباذ التي ذكر النسوي في سيرة جلال الدين ص٢٦٠ وصول الحاجب علي إليها.

٣٧—من قلاع أرمينية. معجم البلدان.

٣٨—خوي من أعمال أذربيجان. معجم البلدان.

٣٩—وظيفته أمير جاندار تشبه وظيفة الحاجب فهو الذي كان يستأذن للأمراء بالدخول على السلطان.

٤٠—أرزنجان بلدة قريبة من خلاط. معجم البلدان.

٤١—هو يوهان دي أبلين.

٤٢—بلدة من أعمال خلاط.

٤٣—الدويدار هو حامل الدواة وحافظها لدى السلطان أو الخليفة أو الملك.

٤٤—حماسة أبي تمام.ط. القاهرة ١٣٢٩ ج١ ص١٠ .

٤٥— قلعة حصينة في أذربيجان.معجم البلدان.

٤٦—قلعة قطور قرب تبريز.

٤٧—رخت كلمة فارسية معناها المتاع.

٤٨—بلدة بالجزيرة. معجم البلدان.

٤٩—ديوان المتنبي.ط. بيروت ١٩٥٨ ص٣٣٣ .

٥٠—احدى قرى حلب. معجم البلدان.

٥١—أي الذي يضرب له الطبل، أي القيادة له.

٥٢—التلاكش فارسية معناها الجعاب.

٥٣—بلد من نواحي خلاط. معجم البلدان.

٥٤—هي عند النسوي في سيرة جلال الدين ص٢٧٥«نوشهر» أي المدينة الجديدة، والمقصود بها نيسابور.

٥٥—الدوشاخ قائد قطعة عسكرية.

٥٦—قلعة قرب آمد.

٥٧—طمس بالأصل والقراءة تقديرية.

٥٨—في هامش الأصل:«وكان الملك الكامل قد عزم على اخراب ا لحصون التي تسلمها لآمد، فخرب قلعة الجبابرة وأكل، فلما اتفق قضية كركر مع الرومي، رأى ترك الحصون إلى وقت آخر، وصوب الناس رأيه في ذلك. صح».

٥٩—بابلوا من القلاع التابعة لآمد.

حواشي التاريخ الصالحي

١ - كذا والمعروف ان الذي خلف رضوان هو ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس.

٢ - المرجح أن مسعودا كان قد توفي وأنهما ذهبا للسعي بتثبيت جاولي

٣ - بالأصل «حلب» وهو خطأ صوابه الذي أثبتناه.

٤ - المراد بمعين الدين هو «أنر» الذي دبر أمور دمشق، وليس هناك مايؤكد وجود أخوة بينه وبين مجير الدين.

٥ - هذا هو الصحيح، لأن ألب أرسلان، كان قد قتل إثر فتكه بجقر أيام زنكي.

٦ - كذا بالأصل، وهو رقم خيالي، ولعل العدد لم يتجاوز السبعة آلاف.

٧ - سورة النحل - الآية: ٩١.

٨ - في هامش الأصل: قال الناظر في هذا الكتاب كانت دولة خلفاء بني فاطمة بالمغرب ومصر مائتي سنة وست وستين سنة، بمصر مائتي سنة وثماني سنين.

٩ - في هامش الأصل: كذبت في لحيتك ياكافر يافاسق آل بيت الرسول زنادقة؟! لا والله مافعل خير في حق أهل البيت، ولكن الله هو الفاعل المختار، والله أعلم.

١٠ - الممدوح هو الخليفة المعز لدين الفاطمي، والمادح هو ابن هانيء الأندلسي. انظر ص١٤٦ من ديوانه - ط. دار صادر بيروت.

١١ - سورة النازعات - الآية: ٢٤.

١٢ -تبعد بقايا رقاد عن القيروان قرابة العشرة أميال.

١٣ - طمست جل مواد هذه الصفحة بالأصل المخطوط.

١٤ - ديوان سبط ابن التعاويذي ص٢٣٦ - ٢٣٩.

١٥ - أي تفرق الكلمة وذهاب العز. القاموس.

١٦ - سورة النمل - الآية: ٣٠.

١٧ - باشزى: بليدة من كورة بقعاء الموصل، قرب برقعيد، بين جزيرة ابن عمر ونصيبين. معجم البلدان.

١٨ - كانت بورة حصنا على ساحل البحر من عمل دمياط، اسمها الآن كفر البطيخ. معجم البلدان. القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي - ط. القاهرة ١٩٩٤ ج٢ ق٢ ص٧٨ - ٧٩.

١٩ - بليدة بمصر من جهة دمياط. معجم البلدان. رمزي ج٢ ق٢ ص٨٦.

٢٠ - كذا بالأصل، وفي مفرج الكروب ج٤ ص١٣٨ «قطنه» وفي كل من ذيل الروضتين ص١٣٣، ومرآة الزمان ج٢ ص٦٢٥ «ضميرة» وهذا أقرب إلى الصواب، وعندهما كان ذلك سنة ٦٢٠.

٢١ - سينيز: بلد على ساحل بحر فارس أقرب إلى البصرة من سيراف، وتقرب من جنابة. معجم البلدان.

٢٢ - في مرآة الزمان ج٢ ص٦٣٦: «أفضت الخلافة إليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهورا، فقيل ألا تفتتح [أي تتزوج]؟ فقال: قد فات الزرع، فقيل له: يبارك الله، فقال: من فتح دكانا بعد العصر [إيش يكسب»].

٢٣ - إبلستين: مدينة مشهورة ببلاد الروم (سلاجقة الروم) معجم البلدان.

٢٤ - هي قلعة بانياس الداخل، ويطلق عليها الآن اسم «قلعة النمرود»

٢٥ - سقط - كما يبدو - من الأصل مالايقل عن ورقة. انظر مفرج الكروب ج٥ ص١٧٤ - ١٨٧.

المحتوى

٢٩٦ـ	سنة ٤٩٤
٢٩٧ـ	سنة ٤٩٥
٢٩٧ـ	سنة ٤٩٦
٢٩٧ـ	سنة ٤٩٨
٢٩٧ـ	سنة ٤٩٩
٢٩٧ـ	سنة ٥٠٠
٢٩٧ـ	سنة ٥٠١
٢٩٨ـ	سنة ٥٠٢
٢٩٨ـ	سنة ٥٠٣
٢٩٨ـ	سنة ٥٠٤
٢٩٨ـ	سنة ٥٠٥
٢٩٨ـ	سنة ٥٠٦
٢٩٨ـ	سنة ٥٠٧
٢٩٩ـ	سنة ٥٠٨
٢٩٩ـ	سنة ٥٠٩
٢٩٩ـ	سنة ٥١٠
٢٩٩ـ	سنة ٥١١
٢٩٩ـ	سنة ٥١٢
٢٩٩ـ	سنة ٥١٣
٢٩٩ـ	سنة ٥١٤
٣٠٠ـ	سنة ٥١٥
٣٠٠ـ	سنة ٥١٦
٣٠٠ـ	سنة ٥١٧
٣٠٠ـ	سنة ٥١٨
٣٠١ـ	سنة ٥١٩
٣٠١ـ	سنة ٥٢٠
٣٠١ـ	سنة ٥٢١
٣٠١ـ	سنة ٥٢٢
٣٠١ـ	سنة ٥٢٣
٣٠٢ـ	سنة ٥٢٤
٣٠٢ـ	سنة ٥٢٥
٣٠٢ـ	سنة ٥٢٦
٣٠٢ـ	سنة ٥٢٧
٣٠٢ـ	سنة ٥٢٨
٣٠٢ـ	سنة ٥٢٩
٣٠٣ـ	سنة ٥٣٠
٣٠٣ـ	سنة ٥٣١
٣٠٣ـ	سنة ٥٣٢
٣٠٣ـ	سنة ٥٣٣
٣٠٤ـ	سنة ٥٣٤
٣٠٤ـ	سنة ٥٣٥

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن الثامن

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الثاني و العشرون

مؤرخو القرن الثامن

١ — أبو الفداء

٢ — نهاية الأرب

_ ١٠٠٨٨ _

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة في توطئة الجزء السالف الى حماه وظهور عدد من المؤرخين البارزين فيها كان من بينهم أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل

ابن علي بن محمود بن محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وولد أبو الفداء بدمشق سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م، وكان أهله قد جفلوا إليها قادمين من حماه خوفا من المغول، لكنه نشأ بحماه وفيها نال ثقافته وتدرج بالمناصب السياسية والعسكرية حتى وصل الى منصب سلطنة حماه وملكها سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م.

كانت علاقات أبي الفداء ممتازة بسلاطين المماليك بالقاهرة لاسيما مع الناصر محمد بن قلاوون ، وقد زار القاهرة أكثر من مرة، وشارك في عدد كبير من الحملات العسكرية، ولكن مصدر شهرته ليس هذا بل ما صنفه بالتاريخ والجغرافيا، وحمل مصنفه بالجغرافيا اسم « تقويم البلدان» وهو كتاب تام مكتمل يمتاز بالأصالة بالتوبيب والوضوح، ولاقى هذا الكتاب رواجا عظيما ، فترجم وطبع اكثر من مرة في أوروبا.

ويعد كتاب « المختصر في أخبار البشر» أهم ما كتبه ابو الفداء في ميدان التاريخ وكتب أبو الفداء هذا الكتاب كتذكرة لنفسه اختصر فيها بشكل اساسي ما اودعه ابن الأثير في كامله، ثم وصل أخباره حتى

عصره وطبعا هـذا أهم ما في الكتاب، ولاقى هذا الكتـاب رواجا وشهرة واسعة، وطبع أكثر من مرة ولا أعرف لـه طبعة علمية لائقة ، وعرفت من مخطوطاته مخطوطة البودليـان فقط ،وأتمنى أن تتاح لي الفرصة لتحقيق هذا الكتاب ونشره بشكل علمي لائق.

لقـد انتـزعت مـن كتـاب المختصر المـواد التـي تتعلق بـالحـروب الصليبيـة ، وهي بـالنسبـة لي الآن أهم مـا فـي الكتاب لاسيمـا أخبـار الحوادث التـي وقعت بعد وفـاةابن الأثيـر ، وجل هذه الحـوادث أسهم فيها أبـو الفداء فهو قـد شارك في تحريـر عكا من قبل الأشـرف خليل فضلا عن اسهامه في وقائع أخرى.

وكان من مزايا العصر المملوكـي الثقافي ظهور عدد كبير من الكتب الموسـوعية كان مـن أشهرها «نهـاية الأرب في علم الأدب» للنـويري ، والنويـري هو شهاب الـدين أحمد بن عبد الـوهاب بن محمـد بن عبد الدائم القرشـي التيمي البكري ، وشهر بالنـويري نسبة إلى نـويرة، وهي قـرية مـن قـرى بني سـويف في أرض الكنـانـة ، ولـد سنة ٦٧١ هــ/ ١٢٧٨م، وحسب بعض الروايات كـانت ولادته سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م ذلك أنه توفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م وهو من أبناء الخمسين.

نال النويـري ثقافة جيدة ، عمل في الوراقـة، بحيث كان ينسج بخط يـده الكتب ويبيعها ، حتـى أنه نسـخ صحيح البخـاري ثماني مـرات، وكان خطه من الجودة والضبط بمكان.

ويأتي النـويري على رأس الموسـوعيين العرب ،وذلكمن خلال كتابه العملاق «نهـاية الأرب فـي علم الأدب» وجاء هـذا الكتاب في ثـلاثين مجلدة، نشر في القاهرة جلها ومن المنتظر استكمال نشره.

وكـان قـد سلف لي منـذ عـام ١٩٦٧ الحصـول على مصـورة عـدة أجزاء مـن كتاب نهايـة الأرب منها مـا تعلق بأخبار الـدولة الفـاطمية ، ومنها ما ارتبط بتـاريخ السلاجقة والأيوبيين والمماليـك، وتقدم لي نشر بعض مواد النويري في كتابي « الجامع في أخبار القرامطة».

والمواد التـي أقدمت الآن على نشـرها في مـوسوعتنا سلـف ونشرت في ثنـايا مجلـدات نهايـة الأرب، وأعدت نشرهـا للافـادة من مـوادها ، ولازالة ماحوته المنشورات من تصحيفات لاسيما بالأسماء الشامية.

من اللـه تعـالى أرجـو التوفيـق والعون ولـه جل وعـلا عظيم الشكـر

والحمد ، والصـلاة والسلام علـى من لانبي بعده محمـد بن عبـد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ١٣ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ

٧/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

من كتاب المختصر في أخبار البشر لعماد الدين اسماعيل
ابي الفداء

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزيك

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل ابو الغارات طلائع ابن رزيك الأرمني ، وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ، ولم يمت في تلك الساعة بل حمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك، وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها، وسأل العاضد أن يولي ابنه رزيك الوزارة ، ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك في الوزارة

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك فولاه الصعيد، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ابنه العادل ان لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور. ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل وطرد وراء شاور وأمسكه وقتله، وهو العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، وانقرضت بقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة، وتلقب بأمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن الضرغام جمع جمعا، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور، فانهزم شاور إلى

الشام مستنجدا بنـور الدين، ولما تمكن الضرغام من الـوزارةقتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلـو له البـلاد، فضعفت الـدولة بهذا السبـب، حتى خرجت البلاد من أيديهم

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

وفي هذه السنة سير نور الـدين محمود بن زنكي عسكرا مقـدمهم أسد الدين شيركوه بـن شاذي الى الديار المصرية ومعهم شـاور، وكان قد سار من مصر هاربا مـن الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده، وبـذل لـه ثلث أمـوال مصر بعـد رزق جنـدها . إن أعـاده إلى الـوزارة، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر، فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاور إلى وزارة العاضـد العلوي، ثم غدر شاور بنور الديـن ولم يف له بشيء مما شرط، فسار شيركـوه واستولى على بلبيس والشرقية، فأرسـل شاور استنجد الافرنـج على إخراج أسد الديـن شيركوه مـن البلاد، فسـار الافـرنج واجتمـع معهـم شاوربعسكـر مصر، وحصروا شيركـوه ببلبيس، ودام الحصـار ثـلاثة أشهـر وبلـغ الأفرنـج حـركة نـور الديـن، وأخذه حارم، فـراسلوا شيركوه في الصلـح وفتحوا له فخـرج من بلبيس بمن معه من العسكر، وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين.

وفي هذه السنـة في رمضان فتح نـور الدين محمـود حارم وأخذهـا من الأفرنج بعد مصاف جرى بين نور الديـن والأفرنج انتصر فيه نور الدين، وقتل وأسر عـالما كثيرا، وكان من جملة الأسرى البرنـس صاحب انطـاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا .

وفي هذه السنة أيضا في ذي الحجة سار نـور الدين إلى بانياس وفتحها وكانت بيد الأفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة

وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الأفرنج

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

وفيها عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة، وأرسل شاور إلى الأفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا في إثر شيركوه الى جهة الصعيد، والتقوا على بلد يقال له البابين، فانهزم الأفرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر، فسار شيركوه إليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الاسكندرية ويعود إلى الشام، فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الأفرنج والمصريين على ان يكون للافرنج بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

وفي هذه السنة فتح نور الدين صافيتا والعريمة،وفيها عصى غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه عسكرا أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

.وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحبها وأحضروه إلى نور الدين، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل، فأرسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية، وكان رضيع نور الدين، وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء، وما زالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضا مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين وخمسمائة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الأفرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهرا في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها، وقتلوا أهلها وأسروهم ، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها ، فأحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الأفرنج وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما، فأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الأفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله، فرحلوا، وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه، وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي ألف

دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته. وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم)(البقرة ٢١٦)ولما قارب شيركوه مصر رحل الأفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم، فكان هذا لمصر فتحا جديدا ، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالقلعة العاضدية، وأجرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وايراد ثلث البلاد، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)(النساء ١٢٠)، ثم ان شاور عزم على ان يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعي، وساروا جميعا إلى شيركوه فوثب صلاح الد ين وجرديك على شاور وألقياه إلى الأرض عن فرسه، وأمسكاه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعلاه، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ذلك، وسمع العاضد الخبر فأرسل إلى شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور، فقتله وأرسل إلى العاضد، ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وكتب له منشورا، أوله بعد البسملة : «من عبد الله ووليه أبي محمد الإمام

العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله به الدين، وأمتع الله بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك.

إنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد وآله الطاهرين، والأئمة المهديين ويسلم تسليما»ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه، ووصايا أضربنا عنها للإختصار، وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور: « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بأن اعتزت خدمتك الى النبوة»

ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد الكاتب قصيدة أولها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المدى في العلا ما حزت بالخبب
ملكت من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت اسد الدين العزيمة من
فتح البلاد فبادر نحوها وثب

في شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

هـو الأسـد الضـاري الـذي جـل خطبـه
وشـاور كلـب للـرجـال عقـور
بغـى وطغـى حتـى لقـد قـال صحبـه
على مثلهـا كـان اللعين يـدور
فـلا رحـم الـرحمن تـربـة قبره .
ولازال فيـه منكـر ونكير

أما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر، فكان آخر العهد به .

ولما لم يبق لأسـد الدين شيركوه منـازع أتاه أجله (حتى اذا فـرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) (الأنعام ٤٤)وتـوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربـع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهـرين وخمسة أيام ، وكان شيركوه وأيوب ابنا شادي من بلد دوين .

قال ابن الأثير وأصلهما من الأكراد الروادية، فقصدا العراق، وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من شيركوه، فجعله بهروز مستحفظـا قلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة ، ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه، ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت، فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عمـاد الدين زنكي وأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جميلة ، ولما ملك قلعـة بعلبك جعل أيوب مستحفظا لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكي سلمها أيوب لهم على إقطاعـات كثيرة شرطـوها له، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق ، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والـرحبة لمـا رأى من شجاعته وزاده عليها، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخـاه أيوب، فساعـد أيوب نـور الديـن على

ملك دمشق، وبقيا مع نور الـدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرنا

ولما تـوفي شيركوه،وكان معه صـلاح الدين يوسف ابـن اخيه أيوب بـن شادي، وكان قـد سار معه على كره. قال صـلاح الدين أمرني نـور الدين بالمسير مع عمي شيركوه بحضرته : يـا يوسف تجهز للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملـك مصر ما سرت إليها، فلقد قـاسيت بالاسكندريـة ما لا أنساه أبـدا، فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معـي، فأمرني نور الـدين وأنا أستقيـل، فقال نـور الديـن لابد مـن مسيرك مع عمـك ، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنما أساق إلى الموت.

ولما مـات شيركوه طلـب جماعة مـن مـن الأمراء النـورية التقـدم على العسكر، وولاية الـوزاره العاضدية، منهـم : عين الدولة الياروقـي، وقطب الديـن ينال المنبجـي، وسيف الـدين علي بـن أحمد المشطوب الهكـاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صـلاح الدين، فأرسل العاضد أحضر صـلاح الـدين وولاه الـوزارة، ولقبـه بـالملـك الناصر، فلـم يطعـه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الـدين الفقيه عيسى الهكاري، فسعى إلى المشطوب حتـى أماله إلى صـلاح الديـن ، ثم قصد الحارمـي، وقال: هـذا ابن اختـك، وعزه وملكـه لك فمال إليـه أيضـا، ثم فعـل بالبـاقين كذلـك، فكلهم أطاع غير عين الـدولة الياروقي فـإنه قال: أنـا لا أخدم يوسف، وعـاد إلى نور الدين بالشـام، وثبتت قدم صلاح الـدين على انه نـائب نـور الديـن، وكـان نـور الديـن يكـاتـب صـلاح الديـن بـالأمير الأسفهسـلار، ويكتب عـلامتـه على رأس الكتـاب تعظيما عن أن يكتـب اسمه، وكـان لا يفرده بكتاب بـل يكتب إلى الأمير صـلاح الدين وكـافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا .

ثـم أرسل صـلاح الديـن يطلـب من نـور الـدين أبـاه أيوب وأهلـه،

فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر،

ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله، فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، وتمكن من البلاد، وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى.

قال ابن الأثير مؤلف كتاب الكامل : رأيت كثيرا ممن ابتدأ الملك ينتقل إلى غير عقبة ، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس، فانتقل الملك إلى عقب أخيه المنصور، ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن أحمد، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبة، ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الى عقب أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغريل السلجوقي فانتقل ملكه إلى عقب أخيه ، ثم شيركوه ملك فانتقل الملك إلى ابن أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب، وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولا، وأخذ الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبة ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان، فاجتمعت السودان، فهم حفاظ القصر، في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين، انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلا وتهجيجا، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

فيهـا سارت الأفـرنـج إلى دمياط وحصروهـا وشحنهـا صـلاح الديـن بالـرجال والسلاح والذخـائر وأخرج على ذلك أموالا عظيمـة، فحصروها خمسين يوما، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها. قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العـاضد، أرسـل إلي مـدة إقامـة الأفـرنج على دميـاط ألـف ألف دينـار مصرية، سوى الثياب وغيرها .

وفيها سـار نور الدين وحـاصر الكرك مرة ثـم رحل عنه. وفيها كـانت زلزلـة عظيمة خـربت الشام ، فقـام نور الـدين في عمارة الأسـوار وحفظ البلاد أتـم قيام، وكذلـك خربت بلاد الافـرنج، فخافـوا من نور الـدين، واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خربت من بلادهم

وفيها في ذي الحجـة مات قطـب الديـن مودود بـن زنكي بـن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضـه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عـن ابنه الأكبر عماد الـدين زنكـي بن مـودود إلى أخيه الـذي هو أصغر منه، وهو سيـف الدين غازي بن مودود، فسـار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الـدين مستنصرا به، وتوفي قطـب الدين وعمره أربعـون سنة تقريبـا، وكانـت مدة ملكـه إحدى وعشريـن سنة وخمسـة أشهر ونصفـا، وكان من أحسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين

سار نور الديـن محمود بن زنكي إلى الموصل وهي بيـد أخيه غازي بن مـودود بن عماد الـديـن زنكي بـن آقسنقـر، فـاستولى عليهـا نـور الديـن وملكها، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها، وأطلق المكوس منها، ثم وهبها لابن أخيـه سيف الدين غـازي، وأعطى سنجار لعماد الديـن وهو

أكبر من أخيه، فقال كمال الدين الشهرزوري: هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء.

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من مصر فغزا بلاد الأفرنج قرب عسقلان والرملة، وعاد إلى مصر، ثم خرج إلى إيلة وحصرها، وهي للأفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها، وعاد إلى مصر .

ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وكذلك دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين، وكانوا شيعة ورتب قضاة شافعية، وذلك في العشرين من جمادى الآخرة، وكذلك اشترى تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين منازل العز، وبناها مدرسة للشافعية

ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أنه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي وكان خصيا أبيض، وبلغ نور الدين ذلك أرسل إلى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم

يلتفت نـور الديـن إلى ذلك، وأصر عليه وكـان العاضد قـد مرض فـأمر صـلاح الديـن الخطباء أن يخطبـوا للمستضيء، ويقطعوا خطبـة العاضـد فامتثلوا ذلك، ولم ينتطـح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتـد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، وتـوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته

ولما تـوفي العـاضد جلـس صـلاح الـدين للعـزاء، واستـولى على قصر الخلافة وعلى جميـع ما فيه، وكـانت كثرتـه تخرج عن الاحصاء، وكـان فيه أشياء نفيسـة من الأعـلاق الثمينة والكتـب والتحف، فمـن ذلك الجبـل الياقوت، وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا

قال ابن الأثير مـؤلف الكامل : أنـا رأيته ووزنته، ومما خكـي أنه كان بالقصر طبـل للقولنـج إذا ضرب الانسان بـه ضرط فكسر، ولم يعلموا بـه إلا بعد ذلـك،ونقل صـلاح الدين أهـل العاضـد إلى موضـع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم وأخـرج جميع من فيه من عبد وأمـة فباع البعض، وأعتق البعـض، وذهب البعض، وخلا القصر مـن سكانه، وكـأن لم يغن بالأمس.

ولما إشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الـدين يستدعيه، فظن ذلك خديعـة ولم يمض إليه، فلما تـوفي علم صدقـه فندم لتخلفه عنـه، وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة: المهدي، والقائم ،والمنصور،والمعز، والعـزيـز، والحاكـم، والظـاهـر، والمستنصر، والمستعلي، والآمـر، والحافـظ، والظافر، والفـائز، والعاضد، وجميع مـدة خلافتهم من حين ظهـر المهدي بسلجماسة في ذي الحجة سنـة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العـاضد في هذه السنـة أعني سنـة سبع وستين وخمسمائة مـائتان واثنتـان وسبعون سنة تقـريبا، وهذا دأب الدنيـا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت. ولم تصف إلا وتكدرت. بل صفوها لم يخل من الكدر .

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم إلى نور الدين وصلاح الدين والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد المذكور قد رأى في منامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد، ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوبا واستدعى من يعبر الرؤيا وقص ما رآه عليه، فعبر له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد الى والي مصر باحضار من بذلك المسجد، فأحضر إليه شخصا صوفيا يقال له نجم الدين الخبوشاني، فاستخبره العاضد عن مقدمه، وسبب مقامه بالمسجد المذكور، فخبره بالصحيح في ذلك، ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه، فوصله بمال وقال له: ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا وصرح في خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في ذلك ، فصحت بذلك رؤيا العاضد .

وفي هذه السنة جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في الباطن: كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك، وهي للأفرنج ثم رحل عنها خوفا أن يأخذه فلا يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك وبلغ نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نور الدين يقصدنا فما الرأي ؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب، فأنكر على تقي الدين ذلك، وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل اكتب وقل لنور الدين إنه لو جاءني من عندك انسان واحد، وربط المنديل في عنقي وجرني إليك سارعت إلى ذلك، وانفضوا

على ذلك ، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة، وقال له: لوقصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله،، ولكن إن أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

وفي هذه السنة سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى إفريقية، ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة، ثم فتحها واستولى عليها، وملك كثيرا من بلاد إفريقية.

وفيها سار نور الدين إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، واستولى على مرعش وبهسنا ومرزبان وسيواس فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لا أرضى إلا بأن ترد ملطية على ذي النون بن الداشمند، وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس، فاصطلح معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرد ابن الداشمند

وفيها سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم، وهو بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين، فرحل عن الكرك عائدا إلى مصر، وأرسل تحفا إلى نور الدين واعتذر بأن أباه أيوب مريض وخشي أن يموت، فتذهب مصر، فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود.

ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه أيوب قد مات، وكان

سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور، أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل إلى قصره، وبقي أياما ، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجةمن هذه السنة، وكان عاقلا حسن السيرة

ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها، ثم سيره في هذه السنةبعسكر إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينذاك انسانا يسمى عبد النبي، المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه، وهزم عبد النبي، وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال توران شاه ، فهجم عدن وملكها وأسر ناشر أيضا ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن.

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخر هم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي العويرس. وداعي الدعاة. وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه، وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله

قصيدة منها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
جدعت مارنك الأقنى فانفك لا
ينفك ما بون أهل الشين والخجل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الشام، وديار الجزيرة، وغير ذلك يوم الأربعاء، حادي عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة،وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الأفرنج، ويسير هو بنفسه إلى مصر، فأتاه أمر الله الذي لامرد له، وكان نور الدين أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه حسن الصورة، وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق ذكره الأرض وحسن سيرته وعدله، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي كثيرا من الليل فكان كما قيل:
جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام، منها: دمشق، وحمص،وحماة،وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلزال، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده، وعمره احدى عشرة سنة، وحلف له العسكر بدمشق، وأقام بها، وأطاعه صلاح الدين بمصر،وخطب له بها، وضربت السكة باسمه، وكان المتولي لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد، المعروف بابن المقدم.

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح، سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وملك جميع البلاد الجزرية.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد، يقال له الكنز، جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إليه عسكرا فاقتتلواوقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون.

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين بن أيوب: دمشق، وحمص، وحماة،وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته، وهو رئيس حلب،واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا صلاح الدين، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في

سبعمائة فارس، ولم يلبث أن وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله، فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال.

ولما ثبت قدمه، وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة، وقلعة بارين، وسلمية وتل خالد، والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين ابن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فلأن قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين فإن قلعتها كانت له أيضا، ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض إلا حفظ الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة، فاستحلفه جرديك على ذلك، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح، فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب إلى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الأفرنج على حمص، ونزل صلاح الدين على حماة ثامن رجب وسار

إلى حمص، فرحـل الأفرنج عنهـا، ووصل صلاح الـدين إلى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشريـن من شعبان من هذه السنـة، ثم سار إلى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الـدين غازي صاحـب الموصل يستنجده على صلاح الـدين، فجهز جيشه صحبة أخيـه عز الدين مسعود بن مـودود بن زنكي، وجعل مقدم الجيـش أكبر أمرائه وهو عز الـدين محمود ولقبه سلفنـدار، وطلب أخـاه الأكبر عماد الـدين زنكـي بـن مـودود صاحـب سنجـار ليسير في النجدة أيضا، فامتنـع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيـف الدين غازي وحصره بسنجـار، ووصـل عسكـر الموصـل صحبـة مسعـود بـن مـودود وسلفنـدار إلى حلـب، وانضـم إليهم عسكـر حلـب، وسـار إلى صـلاح الـدين، فـأرسل صـلاح الديـن يبذل حمص وحماة وأن يقـر بيده دمشـق، ويكون فيها نـائبا للملك الصالـح، فلم يجيبوا إلى ذلك وسـاروا إلى قتاله واقتتلواعند قـرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب، وغنم صـلاح الدين وعسكره أمـوالهم، وتبعهم صلاح الديـن حتى حصرهم في حلـب، وقطع حينئذ خطبـة الملك الصـالح بـن نور الـدين، وأزال اسمـه عن السكـة، واستبد بالسلطنـة، فراسلوا صلاح الـدين في الصلح على أن يكون لـه ما بيده من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده منهم فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من هذه السنة.

وفي العشر الأخير من شوال ملـك السلطان صلاح الدين قلعـة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية.

- ١٠١١٢ -

ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة

وفيها عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان، فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين . وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوبا، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع، فثبته وزيره، وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم، وغنم ما فيها، وسار الى بزاعه وحصرها وتسلمها، ثم سار الى منبج فحصرها في آخر شوال، وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة، وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه، فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى عزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب الإسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه،فأمسك صلاح الدين الإسماعيلي، وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضا، ونجا السلطان الى خيمته مذعورا وعرض جنده وأبعد من أنكره منهم، ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح، وانقضت هذه السنة، وهو محاصر لحلب، فسألوه في الصلح فأجابهم إليه، وأخرجوا إليه بنتا صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيئا كثيرا وقال لها :ما ترومين؟ فقالت : اريد قلعة عزاز، وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان

إليهم، واستقر الصلـح، ورحل السلطان من حلـب في العشرين من محرم سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة احدى وسبعين في رمضـان قدم شمس الدولة تـوران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

وفيها قصد السلطـان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف، فـأرسل مقدم الاسماعيلية إلى خال صـلاح الدين وهو شهـاب الدين الحارمي صـاحب حماة يسألـه أن يسعى في الصلـح فسأله الحارمـي الصفح عنهـم فأجـابه صلاح الـدين إلى ذلـك وصالحهـم ورحل عنهـم، وأتم السلطـان صلاح الديـن مسيره ووصل الى مصر فإنه كـان بعد عهده بها بعد أن استقـر له ملـك الشام، ولما وصـل إلى مصر في هذه السنـة أمر ببنـاء السور الـدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم،

ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بـالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

وفي هذه السنـة أمر صـلاح الدين ببنـاء المدرسة التـي على قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة بمصر، وعمل بالقاهرة مارستان.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

وفي جمادى الأولى منهـا سـار السلطـان من مصر إلى السـاحـل لغـزو الأفرنج، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره في الإغـارات، وبقي السلطـان في بعض العسكـر فلم يشعـر إلا بالأفـرنج قـد طلعت عليه، فقـاتلهم أشـد قتال، وكان لتقـي الديـن بن شاهنشـاه ولد اسمـه أحمد من أحسـن الشباب، أول مـا تكاملـت لحيته،

فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثرا كبيرا، وعاد سالما، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الأفرنج السلطان فمضى منهزما إلى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشا شديدا، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الأفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى، وأسر الفقيه عيسى وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال الشيخ عز الدين علي بن الأثير، مؤلف الكامل: رأيت كتابا بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق، يذكر له الوقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه: « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى»

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الأولى، وطمع الأفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الأفرنج، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر، وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك في اللذات، مائلا إلى الراحات، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض، واشتد حصار الأفرنج لحماة، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الأفرنج إلى ظاهر السور، وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام.

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين، وكان قد تغلب على الأمر، وكانت حارم لكمشتكين، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه، فأمر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه، فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه، فمات من العذاب، وأصر أصحابه على الامتناع، ووصل الأفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصرواحارم مدة أربعة أشهر، فأرسل الملك الصالح مالا للأفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وقد بلغ أهلها الجهد، وبعد أن رحل الأفرنج عنها أرسل الملك الصالح إليها واستناب بقلعة حارم مملوكا لأبيه اسمه سرخك .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك، وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فأرسل السلطان وحصره ببعلبك، وطال حصارها، فأجاب ابن المقدم الى تسليمها على عوض، فعوض عنها وتسلمها السلطان وأقطعها أخاه

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء شديد، وفيها سير السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر إلى حماة، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص، وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل منهما ببلده.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها سار السلطان وفتح حصنا كان بناه الأفرنج عند مخاضة الأحزان

بـالقرب مـن بانيـاس عند بيـت يعقـوب، وفيها كـان حرب بين عسكـر السلطان ومقدمهم تقـي الدين عمر بن شاهنشـاه بن أيوب وبين عسكر قليج أرسـلان صاحب الـروم، وسببها أن حصـن رعبان كان بيـد شمس الدين ابن المقـدم، فطمع فيه قليج وأرسل إليه عسكـرا ليحصروه، وكانوا قريـب عشرين ألفـا وسار إليهـم تقي الـدين في ألـف فارس فهـزمهم، وكان تقي الدين يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفا

ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

في هـذه السنة ثـاني ذي القعدة تـوفي المستضيء بـأمر اللـه أبو محمـد الحسـن، وأمه أم ولـد أرمينية، وكـانـت خلافتـه تسع سنين وسبعـة عشر يوما، وكـان حسن السيرة، وكان قد حكـم في دولته ظهير الدين أبـو بكر منصـور المعـروف بابـن العطـار، بعـد عضـد الـدين الـوزيـر، فلما مـات المستضيء قام ظهير الديـن ابن العطار، وأخذ البيعة لولـده الإمام الناصر لـدين اللـه، ولما استقرت البيعـة للإمـام الناصر حكـم استاذ الـدار مجد الدين أبو الفضل، وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار، ونقل إلى التاج، وأخـرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء ثـاني عشر ذي القعدة ، فثـارت بـه العـامـة وألقوه مـن على رأس الحمال وشـدوا في ذكـره حبلا وسحبـوه في البلد، وكـانوا يضعـون في يده مغـرفة، يعنـي أنها قلم، وقـد غمست تلك المغـرفة في العذرة، ويقولون: وقـع لنا يا مولانـا،هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفي هـذه السنـة في ذي القعدة نـزل تـوران شـاه أخو السلطـان عـن بعلبك، فطلب عـوضها الإسكندرية، فـأجابه السلطان إلى ذلـك، وأقطع بعلبك لعـز الدين فرخشـاه بن شاهنشاه بـن أيوب، فسار إليها فـرخشاه وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات

-١٠١١٧-

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

وفي هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية، وكان مرضه السل وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفا شديد الغيرة، لايدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغارا، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفا عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز.

وفي هذه السنة سار السلطان إلى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقها .

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفا، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندرية، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مئتي ألف دينار مصرية، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل مصر في هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

-١٠١١٨-

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للإستيلاء على تلك النواحي الشرقية، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز إليه عسكرا مع جماعة من أمرائه فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه، وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان، وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر.

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر فمات ولم يستعمله، وكان حليما عفيف اليد والفرج واللسان، ملازما لأمور الدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب واستقر في ملكها، ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار، فأشار قيماز بذلك

فلم يمكن مسعود إلا موافقته فأجاب إلى ذلك؛ فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتكدر المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الأفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة، ولما سار صلاح الدين إلى الشام اجتمعت الأفرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه نائب السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه وأغار على ما يجاوره من بلاد الأفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك

ذكر إرسال سيف الاسلام إلى اليمن

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز

الدين عثمان الزنجيلي قد عادا إلى ولايتها فإن الأمير الذي كان سيره السلطان نائبا إلى اليمن تولى وعزلهما، فعادت بين حطان وعثمان الفتن قائمة، فوصل سيف الإسلام إلى زبيد فتحصن حطان في بعض القلاع فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن حطان طلب دستورا إلى الشام فلم يجبه إلا بعد جهد، فجهز حطان أثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع أثقاله، وأخذ جميع أمواله، وكان من جملة ما أخذ سيف الإسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا، ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن فكان آخر العهد به، فأما عثمان الزنجيلي فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام، وسير أمواله في البحر فصادفهم مركب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل مالعثمان، وصفت بلاد اليمن لسيف الإسلام.

- ١٠١٢١ -

ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الأول ونزل قريب طبرية، وشن الغارات على بلاد الأفرنج مثل بانياس وجينين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها،ثم عاد إلى دمشق، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان ملوك تلك الأطراف واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه، ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذ صاحبها قطب الدين ينال بن حسان، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسياء وماكسين وعربان والخابور واستولى على خابور جميعة، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة، ثم أقطع نصيبين أميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين، وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح، فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقا فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذاة باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى القتال بينهم، وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجاء السمين

- ١٠١٢٢ -

ذكر غير من الحوادث

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين في تلك النواحي فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان، فعمر أسطولا في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفرا شجاعا، فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى، فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعا كريما فاضلا وله شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور،

وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي، ولد سنة خمس وخمسمائة، وهو الملقب قطب الدين، وكان إماما فاضلا في العلوم الدينية، قدم إلى دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين، وكان السلطان يقرئها أولاده الصغار.

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

وفيها ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من محرم، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داوود بن سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عينتاب إلى اسماعيل المذكور فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان، ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي، وطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب عليه ، وقد ضجر من ذلك، وكره حلب لذلك، فأجاب السلطان إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر من هذه السنة، فكان ينادي أهل حلب على عماد الدين المذكور:« يا حمار، بعت حلب بسنجار.» واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه، ولا يحتج بحجة عن ذلك، ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي، قاضي دمشق، مدح السلطان بقصيدة منها:

[illegible]كم حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري بن أيوب أخو

السلطـان الأصغر وكـان كريما شجـاعـا طعن في ركبتـه فانفلقـت. فمات منها.

ولما استقر الصلـح عمل عماد الـدين زنكـي دعوة للسلطـان واحتفل، فبينما هم في سرورهـم إذ جاءهـم إنسان فـأسر إلى السلطان بمـوت أخيه بوري فـوجد عليه في قلبه وجـدا عظيما وأمر بتجهيزه، ولم يعلـم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن كان في الدعـوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكـان يقول السلطان: ما وقعـت علينا حلب رخيصة بمـوت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم.

ولما ملـك السلطـان حلـب أرسل إلى حـارم وبها سرخـك الـذي ولاه الملك الصالح في تسليم حارم، وجـرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حـال وكاتـب سرخك الأفـرنج، فـوثب عليـه أهل القلعـة وقبضوا عليـه وسلموا حـارم الى السلطان، فتسلمهـا وقرر أمر حلـب وبلادهـا، وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان بن جندر

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة قبض عـز الدين بن مسعود صاحـب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز.

ولما فرغ السلطان من تقـرير أمر حلب جعل فيها ولـده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشـق وتجهز منها للغزو فعبر نهر الأردن تـاسع جمادى الآخرة فـأغار على بيسان وحـرقها وشن الغـارات على تلك النواحـي، ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل إلى نائبـه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكـرك، فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيـق عليه، ثم رحل عنهـا في منتصف شعبـان، وسار معـه أخوه، وأرسـل السلطان ابـن أخيه الملـك المظفر تقـي الديـن عمر إلى مصر نـائبا عنـه موضـع الملك

العادل، ووصل السلطان إلى دمشق،وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وسيره إليها في شهر رمضان من هذه السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاه أرمن سكمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط، وقد تقدم ذكر ملك شاه أرمن المذكور في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وكان عمر سكمان لما توفي أربعا وستين سنة، ولما مات سكمان كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين، فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط وكان أكثر أهلها ومماليك شاه أرمن متفقين معه، وأول وصوله استولى على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاه أرمن واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وخمسمائة حسبما نذكر ان شاء الله تعالى.

ذكر غزو السلطان الكرك

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

وفيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة، وكتب إلى مصر، فسارعت عساكرها إليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به وملك ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق عميق وقصد السلطان طمه، فلم يقدر لكثرة المقاتلة، فجمعت الأفرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان إلا الرحيل فرحل عن الكرك وسار إليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم، وسار من الأفرنج جماعة ودخلوا الكرك، فعلم بامتناعه عليه وسار إلى نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر، ثم نزل إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين ثم عاد إلى دمشق.

وفي هذه السنة توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعيد أحمد، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلم ينتظم حال، واتفق أنهما مرضا بدمشق، وطلبا المسير إلى العراق، وسارا في الحر فمات بشير في السخنة، ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة، ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس، وأحسن إليه.

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة

وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرهما من النساءوجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لا سيما وفيهن بنت نور الدين، وحاصر الموصل وضايقها، وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخرمن هذه السنة، فسار عن الموصل إلى جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها.

وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وآمد، وملك بعده ولده سكمان، ولقب قطب الدين، وكان صغيرا، فقام بتدبيره القوام ابن سماق الأسعردي، وأحضر سكمان إلى السلطان وهو نازل على ميافارقين فأقره على ما كان بيد والده، وأقام معه أميرا من أصحاب سكمان المذكور.

-١٠١٢٧-

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين

لما رحل ا لسلطان عن الموصل جعل طريقه على ميافارقين، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفى، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى، ثم إن السلطان رجع عن قصد خلاط إلى الموصل فجاءته رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح، واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمار عائدا إلى حران فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلب، وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان : شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ما وراء الزاب، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وما بيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتسلم السلطان ذلك واستقر الصلح وأمنت البلاد، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضا واشتد به المرض حتى أيسوا منه، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم. ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركو ه بن شاذي صاحب حمص إلى حمص، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان.

وفي هذه السنة ليلة عيد الأضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي فأصبح ميتا، قيل إن السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سما لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشر سنة، وخلف صاحب حمص شيئا كثيرا من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران وأخذ أكثرها، ولم يترك إلا ما لا خير فيه .

ذكر نقل الملك العادل من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

وفيها أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر، وأقطعه دمشق، وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب عمه بمصر، وكان معه الملك الأفضل، فأرسل تقي الدين يشتكي من الأفضل إنني لا أتمكن من استخراج الخراج، فإنني إذا أحضرت من عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأرسل السلطان أخرج ابنه الأفضل من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي الدين في الباطن فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر إذا مات السلطان، ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيزعثمان بن السلطان نائبا عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من مصر فقيل إنه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفريقية وبرقة من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر، ولما حضر تقي الدين إلى السلطان زاده على حماة منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها، واستقر العادل والعزيز عثمان في مصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه الغادل أقطعه عوضها حران والرها.

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

وفي هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن الدكز صاحب بلد الجبل، وهمذان، والري، وأصفهان، وأذربيجان، وأرانية وغيرها من البلاد، وكان عادلا حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه

عثمان، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله خطبة في بلاده، وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم، فأرسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده.

. ذكر غزوات السلطان وفتوحاته

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وفيها جمع السلطان العساكر، وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية، وغنموا شيئا كثيرا.

ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته فأرسلت الأفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه، فصار معهم واجتمع الأفرنج للقاء السلطان.

ذكر وقعة حطين وهي الواقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الأفرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان، فركب السلطان من عند طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقي الدين صاحب حماة فأفرج له وعطف عليهم ونجا القومص ووصل طرابلس، وبقي مدة يسيرة ومات غبنا، ونصر الله تعالى المسلمين، وأحدقوا بالأفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسرا، وكان من جملة من أسر ملك الأفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفري، ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية ،وما أصيب الأفرنج منذ خرجوا إلى الشام في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته، وأحضر ملك الأفرنج، وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا، فسقى ملك الأفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الأفرنج، فسكن جاشه، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان، ثم أرسل إلى أخيه العادل فنازل مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلاثا والفولة غيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا، وأسروا أهل هذه الأماكن، وأرسل فرقة إلى نابلس فملكوا قلعتها بالأمان، ثم سار الملك العادل بعد فتح

مجدل يابا إلى يافا وفتحهاعنوة بالسيف ثم سار السلطان إلى تبنين ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى ضيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جماذى الأولى من هذه السنة، ثم سار إلى بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان وكان حصرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من جملة الأسرى، فبذل جبيل بأن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك، وكان صاحب جبيل من أعظم الأفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تكن عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان وتسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المركيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين، ولم يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهوا، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو بعكا يقترح أمرا بعدأمر، والملك الأفضل يجيب إلى ذلك المركيس إلى أن هب الهواء،فأقلع المركيس إلى صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الأفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وحملهم إلى صور من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى زاحت عكا، وقوي الأفرنج بذلك.

ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الآخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وغير ذلك.

ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر، وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال، ونقبوا السور، وطلب الأفرنج الأمان فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، وقال لاآخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الأفرنج من المسلمين، فعاودوه في الأمان، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك القتال، فأجابهم السلطان إلى ذلك وشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال

عشرة دنانير، وتؤدي النساء خمسة، ويؤدوا عن كل طفل دينارين، وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا، فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، وكان يوما مشهودا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك، ولم يحملوا إلا القليل.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتسلق المسلمون واقتلعوه، فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من الأفرنج بالتفجع والتوجع، وكان الأفرنج قد عملوا غربي المسجد الأقصى هريا ومستراحا، فأمر السلطان بإزالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه، وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبرا بحلب تعب عليه مدة،وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل السلطان أحضر المنبر من حلب وجعله في المسجد الأقصى، وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعوية.

ثم رحل السلطان إلى عكا ورحل منها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها، ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوال، فاتفق أن الأفرنج كبسوهم في الشواني، وأخذوا خمس شوان، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا، وأخذ الباقون، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال، أول كانون الأول، وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقته وأرسل إلى هونين وفتحها بالأمان

-١٠١٣٢-

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس حاجا، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين، فقتل بينهم جماعة، وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال، فجرح ومات شهيدا، ودفن بمقبرة المعلى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فشتى السلطان في هذه السنة بعكا، ثم سار بمن معه وقصد كوكب وجعل على حصارها أميرا يقال له قايماز النجمي، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس بقدومه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام، وسار من دمشق منتصف ربيع الأول ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد وشن الغارات على بلاد الأفرنج، وسار من حصن الأكراد، فنزل على انطرسوس فوجد الأفرنج قد أخذوا أنطرسوس فسار إلى مرقية، فوجدهم قد أخلوها أيضا، فسار تحت المرقب وهو للاسبتارية فوجده لا يرام ولا لأحد فيه مطمع، فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى وتسلمها حالة وصوله، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان فحصر القلعتين، ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها إلى الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع

والغرامة عليها، كما فعل بقلعة حماة، ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون فحاصرها وضايقها، وطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنس وكان الأفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه، وملكوا حصن العيد، وحصن الجماهريين، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة وضايقها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفزع وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى أثره، وكان في الحصن وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة، ثم سار السلطان من الشغر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبى وأسر وقتل أهلها.

قال مؤلف الكامل ابن الأثير: كنت مع السلطان في مسيره وفتحه هذه البلاد طالبا للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر، ثم سار إلى دربساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج منها أحد إلا بثيابه فقط، وتسلمها تاسع عشر رجب، ثم سار عن دربساك إلى بغراس فحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك، وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح، وبذل اطلاق كل أسير عنده، فأجابه السلطان إلى ذلك

واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الأفرنج في هذه البلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس.

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة، سار إلى حلب ثالث شعبان، وسار منها إلى دمشق وأعطى عماد الدين زنكي دستورا، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقيما هناك، وكان من عباد الله تعالى الصالحين، وله كرامات ظاهرة، وكان مع السلطان أبو فليتة الأمير قاسم بن مهنا الحسني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهد معه مشاهده وفتوحاته، وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله، ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير والأجل غير مأمون، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها، وخلى أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد .

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان إلى صفد فحصرها في ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين، ظهر ذلك فيما بعد، ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار إلى عكا فأقام فيها حتى انسلخت السنة .

وفي هذه السنة أرسل قزل بن الدكز يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقي، ويحذره عاقبة أمره،

فأرسل الخليفة عسكرا إلى طغريل والتقوا ثامن ربيع الأول قرب همذان، فانهزم عسكر الخليفة، وغنم طغريل أموالهم، وأسر مقدم العسكر جلال ابن عبد الله وزير الخليفة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون وبذل له تسلم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان اسم صاحب الشقيف أرناط ، فقال له السلطان في التسليم فقال: لا يوافقني عليه أهلي، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق، فحبس

ذكر حصار الأفرنج عكا

كان قد اجتمع بصورأهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان، فكثر جمعهم حتى صاروا في عالم لاتحصى كثرته، وأرسلوا الى البحر يبكون ويستنجدون، وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد ادماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الأفرنج في البحر عالم لايحصون كثرة، وساروا الى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب من هذه السنة، وضايقوا عكا واحاطوا بسورها من البحر الى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار اليهم السلطان ونزل قريب الافرنج وقاتلهم في مستهل شعبان، وباتوا على ذلك واصبحوا فحمل تقي الدين صاحب حماة من ميمنة السلطان على الأفرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور، وانفتح الطريق الى المدينة يدخل المسلمون ويخرجون، وأدخل السلطان الى عكا عسكر نجدة، وكان من جملتهم ابو الهيجاء السمين، وبقي المسلمون يغادون القتال ويراوحونه الى العشرين من شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهم موقعة عظيمة، فإن الأفرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان

مصـاف، وحملوا على القلـب فأزالـوه، وأخذوا يقتلـون في المسلمين الى أن بلغوا خيمة السلطـان، وانحاز السلطان الى جانب وانضـاف اليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتـال الميمنة، فحمل السلطان على الأفرنج الذيـن خرقـوا القلـب وعطف عليهـم العسكر فأفنـوهم قتـلاً، وكان قتلى الافرنـج نحو عشرة آلاف نفس، ووصـل المنهزمون مـن المسلمين بعضهم الى طبرية وبعضهم وصل الى دمشق.

وجافـت الارض بعد هـذه الوقعـة، ولحق السلطان مـرض وحدث لـه قولنج، فأشار عليه الامراء بالانتقـال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل الى عكا رابـع عشر شهر رمضـان الى الخروبة، فلما رحـل تمكن الافـرنج مـن حصـار عكا وانبسطـوا في تلـك الأرض، وفي تلـك الحال وصل اسطـول المسلمين من البحر مـع حسام الدين لـؤلؤ - وكان شهماً - فظفر ببطسة للافـرنج فأخـذها ودخل بها الى عكا، فقـويت قلوب المسلمين، وكـذلك وصـل الملـك العادل بعسكـر مصر الى أخيـه السلطـان فقويـت نفـوس المسلمين بوصوله.

ذكر غير ذلك من الحوادث

فيها توفي بالخروبـة الفقيه عيسى، وكان مع السلطان، وهـو من أعيان عسكـره، وكان جنـديـا فقيها شجـاعا، وكـان مـن أصحاب الشيـخ أبي القاسم البرزي.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

وفيها رحـل السلطان عن الخروبة وعـاد إلى قتال الأفرنـج على عكا، وكان الأفـرنج قـد عملوا ترب سـور عكا ثلاثـة أبراج طـول البرج ستون ذراعـا، جاؤوا بخشبهـا من جـزائر البحر، وعملـوها طبقـات وشحنوهـا بالسـلاح والمقاتلة، وألبسـوها جلود البقـر والطين بالخل لئلا تعمـل فيها

النار، فتحيل المسلمـون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه مـن الرجال والسلاح، ثـم أحرقوا الثـاني والثالـث، وانبسطت نفوس المسلمين بـذلك بعد الكآبة، ووصلت إلى السلطان العساكر من البلاد .

وبلـغ المسلمين وصول ملـك الألمان، وكـان قـد سار مـن بـلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، فاهتم المسلمـون لذلك وأيسوا من الشام بالكليـة، فسلط الله تعـالى على الألمان الغلاء والـوباء فهلك أكثـرهم في الطـريق، ولما وصـل ملكهـم إلى بلاد الأرمـن نـزل في نهر هناك يغتسـل فغرق، وأقاموا ابنه مقامه، فرجـع من عسكره طائفة إلى بلادهم، ولم يصل مع ابن ملـك الألمان إلى الأفرنج الذيـن على عكا غير قدر ألف مقـاتل، وكفى الله المسلمين شرهـم، وبقي السلطان والأفرنج على عكـا يتناوشون القتال إلى العشريـن من جمادى الآخرة،فخـرجت الأفـرنج من خنـادقهم بالفارس والـراجل، وأزالوا الملك العـادل عن موضعه، وكـان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا ممن الأفرنج خلقا كثيرا، فعادوا إلى خنادقهم،وحصل للسلطان مغص فانقطـع في خيمته، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن إذا أراد الله أمرافلا مرد له

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هـذه السنـة لما قـوي الشتـاء، واشتدت الـريـاح أرسـل الأفـرنـج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خـوفا عليها أن تتكسر، وانفتح الطريق إلى عكا في البحر وأرسل البـدل إليها، وكان العسكر الذين خـرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك لضعف البدل.

وفيها في ثـامن شـوال توفي زيـن الديـن يوسـف بن زيـن الديـن علي كـوجك صـاحـب إربـل، وكان مـع السلطـان بعسكـره، ولما توفي أقطـع السلطان إربـل أخاه مظفر الديـن كوكبوري بـن زين الدين علي كـوجك

- ١٠١٣٩ -

وأضاف إليه شهر زور وأعمالها، وارتجع ما كان بيد مظفر الدين، وهو حران والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين، وهو: حران والرها، وسمسياط والموزر، الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما في يده، وهو: ميافارقين، ومن الشام حماة، والمعرة، وسلمية ومنبج، وقلعة نجم، وجبلة، واللاذقية، وبلاطنس وبكسرائيل.

- ١٠١٤٠ -

ذكر استيلاء الأفرنج على عكا

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

واستمر حصار الأفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا، وهم كالمحصورين، من خارجهم من السلطان، واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وطلب الأمان من الأفرنج على مال وأسرى يقومون بها للأفرنج، فأجابوهم إلى ذلك وصعدت أعلام الأفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، واستولوا على البلد بما فيه، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نحبسهم ليقوموا بالمال، والأسرى،وصليب الصلبوت، وكتبوا إلى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم إطلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك، فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين، ثم قتل الأفرنج منهم جماعة كثيرة، واستمر الباقون في الأسر.

وبعد استيلاء الأفرنج على عكا وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية،والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا من السوقة خلقا كثيرا، ثم سار الأفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون، فملكوها.

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة، لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقليع أسوارها وتخريبها فدكها إلى الأرض، ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان، رحل

ثاني شهر رمضـان إلى الرملة فخرب حصنهـا وخرب كنيسة لد، ثـم سار إلى القدس وقرر أمـوره، وعاد إلى مخيمه بالنطـرون ثامن شهر رمضـان، ثم تراسل الأفـرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العـادل بأخت ملك الأنكتـار، ويكون للملك العـادل القدس ، ولامرأتـه عكا، فحضر القسيسـون وأنكروا عليهـا ذلك إلا أن يتنصر الملـك العـادل، فلم يتفـق بينهم حـال، ثم رحل الأفرنـج من يافا إلى الـرملة وبقوا كل يـوم يقع بين المسلمين وبينهم منـاوشات، فلقوا من ذلـك شدة شديدة، وأقبـل الشتاء وحالـت الأحوال بينهم، فلما رأى السلطان ذلـك وقد ضجرت العسـاكر أعطاهـم الدستـور، وسار إلى القـدس لسبع بقين مـن ذي القعدة، ونـزل داخل البلـد واستراحوا مما كانوا فيـه، وأخذ السلطـان في تعمير القدس وتحصينـه وأمـر العسكر بنقـل الحجـارة، وكـان السلطان ينقـل الحجـارة بنفسه على فـرسه ليقتـدي به العسكر، فكـان يجتمع عنـد العمال في اليوم الواحد ما يكفيهم عدة أيام .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر

كان الملـك المظفر قد سار إلى البـلاد المرتجعة من كوكبـوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات، وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى بـلاد مجاوريه،واستولى على السويداء وحـاني، والتقى مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظـم البلاد، ثم رحل عنها ونازل ملا زكرد وهي لبكتمـر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصـور محمد، فعرض للملـك المظفر مرض شـديد وتزايـد عليه حتى تـوفي به يوم الجمعـة لإحدى عشر ليلة بقيـت من رمضان مـن هذه السنة، وأخفـى الملك المنصور وفاتـه ورحل عن ملازكـرد ووصل إلى حماة ودفنه بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة، مشهورة هناك،

وكان الملك المظفر شجاعا شديـد البأس، ركنا عظيما من أركان البيت

الأيوبي، وكان عنده فضل وأدب، وله شعر حسن، واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين محمد بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطا نسبه السلطان فيها الى العصيان، وكاد أمره يضمحل بالكلية، فراسل الملك المنصور عنه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماة، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل، بعد أن شرط السلطان أن العادل ينزل عن كل ماله من الأقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس، ولما استقر ذلك سار العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، أعني سنة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة العسكر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان، واسمه عثمان بن الدكز، وهو الذي ملك: أذربيجان، وهمذان، وأصفهان، والري بعد أخيه محمد ابن البهلوان، وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره، ثم إن قزل أرسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض البلاد، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان

وتعصب على الشفعوية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان ملتجئا فأكرمه السلطان، وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة.

قال ابن الأثير: لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه، ترجل معز الدين، وترجل السلطان، ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان أيضا، فقال بعض الحاضرين في نفسه : ما بقيت تبالي يا بن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي ، ويصلح قماشك ابن أتابك زنكي .

وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوسا، أمر بخنقة الملك الظاهر غازي، بأمر والده السلطان، قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين، ثم سافر إلى حلب وكان علمه أكبر من عقلة، فنسب إلى انحلال العقيدة، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه، واشتهر عنه، وكان أشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهبل.

حكى الشيخ سيف الدين الآمدي قال: اجتمعت بالسهرودي في

حلب فقال لي: لابد أن أملك الأرض، فقلت: من أين لك هذا؟قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعل ذلك يكون اشتهار علمك وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه ووجدته كثير العلم قليل العقل، وكان عمره لما قتل ثمان وثلاثين سنة وله عدة مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات، وكتاب الهياكل، وحكمة الإشراق، وكان يزعم أنه يعرف السيمياء، وله نظم حسن.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

وفيها سار الأفرنج إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها في محرم، والسلطان بالقدس، وفيها قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى، قتله الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

ذكر عقد الهدنة مع الأفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملك الأنكتار مرض، وطال عليه البيكار، فكتب إلى الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى ذلك، ثم اتفق رأي السلطان على ذلك لطول البيكار، وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم فأجاب السلطان إلى ذلك، واستقر أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان، وتحالفوا على ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الأنكتار، بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين، وأخذوا يد السلطان، واستحلفوا الملك العادل والملكين الأفضل والظاهر، والملك المنصور، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه بن

فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت الهدنة عامة في البحر والبر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج يافا وعملها ، وقيسارية وعملها ، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأن تكون عسقلان خرابا، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الأفرنج دخول صاحب أنطاكية، وطرابلس في عقد هدنتهم، وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك.

ثم رحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان وتفقد أحواله بتسديد أسواره، وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يتملك الأفرنج القدس، ثم لما ملك الأفرنج القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد.

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب عسقلان، وأمر أن يخرج من بها من الأفرنج، وعزم على الحج والإحرام من القدس، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك، ثم ثبطه الأمراء، وقالوا لا تعتمد على هدنة الأفرنج خوفا من غدرهم فانتقض عزمه عن ذلك.

ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس،

ثم إلى بيسان،ثم إلى كوكب، فبات بقلعتها، ثم رحل إلى طبرية، ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الأفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم سار منها إلى مصر.

ثم سار السلطان إلى بيروت ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت الحادي والعشرين من شوال، فأكرمه السلطان وفارقه في غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبته عنهم كانت مدة أربع سنين، وأقام العدل والإحسان بدمشق، وأعطى السلطان العساكر الدستور، فودعه ولده الملك الظاهر وداعا لا لقاء بعده وسار إلى حلب، وبقي عند السلطان بدمشق ولده الأفضل والقاضي الفاضل،وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد إلى دمشق طالبا البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين، فوصل إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان للقائه، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الأمير سيف الدين المشطوب بنابلس، وكانت إقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد ابن المشطوب وأميرين معه.

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

في هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، في منتصف شعبان توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة، وعدل وافر

وغزوات كثيرة، وكان لـه عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطـرامن بلاد الروم، وأكبرهم قطب الـدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكـور، وكان قد أعطاه أبـوه سيواس ،فسولت له نفسه القبـض على أبيه وأخوتـه والانفراد بـالسلطنة، وسـاعده على ذلـك صاحب أرزنكـان، فسار قطـب الديـن ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية، وقال لوالده وهو في قبضته: أنـا بين يديك أنفـذ أوامرك، ثم إنه أشهـد على والده بأنـه جعله ولي عهـده، ثم سـار إلى حرب أخيـه نور الـديـن سلطان شـاه صاحـب قيساريـة، ووالده في القبضـة معه وهـو يظهر أن مـا يفعله إنما هـو بأمـر والده، فخرج عسكـر قيسارية لحربه فوجـد أبوه عز الديـن قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصـة فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكـرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطـب الدين ملكشاه إلى قونيـة وخطب لنفسه بـالسلطنة وبقي أبـوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحـد ينتقل إلى الآخر حتى حصـل عند ولده غياث الـدين كيخسرو بن قليج أرســلان صاحب برغلو، فقويّ أبـاه قليج وأعطاه وجمع له وحشد،وسار معـه إلى قونية فملكها وأخذها مـن ملكشاه، ثم سار إلى اقصرا، واتفـق أن عـز الديـن قليـج أرســلان مـرض ومات في التـاريـخ المذكور، فأخـذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قـونية فدفنه بها، واتفـق موت ملكشاه بعد موت أبيـه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونيـة وأثبت أنه ولي عهد أبيه، ثم إن ركن الديـن سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخـذ منه قونية، فهـرب كيخسرو إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهـر صاحب حلب، ثم مات ركـن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بـن سليمان، فرجع كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك ابـن سليمان وملك بـلاد الروم جميعـا، واستقرت لـه السلطنة ببـلاد الـروم وبقـي كـذلـك إلى أن قتل وملـك بعـده ابنـه عـز الـديـن كيكـاووس بن كيخسرو، ثـم توفي كيكـاوس وملك بعـده أخوه السلطـان علاء الـديـن كيقبـاد ابـن كيخسرو، وتـوفي كيقبـاذ سنـة أربـع وثـلاثين

وستمائة،وملك بعده ولده غياث الـدين كيخسرو، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضـع حينئـذ ملـك السلاطين السلجـوقيـة ببـلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضـى بموته سلاطين بلاد الروم في الحقيقـة، لأن مـن صـار بعـده لم يكـن لـه مـن السلطنـة غير مجرد الاسـم،وخلف كيخسرو المذكـور صبيين هما ركـن الديـن، وعـز الديـن، فملكا معا مدة مـديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنـة، وهرب أخوه عز الديـن إلى القسطنطينية، وتغلب على ركن الـدين معين الديـن البرواناه ، والبلاد في الحقيـقة للتتر، ثم إن البروانـاه قتل ركن الدين وأقام ابنـا لركن الـدين يخطـب له بـالسلطنة والحكـم للبرواناه، وهـو نائب للتتر على مـا نذكره إن شاء الله تعالى

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هـذه السنة غـزا شهـاب الديـن الغوري الهنـد فغنـم وقتل مـا لا يحصى، وفيهـا خرج السلطان طغـريل من الحبـس بعد قتل قـزل أرسلان ابن ألـدكز، وكان قزل قـد أعتقله حسبما تقدم ذكره في سنـة سبع وثمانين وخمسمائة، وفيهـا توفي راشـد الديـن سنان بـن محمد، وكنيتـه أبو الحسـن صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام، وأصله من البصرة.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب

ثم دخلـت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطـان بدمشـق على أكمل ما يكون من المسرة، وخرج إلى شرقـي دمشق متصيدا، وغاب خمسة عشر يـوما، وصحبتـه أخـوه الملـك العادل، ثـم عـاد إلى دمشـق وودعه أخـوه العادل وداعـا لا لقاء بعده، فمضى إلى الكـرك، وأقام به حتى بلغـه وفاة السلطان، وأقـام السلطان بـدمشق، وركب في يـوم الجمعة خـامس عشر

صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته أن لا يركب إلا وهو لابس كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده قد حملوه معه، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنيبع، ودخل إلى القلعة على الجسر،وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم، وغشيته نصف الليل حمى صفراوية، وأخذ المرض في التزايد وفصده الأطباء في الرابع، فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد، وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين فحصل له راحة، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل ذكره بالشهادة،وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، أعني في الليلة المسفرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله إلى رحمة الله تعالى وكرامته،وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها،وصلى الناس عليه، ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضا فيها، وكان نزوله إلى جدثه وقت صلاة العصر من النهار المذكور.

وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة

والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الظاهر غازي بحلب وإلى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك،

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت دارا لرجل صالح، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل ووضع قدام المنبر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالا عظيما.

وكان مولده السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريبا من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين ، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر.

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزائنه غير سبعة وأربعين درهما، وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف دارا ولا عقارا.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش، فكان اثني عشر ألف رأس، وذلك غير

ما أطلقه من ثمـن الخيل المصابة في القتال، فلم يكن لـه فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به.

ولم يؤخر صلاة عن وقتهـا، ولا صلى إلا جماعة، وكان إذا عزم على أمر تـوكـل على اللـه، ولا يفضـل يومـا على يـوم، وكـان كثير سماع الحديـث النبوي، وقـرأ مختصرا في الفقه تصنيف سليـم الرازي، وكان حسـن الخلق صبورا على مـا يكره، كثير التغـافل عن أصحـابه يسمع مـن أحدهـم ما يكره و لايعلمـه بذلـك ولا يتغير عليه، وكان يـوما جالسـا فرمـى بعض المماليك بعضا بسرمـوزة فأخطأته، ووصلت إلى السلطان ووقفـت بالقرب منه، فـالتفت إلى الجهة الأخـرى ليتغافل عنها، وكـان طاهر المجلـس فلا يذكر أحد بمجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فما ولع بشتم قط.

قـال العماد الكاتـب: مات بمـوت السلطان الـرجال، وفـات بفواتـه الأفضـال، وغاضــت الأيـادي، وفـاضت الأعـادي، وانقطعـت الأرزاق، وادلهمت الآفاق، وفجع الزمان بـواحده وسلطانه، ورزىء الإسلام بمشيد أركانه.

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادهـا المنسوبـة اليها ولـده الملك الأفضل نـور الديـن علي، وبالـديار المصرية الملك العزيز عثمان، وبحلب الملك الظـاهر غياث الدين غازي، وبالكـرك والشوبك والبـلاد الشرقية الملك العادل سيـف الدين أبـو بكر ابـن أيوب، وبحماة وسلمية والمعـرة ومنبج وقلعـة نجـم الملك المنصـور ناصر الـدين محمـد بن الملك المظفـر تقي الديـن عمر، وببعلبـك الملك الأمجد مجد الـديـن بهرام شـاه بـن فـرخشاه بـن شـاهنشـاه بـن أيـوب ، وبحمص والرحبـة وتدمر شيركوه بـن محمد بن شيركوه بـن شاذي، وبيد

الملك خضر ابن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل، وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم: سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس ابن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية، وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر، وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون ، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بغراس وكفر طاب وفامية•

والملك الأفضل هو الاكبر من أولاد السلطان، والمعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، مصنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر•

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير في توزره، ومد الجزري بجزره، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال الى ذلك، وحصلت الوحشة بين الأخوين: الأفضل والعزيز•

وفي هذه السنة بعد موت السلطان قدم الملك العادل من الكرك الى دمشق، وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه الى بلاده التي وراء الفرات•

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التي بيد الملك العادل وعوده وموته

في هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود ابن مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم، ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وسار إلى جهة حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود اسهال قوي، وضعف فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قايماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وقوي بعز الدين مسعود المرض وتوفي في السابع والعشرين من شعبان في هذه السنة، فكانت مدة مابين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، وكانت مدة ملك عز الدين مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان دينا خيرا كثير الإحسان، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قايماز

ذكر قتل بكتمر صاحب أخلاط

في هذه السنة في أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب أخلاط، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماته بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وفرح فرحا كثيرا وعمل تختا يجلس عليه، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين، وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه الملك العزيز، فلم يمهله الله تعالى. وكان هذا بكتمر من مماليك ظهير الدين شاه أرمن وكان له خشداش اسمه هزار ديناري، وكان قد قوي وتزوج ابنة بكتمر، وطمع في الملك فوضع على بكتمر من

قتله، ولما قتل ملك بعده هزار ديناري خلاط وأعمالها واسم هزار ديناري المذكور آق سنقر، ولقبه بدر الدين، وجلبه تاجر جرجاني اسمه علي إلى خلاط فاشتراه منه شاه أرمن سكمان بن ابراهيم، وأعجب به شاه أرمن فجعله ساقيا له ولقبه هزار ديناري، وبقي على ذلك برهة من الزمان، فلما تولى بكتمر على مملكة خلاط بقي المذكور من أكبر الأمراء، وتزوج ببنت بكتمر عينا خاتون، فلما قتل بكتمر خلف ولدا فأخذ هزار ديناري المذكور ولد بكتمر وأمه واعتقلهما بقلعة إرزاس بموش، وكان عمر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين، واستمر بدر الدين آق سنقر هزار ديناري في مملكة خلاط حتى توفي في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

في هذه السنة شتى شهاب الدين الغوري في بر شاور وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم، وعاد منصورا ومؤيدا.

وفيها: توفي سلطان شاه بن أرسلان بن اطسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد ملك مرو وخراسان، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة، وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسمائة.

وفيها: مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثر تارة حتى مات.

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الري

كان طغريل بن أرسلان بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن

داود بن ميكائيل السلجوقي قد حبسه قزل أرسلان بن ألدكز، وخرج طغريل من الحبس في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وملك همذان وغيرها، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن ألدكز، وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو أزبك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، فخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه، فسار خوارزم شاه تكش وملك الري، وذلك في سنة ثمان وثمانين، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزانته وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو، ولما دخلت سنة تسعين سار تكش إلى حرب طغريل السلجوقي، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام وسار تكش، فملك همذان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع بعضها لمماليكه ورجع إلى خوارزم، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بوية طغريل بك ابن ميكائيل بن سلجوق ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل ثم ابنه ملكشاه ابن ألب أرسلان، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلا فقامت بتدبير المملكة أم محمود تركان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور، ثم ابنه داود بن محمود بن

محمد المذكور مدة يسيرة، ثم عمه طغريل بن محمد ، ثم أخوه مسعود ابن محمد، ثم ان ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياما يسيرة، ثم أخوه محمد بن محمود، ثم بعد محمد المذكور اختلفت، العساكر وقام من بني سلجوق ثلاثة: أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور، والثاني سليمان شاه بن محمد بن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور ،والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه، وكان ألدكز متزوجا بأم أرسلان شاه المذكور، فقوي عليها سليمان شاه واستقر في همذان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ثم قبض سليمان شاه وقتل وكذلك سم ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصفهان في السنة المذكورة، أعني سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وانفرد بالسلطنة أرسلان شاه بن طغريل ربيب ألدكز، ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وجرى له ماذكرناه حتى قتله تكش في هذه السنة أعني سنة تسعين وخمسمائة وانقرضت به الدولة السلجوقية من تلك البلاد........

وفي هذه السنة —أعني سنة تسعين— استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابني السلطان صلاح الدين، فسار العزيز في عسكر مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق، فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين، ورجع العزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلا ونهارا، وأشاع ندماؤه أن عمه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه بالخفية فأنشده العادل:

فـــــــــــــلا خير في اللـــــــــــــــ

ـــــــــــــذات مـــــــــــن دونها ستر

فقبل وصيـة عمه وتظاهـر بذلك وفـوض أمر المملكة إلى وزيـره ضياء الدين بن الأثير الجزري يدبرها برأيـه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبـة عن ذلك وأزال المنكـرات وواظب على الصلـوات، وشرع في نسخ مصحف بيده.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

وفيها:عـاود الملك العـزيز عثمان صـاحب مصر قصـد الشام ومنـازلة أخيه الملك الأفضل فسار ونزل الفـوار من أرض السـواد من بلاد دمشق، فاضطـرب بعض عسكـر العزيـز عليه وهـم طـائفة مـن الأمراء الأسـدية وفارقـوه، فبادر العزيـز العود إلى مصر بمن بقـي معه من العسكـر، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحـل العزيـز عائدا إلى مصر رحـل الملـك الأفضل وعمـه العادل ومـن انضم إليهما من الأسدية، وساروا في إثر العزيز طالبين مصر فساروا حتى نـزلوا على بلبيـس وقد تـرك فيها العـزيز جماعـة من الصـلاحية، وقصـد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعـه العادل عن ذلك فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيـلاء عليها فمنعـه عمه العـادل أيضـا من ذلـك، وقـال مصر لك متـى شئـت، وكاتـب العـادل العزيـز في البـاطن وأمـره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخـوين، وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابستهم لما رأى من فساد أحـوالهم فدخل عليه الملك العزيز وسـأله، فتـوجـه القاضي الفـاضـل مـن القاهـرة إلى عنـد الملك العـادل واجتمع بـه واتفقا على أن يصلحـا بين الأخويـن، فأصلحـا بينهما، وأقام الملـك العـادل بمصر عند العـزيـز ابـن أخيـه ليقـرر أمور مملكتـه وعـاد الأفضل إلى دمشق.

-١٠١٥٨-

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

وفيها: نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة في صفر فكان مدة لبثه بالقلعة ثلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثر شاكوه وقل شاكروه.

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل في مصروالملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق، وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه، فخرجا وسارا من مصر، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين، وهو أحد أمرائه، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ماطلبه، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق، وقد حصنها الملك الأفضل فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه، وأنهم يسلمون المدينة إليه، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخل الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة، وانتقل منها بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفيا في صندوق خوفا عليه من القتل، وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاضدا له، فأخذت منه بصرى أيضا فلحق بأخيه الملك الظاهر، فأقام عنده بحلب وأعطي الأفضل صرخد، فسار إليها بأهله واستوطنها، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ماكان وقع عليه الإتفاق

بينهما، وتسلمها الملك العادل، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الإثنين تاسع شعبان، وكانت مدة ملك الملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهرا، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز، ولما استقر الأفضل بصرخد كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبي بكر، وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه
عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقي
من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غدا حسابهم
وابشر فناصرك الإمام الناصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الاسلام

.........في هذه السنة في شوال توفي سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، ولما مات سيف الاسلام كان ولده الملك العزيز اسماعيل بالسرين، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه، وكانت وفاة سيف الاسلام بزبيد، وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال مالا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

-١٠١٦٠-

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ابن آق سنقر صاحب سنجار، والخابور، والرقة، وكان حسن السيرة متواضعا يحب أهل العلم، إلا أنه كان بخيلا شديد البخل، وملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها: في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين محمد واستنجد بالملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين وعاد إلى الموصل، فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وتسلم نصيبين.........

وفيها: وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، وسار الملك العادل ونزل بتل العجول، وأتته النجدة من مصر، ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، ثم سار الملك العادل إلى يافا وهجمها بالسيف وملكها وقتل الرجال المقاتلة، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل، وجعل إليه أمر الحرب والصلح، ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين خطلغ مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي ابن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، وليس ليولق أرسلان من الحكم شيء وانما الحكم إلى مملوك والده البقش............

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

في هذه السنة في منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم توفي الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد، فركض خلف ذئب، فتقنطر وحم سابع المحرم في جهة الفيوم، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء وحدث به يرقان وقرحة في المعي، واحتبس طبعه فمات في التاريخ المذكور، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا، وكان في غاية السماحة والكرم والعدل، والرفق بالرعية، والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة، وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهاركس، فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد، واتفقت الأمراء على إحضار واحد من بني أيوب ليقوم بالملك، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد، فأرسلوا إليه فسار مجدا ووصل إلى مصر على أنه أتابك الملك المنصور بن الملك العزيز، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهورا، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفرا متنكرا خوفا من أصحاب عمه الملك العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الأول، ثم سار

الملك الأفضل إلى القاهرة، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر، فتنكر منه فخر الدين جهاركس، وفارقه وتبعه عدة من العسكر، وساروا إلى الشام وكاتبوا الملك العادل، وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين، فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق، فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره المدينة حتى وصل إلى باب البريد، ولم يمدهم العسكر فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد، ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق وعزم العادل على تسليم البلد لولا ماحصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة على بارين

وفي شهر رمضان من هذه السنة قصد الملك المنصور صاحب حماة

بارين وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها،وكان عز الدين ابراهيم مع الملك العادل محصورا معه بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق وانجرح الملك المنصور حال الزحف، ثم فتحها في التاسع والعشرين من ذي القعدة وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها.............

وفي هذه السنة رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين.............

وفي هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايماز بقلعة الموصل وهو الحاكم في دولة نور الدين أرسلان، حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قايماز عاقلا أديبا فاضلا في الفقه على مذهب أبي حنيفه، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس...........

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسائة

والملكان الأفضل والظاهر محاصران لمدينة دمشق، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك، ففقد ووجد عليه الملك الظاهر وجدا عظيما، وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل من تكشف خبر؛ واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية فأرسل إلى الظاهر يقول له ان محمود بن الشكري أفسد مملوكك وحمله إلى الأفضل أخيك فقبض الظاهر على ابن الشكري فظهر المملوك عنده، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل وترك قتال العادل، وظهر الفشل في العسكر فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر، ثم سارا إلى رأس الماء ليقيما به إلى أن ينسلخ الشتاء، ثم انثنى عزمهما وسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسار في إثر الأفضل

إلى مصر، ولما وصل الأفضل إلى مصر تفرقت عساكره في بلادهم لأجل الربيع فأدركه عمه العادل، فخرج الأفضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافا بالسايح فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميافارقين وحاني وسمسياط، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به، وكان دخول العادل إلى القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر فيها، وتوفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في سابع عشر ربيع الآخر، وقيل إن مولد القاضي الفاضل سنة ست وعشرين وخمسمائة فكان عمره نحو سبعين سنة، ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور واستقل العادل في السلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم، فقبل الملك العادل عذره، وأمره برد بعرين إلى ابن المقدم فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماة، ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضا عن بعرين، فرضي ابن المقدم بذلك لأنها خير من بعرين بكثير، وتسلمها عز الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وكان له أيضا فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم صاحب حلب بذلك،

وقصر النيل في هذه السنة تقصيرا عظيما حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعا............

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

لما دخلت هذه السنة كان بالديار المصرية الملك العادل، وعنده ابنه الملك الكامل محمد وهو نائبه بها، وبحلب الملك الظاهر، وهو مجد في تحصين حلب خوفا من عمه الملك العادل، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل نائب أبيه بها، وبالشرق الملك ابراهيم ابن الملك العادل، وبميافارقين الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل.

وفي هذه السنة: توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وصارت البلاد بعده وهي منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب، لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ونزل عبد الملك بالأمان، فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم، وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب من هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على الملك العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما آيس الملك الظاهر منه سار إلى المعرة، وأقطع بلادها، واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر عبد الملك ابن المقدم من حلب، وكان معتقلا بها، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع قراقوش فأمر الملك

الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم فضرب ضربا شديدا وبقي يستغيث، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه ولم يسلم القلعة، فرحل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماة، وحاصرها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة، ونزل شمالي البلد، وشعث التربة التقوية وبعض البساتين، وزحف من جهة الباب الغربي، وقاتل قتالا شديدا، ثم زحف وجرح الملك الظاهر بسهم في ساقه، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور وعلى مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق، وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل، ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل، ويتسلمها الملك الأفضل، وتسلم دمشق حينئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب، بحيث تبقى مصر للملك الأفضل، ويصير الشام جميعه للملك الظاهر، وكان قد تخلف من أكابر الأمراء الصلاحية عنهما: فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا، ونقل الملك الأفضل والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه، وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق، فخرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما، واشتدت مضايقة الأخوين الأفضل والظاهر لدمشق، وتعلق النقابون بسورها فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق، وقال له: أريد أن تسلم إلي دمشق الآن، فقال له الأفضل: إن حريمي حريمك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيم فيه وهب هذه البلد لك فاجعله إلي إلى حين تملك مصر وتأخذه، فامتنع الظاهر من قبول ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية إنما كان لأجل

الأفضـل، فقال لهم الأفضـل: إن كـان قتالكـم لأجلي فـاتـركوا القتـال، وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجـل أخي الملك الظاهر فأنتم وإيـاه، فقالـوا: إنما قتالنـا لأجلك وتخلـوا عن القتـال، وأرسلوا وصـالحوا الملـك العـادل، وخـرجـت السنة وهـم محاصرون دمشـق، وقـد تفـرقـت العسـاكـر، فرحـل الملـك الظـاهـر عـن دمشق في أول المحـرم سنـة ثمان وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفي هذه السنـة: أعني سنـة سبع وتسعين تـوفي عماد الديـن الكاتـب محمد بـن عبد الله بن حامـد الأصفهاني، وكان فاضـلا في الفقه والأدب، والخلاف، والتاريخ، وله النظم البديع، والنثـر الفائق، وكتب لنور الدين، ولصلاح الـدين، ولـه التصانيف الحسنـة منها: البرق الشـامي، وخـريدة القصر، وكان مـولده سنة تسـع عشرة وخمسمائة، وكان عمـره نيفا وسبعين سنة..........

وفيها: كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل، وفيها: كان بالجزيرة والشام والسواحل زلزلة عظيمة فهدمت مدنا كثيرة.

وفيهـا: في رمضان تـوفي أبـو الفرج عبـد الـرحمن بن علي بـن الجوزي الحنبلي الواعظ المشهور وتصانيفـه مشهورة، وكان كثير الوقيعة في العلماء، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

في هـذه السنة بعـد رحيـل الملك الأفضـل والظـاهـر عن دمشـق كما ذكرنا، قدم إليهـا الملك العادل، وكان قد سار ميمـون القصري مع الملك الظاهـر فأقطعه اعزاز، وفيهـا: خرب الملك الظاهـر قلعة منبج خوفـا من انتزاعهـا منه، وأقطع منبـج بعد ذلك عماد الديـن أحمد بن سيف الـدين علي بن أحمد المشطوب. وفيهـا أرسل قراقوش نائب عبد الملـك بن محمد

ابن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر يبذل له تسليم فامية بشرط أن يعطي شمس الدين عبد الملك بن المقدم أقطاعا يرضاه فأقطعه الملك الظاهر الراوندان، وكفر طاب، ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة، وتسلم فامية، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان، فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه.

وفيها: سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار بحلب، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات، ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة، وأخذت من الملك الظاهر أيضا قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضل، وكان له سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران وامامعها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى وسيره إلى الشرق، وكان بميافارقين الملك الأوحد ابن الملك العادل، وبقلعة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية، والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه.

وفي هذه السنة أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف وأمره بحصار ماردين فحصرها وضايقها، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل في الصلح فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويخطب له ببلاده ويضرب بالسكة باسمه، ويكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك، واستقر الصلح عليه.

وفيها أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام، فسار بوالدته وأخوته، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر.

وفيها سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطا للفرنج، وأقام بها وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بانجاده فأنجداه، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين، واتقعوا معه في ثالث شهر رمضان من هذه السنة واقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل وأسر من خيلهم جماعة وكان يوما مشهودا ....

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار، وانضم إليهم جموع من السواحل واتقعوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببعرين في الحادي والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوما، فانتصر ثانيا، وانهزمت الفرنج هزيمة شنيعة، وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة...............

وفي هذه السنة ولد الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد صاحب حماة من ملكة خاتون بنت السلطان الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وسمي عمر، وإنما سمي محمودا بعد ذلك، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة.

وفي هذه السنة أرسل الملك العادل وانتزع ماكان بيد الملك الأفضل وهي رأس عين، وسروج، وقلعة نجم، ولم يترك بيده غير سميساط فقط، فأرسل الملك الأفضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ليرسل معها من يشفع في الملك الأفضل عند الملك العادل في ابقاء ماكان بيده، وتوجهت أم الملك الأفضل، وتوجه معها من حماة القاضي زين الدين ابن الهندي إلى الملك العادل فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة.

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل: وقد عوقب البيت الصلاحي بمثل مافعله والدهم السلطان صلاح الدين لما خرجت إليه نساء بيت الأتابك ومن جملتهن بنت نور الدين الشهيد يشفعن في إبقاء الموصل على عز الدين مسعود، فردهن ولم يجب إلى سؤالهن، ثم ندم رحمه الله تعالى على ردهن، فجرى للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع عمه مثل ذلك، ولما جرى ذلك أقام الملك الأفضل بسميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب بلاد الروم،..........

وفي هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها وقتلوا أهلها، وكانت هي وجميع أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان، وكان مشغولا ليلا ونهارا بشرب الخمر، ولايلتفت إلى تدبير مملكته، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت.

وفيها. توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر، وكانت كثيرة المعروف.

ثم دخلت سنة ستمائة

والملك العادل بدمشق وفيها كانت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج.

وفيها نازل ابن لاوون ملك الأرمن أنطاكية فتحرك الملك الظاهر صاحب حلب ووصل إلى حارم، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه.

,وفيها خطب قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده وانتمى إليه، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود وقصد نصيبين وهي لقطب الد ين واستولى على مدينتها، فاستنجد قطب الدين بالملك الأشرف بن

العادل، فسار إليه واجتمع معه أخوه الملك الأوحد صاحب ميافارقين والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشره، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس، وكانت هذه الواقعة أول ماعرفت من سعادة الملك الأشرف ابن العادل، فإنه لم ينهزم له راية بعد ذلك، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكي عليه، ووقع الصلح بينهم في أول سنة احدى وستمائة.

وفيها اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر، ونزل على الطور في قبالة الفرنج ودام ذلك إلى آخر السنة.

وفيها استولت الفرنج على قسطنطينية، وكانتقسطنطينيةبيد الروم من قديم الزمان، فلما كانت هذه السنة اجتمعت الفرنج وقصدتها في جموع عظيمة وحاصروها فملكوها وأزالوا يد الروم عنها، ولم تزل بأيدي الفرنج إلى سنة ستين وستمائة فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج.

وفيها توفي السلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن يبغو أرسلان بن سلجوق، سلطان بلاد الروم في سادس ذي القعدة حسبما قدمنا ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وكان مرضه بالقولنج، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية، وهي أنقرة، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان، وكان صغيرا، فلم يستثبت أمره، وكان ماسنذكره إن شاء الله تعالى..........

وفيها خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوها خمسة أيام، وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت مصر والشام

والجزيرة، وبلاد الروم، وصقلية، وقبرس، والعراق، وغيرها وخربت سور مدينة صور.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

في هذه السنة كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج، وسلم إلى الفرنج يافا، ونزل عن مناصفات لد، والرملة، ولما استقرت الهدنة أعطى العساكر دستورا وسار العادل إلى مصر وأقام بدار الوزارة.

وفيها أغارت الفرنج على حماة، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا، وامتلأت أيديهم من المكاسب وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن البلاعي، وكان فقيها شجاعا تولى بر حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك، ووصل إلى أهله بحماة سالما، ثم وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج، وفيها بعد الهدنة توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وكان عنده استشعار من السلطان الملك العادل، فلما وصل إليه بالقاهرة أحسن إليه إحسانا كبيرا، وأقام في خدمته شهورا ثم خلع عليه وعلى أصحابه، وعاد إلى حماة.

وفيها ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان بلاد الروم، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على البلاد قد هرب كيخسرو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب، ثم تركه، وسار إلى قسطنطينية فأحسن إليه صاحبها، وأقام بالقسطنطينية إلى أن مات أخوه ركن الدين سليمان، وتولى ابنه قليج أرسلان، فسار كيخسرو من قسطنطينية وأزال أمر ابن أخيه، وملك بلاد الروم، واستقر أمره.

وفيها؛ كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسني أمير مكة، وبين الأمير سالم بن قاسم الحسني، أمير المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا.

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها............

في هذه السنة توفي الأمير مجير الدين طاشتكين أمير الحاج، وكان قد ولاه الخليفة على جميع خورستان، وكان خيرا صالحا، وكان يتشيع وفيها تزوج ابو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج، وذلك لاشتغاله بالشرب عن تدبير المملكة، فعدل إلى المصاهرة والهدنة، فكف الكرج عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

في هذه السنة سار الملك العادل من مصر إلى الشام، ونازل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى، ثم وصل إلى دمشق، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان، ثم سار ونازل حصن الأكراد، وفتح برج أعزاز وأخذ منه سلاحا ومالا، وخمسمائة رجل، ثم سار ونازل طرابلس ونصب عليها المجانيق، وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها، ثم عاد في أواخر ذي الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص............

وفيها في ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم أنطالية - باللام - وهي مدينة للروم على ساحل البحر. وفيها قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر، وكان أتابك قتلغ مملوك شاه أرمن فقبض عليه ابن بكتمر، فثارت عليه أرباب الدولة وقبضوه، وملكوا بلبان مملوك شاه أرمن ابن سقمان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

-١٠١٧٤-

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

والملك العادل نازل على بحيرة قدس، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها.

ذكر استيلاء الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل خلاط، وكان صاحب خلاط بلبان حسبما قدمنا ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسار الملك الأوحد من ميافارقين وملك مدينة موش، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي، فسار طغريل شاه واجتمع به بلبان فهزما الملك الأوحد، ثم غدر طغريل شاه ببلبان فقتله غدرا ليملك بلاده، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه، وقصد منازكرد فلم تسلم إليه، فرجع طغريل شاه إلى بلاده فكاتب أهل خلاط الملك الأوحد، فسار إليهم وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها واستقر ملكه بها.

وفي هذه السنة لما استقر الملك العادل بدمشق وصل إليه التشريف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي، فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ، والتقاه إلى القصير، ووصل من صاحبي حلب وحماة ذهب لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة، فلبسها الملك العادل، ونثر ذلك الذهب، وكان يوما مشهودا، والخلعة جبة أطلس أسود بطراز مذهب، وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وتطوق به الملك العادل، وسيف جميع قرابه ملبس ذهبا تقلد به، وحصان أشهب بمركب ذهب ونشر على رأسه علم أسود

مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة، ثـم خلع رسول الخليفة على كل واحد من الملك الأشرف، والملك المعظم ابني الملـك العادل عمامة سوداء وثوبا أسود واسـع الكم، وكـذلك على الوزيـر صفي الديـن بن شكـر، وركب الملك العـادل وولداه ووزيره بـالخلع، ودخـل القلعة، وكذلـك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبـلاد التي تحت حكمه، وخوطب الملك العادل فيـه شاهنشاه ملـك الملوك خليـل أمير المؤمنين، ثم توجـه الشيخ شهاب الـدين إلى مصر فخلع على الملـك الكامل بها، وجـرى فيها نظير ماجـرى في دمشق مـن الاحتفال، ثـم عاد السهـروردي إلى بغداد مكـرما معظما.

وفي هـذه السنـة اهتم الملـك العـادل بعمارة قلعـة دمشق، وألـزم كـل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها.........

ثم دخلت سنة خمس وستمائة.

والملك العادل بدمشق وعنده ولداه الملك الأشرف والمعظم

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجها إلى بلاده الشرقية

وفي هـذه السنة تـوجه الملـك الأشرف موسـى ابن الملـك العادل مـن دمشـق راجعـا إلى بلاده الشرقيـة، ولما وصـل إلى حلـب تلقاه صـاحبهـا الملك الظـاهر، وأنـزله بـالقلعة وبالـغ في إكرامـه، وقام لـلأشرف ولجميع عسكره بجميع مايحتاجون إليـه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات، وكان يحمـل إليه في كـل يوم خلعـة كاملـة، وهي غـلالة وقبـاء وسراويل وكمة وفـروة، وسيف وحصـان ومنطقة ومنـديل وسكين ودلكـش، وخمس خلع لأصحـابه، وأقـام على ذلك خمسة وعشريـن يوما، وقـدم له تقـدمه وهي مـائة ألف درهم، ومـائة بقجة مـع مائة مملوك فمنهـا عشر بقج في

كل واحـدة منها ثـلاثة أثواب أطلـس، وثوبـان خطاي، وعلى كـل بقجة جلـد قندس كبير، ومنهـا عشر في كـل واحـدة منها عشرة أثـواب عتـابي خوارزمـي، وعلى كل بقجـة جلد قنـدس كبير، ومنها عشر في كـل واحدة خمسة أثواب عتـابي بغدادي وموصلي، وعليها عشرة جلـود قندس صغار، ومنها عشرون في كل واحدة خمس قطع مرسوسي ودبيقي، ومنها أربعون في كل واحـدة منها خمسة أقبيـة وخمس كمام، وحمل إليه خمس حصن عـربية بعـدتها، وعشرين اكـديشا، وأربعـة قطـر بغال، وخمس بغـلات فائقـات بالسروج واللجم المكفتـة، وقطارين من الجمال، وخلع على أصحـابه مائة وخمسين خلعـة، وقـاد إلى أكثـرهـم بغلات وأكـاديـش، ثـم سـار الملـك الأشرف إلى بلاده.

وفي هذه السنـة أمر الملك الظـاهر صاحب حلـب بإجراء القنـاة من حيـلان إلى حلب، وغـرم على ذلـك أمـوالا كثيرة وبقي البلـد يجري الماء فيـه، وفي هذه السنـة، وصـل غياث الـدين كيسخـرو بـن قليج أرسـلان السلجـوقـي صاحـب بـلاد الـروم إلى مـرعـش، لقصد بـلاد ابـن لاوون الأرمني، وأرسـل إليه الملك الظاهـر نجدة، فدخل كيخسرو إلى بـلاد ابن لاوون، وعاث فيها ونهب وفتح حصنا يعرف بفرقوس.

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

في هذه السنة قتـل معز الدين سنجر شـاه بن سيف الديـن غازي بن مودود بن عماد الـدين بن زنكي بن آق سنقـر صاحب جزيـرة ابن عمر، وقـد تقدم ذكـر ولايته في سنـة ست وسبعين وخمسمائة قتلـه ابنه غـازي، وكان سنجـر شاه ظالما قبيـح السيرة جدا لايتمنـع عن قبيح يفعلـه من القتل، وقطع الألسنـة والأنوف والآذان وحلق اللحى، وتعـدى ظلمه إلى أولاده وحـريمـه، فبعـث ابنيه محمـودا ومـودودا إلى قلعـة فحبسهما فيهـا، وحبس ابنـه المذكور غـازي في دار في المدينة، وضيـق عليه، وكـان بتلك

الدار هـوام كثيرة فاصطـاد غازي المذكور منهـا حية وأرسلهـا إلى أبيه في منديل لعله يرق عليه فلم يزده ذلك إلا قسوة، فأعمل غازي الحيلة حتى هرب، وكـان له واحـد يخدمه فقرر معـه أن يسافر ويظهـر أنه غـازي بن معز الـدين سنجـر شاه ليـأمنه أبـوه فمضى ذلـك الإنسان إلى الموصـل فأعطي شيئا وسافر منها، واتصل ذلك بسنجر شاه فاطمأن، وتوصل ابنه غازي حتى دخـل إلى دار أبيه واختفى عند بعض سراري أبيـه، وعلم به جماعة منهم، وكتموا ذلك عن سنجـر شاه لبغضهم فيه، واتفق ان سنجر شاه شرب يـوما بظـاهر البلـد وشرع يقترح على المغنين الأشعار الفـراقية، وهو يبكي، ودخل داره سكـران إلى عند الحظية التي ابنه مخبأ عنـدها، ثم قام معز الـدين سنجر شاه ودخـل الخلاء فهجم عليه ابنه غـازي فضربه أربعـةعشرة ضربـة بالسكين، ثـم ذبحه وتركـه ملقى، ودخـل غازي الحمام وقعد يلعب مـع الجواري، فلو أحضر الجند واستحلفهم في ذلـك الوقت لتم له الأمـر، وملك البـلاد، ولكنـه تنكر واطمـأن، فخرج بعـض الخدم وأعلـم أستـاذ الدار فجمـع النـاس وهجـم على غازي وقتلـه، وحلـف العسكـر لأخيه محمـود بن سنجـر شاه، ولقـب معـز الديـن بلقب أبيـه، ووصـل معز الـديـن محمـود بن سنجـر شـاه بـن زنكي، واستقـر ملكـه بالجزيرة، وقبض على جواري أبيه فغرقهـن في دجلة، ثم قبض محمود بعد ذلك أخاه مودودا.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في هـذه السنة سـار الملك العـادل من دمشـق، وقطع الفـرات، وجمع العساكـر والملوك من أولاده، ونـزل حران ووصـل إليه بها الملك الصـالح محمود بـن محمد بـن قرا أرسـلان الأرتقي، صـاحب آمـد وحصن كيفـا، وسار الملك العادل مـن حران، ونازل سنجار، وبها صاحبها قطـب الدين محمد بن عماد الـدين زنكي بن مـودود بن عماد الدين زنكـي فحاصرها، وطال الأمـر في ذلك، ثم خـامرت العساكـر التي صحبة الملـك العادل،

ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه، فرحل عن سنجار، وعاد إلى حران، واستولى الملك العادل على نصيبين، وكانت لقطب الدين محمد المذكور، وكذلك استولى على الخابور.

وفي هذه السنة توفي الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين............

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

وفيها عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق، وفيها قصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الأوحد ابن الملك العادل بها، واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر فحسن له السكر أنه تقدم إلى خلاط في عشرين فارسا، فخرج إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيرا، وحمل إلى الملك الأوحد، فرد على الملك الأوحد عدة قلاع، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة، وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحد، فتسلم ذلك منه، وأقام وتحالفا وأطلق.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل في آخر رجب، وكان مرضه قد طال، وملك الموصل سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيارة ليستحم بها، وعاد إلى الموصل في سيارة فتوفي في الطريق ليلا، وكان أسمر حسن الوجه قد أسرع إليه الشيب، وكان شديد الهيبة على أصحابه، وكان عنده قلة صبر في أموره، واستقر في ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن

أرسلان شاه بن مسعود، وكان عمر القاهر عشر سنين، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره، وهذا لولو هو الذي ملك الموصل على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكي ملكه أبوه قلعتي العقر وشوش، وهما بالقرب من الموصل.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق، ويجعلوه قدوتهم.

وفيها سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق، ومقامه إلى الديار المصرية، وأقام بدار الوزارة.

وفيها توفي فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم.

ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خلاط

في هذه السنة توفي الملك الأوحد أيوب بن الملك العادل، فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط، واستقل بملكها مضافا إلى مابيده من البلاد الشرقية، فعظم شأنه ولقب شاه أرمن.

وفي هذه السنة قتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم، وقتله ملك الأشكري،وملك بعده ابنه كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان، حسبما تقدم ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

-١٠١٨٠-

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

في هذه السنة قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين سامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون، بأمر أبيه الملك العادل، وحبسه في الكرك إلى أن مات بها، وحاصر القلعتين المذكورتين، وتسلمها من غلمان سامة وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها فخربت وبقيت خرابا، وأبقى عجلون وانقرضت الصلاحية بهذا سامة، وملك الملك المعظم بلاد جهاركس وهي بانياس ومامعها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمي.

وفي هذه السنة عاد الملك العادل إلى الشام وأعطى ولده الملك المظفر غازي الرها مع ميافارقين.

وفيها أرسل الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل، فاستعطف خاطره، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، فزوجها من الملك الظاهر، وزال ماكان بينهما من الاحن..............

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

في هذه السنة في المحرم عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل، وكان المهر خمسين ألف دينار، وتوجهت من دمشق في المحرم إلى حلب فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة.

وفيها عمر الملك العادل قلعة الطور، وجمع لها الصناع من البلاد والعسكر حتى تمت.

وفي هذه السنة سار طغريل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم وحاصر ابن أخيه سلطان الروم كيكاوس بسيواس، فاستنجد كيكاوس بالأشرف بن العادل، فخاف عمه طغريل ورحل عنه، وكان لكيكاوس أخ اسمه كيقباذ، فلما جرى ماذكرناه سار كيقباذ واستولى على أنكورية من بلاد أخيه كيكاوس، فسار كيكاوس وحصره وفتح أنكورية وقبض أمرائه وحلق لحاهم ورؤوسهم، وأركب كل واحد منهم فرسا وأركب قدامه وخلفه قحبتين وبيد كل منهما معلاق تصفعه به، وبين يدي كل واحد منهم مناد ينادي هذا جزاء من خان سلطانهم.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

في هذه السنة ظفر عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم بعمه طغريل شاه، فأخذ بلاده وقتله وذبح أكثر أمرائه، وقصد قتل أخيه علاء الدين كيقباذ، فشفع فيه بعض أصحابه فعفا عنه.

وفيها في رمضان توفي بحلب فارس الدين ميمون القصري، وهو آخر من بقي من كبراء الأمراء الصلاحية، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر، كان قد أخذه السلطان صلاح الدين من هناك وفيها ولد للملك الظاهر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولده الملك العزيز غياث الدين محمد...........

ثم دخلت سنة إحدى عشر وستمائة

في هذه السنة توفي دلدرم بن ياروق، صاحب تل باشر، وولي تل باشر بعده ابنه فتح الدين.............

وفيها أسرت التركمان ملك الأشكري، وهو قاتل غياث الدين كيخسرو فحمل إلى ابنه كيكاوس بن كيخسرو، فأراد قتله فبذل له في

نفسه أموالا عظيمة، وسلم إلى كيكاوس قلاعا وبلادا لم يملكها المسلمون قط.

وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى مصر............

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب.

ولما كانت صبيحة يوم السبت وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة. ابتدأ بالملك الظاهر المذكور حمى حادة، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين ان يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز، ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازي، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، وأعذق به جميع أمور الدولة، وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر كفر سودا، وأخرج من حلب في ليلته بالتوكيل، وأخرج علم الدين قيصر الملك الظاهر ومنع الناس الدخول إليه، وتوفي في ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، وكان مولده بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة فكان عمره أربعا وأربعين سنة وشهورا، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي، وكان ذكيا فطنا، وترتب الملك العزيز في المملكة ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم، فدبر الأمور وأحسن السياسة، وكان عمر الملك

العزيز لما قـرر في المملكة سنتين وأشهرا، وعمر أخيه الملك الصـالح نحو اثنتي عشرة سنة.

وفي هذه السنة توفي تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد الكندي، وكان إمـاما في النحـو واللغة، ولـه الإسناد العالي في الحديـث، وكان ذا فنـون كثيرة في أنواع العلم، وهو بغدادي المولد والمنشأ، وانتقل وأقام بدمشق.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

والسلطان الملـك العادل بالـديار المصرية، وقـد اجتمعت الفرنـج من داخل البحر ووصلوا إلى عكا في جمع عظيـم، ولما بلغ الملك العادل ذلك خرج بعساكر مصر، وسار حتى نزل على نـابلس، فسارت الفرنج إليه، ولم يكن معه من العساكر مايقدر به على مقـاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عقبة أفيـق، فـأغاروا على بـلاد المسلمين، ووصلـت غـارتهم إلى نوى مـن بلـد السواد، ونهبـوا مابين بيسـان ونابلس، وبثـوا سراياهـم فقتلوا وغنمـوا من المسلمين مايفـوت الحصر، وعادوا إلى مـرج عكا وكانـت قوة هـذا النهب مابين منتصف رمضـان وعيد الفطر من هذه السنة، وأقـام الملك العادل بمـرج الصفر، وسـارت الفرنـج وحصروا حصـن الطور، وهـو الذي بنـاه الملك العادل على مـاتقدم ذكره، ثم رحلـوا عنه وانقضت السنة والفـرنج بجموعهم في عكا.......

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

والملك العادل بمـرج الصفر، وجموع الفرنج بمرج عكا، ثـم ساروا منها إلى الديـار المصرية، ونزلـوا على دمياط، وسار الملـك الكامل ابـن الملك العـادل مـن مصر، ونزل قبـالتهـم، واستمـر الحال كـذلك أربعـة أشهـر، وأرسل الملـك العادل العسـاكر التي عنـده إلى عند ابنـه الملك الكـامل،

فوصلت إليه أولا فأولا، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل، أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط.

ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل، وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الأول، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكي، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين، فأوصى بالملك له، وأن يقوم بتدبير مملكته بدرالدين لؤلؤ فنصبه بدر الدين لؤلؤ في المملكة، وجعل الخطبة والسكة باسمه، وقام لؤلؤ بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر وفاة كيكاوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب، وأجلس ابنه العزيز في المملكة، وكان طفلا طمع صاحب بلاد الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سميساط، واتفق معه كيكاوس أن يفتح حلب وبلادها، ويسلمها إلى الملك الأفضل، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكاوس، وتحالفا على ذلك وسار كيكاوس إلى جهة حلب، ومعه الملك الأفضل ووصلا إلى رعبان واستولى عليها كيكاوس وسلمها إلى الملك الأفضل، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك، ثم سار إلى تل باشر وبها ابن دلدرم ففتحها، ولم يسلمها إلى الملك الأفضل، وأخذها كيكاوس لنفسه، فنفر خاطر الملك الأفضل وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك، ووصل الملك

الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكاوس عن البلاد، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثه أمير العرب في جمع عظيم، وكان قد سار كيكاوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضا، وسار الملك الأشرف بالجموع التي معه، ونزل وادي بزاعا وأتقع بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكاوس، فانهزمت مقدمة عسكر كيكاوس، وأخذ من عسكر كيكاوس عدة أسرى، فأرسلوا إلى حلب ودقت البشائر لها، ولما بلغ ذلك كيكاوس، وهو بمنبج ولى منهزما مرعوبا، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها، وكذلك استرجع رعبان وغيرها، وتوجه الملك الأفضل إلى سميساط، ولم يتحرك بعدها في طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وعاد الملك الأشرف إلى حلب، وقد بلغه وفاة أبيه.

ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلا بمرج الصفر، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين وهي عند عقبة أفيق، فنزل بها ومرض، واشتد مرضه ثم توفي هناك إلى رحمة الله تعالى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة خمس عشرة وستمائة، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة، وكان عمره خمسا وسبعين سنة، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازما متيقظا، غزير العقل، سديد الآراء، ذا مكر وخديعة، صبورا حليما يسمع مايكره ويغضي عنه، وأتته السعادة واتسع ملكه، وكثرت أولاده، ورأى فيهم مايحب، ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر مارآه الملك العادل في أولاده،ولقد أجاد شرف الدين بن عنين في قصيدته التي مدح بها الملك العادل التي

مطلعها:

مـــاذا على طيـــف الأحبـــة لـــو سرى
وعليهـــم لـــو ســـامحوني بـــالكـــرى

ومنها:

العـــادل الملـــك الـــذي أسماؤه
في كـــل نـــاحيـــة تشرف منبرا
مـــا في أبي بكـــر لمعتقـــد الهدى
شـــك يـــريـــب بـــأنـــه خير الـــورى
بين الملـــوك الغـــابـــريـــن وبينـــه
في الفضـــل مـــابين الثـــريـــا والثـــرى
نسجـــت خـــلائقـــه الحميـــدة مـــا أتـــى
في الكتـــب عـــن كسرى الملـــوك وقيصرا

ومنها في وصف أولاده:

لاتسمعـــن حـــديـــث ملـــك غيره
يـــروى فكـــل الصيـــد في جـــوف الفـــرا
ولـــه الملـــوك بكـــل أرض منهـــم
ملـــك يجر إلى الأعـــادي عسكـــرا
مـــن كـــل وضـــاح الجبين تخالـــه
بـــدرا فـــإن شهـــد الـــوغـــى فغضنفـــرا

وخلف الملك العادل ستة عشر ولـدا ذكرا غير البنات، ولما توفي الملك العـادل لم يكـن عنده أحـد مـن أولاده حـاضرا، فحضر إليه ابنـه الملـك المعظم عيسى، وكان بنـابلس بعد وفاته، وكتم موتـه وأخذه ميتا في محفة، وعاد بـه إلى دمشق واحتوى الملـك المعظم على جميع مـاكان مع أبيـه من الجواهـر والسلاح والخيـول، وغير ذلـك، ولما وصـل دمشق حلـف جميـع الناس له، وأظهر مـوت أبيه، وجلس للعزاء، وكتب إلى الملوك مـن أخوته وغيرهـم يخبرهم بمـوته، وكـان في خـزانة الملـك العادل لما تـوفي سبعمائة

ألف دينار عينا، ولما بلغ الملك الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه ذلك جدا، واختلفت العساكر عليه فتأخر عن منزلته، وطمعت الفرنج، ونهبت بعض أثقال المسلمين، وكان في العسكر عماد الدين أحمد ابن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان مقدما عظيما في الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة، وحصل في العسكر اختلاف كثير حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد واللحوق باليمن، وبلغ الملك المعظم عيسى بن العادل ذلك فرحل من الشام ووصل إلى أخيه الملك الكامل، وأخرج عماد الدين ابن المشطوب ونفاه من العسكر إلى الشام، فانتظم أمر السلطان الملك الكامل، وقوي مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب ماذكرناه من الفتنة التي حصلت في عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب.

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم في سنة سبع وستمائة أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي المذكور قلعتي العقر وشوش، فلما مات أخوه القاهر وأجلس ولده أرسلان شاه ابن القاهر في المملكة، وكان به قروح وأمراض، تحرك عمه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه وقصد العمادية، واستولى عليها، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ المستولي على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه بالملك الأشرف ابن الملك العادل، ودخل في طاعته، فأنجده الملك الأشرف بعسكر، وساروا إلى زنكي بن أرسلان شاه فهزموه، وكان زنكي المذكور مزوجا ببنت مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وأم البنت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان الملك العادل زوجة مظفر الدين، فكان مظفر الدين لايترك

ممكنا في نجـدة صهره زنكـي المذكور ويبالـغ في عداوة بدر الـدين لـؤلؤ لأجل صهره.........

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

والملـك الأشرف مقيم بظـاهر حلـب يدبر أمـر جندهـا وأقطاعـاتها، والملـك الكامـل بمصر في مقابلـة الفـرنج، وهـم محدقون محاصرون لثغـر دمياط، وكتب الملك الكامل متواصلة إلى اخوته في طلب النجدة.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفي هذه السنة تـوفي نور الدين أرسـلان ابن الملك القاهـر مسعود بن أرسلان شـاه بن مسعـود بن مودود بـن عماد الديـن زنكي بـن آق سنقر، وكان لايـزال مريضا فـأقام بدر الـدين لؤلـؤ في الملك بعده أخـاه ناصر الدين محمود بـن الملك القاهر، وكان عمره يومئـذ نحو ثلاث سنين، وهو آخر من خطب له مـن بيت أتابك بالسلطنة، وكان أبوه القـاهر آخر من كان له استقلال بالملك منهم، ثـم إن هذا الصبي مات بعد مدة واستقل بدر الـدين لؤلـؤ بالملك وأتتـه السعادة، وطـالت مدة ملكـه إلى أن توفي بالموصل، بعد أخذ التتر بغداد، على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته في سنة أربع وتسعين وخمسمائة

وفي هذه السنـة: توفي قطـب الديـن محمد بـن عماد الديـن زنكي بـن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقـر صاحب سنجار فملك سنجار بعده ولـده عماد الديـن شاهنشـاه بن محمـد، وكان قطـب الديـن حسن السيرة في رعيته وبقـي عماد الديـن شاهنشاه في الملـك شهورا، ثـم وثب

عليه أخوه محمود بن محمد فذبحه وملك سنجار، وهذا محمود هو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكي

ذكر تخريب القدس

وفي هذه السنة: أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق الحجارين والنقابين إلى القدس، فخرب أسواره، وكانت قد حصنت إلى الغاية، فانتقل منه عالم عظيم، وكان سبب ذلك أن الملك المعظم لما رأى قوة الفرنج وتغلبهم على دمياط خشي أن يقصدوا القدس، فلا يقدر على منعهم فخربه لذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

ولم تزل الفرنج يضايقون دمياط حتى هجموها في هذه السنة عاشر رمضان، وقتلوا وأسروا من بها، وجعلوا الجامع كنيسة، واشتد طمع الفرنج في الديار المصرية، وحين أخذت دمياط ابتنى الملك الكامل مدينة وسماها المنصورة عند مفترق البحرين الآخذ أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشمون طناح، ونزل فيها بعساكره............

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

في هذه السنة حلف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك المظفر محمود، وجعله ولي عهده، وجرد عسكرا والطواشي مرشد المنصوري نجدة إلى الملك الكامل بديار مصر فسار إليه، ولما وصل إلى الملك الكامل أكرمه وأنزله في ميمنة عسكره،وهي منزلة أبيه وجدة في الأيام الناصرية الصلاحية، وبعد توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل.

قال القاضي جمال الدين مؤلف مفرج الكروب: وحضرت العزاء وعمري اثنتا عشرة سنة، ورأيت الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة، وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء، وأنشدته الشعراء المراثي فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خشترين، وهو جندي كردي مطلعها:

الطرف في لجة والقلب في سعر
له دخان زفير طار بالشرر

ومنها في لبس الملك المنصور الحداد مطلعها :

ما كنت أعلم أن الشمس قد غربت
حتى رأيت الدجى ملقى على القمر
لو كان من مات يفدى قبلها الفدى
أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكاوس وملك أخيه كيقباذ

في هذه السنة توفي الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، صاحب بلاد الروم، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة سبع وستمائة، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه، ومات فملك بعده أخوه كيقباذ بن كيخسرو، وكان كيقباذ محبوسا قد حبسه أخوه كيكاوس، فأخرجه الجند وملكوه.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري الضرير النحوي الحاسب اللغوي وكان حنبليا صحب ابن الخشاب النحوي وغيره، وفيها توفي أبو الحسن علي بن القاسم بن علي ابن الحسن الدمشقي الحافظ ابن الحافظ ابن الحافظ المعروف بابن

عساكر، وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر وعاد إلى بغداد، وكان قد وقع على القفل الذي هو فيه في الطريق حرامية، وجرحوا ابن عساكر المذكور، ووصل على تلك الحال إلى بغداد وبقي بها حتى توفي في هذه السنة في جمادى الأولى رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والفرنج متملكون على دمياط والسلطان الملك الكامل مستقر في المنصورة مرابط للجهاد والملك الأشرف في حران، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب رأس عين، فخرج على الملك الأشرف وجمع ابن المشطوب المذكور جمعا وحسن لصاحب سنجار محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضا، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصر ابن المشطوب بتل أعفر، وأخذه بالأمان، ثم قبض عليه، وأعلم الملك الأشرف بذلك فسر به غاية السرور، واستمر عماد الدين أحمد بن سيف الدين بن المشطوب في الحبس، ثم سار الملك الأشرف من حران واستولى على دنيسر، وقصد سنجار، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ليسلم سنجار إلى الملك الأشرف فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك وتسلم سنجار في مستهل جمادى الأولى، وسلم إليه الرقة، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف فإن أباه الملك العادل نازل سنجار في جموع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعي، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجار، سار إلى الموصل، ووصل إليها في تاسع عشر جمادى الأولى، وكان يوم وصوله إليها يوما مشهودا، وكتب إلى مظفر الدين صاحب إربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي على بدر الدين لؤلؤ القلاع التي استولى عليها، فأعادها جميعها، وترك في يده منها العمادية، واستقر الصلح بين الملك الأشرف

وبين مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب العقر، وشوش، والعمادية، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ولما استقر ذلك رحل الملك الأشرف عن الموصل ثاني شهر رمضان من هذه السنة، وعاد إلى سنجار، وسلم بدر الدين لؤلؤ قلعة تلعفر إلى الملك الأشرف، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل وحطه مقيدا في جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة، ولقي بغيه وخروجه مرة بعد أخرى.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة بقلعة حماة في ذي القعدة، وكان مدة مرضه إحدى وعشرين يوما بحمى حادة وورم دماغه، وكان شجاعا عالما يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين علي الآمدي، وكان في خدمة الملك المنصور قريب مائتي متعمم من: النحاة، والفقهاء، والمشتغلين بغير ذلك، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المضمار في التاريخ، وطبقات الشعراء، وكان معتنيا بعمارة بلده، والنظر في مصالحه وهو الذي بني الجسر الذي هو بظاهر حماة خارج باب حمص، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد: حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، ولما فتح بارين وكانت بيد ابراهيم ابن المقدم ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضا عنها، وهما خير من بارين بكثير، اختار ذلك لقرب بارين من بلده، وجرت له حروب مع الفرنج، وانتصر فيها وكان ينظم الشعر.

-١٠١٩٣-

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفي الملك المنصور كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر في مقابلة الفرنج، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق وهو في الساحل في الجهاد، وقد فتح قيسارية وهدمها وسار إلى عثليث ونازلها، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلين عريكته وشدة بأس الملك المظفر، فأرسلوا إلى الملك الناصر وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يحمله إلى الملك المعظم في كل سنة قيل إن مبلغه أربعمائة ألف درهم، فلما أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه أطلقه الملك المعظم فقدم الملك الناصر إلى حماة، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه، فاستحلفوه على ماأرادوا، وأصعدوه إلى القلعة، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة، لأن مولده سنة ستمائة، ولما استقر الملك الناصر في ملك حماة، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك، استأذن الملك الكامل في المضي إلى حماة ظنا منه أنه إذا وصل إليها يسلمونها إليه بحكم الأيمان التي كانت له في أعناقهم، فأعطاه الملك الكامل الدستور، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله، فسار الملك المظفر إلى دمشق، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلي وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة في تسليمها إلى الملك المظفر، فلم يحصل منهم إجابة فعاد الملك المظفر إلى مصر، وأقام في خدمة الملك الكامل، وأقطعه أقطاعا بمصر، إلى أن كان ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

- ١٠١٩٤ -

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل على خلاط وميافارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور: الرها، وسروج، وكانت ميافارقين، وخلاط بيد الملك الأشرف، ولم يكن للملك الأشرف ولد، فجعل أخاه الملك المظفر غازي ولي عهده، وأعطاه ميافارقين وخلاط وبلادها، وهي إقليم عظيم يضاهي ديار مصر، وأخذ الملك الأشرف منه الرها وسروج.

وفي هذه السنة توفي بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان فقيها فاضلا من بيت كبير بخراسان، وخلف أربعة بنين عرفوا بأولاد الشيخ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل، وسنذكر بعض أخبارهم في موضعها إن شاء الله تعالى، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولا إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فمات هناك............

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفي هذه السنة قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في ملك الديار المصرية، وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر، ووصلوا إلى المنصورة، واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وكتب السلطان الملك الكامل متواترة إلى أخوته، وأهل بيته يستحثهم على إنجاده، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، وهو ببلاده الشرقية واستنجده وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل، فجمع الملك الأشرف عساكره واستصحب عسكر حلب، وكذلك استصحب

معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة، وكان الملك الناصر خائفا من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة أنه مايمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه، فسار معه بعسكر حماة، وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق، ووصلوا إلى الملك الكامل وهو في قتال الفرنج على المنصورة، فركب والتقى أخويه ومن في صحبتهما من الملوك، وأكرمهم وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الاسلام وتجملهم، واشتد القتال بين الفريقين ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم: القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية، وجبلة، وجميع مافتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ماعدا الكرك والشوبك، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب أسوار القدس، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره، وقالوا لابد من تسليم الكرك والشوبك، وبينا الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط، ففجروا فجرة عظيمة من النيل، وكان ذلك في قوة زيادته، والفرنج لاخبرة لهم بأمر النيل، فركب الماء تلك الأرض، وصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط، وانقطع عنهم الميرة والمدد، فهلكوا جوعا، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع مابذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط، ويعقدوا مدة للصلح، وكان فيهم عدة ملوك كبار نحو عشرين ملكا، فاختلفت الآراء بين يدي السلطان الملك الكامل في أمرهم، فبعضهم قال لانعطيهم أمانا ونأخذهم ونتسلم بهم مابقي

بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار، وتضجر العساكر لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال معهم، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ملك عكا ونائب البابا صاحب رومية الكبرى وكندريس، وغيرهم من الملوك، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين وجلس لهم مجلسا عظيما، ووقف بين يديه الملوك من أخوته وأهل بيته جميعهم، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة، وقد حصنها الفرنج إلى غاية مايكون، وولاها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوي، وهو من مماليك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم، ثم سار السلطان الملك الكامل، ودخل دمياط ومعه أخوته وأهل بيته، وكان يوما مشهودا، ثم توجه إلى القاهرة، وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق، وانتزع الرقة من محمود، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، ولقي بغيه على أخيه، فإنا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله، وأخذ سنجار، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ثم عاد إلى بلاده.

ذكر وفاة صاحب آمد

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب آمد وحصن كيفا بالقولنج، وقام في الملك بعده ولده الملك المسعود، وهو الذي انتزع منه

الملك الكامل آمد، وكان الملك الصالح المذكور قبيح السيرة، وقد أورد ابن الأثير وفاته في سنة تسع عشرة..........

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

في هذه السنة استقل بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتوفي الطفل الذي كان قد نصبه في المملكة وهو ناصر الدين محمود بن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وسمى لؤلؤ نفسه الملك الرحيم، وكان قد اعتضد بالملك الأشرف ابن الملك العادل، فدافع عنه ونصره وقلع لؤلؤ البيت الأتابكي بالكلية واستمر مالكا للموصل نيفا وأربعين سنة، سوى ماتقدم له من الاستيلاء والتحكم في أيام أستاذه نور الدين أرسلان شاه وابنه الملك القاهر مسعود.

وفي هذه السنة سار الملك الأشرف إلى خدمة أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بمصر متنزها إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة فوض الأتابك طغريل الخادم مدبر مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمر الشغر وبكاس، فسار الملك الصالح من حلب، واستولى عليهما، وأضاف إليه الروج ومعرة مصرين.

وفي هذه السنة قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة، لأن الملك الناصر صاحب حماة كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماة، فلم يف له، فقصد الملك المعظم حماة ونزل بجبرين، وغلقت أبواب حماة، فقصدها الملك المعظم، وجرى بينهم قتال قليل، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها وأقام فيها واليا من جهته، وقرر أمورها ثم عاد إلى سلمية، فأقام بها حتى خرجت هذه السنة في قصد منازلة حماة.

-١٠١٩٨-

وفي هـذه السنة: حـج من اليمـن الملك المسعـود بن يـوسف الملقـب أطسز، وهـو اسـم تـركي، والعامـة تسميه أقسيـس، وكان قـد استولى على اليمن سنـة اثنتي عشرة وستمائة، وقبـض على سليمان شاه بـن شاهنشـاه ابن عمـر بن شاهنشـاه بن أيوب، وحـج في هذه السنة، فلما وقـف الملك المسعود في هذه السنة بعـرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمـام الناصر لترفع على الجبل تقـدم الملك المسعـود بعساكره ومنـع من ذلـك، وأمر بتقـديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه مـن ذلك ثم عاد الملك المسعود إلى اليمـن، وبلغ ذلك الخليفة فعظـم عليه، وأرسل يشكـو إلى الملك الكامـل فاعتذر عـن ذلك فقبل عـذره، وأقام الملك المسعود في اليمـن مدة يسيرة، ثم عـاد إلى مكة ليستولي عليهـا، فقابلـه الحسن بـن قتادة فـانتصر الملك المسعـود وانهزم الحسـن بن قتـادة، واستقـرت مكة في ملـك الملـك المسعود وولى عليهـا وذلك في ربيع الأول من سنة عشرين وستمائة ثم عاد إلى اليمن.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

والأشرف بديار مصر عنـد أخيه الملك الكامل وأخـوهما الملك المعظم بسلمية مستـول عليها وعلى المعـرة، عازم على حصـار حماة، وبلغ الملـك الأشرف مافعله أخـوه المعظم بصاحب حماة، فعظم عليه ذلـك واتفق مع أخيـه الكامـل على الإنكـار على الملك المعظـم وهـو بسلميـة وقال لـه: السلطان يـأمرك بـالرحيـل، فقال: السمـع والطاعـة وكانـت أطماعه قـد قـويـت في الاستيـلاء على حماة، فـرحـل مغضبـا على أخـويـه الكـامـل والأشرف، ورجعت المعـرة وسلمية للناصر، وكـان الملك المظفر محمـود بن الملك المنصـور محمد بن تقـي الدين عمر بـن شاهنشاه بـن أيوب مقيما عند الملك الكـامل بالديار المصريـة كما تقدم ذكره، وكان الملـك الكامل يؤثـر تمليكه حماة، لكن الملـك الأشرف غير مجيب إلى ذلـك لانتماء الملك النـاصر صـاحـب حماة إليـه، وجـرى بين الكـامـل والأشرف في ذلـك

مراجعات كثيرة آخرها أنهما اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر، فتسلمها الملك المظفر، وأرسل إليها وهو بمصر نائبا من جهته حسام الدين أبا علي ابن محمد بن علي الهذباني، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة، وبعرين، ثم سار الأشرف من مصر، واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب، وعمره يومئذ عشر سنين، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب، وأركب الملك العزيز في دست السلطنة، وفي هذه السنة لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب، اتفق مع الملك الأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكرا وهدمها إلى الأرض...........

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها، وطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحدا يصلح لذلك، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي من بيت كبير مشهور، فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر فأمر ولده فتنصر، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكا لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوما إلى البيت فوجد المملوك نائما معها في الفراش، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته في بعض القلاع، ثم أحضرت رجلين كانا قد وصفا لها بحسن الصورة فتزوجت أحدهما ثم فارقته، وأحضرت انسانا من كنجة مسلما وهويته وسألته ان يتنصر لتتزوج به فلم يجب إلى ذلك، وتردد الرسل بينهما في ذلك مدة فلم يجبها إلى التنصر..........

- ١٠٢٠٠ -

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عصيان المظفر غازي بن العادل على أخيه الملك الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازي بخلاط، وهي مملكة عظيمة،وهي إقليم أرمينية وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، كما قدمنا ذكره، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الملك الأشرف، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك، وخالف أخاه الملك الأشرف، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك، وكان بدر الدين لؤلؤ منتميا إلى الملك الأشرف، فسار مظفر الدين صاحب إربل وحصر الموصل عشرة أيام، وكان نزوله على الموصل ثالث عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، ليشغل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل، وسار إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي، فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل، فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقي البلاد منه، وكان استيلاء الملك الأشرف على خلاط، وأخذها من أخيه في جمادى الآخرة من هذه السنة.

-١٠٢٠١-

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين يوسف

في هذه السنة توفي الملك الأفضل المذكور، وليس بيده غير سميساط فقط، وكان موته فجأة وعمره سبع وخمسون سنة، وكان الملك الأفضل فاضلا حسن السيرة، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة، وكان مع ذلك قليل الحظ، وله الأشعار الحسنة فمنها يعرض إلى سوء حظه قوله:

يا من يسود شعره بخضابه
لعساه من أهل الشبيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظي مرة
ولك الأمان بأنه لا ينصل

ولما أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتابا منه: أما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك:

أي صديق سألت عنه ففي الذ
ل وتحت الخمول في الوطن
وأي ضد سألت حالته
سمعت ما لا تحبه أذني

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفي أول شوال من هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله، وكانت مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة وعمي في آخر عمره، وكان موته بالدوسنطاريا، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن

المستضيء حسن ابن المستنجد يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير اسحق ابن المقتدر جعفر ابن المكتفي علي ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق—قيل اسمه طلحة وقيل محمد— ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما لهم خرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وكان يتشيع وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب ويلبس سراويلات الفتوة ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا انسانا واحدا يقال له ابن السفت وهرب من بغداد إلى الشام، وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، بسبب ماكان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة، ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق.

ذكر خلافة ابنه الظاهر

وهو خامس ثلاثينهم ولما توفي الإمام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، فأظهر العدل، وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين وظهر للناس، وكان الناصر ومن قبله لايظهرون إلا نادرا، ولم تطل مدته في الخلافة غير تسعة أشهر.....

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق، ونازل حمص، وكان قد اتفق مع جلال الدين ابن خوارزم شاه ومع مظفر

الدين صاحب إربل على أن يكونوا يدا واحدة، وكان الملك الأشرف ببلاده الشرقية، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيله وخيل عسكره، وورد عليه أخوه الملك الأشرف طلبا للصلح وقطعا للفتن فبقي مكرما ظاهرا، وهو في الباطن كالأسير معه، وأقام الملك الأشرف عند أخيه المعظم إلى أن انقضت هذه السنة، وأما الملك الكامل فإنه كان بمصر وقد تخيل من بعض عسكره فما أمكنه الخروج عنها.

وفي هذه السنة فتح السلطان جلال الدين تفليس من الكرج وهي من المدن العظام، وفي هذه السنة سار جلال الدين ونازل خلاط وهي منازلته الأولى، فطال القتال بينهم وكان نائب الأشرف بخلاط الحاجب حسام الدين علي الموصلي، وكان نزوله عليها ثالث عشر ذي القعدة ورحل عنها لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بسبب كثرة الثلوج.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفي رابع عشر رجب من هذه السنة توفي الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله، وكان متواضعا محسنا إلى الرعية جدا، وأبطل عدة مظالم، منها أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي يتعامل بها الناس، وكان زيادة الصنجة في كل دينار حبة، فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله: (ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)(المطففون ١—٣) وعمل صنجه المخزن مثل صنجة المسلمين، وكان مضادا لأبيه الناصر في كثير من أحواله منها أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة، ومدة خلافته كانت قصيرة، وكان أبوه متشيعا، وكان الظاهر سنيا، وكان أبوه ظالما جماعا للمال، وكان الظاهر في غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء.

ـ ١٠٢٠٤ ـ

ذكر خلافة المستنصر

وهو سادس ثلاثينهم، ولما توفي الظاهر ولي الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاجي في غاية الشجاعة، وبقي حيا حتى أخذت التتر بغداد، وقتل مع من قتل، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك في العدل والإحسان مسلك ابيه الظاهر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتقي صاحب آمد، فنزل كيقباذ بملطية وهي من بلاد كيقباذ، وأرسل عسكرا ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا، وكانا لصاحب آمد المذكور.

وفيها في خامس عشر الحجة نازل جلال الدين مدينة خلاط وهي للملك الأشرف وبها نائبه حسام الدين علي الحاجب، وهي منازلته الثانية، وجرى بينهم قتال شديد، وأدركه البرد، فرحل عنها في السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والملك الكامل بديار مصر، وجلال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران، وبعض بلاد الكرج، وعراق العجم وغيرها، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأشرف، والرسل لاتنقطع بين المعظم وجلال الدين، والملك الأشرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم، ولما رأى الملك الأشرف حاله مع أخيه المعظم، وأنه لاخلاص له منه إلا بإجابته إلى مايريد، أجابه كالمكره إلى ماطلبه منه، وحلف له أن

- ١٠٢٠٥ -

يعاضده، ويكون معه على أخيهما الملك الكامل، وأن يكون معه على صاحبي حماة وحمص، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم، فرحل الملك الأشرف في جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر، ولما استقر الملك الأشرف ببلاده رجع عن جميع ماتقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم، وتأول في أيمانه التي حلفها أنه مكره، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، وكاتب الانبرطور ملك الفرنج في أن يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه، ووعد الانبرطور بأن يعطيه القدس، فسار الانبرطور إلى عكا، فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه، وفي هذه السنة انتزع الاتابك طغريل الشغر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر، وعوضه عنها بعينتاب والراوندان.

وفيها سار الحاجب حسام الدين علي، نائب الملك الأشرف بخلاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على: خوي، وسلماس، ونقجوان.

-١٠٢٠٦-

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

في هـذه السنة في ذي القعـدة تـوفي الملك المعظـم عيسـى ابن الملـك العـادل أبي بكر بـن أيـوب بقلعة دمشـق بـالدوسنطـاريـا، وعمره تسـع وأربعـون سنـة، وكانـت مـدة ملكـه دمشـق تسع سنين وشهـورا، وكـان شجـاعـا، وكان عسكـره في غـايـة التجمـل، وكـان يجامل أخـاه الملـك الكامـل، ويخطب لـه ببلاده، ولايـذكر اسمـه معه، وكـان الملك المعظـم قليل التكلـف جدا في غـالـب الأوقات لايـركـب بالسنـاجق السلطـانية، وكان يـركـب وعلى رأسه كلـوته صفراء بـلا شاش، ويتخرق الأسـواق من غير أن يطرق بين يـديه، كما جـرت عادة الملوك، ولما كثـر مثل هـذا منه صار الانسان إذا فعـل أمرا لايتكلف له يقـال قد فعله بالمعظمـي، وكان عالما فاضـلا في الفقه والنحو، وكان شيخـه في النحو تاج الديـن زيد بن الحسن الكنـدي، وفي الفقه جمال الديـن الحصيري، وكان حنفيـا متعصبا لمذهبـه، وخالـف جميع أهـل بيته فـإنهم كانـوا شافعيـة، ولما توفي الملـك المعظم تـرتب في مملكته وأعمالها بعـده ولده الملـك الناصر صلاح الـدين داود، وقام بتدبير مملكتـه مملوك والده وأستاذ داره الأمير عز الـدين أيبك المعظمي، وكان لأيبك المذكور صرخد.........

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

في هذه السنـة أرسل الملـك الكامـل، صاحـب مصر، يطلب مـن ابن أخيـه الملـك الناصر داود ابـن الملـك المعظـم صـاحـب دمشـق حصـن الشوبـك، فلم يعطـه الملك النـاصر ذلك، ولاأجـابه إليـه، فسار الملـك الكـامـل من مصر في هـذه السنـة في رمضـان إلى الشام، ونـزل على تـل العجول بظاهر غزة، وولى على نابلس والقـدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه الملك النـاصر داود المذكور صاحب دمشـق حينئذ، وكان صحبـة الملك الكامـل الملك المظفر محمود بـن السلطان الملك المنصور صـاحب حماة،

وهو موعود من الملك الكامل انه ينتزع حماة من أخيه الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور ويسلمها إليه.

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق استنجد الناصر داود بعمه الملك الأشرف، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقية، فقدم الملك الأشرف إلى دمشق، ودخل هو والناصر داود إلى قلعة دمشق راكبين.

قال القاضي جمال الدين ابن واصل: كنت إذ ذاك حاضرا بدمشق ورأيت الملك الأشرف راكبا مع ابن أخيه، وعلى رأس الملك الأشرف شاش علم كبير، ووسطه مشدود بمنديل، وكان وصول الأشرف إلى دمشق في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، ووصل إلى خدمته بدمشق الملك المجاهد شيركوه، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف، ثم وقع الاتفاق أن يسير الناصر داود وشيركوه مع الملك الأشرف إلى نابلس، فيقيم الناصر داود بنابلس، ويتوجه الملك الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة شافعا في ابن أخيهما الناصر داود، ففعلوا ذلك ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود وتعويضه عنها، بحران والرها، والرقة، من بلاد الملك الأشرف، وأن تستقر دمشق للملك الأشرف، ويكون له إلى عقبة أفيق، وماعدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل، وان تنتزع حماة من الملك الناصر قليج أرسلان وتعطى للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور وأن تنتزع سلمية من المظفر محمود، وكانت اقطاعه لما كان مقيما بمصر عند الملك الكامل، وتعطى لشيركوه صاحب حمص، وخرجت السنة والأشرف عند أخيه الكامل بظاهر غزة، وقد اتفقا على ذلك.

-١٠٢٠٨-

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة عاود التتر إلى قصد البلاد التي بيد جلال الدين بن خوارزم شاه، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر للتتر.

وفيها قدم الانمبرطور إلى عكا بجموعه، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الانمبرطور وقد مات المعظم، فنشب به الملك الكامل، ولما وصل الانمبرطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب، فعمر الفرنج سورها، واستولوا عليها، والانمبرطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية، وإنما اسم الانمبرطور المذكور فرديك، وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد انبولية والانبردية.

قال القاضي جمال الدين بن واصل: لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولا من الملك الظاهر بيبرس الصالحي إلى الانمبرطور ملك تلك البلاد، قال: وكان الانمبرطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلا إلى المسلمين لأن منشأة بجزيرة صقلية، وغالب أهلها مسلمون، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الانمبرطور إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وقتل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة.............

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود، وبلغ الناصر داود ذلك، وهو

بنابلس، فرحل إلى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ماأمر به عمه الملك الكامل، وأنه لايمكنه الخروج عن مرسومه، فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك، وسار إلى دمشق، وسار الأشرف في أثره، وحصره بدمشق، والملك الكامل مشتغل بمراسلة الانمبرطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خرابا، ولايعمرها الفرنج، ولايتعرضوا إلى قبة الصخرة، ولا إلى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين، ويكون لهم من القرايا ماهو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، ووقع الاتفاق على ذلك، وتحالفا عليه وتسلم الانمبرطور القدس في هذه السنة في ر بيع الآخر على هذه القاعدة التي ذكرناها، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق، وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل، فأخذ الناصر داود في التشنيع على عمه بذلك، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي، واعظا وله قبول عند الناس، فأمره الناصر داود بعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وماحل بالمسلمين من تسلميه إلى الفرنج، ففعل ذلك وكان مجلسا عظيما، ومن جملة ماأنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي وهو:

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات

فارتفع بكاء الناس وضجيجهم.

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الانمبرطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق، ووصل إليها في جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد الحصار على دمشق، ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب، وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون

التي هي من الست السوداء أم ولده أبي بكر العادل بن الكامل، ثم استولى الملك الكامل على دمشق، وعوض الناصر داود عنها: بالكرك، والبلقاء، والصلت، والأغوار، والشوبك، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر، وهي: حران، والرها، وغيرهما التي كانت بيد الملك الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها، وتسلم دمشق الملك الأشرف، وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة..........

ذكر القبض على الحاجب علي نائب الملك الأشرف بخلاط وقتله

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفي، وهو أكبر أمير عنده، إلى خلاط فقبض على الحاجب علي الموصلي وحبسه ثم قتله، وكان حسام الدين علي الحاجب المذكور، من أهل الموصل، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخلاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد، واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ماتقدم ذكره، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف، بنى الخان الذي بين حران ونصيبين، وبنى الخان الذي بين حمص ودمشق، وهو الخان المعروف بخان بريج العطش، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل استاذه ولحق بجلال الدين، فلما ملك جلال الدين خلاط على ماسنذكره قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور، فقتله وأخذ بثأر استاذه.

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، سار من دمشق ونزل على مجمع المروج، ثم نزل سلمية، وأرسل عسكرا نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان، وكان فيه جبن، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضا كثيرا لأجابه الملك الكامل إليه، ولكنه خاف، وكان في العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص، فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لشيركوه: إني أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرني عند السلطان الملك الكامل، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفرتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المذكور إلى شيركوه في العشر الأخير من رمضان هذه السنة، وأخذه شيركوه ومضى به إلى الملك الكامل، وهو نازل على سلمية فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر السلطان الملك الكامل، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة، وقالوا للملك الكامل لانسلم حماة لغير أحد من أولاد تقي الدين، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة اتفق مع غلمان أبيك وتسلم حماة، وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكاملي، فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا ووعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له، فحضر الملك المظفر سحر الليلة التي عينوها ففتحوا له باب النصر،ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الاكرام داخل باب المغار، وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية، وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور،

وحضر أهل حماة وهنؤوا الملك المظفر بملك حماة، وكان ذلك في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، وكان مدة ملك الملك الناصر قليج أرسلان حماة تسع سنين إلا نحو شهرين، وأقام الملك المظفر في دار الإكرام يومين، وصعد في اليوم الثالث إلى القلعة وتسلمها، وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك حماة، وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة، ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورها صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الدين علي الهذباني، وكان سيف الدين علي ابن أبي علي المذكور، قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين ابن أبي علي الذي كان نائب الملك المظفر بسلمية، لما سلمت إليه وهو بمصر، عند الملك الكامل، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسام الدين ابن أبي علي وحشة، ففارقه حسام الدين المذكور واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وحظي عنده وصار استاذ داره، وخدم ابن عمه سيف الدين علي المذكور الملك المظفر ، وكان يقول له: اشتهي أراك صاحب حماة، وأكون بعين واحدة فأصيبت عين سيف الدين علي على حصار حماة لما نازلها عسكر الملك الكامل، وبقي بفرد عين، فحظي عند الملك المظفر لذلك، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره.

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة انتزع الملك الكامل سلمية منه، وسلمها إلى شيركوه صاحب حمص على ماكان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك، ثم إن الملك الكامل رسم للملك المظفر أن يعطى أخاه الملك الناصر قليج أرسلان بارين بكمالها، فامتثل ذلك، وسلم قلعة بارين إلى أخيه الملك الناصر، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة والمعرة، وكان بحماة تقدير أربعمائة ألف درهم للملك الناصر، وكان قد رسم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطي المال المذكور أخاه الملك الناصر، فماطل المظفر في ذلك ولم يحصل للملك الناصر من ذلك شيء، ولما استقر

الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد المحسن الأنصاري الدمشقي بقصيدة من جملتها:

تناهى إليك الملك واشتد كاهله
وحل بك الراجي فحطت رواحله

ترحلت عن مصر فأمحل ربعها
ولما حللت الشام روض ماحله

وعزت حماة في حمى أنت غابه
بصولته تحمي كليب ووائله

وقد طال ماظلت بتدبير أهوج
يخيب مرجيه ويحرم سائله

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة، رحل الملك الكامل عن سلمية إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الملك الأشرف عوضا عن دمشق، فنظر في مصالحها، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك الكامل وهو بالشرق، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية خاتون بنت الملك الكامل، وهي شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن، وهي والدة الملك المنصور صاحب حماة، وأخيه الملك الأفضل نور الدين علي ابني الملك المظفر محمود ، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل، وكان يتمنى ذلك لما كان بالديار المصرية، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له الزكي القومصي، فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكي القومصي:

متى أراك كما أهوى وأنت ومن
تهوى كأنكما روحان في بدن

هناك أنشد والأقدار مصغية
هنيت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر: إن صار ذلك يازكي أعطيتك ألف دينار

مصرية، فلما ملـك الملك المظفر حماة أعطى الزكي ماوعده بـه، ولما فرغ الملك الكـامل مـن تقريـر أمر البلاد الشرقيـة وهي: حـران ومامعهـا من البلاد مثل: رأس عين، والرها، وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية.

وفي هـذه السنـة أرسـل الملك الأشرف أخـاه صـاحـب بصرى الملـك الصالح اسماعيـل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبـك، وبها صاحبها الملـك الأمجد بهرام شاه بـن فـرخشـاه بن شـاهنشـاه بـن أيوب واستمـر الحصار عليه.

وفيها سـار جلال الـدين ملك الخوارزميـة وحاصر خـلاط وبها أيبك نائب الملك الأشرف إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر عمارة شميميس

في هذه السنـة شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعـة شمَيميس، وكـان لما سلـم إليـه الملـك الكـامل سلميـة قـد استـأذنـه في عمارة تـل شميميـس قلعـة، فأذن لـه بـذلـك، ولما أراد شيركوه عمارتـه أراد الملـك المظفر صاحب حماة منعـه من ذلك، ثم لم يمكنه ذلك لكونـه بأمر الملك الكامل.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة سلـم الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بـن شاهنشاه ابن أيـوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصـار عليه، وعوضـه الملك الأشرف عنها الـزبداني وقصير دمشـق الذي هو شماليهـا ومواضـع أخر،

وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة، وهي التي ينزلها النواب.

ذكر مقتل الملك الأمجد

لما أخذ منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه في مرقد عنده بالدار، وجلس الملك الأمجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به استاذه الملك الأمجد فقتله، ثم طلع المملوك الى سطح الدار وألقى نفسه الى وسطها فمات،

ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التي على الشرف، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما مات أبوه فرخشاه، وانتزعت منه هذه السنة فذلك خمسون سنة إلا سنة، وكان الملك الأمجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور.

ذكر ملك جلال الدين خلاط

في هذه السنة لما طال حصار جلال الدين على خلاط واشتد مضايقتها هجمها بالسيف، وفعل في أهلها مايفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها، وهو مملوكه أيبك، وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب علي الموصلي، فقتله وأخذ بثأر أستاذه.

ذكر كسرة جلال الدين من الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ماجرى من أخذ خلاط اتفق صاحب الروم كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل، فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار إلى سيواس، واجتمع

فيها بملك بلاد الـروم علاء الدين كيقباذ المذكور، وسـار إلى جهة خلاط والتقى الفريقـان في التاسع والعشرين مـن رمضان من هذه السنـة، فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رؤوس جبال كانـت في طريقهم، وضعف جـلال الدين بعدهـا، وقويت عليه التتر، وارتجع الملـك الأشرف خلاط وهـي خراب يبـاب، ثم وقعـت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقباذ وجلال الـدين وتصالحوا وتحالفوا على مابأيديهم، وأن لايتعرض أحد منهم إلى مابيد الآخر.

وفي هذه السنة استولى الملك المظفر غازي ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر، وهي غير أرزن الروم، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الديـن من بيت قديم في الملـك، فأخذها منه الملـك المظفر غازي المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حـاني، وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيـت الأحدب، وأرزن لم تـزل بأيديهم مـن أيام السلطـان ملك شاه السلجوقي إلى الآن فسبحان من لايزول ملكه.

وفيها جمعـت الفرنـج من حصن الأكـراد وقصدوا حماة، فخـرج إليهم الملك المظفر محمود ابـن الملك المنصور صاحب حماة والتقاهـم عند قرية بين حماة وباريـن يقال لها لفيـون، وكسرهم كسرة عظيمـة، ودخل الملـك المظفر محمود حماة مؤيدا منصورا.

وفيها ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

والسلطان الملك الكامل بديـار مصر، وأخوه الملك الأشرف بدمشق في ملاذه، وقـد تخلى عن البلاد الشرقيـة، فإن حـران ومامعها صـارت لأخيه الملك الكامل ، وخلاط صارت خرابـا يبابا، ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر، فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ، وفيها سار الملك الأشرف من

دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بالديار المصرية متنزها.

ذكر قصد التتر بلاد الاسلام

وفي هذه السنة عاودت التتر قصد بلاد الاسلام، وسفكوا وخربوا مثل ماتقدم ذكره، وكان قد ضعف جلال الدين لقبح سيرته، وسوء تدبيره، ولم يترك له صديقا من ملوك الأطراف، وعادى الجميع، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله، وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة، واتفق موت ذلك المملوك، فحزن عليه حزنا شديدا لم يسمع بمثله، وأمر أهل توريز بالخروج والنواح واللطم عليه، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر احد أن يتفوه أنه ميت، فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول: إني الآن أصلح مما كنت، فأنف أمراؤه من ذلك، وخرج بعضهم عن طاعته، فضعف امر جلال الدين لذلك ولكسرته من الملك الأشرف، فتمكنت التتر من البلاد، واستولوا على مراغة، وهو استيلاؤهم الثاني.

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان، سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجىء إليه، ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم، فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه، فهرب جلال الدين وقتل على مانشرحه إن شاء الله تعالى، ولما قتل تمكنت التتر من البلاد، وساقوا حتى وصلوا في هذه السنة إلى الفرات، واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات ، ثم شنوا الغارات في ديار بكر والجزيرة، وفعلوا من القتل والتخريب مثل ماتقدم...........

-١٠٢١٨-

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

والسلطانـان الكامل والأشرف بالـديار المصرية، والملـك المظفر بحماة مالكها ومعها المعـرة، وأخوه الملك الناصر قليج أرسلان ببـارين مالكها، والعزيز محمد بن الظاهر غازي قـد استقل بملك حلب والتتر قد استولوا على بـلاد العجم كلهـا، والخليفـة المستنصر بـالعراق، ثـم ارتحل في هـذه السنة الملك الكامل وأخوه الملـك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية، فسار الملـك الكامل إلى الشوبك واحتفل لـه الملك الناصر داود ابن المعظـم عيسى ابـن الملك العادل أبي بكـر بن أيـوب احتفالا عظيما بالضيـافات والاقامات والتقـادم، وحصل بينهما الاتحاد التام، وكـان نزول الملك الكامل باللجون قـرب الكرك، وهي منزلة الحجاج،في العشر الأخير من شعبـان هذه السنة ووصـل إليه باللجـون صاحب حماة الملـك المظفر محمود ملتقيا، وسـافر الناصر داود مع الملك الكامـل بعسكره إلى دمشق، واستصحب الملك الكـامل معه ولده الملـك الصالح نجم الـدين أيوب، وجعل نائبـه بمصر ولده وولي عهده الملك العـادل سيف الدين أبـا بكر ابن الملك الكـامل ابن الملك العـادل أبي بكر بن أيوب، ثـم سار الملك الكامل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيـوب، ثم سار الملـك الكامل ونزل سلميـة واجتمع معه ملـوك أهل بيته في جمع عظيم، ثـم سار بهم إلى آمد وحصرها، وتسلمها مـن صاحبها الملك المسعود بن الملك الصالح محمـود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ابـن سقمان بن أرتـق، ومحمـد بـن قرا أرسـلان المذكـور هـو الذي ملكـه السلطان صـلاح الديـن آمد بعد انتـزاعها من ابـن نيسان، وكـان سبب انتزاع الملـك الكامل آمـد من الملـك المسعود المذكور لسـوء سيرة الملك المسعود وتعـرضه لحريـم الناس، وكـان له عجـوز قوادة يقـال لها الازاء، تـؤلف بينـه وبين نسـاء النـاس الأكابـر، ونسـاء الملـوك، ولما نزل الملـك المسعود إلى خـدمة الملـك الكامـل وسلم آمـد وبلادهـا إليه ومـن جملة معاقلهـا حصن كيفـا وهو في غايـة الحصانة، أحسـن الملك الكـامل إلى

الملك المسعود وأعطاه اقطاعات جليلة بديار مصر، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل، فخرج من الاعتقال، واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة، ثم سافر الملك المسعود المذكور الى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه، ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته، وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وجعل معه شمس الدين صواب العادلي، وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق، ولما خرج الملك الكامل من مصر في هذه السنة خرج صحبته بنتاه فاطمة خاتون زوجة الملك العزيز صاحب حلب، وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل، وحملت كل منهما إلى بعلها، واحتفل لدخولهما بحماة وحلب.......

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة

في هذه السنة رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها، وسار إلى ديار مصر، ورجع كل ملك إلى بلده.

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شيزر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور واخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي، ثم اعتقل الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الشهيد سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك، وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من الملك الصالح اسماعيل، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين، وصاروا من أكبر أمرائه، وكانت شيزر

اقطاع سابق الدين المذكور، فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها خمارتكين، ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات، وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر، وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعدا له، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز، ونزل إلى خدمته، فتسلمها في هذه السنة، وهنى الملك العزيز يحيى بن خالد بن القيسراني بقوله:

يا مالكا عم أهل الأرض نائله ... وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزر آيات نصرك في ... أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

ثم ولى الملك العزيز على شيزر، وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة، ورحل كل منهما إلى بلده.

وفي هذه السنة استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل في انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشي أن يسلمها إلى الفرنج، لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم، فأذن الملك الكامل له في ذلك، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله في الاقامة عنده بحماة فامتنع، وسار إلى مصر، فبذل له الملك الكامل اقطاعا جليلا وأطلق له أملاك جده بدمشق، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور في الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة، قبل موت الملك الكامل بأيام.

-١٠٢٢١-

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة توفي مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين علي كجك، وقد تقدم ذكر ملكه إربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين علي في سنة ست وثمانين وخمسمائة، لما كانا في خدمة السلطان صلاح الدين في الجهاد بالساحل، فبقي مالكها من تلك السنة إلى هذه السنة، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بإربل وبلادها للخليفة المستنصر، فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور، وكان مظفر الدين ملكا شجاعا وفيه عسف في استخراج الأموال من الرعية، وكان يحتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وينفق فيه الأموال الجليلة.

وفيها في شعبان توفي الشيخ عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ونشأ بها ثم سار إلى الموصل مع والده وأخوته، وسمع بها من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي، ومن في طبقته، وقدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل وانقطع في بيته للتوفر على العلم، وكان إماما في علم الحديث، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرا بأنساب العرب وأخبارهم، صنف في التاريخ كتابا كبيرا سماه الكامل، وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ابتدأ فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وله كتاب أخبار الصحابة في ست مجلدات، واختصر كتاب الانساب للسمعاني وهو الموجود في أيدي الناس دون كتاب السمعاني، وورد إلى حلب في سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشي طغريل الأتابك بحلب، فأكرمه إكراما زائدا، ثم سافر إلى

دمشق سنة سبع وعشرين، ثم عاد إلى حلب في سنة ثمان وعشرين، ثم توجه إلى الموصل فتوفي بها في التاريخ المذكور، ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر، وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه.

ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في المحرم توفي شهاب الدين طغريل الأتابك بحلب.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر إلى قتال كيقباذ ملك بلاد الروم

في هذه السنة وقع من كيقباذ بن كيخسرو، ملك بلاد الروم التعرض إلى بلاد خلاط، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر، واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته، ونزل شمالي سلمية في شهر رمضان من هذه السنة، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق في حدود بلد الروم، وقد ضرب في عسكره ستة عشر دهليزا، لستة عشر ملكا في خدمته منهم أخوته: الملك الأشرف موسى صاحب دمشق، والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والصالح اسماعيل أولاد الملك العادل، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين ، كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدما على عسكر حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل، والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين، وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب سميساط ابن السلطان صلاح الدين، وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل علي، والملك المظفر محمود صاحب حماة

ابن الملك المنصور محمد، والملك الصالح أحمد صاحب عينتاب ابن الملك الظاهر صاحب حلب، والملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن محمد بن شيركوه، وكان قد حفظ كيقباذ ملك بلاد الروم الدربندات بالرجال والمقاتلة، فلم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم من جهة النهر الأزرق، وأرسل بعض العسكر إلى حصن منصور وهو من بلاد كيقباذ فهدموه، ورحل السلطان وقطع الفرات، وسار إلى السويدا، وقدم جاسته تقدير ألفين وخمسمائة فارس مع الملك المظفر صاحب حماة، فسار الملك المظفر بهم إلى خرتبرت، وسار كيقباذ ملك الروم إليهم واقتتلوا فانهزم العسكر الكاملي، وانحصر الملك المظفر صاحب حماة في خرتبرت مع جملة من العسكر، وجد كيقباذ في حصارهم والملك الكامل بالسويدا، وقد أحس من الملوك الذين في خدمته بالمخامرة والتقاعد، فإن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم، وقال إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من أهل بيته عوض مابأيدهم من الشام، ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم وعلم الملك الكامل بذلك، فما أمكنه التحرك إلى قتال كيقباذ لذلك ودام الحصار على الملك المظفر صاحب حماة، فطلب الأمان فأمنه كيقباذ، ونزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباذ وخلع عليه ونادمه وتسلم كيقباذ خرتبرت وأخذها من صاحبها، وكان من الأرتقية قرايب أصحاب ماردين، وكان قد دخل في طاعة الملك الكامل، وصارت خرتبرت من بلاد كيقباذ، وكان نزول المظفر صاحب حماة من خرتبرت يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة، وأقام عند كيقباذ يومين، ثم أطلقه وسار من عنده لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ووصل بمن معه إلى الملك الكامل وهو بالسويدا من بلاد آمد ففرح به، وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صاحب الكرك، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود، وأثبت الملك الكامل طلاقها منه.

- ١٠٢٢٤ -

وفي هذه السنـة استتم بناء قلعـة المعرة،وكان قـد أشار سيف الـدين علي بن أبي علي الهذبـاني على الملك المظفر صاحـب حماة ببنائها، فبنـاها وتمت الآن وشحنهـا بـالـرجـال والسـلاح ولم يكـن ذلـك مصلحـة، لأن الحلبيين حاصروها قيها بعد، وأخذوها وخربت المعرة بسببها..........

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

والملك الكـامل بالبلاد الشرقيـة وقد انثنى عـزمه عن قصد بـلاد الروم للتخـاذل الذي حصـل في عسكره ، ثـم رحل وعـاد إلى مصر، وعاد كـل واحد من الملوك إلى بلده.

وفيهـا: توفي الملـك الزاهـر داود صـاحب البيرة ابـن السلطان صـلاح الديـن ، وكان قـد مرض في العسكـر الكاملي، فحمـل إلى البيرة مريضـا وتـوفي بها، وملك البيرة بعـده ابـن أخيـه الملك العـزيـز محمـد صاحـب حلب، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب.

وفيها تـوفي القاضي بهاء الـدين بـن شداد في صفـر، وكان عمـره نحو ثـلاث وتسعين سنـة، وصحـب السلطـان صـلاح الـديـن وكـان قـاضي عسكره، ولما تـوفي صلاح الـدين كان عمـر القاضي المذكـور نحو خمسين سنة، ونال القاضي بهاء الدين المذكور مـن المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغـريل مالم ينلها أحد، ولم يكن في آبـائه من اسمه شداد، بل لعل ذلك في نسب أمه فاشتهـر به، وغلب عليه، وأصله من الموصل، وكان فاضلا دينـا، وكان اقطاعة على الملك العزيز مايـزيد على مائة ألف درهم في السنة.

وفيها: لما سارت الملـوك إلى بلادهم من خـدمة الملك الكامـل، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمـس بقين من ربيع الأول من هذه

السنة، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فتضاعف السرور بقدوم الوالد والولد، قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة في ذلك فمنها:

غدا الملك محروس الذرى والقواعد
بأشرف مولود لأشرف والد
حبينا به يوم الخميس كأنه
خميس بدا للناس في شخص واحد
وسميته باسم النبي محمد
وجدينه فاستوفى جميع المحامد

أي باسم جديه الملك الكامل محمد والد والدته، والملك المنصور محمد صاحب حماة والد والده ومنها:

كأني به في سدة الملك جالسا
وقد ساد في أوصافه كل سائد
ووافاك من أبنائه وبينهم
بأنجم سعد نورها غير خامد
إلا أيها الملك المظفر دعوتي
ستوري بها زندي ويشتد ساعدي
هنيئاً لك الملك الذي بقدومه
ترحل عنا كل هم معاود

وفيها: لما تفرقت العساكر الكاملية قصد كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما وكانا للسلطان الملك الكامل.

وفيها: توفي بالقاهرة القاسم بن عمر بن علي الحموي، المصري الدار،

المعروف بابن الفارض، وله أشعار جيدة منها قصيدته التي عملها على طريقة الفقراء وهي مقدار ستمائة بيت.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

في هذه السنة سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئا إلى الخليفة المستنصر، لما حصل عنده من الخوف من عمه الملك الكامل، وقدم إلى الخليفة تحفا عظيمة وجواهر نفيسة، فأكرمه الخليفة المستنصر، وخلع عليه وعلى أصحابه، وكان الناصر داود يظن أن الخليفة يستحضره في ملأ من الناس، كما استحضر مظفر الدين صاحب إربل، فلم يحصل له ذلك، وألح في طلب ذلك من الخليفة، فلم يجبه.........

وكان الخليفة متوقفا على استحضار داود رعاية لخاطر الملك الكامل، فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلا، ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك.

وفي هذه السنة: سار السلطان الملك الكامل من مصر إلى البلاد الشرقية، واسترجع حران والرها من يد كيقباذ صاحب بلاد الروم، وأمسك أجناد كيقباذ ونوابه الذين كانوا بهما وقيدهم وأرسلهم إلى مصر، فلم يستحسن ذلك منه، ثم عاد الملك الكامل إلى دمشق، وأقام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة........

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية.

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفي هذه السنة كان قد خرج الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر

غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق، واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى، واشتد مرضه وتوفي في ربيع الأول من هذه السنة، وكان عمره ثلاث وعشرين سنة وشهورا، وكان حسن السيرة في رعيته، ولما توفي تقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد، وعمره نحو سبع سنين، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرمني، وعز الدين عمر بن مجلي، وجمال الدولة إقبال الخاتوني والمرجع في الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم، وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق.

وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف، وكان ابتداؤها مافعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم، فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل،ومع باقي الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه، فقدم خوفا من ذلك إلى دمشق، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الملك الكامل، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم، واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إن خرج من مصر، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك: إنك إن وافقتني جعلتك ولي عهدي وأوصيت لك بدمشق، وزوجتك بابنتي، فلم يوافقه الناصر على ذلك لسوء حظه، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل، وصار معه على ملوك الشام، فسر به اللمك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التي طلقها منه، وأركب الناصر داود بسناجق

السلطنة ووعـده انه ينتزع دمشقَ مـن الملك الأشرف أخيه ويعطيه إيـاها، وأمر الملـك الكامل أمـراء مصر وولده الملك العـادل أبا بكر ابـن الملك الكامل فحملوا الغاشية بين يدي الملك الناصر داود، وبالغ في إكرامه.

وفي هذه السنة تـوجه عسكر حلب مـع الملك المعظم توران شـاه عم الملك العـزيز، فحاصروا بغراس، وكـان قد عمرهـا الداوية بعد مـافتحها السلطان صـلاح الدين وخربها، وأشرف عسكـر حلب على أخذهـا، ثم رحلوا عنها بسبب الهدنـة مع صاحب أنطاكية، ثـم إن الفرنج أغاروا على ربض دربسـاك، وهي حينئذ لصـاحب حلـب، فوقع بهم عسكـر حلب وولى الفـرنـج منهزمين، وكثـر فيهـم القتـل والأسر، وعاد عسكـر حلـب بالأسرى ورؤوس الفرنج، وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع.

وفي هذه السنة استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وهو بالبـلاد الشرقية، وهي: آمـد، وحصن كيفا، وحران وغيرهـا نائبا عـن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي، فـإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباذ ملك بلاد الـروم وخدموا عنده، وكان فيهـم عدة مقدمين مثل بـركة خان وكشلوخان وصاروخان، وفرخان، وبردي خان، فلما مات كيقباذ وتولى ابنه كيخسرو قبض على بـركة خـان وهو أكبر مقدميهـم، ففارقـت الخوارزمية حينئذ خدمتـه، وساروا عن الروم، ونهبـوا ماكان على طريقهـم، فاستمالهم الملك الصـالح نجـم الدين أيـوب ابن الملك الكـامل، واستـأذن أباه في استخدامهم، فأذن له واستخدمهم.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

وقـد استحكمت الـوحشة بين الأخـوين الكـامل والأشرف، وقـد لحق الملـك الأشرف الذرب، وضعـف بسببـه، وعهد بـالملـك إلى أخيه الملـك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى.

- ١٠٢٢٩ -

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، وكان قد مرض بالدرب واشتد به حتى توفي في المحرم من هذه السنة، وتملك دمشق أخوه الصالح اسماعيل بعهد منه، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهورا وعمره نحو ستين سنة، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجليلة النفيسة، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، وكان سعيدا، ويتفق له أشياء خارقة للعقل، وكان حسن العقيدة وبنى بدمشق قصورا ومتنزهات حسنة، وكان منهمكا في اللذات وسماع الأغاني، فلما مرض أقلع عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى ان توفي ودفن في تربته بجانب الجامع، ولم يخلف من الأولاد إلا بنتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل، بعد ماكان بينهما من المصافاة، أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها، وكانت لاتفي بما يحتاجه وما يبذله، وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق، وأيضا لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزده منها شيئا، وأيضا بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام، وينتزع دمشق منه، فتغير بسبب ذلك.

ولما استقر الملك الصالح اسماعيل في ملك دمشق، كتب إلى الملوك من أهله، وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل، فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتماؤه إليه، وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفا منه، فقبل الملك الكامل عذره، وتحقق صدق ولائه، ووعده بانتزاع سلمية من صاحب حمص وتسليمها إليه.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها ومايتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق، ومعه الناصر داود صاحب الكرك، وهو لايشك ان الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما، وأما الملك الصالح اسماعيل فإنه استعد للحصار، ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص، ونازل الملك الكامل دمشق، وأخرج الملك الصالح اسماعيل النفاطين فأحرق العقيبة جميعها ومابها من خانات وأسواق، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون علي خمسين رجلا، نجدة للصالح اسماعيل، وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسلمية، فتسلمها الملك المظفر، واستقرت نوابه بها، وكان نزول الملك الكامل على دمشق في جمادى الأولى من هذه السنة في قوة الشتاء، ثم سلم الملك الصالح اسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل، وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافا إلى بصرى، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزي رسولا للتوفيق بين الملوك ، فتسلم الملك الكامل دمشق لاحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، وكان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصد حمص، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة، ونزل على الرستن، واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخلن على الملك الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك، ثم بعد استقرار الملك الكامل في دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض، واشتد مرضه وكان سببه إنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام، فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدتة وتورمت منها، وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقته،

وعمره نحو ستين سنة وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعني سنة خمس وثلاثين وستمائة، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة، وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة، فحكم في مصر نائبا وملكا نحو أربعين سنة، وأشبه حاله حال معاوية بن أبي سفيان، فإنه حكم في الشام نائبا نحو عشرين، وملكا نحو عشرين، وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما، حسن التدبير، وأمنت الطرق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه، واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفي الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها، فعمرت في أيامه ديار مصر أتم العمارة، وكان محبا للعلماء ومجالستهم، وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية، وتقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية، وبنى له دار الحديث بين القصرين في الجانب الغربي، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى، وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حموية من أكابر دولته، وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ، وأخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتي السيف والقلم، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش.

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك ،فاتفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر، فحلف له جميع العسكر، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق

وهددوه إن أقام، وتـأخر مع الجواد يونس بعض العسكـر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ، وبقي يباشر الأمور مع الملك الجواد.

ولما بلغ شيركـوه صاحب حمص وفاة الملـك الكامل فرح فـرحا عظيما، وأتاه فرج ما كان يطمع نفسه به ، وأظهر سرورا عظيما ولعب بالكرة على خلاف العادة وهوفي عشر السبعين، وأما الملك المظفـر صاحب حماة فإنه حزن لـذلك حزنـا عظيما، ورحل من الـرستن، وعاد إلى حماة، وأقـام فيها للعـزاء، وأرسل صاحـب حمص ارتجع سلمية مـن نـواب الملك المظفـر، وقطع القنـاة الواصلة من سلميـة إلى حماة فيبست بساتينها، ثـم عزم على قطع النهـر العاصي عـن حماة فسد مخرجـه من بحيرة قـدس التي بظـاهر حمص فبطلـت نـواعير حماة والطـواحين، وذهب مـاء العـاصي في أوديـة بجـوانـب البحيرة ثـم لما لم يجد لـه الماء مسلكـا عـاد فهـدم مـاعملـه صاحـب حمص، وجرى كما كان أولا، وكـذلك كـان قد حصل لصـاحب حلب ولعسكـرها الخوف من الملـك الكامل، فلما بلغهـم موته أمنـوا من ذلك.

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة

ولما بلـغ الحلبيين موت الكـامل اتفقـت آراؤهم على أخـذ المعرة، ثـم أخـذ حماة من الملـك المظفر صـاحـب حماة لموافقته الملـك الكامـل على قصدهم، ووصل عسكـر حلب إلى المعرة وانتزعوها مـن يد الملك المظفر صاحـب حماة، وحاصروا قلعتها وخـرجت المعـرة حينئذ عن ملـك الملك المظفر صاحب حماة، ثـم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظـم توران شاه ابن صـلاح الديـن إلى حماة بعد استيـلائهم على المعـرة، ونازلـوا حماة وبها صاحبها الملـك المظفر، ونهب العسكر الحلبي بـلاد حماة، واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة.

-١٠٢٣٣-

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب، وهي صغيرة حينئذ، وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضي دوقات، ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهي ملكة خاتون بنت كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان، وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباذ المذكور، وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب.

وفيها خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل، ونهبوا البلاد.

وفيها سار لؤلؤ صاحب الموصل، وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار، فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية، وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته، واتقع مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فانهزم لؤلؤ وعسكره هزيمة قبيحة، وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئا كثيرا.

وفي هذه السنة جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك، وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين ونابلس، انتصر فيه الملك الجواد يونس، وانهزم الملك الناصر داود هزيمة قبيحة، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الوقعة، وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله.

وفي أواخر هذه السنة ولد والدي الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر صاحب حماة.

-١٠٢٣٤-

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

في هذه السنة رحل عسكر حلب المحاصر لحماة بعد مولد الملك الأفضل، وكان قد طالت مدة حصارهم لحماة وضجروا، فتقدمت إليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا، وضاق الأمر على الملك المظفر في هذا الحصار، وانفق فيه أموالا كثيرة، واستمرت المعرة في يد الحلبيين، وسلمية في يد صاحب حمص، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعرين بسبب قلعتها، فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض في هذه السنة.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفي هذه السنة في جمادى الآخرة استولى الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل على دمشق وأعمالها، بتسليم الملك الجواد يونس، وأخذ العوض عنها: سنجار، والرقة، وعانة، وكان سبب ذلك أن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر لما علم باستيلاء الملك الجواد على دمشق، أرسل إليه عماد الدين ابن الشيخ لينتزع دمشق منه، وأن يعوضه عنها إقطاعا بمصر، فمال الجواد يونس إلى تسليمها إلى الملك الصالح حسبما ذكرناه، وجهز على عماد الدين ابن الشيخ من وقف له بقصة، فلما أخذها عماد الدين منه ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله، ولما وصل الملك الصالح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفر صاحب حماة معاضدا له، وكان قد لاقاه إلى اثناء الطريق، واستقر الملك الصالح أيوب المذكور في ملك دمشق، وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها.

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، وسأله الملك المظفر صاحب حماة في منازلة حمص وأخذها من شيركوه، فبرز إلى الثنية وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص،، فأرسل شيركوه مالا كثيرا وفرقه في الخوارزمية، فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية، ورحل صاحب حماة إلى حماة، ثم كر الملك الصالح عائداً إلى دمشق طالبا مصر، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان، ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفزين.

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح، وشرع الملك الصالح يكاتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه اسماعيل المذكور يتحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه،وهو يعمل في الباطن على ملك دمشق، وأخذها من الصالح أيوب، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب، ووصل أيضا في هذه السنة محيي الدين ابن الجوزي رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولي على دمشق، وهذا محيي الدين هو الذي حضر ليصلح بين الكامل والأشرف، فاتفق أنه مات في حضوره في سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم: الملك الكامل صاحب مصر، وأخوه الأشرف صاحب دمشق، والعزيز صاحب حلب، وكيقباذ صاحب بلاد الروم، فقال في ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق:

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ ... ـصور يا من له الفخار الانيل
ما جرى من رسولك الآن محيي الـ ... ـدين في هذه البلاد قليل

جــاء والأرض بــالســلاطين تــزهـــى
وغــدا والــديــار منهــم طلــول
أقفـــر الـــروم والشـــآم، ومصر
أفهـــذا مغســـل أم رســـول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في صفر سار الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعهما وهجموا دمشق، وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل، وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب،وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر، وكان قد بلغه سعي عمه اسماعيل في الباطن، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي، فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بأخبار الصالح صاحب بعلبك، وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضره وأكرمه وسرق الحمام التي لنابلس، وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك، فصار الطبيب المذكور يكتب ان عمك اسماعيل قد جمع وهو في نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير ببعلبك فيأخذ الصالح اسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم إن عمك اسماعيل قد جمع ليعاضدك، وهو واصل إليك ويسرحه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم، ويترك مايرد إليه من غيره من الأخبار، واتفق أيضا ان الملك المظفر صاحب حماة علم بسعي الصالح اسماعيل صاحب بعلبك في أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها، فجهز نائبه سيف الدين علي بن أبي علي، ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم، وجهز معه من السلاح والمال شيئا كثيرا ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها، وأظهر الملك المظفر وابن أبي علي أنهما قد اختصما، وأن ابن أبي علي قد غضب،واجتمع معه هذه الجماعة وقد

قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج، كل ذلك خوفا من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي علي ويمنعه، فلم تخف عن شيركوه هذه الحيلة، ولما وصل ابن أبي علي إلى بحيرة حمص قصده شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر، وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي علي معه، وأرسل من استدعى باقي أصحاب ابن أبي علي إلى الضيافة فمنهم من سمع ودخل إلى حمص، ومنهم من هرب فسلم، فلما حصلوا عنده بحمص قبض على ابن أبي علي وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين، واستولى على جميع ماكان معهم من السلاح والخزانة وبقي يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاها، ومات ابن أبي علي وغيره في حبسه بحمص، والذي سلم وبقي إلى بعد موت شيركوه خلص، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفا كثيرا.

وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه اسماعيل دمشق، رحل من نابلس إلى الغور، فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق، واعتقال ولده المغيث عمر، ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح اسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه واستاذ داره حسام الدين ابن أبي علي، وأصبح الملك الصالح أيوب لايدري مايفعل ولاله موضع يقصده، فقصد نابلس، ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر داود بذلك، وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، وأمر بالقيام في خدمته بكل مايختاره، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقي أصحابه ومماليكه، ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة، ولماجرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود، فلم يسلمه الناصر داود، فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر بأخذ بلاده فلم يلتفت إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك قصد الناصر داود القدس، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود أيضا، فإنه لما خربت القدس أولا لم يخرب برج داود فخربه في هذه المرة.

وفي هذه السنة توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي، وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة، لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، بعد موت أبيه محمد بن شيركوه، وكان عمره يومئذ نحو اثنتي عشرة سنة، وكان شيركوه المذكور عسوفا لرعيته، وملك حمص بعده ولده الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه.

وفي هذه السنة استولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار، وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل.

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفي هذه السنة في أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب، واجتمعت عليه مماليكه، وكاتبه إليها زهير، وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة، وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح، ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول في يمينه أنه كان مكرها، ثم سارا إلى غزة، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك،

وبرز بعسكر مصر، ونـزل على بلبيس لقصد الناصر داود والصـالح أخيه، وأرسل إلى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشـام، وأن يستأصلهما فسار الصالح اسماعيل بعسـاكر دمشق، ونزل الفـوار، فبينما الناصر داود والصـالح أيـوب في هذه الشـدة وهما بين عسكـريـن قـد أحـاطـا بهما، إذ ركبـت جماعـة مـن المماليـك الأشرفيـة، ومقـدمهم أيبـك الأسمر، وأحـاطوا بـدهليـز الملك العـادل أبي بكر ابـن الملك الكامـل، وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليـه من يحفظه، وأرسلوا إلى الملـك الصالح أيـوب يستدعونه،فـأتاه فرج لم يسمـع بمثله، وسار الملـك الصالـح أيوب والملـك الناصر داود إلى مصر، وبقـي في كل يـوم يلتقي الملـك الصالـح فوج بعـد فـوج من الأمـراء والعسكر، وكـان القبض على الملك العـادل ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة مـن هذه السنة، فكانـت مدة ملكـه نحو سنتين، ودخـل الملك الصـالح أيـوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحـد لست بقين من الشهر المذكور، وزينت لـه البلاد وفرح الناس بمقدمـه، وحصل للملك المظفر صاحـب حماة من السرور والفرح بملـك الملك الصـالح مصر مـالا يمكـن شرحه، فـإنه مـازال على ولائه حتـى أنه لما أمسـك بالكـرك كان يخطـب له بحماة وبـلادها، ولما استقـر الملك الصـالح أيوب في ملـك مصر وصحبته الناصر داود، حصـل عند كـل واحد منهما استشعـار من صـاحبه، وخـاف الناصر داود ان يقبـض عليه، فطلب دستورا، وتوجه إلى بلاده الكرك وغيرها.

ذكر وفاة صاحب ماردين

في هذه السنـة، وقيل في سنـة ست وثـلاثين، توفي نـاصر الديـن أرتق أرسلان بن ايلغـازي ابن البي بن تمرتـاش بن ايلغازي بن أرتـق صاحب ماردين، وكان يلقـب الملك المنصور، وملـك المذكور مـاردين بعـد أخيه حسام الـدين يـولق أرسـلان حسبما تقدم ذكـره في سنة ثمانين وخمسمائة، وبقـي أرتق أرسـلان متغلبا عليـه مملوك والـده البقش حتـى قتله أرتـق

أرسلان في سنة إحدى وستمائة، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين حتى توفي في هذه السنة، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان المذكور حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده في السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازي بن أرتق أرسلان، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود بن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر، ثم توفي وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظنا، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم رجل من ماردين ذكر فيه تواريخ بني أرتق، ولم أتحقق صحة ذلك، وسنذكر في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازي المذكور في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

في هذه السنة قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره في ملك مصر على أيبك الأسمر، مقدم المماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه، وأودعهم الحبوس، وأخذ في إنشاء مماليكه، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور من هذه السنة في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكنا لنفسه.

وفيها نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب عن قلعة جعبر، وبالس، وسلمها إلى أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب، وتسلم عوض ذلك أعزاز وبلادا معها تساوي ما نزل عنه، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج، وخشي من أولاده،

وتغلبهم عليه، ففعل ذلك لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لايمكنهم التعرض إليه.

وفي هذه السنة كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين، ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور، واستولى الخوارزميون على أثقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشتري غيرهم نفسه منهم بماله، فأخذوا بذلك شيئا كثيرا، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حيلان، وكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب، وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب، واستبعد أهلها للحصار، وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وفعلوا من القتل والنهب مثل ماتقدم ذكره، ثم رجعوا إلى بلادهم وهي حران ومامعها، بعد أن أخربوا بلد حلب.

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران، وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول، ثم إلى تل اعزاز، ثم سرمين، ثم إلى المعرة وهم ينهبون مايجدونه، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم، وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبيين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية، واستمرت الخوارزمية على ماهم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل

السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية، ثم إلى الرصافة طالبين الرقة، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقتهم العرب فأرمت الخوارزمية ماكان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى، ووصلت الخوارزمية إلى الفرات في أواخر شعبان في هذه السنة، ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص ابراهيم قاطع صفين، فعمل لهم الخوارزمية ستائر، ووقع القتال بينهم إلى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها وقصدوا الخوارزمية، واتقعوا قريب الرها لتسع بقين من رمضان هذه السنة، فولى الخوارزمية منهزمين، وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم، ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة، وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا وكانتا للخوارزمية فاستولى عليهما وخلص من كان بهما من الأسرى، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيرا في بلدة دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين، فحمله بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل، وقدم له ثيابا وتحفا وبعث به إلى عسكر حلب، واستولى عسكر حلب على الرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، ومامع ذلك، واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على بلد الخابور، ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه، وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم، ولم يزل ذلك بيده حتى توفي أبوه الملك الصالح أيوب بمصر، وسار إليها المعظم المذكور على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وبقي ولد المعظم، وهو الملك الموحد عبد الله بن المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مالكا لحصن كيفا إلى أيام التتر وطالت مدته بها.

- ١٠٢٤٣ -

ذكر ماكان من الملك الجواد يونس

في هذه السنة كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وصورة ماجرى له أنه كان قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار، وعانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه، وسار لؤلؤ صاحب الموصل وحاصر سنجار، ويونس المذكور غائب عنها واستولى عليها، ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء، فسار على البرية إلى غزة، وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه، فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حينئذ ودخل إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد يونس المذكور من الفرنج واعتقله، ثم خنقه.

وفي هذه السنة ولى الملك الصالح أيوب الشيخ عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام القضاء بمصر والوجه القبلي، وكان عز الدين المذكور بدمشق، فلما قوي خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر، سلم الصالح اسماعيل: صفد، والشقيف، إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب، فعظم ذلك على المسلمين وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح اسماعيل بسبب ذلك، وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب، ثم خافا من الصالح اسماعيل، فسار عز الدين بن عبد السلام إلى مصر وتولى بها القضاء كرها، وسار جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب إلى الكرك، وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية في النحو، ثم بعد ذلك سافر ابن الحاجب إلى الديار المصرية.

- ١٠٢٤٤ -

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

والصالح اسماعيل صاحب دمشق، والمنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وصاحبة حلب متفقون على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر، ولم يوافقهم صاحب حماة على ذلك، واخلص في الانتماء إلى صاحب مصر.

وفي هذه السنة اتقعت الخوارزمية مع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ابن الملك العادل، وفيها في شعبان أصاب جدي الملك المظفر صاحب حماة الفالج وهو جالس بين أصحابه في قلعة حماة، وبقي أياما لايتكلم ولايتحرك، وكان ذلك في أواخر فصل الشتاء، وأرجف الناس بموته، وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل، ثم خف مرض الملك المظفر وفتح عينيه وصار يتكلم باللفظة واللفظتين لايكاد يفهم، وكان العاطب الجانب الأيمن منه، وبعث إليه الصالح صاحب مصر طبيبا حاذقا نصرانيا يقال له النفيس ابن طليب، فلم تنجع فيه المداواة واستمر على ذلك إلى أن توفي بعد سنتين وكسر على ماسنذكرة إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة في ذي الحجة توفي الملك الحافظ نور الدين أرسلان ابن الملك العادل بن أيوب بأعزاز، وهي التي تعوضها عن قلعة جعبر، ونقل إلى حلب فدفن في الفردوس، وتسلم نواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة أعزاز وأعمالها......

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

وفي هذه السنة كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب، ومعهم المنصور ابراهيم صاحب

حمص مصاف قريب الخابور عند المجدل، في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة، فولى المظفر غازي والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة، ونهب منهم عسكر حلب شيئا كثيرا، ونهبت وطاقات الخوارزمية ونساؤهم أيضا، ونزل الملك المنصور ابراهيم في خيمة الملك المظفر غازي، واحتوى على خزانته ووطاقه، ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب في مستهل جمادى الأولى، مؤيدين منصورين.

ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهي والدة الملك العزيز

وفي هذه السنة في ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان مرضها قرحة في مراق البطن وحمى، ودفنت بقلعة حلب، وكان مولدها سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب حين كانت حلب لأبيها الملك العادل، قبل أن ينتزعها منه أخوه السلطان صلاح الدين ويعطيها ابنه الظاهر غازي، فاتفق مولدها ووفاتها بقلعة حلب، ولما ولدت كان عند أبيها الملك العادل ضيف فسماها ضيفة، فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد تزوج قبل ضيفة خاتون بأختها غازية وتوفيت، فلما توفيت غازية تزوج باختها ضيفة خاتون المذكورة، وكانت ضيفة خاتون قد ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز، وتصرفت في الملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام، وكانت مدة ملكها نحو ست سنين، ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة،فأشهد عليه أنه بلغ، وحكم واستقل بمملكه حلب، وماهو مضاف إليها، والمرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصي الخاتوني.

ذكر وفاة المستنصر بالله

في هذه السنة توفي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر أحمد، بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرا، وكان حسن السيرة عادلا في الرعية، وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي، مما يلي دار الخلافة، وجعل لها أوقافا جليلة على أنواع البر، ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابي على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وهو سابع ثلاثينهم، وآخرهم.وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي، فاستبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الأجناد، وجمع المال، ومداراة التتر، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة

في هذه السنة قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقي، صاحب بلاد الروم، فأرسل واستنجد بالحلبيين، فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي، وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر، فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة، وقتل التتر وأسروا منهم خلقا كثيرا، وتحكمت التتر، واستولوا أيضا على خلاط وآمد وبلادهما، وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعاقل، ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان، ودخل في طاعتهم، ثم توفي غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى، وخلف صغيرين وهما ركن الدين، وعز الدين، ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية، وبقي ركن الدين في الملك تحت حكم التتر، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان، والبرواناه لقبه

وهو اسم الحاجب بالعجمي، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام في الملك ولدا له صغيرا،

وفيها: كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح، وأن يطلق الصالح اسماعيل المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وحسام الدين بن أبي علي الهذباني، وكانا معتقلين عند الملك الصالح اسماعيل، فأطلق حسام الدين ابن أبي علي وجهزه إلى مصر، واستمر الملك المغيث ابن الصالح أيوب في الاعتقال، واتفق الصالح اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك، واعتضد بالفرنج، وسلما أيضا إلى الفرنج عسقلان وطبرية، فعمر الفرنج قلعتيهما، وسلما أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات.

قال القاضي جمال الدين بن واصل ومررت إذ ذاك بالقدس، متوجها إلى مصر، ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

ذكر المصاف الذي كان بين عسكر مصر ومعهم الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب حمص

في هذه السنة وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف بلاد دمشق، حتى وصلوا إلى غزة، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس، مملوك الملك الصالح أيوب وكان من أكبر مماليكه، وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك، وأرسل الملك الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وسار صاحب حمص جريدة ودخل

عكا، فاستدعى الفرنج على ماكان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل، واجتمعوا أيضاً بصاحب حمص، وعسكر دمشق والكرك، ولم يحضر الناصر داود ذلك، والتقى الفريقان بظاهر غزة، فولى عسكر دمشق منهم خلقا عظيما، واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس، ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام، ثم أرسل الملك الصالح صاحب مصر باقي عسكر مصر مع معين الدين ابن الشيخ، واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية، وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وخرجت هذه السنة وهم محاصروها.

ذكر وفاة صاحب حماة

في هذه السنة توفي جدي الملك المظفر صاحب حماة تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، يوم السبت ثامن جمادى الأولى من هذه السنة أعني سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وكانت مدة مملكته لحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام، وكان منها مريضا بالفالج سنتين وتسعة أشهر وأياما، وكانت وفاته وهو مفلوج بحمى حادة عرضت له وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان شهما شجاعا فطنا ذكيا، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم، استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف، وكان مهندسا فاضلا في العلوم الرياضية، فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحماة وطاحونا على النهر العاصي، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة.

قال القاضي جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين

على عملها، وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضيع، ولما مات الملك المظفر صاحب حماه ملك بعده الملك المنصور محمد بن ملك المظفر محمود المذكور، وعمره حينئذ عشر سنين وشهر واحد وثلاثة عشر يوما، والقائم بتدبير المملكة سيف الـــــــديـــــن طغـــــــرل مملـــــــوك

الملك المظفر، ومشاركه الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ، والطواشي مرشد، والوزير بهاء الدين بن التاج، ومرجع الجميع إلى والدة الملك المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل.

وفيها: بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب وفاة ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيل صاحب دمشق، فاشتد حزن الصالح أيوب عليه وحنقه على الصالح اسماعيل.

وفي هذه السنة: توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب ميافارقين، واستقر بعده في ملكه ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن غازي.

وفيها: سير من حماة الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن نصر الله المعروف بيته ببني المغيرك رسولا إلى الخليفة ببغداد، وصحبته تقدمه من السلطان الملك المنصور صاحب حماة.

وفيها: توفي القاضي شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم ابن علي بن محمد الشافعي، عرف بابن أبي الدم قاضي حماة، وكان قد توجه في الرسلية إلى بغداد فمرض في المعرة، وعاد إلى حماة مريضا فتوفي بها، وهو الذي ألف التاريخ الكبير المظفري وغيره.

-١٠٢٥٠-

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

فيها سير الصالح اسماعيل وزيره أمين الدولة الذي كان سامريا، وأسلم إلى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه، فلم يجب الخليفة إلى ذلك، وكان أمين الدولة غالبا على الملك الصالح اسماعيل المذكور بحيث لايخرج عن رأيه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفيها تسلم عسكر الملك الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، وكان محصورا معه بدمشق ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، فتسلم دمشق على ان يستقر بيد الملك الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى، والسواد، ويستقر بيد صاحب حمص حمص وماهو مضاف إليها، فأجابهما معين الدين ابن الشيخ إلى ذلك، ووصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبي علي بمن كان معه من العسكر المصري، واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن الشيخ مرض وتوفي بها، وبقي حسام الدين بن أبي علي نائبا بدمشق للملك الصالح أيوب، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح اسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات مايرضي خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، وصاروا مع الملك الصالح اسماعيل وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك، وساروا إلى دمشق وحصروها، وغلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها، وقام حسام الدين بن أبي علي الهذباني في حفظ دمشق أتم قيام، وخرجت السنة والأمر على ذلك.

- ١٠٢٥١ -

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة قصدت التتر بغداد، وخرجت عساكر بغداد للقائهم، ولم يكن للتتر بهم طاقة، فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل.

وفي هذه السنة توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت السلطان صلاح الدين بدمشق بدار العقيقي، وكانت قد جاوزت ثمانين سنة، وبنت مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية.

وفيها توفي الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن الصلاح الفقيه المحدث.

وفيها توفي علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي شرح قصيدة الشاطبي في القراءات، وشرح المفصل للزمخشري، وسمى شرحه المفضل في شرح المفصل، وله مجموع سماه كتاب سفر السعادة وسفير الافادة، ذكر فيه مسائل مشكلة في النحو، وعدة من أبيات المعاني، ولغة غريبة.

وفي هذه السنة لما تسلم دمشق الملك الصالح أيوب، تسلم نواب الملك المنصور صاحب حماة سلمية، وانتزعوها من صاحب حمص، واستقرت سلمية في هذه السنة في ملك الملك المنصور صاحب حماة.

وفيها توفي الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد بن علي الموصلي الأصل، الحلبي المولد والمنشأ، النحوي ويعرف بابن الصائغ وكان ظريفا حسن المحاضرة شرح المفصل شرحا مستوفى ليس في الشروح مثله وله غير ذلك.وولد في رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحلب وتوفي بها في التاريخ المذكور ودفن با لمقام.

- ١٠٢٥٢ -

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح أيوب على بعلبك

كنا قد ذكرنا اتفاق الخوارزمية مع الصالح اسماعيل والناصر داود، ومحاصرتهم دمشق، وبها حسام الدين بن أبي علي، ولما وقع ذلك اتفق الحلبيون والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص، وصاروا مع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وقصدوا الخوارزمية، فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى نحو الحلبيين وصاحب حمص، والتقوا على القصب في هذه السنة، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وحمل رأسه إلى حلب، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلو خان الخوارزمي، فلحقوا بالتتر، وصاروا معهم، وانقطع منهم جماعة، وتفرقوا في الشام وخدموا به، وكفى الله الناس شرهم، ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فرح فرحا عظيما، ودقت البشائر بمصر، وزال ماكان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك، وأما الصالح اسماعيل فإنه سار إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، واستجار به، وأرسل الصالح أيوب يطلبه، فلم يسلمه الملك الناصر إليه، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين بن أبي علي الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح اسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان، وحمل أولاد الصالح اسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل وأستاذ ناصر الدين يغمور، فاعتقلا بمصر أيضا، وزينت القاهرة ومصر، ودقت البشائر بهما لفتح بعلبك واتفق في هذه الأيام وفاة صاحب عجلون، وهو سيف الدين بن قليج،

فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضا، ولما جرى ماذكرناه أرسل الملك الصالح أيوب عسكرا مع الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وكان فخر الدين ابن الشيخ قد اعتقله الملك العادل أبو بكر ابن الملك الكامل، ثم لما ملك الملك الصالح أيوب مصر أفرج عنه وأمره بملازمة بيته فلازمه مدة، ثم قدمه في هذه السنة على العسكر وجهزه إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك، فسار فخر الدين المذكور واستولى على جميع بلاد الملك الناصر داود وولى عليها، وسار إلى الكرك وحاصرها وخرب ضياعها، وضعف الملك الناصر ضعفا بالغا ولم يبق بيده غير الكرك وحدها.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة حبس الصالح أيوب مملوكه بيبرس، وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك، وسببه ان بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره، فأرسل أستاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله في هذه السنة، وكان آخر العهد به.

وفيها أرسل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص ابن شيركوه، وطلب دستورا من الملك الصالح أيوب ليصل إلى بابه وينتظم في سلك خدمته، وكان قد حصل بابراهيم المذكور السل وسار على تلك الحالة من حمص متوجها إلى الديار المصرية ووصل إلى دمشق فقوي به المرض، وتوفي في دمشق فنقل إلى حمص ودفن بها، وملك بعده ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور ابراهيم المذكور.

وفي هذه السنة بعد فتوح دمشق وبعلبك استدعى الملك الصالح أيوب خدمة حسام الدين بن أبي علي إلى مصر، وأرسل موضعه نائبا

بدمشق الأمير جمال الدين بن مطروح، ولما وصل حسام الدين بن أبي علي إلى مصر استنابه الملك الصالح بها،وسار الملك الصالح أيوب إلى دمشق، ثم سار إلى بعلبك، ثم عاد إلى دمشق، ووصل إلى خدمة الملك الصالح أيوب بدمشق الملك المنصور محمد صاحب حماة، والملك الأشرف موسى صاحب حمص فأكرمهما وقربهما،ثم أعطاهما الدستور فعادا إلى بلادهما، واستمر الملك الصالح بالشام حتى خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة توفي عماد الدين داود بن موشك بالكرك وكان جامعا لمكارم الأخلاق.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة

وفيها عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى الديار المصرية.

وفيها فتح فخر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية، والملك الصالح بالشام، بعد محاصرتها مدة، وكنا قد ذكرنا تسليمهما إلى الفرنج في سنة إحدى وأربعين وستمائة، فعمروها واستمرتا بأيدي الفرنج حتى فتحتا في هذه السنة.

وفيها سلم الأشرف صاحب حمص شميميس للملك الصالح أيوب، فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للملك الصالح في ملك باقي الشام.

وفيها توفي الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل بالحبس، وأمه الست السوداء تعرف ببنت الفقيه نصر، وكان مسجونا من حين قبض عليه ببلبيس إلى هذه الغاية، فكانت مدة مقامه بالسجن نحو ثمان

سنين، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وخلف ولدا صغيرا وهو الملك المغيث فتح الدين عمر، وهو الذي ملك الكرك فيما بعد، ثم قتله الملك الظاهر بيبرس على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توجه الطواشي مرشد المنصوري، ومجاهد الدين أمير جندار من حماة إلى حلب، وأحضرا بنت الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب، وهي عائشة خاتون زوج الملك المنصور صاحب حماة، وحضرت معها أمها فاطمة خاتون بنت السلطان الملك الكامل ابن العادل، ووصلت إلى حماة في العشر الأوسط من رمضان من هذه السنة، أعني سنة خمس وأربعين وستمائة، ووصلت في تجمل عظيم، واحتفل للقائها بحماة احتفالا عظيما.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين قرا سنقر الساقي العادلي، أحد مماليك الملك العادل بن أيوب، وصارت مماليكه بالولاء للملك الصالح أيوب، ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحي، الذي صار له ملك مصر والشام على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.......

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة

فيها أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرا مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني، فحاصروا الملك الأشرف موسى بحمص مدة شهرين، فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافا إلى مابيده من تدمر والرحبة، ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب ذلك شق عليه، وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين، وكان قد حصل له مرض وورم في مأبطه، ثم فتح وحصل منه ناصور، ووصل الملك الصالح إلى دمشق، وأرسل عسكرا إلى حمص مع حسام الدين ابن أبي علي وفخر الدين ابن الشيخ، فنازلوا حمص وحصروها، ونصبوا عليها منجنيقا مغربيا يرمي

بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامي، مع عدة منجنيقات أخر، وكان الشتاء والبرد قويا، واستمر عليها الحصار واتفق حينئذ وصول الخبر إلى الملك الصالح وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط، وكان أيضا قد قوي مرضه، ووصل أيضا نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة، وسعى في الصلح بين الملك الصالح والحلبيين، وأن تستقر حمص بيد الحلبيين، فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها، ثم رحل الملك الصالح عن دمشق في محفة لقوة مرضه، واستناب بدمشق جمال الدين بن يغمور، وعزل ابن مطروح، وأرسل حسام الدين ابن أبي علي قدامه ليسبقه إلى مصر وينوب عنه بها.

وفيها في يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، أعني سنة ست وأربعين وستمائة توفي أبو عمرو عثمان بن عمر ابن أبي بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين، وكان والده عمر حاجبا للأمير عز الدين بن موسك الصلاحي، وكان كرديا واشتغل ولده أبو عمرو المذكور بالقاهرة في صغره بالقرآن والفقه على مذهب مالك بن أنس وبالعربية، وبرع في علومه وأتقنها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها وأكب الخلق على الاشتغال عليه، ثم عاد إلى القاهرة ثم انتقل إلى الاسكندرية فتوفي بها وكان مولد الشيخ أبي عمرو المذكور في أواخر سنة سبعين وخمسمائة بأسنا بليدة بالصعيد، وكان الشيخ أبو عمرو المذكور متفننا في علوم شتى، وكان الاغلب عليه علم العربية وأصول الفقه، صنف في العربية مقدمته الكافية، واختصر كتاب الأحكام للآمدي في أصول الفقه، فطبق ذكر هذين الكتابين أعني: الكافية، ومختصره في أصول الفقه جميع البلاد خصوصا بلاد العجم، وأكب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا، وله غيرهما عدة مصنفات.

وفيها أعني في سنة ست وأربعين وستمائة توفي عز الدين أيبك المعظمي، في محبسه بالقاهرة، وكان المذكور قد ملك صرخد في سنة ثمان وستمائة حسبما تقدم ذكره في السنة المذكورة، وقال ابن خلكان: إنه ملك صرخد في سنة احدى عشرة وستمائة، قال: لأن أستاذه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب حج في السنة المذكورة، وأخذ صرخد من صاحبها ابن قراجا، وأعطاها مملوكه أيبك المذكور، والظاهر أن الأول أصح،واستمرت في يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة، فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور، وأمسك أيبك في السنة المذكورة، وحمله إلى القاهرة وحبسه في دار الطواشي صواب، واستمر معتقلا بها حتى توفي معتقلا في هذه السنة في أوائل جمادى الأولى، ودفن خارج باب النصر في تربة شمس الدولة،ثم نقل إلى الشام ودفن في تربة كان قد أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الاعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير رحمه الله تعالى، هكذا نقلت ذلك من وفيات الاعيان.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طناح

وفي هذه السنة سار ريد افرنس، وهو من أعظم ملوك الفرنج، وريد بلغتهم هو الملك أي ملك افرنس، وافرنس أمة عظيمة من أمم الفرنج، وكان جمع ريد افرنس نحو خمسين ألف مقاتل، وشتى في جزيرة قبرس، ثم سار ووصل في هذه السنة إلى دمياط، وكان قد شحنها الملك الصالح بآلات عظيمة وذخائر وافرة، وجعل فيها بني كنانة، وهم مشهورون

بالشجاعة، وكان قد أرسل الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط، ولما وصلت الفرنج عبر فخر الدين ابن الشيخ من البر الغربي إلى البر الشرقي، ووصل الفرنج إلى البر الغربي لتسع بقين من صفر هذه السنة، ولما جرى ذلك هربت بنو كنانة وأهل دمياط منها، وأخلوا دمياط وتركوا أبوابها مفتحة، فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على مابها من الذخائر والسلاحات، وكان هذا من أعظم المصائب، وعظم ذلك على الملك الصالح، وأمر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم، ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر هذه السنة، وقد اشتد مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد ايس منه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك

وفي هذه السنة سار الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب من الكرك إلى حلب، لما ضاقت عليه الأمور مستجيرا بالملك الناصر صاحب حلب، وكان قد بقي عند الناصر داود من الجوهر مقدار كثير، قال: كان يساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان، فلما وصل إلى حلب سير الجوهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة المستعصم، ووصل اليه خط الخليفة بتسليمه، فلم تقع عينه عليه بعد ذلك، ولما سار الناصر داود عن الكرك استناب عليها ابنه عيسى، ولقبه الملك المعظم، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى المذكور هما: الامجد حسن والظاهر شاذي، فغضب الأخوان المذكوران من تقديم أخيهما عيسى عليهما، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيهما عيسى، وتوجه الأمجد حسن إلى الملك الصالح أيوب، وهو مريض على المنصورة، وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولأخيه بديار مصر، فأحسن إليه الصالح أيوب وأعطاهما اقطاعا أرضاهما، وأرسل إلى الكرك

ـ ١٠٢٥٩ ـ

وتسلمها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة، وفرح الملك الصالح بالكرك فرحا عظيما مع ماهو فيه من المرض، لما كان في خاطره من صاحبها.

ذكر وفاة الملك الصالح أيوب

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان هذه السنة، أعني سبع وأربعين وستمائة، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما، وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة، وكان مهيبا عالي الهمة عفيفا طاهر اللسان والذيل، شديد الوقار كثير الصمت، وجمع من المماليك الترك مالم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية، وكان لايجسر أن يخاطبه أحد إلاّ جوابا، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص توضع بين يديه مع الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين، وكان لايستقل أحد من أهل دولته بأمر من الامور إلا بعد مشاورته بالقصص، وكان غاويا بالعمارة، بنى قلعة الجزيرة، وبنى الصالحية، وهي بلدة بالسايح، وبنى له بها قصورا للتصيد، وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش، وكانت أم الملك الصالح أيوب المذكور جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها السلطان الملك الكامل فحملت بالملك الصالح، وكان للملك الصالح ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر، توفي في حبس الصالح اسماعيل وكان قد توفي ولده الآخر قبله، ولم يكن قد بقي له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا، ومات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى احد فلما توفي أحضرت شجر

الدر، وهي جارية الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ والطواشي جمال الدين محسنا، وعرفتها بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفا من الفرنج، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر، وكتبت إلى حسام الدين بن أبي علي، وهو النائب بمصر بمثل ذلك، فحلفت الأمراء والاجناد والكبراء بالعسكر وبمصر وبالقاهرة على ذلك في العشر الأوسط من شعبان هذه السنة، وكان بعد ذلك تخرج الكتب والمراسم وعليها علامة الملك الصالح، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي فلا يشك أحد في أنه خط السلطان، فأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا، ولما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن أرباب الدولة لايجسرون أن يتفوهوا بذلك، وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة، وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان من هذه السنة وقعة عظيمة استشهد فيها جماعة من كبار المسلمين، ونزلت الفرنج بحر مساح، ثم قربوا من المسلمين، ثم إن الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمس مضين من ذي القعدة، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه في الحمام بالمنصورة فركب مسرعا وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه، وكان سعيدا في الدنيا ومات شهيدا، ثم حملت المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم، واستمرت بهم الهزيمة، وأما الملك المعظم تورانشاه فإنه سار من حصن كيفا ووصل إلى دمشق في رمضان من هذه السنة، أعني سنة سبع وأربعين وستمائة، ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج براً وبحراً، ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبا، منها تسع شواني، فضعفت الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وأن يسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم تقع الاجابة إلى ذلك.

-١٠٢٦١-

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وقع الحرب بين صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ، وبين الملك الناصر صاحب حلب، فأرسل اليه الملك الناصر عسكراً والتقوا مع المواصلة بظاهر نصيبين، فانهزمت المواصلة هزيمة قبيحة، واستولى الحلبيون على أثقال لؤلؤ صاحب الموصل وخيمه، وتسلم الحلبيون نصيبين وأخذوها من صاحب الموصل، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها وتسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر، ثم تسلموا قرقيسيا وعادوا إلى حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم

لما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم، فلم يبق لهم صبر على المقام، فرحلوا الأربعاء لثلاث مضين من المحرم متوجهين إلى دمياط، وركب المسلمون أكتافهم، ولما أسفر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون، وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلا القليل، وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفا على ماقيل، وإنحاز ريد افرنس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي، ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة، وقيد ريد افرنس وجعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين ابن لقمان، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور، ونصب بها برج خشب للملك المعظم.

ذكر مقتل الملك المعظم

وفي هذه السنة يوم الاثنين لليلة بقيت من المحرم قتل الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وسبب ذلك ان المذكور أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا، وكانوا اطرافا أراذل، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور، وهجموا عليه بالسيوف، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس،الذي صار سلطانا فيها بعد على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور على ماتقدم ذكره، فأطلقوا في البرج النار فخرج الملك المعظم من البرج هاربا طالبا البحر ليركب في حراقته، فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فأدركوه وأتموا قتله في نهار الاثنين المذكور، وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما، ولماجرى ذلك اجتمعت الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح في المملكة، وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني أتابك العسكر، وحلفوا على ذلك، وخطب لشجر الدر على المنابر، وضربت السكة باسمها، وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل، وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا، وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل، ولما استقر ذلك وقع الحديث مع ريد افرنس في تسليم دمياط بالافراج عنه، فتقدم ريد افرنس إلى من بها من نوابه في تسليمها فسلموها، وصعد إليها العلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر من هذه السنة، أعني سنة

ثمان وأربعين وستمائة، وأطلق ريد افرنس فركب في البحر بمن سلم معه نهار السبت غد الجمعة المذكورة، وأقلعوا إلى عكا ووردت البشرى بهذا الفتح العظيم إلى سائر الاقطار، وفي واقعة ريد افرنس يقول جمال الدين يحيى بن مطروح أبياتا منها:

قل للفرنسيس اذا جئته
مقال صدق عن قؤول نصيح
اتيت مصرا تبتغي ملكها
تحسب ان الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح

. خمسون ألفا لا يرى منهم
غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة
لأخذ ثار أو بقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باقي والطواشي صبيح

ثم عادت ا لعساكر، ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر من السنة المذكورة، وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، وكان الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب الصبيبة قد سلمها إلى الملك الصالح أيوب، فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت إليه، وكان من الملك السعيد ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

ذكر ملك الملك المغيث الكرك

كان الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، قد أرسله الملك المعظم تورانشاه لماوصل الى الديار المصرية إلى الشوبك، واعتقله بها، وكان النائب على الكرك والشوبك بدر الدين الصوابي الصالحي، فلما جرى ماذكرناه من قتل الملك المعظم، ولما استقر عليه الحال بادر بدر الدين الصوابي المذكور فأفرج عن المغيث، وملكه القلعتين الكرك والشوبك، وقام في خدمته أتم قيام.

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق

ولما جرى ماذكرناه ولم يجب أمراء دمشق إلى ذلك كاتب الامراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين، فسار إليهم وملك دمشق ودخلها في يوم السبت لثمان مضين من ربيع الآخر من هذه السنة، ولما استقر الناصر المذكور في ملك دمشق خلع على جمال الدين ابن يغمور، وعلى الأمراء القيمرية بها، وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملك الصالح، وعصت عليه: بعلبك، وعجلون، وشميميس مدة مديدة، ثم سلمت جميعها إليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية، وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين.

ذكر سلطنة أيبك التركماني

ثم إن كبراء الدولة اتفقوا على إقامة عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي في السلطنة، لأنه اذا استقر أمر المملكة في امرأة على ماهو عليه

الحال تفسد الأمور، فأقاموا أيبك المذكور وركب بالسناجق السلطانية، وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة، ولقب بالملك المعز، وأبطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجر الدر.

ذكر عقد السلطنة للملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف باقسيس

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن ايوب.

ثم اجتمعت الامراء واتفقوا على أنه لابد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة، واجتمعوا على إقامة موسى المذكور ولقبوه الملك الأشرف، وأن يكون أيبك التركماني أتابكه، وأجلس الأشرف موسى المذكور في دست السلطنة، وحضرت الأمراء في خدمته يوم السبت لخمس مضين من جمادى الأولى من هذه السنة، وكان بغزة حينئذ جماعة من عسكر مصر مقدمهم خاص ترك، فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة إلى الصالحية بالسايح، واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك، وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر، ونادوا بالقاهرة ومصر إن البلاد للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأيبك التركماني بالأتابكية، وفي يوم الأحد لخمس مضين من رجب رحل فارس الدين أقطاي الصالحي الجمدار متوجها إلى جهة غزة ومعه تقدير ألفي فارس، وكان أقطاي المذكور مقدم البحرية، فلما وصل إلى غزة اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه.

ذكر تخريب دمياط

وفي هذه السنة اتفقت آراء أكابر الدولة، وهدموا سور دمياط في العشر الأخير من شعبان هذه السنة لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى، وبنوا مدينة بالقرب منها في البر وسموها المنشية، وأسوار دمياط التي هدمت من عمارة المتوكل الخليفة العباسي.

ذكر القبض على الناصر داود

وفي هذه السنة مستهل شعبان قبض الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب على الناصر داود الذي كان صاحب الكرك، وبعث به إلى حمص فاعتقل، وذلك لأشياء بلغت الناصر يوسف عن المذكور خاف منها.

ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرته

وفي هذه السنة سار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بعساكره من دمشق، وصحبته من ملوك أهل بيته: الصالح اسماعيل بن العادل بن أيوب، والأشرف موسى صاحب حمص، وهو حينئذ صاحب تل باشر والرحبة وتدمر، والمعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين، وأخو المعظم المذكور نصرة الدين، والأمجد حسن، والظاهر شادي ابنا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب، وتقي الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب، ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الأرمني، وإليه تدبير المملكة، فرحلوا من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان من هذه السنة، ولما بلغ المصريين ذلك اهتموا

لقتاله ودفعه، ويبرزوا إلى السايح وتركوا الاشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل، وأفرج أيبك التركماني حينئذ عن ولدي الصالح اسماعيل، وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك، وخلع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح اسماعيل، والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية في يوم الخميس عاشر ذي القعدة من هذه السنة، فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر، فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصرصاحب دمشق، وثبت المعز أيبك التركماني في جماعة قليلة من البحرية، فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى أيبك التركماني ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشامية، ولم يشكوا في النصر، بقي الملك الناصر تحت السناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لايتحرك من موضعه، فحمل المعز التركماني بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام، ثم حمل أيبك المذكور على طلب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم، وأخذ شمس الدين لؤلؤ أسيرا، فضربت عنقه بين يديه، وكذلك أسر الأمير ضياء الدين القيمري، فضربت عنقه، وأسر يومئذ الملك الصالح اسماعيل، والأشرف صاحب حمص، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب، وأخوه نصرة الدين، ووصل عسكر الملك الناصر في أثر المنهزمين إلى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر، وهم لايشكون ان الهزيمة تمت على المصريين، فلما بلغهم هروب الملك الناصر اختلفت آراؤهم، فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها، ولو فعلوه لماكان بقي مع أيبك التركماني من يقاتلهم به، وكان هرب فإن غالب المصريين المنهزمين وصلوا إلى الصعيد، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم، وهو مجروح وكانت الوقعة يوم الخميس، ووصل المنهزمون من مصر إلى القاهرة في غد الوقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر في ملك الملك الناصر ديار مصر، وخطب له في الجمعة المذكورة بقلعة الجبل

ومصر، وأما القاهرة فلم يقم فيهـا في ذلك النهار خطبة لأحد، ثم وردت إليهـم البشرى بـانتصـار البحـرية ودخـل أيبـك التركماني والبحـريـة إلى القاهـرة يوم السبت ثاني عشر ذي القعـدة، ومعه الصالـح اسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين، فحبسوا بقلعة الجبل، وعقب ذلـك أخرج أيبك التركماني أمين الـدولة وزير الصـالح اسماعيل، واستـاذ داره يغمور، وكانا معتقلين مـن حين استيلاء الصالح أيـوب على بعلبك فشنقهما على بـاب قلعـة ا لجبـل رابع عشر ذي القعـدة، وفي ليلـة الأحـد السـابـع والعشرين مـن ذي القعدة هجـم جماعة على الملك الصـالح عماد الـدين اسماعيل ابن الملك العـادل بن أيوب وهو يمص قصب سكـر، وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبـل من جهة القرافة فقتلوه، ودفن هنـاك وعمره قريب من خمسين سنة، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل.

وفي هذه السنة بعد هزيمة الملك النـاصر صاحب الشام، سار فارس الديـن أقطاي بثـلاثة آلاف إلى غـزة فاستـولى عليها، ثـم عاد إلى الـديار المصرية.........

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها توفي الصاحـب محيي الدين بن مطروح، وكان متقـدما عند الملك الصالح أيوب، وكـان يتولى له، لما كان الصالح بـالشرق، نظر الجيش، ثم استعملـه على دمشـق، ثم عـزلـه، وولى ابـن يغمـور، وكان ابـن مطـروح المذكور فاضلاً في النثر والنظم فمن شعره:

عـانقتـه فسكـرت مـن طيـب الشـذا
غصـن رطيـب بـالنسيـم قـد اغتـذا

- ١٠٢٦٩ -

نشـــــوان مـــــا شرب المدام وانما
أمســـى بخمـــر رضـــاب متنبـــذا
جـــاء العـــذول يلـــومني مـــن بعـــد مـــا
أخـــذ الغـــرام علي فيـــه مـــا أخـــذا
لا أرعـــوي لا انثنـــي لا انتهـــي
عـــن حبـــه فليهـــذ فيـــه مـــن هـــذى
إن عشـــت عشـــت على الغـــرام وإن أمـــت
وجـــدا بـــه وصبـــابـــة يـــا حبـــذا

وفيهـا جهز الملـك الناصر يـوسف صـاحب الشـام عسكراً إلى غـزة، وخـرج المصريـون إلى السـائح، وأقـامـوا كـذلـك حتى خـرجـت هـذه السنة.......

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة

ولم يقع لنا فيها مايصلح ان يؤرخ.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها استقـر الصلح بين الملـك الناصر يـوسف صـاحب الشـام وبين البحريـة بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن، وللملـك الناصر ماوراء ذلك، وكان نجم الديـن الباذرائي رسول الخليفة هو ا لذي حضر من جهة الخليفة، وأصلح بينهم على ذلك، ورجع كل إلى مقره.

وفيهـا قطع أيبـك التركماني خبز حسـام الدين ابن أبي علي الهذبـاني، فطلب دستورا فأعطيه، وسار إلى الشام، فاستخدمه الملك الناصر يوسف بدمشق.

ذكر احوال الملك الناصر صاحب الكرك

وفيهـا أفرج الملك النـاصريـوسف عـن الملك الناصر داود بـن المعظم، الذي كان صـاحب الكرك،وكان قـد اعتقله بقلعة حمص وذلك بشفـاعة الخليفة المستعصـم فيه، فـأفرج عنـه وأمره أن لايسكـن في بلاده، فـرحل النـاصر داود المذكور إلى جهـة بغـداد، فلم يمكنـوه مـن الـوصول إليهـا وطلـب وديعته الجوهـر فمنعوه إيـاها، وكتـب الملك النـاصر يوسـف إلى ملوك الاطراف أنهم لايأووه ولايميروه، فبقي النـاصر داود في جهات عانة والحديثة، وضاقـت به الأحوال وبمن معـه، وانضم إليه جماعة مـن غزيه، فبقـوا يرحلـون وينزلـون جميعا، ثـم لما قـوي عليهم الحر ولم يبـق بالبريـة عشب قصدوا أزوار الفرات يقاسون بق الليـل وهواجـر النهار،وكان معه أولاده، وكان لـولده الظاهـر شادي فهد فكان يتصيـد في النهار مايـزيد على عشرة غـزلان، وكـان يمضي للملـك النـاصر داود وأصحـابـه أيـامـا لايطعمون غير لحوم الغزلان، واتفق أن الاشرف صاحـب تل باشر وتدمر والـرحبة يـومئـذ أرسل إلى النـاصر داود مـركبين موسقين دقيقـاً وشعيراً، فأرسل صاحب حمص وتهدده على ذلك، ثـم إن الناصر داود قصد مكانا للشرابي، واستجـار به فـرتـب له الشرابي شيئاً دون كفـايته، وأذن لـه في النـزول بالأنبـار وبينهـا وبين بغداد ثلاثـة أيام، والنـاصر داود مع ذلـك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراعتـه، ويطلب وديعته فلا يرد لهفتـه، ولايجيبه إلا بـالمماطلـة والمطاولـة، وكـانت مـدة مقـامه متنقـلا في

الصحارى مع غزيه قريب ثلاثة أشهر، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيه عند الملك الناصر، فأذن له في العود إلى دمشق ورتب له مائة ألف درهم على بحيرة فامية وغيرها، فلم يتحصل له من ذلك إلاّ دون ثلاثين ألف درهم.

وفي هذه السنة وصلت الأخبار من مكة بأن ناراً ظهرت من عدن، وبعض جبالها، بحيث كانت تظهر في الليل دخان عظيم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة........

ذكر مقتل أقطاي

....في هذه السنةاغتال الملك المعز أيبك التركماني المستولي على مصر خوشداشه أقطاي الجمدار، وأوقف له في بعض دهاليز الدور التي بقلعة الجبل ثلاثة مماليك هم: قطز، وبهادر، وسنجر العجمي، فلما مر بهم فارس الدين أقطاي ضربوه بسيوفهم فقتلوه، ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام، وكان الفارس أقطاي يمنع أيبك من الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للملك الاشرف موسى بن يوسف بن يوسف ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فلما قتل أقطاي استقل المعز التركماني بالسلطنة، وأبطل الاشرف موسى المذكور منها بالكلية، وبعث به إلى عماته القطبيات وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر، وكان انقضاء دولتهم من الديار المصريةفي هذه السنة على ماشرحناه، ووصلت البحرية إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وأطمعوه في ملك مصر، فرحل من دمشق بعسكر ونزل عمقا من الغور، وأرسل إلى غزة عسكراً فنزلوا بها، وبرز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسية، وخرجت السنة وهم على ذلك.

وفيها قدمت ملكة خاتون بنت كيقباذ ملك بلاد الروم إلى زوجها الملك الناصر يوسف صاحب الشام.

وفيها ولى الملك المنصور صاحب حماة قضاء حماة للقاضي شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن البارزي، بعد عزل القاضي المحيي حمزة بن محمد.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

فيها عزمت العزيزية، المقيمون مع المعز أيبك على القبض عليه، وعلم بذلك واستعد لهم، فهربوا من مخيمهم على العباسية على حمية، واحتيط على وطاقاتهم جميعها.

وفي هذه السنة مشى نجم الدين البادرائي في الصلح بين المصريين والشاميين، واتفق الحال أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى العريش، ويكون الحد بير القاضي، وهو بين الورادة والعريش، وبيد المعز أيبك الديار المصرية، وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده.

وفي هذه السنة أو التي قبلها تزوج المعز أيبك شجر الدر أم خليل، التي خطب لها بالسلطنة في ديار مصر.

وفيها طلب الملك الناصر داود من الملك الناصر يوسف دستورا إلى العراق بسبب طلب وديعته من الخليفة، وهي الجوهر الذي تقدم ذكره، وأن يمضي إلى الحج فأذن له الناصر يوسف في ذلك، فسار الناصر داود إلى كربلاء ثم مضى منها إلى الحج، ولما رأى قبر النبي ﷺ تعلق في استار الحجرة الشريفة بحضور الناس، وقال:اشهدوا أن هذا مقامي من رسول الله ﷺ داخلا عليه مستشفعاً به إلى ابن عمه المستعصم في أن يرد على وديعتي، فأعظم الناس ذلك، وجرت عبراتهم وارتفع بكاؤهم،

وكتب بصورة ماجرى مشروح، ورفع إلى أمير الحاج كيخسرو، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وتوجه الناصر داود مع الحاج العراقي وأقام ببغداد.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها مات كيخسرو ملك بلاد الروم، وأقيم في السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكاوس، وركن الدين قليج أرسلان.

وفيها توجه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم، وصحبته تقدمة جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه، ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع، وهو من مماليك المظفر غازي صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق، فبقي الخليفة متحيراً، ثم أحضر سكينا من اليشم[حجر كريم] كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر، وأما في هذا الوقت فلا يمكني، فأخذ كمال الدين بن العديم السكين، وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة.

ذكر غير ذلك

فيها جرى للناصر داود مع الخليفة ماصورته انه لما أقام ببغداد بعد وصوله مع الحجاج واستشفاعه بالنبي ﷺ في رده وديعته، أرسل الخليفة المستعصم من حاسب الناصر داود المذكور على ماوصله في ترداده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم، والخبز، والحطب، والعلف، والتبن، وغير

ذلـك وثمن عليـه ذلك بـأغلى الأثمان، وأرسل إليـه شيئاً نـزراً وألزمـه أن يكتب خطه بقبض وديعتـه وأنه مابقي يستحق عند الخليفـة شيئاً، فكتب خطه بـذلك كـرها، وسـار عن بغـداد وأقام مـع العرب، ثـم أرسل إليـه الناصر يوسـف بن العزيز بن غـازي بن يوسف صاحـب الشام، فطيب قلبه وحلف له، فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحية.

وفي هذه السنـة يوم الأحـد ثالث شـوال، توفي سيف الـدين طغـريل، مملوك الملـك المظفر محمود صاحـب حماة، وكان قد زوجه المظفـر المذكور بـأخته، وقـام بتـدبير مملكـة حماة بعد وفـاة الملـك المظفـر حتى تـوفي في التاريخ المذكور.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

ذكر مقتل المعز أيبك التركماني

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، قتل الملك المعز أيبـك التركماني الجاشنكير الصالحي، قتلته امرأتـه شجر الدر، التي كـانت امـرأة أستاذه الملـك الصالـح أيوب، وهـي التي خطـب لها بـالسلطنـة في ديار مصر، وكـان سبـب ذلـك أنـه بلغها أن المعـز أيبـك المذكور قـد خطب بنـت بدر الـدين لؤلـؤ صاحـب الموصل، ويـريد أن يتزوجهـا، فقتلته في الحمام بعـد عوده من لعـب الكرة في النهـار المذكور، وكان الذي قتله سنجر الجوجـري، مملوك الطواشي محسن، والخدام حسبما اتفقـت معهم شجـر الـدر، وأرسلت في تلـك الليلـة أصبـع المعز أيبـك وخاتمه إلى الأمير عـز الديـن الحلبي الكبير، وطلبت منـه أن يقوم بـالأمر، فلم يجسر على ذلـك، ولما ظهر الخبر أراد ممـاليك المعـز أيبك قتـل شجر الدر، فحماهـا المماليك الصالحيـة، فاتفقت الكلمة على إقـامة نور الـدين

علي ابن الملك المعز أيبك، ولقبوه الملك المنصور، وعمره يومئذ خمس عشرة سنة، ونقلت شجر الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر، وصلبوا الخدام الذين اتفقوا معها على قتل المعز أيبك، وهرب سنجر الجوجري، ثم ظفروا به وصلبوه، واحتيط على الصاحب بهاء الدين على بن جنا لكونه وزير شجر الدر، وأخذ خطه بستين ألف دينار.

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من هذه السنة، اتفقت مماليك المعز أيبك مثل سيف الدين قطز، وسنجر الغتمي وبهادر، وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبي، وكان صار أتابكاً للملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز أيبك، ورتبوا في أتابكية المذكور أقطاي المستعرب الصالحي.

وفي سادس عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة قُتلت شجر الدر، وألقيت خارج البرج، فحملت إلى تربة كانت قد عملتها فدفنت فيها، وكانت تركية الجنس، وقيل كانت أرمنية، وكانت مع الملك الصالح في الاعتقال بالكرك، وولدت منه ولداً اسمه خليل مات صغيرا، وبعد أيام من ذلك خنق شرف الدين الفائزي.

ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز

وفي هذه السنة نقل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به، فاستوحش خاطره منهم، وتقدم إليهم بالانتزاح عن دمشق، فساروا إلى غزة، وانتموا إلى الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وانزعج أهل مصر لقدوم البحرية إلى غزة، •برزوا إلى العباسية، ووصل من البحرية جماعة مقفزين إلى القاهرة، منهم:

عز الدين الأثرم، فأكرموهم وأفرجوا عن أملاك الأثرم، ولما فارق البحرية الناصر صاحب الشام أرسل عسكراً في أثرهم، فكبس البحرية ذلك العسكر، ونالوا منه، ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زغر ملتجئين إلى الملك المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جليلة، وأطمعوه في ملك مصر، فجهزهم بما احتاجوه، وسارت البحرية إلى جهة مصر، وخرجت عساكر مصر لقتالهم، والتقى المصريون مع البحرية، وعسكر المغيث بكرة السبت منتصف ذي القعدة من هذه السنة، فانهزم عسكر المغيث والبحرية، وفيهم بيبرس البندقداري المسمى بعد ذلك الظاهر إلى جهة الكرك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة وصل من الخليفة المستعصم الخلعة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز.

وفيها استجار الناصر داود بنجم الدين الباذرائي في أن يتوجه صحبته إلى بغداد، فأخذه صحبته وتوصل الناصر يوسف إلى منعه عن ذلك فلم يتهيأ له، وسار الناصر داود مع الباذرائي إلى قرقيسيا، فأخره الباذرائي ليشاور عليه، فأقام الناصر داود في قرقيسيا ينتظر الاذن بالقدوم إلى بغداد، فلم يؤذن له وطال مقامه، فسافر إلى البرية وقصد تيه بني اسرائيل، وأقام مع عرب تلك البلاد.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد، وملكها في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي، كان رافضياً، وكان أهل الكرخ أيضاً روافض، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عادتهم، فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ، وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل اقطاعاتهم، وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس، وأرسل ابن العلقمي إلى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم، خرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار، والتقوا على مرحلتين من بغداد، واقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم عسكر الخليفة، ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام، ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو، وهو مقدم كبير، في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة، وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسن له الخروج إلى هولاكو، فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه، فأنزل في خيمة، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده، وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسر وعدّى باجو ومن معه، وبذلوا السيف في بغداد، وهجموا دار الخلافة،

وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، ولم يسلم إلاّ من كان صغيرا، فأخذ أسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان.

وأما الخليفة فإنهم قتلوه، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل خنق، وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل غرق في دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبي جعفر المنصور ابن محمد الظاهر ابن الامام الناصر أحمد، وقد تقدم ذكر باقي نسبه عند ذكر وفاة الامام الناصر، ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر في سنة أربعين وستمائة، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريباً، وهو آخر الخلفاء العباسيين، وكان ابتداء دولتهم في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهي السنة التي بويع فيها السفاح بالخلافة، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين سنة تقريباً،وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة.

حكى القاضي جمال الدين بن واصل قال: لقد أخبرني من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ماصورته أن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بني أمية عنه أنه يقول إن الخلافة تصير إلى ولده، فأمر الأموي بعلي بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب، وكان يقا ل عند ضربه: هذا جزاء من يفتري ويقول إن الخلافة تكون في ولده، فكان علي بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول: أي والله لتكونن الخلافة في ولدي، لاتزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم، فوقع مصداق ذلك، وهو ورود هولاكو وإزالته ملك بني العباس.

ذكر الوقعة بين المغيث صاحب الكرك وعسكر مصر

كان قد انضمت البحرية إلى المغيث بن العادل بن الكامل، ونزل من الكرك وخيم بغزة، وجمع الجموع، وسار إلى مصر في دست السلطنة، وخرجت عساكر مصر مع مماليك الملك المعز أيبك وأكبرهم سيف الدين قطز الذي صار صاحب مصر، والغتمي، وبهادر، والتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه، فولى منهزما إلى الكرك في أسوأ حال ونهبت أثقاله ودهليزه.

ذكر وفاة الناصر

وفي هذه السنة، أعني سنة ست وخمسين وستمائة، في ليلة السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، بظاهر دمشق في قرية يقال لها البويضا، ومولده سنة ثلاث وستمائة فكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة، وكنا قد ذكرنا أخباره في سنة خمس وخمسين، وأنه توجه إلى تيه بني اسرائيل، وصار مع عرب تلك البلاد، وبلغ المغيث صاحب الكرك وصوله إلى تلك الجهة فخشي منه، وأرسل إليه فقبض عليه وحمله إلى بلد الشوبك، وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها، وبقي الملك الناصر المذكور ممسوكا والمطمورة تحفر قدامه ليحبس فيها، فبينما هو على تلك الحال إذ ورد رسول الخليفة المستعصم يطلبه من بغداد لما قصده التتر، ليقدمه على بعض العساكر لملتقى التتر، فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزوه إلى المغيث صاحب الكرك، ووصل الرسول إلى موضع الملك الناصر قبل أن يتم المطمورة، فأخذه وسار به إلى جهة دمشق، فبلغ الرسول استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، فتركه الرسول ومضى لشأنه، فسار الناصر داود إلى البويضا، وهي قرية شرقي دمشق، وأقام بها ولحق الناس في الشام في تلك المدة طاعون مات منه الناصر داود

المذكور في التاريخ المذكور، وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البويضا، وأظهر عليه الحزن والتأسف، ونقله ودفنه بالصالحية في تربة والده المعظم، وكان الناصر داود فاضلاً ناظماً ناثراً، وقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الخسرو شاهي، تلميذ الامام فخر الدين الرازي، وللناصر داود المذكور أشعار جيدة قد تقدم بعضها ومن شعره أيضا:

عيون عن السحر المبين تبين
لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهي سود فرندها
ذبول فتور والجفون جفون
إذا ما رأت قلبا خليا من الهوى
تقول له كن مغرما فيكون

وله أيضاً:

طرفي وقلبي قاتل وشهيد
ودمي على خديك منه شهود
أما وحبك لست أضمر سلوة
عن صبوتي ودع الفؤاد يبيد
مني بطيفك بعد ما منع الكرى
عن ناظري البعد والتسهيد
ومن العجائب أن قلبك لم يلن
لي والحديد ألانه داود

ومما كتب به في أثناء مكاتبته إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وكان قد أغارت الفرنج على نابلس في أيام الملك الصالح أيوب صاحب مصر

أيا ليت أمي أيم طول عمرها
فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل

ـ ١٠٢٨١ ـ

وياليتها لما قضاها السيد
لبيب أريب طيب الفرع والاصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا
فما بشرت يوما بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملا
أصيبت بما احتفت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت
تشد إلى الشدقميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم
ولم أر في الاسلام ما فيه من خلل

ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة في ذي القعدة توفيت الصاحبة غازية خاتون بنت السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة حماة رحمها الله تعالى، وكان قدومها إلى حماة في سنة تسع وعشرين وستمائة، وولد لها من الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاث بنين، مات أحدهم صغيراً، وكان اسمه عمر، وبقي الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه والد الملك الأفضل علي، وولد لها منه ثلاث بنات أيضاً، فتوفيت الكبرى منهن، وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدتها بقليل، وتوفيت الصغرى وهي دنيا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور، وسنذكر وفاة الباقين في مواضعها إن شاء الله تعالى، وكانت الصاحبة غازية المذكورة من أحسن النساء سيرة وزهداً وعبادة، وحفظت الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر، وسلمته إليه قبل وفاتها رحمها الله تعالى.

- ١٠٢٨٢ -

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هـذه السنة قصـدت التتر ميافـارقين بعد استيـلائهم على بغـداد، وكان صـاحب ميـافارقين حينئذ الملـك الكامل محمـد ابن الملـك المظفر شهـاب الديـن غازي ابـن الملك العـادل أبي بكـر بن أيـوب، وكان قـد ملكهـا بعـد وفـاة أبيـه في سنـة اثنتين وأربعين وستمائة فحـاصره التتر وضايقـوا ميافارقين مضـايقة شديـدة، وصبر أهل ميـافارقين مع الكـامل محمد المذكور على الجوع الشـديد، ودام ذلك حتى كان منه مـاسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها اشتـد الوبـاء بالشـام خصوصـاً بدمشـق حتى لم يـوجد مغسـل للموتى.

وفيهـا توفي الصـاحـب بهاء الديـن زهير بن محمـد بـن علي بن يحيى المهلبي، كـاتب إنشـاء الملك الصـالح أيـوب، ومولـد بهاء الديـن زهير بـوادي نخلـة مـن مكة سنـة إحـدى وثمانين وخمسمائة، وفي آخـر عمـره انكشف حاله وباع موجوده وكتبـه، وأقام في بيته في القاهرة حتى أدركته وفاته بسبب الـوباء العام، في يوم الأحد رابع ذي القعـدة من هذه السنة، أعني سنـة ست وخمسين وستمائة، ودفن بـالقرافـة الصغرى، وكان كـريم الطباع غزير المروءة فاضلاً، حسـن النظم وشعره مشهور كثير؛ فمن شعره وهو وزن مخترع ليس بخرجة العروض أبيات منها:

يـــا مـــن لعبـــت بـــه شمـــول
مــــا ألطـــف هـــذه الشمائل

مـــــولاي يحق لي بـــــأني
عـــن حبـــك في الهوى أقـــاتـــل

هـــا عبـــدك واقفـــاً ذليـــلا
بـــالبـــاب يمـــد كـــف ســـائل

مـــن وصلـــك بـــالقليـــل يـــرضـــى
والطـــــل مـــــن الحبيـــــب وابـــل

وفي هذه السنة توفي بمصر الشيخ ركن الدين عبد العظيم شيخ دار الحديث، وكان من أئمة الحديث المشهورين.

وفيها توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط جمال الدين بن الجوزي، وكان من الوعاظ الفضلاء ألف تاريخاً جامعاً سماه مرآة الزمان، وفيها توفي سيف الدين علي بن سابق الدين قزل، المعروف بابن المشد، وكان أميراً مقدماً في دولة الملك الناصر يوسف صاحب الشام، وله شعر حسن فمنه:

بـــاكـــر كـــؤوس المدام واشرب
واستجـــل وجـــه الحبيـــب واطـــرب
ولاتخف للهمـــــــوم داء
فهـــــي دواء لـــــه مجرب
مـــن يـــد ســاق لـــه رضـــاب
كـــالشهـــد لكـــن جنـــاه أعـــذب

وفيها كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين، وبين عسكر الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الأمير مجير الدين بن أبي زكرى مصاف بظاهر غزة، انهزم فيه عسكر الناصر يوسف، وأسر مجير الدين المذكور، وقوي أمر البحرية بعد هذه الكسرة، وأكثروا العيث والفساد.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

فيها سار عز الدين كيكاووس، وركن الدين قليج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباذ إلى خدمة هولاكو، وأقاما معه مدة، ثم عادا.

- ١٠٢٨٤ -

ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان يلقب الملك الرحيم، وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة، ولما مات ملك بعده الموصل ولده الملك الصالح بن لؤلؤ، وملك سنجارولده الآخر علاء الدين بن لؤلؤ، وكان بدر الدين قد صانع هولاكو ودخل في طاعته،وحمل إليه الأموال، ووصل إلى خدمة هولاكو بعد أخذ بغداد ببلاد أذربيجان، وكان صحبة لؤلؤ الشريف العلوي ابن صلايا، فقيل إن لؤلؤ سعى به إلى هولاكو فقتل الشريف المذكور، ولما عاد لؤلؤ إلى الموصل لم يطل مقامه بها حتى مات، وطالت أيام بدر الدين لؤلؤ في ملك الموصل، فإنه كان القائم بأمور استاذه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر، وقام بتدبير ولده الملك القاهر بن أرسلان شاه، ولما توفي الملك القاهر بن أرسلان شاه في سنة خمس عشرة وستمائة انفرد لؤلؤ بتدبير المملكة، وأقام ولدي القاهر الصغيرين واحداً بعد واحد، واستبد بملك الموصل وبلادها ثلاثاً وأربعين سنة تقريباً، ولم يزل في ملكه سعيدا لم تطرقه آفة، ولم يختل لملكه نظام.

ذكر منازلة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك

في هذه السنة لما جرى من البحرية ماذكرناه من كسر عسكر الناصر يوسف، سار الناصر المذكور من دمشق بنفسه وعساكره، وسار في صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية، ووصل إلى الملك الناصر رسل الملك المغيث صاحب الكرك والقطبية بنت الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل، يتضرعون

إلى الملك الناصر ويطلبون رضاه عن الملك المغيث، فلم يجب إلى ذلك إلاّ بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية، فأجاب المغيث إلى ذلك، وعلم بالحال ركن الدين بيبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية، ووصل بهم إلى الملك الناصر يوسف فأحسن إليهم، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية، ومن جملتهم سنقر الأشقر وتنكز، وبرامق، وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر، فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها، واستقر الصلح بين الملك الناصر وبين الملك المغيث صاحب الكرك، وكانت مدة مقام الملك الناصر بالعساكر على بركة زيزاء مايزيد على شهرين بقليل، ثم عاد إلى دمشق، وأعطى للملك المنصور صاحب حماة دستوراً فعاد إلى بلده.

ذكر سلطنة قطز

وفي أواخر هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستمائة في أوائل ذي الحجة قبض سيف الدين قطز على ولد استاذه الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك، وخلعه من السلطنة، وكان علم الدين الغتمي، وسيف الدين بهادر، وهما من كبار المعزية غائبين في رمي البندق، فانتهز الفرصة في غيبتهما، وفعل ذلك، ولما قدم الغتمي وبهادر المذكوران قبض عليهما قطز أيضاً، واستقر قطز في ملك الديار المصرية، وتلقب بالملك المظفر، وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام، وهو كمال الدين المعروف بابن العديم قد قدم إلى مصر في أيام الملك المنصور علي ابن أيبك مستنجداً على التتر، واتفق خلع علي المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم، ولما استقر قطز في السلطنة أعاد جواب الملك الناصر يوسف انه ينجده ولايقعد عن نصرته، وعاد ابن العديم بذلك.

-١٠٢٨٦-

ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، في الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم، وثاني عشر كانون الثاني، ولد محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولقبوه الملك المظفر، بلقب جده، وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهنأ الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ الشيوخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها

ابشر على رغم العدى والحسد
بأجل مولود وأكرم مولد
بالنعمة الغراء بل بالدولة الزهـ
ـراء بل بالمفخر المتجدد
وافاك بدراً كاملاً في ليلة
طلعت عليك نجومها بالأسعد
ما بين محمود المظفر أسفرت
عنه وما بين العزيز محمد

ذكر قصد هولاكو الشام

وفي هذه السنة قدم هولاكو إلى البلاد التي شرقي الفرات، ونازل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزرية، وأرسل ولده شموط بن هولاكو إلى الشام، فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان الحاكم

في حلب الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين نائبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم، وخرج الملك المعظم، ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في بابلى المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد، ثم عادوا عليهم، وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد، واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى اعزاز فتسلموها بالأمان.

ذكر ماكان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب، برز من دمشق إلى برزه في أواخر السنة الماضية، وجفل الناس من بين يدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة، ونزل معه ببرزه، وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري من حين هرب من الكرك، والتجأ إلى الناصر، فاجتمع عند الملك الناصر عند برزه أمم عظيمة من العساكر والجفال، ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزه، بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزمواعلى اغتياله والفتك به، فهرب الملك الناصر من الدهليز إلى قلعة دمشق، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية إلى جهة غزة، وكذلك سار بيبرس البندقداري إلى جهة غزة، وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر، وانما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر غازي ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين لشهامته، ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفا من أخيه الملك الناصر، وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر، أمهما أم ولد تركية، ووصل الملك الظاهر غازي إلى غزة، واجتمع عليه من بها من العسكروأقاموه سلطانا، ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البندقداري الملك المظفر قطز صاحب مصر، فبذل له الأمان ووعده

الوعود الجميلة، ففارق بيبرس البندقداري الشاميين، وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه، فأقبل عليه الملك المظفر قطز، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها.

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم

في هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، في يوم الأحد تاسع صفر كان استيلاء التتر على حلب، وسببه أن هولاكو عبر الفرات بجموعه، ونازل حلب وأرسل هولاكو إلى الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين نائب السلطنة بحلب يقول له: إنكم تضعفون عن لقاء المغل، ونحن قصدنا الملك الناصر، والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة، ونتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على عسكر الاسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين إن شئتم طردتموهما، وإن شئتم قتلتموهما، فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك، وقال: ليس لكم عندنا إلا السيف، وكان رسول هولاكو إليهم في ذلك صاحب أرزن الروم، فتعجب من هذا الجواب وتألم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك، وأحاط التتر بحلب ثاني صفر وهجموا النواثر في غد ذلك اليوم، وقتل من المسلمين جماعة كثيرة، وممن قتل أسد الدين ابن الملك الزاهر بن صلاح الدين، واشتدت مضايقة التتر للبلد وهجموه من عند حمام حمدان في ذيل قلعة الشريف في يوم الأحد تاسع صفر، وبذلوا السيف في المسلمين، وصعد إلى القلعة خلق عظيم، ودام القتل والنهب من نهار الأحد المذكور إلى ا لجمعة رابع عشر صفر المذكور، فأمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان، ولم يسلم من أهل حلب إلاّ من التجأ إلى دار شهاب الدين ابن عمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين،

ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلي، والخانكاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود، وذلك لفرمانات كانت بأيديهم، وقيل أنه سلم بهذه الاماكن مايزيد على خمسين ألف نفس، ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم ومن التجأ اليها من العسكر، واستمر الحصار عليها وكان من ذلك ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب

كان قد تأخر بحماة الطواشي مرشد، لماسار صاحب حماة إلى دمشق، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب توجه الطواشي مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق، ووصل كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاكو، وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم، فأمنهم هولاكو، وأرسل إلى حماة شحنة رجلاً أعجميا كان يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له خسروشاه، فقدم خسروشاه إلى حماة وتولاها وأمن الرعية، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيماز أمير جندار، فسلم القلعة إليه ودخل في طاعة التتر، ولما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بمن بقي معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية، وفي صحبته الملك المنصور صاحب حماة، وأقام بنابلس أياماً، ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبي زكرى، والأمير علي بن شجاع، ومعهما جماعة من العسكر، ثم سار الملك الناصر إلى غزة فانضم إليه مماليكه الذين كانوا أرادوا قتله، وكذلك اصطلح معه أخوه الملك الظاهر غازي، وانضم إليه، وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس وصل التتر إليها وكبسوا العسكر الذين بها، وقتلوا مجير الدين والأمير علي بن شجاع، وكانا أميرين جليلين فاضلين، وكان

البحرية قد قبضوا عليهما واعتقلوهما بالكرك وأفرج عنهما المغيث لما وقع الصلح بينه وبين الناصر، ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ماجرى من كبسة التتر لنابلس رحل من غزة إلى العريش، وسير القاضي برهان الدين ابن الخضر رسولاً إلى الملك المظفر صاحب مصر يطلب منه المعاضدة، ثم سار الملك الناصر، والملك المنصور صاحب حماة، والعسكر ووصلوا إلى قطية، فجرى بها فتنة بين التركمان والأكراد الشهرزورية، ووقع نهب في الجفال، وخاف الملك الناصر أن يدخل مصر فيقبض عليه، فتأخر في قطية، ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة منهم أخوه الظاهر غازي، والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص، وشهاب الدين القيمري، ثم سار الملك بمن معه من قطية إلى جهة تيه بني اسرائيل، ولما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية وطيب قلوبهم، وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقاً والتقاه ملتقى حسنا، وطيب قلبه ودخل القاهرة، وأما التتر فانهم استولوا على دمشق، وعلى سائر الشام إلى غزة، واستقرت شحائنهم بهذه البلاد.

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجددات بالشام

أما قلعة حلب فوثب جماعة من أهلها في مدة الحصار على صفي الدين بن طرزه رئيس حلب، وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد ابن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون فقتلوهما، لأنهم اتهموهما بمواطأة التتر، واستمر الحصار على القلعة، واشتدت مضايقة التتر لها نحو شهر ، ثم سلمت بالأمان في يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول من هذه السنة، ولما نزل أهلها بالأمان، وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر فمنهم تنكز، وبرامق، وسنقر

الأشقر، فسلمهم هولاكو هم وباقي الترك إلى رجل من التتر يقال له سلطان حق، وهو رجل من أكابر القبجاق هرب من التتر لما غلبت على القبجاق، وقدم إلى حلب فأحسن إليه الملك الناصر، فلم تطب له تلك البلاد، فعاد إلى التتر، وأما العوام والغرباء فنزلوا إلى أماكن الحمى التي قدمنا ذكرها، وأمر هولاكو أن يمضي كل من سلم إلى داره وملكه وأن لايعارض، وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني، ووصل إلى هولاكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن ابراهيم شيركوه، وكان قد انفرد الاشرف المذكور عن المسلمين لماتوجه الملك الناصر إلى جهة مصر، ووصل إلى هولاكو بحلب فأكرمه هولاكو، وأعاد عليه حمص، وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب في سنة ست وأربعين وستمائة وعوضه عنها تل باشر على ماتقدم ذكره، فعادت إليه في هذه السنة، واستقر ملكه بها، وقدم أيضا إلى هولاكو وهو نازل على حلب محيي الدين بن الزكي من دمشق، فأقبل عليه هولاكو، وخلع عليه وولاه قضاء الشام، ولما عاد ابن الزكي المذكور إلى دمشق لبس خلعة هولاكو، وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو، واستقر في القضاء، ثم رحل هولاكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب، فأحضره هولاكو وسلموها إليه فغضب هولاكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم، وسبى النساء، ثم رحل هولاكو بعد ذلك وعاد إلى الشرق، وأمر عماد الدين القزويني بالرحيل إلى بغداد فسار إليها وجعل مكانه بحلب رجلا أعجميا، وأمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب، وأسوار المدينة فخربت عن آخرها، وأعطى هولاكو الأشرف موسى صاحب حمص الدستور ففارقه ووصل إلى حماة ونزل في دار المبارز، وأخذ في خراب سور قلعة حماه بتقدم هولاكو إليه بذلك، فخربت أسوارها وأحرقت زردخانتها، وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان، وأما أسوار مدينة حماة فلم تخرب لأنه كان بحماة رجل

يقال لـه ابراهيم بن الافـرنجية ضامـن الجهة المفردة بذل لخسروشـاه جملة كثيرة من المال وقـال الفرنـج قريـب منا بحصـن الأكراد ومتـى خربـت أسوار المدينـة لايقدر أهلها على المقام فيهـا، فأخذ منـه المال ولم يتعرض لخراب أسـوار المدينة، وكـان قد أمـر هولاكـو الأشرف موسـى صاحـب حمص بخـراب قلعة حمص أيضـا فلـم يخرب منهـا إلا شيئا قليـلا لأنها مدينته، وأما دمشق فانهم لما ملكوا المدينـة بالامان لم يتعرضوا إلى قتل ولا نهب، وعصـت قلعـة دمشـق عليهم فحـاصرهـا التتر، وجـرى على أهـل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، وضـايقوا القلعة وأقاموا عليها المجانيق ثـم تسلموها بالامان في منتصف جمادى الأولى مـن هذه السنة، ونهبـوا جميع مـافيها وجـدوا في خراب أسـوار القلعة وإعـدام ما بها مـن الزردخانات، والآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها.

ذكر استيلاء التتر على ميافارقين وقتل الملك الكامل صاحبها

وفي هـذه السنـة، أعنـي سنـة ثمان وخمسين وستمائة استـولى التتر على ميافارقين، وقـد تقدم ذكر نزولهم عليهـا ومحاصرتها في سنة ست وخمسين، واستمـر الحصار عليهـم مـدة سنتين حتى فنيـت أزوادِهـم، وفني أهلهـا بالوباء وبالقتل، وصاحبها الملـك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابـن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مصابـراً ثابتاً، وضعف من عنده عـن القتال فـاستولى التتر عليها، وقتلوا صاحبها الملـك الكامل المذكور، وحملـوا رأسه على رمح وطيف بـه في البلاد، ومروا بـه على حلب وحماة، ووصلـوا به إلى دمشـق في سابـع عشريـن جمادى الأولى من هـذه السنـة، أعني سنـة ثمان وخمسين وستمائة، وطافـوا به في دمشـق بالمغـاني والطبـول، وعلق رأس المذكـور في شبكـة بسور باب الفـراديـس إلى أن

عادت دمشق إلى المسلمين، فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس، وفيه يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة أبياتاً منها:

ابـــن غـــازي غـــزا وجـــاهـــد قـــومـــا
أثخنــــــوا في العــــــراق والمشرقين

طـــاهـــر أعـــاليـــا ومـــات شهيـــدا
بعـــــد صبر عليهـــــم عـــــامين

لم يشنــــه إذ طيـــف بـــالـــرأس منـــه
ولـــــه أســـــوة بـــــرأس الحسين

ثـــم واروا في مشهـــد الـــرأس ذاك
الـــرأس واستعجبـــوا مـــن الحالين

ذكر اتصال الملك الناصر بالتتر واستيلائهم على عجلون وغيرها من قلاع الشام

أما الملك الناصر يوسف فانه لما انفرد عن العسكر من قطية، وسار إلى تيه بني اسرائيل، بقي متحيرا إلى أين يتوجه، وعزم على التوجه إلى الحجاز، وكان له طبر دار كردي اسمه حسين، فحسن له المضي إلى التتر، وقصد هولاكو فاغتر بقوله ونزل ببركة زيزاء وسار حسين الكردي إلى كتبغا نائب هولاكو، وعرفه بموضع الملك الناصر، فأرسل كتبغا إليه وقبض عليه وأحضره إلى عجلون، وكانت بعد عاصية، فأمرهم الملك الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها، وكنا قد ذكرنا حصار التتر لبعلبك فتسلموها قبيل تسليم عجلون وخربوا قلعتها أيضاً، وكان بالصبيبة صاحبها الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل فسلم الصبيبة إليهم، وصار الملك السعيد المذكور معهم، وأعلن بالفسق والفجور وسفك دماء المسلمين، وأما الملك الناصر يوسف فان كتبغا

بعث به إلى هـولاكو، فوصل إلى دمشق ثـم إلى حماة وبها الأشرف صاحب حمص، فخرج إلى لقائه هـو وخسروشاه النائب بحماة، ثم سـار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصروماقد حل بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد:

يعـــز علينـــا أن نـــرى ربعكـــم يبلى
وكـــانـــت بـــه آيـــات حسنكـــم تتلى

ثم سـار إلى الاردو فأقبل عليه هـولاكو، ووعده برده إلى مملكتـه، وكان منه ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

وفي خـامس عشر شعبـان مـن هذه السنـة أخـرج التتر من الاعتقـال نقيب قلعـة دمشق وواليها، وضربـوا أعناقهما بـداريا، واشتهر عنـد أ هل دمشق خروج العسـاكر من مصر لقتال التتر، فـأوقعوا بالنصارى، وكـانوا قـد استطالـوا على المسلمين بدق النـواقيس وإدخـال الخمر إلى الجامـع، فنهبهـم المسلمون في سـابـع عشرين رمضـان من هـذه السنـة، وأخربـوا كنيسة مـريم، وكـانت كنيسـة عظيمة، وكـانت كنيسـة مريـم في جانـب دمشق الذي فتحـه خالد بن الـوليد بالسيف فبقيـت بيد المسلمين،وكان ملاصـق الجامع كنيسة وهـي من الجانب الذي فتحـه أبو عبيدة بـالامان فبقيت بـأيدي النصـارى، فلما ولي الوليـد بن عبـد الملك الخلافـة خرب الكنيسة الملاصقة للجـامع وأضافها إليه، ولم يعـوض النصارى عنها، فلما ولي عمـر بن عبـد العزيـز عوضهـم بكنيسة مـريم عـن تلك الكنيسـة، فعمروها عمارة عظيمـة، وبقيت كذلك حتى خربها المسلمـون في التاريخ المذكور.

ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة كانت هزيمة التتر في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان على عين جالوت، وكان من حديثها أنه لما اجتمعت العساكر الاسلامية بمصر، عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر، وسار من مصر بالعساكر الاسلامية، وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة، وأخوه الملك الأفضل علي، وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة، ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتر، مسير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر، وسار إلى لقاء المسلمين، وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا، وتقارب الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه، وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال، وتبعهم المسلمون فأفنوهم، وهرب من سلم منهم إلى الشرق، وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في إثرهم فتبعهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية، وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص، ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه، ووصل إليه فأكرمه وأقره على مابيده وهو حمص ومضافاتها، وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه أمسك أسيراً، وأحضره بين يدي الملك المظفر قطز، فأمر به فضربت عنقه بسبب ماكان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق، ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة، وكانت في أيدي الحلبيين من حين استولوا عليها في سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب، وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على

هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام، ولأنهم ماقصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم، وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام، وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا، وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف، وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر وفي هذه النصرة وقدوم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

هلك الكفر في الشام جميعا
واستجد الاسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك ار
وع سيف الاسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم
فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا
دائما مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستور، فقدم الملك المنصور قدامه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصوري إلى حماة، ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة، ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم.......

وكان خسروشاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق، لما بلغه كسرة التتر، ثم جهز الملك المظفر قطز عسكراً إلى حلب لحفظها، ورتب أيضا شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميرا بالسواحل وغزة، ورتب معه جماعة من العزيزية، وكان البرلي المذكور من مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب، وسار في جملة العزيزية مع ولده الملك الناصر يوسف إلى قتال المصريين، وخامر البرلي وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم

الملك الناصر وصاروا مع أيبك التركماني صاحب مصر، ثم إنهم قصدوا اغتيال المعز أيبك التركماني المذكور، وعلم بهم فقبض على بعضهم، وهرب بعضهم، وكان البرلي المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الشام فلما وصل الى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون، فلما توجه الملك الناصر بالعسكر إلى الغور مندفعا من بين يدي التتر أخرج البرلي من حبس عجلون، وطيب خاطره، فلما هرب الملك الناصر من قطية دخل شمس الدين أقوش البرلي المذكور مع العساكرإلى مصر، فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة، فلما استقر بدمشق على ماذكرناه، وكان مقر البرلي لماتولى هذه الأعمال بنابلس تارة، وبيت جبرين أخرى، ثم إن الملك المظفر قطز فوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الامير علم الدين سنجر الحلبي، وهو الذي كان أتابكا لعلي بن المعز أيبك؛ وفوض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام، ودخل مع العساكر إلى مصر، وصار مع المظفر قطز ففوض إليه نيابة السلطنة بحلب، وكان سببه ان أ خاه الملك الصالح بن لؤلؤ قد صار صاحب الموصل بعد أبيه، فولاه حلب ليكاتبه أخوه بأخبار التتر، ولما استقر السعيد المذكور في نيابة حلب سار سيرة رديئة، وكان دأبة التحيل على أخذ مال الرعية.

ذكر عود الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله

ولما قرر الملك المظفر قطز المعزي المذكور أمر الشام على ماشرحناه، سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية وكان قد اتفق بيبرس البندقداري الصالحي مع أنص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي، والهاروني، وعلم الدين صغن أغلي على قتل المظفر قطز، وساروا معه يتوقعون الفرصة، فلما

وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل، وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية، فبينا قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها، وساق هؤلاء المذكورين معه فلما بعدوا، تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى لتقبيل يده، وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحي حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه، ثم قتلوه بالنشاب وذلك في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، فكانتْ مدة ملكه أحد عشر شهراً، وثلاثة عشر يوماً، وساق بيبرس وأولئك المذكورون بعد مقتله حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية.

ذكر سلطنة بيبرس البندقداري

ولما وصل ركن الدين بيبرس المذكور هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر قطز إلى الدهليز كما ذكرنا، وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين أقطاي المستعرب، وهو الذي صار أتابكا لعلي بن المعز أيبك بعد الحلبي، فلما تسلطن قطز أقره على نيابة السلطنة، فلما وصل بيبرس البندقداري مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز، سألهم أقطاي المستعرب المذكور، وقال: من قتله منكم؟ فقال له بيبرس: أنا، قال له أقطاي: ياخوند اجلس في مرتبة السلطنة، فجلس واستدعيت العساكر للتحليف، فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز، وهو سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحي، ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر، وتلقب بالملك الظاهر لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ماتلقب به أحد فطالت مدته، وكان الملك الظاهر المذكور قد سأل من قطز النيابة بحلب فلم يجبه إليها، ليكون ماقدره الله تعالى، ولما حلف الناس للملك الظاهر المذكور بالصالحية، ساق في جماعة من أصحابه وسبق العسكر إلى قلعة

الجبل، ففتحت لـه، ودخلها واستقرت قدمه في المملكة، وكـان قد زينت مصر والقاهرة لمقـدم قطز، فاستمرت الزينة لسلطنـة بيبرس المذكور، وكان مقتل قطز وسلطنة بيبرس في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر اعادة عمارة قلعة دمشق

وفي هـذه السنـة في العشر الأخير مـن ذي القعـدة، شرع الأمير علـم الدين سنجـر الحلبي نائب السلطنة بدمشـق في عمارة قلعة دمشق، وجمع لها الصناع، وكبراء الدولـة، والناس وعملوا فيها حتى النسـاء أيضا، وكان عند الناس بذلك سرور عظيم.

ذكر سلطنة الحلبي بدمشق

كان علم الـدين سنجر الحلبي قد استنـابه الملك المظفر قطـز بدمشق على مـاتقدم ذكـره، فلما جـرى ماذكـرنـاه من قتـل قطـز وسلطنة الملـك الظاهـر، جمع الحلبي النـاس وحلفهم لنفسـه بالسلطنـة، وذلك في العشر الأول مـن ذي الحجة مـن هذه السنـة، أعني سنـة ثمان وخمسين وستمائة، فأجـابه النـاس إلى ذلك، وحلفوا لـه، ولم يتأخر عنـه أحد، ولقـب نفسه الملك المجـاهد، وخطـب له بالسلطنـة وضربت السكة بـاسمه، وكـاتب الملك المنصـور صاحب حماة في ذلك فلـم يجبه، وقال صاحـب حماة: أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان.

ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعودة التتر إلى الشام

وكان الملك السعيد قد قرره قطز بحلب وجرد معه جماعة من العزيزية والناصرية، وكان رديء السيرة، وقد أبغضه العسكر، وبلغ الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة، فجرد إلى جهتهم جماعة قليلة من العسكر وقدم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصري، فأشار عليه كبراء العزيزية والناصرية بأن هذا ماهو مصلحة وأن هؤلاء قليلون فيحصل الطمع بسببهم في البلاد، فلم يلتفت إلى ذلك، وأصر على مسيرهم، فسار سابق الدين أمير مجلس الناصري بمن معه حتى قاربوا البيرة، فوقع عليهم التتر فهرب منهم ودخل البيرة بعد أن قتل غالب من كان معه فازداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك، فاجتمعوا وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه،وكان قد برز إلى بابلي المعروف ببا ب الله، ولما استولوا على خزانته لم يجدوا فيها مالا طائلافهددوه بالعذاب إن لم يقر لهم بماله فنبش من تحت أشجار حائط دار ببابلي جملة من المال قيل كانت خمسين ألف دينار مصرية، ففرقت في الأمراء وحمل الملك السعيد المذكور إلى الشغر وبكاس معتقلا، ثم لما اندفع العسكر من بين يدي التتر على ماسنذكره أفرجوا عنه، ولما جرى ذلك اتفقت العزيزية والناصرية وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، ثم سارت التتر إلى حلب، فاندفع حسام الدين الجوكندار والعسكر الذين معه بين أيديهم إلى جهة حماة، ووصل التتر إلى حلب في أواخر هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا واسمها مقر الأنبياء، فسماها العامة قرنبيا، ولما اجتمع المسلمون بقرنبيا بذل التتر فيهم السيف فأفنوا غالبهم، وسلم القليل منهم، ووصل حسام الدين الجوكندار، ومن معه إلى حماة فضيفهم الملك المنصور محمد صاحب حماة، وهو مستشعر خائف من غدرهم، ثم رحلوا من حماة إلى حمص، فلما قارب التتر حماة خرج منها الملك المنصورصاحبها وصحبته أخوه

-١٠٣٠١-

الملك الأفضل علي، والأمير مبارز الدين وباقي العسكر، واجتمعوا بحمص مع باقي العساكر إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

ذكر كسرة التتر بحمص

وفي يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتر على حمص، وكان من حديثها أن التتر لما قدموا في آخر السنة الماضية إلى الشام اندفعت العزيزية والناصرية من بين أيديهم، وكذلك الملك المنصور صاحب حماة، ووصلوا إلى حمص، واجتمع بهم الملك الأشرف صاحب حمص، ووقع اتفاقهم على ملتقى التتر، وسار التتر إليهم، والتقوا بظاهر حمص في نهار الجمعة المذكور، وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير، ففتح الله تعالى على المسلمين بالنصر، وولى التتر منهزمين، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاءوا، ووصل الملك المنصور إلى حماة بعد هذه الوقعة، وانضم من سلم من التتر إلى باقي جماعتهم وكانوانازلين قرب سلمية، واجتمعوا ونزلوا على حماة، وبها صاحبها الملك المنصور، وأخوه الملك الأفضل والعسكر، وأقام التتر على حماة يوماً واحداً، ثم رحلوا عن حماة، وأراد الملك المنصور بعد رحيل التتر المسير إلى دمشق فمنعه العامة حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب، فسافر هو وأخوه الملك الأفضل في جماعة قليلة، وبقي الطواشي مرشد صاحب العسكر بحماة، ووصل المنصور بمن معه إلى دمشق، وكذلك توجه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق، وأما حسام الدين الجوكندار العزيزي فتوجه أيضاً بمن في صحبته، ولم يدخل دمشق، ونزل بالمرج، ثم سار إلى مصر، وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق في

دورهما، والحاكم بها يومئذ سنجر الحلبي الملقب بالسلطان المجاهد، وقد اضطرب أمره ولذلك أقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق ولم يدخلا في طاعته لضعفه وتلاشي أمره، وأما التتر فساروا عن حماة إلى فامية، وكان قد وصل إلى فامية سيف الدين الدنبلي الأشرفي، ومعه جماعة، فأقام بقلعة فامية، وبقي يغير على التتر، فرحلوا عن فامية وتوجهوا إلى الشرق.

ذكر القبض على سنجر الحلبي الملقب الملك المجاهد

وفي هذه السنة جهز الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر عسكرا مع علاء الدين البندقدار، وهو أستاذ الملك الظاهرلقتال علم الدين سنجر الحلبي المستولي على دمشق، فوصلوا إلى دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، ولما وصل عسكر مصر إلى دمشق خرج إليهم الحلبي لقتالهم، وكان صاحب حماة وصاحب حمص مقيمين بدمشق ولم يخرجا مع الحلبي لقتالهم ولاأطاعاه لاضطراب أمر الحلبي، واقتتل معهم بظاهر دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، فولى الحلبي وأصحابه منهزمين ودخل إلى قلعة دمشق إلى أن جنه الليل، فهرب من قلعة دمشق .إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه، وحمل إلى الديار المصرية ، فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام، مثل: حماة، وحلب، وحمص، وغيرها واستقر ايدكين البندقدار الصالحي في دمشق لتدبير أمورها، ولما استقر الحال على ذلك، رحل الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص، وعادا إلى بلادهما واستقرا بها.

-١٠٣٠٢-

ذكر خروج البرلي عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلائه على حلب

وفي هذه السنةبعـد استقرار علاء الدين ايدكين البنـدقدار في دمشق، ورد عليه مـرسوم الملـك الظاهـر بيبرس بالقبـض على بهاء الديـن بغدي الأشرفي، وعلى شمـس الـديـن أقـوش البرلي وغيرهما مـن العـزيـزيـة والناصرية، وبقي علاء الدين ايدكين متـوقعا ذلك،فتوجه بغدي إلى علاء الدين ايـدكين فحال دخوله عليـه قبض على بغدي المذكور، فـاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلي، وخـرجوا من دمشق ليلا علي حمية، ونـزلوا بـالمرج، وكان أقـوش البرلي قـد ولاه المظفر غـزة، والسواحـل على ماقدمنا ذكـره، فلما جهز الملك الظاهر البندقـدار إلى قتال الحلبي، أرسل إلى البرلي وأمره أن ينضـم إليه، فسار البرلي مع البنـدقدار، وأقام بـدمشق فلما قبض على بغـدي خرج البرلي إلى المرج، وأرسل عـلاء الديـن ايدكين البندقدار إلى البرلي يطيـب قلبه، ويحلف له، فلم يلتفـت إلى ذلك، وسار إلى حمص، وطلب من صـاحبها الأشرف موسى أن يـوافقه على العصيان، فلـم يجبه إلى ذلـك، ثـم توجـه إلى حماة، وأرسـل يقـول للملك المنصـور صـاحب حماة: إنـه لم يبـق من البيـت الأيـوبي غيرك، وقم لنصير معـك ونملكـك البلاد، فلـم يلتفت الملـك المنصـور إلى ذلك ورده رداً قبيحـاً، فاغتاظ البرلي ونزل على حماة وأحرق زرع بيـدر العشر، وسار إلى شيزر، ثم إلى جهة حلب، وكـان علاء الدين ايـدكين البندقدار لما استقر بـدمشق، قدجهز عسكرا صحبة فخر الدين الحمصي للكشف عن البيرة، فإن التتر كانوا قد نـازلوها، فلما قدم البرلي إلى حلب كان بها فخـر الدين الحمصي المذكـور، فقـال لـه البرلي: نحـن في طـاعـة الملـك الظـاهـر، فتمضي إلى السلطان وتسأله أن يتركني ومـن في صحبتي مقيمين بهذا الطرف، ونكون تحت طاعتـه من غير أن يكلفني وطـيء بساطه، فسـار الحمصي إلى جهة مصر ليؤدي هذه الـرسالة، فلما سار عن حلـب تمكن البرلي واحتاط على مافي حلب مـن الحواصل، واستبد بالأمـر، وجمع العرب والتركمان واستعد

لقتال عسكر مصر، ولما توجه فخر الدين الحمصي لذلك التقى في الرمل جمال الدين المحمدي الصالحي متوجهاً بمن معه من عسكر مصر لقتال البرلي وإمساكه، فأرسل الحمصي عرف الملك الظاهر بما طلبه البرلي، فأرسل الملك الظاهر ينكر على فخر الدين الحمصي المذكور ويأمره بالانضمام إلى المحمدي والمسير إلى قتال البرلي، فعاد من وقته، ثم رضي الملك الظاهر عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه وراء المحمدي في جمع من العسكر، ثم أردفه بعز الدين الدمياطي في جمع آخر، وسار الجميع إلى جهة البرلي، وساروا إلى حلب وطردوه عنها، وانقضت السنة والأمر على ذلك.

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف

وفي هذه السنة ورد الخبر بمقتل الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعقد عزاءه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، وصورة الحال في قتله أنه لما وصل إلى هولاكو على ماقدمنا ذكره، وعده برده إلى ملكه، وأقام عند هولاكو مدة، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا، ثم كسرة عسكره على حمص ثانيا غضب من ذلك، وأحضر الملك الناصر المذكور وأخاه الملك الظاهر غازي وقال له أنت قلت إن عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغل، فقال الملك الناصر: لو كنت بالشام ماضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف، ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام فاستوفى هولاكو لعنة الله نامجاه وضربه بها، فقال الملك الناصر: ياخوند الصنيعة، فنهاه أخوه الظاهر، وقال: قد حضرت، ثم رماه بفردة ثانية فقتله، ثم أمر بضرب رقاب

الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر، والملك الصالح ابن صاحب حمص، والجماعة الذين كانوا معه، واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيراً، فبقي عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه، ثم مات، وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعمره سبع سنين، وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بالملك بعد وفاتها في سنة أربعين وستمائة

وعمره ثلاث عشرة سنة، وزاد ملكه على ملك أبيه وجده فإنه ملك مثل حران والرها والرقة ورأس عين ومامع ذلك من البلاد، وملك حمص، وبعلبك، والأغوار والسواحل إلى غزة، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر، وخطب له بمصر وبقلعة الجبل على الوجه الذي تقدم ذكره، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبر دولته شمس الدين لؤلؤ الأرمني ومخامرة مماليك أبيه العزيزية، وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربعمائة رأس غنم، وكانت سماطاته وتجمله في الغاية القصوى، وكان حليما وتجاوز به الحلم الى حد أضر بالمملكة، فإنه لما أمنت قطاع الطريق في أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحد في الفساد بالمملكة، وانقطعت الطرق في أيامه، وبقي لايقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماة وغيرها إلا برفقة من العسكر، وكثر طمع العرب والتركمان في أيامه، وكثرت الحرامية، وكانوا يكبسون الدور، ومع ذلك إذا حضر القاتل إلى بين يدي الملك الناصر المذكور يقول الحي خير من الميت ويطلقه، فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات، وانتشار الحرامية والمفسدين، وكان على ذهن الناصر المذكور شيء كثير من الأدب والشعر، ويروى له أشعار كثيرة منها:

فوالله لو قطعت قلبي تأسفا
وجرعتني كاسات دمعي دما صرفا
لما زادني إلا هوى ومحبة
ولا اتخذت روحي سواك لها الفا

وبنى بدمشق مدرسة قريب الجامع تعرف بالناصرية، ووقف عليها وقفا جليلا، وبنى بالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثرة، فدفن فيها كرمون وهو بعض أمراء التتر، وكانت منية الملك الناصر ببلاد العجم، وكان مولد الناصر المذكور في سنة سبع وعشرين وستمائة، فيكون عمره اثنتين وثلاثين سنة تقريباً.

ذكر مبايعة شخص بالخلافة واثبات نسبه

وفي هذه السنة في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد، زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لماملكها التتر، فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز، فشهد أولئك العرب ان هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد ابن الامام الناصر، فيكون عم المستعصم، وأقام القاضي جماعة من الشهود واجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهاداتهم، ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة، فأثبت القاضي تاج الدين نسب أحمد المذكور، ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد، وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة، واهتم الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة، واستخدم عسكراً وغرم على تجهيزه جملا طائلة، قيل إن قدر ماغرمه عليه ألف ألف دينار، وكانت العامة تلقب الخليفة المذكور بالزرابيني، وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور في رمضان من هذه السنة وتوجها إلى دمشق وكان في كل منزلة يمضي الملك الظاهر إلى دهليزه الخاص به، ولما وصلا إلى دمشق نزل الملك الظاهر بالقلعة، ونزل الخليفة في جبل الصالحية، ونزل حول الخليفة أمراؤه وأجناده، ثم جهز الخليفة بعسكره إلى جهة بغداد طمعا في أنه يستولي على بغداد، ويجتمع عليه الناس،

فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه بالتأني في الأمور، ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة، ثم سار إلى الديار المصرية، ودخلها في سابع عشر ذي الحجة من هذه السنة، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانة والحديثة، وولى عليهما، وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم، ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر، وقتلوا الخليفة المذكور، وقتلوا أصحابه، ونهبوا ماكان معه، وجاءت الاخبار بذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضي شمس الدين ابن خلكان، فسافر في صحبته من مصر إلى الشام، فعزل عن قضاء دمشق نجم الدين بن صدر الدين ابن سناء الدولة، وكان قطز قد عزل المحيي بن الزكي الذي ولاه هولاكو القضاء، وولى ابن سناء الدولة، فعزله الملك الظاهر في هذه السنة، وولى القضاء شمس الدين ابن خلكان.

وفيها قدم أولاد صاحب الموصل وهم: الملك الصالح اسماعيل، ثم أخوه الملك المجاهد اسحق، صاحب جزيرة ابن عمر، ثم أخوهما الملك المظفر علي صاحب سنجار أولاد لؤلؤ فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجليلة بالديار المصرية، واستمروا في أرغد عيش في طول مدة الملك الظاهر.

وفيها في ربيع الآخر وردت الاخبار من ناحية عكا أن سبع جزائر في

البحر خسف بها وبأهلها، وبقي أهل عكا لابسين السواد وهم يبكون ويستغفرون من الذنوب بزعمهم.

وفيها جهز الملك الظاهر بيبرس بدر الدين الايدمري، فتسلم الشوبك في سلخ ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، وأخذها من الملك المغيث صاحب الكرك.

ثم دخلت سنة ستين وستمائة

في هذه السنة في نصف رجب وردت جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغاددة، وكانوا قد تأخروا في العراق بعد استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، وكان مقدمهم يقال له شمس الدين سلار، فأحسن الملك الظاهر بيبرس ملتقاهم وعين لهم الاقطاعات بالديار المصرية.

وفيها في رجب أيضا وصل إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون، رسولا من أخيه سيف الدين صاحب صهيون، وصحبته هدية جليلة، فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه.

وفيها جهز الملك الظاهر عسكرا إلى حلب، وكان مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي، فأمنت بلاد حلب، وعادت إلى الصلاح، ثم تقدم الملك الظاهر بيبرس إلى سنقر الرومي وإلى صاحب حماة الملك المنصور، وإلى صاحب حمص الملك الأشرف موسى أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للإغارة عليها، فساروا إليها ونهبوا بلادها وضايقوها، ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومي إلى مصر، ووصلوا إليها في تاسع عشرين رمضان من هذه السنة ومعهم ماينوف على ثلاثمائة أسير، فقابلهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام.

وفيها لماضاقت على أقوش البرلي البلاد، وأخذت منه حلب، ولم يبق بيده غير البيرة دخل في طاعة الملك الظاهر، وسار إليه فكتب الملك الظاهر إلى النواب بالاحسان إليه وترتيب الاقامات له في الطرقات حتى وصل إلى الديار المصرية في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين، فتلقاه الملك الظاهر وبالغ في الاحسان إليه وأكثر له العطاء، فسأل أقوش البرلي من الملك الظاهر أن يقبل منه البيرة فلم يفعل، ومازال يعاوده حتى قبلها، وبقي أقوش البرلي العزيزي المذكور مع الملك الظاهر إلى أن تغير عليه وقبضه في رجب سنة احدى وستين وستمائة، فكان آخر العهد به.

وفيها في ذي القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق، وهو علاء الدين طيبرس الوزيري، وكان قد تولى دمشق بعد مسير علاء الدين ايدكين البندقداري عنها، وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها فأرسل إليه عسكراً مع عز الدين الدمياطي وغيره من الأمراء، فلما وصلوا إلى دمشق، خرج طيبرس لتلقيهم، فقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه إلى مصر، فحبسه الملك الظاهر، واستمر الحاج طيبرس في الحبس سنة وشهراً، وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهر أيضا ، وكان طيبرس المذكور رديء السيرة في أهل دمشق، حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه، وحكم في دمشق بعد قبض طيبرس المذكور علاء الدين ايدغدي الحاج الركني، ثم استناب الملك الظاهر على دمشق الامير جمال الدين أقوش النجيبي الصالحي.

وفيها في يوم الخميس في أواخر ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين وستمائة، جلس الملك الظاهر مجلسا عاما، وأحضر شخصاً كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بني العباس يسمى أحمد، بعد أن ثبت نسبه وبايعه بالخلافة، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وقد اختلف في نسبه فالذي هو

مشهور بمصر عند نسابه مصر انه أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الامير أبي على القبي ابن الامير حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر، وقد مر نسب المستظهر مع جملة خلفاء بني العباس، وأما عند الشرفاء العباسيين السليمانيين في درج نسبهم الثابت فقالوا: هو أحمد بن أبي بكر على بن أبي بكر أحمد ابن الامام المسترشد الفضل ابن المستظهر، ولما أثبت الملك الظاهر نسب المذكور نزله في برج محترزا عليه، وأشرك له الدعاء في الخطبة لاغير ذلك.

وفيها جهز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري رسولا إلى الملك الظاهر، ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد الملك الظاهر عاتباً على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو، وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك، ثم انصلح خاطره وحمله ماطيب به قلب صاحبه الملك المنصور، ثم عاد إلى حماة.

وفيها توفي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الامام في مذهب الشافعي، وله مصنفات جليلة في المذهب وكانت وفاته بمصر رحمه الله تعالى. وفيها في ذي الحجة توفي الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد المعروف بابن العديم، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة، وكان فاضلا كبير القدر، ألف تاريخ حلب، وغيره من المصنفات، وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر، ثم عاد بعد خراب حلب إليها.

ثم دخلت سنة احدى وستين وستمائة

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام

في هذه السنة في حادي عشر ربيع الآخر سار الملك الظاهر بيبرس

-١٠٣١١-

من الديار المصرية إلى الشام، فلاقته والدة الملك المغيث عمر صاحب الكرك بغزة، وتوثقت لابنها الملك المغيث من الملك الظاهر بالأمان، وأحسن إليها، ثم توجهت إلى الكرك وتوجه صحبتها شرف الدين الجاكي المهمندار برسم حمل الاقامات إلى الطرقات برسم الملك المغيث، ثم سار الملك الظاهر من غزة ووصل إلى الطور في ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة، ووصل إليه على الطور الأشرف موسى صاحب حمص في نصف الشهر المذكور، فأحسن إليه الملك الظاهر وأكرمه.

ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله واستيلاء الملك الظاهر بيبرس على الكرك

وفي هذه السنة كان مقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الكرك، وسببه أنه كان في قلب الملك الظاهر بيبرس منه غيظ عظيم، لأمور كانت بينهما قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور، وبقيت امرأته في الكرك، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر بيبرس مازال يجتهد على حضور المغيث المذكور وحلف لوالدته على غزة كما تقدم ذكره، وكان عند المغيث شخص يسمى الأمجد وكان يبعثه في الرسالة إلى الملك الظاهر، فكان يبالغ في اكرامه وتقريبه، فاغتر الأمجد بذلك، ومازال على مخدومه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر، حكى لي شرف الدين بن مزهر، وكان ابن مزهر المذكور ناظر

خزانة المغيث، قال: لما عزم المغيث على التوجه إلى خدمة الملك الظاهر، لم يكن قد بقي بخزانته شيء من المال، ولاالقماش، وكان لوالدته حواصل بالبلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم واشترينا باثني عشر ألف درهم خلعا من دمشق، وجعلنا في صناديق الخزانة الاثني عشر الالف الأخرى، ونزل المغيث من الكرك، وأنا والأمجد وجماعةمن أصحابه معه في خدمته، قال: وشرعت البريدية تصل إلى الملك المغيث في كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر، ويرسل صحبتهم مثل غزلان ونحوها، والمغيث يخلع عليهم حتى نفد ماكان بالخزانة من الخلع، ومن جملة ماكتب إليه بعض المكاتبات:المملوك ينشد في قدوم مولانا:

خليلي هل أبصرتما أوسمعتما
بأكرم من مولى تمشى إلى عبد

قال: وكان الخوف في قلب ا لمغيث شديداً من الملك الظاهر، قال ابن مزهر المذكور ففاتحني في شيء من ذلك بالليل، فقلت له:احلف إلي انك لاتقول للأمجد ماأقوله لك حتى أنصحك، فحلف لي فقلت له: أخرج الساعة من تحت الخام واركب حجرتك النحيلة ولايصبح لك الصباح إلا وأنت قد وصلت إلى الكرك فتعصي فيه، ولاتفكر بأحد، قال ابن مزهر: فغافلني وتحدث مع الأمجد في شيء من ذلك، فقال له الأمجد: هذا رأي ابن مزهر، وإياك من ذلك، وسار المغيث حتى وصل إلى بيسان فركب الملك الظاهر بعساكره والتقاه في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة فلما شاهد المغيث الملك الظاهر ترجل، فمنعه الملك الظاهر، وأركبه وساق إلى جانبه، وقد تغير وجه ا لملك الظاهر، فلما قارب الدهليز أفرد الملك المغيث عنه وأنزله في خيمة وقبض عليه، وأرسله معتقلا إلى مصر، فكان آخر العهد به، قيل إنه حمل إلى امرأة الملك الظاهر بيبرس بقلعة الجبل فأمرت جواريها فقتلته بالقباقيب؛ ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيث، ومن جملتهم ابن مزهر المذكور، ثم بعد ذلك أفرج عنهم، انتهى كلام ابن مزهر، ولما التقى

الملك الظاهر بيبرس الملك المغيث المذكور وقبض عليه، أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى الملك المغيث أجوبة عما كتب إليهم به في اطماعهم في ملك مصر والشام، وكتب بذلك مشروح، وأثبت على الحكام، وكان للملك المغيث المذكور ولد يقال له الملك العزيز، أعطاه الملك الظاهر اقطاعاً بديار مصر، وأحسن إليه، ثم جهز الملك الظاهر بدر الدين البيسري الشمسي، وعز الدين استاذ الدار إلى الكرك، فتسلماها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعني سنة إحدى وستين وستمائة، ثم سار الملك الظاهر ووصل إلى الكرك ورتب أمورها، ثم عاد إلى الديار المصرية، فوصل إليها في سابع عشر رجب من هذه السنة.

ذكر الاغارة على عكا وغيرها

وفي هذه السنة لما كان الملك الظاهر نازلاً على الطور، أرسل عسكراً هدموا كنيسة الناصرة، وهي من أكبر مواطن عبادات النصارى، لأن منها خرج دين النصرانية، وأغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا، ثم ركب الملك الظاهر بنفسه وجماعة اختارهم، وأغار ثانياً على عكا وبلادها، وهدم برجاً كان خارج البلد، وذلك عقيب إغارة عسكره وهدم كنيسة الناصرة.

ذكر القبض على من يذكر

وفيها بعد وصول الملك الظاهر بيبرس إلى مصر، واستقراره في ملكه في رجب قبض على الرشيدي، ثم قبض في ثاني يوم على الدمياطي، والبرلي، وقد تقدمت أخبار البرلي المذكور.

ذكروفاة الاشرف صاحب حمص

وفي هذه السنة بعد عود الملك الأشرف صاحب حمص موسى ابن الملك المنصور ابراهيم ابن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه بن شادي من خدمة الملك الظاهر بيبرس إلى حمص،مرض واشتد به المرض، وتوفي إلى رحمة الله تعالى و أرسل الملك الظاهر وتسلم حمص في ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة احدى وستين وستمائة، وهذا الملك الأشرف موسى هو آخر من ملك حمص من بيت شيركوه، وقد تقدمت أخبار الأشرف موسى المذكور، وأخذ الملك الناصر يوسف صاحب حلب منه حمص بسبب تسليمه شميميس للملك الصالح أيوب صاحب مصر، وأنه تعوض عن حمص تل باشر، ثم أعاد هولاكو عليه حمص، فبقيت في يده حتى توفي في أواخر هذه السنة، وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر بيبرس في ذي القعدة حسبما ذكر، وكان جملة من ملك حمص منهم خمسة ملوك أولهم شيركوه بن شادي، ملكه إياها نور الدين الشهيد، ثم ملكها من بعده ابنه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم ملكها بعده ابنه شيركوه ابن محمد، وتلقب بالملك المجاهد، ثم ملكها بعده ابنه ابراهيم بن شيركوه، وتلقب بالملك المنصور، ثم ملكها بعده ابنه موسى بن ابراهيم وتلقب بالملك الأشرف حتى توفي في هذه السنة، وانقرض بموته ملك المذكورين.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة

في هذه السنة قبض الأشكري صاحب قسطنطينية على عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباذ صاحب بلد الروم،وسببه أن عز الدين كيكاوس المذكور كان قد وقع بينه وبين أخيه، فاستظهر أخوه عليه، فهرب كيكاوس وبقي أخوه ركن الدين قليج أرسلان في سلطنة بلاد

الروم، ثم سار كيكاوس المذكور إلى قسطنطينية، فأحسن إليه الأشكري صاحب قسطنطينية وإلى من معه من الأمراء، واستمروا كذلك مدة، فعزمت الأمراء والجماعة الذين كانوا مع عز الدين المذكور على اغتيال الأشكري وقتله، والتغلب على قسطنطينية، وبلغ ذلك الأشكري، فقبض عليهم واعتقل عز الدين كيكاوس بن كيخسرو في بعض القلاع، وكحل الامراء والجماعة الذين كانوا عزموا على ذلك، فأعمى عيونهم وقد تقدم ذكر كيكاوس المذكور، وأخيه قليج أرسلان في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

وفيها في ثامن رمضان توفي الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد ابن محمد بن عبد المحسن الأنصاري المعروف بشيخ الشيوخ بحماة، وكان مولده في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وكان دينا فاضلاً متقدماً عند الملوك، وله النثر البديع، والنظم الفائق، وكان غزير العقل عارفاً بتدبير المملكة، فمن حسن تدبيره أن الملك الأفضل علي ابن الملك المظفر محمود لما ماتت والدته غازية خاتون بنت الملك الكامل رحمهما الله تعالى حصل عند الملك الأفضل المذكور استشعار من أخيه الملك المنصور محمد صاحب حماة، فعزم أن ينتزح من حماة ويفارق أخاه الملك المنصور، وأذن له أخوه الملك المنصور في ذلك، فاجتمع الشيخ شرف الدين المذكور بالملك الأفضل وعرفه مايعتمده من السلوك مع أخيه الملك المنصور، ثم اجتمع بالملك المنصور وقبح عنده مفارقة أخيه، ومابرح بينهما حتى أزال ماكان في خواطرهما، وصار للملك الافضل في خاطر أخيه الملك المنصور من المحبة والمكانة مايفوق الوصف، وكان ذلك من بركة شرف الدين المذكور وللشيخ شرف الدين المذكور أشعار فائقة قد تقدم ذكر بعضها، وكان مرة مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام بعمان فعمل الشيخ شرف الدين

أفدي حبيباً منذ واجهته

عن وجه بدر التم أغناني

في وجهه خالان لولاهما
ما بت مفتونا بعمان

وأنشدهما للملك الناصر فأعجباه إلى الغاية، وجعل يردد انشادهما، وقال لكاتبه كمال الدين ابن العجمي:هكذا تكون الفضيلة، فقال ابن العجمي: إن التورية لاتخدم هنا لان عمان مجرورة في النظم فلا تخدمه في التورية،فقال الملك الناصر للشيخ شرف الدين ماقاله، فقال شرف الدين: إن هذا جائز وهو أن يكون المثنى في حالة الجر على صورة الرفع، واستشهد شرف الدين بقول الشاعر

فأطرق اطراق الشجاع ولو رأى
مساغا لناباه الشجاع لصمما

واستشهد بغير ذلك فتحقق الملك الناصر فضيلته.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة

ذكر فتوح قيسارية

في هذه السنة سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره المتوافرة إلى جهاد الفرنج بالساحل، ونازل قيسارية الشام في تاسع جمادى الأولى، وضايقها وفتحها بعد ستة أيام من نزوله، وذلك في منتصف الشهر المذكور، وأمر بها فهدمت، ثم سار إلى أرسوف، وفتحها في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر موت هولاكو

في هذه السنة في تاسع ربيع الآخر مات هولاكو ملك التتر لعنه الله، وهو هولاكو بن طلو بن بن جنكيز خان، وكانت وفاته بالقرب من كورة مراغه، وكانت مدة ملكه البلاد التي سنصفها نحو عشرسنين، وخلف خمسة عشر ولدا ذكرا، ولما مات جلس في الملك بعده ولده ابغا بن هولاكو، واستقرت له البلاد التي كانت بيد والده حال وفاته، وهي: أقليم خراسان وكرسيه نيسابور، واقليم عراق العجم وهو الذي يعرف ببلاد الجبل وكرسيه أصفهان، وأقليم عراق العرب وكرسيه بغداد، وأقليم أذربيجان وكرسيه تبريز، وأقليم خوزستان وكرسيه تستر التي تسميها العامة تشتر، وأقليم فارس وكرسيه شيراز، وأقليم ديار بكر وكرسيه الموصل،وأقليم الروم وكرسيه قونيه، وغير ذلك من البلاد التي ليست في الشهرة مثل هذه الأقاليم العظيمة.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة أو التي بعدها أمسك الملك الظاهر بيبرس زامل بن علي، أمير العرب بمكاتبة عيسى بن مهنا في حقه.

وفيها في رمضان استولى النائب بالرحبة على قرقيسيا، وهي حصن الزباء التي تقدم خبرها مع جذيمة الأبرش في أوائل الكتاب، وفيه خلاف.

وفيها قبض الملك الظاهر بيبرس على سنقر الرومي. وفيها توفي قاضي القضاة بمصر بدر الدين يوسف بن حسن بن علي السنجاري.

-١٠٣١٨-

ذكر فتوح صفد وغيرها

في هـذه السنة خـرج الملـك الظاهـر بعسـاكـره المتوافـرة مـن الديـار المصرية، وسـار إلى الشام، وجهـز عسكرا إلى سـاحل طـرابلس، ففتحـوا القليعات وحلبـة، وعرقـة، ونزل الملك الظـاهر على صفـد ثامـن شعبان، وضـايقها بـالـزحـف وآلات الحصار، وقـدم إليـه وهـو على صفد الملـك المنصـور صاحـب حماة، ولاصـق الجنـد القلعة، وكثـر القتـل والجراح في المسلمين، وفتحها في تـاسع عشر شعبـان المذكوربالأمـان،ثم قتـل أهلها عن آخرهم.

ذكر دخول العساكر إلى بلاد الأرمن

وفي هـذه السنة بعـد فـراغ الملـك الظاهـر مـن فتـوح صفد سـار إلى دمشق، فلما دخلها واستقـر فيها جرد عسكراً ضخماً، وقـدم عليهم الملك المنصور صاحـب حماة، وأمرهم بالمسير إلى بلاد الأرمن، فسـارت العساكر صحبة الملك المنصور المذكور، ووصلـوا إلى بلاد سيس في ذي القعدة من هذه السنة، وكـان صاحب سيس إذ ذاك هيثوم بن قسطنطين بـن باسيل قد حصن الـدربندات بالرجالـة والمناجيق،وجعل عسكره مـع ولديه على الدربندات لقتال العسكر الاسلامي، ومنعـه فداستهم العساكر الاسلامية وأفنوهم قتـلا وأسراً، وقتل ابن صاحـب سيس الواحد، وأسر ابنـه الآخر، وهـو ليفـون بن هيثـوم المذكـور، وانتشرت العسـاكـر الاسلاميـة في بـلاد سيس، وفتحـوا قلعة العـامودين وقتلـوا أهلها، ثم عـادت العساكـر وقد امتلأت أيديهم مـن الغنائم، ولما وصل خبر هذا الفتـح العظيم إلى الملك الظـاهر بيبرس رحـل من دمشـق ووصل إلى حماة، ثـم إلى فاميـة فالتقـى عسـاكـره وقد عـادت منصـورة وأمـر بتسليـم الاسرى وفيهم ليفـون ابـن

صاحب سيس، وكان المذكور لما أسر سلمه الملك المنصور إلى أخيه الملك الأفضل فاحترز عليه وحفظه حتى أحضره بين يدي السلطان، ثم عاد إلى الديار المصرية على طريق الكرك فتقنطر بالملك الظاهر المذكور فرسه عند بركة زيزاء وانكسرت فخذه، وحمل في محفة إلى قلعة الجبل.

ذكر قتل أهل قارا ونهبهم

وفي هذه السنة عند توجه الملك الظاهر من دمشق لملتقى عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس لما نزل على قارة بين دمشق وحمص أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل جماعة منهم لأنهم كانوا نصارى، وكانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم بالخفية من الفرنج، وأخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية، فصار منهم أجناد وأمراء.

ثم دخلت سنة خمس وستين و ستمائة

فيها وصل الملك المنصور محمد صاحب حماة إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية، ثم طلب المنصور من الملك الظاهر مرسوما بالتوجه إلى اسكندرية ليراها ويتفرج فيها فرسم له بذلك وأمر أهل اسكندرية باكرامه واحترامه وفرش الشقق بين يدي فرسه، فتوجه الملك المنصور إلى الاسكندرية، وعاد للديار المصرية مكرما محترماً، ثم خلع عليه الملك الظاهر، وأحسن إليه على جاري عادته، ورسم له بالدستور فعاد إلى بلده.

وفيها توجه الملك الظاهر بيبرس إلى الشام فنظر في مصالح صفد ووصل إلى دمشق وأقام بها خمسة أيام، وقوي الارجاف بوصول التتر إلى

الشام، ثـم وردت الأخبار بعـودتهم على عقبهم، فعـاد الملك الظـاهر إلى ديار مصر.

ذكر موت ملك التتر بالبلاد الشمالية

وفي هذه السنـة مات بـركة بـن باطـوخان بـن دوشي خان بـن جنكيز خان، أعظـم ملوك التتر، وكرسي مملكته مـدينة صراي، وكان قـد مال إلى دين الاسلام،ولما مـات جلس في الملك بعده ابن عمه منكـوتمر بن طغان ابن باطو بن دوشي خان بن جنكز خان.

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام وفتح أنطاكية وغيرها

في هـذه السنة في مستهـل جمادى الآخرة، تـوجـه الملك الظاهر بيبرس بعسـاكره المتـوافـرة إلى الشـام وفتح يـافـا في العشر الأوسـط من الشهـر المذكـور، وأخذهـا مـن الفرنـج، ثـم سار إلى أنطـاكيـة، ونازلها مستهـل رمضان، وزحفت العسـاكر الاسلامية على أنطـاكية فملكوها بـالسيف في يـوم السبـت رابع شهـر رمضـان مـن هـذه السنـة، وقتلوا أهلهـا وسبـوا ذراريهم وغنموا منهـم أموالا جليلة، وكـانت أنطـاكية للبرنس بيمنـد بن بيمند، وله معهـا طرابلس، وكان مقيما بطرابلس لما فتحـت أنطـاكية وفيها في ثالـث عشر رمضان استـولى الملك الظاهـر على بغراس، وسبـب ذلك أنه لما فتح أنطاكيـة هرب أهل بغراس منها وتركوا الحصن خـاليا، فأرسل من استـولى عليها في التاريـخ المذكور وشحنها بـالرجال والعـدد، وصار مـن الحصون الاسـلاميـة، وقد تقـدم ذكـر فتح صـلاح الـدين للحصـن

المذكور وتخريبه ثم عمارة الفرنج له بعد صلاح الدين، ثم حصار عسكر حلب له ورحليهم عنه بعد أن أشرفوا على أخذه.

وفيها في شوال وقع الصلح بين الملك الظاهر، وبين هيثوم صاحب سيس على أنه إذا أحضر هولاكو كما تقدم ذكره، وسلم مع ذلك بهسنا ودربساك، ومرزبان، ورعبان، وشيح الحديد، يطلق له ابنه ليفون، فدخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه سنقر الأشقر، فأعطاه إياه، ووصل سنقر الأشقر إلى خدمة الملك الظاهر، وكذلك سلم دربساك وغيرها من المواضع المذكورة خلا بهسنا، وأطلق الملك الظاهر ابن صاحب سيس ليفون بن هيثوم وتوجه إلى والده، ثم عاد الملك الظاهر إلى الديار المصرية، ووصل إليها في ذي الحجة من هذه السنة.

وفيها اتفق معين الدين سليمان البرواناه مع التتارالمقيمين معه ببلاد الروم على قتل ركن الدين قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق سلطان الروم، فخنق التتر ركن الدين المذكور بوتر، وأقام البرواناه مقامه ولده غياث الدين بن ركن الدين قليج أرسلان المذكور، وله من العمر أربع سنين.

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة

وفي هذه السنة خرج الملك الظاهر إلى الشام، وخيم في خربة اللصوص وتوجه إلى مصر بالخفية، ووصل إليها بغتة، وأهل مصر والنائب بها لايعلمون بذلك إلا بعد أن صار بينهم، ثم عاد إلى الشام.

وفيها تسلم الملك الظاهر بيبرس بلاطنس من عز الدين عثمان صاحب صهيون.

وفيها توجه الملك الظاهر بيبرس إلى الحجاز الشريف، وكان رحيله من الفوار في الخامس والعشرين من شوال، ووصل إلى الكرك، وأقام به أياماً، وتوجه من الكرك في سادس ذي القعدة الى الشوبك، ورحل من الشوبك في الحادي عشر من الشهر المذكور، ووصل إلى المدينة النبوية في خامس وعشرينه، ووصل إلى مكة في خامس ذي الحجة، ووصل إلى الكرك في سلخ ذي الحجة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة

فيها توجه الملك الظاهر بيبرس من الكرك مستهل المحرم عند عوده من الحج، فوصل إلى دمشق بغتة، وتوجه في يومه ووصل إلى حماة في خامس المحرم، وتوجه من ساعته إلى حلب ولم يعلم به العسكر إلا وهو في الموكب معهم، وعاد إلى دمشق في ثالث عشر المحرم المذكور ثم توجه إلى القدس، ثم إلى القاهرة فوصل إليها في ثالث صفر من هذه السنة.

وفيها عاد الملك الظاهر إلى الشام وأغار على عكا، وتوجه إلى دمشق، ثم إلى حماة.

وفيها جهز الملك الظاهر عسكراً إلى بلاد الاسماعيلية، فتسلموا مصياف في العشر الأوسط من رجب من هذه السنة، وعاد الملك الظاهر من حماة إلى جهة دمشق فدخلها في الثامن والعشرين من رجب، ثم عاد إلى مقر ملكه بمصر.

وفيها حصل بين منكوتمر ابن طغان ملك التتر بالبلاد الشمالية وبين الأشكري صاحب قسطنطينية وحشة، فجهز منكوتمر إلى قسطنطينية جيشاً من التتر، فوصلوا إليها وعاثوا في بلادها، ومروا بالقلعة التي فيها عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك بلاد الروم محبوساً كما قدمنا ذكره في

سنة اثنتين وستين وستمائة، فحمله التتر بأهله إلى منكوتمر، فأحسن منكوتمر إلى عز الدين المذكور وزوجه،وأقام معه إلى أن توفي عز الدين المذكور في سنة سبع وسبعين وستمائة، فسار ابنه مسعود بن عز الدين المذكور إلى بلاد الروم، وسار سلطان الروم على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة

ذكر فتح حصن الأكراد وحصن عكاروالقرين

في هذه السنة توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام، ونازل حصن الأكراد في تاسع شعبان من هذه السنة، وجد في حصاره، واشتد القتال عليه وملكه بالآمان في الرابع والعشرين من شعبان المذكور، ثم رحل إلى حصن عكا ونازله في سابع عشر رمضان من هذه السنة وجد في قتاله وملكه بالآمان سلخ رمضان المذكور، وعيد الملك الظاهر عليه عيد الفطر فقال محيي الدين بن عبد الظاهر مهنئاً له بفتوح عكار:

يـــــاملیـــــــك الأرض بشرا | لـك فقــــــدنلــــــت الاراده
إن عكـــــــاريقينـــــا | هـــــوعكــــاوزيـــــاده

وفيها في شوال تسلم الملك الظاهر قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية. وفيها توجه الملك الظاهر إلى دمشق، وسار منها في العشر الأخير من شوال إلى حصن القرين، ونازله في ثاني ذي القعدة، وزحف عليه وتسلمه بالأمان، وأمر به فهدم، ثم عاد إلي مصر. وفيها جهز الملك الظاهر مايزيد على عشرة شواني لغزو قبرس، فتكسرت في مرسى

ليميسول وأسر الفرنج من كان بتلك الشواني من المسلمين، فاهتم السلطان بعمارة شوان أخرى فعمل في المدة اليسيرة ضعف ماعدم.

وفيها توفي هيثوم بن قسطنطين صاحب سيس، وملك بعده ابنه ليفون الذي أسره المسلمون حسبما تقدم ذكره.

وفيها قبض الملك الظاهر على عز الدين بغان المعروف بسم الموت، وعلى المحمدي وغيرهما. وفيها توفي القاضي شمس الدين بن البارزي قاضي القضاة بحماة. وفيها توفي الطواشي شجاع الدين مرشد الخادم المنصوري رحمه الله تعالى، وكان كثير المعروف، وتولى تدبير مملكة حماة مدة، وكان يعتمد عليه الملك الظاهر ويستشيره.

ثم دخلت سنة سبعين وستمائة

فيها توجه الملك الظاهر إلى الشام وعزل جمال الدين أقوش النجمي عن نيابة السلطنة بدمشق، وولى فيها علاء الدين ايدكين الفخري الاستاذ دار في مستهل ربيع الأول، ثم توجه الملك الظاهر إلى حمص، ثم إلى حصن الاكراد ثم عاد إلى دمشق.

وفيها والملك الظاهر بدمشق أغارت التتر على عينتاب، وعلى الروج، وقميطون إلى قرب فامية، ثم عادوا، واستدعى الملك الظاهر عسكراً من مصر فوصلوا إليه صحبة بدر الدين البيسري، فتوجه الملك الظاهر بهم إلى حلب، ثم عاد إلى الديار المصرية، فوصل إليها في الثالث والعشرين من جمادى الأولى. وفيها في شوال، عاد الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام، فوصل إلى دمشق في ثالث صفر. وفيها توفي سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان بن منكيرس صاحب صهيون، فسلم

ولداه سابــــــــــق الديــن، وفخر الدين صهيون إلى المـلـك الظاهر، وقدما إلى خدمته، وأحسن إليهما، وأعطى سابق الدين إمرة طبلخاناه.

وفيها نازل التتر البيرة، ونصبوا عليها المناجيـق، وضايقوها وسار إليهم الملك الظاهـر وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة، فقاتلـه التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر، فرحلـوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها، فصارت للمسلمين، ثم عـاد الملك الظاهر فوصل إلى الـديار المصرية في الخامس والعشريـن من جمادى الآخـرة من هـذه السنة. وفيهـا أفرج عـن الدمياطي مـن ا لاعتقال. وفيها تسلمت نواب الملك الظاهر مـاتأخر من حصون الاسماعيلية،وهي: الكهف والمنيقة، وقـدموس، وفيها اعتقل الملك الظـاهر الشيـخ خضر، وكان قـد بلغ المذكـور عنـد الملك الظـاهر أرفـع منزلة، وانبسطت يده، وانفذ أمره في الشـام ومصر، فاعتقله في قاعة بقلعة الجبل مكرما حتى مات.......

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة

.......وفيها وصل الملك الظاهربعساكره إلى دمشق.

وفيها عـاد عمر بـن مخلوف أحـد أمراء العـربان إلى الحبـس بعجلون، وكان مـن حديثـه أن الملك الظـاهر حبسـه بعجلون مقيـداً، فهرب مـن الحبس المذكـور إلى بـلاد التتر، ثـم أرسل يطلـب الأمـان، فقـال الملـك الظاهـر ماأؤمنه إلا أن يعود إلى عجلـون ويضع القيد في رجلـه كما كان، فعاد عمر إلى عجلون، وجعل القيد في رجله فعفـا عنه الملك الظاهر عند ذلك، وفيها قويت أ خبار التتر لقصد الشام فجفل الناس.

وفيها في جمادى الأولى كـانت ولادة العبد الفقير مؤلـف هذا المختصر

اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بدار ابن الـزنجيلي بدمشق المحروسة، فان أهلنا كـانوا قد جفلـوا من حماة إلى دمشق بسبب أخبار التتر.

وفيها تـوفي الشيخ جمال الـدين أبو عبـد الله محمد بـن مالـك الطائي الجياني النحـوي، وله في النحو واللغـة مصنفات كثيرة مشهـورة، وفيها في ذي القعـدة تـوفي الامير مبـارز الـدين أقـوش المنصـوري، مملـوك الملـك المنصور صاحـب حماة، ونائب سلطنته، وكان أميراً جليلا عاقـلا شجاعا وهو قبجاقـي في الجنس. وفيها في يوم الاثنين ثامـن عشر ذي الحجة توفي الشيخ العلامـة نصير الدين الطوسي، واسمه محمد بـن محمد بن الحسين، الإمـام المشهور، وكـان يخدم صاحـب ألموت، ثـم خدم هـولاكو وحظـي عنده، وعمـل لهولاكو رصـداً بمراغـة وزيجاً، وله مصنفـات عديـدة كلها نفيسة، منهـا أقليدس يتضمـن الاوضاع، وكذلـك المجسطي، وتـذكرة في الهيئـة لم يصنف في فنهـا مثلها، وشرح الاشـارات، وأجاب عـن غالـب ايرادات فخر الـدين الرازي عليها، وكانـت ولادته في حادي عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكـانت وفاته ببغـداد ودفن في مشهد موسى الجواد.

سنة ثلاث وسبعين وستمائة

فيها تـوجه الملـك الظاهـر بيبرس إلى بلاد سيـس، فدخلهـا بعساكـره المتوافرة، وغنموا، ثم عادوا إلى دمشق حتى خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة

فيها نازلت التتر البيرة وكان اسم مقدمهـم أقطاي وكان الملك الظاهر

بدمشق فتوجه إلى جهة البيرة فرحل عنها، ولاقى الملك الظاهر الخبر برحليهم، وهو بالقطيفة فأتم السير إلى حلب، ثم عاد إلى مصر. وفيها بعد وصول الملك الظاهر إلى مصر جهز جيشا مع اقسنقر الفارقاني ومعه عز الدين أيبك الأفرم إلى النوبة، فساروا إليها ونهبوا وقتلوا وعادوا بالغنائم. وفيها كان زواج الملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس بابنة الامير سيف الدين قلاوون الصالحي، غازية خاتون. وفيها في أواخر السنة المذكورة عاد الملك الظاهر إلى الشام.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة

فيها في المحرم وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق، وكان قد خرج من مصر في أواخر سنة أربع وسبعين، وبلغه وصول الأمراء الروميين الوافدين، وهم بيجار الرومي، وبهادر ولده، وأحمد بن بهادر وغيرهم، فسار الملك الظاهر إلى جهة حلب، والتقاهم وأكرمهم، ثم عاد إلى الديار المصرية.

ذكر دخول الملك الظاهر إلى بلاد الروم

وفي هذه السنة عاد الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام، وكان خروجه من مصر في يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة، ووصل إلى حلب، ثم إلى النهر الأزرق، ثم سار إلى ابلستين، فوصل إليها في ذي القعدة، والتقى بها جمعا من التتر مقدمهم تناون، وكانوا نقاوة المغل، فالتقى الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عاشر ذي القعدة من هذه السنة، فانهزم التتر وأخذتهم سيوف المسلمين ، وقتل

مقدمهم تناون وغالب كبرائهم، وأسر منهم جماعة كثيرة صاروا أمراء، وكان من جملة المأسورين في هذه الوقعة سيف الدين قبجق، وسيف الدين أرسلان، وسنذكر أخبارهما إن شاء الله تعالى. وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدين سليمان البرواناه، وكان يكاتب الملك الظاهر في الباطن، وكان يظن الملك الظاهر أنه إذا وصل إلى قيسارية يصل إليه البرواناه على ماكان قد اتفق معه في الباطن، فلم يحضر البرواناه لما أراده الله من هلاكه على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام في انتظار البرواناه، وخطب له على منابرها، ثم رحل عن قيسارية في الثاني والعشرين من ذي القعدة وحصل للعسكر شدة عظيمة من نفاد القوت والعلف، وعدمت غالب خيولهم، ووصلوا إلى عمق حارم، وأقاموا به شهراً، ولما بلغ ابغا بن هولاكو ساق في جموع المغل حتى وصل إلى الابلستين، وشاهد عسكره صرعى، ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولاً فاستشاط غضباً، وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين، فنهب وقتل منهم جماعة ثم سار أبغا إلى الأردو وصحبته معين الدين البرواناه، فلما استقر بالاردو أمر بقتل البرواناه، فقتل وقتلوا معه نيفاً وثلاثين نفساً من مماليكه وخواصه، واسم البرواناه المذكور سليمان، والبروناه لقب، وهو الحاجب العجمي، وكان مقتله بالاطاغ وكان البرواناه حازما بتدبير المملكة ذا مكر ودهاء.

وفي هذه السنة توفي الشهاب محمد بن يوسف بن زائدة التلعفري الشاعر، وفيها مات الشيخ خضر في حبس الملك الظاهر. وفيها عاد الملك الظاهر من عمق حارم، وتوجه إلى دمشق.

-١٠٣٢٩-

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة

فيها في خامس المحرم وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق ونزل بالقصر الأبلق، وكان قد رحل من عمق حارم في أواخر سنة خمس وسبعين.

ذكر وفاة الملك الظاهر بيبرس

فيها في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي بدمشق، وقت الزوال رحمه الله تعالى، عقب وصوله من بلاد الروم إلى دمشق على ماتقدم ذكره، وقد اختلف في سبب موته، فقيل: انه انكسف القمر كسوفاً كليا وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر، فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى، وأحضر قمزا مسموما، وأمر الساقي فسقى الملك القاهر المذكور فشرب الملك الظاهر ناسيا بذلك النهاء على أثر شرب الملك القاهر، فمات الملك القاهر، عقيب ذلك، وأما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفي في التاريخ المذكور، وكتم نائبه ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالخزندار موته وصبره وتركه في قلعة دمشق إلى أن استوت تربته بدمشق قرب الجامع، فدفن فيها وهي مشهورة معروفة، وارتحل بدر الدين تنليك بالعساكر، ومعهم المحفة مظهراً أن الملك الظاهر فيها وأنه مريض، وسار إلى ديار مصر، وكان الملك الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس، ولقبه الملك السعيد، وجعله ولي عهده، فوصل تنليك الخزندار بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بقلعة الجبل، وعند

ذلك أظهر موت الملك الظاهر، وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء واستقر في السلطنة، وكانت مدة مملكة الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام، لأنه ملك في سابع محرم من سنة ست وسبعين وستمائة، وكان ملكا جليلا شجاعا عاقلا مهيبا ملك الديار المصرية والشام، وأرسل جيشاً فاستولوا على النوبة، وفتح الفتوحات الجليلة مثل صفد وحصن الأكراد وانطاكية وغيرها على ماتقدم ذكره، وأصله مملوك قبجاقي في الجنس، وسمعت أنه برجعلي، وكان أسمر أزرق العينين، جهوري الصوت، حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما، وكان ايدكين البندقدار الصالحي مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح المذكور، وكان قد توجه ايدكين إلى جهة حماة، فأرسل الملك الصالح وقبض على ايدكين المذكور، واعتقله بقلعة حماة، فتركه الملك المنصور صاحب حماة في جامع قلعة حماة، واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر مع التاجر، فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره، أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه، وبقي عنده، ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار، فسارمن حماة وصحبته الملك الظاهر، وبقي مع أستاذه البندقدار المذكور مدة، ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار، فانتسب إلى الملك الصالح دون أستاذه، وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحي.

وكان استقرار الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر في مملكة مصر والشام في أوائل ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة ست وسبعين وستمائة، واستقر بدر الدين تنليك الخزندار في نيابة السلطنة على ماكان عليه مع والده، واستمرت الأمور على أحسن نظام فلم تطل أيام تنليك الخزندار ومات بعد ذلك في مدة يسيرة، قيل حتف أنفه، وقيل بل سم، والله أعلم، وتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين الفارقاني، ثم إن الملك السعيد خبط وأراد تقديم الأصاغر، وأبعد الامراء الأكابر، وقبض

على سنقر الاشقر والبيسري، ثم أفرج عنهما بعد أيام يسيرة، ففسدت نيات الأمراء الكبار عليه، وبقي الأمر كذلك حتى خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستمائة

ذكر مسير الملك السعيد بركة إلى الشام والاغارة على سيس وخلاف عسكره عليه

في أثناء هذه السنة سار الملك السعيد بركة إلى الشام، وصحبته العساكر، ووصل إلى دمشق وجرد منها العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، وجرد أيضاً صاحب حماة، فساروا ودخلوا إلى بلاد سيس وشنوا الاغارة عليها، واتفقوا على الخلاف على الملك السعيد المذكور، وخلعه من السلطنة لسوء تدبيره، وعبروا على دمشق ولم يدخلوها، فأرسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا إلى ذلك، وأتموا السير، فركب الملك السعيد وساق وسبقهم إلى مصر وطلع إلى قلعة الجبل، وسارت العساكر في إثره، وخرجت هذه السنة والأمر كذلك.

وفيها توفي عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق عند منكوتمر ملك التتر بمدينة صراي، وكيكاوس المذكور هو الذي كان محبوسا بقسطنطينية، حسبما تقدم ذكر القبض عليه في سنة اثنتين وستين، وذكر خلاصه، واتصاله بملك التتر، في سنة ثمان وستين وخلف عز الدين المذكور ولدا اسمه مسعود، وقصد منكوتمر أن يزوجه بزوجة ابنه عز الدين كيكاوس، فهرب مسعود واتصل ببلاد الروم فحمل إلى ابغا فأحسن إليه ابغا، وأعطاه سيواس وأرزن الروم وأرزنكان،

واستقرت هذه البلاد لمسعود المذكور، ثم بعد ذلك جعلت سلطنة الروم باسم مسعود المذكور، وافتقر جدا وانكشف حاله وهو آخر من سمي سلطانا من السلجوقية بالروم.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة

ذكر خلع الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر

في هذه السنة وصلت العساكر الخارجون عن طاعة بركة المذكور إلى الديار المصرية، في ربيع الأول، وحصروا الملك السعيد بركة بقلعة الجبل فخامر على السعيد بركة غالب من كان معه من الأمراء مثل لاجين الزيني، وغيره وبقي يهرب واحد بعد واحد من القلعة ويضم إلى العسكر المحاصر للقلعة، فلما رأى الملك السعيد بركة ذلك أجابهم إلى الانخلاع من السلطنة، وأن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك، وأنزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة ثمان وسبعين وستمائة وسفروه من وقته الى الكرك صحبة بيد عان الركني، وجماعة معه فوصل إليها وتسلمها بما فيها من الأموال، وكان شيئاً كثيراً.

ذكر اقامة سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في المملكة

وفي هذه السنة لما جرى ماذكرناه من خلع الملك السعيد بركة، واعطائه الكرك اتفق أكابر الأمراء الذين فعلوا ذلك مثل بدر الدين بيسري الشمسي، وايتمش السعدي، وبكتاش الفخري أمير سلاح وغيرهم على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في المملكة، ولقبوه الملك العادل، وعمره إذ ذاك سبع سنين وشهور، وخطب له وضربت السكة باسمه، وذلك في شهر ربيع الأول من هذه السنة،

وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي أتابك العسكر، ولما استقر ذلك جهز اتابك العسكر المذكور الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق، وجعله نائب السلطنة بالشام، وكان العسكر لما خالفوا السعيد بركة قد قبضوا على عز الدين إيدمر نائب السلطنة بدمشق، وتولى تدبير دمشق بعد إيدمر أقوش الشمسي نائب السلطنة بحلب، فسار وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة.

ذكر سلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحي

وفي هذه السنة، أعني سنة ثمان وسبعين وستمائة، في يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب كان جلوس السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي في السلطنة بعد خلع الصبي سلامش وعزله، ولما تولى السلطان الملك المنصور، أقام منار العدل،وأحسن سياسة الملك وقام بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر خروج سنقر الأشقر عن الطاعة وسلطنته بالشام

وفي هذه السنة في الرابع والعشرين من ذي القعدة ، جلس سنقر الأشقر بدمشق في السلطنة ، وحلف له الأمراء والعسكر الذين عنده بدمشق، وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر.

وفي هذه السنة توفي الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر بيبرس في الكرك بعد وصوله إليها في مدة يسيرة، وكان سبب موته أنه لعب بالكرة في ميدان الكرك فتقنطر به فرسه، فحصل له بسبب ذلك حمى شديدة ، وبقي كذلك أياما يسيرة، وتوفي وحمل إلى دمشق، ودفن بتربة أبيه،ولما

توفي الملك السعيد، اتفق من بالكرك وأقاموا موضعه أخاه نجم الدين خضر، واستقر في الكرك، ولقبوه الملك المسعود.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة

ذكر كسرة سنقر الأشقر

في هذه السنة في التاسع عشر من صفر، كانت كسرة سنقر الأشقر المستولي على الشام، الملقب بالملك الكامل، وكان من حديث هذه الكسرة أن السلطان الملك المنصور قلاوون جهز عساكر ديار مصر، مع علم الدين سنجر الحلبي الذي تقدم ذكر سلطنته بدمشق عقيب قتل قطز، وكان أيضاً من مقدمي العسكر المصري المذكور بدر الدين بكتاش، وبدر الدين الايدمري، وعز الدين الأفرم، فسارت العساكر المذكورة إلى الشام، وبرز سنقر الأشقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق، والتقى الفريقان في تاسع عشر صفر المذكور، فولى الشاميون ، وسنقر الاشقر منهزمين، ونهبت العساكر المصرية أثقالهم، وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق، فلما هرب سنقر الاشقر أفرج عن حسام الدين لاجين المذكور، وكذلك كان سنقر الأشقر قد اعتقل بيبرس المعروف بالجالق لأنه لم يحلف له، فأفرج عنه أيضاً، وكتب الحلبي إلى السلطان الملك المنصور بالنصر، واستقر الامير لاجين المنصوري المذكور نائب السلطنة بالشام، وأما سنقر الاشقر فإنه هرب إلى الرحبة، وكاتب أبغا بن هولاكو ملك التتر، وأطمعه في البلاد، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب مع سنقر الأشقر، وقاتل معه، وكتب بذلك إلى أبغا أيضا موافقة له، ثم سار سنقر الأشقر من الرحبة إلى صهيون في جمادى الأولى من هذه السنة، واستولى عليها، وعلى برزية وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وفامية وصارت هذه الاماكن لسنقر الأشقر.

وفيها توفي أقوش الشمسي، نائب السلطنة بحلب، وولى السلطان الملك المنصور قلاوون على حلب علم الدين سنجر الباشغردي.

وفيها قويت أخبار التتر وأنهم واصلون إلى البلاد الاسلامية بجموعهم.

وفيها جعل الملك المنصور قلاوون ولده الملك الصالح علاء الدين علي ولي عهده، وسلطنه وركب بشعار السلطنة.

وفيها سار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي من الديار المصرية، ووصل إلى غزة، وكان التتر قد وصلوا إلى حلب، فعاثوا ثم عادوا، فعاد السلطان إلى مصر في جمادى الآخرة من هذه السنة.

وفيها استأذن سيف الدين بلبان الطباخي، أحد مماليك الملك المنصور، وكان نائب السلطنة بحصن الأكراد في الاغارة على بلد المرقب لما اعتمده أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب، فأذن له السلطان في ذلك فجمع بلبان الطباخي المذكور عساكر الحصون، وسار إلى المرقب فاتفق هروب المسلمين، ونزل الفرنج من المرقب وقتلوا وأسروا من المسلمين جماعة.

وفيها في مستهل ذي الحجة خرج السلطان الملك المنصور قلاوون من مصر وسار عائدا إلى الشام، وخرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة

والسلطان الملك المنصور بالروحاء، وأقام هناك مدة، ثم سار إلى بيسان وقبض على جماعة من الظاهرية ، ودخل دمشق وأعدم منهم جماعة مثل: كوندك، وايدغمش الحلبي، وبيبرس الرشيدي، وأرسل عسكرا إلى شيزر ، وهي لسنقر الأشقر، وجرى بينهم مناوشة ، ثم إنه

ترددت الرسل بين السلطان وبين سنقر الأشقر ، واحتاج السلطان إلى مصالحته لقوة أخبار التتر، ووقع بينهم الصلح على أن يسلم شيزر إلى السلطان ويتسلم سنقر الأشقر الشغر وبكاس، وكانتا قد ارتجعتا منه، فتسلم نواب السلطان شيزر، وتسلم الشغر وبكاس سنقر الأشقر، وحلفا على ذلك، واستقر الصلح بينهما. وفيها أيضا استقر الصلح بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر ابن الملك الظاهر بيبرس، صاحب الكرك.

ذكر الوقعة العظيمة مع التتر على حمص

في هذه السنة أعني سنة ثمانين وستمائة، في شهر رجب، كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فنصر الله تعالى فيه المسلمين بعد ما كانوا قد أيقنوا بالبوار، وكان من حديث هذا المصاف العظيم أن أبغا بن هولاكو حشد وجمع وسار بهذه الحشود طالبا الشام، ثم انفرد أبغا المذكور عنهم وغنم وسار إلى الرحبة، وسير جيوشه وجموعه إلى الشام، وقدم عليهم أخاه منكوتمر ابن هولاكو، وسار إلى جهة حمص. وسار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي بالجيوش الاسلامية من دمشق إلى جهة حمص أيضا، وأرسل إلى سنقر يستدعيه بمن عنده من الأمراء والعسكر بحكم ما استقر بينهما من الصلح واليمين، فسار سنقر الأشقر من صهيون فلما نزل السلطان بظاهر حمص، وصل إليه الملك المنصور صاحب حماة بعسكره، ثم وصل سنقر الأشقر وصحبته ايتمش السعدي، والحاج أزدمر، وعلم الدين الدويداري، وجماعة من الظاهرية، ورتب السلطان عسكره ميمنة وميسرة، وكان رأس الميمنة الملك المنصور محمد صاحب حماه بعسكره، ثم بدر الدين البيسرى دونه ثم علاء الدين طيبرس الوزيري، ثم أيبك الأفرم، ثم جماعة من العسكر المصري، ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر ومن معه، ثم بدر الدين تنليك الإيدمري، ثم

بدر الدين بكتاش أمير سلاح ، وكان بر الميمنة العرب، وبر الميسرة التركمان، وكان شاليش القلب حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، ومن أضيف إليه من الأمراء والعساكر، والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد من هذه السنة، أعني سنة ثمانين وستمائة، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة فهزموا من كان قبالتهم من التتر، وركبوا قفاهم يقتلونهم، وكان منكوتمر قبالة القلب فانهزم أيضا، وأما ميسرة المسلمين فانها انكشفت عن مواقفها، وتم ببعضهم الهزيمة إلى دمشق، وساق التتر في إثر المنهزمين حتى وصلوا إلى تحت حمص، ووقعوا في السوقية وغلمان العسكر والعوام، وقتلوا منهم خلقاً كثيرا، ثم علموا بنصرة المسلمين وهزيمة جيشهم، فولى المذكورون أيضا منهزمين على أعقابهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس، منهم خمسون ألفا من المغل، والباقي حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل: الكرج، والأرمن، والعجم وغيرهم، ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى أبغا وهو على الرحبة يحاصرها رحل عنها على عقبه منهزما، وكتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر البلاد الاسلامية فزينت لذلك، ثم إن السلطان الملك المنصور قلاوون أعطى الدستور للعساكر الشامية، فرجع الملك المنصور محمد صاحب حماة إلى بلده، ورجع سنقر الأشقر وجماعته إلى صهيون، وسار عسكر حلب إليها، وعاد السلطان إلى دمشق، والأسرى والرؤوس بين يديه.

وفيها عاد السلطان الملك المنصور قلاوون إلى الديار المصرية مؤيدا منصورا. وفيها عند وصوله إلى مستقر ملكه قدمت إليه هدية صاحب اليمن المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول، وطلب أمانا من السلطان فقبل السلطان هديته، وكانت من طرائف اليمن مثل العود والعنبر والصيني، ورماح القنا، وغير ذلك، وكتب له السلطان أمانا صدره:« هذا أمان الله تعالى، وأمان سيدنا محمد صلى الله وسلم،

وأمـاننا لأخينـا السلطان الملـك المظفر شمـس الديـن يوسـف بن عمـر، صاحـب اليمن، إننا راعو ن لـه ولأولاده، مسالمون من سالمهـم، معادون من عـاداهم.» ونحو ذلك، وكـان ذلك في العشر الأول من رمضـان هذه السنة، وأرسـل السلطان إليـه هدية مـن أسلاب التتر وخيـولهم، وعادت رسله بذلك مكرمين.

وفيها مـات منكوتمربن هولاكـو بن طلو بـن جنكيز خان بجزيـرة ابن عمر مكمـوداً، عقب كسرته على حمص وكـان موتـه من جملة هـذا الفتح العظيم.

وفيها توفي علاء الدين عطاء ملـك بن محمد الجويني ، وكان صاحب الديـوان ببغداد، فنقب عليه ابغـانسبه الى مواطأة المسلمين، وقبـض عليه واخذ امواله وكان صدراً كبيراً فاضلاً له شعر حسن فمنه في تركيا:

أبـــاديـــة الأعـــراب عنـــي فـــانـنـــي
بحـــاضرة الأتـــراك نيطـــت عـــلائقـــي
وأهلـــك يـــا نجـــل العيـــون فـــإننـــي
جننـــت بهذا النـــاظـــر المتضـــايـــق

وكانـت وفاتـه بعراق العجـم، وولي بعده ابـن أخيه هـارون بن محمـد الجويني.

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وستمائة

فيهـا ولى السلطان مملـوكـه شمس الـديـن قرا سنقـر نيـابة السلطنـة بحلب، فسار إليها واستقر.

ذكر موت ابغا

وفيها في المحرم مات ابغا بن هولاكـو بن جنكز خان ملك التتر ، قيل إنه مات مسموماً، وكان موته ببلاد همذان، وكانت مـدة ملكه نحو سبع عشرة سنة وكسوراً، وخلـف من الولد أرغون، وكيختو ابنـا ابغا، ولما مات ابغا ملك بعـده أخوه أحمد بن هولاكو، واســم أحمد المذكور بيكدار ، فلما جلس في الملك أظهر دين الاسلام، وتسمى بأحمد سلطان.

وفيها وصلـت رسل أحمد بن هـولاكو ملك التتر المذكـور إلى السلطان الملك المنصور قلاوون، وكان كبير الرسـل المذكورين الشيخ المتقن قطب الـدين محمـود الشيرازي، وكـان إذ ذاك قـاضي سيواس، فـاحترز عليهـم السلطان ولم يمكن أحدا من الاجتماع بهم، وكـان مضمون رسالتهم اعلام السلطان بـإسلام أحمد المذكـور، وطلب الصلـح بين المسلمين والتتر، فلم ينتظم ذلك، ثم عادت رسله إليه بالجواب.

وفيها توفي منكوتمر بن طغان بن بـاطو بن دوشي خان ابن جنكز خان ملك التتر بالبـلاد الشمالية، وملك بعده أخـوه تدان منكو بن طغـان بن باطـو بن دوشي خان بـن جنكز خان ، وجلـس على كرسي التتر بصراي، وقيل إن ذلك كان سنة ثمانين.

وفيهـا عقد للملـك الصـالح عـلاء الديـن علي ابـن السلطان الملـك المنصـور قلاوون على بنـت سيـف الـدين بكيـه، ثـم تـزوج أخوه الملـك الأشرف بـاختهـا الأخرى، وكـان بكيـه معتقـلا بـالاسكندريـة، فلما عـزم السلطان على ذلـك أخرجـه من الحبس وأحسـن إليه، وزوج ابنيـه واحدا بعد الآخر ببنتى بكيه المذكور.

وفيها توفي القاضي الفـاضل، المحقق شمس الدين أحمد بـن محمد بن

أبي بكر بن خلكان البرمكي، وكان فاضلاً عالما، تولى القضاء بمصر والشام ، وله مصنفات جليلة، مثل وفيات الاعيان في التاريخ وغيره، وكان مولده يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة إربل، بمدرسة سلطانها مظفر الدين صاحب إربل ، نقلت ذلك من تاريخه في ترجمة زينب في أخر حرف الزاي.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة

في أوائل هذه السنة قدم الملك المنصور محمد صاحب حماة، وصحبته الملك الأفضل علي إلى خدمة السلطان الملك المنصور قلاوون بالديار المصرية ، فبالغ السلطان في إكرام صاحب حماة والاحسان إليه، وأنزله بالكبش، وأركبه بالسناجق السلطانية والجفت والغاشية، وسأله عن حوائجه فقال الملك المنصور: حاجتي أن أعفى من هذا اللقب فإنه ما بقي يصلح لي أن ألقب بالملك المنصور وقد صار هذا لقب مولانا السلطان الأعظم، فأجابه السلطان بأني ما تلقبت بهذا الاسم إلاّ لمحبتي فيك، ولو كان لقبك غير ذلك كنت تلقبت به فشيء فعلته محبة لاسمك كيف أمكن من تغييره، وطلع السلطان بالعسكر المصري لحفر الخليج الذي بجهة البحيرة، وسار صاحب حماة في خدمته إلى الحفير، ثم أعطى بعد ذلك الدستور لصاحب حماة، فعاد مكرماً مغمورا بالصدقات السلطانية، وفيها رمى السلطان الملك الصالح علاء الدين علي بن السلطان بجعاً بجهة العباسية بالبندق، وأرسله للملك المنصور محمد صاحب حماة، فقبله وبالغ في إظهار السرور والفرح بذلك، وأرسل إليه تقدمة جليلة.

وفيها خرج أرغون بن أبغا بخراسان على عمه بيكدار المسمى بأحمد سلطان، وسار إليه واقتتلا، فانهزم أرغون وأخذه أحمد أسيرا وسأل الخواتين في اطلاق ارغون واقراره على خراسان، فلم يجب إلى ذلك،

وكـانت خـواطر المغـل قد تغيرت على أحمد بسبـب اسلامـه والزامـه لهم بالاسلام، فاتفقوا على قتله وقصدوا أرغـون بالموضع الذي هو معتقل فيه، وأطلقوه وكبسـوا الناق نائب أحمد فقتلـوه، ثم قصدوا الأردو فـأحس بهم السلطان أحمد فـركب وهرب، فتبعـوه وقتلوه، وملكـوا أرغون بن أبغـا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان وذلك في جمادى الأولى من هذه السنة.

وفيها قتل أرغون الصبـي سلطان الروم الذي أقامه البر وانـاه بعد قتله أباه، حسبما تقـدم ذكره في سنة سـت وستين وستمائة، وكان اسـم الصبي المذكور غياث الدين كيخسرو بن ركـن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو إبن قليـج أرسلان، وفـوض اسم سلطنة الـروم إلى مسعود بـن عز الـدين كيكاوس، وهذا مسعـود هو الذي هرب مـن منكوتمر ملك التتر بصراي، وأبـوه عز الـدين كيكـاوس هو الـذي جرى لـه مع الاشكـري صاحـب قسطنطينية على مـا قدمنـا ذكره في سنـة اثنتين وستين وستمائة، واستمرت سلطنة الروم بـاسم مسعود المذكور إلى سنـة ثمان وسبعمائة ، وهو مسعود إبن كيكـاوس بن كيخسرو بـن كيقباذ بن كيخسرو بـن قليج أرسـلان بن مسعود بن قليج أرسـلان بن قطلومش من السلجوقيـة ببلاد الروم، وافتقر مسعود المذكـور، وانكشف حاله جـداً حتى قيل إنه تنـاول سما فمات من كثرة المطالبة من أرباب الدين والتتر.

وفيهـا ولى أرغون سعـد الـدولة اليهـودي وعظمـه ومكنـه وكان سعـد الدولـة المذكور في مبدأ أمـره دلالاً بسوق الصـاغة بالموصـل، فحكم في سائر البلاد التي بأيدي التتر.

وفيها قـرر أرغون ولديـه: قازان، وخربنـده بخراسان، وجعـل أتابكهما أميرا كبيرا من أصحابه اسمه نورود.

وفيها مـات الأشكري صاحب قسطنطينيـة ، واسمه ميخائيـل، وملك بعده ابنه ماندس وتلقب بالدوقس.

وفيها: كـاتب الحكام بقلعـة الكختا قـرا سنقر نائب السلطنـة بحلب وسلموا الكختـا إلى السلطان، فجهـز قرا سنقر عسكـرا فتسلموهـا، وقرر السلطان فيها نوابه وحصنها وصارت من أعظم الثغور الاسلامية نفعا.

وفيها في رجـب قدم السلطان إلى دمشـق، وكان قد سـار من مصر في جمادى الآخرة.

وفيهـا كـان السيـل العظيـم بـــدمشـق في العشر الأول مـن شعبـان، والسلطان الملـك المنصور قلاوون بـدمشق، وأخـذ ما مربـه من العمارات وغيرها، واقتلـع الاشجار، وأهلـك خلقا كثيرا، وذهـب للعسكر النـازلين على جـوانـب بـردى مـن الخيل والجمال والخيـم مـا لا يحصـى، وتـوجـه السلطان عقيبه إلى الـديار المصرية، ووصل إلى قلعة الجبـل في ثامن عشر رمضان من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة

فيها سـار السلطان الملك المنصـور قلاوون إلى دمشـق، وحضر الملك المنصور صـاحب حماة إلى خدمته إلى دمشـق، ثم عاد كـل منهما إلى مقر ملكه.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

في هذه السنة في شـوال توفي السلطان الملك المنصور ناصر الـدين أبو المعالي أحمد بـن الملك المظفر محمـود بن الملـك المنصور محمّد بـن الملك

المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة، رحمه اللـه تعالى، ابتدأ فيه المرض في أوائل شعبان بعد عوده من خدمة السلطان من دمشق، وكان مرضه حمى صفراوية داخل العروق، ثم صلح مزاجه بعض الصلاح فأشار الاطباء بدخوله الحمام فعاوده المرض، وأحضر له الاطباء من دمشق مع من كان في خدمته منهم، واشتد به ذات الجنب، وعالجوه بما يصلح لذلك فلم يفد شيئاً، وفي مدة مرضه أعتق مماليكه، وتاب توبة نصوحا، وكتب إلى السلطان الملك المنصور قلاوون يسأله في اقرار ابنه الملك المظفر محمود في مملكته على قاعدته، واشتد به مرضه حتى توفي بكرة حادي عشر شوال من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وكانت ولادته في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فيكون عمره إحدى وخمسين سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوما، وملك حماة يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة وهو اليوم الذي توفي فيه والده الملك المظفر محمود، فيكون مدة ملكه إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، وكان أكبر أمانيه أن يعيش إلى أن يسمع جوابه من السلطان فيما سأله من اقرار حماة على ولده الملك المظفر محمود، فاتفق وفاته قبل وصول الجواب، وكان قد أرسل في ذلك على البريد مملوكه سنقر أمير آخور، فوصل بالجواب بعد موت الملك المنصور بستة أيام، ونسخة الجواب من السلطان بعد البسملة: « المملوك قلاوون أعز اللـه أنصار المقام العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري الناصري، ولا عدمه الاسلام، ولا فقدته السيوف والأقلام، وحماه من أذى داء وعود عواد والمام آلام.المملوك يجدد الخدمة التي كان يود تجديدها شفاهاً، ويصف ما عنده من الألم لما ألم بمزاجه الكريم، حتى أنه لم يكد يفتح بالحديث فاها، ولما وقفنا على الكتاب المولوي المتضمن بمرض الجسد المحروس ، وانتهى إليه الحال كادت القلوب تنشق والنفوس تذوب حزنا، والرجاء من الله أن يتداركه بلطفه، وأن يمن بعافيته التي رفع في مسألتها يديه،

وبسط كفيه، وهو يرجو من كرم الله معاجلة الشفاء، ومداركة العافية المورِدة بعد الكدر مورد الصفاء، وإن الله يفسح في أجل المولى ويهبه العمر الطويل، وأما الاشارة الكريمة إلى ما ذكره من حقوق يوجبها الإقرار، وعهود أمنت بدورها من السرار، ونحن نحمد الله ، فعندنا تلك العهود ملحوظة، وتلك المودات محفوظة، فالمولى يعيش قرير العين فما ثم إلاّ ما يسره من إقامة ولده مقامه لايحول ولايزول، ولايرى على ذلك ذلة ولاذهول، ويكون المولى طيب النفس مستديم الأنس بصدق العهد، القديم، وبكل ما يؤثر من خير مقيم.» ولما وصل الكتاب اجتمع لقراءته الملك الأفضل والملك المظفر، وعلم الدين سنجر المعروف بأبي خرص وقرئ عليهم، وتضاعف سرورهم بذلك، وكان الملك المنصور محمد صاحب حماة المذكور ملكا ذكيا فطنا محبوب الصورة ، وكان له قبول عظيم عند ملوك الترك، وكان حليما إلى الغاية ، يتجاوز عما يكره ويكتمه ولا يفضح قائله، من ذلك أن الملك الظاهر بيبرس قدم إلى حماة ونزل بالدار المعروفة الآن بدار المبارز، فرفع إليه أهل حماة عدة قصص يشكون فيها من الملك المنصور، فأمر الملك الظاهر دواداره سيف الدين بلبان أن يجمع القصص ولا يقرأها، ويضعها في منديل، ويحملها إلى الملك المنصور صاحب حماة، فحملها الدوادار المذكور وأحضرها إلى الملك المنصور، وقال إنه والله لم يطلع السلطان ـ يعني الملك الظاهر ـ على قصة منها، وقد حملها إليك، فتضاعف دعاء الملك المنصور لصدقة الملك الظاهر، وخلع على الدوادار، وأخذ القصص، وقال بعض الجماعة: سوف نرى من تكلم بشيء لاينبغي وتكلموا بمثل ذلك، فأمر الملك المنصور باحضار نار، وحرق تلك القصص ولم يقف على شيء منها لئلا يتغير خاطره على رافعها ، وله مثل ذلك كثير رحمه الله تعالى.

ذكر ملك الملك المظفر حماة

ولما بلغ السلطان الأعظم الملك المنصور وفاة الملك المنصور صاحب

حماة قرر ابنه الملك المظفر محموداً ابن الملك المنصور محمد في ملك حماة على قاعدة والده، وأرسل إليه وإلى عمه الملك الأفضل وإلى أولاده التشاريف، ومكاتبة إلى الملك المظفر بذلك، ووصلت التشاريف ولبسناها في العشر الأخير من شوال من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وستمائة، ونسخة الكتاب الواصل من السلطان بعد البسملة:« المملوك قلاوون، أعز الله نصرة المقام العالي المولوي السلطاني الملكي المظفري التقوي، ونزع عنه لباس البأس، وألبسه حلل السعد المجلوة على أعين الناس، وهو يخدم خدمة بولاء قد تبجست عيونه، وتأسست مبانيه وتيابست ظنونه، وحلت رهونه، وخلت ديونه، وأثمرت غصونه، وزهت أفنانه وفنونه» ومنها: « وقد سيرنا المجلس السامي جمال الدين أقوش الموصلي الحاجب، وأصحبناه من الملبوس الشريف ما يغير به لباس الحزن ، وينجلي في مطلعه ضياء وجه الحسن، وينجلي بذلك غيوم تلك الغموم، وأرسلنا أيضا صحبته ما يلبسه هو وذووه، كما يبدو البدر بين النجوم» وآخر الكتاب:« وكتب في عشرين شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة» وكان قد وقع الاتفاق عند موت الملك المنصور على إرسال علم الدين سنجر أبي خرص الحموي لأجل هذا المهم ، فلاقى سنجر المذكور جمال الدين الموصلي بالخلع في اثناء الطريق، فأتم سنجر أبو خرص السير ووصل إلى الأبواب الشريفة السلطانية ،فتلقاه السلطان بالقبول، وأعاده بكل ما يحب ويختار وقال: نحن واصلون إلى الشام، ونفعل مع الملك المظفر فوق ما في نفسه، فعاد علم الدين سنجر أبو خرص إلى حماة، ومعه الجواب بنحو ذلك.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة

ذكر ركوب الملك المظفر صاحب حماة بشعار السلطنة

في هذه السنة في صفر، كان ركوب السلطان الملك المظفر محمود

صاحب حماة بشعار السلطنة بدمشق المحروسة، وصورة ما جرى في ذلك أن السلطان الملك المنصور قلاوون وصل في هذه السنة في أواخر المحرم بعساكره المتوافرة إلى دمشق المحروسة، وسار الملك المظفر صاحب حماة، وعمه الملك الافضل ووصلا إليه إلى دمشق، فأكرمهما السلطان إكراماً كثيراً، وأرسل إلى الملك المظفر في اليوم الثالث بعد وصوله التقليد بسلطنة حماة، والمعرة، وبارين، والتشريف وهو أطلس أحمر فوقاني بطراز زركش وسنجاب ودايره قندس، وقباء أطلس أصفر تحتاني، وشاش تساعي وكلوته زركش، وحياصة ذهب، وسيف محلى بالذهب، وتلكش وعنبرينا، وثوب بطرز مذهبة ، ولباس ، وأرسل شعار السلطنة وهو سنجق بعصائب سلطانية وفرس بسرج ذهب ورقبة وكبوش، وأرسل الغاشية السلطانية، فلبس الملك المظفر ذلك، وركب بشعار السلطنة، وحضرت أمراء السلطان، ومقدمو العسكر، وساروا معه من الموضع الذي كان فيه، وهو داره المعروفة بالحافظية داخل باب الفراديس بدمشق المحروسة إلى أن وصل إلى قلعة دمشق، ومشت الأمراء في خدمته، ودخل الملك المظفر إلى عند السلطان فأكرمه وأجلسه إلى جانبه على الطراحة، وطيب خاطره، وقال له: أنت ولدي، وأعز من الملك الصالح عندي، فتوجه إلى بلادك، وتأهب لهذه الغزاة المباركة، فأنتم من بيت مبارك ما حضرتم في مكان إلاّ وكان النصر معكم، فعاد الملك المظفر، وعمه الملك الأفضل إلى حماة، وعملا أشغالهما، وكذلك باقي العسكر الحموي، وتأهبوا للمسير إلى خدمة السلطان ثانياً.

ذكر فتوح المرقب

في هذه السنة سار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بعد وصوله إلى دمشق بالعساكر المصرية والشامية، ونازل حصن المرقب في أوائل ربيع الأول من هذه السنة، وهو حصن للاسبتار في غاية العلو والحصانة، لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه، فلما زحف العسكر

عليه أخذ الحجارون فيه النقوب، ونصبت عليه عدة مجانيق كباراً وصغاراً، يقول العبد الفقير مؤلف هذا المختصر: إنني حضرت حصار الحصن المذكور، وعمري إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة، وهو أول قتال رأيته ، وكنت مع والدي، ولما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الأمان، فأجابهم السلطان رغبة في إبقاء عمارته، فإنه لو أخذه بالسيف وهدمه كان حصل التعب في إعادة عمارته، فأعطى أهله الأمان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح، وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور، وتسلمه في الساعة الثامنة من نهار الجمعة تاسع عشر ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة أربع وثمانين وستمائة، وكان يوما مشهودا أخذ فيه الثار من بيت الاسبتار، ومحيت آية الليل بآية النهار، فأمر السلطان فحمل أهل المرقب إلى مأمنهم، ولما ملكه قرر أمره ،ورحل عنه إلى الوطاة بالساحل، وأقام بمروج بالقرب من موضع يقال له برج القرفيص، ثم سار السلطان ونزل تحت حصن الأكراد ،ثم سار ونزل على بحيرة حمص، وهي بحيرة قدس.

ذكر مولد مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي

في هذه السنة ولد مولانا السلطان الأعظم المذكور من زوجة السلطان وهي بنت سكتاي بن قراجين بن جنعان، وسكتاي المذكور ورد إلى الديار المصرية هو وأخوه قرمشي سنة خمس وسبعين وستمائة صحبه بيجار الرومي في الدولة الظاهرية، فتزوج السلطان الملك المنصور قلاوون ابنة سكتاي المذكور في سنة ثمانين وستمائة بعد موت أبيها المذكور، بولاية عمها قرمشي، ووردت البشائر بمولده إلى السلطان، وهو نازل على بحيرة حمص عند عوده من فتح المرقب، فتضاعف سروره، وضربت

البشائر فرحاً بمولده السعيد. وفيها عاد السلطان إلى الديار المصرية ، وأعطى الملك المظفر عند رحيله عن حمص الدستور، فعاد إلى حماة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة

فيها أرسل السلطان عسكراً كثيفا مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي المنصوري، وأمره بمنازلة الكرك، فسار إليها وحاصرها ، وتسلمها بالأمان، وأقام بها نواب السلطان، وعاد وصحبته أصحاب الكرك جمال الدين خضر، وبدر الدين سلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس، فأحسن السلطان إليهما، ووفى لهما بأمانه وبقيا على ذلك مدة طويلة ، ثم بلغه عنهما ما كرهه فاعتقلهما فبقيا في الحبس حتى توفي، فنقل خضر وسلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس إلى القسطنطينية.

وفيها خرج السلطان من الديار المصرية إلى غزة، ثم سار إلى الكرك فوصل إليها في شعبان، وقرر أمورها، ثم عاد إلى جهة غابة أرسوف، وأقام مدة، ثم عاد إلى الديار المصرية.

وفيها : توفي ركن الدين أباجي الحاجب.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

ذكر فتوح صهيون

كان السلطان قد جهز عسكرا كثيفا مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي بمن معه من العساكر المصرية والشامية في هذه السنة إلى قلعة صهيون، ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار، فأجابه صاحبها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى تسليمها بالأمان، وحلف له حسام الدين طرنطاي، فنزل سنقر الأشقر إليه وسلم صهيون في ربيع الأول من

هذه السنة ، فتسلمهـا طرنطاي وأكرم الاشقـر المذكور غاية الإكـرام ، ثم سار حسـام الدين طرنطـاي إلى اللاذقية، وكـان بها برج للفرنج يحيـط به البحر مـن جميع جهاته، فـركب طريقـا إليه في البحر بالحجـارة، وحاصر البرج المذكور وتسلمـه بالأمـان وهدمـه، ثم بعـد ذلك تـوجه إلى الـديار المصريـة وصحبته سنقـر الأشقر، فلما وصـلا إلى قرب قلعـة الجبل ركـب السلطان الملـك المنصور قـلاوون والتقى مملوكـه حسام الـدين طـرنطاي وسنقر الأشقر وأكرمه، ووفى له بالأمـان، وبقي سنقر الأشقر مكوما محترما مع السلطـان إلى أن توفي السلطـان، وملك بعـده الملك الأشرف، فكـان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها نـزل تدان منكـو بن طغان بـن باطو بـن دوش خان بـن جنكز خـان عـن مملكة التتر بـالبـلاد الشماليـة، وأظهـر التزهـد والانقطـاع إلى الصلحاء، وأشـار إلى أن يملكوا ابـن أخيه تـلابغا بـن منكوتمر بـن طغان المذكور، فملك بعده تلابغا ابن المذكور.

وفيها أرسـل السلطان الملك المنصـور عسكرا مـع علم الديـن سنجر المسروري المعروف بـالحباط متولى القـاهرة إلى النـوبة، فساروا إليهـا وغزوا وغنموا وعادوا.

وفيها توفي بدر الدين تنليك الايدمري.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة

فيها توفي الملك الصالح علاء الـدين علي ابن السلطان الملك المنصور سيف الـدين قـلاوون، وهو الـذي جعله ولي عهـده وسلطنه في حيـاته، فـوجد عليـه السلطان والـده وجداً عظيماً، وكـان مرضـه بالـدوسنطريـا، وخلف الملك الصالح المذكور ولداً اسمه مـوسـى بن علـى.

-١٠٣٥٠-

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة

ذكر فتوح طرابلس

في هذه السنة من أول ربيع الآخر فتحت طرابلس الشام، وصورة ما جرى أن السلطان الملك المنصور خرج بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة ، وسار إلى الشام، ثم سار بالعساكر المصرية والشامية، ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأول من هذه السنة، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة، وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق، وهو مقدار قليل ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار، ولازمها بالحصار، واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف، ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى الميناء، فنجا أقلهم في المراكب، وقتل غالب رجالها، وسبيت ذراريهم، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة.

وحصار طرابلس هو أيضا مما شاهدته وكنت حاضراً فيه مع والدي الملك الأفضل، وابن عمي الملك المظفر صاحب حماة، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم،أمر السلطان فهدمت ودكت إلى الارض، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس، وبينها وبين طرابلس الميناء، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الاسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال، وغنموا ما بها من النساء، والصغار، وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها في مركب فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لايستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى.

ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهـدمها ، عاد إلى الديار المصرية، وأعطى صـاحب حماة الدستـور، فعاد إلى بلده، وكان الفـرنج قد استـولوا على طرابلـس في سنة ثلاث وخمسمائة في حادي عشر ذي الحجـة، فبقيت بأيـديهم إلى أوائل هذه السنـة، أعني سنـة ثمان وثمانين وخمسمائة، فيكون مدة لبثها مع الفرنج نحو مائة سنة وخمس وثمانين سنة وشهور.

وفيها مـات قبلاي خان بن طلـو بن جنكز خان ملـك التتر بالصين، وهـو أعظم الخانـات والحاكم على كـرسي مملكـة جنكز خـان، وكان قـد طالت مدته ولما مات قبلاي خان جلس بعده ولده شهون.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستمائة

ذكر وفاة السلطان سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي

في هـذه السنة في سـادس ذي القعـدة تـوفي الملك المنصـور المذكـور، وصورة وفـاته أنه خـرج من الديـار المصرية بالعسـاكر المتوافـرة على عزم غزو عكا وفتحهـا، وبرز إلى مسجد التبرز، فابتـدأ مرضه في العشر الأخير من شوال بعد نزوله بالدهليز في المكـان المذكور، وأخذ مرضه يتزايد حتى توفي يوم السبت سادس ذي القعدة بالـدهليز، وكان جلوسه في الملك يوم الأحد الثاني والعشريـن من رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، فتكـون مدة ملكه نحـو احدى عشرة سنـة وثلاثـة أشهر وأيـاما، وخلـف ولديـن هما الملـك الأشرف صلاح الـدين خليـل، والسلطان الأعظـم الملك النـاصر ناصر الدنيا والدين محمد، وكان السلطان الملك المنصور المشار إليه ملكا مهيباً حليماً، قليـل سفك الـدماء، كثير العفـو شجاعـاً، فتح الفتـوحات الجليلـة مثـل: المرقب، وطـرابلـس، التـي لم يجسر أحـد من الملـوك مثـل صـلاح الديـن وغيره على التعـرض إليهما، لحصانتهما، وكسر جيـش التتر على حمص ، وكـانوا في جمع عظيـم لم يطرق الشـام قبلـه مثله، ولايحتمـل

هذا المختصر ذكر فضائله، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ذكر سلطنة ولده الملك الاشرف

ولما توفي السلطان جلس في الملك بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون المذكور، وكان جلوسه في سابع ذي القعدة من هذه السنة، صبيحة اليوم الذي توفي فيه والده، ولما استقر السلطان الملك الأشرف في المملكة قبض على حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة، فكان آخر العهد به ، وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدار، والوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس

ثم دخلت سنة تسعين وستمائة

ذكر فتوح عكا

في هذه السنة في جمادى الآخرة فتحت عكا.

وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا، وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق، فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماة صحبته إلى حصن الاكراد، وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل مائة عجلة، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة، لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق، فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهرا، وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة،

وكذلك أمـر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبـار والصغار ما لم يجتمع على غيرهـا، وكان نزول العسـاكر الاسلاميـة عليها في أوائل جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد عليها القتال ولم يغلـق الفرنج غالب أبوابها بل كـانت مفتحـة، وهم يقـاتلون فيهـا، وكانـت منزلـة الحمويين بـرأس الميمنة على عادتهم، فكنا على جانب البحـر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا، وكـان يحضر إلينا مراكب مقبيـة بالخشب الملبس جلـود الجواميس، وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ،وكـان القتال من قدامنا من جهة المدينة، ومـن جهة يميننـا من البحـر، وأحضروا بطسة فيهـا منجنيق يـرمي علينـا وعلى خيمنا من جهة البحر، فكنا منه في شدة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب ريـاح قوية فارتفـع المركب وانحط بسبـب الموج وانكسر المنجنيق الذي فيه بحيث أنه انحطم ، ولم ينصب بعد ذلك.

وخرج الفـرنج في أثناء مـدة الحصار بالليـل، وكبسوا العسكر، وهـزموا اليزكية، واتصلـوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهـم فارس في جوة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك، وتكاثرت عليهم العساكر، فولى الفرنج منهزمين إلى البلد،وقتـل عسكر حماة عدة منهم، فلما أصبـح الصباح علق الملك المظفر صـاحب حماة عدة من رؤوس الفرنج في رقـاب خيلهـم التي كسبهـا العسكـر منهـم، وأحضر ذلـك إلى السلطـان الملـك الأشرف ، واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السـابع عشر مـن جمادى الآخرة بـالسيف، ولما هجمهـا المسلمون هـرب جماعة مـن أهلها في المراكـب، وكان في داخل البلـد عدة أبـرجة عـاصية بمنزلة قلاع، دخلهـا عالم عظيم من الفرنج وتحصنـوا بها، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئـاً يفوت الحصر من كثرته، ثم استنـزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ولم يتأخر منهـم أحد، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكا.

ومـن عجائب الاتفـاق أن الفـرنج استـولوا على عكـا وأخـذوها مـن صـلاح الديـن ظهـر يـوم الجمعة سـابـع عشر جمادى الآخرة سنة سبـع وثمانين وخمسمائة، واستولوا على من بها من المسلمين، ثم قتلوهم

فقدر اللـه عز وجـل في سابـق علمه أنها تفتـح في هذه السنـة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يـد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين، فكـان فتوحها مثل اليوم الـذي ملكها الفرنج فيه، وكـذلك لقب السلطانين.

ذكر فتوح عدة حصون ومدن

لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلـوب الفرنج الذين بساحل الشـام، فأخلـوا صيدا، وبيروت، وتسلمهـا الشجاعـي في أواخر رجـب، وكذلـك هرب أهـل مدينـة صور، فـأرسل السلطـان وتسلمها، ثـم تسلم عثليث في مستهل شعبـان، ثم تسلم انطرطوس في خامـس شعبان، جميع ذلك في هذه السنـة أعني سنة تسعين وستمائة ، واتفق لهذا السلطـان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هـذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولاتعب، وأمـر بها فخربت عـن آخرها، وتكـاملت بهذه الفتوحـات جميع البلاد السـاحلية للاسـلام، وكان أمرا لايطمـع فيه ولايرام، وتطهـر الشام والسواحل من الفـرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخـذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام، فلله الحمد والمنة على ذلك ......

من كتاب نهاية الأرب للنويري

ذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام وحَلب

وأول من ملك منهم السلطان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان محمد ابن جغريبك داود بن ميكائيل بن سلجق، وهو أخو ملكشاه وكان السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتحه من تلك النواحي في سنة سبعين وأربعمائة، فجاء إلى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة. وكان معه جماعة كثيرة من التركمان فأنفذ إليه الأقسيس[1] صاحب دمشق يستنجده على العساكر المصرية، لأنها كانت قد حاصرته بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي، فسار إلى نصرة الأقسيس، فلما سمع العسكر المصري بقربه فارقوا البلد وعادوا إلى مصر، وخرج الأقسيس يلتقيه عند سور دمشق، فاغتاظ منه تتش كونه لم يتقدم في تلقيه، وعاتبه، فاعتذر بأمور لم يقبلها منه، فقبض عليه تتش في الوقت وقتله، وملك دمشق وأحسن السيرة في أهلها، وعدل فيهم وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة أربع وسبعين افتتح تاج الدولة انطرطوس وبعض الحصون الساحلية، وعاد إلى دمشق، وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة كانت الحرب بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجقي صاحب الروم وأنطاكية، فهزم عسكره وقتله على ما نذكره إن شاء الله في أخبار سليمان، وملك تتش مدينة حلب خلا القلعة، فكتب الحتيتي إلى السلطان ملكشاه يستدعيه، فوصل إليها وفارقها تتش كما قدمنا ذكره.

ذكر استيلائه على حمص وغيرها من ساحل الشام

كان تاج الدولة تتش قد توجه إلى أخيه السلطان ملكشاه إلى بغداد في سنة أربع وثمانين، وجاء إليه زعماء الأطراف، فلما أذن لهم في العود أمر

أقسنقر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، أن يسيرا في خدمة أخيه بعساكرهما إلى أن يستولي على ما هو للمستنصر العلوي صاحب مصر بساحل الشام من البلاد، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها.

فساروا في سنة خمس وثمانين ، ونـزلوا على حمص وحصروها وبها صاحبها خلف بن ملاعب، وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين، فحصروا البلد وضيقوا على من به وملكه تتش، وأخذ ابن ملاعب وولديه،ثم سار إلى قلعة عرقة، وهي بالقرب من طرابلس، فملكها وملك أفامية، ثم نازل طرابلس وبها جلال الملك بن عمار، فراسل اقسنقر، وحمل إليه ثلاثين ألف دينار، وتحفا بمثلها، وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته، والتحذير من محاربته، فقال اقسنقر لتتش: أنا لا أقاتل من هذه المناشير بيده، ورحل من الغد، فرحل تاج الدولة وعاد بوزان إلى بلاده، والله أعلم.

ذكر ما فعله في طلب السلطنة

قال: لما بلغ تاج الدولة تتش قدوم أخيه السلطان ملك شاه إلى بغداد توجه من دمشق إلى خدمته، فلما وصل الى هيت أتاه الخبر بموته، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق فتجهز لطلب السلطنة ، وجمع العساكر وأخرج الأموال وسار إلى حلب وبها قسيم الدولة أقسنقر، فصالحه قسيم الدولة وأتبعه لما علم من اختلاف أولاد صاحبه، وأرسل إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة، حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا ذلك وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم.

وقصد تتش الرحبة فملكها في المحرم سنة ست وثمانين وأربعمائة،ثم سار إلى نصيبين ففتحها عنوة وقتل من أهلها خلقا كثيرا ونهب الأموال،

وفعل الأفعال القبيحة، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي. وسار يريد الموصل، وأتاه الكافي ابن فخر الدولة بن جهير وكان بجزيرة ابن عمر فاستوزره، والتقى بإبراهيم بن قريش في ثلاثين ألفاً، وتتش في عشرة آلاف، فاقتتلوا فانهزم إبراهيم والعرب، ثم أخذ أسيرا وجماعة من العرب فقتلوا صبرا، ونهبت أموالهم وما معهم من الخيل والإبل والأغنام .وغيرها وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفا من السبي والفضيحة، وملك تتش بلادهم الموصل وغيرها، واستناب بها علي ابن شرف الدولة مسلم، وهو ابن صفية عمة تتش.

ذكر ملكه ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام

قال: ثم سار تاج الدولة تتش في شهر ربيع الآخر فملك ميافارقين وسائر ديار بكر من ابن مروان، وسار منها إلى أذربيجان. وانتهى خبره إلى ابن أخيه بركياروق وكان قد استولى على كثير من البلاد، فسار في عسكره ليتبع عمه، فلما تقارب العسكران اجتمع قسيم الدولة وبوزان وقالا: « نحن إنما أطعنا هذا حتى ننظر ما يكون من ابن صاحبنا، وقد ظهر أمره» ففارقاه والتحقا ببركياروق فعاد تتش إلى الشام.

ذكر عود تتش إلى البلاد وملكه همذان وغيرها

قال: ولما عاد إلى الشام أخذ في جمع العساكر فكثرت جموعه وعظم جنده . فسار في سنة سبع وثمانين وأربعمائة عن دمشق نحو حلب لطلب السلطنة، فاجتمع قسيم الدولة اقسنقر وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدولة بركياروق بالأمير كربوقا، فالتقوا بالقرب من تل السلطان، قريب حلب واقتتلوا واشتد القتال فانهزموا، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيرا وجيء به إلى تاج الدولة فقال له: « ما كنت تصنع بي لو ظفرت»؟ قال: « كنت أقتلك» وقال :« فأنا أحكم عليك بحكمك » فقتله

صبرا. وسار نحو حلب، ودخلها وأسر كربوقا ويوزان وتسلم الرها وحران. وسار إلى بلاد الجزيرة فملكها جميعها، وملك ديار بكر وخلاط. وسار إلى أذربيجان فملك جميع بلادها، ثم منها إلى همذان فملكها، واستوزر فخر الملك بن نظام الملك.

ذكر انهزام بركياروق منه

قال: ولما سار تتش إلى أذربيجان كان بركياروق بنصيبين فبلغه الخبر فسار إلى قتاله ولم يكن معه غير ألف رجل، وعمه في خمسين ألفا. فجهز إليه عمه بعض الأمراء فكبسه وهزمه ونهب سواده، فسار إلى أصفهان على ماذكرناه في أخباره وخطب للسلطان تاج الدولة ببغداد.

ذكر قتل تاج الدولة تتش

قال: ولما هزم بركياروق سار من موضع الوقعة إلى همذان، ثم سار إلى الري، وكاتب الأمراء الذين بأصفهان يدعوهم إلى طاعته، ويبذل لهم الأموال الكثيرة. وكان بركياروق مريضا بالجدري، فأجابوه يعدونه أنهم ينحازون إليه، وهم ينتظرون ما يكون من صاحبهم. فلما عوفي بركياروق أرسلوا إلى تتش أنه ليس لك عندنا إلا السيف، وخرجوا له والتقوا بموضع قريب من الري، وقد كثرت جموع بركياروق، فانهزم أصحاب تتش وثبت هو في القلب فقتله أصحاب قسيم الدولة بثأر صاحبهم، والله أعلم.

ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق بعد قتل أبيهما تتش

قال: كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان، وكتب إليه من بلد الجبل قبل المصاف الذي قتل فيه يأمره بالمسير إلى بغداد، وأن يقيم بدار المملكة. فسار في عدد كثير منهم

إيلغازى بن أرتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس وغيرهما، فلما قارب هيت جاءه الخبر بقتل أبيه، فعاد إلى حلب ومعه والدته فملكها، وكان بها أبو القاسم بن بديع الخوارزمي قد سلمها تتش إليه، وحكمه فيها وفي القلعة. ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن إيتكين، وكان مع تتش فسلم من المعركة. وكان مع رضوان أيضا أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام، فكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه في البلد، فاستمال جناح الدولة المغاربة، وكانوا أكثر أجناد القلعة، فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان، واحتاطوا على أبي القاسم ، وأرسل إليه الملك رضوان يطيب قلبه، فاعتذر فقبل عذره، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها، وكانت الخطبة قد دامت باسم أبيه بعد قتله نحو شهرين.

وسار جناح الدولة في تدبير الدولة أحسن سيرة، وخالف عليهم الأمير ياغى سيان بن محمد بن ألب التركماني، صاحب أنطاكية، ثم صالحهم، وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر لخلوها من وال يحفظها، فساروا جميعا وقدم عليهم من بالأطراف الذين كان تتش قد رتبهم فيها، وقصدوا سروج، فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق فأخذها ومنعهم منها، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا من عساكره وما يفسدونه من غلاتهم، ويسألونه الرحيل، فرحل عنهم إلى الرها،وكان بها رجل يقال له الفارقليط ـ كان يضمن البلد من بوزان ـ فقاتل قتالا شديدا ثم ملكها، وطلب ياغى سيان القلعة من رضوان فوهبها له، فتسلمها وحصنها، فهرب رجالها، وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلموا إليهم البلد، فسمع ذلك قراجا فصلب ابن الفتي وغيره ممن اتهمهم، وجاء الخبر إلى رضوان وقد اختلف جناح الدولة وياغى سيان وأضمر كل منهما لصاحبه الغدر، فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها، واجتمع بزوجته أم الملك رضوان، وسار رضوان وياغي سيان إلى حلب، فسمع بدخول جناح الدولة إليها، ففارق ياغي سيان

الملك رضوان وسار إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي ودخل رضوان حلب.

هذا ما كان من أمر رضوان ، وأما الملك دقاق بن تتش، فإنه كان قد حضر المصاف مع أبيه، فلما قتل أبوه أخذه إيتكين الحلبي — وهو من غلمان أبيه - وسار به إلى حلب، فأقام عند أخيه الملك رضوان.

ثم راسله الأمير ساوتكين الخادم - متولي دمشق - سرا يدعوه ليملكه دمشق، فهرب من حلب، فأرسل أخوه رضوان في طلبه عدة من الخدام فلم يدركوه، وسار حتى وصل إلى دمشق ففرح به ساوتكين الخادم وأظهر البشر لوروده، فلما صار بدمشق أرسل إليه ياغي سيان يشير عليه أن ينفرد بملك دمشق عن أخيه رضوان، واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره، وقد سلموا من الوقعة، وكان طغتكين قد أسر ثم خلص، فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأرباب الدولة وبالغوا في تعظيمه وإكرامه. وكان طغتكين زوج والدة دقاق، فمال إليه لذلك ووثق به وحكمه في بلاده. ثم اتفقا على قتل ساوتكين الخادم فقتلاه، وسار إليه ياغي سيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فجعله وزيراً لدقاق، وحكمه في دولته. فصارت دمشق لدقاق وحلب لرضوان.

ذكر الحرب بين الملكين رضوان وأخيه دقاق

وفي سنة تسعين وأربعمائة سار الملك رضوان من حلب إلى دمشق يريد الاستيلاء عليها وانتزاعها من أخيه دقاق، فلما قاربها رأى حصانتها وامتناعها، فعلم عجزه عنها ، فسار إلى نابلس وإلى القدس ليأخذه، فلم يمكنه ذلك، وانقطعت العساكر عنه فعاد إلى حلب ومعه ياغي سيان صاحب أنطاكية وجناح الدولة ، وكانا قد التحقا به. ثم فارقه ياغي

سيان وقصد دقـاق وحسن له محاصرة أخيه بحلب. فجمع دقـاق عساكره وسار ومعـه ياغي سيان، فـأرسل رضوان إلى سقمان بن أرتـق وهو بسروج يستنجده، فأتـاه في خلق كثير من التركمان. فسار بهم رضـوان نحو دقاق وعسكره ونهبـت خيامهـم وأموالهم، وعـاد رضوان إلى حلـب ، ثم اتفقـا على أن يخطب لـرضوان بـدمشق وأنطـاكية قبـل أخيه دقـاق، وقيل كـان ذلك في سنة تسع وثمانين.

وفي سنـة تسعين وأربعمائة خطـب الملـك رضـوان في أكثـر ولايتـه للمستعلي بأمر الله صـاحب مصر، وسبب ذلك أن جناح الدولـة كان قد فارق رضـوان لتغير رآه منه، وجـاء إلى حمص وكانـت له، فلما رأى يـاغي سيان بعـده عن رضـوان صالحه،وجـاء إلى حلب، ونـزل بظاهـرها وكـان لرضـوان منجم يقـال له الحكيم أبـو سعد يميل إليـه، فقدمـه بعد مسير جناح الدولة فحسـن له مذهب العلويين، وأتته رسـل المستعلي تدعوه إلى طاعتـه ويبذل له المال وإنفـاذ الجيوش لأخـذ دمشق، فخطب لـه بشيزر وجميع أعمال ولايته سوى أنطاكية ، وقلعـة حلب، والمعرة، وكانت الخطبة أربع جمع.

ثم حضر إليـه سقمان بن أرتق، وياغـي سيان فأنكـرا ذلك واستعظماه فأعـاد الخطبة العباسيـة، وسار ياغي سيان إلى أنطاكية فلـم يقم بها غير ثلاثـة أيام حتى وصـل الفرنج إليها وحصروهـا وملكوها في سنـة إحدى وتسعين وأربعمائة على مـا نـذكـره إن شاء اللـه تعـالى في أخبـار المستعلي صاحب مصر.

ذكر ملك دقاق مدينة الرحبة

وفي شعبـان سنة سـت وتسعين وأربعمائة ملـك الملـك دقاق مـدينـة الرحبـة، وكانت بيـد قايماز أحد مماليـك السلطان ألب أرسـلان، استولى

عليها لما قتل كربوقا، فسار دقاق وطغتكين أتابك إليه وحصراه، ثم رحلا عنه. فاتفقت وفاته في صفر من هذه السنة، وقام مقامه غلام تركي اسمه حسن، وخطب لنفسه وخاف من الملك دقاق، فاستظهر لنفسه، وأخذ جماعة من أعيان البلد وصادرهم وحبس آخرين، فسار دقاق إليه وحاصره، فسلم العامة البلد واعتصم هو بالقلعة، فأمنه دقاق وسلمها له فتسلمها وأقطعه إقطاعا كثيرا بالشام، وقرر الرحبة وجعل فيها من يحفظها وعاد إلى دمشق.

ذكر وفاة الملك دقاق وملك ولده ثم أخيه

كانت وفاته في شهر رمضان سبع وتسعين وأربعمائة، ولما توفي خطب أتابكه طغتكين لولد له صغير عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لأرتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة وله من العمر اثنتي عشرة سنة، ثم أشار عليه طغتكين بقصد الرحبة فخرج إليها وملكها، وعاد فمنعه من دخول البلد ، فمضى إلى حصون له، وأعاد طغتكين خطبة الطفل ولد دقاق، وقيل إن والدة أرتاش خوفته من طغتكين وقالت له: إنه زوج أم دقاق، وهي لاتتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لولد ابنها، ثم حسن له من يحسد طغتكين مفارقة دمشق وقصد بعلبك وجمع الرجال والاستنجاد بالفرنج، والعود إلى دمشق وأخذها من طغتكين،فخرج من دمشق سرا في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة مع صغر سنة، ولحقه الأمير إيتكين الحلبي وهو صاحب بصرى، فعاثا في ناحية حوران، ولحق بهما من كان يريد الفساد، وراسلا بغدوين ملك الفرنج يستنجدانه، فأجابهما إلى ذلك، فسارا إليه واجتمعا به، وقررا معه القواعد، وأقاما عنده، فلم يريا منه إلا التحريض على الإفساد في أعمال دمشق وتخريبها ، فلما يئسا من نصرته فارقاه وتوجها في البرية إلى الرحبة فملكها أرتاش وعاد عنها، واستقام أمر طغتكين بدمشق، واستبد بالأمر وأحسن إلى الناس ونشر فيهم العدل..

هذا ما كان من أمر ملـوك دمشق ثم انتقل ملكها إلى طغتكين وأولاده مـن بعـده على مـانذكـره إن شـاء اللـه تعـالى بعـد ذكرنـا لملـوك حلـب السلجقية، ومن ملكها بعدهم إلى أن ملكها أتابك زنكي بن أقسنقر.

ذكر أخبار ملوك حلب

قد قدمنـا أن حلب كانت بيد الملـك رضوان بن تتش، فلـم تزل بيده إلى أن توفي في سنـة سبع وخمسمائة، وكانت أمـوره غير مشكورة فإنـه قتل أخويه أبـا طالب وبهرام، وكان يستعين في كثير مـن أموره بالباطنيـة لقلة تـدبيرة، فلما مات ملـك بعـده ابنه تـاج الملـوك ألـب أرسلان الأخـرس، وعمـره سـت عشرة سنة. ولم يكـن أخـرس، وإنما كـان في لسانـه حبسـة وتمتمة، وأمه بنت ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية.

قال: ولما ملك تاج الملوك سلك سنة أبيـه في قتل إخوته فقتل أخوين لـه وهما: شقيقه ملكشـاه، ومبارك لأبيـه، واستـولى على أمور دولتـه لؤلـؤ الخادم، فلم يكن لتاج الملوك معه في السلطنة غير اسمها، ومعناها للؤلؤ، ولم تطل مدتـه في الملك، فإن غلمانه قتلوه في سنـة ثمان وخمسمائة، وأقاموا بعده أخاه سلطان شـاه بن رضوان، فكان مع لؤلـؤ كعادة أخيه، فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمائةـ وقيل سنة عشر ـ قتل لـؤلؤ المستولي على الأمر ، وكان سبب قتلـه أنه أراد قتل سلطان شاه كما فعل بـأخيه، ففطن غلمان سلطان شاه لذلك، فبادروه بالقتـل. وولي أتابكة سلطان شاه بعده شمس الخواص ألتونتـاش، فبقى شهراً وعزلوه، وولي بعده أبـو المعالي بن الملحي الـدمشقي ثـم عزلـوه وصادروه. فخـاف أهل حلـب من الفـرنج فسلموا البلد إلى الأمير نجم الـدين إيلغازي بن أرتق، وانقرضـت الدولة السلجقية من حلب، والله أعلم.

- ١٠٣٦٦ -

ذكر أخبار من ملك حلب بعد انقراض الدولة السلجقية منها

ملكها الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق باتفاق أهلها في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فتسلمها . وكان له مع الفرنج وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها. واستناب بحلب ولده سليمان، فخالفه وعصى عليه، في سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان عمره إذ ذاك عشر سنين، فبلغ والده الخبر، فسار مجداً فلم يشعر إلا وقد هجم البلد وقبض على من كان حسن لابنه العصيان، وقتلهم. وكان منهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان إيلغازي قد قدمه على أهل حلب، وجعل إليه الرئاسة فجازاه بذلك، فقطع يديه ورجليه وسمله فمات، وأراد قتل ولده فمنعته رقة الوالد، واستناب بحلب سليمان شاه ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين، فلم تزل حلب بيده، إلى أن توفي في سنة ست عشرة وخمسمائة بميافارقين. وبقي سليمان بحلب إلى أن استولى عليها ، ابن عمه بلك بن بهرام بن أرتق، وبقيت بيد بلك إلى أن قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة وهو يحاصر منبج، وكان قد قبض على صاحبها حسان البعلبكي، وملك المدينة وحاصر القلعة، فأتاه سهم فقتله وكان حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي مع عمه بلك، فحمله مقتولا إلى ظاهر حلب، فتسلمها في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة ، واستولى عليها، وجعل فيها نائبا يثق به، وعاد إلى ماردين، وكان يحب الدعة والرفاهية، فلما عاد إلى ماردين ملك حلب أقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمكاتبة من أهلها، لأن الفرنج كانوا حاصروهم وضيقوا عليهم، فكتبوا إليه يستنجدونه، فحضر بعساكره، فرحل الفرنج عنها، وملكها في ذي الحجة سنة ثماني عشرة ، فكانت بيده إلى أن قتل في سنة عشرين وخمسمائة على يد الباطنية.

وملك بعده ابنه عز الدين مسعود إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين

وخمسمائة، فبقيت بيد نائبه تومان ، ثم استناب بعده بها قتلغ، فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فظهر منه بعد أيام جور عظيم وظلم شديد، ومد يده إلى أموال الناس. وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ــ الذي كان صاحبها قديما ـ فأطاعه أهلها، وقبضوا على أصحاب قتلغ الذين بالمدينة في شوال من السنة، وحاصروه في القلعة. فسمع الفرنج بذلك فتقدموا إلى المدينة، فصولحوا بمال حتى رحلوا عنها. وداموا على حصار قتلغ بالقلعة إلى منتصف ذي الحجة، ثم ملكها عماد الدين زنكي بن أقسنقر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية، هذا ما كان من أمر حلب، فلنذكر أخبار دمشق.

ذكر أخبار من ملك دمشق بعد انقراض السلجقية منها إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي

أول من ملكها معتمد الدولة ظهير الدين طغتكين ، وقيل فيه طغتكين وطغدكين، استولى على دمشق كما قدمناه في سنة سبع وتسعين وأربعمائة، واستقل بالأمر منذ فارقها الملك أرتاش بن تتش وكان لطغدكين مع الفرنج وقائع كثيرة في سنين عديدة يطول شرحها، أضربنا عن ذكرها لأنها لم تسفر عن فتح بلد ولا أسر ملك وملك طغدكين بصرى في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكانت بيد إيتكين الحلبي، فلما صار مع السلطان الملك أرتاش كما ذكرنا سلمها أهلها لطغدكين، فتسلمها وأحسن إليهم، واستمر في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فتوفي في ثامن عشر صفر منها، وكان عاقلا خيرا ، كثير الغزو والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثرا للعدل فيهم. ولما توفي ملك بعده ابنه والله أعلم.

ذكر أخبار تاج الملوك بوزي بن أتابك طغدكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن عشر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة بوصية من أبيه له بالملك. وكان أكبر أولاده، فلما ملك أقر وزير والده ـ وهو أبو علي طاهر بن سعد المزدغاني ـ على وزارته.

ذكر أخبار الاسماعيلية وقتل الوزير المزدغاني

كان بهرام مقدم الاسماعيلية قد هرب قديما من بغداد إلى الشام بعد قتل أخيه إبراهيم الأسد أبادي، وملك قلعة بانياس، وجعل خليفته بها يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا ، وملك عدة حصون منها القدموس وغيره، وهي الآن تعرف بقلاع الإسماعيلية، من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية.

وكان بوادي (التيم) من أعمال بعلبك أرباب مذاهب مختلفة منهم: النصيرية، والدرزية، والمجوس وغيرهم، وأميرهم اسمه الضحاك، فسار إليهم بهرام في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وقاتلهم، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل، وكبس عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة، وقتل بهرام فيمن قتل، وانهزم من بقي وأتوا بانياس على أقبح صورة . وكان بهرام قد استخلف على بانياس رجلا من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من سلم من أصحابه، وبث دعاته في البلاد، وساعده الوزير المزدغاني وعاضده وأقام المزدغاني بدمشق عوض بهرام إنسانا اسمه أبو الوفاء، فقوى أمره على شأنه، وكثر أتباعه حتى صار هو المستولي على دمشق، وحكم أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إن المزدغاني راسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتقرر الميعاد في يوم جمعة عينوه، وقرر المزدغاني مع الإسماعيلية أن يحتاطوا على أبواب الجامع في ذلك

اليوم، فلا يمكنوا أحدا من الخروج منه، لتجيء الفرنج ويملكوا البلد. فاتصل الخبر بتاج الملوك، فاستدعى الوزير المزدغاني فحضر إليه فلما خلا به قتله وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف، وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة. فخاف إسماعيل متولى بانياس عند ذلك من الناس أن يثوروا به وبأصحابه، فسلم بانياس إلى الفرنج، وانتقل إليهم هو ومن معه، فلقوا شدة عظيمة وهوانا ومات إسماعيل في أوائل سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ذكر حصار الفرنج دمشق وانهزامهم

قال: ولما بلغ الفرنج ما كان من قتل المزدغاني، عظمت المصيبة عليهم، واجتمعوا بجملتهم، صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وغيرهم من ملوك الفرنج وقمامصتهم ومن وصل إليهم في البحر فكانوا في ألفي فارس، وأما الراجل فلا يحصى كثرة، وساروا إلى دمشق لمحاصرتها، فبلغ ذلك تاج الملوك، فجمع العرب والتركمان فاجتمع معه ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج إلى دمشق في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين فنازلوها، وأرسلوا سراياهم إلى أعمالها لجمع الميرة والإغارة . فبلغ تاج الملوك أنهم ساروا إلى حوران، فسير أميرا من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين، فلقوا الفرنج وقاتلوهم قتالا شديدا، كان الظفر للمسلمين ، وقتل الفرنج فلم يفلت منهم غير مقدمهم في أربعين رجلا، وأخذوا ما معهم، وكان عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق بالظفر والغنيمة. فألقى الله الرعب في قلوب الفرنج فرحلوا شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وغيره، وتبعهم المسلمون يقتلون من تخلف منهم. وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة. وفي سنة أربع وعشرين استوزر تاج الملوك الرئيس أبا الذوّاد المفرج بن الحسن بن الصوفي.

- ١٠٣٧٠ -

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ثار الباطنية بتاج الملوك، فجرحوه جرحين فبرأ أحدهما وبقي الآخر، فاشتد عليه في شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة فأضعفه وأسقط قوته فمات في الحادي والعشرين من الشهر . وكانت مدة إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما، وكان كثير الجهاد مقداما فأقام في حروبه مقام أبيه، وفاق عليه، ولما مات قام بعده ولده إسماعيل بوصية منه.

ذكر أخبار شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري ابن طغدكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة. وكان والده قد أوصى له بالملك ولولده الآخر شمس الدولة محمد بمدينة بعلبك وأعمالها، فنفذت وصيته وقام بتدبير الأمر بين يدي شمس الملوك الحاجب فيروز شحنة دمشق ــ وهو صاحب أبيه ـ واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم.

قال: وبلغ شمس الملوك أن أخاه شمس الدولة صاحب بعلبك استولى على حصني اللبوة والرأس، واستمال من بها وتسلمهما، وجعل فيهما من الجند من يحفظهما، فراسله في ذلك وتلطف معه وقبح عليه فعله، وطلب إعادتهما إليه، فامتنع. فتجهز بعساكره في آخر ذي الحجة من السنة وقصد جهة الشمال، ثم عطف مغربا، فلم يشعر من بحصن اللبوة إلا وقد نزل عليهم، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فراسلوه في طلب الأمان، فأمنهم وتسلم الحصن من يومه. وسار إلى حصن الرأس وفعل به كذلك، وتسلمه وجعل فيهما من يحفظهما. ثم رحل إلى بعلبك وحصرها وبها شمس الدولة وقد استعد، فوالى الزحف حتى ملك البلد بعد قتال شديد. وتحصن شمس الدولة

فنازله فراسله في طلب الأمان وأ ن يقره على ما أوصى له به والده، فأجابه إلى ذلك وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه قلعة بانياس

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك قلعة بانياس من الفرنج. وسبب ذلك أن الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه. وكانت قد تقررت بينهم هدنة، فقصدوا نقضها، ومدوا أيديهم إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت، فشكا التجار ذلك إلى شمس الملوك، فراسل الفرنج في إعادة ما أخذوه، فلم يردوا شيئا، فجمع العساكر وتأهب ولم يعلم أحدا بمقصده. ثم سار في آخر المحرم من السنة ونزل على بانياس في صفر، وزحف زحفا متتابعا. وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه، وتبعه الناس فوصلوا إلى السور ونقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان فيه من جند الفرنج إلى الحصن، فقتل كثير من الفرنج بالبلد وقاتل من بالقلعة قتالا شديدا، ثم ملك القلعة بالأمان في رابع صفر وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه مدينة حماة

وفي شوال سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك مدينة حماة وهي لأتابك زنكي بن اقسنقر، وذلك أنه لما ملك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان، وسار إلى حماة في العشر الآخر منه. وكان قد بلغه أن الخليفة المسترشد بالله قد حضر إلى الموصل، فطمع في البلاد لتغير الخليفة على زنكي، فحصر حماة وقاتل من بها يوم العيد، وملك البلد في اليوم الثاني قهرا، وطلب من به الأمان فأمنهم، وحصر القلعة، واستولى عليها وعلى ما بها من الذخائر، وسار منها إلى قلعة شيزر، وبها صاحبها ابن منقذ، فحصرها ونهب بلدها. فراسله صاحبها وسار معه بمال، فعاد إلى دمشق في ذي القعدة من السنة.

وفي تاسع شهر ربيع الآخر وثب على شمس الملوك بعض مماليك جده طغدكين، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئا، وتكاثر عليه مماليك شمس الدولة فمسكوه، فقرره ما الذي حمله على ما فعل، فقال: « أردت راحة المسلمين من شرك وظلمك»، فلم يزل يضرب حتى أقر على جماعة أنهم وضعوه على ذلك، فقتلهم من غير تحقيق، وقتل أخاه سونج، فعظم ذلك على الناس، ونفروا عنه وأنفوه.

ذكر ملكه شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة سار إلى شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا، وكان في يد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به واحتمى على المسلمين والفرنج، فسار إليه وملكه في المحرم من هذه السنة، فعظم أخذه على الفرنج، لأن الضحاك كان لايتعرض إلى شيء من بلادهم المجاورة له، فجمع الفرنج جموعهم فساروا إلى بلد حوران يخربون أمهات الضياع. فسار إليهم ونزل بإزائهم وجرت بينهم مناوشة عدة أيام، ثم نهض ببعض عسكره وجعل بقيتهم قبالة الفرنج. وسار وقصد بلاد طبرية والناصرة وعكا وما جاورها من البلاد، والفرنج لايشعرون به، فقتل وخرب وأحرق وسبى وامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم، فبلغ الفرنج خبره، فرجعوا إلى بلادهم، وعاد هو على غير الطريق الذي سلكه، فوصل سالما وراسله الفرنج في تجديد الهدنة.

ذكر مقتل شمس الملوك وملك أخيه شهاب الدين محمود

وفي شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسمائة، قتل شمس الملوك إسماعيل . وسبب ذلك أنه كان قد ركب طريقا شنيعا من الظلم

ومصادرات العمال وغيرهم من أهل البلد وأعيانه، وبالغ في العقوبات، وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس. ثم ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكي ليسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول ، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل ذلك إلى صرخد وتابع الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول ويقول: إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج. فامتعض أصحاب أبيه وجده منه، وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر، ثم ارتقبت غفلة غلمانه وأمرت غلمانها بقتله فقتلوه. وأمرت بإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانه، فلما رأوه سروا بمقتله. وأمه زمرد خاتون ابنة جاولي، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وداي الشقراء، ونهر بردى. هذا أحد ما قيل في قتله.

وقيل كان سبب مقتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز، وكان متمكنا منه حاكما في دولته ثم دولة ولده هذا، فاتهم بأم شمس الملوك، وبلغه الخبر فهم بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك، وأراد (شمس الملوك)، قتل أمه، فبلغها الخبر فقتلته خوفا على نفسها، والله أعلم.

وكان مولده في سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة ، فتكون مدة حياته اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر، ومدة ملكه سنتين وتسعة أشهر وأياما.

ذكر أخبار شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري ابن طغدكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شمس الملوك في شهر ربيع الأول سنة

تسع وعشرين وخمسمائة، وحلف له الناس واستقر له الأمر ثم وصل أتابك زنكي إلى دمشق ونازلها في أول جمادى الأولى من السنة، فبينما هو يحاصرها إذ ورد عليه رسول الخليفة المسترشد بالله بالخلع ويأمره بصلح صاحب دمشق والرحيل عنها، فصالحه، وخطب له بدمشق مع صاحبها، وفارق البلد لليلتين بقيتا من الشهر.

ذكر ملكه مدينة حمص

وفي الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمسمائة، تسلم شهاب الدين محمود مدينة حمص وقلعتها. وذلك أن أصحابها أولاد الأمير خيرخان بن قراجا الوالي عليها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر زنكي إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على من بها، فراسلوا شهاب الدين في تسليمها، فأجابهم، وسار إليها وتسلمها، وسلم إليهم تدمر، وأقطع حمص لمملوك جده معين الدين أنر، وجعل فيها نائبا عنه ممن يثق به من أعيان أصحابه، وعاد إلى دمشق ثم ملكها أتابك زنكي في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتزوج زمرد خاتون والدة شهاب الدين لتحكمها بدمشق، وظن أنه يملك البلد باتصاله بها، فلم يتهيأ له ملكها.

قال: واستمر ملك شهاب الدين محمود إلى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فقتل على فراشه في شوال منها، قتله ثلاثة من خواصه كانوا يبيتون عنده فقتلوه ليلا، وخرجوا من القلعة فنجا أحدهما وقتل الآخران.

ذكر ملك جمال الدين محمد ابن تاج الملوك بوري بن طغدكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة. وذلك أن محمود لما قتل، كتب معين الدين أنر إلى جمال الدين صاحب بعلبك بالخبر، واستدعاه ليملكه البلد، فجاء مسرعا

لمحاصرة دمشق فقاتله أهلها، فرحل عنهم، ثم اتفق قتل عماد الدين زنكي في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فسار مجير الدين ابق إلى بعلبك وحصرها وبها نجم الدين أيوب، فخاف أن أولاد زنكي لايمكنهم إنجاده في عاجل الحال، فصالحه وسلم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعا ومالا، وملكه عدة قرى من بلد دمشق. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وسكنها، وأقام بها ، واستمرت دمشق بيد مجير الدين إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي في سنة تسع وأربعين وخمسمائة على مانذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

ولما ملكها (نور الدين) تحصن مجير الدين بالقلعة، فراسله في تسليمها وبذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص، فأجاب إلى ذلك، وسلم القلعة وتسلم الإقطاع ، وسار إلى حمص. ثم راسل أهل دمشق بعد ذلك على أن يسلموها إليه. فعلم نور الدين به، وأخذ منه حمص وعوضه عنها بالس فلم يرض بها، وسار إلى بغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية. وتوفي بها.

هذا ماكان من أخبار ملوك دمشق على سبيل الاختصار، وإنما أوردنا أخبارهم في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، و لكي تكون أخبارهم متتابعة . فلنرجع إلى أخبار الملوك السلجقية، ولنذكر ملوك الروم منهم.

وجلس لعزاء أخيه، وحلف الجند وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنر ، وزاده في علو مرتبته، وأقطعه بعلبك، وزوجه بأمه.

قال: ولما إتصل بزمرد خاتون قتل ابنها محمود كتبت إلى زوجها أتابك زنكي وهو بالجزيرة أن ينهض في طلب ثأر ابنها، فسار مسرعا وملك بعلبك عنوة في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين، وحصر دمشق في سنة أربع وثلاثين، وبذل لمعين الدين حمص وبعلبك وغير ذلك على أن يسلم إليه دمشق فلم يوافق، فجد في الحصار. فبينما هو يحاصرها مرض جمال الدين محمد ومات في ثامن شعبان منها، فطمع زنكي حينئذ في البلد ووالى الزحف والقتال. قال: ولما مات جمال الدين ولي بعده ولده.

ذكر أخبار مجير الدين ابق بن جمال الدين محمد بن بوري بن طغدكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وهي إذ ذاك محاصرة، فقام بتدبير دولته معين الدين مدبر دولة أبيه. وداوم زنكي الحصار وضيق على أهل البلد، فعند ذلك راسل أنر الفرنج واستدعاهم لنصرته، وإعانته على حرب زنكي، وبذل لهم بذولا من جملتها أن يحاصر بانياس ويسلمها إليهم. وخوفهم أن زنكي إن ملك دمشق قصدهم وغزاهم، فاجتمعوا وعزموا على المسير إلى دمشق، فاتصل ذلك بزنكي فتوجه إلى حوران وقصد غزو الفرنج وذلك في منتصف شهر رمضان، فبلغ خبره الفرنج فأقاموا ببلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ثم نزل بعذرا في سادس شوال، وأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة، وعاد إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق في ميعاد أنر، بعد رحيل زنكي فسار معهم إلى بانياس وحصرها وأخذها وسلمها للفرنج، ولما فعل ذلك عاد زنكي

ذكر أخبار ملوك السلجقية أصحاب قونية واقصرا وملطية ودقوقا من الروم

أول من ملك منهم شهاب الدولة قتلمش بن أرسلان يبغو بن سلجق. وكان ابتداء أمره أنه عصى على السلطان طغرل بك في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وملك قلعة كردكوه وامتنع بها، وأخذ أموالا كانت حملت من خوارزم إلى السلطان، فسير إليه طغر لبك جيشا فهزمه مرة بعد أخرى، فلما مات طغر لبك أظهر العصيان على ألب أرسلان ابن جفريبيك داود، وجمع جموعا كثيرة ، وقصد الري ليستولي عليها عندما بلغه وفاة طغر لبك، فسار إليه السلطان ألب أرسلان والتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر قتلمش، وفر هو لقصد كردكوه،فوجد ميتا غير مقتول، كما ذكرنا في أخبار ألب أرسلان في سنة ست وخمسين وأربعمائة ولما مات ملك بعده ابنه سليمان.

ذكر أخبار الملك سليمان ابن شهاب الدولة قتلمش

وهو الثاني من الملوك السلجقية بالروم، ملك ما كان بيد أبيه بعد وفاته في سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ذكر فتح مدينة أنطاكية

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان من بلاده، وقصد الشام وملك مدينة أنطاكية ، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وكان سبب ملكه إياها أن صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتب في أنطاكية شحنة وكان الفردوس كثير الإساءة إلى أهل البلد وإلى جنده، حتى أنه حبس ابنه ، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان، فكاتبوه يستدعونه فركب في البحر ومعه ثلاثمائة فرس وكثير من الرجالة، وخرج منه وسار في جبال وعرة

ومضايق شديدة حتى وصل إليها في وقت الموعد، فنصب السلاليم وصعد باتفاق من الشحنة وابن صاحبها، فملكها في شعبان من السنة، وقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى، وقتل كثيرا منهم، ثم عفا عنهم، وتسلم القلعة وأخذ من الأموال مالا يحصى كثرة، وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم، وأرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بالفتح فأظهر الفرح بذلك وهنأ الناس.

قال: ولما فتحها أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش، صاحب حلب، يطلب منه حمل ماكان صاحب أنطاكية يحمله إليه، ويخوفه معصية السلطان، فأجابه أن صاحب أنطاكية كان كافرا يحمل الجزية عن رأسه وأصحابه، وأنا مسلم والخطبة والسكة في بلادي للسلطان، وهذا الفتح إنما فتحته بسعادته وكتابته به، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، ونهب سليمان بلد حلب، فلقيه أهل السواد، فشكوا إليه من نهب عسكره. فقال لهم: أنا كنت أشد كراهة لما جرى، ولكن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت، فلم تجر عادتي بنهب مال مسلم ، ولا أخذ ما حرمته الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما نهب على أصحابه، فأعادوه. ثم جمع شرف الدولة الجموع وسار لقتال سليمان، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم عسكر شرف الدولة وقتل هو، وذلك في يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ذكر مقتل الملك سليمان بن قتلمش

قال: ولما قتل سليمان بن قتلمش شرف الدولة، أرسل إلى مقدم حلب يطلب تسليمها له، فأنفذ إليه مالا، واستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه. وأرسل المقدم إلى تتش صاحب دمشق يعده بتسليمها إليه، فسار تتش إلى حلب . فعلم سليمان بذلك،فاسر نحوه والتقوا وقاتلوا، فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب. فلما عاين الهلكة، قتل نفسه

بسكين، وقيل بل قتـل في المعركة، واستولى تتـش على معسكره، وذلك في سنة تسـع وسبعين وأربعمائة. وكان سليمان قـد أرسل جثـة شرف الدولـة مسلـم في صفر سنـة ثمان وسبعين على بغل، ملفـوفة في إزار إلى حلـب، وطلب مـن أهلها تسليمها إليـه، فأرسـل تتش جثة سليمان في صفـر من السنة التـي تليها على تلك الهيئة، وطلـب منهم تسليمها. ولما قتـل ملك بعده ببلاد الروم ولده والله أعلم.

ذكر أخبار قلج أرسلان بن سليمان

وهو الثالث من الملوك السلجقية بالروم.

ملك بعـد قتل أبيه في صفـر سنة تسـع وسبعين وأربعمائة، واستمر في المملكـة الـرومية وملـك الموصـل في سنـة خمسمائة. وذلك أن صـاحبهـا جكـرمش كـان قد حـاصره جاولي سقـاوا، وأسره ومات في أسره. فكتـب أصحاب جكرمش إلى الأمير صدقة، وإلى قسيـم الدولة اقسنقر البرسقي، وإلى قلـج أرسـلان، يستـدعـون كـل واحـد منهـم إليهـا، ليسلمـوا إليـه الموصل، فامتنـع صدقة، وسار قلج أرسـلان. فلما وصل إلى نصيبين رحل جـاولي عـن الموصـل، واتفـق وصـول البرسقـي وهـو شحنـة بغـداد إلى الموصـل، ونزل بـالجانب الشرقـي بعد رحيـل جاولي وفي ظنـه أنه يملـك البلد، فلـم يخرج إليه أحد من أهلهـا ولا راسلوه بكلمة واحـدة، فعاد في بقيـة يومـه. وأرسل أصحـاب جكرمـش وأهل الموصـل إلى قلج أرسـلان واستحلفوه لهـم، فحلـف، وحلفهم على الطاعـة له والمناصحـة، وسار إلى الموصـل وملكها لخمـس بقين مـن شهـر رجب سنـة خمسمائة ، وأسقـط خطبة السلطـان وخطب لنفسـه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكـر وخلع على ولـد جكرمـش وأخـذ القلعة مـن غزغلي مملـوك جكـرمش، وجعـل عليهـا دزدارا، ورفع الرسـوم المحـدثـة في الظلـم، ونشر العدل وتـألـف الناس، وقال: من سعى إليّ بأحد قتلته، فلم يسع إليه أحد بأحد.

- ١٠٣٨٠ -

ذكر قتل الملك قلج أرسلان وملك ولده الملك مسعود

كان مقتله في العشرين من ذي القعدة من سنة خمسمائة. وذلك أنه لما فارق جاولي الموصل، سار إلى الرحبة وملكها بعد حصار وقتال، فلما أحكم الملك قلج أمر الموصل، سار عنها لقتال جاولي، وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة بالموصل، وسنه إحدى عشرة سنة، وجعل معه أميرا يدبره وجماعة من العسكر، وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدد الكاملة والخيل الجيدة. فنسمع عسكره بقوة جاولي وكثرة أتباعه وجنده، فاختلفوا، فكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال صاحب آمد، وكان معه لما فتح الموصل. ففارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور إلى بلده ثم فارقه غيره، فعمل قلج في المطاولة لما بلغه من قوة جاولي وكثرة جموعه، وأرسل في طلب عساكره من الروم. وكان في جملة عسكر جاولي الملك رضوان صاحب حلب، فاغتنم جاولي قلة أصحاب قلج فقاتله قبل وصول عسكره، واقتتلوا قتالا شديدا، فحمل قلج بنفسه وانهزم أصحابه. فلما رأى قلج انهزام عسكره ألقى نفسه في الخابور، وحمى نفسه بالنشاب، فانحدر به الفرس إلى ماء عميق، وغرق، فظهر بعد أيام، فدفن بالسليمانية وهي قرية من قرى الخابور، وسار جاولي ودخل الموصل وأرسل ملكشاه بن قلج إلى السلطان محمد.

قال: وملك بعده ولده الملك مسعود بن قلج، وأقام في الملك إلى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، فتوفي فيها. ولم أقف من أخباره على شيء أورده له، وملك بعده ولده.

ذكر أخبار الملك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود

ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان يبغو ابن سلجق، وهو الخامس من الملوك السلجقة ببلاد الروم

ملك بعد وفاة والده في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وكان ذا سياسة، وعدل وافر، وهيبة عظيمة، وله غزوات كثيرة إلى بلاد الروم. وكان له من بلاد الروم قونية وأعمالها واقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك. وكان له عدة أولاد، فلما كبرت سنه فرق بلاده على أولاده في حياته، وملك نحو تسع وعشرين سنة.

ذكر تسليمه البلاد لبنيه وبني أخيه وما جعل لكل منهم

قال المؤرخ: لما ضعف الملك عز الدين قلج أرسلان هذا عن القيام بوظائف الملك لكبر سنه، أفرد البلاد لأولاده وأولاد أخيه وسلم لكل واحد منهم جهة، فسلم إلى ابنه ركن الدين سليمان دوقاط، وإلى ابنه غياث الدين كيخسرو قونية، ولولده محيي الدين أنقرة - وتسمى أنكورية - ولولده معز الدين قيصر شاه ملطية، ولولده مغيث الدين طغرل شاه أبلستين، ولولده نور الدين محمود قيسارية، ولولده قطب الدين سيواس وأقصرا، ولولد أخيه نكسار، ولولد أخيه أماسيا. هذه أمهات البلاد، ويضاف إلى كل جهة ما يجاورها. ثم ندم على ذلك وأراد أن يجمع جميع المملكة لولده الأكبر قطب الدين، وخطب له ابنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب مصر ليتقوى به، فلما اتصل ذلك ببقية أولاده امتنعوا من طاعته، وأزالوا حكمه عنهم، فكان يتردد بينهم على سبيل الزيارة ، ثم توجه إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب قونية، فخرج إليه وقبل الأرض بين يديه واستبشر بقومه ، وائتمر بأمره،

فقال له: أريـد أن أسير إلى ولدي محمود صاحـب قيسارية، وآخذهـا منه فسـار هو وولـده كيخسرو، وحصرا محمود، فمرض قلج أرسـلان، وتوفي في منتصـف شعبـان سنـة ثمان وثمانين وخمسمائة فعـاد كيخسرو إلى بلـده، واستقر كل واحد منهم على ما بيده من البلاد.

ذكر قتل نور الدين محمود واستيلاء قطب الدين على قيسارية ووفاته واستيلاء ركن الدين سليمان على سائر المملكة

قال: كان قطب الدين صاحـب أقصرا وسيواس إذا توجه من أحدهما إلى الأخرى يجعل طـريقه على قيسارية، ويجتمـع بأخيه نور الـدين محمود صاحبها، ويظهـر له المودة. فاطمأن لـه محمود. وكان الأمير اختيـار الدين حسن أحـد أمراء والده يحذره عـاقبة طمأنينته لأخيه، فنزل قطـب الدين في بعض الأحيان بظـاهر قيسارية وجاء نـور الدين إليه فقتله، ورمـى برأسه إلى أصحـابه، وتسلـم البلد بعـد أن امتنـع من بها عليـه، ثم قتـل الأمير اختيار الدين حسـن وكان من أكابر الأمراء الديـانين، وألقاه في الطريق، فجاء كلب ليأكل من لحمه، فثار النـاس وقالوا: « لاسمعا ولا طاعة هذا أمير كبير في الإسلام، وبنـى مدرسـة للعلم، ولـه صدقـات دارة، لانتركه تأكلـه الكلاب»، فـأمر عند ذلـك بدفنـه، فدفن في مـدرسته. ثـم مرض قطب الديـن ومات، فسار أخوه ركـن الدين سليمان صاحـب دوقاط إلى سيواس، وهي تجاوره، فملكها ثم ملك قيسـارية أقصرا ثم سار بعد ذلك إلى قونيـة، وبها أخوه غيـاث الدين فحصره بها. وملكهـا ، ففارقهـا غياث الدين إلى الشام. ثم عاد إلى الروم وسار إلى القسطنطينية، ثم ملك البلاد علـى ما نـذكره إن شاء الله تعالى.

وسار ركن الدين بعد ذلك إلى نكسـار وأماسيا فملكها من ابني عمه، وملك ملطية في شهـر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وفـارقها أخوه

معز الدين قيصر شاه، وسار إلى الملك العادل جميع البلاد التي كانت بيد إخوته وأولاد عمه إلا أنقره، فإنها امتنعت عليه لحصانتها، فجعل عليها من عسكره من يحصرها، فحوصرت ثلاث سنين كوامل وتسلمها في سنة ستمائة، وعوض أخاه محيي الدين عنها قلعة في أطراف بلاده، وحلف له عليها، فسار محيي الدين إليها فجهز في إثره من قتله.

ذكر وفاة ركن الدين سليمان وملك ولده قلج أرسلان

قال: ولما غدر بأخيه محيي الدين صاحب أنكورية وقتله، لم يمهله الله عز وجل، فمرض بالقولنج، بعد قتله لخمسة أيام، ومات في سبعة أيام، وكانت وفاته في سادس ذي القعدة سنة ستمائة وكان قيما بأمر الملك، شديدا على الأعداء، إلا أن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد في اعتقاده، وأنه يقول بقول الفلاسفة. وكان كل من رمي بهذا المذهب يأوي إليه، لكنه كان يستر ذلك عن الناس، ولايتظاهر به.

قال: ولما مات اجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان، وملكوه عليهم وكان صغير السن، فبقي إلى بعض سنة إحدى وستمائة.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قلتمش بن أرسلان يبغو بن سلجق، بلاد الروم من ابن أخيه، وهو الثاني من ملوك السلجقية بالروم

ملك المملكة الرومية في شهر رجب، سنة إحدى وستمائة. وذلك أن ركن الدين سليمان لما أخذ منه قونية، كما قدمناه، قصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولا، فسار من عنده وتنقل في البلاد إلى أن سار إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأكرمه وأقطعه إقطاعا، فأقام عنده وتزوج بابنة بعض

البطارقة الأكابر. وكان للبطريق قلعة من قلاع القيسطنطينية ، فلما ملك الفرنج قسطنطينية، هرب غياث الدين إلى (حموه)، بالقلعة ، فنزل عنده وقاسمه فيما هو فيه وقنعا بها فلما مات أخوه في سنة ستمائة كما ذكرناه، وملك ولده قلج أرسلان ، فخالف عليه بعض الأمراء والأكابر وكان من الترك، فأنف أن يملك صغيرا، فراسل غياث الدين فحضر إليه في جمادى الأولى، واجتمع معه بعض العسكر وتوجه إلى قونية وبها قلج أرسلان ابن أخيه، فخرج له بعض عسكرهافهزموه وبقي حيران ولا يدري مايصنع، ولا أين يتوجه ، فقصد بلدة صغيرة من بلاد قونية يقال لها أوكرم، فقدر الله أن أهل مدينة أقصرا وثبوا على واليها، فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين، فلما وصل الخبر أهل قونية قال أهلها: نحن أولى بذلك منهم، لأنه كان حسن السيرة فينا، فنادوا باسمه ، وأخرجوا من عندهم، واستدعوه، فملك المدينة وقبض على ابن أخيه، وملك البلاد أجمع في ساعة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمراً هيأ أسبابه. وحضر إليه أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية، فلم يجد عنده قبولا، فأعطاه شيئا وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها، واستتب الملك لكيخسرو وعظم شأنه، والله أعلم.

ذكر ملكه مدينة أنطالية

وفي ثالث شعبان سنة ثلاث وستمائة ملك الملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطالية بالأمان، وكانت للروم. وكان قد حصرها قبل هذا التاريخ وهدم عدة أبرجة من سورها، وأشرف على فتحها عنوة، فاستنجد من بها من الروم بفرنج جزيرة قبرص، فوصل إليها جماعة منهم فيئس منها وفارقها وترك طائفة من أصحابه بالقرب منها في الجبال التي بينها وبين بلاده، وأمرهم بقطع الميرة عنها، فضاق أهلها فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم، فظنوا أنهم يريدون إخراجهم من المدينة، فوقع الخلف بينهم، فأقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين يطلبونهم

ليتسلموا البلد، فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج، فانهزم الفرنج منهم واعتصموا بالحصن. فأرسل المسلمون يطلبون كيخسرو، فجاء من قونية وحصر الفرنج وتسلم الحصن، واستمر غياث الدين كيخسرو في الملك إلى أن توفي سنة سبع وستمائة وملك بعده ولده الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، وملك كيكاوس هذا بعض بلاد حلب، وانتزعت منه، ولم يكن له ولد فملك بعده أخوه.

ذكر ملك علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو ابن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان يبغو بن سلجق وهو العاشر من ملوك السلجقية بالروم

ملك بعد وفاة أخيه في سنة ست عشرة وستمائة، وكان أخوه كيكاوس قد اعتقله لما ملك، وأشار عليه أصحابه بقتله فلم يفعل. فلما مات كيكاوس أخرج الجند كيقباذ وملكوه عليهم، وقيل إنه لما اشتدت علة كيكاوس أخرجه من الاعتقال، وحلف له العساكر.

قال: ولما ملك كيقباذ خالف عمه مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم؛ ومغيث الدين هذا هو الذي أمر ولده أن يتنصر وزوجه ملكة الكرج، وأقام معها مدة،فهويت غيره من مماليكها فرآه معها، فأنكر ذلك عليها، فاعتقلته، ومات مغيث الدين هذا في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وملك بعده ابنه.

قال: ولما ملك كيقباذ خاف من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف صاحب دمشق وصالحه، وتعاهد على المصافاة والتعاضد، والله أعلم.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة في شعبان سار كيقباذ إلى بلاد الملك

المسعود صاحب آمد، وملك عدة من حصونه. وكان صاحب آمد قد اتفق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه على مخالفة الأشرف صاحب دمشق، فأرسل الأشرف إلى كيقباد بقصد آمد، فسار وفتح حصن منصور وحصن شمشكازاد وغيرهما، فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الملك الأشرف، وعاد إلى موافقته. فأرسل الأشرف إلى كيقباذ يعرفه الصلح وأن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه، فامتنع وقال: ما أنا نائب الأشرف يأمرني وينهاني، فأمر الأشرف عساكره بمساعدة صاحب آمد إن أصر ملك الروم على قصد محاصرته. فاجتمع العسكر الأشرفي مع صاحب آمد وساروا إلى كيقباذ وهو يحاصر قلعة الكختا، فالتقوا في شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه هزيمة عظيمة ، وأسر كثير من أصحابه، وجرح ، وملك كيقباذ قلعة الكختا.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة ملك كيقباذ أرزنكان،وكان صاحبها بهرام شاه قد طال ملكه بها، وجاوز ستين سنة، ولم يزل في طاعة السلجقية ملوك الروم، فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل إليه كيقباذ يطلبه بعسكره يسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحاصرها، فحضر إليه فقبض عليه وأخذ مدينته، ثم ملك حصن كماخ، وكان من أمنع الحصون. وقصد أرزن الروم ليأخذها من ابن عمه طغرل شاه، فاستنجد صاحبها بالأمير حسام الدين علي نائب الأشرف بخلاط، وأظهر طاعة الأشرف، فسار إليه بمن عنده من العسكر خوفا أن كيقباذ إذا ملك أرزن الروم قصد خلاط وغيرها ، فعاد ولم يقدم على قصدها، وتوجه إلى مدينة أنطاكية ليشتو بها والله أعلم.

ذكر اجتماع كيقباذ والأشرف على حرب جلال الدين خوارزم شاه وانهزامه منهما

كان سبب ذلك أن جلال الدين خوارزم شاه لما حاصر خلاط حضر

إليه صاحب أرزن الروم، وهو طغرل شاه السلجقي ابن عم كيقباذ، وأطاعه وأعانه على الحصار، وكان بينه وبين ابن عمه عداوة مستحكمة فخاف كيقباذ أن السلطان جلال الدين يتوصل إلى ملك بلاده، فراسل الملك الكامل صاحب مصر وهو إذ ذاك بحران، وسأله أن يستدعي الملك الأشرف من دمشق، فأحضر الملك الكامل أخا ه الأشرف واجتمع هو وكيقباذ، واتفقا على حرب جلال الدين، وكان عسكر كيقباذ عشرين ألف فارس وعسكر الأشرف خمسة الآف فارس، إلا أنهم كانوا من الشجعان الذين لايقوم أحد بحربهم، فسار جلال الدين لقتالهم والتقوا يوم السبت الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة بمكان من أعمال أرزنجان، فانهزم جلال الدين وعاد إلى خلاط، فأخذ من كان بها من أصحابه وفارقها، وأسر في هذه الوقعة جماعة من أصحاب السلطان. فأمر كيقباذ بضرب أعناقهم، وأسر ابن عمه صاحب أرزن الروم، وقصد به بلده، فتسلم أرزن الروم وما معها من القلاع، وما بها من الخزائن وغيرها. فكان طغرل شاه كما قيل: « خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين»؛ وكان هذا قد عاهد جلال الدين على أنه يملكه بعض بلاد كيقباذ، فأخذ ما بيده . واستمر كيقباذ في الملك إلى أن توفي، وكانت وفاته في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو ابن الملك علاء الدين كيقباذ غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان يبغو ابن سلجق، وهو الحادي عشر من الملوك السلجقية ، بالروم

ملك المملكة الرومية بعد وفاة أبيه الملك كيقباذ في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وجلس على تخت السلطنة بمدينة قونية وراسله الملوك في

الموافقة، وهي السنة التي وصل التتار فيها إلى الروم، وفي سنة خمس وثلاثين أرسل غياث الدين إلى والدة الملك العزيز يخطب بنت ابنها العزيز لنفسه، وأن يتزوج الملك الناصر صاحب حلب أخت السلطان غياث الدين، فاستقر بينهما الأمر، وعقد عقد السلطان على غازية خاتون ابنة الملك العزيز على خمسين ألف دينار، ووصل الصاحب كمال الدين ابن العديم من حلب إلى السلطان. فزوج أخته من الملك الناصر على نظير هذا الصداق. فحصل الاتفاق بينهما ، ثم أرسل السلطان غياث الدين إلى حلب يطلب أن تقام له الخطبة بها وتضرب السكة باسمه، فتوقفت الصاحبة والدة العزيز في ذلك، فأشير عليها بالموافقة فأجابت إلى ذلك، وخطب له بحلب. وفي سنة إحدى وأربعين وستمائة، دخل بيجو مقدم التتار إلى بلاد الروم، والتقى هو والسلطان غياث الدين فكسرهم كيخسرو، ثم عاودوا القتال فهزموه، وقتل جماعة من أصحابه، والتجأ إلى بعض المعاقل؛ ثم حصلت المهادنة على أتاوة يؤديها غياث الدين للتتار في كل سنة.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة وصل التتار. إلى بلاد الروم صحبة جرماغون وبيجو من قبل منكوقان الملك، فخرج السلطان غياث الدين لقتالهم بجميع عساكره، واستصحب حريمه ليقاتل قتال الحريم. واستشار أصحابه فيما يفعل، فكان منهم من هول عليه أمر التتار وكان غياث الدين قد زوجه والده بكرجي خاتون ابنة ملك الكرج، فلما أفضت السلطنة إليه جعل أخاها مقدما على الجيش، وكان نصرانيا، لم ينتقل عن ملته، فكرهه الأمراء وكرهوا السلطان بسببه. فلما كان في هذا الوقت قال للسلطان غياث الدين: « ضم إلي من في عسكرك من الكرج والفرنج، وأنا ألقى التتار بهم».فغاظ الأمراء كلامه، وتقدم أحد أعيانهم فحلف أنه لابد أن يلقى التتار بنفسه، ومن صحبه، وركب في نحو عشرين ألف فارس، وتقدم إلى التتار وهم بصحراء اقشهر زنجان ، وكان غياث الدين على الجبل الأقرع واسمه كوه داغ، وهو مشرف على الوطأة

التي نزل بها التتار. وسار الأمير فيمن معه، وتبعه السلطان ببقية الجيش فوجد المقدم أمامه واد قطعه السيل، فلم يستطع قطعه إلى جهة التتار . فسار مع لحف الجبل، يطلب طريقا يمكنه التوصل منه إلى التتار. فركب التتار وقصدوه ودنوا منه وراسلوه بالسهام، فأهلكوا أكثر الخيل التي معه، فكان السهم لايقع إلا في فرس أو فارس، فتفرقوا عند ذلك، وطلبوا النجاة لأنفسهم، وعاد السلطان غياث الدين إلى المخيم، وجهز حريمه إلى قونية، وهي دار المملكة، ومسافتها من المكان الذي هو فيه نحو شهر، فسرن صحبة أمير، ولم يحملن معهن إلا ما خف، ورجع السلطان وترك الوطاق والدهاليز والخيام منصوبة، وبها الأثقال والخزائن والذخائر. وأقام التتار ثلاثة أيام لم يقدموا على دخول الوطاق ظنا منهم أنها مكيدة، ثم عبروا الوطاق واستولواعلى ما فيه، ورجعوا.

وتوفي غياث الدين في هذه السنة، وخلف ثلاثة أولاد: عز الدين كيكاوس، وركن الدين قلج أرسلان،وعلاء الدين كيقباذ.

ذكر أحوال أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو بعد وفاة أبيهم

قال: لما توفي غياث الدين استقر أولاده الثلاثة في السلطنة، ولم ينفرد بها أحد عن الآخر، وضربت السكة باسمهم جميعا، وخطب لهم وكان والدهم قد جعل ولاية العهد لولده علاء الدين كيقباذ بن كرجي خاتون، فاتفقوا على أن يتوجه إلى منكوقان يطلب منه الصلح والهدنة ، ويقر له أتاوة. هذا بعد أن استولى بيجو على قيسارية وأعمالها وما حولها، وصار بيده من المملكة الرومية مسافة شهر.

قال: فتوجه علاء الدين كيقباذ إلى منكوقان ملك التتار ومعه الهدايا والتحف، وذلك في سنة خمس وخمسين وستمائة. وقصد الأردو ومعه

الأمير سيف الدين طرنطاي، وهو من أكابر الأمراء وشجاع الدين ملك السواحل. وأقام أخواه بقونية فاختلفت آراؤهما وآل أمرهما إلى القتال. فانتصر عز الدين كيكاوس واستقر بقونية بمفرده، واعتقل ركن الدين قلج أرسلان، كل ذلك وبيجو بالروم قال: ولما اعتقل قلج أرسلان، ضاق أصحابه ومنهم الصاحب شمس الدين الطغرائي، والأمير سيف الدين جاليش وغيرهم، ففكروا فيما يفعلون فزوروا كتابا عن السلطان عز الدين كيكاوس إلى سيف الدين طرنطاي ورفيقه، أن يسلما إليهم السلطان علاء الدين كيقباذ، وما معهما من الهدايا والتحف، ليتوجه الصاحب بذلك إلى منكوقان، ويعود طرنطاي ورفيقه إلى قونية. وساورا بهذه الكتب الموضوعة في إثر السلطان كيقباذ، فلحقوه وقد وصل إلى أردوباطو فدخلوا على باطو وقالوا: « إن السلطان عز الدين كان قد أرسل أخاه ليتوجه إلى القان وأرسل معه هذين ـ يعنون طرنطاي ورفيقه. ثم اتضح له أنهما قد أضمرا السوء، وأن طرنطاي ضربته صاعقة فيما مضى من الزمان، فلا يصلح أن يدخل بين يدي القان. ورفيقه شجاع الدين طبيب ساحر، وقد أخذ صحبته شيئا من السم القاتل ليغتال به منكوقان، فأرسلنا عوضا عنهما وأمرنا بردهما» فلما سمع باطو ما قاله الصاحب، أمر بإحضار طرنطاي ورفيقه وفتش ما معهما من القماش والأصناف، فكان فيه براني أشربة وعقاقير، من جملتها السقمونيا، فأمره أن يأكل من ذلك فأكل وامتنع من السقمونيا. فظنها باطوسما، واستدعى الأطبّاء فقالوا إنها من الأدوية، وآخر الأمر أن باطو خير الصاحب ورفقته بين أن يستصحبوا الهدايا إلى القان، ويكون السلطان صحبة طرنطاي ورفيقه أو العكس. فاختار الصاحب أن يكون السلطان معه والهدايا مع طرنطاي، وافترقا على ذلك. وتوجه السلطان كيقباذ والصاحب إلى القان،وتوجه طرنطاي ورفيقه بالهدايا إليه، وافترقوا في الطريق، فكل قصد جهة، واتفقت وفاة السلطان في طريقه، وجرت لهم خطوب يطول شرحها، آخرها انهم وصلوا إلى القان بالأردو وتنافسوا

الـرياسـة في مجلسه، ثـم اتفق الحال أن تكـون مملكة الـروم مقسومـة بين الأخـوين، فجعـل لعـز الديـن كيكاوس مـن نهر سيـواس إلى حد بـلاد اشكري، ولركـن الدين قلج أرسلان مـن نهر سيواس إلى تخوم أرزن الروم من الجهة الشماليـة المتصلة ببلاد التتار. واستقـر عليهما اتاوة يحملونها إلى الأردو، وعاد الصـاحب شمس الديـن وطرنطاي ورفقتهما مـن عنده ، فلما وصلوا إلى الروم حتـى دخلة التتار، وكان بينهم وبين السلطان عـز الدين ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار.

قال: ووصل الصاحب ورفقته إلى الروم

في سنة سبـع وخمسين وستمائة، واستقرت القسمة بين الأخويـن على ما قـرره منكوقـان، وانفـرد كل منهما بما استقـر له، وانضـم إليـه جماعة مـن الأمراء . ثم قـدم هولاكو وملك بغـداد، فاستدعاهما فسـارا إليه، وحضرا معه أخذ حلـب، ثم عادا إلى بـلادهما على القسمة التي قسمها منكـوقان، فلما كـان في سنة ستين وستمائة بعـث هولاكـو يستـدعي شمـس الديـن بوتاش نائب السلطان عز الدين، فـأرسله إليه فوصل إلى أرزنكان صحبة رسل هـولاكو. فوافـق وصولهم إليها عنـد غطاس النصارى، فخرجوا إلى الفـرات بجمع كثير، ومعهـم الجاثليق وقـد رفعوا الصلبـان على الرمـاح، وأعلنوا بالنواقيس والصياح، فأنكـر عليهم شمس الدين، وقصد منعهم، فمنعه رسل هولاكـو، وقالوا: « هذه بلاد السلطان ركـن الدين فلا يحدث فيها» ، وسـألوا الجاثليق: « كيـف كان عـادتكم في أيام السلطـان غياث الـدين؟» فقـال:« كنا نحمـل له ثـلاثـة آلاف درهم، ونعمـل ما نختـار» فأخذوا منه ثلاثة آلاف درهـم ومكنوه من عمل العيد كما أراد، فلما جرت هذه المفاوضـة بين رسل هولاكو وشمـس الدين ، عاد مغضبـا ورجع إلى السلطان عـز الديـن، وحمله على المخـالفة والعصيـان، فوافقـه على ذلك واستولى على أكثر بـلاد أخيه ركن الدين. فتـوجه ركن الديـن إلى هولاكو واستنصر به، فبعـث معه تومـانا [٢] من التتـار، فكسرهم عز الديـن، ثم

استمدوا هولاكو، فأمدهم بتومان آخر، فهرب عز الدين وفارق البلاد ودخل إلى الأشكري بالقسطنطينية، وصحبته أخواله، وهما على دين النصرانية، وثلاثة نفر من أمرائه. واستولى ركن الدين على جميع البلاد واستقل بملكها.

وأما عز الدين فإنه لما وصل إلى الأشكري أكرمه وأحسن إليه،فأقام عنده إلى سنة اثنتين وستين وستمائة، فقصد الأمراء الذين كانوا معه وهم عز الدين أمير آخر، وعلي بعادر، وأمير مجلس، أن يثبوا على الأشكري فيقتلوه، وأعلموا صاحبهم عز الدين بذلك. وقالوا له: « اكتمه عن خاليك» فلم يكتمه عنهما، وأعلمهما به، وأمرهما أن يعرفا الأشكري بذلك، وأنه لايركب في اليوم الذي قصد الأمراء الفتك به فيه. فعرفاه، فقبض على الأمراء وكحلهم، وقبض على السلطان عز الدين واعتقله بقلعة من القلاع الغربية، فأقام بها إلى سنة ثمان وستين وستمائة. وجمع الأشكري أصحاب الأمراء وأتباعهم، وعرض عليهم الدخول في دينه. فمن وافق تركه ومن أبى كحله. فمنهم من وافق وتنصر، ومنهم من امتنع فكحل، وعرض على رجل منهم أن يتنصر فصاح وقال: « الجنة معدة للإسلام، والنار معدة لكم» فقال: هذا رجل ثابت على دينه وأطلقه، وكتب له ورقة للطريق.

وفي سنة ثمان وستين وستمائة خلص السلطان عز الدين وأهله من الاعتقال، وسبب ذلك أن منكوتمر بن طغان جهز عسكراً إلى اسطنبول، فأغاروا عليها، وأخذوا عز الدين من القلعة التي كان بها، وأحضروه إلى منكوتمر ، فأكرمه وأحسن إليه وأقام ببلاد قرم، وتزوج بها، واستمر إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين وستمائة.

ذكر قتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين كيخسرو

وفي سنة ست وستين وستمائة دبر البرواناه على السلطان ركن الدين، واتفق مع التتار الذين عنده على قتله ليتمكن من البلاد. فعمل وليمة واجتمع فيها التتار، واستدعوا السلطان فحضر إليهم وأكل وشرب، فقاموا إليه وخنقوه بوتر، فمات ، واستقر في الملك بعده ولده السلطان غياث الدين كيخسرو، وله من العمر أربع سنين، واستولى البرواناه على الحكم في المملكة الرومية، والله أعلم.

ذكر خبر البرواناه معين الدين سليمان وأصله وتنقله

أما أصله فمن الديلم. وكان والده مهذب الدين علي، حضر وهو شاب في أيام السلطان علاء الدين كيقباذ إلى سعد الدين المستوفي بالروم، وهو إذ ذاك نافذ الحكم، فسأله أن يجري عليه جاريا في بعض المدارس، يكون درهما في اليوم، يقتات به. وكان شابا جميلا وسيما من طلبة العلم، فمال إليه المستوفي فقال: أريد أن أتخذك ولدا، وأخذه وقربه وأدناه وأحسن إليه، وزوجه بابنته ثم اتفقت وفاة المستوفي ، فوصف مهذب الدين للسلطان علاء الدين بالكفاية والمعرفة والفضيلة، فقربه منه ، وترشح للوزارة واستوزره وألقى إليه مقاليد الدولة، ورزق مهذب الدين ولده معين الدين سليمان المسمى بالبرواناه.

وتقدم معين الدين في الدولة السلجقية إلى أن استولى على الحل والعقد، ولم يكن للسلطان غياث الدين كيخسرو هذا معه في السلطنة غير الاسم.ومعين الدين هذا هو والد الأمير علاء الدين علي بن البرواناه، أحد أمراء الدولة الناصرية[٣]. وولي القاهرة، ثم ولي نيابة دار العدل الشريف، وتقدم على الجيوش، قال: واستمر غياث الدين

كيخسرو في اسم السلطنة بالروم إلى أيام السلطان أحمد في سنة إحدى وثمانين وستمائة، فاستدعاه إلى الأردو، وعزله عن السلطنة ، ورسم له بالإقامة بأرزنكان، فأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين وستمائة. فدس عليه أرغون بن أبغا من خنقه بوترفمات ولما عزل غياث الدين فوض السلطان أحمد السلطنة في الروم إلى السلطان مسعود ابن السلطان غياث الدين كيكاوس ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباذ ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان عز الدين قلج أرسلان ابن الملك مسعود ابن الملك قلج أرسلان ابن الملك سليمان ابن الملك شهاب الدولة قتلمش بن رسلان يبغو بن سلجق ملك المملكة الرومية، بعد عزل غياث الدين كيخسرو ابن ركن الدين قلج أرسلان في أيام السلطان أحمد في سنة إحدى وثمانين وستمائة، فاستمر وليس له من الأمر شيء إلا اسم السلطنة خاصة، والحكم في المملكة الرومية للتتار وشحانهم.

هذا آخر ما اتصل إلينا من أخبارهم إلى حين وضعنا هذا التأليف في سنة أربع عشرة وسبعمائة. فلنذكر أخبار الدولة الأتابكية، لأنها من فروع الدولة السلجقية، وبتمامها يتم هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الدولة الأتابكية

وهذه الدولة من فروع الدولة السلجقية، كان ابتداؤها أولا بحلب في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم انقطعت بقتل أقسنقر مدة ثم قامت بالموصل وحلب والشام وبمصر خطبة ، وقاعدة هذه الدولة وعمادها المشار إليه من ملوكها نور الدين محمود بن زنكي. ونحن نذكر أصل هذا البيت الأتابكي وننقله إلى أن ملك نور الدين الشهيد، وما انتهى إليه حال هذه الدولة إلى حين انقراضها، فنقول : أصل البيت الأتابكي اقسنقر التركي.

ذكر أخبار قسيم الدولة أقسنقر التركي

كان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدولة ملكشاه السلجقي، وتربى معه من صغره وهو من أترابه، واستمر في صحبته حتى أفضت إليه السلطنة، فكان من أعيان أمرائه، واعتمد عليه في مهماته وزاد في علو مرتبته، فصار الوزير نظام الملك مع عظم شأنه وجلالة قدره، يتقيه ويداريه. ومما يدل على مكانته وعلو شأنه كونه لقب قسيم الدولة، مع صون الألقاب والمشاحة فيها في ذلك الوقت.

ولما ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب كما ذكرناه في أخباره سلمها لقسيم الدولة في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة ثمانين، فعمرها وأحسن السيرة فيها فمال الناس إليه وأحبوه، ثم تسلم من الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر: اللاذقية، وأفامية، وكفر طاب، فأشار الوزير نظام الملك على السلطان ملكشاه أن يسلم ذلك إلى قسيم الدولة مع حماه ومنبج، فأقطعه السلطان جميع ذلك، فعظمت هيبته، وظهرت كفايته، وقمع أهل الفساد والبغي. ثم استدعاه السلطان إلى العراق فقدم متجملا بعسكر عظيم، فاستحسن ذلك منه وعظمه

وأعاده إلى أعماله. وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة قصد أقسنقر شيزر ونهبها وعاد إلى حلب. وفي سنة ثلاث وثمانين حاصر مدينة حمص وملكها، فسار صاحبها ابن ملاعب إلى الديار المصرية.

وفي سنة أربع وثمانين ملك حصن أفامية والرحبة، واستمر قسيم الدولة كذلك إلى أن مات السلطان ملكشاه في سنة خمس وثمانين، فجهز عند ذلك جيشا إلى تكريت فملكها، واتفق أن تاج الدولة تتش صاحب دمشق طمع بعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه في السلطنة، فسار من دمشق إلى حلب، فلم يمكن قسيم الدولة إلا موافقته والدخول في طاعته. وكان من أمر تتش ما قدمناه في أخباره، وفارقه قسيم الدولة والتحق بالسلطان بركياروق ولد صاحبه السلطان ملك شاه كما قدمنا ذكر ذلك مبينا.

ذكر قتل قسيم الدولة

قال: ولما فارق قسيم الدولة تتش واستمر في خدمة السلطان بركياروق وعاد تتش إلى الشام، أمر بركياروق قسيم الدولة وبوزان صاحب حران بالعود إلى بلادهما ليمنعا تتش من التغلب عليها، فعادا، وجمع تتش العساكر وسار نحوحلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدهما السلطان بركياروق بالأمير كربوقا صاحب الموصل ، فالتقوا مع تتش بالقرب من تل السلطان على ستة فراسخ من مدينة حلب. فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا، فقتله تتش صبرا، ودخل بوزان وكربوقا حلب، فحصرهما تاج الدولة تتش وفتحها وأخذهما، فقتل بوزان واعتقل كربوقا، فلم يزل إلى أن خلص في أيام الملك رضوان بعد قتل تتش. وكان مقتل قسيم الدولة في سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وكان رحمه الله حسن السيرة والسياسة كثير الإحسان إلى رعيته فكانوا في أيامه بين عدل غامر ورخص شامل وأمن واسع ، رحمه الله تعالى.

-١٠٣٩٧-

ذكر أخبار عماد الدين أتابك زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر

قال المؤرخون: لما قتل قسيم الدولة كان عمر ولده زنكي نحو عشر سنين، ولم يخلف من الذرية غيره، فاجتمع مماليك والده عليه وأصحابه. فلما خلص قوام الدين كربوقا من السجن، بعد قتل تتش في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وملك حران ونصيبين والموصل وماردين، وعظم شأنه وهو في طاعة السلطان بركياروق، أحضر مماليك قسيم الدولة، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي، وأنا أولى الناس بتربيته، فأحضروه إليه، وأقطعهم كربوقا الإقطاعات السنية واستعان بهم في حروبه، وسار بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، والتقوا فهزمهم كربوقا. وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده. ولم يزل عند كربوقا إلى أن توفي في سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وملك بعده موسى التركماني، فقتل ولم تطل مدته. ثم ملك الموصل شمس الدولة جكرمش، وهو من مماليك السلطان ملكشاه، فاتخذ عماد الدين زنكي كالولد، فكان عنده إلى أن قتل في سنة خمسمائة. ثم ملك الموصل بعده جاولي سقاوا، فاتصل به عماد الدين، وقد كبر وظهرت شهامته. ولم يزل معه حتى عصى على السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فأرسل السلطان الأمير مودود إلى الموصل، في سنة اثنتين وخمسمائة، وأقطعه إياها، ففارقه عماد الدين وغيره من الأمراء، والتحقوا بمودود، فأكرم زنكي وشهد حروبه،ثم سار مودود إلى الشام ففتح في طريقه قلاعا كانت للفرنج، ثم حضر عند أتابك طغدكين صاحب دمشق وسار إلى طبرية وحاصرها، وقاتلوا قتالا شديدا، فظهر من عماد الدين زنكي شجاعة عظيمة، منها أنه كان في نفر وخرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه فهزمهم، واستمر في حملته وهو يظن أن أصحابه يتبعونه، فتخلفوا عنه، وتقدم وحده إلى أن وصل إلى باب المدينة، وأثر رمحه فيه. وقاتل الفرنج عليه وحمى نفسه، وعاد سالما، فعجب الناس من

إقدامه وسلامته. ثم عاد إلى دمشق صحبة الأمير مودود، فخرج مودود لصلاة الجمعة، فلما صلى وانصرف، فبينما هو في صحن الجامع ويده بيد طغدكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين، فحمل إلى بيت طغدكين فمات في بقية يومه، وكان صائما ولم يفطر، وقتل قاتله، قال: ولما قتل كتب ملك الفرنج إلى طغدكين يقول:

« إن أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، حقيق على الله أن يبيدها»، ثم أقطع السلطان الموصل وغيرها بعد قتل مودود للأمير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود، كما ذكرناه، ثم جهز السلطان أقسنقر البرسقي في العساكر لقتال الفرنج، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم زنكي الشامي، فسار أقسنقر إلى الرها وإلى سميساط وبلد سروج،وقاتل الفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف بلاء حسنا، فعادت العساكر تتحدث بها فعله، وعاد البرسقي وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود، والأمير جيوش بك، إلى أن أظهر العصيان على السلطان في سنة أربع عشرة وخمسمائة، ثم استأمن الملك مسعود لأخيه السلطان على ما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة السلجقية.

ذكر ابتداء حال عماد الدين زنكي وترقيه وتنقله في الولايات

كان ابتداء ولايته في سنة ست عشرة وخمسمائة، وذلك أن السلطان محمود أقطع الأمير أقسنقر البرسقي مدينة واسط وأعمالها، مضافا إلى ما بيده من ولاية الموصل وشحنكية العراق وغير ذلك، فسير البرسقي إليها عماد الدين زنكي وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان وقام بحمايتها أحسن قيام، وحضر مع الخليفة المسترشد بالله قتال دبيس بن صدقة

أمير الحلة. وكان لعماد الدين في ذلك آثار حسنة ، وأقام إلى أن عزل أقسنقر البرسقي عن شحنكية العراق، ورجع إلى الموصل في سنة ثماني عشرة وخمسمائة. وكان عماد الدين إذ ذاك بالبصرة قد سيره البرسقي لحمايتها ، فلما توجه البرسقي إلى الموصل أرسل إليه يأمره باللحاق به، فقال لأصحابه: « قد ضجرنا مما نحن فيه بالموصل، في كل يوم أمير جديد، ونحتاج نخدمه، وقد رأيت أن أسير إلى السلطان محمود فأكون معه»؛ فأشاروا عليه بذلك. فسار إلى السلطان فقدم عليه وهو بأصفهان، فأكرمه. وكان يقف عن يمين تخت السلطان إلى جانبه لايتقدم عليه غيره، وهي منزلة والده من قبله. ثم بلغ السلطان أن العرب تجمعت ونهبت البصرة ، فأقطعها لعماد الدين زنكي، وأعاده إليها، وهذه الولاية هي أول ولاياته من قبل السلطان، فضبط عماد الدين زنكي البصرة وأعمالها وقام فيها أحسن قيام، وكف الأيدي عنها.

فلما وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله، وحضر السلطان إلى بغداد وحصرها كما قدمنا ذكر ذلك، أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسط يأمره بالحضور بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب، ففعل ذلك وجاء في موكب عظيم في البر والبحر، فركب السلطان للقائه، ورأى الناس من ذلك ما هالهم، وعظم عماد الدين في أعينهم. ثم حصل الاتفاق بعد ذلك بين السلطان والخليفة كما ذكرنا.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي شحنكية العراق

وفي شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة أسند السلطان محمود شحنكية العراق إلى الأمير عماد الدين زنكي، وسبب ذلك أن السلطان لما عزم على المسير عن بغداد إلى همذان، نظر فيمن يصلح لشحنكية العراق ممن يأمن جانبه مع الخليفة، واعتبر أعيان دولته، فلم ير فيهم من يقوم بأعباء هذا الأمر مقامه، فاستشار أصحابه في ذلك

فكل أشار عليه به وقالوا: « لايقدر على سد هذا الخرق ، وإعادة ناموس هذه الولاية، ولاتقوى نفس أحـد على ركوب هذا الخطر، غير عماد الدين زنكـي، ففوض إليـه ولايتها، مضـافا إلى مـا بيـده من الإقطـاع، وكانـت شحنكيـة العراق مـن أعظم الـولايات، وسـار السلطان عـن بغداد وقـد اطمأن من جهة العراق، ولم يطل مقام زنكي ببغداد حتى انتقل إلى ولاية الموصل.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها

كـانـت ولايـة عماد الـديـن زنكـي الموصـل وأعمالها في سنـة إحـدى وعشريـن وخمسمائة. وسبـب ذلـك أن أقسنقـر البرسقـي لما قتـل على مـا ذكـرنـاه، وولي بعـده ابنـه مسعـود في ثـامـن ذي القعـدة سنـة عشريـن وخمسمائة، فمات مسعـود في سنة إحـدى وعشرين، وهـو يحاصر الرحبـة. فلما مات قـام بعده أخ له صغير، واستـولى على البلاد جاولي مملـوك أبيه، ودبر أمـر الصبي، وأرسل إلى السلطـان يطلب تقريـر أعمال الموصل على الصغير ولـد أقسنقـر البرسقـي، وبذل الأمـول الكثيرة على ذلـك، وكـان الـرسـول في ذلك القـاضي بهاء الـديـن علي بـن القاسـم الشهـر زوري، وصلاح الدين محمد الياغسيـاني أمير حاجب البرسقي،فسارا حتى حضرا دركـاة السلطان ليخـاطبـاه في ذلك، وكـانـا يكرهـان جـاولي ويخافانـه، ولايرضيـان بطاعته، فاجتمـع صلاح الديـن مع نصير الدين جقـر الذي صار ينـوب عن عماد الـدين، فـذكر له صـلاح الديـن ماورد فيـه، وكان بينهما صهارة. فخوفـه نصير الدين من جـاولي، وقبح عنده طاعتـه، وقرر في نفسه أن جـاولي إنما أبقاه لحاجتـه إليه، وأنه متـى أجيب إلى مطلـوبه لايبقـي على أحـد منهـم، وحسـن لـه المخـاطبـة في ولايـة عماد الـديـن زنكـي،وضمن له الـولايات والإقطـاعات الكبيرة، وكـذلك للقـاضي بهاء الديـن، فقامـا وركبا إلى دار الـوزير شرف الـدين أنـو شروان بن خـالد، واجتمعا به وقـالا لـه:« قد علمت وعلم السلطان أن ديـار الجزيرة والشام

قد تمكن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها، واستولوا على أكثرها. وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية للمسلمين. وكان البرسقي بشجاعته وانقياد العساكر إليه، يكف بعض عاديتهم وشرهم، وقد زاد طمعهم منذ قتل، وولده هذا طفل صغير، ولابد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة، يذب عنها، ويحمي حوزتها. وقد أنهينا الحال لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فيختص اللوم بنا ويقال لم لا أنهيتم إلينا جلية الحال»، فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فاستحسنه وشكرهما عليه، وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه تقربا إلى خزانة السلطان مالا جليلا، فأجاب السلطان إلى ولايته، فأحضره وولاه جميع تلك البلاد، وكتب منشوره بها ، وسار عماد الدين زنكي إليها فبدأ بالبوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره، لأنه خاف من جاولي أنه ربما يصده عن البلاد، ثم سار عن البوازيج إلى الموصل، فلما سمع جاولي بقربه خرج إلى لقائه ومعه سائر العسكر، وترجل عند مقابلته، وقبل الأرض بين يديه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فدخلها في شهر رمضان من السنة، وأقطع جاولي الرحبة وسيره إليها، وولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وجعل إليه سائر دزدارية القلاع، وجعل صلاح الدين محمد أمير حاجب ، وبهاء الدين علي الشهرزوري قاضي القضاة بجميع بلاده، وزاده إقطاعا وأملاكا، وكان لايصدر إلا عن رأيه.

فلما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمر وبها مماليك البرسقي، فامتنعوا عليه فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة على التسليم، فلما لم يجيبوا إلى ذلك جد في قتالهم وكان بينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس بإلقاء أنفسهم في الماء، ففعلوا وعبروا سباحة وعبر بعضهم في السفن والأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة. وكانوا قد خرجوا إلى أرض بين الجزيرة ودجلة، تعرف بالزلاقة، ليمنعوا عسكر عماد

الديـن، فلما رأوه قد عبر دجلـة انهزموا ودخلـوا البلد، وأرسلـوا في طلب الأمان، فـأمنهم ودخـل البلد بعسكـره. ثم زادت دجلـة في تلك الليلـة زيادة عظيمة لحقـت سور البلد ،وصارت الـزلاقة مملوءة بالماء، فلـو أقام بها عماد الـدين تلـك الليلة هلـك هـو وعسكره، ولم يسلـم منهم أحـد، فأيقن الناس بسعادته.

ثـم سار عـن الجزيرة إلى نصيبين، وكـانت لحسـام الديـن تمرتاش بـن إيلغازي صاحب ماردين، فلما نازلها سـار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الـدولة داود بـن سقمان بن أرتـق صاحـب حصن كيفـا فاستنجـده على أتـابك زنكـي، فوعـده النجدة بنفسـه وجميع عسكـره. وعاد تمرتـاش إلى مـاردين، وأرسـل رقعـة على جناح طـائر إلى نصيبين، يعـرف من بها مـن العسكر أنه وابن عمه واصلان إليهم بالعسكر الكثير لدفع زنكي عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام. فبينما أتابك زنكي في خيمته وإذا بطائر سقط على الخيمة وهو ينظـر إليه، فأمر بمسكه فمسك، فـرأى فيه الرقعة فقرأهـا، وأمر بكتـب غيرها يقـول: « إنني مضيـت إلى ركن الـدولة وقـد وعدني النصرة بجميع العساكـر وما نتأخر عن الوصـول أكثر من عشرين يوما» وأمرهـم بحفظ البلـد هذه المدة، إلى أن يصلوا وجعلها على الطائر، وأرسلـه. فوصـل إلى نصيبين فلما قـرأ من بها الـرقعـة، سقط في أيـديهم، وعلموا عجزهـم عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلـوا إلى زنكي وصالحوه وسلموا إليه البلد، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزما عليه.

ولما ملـك نصيبين سـار عنهـا إلى سنجـار، فامتنـع مـن بها عليـه ثـم صالحوه وسلموهـا إليه، وسير منها الشحن إلى الخابور فملكـه جميعه، ثم سـار إلى حـران وهـي للمسلمين. وكـانـت الـرهـا وسروج والبيرة وتلـك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حـران معهم في ضر عظيم، وضيق شديد، لخلو تلك البـلاد من حامي يـذب عنها. فلما قاربها خرج أهـل البلد إلى لقائه، وسلموهـا إليه ، فأرسـل إلى جـوسلين صاحب الرهـا، وتلك البلاد

وهادنه مدة يسيرة،وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد، ويحشد، ويملك حلب والشام، ثم يقاتل الفرنج.

ذكر ملك عماد الدين حلب

وفي المحرم سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ملك عماد الدين زنكي حلب وقلعتها. وسبب ذلك أنها كانت بيد تومان نيابة عن عز الدين مسعود بن آقسنقر البرسقي. ثم استناب بعده قتلغ فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها . ثم ثار به أهل المدينة وسلموها إلى سليمان بن عبد الجبار. فسير عماد الدين إليها الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش في عسكر قوي، ومعهما التوقيع من السلطان لعماد الدين بالموصل والجزيرة والشام. فوصلا إلى حلب وسيرا قتلغ وابن عبد الجبار إلى عماد الدين بالموصل، فسارا إليه وأقام حسن قراقوش بحلب واليا عليها. فلما وصل بدر الدولة ابن عبد الجبار وقتلغ إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يردهما إلى حلب، وسير حاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني في عسكر إلى حلب، فصعد إلى قلعتها ورتب الأمور، وجعل فيها واليا، وسار عماد الدين إلى الشام في جيوشه، فملك في طريقه مدينة منبج وبزاعة، ووصل إلى حلب، فتلقاه أهلها، فدخلها ورتب أحوالها، وجعل رئاستها لأبي الحسن علي بن عبد الرزاق.

ذكر ملكه مدينة حماه

وفي سنة ثلاث وعشرين ملك عماد الدين زنكي مدينة حماة. وسبب ذلك أنه أظهر أنه يريد جهاد الفرنج، وأرسل إليه تاج الملوك بوري بن أتابك طغدكين صاحب دمشق يستنجده، ويطلب منه معونته على جهاد الفرنج، وكانوا قد حصروا دمشق. فأجاب إلى ذلك وجرد تاج الملوك عسكرا من دمشق، وأرسل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماه يأمره بالنزول

إلى العسكر والمسير به إلى زنكي، ففعل وساروا جميعهم فوصلوا إليه، فأكرمهم وأحسن لقاءهم، وتركهم أياما، ثم قبض على سونج بن تاج الملوك، وعلى جماعة من الأمراء والمقدمين، وأنهب خيامهم وما فيها واعتقلهم بحلب. وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجند فاستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص. وكان صاحبها خيرخان بن قراجا في عسكر عماد الدين، وهو الذي أشار عليه بالقبض على تاج الملوك، فقبض عليه أيضا، ونزل على حمص، وطلب منه أن يأمر أصحابه وولده بحمص بتسليمها، فأرسل إليهم فلم يفعلوا، فحصرها مدة طويلة، ثم رحل عنها وعاد إلى الموصل.

ذكر ملكه حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

قال: ولما فرغ عماد الدين من أمر البلاد الشامية ، رجع إلى الموصل فأراح واستراح، وأمر أصحابه بالاستعداد فاستعدوا، ورجع إلى حلب وعزم على قصد حصن الأثارب، وهو فيما بين حلب وأنطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان من به من الفرنج يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى رحى لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. فلما علم الفرنج بقصده جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وساروا نحوه، فتقدم إليهم والتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وأسر كثير من فرسانهم، وقتل كثير، وتقدم إلى الحصن فنازله وفتحه عنوة، وعم من فيه بالقتل والأسر وأخربه، وجعله دكا، ثم سار إلى قلعة حارم وهي بالقرب من أنطاكية فحصرها، فبذل الفرنج نصف دخل بلد حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد اشتد أزر المسلمين وصار قصار الفرنج حفظ ما بأيديهم، وذلك في سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ولما عاد إلى ديار الجزيرة ملك سروج ودارا وهما مـن أعمال ركن الدولة صاحب حصن كيفا.

وفي سنة سـت وعشرين سـار عماد الديـن بالعسـاكر مـن الموصل إلى العراق لنصرة السلطـان مسعود بعد وفـاة السلطان محمود، وكـان مسعود قد كـاتبه واستنجـد به، فسـار إليه ومعـه الأمير دبيس بـن صدقـة فسار حتى نـزل إلى البادية ، وخـرج الخليفة المسترشد بـالله لحربه ـ وذلك في سابـع عشرين شهـر رجب من السنـة ـ والتقوا واقتتلـوا قتالا شـديدا، فحمل عماد الـدين على ميمنـة الخليفة وبها جمال الـدولة إقبـال فهزمهـا، فحمـل الخليفـة بنفسه واشتـد القتـال فـانهزم دبيس، وأراد عماد الـديـن الصبر فرأى الناس قد تفرقوا عنه فانهزم، وقتل من العسكر جماعة.

ثم سـار المسترشد وحـاصر الموصل كما ذكـرناه في أخبـاره. وأن سبب ذلك أن الخليفة أرسل الشيـخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرائينـي الواعظ إلى عماد الدين برسـالة فيها خشونة، زادها الشيخ زيـادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليـه عماد الدين وأهـانه ولقيه بما يكـره، فسار الخليفـة في النصـف مـن شعبـان سنة سبـع وعشريـن ونـازل الموصـل ، ففـارقهـا زنكي ببعـض العسكـر، وتـرك بعضـه مـع نائبه نصير الـديـن جقردزدار القلعة. ووصـل عماد الدين إلى سنجار وقطـع الميرة عن عسكر الخليفة وتخطـف من ظفر بـه من العسكر. ودام الحصـار ثلاثة أشهـر، ثم رحل الخليفة عنها ولم يظفر منها بشيء.

وفي مدة الحصار ملك شمس الملوك إسماعيـل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماه.

ذكر حصره مدينة آمد وملكه قلعة الصور

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع عماد الدين أتابك زنكي وتمرتاش صاحب ماردين، وحصرا مدينة آمد. فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده، فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها، فالتقوا على بابها، واقتتلوا في جمادى الآخرة، فانهزم داود وقتل جماعة من عسكره. ولم يبلغ عماد الدين من آمد غرضا، فقصد قلعة الصور من ديار بكر، وحصرها وضايقها، فملكها في شهر رجب واتصل به ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي فاستوزره، وكان حسن السيرة عظيم الرئاسة والكفاية، والله أعلم.

ذكر ملكه قلاع الأكراد الحميدية

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة أيضا استولى على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما. وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الأمير عيسى الحميدي على ولايتها وأعمالها، فلما حضر المسترشد أمر عماد الدين بحصر قلاع الأكراد فحصرت مدة طويلة، وقوتل من بها إلى أن ملكت في هذه السنة، فاطمأن حينئذ أهل السواد المجاورين لهذه القلاع، لأنهم كانوا مع الأكراد في ضيق عظيم من نهب أموالهم.

وفيها صلح أمر زنكي مع الخليفة

ذكر حصره مدينة دمشق

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة نازل عماد الدين أتابك زنكي مدينة دمشق، وحصرها في جمادى الأولى، وكان سبب ذلك أن صاحبها شمس الملوك كان قد كتب إليه يستدعيه ليسلم إليه البلد، فسار إليها ، فقتل

شمس الملوك قبل وصوله، وملك أخوه شهاب الدين محمود كما ذكرناه، فاستمر في مسيره فحاصرها. فأتاه وهو في الحصار رسول الخليفة بالخلع، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق والرحيل عنها فصالحهم، وخطب له بدمشق ورحل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة استنصر الخليفة الراشد بالله بعماد الدين على السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، فجاء إليه هو وأصحاب الأطراف إلى بغداد، وكان بين الخليفة والسلطان ما ذكرناه من غلبة السلطان مسعود ومسير الخليفة إلى الموصل مع عماد الدين ، وقد شرحنا ذلك مبينا في أخبار الدولة العباسية ، فلا فائدة في إعادته، وإنما نبهنا عليه في هذا الموضع جريا على القاعدة.

ولما خلع الراشد وبويع للمقتفي لأمر الله ، أرسل إليه عماد الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، فحضر إلى الديوان، فأمر الخليفة أن يعطي أتابك زنكي: صريفين، ودرب هرون، وجَرّى، ملكا، وهي من خاص الخليفة.» فعظم بذلك شأنه ، وبايع للمقتفي لأمر الله، وخطب له بالموصل.

ذكر غزاة العسكر الأتابكي إلى بلاد الفرنج

وفي شعبان سنة ثلاثين وخمسمائة جهز عماد الدين أتابك زنكي عساكره مع الأمير سوار نائبه بحلب، فقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وساروا نحو جهة اللاذقية ، فنهبوا منها شيئا كثيرا، وقتلوا وأسروا سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، وغنموا مائة ألف رأس من الدواب، ما بين فرس وحمار وبقر وغنم، وغنموا غير ذلك من الأقمشة والعين والحلي ما لايدخل تحت الإحصاء، وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها، ورجعوا بالظفر والغنيمة ، والله أعلم.

-١٠٤٠٨-

ذكر ملكه قلعة بعرين وهزيمة الفرنج

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة حصر عماد الدين زنكي حمص، وهي لصاحب دمشق، فلم ينل منها غرضا. فرحل عنها إلى بعرين وهي للفرنج، فحاصرها في شوال، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، وزحف عليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا بملوكهم وقمامصتهم وكنودهم ليرحلوه عنها، فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية ، فاحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه، فحصرهم، فدخل القسوس والرهبان إلى بلاد الفرنج والروم وما ولاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين، وقالوا: إن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس، فاجتمعت ملوك النصرانية وصاروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام، وجدّ عماد الدين في الحصار، فقلت الأقوات عندهم، فسألوا الأمان على أن يتركهم يتوجهوا إلى بلادهم، فلم يجب إلى ذلك، إلى أن بلغه أن ملك الروم قد أقبل بجموع الفرنج والنصرانية ، فآمنهم على تسليم الحصن وخمسين ألف دينار. ففعلوا ذلك. فلما فارقوا الحصن بلغهم اجتماع الروم والفرنج بسببهم، فندموا على تسليمه، وفتح عماد الدين في مقامه : المعرة، وكفر طاب، من الفرنج.

ولما فتح المعرة حضر إليه أرباب الأملاك، وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتبها فاعتذروا أنها عدمت عندما ملكها الفرنج، فأمر بإحضار دفاتر الديوان بحلب، وكشف منها فمن وجد باسمه خراج فيها عن ملك سلمه إليه أو لعقبه إن كان قد مات، وأعاد الأملاك بهذه الطريق، وهذه غاية في الإحسان وفي تسهيل البر والخير ونهاية في العدل.

وفيها سار إلى دقوقا وملكها بعد قتال شديد.

ذكر ملكه مدينة حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفي المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل زنكي إلى حماة، وسار منها إلى بقاع بعلبك، فملك حصن المجدل، وسار إلى حمص وحصرها وملكها وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وكان لصاحب دمشق، وبعث إلى شهاب الدين محمود صاحب دمشق يخطب أمه زمرد خاتون ابنة جاولي، فتزوجها وحملت إليه.

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

كان ملك الروم صاحب القسطنطينية قد دخل إلى البلاد في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وخرج على أنطاكية وساز إلى أذنة والمصيصة، وهما بيد ابن لاون الأرمني صاحب الدروب فحصرها، وملكها ورحل إلى عين زربة،فملكها عنوة، وملك تل خمدون، وحمل أهله إلى جزيرة قبرص، وعمر ميناء اسكندرونة، ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة فصالحه صاحبها ريمند الفرنجي، فرحل عنها إلى بغراس ودخل ابن ليون في طاعته.

ثم سار إلى الشام في سنة اثنتين وثلاثين، وقصد بزاعة فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب، فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى، فتنصر قاضيها وجماعة من أهلها وأعيانها نحو من أربعمائة نفس. وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى، ودخنوا على من دخل المغاير، فهلكوا . ثم رحل إلى حلب ونزل على قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام، وكان عماد الدين يحاصر حمص، فلما بلغه خبرهم، سير طائفة من العسكر ليحفظوا حلب منهم، فلما نزلوا على حلب خرج إليهم أحداث البلد وقاتلوا قتالا

شديدا، فقتل كثير من الروم وجرح كثير، وقتل بطريق عظيم القدر عندهم. فأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من بها من المسلمين فهربوا عنها في تاسع شعبان، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى، ومعهم جمع كثير من الروم يحفظونهم، وساروا ، فلما سمع الأمير سوار نائب عماد الدين بحلب بذلك، سار بمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بالروم وقتلهم، وخلص الأسرى وعاد إلى حلب.

وأما عماد الدين فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية فنزلها، وعبر ثقلة الفرات إلى الرقة، وأقام جريدة. وقصد الروم شيزر، وهي من أمنع الحصون، وكانت للأمير أبي المعالي سلطان بن علي بن منقذ الكناني، فنازلوها وحاصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا فأرسل صاحبها إلى عماد الدين يستنجده، فسار إليه ونزل على نهر العاصي بينها وبين حماه، فكان يركب بعسكره إلى شيزر ويقفون حيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم، ثم أرسل إلى ملك الروم يقول: « إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها» ولم تكن له بهم قوة، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بقتاله وهونوا عليه أمره، فلم يفعل، وقال: « أتظنون أن ليس لهم من العسكر إلا ما ترون، إنما هو يريد أن تلقوه فيأتيه من نجدات المسلمين ما لا يحد»، وكان عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يقول : إن فرنج الشام خائفون منه، ولو فارق مكانه لتخلفوا عنه، ويرسل إلى الفرنج فيقول : « إن ملك ملك الروم من الشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعها»، فاستشعرت كل طائفة من الأخرى، فرحل ملك الروم من شيزر في شهر رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار كما هي ، فسار عماد الدين يتبع ساقه العسكر، فظفر بكثير منهم ممن تخلف.

-١٠٤١١-

ذكر ملك عماد الدين بعلبك

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ملك زنكي مدينة بعلبك وهي لصاحب دمشق، وسبب ذلك أن شهاب الدين محمود صاحب دمشق قتله غلمانه في هذه السنة كما ذكرنا، وملك بعده أخوه جمال الدين محمد، وكانت والدة محمود زوجة عماد الدين بحلب، فوجدت لذلك وجدا عظيما، وحزنت حزنا شديدا، وكتبت إلى أتابك زنكي وهو بالجزيرة تعرفه بالحادثة وتطلب أن يقصد دمشق ويطلب ثأر ولدها، فبادر إلى ذلك ولم يتوقف وعبر الفرات عازما على قصد دمشق، فبلغ ذلك صاحبها فاحتاط واستعد، وسار عماد الدين إلى بعلبك فوصل إليها في العشرين من ذي القعدة، وضيق على أهلها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقا ترمي ليلا ونهارا. فأشرف أهلها على الهلاك، فطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم المدينة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فلما أيسوا من نصرة معين الدين أتابك صاحب دمشق ـ وكانت بعلبك له ـ فطلبوا الأمان، فأمنهم وتسلم القلعة منهم، ثم غدر بهم وصلبهم ولم ينج منهم إلا القليل. فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وحذروه ونفروا منه.

قال: ولما فتح بعلبك كان لمعين الدين بها جارية، وكان يهواها، فأخذها زنكي وسيرها إلى حلب، فلم تزل بها إلى أن قتل زنكي، فسيرها نور الدين إلى معين الدين، فكانت أعظم أسباب المودة بينهما.

قال: ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ونزل على داريا، فقاتله أهل دمشق فكسرهم وتقدم إلى المصلى فقاتلوه مرة بعد أخرى. كل ذلك والظفر له عليهم، وأرسل إلى صاحب دمشق يبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد، فمال إلى تسليمها،فحذره أصحابه وخوفوه عاقبة غدره،

فامتنع من الإجابة فعاود عماد الدين القتال والزحف. واتفقت وفاة جمال الدين صاحب دمشق في ثامن شعبان، وولي بعده ابنه مجير الدين أبق، فاشتد طمع عماد الدين وزحف زحفا شديدا، فلما رأى أنر أن عماد الدين لايندفع عنهم، راسل الفرنج واستنصر بهم، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير لدفعه عن دمشق، فعلم عماد الدين بذلك فتوجه إلى حوران في خامس عشر رمضان عازما على لقاء الفرنج قبل أن يجتمعوا مع الدماشقة، فلما بلغ الفرنج خبره لم يتحركوا من بلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ونزل بعذرا شماليها في سادس شوال، وأحرق عدة من قرى المرج والغوطة، ورحل إلى بلاده.

ثم وصل الفرنج إلى دمشق، وكان معين الدين قد بذل لهم أنه يحاصر بانياس ويسلمها إليهم، وكانت في طاعة زنكي ، ففعل معين الدين ذلك وسلمها للفرنج. فلما بلغ عماد الدين ذلك رجع إلى بعلبك وفرق عساكره للإغارة على بلد حوران وأعمال دمشق. وسار جريدة ، فنزل على دمشق بخواصه في آخر الليل ، ولم يعلم به أحد من أهلها، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ارتج البلد، واجتمع العسكر والعامة على السور، وخرجوا إليه فقاتلوه، فلم يمكنه الإقدام على القتال لتفريق عساكره، فأحجم عنهم وعاد إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عود عسكره، فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم فلما اجتمعوا رحلوا إلى بلاده.

ذكر ملكه شهرزور وأعمالها

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ملك شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان حكمه نافذا على سائر التركمان، قاصيهم ودانيهم، وكلمته لاتخالف، يرون طاعته فرضا؛ وتحاماه الملوك ، وأتاه التركمان من كل فج عميق، فلما كان في هذه السنة سير أتابك عماد الدين عسكرا، فجمع قفجاق

أصحابه ولقيهم، واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره، وسار الجيش الأتابكي في أعقابهم فحصروا الحصون والقلاع وبذلوا الأمان لقفجاق فسار إليهم، وانخرط في سلك العسكر وسار في الخدمة هو وابنه من بعده.

وفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة كان بين أتابك زنكي وبين داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا حرب شديدة انهزم فيها داود ، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل.

وفيها خطب له بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي سار معه.

وفيها أغار العسكر الأتابكي من حلب على بلد الفرنج، فأخربوا ونهبوا وظفروا بسرية للفرنج، فقتلوا منهم وكان عدة من قتل سبعمائة رجل.

توفي ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي وزير عماد الدين أتابك زنكي، وكان رحمه الله حسن السيرة كريما رئيسا.

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلعة آشب وغيرها من بلاد الهكارية

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة أرسل عماد الدين جيشا إلى قلعة آشب ، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها، وبها أموالهم وأهلوهم، فحصرها الجيش الأتابكي وضيق على من بها وملكها، فأمر عماد الدين بهدمها، وبنى القلعة العمادية وكانت العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخربوه لكبره، لأنه كبير جدا، فعجزوا عن حفظه فخربت الآن آشب وعمرت العمادية، والعمادية نسبة إلى عماد الدين زنكي،

- ١٠٤١٤ -

وكان نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

ذكر صلحه والسلطان مسعود

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته، وجمع العساكر وتجهز لقصد بلاد زنكي، وكان قد حقد عليه واتهمه أنه أفسد عليه أصحاب الأطراف وحرضهم على الخروج على السلطان، فلما بلغ زنكي ذلك أرسل إلى السلطان يستعطفه ويستميله، وأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار، يحملها عماد الدين إلى السلطان ليعود عنه، فحمل منها عشرين ألف دينار أكثرها عروضا، ثم تنقلت الأحوال بالسلطان حتى احتاج إلى مداراة زنكي، فأطلق له ما بقي، ومن جيد الرأي ما فعله عماد الدين زنكي في هذه الحادثة ، فإن ولده الاكبر سيف الدين غازي كان لايزال عند السلطان - سفرا وحضرا - بأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل أن يمنع ابنه المذكور من الدخول . فلما هرب غازي أرسل يأمره بالعود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول: « إن ولدي هرب خوفا لما رأى تغير السلطان علي، وقد أعدته ، ولم أجتمع به فإنه مملوكك والبلاد لك» فوقع ذلك من السلطان بموقع عظيم، ومال إلى زنكي.

ذكر ملكه بعض ديار بكر

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة سار عماد الدين زنكي إلى ديار بكر، فملك بها عدة حصون منها مدينة طنزة ومدينة اسعرد ومدينة المعدن

التي يعمل بها النحاس، ومدينة حيزان وحصن الزوق، وحصن فطليس، وحصن باناسا وحصن ذي القرنين وغير ذلك. وأخذ من بلاد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون شبختان ورتب أمور الجميع وجعل فيها من يحفظها، وقصد مدينة آمد ، وحاني فحصرهما وأقام بتلك الناحية . وفيها سير عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها.

ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة مما هو بيد الفرنج

وفي سادس جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فتح عماد الدين أتابك زنكي مدينة الرها من حصون الفرنج الجزيرية، وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة ، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين، ورأس عين، ، والرقة وكانت مملكة الفرنج بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل : الرها، وسروج ، والبيرة. وسن ابن عطير، وجملين، والموزر والقرادي، وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين الفرنجي، وكان صاحب رأي الفرنج، والمقدم على عساكرهم، لما فيه من الشجاعة والمكر، وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج بها من يمنعها، ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم، فاطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية، فبلغ أتابك زنكي ذلك، فنادى في العسكر بالرحيل إلى الرها وجمع الأمراء عنده وقدم الطعام، وقال: « لايأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غدا في باب الرها.» فلم يتقدم غير أمير واحد وصبي لايعرف، لما يعلموا من إقدام زنكي وشجاعته، وأن أحدا لايقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي:« ما أنت في هذا المقام» فقال أتابك زنكي: « دعه فوالله إني أرى وجهه لايتخلف عني».

وسار والعسكر معه فوصل إلى الرها، فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج والصبي معه، وحمل فارس من الفرنج على زنكي عرضا فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلم زنكي. ونازل البلد وقاتل عليه ثمانية وعشرين يوما وملكه عنوة، وملك القلعة، ونهب الناس الأموال، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء.

فلما رأى عماد الدين البلد أعجبه، ورأى أن تخريب مثله لايجوز في السياسة، فنودي بالعسكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، ورد ما غنموه من أثاثهم وأمتعهم، فردوا ذلك وعاد البلد إلى حالته الأولى، وجعل فيه عسكراً يحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ، ما عدا البيرة لحصانتها.

وحكى ابن الأثير رحمه الله في تاريخه الكامل قال: حكى لي بعض العلماء بالأنساب والتواريخ، قال: كان صاحب صقلية قد أرسل سرية إلى طرابلس الغرب، وتلك الأعمال فنهبوا وقتلوا، وكان عند صاحب صقلية رجل مسلم كان يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان، حتى كان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب. ففي بعض الأيام كان جالسا في منظرة يشرف على البحر، وإذا بمركب لطيف قد أقبل وأخبر من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وظفروا وغنموا وقتلوا، وكان المسلم إلى جانبه، وقد أغفى فقال له الملك: « يافلان ألا تسمع إلى ما يقولون»؟ قال: « لا» قال: « إنهم يخبرون بكذا وكذا، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها؟» قال: « كان قد غاب عنهم وشهد فتح الرها، فقد فتحها المسلمون الآن» ، فضحك من هناك من الفرنج فقال الملك: « لاتضحكوا فما يقول والله إلا الحق»، فوصل بعد أيام الخبر من فرنج الشام بفتحها، قال ابن الأثير: وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانا صالحا رأى الشهيد زنكي في منامه فقال له: « ما فعل الله بك» قال: « غفر لي بفتح الرها».

-١٠٤١٧-

ذكر مقتل نصير الدين جقر، وولاية زين الدين علي كوجك

كان مقتلـه في ذي القعدة تسع وثلاثين وخمسمائة. وسبـب ذلك أنـه كان ينـوب عن عماد الـدين أتابـك زنكي بـالموصل وسـائر الأعمال التي شرقـي الفـرات، وكـان الملـك ألـب أرسلان المعـروف بـالخفـاجـي ولـد السلطـان محمـود عند زنكـي، وكـان يظهـر للخلفاء والسلطـان مسعـود وأصحاب الأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك. وكان ألب أرسلان في هذه السنة بـالموصل، ونصير الديـن يحضر إلى خدمتـه في كل يوم، فحسـن له بعض المفسدين طلـب الملك وقالوا له: « إن قتلت نصير الـدين ملكت الموصل وغيرها، ولايبقى مع أتابـك زنكي فارس واحد» ، فمال إلى ذلك، فلما دخل نصير الـدين إليه وثـب إليه مـن عنده فقتلوه، وألقـوا رأسه إلى أصحابـه، ظنا منهم أنهم يتفـرقون ويخرج الملك ويملـك البلاد، فلما رأى أصحابه الرأس قـاتلوا من بالدار مع الملـك واجتمع معهم الخلق الكثير، فدخل القـاضي تاج الدين يحيى بن الشهرزوري إلى الملك ألـب أرسلان وخـدعه، وكـان فيما قالـه حين رآه منزعجـا: « يـامولانـا لم تحرد من هـذا الكلب؟ هو وأستاذه مماليكك ، الحمد للـه الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يديك»، ثـم قال له: « وما الـذي يقعدك في هذه الدار؟ قـم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملـك البلد، وتجمع الجند وليس دون البـلاد بعد الموصـل مانـع»، فقـام معه وركـب وأصعده إلى القلعـة، فلما قاربها أراد من بها مـن النقيب والأجناد القتال، فتقدم إليهـم القاضي تاج الديـن فقال:« افتحوا البـاب وتسلموه وافعلـوا ما أردتم» ففتحـوا الباب ودخل الملك والقاضي إلى القلعة ومعهما مـن أعان على قتل نصير الدين. فلما صاروا بالقلعة سجنوا كلهم إلا القاضي.

وبلـغ الخبر عماد الـديـن وهـو يحاصر قلعـة البيرة ، وقـد أشرف على فتحها، فخـاف أن تختلف البـلاد الشرقية بعد قتـل نصير الديـن، ففارق

البيرة وأرسل زين الدين علي بن بكتكين إلى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه. وسار عماد الدين عن البيرة، فخاف من بها من الفرنج أن يعود إليهم، فسلموها لصاحب ماردين. وملكها المسلمون. فإن لم يكن عماد الدين زنكي فتحها، فهو سبب فتحها.

ذكر مقتل عماد الدين زنكي

كان مقتله رحمه الله لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه كان يحاصر قلعة جعبر، وكانت بيد سالم بن مالك العقيلي منذ سلمها السلطان ملكشاه إلى أبيه، عوضا عن قلعة حلب كما تقدم في أخبار السلجقية. فحاصرها عماد الدين الآن وأقام عليها إلى هذا التاريخ، فدخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة، وهربوا إلى القلعة ولم يشعر أصحابه. فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها بالعسكر، وأعلموهم بقتل صاحبهم، فبادر أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق. ثم مات رحمه الله تعالى وكان عمره نحوا من أربع وستين سنة، ومدة ملكه منذ ولي الموصل وإلى أن قتل عشرين سنة.

وكان حسن الصورة أسمر اللون ، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة لايقدر القوي معه على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم، وتنقل الولاة ، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت بأهلها وغير أهلها، وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: « مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى أملاك؟ فإن خرجت عن أيدينا فالأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغصبوهم أملاكهم، والإقطاعات تغني أصحاب السلطان عنها. وخلف من الأولاد سيف الدين غازي وهو أكبر أولاده ونور الدين محمود وهو الملك العادل، وقطب الدين مودود، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصير الدين أمير

أميران. فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث، ونور الدين من الذكور، وبقي في عقب قطب الدين، على ما نذكر إن شاء الله تعالى.

قال: ولما قتل أتابك زنكي كان ولده نور الدين محمود معه، فأخذ خاتمه من يده، وسار إلى حلب فملكها، وسنذكر أخباره مفصلة بعد سيف الدين غازي، والله أعلم.

ذكر ملك سيف الدين غازي ابن الشهيد عماد الدين أتابك زنكي

قال: لما قتل أتابك زنكي كان الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود معه، فاجتمعت العساكر عليه، وكان الحاكم على دولة زنكي والمدبر لها من أرباب الأقلام جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصفهاني شبه الوزير، ومعه الحاجب صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسياني فاتفقا على حفظ الملك لأولاد صاحبهم عماد الدين وتحالفا على ذلك، وركبا إلى خدمة الملك ألب أرسلان، وخدماه وضمنا له فتح البلاد.وقالا له : «إن أتابك زنكي إنما كان الناس يطيعونه لأنه كان نائبك» فقبل منهما ذلك وظن صدقهما ومناصحتهما وقربهما، وأرسلا إلى زين الدين علي بن مظفر الدين صاحب إربل بالموصل يعرفانه بوفاة الشهيد ويأمرانه أن يرسل إلى ابنه سيف الدين غازي ليحضر إلى الموصل، وكان بشهرزور وهي إقطاعه من قبل أبيه، ففعل ذلك ووصل إلى الموصل، وأشار جمال الدين على الملك بإرسال الحاجب صلاح الدين إلى حلب ليدبر أمر نور الدين فأمره بالمسير إليها فسار، وكانت حماه إقطاعه، وانفرد جمال الدين بالملك ألب أرسلان فقصد به الرقة، واشتغل بالشرب واللهو واستمال جمال الدين العسكر، وحلفهم لسيف الدين غازي، وصار يأمر من تخلف بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وبقي جمال الدين يسير بالملك من الرقة إلى سنجار، ويخذله ويطمعه، ومازال حتى انتهى به إلى

الموصل. وأرسل الأمير عز الدين الدبيسي إلى الملك في عسكر، والملك في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به. فاستقر أمر سيف الدين بالموصل واستوزر جمال الدين، وأرسل إلى السلطان مسعود في إمرة الموصل فأمره على البلاد ، وأرسل له الخلع ، وكان سيف الدين قد تقدمت له خدمة على السلطان مسعود ولازمه سفرا وحضرا في أيام زنكي.

قال: ولما استتب الأمر لسيف الدين غازي بالموصل عبر إلى الشام لينظر في أمور البلاد، ويقرر قاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، ولما عبر الفرات لم يحضر نور الدين إليه وخافه فراسله واستماله بحسن سياسته، فاستقرت الحال بينهما أن يجتمعا خارج العسكر السيفي، وكل منهما في خمسمائة فارس. فسار نور الدين يوم المعياد من حلب بهذه العدة، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلما رآه نور الدين ترجل وقبل الأرض، وأعاد أصحابه فاجتمعا وتحالفا واتفقا أحسن اتفاق، واستقر نور الدين بحلب وما معها، وسيف الدين بالموصل وما معها.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعله سيف الدين غازي

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وصل ملك الألمان في جمع كثير من الفرنج، وعزم على ملك الشام، وظن أنه يملكه لامحالة لكثرة أصحابه واجتمع عليه من بالشام والسواحل من الفرنج. ووصل إلى دمشق وحاصرها، ونزل الميدان الأخضر، فأيقن أهلها بخروجها عن الإسلام. وكان ملكها يوم ذاك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغدكين ، وليس له من الأمر شيء والحكم في البلد لأتابكه معين الدين مملوك جد أبيه، فأرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده، فجمع عساكره والعساكر الحلبية، وسار إلى دمشق، فخافه الفرنج. ثم راسل فرنج الساحل ووعدهم بحصر بانياس، فاجتمعوا بملك الألمان وقالوا له: « إن هذا

ملك بـلاد المشرق قد قدم» وخـوفوه عاقبـة أمره، فرحـل ملك الألمان إلى بلاده، وتسلم الفرنـج بانياس، كما وقع الاتفاق عليه، وعـاد سيف الدين إلى الموصل.

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي

كـانـت وفـاته في أواخـر جمادى الآخـرة سنـة أربـع وأربعين وخمسمائة بالموصل لمرض حاد، ودفـن بمدرسته التي بناها بالموصـل. فكانت ولايته ثلاث سنين وشهـرا وعشرين يـوما، وعمره نحـوا من أربـع وأربعين سنة، وخلف ولدا ذكـرا رباه عمه نور الديـن محمود أحسن تربية، وزوجـه بابنة عمه قطـب الديـن، ولم تطل مـدته، ومـات في عنفوان شبـابه، وانقـرض عقب غازي بوفاته.

قال: وكـان سيف الدين غـازي يمد لعسكره في كل يـوم سماطا كبيرا، طرفي النهار يكون في سماطه للغذاء مائة رأس من الغنم. وأمر الأجناد أن يركبوا بالسيوف والدبابيس، فـاقتدى به أصحاب الأطراف ، وهو أول من حمل على رأسـه السنجق مـن عمال الأطـراف، وبنـى المدرسة الأتـابكيـة العتيقـة بالموصـل، ووقفها على طـائفتي الشـافعية والحنفيـة، وبنى ربـاط الصوفية بـالموصل، ولم تطل أيامـه حتى يفعل ما في نفسـه من وجوه البر، رحمه اللـه. وسنـذكـر إن شـاء الله تعـالى مـن ملـك الموصـل بعـده، إذا انقضت أخبار الشهيد نور الدين وولده.

ذكر أخبار الملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود ابن أتابك عماد الدين أبي سعيد زنكي بن أقسنقر

قد ذكرنا أنـه لما مات والده رحمه الله في شهر ربيع الآخـر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، توجه بخـاتمه إلى حلب وملكها، وذكرنا أيضـا ما كان بينه وبين أخيه سيف الدين غازي رحمه اللـه، وما اتفقا عليه، فلنذكر من

أخباره خلاف ذلـك. ولنبدأ بغزواته وفتوحـاته ، ثم نذكر مـا استولى عليه من المالك وغير ذلك.

ذكر الغزوات والفتوحات النورية وما استنقذه من أيدي الفرنج

ذكر عصيان مدينة الرها وفتحها الفتح الثاني ونهبها

قال: لما قتـل أتابك زنكـي كان جوسلين الفرنجـي صاحب الـرها في ولايته وهـي تل بـاشر، فراسـل عامة أهـل الرهـا من الأرمـن وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين، فأجابـوه إلى ذلك، فسار في عساكره إلى الرهـا وملك البلد، وامتنعـت عليه القلعة بمن فيهـا. فسار نور الـدين ، وجد السير إليها، فلما قـاربها هرب جوسلين عنها، وعـاد إلى بلده، ودخل نور الدين البلد، ونهب المدينة، وسبى أهلها، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل، وذلك في سنـة إحدى وأربعين وخمسمائة. وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة،فتح مدينة ارتـاح بالسيف، ونهبها ، وحصن ما بـوله وبصرفوث وكفر لاثـا، وكان الفرنج بعـد قتل أتـابك زنكـي قد طمعـوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذ منهم فخاب ظنهم.

ذكر فتح حصن العريمة

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح حصن العريمة، وهو من أعمال طرابلـس. وكان ملـك الألمان لما سار عـن دمشق وجـه إلى العريمـة ولد ألفنش صـاحب طليطه، وهـو من أولاد أكابر ملـوك الفرنج، وكـان جده هو الذي فتـح طرابلس، فملك العريمـة، وأظهر أنه يريد أخـذ طرابلس من القمص، فأرسـل القمص إلى نور الدين، وإلى معين الديـن صاحب دمشق أن يقصدا حصـن العريمة ويملكاه. فسـار نور الدين مـن حلب

ومعين الديـن من دمشق واستمـد سيف الديـن غازي، فأمـدهما بعسكر كثيف مـع الأمير عز الدين الـدبيسي، صاحب جـزيرة ابن عمر، فنـازلوا الحصن، وحصروه وبـه ولد ألفنش، فاستسلـم من به بعد امتنـاع، وملكه المسلمون، وأخذوا كل من فيه من فـارس وراجل وصبي وامرأة. وكان ولد ألفنش ممن أسر وأخربوا الحصن ثم عادوا.

ذكر انهزام الفرنج بيغرى

وفي سنـة ثلاث وأربعين أيضـا، اجتمع الفـرنج لقصـد حلب، فسـار إليهم الملـك العادل نـور الديـن بعسكره، فـالتقوا بيغـرى، واقتتلوا قتـالا شديـدا، أجلت الحروب عـن ظفر الملـك العادل ، وانهزام الفـرنج وأسر جماعـة من مقـدميهم. ولم ينـج مـن ذلك الجمـع إلا اليسير. وأرسل نـور الديـن من الغنيمة والأسارى إلى أخيـه سيف الدين وإلى الخليفـة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهـم . وفي هذه الوقعة يقـول ابن القيسراني من قصيدة أولها:

يـــــاليـــــت أن الصـــــد مصــــدود
أو لا فليـــــت النـــــوم مـــــردود

جاء منها:

وكيـــف لا نثنـــي على عيشنـــا المحمـــ
ـــمود والسلطـــان محمـــود
وصـــارم الإســـلام لا ينثنـــي
إلا وشلـــو الكفـــر مقـــدود
مكـــارم لم تـــك مـــوجـــودة
إلا ونـــور الـــديـــن مـــوجـــود
وكـــم لـــه مـــن وقعـــة يـــومهـــا
عنـــد ملـــوك الكفـــر مشهـــود

- ١٠٤٢٤ -

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة، غزا نور الدين بلاد الفرنج، من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم وهو للفرنج، وحصره وخرب ربضه، ونهب سواده ثم رحل إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج لقتاله مع البرنس، واقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم الفرنج وقتل البرنس وجماعة كثيرة من أصحابه، وأسر خلق كثير، وكان البرنس من عتاة الفرنج، ولما قتل ملك بعده أنطاكية ابنه بيمند، ثم غزاهم نور الدين غزوة ثانية، فقتل وأسر، وكان ممن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند صاحب أنطاكية، وكان قتل البرنس عظيما عند الطائفتين، وأكثر الشعراء مدح نور الدين بهذا الظفر، فكان ممن قال فيه ابن القيسراني الكاتب قصيدته المشهورة وهي:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب

ما زال جدك يبني كل شاهقة
حتى بنى قبة أوتادها الشهب

أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت لها الصلب

طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

ذكر فتح حصن أفامية

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح الملك العادل نور الدين حصن أفامية من الفرنج، وهو مجاور شيزر وحماة، وهو من أحصن القلاع وأمنعها، فاجتمع الفرنج من الساحل وساروا نحوه ليرحلوه، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه من الذخائر والسلاح وشحنة بالرجال، وسار عنه في طلب الفرنج، فعدلوا عن طريقه وسألوه الهدنة، وعاد مظفراً منصورا.

ذكر أسر جوسلين وفتح بلاده

كان نور الدين قد جمع عساكره في سنة ست وأربعين وخمسمائة، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمالي حلب، وعزم على محاصرتها، وكان جوسلين فارس الفرنج وطاغيتهم، صاحب رأي وشجاعة، فجمع وأكثر، وسار نحو نور الدين والتقوا واقتتلوا،فكانت الهزيمة على المسلمين، وقتل كثير منهم، وأسر سلحدار نور الدين فيمن أسر، فأخذ جوسلين سلاحه، وأرسله إلى الملك مسعود بن قلج صاحب الروم، وقال: « هذا سلاح زوج ابنتك وسآتيك بعده بما هو أعظم منه» فأهم نور الدين ذلك وعظم عليه، وعلم أنه لايتمكن من جوسلين في حرب، لأنه إما أن يحارب أو يحتمي بحصونه. فجعل عليه العيون من التركمان، ووعدهم إن أسروه وأتوا به أو برأسه بمواعيد كثيرة. فرصدوه إلى أن خرج إلى الصيد، وأسروه فصالحهم على مال يؤديه إليهم، فسير في إحضار المال إليهم فجاء بعضهم إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين بحلب، وأخبره بالقضية، فسير عسكرا مع من حضر إليه بالخبر، وكبس التركمان وأخذوا جوسلين أسيرا. وكان من أعظم الفتوحات، وأصيبت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي : تل باشر، وعين تاب، وأعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، وحصن

البارة، وكفر سود، وكفر لاثا، ودلوك، ومرعش، ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. واجتمع الفرنج في سنة سبع وأربعين، وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين وهو بدلوك ، فلما قربوا منه رجع إليهم واقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر له وقتل وأسر منهم، وعاد إلى دلوك فملكها، وكان نور الدين إذا فتح حصنا من هذه الحصون شحنه بما يحتاج إليه من الرجال والسلاح والذخائر وغيرها.

ذكر حصر قلعة حارم وفتحها

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر نور الدين قلعة حارم وشدد الحصار، فصالحه الفرنج على نصف أعمال حارم، وصالحهم ورحل عنهم، ثم فتحها في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

ذكر ملكه بانياس وما قرره على طبرية وأعمالها

وفي سنة تسع وخمسين ملك حصن بانياس، وكان بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، كما قدمنا، فنازله، فجمع الفرنج لقصده، فلم يكمل جمعهم إلا وقد ملك الحصن وشحنه بالرجال والذخائر، ثم شاطر الفرنج على أعمال طبرية، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها في كل سنة مالا يحملونه إليه ، والله أعلم.

ذكر فتح المنيطرة

والمنيطرة فيما بين طرابلس وبعلبك، وهي الآن من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية، فلما كان في سنة إحدى وستين وخمسمائة، سار نور الدين إليها جريدة، وملكها وأعجل الفرنج عن الاجتماع لرده، وسبى وغنم، فجاء الفرنج بعد أن ملكها فأيسوا منها، ورجعوا عنها، والله أعلم.

-١٠٤٢٧-

ذكر فتح صافيتا وعريمة

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة جمع نـور الديـن العساكـر وسار إليـه أخوه قطب الدين من الموصل واجتمعـا على حمص، فدخل بالعساكر إلى بلاد الفرنـج بالساحل واجتـاز على حصن الأكراد، فأغـاروا ونهبوا وسبوا. وقصدوا عـرقة فنـازلوهـا وحصروها، وحصروا جبلـة وأخذوهـا وخربـوها. وسارت عسـاكر المسلمين في بـلادهم يمينـا وشمالا تغير وتخرب، وفتحوا العريمـة ، وصافيتـا، وعادوا إلى حمص فصـاموا بها شهـر رمضان، وكـان الفرنـج في سنة ثمان وأربعين قـد كبسوا عسكـر نور الـدين بـالبقيعة على حين غفلـة من العسكـر، فنـالوا مـن المسلمين منـالا عظيما، فجعل نـور الديـن في مقابلـة ذلك فتـح حارم وبانيـاس والمنيطرة وصـافيتا وعـريمة وتخريب بلادهم، وأدرك ثأره عن غير بعد.

ثـم سـار بعد شهـر رمضـان إلى بـانياس، وقصـد العبـور إلى بيروت، فجرى بين العسكـر اختلاف أو جـب رجوعه، وأعطـى قطب الـدين في هـذه السنة الـرقـة، وأعاده إلى بلـده. هـذا ما فتحـه رحمه اللـه من بـلاد

الفرنج، فلنذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية.

ذكر ما استولى عليه من البلاد الاسلامية

في سنـة أربـع وأربعين وخمسمائة، استولى الملـك العـادل على سنجـار، وكانت بيـد أخيه قطب الدين، ملكهـا بعد وفاة سيف الديـن غازي، ثـم حصـل الاتفاق بينهما على أن يكـون نور الـدين صـاحب حلـب وحمص والرحبـة والشام، وقطـب الدين بـالموصل وديـار الجزيرة ، وسلـم سنجار لأخيه قطـب الديـن ، وأخذ نـور الديـن ما كـان من الـذخائر بسنجـار، وكانت كثيرة جدا، وعاد إلى حلب وقد حصل الاتفاق بينه وبين أخيه.

- ١٠٤٢٨ -

ذكر ملكه مدينة دمشق

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ملـك دمشق من مجير الديـن أبق بن محمدبن بوري بن طغـدكين، وسبب قصـده لها أن الفرنـج ملكوا في السنـة التي قبل هـذه السنة مدينة عسقـلان، واستولوا على تلك النـواحي، فلم يتمكن نور الدين من غـزوهم ودفعهم، لأن دمشق تحول بينه وبينهم. ولم تمكنه مفـاجأة صـاحبها لعلمه أنـه إن سار إليها راسـل صاحـب دمشق الفـرنـج واستنجد بهم. وكـان قـد استقـر لهم ضريبة على دمشـق تحمـل إليهـم في كـل سنـة ، ويحضر رسلهم لقبضهـا، فـزاد استيـلاؤهـم إلى أن أخذوا كل مـن فيها من الغلمان والجواري، بحيث أنهم يطلبـون الغلام أو الجارية ويخيروه، إن اختـار الرجـوع إليهم أخـذوه، اختار مـولاه أو امتنع؛ وإن اختار المقـام عند مواليه تـركوه. فأهـم ذلك نور الديـن ، وخاف أن الفـرنج متـى استولـت على دمشـق ملكوا الشـام أجمع، فأخـذ في إعمال الحيلة وراسل مجير الـدين صاحبها وهـاداه وداهنه واستماله، وبقي يـوقع بينه وبين أمرائه، فكتب إليه يقول: « إن فلانا الأمير قد كاتبني في تسليم دمشق»، فقبـض عليه مجير الديـن حتى اختـل أمر عسكره وضعـف. ثم راسل نور الديـن الأحداث من الأمراء بدمشق، ووعـدهم الجميل، فمالوا إليه ووعدوه بتسليمها له،فسار إليها. فلما نـازلها كاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم بعلبـك ليمنعوا نور الـدين عنـه، فحشدوا فارسهـم وراجلهم، فلم يتكامـل جمعهم إلا وقد ملك نـور الدين دمشق، سلمهـا له الأمراء، ودخلها مـن الباب الشرقـي. وتحصن صـاحبها بـالقلعة، فبـذل له نـور الدين حمص، فرضي وسلم القلعة وسـار إلى حمص، ثم عوضه عن حمص مدينة بالس فامتنع، وتوجه إلى بغداد ومات بها.

وفي سنة اثنتين وخمسين ، ملك نـور الدين حصن شيـزر من آل منقذ، وكانت الزلزلة قد هدمت أسواره،فعمرها والله أعلم.

- ١٠٤٢٩ -

ذكر ملكه بعلبك

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ملك بعلبك وقلعتها وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي، منسوب إلى البقاع البعلبكي، كان صاحب دمشق قد ولاه إياها، فلما ملك نور الدين دمشق لم تمكنه مشاححته لقربه من الفرنج، فطاوله إلى الآن وملكها منه.

ذكر ملكه قلعة جعبر

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك قلعة جعبر من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده وبيد آبائه كما تقدم، وكان السبب في ملكه لها أن صاحبها سار إلى الصيد، فأسره بنوكلاب وجاؤوا به إلى نور الدين في شهر رجب سنة ثلاث وستين، فاعتقله نور الدين وأكرمه في اعتقاله. وأخذ في طلبها باللين، فلم يوافق على إعطائها، ثم أخذه بالشدة فلم يوافق، فسير الجيوش لحصرها، فحوصرت مدة فلم يظفر منها بطائل، فعاود صاحبها بالملاطفة، وعوضه عنها سروج وأعمالها والملاحة التي من بلد حلب، وباب بزاعه، وعشرين ألف دينار معجلة، فقبل العوض وسلم القلعة، وهذه القلعة في عصرنا هذا إلى سنة أربع عشرة وسبعمائة خرابا لاباب عليها والله أعلم.

ذكر ملكه الديار المصرية

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية بجيوش الملك العادل نور الدين، وهي السفرة الثالثة له إليها من قبل نو ر الدين ، ونذكر ذلك مفصلا في أخبار الدولة الأيوبية، ودامت الخطبة بها للملك العادل مدة حياته، وصدراً من أيام ولده الملك الصالح إسماعيل.

ذكر ملكه الموصل

وفي سنة ست وستين وخمسمائة ملك الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين، وأقر عليها سيف الدين غازي بن قطب الدين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار غازي. وأطلق نور الدين سائر المكوس بالموصل وبسائر البلاد، وجاءته الخلع من الخليفة المستنصر بالله ، فلبسها، ثم خلعها على سيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقام بالموصل عشرين يوما وعاد إلى الشام.

ذكر وفاته رحمه الله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاة الملك العادل نور الدين محمود في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، بعلة الخوانيق، ولقب بعد موته بالشهيد، ومولده في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فيكون عمره نحوا من ثمان وخمسين سنة، ومدة ملكه منذ وفاة أبيه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر وستة أيام، ومن العجب أنه ركب إلى الميدان الأخضر بدمشق في ثاني شوال، ونصب فيه قبقا[4] فسايره حسام الدين مودود، وقال له: « أترى هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم من العام المقبل؟» فقال له نور الدين : « لاتقل هكذا ، قل : هل نكون ههنا بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة» ورجع إلى القلعة ، وختن ابنه وأصابته العلة، فمات بعد عشرة أيام. ومات الأمير حسام الدين قبل استكمال الحول، ودفن نور الدين بقلعة دمشق، ثم نقل إلى مدرسته التي بناها بجوار سوق الخواصين بدمشق وقبره هناك مشهور.

وأما سيرته وأفعاله رحمه الله تعالى فإنه أفرغ وسعه في الجهاد، واستنقذ من أيدي الفرنج ما ذكرناه، وكان ثابتا في حروبه، وبنى: المدارس، والمساجد، والربط، والبيمارستانات، والخانات، والطرق، والجسور، وجدد القني وأصلحها، وأوقف الوقوف على معلمي الخط لتعليم الأيتام، وعلى

سكان الحرمين الشريفين، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات حتى كفوا عن التعرض إلى الحاج، وبنى أسوار المدن والحصون التي هدمتها الزلزلة التي ذكرناها في أخبار الدولة العباسية، وكان رحمه الله مواظبا على الصلاة في الجماعة، حريصا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدا في الإنفاق والمطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في سخطه وعاقب على شرب الخمر.

قال الشيخ عز الدين أبو الحسن علي بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير رحمه الله: « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه» قال: وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الصالحين العباد، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله فيرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالأكرة، فكتب إليه يقول: « ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة؟»، فكتب إليه نور الدين بخطه يقول « والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب، ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا، إذ لابد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة».

قال: وحكي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، فبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل صوفي فأمر له بها. فقيل له إنها لاتصلح

لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له. فقال: « أعطوها له، فانني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة»، فسلمت إليه، قيل والذي أعطيها شيخ الصوفية عماد الدين بن حموية، فبعثها إلى همذان، فبيعت بألف دينار.

قالوا :وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث وأسمعه، وكان يعظم الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها، فمن ذلك أنه كان يلعب بالكرة عند دمشق، فرأى إنسانا يحدث آخر ويومىء إليه بيده، فأرسل يسأله عن حاله، فقال: « لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني»، فلما قيل ذلك له ألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان وتوجه إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إليه يقول: « إني قد جئت في محاكمة فاسلك معي ما تسلكه مع غيري.» فلما حضرا، ساوى خصمه وحاكمه، فلم يثبت قبله حق، وثبت الحق لنور الدين. فعند ذلك أشهد على نفسه أنه وهب الملك للذي حاكمه، وقال: « كنت أعلم أن لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن بي أني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له».

قال: وهو أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع يومين، وعنده القاضي والفقهاء لفصل الحكومات بين القوي والضعيف، وكان شجاعا حسن الرأي والمكيدة في الحرب، عارفا بأمور الأجناد، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين(٥) وباشر القتال بنفسه. وكان يقول: « طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها».

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده. كان إذا توفي أحدهم وخلف ولدا، أقر الإقطاع عليه، فإن كان كبيرا استبد بتدبير نفسه، وإن كان صغيرا رتب معه رجلاً عاقلا يثق إليه ويتولى أمره إلى أن

يكبر، فكان الأجنـاديقولون: هذه أمـلاكنا يرثها الـولد عن الوالـد، فنحن نقاتـل عليها، وكان ذلـك سببا عظيما للنصر في المشاهـد والحروب. قال: وبنى أسوار مدن الشام وقـلاعها، فمنها: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وبـارين، وشيـزر، ومنبـج، وغيرها مـن القـلاع والحصـون، وأخرج عليهـا الأمـوال الكثيرة التي لاتسمـح النفـوس بمثلهـا، وبنى المدارس بحلـب، وحماه ودمشق، وغيرهـا. وبنى الجوامـع في كثير من البـلاد، فمنها جـامعه بالموصـل، إليه النهـاية في الحسن والإتقـان، وفوض عمارتـه والخرج عليه للشيخ عمـر الملاء، وكان من الصالحين، فقيـل له إنه لايصلح لمثـل هذا العمل، فقـال: « إذا وليت بعـض أصحابي مـن الأجناد والكتـاب، أعلم أنه يظلـم في بعض الأوقات، فلا يفـي عمارة الجامع بظلم رجـل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيـخ غلب على ظني أنه لايظلم، فإن ظلـم كان الاثم عليه لا علي»، وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامـع وأنزههـا، وجدد في غيرهـا مـن عمارة الجوامع مـا كان قـد تهدم بسبـب زلـزلـة وغيرهـا، وبنـى البيمارستـانـات في البـلاد، ومـن أعظمهـا وأشهرها البيمارستان الذي بناه بدمشق، وقفه على كافة المسلمين من غني وفقير، وبنى الربـط والخانقاهات للصوفية، ووقف عليهـا الوقوف الكثيرة، وأدر عليهم الإدرارات الصالحة.

قال: وكان قد ضبط ناموس الملك إلى غـاية لامزيد عليها، فكان يلزم الأجناد بوظائف الخدمة، ولايجلس عنـده أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الديـن أيوب، وأما من عـداه كأسد الديـن شيركوه وغيره، فإنهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بـالجلوس، وكان مع ذلك إذا دخل عليه الفقير والصوفي والفقيه يقوم له ويجلسه إلى جانبه. وكان إذا أعطى أحدهم شيئا يقول إن هـؤلاء لهم في بيت المال حـق، فإذا قنعوا منـا ببعضه فلهـم المنة علينا.

ولم يـزل الناس معـه في غايـة الأمن والخير والبركـة والنمو والإحسـان

والعدل والبر، وإظهار السنة، وقمع البدعة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى.

ذكر أخبار الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك زنكي بن أقسنقر

ملك بعد وفاة والده في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة. وحلف له الأمراء وأطاعه الناس في سائر البلاد وخطب له الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية، ولم يكن الملك الصالح إذ ذاك قد بلغ الحلم، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم.

قال العماد الأصفهاني الكاتب: وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيا للملك الصالح وفي آخره: «وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم، وأيسر لوازمه. أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، وفيما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الاسلام عالما أن الجماعة رحمة».

قال: ولما بلغ سيف الدين غازي بن قطب مودود وفاة عمه، استبشر لذلك، ونادى بالموصل بالفسحة في الشرب واللهو، وكان الخبر قد أتاه وهو سائر إلى خدمة عمه نور الدين، فإنه كان قد استدعاه بالجيوش، فعاد وهرب سعد الدين كمشتكين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سيف الدين غازي مبيناً، قال: ولما اتفق ذلك منه لم يكتب

الجماعة الذين في خدمة الملك الصالح إلى صلاح الدين يوسف بالخبر، خوفا أنه إذا بلغه ذلك قصدهم، واستولى على الملك الصالح وأبعدهم، فشق ذلك عليه، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وأقام الملك الصالح بدمشق وجماعة الأمراء عنده لم يمكنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية، ويختص بخدمته، فإنه كان من أكبر الأمراء النورية. ولما وصل كمشتكين من الموصل إلى حلب أحسن إليه الأمير شمس الدين ابن الداية، وأكرمه، وجهزه إلى دمشق لإحضار الملك الصالح منها إلى حلب، وجهز معه العساكر. فلما قارب دمشق سير الأمير شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا إليه، فهزموه. ونهبوا ما معه،فعاد إلى حلب منهزما، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه، ثم نظر أمراء دمشق المصلحة، فعلموا أن مسيره إلى حلب أجود من مقامه بدمشق. فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين كمشتكين ليأخذ الملك الصالح، فجهزه إليهم، فسار إلى دمشق في المحرم سنة سبعين وخمسمائة، فأخذ الملك الصالح وعاد به إلى حلب. فلما وصل إليها ، قبض سعد الدين على ابن الداية وإخوته، وعلى الرئيس ابن الخشاب رئيس حلب، ومقدم الأحداث بها.

واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء بدمشق أن سعد الدين يسير إليهم ويفعل بهم كما يفعل بابن الداية، فراسل سيف الدين غازي بن مودود في الحضور من الموصل ليتسلم دمشق، فخشي غازي أن تكون مكيدة فلم يحضر، فراسله سعد الدين ، واتفق الحال على أن يستقر بيده ما استولى عليه من الأعمال الجزيرية. فقال أمراء دمشق : حيث صالح سيف الدين، لم يبق له مانع من المسير إلى دمشق .فراسلوا الملك الناصر صلاح الدين في الحضور من مصر ليتسلمها، فوصل إليها ، وتسلمها، وملك حمص وحماه وبعلبك. ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وأظهر أنه إنما حضر لخدمته،

واسترجاع ما استولى عليه سيف الدين غازي وغيره من الأعمال الجزيرية. ثم كان بينه وبين العسكر الحلبي من الحروب ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية، إلى أن أحوجوه إلى الاستقلال بالأمر والخطبة لنفسه وملك البلاد.

ذكر مقتل سعد الدين كمشتكين وحصر الفرنج حارم

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قبض الملك الصالح على سعد الدين، وهو المتولي على أمر دولته، والحاكم فيها. وسبب ذلك أن أبا صالح بن العجمي كان من أكابر حلب، وكان مقدما عند نور الدين، وتقدم عند ولده وأطاعه الناس، وكثرت أتباعه، فوثب عليه بعض الباطنية بالجامع فقتله، فنسب ذلك لسعد الدين فوشوا به عند الملك الصالح، فقبض عليه. وكانت حارم اقطاعه، فامتنع من بها من تسليمها، فسيره الملك الصالح تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها، فأمرهم فلم يرجعوا إلى قوله، وعذب وهم ينظرون إليه إلى أن مات تحت العقوبة. فبلغ الفرنج ذلك، فنازلوا قلعة حارم ونصبوا عليها المجانيق، فصالحهم الملك الصالح على مال ففارقوها، وتسلمها بعد حصار ثان، ورتب فيها من المماليك النورية من يحفظها.

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل

كانت وفاته لخمس بقين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وابتدأت علته في تاسع الشهر، وكان مرضه القولنج ومات وله من العمر تسع عشرة سنة، وقيل في سبب وفاته إن علم الدين سليمان بن جندر سقاه في عنقود عنب وهو في الصيد؛وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، فعظم موته على سائر الناس، وحزنوا لفقده حزنا شديدا.

قال ابن الأثير: ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فاستفتى الفقيه علاء الدين الكاشاني، وأفتاه بجواز شربها، فقال: « إن كان الله قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟» فقال: لا والله فقال: « والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي» ومات رحمه الله ولم يشربها.

ولما أيس من نفسه أحضر الأمراء والأجناد في الثالث والعشرين من شهر رجب وأوصاهم بتسليم البلد لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، واستحلفهم على ذلك، فقال بعض أصحابه:إن عز الدين ملك الموصل وله ما يكفيه ولو أوصيت بها لابن عمك عماد الدين زنكي فإنه تربية والدك، وزوج أختك، وليس له غير سنجار؟ . فقال: « إن هذا لم يغب عني، ولكن قدعلمتهمأن صلاح الدين قد تمكن . وتغلب على عامة البلاد الشامية، ومتى كانت حلب لعماد الدين عجز عن حفظها وعز الدين يحفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، فاستحسن الناس ذلك منه، وعجبوا من جودة رأيه مع صغر سنه، وأن مرضه لم يشغله عن حسن اختياره. ثم مات رحمه الله.

وكان عفيف اليد والفرج واللسان، لايعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب، حسن السيرة، عادلا في رعيته. وبوفاته انقرض عقب نور الدين المذكور.

ولنرجع إلى ذكر ملوك الموصل الذين ملكوا بعد وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي.

ذكر أخبار قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وذلك أنه لما مات سيف الدين غازي اجتمعت كلمة الوزير جمال الدين الأصفهاني، وزين الدين علي أمير الجيش على تولية قطب الدين طلبا للسلامة، فاستحلفوه وحلفوا له، وركبوه إلى دار السلطان، وأطاعه سائر البلاد التي كانت تحت يد أخيه، وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين. وكان سيف الدين غازي قد تزوجها ولم يدخل بها، فتزوجها قطب الدين وهي أم أولاده الملوك.

قال: ولما ملك قطب الدين كان نور الدين بحلب، وهو أكبر منه، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه، فسار إليهم، وقصد انتزاع الملك من أخيه قطب الدين، ثم اتفقا وعاد نور الدين إلى حلب، وشهد قطب الدين بعض الحروب مع أخيه نور الدين، كما ذكرناه في أخبار نور الدين.

ذكر القبض على الوزير جمال الدين محمد بن علي ابن المنصور الأصفهاني ووفاته وشيء من أخباره وسيرته

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة قبض قطب الدين على الوزير جمال الدين واعتقله، فتوفي في اعتقاله في شعبان سنة تسع وخمسين، ولعمري ما كان يستحق أن يعتقل، وهو الذي عمل على إثبات الملك في البيت الأتابكي بعد قتل الشهيد أتابك زنكي، على ما قدمنا في أخبار سيف الدين غازي.

قال ابن الأثير الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل: حكى لي إنسان

صوفي يقال له أبو القاسم؛ كـان مختصا بخدمته في الحبس، قال: « لم يزل مشغولا في محبسه بأمر آخرته، وكان يقـول كنت أخشـى أن أنقل مـن الدست إلى القبر، فلما أن مرض قال لي في بعض الأيـام: يا أبا القاسم إذا جاء طـائر أبيض إلى الـدار فعرفني» قـال: « فقلت في نفسي قـد اختلط عقله» ، فلما كان الغـد أكثر السؤال عنه، وإذا طائر أبيـض لم أر مثله قد سقط، فقلت: « قد جاء الطائر»، فـاستبشر ثم قال: « جاء الحق»، وأقبل على الشهـادة، وذكر اللـه تعالى إلى أن تـوفي، فلما تـوفي طار ذاك الطـائر، فعلمت أنه رأى شيئا في معناه».

ودفن بالموصـل عند فتح الكرامـي رحمة الله عليهما نحو سنة،ثـم نقل إلى المدينة، فـدفن بالقـرب من حرم النبـي صلى اله عليه وسلـم في رباط بناه لنفسـه. وقال لأبي القاسـم: « بيني وبين أسـد الدين شيركـوه عهد : من مات قبـل صاحبه حمله إلى المدينـة، فدفنه بها في التربة التـي عملها، فإذا أنا مت فامض إليه وذكره».

فلما توفي سار أبـو القاسم إلى شيركوه في المعنى، فقال لـه شيركوه: كم تريـد»؟ فقال: « أريـد أجرة جمل يحملـه، وجمل يحملني وزادي» فـانتهره وقـال: « مثل جمال الـديـن يحمل هكـذا إلى مكـة» وأعطـاه مالا صـالحا ليحمـل معه جماعـة يحجون عـن جمال الـدين، وجماعـة يقرأون بين يـدي تابوته إذا حمل وإذا أنـزل عن الجمل، فإذا وصل إلى مدينـة يدخل أولئك القراءون ينـادون للصلاة عليه، فيصلى عليـه في تكريت، وبغـداد والحلة، وفيد، ومكة، والمدينة، وكان يجتمع له في كـل بلد من الخلق ما لا يحصى، ولما أراد الصلاة عليه بالحلـة صعد شاب على موضع مرتفـع وأنشد بأعلى

صوته:

سرى نعشـــه فـــوق الـــرقـــاب وطـــالما
سرى جـــوده فـــوق الـــركـــاب ونـــائلـــه

يمــــرعلى الـــوادي فتثنـــي رمـــالـــه
علـيـــه وبـــالنـــادي فتثنـــي أراملـــه

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم، وطافوا به حول الكعبة ، وصلواعليه بالحرم الشريف، وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا.

. وأما سيرته رحمه الله فكان أسخى الناس، وأكثرهم بذلا للمال، رحيما بالخلق، متعطفا عليهم عادلا فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة، وبنى الحجر بجانب الكعبة، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام. ولما أراد ذلك أرسل إلى المتقي لأمر الله هدية جليلة، وطلب منه ذلك، وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكة هدية كبيرة، وخلعا ثمينة، منها عمامة شراها بثلاثمائة دينار، حتى مكنه من ذلك، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات، والدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طرق معمولة تحت الأرض، وأخرج على ذلك مالا كثيرا وكان يجري الماء في المصانع في كل سنة أيام الحج، وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى فيد.

وكان يخرج على باب داره في كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار أميري؛ هذا سوى الإدرارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوت. ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، فقبض قبل أن تكمل عمارته وبنى أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالأرفاد، وبنى الربط. وقصده الناس من أقطار الأرض،

وكانت صدقاته وصلاته من أقاصي خراسان إلى حدود اليمن، وكان يشتري الأسرى في كل سنة بعشرة آلاف دينار، هذا من الشام حسب، سوى ما يشتري من الكرج.

وقال ابن الأثير أيضا :حكى لي والدي عنه قال: كثيراً ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم إليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى، ويتركه في خبز بين يديه. فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله إلى أم ولده علي، فاتفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين، وكنت أتولى ديوانها، وحمل جاريته أم ولده إلى داري لتدخل الحمام، فبقيت في الدار أياما، فبينما أنا عنده في الخيام، وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل. ثم تفرق الناس فقمت فقال: « أقعد» فقعدت. فلما خلا المكان قال لي: « قد آثرتك اليوم على نفسي، فإنني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل، واترك الحماقة من رأسك ، وعد إلى بيتك، فإذا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق، فأقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام»،قال: ففعلت ذلك، وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك، وبقيت في غلماني، فرأيت في موضع إنساناً أعمى وعنده أولاد له وزوجته، وهم من الفقر على حال شديد، فنزلت عن دابتي إليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه، وقلت للرجل تجيء غدا بكرة إلى دار فلان، أعني داري - ولم أعرفه نفسي - فإنني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئا. ثم ركبت إليه العصر، فلما رآني قال: « ما الذي فعلت في الذي قلت لك؟» فأخذت أذكر له شيئا يتعلق بدولتهم فقال :« ليس عن هذا أسألك، إنما أسألك عن الطعام الذي سلمته إليك؟» فذكرت له الحال ففرح، ثم قال: « بقي أنك قلت للرجل يجيء إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهر دنانير؟» قال: فقلت له: « قد قلت للرجل يجيء إلي» فازداد فرحا وفعل للرجل ما قال، ولم يزل

يصل إليه رسمه حتى قبض. قال: وله من هذا كثير. فمن ذلك أنه تصدق بثيابه من على بدنه في بعض السنين التي تعذرت فيها الأقوات.

ولما وقفت على ترجمته لهجت بالترحم عليه ، وقرأت ختمه شريفة في شهر رمضان سنة أربع عشرة وسبعمائة، وسألت الله تعالى أن يسطر ثوابها في صحيفة حسناته ، وقررت ذلك على نفسي في كل سنة في شهر رمضان، وأرجو أن لاأقطعها مالم أنسى ذلك، رحمه الله تعالى.

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة فارق زين الدين علي بن بكتكين، النائب عن قطب الدين خدمته، وسار إلى إربل . وكان هو الحاكم في الدولة، وأكثر البلاد بيده، ومنها إربل وبها أهله وأولاده وخزانته، وشهرزور وجميع القلاع التي معها، وجميع بلاد الهكارية وبلد الحميدية، وتكريت وسنجار، وحران، وقلعة الموصل هو بها، وكان قد أصابه طرش ثم عمي، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل، سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وبقي معه إربل خاصة، وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة، ما انهزم من حرب قط، وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم، فمن عطاياه أن الحيص بيص الشاعر قد امتدحه بقصيدة، فلما أراد إنشادها قال له: « أنا لا أعرف ما تقول، ولكني أعلم ما تريد» وأمر له بخمسمائة دينار وخلعة وفرس، فكان مجموع ذلك بألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها في هذه السنة.

ولما فارق زين الدين قلعة الموصل، سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد، فعمر القلعة وكانت خرابا، لأن

زيـن الـدين كـان قليـل الالتفـات إلى العمارة، وسار عبـد المسيـح سيرة شديدة، وسياسة عظيمة وكان خصياً أبيض من مماليك أتابك زنكي.

ذكر وفاة قطب الدين مودود وملك ولده سيف الدين غازي

كانت وفاة قطـب الدين مودود بن زنكي بـالموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة، وقيـل في شـوال منهـا. وكان مـرضـه حمى حـادة فكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنـة وشهورا، وكان من أحسن الملوك سيرة، وأعفهم عن أموال الرعية، كثير الإنعـام والإحسان إليهم، محبوبا إلى كبيرهم، وصغيرهـم عطـوفا على شريفهم ووضيعهم، كـريم الأخلاق . ولما مات رحمه الله تعالى ملك بعده ولده سيف الدين غازي.

ذكر أخبار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي

ملك الموصـل ، وما كـان بيد والـده قطب الـدين بعـد وفاتـه في ذي الحجة أو شوال سنة خمس وستين وخمسمائة؛ بوصيـة من أبيه، وكان والده قد أوصـى بالملـك بعده لـولده الأكبر عماد الـدين زنكـي، فحرف عبـد المسيح رأيه عنـه. فلما كان في اليوم الثاني استخلف سيف الـدين غازي، فاستقـر في الملك بعـد وفاة أبيه ، واستـولى عبد المسيـح على المملكة. ولم يكن لغـازي معه غير الاسم، فـاتصل ذلك بنور الـدين محمود، فـأزعجه وأنف منـه وكبر لديـه،فسار إلى الموصل سنـة ست وستين ، ودخلهـا من غير قتال، وكـان الجند والعوام قد كـاتبوه في تسليم البلد إليـه، فلما علم بذلك عبد المسيـح كاتبه أيضا وسأله الأمان ، فـأمنه وقال: « لاسبيل أن يكون بـالموصل»؛ونقلـه إلى الشام، ودخـل نور الـدين الموصـل في ثالـث عشر جمادى الأولى، وأقر سيـف الديـن غازي على الموصـل، وولى القلعة

خادمـا يقال له سعد الـدين كمشتكين، وجعله دزدارا ثم عـاد إلى الشام رحمه الله.

ذكر ملك سيف الدين غازي البلاد الجزيرية

كان سبب ذلك أن عمه الملك العادل نور الدين قد استدعاه بعساكر الموصل وديـار الجزيرة وغيرها لقصـد الغزاة ، فسـار سيف الديـن غازي وجعل على مقـدمته سعد الـدين كمشتكين، فلما كـانوا ببعض الطـريق، وافاهم الخبر بوفاة نور الدين، فهـرب سعد الدين جريدة، واستولى غازي على بركـه وثقله وموجـوده، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسـل الشحن إلى الخابور، واستـولى عليه وأقطعه، وسـار إلى حران فحصرها عـدة أيام، وبها قايماز الحراني مملوك نـور الدين، فأطـاعه بعد امتناع على أن تكـون حران لـه ، فلما نزل إليـه، قبـض عليه سيـف الـدين غـازي، وسـار إلى الرهـا فحصرها وملكهـا، وبها خادم خصي أسـود لنور الـدين، فسلمهـا وطلب عوضهـا قلعة الزعفران مـن أعمال جزيرة ابـن عمر، فأعطيها ثـم أخذت منه، ثم انتهى حاله إلى أن استعطى ما يقوم به.

وسير سيـف الـديـن إلى الـرقـة، فملكهـا وملـك سروج وجميـع بـلاد الجزيرة، إلا قلعة جعبر لحصـانتها، ورأس عين لأنها كانت لقطـب الدين صاحب ماردين، وعاد عبد المسيح إلى خدمة سيف الـدين من سيواس، وحسن لسيـف الدين العبـور إلى الشام ليملكه، فأشـار عليه عز الـدين محمود ـ وهومن أكابر الأمراء ــ أن يقتصر على ما بيده ، فرجع إليه وعاد إلى الموصل ، وذلك في سنة تسع وستين وخمسمائة.

ذكر حصره أخاه زنكي بسنجار

وفي سنة سبعين وخمسمائة في شهـر رمضان حصر سيف الديـن غازي أخاه عماد الـدين زنكـي بسنجار، وكـان سبب ذلـك أن الملك الصـالح

إسماعيل بن نور الـدين كتب إلى سيف الدين يستحثـه على الوصول إليه ليدفـع الملك النـاصر صلاح الـدين يـوسف عـن حلب، فجمـع سيف الديـن غازي العساكـر، وكاتب عماد الديـن في اللحاق به. وكـان صلاح الدين قد كاتبه وأطمعه في الملك، فامتنع عماد الدين بسبب ذلك، فجهز سيف الديـن العساكر مع أخيه عـز الدين مسعود إلى الشام، وتـوجه هو لحصار أخيه بسنجـار، فحصرها، وبينما هو كذلـك ، إذ أتاه الخبر بانهزام أخيه مسعود من صـلاح الدين، فراسل حينئذ أخـاه عماد الدين وصالحه على ما بيـده، ورحل إلى الموصـل. ثم كان بين سيـف الديـن وبين الملك الناصر ما نذكره في أخبار الملك النـاصر من هزيمة غازي في سنة إحدى وسبعين.

ورجع إلى الموصل، وعـزل عز الدين زلفندار واستعمل مكـانه في إمارة الجيش مجاهد الدين قايماز.

وفي سنـة اثنتين وسبعين وخمسمائة عصـى شهـاب الـديـن محمـد بـن مروان صـاحب شهـرزور على سيف الـدين غـازي، وكان قبـل ذلك في طاعته، فراسله في معاودة الطاعة، فعاد وحضر إلى الخدمة.

ذكر وفاة سيف الدين غازي

كانت وفـاته في ثالث صفـر سنة ست وسبعين وخمسمائة وكان مـرضه السل، فطـال به، ثـم أدركه برسـام فمات، وعمره نحـواً من ثـلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا، وكان حسـن الصورة تام القامة أبيض اللون، وكان عاقلا وقورا قليـل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، ولم يذكر عنـه في نفسه مـا ينافي العفـاف، وكـان شديـد الغيرة لايدخـل دوره غير الخدام الصغار، فـإذا كبر أحدهـم منعه، وكـان لايحب سفك الـدماء ولا أخذ الأموال على شحه وجبنه.

ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف على الدولة من ذلك، لتمكن صلاح الدين يوسف بالشام، وامتنع عز الدين مسعود من الموافقة والأيمان ، فأشار الأمراء أن يكون الملك بعده لعز الدين مسعود أخيه، ففعل، وجعل لولده سنجر شاه جزيرة ابن عمر وقلاعها، وجعل قلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك.

ذكر ملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز. وفي سنة سبع وسبعين كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل، وأوصى بحلب لعز الدين مسعود كما ذكرناه في أخباره. فكاتبه الأمراء بذلك واستدعوه لتسليمها، فسار إليها ومعه مجاهد الدين قايماز، فدخلها في العشرين من شعبان منها وأقام بحلب عدة شهور،ثم سار إلى الرقة.

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين زنكي وأخذ سنجار عوضا عنها

قال: ولما فارق عز الدين مسعود حلب، ووصل إلى الرقة، جاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يطلب منه أن يسلم إليه مدينة حلب ويأخذ سنجار، فلم يجب إلى ذلك، فراسله مرة أخرى وألح في طلبها، وقال متى لم تسلم إليّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشير بتسليمها إليه فسلمها له، وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل.

ذكر القبض على مجاهد الدين قايماز

وفي جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وخمسمائة قبض عز الدين مسعود على نائبه مجاهد الدين قايماز، ولما قصد القبض عليه لم يقدم عليه مفاجأة لقوة مجاهد الدين ، فأظهر المرض وانقطع عن الركوب، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان خصيصا به لايمنع من الدخول على النساء، فقبض عليه وركب لوقته إلى القلعة، واحتوى على أموال قايماز وخزائنه، وولى زلفندار قلعة الموصل، وجعل شرف الدين أحمد بن أبي الخير ـ وهو ابن أمير حاجب العراق ـ أمير حاجب، وحكمه في دولته، وكانت إربل وأعمالها تحت حكم مجاهد الدين، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي، وهو صبي صغير . وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر، وهي لمعز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازي، وهو صبي أيضا، وبيده شهرزور وأعمالها ونوابه بها، ودقوقا، وقلعة عقر الحميدية ونائبه بها، ولم يكن مع عز الدين إلا الموصل خاصة، وقلعتها لمجاهد الدين، فلما قبض امتنع صاحب إربل عن الطاعة، واستبد صاحب الجزيرة، وأرسل الخليفة من حصر دقوقا وأخذها، ولم يحصل لعز الدين غير شهرزور والعقر، وصارت إربل والجزيرة أضر شيء عليه، وأرسل صاحب إربل إلى الملك الناصر صلاح الدين بالطاعة له، وقوي طمع الملك الناصر في الموصل لما قبض على مجاهد الدين، فلما رأى عز الدين ما حصل من الضرر والفساد بسبب قبض مجاهد الدين، قبض على شرف الدين أحمد الحاجب وزلفندار، عقوبة لهما كونهما حسنا له القبض على قايماز.

ذكر اطلاق مجاهد الدين قايماز وما كان من العجم وانهزامهم

قال: وفي المحرم سنة ثمانين وخمسمائة أطلق عز الدين مسعود مجاهد الدين قايماز، وذلك بشفاعة شمس الدين بن البهلوان صاحب همذان

وبلاد الجبل. ولما أطلقه سيره إلى ابن البهلوان وإلى أخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين. فبدأ في مسيره بقزل وهو صاحب أذربيجان، فلم يمكنه من المضي إلى شمس الدين، وقال: « مهما يختار أنا أفعله»، وجهز معه ثلاثةآلاف فارس ، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها، وسبوا وأخذوا النساء قهرا، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، وسار إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره، فلقيهم وهم قد تفرقوا للنهب، فانتهز الفرصة وقاتل من لقي منهم، فهزمهم وتمت الهزيمة على العجم، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، وكان يقول: مازلنا ننتظر العقوبة من الله عز وجل على سوء فعل العجم.

ذكر وفاة عز الدين مسعود

كانت وفاته في التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل مقابل دار المملكة وبقي في مرضه ما يزيد على عشرة أيام لاينطق إلاّ بالشهادتين وتلاوة القرآن والاستغفار، وكانت مدة ملكه ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر إلاّ أياما ، وكان خير الطبع، كثير الخير، والإحسان وزيارة الصلحاء وبرهم، وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لايكلم جلساءه إلا وهو مطرق، وما قال في شيء سئله « لا» ولبس خرقه التصوف بمكة، وكان يلبسها في كل ليلة، ويخرج إلى مسجد بناه في داره فيصلي فيه نحو ثلث الليل، رحمه الله.

وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن مسعود، وقام بتدبير دولته في ابتدائها مجاهد الدين قايماز مدبر دولة والده، واستمر نور الدين أرسلان شاه في الملك إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في أوائل شهر ربيع منها، ودفن في مدرسته التي أنشأها مقابل داره بالموصل، وكانت علته

قد طالـت ، وكانت مدة ملكـه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهـرا، وكان بينه وبين الملك العادل بن أيوب مخالفة، ثم اتفاق ومصاهرة، وكان شهما شجاعا ذا سياسة للـرعايا شديدا على أصحابه مانعـا من تعدي بعضهم على بعض.

ولما مات ملـك بعده ولـده الملك القـاهر عـز الديـن مسعود بـن نور الدين أرسلان شاه بن عز الديـن مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الديـن زنكي، وكان والـده قد حلف له العسـاكر، وأعطى ولـده الأصغر عماد الدين زنكي قلعـة عقر الحميدية وقلعة شوش، وأمـر أن يتولى تدبير دولـة القاهـر فتـاه بـدر الديـن لـؤلؤ ، فقـام بتـدبير الـدولة والنظـر في مصالحها. واستمـر الملك القاهر في الملـك إلى سنة خمس عشرة وستمائة، فتـوفي في ليلة الاثنين لثـلاث بقين مـن شهر ربيـع الأول منهـا، فكانـت ولايته سبع سنين وتسعـة أشـهر، وكان كريما قليل الطمـع في أموال رعيته مقبلا على أمـرائه، وملك بعـده ولده نور الـدين أرسـلان شاه بـن الملك القاهر عز الـدين مسعود بن أرسلان شاه ملك الموصل، بـوصية من أبيه، وكان عمره يـوم ذاك عشر سنين، وجعل الوصي عليه والمدبر لـدولته بدر الـديـن لـؤلـؤ، فقـام أحسـن قيـام، وراسـل الملـوك أصحـاب الأطـراف المجاورين لـه، وطلب منهم تجديد العهـد لنور الدين على القـاعدة التي كـانت اتفقـت بينهـم وبين أبيه، فـوافقـوه. وكتب إلى الـديـوان العزيـز، فجاءته الخلع والتقليـد من الخليفة بولاية نور الدين، ونظـر بدر الدين في أمور الدولة فلم يلبث نور الدين إلا أن توفي في هذه السنة.

ولما مـات استحلف بـدر الديـن لؤلـؤ العساكـر لأخيه نـاصر الديـن محمود بن الملك القاهر عز الديـن مسعود بن أرسلان شاه، وله من العمر ثلاث سنين. واستمر بدر الـدين لؤلؤ في تدبير الدولـة، فتجدد طمع عز الديـن زنكي بـن مسعود، ومظفر الـدين عميـة في ملك الموصـل لصغر سنه، فجمعـا الرجـال وتجهزا للحـركة، وقصـدا أطراف الموصـل بالنهـب

والفساد، فخرج إليهم بدر الدين لؤلـؤ بعساكر الموصل ، والتقوا، فكانت الهزيمة على العسكـر البدري، وعـاد إلى الموصل وتبعه مظفـر الديـن، ثم حصل الاتفـاق بعد ذلك واستقر كـل واحد على ما بيده. ثـم ملك عماد الدين قلعة كواشي، وهي من أحسن قلاع الموصل.

ثم مات ناصر الـدين محمود بعد مدة يسيرة، واستقر بدر الـدين لؤلؤ بملك الموصل، وتلقـب بالملك الرحيـم ودامت أيامه إلى أن تـوفي في سنة سبع وخمسين وستمائة، فكانـت مدة ملكه نحو أربعين سنـة، وملك بعده أولاده ، فكان الذي استقل بملك الموصل مـن أولاده الملك الصالح ركن الديـن اسماعيل، قتله التتـار في سنة تسع وخمسين وستمائة، وملـك الملك المظفر علاء الدين علي سنجار، ولما استـولى التتار على هذه الممالك وصل هؤلاء إلى الديـار المصرية المحروسة في أيـام السلطان الملك الظاهـر ركن الديـن بيبرس، وجهزهم صحبـة الخليفة المستنصر بـالله، فكان مـن أمره وأمرهم ما ذكـرناه ونذكره إن شاء الله تعالى، فلنـرجع إلى ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن مودود.

ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

استقر ملكـه بسنجار بعـد وفاة أبيه، واستقـلال أخويـه سيف الـدين غـازي، ثم عـز الديـن مسعود بملـك الموصـل، ثم تعـوض عماد الديـن بحلب عن سنجار، كما قـدمنا ذكره في أخبار عز الديـن مسعود، ثم أخذ الملك الناصر يـوسف منه حلب، وعـوضه عنها بسنجار وربـض الخابور، والرقـة، على ما نبينه إن شـاء الله في أخبار الملـك الناصر فاستقـر ملكه أخيرا بسنجـار ومـا معهـا في سنـة تسـع وسبعين وخمسمائة وكـان عـادلا حسـن السيرة في رعيته عفيفـا عـن أمـوالهم، كثير التواضـع ، يحب أهـل

العلم والـدين، ويجلـس معهـم، ، ويرجـع إلى آرائهم إلا أنـه كان شـديد البخل.

ولما مات ملك بعـده ولده قطب الديـن محمد بن عماد الديـن زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يـرنقش مملوك أبيه، وكان دينا خيراً عادلا حسن السيرة، واستمـر ملك قطـب الديـن بسنجار إلى سنـة ست عشرة وستمائة، فتـوفي في ثامـن صفر منهـا، وكان كـريما حسن السيرة في رعيتـه كثير الاحسان إليهم، وكان قد سلم الأمور إلى نوابه.

ولما مات ملك بعده ابنـه عماد الدين شاهان شاه بـن محمد. ولما ملك سار بعـد شهور إلى تلعفر ، وهـي في مملكته فدخـل عليه أخوه عمـر بن محمد في جماعة فقتلوه.

وملـك عمر بـن محمد ـــ وهـو فـروخ شاه ـــ فبقي بسنجـار إلى أن أخذهـا الملك الأشرف في سنة سبع عشرة وستمائة، وعـوضه عنها بالـرقة. وهو آخر من ملـك سنجار من البيت الأتابكي، فكـانت مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنـة. وتوفي بعـد أخذهـا منه بقليـل. فلنذكـر أخبار أولاد غازي.

ذكر أخبار معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي

ملـك جزيـرة ابن عمـر بعد وفـاة والده في صفـر سنة سـت وسبعين وخمسمائة. وكان كثير الأذى لعمه عـز الدين مسعود، فحـاصر مسعود في سنـة سبع وثمانين أربعـة أشهر، واستقـرت القاعـدة بينهم على أن يكـون لكل منهما نصف أعمال الجزيـرة، وتكون الجزيرة بيد سنجـر شاه في جملة النصف، ودام ملكه بالجزيرة إلى أن قتل.

ذكر مقتله وملك ولده معز الدين محمود

كان قتله في سنة خمس وستمائة على يد ولده غازي. وسبب ذلك أن سنجر شاه كان سيء السيرة في رعيته وأولاده وجنده وغيرهم، فكان من جملة ما اعتمده مع أولاده أنه بعث ابنيه محمودا ومودودا إلى قلعة أروخ من بلد الزوزان وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة أسكنه بها ووكل به من يمنعه من التصرف، وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل إليها من البستا ن الحيات والعقارب وغير ذلك من الحشرات، فاصطاد غازي حية وسيرها إلى أبيه لعله يرق له ويعطف عليه، فلم يزده إلا تماديا وإصراراً، فعندها أيس من خيره وأعمل الحيلة حتى نزل من الدار ، ووضع إنسانا كان يخدمه أظهر أنه غازي، وخرج من بلاد الجزيرة وقصد الموصل، فشاع الخبر أن غازي قد توجه إلى الموصل وهو مختف بالجزيرة ما خرج منها، ثم أعمل الحيلة وتسلق فنزل إلى دار أبيه، فستر عليه سراري والده لبغضهم في أبيه، ثم اتفق أن والده شرب في بعض الأيام ، وسكر ودخل الخلاء، ، فضربه ابنه غازي هذا بسكين فقتله، ثم ذبحه وتركه ملقى وقعد يلعب مع الجواري. فخرج بعض الخدم الصغار إلى باب الدار ، وأعلم أستاذ الدار بالخبر، فأحضر أعيان الدولة، وعرفهم الأمر وأغلق الأبواب على غازي واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه، ودخل على غازي فمانع عن نفسه ثم قتلوه ورمي على باب الدار، وأكلت الكلاب بعضه ودفن باقيه.

ووصل محمود إلى البلد وملك ولقب معز الدين لقب أبيه وغرق الجواري اللواتي اتفقن مع غازي على قتل أبيه في دجلة، ثم قتل محمود أخاه مودودا بعد مدة يسيرة.

ثم استقرت هذه الممالك الجزيرية وغيرها في يد بدر الدين لؤلؤ، وهو الملقب بالملك الرحيم، وملك أولاده من بعده إلى أن استولى عليها التتار في سنة سبع وخمسين وستمائة. هذا ملخص ما وصل إلينا من أخبار هذه الدولة فلنذكر ما عداها. . . . .

- ١٠٤٥٣ -

ذكر بيعة المستعلي

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد، وهو التاسع من ملوك الدولة العبيدية ، والسادس من ملوك مصر منهم، بويع له في بكرة نهار الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة

وذلك أن المستنصر بالله لما توفي بادر الأفضل أمير الجيوش بدخول القصر وأجلسه على تخت المملكة، وسير إلى إخوته نزار، وعبدالله، وإسماعيل،وأعلمهم بوفاة أبيهم، وأمرهم بسرعة الحضور، فلما حضروا شاهدوا أخاهم الصغير وقد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا من ذلك، فقال لهم الأفضل: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى، ولمولانا المستعلي بالله وبايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده، فقال نزار: لو قطعت ما بايعت من هو أصغر مني سنا، وخط والدي عندي بولاية العهد، وأنا أحضره . وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى إلى الإسكندرية، فسير الأفضل خلفه من يحضره، فلم يعلم أين توجه ولا كيف سلك، فانزعج الأفضل لذلك .

وقيل إنه لما توفي المستنصر بالله جلس بعده ولده أبو منصور نزار، وهو ولي العهد وأراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش من ذلك لكراهته فيه واجتمع بجماعة الأمراء والخواص وقال لهم : إن هذا كبير السن ولا نأمنه على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي القاسم أحمد. فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكي، فإن نزارا كان قد وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما علم ابن مصال الحال أطلع نزارا عليه.

وبادر الأفضل وبايع أحمد الخلافة، ونعته المستعلي بالله وأجلسه على

سرير الملك، وجلس الأفضل على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة نصر الإمام علي بن الكحال ومعه الشهود، وأخذ البيعة على مقدمي الدولة ورؤ سائها وأعيانها، ثم مضى إلى إسماعيل وعبد الله، وهما بالقصر في المسجد وعليهما التوكيل، فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا

المستعلي بالله،وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا ؟ فقالا: السمع والطاعة ، إن الله اختاره علينا . وبايعاه، وكتب بذلك سجل قرأه على الأمراء الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء ، وبادر نزار وأخوه عبد الله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية، وعليها ناصر الدولة أفتكين التركي، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي، فعرفوه الحال ووعدوه بالوزارة، فبايعه أهل الثغر، ولقب بالمصطفى لدين الله.

ذكر ما اتفق لنزار ومن معه

قال: وفي محرم سنة ثمان وأربعمائة خرج الأفضل بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال، فلما قرب منها خرجوا إليه والتقوا، واقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الهزيمة على الأفضل ومن معه، فرجع إلى مصر ونهب نزار ومن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.

ثم خرج الأفضل ثانيا وحاصر الإسكندرية ، واشتد الحصار إلى ذي القعدة. فلما اشتد الحال رأى ابن مصال مناما، فلما أصبح أحضر رجلا أعجميا وقال له: رأيت كأني راكب فرسا، وكأن الأفضل يمشي في ركابي

فقال له العجمي: الماشي على الأرض أملك لها . فلما سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لك قرية من قرى برقة، فعند ذلك ضعفت قوة نزار وأفتكين، فاضطر إلى مسالمة الأفضل وأرسلا يطلبان الأمان، فأمنهما وفتحت البلد.

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين، وسيرهما إلى

مصر، وكان آخر العهد بنزار، قيل.إنه جعله بين حائطين إلى أن مات. وكان مولده في عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة . وأما أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس. وأما محمود بن مصال فكاتبه الأفضل ورغبه في العود، فعاد إلى مصر، فأكرمه الأفضل.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان صاحب حلب للمستعلي بالله أربع جمع، ثم قطع خطبته، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية والله أعلم .

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدس

وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل البيت المقدس، وهو في يد الأمير سقمان وإيلغازى، ابني أرتق، وجماعة من أقاربهما.وخلق كثير من الأتراك.

فراسلهما يلتمس منهما تسليم البيت المقدس من غير حرب ولا سفك، فلم يجيباه لذلك، فنصب المجانيق وهدم منه قطعة، وقاتل، فاضطرالتسليمه فسلماه له، فخلع عليهما وأطلقهما، وعاد الأفضل إلى مصر.

ونقل محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر أن الأفضل لما رجع من بيت المقدس مر بعسقلان، وكان في مكان دارس بها رأس الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فأخرجه وعطره وطيبه، وحمل في سفط إلى أجل دار بها، وعمر المشهد، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صدره وسعى ماشيا إلى أن رده إلى مقره، ثم نقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله، وقيل إن المشهد ابتدأ بعمارته بدر الجمالي وكمله الأفضل.

-١٠٤٥٦-

ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميع ما استولوا عليه مما نذكره داخلا في ملك الدولة العبيدية، بل كان منه ما هو في أيدي نواب المستعلي، وما هو بيد الملوك الذين تغلبوا على الأطراف، ولم يكن أيضا في أيام المستعلي خاصة ، وإنما أوردناه بجملته في هذا الوضع لتكون الأخبار متتابعة ولا تنقطع بالسنين والدول. وقد نبهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية .

والذي نذكره الآن في هذا الموضع هو ما استولوا عليه من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها.

كان ابتداء ظهورهم وامتدادهم وتطرقهم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وذلك أن بلاد الأندلس لما تقسم ملوكها بعد بني أمية وصارت كل جهة بيد ملك، وأنفت نفس كل واحد أن ينقاد إلى الآخر ، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك الطوائف في زمن الفرس، وعجز كل واحد عن مقاومة من يليه أو يقصده من الفرنج، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسلامية . فأول ما استولوا عليه مدينة طليطلة من الأندلس، على ما ذكرناه في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئا ثم استرجع منهم، على ما قدمناه

ذكر ملكهم مدينة انطاكية

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على مدينة أنطاكية في جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكانت بيد ملوك الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملك سليمان بن شهاب الدين

ولد قتلمش السلجقي، صاحب أقصراوقونية وغير ذلك من بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل . وتداولتها أيدي المتغلبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد ياغي سيان، وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تتش صاحب حلب، ولأخيه الملك دقاق صاحب دمشق.

فلما كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين ملك الفرنج جمعا كثيرا من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي صاحب صقلية، فأرسل إليه بغدوين يقول: قد جمعت جمعا كثيرا وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية وأكون مجاورا لك .

فجمع رجار أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح كلها للنصرانية. فلما سمع رجار كلامهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجليه وحبق حبقة قوية، وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم قالوا: وكيف ذلك؟ قال إذا وصلوا إلي احتجت إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر من جهتي، فإن فتحوا البلاد وكانت لهم صارت مؤونتهم من صقليةوينقطع عني ما يصل إلي من المال من ثمن الغلات في كل سنة، وإن لم يفتحوها رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم،ويقول تميم، صاحب إفريقية غدرت بي ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقية متى وجدنا قوة أخذناها بها.

ثم أحضر رسوله وقال له:إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتح بيت المقدس وخلصوه من أيديهم، ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود ، فاخرجوا إلى الشام.

وقيل إن المستنصر، أو المستعلي لما رأى قوة الدولة السلجقية وتمكنها، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، راسل الفرنج يدعوهم إلى الخروج إلى الشام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين، والله تعالى أعلم.

فلما عزم الفرنـج على قصد الشام ساروا إلى قسطنطينيـة ليعبروا المجاز إلى بـلاد الإسلام ويسيروا في البر فيكـون أسهل عليهـم ، فمنعهم ملـك الروم من ذلك، ولم يمكنهم أن يمروا ببـلاده، وقال: لاأمكنكم من العبور إلا أن تحلفـوا أنكم تسلمـون إلي أنطـاكيـة، وكان قصـده أن يحثهـم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنا منه أن الترك لايبقـون منهم أحدا لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد.

فأجـابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنـة تسعين وأربعمائة. ووصلوُا إلى بـلاد قلج أرسـلان بـن سليمان بن قتلمـش، فلقيهـم في جموعه ومنعهـم، فقاتلوه وهـزموه، وذلك في شهر رجـب منها، ومروا في بلاده إلى بـلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية، فحصروها.

قال المؤرخ : فلما سمع صاحبها ياغي سيـان بتوجههم إليها خاف من النصاري الـذين بها، فـأخرج من بها مـن المسلمين بمفردهـم في أول يوم وأمرهم أن يحفروا الخنـدق ، ثم أخرج النصارى من الغد لـذلك . فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخـول البلد منعهم ، وقـال لهم: أنطاكيـة لكم فهبوها لي حتى أنظر ما يكون بيننا وبين الفـرنج، فقالوا: من يحفظ أولادنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم، فأمسكوا ثم صاروا في عسكر الفرنج.

وحصرت أنطاكية تسعـة أشهر، وظهر من حـزم ياغي سيان واحتيـاطه وجودة رأيـه ما لم يشاهد مثلـه، وهلك أكثر الفـرنجة موتا وقتـلا، وحفظ ياغي سيـان أهل نصارى أنطاكية الـذين أخرجهم، وكـف الأيدي عنهم فلما طـال مقام الفـرنج عليهـا راسلـوا أحد المستحفظين لـلأبراج، وهـو زراد، ويعرف بروزبة، وبذلوا له مـالا وإقطاعا، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، وهو مبني على شباك في الوادي.

فلما تقرر الأمـر بينهم وبينـه، جاءوا إلى الشبـاك ففتحوه ودخلـوا منه، وصعد جماعة كبيرة منهم بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البـوق وذلك عنـد السحر وقـد تعب النـاس من كثـرة السهر والحراسـة، فاستيقظ يـاغي سيان وسأل عـن الحال فقيل له: هذا البـوق من القلعة، ولا شـك أنها قـد أخـذت. ولم يكن مـن القلعـة وإنما مـن ذلـك البرج.

فداخله الرعب، ففتح باب البلد وهرب في ثلاثين غلاما، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقيل له: إنه قد هرب، فخرج من الباب الآخر هاربا. وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة هلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين.

وأما ياغي سيان، فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقلة وكان كالوهان فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل.

وجعل يتلهف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، ويسترجع، فسقط عن فرسه لشدة ما ناله، وغشي عليه. فأراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن فيه مسكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه فاجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله، وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكية.

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال: ولما وصل خبر أنطاكية بالأمير قوام الدين كربوقا صاحب الموصل، جمع العساكر وسار بهم لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار، فلما بلغ الفرنج اجتماعهم عظمت عليهم المصيبة وداخلهم الخوف، لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات، وسار المسلمون حتى نازلوا أنطاكية، فأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، فأغضبهم ذلك وأضمروا في أنفسهم الغدر به إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند الصدمة.

قال: وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة عشر يوما ليس لهم ما يأكلونه، فتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم، وقال: لا تخرجون منه إلا بالسيف.

وكـان معهم مـن الملوك: بغـدويـن ، وصنجيل وكنـدفري، والقمـص صاحب الرها، وبيمند صاحب أنطـاكية وهو مقدم العسكر. وكان معهم راهب مطاع فيهم فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بنـاء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

وكان هو قـد دفنها قبل ذلك وعفى أثرهـا. وأمرهم بالصوم ثـلاثة أيام والتوبـة، ففعلوا ذلـك، فلما كان في اليـوم الرابـع أدخلهم جميعهـم وجميع عامتهم والصناع، وحفـروا عليها في ذلك المكان فوجدوهـا كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخـرجوا في اليوم الخامس من البـاب بين خمسة وستة ونحو ذلـك، فقال المسلمون لكربـوقا: ينبغي أن نقف على البـاب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن سهل، فقال: أمهلوهم حتـى يتكاملوا، ولم يمكن من معاجلتهم، فقتل قـوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم.

فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق منهم أحـد بأنطاكية ضربوا مصافا عظيما، فانهزم العسكر الإسلامـي لما عاملهم به كربوقـا من الاستهانة بهم والإعراض عنهـم، فتمت الهزيمـة عليهم، ولم يضرب أحـد منهم بسيـف ولا طعن برمـح، ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بـن أرتق، وجناح الـدولة، لأنهما كـانا في الكمين، وانهزم كـربـوقا معهـم، فلما رأى الفرنـج ذلك ظنـوه مكيدة، فخـافوا أن يتبعـوهم، وثبـت جماعة مـن المجاهـدين وقاتلوا حسبة ورغبـة في الشهادة، فقتل الفرنج منهم ألـوفا، وغنموا ما في العسكـر مـن الأقـوات، والأمـوال، والآلات، والـدواب، وغير ذلـك، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

ذكر ملكهم معرة النعمان

قال المؤرخ : ثـم سار الفـرنج إلى معرة النعمان، فنـازلوهـا وحصروها، وقاتلهـم أهلها قتـالا شديـدا، فرأى الفرنـج منهم شـدة ونكايـة عظيمة. فعمـل الفرنـج عند ذلـك بـرجا مـن خشـب يوازي سـور المدينة، ووقـع

القتال عليه، فصبر المسلمون على القتال إلى الليل، ثم خاف قوم منهم وفشلوا، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا عن السور وأخلوا مكانهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثل ذلك ولم تزل كل طائفة منهم تتبع الأخرى حتى خلا السور، فصعد الفرنج إليه على السلاليم، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم ، ووضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير.

وأقاموا بها أربعين يوما وساروا إلى عرقة، فحصروها أربعة أشهر ، ونقبوا سورها عدة نقوب ولم يقدروا عليها. وراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر، وصالحهم عليها، ثم ساروا إلى حمص وحصروها ، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها، فساروا إلى البيت المقدس.

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على البيت المقدس في يوم الجمعة، ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذ ذاك بيد افتخار الدولة نيابة عن المستعلي بالله. فإنه كان بيد تاج الدولة تتش السلجقي صاحب الشام، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بيد نوابه إلى الآن ، فقصده الفرنج عند عجزهم عن فتح عكا، وحصروه نيفا وأربعين يوما، ونصبوا عليه برجين، أحدهما من ناحية صهيون، فأحرقه المسلمون وقتلوا جميع من فيه من الفرنج.

فلما فرغوا من ذلك أتاهم الصارخ أن المدينة قد امتلكت من الجانب الآخر، وهو الجانب الشمالي، وركب الناس السيف ولبث الفرنج أسبوعا يقتلون فيهم.

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام،

فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، فوفوا لهم، وخرجوا إلى عسقلان وأقاموا بها.

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم، ممن فارق أهله، ووطنه وجاور بذلك الموضع الشريف . وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة، زنة كل قنديل (ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه) [٦] أربعون رطلا بالرطل الشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا من الفضة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا. وغنموا ما لايقع عليه الإحصاء وورد إلى بغداد القاضي سعد الهروي في شهر رمضان، ومعه جماعة، يستنفرون الناس، وأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون، وصدع القلوب واستغاثوا بالجامع يوم الجمعة، وبكوا، وذكروا ما نزل بالمسلمين من البلاء، وما حل بهم من المصيبة. فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وغيرهما، إلى السلطان بسبب ذلك، فاتفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين الملوك السلجقية، فتمكن الفرنج من البلاد.

قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جمع العساكر وخرج إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السنة. ثم كبسه الفرنج هو ومن معه، وهم على غير تعبئة، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على عشرة الآف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، فعادوا إلى القدس.

قال: وكان الذي ملك البيت المقدس من الفرنج كندفري

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ : وفي ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة لقي كمشتكين بن الدانشمند طايلو، وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه واستقدمه عليه،

فورد عليه في خمسة آلاف، فلقيهم ابن الدانشمند، وقاتلهم، فهزم بيمند وأسر.

ثم وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج، فأرادوا خلاص بيمند، فأتوا إلى قلعة أنكورية فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فحصروها وفيها إسماعيل بن الدانشمند ، فجمع الدانشمند جمعا كثيرا، ولقي الفرنج، وجعل له كمينا، فقاتلهم وخرج عليهم الكمين فقتلهم.وكانوا ثلاثمائة ألف لم يفلت منهم غير ثلاثة آلاف هربوا..

وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

قال ابن الأثيرالجزري: وكانت هذه الوقائع في شهور قريبة.

قال: ولم يزل بيمند في أسره إلى سنة خمس وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه

ذكر قتل كندفري وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه الفرنج من البلاد وهي : حيفا، وأرسوف، وقيسارية، والرها، وسروج

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البيت المقدس إلى عكا، فحاصرها، فأصابه سهم فقتله، وكان قد عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري، فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل، فبلغ ذلك الملك شمس الملوك دقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عسكره ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه فقاتله، فنصر على الفرنج.

وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حيفا عنوة وهي على ساحل البحر بالقرب من عكا، وملكوا أرسوف بأمان وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها، وفيها ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرها بمكاتبة من أهلها، لأن أكثر

أهلها أرمن،فلما كان الآن جمع الأمير سقمان بن أرتق جمعا عظيما من التركمان وزحف بهم إليهم، فلقوه وقاتلوه، فهزموه في شهر ربيع الأول. فلما تمت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سروج، فتسلموها، وقتلوا كثيرا من أهلها وسبوا حريمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يسلم منهم إلا من انهزم

ذكر أخبار صنجيل الفرنجي وما كان منه في حروبه وحصار طرابلس والطوبان وملك أنطرطوس

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قلج أرسلان صاحب قونية، وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقلج في عدد يسير، واقتتلوا، فانهزم الفرنج وأسر كثير منهم، وفاز قلج بالظفر والغنيمة.ومضى صنجيل مهزوما في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدولة بحمص وإلى الملك دقاق بدمشق يقول: من الصواب معاجلة صنجيل إذ هو في العدد اليسير فخرج إليه جناح الدولة بنفسه وسير دقاق ألفي مقاتل، وأتتهم الأمداد من طرابلس، وصافوا صنجيل فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق، وخمسين إلى عسكر حمص وبقي في خمسين

فأما عسكر حمص فانهزموا عند المشاهدة وتبعهم عسكر دمشق.

وأما عسكر طرابلس فإنهم قتلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ونازل طرابلس وحصرها.

وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصرها، هم وأهل السواد، لأن أكثرهم نصارى، فقاتل من بها أشد قتال، فقتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادنهم ابن عمار على مال وخيل، فرحل صنجيل عنهم إلى مدينةأنطرطوس، وهي من أعمال طرابلس، فحصرها وفتحها، وقتل من بها من المسلمين.

ورحل إلى حصن الطوبان(٧)، ومقدمه ابن العريض، فقاتلهم فنصرعليهم وأسر فارسا من أكابر فرسانهم، فبذل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار،وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك.

ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية، فيها التجار والمقاتلة والحجاج وغيرهم،فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحاصروها معه وضايقوها، فلم يروا فيها مطمعا، فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل فحصروها وقاتلوا عليها قتالا شديدا،فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها، فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلم البلد منهم،فلم يف لهم. وأخذ الفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب.ثم ساروا إلى عكا نجدة لبغدوين، صاحب القدس، على حصارها، فنازلوها وحصروها في البر والبحر، وعليها زهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد قتال. فلما عجز عن حفظ البلد فارقه، وملك الفرنج عكا بالسيف، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. وساروا منها إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أفامية، وسرمين من أعمال حلب.

وفي سنة اثنتين وخمسمائةفتح السرداني عرقة، وذلك أنها كانت بيد غلام فخر الملك ابن عمار، وقد عصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة، فكاتب طغدكين صاحب دمشق أن يرسل إليه من يتسلم الحصن لعجزه عن حفظه،فبعث إليه طغدكين صاحبا له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلم الحصن، فلما نزل غلام ابن عمار رماه اسرائيل بسهم فقتله في الاختلاط، طمعا في المال الذي بعرقه لئلايطلع طغدكين عليه.

قال وأراد طغدكين أن أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار مدة شهرين، فعجز عن ذلك. فلما انقطع المطر ركب في

أربعة آلاف فارس وجاءوا إلى عرقة، فتوجه إليه السرداني وهو يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طغدكين عندما أشرفت الخيل من غير قتال، فأخذ السرداني أثقالهم وتسلم الحصن بأمان ، وقبض على إسرائيل، وقال لا أطلقه إلا بفلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيرا ففودي به.

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لما ملك مدينة جبيل، كما ذكرنا، حصر طرابلس، فلما لم يتمكن منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حصنا وجعل تحته ربضا، وأقام يرصدها ينتظر فرصة، فخرج الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، فأحرق ربضه، فوقف صنجيل على سقوفه المحترقة،ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم. فمرض صنجيل عشرة أيام، ومات، وحمل إلى القدس فدفن هناك، وذلك في سنة تسع وتسعين وأربعمائة

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين، فسار الملك ابن عمار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسلطان على الفرنج، على ما ذكرناه، وعاد من بغداد في منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها

وأما طرابلس فإن ابن عمار لما فارقها راسل أهلها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه واليا يكون عندهم ومعه الميرة في البحر، فسير إليهم الأفضل شرف الدولة بن أبي الطيب واليا، ومعه الغلال وغيرها . فلما صار إليها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره

فلما كان في شعبان سنة ثلاث وخمسمائة وصل اسطول كبير من بلدالفرنج، مقدمه قمص كبير اسمه ريمند بن صنجيل(٨)، ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وليس ريمند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره، فنزل على طرابلس وكان السرداني وهو ابن اخت

صنجيل محاصرا لها قبله، فجرت بينهما فتنة أدت إلى الشر والقتال فوصل تنكري صاحب أنطاكية إليها إعانة للسرداني، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدس في عسكره، فأصلح بينهم، فنزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألصقوا أبراجهم بسورها؛ فلما شاهد الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم، وذلت نفوسهم، وزادهم ضعفا، فتأخر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة ، وداوم الفرنج القتال والزحف إلى أن ملكوا البلد عنوة، وذلك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة ثلاث وخمسمائة ، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والذرية، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يوصف.

وكانت طرابلس من أعظم البلاد، وأهلها من أكثر الناس أموالا.

وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الفرنج أهل طرابلس بأنواع العقوبات، وأخذت دفائنهم وذخائرهم .

ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول الأسطول إليها بعد أن ملكت بثمانية أيام، ففرق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها: صور وصيدا وبيروت

ذكر ملك الفرنج جبلة وبلنياس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكية إلى بلنياس، فافتتحها وأمن أهلها، ونزل على مدينة جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، وكان القوت قد قل بها، فقاتل من بها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.

وخرج فخر الملك ابن عمار وقصد شيزر، فأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن علي بن منقذ الكناني. ثم سار إلى دمشق فأكرمه طغدكين

صاحبها . وأجزّل له في العطية، وأقطعه أعمال الزبداني، وذلك في المحرم سنة أربع وخمسمائة

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفي جمادى الأولى سنة أربع وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صيدا، وكانت من جملة ما هو بيد طغدكين صاحب دمشق. وذلك أنه وصل في البحر ستون مركباللفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم، ليحج إلى القدس ويغزو المسلمين بزعمه، فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرر معه الغزو فنزلوا على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر، وضايقوها في البر والبحر، ومنعوا الأسطول المصري من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة صور، فعمل الفرنج برجا من الخشب وأحكموه، وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارةعنه، وزحفوا به. فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان، فأمنوهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم، ومن أراد المقام بها عندهم أمنوه، ومن أراد المسير عنهم لا يمنعوه، وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعة كثيرة معه تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثم عاد إليها بعد مدة يسيرة يقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار، فاستغرق أموالهم وأفقرهم.

ذكر استيلائهم على حصن الأثارب وحصن زردنا

وفي سنة أربع وخمسمائة جمع صاحب أنطاكية الفارس والراجل، وسار إلى حصن الأثارب، وهو على ثلاث فراسخ من حلب، فحصره ومنع الميرة عمن فيه، فضاق الأمر عليهم، فنقب المسلمون من القلعةنقبا وقصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه، فلما فعلوا

ذلك استأمن إليه صبي أرمني فعرفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز، وجد في قتالهم حتى ملك الحصن عنوة، وقتل من أهله ألفي رجل وسبى.

ثم سار الى حصن زردنا فحصره وفتحه، وفعل بأهله مثل ذلك. فلما سمع بذلك أهل منبج فارقوها خوفا من الفرنج، وكذلك أهل بالس، فطلب أهل الشام الهدنة، فامتنع الفرنج ثم أجابوا، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار، وخيول وثياب، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار،وصالحهم علي الكردي صاحب حماةعلى ألفي دينار. وكانت عدة الهدنة إلى إدراك المغل وحصاده. ثم جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضا.

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاء الفرنج، خذلهم الله تعالى، على مدينة صور في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة، وذلك أن الفرنج في هذه السنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القدس على حصارها، وكانت إذ ذاك بيد نواب الآمر بأحكام الله وبها من قبله عز الملك الأعز، فحصروها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة، وعملوا ثلاثة أبراج من الخشب علو البرج سبعون ذراعا في كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحد الأبراج بسور صور، فجمع عز الملك أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج، فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن إحراقها، وأخذ ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالسور وألقوا الحطب من جهاته، وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في الأبراج باطفاء النار، فرماهم بجرار مملوءة بالعذرة كان قد أعدها لهم فلما سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهم من الرائحة الكرهة، فتمكنت النار من البرج وأحرق المسلمون البرجين أيضا.

وكاتب عز الملك طغدكين، صاحب دمشق، فأنجده بالرجال، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج، فرجعوا من حصار مدينة صور في شوال من السنة.

ثم عـادوا في سنة ست وخمسمائة إلى الحصار، وضـايقوا البلد، فـأرسل أهل صور إلى طغـدكين صاحب دمشق يطلبـون منه أن يرسل إليهـم من جهته مـن يتولى أمرهـم ويحميهم، وتكـون البلد له. فسير إليهـم عسكراً، وجعل عنـدهم واليـا اسمه مسعـود، وكان شهما شجـاعا عـارفاً بـالحرب ومكايـدها،وأمده بـالعساكر والميرة، فطابـت قلوب أهل البلـد. ولم يقطع خطبة الآمر بأحكام اللـه ولا غير سكته، وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يعرفـه ما عمـل ويقول: متـى وصل مـن مصر من يتـولاها ويـذب عنها سلمتهـا إليه، وطلـب منهم ألا ينقطـع الأسطـول عنها بـالرجـال والميرة، فـأجابـه الأفضل إلى ذلـك، وشكره على مـا فعل، وجهـز اسطولا إليهـا، فاستقامت أحوال أهلها.

ولم يزل كـذلك إلى سنـةست عشرة وخمسمائة، بعـد قتل الأفضـل أمير الجيوش، وذلـك أن المأمون ابن البطائحـي لما ولي إمرة الجيوش بعـد قتل الأفضل سير إلى صـور أسطولا على العـادة، وأمر المقـدم عليه أن يعمـل الحيلـة على الأمير مسعـود، الـوالي مـن قبـل طغـدكين، ويقبـض عليـه، ويتسلم البلـد منه، وكان سبب ذلـك أن أهل صور شكوا منـه إلى الآمر بأحكام اللـه، فلما وصل الأسطول وجاء الأمير مسعـود ليسلم على المقدم قبض المقـدم عليه واعتقله، وحملـه إلى الآمر، فأكـرمه وأعاده إلى صـاحبه بـدمشـق. واستـولى مقـدم الأسطـول على مـدينـة صـور، وراسـل الأمير طغدكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره، ووعده المساعدة.

فلما سمـع الفرنـج بانصراف مسعـود عـن صور قـوي طمعهم فيهـا، وشرعوا في الجمع، واتصـل خبرهم بواليها ، فعلـم أنه لاقوة له ولا طـاقة بهم، لقلة من بها مـن الجند والميرة، وأرسل إلى الآمر بذلـك، فرأى أن يرد ولاية صـور إلى طغدكين، فـأرسل إليـه بذلـك، فملكها ورتـب بها الجند وغيرهم.

وسار الفرنـج إلى صور، ونازلوها في شهـر ربيع الأول سنة ثماني عشرة، وضيقـوا عليها ولازمـوا القتـال، فقلت الأقـوات، وسئـم من بها القتـال، وضعفت نفـوسهم. وسار طغدكين إلى بـانياس ليقرب منهم ويـذب عن

البلد، وأرسل إلى الآمر يستنجده، فلم ينجده، وأشرف أهلها على الهلاك.فحينئذ راسل طغدكين الفرنج على أن يسلم إليهم البلد، ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما قدروا عليه من أموالهم وغيرها، فاستقرت القاعدة على ذلك، وفتحت أبواب البلد، وفارقه أهله، وحملوا ما أطاقوا وتفرقوا في البلاد، ولم يتعرض الفرنج إليهم ، وملك الفرنج البلد في التاريخ الذي قدمناه، ولم يبق بصور إلا ضعيف عاجز عن الحركة.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس من المسلمين، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي، ورغبته في ذلك وانضمامه إلى الفرنج، على ما قدمنا ذكره في أخبار تاج الملوك طغدكين صاحب دمشق.

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية . فلنرجع إلى أخبار الدولة العبيدية.

ذكر وفاة المستعلي بالله

كانت وفاته في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة

ومولده لعشر بقين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وثمانية وعشرين يوما

ومدة ولايته سبع سنين وشهرا واحدا وثمانية وعشرين يوما.

ولم تكن له سيرة تذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، لم يكن للمستعلي معه من الأمر إلا الاسم ، والرسم للأفضل

وكان للمستعلي من الأولاد أبو علي المنصور، وجعفر، وعبد الصمد. وزيره:الأفضل أمير الجيوش.

قضاته: أبو الحسن بن الكحال النابلسي، ثم أعاد ابن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ذكر بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بالله، وهو العاشر من ملوك الدولة العبيدية، والسابع من ملوك الديار المصرية منهم.

قال المؤرخ: لما مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولده أبا علي هذا على سرير الخلافة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وبايع له الناس ولقبه بالآمر بأحكام الله، وله من العمر خمس سنين وشهر واحد وأيام.

قال: ودبر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

وفي سنة خمسمائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدار المعروفة بدار الملك على شاطىء النيل بمصر، وكملت عمارتها في سنة إحدى وخمسمائة، وسكنها

ومدحه الشعراء .فممن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء منها :

دار هي الفلك الأعلى، وأنت بها
شمس الضحى، وبنوك الأنجم الزهر

ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية

ذكر انشاء ديوان التحقيق

وفي سنة إحدى وخمسمائة جدد ديوانا وسماه ديوان التحقيق ، واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وبقي فيه إلى أن قتل في سنة ثمان وعشرين. واستمر هذا الديوان إلى أن انقرضت الدولة العبيدية وانقطع، ثم اعاده السلطان الملك الكامل بن الملك العادل في سنة أربع وعشرين، واستخدم فيه أبو كوجك اليهودي، ثم أبطل في سنة ست وعشرين وستمائة فلم يعد، واستخدم في أيام السلطان الملك المعز أيبك صفي الدين عبدالله بن علي المغربي في استيفاءمقابلة الدواوين، وهو نوع منه .

ذكر حل الاقطاعات وتحويل السنة

وفي سنة إحدى وخمسمائة كثرت شكاوى الأجناد وطائف العساكر المصرية بسبب إقطاعاتهم، وأنها خربت وقل ارتفاعها، وأنها لاتقوم ببعض كلفهم، وأن الاقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع، فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائحي، وهو وزيره واستاذ داره، واستشاره فيما يفعل في ذلك، فأشار بحل جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطوائف للمزايدة فيها، فاتفق الرأي على ذلك.

وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدث معهم في ذلك، فقال الأمراء: لنا في إقطاعاتنا أملاك وبساتين ومعاصر وغيرها، فقال الأفضل: الأملاك لملاكها على حالها يتصرفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حل الإقطاعات ووقعت الزيادة فيها، وتميز لكل منهم إقطاع، وكتبت المناشيربذلك، ثم شكي إليه كثرةعبرة البلاد وأن متحصلها

لايفي بـالعبرة وحصل لديـوا ن السلطان ضيـاع ،مقورة عبرتهـا خمسون ألف دينا ر في كل سنه.

ونقلـت السنة الشمسيـة الخراجيـة إلى الهلالية، وكـانـت سنة إحـدى وخمسمائة الهلالية وسنـة سبع وتسعين وأربعمائة الخراجية فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة أغار بغدوين ملـك الفرنج على الفرما وقتل جميع مـن بها، وأحرق جامعها ومسـاجدها، وذلك بعـد أن حاصرها أيامـا، والفرما كـانت بلدة بين القصير والغرابي مـن منازل الرمـل، وهي الآن خراب. وقصـد بغدوين مصر فـرحل عـن الفرما، ورجـع إلى البيت المقدس، وهـو مثقل بالمرض، فهلـك بموضع يقال لـه جور قبل وصـوله إلى العريـش. فشق الفـرنج بطنه وألقـوا مصارينه هنـاك، فهى تـرجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس

وفي سنـة إحـدى عشرة وخمسمائة رتب ذخيرة الملـك جعفـر في ولايـة القـاهرة، ونظـر الحسبة وظلـم وعسف، وهـو الذي بنـى المسجد بسـوق الخيل المعروف: بالذخيرة، ومسجد «لابالله» (١٠) ، وسبب تسميته بذلك أنه كـان يقبض النـاس من الطـريق ويعسفهـم، فيقولـون له: لا بـالله، فيقيدهـم ويستعملهم فيه بغير أجرة، ولم يعمـل فيه صانع إلا وهـو مكره مقيد. فـابتلى الله ذخيرة الملك بأمـراض شديدة، ولما مات تجنـب الناس الصلاة عليه وتشييعه.

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفي سنة اثنتـي عشرة وخمسمائة عمر الشريف أبـو محمد قاسـم بن أبي هاشم، أمير مكة، مـراكب حربية وشحنها بالمقـاتلة وسيرهم إلى عيذاب،

فنهبوا مراكب التجار وقتلوا جماعة منهم، فحضر من سلم من التجار إلى باب الأفضل، وشكوا ما حل بهم فأمر بعمارة حراريق يجهزها، ومنع الناس أن يحجوا في سنة أربع عشرة، وقطع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار، وكان الأفضل قد كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر ، والتزم برد المال إلى أربابه، ومن قتل من التجار فماله لورثته، وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة

ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وقد ركب من دار الملك بمصر فقتل عند كرسي الجسر، قتله الباطنية. قيل بمواطأة من الآمر ، لأنه كان قد ضاق منه لتحكمه عليه ومنعه من شهواته، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إن هذا الأمر فيه من قبح الأحدوثة وسوء الشناعة ما لاتحمد عاقبته، لأن هذا الرجل ما عرف له ولا لأبيه إلا المودة في خدمة هذا البيت والذب عنه، وإن قتلناه لا غنية أن نولي منصبه لغيره، فيكون المتولى بعده على وجل واحتراس، وإنما الرأي أن ندبر عليه فدبر عليه حتى قتل. هذا أحد الأقوال في قتله.

قال: ولما وثب الباطنية عليه ضرب ثماني ضربات، لوقته، وحمل على أيدي مقدمي ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكنون أحدا من الدنو منه، وهم يبشرون الناس بسلامته، حتى وضعوه على سريره وغطي، ونفذ المأمون أخاه حيدرة إلى الآمر يقول له: أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه أنا وأنت، وأوصاه أن يهنيء من وجده بسلامةالأفضل، ففعل حيدرة ذلك، وهنأ حرم الأفضل وغيرهم. فعزم أولاده على إثارة

فتنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالي، فأمر الآمر بحمل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة البنود، فحملوا إليها، وبات الآمر بدار الملك.

قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السنة، جميل السيرة، مؤثرا للعدل، صائب الرأي والتدبير، حسن الهمة، كريم النفس، صادق الحديث.

ونال الناس بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف ما لا يعبر عنه.

فجاء الناس إلى باب الآمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبوه أقبح سب، فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا يسلم عليكم ويقول لكم: ما السبب في سب الأفضل وقد كان قد أحسن إليكم وعدل فيكم؟ فقالوا: إنه عدل وتصدق وحسنت آثاره، ففارقنا بلادنا حبا لأيامه، وأقمنا في بلده فحصل بعده هذا الجور، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده

قال المؤرخ: لما قتل الأفضل أحضر الآمر وزيره الشيخ أبا الحسن علي الحلبي،والقائد أبا عبد الله محمدوسألهما عن الاموال، فقال القائد أما السر فأعلمه،وأما الظاهر.فالوزير يعلمه، وأخبراه بذخائره وأمواله، وأقام الآمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور، فوجد له من الذخائر النفيسة ما لايحصى.

وذكر أن الذي وجد له من الأموال ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف.ألف ومائتان وخمسون دينار، وخمسون أردبا دراهم، وثلاثون راحلة من الذهب

العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير من الذهب، زنة كل مسمار مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الديباج الملون، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة جسده، ولعبة من العنبرعلى قدر جسده برسم ثيابه توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها، وترك من الطيب والآلات والنحاس ما لايحصى.

وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في السنة. وكانت الدواةالتي يكتب منها مرصعة بالجواهر، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار، وخلف من ا لكتب خمسمائة ألف مجلد.

وحكى القاضي زكي الدين أبو زكريا يحيى بن علي الدمشقي في تاريخه عما خلفه الأفضل فقال: خلف جملة لم يسمع أحدا من الملوك والخلفاء في هذا الزمان جمع مثله ولاادخر مثل بعضه: وأن الآمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دوره إلى القصر، فحمل على عدة كثيرة من الجمال والبغال، ونقل في شهرين وأيام

قال: وحكى الدينبلي التاجر الآمدي أن متولي الخزانة بالقصور ذكر له جملا مما حمل من موجوده في الدار، منها ستة آلاف ألف وأربعمائة دينار، ومن الورق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق، ومن الآلات مثل أتوار واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي وقدور، وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لايحصى كثرة، وبراني[١١] صيني كبار، وعيبات مملوءة جواهر، ومن أصناف الديباج والعتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديق كلها من الدبيقي والشرب استعمال تنيس ودمياط، وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا، وعود، وبراني مسك ونوافج،

وبراني زجاج مملوءة من الكافـور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لايحصى كثرة.

وكان له مجلـس يجلس فيه للشراب فيه صور ثماني جـواري متقابلات، أربـع منهن بيـض مـن كـافور وأربـع سـود مـن عنبر، قيام في المجلـس، عليهن أفخر الثيـاب وأثمن الحلي وأحسن الجواهر، فكـان إذا دخل باب المجلس نكسن رؤوسهن خدمة له، فـإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات. ووجـد له مـن المقاطع والستـور، والديبـاج والدبيقـي الحريري، والذهب، والفـرش، والمخاد والمساند على اختلاف أجنـاسها، أربع حجر كل حجـرة مملوءة من ذلك، وعـدة صناديق مملـوءة حقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال. ووجد له ثمـانمائة جارية منهن حظايا خمس وستـون، لكل جـاريـة حجرة وخـزانـة مملـوءة من الكسـاوى، والآلات الـديبـاج والـذهب والفضـة ، ومـن كل صنـف.

قال الخازن: هذا مـا حضرني حفظه مما في داره، وأما مـا كان في مخازنه وتحت يد عمالـه وجباتـه وضمان النواحي فما لايحصـى كثرة، مـن الأموال والغلال والحبـوب والقطن والكتـان، والشمع والحديـد، والأخشاب وغير ذلك وكل نوع منه ما يجاوز الحد والاحصاء، ولايمكن تحرير حسابه إلا في المدة الطويلة

وأمـا العـدد والخيـول والسـلاح والبقـر والغنـم، فقـال الخازن لم تتحـرر لكثـرتها، وقـال حمل مـن داره أربعـة آلاف بسـاط، وستـون حمل طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبـار وصغار، وخمسمائة قطعة محكم، وألف عـدل من متـاع اليمن والاسكنـدرية والغـرب، وسبعة آلاف مـركب مـن أصنافها.

وأما ما عمره من المساجد فمنها: جامع الفيلة، وقيل إنه لم يكمله .

وحكى الشريف محمد بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وأن الأفضل مات ولم يكمله فكمله المأمون في وزارته، وولى خطابته الشريف أمين الدولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي النسابة وأمر أن يحضر جميع وجوه الدولة والرؤساء في أول جمعة، فحضروا. فلما رقاالشريف المنبرقال: «الحمد لله» ، وارتج عليه ودهش، فلم يزل يكررها إلى إلى أن أضجر الناس، وقد هم ، ومضى إلى داره، فاعتل ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة، ومنها المسجد الذي على جبل المقطم، وبنى في جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة ، وغير ذلك .وهو الذي أنشأ التاج والخمسة وجوه.

قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خيمة سماها خيمة الفرح، ثم سميت بالقاتول لأنها كانت إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين رجل أو رجلان اشتملت على ألف ألف ذراع (وأربعمائة ألف ذراع) وكان ارتفاعها خمسين ذراعا بذراع العمل، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار

ومدحه جماعة من الشعراء وذكروا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد ابن هبة الله الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها:

ضربت خيمة عز في مقر علا
أوفت على عذبات الطود ذي القنن

جاءت مدى الطرف، حتى خلت ذروتها
تأوي من الفلك الأعلى إلى سكن

أقطارها ملئت من منظر عجب
يهدي إليك ذكاء الصانع الفطن

فمن رياض سقاها القطر صيبه
فما بها ظمأ يوما إلى المزن

وجامح في عنان لايجاذبه
وطائر غير صداح على فنن
وأرقم لا يمج السم ريقته
وضيغم ليس بالعادي ولا الوهن
وماثلين صفوفا في جوانبها
لو يستطيعون خروا الجمع للذقن
زينت بأروع لاتحصى فضائله
ماض من المجد والعلياء في سنن
وأطلع الدست فيها شمس مملكة
يرى التأمل فضل العين والأذن
وعد على السعد أن النصر يضربها
بالصين، بعد فتوح الهند واليمن

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكاتب بديوان المكاتبات، يصفها ويمدح الأفضل:
مهلا فقد قصرت عن شأوك الأمم
وأبدت العجز منها هذه الهمم
أخيمة ما نصبت اليوم، أم فلك
ويقظة ما نراه منك أم حلم؟
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن
تسمو على أفق النهى الخيم
حتى أتيت بها شماء شاهقة
في مارن الدهر من تيه بها شمم
إن الدليل على تكوينها فلكا
أن احتوتك، وأنت الناس كلهم

ومنها:
لديك جيش، وجيش في جوانبها
مصور وكلا الجيشين مزدحم

إذا الصبا حركتها ماج موكبها
فمقدم منهم فيها ومنهزم

أخيلها خيلك اللاتي تغير بها
فليس تنتزع عنها الحزم واللجم

علمت أبطالها أن يقدموا أبدا
فكلهم لغبار الحرب مقتحم

أمنتهم أن يخافوا سطوة لردى
فقد تسالمت الأسياف والقمم

كأنها جنة، والقاطنون بها
لا يستطيل على أعمارهم هرم

علت. فخلناها سرا تحدثه
للفرقدين وفي سمعيهما صمم

إن أنبتت أرضها زهرا فلا عجب
وقد همت فوقها من كفك الديم

قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي:

أقضيب يميس، أم هو قد
أم شقيق يلوح أم هو خد

أنا مثل الهلال سقما عليه
وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكانت ولاية الأفضل سبعا وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ذكر تفويض أمور الدولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائحي

قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوض الآمر بأحكام الله أمور الدولة وإمرة الجيوش للقائد أبي عبد الله محمد بن الأمير ثقة الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد

الدولـة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بـابن البطائحي، وكـان قبل ذلـك عند الأفضـل أستـاذ داره، واستقرت نعـوتـه في سجله المقـروء على كافـة الأمراء والأجناد« بـالأجل المأمون، تـاج الخلافة، وجيه الملـك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين». ثـم نعت بعد ذلك « بالأجـل المأمون، تاج الخلافة، عـز الإسلام، فخر الأنـام، نظام الدين والـدعاة». ثم نعـت بعد ذلك بنعوت الأفضـل وهي: «السيد الأجل المأمـون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين»

قال نـاظم سيرة المأمـون: ولما كان يـوم الثلاثـاء الثالـث عشر من ذي الحجة من السنـة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلـس المأمون في داره وقت أذان الفجر، وجـاء الناس لخدمته للهنـاء على طبقاتهم في أربـاب البيوت والأقلام، ثـم الشعراء، وركـب الى القصور، فـأتى بـاب الذهـب، فوجـد المرتبـة المختصة بـالـوزارة قد هيئـت له في مـوضعهـا الجاري به العـادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسـم المعتاد لوزير السيف والقلم، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، فلما شاهد المرتبـة توقف عن الجلوس عليها لأنه لم يـذكر له ذلـك قبل حضـوره، ثم ألجأته الضرورة، لأجـل حضور الأمراء،إلى الجلـوس عليها فجلس وأولاده الثلاثـة عن يمينه، وأخـواه عن يساره، والأمـرء المطوقون خاصـة قائمون بين يـديه، ومن عداهـم لايصل إلى هـذا الموضـع، فما كان بـأسرع مـن أن فتـح البـاب وخرج عـدة مـن الاستاذين المحنكين،وخرج إليه الأمير الثقة متـولي الرسالة وزمام القصور. فـوقـف أمام المرتبـة وقـال: أمير المؤمنين يـرد على السيد الأجـل المأمـون السـلام، فوقـف المأمـون عند ذلـك وقبـل الأرض، وجلـس في موضعـه، وتـأخر الأمير الثقـة حتى نـزل من على المصطبـة التي عليهـا المرتبةوقبـل الأرض ويد المأمـون، ودخل مـن فوره مـن الباب، وأغلـق الباب،على مـا كان عليه الأفضل.

قال: وكـان الأفضل يقـول: ما أزال أعد نفسي سلطـانا حتـى أجلس

على تلك المرتبة ويغلق الباب في وجهي، والدخان في أنفي، لأن الحمام كانت خلف الباب في السرداب

قال: ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر، فدخل المأمون إلى المكان الذي هيء له، ودعي لمجلس الوزارة، وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون. واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده وإخوته، ثم دخل الأمراء وسلموا على طبقاتهم، ثم الأشراف وديوان المكاتبات والانشاء، ثم قاضي القضاة ، والشهود، والداعي، ثم مقدموا الركاب ومتولي ديوان المملكة.

ثم دخل الأجناد من باب البحر، وهو الباب الذي يقابل المدرسة الكاملية الآن، ثم دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلما ببياض أهل البلدين، ثم البطرك والنصارى والكتاب منهم، وكذلك رئيس اليهود.

ودخل الشعراء على طبقاتهم، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته.

وكانت هذه عادة السلام على ملوك هذه الدولة، وإنما أوردنا ذلك ليعلم منه كيف كانت عادتهم

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة

ورد إلى الديار المصرية طائفة كثيرة من عرب لواته من جهة المغرب ، وانتهوا إلى الاسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فسادا متحكما، فندب المأمون إليهم أخاه نظام الملك حيدرة، الملقب بالمؤتمن، فقاتلهم وهزمهم ، وغنم أموالهم، وتوجه إلى الاسكندرية ودخلها ، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسروا، فخرج إليهم، وحاربهم وهزمهم، فعادوا.

ـ ١٠٤٨٤ ـ

ذكر القبض على المأمون

قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم السبت لأربع خلون من شهر رمضان قبض الآمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبي عبد الله محمد وعلى أخوته ، وثلاثين نفرا من خواصه وأهله، واعتقله، ولم يزل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين ، فصلبه مع اخوته.

وقيل في سبب ذلك أن المأمون راسل الأمير جعفرا، أخا الآمر، وأغراه بقتل أخيه وأنه يقيمه مكانه في الخلافة، واستقرت القاعدة بينهما على ذلك، واتصل ذلك بالشيخ أبي الحسن علي بن أبي أسامة، متولي ديوان المكاتبات، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه، وناله من المأمون أذى كثير، فاعلم الآمر بالحال. وكان المأمون كثير التطلع لأخبار الناس والبحث عن أحوالهم، وكثر الوشاة في أيامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداء حال المأمون أن والده كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمالين الى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا، حسن الحركة، حلو الكلام والحجةفسأل عنه، فقيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين. ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته، الى أن انتهى الى ما ذكرنا.

قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر : إن ابن الأثيروهم في وفاة والد المأمون، وأن والده مات في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبر دولة الأفضل، وأكثر الناس ينكرون ما ذكره ابن الأثير.

وقال صاحب كتاب البستان في حوادث الزمان: إن المأمون كان يرش بين القصرين، وجده من غلمان المستنصر بالله. والله اعلم.

ذكر اخبار أبي نجاح بن متى النصراني الراهب وقتله

كان هذا الراهب من أهل أشموم طناح، وكان قد خدم ولي الدولة يحنا بن أبي الليث، ثم اتصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون، وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، وتسلسل الأمر إلى أن عم البلاء منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكتابها وغيرهم، ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضرب والنهب وأخذ المال، وارتفع شأنه عند الآمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتنيس من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فكان يلبسها ، ويلبس من فوقهاالغفافير الديباج، وكان يتطيب في كل يوم بعدة مثاقيل من المسك.وكان يركب الحمير بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة. فاستدعى في بعض الأيام رجلا يعرف بابن العرس وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات والديانة، والناس يعظمونه ويبجلونه وأوقع به الاهانة والإخراق، فخرج من عنده ووقف في الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة،فدخل جماعة على الآمر وخوفوه العاقبة، وعرفوه ما حل بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجل من الأشراف، فانشد الآمر أبياتا منها:

إن الذي شرفت من أجله
يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الآمر: ما تقول يا راهب؟ فسكت. فأمر به فقتل، وكان الذي تولى قتله الأمير مقداد والي مصر، وصلبه على الجسر، ثم أنزل وربط على

خشبلة ورمي في بحر النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال البحرية أنه إذا ألقاه الماء إلى جهة أخرجوه عنها حتى ينتهي الى البحر المالح.

ولما قتل هذا الراهب وجدوا له مقطعا فيه ثلاثمائة طراحة سامان محشوة، جددا، لم تستعمل، هذا من هذا النوع، خلا ما وجد من الذهب والفضة والأقمشة والديباج.

ذكر مقتل الآمر بأحكام الله وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بجزيرة مصر بالقرب من المقياس، وثب عليه عشرة نفر من النزارية وقتلوه، فحمل في جل الى الجامع، ونقل في مركب عشاري، وأحدر الى اللؤلوة في الخليج، ثم حمل الى القصر، فتوفى بقية يومه. وقتل القوم الذين قتلوه وكان مولده في يوم الثلاثاء لليلة خلت من المحرم سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم منه، فكان عمره أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر، وولايته تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر، وكان محكوما عليه إلى أن قتل الأفضل وتولى المأمون فظهر أمره، وصار يتصرف (ويركب) في يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء، وإذا لم يركب في يوم منها ركب في غيره. ولم يستوزر بعد المأمون وزيرا للسيف والقلم، بل استبد بأموره وباشرها بنفسه.

وكان قبيح السيرة في رعيته، يظلمهم ويأخذ أموالهم ويغتصب أملاكهم، وسفك دمائهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح، ويكفي من سوء سيرته تمكينه الراهب من المسلمين، وقد تقدم خبره.

وولد للآمر في هذه السنة ولد سمي أبا القاسم الطيب وجعله ولي عهده، فأخفاه الحافظ.

وزراؤه : الأفضل، ثم المأمون.

قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رفع ابراهيم بن حمزة الشاهد الى الأفضل أمير الجيوش أنـه أحدث في مجلس الحكم فعـزله، وولى أبا الفضـل نعمة ابن بشير الجليس النابلسي إلى أن استقال، فولى الرشيد أبا عبد الله محمد ابن قـاسم الصقلي إلى أن توفي، فأعـاد الجليس ثم صرفه، وولى أبـا الفتح مسلم، فبقي إلى أن تـولى المأمون فعزله ونفاه لما أخطأ في قـراءته، وولى أبا الحجاج يوسـف بن أيوب الأندلسي إلى أن توفي في سنـة إحدى وعشرين وخمسمائة، فولى الآمر أبا عبد الله محمـد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، فاستمر إلى أن قتل الآمر بأحكام الله.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بـن محمد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك الـدولةالعبيدية، والثامـن من ملوك الديـار المصريةمنهم. بويع لـه بعد مقتل ابن عمـه الآمر، في يوم الثلاثـاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربـع وعشرين وخمسمائة، بولاية العهـد إلى أن يستبرىء نساء الآمر، وهل فيهن من هي مشتملة على حمل أم لا.

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قتل

قال المؤرخ: لما بـويع الحافظ لـدين الله ثـار الجند الأفضلية وأخـرجوا ابن مـولاهم، أبـا علي أحمد بن الأفضل ، الملقـب بكتيفات، وولـوه إمرة الجيوش، وذلك في يـوم الخميس السادس من ذي القعـدة منها، فحكم، واعتقل الحافـظ صبيحة يـوم بيعته، ودعا لـلإمام المنتظـر، وقوي أمـر ابن الأفضل.

وفي سنة خمس وعشرين رتب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة قضاة: الشافعية، والمالكية، والإسماعيلية،والإمامية، يحكم كل قاضي بمقتضى مذهبه ويورث بمقتضاه، فكان قاضي الشافعية الفقيه سلطان(١٢) وقاضي المالكية اللبني(١٣) وقاضي الاسماعلية أبو الفضل(١٤) ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل(١٥)

وسار أحمد بن الأفضل سيرة جميلة بالنسبة إلى أيام الآمر، ورد على

الناس بعض مصادراتهم، وأظهر مذهب الإمامية الاثني عشرية، وأسقط من الأذان قولهم«حي على خير العمل»، وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر بدعاء اخترعه لنفسه وهو «السيد الأجل الأفضل، مالك أصحاب الدول، والمحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضي سيفه، وصائب رأيه وتدبيره، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش»واستمر أمره إلى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة. فاتفق ركوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبستان الكبير ظاهر القاهرة، للعب بالأكرة على جاري عادته، فوثب عليه مملوك رومي وقيل بل من صبيان الخاص،فطعنه طعنة ألقاه بها عن فرسه، ونزل واحتز رأسه، ومضى به إلى القصر، وذلك بموافقة من الأجناد، فكانت مدة تغلبه على الأمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوما، ودفن بتربة أبيه خارج باب النصر.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال: ولما قتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعة عامة، وظهر الحمل المنتظر بنتا، فانتقلت الخلافة إليه وأمر أن يدعى له على المنابر: اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن يدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا، عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين

قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس، وهو رومي من مماليك الأفضل، ولقبه بأمير الجيُوش، فقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، فخافه الحافظ وتخيل منه، وتخيل يانس أيضامن الحافظ،فدبر كل واحد منهما على صاحبه ، فسبق تدبير الحافظ فيه فسمه في ابريق استعمل الماء منه عند الطهارة فعولج وكاد أن يبرأ. فكلم الحافظ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأى مولانا أمير المؤمنين أن يمضي إليه ويزوره ويهنئه بالعافية فإنه لابد أن ينهض إليك ويمشي،فإذا مشى لايكاد يعيش أبدا. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقاه، فمات في ليلته، وذلك في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت مدة وزارته تسعة أشهر.

ذكر الخلف بين ابنى الحافظ لدين الله

قال المؤرخ: وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة جرى بين أبي تراب حيدرة وحسن، ولدي الحافظ، حرب شديدة، وافترقت العساكر على فرقتين،وهما الريحانية والجيوشية، وكان بينهما وقعة في خامس شهر

رمضان، ووقع الحرب بينهما بين القصرين، وقتل من الطائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان. وكان سبب ذلك أن الحافظ جعل ولده حيدرة ولي عهده من بعده، فلم يرض حسن بذلك ، فوقع الاختلاف والحرب بينهما. واستظهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعله ولي عهده من بعده. وتمكن حسن من الدولة والتصرف فيها بحسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه حكم.

ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتله في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وذلك أنه لما استقر في ولاية العهد والوزارة والتدبير واستبد بالأمر، قبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل، وأقام غيرهم، فخافه من بقي من الأمراء العتق، وأجمعوا على خلع أبيه من الخلافة وولده حسن من الوزارة، فاجتمعوا بين القصرين ، وراسلوا الحافظ، وأعلموه بما أجمعوا عليه فاستعطفهم الحافظ واعتذر إليهم، وهرب حسن إلى أبيه، فقبض عليه وقيده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لابد من قتله، فسقاه أبوه سما فمات، وجعله على سرير، وأمره الأمراء بمشاهدته، فدخلوا عليه ورأوه فسكتوا. وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ

ذكر وزارة بهرام الأرمني

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت منه، استوزر الحافظ بهرام الأرمني النصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج الملوك، وكان بهرام المذكور قد وصل الى الديار المصرية واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلا وافرا وإقداما في الحرب، وحسن تدبير.

وكان سبب وصوله من بلاده أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه من غيره، فعدل الأرمن عنه وولوا غيره، فغضب لذلك وخرج من تل باشر وقدم مصر، فعينه الحافظ للوزارة، واستشار بعض أهله وأكابر دولته فيه، فكلهم كره ذلك وأشار عليه ألا يفعل، وقالوا: إنه نصراني لا يرضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، وأن القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش بدر الجمالي،ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف؟ وأما صعود المنبر فيستنيب عنه فيه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة الى ذلك'. واستوزر والناس ينكرون ذلك عليه.

وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان والي الغربية يومئذ، وأنه سار منها مجدا الى أن وصل إلى القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها، فلما ولي الوزارة وثبتت بها قدمه سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسل إليهم وأحضرهم من تل باشر، فتواصلوا حتى كمل منهم ومن غيرهم من الأرمن تقدير ثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا على المسلمين. وبنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية. وكثرت الشكايات فيه. وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تنسب المنية (١٦) التي بالقرب من إطفيح(١٧) ، قد ولي الأعمال القوصية فجار فيها جورا عظيما واستباح الأموال، فعظم ذلك على الناس

ذكر خروج بهرام من الوزارة ووزارة رضوان بن الولخشي

قال: ولما ثقلت وطأة بهرام على الناس اجتمع الأمراء وكاتبوا رضوان ابن الولخشي، وذلك في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يومئذ

متولي الغـربية ولاه بهرام إيـاها إبعادا لـه، فلما أتته كتـب الأمراء نهض في طلب الـوزارة، ورقى المنبر، وخطب خطبـة بليغة حرض النـاس فيها على الجهاد، فـأجابـوه، وحشد العـربان وقـدم الى القاهـرة ، وكان الأمـراء قد كاتبوه وقـالوا: إذا وقع الوجـه في الوجه ارفع المصـاحف على الرماح فـإنا ننحـاز إليك، ففعـل ذلك، وخـرج بهرام إليـه لما قرب مـن القاهـرة، فلما عاين الأمـراء والجند المصاحف التحقوا جميعهم بـرضوان، وبقي بهرام في الأرمـن خاصـة. فراسـل الحافظ وقـال: أنا ألقـاهم بمـن معي؟ فخـاف الحافظ عاقبـة ذلك، فأمره أن يتوجـه الى قوص ويقيم عند أخيـه الباساك الى حين يدبر أمرا. فعـاد بهرام الى القاهرةوأخذ ما خف حملـه، وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وتوجه الى الأعمال القوصية.

قال: ولما انفصـل عن القاهـرة أتت العوام منـازل الأرمن ، وكانـوا قد نزلـوا الحسينية وعمـروها دورا. ولما اتصـل بأهـل قوص انهزام بهرام ثـاروا بأخيـه الباساك وقتلـوه ومثلوا به، وربطـوا في رجليه كلبا ميتـا، ورموه على مـزبلة. فقـدم بهرام بعد ذلـك بيـومين، ومعه طـائفـة من أقـاربه، فـرأى البـاساك على هـذه الحال، فقتل جماعـة من أهـل قوص بـالسيف ونهبهـا وسار إلى أسـوان. ثم رجع ونـزل بالديـرة البيض، وهي مـن أعمال أخميم بالجانب الغربي.

قـال: ولما فارق بهرام القـاهـرة دخلهـا رضوان ووقـف بين القصريـن، وأستأذن الحافظ فيما يفعله، فأمره بالنـزول بدار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة، ونعته بالأفضل. وندب رضـوان جماعة من العسكر مع أخيه ناصر الـدين، فتـوجهوا إلى بهرام ، فاستقـر الأمر بينهم أن يقيـم بالـديرة البيض، وعاد الجند الذين مع بهرام إلى مصر.

ودبر رضـوان الأمر أحسـن تدبير، وصـادر جماعة مـن أصحاب بهرام وشدد عليهـم الطلب ، وقتلهـم بالسيف.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين، وموضع يديها مثل الحلمتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدي رضوان، فعرفته أنها تعمل برجليها ما يعمله الناس باليدين من خط ورقم وغير ذلك، فأحضر لها دواة، فتناولت الأقلام برجلها اليسرى وتأملتها قلما قلما فلم ترض شيئا منها، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشقته وقطته، واستدعت ورقة فأمسكتها برجلها اليمنى، وكتبت باليسرى بأحسن خط ما تكتب النساء بأيديهن مثله، وحمدت الله في آخر الرقعة، وناولتها للوزير. فتناولها فوجدها قد سألته الزيادةفي راتبها، فزادها، وأعادها الى بلدها.

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالاسكندريةواستدعى الفقيه أبا طاهر بن عوف إلى حضرته وأسند إليه تدريسها.

ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد، وأسكنه في القصور وأكرمه، فعظم ذلك على الأفضل رضوان، فشغب الحافظ عليه الجند، فقام بعضهم عليه، وجرت بينهم حرب بالقاهرة. وطلب رضوان أن يسكن مع الحافظ في القصور، فلم يمكنه، فتزايد الحال على الأفضل وضعفت قدرته عن لقاء العساكر، فهرب إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كمشتكين والي صرخد، فأقام عنده فأكرمه. ثم عاد الى مصرفي سلخ المحرم سنة أربع وثلاثين وقد جمع جمعا صالحا من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى ونزل عند الرصد، ثم مضى الى الصعيد، فندب إليه الحافظ الأمير سيف الدولة أبا الفضل بن مصال بأمان،فسار

إليه وتلطف بـه، إلى أن أحضره الى القصر، في رابع شهر ربيع الآخـر من السنـة، فاعتقلـه في بعض قـاعات القصـور. فأقـام في الاعتقال إلى سنـة اثنتين وأربعين، فخرج مـن نقب نقبـه في القصر، وذلك في ليلـة الثلاثـاء لسبع بقين مـن ذي القعدة منها.وركـب وحوله جماعـة ممن كان يكـاتبه، وتوجه إلى الجيـزة، ولقي عسكر الحافظ وقاتلهـم عند جامع ابـن طولون، فهـزمهم . ودخـل القاهـرة، ونزل بـالجامـع الأقمر، وأغلـق الحافظ بـاب القصر في وجهـه، فـاستحضر رضوان أربـاب الـدولـة والدواويـن، وأمـر ديوان الجيـش بعرض الجنـد، فعرضهـم، وأخذ أمـوالا كثيرة خارجـة عن الحصر كانـت في الدواوين، وأنفق، وأرسـل إلى الحافظ في طلـب المال، فأرسـل إليه عشرين ألـف دينار. وأمر الحافظ مقـدمي السودان بـالهجوم على رضـوان وقتله،فهجمـوا عليـه، فهم بـالركـوب، فـأعجلوه عن ذلك، وضربـه بعضهم بسيـف فقتله. وقتـل معـه أخوه، وأحضرت رأسـاهما الى الحافظ.وسكنت الفتنـة، وأرسل الحافظ الرأس لزوجـة رضوان فلما وقع في حجرهـا قالت: هكـذا تكون الرجال. فلـم يكن في وقت رضـوان أشجع منه.

وكان مولده في سنة تسـع وأربعمائة. وأول ولاية وليها الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

ذكر وفاة بهرام الأرمني

كـانت وفـاتـه لست بقين مـن شهر ربيـع الآخـر سنة خمس وثـلاثين وخمسمائة بـالقصـور، وكـان الحافـظ قد أسكنـه بـدار بها ولم يمكنـه مـن التصرف، وكان يشـاوره في تدبير الـدولة والأمـور ويصدر عـن رأيه، فلما هلك حزن عليه حزنا شديدا، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام.

وأحضر الحافـظ بطرك الملكيـة بمصر، وأمره بتجهيـزه، فجهزه. وأخـرج وقت صلاة الظهـر في تابوت عليه الـديباج، وحوله جماعـة من النصارى

يبخرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان، ثم خرج الحافظ على بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر طيلسان، ولم تزل الناس مشاة والقسوس يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، وقيل بل إلى بستان الزهري في الكنيسة المستجدة ونزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير القبر، وبكى بكاء كثيرا.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة طلع النيل حتى بلغ تسعة عشر ذراعا وأربع أصابع، ووصل الماء إلى الباب الجديد أول الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار الناس يتوجهون من القاهرة إلى مصر من جهة المقابر، ولما وصل الماء إلى الباب أظهر الحافظ الحزن والإنقطاع، فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن السبب، فأخرج له كتابا وقال له: انظر هذا السطر، فقرأه، فإذا فيه. إذا وصل الماء إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها

ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومولده في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل في المحرم سنة ثمان وستين. فكانت مدة عمره ستا وسبعين سنة وشهورا، ومدة ولايته منذ بويع البيعة العامة الثانية، بعد قتل أحمد بن الأفضل، ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

قال المؤرخ: وكان الحافظ موصوفا بالبطش والتيقظ، وكان شديد المفاتشة وهو الذي عمل طبل القولنج الذي كسره الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان هذا الطبل قد عمل من سبعة معادن والكواكب

السبعة في إشراقها. وكان خاصته أنه كلما ضرب به ضربة خرج الريح من مخرج الضارب.

قال بعض المؤرخين : إن الحافظ خطر بباله أن ينقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى القاهرة، وكانت المدينة إذ ذاك يخطب بها لبني العباس، لظهور ملوك الدولة السلجقية، فأرسل نحوا من أربعين رجلا من أهل النجدة والقدرة، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة، وتحيلوا بأن حفروا سربا من مكان بعيد ، وعملوا حساب الخروج في المكان المقصود. فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من أن ينقل من المكان الذي اختاره له، فيقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سعي بهم فأهلكوا.

وكان للحافظ من الأولاد: أبو علي حسن ، هلك كما ذكرنا، وعبد الله، هلك في حياته أيضا، وأبو المنصور إسماعيل، وأبو الأمانة جبريل، ويوسف. ووزراءه: تقدم ذكرهم. ولما قتل رضوان بن الولخشي لم يستوزر بعده أحدا، وإنما كانوا كتابا. فمن أشهر كتابه أبو علي حسن الأنصاري كان (القاضي) الفاضل يقول : لم يسمح الزمان بمثله.

ومن أشهر شعرائه الشريف أبو الحسن الأخفش المغربي ومن جملة شعره في قصيدة:

ذكر الدوح وشاطيء بردى
وحبابا فيه يحكي بردا
والصبا يمرح في أرجائه
وتحوك الريح منه زردا
ينثر الدر عليه فضة
وتذيب الشمس فيه عسجدا
ورشا ألو لم تكن ريقته
خمرة صافية ما عربدا

قضاته:لما غلب أحمد بن الأفضل على الآمـر ، أبقى محمد بن هبة الله ابن ميسر القيسراني على القضـاء، ثم صرفه الحافـظ واستقضى أبـا الفخر صالـح بن عبد اللـه بن أبي رجاء، ثم قبـض عليه الوزيـر يانس الـرومي وقتله، فولى سراج الـدين أبو الثريا نجـم بن جعفر ، مضافـا الى الدعوة، إلى أن قتـل في ذي القعدة سنـة ثمان وعشرين، فـأعيد سنـاء الملك ابـن ميسر، فأقام إلى أن قبـض عليه في يوم الأحد لسبع خلون مـن المحرم سنة إحدى وثـلاثين، وسير إلى تنيس فقتل بها، وولي بعـده القاضي الأعـز أبو المكـارم أحمد بـن عبـد الـرحمن بن محمـد بـن أبي عقيـل، إلى أن تـوفي في شعبان سنة ثـلاث وثلاثين. وأقام الناس بغير قاض ثلاثـة أشهر، ثم ولي أبـو الفضائل هبـة الله بـن عبـد الوارث الأنصـاري لإحدى عشرة ليلـة خلـت من ذي القعـدة منها. ثـم جـرت مفاوضـة بينه وبين «النبيـه» أبي الحســن علي بـن «اسماعيل» ، قيـل أدت إلى مصـافـغـة خرج في أثنـائهـا القـاضي إلى القصر وهو مخرق الأثـواب، وقـد تحلقـت عمامته في حلقـه، فعظم على الحافظ خـروجه على هذه الهيئة وغـرمه مائتي دينـار، واستناب أبا طاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري،فأقـامفي النيابة إلى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين، فوفر جاري القضـاء، وهو أربعون دينارا في كل شهر، وخـدم بجاري التقدمـة في الدعـوة، وهـو ثلاثـون دينارا، في الـوظيفتين، فأجيـب الى ذلك وأقـام إلى أن صرف لسبع خلون مـن صفر سنـة ثلاث وأربعين، وبقي على الدعـوة. وولى القضاء أبو الفضائل يونـس بن محمد إبن الحسن المقدسي إلى آخر المدة

ذكر بيعة الظافر بأعداء الله

هو أبو المنصور إسماعيـل بن الحافظ لدين الله، وهـو الثاني عشر من ملوك الدولة العبيديـة، والتاسع من ملوك الديار المصرية منهـم، بويع له بعـد وفـاة أبيـه لخمـس خلــون مـن جمادى الآخـرة سنـة أربـع وأربعين وخمسمائة، واستـوزر الأمير نجـم الديـن أبـا الفتـح سليـم بن محمـد بـن

مصال، ونعته بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش، وكان إذ ذاك من أكابر امراء الدولة.

وفي الرابع من شعبان من السنة اجتمع السودان وجماعة من المفسدين بالبهنسانية، فخرج إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم .

ذكر قيام العادل بن السلار ووزارته ومقتل ابن مصال

في هذه السنة ثار الأمير المظفر أبو الحسن علي بن السلار والي الإسكندرية وخرج وحشد وتقدم بمن معه، ودخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان، ووقف على باب القصر، وراسل الظافر والمدبر له من النساء، فراجعت في ذلك وفاء لابن مصال، ثم أجيب إلى ما سأله. وفتح باب القصر، وخلع على المظفر خلع الوزارة ولقب بالعادل، فلما اتصل ذلك بابن مصال جمع عربان البلاد، ووافقه بدر الدين بن رافع مقدم العربان بتلك البلاد، وقصد ابن السلار فندب إليه ربيبه عباس ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بعسكر معه، فعسكر ببركة الحبش، فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجد في السير وكبس عسكر عباس، فأثخنهم جراحا وقتلا، فانهزم عباس وأجمع ابن مصال رأيه على قصد بلاد الصعيد، فعاجله ابن السلار وأمد ربيبه بالعساكر وأمره بمعاجلته قبل الجمع، فأدركه بالقرب من دلاص(١٨) . والتقوا بينها وبين مهد، وهي قرية هناك، واقتتلوا، فانجلت الحرب عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع. وكانت هذه الوقعة في يوم الأحد تاسع عشر شوال. وحمل رأس ابن مصال إلى القاهرة، وطيف به، وخلع على العادل في ذلك اليوم.

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان أغلق العادل أبواب القاهرة والقصور، وقبض على صبيان الخاص وقتلهم، وكانوا جمعا كثيرا وهم

أولاد الأجناد والأمـراء وعبيد الـدولة فكان الـرجل إذا تـوفي وخلف أولادا حملوا إلى حضرة الخلافة وأودعوا في أماكن مفردة لهم، ويؤخذ في تعليمهم الفروسيـة وغير ذلك، وتسموا صبيـان الخاص. وكان سبب ايقـاع العادل بهم أنـه بلغه أنهم تعـاقـدوا على قتله، فبـادر بهم، وقبـض عليهم، وقتـل أكثرهم، وجعل من بقي منهم في المراكز بالثغور

وفي يوم الجمعة لأربع خلون من شوال مـن السنةقتل العادل أبا المكرم الموفق محمـد بن معصـوم التنيسي ناظـر الدواويـن، وكان سبـب ذلك أن العـادل في مبـدأ أمره كـان مـن صبيـان الحجـر، وكان يتكـرر إلى الموفـق برسـائل ويكلمه بكلام غليـظ، فكرهه الموفق، ثـم كتب بعد ذلـك لابن السلار منشور بإقطـاع، فدخل به إليه، فتغافل عنـه وأهمل أمره، فقال له ابن السـلار: ما تسمـع؟ فقال: كلامـك ما يدخـل في إذني أصلا، فـأخذ ابن السلار منشورةوخـرج من حيث أتى، فلما ولي أمر الدولـة دخل عليه الموفق وسلـم عليه، فقال لـه: ما أظن كلامـي يدخل في اذنـك، فتلجلج بين يديـه وقال له: عفو السلطـان. فقال: قد استعملت العفـو من حين خروجـي من عندك، مـا أتيتك به، وأشـار لبعض خدمـه فأحضر مسمارا من حديد عظيم وضرب المسمار في أذنـه حتى نفذ من الأخرى، وحمل الى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة، وعلق عليها وقد مات

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفي شهر رجب سنـة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفـرما فنهبوهـا وأحرقوهـا، وعادوا إلى بلادهـم، فجهز العادل المراكـب الحربية وشحنهـا بـالـرجـال وسفرهـا في شهـر ربيـع الأول سنـة سـت وأربعين، فمضت إلى يافـا وقاتلوا من بها في المراكب، واستولـوا على عدة كثيرة من مراكـب الفرنـج، وأحرقـوا ما عجـزوا عن أخـذه، وقتلوا خلقـا كثيرا، ثم

امتدوا إلى ثغر عكا وفعلوا فيه كفعلهم بيافا. وكذلك فعلوا بصيدا وبيروت وطرابلس، ونكوا في الفرنج نكاية عظيمة. ووجدوا طائفة كثيرة من حجاج الفرنج فقتلواعن آخرهم ، وكان جملة ما أنفق في هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار .

وفي سنة ست وأربعين قطعت جميع الكساوي المرتبة للأمراء والدواوين عن أربابها، وتوفرت.

ذكر مقتل العادل بن السلار وسلطنة ربيبه عباس

كان مقتله في السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان سبب ذلك أن العادة كانت جاريةبتجريد عسكر من مصر في كل سنة لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد حاصروهافي سنة سبع وأربعين، فلما كان في هذه السنة وقعت القرعة في البدل على عباس ربيب العادل،وهوابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، فجرده العادل بالعساكر، وقال له: هذا الثغر قد نازله الفرنج، ولاغنية أن تتوجه بالعساكر إليه لتدفعهم عنه، فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعة من أكابر الأمراء، منهم أسامة بن منقذ، وكان خصيصا بعباس، فلما وصلا إلى بلبيس تذاكر عباس وأسامة القاهرة وطيب المقام بها وما خرجا إليه، وما يلقيانه من الشدائد ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك ولام عمه كونه جرده ، فقال له أسامة: لو أردت أنت كنت سلطان مصر، قال: وكيف الحيلة في ذلك؟ فقال: هذا ولدك نصر، بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فأرسله إليه وخاطبه على لسانه أن تكون أنت السلطان مكان عمك، فهو يختارك ويكره العادل. فإن أجابك لذلك فاقتل عمك.

فجهز عباس ابنه وعرفه ما تقرر مع أسامة، فدخل إلى القاهرة على حين غفلة من العادل، واجتمع بالظافر وأعلمه الحال، فأجاب لما طلب.

ثم مضى نصر إلى عند جدته زوجة العادل، وأعلم العادل أن والده أعاده شفقة عليه من السفر، ومضى العادل الى مصر وجهز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عباساً، وأقام طول نهاره في العرض والنفقة على رجالها، وعاد الى داره بالقاهرة وهو على غاية من التعب، فلما نام على فراشه احتز نصر بن عباس رأسه، ومضى به الى القصر، ودخل الى الظافر، وجهز الى أبيه، فركب لوقته، ودخل الى القاهرة صبيحة نهار الأحد الثاني عشر من المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد ثاروا لذلك، فلاطفهم وطمنهم، فلم يطمئنوا ومضوا الى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصف سنة تقريباً، وكان من الاكراد الزرزارية. ولما قتل طيف برأسه في القاهرةومصر جميعاً، ونصب الظافر عباساً في السلطنة.

ذكر مقتل الظافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتله في ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه خرج ليلاً متنكراً ومعه خادمان وجاء الى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة قديماً بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بسكن المأمون ابن البطائحي، وهي المدرسة المعروفة بالسيوفية في وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابلة، بخط سوق السيوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء الحنفية. فلما جاء الظافر إليه قتله نصر بن عباس، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر.

وكان سبب ذلك ان الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعباس قتل عمه العادل، وقصدوا قتل أسامة. فلما علم بذلك اجتمع بعباس وقال له: كيف تصبر على ما يقوله الناس في ولدك واتهامهم أن

الخليفة الظافر يفعل به ما يفعله مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، وقيل بل كان الظافر قد أنعم على نصر بن عباس بقليوب، فجاء نصر الى والده وأعلمه بذلك، فقال له أسامة: ما هي بمهرك غالية، فقال عباس لأسامة: كيف تكون الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إن الخليفة في كل وقت يأتي لولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه فامره بقتله، فأوصى عباس ابنه بذلك، فلما جاءه قتله نصر.

قال: ولما كان صبيحة يوم قتله ركب عباس وولده على العادة وأتى الى القصر، فقال لبعض الخدم: أعلم مولانا ليجلس للاجتماع معه.فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقالوا: قل له إنه خرج البارحة ولم يعد، فجاء الخادم إليه وأعلمه الخبر، فشدد عباس في طلب الظافر، ودخل الى القاعات ومعه أكابر الخدم، وقال: لابد من مولانا، فقيل له عند ذلك : أنت أعلم بحاله ، فأحضر أخويه: يوسف وجبريل، وقال لهما: أنتما قتلتما مولانا . فأنكرا ذلك وحلفا عليه الإيمان المغلظة. وأحضر القاضي وجماعة من الأعيان أهل الفتيا وداعي الدعاة وقال: قد صح عندي أن أخوي الظافر قتلاه، فأفتوه بقتلهما، فقتلا بين يديه وقيل إنه قتل معهما أبا البقاء بن حسن بن الحافظ، وصارم الدولة، مصلح، زمام القصر.

قال: وكان الظافر من أحسن خلق الله وجها، وكان مولده يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة،فكانت مدة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما ومدة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام.

ولده: أبو القاسم عيسى

وزراءه: تقدم ذكرهم

قضاته: أبـو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بـن السلار في سنة سبع وأربعين، وولى أبـا المعالي مجلي بـن نجا المخـزومي، فـأقام إلى آخـر الدولة.

ذكر بيعة الفائز بنصر الله

هو أبو القـاسم عيسى بن الظافـر بأعداء الله، وهو الثـالث عشر من ملوك الدولة العبيـدية، والعاشر من ملوك الديار المصرية منهـم. بويع له بعـد مقتـل والـده في يـوم الخميـس سلـخ المحـرم سنـة تسـع وأربعين وخمسمائة، وعمره خمس سنين، وذلك أنـه لما قتل الظافر استـدعى عباس ابنه أبـا القاسـم عيسى هذا وحملـه على كتفه ووقـف في القاعـة، وأمر أن تدخـل الأمراء فدخلـوا، فقال: هذا ولد مـولاكم وقد قتـل أبوه وعماه كما ترون، والـواجب الطـاعة لهذا الطفـل. فقالـوا بأجمعهـم: سمعنا وأطعنـا، وصاحوا صيحة عظيمة زل منها عقل الصبي واختل ، ثم سيره إلى أمه ، ولقب بالفائز فأقام يصرع في كل يوم

وانفرد عبـاس بالـوزارة وبتدبير الأمور، ولم يبـق على يده يـد، وظن أن الأمر استقام له.

ذكر خروج عباس من الوزارة وما آل اليه أمره

قال المؤرخ : لما قتل الظافر بأعـداء الله أكثر أهل القصر النواح عليه، وشرعـوا في أعمال الحيلـة على عبـاس، ووافـق ذلـك نفـور الأمـراء منـه لإقدامه على القتـل، فاختلفت الكلمة عليـه، وهاجت العساكـر وتفرقت الفرق، ولبسـوا السلاح. فخـرج إليهم عبـاس في يوم الاثنين عـاشر شهر ربيع الأول من السنة، فقاتلهـم وهزمهم، وقتل جماعة منهم.

فأرسلت عمـة الفائز أخت الظافر شعور أهـل القصر طي الكتب الى

الأمير طلائع بن رزيك، وهو اذ ذاك متولي الأعمال السيوطية، وقيل كان متولى منية بني خصيب(١٩) وسألو الانتصار لمولاه، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وسار الى القاهرة، فوصل إليها في تاسع عشر شهر ربيع الأول من السنة، وخرج الناس للقائه.

فاستشار عباس أسامة بن منقذ فأشار عليه باللحاق بالشام، فدخل الى القصر وأخذ في جمع تحفه وحمل أمواله، وسار هو وأسامة بن منقذ الى الشام على طريق أيلة. فأرسلت عمة الفائز الى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج على عباس وأخذ ما معه، فخرجوا إليه وقاتلوه، فتخاذل عنه اصحابه، ونهبوا ما معه فأسره الفرنج وحملوه الى عسقلان، ونجا أسامة الى دمشق.

وقيل إن الفرنج قتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ففداه الصالح بن رزيك، واحضره الى القاهرة وضرب عنقه.

ذكر وزارة الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك

قال المؤرخ: لما توجه عباس نحو الشام وافق ذلك قدوم طلائع بن رزيك، فخرج الأمراء والعساكر إليه، فمن الأمراء من شهر سلاحه وقاتله، ومنهم من التحق به، ثم انجلى الأمر بعد ساعة عن دخول طلائع إلى القاهرة والعساكر بين يديه. وشق القاهرة وهو لابس السواد، وأعلامه سود كذلك حزناً على الظافر، وشعور نساء القصر التي سيرت إليه على الرماح.

ونزل طلائع دار المأمون التي كان بها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل وأعلمهم بمكانه، فأخرج وغسل وكفن، وحمل في تابوت على أعناق الأمراء والأستاذين، وابن رزيك يمشي أمام التابوت، وأتوا به الى القصر فصلى عليه ابنه الفائز ودفن في تربتهم

بالقصر، وجلس الفائز في بقية النهار، وخلع على ابن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده واخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة، ونعت بالملك الصالح. وقبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، في ثالث عشر شهر ربيع الأول من السنة..

وفي سنة خمسين وخمسمائة خرج الأمير تميم، متولي أخميم وأسيوط، على الصالح، وجمع جمعاً صالحاً، فأخرج إليه الصالح عسكراً، فالتقوا واقتتلوا، فقتل تميم في سابع عشر رجب.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة انفسخت الهدنة بين الصالح بن رزيك والفرنج، فجهز الصالح الجيوش والسرايا الى بلاد الفرنج، فوصلت سرية الى عسقلان وغنمت وعادت سالمة، وجهز المراكب في البحر نحو بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج، وجهز سرية إلى جهة الشوبك فعاثوا في تلك النواحي، وعادوا سالمين بالغنائم والأسرى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين قبض الصالح بن رزيك على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم،وسبب ذلك أنه بلغه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح، وكان واليا عاملا على الأعمال القوصية، وهو بالقاهرة. ولم يزل في حبسه إلى أن توفي في شهر رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفي سنة أربع وخمسين ثار على الصالح طرخان بن سليط بن ظريف، متولي الإسكندرية، وجمع جموعا من العربان وغيرها، وتقدم بها لحربه، فندب الصالح إليه الأمير عز الدين حسام بن فضة بعسكر، فالتقوا واقتتلوا، فهزم حسام جيوشه وظفر به، فاعتقله الصالح.

فلما كان في المحرم سنة خمس وخمسين ثار أخوه إسماعيل طلبا لثأره، وتلقب بالملك الهادي، فندب الصالح إليه الجيوش، فلما هجمت عليه

هربَ وأتى الجيزة، واستتر عند بعض العربان، فلما كان في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طرخان من الاعتقال هو والموكل به، فقبض عليه في السادس من الشهر وصلب على باب زويلة، ورمي بالنشاب، ثم مسك أخوه إسماعيل وصلب إلى جانبه بعد ضرب عنقه.

وفي سنة أربع وخمسين بنى الصالح حصنا من اللبن على مدينة بلبيس.

ذكر وفاة الفائز بنصر الله

كانت وفاته في ليلة الجمعةالسابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقيل لليلة بقيت منه، وكان مولده في يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهُر وأياما، ومدة ولايته ست سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما.

ووزراؤه: الأفضل عباس بن يحيى بن تميم ، ثم الصالح طلائع بن رزيك.

قضاته : أبو المعالي مجلي بن نجا القرشي المخزومي،ثم صرف في أول وزارة الصالح، وأعيد أبو الفضائل يونس ثم صرف بالقاضي المفضل أبي القاسم هبة الله بن كامل.

ذكر بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، بن الحافظ عبد المجيد، بن محمد، ابن المستنصر بالله أبي تميم معد، بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله نزار، بن المعز

لدين الله أبي تميم معد، بن المنصور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهدي عبيد الله، وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العبيدية، والحادي عشر من ملوك الديار المصرية منهم، وعليه انقرضت دولتهم، بويع له بعد وفاة الفائز بنصر الله في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكان الملك الصالح طلائع قصد ان يبايع لشخص من أقارب العاضد، فقال له بعض أصحابه لايكن عباس أحزم منك حيث اختار صغيراً وترك من هو أسن منه، واستبد هو بالأمر، فعدل الصالح إلى العاضد، وبايع له وهو مراهق البلوغ، فكانت الخلافة للعاضد اسماً وللصالح رسماً.

ويوسف أبو العاضد هو أحد الأخوين اللذين قتلهما عباس بعد قتل الظافر.

وفي سنة ست وخمسين تزوج العاضد لدين الله بابنة الملك الصالح ابن رزيك، وكان العاضد توقف عن زواجها، فجبره الصالح على ذلك واعتقله الى ان تزوجها، وقصد بذلك أن يرزق العاضد منها ولداً فتحصل الخلافة والملك لبني رزيك، فجاء بخلاف ما قصد.

ذكر مقتل الملك الصالح طلائع بن رزيك وقيام ولده الملك العادل رزيك

كان مقتله في السابع عشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، وذلك انه ركب في هذا اليوم من دار الوزارة الى القصر، وجلس على مرتبته على عادته، فلما انقضى المجلس خرج، فبينما هو في دهاليز القصر وثب عليه جماعة فضربوه بالسكاكين عدة ضربات مهلكة. وكان سبب ذلك انه تحكم بالدولة لخلوها من الأمراء وصغر

سن العاضد، وكان قد فرق الأمراء وقتل بعضهم، فبعثت ست القصور عمة العاضد الأموال الى بعض الأمراء وأغرتهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولما ضرب بالسكاكين ألقى ابن الزبد نفسه عليه وقاتل دونه ودخل بقية الأمراء فخلصوه فركب وبه بعض رمق. فلما رأته ست القصور وقد ركب أيقنت بالهلاك. قال: ولما استقر في منزله أرسل الى العاضد يعاتبه على ما كان منه، فحلف وأنكر أن يكون اطلع على هذا الأمر قبل وقوعه فأرسل إليه أن يبعث إليه عمته ست القصور، فتوقف العاضد عن ذلك، فأرسل الصالح الى ست القصور وأخرجها، فلما جاءت الى منزله أمر بخنقها، فخنقت بين يديه حتى ماتت، ومات الصالح في بقية ليلته.

قال: وكان الصالح شديد التشيع متغالياً في مذهب الإمامية، وكان يكره أهل السنة، وقيل إنه كان يسب الصحابة، رضي الله عنهم، وغضب على من لا يتنقصهم، وكان فيه بخل وحسد، ومنع في أيامه من بيع الغلال حتى غلت الأسعار، وكان كثير التطلع إلى ما في أيدي الناس، وصادر جماعة ليس لهم تعلق بالدولة، وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالاً، وهو أول من خوطب بالملك في الديار المصرية.

وقال ابن الحباب في سيرته: إنه من ولد جبلة بن الأيهم الغساني، الذي ارتد عن الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال المؤرخ: وكان والد الصالح يسمى أسد رزيك، قدم مع أمير الجيوش بدر الجمالي.

قال: وكان الصالح مع ذلك حازماً ضابطاً لأمور دولته شاعراً اديباً.

قال القاضي الأرشد عمارة اليمني: دخلت على الصالح قبل وفاته بليلتين فناولني رقعة وقال: لقد عملت هذين البيتين في هذه الساعة، فإذا فيها:

نحـــن في غفلـــة ونـــوم وللمـــو
ت عيـــون يقظـــانـــة لاتنـــام
قـــد رحلنـــا الى الحمام سنينـــاً
ليـــت شعـــري متـــى يكـــون الحمام

فقلت هما صالحان، وقمت، فكان آخر عهدي به.

قال المؤرخ: وكان الصالح يقطع الليل أثلاثاً: فالثلث الأول مع أمراء دولته ووجوهها، والثلث الثاني مع جلسائه وندمائه وشعرائه، والثلث الثالث مع خواص نسائه، فكان يسمى ابو العمرين قالوا: وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالي.

ومن شعر الصالح قوله:

يـــا مـــريـــض القلـــب بـــالـــذنـــ
ـــب، متـــى بـــالعفـــو تبرا
كلما جـــددت يـــومـــاً
تـــوبـــة ضيعـــت أخـــرى
تشتهـــي الأجـــر ولا تفـــ
ـــعل مـــا يكســـب أجـــرا
أتـــرى بعـــد ذهـــاب الـــ
ـــعمر تستـــأنـــف عمـــرا

وقوله:

يـــا مـــاشيـــاً فـــوق الثـــري
رفقـــاً، فســـوف تصير تحتـــه
إن قلـــت إني اعـــرف الـــ
ـــمولى القـــديـــر، فما عـــرفتـــه
إن كنـــت تعبـــد للمخـــا
فـــة والـــرجـــاء، فما عبـــدتـــه

والصالح هـو الذي بنى الجامع خـارج باب زويلة المعروف بـه. وكان يقول: ندمت على ثلاثة: احدها انني بنيت الجامع بظاهر القاهرة وجعلته عوناً على باب زويلة فيضرها وقـت الحصار، والاخرى توليتي شاور أعمال الصعيد، والله لاكان خـراب دولة بني رزيك إلا على يديه، والثـالثة أنني أنفقت في العساكـر مائتي ألف دينـار لأجل فتح بيت المقـدس فتأخرت عن ذلك.

قال: ولما توفي دفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى تربته التي بقرافة مصر.

قال: ولما حضرته الـوفاة أحضر ولده رزيك، وأوصاه بوصـايا كثيرة من جملتها أنه لا يعزل شاور، ولا يغير عليه مغيرا.

قال: ورثاه الشعـراء بقصائد كثيرة، فيها ما قالـه القاضي الأرشد عمارة اليمني:

أفي أهـل ذا النـادي عليـه أسـائلـه
فـإني لما بي، ذاهـب العقـل ذاهلـه
سمعـت حـديثـا أحسـد الصـم عنـده
ويـذهـل واعيـه، ويخرس قـائلـه

ومنها

وقـد رابنـي مـن شـاهـد الحال أننـي
أرى الـدسـت منصـوبـا ومـا فيـه كـافلـه
وأني أرى فـوق الـوجـوه كـآبـة
تـدل على أن النفـوس ثـواكلـه
دعـوني فما هـذا أوان بكـائه
سيـأتيكـم طـل البكـاء ووابلـه

وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب

قال:ولما مات الصالح خرجت الخلع من القصر لولده، وتلقب بالملك العادل مجد الإسلام

ذكر ظهور حسين بن نزار وقتله

وفي شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة ورد حسين بن نزار، بن المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله من بلاد المغرب، وقد جمع جمعا عظيما، وتلقب بالمنتصر بالله، فخرج إليه الأمير عز الدين حسام ابن فضة بن رزيك على صورة الإنضمام إليه واللحاق به.

فلما صار عنده في خيمته غدر به وقتله، وحمل رأسه الى العاضد لدين الله.

وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام البرج المعروف به بثغر الإسكندرية.

ذكر انقراض دولة بني رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك، والد العادل، لما حضرته الوفاة أوصى ابنه العادل بوصايا كثيرة منها أنه لايعزل شاور من عمله ولا يحركه،وحذره من ذلك فلما كان في سنة سبع وخمسين اجتمع أقارب العادل وحسنوا له عزل شاور عن ولاية الصعيد، فذكرهم بوصية أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدهم في ذلك الأمير عز الدين حسام بن فضة، فألزم العادل إلى أن كتب كتابا يستدعي فيه شاور، ويأمره بالحضور إلى القاهرة، فكتب إليه شاور يستعطفه، ويظهر الطاعة والإدلال لسابق الخدمة لأبيه، ومناصحته في القيام بأمور الدولة، ثم قال فيه: إن كان القصد أن يلي الأعمال أحدكم فليرسل السلطان من يتسلمها غير عز الدين حسان، وإن كان غيركم من الأمراء فأناأحق به

من سواكم، وقد سمعتم وصية أبيكم الصالح في حقي وما كرره في أمري واقرار أعمال الصعيد في يدي، وأرسل الكتاب إلى العادل، فوقف عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله، فقالوا: إن أبقيته طمع في البلاد ولايحمل إليك مالا، فقال العادل لهم: المصلحة تركه، فصمموا على عزله.

فأحضر العادل نصير الدين شيخ الدولة، وهو من أقاربه، وخلع عليه وولاه الأعمال القوصية، وكتب على يده إلى شاور بتسليم الأعمال إليه ووصوله إلى القاهرة، وتوجه نصير الدين، فلما وصل إلى إخميم أقام بها، وأرسل الكتاب إلى شاور طي كتابه، فلما وقف شاور على الكتاب أرسل إلى نصير الدين رسولا من جهته برسالة يقول له: إن بيني وبينك صحبة ولا تغتر بقول حسام، وارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فرجع نصير الدين إلى القاهرة ولم يعاوده.

وأظهر شاور العصيان على الدولة، وأحضر جماعة من العربان من بني شيبان وغيرهم، وتوجه من الأعمال القوصية، وجعل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجه، وحشد العربان وأنفق فيهم الأموال، فوافقوه وانطاعوا له، فسار بهم نحو القاهرة. فندب العادل لحربه سيف الدين حسينا، صهره، ومعه جماعة من الأمراء، فراسلهم شاور واستمالهم، وبذل لهم الأموال الجمة، فمالوا إليه فلما التقوا انحازوا إلى جماعته وفارقوا مقدمهم، فانهزم حسين واستجار بظريف بن مكنون أمير جذام، وحمله في البحر، فمضى إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فمات هناك فندب إليه العادل عز الدين حساما، فانهزم منه أيضا.

فعند ذلك خرج العادل من القاهرة وتوجه إلى إطفيح، واستصحب أهله وذخائره، واستجار بسليمان بن الفيض اللخمي، وكان من أصحاب أبيه الصالح، فأنزله عنده، ومضى من وقته الى شاور وأخبره بخبر العادل، فندب إليه جماعة فأخذوه أسيراً هو ومن معه، ونهب

أصحاب ابن الفيض ما كان معه، وحمل إلي شاور فوصل إليه في ليلة الجمعة لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فأمر شاور باعتقاله، وقال لسليمان بن الفيض: لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا اخبئك ذخيرة لولدي، ثم أمر به فشنق، وسميت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم، فهي تعرف الآن بهذا الاسم، فكانت أيام العادل سنة واحدة وثلاثة أشهر وأياماً. وجميع دولة بني رزيك تسع سنين تقريباً.

ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارته في يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وذلك أنه لما انهزمت جيوش العادل بن رزيك وهرب هو إلى إطفيح خلت القاهرة منهم، فدخلها شاور، وحضر بين يدي الخليفة العاضد لدين الله، فخلع عليه خلع الوزارة، وسلطنه، ولقبه بأمير الجيوش، وأطلق شاور لأهل القصور الإطلاقات الكثيرة، وزادهم على مقرراتهم في أيام بني رزيك، واستدعى أموال بني رزيك وودائعهم، وبسط العدل أياماً، ثم شرع في ظلم الناس، وبسط يده ويد أولاده في الدولة، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم وبالعاضد، وعتا ولده الكامل وتجبر، ولبس رداء الكبر، وبذخ في الأموال، وصرفها في غير وجوه مصارفها. وساءت سيرته في الأمراء فأجمعوا على إخراج العادل من الاعتقال ونصبه في الوزارة، فاتصل ذلك بالكامل بن شاور، فأشار على أبيه بقتل العادل، فامتنع عن ذلك وقال: إنه أولاني خيراً فلا أقتله، فقتله الكامل من غير إذن أبيه، فعظم ذلك على شاور وعلى الأمراء، وغضب الأمراء لقتل العادل، وخرجوا على شاور، وافترقوا على فرقتين: فكان الضرغام وإخوته وأهله على فرقة، والظهير عز الدين مرتفع وعين الزمان وابن الزبد فرقة.

وكان الضرغام ومن معه أظهر الفرقتين، فخرج على شاور وحاربه، فجمع شاور أمواله وذخائره وغلمانه، وخرج ليلاً من القاهرة، فركب الضرغام في إثره فلحقه عند باب النصر، فقاتله طي بن شاور، فقتل طي، وأسر الكامل ومضى شاور الى الشام، وذلك في صبيحة يوم الجمعة، لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة، فكانت وزارته ثمانية أشهر وخمسة أيام. والله أعلم.

ذكر وزارة الضرغام بن سوار

قال: ولما توجه شاور إلى الشام عاد الضرغام الى القصر، وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، ومضى إلى داره بقية ليلته، وجاء إلى القصور من بكرة النهار، فاستدعاه العاضد لدين الله، وولاه الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، واستخلف له الأمراء.

وأرسل علم الملك ابن النحاس الى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، يقبض على شاور.فأظهر نور الدين الإجابة لذلك، وباطنه بخلاف ذلك.

قال: ولما ولي الضرغام الوزارة خرج عليه الأمير علي بن الخواص، فظفر به الضرغام، فأشهره بالقاهرة ، وصلبه، وأحضر جماعة من الأمراء الى داره لدعوة عملها، فلما حضروا قبض عليهم وقتلهم.

ذكر قدوم شاور من الشام وعوده إلى الوزارة ثانياً وقتل الضرغام

كان قدومه في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وذلك انه لما توجه الى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وحسن له ان يجهز معه جيشاً يفتح به مصر، ووصفها له ورغبه فيها،

والتزم أنـه يحمل خـزائنها إليـه يستعين بها على قتال الفـرنج، فمال إليـه، وجهز معه أسد الـديــن شيركوه بعساكر، فلما قـاربوا مصر ندب إليهم الضرغـام عسكراً وقـدم عليه أخـاه نـاصر المسلمين، فلقيهم على بلبيس فانهزم العسكر المصري وعاد الى القاهرة.

وسار شـاور والعساكر الشـامية، فنزل بظاهـر القاهرة في آخـر الشهر، واجتمـع معه خلـق كثير من العـربان، فعلـم الضرغام أنـه لاقبل لـه بما دهمه، فركب إلى القصر، وطاف به، وجعـل ينادي العاضد، وهو يخاف أن ينزل إليـه، فأرسل إليه العـاضد يقول: أنـج بنفسك، فخرج من القـاهرة يـريـد مصر، ودخل شـاور وشيركـوه الى القـاهـرة، وندب جماعـة في إثـر الضرغام فأدركـوه عند مشهـد السيدة نفيسة، فقتلوه هنـاك في يوم الجمعة، لليلتين بقيتا من جمادى الآخـرة، وطيف برأسه القاهـرة على رمح، وبقيت جثته ملقاة بين الأكام ثلاثة أيام حتـى أكلتها الكلاب. ودفن ما بقي منه عند بركة الفيل، وعمل عليه قبة، فكانت مدة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وكـان فارسـاً بطلاً، كـريماً، عـاقلاً، أديبـاً، يحب العلماء ويقربهم، ولـه مجلس يجتمـع فيه أهـل العلم والأدب دون غيرهـم. وكان حسـن الخط، يقال إنه كان يحاكي ابن البواب في خطه.

قـال: ودخل شـاور الى العاضـد لديـن الله في مستهـل شهر رجـب، فعاتبه على ما كـان منه في إحضار العسكر الشامي، وحـذره عاقبة ذلك، فوعده أنه يصرفهم إلى بلادهم، فقبل ذلك منه، وخلع عليه خلع الوزارة.

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال: ولما انتصـب شاور في الـوزارة، وتم لـه ما أراد، أخـذ في التدبير على العسكر الشامـي، وحلف الأمراء، وتخاذل عن شيركـوه، وصار يخرج إليه بوجه عليه آثار الغضب، ففهم أسـد الدين شيركوه عنه، وعلم شاور

أنـه لاقبل لـه بشيركوه، فـاستعـان بالفـرنج واستـدعـاهم مـن السـاحـل لنصرته، ووعدهم بالأموال، واتصل ذلك بأسد الدين فحاصر القاهرة.

واتصل خبر شـاور بالملك العـادل نور الديـن فكتب الى أسد الـدين وأعلمه بما بلغـه من مباطنـة الفرنج، وأمره بـالخروج عن الديـار المصرية، فأبـى ذلك وتوجـه الى بلبيس، واحتـوى على بلاد الحوف، وجعل مـدينة بلبيس ظهره، فاجتمعت العساكر المصرية ومـن أتاهم من الفرنج، ونازلوا أسد الـدين، وحصروه ببلبيـس ثلاثة أشهـر، وهو ممتنـع بها لم يبرز إليهم، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر على الفرنج ان نـور الدين ملك حارم وسار الى بانياس، فراسلوا شيركوه يسألـونه الصلح، فأجـابهم الى ذلك، وخرج مـن مدينـة بلبيس، فلما صـار بظـاهرهـا أشـار شاور على ملـك الفرنـج بمهـاجمته وقبضـه فامتنـع مـري، ملك الفـرنـج، وأبى إلا الـوفاء بيمينـه لشيركوه.

وسار أسد الديـن الى الشام، وعاد شاور الى القاهرة، ومعـه طائفة من الفـرنج يتقـوى بهم، وكان قـد بذل لهم على نصرتـه اربعمائة ألف دينـار، ويهادنهم خمس سنين.

وكان دخول شاور إلى القاهرة لسـت مضين من ذي الحجة من السنة، واستمر بمصر من غير منازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

ذكر عود أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية بالعساكر الشامية وانفصاله

قال المؤرخ: لما انفصل أسـدالدين شيركوه عن الديـار المصرية في سنة تسـع وخمسين، بقي عنـده منها أمـر عظيم، وكـان إذا خلا بنـور الديـن الشهيد يرغبـه فيها، فجهزه بالعسـاكر والحشود، فسار مـن الشام في شهر

ربيـع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، فـاتصـل ذلـك بشاور، فـراسـل الفـرنج وانتصر بهم، فخـرج الفرنـج ووقفـوا على الطريـق التي يسلكهـا شيركوه إلى الديار المصريـة، فعدل شيركوه عن تلك الطريـق وجعلها عن يمينه، وسـار حتى نزل إطفيح، في سـادس شهر ربيع الآخـر. وعبر النيل إلى الجانـب الغربي، ونـزل الجيزة. وأقـام عليهـا إلى العشرين مـن جمادى الأولى. واستولى على الغربيـة وغيرها. فأرسل شاور إلى الفـرنج يستحثهم، فأتوا على الصعب والذلول، وقد طمعوا في ملك الديار المصرية.

فلما تكاملـوا بالقاهرة تـوجه أسد الـدين شيركوه نحو الصعيـد، وسار شاور والفرنـج في آثارهم، فجمع أسـد الدين الأمراء واستشـارهم للعبور إلى الجانب الشرقـي والعود إلى الشـام، فوافقـوا على ذلك، فنهـض شرف الدين بزغـش،أحد الأمراء المماليك النورية، وكان شجاعـا مقداما، وأنكر ذلك كل الإنكار، وامتنع من الموافقـة، وقال: من خاف من الأسرأو القتل فلا يخدم الملوك ويـأكل رزقهم، ويكون في بيتـه عند امرأته. وقـال: والله لانزال نقاتل إلى أن نقتـل عن آخرنا أو ننتصر. فوافقه أسـد الدين، وجمع عسكره ورتبهـم، وجعل أثقـاله في القلب ليكثـر بها السواد ولئـلا ينهبها أهل البلاد .

فبينما هـم في التعبئة إذا بشـاور والفرنـج قد أقبلـوا، ورتبهم واقتتلـوا، فكـانـت الهزيمة على شـاور والفـرنـج وتـوالـت عليهم الحمـلات مـن العسكر الشـامي، فتمادت بهم الهزيمـة إلى الجيزة، وشيركـوه في آثارهـم، وقتل منهم خلق وغرق كثير منهم، وأسر أسد الدين صاحب قيسارية.

ودخـل شاور والفـرنـج إلى القاهـرة، وملك أسـد الـدين البر الغـربي بكماله، وقصـد الإسكندرية ليحـاصرها، فلما قـرب منها خرج إليـه أهلها وسلموهـا إليه من غير ممـانعة، وكان والي الثغر يـوم ذاك نجم الديـن بن مصال، فدخل شيركوه البلد، وأقـام بها أياما قلائل، واستناب بها صلاح

الديـن يوسف ابن أخيـه نجم الدين أيـوب، وتركه بها ومعه ألـف فارس. وتـوجه هـو إلى الصعيد فـاستولى عليـه، واستخـرج أموالـه، وصام شهـر رمضان بمدينة قوص.

هذا وشاور يتجهـز للخروج ويرتب أحـواله وأحوال الفرنـج ويرم ما تلف لهم، فلما تكـامل مـا يحتاج إليه قصـد الإسكندريـة، فأخـرج أهلها الأموال وأنفقوها، واستعدوا للحصار، فكـان في جملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زنبورك وما يناسب ذلك من الآلات.

وسار شـاور ومري ملك الفـرنج، فنـازلوا الإسكندريـة، فلما رأوا شدة أهلها واجتماعهم على الحصار تقدم شـاور إليهم وقال: سلموا إلي صلاح الـديـن ومن معـه أضـع عنكـم المكـوس، وأعطيكم الأخماس، فـامتنعـوا وقالوا: معـاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيليـة، فعند ذلك وقع الحصار واشتد على أهل الإسكندرية إلى أن قلت الأقوات.

وبلـغ ذلـك أسـد الـديـن فسـار مـن الصعيـد وجـد في السير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد أفسد التركمان الـذين مع أسد الدين فصاروا معه، واجتمـع لشيركوه طائفـة كبيرة من العربـان، فلما علم شاور بقـربه خافـه وراسله في طلـب الصلح، وبـذل له خمسين ألـف دينار، سـوى ما أخـذه من خـراج البلاد، على أن يفـارق الديـار المصرية، فـأجاب أسـد الدين إلى ذلك، وشرط عليهم أن يرجع هـو إلى الشام، ويرجع الفرنج إلى بلادهم. فاستقرت هذه القاعدة ، وحلف الفرنج عليها.

ففتحت الإسكندرية عنـد ذلك، وخرج صلاح الدين يـوسف إلى مري ملك الفرنـج وجلس إلى جانبه، فدخل شـاور عليهما، فقال لمري: سلمه إلي وأعطيك في كل سنـة خمسين ألف دينار، فقال مـري: نحن إذا حلفنا

-١٠٥١٩-

لانغدر، ووبخه، وكان أسد الدين قد شرط على شاور أن الفرنج يرحلون ولايلتمسون من البلاد درهماً ولاضيعة ولاغير ذلك.

قال: وارتحل أسد الدين، ودخل مصر برضاء أهلها، وسار إلى بلبيس، وأرسل إلى ابن أخيه يوسف أن يتوجه في المراكب إلى عكا، هو ومن معه من العسكر، وما معه من الاثقال، ففعل ذلك، وركب من عكا إلى دمشق.

هكذا حكى ابن جلب راغب في تاريخه، قال: وارتحل أسد الدين من بلبيس في نصف شوال، ودخل شاور الإسكندرية، ثم خرج منها وعاد إلى القاهرة، فدخلها في مستهل ذي القعدة، وتلقاه العاضد لدين الله.

وأما الفرنج، فاستقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم في كل سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاور وطلب الوزارة، فندب شاور عسكراً لحربه، فانهزم ومضى إلى بلاد الفرنج.

ذكر وصول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ: وفي سنة أربع وستين وخمسمائة عاد الفرنج إلى القاهرة، وذلك أنهم لما توجهوا في سنة اثنتين وستين رتبوا في القاهرة جماعة من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحموها من عسكر يأتي إليها من الشام، فلما رأوا خلو مصر من الأجناد راسلوا ملكهم مري واستدعوه، وكان من الشجاعة والمكر على أمر عظيم، فامتنع وقال: الرأي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تحمل إلينا نتقوى بها على قتال نور الدين، وإن قصدناها حمل أصحابها الخوف على تسليمها لنور الدين، وإن أخذها وجعل فيها مثل أسد الدين شيركوه فهو هلاك الفرنج وخروجهم من الشام، فلم يقبلوا رأيه، وقالوا: ما يصل عسكر نور الدين إلينا إلا وقد ملكناها، وغلبوا على رأيه.

فتجهز الفرنج وساروا حتى وصلوا الى مدينة بلبيس ونازلوها، فوقع الإرجاف بمصر، وشرع شاور في إنشاء حصن على مصر واستعمل فيه الناس، فلم يبق أحد إلا وعمل فيه، وحفر خندقاً، وملك الفرنج بلبيس عنوة، وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً. وكان معهم بعض الأمراء المصريين ممن هرب من شاور، منهم يحيى بن الخياط.

ثم ساروا الى القاهرة وأحاطوا بها، وذلك في العاشر من صفر، فخاف أهلها إن أهملوا القتال ان يحل بهم ما حل بأهل بلبيس، فجدوا في القتال والاحتراز.

قال: ولما قرب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهب مصر وإحراقها، فأحرقت في تاسع صفر، ونهبت، وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة، فانتقل بعضهم، وتحصن البعض بالجزيرة، وتوجه آخرون في المراكب إلى ثغري الإسكندرية ودمياط، وطائفة إلى الوجه القبلي، وتفرقوا وذهبت أموالهم، كل ذلك قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم

قال: وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، إلى حادي عشر شهر ربيع الآخر.

قال: ولما علم العاضد لدين الله عجز أهل القاهرة عن مقاومة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستغيث به، وسير إليه شعور نسائه في طي الكتب.

وقيل إن شاور أرسل إلى نور الدين أيضاً.

وأرسل شاور إلى مري ملك الفرنج يذكره بسابق الصحبة والعهود القديمة، وقرر أن يحمل إليه ألف ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخذ المال ونتقوى به ونمضي ثم نرجع فلا نبالي بعد ذلك بنور الدين، فاستوثق شاور منه بالأيمان وعجل له مائة ألف دينار، وماطله بالبقية، وشرع يجمع له من أهل القاهرة المال، فلم يحصل له من جهتهم غير خمسة آلاف دينار لضعفهم.

هذا والرسل تتتابع الى الملك العادل ويستغيثون به، وقرر له ثلث الديار المصرية.

قال: ولما وصلت الكتب إليه طلب أسد الدين شيركوه من حمص، فسار منها إلى حلب في ليلة واحدة، فجهزه نور الدين وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح وغير ذلك، فاختار أسد الدين من العسكر ألفي فارس من الأقوياء، وستة آلاف من بقية العسكر، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً، ثم سار شيركوه، فكان خروجه من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول، وأردفه نور الدين بجماعة من الأمراء، منهم مملوكه عز الدين جرديك، وشرف الدين بزغش وعين

الدولة الياروقـي. وناصح الدين خمارتكين، وقطب الديـن ينال بن حسان المنبجي ، وغيرهم، والله أعلم.

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال: وقـدم أسد الديـن شيركوه بالعسـاكر، فكان وصـوله إلى مصر في يوم الثلاثـاء لليلة بقيت من شهر ربيـع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما بلغ الفرنج قربه عادوا عن القـاهرة إلى بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الآخـر، ومعهـم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس، ودخل أسد الدين القاهرة في سابـع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضد لـدين اللـه وتلقـاه، وحضر يوم الجمعـة التاسـع مـن الشهر إلى الإيـوان وجلس إلى جانب العاضد، وخلع عليـه، وفرح الناس بقدومه. وعاد أهل مصر إليها، وشرعوا في إطفاء النيران وإصلاح مـا تشعث، وكانت سقوف جامع عمرو بن العاص بمصر قـد احترقت فجدده الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قال: وأمـر العاضـد أسد الـدين شيركـوه بالنـزول على شاطـىء النيل بالمقس، ورتب لـه شاور ولمن معه الإقامات الوافـرة، وأظهر له وداً كثيراً، وصار يتردد إليـه في كل يوم، فطلـب أسد الديـن من شاور مـالا ينفقه في عسكره، فمطلـه فسير إليه شيركوه الفقيه عيسـى الهكاري يطالبه بـالنفقة ويقول له: إن العسكـر قد طال مقامهـم وطالبوا بالنفقـة وتغيرت قلوبهم عليك، وإني أخشـى عليك منهـم، فلم يكترث شـاور بذلـك، وشرع في المماطلة فيما كان قرره لنور الدين.

وعزم شـاور على ان يصنع دعـوة، ويحضر أسد الـدين وجماعـة الأمراء الذين معه الى داره، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجند فيمتنع

بهم من الفرنج. فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وحلف انه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم تفعل هذا قتلنا عن آخرنا، فقال الكامل لأبيه: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين الفرنج إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين ما أغاثه، ويملكون البلاد، فترك ما عزم عليه، واتصل ذلك بالعاضد فأعلم شيركوه.

ذكر مقتل شاور

كان مقتله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة.

وذلك ان الأمراء النورية، لما رأوا مماطلته بالنفقة، وبلغهم أنه قد عمل على القبض عليهم اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك، وغيرهما، على قتله وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه، واتفق أن شيركوه، خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي هذا اليوم، وحضر شاور له على عادته، فقيل إنه توجه للزيارة، فقال: نتوجه إليه، فتوجه ومعه يوسف وجرديك وهما يسايرانه، فأنزلاه عن فرسه، وكتفاه، فهرب عنه أصحابه، فجعلاه في خيمة، وأحاط به جماعة ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فحضر من القصر جماعة من قبل العاضد، يستحث على قتله، وحضر أسد الدين إلى المخيم ورسل العاضد تتواتر لأسد الدين يأمره بقتله، فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد على رمح.

ومضى أولاه إلى القصور، واستجاروا بالعاضد، فقتلوا بعد العقوبة الشديدة، في يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى منها، وهم: الكامل، والمعظم، وركن الإسلام، وتأسف شيركوه بعد ذلك على الكامل لأنه بلغه ما جرى بينه وبين أبيه.

قال: ولما قتل شاور استدعى العاضد أسد الدين شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة التي قتل فيها شاور، فرأى العوام وقد اجتمعوا، فهاله ذلك، فقال لهم: ان مولانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمركم أن تنهبوا دور شاور، فتفرق الناس عنه، ونهبوها. ودخل شيركوه إلى القصر، فتلقاه العاضد وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. ولم تطل مدته في الوزارة حتى توفي الى رحمة الله تعالى بعد خمسة وستين يوماً، وقام بالأمر بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار الدولة الأيوبية.

ذكر انقراض الدولة العبيدية

والخطبة للمستضيء بنور الله العباسي

كان انقراض هذه الدولة عند خلع العاضد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لسبع مضين من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين يوسف لما ثبتت قدمه في ملك الديار المصرية واستمال الناس بالأموال، قتل مؤتمن الخلافة جوهراً، زمام القصور، ونصب مكانه قراقوش الأسدي الخصي خادم عمه، ثم كانت وقعة السودان، فأفناهم بالقتل، على ما نذكره إن شاء الله مستوفى في اخباره، ثم أسقط من الأذان قولهم «حي على خير العمل»، وابطل مجلس الدعوة، وضعف أمر العاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملك العادل نور الدين إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، والخطبة للخليفة المستضيء بنور الله، وكان المستضيء قد راسله في ذلك. فامتنع صلاح الدين، وكره إزالة هذه الدولة. فكتب إلى الملك العادل يعتذر، وقال: إن فعلنا هذا الأمر لانأمن من قيام أهل مصر علينا لميلهم إلى هذه الدولة، وكان قصد صلاح

الدين ان يتقوى بـالعاضد على نور الدين إن هو أراد الـدخول إلى الديار المصرية.

فلما ورد جوابه على نـور الدين بالاعتـذار انزعج لذلـك، وزادف رسله إليه يأمره بخلع العاضد والقبض عليه.

فـاستدعـى الملك النـاصر الأمراء واستشـارهم في ذلـك، فمنهم مـن حذره، ومنهم من هـونه عليه، فأحضر الفقيه اليسع بـن يحيى بن اليسع، وعرفـه الحال، فلما كان في هذه الجمعـة صعد إلى المنبر بجامـع مصر قبل طلوع الخطيـب، ودعا للمستضـيء بنور الله، فلـم ينكر عليـه أحد، فلما كـان في الجمعة الثـانيـة أمر الملـك النـاصر الخطبـاء بمصر والقاهـرة أن يخطبـوا للمستضـيء بنور اللـه أبي محمـد الحسـن، بـن المستنجد بـاللـه العباسي، فخطبوا له.

ثم توفي العاضد لدين الله إثـر هذا الخلع، في يوم عاشوراء من السنة، بعد ثلاثـة ايام من خلعه، وكـان ضعيفاً لما قطعت خطبته، فقـال صلاح الدين: لاتعلموه، فإن عوفي أعلمناه، وإن توفي فلا نفجعه بهذه الحادثة.

وقـال بعض المؤرخين: إن صـلاح الديـن لما قطع خطبتـه دخل عليـه وقبـض عليـه واعتقله، فلما رأى ذلـك كـان في ذخـائره فص في خـاتـم، فمصه، فمات لوقته، فكـان صلاح الدين يقول: ندمـت كوني دخلت على العاضد وفعلت به ما فعلت، وكان أجله قد قرب.

ولما مات جلـس الملك الناصر للعـزاء به. فكـانت مدة ولايتـه إحدى عشرة سنة وخمسـة أشهر وتسعة عشر يـوماً ،مـولده في يوم الثـلاثاء لعشر بقين مـن المحـرم سنـة ست واربعين وخمسمائة، فعمـره على هـذا إحـدى وعشرون سنة إلا أحد عشر يوماً.

وكان لـه من الاولاد ثلاثـة عشر، وهم :علي، ومـوسى، وعبد الكـريم، وأبـو الحجاج يـوسف، وأبـو الفتوح، وإبـراهيم، وجعفـر، ويحيى، وعبـد القـوي، وعبـد الصمد، وأبـو البشر، وعيسـى، فـاعتقلهم الملـك النـاصر بأجمعهم، واستمـروا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستمائة، فكان مـن امرهم ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية.

ووزر له مـن ذكرنا أخبـارهم، وهم: الصالـح أبو الغارات طـلائع بن رزيك، ثم ولده العادل رزيك، ثم شـاور، ثم الضرغام، ثم عاد شاور، ثم أسد الدين شيركوه، ثم الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قضاتـه: أبو القاسم هبـة الله بن الكامـل، وأبو الفتح عبد الجبـار بن إسماعيل بن عبد القـوي، ثم الأعز أبو محمد الحسن بـن علي بن سلامة، ثـم أعيد عبـد الجبـار، ثم أعيـد ابـن كامـل، ثـم صرف على أيام الملـك الناصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس.

وكان العـاضد شديـد التشيع متغالياً في سـب الصحابة، رضـوان الله عليهم أجمعين، إذا رأى سنياً استحل دمه.

جامع أخبار الدولة العبيدية ومدتها ومن ملك من ملوكها

كانـت مدة تغلـب ملوك هذه الـدولة على البلاد منـذ أخرج أبـو عبد الله الشيعـي عبد الله، المنعـوت بالمهـدي، من سجلماسة، ومـن سجن اليسـع بن مـدرار إلى أن مـات العاضـد هذا مـائتـي سنة وسبعين سنـة وشهوراً، منهـا ببلاد الغـرب، منذ دخـل عبيد اللـه المهدي رقـاده إلى أن وصل المعز لـدين الله إلى القاهـرة أربع وستون سنة وعشرة أشهـر وخمسة وعشرون يوماً، وبـاقي هذه المدة بمصر والشام، إلى أن انقطعـت دعوتهم بخـروج عسقلان عـن يـد المسلمين واستيـلاء الفرنـج عليهـا، في جمادى

الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عباس بن يحيى بن تميم.

وعدة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تسموا كلهم بالخلافة، وهم: عبيد الله المنعوت بالمهدي، ثم ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، ثم ابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر إسماعيل، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو أول من ملك الديار المصرية والبلاد الشامية منهم، وإليه تنسب القاهرة المعزية، ثم ابنه العزيز بالله أبو المنصور نزار، ثم ابنه الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور، ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، علي، ثم ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد، ثم ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد، ثم ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور، ثم ابن عمه الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد ابن المستنصر بالله، ثم ابنه الظافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ، ثم ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر، ثم ابن عمه العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، وعليه انقرضت دولتهم، وانتهت أيامهم، وباد ملكهم، فلم يعد إلى وقتنا هذا.

قال المؤرخ: ولما خلع العاضد ومات واعتقل الملك الناصر صلاح الدين يوسف أولاده بالقصور مر القاضي الأرشد عمارة اليمني الشاعر بالقصور، وهي مغلقة الأبواب، مهجورة الجناب، خاوية على عروشها، خالية من أنيسها، فأنشأ قصيدته المشهورة التي رثى بها القصور وأهلها، وهي من عيون المراثي وأولها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور، فإن
قدرت من عثرات الدهر فاستقل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلاً، أما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن
جمالها أنها جاءت ولم أسل

منها:
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زر ساحة القصرين، وابك معي
عليهما، لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما: والله ما التحمت
فيكم جراحي، ولا قرحي بمندمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة
في نسل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم
محمد، وأبيكم غير منتقل
مررت بالقصر، والأبواب خالية
من الوفود، وكانت قبلة القبل
فملت بوجهي خوف منتقد
من الأعادي، ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت
رحابكم، وغدت مهجورة السبل

ـ ١٠٥٢٩ ـ

أبكــي على مــا أثــرات مــن مكــارمكــم
حـــال الـــزمـــان عليهـــا، وهـــي لم تحل

وهي قصيدة مشهورة مطولة.

ولما انقرضت هذه الـدولة قامت الدولة الأيوبية على مـا نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوكهم والله أعلم.

ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهي دولـة السّلطان الملـك النّاصر صـلاح الدّيـن يوسـف بن أيـوب وأولاده، ودولة أخيه الملـك العّادل سيف الدّين أبـو بكر وأولاده، رحمهم الله تعالى.

ولْنَبدأ بـذكر نَسَـب نجم الـدين أيـوب والد ملـوك الدّولـة الأيّوبيـة وابتداءِ حـالِهِ وحـالِ أخيه أسـد الدّيـن، وكيف تنَقّلـتْ بهم الحال إلى أن ملك أسـدُ الدّين شيركـوه الدّيارَ المصريّـة، وكيف انتقل الملْـك بعده إلى ابن أخيه الملك النّـاصر صلاح الدّين يوسُف. ثمّ نذكـر أخبار مَنْ ملك مِـن أولاده وأخيـه الملـك العـادل وأولاده في حَـرْبهم وسَلْمهـم إلى حين انقراض دولتهم. وبالله التوفيق.

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدّين

هو أبـو سعيد أيوب بـن شادي بن مروان. هـذا هو المقطوعُ بـه الذي لانزاعَ فيه، ولاخلاف بين أحد من المؤرخين ونَقَلة أخبارهم.

وقال الملـك الأمجد مجدُ الدّين أبو محمـد الحسَن، ابن السلطـان الملك النّاصر صلاح الدين أبي المفاخـر داود، ابن السلطان الملك المعظم شرف الدّين أبي المظفر عيسى، ابن السلطان الملك العادل سيف الدّين أبي بكر محمد، ابن الملك الأفضل نجم الـدّين أبي سعيد أيوب، رحمهم الله تعالى، في كتابه المتَرْجم بـالفوائد الجليّة في الفرائد الناصرية: سمعـتُ مَن يقول: مروان بن محمد؛ وقال بعض النّاس محمد بن يعقوب.

وقال شهابُ الديـن أبو شامة عبد الرحمن في كتابـه المترجم بالرّوضَتَين في أخبار الدّولتين سمعتُ مَن يقولُ: مروان بن يعقوب.

وقال الملك الأمجد: وقد اختُلِف في نسبهم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ماقاله عز الدّين علي بن الأثير الجزري أنّ نجم الدين أيوب منْ بلد دوين من أذربيجان، وأصله من الأكراد الرّوَاديّة:وهذا القبيل هم أشرف الأكراد.

قال الملك المجاهد:وهذا شيء يجري على ألسنة كثير من النّاس، ولم أرَ أحداً ممن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النّسب، لكنهم لاينكرون أن نجم الدّين كان بدوين.

قال: والمشهور عند بيّتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوّج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لاغيرُ، ويدلّ على ذلك أن السلطان الملك الناصر صلاح الدّين يوسف لّما ملك البلاد تقدم في دَوْلته جماعةٌ من الأكراد، فلم يبق أحدٌ منهم إلا جاء بنُو عمهُ وأقاربُه، حتى صار في عُصْبةٍ من أهله: والسّلطان رحمه الله لم يأتِ إليه من يمت بقرابة إلا من جهة النّساء فقط؛ ولوكان من الرّوَادِيّة لكان جميعُ القبيلة أولاد عمه، وإن لم يكُنْ له ابن عمّ قريب فيكون ابنَ عمٍّ بعيد قطعاً لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد، ولاشّك أنّ الدّواعي تتوفر على الانتماء إلى الملك مالاتتوفر على الانتماء إلى الأمراء.

القول الثاني: أنهم من أولاد مروان بن محمد الأموي، آخر خلفاء الدولة الأموية.

قال الملكُ الأمجد: وهذا شيء ادّعاه الملك المعز فتح الدين أبو الفداء اسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين بن أيوب باليمن، لما ملكه بعد أبيه، وتلقّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. وقال يحيى بن حميدة ابن أبي طّي: قد

نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لايعرفون جداً فوق شادي.

القول الثالث: ماذكره حسن بن عمران الجرشي، فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرة لنسب بني أيوب، فوصله بعليّ بن أحمد المرّي، ممدوح أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه:

شرق الجوُّ بالغُبار إذ سا ... ر علي بن أحمد القمقام

وقال أيضاً في مدحه:

إنما ابن عوف بن سعيد ... جمرات لاتشتهيها النعام

ولم ينكر الملك المعظم عليه ذلك بل قَبِل منه.

قال: وهذا سَردُ النّسب الذي عَمِله الجرشي، وهو أيوب بن شادي ابن مروان بن أبي علي.

قال الملك الأمجد: قلت: ويُحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره—وأبو علي كنية له— ابن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد ابن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سفيان ابن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وبقية النسب معروف، هذا ما قيل في نسبه. وأما ابتداء حاله:

-١٠٥٢٣-

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ: قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دوين إلى العراق في خلافة المسترشد بالله، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، فرأى من نجم الدّين عقلاً ورأيا وحُسن سيرة، وكان أَسَنَّ من أخيه أسد الدين، فجعله مجاهد الدين دُزْداراً بقلعة تكريت، وكانت له، فسار إليها ومعه أسد الدّين.

وقيل بل كان نجمُ الدين قد خدم السّلطان محمد بن ملكشاه السّلجقي، فرأى منه أمانةً وعقلاً، وسداداً وشهامة، فولاّه قلعة تكريت، فقام بها أحسن قيام، فلّما وَلِي السلطان مسعود أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز، فأقرّ نجمَ الدين في الولاية، وكان أتابك عماد الدّين زنكي بن آق سنقر، والد السلطان الشهيد نور الدّين لّما انهزم من قراجا السّاقي في سنة ست وعشرين وخمسمائة، كما ذكرناه، بلغت به الهزيمة إلى تكريت، فقام نجم الدين بخدمته أتم قيام، وأقام له السّفن إلى أن عَبَر دجلة، فكان سبب وُصلته بالبَيت الأتابكي وتقدمه.

قال: ثمّ اتفق بين أسد الدين وبين قوارص النّصراني، كاتب بهروز، مشاجرةٌ في بعض الأيام، فكلّمه النصراني بكلمةٍ أمضته، فضربَ عُنقه بيده، ورماه برجله فلّما اتصل الخبر ببهروز، وحضر عنده مَنْ حذّره من جُرأة شيركوه وتمكين نجم الدّين واستحوازه على قُلوب الرّعايا، خافَ عاقبةَ ذلك، وكتب بالإنكار عليه بسبب ماكان من أخيه، وعَزَله. فسار نجمُ الدّين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكي في الموصل، فلّما وصلا إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما، فأقطعهما الإقطاعات الجليلة، وشهدا معهُ حُروب الكفار، وقتال الفرنج.

فلّما ملَك زنكـي قلعة بعلبك، في سنـة ثلاث وثـلاثين وخمسمائة جعل نجم الـدّين دُزْدَاراً بها؛ فـأقام بها إلى أن قُتل عماد الـدين زنكـي، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وحَاصَر معينُ الدّين أنـر، صاحب دمشق قلعةَ بعلبك، حتـى ضاق الأمر على نجـم الدّيـن، فاضْطر إلى تَسليمهـا إليه، وتعوَّض عنهـا إقطاعاً وأمـلاكاً؛ وكان عندَهُ مـن الأكابر الأمـراء، واتصل أسد الـدين شيركوه بخـدمة الملك العـادل نُور الـدين محمود بـن زنكي، فجعله مقدماً على عسكره، وجعل له حمص والرّحبة وغيرهما.

فلما تعلقت همّة نـور الدّين بمُلـك دمشق أمر اسـد الدين بمكـاتبة أخيه نجـم الديـن أيوب في ذلـك، فرَاسَله، فـأعان نـور الدّيـن على فتح دمشق؛ فعظـم محلُّهُمَا عند نور الـدّين، فكان نجـم الدين إذا دخـل عليه جلس مـن غير أن يُؤذَن لـه في الجلُوس، ولم تكـن هذه الـرُّتبة لغيره مـن سَائر الأمراء. فلّما كان من أمر شاوَر ما قـدّمناه، وقصَد نورَ الدّين محموداً واستغاث بـه،أرسل معـه أسد الـدّين بـالعساكـر؛ وكان مـن أمره في المرّة الأولى، في سنـة تسـع وخمسين وخمسمائة، والمرّة الثـانيـة، في سنـة اثنتين وستين، والمرة الثالثة في سنة أربع وستين وخمسمائة مـاقدّمنا ذكره في أخبار الدّولة العُبيْديّة في أيام العاضد لدين الله.

ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدّين شيركوه بالدّيار المصرية ووفاته

كـانت وزارتُـه للعـاضد لـدين الله في يـوم السبـت لثلاث عشرة ليلـة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وذلك أنه لما كان من أمر شاور ومقتله مـاذكرناه آنفاً استَدْعى العاضدُ لديـن الله أسدَ الدّيـن شيركوه، فدخـل إلى القاهـرة في السّاعة التـي قُتِل

فيها شاوَر، فرأى من اجتماع العوام مـاهَالَهُ، فخاف على نفسه، فقال لهم: أميرُ المؤمنين يأمُـركم بنهب دارِ شـاور، فقصدَهَا النّـاس ونهبوها، وتفـرّقوا عنه، ولمّا نـزل أسدَ الـدّين بـدَارِ شاوَر، وهـي دارُ الوزارة، لم يجد فيهـا ما يجلس عليه.

قال:ولمّا تفرق الناس للنهب دخل أسد الـدّين على العاضد لدين الله، فتلقاه وخلع عليه خلع الوزارة، ولقّبه بـالملك المنصور أمير الجيـوش، وكتب له تقليدَ الـوزارة، وكتب عليه العاضـد بخطه هذا: «عهدٌ لم يعهـد لوزير بمثله، وتـقليدُ أمرٍ رآك أمير المؤمنين أهـلاً لحمله. والحجة عليك عند الله بما أوضحـه لـك مـن مَرَاشِـد سُبُلـه، فخـذ كتـاب أمير المؤمنين بقُـوّة، واسحـب ذيلِ الفخـار بـأن اعْتزِزت بخـدمتـك مـن النبوة؛ واتّخذ الفـوزَ سبيـلا﴿ ولاتَنقُضُـوا الأيمَانَ بَعْـدَ تَـوْكِيـدِهَـا وقَـدْ جَعَلْتُـم الله علَيْكُـمْ كَفِيلاً﴾(النحل٩١).

وخـرجَ مـن عند العَـاضـد وركـب إلى دار الوزارة وسكنهـا، واستقـلّ بالأمـر، واستعمل على الأعْمال مـن يثقُ بـه من كُفـاة أصحابـه، وأقْطع البلاد لعساكـره، وأرْسَل إلى ديوان الإنشاء بالقصر يطلُـب من يكتب بين يديه، فـأرسل إليه متولي الديـوان القاضي الفاضل عبد الـرحيم البَيْسَاني؛ وظَن رؤساء ديوان المكـاتبات أنّ هذا الأمر لايتم، وأن أسد الـدّين يُقْتل عن قريب كما قُتِـل غيره، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل وقـالوا لعلّه يُقتل معه. فكان من أمره ماكان.

ولم تطُلْ مدّة أسد الـدّين في الوزارة بل انقَضَتْ أيامُـه، وفاجأه حمامه، فتوفي في يوم السّبت لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة من السّنة.

واختلف في سبـب وفاته، فقِيل إنّـه مات فجأةً، وقيل بعلّـة الخوانيق، وقيل بل سُمَّ، فكـانت مدّةُ وزارته خمساً وستين يوماً، وعُمـل عزاؤه ثلاثة

أيام، وحمل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصّلاة والسلام؛ ودُفن هناك برباط الوزير جمال الدّين وزير الموصل.

ولمّا مات أسد الدّين شيركوه استقرّ في الوزارة بعده الملك النّاصر صلاح الدين يُوسف بن أيوب.

ذكر أخبار الملك النّاصر صلاح الدين يوسف ابن الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب ووزارته بالدّيار المصريّة

كانت وزارته بالدّيار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وقد تطاول جماعةٌ من الأمراء النّورية للوزارة؛ منهم عين الدولة اليَارُوقي، وقطب الدّين قايماز، وسيف الدّين المشطوب الهكاري، وشهاب الدّين محمُود الحَارمي، وهو خال صلاح الدين؛ وخطبها كلٌّ منهم لنفسه، فأشار جماعةٌ من المصريين وخواصّ العاضد لدين الله على العاضد أنْ يولّي صلاحَ الدّين وقالوا: إنه أصغر الجماعة سناً ، ولايخرُج من تَحْتِ أمر أمير المؤمنين، فإذا استقرَّ وضَعْنا على العساكر مَن يَسْتميلهم إلينا، فيبقى عندنا من الجُند مَنْ نتقوى به، ثم نأخذ يوسُف بعد ذلك أو نخرجُه فإنّ أمره أسهل من غيره، فاستدعاهُ الملك العاضدُ لدين الله، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة. ولقّبه بالملك النّاصر، فلم يُطعْه أحدٌ من الأمراء الذين كانوا تطاوَلوا للوزارة ولاخدموه.

وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعَى مع الأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب حتى استماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمر لايصل إليك مع الياروقي والحارمي وغيرهما، ثمّ اجتمع بالحارمي وقال له مثل ذلك، وقال له: إن صلاح الدين ولد أختك، وعزّه وملكه لك، وقد استقام لهُ الأمر، فلا تكُنْ أوّل من سعى في إخراج الأمر عنه. واجتمع بالأمراء واستمالهم، فأطاعه بعضهم وعصى بعضهم.

فأمّا الياروقي فإنه قال: لاأخدُم يوسف أبداً ، وعاد إلى الملك العادل نور الدّين هو وجماعة من الأمراء، وصار صلاح الدين نائباً عن الملك العادلِ نور الدّين، والخطبة لنور الدّين ولايكاتبه إلا «الأمير الاسفهسلار

صلاح الدّين وكافة الأمراء بالدّيار المصرية. يفعلون كذا وكذا».. ويضع علامته في الكُتُب، عظمة أن يكتب اسمه.

ولمّا وزَر صلاح الدين ثبت قدمه، واستمال قُلوب الناس بالأموال فمالوا إليه فقوي أمره، وضعف أمر العاضد.

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر، زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدي وحرب السودان

كان مقتل مؤتمن الخلافة في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، من سنة أربع وستين وخمسمائة.

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع في نقض إقطاع المصريين، فاتفق هذا الخادمُ مع جماعةٍ من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية، والاعتضاد بهم على صلاح الدين ومَنْ معه؛ وأرسَل الكتب مع إنسان، فجعلها في نعلٍ ولبسه، وسار على أنه فقير رثُّ الهيئة، فلما وصل إلى البيْضاءَ وجده تركمانيّ، فأنكر حاله إذ هو رثُّ الهيئة جديد المداس، فأخذ مدَاسَه وفتقه، فوجد الكتب فيه، فحمله بها إلى الملك الناصر، فوقف عليها، وكتم الأمر، وقرَّر الرجل بالعقوبة، فأقرّ أنّ الكتب بخط رجلٍ يهودي، فاستحضره، فأقر بها، ثم قتل صلاح الدّين القاصد، واستشعر مؤتمن الخلافة من الملك النّاصر، فلزم القصور واحترز على نفسه، فكان لايخرج منها. فلمّا طال ذلك عليه خرج في هذا اليوم لقصر له بالخرقانيّة، فأرسل إليه الملكُ النّاصر جماعة فقتلوه، وأتوه برأسه، فرتَّب حينئذٍ على أزمّة القصور قراقوش الخصي، وكان من مماليك عمّه أسد الدين ليطالعه بما يتجدد بالقصور.

قال: ولما قتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأخذتهم الحميّة، وعظُم عليهم قتلهُ، لأنه كان رأسهم ورئيسهم، فحشدوا واجتمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألف عبد؛ وكانوا أشد على الوزراء من العسكر، فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم، وقدّم على العسكر أبا الهيجاء السّمين؛ فالتقوا بين القصْرَين واقتتلوا، فقتل من الفريقين جمع كثير، فلمّا رأى ا لملك الناصر قوتهم وشدّة بأسِهم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة، خارج باب زويلة، فأحرقها؛ فاتصل ذلك بهم، فضعُفَت نفُوسهم، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدوا النّيران تُضْرم فيها. واتبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها، ودام [القتال] بينهم أربعة أيّام، نهاراً وليلاً، إلى يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة؛ فخرجُوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقنوا بالهلاك، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك الناصر فقتلهم، ولم يَنْجُ منهم إلا اليسير، وكتب الملك الناصر إلى وُلاة البلاد بقَتْلِ من يجدونه منهم، فقتلوا من عند آخرهم.

وبقي الملك الناصر يخشى من أهل القصر لِمَا فعله بمؤتمن الخلافة جوهر، فكان جوهر هذا سبب زوال مُلك الدّولة العُبَيدية، وجوهر القائد سبب مُلك المعزّ للبلاد؛ فَشتّان بين الجوهرين.

ذكر الحوادث في الأيام النّاصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدّم هذه الحوادث التي نذكرها الآن على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقة على ذلك في التاريخ، ولأنا أردنا أنْ نُفردَ غزواته وفتوحاته ليأتي الكلامُ عليها سياقه يتلو بعضُه بعضاً، ولايقطع بغيره، فكان ممّا نذكره:

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب والد الملك النّاصر إلى الديار المصرية

كان الملك النّاصر قد كتب في طلب والده، رحمهما الله تعالى، فوصل بأولاده وأهله إلى القاهرة في السّابع والعشرين من شهر رجب سنة خمس وستين وخمسمائة؛ ولمّا وصل تلقّاه الخليفة العاضد لدين الله بظاهر باب الفتوح عندشجرة الإهليلج، ولم تجر بمثل ذلك عادة، فكان يوماً مشهوداً، وخَلَع العاضدُ عليه، ولقّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من أنواع التحف والألطاف شيئاً كثيراً؛ وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع ولده شمس الدولة، أخا النّاصر، قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتي ألف وستةً وستين ألف دينار.

ذكر إبطال الأذان بحيّ على خير العمل

قال المؤرخ: ولِعَشْر مضينَ من ذي الحجة سنة خمس وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر أن يسقط من الأذان قولهم«حيّ على خير العمل،محمّد وعليّ خير البشر». وكانت أوّل وصمة دخلت على الشيعة والدّولة العُبيديّة؛ ويئسوا بعدها من خير يصلُ إليهم من الملك النّاصر، ثم أمر أنْ يُذكر في الخطبة بكلام مُجْمَلٍ، وليُلْبِس على الشيعة والعامّة: اللّهم أصلحْ العاضد لدينك.

ذكر ما أنشأه الملك النّاصر صلاح الدّين بالقاهرة ومصر

من المدارس والخوانق

قال المؤرخ: وفي أوّل سنة ستٍّ وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر

بهَدْم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر، ودارُ المعونة هي المكان الذي يعتقل فيه النّاس، وأمر ببنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجّار. وإنّما عُرفت به لأنه درس بها.

ثم عمر دار العزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكختة مدرسة للطائفة المالكّية، ودرس فيها ابن أبي المنصور.

وفيها اشترى تقيّ الدين عُمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدّين، الدّار المعروفة بمنازل العّز،بمصر، وبناها مدرسة للطائفة الشافعية.

وكانت هذه الدّار يسكنها الأمير ناصر الدولة ابن حمدان في الأيّام المستنصرية؛وقد تقّدم ذكر ذلك.

ثم أمر الملك النّاصر ببناء مدرسة الشافعّي والبيمارستان، وعمّر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على مايأتي ذكر ذلك.

وفي هذه السنة أيضاً أبطل الملك النّاصر مجلس ا لدّعوة من الجامع الأزهر وغيره، وكان من سُنّة الدّولة العُبيديّة أن يقيموا لهم دُعاة كالخطباء، والله أعلم.

ذكر تفويض القضاء بالدّيار المصريّة

للقاضي صدر الدّين بن درباس

وفي سنة ستٌ وستّينَ وخمسمائة في ثامن عشري جمادى الآخرة فوّض السلطان الملك الناصر القضاء بالديار المصرية الى صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماردانى ، فاستمر إلى آخر الايام الناصرية.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة، في سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله، ومات في يوم عاشوراء كما قدّمناه.

وفيها في الثالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حاصلُ الخزائن بالقصور، فوجد فيها مايزيد على مائة صندوق، ومن الذخائر النّفيسة مالايزيد عليه.

وفيها في صفر أَمَرَ الملكُ النّاصر بإبطال المكُوس بالقاهرة والأعمال عن التجار المتردِّين إليها وإلى ساحل المقسم صادراً وارداً، فكان مبلغُ ذلك مائة ألف دينار عينا.

وفيها رُسم بتحويل سنة خمس وستّين الخراجية إلى سنة سبع وستين الهلاليّة، وكانت قد حُوّلت في سنة خمسمائة في أيام الأفضل أمير الجيوش.

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى في يوم الثلاثاء السّابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة، وذلك أنّه ركب من داره، فلمّا انتهى إلى باب القصر في وسط المحجة شَّب به فرسُه فسقط عنه، فحُمل إلى منزله، فعاش ثمانية أيام ومات فدُفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في الدّار السّلطانية، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصّلاة وأتم السّلام، وقُبرا في تُربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل رحمه الله.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر ببيع الكتب التي بخزانة القصر، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات، فأبيعت بأخَسِّ الأثمان.

ذكر عمارة قلعة الجبل والسّور

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً أمر الملك النّاصر بعمارة قلعة الجَبَل والسّور الدّائر على القاهرة ومصر، وجعل مبدأه من شاطئ النّيل إلى شاطئه. فكان دَوْرَ السّور على القاهرة والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع وذراعين، من ذلك ما بين قلعة المقسم والبرج بالكوْم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعا؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع، كل ذلك بالذراع الهاشمي. وتولّى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وحفر في رأس الجبل بئراً يتوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتةٍ من الجبل؛ وتوفي الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته.

وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشّافعي رحمه الله، وتولاها الفقيهُ الزاهد نجم الدين الخُبوشاني.

وأمر باتّخاذ دارٍ في القصر بيمارستاناً للمرضى، ووقَفَ على ذلك وقوفاً، وهذا البيمارستان يُسمّى في وقتنا هذا البيمارستان العتيق.

وفيها أسقط مكوس مكّة، شرّفها الله تعالى، المقررة، على الحاج وعوض أميرها عن ذلك في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تُحمل إلى ساحل جدة، وعيَّنَ لذلك ضِياعاً بالدّيار المصرية وقرّر أيضاً حَمْل غلاّتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء؛ فقال الشيخ أبو الحسين محمد بن جبير الأندلسي في ذلك قصيدة يمدح بها الملك الناصر:

رفَعْتَ مكارمَ مَكْسِ الحجازِ
بإنْعَامِكَ الشّامِلِ الغَامِرِ

وأمّنتَ أكنافَ تلك البلادِ
فهانَ السَّبيلُ على العابرِ
وسُمتَ أياديك فيّاضةً
على واردٍ وعلى صادرِ
فكَم لكَ بالشرق من حامدٍ
وكَم لكَ بالغربِ من شاكرِ

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً، في ثاني شهر رمضان صُلب جماعة ممَّن أراد الوُثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العُبيديّين، وسببُ ذلك أن جماعة من شيعتهم، منهم عمارة اليمني الشاعر، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعز سلامة المعروف بالعويرس، والقاضي ضياء الدّين نصر بن عبد الله بن كامل، وداعي الدعاة، وغيرهم من جند العُبيديين ورجال السّودان وحاشية القصر ومَنْ وافقهم من الأمراء الصّلاحية والجند، اتَّفق رأيهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقليَّة، ومن سواحل الشّام إلى الديار المصريّة على شيء بذلُوه لهم من المال والبلاد، وقرّروا أن الملك الناصر إذا خرج إليهم بنفسه ثار هؤلاء بالقاهرة ومِصر وأعادُوا الدولة العُبَيديّة، العلوية بزعمهم، ويعود مَنْ معه من العساكر الذين وافقُوهم عنهُ فلا يبقى له مُقام بالبلاد. وإنْ أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثاروا به فأخذُوه باليد. وقال لهم عمارة: وأنا فقد أبْعَدْتُ أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسدّه. وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسل إلى الفرنج وتقرّرت هذه القاعدة بينهم.

قال: وكان ممن أدخلُوه معهم في هذا الأمر زين الدّين عليّ بنُ نجا الواعظ، وهو ا لقاضي ابنُ نجيّة، ثمّ اختلفُوا في وزارة الخليفة: فقال بنو رُزّيك: يكون الوزير منّا.والقاضي. وقال بنو شاور: بل يكُون الوزير منّا

فحضر ابنُ نجا إلى الملك النّاصر وأعْلَمه بصُـورة الحال، فأمره بمُباطَنتهم وموافقتهم، ومطالعته بأحوالهم ففعل ذلك.

ثم وصل رسولٌ مـن مَلِك الفـرنج إلى الملـك النّاصر بهدَايـا، وهو في الظّاهر لـهُ، وفي الباطن لهؤلاء، فوضـع الملكُ النّاصر عليه مـن النَّصارى من داخله وبـاطنه؛ فذكر لـه الحال على جليتّه، فأعلم بـه الملك النّاصر. فلما تحقَّقـه قبض على هـؤلاء وصَلّبهم، فكـان ممـن صلب عمارة اليمنـي، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعز العويرس، وغيرهم.

وجاء عمارة إلى بـاب القاضي الفاضل لّما مُسـك فاحتجب عنـه، فقال عمارة:

عبـــدُ الـــرّحيـــم قـــد احتَجـــبْ
إنْ الخَلاَص مـــــــن العَجــــــبْ

ونُـودي في أجنـاد المصريين بـالـرّحيل مـن ديـار مصر ومفـارقتهـا إلى أقـاصي الصّعيد، واحتـاط الملكُ النّـاصر على مَـنْ بالقصر مـن سُلالـة العَاضِـد وأهله. وأمّـا مَن كان قـد وَافَقهـم من أصحـابه فلـم يخاطبهم في ذلك ولاأوْهمهـم أنّه عَلِـم به. وبَلَغ ذلك فرنج الساحل فلـم يتحركوا من أماكنهم، وأما فرنج صقليّة فإنهم قصدوا ثغر الإسكندرية على ماذكره.

وفي سنـة سبعين وخمسمائة، في أوائلهـا، خالـف الكنـزُ، أمير العـرب، على الملـك النّاصر بصعيـد مصر، واجتمـع معه جماعـة كبيرة مـن رعَايـا البلاد والعُربـان والسّودان وغيرهم، وقَتَل أخـا الأمير أبي الهيجاء السّمين، وكانْ قد توّجـه لإقطاعه بالصّعيد. فعظُم قتلُه على أخيه، وكـان من أكابر الأمراء النّـاصرية، فَسَار إلى قتال الكنـز. ونَدَب معه الملك النـاصر جماعة من الأمـراء والعسكر، فوصلُـوا إلى مدينة طُود، وهـي على مسافة يـوم من مدينة قـوص إلى جهة الصّعيد، فامْتنـع مَنْ بها عليهم، فقاتلُـوهم وظَفِروا بهم وقتلـوا كثيراً منهم، وأخـربوا البلـد، فهـي إلى وقتنا هـذا تُعرف بطُـود

- ١٠٥٤٦ -

ذكر مااستَوْلى عليه الملكُ الناصر من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه

كان من البلاد التي خُطب بها للملك النّاصر صلاح الدّين يوسف طرابلس الغرب، وبعض بلاد إفريقية، منها مدينة قَابس.

وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوكُ تقيّ الدين عمر، ابن أخي الملك النّاصر، توجّه في سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة في طائفة من الأتراك إلى جبال نَفُوسة(٢١)، واجتمع به مسعُود بن زمام المعروف بالبلاط، وهو من أعيان أمراء تلك الناحية، وكان خارجاً عن طاعة [ابن]عبد المؤمن. فاتفقا وكثُر جمعهما، ونزلاً على طرابُلس الغرب، فحاصراهَا مدَّة وضيَّقا على أهلها، ثمّ فتحاها، فاستولى قراقوش عليها، وأسْكنَ أهله بقصرها، ثمّ ملك كثيرا من بلاد إفريقية إلا المهديَّة وسفَاقُس، وقَفْصَة، وتُونس، وماوَالاَها مِن القُرى والمواضع. وكَثُر جمعُ قراقوش، فحكم على تلك البلاد، وجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابس، وقويت نفسُه، وطمع أنّه يستولي على جميع إفريقيّة لبعد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بجهاد الفرنج، ثم جاء بوزابه مملوك تقيّ الدين أيضاً، بطائفة من التُّرك فزاد بهم قوّة إلى قوّته، ثم اجتمع الأتراك وعلي ابن إسحاق الملَثّم [المعروف بابن غانية] وملكوا بجاية في سنة ثمانين، وانقادواإلىالملثم واستعانوا به ، لأنه من بيت المملكة والرئاسة القديمة ، ولقبوه بأمير المسلمين؛ وقصدوا بلاد إفريقية فملكوها شرقا وغربا إلا تونس والمهدية ، فإن الموحدين حفظوها.

ولّما حصل استيلاؤهم على بلاد إفريقية قُطِعت خطبة أولاد عبد المؤمن وخُطب للنّاصر لدين الله العبّاسي؛ وقصدوا مدينة قفصة فتسلموها في سنة اثنتين وثمانين: وأقام بها طائفة من الملثمين والأتراك.

الخراب، وغيطانُها عـامرة، ثمّ سار العسكـر منها إلى الكنز، فقاتلَـوه،فقُتل هو ومَن مَعَه من الأعراب، وأَمِنَت البلاد واستقرّ أهلها.

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة ظهـر بالدّيار المصريـة فأرٌ كثير جداً. قال القـاضي الفاضـل عبْدُ الرحيـم: حدثنـي مَنْ شاهـد هذا الفـأر وهو يرحَلُ مـن بقعة إلى أخرى فيغطي الأرض بكمالها حتـى لايظهر منها شيءٌ البتّـة وأنه شـاهده يمـرٌّ بأمـاكـن فلا يُلـمُّ بها ولايخرج عليها والـزّروع بها محصورة. ويمـرّ بأخـرى فلا يلبث أن يُفسـد جميعَ مـافيها ولايـرتحلُ عنها وبها شيءٌ من الزّرع ولا المقات بالجملة.

وفي سنـة تسع وسبعين وخمسمائة ظهـر بأبـوصير السدر[٢٢] مـن أعمال الجيزة بيـت أشاع النّاس أنّـه بيت هرمـس، ففُتح بحضور القـاضي نظام الـدّيـن بن الشّهـرزوري، وأُخـرِجَ منـه أشيـاء من جملتها صُـور كِبَاشٍ وضفـادع بأزهُـر، وقـواريـر دهنج، وفلـوس مـن فضـة ونحاس، وأصنـام نحـاس ويـاقـوت، وغير ذلك مـن الذّهـب والفضة والتّحـف القديمـة، ووُجِد فيه خلقٌ كثير من الأموات.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة فـي يوم الاثنين مستهل المحرم درس في المدرسـة الفاضلية التي انشأهـا القاضي الفاضل عبـد الرحيم بالقـاهرة بدرب ملوخيـا ؛ ورتب فيها لإقراء كتابَ الله تعالى الشيـخ الإمام العالم الـــــــــزكــــــي أبـــــــــو محمـــــــــد القاسم بـن فيرُّه الرُّعيني الشّاطبـي؛ وفي التّدريس على مذهبـي الشّافعي ومالك الفقيه أبـو القاسم عبد الرحيم بـن سلامة الإسكندري، رحمهما الله تعالى.

وحيث ذكـرنا هـذه النّبْذة من الحوادث التّي اتّفقت في خـلال دولته، فلنَذْكر مااستولى عليه من البلاد الإسلاميّة.

فلّما اتصلت هذه الأخبار بالأمير يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن اختار من عسكره عشرين ألف فارس من الموحدين، وسار بهم في صفر سنة ثلاث وثمانين، فوصل إلى مدينة تونس، وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه، فساروا إلى الملثم والأتراك بقفصة، فهزمهم الملثم ومن معه في شهر ربيع الأول من السنة، فجاء يعقوب بن يوسف بمن معه في نصف شهر رجب منها، والتقوا على مدينة قابس، فانهزم الأتراك والملثم، وقتل كثير منهم ، وفتح يعقوب قابس، وأخذ أموال قراقوش وأهله وحملهم إلى مراكش. وحصر مدينة قفصة ثلاثة أشهر وبها الترك، فطلبوا الأمان لهم ولأهل البلد، فأمنهم وسير الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم.

هذا ما اتفق لهذه الطائفة، وإن كانت هذه الفتوحاتُ لا تختص كلها بالدولة الأيوبية، إلا أنهم كانوا سبباً، وهم الذين استولوا على البلاد كما ذكرنا فأوردناها في أخبارهم.

ذكر استيلائه على اليمن

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة جهّز الملك الناصرُ أخاه الملك المعظم شمس الدّولة تورانشاه إلى اليمن، فسار في مستهل شهر رجب، وكان عُمارة اليمني الشّاعر يذكر له البلاد ويحسنها له ويحثه على قصدها. ويعظم مملكتها، فسار ووصل إلى مكة شرفها الله تعالى، ومنها إلى زبيد وبها صاحبها عبد النبي المتغلب عليها ، فلّما قُرب منها ورأى أهلها انهزموا، فوصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمانع عنه، فنصبوا السلاليم وصعدوا عليها إلى السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه، وأسر المتغلب عليها عبد النبي وزوجته المدعوة بالحرة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة، وسلم شمس الدّولة عبد النبي إلى سيف الدّولة مبارك بن كامل بن منقذ ، وهو من أمرائه، وأمره أن يستخرج منه

الأموال، فاستخرج منه شيئاً كثيراً وأظهر دفائن كانت لـه، ودلتهم الحرة على ودائع لها كثيرة . ثم أصلح أمر زبيد وخطب بها للنّاصر لدين الله .

ثم سار إلى ثغر عدن، وهي فُرْضة الهند والزنج والحبشة وعُمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلك؛ وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها. وصاحُبها يومئذ رجل اسمه ناشر، فخرج إليه وقاتله، فانهزم هو ومن معه؛ فسبقه بعض عسكر الدّولة فدخلوا البلد قبل أهله وملكوه، وأسر صاحبه، وقصد العسكر نهب البلد، فمنعهم شمس الدّولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنّما جئنا لنملكها ونعمّرها وننتفع بها ، ثّم عاد إلى زبيد وحصر ما في الجبل من الحصون فملك قلعة تعز واسمها الدّمولة، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب اليمن، ومَلَك غيرها من الحصون والمعاقل، واستناب بثغر عدن عزّ الدين عثمان الزنجيلي، وبزبيد سيف الدّين مبارك بن كامل بن منقذ، وجعل في كلّ حصن نائباً من أصحابه.

وأحسن شمسُ الدّولة إلى أهل البلاد؛ وعادت زبيدُ إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة والأمن. ثّم عاد شمس الدولة من اليمن، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر، فوصل إليها في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ: لّما توفي الملك العادلُ نور الدّين الشهيد محمُود بن زنكي رحمه الله، كما قدّمناه في أخباره، وولي بعده ولدُه الملك الصّالح اسماعيل، أقرّ الملكُ الناصر الخطبة باسمه بعد أبيه، ولم يخطُبْ لنفسه، ثم اتفق ما ذكرناه من نُقْلة الملك الصّالح من دمشق إلى حلب، ولم يُستأذن الملكَ النّاصر في ذلك ولا كتب له فيه ؛ فسار من الدّيار المصريّة إلى الشام في شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين

سلخ الشهر — وقال ابن شدّاد في سلخ شهر ربيع الآخر — وتسلم دمشق من الأمير شمس الدّين ابن المقدّم ونزل بدار العقيقي، وكانت سكن أبيه، وأحسن إلى الأمراء وأكرمهم، وأظهر أنه إنما حضر إلى الشام نُصرة للملك الصّالح، وليعيد عليه ما أخذه ابنُ عمه سيف الدّين غازي من بلاده، وأقر خطبته ولم يقطعها ولا خطب لنفسه.

ذكر ملكه مدينة حمص وحماة

قال المؤرخ: ولّما ملك دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب ، وتوجّه إلى مدينة حمص في مستهل جمادى الأولى، فنازلها، فملك المدينة ولم يشتغل بالقلعة ؛ وترك بالمدينة من يحفظها ويمنعُ من في القلعة من التصرّف.

وسار منها فوصل إلى مدينة حماة في مستهل جُمادى الآخرة؛ وكان بقلعتها الأمير عزّ الدّين جُرديك ، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع من تسليمها، فأرسل إليه يعرّفه ما هُو عليه من الطاعة للملك الصّالح، فاستحلفه جرديك على ذلك، وخرج إليه، وترك أخاه بالقلعة ليحفظها. وتوجّه عزّ الدّين جُرديك إلى حلب ليكون سفيراً بين الملك الناصر وبين كمشتكين فاعتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها.

ذكر حصره حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

قال: ولّما بلغ الملك النّاصر خبرُ عزّ الدين جرْديك والقبض عليه، توجّه إلى حلب وحصرها في جُمادى الآخرة من السنة، فقاتله أهلها، وركب الملكُ الصّالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب، وذكرهم بإحسان والده إليهم، واستنصر بهم في دفع صلاح

الدّين، فبكـوا وحلفوا له على بذل النفـوس والأموال، وقاتلوا أشـدّ قتال. وأرسل سعد الـدّين كُمُشتكين إلى سنان، مقدّم الاسماعليـة ، مالا كثيرا على قتـل الملـك النّـاصر؛ فسيّر إليـه جماعة ، فظفـر صـلاحُ الـدّيـن بهم وقتلهم، ورحل عن حلب في مستهل شهر رجب من السنة.

وكان سبب رحيله أنّ كُمُشتكين أرسـل إلى القومص ريمند الصّنجيلي، صاحب طرابلـس، أن يجهّز إلى بلاد صلاح الدّين من الفـرنج من يمنعُه من الـوُصول إليهـا، فلّما بلغهُ ذلـك فارقَ حلـب وعاد إلى حماة في ثـامن الشهر، بعدَ نـزول الفرنج على حمص بيوم، فلمّا سمـع الفرنج بقُربـه رحلوا عن حمص، ووصـل صلاح الدّيـن إلى حمص، وملك القلعة بعـد حصار، وكان ملكه لها في الحادي والعشرين من شعبان من السّنة.

ثّم سـار منها إلى بعلبك، وكـان بها يمن الخادم متـوليها من أيـام نور الدّين، فحصرها الملـك النّاصر، فطلب يمن الأمان، فأمنـه وتسلم القلعة في رابع شهر رمضان.

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازي

من الملك الناصر وحصره حلب حلب ثانيا

قال المؤرخ: كان الملك الصّالح كتب إلى ابن عمه سيف الدّين غازي يستنجدُه على قتال صلاح الدّين ودفعـه، فجهز العسكر صُحبة أخيه عز الـديـن مسعود، وتـأخـر هـو لما وقـع بينـه وبين أخيه عماد الـدّيـن مـن الاختلاف الـذي قدمنـاه في أخبار الـدولة الاتـابكية، فسـارت العساكـر السيفيـة ، واجتمـع معها العسكـر الحلبـي، وسـاروا كلهم لقتـال الملـك الناصر ، فـأرسل إلى سيـف الدّين يبـذل له تسليـم حمص وحماة وأن يُقِرَ بيده مـدينة دمشق نيـابةً عن الملك الصـالح؛ فلم يُجب إلى ذلـك وقال: لابُد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر .

فلما امتنع سيف الدّين من إجابته تجهّز عند ذلك للقاء عزّ الدين مسعُود ومن معه وقتالهم، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان بقُرون حماة، فلم تثْبتْ عساكر سيف الدين وانهزموا لايلوى بعضهم على بعض، وتبعهم الملك الناصر وغنم معسكرهم، ووصل إلى حلب وحاصرها، وقطع خُطبة الملك الصالح، وأزال اسمه.

فلّما طال الحصار على من بحلب راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها؛ فأجابهم إلى ذلك، وانتظم الصّلح، فرحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة، ووصلت إليه بها رسل الخليفة المستضيء بنُور الله ، ومعهم الخلع والأعلام السود، وتوقيع من الدّيوان العزيز بالسلطنة ببلاد مصر والشام.

وفيها ملك قلعة بعرين في العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان من أكابر الأمراء النورية، فجاء إلى خدمة الملك الناصر ، وظن أنه يكرمه ويقربه، فلم ير من ذلك شيئاً ففارقه وعاد إلى قلعته، فلما استقر الصلح بين الملكين الناصر والصالح نازل بعرين ونصب عليها المجانيق وملكها.

ذكر الحرب بين

الملك الناصر وسيف الدين غازي وانهزام غازي

قد قدمنا انهزام عز الدين مسعود بالعسكر السيفي من الملك الناصر في سنة سبعين وخمسمائة، فلما كان في سنة إحدى وسبعين جمع سيف الدين غازي جميع عساكره وفرق فيهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما، وسار إلى حلب، واستصحب سعد الدين كمشتكين مدبر دولة الملك الصّالح والعسكر الحلبي.

وكان صلاح الدّين في قلةٍ من العسكر لأنه جهّز أكثر عساكره إلى الدّيار المصريّة، فلّما بلغه ذلك أرسل يستدعي عساكره ، فلم تلحقه؛ وأعْجَلتهُ الحركةُ، فسار من دمشق إلى حلب للقاء غازي ومنْ معه، فالتقى العسكران بتل السلطان بالقرب من حلب، في عاشر شوال من السنة.

وكان عزّ الدين زلفندار مقدّم العسكر الموصلي قليلَ المعْرفة بالحُروب، فجعل أعْلام صاحِبه في وهَدَةٍ من الأرض لايراها إلا من هو بالقُرب منها، فلما لم يَرها الناس ظنوا أن سيف الدّين غازي قد انْهزم، وانهزموا لايَلْوي الأخ على أخيه، ولم يُقْتل من العسكر على كَثرته غيرُ رجل واحدٍ، وانهزم سيف الدّولة إلى الموصل، وترك أخاه عزّ الدّين بحلب.

قال العماد الأصفهاني: إن سيف الدّين غازي كان في عشرين ألف فارس، وخطّاه ابن الأثير الجزري في ذلك وقال إن أخاه مجد الدّين أبا السّعادات المبارك كان يتولّى كتابة الجيش، وأنه وقف على جريدة العَرْض فكانت ستّة آلاف.

وإنْ جمعنا بين قوليهما فنقول: إنّ الجريدة التي وقف عليها ابنُ الأثير كانت للجيش المختصّ بسيف الدّين غازي خاصّة، والذي نقله العماد الأصفهاني عن جميع ماصَحِبه من سائر الجيوش الحلبية والحصكفية والماردينيّة، والله أعلم.

ذكر ماملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح

بعد هذه الوقعة

قال المؤرّخ: لمّا استولى الملك النّاصر على أثقال العسكر الموصلّي وغنمها، واتّسع هو وعسكره بها، سارَ إلى بُزاعة، فحصرها.وملكها بعد

قتال مَنْ بقلعتهـا، وجعل بها من يحفظُها، ثمّ سـار إلى منبج فحصرها في آخر شوّال، وبها صاحُبها قطـب الدّين ينَـال بن حسّان المنبجـي، وكان شديـد العَداوَة للملك النّاصر والتَّحـريضِ عليه؛ فملك المدينـة وحاصَر القلعة وملكها عنـوةً، وأسر صاحَبها ينَال، ثم أطلقـه، فسارَ إلى الموصل، فأقطعه سيْف الدّين غازي مدينة الرّقة.

ثم سـار إلى قلعة عَزَاز فنازلها في ثـالث ذي القعدة ونصب المجـانيق، ولازم الحصَار ثمانيـة وثلاثين يـوماً، وتسلّمهـا في حادي عشر ذي الحجـة من السّنة.

ووثب عليه في مـدّة الحِصار باطنيٌّ، فضربه بسكّين في رأسـه، فرَدّ عنه المِغْفَرُ ، وضربَه عدّة ضربات وقعت في زيق كزاغنده.

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال: ثـمّ رحل الملـك النّاصر عـن أعزاز ونـازل حلب في نصـف ذي الحجة، وحَصَرهـا إلى العشرين مـن المحّرم سنـة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وتردَّدت الرّسـائل بينهم في الصلح، فاستقرّت القاعـدة بين الملك الناصر وسَيْـف الدّيـن غازي، والملـك الصّالح وصـاحـب ماردين، وصاحـب حِصـن كَيْفَا، وتحالفـوا أن يكونـوا كلُّهم عـونـاً على النّاكـث منهم، فتـمّ الصّلح، وأعاد الملك النّاصر إليهم قلعة أعزاز، ورجع عن حلب.

ذكر نهبه بلاد الإسماعلية

قال: لمّا عـاد الملك النّاصرُ من حلـب قصَد بلاد الإسماعيليّـة في شهر المحـرَّم سنة اثنتين وسبعين لقتـالهم، لأنّهم أرادوا قتله؛ فنهـب بلادَهـم وخرَّبها؛ ونـازل قلعة مَصْياف، فـأرسل سنان مقـدّم الإسماعيلية إلى الأمير شهاب الـدّين الحارمي صـاحـب حماة، وهـو خال الملك النـاصر، يطلُب

منه الدّخول بينهما في الصّلح والشفاعة، وتَهدَّده بالقتل إن لم يفعل. ففعل ذلك، وتمّ الصلح، وتوجّه الملكُ النّاصر إلى دمشق، ثم رحل منها إلى الدّيار المصريّة لأربعٍ خَلَوْن من شهر ربيع الأول، ووصل إلى القاهرة لأربع بقين منه.

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت، فأتته كتب مظفّر الدّين كوكبري بن زين الدّين علي بن بكتكين مُقْطع حرّان يطلبه إلى البلاد ويعده المساعدة. فسارَ وعبَر الفرات، وكاتب ملوكَ الأطراف ووَعدهم، وبذَل لهم البُذول على نَصْرته، فأجابه نورُ الدّين محمد صاحب حصن كيفا، فسار الملك النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصَرها في جُمادى الأولى، ودَامَ الحصار، فطلب صاحبها فخر الدّين مسعود الزّعفراني الأمان، فأمّنه وتسلّم البلد، وصار صاحبها في خدمته؛ وتسلّم القَلعة، فلما ملكها سلّمها لمظفر الدّين صاحب حرّان، ثم سار عنها إلى الرّقّة وكان بها مُقْطَعها قطبُ الدّين ينال بن حسان المنْبجي، فملكها، وسار صاحبها إلى نصيبين، فملك المدينة لوقته، وحصَر القلعة عدّة أيام، فملكها؛ وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين، وهو من أكابر الأمراء، وسارَ عنها، ومعه نُور الدّين صاحب الحصن، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشيء لحصانتها وكثرة مَنْ بها.

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال:ثم سار الملك النَّاصر من الموصل إلى سنجار، فسيّر مجاهد الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر، فمنعهم الملك الناصر الوصول إليها، وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم، وسار إليهاونازلها وبها شرف الدّين

أمير ميران أخو عز الدّين صاحب الموصل، فملكها بأمانٍ بعد حصار عظيم، وسار شرفُ الدّين ومَنْ معه إلى الموصل.

واستقرّ للملك النّاصر جميعُ ماملكه في هذه الوقعة بملك سنجار واستناب بها سعد الدين بن معين الدّين أنر، وهو من أكابر الأمراء، وأحسنهم صورةً ومعنىً. وعاد إلى نصيبين، فلقيه أهلها وشكوا إليه من أبي الهيجاء السّمين فأنكر عليه وعزَله.

وسار إلى حرّان فوصل إليها في أوائل ذي القعدة، فكاتب عزُّ الدّين صاحبُ الموصل صاحب خلاط، وهو شاه أرمن، واستنجد به على حَرْب الملك النّاصر، فلمّا بلغه اجتماعهما سار إلى حرزم بالقرب من ماردين.

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال: ثم سار من هذه الجهة إلى آمد فوصل إليها في سابع عشر ذي الحجة فنازَلها وحاصَرها، ونصب عليها المجانيق، وهي من أحسن البلاد، يُضرب المثل بحَصَانتها، وكان صاحبها ابن نيسان في غاية الشح يبخل ببذل المال، فملّه أصحابه وتخاذلوا عنه، فأخرج نساءً إلى القاضي الفاضل وسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله، وأنْ يؤخرّ ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلد من الأموال والذّخائر.

فأجابه الملك الناصر إلى ذلك، وتسلّم البلد في العشر الأول من المحرّم سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وانقضت الأيام الثلاثة قبل فراغة من نقل أمواله، فمُنع مما بقي. وسلّم الملك الناصر البلد بما فيه إلى نور الدّين صاحب الحصن، وكان فيه من الذخائر ماتزيد قيمته على ألف ألف دينار.

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال:ثـم سار الملك النّـاصر إلى تلّ خـالد من أعمال حلـب فحصرها ورمّاهـا بالمجـانيق، فطلـب أهلها الأمـان، فأمنهـم، وتسلَّمها في المحـرّم أيضاً.

وسار منهـا إلى عين تاب، وبها ناصرُ الـدّين محمد[بـن خمارتكين] من أيّام نور الـدّين الشّهيد، فحصرها، فَراسله في طلـب الأمان على أن يكون الحصنُ بيده ويكـون في خدمته، فأجـابه إلى ذلك وحلفَ لـهُ عليه، فنزل إليه أيضاً واتصل بخدمته.

ذكر ملكه حلب

قال: ثمّ سـار من عَيْن تاب إلى حلب في المحرّم أيضاً ونـزل بالميدان[الأخضر]عدّة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن؛ فنـزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن]يبني مسـاكن لنفسـه ولأصحابه وعَسَـاكره، وأقـام أيّامـاً والقتال بين العسكرين في كل يوم.

وكان صاحبُها عماد الدّين زنكـي بن مَوْدُود بن زنكي مجداً في القتال، فطالبـه بعضُ الجنـد بأرزاقِهم، فـاعتذر بقِلّة المال عنـده؛ وكان قـد شحَّ بإخـراجِه، فقـال له: مَنْ يـريدُ حِفْظ حَلَـب يُخرج الأموال ولَـو باع حلي نسائه. فجنح إلى تسليمها، فرَاسَل الملـكَ النّاصر في طَلَب العِوض عنها: سنجـار، ونصيبين، والخابور، والـرّقّة، وسَرُوج، فَسَلّـمَ مثلَ حلـب وأعمالها وتعـوّض عنها قـرى ومزارع، وجـرت الأيمان على ذلـك، وتسلَّمها الملـكُ النَّاصر في ثامن عشر صفر.

فسبَّ النَّاس عمَاد الدّين زنكي، وأسمعُوه المكرُوه على فعله.

واستقرت الحالُ بينهما أن عماد الدّين يحضُر إلى خدمة الملك النّاصر متى استدعاه بنفسه وعسكره ولايحتج بحجة.

قال: ولما تسلّم الملك النّاصر حلب امتدحه الْقَاضي محيي الدين ابن الزكي، قاضي دمشق،بقصيدةٍ جاء منها:

وفتحُكم حَلباً بالسّيف في صفر
مبشّر بفُتُوح القُدْس في رجب

فكان ذلك.

ونقل الملكُ النّاصر أخاه الملكَ العادل من نيابة الدِّيار المصرية إلى حلَب، في سنة تسع وسبعين، وأعطاه حَلب وقلعتها وأعمالها، ومنبج ومايتعلق بها؛ وسيَّره فيْ شهر رمضان.

ذكر فتح الملك النّاصر حارم

قال:ولمَّا فتح الملكُ النّاصر حلب كان بقَلعة حَارم سرخك، وهو من المماليك النورية، فامتنع من تَسْليمها، فراسله في ذلك وخيره فيما يُريد من القلاع، ووَعده الإحسان؛ فاشْتطَّ في الطلب، فتردَّدت الرّسائل بينهم، فراسل سَرْخَك الفرنج ليحتمي بهم، فبلغ ذلك مَنْ معه من الأجناد فخافوا أن يسلّمها للفرنج، فقبضُوا عليه واعتقلوه، ورَاسَلوا الملك النّاصر في طلب الأمان، فأجابهم وتسلّم الحِصْن ورتَّب فيه دُزْدَاراً من بعض خواصّه، وأقام الملك النّاصر بحلب إلى أن قرر قواعَدها وأقْطع أعمالها.

ذكر حصار الموصل

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائةحاصر الملكُ النّاصر الموصل، وذلك

أنّه سار من دمشق في ذي القعدة سنة ثمانين لقصد حصارها، فلّما وصل إلى مدينة بلد، سيّر إليه عز الدّين صاحب الموصل والدته وابنة عمه الملك العادل نور الدّين الشهيد وغيرهما من النّساء في جماعة من أعيان الدولة يسألُونه المصالحة، وبذلُوا موافقته وإنجاده بالعساكر مَتَى طَلَبها، ليعُود عن قَصْد الموصل، وإنّما أرسلهنّ ظناً منه أنّه لو سيّر ابْنَة نُور الدّين إلى الملك النّاصر في طلب الشّام أعطاه لأنها ابنةُ مخدومه، فتلقّاهُنّ بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابه في ذلك، فكلٌّ أشار عليه بموافَقَتِهنّ.

فقال له الفقيه عيسى الهكاري وعلّي المشطوب: مثل الموصل لاتترك لا مرأة، وإنّ عزّ الدّين ماأرسلهنّ إلاّ وقَدْ عجز عن الحرب. فوافق ذلك هواه فرّدهنّ خائبات، واعْتذر بأعذارٍ غير مقبولة، وقَصَد الموصل و حاصرها، وكان بينهم مناوشاتٌ فلم يتمكّن منها، فندم حيثُ لم يجب النّساء. ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحبُ خلاط، فأشار عليه أصحابه بمُفارقةِ الموصل وقصْد خلاط، ففارقها.

ذكر ملكه ميّافارقين

قال:وَلمَّا سار الملك النّاصر إلى خلاط جعل طريقه مَيَّافَارقِين وكان صاحبها قطب الدّين صاحب ماردين قد توفي وملك بعده ابنه، وهو طفل، وكان حكُمها إلى شاه أرمن وعسكرهُ بها؛ فتوفي شاه أرمن أيضاً، فطمع في أخذها ونَازَلها، فرآها مشحونةٌ بالرّجال، وفيها زوجة قطب الدّين المتوفّى وبناته، والمقدّم على جيشها أسد الدّين يرنقش، وكان فيه شجاعةٌ وشهامة، فحَصَرها الملكُ النّاصر من أوّل جُمادى الأولى، ونصب عليها المجانيق والعَرّادات؛ واشتدّ القتالُ فلم يظفَرْ منها بشيء؛ فرجع عن القوّة إلى إعْمال الحيلة، فراسل امرأة قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول إنّ أسد الدين قدْ مَال إلينا في تَسْليم البلد، ونحن نَرْعى حقّ أخيك نور

الدّيـن فيك بعـد وفاتـه، ونريد أن يكـون لك نصيـبٌ، وأنا أزوّج بنـاتك بأولادي، وتكـون مَيّافَارقين وغيرُها لـكِ وبِحُكْمِك، ووَضع مـن أرْسِل إلى أسد الـدّين يعـرّفه أنّ الخاتون قـد مالَتْ لـلانقياد إلى تَسْليمهـا، وأنّ مَنْ بخلاط قد كاتَبُوه ليسلّموها إليـه. فسُقِط في يده، وضعُفَت نفسه، وأرسل إلى الملك النّـاصر يقترحُ إقطاعاً ومالاً، فـأجيب إلى ذلك. وسلّـم البلد في سلْخ جُمادى الأولى، وعقَد نِكاح بَعْض أولاده على بَعْض البنات.

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال: ولمّا تسلّم الملك الناصر مَيّافارقين وفـرغ من أمرها وتدبير أحوالها، عـاد إلى الموصـل لحصـارهـا، فتردّدت الـرّسـائل بينـه وبين عـز الـديـن صاحبهـا، ووقع الاتّفاق على أن يسلّـم للملك النّـاصر شَهرزُور وأعمالها، وولاية القـراملي، وجميع مـاوراء الزّاب، وأن يَخطُـب له على منـابر بـلاده، ويَضرب السِّكّة باسمـه؛ وتحالفا على ذلك، فتسلّم الملـك النّاصر البلادَ، وسكنت الدّهماء.

ورحل إلى حـرّان فمرض بها وطال مـرضه حتـى أُيس منه؛ ثـمّ عُوفي، وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائةَ.

قال: ولمّا كان الملكُ النّـاصر مريضاً بحرّان كان عنده ابـنُ عمه ناصُر الدّين محمد بن شيركوه، ولـه من الإقطاع حمص والرّحبة، فسار إلى حمص واجتاز بحلبَ، وأحضر جماعة من أحْداثِها، ووَعـدهم، وأعطاهـم مالاً؛ ثمّ وصل إلى حمص وراسَـل جماعةً من الدِّمـاشقة على تسليم البلـد إذا مات الملكُ النّـاصر. وأقام ينتَظر مَـوْته؛ فتوفي ناصرُ الـدّين ليلة عيـد الأضحى سنة إحدى وثمانين، وعوفي الملك الناصرُ.

[وكان الملك الناصر] لما بلغَـهُ مااعتمده ناصرُ الدّين بحلـب ومُراسلته للدِّماشقـة، وضَع عليه النّاصـح ابن العميد سقاهُ سُمّاً فمات، وطُلـب ابنُ

العميد مـن الغَد فلم يـوُجد؛ وسَارَ من ليلتـه إلى الملك النّاصر؛ فَقَـويت الظِّنَّة بذلك.

ولمّا تُوفي أعطى الملكُ النّاصر إقطاعـه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنـة، وخلـف ناصرُ الـدّيـن مـن الأموال والخيـول والآلات شيئـاً كثيراً، فحضر الملك النّاصر إلى حمْص وعـرض تركته، وأخذ أكثرهـا، واستعان به على الجهاد، ولم يترك إلا مالا خير فيه.

وحضر شيركُوه عنـد الملك النّاصر[بعد مـوت أبيه بسنة]، فـأجلسه في حجره وسأله إلى أين انتهى من القـرآن، فقال إلى قوله تعالى:﴿إنَّ الذينَ يَـأكُلُـونَ أمْـوَالَ الْيَتَـامَـى ظُلْماً إنَّما يَـأكُلُـونَ في بُطُـونِهِمْ نَـاراً وَسَيَصْلَـوْنَ سَعيراً﴾(النساء ١٠) ، فـاضطرب الملـكُ النّاصر لذلـك وظنّ أنّـه عرّض بفعله، وطَلَب مُؤَدبَه ولَوّحه فوجده كذلك.

فعوّضه عمّا أخذه من مال أبيه الضّياع الخرابَ بالشّام في ذلك الوقت، وهـو الـذي يُعرف إلى زَمَـانـا هـذا بـالخراب الأسديّ: وورثتـه إلى هـذا التاريخ يبيعون خراب ضياع الشّـام والسّواد والبلْقَاء وغير ذلك. واستولوا من الخراب على مَـاليس في كتـابهم، وأباعُوا مـالا هُو لهم، فإنّـه قيل إن الذي اشتمل عليه كتـابُ المبايعة أربعمائة ضيعـة، وهي التـي كانَـتْ قد استولى عليهـا الخرابُ في ذلك الـوقت، فأبـاع ورثته جميـع مـاخَـرب بعد ذلـك ممَّـا لم يتضمنَّـه كتـابُهم وأعانهم على ذلـك أنّهم يبيعـونـه لأربـاب الجاهـات بأخـس الأثمان، وأعرف بلـدا يسمّـى رمدان مـن بلاد البلقـاء بـالقرب مـن الـرّقيم والجادية وسنجاب اشتراهـا الملـك المنصور حسـام الديـن لاجين المنصوري لمّا كـان ينُوب عن السَّلطنـة بالشـام،من الـورثة الأسـدية بسبعمائة درهـم؛ فلمّا مـات وانتقـل بعضُ ميراثـه إلى الـسلطـان الملك النّـاصر[محمد بـن قلاوون]بـالولاء الشرعـي، وكنتُ أبـاشر ديوانـه

بالشـام، حَصَّلْتُ من مُغـل هذه البلـدة في سنة إحدى وسبعمائة مـاأبيع بنيّف وعشرين ألف درهم، فانظُر إلى هذا التفاوت العظيم.

ذكر غزوات الملك النّاصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أنْ أُفْرِد غَزَوات الملك النّاصر وفتوحـاته ونكايَاته في الفرنج، ولاأضـمّ ذلك إلى غيْره مـن أخباره، لأن فيه مايـدُل على قوّة الإسلام، وأنّ الله تعالى لمْ يـزل يؤيّـد هذا الـدّين من عبـاده بمَنْ يُنـاضل عنـه، ويَحْمي حوْزته، ويذُب عن أهله، ويستأصل شأفَةَ عدوهم.

ونذكر ذلك على الترتيب.

فكان أول ذلك وصول الفرنج إلى ثَغر دمياط ورجُوعهم عنه.

وكان وصُـول الفرنج، خذلهم الله تعـالى، إلى ثغر دمياط في صفـر سنة خمس وستين وخمسمائة، فحـاصروا الثّغـر. وكـان سبـبُ ذلـك أنّ أسـد الـدّين شيركـوه لمّا ولي الوزارة للخَليفـة العَـاضد لـديـن الله خافَـهُ فرنـج السّـاحـل، فكاتبـوا أهْـل صقليّـة والأنـدلـس من الفـرنـج يستمـدُّونهم ويخبرونهم أن أسد الـدّين قد مَلَـك الدّيـار المصرية، وأنهم لايأمنـونه على البيت المقدّس. فأمدُّوهم بالمال والرّجال والسّلاح، فنازلوا دمياط وضيّقوا على أهلها، فـأرسل الملك النّـاصر إليهم العسـاكر براً وبحـراً، وكتب إلى الملك العادل نور الدّين الشّهيد بـذلك، ويعرّفه أنّه لايمكنُه الخروج من القاهرة لأنـه لايأمن أمر الشيعة وأنهم يثورون بعده، فيبقى الفرنـج أمامه والمصريون خلفه، فـأمَده نُور الدّيـن بعسكر، وخرج نورُ الـدّين بنفسه إلى بلاد الفرنج للإغارة عليها؛ فاستبَاح أموالها، لخلُوّ البلاد السّاحلية منهم، فلمّا بلغهـم ذلك رجعُـوا إلى بـلادهم بسـاحل الشـام بعـد مقامهـم على دمياط نيّفاً وخمسين يـوماً، ولم يظفروا منها بشيء. وأخرج العـاضدُ للملك النّاصر في هذه الغَزَاة ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب والأسلحة.

ذكر غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي سنة ستّ وستين وخمسمائة سار الملكُ النّاصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والرّملة، وهجم على ربض غزّة فنهبه. وأتاه ملك الفرنج في قلّة من العسكر ليردَّه، فهزمه الملك النّاصر بعد أنْ أشرف على أسره، وعاد إلى القاهرة، وعمل مراكبَ مفصَّلة ونقلها على الجمال إلى البحر، فجمع قِطَعها وشدَّها، وألقاها في الماء. وحصر أيلة برّاً وبحراً، وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، واستباح أهلها ومافيها؛ وعاد إلى الدّيار المصريّة.

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ: وفي صفر سنة سبع وستين توجَّه الملكُ النّاصر إلى حصن الشَّوبَك ونازله، وحصَره، وضيّق على مَنْ به من الفرنج. ودام القتال، فطلب أهله الأمان، واستمهلوه إلى عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك، ثمّ بلغه أنّ الملك العادل نور الدّين جاءمن دمشق إلى الشوبك من الجانب الآخر، فخاف أنّ نور الدّين متى ملك الشوبك قبَض عليه، فعاد إلى الدّيار المصرية، وكتب إلى نور الدّين يعتذرُ بمرض أبيه بمصر، فقبل عُذره ظاهراً، ووقعت الوحشة بينهما باطناً.

ذكر وصول[اسطول] صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه

كانت هذه الحادثة في سنة سبعين وخمسمائة، ولم يكُن للملك النّاصر بها غزاةٌ بنفسه ولامباشرة للحرب، وكان سببُ وصول هذا الأسطول إلى الثّغر ماقدَّمناه من مُكاتبة المصريين الذين صلبهم صلاحُ الدّين الفرنج، فوصل من صقلية مائتا شيني تحمل الرجال، وست وثلاثون طريدةً تحمل الخيل، وستّ مراكب تحمل آلة الحرب، وأربعون مركبًا تحمل

الأزواد، وفي المراكب من الرجال: خمسُون ألفاً ومن الفرسان ألف فارس وخمسمائة فارس، وكان المقدَّمُ عليهم ابنُ عمّ صاحب صقليّة، فوصلوا إلى الثغر في السّادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة، فخرج إليهم أهلُ الثّغر بعُددهم وأسلحتهم، فمَنعهم المتَولى عليهم، وأمرهم أنْ يقاتلوا مِنْ وراء السّور، وطلع الفرنج إلى البرّ ونَصَبوا الدبّابات وقارَبُوا السّور؛ وقاتلهم أهلُ البلد قتالاً شديداً. وجاء إلى الإسكندرية مَنْ كان إقطاعه بالقرب منها.

وكتب إلى الملك النّاصر بذلك؛ فتجَّهز بنفسه؛ وقدَّم من يُعْلم أهل الثّغر بوصوله، وكان أهل الثغر قد أنكوْا في الفرنج، وقتلوا وجَرحوا كثيراً منهم، وحرقوا الدّبابات.

ولمَّا علم الفرنج بمَقْدَم الملك النّاصر جنَحوا إلى الهرب، وأخذتهم سيُوف أهل الثّغر، وحرقوا بعض مراكبهم، ونهبوا خيامهم، وأخذوا سلاحهم؛ وكثُر القتلُ فيهم، وهرَب مَنْ بقي؛ واحتمى ثلاثمائة من الفرسان على تل، فقاتلهم المسلمون طوال الليل إلى ضحى الغد، فأخذوا بين أسيرٍ وقتيل.

ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفي سنَة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة، خرَج الملك النّاصر إلى غزّة وعسقلان.

وكان رحيله من القاهرة بعد صلاة الجُمعة لثلاث ليالٍ خَلْون من جُمادى الأولى من السنة، فوصَل إلى عسقلان في يوم الأربعاء لليلةٍ بقيت من الشهر، فسَبَى وسَلب، وضرب أعناق الأسرى؛ وتفرَّق عسكره للإغارة على الأعمال.

ثـمَّ سار إلى الـرَّملة في يـوم الجُمعـة مستهلَّ جُمادى الآخـرة، فاعترضـه الفرنـج وقد جمعـوا جموعاً كثيرة؛ فكـان بينهما وقعةٌ عظيمـة استشهد فيهـا أحمد ولدُ الملـك المظفر تقي الـدِّين[عمـر]، وأسِر ولدُه الثّاني شـاهنشاه، وأقـام في الأسرسبـع سنين حتى افتكّـه السّلطـان بمالٍ كثير، وأسِر الفقيـه عيسى الهكّاري.

ثم كانت على المسلمين، وذلك أنّ العساكر كانت قد تعبأت للحَرب، فلما قارَبَهم العـدو أراد بعض الأمراء أن ينقـل الميمنة إلى الميسرة، والميسرة إلى القلـب، فلمّا اشتغلوا بهذه التعبئـة هجـم عليهـم الفرنـج، فـانكسروا وطلبُوا الـدّيار المصرية. وضلُّـوا في الطريـق. وعادَ السّلطان ومَـنْ معه إلى القاهرة في يوم الخميس منتَصف الشهر.

ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم

كانت هذه الـوقعة في يوم الأحد لثمان خَلون من شهـر المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة؛ وكـان الفرنـج في عشرة آلاف مقـاتـل. فلمّا التقوا مـع المسلمين انهزم ملكهـم مجروحـاً عنـد اللقاء، وأسر منهـم جماعـة، منهـم: مقـدَّم الدّاويـة. ومقدَّم الأسبِتّـارية، وصـاحـب طبريّة، وأخـو صاحـب جبيل، وابن القـومصيّة، وابن بارزان صـاحب الرّملة، وصـاحـب جينين، وقسطِـلان يافـا، وابن صـاحب مـرَقيّـة وعدّة مـن خيّالـة القدس وعكّـا وغيرهم من المقـدَّمين والأكابر، زادت عدّتهم على مـائتين وسبعين، سوى غيرهم، فنقلهم السّلطان إلى دمشق.

فأمّا ابنُ بارزان فإنّه بـذَل في نفسه مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صوريّـة، وإطلاق ألف أسير مـن المسلمين، والتزم بفكاك الفقيـه عيسى الهكـاري، وأما ابـنُ القومصيـة فافتكتـه أمُّه بخمسـة وخمسين ألف دينـار

صوريّة. وأما مقدَّم الداويّة فإنّه هلك، فطلبت جثته بإطلاق ألف أسير من مقدَّمي المسلمين.

قال: وفي هذا اليوم ظَفِر الأسطول المصريّ ببَطسَةٍ كبيرة للفرنج، فاستولى عليها وعلى أخرى، وعاد إلى الثّغر بألف أسير، والله أعلم.

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدّة مُقام الملك النّاصر على بعلبك واشتغاله بأمرها؛ فبَنْوه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صَفَد وطبريّة نصف يوم.

وكان في بنائه ضررٌ عظيمٌ على المسلمين، فبذَل لهُم الملك النّاصر في هَدْمه مائة ألف دينار، فأَبَوْا ذلك. فجَّهزَ إليه الجيش، فوصل إلى المخاضة يوم السبت لإحدى عشرةَ ليلةً بقِيَت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين، والحِصْنُ مبنيٌّ دُونها من الغرب. فنَصبُوا عليه المجانيق بعد العصر من يوم الأحد، فما جَاءَ الليل إلاّ وقد استَوْلَوا على الباشُورة. ثم أدار حَوله النُّقوب، فاستمَّرت إلى يوم الخميس، لِست بقِين من الشهر، فهُدم الجدار، ودَخَل العسكر الحصْن وغَنِموا ما فيه؛ فكان ماغنمُوه من أنواع السّلاح الجديدة مائَةَ ألف قطعة؛ وأسروا سبعمائة أسير، ومن أسرى المسلمين مائة. ثم هُدِم الحصن إلى الأسَاس، وكان سمكُه عشرة أذرع.

قال: ولمَّا عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدّمشقي:

هلاكُ الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صُلْبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفُها
لما عَمَرت بيت أحزانها

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

وفي سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، توجّه الملكُ النّاصر إلى بلاد الأرمن، وذلك أن ابن لاوون ملك الأرمن كان قد استمال قوماً من التّركمان، فلمّا أتوه وهم آمنون أسَرهم. فدخل الملكُ النّاصر إلى بلاده واستولى على قلعة تُعرف بالمناقير، وهَدَمها إلى الأساس، وأخذ مافيها من الآلات، ووَجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً من الآلات الذهب والفضّة والنحّاس، فبذل ابنُ لاوون جُملة من المال، وأنّه يُطلق الأسرى، ويشترى خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم، فأجابه السّلطان إلى ذلك، وأخذ رهينةً عليه. ثمّ عاد إلى الدّيار المصرية، وأقام بها إلى سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة.

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان وماكان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة توجّه السّلطان الملكُ النّاصر لقَصد الشام عند وفاة الملك الصّالح بن الملك العَادل نور الدّين، فأغار على طبريّة وبيّسان في العشر الأوسط من شهر ربيع الأوّل، فانتصر بعْدَ قتال.

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عيذاب، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك عمل أسطُولاً بالكرك، ونَقَل قِطَعه إلى بحر أيلة وألْقَاها في البحر، وشحنَها بالمُقاتلة، فساروا في البحر وافترقوا فرقتين: فرقة حصرت أيلة، وفرقة توجّهت إلى عيذاب، وأفسدوا السواحل، ونهبوا، وأخذوا ماوجدوه من المراكب الإسلامية ومَنْ فيها من التُّجار، وجاءُوا على حِين غَفْلة، فرأى الناس مالم يعهدوهُ، فإنّ هذا البحر لم يَرَ النّاسُ فيه فرنجياً قطُّ، ولاتاجراً ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت.

وكان الملكُ العَادِل ينوب عن أخيه الملك النَّاصر بالدّيار المصريّة، فعمر أسطولاً وجَهّز فيه جماعَةً من المسلمين، ومقدَّمهم حُسام الدّين لؤلؤ الخاص، فسارَ في طلبهم. وابْتَدأ بالمراكب التي على أيلة، فظفِر بها، وقتل بعض من فيها وأسر بعضهم. وتوجَّه لوقته بعد ظَفَره بهم إلى الذين توجَّهوا إلى عيذاب، وكانوا قد عَزَموا على الدّخول إلى الحجاز وأخْذِ الحاج، والدُّخول بعد ذلك إلى اليمن، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجَدَهم قد نهبوا ماجدوه بها وتوجَّهوا، فسَار في إثرهم، فبلغ رابغ والحوراء. فأدركهم بها، وأوقع بهم. فلمّا تحققّوا العَطَب خرجوُا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزَلَ من مراكبه وقاتلهم في البرّ أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها، وقاتلهم، فَظفِر بهم وقَتل أكثرهم؛ وأسَر مَنْ بقي، وأرسل بعضهم إلى مِنَى ليُنْحروا بها عُقوبةً لهم على قَصدهم البيْتَ الحرام. وعاد إلى مصر ببقية الأسرى، فقُتلوا.

ذكر الإغارة على الغور

قال: ولمّا ملك الملكُ النّاصر حلب عاد إلى دِمَشق، ثم رحل منها في ثامن جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة فنزل على بيسان، فوجد أهلها قد ارتحلوا عنها، فنهبها العسكر النّاصري وتقوَّوا بما فيها، وحرَّقُوا مالم يمكنهم أخذُه. وسار بهم حتى أتى الجَالوت، وهي قريةٌ عامِرَةٌ وعندها عينٌ جارية، فعبأ أصحابه عندها للقتال، ورحَل إلى الفُولة، ووقع القتال بينه وبين الفرنج، وكان الظَّفر له، ثمّ عاد إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الخميس الرّابع والعشرين من جمادى الآخرة من السّنة.

وتوجّه إلى الكرك في هذه السّنة، وعاد.

ثمّ جمع العساكر المصريّة والحلبيّة وغيرها، وقَصد الكرك في سنة ثمانين

وخمسمائة، وهي الدّفعة الثانية؛ فجمع الفرنجُ فارِسَهم وراجِلَهم للذَّبِّ عنها، ففارقها السلّطان، وجهَّز طائفة إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه.

ذكر غزوة الكرك والشوبك

وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العماد الأصفهاني في البرق الشامي: وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة بَرَزَ الملك النّاصر من دمشق في أول المحرّم، في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنّة لجهاد أهل جهنم، فلمّا وصل إلى رأس الماء أمَر الأفضل بالمُقام عندَها ليجتمع عندَه الأمراء الواصلون من الجهات، وسار السّلطان إلى بُصرى، ثمّ منها إلى الكرك، ورَعى الزّروع، وقَطعَ الأشجار، ثمّ سار إلى الشوبك وفَعَل مثلَ ذلك، ووصل إليه العسكر المصري ففرَّقه على قلْعَتَي الكرك والشوبك، وأقام إلى أن انْقضى من السنّة شهران، والملكُ الأفضل مقيمٌ برأس الماء، وقد اجتمعت عنده العساكر، فتقدّم إلى سريّة منهم بالغارة على أعمال طبريّة، فانتهوا إلى صَفّوريّة، فخرج إليهم الفرنج فقاتلوهم، فكان الظفر للمسلمين، وهلك مقدّم الأسبتار؛ وعادُوا إليه فكانت مقدّمة النّصر المبين.

وانتهت البشائر إلى الملك النّاصر وهو بِنَواحي الكرك والشوبك، فسار بمن معه في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول، وعَرضهم في اثْنَي عشر ألف فارس، وعَزم على دُخول السّاحل، فانتهى إلى ثغرِ الأقحوانة فاجتمعت الفرنج في زُهاء خمسين ألفاً، ونزلوا على مَرْج صَفّوريّة بأرض عكّا، فلم يتقدّموا عنها، فتقدّم السُّلطان إلى الأمراء أن يُقيموا في مقابلتهم، ونزل هو بمَن معه من خواصّه على طبريّة، وشرع في نقب سُورها، فهدموه في ساعة من نهار، وامتنعت القلعة بمن فيها.

فلّما اتّصل بالفرنج فتحُ طبريّة تقدّموا، وذلك في يومْ الخميس ثالث

شهـر ربيع الآخـر، فترك السّلطان على طبريّـة من يحفـظ قلعتها، وتقـدّم بالعسكر، فـالْتَقَيا على سَطْح جبل طبريّة الغرّبي منهـا،وحالَ بينهما اللّيل، فباتـا إلى صبيحة يـوم الجمعة، فتصادمـا بأرض قريـة اللّوبيـا؛ واستمرّت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحُروب. ثمّ باتا إلى صبيحة يوم السّبت، فالْتَقَيا.

فلّما عايـن القومص أنّ الدائرةتكـون على طائفته هـرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وسار نحو صُور، فتبعـه جماعة من المسلمين، فنجا بمفرده، ثمّ انهزمـت طائفة أخـرى فتبعها أبطـال المسلمين، فلم ينج منهـا واحد، واعتَصمت الطّـائفة الأخـرى بتلِ حِطّين، فضـايقهم المسلمـون، واشعلوا حولَهم النّيران، فقتَلهـم العطش، فـأُسِر مقدَّمهـم، وقُتل البـاقون، وألقـى عليهم الخِذلان.

قال القاضي أبو المحاسن بنِ شداد: لقَـد حكى لِي مَن أثِق به أنّه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طُنُبُ خيمة فيه نَيّفٌ وثلاثون أسيراً.

وأمّـا القومـص الذي هـرب فإنـه وصـل إلى طرابلـس، وأصابـه ذات الجنب، فأهلكه الله.

قـال: وبَات السُّلطـان بـالمنزلـة، ونَزل يـوم الأحـد على طبريّة وتسلّـم قلعتها في بقيّة يومه، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قال: ولمّا يسر الله هـذا الفتح كتـب السّلطان إلى أخيـه الملك العـادل سيـف الدّيـن بمصر يُبشره به، وأمـره بالمسير إلى بـلاد الفرنـج من جهـة مصر بمَـنْ بقي عنـده مـن العساكـر، ومحاصرة مـايليـه منها؛ فسـارع إلى ذلك، وسار ونازل حَصْن مجدل يابا وفتحه، وغنـم مافيه، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً، وقتل وسبى وأسَر وغنم .

ذكر فتح عكا، ونابلس، وحيفا، وقيسارية، وصفورية والنّاصرة، ومعليا، والفولة، والطور، والشّقيف، وغير ذلك

قال ابن شداد: ثمّ رحل السّلطان طالبّاًعكّا، وكان نزوله عليها في يوم الأربعاء سَلْخَ شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وثمانين، وقاتلها بُكرة الخميس مستهل جُمادى الأولى، فأخذها، واستَنْقَذَ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف؛ واستولى على مافيها من الأموال والذّخائر.

ثم تفرّقت العساكر في بلاد السّاحل فأخذوا نابلس، وحَيفا، وقيسارية، وصفُّورية، والنّاصرة، ومعليا، والفُولة، والطوُّر، والشقيف وقلاعاً تلي هذه كثيرة؛ وكان ذلك لخلوها من الرّجال، فإنهم عمّهم القتل والأسر.

ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل

قال: ثم أرسل السلطان ابن أخيه تقي الدين إلى تبنين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه، فوصَل إليها ونازَلها يوم الأحد الحادي عشر من جُمادى الأولى، فسأل مَنْ بها الأمان واستُمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، وأطلقوا الأسارى، فخرجوا إليه، فسُرَّ بهم وكَسَاهم، وخلص في تلك السنة من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف.

قال: ثم رحل السّلطان من تبينن إلى صَيْدا، فاجتاز في طَريقه بصَرَفَنْد فأخذها بَعْد قتال.

ثم سـار إلى صَيْدا، ففـارقها صـاحُبها وتـركها خـالية، فتسلّمها ساعـة وصوله إليها لِتسعٍ بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين.

وسار مـن يومـه نحو بيروت فقاتـل أهلها على سُـورها وظنُّـوا أنهم قد قَدَروا على حفظه، فـدخلها المسلمون من الجـانب الآخر، فسـألوا الأمان فأمنّهم على أنفسهم وأموالهم، وتسلّمها في التاسع والعشرين من الشهر.

وأما جُبَيْـل فكان صـاحبُها في جملـة الأسرى الذيـن نُقِلوا إلى دمشـق، فسـأل إطـلاقـه وتَسْليمهـا، فأحضره مقيّـداً، فسلّـم البلـد وأطلـق أسرى المسلمين، وأطلقه السّلطان.

ذكر فتح عسقلان ومايجاورها

قـال: وسَار السّلطـان إلى عَسْقلان، والـرملـة، وغزة، والـدّاروم، وغير ذلك.

فَنَزل على عَسْقـلانٍ في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخـرة، ونصبَ عليها المجانيـق، فسلّموها على خروجهـم بأموالهم سالمين؛ وذلـك في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة.

ثم تسلَّم حصُون الـدَّاويَّة وهي:غزّة، والدّاروم، والرّملـة، ويبنى، وبيت لحم، ومشهد الخليل، ولدّ، وبيت جبريل.

قـال: وكان بين فتـح عسقلان وأخـذ الفـرنج لها مـن المسلمين خمسٌ وثلاثـون سنة، فإن العدّو استـولى عليها في السابع والعشريـن من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة.

-١٠٥٧٣-

قال العماد: وفوّض السّلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع المناصب الدينيّة بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين عبد الله بن عمر الدّمشقي، وهو المعروف بقاضي اليمن.

ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ: لمّا فرغ السّلطان الملك النّاصر من أمر عسقلان وما يجاورها سار إلى البيت المقدس، فكان وصوله إليه في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وكان به البَطْرك المعظم عندَهم، وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بارزان صاحب الرّملة، ومَنْ خلص من فرسان الفرنج من حطّين، واجتمع به أهل عسقلان وغيرها، كلُّهم يرى الموت عليه أهون من أن يُملك البيت المقدّس.

فنزل السّلطان بالجانب الغربي، وأقام خمسة أيّام يطوف حول البلد لينظر مِن أين يقاتلهُ، ثمّ انتقل إلى الجانب الشّمالي يوم الجمعة، العشرين من الشّهر، وكانت عدّة من به من المقاتلة ستين ألفاً غير النّساء والصبيان، فنَصب السّلطان المجانيق في تلك الليلة، ونصب الفرنج على السُّور مجانيق أيضاً، وقاتلوا أشد قتالٍ رآه النّاس، لأنّ كلا من الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لايحتاج فيه إلى سُلطان. وكانت خيّالة الفرنج يخرجون في كلّ يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون، وتوالى الزّحف، ونقب المسلمون السّور مما يلي وادي جهنم.

فلما رأى الفرنج ذلك أخلدوا إلى طلب الأمان، وبعثوا جماعةً من أكابرهم في ذلك؛ فامتَنع الملكُ النّاصر من ذلك وقال: لاأفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، فلما رجع إليهم، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضر إلى الملك النّاصر، فأمنّه، فحضر إليه وسَأله الأمان، فلم يُجبه، واستعطفه فلم يتعطف، واسترحمه فلم يرحمه، فلّما أيس منه قال له مامعناه: أيها السّلطان، اعلم أننا في هذه المدينة في خَلق كثير لايعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاءَ الأمان، وهم يكرهون الموت

ويـرغبُـون في الحياة؛ فـإذا رأينـا أن الموت لابـدّ منـه والله لنقتلُنّ أبنـاءنـا ونساءنا، ونُحـرق أموالنا وأمتعتنا، فـلا نترككم تغنمون منها دينـاراً واحداً ولادرهماً، ولاتَسْبُون ولاتأسِرُون رجلاً ولا امرأة، فإذا فـرَغْنا من ذلك أخربنا الصّخرة والمسجـد الأقصى؛ وغير ذلـك من المواضـع الشّريفة؛ ثـم نقتل مَـنْ عنـدنـا مـن أسرى المسلمين، وهـم خمسـة آلاف، ولانترك لنـا دابَّـة ولاحيوانـاً إلا قتلناه، ثـمّ نخرج إليكـم، كلُّنا، فنقـاتلكم قتـال مَنْ يـريد يحمي دمه ونفسَه، فـلا يُقْتَل الرّجل منا حتى يَقْتُل؛ فـإمّا أن نموت أعزاء أو نظفر كراماً.

فلمّاسمع الملـكُ النّاصر كـلامه استشار عنـد ذلك أصحـابه، فـأشاروا عليه بمُوافقتهم.

ووقع الّصلح على أن يسلّمـوا أسرى المسلمين، ويبْذُلوا عن كـلّ رجلٍ من الفـرنج عشرة دنـانير، وعن كـلّ امرأة خمسـة، وعن كـلّ طفلٍ وطفلـةٍ دينـارين، يستـوي في ذلـك الغنّي والفقير، وبـذَل ابـن بارزان فيّ الفقـراء ثلاثين ألف دينـار من ماله، وعلى أن تكون المدّة أربعين يـوماً، فمن أدّى ذلك قبل المدّة خلص، ومن تأخر استُرِق.

وتسلّم السّلطـانُ المدينة في يـوم الجمعة السّـابع والعشريـن من شهـر رجـب، وكان يـومـاً مشهوداً، ورُفعـت الأعـلام الإسـلامية على الأسـوار، ورتّـب السّلطان على أبـواب البلد أمنـاء من الأمـراء يأخـذون من أهلـه مااستقرّ عليهم، فخانُوا، ولو أدُّوا الأمانة لامتلأت الخزائن.

قـال: وصلّى الملـك النّـاصر الجمعـة الثّانيـة في رَابـع شعْبـان في قبّـة الصّخرة،وكـان الخطيبُ والإمـامُ القاضي محيـي الدّيـن بن الـزّكي قـاضي دمشق.

ثم رتّـب له خطيبـاً وإماماً، ونقـل إليه المِنْبر الـذي كان عَمِلـه الملكُ

العادل نور الدِّين بحلب بِرَسْم البيْت المقدّس إذا فتحه، وكان بين عَمَله وفتح البيت المقدّس مايزيدُ على عشرينَ سنة.

ثمّ تقدّم أمر السّلطان بعمارة المسجد الأقصى ومَحْوِ ماكان الفرنج صنعُوه من الصُّوَر على عادتهم، ونقل إليه المَصَاحِف، وطهّره من أدْنَاس الكُفر، رحمه الله تعالى، وتقدّم بعمل الرُّبُط والمدارس، وجَعَل دار الأسْبتار مدرسةً للشّافعية.

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرخ:وأقام السّلطان الملك النّاصر بالبيت المقدّس إلى الخامس والعشرين من شعْبَان من السّنة، ثمّ سار لقَصد محاصرة صُور وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير من الفرنج، وقِدم إليها المَرْكِيس في البحر بأموال عظيمة؛ وكانت عادتُه أن يحضر إلى البَيْت المقدّس بأموالٍ يفرّقها، فلمّا حضر في هذا الوقت وَوَصل عكّا فرآها قدْ خرجَت عن أيدي الفرنج سار إلى صُور فملكها، وأنْفَق مامَعُه على مَنْ بها، فقَوِي أمرُه وانحاز إليه جميعُ مَنْ خلص بالأمان من سائر البلاد، فأنفق على سور صُور وخَنَادقِها، وعمَّقها، فصَارت كالجزيرة لايُمكن الوصول إليها.

فوصَل الملكُ النّاصر إلى عكّا في مستهل شهر رمضان، فأصْلَح من شأنها، ثم رحل عنها ونَازَل صور في تاسع شهر رمضان ونزل بالقرب من البلد؛ ثمّ نزل على تل يقاربُ صور في الثاني والعشرين من الشّهر، وقسّم القتال على العسْكر لكلِّ جَمْع منهم وقتٌ معلوم. واستدعى الأسطول المصريّ، وكان بعكّا، فجاءته عَشر شوانٍ، وكان للفرنج في البحر مراكب فيها رماة الجروخ والزنبوركات، يرمُون مَنْ دنا من البحر، فاسْتَطال الأسطول عليها، وأحاط بهم المسلمون وقاتلُوا براً وبحراً؛ ثمّ أغفَلوا أمْرَهم فملك الفرنج من الشواني خمسةً وأسرُوا مقدَّمها.

ثمّ كانت حروبٌ كثيرة ووقائع.

ثـمّ رحل السّلطـان عنها في آخـر شـوّال، وهو أول كـانون، وسـار إلى عكّـا، وأذن للعساكـر بـالعَوْد إلى أوطـانهم للـرّاحـة في الشتاء والعَـوْد في الربيـع، فعادت عساكـرُ الشّرق والمَوْصِل والشّام ومِصر، وبقـي السّلطان في عكّا في حَلْقَته وخاصته، وردّ أمرها إلى الأمير عز الدّين جُرْدَيك.

ذكر فتح هُونِين

قـال المؤرخ: كـان السّلطـــان لمّا فتَـح تِبْنِين امتنـع مَـنْ بهُـــونين مـن تسليمها، وهـي من أحْصَـن القلاع وأمْنعَهـا، فرتـب عليها مـن يَحْصُرها؛ فطَلَبَ مَنْ بها الأمـان لمّا كان السّلطان يحاصر صُور، فأمّنهم، ونـزلُوا منها وتسلّمها.

واتفق أن فتح هـذه المدن والحصون جميعها من جبلـة إلى سرمينية، مع كثرتها، كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجـع الناس وأشدهـم عداوة للمسلمين، فيسر الله فتحها في أيسر مدة.

ذكر فتح حصن برزية

قـال: ولما رحـل السلطـان مـن قلعـة الشغـر سـار إلى قلعـة بـرزيـة، وبحصانتها يضرب المثل، وهي تقابـل حصن أفامية وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع مـن ماء العاصي، ومن عيـون تنفجر من جبل بـرزية وغيره.

وكـان أهلهـا أضر شيء على المسلمين يقطعـون الطّـريـق ويبلُغُـون في الأذى.

فنَزل السّلطان شرقيَّهـا في رابع عِشْري الشّهر، وركب مـن الغَد وطاف عليهـا لينظُر مـوضعاً يقـابلها منـه، فلـم يجده إلامن جهـة الغرب وهـذه القلعة لايمكن أنْ تُقاتل من جهتـي الجنوب والشّمال البتَّة، فإنّ جبَلها لايُصعد إليه مـن هاتين الجهتين؛ وأمّا الجانب الشرقي فـلايمكن الصُّعود منه لِغَير مُقاتل لِصُعوبته وارتفاعـه؛ وأما جِهَةُ الغرب فإن الوادي المُطيف بجبلها قد ارْتَفع هنـاك ارتفاعاً كثيراً حتى قارب القلعة بحيـث يصل منه حجر المنجنيـق والسّهام، فنَزَله المسلمـون ونصبوا المجانيق، ونصـبَ أهلُ القلعـة منجنيقـاً، فـرأى السُّلطـان المجانيـق لاتُفيـد، فتركهـا وعـزم على الزَّحف ومُكَاثرتها بالرّجال؛ فقسَّم العسكـر ثلاثة أقسام، يزحفون بالنَّوبة، فطـال ذلك على أهْلهـا وعجزوا عـن مُقـاتَلتهم فملكَهـا المسلمون عنْـوةً ونهبُوا وأسرُوا وسبَوْا،وأخذوا صاحبها وأهْلَه، وأمْسَـتْ خاليةً خاوية، وألقى المسلمُون النّار في بعْض البيُوت فاحترقت.

ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك

قال: ثمّ رحَـل السّلطان بعد فتُوح بـرزيّة من الغَد فـأتى جسرالحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكيّة، فأقام هناك حتّى وافاه من تخلَّف عنْه مـن عسكره ثـمّ سار إلى قلعة دَرْبَسـاك، فنزل عليهـا في ثامـن شهر رجب سنـة أربع وثمانين وخمسمائة، وهـي من أحصـن معاقـل الدّاويـة وقلاعهم التي يـدخرونها عند نُزول الشدائد بهم، فنَصَب عليهـا المجانيق، وتابَع الـرّمْيَ بالحجارة، فهـدم قطعةً يسيرة من سُورهـا؛ ثمّ أمر بالـزّحف عليها ومهاجمتها؛ فتوالى الزّحف والقتال، وتقـدَّم النَّقَّابون فنقبوا منها بُرجاً وعلقـوه فسقط، وطَلَـب أهلها الأمـان فأمنّهـم على ألا يخرجُوا منهـا بغير ثيابهم خاصّةً، فخرجوا كذلك، وتوجهوا إلى أنطاكيّة، وتسلمها في تاسع عشر شهر رجب.

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال:ثمّ سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصرها بعد أن اختلف أصحابُه في حَصْرها، فمنهم من أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال: هو حِصنٌ حصينٌ، وقلعةٌ منيعةٌ، وهي بالقرب من أنطاكية، فسار إليها وجعل أكثر عَسْكره مُقابل أنطاكية يغيرون على ضِيَاعها، وبقي هو في بَعْض أصحابه على القَلْعة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثر فيها، فغلب على الظُّنون تعذُّر فَتْحها، فبينما هُم في ذلك إذ جاءَ رجلٌ من القلعة يطلب الأمان لرسولٍ، فأعطيه، وجاء رسولٌ يطلب الأمان لأهلها، وسلَّموها على قاعدة دربساك، فأجابهم إلى ماطلبوا، وعادالرّسول ومعه الأعلام السُّلطانية فرُفِعت على رأس القلعة، وتسلّمها السّلطان وأمر بتخريبها فخربت.

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال: ولمَّا فتح السّلطان بغراس قصد حصار أنطاكيّة فجاءته رسُل بيمند تسأله الهدنة ثمانية أشهر بحيث يُطْلِق جميع من عنده من أسْرى المسلمين، فاستشار السّلطان أصحابه، فأشار أكثرُهم بذلك ليستريح العسكرُ ويجدِّدوا مايحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، ووُقعت الهدنة ثمانية أشهر أولها تشرين الأول.

وتوَّجه السّلطان إلى حلب فوصل إليها في ثالث شعبان، وفرَّق العساكر الشّرقية: عماد الدّين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وعَسكر الموصل، وغيرهما، ثمّ رحل إلى دمشق فدخلها في أول شهر رمضان من السّنة.

- ١٠٥٨٠ -

ذكر فتح الكرك والشوبك ومايجاورهما

قد ذكرْنا أنّ السّلطان كان قـد جعل على الكرك من يحصُره، وهو سعدُ الـدّيـن كمشبـه، في أوّل سنة أربـع وثمانين؛ فـلازَمَ الحصـار هـذه المدَّة الطـويلة حتـى نفـدت ذخـائرُ الفرنـج، وأكلـوا دوابَّهم، فـراسلوا الملـكَ العادلَ أخـا السّلطان، وكـان السّلطان قد جعلـه بتلك النّواحي في جَمْعٍ من العسكر، وسـألوهُ الأمان، فأجـابهم إلى ذلك، وأرسل إلى سعْد الـدّينَ مقدّم العسكر فتسلّم القلعة منهم وأمنّهم.

وتسلّم أيضاً ماقَـارَب هذا الحصن من الحُصون وهو الشـوبك، وهرمز، والوعيرة، والسلع فأمنت القُلوبُ من تلك الجهة.

ذكر فتح قلعة صفد

قـال: ولمَّا وصل السّلطـان إلى دمشـق أشير عليـه أن يفرّق العسـاكـر، فقال: إنّ العمـر قصير والأجل غير مـأمون، وقـدْ بقي بيـد الفرنـج هذه الحصون: صفد، وكوكـب، ولابدّ من الفَراغ من ذلك فـإنّها في وَسَط بلاد الإسلام، فـأقام بدمشـق إلى منتّصف شهـر رمضان من السّنـة، وسار إلى قلعة صفـد، فحَصرها ونصـب عليها المجانيـق، وداوَمَ الرَّمـي ليلاً ونهاراً، فسألوا الأمان، فأمنّهم وتسلّمها، وخرج أهلها إلى صور.

ذكر فتح كوكب

قـد قـدمنـا أنّ السلطـان كـان قـد جعـل على كـوكـب الأمير قـايماز النّجمي. فلّما حصر السّلطـان صَفَد أرسـل منْ بِصُور مِـنْ الفرنـج نجدةً من جهاتهم إلى كوكب، وهـم مائتـا رجُل من الشُّجعان، فظَفر بهم قايماز فقتلهم عـن آخرهـم، وأرسل إلى السلّطـان المقدَّمين عليهـم، وهما رجلان

من فرسان الأسبتار، فأمر بقتلهما، فقال أحدهما: ما أظن أنّنا ينالنا سوءٌ بعد أنْ رأينا وجهك الصّبيح، فعفا عنهما واعتقلهما.

ولما ملك صَفَد سار عنها إلى كوكب وشّدد الحصار ووالى الزّحف، وأشرف على أخذها، فسأل الفرنج الأمان فأمنّهم وأطلقهم، وتسلّم الحِصْن في منتصف ذي القعدة سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة.

فالتحق مَنْ كان به بصُور فقويت شوكتهم وكثروا، لأنه اجتمع عندَهُم شجعانُ الفرنج وكُماتهم، وتابعوا الرّسل إلى ملُوك الفرنج بالأندلس وصِقِلية والجزائر يستغيثون بهم ويسألون الأمداد، فكان من أمرهم مانذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثمّ سار السّلطان إلى البيت المقدّس فعيَّد فيه عيد الأضحى، ثمّ سار منه إلى عكّا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة.

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثارَ بالقاهرة اثنا عشَر رجلاً من الشّيعة، ونادوا بشعار العلويّين، وصاحوا: يالَعَليّ، وسلكوا الدُّروب يُنادون، ظناً منهم أن أهل البلد يُلبُّون دعوتهم ويخرجون معهم، فيعيدون الدولة العُبيديّة ويملكون البلد ويُخرجون مَن بالقصر من العلويين؛ فلم يُجبهم أحد من الناس.

فلّما خاب سعيُهم تفرّقوا فأُخذوا، وكُتب بذلك إلى السّلطان فأهمه وأزعجه.

فقالَ له القاضي الفاضل عبْد الرّحيم: ينبغي أن يفرح السّلطان بذلك ولايحزن، حيث عَلِمَ مِن باطن رعيّته المحبّة والنّصيحة، وتَرْك المَيْل إلى عدُوّه، ولو وضَع السُّلطان جماعةً يفعلون مثل هذه الحالة ليَعلم بواطن أصحابه ورعيّته، وخسر الأموال الجليلة لكان قليلاً، فسُرِّيَ عنه.

- ١٠٥٨٢ -

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة سارَ السُّلطان إلى شقيف أرنون، وهو من أمْنَع الحصون، ليحصره، ونزل بمرج عُيون، فنزل صاحبُ الشقيف، وهو أرناط صاحب صَيْدا، إلى السّلطان؛ وكان من أكثر النّاس دَهاءً ومكراً فقال: أنَا محبٌّ لك ولِدَوْلتك، ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يطّلع المركيس على مابَيْني وبَيْنَك فينال أوْلادي وأهلي منْه أذىً، فإنّهم عندهُ بصُور؛ وأحبّ أن تمهلَني حتى أتوصّل إلى تخليصهم من عنده، وحينئذٍ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلّم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع بما تعطينا من الإقطاع، فأجابه السلطان إلى ذلك وظنّ صدقه، واستقرَّ الأمر بينهما أن يسلّمَ الشقيف في جمادى الآخرة.

وأقام السّلطان بمَرْج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقُرب انقضاء الهدنة بينه وبين صَاحب أنطاكية، فأمر تقي الدّين ابن أخيه أن يسير فيمن مَعَهُ من عساكره ومَنْ يأتيه من بلاد الشّرق، ويكون مقابل أنطاكيّة، لئلا يُغير صاحبُها على مايجاورهُ من بلاد الإسلام عند انقضاءِ الأجل.

وكان السّلطان أيضاً منزعِجَ الخاطر لِماَ بلغَه من اجْتماع الفرنج بصُور، وَمَا يصلُ إليهم من الأمداد، وأنّهم اجتمعوا في خلق كثير، وخرجُوا من مدينة صُور إلى ظاهِرها؛ فخاف أنْ يترُك الشّقيف وراءَ ظهره، وكان أرنَاط في هذه المدّة يشتري الأقوات من سُوق العسكر، والسّلاح، وغيرَ ذلك مما يحصّن به شقيفه، فيبلُغ السّلطان فلا يُنكره بحسُن ظنّه، وكان قصْدُ أرناط المطَاولةَ إلى أن يظهر الفرنج من صور.

فلما قاربَ الأجل تقدّم السلطان إلى الشّقيف، واستدعى أرناط وقد

- ١٠٥٨٣ -

بقـي من الأجـل ثـلاثة أيّـام، فجاءه، فتحـدّث معـه في تَسْليم الحصـن، فاعتـذر بأولاده وأهلـه وأنّ المركيس لم يمكّنهم مـن المجيء إليـه، وطلَب المهلة مدّةً أخرى، فحينئذ تحقق السّلطان مَكْـرَه وخداعه، فأخذه وحَبَسه، وأمره بتَسْليـم الشَقيف فطَلَب قسّيسـاً وحمَّله رسـالةً سراً، وأظهر أنّـه أمره بتَسْليمـه؛ فـامْتنع مَـنْ بـالحصـن مـن تَسْليمه. فسيرَّ أرنـاط إلى دمشـق وسَجَنه، وتقدّم إلى الشّقيف وضَيَّق على مَنْ بـه، وتَرَكَ عليه من يحفُظه من الوصـول إليه، فتسلّمه في يوم الأحـد خامس عشر شهر ربيـع الأول سنة ست وثمانين، وأطلق صاحبه.

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وماكان عليها من الوقائع

قال: وجاءت السُّلطانَ كتبُ أصحابه الذين جعلهم يَزَكاً في مقابَلَة الفرنج على مدينة صُور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعُوا على عُبور الجسر الذي لصُور، وعزَمُوا على حصار صَيْدا. فسار جريدةً في شجعان أصحابه، فوَصَل إليهم بعد أنْ كانت الوقعَةُ بين الفرنج وبين اليَزَك.

وذلك أنَ الفرنج خرجُوا من مدينة صُور، فلقيَهم اليزكُ على مضيق وقاتلُوهم ومنعُوهم، وكانت حرباً شديدةٍ، وأُسِر من الفرنج جماعةٌ، منهم سبعةُ رجال من فرسانهم المشهورين، وقُتل من المسلمين جماعةٌ، ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صَيْدا، فعادوا إلى صُور والله أعلم.

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السّلطان مع المتطوّعة.

وذلك أنَ السّلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليَزَك في خَيْمَةٍ صغيرة ينتظرُ عودة الفرنج للخُروج؛ فرَكِب في بعض الأيام في عدَّةٍ يسيرة لينظُر إلى مخيّم الفرنج من الجبل، فظَنَّ مَنْ هُناك من المتطوّعة أنَّه قصد الغَزَاة، فساروا مجدّين وأوْغَلُوا في أرض العدّو وبَعُدُوا عن العسكر، وخلَّفوا السّلطان وراءَ ظُهورهم؛فبَعث مَنْ يردُّهم فلم يَرْجعوا، وظنّ الفرنج أنّ وراءَهم مَنْ يحميهم فأحجموا عنهم؛ فلّما علمُوا بانفرَادهم حملُوا عليهم حَمْلةَ رجلٍ واحد، فقُتل منهُم جماعةٌ من المعروفين؛ فشقَّ ذلك على السُّلطان والمسّلمين. وكانت هذه الوقعة في تاسع جُمادى الأولى.

فلمّا رأى السّلطان ذلك انحدر من الجَبَل بمَن معه، وحمل على الفرنج فردَّهم إلى الجسر، فرمَوُا بأنفسهم في الماء، فغَرِق منهم مائة دَارع سوى مَنْ قُتِل، وعادُوا إلى مدينة صُور، فعاد السّلطان إلى تِبْنِين، ثم إلى عكا.

ثـم كانـت وقعةٌ ثـالثة في يـوم الاثنين ثامـن جمادى الآخرة صبر فيهـا الفريقان.

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصَرتها

قال المؤرخ: لما كثُر جمع الفـرنج بصُور، على ماذكرنـاه مِنْ أنّ السّلطان كـان كلّما فتح حصنـاً أومـدينة بـالأمـان سار أهلُهـا إلى صُـور بأمـوالهم وأهليهـم، اجتمـع بها منهـم عـالمٌ كثير لايُحْصَـوْن، وأمـوالٌ كثيرة، ثـم إنّ الرُهبان والقُسُوس لبِسوا السـواد وأظهرُوا الحزن على خروج البَيت المقدّس عنهم، وتـابَعَهم جماعةٌ مـن المشهوريـن. فأخذهـم البترك ودخل بهم إلى بلاد الفـرنج يطُـوفُها بهم ويستَنْجـدُون أهْلَها ويستجيرُون بهم، ويحثّـونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس.

وصـوَّرُوا صُورَة المسيـح عليـه السّلام وصُـورة رجـل أعرابي، والعَـربيّ يضربُه بين جَماعـةٍ، وقالوا: هذا المَسيـحُ يضربُه محمّد نبـي المسلمين، وقد جَرَحه وقتَله.

فعظُم ذلك على الفـرنج وحشدُوا، حتّى النساء، فـإنّهم كانَ معهم على عكّا عدّةٌ من النسَاء يبارزْن الأقـران، ومَنْ لم يستطع أن يخرج استأجر عنه أو يعطيهم مالاً، فاجتمع لهم من الرّجال والأموال مالا يُحصى كثرة.

واجتمعوا بصُور والبَحْـر يُمِدُّهم بالأموال والأقوات والعُـدد والذّخائر، فضاقت عليهم مـدينة صُور، باطنُها وظاهرها؛ فـأرادُوا قَصْد صَيْدا، فكان من ردّهم ماذكرناه.

فاتّفقـوُا على قَصْدِ عكّـا ومُحاصَرتها؛فسارُوا إليهـا بفَارِسهـم ورَاجِلهم، ولـزمُـوا البحْر في مسيرهـم، لايفـارقـونـه في السَّهـل والوعـر، ومـراكِبُهـم تُسايرُهم وفيهـا السّلاح والذّخائر، فكان رحيلُهم من مـدينة صُور في ثاني

شهر رجب سنَة خمس وثمانين وخمسمائة، ونُـزُولهم على عكّا في مُنْتَصف الشّهر. فتَّخطف المسلمون مِنهم في مسيرهم وأخذوا مَن انفرد.

وجاء الخبر إلى السُّلطان برحيلهم، فَسار حتى قـارَبَهم. ثمّ نـزلوا على عكّا قبـل وُصُوله إليهـا، ونَازَلُوهـا من سَائر جهـاتِها براً وبحراً، فلـم يَبْقِ للمسلمين إليهـا طريق، ونَزَل السُّلطـان عليهـم وضرب خَيْمته على تـلّ كيسـان وامتـدّت ميمنتُـه إلى تلّ العيـاضِيَّـة وميسرَتُـه إلى النّهـر الجاري، ونزلـت الأثقال بصَفُورِية، وسيّر الكتـب إلى الأطراف يستَدْعي العسـاكر، فأتاه عسكر المَوْصل، وديار بكر، وسِنْجـار، وغيرها من بلاد الجزيرة. وأتاه تقيّ الدّين ابنُ أخيه،ومظفّر الدّين بن زين الدين صاحب حَرَّان، والرّها، فكانت الأمداد تأتي المسلمين في البّر وتأتي الفرنج في البحر.

وكان بين الفريقين مدّةَ مُقامهم على عكّا حروبٌ كثيرة.

نحـن نذكـر المشهـورَ منها على سبيـل الاختصـار؛ وأمّا الحُروب التـي تكون بَيْن بعْـضِ هؤلاء وبعْض هؤلاء، والمنـاوشات، فلو شَرَحْناهـا لطَال بها الكتّاب، لأن مُدّة هذا الحصار كانَتْ ثلاث سنين وشهراً.

وكان ابتداءُ القتال في مُسْتَهَلِ شعبان مـن السّنة. فقاتَلَهم السّلطان في ذلك اليوم ولم يَبْلُـغ منهم غرضاً؛ ثم بـاكَرَهم القتّال واسْتـدار عليهم من سـائر جهـاتهم إلى أنْ انتصـف النّهـار، وصَبَر الفـريقـان أعظـم صبر، فحَمل تقيّ الدّيـن من الميمنة على مَنْ يَليِه منهم وأزاحهُـم عن مَوَاقفهم، فرَكِـبَ بعضُهـم بعضـاً لايَلوي الأخ على أخيـه، والتجأوا إلى مَـنْ يَليهم من أصحابهم. وانْكَشف نصفُ البَلَد، وملَك تقيّ الدّين مكانَهم، ودَخَل المسلُمون البلـد وخرجُـوا منه، واتصَلـت الطريـق وزال الحصار. وأدخـل السّلطان إلى البلـد مَنْ أراد من الرّجـال، وماأرَاد من الذّخـائر، والأموال، والسّلاح؛ فكان مِنْ جُملـة من أمره السلطان بالدّخـول إليها الأمير حسام

الدين أبوالهيجاء السّمين، وقُتِل من الفرنج في هَذا اليَوْم خلقٌ كثير.

ثم كـانت بينهـم وقعات في ثامـن شعبان، وتـاسِعهِ وعـاشِره، وحادي عَشَره. ثمّ كانـت وقْعَةٌ في تاسع عشر شعبان بين أهْل عكّـا والعدّو فَقُتِل مَن في الطّائفتين وجُرح.

ثـم كـانت الوقعـة الكبرى في الحَادي والعشرينَ من شعبـانَ وذلك أن الفـرنج اجتمعـوا وتشـاوَروا، وقالـوا إن العسكـر المصريّ إلى الآن ماقَـدِم وهـذا فِعْـلُ السّلطان، فكيْـفَ إذَا قـدِمـت عسـاكِرَه فـأجْمعـوا رأيَهم على مُناجزَة الحرب، وكـانت عساكِرُ السّلطـان متفرّقةٌ: منها طـائفةٌ على حمص في مُقَابلَة طرابلس؛ وطائفةٌ تقاتِل مَنْ بقي بصُور؛ وطائفةٌ بالدّيار المصرية لحمايَة ثغرَيْ : الاسكنـدرية، ودمياط، ومَنْ بقـيَ من العسكر المصري إلى الآن لم يَصل؛ وهذا ممّا أطْمع الفرنج في الظّهور.

قال: وأصبح المسلمون في هذا اليـوم على عادتهم، منهُم من يتقدّم إلى القتال، ومنهم مَنْ هـو في خَيْمته، ومنهم من قد توجـه في حاجته، فخرج الفرنـج مِنْ مَعَسْكـرهم كـالجراد المنْتَشِر قد مـلأوا الأرض، فكانـت وقعةٌ عظيمة ابتدأوهـا على المسلمين، ثم أنزل الله نصره علَيهم، فهزَمـوا الفرنج أقبَح هـزيمة، وقُتل منهم مـن رؤسائِهم عشرة آلاف، وقتـل من المسلمين في هَذِه الموقعَـة من الغِلْمان ومَـنْ لم يعرف مـائةٌ وخمسون، ومـن المعْروفين الأمير مجلي بـن مـروان،والظّهير أخـو الفقيـه عيسـى، وكـانَ والي البيـت المقدّس، جَمَعَ العِلْم والـدّين الشجاعة، والحاجـب خليل الهكّاري، وجمال الدّيـن ابن رَوَاحَة الحمـويّ، ولم يكن بالمصـافّ، وأسِر منَ الفرنـج مقدّم الدّاوية، وكان السّلطان قد أسَره فيما تقدّم وأطلقه، فقتله الآن.

قال: وأمر السّلطـان بجَمْع القَتلى وإلْقَائهم في النّهـر الذي يشرَب منه الفرنج.

قال العماد الأصفهاني رحمه الله: ومن العَجب أنّ الذين ثبتُوا في هذه الوقعة لم يبلغوا ألفاً، ردُّوا مائة ألف، وآتاهم الله قوةً بعد ضعف.

قال ابن الأثير: وأُخِذ في جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيّات كنّ يقاتِلْن على الخيل، فلما أُسِرن وأُلقي عنهنّ السلاح عُرِفن.

ذكر رَحيل السّلطان عَن مَنزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكّا

كان رحيلُه في رابع شهْر رمضان من السّنة، وسَبب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتَلَةُ العظيمة جافَت الأرض منهم وتغيّر الهواء، وحدث للأمزجة فسادٌ، وحصَل للسّلطان مرض القُولَنْج، وكان يَعْتريه، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال، وقالوا: لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا كُفِينا شرّهم، وإن أقاموا عدْنا إلى القتال، فوافَقَهم. وكان بئْس الرّأي.

ورحل السّلطان إلى منزلة الخرُّوبَة، وكتب إلى أهل عكّا يُعْلِمُهم بسبَب رحيله ويحثّهم على حِفظ البلد وغَلْق أبوابها.

قال: ولما رحَل السلطان بعسَاكره عن تلك المنْزلة أمِن الفرنج وانبسَطُوا، وانبَثُّوا، وعادُوا إلى حصار عكّا في البّر والبحر، وشرعوا في حَفر خندقٍ عليهم يكون بينهم وبين المسلمين إن قَصَدُوهم وعَمِلوا سُوراً من تراب، وجاءوا بما لم يكن في الحُسْبان، هذا والسّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستَقِل منه إلى أن تكامَل حَفْر الخَندق وعمل السّور من ترابه.

-١٠٢٨٩-

ذكر وصول العسكر المصري في البر والأسطول في البحر

قال: وفي مُنْتصف شوال سنة خمس وثمانين وصلت العسَاكر المصرية، ومقدَّمُها الملك العادل سَيْف الدّين، فلما وصلت قويتَ قلوبُ النَّاس، وأحضر من آلات الحصار شيئاً كثيراً، ثم وصل بعْدَه الأسطول المصري في خمسين قطعة ومقدَّمهم الأمير حُسَام الدّين لؤلؤ، وكان شهْماً شجاعاً، مِقْداماً ميمون النقيبة، خبيراً بقتال البحر؛ فوصل بغتةً، فوقع على بَطْسَةٍ كبيرة للفرنج، فغَنِمها وأخذ مافيها من الأموال الكثيرة والميرة، وعَبَر بذلك إلى عكا؛ فسكنت نُفوس النّاس بذلك. وقال العماد: إنه ظفر ببطستين.

ذكر خبر ملك الألمان وماكان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهاني: ونُمِي الخبر بوصُول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العُبور إلى بلاد الإسلام. فاستَنْفر الملكُ الناصرالجيوشَ والعساكر من كلّ جهة، وجهَّز القاضي بهاء الدين ابن شدّاد وأمره بالمسير إلى الدّيوان العزيز ببغداد وأن يمُرَّ على صاحب سنجار، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، ويستدعِيهُم بأنفُسِهم وعساكرهم.

قال ابن شدّاد: فَسرتُ في حَادي عشر شهر رمضان سنَة خمس وثمانين وخمسمائة، وأبلغت الرّسائل، فأجابوا إلى ذلك، فعُدْت في خامس شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وثمانين، وسبقت العساكر.

ثم وصلت عند انقضَاءالشتاء في شهر ربيع الأول وأمده الخليفة

بِحمل من النّفط الطّيّار وحِمْلين من القنا، وتوقيعٍ بعشرين ألف دينار يُقْبَض على الدّيوان العزيز من التجار، وخمسةٍ من الزّرّاقين.

وكان العدُوُّ قد اصْطَنع ثلاثة أبرجة من الخَشَب والحديد كالجبال، وألبسَها الجلود المسْقَاة بالخل، فيسّر الله تعالى على المسلمين إحْراقها، وذلك في الثّامن من شهر ربيع الأول.

قال: وكان السّلطان قد كتَب إلى مصر بعمارة الأسطول وإحضاره إلى عكّا، فوصل في يوم الخميس ثامن الشهر، فكانت الحربُ في هذا اليوم في ثلاثة مواضع في البحر، والحصار في البر، وكان النّصر بحَمد الله للمسلمين.

هذا ماكان من أمْر السّلطان لمّا بلغه خبرُ ملك الألمان.

وأما ملك الألمان فقال ابنُ الأثير في تاريخه الكامل:

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم طائفةٌ من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدّهم بأساً، وكان قد أزعَجَهُ ملك المسلمين البيت المقدّس، فجمعَ عسَاكره وسارَ بهم، وطريقةُ في مسيره على القسطنْطينية. فأرسل ملك الرّوم بخبره إلى السّلطان، ووعده أنّه لايمكّنهُ من العبُور إلى بلاده، فلمّا وصل ملك الألمان إلى القسطنْطينية عَجزَ ملكُها عن مَنْعه من العُبور لكثرة جمُوعه، لكنّه منَعَ عنهم الميرة، فقلَّت أزْوادُه؛ وسارُوا حَتّى عبرُوا خليج القسطنطينية، وصارُوا على أرضِ بلاد الإسلام، وهي مملكة الملكِ قلج أرسلان بن مسْعُود السلجقي. فلمّا وصلُوا إلى أوائلها ثارَ عليهم التُّركمان يسايرُونَهم، فيقتلون من انْفَرد منهم ويَسْرقون ماقدَرواعليه؛ فنالهم لذلك مشّقةٌ عظيمة، وهلك كثير منهم من الجُوع والبَرْد وكثرة الثّلوج.

فلمّا قارَبُوا مدينة قُونِيَة خرج إليهم الملك قُطْب الدين ملكشَاه بن قِلج أرسلان[ليمنعهم] فعَجَز عن ذلك، فعاد إلى قُونيَةَ، فأسرعُوا السّير في إثرِهِ فنَازَلُوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أنْ يأذَن للرّعيّة في بَيْع الأقوات، فأذِنَ في ذلك.

وطلَبُوا من الملك قطب الدّين أنْ يأمُر رعيَّتَه بالكَفّ عنهم وأنْ يجهِّز معَهُم جماعةً من أمرائه رهائن، فخافهم، وسلّم إليهم نيِّفاً وعشرين أميراً كان يكرهُهم، فساروا بهم معَهُم، ولم يَمْتَنع اللّصُوص وغيرُهم من أذّاهم؛ فقبض ملكُ الألمان على مَنْ معه من الأمراء وقيَّدَهم، فمنهم مَنْ مات في أسره ومنهم من فَدَى نفسه.

قال ابنُ شدّاد: وأعْوَزَهم الزّاد وعَرَاهم جُوعٌ عظيم، وعجَزوا عن حمل أقْمِشَتهم، فجمعوا عُدَداً كثيرة وسِلاحاً وجَعَلُوا ذلك بيدراً، وأضْرمُوا فيه النّار، لعجزهم عن حَمْله، ولَئِلاّ ينتفع به غيرهم.

قال: وبقيت بَعْد ذلك رابيةٌ من جديد.

قال ابن الأثير: ثمّ سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن، وصاحبها يومئذ لافون بن اصطفانة بن ليون الأرمني، فأمدّهم بالأقوات والعُلُوفات، وحَكّمهُم في بلاده، وأظهر الطّاعة لهم، ثمّ سار إلى أنطاكيّة، وكان في طَريقهم نهرٌ فنزلوا عنْدَه، وعَبَر ملكُهم إليه ليغْتَسِل فيه، فغرق في مكان لايَبْلُغ الماء وسطَ الرّجل فيه، وكفَى الله شره.

وقال ابنُ شدّاد: إنه لمَّا وصل إلى طرسوس سَبَح في النّهر فمرِض من شدَّة بَرْد الماءفيها؛ ولمَّا مات سَلَقُوه في خلٍّ وجَمَعُوا عِظامَه في كيس ليحملوها إلى القُدْس ويدفنوها به.

قال ابن الأثير: وكان معه ولدٌ كبير فملك بعْدَه وسار إلى أنطاكية،

فاختلـف أصحابهُ عليـه؛ وأحبّ بعضُهـم العَوْد إلى بلادِه فتخلّـف عنه، ومال بعضُهـم إلى تمليك أخ لـه فعاد أيضـاً، وسارَ هُـو فيمن بَقِـي معَهُ، فعرضَهُم، وكـانوا نيّفاً وأربعيَن ألفاً وقـع فيهم الوباء والموت، فـوصَلُوا إلى أنطـاكيّة وكـأنّهم قـد نُبِشوا مـن القبـور، فتبرّم بهم صـاحبُها وحسَّـن لهم المسير إلى عكّـا، فسـارُوا على الـلاذقية وجَبَلـة وغيرهما مـن البـلاد التـي ملكهـا المسلمون؛ وخـرج أهـل حلب وغيرهـا إليهـم وأسرَوُا منهم خلقـاً كثيراً، ومات أكثر مِمّن أسر.

قال: وبلغوا إلى طرابلـس وأقاموا بها أيّاماً فكثُر فيهـم الموتُ، فلم يَبْق منهم إلاّ نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكّا.

ولمَّا وصلُوا ورَأوْا مانالهم في طريقهم وماهُمْ فيه من الاخْتلاف عادوا إلى بلادهم، فغَرِقت بهم المرَاكب، فلمَ ينْجُ منهم أحد.

وقال ابـن شدّاد: إنّهم لمَّا وصلـوا إلى أنطاكيـة طلب ابـنُ ملكِهم مـن صاحبهـا قَلْعتها لينقـل أموالَـه وخزانتَـه وأثقالـه، فسلَّمها إليـه طمعاً في ماله، وكانَ كذلك، فإنّه لم يعُدْ إليه واستولى الإبرنس على مافيها.

قال: وجـاءت فرقةٌ منهـم إلى حصن بغراس وظنُّـوا أنّه للفرنـج، ففتح لهم وَالي الحِصْن البـاب وتسلَّم منهـم الأموال، وأسَرَ جماعـةً منهم وقتـل، وخرج إليهـم العسْكر الحلبيّ فقَتَـل منهم وأسر، ثـمّ أخَذَ مَنْ بقـي منهم على طرِيـق طرابلـس، فخرج عليهم مَـنْ باللاذقيـة وجبلة، فقتلـوا منهم وأسروا.

ثم ركب الألمان في البحـر من طرابلس بمَنْ بقي معـه لِقَصْد عكّا، في أواخـر شعبان، فثـارت عليهم ريـحٌ كسرت منهم ثلاث مـراكب، ووصـل الباقون إلى صُور، ثمّ إلى عكا في سـادس شهر رمضان سنة ستٍّ وثمانين؛ وكان لِقُدومهم وقْعٌ عظيم.

وسيأتي ذكـرُ ماتجدّد بعد وصولهم إلى عكّـا، إن شاء الله تعالى، فلنـذكر ماكان قبل وُصُولهم من الوقائع.

ذكر الوقْعَة العادليّة على عكّا

كانـت هذه الـوقعة في يَـوْم الأربعاء العشريـن من جُمادى الأولى سنـةَ ستٌّ وثمانين.

قال ابـن شدّاد: لمَّا بلغ السّلطـانَ وُصُول ملك الألمان إلى بـلاد الأرْمن جهَّز بعض العسـاكر إلى البلاد المُتَاخمة لطـريق عَسْكَر العدّو،وتقـدَّم أمْرُه بهـدم سور طبريّة، وهــدْم: يافا ، وأرْسُوف، وقيْسارية، وهـدم سور: صَيْدا، وجُبيَل، ونَقْل أهلهـا إلى بيروت،فلمّا عِلم الفرنج أنّ العساكر قـد تفرّقت نهضُوا للقــتـال بغتةً وهجموا على الميمَنَـة وفيها مُخيَّم الملـك العادل، فلما بَصُرَ بهم ركب فيمن معـه، وتلاحَقَت به العَسـاكر، واقْتَتلوا، فكانـت من أعْظم الوقَائع، قُتل فيها خلقٌ كثير من الفرنج.

قال: ولقد خُضْـت في الدّماء بدابّتي واجتهدت أن أعـدّهم فما قدرت على ذلك لكَثْـرتهم وتفرُّقهم؛ وشـاهدتُ منهـم امرأتين مقتولتين. وكـانت هذه الـوقْعَة فيما بين الظّهـر والعصر في الميمنة وبَعْـضِ القلب، ولم نفقـد من المسلمين فيها غير عشرة معروفين.

قـال: ولمَّا أخبر من بعكّـا من المسلمين بهذه الـوقعة خـرجوا إلى مخيَّـم العدّو من البلد، وجَرَى بينهم مقتَلَةٌ عظيمة انتصرَ فيها المسلمون، ونهبُوا ماكان بخيام الفـرنج من الأقمشة وغيرها، حتى الطّعـام الذي في القُدُور، وسبَوُا النّساء.

قال: واختلـف النّاس في عَـدَد من قُتِـل من الفـرنج في هـذه الوَقْعـة، فقيل ثمانية آلاف، وقيل سبعة آلاف، ولم ينقصهم حَازِرٌ عن خمسة آلاف.

ذكر وصول الكندهري إلى عكَّا نجدة للفرنج وماجدّده من آلة الحصار

قال: ثمّ وصل الكندهري في البحر نجدةً للفرنج في عددٍ كثير، أضعاف مانقص منهم، ففرّق الأموال واستخدم؛ ونصَب المجانيق على عكا فحرقها المسلمون؛ ثمّ نصب منجنيقين فأُحْرِقا في أوّل شعبان، وكان قد أُنفِق عليهما ألف دينار وخمسمائة دينار، وأُسِر من الفرنج سبعون في هذا اليوم ومن جملتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون ثمّ جهّز الفرنج بُطَساً لمحاصرة بُرْج الذبان، وهو برج في وسَطِ البحر على باب ميناء عكّا، فعمدُوا إلى بَطْسة من البُطس وعملوا بُرجاً على صَاريها وملأوه حَطباً ونَفْطا على أنهم يُلْحقون البطسة بِبُرج الذّبان، ثمّ يُحرقون البرج الذي على الصّاري. وجعلوا في البطسة وَقُوداً كثيراً حتّى يُلْقوه في البرج إذا اشتعلت فيه النيران، وعبئوا بطسةً ثانيةً وملأوها حطباً على أنها تدخل بين المراكب الإسلاميّة ثم يلهبونها فتحترق هي والبطس الإسلامية وجعلوا في بطسة ثالثة جماعةً من المُقاتلة. وقدموا البطسة نحو البرج، وكان الهواء مُسْعداً لهم، فلّما أحرقوا البطسة والبُرج الذّي قصدوا بها إحراق بُطس المسلمين وبُرج الذّبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى، فاحترقت البَطْستان، وانقلبت الثالثة بِمَنْ فيها من المقاتِلة، والله أعلم.

ذكر ماكان من أمر الفرنج بعد وُصُول ابن ملك الألمان إلى عكا وماتخذوه من آلات الحصار

قال: ولمَّا وصَل ابنُ ملك الألمان القائمُ في الملك بعد أبيه إلى عكّا كان وصوله إليها في سادس شهر رَمضان سنة ستّ وثمانين وخمسمائة، فكان أول مابدأ به أنّه خرج إلى يَـزَكيَّةِ السّلطان وقاتَلهم، فقُتل من أصحابه وجُرح خلقٌ كثير، وانكسَروا ورَجعُوا إلى المخيَّم غروبَ الشّمس من ذلك

اليوم؛ وقُتل من المسلمين اثنان وجُرح اثنان وجُرح جماعة، فلمّا عايَنَ ذلك رجع إلى قتال مَنْ في البلد، واتّخذ من آلات الحصار مالم يُرَ قبل ذلك مثله، فكان ممّا أحدثه آلة عظيمة تسمّى دبّابة يَدْخُل من تحتها المقاتلة، وهي من الخشب الملبّس بصفائح الحديد، ولها مِنْ تحتها عجلٌ يحرّكُ من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشدّةٍ عظيمة فتهدمه بتكرار نَطْحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجالٌ تسحَبُه وفيه كَبْشٌ، ورأس تلك الآلة ممدة شبه سكّة المحراث، ورأس الكبش مدَوَّر، هذا يهدِم بثِقَله، وتلك تهدِم بحدَّتها وثِقلها، وهي تسمّى سفوداً، وأعد السّتائر والسّلاليم وغير ذلك؛ وأعدّ في البحر بَطسَة عظيمةً،وصنع فيها بُرجا بخُرطوم إذا أرادُوا قلبه على السّور بحرَكةٍ انقلب بحَركات ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلبُ عليه تمْشي عليها المُقاتلة، ونصب المجانيق وحكّمها على السّور، وتوالت حِجارتُها حتى أثّرت فيها أثراً بيّناً فأخذ المسلمون سهْمَيْن عظيمين من سِهام الجُروخ وأحْرَقوا نِصَالها حتّى بقيَا كالشُّعلة من النّار ثم رُميا في منجنيق الفرنج فاحترق، واتّصل لهبهُ بالآخر فأحْرَقه.

ثمّ زحف العدّو على البلد في شهر رمضان في خلْق كثير، فأمهلهم أهل البلد حتى سحبوا آلتهم المذكورة، وقارَبُوا أنْ يُلصقوها بالسّور ويحَصل منهم في الخَندق جماعةٌ كثيرة، فأطلقوا عليهم الجُروخ والمجانيق والسّهام والنيران، وفتحوا الأبواب على العدّو من كل مكان، وكبسُوهم في الخَنْدق، فانْهَزَموا؛ ووقع السّيف فيمَن بَقي في الخندق منهُم، ثم ألْقَوا النّار في كَبْشِهم، فاحترق، وسَرَت نارُه إلى السّفود فاحترق أيضاً، وعلّق المسلمون في الكَبْش الكَلاليب الحديد فسحبُوه وهو يَشْتعل، فحصل عندهم، فأطفأوه بالماء. ووزن ماكان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشّامي فكانَ هذا اليوم من أحْسَن أيام الإسلام.

قال:واستأنف الفرنج عَمَل دبابة أخرى وفي رأسِها شكْلٌ عظيم يُقال له الكَبْش، وله قَرْنَان في طُول الرُّمح كالعُمد الغلاظ،وسقفُوها هي

والكبش بأعمدة الحديد، ولَبَّسوا رأس الكَبْش بعد الحَدِيد بالنّحاس، فلم يبق للنار عليها سبيل؛ وشحنُوها بالرّجال. فنصب المسلمون عليها المجانيق ورمَوْها بالحجارة، فأبعدت الرّجال من حولها، ثمَّ رمَوْها بحُزَم الحَطب فأحرقوا مابين القرنين، وخَسَفها المنجنيق، وخرج أهل عكّا فقطعوا رأس الكبشين.

قال: وفي العشر الأوسط من شهررمضان ألْقَت الرّيح بَطْسَتين فيهما رجَال ونساءٌ وصبيانٌ، ومِيرةٌ عظيمة وأغنام،فغنمهما المسْلمون.

وكان في إحداهما امرأةٌ محتَشِمة كثيرةُ الأموال؛ واجْتَهد الفرنج في استنقاذها فلم يُجَابُوا لِذلك.

وكان بينهُم في بقيّة السّنة عدّةٌ وقائع يطول شرحها.

وفي سابع ذي الحجّة هُدِمَت قطعةٌ عظيمة من سُور عكّا فسدَّها المسلمون وقاتلوا عليها قتالا شديداً حتى أحْكَموا بناءَها.

وفي ثاني ذي الحجّة هلك ابنُ ملك الألمان وكند كبيرٌ ومرض الكندهري، ووقع فيهم فناءٌ عظيم، والله أعلم.

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصولُه في ثاني عشر شهر ربيع الأوّل سنة سبع وثمانين وخمسمائة في ستّ بُطَس عظام مشحُونة بالمقاتلة، وكان مَلِكاً مُطاعاً فيهم، ووعَدَهم بالأمداد خلْفَه، وكان معه باز عظيم الخَلق أبيضُ اللّون، فطَار منْ يَده وسَقَط على سُور عكّا، فأخذه المسلمون وأنفذُوه إلى السلطان؛ فَبَذل الفرنج فيه ألفَ دينار فلم يُجابوا لذلك.

قال: وزحف الفرنج على عكّا في يوم الخميس الرّابع من جُمادى الأولى سنة سبع وثمانين، ونصبُوا عليها سبْعَة مجانيق، وبلغ من مضايقتهم لها أنّهم كانوا يُلقُون في خندَقها مايموت من دوابّهم ومايُؤيَس منه ممّن أثخنتْه الجراح، وانقَسم أهلُ البلد أقساماً: قسم يَنْزلون إلى الخَندق، ويقطعون الدّواب ليسهُل نقلُها، وقسمٌ ينقلون ذلك إلى البحر، وقسم يذُبون عنهم، وقسمٌ في المنجنيقات وحراسَة الأسوار.

قال: وكانوا قد صنعوا دبَّابَةً عظيمةً أربع طبقات، الأولى من الخَشب، والثّانية من الرّصاص، والثّالثة من الحديد، والرّابعة من النّحاس؛ فكانت تعلُو على السُّور وتركَبُ فيها المقاتلةُ؛ وقرّبوها من السّور، فكاد أهلُ البلد يطلُبون الأمان؛ فأعَان الله على حرْقها.

وكان في جُمادى الأولى عدّة وقعَات.

قال: ولمّا حُرقت دبّابات الفرنج وكِبَاشُهم وأبرجَتهم الخشب أقاموا أمَام خيامهم ممّا يلي عكّا تلاً مستطيلاً عالياً من التُّراب، فكانوُا يقفون وراءَه ويحوّلونه ليقرّبُوه من السّور؛ إلى أنْ صارَ بينه وبين السُّور مقدارُ نصف غلْوَة سهم. فلَم تعْمَل فيه النّار.

ذكر وصول ملك الإنكلتير

كان وصولُه إلى عكّا في ثالث عشَر جمادى الأولى من السّنة بعد أن ملك في مسيره قبرص عنوةً؛ ووَصَل في أربعين قطعة، ولمّا قدِم توالَى الزّحفُ والقتال، ثمّ مرِض مرضاً شديداً وجُرح الإفرنسيس، وهم مع ذلك لايَدَعُون القتال، هذا واللُّصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويَسْرقون أقمشتهم ويخطَفونهم، فكانوا يَدْخلون على الرَّجُل من الفرنج وهو نائم فيُوقظونه، ويُشيرون إليه بالسّلاح: إنْ تكلّمت ذبحناك، ويحملُونه ويخرجُون به إلى عسكر المسلمين. فعلُوا ذلك مراراً كثيرةً.

قال: ثمّ ترددت الرّسائل من الفرنج إلى السُّلطان مدافعةً بسبب مَرَض الإنكلتير؛ ثم استأذن في إهْداءِ جوارح، وقال إنّها قد ضعُفت وتغيَّرت من البحر، وطلب أن يُسيَّر لها دجاجٌ وطيرٌ تأكله لتقوى به ثمّ تهدى للسّلطان. ففهم السُّلطان أنَّه يحتاجُ ذلك لنفسه لأنّه حديثُ عَهدٍ بمرَض، فسيّر إليه ذلك، ثمّ أرسل في طَلَب فاكهةٍ وثَلْج، فأُرسل إليه. وهم مع ذلك يُحاصرون البَلَد أشدّ حصار.

ذكر استيلاء الفرنج على عكّا

قال: ثمّ اشتدّ الحصارُ في سابع جُمادى الآخرة، فركب السّلطان بالعَسْكر وجرَى قتالٌ عظيم إلى اللّيل، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم؛ ولمّا حَالَ بينهما اللّيل عادَ إلى خيامه، ثمّ بَاكَر القِتال، فوصَلت مُطالعَةٌ مَنْ بالبلد يذكُرون أنّ العَجز قد بلغ بهم الغاية، وأنّهم في الغد مَتى لم يُعْمَل مايمنعُ العدُّو طلبُوا الأمان وسلّموا البلد، فرأى السّلطان مهاجمة العدّو، فلم يساعِدْهُ العسكر، فضعُفَت نفوسُ أهل البلد، وتمكّن العدُّو من الخنادق فملكوها، ونقَبوا السّور وأحْرقُوه، فوقعت بدَنَةٌ من الباشورة ودخَل العدّو إليها، فقتل منها زهاء مائة وخمسين نفساً؛ وكان منهُم ستّة من أكابرهم، فقال أحدُهم: لاتقتُلوني حتى أرحِّل الفرنج عنكم، فقتله رجلٌ من الأكراد وقُتِل الخمسة، فناداهُم الفرنج من الغَد احْفظُوا السّتَّة فإنّا نطلقُكم كلُّكم بهم، فقالوا: قدْ قتلناهم. فقوي عزمُ الفرنج على عَدم المصَالحة وأنّهم لايُطلقون مَنْ في البلد إلا بإطْلاق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتُعادُ إليهم البلاد السّاحليّة.

فصالحهم مَنْ بالبلد على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميعَ مافيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجَاهيل الأحوال، ومائة أسير مُعَيَّنين، وصليب الصَّلَبُوت؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونسائهم وذَرَاريهم، ومَامعهم من أموالهم وأقمشتهم.

فكتبوا في ذلك إلى السّلطـان، فأنكر هذا الأمـر واستَعْظمه؛ وعزم على أنْ يكتُـب بالإنكـار عَلى مَنْ بعكّـا، وجمع أمـراءه وأصحاب المشُـورة، فما شعَر المسلمـون إلا وقدْ ارتفعت أعلامُ الكُفـر وصُلبانهُ على أسـوار البلد؛ وذلك ظُهر نَهار الجمعة السّابع عشرَ من جُمادى الآخرة،سنة سبعٍ وثمانين وخمسمائة.

فعظُمـت المصيبـةُ على المسلمين، وتحيَّز المسلمـون إلى بعـض أطـراف البلد، ثم تردّدت الرّسائل بينهُما على تقريـر القاعدة في خَلاصِ مَنْ بعكَّا مـن المسلمين، فـاستقَـرت الحالُ على مـائة ألـف دينـار وستمائة أسير وصَليب الصلبوت، وأنْفَـذوا ثقاتهم وعاينُوا الصّليب في ثـامن عشر شهر رجب؛ ثم طلبوا أن يسلِّم ذلك إليهـم، فإذا صار عنْدَهـم أطلقوا الأسرى؛ فامتنع السّلطان من ذلك إلا بعد تسْليم الأسْرى.

فلمّا رأوْه قد امتنـع منهُ أخرجُوا خيـامَهم إلى ظاهـر الخنَادق في الحادي والعشريـن مـنَ الشّهـر؛ ثـمّ ركبُـوا في وقـت العَصْر في اليـوم السـابـع والعشريـن من شهـر رجـب سنَـة سبعٍ وثمانين، وجمعُـوا الأسْرى، وحملُـوا عليهـم حَملـة الـرّجلِ الـواحـد، فقتلُـوهُـم صبراً، طعنـاً بالـرّمـح وضربـاً بالسّيف، رحمة الله عليهم؛ ولم يُبْقوا مـن المسلمين إلاّ أكابرهم. فلمّا اتصل الخبر بالسّلطـان حَمل المسلمُون عليهم، وجَـرَت بينهم حـربٌ عظيمة دام القتال فيها طـول النّهار، وتصرّف السّلطان فيما كان قـد حصَّله من المال، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم، وردّ صليب الصَّلبُوت إلى مكانه.

ذكر ماكان بعد أخْذِهم عكّا

قال: ثـمّ سار الفـرنج إلى صَوب عسقـلان في مستهل شعبـان، وسار السّلطان في عـراضهم، والمسلمون يتخطّفُـونهم ويقتلون منهـم ويأسرون؛ وكلّ أسير جـيء به إلى السّلطـان أمر بقتلـه، ثمّ كـانت وقعـةٌ عظيمة في

قال: ثمّ سار السّلطان إلى الرّملة في سابع شوّال، وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعاتٌ؛ منها وقعةٌ في ثامن شوّال، وفي سادس عشره، والدّائرة فيها على العدو.

وفي ثامن عشر شوّال اجتمَع الملكُ العادل والإنكلتير على طعام، وانفَصلا على توادُد، وسأله الاجتماع بالسّلطان فامتَنع السّلطان من ذلك.

ثمّ رحل الفرنج في ثالث ذي القعدة إلى الرّملة، وأظهروا قصد بيت المقدس والحربُ مستمرّةٌ بين المسلمين وبينهم، ورَحَل السّلطان إلى القُدس في الثالث والعشرين من ذي القعدة بنيّة المقام به، وشرع في تحصينه.

ذكر وقوع الصُّلح والهُدْنة العامّة بين المسلمين والفرنج

قال: ولم تزل الحربُ قائمةً والمراسلاتُ متّصلةً بينهم على طلب الصُّلح، والسلطان لايرضى بما يختارونه، وهم لايُوافقون على مايريدُه السّلطان، إلى الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، فوُقِّعت هدنةٌ عامّة في البّر والبحر، وجُعِل لهم من يَافا إلى قيْسَارية إلى عكّا إلى صُور، وأدخلوا في الصُّلح طرابلس وأنطاكية. وأُخرج من عمل يافا الرّملة ولُدّ ويُبنى يَابَا ومن عمل عكّا الناصرة وصفّورية واشْتُرط خرابُ عسقلان، ووقعت المصالحة مدّة ثلاثِ سنين وثلاثة أشهر، أوّلها مُبتدأ أيلول الموافق لهذا التاريخ، وذلك بعد سؤال ملك الإنكلتير وتكرار رَسَائله.

قال: ثمّ أمر السّلطان أنْ يُنادى في الطُّرقات والأسْواق: ألاإنّ الصُلح قد انتظم، فمن شاء مِنْ بلادنا يدخل بلادَهم ومَن شاء من بلادَهم يدخل بلادَنا فليفعل.

تاسع شعبان عند رَحيلهم من قيسارِيّة، انتصر فيها المسلمون، ثمّ رحل السّلطان فنزل شعراء أرْسُوف، وطلب ملكُ الإنكلتير الاجتماع بالملك العَادل خلوةً، فاجتمعا، فأشار بالصُّلح، وكان حاصلُ كلامه أنّه قد طال بيننا القتال ونحن في نُصرة فرنج السّاحل، ورأيي الصّلح، ويرجُع كلٌّ منا إلى مكانه، فقال له الملك العَادل: على ماذا يكون الصُّلح؟ قال: على أن تسلِّموا لأهل السّاحل ماأُخذ منهم من البلاد. فأبى الملكُ العادل.

ثم كانت وقعة أرْسُوف في يوم السّبت رابع عشر شعبان؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج.

ذكر هدم عسقلان

قال: ثمّ رحل السّلطان بعد وَقْعة أرسُوف في تاسع عشر شعبان،ونزل بالرّملة، واستشار أصحابه في أمْر عسقلان، فأشاروا عليه بتَخْريبها خشْيَة أنْ يستولى العدُّو عليها وهي عامرة، فتكون سبَباً لأخْذ البيْت المقدّس وقَطْع طريق مصر، فعَلِم السّلطان عجْز المسلمين عن حِفْظها لِقُرب عهدهم بقتال عكّا؛ فسارَ حتى أتى عسقلان، وأمر بتخريبها، وكان هُو وَوَلَدُه الملك الأفضل يستعملان النّاس في الخَراب خشية من حُضور العدّو فيتعذّر هدمُها، ثمّ حرَقَها بالنّار؛ والأخبار تَتَواتَرُ من جهة العدُّو بعمارة يافا، واستمر الخرابُ والحريقُ إلى سَلْخ شعبان.

ثمّ رحل السّلطان عنها يومَ الثلاثاء، ثاني شهر رمضان فنزل على الرملة يوم الأربعاء، وأمَرَ بتخريب حِصْنها وتخريب كنيسة لدّ، وركَب جريدةً إلى القدس الشريف، فوصل إليه في يَوْم الخميس.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان من السّنة كانت بينهم وقعةٌ انتصر فيها المسلمون.

ووَقع له عزمُ الحج في ذلك المجلس.

ثمّ أمرَ بإرْسَال مائة نقّاب لتخريب سُور عسْقَلان وإخْرَاج الفرنج منها، فخرّبت، وكان يومُ الصُّلح يوماً مشهوداً واختلط العسكران.

ثمّ اشتَدّ المرضُ بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان وسار معه الكندهري إلى جهة عكّا، ولم يبْق بيافا إلا مريضٌ أو عاجز، ثم أذِن السّلطان للنّاس في الرُّجوع إلى أوطانهم، فسار عسكرُ إرْبل والموصِل وسِنجَار؛ وقوِي عزمهُ على الحج.

ثم عاد السّلطان إلى القدْس ورتّب أحواله وعَيّنَ الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية؛ وأدار سُور القدس، وأقام بالقُدس إلى يوم الأربعاء رابع شوال، وخرج في يوم الخميس خامس الشهر قاصداً دمشق، فلمّا انتهى إلى طبريّة وصل إليه بهاءُ الدين قراقوش الأسدي، وقَدْ خلص من الأسْر، فاستصْحَبه معه وكَشَف القلاعَ والحصُون، ودخل إلى دمشق في يوم الاثنين السادس عشر من شوّال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، وَجَلَس النّاس يوم الخميس؛ وأنشده الشّعراء؛ وكان مجلساً عاماً، وعمّ النّاس فيه بعَدْله. ولم يَزَلْ كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

-١٠٦٠٣-

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين

يوسف بن أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى بَعد صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقِين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة.

وكان مولدُه بقلعة تكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛ فكان عمرُه سبعاً وخمسين سنة تقريبا ومدة ملكه منذ ولي وزارة العاضد لِدين الله ولُقّب بالملك النّاصر لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وإلى هذا التاريخ أربعاً وعشرين سنة وثمانية أشهرٍ وخمسة أيام؛ ومنذُ خُلع العاضِدُ في سابع المحرّم سنة سبعٍ وستين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنةً وشهراً واحداً وعشرين يوماً.

وكان ابتداء مرضه يوم السبت سادس صفر ؛ ونال المسلمون لوفاته من الألم مالا يُعبر عنه، ولما مات دُفن بقلعة دمشق في منزله؛ وما زال ابنه الأفضل يتروى في موضع ينقله إليه، فشرع في بناء تربته عند مسجد القدم وبنى عندها مدرسة للشافعية، وأمر ببناء التربة في سنة تسعين وخمسمائة؛ فاتفق وصول ابنه العزيز تلك السنة من الديار المصريّة للحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم أمر بعمارة القبة في حد جامع دمشق. فعمرت ونقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة؛ ومشى الأفضل أمام تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع ، وصلى عليه قدام باب النسر صلى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي بإذن الأفضل، ثم حمل إلى لحده، وألحده الأفضل وجلس في الجامع ثلاثة أيام.

وكان الملك الناصر رحمه الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق، مضت أكثر أيامه في الجهاد في سبيل الله تعالى.

قـال ابن شـداد: لما مات السلطـان لم يخلف في خـزائنه مـن الذهـب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرمـا واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكاً في سـائر أنواعَ الأملاك ، وحسب ما وهبه مـن الخيل في مدة مقامـه على عكا فكـان تقديـره اثني عشر ألـف رأس: ولم يكن لـه فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود بـه ، وصاحبه يلازمه في طلبه: وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وكـان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف، وكان له ركعات يصليها من الليل .

وخلـف رحمه الله مـــن الأولاد، على مـا نقلـــه العماد الأصفهـاني وغيره سبعة عشر ولدا: الملك الأفضل نورُ الـدّين أبوالحسن علي، وهو أكبرهم؛ والملك العزيز عمادُ الدّين أبو الفتح عثمان؛ والملك الظاهر غياث الدّين، وقيل شهاب الدّيـن، أبو منصور غازي؛ والملك الظاّفر مظفّـر الدّين أبو العبـاس خضر؛ والملك المعـز فتح الـدّين أبـو يعقوب يـوسف؛ و الملـك الأغر شرف الـدّين أبـو يوسـف يعقوب والملـك المؤيّد نجـم الدّيـن أبو الفتـح مسعُـود؛ والملـك الـزّاهر مجير الـديـن أبـو سليمان داود؛ والملـك المفضل قطب الدّيـن أبو محمد موسى؛ والملك الأشرف عـزّ الدّين محمد؛ والملـك المحسن شهـاب الـدّين أبـو العبـاس أحمد؛ والملك الجواد ركـن الدّين أبو سعيـد أيوب؛ والملك المظفّر فخر الدّين أبـو منصور تُورَانشاه؛ والملك العادل نور الدّين أبوالمظفّـر ملكشاه؛ والملك المنصُور نُصرة الدّين ميرمران؛ والملـك الصالـح معين الدين إسماعيـل ؛ وعماد الديـن شادي، ويسمى عمر؛ وابنة صغيرة.

- ١٠٦٠٥ -

ذكر من ملك الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان

الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى

من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استقَرّ ملكُ دمشق وما معَها للملك الأفضل نور الدّين أبي الحسن علي، وهو أكبر أولاده، ووليّ عهده، وعنده أخواه شقيقاه، الملك الظّافر خضر، والملكُ المفضّل مُوسى.

واستقرّ ملكُ الدّيار المصريّة للملك العزيز عماد الدّين أبي الفتح عثمان.

واستقرّ ملكُ حلب ومايَليها للملك الظّاهر غياث الدّين غازي، وعنده أخوه: الملك الزاهر داوود، فجعله من قِبَله على البيرة.

واستقرّ ملك حمص والرّحبة[وتدمر] للملك المجاهد أسَد الدّين شيركُوه بن محمّد بن شيركوه، وهو ولد ابن عمّ السّلطان الملك النّاصر.

واستقر ملك حماة وسَلَمْية والمعرّة ومَنْبج للملك المنْصُور ناصر الدّين محمّد بن تقي الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقرّ ملك حرّان، والرّها، ومَيّافَارقين، والرّقة، وقلعة جعبر، والكرك والشّوبك للملك العادل سيف الدّين أبي بكر بن أيوب، وهو أخو السّلطان.

واستقرّ ملك بعلبك للملكْ الأمجد[بَهْرَامشاه] بن فَرُّخْشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقر ببغـرين وأفـامية وكَفَـرْ طاب عز الـدّين[إبـراهيم] بـن شمس الدّين بن المقدّم.

واستقرّ بصهْيَوْن ناصر الدّين[منكورس بن خمارتكين].

[واستقر] بشيزر وأبي قبيس[سابق الدين عثمان بن الداية].

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدّين دُلْدُرم بن ياروق.

واستقرّ بَعَينْتاب ناصر الدّين شحنة حلب.

هذه الممالك التـي كانت جارية في ملك السّلطـان الملك النّاصر رحمه الله.

فلنـذكر الآن أخبـار الدّيـار المصريّة ومَـنْ ملكها بعْـدَ وَفاة السّلطـان الملك النّاصر، ونجعـل مايقع لهؤلاء الملوك، أو في ممـالكهم، من الحوادث في ضِمنْ أخبار ملُوك الدّيار المصرية؛ وننبّـه عليها بالتراجم، على مانقفُ عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدّين أبي الفتح عثمان ابن الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك الدّولة الأيوبية بالدّيار المصرية ملك الدّيار المصريّة عندما وصل إليه الخبرُ بوفاة والده السّلطان الملك النّاصر، رحمه الله تعالى، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحْسَن السيرة وأطلق جميع ماكان يُؤْخذ من التُّجار وغيرهم من المكوس على اسم الزّكاة، وجّهز إلى البيت المقدّس عشرة آلاف دينار لتُصْرف في مَصَالحه؛ وأكرمَ أصحَاب أبيه وعامَلَهم الأفضل أخوه صاحبُ دمشق بخلاف ذلك، فمالت القُلوب إلى الملك العزيز ونَفَرت عن الملك الأفضل، فاستَشْعَر الأفضَلُ من أمرائه، وعَزَم على القَبْض عليهم؛ فبلَغهُم الخبرُ ففارقُوه، واتّصلُوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالدّيَار المصريّة في بقيّة السّنة فأكرمهم وقرَّبهم وكان منه مانذكُرهُ إن شاءَ الله تعالى.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

كان استيلاؤهم على حصن جُبَيل في مستهَلّ صَفَر سنةَ تَسْعين وخمسمائة بمُواطَأة ممّنْ كان فيه، وذلك أنّ الحصن كان عدّةُ من فيه خمسَة عشَر رجلاً، فندب متولّي البلد منهُم عشرةً لجباية الجِزْيَة، وخرج متولّي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمْسَة الذّين تأخّروا بالحصْن معه، وبقي به أربعةٌ من الأكراد، فأغلقُوا بابَ الحصْن، وتوجّه أحدُهم إلى الفرنج الذين بالتّيرون فأخبرهم بخلُو الحِصْن، وكان به حدَّادٌ نصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن، فلمّا عادَ الوالي منعُوه من الدّخول ورَمَوْه بالحجارة، فكسَروا يده، وقالُوا هذه القلعة قد صارت للقَوْمَص، وجاء أهل التيرون بالليل فطرَدُوا من كان بالباشُورة من المسلمين.

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جُبيل وتحدَّثوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطوا نَصفَ ما بالحصن من سائر الحَواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عَمَل طرابلس؛ واستحلفهم على ذلك. وتسلّموا الحصْنَ، فرَتّب الفرنج فيه من الجَرْخِيّة ألفاً وخمسين جرخيا.

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظُم عليه، وأخرَجَ خيامه في يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جُبيَل من الفرنج، وأرسل شمس الخلافة رسولاً إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل، فتوجّه في سادس عشر شهر ربيع الآخر.

وفي سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقين من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدّين بن دِرْبَاس وفُوِّض القَضاء بالدّيار المصرية للقاضي زين الدّين أبي الحسن على بن يُوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقي؛ فوَلِيَ وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي صدر الدّين، وقيل بل وَلى القاضي محيي الدّين محمّد بن عبد الله بن أبي عصرون، وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي زين الدّين الدّمشقي فولي سنَةً، ثم عزل، وأعيد القاضي صدر الدّين إلى أن توفي سنة خمس وستمائة والله أعلم.

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصُلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة

قال: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسعين وخمسمائة توجَّه الملكُ العزيز إلى الشام، وترك بالقاهرة من الأمراء بَهاء الدّين قراقوش

وصيرم، وجَهّز ثلاثة عشر لواءً إلى ثغرَيْ الإسكندريّة ودمياط ومعهُم سبعمائة فارس، واستصْحَب معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميرا عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحَلْقة ألف فارس. فلمّا اتصل بالأفضل خروجهُ استعدّ وأنفق النّفقات الوافرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولمّا وصَل الملك العزيز إلى الغَوْر احْتاط على الخَاصّ الأفضلي به، وشَرَع في إقْطاع أعمال الشام، وجهّز من أمرائه: قايْماز، وعشرين أميراً، منهم، جهَارَكس،وميمون القَصْري، وسُنْقُر الكبير، والشجاع الخادم، والجناح، وجُرْدَيك، فتقدّموا ووقعُوا على أطراف العسْكر الشّامي، فرجع الأفضل إلى دِمشْق وغُلّقت أبوابُ البلد لمّا قرب العسكر المصريّ منها.

وتقدّم العزيز وترك ثِقَله بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكُسْوة؛ فاستَنْجد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دِمَشق، وحضَر الظّاهر من حَلب، وناصرُ الدّين صاحبُ حماة، وأسد الدّين صاحب حمص، وعسكرُ الموصل وغيره. فلّما رأى العزيز اجتماعهم علم أنْ لاقُدْرَة له بهذا الجمع، وكَتب إلى عمه العادل يقول: أنا ماخرَجْتُ من الدّيار المصريّة إلا لإسْتنقاذ جُبيل من الفرنج، فبلغني أنّ الملك الأفضل حالف الفرنج عليّ، واستنْصر بهم، ووَعدَهم أن يُعيد البلاد إليهم، فاقْتضى ذلك سَوْقَنا إليه، وبلَغنا أنك تدخل بيْننا وبيْنه، وحُوشِيت من ذلك، وأنا خيرٌ لكَ منْ غيري، وإنْ أرَدْت أنْ تكُونَ السّلطان ورئيسَ الجماعة فأنَا راضٍ بذلك.

وكتب لأخيه الملك الظّاهر وغيره من أصحاب الممالك وترددت الرّسائل بيْنهم.

وتقرَّرت الحال على أن يكُون للملك العزيز البيْتُ المقدّس وماجاوَرَه من أعمال فلسطين؛ وأن تكون دمشق وطبريّة وأعمال الغور للملك الأفضل؛ وأن يُعْطِي الأفضل لأخيه الملك الظّاهر جَبَلة واللاذقيّة؛ وأن

يكون للملك العـادل بالدِّيار المصريّة إقطاعـه الأوّل، وأنْ يُخطَب للملك العزيز ببلاده، وتُنْقَش السِّكّة باسمه؛ وأنّ الملك العزيز يُمدُّه بألف فارسٍ إعانةً له على فتح خلاط.

واجتمع الملكُ العادلُ بالملك العزيـز، وتزوَّج العزيزُ ابنْتَهُ، وجاء الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب إلى أخيه الملك العزيز. وتقرَّرت قواعد الصلح.

وتأخّـر الملكُ العـزيز إلى الكُسْوة ثـم إلى مَرْج الصُفَّر، ومرض بـه ثمّ أفاق.

ولمَّا عزم على العَوْد إلى الدّيَار المصريّة خرج لـوَدَاعه سائرُ الملوك الذين حضَروا لنصرة الأفضل، ثـم خرج إليـه الأفضل في سـابع شعبـان وأدركه بفيق، وهـي أعلى الغور، فأكـرمه الملك العـزيز، وبـالغ في احْترامه وسـاله الأفضل أنْ يـرجع إلى دمشق ليزُورَ قبر أبيـه؛ فأجاب إلى ذلك؛ ثـم أشارَ عليه أصحابُـه ألاّ يفعل، فامتنع، وعـاد الأفضل، وسار العَزيـزُ إلى الدّيار المصريّة فدخلها في أواخر شعبان.

وفي مستهل جمادى سنـة سبعين وخمسمائة هبَّت رياحٌ عـاصفةٌ بالقـاهرة مِـن وَقْت العَصْر، وسقَـطَ في ثـالـث الشهـر بَـرَدٌ كثير أكْبَرُه قدر البيـض وأصغَـرُه قـدر النّبـق، وصـار على جبل المقطـم منـه شيء كثير كـالجبـل الثّاني؛ونقل النّاس منه مدّة أربعة أيام؛ ثم سَالَ حتى ملأ الخندق، ودخل الماءُ من المرامي الّتي في السّور إلى القاهرة، وعَلاَ، حتى خِيف على البلد.

- ١٠٦١١ -

ذكر خروج الملك العزيز لقَصْد الشّام ثانيا ورجوعه وقصْد العادل والأفضل الدّيار المصريّة وماتقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قَلّد وزارة دمشق لِضياء الدّين ابن الأثير الجزَري وحكّمه في البلاد، فقَصَد الأمراء بالأذى والإطّراح، وتشاغَل الأفضل عنهم، ففارق خدمة الأفضل ميمون القصري وسنقر الكبير، وعز الدّين سامة، وغيرهم، وحضر بعضُ هؤلاء إلى الدّيار المصْريّة، وانضموا إلى الملك العزيز، وقالوا له: إنّ الأفضل مسلُوب الاختيار؛ وحَرَّضُوه على قَصْد دمشق؛ فخرَج إليها في سنَة إحْدَى وتسْعين وخمسمائة.

فلمّا اتّصل خبرُ خُروجه بالأفضل ركبَ من دمَشق في رابع جُمادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل، وهو بقلعة جَعْبَر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظّاهر بحلب واستنجد به أيضاً، فركبَ الملكُ العادلُ وجَدّ في السّير إلى دمشق خوْفا أنْ يسبقَه العزيز إليها، وكاتَب الملكُ العادل الأمراءَ الذين صُحْبة العزيز، وكان العزيز قد نَزَل بمنزلة الفَوّار على مرحلتين من دِمَشق، واستمالَهم وحذّرَهم من العزيز، فمالُوا إليه، واستمالوا أبا الهيجاء السّمين، وفارقوا العزيز وقَصَدُوا دمشق؛ وذلك في يوم الاثنين رابعِ شوال من السّنة.

فلمّا وصَلوا إلى دمَشق اتّفق العادلُ والأفضل، وتحالَفَا على قَصْد العزيز وانْتزاع الدّيار المصريّة منه، على أن يكون ثُلُثُ الدّيار المصرية للمَلِك العادل إقطاعاً، والثُّلثان للملك الأفضل. وساروُا في طلب العْزيز، فَرجع إلى الدّيار المصريّة وجَدّ في السّيْر ودخلَ القاهرة.

قال: ولمَّا وصل العَادلُ والأفضل إلى القُدس سلَّماه وأعمالَـه ومايجاورُه من أعْمَال السَّـاحل لأبي الهيجـاء السَّمين، فرتَّب فيـه نُوّابـه، وسار معهُما إلى الدّيَـار المصريّة، فنَزَل المُلْك العـادل على بلبيس، وكان السعر مـاشيا فاستظهر العزيز عليهم.

قال: ولم يكن غرضُ العادل قَصْدَ مِصْر، وإنما خَشِي على الملك العزيز من الأمرَاء أنْ يقتُلوه ويستَوْلُوا على الدّيار المصريّة، فقصدها لهذا السبب.

ولمّا ضـاقت الميرَةُ على العسكـر الشّامـي، وقلت[أزوادُهـم ندِمـوا على وصُولهم إلى الـدّيار المصريّة؛ فـأرْسَل الملـك العادل إلى القاضي الفـاضل عبْـد الـرّحيم في الاجتماع بـه، فـأذنَ لـه العـزيـزُ في ذلك؛ فخـرج إليـه، فاستَبْشَر النّـاس بخرُوجه رَجّاء وقُـوع الصّلح، ورَكب العـادلُ وتلقّاه على فَرَاسِخ، فـاجتمعا، واستقرّت القواعد على أن يكـون إقطاع العادل بمصر على عَـادَتِـه، وأن تكـون إقـامتـهُ عِنْـد الملـك العـزيـز بـالقـاهـرة، وأن يعفو[العزيز] عن الأسَديّة والأكراد.

واجتَمـعَ العـادلُ بالأفضـل وأمـرهُ بـالـرُّجـوع إلى دمشق، ثـمّ اجتمـع الأفضل بالعزيـز، واستقرّ الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليـه هدايا جليلة المقدار، ورَجع الأفضـل إلى دمشق ومعه أبو الهيجـاء السّمين، فدَخَلها في المحرّم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ولم تَطُل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل مااستوغَرَ خاطَره، فعند ذلك قرّر مع الملك العزيز، أن يُجّهـز العساكر لتمهد قواعد الملك بالشّام وسائر البـلاد، واتّفقا على أن يكون العزيزُ بدمشـق والعادل ينوب عنهُ بالدّيار المصريّة.

ذكر ملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال: ولمّا اتفق الملك العادلُ والملك العزيز على ماقرَّراه تجهَّز [الملك العادل] للمسير إلى دمشق وبرز بخيامه من القاهرة في يوم السّبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في ثلاثة آلاف فارس. ثمّ برز الملك العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهرُ خروجهِ وداعُه لعمّه الملك العادل، وحث العساكر المجرَّدة على الخروج، وأقام ببركة الجُبّ.

فلمّا كان في العشرين من الشهر اتصل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتب الأسَدِيّة، وأنّه قبض على أموال كانت للعادل بدمشق، وأطلق رهائن كانت عند نُوّابه، وأنّه وافق الظاهر صاحب حلب؛ فقرّر مع الملك العزيز أنْ يتوجَّها جميعا ويأخذا دمَشْق من الأفضل وحَلَب من الظّاهر، فاتّفقا على ذلك وعقدا بينهما يميناً.

وشرع الملك العزيز في تجهيز رجال الحلقة والأعيان، ورَحَل هو وعمَّه الملك العادل من البركة في يوم الثّلاثاء ثامن جُمادى الأولى، فحَصَل لِلْعَادل ضعفٌ في هذا النهار منَعَهُ عن الحركة، وكان وصُولهما إلى بلبيس في سابع عشر الشهر، وكمُلَت صحّة العَادل في العشرين من الشهر، وسَارَ إلى الشام على مهل ورفق.

فلمّا تحقّق الملك الأفضل قَصْدَهما لبلاده اسْتَشار شيوخ دولته. فأشاروا عليه أنْ يستقبل أخاه وعمه ويسلّم لهُما الأمر؛ وأشار وزيرهُ ضياءُ الدّين ابن الأثير الجزري بالتصميم والمخالفة، فرَجع إلى رأيه، وحصَّنَ البلد، وفرّق الأمراء على الأسوار، فلمّا رأى شيوخ الدولة وأكابرها أنّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأي وزيره راسلوا الملك العزيز والملك العادل في انتهاز الفُرصة؛ فركبا بعساكرهما وتأهّبَا في يوم الأربعاء

السادِس والعشرين مـن شهرِ رجب، وخَرَجَ أهلُ دمشـق لِقتالهم؛ والْتَقَوْا في السّـابع والعشريـن من الشّهـر، فلـم يكُن بـأسْرع من انهزام العَسْكـر الشّامـي. وتبعَهُم العزيـز والعادل حتـى ألْجأوهـم إلى سُور البلـد، ودخلوا دمشق، وتبعهم العسكر، فملكت البلد.

فعندها ركب الملكُ الأفضل إلى خيمة أخيـه الملك العزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.

قال: ودخل الملـك العادل ومَنْ معه بـاب تُوما والباب الشّرقـي، ونَزَل الدّار الأسديـة، ودَخَل الملك العزيـز من باب الفرج وبـات في دار عمّته الحساميّة، ومَلَك العـزيز دمشق وأقيمت لهُ الخُطْبة في يـوم الجمعة الثّامن والعشرين من الشهر.

قال: ولمّا ملـك الملكُ العـزيز دِمَشق نـدم على ماكان قـرر من إقـامته بالشـام وتَمْكين عمه الملك العادل مـن الدّيار المصريّة، واعْتَـذر إلى أخيه الملـك الأفضـل في السّر، فـأظْهَر الأفضـل سِرَّهُ لمن معـه فظنـوا أن هـذه خديعة، فأرسـل إلى العَادل وأعْلمه بمُراسلة العزيز، فعتَبَـه العادل، فأنكر الحال، وخَرَج الأفضل إلى صَرْخد، وقُرِّر لَهُ في كـل سنة مائتي ألف درهـم من صرخد وغيرهـا، وهو كارهٌ لذلك، وسألَ أن يكـون بمكّة؛ وينقطع إلى الله تعالى، وينزل عن المُلك، فلم يُجِبْه العزيز.

وكان خـروج الأفضل مـن دمشق إلى صَرْخـد يوم الاثنين،ثـاني شعبان سنة اثنتين وتسعين، فكـانت مـدّة ملكه لدمشـق، منْذُ وفـاة والده إلى أن ملكها العزيز؛ ثلاث سنين وخمسة أشهر.

ودَخَـل الملكُ العـزيز قلعَـة دمشـق واستقرّ بها في يـوم الأربعاء رابـع شَعْبـان من السّنـة المذكـورة، وجَلَس يـوم الجمعـة بـدَارِ العدل واسقـط

المكُوس بدمشق ماهو مقرّر على سُوق الرقيق، وسُوق الدوّاب، ودار البطّيخ، والملاهي، والعصير، والفَحْم، والحديد، وسَبْكي الفولاذ والزّجاج.

قال:وهرب ضياءُ الدّين ابن الأثير ونُهبت داره.

ونُودي في دمشق أن يلْبَس أهل الذّمّة العمائم الغيار ليُعرفوا من المسلمين، وكان سببُ ذلك أنّ الملك العزيز لمّا جلس بدار العدل دخل عليه رجلٌ له هيئةٌ حسنة، فما شكّ العزيز أنه من الأشراف، فلمّا علم أنّه ذمّيٌّ أمر بذلك.

قال: ولاطَف الملكُ العزيز عمّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النّيابة، فأجاب بَعْد امتناع، وسلّم ديوان دمشق لصفيّ الدّين ابن شُكر كاتب العادل.

وفارق الملك العزيزُ دمشق في العشر الأوسط من شعبان، وعادَ إلى الدّيار المصريّة بعد أنْ استخْلَف الملك العادل وسلّم إليه دمشق وماهو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال؛والخُطْبة والسّكّة باسم الملك العزيز.

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً في رابع شهر رمضان؛ وفوّض شدّ الأمْوال والخطاب عليها للأمير فخر الدّين إياز جهاركس؛ وضمن الخُمور في كلّ سنة بسبعةعشر ألف دينار، فتجاهر النّاس بها وظهر الفَساد وفشا في النّاس؛ واجتمع الرّجال والنّساء في شهر رمضان من غَيْر اسْتِتَار، سيّما في الخليج وساحل مصر؛ ورتّب ضمان الخمر في النّفَقَة على طعام السّلطان؛ وهذه من البَلايا التي لم يُسْمع بمثلها، فإنّ عادَة الملوك والأكابر[أن] يجتهدوا أن يكون مأكُلُهم من أحلّ الجهات كالجوالي ومايُنَاسِبها، وبسبب إطلاق الخُمور كثر القتل بالقاهرة والجراحَات، وخَطْف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق.

قال المؤرخ: وغَلَت الأسعار في هذه السّنة بالدّيار المصريّة، واشتدَّ الأمرُ على النّاس، وكثُر الوباء، وبلغ القمح كلَّ أردبّ بدينارين، وأظُن الدّينار ثلاثة عشر درهما وثُلث درهم، وهذا كان نهاية الغَلاء في ذلك العَصر.

ولقد وصف الفاضل عظم ماحلّ بالنّاس من غلوّ السّعر أمراً عظيماً، فكيف لو أدرك الفاضل الديار المصريَّة في سنة خمس وتسعين وستّمائة، وقد أبيع القَمح سعر الأردب ثلاثة عشر ديناراً ونصفَ دينار، وأبيع الفرُّوج بخمسين درهماً، ورطل البطّيخ الأخضر بأربعة دراهم، والسَّفَرْجلة بثلاثين درهما.

قال المؤرخ: وفي سنة اثنين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السّيد الشريف عبد الرّحيم(٢٢)، قدّس الله روحه ونوَّر ضريحه، بقنا من أعمال قُوص ودُفن بجبّانتها، وضريحه معروفٌ هناك من أعظم مزارات أهل الصلاح بالدّنيا.

وممّا نُقِل من كلامه، قدّس الله روحه، وقَدْ سمع المؤذّن يقول: أشهد أن لاإله إلا الله،فقال الشيخ: شهدنا بماشَاهَدْنا، ومن كلامه: لايستطيع العارفُ أن يوصِّل إلى منْ لايعرفُ حقيقة ماعَرف، كما لايستطيع البصيرُ أن يوصل إلى الأكْمَهِ حقيقة الألوان، وعُرض هذا الكلامُ على الشّيخ عز الدّين عَبْد العزيز بن عبد السّلام، رحمه الله ونفع به، فقالَ هَذا كلامُ مَنْ غرِق في الحقيقة.

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفي يوم الجمعة عاشر ذي الحجّة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة مَلَك الفرنج مدينة بيروت من المسلمين، وسببُ ذلك أنّ فرنج السّاحل راسَلُوا مَلِك الألمان في سنة اثنتين وتِسْعين وخمسمائة، وكان قد مَلَك

جزيرة صقلية، وعرّفوه أنّ المسلمين قد اشتَغَلوا بحرب بعضهم بعضاً؛ فأقبل في مراكبه إلى عكّا. وصادَفَ ذلك سقُوط الكُندهري ملك عكا من شُبّاكٍ فهلك، فملَك ملِكُ قبرص عكّا، وخرج إلى بيرُوت فملكها من المسلمين، وكان بها عزّ الدين سَامة، فعمرّها الفرنج ولَمْ تزل بأيْديهم إلى أن فتحها الملك الأشْرفُ في سنة تسعين وستمائة، على ما نذكرهُ إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك.

وفيها خَرَجت المراكبُ الحربية لقَصْد بلاد الفرنج، فوجَدُوا بُطَساً للفرنج فملكوها، فوجد المسْلمون فيها أموالاً جليلة.

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إياز جهارَكس النّاصري القيْساريّة المعروفة به بالقاهرة المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية.

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك

وفي يوم الأربعاء الثالث من شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفي الملك العزيز سيف الإسلام طُغْتكين بن أيّوب، أخو السّلطان الملك النّاصر بالمنصُورة التي أنشأها باليمن، وكان قد طرَدَ ولدَه شمس الملُوك إلى الحجاز. فلمّا سمِع بوفاة والده سار إلى اليَمن وملَكَ بعْدَه.

وإلى سيْف الإسلام هذا يُنْسَب البستان الذي كان بظَاهر القاهِرة، وهو الآن عمائر تُعْرفُ بحِكر سَيْف الإسلام.

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في ليلة الأحد العشرينَ من المحرّم سنة خمس وتسْعين وخَمسمائة بداره بالقاهرة.

وكانَ قـد خرَج إلى الفيُّوم لقَصْـد الصّيد إلى ذات الصّفا، فحُـمَّ، فعاد إلى القاهـرة واشْتدّ مـرضُه، فمات، وقيل إنّـه ساق خَلْـف الصّيد فكَبـا به فرسُه مرّةً بعد أخرى، فمات بعد ثلاث. ودُفـن بدارهِ بالقاهرة[وكان مولده بـالقاهـرة] في ثامـن جُمادى الأولى سنـةَ سبع وستّين، وقـال الفَاضـل في جُمادى الآخرة. فكانت مدّة عمره سبْعـاً وعشرين سنةً وثمانية أشهر واثني عشر يوما؛ ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يَوماً.

وكان رحمهُ الله عـادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعـامه، شجاعـاً حسَن الأخلاق.

وخلف من الأولاد أحد عشر ولـداً، وهم الملـكُ المنصُور محّمد، والقـائمُ بعْـده؛ وعلي، وغمـر، وإبـراهيـم؛ وعيسى؛ ومحمـود؛ ورعـاه؛ ويـوسـف؛ ويونس؛ وولدان صغيران، ولم يخلِّف في خـزانته ذهباً ولادراهم إلاّ بعض قماش ليْسَ بالطّائل.

ذكر سلطنة الملك المنصُور محمد بن الملك العزيز ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصريّة

ملَك الدّيـار المصريّة بعدَ وفاة أبيـه في يَوم الأحد العشرين مـن المحرّم سنَـةَ خمس وتسعين وخمسمائة بوصيـة منـه. ولمّا مَات الملـكُ العـزيز كـان عَمّه الملـك العادل يُحاصِر مَارِدين فـاجتمعت الأمراء الصّلاحيـة وعَقَدُوا الأمر لِولده ولقَّبُـوه بالملك المنصور، وكانَ قبل ذلـك يُلَّقب بالنّاصر، وإنما تـركُـوا النّـاصر لموافَقَتـه لَقَـب الخليفـة، وركـبَ في يـوم الثـلاثـاء الثـاني والعشريـن من المحـرّم، وشـقَّ القاهـرة مـن بـاب زَويلة إلى بـاب النّصر، والأمراء في خـدمته، وكتب الأمراء إلى الملـك العادل يعزونه في ابنْ أخيه

الملك العزيز ويذكُرون اتفاقهم على تنصيب ولَده في السَّلطنة بعْده، وأنهم على طَاعة الملك العادل.

ثم اجتمعت الأُمراء الأسَدية والصَّلاحية بظَاهِر القَاهرة وقالوا: إن الذي فعلنَاه من حِفظ الملك العَزيز في وَلَده هو نِعْم الرأي، وإنما هُو صَغير السِّن لايفهم مايُقال له، ولايقُوم بأعباء المُلك، ولابد لنا من كبير منْ هَذا البيت يُربِّيه ويكْفُلُه ويدبّر أحوال الدَّولة، ولَيْس لها مثلُ الملك العادل، وهو الآن مشغول ببلاد الشّرق، وقصَدُوا أن يكتُبوا إليه ويَستدعوه فكرةَ بعضُهم شِدةَ أخلاقه ومُمَاقَتَتُهُ للجند، فعَدلوا عنه واتفقوا علَى استِدعاء الملكُ الأفضل من صَرْخَد.

وأن يتولَّى أتابكية الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصولة، أخوه الملك الظافر خِضْر، فاستَقرَّ ذلك.

وكتبوا إلى الأفضل وذَلك في يوم الخميس سَادس عشَر صفَر من السّنة، ونزل الملك الظّافر بدَارِ السّلطنة في القاعة العزيزيّة، وقام بنيابة السلطنة.

قال: ولمَّا وصل كِتابُ الأمراء إلى الأفضل، خرج من صَرْخَد في ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرِّيَّة إلى البيت المقدَّس.

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة واستقراره في تدبير دولة المنصور

كان وصولُه إلى القاهرة في يوم الخميس السّابع من شهر ربيع الأول سنةَ خمسٍ وتسعين وخمسمِائة؛ فبرزَ النّاس لِلقائه، وزُيِّنَت المدينةُ، لقُدومه، ولمَّا دخل أقرَّ الخُطبة باسم الملك المنصور ابن أخيه، ونَقَش

السّكة باسمه، وكان الأفضل يُذكر بعده. وكَتَب إلى عمّه الملك العادِلِ يبذُل له الطّاعة والانْقِياد إلى أمره.

قال: ولمّا وصَل الملكُ الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدّين إياز جهاركس، وزين الدين قراجا على أنهما يلتقيانه، فتوجها إلى الملك العادل، ثم خرج في يَوْم وصُوله الأمير شمس الدّين سراسُنقر بمماليكه، وجماعة من أصحابه والتحق بالملك العادل، وسَار إليه، إلى مَارِدِين.

ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصَار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الديار المصريّة

قال:ولما استَقرّ الأفضل في تدْبير الدّولة بالدِّيار المصريَّة، ولم يَبْقَ للملك المنصُور معه إلا الشّركة في الخُطْبة، حمَلَه أصحابُه على قصد دمشق وحَصْرها، وقالوا: هي لك بوصِيّة أبيك الملك النّاصر، فعَزم على المسير إليها، وأمر العَسَاكر بالاسْتعداد لذلك. وبَرَز إلى المخيّم ببركة الجُبّ، هو وابن أخيه الملك المنصُور، في يوم السّبت العشرين من جُمادى الأولى من السّنة واستَحثّ العسكر على الخروج.

ووصل إليه في يوم الأربعاء، السّادس من جمادى الآخرة، رسولٌ من أخيه الملك الظّاهر صَاحِبِ حَلب وهو يَلُومُه على إنْفَاذ الرُّسل بالطّاعة للعادل، ويقول: إن أكثر النّاس كانوا منْصَرفين عنه فانصَرفوا إليه، وحثّه على سُرعة قَصْد دِمشق؛ ويقول: اغْتَنم الفُرصة مادام العَادِلُ في حصَار مارِدِين؛ ووَعَده بالوصُول إليه، فأكّدَ ذلك ماعنده، وأقام ببركة الجُبّ وهو يحثُّ العسكر على سُرعة الحركة، إلى ثاني شهر رجَب، فرحل عنها.

وفي مدّة مقامه ببركة الجُبّ أحضر قاضي القضاة والشُّهود، وأشهدهم على نفسه أنه وقف المطريّة (٢٣) ومُنْية الباسل (٢٤) ، والرّباع المسوّغة

والمستمرّة بيد الدّيوان على عِمارة سُور القاهرة ومِصْر والبيمارِستان بالقاهرة.

قال: ولمّا وصل الأفضل إلى بلبيس احْتاطَ على ماكان بِاسْم العَادل وألْزامه بالدّيار المصريّة؛ وأقْطَعه، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقيّده وأعاده إلى القاهرة، فاعتُقل بالقَلْعة، وتمَادى الملك الأفضل في سَيْره إلى دمشق. هذا ماكان منه.

وأما الملك العادل فإنَّ سَراسُنقر النَّاصري وصَل إليه بماردِين واستحثَّه على العَوْد إلى دمشق، فأوصى ولدَه الملك الكامل بمُحاصَرتها. وفارقَها العادلُ لخمْسٍ بقين من شهر رجب، ووصل إلى دمَشْق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحْصين البلد. ووصلت العساكرُ المصرية في يوم الخميس، ورتَّب الأطْلاَب وسارَ الملكُ المنصورُ بنُ الملك العزيز في الْقَلْب وزحَفَ على الْبلَد فأخذ قصْر حَجاج والشَّاغور، وكان العادلُ لما شاهدَ إقبال العَساكر أمر بإحْراق قصْر حجّاج فأُحرق، واحترق فيه عدَّة مساجد وأطفال. وأحاطت العَساكر المصريَّة بدمشق، ودَخَلها جماعة منهم من باب السَّلامة، وانتهَوْا إلى السُّوق الكبير، وخرجُوا من باب الفرَاديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر، ثم تأخّر إلى مَيدان الحصى؛ واستقر بهذه المنْزِلة أكثر من ستَّة أشْهُر.

وكاتب الملكُ العادل جماعةً من الأمراء المصريّين، ففارَقُوه ودَخَلُوا إلى دمشق فأكرمهم.

ثم وصل الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الظّافر والمعزّ وجاءهُم الملكُ المجاهدُ صاحب حمص، وعسكر حماة دُون سُلطانها، وحسام الدّين بشارة صاحب حصن بانياس، وكان من أكابر الدّولة، فأشار بالصلح.

قال: ولمّا حاصَر الملكُ الأفضل دمشق، مَنَع مَنْ يدخُل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها الأنهار؛ فاشتدَّ الأمر على أهل دمشق، واستغاثت الرّعايا على العادل، وتسلّطوا عليه، وحملوه على تَسْليم البلَد. وانْتَقَل أكثر مَنْ في البلد إلى العَسْكر، ونصبوا به أَخْصَاصاً ومساكن؛ وأُقيمت الأسواق به.

فلما اشتدَّ الأمر على العَادل كتب إلى الظّاهر يَستميلهُ وقال: أنا أسلّم البلَد إليك دونَ غيرك، فنُمِي الخبرُ إلى الأفضل، فاضطَرب رأيُهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا أسلم البلَد إليكُما بعد سَبْعَة أشهر، فأجَابَاهُ إلى ذلك، وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقولُ: الظّاهر قد صَالحني، وإلى الظّاهر بمثل ذلك.

واتّفقَ في فَسَاد حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعات بالدّيار المصريَّة جليلَةُ المقدار، فحسَدَهم آخرون عليها، فكانوا يأتُون إلى الملك الأفضل ويقولُون: إنَّ فلاناً قد عزَم على قَصْد عَمّكَ العَادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إنّ الأفضل قَدْ عَزم القَبضَ عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل فَيَرى في وجْهه أثر التغيُّر لِمَا نُقل عنه، فلايشكُّ ذلك الأميرُ في صِدْق النَّاقل فالْتَحق به جماعةٌ من الأمراء.

فبينما الأفضل كذلك إذ قَدِم الملكُ الكامل بن الملك العَادل من الشَّرق، في تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتُّركمان فاشْتدّ به عضد أبيه، وتأخر الأفضل بمن معه إلى سَفح جَبل العقَبة، ثم انتقل إلى مَرْج الصُّفَّر في يوم الاثنين ثاني عشر صفر؛ وعَادَ الظّاهر والمجاهد.

واشتد البرْد على العَسْكر المِصري، فعاد الأفضلُ إلى الدّيار المصريّة،

وسَاقَ العَادل بعسَاكره في إثره، فكان وُصُول الأفضل إلى بلبيس في حَادي عشري شهر ربيع الأول، فأشارعليه أصحابه بالإقامة بها.

قال: ولَمَّا وصَلَ الملكُ العادِل إلى تلّ العجُول، أقام به حتى اجتمع إليه أصحابه، ورَاسَل الأفضل، فعاد جوابه أنه لايصالحُه حتىّ يفارق الأمراء الصلاحية.

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا على المسير إليه.

هذا والأفضل على بلبيس، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم وجماعة منهم باطنوا الملك[العادل].

حواشي نهاية الأرب

١- أتسز بن أوق، تقدم ذكره في الجزء الأول من موسوعتنا.
٢- أي فرقة يبلغ تعدادها عشرة آلاف:
٣- أي السلطة المملوكية أيام الناصر محمد بن قلاوون
٤- القبق بالتركية قرعة عسلية، وقد أطلقت على لعبة رياضية ، حيث كانت القرعة تنصب هدفا لرمايات الفرسان ، أو يتخذ بدلا عنها دريئة خشبية بأعلاها دائرة تسدد نحوها الرمايات .
٥- أي جعبتين أو كنانتين.

٦- زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الأثير، فهو مصدر النويري الاساسي، والاشارة اليه دوما عند ما يقول: قال المؤرخ.
٧- حصن من أعمال أحمص أو حماه كان على مقربة من حصن الأكراد . معجم البلدان.
٨- كذا بالاصل وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٦١ ، والمعني بهذا برتراند الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وعند ابن القلانسي كان هذا سنة اثنتين وخمسمائة.
٩- أي الخراج المقرر على كل اقطاع.
١٠ -كان على مقربة من قلعة القاهرة- طبعا - قبل تاسيسها
١١- أواني من الخزف.
١٢- هو سلطان بن ابراهيم بن مسلم المقدسي ، المعروف بابن رشا. توفي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٤٠ م سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا للمقريزي
١٣- هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني المغربي- سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
١٤- هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد ، أبو الفضائل، المعروف بابن الأزرق سيأتي ذكره في اتعاظ الحنفا

١٥- هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبي كامل - سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
١٦- تعرف منية الباساك حاليا باسم المنيا في محافظة الجيزة — مركز الصف. القاموس الجغرافي لرمزي ق ٢ ج٣ ص ٣١.
١٧- أطفيح حاليا بلدة تابعة لمركز الصف - محافظة الجيزة - القاموس الجغرافي ق ٢ ص ٣ ص ٢٦
١٨- تتبع دلاص حاليا مركز بني سويف بمحافظة بني سويف ، القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص ١٥٩ - ١٦٠
١٩- هي مدينة المنية الحالية في مصر حاضرة محافظة المنيا فيها.
٢٠- من قرى مركز الجيزة- محافظة الجيزة . القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص ٣
٢١- الجبال المشرفة على مدينة طرابلس في ليبيا.
٢٢- عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائي
٢٣- من ضواحي القاهرة، القاموس الجغرافي ق ٢ ج١ ص ١١
٢٤- من اقليم الأطفيحية ، تابعة حاليا المركز الصف بمحافظة الجيزة . القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص٣١

-١٠٦٢٥-

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية

مؤرخو القرن الثامن والقرون التي تليه

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الثالث والعشرون

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن الثامن والقرون التي تليه.

١ـ ابن فضل الله العمري
٢ـ التاج السبكي
٣ـ ابن قاضي شهبة
٤ـ أحمد بن علي الحريري

دمشق ١٤١٥/ ١٩٩٥

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اتبعت حتى الآن في اخراج مواد الموسوعة الترتيب الزمني، واضطررت في هذا المجلد الى خرق هذه القاعدة بعض الشيء ، فهذا أمر فرضته عليّ طبيعة المجلدين التاليين ، لأن كل واحد منهما صنف من قبل مؤرخ منفرد، وجمعت مواد هذا المجلد من كتابات عدد من المؤرخين هم:

١ـ ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى ، ولد بدمشق سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢ م، لأسرة عربية عريقة تنتسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعملت هذه الأسرة منذ قرن تقريبا في ديوان الانشاء بمصر والشام، ومع أن العمري ولد بدمشق فانه شب وتعلم في مصر، واحترف مهنة آله ، فعندما ولي والده كتابة السر في دمشق، عمل أحمد في ديوان الانشاء، ولما تحول والده إلى مصر صار ابنه أحمد هو الذي يقرأ رسائل البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ونال ابن فضل الله معارف جمة ماتوفر في عصره، وحقق مهارة واسعة في كتابة الانشاء والأعمال الديوانية، وأكسبه هذا معلومات موسوعية حول عصره من جميع الجوانب ، ولحسن الحظ أنه أودع هذه المعلومات في عدد من المصنفات أهمها موسوعته « مسالك الابصار في ممالك الأمصار».

وجميع ما كتبه ابن فضل العمري هام جدا ، القليل منه ما نشر ،

والغالب هو مازال ينتظر النشر ، لاسيما موسوعته « مسالك الأبصار» واهتمت هذه الموسوعة بالمقام الأول « بالجغرافيا والتاريخ»، وما نشر منها حتى الآن قليل جدا ، وهناك محاولات ومشاريع لنشرها كاملة ، وهذا مما يتوجب على المؤسسات الثقافية والمعنية بالتراث في سورية، لأن العمريين ، وإن عاشوا في مصر ظلوا متمسكين بالانتماء الى بلاد الشام.

والجانب الجغرافي في موسوعة العمري متفوق على الجانب التاريخي ، وهذا الجانب على أهميته ، وطريقة عرضه الخاصة لايرقى بأي حال إلى مكانة القسم التاريخي في موسوعة النويري .

لقد لفق الاستاذ فؤاد سزكين نسخة مخطوطة من موسوعة العمري جمعها من عدة مكتبات، ونشرها كما هي مصورة ، لكن بما أنه لم يصور أفضل الموجود من مخطوطات مسالك الأبصار، ولارتفاع ثمن نسخة الكتاب ستظل الفائدة من هذا العمل محدودة جدا.

وعدت الى هذه الطبعة المصورة وصورت منها المواد التاريخية المتعلقة بالحروب الصليبية، ثم نسختها وحققتها، وهي بهذا تنشر للمرة الأولى ، ولاشك ان فيها ما يفيد من معلومات.

٢ـ التاج السبكي : تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين أبي الحسن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكي ، ولد بمصر سنة ٦٢٧ هـ/ ١٣٢٧م، وتوفي بدمشق سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م وهو ابن اربع وأربعين سنة هجرية.

ولد السبكي في بيئة علمية ، ونشأ وسط بيت علم وثقافة ، مما أهله لتولي مناصب دينية وتعليمية رفيعة منذ مطلع شبابه، فقد مارس الافتاء

وهو في العشرين من عمره وولي الخطابة في الجامع الأموي، وولي القضاء أيضا، وتعرض للمحنة وسجن مدة ثمانين يوما، وانعكس هذا في تصنيفه لكتابه «معيد النعم ومبيد النقم ».

وعلى أهمية هذا الكتاب صنف السبكي كتبا أخرى خاصة في تراجم الشافعية فقد صنف طبقات الشافعية الكبرى، ثم اختصره الى طبقات وسطى ثم اختصره الى طبقات صغرى.

وبما أن صلاح الدين الأيوبي كان شافعي المذهب ، فقد ترجم له السبكي ترجمة وافيه، لسوء الحظ أنها وصلتنا مبتورة الآخر، وقمت باعادة تحقيق هذه الترجمة وضبطها مجددا، وايداعها في موسوعتنا هذه لتكتمل الفائدة.

٣ـ ابن قاضي شهبة : بدر الدين ابو الفضل محمد بن تقي ابن قاضي شهبة، الأسدي الشافعي الدمشقي ، ولد في دمشق سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م وفيها نشأ ، وكان أبوه من علماء عصره ، اهتم بتثقيفه بنفسه، ودفعه أيضا الى رجال العلم والدين في أيامه، وقد تسلم عدة مناصب دينية وتعليمية ، وصنف عدة كتب منها في التاريخ سيرة لنور الدين محمود بن زنكي ، وكان قد عدّ في أيامه فقيه الشام بغير مدافع، عليه مدار الفتيا والمهم من الاحكام ، وظل يتمتع بصدارته حتى وفاته سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م.

وتعرفت للمرة الأولى على كتابه الذي كتب فيه سيرة نور الدين سنة ١٩٦٧ فقد رأيت نسخة منه في مكتبة أياصوفيا، وأخرى في مكتبة نور عثمانية، وكان تصوير المخطوطات وقتها أمراً ميسوراً في استانبول ، وعلى نسخة نور عثمانية اعتمدت في عملي، ذلك أن نسخة أياصوفيا حملت عنوان « الدر الثمين في سيرة نور الدين».

ليس في هـذه السيرة مـا هـو متميـز او مبدع سـواء فـي المنهج أو المواد، لكنهـا السيرة الـوحيدة المفـردة التي وصلتنا حـول نور الـدين ، لهذا عمدت الى تحقيق مخطوطتها ونشرها في موسوعتنا هذه.

ومفيد أن أشيـر أنني بدأت بجمع مـواد موسوعتنـا هذه منذ ثـلاثين سنـة، وفي اثناء عملـي في المكتبة الـوطنية ببـاريس وقفت علـى كتيب صغير حمل عنـوان «الاعلام والتبيين في خـروج الفرنج المـلاعين على ديار المسلمين» تصنيف:

٤ـ أحمـد بن علي الحريري، لكن مـن هو أحمد بن علي الحـريري هذا؟ ليس في المصـادر من كتب التراجم جواب لهـذا السؤال، والذي نعرفه فقط أنـه كان من رجال القرن العاشر للهجـرة ، ذلك أن مخطوطة بـاريس بخـط المـؤلف، وهـو قـد كتبهـا فـي أواخـر شـوال سنـة ست وعشرين وتسعمائة [١٥٢٠م].

ليس في الكتـاب اشارة أخـرى للمصنف ، هذا ولم يـذكر الحـريري مصادره، وخـط الحريري نسخـي جميل ، لكن لغته ليسـت فصحى بل أقرب إلى الدارجة فيها أخطاء كثيـرة، نبهت عليها، لكن لم ابدلها ، لأن المخطوطة المعتمدة بخط المؤلف.

وأهمية كتاب الحريري، أنه ربما الوحيـد بالعربية الذي أوقفه صاحبه على التاريخ للحـروب الصليبية فقط، ذلك أن المؤرخين العـرب عرضوا أخبـار الحروب الصليبيـة ضمن الاطار العـام لأحـداث تاريخ الاسـلام فلقد رأينـا جميع النصوص المتقدمـة قد وردت أصلا ضمـن مصنفات تاريخيـة اسلامية عـامة، ولايمكن هنا استثنـاء كتاب الروضتيـن ،لأن أبا شامة أوقفه للتأريخ للدولتين الأتابكية النورية والصلاحية الأيوبية.

ولايحوي كتاب الحريري تاريخ الحروب الصليبية بشكل مفصل ، بل كل ما هنالك مجرد اشارات الى أهم الأحداث ـ بنظر المؤلف بشكل متسلسل زمنيا ، مما يوحي بأن المصدر الذي اعتمده بشكل اساسي كان مرتبا حسب طريقة الحوليات، وفي نوعية الاختيار دليل على التذوق التاريخي للمصنف ، أقول تذوقه ، لكن ليس احترافه، فهو كثيرا ما يورد ذكر عدد من الحوادث التي وقعت في سنين متتالية تحت عنوان تاريخ سنة متقدمة ، ثم هو كثيراً ما يخطىء بتواريخه ، ويبدو أنه كان ذا ذوق أدبي بدليل ايراده لبعض المقطوعات الشعرية.

وكنت قد نشرت هذا الكتيب سنة ١٩٨١ في دمشق ، وقمت اللآن باعادة نشره بعد مراجعته وادخال بعض التعديلات على حواشيه.

من الله جل وعلا أرجو التوفيق والعون والسداد، والله تعالى أشكر وأحمد، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء وسيد العرب والعجم محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

دمشق ١٣ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ

١٩٩٥/١٠/٧م

سهيل زكار

من مسالك الأبصار

لابن

فضل العمري

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد واله وسلم

سنة إحدى وأربعين إلى سنة خمسين وخمسمائة

ذكر استيلاء الفرنج على طرابلس

وسبب ذلك أنهم نزلوا عليها وحاصروها فلما كان اليوم الثالث من نزولهم سمع الفرنج في المدينة ضجة عظيمة،وخلت الأسوار من المقاتلة وسببه أن أهل طرابلس اختلفوا فأرادت طائفة منهم تقديم بني مطروح، فوقع الحرب بين الطائفتين، وخلت الأسوار، فانتهز الفرنج الفرصة، وطلعوا بالسلالم وملكوها بالسيف في محرم هذه السنة، وسفكوا دماء أهلها، وبعد أن استقر الفرنج في طرابلس بذلوا الأمان لمن بقي من أهل طرابلس وتراجعت إليها الناس وحسن حالها[١]

وفيها سار زنكي ونزل على قلعة جعبر وحصرها وصاحبها علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد العقيلي، وأرسل عسكراً إلى قلعة فنك، وهي تجاوز جزيرة ابن عمر فحصرها أيضاً وصاحبها حسام الدين الكردي البشنوي، ولما طال على زنكي منازلة قلعة جعبر أرسل مع حسان البعلبكي الذي كان صاحب منبج يقول لصاحب قلعة جعبر: قل لي من يخلصك مني؟ فقال صاحب جعبر: يخلصني منك الذي خلصك من بلك بن بهرام بن أُرتق، وكان بلك محاصراً لمنبج فجاءه سهم فقتله، فرجع حسان إلى زنكي يخبره بذلك، فاستمر زنكي منازلاً قلعة جعبر، فوثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه في خامس ربيع الآخر هذه السنة بالليل، وهربوا إلى قلعة جعبر، وصاح من بها على العسكر وأعلموهم بقتل زنكي، فدخل أصحابه إليه وفيه رمق، وكان عماد الدين زنكي حسن الصورة ، أسمر اللون، مليح العينين، قد وخطه الشيب، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، ودفن بالرقة، وكان شديد الهيبة على

عسكره عظيمها، كان لـه الموصل وما معها من البلاد، وملـك الشام خلا دمشق، وكان شجـاعاً وكانت الأعـداء تحيط بمملكته من كـل جهة وهو ينتصف منهم، ويستولي على بلادهم.

ولما قتل زنكي كـان ولده نور الديـن محمود حاضراً عنده وأخـذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه وسـار إلى حلب فملكها، وكان صحبة زنكي أيضاً الملـك ألب أرسـلان بن محمـود بن محمـد بن ملكشـاه السلجوقـي فـركب في يـوم قتل زنكـي واجتمعت عليـه العسـاكر فحسـن له بعـض أصحـاب زنكي الأكـل والشرب وسماع المغـاني، فسـار ألب أرسـلان إلى الرقة وأقـام بها منعكفاً على ذلك.وأرسل كبراء دولة زنكـي إلى ولده سيف الدين غـازي بن زنكي يعلمونـه بالحال وهو بشهرزور، فسـار إلى الموصل واستقـر في ملكها، وأمـا ألب أرسـلان فتفرقـت عنه العسـاكر وسـار إلى الموصل يريد ملكهـا، فلما قرب منها قبـض عليه غازي بن زنكي، وحبسه في قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين غازي للموصل وبلادها.

وفيها أرسل عبد المؤمـن بن علي جيشاً إلى جزيرة الأندلـس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام، واستولى عليها.

وفيها بعد قتل عماد الدين زنكي قصد مجير الدين ابن صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره، وكـان به نجم الدين أيوب بـن شاذي مستحفظاً فخاف أن أولاد زنكي لايمكنهـم انجاده العاجل، فصـالحه وسلم القلعة إليه، وأخـذ منه اقطاعـا ومالاً وملكه عدة قـرى من بلاد دمشـق، وانتقل أيوب إلى دمشق وسلمها.

وفي سنة اثنتين وأربعين

دخل نـور الدين محمود بـن زنكي صاحـب حلب بلاد الفرنـج ففتح منها أرتـاح بالسيـف وحصن مامـولا وبصرفوت وكفـر لاثا، وفيهـا ملك

الفرنج المهدية بـإفريقية. وكان قد حصل بإفريقية غـلاء شديد حتى أكل النـاس بعضهـم بعضـا ودام من سنـة تسـع وثـلاثين وخمسمائة إلى هـذه السنة، ففارق الناس القـرى ودخل أكثرهم صقلية فاغتنـم رجاز الفرنجي صاحـب صقلية هذه الفـرصة وجهـز اسطولاً نحو مـائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالاً وسلاحـاً واسم مقدمهم جرج، وساروا مـن صقلية إلى جزيرة قوصرة، وهـي ما بين المهديـة وصقلية، وسـاروا منها وأشرفوا على المهـدية ثامن صفر هـذه السنة وكان في المهدية الحسن بن علي بـن يحيى بن تميم ابن المعـز بن بـاديس الصنهـاجي صـاحب إفـريقية، فجمـع كبار البلـد واستشارهـم فرأ واضعف حـالهم، وقلة المونـة عندهم، فـاتفق رأي الأمير حسن على إخلاء المهديـة ، فخرج منها وأخذ ما خف حملـه، وخرج أهل المدينة على وجـوههم بأهليهم وأولادهـم وبقي الاسطول في البحـر يمنعه الريح من الـوصول إلى المهدية، ثم دخلوا المهديـة بعد مضي ثلثي النهار المذكور بغير مانع ولا مدافع، ولم يكن قد بقي من المسلمين بالمهدية ممن عزم على الخروج أحـد، ودخل جرج مقـدم الفرنـج إلى قصر الأمير حسن .

فوجـده على حالـه لم يعدم منه إلا مـا خف حمله، ووجـد فيه جماعـة من حظايا الحسن والذخائر مملوءة من الذخاير النفسية من كل شيء غريب، وسار الأمير حسن بـأمواله وأولاده إلى بعض أمراء الغرب ممـن كان يحسن إليه، وأقام عنـده وأراد الحسن المسير إلى الخليفة الحافظ العلـوي صاحب مصر فلم يقدر على ذلـك لخوف الطرق، فسار إلى ملك بجايـة يحيى بن العزيـز من بنـي حماد، فوكـل يحيى المذكـور على الحسن وعلى أولاده مـن يمنعهم من التصرف ولم يجتمـع يحيى بهم. فأنزلهم في جزائر بنـي مزغنان، وبقي حسن كـذلك حتى ملك عبـد المؤمن بن علي بجايـة في سنة سبع وأربعين وخمسمائة وأخـذهـا هـي وجميع ممـالـك بنـي حماد فحضر الأمير حسن عنـده فأحسـن إليه عبـد المؤمن وأكـرمه، واستمـر في خدمـة عبد المؤمـن إلى أن ملك عبـد المؤمن المهـدية، وأقـام حسن فيهـا، وأمر عبـد المؤمـن الـوالي الـذي ولاه على المهـديـة أن يقتـدي بـرأي الأمير حسـن،

ويرجع إلى قوله، وكان عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناد إلى الحسن تسعة ملوك، وكانت ولايتهم في سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، وانقضت في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم إن جرج بذل الأمان لأهل المهدية، وأرسل وراءهم بذلك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ، فتراجعوا إلى المهدية.

وفيها سار ملك الألمان - والألمان بلادهم وراء بلاد القسطنطينية - حتى وصل إلى الشام في جمع عظيم، ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن بوري، والحكم وتدبير المملكة لمعين الدين أنر مملوك جده طغتكين ، وفي سادس ربيع الآخر زحفوا على دمشق ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر، وأرسل أنر إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده ، فسار بعسكره وسار معه أخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ففت ذلك في أعضاد الفرنج، وأرسل أنر إلى فرنج الشام يبذل لهم قلعة بانياس، فتخلوا عن ملك الألمان واشاروا عليه بالرحيل وخوفوه من امداد المسلمين، فرحل عن دمشق إلى بلاده، وسلم أنر قلعة بانياس إلى الفرنج حسبما شرطه لهم.

وفيها كان من نور الدين محمود ومن الفرنج مصاف بأرض يغرا من العمق، فانهزم الفرنج، وقتل منهم جماعة ، وأسر جماعة، وأرسل من الأسرى والغنيمة إلى أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل.

وفيها ملك الفرنج من الأندلس مدينة طرطوشة وجميع قلاعها، وحصون لارده.

وفيها كان الغلاء العام من خراسان إلى العراق إلى الشام إلى المغرب.

وفيها قُتل نور الدين شاهنشاه بن أيوب أخو صلاح الدين، قتلته

الفرنج في منازلتهم لدمشق، فجرى بينهم وبين المسلمين مصاف قتل فيه، شاهنشاه، وهو أكبر من صلاح الدين وكانا شقيقين.

وفي سنة أربع وأربعين

توفي غازي بن عماد الدين أتابك زنكي، صاحب الموصل بمرض حاد في أواخر جمادى الآخرة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرون يوماً، وكان حسن الصورة، ومولده سنة خمسمائة وخلف ولداً ذكراً فرباه عمه نور الدين، وأحسن إليه، وتوفي المذكور شاباً وانقرض بموته عقب سيف الدين غازي، وكان سيف الدين كريماً، يصنع لعسكره كل يوم طعاماً كثيراً بكرة ً وعشياً، وهو أول من حمل على رأسه السنجق في ركوبه، وأمر الأجناد أن لا يركبوا إلاّ بالسيوف في أوساطهم، والدبوس تحت ركبهم، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف فلما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بن زنكي مقيماً بالموصل، فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين أمير الجيش على تمليكه، فحلفاه وحلفا له، وأطاعه جميع بلاد سيف الدين أخيه، ولما تملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش، صاحب ماردين، وكان أخوه سيف الدين قد ملكها، ومات قبل الدخول بها، وهي أم أولاد قطب الدين.

وفيها توفي الحافظ العلوي صاحب مصر، وكانت خلافته عشرين سنة إلاّ خمسة أشهر، وعمره نحواً من سبع وسبعين سنة .ولم يل الأمر من الخلفاء العلويين بمصر من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد على ما سنذكره، ولما توفي الحافظ بويع بعده ولده الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل، واستوزر ابن مصال ، فبقي أربعين يوماً، وحضر من الاسكندرية العادل بن السلار ، وكان قد خرج ابن مصال في طلب بعض المفسدين ، فأرسل العادل بن السلار ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وكان أبوه أبو الفتوح قد

فارق أخاه علي بن يحيى صاحب إفريقية، وقدم إلى الديار المصرية، وتوفي بها فتزوج العادل بن السلار بزوجة أبي الفتوح، ومعها ولدها فرباه العادل وأحسن تربيته، ولما قدم العادل إلى مصر يريد الاستيلاء على الوزارة أرسل ربيبه عباس في عسكر إلى ابن مصال فظفر به عباس وقتله، وعاد إلى العادل بالقاهرة فاستقر العادل في الوزارة ، وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم ، وبقي كذلك إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقتله ربيبه عباس، وتولى الوزارة على ما سنذكره.

وفيها حصر نور الدين محمود بن زنكي حصن حارم، فجمع البرنس صاحب أنطاكية الفرنج، وسار إلى نور الدين محمود، واقتتلوا فانتصر نور الدين ، وقتل البرنس، وانهزم الفرنج، وكثر القتل فيهم، ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند، وهو طفل، وتزوجت أمه برجل آخر وسمي بالبرنس، ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان فيمن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند، فتمكن حينئذ بيمند في ملك أنطاكية.

وفيها زلزلت الأرض زلزلة شديدة ، وفيها توفي معين الدين أنر صاحب دمشق، وهو الذي كان ينسب إليه الحكم فيها، وإليه ينسب قصر معين الدين الذي في الغور.

وفيها تولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفي يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر، وكان قتل ذلك اليوم صاحب ديوان الزمام،

وفي سنة خمس وأربعين

في رابع عشر المحرم أخذت العرب جميع الحجاج بين مكة والمدينة ، فهلك أكثرهم ولم يصل منهم إلى البلاد إلا القليل.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى فامية وحصر قلعتها وتسلمها من الفرنج، وحصنها بالرجال والذخائر، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنها فملكها قبل وصولهم، فلما بلغهم فتحها تفرقوا.

وفيها سار الأدفونش صاحب طليطلة، بجموع الفرنج إلى قرطبة وحصرها ثلاثة أشهر ولم يملكها ، ورحل عنها .

وفي سنة ست وأربعين

انهزم نور الدين من جوسلين ثم أسر جوسلين، وكان جوسلين من أعظم فرسان الفرنج قد جمع بين الشجاعة وجودة الرأي، وكان نور الدين قد عزم على قصد بلاده، فجمع جوسلين الفرنج وأكثر وسار نحو نور الدين والتقوا، فانهزم المسلمون وأسر منهم جمع كثير وكان من جملة من أسر منهم السلاح دار ، ومعه سلاح نور الدين ، فأرسله جوسلين إلى مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا، وقال: هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه، فعظم ذلك على نور الدين وهجر البلاد، وأفكر في أمر جوسلين وجمع التركمان وبذل لهم الوعود إن ظفروا به إما بإمساك أو بقتل ، فأتفق أن جوسلين طلع إلى الصيد فحبسه التركمان وأمسكوه، فبذل لهم مالاً فأجابوا إلى إطلاقه، فسار بعض التركمان إلى أبي بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب، فأرسل عسكراً كبسوا التركمان الذين عندهم جوسلين وأحضروه إلى نور الدين أسيراً، وكان أسر جوسلين من أعظم الفتوح، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، ولما أسر سار نور الدين إلى بلاده وقلاعه وملكها وهي : تل باشر وعين تاب، ودلوك، وأعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، وحصن البارة، وكفر سود، وكفر لاثا، ومرعش، ونهر الجوز،

وغير ذلك في مدة يسيرة، وكـان نور الدين كلما فتح منها مـوضعاً حصنه بما يحتاج إليه من الرجال والذخائر.

وفي سنة تسع وأربعين

سار عبـد المؤمن بـن علي إلى بجاية وملكهـا وملك جميـع ممالـك بني حماد وأخذهـا من صاحبهـا يحيى بن العزيـز آخر ملوك بنـي حماد، وكان يحيى المذكـور مولعاً بالصيـد واللهو لاينظر في شيء من أمـر مملكته، ولما هزم عبد المؤمن عسكر يحيى هرب يحيـى وتحصن بقلعة قسنطينة من بلاد بجـاية، ثـم نـزل يحيى إلى عبـد المؤمـن بـالأمان فـأمنـه وأرسله إلى بـلاد المغرب، وأقام بها وأجـرى عليه عبد المؤمن رزقاً كثيراً، وقد ذكـر في تاريخ القيروان أن مسير عبـد المؤمن وملـك تونـس وإفريقيـة إنما كان في سنـة أربع وخمسين.

وفي هـذه السنـة في أول رجب تـوفي السلطـان مسعـود بن محمـد بـن السلطان ملكشـاه بهمذان، ومـولده سنـة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة، ومات معه سعادة البيت السلجوقي،فلم يقملهم بعـده راية يعتـز بها، وكان حسن الأخلاق كثير المزاح والانبسـاط مع الناس، كريماً عفيفـاً عن أموال الرعايـا، ولما مات عهد بالملـك إلى ابن أخيه ملكشاه بـن محمود فقعد في السلطنة ، وخطـب له، وكـان المتغلب على المملكـة أمير يقال لـه خاص بيك وأصله صبي تركماني اتصل بخـدمة مسعود فتقدم على سائر أمرائه، ثـم إن خـاص بيـك المذكـور قبض على السلطـان ملكشـاه بـن محمـود وسجنه، وأرسل إليه أخيه محمد بن محمـود وهو بخوزستان فأحضره، وتولى السلطنـة ، وجلـس على السريـر، وكـان قصـد خـاص بيـك أن يمسكـه ويخطب لنفسـه بالسلطنة، فبـدره السلطان محمد ثـاني يوم وصولـه، فقتل خاص بيك، وقتل معه زنكي الجامدار، وألقى برأسيهما فتفرق أصحابهما.

وفيها جمعت الفرنـج وساروا إلى نور الـدين وهـو محاصر دلوك فـرحل عنها وقاتلهم أشد قتال وهزمهـم وقتل وأسر منهم خلق كثير، ثم عاد نور الدين إلى دلوك فملكها، ومما مدح به في ذلك:

أعـــــدت بعصرك هـــــذا الجديـــــد
فتـــــوح النبـــــي وأعصـــــارهـــــا
وفي تـــــل بـــــاشر بـــــاشرتهم
بـــزحـــف تســـور أســـوارهـــا
وإن دالكتهـــــم دلـــــوك
فقـــد ســـددت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

ذكر ملك نور الدين محمود دمشق

كان الفرنج قد تغلبوا بتلك النـاحية بعد ملكهم عسقلان ، حتى أنهم استعرضـوا كل جـارية ومملوك بـدمشق من النصـارى، وأطلقوا قهـراً من أراد منهم الخروج من دمشق واللحوق بوطنـه شاء صاحبه أم أبى، فخشي نـور الديـن محمـود بن زنكـي أن يملكـوا دمشق، فكـاتـب أهل دمشـق واستمالهم في البـاطن، ثـم سـار إليها وحصرهـا ففتـح لـه باب الشرقـي، فدّخـل وملك المدينـة، وحصر مجير الديـن أبق بـن محمد بـن بوري بـن طغتكين في القلعة وبـذل له اقطـاعاً من جملتـه مدينة حمص، فسلم مجير الديـن القلعة إلى نور الديـن وسار إلى حمص فلم يعطـه إياها نور الـدين وأعطاه عوضها بـالس، فلم يرضها مجير الديـن، وسا ر عنها إلى العراق ، وأقام ببغـداد وابتنى داراً بقـرب النظامية وسكنهـا حتى مـات بها . وفيها أخذ نور الدين قلعة تل باشر من الفرنج.

سنة إحدى وخمسين إلى ستين وخمسمائة

في سنة إحدى وخمسين ثارت أهل بلاد إفـريقية على من بها من الفرنج فقتلوهم، وسار عسكـر عبد المؤمن فملك بونه، وخرج جميـع أهل إفريقية

عن طاعة الفرنج ما عدا المهدية وسوسة، وفيها قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وكان سليمان المذكور قد قدم بغداد وخطب له بالسلطنة في هذه السنة ، وخلع عليه الخليفة ، وقلده السلطنة على عادتهم، وخرج من بغداد بعسكر الخليفة ليملك به بلاد الجبل، فاقتتل هو وابن عمه السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه، فانهزم سليمان شاه، وسار يريد بغداد على شهرزور، فخرج إليه كوجك بعسكر الموصل فأسره وحبسه بقلعة الموصل مكرماً إلى أن كان منه ما نذكره في سنة خمس وخمسين ، وفيها تاسع جمادى الآخرة توفي خوارزم شاه أطسز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد أصابه فالج فاستعمل أدوية شديدة الحرارة، فاشتد مرضه وتوفي، وكانت ولادته في رجب سنة تسعين وأربع مائة ، وكان حسن السيرة، وملك بعده ابنه أرسلان.

وفيها توفي الملك مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم، ولما توفي ملك بعده ابنه قلج أرسلان.

وفيها في رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وسار إلى قلعة ترمذ ثم إلى جيحون، ووصل إلى دار ملكه مرو، وكانت مدة أسره من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين.

وفيها بايع عبد المؤمن لولده محمد بولاية العهد، وكانت ولاية العهد بعده لأبي حفص عمر، وكان من أصحاب ابن تومرت من أكبر الموحدين،فأجاب إلى خلع نفسه والبيعة لابن عبد المؤمن، وفيها استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد، فاستعمل ابنه عبد الله على بجاية وأعمالها،

وابنه عمر على تلمسان وأعمالها، وابنـه علياً على فـاس وأعمالها، وابنه أبـا سعيد على سبته والجزيرة الخضراء وما لقه وكذلك غيرهم.

وفيهـا سـار الملك محمد بـن سلطـان محمـد السلجوقـي مـن همذان بعسـاكره إلى بغـداد وحصرها، وجـرى بينهم قتـال، وحصن الخليفـة دار الخلافة واعتد للحصـار ، واشتد الأمر على أهل بغداد وبينـا الملك محمد على ذلك إذ وصـل إليه الخبر أن أخاه ملـك شاه وألـدكز صاحـب بلاد أران، ومعه الملـك أرسلان بن طغـريل بن السلطـان محمد، وكان ألـدكز مزوجـاً بأم أرسلان المذكور، قـد دخلوا إلى همذان، فسار الملك محمـد من بغـداد إليهم في الـرابـع والعشريـن من ربيـع الأول.سنـة اثنتين وخمسين وخمسمائة

وفيها احترقـت بغداد فاحترق درب قراسـا، ودرب اللبان وخزانـه ابن جرد، والظفـرية والخاتونيـة، ودار الخلافة وباب الأزج، وسـوق السلطان، وغير ذلك .

وفيها قتل مظفر بن حماد صاحب البطيحة في الحمام، وتولى بعده ابنه.

ـ ١٠٦٥٥ ـ

وفي سنة اثنتين وخمسين

في رجب كـان بالشام زلازل قـوية، فخربـت بها حماه، وشيزر، وحمص، وحصن الأكراد، وطرابلس، وأنطاكيـة وغيرها من البلاد المجاورة لها حتى وقعت الأسوار والقـلاع فقام نور الديـن بن زنكي في ذلك القيـام الرضي مـن تداركهـا بالعمارة وإغـارته على الفـرنـج ليشغلهم عـن قصد البـلاد وهلك تحت الردم مـالا يحصى، ويحكى أن معلم كتاب كـان بمدينة حماه فارق المكتـب، وجاءت الـزلزلـة فسقط المكتـب على الصبيان كلهـم فلم يحضر أحد يسأل عن صبي هناك لهلاكهم، ولما خربت شيزر بهذه الزلزلة وسقط سورها فبـادر إليها بعض أمراء نور الدين محمـود بن زنكي، وكان بالقـرب منها ، فصعد إليهـا، وتسلمها وتملكها، وعمـر أسوارها، وكـانت شيزر لبنـي منقذ الكنانيين يتـوارثونها من أيام صـالح بن مـرداس، هكذا ذكر ابن الأثير في الكـامل أن بني منقذ المذكـورين ملكوا شيزر مـن أيام صالح بـن مرداس[٢]وكان ملـك صالح بـن مرداس حلب في سنـة أربع عشرة وأربع مائة وانقضـى ملكه سنة عشرين وأربع مـائة وقد ذكر (غير) ابـن الاثير مثل القـاضي شمس الـديـن ابن خلكـان، والقاضي شهـاب الديـن ابن أبي الـدم الحموي وغيرهما ما يخالـف ذلك، ونحـن نذكـر ما قـالوه مختصراً، ثـم نرجـع إلى ما ذكـره ابـن الأثير قالـوا: وفي سنة أربـع وتسعين وأربعمائة استولى بنـو منقذ على شيزر وأخـذوها من الـروم، قال ابن أبي الدم :وكـان فتحها منهم علي بن مقلد بن نصر بـن منقذ ، قال: ورد كتابه إلى بغـداد لشرح قصته ، فمنه بعد البسملة :« كتابي من حضره شيزر، حماها الله تعـالى، وقد رزقني الله عز وجل مـن الاستيلاء على هذا المعقل العظيـم مالم يتـأت لمخلوق في هـذا الزمـان وإذا عرف الأمـر على حقيقتـه علم أني هـاروت هذه الأمـة ، وسليمان الجن والمردة وأنني أفـرق بين المرء وزوجته واستنزل القمر من محله، أنـا أبو النجم والشعرى شعري نظـرت إلى هذا الحصـن فرأيـت أمراً يـذهـل الألباب يسـع ثلاثـة آلاف بالأهـل والمال ويمسكه خمس نسـوة، فعمدت إلى تـل بينه وبين حصـن

الروم يعرف بالخراص، ويسمى هذا التل تل الجسر فعمرته حصناً، وجمعت فيه أهلي وعشيرتي، وقفزت قفزة على حصن الخراص فأخذته بالسيف من الروم، ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت إليهم وأكرمتهم ومزجتهم بأهلي وعشيرتي، وخلطت خنازيرهم بغنمي ونواقيسهم بصوت الأذان ، فرأى أهل شيزر فعلي ذلك وأنسوا بي، ووصل إليهم مني الأكرام والاتحاف، فوصل إليّ منهم نصفهم، فبالغت في إكرامهم، ووصل إلي مسلم بن قريش فقتل منهم من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً فلما انصرف عنهم مسلم سلموا الحصن إليّ» هذا خلاصة ما ذكره القاضي شهاب الدين المذكور، وبين ما ذكره وما ذكره ابن الأثير من التفاوت أكثر من خمسين سنة.

قال الملك عماد الدين[٣] :والذي يخطر لي أن ما ذكره ابن الأثير أولى، لأن حماة وشيزر فتحتا مع الشام على يد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، واستمر الشام للمسلمين إلى حدود سنة تسعين وأربع مائة، فسار الفرنج إلى الشام وملكوا أعاليه بسبب اشتغال ملوك المسلمين بقتال بعضهم بعضاً، ولم يذكر ملكهم لشيزر.

قال ابن الأثير: فلما انتهى ملك شيزر إلى نصر بن علي بن منقذ استمر فيها إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فلما حضره الموت استخلف أخاه مرشد بن علي على حصن شيزر، فقال مرشد: والله لا وليته ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، ومرشد هو والد مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ، فلما امتنع مرشد من الولاية ولاها نصر أخاه الصغير سلطان الدولة بن علي، واستمر مرشد مع أخيه سلطان على أجمل صحبة مدة من الزمان وكان لمرشد عدة أولاد نجباء، ولم يكن لسلطان ولد، ثم جاء لسلطان أولاد، فخشي عليهم من أولاد أخيه مرشد ،وسعى المفسدون بين مرشد وسلطان، فتغير كل منهما على صاحبه فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبياتاً يعاتبه، وكان مرشد عالماً بالأدب والشعر،

فأجابه مرشد بقصيدة طويلة منها:

شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها
فيا عجباً من ظالم جاء شاكياً
وطاوعت الواشين فيّ وطالما
عصيت عذولاً في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال إلى القلى
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه والمعانيا
وكنت قد هجرت الشعر حيناً لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا
وقلت أخي يرعى بنيّ وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارماً كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك مني جفوة وتنائيا
على أنني ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي الشؤون ودادياً

وكان الأمر بين مرشد وأخيه سلطان فيه تماسك إلى أن توفي مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة، فأظهر سلطان التغير على أولاد أخيه وجاهرهم بالعداوة ففارقوا شيزر، وقصد أكثرهم نور الدين محمود بن زنكي، وشكوا إليه من عمهم سلطان، فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده لانشغاله بجهاد الفرنج، وبقي سلطان كذلك إلى أن توفي وولي بعده أولاده، فلما خربت القلعة هذه السنة بالزلزلة لم ينج من بني منقذ الذين كانوا بها أحد، كان صاحبها قد ختن ولده وعمل دعوة للناس، وأحضر جميع بني منقذ في داره، وجاءت الزلزلة فسقطت القلعة والدار عليهم

فهلكوا عن آخرهم، وكان لصاحب شيزر بن منقذ حصان يحبه، ولايزال على باب داره، فلما سقطت الدار سلم من بني منقذ واحد وهرب يطلب باب الدار فلما خرج رفسه الحصان المذكور فقتله ، وتسلم نور الدين القلعة والمدينة.

وفي هذه السنة توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميخائيل بن سلجوق وأصابه قولنج، ثم اسهال فمات منه، ومولده بسنجار في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة استوطن مدينة مرو في خراسان، وقدم بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع بالخليفة المستظهر ، فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان ، واستقام أمره وأطاعته السلاطين، وخطب له على منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وكان قبلها يخاطب بالملك نحو عشرين سنة، ولم يزل أمره عاليا إلى أن أسره الغز، ولما خلص من أسرهم وكاد أن يعود إليه ملكه أدركه أجله، وكان مهيباً كريماً، وكانت البلاد في زمانه آمنة، ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته، ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن أخت سنجر، فأقام خائفاً من الغز.

وفيها استولى أبو سعيد بن عبد المؤمن على غرناطة من الاندلس وأخذها من الملثمين، وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم غير جزيرة ميورقة، ثم سار أبو سعيد في جزيرة الأندلس وفتح المرية، وكانت بأيدي الفرنج مدة عشر سنين.

وفيها أخذ نور الدين بعلبك من انسان كان استولى عليها يقال له الضحاك البقاعي، وكان قد ولاه صاحب دمشق عليها، فلما ملك نور الدين دمشق استولى الضحاك على بعلبك.

وفيها قلع الخليفة المقتفي باب الكعبة وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة والذهب ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً فدفن فيه.

وفي سنة ثلاث وخمسين

قصد السلطان ملكشاه بن محمود السلجوقي قم وقاشان ونهبها وكان أخوه السلطان محمد بن محمود بعد رحيله عن حصار بغداد قد مرض، وطال مرضه، فأرسل إلى أخيه محمد أن يكف عن النهب ويجعله ولي عهده، فلم يقبل ملكشاه ذلك، ثم سار ملكشاه إلى خوزستان فأخذها من صاحبها شملة التركماني.

وفي أواخر سنة أربع وخمسين

نزل عبد المؤمن على مدينة المهدية، وأخذها من الفرنج يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين، وملك جميع إفريقية، وكان قد ملك الأفرنج إفريقية في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وأخذوها من صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي، وبقيت في أيديهم إلى هذه السنة ففتحها عبد المؤمن ، فكان ملك الفرنج للمهدية اثني عشرة سنة تقريباً، ولما ملكها عبد المؤمن أصلح أحوالها، واستعمل عليها بعض أصحابه، وكان قد سار إلى بني حماد ملوك بجاية، ثم اتصل بعبد المؤمن حسبما تقدم، فأقام عنده مكرماً إلى هذه السنة ، فأعاده عبد المؤمن إلى المهدية وأعطاه بها دوراً نفيسة واقطاعاً، ثم رحل عبد المؤمن عنها إلى المغرب.

وفيها توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في ذي الحجة ، وهو الذي حاصر بغداد، ولما عاد عنها لحقه سل وطال به فمات بباب همذان، وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وكان كريماً عاقلاً خلف ولداً صغيراً، ولما حضره الموت سلم ولده إلى آق سنقر الأحمديلي، وقال أنا أعلم أن العساكر لاتطيعه لأنه

طفل، فهو وديعة عندك فأرحل بـه إلى بلادك فرحل.بـه آق سنقر إلى بلد مراغة، ولما مـات السلطان محمد اختلفت الأمراء فطائفـة طلبت ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبوا سليمان شاه بن محمـد بن ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان الـذي كان اعتقـل في الموصل، وهـم الأكثر ، ومنهـم من طلـب أرسلان بن طغريل الذي مع ألدكز، وبعد موت محمد سار أخوه ملكشاه إلى أصفهان وملكها.

وفيها مـرض نور الدين محمـود بن زنكي مرضـاً شديداً وأرجف بمـوته بقلعة حلـب فجمع أخوه أمير ميران بن زنكي جمعاً، وحصر قلعة حلب، وكان شيركوه بحمـص، وهو من أكبر أمراء نور الديـن ، فسار إلى دمشق ليستولي عليهـا، وبها أخوه نجم الـدين أيوب، فـأنكر عليه أيـوب ذلك، وقـال أهلكتنا ، المصلحـة أن تعود إلى حلـب فإن كـان نور الـدين حيـاً خدمتـه في هذا الـوقت ، وإن كـان ميتاً فـأنا في دمشـق أكفيكها، فعـاد شيركوه إلى حلب مجداً، وجلس نور الـدين في شباك يراه الناس، فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير ميران، واستقامت الأحوال .

وفيها استقر في ملك اليمن علي بـن مهدي وأزال ملك بني نجاح على ما قدمنا ذكره في سنة اثنتـي عشرة وأربعمائة، وعلي بن مهدي المذكور من حمير من قريـة يقال لها العنبرة من سواحـل زبيد، كان أبوه مهـدي رجلاً صالحاً ونشأ ابنـه على طريقة أبيه في العـزلة والتمسك بالصـلاح، ثم حج واجتمع بالعـراقيين، وتضلع من معارفهـم، ثم صار واعظاً وكـان فصيحاً صبيحـاً، حسـن الصـوت، عـالماً بالتفسير، غـزيـر المحفـوظـات، وكـان يتحـدث في شيء من أحـوال المستقبـلات فيصدق،فمالت إليـه القلـوب واستفحل أمره ، وصـار له جموع ، فقصد الجبال وأقـام بها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ثم عاد إلى أملاكه، وكـان يقول في وعظه:أيها الناس دنا الوقـت ،أزف الأمر كـأنكم بما أقول لكـم قد رأيتموه عيـاناً، ثـم عاد إلى الجبـال إلى حصن يقـال لـه الشرف وهـو لبطن مـن خـولان، فـاطاعـوه

وساهم الأنصار وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وأقام على خولان رجلاً اسمه سبأ وعلى المهاجرين رجلاً اسمه النويتي، وسمى كلا الرجلين شيخ الإسلام وجعلهما نقيبين على الطائفتين ، فلا يخاطبه أحد غيرهما وهما يوصلان كلامه إلى الطائفتين وحوائجهما إليه، وأخذ يغادي الغارات ويراوحها على التهائم حتى أجلى البوادي، وقطع الحرث والقوافل، ثم إنه حاصر زبيد، واستمر مقيماً عليها حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بني نجاح قتله عبيدة، وجرى بين ابن مهدي وعبيد فاتك حروب شديدة وآخر ها أن ابن مهدي انتصر عليهم، وملك زبيد، واستقر في دار الملك يوم الجمعة رابع عشر رجب،اعني سنة أربع وخمسين،وبقي ابن مهدي في الملك شهرين وإحدى وعشرين يوماً، ومات علي بن مهدي في السنة التي ملك فيها، فملك اليمن بعده ولده مهدي ، ثم عبد النبي بن مهدي بن علي بن مهدي ، وخرجت المملكة من عبد النبي إلى أخيه عبد الله ثم عادت إلى عبد النبي واستقر فيها حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر في سنة تسع وستين وخمسمائة، وفتح اليمن واستقر في ملكه، وأسر عبد النبي، وهو آخر ملوك اليمن من آل مهدي، وكان مذهب علي بن مهدي التكفير بالمعاصي، وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة ، واستباحة وطىء سباياهم واسترقاق ذراريهم، وكان حنفي الفروع، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقده الناس في الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن مذهبه قتل من سرق ومن سمع الغناء(٤).

وفي سنة خمس وخمسين

سار سليمان شاه إلى همذان وما كان منه إلى أن مات ، وسببه أنه لما مات محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي أرسلت الأمراء وطلبت عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه ليولوه السلطنة، وكان قد اعتقل في الموصل مكرماً، فجهزه قطب الدين مودود بن زنكي صاحب

الموصل بشيء كثير، وجهاز يليق بالسلطنة وسار معه زين الدين علي كوجك بعسكر الموصل إلى همذان، وأقبلت العساكر إليه كل يوم تلقاه طائفة وأمير، ثم تسلطت العساكر عليه ، ولم يبق له حكم، وكان سليمان شاه فيه تهور، وكان يدمن شرب الخمر، حتى شرب في رمضان نهاراً، وكان يجمع عنده المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء، فأهمل العسكر بابه، وكانوا لايحضرون بابه، وكان قد رد جميع الأمور إلى شرف الدين كرديان الخادم، وهو من مشايخ خدام السلاجقة يرجع إلى دين وحسن تدبير، فاتفق أن سليمان قعد يشرب بالجبل ظاهر همذان فحضر إليه مشايخ خدام السلاجقة فسلط عليهم المساخر فعبثوا بهم، فحضر إليه كرديان ولامه فأمر المساخر فعبثوا بكرديان أيضاً، حتى أن بعضهم كشفوا له سوءته، فاتفق كرديان مع الأمراء على قبضه، وعمل كرديان دعوة عظيمة فلما حضرها سليمان شاه قبض عليه كرديان وحبسه، وبقي في الحبس مدة ثم أرسل إليه كرديان من خنقه، وقيل سقاه سماً فمات في ربيع الآخر سنة ست وخمسين ، ولما مات سار ألدكز بعشرين ألفاً ومعه أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان ، ووصل إلى همذان فلقيه كرديان وأنزله بدار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالمملكة وكان الدكز متزوجاً لأم أرسلان شاه، فولدت لألدكز أولاداً منهم البهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان ابنا الدكز، وبقي ألدكز أتابك أرسلان وابنه البلهوان أخو أرسلان لأمه حاجبه، وكان ألدكز أحد مماليك السلطان مسعود اشتراه في أول أمره ثم أقطعه أران وبعض بلاد أذربيجان، فعظم شأنه ، وقوي أمره، ولما خطب لأرسلان شاه بالسلطنة في تلك البلاد أرسل ألدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه بالسلطنة على عادة الملوك السلجوقية، فلم يجب إلى ذلك ، وقد قدمنا موت سليمان وولاية أرسلان لتتصل الحادثة.

وفيها توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر اسماعيل خليفة مصر، وكانت خلافته ست سنين وشهرين، وكان عمره لما ولي

خمس سنين ولما ولي دخل الصالح ابن رزيك القصر، وسأل عمن يصلح فأحضر منهم إنسان كبير السن، فقال بعض أصحاب الصالح: لايكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأحضر العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقاً فبايع له بالخلافة، وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا سمع بمثله.

وفيها في ربيع الآخر توفي الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن المستظهر أبي العباس أحمد بعلة التراقي.

خلافة المستنجد بالله بن المقتفي ثاني ثلاثين خلفاء بني العباس رضي الله تعالى عنهم

وبويع له لما توفي أبوه المقتفي، وبايعه أهله وأقاربه فمنهم عمه أبو طالب ، ثم أخوه أبو جعفر ، وأمه أم ولد تدعى طاووس، ثم بايع الوزير ابن هبيرة وغيرهم.

وفيها في رجب توفي السلطان خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنه ، وكان عادلاً حسن السيرة وكانت ولايته في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ولما مات ملك ابنه ملكشاه وقيل إن خسرو شاه مات في حبس غياث االدين الغوري ، وأنه آخر ملوك آل سبكتكين حسبما تقدم في سنة سبع وأربعين. وفيها توفي السلطان ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسموماً.

وفيها حج أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدم جيش نور الدين محمود بن زنكي.

وفي سنة ست وخمسين

في ربيع الآخر توفي الملك علاء الـدين الحسن بن الحسين الغوري ملك الغور، وكان عادلاً حسن السيرة ، ولما مات ملـك بعده ابن أخيه غياث الدين محمد ، وقد قدمنا ذلك في سنة سبع وأربعين.

وفيها تقدم المؤيد آي آبه السنجري بامساك أعيان نيسابور لأنهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين وأخذ المؤيد بقتـل المفسدين فخربت نيسابور وكان من جملة ما خرب مسجد عقيـل، وكان مجمعاً لأهل العلم ، وكان فيـه خـزائن الكتب الموقـوفـة، وخـرب مـن مدارس الحنفيـة سبـع عشرة مدرسة، وأحرق ونهب عدة من خزائن الكتب وأما الشاذياخ(٥) فإن عبد اللـه بن طـاهـر بن الحسين بنـاهـا لما كان أميراً للمـأمـون على خراسـان وسكنهـا هو والجنـد، ثم خـربت بعـد ذلـك، ثم جـددت في أيام ألـب أرسلان السلجوقي ثم تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ، أمر المؤيد آي آبه بإصلاح سور الشـاذياخ وسكنها هو والناس ، فخربت نيسابور كل الخراب، ولم يبق بها أحد.

وفي هذه السنة في رمضان قتل الملك الصـالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد العلوي، جهـزت عليه عمة العاضد من قتله بالسكاكين، وهو داخل في دهليز القصر، فحمـل إلى بيته وبه رمق فأرسل يعتب العـاضد، فأرسـل العاضد يحلـف له أنه مـا علم بذلـك، وأمسك العاضـد عمته فـأرسلها إلى طلائع فقتلهـا، وسأل العـاضد أن يـولي ابنه رزيك الوزارة، ولقـب العادل، ومات طلائع فاستقر ولـده العادل رزيك في الوزارة.

وفيها ملك عيسى مكة شرفها الله تعالى، وكان أمير مكة قاسم بن أبي فليتـه بن قـاسم بـن أبي هـاشم العلـوي، فلما وصل أمير الحاج إلى مكـة

رتب عوض قاسم عمه عيسى بن قاسم بن أبي هاشم فبقي كذلك إلى شهر رمضان، ثم إن قاسم بن أبي فليته جمع العرب وقصد عمه عيسى، فلما قارب مكة رحل عنها عيسى وعاد قاسم إلى ملكها، ولم يكن معه ما يرضي به العرب، فكاتبوا عمه عيسى وصاروا معه، وقدم عيسى إليهم وهرب قاسم وصعد إلى جبل أبي قبيس، فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عمه عيسى وقتلوه، فغسله عيسى ودفنه بالمعلى عند أبيه أبي فليته، واستقرت مكة لعيسى.

وفيها عبر عبد المؤمن بن علي المجاز إلى الأندلس، وبنى على جبل طارق من الأندلس مدينة حصينة، وأقام بها ستة أشهر، وعاد إلى مراكش.

وفيها ملك قرا أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة سابان، وكانت لطائفة من الأكراد، ولما ملكها خربها وأضاف أعمالها إلى حصن طالب.

وفي سنة سبع وخمسين

نازل نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم وهي للفرنج مدة، ثم رحل عنها ولم يملكها.

وفيها سارت الكرج في جمع عظيم ودخلوا بلاد الإسلام، وملكوا مدينة دوين من أعمال أذربيجان ونهبوها، ثم جمع ألدكز صاحب أذربيجان جمعاً وغزا الكرج وانتصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها حج الناس فوقع فتنة وقتال بين صاحب مكة وأمير الحاج، فرحل الحجاج ولم يقدر بعضهم على الطواف بعد الوقوف، قال ابن الأثير: وكان ممن حج ولم يطف جدته أم أبيه، فوصلت إلى بلادها وهي على احرامها إلى قابل، فاستفتت الشيخ أبا القاسم بن البرزي، فأفتى أنها إذا ما دامت على إحرامها إلى قابل وطافت حمل حجها الأول ثم تفدي

وتحل ثم تحرم احراماً ثانياً وتقف بعرفات وتعمل مناسك الحج فيصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها إلى قابل وفعلت كما قال، فتم حجها الأول والثاني. وفيها مات الكيا الضياء الصنهاجي(٦) صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية، وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة.

وفي سنة ثمان وخمسين

في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي، وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك ، فولاه الصعيد وكانت الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ولده العادل أن لايغير على شاور شيئاً لعلمه بقوة شاور، فلما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل فطرد شاور وراءه وأمسكه وقتله وانقضت بمقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة ، وتلقب أمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن أبا الأشبال ضرغام جمع جمعاً، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان وقوي على شاور ، فانهزم شاور إلى الشام مستنجداً بنور الدين.

ولما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد، فضعفت الدولة لهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم.

وفيها في العشرين من جمادى الآخر توفي عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب ، وإفريقية، والأندلس، وكان قد سار من مراكش إلى سلا فمرض بها ومات ، ولما حضره الموت جمع جيوش الموحدين وقال لهم : قد جربت ابني محمداً فلم أجده يصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف فقدموه وبايعوه ودعي بأمير المؤمنين، فاستقرت قواعد ملكه ، وكانت مدة ولاية عبد المؤمن ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً، وكان حازماً

سديد الرأي حسن السياسة للأمور ، كثير سفك الدم على الذنب الصغير، وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس بالصلاة بحيث أنه من رُئي في وقت الصلاة غير مصل قتل، وجمع الناس في المغرب على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول.

وفيها ملك آي آبه السنجري قومس، ولما ملكها ارسل إليه السلطان أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه خلع وألوية وهدية جليلة، فلبس المؤيد الخلعة وخطب له في بلاده.

وفيها كبس الفرنج نور الدين محمود وهو نازل بعسكره في البقيعة تحت حصن الأكراد فلم يشعر نور الدين إلاّ وقد اطلت عليهم صلبان الفرنج، وقصدوا خيمة نور الدين فلسرعة ذلك ركب نور الدين فرساً وفي رجله الشبحة، فنزل كردي وقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي، فأحسن نور الدين إلى مخلفيه، ووقف عليهم الوقوف وسار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها ، وتلاحق به من سلم من المسلمين.

وفيها أمر المستنجد بإجلاء بني أسد وهم أهل الحلة الزيدية، فقتل منهم جماعة وهرب الباقون وتشتتوا في البلاد وذلك لفسادهم في البلاد وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى رجل يقال له ابن معروف.

وفي سنة تسع وخمسين

سير نور الدين محمود بن زنكي عسكراً مقدمهم أسد الدين شيركوه ابن شاذي إلى الديار المصرية ومعهم شاور، وكان قد سار من مصر هارباً من ضرغام الوزير، فلحق شاور بنور الدين واستنجده، وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة، فوصل شيركوه إلى مصر، وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاوراً إلى

وزارته، وكان مسير أسد الدين في جمادى الأولى هذه السنة، واستقر شاور في الوزارة ، وخرجت إليه الخلع في مستهل رجب من هذه السنة، ثم غدر شاور بنور الدين، ولم يف له بشيء مما شرط فسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية، فأرسل شاور يستنجد بالفرنج ليخرجوا أسد الدين شيركوه من البلاد ، فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر ، وبلغ الفرنج حركة نور الدين وأخذه حارم، فراسلوا شيركوه في الصلح،وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر، ووصلوا إلى الشام سالمين.

وفيها في شهر رمضان فتح نور الدين محمود قلعة حارم وأخذها من الفرنج بعد مصاف جرى بينه وبين الفرنج، فانتصر نور الدين ، وقتل وأسر من الفرنج عالماً كثيراً، وكان في جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمو ن شيئاً كثيراً.

وفيها في ذي الحجة سار نور الدين وفتح بانياس، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة إلى هذه السنة.

وفيها توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير قطب الدين مودود بن زنكي،صاحب الموصل في شعبان مقبوضا عليه، وكان قد قبض عليه قطب الدين في سنة ثمان وخمسين، وكان قد تعاهد جمال الدين المذكور وأسد الدين شيركوه أنه من مات منهما قبل الآخر ينقله الآخر إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيدفنه بها، فنقله شيركوه ، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره مع الوزراء.

وفي سنة ستين وخمسمائة

في ربيع الأول توفي بمازندران شاه رستم بن علي بن شهريار بن قارن، وملك بعده ابنه علاء الدين الحسن، وفيها ملك المؤيد آي آبه مدينة

هراة، وفيها كان بين قليج أرسلان بـن مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونيـة وما جاورهـا من بلاد الـروم وبين ياغي سيـان صاحب ملطيـة وما يجاورها حروب شديدة وانهزم فيها قليج أرسـلان فاتفق موت ياغي سيان صاحب ملطية في تلك المدة، وملك بعده ابـن أخيه ابراهيم بن محمد بن الدانشمند، واستولى ذي النو ن محمد بـن الدانشمند على قيسارية وملك شـاهنشاه بـن مسعـود أخـو قليج أرسـلان مـدينـة أنكوريـة، واصطلـح المذكورون على ذلك، واستقرت بينهم القواعد واتفقوا.

وفيها توفي الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة في جمادى الأولى.

سنة إحدى وستين إلى سبعين وخمسمائة

في سنة إحدى وستين

فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام، وكانت بيد الفرنج.

وفي سنة اثنتين

عاد أسـد الدين شيركوه إلى الـديار المصرية، جهـزه نور الدين بـألفي فـارس، فـوصـل إلى ديـار مصر واسـتولى على الجيـزة، وأرسـل شـاور إلى الفرنـج واستنجدهـم وجمعهم ، وساروا في إثـر شيركوه إلى جهـة الصعيد واجتمع عسكـر مصر والفرنـج، وحصروا الناصر صـلاح الديـن يوسـف بالاسكندرية مـدة ثلاثة شهور، فسار شيركوه إليهم والتقـوا بموضع يقال له البـابين، فانهزم الفـرنج والمصريـون، واستولى شيركـوه على بلاد الجيـزة واستغلهـا، ثم سـار إلى الاسكندريـة وملكها، ثـم جعل فيهـا ابن أخيـه صلاح الدين يوسف بن أيوب وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد.

واجتمع عسكـر مصر والفرنج ، وحصروا صلاح الـدين بالاسكنـدرية

مـدة ثلاثـة شهـور، فسار شيركـوه إليهم فـاتفقـوا على الصلح على مـال يحملـوه إلى شيركـوه ، ويسلـم إليهـم الاسكنـدريـة ، ويعـود إلى الشـام، وتسلـم المصريـون الاسكندريـة في منتصف شوال مـن هذه السنـة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل دمشق ثـامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الفـرنج والمصريين على أن يكـون للفرنـج في القاهـرة شحنة، وتكـون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

وفيها فتح نور الـدين صافيتا والعريمة، وفيها عصـى غازي بن حسان صاحـب منبج على نـور الديـن بمنبج ، فجهـز إليه نـور الديـن عسكراً أخذوا منه منبج، ثم أقطعها نور الدين لقطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكـور، فبقي فيهـا إلى أن أخذها منـه صلاح الديـن يوسـف بن أيوب سنة اثنتين وتسعين.

وفيهـا تـوفي فخر الـديـن قـرا أرسـلان بـن داود بن سقمان بـن أرتـق صاحب حصن كيفا، وملك بعده نور الدين محمد.

وفي سنة ثلاث وستين

فارق زيـن الديـن كوجك بـن بكتكين نائب قطب الـدين مـودود بن زنكي صـاحب الموصل خـدمة قطب الـدين واستقـر بإربل، وكـانت في أقطاعه، وكـانت له إربل مع غيرهـا فقنع بها وسكنها وسلم مـا كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وكان زين الدين قد عمي وطرش.

وفي سنة أربع وستين

ملك نـورالدين محمود قلعـة جعبر، وأخذها مـن شهاب الدين مـالك ابن علي بن مـالك بن سالم بن مـالك بن بدران العقيلي، وكانـت بأيديهم من أيـام السلطان ملكشاه، ولم يقـدر نور الـدين على أخذهـا إلا بعد أن

أسر صاحبها المذكور، بنو كلاب وأحضروه إلى نور الدين ، فاجتهد به على تسليمها، فلم يفعل ، فأرسل عسكراً تقدمهم فخر الدين مسعود ابن علي الزعفراني وردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر بن الداية، وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء ولم يزالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عوضها مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة.

وفيها في ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الفرنج من الديار المصرية، وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهراً في مستهل صفر هذه السنة، وقتلوا كل من فيها، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها، وأحرق شاور مدينة مصر خوفاً من أن يملكها الفرنج، وأمر أهلها ونقلهم إلى القاهرة فبقيت النار تعمل أربع وخمسين يوماً، فارسل العاضد الخليفة إلى نور الدين يستغيث به، وأرسل في الكتب شعور النساء وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال، فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال،وأعطى شيركوه مائتي ألف دينار سوى الخيل والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب الملك من بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيراً لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم(٧)) ولما قرب شيركوه من مصر رحل الفرنج على أعقابهم إلى بلادهم، وكان هذا لمصر فتحاً جديداً، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامات الوافرة ، وشرع شاور يماطل شيركوه فيما بذله لنور الدين من تقرير المال و إفراد ثلث البلاد له ، ومع ذلك

شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً (٨))ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك ، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على قتله، واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته، فلم يجده في المخيم ، وكان قد مضى لزيارة قبر الامام الشافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الدين وجرديك شاوراً واعلماه برواح شيركوه إلى الزيارة، فساروا جميعا إلى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور ورموه عن فرسه إلى الأرض وأمسكوه في سابع ربيع الآخر هذه السنة ، فهرب أصحابه عنه وأرسلوا أعلموا شيركوه بها فعلوه فحضر ولم يمكنه تخليصه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور فقتله، وأنفذ رأسه إلى العاضد، ودخل عند ذلك شيركوه إلى قصر العاضد فخلع عليه للوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر ، وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلي، وكتب له بعد البسملة: « من عبد الله ووليه الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة مجير الأمة أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين وامتع بطوله أمير المؤمنين وأدام قدرته وإعلاء كلمته سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ونسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليماً». ثم ذكر تفويض الخلافة إليه ووصايا ، وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك ببنوة النبوة». ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد

الكاتب قصيدة أولها:

بــالجد أدركــت مــا أدركــت لا اللعــب
كــم راحــة جنيــت مــن دوحــة التعــب
يــا شيركــوه بــن شــاذي الملــك دعــوة مــن
نــادى فعــرّف خير ابــن بخير أب
جــرى الملــوك ومــا حــازوا بــركضهــم
مــن المدى في العــلى مــا حــزت بــالخبــب
تمل مــن ملــك مصر رتبــة قصرت
عنهــا الملــوك فطــالــت ســائر الــرتــب
قــد أمكنــت أســد الــديــن الفــريســة مــن
فتــح البــلاد فبــادر نحــوهــا وثــب

وفي شيركوه وقتل شيركوه يقول عرقلة الدمشقي:

لقــد فــاز بــالملــك العقيــم خليفــة
لــه شيركــوه العــاضــدي وزيــر
هــو الأســد الضــاري الــذي جــل خطبــه
وشــاور كلــب للــرجــال عقــور
بغــى وطغــى حتــى لقــد قــال صحبــه
على مثلهــا كــان اللعين يــدور
فــلا رحــم الــرحمن تــربــة قبره
ولا زال عنهــا منكــر ونكير (٩)

وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر، وكان آخر العهد به، ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة(١٠)) فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، وكان شيركوه وأيوب ابني شاذي من بلدوين.

قال ابن الأثير: وأصلهما من الأكراد الروادية فقصدا العراق وخدما

بهروز شحنة السلجوقية ببغداد، وكان أيوب أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً قلعة تكريت، ولما انكسر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ، ثم إن شيركوه قتل إنساناً بتكريت فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكي، فأحسن إليهما وأعطاهما اقطاعات جليلة ، ولما ملك عماد الدين قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً عليها، فلما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكي سلمها أيوب إليهم على إقطاع كبير، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد قتل أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة، لما رأى من شجاعته وزاده عليهما، وجعله مقدم عسكره، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب فساعد نور الدين على فتح دمشق وبقيا معه إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرناه، ولما توفي شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب، وكان قد سار معه على كره، قال صلاح الدين: أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه، وكان قد قال شيركوه بحضرته لي: تجهز يايوسف للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا أنساه أبداً، فقال لنور الدين: لابد من مسيره معي، فأمرني نور الدين وأنا أستقيل، فقال نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به كأنما أساق إلى الموت.

ولما مات شيركوه طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر، وولايةالوزارة العاضدية منهم عين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأرسل العاضد طلب صلاح الدين وولاه الوزارة ، ولقبه الملك الناصر ، فلم يطعه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري،فسعى مع المشطوب حتى أماله

إلى صلاح الدين ثم قصد الحارمي، وقال: هذا ابن أختك وعزه وملكه لك، فمال إليه أيضاً، ثم فعل بالباقين كذلك، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف ، وعاد إلى نور الدين بالشام، وثبتت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً أن يكتب اسمه، وكان لايفرده بكتاب بل الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم نور الدين إليه، فأعطاهم الإقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد ودام على ذلك إلى أن توفاه الله عز وجل.

قال ابن الأثير في الكامل: رأيت أكثر ما يقع ممن ابتدى الملك تنتقل الدولة منه إلى غير عقبه، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك إلى بني أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد بالملك منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك إلى عقب أخيه اسماعيل ، ثم عماد الدولة ابن بويه ملك فانتقل الملك إلى بني أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغرلبك السلجوقي فانتقل الملك إلى بني أخيه جغري، ثم شيركوه ملك، فانتقل الملك إلى ابن أخيه صلاح الدين ، ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى بني العادل أبي بكر ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولاً، وأخذه الملك وعيون أصحابه فيه، فيحرم على عقبه ذلك.

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وهو مقدم السودان، فاجتمعت السودان وهم حفاظ القصر في عدد كبير، وجرى

بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين ، فانهزم السودان ، وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلاً وتهجيجاً، وحكم صلاح الدين على القصر ، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي وكان خصياً أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين

وفيها كان بين اينانج السنجري صاحب الري وبين ألدكز حرب انتصر فيها ألدكز، وملك الري وهرب اينانج وانحصر في بعض القلاع، فبعث ألدكز ورغب غلمان اينانج في الإقطاعات إن قتلوا اينانج فقتلوه، ولحقوا بألدكز، فقال: مثل هؤلاء لاينبغي الا بقاء عليهم فهربوا إلى البلاد ولحقوا بخوارزم شاه، فصلب الذي تولى منهم قتل اينانج الحاجب استاذه، وفيها توفي ياروق أرسلان التركماني، وكان مقدماً كبيراً وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان ، وكان عظيم الخلقة، سكن بظاهر حلب، وبنى على شاطىء قويق هو واتباعه عمائر كثيرة ، وتعرف الآن بالياروقية مشهورة هناك.

وفي سنة خمس وستين

سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر، وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة، فحصروها خمسين يوماً، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام ، فرحلوا عائدين على أعقابهم، ولم يظفروا بشيء منها، قال صلاح الدين : مارأيت أكرم من العاضد أرسل إلي مده مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية ، سوى الدواب وغيرها.

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مدة، ثم رحل عنه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين في عمارة

الأسوار، وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الفرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم بعمارة ما يليه من بلاده عن قصد بلاد غيره.

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي إلى أخيه الذي هو أصغر منه سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصراً به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، وكان من أحسن الملوك سيرة.

وفيها توفي الملك طغر لبك بن قاورت بيك صاحب كرمان، واختلف أولاده: بهرام شاه، وأرسلان شاه وهو الأكبر، واستنجد كل منهما وطلب الملك، فاتفق موت أرسلان شاه في تلك المدة، فاستقر بهرام شاه في ملك كرمان.

وفيها توفي مجد الدين أبو بكر ابن الداية رضيع نور الدين، وكانت حلب وحارم وقلعة جعبر اقطاعه فأقر نور الدين أخاه علياً على إقطاعه.

وفي سنة ست وستين

في تاسع ربيع الآخر توفي الخليفة المستنجد أبو المظفر يوسف بن المقتفي، وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه وكان قد خاف منه استاذ داره عضد الدين أبو الفرج بن ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قيماز الصفوي، وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد، فاتفقا ووضعا للطبيب على أن يصف له ما يهلكه ، فوصف له دخول الحمام فامتنع منه لضعفه، ثم إنه دخلها وغلق عليه الباب فمات، فلما مات أحضر عضد الدين وقطب الدين:

المستضيء بالله أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله ثالث ثلاثين خلفاء بني العباس رحمهم الله

وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين استاذ دار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، ولم يل الخلافة من اسمه الحسن غيره وغير الحسن بن علي رضي الله عنهما ،وبايعوا المستضيء بالله بالخلافة يوم موت أبيه بيعة خاصة، وفي غده بيعة عامة.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى الموصل، وهي بيد ابن أخيه غازي بن مودود، فاستولى عليها نور الدين وملكها، فلما ملكها اطلق المكوس منها، وقرر أمورها، ثم وهبها لابن أخيه غازي المذكور، وأعطى سنجار لعماد الدين زنكي بن مودود وهو أكبر من أخيه سيف الدين غازي فقال كمال الدين الشهرزوري :هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي، لأن عماد الدين كبير لايرى طاعة أخيه غازي وهو صغير، وسيف الدين غازي هو الملك لايرى الأغضاء، فيحصل الخلف، ويطمع الأعداء.

وفيها سار صلاح الدين عن مصر فغزا الفرنج قرب عسقلان والرملة وعاد إلى مصر، ثم رجع إلى أيله وحصرها وهي للفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها براً وبحراً وفتحها في العشر الأول من ربيع الأول ، واستباح أهلها وما فيها ، وعاد إلى مصر، ولما استقر بمصر كان بها دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وكذلك بنى دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين وكانوا سبعة، ورتب قضاة شافعية وذلك في العشرين من جمادى الآخرة ، وكذلك اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العز، وبناها مدرسة للشافعية.

وفي سنة سبع وستين

ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أنه لما تمكن صلاح الدين من مصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي، وكان خصياً أبيض.
وبلغ نور الدين ذلك فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة العلوية، وإقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك، وأصر عليه ، وكان العاضد قد مرض، فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء ويقطعوا خطبة العاضد، فامتثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، فتوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكانت كثرته تخرج عن الإحصاء ، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف فمن ذلك الجبل الياقوت ، وكان وزنه سبع عشرة درهماً.

قال ابن الأثير في الكامل: أنا رأيته ووزنته، ومما حكي أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضرب به الإنسان ضرط، فكسر ولم يعلموا به إلا بعد ذلك، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من عبد وأمه فباع البعض وعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالأمس، ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه وندم على تخلفه عنه، وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد في هذه السنة. سنة سبع وستين وخمسمائة :

مـائتان واثنتـان وسبعـون سنـة تقريبـاً، وهـذا دأب الـدنيا لم تعـط إلا واستردت ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكـدرت ، بـل صفـوهـا لايخلـو مـن الكـدر، ولما وصـل خبر الخطبـة العبـاسيـة بمصر إلى بغـداد ضربت البشـائر ستة أيـام، وسيرت الخلع مع عماد الـدين صنـدل، وهو مـن خـواص الخدم المعتقون إلى نـور الـديـن وصـلاح الديـن والخطبـاء، وسيرت الأعلام السـود، وكان العاضـد قد رأى منامـاً أن عقرباً خـرجت مـن مسجد بمصر معـروف ذلـك المسجـد للعاضـد ولـرعيتـه فاستيقـظ العاضـد مرعوباً واستـدعى بمن يعبر الرؤيـا وقصه عليه فعبر له بـوصول أذى إليـه مـن شخص بـذلـك المسجـد، فتقدم العـاضـد إلى والي مصر باحضـار أهل ذلـك المسجد فأحضر إليـه شخصاً صوفيـاً يقال لـه نجم الديـن الخبوشاني فـاستخبره العاضد عـن مقدمه ، وسبـب مقامه بـذلك المسجد، فأخبره بـالصحيح في ذلك ، ورآه العاضد أضعف مـن أن يناله بمكروه فـأمر لـه بمال وقال ادع لنا يـاشيخ ، وأمـره بالإنصراف، فلما أراد السلطان صلاح الـدين إزالة الدولـة العلوية استفتى الفقهـاء وكان نجم الـدين الخبـوشاني المذكـور من جملتهـم فبـالغ في الفتيـا، وصرح بتعديـد مسـاوئهم، وسلـب عنهـم الإيمان، وأطال الكـلام في ذلـك، فصحت بـه رؤيا العاضد.

وفيهـا وقع بين نـور الـدين وصـلاح الـدين وحشـة في البـاطن ، فـإن صلاح الـدين سار ونازل الشـوبك، وهي للفرنـج ثم رحل عنه خـوفاً أن يأخـذه، فلم يبـق ما يعوق نـور الدين عـن قصد مصر، فتركـه ولم يفتحه لذلك، وبلـغ نور الدين ذلك فكتمـه وتوحش خاطره لـذلك، ولما استقر صلاح الديـن بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نـور الدين يقصدنا، فما الرأي؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده وكان ذلك بحضرة أبيهـم نجم الـدين أيـوب، فأنكـر على تقي الـدين ذلـك،

وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين لنزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل أكتب وقل لنور الدين: لو جاءني إنسان واحد من عندك، وربط المنديل في عنقي وجرني إليك سارعت إليك، وانفضوا على ذلك، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة، وقال: لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله، ولكن إذا أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه، ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك، فإن جميع عسكرنا انما هم أمراء نورالدين وغلمانه ، وإن أظهرنا الطاعة تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من عند الله تعالى، فكان كما قال.

وفيها توفي الأمير محمد بن مردنيش صاحب شرقي بلاد الأندلس، وهي : مرسيه وبلنسية وغيرهما،فقصد اولاده أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب، وسلموا إليه بلادهم، فسر بذلك يوسف وتسلمها منهم، وتزوج أختهم وأكرمهم ووصلهم بالأموال الجزيلة، وكان قد قصدهم يوسف المذكور في مائة ألف مقاتل فأجابوا بدون قتال كما ذكرنا.

وفيها عبر الخطا نهر جيحون، فجمع خوارزم شاه أرسلان بن أطسز ابن محمد بن أنوشتكين عساكره وسار إلى لقائهم، فمرض ورجع مريضاً، وأرسل عسكراً مع بعض المقدمين فقاتلوا الخطا، فانهزم عسكر خوارزم شاه وأسر مقدمهم، ورجع الخطا إلى بلادهم بعد ذلك.

وفيها اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي، وتسمى المناسيب، لنقل البطائق والأخبار، وفيها عزل المستضيء وزيره عضد الدين ابن رئيس الرؤساء مكرهاً، لأن قطب الدين قيماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته.

سنة ثمان وستين

توفي خوارزم شاه أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد



عاد من قتال الخطا مريضاً، ولما مات ملك بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود، ودبرت والدته المملكة ، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً بجند قد أقطعه أبوه إياها، فلما بلغه موت أبيه وولاية أخيه الصغير أنف من ذلك، واستنجد بالخطا، وسار إلى أخيه الصغير سلطان شاه وطرده، ثم أن سلطان شاه قصد ملوك الأطراف واستنجدهم على أخيه تكش فطرده، وكانت الحرب بينهم سجالاً حتى مات سلطان شاه في سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستقر تكش في ملك خوارزم وفي تلك الحروب بين الأخوين قتل المؤيد آي آبة السنجري قتله تكش صبراً وملك بعده ابنه طغان شاه بن المؤيد آي آبه.

وفيها سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخي صلاح الدين الأكبر من مصر إلى النوبة للتغلب عليها،فلم تعجبه تلك البلاد، فغنم وعاد إلى مصر.

وفيها توفي شمس الدين ألدكز بهمذان ، وملك بعده ابنه محمد البهلوان، ولم يختلف عليه أحد وكان ألدكز هذا مملوكاً للكمال السميري وزير السلطان محمود، ثم صار للسلطان محمود، فلما ولي مسعود ولاه وكبره حتى صار ملك أذربيجان وغيرها من بلاد الجبل، وأصبهان والري، وكان عسكره خمسين ألف فارس، وكان يخطب في بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغريل، ولم يكن لأرسلان معه حكم، وكان ألدكز حسن السيرة.

وفيها سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى إفريقية ونزلوا على طرابلس الغرب، فحاصرها مدة، ثم فتحها قراقوش واستولى عليها، وملك كثيراً من بلاد إفريقية.

وفيها غزا أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بلاد الفرنج من الاندلس.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود، واستولى على مرعش وبهسنا، ومرزبان، وسيواس، فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويسأل الصلح، فقال نور الدين لا أرضى إلا أن يرد ملطيه على ذي النون بن الدانشمند وكان قليج أرسلان قد أخذها منه، فبذل له سيواس، واصطلح مع نور الدين، فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان، واستولى على سيواس، وطرد عنها ذا النون بن الدانشمند.

وفيها سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها ، وكان قد وعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين،وكان نور الدين قد وصل إلى الرقيم وهو بالقرب من الكرك، فرحل صلاح عن الكرك عائداً إلى مصر، وأرسل تحفاً إلى نور الدين واعتذر أن أباه مرض، وهو يخشى موته فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر، وعلم المقصود في الباطن ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه نجم الدين أيوب بن شاذي قد مات ، وكان سبب موته أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه، فوقع وحمل إلى قصره، فبقي أياماً ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة.

وفي سنة تسع وستين

ملك تورانشاه اليمن وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخوه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى النوبة فلم تعجبه بلادها، ثم سيره في هذه السنة بعسكره إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينئذ عبد النبي المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز تورانشاه،

ووصل اليمن، وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر تورانشاه، وهزم عبد النبي وهجم زبيد وملكها، وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال تورانشاه فهزمه تورانشاه وهجم عدن وملكها، وأسر ناشر واستولى تورانشاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة من عبد النبي، وكذلك من عدن.

وفيها في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين، فانهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم فمنهم عبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني.

وفي هذه السنة توفي

الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر

صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الأربعاء حادي عشر شوال، بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة، وكان نور الدين قد شرع بتجهيز الدخول إلى مصر وأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بالشام، ويسير هو بنفسه إلى مصر فأتاه أمر الله الذي لايرد، وكان نور الدين أسمر طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه، حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها تورانشاه بن أيوب، وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق الأرض ذكره بحسن السيرة والعدل، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي غالب الليل كما قيل:

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل : دمشق، وحماه، وحمص، وشيزر، وبعلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلازل، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولايحتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده، وعمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر، وخطب له بها وضربت له السكة، وكان المتولي لتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، ولما مات نور الدين وتولى ولده الملك الصالح سار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، وملك جميع البلاد الجزرية.

وفي سنة سبعين

في أولها اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع عظيم، وأظهر الخلاف على صلاح الدين، فأرسل إليه صلاح الدين عسكراً فقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون.

وفي سلخ ربيع الأول ملك صلاح يوسف بن أيوب مدينة دمشق، وحمص، وحماه، وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح مع سعد الدين إلى حلب، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهو رئيس

حلب، واستبد سعد الدين كمشتكين بتدبير الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من أمراء دمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ولم يلبث فوصل إلى دمشق وخرج كل من بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة ، وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان ، فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال، ولما ثبت قدمه في دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماه وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في اقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماه لسوء تدبيره مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين، وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين، فإن قلعتها كانت له أيضاً فنزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة، وعصيت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصد من جرديك المسير إلى حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك إلى حلب برسالة من صلاح الدين واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها، وبها الملك الصالح بن نور الدين، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب ، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية

أموالاً عظيمةليقتلوا صلاح الدين ، فأرسل سنان جماعة ليقتلوا صلاح الدين ، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب،ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، ووصل صلاح الدين حماه ثامن رجب وسار إلى حمص فرحل الفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحاصر قلعتها وملكها في حادي عشر من شعبان، ثم أرسل إلى بعلبك فملكها، ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه مسعود بن مودود بن زنكي، ومقدم الجيش عز الدين محمود المعروف بسلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود يسير في الصحبة فامتنع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة عز الدين مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب وانضم إليهم عسكر حلب، وساروا إلى صلاح الدين فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة، وأن يفرد بيده دمشق ويكون فيها نائباً للملك الصالح، فلم يجيبوه إلى ذلك وساروا لقتاله، واقتتلوا عند قرون حماه، فانهز م عسكر الموصل وحلب ، وغنم صلاح الدين، وعسكره أموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم بحلب، وقطع صلاح الدين حينئذ خطبة الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة ، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، ويكون للملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال هذه السنة أعني سنة سبعين وخمسمائة وفي العشر الآخر من شوال ملك السلطان صلاح الدين بارين، وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان فخر الدين من أكابر الأمراء النورية.

وفيها ملك البهلوان بن ألدكز مدينة تبريز وأخذها من ابن آق سنقر الآحمديلي.

وفيها مات شملة التركماني صاحب خوزستان وتولى ولده.

وفيها وقع بين الخليفة وبين قطب الدين قيماز مقدم عسكر الخليفة ببغداد فتنة، فنهبت دار قيماز، وهرب إلى الحلة، ثم إلى الموصل فلحقه في الطريق عطش شديد، وهلك أكثر أصحابه ومات هو قبل وصوله إلى الموصل، فحمل ودفن بظاهر باب العمادي ولما هرب قيماز خلع الخليفة على عضد الدين وأعاده إلى الوزارة.

سنة إحدى وسبعين إلى سنة ثمانين وخمسمائة

وفي سنة إحدى وسبعين

في عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين غازي صاحب الموصل بتل السلطان، فهرب سيف الدين غازي والعساكر التي كانت معه ، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين وغيرهما، وتمت على سيف الدين الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوباً، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع ، فسكنه وزيره، وأقام بالموصل واستولى صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرها، وغنم ما فيها ، ثم سار صلاح الدين إلى بزاعة فحصرها وتسلمها ، ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان شديد البغض لصلاح الدين ، وفتحها عنوة وأسر ينال، وأخذ جميع موجوده، ثم أطلقه فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى أعزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب اسماعيلي على صلاح الدين فضربه بسكين في رأسه وجرحه فمسك صلاح الدين يد الاسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتله وثالث فقتل وجاء السلطان إلى خيمته مذعوراً وأعرض جنده وأبعد من

أنكره منهم ولما ملك السلطان أعزاز رحل عنها، ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها ، وبها الملك الصالح بن نور الدين ، وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب، فسألوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم، وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ فقالت: قلعة أعزاز، وكانوا قد علموها ذلك، فسلمها السلطان إليهم، واستقر الصلح، ورحل صلاح الدين عن حلب في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين.

وفيها نازل طاشتكين أمير الحاج العراقي مكة، وكان قد أمره الخليفة بعزل مكثر بن عيسى صاحب مكة، فجرى بين الحجاج وبينه قتال ، فانهزم مكثر في البرية، وأقام طاشتكين أخاه داود مقامه بمكه.

وفيها في ذي الحجة قدم تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بالحال، وكتب إليه أبياتاً من شعر أبي النجم المصري.

وإلى صلاح الدين أشكو أنني
من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعاً لبعد الدار عنه ولم أكن
لولا هواه لبعد دار أجزع
ولأركبن إليه متن عزائمي
ويخب بي ركب الغرام ويوضع
ولأسرين الليل لا تسري به
طرف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدم من إليه قلبي مخبراً
أني بجسمي عن قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة
من أفقها صبح السعادة يطلع

وفي سنة اثنتين وسبعين

قصد السلطان صلاح الدين بلد الاسماعيلية في المحرم فنهبه وخربه وأحرقه، وحصر قلعة مصياف فارسل سنان مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماه يسأل أن يسعى في الصلح، فسأل الحارمي الصفح عنهم، فأجابهم صلاح الدين وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره إلى مصر فإنه كان قد بعد عهده بها، بعد أن استقر له ملك الشام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الإمام الشافعي بالقرافة، وعمل بالقاهرة مارستان.

وفي سنة ثلاث وسبعين

وفي جمادى الأولى سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الساحل لغزو الفرنج، فوصل إلى عسقلان في رابع عشر منه فنهب، وتفرق عسكره في الإغارة ، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليه فقاتلهم أشد قتال ، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته ، فقال له أبوه تقي الدين: احمل عليهم، فحمل على الفرنج وقاتلهم فأثر فيهم أثراً جميلاً، وعاد سالماً فأمره أبوه بالعود فقتل رجلاً من الأفرنج، وقتل شهيداً، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج السلطان فولى منهزماً إلى مصر على البرية ومعه من سلم، ولقوا في طريقهم مشقة من العطش وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للإغارة أسرى، وأسر الفقيه عيسى،

وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال ابن الأثير : رأيت كتاباً بخط يد صلاح الدين إلى أخيه تورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وأوله:

ذكـــرتـــك والخطـــي يخطـــر بيننـــا
وقـــد نهلـــت منـــا المثقفـــة السمـــر

ويقول فيـه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، ومـا نجانا الله تعـالى منه إلاّ لأمر يريده سبحانه وتعالى «وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر(١١).»

وفيهـا سار الفـرنـج وحصروا مـدينة حماه في جمادى الأولى ، وطمعـت الفرنـج بسبب بعـد صلاح الديـن بمصر وهزيمته مـن الفرنـج، ولم يكن غيرتورانشاه بدمشق ينوب عن أخيـه صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكـر وكـان تـورانشـاه أيضـاً كثير الانهماك في اللـذات مـائلاً إلى الراحات، ولما حصروا حماه كان بها صاحبها شهـاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، وهـو مريض، واشتد حصار الفرنـج لحماه، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجمـوا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكـون البلد قهراً بالسيـف، ثم جد المسلمـون في القتال وأخرجوا الفـرنج إلى ظاهـر السور وأقـام الفرنـج كـذلك على حماه أربعـة أيام، ثـم رحلـوا عنها إلى حـارم، وعقيب رحيلهم عنها مـات صاحبها شهاب الدين الحارمـي،وكان له ابن من أحسن الناس شباباً فمات قبله بثلاثة أيام.

وفيها قبض السلطان الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب على سعـد الـديـن كمشتكين ، وكـان قـد تغلـب على الأمـر وكـانـت حـارم لكمشتكين، فـأرسل الملـك الصـالح إليهـم فلـم يسلموهـا إليـه، فأمـر لكمشتكين أن يسلمهـا فأمـرهم بـذلك فلـم يقبلوا منـه، فأمـر بتعذيـب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يـرونه لايرحمونه حتى مات في

العذاب، وأصر الحال بأصحابه على الامتناع، ووصل الفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماه، وحصروا حارم أربعة أشهر ، فأرسل الملك الصالح مالاً للفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وبلغ أهلها الجهد وبعد أن رحل الفرنج عنها أرسل إليها الملك الصالح عسكراً وحصروها، فلم يبق بأهلها ممانعة فسلموها إلى الملك الصالح فاستناب بها مملوكاً كان لابيه اسمه سرخك.

وفيها في المحرم خطب للسلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه المقيم ببلاد ألدكز، وكان أبوه أرسلان الذي تقدم ذكره قد توفي.

وفيها في ذي الحجة قتل عضد الدين محمد بن عبد الله بن هبة الله وزير الخليفة، وكان قد عبر دجلة عازماً على الحج فقتله الاسماعيلية، وحمل مجروحاً إلى منزله فمات به، وكان مولده في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة.

وفي سنة أربع وسبعين

طلب تورانشاه من أخيه صلاح الدين بعلبك، وكان السلطان أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين، فلم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فارسل السلطان وحصره ببعلبك فطال حصارها فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض، فعوض عنها، وسلمها السلطان فأقطعها أخاه تورانشاه.

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء عام.

وفيها سير السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر بن

شاهنشاه إلى حماه، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل واحد منهما بحفظ بلاده.

وفي سنة خمس وسبعين

سار صلاح الدين وفتح حصناً كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان، بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطان النبيين عصبة
تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وفيها كانت حرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر، وبين عسكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم، وطمع فيه قليج أرسلان، وأرسل إليه عسكراً ليحصروه، وكانوا قرابة عشرين ألفاً، فسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم، وكان يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفاً.

وفيها في ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار بعد قتل عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار ، وأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله.

خلافة الناصر لدين الله بن المستضيء رابع ثلاثين خلفاء بني العباس

ولما استقرت بيعة الناصر حكم استاذ دار مجد الدين أبو الفضل، وقبض على ظهير الدين بن العطار في سابع ذي القعدة ونقل إلى التاج، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة فثارت به العامة وألقوه عن رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلاً وجروه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمست في العذرة، ويقولون: وقع لنا يامولانا، هذا فعلهم به، مع حسن سيرته، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفيها في ذي القعدة نزل تورانشاه أخو صلاح الدين عن بعلبك، وطلب عوضها الاسكندرية، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك واقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار فرخشاه إلى بعلبك وسار شمس الدولة تورانشاه إلى الاسكندرية وأقام بها إلى أن مات .

وفي سنة ست وسبعين

في ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل والديار الجزرية ، وكان مرضه السل، وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر ، وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلاً عادلاً عفيفاً، شديد الغيرة لايدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغاراً، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز،

وفيها سار السلطان صلاح الدين إلى جهة قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان، ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين إلى جهة بلاد ابن ليون الأرمني، وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقهم.

وفيها توفي شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالاسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفاً، يخرج كلما يحمل إليه من الأموال اليمنية ودخل الاسكندرية ، ومع هذا لما مات كان عليه مائتي ألف دينار مصرية ديناً، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل إلى مصر هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك.

وفي سنة سبع وسبعين

عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم والإستيلاء على تلك النواحي الشريفة، وسمع بذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق، فجمع وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيها وقع بين نواب تورانشاه باليمن بعد موته اختلاف كبير، فخشي السلطان صلاح الدين فجهز إليها جيشاً مع جماعة من أمرائه، فوصلوا إلى اليمن وأسرعوا واستولوا عليها، وكان نائب تورانشاه على عدن عز الدين عثمان الزنجيلي وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني، من بيت صاحب شيزر.

وفيها في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر، فمات ولم يستعمله، وكان حليماً عفيف اليد والفرج واللسان، ملازماً لأمور الدين، لايعرف له شيئاً مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب، واستقر في ملكها، وكاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب، ويأخذ منه سنجار، فاشار قيماز بذلك ، فلم يمكن مسعود إلا موافقته، وأجاب إلى ذلك ، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

وفي سنة ثمان وسبعين

خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة ، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل يقول شيئاً في الوداع وفراقه، وفي الجماعة معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين ، وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد بعدها صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان صلاح الدين وأغار في طريقه على بلاد الفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر، ولما سار السلطان إلى الشام اجتمعت الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه ابن أخي السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه، وغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك.

وفيها سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن عنها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز الدين عثمان الزنجيلي قد عاد إلى ولايتهما، فإن الأمير الذي كان قد سيره السلطان نائباً إلى اليمن تولى وعزلهما، ثم توفي فعاد بين حطان وعثمان الفتن قائمة، فوصل سيف الإسلام إلى زبيد فتحصن حطان في بعض القلاع، فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن حطان طلب دستوراً ليسير إلى الشام، فلم يجبه إلا بعد جهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه، ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه، وأرسل استرجع أثقاله وأخذ جميع ماله، وكان فيما أخذه سيف الإسلام من حطان سبعين غلاف زردية مملوءة ذهباً عيناً، ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن، فكان آخر العهد به ،وأما عثمان الزنجيلي، فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله في البحر فصادفها مراكب سيف الإسلام فأخذوا كلها لعثمان الزنجيلي وصفت اليمن لسيف الإسلام.

وفيها سار السلطان صلاح الدين من دمشق في ربيع الأول ونزل قرب طبرية وشن الإغارة على بلاد الفرنج مثل بيسان وجينين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق ، ثم سار إلى البلاد الجزرية، وعبر الفرات من البيرة فصار معه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك بن بلتكين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان صلاح الدين ملوك تلك الأطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وصار معه وحاصر السلطان الرها، وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة، وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل، ثم سار السلطان إلى الخابور وملك

قرقيسيا وماكسين وعربان، واستولى على الخابور جميعه، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة، ثم ملك القلعة وأقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين للحصار، وشحنوها بالرجال والسلاح، فحصر السلطان الموصل وأقام عليها منجنيقاً فأقاموا من داخل المدينة تسعة مناجينيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذيا باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي، وجرى القتال بينهم وكان ذلك في شهر رجب، فلما رأى حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنر، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه أبا الهيجاء عن نصيبين.

وفيها عمل البرنس صاحب الكرك اصطولاً في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه ، وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين بتلك النواحي، فإنهم لم يعهدوا بذلك البحر فرنجياً قط، وكان بمصر الملك العادل أبي بكر نائباً عن أخيه السلطان صلاح الدين، فعمل اصطولاً في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاصطول بمصر، وكان مظفراً، فيه شجاعة ، فسار حسام الدين مجداً في طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز الشريف ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى ، وسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا في البحر أشد قتال، وظفر الله تعالى المسلمين بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى، وأرسل مهم ألفي رجل إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

وفيها توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعاً كريماً فاضلاً، له شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية فأرسل إلى دمشق شمس الدولة محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها ، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور.

وفي سنة تسع وسبعين

ملك صلاح الدين حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من المحرم، وسلمه إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكه، ثم سار إلى عين تاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد بن الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عين تاب إلى اسماعيل المذكور فبقت معه إلى الآن، فحاصرها وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره صلاح الدين عليها وبقي من جملة أمراء السلطان ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر فطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب وأهلها عليه ، وقد ضجر من ذلك، وقد كره حلب، لذلك فأجاب السلطان صلاح الدين إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين، والخابور، والرقة، وسروج، واتفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر هذه السنة، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين: « ياحمار بعت حلب بسنجار» ، وشرط السلطان على عماد الدين زنكي الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره ،متى استدعاه لايحتج بحجة عن ذلك،ومن عجيب الإتفاق أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها:

وفتحكـــم حلبـــاً بــــالسيـــف في صفـــر
مبشراً بفتـــــوح القـــــدس في رجــــب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان من جملة من قتل على حلب تاج الدين بوري أخو السلطان الأصغر ، وكان شجاعاً كريماً طعن في ركبته فانفلقت فمات منها، ولما استقر الصلح عمل زنكي دعوة للسلطان واحتفل فيها، فبيناهم في سرورهم إذ جاء انسان فأسر إلى السلطان بموت أخيه، فوجد عليه في قلبه وجداً عظيماً، وأمر بتجهيزه سراً، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحداً ممن كان في تلك الدعوة لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكان السلطان يقول: ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم، ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح بن نور الدين في تسليم حارم، وجرى بينهما مراسلة فلم ينتظم بينهما حال، وكاتب سرخك الفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها وقرر أمر بلاد حلب وأقطع أعزاز أميراً يقال له سليمان بن جندر.

وفيها قبض عز الدين صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز.

وفيها لما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشق وتجهز منها للغزو وعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة، وأغار على بيسان وأحرقها، وشن الإغارة على تلك النواحي، ثم تجهز السلطان إلى الكرك وأرسل إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بمصر يأمره أن يلاقيه إليها، فسارا واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليها، ثم رحل عنها في منتصف شعبان وسار معه أخوه العادل، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائباً له موضع العادل، ووصل السلطان إلى دمشق وأعطى

أخـوه العـادل مـدينة حلـب وقلعتهـا وأعمالها، وسيره في شهـر رمضـان، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفيها تـوفي شاه أرمن ابن سكمان بـن ظهير الدين ابراهيـم بن سكمان القطبي صاحـب خلاط، وكان عمره لما توفي أربعـاً وستين سنة، ولما توفي شاه أرمن كان بكتمـر مملوك أبيه بميافارقين فلما سمع بكتمـر بموته سار من ميافارقين إلى خـلاط، وكان أهلها يريدونه ومماليك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله تملك خـلاط وجلس على كرسي شاه أرمن ، واستقر في مملكة خلاط حتى قتل سنة تسع وثمانين.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة

سـار أبـو يعقـوب يـوسـف بن عبـد المؤمـن ملـك الغـرب إلى بـلاد الأندلـس، وعبر البحر في جمع عظيـم من عسـاكره، وقصـد بلاد الفـرنج وحصر شنترين مـن غرب الأنـدلس، وأصـابه مـرض فمات منه في ربيـع الأول، وحمل في تـابـوت إلى مـدينـة إشبيليـة، وكـان حسـن السيرة ، واستقامت لـه المملكة لحسن تدبيره، ولما مـات بايع الناس ولـده يعقوب ابن يوسـف وكنيته أبو يوسف، وملكـوه عليهم في الوقت الـذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهـم لقربهم من العدو، فقام يعقوب بالملك أحسن قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة.

وفيها في ربيع الآخـر سار السلطان صلاح الدين مـن دمشق للغزاة ، وكتب إلى مصر، فسارت عساكره إليها، ونـازل الكرك وضيق عليه، وملك ربضـه ، وبقيت القلعـة وليـس بين القلعة والـربـض إلا خندق عميـق، وقصد السلطان طمه فلـم يمكنه لكثرة المقاتلة، فجمعت الفـرنج فارسها وراجلها وقصدوه، فلم يمكـن السلطان إلاّ الرحيل فرحل إليهـم، فأقاموا في أماكن وعرة، وأقـام السلطان قبالتهم، وسار من الفـرنج جماعة ودخلوا

الكرك، فعلم بامتناعه عليه، فسار إلى نابلس وأحرقها، ونهب ما بتلك النواحي وقتل وسبى فأكثر فسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا فاستنقذ من بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين، وعاد إلى دمشق.

وفيها مات قطب الدين إلغازي بن نجم الدين ألبي بن حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وقد تقدم في سنة سبع وخمسمائة ملك ألبي بن تمرتاش، وبقي ألبي في ملك ماردين حتى مات وملك ولده قطب الدين ايلغازي، ولما مات ايلغازي المذكور كان له أولاد أطفال ، فأقيم في الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان ، وقام بتدبير المملكة مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان ، وكان به هوج وخبط فمات بولق وأقام أبق بعد أخاه أرتق أرسلان ولقبه ناصر الدين ولم يكن له حكم بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك للبقش اسمه لؤلؤ كان قد تغلب على استاذه البقش بحيث كان لايخرج البقش عن رأي لؤلؤ المذكور، وبقي الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمائة فمرض النظام البقش وأتاه ناصر الدين صاحب ماردين يعوده ، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله وعاد إلى البقش فضربه بسكين فقتله أيضاً، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفيها سار شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم من عند الخليفة إلى صلاح الدين في رسالة، ومعه شهاب الدين بشير الخادم ليصلحا بين السلطان صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم حال، واتفق أنهما مرضا بدمشق وطلبا المسير إلى العراق وسارا في الحر فمات بشير بالسخنة ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس وأحسن إليه.

سنة إحدى وثمانين إلى سنة تسعين وخمسمائة

في سنة إحدى وثمانين

حصر السلطان صلاح الدين الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين مسعود والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما والشفعاء بنت نور الدين وأخوها ووالدة عز الدين ، وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر هذه السنة فسار عن الموصل إلى جهة خلاط وملكها.

وفيها توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وآمد، وملك بعده ولده قطب الدين سقمان ، وكان صغيراً فقام بتدبيره القوام بن سماقا الأسعردي وحضر سقمان إلى السلطان صلاح الدين وهو نازل على ميافارقين فأقره على ما كان بيد والده نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وأقام معه أميراً من أصحاب والده.

ملك صلاح الدين ميافارقين

لما سار السلطان عن الموصل إلى أخلاط جعل طريقه على ميافارقين، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي، وبها من يحفظها من جهة شاه أرمن، ، صاحب خلاط المتوفى، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى ، ثم إن السلطان رجع عن قصد أخلاط إلى الموصل، فجاءته رسل عز الدين مسعود، يسأل الصلح، واتفق أن السلطان مرض ورجع من كفرزمار عائداً إلى حران فلحقته رسل صاحب الموصل

بالإجابة إلى ما طلب، وهو أن يسلم صاحب الموصل إلى السلطان شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتسلم السلطان ذلك، واستقر الصلح وأمنت البلاد، ووصل السلطان إلى حران، وأقام بها مريضاً، واشتد به المرض حتى أنهم أيسوا منه، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه صاحب حمص إلى حمص، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان، وفيها ليلة عيد الأضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان صلاح الدين دس عليه من سقاه سماً فمات، لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما بيد محمد على ولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف صاحب حمص شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران، وأخذ أكثرها ، ولم يترك إلاّ مالا خير فيه.

وفي سنة اثنتين وثمانين

أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، كان نائب عمه بمصر، ومعه الملك الأفضل ، فأرسل الملك المظفر يشتكي من الأفضل: إنني لاأتمكن من استخراج الخراج لأنني إذا أحضرت من عليه الخراج ، وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأخرج السلطان ولده من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي الدين في الباطن لأنه ظن أنه إنما أخرج الأفضل من مصر ليتملكها إذا مات السلطان، ثم أحضر أخاه العادل من حلب، وجعل معه العزيز عثمان ولده نائباً عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من مصر، فتوقف عن الحضور، وقصد اللحوق

بمملوكه قراقوش المستولي على بلاد برقة وإفريقية من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه، فحضر إليه ولما حضر تقي الدين عند السلطان زاده حماه وعليها منبج، والمعرة ، وكفر طاب، وميافارقين، وجبل جور، بجميع أعمالها.

واستقر العزيز عثمان ولد السلطان بمصر هو والعادل ، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل عوضه عنها حران والرها، وفيها غدر البرنس صاحب الكرك، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين، وأسرهم ، وأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن ظفّره الله به قتله بيده.

وفيها توفي البهلوان محمد بن ألدكز صاحب بلد الجبل وهمذان والري وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد، وكان عادلاً حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان عثمان ، وكان السلطان طغريل ابن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله الخطبة في بلاده وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل، وكثر جمعه، واستولى على بعض البلاد وجرى بينه وبين قزل أرسلان حروب.

- ١٠٧٠٦ -

وفي سنة ثلاث وثمانين

كانت مبادىء غزوات صلاح الدين وفتوحه، ففيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل، فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية ، وغنموا شيئاً كثيراً، ثم سار السلطان ونزل على طبرية، وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة، وكانت طبرية للقسومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته، فأرسلت الفرنج إلى القومص القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه ، فصار معهم، واجتمع الفرنج لملتقى السلطان، فكانت.

وقعة حطين

وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

لما فتح السلطان طبرية اجتمعت الفرنج بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان ، فركب السلطان من طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال،فلما رأى القومص شدة الأمر حمل على من قبله من المسلمين، وكان هناك تقي الدين عمر صاحب حماه، فأفرج له ثم عطف عليه فقتل ألف فارس من أصحابه ، ونجا القومص من المعركة، ووصل إلى طرابلس وبقي مدة، ومات عنتاً، ونصر الله المسلمين وأحدقوا بالفرنج من كل جانب وأبادهم قتلا وأسراً، وكان من جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل، والهنفري بن هنفري ومقدم الداوية، وجماعة من الاسبتارية. وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام، وهي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمصيبة مثل هذه الوقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمة، وأحضر ملك الفرنج وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديداً، فسقاه ماء مثلوجاً، فسقى ملك الفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: إن هذا الملعون لم يشرب الماء باذني، فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه بيده، فارتعدت فرائص ملك الفرنج، فسكنه السلطان، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان ، ثم راسل أخاه الملك العادل فحاصر مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا : الناصرة ، وقيسارية، وحيفا ، وصفورية ، ومعليا، والفولة، وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الأماكن ، وأرسل فرقة إلى نابلس ففتحوا قلعتها بالأمان، وسار السلطان إلى تبنين وفتحها بالأمان، ثم سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لسبع بقين من جمادى الأولى هذه السنة، ثم سار إلى بيروت وحصرها وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان، وكان حصرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تك عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان من تسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المركيس في سفينته إلى عكا، وهي للمسلمين ، ولم يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهواء، فراسل المركيس الملك الأفضل ، وهو بعكا يقترح أمانا، فكتب له الملك الأفضل أمانا، فرده يشترط فيه شروطاً، فأجيب إليها، فراسل الملك الأفضل يعلمه أنه يدوس بساطه في يوم معلوم، فصبر عليه الملك الأفضل، فاتفق في ذلك اليوم تحرك الهواء، فأقلع المركيس إلى صور، واجتمعت عليه الفرنج الذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وأطلقهم من أعظم أسباب الضرر التي حصلت حتى

راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك، ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الأخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا : الرملة ، والدارون، وغزة، وبيت لحم، وبيت جبريل، والنطرون، وغير ذلك ، ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر، وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال بينهم، وعلقوا السور، فطلب الفرنج الأمان، فلم يجبهم السلطان إليه، وقال: لا آخذها إلا بالسيف مثلما أخذها الفرنج من المسلمين، فعاودوه بالأمان، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك، فأجابهم السلطان إليه بشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال عشرة دنانير، ومن النساء خمسة، ومن الأطفال دينارين، ومن عجز عن الأداء كان أسيراً، فأجيب إلى ذلك ، وسلمت إليه المدينة يوم الجمعة سابع وعشرين رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام الاسلامية على أسواره، ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك ، ولم يقبضوا منه إلاّ القليل، وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، فتسلق المسلمون ، وقلعوه، وسمع لذلك ضجة عظيمة لم يعهد مثلها من المسلمين للفرح والسرور، ومن الكفار التفجع والتوجع، وكان الفرنج قد عملوا في الجامع الأقصى هرياً ومستراحاً، فأمر السلطان بازالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه ، وكان نور ا لدين محمود بن زنكي قد عمل منبراً بحلب، وتعب عليه مدة، وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل صلاح الدين أحضره من حلب، وجعله في الجامع الأقصى، وأقام السلطان بعد فتوح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يدبر أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشافعية، ثم رحل إلى عكا ومنها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال، وحفر خنادقها، ونزل السلطان على صور تاسع شهر رمضان، وحاصرها وضايقها ، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوان، فاتفق أن

الفرنج كبسوهم وأخذوا خمس شواني، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا، وأخذ الباقون ، فطال الحصار عليها ، فرحل السلطان في آخر شوال ، وكان أول كانون أول . وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقته، وأرسل إلى هونين ففتحها بالأمان.

وفيها سار شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم حاجاً، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات ولما أفاض أرسل إليه مجير الدين طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه، فسار العراقيون واشتبكوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال، ولو مكنهم لانتصفوا من العراقيين ، فجرح ابن المقدم ومات شهيداً، ودفن بمقبرة المعلى.

وفيها قوي أمر السلطان طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، وملك كثيراً من البلاد، وأرسل قزل أرسلان بن ألدكز يستنجد الخليفة ويخوفه عاقبة أمر طغريل.

وفيها سار شهاب الدين الغوري وغزا بلاد الهند.

وفيها قتل الخليفة الناصر استاذ داره أبا الفضل مجد الدين بن الصاحب، ولم يكن للخليفة معه حكم، وظهر له أموال عظيمة فأخذت جميعها، وفيها استوزر الخليفة الناصر جلال الدين أبا المطهر عبيد الله بن يونس، ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة.

-١٠٧١٠-

وفي سنة أربع وثمانين

شتى السلطان في عكا، ثم سار بمن معه إلى كوكب، وجعل على حصارها الأمير قيماز النجمي، وسار منها في ربيع الأول، ودخل دمشق، وفرح الناس بقدومه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام وسار منها في ربيع الأول من السنة، ونزل على بحيرة قدس غربي حمص وأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكاملت العساكر رحل ونزل تحت حصن الأكراد، وشن الغارات على بلاد الفرنج، وسار من حصن الأكراد فنزل على أنطرطوس سادس جمادى الأولى، وتسلمها ساعة وصوله فجعل لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية ووصل إليها رابع عشرين جمادى الأولى، ولها قلعتان، فحصر القلعتين، وزحف إليها فطلب أهلها الأمان، فأمنهم وتسلم القلعتين، ولما تسلمها سلمها إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فحصنها وعمر قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة، ثم رحل السلطان عن اللاذقية سابع عشرين جمادى الأولى إلى صهيون وحاصرها وضايقها وطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلاّ على أمان أهل القدس فيما يؤدوه، فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس، ثم فرق عسكره في تلك الجبال، فملكوا حصن بلاطنس، وكان الفرنج الذين به قد هربوا وأخلوه وملكوا حصن العيد، وحصن هونين، ثم سار السلطان عن صهيون ثامن جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر، فحاصرها السلطان ووجدها منيعة وضايقها، فرمى الله في قلوبهم الرعب، وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، وأرسل السلطان ولده الملك الظاهر غازي ـ صاحب حلب ـ فحصر سرمين

وضايقها واستنـزل أهلها على قطيعة قررها عليهم، وهـدم الحصن، وعفى أثره، وكان في هذه وفي جميـع الحصون المذكورة من المسلمين الجم الغفير، فـأطلقـوا ، وأعطوا الكسـوة والنفقـة، ثـم سـار السلطان مـن الشغـر إلى برزية، ورتـب عسكره ثلاث فرق، وداومهـا بالزحف وملكهـا بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وسبى وقتل من أهلها غالبهم.

قال ابن الأثير في الكامل: كنت مع السلطان في فتحه لهذه البلاد طلباً للغزاة فحكى ذلك عن مشاهدة(١٢).

ثم سـار السلطان، ونزل على جسر الحديـد ، وهو على العـاصي بقرب أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ، ثم سار إلى دربساك، ونـزل عليها ثـامن رجب هـذه السنة، وحـاصرها وضـايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لايخرج أحد منهـا إلا بثيابه فقط، وتسلمها تاسـع عشر رجب، ثـم سار إلى بغراس وحصرهـا وتسلمها بـالأمان على حكم أمان دربسـاك، وأرسل بيمند صاحب أنطاكيـة إلى السلطان يطلب منه الهدنـة والصلح، وبـذل اطلاق كـل أسير عنده، فـأجيب إلى ذلـك، واصطلحـوا ثمانية أشهـر، وكـان صاحـب أنطاكيـة حينئـذ أعظم ملـوك الفرنج في هذه البـلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طـرابلس بعد موت القومص صاحبهـا على ما ذكرناه ، فجعل بيمند صاحـب أنطاكية ابنه في طرابلس.

ولما فرغ السلطـان من أمر هذه البـلاد والهدنة سار إلى حلـب ودخلها ثالـث شعبان، وسار منها إلى دمشـق، وأعطى عماد الدين زنكـي دستوراً وكذلـك أعطى غيره مـن العساكر الشرقيـة ، وجعل طـريقه لما رحـل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز، فـزاره، وزار الشيخ أبا زكريا المغربي، وكان مقيماً هنـاك، وكان من عبـاد الله الصلحاء، ولـه كرامات ظـاهرة ، وكـان مع السلطـان الأمير أبو فليتـه قاسـم بـن مهنا الحسنـي صاحـب

مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه مشاهده وفتوحاته، وكان السلطان يتبرك برؤيته، ويتيمن بصحبته، ويرجع إلى قوله. ودخل السلطان دمشق في رمضان ، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: العمر قصير والأجل غير مأمون،وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية، قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها، وخلّى أخاه العادل بتملك الجهات يباشر ذلك ، فأرسل أهل الكرك يطلبون الآمان، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموها، وهي الكرك والشوبك، وما بتلك الجهة من البلاد.

ثم سار السلطان من دمشق المحروسة في منتصف رمضان إلى صفد وحصرها، وتسلمها بالأمان، ثم سار إلى كوكب، وعليها قيماز النجمي يحاصرها، فضايقها السلطان وتسلمها بالأمان في منتصف ذي القعدة ، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ، ظهر ذلك فيما بعد. ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة. وفيها أرسل قزل بن ألدكز يستنجد بالخليفة الامام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقي ويحذره عاقبة طغريل، فأرسل الخليفة عسكراً إلى طغريل ، والتقوا ثامن ربيع الأول هذه السنة قرب همذان، فانهزم عسكر الخليفة ، فغنم طغريل أموالهم وأسر مقدمهم الوزير جلال الدين.

وفي سنة خمس وثمانين

سار السلطان صلاح الدين ، ونزل بمرج عيون، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة عينها خديعة منه، فلما بقي ثلاثة أيام استحضره السلطان، وكان اسمه أرناط وقال له في التسليم، فقال: لايوافقني عليه أهلي وأهل الحصن ، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبسه.

وفيها كان:

حصار الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان، فكثر جمعهم حتى صاروا في عدد لايحصى، فأرسلوا إلى البحر يكون ويستنجدون، وصوروا المسيح ، وصوروا عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من البحر عالم لايحصى كثرة، وساروا من صور إلى عكا، ونازلوها في منتصف رجب هذه السنة، وضايقوا عكا وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار السلطان، ونزل قرب الفرنج وقابلهم في مستهل شعبان وباتوا على ذلك، وأصبحوا وحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان على الفرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح الطريق إلى المدينة، فأدخل السلطان إلى عكا عسكراً نجدة، وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين، وبقي المسلمون يغادون القتال ويراوحونه إلى عشرين شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهم الوقعة العظيمة، فإن الفرنج اجتمعوا وحملوا على السلطان في القلب، فأزالوه عن موقفه، وأخذ الفرنج يقتلون المسلمين إلى أن بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان هو وخاصته إلى جانب، وانقطع مدد الفرنج وانشغلوا بقتال الميمنة ، فحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا الميمنة ، وعطف الجيش عليهم فأفنوهم قتلاً، فقتل في ذلك الوقت من الفرنج قريب الثلاثين ألفاً، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم إلى طبرية ، وبعضهم إلى دمشق،وجافت الأرض بعد هذه الوقعة ، ولحق السلطان مرض القولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم، ورحل عن عكا رابع عشر رمضان هذه السنة إلى

الخروبة، فلما رحل تمكن الفرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الأرض، ووصل اسطول المسلمين في البحر مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب، فظفر باسطول الفرنج وأخذه، وأخذ من الفرنج أموالاً عظيمة، ودخل بالكل إلى عكا، فقوى به قلوب المسلمين، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر بالسلاح إلى أخيه السلطان، فقويت قلوب المسلمين بوصوله.

وفي سنة ست وثمانين

بعد دخول صفر رحل السلطان من الخروبة، وعاد إلى قتال الفرنج بعكا، وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبرجة، طول البرج ستون ذراعاً جلبوا خشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات ، وشحنوها بالسلاح ولبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول، فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة ، ووصلت إلى السلطان عساكر البلاد.

وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واغتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية ، فسلط الله على الألمان الغلاء والوباء، فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل، فهلك غرقاً، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، وطائفة اختارت أخا ابن الملك المذكور، فرجعوا مع ابن الملك ، ووصل مع ابن الملك المتولي أولاً إلى فرنج عكا ألف مقاتل ،وكفى الله المسلمين شرهم.

وبقي السلطان وفرنج عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى

الآخرة ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل من خنادقهم وأزالوا الملك العادل عن موقفه، وكان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا من الفرنج قريب عشرة آلاف ، فرجعوا إلى خنادقهم، وحصل للسلطان مغص، فانقطع في خيمة صغيرة ولولا ذلك كانت الفيصلة ، ولكن إ ذا أراد الله أمراً فلا مرد له.

وفيها قوي الشتاء واشتدت الرياح، وأرسل الفرنج مراكبهم إلى صور خوفاً أن تنكسر ، فانفتحت الطريق إلى عكا في البحر ، وأرسل السلطان إليها البدل، فكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك.

وفيها ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وكان مع السلطان بعسكره، ولما مات أقطع السلطان إربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها، وارتجع ما كان بيد المظفر وهو : حران، والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها استولى الخليفة الناصر على حديثه عانة، بعد أن حصرها مدة.

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو : حران والرها وسميساط الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده، وهو ميافارقين، ومن الشام: حماه والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، وجبلة، واللاذقية وبلاطنس، وبكسرائيل.

- ١٠٧١٦ -

وفي سنة سبع وثمانين

كان استيلاء الفرنج على عكا

واستمر حصار الفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليها خندقاً، فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارج بالسلطان، واشتد حصارهم لعكا وطال، وضعف من بها عن حفظ البلد، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج، فأجابوهم إلى ذلك، وصعدت أعلام الفرنج على عكا يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وقت الظهر، واستولوا على البلد بما فيه ، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصلبوت، وكتبوا إلى السلطان صلاح الدين بذلك، فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك.

فعلم منهم الغدر، واستمر أسرى المسلمين بها، ثم قتل الفرنج من المسلمين جماعة كثيرة، واستمروا بالباقين في الأسر، وبعد استيلاء الفرنج على عكا وتقرير أمرها ، رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية، والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن مواقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين، فقتلوا خلقاً كثيراً أكثرهم من السوقة، ثم سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها، ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها واخلاها، ورتب الحجارين في تعليق أسوارها وتخريبها، فدكها إلى الأرض، فلما فرغ من تخريب عسقلان رحل عنها ثاني شهر رمضان إلى

الرملة فخرب حصنها، وخرب كنيسة لدّ،ثم سار إلى القدس وقرر أموره، وعاد إلى مخيمه ثامن رمضان، ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك الانكتار ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال، ثم رحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثامن ذي القعدة، وبقي كل يوم يقع بينهم وبين المسلمين مناوشات ، ولقوا من ذلك شدة شديدة.

وأقبل الشتاء وحالت الأوحال بينهم، ولما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور، وسار إلى القدس لتسع بقين من ذي القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه، وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر، فكان يجتمع عند العمالين في اليوم الواحد ما يكفيهم أيام.

وفيها كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر، وكان تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات، وهي حران وغيرها فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه، واستولى على السويداء وحاني وأتقع مع بكتمر صاحب أخلاط، فكسره وحصره في أخلاط، وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها ونازل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به حتى توفي يوم الجمعة لاحدى عشر ليلة بقيت من رمضان هذه السنة، فأخفى ولده المنصور وفاته، ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه ودفنه بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة وهي مشهورة هناك، وكان المظفر شجاعاً شديد البأس، ركناً عظيماً من أركان بيت أيوب، وكان عنده فضل الأدب، وله شعر حسن، واتفق أن في ليلة الجمعة التي توفي

فيها الملك المظفر توفي حسام الديـن محمد بن عمر بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان، فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مـات الملك المظفـر راسـل ابنه الملـك المنصـور السلطان صـلاح الديـن ، واشترط شروطاً نسبه السلطـان فيها إلى العصيان، فكـاد أمره أن يضطرب بالكلية ، فراسل الملـك المنصور الملك العادل أخو السلطان في استعطاف خاطر السلطان، فما برح الملك العـادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفـع في الملك المنصـور حتـى أجابـه، وقـرر للملك المنصـور : حماه، وسلميـة، والمعرة، ومنبـج، وقلعـة نجم، واسترجـع منـه البلاد الشرقيـة ، وأقطعها أخاه الملك العادل بعـد أن شرط السلطان على الملك العادل أن ينزل عـن كل ماله مـن الإقطاع بالشـام خلا الكرك والشوبـك والصلت والبلقاء، ونصـف خاصه بمصر، وأن يكـون عليه في كل سنـة خمسة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القـدس، ولما استقر ذلك سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية، وقرر أمورهـا، وعاد إلى خدمة السلطان في آخرة جمادى الآخرة من السنـة المقابلة، أعني سنـة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطـان الملك المنصـور بن تقـي الـدين نهض واعتنقـه وغشيه البكـاء، وأنزله في مقدمة عسكره.

وفيها في شعبـان قتل قـزل أرسلان عثمان بن ألـدكز ملـك: أذربيجان، وهمذان، والـري، وأصفهان بعـد أخيه محمـد البهلوان ، وكـان قوي عليـه السلطان طغـريل السلجوقي، وهـزم عسكر بغداد كما تقدم ذكـره، ثم إن قـزل أرسلان تغلـب واعتقل طغـريل بـن أرسلان شـاه في بعض البـلاد، وسار قزل أرسـلان بعد ذلك إلى أصبهان وتعصب على الشفعـوية، وأخذ جماعة مـن أعيانهم فصلبهـم، وعاد إلى همذان وخطـب لنفسه بـالسلطنة،

ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل عليه من قتله على فراشه ولم يعرف من قتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى السلطان صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطيه، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه قليج أرسلان وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان مستجيراً، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطعت اطماع أخيه منه.

قال ابن الأثير: لما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترجل معز الدين له فترجل السلطان، فلما ركب السلطان عضده معز الدين وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين: ما بقيت تبالي يابن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي، ويصلح ثيابك ابن أتابك زنكي(١٣).

وفي سنة ثمان وثمانين

سار الفرنج إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها والسلطان في القدس.

وفيها قتل المركيس صاحب صور، قتله الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

وفيها عقدت الهدنة مع الفرنج، وعاد السلطان إلى دمشق، وكان سبب ذلك أن ملك الانكتار مرض فطال عليه البيكار، فكاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى الصلح ثم اتفق الأمراء عليه لطول البيكار، وضجر العسكر، فأجاب

السلطان واستقر أمر الهدنة يوم السبت ثامن عشر شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأن الملوك لايحلفون، وقنع بذلك السلطان، وحلف الكندهري، ابن أخته، وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج.

ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من مقدمي الفرنج، وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والأفضل والظاهر ابني السلطان، والملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر صاحب حماه، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها أيلول الموافق لحادي عشرين من شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها، وقيسارية وأرسوف وحيفا وعكا بأعمالهم وأن تكون عسقلان خراباً، وشرط السلطان دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم، وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك، ورحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان، وتفقد أحواله وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس وهذه المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصندحنه يذكرون أن فيها قبر حنّه أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن تملك الفرنج القدس،ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة، وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة حجار لتخريب عسقلان، وأن يخرج من بها من الفرنج، وعزم على

الحج والإحرام من القدس، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك، ثم قيده الأمراء وقالوا لاتعتمد على هدنة الفرنج خوفاً من غدرهم، فانتقض عزمه، ورحل عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس، ثم إلى بيسان، ثم إلى كوكب، وبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم إلى مصر، ثم إلى بيروت، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت حادي وعشرين شوال، فأكرمه السلطان، وفارقه غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق، ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبته عنهم كانت أربع سنين ، وأقام العدل والإحسان بدمشق وأعطى العساكر دستوراً، فودعه الملك الظاهر وداعاً لالقاء بعده، وسار إلى حلب وبقي مع السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل ، والقاضي الفاضل، وكان الملك العادل قد أستأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد الملك العادل إلى دمشق طالباً الديار الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين عمر، فوصل إلى دمشق حادي عشرين ذي القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه، وفيها وقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي الأمير عماد الدين أحمد ابن سيف الدين علي بن المشطوب وأميرين معه وذلك بعد وفاة سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب.

وفيها توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين وقد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه وكان أعطاه أبوه سيواس فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والإنفراد

بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه، وقال لوالده وهو في قبضته أنا بين يديك أنفذ أوامرك ، ثم إنه أشهد على والده أنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده،فخرج عسكر قيسارية لقتاله، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب إلى ابنه سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منه واحد منهم ينتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برجلو فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع له وحشد وسار إلى قونية وملكها وأخذها من ابنه ملكشاه، ثم سار إلى أقصرا فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مات في التاريخ المذكور فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها، وأثبت أنه ولي عهد أبيه قليج أرسلان، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان ، فرجع غياث الدين كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعها واستقرت سلطنته ببلاد الروم وبقي كذلك إلى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس، ثم توفي كيكاوس.وملك بعده أخوه علاء الدين كيقباذ، وتوفي علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ وكسره التتر سنة أربع وأربعين وستمائة وتضعضع حينئذ ملك السلاجقة ببلاد الروم، ثم مات كيخسرو بن كيقباذ بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق، وانقضى بموت كيخسرو المذكور ملك سلاطين بلاد الروم في

الحقيقة ، لأن من صار بعد لم يكن له في السلطنة غير مجرد الاسم وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما: ركن الدين، وعز الدين، فملكا بعده معاً مديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين معين الدولة البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر،ثم إن البرواناه قتل ركن الدين، وأقام ابناً لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب التتر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم، وقتل ما لا يحصى، وفيها خرج السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان بن ألدكز، وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره في سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي سنة تسع وثمانين

كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب تغمده الله برحمته.

دخلت هذه السنة والسلطان بدمشق على أجمل المسرة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق وودعه الملك العادل وداعاً لا لقاء بعده، وسار إلى الكرك، وأقام فيه حتى بلغه وفاة السلطان، وأقام السلطان بدمشق وركب يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج وكانت عادته لايركب إلاّ وعليه كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب اجتماع الحجاج وركوبه عالم كثير، ولم يلبس الكزاغند، ثم ذكره وهو راكب فطلبه فلم يجده لأنه لم يحمل معه ، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين على جهة المنيبع، ودخل إلى القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركباته، فلحقه ليلة السبت السادس عشر من صفر كسل عظيم وغشية نصف الليل حمى صفروايه ، وأخذ المرض في التزايد، وفصده الأطباء في الرابع فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين فاستراح بدنه وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة ثاني عشر مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة، ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل لقنه الشهادة، وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، وهي المسفرة عن نهار الأربعاء ثامن وعشرين صفر بعد صلاة الصبح سنة تسع وثمانين، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل

القاضي بهاء الدين بن شداد بعد موته وغسله الخطيب الدولعي بدمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من ثياب تكفينه أحضرها القاضي الفاضل من جهات حل عرفها، وصلى عليه الناس، ودفن بقلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها، وكان نزوله إلى قبره بعد صلاة العصر من النهار المذكور، وكان الملك الأفضل ابنه حلف الناس له عندما اشتد بوالده المرض، وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد وأدخل الجامع ووضع قدام النسر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن الزكي، ثم دفن وجلس ابنه الأفضل في الجامع ثلاثة أيام للعزاء، وانفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره سبعاً وخمسين سنة وكان مدة ملكه بالديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة ، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين،وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له البلاد المصرية والشام واليمن والشرق دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف داراً ولا عقاراً.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج

عكا مـن خيل عراب وأكاديـش، فكان اثني عشر ألـف رأس وذلك غير ما أطلقـه من أثمان الخيل المصـابة في القتال، ولم يكـن له فرس يـركبه إلا وهو مـوهوب أو مـوعود بـه، ولم يؤخـر صلاة عـن وقتها ولا صلى إلاّ في جماعـة، وكان إذا عـزم على أمر تـوكـل على الله ولا يفضـل يوم على يـوم وكـان كثير سماع الحديث النبـوي ، قـرأ مختصراً في الفقـه تصنيف سليـم الرازي، وكـان حسن الخلق، صبوراً على المكـاره كثير التغافل عـن ذنوب أصحابـه يسمع مـن أحدهم مـا يكره ولا يعلمـه بذلـك ولا يتغير عليه، وكـان يومـاً جالسـاً فـرمى بعـض المماليك بعضـاً بسر مـوجة فـأخطأتـه ووصلت إلى السلطـان فأخطـأته ووقعـت قريبـاً منه، فـالتفت إلى الجهـة الأخرى ليتغـافل عنها، وكـان طاهر المجلس لايذكر أحـداً في مجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فلا يولغ بشتم أحد قط.

قـال العماد الكاتـب: مات بمـوت السلطان الـرجال، وفـات بفواتـه الافضـال، وغـاضـت الأيـادي وفـاضـت الأعـادي، وانقطعـت الأرزاق وادلهمت الآفاق، وفجـع الزمان بواحده وسلطانـه ورزىء الإسلام بمسند أركانه.

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسـوبة إليها ولده الأفضل نـور الدين علي، وبالـديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان، وبحلب الملك الظاهر عماد الدين غازي وبالكـرك والشوبك والبـلاد الشرقية الملك العادل سيـف الدين أبـو بكر ابن أيوب، وحماه وسلميـة والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملـك المنصور ناصر الديـــن محمد بن الملك المظفـر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الـدين بهرام شـاه بن فـرخشاه بـن شـاهنشاه بـن أيوب، وبحمـص والرحبـة وتدمر الملك المجـاهد أسد الديـن شيركوه بن محمد بـن شيركوه ابن شـاذي، وبيد الملك الظافـر خضر بن السلطان صلاح الـدين بصرى وهو في خدمة أخيـه الأفضل، وبيد جماعة من أمراء الـدولة بلاد وحصون

منهم سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر، وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس بن خماردكين بيده صهيون وحصن برزية ، وبدر الدين دلدرم ابن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر،وعز الدين سامة بيده كوكب وعجلون، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وفامية.

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان المعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير مصنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مصنف الكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير بوزره، ومد الجزري في جزره، ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الإنفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال إلى ذلك وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز.

وفيها بعد موت السلطان قدم الملك العال من الكرك إلى دمشق وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه إلى بلاده التي هي وراء الفرات.

وفي هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، ملوك البلاد المجاورة للموصل يستنجدهم، واتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وسار إلى حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود إسهال قوي وضعف فنزل العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قيماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود، وقوي بعز الدين مسعود المرض، وتوفي في

السابع والعشرين من شعبان هذه السنة، وكانت المدة ما بين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، ومدة ملك عز الدين الموصل ثلاث عشرة سنة وتسعة أشهر، وكان ديناً خيراً عادلاً كثير الإحسان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي بن آق سنقر، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القائم بأمره مجاهد الدين قيماز، وفي هذه السنة أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط، وبين قتله وموت السلطان شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماتة بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وعمل تختاً وجلس عليه، وسمى نفسه السلطان المعظم[١٤] وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه عبد العزيز وكأن قد فعل ذلك، فلم يمهله الله تعالى، وكان هذا بكتمر من مماليك ظهير الدين شاه أرمن، وكان له حينئذ خشداش اسمه هزار ديناري، واسم هزار ديناري آق سنقر، ولقبه بدر الدين جلبه تاجر جرجاني اسمه علي إلى خلاط، فاشتراه منه شاه أرمن ابن سكمان بن ابراهيم، وأعجب به شاه أرمن فجعله ساقياً، ولقبه هزار ديناري، وبقي على ذلك برهة من الزمان، فلما تولى بكتمر على مملكة خلاط بقي هذا من أكبر الأمراء وتزوج عينا خاتون بنت بكتمر، وخلف بكتمر ولداً، وأخذ هزار ديناري ولد بكتمر وأمه واعتقلها بقلعة أرزاس بموش، وعمر ابن بكتمر سبع سنين، واستقربدر الدين آق سنقر هزار ديناري في مملكة خلاط حتى توفي في سنة أربع وتسعين وخمسمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها شتى شهاب الدين الغوري في نوشاوور، وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم وعاد منصوراً.

وفيها توفي سلطان شاه بن أرسلان ابن خوارزم شاه أطز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد ملك خراسان، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وفيها مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة، ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثر تارة حتى مات.

وفي سنة تسعين وخمسمائة

قتل طغريل بن أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد بن ملك شاه ابن ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكان قد حبسه قزل أرسلان بن ألدكز، وخرج طغريل من الحبس سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وملك همذان وغيرها، وجرى بينه وبين مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان بن ألدكز حرب وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو أزبك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، وخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه تكش، وملك الري وذلك سنة ثمان وثمانين وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه سنة تسع وثمانين وتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه، وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور، وولى ابنه الأكبر ملكشاه مرو،ولما دخلت سنة تسعين سار تكش ليحارب طغريل السلجوقي، فسار طغريل للقائه قبل اجتماع عسكره ، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في رابع وعشرين ربيع الأول هذه السنة ، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسل إلى بغداد فنصب بها عدة أيام، وسار تكش فملك همذان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع الباقي لمماليكه ورجع تكش إلى خوارزم، وهذا طغريل هو آخر من ملك بلاد العجم من السلاطين السلجوقية، وقد تقدم ذكر ابتداء دولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بويه طغرلبك بن مكائيل بن سلجوق، ثم ملك بعده ألب أرسلان بن جغري بك داود بن مكائيل، ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ثم ابنه

محمود بن ملكشاه، وكان طفلاً فقام بتدبير الدولة والدته تركان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين وملك أخوه بركياروق ابن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد، ثم ابنه داود بن محمد مدة يسيرة، ثم عمه طغر لبك بن محمد ثم أخوه مسعود بن محمد، ثم أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياماً يسيرة، ثم أخوه محمد بن محمود، ثم بعد محمد المذكور اختلفت العساكر، وقام من بني سلجوق ثلاثة أحدهم ملكشاه بن محمود، أخو محمد المذكور، والثاني سليمان شاه بن محمد بن السلطان ملكشاه الأكبر، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن السلطان ملكشاه، وكان ألدكز متزوجاً بأم أرسلان شاه المذكور، فقوي عليهما سليمان شاه واستقر في همذان سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ثم قبض سليمان شاه وقتل وسم ملكشاه بن محمود ومات بأصفهان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وانفرد أرسلان شاه بن طغريل ربيب ألدكز على السلطنة، ثم ملك ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل في سنة ست وثمانين وخمسمائة، وجرى له ما ذكرناه حتى قتل تكش في هذه السنة ، أعني سنة تسعين وخمسمائة، وانقرضت به دولة السلجوقية من تلك البلاد.

وفيها أرسل الخليفة الناصر عسكراً مع وزيره مؤيد الدين محمد بن علي المعروف بابن القصاب إلى خوزستان وهي بلاد شملة وأولاده من بعده ، وكان قد مات صاحبها ابن شملة، واختلفت أولاده فوصل عسكر الخليفة إلى خوزستان وملكوا مدينة تستر في محرم سنة إحدى وتسعين وغيرها من البلاد، وملكوا قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الأموج وغيرها من البلاد والحصون، وأنفذوا بني شملة أصحاب خوزستان إلى بغداد [١٥].

وفيها أعني سنة تسعين استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابني السلطان صلاح الدين، وسار العزيز في عسكر مصر

وحصر أخاه الأفضل بدمشق وأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه المنصور صاحب حماه يستنجدهم، فساروا إلى دمشق واصلحوا بين الأخوين ورجع العزيز إلى مصر، ورجع كل ملك إلى بلده وأقبل الأفضل بدمشق على الشرب وسماع الأغاني ليلاً ونهاراً ، وأشاع ندماؤه أن عمه العادل حسن له ذلك، فكان يعمله بالخفية فأنشده العادل:

فـــــلا خير في اللـــــذات
مـــــــــادونها ستر

فقبل وصية عمه، وتظاهر بذلك وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري يدبرها برأيه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك، وأزال المنكر، وواظب على الصلوات وشرع في نسخ مصحف بيده.

سنة إحدى وتسعين إلى سنة ستمائة

وفي سنة إحدى وتسعين

سار ابن القصاب وزير الخليفة بعد تملكه خوزستان إلى همذان وملكها، وأخذ يستولي على تلك البلاد للخليفة، فتوفي مؤيد الدين بن القصاب في أوائل شعبان سنة اثنتين وتسعين.

وفيها غزا يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب بالأندلس الفرنج، وجرى بينهم مصاف عظيم انتصر فيه المسلمون، وقتل من الفرنج ما لا يحصى وولوا منهزمين وغنم المسلمون مالا يحصى.

وفيها جهز الخليفة الإمام الناصر عسكراً مع مملوك له اسمه سيف الدين طغريل، فاستولى على أصبهان.

وفيها قدم مماليك البهلوان عليهم مملوكاً من البهلوانية اسمه كوكجا فعظم أمره، واستولى على الري وهمذان.

وفيها عاود الملك العزيز عثمان قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل وسار ونزل الفوار من أرض السواد من بلاد دمشق، واضطرب بعض أمرائه عليه، وهم طائفة من الأسدية وفارقوه فبادر العزيز إلى مصر بمن بقي معه من العسكر، وكان الأفضل قد استنجد بعمه العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحل العزيز إلى مصر رحل العادل والأفضل ومن انضم إليهما من الأسدية في إثر العزيز طالبين مصر، وساروا حتى نزلوا على بلبيس، وقد ترك العزيز فيها جماعة من الصلاحية وقصد الأفضل مناجزتهم بالقتال ، فمنعه عمه العادل فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها، فمنعه عمه العادل أيضاً، وقال مصر لك متى شئت ، وكان العادل مع العزيز في الباطن، وقال،ارسل الى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين،وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابستهما لما رأى من فساد أحوالهما، فدخل عليه الملك العزيز وسأله فتوجه إلى القاهرة إلى الملك العادل، واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين، فأصلحا بينهما وأقام العادل بمصر عند العزيز على حسب تقرير أمور المملكة ، وعاد الأفضل إلى دمشق.

وفيها كان بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفرنج بالأندلس شمالي قرطبة حروب عظيمة، انتصر فيها يعقوب وانهزم الفرنج.

وفي سنة اثنتين وتسعين

سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة إلى بلاد الهند وفتح قلعة عظيمة تسمى بهنكربالأمان ثم سار إلى قلعة كواكبر بينهما نحو خمسة أيام ، فصالحه أصحابها على مال حملوه إليه، ثم سار في بلاد الهند فغنم وأسر وعاد إلى غزنة.

وفيها سلم صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي رئيس الشافعية أصفهان إلى عسكر الخليفة ، فقتله سنقر الطويل شحنة الخليفة بأصبهان بسبب منافرة جرت بينهما.

وفيها نقل الملك الأفضل أباه صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة، وكان مدة لبثه في القلعة ثلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة ، وأموره مسلمة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثر شاكوه وقل شاكروه، فلما بلغ العادل والعزيز بمصر اضطراب الأمور على الأفضل اتفق العادل والعزيز على أن يأخذا دمشق ويسلمها العزيز إلى العادل وتكون السكة والخطبة للعزيز بسائر البلاد، كما كانت لأبيه، فخرجا وسارا من مصر، فأرسل الملك الأفضل إليهما فلك الدين أحد أمرائه، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه واظهر الإجابة إلى ما طلبه، وأتم العادل والعزيز السير حتى نازلا دمشق وقد حصنها الملك الأفضل، فكاتب بعض الأمراء من داخل الملك العادل وصاروا معه أنهم يسلمون المدينة إليه ، فزحف الملك العادل والعزيز ضحى يوم الأربعاء سادس عشرين رجب هذه السنة، فدخل الملك العزيز من باب الفرج، والعادل من باب توما، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة ، وانتقل منها بأهله وأصحابه وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير في صندوق خوفاً عليه من الفتك ، وكان الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الملك الأفضل ومعاضداً له، فأخذت منه بصرى أيضاً فلحق بأخيه الملك الظاهر، وأقام عنده بحلب وأعطي الملك الأفضل صرخد، فسار إليها بأهله ، واستوطنها ودخل الملك العزيز إلى دمشق، يوم الأربعاء رابع شعبان ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل، على حكم ما كان وقع عليه اتفاقهما، وتسلمها الملك العادل ، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان ،

وكانت مدة ملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهراً، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز، ولما استقر الملك الأفضل بصرخد كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه أبي بكر وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان
قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم
كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الملك الناصر جوابه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فإن ناصرك الإمام الناصر

وفي سنة ثلاث وتسعين

توفي بنيسابور ملكشاه بن تكش، وكان أبوه خوارزم شاه قد جعله فيها، وجعل له الحكم على تلك البلاد، وجعله ولي عهده، وخلف ملكشاه ولداً اسمه هندوخان فلما مات ملكشاه جعل تكش في نيسابور ولده الآخر قطب الدين محمد، وهو الذي ملك بعد أبيه تكش وجعل لقبه علاء الدين ، وكان بين الأخوين ملكشاه ومحمد عداوة مستحكمة.

وفيها توفي في شوال سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، ولما مات سيف الإسلام كان ولده الملك المعز اسماعيل

بالسرين، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده، ومضوا به إلى ممالك أبيه ، فسلموها إليه وكانت وفاة سيف الإسلام بزبيد ، وكان شديد السيرة مضيقاً على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال ما لا يحصى، حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

وفي سنة أربع وتسعين

في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب سنجار والخابور والرقة، وكان حسن السيرة متواضعاً يحب العلم وأهله، إلا أنه كان شديد البخل، وملك بعده ولده قطب الدين محمد، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين واستنجد الملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية ، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين، وعاد إلى الموصل فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وملك نصيبين.

وفيها سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهي للخطا وحاصرها وملكها وكان تكش أعور، فأخذ أهل بخارى في مدة الحصار كلباً أعور وألبسوه قباء وقالوا للخوارزمية: هذا سلطانكم ورموه في المنجنيق إليهم، فلما ملكها تكش أحسن إلى أهل بخارى وفرق فيهم أموالاً ولم يؤاخذهم بما فعلوه في حقه.

وفيها وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، فسار الملك العادل ونزل على تل العجول، وأتته النجدة، ووصل

إليـه سنقر الكبير صـاحب القـدس وميمـون القصري صاحـب نابلـس، وسـار الملك العـادل إلى يـافا وفتحهـا بـالسيف وقتـل مقـاتلتها، وسبى نساءها وصبيانها، وكـان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونـازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيـز صاحب مصر، وسار الملك العزيز بعسـاكـره واجتمع بعمـه الملك العـادل على تبنين، فـرحـل الفـرنـج على أعقابهم إلى صور، ثـم رحل الملك العزيز إلى مصر، وترك غـالب العسكر مع عمه، وجعل إليه أمر الحرب والصلح.

ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملـك العادل أمر القدس إلى صارم الدين قطلـق مملوك عز الدين فرخشاه بن شـاهنشاه بن أيوب، ولما عاد الملـك العزيز إلى مصر في هذه المرة مـدحه القاضي ابن سنـاء الملك بقصيدة منها:

قـدمـت بـالسعـد وبـا المغنـم
كـذا قـدوم الملـك المقـدم
أغثـت تبنين وخلصتهـا
فـريسـة مـن مـا ضغـي ضيغـم
شنشنـة تعـرف مـن يـوسـف
في النصر لا تعـرف مـن أخـزم
مقـدم صـار جمادى بـه
كمثـل ذي الحجـة في الموسـم

ثم طـاول الملك العادل الفرنـج فطلبوا الهدنة، واستقرت بينهـم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سـار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ حسام الـدين بولق أرسلان بن ألبي ابن تمرتـاش بن ايلغـازي، بن أرتـق، وليس لبـولق مـن الحكم شيء وإنما الحكم إلى مملوك أبيه البقش.

وفيها توفي بدر الـدين هزار ديناري صاحب خـلاط آقسنقر وقد تقدم

ذكر ملكه لخلاط سنة تسع وثمانين وخمسمائة ولما توفي هزار ديناري استولى على خلاط خشداشه قتلغ وكان مملوكاً أرمني الأصل من السناسنة، فملك خلاط سبعة أيام، ثم اجتمع عليه الناس وأنزلوه من القلعة وقتلوه، واتفق كبراء الدولة وأحضروا محمد بن بكتمر من القلعة التي كان معتقلاً فيها واسمها أرزاس وأقاموه في مملكة خلاط، ولقبوه الملك المنصور، وقام بتدبيره شجاع الدين قتلغ الدوادار ، وكان قتلغ المذكور قفجاقي دوادار لشاه أرمن سكمان بن إبراهيم، واستقر محمد بن بكتمر كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة، فقبض على أتابكه قتلغ الدوادار وحبسه ثم قتله ، فخرج عليه مملوك لشاه أرمن يقال له عز الدين بلبان، واتفق العسكر مع بلبان المذكور وقبضوا على محمد بن بكتمر وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعة إلى أسفل وقالوا وقع، واستمر بلبان في مملكة خلاط دون سنة، وقتله بعض أصحاب طغريل بن قليج أرسلان صاحب أرزن، وقصد طغريل أن يتسلم خلاط، فلم يجبه أهلها وعصوا عليه فعاد إلى أرزن، ثم وصل الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وتسلم خلاط وملكها ثمان سنين.

وفي سنة خمس وتسعين

منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم توفي الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد فركض خلف ذئب وتقنطر وحم في سابع المحرم بجهة الفيوم، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه، ودخل القاهرة يوم عاشوراء وحدث به يرقان وقرحة في الأمعاء ، واحتبس طبعه، فمات في التاريخ المذكور، وكانت مدة ملكه ست سنين إلا شهراً، وعمره سبعاً وعشرين سنة وأشهراً، وكان في غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة، وكان الغالب على دولة الملك العزيز فخر الدين جهاركس، فأقام في الملك الملك المنصور

محمد بن الملك العزيز، واتفقت الأمراء على احضار واحد من بني أيوب، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الأفضل، وهو حينئذ بصرخد فأرسلوا إليه فسار مجدًا، ووصل إلى القاهرة على أنه أتابك الملك المنصور بن الملك العزيز وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهوراً، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفراً متنكراً خوفاً من أصحاب عمه العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الآخر، ثم سار الملك الأفضل إلى القاهرة فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه، فتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يسير يقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين، فبرز الملك الأفضل من مصر، وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل وصوله إلى دمشق فترك على ماردين الملك الكامل، وسار الملك العادل وسبق الأفضل إلى دمشق فدخل قبل نزول الأفضل إليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره إلى المدينة حتى وصلوا إلى باب البريد ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوه، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب، فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعند أهل دمشق، وأشرف الأفضل والظاهر على أخذ دمشق، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها قصد الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه بارين، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد ابن المقدم، وحاصرها وكان الأمير عز الدين مع الملك العادل محصوراً بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المناجنيق وجرح حال الزحف، ثم فتحها تاسع عشرين ذي القعدة، وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها.

وفيها في جمادى الآخرة توفي أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا، وكانت ولايته خمس عشرة سنة، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية، وأعرض عن مذهب مالك،وعمره ثمان وأربعون سنة وتلقب بالمنصور، ولما مات يعقوب ملك ابنه محمد وتلقب بالناصر، ومولد محمد سنة ست وسبعين وخمسمائة، وعبد المؤمن وبنوه جميعهم كانوا يسمون بأمير المؤمنين.

وفيها رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين.

وفيها كانت فتنة عظيمة في عسكر غياث الدين محمد ملك الغورية وهو بفيروزكوه، وسببها أن الإمام فخر الدين الرازي محمد بن عمر كان قد قدم إلى غياث الدين، فبالغ غياث الدين في إكرامه، وبنى له مدرسة بقرب جامع هراة، فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة، ومذهبهم التجسيم والتشبيه، وكان الغورية كلهم كرامية، فكرهوا الإمام فخر الدين لكونه شافعي، وهو يناقض مذهبهم فاتفق أن فقهاء الكرامية والحنفية والشفعوية حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة ، وحضر الإمام فخر الدين الرازي والقاضي عبد المجيد بن عمر المعروف ابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية، وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه، فتكلم الرازي فاعترض عليه ابن القدوه وطال الكلام، فقام غياث الدين فاستطال فخر الدين الرازي على ابن القدوه وشتمه، وبالغ في أذاه وابن

القدوة لايزيده على أن يقول لايفعل مولانا، لا واخذك الله فصعب على الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين، وزوج ابنته وشكا إلى غياث الدين من فخر الدين الرازي ونسبه إلى الزندقة، ومذهب الفلاسفة، فلم يصغ إليه غياث الدين، فلما كان الغد وعظ الناس ابن عمر بن القدوة بالجامع وقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين(١٧))أيها الناس إننا لانقول إلاّ ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما علم أرسطو وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابي فلا نعلمها ، فلأي حال شتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وسنة نبيه، وبكى وبكى الكرامية معه واستغاثوا، وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة ، وبلغ ذلك السلطان غياث الدين فبعث جماعة سكنوا الناس ووعدهم باخراج فخر الدين الرازي من عندهم، وتقدم إلى فخر الدين بالعود إلى هراة فعاد إليها.

وفيها في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قيماز بقلعة الموصل، وهو الحاكم بدولة نور الدين أرسلان صاحب الموصل، وقيماز المذكور هو الذي كان حاكماً على عز الدين مسعود والد نور الدين أرسلان حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قيماز عاقلاً أديباً فاضلاً في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة وبنى عدة جوامع وربط ومدارس.

وفيها فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية وصار شافعي المذهب.

وفي سنة ست وتسعين

كان في أوائلها الملكان الأفضل والظاهر على دمشق محاصريها، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر وسببه أنه كان للملك

الظاهـر مملوك يحبه اسمـه أيبك، ففقد ووجد عليـه الملك الظاهـر وجداً عظيماً، وتوهم أنه دخل دمشق فـأرسل يكشف خبره واطلع الملك العادل وهـو محصـور على القضيـة، فـأرسـل إلى الظـاهـر يقـول :إن محمـود بـن السكري أفسـد مملوكـك وحمله إلى الأفضل أخيـك ،فقبض الظـاهر على ابن السكري، فظهر المملوك عنـده، فتغير على أخيه الأفضل ، وترك قتال الملك العـادل، وظهر الفشل في العسكـر ،فتأخـر الأفضل والظاهـر عن دمشـق وأقـامـا بمـرج الصفر إلى أواخـر صفـر، ثـم سـارا إلى رأس الماء ليقيمان إلى أن ينسلـخ الشتاء، ثـم انثنى عـزمهما وسار الأفضـل إلى مصر والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسـار في إثـر الأفضـل إلى مصر ، فلما وصل العسكـر إلى مصر تفـرقـت عساكـره لأجل الربيع ، وأدركـه عمه العادل فخرج الأفضـل وضرب معه مصافـاً فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهـرة، ونازل العادل القاهـرة ثمانية أيام، فأجـاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميـافارقين وحاني وسميساط، فأجـابه العادل إلى ذلك ولم يـف له به، وكان دخـول العادل إلى القاهرة في حادي عشرين ربيع الآخر هذه السنة.

قـال ابن الأثير: كـان دخـول العـادل إلى القاهـرة يـوم السبـت ثامـن عشريـن ربيع الآخـر وتوفي القـاضي الفاضـل في سـابع عشرة ثـم سافـر الملك الأفضل إلى صرخد(١٨) ..

وأقام العـادل بمصر على أنه أتـابك الملـك المنصور محمـد بن العـزيز عثمان مـدة يسيرة ، ثـم أزال الملـك المنصـور محمـد واستقـل العـادل بالسلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العـادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماه يعتـذر إليه مما وقع فيه بسبـب أخذ بارين مـن ابن المقدم، فقبل الملك العـادل عذره وأمره برد بـارين إلى ابن المقدم، فـاعتذر الملك المنصور عنهـا لقربها مـن حماة، ونزل عـن منبج وقلعـة نجم لابـن المقدم عوضاً عـن بارين، فرضي ابـن المقدم بذلك لأنهما خير مـن بعرين بكثير،

وتسلمها عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم، وكان له أيضاً فامية وكفر طاب، وخمس وعشرين ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها ، وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم الملك الظاهر صاحب حلب بذلك وقصر النيل في هذه السنة تقصيراً عظيماً حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعاً.

وفيها في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن أرسلان بن أطز بن محمد بن أنوشتكين صاحب خوارزم وبعض خراسان والري وغيرها الجبلية شهر ستانية، وولي الملك بعده ابنه محمد بن تكش وكان لقبه قطب الدين محمد فغيره إلى علاء الدين وكان تكش عادلاً حسن السيرة ، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة والأصول، ولما بلغ غياث الدين ملك الغورية موت خوارزم شاه تكش ضربت نوبيته ثلاثة أيام، وجلس للعزاء مع ما كان بينهما من العداوة المستحكمة وهذا خلاف ما فعله بكتمر بعد موت السلطان صلاح الدين، ولما استقر في المملكة محمد بن تكش هرب ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه بن تكش إلى غياث الدين ملك الغورية يستنصره على عمه، فأكرمه غياث الدين ووعده القيام معه.

وفي سنة سبع وتسعين

توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك المقدم وصارت بلاده بعده وهي: منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن بن عبد الملك المقدم، ولما استقر الشمس عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر وحصرها وملك منبج، وعصى عبد

الملك بن المقدم بالقلعة فحصره، ونزل عبد الملك بالأمان فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم، وفيها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماه يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل، فاعتذر الملك المنصور باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما أيس الملك الظاهر منه سار إلى إلى المعرة، وأقطع بلادها واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر ابن المقدم من حلب، وكان معتقلاً بها وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع، فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم، فضرب ضرباً عظيماً وبقي يستغيث، فأمر قراقوش فضربت النفارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلاد صراخه، ولم يسلم القلعة، فرحل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماه وحاصرها لثلاث بقين من شعبان هذه السنة، ونزل شمال البلد وشعث التربة التقوية وبعض البساتين وزحف من جهة الباب الغربي وقاتل قتالاً شديداً، ثم زحف في آخر شعبان من الباب الغربي والباب القبلي وباب العميان وجرى بينهم قتال شديد، وجرح الملك الظاهر بسهم في ساقه، واستمر الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال حمله إليه قيل أنه ثلاثين ألف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق وبها الملك المعظم بن الملك العادل، فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى تملكا دمشق يتسلمها الأفضل،ثم يسيران إلى الملك العادل بمصر فيأخذاها منه ويتسلمها الأفضل وتسلم دمشق حينئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ويصير الشام جميعه

للظاهر، وكان قد تخلف من الأمراء الصلاحية عنهما فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا، ونقل الأفضل ولديه وأهله إلى عند الملك المجاهد بحمص، وبلغ الملك العادل حصار الأخوين لدمشق فخرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما واشتدت مصادمة الملكين الأفضل والظاهر لدمشق وتعلق النقابون بسورها، فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك حسد أخاه الأفضل على دمشق، وقال له: أريد أن تسلم دمشق إليّ الآن، فقال له: إن حريمي حريمك وهم على الأرض، وهب هذه البلد لك فاجعلها لي إلى حين تملك مصر وتأخذه، فامتنع الظاهر عن قبول ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية إنما هو لأجل الأفضل، فقال لهم الأفضل: إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجل أخي الملك الظاهر فإياكم فها أنتم وإياها، فقالوا: إنما قتالنا لأجلك وتخلوا عن القتال، وأرسلوا صالحوا الملك العادل، وخرجت السنة وقد تفرقت العساكر، فرحل الظاهر عن دمشق في أول المحرم سنة ثمان وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفيها توفي العماد الكاتب

وفيها سار الملك غياث الدين ملك الغورية بعساكره، واستدعى أخاه شهاب الدين من غزنة فسار إليه بعساكره أيضاً، وسار غياث الدين إلى خراسان، واستولى على ما كان لخوارزم شاه بخراسان، ولما ملك غياث الدين مرو سلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش الذي هرب من عمه محمد إلى غياث الدين، ثم استولى غياث الدين على سرخس، وطوس، ونيسابور، وغيرها، ولما استقر ت هذه البلاد لغياث الدين عاد إلى بلاده، وتوجه أخوه شهاب الدين إلى بلاد الهند فغنم وفتح نهرواله من أعظم بلاد الهند.

وفيهـا في رمضان ملـك ركن الـدين سليهان بـن قليج أرسـلان مدينـة ملطية، وكـانت لأخيه معـز الدين قيصر شاه بـن قليج أرسلان، ثـم سار سليهان إلى ارزن الروم وكـانت لمحمـد ابن صليـق، وهو مـن بيت قـديم ملكـوا أرزن الروم فخـرج صـاحب ارزن ليصـالـح سليهان فقبض عليـه، وأخذ البلد منه، وهذا محمد آخر الملوك من أهل بيته.

وفيها توفي سقهان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقهان بن أرتق.

وفي سنة ثمان وتسعين

بعد رحيـل الملكين الأفضل والظـاهر عن دمشـق قدم الملـك العادل، وكان قـد سار ميمـون القصري مع الملـك الظاهـر فأقطعـه أعزاز. وفيهـا خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفـاً من أن تؤخذ منه، وأقطع منبج بعد ذلك لعماد الديـن أحمد بن سيف الدين علي ابن المشطـوب. وفيها أرسل قراقـوش نائب عبد الملك بـن محمد بن عبـد الملك بن المقدم بفـامية إلى الملك الظاهر يبذل تسليم فامية بشرط أن يعطى شمس الدين عبد الملك ابن المقـدم اقطاعاً يـرضاه، فأقطعـه الملك الظاهـر الراوندان وكفـرطاب، ومفردة المعرة، وهوعشرون ضيعـة معينة من بلاد المعرة، وتسليم فـامية، ثم إن عبـد الملك بـن المقدم عصـى بـالراونـدان فسـار إليه الملـك الظاهـر واستنزله منها وابعده فلحق ابن المقدم بالملك العادل، فأحسن إليه.

وفيهـا سـار الملـك العـادل مـن دمشـق ووصـل حماه، ونـزل على تـل صفرون، وقـام الملك المنصور صاحـب حماه بجميع وظائفه وكلفـه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه إلى حماه بنية قصده ومحاصرته بحلب، فاستعـد للحصار وراسـل عمه ولاطفـه واستعد للصلـح فوقـع الصلح، وانتزعت مفـردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صـاحب حماه، وأخذت من الملك الظاهـر أيضاً قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضـل، وكان له

سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى، وسيره إلى الشرق وكان الملك الأوحد بن الملك العادل بميافارقين، والملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل بقلعة جعبر، ولما استقر الصلح بين العادل والظاهر رجع العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها، وخطب له فيها باسمه.

وفيها عاد خوارزم شاه محمد بن تكش واسترجع البلاد التي أخذها الغورية من خراسان إلى ملكه.

وفي سنة تسع وتسعين

في المحرم توفي فلك الدين سلطان أخو الملك العادل لأمه، وهو الذي تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق.

صلاح الدين يوسف بن أيوب

من

طبقات الشافعية الكبرى

لتاج الدين السبكي

- ١٠٧٤٩ -

يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان الدويني الأصل، التكريتي المولد

ودوين بضم الدال وكسر الواو بعدها آخر الحروف ساكنة ثم نون، بطرف أذربيجان، من جهة أران أهلها أكراد.

وهو السلطان الملك الناصر، التقي النقي، العالم الذكي، العادل الزكي، فاتح الفتوح، بركة أهل زمانه، صلاح الدين أبي المظفر، ابن الأمير الملك الأفضل نجم الدين.

ولد سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، بتكريت، إذ أبوه واليها.

وسمع الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الطاهر بن عوف، والشيخ قطب الدين النيسابوري، وعبد الله بن بري النحوي، وجماعة.

روى عنه يونس بن محمد الفارقي، والعماد الكاتب، وغيرهما.

وكان فقيها، يقال: إنه كان يحفظ القرآن و«التنبيه» في الفقه و«الحماسة» في الشعر.

وملك البلاد، ودانت له العباد، وأحبه الخلق، ونصر الإسلام، وغزا الفرنج وكسرهم مرات، وفتح المدن الكبار، وأقام في السلطنة أربعا وعشرين سنة، يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.

وكان ملكا عظيما شجاعا مهيبا عادلا، يملأ العيون روعه والقلوب محبة، قريبا بعيدا، عابدا قانتا لله، لاتأخذه بالله لومة لائم، مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء، وأصحابه كأنما هم على قلب رجل واحد، محبة فيه واعتقادا وطواعية.



- ١٠٧٥٠ -

ولقد صنف في سيرته القاضي ابن شداد كتابا مستقلا، وصنف ابن واصل كتابا في سيرته وسيرة أهل بيته، وصنف أبو شامة في سيرته وسيرة الملك نور الدين، وصنف العماد الكاتب في فتوحاته وصنف آخرون في شأنه، وماعسى الذي نورده بعد ماأطال هؤلاء، ثم اعترفوا بالقصور والتقصير، في حق هذا السيد الكبير، ولنأت بما فيه مقنع وبلاغ.

-١٠٧٥١-

ذكر ابتداء أمره قبل ملكه

قدم به أبوه إلى دمشق وهو رضيع، فناب أبوه ببعلبك لما أخذها أتابك زنكي في سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: إن أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتطيروا به، وقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وأنتم لاتعلمون، فكان كذلك، ثم اتصل والده نجم الدين أيوب بالملك نور الدين الشهيد، خدمه هو وولده صلاح الدين هذا خدمة بالغة، وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين عند نور الدين قبلهما، وكان أرفع عنده منهما منزلة، فإنه كان مقدم جيوشه، فلما تخلخل حال المصريين الفاطميين، وضعفوا عن مقاواة الفرنج، وكادت الفرنج تملك القاهرة، وملكوا بلبيس، وصيروا لهم بالقاهرة شحنة يحكم، وضعف أمر الإسلام بديار مصر جدا، وكان الفاطميون قد بلغوا في سوء السيرة إلى الحد المعروف، وأفتى علماء الاسلام بإباحة دمائهم، ووجوب قتالهم، لما هم عليه من الزندقة والإلحاد، ووصل شاور وزير العاضد خليفة مصر إلى دمشق إلى نور الدين يستنجده، ثم عاد إلى مصر، فجهز نور الدين إليهم عسكرا أمر عليهم أسد الدين شيركوه، وجهز معه أخاه نجم الدين، وابن أخيه صلاح الدين، فدخلوا مصر آمنين، وقتلوا شاور، وولي شيركوه وزارة الخليفة العاضد، إلى أن مات بعد نيف وسبعين يوما، فولي بعده صلاح الدين الوزارة، وهي في ذلك الوقت كالسلطنة، فاستقل بسلطنة مصر، ولقب بالملك الناصر، لقبه بذلك الخليفة العاضد، في سنة أربع وستين، وصار للعاضد معه الاسم فقط، وصار صلاح الدين هو السلطان، فاستمر إلى أول سنة سبع وستين، فقطع صلاح الدين الخطبة للعاضد، وخطب للمستضيء خليفة بغداد، واستقل بالملك، ومات العاضد، وقبض صلاح الدين على الفاطميين بأسرهم، واستولى على القصر وخزائنه، وهي أموال لاتحصى ولاتعرف لملك قبل الفاطميين.

وكان صلاح الدين من حين اتصل بخدمة نور الدين قد طلق

اللذات، وكـان محببا إليـه خفيفا على قلبه، ولما افتتـح مع عمـه مصر ثم استقل بالوزارة عظمت سطوته، واتفقـت له وقعة مع السودان سنة بضع وستين، وكـانوا نحـو مئتـي ألف، فنصر عليهـم وقتـل أكثرهم، وهـرب الباقون، وابتنى سور مصر والقاهرة على يـد قراقوش، واستفحل أمره جدا إلى أن أباد بيت الفاطميين وأهان الرفض وغيرهم من بدع المبتدعين.

ذكر يسير من أخباره بعد استقلاله بالسلطنة وموت العاضد

وقد كـان لما قبض على الفاطميين أخـذ في نصرة السنة وإشـاعة الحق وإهانة المبتـدعة، والقبض على الفاطميـة والانتقام من الروافـض، وكانوا بمصر كثيرين، وكـان من أول فتـوحاته: بـرقة ونفـوسة، افتتحهـا على يد أخيه شمـس الدولة، في سنة ثمان وستين، ثـم في سنة تسع افتتـح اليمن، وقبض على المتغلب عليهـا عبد النبي بن مهدي، ثـم في سنة سبعين سار من مصر إلى دمشـق بعد وفـاة نور الديـن، مظهرا أنه يقيـم نفسه أتـابكا لولـد نور الديـن، لكونه صبيـا، فدخلهـا يلاطفه، ونـزل بالبلد بـدار أبيه المعروفة بدار العقيقـي التي هي اليوم المدرسة الظاهريـة، ثم تسلم القلعة وصعد إليهـا وأخرج الصبي من الملـك، وصار هو سلطـان مصر والشام واليمن والحجاز ثم سار قاصـدا حماة وحمص، ولم يشتغل بأخذ قلعتها ثم نـازل حلب وهـي الوقعـة الأولى، وفيهـا سير السلطان غـازي بن مـودود أخاه عـز الدين مسعـودا في جيش كبير لحربه، وكـان بها ولد نور الـدين فترحل عـن حلب ونـزل على قلعة حمص فأخـذها وهـو مع ذلـك يظهر حسـن المقاصـد، وأنه قـاصد إعـزاز الـدين وإنقـاذ البلاد مـن الفرنـج، وتسهيل أمور المسلمين.

وجاء عـز الديـن مسعود فـأخذ معـه عسكر حلـب، وصار إلى قـرون حماة، وأخذ صـلاح الدين يـراسلهم دوامـا للصلح، كيلا يقـع سيف بين

المسلمين، وهم يراسلونه، وهم يظنون أنه يطلب الصلح لضعفه عنهم، وهم لايعرفون ماعليه الرجل من حسن النية، وحقق عندهم ماظنوه كثرة عساكرهم وقلة من كان مع صلاح الدين من العسكر في ذلك الوقت، فلما أبوا إلا المشاجرة، معتقدين أن المصاف معهم يحصل غرضهم، وأعجبتهم كثرتهم، لاقاهم صلاح الدين، فكانت الهزيمة عليهم، وأسر صلاح الدين منهم خلقا، ثم ساق وراءهم، ونزل على حلب ثانيا فصالحوه وأعطوه المعرة ، وكفر طاب، وبارين.

وجاء صاحب الموصل غازي، فحاصر أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، لكونه انتمى إلى صلاح الدين، ثم صالحه لما بلغ غازي كسر أخيه مسعود، ونزل بنصيبين، وجمع العساكر، وأنفق الأموال وعبر الفرات وقدم حلب، فخرج إلى تلقيه ابن عمه الصالح إسماعيل بن نور الدين، وأقام على حلب مدة.

ثم كانت وقعة تل السلطان، وهي منزلة بين حلب وحماة، جرت بين صلاح الدين وصاحب الموصل، في سنة إحدى وسبعين، فنصر صلاح الدين ورجع غازي، وعدى الفرات بعد مااستأصل صلاح الدين كثيرا من خيامه وأمواله، وفرقها في جماعته، ثم سار صلاح الدين، فتسلم منبج، وحاصر قلعة أعزاز، ثم نازل حلب ثالثا وأقام عليها مدة، فأخرجوا ابنة صغيرة لنور الدين إلى صلاح الدين، فسألته اعزاز فوهبها لها، ثم عاد إلى الديار المصرية، واستناب بدمشق أخاه شمس الدولة تورانشاه، وكان قد عاد من اليمن، وكانت هذه السفرة منه إلى الشام مما نقم عليه ظاهرا، للإساءة فيها إلى ولد نور الدين، وهو ابن مخدومه الذي أنشأه وأحسن إليه، وقيامه على بيت الملك والعز قبله، وهما صاحب الموصل وأخوه، غير أن الحال بالآخرة تبين أن الله تعالى قد أراد إعزاز دينه على يد هذا الرجل، وأنه لايتم للمسلمين أمر بدون سلطان قاهر قادر على استئصال شأفة الفرنج في ذلك الوقت، يجتمع عليه المسلمون

ولاتتفرق عنه كلمتهم، ويكون هو في نفسه جديرا بذلك، وأبى الله أن يكون في ذلك العصر إلا صلاح الدين.

فلما وصل إلى القاهرة عائدا من الشام بعد مافعل مارأيت مجمله دون مفصله، وفي تفاصيله شرح كبير أحلناك على كتبه، خرج إلى الفرنج في سنة ثلاث، والتقاهم على الرملة، فانكسر المسلمون يومئذ، وثبت صلاح الدين وتحيز بمن معه، ثم دخل إلى مصر، ولم شعث العسكر، ثم عاد إلى الشام وملك حلب وغيرها من البلاد، وعظمت الشوكة، ثم توجه لمحاصرة الفرنج بالكرك، وجاء أخوه العادل من مصر، وكان قد استنابه عليها، فسير صلاح الدين تقي الدين عمر، ابن أخيه، ليحفظ مصر، وأعطى أخاه العادل حلب بعد أن كان بها ولده الظاهر بن صلاح الدين، وقدم الظاهر من حلب، ثم أعاد العادل إلى مصر والظاهر إلى حلب، ثم نزل على الموصل، وترددت الرسل بينه وبين صاحبها عز الدين، ثم مرض صلاح الدين فرجع إلى حران، واشتد مرضه بحيث أيسوا منه وحلفوا لأولاده بأمره، والله يريد حياته ليتم إعزاز دينه، فعوفي، ومر بحمص وقد مات بها ابن عمه محمد بن شيركوه، فأقطعها لولده شيركوه، ثم استعرض التركة، فأخذ أكثرها، وكان عمر شيركوه اثنتي عشرة سنة، ثم إن شيركوه هذا الشاب حضر بعد سنة عند صلاح الدين فقال له: أين بلغت في القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى:(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا).(النساء١٠).

فعجب الحاضرون من ذكائه، وقيل: إن صلاح الدين إنما أخذ الأموال ليحفظها لهذا الشاب.

وفي سنة ثلاث وثمانين

افتتح صلاح الدين بلاد الفرنج، وأسر ملوكهم، وكسرهم على حطين، وتوالت عليه الفتوحات وأنقذ البيت المقدس منهم، وافتتحه وأعز الدين.

ومما اقتلعه من يد الفرنج طبرية، وقتل وأسر في ذلك اليوم أكثر من أربعين ألفا، وتسلم قلعتها، وأحضر إليه صليب الصلبوت، وضرب بين يديه في مخيمة أعناق مائتي فارس من عظماء الفرنج.

ثم افتتح مدينة عكا ، وكانت من أعظم حصونهم وأكبر مدنهم، وأقام بها الخطبة الاسلامية، ثم افتتح البيت المقدس وغيره، وأخلى مابين الشام ومصر من الفرنج، وهذا عداد مايحضرنا من فتوحاته من أيدي الفرنج:

قلعة أيله. طبرية. عكا. القدس. الخليل. الكرك. الشوبك. نابلس. عسقلان. بيروت. صيدا. بيسان. غزة. لد. حيفا. صفورية. الفولة. معليا. الطور. اسكندرونة. قلنسوة. يافا. أرسوف. قيسارية. جبلة. يبنى. صرفند عفر بلا. اللجون.نجد قاقون. مجدل. يابا. تل الصافية. بيت نوبا. النطرون. الجيب. البيرة. بيت لحم. يازور. حصن الدير. دمرا. قلقيلية. هريث. الزيب. الوعيرة. الهرمز. معليا. العازرية. نقوع. الكرمل. مجدل. الطار. المعبر في جبل عاملة. والشقيف. سبسطية. ويقال: بها قبر زكريا. وجبيل. وكوكب. وأنطرطوس. واللاذقية. وبكسرائيل. وصهيون. وجبلة. قلعة العيد. وقلعة الجماهرية. وبلاطنس. والشغر. وبكاس. وسرمانية. وبرزية. ودربساك. وبغراس. وكانا كالجناحين لأنطاكية. ومدينة صفد.

وكل هذه مدائن منيعة، وأكثرها اليوم قرى كبار، ومنها مدائن كثيرة باقية إلى الآن.

ونـازل صور مـدة ولم يقدر لـه فتحها، ولـه مصافـات يطول شرحهـا، وافتتح كثيرا من بلاد النوبة من يد النصارى.

ومن تأمل الـرسائل الفاضلية رأى العجب من تـأثيرات هذا الرجل في الاسلام، ومن شدة بأسه وشجاعته.

وكـانت مملكتـه من الغـرب إلى تخوم العراق، ومعهـا اليمن والحجـاز، فملك ديـار مصر بأسرهـا، مع مـاانضم إليهـا من بـلاد المغرب والشـام بأسرهـا، مع حلـب وماوالاها، وأكثـر ديار ربيعـة وبكر والحجـاز بأسره، واليمن بـأسره، ونشر العدل في الـرعية، وحكـم بالقسـط بين البرية، مـع الـديـن المتين والـورع والـزهـد والعلـم، كـان يحفـظ القـرآن و«التنبيـه» و«الحماسة».

قال الموفق عبـد اللطيف: رأيت السلطان صلاح الـدين على القدس، فـرأيت ملكـا عظيما يمـلأ القلوب روعـة، والعيون محبـة، قـريبا وبعيـدا، سهـلا محببـا، وأصحابـه يتشبهـون بـه، يتسـابقون إلى المعـروف، كما قـال تعالى:(ونزعنا ما في صدورهـم من غل) (الأعراف ٤٣) وأول ليلة حضرته وجـدت مجلسا حفـلا بأهـل العلم، يتـذاكرون في أصنـاف العلوم، وهـو يحسن الاستماع والمشـاركة، ويأخذ في كيفيـة بناء الأسوار وحفـر الخنادق، ويتفقه في ذلـك، وكان مهتما في بنـاء سور القـدس وحفر خنـدقه، يتـولى ذلـك بنفسه، وينقـل الحجـارة على عـاتقه، ويتـأسـى بـه جميع الأغنيـاء والفقراء، فيركـب لذلـك قبل طلوع الشمـس إلى وقت الظهـر، ويأتي داره فيمـد السماط ثم يستريـح، ويركـب العصر ويـرجع في ضـوء المشاعـل، ويصرف أكثر الليل في تـدبير مايعمله نهارا، وكان يحفـظ«الحماسة» ويظن أن كل فقيه يحفظها. انتهى مختصرا.

وقد وثبت عليـه الاسماعيلية مرة فجرحوه وسلمه الله، وهـو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم.

وفتح من بلاد المسلمين: حران، وسروج، والرها، والرقة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وآمد، وملك حلب والبوازيج، وشهرزور، وحاصر الموصل إلى أن هادنه صاحبها عز الدين مسعود، ودخل في طاعته، وكانت هذه عادته، إذا دخل أحد في طاعته لايقابله إلا بالإحسان.

وفتح أيضا من بلاد الشرق: خلاط، على يد ابن عمه تقي الدين، فهذا مافتتحه من بلاد الشرق.

واستولى أيضا على افريقية وفتح عسكره مدينة طرابلس الغرب، وكسر عسكر تونس، وخطب بها لبني العباس، وافتتح بلاد اليمن، قيل: ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى الغرب لملك الغرب بأسره.

ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم، وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفده لكثرته، ولم يكن لمبطل ولالصاحب هزل عنده نصيب.

وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن، وإذا نازل بلدا وأشرف على أخذه ثم يطلب أهله الأمان يؤمنهم، وكان جيشه يتألمون لذلك، لفوات حظهم، ولايسعهم إلا وفاقه وامتثال أمره.

وكان رقيق القلب جدا، وربما حلق على مدينة وأحاط بها، فسمع بكاء الحريم فتركها، وإنما يفعل ذلك مع المسلمين.

فمن كتاب فاضلي في فتوح حمص: «لما أحدقت العساكر المنصورة بالسور العاصم، إحداق السوار بالمعاصم، وطارت السهام إلى أوكارها من الضلوع، وبرقت الأسنة وكأنها زبد بحار الدموع، حصحص الحق، واتسع الخرق، وعلم ان ماأراده الخالق لايرده الخلق، فارتفع الضجيج،

وعـلا تحت العجاج العجيـج، وأدركتنا رقـة رفضت مـن أيدينـا الرقـاق، وخشيـة عنت لنـا أعنـة الفسـاق، فرفعنـا على الأسـوار أعـلاما منشـورة، بـالكـف والإمسـاك مـأموزة، ووضعـت الحرب أوزارهـا، وحلـت الأمنـة أزرارها، وشفعنا الوجـوه المستورة بالخفر من نسوانها، في الـوجوه المكشوفة بالمعصية من فرسانها».

وربما حـاصر قومـا ولم يمنـع الميرة عنهـم، وجرى معهـم على كـذبهم ليأخـذهم بـالسهولة ثـم يتبين له غـدرهم وكذبهم، وهـو مع ذلـك يحلم عنهم، ويراعـي مصلحة الدين، كما اتفق له في حمص، وقـد افتتح المدينة وعصت عليـه القلعة ولم يمنـع الميرة عن أهلهـا، ثم لما تبين لـه حالهم لم يبادر إلى الهدم مع مـافيه من سرعة نصرته، خشية على القلعـة لكونها من حصون المسلمين، وطاول بهم الأمر إلى أن تيسر له فتحها.

فمن كتـاب فاضلي عـن السلطان وهـو محاصر قلعة حمص، وقـد بلغه أن أهلهـا استنجدوا عليـه بالفـرنج: :«وأمـرنا في القلعـة بأن لايضيـق لها خنـاق، ولايضعـف لأهلهـا أرمـاق، ولايمنـع البيـع والشراء والانتقـال، ويفسح لها مالا يفسـح فيـه مـن يريـد تثقيـل وطـأة الحصار، وكـان مـن استدعائهم الفرنج ماكان، وهان بفضل الله تعالى من أمرهم ماهان».

ثم أخذ يصـف القلعة المشار إليها بكونها«نجما في سحـاب، وعقابا في عقاب، وهامـة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبهـا الأصيل كان الهلال منها قـلامة، عاقدة حبـوة، صالحها الدهـر على أن لايحلها بفزعه، عـاقدة عصمة، صـافحها الزمن على أن لايـروعها بخلعة، فاكتنفـت بها عقارب، لاتطبع طبـع حمص في العقارب، وضربتهـا بالحجـارة، فأظهـرت العداوة المعلومـة بين الأقارب، ولم تكـن غير ثالثة(مـن الجد إلا وقد أثـرت فيها جدريا بضربها) ولم نصـل إلى السابع إلا والبحر أتى ينـذر بنقبها، واتسع

الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيرت الجبال منها فكانت سرابا، فهنالك بدت نقوب.

«................................

يرى قائم من دونها ما وراءها»(١).

ومن الكتب والمراسيم عنه

كتب في النهى عن الخوض في الحرف والصوت:(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض)(الأحزاب ٦٥) الآية، خرج أمرنا إلى كل قائم في صف، أو قاعد في أمام وخلف، أن لايتكلم في الحرف بصوت، ولافي الصوت بحرف، ومن يتكلم بعدها كان الجدير بالتكليم:(فيحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)(النور ٦٣) وسأل النواب القبض على مخالفي هذا الخطاب وبسط العذاب، ولايسمع لمتفقه في ذلك تحرير جواب، ولايقبل عن هذا الذنب متاب، ومن رجع إلى هذا الإيراد بعد الإعلان وليس الخبر كالعيان، رجع أخسر من صفقة أبي غبشان، وليعلن بقراءة هذا الأمر على المنابر، ليعلم به الحاضر البادي، ويستوي فيه البادي والحاضر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قلت: لاشك أن هذا الفصل من كلام القاضي الفاضل.

وهذه وقائع شتى

من ابتداء دخوله إلى مصر قبل أن يتسلطن وإلى أن استأثر الله بروجه الطاهرة، مختصرة مقتصرا فيها على عيون الأخبار.

- ١٠٧٦٠ -

في سنة أربع وستين وخمسمائة

كان مسيرا أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين إلى مصر، المسير الثالث، وذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية في جموع كثيرة، وكان الملك نور الدين من جهة الشمال ونواحي العراق، فطلعوا من عسقلان، وأتوا إلى بلبيس، فحاصروها وملكوها واستباحوها، ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفا من الفرنج، وبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوما، فلما ضايقوا القاهرة وضعف المسلمون عنهم بعث إلى ملكهم يطلب الصلح على ألف ألف دينار، يعجل له بعضها، فأجابه ملك الفرنج، واسمه مري، إلى ذلك وحلف له، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار، وماطله بالباقي، وكاتب في ذلك الملك العادل نور الدين يستنجد به، وسود كتابه وجعل في طيه ذوائب النساء، وواصل كتبه يستحثه ، وكان بحلب، فساق أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة.

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد: قال لي السلطان صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج إلى مصر هذه المرة، وهذا معنى قوله:(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (البقرة ٢١٦).

وقال ابن الأثير: إن صلاح الدين قال: لما وردت الكتب من مصر إلى نور الدين أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسول إليه تحثونه على الحضور، ففعلت، فلما سرنا عن حلب ميلا لقيناه قادما، فقال له نور الدين: تجهز، فامتنع للخوف من غدرهم أولا، وعدم ماينفقه في العساكر آخرا، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت عن مصر سرت أنا بنفسي، فإنها إن ملكها الفرنج لايبقى معهم بالشام مقام، فالتفت إلي عمي وقال: تجهز يايوسف، فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر

ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه، فقال عمي لنور الدين: لابد من مسيره معي، وارسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، فانفض المجلس، ثم قال نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت الضائقة، فأعطاني ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين رجلا مهيبا، فسرت مع عمي، فلما توفي أعطاني الله من الملك مالا كنت أتوقعه ، انتهى.

فجمع أسد الدين الجيوش، وسار إلى دمشق، وعرض بها الجيش، وتوجه إلى مصر في جيش عرمرم، فقيل: كانوا سبعين ألف فارس وراجل فتقهقر الفرنج لمجيئه، ودخل القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الدست، وخلع عليه العاضد خلع السلطنة وولاه وزارته، وقام شاور بضيافته وضيافة عسكره وتردد إلى خدمته، فطلب منه أسد الدين مالا ينفقه على جيشه، فماطله، فبعث إليه الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، يقول: إن الجيش طلبوا نفقتهم، وقد ماطلتهم بها وقد تغيرت قلوبهم، فإذا أتيتني فكن على حذر منهم، فلم يؤثر هذا عند شاور، وركب على عادته، وأتى أسد الدين مسترسلا وقيل: إنه تمارض فجاء شاور يعوده، فاعترضه صلاح الدين وجماعة من الأمراء النورية، فقبضوا عليه، فجاءهم رسول العاضد يطلب رأس شاور، فذبح وحمل إليه في سابع عشر ربيع الآخر، ثم لم يلبث أسد الدين أن حضرته المنية بعد خمسة وستين يوما، فقلد العاضد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف السلطنة، ولقب الملك الناصر، وكتب تقليده القاضي الفاضل، بعد ماكان وقع خلف كبير عند الفراغ من عزاء أسد الدين فيمن يكون سلطانا، ثم اتفقت كلمة الأمراء النورية على صلاح الدين، قال العماد الكاتب: وألزموا صاحب القصر، يعني العاضد، بتوليته.وقال القاضي: كانت الوصية إلى صلاح الدين من عمه، فلبس خلعة السلطنة بالقصر بين يدي العاضد، وقبل يده، وجاء إلى دار الوزارة، وإن شئت قلت: دار السلطنة فإن الوزارة عند الفاطميين هي السلطنة اسما ومعنى،

وجلس في دست الملك، وشرع في تركيب السلطنة وترتيبها، فأول مادهمه أمر الخادم الخصي الذي كان يلقب مؤتمن الخلافة، فإنه شق العصا باطنا، وائتمر وتنمر، وانضمت إليه طوائف من أخبث الروافض، وكاتبوا الفرنج خفية، فاتفق أن تركمانيا عبر بالبئر البيضاء، فرأى نعلين جديدين مع إنسان، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، فوجد في البطانة خرقة مكتوب فيها: إلى الفرنج من القصر، فقال: دلوني على كاتب هذا الخط، فدل على يهودي، فلما حضر تلفظ بالشهادتين، واعترف أنه كتب ذلك بأمر الطواشي المشار إليه، واستشعر الطواشي الخبر فلزم القصر، وأعرض عنه صلاح الدين إلى أن خرج إلى قرية له، فأنهض له السلطان صلاح الدين من أخذ رأسه في ذي القعدة، وقرر مكانه بهاء الدين قراقوش، فصار مختوما على القصر، لايدخل القصر شيء ويخرج إلا بمرأى منه ومسمع.

فلما قتل الخادم غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألف مقاتلة، وقد قدمنا أنهم كانوا نحو مائة ألف، وكل قاله المؤرخون، ولعل الجمع بينهما أن الخمسين ألفا كانوا مقاتلة فرسانا، والباقون كانوا رجالة، لايضمهم ديوان، وأقبلوا كقطع الليل المظلم، فخرج إليهم من عسكر صلاح الدين الأمير أبو الهيجاء، واتصل الحرب بين القصرين، ودأب الحرب بينهم يومين، ثم كانت الدائرة على السودان، وأخرجوا إلى الجيزة، وكانت لهم محلة تسمى المنصورة، فخربت وحرقت، ثم بلغ نور الدين نبأ هذه الأخبار الطيبة، فانشرح صدره، وأمد صلاح الدين بأخيه شمس الدولة تورانشاه.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

وفيها نزل الفرنج على دمياط في صفر، وحاصروها أحدا وخمسين يوما، ثم رحلوا خائبين، لأن نور الدين وصلاح الدين أجلبا عليهم برا وبحرا،

وأنفق صلاح الدين أموالا كثيرة، وقال: مارأيت أكرم من العاضد أرسل لي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

وفيها دخل نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين مصر، فخرج العاضد بنفسه إلى لقائه، وتأدب ابنه صلاح الدين معه وعرض عليه منصبه.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وفيها عمل صلاح الدين بمصر مدرستين للشافعية والمالكية، وخرج بجيوشه فأغار على الرملة وعسقلان، وهجم على ربض غزة ورجع إلى مصر، وجهز بعض جنده إلى قلعة أيلة، فغزوها في المراكب وافتتحوها واستباحوا الفرنج فيها قتلا وسبيا، وكان فتح هذه القلعة واستعادتها من الفرنج أعظم النعم على المسلمين، فإنها كانت قلعة منيعة وكانت الفرنج قد اتخذوها هي والكرك سبيلا إلى الإحاطة بالحرمين الشريفين، فقدر الله فتحها على يد هذا السلطان، رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي من السلطان إلى الخليفة يعدد فيه ماللسلطان من الفتوحات ومن جهاد الفرنج: ومنها قلعة بثغر أيلة بناها العدو في البحر، ومنها المسلك إلى الحرمين الشريفين بحيث كادت القبلة يستولى على أصلها، والمشاعر يسكنها غير أهلها، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم يتطرق إليه الكفار، في كلمات قالها.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتح السلطان الخطبة في الجمعة الأولى منها بجامع مصر لبني العباس، وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة، وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء بالقصر، وجلس السلطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء،وانقرضت دولة الفاطميين، وكان لها أكثر من

مائتـي سنة، وتسلم السلطان القصر بما فيـه من خزائنه وذخـائره واحتاط على آل القصر فجعلهـم في مكان بـرسمهم، وقـررت لهم المؤونه وجمعـت رجالهم واحترز عليهـم، ومنعوا من النساء لئـلا يتناسلوا، وذكـر المؤرخون من نفائس القصر وذخائره مالا نطيل بـذكره، وانتقل الملك العادل سيف الدين أبو بكر إلى القصر بمرسوم أخيـه، فاستقر في نيابة السلطان وكتبت الكتب إلى بغـداد بالبشـارة، وأعاد الجواب والخلعة الفـائقة العبـاسية الى السلطان صلاح الدين.

وفيها ، قـال ابن الأثير: حدث مـا أوجب نفره نـور الدين عـن صلاح الدين، وذلك أن نـور الدين أرسل إليه يأمر بجمـع الجيش والمسير لمنازلة الكرك ليجـيء هو بجيشـه ويحاصرانها، فكتب إلى نـور الديـن يعرفـه أنه قادم، فـرحل على قصد الكرك وأتـاها وانتظر وصولـه، فأتاه كتابـه يعتذر باختلال البلاد، فلـم يقبل عذره، وكان خواص صلاح الديـن خوفوه من الاجتماع به، وهـم نور الديـن بالدخـول إلى مصر وإخراج صلاح الـدين عنها، فبلـغ ذلك صلاح الـدين، فجمع أهلـه وأباه وخالـه الأمير شهاب الدين الحارمي، وسـائر الأمراء وأطلعهم على نية نور الديـن واستشارهـم، فسكتوا، فقـال ابن أخيه تقـي الدين عمـر: إذا جاء قاتلنـاه، ووافقه غيره من أهلـه، فشتمهم نجم الديـن أيوب واحتد، وكان ذا رأي ومكـر، وقال لتقي الديـن: اسكت، وزبره وقال لصلاح الـدين: أنا أبوك وهـذا خالك أتظن أن في هـؤلاء من يـريد لـك الخير مثلنا؟ فقـال: لا، فقال: والله لـو رأيت أنا وهـذا نور الدين لم يمكنـا إلا أن ننزل ونقبل الأرض، ولو أمـرنا بضرب عنقك لفعلنا، فما ظنـك بغيرنا؟ فكل من تراه مـن الأمراء لو رأى نور الـدين لما وسعه إلا الترجـل، وهذه البـلاد له، وإن أراد عز لـك فأي حاجـة له إلى المجيء؟ بـل يطلبك بكتاب، وتفـرقوا، وكتب أكثر الأمراء لنور الـدين بما تم، ولما خـلا بولده قـال: أنت جـاهل تجمع هـذا الجمع وتطلعهم على سرك، ولـو قصدك نور الـدين لم تـر أحدا منهم، ثـم كتب إلى نور الدين بإشارة والده نجم الدين يخضع له، ففتر عنه.

-١٠٧٦٥-

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

فأرسل السلطان فيها قراقوش مملوك ولد أخيه تقي الدين عمر إلى جبال نفوسة، ومعه طائفة من الأتراك، فلما وصل إلى الجبال استصحب معه منها بعض المتقدمين، ونزل على طرابلس الغرب، فحاصرها ثم فتحت ، فاستولى عليها قراقوش وسكنها وكثرت عساكره وفيها جهز السلطان شمس الدولة إلى برقة فافتتحها على يد غلام له تركي.

ثم بلغ السلطان أمر ابن مهدي الخارج باليمن وماهو عليه من اختلال العقيدة، فجهز أخاه شمس الدولة، فافتتح اليمن وتملكها.

ثم سار السلطان بنفسه من مصر يريد اقتلاع مدينة الكرك من الفرنج وبدأ بها لقربها إليه، وكان من الوهن في الإسلام والعظمة في الدين استيلاء الملاعين على الكرك وعلى قلعة أيلة، فإنهم يمنعون الحاج وأشد من ذلك مايخشى على الحرمين الشريفين منهم، إذ لم يكن بينهم وبينهما حاجز غير لطف الله، وقصدوهما مرات ثم يندفعون بمشيئة الله من غير دفاع من البشر، وكانت الكرك تزيد على قلعة أيلة بمنع القوافل السائرة بين الشام ومصر، فإنها كانت الدرب، وأما غزة والرملة وماحواليهما فكان الفرنج لايمكنون مسلما أن يمر بها، فورد عليهما وحاصرهما وقاتل الفرنج، ولم يفتحها في هذه السنة، ورجع إلى مصر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

قال ابن الأثير: جهز السلطان أخاه توران شاه إلى بلاد النوبة، فافتتح منها ماشاء الله، فلما عاد جهزه إلى اليمن بقصد عبد النبي صاحب زبيد، فطرده عن اليمن وملك زبيد وأسر عبد النبي وزوجته الحرة، وكانت صالحة كثيرة الصدقة، وعذب عبد النبي واستخرجت منه أموال، ثم سار

تـوران شاه إلى عـدن، وملكها نـاشر، فأسر وهـزم، ثـم سار فـافتتح مـن حصون اليمن قلعة تعرف بقلعة الجند.

قال أبو المظفـر سبط ابن الجوزي : يقال: افتتح ثمانين حصنـا ومدينة باليمن وماحواليها.

وقـد تقدم في السنـة قبلها إرسـال تورانشـاه، وهو شمـس الدولـة إلى اليمن ووقعة النوبة فقتل، والله أعلم في أي السنتين كان إرساله.

وفي هذه السنة وصـل الموفق ابن القيسراني إلى مصر رسولا مـن الملك نور الـدين يطالب السلطـان صلاح الديـن بحساب جميع ماحصلـه من أرياع البلاد، ولم يعلـم نور الدين بتفاصيـل علو شأن صلاح الـدين وأنه مستول على أعظمممافي يـد نور الدين، فصعب ذلك على صـلاح الدين، وقيل: إنـه أراد شق العصا، ثم ذكـر لنور الديـن حقوقه وإحسانـه، وأمر النـواب بـالحساب، وعـرضـه على ابـن القيسراني، وأراه جرائد العسـاكـر بالإقطـاعات، وأعاده إلى نـور الدين ومعه الفقيـه عيسى وهديـة عظيمة، وهي ختمة بخط ابن البواب، وختمـة بخط مهلهل، وختمة بخط الحاكم البغـدادي، وربعة مكتـوبة بـالذهـب بخط فـارسي، وربعة عشرة أجـزاء بخط راشـد، وثلاثة أحجـار بلخش، وستة قضبـان زمرد، وقطعة يـاقوت وزن سبعة مثـاقيل، وحجـر أزرق ستة مثـاقيل، ومـائة عقد جـوهر وزنها ثمانمائة وسبعـة وخمسـون مثقـالا، وخمسون قـارورة دهـن بلسـان وعشرون قطعة بلور وأربع عشر قطعة جزع، وإبـريق يشم، وطشت يشم، وصحون صيني، وزبـادي أربعون، وكرتان عـود قماري، وزن إحداهما ثلاثـون رطلا بـالمصري، والأخرى أحـد وعشرون، ومـائة ثوب أطلسي، وأربعـة وعشرون بقيارا مـذهبة، وخمسـون ثوب حريـر وحلة فلفلي مذهـب، وحلة مـرايش صفـراء، وغير ذلـك مـن القماش الذي يكثـر عـده، وقيمـة القماش على ماذكـر مائتـان وخمس وعشرون ألف مثقـال ذهب، ومـن الخيل والبغـال

والجواري والسلاح شيء كثير، ومن المال خمسة أحمال، ولم يصل شيء من ذلك إلى نور الدين، لأنه مات قبل وصوله.

ولما مات نور الدين طمعت الفرنج وتحركوا بالسواحل، وسلطن الشاميون الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وكان عمره نحو عشر سنين، فاستنجد بالسلطان صلاح الدين صاحب مصر، ونزل الفرنج على بانياس، وصالحهم أمراء دمشق على مال وأسارى يطلقون، فلما بلغ ذلك صلاح الدين انزعج له، وكتب إلى الشاميين يوبخهم، وكتب إلى شيخ الشافعية شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح تجهز للجهاد وخرج وسار أربع مراحل، جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام على يد من اقتلعها من دفع القطيعة والأسارى، وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد.

ولما بالغ صلاح الدين في توبيخ الأمراء، وكان ابن المقدم أكبر أمراء دمشق خشي من قدوم صلاح الدين إلى الشام، وأشاع أن صلاح الدين يريد انتزاع دمشق من ولد مخدومه نور الدين، وكتب إلى صلاح الدين:«لايقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك، ورباك وأسسك، وفي دست ملك مصر أجلسك» ثم تعطف له وترفق ويقول: «ومايليق بحالك، غير فضلك وافضالك».

فكتب إليه صلاح الدين:«إنا لانؤثر للإسلام وأهله إلا ماجمع شملهم وألف كلمتهم، ولانختار للبيت الأتابكي، أعلاه الله، إلا ماحفظ أصله وفرعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، ونحن في واد والظانون بنا سوء الظن في واد».

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

وقد تزايد طمع الفرنج في دمشق بموت نور الدين، فرأى صلاح

الـديـن مـن الحزم جمع المسلمين على سلطـان واحـد يقيـم الملـة وينصر الشريعة، وأنه ذلك الواحد الـذي تعقد عليه الخناصر، وأن الاسلام محتاج إليـه، وصار الحاسـدون والجاهلون بـأحكـام الشريعة يعيبـون منه قصـده لأخذ دمشـق، ويقولـون: كيف يسلـب ولد استـاذه نعمته، وينـزع ملكه، وهم كما قـال:«في واد» فإنه فيما يغلـب على الظنون الصادقـة إنما قصد لم شعث الاسـلام وقيام الـدين، وظهر ذلـك على يده مـن بعد، فخـرج من مصر بجيوش لاتحصى عـددها، واستخلف أخاه الملك العـادل نائبا بها، ووصل إلى بصرى في رابع عشري ربيع الآخر، فخـرج إليه صاحبها منقادا لخدمته، ثم تتـابع عسكر الشام ملاقين مستبشريـن، ونزل بجسر الخشب في الثامـن والعشرين، وقد تكـاثرت العسـاكر وازدحم الملاقـون، وأصبح لدخـول دمشق فعارضه عـدد من الرجـال فدعستهم عساكـره المنصورة، وصدمتهم خيوله وعزماته المأمـورة، ودخل البلد وملكها بلا قتال، ونادى من ساعتـه بإطابة النفوس وإزالـة المكوس، وكانت الولايـة في دمشق قد ساءت، والمكوس التي رفعها نور الدين قـد أعيدت، فأعاد صلاح الدين الحق إلى نصابه، وصارت دمشق مثل مصر وكلاهما في مملكته.

ثم خـرج إلى حمص فنازلها، ونصب المجـانيق على قلعتهـا ولم يملكها، وتـرحـل عنهـا إلى حماة فملكهـا في جمادى الآخـرة، ثـم سـار إلى حلـب وحاصرها إلى آخـر الشهر، وبها الصالح اسماعيـل ولد نور الديـن، واشتد بها الحصار، وهذه هـي الفعلة التي نقمت على صلاح الديـن، فالله أعلم بنيته، وأنه أسـاء العشرة في حق الصالح ابـن نور الدين، بحيـث استعان الصالح عليه بالباطنية، ووعدهـم بالأموال، فقتلوا من أمراء صلاح الدين الأمير خمارتكين، وخلقا، وجرحـوا صلاح الدين ثم أمسكهـم وقتلهم عن آخـرهم، ورجـع إلى حمص فحـاصرها بقيـة رجـب وتسلمهـا بالأمـان في شعبـان، ثم عطـف إلى بعلبك فـاستلمها، ثـم رد إلى حمص وقد اجتمـع عسكر حلب وكتبوا إلى صاحب الموصـل يستعينون به على صلاح الدين، فجهز إليهـم جيشه وأمدهـم بأخيه عـز الدين مسعود بن مودود بن زنكي،

فأقبل الكل إلى حماة وقد استقرت لصلاح الـدين فحاصروها، فسار إليهم صلاح الـدين فالتقاهـم على قرون حماة فكسرهم أقبح كسرة، ثـم سار إلى حلب فـوقع الصلح بينـه وبين ابن زنكـي، على أن يكون له إلى آخـر بلد حماة والمعرة، وأن يكون لولد نور الـدين حلب وجميع أعمالها، وتحالفوا ورد إلى حماة، وجاءته رسـل الخليفة المستضيء بالخلع والهدايا والتهنئـة بالملك، ثم سار إلى حصن بارين فحاصره ثم تسلمه.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

وفيها كان وقعة تل السلطان بنـواحي حلب، وذلك أن عسكر الموصل نكثوا أيمانهم، ووافـوا تل السلطان في جموع كثيرة وعليهم السلطـان سيف الدين غـازي بن مودود بن زنكي، فـالتقاهم السلطان صـلاح الدين في جمع قليـل فهزمهـم وأسر كثيرا منهـم وحقن الـدمـاء، ثم أحضر الأمـراء الذين أسرهم فمن عليهم وأطلقهم.

ثم سار صلاح الـدين إلى منبج وأخذها في شوال مـن ينال بن حسان المنبجي، وكان نور الدين قد أعطاها لينال عندما انتزعها من أخيه غازي ابن حسان، وصعـد الحصن وجلس يستعرض أموال ابن حسـان صاحبها وذخـائره فكـانـت ثـلاثمائة ألـف دينـار، ومـن أواني الـذهـب والفضـة والذخائر والأسلحة ماينـاهـز ألفي ألف دينار، ورأى على بعض الأكياس والآنية، مكتوبا يـوسف، فسأل عن هذا الاسم فقيل: ولـد له يحبه اسمه يوسـف وكان يـدخر لـه هذه الأموال، فقـال السلطان: أنـا يوسـف وقد أخذت ماخبىء لي.

ثم سـار إلى عزاز فنـازل قلعتها ثمانية وثـلاثين يومـا، وقفز عليـه وهو محاصرها قوم من الفداوية وجرح في خده وأخذوا فقتلوا ثم افتتح عزاز.

ومن كتـاب منه إلى أخيه العـادل:«ولم ينلني مـن الحشيشي الملعون إلا

خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها واندملت لساعتها».

ثم سار من عزاز، فنازل مدينة حلب كرة أخرى في نصف ذي الحجة، وأقامت القلعة في حفظها بكل ممكن وصابرها صلاح الدين شهرا.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

وفيها ترددت الرسل في الصلح بين السلطان صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل بن نور الدين، فرحل صلاح الدين عن حلب وأبقاها لابن نور الدين، ورد عليه عزاز، وتوجه إلى مصياف بلد الباطنية، فنصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم، وخرب بلادهم، فتشفعوا بصاحب حماة شهاب الدين خال السلطان، فسأل السلطان الصفح عنهم، وتوجه عائدا إلى مصر، فوصلها، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط بمصر والقاهرة، وجعل على بنايته الأمير قراقوش، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وصرفت عليه أموال جزيلة.

وفيها أمر بإنشاء قلعة الجبل المقطم التي هي الآن دار سلاطين مصر، وجعل على بنائها أيضا قراقوش، ولم يكن السلاطين قبلها يسكنون إلا دار الوزارة بالقاهرة.

ثم سافر إلى الاسكندرية وتردد إلى السلفي، فسمع منه الحديث، ثم عاد إلى مصر وبنى تربة الشافعي رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

وفيها كانت وقعة الرملة، سار السلطان من القاهرة إلى عسقلان

فسبى من الفرنج كثيرا وغنم، وسار إلى الرملة وقد تجمعت عليه الفرنج وحملوا على المسلمين فانهزموا، وثبت السلطان وابن أخيه تقي الدين عمر، ودخل الليل واحتوى الفرنج على أثقال المسلمين، واستشهد من المسلمين جماعة، منهم أحمد ولد تقي الدين عمر، ولم يبق للمسلمين قدرة على ماء ولازاد وتعسفوا الرمال راجعين إلى مصر.

وفي هذه الواقعة أسر الفقيه عيسى الهكاري أكبر الأمراء، فافتداه السلطان بستين ألف دينار، ودخل السلطان القاهرة بعد ثلاثة عشر يوما، وتواصلت خلفه العساكر ثم عاد السلطان إلى الشام.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفيها اجتمعت الفرنج عند حصن الأكراد، فسار إليهم السلطان ولم يقع قتال، ثم أغاروا على أعمال دمشق، وجهز لحربهم فرخشاه ابن أخي السلطان، فالتقاهم وكسرهم وقتل من مقدميهم جماعة منهم هنفري.

قال ابن الأثير: وماأدراك ماهنفري، به كان يضرب المثل في الشجاعة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها ضربت الطبول ببغداد وزفت البشائر بانتصار السلطان صلاح الدين على الفرنج، وأسره لصاحب الرملة، وصاحب طبرية الكافرين، وهي وقعة مرج العيون.

ومن حديثها أن صلاح الدين كان نازلا تل بانياس يبيت بسراياه، فلما استهل المحرم ركب فرأى راعيا فسأله عن الفرنج فأخبره بقربهم، فعاد إلى مخيمه وأمر الجيش بالركوب فركبوا، وسار بهم حتى أشرف على الفرنج وهم في ألف قنطارية وعشرة آلاف مقاتل فارس وراجل، فحملوا

على المسلمين فثبتوا لهم، وحملت المسلمون عليهم فولوا الأدبار، فقتل أكثرهم وأسر منهم مائتان وسبعون أسيرا، منهم بادين، وأود مقدم الداوية، وابن بيرزان فاستفك نفسه بمبلغ وبألف أسير من المسلمين، واستفك الآخر نفسه بجملة، وأما أود فجن في حبس قلعة دمشق، وانهزم من الوقعة ملكهم مجروحا، وأبلى في هذه الوقعة عز الدين فرخشاه بلاء حسنا.

واتفق في يوم الوقعة ظفر أسطول مصر ببطستين وأسروا ألف نفس، فلله الحمد على نصره.

وكان قليج أرسلان سلطان الروم طلب حصن رعبان وزعم أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين على خلاف مراده، وأن ولده الصالح اسماعيل قد أنعم به عليه، فلم يفعل السلطان، فأرسل قليج عشرين ألفا لحصار الحصن، فالتقاهم تقي الدين عمر صاحب حماة،ومعه سيف الدين علي المشطوب، في ألف فارس، فهزمهم لأنه حمل عليهم بغتة وهم على غير تعبية، فضربت كوساته، وعمل عسكره كراديس، فلما سمعت الروم الضجة ظنوا أنهم قد دهمهم جيش عظيم فركبوا خيولهم عريا، وطلبوا النجاة وتركوا الخيام بما فيها، وأسر منهم عددا، ثم من عليهم بأموالهم، وسرحهم، ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصرة، ولاريب أنها عظيمة.

وورد بغداد رسول صلاح الدين، وهو مبارز الدين كشطغاي وجلس له ظهير الدين أبو بكر ابن العطار، وبين يديه أرباب الدولة فجاء وبين يديه اثنا عشر أميرا عليهم الخوذ والزرديات، ومع كل واحد قنطارية وعلى كتفه طارقة ملك الفرنج، على القنطاريات سعف الفرنج، وبين يديه أيضا من التحف والنفائس من ذلك صنم حجر طول ذراعين، فيه صناعة عجيبة قد جعل سبابته على شفته كالمبتسم عجبا، ومن ذلك

صينية ملآنة جواهر وضلع آدمي نحو سبعة أشبار في عرض أربع أصابع، وضلع سمكة طوله عشرة أذرع في عرض ذراعين.

وفيها جهز السلطان القاضي أبا الفضائل بن الشهرزوري إلى الخليفة ببغداد أيضا بجواهر مثمنة وعشرة أسرى من الفرنج.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

وفيها توجه السلطان قاصدا بلاد الأرمن وبلاد الروم ليحارب قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان عندما استجار محمد بن قرا أرسلان ابن داود صاحب حصن كيفا بالسلطان على حموه قليج المذكور، ثم صلح الحال بينهما، فنزل السلطان على حصن من بلاد الأرمن، فأخذه وهدمه ثم رجع ، فعند وصوله إلى حمص جاءه التقليد والخلع من الخليفة الناصر، فركب بها بحمص، وكان يوما مشهودا، وجاء إلى دمشق وولى عز الدين فرخشاه نيابة السلطنة بالشام وهو ابن أخيه، ثم توجه السلطان إلى مصر وتوجه منها إلى الاسكندرية، وشاهد ماتجدد بها من السور، وسمع بها الموطأ علي أبي الطاهر ابن عوف.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

وفيها قصد نائب الشام عز الدين فرخشاه بمرسوم السلطان بلاد الكرك بالعساكر فخربها، وذلك عندما بلغ السلطان أن اللعين صاحب الكرك سولت له نفسه قصد المدينة الشريفة ليتملكها، فلما نهبت بلاده عاد بالخيبة.

وفيها ظهرت الوحشة بين الخليفة الناصر والسلطان، وذلك أن السلطان لما اشتهر اسمه بالعدل وشدة الوطأة، وخافته النفوس الفاجرة، واستبشرت به الأرواح الطاهرة، وحسده ملوك الأطراف، وأحبوا أن يوقعوا

بينه وبين الخليفة سـولوا للخليفة أمورا أوجبت أن يكتب للسلطـان يأخذ عليه في أشيـاء، منها تسميتـه بالملـك الناصر مـع علمه أن الإمـام اختار هذه التسميـة لنفسه، وهذه الـواحدة على ندورتها مـدفوعة بـأن السلطان لقـب بالنـاصر من أيـام الخليفـة المستضىء قبـل ان يلي الناصر الخلافـة فكتب له السلطان جوابا فاضليـا منه:«والخادم ولله الحمد يعدد سوابق في الاسلام والـدولة العباسيـة لايعدهـا أولية أبي مسلم، لأنـه والى ثم وارى، ولاآخرية طغـرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلـع من كان ينـازع الخلافة رداءهـا، وأساغ الغصـة التي ذخـر الله للإسـاغة في سيفـه ماءهـا، فرحل الأسماء الكاذبـة الراكبة على المنابـر، وأعز بتأييد البـراهيمي فكسر الأصنام البـاطنة بسيفـه الظاهـر لا الساتـر، وفعل وما فعل للـدنيا، ولامعنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر».

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

فيهـا افتتـح السلطـان حـران، وسروج، وسنجـار، ونصيبين، والـرقـة، والبيرة، وآمـد، ونـازل الموصل وحـاصرهـا، وبهره مـارأى من حصـانتهـا، وجاءه شيـخ الشيوخ صـدر الدين مـن قبل الخليفـة يتشفع في صـاحب الموصل فرحل عنها.

وفيها بعث السلطـان أخاه سيف الاسلام طغتكين على نيـابة السلطنة بإقليم اليمـن بأسره، وأمره بإخراج نـواب أخيه تورانشاه بها، فـرحل إليها وقبض على متولي زبيد حطـان ابن منقذ واخذ منه أموالا جـزيلة، وسكن سيف الاسلام في اليمن.

وفيها مـات عز الديـن فرخشاه بـن شاهنشـاه بن أيوب نـائب الشام، فبعث السلطان على نيابة دمشق شمس الدولة محمد بن المقدم.

ـ ١٠٧٧٥ ـ

وفيها خرج السلطان بنفسه من مصر غازيا وماتهيأ له العود إليها، وقد عاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ورسل الخليفة في كل سنة تجيء غير مرة بالتودد ظاهرا واستعلام أخبار السلطان باطنا، فلا يرون إلا إماما عادلا لايصطلى له بنار، وغضنفرا باسلا لايقوم لغضبه إلا الواحد القهار، وكتب له السلطان كتابا فاضليا فيه من أخبار الفرنج:« كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة».(٢)

الكواكِبُ الدّريَّة

في

السِيّرةِ النّوريَّة

تصنيف

بَدر الدّين ابن قَاضي شُهْبَة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي.

الحمد لله مالـك الممالك وموضح المسـالك، وجاعل العـدل نجاة من المهالـك. أحمده وهو المحمود المالك، وأوحـده وهو الغني عـن المشارك، وأشهـد أن لاإله إلا الله وحـده لاشريك لـه، إلهاً لايـزول ملكه ولايفنـى، وملكـاً تخصصَّ بـالصفـات والأسماء الحسنـى، حكم فعـدل في حكمـه، وعلـم ماكـان ومـايكون، فلـم يخف شيء عن علمـه، وأشهـد أن سيدنـا محمداًﷺ عبـده ونبيه ورسولـه وصفيه، الـذي رفع به منـار الحق، وأرسله رحمة للخلق، وزينّـه بالصفات الحسان، وأنـزل عليه(ان الله يأمر بـالعدل والإحسان) (١) صلى الله عليـه وعلى آله الأمجاد وصحبـه الأنجـاد الذيـن جـاهدوا في حـق الله حق جهـاده، واجتهدوا رضي الله عنهـم في مصالـح عباده، وبسطوا بساط العدل في بلاده، وسلّم وكرم، وشرّف وعظم.

وبعد، فـإن العدل قوام الـدنيا والديـن، وسبب صلاح المخلـوقين، به تألفت القلـوب، والتأمت الشعوب، ولاح الفلاح، وظهـر النورُ والصلاح، واتصلت أسبـابُ النجاح، وهو أحسـن ماتزين بـه الملوك الذيـن مكنّهم الله في أرضه، وأوجب عليهم القيام بفرضه، ولايوفّق إلى صراطه القويم إلا من سبقـت له العنايـة في الأزل القديم. ويكفي ملـوكَ العدل من مـزيد الكرامـة قولُ[رسول الله]ﷺ (المقسطـون على منابر مـن نور) (٢) وقولهﷺ وزاده شرفاً لـديه:(أحـبّ النـاس إلى الله وأدنـاهم مجلسـاً منه يـومَ القيامـة إمام عـادل، وهو من السبعـة الذين يظلهم الله في ظـل عرشه يـوم لاظل إلا ظله) (٣) أو كما قـال ﷺ وعلى الجملة والتفصيـل ففي العـدل الخير كله، فسبحان من وفـق إليه من سبقت له الحسنى، ومن بـوّأه لديه المقامَ الأسنى، فـأضفى عليـه من ملابـس نعمه الفـاخرة، وجمع لـه بين سعادة الدنيا والآخرة.

ولما كان الملك العادل السعيد، نور الديـن الشهيد محمود بن زنكي بن

آق سنقر التركي، سقى الله عهده، ووطأ في الفردوس مهده، وشكر في مصالح الإسلام سَعْيَه الناجح، وثقّل بعظيم ميزانه الرّاجح، ممن شاع فضلُه واشتهر، وذاع عدلُه وظهر، وأشرق نورُه الساطع وبهر، وسلك من العدل في الرعايا أحسن السلوك، ويسر الله تعالى له ببركة العدل ماعجز عنه عظماء الملوك، أحببتُ ان أذكر طرفاً من سيرته الفاضلة، وأحكامه العادلة، ومحاسنة الظاهرة، وسجاياه الطاهرة، وأوصافه الزاهرة المشرقة اشراقَ الشموس الباهرة، ليقتدي بها من نظر إليها ووقف عليها من أعلام سلاطين الإسلام، الذين كرمت سجاياهم، وشرفت مزاياهم، ورغبوا في الذكر الجميل، والثواب الجزيل، وحرصوا على نيل السعادة الكبرى، وأمّلوا حسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى في الأخرى.

ورتّبت هذا الكتابَ على سبعة أبواب مشتملة على: أوصافه، وعدله، وانصافه، ونعوته التي فاق بها على الملوك، وحسن أعماله التي سلك بها من مناهج الرشاد أحسن السلوك. وهذه فهرست الأبواب:

الباب الأول في ذكر مولده وصفاته، وذكر أفعاله الدّالة على حسن نياته.

الباب الثاني في ذكر عدله الدال على رصانة عقله، ووفور كرمه وفضله.

الباب الثالث في ذكر شجاعته وشهامته، ونجدته، وصرامته، وقوة عزمه، وحسن رأيه وحزمه.

الباب الرابع في مافعله في بلاد الإسلام من المصالح، والمساعي الكفيلة بالمناجح، وماأدخلَ على المسلمين من المسار، وعمهم به من المبار.

الباب الخامس في زهـده وورعه وعبادته ودينه وعمله المكمـل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته.

الباب السـادس في نبذة مما مـدح به مـن الأشعار الفائقـة، والقصائد البديعة الرائقة.

الباب السابع في ذكر غزواته العديـدة، وفتُوحاته السعيدة، وماجرى في زمانه من الأمور الغريبة، والحوادث العجيبـة وسمّيته «الكواكبَ الدرية في السيرة النّـورية». والله سبحـانـه وتعالى الموفـقّ للصـواب، المرجو لحُسـن الثّواب، وهوتعالى المؤمّل لصلاح الأحوال، وتسديد الأقوال والأفعال.

الباب الأول

في ذكر مولده وصفاته، وأفعاله الدالة على حسن نياته

ولد نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي مولاهم يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوّال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة، وقلة المخالطة للجند، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة، وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسعَ الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات في حنكه.

ولما تُوفي والده سنة إحدى وأربعين، وبلغ أسد الدين شيركوه وفاته، ركب من ساعته وقَصَد خيمة نور الدين، وأشار عليه بالتوجُّه إلى حلب، وأن يجعلها كرسي مملكته، وذكر أنه إذاملك حلب، اجتمع في خدمته عساكرُ الشام وقال له: أناأعلم أنّ الأمرَ يصيرُ جميعهُ إليك لأن مُلك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن يُنادى بالليل في عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، فدخلها في سابع شهر ربيع الأول، وجاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها ففتحها، وأصعدَ نور الدين إليها، وقرّر أمره، ومشى أحواله.

ثم إن نور الدين خرج غازياً ففتح حصوناً كثيرة.

قال ابن عساكر: فتح نيفاً وخمسين حصناً، وكسر برنس انطاكية، وقتله وقتل معه ثلاثة آلاف نفس، وأخذ من القومص (٤) ثلاثمائة ألف دينار، وخمسمائة زردية، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير.

قال ابن الجوزي: استرجع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين [redacted]وكان

قد عزم على فتح القدس فوافته المَنِيّة، وخُطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة، وبلاد الشام ومصر، وأظهر السنة بمدينة حلب، وأزالَ البِدعة التي للروافض في الأذان: حي على خير العمل، وقمع بها الروافض، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، وأسقط جميع المكوس، وعاقب على الخمر.

وكان في الحرب ثابِتَ القدم، حسن الرمي، صلب الضرب، يتقدم أصحابَه في الحرب، يَتَعَرَّض للشهادة، ويسألُ الله تعالى أنْ يحشره من بطون السباع وحواصل الطيور.

ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان بدمشق، ووقف على سُكان الحرمين الشريفين، وأقطعَ أُمراءَ العرب الأقاطيع لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور المدينة، وأجرى إليها العَيْنَ التي بأحد عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والجسور والخانقات والقناطير، وجدّد كثيراً من قنيّ السبيل في دمشق وغيرها من البلاد التي ملكها، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه، وله أوقافٌ دارّة على جميع أبواب الخير.

وكان الجامع الأموي قد دثر، فولّى نظره لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، فأصلح أموره، وفتح المشاهدَ الأربعة، وكان حاصلُ الجامع بها من حين احترق سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة، الأوقاف التي لاتعرف شروط واقفيها، وسمّاها مالَ المصالح، ورتّب عليها لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والايتام وما أشبه ذلك.

وفتح بدمشق باب الفرج ولم يكن قبله هناك باب بالكلية، وأغلق باب كيسان.

وكان رحمه الله حسنَ الخطّ، كثير المُطالعة للكتب الدينية، متبّعا للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكِفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيفَ البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرِّياً في المطعم والمشرب والملبس، لم يسمع منه رحمه الله تعالى كلمة فُحش قط لافي رضاه ولافي غضبه. وأشهى مايكون إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنّة يتبعها، ولولم يكن من حسن خصاله إلا ماعلم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء يقف عليه، ولايخاف قوله، ولايجري في مجلسه الفسقُ والفجُور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم كما يجري في مجالس الملوك، ولايطمع في أخذ أموال المسلمين.

قال أبو الحسن ابن الأثير: قد طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدمين قبل الاسلام ومنه إلى يومنا هذا فلم أرَ فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادل نور الدين: ولاأكثرَ تحرّياً للعدل والانصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهادٍ يتجهّزُ له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يُسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف ببيتٍ واحد!

الباب الثاني

في ذكر عدله الدال على رصانة عقله ووفور كرمه وفضله

قال ابن الأثير: وفي الحقيقة هو الذي جدد للملوك سنّة العدل والانصاف، وترك المحرمات من المأكل والملبس والمشرب وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية همّ أحدهم بطنه وفرجه، لايعرف معروفاً ولاينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، والزم بذلك أتباعَه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه.«ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة».

كان رحمه الله تعالى أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكساً ولاعشراً بل أطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان يتحرى العدّل وينصف المظلوم كائناً من كان: الضعيف والقويّ عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولّى كشفَ حاله بنفسه، ولايكل ذلك إلى حاجب ولاأمير، فلاجرم سار ذِكرُه في شرق الأرض وغربها.

ومن عدله: كان يعظّم الشريعة المطهّرة، ويقف عند أحكامها، ويقول: نحن شحن لها نمضي أوامرها. فمن اتباعه[أحكامها] أنه كان[يوما] يلعب بالأكرة فرأى انساناً يحدّث آخر ويومىء بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضر معي إلى مجلس الشرع يحاكمني على الملك الفلاني، فعاد إليه ولم يتجاسر يعرفه ماقال ذلك الرجل، ثم لما ألح عليه في السؤال ذكر له قوله، فألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان،

وسار إلى القاضي، وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوي وأرسل إلى القاضي يقول له: إني قد جئت محاكماً، فاسلك معي ماتسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه، وتحاكما فلم يثبُت عليه حق، وثبت الملكُ لنور الدين، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا عليّ أني قد وهبتُ له هذا الملك الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وانما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته. فحيث ظهر أن الحق لي، وهبتهُ له. وهذا غايةُ العدل بل غايةُ الفضل، وهي درجة فوق درجة العدل. فرحم الله تلك النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه.

قال ابن الأثير: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انقادَ إلى مجلس الحكم جماعةٌ من الصحابة مثل: عمر، وعلي، ومعاوية، رضي الله عنهم.

قال: ومن عدله أنه لم يعاقِبْ على المظنة والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه بيّنة شرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ. فدفع الله تعالى بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنّة. وأمِنَتْ بلادُه مع سعتها، وقلَّ المفسدون ببركة العدل واتّباع الشريعة المطهرة.

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى مالاً كثيراً، فقال: من أين هذا؟ قالوا: بعث به القاضي كمال الدين من فائض الأوقاف، فقال: إنّ هذا المالَ ليس لنا. ولاليبتِ المال في هذه الجهةِ شيء، وأمر بردّه وإعادته على القاضي كمال الدين ليرده على صاحبه. فأرسله مُتَولي الخزانة إلى القاضي فردّه أيضاً إلى الخزانة، وقال: إذا سأل السلطانُ عنه فقولوا له: غيره. فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فوجده. فأنكر على الخازن، وقال: ألم أقلْ لك إن هذا المالَ يُعاد على

أصحابه؟ فذكر له القاضي، فردّه إليه، وقال لرسوله: قلْ لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي رقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله عز وجل.

قال: ومن عدله أيضاً، بعد موته، وهو أعجب مايحكى، أنْ إنساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين، فلما توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنْصَف منه، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي، وقد شق ثوبه ويقول: يانور الدين! لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمْتنا. أينَ عدلك؟ وقصد تربةَ نور الدين ومعه من الخلق مالايُحصى، وكل منهم يبكي ويصيح. فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلدَ والرعيّة وإلاّ خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه فطيّب قلبه، ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول، فقال له صلاح الدين: لمَ تبكي؟ فقال: أبكي على سلطانٍ عدل فينا بعد موته! فقال له صلاح الدين: هذا هو الحق، وكلما ترى فينا من عدله ومنه تعلمّناه.

قال: ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق، وسماها دار الكشف. وسببُه أنَّ الأمراء لما قدموا مدينةَ دمشق فبنوا الأملاك واستطالوا على الناس، وخصوصاً أسد الدّين شيركوه، وكثُرت الشكاوى إلى القاضي فلم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين، فشكاه إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فلما سمع أسدُ الدين بذلك، أحضرَ أصحابَه وديوانَه وقال لهم: اعلموا أن نورَ الدين مابنى هذه الدّار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على القاضي كمال الدين؟ والله لئنْ حضرتُ إلى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من كان بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوه وأرضوه بأي طريق أمكن، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي، فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا

اشتطوا في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليّ من أن يراني نورُ الدين بعين أني ظالم، فجلس نور الدين في دار العدل لفصل الخصومات والحكومات. وكان يجلسُ في الاسبوع اليومين والأربعة والخمسة وعنده القاضي والفقهاء، ويأمر بإزالة الحجاب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويسأل الفقهاء عن ما أشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة المُطهرة. وبقي على ذلك مدة، فلم يحضر عنده أحد يشكو من شيركوه. فعرّفه القاضي الحال، فسجد لله شكراً وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم إلينا. قال: فانظر إلى هذه المعدلة ماأحسنَها، وإلى هذه المهابة ماأعظمها، وإلى هذه السياسة ماأشدّها، هذا مع أنه كان لايريق دماً، ولايبالغ في عقوبة، وانما كان يفعل هذا صدقة في عدله وحُسن نيته.

وحضر إليه يوماً جماعة من التجار وشكوا إليه ان القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص ويخسرون. فسأل نورُ الدين عن كيفيّة الحال، فذكروا له أن عقد المعاملة على اسم الدينار في الوسط، وإنما يعدّون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار. فأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكليّة، فسكت ساعة، وقال: إذا ضربتُ ا لدينار وابطلتُ المعاملة بالقراطيس فكأني خربتُ بيوتَ الرعية، فإن كلّ واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، ايش يعمل بها! فيكون سبباً لخراب بيته. فأيّ شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية رحمه الله تعالى!

وحكي أنه كان قبل بناء دار العدل يجلس يوم الثلاثاء بالمسجد المعلّق

الذي بالكشك ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم.

وحكى شاذبخت الطواشي الخادم النوري، قال: كنت يوماً أنا وسنقر خجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلّى المغربَ وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكتُ بأصبعه في الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر: في عائلته أو وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا، فرفع رأسَه، وقال: ماتقولان؟ فقلنا: ماقلنا شيئاً، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من افراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكّر في عائلته أو في وفاء دينه، فقال: والله إني أفكر في والٍ وليّته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبةَ بذلك، فبالله عليكم والا فخبزي حرام عليكم، لاتريان قصة ترفع إلي أو تعلمان مظلمةً إلا وأعلماني بها، وارفعاها إلي.

وحكى أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل أن لايعملَ شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء، قال: فكان لايعمل بالسياسة وبطلت الشحنكية. فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين: قد كثر الدّعار وأرباب الفساد، ولاينجي من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبتَ إلى نور الدين في ذلك، فقال: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولاأجسرُ على ذلك، ولكن قولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين، وقال له: إن الدّعار والمفسدين وقطّاع الطريق كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثلُ هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخذ مال إنسان في البرّية من يجيء ليشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلقَ وهو أعلم بمصلحتهم، وإنّ مصلحتَهم تحصل فيما شرعه على وجه

الكمال، ولو علـم أنّ على الشريعة زيـادة في المصلحة لشرعـه لنا، فمالنـا حاجـة إلى زيادةعلى مـاشرعه الله تعـالى، فمن زاد فقـد زعم أن الشريعـة ناقصة فهويكملها بزيـادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى شرْعه، والعقول المظلمـة لاتهتدي، فـالله سبحانـه يهدينـا وإياك إلى الكتـاب وإلى صراط مستقيم. قـال: فجمع الشيخْ عمر أهـل الموصل وأقرأهم الكتـابَ وقال: انظروا كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وحكي أنـه دخل في أيام نور الـدين إلى حلب تاجـرٌ موسر فمات بها، وخلّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب من بحلب إلى نـور الدين يذكر له أنه قد مات هاهنا رجل تاجـر موسر خلّف عشرين ألف دينار أو فوقها، ولـه ولدٌ صغير عمـره عشْر سنين، وحسّن لـه أن يـرفع المال إلى الخزانـة فإذا كبر الفتـى يرضـى منه بشيء ويمسك البـاقي للخـزانة، فكتـب نور الدين على الرقعـة: أما الميّتُ فرحمه الله تعالى، وأما الولـدُ فأنشأه الله، وأما المال فثمّره الله، وأمـا الساعـي فلعنه الله. وهـذه الحكايـة تحكى عـن غير نور ا لدين، فلعله مما تطابق فيه الحافر[على الحافر].

- ١٠٧٩٠ -

الباب الثالث

في ذكر شجاعته وشهامته ونجدته وصرامته وقوة عزمه وحسن رأيه وحزمه

فقد كانت النهاية إليه في ذلك، وكان أصبرَ الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم. وبه كان يضرب المثل السائر في ذلك.

يقال انه لم يُرَ في زمانه على الفرس أحسن منه، كأنه خلق عليها لايتحرك ولايتزلزل، وكان من أحسن الناس لعباً بالأكرة وأقدرهم عليها، وربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، ولم يرَ جوكانه يعلو رأسه، وكانت يدُه لاتُرى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب.

وكان إذا حضر الحربَ أخذ قوسين وشدَّ تِركاشين [٥]وكان يباشر الحرب بنفسه، وكان يقول: قد تعرضتُ للشهادة غيرَ مرة فلم أدركها ولو كان فيّ خيرٌ ولي عند الله قيمةٌ لرزقتها، والأعمال بالنيات.

وقال له يوماً القطب النيّسابوري الفقيه الشافعي: يامولانا السلطان، لاتُخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فانك عمادهم، فلو أصبت في معركة، والعياذُ بالله، لايبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيفُ وتؤخذ البلاد، فقال: ياقطب الدين، اسكتْ، فإن قولك هذا إساءةُ أدب على الله، ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لاإله إلا هو، فبكى من كان حاضراً.

قال ابن الأثير: ومن أحسن الآراءِ ماكان يفعله مع جنده، فإنه كان

إذا توفي أحدُهم وخلَّف ولداً أقرَّ إقطاعه عليه، فان كان الولد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها. وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب المقتضية للصبر في المشاهد والحروب.

وماكان يكِلُ الجند إلى الأُمراء، بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة ان يقصر الأمراء في حقهم، ويقول : نحن كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الإسلام.

وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية. وكان، كما قيل، شديداً من غير عنف، رقيقاً من غير ضعف، واجتمع له مالم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة، الصغير منهم والكبير. ولم يجلس عنده أمير من غير أمره له بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما ما عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقومون إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي، يقوم له ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه، وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول : هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة (علينا) .

وكان مجلسه : كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ : « مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم » . هكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا.

وحكي : أن الحافظ ابن عساكر رحمه الله حضر مجلس الملك الناصر

صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجالسين ما لم يحدث في غيره ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم ، فقام، وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي؛ وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه، فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فإني رأيته كبعض مجالس السوقة لا يستمع إلى قول قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا أنصت لنا . فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: هكذا كانت أحواله رحمه الله جميعها مضبوطة محفوظة .

وكان معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مقدم على ذلك، أدّبه بما يناسب بدعته، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه.

قال: وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك، وقد كثر اتباعه وأظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأركبه حماراً وأمر بصفعه، وطيف به في البلد جميعه، ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ثم نفاه من دمشق، فقصد حران.

قال: ويسوق الله القصيري الأعمار إلى البلاد الوخمة .

الباب الرابع

فيما فعله في بلاد الإسلام من المصالح والمساعي الكفيلة بالمناجح

وماأدخل على المسلمين من المسارّ وعمّهم به من المبار

وذلك عظيم كثير من ذلك أنه بنى أسوارَ مدن الشام جميعها وقلاعها، منها: دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وبارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصّنها وأحكم بناءها، وأنفق عليها من الأموال مالاتسمح به النفوس، وبنى أيضاً المدارسَ بدمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها للشافعية والحنفية، حتى ان بلاد الشام كانت خاليةً من العلم وأهله، وفي زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، وبنى الجوامعَ في غالب البلاد، فجامعهُ في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان، وكان قد فوّض أمرَ عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله، وكان من الصالحين، فقيل له: انه لايصلح لمثل هذا العمل، فقال: إذا وليّت العمل بعضَ الأجناد أو بعض العمال أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليّت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لايظلم أحداً، فإذا ظلم كان الإثم عليه لاعليّ.

وإنما سميَ هذا الشيخُ بالملاء لأنه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الأجرةَ يتقَوّتُ بها، وكان ماعليه من الثياب مثلَ القميص والعمامة يملكه لغيره، فلا يملك من الدنيا شيئاً، وكان عالماً بفنون العلوم، وجميعُ الملوك والأعيان والعلماء يزورونه ويتبرّكون به، وكان يعمل مولداً لرسول اللهﷺ في كل سنة ويحضر دعَوته صاحبُ الموصل والأكابر، وكان نورُ الدين يحبه ويكاتبه.

وكان مكان الجامع النوريّ خربةً واسعةً ماشرع أحدٌ في عمارتها إلا وقصر عمره، فأشار الشيخُ عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالاً كثيرة يقال ستين ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما توجه نور الدين إلى الموصل، وهي المرة الأخيرة، فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل، ورتب فيه خطيباً ومؤذنين، وعمل له البسط والحصر وغيرها، ثم دخل الشيخُ عمر على نور الدين وهو جالس على دِجْلة فترك بين يديه دساتيرَ الخرج على الجامع، وقال: يامولانا، أشتهي أن تنظر فيها، فقال: ياشيخ نحن عملنا هذا لله تعالى، دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالدساتير في دجلة.

وبنى جامع حماة على نهر العاصي، وهو من احسن الجوامع وأنزهها .

وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فانه عظيم كثير الخرج.

وحكي أنه وقع بيد نور الدين افرنجي من أكابر الملوك، ففدى نفسه بمال عظيم، فشاور نور الدين أُمراءَه، فأشاروا ببقائه في الأسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضِر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين. فعند وصوله إلى مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لُطف الله بالمسلمين حيث جمع لهم الحُسنيين: الفداء وموت ذلك اللعين.

وبنى نور الدين البيمارستان بدمشق، وبنى أيضاً مدرسته ودارَ الحديث بدمشق، ووقف عليها الأوقاف. قاله ابن الأثير .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: ومن شرط البيمارستان أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم توجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا

يُمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه فلايمنع من شرابه ولهذا جاء نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله تعالى، قال: ويقول بعضُ الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا (٦) هذا.

قلت: ويقال إنها مستمرة لم تخمد إلا في فتنة تمرلنك، عامله الله بما يستحق.

حكى الشيخ الجزري في تذييله على المرآة أن نور الدين لما حضر إلى البيمارستان أحضر له قدح شراب فشربه، وقال: هذا حلال على جميع المسلمين وعلى مثلي وعلى أقلّ العالم، وحرام على اليهود والنصارى، وعلى غلام وجارية تحت الرقّ، فلا يدخله إلا من هو معتوق.

قال: وبنى أيضاً الأبراجَ على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الهوادي، فإذا رأوا أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم، فلم يبلغ العَدوُّ منهم غرضاً، وكان هذا ألطفِ الفِكر وأكثره نفعاً.

قال: وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليهم الوقوف الكثيرة، وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يُحضر مشايخَهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويباسطهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل عليه أحدُهم يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه، وكان كذلك يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، وكانوا يقصدونه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها، وكان إذا نقل عن انسان منهم عيب يقول: ومن المعصوم؟ إنما الكامل من تعدّ ذنوبه.

قال ابن الأثير: إن بعض الأمراء حسد قطبَ الدين النيسابوري الفقيه الشافعيّ لقربه من نور الدين، فقال له: يامسكين، لو نظرت في عيب

نفسك لشغلك عن عُيوب غيرك، ولو صحَّ ماتقول فله حسنة تغفرُ له زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنتَ وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، والله لئن عدتَ إلى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدبنك، فكف عنه.

قال ابن الأثير: هذا هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يُكتب على العيون بماء الذهب.

قال: وبنى داراً للحديث بدمشق، وهو أولُ من بنى دار الحديث فيما علمنا، وبنى مكاتبَ الأيتام في كثير من البلاد، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الخيرات الوافرة، وبنى أيضاً المساجد الكثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن، قال: وهذا فعل لم يسبق إليه، قال: وبلغني ممن هو عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة في أبواب البر بالشام كلّ شهر تسعة آلاف دينار صورية، ليس فيها ملك فيه كلام، بل حقٌّ ثابت بالشرع باطناً وظاهراً.

وذكر العماد الكاتب في أول كتابه البرق الشامي نورَ الدين وأثنى عليه وقال: في سنة تسع وستين وخمسمائة التي توفي فيها نورُ الدين أكثر فيها من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وأمر بتعفية آثار الآثام وإسقاط كل مافيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج ومايحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمرني بكتابة مناشير لجميع البلاد، فكتبتُ أكثر من ألف منشور، وحسبنا ماتصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصّدقة ان يُحضر جماعةً من أماثلِ البلد من كلِّ محلة ويسألهم عمن يعرفونه في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف اليهم على قدر حاجاتهم، قال: ولو اشتغلتُ بذكر وقوفه وصدقاته في

كلِّ بلد لطال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته دالةٌ على خُلوص نيّته، تغني عـن خبرها بالعيان، وتكفي أسوارُ البلـدان والربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختـلاف المواهب، وفي شرح طوله طـول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول.

قال: ولما أسقط نـور الدين الجهات المحظورة والشبـه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عـن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الـدين الشهـرزوري: انظـر أنـت في ذلـك، واحمل أمـور النـاس فيهـا على الشريعة، قال: ولم يكن لبيـت المواريث حاصل ولالديوانـه حامل، فجعل نور الـدين ثلث مـايحصل منه لكمال الـدين الحاكم فـوفره نوابـه وكثروه، وماكان نور الدين يحاسب القـاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قد قلدته على أن يتصرف بالمعروف (٧) .

وحكى الشيـخ أبو البركات الحسن بـن محمد بن هبة الله أنـه حضرمع عمـه الحافـظ أبي القـاسـم رحمه الله مجلسَ نـور الـديـن لسماع شيء مـن الحديث، فمر في أثنـاء الحديث أنَّ النبيﷺ خرج متقلداً سيفـاً، فاستفاد نور الـدين أمـراً لم يكن يعرفـه، وقال: كـان رسول اللهﷺ يتقلـد السيف، يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خـلاف ذلك لأنهم يربطونه بـأوسـاطهـم، قـال: فلما كـان من ا لغـد مـرّ وأنـا تحت القلعـة والنـاس مجتمعون ينتظرون ركـوب ا لسلطان، فوقفنا ننظـر إليه، فخرج نور الـدين رحمه الله تعـالى من القلعـة وهـو متقلد السيـف وجميـع عسكـره كذلـك، فـرحم الله هـذا الملكَ الـذي لم يفرط في الاقتـداء بالنبـيّ ﷺ بمثل هـذه الحالة، بـل لما بلغَتْه رجعَ بنفسـه وردَّ جنده عن عـوائدهم اتباعـاً لما بلغه عن نبيّهﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن!

وكـان رحمه الله فـرداً في زمانـه مـن بين سـائر الملوك، ولـو لم يكـن إلا استماعه للموعظة وانقيادة لها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ فيها.

- ١٠٧٩٨ -

وحكى شرف الدين بن المستوفي في تاريخ إربل ان المنتجب الواعظ أبا عثمان ابن أبي محمد البحتري عمل في نور الدين قصيدة وأنشده إياها من لفظه وهي قوله:

مثّل وقوفك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور
انْ قيل نور الدين رحت مسلماً
فاحذر بأن تدعى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من
كأس المظالم طافح مخمور
عطّلت كاسات المدام تعففاً
وعليك كاساتُ المكوس تدور
ماذا تقولُ إذا نقلت إلى البلى
فرداً، وجاءك منكر ونكير
ماذا تقولُ إذا وقفت بموقف
فرداً ذليلاً والحسابُ عسير
وتعلّقتْ فيك الخصوم وأنت في
يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موسّد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية
يوماً، ولا قال الأنامُ أمير
وبقيت بعد العزّ رهنَ حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عرياناً حزيناً باكياً
قلقاً، ومالك في الأنام مجير
أرضيتَ أن تحيا وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيتَ أن يحظى سواك بقربه
أبداً وأنت مبعد مهجور

تــدعـــى بنـــور الـدين فـاحـذر في غــد
تـدعـى ظــلام الــديــن مـالــك نــور (٨)

قال صاحب الروضتين: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة لإبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفّق من رام الإقتداء به.

وكان هذا الواعظ من كبار الصالحين ليس له شيءٌ ولايقبل من أحد شيئاً، إنما كانت له جبة يلبسها اذا خرج إلى مجلس وعظه، وكان في مجلس وعظه ألوف من الناس.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاحُ الدين، قال: أرسلني الملكُ العادلُ نورُ الدين إلى عمّي أسد الدين شيركوه، وكان لايفعل شيئاً الا بمشورته، وقال: امض إليه، وقل له: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال: فجئت إلى عمّي، وأنهيتُ إليه ماقال لي، فقال: امضِ وقل له: يامولانا، إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، ونحتاج إليهم غداً للجهاد وخروج العساكر للغزاة، فقال صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعد عليه، فصاحَ في وقال: امضِ إليه وقل له ماقلتُ لك، قال: فعدتُ إلى نور الدين وأنهيتُ إليه ماقال لي عمي، فقال: امضِ إليه وقل له: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولانخرج، قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ماقال، فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو، فراجعته في ذلك ان لايثبطه في ذلك فصاح في وقال: امض وقل له ماقلت لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة ثم أمضى ماكان عزم عليه.

وحكي عـن بعض مماليـك نور الديـن أنه كـان يرفع يـديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال صقـر بن يحيى: بلغنـي ان موفق الديـن خالداً رأى في النـوم نور الديـن دفع إليـه ثيابـه ليغسلها، فقصّهـا على نور الـدين فتمعّـر وجهه، فخجل موفـق الدين، وبقي أيـاماً على غاية مـن الخجل، فاستدعـاه نور الدين يومـاً وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعـد واكتب باطلاق المؤن والمكـوس والأعشار واكتـب للمسلمين إني قـد رفعـت عنهم مـارفعـه الله تعالى عنكـم، واثبت مـا أثبتَه اللهُ عليكـم. فكتب مـوفق الـدين تـوقيعاً بذلك.

وحدث رضي الدين أبو سالم عبد المنعـم بن المنذر أن نور الدين حين خرج لأجـل شيزر خرج أبـو غانـم بـن المنذر صحبته، فـأمره نور الـدين رحمه الله بكتابة منشور باطـلاق المظالم: بحلب، وحمص، وسنجار، وحرّان، والـرحبـة، وعـزاز، وتـل بـاشر، وعـداد العـرب (٩) فكتـب عنـه تـوقيعـاً نسخته:بسم الله الرحمن الـرحيم، هذا ماتقرّب به إلى الله سبحـانه صافحاً واطلقه مسـامحاً لمن علم ضعفـه من الرعـايا، رعـاهم الله، لضعفهـم عن عمارة مـاأخربتـه أيدي الكفـار، أبادهـم الله تعالى، عنـد استيلائهـم على البـلاد، وظهور كلمتهـم على العباد، رفقـاً بـالمسلمين المثاغـرين، ولطفـاً بالضعفاء والمرابطين الذين خصهم الله تعالى بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجـاورة أهـل العنـاد، اختبـاراً لصبرهـم وإعظـامـاً لأجـرهـم، فصبروا احتسـاباً، وأجـزل الله لهم أجراً وثـواباً:(إنما يـوفى الصابـرون أجرهـم بغير حساب) (١٠) ، وأعاد عليهم مـا اغتصبوا عليه من أملاكهـم التي أفاء الله عليهم بها مـن ا لفتوح العمرية، وأقـرها في الدولـة الإسلامية، بعد مـاطرأ عليهـا مـن الظلمـة المتقدمين، واسترجعـه بسيفـه مـن الكفـرة الملاعين، فطمس عنهـم بذلك معالم الجور، وهـدم أركان التعدي، وأقـر الحق مقرّة لقوله تعالى: (من جـاءَ بالحسَنَة فلهُ عَشْرُ أمْثالها) (١١) (واللهُ يُضَاعفُ لمن

يشاء) (١٢). ثـم أعانـه اللهُ بعونـه، وأيّده بنصره، وقمـع به عـادية الكفـر، واظهـر بهمته الإسـلام، وأظهـره على الفئة البـاغية، وأمكنـه مـن ملوكهـا الطـاغية، فجعلهـم بين قتيـل غير مقاد، وهـارب ممنوع الـرّقـاد(وآخريـن مُقَرنين في الاصفاد *هذا عطاؤنا فـامْنُنْ أو امْسِك بغير حساب* وان له عندنا لزلفـى وحسن مآب) (١٣) علم أن الدنيا فانية فـاستخدمها للآخرة الباقيـة، واستبقى ملكه الـزائل بأن قدّمه وجعلـه ذخراً للمعاد، فـالتقوى مادة زاده اذا انقطعت المواد(يَـوْمَ لاتَمْلِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمْـرُ يَوْمَئِذٍ لله) (١٤) ، فسمح لكافة المسافـرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس، فأسقطها من دواوينـه، وحرّمها على كلِّ متطاولٍ إليها، ومتهـافت عليها، تجنباً لاثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغُ مـاسامح به واطلقه وأنفذَ الأمر فيه اتبـاعاً لكتاب الله وسنـةِ رسوله ﷺ في كـل سنة من العين مـائة ألف وستـة وخمسون ألـف دينـار، جهة ذلـك: حلب المحـروسـة خمسون ألـف دينار، عـزاز عن مكس جـددته الفرنـج خذلهم الله على المسافـرين عشرة آلاف دينار، تل باشر واحد وعشرين ألـف دينار، المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحـروسة لما استنجد بـه أهلها واستصرخ بـه من فيها خـوفاً على أنفسهـم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهـم عـن مقاومته، ماكان يؤخذ منهم في كـل سنة، وهو رسم يسمـونه الفيئـة، عشرون ألـف دينار، حمص ستـة وعشرون ألف دينـار، حران خمسـة آلاف دينار، سنجـار ألف دينـار، الرحبـة عشرة آلاف دينار، عـدا د العرب عشرة آلاف دينـار، طلباً لما عنـدَ الله، (واللهُ عنـده حُسْنُ الثـواب) (١٥) ، فـالواجـب على كـل إمام عـادل وسلطـان قادر أن يمـده ويـودّه، ويشدّ عضـده، ويقـوّي عـزمه، وينفّـذ حكمه. وعلى كل مسلـم أن يواصله بالـدعاء آناء الليل وأطـراف النهار. وكتب إلى كل مـن يصلُ إليه من أئمة الديـن وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبـدين، وكافة التجار المسـافرين، أحسنَ اللهُ تـوفيقهـم، ليُشْعروا بذلـك من حضرهـم مـن التجار المترددين إليهم مـن السفّار ليعرفـوا قدر ماأنعم الله به عليه وعليهم(ولِيُنْذِروا قَوْمَهم إذا رَجَعوا إليهم) (١٦) ويُمدّوه

بأدْعِيَتِهم، ويبرئوا ذمته مما سبق من أخـذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجـه برّ، وتجهيـز جيـش، ومعونـة مجاهـد، وردع كافـر ومعـاند، فهـم شركاؤه في الثواب، فلما وقف نور الديـن على قوله: ويبرئوا ذمته مما سبق، استحسن ذلك ووعده باقطاع حسن.

وذكـر قاضي القضـاة بهاء الديـن أن نورَ الـدين سيَّر كتـاباً إلى بغـداد يعلم الخليفـة بما أطلقه وبمقدار ماأطلـق، ويسأله ان يتقدم إلى الـوعاظ بأن يستحلـوا من التجـار ومن جميع المسلمين لـه وان يجعلوه في حـل مما كان وصـل إليه مـن أموالهم، فتقدم بـذلك، وجعـل الوعـاظَ ينادون على المنابر بذلك.

قال صـاحب الـروضتين: نقلتُ من خـطّ الشيخ الأمين أبي ا لقـاسم عبـد الرحمن بـن الحسين بـن عبدان الأزدي الـدمشقـي: وقف المولى نـور الدين بستـان الميدان، سوى الغيطة التـي من قبلته، بعد عمارتـه واصلاح مايحتـاج إليه على تطييب المساجـد التي يأتي ذكـرها: وهي جامـع دمشق المحروسـة، جامع القلعة بها، ومـدرسة الحنفية التـي جدّدها نور الـدين، مسجد ابن عطية داخـل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بـالفُسْقار، مسجد سـوق الرمـاحين، المسجـد المعلّق بسـوق الصـاغـة، مسجد دار البطيـخ المعلّق، مسجد العبّاس بسوق الأحد بالصالحية، المسجد الذي جدَّده نورُ الديـن جوار بيعة اليهود، جـامع الصالحين بجبـل قاسيون: يُبتاع بـذلك طيـب وعـود، ويفرق على هـذه الأمـاكـن: النصـف للجـامع بـدمشـق، والنصف الثـاني ينقسم على أحـد عشر جزءاً: جـزءان للمدرسـة، وتسعة أجزاء للمساجد البـاقية لكل مسجد جزء واحد. تطيـب هذه الأماكن في الأوقات الشريفـة، ومواسـم الاجتماعات، وليـالي شهر رمضـان، والأعياد، وأيـام الجُمـع وقتَ عقـد الجمعـة في الجوامـع، وليالي الجمعـة والخميـس والاثنين.

قال: ونقلت من خطّه أيضاً أن نور الدين حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي، والفقهاء الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبوالقاسم علي بن الحسن الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الاسلام نجم الدين بن عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب بن عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرم المحسن بن أبي الضياء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسن وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم مايعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجُوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولايُنكر شيئا مما يقولهُ غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوِّب لقوله، وليس العمل إلا على ماتتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وكل من الحاضرين شكره على ماقصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء. ثم أمر نور الدين رحمه الله تعالى متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقنيّ السبيل ومايجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعا ليفرد مايعلمون أنه للمصالح دون الوقف. فافتتح با لسوق المستجدّ تحتَ المئذنةِ الغربية جوارَ البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، كما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عين للمصالح أيضاً مافي زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت

والحجر التي علوها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخواصين في الصف الغربي، واثني عشر حانوتا متلاصقات من الصف الشرقي تعرف بالمعتصمات، ونصف حانوت، والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي، وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي لصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفُسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللباديين والتي بحضرة الفوارة تحت اللباديين وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التماريين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد وهي خمس عشرة عضادة، وستة أسهم من طاحون السقيّفة، وذلك كلّه بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضهُ اشتُري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهلهُ الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضُه أحدث في الطريق، قال: فلما شهدوا بصحة جميع ماذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جاريةٌ في المصالح، قال نور الدين: إنّ أهم المصالح سد ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، وصوّبوا ماأشار إليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين، فأفتى شرفُ الدين المالكي بجواز ذلك، ومنهم من توقف ليتروى، فقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون: لايجوز أنْ يُصرف وقفُ مسجد إلى غيره، ولاوقفٌ معيّن إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك، فليس طريقه إلا أن يقرضه من إليه الأمر في بيت المال للمسلمين. فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك، ثم

-١٠٨٠٥-

سـأل ابن أبي عصرون نـورَ الديـن: هـل أنفق شيء قبـل اليوم على سـور دمشـق، وعلى بنـاء الكـلاسـة من شـام الجـامـع، وعلى إنشـاء السقـف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشـامي مـن الجامـع، وسائر العمائر المتعلقـة بـالجامع المعمـور بغير إذن مولانا، وهل كان إلا بمبلغ الأمر العـالي في عمل ذلك، فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمـرتُ به وبفتح المشهدين غربيّ الجامع المعمور اللذين كانا مخربين، وكنت مبلغاً عني ومؤذناً أمري.

هذا مختصر المحضر الذي كتـب فيه صورة ماجـرى في ذلك المجلس، وهو مشتمـل على فوائد حسنـة، وتأكيـد لمانقل مـن سيرة هذا الملـك في وقوفه مع أوامر الشريعة، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين.

وحكى صاحـب الروضتين عن بعضهم أنه حضر صبـيّ عند الملك العادل وبكـى، وذكر ان أباه محبوس على أجـرة حجرة من حجر الـوقف، فسأل عن حاله، فقالوا: هـذا الصبي ابن الشيخ أبي سعيد الصوفي، وهو رجل زاهد قـاعد في حجرة وليس لـه قدرة على الأجرة، وقد حبسـه وكيل الوقـف لأنه اجتمع عليـه أجرة سنة، قـال الملك العـادل نور الديـن كم أجـرة السنـة؟ قالـوا: مـائة وخمسـون قرطـاسـاً. وذكـروا سيرته وطـريقتـه وفقره،فرقَّ له وأنعـم عليه، وقال: نحن نعطيه كلّ سنـة هذا القدرَ ليصرفه إلى الأجرة ويقعـد فيها، وأمر بـاخراجه من الحبـس، فوصل إلى قلـب كل أحد من الحاضرين الفرح حتى كأنَّ الانعامَ كان في حقّه.

الباب الخامس

في ذكر زهده وورعه وعبادته ودينه وعلمه المكمل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته

قال ابن الأثير: فان قال قائلٌ كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكُرْ نبيَّ الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه وهوسيّد الزاهدين في زمانه، ونبيّناﷺ قد حكم: حضرموت، واليمن والحجاز، وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى أرض العراق، وهو على الحقيقة سيّدُ الزاهدين، قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد منها.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى مع سعة ملكه وذخائر بلاده لايأكلُ ولا يلبس ولايتصرف فيما يخصه إلا من ملكٍ اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يُحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحلُّ له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ مايفتُونه بحله، ولم يتعدَّه إلى غيره البتة.

ويقال إن نفقته كانت من الجزية في كل شهر ألفا قرطاس يصرفُها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى أجرة خياطه، ويستفضل منها مايتصدق به في آخر الشهر، ويقال انّ قيمة القراطيس مائة وخمسون درهماً، وماكان يصلُ إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعُه ويعمّر به المساجدَ المهجورة، ويشتري لها أوقافاً ولايتناولُ منها شيئاً، ولايلبس قط ماحرمه الشرعُ من حرير أو ذهب أو فضة، ومنع من شُرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحدُّ شاربَها الحدَّ الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

كـان كثيرَ الصيـام، ولـه أوراد في الليل والنهـار. وكـان يقـدم أشغـال المسلمين عليها، ثم يتمم أوراده.

أخبرت عنه زوجتـه الخاتون بنـتُ معين الدين أنـه كان إذا جـاء إليها يجلسُ في المكـان المختص بـه فتقوم بخدمتـه، ولاتتقدم إليـه إلا في أخذ ثيابـه عنه، ثـم تنعزل في المكان المختص بها، وينفرد هـو تارةً يطـالعُ في وقائع أصحاب الأشغال، أو ينظر في كتـاب أتاه ويجيب عنه، وكان يصليّ فيطيـل الصلاة، ولـه رحمه الله تعـالى أوراد في النهـار، فإذا جـاء الليـل وصلىّ العشاء، نـام ثم استيقظ نصـف الليل، فيتوضـأ ويصلي إلى الفجر، ثم يصليّ الصبح، ويظهر للركوب ويشتغلُ بمهمات الدولة.

وأرسلتْ إليـه الخاتونُ يوماً أخاها مـن الرضاع تـذكر له أنه لم يكفها ماكـان قرّره، وتطلـب منه زيـادة، فلما قال ذلـك، تنكر واحمر وجهـه، ثم قال: من أين أعطيها مايكفيهـا؟! والله لاأخوض في نار جهنم في هواها، إنْ كانتْ تظـن أنَّ الذي بيدي من الأموال هي لي فبئـس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، وأنا خـازنُهم فلا أخونهم فيها. ثم قال لي: لي بمـدينة حمص ثـلاثة دكـاكين اشتريتهـا من الغنـائم، وقد وهبتُهـا إياها، فلتأخذها، وكان يحصُل منها قدر يسير.

وقـدكانـت زوجته هـذه أيضـاً من الصـالحات الخيّرات تُكثر القيـام، فنامـت ليلةً عن وردها فـأصبحت وهي غضبـى، فسألها نور الديـن عن أمرها، فـذكرت له نومهـا الذي فوّت عليها وردهـا، فأمر نور الـدين عند ذلك بضرب طبلخانـة في القلعة وقت السّحر ليـوقظ النائم ذلك الـوقت لقيام الليل، ورتب للضارب جراية وجامكية.

قال ابن الأثير: وكان لايفعل فِعلاً إلا بنّيـة حسنة. وكان بالجزيرة رجلٌ من الصالحين كثير العبادة والورع، شديـد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه

أن نور الـدين يُـدمن اللعـبَ بالكرة، فكتـب إليه يقـول: ماكنـت أظنك تلهـو وتلعب وتعـذب الخيل لغير فـائدة دينية؟ فكتـب إليه نـور الديـن بخطه يقول: والله مايحملني على اللعب بـالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر والعـدو منا قـريب، فربما وقـع صوتٌ فتكـون الخيل قـد أدمنتْ على سرعة الانعطاف بالكر والفرّ، فاذا طلبنـا العدو أدركناه، ولو تركناها على حالها لصـارت جماماً لاتنفع، ولايمكننا مـلازمة الجهاد ليـلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، إذ لابـد من الـراحة للجند، فهـذا والله الذي يبعثنـي على اللعب بالكرة.

قـال: فانظـر إلى هـذا الملك المعـدوم النظير الـذي يقل في أصحـاب الـزوايا المنقطعين إلى العبـادة مثله، فـان مـن يجيء إلى اللعب بهذه النيـة الصالحة حتـى يصير من أعظم العبـادات وأكبر القربات، فقـلّ في العالم مثله، وفيـه دليل على أنه كان لايفعـل شيئاً إلا بنية صالحة، وهـذه أفعال العُلماء الصالحين العاملين.

قال: وحُكـي عنه انـه حمل إليه مـن مصر عمامة مـن القصب الـرفيع مذهبة، فوضعت بين يديه، فلـم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذْ جاءه رجل صوفي فـأمر له بها، فقيل له: إنها لاتصلـح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له، فقال: أعطـوها له فإني أرجو أن أعوَّض عنها في الآخرة، فسلمت إليـه، فسار بها إلى بغداد فباعهـا بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار أميري. ويقال انه أعطاها لشيـخ الصوفية أبي الفتح بن حمويه، فبعث بها إلى العجم، فبيعت بألف دينار.

قـال: وكان عـارفـاً بمذهـب أبي حنيفـة النعمان رضي الله عنه، وليـس عنده تعصب على أحد، والمذاهبُ كلها عنده سواء.

قـال ابن عسـاكـر: وسمـع نورُ الـديـن الحديـثَ وأسمعه، وكـان قـد

استجيز لـه ممن سمعـه، وجمعه حرصاً منه على فعـل الخير في نشر السنة بالأداء والتحـديث، ورجاء أن يكون ممـن حفظ على الأمة أربعين حـديثاً كما جـاء في الخبر. فمـن رآه شاهـدَ مـن جَـلال السلطنة وهيبـة المملكـة مـا يبهره، فـاذا فـاوضه رأى مـن لطـافته وتـواضعـه مايحيّره. وكـان يحبّ الصالحين ويؤاخيهم ويزورهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم.

قال الشيـخ شهاب الديـن في المرآة: وقد صنـف له جَدّي كتـاباً سماه البحر النوري فيه أحاديث العـدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضاً كتابا في الجهاد وهو بـدمشق، ثم قال: فقد ذكرت مانقله علماء السير مما وقع له من سيرته، ومايستدل بها على صالح سريرته، وقد وقع لي مـآثر لم يذكـروها، ومفاخر لم يسطـروها، لم تكن لغيره مـن ملوك الجاهلية ولا الإسلام، ولارأوها في الأحلام.

وكـان مشغولاً بصيـد الغزلان، ومـازال بدر مبـادرته إلى الخيرات يتـم ولانقصان، هـذه المكارم لاقعبان، وهذه الفصـاحة لاسحبان، فمـن ذلك انه كان في عزمه ان يفتح البيت المقدس، فعمل منبراً وقبلةً بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي إلى رحمة الله تعالى قبـل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين بيتَ المقدس حملَ المنبرَ إليه، وأبقى القبلة بجامع حلب.

ومنها أنه كان لـه عجائز بدمشق وحلب، وكان يخيـط الكوافي ويعمل السكاكر للأبـواب وتبيعها العجائز ولايدري بهن أحد، فكان يـوماً يصوم ويفطر على أثمانها.

وحكى لي شرف الدين يعقوب ولـد المبارز المعتمد أن في دارهم سكرة من عمـل نور الديـن على خرستـان، وهي باقيـة إلى سنة خمسين وستمائة يتبركون بها.

ومنها ماحكـاه لي الشيخ أبو عمر شيخ المقادسـة رحمه الله تعالى قال:

كان نـور الدين يـزور والد الشيخ أحمد في المدرسـة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للـدير، ونو الدين بنى هذه المدرسـة والمصنع والفرن، قال: فجاء يومـاً لزيارة والدي، وكـان في سقف المسجد خشبة مكسـورة فقال له: يانـور الدين، لو كشفـت السقف وجدّدته فنظـر إلى الخشبة وسكت، فلما كـان من الغـد جاء معماره ومعـه خشبة صحيحـة، فنظر إلى الخشبـة المكسـورة ومضـى، فعجـب الجماعـة، فلما جاء إلى الـزيـارة قـال بعـض الحاضرين: يانور الدين، ناكـرتنا في كشف سقف وإعادته، فقال: لاوالله، وإنما هو الشيـخُ أحمد رجل صـالح وإنما أزوره لأتنفـع به، ومـاأردتُ أن أزخـرف لـه المسجد، وانقـضَ مـاهـوصحيـح، وهذه الخشبـة يحصـل بها المقصود، فدعوني مع حسن ظني فيه، فلعلّ الله ان ينفعني ببركته.

ومنها ماحكـاه لي رجل من أهل حران لقبه الشيـخ حياة في سنة خمس وستمائة، وقد كان نيف عن التسعين سنة، قـال: لما قُتل أتابك زنكي على قلعـة جعبر وملك نـور الـدين قلعـة حلـب، تصدق وأزال المكـوس ورد المظالم، وأنا حديـث عهد بعرس، وقد ركبني دين، فقـالت لي زوجتي: قد سمعت أوصـاف نور الديـن وإحسانه إلى النـاس، فلو قصدتـه وأنهيت إليه حـالك لقضى دينـك ، قال: فخرجت مـن حران وليس معـي سوى درهمين، تـركت عنـدهـا درهماً، وتزودت بـدرهـم، وأتيـتُ الفرات وقـت القائلـة، فعبرتُ جسر منبج، وخلعت ثيابي، ونـزلت فتوضـأت، وصليت ركعتين، وإذا إلى جانبـي رجلٌ ملفـوف في عباءة، فقـال لي: يا فقير، مـن أيـن أنت؟ قلـت: أنا فقير مـديون، وقـد بلغنـي إحسانُ نـور الديـن إلى الخلق فقصدته لعلـه يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نـور الدين، ومن يوصلـك إليه؟ كـم عليك دين؟ قلـت: خمسون ديناراً، فـأخرج يـده من العباءة وبحث في الرمـل، وأخرج منه قرطاساً وألقـاه إليّ، وقال: خذ هذا واقـض به دينـك، وارجع بـه إلى أهلك قـال: فأخـذته فعـددته وإذا بـه خمسون دينـاراً، والتفت فلـم أره، فبهت وبت في مكـاني أفكر هـل أرجع إلى حـران أو أمضي إلى حلـب، وقلـت في نفسي : فهـذه أو في بها دينـي

فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقمت الصباح، وإذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء إلى الميدان.

فلما أراد أن يدخل، نظر إليّ ورمقني طويلاً، وأشار إلى خادم بين يديه فجاء إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي القلعة، قال: فندمتُ على مجيئي إلى حلب، وقلت: ياليتني قبلت من ذاك الرجل الصالح، ولعلّ نور الدين توهم أني اسماعيلي فداوي، فلما كان بعد ساعة، عاد نورُ الدين إلى القلعة، وجلس في الإيوان، ومدّ سماط عظيم ولم يمد يده إليه، وإذ فُتح باب عن يمينه وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص وفيه عصارة عليها رغيف، فتأملتُها من بعيد فإذا هي ثردة، فتناول منها شيئاً يسيراً وأكل الناس، وأكلتُ معهم. وانصرفَ الناس، وبقيتُ قاعداً خائفاً، فأوما إليّ، فقمت وأتيتُ بين يديه وأنا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ فقلت: من حران. قال: ومالذي أقدمك؟ قلت: عليّ دين، وبلغني إحسانُك إلى الناس، فقصدتُك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلتُ خمسون ديناراً، قال: أفما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين ديناراً؟ هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير مايطلب شيئاً آخر! ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادته وكانت زرقاء، فإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة، قال: فبكيت بكاءً كثيراً وقلت: لاآخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، فقال: هذا أمر لايلزمك، فقلت: يامولانا، أنا رجل غريب ولي حرمة، فبالله عليك أخبرني! فقال: احلف لي أنك لاتحدّث بهذا في حياتي. فحلفتُ له، فكشف القباءَ عنه، وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال:أنا ذاك الفقير، فقلت: بالذي أعطاكَ هذه المنزلةَ بأي شيء وصلتَ إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى:(إنّ الذين سبقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسنى)(١٤) ولكن لابد من السبب. لما التقينا بالفرنج على حارم ونصرنا

الخمـــة، ونم أنت وإياه على باب البرج، قال: فقلتُ في نفسي: هذا الشيخ في زمن شبابه ماارتكبَ كبيرة لما ارتفع يقع فيها، والله لأقتلنّه قبل أن يقع في معصية، قال: فعمدت إلى كاذة (١٥) لي فأصلحتُها وقلت: والله لأقتلنه قبل أن يصل إليه، وجئتُ بالمملوك إلى الخيمة فسهرت عليه ونور الدين في أعلى البرج، فلما كان وقتُ السَّحر غلبتني عيناي، فنمتُ فوقعت يدي على خدّ الغلام، واذا به مثل الجمرة وقد أخذته الحمى، فأخذته ومضيت إلى خيمتي، فلما أصبحت أحضرت الطبيب فرآه، فقال: هذا مرضه سماوي، فلما كان وقتُ الظهر مات، فغسّلتهُ وكفنّته ودفنته، فلما كان في اليوم الثاني دعاني نو رالدين: قال: اقعُدْ فقعدت، فقال: ياسهيل (إنّ بعض الظنّ إثم) (١٦) قال: فاستحييت، قال: قد عرفتَ حالي وأنتَ ربيتني، هل عثرتَ لي على زلة؟ قلت: حاشى لله. قال: فلم حملت الكاذة وحدثتك نفسك لي بالسوء؟ ما أنا معصوم. لما رأيت الغلام وقع في قلبي منه مثل النار، فعلمت أنه من تسويل الشيطان فقلت: اشتـــــــــره لعـــــــــل يـــــــــذهـــــــــب عني ماأنا فيه، فلم يذهب، فقالت لي: ماأقنع إلا بأن تحضره عندك في البرج الليلة، فأمرتك أن تحضرَه فأحضرتَه، فلما كان في تلك الليلة ماتركتني أنام، وبقيتُ أنا وإياها في حرب إلى الصباح وقت السحر، فهممت أنْ أفتح باب البرج وأصعده إلى عندي، فجاءتني اليقظة وكشفت رأسي، وقلت: إلهي، محمود عبدك، المجاهد في سبيلك، الذابُّ عن دين نبيِّك عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي عمّر المدارسَ والربط، ووقف الأوقاف، وفعل مافعل تختم أعماله بمثل هذا؟ قال: فسمعت هاتفاً يقول: قد كفيناكَ يامحمود أمره، لابأس عليك! فعلمت أنه قد حدث به حادث، وأما أنت ياسهيل فجزاك الله عن الصّحبة خيراً، والله إنَّ القتل أهونُ عليّ من الوقوع في المعصية. ثم قدّم سهيلاً وأحسن إليه.

قال: وحكى لي الكمال ابن البانياسي ابن أخي الشهاب قال: حكى لي

من يتولى أوقافَ نور الدين أنه أجّر بعض بساتينه لرجل من دمشق بستمائة درهم، فأصابت البساتينَ جائحة، فجاء ذلك الرجل يتضرر، فأسقطوا عنه ثلاثمائة درهم، فلما كان بعد أيام، جاء الرجلُ ومعه ستمائة درهم وهو يبكي، فقلنا له: مالك؟ فقال: رأيتُ في المنام وقد خرج عليّ نورُ الدين من قبره وبيده جوكان وقال: أنت تكسر وقفي، وأراد ان يضربني، فقلت: أنا تائب، ورمى بالدراهم، فقلنا له: خذها، فقال: لاوالله ، أخاف ان يضربني.

قال: وحدث رجل من أهل حرّان قال: خرج يوماً نور الدين من حران قاصداً إلى الرّها، فاجتاز على نهر وفقير نائم على جانب النهر، فوقف وسلّم عليه، فرفع الفقير رأسه وقال بيده كذا، ومعناه في أيّ شيء أنت، فحرّك نور الدين اصبعاً واحدة، فحرك الفقير اصبعين، ومضى نور الدين باكياً، فقيل له: ماهذا؟ قال: أشار إليّ الفقير فقال: في أيّ شيء أنت؟ وهذا كلّه لماذا؟ فقلت: من أجل رغيف واحد، فأشار إليّ بإصبعيه وقال: فأنا آكل كلّ يوم رغيفين وماأنامثلك.

وقال الفقية أبوالفتح الأشيري معيد النظامية وكان قد جمع سيرةً مختصرة لنور الدين: بلغنا عن جماعة يُعتمد على قولهم أنَّ نور الدين كان أكثر الليل يصلّي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ان القسيم إبن القسيم، يعنون نور الدين، له مع الله سر، فإنه مايظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي الليلَ ويرفع يديه إلى الله ويدعو والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤْلَه، ومايردُّ يده خائبة، ويظفر علينا بهذا. فهذا كلام الكفار في حقه.

وحدّث الشيخ داود المقدسي خادم قبر سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين، فحضر رجلٌ زاهد وفيه سمة الخير معروف بالسداد والصلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان. وكان شخصٌ قد أودع عند أخيه أبي البيان وديعةً وقد توفي، فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة وطالبه بالردّ عليه، فأنكرَ هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع ان يحلف أنه لاعلم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودع يشنّع عليه ويقول: انه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمس وغيره، فحضر إلى عند الملك العادل شاكياً منه، وذاكراً سيرتَه وطريقته، ومن ذا الذي يقدر ان يقول في حقّي هذا، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدم باحضاره والإنكار عليه مما يقول في حقه، فلما فرغ من هذا الكلام ورمى ماكان في جُعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصلُه التماس الإنكار عليه، فقال له الملك العادل: أليس ان الله تعالى يقول:(وإذا خاطَبَهم الجاهِلُون قالوا سَلاماً) (١٧) يجهل عليك، ويقول في حقّك بالجهل مالايجوز، فيجب عليك ان لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، وكأنك قابلتَ الاساءة بالاساءة، ومن حقّك ان تقابل الاساءة بالإحسان، فقلت في نفسي: الحقُّ ماقال الملك العادل، إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، او أجراه الله على لسانه وأنطقَه به.

قال قاضي القضاة بهاء الدين بن رافع بن تميم: كان نور الدين ينفذ في كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء.

وقال صاحب المرآة حكى لي شيخنا تاج الدين الكندي رحمه الله قال:

الله تعالى عليهم وعُدْتُ إلى حلب، التقاني شاب حسنُ الوجه طيّب الرائحة، فسلّم عليّ، وقال: يامحمود، أنت من الأبدال، قد أعطاك الله الدنيا، فاشترِ بها الآخرة، وسَلْه مهما شئت، ثم علّمني كلمات وقال: إذا طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: من أنتَ رحمك الله؟ قال: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمتُ على أمر، أو أردتُ أن أذهبَ إلى مكة أو المدينة أو أيّ بلد شئتُ لبستُ هذه العباءة وتكلمتُ بتلك الكلمات، وأغمضُ عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال: حكى لي نجم الدين الحسنُ بن سلام، أحدُ عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا قال: لما ملك الأشرفُ بن العادل دمشق وعمر مسجد أبي الدرداء في القلعة، دخلتُ عليه يوماً وهو فيه، فقال لي: يانجم الدين، كيف ترى هذا المسجد وقد عمّرتهُ وأفردتُهُ عن الدور، وماصلّى فيه أحد منذ زمن أبي الدرداء إلى الآن؟ قال: فقلت له: الله الله يامولانا، مازالَ نورُ الدين منذ ملك دمشقَ يصلّي فيه الصلوات الخمس، قال: من أين لك هذا؟ قلت: حدّثني والدي أنه لما نزلتِ الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها، أشرفَتْ على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايُفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مُهاباً فلم يتجاسرْ أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلّي به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن وله عنده حُرمة. فاجتمع إليه خواصُّ نور الدين وخَدَمه، وقالوا: قد خِفْنا على السلطان، ونحن من هيبته مانقابله، وأنت تدل عليه، ونسألك أن تسأله أن يتناولَ مايحفظُ به قُوتَّه، قال: نعم إذا صليّتُ بعد غداة غد الفجر سألته. قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخُ يحيى في المنام رسول الله ﷺ يقول له: يايحيى، بشّر نورَ الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يارسول الله، ربما لايصدّقني، وأريدُ أمارة، قال: قل له بعلامة يوم حارِم، قال: فانتبه يحيى وهو ذاهبُ العقل، فلما صلّى نور الدين خلفه الفجرَ وسلّم وشرع يدعو، فهابه أن يتحدّث معه، فقال له

نور الـدين: يـايحيى، قـال :لبيك يـامولانـا، قال: تحدِّثني أو أحدِّثـك؟ فارتعد يحيى وخرس، فقال: له: أنـا أُحدِّثك: رأيتَ رسول الله ﷺ في نوم هذه الليلة وقـال لك كذا وكذا، فقال: نعم، فبـالله يامولانا مامعنـى قوله ﷺ بعـلامة يـوم حارم. فقـال نور الـدين: لما التقـى الصّفان خفـتُ على الاسلام لأني رأيـتُ من كثـرة الفرنـج ماهـالني، فـانفردت عـن العسكر، ونزلت فمرَّغتُ وجهي في التراب، فقلـتُ:ياسيِّدي، من محمود في الفئتين، الديـن دينك، والجند جنـدك، وهذا اليوم فـافعل مـايليق بكرمـك، قال: فنصرنا الله عليهم.

قـال: وحدثنـي شهاب الـديـن ابن البـانيـاسي عم كمال الـدين ابـن البانياسي وكـان على ديوان جامع دمشـق، أول ماقدمت الشـام اجتمعتُ به في درب الشعارين في قاعة الوزير صفـيِّ الدين بن شكر وزير العادل ابن أيـوب، وكان هنـاك جماعة، فـاشتغل الـوزيرُ بـالحديث معهـم، وكان الشّهاب إلى جانبي، فتذاكرنا نور الدين، فقال: كان أبي يخدم نورَ الدين في أسفاره ومقامـه على ديوانه، قال: حكى لي وأنا صغير، قـال: خرج نورُ الدين مـن دمشق يتصيد في أرض قطنا ويعفور وأنـا معه، فبينما هو ذاتَ يوم قد ركب مـن المخيم ليذهب إلى الصيد، إذا برجـل أعجمي قد أقبل من نـاحية دمشـق ومعه خيل ومماليك، وكان تـاجراً، فلما وصـل إلى نور الدين، ترجَّلَ وقبل الأرض، فرحب به نور الدين وكان صديقه، قال: أين الأرمغان؟ قـال: حاضر، ومضى نـور الدين ، فلما عاد استدعـاه، فاحضر قماشاً وعدةَ مماليك فيهم مملوكٌ مستحسـن جداً،فقبل المملوكَ وردَّ الباقي، وكان له خادمٌ أبيـض اسمه سهيل قد رباه، فقال له: يـاسهيل، خذ هذا المملوكَ وادفَعْ إلى التاجر خمسمائة دينار وخلعةً وبغلة. قال أبو الشهاب: فحـدثنـي سهيل، قـال: لما قـال كـذا، قلـت في نفسي: إنا لله وإنـا إليـه راجعون، هـذا مااشترى مملـوكاً قط يسـاوي خمسين ديناراً يشتري مملـوكاً بخمسمائة دينـار، قال: ففعلـت ماأمـرني فتركني ايـاماً وقـال: ياسهيـل، احضـر المملـوك مع الممـاليك كـل يـوم يقف في الخـدمـة، قـال: فأحضرته، فلمـا كان بعد أيام قال لي: أحضره وقـت العشاء الآخرة الى

لم يبتسم نور الدين إلا نادرا، قال: وحكى لي جماعة من شيوخنا المحدثين أنهم قرأوا عليه حديث التبسم وكان يرويه، فقالوا: تبسم، فقال: لاوالله لاأبتسم من غير عجب.

ذكر ألقابه التي جاءت من بغداد مع الخلعة ويخطب له بها على المنابر

اللهم وأصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد، الورع المجاهد، المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الاسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي الامامة وأثيرها، فخر الملة ومجيرها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره بأن يكتب له صورة مايدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه فكتب ابن القيسراني كلاما دعا له فيه، ثم قال: وأرى حين يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا مايدخله كذب على نور الدين، فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ماصورته: مقصودي أن لايكذب على المنبر، أنا بخلاف مايقال، أفرح بما لاأعمل، قلة عقل، عظيم الذي كتبت به جيد، اكتب به نسخا إلى البلاد.

وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق حقا، اللهم

أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس، وكان يقول لأصحابه: حرام على كل من صحبني ولايرفع إلي قصة مظلوم لايستطيع الوصول إلي.

قال ابن الأثير: حكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصا بخدمة نور الدين قال: كنت مع نور الدين يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ،ثم قال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي والتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت مانحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من هرب منها، فرضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وأنشد صاحب الروضتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لاتدركه متبعا
فإذا وليت عنه تبعك

وذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتابه المسمى المنهج المسلوك في سياسة الملوك، قال: حدثني الفقيه أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن الحصني الحموي قال: كنت عند الملك العادل محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق، وقد أخرج جريدة خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان قال: إني عزمت على انتزاع أملاك أهل المعرة من أيدي أهلها، فقد رفع إلي أهل الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك حتى يشهد معه ذاك في دعوى أخرى، وان الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق، قال: فقلت له: أيها الملك، إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك، فانظر واكشف، وتوقف في الأمور إذا رفعت اليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستحل تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع

الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لايجوز، قال: فأطرق ساعة ثم قال: إني أمسكها عليهم، ثم أكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه وقال: اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهله حتى تستدعي البينة في ذلك، فكتبه ووضعه بين يديه ليعلم عليه، وإذا صبي على شاطىء بردى يغني ويقول:

اعدلوا مادام أمركم نافذا في النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم إنكم منها على خطر
إنما الدنيا وزينتها طيب ما يبقى من الأثر

قال: فلما سمع الملك العادل ذلك تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثم نظر فقال:(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله)[١٨] ثم استدار نحو القبلة وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك مما عزمت عليه الآن، ثم تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله جميع ذلك اليوم.

وحكى الشيخ جمال الدين المطري رحمه الله في تاريخ المدينة الشريفة له على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، قال: وصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله في سنة سبع وخمسين وخمسماية إلى المدينة الشريفة لرؤيا رآها ذكرها بعض الناس، وسمعتها من الفقيه علم الدين يعقوب ابن أبي بكر المحترق أبوه ليلة حريق المسجد الشريف عمن حدثه عن أكابر من أدرك: أن السلطان محمودا المذكور رأى النبيﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة: يامحمود، أبعدني عن هذين الشخصين، يشير إلى أشقرين تجاهه، فاستحضر وزيره قبل الصبح، فذكر له ذلك، فقال: هذا أمر قد حدث في مدينة النبيﷺ ليس له غيرك، فتجهز وخرج على عجل

بمقدار ألف راحلة ومايتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها والوزير معه، فزار وجلس في المسجد لايدري مايصنع فقال له الوزير: تعرف الشخصين إذا رأيتها؟ قال: نعم، فطلب الناس عامه للصدقة، وفرق عليهم ذهبا كثيرا وفضة، وقال: لايبقى أحد بالمدينة إلا جاء، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي هي قبلة حجرة النبيﷺ من خارج دار آل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه التي تعرف اليوم بدار العشرة، وطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا: نحن على كفاية مانقبل شيئا، فجد في طلبهما، فجيء بهما، فلما رآهما قال للوزير: هما هذان، فسألهما عن حالهما وماجاء بهما، فقالا: لمجاورة النبيﷺ فقال: أصدقاني، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى معاقبتهما، فأقرا أنهما من النصارى وأنهما توصلا لكي ينقلا من في هذه الحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهم، فوجدهما قد حفرا نقبا تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة النبيﷺ خارج المسجد، ثم أحرقا بالنار آخر النهار، وركب متوجها إلى الشام، فصاح به من كان نازلا خارج السور واستغاثوا وطلبوا أن يبني عليهم سورا يحفظ أبناءهم وماشيتهم، فأمر ببناء هذا السور المجدد اليوم فبني في سنة ثمان وخمسين، وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق إلى اليوم، رحمه الله وقدس روحه.

-١٠٨٢١-

الباب السادس

في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة والقصائد البديعة الرائقة

وكان رحمه الله قليل الابتهاج بالشعر ويجيز عليه، وقد مدح بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق مامدح به، وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه مدائح، وله إليهما منائح، فمن ذلك قول ابن القيسراني فيه:

ذو الجهاد من عدو ونفس
فهو طول الحياة في هيجاء

أيها المالك الذي ألزم النا
س سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ماملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الأتقياء

شيم الصالحين في جتر الترك
وكم من سكينة في قباء

أنت حينا تقاس بالأسد الورد
وحينا تعد في الأولياء

صاغك الله من صميم المعالي
حيث لامشبه سوى الآلاء

وكأن القباء منك لماضم
من الطهر مسجد بقباء

أنت إلا تكن نبيا فما فا
تك إلا خلائق الأنبياء

رأفة في شهامة، وعفاف
في اقتدار، وسطوة في حياء

وجمال ممنطـــــــق بجـــــــلال
وكمال متـــــــوج ببهـــــــاء
وكــأن السيــوف مــن عــزمــك الماضي
أفــادت مــا عنــدهـــا مـــن مضــاء
ولعمـــري لـــو استطـــاع فـــداك الـــ
ــــقوم بـــالأمهـــات والآبــــاء

وله أيضاً فيه:

لله عـــزمـــك أي سيـــف وغـــى
طبعـــت مضـــاربـــه على القهــــر
مـــازفـــت الحرب العـــوان بـــه
إلا انجلـــت عـــن معقـــل بكـــر
هـــل وجـــه نـــور الـــديـــن غير سنـــا
سطـــع الـــدجـــى عـــن خجلـــة البـــدر
ملـــك مهـــابتـــه طليعتـــه
أبـــداً أمـــام جيـــوشـــه تسري
كـــم فـــك كيـــدهـــم بصـــاعقـــة
شغلـــت قلـــوبهم عـــن الفكــــر
تـــركـــت حصـــونهم سجـــونهم
فـــالقـــوم قبـــل الأسر في أسر
عصـــم العـــواصـــم فهـــي ضـــاحكـــة
تجلـــو الظبـــي ثغـــرا على ثغـــر
وإذا سرايـــاخيلـــه قفلـــت
نهضـــت سرايـــا الخوف والـــذعـــر
ورمـــى القـــلاع بمثـــل جنـــدها
حتـــى استكـــان الصخـــر بـــالصخـــر
يـــاســـائلي عـــن نهج سيرتـــه
هـــل غير مفـــرق هـــامـــه الفجـــر

عـــدل حقيـــق مـــن تـــأملـــه
أن يحيـي العمـــريـــن بـــالـــذكـــر
وشهـــامـــة في الله خـــالصـــة
عقـــدت عليـــه تمائم الأجـــر
ونـــدى يـــد مـــاضر واردهـــا
ألا يبيـــت مجاور البحـــر
هـــذا المخيـــم في ذرا حلـــب
وثنـــاؤه أبـــدا على ظهـــر

وله أيضا:
ملـــك أشبـــه الملائك فضـــلا
وشبيـــه بها لـــك الأمـــر جنـــده
عـــم إحســـانـــه فـــأصبـــح يتلى
شكـــره في الـــورى ويـــدرس حمده
فسقـــى الله ذكـــره أينما حـــل
ولا فـــاتـــه مـــن النصر رفـــده

وله أيضا فيه:
ســـام الشـــآم ويـــالها مـــن صفقـــة
لـــولاه مـــا اعنـــت على يـــد ســـائم
تلـــك التـــي جمحـــت على مـــن راضهـــا
ودعـــوت فـــانقـــادت بغير شكـــائم
وإذا السعـــادة ســـاعـــدت في دولـــة
قـــام الـــزمـــان لها مقـــام الخادم
حصـــن بـــلادك هيبـــة لا رهبـــة
فـــالـــدرع في عـــدد الشجـــاع الحازم
هيهـــات يطمـــع في محالـــك طـــامـــع
طـــال البنـــاء على يمين الهادم
كلفـــت همتـــك السمـــو فكلفـــت
وكـــأنمـــا هـــي دعـــوة مـــن ظـــالـــم

وأظــــن أن النـــــاس لما لم يــــروا
عــــدلا لعــــدلـك أرجفــوا بـــالقـــائم

ولابن المنير فيه:
أيـــا ملـــك الـــدنيـــا الحلاحـــل والـــذي
لــــه الأرض دار والبريـــــة أعبــــــد
وليســـت بـــدعـــوى لا يقـــوم دليلهـــا
ولكنـــه الحق الـــذي ليـــس يجحــــد
أخـــو غـــزوات كـــالعقـــود تنـــاسقـــت
تحل بـــأجيـــــاد الجيــــاد وتعقــــد
لســــان بـــذكـــر الله يكســـو نهاره
وجفـــن في الـــدجـــى ليـــس يـــرقـــد
وبـــذل وعـــدل أغـــرقـــا وتـــألقـــا
فـــلا الـــورد مثمـــود(١٩) ولا الباب مؤصد
قـــوام سماوي، وحـــزم مســـدد
ورأي شهـــابي، وعـــز مـــؤيـــد

الباب السابع

في ذكر غزواته العديدة وفتوحاته السعيدة وماجرى في زمانه من الأمور الغريبة والحوادث العجيبة من ولادته إلى وفاته

سنة إحدى عشر وخمسمائة

فيها ولد نور الدين محمود

وفيها غـرقت سنجارمـن سيل المطـر، وهلك فيها خلـق كثير حتى إن السيل أخـذ باب المدينـة وذهب بـه عدة فـراسخ، واختفـى تحت التراب الذي جـره السيل ثم ظهـر بعد سنين، ومـن أعجب ماحكـي أن السيل حمل مهـدا فيه طفـل، فعلـق المهد في شجـرة، ونقـص الماء وسلم ذلـك الطفل، وغرق غيره من الماهرين في السباحة.

وفيهـا زلـزلت إربـل وبغـداد وغيرهما مـن البـلاد المجاورة لها زلـزلـة عظيمة، ووقع بالجانب الغربي من بغداد دور وحوانيت على أهلها.

وفيهـا هجم الفـرنـج على ربـض حماة، وقتلوا خلقـا كثيرا ورجعـوا إلى بلادهم.

وفيهـا توفي السلطـان(غيـاث الديـن) محمد بـن ملكشـاه السلجوقـي سلطان بلاد العـراق وخراسان وغير ذلك مـن البلاد الشاسعة والأقـاليم الواسعـة، وكان من خيـار الملوك وأحسنهم سيرة، وقـام بالأمر بعـده ابنه محمود ولـه أربع عشرة سنة، وفـرق خزائنه في العسكـر، وقيل كانـت أحد عشر ألف ألف دينار ومايناسب ذلك من العروض.

- ١٠٨٢٦ -

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

وفيها مات بغدوين الذي افتتح القدس وكان جبارا خبيثا شجاعا، هم بأخذ مصر، وسار في جموعه حتى وصل بلبيس، ثم رجع عليلا فمات بسبخة بردويل، فشقوه وصبروه ورموا حشوته هناك.

قال الذهبي: فهي ترجم إلى اليوم، ودفن بالقمامة، وتملك القدس بعده القمص صاحب الرها، وكان قد قدم القدس زائرا، فوصى له بغدوين بالملك بعده.

وفيها توفي الخليفة المستظهر، وولي بعده أبو منصور الفضل ولقب بالمسترشد بالله.

ومن الاتفاق الغريب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان، مات بعده الخليفة القائم، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده الخليفة المقتدي، ثم لما مات السلطان محمد، مات الخليفة المستظهر بالله.

هذا وفيها كان حريق كبير ببغداد واحترقت الريحانين ومسجد ابن عبدون وفيها قبض علي ابي طاهر بن الخزري صاحب المخزن وأعدم وأخذ من داره أربعمائة ألف دينار.

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها خرج على المسترشد أخوه أبو الحسن بن المستظهر بالله، فمضى إلى واسط، ودعا إلى نفسه، واجتمع معه جيش وتملك واسط وأعمالها وجبى الخراج، وشق ذلك على الخليفة، فبعث ابن الأنبارى كاتب

الانشاء إلى دبيس وعرفه ذلك، وقال: إن أمير المؤمنين معول عليك، وجهز صاحب جيشه عنانا في جمع كبير، فلما سمع أبو الحسن ذلك ترحل من واسط في عسكره ليلا، فأضلوا الطريق، وساروا ليلهم أجمع حتى وصلوا إلى عسكر دبيس، فلما لاح لهم العسكر، انحرف أبو الحسن عن الطريق، فتاه مع عدد من خواصه وذلك في تموز ولم يكن معهم ماء وأشرفوا على التلف فأدركه نصر بن سعد الكردي فسقاه حتى عادت نفسه إليه، ونهب ماكان معه من ماله وحمله إلى دبيس إلى النعمانية، فأقدمه إلى بغداد، وخيم بالرقة، وبعث به إلى المسترشد بالله بعد تسليم عشرين ألف دينار قررت عنه، وكانت أيامه أحد عشر شهرا وشهر وزيره ابن رمهويه على جمل ثم قتل في الحبس، ودخل الأمير أبو الحسن على أخيه المسترشد بالله فقبل قدمه فبكيا معا، ثم قال له: فضحت نفسك وباعوك بيع العبيد، وأسكنه داره التي كان فيها وهو ولي عهد، ورد جواريه وأولاده وأحسن السيرة إليه، ثم شدد عليه بعد ذلك.

وفيها خطب بولاية العهد للأمير أبي جعفر منصور بن المسترشد بالله وله اثنتا عشرة سنة.

وفيها كانت الوقعة بين السلطان سنجر ومحمود ابن أخيه، وذلك أن سنجر لما بلغه موت السلطان محمد قصد العراق عازما على أن يملكه، فلما سمع محمود بحركة عمه سنجر نحوه، راسله ولاطفه، وقدم له تقادم، فأبى إلا القتال أو النزول له عن السلطنة، فتجهز محمود، وصمد معه ثلاثون ألفا، وأقبل سنجر في نحو مائة ألف، وكانت الوقعة بصحراء ساوه، وكان مع سنجر خمسة ملوك على خمسة أسرة، وأربعون فيلا عليها البركصطوانات والبراواب والزينة الباهرة وخلق من الإسماعيلية، فلما التقوا هبت ريح سوداء أظلمت الدنيا، وظهر في الجو حمرة منكرة، وآثار مزعجة، وخاف الناس، ثم انكشفت الظلمة واقتتلوا، فانكسرت ميمنة سنجر ثم ميسرته، وثبت هو في القلب وحده، وتفرق

أكثر جيوشه في النهب، فحمل سنجر بالفيلة فولت الخيل منها فتأخر محمود ولم ينهزم، ولم يتبعه سنجر لأنه رأى جيشه قد انهزم أكثره، وثقله نهب، وقتل كثير من أمرائه وأسر وزيره، وأرسل إلى ابن أخيه يقول: أنت ابن أخي وولدي وما أؤاخذك لأنك محمول على ماصنعت، ولاأواخذ أصحابك لأنهم لم يطلعوا على حسن نيتي لهم، فقال محمود: أنا مملوكه، ثم جاء بنفسه وسنجر قد جلس على سريره فقبل الأرض، فقام سنجر فاعتنقه وأجلسه معه، وخلع عليه خلعة عظيمة، وكان على سرج فرس الخلعة جوهر بعشرين ألف دينار، وأكل معه، وخلع على أمرائه وأفرد له أصبهان يكون حاكما عليها وعلى مملكة فارس وخوزستان، وجعله ولي عهده من بعده، وزوجه ابنته، ثم عاد إلى خراسان، ثم جاء رسله بالتقادم إلى الخليفة وهي ثلاثون تخت ثياب وتحف وعشرة مماليك، واقطاع إلى الخليفة بخمسين ألف دينار، وللوزير ببضعة آلاف دينار.

وفيها سارت الفرنج إلى مدينة حلب وفتحوها وملكوها(٢٠)، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا، فسار إليهم صاحب ماردين إيل غازي بن أرتق في جيش كثيف، فهزمهم عنها، ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا فيه، فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم يفلت منهم إلا اليسير، وأسر من مقدميهم نيفا وسبعين أسيرا، وقتل سيرجال صاحب أنطاكية، وحمل رأسه إلى بغداد.

وفيهاظهر قبر سيدنا ابراهيم الخليل وقبر اسحاق ويعقوب صلوات الله عليهم، ورآهم كثير من الناس لم تبل أجسادهم وعليهم قناديل من ذهب وفضة قاله حمزة بن أسد التميمي في تاريخه على ماحكاه ابن الأثير رحمه الله تعالى.

سنة أربع عشرة وخمسمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين الكرج والمسلمين بالقرب من تفليس

ومع الكرج كفار من القفجاق فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا، وغنموا أموالا جزيلة،وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهب الكرج تلك النواحي، وفعلوا أشياء منكرة، وحاصروا تفليس، ثم ملكوها عنوة بعدما أحرقوا القاضي والخطيب حين خرجوا إليهم يطلبون الأمان، وقتلوا عامة أهلها، وسبوا الذرية، واستحوذوا على الأموال فلا حول ولاقوة إلا بالله.

وفيها خطب للسلطان سنجر ولابن أخيه محمود معا في موضع واحد، وسمي كل واحد شاهنشاه، ولقب سنجر عضد الدولة، ولقب محمود جلال الدولة.

سنة خمس عشرة وخمسمائة

وفيها انقض كوكب صارت من ضوئه أعمدة عند انقضاضه، وسمع له عند ذلك صوت هزة كالزلزلة.

وفيها هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام فأهلكت خلقا كثيرا من الناس والدواب.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالحجاز تضعضع بسببها الركن اليماني زاده الله شرفا، وتهدم شيء من حرم رسول الله ﷺ بالمدينة الشريفة.

وفيها احترقت دار المملكة التي استجدها بهروز الخادم بأصبهان، وكان بها السلطان نائما على سطح، فنزل وهرب في سفينة، وذهب من الفرش والآلات والجواهر مايزيد قيمته على ألف ألف دينار، ولم يبق فيها شيء من الأثاث سوى الياقوت الأحمر، غسل الغسالون التراب وظفروا بالحلي والذهب الذي قد سبك، ولم يبق من الدار ولاخشبة، وأمر السلطان ببناء دار له غيرها، وأعرض عن الدار التي احترقت، وقال: إن أبي لم يمتع بها ولا امتد بقاؤه بعد انتقاله إليها، وذهبت أموالنا فيها.

وفيها احترق بأصبهان جامع كبير أنفقت عليه أموال كثيرة، يقال إنه غرم على أخشابه ألف ألف دينار، وفي جملة ما احترق خمسمائة مصحف ثمينة منها مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه.

وفيها كانت ببغداد أمطار عظيمة متوالية، ثم وقع ثلج عظيم، وكثر حتى كان علو ذراع.

قال ابن الجوزي وقد ذكرنا في كتابنا هذا، يعني المنتظم، أن الثلج وقع في سنين كثيرة في أيام الرشيد وأيام المقتدر وأيام المطيع وأيام الطائع والقادر والقائم، وماسمع بمثل هذا الواقع في هذه السنة، فإنه بقي خمسة عشر يوما ماذاب، وهلك شجر الأترج والليمون، ولم يعهد سقوط ثلج بالبصرة إلا في هذه السنة.

وفيها جلس الخليفة المسترشد في دار الخلافة في أبهة عظيمة، والبردة على كتفه والقضيب بين يديه، وجاء الأخوان الملكان محمود ومسعود ابنا محمد بن ملشكاه فوقفا بين يديه، وقبلا الأرض، فخلع على محمود سبع خلع بطوق وسوارين وتاجا، وأجلس على كرسي، ووعظه الخليفة وتلا عليه قوله تعالى:(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[٢١] وأمره بالإحسان إلى الرعية، وعقد له الخليفة اللواء بيده، وقلده الملك، وخرجا من بين يديه ونزلا إلى دارهما والجيش بين أيديهما في أبهة عظيمة.

وفيها مرض وزير السلطان فعاده، وعافاه الله تعالى، وهنأه السلطان بالعافية، فاحتمل واحتفل، وعمل —أعني الوزير— وليمة عظيمة إلى الغاية فيها الملاهي والأغاني نابه عليها خمسون ألف دينار.

وفيها حكى ابن الجوزي عن خط من خبره بالصدق أنه كان في سوق نهر المعلى، ومر بين يديه رجل على رأسه قفص زجاج وهو مضطرب

المشي، يظهر منه عدم المعرفة بالحمل، فما زلت أترقب سقوطه، قال: فسقط فانكسر الزجاج، وبهت الرجل ثم بكى، وقال: هذا والله جميع بضاعتي، والله لقد أصابني بمكة مصيبة عظيمة توفي على هذه، واجتمع حوله جماعة يرثون له ويبكون حوله، وقالوا: ما الذي أصابك بمكة؟ قال: دخلت قبة زمزم وتجردت للاغتسال، وكان في يدي دملج فيه ثمانون مثقالا، فخلعته واغتسلت، وأنسيت وخرجت، فقال رجل من الجماعة: هذا دملجك خذه، له معي سنين، فدهش الناس من إسراع جبر مصيبته.

وفيها قتل الملك الأفضل أحمد بن أمير الجيوش بدر الجمالي مدبر دولة الفاطميين، وخلف من الأموال مالم يسمع بمثله، قال ابن خلكان خلف ستمائة ألف ألف دينار عينا، ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، ومائة مسمار ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس، في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب، بلون من الألوان أيها أحب منها لبسه، وخمسمائة صندوق(كسوة لخاصه من دق تنيس ودمياط) وخلف من الخيل والرقيق والبغال والمراكب والطيب، والحلي مالايعلم قدره إلا الله تعالى، وخلف من البقر والجواميس والغنم مايستحيي الإنسان من ذكر عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم الجواري والنساء.

سنة ست عشرة وخمسمائة

فيها قتل وزير السلطان محمود أبو طالب السميرمي قتله باطني، وكان قد برز للمسير إلى همذان، وكانت قد خرجت زوجته في مائة جارية بمراكب الذهب، فلما بلغهن قتله رجعن حاسرات الوجوه وقد هن بعد العز.

وفيها ظهر معدن النحاس بديار بكر قريبا من قلعة ذي القرنين.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

فيها ختن الخليفة المسترشد أولاده وأولاد أخيه، فزينت بغداد وعمل الناس القباب، وعملت خاتون قبة بباب النوى علقت عليها من الديباج والجواهر ماأدهش الأبصار، وعملت قبة على باب السيد العلوي عليها غرائب الحلي والحلل، من ذلك ستران من الديباج الرومي طول الستر عشرون ذراعا على الواحد اسم المقتفي بالله، وعلى الآخر اسم المعتز بالله وبقوا أسبوعا.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ظهرت الباطنية بآمد، فقاتلهم أهلها فقتلوا منهم سبعمائة نفس، ولله الحمد.

وفيها أخذت الفرنج صور من طغتكين، واستنجد طغتكين بالمصريين فما نجدوه، ولما أشرف طغتكين على الهلاك راسل ملك الفرنج على أن يسلمها إليه ويمكن أهلها من حمل مايقدرون عليه من الأمتعة فأجابه إلى ذلك، ووفى بالعهد وتفرق أهلها في البلاد، ودخلتها الفرنج في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وكانت من أمنع حصون المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ودامت في يدهم إلى سنة تسعين وستمائة.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قتلت الباطنة القاضي أبا سعيد محمد بن نصر بن منصور الهروي بهمذان، وكان قد أرسله الخليفة إلى السلطان سنجر يخطب له ابنته.

وفيها قصد دبيس والسلطان طغرل بغداد ليأخذاها من الخليفة، فلما قربا منها برز إليهما الخليفة في جحفل عظيم والناس بين يديه، وعليه السواد والبردة، والقضيب بيده، ثم ركب الناس بعد ذلك، فلما أمست الليلة التي يتقاتلون في صبيحتها، أرسل الله عليهم مطرا عظيما، ومرض السلطان طغرل في تلك الليلة، فتفرقت تلك الجموع ورجعوا على أعقابهم خاسئين خائبين.

سنة عشرين وخمسمائة

فيها استفحل أمر بهرام داعي الباطنية بحلب والشام وعظم الخطب، ثم التمس من طغتكين حصنا يحتمي به، فأعطاه بانياس، فسار إليها، وتجمع إليه أوباش، فعظمت البلية به وبهم، وتألم العلماء وأهل الدين، وأحجموا عن الكلام فيهم والتعرض لهم خوفا من شرهم، لأنهم قتلوا جماعة من الأعيان، وصاروا بحيث لاينكر عليهم ملك ولاوزير(ولايفل حد شرهم متقدم ولاأمير) فلا حول ولاقوة إلا بالله.

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

فيها جاء الخبر بأن السلطان سنجر قتل من الباطنية إثني عشر ألفا، وقتلوا وزيره المعين لأنه كان يحرض عليهم وعلى استئصالهم فتحيل رجل منهم وخدم سائسا لبغال المعين، فلما وجد الفرصة وثب عليه وقتله، وقتل بعده، وكان هذا الوزير ذا دين ومروءة وحسن سيرة.

وفيها فوَّض السلطان شحنكيَّةَ بغداد إلى عماد الدين زنكي والد نور الدين ثم وَلِيَ بعدَ موت عزِّ الدين مسعود بن آق سنقر في هذه السنة الموصل، فرتب الأمور على أحسن نظام وأحكمِ قاعدة.

وكان الفرنج قد اتّسعت بلادُهم، وكثرت أجنادهم، وامتدّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُفَ أهلُها عن كفّ عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وامتدّتْ مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى العريش، ولم يتخللها من ولاية المسلمين غيرُ حلب وحماة وحمص ودمشق، وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر إلى آمد، ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين، وأما أهلُ الرقة وحران فكانوا معهم في ذُل وهوان، وانقطعت الطريق إلى دمشق إلاّ على الرحبة والبرية، ثم زاد الأمرُ وعظم الشرّ حتى جعلوا على أهل كلِّ بلد جاورهم خراجاً، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيّروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين، وأما أهل حلب فإن الفرنجَ أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرحا التي كانت على باب الجنان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام فكان حالُها أشدّ حال من هذين البلدين، فلما نظر الله سبحانه وتعالى إلى بلاد المسلمين وولاها عمادَ الدين زنكي، غزا الفرنجَ في عُقر دارهم، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل، وسيأتي تفصيل ذلك ومافتحه من البلاد الإسلامية إن شاءَ الله تعالى.

وفيها ملك عماد الدين زنكي والد نور الدين مدينة حلب وماحولها من البلاد.

وفيها تحارب الخليفةُ والسلطان محمود ببغداد، فثارت العوام مع جيش

الخليفة، فكسروا جيش السلطان، وقتلوا خلقاً من الأمراء، وأسروا ونهبوا دار السلطان ودار وزيره وجرت خبطة عظيمة جداً، ونالت العوام من السلطان، وجعلوا يقولون له: ياباطني، تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة! ثم حصل الصلح بينهم وتحالفوا، ودخل جيشُ السلطان إلى بغداد وهم في غاية الجهد من قلة الطعام عندهم في المعسكر، وقالوا: لو لمْ نصالح لمِتنا جوعاً، وظهر من السلطان حلم كبير على العوام.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها فتح عماد الدين زنكي جزيرةَ ابن عمر ثم مدينة إربل، وعظم شأنه، واتسعت دولته.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها ملك عماد الدين زنكي سنجار والخابور والرحبة، وافتتح نصيبين.

وفيها أظهر عماد الدين زنكي أنه يريد جهادَ الفرنج، وأرسل إلى تاج الملوك بوري يستنجده، فبعث إليه عسكراً بعد أن أخذ عليه العهدَ والميثاق، وأمر ولده سونج أن يسيرَ إليهم من حماه ففعل، فأكرمهم عمادُ الدين زنكي وطمأنهم أياماً ثم غدر بهم، وقبض على سونج وعلى أمراء أبيه، ونهبَ خيامَهم وحبسهم بحلب وهرب جندهم، وسار من يومه إلى حماة واستولى عليها، وحاصر حمصَ مدةً فلم يقدر عليها، فرجع إلى الموصل، ولم يطلق سونج ومن معه حتى اشتراهم أبوه بخمسين ألف دينار.

قال الذهبي: ثم لم يتم ذلك ومقت الناسُ زنكي على قبيح فعله. انتهى.

وحكى صاحب الروضتين عن الرئيس أبي يعلى أن زنكي طلب في إطلاق سونج وأصحابه خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دُبيس بن صدقة من العراق منهزماً، فطلبه زنكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه.

وفيها اتفق أن بهرام الإسماعيلي داعي الباطنية وكان مقيماً ببانياس كما تقدم، فاستدعى برقاً بن جندل مقدم وادي التيم وقتله صبراً بين يديه لالسبب، فتألم الناس لذلك لشهامته وحسنه وحداثة سنة، وهاج أهلُ وادي التيم طالبين بثأره مع أخيه الضحّاك بن جندل، فحشدوا وقصدوا بانياس، وجمع بهرام أيضاً وخرج إليهم، فبغتوه صباحاً وأعجلوه قبل أن يركب من مخيَّمه هو وأصحابه، فقتلوه وأصحابه، أشدَّ قتلة، وأخذوا رأسَه وطافوا به في بلادهم، ثم بعثوه إلى خليفة مصر الآمر لأنهم كانوا ينتمون إليه ويقولون بانتظار الحاكم ليعود من غيبته، ويقسمون في أيمانهم بحقه، فبعث إلى أعيان أهل الوادي الخلع والافتقاد، ثم قام بعد بهرام صاحبه اسماعيل العجمي، فحذا في الإضلال والإستغواء حذوه، وعامله الوزير المزدقاني بما كان يعامل به بهراماً، فإنه كان يصادق الباطنيَة ويراعي أصحابهم. وغرضه في ذلك أن يساعدوه على أعدائه، وينجدوه إن دهمه أمرٌ لايطيقه فلم يُغن عنه ذلك من أمر الله شيئاً، وضرب عنقه الملك بوري صاحب دمشق، وأحرقَ بدنَه، وعلقّ رأسه، وانقلبت البلدُ بالسرور، وحمدوا الله. وثارت الأحداث والشطار في الحال بالسيوف والخناجر يقتلون من رأوا من الباطنية وأعوانهم ومن يتهم بمدحهم ويتبعونهم حتى أفنوهم، وامتلأت الطرق والأسواق بجيفهم، وكان يوماً مشهوداً أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأخذ جماعة أعيان، منهم شاذي الخادم تربية أبي طاهر الصائغ الباطني الحلبي، وكان هذا الخادم رأس البلاء، فعوقب عقوبة شديدة شفت القلوب، ثم صلب هو وجماعته قبلي السور، وقتل بدمشق ممن كان يرمى بمذهب الباطنية ستة آلاف نفس، ولما سمع اسماعيل الداعي وأعوانه ببانياس بما جرى انخذلوا وذلوا،

وسلَّمَ اسماعيلُ اللعين بـانياس إلى الفرنج، وذهب هو وأعـوانه إلى ا لبلاد الافرنجية في الذلـة والقلة، ثم مرض إسماعيل بالإسهـال وهلك، فلارحمه الرحمن.

ولما عـرف الفرنـج بـواقعة البـاطنية وانتقلـت إليهم بـانيـاس قويـت نفوسهم وطمعوا في دمشـق وحشدوا وتألبوا، وتجمعوا من الـرها وأنطاكية وطرابلس والقدس والسواحل، فكانوا نحواً من ستين ألـف مابين فارس وراجل، فتأهـب تاج الملوك بوري، وطلـب التركمان وأنفق الخزائن، وأقبل الملاعينُ قاصدين دمشق، فنزلـوا على جسر الخشب والميدان، وبرز عسكرُ دمشـق، وجاء التركمان والعـرب وعليهم الأمير مُـرى بن ربيعـة، وتفرقـوا كراديسَ في عـدة جهات، فلم يبرز أحد من الفـرنج، بل لزمـوا خيامهـم، فـأقام النـاس أيـاماً هكـذا، ثـم وقع المصـاف، فحمـل المسلمون وثبـت الفرنـج، فلم يزل عسكرُ الإسـلام يكر عليهم ويقتل منهـم إلى أن فشلوا وخذلوا ثم ولّوا مدبرين، وهـرب جيش الفرنج بالليل، وابتهج الخلق بهذا الفتح المبين، فـلله الحمد والشكر.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

فيهـا كانـت زلزلـة عظيمة هـدمت بيـوتاً كثيرة ببغـداد، ووقع بـأرض الموصل مطـر عظيم، وأمطـرت عليهم نـاراً فأحـرقت دوراً كثيرة وخلقـاً، وتهاربَ الناس.

وفيهـا وجد ببغـداد عقارب طيـارة لها شوكتـان، وخاف النـاسُ خوفـاً شـديداً.

وفيها ملـك عماد الدين زنكـي بلاداً كثيرة مـن الجزيرة وبلاد الفـرنج، وفتح حصــن الأثارب عنوةً، وجعله دكـا، وكان على أهل حلب مـن هذا الحصن ضرر عظيـم لقربـه منهم، فـإن الأثارب على ثـلاثة فـراسخ مـن

غربي حلب، وجرت له حروب طويلة وخطوب جليلة ونصر عليهم في تلك المواقف كلها، وقتل خَلْقاً، ومنها ذلت الفرنج وعلموا عجزهم عن زنكي.

وفيها قتل الباطنيةُ الخليفة الآمر بن المستعلي صاحب مصر وله من العمر أربع وثلاثون سنة، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر ونصف، وهو العاشر من الفاطميين من ولد عبيد الله المهدي، ولما قتل تغلبَ على الديار المصرية غلام من غلمانه أرمني استحوذ على الأمور ثلاثة أيام حتى حضر أبو عليّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، فأقام الخليفةَ الحافظَ عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم ابن الإمام المستنصر وله من العمر ثمان وخمسون سنة، ولما أقامه استحوذ على الأمور دونه، وحصره في مجلسه لايدع أحداً يدخل عليه إلا إذا أراد، ونقل الأموال من القصر إلى داره، ولم يبق للحافظ سوى الاسم فقط.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها وثب اثنان من الباطنية على تاج الملوك صاحب دمشق فجرحاه فأدركهما جماعته فهبروهما بالسيوف، وسبب ذلك أن الباطنية لما جرى عليهم ماذكرناه في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة تجرأوا على تاج الملوك، وندبوا لقتله هذين الرجلين، فتوصلا حتى خدما في ركابه، ثم وثبا عليه فجرحاه، فتعلّل مدةً ثم مات رحمه الله.

وفيها قتل أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الحافظ، فنقلَ الحافظُ الأموال التي كان أخذها إلى داره واستوزر بعده أبا الفتح يانس الحافظي ولقبه أمير الجيوش، ثم احتال له فقتله، واستوزر ولده الحسنَ بعده.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

فيها تملك دمشقَ شمسُ الملوك إسماعيل بعد أبيه تاج الملوك بوري ابن طغتكين، فقام بأعباء الأمر، وخافته الفرنج، وأبطل بعض المظالم، وفرح الناسُ بشهامته، وفرط شجاعته، واحتملوا ظلمه. وأخذ شمسُ الملوك مدينة حماة من زنكي.

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

فيها قتل شمسُ الملوك أخاه سونج الذي كان أسره زنكي، فحزن الناسُ عليه.

وفيها أخذ شمسُ الملوك بانياسَ من الفرنج بالسيف وقلعتها بالأمان، فلما نزلوا أسروا كلهم، ثم قدم دمشق مؤيداً منصوراً، والأسرى بين يديه ورؤوس القتلى. ورأى الناسُ ماأقرَّ أعينَهم، فلله الحمدُ والمِنة. وكان يوماً مشهوداً.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

وفيها أخذ شمسُ الملوك الشقيف وبيروت، ونهب بلاد الفرنج.

وفيها افتتح الأتابك زنكي بن اقسنقر قلاعاً كثيرة، وقتَل خلقاً من الفرنج، وفتح المعرة—وكانت بيد الفرنج سبعاً وثلاثين سنة— وردَّ على أهلها أملاكهم، فكثر له الدعاء.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها كانت وفاةُ الخليفة المسترشد بالله وولاية الراشد، وسببُ ذلك أنه كان بين السلطان مسعود وبين الخليفة المسترشد واقع كبير، اقتضى

الحال أن الخليفة أراد قطعَ الخطبة له ببغداد، فاتفق موتُ أخيه طغرل ابن محمد بن ملكشاه، فسار مسعودٌ إلى البلاد فملكها، وقوي جأشه ثم شرع بجمع العساكر ليأخذ بغداد من يد الخليفة، فلما علم الخليفة بذلك انزعج واستعدّ لذلك ثم خرج من بغداد في جحافل كثيرة فيهم القضاة ورؤوس الدولة من جميع الأصناف، ومشوا بين يديه أولَ منزلة حتى وصل إلى السرادق، ثم سار إلى أن التقى الجيشان في يوم الاثنين عاشر رمضان واقتتلوا قتالاً كثيراً، ولم يقتل من الصفين سوى خمسة أنفس، ثم حمل الخليفة على جيش الملك مسعود فهزمهم، ثم تراجعوا فحملوا على جيش الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا الخليفة، وأخذوا مامعه، وكان معه خزائن عظيمة، وكانت صناديق الذهب على سبعين بغلاً أربعة آلاف ألف دينار، وكان الثقل على خمسة آلاف جمل، وخزانة السبق أربعمائة بغل.

ووصل الخبر إلى بغداد، فنفر أهل بغداد في يوم عيد الفطر، ووثبوا على الخطيب، وكسروا المنبر والشباك، ومنعوه من الخطبة، ومشوا في الأسواق على رؤوسهم التراب يبكون ويصيحون، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة في الطرق وتحت التاج.

قال ابن الجوزي: وزلزلت بغداد مراراً كثيرة ودامت كل يوم خمس أو ست مرات إلى ليلة الثلاثاء، فلم تزل الأرض تميد من نصف الليل إلى الفجر والناس يستغيثون، وتفاقم الأمر، واستسلم الناس.

ثم أرسل سنجر إلى ابن أخيه مسعود يقول له: ساعة وقوف غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين، ويقبّل الأرض بين يديه، ويسأله العفو والصفح ويتنصل غاية التنصل، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية مالاطاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل، ودوام ذلك عشرين يوماً،

وتشويش العساكر، وانقلاب البلدان، ولقد خِفتُ على نفسي من جانب الله وظهور آياته، وامتناع الناس من الصلوات في الجوامع، ومنع الخطباء مالا طاقة لي بحمله، فبالله تتلافى أمرك معه، وتعيده إلى مقر عزه، وتسلم إليه دُبيساً ليحكم فيه، وتحمل الغاشيةَ بين يديه أنتَ وجميع الأمراء كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، فلما قرأ مسعود هذه المكاتبة امتثل ماأمره به عمه، وضرب للخليفة سرادقاً عظيماً، ونصب فيه قبةً عظيمة تحتها سرير هائل، وألبس الخليفةَ السوادَ على عادته، ثم جاء مسعود فدخل عليه، وقبل الأرض بين يديه، ووقف يسأل العفو، فقال: قد عفا الله عن ذنبك فأشكر وطب نفسا. ثم عامله مسعود بما أمره به عمُّه، ثم أحضر دبيساً مكتوفاً بين أربعةِ أمراء ومع كل واحد سيف مسلول وكفن منشور، وألقي بين يدي السرير، وقال مسعود: ياأمير المؤمنين، هذا السبب الموجب لما تم، فإذا زال السبب زال الخلاف، ومهما تأمر يُفعل به، وهو يبكي ويتضرع ويقول: العفو عند القدرة، وأنا أقل وأذل، فعفا عنه و(قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر لكم) (٢٢) فجعل يقبل يدَ أمير المؤمنين ويمرّها على وجهه وقال: بقرابتك من رسول الله ﷺ إلا ماعفوتَ عني وتتركني أعيش في الدنيا، فإن الخوف منك قد برح بي.

وطار هذا الخبر في الآفاق، وفرح الناس بذلك واطمأنت قلوبهم. فلما كان مستهل شهر ذي القعدة، جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يحثه على الإحسان إلى الخليفة، وأن يبادر بسرعة ردّه إلى وطنه. وأرسل مع ا لرسل جيشاً ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد. فصحب الجيش معه سبعة عشر من الباطنية، ويقال ان مسعوداً لم يعلم بهم والله أعلم. فركب السلطان والعسكر لتلقي الرسل، فهجمت الباطنية على الخليفة في خيمته وقتلوه بها، وقطعوه قطعاً، ولم يلحق الناس منه إلا الرّسوم. وقتلوا معه جماعةً أحاطوا بالسرادق، فخرج الباطنية وقد فرغوا من شغلهم فقتلوا، ووقع النحيب والبكاء، وذلك على باب مراغة، ودفن بها، كذا قاله الذهبي، وقال ابن كثير: وحمل إلى بغداد وصلي عليه فيها.

ولما وصــل خبر قتله إلى بغـداد وقع النحيـب والبكـاء، وخرج النـاس حفاة ممزقين الثيـاب، والنساء منشرات الشعور يلطمن ويقلـن فيه المراثي على عـادتهن لأن المسترشد كـان محبباً فيهـم بمـرّه، لما فيه مـن الشجاعـة والعدل والرفق بهم، وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يـره أحد ممن تقدمه من الخلفـاء من عهد المستنصر بالله إلى خلافته إلا أن يكن المعتضـد والمكتفي، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سـوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكـر وقاد الجيوش وباشر الحروب.

قال ابن كثير: وهـو آخر خليفة رؤي خطيباً، وعمل العـزاء في الديوان ثلاثة أيام.

ثـم جلـس ابنه الـراشد في الشباك في الـدار المثمنة المقتـدرية، وبـايعه الأمراء والأعيـان، وخطـب لـه ببغداد، وظهر للنـاس، وكان أبيـض مشرباً بحمـرة، جسيماً مستحسنـاً، وكان يـومئـذ كبيراً لـه أولاد، ونـادى بإقـامـة العدل وردَّ بعض المظـالم، وظهر في أيامه الرفـض كثيراً، ثم إنّ السلطان مسعوداً جهز إلى دُبيـس من قتله، وأراد بذلك أن ينسـب قتلة[المسترشد] إلى دُبيس وأنـه أخذ بثـأر الخليفة منـه. وعلى كل حـال أراح الله الارض ومن عليها من ذلك المارد الرافضي.

وفيها اختلـت أحوال الشام لسوء سيرة شمـس الملوك، فإنـه حنق على الناس، وصادر الاعيـان، وكاتب أهل دمشـق الاتابك عماد الديـن زنكي وسـألوه إدراكهـم، وأطمعـوه في دمشق، ثـم اجتمـع جماعـة من عسكـره وغيرهم وتشاوروا فيما دهمهـم من ظلم صاحبهم وعسفـه وهتكه لحرمهم، وأخذه أموالهم وأزواجهـم، وقال بعضهم: هذا نوع مـن ا لجنون والسَوْداء لادواء له إلا بالموت، وأنهوا الحال وخـوّفته، فلم يلتفت إليهـا وسبّها وكاد يبادر إليها، فلما خرج من عندها أشار عليها الخواص بالتمكين من قتله، لادواء له إلا بالموت، وأنهوا الحال الى والدته صفوة الملوك زمرد

خاتـون، فاستدعت ولـدها شمس الملـوك، ولامته وخوفتـه ، فلم يلتفت إليها وسبها وكاد يبادر إليها، فلما خـرج من عندها أشار عليها الخواص بـــــالتمكيـــــن مـــــن قتـــــله
وقيل لها: إنّه قد عزم على قتلك، فمكنت مـن ذلك، فاجتمع عليه طائفة من الغلمان فقتلـوه في بعض الـدهاليز، وابتهـج الناس بمصرعـه، وشكروا الله تعالى على الـراحة منه، وأجلس في الملـك أخوه شهاب الديـن محمود ابن تاج الملوك بـوري، فخرج إليه خلق من العساكـر والأحداث وصدّوه، ولم يمكنوه من مقاربة البلد، ثم حصل الصلح معه ورجع.

سنة ثلاثين وخمسمائة

فيها وقـع بين الخليفة الراشد وبين السلطـان مسعود بسبب أنـه أرسل إلى الخليفـة يطلب منـه ماكان كتـب له والـده خطـه به حين أسره وهـو أربعمائة ألف دينار. فامتنـع الراشـد من ذلـك، وأرسل إليـه يقول: أمـا الأمـوال المضمونـة فانها كـانـت لاعادة الخليفـة إلى داره ولم تحصل وأنـا مطالـب بالثأر، وأما مـا ل البيعة فحتى تعـاد إليّ أملاكي واقطاعـي، وأما الرعية فلا سبيل لك عليهم، ومـاعندي إلا السيف، ثم استنهض الخليفة الأمراء، وأرسـل إلى عماد الديـن زنكي فجاء إليـه والتفت عليـه خلائق، وجاء في غضون ذلك السلطان داود بن محمـود [بن محمد] بن ملك شاه، فخطب لـه الخليفة ببغـداد وخلع عليه، وبـايعه، فتـأكدت الـوحشة بين الخليفة والسلطان جـدا، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغـداد، ومشى الناس بين يديـه كما كانوا يعاملـون به أباه، وخـرج ا لسلطان داود من جانـب آخر، فلما بلغهم كثـرة الجيوش مـع السلطان مسعود حسَّـن عماد الديـن زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى بلاد الموصل.

واتفق دخول السطان مسعود إلى بغـداد في غيبتهم، فاستحوذ على دار الخلافة بما فيها حتى استخلص من نسـاء الخليفة وحَظاياه الحليّ والمصاغ والثياب التـي للزينـة وغير ذلك، وجمع القضـاة والفقهاء وأبـرز لهم خط

الراشد أنـه متى خرج من بغـداد لقتال السلطان مسعود فقـد خلع نفسه من الخلافة، فـأفتى من أفتى من الفقهـاء بخلعه فخلع، وكانـت خلافته أحـد عشر شهراً وأحـد عشر يومـاً، واستُدعـي محمد بـن المستظهر بـالله وبويـع له بالخلافـة عوضـاً عن ابن اخيـه الراشد ولـه من العمـر أربعون سنة، ولقـب بالمقتفـي، ويقال إنـه رأى النبيﷺ في المنـام وهويقـول له: سيصل هذا الامر إليك فاقتف بي، فصار الأمر إليه بعد ستة أيام، فلقب بذلك لـذلك، ويقال إنهم بايعوا المقتفي على ألا يكـون عنده خيل ولا آلة سفـر، وأخذ مسعـود جميع مافي دار الخلافـة من دواب وأثـاث وذهب وستور، ولم يترك بدار الخلافة سوى أربعة أفـراس وثمانية بغال برسم الماء. وسار الراشد صحبة زنكي ودخل الموصل.

فائدة: ولي المقتفـي والمسترشد الخلافة وكانـا أخوين، كذلـك السفاح والمنصـور وكانـا أخويـن، وكـذلك الهادي والـرشيـد ابنا المهـدي وكانـا أخوين، وكذلك الـواثق والمتوكل ابنا المعتصم وكانا أخـوين، وأما الثلاثة إخوة: فـالأمين والمأمون والمعتصم بنـو الرشيد، والمنتصر والمعتـز والمعتمد بنو المتـوكل، والمكتفـي والمقتدر والقـاهر بنـو المعتضد، والـراضي والمتقي والمطيـع بنو المقتـدر، وأما أربعـة إخوة فلـم يكن إلاّ في بنـي أمية، وهـم الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان.

وفيهـا تحركـت الأسعار بـدمشـق والشـام، فبيعت الغـرارة بـأربعمائة درهم، وجاء جراد عظيم فزاد الناس خوفاً.

وفيها طلـع على دمشق وأعمالها والبقاع وبعلبـك سحاب مظلـم أسود سد الأفـق، ثـم أحمر حتـى كأنـه النار، وجـاءت من بعـده ريح شـديدة، ووقع بـرد كبير ومطر مفـرط في الكثرة، وفـاضت السيـول وامتدت المدود واختلطت أنهار دمشق بعضها ببعض، وأخرب بردى مايجاوره.

وفيها اجتمعت عساكر حلب مع الأمير سوار الدين نائب حلب، وكبسوا اللاذقية بغتة وقتلوا وأسروا وغنموا.

قال ابن الأثير: كانت الأسرى سبعة آلاف نفس بالصغار والكبار، ومائة ألف من الدواب والمواشي، وخربوا اللاذقية، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً.

سنة احدى وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج الراشد من الموصل متوجهاً نحو مراغة، وسببه مابلغه من انتظام الحال بين الأتابك زنكي وبين الخليفة المقتفي والسلطان مسعود على ضياع قررت له ببغداد، على أن يخطب له في البلاد التي تحت يده من الموصل والشام، وعلى أن لايكلّف الحضور عند السلطان ولايزور ولايزار.

وشرط هو أن يسلم الراشد اليهم ولايخطب له ويخلعه، فلما تم ذلك خرج الراشد من الموصل ليلاً، وتبعه أصحابه من الغد، وعلم بهم زنكي فلم يتعرض لهم، فلما تعدّى الموصلَ تبعه داود السلجوقي، وساروا إلى همذان، فلما علم بهم السلطان مسعود خرج من بغداد إلى همذان لدفع الراشد وابن أخيه داود، وتقاربت العساكر واصطفت الجيوش، فحمل مسعود على القلب وفيه داود فكسره، ثم حملت ميسرته وكسرت الميمنة، فاستنهض الراشد الأتراك ووعدهم ونخاهم، فردّوا إلى عسكر مسعود، وكانوا قد نزلوا عن خيولهم واستراحوا، وبعضهم قد نزع عن نفسه، وبعضهم قد شرب وسكر، فحملوا عليهم فانهزموا جميعهم. فلما رأى مسعود انهزام أصحابه وتحكم السيوف فيمن بقي منهم، ولى منهزماً ودخل أصفهان مكسوراً، ولما وصلت الأخبار إلى بغداد بكسرة الملك مسعود، اضطرب أمر الخليفة المقتفي، وسار الراشد إلى أصفهان ومعه داود والعساكر، فعاثوا في البلاد وأخربوا القرى وظلموا الناس وأخربوا

كثيرا من قرى الملاحدة، فدست إليه الملاحدة من قتله على باب أصفهان في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وخلص الأمر للمقتفي، وتقررت السلطنة لسنجر ثم لمسعود.

وفيها كثر موت الفجأة بأصبهان، فمات كثير من الناس، وأغلقت دور كثيرة.

وفيها تزوج الخليفة المقتفي فاطمة بنت السلطان محمد بن ملكشاه أخت السلطان مسعود على صداق مائة ألف دينار، وحضر السلطان مسعود العقد، ونثر الناس أنواع النثار.

وفيها صام أهل بغداد رمضان ثلاثين يوماً، ولم يروا الهلال ليلة إحدى وثلاثين مع كون السماء مصحية. قال ابن الجوزي: وهذا شيء لايقع مثله.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تكريت.

وفيها كانت زلزلة عظيمة في بلاد الشام والجزيرة والعراق، فانهدم شيء كثير، ومات خلق كثير تحت الردم.

وفيها كان بخراسان غلاء كبير حتى أُكلت الكلاب.

وفيها أخذ عمادُ الدين زنكي مدينة حمص، وتزوج بالست زمرّد خاتون أم شمس الملوك إسماعيل وهي أخت الملك دقاق لأمه، وهي التي تنسب إليها المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق بأعلى الشرف القبلي.

وفيها كسى الكعبةَ رجلٌ من التجار يقال له راسب الفارسي بثمانية عشر ألف دينار، وذلك لانه لم يأتها كسوة في هذا العام لأجل اختلاف الملوك.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق كثير لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، وقصد الشام فخافه الناس خوفاً عظيماً، وقصد مدينة بزاعة وحصرها—وهي على مرحلة من حلب— وفتحها عنوة. ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من حماة فحصرها، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، وأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده، فحضر ونزل على حماة، وكان كل يوم يركب في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل سرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب. ثم يعود آخر النهار، وكان الروم قد نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل اليهم زنكي يقول لهم: إنكم تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم بنا أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرنا بكم أرحنا المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما قال هذا ترهيباً لهم، وكان زنكي يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم، وكان يراسل ملك الروم ويوهمه أن الفرنج معه، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المناجيق وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم فظفر بطائفة منهم من ساقة العسكر، فغنم منهم، وقتل وأسر وأخذ جميع ماخلفوه، ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى الله المؤمنين القتال.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت زلزلة عظيمة بمدينة جنزة مات بسببها مئتا ألف وثلاثون ألفاً وخسف بها، وصار مكان البلد ماء أسود عشرة فراسخ في عشرة فراسخ، وزلزلت حلب في ليلة واحدة ثمانين مرة، وخرج أهلها إلى الصحراء.

قال ابـن الأثير: ولم تزل الزلازل تتعـاهدهم بـالشام من رابـع صفر إلى تاسع عشره، وكان معها صوت وهدة شديدة.

وفيها قتل صاحب دمشق شهاب الديـن محمود بن تاج الدين بن تاج الملوك بوري، قتله ثلاثة من خواصـه ليلاً وهربوا من القلعة، فأدرك اثنان وصلبا، وأفلـت الثالـث. وتملك بعـده أخوه جمال الـدين محمـد بن تـاج الملوك، وكان ببعلبك قبـل ذلك، فجاء الأتابك زنكي وأخـذ بعلبك بعد أن نصب عليها أربعة عشر منجنيقاً تـرمي ليلاً ونهاراً، فأشرف أهلها على الهلاك فسلموا البلد، وعصـى بالقلعة جماعة مـن الأتراك ونزلوا بـالأمان، فغدر بهم وصلبهم، فمقته النـاس، ونفر منه أهل دمشق، وقالـوا: لوملك دمشقَ فعـل بنا مثلَ مـافعل بهؤلاء، ولما ملك ولاَّهـا لنجـم الديـن أيوب والد صلاح الدين وكتب له ثلثها، فاستقر فيها إلى أيام نور الدين محمود.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيهـا دخـل المقتفـي على الخاتـون فاطمـة أخـت السلطـان مسعـود، وأغلقت بغـداد، وكان وقتاً مشهـوداً، وتزوج السلطـان بنت أمير المؤمنين المقتفي.

وفيها نقصت المياه مـن سائر الدنيا، وفيها توفي رجل صـالح من أهل باب الأزج، فنودي للصـلاة عليه بمدرسة الشيخ عبـد القادر، فلما أريد غسلهُ عطس وعاش.

وفيها ولد تقيُّ الدين عُمر بن شاهِنشاه بن أيوب بن شادي.

وفيهـا قدم الأتـابك زنكـي من بعلبـك، فنـزل البقاعَ طـالباً دمشـق، فوردت اليه هديةُ صاحـب دمشـق، وطلب منه العود ويعطيه خمسين ألف دينار ويعطيـه حمص، فأشار نجم الـدين على زنكي بقبول ذلـك، وقال:

هـذا مال كثير قـد حصـل بلاتعـب، وبلد كبير بـلا عنـاء، ودمشق بلـد عظيم، وأهـل دمشق قد ألـف أهلها هـذا البيت، وتمرّنوا على سياستهم، وقد بَلغَتْهم الأحـوال التي جرت ببعلبك، فـامتنع عمادُ الدين زنكـي من قبول ماأشار به، ففاته ذلك، ولم يظفر بعوضه، فإنه جاء ونزل على داريا، وأرسل إلى جمال الديـن محمد بن بوري يطلـب منه دمشق ويعوضـه عنها أيّ بلد شاء، فلم يجبه، فالتقـى العسكران، وانهزم الدمشقيون، وقتل كثير منهـم. ثـم تقدم زنكـي إلى المصلّى، فـالتقـاه جمع كثير من جنـد دمشـق وأحـداثها ورجـال الغوطـة، فقاتلـوه فانهزمـوا، وأشرف البلدُ على الأخـذ، لكن عاد زنكي فـأمسك عدة أيام عن القتال، وتابع الـرسل إلى صـاحب دمشق بتسليمهـا، فلم يجبه، فعـاد إلى القتال والـزحف، فمرض صـاحب دمشق ومـات في ثامـن شعبان وهو مثـل الوقت الـذي مات فيـه أخوه، وكانـت مدة ولايته سنة واحـدة، وكان حسن السيرة قليل الظلـم، فحزن الناس عليه وولي بعده ابنـه مجير الدين أبق، ودبر دولته معين الـدين أنر. فلما ألحَّ عليهـم زنكي بالقتـال راسل أنر الفرنـجَ يستنجدهم، وخـوفهم من زنكـي إن تملّك دمشـق، فتجمعت الفرنـج، وعلم زنكـي، فسار إلى حوران لملاقاتهم، فهـابوه ولم يجيئوا، فعاد إلى حصار دمشـق، ونزل بعذرا، وأحـرق قرى المرج وتـرحل، فجـاءت الفرنـج واجتمعـوا بأنـر، وكان قـد شارطهم إن رحّلوا زنكـي يعطيهم بانياس، وكانت لـزنكي، فسار أنر في عسكر دمشـق إلى بانياس وأخـذها وسلمهـا إلى الفرنج. فغضـب زنكي، وعاد إلى دمشـق فعاث بحـوران وأفسد، وجـاء إلى دمشق فـاقتتلوا معـه، وقتل جماعة، ثم رحل عنها ومع أصحابه شيء كثير من النهب.

وسـار إلى حصـن باريـن —وكـان بيـد الفـرنج— فحـاصره حصـاراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن.

قـال ابـن ا لأثير: وكــان هـذا الحصــن مـن أضرّ بــلاد الفـرنـج على المسلمين، فـإن أهله كـانـوا قد أخـربوا مـابين حماة وحلـب من البلـدان وانقطعت السبل، فأزال الله بزنكي هذا الضرر العظيم.

وفي مدة مقامه في بارين سيّر جنده إلى المعرّة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها واستولى عليها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها وصلت البردة والقضيب إلى بغداد، وكانا قد أخذا مع المسترشد سنة تسع وعشرين، فحفظهما السلطان سنجر عنده حتى ردّهما في هذه السنة، وفيها أصاب الحجّاجَ عطش شديد، فهلك منهم خلق كثير، ومنهم من تأخر وصوله حتى فاتته الوقفة.

وفيها ظهر ببغداد رجل قدم إليها وأظهر الزهد والنسك، وقصده الناس من كل جانب، فمات ولد لإنسان فدفنه قريباً من قبر السبتي، فذهب ذلك المتزهد فنبشه ودفنه في موضع آخر، ثم قال للناس:أعلموا أنني رأيت عمر بن الخطاب في المنام ومعه علي رضي الله تعالى عنهما وقالا: في هذا الموضع صبي من أولاد عليّ بن أبي طالب، ودلّهم على المكان، فحفروه، وإذا صبيّ أمرد، فمن الذي وصل إلى قطعة من كفنه! وانقلبت بغداد، وخرج أرباب الدولة وأخذوا ذلك التراب للبركة، فازدحم الخلق، وبقوا يقبلون يد المتزهد وهو يبكي ويتخشّع، وبقي الناس على هذا أياماً والميّت مكشوف يراه الناس ويتمسّحون به ثم أنتن، وجاء الأذكياء وتفقدوا الكفن فإذا هو جديد، فقالوا: كيف يمكن أن يكون هذا من أربعمائة سنة! ونقبوا عن ذلك حتى جاء أبو الصبيّ فعرفه، وقال: هذا والله ولدي دفنته عند قبر السبتي، فمضوا معه فرأوا أن القبر قد نبش، فكشفوه فإذا ليس فيه ميت، وسمع المتزهد فهرب، ثم وقعوا به وقرّروه فأقرّ، فأركب حماراً وصفع. قلت: كذا حكاه الذهبي والله أعلم بصحته . ويلزم من صحته نسبة التغفل الى أهل بغداد في ذلك الوقت، اذ

على تقدير صحة قول ذلك المتزهد عندهم كيف اقتضى عقلهم أن يحفروا قبر ولد من آل عليّ رضي الله تعالى عنه، ويقطّعون كفنه ويكشفونه وينتهكون حرمته! بل لو قيل لهم إنه قبر أبي لهب ماكان يليق أن يفعل به ذلك، بل كان اللائق إذاصدّقوا قوله أن يُعظِّم ذلك الضريح ويزار، وعلى تقدير وقوع ذلك من جهلة الناس، كيف لم ينكر عليهم العلماء والحكّام مع مقامه تلك الأيام! هذا من الأمور المستبعدة.

وفيها ملكت الإسماعيلية حصن مصياف، كان واليه نائباً لصاحب شيزر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صعدوا إليه، فقتلوه وملكوا الحصن، وبقي في أيديهم إلى دولة الملك الظاهر بيبرس.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر وبين ملك الخطا، وسبب ذلك—كما حكاه الكتبي عن تاج الدين ابن حمويه— أن طائفة من الترك تعرف بقرلق كانوا بما وراء النهر بنواحي سمرقند ترعى بمروجها وتتنقل في مراعيها، ولهم أموال ودواب، لايعرفون عدد أغنامهم، و أهل تلك الناحية ينتفعون بمعاملتهم وجلبهم، ولايتضررون بسببهم، وهم يعفّون عن أموال غيرهم، ويكفّون دوابهم عن الزروع. فاتفق أن الامراء السنجرية أغروا سنجر وألحّوا عليه بأن يبعث الجيوش اليهم يغزونهم ويكسب أموالهم، فسيّر اليهم جيشاً فغزاهم وأوقع بهم، وغنم أموالهم، وسبى ذراريهم، وقتل رجالهم، فانحازوا إلى جهة، وبعثوا جماعة من مشايخهم إلى السلطان سنجر يسألونه الكف عن أذيتهم وتركهم على ماهم عليه، وقالوا: نحن قوم في الصحارى والخراب وليس لنا مضرة على أحد هنا ولانخيف السبيل، ولانطرق القرى، ولانؤذي الزروع، ومع هذا فنحن نبذل على خراج دوابنا في كل سنة للسلطان خمسة آلاف فرس وثلاثين ألف رأس غنم، فلم يلتفت إليهم ولاقبل منهم مابذلوه، فلما

عادت شيوخهم إليهم بذلك، قصدوا ملك الخطا الملقب بكوخان مستصرخين ومستعدين، وأطمعوه في البلاد، وهوّنوا عليه بلوغ المراد، فجمع فأوعى، وسار في سبعمائة ألف مقاتل، واجتهد سنجر كل الاجتهاد، فجمع سبعين ألفاً، وكان اللقاء بصحارى سمرقند على ست مراحل منها، فانكسر سنجر، وقتل جمع كثير من عسكره، وأسرت زوجته وأولاده وخواصه، ونجا سنجر بنفسه، وتقدم الخطا إلى سمرقند وبخارى واستولوا عليهما، وأمنوا من فيهما، واستحوذ ملكهم على دار الإمارة، ورتب نائباً في كل بلد، وأقر الناس على معايشهم، وعاد بالغنائم إلى بلاده.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها سار عماد الدين زنكي إلى بلد ا لهكاريةوكانت بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، فملك تلك البلاد وبنى هناك قلعةً عظيمة وسماها القلعةَ العمادية، وفيها خُطب للأتابك زنكي بآمد، وفيها أخذ مدينة عانة والحديثة.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها عزم السلطان مسعود على قصد الموصل والشام لوحشةوقعت بينه وبين عماد الدين زنكي، فترددت الرسل بينهما حتى استقر الحا ل على مائة ألف دينار يحملها زنكي للسلطان، دفع إليه منها عشرين ألف دينار، ثم إن الأمور تقلبت، وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة زنكي فأطلق له الباقي من المال استمالة له.

وفيها ملك عمادُ الدين زنكي عدةَ بلاد من ديار بكر، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حران، وأخذ من أعمال ماردين عدةَ مواضع.

- ١٠٨٥٣ -

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها فتح الأتابك زنكي الرهـا، وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يومـاً، وكانت الرهـا من أشرف المدن عند النصارى وأعظمهـا محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيـت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم القسطنطينيـة، ثم الـرها، وكان على المسلمين مـن الفرنـج بالـرها شرّ عظيم، ملكوا من نواحي مـاردين إلى العراق عدة حصون كسروج والبيرة، وكانـت غارتهم تبلغ مـدينة آمد مـن ديار بكر ومـاردين ونصيبين ورأس عين والرقة. ولما ملكها زنكي استباحهـا، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبـانها، وملأ النـاس أيديهم مـن النهب والسّبي. ثم إنـه دخل البلـد فراعه وأنف لمثلـة من الخراب، فأمر بإعادة ماأخذ مـن أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردوا عن آخـرهـم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلـدُ عامـراً بعد أن كان داثـراً. ورتب البلدَ وأصلـح شأنـه، وسار عنه، فاستـولى على ماكان بيد الفـرنج من المدن والحصون والقـرى. وكان فتحاً عظيماً طار في الآفـاق ذكره، وطاب بها نشره، وشهده خلـق كثير من الاولياء والصالحين.

قـال ابن الأثير: حكـى لي جماعة أعـرف صلاحهـم أنهم رأوا يوم فتـح الرّهـا الشيخ أبـا عبد الله بن علي بـن مهران الفقيه الشـافعي، وكـان من العلماء العـاملين الـزاهـديـن في الدنيـا المنقطعين عنهـا ولـه الكـرامـات الظاهرة، ذكـروا عنه أنه غاب في زاويتـه يوم ذلك، ثم خـرج عليهم وهو مستبشر مسرور قال: حدثنا بعض إخواننا أن الأتـابك زنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هـذا، ثم قال: مايضرك يازنكي مافعلت بعد اليـوم[وبقي يردّد هـذا القول مراراً، فضبطـوا ذلك اليوم فكـان] يوم الفتح، ثم إن نفرا من الاجناد حضروا عنـد الشيخ وقالوا: منذ رأيناك على السور تكبّر أيقنا بالفتح وهوينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً.

قـال ابن الأثير: وحكـى لي بعض العلماء بـالاخبـار والأنساب —وهـو أعلـم من رأيـت بها— قال: كـان ملكُ جـزيـرة صقلية مـن الفرنـج لما فتحت الرها وكان بها بعض الصبـالحين من المغاربة المسلمين وكان الملك يحضره ويكـرمه ويـرجع إلى قـوله، ويقـدمه على مـن عنده مـن الرهبـان والقسيسين. فلما كان الوقـت الذي فتحت فيه الرهـا سيّر الملك في البحر جيشاً إلى افريقيـة، فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبـار إلى الملك وهو جالـس وعنده هـذا العالم المغـربي وقد نعـس وهو شبيـه النائم، فـايقظه الملك وقال له: كـان قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيْـتَ وكيْتَ، أين كان محمد مـن نصرهم؟ قال لـه: كان قد حضر فتح الـرها، قال: فتضـاحك من عنده من الفـرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله مـاقال عن غير علـم، واشتد هـذا على الملـك، فلم يمـض إلا قليـل حتـى أتاهـم الخبرُ بفتحها.

قال: وحكى لي أيضـا غير واحد ممن أثق بهم أن رجـلاً من الصالحين قال: رأيتُ زنكـي بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلـت: مافعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت: بماذا؟ قال بفتح الرها.

سنة أربعين وخمسمائة

فيها استولت ا لفـرنج بالأندلس على ساحل البحـر الغربي الذي كان بيد المسلمين، وهو مدينة شلب وأشبونة وشنترين وماوالاها.

سنة احدى وأربعين وخمسمائة

فيها احترق القصر الذي بناه الخليفةُ المسترشـد وكان في نهاية الحسن. وكان المقتفي قد انتقل إليه بجواريه وحظـاياه ليقيم به ثلاثة أيام، فما هو إلا أن نامـوا حتى احترق بسبب أن جاريـة أخذت في يدها شمعـة فعلق

لهبها ببعض الاخشاب، فاحترق القصر، وسلم الله الخليفة وأهله، فأصبح وتصدق بأشياء كثيرة، وأطلق المحابيس.

وفيها جلس ابن العبّادي الواعظ فتكلم والسلطان مسعود حاضر، وكان قد وضع على الناس مكساً في البيع فاحشاً، فقال: ياسلطان العالم، أنت تطلق في بعض الأحيان للمغني إذا طربت قريباً مما وضعت على المسلمين من هذا المكس، فهبني مغنياً وقد طربت، فهبني هذا المكس شكراً لنعمة الله تعالى عليك، وأسقِطْه عن الناس، فأشار السلطانُ بيده إني قد فعلت، فضج الناس بالدعاء له ونودي في البلد بإسقاطه، ففرح الناس.

وفيها قتل الأتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر رحمه الله تعالى، قال ابن الأثير: كان يحاصر قلعةَ جعبر، فبينا هونائم دخلَ عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة، وهربوا إلى القلعة، ولم يشعر أصحابهُ بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة، صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق.

حدثني والدي عن بعض خواصه، قال: أدركته وهو في السياق، فحين رآني ظنّ أني أريد قتله، فأشار إليّ باصبعه السبابة، فوقفت من هيبته، وقلت له: يامولانا، من فعل بك هذا حتى أقتله؟ فلم يقدر على الكلام، وختم الله بالشهادة أعماله.

ومن أعجب ماحُكي أنه لما اشتدّ حصارُ قلعة جعبر، جاءَ في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه، فقال له: هذا المولى أ تابك صاحبُ البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا ولامعين لك، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذَ لك منه مكاناً عوض هذا المكان، وان لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة: انتظر الذي انتظره أبوك.

وكان بلك بن بهرام صاحب قلعة حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدَّ حصار، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوماً لحسان وقد أحرقه بحجارة المناجيق: أيّ شيء تنتظر؟ ماتسلم الحصن، فقال له حسان: أنتظر سهماً من سهام الله تعالى. فلما كان من الغد، جاء بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم فوقع في لبّته وخرّ ميتاً، ولم يكن بجسده شيء ظاهر سوى ذلك المكان لأنه لبس الدرع ولم يزرره على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

وكان زنكي حسن الصورة أسمر مليح العينين طويل القامة، ليس بالطويل البائن، وكانت سيرته من أ حسن سير الملوك، وكان من أ كثرها حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف.

قال ابن الأثير: حدّثني والدي قال: قدم الشّهيدُ أتابك زنكي الينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين، وكان من زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، وترك العسكر بالخيام، وكان من جملة أمرائه عز الدين أبو بكر الدبيسي—وهو من أكبر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده— فدخل الدبيسي البلدَ ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها،فاستغاث اليهودي إلى زنكي وهو راكب، فسألَ عن حاله فأخبر به وكان الشهيد واقفاً والدبيسي إلى جانبه وليس فوقه أحد، فلما سمع الاتابك ذلك الخبر نظر إلى الدبيسي نظر مُغضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقرى ودخل البلد، وأخرج خيامه وأمر بنصبها.ولم تكن الأرضُ تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل.

قال: فلقد رأيتُ الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما

رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها وينصبوا ا لخيام، وخرج اليها من ساعته، وناهيك بهذا سياسة وإنصافاً.

قال:وكان ينهى أصحابَه عن اقتناءِ الأملاك ويقول:مهما كانت البلاد لنا فأي حاجةٍ لكم في الأملاك، فإنّ الاقطاعات تغني عنها، وإن خرجتِ البلادُ من أيدينا فالأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعيّة وتعدّوا عليهم وغصبوا أملاكهم.

وفيها لما قتل زنكي سار أسدُ الدين شيركوه من ساعته وقصد خيمةَ نور الدين، وقال له: أنا أعلمُ أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعزم على تقديم أخيك سيف الدين غازي وقصده الموصل.وقد رأيت أن أصيّرك إلى حلب وتجعلها كرسيَّ مملكتك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام. ثم أخذه وسار في خدمتِه وسلّمه قلعتّها كما قدمنا.

وفيها سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكره إلى بعلبك وحاصرها وبها نائب زنكي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، فسلّمها صلحاً له، وأخذ منه مالاً، وملكه قرايا من أعمال دمشق. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وأقام بها. ولما بلغ ذلك نورَ الدين، خاف أن يفسد عليه أسد الدين ويميل إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده. ومال نورُ الدين محمود إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية حتى ولاّه جميع أموره وجميعَ مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

وفيها حاصر عبد المؤمن مراكش، وكان بها اسحق بن علي بن يوسف ابن تاشفين، فاستمر أحدَ عشر شهراً ثم أخذها عنوة، فذكر أنه مات من أهلها أيام الحصار بالجوع نيّف على عشرين ومائة ألف. ولما دخلها عبد المؤمن ضرب عنق اسحق المذكور في عدة من القواد، وقتل في ذلك اليوم نيف على سبعين ألف رجل. كذا نقله الذهبي في تاريخ الاسلام عن اليسع بن حزم في هذه السنة.

- ١٠٨٥٨ -

وذكر الكتبي في تاريخه في السنة التي بعدها أن عبد المؤمن استولى على مراكش بالسيف، وقتل من بها من المقاتلة، ولم يتعرض للرعية، واحضر اليهود والنصارى، وقال: أنتم تزعمون أن بعد الخمسمائة عام يظهر من يعضد شريعتكم. وقد انقضت المدة، وأنا أخيّركم بين ثلاث: اما أن تسملوا، أوتلحقوا بدار الحرب وإما أضرب رقابكم. فأسلم منهم طائفة ولحق بدار الحرب أخرى. وأخرب الكنائس والبيع وردّها مساجد، وأبطلت الجزية، وفعل ذلك في جميع ولايته. ثم فرق بيتَ المال وكنسه ورشّه، وصلى فيه، وأمر الناس بالدخول إليه والصلاة فيه كما فعل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه،وقصد حسن السيرة ليعلم الناس أنه لايؤثر جمع المال ولايدخر شيئاً، ثم أقام معالم الاسلام والحدود على الوجه الشرعي مع السياسة الكاملة، وقال: من ترك الصلاة ثلاثة أيام فاقتلوه. وشدد في الأمور، ولم يدع منكرا الا أزاله، وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويقرأ كل يوم سبعا من القرآن بعد صلاة الصبح، ويلبس الصوف، ويصوم الاثنين والخميس.

وفيها: وردت الأخبار بأن ابن جوسلين جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة من النصارى المقيمين بها، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين. فنهض نورُ الدين محمود في عسكره، ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم.ووقع السيف فيهم، وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل، وانهزم ابن جوسلين بنفسه، ومحق السيف كل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلص من كان أسر فيه من المسلمين، ونهب من الرها شيءٌ كثير من المال والأثاث والسبي، وفي هذه المرة نهبت وخربت وخلت من أهلها، ولم يبق بها إلاّ القليل.

قال ابن الأثير: ومن عجيب ماجرى أن نورالدين أرسل من غنائمها

إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري، فحملن إلى داره،ودخل لينظر اليهن فخرج وقد اغتسل وهو يضحك،فسئل عن ذلك، فقال: لما فتحنا الرها مع زنكي، كان من جملة ماغنمت جارية فمالت نفسي إليها، فعزمت أن أبيتَ معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السبي والغنائم، وكان مهيبا مخوفا فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها، فلما كان الآن أرسل إلي نورُ الدين سهمي من الغنيمة وفيه الجارية، فوطئتها خوفا من العود.

وفي شوال من هذه السنة تبرددت الرسل والمراسلات بين نور الدين محمود وبين معين الدين أنر إلى أن استقرت الأحوال بينهما على أجمل صفة، وتزوج نورُ الدين بابنة معين الدين، وجهزت إليه إلى حلب.

وفيها قلّ المطر جداً، وقلت مياهُ الأنهار، وانتشر جرادٌ عظيم، وأصابَ الناسَ داء في حلوقهم، فمات بذلك خلق كثير.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فيها سار نور الدين محمود ففتح أرتاح وهي غربي حلب، وأخذ ثلاثة حصون صغار للفرنج، فهابته الفرنج وعرفوا أنه كبش نطاح مثل أبيه.

وفيها أظلم الجو ونزل غيثٌ ساكب، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً، وبقيت السماء في عين الناظر كصفرة الوَرْس، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكلما ينظر إليه من حيوان وجماد ونبات. ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدات المزعجة والرجفات المفزعة ماارتاع لها الناس، ثم سكن بقدرة الله وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبار بين البياض والغبرة.

قلت: وقد شاهدت بالقاهرة في سنة ست وعشرين وثمانمائة مثل

هذا، غير أنه لم ينـزل مطر، ولم يحصل رعد ولابـرق، وإنما حصلت ظلمة، واحمرت السماء، وتغيّر الجو تغيّراً كثيراً، وظهـرت رائحـة مثـل رائحـة الحريق، وحصل للناس من ذلك خـوف، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، واستمر من بعـد العصر إلى الليل، ثم أصبح على رخـام المدارس والبلاط تراب أصفر ذكر بعض الناس أنه من تراب برقة من بلاد المغرب.

وفيها ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

وفيها اشتـد الغلاء بإفـريقية، فهلك أكثـر الناس حتى خلـت المنازل وأقفرت المعاقل.

وفيها رأى رجل في المنام قائلاً يقول: مـن رأى أحمد بن حنبل غفر له؟ قـال ابن الجوزي: فلـم يبق مـن خاص ولاعـام إلا وزاره، قال: وعقـدتُ يومئذ مجلساً فاجتمع فيه ألوف من الناس.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها نـزل الفرنج على دمشـق، خرج ملكُ الألمان في جيـوش لاتحصى، فاجتمـع اليه ملـوك الفرنج التـي بالساحـل، واجتمعوا في بيـت المقدس وصلـوا صلاة الموت وعـادوا إلى عكـا وفرقـوا في العسـاكر سبعمائة ألـف دينـار، ولم يظهـروا أنهم يـريـدون دمشـق، بل بـانيـاس بثغـرهـا، وهـرب المسلمون بين أيديهم، وجمعـوا الغلال والأتبان فأحـرقوها، وكان صـاحب دمشق مجير الـدين أبق بـن محمد بن بـوري بن طغتكين، ومدبـر الامور معين الديـن أنر، والامـر كله لـه ليس لمجير الـدين منـه شيء. ولم يشعر أهل دمشـق إلا وملك الالمان قد خيّـم على المزّة وزحف إلى البلـد، وكان معـه نحـو ستين ألـف راجـل وعشرة آلاف فـارس. وخـرج اليهـم معين الديـن ومجيرُ الديـن في مائة ألـف راجـل سوى الفـرسان في يـوم السبت

سادس شهر ربيع الأول وتقاتلوا قتالاً شديداً، واستشهد من المسلمين فــي هذا اليوم نحو مئتين منهم الفقيه الامام يوسف الفندلاوي شيخ المالكية عند النيرب قريب الربوة، كذلك الزاهد عبد الرحمن الحلحولي قتلا في مكان واحد، وكان معينُ الدين قد رأى الشيخ يوسف وقال له: ياشيخ، أنت معذور ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، فقال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولانستقيله، يشير إلى قوله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة) (٢٣) واستظهر الكفار على المسلمين، وشرع الكفار في قطع الأشجار والتحصن بها، وهدّوا القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناسَ من الارتياع لهول ماشاهدوه والروع بما عاينوه ماضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور، وباكروا الظهور اليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأظهروا القتل والجراح فيهم. وأبلى الامير معينُ الدين في حربهم بلاءً حسناً، فظهر من شجاعته مالم يظهر من غيره، وقتل من الفرنج خلائق، واستشهد[من المسلمين] جماعة. ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم إلى أن أقبل الليل وعاد كل واحد منهم إلى مكانه. وبات الجند بازائهم وأهل البلد على أسوارهم.

ثم إن الفرنج تقدموا وخيّموا بالميدان الأخضر، وضايقوا البلدَ حتى نزلوا على أبوابه. وكان أنر قد كاتب سيف الدين غازي ونورَ الدين ابني زنكي، فلما كان في اليوم الخامس وصل سيف الدين غازي في عشرين ألف ونزل بحمص، ووصل نور الدين محمود إلى حماة، وفرح المسلمون بذلك، فأرسل غازي يقول لمعين الدين: قد حضرت بجيش عظيم، ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح، فإن أنا جئت ولقيت الفرنج وكانت علينا هزيمة وليست دمشق لي ولالي بها نائب لم يسلم منا أحد، وأخذتها الفرنج وغيرها، فإن أحببتَ أني أقاتِلهم فسلم البلد إلى من أثق به، وأنا

أحلـف لك إن كـان النصر لنا لاأدخـل إلى دمشـق، وأرجع إلى بـلادي. فمطلـه معين الديـن، وبعَث إلى [الفـرنـج] الغربـاء يقول لهم: إنّ ملـك الشرق قد حضر، فـإن رحلتم وإلا سلّمت دمشـق إليه، وحينئذ تنـدمون. وأرسل إلى فـرنج الشـام يقول لهم: بـأيّ عقلٍ تسـاعدون هـؤلاء الغربـاء علينـا وأنتـم تعلمـون أنهم إن ملكـوا أخـذوا مـابـأيـديكـم مـن البـلاد الساحلية، وأنا اذا رأيت الضعف عـن حفظ البلد سلّمته إلى ابن زنكي، وأنتم تعلمـون أنه إن ملـك لايبقى لكم معـه مقام بالشـام، فأجـابوه إلى التخلي عـن ملك الألمان، وبـذل لهم حصن بـانياس. فـاجتمعوا بملـك الالمان، وخـوّفوه مـن عسـاكر الشرق، وحسّنـوا له الـرحيـل، وكان زمـان الفاكهة، فأكـل الفرنج منها فانحلت أجوافهـم، ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون.

ولما ضاق بأهل دمشق الحال، أ خرجـوا الصدقات والأموال على قدر أحـوالهم، واجتمع النـاس في الجامع الـرجـال والنساء والصبيـان، ونشروا مصحـف عثمان رضي الله تعالى عنـه، وحثوا الـرمـاد على رؤوسهم وبكـوا وتضرعوا، فاستجاب الله تعالى. وكان مـع ملك الألمان قسيس كبير طويل اللحية يقتدون بـه يسمى الياس، فأصبح في اليوم العـاشر من نزولهم على دمشـق، فـركـب حماره، وعلق في عنقـه صليباً وفي يـديـه صليبين، وجمع القسـاوسة بين يـديه بـالصلبان، وركـب الملوك والـرجالـة بين يديـه، ولم يتخلف مـن الفرنـج أحد إلا مـن يحفظ الخيـام وقال لهم القسيّـس: قد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق، ولايـردني أحد، وقصدوا البلد ففتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا لـلاسلام، وحملوا حملة رجل واحد، وكان يـوماً لم ير في الجاهلية ولا في الاسلام مثله، وقصـد واحد من أحداث دمشـق القسيس لعنه الله وهو في أول القـوم فضربه، فأبـان رأسه عن بدنه، وقتل حماره، فانهزم الفرنـج لعنهم الله وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف، وأحـرقـوا الصلبـان وتبعـوهـم إلى الخيـام، وحـال بينهـم الليـل، فأصبحوا ولم يبق لهم أثـر، وبعثوا يطلبون من معين الدين بـانياس فقال:

أنـا وعدتُكـم إن رحلتـم، وهـذا فعلَ الله تعـالى، فقـالـوا: نحنُ نعـود إلى دمشق، ونقيمُ عليهـا، ولانرحل حتى نـأخذَها، وكانـوا قد أحرقوا الـربوة، وهـدّوا الجواسق، وقطعـوا الاشجـار، ودرسوا ظـاهـرَ دمشق، فـرأى معينُ الدين أن يفديَ دمشق ببانياس، فأعطـاهم إياها،وبقيت في أيديهم حتى فتحها نـور الدين محمـود. وعاد سيـف الدين غـازي إلى بلاده، واستبشر الناسُ بهذه النعمـة التي أسبغها الله عليهم، وأكثـروا من الشكر لـه تعالى عما أولاهم.

وذكـر الحافظ أبـو القاسـم ابـن عساكـر رحمه الله تعالى في تـاريخه أنَّ الفقيـه الفندلاوي رؤي في المنـام، فقيل لـه: أين أنـت؟ قال: في جنـاتِ عدن على سُرر متقابلين. وقبره الآن يُـزار بمقابر الباب الصغير مـن ناحية حائط المصّلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله. قاله ابن الأثير.

وفيها وردت الأخبار في رجـب من ناحية حلـب بأن نور الديـن محمود صاحبهـا كان قد توجـه إلى ناحية الأعمال الافـرنجية. وقصد فامية وظفر بعـدة من الحصـون والمعاقـل الافرنجيـة، وبعـدة وافرة مـن الفرنـج، وأن صـاحب أنطـاكيـة جمع الفرنـج وقصده على حين غفلـة منـه، فنال مـن عسكره وأثقالـه، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سـالماً لم يفقد منه إلا النفر القليل بعد قتل جماعة وافرة من الفرنج.

وذكـر ابن أبي طـي أن أسد الـدين لما كـان في نفسه على نـور الديـن لتقديم ابـن الداية عليه، لم ينصـح يومئذ. فمرّ بـه نورُ الدين، فقـال له: ماهذا الوقوف والغفلة في مثل هـذا الوقت والمسلمون قد انكسروا، فقال: ياخـوند، ايـش ننفع نحـن، انما ينفعُ مجدُ الديـن أبو بكـر، هو صـاحب الامر—يعني ابن الـداية— فاستدركَ نورُ الدين ذلـك، وطيّب قلب أسد الدين، وألزم مجدَ الدين أن يعرف لاسـد الدين حقَّه، وأصلحَ بينهما، قال: وقُتـل في هذه الكسرة شـاهنشـاه بن أيـوب أخـو الملـك الناصر صلاح الديـن، وهو والـد عز الديـن فرخشـاه وتقي الديـن عمر، والسـت عذرا

المنسوب إليها المدرسة العذراوية بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق.

وفيها أبطل نورُ الدين بحلب الآذان بحيّ على خير العمل والتظاهر بسبّ الصحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعده على ذلك جماعةٌ من أهل السنة والجماعة. وعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيّع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها تحركت الفرنج من الساحل ليقصدوا بلادَ حلب، فسار نورُ الدين بعساكره، وجمع كثيرا من التركمان، وكتب إلى معين الدين يستنجده، فبعث اليه وجاءته عساكر مجاهد الدين بزان بن مامين نائبَ صرخد في عساكر دمشق، وجاءته عساكر أخيه سيف الدين، وسار إلى أنطاكية، فخرج إليه البرنس، وكان بينهم وقعة عظيمة، وكسرهم نور الدين، وقتل منهم ألفاً وخمسمائة وأسر مثلها، وقتل البرنس، وكان هذا اللّعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وصاحب بأس مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، فأراح الله البلاد وكفى العباد منه، وحمل رأسه إلى نور الدين، وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسارى، فبعث بعضها إلى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق، وذل دين الصليب، وظهر من نور الدين في هذه الوقعة من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ماتعجب منه الناس.

وفيها فتح نورُ الدين محمود حصن فامية، وكان على أهل حماة وحمص منه ضرر عظيم، وكانوا يشنون الغارات منه على البلاد، وكان بينه وبين حماة مرحلة واحدة، وهو حصنٌ منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها.

وفيها جاءت زلـزلة عظيمة، وماجت بغداد نحـو عشر مرات، وتقطع بحلوان جبل من الزلزلة، وهلك عالم من التركمان.

وفيها مات خلقٌ كثير بالبرسام لايتكلم المرضى به حتى يموتوا.

وفيها توفي سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وكان عمره أربعا واربعين سنة، وكان من أحسن الناس صورة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، وخلّف ولداً ذكراً أخذه عمه نور الدين محمود، فرباه وأحسن إليه، فلم تَطل أيامه، ومات شاباً لم يعقل، وكان سيف الدين شجاعاً كريماً ذا عزم وحزم، وهو أول من حمل على رأسه سنجق من الأتابكية أصحاب الأطراف، فانه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أول من أمر ألاّ يركب أحدهم إلاّ والسيف في وسطه، فلما أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف، ودفن بمدرسة الأتابكية التي بناها ووقفها على الحنفية والشافعية بالموصل، وبنى أيضاً خانقاه.

وتملك بعده الموصل أخوه قطبُ الدين مودود، وتزوج امرأة اخيه التي مات ولم يدخل بها—وهي ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين— فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده.

قال ابن الأثير: وكانت هذه الخاتون يحل لها ان تضع خمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها وأجدادها وأخوتها وبني أزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسمّاهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمَة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز، فإنه كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشرخليفة وهم من معاوية إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فإنه ابن عم ليس لها بمحرم، والباقي محارم لها.

قال صاحب الروضتين وماتم لها ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية فمعاوية جد أمها ويزيد جدها لأمها ،ومعاوية بن يزيد خالُها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبدُ الملك أبوها، والوليد بن يزيد ابن اخيها، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا أخيها. وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدّتهم ثلاثة عشر. لكن عاتكة ليست أمها، بل أمها امرأة مخزومية، واختلّ ماذكره. والصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد،وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد ا لعزيز ومروان بن محمد وبقي اثنا عشر خليفة: معاوية جدّها، ويزيد أبوها ومعاوية بن يزيد أخوها ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها.

قال: وماذكره ابن الأثير من أمر بنت حسام الدين، فستُّ الشام بنتُ أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من إخوتها الأربعة: المعظّم، وصلاح الدين، والملك العادل، وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب بن تقيّ الدين عمر وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك. انتهى كلام الروضتين.

قال ابن الأثير: ولما ملك قطبُ الدين الموصلَ والبلادَ الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب وهو أكبر من قطب الدين. فكاتبه الأمراء وطلبوه إليهم، فسار نور الدين من حلب في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسدُ الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية، فسلم اليهم محمد بن المقدم سنجار. فلما سمع قطب الدين الخبر، جمع عساكره وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ماليس له، ويهددونه

بقصده وإخـراجه من البـلاد قهراً ان لم يـرجع اختياراً، فـأعاد[الجواب]: إنني أنا الأكبر، وأنا أحق أن أدبّر أمر أخـي منكم، وماجئت حتى كاتبني أمـراؤكم يـذكرون كـرههم لكـم، فخفت أن يحملهـم بغضُهم لكـم على إخراج البـلاد من أيدينا، وأمـا تهددكم إياي بالقتـال فأنا ماأقـاتلكم إلا بجندكم، ولهذا جئتكم جريدة. وهرب إليـه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه ويخامـر عليهم باقـي العسكر، فـدخل الامراء في الصلـح، وقال جمال الديـن الوزيـر: نحن نظهـر للسلطان والخليفـة اننا تبـع نور الـدين محمود، ونـور الدين يظهر للفـرنج أنه تبع لنـا، فمتى كاشفناه وحـاربناه، فان ظفـر بنا طمـع فينا السلطـان، وان ظفرنا بـه طمع فيـه الفرنـج، ولنا بالشـام حمص وقد صـار له عندنـا سنجار[وهذه أنفـع من تلـك، وتلك أنفع له مـن هذه، والرأي ان نسلم إليـه حمص ونأخذ منه سنجـار]. وهو في ثغر بـإزاء الفرنج ويتعين مسـاعدته. فـاتفق الجماعة على هـذا الرأي ، وسار جمال الـدين الوزيـر إلى نور الدين وأبـرم معه الأمر وتسلـم حصن حمص، وسلّم سنجار إلى أخيه. وعاد نورُ الديـن وأخذ ماكان بسنجار من الأمـوال، واتفقت كلمتهما واتحدت آراؤهما وكـل واحد منهما لايصـدر إلا عن أمر أخيه.

وفيهـا اتصل الخبرُ بنـور الـديـن بإفسـاد الفـرنـج بالأعمال الحورانيـة بالنهـب والسبي وأن الأرض أجدبت لانحبـاس المطر وترّحل الفـلاحون، فجاء نور الدين بجيشـه إلى بعلبك ليوقع بالفرنج، فاتفـق عند وصوله إلى بعلبك نـزول الغيث واستمـر من يـوم الثلاثـاء إلى مثله، وجـرتِ الأودية وزادتِ الأنهار، وامتلأت برك حوران، فجهد النـاس بـالدعاء، وقالوا: هذا ببركتـه وحسـن نيتـه وسيرتـه. ثم نـزل بجسر الخشـب المعروف بمنـازل العسكر، وراسـل مجير الدين صاحـب دمشق والرئيـس مؤيد الديـن بن الصـوفـي يقـول: إنني مـاقصـدت بنـزولـي هنـا طلبـا لمحـاربتكم، وإنما دعـاني إلى هذا الأمـر كثـرة شكايـة أهل حـوران (

والعربان)أن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولايسعني مع ما أعطاني الله تعالى وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لايرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولا بد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة. وكان الجواب: ليس بيننا وبينك إلا السيف. (وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا. فلما عاد الرسول بهذا الجواب) كثر تعجب نور الدين، وأنكر هذا وعزم على الزحف، فجاءت أمطار عظيمة منعته من ذلك.

وفيها مات صاحب مصر الحافظ لدين الله بن أبي القاسم وقام بالأمر بعده ولده الظافر.

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

في أولها تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق، وسببه أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين، فراسله مجير الدين، ثم خرج إليه هو والرئيس ابن الصوفي، وبذلا له الطاعة وأن يخطب له بعد الخليفة والسلطان، وينقش اسمه على الدينار والدرهم، فرضي وخلع على مجير الدين والرئيس ابن الصوفي وطيب قلبيهما. وخرج إليه الأمراء والأعيان فخلع عليهم، وأفاض إحسانه على فقهاء دمشق وفقرائها، ورحل إلى حلب.

وفيها وردت الأخبار بأن العرب خرجوا على الركب العراقي بين مكة

والمدينة. وظهرت العرب على الحجاج، وأخذوا منهم مالا يحصى، حتى أنه أخذ من خاتون أخت السلطان مسعود ما قيمته مائة ألف دينار. ومات معظم الناس جوعاً وعطشاً وبرداً، وطلى بعض النساء اجسادهن بالطين ستراً للعورة. ووصل إلى دمشق من سلم منهم، فحكوا ما نزل بهم من المصيبة، وأنه كان من الحجاج من وجوه خراسان وعلمائهم وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم والبنات والأموال والأمتعة الفاخرة ما لايمكن وصفه، وأن العرب استولوا على الجميع، فكسا أهل دمشق العراة منهم، وأطلقوا لهم ما يستعينون به على العود إلى أوطانهم.

وفيها أمطرت باليمن مطراً كله دم، فبقي أثره في الأرض وفي ثياب الناس.

قال ابن الجوزي:وفيها أسر جوسلين صاحب تل باشر وأعزاز وعين تاب ومرعش وغيرها من الحصون شمالي حلب، وكان على المسلمين منه بلاء عظيم، فجهز نور الدين سلحداره إليه في جيش، فظهر جوسلين عليهم وأسر السلحدار. فعز ذلك على نور الدين، فدس عليه جماعة من التركمان وقال: من قدر منكم على جوسلين أعطيته من الأموال والبلاد مهما أراد. فجاءت طائفة منهم فنزلوا في أرض عين تاب، فأغار عليهم جوسلين وأخذ منهم امرأة مليحة، فخلا بها تحت شجرة ، فكمن له التركمان وأخذوه أسيراً وأحضروه إلى نور الدين محمود، فأعطى الذي أسره عشرة آلاف دينار، وأخذ نور الدين جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع والحصون وأمن الناس شره.

سنة ست وأربعين وخمسمائة

في المحرم عاد نور الدين إلى حصار دمشق، فنزل بعيون الفاسريا بين

عذرا ودومة، وأرسل إلى مجير الدين وجماعته يقول: قد كنت اتفقت معكم وحلفت لكم، والآن فقد صح عندي أنكم ظاهرتم الفرنج، وما قصدي إلا الجهاد، فإن رجعتم عن الفرنج وأعطيتموني عساكركم لأجاهد في سبيل الله، رجعت عنكم، فلم يردوا عليه جواباً، فرحل ونزل مسجد القدم، وأحدقت عساكره بالبلد وضايقته، ولم يزحف خوفا من سفك دماء المسلمين، ووصلت الأخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين، فضاقت صدور أهل الصلاح، وزاد إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، ولم تزل المناوشات تعمل في كل يوم من غير مزاحفة ولا محاربة إلى الثالث عشر من صفر، فرحل إلى داريا مستعداً لقتال الفرنج. فلما قرب الفرنج من داريا أشار على نور الدين خواصه بالرحيل، وقالوا: نبقى بين الفرنج وعسكر دمشق. فارتفع إلى الزبداني، ووصل الفرنج داريا في جمع قليل، وخرج مجير الدين آبق ومؤيد الدين ابن الصوفي واجتمعا بملكهم،فما صادفا عنده من القوة ما كانا يظنانه، فاتفقوا على نزول الفرنج على بصرى فإنها عصت على مجير الدين، ورحلوا إلى رأس الماء ونزلوا على بصرى وضايقوها، فلم يظفروا منها بطائل، فعادوا إلى بلادهم، وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرره لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وبلغ نور الدين ذلك فعاد إلى دمشق، وعرض عسكره بالبقاع وكانوا ثلاثين ألفاً بالتركمان والعرب وغيرهم، فنزل أرض كوكبا ثم رحل فنزل جسر الخشب، ثم رحل إلى مسجد القدم، فنودي في دمشق في العسكر والاحداث بالخروج إلى قتاله، فلم يخرج إلا اليسير، وأقام مدة من غير قتال ولا زحف،ثم ترددت بينهم المراسلات ، على يد الفقيه برهان الدين البلخي، وأسد الدين شيركوه وأخيه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر إلى تجديد عهود وأيمان وشروط اشترطها عليهم، ثم رحل عنهم عاشر شهر ربيع الآخر طالباً ناحية بصرى لأن واليها عصى على المسلمين واعتضد بالفرنج، فالتمس نور الدين من دمشق المناجيق وآلات الحصار، وبعث ذلك مع قطعة من عسكره.

وفيها قصـد أكثر الفرنـج ناحية مـن البقاع على حين غفلة، فنهبـوا ما فيها من المواشي، وسبـوا النساء وأسروا الرجال، فنهض اليهـم عسكر من بعلبك فلحقهم، وأرسـل الله عليهم من الثلـوج المتداركة ما ثبطهـم عن الـوصول إلى بـلادهـم، فقتلـوا من الفـرنـج مقتلـة عظيمة، واستخلصـوا الأسرى والمواشي.

وفيها ورد إلى مدينـة سبتة مركب فيه جماعـة من أسرى المسلمين وفيهم صبيان في جسـدين أحدهما ملتصق بـالآخر، وهما تامان في الخلقـة سوى الفخذين والـرجلين، فإنهما برجلين على فخذين يتكلمان العـربية وقد تعلما شيئا مـن القرآن ، وذكرت الفـرنج أنهم أصابـوهما في بعض الجزائر أو في بعض المراكب ومعهما شيـخ كبير وهو والدهما، وأنه مات بصقليـة، وكانا جميلي الصورة فصيحي العبارة. وتسامع النصـارى بهما فكانوا يأتون إليهما لمشاهـدة غـرائب صنـع اللـه، ويحمـلان إلى المواضـع والنـاس يبرونهما، وحصل لهما بذلك نعم طائلة وافـرة. قال الكتبي في تاريخه: كذا نقلته من كتاب عطف الذيـل لشيخ الشيوخ ابن حموية، قال: ونظير هـذا ما حكاه التنوخـي في كتاب نشـوار المحاضرة أن صـاحب أرمينيـة بعث إلى نـاصر الـدولـة بـن حمدان في سنـة نيـف وأربعين وثـلاثمائة رجلين ملتصقيـن مـن إحدى الجانبين مـن فوق الحقـو إلى دون الإبط، وكـان أحدهما يمشي إلى جنب الآخر ويجعل يده التي تلي جانب أخيه خلف ظهر أخيه ويمشيان وأنهما كـانا يـركبان دابـة ببردعة، وكـان أحدهما إذا أراد البـول قام الآخـر معه. وكـان معهما أبوهما، فتعجـب منهما ناصر الـدولة، وأجـزل صلتهما ، وكانا يـدخلان على الكبراء والأعيان في الليل حتـى لايراهما الناس نهاراً، وحصلت لهما نعمة وافرة. قال التنوخـي: وبلغني أن أحدهما مرض ومات وبقي الآخر بعده في عقاب لم يستطع أن يحمله معه، ثم نتن عليه ومرض بسريان العفـن إليه فمات فـدفنهما أبوهما، وكان عمرهما أكثر مـن ثلاثين سنة.

وفيها ملك الفرنـج عسقلان لانهم ضايقوها، وقتل مـن الفريقين خلق كثير، وعجـز من فيهـا فطلبوا الأمـان فأمنـوهـم، وكان بها مـن الذخـائر والعدد والغـلال مالا يحصـى، وقيل إن أهلهـا كانـوا في ضائقـة يرتقبـون النجدة من مصر، فبينما هـم في آخر نفس إذا بمركب صغير قـد أقبل من مصر، وإذا فيه رجـل ومعه كتاب من صـاحب مصر إلى الوالي يقـول له: ساعة وقوفـك على هذا الكتاب تنفذ لنا من مقصبة عسقـلان باقة قصب غلاظ نجعلها شبـابات، فقال للرسـول: نعم إلى غد. ثم خـرج في الليل إلى الفرنج، وأخذ أمـاناً لأهل البلد. فلما طلع الفجر فتـح الأبواب ودخل الفرنج البلد. فأحضر القاصد بالكتاب وقال له: هذا هو الجواب.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها توفي السلطان مسعود بن محمد بـن ملكشاه ولم ير أحد من الملوك والسلاطين مـا رأى ، وكانت أيامـه نيفاً وثلاثين سنة. وذكـر ابن هبيرة في كتاب الافصـاح، قال: لما تطاول على المقتفـي أصحاب السلطـان مسعود وأساءوا الأدب ولم يمكنـه المجاهـرة بالمحـاربة، اتفـق الرأي على الـدعاء عليه شهـراً كما دعا النبـي صلى الله عليه وسلـم على رعل وذكـوان شهراً وابتدأ هو والخليفـة سراً كل واحد في موضعـه يدعو سحراً مـن ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى، واستمـر الأمر على ذلك كل ليلـة، فلما كمل الشهر مـات مسعود على سريـره لم يزد على الشهـر يومـاً ولا نقص يـوماً، فتبارك الله رب العالمين مجيب دعوة الداعين.

ولما مـات أجمع رأي الأمراء على تقـرير ملكشـاه بن محمـود ابن أخـي مسعود فـأجلسوه، واستمـر ثلاثة أشهـر، وقيل خمسـة أشهر، وكـان مقدم العساكر خاص بك فعن له أن يقبـض على ملكشاه وينفرد بالملك، فقال للكشاه: إني أريـد الملك لك من غير منـازع، وأخوك ينازعـك والمصلحة أن أقبض عليـك، وأكتب إلى أخيـك، فإذا وصـل قبضت عليـه وسلمته

إليك، فقال:افعل، فقبض عليه وكتب إلى محمد وهو بخوزستان يدعوه إلى السلطنة، فجاء إلى همذان فجلس على التخت، ودخل الناس يهنئونه ويخاطبونه في أشياء، فقال: ما لي في هذا الأمر شيء، كلامكم مع خاص بك، فهو الوالد والكل تحت يده، وقدم له خاص بك من المال والخيل والمماليك والجواهر شيئاً كثيراً، وأقام بهمذان أياماً. وبلغه ما في نفس الأمير خاص بك من التدبير عليه، فدعاه هو وزنكي الجندار وشملة التركماني وهو في أعلى قصر المملكة، فلما صعدوا درج القصر أحس شملة بالشر، فقال لخاص بك: ارجع فما هذا علامة خير، فلم يرجع ، فلما حصلوا في بعض مضائق القصر أخذتهم السيوف، فقتل خاص بك وزنكي الجندار وهرب شملة، ورموا برأسيهما وأكلت الكلاب لحومهما، واستولى محمد على أموالهما ومماليكهما. وكان مما أخذ من خاص بك ألف ألف دينار، وسبعون ألف ثوب من الأطلس، وثلاثمائة مملوك، وخمسمائة جارية، ومن النجائب والبغال والأثاث والخيم ما لا يوصف ولايحد. ومع هذا جبوا له من العسكر كفناً كفنوا به باقي جثته.

وبها فتح نور الدين انطرسوس عنوة وطلبوا منه الأمان على النفوس فأمنهم، وملك عدة من الحصون منها المرقب، وكان على الناس منه ضرر عظيم.

وفيها باض ديك بيضة واحدة، وبازي بيضتين، وباضت نعامة بغير ذكر، حكاه ابن الجوزي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

فيها خرجت الغز على أهل خراسان، وهم تركمان ما وراء النهر نحو مائة ألف خركاه. فلما ملك الخطا ما وراء النهر، طردوا عنها هؤلاء الغز فنزلوا بنواحي بلخ على مراعيها، وهؤلاء يدينون بالإسلام في الجملة،

ويفعلون فعل التتار، فجهز اليهم سنجر العساكر مع الأمير قماج، فكسروه وقتلوا ولده، وغنموا ما كان معه وأكثروا القتل في العسكر والرعايا، وأسروا النساء والأطفال، وقتلوا الفقهاء، وعملوا العظائم، وخربوا المدارس، وهرب قماج إلى مرو. وأرسل السلطان سنجر يتهددهم، فأرسلوا جماعة من شيوخهم إلى سنجر، وقالوا : قد بغيت علينا ونصرنا الله عليك، وللبغي مصرعه، ونسألك إهدار ما جرى ونكون في خدمتك وتحت طاعتك، ولانريد منك شيئاً، بل نجعل لك علينا جعلا في كل سنة خمسين ألف رأس من الخيل والنجائب، ومثلها من الغنم ومائة ألف دينار. فأشار عليه أعيان أهل مملكته بالصلح، وأشار عليه قماج بأن لايصالح، فمال إلى قول قماج ورد الشيوخ خائبين، فعادوا إلى أصحابهم وقالوا لهم : استعدوا فلابد من قصدكم، فجاؤوا إلى صحراء واسعة كالحلقة الدائرة، والجبال محدقة بها، وليس لها طريق إلا من مضيق واحد، فنصبوا خركاواتهم فيها، وجعلوا الأموال والمواشي حولها كالسور. وجاءهم سنجر بعساكره، فدخل من ذلك المضيق ونشب القتال، وكانت سهام عسكر سنجر تقع في الخركاوات، وسهام الغز لاتقع إلا في الفرسان، وكان سنجر قد وقف عند المضيق في جماعة من أصحابه، ولم يدخل ينتظر الدائرة على من تكون، فحمل الغز حملة فطرحوا المسلمين مثل الغنم، وقتل قماج ومعظم عسكر سنجر، وصار قتلى العسكر كالتلال، وهرب من بقي إلى ناحية المضيق، فلحقهم الغز فأفنوهم من قبل وصولهم إلى المضيق، وخرج الغز إلى المضيق وسنجر واقف في بقايا عسكره، فتقدم إليه كبراؤهم وترجلوا وقبلوا الأرض،وقالوا: سألناك الصلح فأبيت، وأنت سلطاننا، وقد قتل بعض عبيدك وبقي البعض يشيرون إلى أنفسهم، ثم أفردوه عن أصحابه وصاروا كأنهم في خدمته، وهو معهم مثل الأسير يجلسونه على السرير لاغير، وتفرق عنه عسكره، وجاؤوا به إلى خراسان فنزلوا بلخ، واستولوا على البلاد، وأظهروا الفساد، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوا ، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها،

وظهر مـن جورهـم ما لم يسمع بمثله ويتعذر وصـف ما جرى منهم في تلـك البـلاد،ولم يسلـم منهـم شيء سـوى هـراة ودهستـان فـامتنعـت لحصـانتها، كـل هـذا وسنجر معهـم لايملـك لنفسـه نفعاً ولا ضراً، ثـم عملوا له قفصاً مـن حديد وجعلوه فيه، وكانوا إذا جاؤوا لـه بطعام يدخر منه إلى وقت ينسونه فيه، كذا ذكره الكتبي في تاريخه.

وقال الشيـخ عماد الديـن ابن كثير: إنهم أسروا سنجر، فـأقام عنـدهم شهريـن، ثم أخـذوه وساروا بـه فدخلـوا كرسي مملكـة خراسـان، فسألـه بعضهم أن يجعلهـا له إقطاعـاً، فقال سنجـر: هذا لايمكن ، هـذه كرسي المملكة، فضحكوا منه وصفـوا له، فنزل عن سرير الملك ودخـل خانقاه، وصار فقيراً مـن جملة أهلهـا، وتاب عن الملـك، واستحوذ أولئـك الأتراك على البلاد، وأظهـروا فيها الفسـاد، وأقامـوا سليمان شاه ملكـاً، ثم عـزلوه وولوا ابـن أخت سنجـر الخاقان محمـود بن محمـد بن كـوخان، وتفـرقت الأمور، واستحوذ كـل إنسان منهم على ناحية من تلـك الممالك، وصارت الدولة دولاً. فسبحان من يعز ويذل.

وفيهـا كان الغـلاء بدمشـق، وبلغـت الغرارة خمسـة وعشرين دينـاراً، ومات الفقراء على الطرق.

وفيها أخـذت الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ عسقلان، ولما أن نازلـوها خرج المسلمـون إليهم، وقاتلوهـم، فطردوهم فأيسـوا من أخذها وعـزموا على الرحيل عنهـا، فأتاهم الخبر أن أهل البلاد قـد اختلفوا، وذلك لأنهم لما قهروا الفـرنج داخلهم العجب وادعـى كل طائفـة أن النصرة على يده، ووقـع بينهـم خصـام على ذلك حتـى قتـل بينهم رجـل فعظمت الفتنـة، وتحاربوا فقتـل بينهم جماعـة ، ورجعت الفـرنج في الحال، فلـم يكن على السور من يمنعهم فملكوا البلد،(فإنـا لله وإنا إليه راجعون) وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فيها ملك نور الدين دمشق، وسببه أن الفرنج لما ملكوا في السنة الخالية عسقلان، قوي أمرهم بملكها حتى طمعوا في أخذ دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا من القتل بها والسبي، ثم زاد الأمر إلى أن جعل الفرنج على أهل دمشق قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم إن طمع الفرنج تزايد حتى أرسلوا واستعرضوا العبيد والإماء الذين نهبوا من سائر البلاد الشامية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب العود إلى وطنه ردّوه إليه، وكان الأمراءوأعيان الدولة يرسلون لنور الدين يقولون الغياث الغياث، ويقولون: إن شئت حصرناه في القلعة، فرأى نور الدين أخذه بالملاطفة خوفاً من إعطائه البلاد للفرنج، فعدل إلى ملاطفته ومكاتبته ومهاداته، فأنس به، وصار يكاتبه ويستشيره، وكان يكتب إليه نور الدين إن فلاناً من الأمراء يكاتبني في كذا وكذا، فيقبض عليه مجير الدين، ولم يزل يكاتبه في الأمراء والأعيان حتى لم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ السلمي الخادم. وكان شهماً شجاعاً، وقد ردّ مجير الدين إليه أمر دولته. فكتب نور الدين إلى مجير الدين يقول: قد نفر عنك عطاء قلوب الرعية، فاقبض عليه ، لعلم نور الدين أنه لايتم له أمر دمشق مع وجود عطاء.فقبض عليه مجير الدين وأمر بقتله، فقال له عطاء: لاتقتلني، فإن الحيلة قد تمت عليك، وذهب ملكك، وسترى قولي، ولم يلتفت إليه، فحينئذ طمع نور الدين في دمشق، وراسل أحداثها وأعيانها ، فأطاعوه، فسار إليهم ونزل إليها.

وكتب مجير الدين إلى الفرنج يستنجدهم، وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة، وبلغ نور الدين ذلك، فزحف على دمشق، وظهر له العسكر من دمشق، ووقع الطراد بينهم أياماً، فلما كان يوم الأحد عاشر صفر، زحف إليهم ودفعهم إلى باب كيسان، ولم يكن على السور أحد من العسكر

لسوء تـدبير مجير الديـن، وجاء واحـد من رجـال نور الـدين إلى السـور، وعليه امرأة يهودية، فـدلت له حبلاً فتسلق فيه، وتبعـه الرجال ، وأصعدوا علماً، وصاحوا : نـور الدين يامنصور، فـامتنع الأجناد والرعيـة عن القتال والممانعة لما هـم عليه من بغض مجير الـدين وظلمه وعسفه ومحبتهـم لنور الديـن، وبادر بعـض الخشابين بفأس إلى البـاب الشرقي، فكسر أغـلاقه وفتحه ، فـدخل منـه العسكر ، فلـم يقف بين أيـديهم أحد، ودخـل نور الدين البلـد، وصعد مجير الدين إلى القلعـة معه خواصة، وأغلـق أبوابها، فأرسـل إليه نور الديـن وطيب قلبه، وأمنـه على نفسه، ونادى بأمـان أهل البلد على نفوسهـم وأموالهم، وتقـرر الأمر بين مجير الدين ونـور الدين على حمص، وكتـب لـه منشوراً بها. وأخـرج مجير الـديـن ما كـان لـه في دوره بـالقلعـة والخزائن مـن الأموال والآلات والأثـاث على كثـرتـه إلى الـدار الأتـابكية دار جـده، وأقـام أيـاماً، ثـم سـار إلى حمص بعـد أن كتب لـه منشوراً باقطاعه عدة ضياع بـأعمال حمص برسمه ورسم جنده، ثم أحضر نور الـدين غـد ذلك اليـوم أماثل الـرعية مـن القضاة والفقهـاء والتجار، وخوطبـوا بما زاد في إيناسهـم وسرورهم بما يعـود بصلاح أحـوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدعاء له والثناء عليه.

قال ابن الأثير: ولما استقـر نور الدين في البلـد، عمل مع أهله مكـرمة عظيمة وأظهر فيهـم عدلاً عاماً، وذكـر بعض ما قدمنـاه في أول الكتاب. وأقام مجير الدين بحمص. ثم كاتب أحداث دمشق في إثارة الفتنة، فبلغ نور الدين ذلـك، فأعطاه بالس بدل حمص لبعدها عـن دمشق، فلم يرض بها، ومضى إلى بغداد وبنى له داراً قبالة النظامية، وأقام بها إلى أن مات.

وفيها ظهر بنواحي واسط دم من الأرض لايعلم له سبب.

وفيها هـاجت ريـح شديـدة بعد العشـاء فيها نـار، فخاف النـاس أن تكون الساعة ، وزلزلت بغداد، وتغير ماء دجلة إلى الحمرة.

وفيها قتل بمصر خليفتها الظافر بالله العبيدي، وأقاموا ولده مكانه ولقبوه بالفائز ، وكان صغيراً لم يبلغ الخامسة . فكتب المقتفي لأمر الله عهداً لنور الدين بولاية مصر، ولقبه بالملك العادل، وأمره بالمسير إليها، فلم يتيسر له ذلك لاشتغاله بحرب الفرنج، وقرب عهده بأخذ دمشق.

وفيها ثارت الاسماعيلية، واجتمعوا في سبعة آلاف مقاتل من بين فارس وراجل وقصدوا خراسان، ووقع المصاف، فهزم الله الاسماعيلية، وقتل رؤوسهم وأعيانهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وخلت قلاعهم من الحماة، ولولا أن عسكر خراسان كانوا مشغولين لملكوا حصونهم وقلاعهم، واستأصلوا شأفتهم.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها تسلم نور الدين بعلبك وكانت بيد نجم الدين أيوب. وكانت قلعتها بيد رجل يقال له الضحاك البقاعي، وأحضر نجم الدين إلى دمشق وأقطعه إقطاعاً حسناً، وجعل ابنه توران شاه شحنة دمشق ثم من بعده جعل أخاه صلاح الدين هو الشحنة بها، وجعله من خواصه لايفارقه حضراً ولا سفراً، لأنه كان حسن الشكل ، حسن اللعب بالكرة، وفي شحنكية صلاح الدين يقول عرقلة الشاعر:

رويدكم يا لصوص الشام
فإني ناصح في مقالي
فإياكم وسمي النبي
يوسف رب الحجى والكمال
فذاك مقطع أيدي النساء
وهذا مقطع أيدي الرجال(٢٣)

وفيها أرسل أمير المؤمنين المقتفي إلى أمير الحرمين يأمره أن يركب على باب الكعبة المشرفة باب ساج جديداً قد ألبس جميع خشبه فضة مطلي

بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسير إليه خشب الباب القديم مجرداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته.

قال أبو شامة: ذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم.

وفيها قتل أحمد بن محمد الحويزي. كان عاملاً للمقتفي على نهر الملك، وكان أظلم العالم يعلق الرجال بأرجلهم والنساء بثديهن في السرادق، ويعاقبهم بين يديه ويتنمس بالدين، والسجادة الزرقاء تحته والسبحة بيده وهو يسبح ويقرأ القرآن، والناس يعذبون بين يديه، ويومىء إلى الجلاد الرأس والوجه. وكان يدعي الكرامات ، دخل الحمام يوماً بقرية في نهر الملك، فدخل عليه ثلاثة فضربوه بالسيوف وقطعوه، فحمل إلى بغداد ، فمات ودفن في مقبرة جامع المنصور، وحفظ قبره لئلا ينبش، فأصبح وقد خسف بقبره، فاجتمعت العامة على سبه ولعنه، وأظهر الله فيه عظيم قدرته.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية، وضيق على أهلها، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللغط، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم، وإن حفظتم أنفسكم أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح

على أن يعطوه حصةً من أعمال حارم، فـأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد.

وفيها خلص سنجر من أسر الغز بحيـل، وهرب إلى قلعة ترمذ بعد أن أقـام عند الغـز أربع سنين في الـذل والهوان، حتى ضرب بـه أهل بغـداد الأمثـال. وكان إذا مـر على الانسان شـدائد قالـوا: أما اشتفـى الغز مـن سنجـر! وقيل إنـه وعـد الموكلين به بـالمال العظيـم، فـأجابـوه ووفى لهم، ودخل مدينة مرو وقد زال عنه البؤس.

وورد على نور الـدين كتاب سنجـر بالتشويق إليـه وما ينتهي إليـه من جميل أفعاله، وإعلامه بما من الله عليه من خلاصه من الشدة التي كانت عليه بيد الغـز بحيلة دبرها، بحيـث عاد إلى منصبه من السلطنـة، ووعده بنصره على الفرنـج، فأمـر نور الـدين بـزينة دمشـق، وفعل في ذلـك ما لم تجربه عادة فيها تقدم في أيام ملوكها، وأمر بزينة القلعة ، فحليت أسوارها بـالجواشن والـدروع والتروس والسيوف والأعـلام وأنـواع الملاهي، وهـرع الخلائق والغرباء لمشاهدة ذلك فأعجبهم، وبقي أسبوعاً.

وفيها جاءت الأخبار بإغارة الفرنج على أعمال حمص وحماه. ثم سارت الفرنج في سبعمائة فـارس سوى الرجالة إلى نـاحية بانياس، فـوقع عليهم عسكر الإسلام ونزل النصر، فلم ينج من الملاعين إلا القليل، وصاروا بين أسير وجريح وقتيل، وجاءت الرؤوس والأسـارى، فكان يوماً مشهوداً، ثـم تهيأ نور الدين للجهاد، وجاءتـه الأمداد، ونودي في البلد بالتأهب والحث على الجهـاد، فتبعه خلـق كثير من الفقهـاء والصلحاء، ونـازل بانيـاس، وجد في حصـارها ، فـافتتحها بـالسيف، وجـاء الفرنـج لنصرة صاحـب بـانياس، وجـد في حصـارها، فـافتتحهـا بالسيـف، وجـاء الفرنـج لنصرة صاحب بانيـاس فلم يدركوه إلا وقد أخذت. وبلغ نور الـدين أن الفرنج على الملاحة بقرب طبريـة ، فنهض بجيوشه وجـد في السير حتى أدركهم واقعهم وكسرهم، ووقع القتل والأسر في الكفر.

قال أبو يعلى: ولم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر قيل إن ملكهم فيهم، وقيل قتل، ولم يفقد من المسلمين من الأجناد سوى رجلين أحدهما من الأبطال قتل أربعة ثم قتل رحمه الله، وجيء بالرؤوس والأسرى إلى دمشق فالخيالة على الجمال، والمقدمون على الخيل بالزرديات والخوذ، في أيديهم أعلامهم، وفرح المؤمنون، وضج الخلق بالدعاء لنور الدين.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

كان فيها وفي السنة التي قبلها زلازل عظيمة متوالية ، بالشام، وحلب، وحماه، وشيزر، وفامية، وكفر طاب، والمعرة، وأنطاكية، ودمشق، وحصن الأكراد، وطرابلس، فهلك بحلب تحت الردم خمسمائة ألف نفس، وأما حماه فهلكت جميعها إلا اليسير، وأما كفر طاب فما سلم منها أحد، وأما فامية فهلكت وساخت قلعتها، وأما تل عزاز فإنه انقسم نصفين وظهر في وسطه نواويس وبيوت كثيرة، وأما حصن الأكراد وعرقة فهلكا جميعاً، وسلم من اللاذقية نفر يسير، وهلك أكثر أهل طرابلس ونصف أهل أنطاكية، كذا ذكره ابن الجوزي. قال الذهبي:والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك وتحقيق تفاصيله.

وقال غيره: إنه وقع أبراج قلعة حلب وغيرها، وانشق تل حران نصفين، وظهر فيه صنم قائم في الماء ، وخربت صيدا وبيروت وعكا وصور وجميع قلاع الفرنج.

قال ابن الأثير: بلغني من كثرة الهلكى أن بعض المعلمين بحماة فارق مكتبه لمهم له، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قال: وأما أهل دمشق، فإنها توالت عليهم الزلازل في أيام وعددها، فارتاع الناس من هولها، وأخلوا منازلهم والمسقف، وخرجوا إلى الجامع والبساتين والصحاري، وأقاموا عدة أيام وليالي على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم. قال صاحب المرآة : ومات هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة انسان. نسأل الله العافية في العاقبة، وقد قيل في ذلك أشعار كثيرة منها:

روعتنا زلازل حادثات بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلاداً كثيرة وحصوناً وثغورا موثقات البناء
فإذا مارنت عيون إليها أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضى الله بأمر سابق في عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كان له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسجى باكي العين مروعا من سخطة وبلاء
جل ربي في ملكه وتعالى عن مقال الجهال والسفهاء

وفيها أخذ نور الدين شيزر من بني منقذ، وبعدما ملكوها مائة وعشرين سنة، وسلمها إلى مجد الدين ابن الداية، وشيزر حصن قريب من مدينة حماة على نصف نهار منها، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على

حجر عال، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه (وكان لآل منقذ الكنانيين). فلما حصلت الزلزلة وخربت القلعة ولم يسلم بها أحد، بادر نور الدين وملكها وعمرها وأصلح أسوارها وأعادها كأن لم تخرب. وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

وفيها حصل لنور الدين مرض حاد وكان بالقرب من أنطاكية، فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وأوصى أن يكون أخوه نصرة الدين هو القائم في منصبه بعده، ويكون مقيماً في حلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، ثم اشتد به المرض، وتواصلت الأراجيف بموته، فتقلقلت النفوس، وانزعجت القلوب، وتفرقت جموع المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهاجموها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. ثم شاعت الأخبار ، وانتشرت البشائر في الأقطار بعافية نور الدين، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتباشر المسلمون بذلك وشكروا الله تعالى.

وفيها خرجت الإسماعيلية على حجاج خراسان، فقتلوا وسبوا، واستباحوا الركب، وهلكوا عن آخرهم رحمهم الله.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد حتى أكلوا الحشرات. وذبح انسان منهم رجلاً علوياً وطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قتل نفسه.

وفيها أخذ المسلمون من الفرنج غزة وبانياس.

وفيها توفي السلطان سنجر بن ملك شاه، واسمه أحمد وإنما سمي سنجر لأنه ولد بسنجار، وكان عادلاً، جلس على سرير الملك إحدى وأربعين سنة مستقلا، وناب عن أخيه محمد اثنتين وعشرين سنة، قيل

إنه خلف من الجوهر ألف رطل وثلاثين رطلاً،قال الذهبي: وهذا لم يملكه خليفة ولا ملك، قال: وكان وقوراً مهاباً ذا حياء وكرم وشفقة على الرعية ، وخطب له على عامة منابر الإسلام، وأسره الغز أربع سنين، ثم خلص فتجمع إليه أطرافه بمرو، وكاد ملكه يرجع إليه ، فأدركته المنية.

قال أبو سعد بن السمعاني:

دخلت عليه في مرض موته مع جماعة من العلماء والمحدثين، فصافحنا بكلتا يديه وسأل الدعاء، وكان كلامه بالفارسية ما يفي هذا بذاك، وبكى وبكينا لبكائه، وانقطع بموت سنجر المملكة السلجوقية من خراسان، واستولى على أكثر ممالكه السلطان خوارزم شاه. ودفن سنجر في قبة عظيمة كان قد سماها دار الآخرة.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

فيها نزل ألف وخمسمائة من الإسماعيلية على زوق تركان بخراسان فسبوا الحريم، وقتلوا الرجال، ورجعوا بالغنائم. فأسرع عسكر التركمان فأحاطوا بهم وقتلوهم، ولم ينج منهم إلا تسعة رجال فلله الحمد. قاله ابن الأثير: وفيها نزلت الفرنج على داريا فأحرقوها ونهبوها، وكانوا قد جاؤوا بغتة فقاتلوهم وأقاموا إلى الليل، ورحلوا بعد أن أحرقوا جامعها وعادوا على الأقاليم.

وفيها وقع برد أكبر من البيض.

وفيها وصل نور الدين إلى دمشق من حلب سالماً في نفسه، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وبالغوا في شكر الله على سلامته وعافيته والدعاء بدوام أيامه.

وفيها وقع في تموز بالبقاع مطر هطـال بحيث حدث منه سيل أحمر كما جـرت به العـادة في تنبوك الشتـاء ووصل إلى بـردى، ووصل إلى دمشـق، وكثر التعجب من آثار قدرة الله بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

فيهـا هادن نـور الـديـن ملك الـروم القـادم مـن القسطنطينية بقصـد المعاقـل الإسلاميـة بعد تكـرار المراسلات، والاقتراحـات في التقريـرات، وأجيب ملك الـروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدمـي الفرنج المقيمين في حبـس نور الـدين وأطلقهـم، فقـابل الـروم هـذا الفعل بما يضـاهيه مـن الإتحاف بأثواب الـديباج (وخيول حسنة) ، ورده إلى بـلاده، ولم يؤذ أحد من المسلمين، فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

وفيها وقعـت الفتنة بين العلوية والشـافعية بخراسان، اتفـق أن بعض أصحـاب الفقيه المؤيـد بن الحسين الموفقـي رئيـس الشافعيـة بمرو قتـل انسانا من الشافعية اسمه أبو الفتوح الفستقاني خطأ، وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيـب العلويين بنيسـابوروهـو ذخر الـدين أبـو القاسـم زيد بـن الحسـن الحسيني، وكـان هـذا النقيب هـو الحاكـم هـذه المدة بنيسابـور، فغضب من ذلك وأرسـل إلى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتـل ليقتص منه ويتهدده إن لم يفعل، فـامتنع المؤيد من تسليمـه وقال: لامدخل لـك مع أصحابنـا، إنما حكمك على طـائفة العلـويين ، فجمع النقيـب أصحابـه ومن يتبعه وقصد الشافعية، فاجتمعوا له وقاتلوه ، فقتل منهم جماعة ، ثم إن النقيب أحرق سوق العطارين وحرقوا سكة معاذ أيضا.

واقتتلوا ثامـن عشر شوال من سنة أربـع وخمسين، وقامت الحرب على ساق، وأحـرقت المدارس والأسـواق والمساجـد، وكثر القتـل في الشافعيـة فالتجـأ المؤيد الشافعـي في شرذمة إلى قلعة فـرخك، وقصر باع الشـافعية

عن القتال، ثم انتقل المؤيد إلى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد، وكثر القتل فيه.

وفيها وقع بالعراق برد كبار، قال الذهبي: إنه كان فيه ما وزنه خمسة أرطال ونحو ذلك، وقيل إنهم رأوا بردة منها وزنها تسعة أرطال بالبغدادي، فأتلفت الغلال، وزادت دجلة زيادة عظيمة، فغرق بسبب ذلك محال كثيرة من بغداد، وصارت تلالا، ولم يعرف أحد موضع داره الا بالحزر والتخمين، وغرقت تربة أحمد، وخسفت هنالك القبور، وطاف الموتى على وجه الماء. قال ابن الجوزي: وفيها كثر المرض والموت.

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

وتعرف هذه السنة بسنة الخلفاء والملوك، لأن فيها مات: المقتفي، والفائز صاحب مصر، والسلطان ملكشاه، وخسرو شاه صاحب غزنة. وهي سنة قران المريخ لزحل في برج السرطان. قاله الكتبي في تاريخه.

ومن الاتفاقات الغريبة أن المقتفي وافق أباه في أشياء: من ذلك مرضهما بالتراقي، وموتهما في ربيع أول، وموت السلطان محمد شاه قبل المقتفي بثلاثة أشهر، وموت السلطان محمود قبل موت أبيه بثلاثة أشهر، وموت كل منهما بعد غرق بغداد بنحو سنة، ومن الغريب أيضا ما ذكره عفيف الناسخ[٢٤] قال: رأيت في المنام قائلا يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاءات مات المقتفي، فمات في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

قال ابن خلكان: أخبرني بعض مشايخ العراق الفضلاء أن المستنجد ابن المقتفي رأى في منامه في حياة أبيه كأن ملكاً بالسماء يكتب في كفه أربع خاءات، فعبر الرؤيا بأنه يلي الخلافة في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وفيها بويع المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي، ودخل إلى الحجرة التي كان يقعد فيها فهجمت عليه أم أبي علي الحسن ومعها جواريها بأيديهن السكاكين ليقتلنه، فذعر منها، وقال: أماه، ما الذي صنعت حتى تستحلي دمي؟راقبي الله تعالى فيّ! فتوقفت عن قتله، فخرج من الحجرة، وجاء أصحابه فأحدقوا به، فقبض على أخيه أبي علي الحسن وهو صبي، ولم يضيق عليه، بل كان في ترفه وسعة، وانتقم من الجواري اللاتي أردن قتله.

وفيها مات صاحب مصر الفائزبالله وهو ابن احدى عشرة سنة، وكان يصرع، واسمه عيسى ابن الظافر، بايعوه وهو طفل بعد مقتل والده، وكانت الأمور راجعة إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك وهو عبارة عن صاحب مصر.

وفيها بويع العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو ابن عم الفائز بن الظافر بن الحافظ، وهو آخر خلفاء العبيدية.

وفيها استعفى القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى ابن علي القرشي من القضاء بدمشق، فأعفاه نور الدين، وولى مكانه القاضي كمال الدين الشهرزوري، وكان من خيار القضاة ، واليه ينسب الشباك الكمالي الذي يجلس فيه الحكام بالجامع بعد صلاة الجمعة من المشهد الغربي بالجامع الأموي.

سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها قبض المؤيد على نقيب العلويين أبي الحسن زيد الحسيني، ونفى جماعة وقتل جماعة، وخربت نيسابور. ومما أحرق سبع عشرة مدرسة للشافعية وأحرقت خمس خزائن كتب ونهبت سبع خزائن وبيعت بأبخس الأثمان.

وفيهـا كان الـرخص كثيراً ببغـداد، وبيع اللحـم أربعة أرطـال بقيراط، والبيض كل مائة بقيراط.

وفيهـا مرض نقيـب الأشراف بدمشـق المعـروف بابـن أبي الجن مرضـاً شديـداً أيس منه، ففوض السلطـان نور الدين النقـابة وما كان بيـده من الولايات إلى والده، واشتغل بتجهيز والده وتـرتيب أكفانه، وعقد له قبراً، فاتفـق أنه عـافاه اللـه، وانطرح ولـده مريضـاً، فمات في اليوم الخامـس، فجهز بذلك الجهاز، ودفن في ذلك القبر الذي بناه لوالده.

وفيها قتل الملك الصـالح فارس الدين أبو الغـارات طلائع بن رزيك الأرمني وزيـر العاضد صاحـب مصر، ووالد زوجته، وكان قـد حجر على العاضـد لصغره واستحـوذ على الأموال، فقتله الحاشيـة، وهذا هـو الذي بنى الجامع عند باب زويلة ظاهر القاهرة.

قال ابن خلكان: ومن العجائب انـه ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسـع عشر، ونقل تـابوته في التـاسع عشر، وزالـت دولته في التـاسع عشر، وكان الصالح من علماء الرافضة وأدبائهم. واستقر بمنصبه ولده.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابـن الأثير: فيها جمع نور الديـن العساكر بحلب، وسـار إلى قلعة حارم وحصرهـا، وجد في قتالها، فـامتنعت عليـه لحصانتها وكثـرة من بها من فرسـان الفرنج وشجعانهم، واجتمـع الفرنج من سـائر البلاد، وساروا نحـوه ليرحلـوه عنهـا، فلما قـاربوه طلـب منهـم المصـاف، فلـم يجيبـوه، وراسلوه وتلطفوا في الحال معه، فعاد إلى بلاده.

وفيها نهب عبيد مكـة الحجاج، فرحلوا إلى المدينـة ، ولم يطف أحد ولم يسع.

ـ ١٠٨٨٩ ـ

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس وضرب الناس خيامهم ولم يكن لهم يزك ظناً من نور الدين أنهم لايقدمون عليه، فبينما الناس وسط النهار في خيامهم لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فالسعيد الذي ركب فرسه ونجا، فخرج نور الدين من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء، فركب فرساً هناك للنوبة وفي رجله شبحة فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء فعله، وقتل الفرنج وأسروا خلقاً كثيراً ونهبوا جميع الوطاق، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر ما فيها من الخيام، ونصبها ببحيرة قدس على فرسخ من حمص، وبينها وبين الوقعة أربعة فراسخ، واجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن نقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، والله لاأستظل بجدار حتى آخذ بثأر المسلمين وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند فأكثر، وفرق ذلك جميعه على من سلم. أما من قتل فأقر أولاده على إقطاعه، ومن لم يكن له ولد أعطاه لبعض أهله، فعاد العسكر كأن لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج خذلهم الله فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها، قالوا إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا، فتوقفوا، وأكثر نور الدين من الخرج إلى أن فرق في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى الدواب

والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكل من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادعى شيئاً كثيراً علم النواب بكذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادعاه، فأعاد الجواب: لاتكدروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه:إن لك ببلادك ادرارات كثيرة وصلات كثيرة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[٢٥])والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطي، وأصرفها لمن يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطيء وقد تصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم، فسكتوا ، ثم كتب إليه نوابه: إذا لم تغير عليهم شيئاً وقد وقعت في هذه الورطة العظيمة ، فلو أمرتنا بالاقتراض من أرباب الأموال ما نستعين به على جهاد العدو، فقد نفدت الخزائن، ويطمع العدو في الإسلام، فبات مفكراً، وقال في نفسه: نقترض ثم ندفع العوض، ثم قال: ما أفعل؟ وبات قلقا إلى وقت السحر، فرأى إنساناً ينشد:

أحسنوا ما دام أمركم ... نافذاً في البدو والحضر
واغنموا أيام دولتكم ... إنكم منها على خطر

فقام مرعوباً مستغفراً مما خطر له، وعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى، فكتب إلى نوابه : لا حاجة لنا بالأموال، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، وتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا.

وفيها ظهر شاور بن محمد السعدي من بلاد الصعيد، وجمع أوباش الصعيد والعبيد وخرج إلى القاهرة ، فخرج إليه رزيك بن الصالح، فهزمه شاور ودخل القاهرة ،فأخرب دار الوزاة ودور بني رزيك ونهبها، وبعث إليه العاضد بخلع الوزارة ، ولقبه أمير الجيوش، وكانت عادة خلفاء المصريين أنه إذا غلب شخص على صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنها كانت بعسكر وزيرهم، وهو الملقب عندهم بالسلطان، ثم تتبع رزيك بن الصالح إلى أن أحضر فقتله، واستقر في المملكة وتلقب بالناصر، ثم أساء السيرة فخرج عليه أبو الأشبال ضرغام ابن ثعلبه من الصعيد، وتلقب بالمنصور، وجمع جموعاً كثيرة. فخرج إليه شاور، فهزمه ضرغام وقتل ولده، وخذل أهل القاهرة شاور، فانهزم إلى الشام. وكان نور الدين بالشام فتلقاه وأكرمه. وأقام عنده أياماً، ثم طلب منه العسكر، وقال: أكون نائبك بالديار المصرية، واقنع بها تعينه لي من الضياع والباقي لك، فأجابه نور الدين إلى ذلك، وسيأتي ذكره في السنة الآتية، وشاور هذا هو الذي قال فيه عمارة الشاعر من جملة قصائده:

ضجر الحديد من الحديد وشاور
في نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يا زمان فكفر

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها أمر نور الدين أسد الدين شيركوه بالتجهز للمسير مع شاور، لقصده في الاستصراخ والاستنجاد وإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة، فسار وأخذ معه كل فارس منتخب من فرسان الشام ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الشام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين،



فوصل أسد الدين هو ومن معه إلى مصر، فخرج إليهم أبو الأشبال ضرغام، فحاربهم أياماً، فلما كان في بعض الأيام التقوا على باب القاهرة، فحمل ضرغام في أوائل الناس فجاءته طعنة فخر صريعاً، وعاد شاور وزيراً، وكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر ، وهي مدة الحمل.

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور وعاد عما قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً ، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام فأنف أسد الدين وأرسل نوابه فتسلموا بلبيس وحكم على البلاد الشرقية. فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فلما أرسل إليهم شاور يستنجدهم على إخراج أسد الدين من البلاد، بادروا إلى إجابته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا.

فلما بلغ نور الدين خبر تجهزهم للمسير إليه سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسلمين، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إن ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة بيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، ولما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين ، وقصد مدينة بلبيس، وأقام هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن بها، واجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس، وحاصروه بها ثلاثة أشهر وقد امتنع بها أسد الدين، وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاًولا نالوا شيئاً، فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، وتسليم ما

بيده إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل، فرجعوا عنه.

قال ابن كثير: وقبض أسد الدين من شاور ستين ألف دينار، وسار إلى الشام، وعاد سالما.

وفيها فتح نور الدين حارم.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما أصابه بالبقيعة من الفرنج ما أصابه، بعث إلى أخيه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين بماردين وغيرهم، فطلب منهم النجدة ، فبادروا وجاءوا إليه بأنفسهم إلا صاحب ماردين، فإنه جهز عساكره، وتأخر هو لعذر منعه.

فلما اجتمعت العساكر على مدينة حلب، سار بهم نور الدين إلى حارم ونازلها ، وبلغ الفرنج فحشدوا وجاءوا في ثلاثين ألف فارس وفيهم البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم، وهو رئيس الروم ومقدمها. وكان معهم من الرجالة ما لا يحصى، فلما تقاربوا واصطفوا للقتال، بدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فاندفعوا بين أيديهم، وقصدوا بذلك أن يبعدوا الفرسان عن الرجالة، فتبعتهم الفرسان، فعطف حينئذ زين الدين في عسكر الموصل على الرجالة فحصدهم بالسيف. وعادت خيالتهم، ولم يمضوا في الطلب خوفاً على رجالتهم من العطف، فصادفوا رجالتهم بين قتيل وأسير، ولم يبق منهم قليل ولا كثير، فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا ، فلما رجعوا ، عاد عليهم المنهزمون، فبقوا في الوسط وقد أحدق

المسلمون بهم من كل جانب، فذلوا وخضعوا، وعمل فيهم السيف، ولم ينج منهم إلا من نجا به فرسه، وأكثر المسلمون فيهم القتل.

قال العماد الكاتب: قتل منهم عشرون ألفاً.

وقال ابن الأثير: زادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن جميع ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذكروا، وسار نور الدين إلى حارم فملكها، وغنم ما كان فيها من الأموال والخيل والسلاح والخيام وغير ذلك، وعاد إلى حلب بالأسارى والغنائم ، وامتلأت حلب منهم، وبيع الأسير بدينار، وفرقهم نور الدين على العساكر، وأعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة، وعادوا إلى بلادهم.

قال الكتبي: وفادى نور الدين الملوك، وكان قد استفتى الفقهاء، فقال قوم بقتل الجميع، وقال قوم: نفاديهم ، فمال إلى الفدية، فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلةً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله تعالى أن جميع ما بناه من المدارس والأوقاف والربط وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع وقفه منها، وليس فيها من بيت المال الدرهم الفرد، انتهى.

قال صاحب الروضتين: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان أو قبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرغ وجهه وتضرع ، وقال : يارب ! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط، يشير إلى أنك يارب، إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

سنة ستين وخمسمائة

فيها فتح نور الدين بانياس عنوة، وكان معه أخوه نصرة الدين أمير ميران، فجاءه سهم في عينه فأذهبها، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وكان مع نور الدين ولد معين الدين أنر الذي سلم أبوه بانياس للفرنج، فقال له نور الدين: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، قال: يامولانا، ولم؟ قال: لأن اليوم بردت جلدة أبيك من نار جهنم.

قال ابن الجوزي: وفيها ولدت امرأة ببغداد أربع بنات ، وبقي في بطنها ولد، فمات وماتت به، وعاشت البنات.

سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها سار نور الدين إلى حصن المنيطرة، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه على غرة من الفرنج إلى أن وصل إليه، فحاصره وأخذه عنوة، وقتل من به، وسبى وغنم. كذا قاله ابن الأثير. وذكر ابن شداد أن ذلك كان في السنة الآتية.

وفيها ثارت فتنة ببغداد بين الشيعة والسنة لأن الشيعة أظهرت النياحة والبكاء على أهل البيت يوم عاشوراء، وأعلنوا بسب الصحابة، وبالغوا حتى إنهم كانوا يضربون من رأوه مكحلاً، فثارت فتنة شديدة.

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

فيها عاد أسد الدين شيركوه إلى مصر، وهي المرة الثانية، لما كان في نفسه من الحقد على شاور، لما فعله مما تقدم ، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين، فسار في ربيع الآخر، ونزل

الجيـزة غربي مصر على البحـر، وتصرف في البلاد الغـربيـة، وأقام بها نيفـاً وخمسين يومـاً. ثم عـدا إلى بر مصر والقـاهرة، وسـار إلى الصعيد، وكـان شـاور قـد أعطى الفرنـج الأموال وأقطعهـم الإقطاعـات، وأنـزلهم دور القـاهرة، وبنـى لهم أسـواقاً تخصهـم، كـان مقدمهـم الملـك مري وابـن بيرزان، فـاستغاث شـاور بالفـرنج، فـأتوه ، وخـرج شاور وعسكـر مصر والفرنج، فأدركـوا أسد الدين بمكان يعرف بالبابين، ولما بلـغ أسد الدين خبرهم وكثرة عددهـم استشار اصحابه، فكل أشار عليـه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا لـه: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لاشك فيه ــ فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمـي، وكل من فيهذهالـديار من جندي وعـامي وفلاح عـدو لنا ويودون لو شربـوا دماءنا، وحـق لعسكر عدتهم ألفا فـارس قد بعدوا عن ديارهـم وقل ناصرهم أن يرتـاع من لقاء عشرات الألوف ، مع أن كل أهل البلاد أعداؤهـم.

فلما قالوا ذلـك، قام إنسان من المماليك النورية يقال لـه شرف الدين بـزغش وكـان مـن الشجاعـة بـالمكان المشهـور، وقـال: من يخاف القتـل والجراح والأسر فلا يخدم الملـوك، بل يكون فـلاحاً أو مع النسـاء في بيته، واللـه لئن عـدتـم إلى الملـك العادل مـن غير غلبـة وبـلاء تعتذرون بـه ليأخذن اقطـاعاتكم، وليعودن بجميـع ما أخذتموه إلى يومنـا هذا، ويقول لكم: تـأخذون أموال المسلمين وتفرون مـن عدوهم، وتسلمون مثـل هذه الديـار المصرية يتصرف فيهـا الكفار، فقال أسـد الديـن: هذا رأيـي وبه أعمل، ووافقهما صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب، ثم كثـر الموافقون لهم على القتال، فـاجتمعت الكلمـة على اللقاء، فـأقام بمكـانه حتـى أدركه المصريون. فرتـب أسد الدين عساكـره، فجعل صلاح الديـنابن أخيه في القلـب، وجعـل معـه الأثقال في القلـب يتكثـر بها، ولأنـه لم يمكنـه أن يتركها بمكا ن آخـر فينهبها أهل البلاد. وجعـل في الميسرة الأكراد، وقال لصـلاح الـدين ومـن معـه: إن الفـرنج والمصريين يظنـون أني في القلـب

فيجعلــون جمرتهم بــإزائي وحملتهــم فيـه، فـإذا حملـوا عليكــم فــلا تصدقـواالقتال، ولا تهلكـوا أنفسكم، وانـدفعوا بين أيـديهم؛ وإذا عادوا عنكـم فارجعوا في أعقـابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنـة ، وجعل شاور الفرنج في الميمنة مـع ابن بيرزان،وعسكـر مصر في الميسرة، وأقام هـو مع الملـك مري في القلـب ومعه شوكة الفـرنج والخيالـة، فلما تقابل الطائفتـان فعل الفـرنج مـا ذكـره أسد الـديـن، وحملـوا على القلب ظنـاً منهـم أنه فيـه، فقاتلهم مـن به قتالاً يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعـوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عـن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين، فهزمهـم ووضع السيف فيهم، فأثخـن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفـرنج من إثر المنهزمين الذيـن كانوا في القلب، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليـس به منهم ديار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا مـن أعجب ما يؤرخ، أن ألفي فارس تهزم عسكـر مصر وفرنج الساحل.

ثم ســار أسد الـدين إلى ثغـر الاسكندريـة وجبى مـا في طريقهـا من القـرايا والسـواد من الأمـوال ووصـل إلى الاسكندريـة وتسلمها مـن غير قتال سلمهـا أهلها إليه، فـدخلها ونزل القصر، وجعـل فيه محبس الفـرنج الذيـن أسرهـم، ثم استنـاب بها صلاح الـدين، وعاد إلى الصعيـد، وتملكه وجبى أمـواله، وخـرج شاور والفـرنج مـن القاهـرة فحصروا الإسكندريـة أربعة أشهـر وأهلها يقـاتلون مـع صلاح الديـن ويقوونـه بالمال، فـاشتد الحصار، وقل الطعام بـالبلد. فبلغ أسد الدين، فجمـع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية، فعـاد شاور إلى القاهرة، وراسـل أسد الدين يطلـب منه الصلح، وبذل له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابه إلى ذلـك، وشرط أن الفرنـج لايقيمـون بمصر ولا البـلاد، ولايتسلمون منهـا قـريـة واحدة، وأن الاسكنـدريـة تعـاد إلى المصريين، فـأجابـه إلى ذلـك

واصطلحوا، وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء فأنفذها إليه، فحمل فيها الضعفاء إلى دمشق.

وعاد أسد الدين إلى الشام وصلاح الدين معه، فخرج من الاسكندرية في النصف من شوال ، ووصل إلى دمشق ثامن ذي القعدة.

وأما الفرنج فإنه استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

وكل هذا يجري بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد حكم عليه شاور وحجبه.

وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

وفيها احترق اللبادين وباب الساعات بدمشق حريقاً عظيماً صار تاريخاً، وسببه أن بعض الطباخين أوقد ناراً تحت قدر هريسة ونام، فاحترقت دكانه، ولعبت النار في اللبادين ودور كثيرة من الخضراء، ونهبت أموال عظيمة، وأقامت النار في اللبادين ودور كثيرة.

وفيها دخل نور الدين بلاد الفرنج ومعه أخوه قطب الدين وصاحب الموصل، فاجتازوا على حصن الأكراد وهو للداوية، فلم يحاصروه لحصانته وصعوبته، وإنما أخذوا جميع ما في قراه ونواحيها، ثم ساروا إلى حصون لهم ففتحوها: بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، منها حصن العريمة وحصن صافيتا، وأسروا وغنموا. ثم توجهوا إلى قلعة هونين، فلما قربوا منها أخلاها أهلها وأحرقوها. فلما وصل إليها نور الدين ، لم يجد فيها فائدة ، فأمر بخرابها وهدم سورها، وعزم على منازلة بيروت، فوقع

خلف في العسكر، فرجع ، وتوجه قطب الدين إلى بلاده، وأعطاه نور الدين الرقة، فاجتاز عليها في طريقه ورتب نوابه بها.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فيها قطع نور الدين الفرات واستولى على الجزيرة والرها، وعاد إلى منبج. وفيها قبض نور الدين على صاحب قلعة جعبر شهاب الدين بن مالك العقيلي . وسببه أن نور الدين كان قد رصد حول جعبر طائفة من العرب الكلابيين وأمرهم بالقبض عليه. فنزل ذات يوم من القلعة يتصيد في صحاريها، فأحاطت به العرب وبمن معه، فقبضوا عليه وأوصلوه إلى نور الدين فأعطاهم ألوفاً من الذهب والثياب، واعتقله وشدد عليه، ورام منه أن يسلم القلعة، فامتنع ، وذكر أن أهله لايطيعونه في ذلك، وبعث نور الدين بالجيش مع رسوله وكتابه، فلم يقدروا عليها بحرب ولا بسلم، ثم استولى عليها في السنة الآتية.

وفيها فوض نور الدين أمر حمص وأعمالها إلى أسد الدين شيركوه مضافاً إلى ما بيده، والتقدمة على جميع الجيوش، فبقيت حمص بيد أولاده أكثر من مائة سنة إلى أيام الظاهر.

سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها أخذ نور الدين قلعة جعبر، وسببه أنه لما حصرها عسكر نور الدين ومقدم العسكر مجد الدين بن الداية في السنة الماضية ولم ير له في فتحها مجالا، ورأى أن أخذها بالحصر محال، سلك مع صاحبها طريق

اللين، وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين، ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها، والملاحة من أعمال حلب، والباب، وبزاعة، وعشرين الف دينار معجلة، فأخذ جميع ما شرطه مكرها في صور ة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً، ولكنه لاحصن فيه ، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها، وهذه القلعة من أعظم الحصون وأحسنها، مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار. وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها. وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين ولم تزل بيد شهاب الدين العقيلي وبيد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه إلى هذه السنة.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين: أيها أحب إليك وأحسن مقاماً، سروج والشام، أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

وفيها سار أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ثالث مرة، وسببه أن الفرنج قصدت الديار المصرية في جمع عظيم. وكان السلطان نور الدين في جهةالشمال ونواحي الفرات، فطلعوا من عسقلان، وأتوا بلبيس ونازلوها وحصروها، فملكوها قهراً، ونهبوها ، وسبوا أهلها وأقاموا خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة، فحمل أهلها الخوف مما فعلوه ببلبيس على الامتناع،فحفظوا البلد، وبذلوا جهدهم في حفظه.

وكان شاور قد أمر أهل مصر أن ينتقلوا إلى القاهرة، وأمر بإحراق مدينة مصر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغت أجرة الحمل إلى القاهرة

ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم، فنهبت وأحرقت، وأقامت النارتعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، ثم ضاق الحصار، وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في عمل الحيل، وأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه، ويذكر له تخوفه من نور الدين والعاضد، وأن المسلمين لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير عليه بالصلح وأخذ مال لئلا تسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار وماطلة بالباقي، وسأله الرحيل عن البلد ليجمع له المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نساءٍ من قصري تستغيث بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر.

ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث لنور الدين.

ولما أتى الرسل لنور الدين من العاضد، أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص. فلما خرج القاصد من حلب، لقي أسد الدين قد وصله، لأنه لما بلغه ذلك بقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفار. فسار في يوم واحد من حمص إلى حلب، فإنه ركب وقت طلوع

الشمس من حمص ودخل حلب في آخر ذلك اليوم.-ويقال إن هذا لم يتفق لغيره إلا للصحابة رضي الله عنهم. واجتمع بنور الدين ، فأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر، فاختار ألفي فارس، وأمر صلاح الدين بالخروج معه فامتنع ، وقال: يامولانا ، ما يكفي ما لقينا من الشدائد ؟ فقال: لابد من خروجك. فما أمكنه مخالفة نور الدين ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (٢٦).

وجمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، وسار إلى مصر في جيش عرمرم قيل كانوا سبعين ألف فارس وراجل، فتقهقر الفرنج لمجيئه، ووصل إلى القاهرة، واجتمع بالعاضد فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الخيرات الكثيرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك، ورأي العاضد معهم من داخل ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ماكانبذل له من المال، والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) (٢٧) ، ثم إنه كاتب الفرنج واستدعاهم، وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر. وبلغ أعيان دولة المصريين ذلك، فاجتمعوا عند أسد الدين وقالوا: إن شاور فساد البلاد والعباد، وقد كاتب الفرنج وهو سبب هلاك الإسلام.

ولما تأخر وصول الفرنج، عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال: والله إن عزمت على هذا الأمر، لأعرفن أسد الدين، فقال له أبوه: لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال: صدقت، ولكن نقتل ونحن مسلمون والبلاد

بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لومشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد . فترك ما كان عزم عليه.

ولما رأى العسكر النوري المطل من شاور، اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك على قتل شاور. وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم، فقالوا: ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، واتفق أن أسد الدين سار إلى زيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فساروا معه قليلاً، ثم ألقوه عن فرسه.وأخذ أسيراً، وهرب أصحابه، وسجنوه في خيمة، وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال، فعاد سريعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضد في الوقت يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله، فقتل وحمل رأسه إلى القصر، فأرسل العاضد إلى أسد الدين خلعة الوزارة معها منشور مكتوب على طرته بخط العاضد ما صورته:

« هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبيله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بخدمتك بنو النبوة،والتزم حق الامانة تجد للفوز سبيلاً» (ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً [٢٨]).

ولقبه بالملك المنصور سلطان الجيوش، ثم لم يلبث أسد الدين أن حضرته المنية بعد خمسة وستين يوماً من ولايته، فقلد العاضد بعده الأمر لصلاح الدين يوسف ، ولقبه الملك الناصر، وجهز إليه خلعة الوزارة،

وهي : عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب، وثوب دبيقي بطراز دقيق ذهب، وجبة تحتها سقلاطي بطراز ذهب، وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجرة صفراء من مراكيب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها بطوق، وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رأسها مئتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة ، وفي رأسها شدة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدة بقج من المسك، وعدة من الخيل وأشياء أخر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض. كذا ذكره في الروضتين . وكتب تقليده القاضي الفاضل، وكتب العاضد على طرته:

« هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك. ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة،ولمن بقي لثقته بنا أعظم سلوة، ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين(٢٩) ﴾ يعني بمن مضى أسد الدين، وبمن بقي صلاح الدين، قال العماد: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت ، وتبددت عقودها وما انتظمت.

فقام صلاح الدين بالسلطنة أتم قيام، وتاب عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المتين.

ولما مات أسد الدين ، تطاول جماعة من الأمراء النورية، وكل منهم يطلب الأمر والوزارة لنفسه، منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وسيف الدين علي المشطوب، وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين. فطلب العاضد لصلاح الدين وولاه الأمر، وحمله على ذلك ضعف صلاح الدين ، وانه لايجسر على مخالفته.

ولما عاد صلاح الدين إلى دار الوزارة، لم يلتفت إليه أولئك الأمراء ولا خدموه، فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وأمال إليه المشطوب. ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في أخراجه عنه ولا يصل إليك، ولم يزل به حتى أحضره إلى عنده وحلفه له، ثم عاد إلى قطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا تخرج الأمر منه إلى الأتراك، ووعده زيادة إقطاعه ، فلان وحلف، ثم ذهب إلى عين الدولة الياروقي ـ وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ـ فلم تنفعه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم صلاح الدين يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين بمن معه، فأنكر عليهم فراقهم له، وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه.

قال ابن أبي طي: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ، مال إليه العاضد وأحبه محبة عظيمة، وبلغت محبته له أنه كان يدخل إلى قصره راكباً، فإذا حصل عنده أقام عنده اليوم والعشرة في قصره لايعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال إليه العاضد، وبلغ ذلك نور الدين، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عدة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان يقول كثيراً: ملك ابن أيوب. انتهى!

قال صاحب الروضتين: هذا كله مما تقتضيه الطبيعة البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلا من عصم الله، ومن أنصف عذر. والذي أنكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن طي متهم فيما نسبه إلى نور الدين بما لايليق به، فإن نور الدين كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم، وقوى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طي من رؤوس الشيعة، فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه متفرقاً في مواضع،فلهذا كان كثير التحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. انتهى.

وكان صلاح الدين في الصورة الظاهرة نائباً عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل الأمير الاسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية، يفعلون كذا أو كذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، فبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين جمعه، ومما أعطاه العاضد، فمال الناس إليه وأحبوه، وقوي أمره، وضعف أمر العاضد، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالفه أحد منهم فتفسد البلاد.

ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخو صلاح الدين شمس الدولة توران شاه، وهو أكبر من صلاح الدين ، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر، فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت

تنظر إليه أنـه صاحب مصر وقائم فيها مقامـي، وتخدمه كما تخدمني فسر إليه، واشدد أزره، وسـاعده على ما هو بصدده. فقال: أفعـل معه الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله.

قـال ابن أبي طـي:ولما ملـك الناصر مصر، انتـزع نور الـديـن الرحبـة وحمص من ناصر الديـن ابن أسد الدين. ولقد كان نور الـدين يتألم للملك الملك النـاصر، ويقال إنه لما مرض قـال: ما أخطأت إلا في انفـاذي أسد الدين إلى مصر بعـد علمي برغبته فيها، وما يحزننـي شيء كعلمي بما ينال أهلي من يـوسف بـن أيوب، ثم التفـت إلى أصحابـه فقال: إذا أنـا مت فسيروا بابني إسماعيل إلى حلب، فإنه لايبقى عليه غيرها.

قال ابن أبي طـي: ولقد كان يبلغ الملـك الناصر من أقوال نـور الدين وأقوال أصحـابه أشياء تـؤلمه وتمضه، غير أنه تلقـاها بصدر رحـب وخلق عذب. حـدثني أبي عـن ابن قاضي الـدهليز ـ وكـان من خـواص الملك الناصر ــ قال: جـرى يومـاً بين يدي السلطـان ذكر نـور الديـن، فأكثـر الترحم عليـه، ثم قال: والله لقـد صبرت منه على مثل حـز المدي ووخز الإبر، وما قدر واحـد من أصحابه أن يجد علي ما يعده ذنبـاً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضـاً أن يجد لي هفوة يعدها ذنبـاً فلم يقدر، ولقد كـان يتعمد في مخاطبـاتي ومراسـلاتي الأشيـاء التي لايصبر على مثلهـا لعلي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط. انتهى.

وقد تقدم جواب صـاحب الروضتين قريباً، وقال هنـا: وقد وقفت على كتاب بخط نور الـدين إلى ابن أبي عصرون يشكر فيه من صـلاح الدين، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي، ثم أورد لفظ الكتاب.

وفيهـا قتـل الطـواشي مـؤتمن الخلافـة، وحصلـت وقعـة السـودان بين القصرين، وسببه أنه لما تملك صلاح الـدين نقص إقطاع المصريين، وكان

بالقصر طواشي يدعى مؤتمن الخلافة متحكم في القصر، فاجتمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ليقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا الجيوش الشامية ويعرفوهم بأنه إذا خرج عليهم صلاح الدين بمن معه، أخرج المصريون من يبقى معه بالقاهرة، وجهز الكتاب مع إنسان ممن يثق إليه، فاتفق أن رجلاً من التركمان عبر البئر البيضاء، فرأى مع انسان خلق الثياب نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما منه، وجاء به إلى صلاح الدين ، ففتقهما ، فوجد فيهما مكاتبة الفرنج من أهل القصر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وفحص عن كاتبه، فذكر له أنه خط شخص من اليهود، فأحضره ليسأله ويعاقبه عن كتابته، فلما حضر بين يديه نطق بالشهادتين، ثم ذكر أن الآمر له بذلك مؤتمن الخلافة، فكتم صلاح الدين هذا (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم[٣٠]) فاستشعر الطواشي أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر ، فلازم القصر مدة طويلة خوفاً على نفسه، ثم عنّ له في بعض الأيام أن خرج إلى قصر له بقرية يقال له الخرقانية بقرب قليوب وخلا فيه للذته، فأرسل صلاح الدين إليه من قبض عليه وقتله وحمل رأسه إليه، ثم عزل جميع الخدم الذين بالقصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطالعه بجميع الأمور صغيرها وكبيرها.

فلما حصل ذلك عاد السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش صلاح الدين بين القصرين، واستمر القتال يومين، وقتل كثير من الفريقين.

وكان العاضد يتطلع من المنظرة ويعاين الحرب من المنظرة بين القصرين فقيل أنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ، ففعلوا، وقيل كان ذلك عن غير اختياره، فأمر شمس الدولة

توران شاه الزراقين بإحراق منظرة العاضد،فلما هموا بذلك فتح باب المنظرة ، وخرج منه زعيم الخلافة، وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب أخرجوهم من بين أظهركم ومن بلادكم، وكان السودان قد قويت أنفسهم بناء على أن العاضد راض بفعالهم، فلما سمعوا ذلك، ضعف جأشهم وقوي عسكر صلاح الدين، ثم إن صلاح الدين أرسل إلى محلة السودان المعروفة بالمنصورة التي فيها دورهم وأهلهم بباب زويلة، فأحرقها؛ فولوا عند ذلك مدبرين، ووضع فيهم السيف، فقتل منهم خلق كثير، ثم طلبوا الأمان، فأجيبوا إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة.

وفيها قتل العاضد بالقصر الكامل وأخاه ابني شاور وعمهما، وذلك أنهم لاذوا بالقصر، ولو أنهم جاءوا إلى أسد الدين سلموا فإنه ساءه قتل شاور.

قلت: رحم الله الكامل بن شاور، فإن المرجو من الله أن يغفر له بقوله لأبيه لما هم بمسك أسد الدين ونهاه عن ذلك: « نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج. » كما قدمناه.

وفيها احترق جامع حلب فجدده نور الدين.

سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط.قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالاندلس وصقلية يستنجدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين، وأرسلوا جماعة من القسس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال

والرجال والسلاح، وقصدوا دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهيراً يملكون به ديار مصر، فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشد فيها كل من عنده، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فصارت الجيوش يتبع بعضها بعضاً.

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الفرنج، فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم يكن يبلغه لخلو البلاد من مانع.

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادهم ونهبها وإحراقها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل السائر: « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين»، فوصلوا إلى بلادهم، فوجدوها خاوية على عروشها، وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين من الأموال مالا يحصى، حكي لي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها. انتهى.

قال الذهبي: إن اقامتهم بدمياط واحد وخمسون يوماً.

وقال الكتبي:ثلاثة وخمسون يوماً، قال: وجيّش صلاح الدين الجيوش مع ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهشاه، ومع خالة شهاب الدين محمود. ووقع في الفرنج الوباء والفناء، فرجعوا بعد أن مات منهم خلق كثير.

-١٠٩١١-

قال العماد الكاتب: بلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط انه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية،فجاء من جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: اني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وفيها وصل نجم الدين أيوب إلى مصر، فخرج صلاح الدين وجميع الأمراء، وخرج العاضد لتلقيه إلى باب الفتوح عند شجرة الإهليلج إكراماً لولده، ولم تجر بذلك عادة، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا.

وقال له صلاح الدين: ياأبتاه، هذا الأمر لك ونحن بين يديك، فقال له: ياولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن يغير وضع السعادة ، فحكمه في الخزائن كلها، وكان رحمه الله كريماً يطلق ولا يرد.

وأقطعه صلاح الدين الاسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب. وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف دينار وستة وستين ألف دينار.

وسبب توجه نجم الدين أيوب إلى مصر أن صلاح الدين أرسل طلبه من نور الدين ليكمل له السرور، وتجمع القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف عليه السلام. قاله ابن شداد.

قال ابن أبي طي: إن سببه أن الخليفة المستنجد بالله أرسل من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب، وألزمه الخروج إلى الديار المصرية ، وحمله رسالة منها: «وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت، وحصول الفوت، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أعظم القربات».

وفيها توجه نور الدين إلى الكرك فنازلها ونصب عليها المناجيق، وأقام عليها أربعة أيام، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفري وابن الرفيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهما ، في المقدمة إليه، فرحل نور الدين نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج، (فكانا في مائتي فارس وألف تركبلي، ومعهم من الراجل عالم كثير، فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج[٣١]) فقصد نور الدين وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه. ثم نزل إلى البلقاء.

وفيها قال ابن الأثير: وكان سبب توجه نور الدين إلى الكرك أن نجم الدين لما أراد التوجه إلى مصر، اجتمع له من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لايقدر ، فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك، وسار نجم الدين ومن معه من هناك.

وفيها كانت الزلزلة الكبرى، لم ير الناس من أول الإسلام مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام، ومصر، والجزيرة، والموصل، والعراق، والعواصم، وأنطاكية واللاذقية، وجبلة وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، وتهدمت الأسوار والقلاع والدور، وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والإحصاء.

ووقع معظم دمشق، وشرفات الجامع، وسقف رؤوس المنائر، وكانت تهتز مثل النخل في يوم ريح عاصف.

وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد، وهلك من أهلها ثمانون ألفاً تحت الردم، ولم يمت بدمشق إلا رجل واحد أصابه حجر وهو على درج جيرون لأن أهلها خرجوا إلى الصحراء. قاله الكتبي في تاريخه: وبقي من نجا من أهل حلب لايقدرون أن يأووا إلى بيوتهم خوفاً من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فحضر نور الدين وأمر بعمارة ما تهدم من البلاد القلاع والأسوار والجوامع، وأخرج من الأموال ما لايقدر قدره، ورتب في كل بلد طائفة صالحة من العسكر خوفاً من الفرنج خذلهم الله.

وأما بلاد الفرنج فإن الزلزلة فعلت بهم أيضاً قريباً من هذا، وهم أيضاً خائفون على بلادهم من نور الدين، ووقعت قلعة حصن الأكراد. ولولا أن نور الدين كان بالبلقاء والفرنج قبالته لسار وأخذ حصن الأكراد، وجاءه ما أشغل قلبه من ناحية الشرق ودمشق، أما الشرق فوفاة أخيه قطب الدين مودود بالموصل، وأما دمشق فوفاة العمادي، وكان نائبه في حلب وغيرها، وكانت له بعلبك وتدمر، وكان عزيزاً عنده، وصاحبه وحاجبه. وبلغه أيضاً وفاة مجد الدين ابن الداية بحلب - وكان صاحب أمره.

وفيها أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن، وكان قديماً عند (قبة) أبي سليمان الداراني، فأحرقه الفرنج لما نزلوا على داريا أيام مجير الدين آبق، فعمره نور الدين هذه السنة، وجعله وسط القرية، وعمر بها مشهد أبي سليمان الداراني.

وفيها كانت حروب كثيرة بين ملوك الغرب بجزيرة الأندلس وكذلك بين ملوك الشرق.

ـ ١٠٩١٤ ـ

سنة ست وستين وخمسمائة

فيها سار نور الدين إلى سنجار ففتحها، وهدم سورها بالمناجيق، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي.

ثم سار إلى الموصل ـ وكان بها سيف الدين غازي بن مودود ـ أخي نور الدين ـ باستخلاف من والده، وكان المتولي لأموره فخر الدين عبد المسيح، وهو المتحكم في المملكة، وليس لسيف الدين من الأمر إلا الاسم، وكان عبد المسيح هذا نصرانياً فأظهر الإسلام، وكان يقال إن له كنيسة في جوف داره، وكان سيء الخلق، خبيث السريرة في حق المسلمين والعلماء خاصة، فراسل عبد المسيح نور الدين يسأله الرجوع وعدم التعرض للموصل، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته، وقال له: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلا تدخل بيننا، وذكر له تهديداً كبيراً، وكان كل من في الموصل مع نور الدين، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان لنفسه واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك، وقال: لاسبيل إلى إبقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام، فإني لم آت لآخذ البلد من أولادي، وإنما جئت لأخلص الناس منه، وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه. وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى قلعتها خادماً يقال له كمشتكين، وجعله دزداراً فيها، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة الشرعية.

ولما كان يحاصر الموصل، جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخل الموصل خلعها على ابن أخيه سيف الدين غازي، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأعطى الشيخ عمر الملاء ستين

ألف دينار مـن فتوح الفرنج، وأمـر ببناء الجامع النوري بـالموصل، فبني، وأقام بـالموصل نحو عشريـن يوماً وسـار إلى الشام، فقيل لـه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود، فقال: قد تغير قلبي فيها، فإن لم أفارقهـا ظلمت، ولمعنى آخـر أنني ههنا لا أكون مـرابطاً للعدو ومـلازما للجهاد، كذا قاله صاحب الروضتين.

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: إن نور الـدين لما كان في آخر ليلة من إقامته بـالموصل رأى النبي صلى الله عليـه وسلم في النوم وهو يقـول له: طابت لك بلـدك ،وتركت الجهاد وقتال أعداء اللـه ! فنهض من فوره إلى السفر، وما أصبح إلا سائراً إلى الشام، واستقضـى الشيخ أبا سعد بن أبي عصرون وكان معه على سنجـار ونصيبين والخابور، فاستناب فيهـا ابن أبي عصرون نوابـاً، وأخذ معه عبد المسيـح إلى دمشق، وغير اسمه عبـد الله، وأقطعه إقطاعاً حسناً(٣٢) .

وفيها كانت وفاة أمير المؤمنين المستنجد بـالله وخلافة ابنه المستضيء ، وذلك أن المستنجـد كان مـرض في هذه السنـة ثم عـوفي، فعمل ضيـافة عظيمة بسبب ذلك وفرح الناس.

وكـان قـد تغير على قطـب الـدين قيماز، مقـدم جيـوشـه، وعلى ولـده المستضيء، وأمر في مـرضه بالقبض عليهما، فبلـغ قيماز ذلك، فخلا بـابن صفية الطبيـب، وقال له: لابـد من التدبير في الخلاص منـه وإ لاّ فعلت بك وصنعـت. قال: لاشيء أضر عليه مـن الحمام، قال: فأشر بـه عليه ، فـأشـار عليه، فقـال: لسـت أريـده ولا أطيق الحرارة، وطـال الأمـر على قيماز،فـدخل على المستضيءواستـوثـق منه بـاليمين ، ثـم دخل إلى الـدار قهراً، وحمل المستنجد في فـراشه، وأدخله الحمام وهو يستغيـث ويقول: لا أريـده، وقيماز يقول لـه : يامـولانا ، هـذا هـو الذي ينفعـك ولابد منـه، ولماحصـل في الحمام أغلـق البـاب حتى مـات رحمه اللـه، وكـان حسـن

السيرة ، فيه محبة لأهل العلم والخير واكرام لهم وإحسان اليهم، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر فطناً ذكياً فصيحاً، يحكى عنه أنه التقى ابن شبيب في البرية فقال له: أين شتيت؟ فقال: عبدك ياأمير المؤمنين،أراد الخليفة ابن شبيب؟ وأراد ابن شبيب عندك

وكان رحمه الله من خيار الخلفاء وأعدلهم وأرفقهم بالرعايا، وضع عنهم المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق مكساً. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس .

قال ابن الأثير : بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات، فأطال حبسه؛ فحضر بعض أصحابه وشفع فيه، وبذل له عشرة آلاف دينار، فقال له: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً مثله أحبسه، وأكف شره عن الناس.

قال الشيخ عماد بن كثير: إن المستنجد رأى النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة، وكان آخرهن قبل أن يلي بأربعة أيام وهو يقول له: قل اللهم أهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، دعاء القنوت بتمامه(٣٣) .

قال الذهبي: إنه ما زالت الحمرة الكثيرة تعرض في السماء عند مرض المستنجد، وكانت ترمي ضوءها على الحيطان.

وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس، وهذا العدد له بحساب الجمل « اللام والباء»، وفيه يقول بعض الأدباء:

-١٠٩١٧-

أصبحت لب بني العباس كلهم
إذا عددت حساب الجمل الخلفا

وولي بعده ابنه المستضيء أبو محمد الحسن، وخلع يومئذ على الناس أكثر من ألف خلعة ، وأطلق الأموال للأمراء العلويين والهاشميين والقضاة والعلماء، ورد المظالم وأسقط المكوس.

قال ابن الجوزي: وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في الأعمار. قال: واحتجب فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يل الخلافة من اسمه الحسن وكنيته أبو محمد غير الحسن بن علي رضي الله عنهما والمستضيء.

وفيها عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، وولي قضاء القضاة لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية . وبنى صلاح الدين بالقاهرة موضع سجن المعونة مدرسة للشافعية. وبنى دار العدل مدرسة للمالكية.

وفيها اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز بمصر، وعملها مدرسة للشافعية، ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما.

وفيها بني الملك الناصر دار سعيد السعداء - خادم من خدام القصر - خانقاه للصوفية، وصنع بيمارستانا للمرضى، وبنى على تربة الشافعي رضي الله عنه بالقرافة مدرسة.

وفيها خرج صلاح الدين إلى الغزاة ، وأغار على الرملة وعسقلان، وهاجم ربض غزة، وكان بأيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب، وحملها إلى الساحل على الجمال، وركبها الصناع هناك، وشحنها بالرجال والعدد. (وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر،

واستحلهـا، واستبـاح بـالقتـل والأسر أهلها، ومـلأهـا بـالعـدد والعـدد، وحصنها بأهل الجلاد والجلد [٣٤]) وكان على الحاج منهم خطر عظيم.

وفيهـا تـوجه صـلاح الـديـن إلى الاسكنـدريـة، وأمر بعمارة أسـوارهـا وأبراجها وأبدانها ، وسمع بها حينئذ من السلفي.

وفيهـا شرع صلاح الـدين بعمارة سـور القـاهرة لأنـه قد تهدم أكثـره، وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم.

وفيهـا أمـر بتغيير شعـار الإسماعيليـة، وقطـع الآذان بحـي علي خير العمل من ديار مصر كلها. وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها ظهـر بدمشـق مغربي ادعى الـربوبيـة، وأرى الناس خـوارق من السحر، فضربت عنقه.

سنة سبع وستين وخمسمائة

فيهـا خطب لبنـي العبـاس، وسببه أن صـلاح الـدين لما استـولى على مصر وضعـف أمر العـاضد، كتـب إليه نـور الديـن يأمـره بقطع خطبـة المصريين وإقامتهـا لبني العبـاس، فخاف مـن أهل مصر أن لايجيبـوه إلى ذلـك لميلهم إلى العلـويين، وربما وقعـت فتنـة لاتتدارك، فكتـب إلى نـور الدين يخبره بـذلك، فلم يصغ إلى قـوله، وأرسل إليه يلـزمه بذلك إلـزاما لافسحة لـه فيه، واتفق أن العـاضد مرض، فجمـع صلاح الديـن الأمراء والأعيان فاستشـارهم فمنهم من أجـاب، ومنهـم من خاف ذلـك، إلا أنه لم يمكنـه إلا امتثـال أمر نـور الـديـن، وكـان قد دخـل إلى مصر إنسـان أعجمي يعـرف بالأمير العـالم. فلما رأى ما هـم عليـه من الاحجـام، قال: أنا أبتـدىء بها، فلما كان أول جمعة مـن المحرم صعد المنبر قبـل الخطيب ودعا للمستضيء بـأمر الله، فلم ينكـر أحد ذلك عليه. فلما كـان الجمعة

الثانيـة، أمر صلاح الـدين الخطباء بمصر والقاهـرة بقطع خطبة العـاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر اللـه، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر البلاد المصرية.

وكان العاضد قـد اشتد مرضه فلم يعلم بذلك، وقيـل بلغه فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصي إليه، فخـاف أن تكون خديعة، فلم يذهب إليه، ومات العاضد يوم عاشوراء كذا قاله ابن الأثير.

وقـال ابن أبي طـي الحلبي: لما عـول صـلاح الديـن على الخطبة لبنـي العباس، أمـر والده الأمير نجم الـدين بـالنزول إلى الجامع في جماعـة من أصحـابه وأمـراء دولتـه، وذلك في أول جمعـة مـن السنة، وأمـره أن يحضر الخطيـب إليه، ويـأمره بما يختـاره. وإنما فعـل ذلك الملـك الناصر ووكـل الأمر إلى غيره استظهـاراً خوفـاً من فادحـة ربما طرأت، أو عـدو ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك.

ولما حضر الخطيـب عند نجـم الديـن قـال له: إن ذكـرت هذا المقيـم بالقصر ضربت عنقك، قال: فلمـن أخطب؟ قال: للمستضيء العباسي. فلما صعـد المنبر، وخطب، ووصـل إلى ذكر الخليفـة لم يذكـر أحداً، لكنـه ذكر الخلفاء والأئمـة المهديين والسلطان الملك الناصر، ونـزل، فقيل له في ذلك، فقال: مـا علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولاتقـرر معي في ذلك قبل جمعة ، وفي الجمعة الثـانية أفعل إن شاء الله تعالى مـا يجب فعله من تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضـد لما اتصل به مافعل من قطـع اسمه من الخطبة قـال: لمن خطـب؟ قيـل لـه: لم يخطب لأحـد مسمـى، قـال: في الجمعـة الأخرى يخطبـون لرجل مسمـى، واتفق أنه مات قبـل الجمعةالثانيـة، قيل إنه أفكـر واستولى عليه الفكر والهم حتـى مات، وقيل إنه لما سمـع ذلك اهتم وقام ليـدخل إلى داره فعثر وسقط، فـأقام متعللاً خمسة أيـام ومات،

وقيل انه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فحكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: من أعجب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر،والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، فيهب أدنى نسيم فيحركها، وأنه حركها وظلها في الأرض ، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بأصوات وألحان لم يسمع قط مثلها فسأل من حضر، وقال: ما هذا؟ فقالوا : استبدل الناس بإمامهم، قال: وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً براً تقياً، واستيقظ الرجل وبلغ المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية. وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده، وقيل في ذلك الزمان أشعار في هذا المعنى، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن بركات، وكان صاحب ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويل المنام:

لتهنك يا مولى الأنام بشارة
بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعادي بهمة
تقاصر عنها السمهري المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها
بعوثاً من الآراء تحيي وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يرعف

وقـــدت لها جيشـــاً مـــن الـــروع هـــائلاً
إلى كـــل قلـــب مـــن عـــداتـــك يـــزحـــف
ملكـــت بـــه أقصـــى المغـــارب عنـــوة
وكـــادت بمـــن فيهـــا المشـــارق تـــرجـــف
ليهنـــك يـــا مـــولاي فتحـــاً تتـــابعـــت
إليـــك بـــه خـــوص الـــركـــائب تـــوجـــف
أخـــذت بـــه مصراً وقـــد حـــال دونها
مـــن الشرك نـــاس في لهى الحق تقـــذف
وقـــد دنســـت منهـــا المنـــابـــر عصبـــة
يعـــاف التقـــى والـــديـــن منهـــم يـــأنـــف
فطهـــرهـــا مـــن كـــل شرك وبـــدعـــة
أغـــر عـــزيـــز بـــالمكـــارم يشغـــف
فعـــادت بحمـــد اللـــه بـــاســـم إمـــامنـــا
تتيـــه على كـــل البـــلاد وتشرف
ولا غـــرو أن دانـــت ليـــوســـف مصره
وكـــانـــت إلى عليـــائه تتشـــوف
تملكهـــا مـــن قبضـــة الكفـــر يـــوســـف
وخلصهـــا مـــن عصبـــة الـــرفـــض يـــوســـف

قال يحيى بن أبي طي: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق عليه السلام، وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله على سبيل الفأل، ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشـــابهتـــه خلقـــاً وخلقـــاً وعفـــة
وكـــل عـــن الـــرحمن في الأرض يخلـــف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قال العماد:

ولما توفي العاضد جلس السلطان الملك الناصر للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره، ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه، وكان مذ قتل مؤتمن الخلافة قد وكل السلطان بالقصر بهاء الدين قراقوش، وجعله زمامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه، فما دخل القصر شيء وخرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد، أمر السلطان بالاحتياط على أولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد،وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والازواد، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محشورون لم يظهروا، وأنم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن، وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن. وأخلى دوره وأغلق قصوره، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ ما صلح له ولأهله من أخيار الذخائر، وزواهي الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التبرية، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية.

ووصف العماد أشياء عديدة ثم قال: وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، ولبيس وسحيق، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع منها مدة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

قال ابن أبي طي: لما تسلم القصر لم يجد من المال كبير أمر، لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي تقدم ذكرها، ووجد فيه

ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر. ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر قطعة واحدة ، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج إذا ضرب عليه أحد في باطنه ريح غليظ أو غيره خرج منه ذلك الريح من دبره، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المائع ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر، وأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه، وأمر صانعاً ليقطعه، فأبى الصانع قطعه، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، ففرقه على نسائه.

وأما طبل القولنج، فأخذه بعض الأكراد ولم يدر ما هو، فضرب به فحبق ـ أي ضرط ـ ولم يدر ما شأنه فكسره.

وأما الابريق فأنفذه السلطان إلى بغداد، وفرق على الأمراء أشياء كثيرة من قطع البلخش والياقوت والذهب، ثم باع الباقي.

قال الكتبي في تاريخه: كان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا عند ملك مما قد جمع على طول السنين، فمنها الدرة اليتيمة مثل بيضة الحمام، والياقوتة الحمراء وتسمى حافر الحمار وزنها أربعة عشر مثقالاً، والجبل الياقوت الأحمر. وأرسل إلى نور الدين من ذلك عدةً من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم، والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، وثلاث قطع من البلخش أكثرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثاني ثمانية عشر مثقالاً والأخرى دونهما، وفرق بها من اللآلىء مصونها ومكنونها، ومن الذهب ستين ألف دينار، ومن الطيب والعطر ما لم يسمع بمثله، ومن ذلك عمامة القائم بطيلسانه، فلما حضرت بين يدي نور الدين ـ وكان بحلب ـ قال: والله ما كان بنا حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عشر معشار ما انفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل.

ومن جملة ما بيع خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، يقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري. ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف مجلد، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وحصل القاضي الفاضل نخبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، وكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب، اشترى هو تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرمة. ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب قريباً من مائة وعشرين ألف مجلد.

قال ابن الأثير: كان فيه من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

قال ابن أبي طي: واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري. ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسوراً.

قال - أي ابن أبي طي: وحكي أن الشريف الجليس - وكان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه - عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب، أخي السلطان، بعد (القبض على القصور وأخذ ما فيها) [٣٥] وانقراض دولتهم، وحضر معه جماعة من أكابر الأمراء . فلما جلسوا على الطعام، قال شمس الدولة للشريف: حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم،

قال: نعم ، طلبني العاضد يوماً ، فحضرت مع جماعة ، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية من أقبيتكم، وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: ياأمير المؤمنين، ما هذا الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون ذخائرنا وأموالنا.

قال — أي ابن أبي طي: ولما قطعت خطبة العاضد، استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لايقدرون على الظهور من دورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعظمت الأذية بذلك، وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار ، وتحدث به السمار.

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر فيها، فسار إلى أن وصل بغداد، فخرج الموكب في تلقيه، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل موروده، ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحبي بكل إحسان وإكرام. وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين.

قال الذهبي في تاريخ الاسلام: ووصل الاستاذ عماد الدين صندل الطواشي إلى دمشق رسولاً من دار الخلافة في جواب البشارة بالخلع والتشريفات لنور الدين ولصلاح الدين. فلبس نور الدين الخلعة وهي فرجية، وجبة وقباء، وطوق ذهب ألف دينار، وحصان بسرج خاص، وسيفان، ولواء وحصان آخر بحليته، ونجيب بين يديه. وقلد السيفين إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام، وخرج إلى دست السلطنة واللواء منشور، والذهب منثور إلى ظاهر دمشق. وانتهى إلى آخر المدينة. ثم عاد وسير إلى صلاح الدين تشريفاً فائقاً، لكنه دون تشريف نور الدين

بقليل، كان أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، وقضى أهلها العجب. وكان معها أعلام وبنود وأهب عباسية للخطباء بمصر.

وسير إلى العماد الكاتب خلعة ومائة دينار من الديوان.

فائدة: العاضد آخر خلفاء العبيديين، وكان قاطعاً لدولتهم، لأن العاضد في اللغة القاطع، لايعضد شجرها أي لايقطع، يقال إن المعز لما أتى إلى القاهرة قال لديوان الانشاء: أكتبوا لنا ألقاباً يصلح لنا أن نتلقب بها، فكتبوا له ألقاباً آخر ما كان فيها لقب العاضد، وهو اتفاق غريب. وفأل عجيب.

واسم العاضد عبد الله، ولد سنة ست وأربعين وبويع له سنة خمس وخمسين وعمره تسع سنين، وعاش إحدى وعشرين سنة وخلافته إحدى عشرة سنة، وما نقلناه من كون مولده سنة ست وأربعين وخمسمائة قاله ابن كثير.

قال الكتبي: ولد سنة أربع وأربعين، وعاش ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعيا خبيثاً لو أمكنه قتل كل من يقدر عليه من أهل السنة فعل، وكان هؤلاء الطائفة يدعوا شرفاً فاطميين، فملكوا البلاد وقهروا العباد، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف انهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب سمي بعبيد الله وزعم أنه علوي فاطمي، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمي بالمهدي، وبنى المهدية بالمغرب ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للاسلام متظاهراً

بالتشيـع،مستترا به، حريصـا على إزالة الملة الاسـلامية، قتل مـن الفقهاء والمحدثين والصـالحين جماعة، كان يـرسل على الفقهاء والعلماء فيـذبحون في فرشهـم، وكان ما قصده إعـدامهم من الـوجود ليبقى العالم كـالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهـم (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) (٣٦).

وكان لـه شيعة ببغـداد وخراسـان، وكانـوا يرجفـون أن المهدي يظهـر بالمغرب ويغلب على الأرض كلهـا، وكان له دعاة بالمغرب يـدعون الناس إليه وإلى طـاعته، ويأخـذون عليهم العهـود، ويلقون إلى الناس مـن أمره بحسب عقولهم واحتـال كل طبقة منهم، فمنهـم من يلقون إليه أنـه الله الخالـق الـرازق، وكان إذا ضـج النـاس مـن هـذا، أخـذ الدعـاة، فمـرة يحبسهم، ومرة يقتلهـم ويقول: ما أمرتُ بهذا، ويقـول الدعاة: هو أمـرنا، وبـأمره فعلنـا، وله أن يمتحننـا، وبقـي هذا البـلاء على الإسلام مـن أول دولتهم إلى آخـرها، وذلك مـن ذي الحجة سنة تسـع وتسعين ومائتين إلى هذه السنة.

وفي أيامهم كثرت الرافضة ، واستحكـم أمرهم، ووضعت المكوس على النـاس، واقتدى بهم غيرهـم، وأفسدت عقـائد طوائف مـن أهل الجبـال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والـدرزية، والحشيشية نوع منهم، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم.

وأخذت الفـرنج أكثر البـلاد بالشـام والجزيرة حتى أخـذوا : القدس، ونـابلس، وعجلـون، والغور، وبـلاد غـزة، وعسقلان، وكـرك، والشوبـك، وطبرية، وبـانياس، وصـور، وعكا، وصيـدا، وبيروت، وصفد، وطـرابلس، وأنطـاكية، وجميـع مـا والى ذلك إلى بـلاد سيس، واستحوزوا على : بـلاد آمد، والـرها، ورأس العين، وبلاد شتـى غير ذلك، وقتلـوا من المسلمين، خلقـاً، ممـا لايحصيهـم إلا اللـه ، وسبـوا ذراري المسلمين مـن النسـاء

والولدان مما لايحد ولا يوصف، وكـادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن الله سلم لما من اللـه على المسلمين بظهور البيت الأتابكي ومن يلـوذ به مثل صلاح الـدين، وأزالوا هـذه الدولة عن رقـاب العباد، وكانـوا أربعة عشر مستخلفاً عدة خلفاء بنـي أمية، لكن بني أمية كانـت مدتهم نيفاً وثمانين سنـة، وكان ثـلاثـة مـن هؤلاء المستخلفين بـإفـريقيـة، (وهم المهـدي ، والقـائم ، والمنصور ، والبـاقي بمصر) وهـم الملقبـون بالمعـز، والعزيـر، والحاكـم، والظـاهـر، والمستنصر، والمستعلي، والآمـر، والحافـظ، والظـافـر، والفائز، والعـاضد. فـالمهدي تولى خمسـاً وعشرين سنـة ثم ولي بعـده ابنه القائم بالله اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهـر وكان أسوأ حالاً من أبيه، وزاد شره أضعافاً مضاعفـة، جاهر ـ لعنه الله ـ بشتـم الانبياء. وكان ينادي في الأسواق بإفريقية والمهدية: العنو عـائشة وبعلها، العنو الغار ومن حوى، وقتل الفقهاء والعلماء القتل الذريع.

ثم تولى بعده ابنه المنصور بالله سبع سنين وستة عشر يوماً.

ثم تـولى بعده المعز لـدين الله ثـلاثاً وعشريـن سنة وخمسة أشهـر، وله بنيـت مدينـة القاهـرة، وهو أول مـن خطب لـه بمصر منهم، وأذن فيهـا بحي على خير العمل.

ثم تولى بعده ابنه العزيز بالله إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر.

وتـولى بعده ابنـه الحاكـم بأمـر الله، وعمـره إحـدى عشرة سنة وستـة أشهر، خمساً وعشريـن سنة وشهراً، وكان أسوأهـم سيرة، وأقبحهم سريرة، وكان يجري منـه ما لو جـرى من الصبيان حالـة لعبهم لاستنكر، ولنـذكر شيئاً من أفعاله القبيحة وسيرته الملعونـة، أخزاه الله تعالى، كان قبحه الله كثير التلـون في أقوالـه وأفعـاله، وكـانـت أخلاقـه متضـادة بين شجاعـة وإقـدام، وجبـن وإحجـام، ومحبة للعلـم وانتقـام مـن العلماء، وميـل إلى

الصلحاء وقتل الصلحاء، ، والغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد، ولبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وبقي ثلاث سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً، ثم عنّ له أن لايجلس إلا في الظلمة، وكان يتوصل إلى القتل بكل حيلة، وقتل من العلماء والكتاب ما لا يحصى، وجرى في أيامه أمور كثيرة عجيبة، منها أنه أمر بسب الصحابة رضي الله عنهم، وأمر أن يكتب ذلك على أبواب المساجد والشوارع، ثم محاه ونهى عنه، ثم أمر بقتل الكلاب، ثم نهى عنه، ونهى عن صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، ، وهدم قمامة وبنى مكانها مسجداً، ثم أعادها كما كانت أولاً، وبنى المدارس وجعل فيها العلماء والمشايخ، ثم هدمها وقتلهم، وكانت أفعاله كلها من هذه النسبة، ومنها أنه كان يعمل الحسبة بنفسه، فيدور في الأسواق على حمار له، فمن غش في معيشته أمر عبداً أسود يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، ولم يسبق إلى هذا الأمر المنكر غيره عثره الله. ومنها أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف المتخذة للنساء، ولم تزل النساء ممنوعات من الخروج إلى الطرقات إلى خلافة الظاهر.

قال ابن خلكان: وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر، ومنها أنه أمر بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً، حتى مر يوماً بشيخ يعمل النجارة بعد العصر، فوقف عليه وقال: ألم أنهكم عن هذا؟ فقال: ياسيدي، ما كنا نسهر لما كنا نتعيش في النهار، فهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول، ومنها أنه نهى عن أكل الملوخية والجرجير وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها، وعلل تحريم الجرجير بكونه منسوباً إلى عائشة رضي الله عنها، وعذره قبحه الله أنجس من ذنبه، واطلع على جماعة أكلوا الملوخية ، فضربهم بالسياط، وطاف بهم القاهرة، ثم ضرب رقابهم على باب زويلة، ومنها أنه نهى عن بيع الرطب، وجمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه، وكان مقدار النفقة

على إحراقه خمسمائة دينار، ونهى عن بيع العنب، وأنفذ شهوداً إلى الجيزة ومعاملها حتى قطعوا أشياء كثيرة من كرومها ورموها إلى الأرض، وداسوها بالبقر. وجمع ما كان في مخازنها من جرار العسل فحملت إلى شاطىء النيل وكسرت وقلبت في البحر، ونهى عن بيع الزبيب على اختلاف أنواعه، ومنع الناس من حمله إلى مصر، ثم جمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه، ونهى عن بيع السمك الذي لاقشر له، ثم ظفر بمن باعه فقتله.

ومنها أنه أمر النصارى أن تحمل في أعناقهم الصلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعاً، وزنته خمسة أرطال، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامي خشب زنة الصلبان، وأن يلبسوا العمائم السود، ولايكتروا من مسلم حماراً ولا بهيمة، ثم أفرد لهم حمامات ، وأمرهم أن يدخلوا إليها والصلبان والقرامي في أعناقهم، وأمرهم في وقت بالدخول في الاسلام كرهاً، ثم أمرهم بالعود إلى أديانهم، فارتد منهم في سبعة أيام ستة آلاف نفر، وخرب كنائسهم ثم أعادها ، وكان يفعل ذلك اختباراً لطاعة العامة ليترقى إلى إدعاء الربوبية كما ادعاها فرعون في زمن موسى عليه السلام.

وكان أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوم الناس صفوفاً احتراماً لاسمه، وكان يفعل ذلك في سائر مملكته حتى في الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجداً حتى إنه يسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم.

ثم ادعى الربوبية وكتب له: بسم الحاكم الرحمن الرحيم، وصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون : ياواحد، ياأحد، يامحيي، يامميت، وادعى علم الغيب في وقت، وكان يقول: فلان قال في بيته كذا وكذا، وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتي يدخلن إلى بيوت الأمراء وغيرهم ويعرفنه ذلك. فرفعت إليه في أثناء ذلك رقعة مكتوب فيها:

بـــــالجور والحكـــــم قــــد رضينـــــا
وليـــــس بـــــالكفـــر والحماقـــــة
إن كنـــــــت أوتيـــــت غيبـــــــاً
بين لنــــا كـــاتـــب البطـــاقــــة

فحين قرأهـا سكت عن الكلام في المغيبـات، وكان هو وأصحابـه من الخلفاء بمصر يدعون السيادة ويقولون: نحـن من ولد فاطمة بنت رسول اللـه صلى الله عليـة وسلم، يـريدون الافتخـار بذلـك على بني العبـاس خلفـاء بغداد، فيقـولون: أبـونا علي بـن أبي طـالب رضي اللـه عنه وأمنـا فاطمـة رضي الله عنها، وكان الحاكـم يقول ذلك في كـل جمعة على المنبر، وكانـت ترفع الـرقاع وهو على المنبر في أشغال النـاس، فرفعت إليـه رقعة مكتوب فيها:

إنـــــا سمعنــــا نسبـــــاً منكــــراً
يتلى على المنبر في الجامـــــــــــــع
إن كنـــــت فيما قلتــــه صـــادقـــاً
فـــانســب لنــا نفســك كـالطـــائع

أو كــــان حقـــاً كما تـــدعـــي
فـــاعـــدد لنـــا بعـــد الأب الســابـــع
أو فـــــدع الأشيـــــاء مستـــورة
وادخـــل بنـــا في النســـب الـــواســـع

فرماها من يده ولم ينتسب بعدها.

وحكى سبـط ابن الجوزي في مـرآة الزمـان: أن المحضر الذي بـرز من ديوان القادر بالله بالقدح في الحاكم وفي أنسابه كان من شهد فيه وأثبت اسمـه ونسبـه في هـذا الكتـاب مـن السـادة والأشراف والقضـاة والعلماء والعـدول والأكابـر والأماثـل ما يعـرفونـه من نسـب الديصـانية الكفـار المنسوبين إلى ديصان بن سعد الخرمي، شهـادة يتقربون بها إلى الله تعالى،

معتقدين مـا أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه للنـاس ولايكتمونه . شهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم:

حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال والاستيصال :

ابن معد بن اسماعيل بن عبد الـرحمن بن سعيد لا أسعده الله، وأنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله،و لقب نفسـه المهدي، ومن تقدمه من سلفه الانجاس الروافض الكلاب الارجـاس عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعيـاء لانسب لهم في ولـد علي بن أبي طـالب رضي اللـه عنه، ولايتعلقون منـه بسبب مـن الاسباب وأنهم كفار فجـار ملحدون زنـادقة معطلـون وللإسـلام جاحـدون، ولمذهـب المجوس معتقـدون، قد عطلـوا الحدود، وأباحـوا الفروج، وسفكوا الدمـاء، وسبوا الأنبياء عليهـم الصلاة والسـلام،وادعوا الـربـوبية ، وكتـب فيه مـن الأعيـان الرضي والمرتضـى، والشيخ أبـو الحسن الاسفـرائيني، والشيخ أبـو الحسن القـدوري، وجماعة من العلماء ببغـداد وأعيانها، وصنف لـه بعض الباطنيـة كتاباً ذكـر فيه أن روح آدم انتقلـت إلى علي، وروح علي انتقلـت إلى الحاكـم، وقـرىء هـذا الكتاب بجـامع القـاهرة، فقصـد الناس قتـل مصنفه، فسيره الحاكـم إلى جبال الشام بناحية وادي التيم وناحيـة بانياس، فاستمال الناس وأعطاهم المال، وأباح لهم الخمور والفـروج، وأقام عندهم مدة يدعـوهم إلى معتقد الحاكـم، فـأضـل منهـم خلقـاً كثيراً، وهنـاك قـرى كثيرة إلى يـومنـا هـذا يعتقـدون خـروج الحاكـم، وأنـه لابـد أن يعـود ويمهـد الأرض، وهـذه خيالات فاسدة وظنون كاذبة،نعوذ بالله منها.

وكان السبـب في هلاك الحاكم أنه أراد قتـل أخته سيدة الملـوك، وهم أن يرسل إليهـا القوابل ليتحقق بكـارتها، وقال لبعض قهارمتهـا: سمعت أنكم تجمعون الجمـوع، وتدخل إليكم الرجال، ولابـد من قتلكم أجمعين، وتكرر هـذا القول منه مـراراً، فعلمت أختـه أنه يقتلها لا محالـة لما تعلمه

من خبث طويتـه، ومؤاخذته بالصغائر، واصراره على الكبـائر، وصاحب البيت أدرى بـالذي فيـه، وكانـت من النسـاء المدبرات ، فخـرجت يـوماً وأتت إلى دار الأمير سيـف الدين ابـن دواس، وكان الحاكم قـد عزم على قتله وقتلها، فـاجتمعت به وعرفتـه ذلك، فقال لها: كيف الحيلـة في أمره؟ قالـت: الرأي عندي أن تجهـز له رجالاً يقتلونـه عند خروجـه إلى حلوان، فإنه ينفرد لنفسـه، وأنت تكون المدبر لدولة ولده، والوزيـر له، فاتفقا على ذلك، ثـم رجعت إلى قصرها، فلما كـان صبيحة النهار خـرج الحاكم على عادته، وانفـرد بنفسه على المقطم، وكان ابـن دواس قد أحضر عشرة عبيد وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار، وعـرفهم كيف يقتلونه، فسبقوه إلى الجبل، فلما انفرد، خرجـوا عليه وقتلوه بالقرب من حلـوان. فخرج الناس على عادتهم يلتمسون رجـوعه ومعهم دواب المواكب، ففعلـوا ذلك سبعة أيام، ثم رأوا حماره الأشهـب المدعو بالقمر وقد قطعت يـداه وعليه سرجه ولجامه، فتبعوا أثر الحمار إلى أن انتهوا إلى المقصبة التي في شرقي حلوان، فنزل رجل إليها ، فوجد ثيابـه مزررة لم تحل أزرارها وفيها آثار السكاكين ، فلم يشكوا في قتله.

ثـم تولى بعـده ابنه الظـاهر لإعـزاز دين اللـه خمس عشرة سنة وثمانيـة أشهر وخمسة أيام.

ثم تولى بعده ابنه المستنصر بالله سبعاً وستين سنة، وكان في أيامه غلاء وشدة.

ثم تـولى بعده ابنـه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد سبع سنين وشيئاً.

ثم تولى بعده ابنـه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور . بـويع وله من العمر خمس سنين، وقام بـدولته الأفضل بن أمير الجيـوش تسعاً وعشرين سنة ، وهو العاشر من صلب عبيد الله الملقب بالمهدي.

ثم تولى بعده ابن عمه الحافظ لدين الله ابن الأمير أبي القاسم محمد ابن المستنصر تسع عشرة سنة وشيئاً، ولم يل منهم منذ قام المهدي من أبوه غير خليفة إلا هذا والعاضد.

ثم تولى بعده ابنه الظافر بالله خمس سنين ونصفاً.

ثم تولى بعده ابنه الفائز بنصر الله ست سنين وأشهراً.

ثم تولى بعده العاضد لدين الله، وانقطعت تلك الدولة، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم وإبادة ملكهم، ورضي عن من سعى في ذلك وأزالهم، ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومحالهم.

وفيها بدأت الوحشة بين نو الدين وصلاح الدين لأن نور الدين كتب إلى صلاح الدين بأن يجمع العساكر ويحضر إلى الشام ليحصر ا الكرك، ويجتمعا هناك لتدبير أمور لايمكن ذكرها في كتاب، فبرز صلاح الدين إلى بلبيس وكتب إلى نور الدين يخبره بأنه واصل.

وخرج نور الدين من دمشق، فنزل على البلقاء، وأقام ينتظره.

وشاور صلاح الدين أصحابه ، فخوفوه من نور الدين، وأثنوا عزمه، فكتب يعتذر من اختلال البلاد وأنه متى أبعد عنها لايأمن أهلها، فشق ذلك على نور الدين ولم يقبل عذره، وعزم على قصد مصر وإخراج صلاح الدين منها، وشرع يتجهز.

وبلغ صلاح الدين، فجمع الأمراء وأهله، وقال: ما ترون؟ فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام ابن أخيه تقي الدين، وقال: إذا جاءنا قابلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي وعقل، وقال لتقي الدين: اقعد،

وسبه. وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك، أنظر في هؤلاء، كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين، لايمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بقتلك لفعلنا، فإذا كنا نحن (كذلك) فكيف غيرنا! وهذه البلاد له، ونحن مماليكه فيها ! وإذا أراد عزلك، فأي حاجة له إلى المجيء، ينفذ كتاباً مع نجاب يأمرك بالمسير إليه حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد،وتفرقوا على هذا، فكتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين بصورة الحال وما قال نجم الدين.

وأما نجم الدين فإنه خلا بابنه وقال: ياقليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك، ومتى بلغ نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد قصدك بعساكر الشام والشرق وديار بكر والروم وغيرهم ولم يبق معك أحد وأولهم خالك وغيره ممن ينافسك في الملك، وفي قلوبهم منك ما فيها، وقد كتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين بما قلت، فاكتب إليه كتاباً تذعن فيه بالطاعة له، وقل له:مامن حاجة إلى قصدي بنفسك، ابعث أحد غلمانك يحملني إلى بين يديك. فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ذلك، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا، عدل عن قصده، واستحيى منه، واشتغل عنه بالفرنج، وكان الأمر كما قال نجم الدين. وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

وفيها اتخذ نور الدين الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وكتب بذلك إلى جميع البلاد ، فاتخذت في الأبراج. وكتب منشوراً لأربابها واعزاز أصحابها، ونودي بالتهديد لمن

اصطاد منها شيئاً، وكان سبب ذلك أن مملكته قد اتسعت، وكانت من حد بلاد النوبة إلى همذان لاتتخللها سوى بلاد الفرنج، فكان الفرنج - لعنهم الله - ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونوا قد بلغوا بعض الفرص، فحينئذ أمر بذلك، فوجد بها راحة كبيرة، وكانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته، وعلقوه على الطير، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنتقل الرقعة منه إلى طائر آخرمن البلاد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فحفظت الثغور بذلك، حتى أن طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة له بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو ، ففعلوا ذلك، فظفروا بهم، وكان الفرنج قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم، فرحمه الله ورضي عنه،فما كان أحسن نظره في الرعايا والبلاد، ووفق الملوك إلى الاقتداء بسيرته:

وما أحسن قول القاضي الفاضل في وصف الحمام: الطيور ملائكة الملوك، يشير بذلك إلى نزولها على الملوك من جو الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء ، مع فرط ما فيها من الأمانة لايتوهم من جهتها خيانة، وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب، وأطرب وأعجب وأغرب.

وفيها أسقط الملك الناصر صلاح الدين عن أهل مصر المكوس والضرائب. وقرىء المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة، وكان مقدار ما أسقطه في السنة من العين مائتي ألف دينار.

وفيها عزل الخليفة المستضيء ابن رئيس الرؤساء وقبض على ابنه كمال الدين، وكان كمال الدين هذا كثير الظلم والعنف في الأحكام، وكان سبباً في عزل والده، تظلمت إليه يوماً امرأة كان يعذب زوجها، وقالت:

خف من دعوة تصادف إجابة ، فاستهزأ، وقال : تحري لها وقت السحر، فلم يكن بعد ذلك إلا أياماً قلائل حتى نكب وأنشد بعضهم:

أتحتقر الدعاء وتزدريه
وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن
لها أمد وللأمد انقضاء

ويقال: إن المرأة صادفته بعد ذلك، فقالت: يا هذا، انتفعت برأيك ومشورتك.

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها بعث صلاح الدين هدية إلى نور الدين فيها فيل وحمار عتابي مخطط كثوب عتابي، فأهدى نور الدين الفيل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، وجهز الحمار العتابي إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا، وخرج الناس للفرجة، وكان فيهم رجل عتابي كثير الدعاوى، وهو بليد ناقص الفضيلة، فقال رجل : إن كان بعث الينا حمار عتابي، فنحن عندنا عتابي حمار.

وفيها سار نور الدين إلى الموصل وصلى في الجامع الذي بناه ،وتصدق بمال كثير، فلما علم صلاح الدين بتوجهه إلى الموصل، خرج بعساكر مصر إلى الشام وحاصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار إلى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين وقتل بعضهم، وأجلى من بقي عن أرض الكرك، ثم عاد إلى مصر.

قال ابن شداد: وهي أول غزاة غزاها صلاح الدين من مصر.

وعاد نور الدين من الموصل، وقطع الفرات وقصد بلاد الروم، وسببه أن الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي قد قصد ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما، وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً به، فأكرمه وأحسن إليه، ووعده النصر والسعي في رد ملكه إليه، وراسل قليج أرسلان ، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، وفتح من بلاده بهسنا، ومرعش ومرزبان، وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، فلما رأى قليج أرسلان ذلك، خاف منه، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصفح عنه والصلح، ورد بلاد ابن الدانشمند، فأجابه إلى ذلك بشروط: منها أن يجدد إسلامه على يد رسول نور الدين، لأنه كان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، ومنها إذا طلب عسكره إلى الغزاة يسيره، ومنها أن يزوج ابنته لسيف الدين غازي ولد أخي نور الدين، وذكر أموراً غيرها، فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله واستقر الصلح، وترك عسكراً في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ابن الدانشمند، فأقام عنده حتى توفي نور الدين ، فرحل العسكر عنها، وعاد قليج أرسلان ملكها.

وفيها شرع نور الدين ببناء مدرسة للشافعية بقرب الجاروخية، وهي المدرسة المعروفة بالعادلية الآن، فأدركه أجله وقد وضع المحراب وبعض البنيان، وبقي أمرها على حاله إلى أن جاء العادل أبو بكر فأزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم ودفن بها.

وفيها اجتمع الفرنج بالشام لقصد زرا، فوصلوا إلى سمكين[٣٧] ، فبرز اليهم نور الدين ، فهربوا منه إلى الفوار، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة،

فبعث سرية إلى طبرية، فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين. ورجع الفرنج خائبين.

وفيها اجتمع السودان العبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها، وكان بها كنز الدولة، فأرسل يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع (البعلبكي)، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن خربوا أرضها، فاتبعهم الشجاع وكنز الدولة، فجرى بينهم حرب كثير قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم في بلاد الصعيد، فأرسل الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى، وأسر من وجد فيها، وهرب صاحبها. ثم رجع شمس الدولة.

وخلا بالقلعة شخص من الأكراد يقال له ابراهيم، وانضم إليه جماعة من الأكراد البطالين، فشنوا الغارات على بلاد النوبة حتى برحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة، ثم إنهم قصدوا جزيرة في البحر، فغرق أميرهم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي، وأخذوا جميع ما كان فيها، وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح، ومع الرسول هدية وعبد وجارية، ، فكتب له جواب كتابه، وأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جزاء إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر بلادهم، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة، وهي مدينة الملك ، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم،

قال: ودنقلة ليس فيها عمارة إلا دار فقط، وباقيها أخصاص. قاله ابن أبي طي.

وفيها كانت وفاة الأمير نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين. سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام رحمه الله تعالى، وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك، فبلغه خبره بالطريق فحزن عليه، وتأسف حيث لم يحضره.

وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد، وقد أدى الرسالة بالخطبة العباسية، ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين، قريتان من أعمال العراق كانتا قديماً لأبيه عماد الدين زنكي، فأراد نور الدين أن ينشىء ببغداد مدرسة على حافة الدجلة ويقف عليها القريتين، فأدركه أجله، وعاقه القدر عن ذلك، وجاء مع شهاب الدين خمسون ديناراً من دنانير النثار التي نثرت يوم دخوله إلى بغداد بالبشارة، وزن كل دينار عشرة دنانير.

وفيها بعث صلاح الدين سرية صحبة قراقش مملوك تقي الدين عمر ابن شاهنشاه إلى بلاد إفريقية، فملكوا طائفة كبيرة منها، من ذلك مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن معها.

وفيها أرسل نور الدين وزيره الموفق خالد بن القيسراني إلى صلاح الدين ليقيم حساب الديارالمصرية، وذلك لأن نور الدين استقل الهدية التي أرسلت إليه من خزانة العاضد، وكان مقصوده أن يقرر على الديار المصرية خراجاً يحمل إليه في كل سنة.

فيها قال ابن الجوزي في المنتظم: إنه سقط ببغداد برد كالنارنج، ومنه ماوزنه سبعة أرطال. ثم أعقب ذلك سيل عظيم وزيادة عظيمة في دجلة، لم يعهد مثلها أصلاً، فخربت شيئاً كثيراً من العمران والقرى

والمزارع حتى القبور، وخرج الناس إلى الصحراء، وكثر الضجيج والابتهال إلى الله تعالى حتى حصل الفرج وتناقص الماء، قال: وأما الموصل فإنه كان بها نحو ما كان ببغداد، وانهدم بالماء نحو من ألفي دار، واستهدم بسببه مثل ذلك، وهلك تحت الهدم خلق كثير، وكذلك الفرات زاد زيادة عظيمة هلك بسببها شيء كثير من القرى، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة في الزروع والثمار، ووقع الموت في الغنم ، وأصيب كثير ممن أكل منها بالعراق وغيرها.

وفيها قال ابن الساعي: توالت الأمطار بديار بكر وغيرها والموصل أربعين يوماً وليلة لم يروا الشمس سوى مرتين لحظتين يسيرتين ثم تستتر بالغيوم، فتهدمت بيوت كثيرة ومساكن على أهلها، وزادت دجلة بسبب ذلك زيادة عظيمة، وغرق كثير من مساكن بغداد والموصل، ثم تناقص الماء بإذن الله تعالى.

وفيها سار نور الدين نحو بلاد الروم وفي خدمته الجيش، وملك الأرمن وصاحب ملطية وخلق من الملوك والأمراء، فافتتح عدة من حصونهم، وصالح على قلعة الروم، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية، ثم عاد إلى حلب وقد وجد النجاح في كل ما طلب، ثم أتى دمشق مسروراً محبوراً.

وفيها توجه توران شاه أخو صلاح الدين إلى اليمن فملكها، قال ابن أبي طي: وكان سبب خروج توران شاه إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لايقوم بقوته، ولا ينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان إذا خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم ابن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان تعدى

على هـذا الشريف، فـأعلم شمـس الدولـة أصحـابه بعـزمه على اليمـن، فأجـابوه. وتجهـز ثم دخل على أخيـه صلاح الديـن، واستأذنـه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلـق له مغل قوص سنة، وزوده فوق مـا كان في نفسه وأصحبه جماعة من الأمراء والجنـد، وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأزواد والعـدد، فوصل إلى مكة زادهـا الله شرفاً، فـاعتمر بها، ثـم خرج إلى اليمـن، فلقيه الشريـف هاشـم بـن غـانم الحسـنـي وجمع الأشراف مـن بني سليمان في جمع كبير، فـوصـل زبيـد، فخرج إليـه عبـد النبي فقـاتله فهـزمه تـوران شاه وأسره، وأسر زوجتـه الحرة، وكانـت ذات أمـوال جزيلـة وذخـائر جليلة، ونهب الجيش زبيـد، ثـم سار إلى عـدن ففتحها عنوة، وولاها عز الدين الـزنجيلي، ثم فتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن فيقـال إنـه فتـح ثمانين حصناً ومـدينـة، واستـولى على أمـوالها وذخائرهـا، وقتل عبـد النبي بن مهـدي، وكان هـذا قد تغلـب على بلاد اليمن ودعا إلى نفسـه، وتسمى بالإمام، وزعم أنـه سيملك الأرض كلها، وقد كان أخـوه علي بن مهدي قد تغلـب قبله عليها، وانتزعهـا من أيدي أهل زبيد. واستقر توران شاه في ملـك اليمن، وخطب للخليفة العباسي، وصفت اليمن من أكدارها، وعـادت إلى ما سبق من مضمارها، وكتب إلى أخيه الملـك الناصر يخبره بما فتـح الله عليه وأحسـن إليه، فكتـب الملك الناصر بذلـك إلى نور الدين، فأرسـل نور الدين بـذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن، والخطبة بها، وبكسر الروم مرة ثـانية، وكان مما تضمنه كتاب البشـارة: ولم ينـج مـن عشرة آلاف غير عشرة (حمر مستنفـرة. فـرت مـن قسورة). (٣٨)

وفيها أكثر نور الدين مـن الصدقات والصلات،وزاد في الأوقاف وكسا الأيتام، وزوج الأرامـل، وأغنى الفقـراء، وكشف المظـالم بحيث لم يبـق في بلاده مظلمة.

وفيها وصـل رسول نـور الدين الموفـق خالـد ابن القيسراني إلى الـديار

المصرية واجتمع بالملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، فطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد، فصعب ذلك على صلاح الدين، وأراد شق العصا، وتوجه بالمخالفة والإباء، ولكنه عاد إلى طباعه الحسنة، وأظهر الطاعة المستحسنة، وأمر بكتابة الحساب وتحرير الجواب، فبادر إلى ذلك جماعة الدواوين والحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد الأجناد وبمبلغ إقطاعاتهم وكميات جامكياتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك، أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى، وهي خمس ختمات شريفات، إحداها ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة بصفائح الذهب وعليها أقفال ذهب مكتوبة بالذهب بخط يانس، وختمة مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء بخط راشد، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد، وختمة بخط مهلهل جزء واحد، وختمة بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة أحجار بلخش وزن احداها اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: (قصبة) وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وحجر أزرق وزنه سبعة مثاقيل وسدس، ومائة عقد من الجواهر النفيسات وزنها جميعاً ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً، وخمسون قارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وأربع قطع جزع، وابريق يشم، وطشت يشم، وسقرق ميناء مذهب، وصحون صيني وزبادي وسكارج أربعون قطعة ، وكرتان عود قماري، وزن إحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى واحد وعشرون رطلاً، ومائة ثوب أطلس، وأربعة وعشرون ثوباً من الحرير، وأربعة وعشرون ثوباً من الوشي، وحلة فلفلي مذهبة، وغير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيء كثير من السلاح على اختلاف ضروبه، ومن الذهب عشرة صناديق مقفلات مختومات لم يعلم مقدار ما فيها، فلما فصلت العير عن الديار المصرية لم تصل إلى الشام حتى مات نور الدين رحمه الله، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى

وابن القيسراني وضعا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين ، فأنفذ من ردها.

وفيها صلب عمارة اليمني الشاعر وأصحابه، وسبب ذلك أنه اجتمع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا فيها حكاماً، فاتفقوا فيما بينهم أن يردّوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج يستدعونهم إليهم، وعينوا خليفة من الفاطميين ووزيراً، وذلك في غيبة السلطان ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئه، فحرض عمارة شمس الدولة توران شاه على المسير إلى اليمن ليضعف بذلك الجيش عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين. فخرج توران شاه ولم يخرج معه عمارة، بل أقام في القاهرة يفيض في هذا الحديث ويداخل المتكلمين فيه ويصافيهم، وكاد أمرهم أن يتم (ويأبى الله إلا أن يتّم نوره) (٣٩) فأدخلوا في الشورى الواعظ زين الدين بن نجا، فأظهر لهم أنه معهم، ثم جاء إلى صلاح الدين وأخبره بما تمالأوا وتعاقدوا عليه، وطلب من السلطان ما لابن كامل من الحواصل والعقار فبذله له، وأمره بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بكل متجدد، فجاء رسول ملك الفرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ، وفي الباطن إليهم، وأتى الخبر إلى صلاح الدين بجلية الحال من بلاد الفرنج.

وقيل إن عبد الصمد الكاتب كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، فلقيه يوماً فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا الآ لسبب، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال ، وطلب منه كشف الأمر، فأخبره بأمرهم، فبعثه إلى صلاح الدين فأوضح له الأمر، فاستدعاهم السلطان واحداً واحداً وقررهم، فأقروا بذلك فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوه بقتلهم، فعند ذلك أمر بقتل رؤوسهم وأعيانهم وأتباعهم وعلمائهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد،

وأفرد ذرية العاضدوأهل بيته في دار فلا يصل إليهم إصلاح ولا إفساد، وأجرى عليهم ما يليق بهم من الأرزاق والثياب، وقد كان عمارة معادياً للقاضي الفاضل، فلما حضر عمارة بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل إلى السلطان ليشفع فيه عنده، فتوهم عمارة أنه يتكلم فيه، فقال: يامولانا السلطان، لاتسمع منه ، فغضب القاضي الفاضل وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنما كان يشفع فيك، فندم ندماً عظيماً، ولما ذهب به ليصلب طلب أن يمروا به على مجلس القاضي الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه، فقال عمارة:

عبد الرحيم قد احتجب
إنّ الخلاص هو العجب

وصلب هو والجماعة بين القصرين، وكان الذين صلبوا منهم: الفضل ابن القاضي، وهو أبو القاسم هبة الله قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، وابن عبد القوي داعي الدعاة، وقد كان يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليدل عليها فامتنع من ذلك، فمات واندرست ، والعويرس، وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني قد قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني، وكان عمارة هذا ينتسب إلى الرفض ويتهم بالزندقة والكفر، ذكر العماد الكاتب في الخريدة أنه قال في قصيدته التي يقول في أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم

قد كان أول هذا الدين من رجل
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولا عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، قال: ولعمارة في مصلوب بمصر يقال له طرخان، وكان قد

خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح فصلبه، فقال فيه عمارة:

أراد علـــو مــــرتبــــة وقـــدر
فـــأصبـــح فـــوق جـــذع وهـــو عـــال

ومـــــد على صليـــــب الجذع منــــه
يمينــــــا لاتطــــــول إلى الشمال

ونكـــــس رأســــه لعتــــاب قلــــب
دعـــــاه إلى الغـــوايـــة والضـــلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وحكى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز : أن القاضي العوريس رأى عيسى بن مريم عليه السلام وكأنه أخرج رأسه من السماء، فقال له العوريس: الصلب حق، فقال له عيسى بن مريم: نعم، فعبرها العابر، وقال: صاحب هذه الرؤيا يصلب لأن عيسى معصوم ولايمكن أن يكون ذلك راجعا إليه لأن الله تعالى قص لنا أنه لم يصلب، فينبغي أن يكون راجعاً إلى الرائي، وكان الأمر كما قال: وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بما وقع منهم وبهم من الخزي والنكال، قال العماد: فوصل الكتاب يوم وفاة نور الدين.

وفيها وصل أسطول الفرنج من صقلية، فنازلوا الاسكندرية بغتة ، (بناءٍ) على مراسلة الذين صلبوا، وكان معهم ألف وخمسمائة فرس، وعدتهم ثلاثون ألف مقاتل ما بين فارس وراجل. وكان معهم مائتا شيني وست سفن كبار وأربعون مركباً، فبدر إلى حربهم أهل الثغر، فحملوا على المسلمين حملة أوصلتهم إلى السور، ففقد من المسلمين فوق المائتين. فلما أصبحوا، زحفوا على الاسكندرية، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وهي الأبراج، وثلاث مناجيق ترمي بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وزحفوا إلى أن قاربوا السور، فرأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية ما راعهم. وبعثت بطاقة إلى الملك الناصر، فبادر وحضر،

واستمر القتال يومين، وفي اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وكبسوا الفرنج على غفلة، فأحرقوا الدبابات، وصدقوا اللقاء، ودام القتال إلى العصر، ونزل من الله النصر، وقتل من الفرنج خلق، ورد المسلمون إلى البلد لأجل الصلاة، ثم كبروا عند المغرب وهاجموا الفرنج في خيامهم، فتسلموها بما حوت وقتلوا من الرجالة ما لا يحصى، واقتحم المسلمون البحر فغرقوا المراكب وحرقوها، وهربت بقية المراكب، وصار العدو بين أسير وقتيل وغريق، واحتمى ثلاثمائة فارس في تل فأخذوا أسرى، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة ولله الحمد.

وفيها كانت وفاة الملك العادل نور الدين، وكان رحمه الله قد ركب يوم عيد الفطر إلى الميدان الأخضر القبلي وصلى فيه صلاة العيد، ورمى القبق في الميدان الشمالي، ومد سماطا حافلا، وطهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم، وزينت له البلد، وضربت البشائر، وكان يوم الأحد، ثم ركب يوم الاثنين وأوكب على العادة، وكان معه همام الدين مودود، فقال لنور الدين: هل تكون ها هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل تكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر وهمام الدين لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه، فاعترضه بعض الأمراء وقال له: باش، فغضب لذلك، ولم يكن ذلك من سجيته. وساق ودخل في القلعة، فحصل له نبو مزاج، واشتغل بنفسه وأوجاعه، وتنكرت عليه جميع حواسه وطباعه، واحتبس اسبوعا عن الناس، والناس في شغل عنه بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده، فانعكست تلك الافراح بالأتراح ونسخ الجد ذلك المزاح، وحصل للملك العادل خوانيق في حلقه منعته من النطق، وكان قد أشير عليه بالفصد فلم يقبل، وبالمبادرة إلى المعالجة فلم يفعل، وكان

أمر الله قدراً مقدوراً. فلما كان يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمةالله تعالى وقت طلوع الشمس عن ثمان وخمسين سنة، مكث منها في الملك ثمانية وعشرين سنة، وصلى عليه بجامع القلعة، ودفن بالقلعة، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لاصحاب أبي حنيفة بجوار الخواصين، وكانت دار سليمان بن عبد الملك رحمه الله تعالى وقبره بها يزار ويخلق شباكه ويطيب، ويتبرك به كل مار ويقول: قبر نور الدين الشهيد لما حصل له من الخوانيق، وكذا يقال لأبيه الشهيد لأنه قتل ظلماً.

وفيها بويع بعد موت نور الدين لولده الملك الصالح اسماعيل. وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، وجعل أتابكه الأمير شمس الدين ابن المقدم، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام. وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها، وضرب السكة باسمه فيها.

ثم بعد ذلك اختلفت الأمراء ، وحارت الآراء ، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وقد كانت لاتوجد في زمانه، ولايجسر أحد أن يتعاطى شيئاً منها ولا من الفواحش، وانتشرت الفواحش وظهرت حتى إن ابن أخي نور الدين سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل لما تحقق موت عمه ــ وكان محصوراً منه ــ نادى مناديه في البلد بالمسامحة في اللعب واللهو والشراب المنكر والطرب، ومع المنادي دن وقدح ومزمار الشيطان، فانا لله وانا إليه راجعون. وقد كان ابن أخيه هذا وغيره من الأمراء والملوك الذين حكم عليهم لايستطيع أحد منهم أن يفعل شيئاً من المناكر والفواحش. فلما مات برح أمرهم وعاثوا في الأرض فسادا. وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين.

وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدي المسلمين، فبرز إليهم ابن المقدم الأتابك، فواقعهم عند بانياس وضعف عن مقاومتهم

فهادنهم مـدة، ودفع إليهم أمـوالاً جزيلة عجلهـا لهم، ولولا أنه خـوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين لما هادنوه.

ولما بلـغ ذلك صـلاح الديـن ، كتب إلى الأمـراء وخاصـة ابن المقـدم يلومهـم على ما صنعوا مـن المهادنة ودفع الأمـوال إلى الفرنج، وهـم أقل وأذل، وأخبرهـم أنـه عزم على قصد البلاد الشـامية ليحفظها من الفـرنج، فردوا إليـه كتاباً فيـه غلظة، وكلامـاً فيه بشاعـة، وكتبوا إلى سيف الـدين غازي صاحب الموصـل ليملكوه عليهم ليدفع عنهم كيـد صلاح الدين ، فلم يجبهم لأنه خاف أن تكون مكيدة منهم.

ثـم توجـه الملك الصالح إلى حلب، وأقام بها إلى أن تـوفي في سنة سبع وسبعين . وكان صـالحا كما سمي، لما اشتد بـه المرض وضعف وصـف له الأطباء قليـل خمر ، فقال: لا أفعـل حتى أسأل الفقهـاء. فأفتـاه بعضهـم بـالجواز فلم يفعـل، وقـال : إن كان اللـه قد قـرب الأجـل يؤخـره شرب الخمر؟ قيل لـه :لا ، قال: فوالله لا لقيـت الله وقد فعلت مـا حرم الله، قال: فمات ولم يشربـه. رحمه الله ورحم أباه وجـده، وعوضهم الجنـة بمنه وكرمه.

والحمد لله رب العالمين.

الإعلام والتبيين

في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين

صنفه

أحمد بن علي الحريري

- ١٠٩٥٢ -

بسم الله الرحمن الرحيم

الله ولي الهداية

الحمد لله الذي شرف ملة الاسلام على جميع الأمم، وأيدهم وأمدهم بالتأييد والنعم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، شهادة أنجو[١] بها الخلاص من العدم، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده المرسل إلى كافة العرب والعجم، ونبيه المنصور بالرعب مسيرة شهر، حتى أباد أهل الشرك، وانتقم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المخصوصين بفضيلتي السيف والقلم، صلاة دائمة ماشهر سيف، وأنار نور وارتفع علم، وسلم تسليما.

أما بعد فقد حداني أن أصنف مختصرا لطيفا في خروج الكفرة الملاعين على بلاد المسلمين، واستيلائهم على السواحل والجبال، بعد زوال دولة الأمويين وضعف الخلفاء العباسيين، وجور الملوك على الرعية، وقلة الأعباء بالدين، وسميته:

الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين

وأسأل من الله تعالى الاعانة لي ولكافة[٢-و] أخوتني الموحدين.

أقول: قال أصحاب التاريخ[٢]: وفي سنة تسعين وأربعمائة، قدمت الفرنج الملاعين إلى بلاد الشام، وكان ظهورهم من بحر قسطنطينية في جمع عظيم، فعظم الخطب، وكثر الهم، وكان ذلك في أيام المستعلي[٣] بالله ابن [المستنصربن] الظاهر لاعزاز دين الله، خليفة مصر الفاطمي.

فجمع سلطان الروم واسمه سليمان[٤] شاه الجيوش واستخدم التركمان والتقى الفرنج، ووقعت بينهم وقعة عظيمة (فكسره) الفرنج، وقتلوا غالب عساكره.

ثم إن الفرنج توجهوا إلى أنطاكية، وحاصروها، وقتلوا كثيرا من الناس، وسبوا النساء والصبيان، ودخلوا إلى المعرة، وملكوها وقتلوا غالب أهلها، ووصلوا إلى البارة ، وجبل السماق، وملكوا أفامية، وكفر طاب[٥] ونواحي تلك البلاد، وذلك أول خروجهم.

ثم إن الفرنج شددوا في الحصار على أنطاكية، وصاحبها، يومئذ باغي سنان(يغي[٦] سغان) ثم إن باغي سنان (يغي سغان) أخرج النصارى[٢-ظ] المقيمين بأنطاكية، وطردهم ونهب دورهم، ودام الحصار على أنطاكية تسعة أشهر وهلك أكثر الفرنج عليها من القتل والموت والجوع، وظهر من شجاعة صاحبها مالم يرا(ير) من مثله.

ثم إن الفرنج عاملوا مقدما على برج من أبراجها، وبذلوا له مالا كثيرا، فعاملهم على المسلمين، وطلعوا (وطلع) الفرنج من البرج[٧] وضربوا البوق وقت السحر، فهب باغي سنان(يغي سغان) في ثلاثين فارسا، وترك ماله وأهله وحريمه.

ثم ندم باغي سنان(يغي سغان) على ذلك، وتأسف إذ لم يقاتل عن حريمه، حتى قتل، وخارت قوته، ولم يستطيع (يستطع) أن يثبت على الفرس فتركه أصحابه، ونجوا، فجاء نصراني من الأرمن فقتله، واحتز رأسه، وجاء بالرأس إلى الفرنج.

ثم إن الفرنج أخذوا المعرة بالسيف، وقتلوا بها مائة ألف، فلما بلغ صاحب الموصل ذلك أخذته الغيرة والحمية، وكان اسمه كربوقا، وأقبل بعسكر الموصل، ونزل بمرج دابق، واجتمع إليه عساكر الشام: تركها وعربها، ففزع الفرنج من ذلك [٣-و] فزعا شديدا، وكانوا في غلاء عظيم، فنازلهم المسلمين(المسلمون) فتحصنوا بأنطاكية، ودام الحصار عليهم ثلاثة عشر يوما، وهم في جوع عظيم، فبذلوا أنطاكية بالأمان، فلم يعطيهم(يعطهم) كربوقا الأمان.

وكانت ملوك الفرنج (خمسة) ملوك، وهم: بردويل، وصيخيل(صنجيل) وكندفري، وتيمنت(بيمنت)[٨] ومعهم راهب عتيق كبير السن، يعتقدون فيه، فطمر الراهب في الأرض حربة، ثم قال: إن في هذه البقعة حربة عيسى عليه السلام، فإن وجدتموها نصرتم، فحفروا فوجدوها ففرحوا(ففرح) الفرنج، وخرجوا.

وعملوا المسلمين(وعمل المسلمون) عملة قبيحة، وهو أنهم اختلفوا على كربوقا، وقاتلوه، واشتغلوا عن الفرنج بقتاله، فمالت عليهم الفرنج فهزمتهم، وثبتت جماعة من المسلمين، فقتلوا بأجمعهم[٩] ثم سارت (سار) الفرنج، فحاصروا عرقة[١٠]وملكوها، ثم نزلوا على حمص، وراموا حصارها، فصالحهم صاحبها.

وفي سنة اثني (اثنتين) وتسعين وأربعمائة[٣-ظ]

تجمعت (تجمع) الفرنج ومقدمهم كندفري، وساروا إلى بيت المقدس وملكوه يوم الجمعة ثاني عشرين شعبان سنة اثني(اثنتين) وتسعين وأربعمائة.

وكان مسير الفرنج من أنطاكية، ومقدمهم كندفري في ألف ألف مقاتل مابين فارس وراجل، وفعلة، وأرباب مناجنيق (مناجيق) وعرادات، ونازلوا بيت المقدس، وعملوا برجين طويلين على السور: أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود، وباب أسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها صلاح الدين، فأحرق المسلمين (المسلمون) البرج الذي عملوه بباب صهيون، وقتلوا من فيه وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، فانهزموا المسلمين (فانهزم المسلمون) ونزلوا البلد، وهرب المسلمين (المسلمون) إلى الأقصى والصخرة فاجتمعوا بها، فهجموا عليهم، فحكي أنهم قتلوا من

المسلمين في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم، وأخذوا قناديل (٤—و) الحرم، وكان بعض القناديل منهم (منها) وزنه ثلاثة آلاف مثقال ذهب بالوزن الشامي، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي، وأخذوا من الأموال مالا يحصى.

ولما بلغ خليفة مصر ذلك، جهز وزيره الأفضل ابن أمير الجيوش [١١] فخرج من مصر في عشرين ألف، وجد في السير فوصل ثاني يوم فتحه، ولم يعلم، فقصده الفرنج، فولى هاربا إلى عسقلان [١٢]، فتبعوه (فتبعه) الفرنج، وقتلوا من أصحابه خلق كثير (خلقا كثيرا)، وأحرق الفرنج ماحول عسقلان، وقطعوا أشجارها، وعادوا إلى القدس، وهرب من دمشق خلقا كثيرا (خلق كثير) إلى العراق.

وقيل إن الفرنج لما ملكوا القدس، جمعوا اليهود إلى كنيستهم، وأحرقوها عليهم، وكان ممن قتل بالقدس: مكي ابن عبد السلام[١٣] الموصلي (الرميلي) وكان عالما حافظا.

ثم تجهزت عساكر مصر، والتقت الفرنج على عسقلان بظاهرها، فقتل مقدم عسكر المصريين، وحملوا المصريين (وحمل المصريون) فحطموا الفرنج[٤—ظ] وقتلوا منهم على ماقيل مائة ألف، ثم سار كندفري صاحب القدس، فحاصر عكا، فأصابه سهم فقتله لعنه الله، فأسرع أخوه بردويل، وتولى مكانه، وعاد إلى القدس، فلما علم بذلك صاحب دمشق السلطان دقاق بن تتش، فنهض هو وجناح الدولة، صاحب حمص[١٤] وجمعوا العساكر والتقوا بالفرنج ، فكسروا الفرنج، واحتموا بالقدس.

ثم إن الفرنج أخذت سروج[١٥] بالسيف، وأرسوف[١٦] بالأمان، وأخذوا قيسارية بالسيف.

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة

نازل الفرنج طرابلس[١٧] الشام، فتوجه لنصرتها عسكر مصر، وعسكر دمشق وحمص، فبرز لهم بردويـل صاحب القدس، فقتلوا معظم فـرسانه، وانهزم وثلاثة[١٨] أنفس، ثم عاد عسكر دمشق، فكشفوا عن طرابلس.

وقتل جناح الدولة، صاحب حمص، فقدم صاحب أنطاكية، وحاصر حمص، فبذلوا له مالا كثيرا، فرحل عنهـم ثم تسلم حمص صاحب دمشق السلطان دقاق السلجوقي (٥—و).

وفي هـذه السنـة التقى سلطـان الـروم الفـرنج، فكسرهـم وأسر خلقـا كثيرا، ووصل ملك الفرنج صيخيـل (صنجيل) إلى بلاد الشام في ثلاثمائة ألـف، وحاصر طـرابلس مـدة، ثم حـاصر حمص، ووصل ملـك الفرنـج القمـص عكـا، واستمـر صيخيل (صنجيـل) محاصرا طـرابلـس وحمص، واستمر القمص محاصرا لعكا[١٩]، ثم كشـف (كشفه) عسكر دمشق عن عكا ومنعوه من دخولها، ثم توجـه القمص إلى بيروت، وحاصرها مدة، ثم رحل عنها، ولم يقدر عليها.

وفي هـذه السنة استنقـذ المسلمون بلنسيـة[٢٠] مـن الفرنـج، وكانـت الفرنج قـد أخذوها من ثمان (ثماني) سنين، فصـارت دار الاسلام إلى سنة ست وثلاثين وستمائة، وبلنسية من أعظم مدائن الأندلس.

وفي هذه السنة قدمت عساكر مصر، وحاصروا الفـرنج بمدينة يافا، ثم التقـوا هم والفـرنج، فقتـل مـن الفرنـج أربعمائة نفس، وأسروا ثـلاثمائة، ويافا مدينة من سواحل الشام، بالقرب من غزة(٥—ظ).

وفي هـذه السنة أخـذ الفرنـج جبيل بـالأمان، ثـم غدروا بهم، ثـم إن الفرنج رجعـوا إلى عكا وجددوا عليها الحصار، هذا وطـرابلس في الحصار، ثم أخذوا عكا بالسيف وقتلوا المسلمين بها(٢١).

ثـم نازلـوا (نازل) الفـرنج حـران، فخرج (فخـرجت) إليهـم عساكـر الشـام، فـالتقـى المسلمين (المسلمـون) والفـرنــج، فـانتصر المسلمين (المسلمون) ، وكـانت وقعة عظيمة مشهـورة، وذلت الفرنج، وقتـل منهم اثنا عشر ألفا(٢٢).

وفي هذه السنة مات صاحب دمشق شمس الملوك السلطان دقاق(٢٣) ابن تتش السلجـوقي، وتولى بعده ولده، وكان صبيـا صغير السن، وجعل أتابكه(٢٤) طغتكين.

هذا والفـرنج محاصريـن (محاصرون) طرابلس، وبنـوا قريبـا منها بـرجا حصينا، فخـرج صاحـب طرابلـس عبد الله بـن عمار، فهجم على البرج، وقتل كـل من كان فيه وأخـربه (وخربـه) واشتد الغلاء بطرابلـس، وأكلوا الجيـف، ثم بعثـوا إلى مصر في البحـر، واستنجدوا بعسـاكـرها، ويشكـوا (ويشكون) مـن الجوع والغلاء والبلاء، فجاءهـم من مصر (٦—و) شرف الدولة، ومعـه الغلال وقوت (وأقوات) كثيرة في البحـر، ودام الحصار على طرابلس مـدة خمس سنين، ثم تجمعت ملوك الفرنج كلهـا على طرابلس، وعملوا أبراجـا من خشب وحديـد، تمشي على عجل، وألصقوها بـالسور، وآخـر الأمـر: إن الفـرنـج أخـذوهـا بـالسيـف، وقتلـوا منهـا خلقـا كثيرا واستولت الفرنج على طرابلس(٢٥) ، ولله الأمر.

وفي هذه السنة كـانت وقعة عظيمة بين صاحب حلـب وبين الفرنج، فكسروا صاحب حلب وملكوا(وملك) الفرنج قلعة أوتاج(٢٦) (أرتاح).

وفي هذه السنـة كانـت وقعة عظيمـة بين المسلمين والفرنـج، وكانـت

هذه الوقعة بين يافا وعسقلان، ومقدم الفرنج بغدوين، وهم في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، وكانت المسلمين (وكان المسلمون) خمسة آلاف من المصريين وثلاثمائة فارس من الدمشقيين، فثبت الجمعان حتى قتل من كل واحد منهما أكثر من ألف، ثم قطعوا القتال من غير هزيمة.

ثم إن نواحي الشام امتلأت(٦—ظ) من الفرنج، وملكوا غالب بلاد الشام، فخرج إليهم الأتابك طغتكين من دمشق، وطردهم وقتل منهم ألوف (ألوفا) كثيرة، وزينت دمشق.

وفي سنة إحدى وخمسمائة

سار بغدوين من القدس، وحاصر صور (صورا)، وشد في الحصار، وبنى قبالها حصنا، فبذل له متوليها سبعة آلاف دينار، فرحل عنها، ونزل على صيدا، فكشف (فكشفه) عنها عسكر دمشق[٢٧] ، وطرد الفرنج عنها، ثم عطف عسكره ونزل على طبرية، وهي في يد الفرنج، فخرج إليهم صاحبها جرفاس[٢٨] لعنه الله، فأسروه وملكوا طبرية وأعمالها، فخرج إليهم ابن أخت بغدوين وهم على طبرية فانكسرت الفرنج، وأسر مقدمهم، فبذل في نفسه إطلاق خمسمائة أسير وثلاثين ألف دينار، فأبى طغتكين وذبحه.

ثم وقعت الهدنة بين المسلمين والفرنج أربع سنين[٢٩] ثم تجمع قفل كبير، وساروا (وسار) من دمشق إلى مصر، فأخذتهم (فأخذه) الفرنج، وانقطعت السبل بالملاعين.

وفي سنة (٧—و) ثلاث وخمسمائة

أخذت الفرنج بانياس وجبيل بالأمان لعدم الأقوات، وشدة الغلاء،

-١٠٩٥٩-

وكـان بجبيل عبـد الله بن عمار، صـاحـب طرابلـس[٣٠] فهرب منهـا إلى دمشق، فأكرمه طغتكين، وأقطعه الزبداني.

ثم إن الفرنج أخذت حصن الأكراد في هذه السنة[٣١].

وفي سنة أربع وخمسمائة

نازل الفرنج بيروت، وحـاصروها برا وبحرا حتى أخذوهـا بالسيف(٣٢) ثم أخـذوا صيدا بالأمان، وأقـام بها أكثر عوام المسلمين، فقررت الفـرنج عليهم في كل سنة عشرين ألف دينار.

وفي هـذه السنة أخـذت الفرنـج حصن الأثـارب، وحصن رودبـا[٣٣] (زردنـا) بـالسيـف، وهما مـن أعمال حلـب، وأخلى أهـل منبـج وأهـل بالس[٣٤] بلديهما، وأيقنت المسلمين (وأيقـن المسلمون) باستيلاء الفـرنج على كـل إقليم الشـام، وطلبـوا الهدنـة من الفـرنـج، وصـالحهم رضـوان صـاحـب حلـب على قطيعـة ثـلاثين ألـف دينـار[٣٥]، وثيـاب وخيـل، وصالحهـم صاحب حماة على ألفي دينـار(٣٦)، وصالحهم صاحـب شيزر (٧—ظ) على قطيعة عشرة آلاف دينـار(٣٧)، وصالحهم صـاحـب حمص على أربعة آلاف دينار[٣٨].

ثـم سارت (سـار) أهل الشـام إلى بغـداد، واستغاثـوا وسبوا الخليفـة، وكسروا منبر جـامـع السلطـان، وكثـر الضجيـج والبكـاء والعـويـل، واستنجـدوا بـالخليفـة والسلطـان، وبطلت الجمعـة ببغـداد وسـائر بـلاد الشـام، فأخـذ الخليفـة في الأهبة، وتهيـأ السلطان للغـزاة فلـم يتم ذلـك لضعف عساكر العراق،ولله الأمر.

وآيسـوا (وآيـس) أهل الشـام مـن أنفسهـم وأموالهم وحـريمهـم، ولم

تنجدهم عساكر مصر ولاعساكر العراق، وشرعوا في مصالحة الفرنج، وأحمى (وحمى) رضوان مدينة حلب، وكان فارسا شجاعا.

ثم إن الفرنج تجمعوا ونزلوا على صور، فسار عسكر دمشق، وحاربوهم (وحاربهم) وطال الحصار على صور، وعملت الفرنج برجا من خشب علوه سبعون ذراعا وشحنوه بالمقاتلة، وجروه على العجل فألصقوه بالصور (بالسور) فأحرقوه المسلمين (فأحرقه المسلمون) بالنفط، وقاتل المسلمين (المسلمون) على صور قتال(٨—و) الموت، وخافت الفرنج من طغتكين أن يحرق الغلات، ثم أخذوا من أهل صور مالا ورحلوا عنهم(٣٩).

وفي سنة سبع وخمسمائة

التقى المسلمون والفرنج بالأردن واشتد الحرب، وثبت الفريقان، ثم ذلت الفرنج، ووضعت المسلمين (ووضع المسلمون) فيهم السيف قتلا وأسرا، وأسر المسلمين (المسلمون) بغدوين لعنة الله، ولم يعرف، فأخذ الذي أسره سلبه، وكان يساوي جملة مال، فأطلقه، فنجا جريحا، ومات(٤٠) بعد أيام لعنه الله.

ثم جاء في النجدة أفرنج أنطاكية، وأفرنج طرابلس فقويت نفوس الفرنج، وكروا فنشبت نار الحرب، فاستظهر عليهم المسلمين (المسلمون) فدام الحرب بينهم ستة وعشرين يوما، وعدمت الأقوات، فسار المسلمون إلى بيسان، ونهبوا ضياع الفرنج من القدس إلى عكا، ثم نزل جيش المسلمين على مرج الصفر، ودخلوا دمشق ومعهم (ودخل دمشق ومعه) مودود صاحب الموصل، وأقام عند صديقه طغتكين بدمشق، وصرف عساكره وأمرهم (٨—ظ) بالقدوم في زمن الربيع ثم دخل هو وطغتكين يوم الجمعة إلى الجامع، ويده في يده في الجامع، فوثب على مودود(٤١)

رجل مـن الاسماعيلية، جرحه وقتلـه، ثم أخذ الاسماعيلي فأحـرق، فكتب ملك الفرنج إلى دمشق:

وإن أمة قتلت عميـدها يوم عيدها، في بيت معبـودها، لحقيق على الله أن يبيدها.

ودفن مودود بخانقاه الطواويس عند دقاق.

وفي هذه السنة مات رضـوان بن تتش(٤٢) السلجوقي،صاحب حلب، وملك بعـده أرسلان(٤٣) وكان رضـوان ظالما غـاشما، إلا أنه كـان فارسـا شجاعا، تهابه الفرنج.

وفي سنة ثمان وخمسمائة

قدم آق سنقر البرسقي(٤٤) وهو نائبا (نـائب) على الموصل ومعه خمسة عشر ألف فارس لغزو الفرنج، وأخذ مرعش بالأمان.

وفي هذه السنـة مات بغدويـن الفرنجـي، الذي ملك القـدس، وكان (وكانت) وفاته بصبخة بردويل،(٤٥) فشقوه وصبروه، ورموا حشوته هناك، فهي ترجم(٩ـــو) إلى اليـوم ودفنت جثته بالقمامة، وكان خبيثـا شجاعا، وتملك القدس بعده القمص الفرنجي.

وفي سنة ثمان (ثماني) عشرة وخمسمائة

أخذت الفرنـج صور لشدة الغلاء بها وعـدم أقواتها(٤٦)، فدامـت بيد الفرنج إلى سنة تسعين وستمائة، ولم يكن بالشام مدينة أشد حصنا منها.

وفي سنة اثني (اثنتين) وعشرين وخمسمائة

توفي طغتكين صاحب دمشق، وكان بطلا وشجاعا كثير الجهاد(٤٧)، وهو الذي نقل مصحف عثمان بن عفان— رضي او عنه— من طبرية إلى جامع دمشق، وجعله بمقصوره الخطابة، وتملك بعده ولده تاج الملوك بوري.

وفي هذه السنة حاصرت الفرنج دمشق، ثم تناخى عسكر دمشق والتركمان، والفلاحين (والفلاحون) والعربان، على الفرنج فهزموهم، وقتل وأسر من الفرنج خلق عظيم.

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة

غزا عسكر حلب اللاذقية، وأسروا من الفرنج سبعة آلاف وأخربوا (وخربوا) اللاذقية(٤٨).

وفي سنة(٩—ظ) ثلاث وأربعين وخمسمائة

جاءت الفرنج مع ملوكهم إلى القدس، ورجعوا إلى عكا فأنفقوا في العساكر سبعمائة ألف دينار، ثم نزلوا على دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فبرز عسكر دمشق في نحو المائة ألف راجل، فالتقوهم فقتل من المسلمين مائتي (مئتا) رجل، منهم الشيخ الزاهد يوسف القندلاوي، والشيخ عبد الرحمن الجلجولي(٤٩)ثم برزوا من الغد وعملوا المصاف، فقتل من المسلمين والفرنج خلائق كثيرة، فلما كان في خامس يوم وصل في نجدة دمشق غازي صاحب الموصل في عشرين ألف، ووصل أخوه نور الدين محمود من حلب في جيش عظيم، وكان أهل دمشق قد فرشوا الرماد، وحطوا المصحف العثماني في وسط الجامع،

وضجوا (وضج) الخلق وبكوا واستغاثوا بالله، والبنات والصبيان مكشوفين، (مكشوفوا) الرؤوس يتضرعون إلى الكريم الغفار، فلما وصل عسكر الموصل، وعسكر حلب مع نور الدين محمود (١٠—و) ولت الفرنج منهزمين بعد أن قتل من الفرنج ألوف كثيرة، ونزل النصر من الله، وقتل صاحب أنطاكية في ألف وخمسمائة أفرنجي، وذل دين الصليب.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

أخذت الفرنج عسقلان، وكانت للخلفاء الفاطميين خلفاء مصر، وقد حاصرتها الفرنج قبل ذلك مرات، وعجزوا عنها، ثم أخذوها بعد قتال شديد، وقتل بها خلق كثير من المسلمين، وعظم الخطب، وقضي الأمر، وعسقلان مدينة عظيمة بسواحل الشام، بالقرب من غزة[٥٠].

وفي سنة اثني (اثنتين) وخمسين وخمسمائة

كانت وقعة عظيمة على صفت[٥١] بين نور الدين وبين الفرنج، ونصره الله تعالى على الفرنج وذلهم.

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة

سار نور الدين بجيشه فنزل تحت حصن الأكراد قاصدا حصار طرابلس، فكبسه الفرنج، وانهزم جيشه، ونجا هو، فنزل على بحيرة حمص[٥٢] (١٠—٣) وحلف بالله لايضله (لايظله) سقف حتى يأخذ بالثأر، وشرع يلم شعث العسكر، ثم أخذ نور الدين بثأره وكسر الفرنج كسرة عظيمة، وأسر البرنس والقومص، وذلت له الفرنج.

- ١٠٩٦٤ -

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة

كانت وقعة عظيمة بحارم بين نور الدين والفرنج، فانكسر المسلمين (المسلمون) وأحاط بهم العدو، ثم انتصر المسلمين (المسلمون) بعد ذلك، وكثر القتل في الفرنج، وأسر صاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، ومقدم نصارى الروم، وحصل من الفرنج أكثر من عشرة آلاف أسير، وأخذ نور الدين حارم وبلنياس، وكانت في يد الفرنج من مدة ستة عشر (ست عشرة) سنة[٥٣].

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة

افتتح نور الدين حصن المنيطرة، وهو حصنا قريبا(حصن قريب) من كسروان[٥٤].

وفي هذه السنة[٥٥] حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما، ثم ترحلوا عنها لأن نور الدين أغار على السواحل، وأنفق (١١ـو) العاضد بالله في هذه المحاصرة ألف ألف دينار على يد السلطان صلاح الدين يوسف، وحاصر السلطان نور الدين الكرك[٥٦] ونصب عليها المناجيق، فلم يقدر عليها.

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة

سار صلاح الدين (نور الدين) إلى الموصل، وصلى بالجامع، ثم رجع، وفتح بهسنا[٥٧]، ومرعش[٥٨] وكانا (وكانتا) بيد الفرنج[٥٩]

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر، وكنيته أبو

القاسم الشهيد، وكان معتدل القامة أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصورة، خفيف اللحية، وفتح نيفا وخمسين حصنا، وخطب له في الدنيا، واتسع ملكه، وملك الموصل والجزيرة وديار بكر، ودمشق وحلب، ومصر واليمن والحجاز، وكان عادلا دينا، حريصا على فعل الخير لطيفا، متواضعا يحب الصالحين ويزورهم، ويضيق هذا المختصر عن إيضاح محاسنه ودينه وشجاعته (١١—٣) وغزواته وفتوحاته ومساجده، ومدارسه، وبره وعدله، ومناقبه أكثر من أن تحصى وتحصر، ومات في شوال[٦٠] بعلة الخوانيق بدمشق، ودفن في تربته المنسوبة إليه داخل دمشق، وعمره ثمان وخمسون سنة، ومدة ولايته ثمان وعشرون سنة، وكان ملكا عظيما جليلا عابدا عالما زاهدا ورعا مجاهدا، كثير الصدقات وولي مكانه ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل، فأخذها ونزعها منه صلاح الدين يوسف، وأخذ أكثر بلاده.

ثم تحركت الفرنج لموت[٦١] نور الدين، وتهيأ صلاح الدين لقتالهم، وقدم إلى الشام من مصر، وتملك دمشق، فأعطى عماد الدين اسماعيل حلب وأعمالها.

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

حاصرت الفرنج حماة أربعة أشهر[٦٢]، ثم قدم صلاح الدين إلى دمشق، فلما سمعت الفرنج بقدومه رحلوا عنها.

وفي سنة خمس وسبعين(١٢—و) وخمسمائة

كانت وقعة مرج العيون، ذلك أن السلطان صلاح الدين كان ببانياس، فركب يسير فرأى راعيا، فأخبره بقرب الفرنج، فرد إلى بانياس ولبس وركب الجيش، فكبسوا الفرنج، وهم عشرة آلاف، فكسرهم المسلمين (المسلمون) وقتلوا شطرهم، وأسروا منهم مائتي (مائتين)

وسبعين أسيرا، منهم مقدم الداوية، وأخو صاحب جبيل، وابن صاحب مرقية، وصاحب طبرية، فاستفك (فافتك) بعضهم نفوسهم بالأموال، وهرب مقدمهم جريحا[٦٣] فبعث صلاح الدين إلى خليفة بغداد بجماعة من الأسرى، ونصب المناجنيق (المناجيق) عليها، وحاصرها فتجمعت عليه ملوك الفرنج، فرحل عنها، ولم يقدر عليها، ورجع إلى دمشق[٦٤].

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

طلب السلطان صلاح الدين عساكر النواحي، ونزل بأرض بصرى من حوران (١٢ــظ) ليحمي الحجاج من الفرنج، ثم سار فأحرق أعمال الكرك والشوبك، وتجمعت الجيوش بحوران، وأغاروا على طبرية، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وعرض السلطان صلاح الدين جيوشه، وأنفق الأموال، وسار فنزل على الأردن، ثم فتح طبرية بالسيف، ثم حشدت الفرنج، وأقبلوا كالليل، فرتب السلطان عساكره في مقابلتهم، وكانت المسلمين (وكان المسلمون) اثني عشر ألف فارس غير الرجالة، وكانت الفرنج ثمانين ألف مابين فارس وراجل، فالتجا (فالتجأ) الفرنج إلى جبل حطين، فأحاط المسلمين (المسلمون) بهم، فهرب القومص، ثم وقع الحرب، ونزل النصر، وخذل العدو، وأسر ملكهم كي، وأخوه ملك جبيل، وهنفري وأزباط (وأرناط) صاحب الكرك، وخلق كثير من الفرنج، ثم قتل السلطان أزباط (أرناط) بيده، وكان أزباط (أرناط) فارس دين النصرانية، وأزباط (أرناط) هو الذي جهز الجيوش لأخذ المدينة النبوية(١٣ــو) فأهلكهم الله[٦٥].

فلما فرغ السلطان من هذه الوقعة بادر إلى عكا، فأخذها بالأمان، واستناب على عكا الأمير بهاء الدين قراقوش.

وبلغ الملك العادل هذا النصر العظيم، فأسرع من مصر بجيوشها،

ففتح مدينة يافا وغيرها بالسيف وفتحت: المجدل، والناصرة، وصفورية، وقيسارية، ونابلس، وحصن الفولة، وتبنين، وعسقلان، وصيدا، وبيروت، وجزين.

وذلت الفرنج، وأيقنوا بالهلاك، وسلموا حصون (حصونا) كثيرة منهم: حصن الجيسوع[٦٦] وحصن لبنان، والمنيطرة، وعذبون (بترون) ونازل (ونازلت) كل فرقة من الجيش بلد من هؤلاء، ثم سارت جيوش المسلمين وأخذوا: غزة، والرملة، والدارون، وبيت حبرون، وأخذوا البثرون بالأمان.

ورجع السلطان صلاح الدين إلى دمشق بجيوش المسلمين مؤيدا منصورا، ثم سار السلطان إلى القدس، فنازله يوم الأحد منتصف رجب، وكان قد نزل على غربيه أولا(١٣—ظ) ثم انتقل إلى شماليه من باب العمود إلى برج الزاوية، ومن هذا المكان أخذته الفرنج، وكان القدس مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، مايزيد على ستين ألفا، غير النساء، فنصب عليه المناجنيق (المناجيق) وآلة القتال، وتعلق النقابون بالسور، وقاتلت الفرنج قتالا شديدا، ثم إن الفرنج أيقنوا بالهلاك والخذلان، وطلبوا الأمان، فبطل عنهم القتال، واستقر الأمر على أن يخرجوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم سوى الخيل الحربية، والسلاح، بعد أن يؤدي كل واحد منهم عن الرجل عشرة دنانير، وعن المرأة خمس (خمسة) دنانير، وعن الصبي والبنت أربعة دنانير، وعن الطفل دينار، ومن عجز منهم كان رقيقا يستملك، ومن أراد من النصارى الإقامة فليقم، ويؤخذ (وتؤخذ) منه الجزية، وأقر بأيديهم القمامة، وعينوا أماكن يزوورنها، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة المعراج، فكانت مدة استيلاء الفرنج عليه اثني (اثنتين) وتسعين سنة (١٤—و) لأنهم أخذوه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان بالقدس البطرك الأكبر، فهموا المسلمين (فهم المسلمون) بنهبه، فمنعهم السلطان، وقال: الوفاء خير،

وكان بالقدس ملك الرملة، فأدى عن نفسه ثمانية عشر ألف درهم، وصعد المسلمين (المسلمون) إلى رأس قبة الصخرة، فرموا الصليب الذهب، فضج المسلمون ضجة عظيمة لم يسمع بمثلها، ودخل السلطان الصخرة وغسلها «بالماورد» وبلحيته وهو يبكي(٦٧) ومحا الصور منها، وكسر الصلبان، وأخرب دار الداوية، وعمرها المسجد الأقصى، وفرق الأموال الذي (التي) أخذها من الفرنج على العلماء والفقهاء والصوفية، وكانت سبعمائة ألف دينار، وكان قد حضر معه هذا الفتح زهاء عن عشرة آلاف مقاتل، ومحيت التصاوير من الحرم، وعلقوا القناديل، وطهروه وبسطوه، وتطاول جماعة من الأعيان إلى الخطابة، وصنف كثيرا(كثير)من العلماء خطبا بليغة، فذكر السلطان قول ابن الزكي قاضي (١٤-ظ) القضاة بدمشق.

وفتحه حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فأعطاه الخطابة ، فخطب يوم الجمعة بحضرة السلطان والأمراء، وتلا قوله تعالى: «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين(٦٨)»، ولبعضهم يقول(٦٩):

أترى مناما ما بعيني أنظر
القدس تفتح والنصارى تكسر(٧٠)
«قد جاء نصر الله والفتح» الذي
وعد الرسول، فسبحوا واستغفروا

ثم بادر السلطان بعد فتح القدس، فنازل صور، ونصب عليها المناجنيق (المناجيق) وحاصرها أربعة أشهر، فلم يقدر عليها(٧١)، ثم رحل عنها لما جاء فصل الشتاء، وأقام بعكا شهرين إلى أن انفصل الشتاء، ثم سار إلى جبلة، فتسلمها في الحال، ثم تسلم الشعر (الشغر) وبكاس، ففتح في ست جمع ست قلاع، وهم (وهي) : جبلة، واللاذقية، وصهيون، والشغر، وبكاس، وسرماني(١٥-و) ثم أخذ حصن برزية بالأمان، ثم

دخـل إلى دربساك، وإلى بغـراس، فتسلمها، وعـزم على قصـد أنطاكيـة، فطلب صاحبهـا الهدنة، فهادنه، ثم دخل إلى حلـب، ورد إلى دمشق، ثم سـار إلى الكرك. وتسلمهـا بالأمـان لشـدة الغلاء، والقحـط، ثم سـار إلى الشوبك وتسلمهـا بالأمان، ثم سـار وحاصر صفد، ثم وصـل إليه أخوه العـادل من مصر، وأخـذ صفد، بـالأمان لشـدة الغلاء، ثـم أخذ حصـن كوكب بالأمـان، ثم رجع إلى القدس، وعمل عيد الأضحـى بها، ثم سار إلى عسقلان ورتـب مصالحهـا واستناب بها، ثـم جهز أخـوه العادل إلى مصر خوفـا عليها مـن الفرنـج(٧٢)، ثم جـدد الحصار على عكـا في آخر السنة.

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة

حشدت الفـرنج مـن جزائر البحر، وهـم أهل القسطنطينيـة، وروميـة، وجنـوه، وبيرة (بيزا) ومـوريقا، وردوس (ورودس) والبنـدقيـة، وأقريطـش وقبرص (١٥ —ظ) واللبـزدية (واللنبرديـة) وصقليـة وغيرهـم، وقـامـت قيامتهم على ذهاب القدس منهم، وتجمعـوا بعددهم وعديديهم وجيشهم وجيـوشهم، على حـرب صـلاح الـدين، فـالتقـاهـم فكسروه، وقتل مـن المسلمين خلائق كثيرة، وأقـامت الفرنج بعكـا، وكان قد أخذهـا صلاح الديـن، ورتب عليهـا نائبا وعسكـرا، فقتلوا كـل من فيهـا من المسلمين، وأحـاطـت بها الفـرنـج بـرا وبحـرا، فنـزل السلطـان صـلاح الـديـن في مقابلتهـم، وجاءت الفرنج النجـدات من البحر حتى ملـؤوا البر والبحر، وطال الأمـر، وعظم الخطـب، وجرى بين المسلمين والفـرنج مـن الحروب مـالا يـوصف، ودام الحصـار على عكـا عشريـن شهـرا، والفرنـج بعكـا والمسلمين (والمسلمـون) محيطـون بهم، والحرب بينهـم سجـالا (سجـال) وعساكر الاسلام تقـوى، وعساكر الفرنج تقوى، ويأتي الفـرنج من البحر مـراكـب في عـدد أمـواجـه، فـإذا قتـل (١٦ —و) المسلمين (المسلمـون) أفرنجـي (افرنجيا) أخلـف البحر مكانه ألـف أفرنجي، وأرسـل السلطان

صلاح الدين إلى الخليفة يستمده ويستنصر به، هذا والقتال مستمر، والنفوس قد استحكمت، وجرى من الحروب على عكا مايضيق هذا المختصر عن ذكره، ولايسعه، واستمرت النصارى مالكين عكا، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفعهم، وقتل كثير من المسلمين(٧٣)، ثم ترحلت الفرنج لقصد عسقلان، فالتقاهم السلطان صلاح الدين بنهر القصب، فانكسرت الفرنج، ورجعت إلى عكا، ووصل السلطان إلى عسقلان فدخلها وهدمها، وهدم حصن الرملة، ولد خوفا من استيلاء الفرنج عليهم.

وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة

توفي السلطان الكبير الأعظم المجاهد في سبيل الله، الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، ومولده بتكريت سنة اثني (اثنتين) وثلاثين وخمسمائة، فملك البلاد (١٦—ظ) ودانت له العباد، وقهر الفرنج، وافتتح عدة مدائن، وجاهد في سبيل الله، وأنفق الأموال في الغزاة، ولم يخلف سوى دراهم يسيرة، وكانت دولته أربعا وعشرين سنة، وعمره ست وخمسين سنة، وكان ملكا حسن العقيدة، شديد التمسك بالشريعة، يحب العلم والعلماء، كريما كثير العطايا، والشاهد على ذلك أنه ملك الحجاز واليمن ومصر وأعمالها والشام وبلادها، وديار بكر وديار ربيعة ومضر، ومات ومافي خزائنه غير دراهم يسيرة، قيل إنها أربعين (أربعون) دينارا، وقيل أربعة عشرة دينارا، والله أعلم.

وخرج الملك صلاح الدين المذكور إلى الشام بعد وفاة نور الدين، ففتح البلاد وملك دمشق، وحمص، وحماة، وحلب وآمد، وكسر الفرنج على باب حطين، وفتح طبرية والقدس والكرك، والشوبك، وجبلة، واللاذقية، وصهيون، وجبيل، وبيروت، وصيدا وصور، وعكا، وقيسارية

(١٧—و) وعسقلان، ويافا، وأرسوف، وبيت حبرون، وفتح الحصون الاسماعيلية، وأخذ صفورية والناصرة، والمجدل، وجزين، وحصن الجيتوع(٧٤)وحصن المنيطرة، وحصن لبنان، والفولة، وتبنين، وغيرها من البلاد، يضيق هذا المختصر عن ذكرها وافتتح بسيفه وإخوته، وآله من اليمن إلى الموصل إلى طرابلس الغرب إلى أسوان، ودفن بتربته بالكلاسة(٧٥) جوار جامع بني أمية بدمشق، ومات بقلعة دمشق في شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فلقد غشي أهل دمشق يوم موته من البكاء والعويل والضجيج، مالا يعبر عنه، حتى كأن الدنيا كلها تضج صوتا واحدا، وعظم الأسف، واشتد القلق، وخلف سبعة عشر ولدا، منهم العزيز صاحب مصر، والأفضل صاحب دمشق، والظاهر (١٧—ظ) صاحب حلب، وله بنت واحدة، واقتسمت (واقتسم) أولاده بعده البلاد(٧٦).

ثم سار العزيز عثمان بن صلاح الدين، ومعه عمه العادل من مصر، فنازل دمشق، وحاصر أخوه (أخاه) الملك الأفضل علي (عليا) وكان قد ولاه أبوه قبل موته دمشق، فخامر عسكر دمشق، وفتحوها، ودخل العزيز إلى دمشق، واستناب على دمشق عمه العادل، وتوجه العزيز عثمان إلى مصر، وأعطى أخوه (أخاه) الأفضل عوضا عن دمشق صرخد(٧٧).

ثم توجه الملك العادل إلى يافا، وحاصر الفرنج بها، وملكها وهدمها، فنزلت الفرنج على بيروت، وحاصرتها وكان نائبها عز الدين أسامة بن محمد بن أسامة إلى (٧٨) منقذ، فهرب من الفرنج إلى صيدا، وترك بيروت، فملكوها (فملكها) من الفرنج بغير قتال، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة(٧٩).

-١٠٩٧٢-

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ثـارت الفـرنـج وهـاجـت (١٨ـو) وحـاصروا تبنين وانتشروا في السواحل، وطمعوا في البلاد بعد موت صلاح الدين، ثم وقعت الهدنة بين المسلمين والفرنج مدة خمس سنين ونصف[٨٠]، ثم وقعت العداوة بين أولاد صلاح الدين، وبين عمهم الملك العادل، واشتغلوا بحرب بعضهم بعضا(واشتغل بعضهم بحرب بعض) عن الجهاد في الفرنج، ووقعت المسلمين (ووقع المسلمون) في مصائب عدة، منها حروب الفرنج، ومنها حروب الملوك، ملوك المسلمين، والعداوة التي تجددت بينهم، ومنها البلاء الشديد، والقحط المؤلم التي (الذي) لم يسمع بمثله، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وسوف نذكر الغلاء في أيام العادل، إن شاء الله تعالى[٨١].

وفي سنة ستمائة

أقبلت جيوش الفرنج في البحر إلى عكا وأتته العساكر، وغارت (وأغارت) الفرنج على النواحي، وأغاروا على حماة وحمص، وأسروا وسبوا فيها ،وطمعت الفرنج(١٨ـظ) في البلاد، ثم غزاهم الملك العادل، وصالحهم فيها بعد.

ثم سار الملك العادل بعد مدة، فنازل عكا وحاصرها فصالحه صاحبها، وبذل له مالا وأسرى أطلقهم، ثم غار (أغار) العادل على أعمال طرابلس، ثم سار العادل بجيوشه فنازل سنجار وضربها بالمناجنيق (بالمناجيق) وألح عليها، فعد ذلك من ذنوبه، لأنه ترك غزو الفرنج بالشام، ويقاتل المسلمين على الدنيا.

ثم رجع العادل من سنجار بعد أخذها، وأرسل الملك المعظم عيسى

ومعه عسكر دمشق إلى قتال الفرنج، ونزل على الطور[٨٢]وبنى هناك قلعة منيعة غرم عليها أموالا لاتحصى وكملت في سنة ونصف، وذلك في سنة سبع وستمائة[٨٣].

وفي سنة تسع وستمائة

تملك الباب صاحب عكا أنطاكية، وشن الغارات على التركمان، وعمق حارم فتجمعوا ووقفوا له في واد هناك، فقتلوه وقتلوا غالب جنده ولله الحمد(١٩—و) والباب هو خليفة النصارى، الذي يولي ملوكهم.

وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة

أقبلت (أقبل) الفرنج بفارسهم وراجلهم من البحار، وخرجوا إلى عين جالوت ليأخذوا القدس، فخاف الملك العادل، وعجز وتأخر، وتهيأ أهل دمشق للحصار، وتحصنوا وغرقوا أرض داريا، واختبط الناس، وبعث العادل يستحث عساكر البلاد، واجتمع الأكراد والتركمان والعربان والفلاحين(والفلاحون) وتأخر الملك العادل إلى مرج الصفر، وضج الخلق إلى الله تعالى، ثم تأخرت (تأخر) الملاعين إلى ناحية عكا.

وسارت (سار) خمسمائة من الفرنج ليأخذوا جزين، ونزلوا على واد تحت جزين، فأخلاها أهلها، ثم تجمعت المسلمين (تجمع المسلمون) من تلك البلاد فكبسوا الفرنج، وقتلوا أكثرهم وأسروا مقدمهم وفرقوهم وأبادوهم عن آخرهم.

فلما بلغ صاحب عكا ذلك غضب، وشن الغارات على جزين وماحولها من(١٩—ظ) القرى، فنهض إليهم الملك المعظم عيسى بعساكر دمشق، فتأخرت (فتأخر) الفرنج إلى عكا، ثم سارت (سار) الملاعين إلى مصر في البحر لخلوها من العساكر، ونزلت (ونزل) الملاعين

على دمياط، فجهز الملك العادل العساكر إلى ابنه الكامل ليكشف عنها، فأقبل ونزل تجاه دمياط، ودام الحصار والقتال أربعة أشهر، وأخذت (أخذ) الفرنج دمياط، وأول ما أخذوا برج السلسلة وهو برج شاهق في وصط (وسط) النيل، ودمياط من شرقيه، والجيزة بحذائه من غربيه، وعلى جنبي البرج سلسلتان عظيمتان، تمتد هذه إلى سور دمياط والأخرى إلى سور الجيزة، فتمنع المراكب من العبور إلى ديار مصر في النيل.

وأما الملك المعظم صاحب دمشق فخرب قلعة الطور، وقلعة تبنين وبانياس، خوفا من استيلاء الفرنج عليهم، وأدار الخمر والمكوس بدمشق واعتذر بقلة المال.

وفي سنة خمس عشرة(٢٠—و) وستمائة

توفي السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي بن مروان، ومولده ببعلبك،وكانت وفاته بقرية عالقين من أعمال دمشق بالقرب من صيدا، وحمل في محفة إلى دمشق ودفن بتربته المنسوبة إليه، وكان ملكا مدبرا حليما صفوحا، مدبر الممالك على الوجه المرضي عادلا مجاهدا دينا عفوفا متصدقا، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، أبطل المظالم والقمار، والمكوس، والخمور بدمشق، وجميع البلاد، وكان متحصل ذلك من دمشق ، خاصة، مائة ألف دينار، فأبطل الجميع، ولقد فعل العادل في غلاء مصر مالم يفعله غيره، وكفن من ماله للأموات بثلاثمائة ألف دينار للغرباء.

وكان له أولاد كثيرة(كثر) منهم: شمس الدين مودود، والكامل محمد، والأشرف موسى، والمعظم عيسى، والأوحد أيوب، والفائز إبراهيم، وشهاب الدين غازي، والعزيز عثمان، والأمجد حسن، والحافظ أرسلان ، والصالح اسماعيل، والمغيث محمود، وفخر الدين يعقوب، وتقي الدين

عباس، وقطب الدين أحمد، والقاهر اسحق، وخليل الأصغر، وكان له عدة بنات(٢٠—ظ) أفضلهن خاتون.

واقتسمت (واقتسم) أولاده بعده البلاد[٨٤]، فملك مصر الكامل محمد، وملك دمشق المعظم عيسى، وملك الأشرف علي خلاط، وحران، والرها، والجزيرة، وملك غازي ميافارقين وجامي (حاني) وجبل جوري (جور) وما والاها، وملك الحافظ أرسلان قلعة جعبر، وملك الفائز ابراهيم قوص وأعمالها ، وملك الأفضل علي الفيوم وأعمالها، وملك الأمجد حسن بعلبك وأعمالها، وملك المغيث محمود الكرك والشوبك، وملك فخر الدين يعقوب حلب وأعمالها.

وابنته الست خاتون هي واقفة المدرستين المنسوبتين إليها بدمشق، وكانت عاقلة فاضلة كثيرة الصدقات.

وفي هذه السنة أخذت (أخذ) الفرنج دمياط[٨٥] لأن أهلها هلكوا من الجوع والوباء أيام الحصار، وفتكوا (وفتك) الفرنج بهم وقتلوا وأسروا، وعملوا جامعها كنيسة، وبعثوا بالمصاحف ورؤوس القتلى إلى بلاد الفرنج، فبنى الملك الكامل صاحب مصر حينئذ مدينة وسماها المنصورة عند مفرق النيل، وسكنها بجيشه وحصنها.

وأما الغلاء[٨٦] الذي كان في أيام العادل فإنه اشتد بمصر والشام، ونقص النيل، وأقبل القحط والوباء(٢١—و) المؤلم،وخربت ديار مصر، وخلا منها أهلها، واشتد البلاء، وأكلوا لحوم الآدميين، وهلك خلق كثير من الأغنياء والفقراء، ووقع بعد ذلك فناء عظيم، ووباء كبير، حتى أن السلطان الملك العادل كفن من ماله في مدة يسيرة في هذه السنة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت[٨٧]، وأكلت الكلاب الأموات لعدم من يدفنها، وأكل من الأطفال والصغار، وخلق كثير، يشوي الصغير والداه

ويأكلانه، وكثر هذا في الناس حتى لاينكر بينهم، ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضا فيأكلون من يقدرون عليه، وإذا غلب القوي على الضعيف، ذبحه وأكله، وفقد خلق كثير من الأطباء في هذه السنة، يستدعون إلى المريض فيذبحونهم ويأكلونهم، وعظم الغلاء بدمشق، ونفذت (ونفدت) خزائن الملك العادل، وأكثر قرى مصر لم يبق بها آدمي من الموت، وكان يخرج من القاهرة في اليوم نحو ألف وخمسمائة جنازة، وأما بظاهرها فلا عدد لهم، ودخل تحت قلم الحشرية في هذا الفناء بالقاهرة مائة ألف وأحد عشر ألف ميت، إلا شيئا يسيراً(٨٨)، وهذا شيء قليل بالنسبة إلى من مات في إقليم مصر، فلقد كان في بلد من بلدان مصر أربعمائة نول للحياكة فلم يبق بها أحد وأشياء كثيرة(٢١—ظ) أعرضنا عن ذكرها، وتوفي الملك العادل المذكور في وصط (وسط) هذه الشدة، وهي حصار الفرنج والغلاء والوباء، فاستراح رحمه الله تعالى.

وفي المحرم سنة ست عشرة وستمائة

أخرب المعظم القدس، وذلك أن (أنه) بلغه أن الفرنج قد عزموا على التوجه إلى القدس، فاتفقوا (فاتفق) الأمراء على هدمه، وقالوا: قد خلت الشام من العساكر، فلو أخذوه (أخذه) الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس العزيز عثمان، وعز الدين أيبك الاستدار (الاستاذ دار) فكتب إليهما المعظم بهدمه، فتوقفا وقالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم، لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق، وبلاد الاسلام، فشرعوا في خراب السور أول يوم من المحرم، ووقع في القدس صيحة عظيمة، وخرج (وخرجت) النساء المخدرات، والبنات والشيوخ، والعجائز، والشباب، والصبيان إلى الأقصى، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، وخرجوا هاربين، وتركوا أموالهم وأهلهم، ولم يشكوا أن الفرنج تصبحهم، وجعل (وجعلت) النساء المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن

من الحفاء، ومات خلقا كثيرا (خلق كثير) من (٢٢—و) الجوع والعطش، ونهبت الأموال التـي كانت لهم في القدس، وابيع القنطـار (وبيع القنطار) الزيت بعشرة دراهم والرطل (ورطـل) النحاس بنصف درهم، وذم الناس المعظم على ذلك، فقال بعضهم:

في رجـــــب حلـــــل الحميـــــا
وأخـــــرب القـــــدس في المحـــــرم

وكانت القدس حصينة جدا عظيمة البناء.

وفي سنة ثمان(ثماني) عشرة وستمائة

أخذ المسلمين (المسلمون) دمياط مـن الفرنـج لأنهم خرجـوا في أهبة كاملـة ليغيروا على الغربيـة في زيادة النيـل، ففتح الملـك الكامـل عليهم سدا، فـأحاط بهم الماء بحيـث أنهم لايقدرون على الـوصول إلى دميـاط، فأحـدق بهم جيش المسلمين، وكان مـع الفرنـج صاحب عكـا وعسكره، فلما عاينوا الهلاك بذلوا دمياط، فلو صبر الكامل يومين لأسرهم.

وبعـث إليهم ولـده الملـك الصالـح نجـم الديـن أيـوب وصالحهـم، وجاءت (جاء) ملـوك الفرنج إلى خدمـة السلطان الملك الكامـل، وأنعم عليهـم، وكان قـد وصـل إليه أخـواه (٢٢—ظ) الملـك المعظم عيسـى، والملـك الأشرف موسـى بجيـوشهما، فمد الملـك الكـامل سماطـا عظيما، وحضره ملـوك الفرنـج، فوقـف المعظم والأشرف في خـدمة أخيهما الملـك الكامل، وكان يوما مشهودا، واتفق أن الملك الكامل اسمه محمد، وأخواه اسمهما: موسى وعيسى، فقام راجح[٩٠] الشاعر وعمل قصيدة، وأنشدها في الحضرة، ومنها:

ونـــادى لســـان الحال في الأرض رافعـــا
عقيرتـــــه في الخافقين ومنشـــــدا

أعبــــادعيســـى إن عيســـى وحـــزبـــه
ومـــوســـى جميعـــا ينصران محمــــدا

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة

أقبلت (أقبل) الفـرنج في البحر، وخرجوا إلى الساحـل، وملكوا صيدا، وكانت مناصفة بيننا وبينهم[٩١].

وفي سنة خمس وأربعين وستمائة

حاصر الملك الصالح نجم الدين أيوب عسقلان وطبرية على يد فخر الديـن بن الشيخ وأخـذهما من الفـرنج، وأخذ بصرى وصرخـد والصبيبة والصلت[٩٢]وعمر سور القدس ورجع إلى مصر.

وفي هذه (١٣ـــو) السنة[٩٣] هجمـت (هجم) الفـرنج على دميـاط وأخذوها بلا طعنة ولاضربة، وكان السلطـان نجم الدين نازلا بالمنصورة، وهي على بريد من دمياط، فغضب وشنق من أعيانها ستين نفسا، فقالوا: ايش ذنبنا إذا كان عسكـرنا هربوا (هرب) فما نصنع نحـن، ففزع العسكر من السلطان وصطوتـه (وسطوته) وكان السلطان مريضـا، فأرادوا (فأراد) ممـاليكه قتلـه لأنـه شنق هـؤلاء بغير ذنـب، فقال لهم فخـر الـدين بـن الشيخ:اصبروا عليـه فهو على شفـا جرف، فإن مـات فقد استرحتـم منه، وإلا فهو بين أيـديكم، ثم إنـه قتل فخر الديـن بن الشيخ، ثـم لم يعيش (يعـش) السلطان نجـم الديـن بعد ذلـك إلا أيـام (أيامـا) قليلة، وهـو الملك الصـالـح نجم الـدين أيـوب بن الملـك الكامـل محمـد بن الملك العـادل أبو بكر بن أيـوب، وكان ملكـا مهيبا هيبة عظيمـة،جبارا سفـاكا للـدماء، ولم يكـن إلا قتـل أخيه العـادل، فلما قتله رأى في نفسـه العبر، ولم ينفعه الحذر، ومات بالمنصورة، فكتمت شجر[٩٤] الدر أم خليل زوجتـه موتـه، وبقيـت(٢٣ـــ ظ)نعلم على التـواقيـع والمناشير ولاينكـر

ذلك، وأقام عشرة أيام ميتا لايدري به أحد، ودفن بتربته بالقاهرة، وهو الذي عمر المدارس بين القصرين المنسوبين إليه، وكانت مملكته على مصر عشرة (عشر) سنين، وهو الثامن من ملوك بني أيوب، وكانت العساكر قد حلفت قبل موته لولده المعظم توران شاه، وكان بحصن كيفا، فساق إليه أقطاي الأكبر، وسلك البرية، وأسرع به إلى دمشق، فدخلها في أواخر رمضان في دست السلطنة، وأخذ أموال السلطنة وأنفقها على الأمراء، ثم توجه من دمشق ووصل إلى المنصورة، وجلس على التخت، وأقام عزاء والده، والدنيا يومئذ بلا خليفة، لأن التتار قتلت الخليفة المستعصم ببغداد، واستولت على بغداد، والمستعصم هذا آخر الخلفاء ببغداد.

وجرى في هذه الأيام من الحروب بين المسلمين والفرنج على بر المنصورة مايطول شرحها، ولايسع هذا المختصر ذكرها، وظهر النصر(٢٤ــو) للمسلمين وقتلوا من الفرنج ثلاثين ألفا، وأسروا الفرنسيس، الملك الأعظم للفرنج، وكان يوم سرور لايعهد مثله، وكان هذا النصر العظيم في أول يوم من سنة ثمان وأربعين وستمائة، هذا وسواحل الشام كلها في يد الفرنج وهو الطراز الأخضر، وهو مابين جبل لبنان وبحر الروم وهم هيفا (حيفا) وأرسوف وقيسارية، وعسقلان، وعكا، وصور، وعذبون (وتيرون) وتبنين والشقيف، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وأنفه، والبترون، وطرابلس، وأنطرطوس، وجزيرة أرواد، والمرقب، وجبلة، واللاذقية، والدنيا يومئذ بلا خليفة، وكان قد وقعت العداوة بين الملك عماد الدين اسماعيل وبين أخوته قبل هذه المدة، وهو يومئذ صاحب دمشق، فوهب قلعة الشقيف للفرنج ليؤازروه ويعينوه، فأنكر عليه العلماء والأمراء والعوام ذلك، وكان رئيسهم ابن عبد السلام(٩٥) خطيب دمشق، وأبو عمرو بن الحاجب(٩٦) المالكي، وزادوا (زاذا) في الإنكار عليه فعزلهما وحبسهما بقلعة دمشق (٢٤ــ ظ).

وأما الفرنسيس ملك الفرنـج فقبضوا عليه، وأسروه وحبسوه في دار ابن لقمان بالقاهرة[٩٧] ورسم عليه صبيح الطواشي.

ثم بعد هـذه الوقعة بثمان وعشرون (وعشرين) يوما قتـل الملك المعظم تـورانشاه بـن الملك الصـالح نجـم الـدين أيـوب، وكان فيـه نوع خفـة وناقص السيـاسة، قتلوه (قتله) ممـاليك والده، وكان ملكـه أحد (واحدا) وسبعين يوما[٩٨].

ثم تسلطن (تسلطنت) بعده أم خليل شجر الدر[٩٩]، وخطب لها على المنابـر بالقاهـرة ومصر، وحلفوا (وحلف) لها العسـاكر، وهي شجـر الدر بنت عبد الله جـارية الملك الصالـح نجم الدين أيـوب، وأم ولده خليل، وخطـب لها على المنابر بـالديـار المصريـة، وكانـت تعلـم على التواقيـع والمنـاشير«والـدة خليـل» واستقـرت بـالسلطنـة، وخلعـت على الأمـراء، وأنفقت الأموال، وزادت في العطاء، وكثر الدعاء إليها، وأظهرت العدل.

ثم دخـل الأمير حسام الـدين بن أبي علي في قضيـة الفرنسيـس ملك الفـرنـج المأسـور على أن يسلم دميـاط(٢٥ــو) ويحمـل خمسمائة ألـف دينار، فأجابـت شجر الدر والأمراء إلى ذلك، فأركبوه بغلـة، وساق حوله الجيش إلى باب دمياط، فما وصلـوا إلا والمسلمين (المسلمون) على أعلاها بالتكبير والتهليـل، والفرنج قد فـروا منها إلى المراكب، وأخلـوها فلما رأى الفرنسيس ذلك خاف خوفا شديدا.

ثم قال حسام الدين: هذه دمياط قد حصلت لنا، وهذا الفرنسيس في أسرنا، وهـو عظيم ملـوك الفرنـج، وقد أطلـع على عوراتنـا، وعلم بقتـل سلطاننـا، وأن ملكنا امرأة، فالمصلحـة تركه في أسرنا، فقـال الأمير أيبك: ماأرى الغدر.

فقال حسام الدين للفرنسيسن: كم عدة الجيش الذي جئت به لما أخذتم دمياط، فقال: كان الجيش تسعة آلاف فارس، ومائة ألف وثلاثين ألف جرجري غير التجار والغلمان، وكان إطلاقه بعد أربعة أيام من قتلة الملك المعظم، فدفع إليهم المال، فباعوه والله بأهون ثمن، فلما صار هو وأمراؤه(٢٥—ظ) في البحر، بعث يقول: مارأيت أقل عقلا منكم ولاأضعف دين (دينا) ولاأوهن رأي (رأيا) ، قتلتم سلطانكم، وملكتم عليكم امرأة، وبعتموني— وأنا ملك البحر— بهذا الثمن اليسير، وحق ديني لو طلبتم مني مملكتي دفعتها إليكم، حتى أخلص.

وكان الفرنسيس مقيدا محبوسا بدار ابن لقمان، وصبيح الطواشي سجان عليه، فلما صار الفرنسيس في بلاده تعظم وتكبر، وهم بغزو المسلمين، فأرسل إلى السلطان الملك المعز أيبك يتوعده بكتاب ورد من عنده، فأجابه السلطان بكتاب وفيه هذه الأبيات:

قل للفرنسيس إذا جئته
كلام صدق بلسان فصيح
أجارك الله على مافعلت من
(قتل) عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها
حسبت أن الزمر بالجهل ريح
فساقك الآن إلى أدهم
ضاق به في ناظريك الفسيح
وجمع أصحابك خلفتهم
من سوء تدبيرك وصط (وسط) الضريح
مائة ألف في مائة ألف ما
منهم إلا قتيل أو أسير جريح (٢٦—و)
وفقك الله لأمثالها
لعل عيسى منكم يستريح

وقـــــل لهم إن أرغمـــــواعـــــودة
لأخـــذة ثــــار أو لفعـــل قبيـــح

دار ابـــــن لقمان على حـــــالها
والقيـــد بـــاق والطـــواشي صبيـــح[١٠٠]

ثم إن المسلمين هدموا سور دمياط، وتركوها خاوية على عروشها، وكان سورها من بناء المتوكل على الله[١٠١].

وفي سنة اثني (اثنتين) وستين وستمائة

نازل السلطان الملك الظاهر بيبرس مدينة قيسارية الشام وأخذها من الفرنج، ثم سار إلى أرسوف، وفتحها بالسيف وطرد الفرنج منها[١٠٢].

وفي سنة أربع وستين وستمائة

أغارت عساكر الاسلام على أعمال مدينة صور وطرابلس، ثم نزلوا على صفد، وحاصروا الفرنج بها أربعين يوما، وأخذت بالخديعة وضربت رقاب مائتين من فرسانها، وقد قتل عليها من المسلمين خلق كثير، منهم الأمير الكبير جمال الدين ايدغري العزيزي[١٠٣].

وفي سنة خمس وستين وستمائة

فتح السلطان الملك الظاهر يافا وهدمها، وهدم قلعتها، ثم سار منها قاصدا قلعة الشقيف، ونزل تحتها بوادي العواميد، وحاصرها فوجدها مانعة حصينة جدا(٢٦—ظ) ثم رحل إلى أعلاها فلم يقدر عليها ثم كشف عن مائها فلما كان الليل وأهل القلعة نيام إذ ذبح في الماء عدة من البقر والغنم ورمى بدمائها وكروشها في الماء وقطعه.

فلما أصبح وجدوا ماءهم دما غبيطا (عبيطا) منتنا، فسلموا بعد حصار عشرة أيام، وبنى برجا على باب القلعة، وتسمى شقيف تيرون وهو اسم رجل، وهذه القلعة حصينة جدا لايقدر عليها، وبعضها نحت في الشقيف، وبعضها عمارة، وهي شرقي صيدا بينها وبين دمشق، وقلعة أرنون أيضا حصينة جدا، وهي بالقرب منها على خمس (خمسة) فراسخ.

ثم أغار السلطان الملك الظاهر على بلاد طرابلس، وقطع أشجارها، ثم نازل أنطاكية بغتة وافتتحها في أربعة أيام، وقتل بها أكثر من أربعين ألفا من الفرنج، ثم أخذ بغراس بالأمان(١٠٤).

وفي سنة ثمان وستين وستمائة

فتح الملك الظاهر الحصون الاسماعيلية، وأمر على الحصون الاسماعيلية نجم الدين حسن بن المشغراني، وقرر عليه(٢٧—و) أن يحمل في كل عام مائة ألف درهم، والمشغراني نسبة إلى مشغرا، وهي قرية كبيرة نزهة كثيرة المياه، وهي بسفح لبنان الشرقي بين صيدا ودمشق(١٠٥).

وفي سنة تسع وستين وستمائة

افتتح الملك الظاهر حصن الأكراد بالسيف، ثم نازل عكا، وأخذها بالأمان فخضع له صاحب طرابلس، وهادنه عشرة (عشر) سنين(١٠٦).

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة

قدم الملك الظاهر إلى دمشق، ثم غزا سيس، وفتح أياس وأذنه والمصيصة(١٠٧).

ـ ١٠٩٨٤ ـ

وفي سنة ست وسبعين وستمائة

قدم الملك الظاهر إلى دمشق ونزل بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر، ومات هناك رحمة الله عليه، وحمل في محفة إلى قلعة دمشق، فرأى ولده الملك السعيد أن يدفنه داخل سور دمشق، فدفن بدار العقيقي، وعمل عليه قبة شاهقة فوق الضريح(١٠٨) وكان له من الأولاد: نجم الدين محمد وهو الملك السعيد، والملك نجم الدين خضر، والملك بدر الدين سلامش، وكان له سبع بنات وأربع نساء، وكان له أربعة(٢٧ـظ) آلاف مملوك، وكان عفيف النفس، شريف الطبع عادلا كثير الصدقات، وهو الذي أصلح قبر خالد ابن الوليد بحمص، ووقف عليه وقفا جيدا، وفتح الفتوحات الكثيرة بعد استيلاء الفرنج عليها، من ذلك: قيسارية وأرسوف، وصفت، وطبرية، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وبغراس، والقصير، وحصن الأكراد، وحصن عكار، والقرين، وصافيتا، ومرقية، والمرقب، وبلنياس، وأنطرطوس، ودربساك، ودركوش، وتلميش (وتلمنس) وكفردنين (وكفر ذبين) ورعيان (رعبان) والمرزبان، والذي صار إليه من أيدي المسلمين: دمشق وبعلبك، وعجلون، وبصرى، وصرخد، والصلت، وحمص، وتدمر، والرحبة، وتل باشر، وصهيون، وبلاطنس، وبرزية، والحصون الاسماعيلية، وهي: الكهف، والقدموس، والمنيقة، والقليعة، والكرك، والشوبك، وشيزر، والبيره، والبلاد الشمالية، وفتح الله على يديه بلاد النوبة، وهي أقاليم(٢٨ـو)كثيرة واسعة، وأمم كثيرة ودنقلة، وكانت حدود مملكته من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفراة، وعمر بقلعة الجبل دار الذهب، وجدد الجامع الأنور، والجامع الأزهر، وبنى جامع الحسينية، وجدد قلعة الجزيرة،وقلعة السويس، وجدد الجسر الأعظم على بركة الفيل وأنشأ قنطرته، وجدد جسر ابن منجا، وتمم عمارة حرم النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل منبره، وذهب سقوفه وجددها، وجدد المارستان بالمدينة النبوية ونقل إليه سائر المعاجين

والأكحال والأشربة، وجدد قبر الخليل عليه السلام وزاد في وقفه، وجدد بيت المقدس، وأنشأ خانا للسبيل بالقاهرة، وبنى على قبر موسى عليه السلام قبة، وهو عند الكثيب الأحمر قبلي أريحا.

وكانت مدة سلطنته قريبا من سبعة عشر (سبع عشرة) سنة، وقد جمع شمس الدين الذهبي سيرته في مجلدين، رحمه الله تعالى(١٠٩).

وتسلطن بعده ولده الملك السعيد محمد أبو المعالي بركة قان وذلك في شهر صفر سنة خمس (ست) وسبعين وستمائة(١١٠).

وفي سنة (٢٨ـ ظ) ثمان وثمانين وستمائة

مات الملعون صاحب طرابلس البرنس، فخرج السلطان قلاوون بالجيوش المنصورة وبادر إليها فنازلها وضربها بالمناجيق، ودام عليها الحصار ثلاثا وثلاثين يوما، ثم أخذها بالسيف، وقتل عليها خلق كثير من المسلمين، ثم أخربها (خربها) السلطان قلاوون وأحرقها، وبنيت مدينة على نصف فرسخ منها فسكنها المسلمون.

وكان لطرابلس في أيدي الفرنج مائة سنة وخمس وثمانون سنة، وكان أول أخذها من المسلمين بعد حصار خمس سنين وأشهر، ففتحها السلطان قلاوون في ثلاثة وثلاثين يوما، وهو آخر فتحها(١١١).

قال أصحاب التاريخ: ثم قدم إلى عكا فرنج غرباء فثاروا بها، وقتلوا من كان بها من تجار المسلمين، وكانت عكا في أيدي الفرنج، فبلغ السلطان ذلك فغضب وتأهب لغزو عكا، فأدركته المنية، وتوفي السلطان الملك المنصور قلاوون في ذي القعدة من هذه السنة، وعمره قريبا من ستين سنة، وكان فارسا شجاعا، بطلا خيرا سائسا مهيبا، تام الشكل، مليح الصورة(٢٩ــو) فارسا، كثير الوفاء، دري اللون، مستدير الوجه،

خفيف اللحيـة، عليه جلالـة عظيمة، وكـانت مدة سلطنته إحدى عشر (عشرة) سنـة وأربعة أشهـر، وتسلطن بعـده ولـده الملك الأشرف صـلاح الدين خليل، وعمره أربعين (أربعون) سنة(١١٢).

.وفي سنة تسعين وستمائة

تجهـز الملك الأشرف خليـل لغـزو عكا ونـازلها رابـع شهر ربيـع الأول بجيوش الاسلام وبـأمم لايحصي عددهم إلا الله تعـالى، وأبلوا في الحصار، وأعـانهم عسكـر قبرص، ثـم أيقنـوا بالغلبـة وشرعـوا بـالهرب في البحـر، واستشهد عليهـا من المسلمين خلـق كثير، وثبت الفـرنج ثبـاتا حسنـا ثم عمل السلطـان كوسات عظيمـة زنة ثـلاثمائة رطل، فزحـف الجيش على عكا سحر يوم الجمعة سـابع عشر جمادى الأولى فانقلبت الأرض بضرب الكـوسات، فحين لاصـق المسلمين(المسلمون) الصـور (السـور) هربـت (هرب) الفرنج إلى البحر، وطلعت الـرايات المنصورة، ونكست الصلبان، وبـذل السيـف مع طلـوع الشمـس وهـدمـت (٢٩—ظ) أبـراج عكـا وأسـوارهـا، وكانـت عكـا أخـذت أولا سنة سبـع وثمانين وأربعمائة، ثـم أخذتها (أخذهـا) الفرنج بالسيف، سنة سـت وتسعين وأربعمائة، فدامت في أيدي الفـرنج إلى أن فتحهـا صلاح الديـن يوسـف بن أيـوب في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ثم أخذتها (أخذها) الفرنج ودامت في أيديهم إلى هذه السنة.

وأما أهل مدينة صور فإن الفـرنج الذين بها لما رأوا الدخان والنيران في جنبات عكا هرب أهلها، وأخلوا البلد، وكـانت صور حصينة مانعة جدا إلى الغـاية، فـدخـل الصوابي والي تلـك النـاحيـة إلى صور، وكتـب يبشر السلطان بذلـك وهو على عكا، فأمره بـإخراب صور فأخـربها، وهدمها، وكان بصور خلق كثير من المسلمين، فلم يقتلـوا وأقاموا بها، وكان لصور في يدي الفرنج مائة وسبعين سنة.

وأما مدينة صيدا فسار (فسارت) إليها فرقة من الجيش، وأحاطوا بها وافتتحوها وأخربوها وأخربوا (وخربوها وخربوا) قلعتها، وأما أهل بيروت فكانوا متمسكين (٣٠—و) بهدنة، فبدا منهم شرا (شر) لأمراء من المسلمين كانوا بالقرب منهم، وعملوا عليهم حيلة، ونصبوا لهم الشرك حتى أوقعوهم وقتلوا أكثرهم تهورا، ثم إنهم خافوا وأغلقوها، فسار إليهم علم الدين سنجر الشجاعي، وحاصرها وأخذها في رجب، وأسر أهلها، ودك قلعتها، وهدم أسوارها، وكانت قلعتها حصينة مانعة جدا.

ثم إن الشجاعي سار إلى جبيل، وكانت الأفرنج بها تحت الطاعة، فطرد الفرنج منها وهدمها ودك قلعتها.

وأما أهل عثليث فإنهم لما علموا بفتح صور وعكا، هربوا منها وأحرقوا مالم يقدروا على حمله، وتنظف الشام من الفرنج من تلك السنة، ولله تعالى الحمد.

ثم قدم السلطان إلى دمشق مؤيدا منصورا، وزينت دمشق، وكان يوما مشهودا، وقال المولى الرئيس الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان الموقع، وأنشدها للملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون يوم فتح عكا، وهي في روي قصيدة أبي تمام في المعتصم لما فتح عمورية(٣٠—ظ):

الله أكبر ذلت دولة الصلب
وعز بالترك دين المصطفى العربي
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
في البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدي الدهور بها
دهرا وشدت عليها كف مغترب

لم يبق من بعدها للكفر مذ خربت
في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتنا
شاب الوليد لها هولا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها
دارا فأدناهما أدنى إلى العطب
مصفح بصفاح حولها شرف
من الرماح وأبراج من الجلب
مثل الغمائم تهوي من صواعقها
بالنيل أضعاف ما تهوي من السحب
كأنها كل برج حوله فلك
من المجانيق ترمي الأرض بالشهب
ففاجأتها جنود الله يقدمها
غضبان لله لا للملك والنشب
ليث أبى أن يرد الوجه عن فرق
يدعون رب الورى سبحانه راب
كم رامها ورماها قبله ملك
جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم يلهه ملكه بل في أوائله
نال الذي لم ينله الناس في الحرب
لم ترض همته إلا الذي قعدت
للعجز عنها ملوك العجم والعرب (٣١-و)
فأصبحت وهي في بحرين واقفة
ما بين مضطرم نار وملتهب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم
عار وراحتهم ضرب من الوصب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت
به الفتوح وما قد خط في الكتب

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم
لله أي رضى في ذلك الغضب
وخاضت البيض في بحر الدماء كما
أبدت من البيض الآساق مختصب
أبحرت للبحر بحرا من دمائهم
فراح كالراح إذ عرفاه كالحبب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت
بك المالك واستعلت على الرتب

ما بعد عكا وإن لانت عريكتها
لديك شيء تلاقيه على تعب
أتيتها يا صلاح الدين معتقدا
بأن ظن صلاح الدين لم يخب
أدركت ثار صلاح الدين إذ غصبت
منه لسر طواه الله في اللقب
وجئتهم بجيوش كالسيول على
أمثالها بين آجام من القصب
فكم تركت عزيز النصر مبتهجا
بكل فتح قريب النجح مرتقب(١١٣)

نجز الكتاب والحمد لله وحد، على يد مصنفه وكاتبه فقير عفو الله تعالى أحمد بن علي الحريري ، في أواخر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل(٣١—ظ).

حواشي

١ـ ديوان الأبيوردي ط . دمشق ١٩٧٥ ج ٢ ص ١٥٦ـ ١٥٧ مع بعض الفوارق
٢ ـ هي انقره الحالية ، عاصمة تركيا.
٣ـ كذا ، ولم يتسلم صنجيل حكم أنطاكية قط.
٣ ـ ديوان العرقلة ص ٣١ ـ ٣٢
٤ ـ ديوان العرقلة ص ١٤.
٥ـ نقل المصنف من الروضتين حرفيا ، واختصر عدة أبيات من قصيدة العماد، وعز اخطأ الأبيات الثلاثة الأخيرة الى العماد في حين هي لابن عساكر قالها في نور الدين.
٦ ـ زيد ما بين الحاصرتين من سنا البرق الشامي ص٢٣
٧ ـ اي السيف
٨ ـ ديوان العرقلة ص ٥٧
٩ ـ ديوان العرقلة ص ٥٠
١٠ ـ ديوان العرقلة ص ٤٩ ـ ٥٠
١١ ـ ديوان العرقلة ص ٦٤
١٢ ـ هذان البيتان للعماد الأصفهاني حسبما جاء في الروضتين ، حيث أورد أبو شامة قبل ذلك أبيات فتيان الشاغوري
١٣ ـ عبرة أولي الأبصار في ملوك الامصار لابن الأثير الحلبي ، حقق هذا الكتاب كرسالة ماجستير باشرافي نوقشت في جامعة دمشق عام ١٩٩٢ ، ولم يرد في الكتاب هذا الخبر .
١٤. ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.
١٥ ـ موضع في بلاد لاعة من اعمال حجة ، معجم المدن والقبائل اليمنية.
١٦ ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧٥.
١٧ـ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ـ ط القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤. ديوان أسامة ص ١٥٨ مع فوارق.
١٨ـ ليست في ديوانه المطبوع.
١٩ ـ عزا صاحب الروضتين هذا الكلام الى العماد الاصفهاني .
١٩ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٤٢
٢٠ ـ كذا بالأصل وهو وهم فالذي أخذ القافلة ونذر صلاح الدين قتله هو أرناط صاحب الكرك لاريموند الثالث صاحب طرابلس .
٢١ـ ليس حين مرض بل بعدما استولى على القافلة القادمة من مصر ، وبعدما حاول احتلال كل من مكة والمدينة .
٢٢ـ البعنه ومنوات في أحواز عكا . معجم بلدان فلسطين
٢٣ ـ كذا والاوضح « الاسدي» لان التقوي هو الذي دخل الى افريقية
٢٤ ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧
٢٥ ـ دفف تدفيفاً أسرع . القاموس
٢٦ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٨
٢٧ ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤٩
٢٨ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥٠.

-١٠٩٩١-

٢٩ـ في الحقيقة مصدر المؤلف هنا الفتح القسي للعماد .
٣٠ ـ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٥
٣١ ـ تبعد الزيب عن عكا مسافة / ١٤/ كم الى الشمال منها ، وتقع معليا أيضا الى الشمال من عكا على مسافة / ٩/ كم من شاطىء البحر . معجم بلدان فلسطين .
٣٢ ـ ديوان العرفلة ص ٦٥.

- ١٠٩٩٢ -

حواشي التاج السبكي

١- ديوان قيس بن الخطيم ط.دار صادر بيروت ص ٤٦.
٢- توقفت ترجمة صلاح الدين بالأصول هنا بشكل غير طبيعي .

حواشي الكواكب الدرية

١- سورة النحل - الآية : ٩٠.
٢- انظره في موسوعة أطراف الحديث ج ٨ ص ٦٨٢
٣- انظر موسوعة أطراف الحديث ج٥ ص ٢٠٩
٤- القومص هنا ريموند الثالث صاحب طرابلس .
٥- التركش بالفارسية : الكنانة.
٦- البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١.
٧- انظر سنا البرق الشامي - ط. القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٦- ٢٧
٨- ليست في المطبوع من تاريخ إربل.
٩- ضريبة كانت تجبى عن رؤوس المواشي.
١٠- سورة الزمر - الآية: ١٠
١١- سورة الانعام - الآية : ١٦٠
١٢- سورة البقرة - الآية : ٢٦١.
١٣- سورة ص - الآية: ٣٨ - ٤٠
١٤- سورة الانفطار - الآية : ١٩
١٥- سورة آل عمران - الآية: ١٩٥.
١٦ - سورة التوبة - الآية ١٢٢
١٧- سورة الانبياء - الآية ١٠١
١٨- الكاذة أداة قطع عريضة الحد ، غالبا ماكانت تستخدم من قبل صناع الأحذية لقطع الجلود.

حواشي الاعلام والتبيين

١- كذا والاقوم: ارجو
٢- كذا دون ان يذكر أيا منهم
٣ - جعل خليفة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م وادى تسلمه لعرش القاهرة الى انشطار الدعوة الاسماعيلية الى شطرين، وقد توفي سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١م.
٤- كذا والصحيح السلطان قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم [٤٨٥- ٥٠٠ هـ/ ١٠٩٢-١١٠٧ م] كانت مدينة نيقية عاصمته عند بداية الحروب الصليبية، وقد حاصرها الصليبيون وكان غائبا عنها، فتولت زوجته الدفاع عنها الى أن سلمتها الى سلطات الامبراطورية البيزنطية مما سبب شقاقا حادا بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطي. وبعد سقوط نيقية علم قلج ارسلان بالأمر، فجمع جموعا من التركمان وحاول التصدي لجموع الصليبيين واشتبك معهم في أكثر من معركة حتى اخفق في ايقاف زحفهم فتابعوا تقدمهم نحو انطاكية.
٥ - يبدو ان المصنف اعتمد هنا مصدرا هو غيره فيما يلي، لذلك أجمل خبر عدة حوادث، ثم نراه يعود للحديث عن حصار انطاكية حتى سقوطها.
٦- تعني هذه العبارة - الصاعقة- وكان السلطان السلجوقي ملكشاه قد خلفه وراءه سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٧ م حاكما على انطاكية، انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٠٥.
٧- قيل بأنه كان من أصل أرمني، انظر من اجل حصار أنطاكية ومصيرها مع مصير حاكمها وحاميتها كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص: ٢٣٧ - ٢٣٩.

٨- هم: ١- Baldwin(of Boulogne) وكان أخا لـ 'Godfrey'
وقد كان أول حكام الرها الصليبيين (١٠٩٨-١١٠٠م) ثم صار ملكا للقدس من سنة (١١٠٠-١١١٨م)

٢- Raymond of st . Gilles كونت تولوز

٣ - Godfrey of Bouillon أخو بلدوين الأول، عين بعد احتلال القدس حاميا للقبر المقدس او بالحري ملكا للمملكة الصليبية التي اسست في القدس

٤- Adhemor of monteil اسقف Puy ونائب عن البابا اوروبان الثاني في مرافقة الحملة الصليبية الأولى واشرف على أمورها.

٥- Bohemond (of Taranto) ابن Robert Guiscard وقد صار اول امراء الصليبيين لمملكتهم التي اسسوها في أنطاكية بعد احتلالهم لها.
٩- انظر معالجة ذلك في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص: ٢٣٨ - ٢٤٢
١٠- الى الشرق من طرابلس، كان على جبلها قلعة، لهذا عدت خطا دفاعيا اوليا لصالح طرابلس - معجم البلدان
١١- يريد به بدر الجمالي أول من تحكم بخلفاء الفاطميين، كان من اصل ارمني، استولى على مقاليد الأمور في القاهرة أيام المستنصر، واحتكر لنفسه امارة الجيش مع الوزارة وقيادة الدعوة الاسماعيلية، وبعد وفاته خلفه ابنه الأفضل - انظر ترجمة بدر في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص: ٢٩٨ - ٣٠٥
١٢- ماتزال تحمل هذا الاسم على ساحل فلسطين قريبا من غزة هي الآن في الاراضي المحتلة

١٣ ـ هو مكي بن عبد السلام بن الحسين بن القاسم الانصاري ، مؤرخ من الحفاظ ورحالة كانت الفتاوي تأتيه من مصر وغيرها ونسبته الرميلي الى قرية اسمها الرميلة من اراضي فلسطين قتل ببيت المقدس شهيدا محاربا مقبلا غير فار وهو من ابناء الستين. الأعلام للزركلي .

١٤ـ انظر ترجمة كل من دقاق بن تتش وجناح الدولة حسين في ملاحق كتابي : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٧٦ ـ ٢٧٩، ٢٨٦

١٥ ـ بلدة قريبة من حران من ديار مضر ـ معجم البلدان.

١٦ـ مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ـ معجم البلدان

١٧ـ كانت طرابلس تحكم انئذ من قبل اسرة آل عمار ـ انظر كتابي (تاريخ العرب والاسلام) ص : ٣٧٥،وكتاب: (طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي) تاليف السيد عبد العزيز سالم ص ٦٤ـ ٧٦.

١٨ـ اختبأ بعد هزيمته في أجمة قصب ، وقد طرح المسلمون فيها النار فاصابه طرف منها كان من اسباب موته فيما بعد . انظر : ذيل تاريخ دمشق ١٤١. مرآة الزمان . ط . حيدر أباه الدكن: ٨/١/٢.

١٩ـ يبدو ان هذا كان سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣م . انظر ذيل تاريخ دمشق: ١٤٣ ـ ١٤٤ مرآة الزمان: ٨/١/٨ History of deeds done Beyond The Sea

لوليم الصوري Vol - 1 - P . 453

٢٠ ـ من أشهر مدن الاندلس ماتزال تحمل ذات الاسم في اسبانيا اليوم.

٢١ـ انظر ابن القلانسي : ١٤٣ ـ ١٤٤ مرآة الزمان : ٨/١/٩ وليم الصوري PP . 454 - 456

٢٢ ـ انظر وليم الصوري : PP 456 - 458

٢٣ـ مات مسموما حسب رواية ابن عساكر ، انظر كتابي :(مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية) : ٢٨٦

٢٤ـ كلمة اتابك هي مركبة من عبارتين هما : « اتاوبك» وتعني « أتا» بالتركمانية أب او عم : و «بك» تعني أمير أو مقدم وعلى هذا فالترجمة الحرفية لاتابك هي « العم الأمير» أو « الاب الأمير » ولقد جرت عادة حكام التركمان من سلاطين وسواهم الزواج بعدة زوجات وتطليق بعض الزوجات بعد الانجاب لاسباب متعددة، وغالبا ما كانت المطلقة تزوج من واحد من ضباط السلطان. ويعهد للزوج الجديد بأمر رعاية شؤون الامير الصغير ، وهكذا يغدو هذا الزوج «أتابكا» ومع الايام تطورت وظيفة الاتابك وأخذت أبعادا سياسية وعسكرية كبيرة.

٢٥ـ بسقوط طرابلس للصليبيين أقاموا فيها إماراتهم الرابعة في الشرق وينبغي ان نلاحظ ان طرابلس سقطت سنة ٥٠٢ هـ وليس سنة ٤٩٥ كما جاء في الاصل هنا. انظر ابن القلانسي : ١٦٢ـ ١٦٢ مرآة الزمان : ٨/١/٢٧. تاريخ العرب والاسلام : ٣٧٥. وليم الصوري :

٢٦ـ احتلت ارتاح قبل هذا بوقت طويل وحدث الصدام المشار اليه هنا « في شهر رجب سنة ثمامن وتسعين » واربعمائة. انظر زبدة الحلب ٢/ ١٥٠.

٢٧ـ قال ابن القلانسي بأن وصول الاسطول المصري وهزيمته للاسطول الجنوي قبالة ساحل صيدا مع توارد الاخبار بنهوض العسكر الدمشقي هو الذي سبب انسحاب الفرنجة ـ ذيل تاريخ دمشق : ١٦٢

٢٨ـ كذا بالاصل ويبدو ان الاسم اصابه تصحيف صوابه جوسلين ـ انظر ابن القلانسي : ١٨٣ ـ ١٨٥

٢٩- اورد ابن القلانسي : ١٦٤ بأن ذلك كان سنة ٥٠٢هـ
٣٠- حدث تسليم جبيل قبل هذا التاريخ - انظر ابن القلانسي : ١٦٤ - ١٦٥
٣١- مشهور باسم قلعة الحصن الى الغرب من حمص في غاية الحصانة محافظ حتى الآن على شكله التاريخي الى ابعد الحدود . انظر ابن القلانسي: ١٦٧.
٣٢- حدث هذا عند ابن القلانسي سنة : ٥٠٣ - ذيل تاريخ دمشق: ١٦٧- ١٦٨، وليم الصوري :
٣٣- تعرف الاثارب الآن باسم الاتارب وهي واقعة الآن في منطقة جبل سمعان التابعة لمحافظة حلب في سورية وتبعد عن حلب مسافة / ٢٩/ كم وزردنا بليدة من نواحي حلب الغربية- معجم البلدان. انظر ايضا زبدة الحلب ٢/ ١٥٥ - ١٥٦.
٣٤- منبج ماتزال معروفة في شمالي سورية . وأما بالس فهي بلدة مسكنة الحالية على الفرات في سورية .
٣٥- المبلغ في زبدة الحلب : ٢/ ١٥٦ «عشرون الف دينار »
٣٥- كانت حماه ضمن املاك رضوان بن تتش صاحب حلب، وذكر ابن العديم في ترجمة رضوان في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب :« ولم يبق في يد الملك رضوان من الاعمال القبلية الا حماه ، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء» . انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٩٢ - ٢٩٣.
٣٧- كانت شيزر في يد الأسرة المنقذية.
٣٨- كانت حمص من أملاك دمشق.
٣٩- سلف للمصنف ان اورد هذا الخبر في حوادث سنة : ٥٠١هـ.
٤٠- حدثت الوفاة سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧م « بعلة طالت به» انظر ابن القلانسي : ١٩٩ وليم

الصوري : Vol I - PP. 515 - 516
٤١- انظر ابن القلانسي :١٨٧.
٤٢- توفي في رجب من سنة ٥٠٧ انظر كتابي : « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » : ٣٩٦.
٤٣- هو ألب ارسلان، يعرف بالاخرس قتل يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسمائة . انظر ترجمته في كتابي : « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » ٢٩٤ - ٢٩٧
٤٤- هكذا جاء الضبط في الاصل وهو خطأ صوابه (البرسقي)
٤٥- سلف ان ذكر المصنف وفاته في أخبار السنة السالفة.
٤٦- انظر ابن القلانسي : ٢١١.
٤٧- انظر ترجمته المنتزعة من تاريخ ابن عساكر . « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » : ٤٠٨
٤٨- حدث هذا سنة : ٥٣٠ عند ابن العديم في زبدة الحلب : ٢/ ٢٦٠- ٢٦١
٤٩- في ذيل تاريخ دمشق: ٢٩٨ « الفندلاوي» و « الحلحولي».
٥٠- انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣١٩ - ٣٢٢
٥١ - هي صفد الحالية في فلسطين المحتلة. انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١
٥٢ - في الروضتين : ١/ ١٢٧ - ١٢٨ كان هذا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.
٥٣- انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ١/ ١٣٣ - ١٣٤ .وحارم اليوم مركز احدى مناطق محافظة ادلب في شمال سورية وتبعد عن ادلب مسافة ٥٣ كم.
٥٤- في شمال لبنان قرب طرابلس . انظر الروضتين: ١/ ١٤١
٥٥- كذا في الاصل ، وفي الروضتين : ١/ ١٨٠ - ١٨٢ حدث هذا في اول صفر سنة خمس وستين وخمسمائة .

٥٦ـ كذا في الاصل وفي الروضتين : ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤ كان هذا سنة سبع وستين وخمسمائة.
٥٧ـ بهسنا قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط ـ معجم البلدان.
٥٨ـ كانت مرعش بين بلدان الثغور مع بيزنطة، وكانت حصينة لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور ـ معجم البلدان.
٥٩ـ انظر الروضتين : ١/٢٠٧
٦٠ـ في الحادي عشر ـ انظر الروضتين ١/٢٢٧ ـ ٢٣٠.
٦١ـ انظر الروضتين : ١/٢٣١.
٦٢ـ انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ١/٢٧٥
٦٣ـ ذكر وليم الصوري ٢/٤٤٣ هذه الواقعة واسماء بعض الاسرى وهم : يودس مقدم فرسان ـ المعبد ـ الدواية . بلدوين صاحب الرملة. هيوج صاحب طبرية انظر الروضتين : ٢/٨ ـ ٩
٦٤ـ انظر الروضتين : ٢/٥٤ـ ٥٦
٦٥ـ انظر الروضتين : ٢/٧٥ـ ٨٧
٦٦ـ هذا اسم مصحف سيرد فيما بعد « الجيتور» ولعل « الجيدور» هو الاصل الصحيح، والجيدور كورة من نواحي دمشق وهي في شمالي حوران ـ معجم البلدان. هذا وقد اورد صاحب الروضتين : ٢/٨٥ـ ٩٢ روايات مفصلة حول اعمال التوسع هذه.
٦٧ـ في حاشية الأصل : قف على بعض مكارم اخلاق الملوك السالفة.
٦٨ـ الانعام : ٤٥.
٦٩ـ انظر الخبر بشكل مفصل في الروضتين : ٢/١٠٩ ـ ١١٥. شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ١٢٨ـ ١٥٨.
٧٠ـ البيتان من قصيدة لابن الجواني محمد بن أسعد نقيب الاشراف في مصر آنئذ ، وقد اوردها صاحب الروضتين: ٢/١٠٥ وروايته للبيت الاول اصح من رواية الاصل هنا:
اترى مناما ما بعيني أبصر   القدس يفتح والفرنجة تكسر
٧١ـ انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ٢/١١٩ ـ ١٢٠
٧٢ـ وقعت هذه الاعمال كلها سنة ٥٨٤، انظر أخبارها بشكل مفصل في الروضتين: ٢/١٢٦ ـ ١٢٨
٧٣ـ بدأت هذه الاحداث سنة خمس وثمانين وظلت مستمرة حتى سنة ثمان وثمانين ـ انظر الروضتين : ٢/١٤٣ ـ ١٩٦
٧٤ـ انظر ما تقدم في حاشية رقم /٦٦/
٧٥ـ انظر الروضتين : ٢/٢١٢ ـ ٢٢٤
٧٦ـ انظر الروضتين : ٢/٢٢٤ ـ ٢٢٦
٧٧ـ انظر الخبر مفصلا في مفرج الكروب : ٣/٦١ـ ٦٧
٧٨ـ كذا وهو جائز وأفضل منه «ابن» وعند ابن واصل : ٣/٧٥ حدث ذلك سنة ٥٩٤ هـ هذا ويرجح أن عز الدين هذا لم يكن من بني منقذ واسمه « سامه» لا أسامة.
٧٩ـ انظر مفرج الكروب : ٣/٧١:
٨٠ـ انظر الخبر في مفرج الكروب : ٣/٧٥ ـ ٧٨.
٨١ـ انظر مفرج الكروب : ٣/٩١ـ ١٣٤
٨٢ـ كانت سنة ستمائة بداية لهذه الاحداث حيث أنها استمرت عدة سنوات. انظر مفرج الكروب : ٣/١٥٩ـ ١٩٧
٨٣ـ ذكر ذلك ابن واصل في حوادث سنة تسع وستمائة ، انظر مفرج الكروب : ٣/٢١٥ ـ ٢١٦

٨٤- انظر مفرج الكروب: ٣/ ٢٥٥ - ٢٧٦
٨٥- جاء في حاشية الأصل: « استيلاء الفرنج على دمياط» وقد حدث هذا سنة ٦١٦ انظر مرآة الزمان: ٢/ ٦٠١، ٦٠٣.
٨٦- جاء في حاشية الأصل: الغلاء في أيام العادل.
٨٧- في حاشية الأصل: أعوذ بالله تعالى من سخطه وغضبه.
٨٨- يقابل هذه الفقرة في الحاشية فقرة مطموسة تعذرت قراءتها.
٨٩- في حاشية الأصل فتح دمياط.

٩٠- الحلي. انظر الخبر مفصلا، والقصيدة بما فيها هذين البيتين مع شيء من الخلاف، في مرآة الزمان: ٢/ ٦١٨ - ٦٢١
٩١- انظر مرآة الزمان: ٢/ ٦٥٢
٩٢- هي السلط الحالية في المملكة الاردنية
٩٣- ليس سنة خمس واربعين بل سنة سبع واربعين - انظر مرآة الزمان: ٢/ ٧٧٢ - ٧٧٣
٩٤ - الحديث هنا عن حملة القديس لويس على مصر، أم خليل ارملة السلطان شهرت في المصادر باسم « شجر الدر، انظر شفاء القلوب في مناقب بني أيوب: ٣٧٨ - ٣٨٢
٩٥ - عبد العزيز بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ/ ١١٨١ - ١٢٦٢م) سلطان العلماء من كبار فقهاء الشافعية ولد في دمشق، وفيها نشأ وتعلم وتسلم أعلى المناصب وبعد خروجه من السجن توجه الى القاهرة حيث شغل دورا بارز الاهمية وفي القاهرة توفي، وقد صنف عدداً من الكتب. الاعلام للزركلي.
٩٦- عثمان بن عمر، فقيه مالكي ومن كبار علماء العربية ولد في صعيد مصر ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق ومات بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩م له العديد من الكتب. الاعلام للزركلي.
٩٧- كذا بالاصل والمشهور بالمنصورة

-١٠٩٩٨-

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن التاسع (1)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الرابع و العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن التاسع

من كتاب

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

تصنيف

بدر الدين محمود العيني

[ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١ م]

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

في زيارتي العلمية الأولى لمكتبات استانبول تعرفت الى عدد كبير جداً من مخطوطات تاريخ العرب والاسلام، كان من بينها مخطوطة « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» لبدر الدين العيني ، ورأيت مخطوطة هذا الكتاب، وهي فيما اعتقد بخط المؤلف ، في مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧.

ونقلت من هذا المصدر كثيرا لاسيما مما جاء فيه عن القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، لأن المؤلف أكثر النقل عن عبد الملك الهمذاني صاحب عنوان السير.

ولم أصور وقتها شيئا من هذا الكتاب ، وحاولت فيما بعد فأخفقت وشرع منذ عدة سنوات في نشر اجزاء من هذا الكتاب، في مصر وهنا كتبت الى السفير السوري بالقاهرة ساعيا بوساطته للحصول على مصورة الجزء المتعلق بالحروب الصليبية ، ومن جديد حظيت بالاخفاق لطول الزمن وارتفاع النفقات الهائل.

وجاء الفرج عند ما توجهت السيدة مريم الدرع، وهي طالبة في قسم التاريخ تحضر للدكتوراه تحت اشرافي ، وتعمل مديرة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق. توجهت الى أستانبول لحضور دورة تدريبية فيها، وقد قامت مشكورة - بعد جهود مضنية - بتصوير ما يتعلق

بالحروب الصليبية من كتاب العيني اعتمادا على مخطوطة في مكتبة السليمانية .

وقمت على الفور بنسخ هذه المخطوطة وتحقيقها ، لكن بعد ما أسقطت منها كل الأخبار والتراجم التي لاعلاقة لها بموضوع الحروب الصليبية ، والبدر العيني هو: محمود بن أحمد بن موسى، ولد سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، ونشأ في عينتاب ـ داخل تركيا الآن ـ وكان أبوه قاضيها ، ورحل البدر الى حلب وتفقه فيها ، ثم زار بعد ذلك القدس وتحول الى القاهرة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م حيث نزل في المدرسة الظاهرية ، وعمل خادما بها، وبعدها تقلبت به الاحوال حتى ولي حسبة القاهرة سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٩م.وبعد ما عزل من حسبة القاهرة تولى عدة وظائف تعليمية ودينية ، واشتهر اسمه وبات من أعيان فقهاء الأحناف، وأكب على التصنيف ذلك أنه برع في علوم عدة مثل الفقه واللغة والنحو والصرف والحديث والتاريخ، لقد صنف بالتاريخ عدة كتب تراجم صغيرة ومتوسطة مثل:

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر
- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي
- سيرة الأشرف برسباي
- شرح سيرة مغلطاي

وكتب كتبا كبيرة في التاريخ تصدرها كتابه « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» وهو كتاب عملاق ، وقد اختصره بكتاب اسمه « تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر» ثم اختصر هذا المختصر.ولاشك أن عقد الجمان هو أهم مصنفات العيني التاريخية ، أودع فيه النصوص

الكاملة لعدد كبير من المصادر التاريخية المحجوبة عنا، فضلا عن أنه عاش احداث العصر المملوكي .

وكتاب عقد الجمان تاريخ حولي عام للاسلام،وكتاب تراجم بالوقت نفسه،وكان خليفة بن خياط [ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م] أول من اعتاد على اثبات أسماء الوفيات في نهاية كل حولية، وطور ابن الجوزي هذا المنهج وأرسى قواعده في كتابه المنتظم ، ومن بعد ابن الجوزي قلده سبطه في مرآة الزمان، وإثر هذا عدد كبير من المؤرخين.

لقد نشر حتى الآن خمسة أجزاء من كتاب عقد الجمان، ترتبط موادها جميعا بالعصر المملوكي ، وهي المرة الاولى التي يتم فيها نشر جزء الحروب الصليبية من هذا الكتاب،وسأعمل في المستقبل ـ بعونه تعالى ـ على نشر مقدمات عصر الحروب الصليبية من هذا الكتاب مع أخبار الأحداث التي وقعت منذ وفاة صلاح الدين حتى تحرير عكا من قبل الاشرف خليل بن قلاوون ، على أنني أرى ان كتاب عقد الجمان على ضخامته جدير بالنشر دفعة واحدة ، وحبذا لو يتم هذا بتعاون سوري مصري ،لأن البدر العيني سوري المولد والمنشأ قاهري الدار والوفاة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م عن عمر يناهر الثالثة والتسعين .

من الله استمد التوفيق والعون وله جل وعلا الحمد والشكر، والصلاة والسلام على نبي الانسانية محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ١٤ جمادى الأولى ١٤١٦هـ

٨/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والتسعين بعد الأربعمائة

استهلت هـذه السنة: المستظهـر بأمـر الله، وملـوك البلاد والأطـراف على حالهم.

ذكر ابتداء ظهور الفرنج إلى بلاد الاسلام:

والكلام فيه أنواع:

الأول: في ابتداء خروجهم:

كان خروجهم أولا بـالمغرب، فخرجوا إلى بلاد الاسلام واستـولوا عليها وفتحوا مـن المدن طليطلة وغيرها في سنـة ثمان وسبعين وأربعمائة، وملكوا جزيرة صقليـة في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطـراف افريقية فملكوها.

الثاني في مسيرهم إلى بلاد الشام:

لما كان هذه السنـة ـ اعني سنة احدى وتسعين وأربعمائة ــ خرجوا إلى بلاد الشام، وكـان سبب خروجهم أن ملكهم بردويـل جمع جمعاً كثيراً من الافـرنج لقصـد الشام، سـاروا إلى القسطنطينيـة ليعبروا الخليج فيكـون أسهل عليهـم من البحـر، فلم يمكنهـم صاحبهـا من العبـور حتى شرط عليهـم أنهم ان ملكـوا انطـاكيـة يعيـدونها عليهـم، وظـن صـاحـب القسطنطينيـة أن الأتراك سيظهـرون عليهم لشـدة بـأسهم، لأنهم ملكـوا البلاد، فـأجابـوه إلى ذلك، فمكنهـم من العبـور، فوصلـوا إلى بلاد قليـج

أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق، وهي قونية وغيرها، فقاتلوهم وهزموهم وعبروا إلى بلاد ابن ليفون الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى انطاكية.

فلما سمع صاحبها ياغي سيان التركماني حصن البلد، وأخرج النصارى منها، فجاء الفرنج بالعدة والعديد حتى نزلوا عليها وحصروها أشد الحصار، وقاتلوها تسعة أشهر، وقتل من الفريقين جمع كثير، فلما طال مقام الأفرنج عليها، وكان بها شخص مستحفظ بعض الأبراج زراد يعرف بروزبة، فبذلوا له مالاً واقطاعاً، وكان البرج يلي الوادي، وهو مبني على شباك حديد يخرج منه في الشتاء ماء المطر، وأنه مكنهم من قلع ذلك الشباك ودخولهم، فصعد جماعة كثيرة في الليل، فلما أصبحوا أشهروا السلاح وهجموا على المسلمين فقتلوا وقتلوا، واما ياغي سيان فإنه قاتل ثم فتح الباب وهرب ومعه جماعة وتركها لهم، وسار منها كالولهان فنزل على أربعة فراسخ منها، وندم حيث لم يقتل عند أهله وعياله، فوقع مغشياً، فمات في تلك الساعة، وتركه أصحابه بمكانه وتوجهوا.

وفي تاريخ بيبرس: فمن شده مالحق ياغي سيان سقط مغشيا عليه فأراد من معه أن يركبه فلم يكن فيه من المسكة مايثبت على الفرس، فتركوه مرميا، واجتاز انسان أرمني كان يقطع الخشب بياغي سيان محمد ابن ألب أرسلان التركماني فعرفه وهو على آخر رمق، فقطع رأسه وحمله إلى الافرنج بانطاكية.

وكان دخول الافرنج أنطاكية في جمادى الأولى من هذه السنة، ووضعوا السيوف في المسلمين الذين بها ونهبوا أموالهم.

الثالث في مكاتبة الأفرنج إلى المسلمين وتوجه المسلمين إليهم على أنطاكية:

ثم ان الافرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق يقولون: اننا لانقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، مكراً منهم وخديعة، فلما بلغ ذلك كربوغا صاحب الموصل جمع العساكر وسار إلى مرج دابق، وهو مرج واسع بالقرب من حلب من ناحية الشمال، واجتمعت إليه عساكر الشام وهم: رضوان بن تتش صاحب حلب، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وهو زوج أم الملك رضوان، فإنه كان قد فارق رضوان من حلب، وسار إلى حمص فملكها، وأرسلان صاحب سنجار، وسليمان ابن أرتق صاحب سروج وغيرها، وغيرهم من الأمراء والتركمان، وساروا إلى أنطاكية فحاصروها بالجميع حتى انحصر الأفرنج بها، وعظم خوفهم حتى طلبوا من كربوغا ان يطلقهم فامتنع، ثم ان كربوغا اساء السيرة مع الامراء وتكبر عليهم، فخبثت نياتهم عليه، وكان في أنطاكية بردويل وصنجيل، وكندهري، والقمص صاحب الرها، وبيمند صاحب أنطاكية.

ولما ضاق عليهم الامر وقلت الاقوات اجتمعوا وخرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين، وكان الامراء الذين مع كربوغا قالوا له: الصواب ان نحمل عليهم ونقاتلهم اولاً بأول، فقال لهم: بل نتركهم إلى ان يخرجوا جميعا ونحمل عليهم، فلما تكا مل خروج الافرنج ضربوا مصافاً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا اولا من الاهانة والاعراض عنهم، وثانيا بانه لم يسمع من رأيهم، وتمت الهزيمة عليهم لاضربا بالسيف ولاطعنا بالرمح، وقتل الفرنج من المسلمين الوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأموال والاقوات والدواب والمسلحة، فصلحت بها حالهم، وعادت إليهم قوتهم.

وفي تاريخ المؤيد [صاحب حماة] فقتلوا من المسلمين مايزيد على مائة الف انسان، وسبوا السبي الكثير.

وفي تاريخ العظيمي: لما اجتمع كربوغا مع الامراء المذكورين وجمعوا عساكر عظيمة مقدار اربعمائة ألف انسان، ساروا فوجدوا ان انطاكية قد فتحت سلمها اليهم فيروز الارمني، وكان من جملة المتحفظين على الأبراج، وسمع بانكسار المسلمين يوم الثلاثاء السادس عشر من رجب من هذه السنة، وكان قد ملك انطاكية من الافرنج بيمند، وكان قد صنع مناماً، ودفن سنانا في بعض الكنائس، وقال للافرنج: رأيت المسيح في هذه الليلة يقول لي: اخرج فانك تكسر المسلمين، فقلت: مايصدقني الافرنج، فقال: خذ السنان في الموضع الفلاني وركبه في قنطاريتك ولاقهم بها تكسرهم، فبادر الافرنج إلى ذلك الموضع واستخرجوا السنان منه وخرجوا إلى المسلمين وكسروهم.

الرابع في توجه الفرنج الى معرة النعمان وحمص:

ثم لما فرغوا من امر المسلمين في ارض انطاكية توجهوا إلى المعرة فنازلوها وحاصروها، واخذوا عليهم النقوب ووضعوا السلاليم والأبراج الخشب، فصعدوا عليها فملكوها ووضعوا في المسلمين السيف ثلاثة أيام، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا وفتكوا، وأقاموا أربعين يوماً، ثم رحلوا إلى حمص فصالحهم جناح الدولة حسين على مال، ثم ساروا إلى عرقة فحصروها أربعة أشهر، فصالحهم صاحب شيزر ابن منقذ على مال ثم على طريق النواقير إلى عكا، فلم يقدروا عليها.

وفي تاريخ ابن كثير: قتل الافرنج في معرة النعمان وبلادها مايزيد على مائة الف انسان وسبوا سبيا كثيراً، ولما بلغ هذه الحال السلطان بركياروق، شق ذلك عليه وكتب إلى الامراء ببغداد ان يتجهزوا صحبة الامير ابن جهير لقتال الافرنج، فبرز بعض الجيش إلى ظاهر البلد

بالجانب الغربي، ثم انفسخت هذه العزيمة لانه بلغهم ان الافرنج في الف الف مقاتل، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

الخامس في توجه الفرنج إلى القدس:

ذكر بيبرس في تاريخه ان في هذه السنة حاصر الافرنج البيت المقدس وكانوا قد ملكوا الرملة قبل.

وذكر المؤيد وابن كثير في تاريخيهما حصر الافرنج القدس في السنة الثانية والتسعين بعد الأربعمائة، وأنهم ملكوه يوم الجمعة ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين، وهم كانوا في ألف ألف.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي سنة احدى وأربعمائة حاصر الافرنج البيت المقدس، وكانوا أخذوا الرملة، فلما علم الوزير الأفضل خرج بعساكره من مصر، فلما علم الفرنج بخروجه جدوا في الحصار، فملكوها قبل وصوله، وهدموا المساجد وقبر ابراهيم الخليل عليه السلام، وأحرقوا المصاحف وأخذوا من الصخرة من الآلات والقناديل الذهب والفضة وغيرها مالايحصى، فوصل الأفضل إلى عسقلان وسير رسله إليهم يؤنبهم بما فعلوه، فساروا إلى عسقلان وهجموا على عسكر الأفضل فهزموهم، فدخل الأفضل وبعض العساكر عسقلان، ووقع القتل في المسلمين والنهب في أثقالهم، وانهزم الأفضل إلى مصر في البحر وذلك في شعبان من سنة احدى وتسعين وأربعمائة.

وقال العظيمي في تاريخه: فتح الافرنج معرة النعمان في المحرم من سنة اثنتين وتسعين واربعمائة، ثم تحولوا إلى كفر طاب، ثم إلى حماة فلم يقدروا عليها، ثم تحولوا إلى القدس ففتحوها من أيدي المصريين، وملك القدس الملك الذي اسمه الكندفري ـ عليه اللعنة ـ وأحرقوا كنيسة

اليهود، ونـزلت عسـاكر مصر مـع الأفضل وزيـر مصر فكسرهـم الافـرنج على عسقلان.

وفي تاريخ المؤيـد: وكان تاج الدولـة تُتُش قد اقطع بيـت المقدس للأميرأرتق،فلماتـوفي صارت القـدس لولديـه ايلغازي وسقمان ابنـي ارتق حتى خـرج عسكر خليفة مصر فاستـولى على القدس بالامـان في شعبان سنـة تسع وثمانين واربعمائة، وسـار سقمان واخوه ايلغـازي من القـدس، فأقـام سقمان ببلد الـرها، وسار إيلغـازي إلى الفرات، وبقيـت القدس في ايدي المصريين إلى الآن فقصـدها الأفـرنج وحصروهـا نيفاً واربعين يـوما وملكـوهـا يـوم الجمعـة لسبع بقين مـن شعبـان مـن سنـة ثنتين وتسعين وأربعمائة، ولبث الفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس اسبوعاً.

السادس فيما فعله الافرنج في القدس الشريف:

قال ابن الجوزي: وقـد اخذوا من حول الصخـرة اثنين واربعين قنديلاً من فضـة، كل قنـديل منها ثـلاثة آلاف وستمائة درهـم، وتنورا مـن فضة زنته أربعـون رطل بالشامـي، وثلاثة وعشريـن قنديلا من ذهـب، وذهب الناس على وجوههـم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين مـن الافرنج الى الخليفـة والسلطان، ومنهـم القاضي بـدمشـق أبو سعيـد الهروي، فلما سمع النـاس ببغداد بذلـك الأمر الفظيع هالهم ذلـك وتباكوا، وقـد نظم أبو سعيد الهروي كلامـاً قرىء على المنابر فجهر الناس بـالبكاء، وقد ترك الخليفة الفقهاء إلى الخروج ليحرضوا الملـوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس، فلـم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي تـاريـخ بيبرس: وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ورد المنهـزمـون من الشام في شهر رمضان إلى بغداد وصحبتهم القاضي أبو سعيد الهروي لائذيـن بحرم الخلافـة من الأفـرنج شـاكين مـافعلوه بـالقدس الشريـف

وماحوله، فأورد في ديوان الخلافة كلاما أبكى العيون واوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف العظيم من قتل الرجال وسبي الحريم والاولاد، ونهب الاموال، ولشدة ما أصابهم افطروا، فأمر الخليفة ان يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وابو بكر الشاشي، وابو القاسم الزنجاني، وابو الوفاء ابن عقيل، فاعتذر القاضي بكبر سنه، والزنجاني بمرضه، وتمنع الشاشي، وسار أبو الوفاء ابن عقيل، وأبو سعيد الحلواني، وأبو الحسين ابن السماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك البلانياسي، فعادوا من عير بلوغ أرب، وأخلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال المظفر الابيوردي في هذا المعنى أبياتاً:

مزجنا دما بالدموع السواجم
فلم نبق الاعرضة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فايها بني الاسلام ان وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

وكم نومة في ظل امن وغبطة
وعيش كنوار الجميلة ناعم

وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم
ظهور المذاكي او بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وانتم
تجرون ذيل الخفض فعل القوادم

وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة
يظل لها الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغب عن غمارها
ويسلم يقرع بعدها سن نادم

سللن بأيدي المشركين قواضبا
ستغمد منهم في الكلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة
ينادي بأعلى الصوت يال هاشم
ارى امتي لايشرعون الى العدا
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أيرضى صناديد الاعارب بالاذى
وتغضي على ذل كماة الاعاجم
فليتهم اذ لم يذودوا حمية
عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا في الاجر اذ حمي الوغى
فهلا اتوه رغبة في المكارم
لئن اذعنت تلك الخياشيم للبُرى
فلا عطسوا الا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة
الينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية
تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان انتم لم تغضبوا بعد هذه
رمينا الى اعدائنا بالجرائم (١)

وجرى ذلك كله باشتغال السلطان، بركياروق والاتراك بعضهم ببعض مع السلطان محمد على ماسنذكره في السنة الآتية ان شاء الله تعالى....

١١٠١٤ـ

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى على بيمند الفرنجي من ابن الدانشمند:

وابن الدانشمند هذا اسمه كمشتكين، وانما سمي ابوه بالدانشمند لانه كان معلما للتركمان، والمعلم عندهم اسمه الدانشمند، وكان اسمه فتقلبت الأحوال بابن الدانشمند حتى ملك ملطية وسيواس وغيرهما، وقصده الفرنج مع مقدمهم بيمند في خمسة آلاف فلقيهم ابن الدانشمند بالقرب من ملطية، وقاتل معه قتالاً شديداً، فهزمه وظفر المسلمون بالفرنج، وأسر بيمند، فاجتمع الفرنج وارادوا الخليصة ولم يقدروا.

وفي تاريخ ابن كثير: وفي هذه السنة اقبل ملك الافرنج في ثلاثمائة الف مقاتل، فالتقى كمشتكين المعروف بالدانشمند.

قال ابن كثير: واظنه اتابك الجيوش بدمشق الذي يقال له امين الدولة، واقف الامينية التي بدمشق وبصرى، لا التي ببعلبك، فهزم الافرنج وقتل منهم خلقاً بحيث لم ينج منهم إلا ثلاثة آلاف واكثرهم جرحى، وذلك في ذي القعدة، ولحقهم إلى ملطية فملكها واسر ملكها.

قلت: الظاهر بل الصحيح ان هذه القضية مع الفرنج غير القضية التي ذكرناها، وان كمشتكين الذي ذكره ابن كثير ان هو ذاك الذي ذكرناه آنفا، فليس يقال له ابن الدانشمند، فافهم.

وفي تاريخ بيبرس: ثم ان الأفرنج بعد انكسارهم من ابن الدانشمند ساروا الى قلعة تسمى انكوريا[٢] فاخذوها، وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا الى قلعة اخرى فيها اسماعيل بن الدانشمند وحصروها، فجمع جمعا كثيرا وقاتلهم وجعلهم كميناً فخرج عليهم الكمين فقتلهم وهزمهم

وكانوا ثلاثة آلاف فلم يفلت منهم سوى ثلاثمائة مجرحين.

ذكر بقية الحوادث

منها: ان جماعة من اهل الشام اتوا مصر هربا من الافرنج والغلاء والوباء، ومات بمصر في هذه السنة خلق كثير.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ماجرى من الفرنج:

وفي صفر منها أغار الفرنج من الرها على سرح الرقة وقلعة جعبر، فاستاقوا المواشي، وأسروا من وقع في أيديهم من المسلمين، وكانت جعبر والرقة لسالم بن مالك سلمها إليه السلطان ملكشاه.

وفي المرآة خرجت الأفرنج من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصدوا حران، والآخر الرقة، ونزل سقمان بن أرتق من ماردين، وكان سالم بن بدران العقيلي في بني عقيل نازلا على عين العروس فالتقوه واقتتلوا قتالا شديدا، واسر سالم بن بدران، وكانت الدائرة على الأفرنج، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها غزا سقمان وجكرمش الأفرنج، فلما استطال الأفرنج بما ملكوا من البلاد التي هي للمسلمين باشتغال عساكر الاسلام وملوكهم بقتال بعضهم بعضاً، وكانت حران لقراجا، أحد مماليك ملكشاه، فاستخلف عليها محمد الأصفهاني، فعصى عليه، وقعد في بعض الأيام في مجالس الشراب فلما سكر قتله مملوك يسمى جاولي من مماليك قراجا، فعند ذلك سار الأفرنج إلى حران وحصروها، فلما

سمع سقمان صاحب ماردين وغيرها وجكرمش اجتمعا وسارا إلى الخابور، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ فاقتتلوا قتالا شديدا، فأظهر أهل الاسلام الانهزام، فتبعهم الفرنج نحو فرسخين، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاءوا، وامتلأت أيدي العسكر من الغنائم، لان سواد الافرنج كان قريبا، وكان معهم بيمند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردوا وراء جبل ليأتوا المسلمين من وراء ظهورهم، فلما خرجا رأيا الافرنج منهزمين فانهزموا معهم، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهم كثيراً، وأفلتا في ستة من الفرسان، وكان القمص بردويل صاحب الرها معهم فأسر وجاءوا به إلى الموصل، ففدى نفسه بخمسة وثلاثين ألف دينار ومائة وستين اسيراً، وكانت عدة القتلى من الافرنج والاسرى اثني عشر ألف رجل، ثم رحل جكرمش إلى حران فتسلمها وعدة حصون.

وفي تاريخ ابن كثير: وفيها قصد الأفرنج - لعنهم الله - الشام، فقاتلهم المسلمون فقتلوا خلقاً كثيراً.

وفي تاريخ النويري: وفيها سار صنجيل - وقد وصله مدد الفرنج من البحر - إلى طرابلس فحاصرها وتسلمها بالأمان، ثم سار إلى عكا ووصل إليه جمع من القدس فحصروها، وكان الوالي فيها من جهة خليفة مصر زهر الدنيا نبا، وجرى بينهم قتال عظيم، وآخر الامر ان الافرنج ملكوها بالسيف وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة، وهرب نبا إلى الشام ثم إلى مصر، ثم إن الافرنج قصدوا حران، فاتفق جكرمش وسقمان بن أرتق والتقيا مع الافرنج على نهر البليخ، فذكره إلى آخر ماذكره الآن.

وفي المرآة: وفيها نزل بغدوين وقيل بردويل صاحب القدس على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركباً فحصروها من جميع الجهات،

وقاتل أهلها حتى ضعفوا عن القتال، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي، فعجز عنهم وطلب الأمان له وللمسلمين الذين بها، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان وقيل في شعبان، وجاء زهر الدولة منهزماً الى دمشق، فأحسن إليه اتابك طغتكين، ثم مضى إلى مصر.

وفي المرآة أيضاً: وفيها في رجب وردت مراكب الافرنج اللاذقية مشحونة بالمقاتلة في البحار، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل، وأقاموا أياما ورحلوا إلى جبيل، فأمنوا أهلها ودخلوها، ثم غدروا بأهلها فقتلوهم، وكان صنجيل صاحب أنطاكية[٣] قد بنى على طرابلس حصناً ليأخذ به طرابلس وشحنه بالرجال والأموال والسلاح، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة وهجم الحصن على غره فقتل من فيه ونهبه وأخذ منه المال والسلاح، والمتاع وكل شيء فيه، وهدمه وعاد إلى طرابلس سالما غانما.

ذكر بقية الحوادث:

منها ان بلك بن بهرام بن أرتق، وهو ابن أخي ايلغازي شحنة بغداد استولى على مدينة عانة الحديثة، وكان له مدينة سروج، فأخذها الفرنج منه، فسار عنها إلى عانة وأخذها من بني يعيش بن عيسى، فقصد بنو يعيش صدقة بن مزيد فاسترجعها منه في المحرم، وسلمها إلى أصحابها...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

شمس الملوك أبو نصر دقاق بن تاج الدولة تُتُش بن السلطان ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب دمشق، توفي في ثامن عشر شهر رمضان من هذه السنة ودفن بمسجد

قبة الطواسين بظاهر دمشق الذي على ظهر بردى، وكان قد حصل له مرض تطاول به وقيل إن أمه سمته في عنقود عنب فلما توفي قام بالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج بأمه في حياة أبيه، زوجه أياها، وهو عتيق تتش المذكور.

وقال النويري: لما توفي الملك دقاق صاحب دمشق خطب طغتكين الأتابك بدمشق لابن دُقاق وكان طفلا عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة، ثم قطع خطبة بكتاش وأعاد خطبة الطفل، واستقر طغتكين في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ــ والله أعلم ـ وأحسن مع الناس السيرة، وبث فيهم العدل.

وفي المرآة: وفي هذه السنة عرض لدقاق صاحب دمشق مرض تطاول به، ووقع معه تخليط في الغذاء فأوجب انتقاله إلى علة الدق، فمازال به حتى أشفى، فلما وقع اليأس عن برؤه وانقطع الرجاء من عافيته تقدمت إليه والدته الخاتون صفوة الملوك بأن يوصي بما في نفسه ولايترك أمر الدولة وولديه سدى، فنص على أتابك طغتكين والحضانة لولده الصغير تتش بن دقاق حتى يكبر، ويتولى طغتكين أمور دمشق، وأعمال دقاق، وتوفي في اليوم الثالث والعشرين من رمضان ودفن على الشرف الشمالي بدمشق بالخانكاه التي يقال لها قبة الطواييس، وبعد قليل توفي تتش بن دقاق الذي اوصى بالملك إليه، ودُقاق بضم الدال المهملة وبالقافين بينهما ألف.

-١١٠١٩-

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والتسعين بعد الأربعمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، ومات فيها السلطان بركياروق، والأمير ايـاز، والأمير سقمان، وصنجيل ملك الأفرنج، فلنذكرهم واحدا واحدا.

الأمير سقمان بن أرتق مات في هذه السنة، وسبب ذلك ان فخر الدولة ابن عمار صاحب طرابلس كان قد كاتب سقمان يستدعيه الى نصرته على الافرنج، وبذل له المعونة بالمال والرجال، فبينما هو يتجهز للمسير إذا أتاه كتاب الاتابك طغتكين صاحب دمشق يخبر انه مريض قد أشفى على الموت، وأنه يخاف وليس بدمشق من يحميها من الأفرنج، ويستدعيه ليوصي اليه بما يعتمده في حفظ البلاد، فلما سمع ذلك اسرع في السير عازما على أخذ دمشق، فلما وصل القريتين مات بالخوانيق، وحمله أصحابه وعادوا به إلى حصن كيفا.

وفي تاريخ المؤيد: وفي هذه السنة توفي سقمان بن [ارتق بن] أكسب - بالباء الموحدة - وقيل اكسك -بالكافين -وهو الأصح، وكانت وفاته في القريتين في صفر من هذه السنة، وقام ابنه ابراهيم موضعه، وحمل سقمان في تابوت إلى حصن كيفا فدفن به، ولما مات سقمان كان مالكا لحصن كيفا وماردين.

أما ملكه لحصن كيفا فقد ذكرناه من تسليم موسى التركماني صاحب الموصل لما استنجد به على جكرمش، وأما ملكه لماردين فهو أنه كان السلطان بركياروق وهبها هي وأعمالها لانسان مغن، ووقع حرب بين كربوغا صاحب الموصل وبين سقمان، وكان مع سقمان ابن أخيه ياقوتي وعماد الدين زنكي بن آق سنقر، وهو إذ ذاك صبي، فانهزم سقمان وأخذ

ابن أخيه ياقوتي أسيراً، فحبسه كبروغا في قلعة ماردين، وبقي مدة، فمضت زوجه أرتق الى كربوغا وسألته في اطلاق ابن ابنها ياقوتي، فأجابها كربوغا إلى ذلك، وأطلقه، فأعجبت ياقوتي ماردين، وأرسل يقول لصاحبها المغني: إن أذنت لي سكنت في ربض قلعتك وجبيت إليها الكسوبات وحميتها من المفسدين، ويحصل لك بذلك النفع فأذن له المغني بالمقام في الربض، فأقام ياقوتي بها ردين وجعل يغير من باب أخلاط إلى بغداد، ويستصحب معه حفاظ قلعة ماردين ويحسن إليهم ويؤثرهم على نفسه، فاطمأنوا إليه وسار مرة ومعه أكثرهم فقبضهم وقيدهم وأتى الى باب قلعة ماردين ونادى من بها من أهليهم وقال: إن فتحتم الباب وسلمتم الي القلعة وإلا ضربت أعناقهم جميعهم، فامتنعوا فأحضر واحدا منهم وضرب عنقه ففتحوا الباب له، وتسلم ياقوتي القلعة وأقام بها، ثم جمع ياقوتي جمعا وقصد نصيبين ولحقه مرض حتى عجز عن لبس السلاح وركوب الخيل، وحمل الى فرسه وركبه، فأصابه سهم فسقط ياقوتي منه ومات، ثم ملك ماردين بعده اخوه علي وصار في طاعة جكرمش صاحب الموصل، واستخلف على ماردين بعض أصحابه، وكان اسمه عليا ايضا، فأرسل علي يقول لسقمان: إن ابن أخيك يريد ان يسلم ماردين الى جكرمش فسار سقمان بنفسه وتسلم ماردين، فطالبه ابن اخوه علي باعادتها اليه فلم يفعل سقمان ذلك، واعطاه جبل جور عوضها، واستقرت ماردين وحصن كيفا لسقمان حتى سار إلى دمشق ومات بالقريتين، فصارت ماردين لأخيه ايلغازي بن ارتق، واستقرت لولده ـــ قال المؤيد ـ إلى يومنا هذا، وهو سنة خمس عشرة وسبعمائة.

صنجيل ملك الأفرنج: هلك في هذه السنة، وكان صاحب أنطاكية، وكان قد صالح ابن عمار صاحب طرابلس وهادنه على ان يكون لصنجيل ظاهر طرابلس، ولايقطع الميرة والمسافرين عليها.

وفي تاريـخ ابن كثير: هلـك صنجيل في سنـة تسع وتسعين وأربعمائة، وقال: وفي هذه السنـة - أعني سنة تسع وتسعين - هلـك صنجيل عليه اللعنة في مدينة جبلة، وذلك انه ملكها في هذه السنة —أعني سنة تسع وتسعين— ثم سار وأقام على طرابلس يحصرهـا،وبنى بالقرب منها حصنا وبنى تحته ربضاً، وهـو المعروف بحصـن صنجيل، فخـرج الملك ابـن عمار، صاحـب طرابلـس، فاحرق الـربض، ووقـف صنجيل على سقـوفه المحترقـة فانخسفـت به، فمـرض فبن ذلـك عشرة ايام، وهلـك وحمل الى القـدس ودفـن فيهـا، وقـام بالحصـار بعـده ابنـه، ودام الحرب بين أهـل طرابلس والأفـرنج خمس سنين، وظهر من صاحبهـا ابن عمار صبر جميل، وقلت الأقوات بها، وافتقرت الأغنياء.

وذكر بيبرس في تاريخه هلاكه في السنـة الآتية وقال: لما احرق ابن عمار ربض الحصن الذي بناه صنجيل عامـه ذلك، فمرض ومات. وامر ملك الـروم أصحابـه الـذيـن بالـلاذقيـة أن يحملـوا الميرة إلى الذيـن يحاصرون طـرابلس، فخـرج إليهـم اسطول طـرابلـس فجرى بينهـم قتـال شديـد، فأخذوا الميرة والمراكب فتقووا بها إلى ان ملك السلطان محمد البلاد.

ذكر بقية الحوادث:

منها انـه كانت حروب كثيرة بين عسـاكر مصر والأفرنج فقتلـوا منهـم خلقا كثيرا.

وفي تاريـخ بيبرس: وسبب ذلك ان الافضـل وزير مصر، كـان قد سير ولـده شرف المعالي في السنـة الماضية إلى السـاحـل، فقهر الافـرنج وأخـذ الرملـة، ثم اختلـف المصريون والعرب وادعـى كل واحـد منهما ان الفتح له، فـأتاهم سريـة من الافرنج فتقـاعد كل فـريق منهما عن الآخـر، وكاد الافرنـج ان يظهروا عليهم، فـرحل شرف المعالي إلى والـده بمصر، ثم سير

ولده سناء الملك حسين في جماعة من الأمراء، منهم: جمال الملك نائب عسقلان، وأرسلوا إلى طغتكين أتابك دمشق يستنجدونه، فأرسل إليهم اصبهبذ صبارو ومعه ألف وثلاثمائة فارس، وكان المصريون خمسة آلاف فارس، فقصدهم بردويل صاحب القدس وعكا ويافا في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، فوقع المصاف بينهم بعسقلان ويافا، فلم تظهر احدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان، ومن الفرنج مثلهم، وقتل جمال الملك صاحب عسقلان، فعند ذلك وضعوا الحرب وعادوا إلى عسقلان وعاد اصبهبذ صبارو إلى دمشق، وكان مع الأفرنج من المسلمين بكتاش بن تتش، وكان طغتكين قد عدل عنه بالملك إلى ولد أخيه دقاق وهو طفل، فدعاه ذلك إلى قصد الفرنج والركوب معهم.

ومنها: أنه كانت وقعة بين تنكري صاحب أنطاكية وبين الملك رضوان صاحب حلب، وسببها ان تنكري حاصر حصن أرتاح وبه نائبه، فأرسل إلى الملك رضوان يعلمه ويطلب النجدة، فسار رضوان في عسكر كثير من الرجالة والخيالة تقدير عشرة آلاف، فلما قرب من الافرنج ورأى تنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح، فأراد ان يجيب فمنعه أصبهبذ صبارو وكان قد قصده وسار معه بعد قتل اياز، فامتنع من الصلح، واصطفوا للحرب، فانهزمت الافرنج من غير قتال، واشتغل المسلمون بالنهب فعاد الافرنج فحملوا على المسلمين، فلم يثبوا وانهزموا، وقتل من المسلمين خلق كثير مقدار عشرة آلاف نفس، وفتح المسلمون الحصن وأخلوه وتوجهوا إلى حلب فملكه الأفرنج، وهرب أصبهبذ إلى طغتكين أتابك دمشق فصار في خدمته.

ومنها أنه كان استيلاء الأفرنج على عكا، وذلك ان بردويل ملك الافرنج سار بجموعه إلى ثغر عكا ومعه الجنويون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها برا وبحرا وحاصروها وملكوها بالسيف، وكان

متوليها حينئذ زهـرة الدولة الجيوشي من جهة صـاحب مصر، فخرج منها هاربا إلى دمشق.

ومنهـا أنـه جـرت وقعة بين طغتكين الأتـابـك وبين الفـرنـج، فكسر طغتكين الأفرنج على بعلبك وفتح رفنيه وهدم أبرجتها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والتسعين بعد الاربعمائة

ذكر ما جرى بين المسلمين والافرنج من الحروب والوقائع:

منها انه كـانت الحرب بين طغتكين متولي دمشق وبين الفـرنج ، فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، ففي آخـر الأمر بنى بردويل حصنـا بينه وبين دمشق فخاف طغتكين من عـاقبة ذلك، فجمع عسكره وخرج ليقـاتلهم ويقدم إليهم، فاقتلـوا قتالا شديدا وفيهـم ملكهم القمص، فكانـت الهزيمة على الأفرنج، فتبعهم طغتكين بالقتـل والأسر إلى أن دخلوا الحصن الذي لهم، فحاصره طغتكين وأخذه بـالسيف، وقتل كل من كان فيـه، واستبقى من الفرسان مـائتي فارس في الأسر، وعاد طغتكين إلى دمشق مـؤيداً منصوراً، فزين البلد سبعة أيام.

ومنها ان الفـرنج ملكوا في هـذه السنة حصن أفـامية من بـلاد الشام، وسبب ذلـك أن خلف بن ملاعـب الكلابي، كان قـد تغلب على حمص، وكان الضرر به عظيما، ورجاله كانوا يقطعـون الطريق فكثر الحرامية عنده فأخذها منـه تتش بن ألب أرسلان وأبعده عنهـا، وتقلبت به الأحوال إلى أن دخل مصر فلم يلتفت إليه من بها، فإن المتولي بأفامية من جهة الملك

رضوان أرسل إلى صاحب مصر، وكان يميل إلى مذهبهم، فاستدعى من يسلم اليه الحصن منهم، وهو من أمنع الحصون، فطلب ابن ملاعب ان يكون هو المقيم به، وقال: إني راغب في قتال الأفرنج ومؤثر للجهاد، فسلموه إليه واخذوا رهائنه، فلما ملك خلع طاعتهم، وأرسلوا إليه يتهددونه بما فعل بولده الذي عندهم، فأجاب الجواب.. إني لا أنزل من مكاني وابعثوا إلي بعض أعضاء ولدي حتى آكله حتى أيسوا من رجوعه إلى الطاعة، وأقام بأفامية يقطع الطريق، ويخيف السبيل، واجتمع عنده كثير من المفسدين، فكثرت أمواله، ثم إن الفرنج ملكوا سرمين وهي من أعمال حلب، وأهلها يتغالون في التشيع، فلما ملكها الأفرنج تفرق أهلها وتوجه القاضي الى ابن ملاعب وأقام عنده، فأكرمه واحبه ووثق به، فأعمل الحيلة إليه، وكتب إلى أبي طاهر المعروف بالصائغ، وهو من أعيان الملك رضوان، ووجوه الباطنية ودعاتهم بالفتك بابن ملاعب وأن يسلم أفامية إلى الملك رضوان، فأتى أولاد ابن ملاعب إليه، وكانوا قد تسللوا من مصر وقالوا له: قد بلغنا عن القاضي كذا وكذا، والرأي أن تعاجله وتحتاط لنفسك فإن الأمر قد اشتهر، وأحضره ابن ملاعب فأتاه وفي يده المصحف لأنه رأى امارات الشر فقال: أيها الأمير قد علم كل أحد أني جئتك خائفا فأمنتني وأعتنني فصرت ذا مال وجاه، فإن كان أحد ممن يحسدني منزلتي عندك وماغمرتني به من نعمتك سعى بي إليك، فأسألك ان تأخذ جميع ما معي وأخرج كما جئت، فحلفه على الوفاء له والنصح وخلى سبيله، وأعاد القاضي مكاتبته الى ابي طاهر الصائغ واشار عليه ان يوقف ثلاثمائة رجل من أهل سرمين وينفذ معهم خيلا من خيول الأفرنج من رؤسائهم، ويأتون إلى ابن ملاعب ويظهرون أنهم غزاة، ويشكون من معاملة رضوان وأصحابه وأنهم فارقوه، فلقيتهم طائفة من الأفرنج فظفروا بهم، وكانوا قد اتفقوا على أنهم يحملون جميع ما معهم إليه، فإذا أذن لهم في المقام اتفقت آراءهم على أعمال الحيلة ففعل الصائغ ذلك، ووصل القوم إلى أفامية وقدموا إلى ابن

ملاعب مامعهم من الخيل فقبل ذلك منهم، وأمرهم بالمقام عنده وأنزلهم في ربض أفامية، فلما كان في بعض الليالي نام الحرس بالقلعة فقام القاضي ومن بالقلعة من أهل سرمين ودلوا الحبال وأصعدوا أولئك القادمين جميعهم وقصدوا ابن ملاعب وبني عمه ليقتلوهم، وأتى القاضي ومعه جماعة إلى ابن ملاعب فأحس به، فقال: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت جئت لأقبض روحك وقتل أصحابه، وهرب ابناه فلحقا بأبي الحسن بن منقذ صاحب شيزر.

ولما سمع الصائغ خبر أفامية سار إليها وهو لايشك أنها له، فقال له القاضي: إن وافقتني وأقمت معي فعلى الرحب ونحن نحكمك وإلا فارجع من حيث جئت، فأيس منه، وكان أحد أولاد ابن ملاعب بدمشق عند طغتكين غضبان فهرب إلى الافرنج واستدعاهم إلى أفامية، وقال لهم: ليس فيها قوت غير شهر واحد، فأقاموا عليها يحاصرونها، فجاع أهلها فملكها الأفرنج وقتلوا القاضي المتغلب عليها والصائغ، وكان هذا هو الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام...

فصل فيما وقع من حوادث في السنة الثانية بعد الخمسمائة

ذكر ما فعله الأفرنج لعنهم الله:

منها ان طنكريد فتح حصن بانياس وسلمه إلى المازوير.

ومنها ان الأفرنج اخذوا طرابلس في هذه السنة، وقيل في السنة الآتية، اجتمع عليها ملكهم بيمند بن صنجبيل في ستين مركبا في البحر مشحونة بالمقاتلة، وطنكريد صاحب أنطاكية، وبغدوين صاحب القدس وشرعوا في قتالها وضايقوها من أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة، وايقنوا بالهلاك مع تأخر الاسطول عنهم من مصر، وكان كلما سار

الاسطول نحوهم دفعته الريح إلى جهة مصر، فلما كان في يوم الاثنين هجمها الا فرنج ونهبوها، واسروا رجالها وسبوا نسائها، وساروا الى جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، فتسلموها بالامان في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وخرج منها ابن عمار سالما، ووصل حينئذ الاسطول المصري، وجاء ابن عمار الى شيزر، فأكرمه صاحبها علي بن منقذ واحترمه وعرض عليه المقام عنده فأبى وتوجه الى دمشق فأكرمه طغتكين صاحب دمشق وانزله في داره، وأقطعه الزبداني وأعماله، ووقعت مهادنة بين بغدوين صاحب القدس وبين طغتكين صاحب دمشق على ان يكون السواد وجبل عوف مثالثة: الثلث للفرنج، والثلثين للمسلمين.

ومنها أنه كانت الحرب بين طغتكين صاحب دمشق والأفرنج.

ومنها أن طغتكين سار إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت بردويل صاحب القدس فتحاربا واقتتلا، وكان طغتكين في ألفي فارس وكثير من الرجالة، وكان الفرنجي في أربعمائة فارس وألفي راجل، فلما اشتد القتال انهزم المسلمون ونادى طغتكين: ياللمسلمين فشجعهم فعادوا للحرب وكسروا الأفرنج، وأسر ابن أخت الملك وحمل إلى دمشق فعرض عليه طغتكين الا سلام فامتنع وبذل في نفسه مالا ثلاثين ألف دينار، واطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الاسلام، فلما لم يسلم قتله بيده، وأرسل إلى الخليفة والسلطان الأسرى إلى بغداد ثم وقع الصلح بين بغدوين ملك القدس وبين طغتكين على أن تضع الحرب (أوزارها) أربع سنين، وكان ذلك لطف الله بالمسلمين.

ومنها أنه في شعبان انهزم المسلمون من الأفرنج، وسبب ذلك أن حصن عرقة من أعمال طرابلس الشام كان بيد غلا م القاضي فخر الملك ابن عمار، فعصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الأفرنج في نواحيها، فأرسل إلى طغتكين ليرسل إليه من يتسلم

الحصن: فقد عجزت عن حفظه لئلا يأخذه الأفرنج والمسلمون أحق به، فسار إليها فاجتمع الفرنج الذين كانوا يحاصرون طرابلس وغيرها وكسروا طغتكين، وانهزم المسلمون إلى حمص، فغنم الأفرنج أثقالهم ودوابهم، ثم حصروا عرقة، فطلب من بها الأمان فأمنهم الأفرنج، وكان في الأسر مقدم يسمى اسرائيل، فقالوا له: لانخليك تروح حتى يسير إلينا طغتكين فلانا الأفرنجي بذلك، ففدى به طغتكين واطلقا جميعا.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها في عيد الفصح للنصارى نزل الأمراء بنو منقذ أصحاب شيزر للتفرج على عيد النصارى، فثار جماعة من الباطنية في حصن شيزر فملكوا قلعتها، وبادر أهل المدينة إلى الباشورة وأصعدهم النساء بالحبال من الطاقات وأدركهم الأمراء بنو منقذ، ووقع بينهم القتال فانخذلت الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد.

ومنها في شوال ملك الأمير سقمان القطبي صاحب خلاط مدينة ميافارقين بالأمان بعد أن حصرها وضيق على أهلها حتى عدمت الأقوات فسلموها بالأمان...

ومنها أن الأمير مودود استولى على الموصل هو والعسكر الذين أرسهلم السلطان محمد، وأخذوها من أصحاب جاولي سقاوة، وقد ذكرنا استيلاء جاولي عليها في سنة خمسمائة وماجرى بينه وبين جكرمش والملك قليج أرسلان، وكان سبب غضب السلطان على جاولي أنه كان استولى على البلاد ولم يحمل إليه منها شيئاً، ولما وصل السلطان إلى بغداد لقصد سيف الدولة صدقة أرسل إلى جاولي يستدعيه إليه بالعساكر، وتكررت الرسل إليه فلم يحضر وغالط في الانحدار إليه، فلما فرغ السلطان من أمر صدقة وقتله كما تقدم أمر بتجهيز العساكر لقصد

الموصل فتقدم الى الامراء وهم: بنو برسق، وسقمان القطبي، ومودود، وأقسنقر البرسقي، ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي، وأبي الهيجاء صاحب إربل، بالمسير إلى الموصل وأخذها منه فتوجهوا فوجدوا جاولي عاصيا قد شيد سور الموصل وحصنها، وأعد الميرة والأقوات، فنزلوا عليها في شهر رمضان من هذه السنة وحاصروها وضايقوها، فلما طال الأمر على الناس اتفق نفر من الجصاصين ومقدمهم يعرف بسعد، فأتوا وقت صلاة الجمعة وصعدوا برجاً وقتلوا الجند الذين به، وأغلقوا بابه ونادوا بشعار السلطان محمد، وطلع مائتا فارس من العسكر فرموهم بالنشاب ونادوا بشعار السلطان، فعند ذلك زحف العسكر من كل مكان على البلد فملكوه ودخله الأمير مودود فنادى بالسكون ورفع النهب وأن يعود الناس إلى دورهم، وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام فراسلت الأمير مودود في أن يفرج لها عن طريقها ويتسلم القلعة فأجاب إلى ذلك، فحلف لها وخرجت إلى أخيها برسق بن برسق ومعها أموالها وما استولت عليه، وولي مودود الموصل وما انضاف إليها.

وأما جاولي فإنه لما وصل عسكر السلطان إلى الموصل خرج عنها وأخذ القمص صاحب الرها الذي كان أسره سقمان وسار به إلى نصيبين وهي للأمير إيلغازي بن أرتق، وسأله الاجتماع به واستدعاه إلى معاضدته فلم يجبه ايلغازي الى ذلك، فرحل عن نصيبين وسار إلى ماردين وقصد دار إيلغازي، ولم يشعر الا وجاولي معه في القلعة وحده، وقصد ان يتألفه ويستميله، فلما رآه إيلغازي قام وخدمه، ولما رأى جاولي محسنا به الظن نزل معه وعسكر بظاهر البلد، فسار نحو الرحبة وإيلغازي يظهر لجاولي المساعدة ويبطن الخلاف وينتظر الفرصة لينصرف عنه، فلما وصلا إلى عربان من الخابور هرب إيلغازي، فسار جاولي إلى الرحبة، فلما وصل ماكسين أطلق القمص الفرنجي واسمه بردويل، وكان صاحب الرها وسروج وكان مقامه في الأسر خمس سنين وقرر عليه أن يفدي نفسه بمال وأن يطلق المسلمين الذين أسرهم وأن

ينصره متى طلبه بنفسه وعسكره، فلما اتفق الحال سير القمص إلى قلعة جعبر فسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك، وأقام جوسلين في قلعة جعبر رهينة عن القمص، فلما أطلقه سار إلى أنطاكية فأعطاه طنكريد صاحب أنطاكية ثلاثين ألف دينار وسلاحا وخيلا وغير ذلك، وأطلق القمص من أسارى المسلمين مائة وستين نفرا كلهم من سواد حلب فكساهم وسيرهم، وكان صاحب أنطاكية قد تسلم الرها من أصحاب القمص حين أسر، فلما وصل طلب ردها من صاحب أنطاكية، فلم يفعل، فخرج من عنده غضبانا الى تل باشر، ثم إن جاولي منّ على جوسلين باطلاقه من الأسر لأنه فدى نفسه بمال، فاجتمعا على تل باشر واتفقا على محاربة صاحب أنطاكية، فسار إليهما بعساكره فاقتتلوا وعاد طنكريد إلى بلاده من غير فصل حال، فتوسط البترك بينهما وقال له جماعة من البطاركة والقسيسين: إن بيمند لما أراد ركوب البحر قال ان تعاد على القمص الرها إذا خلص من الأسر، فأعادها عليه في تاسع صفر، وعبر الفرات ليسلم إلى أصحاب جاولي المال، وكان بسروج ثلاثمائة مسلم ضعفاء، ولما أطلق جاولي القمص سار إلى الرحبة، فأتاه أبو النجم بدران، وأبو كامل منصور ابنا سيف الدولة صدقة، وكانا بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك بقلعة جعبر فتعاهدوا على المساعدة والمعاضدة، ووعدهما أن يسير معهما الى الحلة، وعزموا أن يقدموا عليهم بكتاش بن تكش بن ألب أرسلان، فعندما عزموا على هذا الامر وصل إليهم اصبهبذ صبارو الذي كان قصد السلطان محمدا، واقطعه الرحبة فاجتمع بجاولي واشار عليه ان يقصد الشام فإن بلاده خالية من الجند، والافرنج قد استولوا على أكثرها، ومتى قصد العراق والسلطان بها لم يأمن من شر يصل اليه، فقبل قوله، وأصعد عن الرحبة، فوصل اليه رسل سالم بن مالك صاحب جعبر يستغيث به من بني نمير، وكانت الرقة بيد ولده علي بن سالم فوثبوا عليه فقتلوه، فبلغ ذلك الملك رضوان صاحب حلب، فسار الى صفين، فصادف في صفين الذين معهم مال القمص صاحب الرها قد

سيره الى جاولي فاخذه واسر الافرنج، واتى الرقة فصالحه بنو نمير على مال فرحل عنهم الى حلب، فاستنجد عند ذلك سالم بن مالك جاولي، فقصد الرقة وحصرها سبعين يوما، فضمن له بنو نمير مالا وخيلا، ورحل عنهم، ثم وصل إليه الامير اتابك، حسين بن قتلغ تكين يأمره بتسليم البلاد، وطيب قلبه عن السلطان، وضمن له كل جميل إذا سلم البلاد، فقال جاولي: سر إلى الموصل ورحل العسكر عنها، وأنا أرسل معك من يسلم ولدي رهينة وينفذ السلطان من يتولى امرها، ففعل حسين ذلك، وسار ومعه صاحب جاولي، فلما وصل الى العسكر قبض الامير مودود على صاحب جاولي، وأقام على الموصل حتى فتحها كما ذكرنا، وعاد حسين إلى السلطان فأحسن القول عن جاولي، فسار جاولي إلى مدينة بالس فملكها، وهي من أعمال حلب، فعند ذلك كتب الملك رضوان إلى طنكريد صاحب أنطاكية يعلمه انه قاصد حلب وأنه إن ملكها لايبقى للافرنج معه مقام بالشام، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه، فأجابه ولحق به وهو بمنبج، فوصل الخبر وهو في هذه الحالة أن الموصل أخذت، واستولى عليها عسكر السلطان، وملكوا خزائنه وأمواله فاشتد ذلك عليه، ففارقه أكثر عسكره، ومنهم أتابك زنكي وبكتاش، وبقي مع جاولي نفر يسير، فلما تقاربوا وتصافوا وكان صاحب أنطاكية في عسكر كثيف من المسلمين والأفرنج، فلما وقعت العين على العين لم يثبت لهم جاولي، فانهزم عسكره منهم، وتوجه نحو بلاده، وقتل من المسلمين خلق كثير، ونهبت الأفرنج دوابهم وأموالهم، وأما جاولي فقصد الرحبة، فلما رأى الحال كذلك علم انه لايقدر يقيم في الجزيرة ولابالشام، ولايقدر على شيء يحفظ به نفسه ويرجع إليه غير قصد باب السلطان محمد شاه، وكان واثقاً من الأمير حسين بن قتلغ تكين، فرحل وسار إلى عسكر السلطان، وكان بالقرب من أصفهان، فوصل إليه في سبعة عشر يوما، لانه جد السير، فلما وصل العسكر قصد الأمير حسيناً، فحمله إلى السلطان وكفنه في يده، فآمنه فأتاه الأمراء

يهنونه، وطلب منه السلطان الملك بكتاش بن تكش فسلمه إليه واعتقله بأصفهان...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة بعد الخمسمائة

ذكر ماجرى من الافرنج لعنهم الله في هذه السنة:

من ذلك ان الافرنج اخذوا مدينة طرابلس وقتلوا من فيها من الرجال، وسبوا الحريم والأطفال وغنموا الأمتعة والأموال، ثم أخذوا مدينة جبيل.

وفي تاريخ بيبرس: وفي سنة ثلاث وخمسمائة ملكت الا فرنج طرابلس وبيروت من الشام، وسبب ذلك انهم حاصروها خمس سنين، فلما طال المقام عليها وصاحبها فخر الملك ابن عمار سار إلى السلطان محمد شاه يستنجده، فلما خرج منها سلمها إلى ابن عمه أبي المناقب، فكاتب الأفضل وزير مصر وسلمها إليه كما ذكرنا، وكانت النجدة والميرة تتواصل من مصر والحكم لصاحب مصر وهو نائبه، فلما كان في أول شهر رمضان وصل اسطول كبير، واجتمع عليها ملوك الفرنج، وجاء بيمند بن صنجيل في ستين مركبا وطنكريد صاحب انطاكية وبغدوين صاحب القدس وضايقوها وزحفوا عليها لمساعدة السرداني ابن أخت صنجيل، فلما شاهد ذلك الجند وأهل البلد سقط في أيديهم وذلت نفوسهم لتأخر الاسطول المصري، لتغير الريح اليهم وتعذر الوصول اليهم ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولا﴾ [الانفال ٤٢] فشد الافرنج عليهم القتال والزحف فهجموا البلد وملكوها قهرا في يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ونهبوا مافيها واسروا وقتلوا وسبوا النساء والاطفال، ونهبوا

الامتعة والأموال، وسلـم الوالي الذي كان فيها وسلم الأمـوال، وسلم قوم من أهلهـا وجماعة مـن جندها كـانوا قد التمسـوا الأمان، ثـم رحلوا الى دمشق، واخذت الافـرنج دفائن اهل طـرابلس وذخائرهم، وعـاقبوا أهلها فلا حول ولاقوة الا بالله العلي العظيم.

ولما فـرغ الافرنـج من طـرابلـس سار طنكـريـد صاحـب انطاكيـة الى بلنياس وحصرها فـافتتحها، ثم نزلوا على جبيل وبها فخـر الملك ابن عمار صـاحب طـرابلـس، وكان القـوت بها قليلا، فحـاصروهـا وطلب أهلهـا الأمان فخرجـوا منها وملكها الأفرنج في الثاني والعشريـن من ذي الحجة، ثـم سار فخـر الملـك الى دمشق وانـزلـه طغتكين عنده فـأكـرمه واقطعـه الزبداني من عمل دمشق، وكان ذلك في المحرم من سنة اربع وخمسائة.

وفي هذه السنة ــ أعني سنة ثلاث وخمسمائة ـ ملكـت الافرنج بيروت، ومقدمهم بغدويـن صاحب القدس، ثم ساروا الى صيـدا فصالحوهم على ستة آلاف دينار فرحلوا عنها، وسار بغدوين الى القدس.

وفي هذه السنـة ايضا سـار طنكريد صـاحب أنطـاكية الى طـرطوس واخذها، ثم بعد ذلك قـرر على شيزر عشرة آلاف دينار، ثم تسلم حصن الاكراد وعاد الى انطاكية.

وفي تـاريخ ابـن العميـد: وكانـت مدة حصـار الافـرنج سبـع سنين، واستولـت عليها الافـرنج بعـد ان فني مـن فيها مـن المسلمين من شـدة المضـايقة والجوع، وكـانـت مـدينة عظيمـة مملوءة مـن المسلمين والعلماء، وملكت ايضـا في هذه السنة حصـن عكار، وحصن المنيطـرة، وقرروا على حصن مصيـات، وحصن الأكـراد قطيعة معينة في كـل سنة، وفيهـا ايضا ملكت الافرنج بيروت بعد حصار شديد.

وفي المرآه: وفي هـذه السنة نهضـت الأفرنـج على رفنية، وعـرف أتابـك طغتكين فسار بـالعسكر وخيم بازائهـم بحمص، فلم يقدروا على منـازلة رفنية، وترددت بينهـم مراسلات أفضت إلى تقريـر الموادعة على أن يكون لـلافرنـج ثلث مغـل البقاع، ويسلـم إليهم المنيطـرة وحصن عكـار، وأن لايتعرضـوا لحصن مصيات وحصـن الأكراد وأن يحمل إليهـم عنهما مالا، وكذا عن حصن الطوبان، فأقامـوا مدة يسيرة، ثم عاد الافرنج الى الفساد في البـلاد، ونزل بغـدويـن صاحـب القـدس وابن صنجيـل على بيروت، وسـار إليهم جـوسلين صـاحـب تل بـاشر لمعـاونتهـم، وجاء الاسطـول المصري وفيه الرجـال والميرة فدخلوا بيروت فقويت نفـوس أهلها، وبعث بغدوين إلى الجنـوية فجاءوا في أربعين مركباً فـزحفوا برا وبحرا فـدخلوها قهراً بـالسيف فقتلوا ونهبـوا وسبوا وفعلـوا كما فعلوا بطرابلـس واستصفوا الأموال والذخائر، ثم رحل بغدوين فنزل على صيدا وراسل أهلها بتسليم البلد فاستمهلوا مـدة عينوها فأجابهم واخذ منهـم مالا، وعاد الى القدس بسبب الحج.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير قراجـا صاحب حمص توفي في هـذه السنة فملكها بعـده رجل يقـال له خيرخـان... وفي تاريـخ ابن العميـد: لما مـات قراجـا صاحـب حمص ملكها بعده صمصام الدين خيرخان ولد قراجا، وا لله أعلم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة بعد الخمسمائة

ذكر ما جرى من الافرنج لعنهم الله:

وقال بيبرس: وفي هـذه السنة ملك الافـرنج مدينـة صيدا من سـاحل الشام في ربيع الآخـر، وكان ذلك بالأمان، وقال بيبرس: وسبـب ذلك انه وصـل في البحر الى الشـام ستـون مـركبا لـلافـرنج مشحـونـة بـالرجـال والذخـائر مـع بعـض ملوكهـم ليحـج الى بيت المقـدس، ويغـزو بزعمـه المسلمين، فاجتمع بهم بغدوين صاحـب القدس، وتقررت القاعدة بينهم ان يقصـدوا بلاد الاسـلام، فرحـلا من القـدس، ونزلا على مـدينة صيـدا ثـالث ربيـع الآخر، فحـاصروها وضـايقوهـا برا وبحـرا، وكان الاسطـول المصري مقيما على صور، فلـم يقدروا على انجـادهم، فعمل الفـرنج بـرجا من خشب واحكموه وجعلوا عليه مـامنع من الحجارة والنار، وزحفوا فلما عاين أهل البلد ذلك ضعفت قلوبهم واشفقوا ان يصيبهم ماأصاب أهل بيروت وغيرها، فـأرسلوا قـاضيها ومعه جماعـة من شيـوخها إلى الافـرنج وطلبوا الامـان، فامنهم ملكهـم على نفوسهـم وأموالهم والعسكر الـذين عندهم، ومـن أراد المقام يقيم، ومن أراد المسير عنهم لايمنعـونه، وحلف لهم على ذلك، وخـرج الوالي وجماعـة كبيرة من أعيـان البلد في العشريـن من جمادى الاولى، فوصلوا دمشق، وأقـام بالمدينة خلق كبير تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يومـا، ورحل عنها الى القدس، ثم عاد الى صيدا فقرر عليهم عشرين ألف دينار، وأقرهم في بلدهم.

وفي هذه السنـة أيضا سار صـاحب أنطاكية مـع من اجتمع إليـه من الافرنج إلى الأثـارب، وهو بالقرب من حلـب وحصره ودام القتال بينهم، ثم ملكـوها بـالسيف، وقتلوا مـن أهلها ألفـي رجل، وأسروا البـاقين، ثم

ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى على أهلها ماجرى على أهل الأثارب، ثم ساروا إلى منبج وبالس فوجدوهما وقد أخلاهما أهلهما، فعادوا عنهما، وصالح الملك رضوان صاحب حلب الأفرنج على ثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الأفرنج، فبذل لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم، فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماه على ألفي دينار.

وفيها غدر بغدوين صاحب القدس ونزل طبرية، وخرج طغتكين صاحب دمشق فنزل على رأس الماء، ثم استقر الأمر على أن يكون ماكان من البلاد مناصفة.

وفي تاريخ بيبرس: لما جرى ماذكرنا من الأفرنج عظم خوف المسلمين منهم وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا بأن الفرنج يستولون على سائر الشام لعدم المحامي عنهم، فشرع أهل البلاد الاسلامية من الشام في الهدنة معهم، فاستنع الافرنج الا على قطيعة يأخذونها إلى مدة معلومة يسيرة أو الى الحصاد، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار وخيول وثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينار، فخرجت مركب تجار من مصر، فلما أقلعت خرج عليها مراكب الأفرنج، وأخذوا البضائع وأسروا التجار، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد يستنفرون الناس على الأفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، وقصدوا جامع السلطان، واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بتجهيز العساكر للجهاد، وأرسل من دار الخليفة منبراً إلى جامع السلطان، فلما كانت الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم أهل بغداد، فمنعهم صاحب الباب من الدخول فغلبوا عليه، ودخلوا الجامع

وكسروا الشباك، وهجمـوا إلى المنبر فكسروه وبطلت الجمعـة، وأرسـل الخليفة الى السلطـان في المعنى يـأمره بـالاهتمام بهذا الفتق ورقعـه، فتقدم حينئذ إلى من معه من الامراء بـالمسير الى بلادهم والتجهز للجهاد، وسير ولـده الملـك مسعود مـع الامير مـودود صـاحـب الموصل، وتقـدمـوا الى الموصل ليلحق بهم الامراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهـز السلطان محمد شاه العسـاكر الى الشام لقتـال الافرنـج. منهم: شرف الـدين مـودود صاحـب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا الى قتال الافرنج.

وفي المرآة: وفي سنة اربع وخمسمائة جهـز السلطان محمد شاه العسـاكر لقتـال الافرنـج، منهـم: شرف الديـن مـودود صـاحب الموصـل، والأمير أحمديـل صاحـب مـراغة، والأمير سقمان القطبـي صـاحـب ديار بكـر، والأمير ألبي والأمير زنكي ابنـا برسق، والأمير ايلغازي صاحـب ماردين، فاجتمعـوا في حران، وكتـب اليهم ابن منقـذ صاحـب شيزر وعـرفهم ان طنكريد صاحب انطاكية قد نـزل بأرض شيزر وشرع في بناء تل في مقابل شيـزر، ويـريـد ان يبنيـه حصنـاً، فقطعـوا الفـرات ونـزلـوا علـى تـل بـاشر ينتظـرون البرسقـي صـاحـب همذان، فـوصـل وهـو مـريـض واختلفت آراؤهم، ومرض سقمان وطمع أحمديـل في بلاده، فعادوا عن تل باشر إلى حلب، وعاثوا في البلاد من أعمال حلب، وفعلوا أقبح من فعل الأفرنـج، وتوقعوا خـروج الملك رضوان صاحـب حلب إليهـم، أو خـدمة يبعثها إليهـم، فلم يلتفـت وأغلق أبواب حلـب، وأخذ رهـائن أهلها إلى القلعـة، واستعد للقتـال، وقـد كانـوا لما قطعـوا الفـرات كاتبـوا طغتكين صاحب دمشق بالوصول إليهم ليـدبروا الأمور، وكتب إليه السلطان بمثل ذلـك، فجمع وحشـد رجالـه ورجـال حمص وحماة ورفنية، وسـار في جمع كثيف طلبا للجهـاد، فوصل إليهم على حلـب، فسروا بوصوله، وقـويت

نفوسهم، فلم يرمنهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد، وأما سقمان فعاد الى بلاده ومات في طريقه قبل وصوله في الطريق الى الفرات، وأما البرسقي فكان به نقرس فحمل في محفة ولاقول له ولافعل، وأما أحمديل فإن عزمه قد قوي على العود لأجل بلاد سقمان وطمعه في اقطاعه يأخذه من السلطان.

فقال طغتكين لأتابك: ارحلوا الى المعرة، فرحلوا على كره، فقال: انزلوا على طرابلس، فتوقفوا ثم تسللوا وتفرقوا تفرق أيدي سبأ، ولم يبق منهم سوى شرف الدين مودود، وكان مصافيا لأتابك طغتكين مصافاة صدق، فنزلا على العاصي، وكان الأفرنج قد تفرقوا الى مواضعهم، فلما تفرق المسلمون رجعوا وصاروا يدا واحدة على الاسلام، ونزل ابن منقذ من شيزر الى طغتكين ومودود وخدمهما، وحمل إليهما، وجاء الافرنج فنزلوا على تل معشر مقابل شيزر ليبنوا عليه حصنا، ونازلهم طغتكين ومودود، وطمع الترك وتخطفوهم، ومنعوا احدا منهم ان يخرج من خيمته، وقتلوا وأسروا، فلما رأوا أحوالهم ناقصة انكفأوا راجعين الى انطاكية وطرابلس والترك في آثارهم قتلا وأسرا، واستحكمت المودة بين طغتكين ومودود صاحب الموصل.

وذكر بيبرس في تاريخه اجتماع من ذكرناهم من الأمراء أصحاب البلاد وعبورهم من الفرات في سنة خمس وخمسمائة، وقال: لما اجتمعوا ساروا الى بلد شبختان ففتحوا عدة حصون من بلاد الافرنج وقتلوا من بها منهم، وحصروا مدينة الرها مدة، ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها، وسبب ذلك ان الافرنج اجتمع فارسهم وراجلهم وساروا ليعبروا الفرات، ويمنعوا الرها من المسلمين، فلما بلغوا الفرات بلغهم كثرة المسلمين فلم يتقدموا، وبلغ المسلمين ذلك، فرحلوا الى حران ليعبر الافرنج الفرات، فلما عبروا ووصلوا إلى الرها ومعهم الميرة والذخائر، فجعلوا فيها كل مايحتاجون إليه بعد أن أشرفت على ان تؤخذ، وأخذوا منها كل من عجز

ورجعوا فعبروا الفرات الى الجانب الشامي، وطرقوا بلاد حلب فنهبوا وأفسدوا فيها وأسروا وقتلوا خلقا كثيرا.

وأما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعود الافرنج عن الرها الى الفرات، رجعوا الى الرها وحاصروها، فرأوا سورها محكما، وقد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم، فلم يجدوا فيها مطمعا، ونزلوا على تل باشر، فلم ينالوا منها غرضا، ورحلوا الى حلب، فأغلق الملك رضوان أبواب البلد، ولم يجتمع بهم، ومرض الامير سقمان وتوفي في بالس فحملوه في تابوت إلى بلادهم، فقصدهم ايلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم، فحملوا تابوته في القلب وقاتلوا فانهزم إيلغازي وغنموا ما معه، وأراد الأمير أحمديل أن يطلب من السلطان ماكان لسقمان، ولما سمع الافرنج تفرق عساكر السلطان وابن منقذ صاحب شيزر، فسار الى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الافرنج وحرضهما على الجهاد، فرحلا الى شيزر، ونزلا عليها بالقرب منهم، وضيقوا على الافرنج الميرة ولزوهم بالقتال، والأفرنج يحفظون نفوسهم، فلما رأوا قوة المسلمين عادوا الى أفامية وتحصنوا فيها، وتبعهم المسلمون فتخطفوا من أدركوهم في ساقتهم، وعادوا الى شيزر.

وفي هذه السنة ايضا نزل الافرنج مدينة صور، واجتمعت عساكرهم عليها عندما تفرقت العساكر الاسلامية، وساروا اليها مع بغدوين صاحب القدس، ونازلوها وعملوا عليها ثلاثة أبراج خشب، علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برج ألف رجل، وألصقوا أحدها بسور البلد، وكانت صور للآمر بأحكام الله صاحب مصر، ونائبه بها عز الملك الاعز، فأحضر أهل البلد وسألهم في حيلة يدفع بها شر الابراج، فقام شيخ من طرابلس وضمن احراقها، فعمد الى ألف رجل فألبسهم السلاح، ودفع الى كل واحد منهم حزمة حطب، فقاتلوا الافرنج حتى وصلوا الى البرج الملتصق بالمدينة، فالقى الحطب من جهاته، والقى فيه

النار، ثم خاف ان يشتغل الفرنج الـذين في البرج باطفاء النار ليتخلصوا، فرمـاهم بجرار مملـوءة من العذرة كـان أعدها لهم، فلما سقطـت عليهم اشتغلوا بها نـالهم من بين الروائح، فتمكنت النـار منه، فهلك كل مـن به الا القليل، وأخذ المسلمون منـه ماقدروا عليه بالكلاليـب، ثم أخذ قففا كبـارا مـلأهـا بـالحطـب المسقـي بـالنفـط والـزفـت، والـزيـت والكتـان والكبريت، فـرماهم بسبعين سلة منهـا، فأحرق البرجين الآخريـن، ثم ان أهل صـور حفروا سراديـب تحت الارض ليسقط فيهـا الفرنـج اذا زحفوا اليهم، فاستـامن الى الافرنج مـن أهل البلد نفر مـن المسلمين واعلموهم بها عملوا فحذروا.

وأرسـل اهل البلـد الى اتابـك طغتكين صـاحب دمشـق يستنجدونـه ويطلبـون ان يسلموا اليـه البلد، فسـار في عسكـره الى نواحـي بانيـاس، وسير إليهـم نجدة مـائتي فـارس ، فدخلـوا البلـد، فامتنـع من فيـه بهم واشتد القتال من الافرنج خوفـا من النجدات، وفني النفط، وظفروا بشيء منه في شرف من الارض لايعلم من خزنه.

ثم إن عـز الملك صـاحب صـور أرسل الى طغتكين ليكثـر من تجنيـد الرجال ويقصـدهم ليملك البلد، فـأرسل طغتكين طائرا فيه رقعـة يعلمه بوصـول المال، ويأمره ان يقيـم بمكان ذكره ليجـيء الرجال إليـه، فسقط الطـائر على مركـب للفـرنـج، فأخـذه رجـلان: مسلـم وأفرنجـي، فقـال المسلم: نـرسله لعـل ان يكون فيـه فرج لهم، فلـم يمكنه الافـرنجي مـن ارسالـه وحمله الى الملـك بغدويـن، فلما وقف عليـه سير مركبـا الى المكان الذي ذكـره طغتكين، وفيه جماعة مـن المسلمين الذيـن استأمنوا إليـه من صور، فوصل إليهم العسكر وكلموهم بـالعربي، فلم ينكروهم، فأخذوهم أسرى، وحملوهم الى الافرنج فقتلوهم وطمعوا في أهلها.

-١١٠٤-

ذكر بقية الحوادث:

منها أن شمس الخلافة نائب عسقلان مات في هذه السنة، وسبب ذلك أن شمس الخلافة كان نائبا بعسقلان من جهة الآمر بأحكام الله، خليفة مصر، وكان الوزير الافضل ابن أمير الجيوش رتبه فيها، فلما كان في هذه السنة استولت الافرنج على البلاد اولا فاولا، فخاف منهم النائب شمس الخلافة، فراسل بغدوين صاحب القدس، وأهدى إليه هدايا وهادنه وامتنع من تحكم المصريين عليه الا فيما يريد من غير مجاهرة بذلك، فوصلت الاخبار الى مصر بذلك فجهز جيشاً وأمره سرا ان يقبض عليه إذا نزل إليه، وأمره ان يقول: إنه تجهز للغزاة ويعلمه الحال، فلما وصل الجيش إليه امتنع من الخروج وجاهر بالعصيان، فلما علم الأفضل امتناعه أرسل إليه يطيب قلبه، وأقره على عمله، فلم يزل على هذه الحال، وأنكر أمره أهل البلد، فوثبوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر، ونهبوا داره، وأرسلوا إلى الافضل بصورة الحال فشكرهم على ذلك، وأرسل واليا عليهم عوضه، ووصاه بالرفق بهم والاحسان إليهم، فزال ماكانوا يخافونه.

ومنها أنه ورد رسول ملك الروم إلى السلطان محمد يستنفره على الافرنج ويحيشه على قتالهم ودفعهم عن البلاد، وكان وصولهم قبل وصول أهل حلب، وكان أهل حلب يقولون للسلطان: أما تستحي ان يكون ملك الروم اكثر حمية للاسلام منك حتى أرسل إليك في جهاد الافرنج؟ وكانوا يحرضونه بهذا القول ومثله..........

ذكر من توفي فيها من الاعيان

الأمير سقمان.. ويقال له سكمان أيضاً بالكاف موضع القاف ــ بن أرتق ، صاحب ديار بكر وخلاط، قد ذكرنا أنه مات في بالس عند

-١١٠٤١-

رجوعه من بلاد حلب الى بلاده، وكان قد مرض ومات فيها، فحمل تابوته الى خلاط ودفن بها، وقيل دفن في ميافارقين، وكان ملكا عادلا مجاهدا خيرا، وقيل مات في ميافارقين ودفن بها، والله أعلم، وكان أبوه أرتق مات بالقدس.

-١١٠٤٢-

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستظهر بالله، وبقية أصحاب البلاد على حالهم والعساكر السلطانية في بلاد الشام لأجل قتال الافرنج صحبة الامير مودود، صاحب الموصل، وجرى لهم ماذكرناه في السنة الماضية، وكانوا قد تفرقوا كما ذكرنا.

وكان طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها، وقصد حصن الحبيس في السواد من أعمال دمشق، وهو للفرنج، فحصره وملكه بالسيف وقتل من كان فيه، وعاد إلى الأفرنج الذين على صور، وكانت الميرة تقطع عنهم في البر، فاحضروها في البحر، وخندقوا عليهم، ولم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا، وأغار على ظاهرها، وقتل جماعة من البحرية وأحرق نحو عشرين مركبا على الساحل وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالكتب يأمرهم بالصبر، والفرنج يلازمون قتالهم، وقاتل أهل صور قتال من أيس من الحياة، فدام القتال إلى أوان إدراك الغلات، فخاف الافرنج ان يستولي طغتكين على غلات بلادهم، فساروا عن البلد إلى عكا، وعاد عسكر طغتكين اليه، وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها، ثم أصلحوا ماتشعث من سورهم وخندقهم، وكان الأفرنج قد طموه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين وحشد لقصد صور، فكتب واليها وأهلها إلى أتابك طغتكين يستنجدونه ويسألونه ان يسلموها إليه قبل مجيء الافرنج لانهم أيسوا من نصرة أهل مصر، فبعث إليهم أتابك الفرسان والرجالة وسار إليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فقطع أشجارها وقاتلها أياما وعاد خاسرا وخرج طغتكين من دمشق وخيم ببانياس، وجهز الخيالة والرجال الى صور نجدة، فلم يقدروا على الدخول، فسار إلى السواد ونزل على الحبيس

وهو حصن عظيم وحاصره وفتحه عنوة، وقتل من فيه، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور، وزحف إليهم أتابك ليشغلهم عن صور، فخندقوا عليهم وهجم الشتاء، ولم يبال الافرنج لانهم كانوا في ارض رملة والمسلمون في ارض وعرة، وكانت المادة تصل إلى الافرنج من صيدا، فسار إليها أتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية، وغرق المراكب، ومع هذا فإنه يواصل أهل صور المكاتبة ويقوي قلوبهم، وعمل الافرنج برجين عظيمين، وزحفوا بها الى السور، وكان طول البرج الكبير زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير نيفا وأربعين ذراعا، وزحفوا اول يوم من رمضان، وخرج أهل صور بالنفط والقطران لحريق البرجين، ورموا بها، فنزلت النار، فهبت الريح فأحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير، فأطفأها الافرنج، وأشرف أهل البلد على الهلاك، فتصدر شخص من المسلمين وتحيل في حريق البرج فاحترق وخرج المسلمون، فأخذوا منه من الآلات والأسلحة ما لاتوصف (كثرته) فحينئذ وقع يأس للفرنج فرحلوا وأحرقوا جميع ماكان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعلوفات وغيرها، وجاءهم طغتكين فما سلموا إليه البلد ولاوفوا له، فقال: أنا مافعلت مافعلت إلا لله تعالى، لالرغبة في حصن ولامال، ومتى دهمكم أجبتكم بنفسي ورجالي، وكان من سعادته أنهم لم يسلموا إليه، لانه كان عاجزا عن حفظ صور ودمشق، وصور ماكان لهم بد من أخذها، ورحل عنها.

وذكر في المرآة أيضاً ان أهل صور لما كتبوا إلى طغتكين بتسليم البلد إليه من شدة ماقاسوا من الحصار والقتال وعدم نصرة أهل مصر، وكان والي صور عز الملك أنوشتكين الأفضلي، فجاء رسولهم إلى بانياس، وواليها سيف الدين مسعود فأخبره، فسار مسعود معه إلى دمشق، فوجد أتابك قد مضى الى ناحية حماة ليتفق مع الملك رضوان صاحب حلب، فخاف مسعود ان يتأخر الامر الى حين عودة أتابك من حماة فيسبق

بغدوين فينزل على صور، فيفوت الغرض، فتحدث مع تاج الملك بوري بالمسير معه الى بانياس، وانتهاز الفرصة في تسليم صور، فأجاب، فسار معه الى بانياس، وتم مسعود الى صور ومعه من يعتمد عليه من العسكر، وبلغ أتابك فبعث قطعة من الأتراك إلى تقوية صور، فساروا إليها ودخلوها، وطابت نفوس أهل صور، ثم كتب إلى الأفضل وزير مصر بأن الأفرنج نزلوا على صور، وشارفوا على أخذها، وبعث أهلها الي يستنجدونني، واني أنجدتهم بنفسي، ومالي ورجالي، ومتى وصل إليهم من مصر من يذب عنها سلمتها إليه، فلا تهمل حال الاصطول.

وجاء بغدوين، فبلغه الخبر فتوقف وفات غرضه، ولما فات غرضه شرع في الغارات على حوران والسواد، وكثر فساده، ثم كتب أتابك إلى مودود صاحب الموصل يخبره بالخبر، ويطلب نجدته، وكانا قد اتفقا وتصادقا وتحابا محبة عظيمة كما ذكرنا.

فسار مودود بعساكره فقطع الفرات، وخرج إليه أتابك طغتكين، فتلاقيا عند سلمية واتفق رأيهما على قصد بغدوين، وسارا من حمص ومعهما عساكر الشرق وعساكر حمص وحماة ودمشق، وجاءوا على البقاع فنزلوا الغور عند الاقحوانه، وجمع بغدوين ونزل على جسر الصنبرة، فتقدم بعض المتعلفة فالتقوا الأفرنج، ونشب القتال، وجاء أتابك وقطع الجسر واقتتلوا، فانهزم الأفرنج وقتل منهم نحو ألفي فرنجي من الفرسان والشجعان والأبطال، وغنموا أثقالهم، وأفلت بغدوين بعدما قبض وأخذ سلاحه، وغرق أكثرهم في البحيرة، وبعث أتابك ومودود إلى السلطان محمد شاه يخبرانه بهذا الفتح العظيم وبعث سلاحهم، ثم أغار المسلمون على الضياع التي بين القدس وعكا، وأخربوا ونهبوا وعادوا إلى دمشق، ونزل مودود في قصر الميدان الأخضر، وبذل أتابك طغتكين جهده في التقدمة، ودخل يوم الجمعة الجامع، وزار المصحف العثماني، ثم ودعه وعاد إلى بلاده.

وذكر بيبرس هذا الذي ذكرناه.

وفي المرآة: وفي سنة خمس وخمسمائة جمع بغدوين إلى ههنا في سنة ست وخمسمائة... ومنها أن العظيمي ذكر في تاريخه ان الأفرنج فتحوا المرقب في سنة خمس وخمسمائة وهو الحصن المنيع الذي لايرام ولايقدر عليه، وذلك بسبب أن الغارات توالت عليه أربع سنين حتى ضعف أهله وهربوا وأخذ البلد من باقيهم بعد أن حوصر مدة، ثم فتحه الملك المنصور قلاوون من أيدي الأفرنج سنة أربع وسبعين وستمائة على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة بعد الخمسمائة:

وفيها سار الأمير مودود صاحب الموصل إلى الرصافة ورعى عسكره زرعها إلى سروج، وأهمل أمر الافرنج ولم يحترز منهم، فلم يشعر الا وقد كبسهم جوسلين صاحب تل باشر، وكانت دواب العسكر منتشرة، فأخذ الافرنج كثيرا منها، وقتلوا كثيرا من العسكر، فلما تأهب المسلمون للقائه عاد عنهم إلى سروج.

قلت: هذا جرى على الأمير مودود بعد أن عاد من بلاد الشام.

وفيها عاد جواب الأفضل وزير مصر إلى أتابك طغتكين في حديث مدينة صور برسول من عنده، وبعث بالاسطول فيه الميرة، ومال للنفقة للعساكر وغلات، وكان مقدم الاسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الأفرنج لها، فرخصت الأسعار واستقامت الأمور، وزال طمع الأفرنج عن صور، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لأتابك طغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه، ولمسعود الوالي بصور، وأرسل بغدوين إلى مسعود يسأله الموادعة والمسالمة

لتنحسم أسباب الأذى من الجانبين، فأجابه الى ذلك، وانعقد الامر بينهما على السداد واستقامت الأمور وأمنت السبل، ومشت التجار من جميع الأقطار.

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ومعرة النعمان ومعرة مصرين على حصن شيزر في عيد فصح النصارى، فوثب فيه مائة رجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن وأخرجوا من كان فيه وأغلقوا أبوابه، وكان بنومنقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وبلغهم الامر فجاءوا، وكانوا قد أحسنوا الى هؤلاء الذين وثبوا، وإنما رتبوا ذلك في المدة الطويلة، ودلت الحرم الحبال من القلعة وتسلقت رجال ونزلوا وفتحوا الأبواب، ودخل بنو منقذ فقاتلوهم وقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية، ووقع الاحتراز بعد ذلك، فما كان يغيب منهم واحد إلا ويحضر الآخر.

وقيل كان بنو منقذ خرجوا إلى الصيد، وفعلت الباطنية ماذكرنا لانتهازهم الفرصة... ...

الأمير سقمان بن أرتق، قد ذكرنا وفاته في هذه السنة، ثم أربع وخمسمائة، وذكر المؤيد وفاته في تاريخه في هذه السنة، ثم قال: ولما توفي سقمان ملك خلاط بعده ابنه ظهير الدين ابراهيم بن سقمان، وسلك سيرة أبيه، وبقي في ملك خلاط إلى أن توفي سنة احدى وعشرين وخمسمائة، فتولى مكانه أخوه أحمد بن سقمان الى ان توفي في الولاية بعد أحد عشر شهراً، ثم تحكمت والدتها اينانج خاتون ابنة أركمان، وبقيت مستبدة بمملكة خلاط ومعها ولد ولدها سقمان بن ابراهيم بن سقمان، وكان عمره ست سنين، فقصدت اعدامه لتنفرد بالمملكة، فلما رأى كبراء الدولة سوء نيتها لولد ولدها المذكور اتفق جماعة منهم وخنقوها في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، واشتغل ابن ابنها شاه أرمن سقمان بن

ابــراهيــم بــن سقمان في الملــك إلى سنـة تســع وتسعين وخمسمائة على ماسنذكره ان شاء الله تعالى.

بسيل الأرمنـي صاحب بـلاد الأرمن، هلـك في هذه السنة، فقصـدها صاحب أنطاكيـة الأفرنجي ليملك بلاد الأرمن المعـروفة الآن ببلاد سيس فمات في الطريق وملكها سيرجال.

طنكريد الأفرنجـي صاحب أنطاكية، هلك في هذه السنـة وهو قاصد بـلاد الأرمن كما ذكـرنـا الآن، وتـولى أنطاكيـة بعـده ابـن أخيه سيرجـال الافرنجي.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة بعد الخمسمائة:

استهلـت هذه السنـة والخليفة هـو المستظهـر باللـه، وبقية أصحـاب البـلاد على حالهم، غير أن صـاحـب حلـب رضوان، وصـاحـب الموصـل مودود ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاة رضوان صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في تـرجمته، هـو فخر الـدولة، ويقـال فخر الملـك رضوان بـن الملك تاج الدولة تتش ابن السلطـان أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق،صـاحـب حلـب، ملك حلب في السنة التـي قتل أبوه فيها وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

الثاني: في سيرتـه، وكانت سيرته قبيحـة، وأموره غير مرضية، وكـان قد قتل أخويـه قبل موته، وهما: أبـو طالب، وبهرام، وكان يستعين بـالباطنية في كثير من أموره لقلة دينه.

وفي المرآة: وكان ظالما بخيلاً شحيحاً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة ولاشفقة على المسلمين، وكانت الأفرنج تغير وتسبي وتأخذ من باب حلب، ولايخرج إليهم، وهو أول من بنى بحلب دار الدعوة، وكان المستولي على أمره جناح الدولة حسين ففارقه، وقتل خواص أصحابه واحدا بعد الواحد.

الثالث: في وفاته، مرض أمراضا مزمنة ورأى العبر في نفسه، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وقال ابن خلكان: مات رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الأفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، ولما مات كان في خزائنه من العين والعروض ستمائة ألف دينار.

ذكر ولاية ألب أرسلان بن رضوان:

ولما توفي رضوان المذكور، ولي بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس، واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم، وكان الأمر والحكم إليه، ولم يكن لألب أرسلان غير الاسم، ولم يكن أخرسا، وإنما كان في لسانه حبسه أو تمتمة، وكانت أمه بنت ياغي سيان صاحب أنطاكية، وعمره حين ولي ست عشرة سنة، وكان يلقب بتاج الدولة، وكان فعله كفعل أبيه، فإنه قتل أخوين كانا له، اسم أحدهما ملك شاه، واسم الآخر مبارك قتلهما مكافأة لأبيه مثلما فعل بأخويه، وكانت الباطنية قد كثروا في حلب في أيام أبيه حتى خافه رئيسها ابن بديع وأعيان أهلها، فلما توفي رضوان قال ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والايقاع بهم فأمره بذلك فقبض على مقدمهم ابي طاهر الصائغ وعلى أصحابه، وقتل أبا طاهر وأخذ أموال الباقين وأطلقهم فتفرقوا، فمنعهم من قصد الأفرنج، ومنهم من توجه حيث شاء.

وفي تاريخ العظيمي: ووثب صاعد بن بديع رئيس حلب على الباطنية ومقدمهم أبو طاهر وخواصه اسماعيل، وقتل منهم جماعة، وملأ منهم السجون، وقتل من مقدميهم جماعة ظفروا بهم، مقدار مائة وخمسين رجلاً، وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ أول من أظهر هذا المذهب بالشام في أيام رضوان، فمال إليهم خلق كثير من حلب إلى جبل السماق وسرمين والمعرة وتلك النواحي، فلما مات رضوان قرر ابن بديع رئيس الأحداث بحلب مع ألب أرسلان بن رضوان على قتلهم وجرى ماذكرنا.

ذكر مقتل مودود صاحب الموصل:

والكلام فيه على أنواع، الأول في ترجمته: هو الأمير مودود بن ألطنطاش التركي، وكان ألطنطاش من مماليك السلاجقة، وملك الأمير مودود الموصل وغيرها في سنة اثنتين وخمسمائة، أخذها من الأمير جاولي، كما ذكرنا.

الثاني في سيرته: كان رجلا خيرا عادلا، صاحب سيرة حسنة.

الثالث في مقتله: وقصته أنه اجتمع في هذه ا لسنة المسلمون، وفيهم الأمير مودودهذا وغيزك صاحب سنجار والأمير اياز بن ايلغازي، وأتابك طغتكين صاحب دمشق، ودخلوا بلاد الأفرنج وجمع الأفرنج مع بردويل ملك القدس، وجوسلين صاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين، وكان سبب اجتماع المسلمين أن بردويل تابع الغارات على بلد دمشق، فأرسل طغتكين صاحبها إلى الأمير مودود يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه، فجمع العساكر وسار فعبر الفرات، فخاف الأفرنج، وسمع طغتكين فسار إليه ولقيه بسلمية، واتفق رأيهم على قصد صاحب القدس، فساروا فنزلوا عند الأقحوانة على الأردن، ونزل الأفرنج

على الصنبرة بينهم نهر الأردن، وهم مع ملكهم بردويل صاحب القدس، فاقتتلوا بالقرب من طبرية واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الافرنج انهزموا وكثر فيهم القتل، وأسر ملكهم بردويل ولم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الأفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية، فقويت قلوبهم وعادوا إلى الحرب، فأحاط المسلمون بهم من كل جانب، فأقاموا ستة وعشرين يوما والمسلمون يرمونهم بالنشاب فيصيبون من قرب منهم، ومنعوا المير عنهم، فلم يخرج [أحد] منهم، فسار المسلمون إلى بيسان فنهبوا بلاد الأفرنج مابين عكا والقدس وحرقوها، وقتلوا من ظفروا به من النصارى، وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم فعادوا ونزلوا مرج الصفر، وأذن الأمير مودود للعساكر بالعود والاستراحة والاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة، وبقي في خواصه ودخل دمشق في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وأقام بها عند طغتكين إلى الربيع، فدخل هو وطغتكين الجامع فوثب عليه باطني فقتله وجرح الباطني أربع جراحات وقتل وقطع رأسه وأخذ فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائما فقيل له أفطر، فقال: والله لا لقيت الله الا صائما، فمات من يومه رحمه الله.

وقيل إن الباطنية خافوه فقتلوه، وقيل إن طغتكين وضع عليه من قتله، وهذا بعيد، والله أعلم، وكتب ملك الافرنج الى طغتكين: « إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها»، وتسلم غيزك صاحب سنجار ما معه من الخزائن، وحملها الى السلطان، ودفن مودود بدمشق في تربة الملك دقاق بن تتش صاحب دمشق كان، وحمل بعد ذلك إلى بغداد فدفن في جوار أبي حنيفة رضي الله عنه، ثم نقل إلى أصفهان.

وفي تـاريخ المؤيـد: ودخـل مـودود الجامع ومعـه طغتكين وأصحـابها فصلوا الجمعة، وخرج طغتكين ومودود يمشيـان في صحن الجامع، فوثب بـاطني على مـودود وضربـه بسكين، وقتـل الباطنـي وحمل مـودود إلى دار طغتكين ومات من يومه ذلك.

وفي المرآة: لما عاد مـودود من قتـال الأفرنـج نزل في دمشـق في الميدان الأخضر، وكان يـدخل في كـل جمعة إلى دمشـق فيصلي في الجامع، ويتبرك بمصحـف عثمان رضي الله عنـه، فـدخل إلى الجامـع على عـادته، ومعـه طغتكين والغلمان حوله بالسيوف المسللـة وأنواع السلاح وأتابك طغتكين بين يـديه خـدمة لـه، فلما حصلا في صحـن الجامع وثـب رجل مـن بين الناس لايـؤبه له، ولايحفل بـه، فقرب من مودود كـأنه يدعو لـه ويطلب الصـدقـة، وضربـه بخنجـر أسفـل سرتـه ضربتين احـداهما نفـذت إلى خاصرتـه، والأخرى إلى فخـذه، والسيوف تأخـذه من كـل ناحيـة، وقطع رأسه ليعـرف شخصه ومـا عرف، فـأحرق، وعـدا أتابـك خطوات وقـت الكائنـة وأحاط به أصحـابه، ورجـع إلى مودود وهو يمشي متماسكـا حتى وقع عنـد الباب الشمالي من الجامع، وحمل إلى دار أتـابك وخيط جـرحه، فعـاش ساعـات يسيرة ومات في يـومـه، فقلق أتـابـك لوفـاته على هـذا الوجـه، وحزن حـزنا شديـدا، وكذا سائر النـاس، ودفن في مشهـد داخل باب الفـراديس، وشرع أصحابه في العـود إلى الموصل وغيرها مـن البلاد، وأمر لهم باطلاق يستـدعونه لسفرهم واستصحبوا معهم أمـواله وجواريه وأسبابـه، ولم يزل مدفونـا حتى وصل مـن زوجته وولده من الموصـل - في شهر رمضان - مـن حمله في تابوت إلى الموصل، وشيعه أتـابك إلى الثنية، وبلغني أن أتابك سـأله أن يفطر في ذلك اليوم، وكان صـائما فلم يفعل، وقـال: والله مـالقيت الله إلا صـائما، وكتب بغـدوين ملـك الافرنـج الى طغتكين: «ان امـة قتلت عميـدهـا، في يوم عيـدهـا، في بيـت معبودهـا، لحقيق على اللـه ان يبيدهـا» وقول بغـدوين: «يـوم عيدهـا» يعني «يـوم الجمعة» وقيل انها كانت في سنة خمس وخمسمائة، وذكر بعضهم ان أتابك

-١١٠٥٢-

خاف منه، فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد، وشق ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدق عنه بمال جزيل.........

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة ببغداد المستنجد العباسي، وبمصر العاضد العلوي، ووزيره بمصر شاور، ولكنه قتل في هذه السنة على يد أسد الدين شيركوه حين فتح مصر على مانذكره الآن، إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح مصر على يد شيركوه وماجريات ماحدث له، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في سبب توجه شيركوه إلى مصر وسفره إليها، وهي المرة الثالثة، وقد ذكرنا سفرتين له قبل ذلك، وكان السبب في ذلك أن الفرنج لما جعلوا لهم شحنة بالديار المصرية تحكموا في أبوابها وسكنها أكثر شجعانهم على ماذكرنا، وطغوا وبغوا، واستحوذوا عليها، وأخرجوا منها غالب أهلها من دورها، ولم يبق إلا أن يملكوها بالكلية، ومع ذلك ركبت امدادهم من كل ناحية، وصاروا صحبة مري ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ماأخذوا مدينة بلبيس فقتلوا منها خلقا كثيرا وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم وجعلوها موئلا ومعقلا، وكان ذلك في مستهل صفر من هذه السنة، ثم صاروا من بلبيس، ونزلوا على القاهرة عاشر صفر من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس إلى القاهرة، فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد الى الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله يستغيث به،

وأرسل في الكتب شعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نساء المسلمين من أيدي الأفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين

شيركوه مقيما عندهم وله اقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية.

وفي تاريخ بيبرس: قدم الفرنج من الساحل إلى مصر طامعين في ملكها لما بلغهم أن نور الدين بن زنكي فرق عساكره وانشغل بالشام فيما هو بصدده، ورأوا خلو مصر من الجند وأن ليس بها مانع، وراسلوا ملكهم مري في ذلك فلم يجبهم إليه، فقالوا: إن لنا بها قوة، وان شاور كان لما فارقه الفرنج ترك عنده بمصر جماعة منهم يحرسونه ممن يأتي إليه من عسكر الشام، فقال لهم مري: فهذا لايتم لنا وإن ملكناهم لم تطعنا العامة والفلاحين، ويجيء عسكر نور الدين فيأخذونها فيكون ذلك دماراً على الفرنج ووهنا، فساروا وأظهروا أنهم قاصدوا حمص، فلما سمع نور الدين بذلك جمع عساكره وسار الفرنج من الساحل، فقدموا بلبيس ونازلوها، فأرجف الناس بذلك، وشرع شاور في بناء حصن على مصر استعمل فيه جميع أهل مصر، وحفر خندقا، وكان في عسكر الفرنج جماعة من الأمراء المصريين ممن هرب من شاور: يحيى بن الخياط، وابن قزلجا، وعلم الملك ابن النحاس، فملكوا بلبيس عنوة وسبوا أهلها وقتلوا فيها خلقاً كثيراً ، وأسروا ابن شاور، وساروا طالبين القاهرة، ولما قربوا منها أمر شاور باحراق مصر فأحرقت، وانتقل بعض أهلها إلى القاهرة، وتفرق بعضهم في البلاد، ونهبوا أقبح نهب، وذهبت أموال أهلها، وبقيت النار مستمرة الحريق فيها أربعة وخمسين يوماً، ولما علم أهل القاهرة عجزهم عن مقاومة الفرنج سير العاضد وشاور إلى نور الدين بن زنكي يستغيثون به من الفرنج، وأرسلوا إليه شعور النساء في طي الكتب، وأرسل شاور إلى مري ملك الافرنج يبذل له مالا على أن يرحل ويزيح الافرنج عن القاهرة ، وتقرر الحال على ألف ألف دينار، فقال مري لأصحابه: نأخذ هذا المال نتقوى به ولانبالي بعد ذلك بنور الدين، واستوثق شاور منه بالايمان، وعجل له من المقرر مائة ألف دينار وأخذ

يماطله بالباقي ويمنيه، وشرع شاور يجمع من أهل القاهرة مالا، فلم يحصل له شيء لضعف أهلها، ولم يجتمع له بالجهد والمصادرات سوى خمسين ألف دينار، وفي خلال ذلك كانت الرسل متواترة إلى نور الدين للاستعانة به والاستغاثة إليه، فجهز أسد الدين شيركوه.

وفي المرآة: وفي صفر خرج الأفرنج من عسقلان والساحل طالبين الديار المصرية، فنزلوا على بلبيس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج، وقتل البعض وهرب الباقون، ثم سار الفرنج من بلبيس، فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق فلم يجد شاور بدا من أن كاتب نور الدين بأمر العاضد، وكان الفرنج لما وصلوا الى مصر في المرتين الأوليتين اطلعوا على عوراتها، وطمعوا فيها، ولما علم نور الدين بذلك استرجع وخاف عليها، فقال لشيركوه؛ خذ العساكر وتوجه إليها، وقال لصلاح الدين: اخرج معه، فامتنع وقال: يامولانا يكفي مالقينا من الشدائد، فقال: لابد من خروجك، فما أمكنه مخالفة نور الدين، فساروا الى مصر.

وفي تاريخ الدولتين: لما أتى رسول العاضد إلى نور الدين بذلك أرسل الى أسد الدين يستدعيه من حمص وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، فأتى من حمص إلى حلب في ليلة واحدة، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسر، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في الخزائن وأمر العساكر، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين لكل فارس من العسكر

الذي مع أسد الدين عشرين دينار معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنصرين من الله عز وجل وذلك في منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه على رأس الماء، فأقام ينتظر بورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم، لما سمعوا بورود عسكر نور الدين ووصولهم.

وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان ــ يعني ــ صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وماخرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ [البقرة ٢١٦].

وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه، وقال صلاح الدين: لما قال لي عمي: تجهز يايوسف فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالاأنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه، فأعطاني ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت،

-١١٠٥٧-

وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها مالاكنت أتوقعه، وحرضه أيضا حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة يمدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلا
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا
وللاعداء لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءتكم مصر تهادى
عروس بعلها زبر هصور
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الاجناد سيروا
وراء لوائه تلقوا ارشادا
فما كل امرىء صلى مع الناس
مأموما كمن صلى فرادا[٣]

فلما سافر صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة الى داره، فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي[٤]

ودار صلاح الـدين هـي التي وقفها ربـاطاً للصوفيـه بحارة قطـامش جوا قيسارية القصاع وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله.

الثاني: في وصول شيركـوه إلى البلاد المصرية، كان وصوله مـع العساكر إلى بـلاد مصر في السابـع مـن ربيع الآخـر مـن هـذه السنة، ولما وصلـوا وجـدوا الفرنـج قد انشمـروا عن القـاهـرة خائبين، فـدخل شيركـوه على العاضـد في ذلك اليـوم وخلع عليـه خلعة سنيـة فلبسها وعـاد إلى مخيمه بالخلع العـاضدية بظاهر البلـد، وفرح المسلمون بقدومه إليهـم، وأجريت عليهم الجرايات، وحملـت إليهم التحف والكرامات، وخـرج وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكـان ممن جاء إلى المخيم الخليفة العاضد متنكراً فـأسر إليه أمـورا مهمة منهـا قتل الـوزير شـاور، فقرر ذلـك معه، وعظم أمر شيركـوه بمصر، ولم يقدر الوزير على منع شيء مـن ذلك لكثرة الجيـش الـذي مـع أسـد الديـن، ولكـن شرع يماطـل فيما كـان قـرر لهم وللملك نور الدين بما كانوا التـزموا له ولهم، وهو مع ذلك يتردد الى أسد الدين، ويركب معه ويعده ويمنيه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قـرب شيركوه من القاهرة عاد الفـرنج عنها إلى بـلادهم، ومعهـم من الأسرى اثنـي عشر ألف نفـس من الجنـد والعامـة وغيرهم، ودخـل أسد الـدين القاهـرة لثلاث عشرة ليلـة بقيت مـن ربيع الآخر مـن هذه السنة، فلتقـاه العاضد وأجلسـه إلى جانبه، وخلـع عليه، وضربت البشـائر، وشرع في اطفاء النـار بمصر، وتقدم العـاضد بـأن ينزل على شـاطـىء النيـل بـالمقس، وقـام شـاور بعسكـر شيركـوه، وأقـام لهم الضيـافات، وأظهـر له ودا كثيرا، واعتمـد أن يتردد إليه كـل يوم، فطلـب شيركـوه منـه مالاينفقـه في عسكـره، فـدافـع في ذلك، فسير إليـه الفقيـه عيسى الهكاري يذكر له أن العسكر جيـاع، وقد طال مقامهم وأنا أخشى عليك منهـم، فلم يكترث شـاور بكلامه، فلما طـالت مطـالبتهم لـه عزم على أن يعمل دعـوة لأسد الـدين وجماعـة الأمراء الـذين معـه، ويقبض

عليهم ويستخدم من معه من الجند، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وقال: لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال له شاور: لئن عرفته ليقتلننا عن آخرنا، فقال له: صدقت، ولئن يقتلننا ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكنا الأفرنج فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لومشى العاضد لنور الدين ماأغاثه، ولاأرسل أحدا ويملكون البلاد. فترك ماكان قد عزم عليه، فسير العاضد أعلم شيركوه بذلك، ولما رأى الأمراء النورية مماطلة شاور خافوا شره، فاتفقوا مع صلاح الدين يوسف على قتله، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه.

وفي المرآة: وكان أرباب الدولة كل يوم يترددون إلى خدمة شيركوه، ولم يقدر شاور على منعهم لكثرة عساكره وميل العاضد إليه، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر، وبلغ أعيان دولة المصريين فاجتمعوا عند شيركوه، وقالوا: شاور هو فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج، فشرع في عمل دعوة لاسد الدين على ماذكرناه.

الثالث: في مقتل شاور.

ولما صدر من شاور ماذكرناه من سوء العزم في حق شيركوه، ورأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم عنه، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار في بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رحمه الله، وقصد شاور على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه،

فسار وهما معه قليلا، فـألقوه عن فرسه، فهرب أصحـابه وأخذ أسيرا، ولم يمكنهم قتلـه بغير أمر أسد الـدين، فسجنـوه في خيمة وتوكلـوا بحفظه، فعلـم أسـد الديـن الحال، فعـاد مسرعـاً، ولم يمكنه الا اتمام مـاعملـوه، وأرسل الـ ـاضد صـاحب مصر في الوقـت إلى أسد الـدين، يطلـب منه رأس شاور، ويحثـه على قتله، وتتابـع الرسل بذلـك فقتل شاور في يـومه وهو سـابع عشر ربيـع الآخر، وحمل رأسه الى القصر، ودخـل أسد الـدين القاهرة، فـرأى من كثرة الخلق واجتماعهـم ماخاف منه على نفسـه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمـركم بنهب دار شـاور، فقصدهـا النـاس ينهبونها، فتفرقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابـن شداد: وأقـام أسد الـدين بها يتردد إليـه شاور في الأحيـان، وكان وعدهم بمال في قبـالة ماخسروه من النفقة، فلم يـوصل إليهم شيئا، وأنه يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وعلموا أنه لاسبيل للاستيلاء على البلاد مع بقاء شـاور، فاجتمع أمرهم على قبضه إذا خـرج إليهم، وكانوا هـم يترددون إلى خـدمتـه دون أسـد الـدين، وكـان يـركـب على قـاعـدة وزرائهـم بـالطبـل والبـوق والعلـم، فلـم يتجـاسر منهـم على قبضـه إلا السلطان نفسه، يعني صـلاح الدين يوسف بن أيـوب، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخـذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبـض شاور وأنزل في خيمة مفردة، وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عـادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مـن قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته، وأنفذ رأسه إليهم.

وفي المرآة: واختلفـوا في كيفيـة مقتـل شـاور على أقـوال: أحـدهـا أن الأمـراء اتفقوا على قتلـه لما علمـوا بمكـاتبته الفـرنـج، وأن أسـد الديـن تمارض، وكان شـاور يخرج إليه كـل يوم والطبـل والبوق يضرب بين يـديه على عادة وزراء مصر، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه.

والقول الثاني أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله، وأخبرا أسد الدين فنهاهما عن ذلك وسكتا، واتفق أن أسد الدين ركب إلى زيارة الشافعي فأقام عنده، وجاء شاور على عادته إلى أسد الدين، فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا: انزل هو في الزيارة فامتنع فجذباه فوقع إلى الأرض فقتلاه.

والقول الثالث: أنهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، وسجنه الغلمان في الخيمة وانهزم أصحابه إلى القاهرة ليجيشوا عليهم، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور، وكان أسد الدين قد بعث إلى شاور مع الفقيه عيسى يقول له: في رقبتي أيمان وأنا خائف عليك من الذين عندي فلا تجيء، فلم يلتفت وجاء على عادته فجذبوه وألقوه عن فرسه، وأدخله جرديك إلى الخيمة وحز رأسه، فلما عاد أسد الدين استرجع، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به، ودعا العاضد ولد شاور الكامل، فقتله في الدهليز، وقتل أخاه، واستوزر شيركوه على مانذكره الآن، ان شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: ودخل أولاده إلى القصر مستجيرين بالخليفة، فأخذوا وعوقبوا أشد العقاب، ثم قتلوا وهم: الكامل، والمعظم، وركن الاسلام.

الرابع: في ترجمة شاور.

هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث ابن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يخنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وفي هذا نظر لقصر هـذا النسب بالنسبة إلى بعد المدة، والله أعلم، قلت: أبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصره بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، السعدي، وكان شاور يلقب بأمير الجيوش، وهو الـذي انتزع الوزارة من أيدي بني رزيك - كما قلنـا - وهو أول من استكتـب القاضي الفاضل، استـدعى به من اسكنـدرية مـن باب السـدرة، فحظي عنـده، وانحصر منه الكتـاب بالقصر لما رأوا مـن فضيلته، وكـان شاور على تـوليه الصعيـد، ولاه الملك الصالح طـلائع بن رزيك - كما ذكـرنا - ولما جرح الصـالح، وأشرف على الوفـاة كان يعد لنفسه ثـلاث غلطات: أحدها تـولية شاور، والثانيـة بناء الجامـع المعـروف به على بـاب زويلـة، وكـان قـد بقي عـونـا لمن يحاصر القاهـرة، والثالثـة خروجـه إلى بلبيس بـالعساكـر ورجوعـه بعد أن أنفـق عليهم أكثر من مائتي ألف دينار حيث لم يتم سيره إلى بلاد الشام ويفتح البيت المقدس، ويستـأصل شأفة الفرنـج، وقد ذكرنا أن شـاور قد تمكن في الصعيـد، وكـان ذا شهامـة وفـروسيـة، وكـان قد قـدم الصعيـد على الواحـات ، واخترق تلك البراري إلى أن خـرج عند تـروجه بـالقرب مـن الاسكندرية، وتـوجه إلى القاهرة ودخلهـا يوم الأحد الثاني والعشريـن من المحـرم سنـة ثمان وخمسين وخمسمائة وهـرب العـادل رزيـك وأهلـه مـن القاهـرة ليلة العشرين مـن المحرم وقتل العادل بـن صالح وأخـذ شاور موضعـه من الوزارة واستـولى، ثم لما خرج أبو الأشبـال ضرغام بن عـامر توجه إلى الشـام مستنجدا بنور الدين محمـود، وذلك في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة - كما ذكرنـاه - وتولى ضرغام الوزارة مكـانه، فأنجده نـور الدين بالأمير أسد الدين، والقصة مشهـورة، ثم آل الأمر إلى أن قتل شاور يوم الأربعاء السـابع عشر، وقيل الثـامن عشر من ربيـع الآخر من سنـة أربع وستين وخمسمائة، ودفـن في تربـة ولـده طي، وهـي في القـرافة الصغـرى بالقـرب من تربـة الفاضل القاضي، وللفقيـه عمارة فيه مدائح مـن جملتها قوله من قصيدة:

ضجـر الحديـد مـن الحديـد وشـاور
مـن نصر آل محمـد لم يضجـر
حلـف الـزمـان ليـأتين بمثلـه
حنثـت يمينـك يـازمـان فكفـر

وقال عماره اليمني:قضى قدوم الغُزّ برحيل الأفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغُزّ بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ماهو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يُربّ أحد رجال الدولة مثلما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته مدة تسعة أشهر، مدة حمل الجنين، ولاأتلف أموالهم مثل آل شاور، وهو الذي أطمع الغز والفرنج في الدولة حتى انتقلت من أهلها، ولما عاد من اسكندرية أكثر سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم يسحب القتلى إلى خارج الدار.

الخامس: في وزارة أسد الدين شيركوه.

ولما جرى على شاور ماذكرناه دخل شيركوه على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية وولاه الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلعة إلى دار الوزارة، وهي الدار التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وأمر بنهب مافي دار شاور، وعظم شأنه، وقوى أمره، وأرسل أسد الدين يطلب إلى القصر كاتبا له، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل، رجاء أن يقتل معه إذا قتل، فيما كانوا يؤملون، وشرع في بعث العمال إلى الأعمال، وأقطع الاقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حمامه وانقطع أمله.

وفي تاريخ بيبرس: لما قتل شاور أرسل العاضد فاستدعى أسد الدين من المخيم، فدخل القاهرة من وقته، ودخل القصر، فرأى اجتماع الناس، وكثرة العوام فخافهم على نفسه، فقال لهم: إن مولانا العاضد أمركم بنهب دور شاور فتفرقوا عنه، ومضوا إليها فنهبوها، ومثل شيركوه بين يدي العاضد فخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليدا.

وفي تاريخ الدولتين: وزارة أسد الدين عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر.

أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر وترتب وزيراً، وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاور ومن قبله من الوزراء، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للامور مقرر لها، وزمام الأمر مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتيه وسياسته.

وقال ابن خلكان: وكانت ولايته الوزارة يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة.

السادس: في نسخة التقليد المنشأ عن العاضد بتفويض الوزارة إلى أسد الدين شيركوه: «الحمد لله القاهر فوق عباده، الظاهر على من جاهر بعناده، القادر الذي يعجز الخلق عن فهم ماأودع ضمائر القلوب من مراده، القوي على تقريب ماقضت الهمم باستبعاده، المليء بحسن الجزاء لمن جاهد في الله حق جهاده، يؤت الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر ارشاده، وينازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده، ينجد أمير المؤمنين بمن أمضى في نصرته العزائم، واستقبلته الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم، وفعلت له المهابة مالا تفعله الهمم، وخلعت آثاره على

الـدنيا تخلعـة الأنوار على الظلـم، وعدمـت أنظاره بها وجـد من محاسنـه التي فـاق بها ملوك العرب والعجـم، وانتقم اللـه به من ظلـم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلـم، وزاد عن موارد الدين من هـو بها أولى، ويأبى الله الا امضاء ماحتم، مؤيد أمير المؤمنين بإمـام أقر الله به عينه، وقضى على يده مـن نصرة الدين دينـه، ﴿لو أنفقـت مافي الأرض جميعا مـاألفت بين قلوبهم ولكـن الله ألف بينهم﴾ [الأنفـال ٦٣] والحمد لله الـذي خص جـدنا محمـد بشرف الاصطفـاء والاجتباء، وانهضـه مـن الرسـالـة بأثقـل الاعبـاء، ووفـر لـه مـن شرف المقام المحمـود أوفـر الانصبـاء، وأقـام بـه القسطـاس، وطهر بـه الادناس، وأمـده بالصـابريـن في البأسـاء والضراء «وحين البـأس» وألبـس شريعتـه مـن مكـارم الافعـال والاقـوال أحسـن لباس، وجعل منه النور ساريا في عقبه لاتنقصه كثرة الاقتباس، ذلك من فضل الله علينـا وعلى الناس، والحمد لله الـذي اختار لأمير المؤمنين من يقوم في أمته مقـامه ويهدي بمراشد نـوره الى دار المقامه، وأوضح بـه منار الحق وأعـلامه، وجعلـه شهيد عصره، وحجـة أمره، وبـاب رزقه، وسبيـل حقه، وشفيـع أوليائه، والمستجـار في الخطوب بلوائه، والمضمـونه لـه وبه العقبـى، والمسؤول لـه الأجر في القـربـى، والمفترض له الطـاعة على كـل مكلف، والغـاية التـي لايقصر عنها بـولائه من تـأخر في مضمار النجـاة وتخلف، والمشفوع الذكـر بالصلاة والتسليم، والهادي الى الحق والى صراط مستقيم، لايقبل عمل الا بخفـارة ولائه، ولاينجح أمل الا بسفارة آلائه، ولايضل من استضـاء بأنجم هدايتـه اللامعة، ولادين ولا دنيـا الا معه، ليتضح النهج للقاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد، وليتبين الذين اختلفوا فيـه، وليعلموا انما هـو إلـه واحد، يحمـده أمير المؤمنين على مـاحباه مـن التـأييـد الـذي ظهـر فبهر، وانتشر فعـم نفعـه البشر، والاستظهـار الـذي استنـزل فيه جنـود السماء والأرض، الذي عقـد اللـه منه عقـدا لاتدخـل عليه أحكـام النقض، والانتصار الـذي أبان به معنـى قوله: ﴿ولـولا دفع الله ـاس بعضهم ببعض﴾ (البقـرة ٢٥١) ونسألـه أن يصلي على جده

محمد الأمين المبعوث رسولاً في الأميين، الهادي إلى دار الخلود، والمستقل باستقلال عواثر الجدود، وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وامام شيعته، وباب علمه، وسيف نصره، ولسان حكمه، وقسيمه في النسب والسبب، ويد الحق التي حكم لها بالقلب، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم، ومصابيح الظلم، ومفاتيح النعم، وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله إليه من ايالة الخليقة، ومنحه من كرم السجية وشرف الخليقة، وظاهر له من الكرامات التي زادت على أمنية كل من تمن، وائتمنه من أسرار النبوة التي رآه لها أشرف مودع وأكرم مؤتمن، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب، وتسهيل الطلاب، وتبديد أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب، يواصل شكر هذه النعم التوائم، ويعرف بعوارفها الفرادى والتوائم، ويثق بوعد الله إذا استهلكته المصابر، ويضرع الى الله اذا فرغ الصابر، فما اعترض ليل كربة الا انصدع له عن فجر وضاح، ولاانتقض عهد غادر الا عاجله الله بأمر فضاح، ولاانقطعت سبيل نصره الا وصلها عزه، يرسل ارسال الرياح، ولاانصدعت عصا ألفة الا تدارك الله بمن يجرده تجريد الصفاح، وإذا أعدد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والأيات المعلومة، والكفايات المحتومة، والسعادات المقسومة، والعادات المنظومة، كنت أيها السيد الأجل أعظم نعم الله أثراً، وأعلاها حضرا، وأقضاها للامة وطرا، فليهنيك أنك حزب الله الغالب وشهاب الله الثاقب، وسيف الله القاضب، وظل أمير المؤمنين الممدود، ومورد نعمته المورود والمقدم في بيته، ومـاتأخرت الا لأجل معدود، نصرت حين تناصر الضلال، وهاجرت اليه هاجرا برود الزلال وبرد الظلال، كشفت الغماء وهي مطبقة، ورفعت نواظر أهل الإيمان وهي مطرقة، وغضضت أعنة الطغيان وهي مطلقة، وأعدت بحركتك على الدولة بهجة شبابها المونقة، وأنقذت الاسلام وهو على جرف هار، ونفذت حين لاتنفذ السهام عن

الأوتار ، وسمعت دعوته على بعد الدار، ونصرت حق الله بنصرتك له، وكم من أناس لابرؤيته بأنصار، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لايتقيه وكذبه، ومايومك في نصر الاسلام بواحد، ولاأمسك بمجحود و إن رغم أنف الجاحد، أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائما بها في غمرة بعد غمرة، وافترعت صهوة هذا المحل الذي رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات في لحاقك، وكنت البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ نجحه، المذعورة أعداء أمير المؤمنين إن فوق سهمه وأشرع رمحه، ولقد استشرفتك الصدور، وتطلعت اليك عيون الجمهور، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور، نصرت الاسلام بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله، وناهضت الكفرة بالباع الأشد، ونادتهم سيوفك «ولاقرار على زئير سن الأسد» فأدال الله بك ممن قدم على قدم، وندم فما أغنى عنه الندم، حين لج في جهالته، وتمادى في ضلالته، واستمر في استطالته، وتوالت عنه عثرات ماأتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدولة رجالاً، وضيق من أرزاقهم مجالا، وسلب من ذخائرهاذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتسعت هفواته عن التعديد، ومالعهد منها ببعيد، وقد نسخ الله بك حوادثها فواجب أن تنسخ أحاديثها، وأتى الامامة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها، ودعاك إمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه على بعد الدار، وتحقق أنك ممن يتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار، واختارك على بينة من أن الله يحمد فيك عواقب الاختيار، وكنت حيث رجا وأفضل، ووجدت بحيث دعا وأعجل، وقدمت فكتب الله لك العلو وكبت بك العدو، وبمع على التوفيق لك طر في الرواح والغدو، ولو لم يلبس الكافر لسهامك جنة الا الفرار، وكان ﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾ [ابراهيم ٢٦] فلله درك حين قاتلت بخبرك قبل

عسكرك، ونصرت بـأثرك قبل طلوع عثيرك، وأكـرم بك من قادم خطـواته مبرورة وسطواتـه للاعـداء مبيرة، وكل يـوم من أيـامه بعـد يسيرة، فإنـك المبعوث الى بـلاد أمير المؤمنين بعث السحـاب المسخر، والمقـدم في تقدم النية وإن كنت في الـزمان المؤخر، ولما جرى من جرى ذكـره على عادته في ايحاشك والايحاش منك بكواذب الظنون، وقرب رجعتك عن الحضرة وقد قربـت الدار وقرت العيـون، وكان كما قال اللـه في كتابه المكنـون: ﴿لقد ابتغوا الفتنة مـن قبل وقلبوا لك الأمـور حتى جاء الحق وظهر اسـم الله وهم كارهون﴾ [التـوبة ٤٨]، وأخذه من أخذه ألم شديـد، وعدل فيه من قال: ﴿وما ربك بظلام للعبيـد﴾ [فصلت ٤٦] ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق ٣٧].

قـال العماد الكاتـب: وكتب لأسـد الـدين منشـور من القصر، بسيـط الشرح، طويـل الطي والنشر، كتب العاضـد في طرته بخطه، ولاشـك انه بـاملاء كتـابه: «هـذا عهد لم يعهـد لوزيـر بمثله، وتقلـد أمانـة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجـة عليك عند الله بما أوضحه لك مـن مراشد سبله، فخذ كتـاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخـار بأن اعتزت خدمتـك إلى بنوة النبـوة، واتخذه للفوز سبيـلا ، ﴿ولاتنقضوا الايمان بعـد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ [النحل ٩١] ونسخة المنشور.

«من عبد الله ووليـه محمد العاضد لدين اللـه أمير المؤمنين، إلى السيد الاجـل الملك المنصـور، سلطـان الجيـوش، ولي الأئمة، مجير الأمـة، أسـد الدين، كـافل قضاة المسلمين، وداعي دعـاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الـدين، وأمتع ببقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سـلام عليك، فإنـه يحمد إليـك الله الذي لا إلــه الا هو، ويسـأله أن يصلي على محمـد خـاتـم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آلـه الطاهريـن، والأئمة المهديين، وسلم تسليما». ثـم ذكر باقي المنشـور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليـل، على عادة الكتاب المتأخرين

الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت بجوامع الكلم».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية، فولي كاتبا بالاسكندرية على باب السدرة، ثم اتصل بالكامل بن شاور، فاستكتبه وزاحم به كتاب القصر، فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتبا، أرسل به إليه، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه، فنتخلص من مزاحمته لنا، فكان من أمره ماكان، واستمر في الدولة، ولم يزدد كل يوم الا تقد ما، بصدقه ودينه، وحسن رأيه، وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين، أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شادي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المراقي العلى ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كثب

أنت الذي هو فرد من بسالته
والدين من عزمه في جحفل لجب
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى
والقلب في شجن والنفس في شجب

إلى أن قال:

من شر شاور أنقذت العباد فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب

هو الذي أطمع الافرنج في بلد الـ
اسلام حتى سعوا للقصد والطلب

وما غضبت لدين الله منتقما
الا لنيل رضى الرحمن بالغضب

وحين سرت الى الكفار فانهزموا
نصرت نصر رسول الله بالرعب

يا محيي الامة الهادي بدعوته
للرشد كل غوي منهم وغبي

الى ان قال:

فالجد والجد مقرونان في قرن
والحزم في العزم والادراك بالطلب

فطهر المسجد الاقصى وحوزته
من النجاسات والاشراك والصلب

عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا
وفي القيامة تلقى خير منقلب(٥)

السابع: في وفاة أسد الدين شيركوه.

لما استقر شيركوه في الوزارة ولم يبق له منازع واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأزلامه عرض له مرض شديد بعلة الخوانيق، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام، وحملت جثته إلى المدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، ودفن بها.

وفي تاريخ الدولتين: توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله.

وفي المرآة: ودفن بظاهر القاهرة، إلى أن مات أخوه نجم الدين أيوب، فحملا جميعا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فدفنا في رباطيهما.

وفي تاريخ ابن كثير: ويقال إنه مات يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بالقاهرة، ودفن بها، ثم نقل إلى مدينة الرسول عليه السلام بعد مدة بوصية منه، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر.

الثامن: في ترجمة شيركوه.

هو أبو الحارث، أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب بالملك المنصور، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان هو ونجم الدين أخوين ابنا شادي المذكور، وكان أيوب أكبرهما، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهم من بلد دوين، بلدة من أعمال أخلاط.

وقال ابن خلكان: وكان شادي بن مروان من أهل دوين، ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين بهروز، وكان من أظرف الناس وألطفهم وأخبرهم بتدبير الأمور،

وكان بينهما من الاتحاد كما بين الاخوين، فجرت قضية لبهروز في دوين، فخرج منها حياء وحشمة، وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين، فأخذه صاحبها وخصاه، فلما مثل به لم يقدر على الاقامة بالبلد، وقصد خدمة بعض الملوك السلجوقية، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن السلطان محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لأولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الأمور، فتقدم عنده، وتميز، وفوض أحواله إليه، وجعله يركب مع أولاده، فأنكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه، وشكر دينه وعفته ومعرفته، ثم صار يسير إلى السلطان في الأشغال، فخف على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه وأرصده لمهماته، وسلم إليه اولاده، وسار ذكره في تلك النواحي، فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما خوله الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه مانسيه، فلما وصل بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق ان السلطان رأى توجيه مجاهد الدين المذكور الى بغداد، واليا عليها ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي المذكور، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يثق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، وتولى ولده نجم الدين أيوب المذكور، فنهض في أمرها، وسكن بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه شيركوه ـ كما ذكرنا ـ ثم اتفق ان بعض الحرم خرجت من قلعة تكريت لقضاء حاجة، وعادت فعبرت على نجم الدين وأخيه شيركوه، وهي تبكي، فسألاها عن ذلك، فقالت: أنا داخلة في الباب الذي للقلعة فتعرض لي الاسفسهلار، فقام شيركوه وتناول الحربة التي تكون للاسفسهلار وضربه بها فقتله.

فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى بهروز وعرفه بصورة الحال ليفعل فيه مايريد ومايراه، فوصل إليه جوابه: لأبيكما علي حق،

وبيني وبينه مودة متأكدة، وما يمكنني ان اكافيكما بحالة سيئة تصدر مني في حقكما، ولكن اشتهي منكما ان تتركا خدمتي وتخرجا من بلدي، وتطلبا الرزق حيث شئتما، فلما وصلهما الجواب ماأمكنهما المقام بتكريت وقصدا والد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وذلك لما كان قد تقدم لهما عنده، وذلك ان زنكي دخل تكريت عندهما حين هرب من قراجا الساقي، وأحسنا إليه وخدماه خدمة بليغة، ولما دخل أيوب وشيركوه عند أتابك زنكي في الموصل أحسن هو أيضا إليهما، وزاد في اكرامهما والانعام عليهما، واقطعهما اقطاعا حسنا، ثم لما ملك زنكي قلعة بعلبك استخلف بها نجم الدين ايوب، واقره بعده نور الدين محمود ولده، فحظيا عند نور الدين كما كانا عند والده زنكي، وصار شيركوه أكبر امراء نور الدين وأخصهم عنده، وكان قد أقطعه الرحبة وحمص مع ماله عنده من الاقطاعات، وذلك لشهامته وصرامته وجهاده في أعداء الله الفرنج وغيرهم في أيام معدودات، ووقعات معتبرات، ولاسيما يوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك مافعله بديار مصر.

ثم أرسله نور الدين إلى مصر مرة بعد أخرى كما ذكرنا حتى ملكها وتولى الوزارة فيها عوضا عن شاور يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي في التاريخ الذي ذكرناه.

وفي تاريخ الدولتين: وكان شيركوه شجاعا بارعا قويا جلدا في ذات الله، شديدا على الكفار، وطاعته عظيمة، في ذات الله صولته، عفيفا دينا، كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الايثار، حدبا على أقاربه وأهله، وكان فيه امساك، وخلف مالا كثيرا، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا، وخلف خمسمائة مملوك، وهم الاسدية، وكان مشيدا قواعد الدولة الشاديه والمملكة الناصرية رحمه الله.

وقال ابن عساكر: ولي أسد الدين دمشق مدة، وأقام يحارب الفرنج، وفتح حصونا كثيرة، وكان شجاعا مقداما، صارما مهيبا، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وقال الشيخ شهاب الدين: وإلى أسد الدين شيركوه تنسب الخانقاه الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين، والمدرسة الاسدية بالشرف القبلي رحمه الله، وشيركوه بكسر الشين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف، وكسر الراء المهملة، وضم الكاف، وسكون الواو، وهو في آخره هاء، وهو لفظ أعجمي مركب من: شير يعني الاسد، وكوه، يعني الجبل، وشادي بالشين المعجمة وبعد الألف الساكنة دال مكسورة، وفي آخره ياء، آخر الحروف، وهو اسم أعجمي، ومعناه بالعربي فرحان.

التاسع: في وزارة صلاح الدين.

لما توفي أسد الدين شيركوه طمحت نفوس الامراء النورية الذين كانوا صحبته الى الوزارة، وخطبها كل منهم إلى نفسه، وهم: عين الدولة الياروقي، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين يوسف، فأشار على العاضد خاصته ونصحاؤه بتولية صلاح الدين لطواعيته، وماجرت به الاقدار من سعادته، فاستدعاه وجلّده وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك الناصر، فأنف الأمراء المذكورون من طاعته والإقامة في خدمته، وفارقوه إلى الشام الا البعض منهم، فإن الفقيه عيسى الهكاري سعى في الصلح بينه وبينهم واستمالهم بالعطاء وبذل الأموال لهم ولسائر الأجناد، فاجتمعوا عليه، ومالت قلوبهم إليه، وتخلوا عن العاضد، فضعف أمره.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما توفي شيركوه في التاريخ المذكور أشار الامراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه،

فولاه الخليفة العاضد الوزارة، وخلع عليه ولقبه الملك الناصر، وأطاعه جميع الامراء النورية غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: لاأخدم صلاح الدين، وعاد الى الشام، وثبتت قدم صلاح الدين في الوزارة، على أنه نائب لنور الدين محمود صاحب الشام، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما له.

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم: عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل، ومنهم سيف الدين علي ابن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب قلاع الهكارية، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه لايجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين، وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزم به، وأخذ كارها: «إن الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل» فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين، وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الامر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال

إلى صلاح الـدين، ثـم قصد شهاب الـدين الحارمـي وقال لـه: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لـك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في اخـراجه عنه، فلا يصل إليك، ولم يـزل به حتى أحضره ايضا عنـده وحلفه لـه، ثم عـدل الى قطب الـدين وقـال له: إن صـلاح الديـن قد أطـاعه النـاس، ولم يبق غيرك وغير اليـاروقي، فعلى كـل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصلـه من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعـده وزاد اقطاعه، فأطـاع صلاح الدين ايضـا، وعدل الى عين الدولة اليـاروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثـرهم جمعا، فلم ينفعـه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقـال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعـاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فراقه، وقـد فات الامر، ﴿ليقضي الله أمـرا كان مفعـولا﴾ [الانفال ٤٢] وثبتت قدم صـلاح الـدين ورسـخ ملكه، وهـو نائب عن الملك العـادل نور الدين، والخطبة لنور الـدين في البلاد كلها، ولايتصرفـون الا عـن امـره، وكـان نـور الـديـن يكتـب إليـه: «الامير الاسفهسلار صـلاح الدين وكـافة الامراء بالـديار المصرية يفعلـون كذا»، واستمال صـلاح الديـن قلوب النـاس وبـذل لهم الأموال مما كان أسـد الدين قـد جمعه، وطلب من العـاضد شيئا يخرجه فلـم يمكنه منعه، فمال الناس إليـه وأحبوه، وقـويت نفسـه على القيام بهذا الأمـر، والثبات فيـه، وضعف أمر العاضد، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وأرسل صلاح الديـن يطلب من نور الدين أن يرسل إليـه أخوته فلم يجبه إلى ذلـك وقال أخـاف أن يخالف أحد منهـم فيفسد البـلاد، ثم إن الفرنج اجتمعـوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العسـاكـر وفيهم أخوة صلاح الـدين منهم شمـس الدولة تـورانشـاه بن أيوب، وهـو أكبر من صلاح الـدين، فلما أراد أن يسير قـال له: إن كنـت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يـوسف الذي كان يقـوم في خدمتك وأنت قـاعد فلا تسر فإنـك تفسد البـلاد، وأحضرك حينئذ وأعـاقبك بما تستحقـه، وإن كنت تنظـر إليه أنـه صـاحـب مصر وقائم فيهـا مقـامـي وتخدمه بنفسـك كما

تخدمني فسر إليه وساعده على ماهو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى، فكان كما قال.

وقال العماد الكاتب: لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم، واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لاينتظم، والخلل لايلتئم، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه، وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السيادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك، وتربيته، وفض ختوم الخزائن وأمضى رسوم المزائن، وسلط الجود على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفرق ماجمعه أسد الدين في حياته، وأنارت على منار العلى انارة آياته [ورأى أولياءه تحت ألويته ورايـاته، وأحبوه ولم تزل محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم][٦] كأنهم ذوو قرابته، وضم من أمر المملكة ماكان منشوراً، وكتب له العاضد صاحب القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السحر الحلال والعذب الزلال، ثم ذكر العماد عبارات حسنة وقال: وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبدلت عقودها وماانتظمت، ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام بما تسنى له من المرام، وترددت كتب صلاح الدين بذكر الأشواق، وشكوى الفراق، وشرح الاستيحاش و برح القلوب العطاش، فإن أصحابنا و إن ملكوا ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أمة لايعرفونها، بل ينكرونها ولايألفونها، ورأوا وجوها هنالك لهم عابسة، وأعينا للمكائد متيقظة، وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتابا أوله:

يا أيها الغائبون عني وأن كنـ ... ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لاأراكم ... بعيون الضمير عندي عيانا

فسألني المكتوب إليه ان اكتب جوابه فقلت:

أيها الظاعنون عني وقلبي
معهم لا يفارق الأظعانا
ملكوا مصر مثل قلبي وفي هـ
ـذا وتلك أصبحوا اسكانا
فاعدلوا فيهما فانكم اليوم
ملكتم عليهما سلطانا
لا تروعوا بالهجر قلب محب
أورثته روعاته الخفقانا

الأبيات:

وبعد فإن وفود الهناء وامداد الدعاء متواصلة على الولاء، صادرة عن محض الولاء الى عالي جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس، فليهنيه الظفران بالملك وبالعدو، وفرع هضاب المجد والعلو، وكيف لا يكون النصر مساوقا لدين هو صلاحه، والتأييد مرافقاً لعزم به نجاحه وفلاحه:

فالشام يغبط مصر مذ حللت بها
كما الفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفوا ما الملوك به
عنوا قديما وراموه فما نيلا

وقال العماد: ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين، وعزيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تضعضع في هذا المصاب المباغت
من الدين لولا نوره كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة
لنا خلفا من كل مود وفائت
فما بالنا نبدي التصام غفلة
وداعي المنايا ناطق غير صامت

نـؤمـل في دار الفنـاء بقـاءنـا
ونـرجو مـن الـدنيا صـداقـة مـاقـت
ومـا النـاس الا كـالغصـون يـد الـردي
تقترب منهـا كـل عـود لنـا حـت
لقـد أبلغـت رسـل المنـايـا وأسمعـت
ولكنهـا لم تحظ منـا بنـاصـت

وله مـن أخرى عـزى بها أخاه نجم الـدين أيوب وولـده ناصر الـدين محمد:

مـا بعـد يـومـك للمعنـى المدنـف
غير العـويـل وحسرة المتـأسـف
مـا أجـرأ الحدثـان كيـف سطـا على الا
سـد المخـوف سطـا ولم يتخـوف
مـن ذا رأى الأسـد الهصـور فـريسـة
أم ابصر الصبـح المنير وقـد خفـي
مـن ثـابـت دون الكماة سـواه ان
زلـت بهم اقـدامهـم في الموقـف
مـاكـان اسنـى البـدر لـو لم يستتر
مـاكـان أبهى الشمـس لـو لم تكسـف
مـاكنـت اخشـى ان تلـم ملمـة
يـومـا وأنـت لكـربها لم تكشـف
أيـام عمـرك لم تـزل مقسـومـة
للـه بين تعفـف وتعـرف
متهجـدا العبـاده او تـاليـا
مـن آيـة او نـاظـرا في مصحـف
فجـع النـدى والبـاس منـك بحـاتـم
وبحيـدر والحلـم منـك بـأحنـف
بـا الملـك فـزت وحـزتـه عـن قـدرة
ومضيـت عنـه بسيرة المتعفـف

ووصفـــت يـــا أســـد الـــدين محمـــد
مـــدحـــا بها ملـــك بـــه لم يـــوصـــف

وفي تاريخ الدولتين: فوض الامر لصلاح الدين بعد أسد الدين، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذلت الاموال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه، فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وماعاد عنه، ومازداد الا جدا الى ان توفاه الله الى رحمته.

العاشر: في صفة خلعته التي خلعت عليه للوزارة.

قال الشيخ شهاب الدين في الروضتين: صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين رحمه الله: عمامة بيضاء تنيسية بطرف ذهب، وثوب دبيقي بطراز ذهب، وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة بثمانية آلاف دينار، وعليها سرج ذهب وسرفسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة بذهب، وفيها مشدة بيضاء بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى، ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان يوما مشهودا، وسار الجيش بكماله في خدمته، ولم يتخلف عنه منهم سوى عين الدولة الياروقي ـ كما ذكرنا ـ وسار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على ذلك، وأقام صلاح الدين بصفة نائب الملك نور الدين يخطب له على المنابر بالديار المصرية.

الحادي عشر: في نسخة التقليد المنشأ بتفويض الوزارة لصلاح الدين:

«من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى

السيد الأجل الملك الناصر مصطفى الأئمـة، منجد الأمة، صلاح الدين، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين، أبي المظفر يوسف العاضدي، عضد اللـه به الدين، وأمتـع بطول بقائه أمير المؤمنين، سلام عليـك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك اللـه الذي لا إله الا هو، ويسـأله أن يصلي على محمد خاتـم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الأئمة الطاهـرين المهديين، وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فالحمـد لله مصرف الاقـدار، ومحصي الأعمال والأعمار، وعالم سر الليـل وجهر النهـار، وجاعـل دولة أمير المؤمنين فلكا دوارا تتعـاقب فيـه أحوال الأقمار بين انقضـاء واستقبـال سرار، وروضاء إذا ذوت فيـه الـدوحـات أينعت الفروع، سابقة النوار، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصـولها، والجواهر المستخـرجة مـن أمضى نصـولها، والقائم بنصر دولته، فلا تزال حتى يرث الارض ومن عليها قائمة على أصولها.

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين ودلـه على مكان الاختيار، وأغناه بـاقتضاب الالهام عـن رؤية الاختيـار، وعضد بـه الديـن الذي ارتضـاه، وعضده بمن ارتضـاه، وأنجز له من وعـد السعادة ماقضاه قبـل اقتضاه، ورفع محله عن الخلع فكلهم مضـاف إلى الخلق غير مضاه، وجعل مملكته الأسد وشبلـه ونعمته ميراثا أولى بـه ذوي الارحام من بنـي الاولاد وأهله، وأظهر في هـذه القضية مـاأظهر في كل القضـايا مـن فضل أمير المؤمنين وعـدلـه، فأوليـاؤه كـالآيـات التـي سبق ذراري أفقهـا المنير، ونسـق درر عقـدتها النظم النضير، ﴿مـانسخ مـن آية أو ننسهـا نأت بخير منهـا أو مثلها ألم تعلـم أن الله على كـل شيء قديـر﴾ [البقرة ١٠٦] والحمـد لله الـذي أتم لـه الـرشاد، وجعلـه أولى مـن خلق سـاد وللحـق شاد، وآثـره بـالمقام الـذي لاينبغي الا لـه في عصره، وأظهر لـه من المعجـزات لنصره مـالايستقـل العـدد بحصره، وجمع له ولمن والاه مـن رفـع قـدره، ووضـع أصره، وجعل الامامة مـوضوعة في عقبه، والمعقبات تحفظه بـأمره، وأودعه

من الحكـم التي رآه لها أحوط من أودعـه، واطلع من وجهه أنـوار الفجر الذي جهل من ظـن ان من غير مطلعه، وآتاه مالم يؤت أحـدا، وأمات به غياً وأحيا رشدا، وأقـامه للدين عاضدا فأصبـح به معتضدا، نحمده على ماآتاه من توفيق يذلل الصعب الجامح ويدني البعيد النازح، ويخلف على الدين مـن صلاحه الخلف الصـالح، ويلزم آراءه جدد السعـود الواضح، ويـؤتيه آيـات الارشاد فـأية نـار قدح القـادح، ونصلي على النبي محمـد الذي أنجـى أهل الايمان ببعثـه، وطهر بهديـه من رجس الكفر وخبثـه، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي جادت يده بلسان ذي النعال الحاد(٧) وعلى الائمة من ذريته الذين أذل الله بعزهم أهل الالحاد.

ومنه:

وإن اللـه سبحانـه وتعالى مـاأخلى دولـة أمير المؤمنين التي هـي محط الهدى، مـن لطف تـلافى الحادثـة بشعبهـا، ولما لم تكد تنسـى الحادثـة في الأجـل الملـك المنصور أسـد الـديـن شيركـوه رضي الله عنـه، نظـر أمير المؤمنين في اصطفائك أيها السيد الاجل الملك النـاصر لخدمته بعده لتسد في تقـدمـة الجيوش مسـده، وتلحـق بـه في المجـد أولك، ونحمـد فيـك العواقب ولـك، فاعلم هذا مـن أمره ورسمه، واعمل بمـوجبه وحكمه إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

الثاني عشر: في مجيء نجم الدين أيوب الى ولده صلاح الدين بمصر.

لما ملك صـلاح الديـن الديار المصريـة بالوزارة أرسـل الى نور الـدين يطلـب أباه أيـوب وأخـوته وقـرابتـه، فـأرسلهم مكـرمين مـع جماعة مـن ألـزامهم وأهـل مودتهم، وشرط عليهـم السمع والطـاعة لـه واستقر أمـره هنالك، وتمكن سلطانه، وخرج العاضد بنفسه للقاء أبيه أيوب، وبالغ في احترامـه والاقبـال عليـه وقـال: ﴿ادخلـوا مصر إن شـاء اللـه آمنين﴾

[يوسف ٩٩] ولما اجتمعوا قرأ بعض المقـرئين: ﴿ورفع أبويه على العرش ﴾إلى قوله: ﴿توفني وألحقني بالصالحين﴾[يوسف: ١٠٠ ـ ١٠١].

ثم بعـد ذلك أخذت دولة المصريين في الضعـف، والدولة الايـوبية في القـوة، ولما اجتمع صـلاح الـديـن يوسـف مـع أبيـه سلك معـه الأدب، وفوض إليـه الأمر كلـه، فقال له: يـاولدي مـااختارك اللـه لهذا الأمر الا وأنت جـدير به، فلا ينبغـي ان تعبر مواقع السفـارة، وحكمه في الخزائن كلهـا، وأنزلـه اللـؤلؤة المطلـة على الخليج، وأعطـاه وأهلـه الاقطاعـات الجليلـة بمصر، وتمكن صـلاح الديـن من البـلاد، وضعف أمـر العاضـد بالكلية.

الثالث عشر: في ذكر ماجرى بين نور الدين وصلاح الدين.

قال صـاحب تاريـخ الدولتين: إن نور الديـن لما اتصل به وفـاة أسد الـدين، ووزارة صـلاح الـدين، ومـا قـد انعقد لـه مـن المحبة في قلـوب الرعايا، أعظـم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره وقـال: كيف أقدم صلاح الديـن ان يفعل شيئا بغير أمري، فكتـب في ذلك عدة كتب فلـم يلتفت إليه الملك النـاصر صلاح الدين، الا انـه لم يخرج عن طاعته وأمـره، وأنه مافارق قبول رأيه واشارته.

وأمر نور الديـن من بالشام من أهل صلاح الديـن وأصحابه بالخروج إليه وطلب منـه حساب مصر وما صار إليه، وكان كثيراً مـايقول: ملك ابن أيـوب، ولما ملك النـاصر مصر انتزع نـور الديـن حمص والرحبـة من ناصر الـدين بن أسد الـدين، وفرق عماله، واعطـاه تل باشر، ثم أخـذها منه، ولقد كان يتـألم لملك الملك الناصر ذلك، ويقال: إنـه لما مرض قال: ماأخطـأت الا في انفاذي أسد الـدين الى مصر بعـد علمي برغبتـه فيها، ومايحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يـوسف بن أيوب، ثم التفت الى

أصحابه فقال: إذا مـا مت فصيروا بابني اسماعيل إلى حلب فـإنه لايبقى عليه غيرها.

وقال ابن أبي طي ولقـد كان يبلغ الملك الناصر من أقـوال نور الدين وأقوال أصحـابه أشياء تؤلمه وتمضـه، غير أن يلقاها بصدر رحـب، وخلق عـذب، قال صـلاح الـدين: ولقـد كـان يعتمد نـور الـدين في مخاطبـاتي ومراسـلاتي الأشياء التي لايصبر على مثلها لعلي أتضـور أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوما قط.

وقال صاحب تـاريخ الدولتين: قد وقفت على كتاب بخـط نور الدين يشكر فيـه من صلاح الديـن، وذاك ضد ماقـاله ابن أبي طي، كتـب نور الـدين ذلـك الكتاب الى الشيـخ شرف الديـن بن أبي عصرون رحمه اللـه وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته:

«حسبي اللـه وكفى، وفق اللـه الشيخ الامـام شرف الدين الى طـاعته وختـم له بخير. غير خـاف عن الشيـخ ماأنـا عليه وفيـه، وكل غـرضي ومقصودي في مصـالح المسلمين ومايقربنـي إلى الله، والله ولي التـوفيق، والمطلع على نيتي، وأنـت تعلم نيتي كما قال عز من قـائل ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ [الرعد ٤٣].

أنت تعلـم أن مصر اليوم قـد لزمنا النظـر فيها، فهـي من الفتـوحات الكبار، اللـه تعالى جعلها دار اسـلام بعدما كـانت دار كفر ونفـاق، فلله المنة والحمـد، الا ان المقدم على كـل شيء أمور الديـن التي هـي الأصل وبها النجاة، وأنت تعلـم أن مصر واقليمها ماهي قليلة، وهي خـالية من أمـور الشرع، ومـاتـدخـر الـدمـوع الا للشـدائد، وأنـا مـاكنـت أسخى ولاأشتهـي مفـارقتـك، والان قـد تعين علي وعليـك أيضـا ان ننظـر الى مصالحها، ومـا لنا أحد اليوم لها الا انـت، ولا اقدر اولي امورها واقلـدها

الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ماتعلم أنه يقربك الى الله، وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله، فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لاتبقى عليّ حجة، تصل أنت وولدك إلى عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام .

بموافقة صاحبي واتفاق منه، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيرا وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما»

الرابع عشر: فيما فعله صلاح الدين من المعروف بعد توليته.

قال ابن أبي طي: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم مايستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابه سجل به من ديوان الانشاء، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر، وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين تتقدمه، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف اردب غلة، فسامح بجميع ذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، وأنهي إليه مايستأدى بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره، وعوض عنه بعدة ضياع، فأغاث أهل الحجاز وأوسعهم من العين والغلة، وذلك كله باشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

الخامس عشر: في قتل المؤتمن الطواشي زمام الدار.

قال العماد: وشرع صلاح الدين يوسف في نقص اقطاع المصريين،

فقطع منهم الزوائد مـن أجل من معه من العساكـر، وكان بالقصر خصي يـدعى مـؤتمن الخلافـة متحكـم في القصر، فـأجمع هـو ومن معـه على أن يكاتبـوا الفرنـج ويقبضوا على الأسـديه والصـلاحية، لأن صلاح الديـن يخرج بمن معه، فيؤخذ من بقي من أصحـابه بالقاهرة، ويتبع من ورائه، فتكون عليهـم الدائرة، فكاتبوا الفـرنج، واتفق أن رجـلا من التركمان عبر بالبئر البيضاء، فـرأى مع انسان ذي خلقان نعلين جديديـن ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبه الفـرنج فيهما مـن أهـل القصر يرجـون بحركتهـم حصـول النصر، فأخـذ الكتاب وقال: دلـوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي مـن الرهط، فلما أحضروه ليسـألوه ويعـاقبوه على خطـه، نطق بـالشهادة قبـل كلامـه، ودخل في عصمة اسلامه، وثبت اعتصامه وعرف استسلامه، ورأى اخفاء هذا السر واكتـامه، واستشعـر الخصي العصي، وخشي أن يشق على شـق العصي العصي، فما صـار يخرج مـن القصر مخافـة، وإذا خـرج لم يبعـد مسافـة، وصلاح الـدين عليـه مغضب، وعنـه مغض لا يـأمر فيـه ببسط ولاقبض، إلى أن استرسـل واستبسل، وظـن أن مانسلـه من الشر العقيـم نصـل، وكان لـه قصر في قريـه يقال لها الخرقـانية، وهـي بقرب قليـوب، فخـلافيه يـوما للـذته، ولم يـدر أنه يـوم ذلته وانقضـاء ساعتـه بانقضـاء دولته، فـأنهض صلاح الـدين مـن أخذ رأسـه، ونزع مـن حياتـه لباسـه، وذلك يـوم الأربعاء الخامس والعشريـن من ذي القعدة سنـة أربع وستين وخمسمائة.

وفي تـاريـخ بيبرس: خـرج مـؤتمن الخلافـة ذات يـوم إلى بستـان لـه بقليوب، فسير إليـه جماعة من أصحـابه فقتلوه وأتـوا برأسه، ثـم استعمل على أزمـة القصور قـراقوش، وهـو خصي من ممـاليـك عمه أسـد الديـن ليطالعه بما يجري في القصور.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان له قصر على النيل بالخرقانية من أعمال قليوب ذو بساتين، فخرج إليه للتنزه، فعلم صلاح الدين بذلك، فأرسل إليه جماعة فقتلوه وأتوا برأسه في التاريخ المذكور الآن. ثم عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يلون خدمة القصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش الأسدي.

السادس عشر: في وقعة السودانية.

ولما قتل مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، ثار السودان عند القصر ونادوا، وكانوا يزيدون على خمسين ألف، فنهض إليهم صلاح الدين، وكانت الوقعة بين القصرين، وقامت الحرب بينهم يومين، وصار السودان كلما التجأوا الى محلة أحرقت عليهم، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورة، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم جميعا، فلما أتاهم الخبر بذلك هزموا وركبتهم السيوف، وقتل منهم خلق كثير، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك، فمضوا إلى الجيزة، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، وضعف أمر العاضد بالكلية، وتلاشى حاله، وخربت محلتهم، واتخذت بستانا، فأصبح أمرهم كأن لم يكن، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولاكبيرة الا بأمر صلاح الدين، وكان صلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئا من المال والرقيق والخيل، حتى أنه أرسل إليه يوما، وهو في بستان له يسمى الكافوري، يطلب منه فرسا، فقال: والله ماعندي الا هذا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما، وأرسل الفرس إليه، ولزم العاضد بيته من ذلك اليوم حتى كان منه ماكان.

وقـال ابن كثير: وحين قـامت الحرب بينهـم، كـان العاضـد ينظر مـن القصر، وقـد قذف الجيـش الشامـي مـن القصر بحجارة، وجـاءهم منـه سهام، فقيـل كان ذلك بأمـر العاضد، وقيل لم يكـن بأمره، فأمـر شمس الدولة تورانشاه، وكان حاضرا للحرب باحراق منظرة العاضد، ففتح بابها ونودي: إن أمير المؤمنين يـأمركم أن تخرجوا هـؤلاء السودان من بـلادكم، فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا.

وفي تاريخ بيبرس: وأقاموا على الحرب أربعـة أيام ليلا ونهاراً، وقتل من الجمعين خلق كثير، ولما علموا المغلوبية هربـوا بأجمعهم إلى الجيزة، فندب إليهم صـلاح الدين أخـاه تورانشاه فقاتلهـم وهزمهم ولم ينـج منهم الا الشريد، وأرسل إلى نـواب البلاد بقتل من وجـد منهم، وكان جوهـر هذا سببا لزوال ملـك الفاطميين، وكان سبب ملكهم اولا جوهـر أيضا، وهو جوهر القائد الذي أرسله المعز من المغرب، كما ذكرنا مفصلا.

وقال العماد: ولما قتل مـؤتمن الخلافة غار السودان وثاروا، وكـانوا أكثر مـن خمسين ألفاً، وكـانـوا إذا قـاموا على وزيـر قتلـوه واجتـاحوه وأذلـوه، فحسبـوا ان كل بيضـاء شحمـة، وان كل سـوداء فحمـة، فثار أصحـاب صـلاح الديـن الى الهيجاء ومقـدمهم أبـو الهيجاء، واتصلـت الحرب بين القصريـن، وأحاطـت بـه العسكريـة مـن الجانبين، ودام الشر فيه يـومين حتى حس الاسـاحم بالحين، وكلما لجأوا الى محلة احرقوهـا عليهم، وحووا مـاحواليهـم، وأخرجـوا إلى الجيزة، وأذلـوا بالنفـي عن منـازلهم العزيـزة، وذلك يوم السبـت الثامن والعشرين من ذي القعـدة، فما خلص السودان بعدهـا من شدة، ولم يجدوا الى الخلاص سبيـلا، وأينما ثقفوا اخـذوا وقتلوا تقتيـلا، وكانـت لهم على باب زويلـة محلـة تسمى المنصـورة وكانـت لهم المعمرة المعمورة، فأتـى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاويـة، ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أوده بمصر لما سمع بحركة الفرنج، وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها اثر عظيم.

السابع عشر: فيما مدح به صلاح الدين.

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنية له بالملك وتعزية له:

أيا يوسف الحسن والاحسان خير من
حوى الفضل والافضال والنهي والأمرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه
تجلى وثغر الثغر من عزمه أفترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه
من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى الا العلاء وعمه
بمعروفه عم الورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله
وما شاركوه في العلى فحوى الفخرا
بنو الأصفر الافرنج لاقوا ببيضه
وسمر عواليه منايا هم حمرا
وما ابيض يوم النصر واخضر روضه
من الخصب حتى اسود ما النقع واحمرا
رأى النصر في تقوى الاله وكل من
تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب انبائه فيها كتاب ضمنه هذا البيت:

ماكنت بالمنظور أقنع منكم
ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت في جوابها أبياتا منها:

ياهل لسالف عيشتي بفنائكم
من عودة محمودة ورجوع
مذ غبتم عن ناظري ماأذنت
للقلب شمس مسرة بطلوع
كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت اطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل منه كتاب ايضا ضمنه هذا البيت:

وأنثر دمع الدر من قبل أبيضا
وقد حال مذ بنتم فاصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه ابياتا منها:

هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وماكان فيها قبل يوسف شاورا
يماثل الا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي ابشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ماشئتا

- ١١٠٩١ -

ومما كتبه العماد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها:

بالملك الناصر استنارت
في عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فروض
شكر الماجاد من نوافل
يوسف مصر الذي إليه
تشد آمالنا الرواحل

أجريت نيلين في ثراها
نيل نجيع ونيل نائل
وما انفيت السودان حتى
حكمت البيض في المقاتل

الأبيات:

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الأعيان، وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى منها:

يا صلاح الدين الذي أصلح الفا
سد بالعدل منه خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر الى الشا
م نوالا أم سال نيل ثاني
وعلى نيلها الكفيلك فضل
فهما بالنضار جاريتان
وصلت أعطياتك الغر غزرا
فتلقت آمالنا بالتهاني
خلع راقت العيون وراعت
وغلا وصفها عن الامكان

مـــذهبـات كـــأنها خلـــع الـــرضـــوان
قـــد أهـــديـــت لاهـــل الجنـــان
مشرفـــات بطـــرزهـــا الـــذهبيـــا
ت الحســـان الـــرفيعـــة الاثـان
فـــالعمامـــات كـــالغمامـــات والطـــر
ز تـــروق كثيرة اللمعـــان
والموالي بها مـــن التـــيـه والفخـــ
ـــر على الـــدهـــر ســاحبـــو الاردان
كيـــف خـــص العماد بـــالادون المخـــ
ـــلق مـــن دون عصبـــة الـــديـــوان

الأبيات:

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين قصيدة منها:

عبـــدك شمـــس الـــدولـــة المرتجا
منتظـــر تشريفـــك المذهبـــا
وأعتـــب صـــلاح الـــديـــن في حـــالتـــي
عســـاه بـــالاصـــلاح ان يعتبـــا
عـــرفـــه مـــاتـــم فـــإني أرى
مـــن فضلـــه للفضـــل ان يغضبـــا
وكيـــف يـــرضـــى ذاك بعـــض الـــرضـــى
ومجده بـــأبـــاه كـــل الابـــا
وقـــل لـــه جـــاءتـــه ملبـــوســـة
تخلفـــت مـــن تبـــع في سبـــا
عمامـــة رقـــت ورثـــت فما
نشـــرتهـــا الاوطـــارت هبـــا

قال المؤرخ: فوصل من صلاح الديـن عمامة مذهبة، وكتب يعتذر عن العمامة التي قبلها.

وقال عرقلة في صلاح الدين وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما:

صلاح الدين قد أصلحت دنيا
شقي لم يبت الا حريصا
أتى منك السلام لنا عموما
وجودك جاءني وحدي خصوصا
وكنت كيوسف الصديق لما
تلقى منه يعقوب القميصا(٨)

وكان العرقلة من جملة المترددين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار، فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها:

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي
زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدي
بها في بدي قبل المات تصير
وهيهات والافرنج وبينكم
سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الايام انك ذو غنى
بمصر ومثلي بالشآم فقير(٩)

وقال ايضا:

قل للصلاح معيني عند اعساري
يا ألف مولاي أين الالف دينار
أخشى من الاسر ان حاولت ارضكم
وما تفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات مسطرة
من بعض ما خلف الطاغي أبو الطاري

حراكـــأسيـــافكـــم غبراكخيلكـــم
عتقـــاثقـــالاكـــأعـــدائي وأطماري(١٠)

وأنفذ له عشرين دينارا من مصر فقال:
يـــامـــالكـــامـــابـــرحـــت كفـــه
تجود بـــــــالمال على كفـــــــــي
أفلـــح بـــالعشريـــن مـــن لم يـــزل
في رأس عشريـــن مـــن الكهـــف
يـــا ألـــف مـــولاي ولكنهـــا
محســـوبـــة مـــن جملـــه الألـــف(١١)

وذكـر العماد في الخريدة أن العـرقلـة قصـد صلاح الـديـن إلى مصر، فأعطاه ذلك، وأخـذ له من أخوته مثل ذلـك، فعاد الى دمشق وهومسرور محبور، وكان ذلك ختـام حياته، ودناء أجل وفاته، ومـات بدمشق في سنة ست أو سبع وستين وخمسمائة رحمه الله.

الثـامن-عشر: في أشيـاء ملتقطة فيما يتعلق بالأبـواب المذكورة في أمـر شاور.

وكـان متـولي قوص والصعيـد الأعلى، فلما دفـن الصـالح طـلائع بـن رزيك واستـوزر ابنه رزيك أرسل إلى عمـة العاضد فخنقهـا، واجتمع الى رزيك أولاد عمتـه ومن جملتهـم عز الـدين حسـام، فعزل شـاور، فعصى عليه، وجمع العربـان وأهل الصعيد، وسار إلى القاهرة، وخـرج إليه جماعة من أمرائهـا كانوا كاتبوه، فخـرج رزيك تحت الليل فضل الطـريق وتاه، فـوقع عنـد أطفيـح وثـم بيوت عـرب، فقبضـوا عليـه وحملوه إلى شـاور، وأخرجت إليـه خلع الوزارة وتم أمـره، وأكرم شاور رزيك وصلـب الذي أتى به، ونادى عليـه: هذا جزاء من لايرعى الجميل، وكـان للصالح إليه احسان، وتفرق آل رزيـك في البلاد، ونجا حسام الذي كـان سبب هلاك

بني رزيك، بأموال، وصـار إلى حماه فأقام بها، واشترى القرى، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان في خـروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينـار فوفوا له وردوهـا عليه، ثم أراد تقـي الدين أخذهـا منه فقال: مـن العجب أن الفرنج تفي لي بردها وتأخذها أنت مني فكف عنه.

وكـان لشاور ثـلاثـة أولاد: طـيء، والكامـل، وسليمان، فتبسطـوا على النـاس فمجوهـم، وكان ملهـم وأخوه ضرغـام مـز صنائع الصـالح بـن رزيك، فلما شاهـدا ميل الناس عن شاور بسبب اولاده أخذ أف مراسلة رزيك بـن الصالح، وهـو في السجن، والعمـل له في إعادتـه الى الوزارة، وبلـغ ذلك طيـا، فدخـل على أبيه فـأخبره بهذا، ثـم قال: تـلاف حالـك بقتلك رزيك، فـأنكر عليه، فتركه ولده طي، ودخـل على رزيك فقتله في سجنه، وسمع شاور فقامت قيـامته،ونمـى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا وأثـارا من استحلفاه مـن الامراء وزحفا بـالعساكر الى شـاور، فانهزم وخـرج من بـاب القـاهرة، وهـرب الى الشام، وأدرك ضرغـام ولـديه طيـا وسليمان فقتلهما وأسر الكامـل فأخذه ملهـم واعتقله عنـده، وأراد ضرغام قتله فمنعه منـه ملهم وحفظ له جميلا، واستقر ضرغـام في الوزارة، وخلع عليـه ولقب بـالملـك المنصـور، ثم بلغـه أن جماعـة مـن الامراء حسـدوه وكاتبوا شاور وهو في الشام، فـأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهـم إلى دار الوزارة ليـلا فقتلهم جميعا، ولم يتعـرض إلى أموالهم ولا لمنـازلهم، وقيل إنه قتل منهم سبعين أميرا، ويقال إنه جعلهم في توابيت، وكتب على كل تابـوت اسم صاحبـه، فكان ذلك أكبر الاسبـاب في هلاكه وخـروج دولة المصريين، لانه اضعف عسكر مصر بقتل الامراء.

وأما شـاور فإنـه لما وصل الى بصرى اتصل خبره بنـور الديـن، فندب جماعة الى تلقيه، وأنزله بجوسق الميـدان الاخصر، وأحسن ضيافته، ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أمر نور الـدين لجماعة من أعيان دمشق أ ن يذهبوا

إليه ويسألوه عن حاجته، فاجتمعوا به، وقال بعد كلام طويل: ان رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بي فله علو الرأي، فأجاب نور الدين الى ان يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر، وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته في أحسن زي، فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا في و. . الميدان بالتحية فقط، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين الى قلعة دمشق، واخذ في وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الامر أنشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك ابن النحاس يظهر فيه الطاعة، فاظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق، فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرفيق الفرنجي، وأخذ جميع ماكان معه، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار إلى مصر.

التاسع عشر: فيما يتعلق بأسد الدين.

ولما توجه أسد الدين إلى مصر وقرب منها نزل بمن معه على تل في الجوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسط، وضربوا خيامهم هناك، ولما علم ضرغام بذلك جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجمع العساكر، وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر، وهو على يومين من القاهرة فإنهم لايثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، فأمر ضرغام الامراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة، والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلا عليه، ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر قال لشاور: ياهذا لقد غررتنا وقلت: إنه ليس

بمصر عسكر فجئنا في هذه الشرذمة، فقال شاور: لايهولنك ماتشاهده من كثرة الجموع فأكثرهم الحمالة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب، وأما الامراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي وسترى ذلك إذا لقيناهم، ثم وقف الفريقان مصطفين من غير حرب، إلى أن حمي النهار، والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل، فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما، وتركوا أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور في أثر الناس فنزلوا على القاهرة وقاتلوا أياما وارسل شاور الى العاضد في اصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، وأما ضرغام فإنه خرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فلحقه رجل من أهل الشام فطعنه وأرداه ونزل إليه وحز رأسه، وحمله إلى أسد الدين فصعب على أسد الدين، وأوجعه ضربا وأراد قتله، فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما أخا ضرغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار ملهم، وكان معتقلا فيها، وكذلك خرج معه القاضي الفاضل، وكان أيضا معتقلا فيها معه، واستقام أمر شاور في الوزارة وأقام أسد الدين على المقس ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيام ،وقد ضجر العسكر من الحر والغبار، فأرسل إليه: شاور ثلاثين ألف دينار ،وقال: ترحل الآن في أمن الله ودعته فلما سمع أسد الدين ذلك ارسل اليه: ان نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيما عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه، وقال شاور: أنا ماقررت شيئا، أنا طلبت نجدة من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا الى الشام، وقد سيرت إليكم نفقة

فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل مع نور الدين، فقال أسد الدين: انا لايمكنني مخالفة نور الدين ولا انصرف الا بامضاء أمره، فأمر شاور باغلاق أبواب القاهرة، واخذ في الاستعداد للحرب، واستعد أسد الدين ايضا، وسير صلاح الدين في قطعة من الجيش الى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة، وأخذ في قتال القاهرة، وكاتب شاور ملك الافرنج مري يستنجده ويقول له: ان أسد الدين طلع معي نجدة على ضرغام، فلما حصل في البلاد طمع فيها، ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يكن لكم معهم عيش ولاقرار، وضمن له في كل مرحلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار، وقرر له شيئا لقضيم دوابه وشيئا لاسبتاريته، فخرج مري من عسقلان في جموعه الى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرون ألف دينار، ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة جاء إلى بلبيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانية، وخرج شاور في عساكر مصر، واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيم على بلبيس وأحاط بها محاصرا لاسد الدين يباكر الحرب ويراوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين، فتشوش من ذلك، ثم عمل حيلة حيث جمع أعلاما للفرنج، وكان قد أخذها منهم وأعطاها إلى نجاب وقال له: تحيل حتى تدخل إلى بلبيس وتعطي هذه الاعلام لاسد الدين ينشرها على أسوار بلبيس، فإن ذلك مما يفت في اعضاد الكفار، ففعل ذلك، فلما رأى الأفرنج الأعلام خافوا على بلادهم وسألوا الاذن من شاور في الانفصال، فانزعج شاور لذلك واستمهل منهم أياما وجمع أمراء المشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفل الامير شمس الخلافة بذلك، فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى، وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلا ثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل، وسار أسد الدين قاصدا الشام، وجعل مسيره على البرية، واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك خرج

يترقب خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، فأحسّ أسد الدين بذلك، وسلك طريقا من خلف المكان الذي هو فيه، وشق الى الغور، وخرج الى البلقاء، وسلمه الله منه، ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين، وأخبره بالاحوال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد الى القاهرة، وتتبع من علم أنه بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة، وكان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكردي، وأقطعه شطنوف وقتل جماعة من أهل مصر وشرد آخرين، ثم توجه أسد الدين في ربيع الاول لسنة اثنتين وستين قاصدا الديار المصرية، وكتم أخباره، فما راع شاور الا ورود كتاب مري يعرفه فيه بأن أسد الدين قصد ديار مصر وخرج عن دمشق، فطلب شاور منه إعادة النجدة والمقرر من المال يصل إليه على ماكان في العام الماضي، فسار مري في عساكر الفرنج الى مصر، وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع به، وقعدوا جميعا في انتظار أسد الدين، وعلم أسد الدين باجتماعهم على بلبيس، فنكب عن طريقهم وأم الجبل، وخرج على أطفيح وشن الغارة هناك، واتصل بشاور خبره، فسار في عساكره والفرنج صحبته يقفون أثره، ولما علم أسد الدين بذلك اندفع من بين أيديهم حتى بلغ شرونة من صعيد مصر، وتحيل في مراكب ركبها، وعدّى إلى البحر الغربي، وأدرك شاور بعض ساقته ومسقطي عسكره فأوقع بهم، وأحضر أيضاً مراكب، وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين الى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوما، واستمال قوما يقال لهم الجعفريون والطلحيون القرشيون، فأنفذ أسد الدين الى شاور يقول له: أنا احلف بالله وبكل يمين اني لاأقيم ببلاد مصر ولاأعاود إليها أبدا، وما أساءل منك الا نصر الاسلام فقط، وهذا العدو قد حصل في هذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير فتجتمع معي نستأصل شأفته، وما

أظـن ان يكون غنيمـة أبـدا في الاسلام مثـل هذه، فقتـل شـاور الرسـول وقال: ماهؤلاء فرنج هؤلاء فرج، ثم أعلـم الفرنج بذلك، ونزل شاور بعد ذلـك في اللوق والمقسـم، وأمـر بعمـل الجسر بين الجيزة والجزيـرة، وأمـر بالمراكـب فشحنت بـالرجال وأمـرهم أن يجيئوا مـن خلف عسكـر أسد الدين، ولما رأى أسـد الدين ذلك، كتب إلى أهل الاسكنـدرية يستنجد بهمْ على شاور لأجـل ادخاله الفـرنج الى دار الاسـلام، فقاموا معـه وأمروا عليهم نجم الـدين ابن مصال، وهو ابـن أحد وزراء المصريين، وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيـا، فظهر في هذه الفتنة، وكان قـد أرسل الى اسد الديـن خزانة من السـلاح مع ابن أخـت الفقيه ابن عوف، ثـم وصل الى أسد الدين رسـول ابن مدافع وأخبره بقرب شاور، وبـأمره بالنجاة، فترك أسد الدين الخيـام والمطابخ وماثقل حمله، وسـار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة، فأمر بنهبها فنهبت، وسار ليلا بالمشاعل حتى أتى على الأشمونين، وأمر عسكـره أن يقفوا على تعبئـة وأصبحوا على ذلـك والتقوا، فقتـل من أصحاب أسـد الديـن جماعة كثيرة، وانهزموا وكـان أسد الـدين قـد فرق أصحابه فريقين: فـريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الـدين، وأنفذه ليأتي من خلـف عسكر شـاور، فداخلهـم الضعف مـن هذا الطـريق، ثـم إن أصحاب أسد الـدين تجمعوا وتماسكوا وعلمـوا ان لامنجا لهم الا الصبر، فتحالفـوا على الموت وحملوا، وطلع صـلاح الديـن من ورائهم، فلـم تزل الحرب قائمـة الى الليل، فـولت عسـاكر الفـرنج والمصريين الادبـار، وكاد ملك الفرنج مـري أن يؤسر، وصار شاور ومن معه الى منيـة ابن خصيب، وسار أسد الدين على الفيوم الى الاسكنـدرية فدخلها ونزل القصر، وجعل فيه محبـس الفرنـج الذيـن أسرهم، وكان فيهـا ابن الـزبير متوليـا ديوانها، فحمل الى أسـد الديـن الأموال وقـواه بالسـلاح، وخاف أسـد الديـن أن يحصره شاور والفـرنج ، فـأمر صـلاح الدين بـالمقام بـالاسكندريـة وترك عنده جماعة مـن العسكر، ومن به مرض أو جـراح او ضعف، واستحلف له وجوه الاسكندرية، ورحل في أقويـاء العسكر قاصدا الى الصعيد، ونزل

الفـرنج وشـاور على الاسكندريـة وحـاصروها مـدة ثـلاثة أشهـر بأشـد القتال، ولما سـار أسد الـدين بـالصعيد حصّـل من تلـك البلاد أمـوالا عظيمة، ولم يزل هنـاك حتى صام رمضان، واتصل بـه اشتداد الامر على الاسكندرية فرحـل من قوص الى جهتها، واتبعه جماعة كثيرة مـن العربان وأهل تلـك البلاد، وبلـغ ذلك شـاورا، فرحـل هو والفـرنج واضطـر الى الصلح، وضجـرت الفرنج أيضـا، وتوسط ملـك الافرنج في ذلـك، فتقرر امر الصلـح على ان شاورا يحمـل الى اسد الـدين جميـع ماغـرمه في هـذه السفرة، ويعطـي الفرنج ثـلاثين الف دينـار، ويعود كل منهـم الى بلاده، وطلب صـلاح الدين مـن ملك الافرنـج مركبـا يحمل فيها الضعفـاء من أصحابه، فأنفذ اليه عدة مراكب.

قال الشريـف الادريسي: كنت في الجملة ممن خـرج في المراكب، فلما وصلنا الى مينـاء عكا اخـذونا واعتقلـونا في معصرة القصـب الى ان وصل الملـك مري فـأطلقنـا، فخرجنا الى دمشـق، وخـرج صـلاح الديـن مـن الاسكندرية[الى عمـه] ثم سارا من بـلاد مصر وفي قلب أسد الديـن من مصر، لما شاهدها وشاهد من مغلاتها.

العشرون: في ذكـر عـود الفـرنـج إلى مصر، وعـود أسـد الـديـن إليهـا وماجرى بعد ذلك.

وفي هذه السنـة أعني سنـة أربع وستين طمـع مُرِي ملـك الأفرنـج في مصر وعـول على الـدخـول إليهـا والاستيلاء عليهـا، فجمـع إليـه ملـوك الفرنج وكبراء الداوية والاسبتارية فـأجابوا إلى الخروج معه، فأحضر وزيره وأمره بـاقطاع بلاد مصر لخيالتـه وفرق قراها على أجنـاده، وكان اللعين لما دخـل ديار مصر أقـام من أصحـابه مـن كتب لـه أسماء القرى جميعهـا، وتعرف لـه خبر ارتفاعهـا، ثم سـار حتى نـزل الداروم، فلما سمـع شاور بذلـك قامـت قيامته وأرسـل أميرا من أمـرائه يقال له بـدران فسألـه عن

سبب مجيئه فتلكأ عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يوري عنهم ولايكشف لشاور حالهم، ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم الحيلة على المصريين ويعلم شاورا إنه انما قصد مصر للخدمة، ففعل ذلك بدران، ولما سمع شاور بذلك أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار، وقال له: بدران غشني ولم ينصحني وأنا واثق بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج، فسار شمس الخلافة إلى مُري، وكان بينهما مؤانسة، فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغدار، والا ماالذي أقدمك الينا؟ قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى زوج أخت الملك الكامل ابن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا، فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض العهد، فقال له الملك: القول الصحيح أن قوما من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على آرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك، فخرجنا نتوسط الأمر بينكم وبينهم، فقال شمس الخلافة: فأي شيء طلبوا؟ قال: ألفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب، فقال له الملك: نحن ننزل على بلبيس إلى ان تعود، ثم انه سار خلفه لايلوي على شيء حتى خيم على بلبيس في شهر صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم: علم الملك ابن النحاس، وابن الخياط يحيى وابن قرجلة، ثم قاتل بلبيس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب أكثرها، وأحرق جل آدرها، ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشروا في مكان واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته قد أطلقتكم شكرا لله عز وجل على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فانني قد ملكتها بلاشك، ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى

فـاقتسموهـم، وبقي أهـل بلبيس الـذين أسروا أكثـر من أربعين سنـة في ملـك الفرنـج، وهلك أكثـرهـم في أيديهم، وأفلـت منهم اليسير، والملـك النـاصر لما ملـك ديـار مصر وقـف مغل بلبيـس على كثـرتـه على فكـاك الأسرى منهم، وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه.

ولما جـرى ذلك وبلـغ شاور، اجتمـع بالعـاضد وقـال: إن البلاد قـد أخذت منا فاكتـب الى نور الدين واطلب منه العونـة، فكتب جميع ذلك، وسخـم شـاور أعـالي الكتـب بالمداد، ولما بلـغ نـور الديـن ذلـك انزعـج انزعاجا عظيما وانفذ اسد الدين وكان من ذلك ماذكرناه.

وأما الفـرنج فسـاروا إلى جهة مصر، وبلغ أجـرة الجمل ثـلاثين دينارا، وتـرك الناس اكثـر أمـوالهم فنهبت واحـرقـت مصر في تـاسع رجـب كما ذكرنـا، ثم إن الافـرنج نزلـوا في بركـة الحبش وتخطفوا مـن ظفروا بـه، ثم رحلوا فنـزلوا على بـاب البرقيه نزولا قـاربوا به البلـد حتى صـارت سهام الجرخ تقـع في خيمهم، فقـاتلوا البلـد أيـاما، فلما تيقـن شـاور الضعـف عدل إلى طريق المخادعة إلى ان تصل عسـاكر الشام، فأنفذ الى مري لعنه الله رسـالة طـويلة وفيها: ان هـذا بلد عظيـم وفيه خلـق كثير، ولايمكن تسليمـه إليـك ولا أخـذه الا بعـد ان يقتل مـن الفـريقين عـالم عظيـم، وماتعلم انـت ولا أنا لمن الدائرة، والرأي ان تحقن دماء اصحـابك ودماء اصحابي، وتحصل شيئا ادفعه لـك، واستقرت المصانعة على اربعمائة ألف دينار، وقيـل الفي ألـف دينار، فعجـل له منهـا مائة ألـف دينار فـأجاب مري الى ذلك، وانعقدت الهدنة، ورحل إلى بـركة الحبش، وحمل شاور إليه مائة الف دينـار، ثم اخذ يماطله بالبـاقي انتظارا لقدوم العساكـر، ويوهم انه يجمع الاموال، فلم يشعر الفـرنج الا بهجوم عسكر الشام عليهم، فلما رأوهم رحلوا الى بلبيس، ونزل أسد الدين بـالمقس، ثم رحل ملك الافرنج ونـزل على فاقـوس، واتبعه أسـد الديـن ونزل على بلبيـس، ثم لما رحلـت

الفرنج بالكلية نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق، وأخرج إليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ثم بعد ذلك جرى ماذكرنا في الابواب الماضية.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن نور الدين محمود بن زنكي ملك قلعة جعبر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام ملكشاه، وهي من أمنع القلاع مطلة على الفرات من الجانب الشرقي وسبب ملكه إياها ان صاحبها نزل يتصيد فأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه الى نور الدين في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه فخر الدين مسعود بن ابي علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشيء، فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين ابن الداية، وهو رضيع نور الدين وأكبر أمرائه، فحصرها أيضا فلم يبد لها فيها مطمع فسلك مع صاحبها طريق اللين، وأشار عليه بأن يأخذ من نور الدين العوض ولايخاطر بنفسه في حفظها فقبل قوله وسلمها، وأخذ العوض عنها: سروج وأعمالها، والملاحة التي من بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، وكان مالك العقيلي هذا آخر بني مالك بالقلعة المذكورة.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

ياروق بن ارسلان التركماني: توفي في هذه السنة، وكان مقدما كبيرا واليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة، وكان

يسكن بظاهر حلب، وبنى على نهر قويق هو واتباعه عمائر كثيرة، وتعرف الآن بالياروقية، وهو مشهور هناك.

وقال ابن خلكان: ياروق بن ألب ارسلان التركماني، كان مقدما جليل القدر في قومه، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطىء نهر قويق، فوق تل مرتفع هو وأهله واتباعه ابنية كثيرة وعمائر متسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي مسكونة آهلة يتردد أهل حلب اليها في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضرة، وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والانس، وياروق بفتح الياء آخر الحروف، وبعد الالف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي آخره قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء آخر الحروف، وفي آخره قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف.

مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين، صاحب دمشق، مات في هذه السنة ببغداد، ودفن بداره التي عند النظامية، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والستين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد بالله، وصاحب مصر العاضد، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد كتب الى نور الدين محمود بن زنكي يستنجد على الفرنج لانهم حاصروا مدينة دمياط في صفرمن هذه السنة خمسين يوما بحيث ضيقوا على اهلها وقتلوا منهم خلقا لايحصون، وهم في أمم لايحصون كثرة، قد اجتمعوا من البر والبحر

رجاء ان يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف.

وكتب صلاح الدين الى نور الدين يطلب منه ان يرسل اليه بامداد من الجيوش فانه ان خرج من مصر خلفه اهلها بسوء، وان غفل عن الفرنج اخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم يتقوون به على اخذ مصر،

فارسل اليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضا، واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد اليها في جيشه فجاس خلال الديار، وقتل من رجالهم وسبى من نسائهم واطفالهم شيئا كثيرا، واجلت الفرنج عن دمياط لانه بلغهم ان نور الدين رحمه الله قد حصر بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم وسبى كثيرا من نسائهم، وغنم مالا جزيلا من اموالهم.

ولما اجلت الفرنج عن دمياط فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحا شديدا، وانشد الشعراء في ذلك كل منهم قصيدا.

وفي تاريخ بيبرس: وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها، وذلك أن أسد الدين لما ملك مصر خاف الفرنج بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال فنزلوا دمياط ظنا أنهم يملكونها، فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برا وبحرا، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك، ويشكو إليه أنه إن خرج من القاهرة مايأمن أن تنقض الشيعة أمرنا، فسير إليه نور الدين عسكرا نجدة، وسار بنفسه لقصد الفرنج، فصعد الى الكرك وحاصرها، وجاءت الفرنج، الى بيسان، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم، فرجعوا الى عكا، فعاد نور الدين الى دمشق، ولما سمع فرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا واشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار

من المسلمين، واسروا صاحبه، وكان مملوكا لنور الدين يسمى ختلج العلم دار وأولاده.

وفي المرآة: وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر، وجدوا في القتال وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمجانيق، ويزحفون اليها ليلا ونهارا، ووجه اليها صلاح الدين العساكر مع شهاب الدين خاله، وطلب من العاضد مالا فبعث اليه بشيء كثير، فكان صلاح الدين يقول: مارأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

واشعل نور الدين بلاد الفرنج بالغارات، ووقع فيهم الفناء فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير وكان رحيلهم في ربيع الآخر، وفي شعبان سار نور الدين الى الكرك فنازله وضربه بالمجانيق، واجتمع ملوك الساحل وجاءوه، فتأخر الى البلقاء.

وقال القاضي ابن شداد: لما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان، وقصده فرنج الساحل فرحل عنها، وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الداية بحلب في رمضان فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيرا من البلاد، وسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط، أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال الفرسان والميرة والآلات والسلاح ماأمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العدو عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيرا متحكما لايرد امره في

شيء، ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين رحلوا خائبين خاسرين، فأحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد، بحمد الله تعالى.

وقال العماد: وأقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه ومدار فلكه ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان الى دمياط فدخلها، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها، واتصل الحصار، وتواصلت الأنصار، ودب في الفرنج الفناء وهب عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي عشرين من ربيع الأول.

قال صاحب تاريخ الدولتين: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يتبسم لتتم السلسلة على ماعرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لاستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وبلغني ان اماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعلم نور الدين ان الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة فقال: يارسول الله ربما لايصدقني فاذكر لي علامة يعرفها فقال: قل له بعلامة ماسجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولاتنصر محمودا، ومن هو محمود الكلب حتى تنصره، قال: فانتبهت ونزلت الى المسجد، وكان من عادة نور الدين ان ينزل اليه بغلس ولايزال يركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة الا انني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها، والح علي في ذلك، فقلتها

فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا، وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وأرسل نور الدين الى العاضد كتابا يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وقد كان ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك في مصر، والاقتصار على أسد الدين وألزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليه الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الا سنهام الاتراك، فان الفرنج لايرعبون الا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية ولحصلوا منها على الامنية، فلعل الله ان ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التي لاتحصى ولعمارة اليمني قصيدة منها قوله:

من شاكر والله اعظم شاكر
ما كان من نعمى بني ايوب
طلب الهدى نصرا فقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلوب
جليوا الى دمياط عند حصارها
عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة
لو لم يجلوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها
عتقاؤهم من نازح وقريب

ان لم تظن الناس قشرا فارغا
وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

مصر بيوسفها أضحت مشرفة
وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها
فللمصالح من أيامه نمط(١٢)

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه أبطل الأذان بمصر «حي على خير العمل» وأمر صلاح الدين ان يذكر في الخطبة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ومنها أن شهاب الدين محمد بن ايلغازي بن أرتق، صاحب قلعة البيرة، سار في عسكره، وهوماتنا فارس الى نور الدين، وهو بعشترا، فلما وصل الى قلعة اللبوة من عمل بعلبك ركب متصيدا، فصادف ثلاثمائة فارس من الافرنج قد شنوا الاغارة على بلاد الاسلام فانفصلوا واقتتلوا فانهزم الفرنج، وأكثر شهاب الدين فيهم القتل والاسر، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى الى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر للقائه، وكان في جملة تلك الرؤوس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد، وكان من الشجاعة بمحل كبير، ولانه كان شجا في حلوق المسلمين، وكذلك ايضا كان فيها رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازدادوا سرورا، وكان ذلك في سابع عشر شوال من هذه السنة.......

ومنها أن في ليلة عيد الفطر رزق السلطان صلاح الدين ولده الملك الافضل نور الدين علي، وفرح به فرحا عظيما، وخلع واعطى وتصدق بما بهر به العقول.

ومنها أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان مسيره من دمشق

الى ولده صلاح الدين بمصر في هذه السنة وقد ذكرناه في السنة الماضية، ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم في ذلك قوله:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه
وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاء وا كيعقوب والاسباط إذ وردوا
على العزيز من ارض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزع ولازلل
وملكوا ملك مصر في شباختته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

ومنها ان نور الدين رحمه الله خرج في هذه السنة إلى داريا فأعاد عمارة جامعها، ومشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

قال في المرآة: وفي هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني فأحرقه الافرنج لما نزلوا على داريا في أيام مجير الدين آبق، فعمر نور الدين ــ في هذه السنة ــ هذا الجامع في وسط القرية.

ذكر الأمور المزعجة:

منها الزلزلة الكبرى:

قال ابن الأثير : وفي ثاني عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد

والاحصاء، فلما أتى نـور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمـر ماانهدم من أسوارهـا وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرهـا، فلما وصلها أتاه خبر بـاقي البلاد وبخـراب أسوارها وخلـوها من أهلها، فـرتب ببعلبك مـن يحميها ويعمرهـا وسار إلى حمص ففعـل مثل ذلك، ثـم إلى حماة، ثم الى بـارين، وكان شديد الحذر على البـلاد من الفرنج، ولاسيما بارين، فـانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البته، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مـع أمير كبير، ووكـل بـالعمارة من يحث عليهـا ليـلا ونهارا، ثـم أتـى الى مدينة حلـب، فرأى فيها من آثار الزلـزلة ماليس بغيرها مـن البلاد، فإنها قد أتـت عليها، وكـانوا لايقـدرون يأوون إلى بيـوتهم السالمة مـن الخراب خوفا من الزلـزلة، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمـون بظاهرها من الفـرنج، فلما شـاهد ماصنعـت الزلـزلة بها وبأهلهـا أقام فيهـا وباشر عمارتها بنفسـه، وكان هـو يقـف على استعمال الفعلـة والبنائين، ولم يـزل كذلك حتى أحكـم أسوارها وجميع البلاد وجوامعهـا، وأخرج من الأموال مالايقدر قدره.

وأما بلاد الفـرنج ـ خذلهم اللـه ـ فإنها ايضا فعلـت فيها الزلزلـة قريبا من هـذا، وهم ايضا يخافون نـور الدين على بـلادهم، فاشتغل كـل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكـانت قـلاع الافرنـج المجاورة لبعـرين كحصـن الاكراد وصـافيتا والعـريمة وعـرقة وقـد وافقت الـزلـزلة الفـرنج يـوم عيدهـم في الكنائس، ﴿فخر عليهـم السقف من فوقهـم وأتاهم العذاب مـن حيث لايشعـرون﴾ [النحـل ٢٦]، وذكـر العماد قصيـدة في مـدح نـور الـديـن ووصف الزلزلة:

هـــل لعـــاني الهوى مـــن الأسر فـــادي
ولســـاري ليـــل الصبـــابـــة هـــادي

جنبوني خطب البعاد فَسَهْل
كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من البين حتى
صاح يوم الاثيل بالبين حادي
قد حللتم من مهجتي في السويدا
ومن قلبي محل السواد

إلى أن قال:

أتمنى بالشام أهلي ببغداد
وأين الشام من بغداد
وما اعتياضي عن حبهم يعلم الله
تعالى الا بحب الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العادل
محمود الكريم الجواد
أنا منه على سرير سروري
راتع العيش في مراد مرادي

إلى أن قال:

هم نعم الملاذ من نائب الدهر
ونعم المعاذ عند المعاد
جل رزء الفرنج فاستبد لوا منه
ـه بلبس الحديد لبس الحداد
فرق الرعب منه في أنفس الكفار
بين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأرض
وهدت قواعد الاطواد
أخذتهم بالحق رجفة باس
تركتهم صرعى صروف العوادي

خفضـت مـن قـلاعهـا كـل عـال
وأعـادت تـلاعهـا كـالـوهـاد
أنفـذ اللـه حكمـه فهـو مـاض
مظهـر سر غيبـه فهـو بـادي

وفي المرآة: وكانت هـذه الزلزلة عـامة في الدنيا أخـربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشـام وحلب والعواصم وأنطاكية، ونزلـت الى اللاذقية وجبلة، وجميع بلاد السـاحل إلى الداروم، ويقال انه لم يمت مـن دمشق الا رجل أصابـه حجر وهـو على درج جيرون لان أهلها خـرجوا الى الصحـراء، ثم امتدت الـزلزلة، وقطعت الفـرات فوصلت الى الموصـل وسنجار ونصيبين والرها وحران والرقة ومـاردين وغيرها، وامتدت الى بغداد وواسط والبصرة وجميع بلاد العراق، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم.

ومنها نزول الافرنج على دمياط وقد ذكرناه مفصلا...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والستين بعد الخمسمائة:

ماجريات نور الدين محمود:

وهي أنه سار الى الـرقة فأخذها، وكذلـك نصيبين، والخابور، وسنجار، وسلمها الى زوج ابنتـه ابن أخيه عماد الديـن زنكي بن مودود بـن زنكي، ثم سار الى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يـوما وأقرها لابن أخيه سيف الـدين غـازي بن مـودود مع الجزيـرة، وزوجه ابنتـه الاخرى، وأمـر بعمارة جامعهـا وتوسعتـه ووقف على تأسيسـه بنفسه وجعـل له خطيبـا ودرسا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبي بكر البرقـاني تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الغـزالي، وكتب لـه منشـورا بذلـك، ووقـف على الجامع قـريـة من قـرى الموصل، وذلك كله باشارة الشيخ الصالـح العابد عمر الملاء، وكانت له

زاوية يقصد فيها، وله في كل سنة دعوة في شهر المولد، يحضر عنده الملوك والامراء والعلماء ويحتفل بذلك، وقد كان الملك نور الدين صاحبه يستشيره في اموره ومايعتمده من المهمات، وهو الذي أشار عليه في مدة مقامه بالموصل بجميع مافعله من الخيرات، وأسقط عنهم المكوسات والضرائب، وأخرج من بين أهلها الظالم الغاشم فخر الدين عبد المسيح، وسماه عبد الله، وأخذه معه الى دمشق، فأقطعه اقطاعا حسنا وكان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهر الاسلام، وكان يقال: ان له كنيسة في جوف داره، وكان سيء السيرة في حق العلماء. وخاصة المسلمين، وكان نور الدين لم يدخل الموصل حتى قوي الشتاء فأقام بها كما ذكرنا أربعة وعشرين يوما، فلما كان آخر ليلة أقام بها، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال اعداء الله، فنهض من فوره الى السفر، وماأصبح الا وهو سائر الى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان على سنجار ونصيبين والخابور فاستناب فيها ابن أبي عصرون نوابا من أصحابه.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة اتصل بنور الدين أن شهاب الدين غازي ابن أخيه صاحب الموصل قد فوض أموره الى فخر الدين عبد المسيح، وأنه استولى وقام بالامر وتحكم، فأنف لذلك وكرهه وعظم عليه لانه كان يبغض فخر الدين المذكور لما بلغه من خشونة سياسته، وقال: انا أولى بتدبير اولاد أخي، وسار عند انقضاء الغزاة جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك نصيبين، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا، وكثر جمعه، وكان قد ترك عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المناجيق وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين، وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول إليهم، فسار الى

الموصل فـأتى مـدينة بَـلَد، وعبر الدجلـة فسار فنـزل شرق الموصل على حصن نينوى، ويوم نزوله سقط مـن سور الموصل بدنة كبيرة، وكان سيف الدين غازي ابن أخيه قد أرسل عز الـدين مسعود بن قطب الدين أخاه الى أتابك شمـس الدين ايلدكـز صاحب همذان وأذربيجان وبلـد الجبل وأصفهان والـري وتلك الأعمال يستنجـده على عمه نور الـدين، فـأرسل ايلدكز رسولاً الى نـور الدين ينهاه عن التعرض للمـوصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان فـلا تقصدها، فلم يلتفت إليه، وقـال للرسول: قل لصاحبك أنـا أصلح لاولاد أخي منك، فلـم تدخل نفسك بيننـا، وعند الفراغ من اصـلاح بلادهم يكون الحديث معك على بـاب همذان، فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملـت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا بالفرنج، وهم أشجـع العالم، ولي مثل ربع بلادك، فأخذت معظـم بلادهـم، وأسرت ملوكهـم ولايحل لي السكوت عنـك، فإنـه يجب علينا حفظ ماأهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

وعزم مـن بها من الامـراء على مجاهرة عبـد المسيح بـالعصيان وتسليـم البلد لنور الـدين، فعلم ذلك فأرسـل الى نور الدين في تسليـم البلد اليه على ان يقر بيد سيـف الدين غازي، ويطلـب لنفسه الامان، فأجـابه الى ذلك وشرط ان يـأخذ فخر الـدين معه الى الشـام، ويعطيه عهده اقطـاعا يرضيـه، فسلم البلد في جمادى الاولى من هـذه السنة، ودخل القلعـة من باب السر، ثـم وهب الموصل لسيف الـدين غازي ابن أخيـه، وأمر بعمارة جامعها، ورتب فيهـا خصيا له يقال له كمشتكين، وأمره بـأن لاينفرد عن سيف الـدين غـازي بقليل مـن الأمور ولابكثير، وكـان مقامـه بالموصـل أربعة وعشرين يوما، وعاد الى الشام.

وفي تاريخ الـدولتين: وجعل نور الدين سعـد الدين كمشتكين دزدارا في قلعة الموصـل، ثم قسـم جميع مـاخلفه أخـوه قطب الـدين بين اولاده

بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخلها خلعها على سيف الدين.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال: أنست بك، وأمنت إليك، وأنا غير مختار لفرقتك، وأمره ان يروح في الرسالة الى الخليفة، فمضى وسار على البرية بخفير من بني خفاجة، فوصل الى الخليفة، وقضى حاجته، ثم رجع الى نور الدين، وهويحاصر سنجار، فأخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي.

قال: وحضر مجاهد الدين قيماز صاحب اربل الى خدمة نور الدين بالموصل.

ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب:

منها: أن صلاح الدين عزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، واستناب في سائر الاعمال شافعية.

وفي تاريخ قضاة مصر: ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمذاني الماراني الكردي الموصلي، وكان قاضي الغربية، قدم من المشرق الى مصر فولاه صلاح الدين رحمه الله، وكان عنده بمكان.

وفي تاريخ الدولتين: ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ومنها: ان صلاح الدين خرج الى الغزاة واغار على الرملة وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع الى القاهرة.

وفي تاريخ بيبرس: في هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير الى الساحل غازيا، فمضى واغار على عسسقلان والرملة، فأتاه ملك الفرنج فقاتله وهزمه، ونجا بنفسه، ثم رجع الى القاهرة.

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفق عليها، وأحب ان يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الاول، وكانت بأيلة قلعة في البحر، قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب حملها الى ساحلها على الجمال، وركبها الصناع هناك وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الاول من ربيع الآخر، واستحلها واستباح بالاسر والقتل أهلها، وملاها بالعدد والعدد وحصنها بأهل الجهاد والجلاد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الاولى.

و منها أنه سار الى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أول دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعم أهلها باحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

ومنها انه كان بمصر سجن يعرف بدار المعونة، فهدها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعية، وبنى بها أيضا مدرسة للمالكية، وكانت دار العزل، وكان ذلك في النصف من محرم هذه السنة، واشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارا كانت تعرف بمنازل العز، فجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة وحمام الذهب وغيرها، وكان ذلك في النصف من شعبان، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان على العربان بالصعيد، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

ومنها أن صلاح الـدين شرع في هذه السنة في عمارة سور القـاهرة لانه كـان قـد تهدم اكثره وصـار طـرقا لايـرد داخـلا ولاخـارجـا، وولى أمـره لقـراقوش الخادم، وقبـض على القصـور وسلمهـا إليه وأمـر بتغيير شعـار الاسماعيليـة، وقطـع مـن الاذان «حـي على خير العمـل» وشرع في تمهيـد اسباب الخطبة لبني العباس كذا ذكره ابن أبي طي.

ومنهـا أن شمـس الـدولـة طلـب من أخيـه السلطـان ربـع الكـامـل بالقاهرة، وزاد على اقطاعه نويش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

ومـن جملة الحوادث في هـذه السنـة أن في نصـف شعبان هبـت ريـح شديدة عظيمة، ورعدت السماء بقعقعة لم يسمع بمثلها، فخر الناس على وجوههم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة والخليفة هو المستضيء بأمـر الله، والخليفة بمصر العـاضد، والـوزير بها الملـك الناصر صـلاح الـدين يـوسف، ولكنـه في الحقيقة سلطـانها، وليس لأحد معـه كلام لا مـن أمرائها ولامـن أعيانها، والعاضـد تحت حكمه وقهـره، ومع هـذا قطعت الخطبـة باسمـه وخطب بـاسـم المستضيء الخليفة، وعقيـب ذلـك مـات العـاضد، والكـلام فيـه مفصلا على أنواع:

الأول: في قطع خطبته:

قطعت خطبتـه من ديـار مصر في محرم هذه السنـة، وسبب ذلـك ان صلاح الـدين لما ثبت ملكه في البـلاد، وأمن السودان والأجنـاد، وضعف أمر العاضد، وصـار قراقوش حاكما في قصره، كتب نور الـدين إلى صلاح

الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، وقطع خطبتـه، وإقامة الخطبة للمستضيء بـأمر اللـه، وكـان المستضيء قـد راسله في ذلـك، ولما وصـل رسول الخليفـة الى نور الدين بـذلك سيرنور الـدين كتاب الخليفة وكتـابه إلى صـلاح الديـن يأمـره بـالقبض على العـاضـد وأهله والخطبـة للامـام المستضيء فجمع صـلاح الديـن الامراء وشـاورهم في ذلـك، فمنهم مـن خوفـه، ومنهم من هـون عليه، فحضر الفقيه أبـو يحيى بن اليسـع الجامع يوم الجمعـة سابع المحـرم وصعد المنبر قبل طلـوع الخطيب، ودعا لـلامام المستضيء فلم ينكر أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضيء.

وفي تاريخ الدولتين: استفتح صـلاح الدين سنة سبع وستين وخمسمائة بـاقامـة الخطبة في الجمعـة الاولى منها بمصر لبنـي العباس، وفي الجمعـة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها.

وقال فيه أيضـاً: إن صلاح الدين لما تمكن في الديـار المصرية وضعف أمر العاضـد كتب إليه نور الدين يـأمره بقطع الخطبة العاضديـة وإقامة الخطبة العباسيـة، فاعتذر صلاح الـدين من وثوب أهـل مصر وامتناعهم من الاجابة إلى ذلـك لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الـدين إلى قوله وأرسل إليـه يلزمه بـذلك الزامـا لافسحة فيـه، واتفق ان العاضـد مرض، واستشار صلاح الديـن الامراء فاختلفوا فيه كما ذكرنـا، وكان قد دخل في مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم.

قـال ابن الأثير: وقـد رأينـاه بالموصـل كثيرا، فلما رأى مـاهـم فيه مـن الاحجام قال: انـا ابتدىء بها، فلما كان اول جمعة مـن المحرم صعد المنبر قبل الخطيـب، ودعا للمستضيء بـأمر اللـه، فلم ينكـر أحد عليـه ذلك، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صـلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح

فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الايام التي قد بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بذلك على مانذكره إن شاء الله تعالى.

ولما انتهى الخبر إلى نور الدين بالشام أرسل الى الخليفة ببغداد يعلمه بذلك مع شهاب الدين أبي المعالي بن أبي عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحا شديدا، وكانت الخطبة لبني العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

وقال ابن الجوزي: ووصل يوم السبت ثاني عشرين المحرم ابن أبي عصرون رسولا يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر وضربت السكة باسمه، وخلع على الرسول وأنكمدت الروافض، وقد صنفت في هذا كتابا سميته «النصر على مصر» وعرضته على الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

وقال العماد: وشيع نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وأمرني بانشاء بشارة عليه، تقرأ في سائر بلاد الاسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام في مدينة السلام.

قال: ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها:

قد خطبنا للمستضيء بمصر ... نائب المصطفى إمام العصر

وخذلنا لنصرة العضد العا ... ضد والقاهر المعز بالقصر

وأراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء.

وقال العماد في الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس
فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا المدعي يدعو ثبورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة
للهاشمي في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله
وجلت عن كل عد وحصر

وهي قصيدة طويلة.

قال العماد: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صندل ـ وهو من أكابر الخدم ـ المقتفوي، ومعه التشريف لنور الدين والكتاب للعماد ليقرأه، فتناوله منه الموفق ابن القيسراني وكان عنده في مقام الوزير، فقرأه.

وذكر في «عبرة أولى الأبصار»(١٣) أن الخليفة سير إلى نور الدين الخلع ومعها سيفان، اشارة الى تقليد مصر والشام، وسير معها طوقا زنته ألف دينار، وبعث أيضاً الى صلاح الدين تشريفا أقل من تشريف نور الدين، فلبس صلاح الدين ذلك التشريف، فركب به في الديار المصرية، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بني عبيد عليها، وأما نور الدين فكذلك لما لبس التشريف خرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى الى الميدان الاخضر، ثم عاد.

الشاني: في كتاب صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بخط القاضي الفاضل يهنيه بفتح مصر، أوله:

﴿سلام قولا مـن رب رحيم﴾[ياسين ٥٨] ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ [التوبة ٢١] وصلوات الله التي تنزل بها الروح الأمين وتشيعها الملائكة بالتأمين على مولى الأمة ومولى النعمة، ووالي الامر المصون بقاؤه في عقبه، وولي الله الذي ﴿لاخوف عليهم﴾ [البقرة ٢٦٢] ولاخوف به، الخليفة على الحقيقة، والامام الذي يحمي مـن دون الله الحقيقة على الحقيقة، ووارث السقايتين: زمزم والكوثر، والولايتين: السرير والمنبر، والدعائين: اليوم وفي المحشر، والشرفين: المشعر والمعشر، والطرفين: المشهد الاول والمشهد الاكبر، والمقامين: مقام ابراهيم ومقام محمد صلى الله عليهما وسلم أبدا سرمدا، والشعارين: الابيض في القلب والاسود في اليد، والخلدين: في دار السلام ودار السلامة، والموطنين: مقام الامامة ودار المقامة، والشفاعتين: سالفا في أهل العمار، وآنفا في أهل النار، والسلامين: سلام لكم من ألسنة الابرار و﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد ٢٤] على الخليفة ابن الخلائف، على رغم من رضي أن يكون مع الخوالف، وابن الأئمة المشهورين في المناظر والمواقف .

مولينا ومولانا الامام المستضيء بالله أمير المؤمنين، صلوات الله على تلك الأنوار القدسية يتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية، والحمد لله الذي وفى الدين دينه المسؤول، وأغمد عن أهله سيف الفتنة المسلول، فأورث أمير المؤمنين حقا كان به ممطولا، وأطال يده إلى استيفاء طائلة كان دم الحق بها مطلولا، وكتاب المملوك صادر الى المقر الأشرف الأصيل، من شرفه لشرف الرسول رسيل، والاسم الشريف المستضيء به قد صدحت منابره وعروشه، وطرزت المدائن والملابس والدنانير

والدراهم رقومه ورقوشه، وجهزت إلى بلاد الكفار في العام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه، والزمن قد وقرته السكينة لا الوجوم، والكواكب قد همت بأن تتساقط ايثار الضرب لاايثار الرجوم، ونشأة الدعوة المنيفة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ماأجمله، وتحصيل مامنعته الجلالة أن يستوفيه ويستكمله، راجيا ان يناله من الملاحظات النبوية مايجعل له سلطانا، ويمكن في قلوب الاعداء والاولياء مكانا، حتى يحفظ على الخلافة من لايعنيه الا إياها، وينفذ على الثقلين في الخافقين أوامرها وقضاياها، ويستضيف لها نصرا الى نصر، ويستنجز لها ماكتب ﴿في الزبور من بعد الذكر﴾ [الأنبياء ١٠٥]، نوه الله باسم أمير المؤمنين في الملأ الأعلى، وطبق بدعوته المعمورة حتى لايستثنى مكان بألا، وقلص به الامة ضلالة ومد عليه ظلا، ان شاء الله تعالى......»

وفي أيام العاضد وصل اسطول الفرنج الى الاسكندرية، وكان معهم من الخيل الف وخمسمائة فرس، وفي الاسطول ثلاثون ألف مقاتل في مائتي شيني، ومعهم آلات الحرب والحصار، ومعهم أربعون مركبا اخرى تحمل الازواد، وفيها من الرجال والغلمان تتمة خمسين الف رجل، وكشفوا المسلمين عن البر، وطلعوا فضربوا خيامهم وكانت ثلاثمائة خيمة، وحاصروا الاسكندرية أياما، ففتح المسلمون أبواب المدينة بالليل وكبسوا الفرنج على غفلة فأفنوهم قتلا وأسراً، وغنموا جميع ماأحضروه، وغنموا بعض المراكب واحرقوا بعض المراكب الباقية.....

الثامن: فيما جرى بعد موته.

قال ابن كثير رحمه الله: لما مات العاضد، استحوذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردها لهم، وأجرى عليهم الارزاق والنفقات الهنية عوضا عما فاتهم من

الخلافـة، واستعـرض حـواصـل القصريـن، فـوجـد فيهما مـن الحواصـل والامتعة والآلات والثيـاب والملابس شيئا كثيرا بـاهرا، وأمرا هـائلا، فمن ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر وقضيب زمـرد طوله اكثر من شبر وسمكه نحـو الابهام، وجبل مـن يـاقوت، ووجـد فيـه ابريـق عظيـم من الحجـر المائع، وطبل للقـولنج، فـاتفق أن بعض أمـراء الاكراد اخـذه في يده، ولم يدر ماشأنه، فلما ضرب عليه حبق فـألقاه من يده فكسره فبطل أمره، وأما القضيب الزمـرد فان السلطان كسره ثلاث فلق فقسمـه بين نسائه، وقسم بين الامراء شيئـا كثيرا من قطـع البلخش واليـاقوتـت والذهـب والاثاث وغير ذلك، واستمر البيـع فيها كان هنالك من الاثاث والامتعـة نحوا من عشر سنين، وأرسل الى الخليفـة ببغداد هـدايا عظيمـة سنية، وكـذلك الى الملك العادل نور الـدين، وأرسل إليه جانبا كبيرا صـالحا، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش زنة الواحدة واحد وثلاثون مثقالا، والاخرى ثمانية عشر مثقالا والثالثة دونهما، مع لآلىء كثيرة وستون ألف دينار وعطر لم يسمع بمثله، ووجـد في القصر أيضاً خزانة كتـب ليس في دار الاسلام مثلها تشتمل على نحو الفي ألف مجلـد، ومن عجائب ذلك انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري(١٤).

وقال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبا من مائة وعشرين الف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، وأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قـال: وقسـم القصر الشمالي بين الامـراء فسكنوه، وأسكـن أبـاه نجـم الـدين في قصر عظيـم على الخليـج، الذي يقـال له اللـؤلـؤة، الذي فيـه بستـان الكـافـوري، وسكـن أكثـر الامـراء في دور مـن كـان ينتمـي الى الفاطميين، وصار لايلقـى أحد من الاتراك أحـد من أولئك الذيـن كانوا بها من الاكابر الا شلحوه ثيابـه ونهبوا داره حتى تمزق كثير منهم في البلاد وتفرقوا شذر مذر، وصاروا أيادي سبأ.

وقال ابن أبي طي: ولم يوجد في القصر من المال كثير، لان العاضد قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات العديدة، ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر، ووجد فيه ابريق عظيم من الحجر المائع، فانفذه السلطان الى بغداد.

وجعل السلطان أهل العاضد في موضع خارج القصر، وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حرا، وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الامراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئا كثيرا، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوب وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدة عشر سنين.

قال: ومن جملة ماباعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف كتاب، وفيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الايام بجملتها بعد ان كانوا قد احتووا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه ويحدثه، عمل دعوة لشمس الدولة ابن أيوب أخي السلطان، بعد القبض على القصر وأخذ مافيه، وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا، وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء، فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدثني بأعجب ماشاهدته من أمر القوم، قال: نعم طلبني العاضد يوما

وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهما أقبية مثل أقبيتكم وقلانس مثل قلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: ياأمير المؤمنين ماهذا الزي، الذي مارأيناه قط؟ قال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا.

وفي تاريخ الدولتين: أخبرني أبو الفتوح أن السلطان جعل أهل العاضد في دار برجوان. في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها وأبعدوا عنها.

التاسع: في ذكر كتاب كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين الى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين أبي المضاء:

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الائمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد، بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما، وأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا، والخلافة إذا ذكرها أهل الخلاف لم يخروا عليها صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الامة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الاقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آتيهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس

السيف عمن سواهـم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليـل عن سير اليهم بنائم، ولاخفاء عن المجلس الصاحبي أن مـن شد عقد خلافة وحل عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر إلى أن يشكر مـانصح، ويقلد مافتح، ويبلغ مـااقترح، ويقدم حقه ولايطرح، ويقرب مكـانه وإن نزح، وتأتيه التشريفات الشريفـة، وتواصل إليه امـداد التقدمـات الجليلة اللطيفة، وتلبـى دعوتـه بما أقام مـن دعوة، وتوصل عـروته بما وصل من عروة، وتـرفع دونه الحجب المعترضـة، وترسل اليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عـوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهـه لنصرها، وجرد سيفه لـرفع منارها والقيـام بأمرها، وقـد أتى البيـوت من أبـوابها، وطلـب النجعة مـن سحـابها، ووعد آمـالـه الواثقـة بجـواب كتـابها، وأنهض لايصال ملطفـاتـه، وتنجـز تشريفاتـه خطيـب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالامر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الـذي جمع الله عليه السواد الاعظم، امـلا انـه يعود اليـه بما يطـوي الـرجـاء فضل عقبـه، ويخلـد الشرف في عقبه......»

ذكر ماجريات نور الدين:

منها أن نـور الدين استدعـى ابن أخيـه صاحـب الموصل، فـوصل بالعسـاكر إلى خدمته، وكـانت غزوة عرقـه فأخذهـا نور الدين ومعـه ابن أخيه، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وقال ابـن أبي طي: جمع نـور الديـن عساكـره وخرج الى عـرقة ونـازلها وقاتلهـا أياما حتـى فتحها واحتوى على مافيهـا كلها وغنم النـاس غنيمة عظيمة.

وقال ابـن الأثير: خرجت مـراكب من مصر إلى الشـام، فأخذ الافـرنج

من اللاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور لاطائل تحتها، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة، وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فاخذهما وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقة، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا في ولايتها مثلما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ما أخذوه من المركبين وتجدد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم.

ومنها أن نور الدين أمر في هذه السنة باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته وبعدت بلاده، وكانت من حد النوبة الى باب همذان لايتخللها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم قد بلغوا الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده واجرى الجرايات لها ولمربيها، فوجد بها راحة كبيرة، كانت الاخبار تأتيه لوقتها، لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوا لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو فيها في ساعته فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه، فانحفظت الثغور بذلك.

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين باسقاط المكوس

والضرائب عن أهل مصر والقاهرة، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الاشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر من هذه السنة، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار.

وفي تاريخ الدولتين: قرئت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر على المنبر بالقاهرة في التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين، فهو كان الآمر، وذاك المباشر.

ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين:

وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة بلاد الافرنج في السواحل، فأحل بهم بأسا شديدا، ثم عزم على محاصرة الكرك، وكتب الى صلاح الدين أن يلاقيه بالعساكر المنصورة الى بلاد الكرك ليجتمعا هناك على المصالح فيما يعود نفعه على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين، وخاف أن يكون لهذا الامر غائلة يزول بها ماحصل له من التمكين، ولكن ركب في جيشه من الديار المصرية ليقصد امتثال المرسوم، فسار أياما، ثم كرّ راجعا معتلا بقلة الظهر والخوف من اختلال الديار المصرية إذا بعد منها، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور الدين، فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه، وعزم على الدخول الى الديار المصرية وانتزاعها من يد صلاح الدين وتولية غيره فيها، ولما بلغ هذا الخبر الى صلاح الدين ضاق ذرعه بذلك، وذكره بحضرة الامراء والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر فقال: والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ماأقول لك، والله ما هاهنا أحد أشفق عليك مني، ومن خالك هذا - يعني شهاب الدين الحارمي - ولو رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الارض بين يديه، ولو كتب الي ان ابعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف

والذهاب، فلما خلا بابنه قال: أمالك عقل، تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء، ويقول ابن أخيك مثل هذا الكلام، وتقره عليه، فلا يبقى عند نور الدين وجه أهم عنده من قصدك وقتالك، ولكن ابعث إليه وترقق له، وتواضع له، وقل: أي حاجة إلى مجيء مولانا، ابعث الي بنجاب أجيء معه الى بين يديك، فانك اذا فعلت هذا تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله تعالى، ففعل صلاح الدين ذلك، وكان كما قال نجم الدين أيوب: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ [الاحزاب ٣٨].

وقال العماد: وكان صلاح الدين واعده نور الدين أن يجتمعا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم، فلقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا وعدة، وعاد الى القاهرة في النصف من ربيع الاول.

وفي تاريخ بيبرس: تجهز صلاح الدين من مصر الى الكرك، وكان قد قدر مع نور الدين ان يخرج من دمشق ويجتمعا على غزو الافرنج، فسبق صلاح الدين، وخرج نور الدين من دمشق، فأوجس صلاح الدين في نفسه خيفة منه أن يعزله عن مصر ويوليها غيره، فرجع عائدا وقد بقي بينه وبين الكرك مسافة قريبة، وأرسل الى نور الدين رسولا وأصحبه هدايا كثيرة، وتحفا جليلة، وكتب اليه يعتذر بأن والده ضعيف، وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكاري، فلاطفه نور الدين وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الدين: حفظ مصر عندنا أهم من غيرها، وفطن لما قصده برجعته، وعز ذلك عليه في باطنه.

وقال ابن الأثير: لما نصح نجم الدين ولده صلاح الدين وأشار عليه بأن يرسل رسولا الى نور الدين يستعطفه، فأرسل إليه بذلك، عدل نور الدين عن قصده، وكان من جملة ماقال نجم الدين لولده صلاح الدين: الايام تندرج، والله كل وقت في شان، وكان الامر كما قال، توفي نور

الديـن، ولم يقصد صـلاح الديـن، ولا أزاله، وكـان هذا الـرأي من نجـم الدين من أحسن الآراء وأجودها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والستين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات نور الدين:

منها: ان نوز الـدين برز الى الافرنج وكـانوا قد اجتمعوا بـالشام لقصد مدينة زرا، فـوصلوا الى سمكين، فهربوا مـن نور الدين الى الغـور، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث نور الديـن سرية إلى طبرية فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا، ورجعت الفرنج خائبين.

ومنها: أن نور الـدين فتح في هذه السنة مرعـش في ذي القعدة، وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها.

ومنها: أن كلب الـروم اللعين خرج في جنوده الشياطين، فقصـد الغارة على ناحية زرا من حوران، ونزلوا بقريـة تعرف سمكين، فركب نور الدين وهو نـازل بالكسـوة إليهم، فلما عرفـوا وصولـه رحلوا إلى الفـوار، ثم إلى السواد، ثم نزلـوا بالشلالة، ونزل نور الديـن عشترا فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية، واغتنموا خلوهـا، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخـاضة، فوقف الشجعان حتـى عبرت السرية، ورحل نور الـدين من عشترا فنزل بظـاهر زرّا.

قال العماد: وكنـت راكباً في لقائهم مـع الملك العادل، وهـو يقول لي: كيف تصف ماجرى فمدحته بقصيدة منها:

عقـــــدت بنصرك رايـــــة الايمان
ويــدت لعصرك آيـــة الفـــرســـان
يــاغــالــب الغلب الملـوك وصــائد الــ
ـــصيد الليــوث وفــارس الفــرســان
يـــاســالــب التيجــان مـــن أربــابها
حـــزت الفخـــار على ذوي التيجـــان
محمـــود المحمـــود مـــابين الـــورى
في كـــل اقليـــم بكـــل لســـان
يـــاواحـــدا في الفضـــل غير مشـــارك
اقسمـت مـالـك في البسيطـة مـن ثـان

ومنها:
وجلـوت نـور الـديـن ظلمـة ظلمهـم
لما أتيـت بـــواضـــح البرهـــان
وهـــزمتهـم بـــالـــرأي قبـل لقـائهـم
والـــرأي قبـل شجـاعـة الشجعـــان
أصبحـت لـلاســلام ركنـا ثـابتـا
والكفــر منــك مضعضـــع الاركـــان

وهي قصيدة طويلة مدح فيها أمراءه الحاضرين للجهاد معه.

ومنها أن نـور الديـن سار قـاصدا جـانب الشمال، فسـار إلى بعلبك، ومنها الى حمص، ثـم حلب، وفعـل في كل منهـا من المصـالح مـاوجب، وقصـد بـلاد قليـج أرسـلان ملك الـروم، وكـان العماد معـه، ووصـل الى مرعش، وكان الزمان في أطيب فصـوله، وهو زمن المشمش، وكتب العماد الى صديق له بدمشق:

كتـــابي فـــديتـــك مـــن مـــرعـــش
وخـــوف نـــوائبهـــا مـــرعشي

وما مرّ في طرفها مبصر
صحيح النواظر الا غشي
وما حل في ارضها آمن
من الضر والضيم الاخشي
ترنحني نشوات الغرام
كأنني من كاسه منتشي
اسر وأعلن برح الجوى
فقلبي يسر ودمعي يشي
بذلت لكم مهجتي رشوة
فحاكم حبكم مرتشي
وكيف يجد الكرى مغرم
بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة، ونمى حديثها الى نور الدين، فاستنشدنيها فأنشدتها إياه ونحن سائرون في واد كثير الأشجار وزدتها بيتين بدهتهما في الحال:

ويا الملك العادل استأنست
نجا حامني كل مستوحش
وما في الانام كريم سواه
فإن كنت تنكر ذا ففتش

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه واقصرا، عازما على حربه وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطيه وسيواس وغيرهما من تلك البلاد، قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده،

وأخرجه عنها طريدا، فسار إلى نور الدين مستجيرا بـه وملتجئا إلى ظله، فـأكرم نـزلـه وأحسن إليـه، وحمل لـه مايليـق أن يحمـل للملوك، ووعـده النصر، والسعي في رد ملكه إليه، وأرسل إلى قليج أرسلان وشفـع إليه في اعادة ماغلبه عليـه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نـور الدين نحوه، فابتدأ بكيسـوم وبهسنا ومرعش، ومـرزبان فملكها ومابينهـا من الحصون، وسير طائفـة من عسكـره إلى سيواس فملكـوها، وكـان قليج أرسـلان لما بلغـه قصد نـور الديـن بـلاده قد سـار مـن أطرافهـا التي تلي الشـام إلى وسطهـا، خوفـا وفـرقا، وراسـل نـور الـدين يستعطفـه ويسـأله الصلـح والصفح عنه، فأجـابه الى الصلح، وكان في جملة رسالة نـور الدين: إنني اريد منك أمورا وقـواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثـة أشياء: أحدها ان تجدد اسلامك على يد رسولي، حتـى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فـإني لاأعتقـدك مـؤمنـا، وكـان قليج أرسـلان يتهـم بـاعتقـاد مـذاهـب الفلاسفة، والثـاني إذا طلبت عسكرك الى الغزاة تسيره، فانـك قد ملكت طرفا كبيرا مـن بلاد الاسلام، وتركت الـروم وجهادهـم وهادنتهـم، فاما ان تكون تنجـدني بعسكرك لاقـاتل بهم الفرنـج، واما ان تجاهـد من يجاورك من الـروم، وتبذل الـوسع والجهد في جهـادهم، والثـالث ان تـزوج ابنتك لسيف الدين غازي ابن أخي، وذكر امورا غيرها.

فلما سمع قليج أرسـلان الرسالة قال: مـاقصد نور الديـن الا الشناعة علي بالزنـدقة، وقد أجبته الى ماطلـب، أنا أجدد اسلامي على يـد رسوله، واستقـر الصلح، وعـاد نـور الديـن، ونزل عسكـره في سيـواس مع فخـر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها الى ان مات نور الدين، فرحل العسكر وعاد قليج ارسلان وملكها.

ومنهـا أن مليح بـن لاون، مقدم بـلاد الارمـن التجأ إلى نـور الديـن، وتقـوى بـه على الروم والارمـن، وكـانـت الدروب تحت اذنـة والمصيصـة وسيواس يحميها كلـب الروم ويضبطها بجنده، حتى استـولى عليها مليح

ابـن لاون فكسرهم وقتـل وأسر، وسـاق لنـور الديـن مـن مقـدمي الـروم ثلاثين أسيرا، فـأرسل نـور الديـن القاضي كمال الـدين بـن الشهرزوري بالأسرى والهدايا الى الخليفـة المستضيء بأمر الله، ومعـه كتاب يشرح هذه الكسره، ومافتح من البلاد.

ومنها أنه وصل شهـاب الدين ابن أبي عصرون من بغداد ومعـه توقيع لنور الديـن بدرب هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنـانير النثار التي نثرت يـوم دخل الشهـاب الى بغداد بالبشـارة بالخطبـة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكـانت نـاحيتا درب هـارون وصريفين من أعمال العـراق لزنكـي والد نـور الدين قـديما من انعام أمير المؤمنين، فسـأل نور الـدين احياء ذلـك الرسـم في حقه، فـأنعم بهما الخليفـة عليه، ووجـه بهما، وكان مراده رحمه الله ان يستـوهب ببغداد على شاطىء دجلة ارضـا يبني عليها مدرسـة للشافعية، ويقف عليهـا الناحيتين، فعاقـه امر القدر عن قـدرته على الأمر.

ومنها ان نـور الديـن أرسل الى صـلاح الديـن الموفق خـالد القيسراني ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلـك لانه استقل الهدية التي ارسل بها إليه من خزائن العاضد، ومقصوده أن يقـرر له على الديار المصرية خراج يحمل اليه كل سنة.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها: أن صـلاح الديـن بعث الى نور الـدين هـدية منهـا: فيل وحمارة عتابي، فبعث بها نور الدين الى بغداد، وخـرج الناس للقائها، وعجبوا من خلقة الحمارة.

وقال العماد: خرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر.

قال: ووصل ذلك الينا ونحن بحلب بالميدان الاخضر، وأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين هدية الى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

ومنها أن صلاح الدين نزل في هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها، وفرق عنها عربها وخرب عمارتها، وبعث سراياه على أعمالها، وأرسل كتابا بذلك الى نور الدين.

وقال ابن الأثير وابن شداد: هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وانما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لانها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، فخرج صلاح الدين في أثناء السنة فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها، فلم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة، وحصل ثواب القصد.

وفي المرآة: وفي هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل، وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد، وتصدق بمال عظيم، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكره، فحصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين، وقتل البعض وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك، وكتب كتابا الى نور الدين يخبره بما جرى من العربان، وأنه لم يبق منهم أحد، فإنهم كانوا آفة على المسلمين، ودليلا للكفار على الاسلام،

ثم عاد صلاح الدين الى مصر، وعاد نور الدين من الموصل وقطع الفرات، وقصد بلاد الروم، وقد ذكرناه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو أبو الشكر أيوب بن شادي، والد الملوك بني أيوب، الكردي الزرزاني، وهم خيار الأكراد من بلاد دوين، بشمال بلاد أذربيجان، مما يلي الكرج، ومنهم من يقول: أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب، وأغرب بعضهم فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر بني أمية، وهذا ليس بصحيح، والذي عليه الجمهور أنه لايعرف بعد شادي أحد في نسبهم، والذي نسب الى بني أمية ادعاء هو الملك أبو الفداء اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شادي، ويعرف بابن سيف الاسلام، وقد ملك اليمن بعد أبيه فتعاظم في نفسه، وادعى الخلافة، وتلقب بالامام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، أمير المؤمنين، وزعم انه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه، ولهجوا بذلك، وقال هو في ذلك ايضا.

وإني أنا الهادي الخليفة والذي
أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولابد من بغداد أطوي ربوعها
وأنشرها نشر السماسرة البرد
وأنصب أعلامي على شرفاتها
وأحيي بها ماكان أسسه جدي
ويخطب لي فيها على كل منبر
وأظهر دين الله في الغور والنجد

وهـذا الادعـاء ليس بصحيـح، ولا لـه أصـل يعتمد عليـه ولامستنـد يستند إليه.

قـال ابن أبي طي: لايعـرف في نسـب نجم الـديـن أكثر من والـده شادي، وحدثنـي أبي قال: كان تقي الديـن عمر يزيد فيقـول شادي بن مروان، وسمعت أنا من يقول: شادي بن مروان بن يعقوب.

قال: وأجمع الجماعـة من آل أيوب ان دعـوى ابن سيـف الاسلام أنهم من بني مـروان بن محمد الجعدي آخـر خلفاء بني أمية كـذب، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جدا فوق شادي.

قال: وكذلك أخبرني السلطان الملك الظـاهر، قال: وصحة دليل ذلك أني وقفت على كتـاب وقف رباط النجمي بـدمشق ولم يزد فيـه على نجم الـدين أبي سعيـد أيـوب بن شـادي العـادلي، والمقصود أن الأمير نجـم الديـن والأمير أسد الدين شيركـوه كانا أخويـن، وكان نجم الديـن أسن من أسد الدين، ولدا بأرض الموصل.

وقال ابن أبي طي في تـاريخه الكبير: كان مولد نجم الديـن أيوب ببلد شبختان، وقيل انه ولد بجبل جور وربي في الموصل، ومولد أبيه شادي في بلد دوين.

الثاني: في بيـان ابتداء أمـره وانتسابـه واتصالـه بالـدولة، وهـو أن أباه شادي كان من أعيـان أهل دوين وكان له صاحب يقـال له جمال الدولة مجاهد الـدين بهروز، وكـان من أظـرف الناس وألطفهـم، وكان بينـه وبين شادي أخـوة أكيدة، فجـرت لبهروز قضية في دويـن، فخرج منهـا حياء، وذلك انـه اتهم بزوجة بعـض الأمراء بدوين، فـأخذه صاحبهـا فخصاه،

فلما جرى له ذلك لم يقدر على الاقامة، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية وهو مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه، واتصل باللالا الذي لاولاده، فوجده لطيفا كافيا في جميع الامور، فتقدم عنده وفوض إليه أموره، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل، فرآه السلطان يوما مع اولاده فانكر على اللالا، فقال: إنه خادم، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته، ثم صار يسيره الى السلطان في الاشغال، فخف على قلبه فلعب معه الشطرنج والنرد، فحظي عنده، واتفق موت اللالا، فجعله السلطان مكانه، وسلم إليه أولاده، وأرصده لمهماته، وسار ذكره في تلك النواحي فسير إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ماصار إليه من النعمة وليقاسمه ماخوله الله تعالى، وليعلم أنه مانسيه، فلما وصل إليه بالغ في اكرامه، والانعام عليه، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور الى بغداد واليا ونائبا عنه بها، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد، يسيرون إليها النواب، فاستصحب معه شادي، فسار هو وأولاده صحبته، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت، فلم يجد من يشق إليه في أمرها سوى شادي، فأرسله إليها فمضى وأقام بها مدة وتوفي بها، فولى مكانه نجم الدين أيوب، فنهض في أمرها، وشكره بهروز وأحسن إليه، وكان أكبر سنا من أخيه أسد الدين شيركوه، ثم إن شيركوه رأى يوما امرأة تبكي، فقال لها: مايبكيك؟ فقالت: أنا داخلة من باب القلعة فتعرض لي الاسفهسلار، فقام شيركوه وتناول حربه الاسفهسلار وضربه بها فقتله فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وعرف بهروز بذلك، فوصل جوابه: لابيكما علي حق، وبيني وبينه مودة متأكدة مايمكنني ان اكافيكما بسيئة، ولكني اشتهي ان تتركا خدمتي، وتخرجا من بلدي وتطلبا رزقكما، فلما وقفا عليه خرجا ووصلا إلى الموصل، فأحسن إليهما الاتابك عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود بن زنكي، واقطعهما اقطاعاً حسناً، ثم لما ملك الاتابك قلعة بعلبك - كما ذكرنا - استخلف بها نجم الدين أيوب، ثم بعد مدة انتقل الى دمشق،

وأقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، ثم لم يزل معه في السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده، فصار لايقطع أمرا دونه، ثم إن نور الدين أرسل أخاه شيركوه الى الديار المصرية ثلاث مرات ـ كما ذكرناه ـ وكان معه في كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب.

ولما جرى ماجرى من أمور المصريين، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف، وصار أمر الديار المصرية إليه ـ كما ذكرناه مفصلا ـ طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين فأرسله إليه مع أهله وحاشيته ـ كما ذكرنا.

وقال العماد الكاتب: لما دخل فصل النيروز استأذن نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وخيم بظاهر البلد ثم سار فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسمائة، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله، ووصف ذلك عمارة اليمني في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله:

صحت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم تغن بطبيب

عجبا لمعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب

رد الاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب

جاءته أخوته ووالده الى
مصر على التدريج والترتيب

فاسعد بأكرم قادم وبدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

وفي تاريـخ الدولتين: وكان بهروز المذكـور، أمره في جميـع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهـان، وكانت خيلـه خمسة آلاف فارس، فـأقر نجم الديـن في ولاية تكريت وأضـاف إليه النظر في جميع الـولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود.

ثم إن عماد الديـن زنكي والد نور الـدين محمود طمع في أخـذ بغداد، ووصل الخبر إلى قراجا السـاقي وهو أتابك السلطان محمـود، فجرد ألف فارس للقـاء زنكي، فانهزم زنكـي، وقتل جماعـة من أصحابـه ونهب جميع مـاكان معـه في عسكره، وجـاء إلى تكريـت وبـه عدة جـراحات، وعلـم مكانـه الامير نجم الدين وأخـوه شيركوه، فأحسنـا إليه وداويا جراحـاته، وخدماه أحسن خـدمة، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يـوما، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهـر، حتى أنهما أعطياه جملة مـن البقر حمل عليها ماسلم معـه من أمتعته، فكان زنكي يـرى لنجم الدين أيـوب هذه اليد، ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقـامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ماذكرنا تلقاه زنكي بالرحب والسعة واحترمه احتراما عظيما.

وقال صـاحب تـاريخ الدولتين: وكـان نجم الديـن قد سـاس الناس بتكريـت أحسن سياسـة، حتى ملك بذلـك حبات قلوبهم، وكـان أخوه شيركوه معـه في القلعة، وكـان شجاعـا باسـلا ينزل مـن القلعة ويصعـد إليها في أسبابه وحاجاته، وكان نجـم الدين لايفارق القلعة ولاينزل منها، فاتفق ان اسـد الدين شيركوه نزل يـوما لبعض شأنه، ثـم عاد الى القلعة، وكـان بينه وبين كـاتب صـاحب القلعـة قوارص، وكـان رجلا نصرانيـا، فاتفـق في ذلك اليوم ان النصراني صادف أسـد الدين صاعـدا الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة، فجرد أسـد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد الى القلعة، وكـان مهيبا، فلـم يتجاسر أحـد على معارضتـه في أمر النصراني بشيء، وأخـذ النصراني برجلـه فـألقاه مـن القلعـة، وبلغ ذلـك الى بهروز وحصـل عنده مـن خوَّفـه جـرأة أسد الـدين، وأنـه ذو عشيرة كبيرة، وأن

أخاه نجم الـدين قد استحوذ على قلوب الـرعايا، وأنه ربما كـان منه أمر تخشى عـاقبته، ويصعـب استدراكه، فكتـب إلى نجم الـدين ينكـر عليه ماجرى مـن أخيه، ويأمره بتسليم القلعة الى نـائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين ذلك بالسمع والطـاعة، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها مـن أهل ومال، واجتمـع هو وأخـوه أسد الديـن وصمما على قصد عماد الدين زنكي بـالموصل، فخرجا واتصلا به كما ذكـرنا، وقيل ان أسد الديـن خرج إلى الموصل قبل نجـم الدين، ثـم إنه جرى بين أسد الـدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة حتـى حلف كل واحد منهما للآخر ان يقوم بأمره في حياته وبعد وفاتـه، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأخيه نجـم الدين حتى قـربهما من قلب أتـابك، وجعلهما عنده بالمنـزلة العظيمـة، وخـرجا معـه إلى الشـام، وشهـدا معـه حروب الكفـار وقتـال الافـرنج لعنهـم الله، وكـان لاسد الـدين في تلـك الوقـائع اليد البيضـاء والفعلة الغراء.

وقال ابن أبي طي: حدثني أبي عن سعد الدولة أبي الميامن عن حسام الديـن سنقر غلام نجم الـدين أبي طالب، وكـان في خدمة نجم الـدين أيوب، قال: لما دخـل نجم الدين أيـوب الديار المصرية الى ولـده صلاح الدين كنت معـه في خدمته، وكانا قد اجتمعـا في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بـأرباب الدولتين إذ تقدم نصراني كان في خدمة نجم الـدين، فقبل الارض بين يديهما وقال لنجم الديـن: يامولانا هذا تأويـل مقالتي لك حين ولد هـذا السلطان - يعني صـلاح الدين - فضحك نجم الدين وقال: صدقـت والله، ثم التفت الى الجماعة الذين حـوله مـن أكابـر العلماء والقضـاة والامراء، وقـال: لكلام هـذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أني ليلة رزقت هـذا الولد - يعني السلطان صلاح الدين - أمرني صاحب قلعة تكريـت بالرحلة عنها بسبـب أخي شيركوه مـن قتلـه ذلـك النصراني، وكنـت قـد ألفـت هـذه القلعـة وصـارت لي كـالوطـن، فثقل علي الخروج منهـاجـدا، وفي ذلك الـوقت جـاءني البشير

بولادة هذا ـ يعني صلاح الدين ـ فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ، وخرجنا من القلعة وانا لاسميته ولا التفت إليه، وكان هذا النصراني معي كاتبا لي، فلما رأى مانزل بي قال: ياسمولاي أي شيء لهذا المولود من الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لايضر ولاينفع، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله تعالى، فما يدريك أن هذا الطفل يكون سببا لوصول الخيرات إليك ويكون هو ملكا عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد جرى ماقال لي، فتعجب الحاضرون من ذلك، وحمد السلطان ووالده الله تعالى وشكراه، ولعمارة اليمني في نجم الدين مدائح ومراثي منها:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجا ومعتمرا
كأنها حل فيه الحل والحرم

إلى ان قال:

والناصر ابنك كافي كل معضلة
إذا الحوادث لم تكشف لها غمم

الثالث: في سيرته.

وكان شجاعا باسلاً أميناً، خيرا محسنا، ناصحا عظيما في أنفس الناس بالخير والدين وحسن السياسة، وكان لايأتي أحد من أهل العلم والدين من مدينة الا انفذ إليه، وقد ذكره العماد الكاتب وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة.

وقال ابن خلكان: وكان نجم الدين رجلا مباركا كثير الصلاح مائلا

للخير، حسن النية، جميل الطوية، وظهرت ثمرة بركته في أولاده، وله خانقاه بدمشق تعرف بالنجمية، وخانقاه بالديار المصرية ومسجد وقناة خارج باب النصر من القاهرة، وخانقاه أخرى لطيفة ببعلبك بناها حين كان نائبا بها عن عماد الدين زنكي.

وفي المرآة: وكان نجم الدين رجلا عاقلا حازما شجاعا حليما رحيما، جوادا، عاطفا على الفقراء والمساكين، محبا للصالحين، قليل الكلام جدا، لايتكلم الا عن ضرورة.

ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين ان يكون هو السلطان، فقال: أنت أولى، وكان يلعب بالاكرة دائما.

وقال القاضي ابن شداد: وكان شديد الركض بالخيل، يلعب بالاكرة، ومن يراه يقول: مايموت الا من وقوعه من ظهر الفرس.

الرابع: في وفاته

خرج نجم الدين يوما من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، فشبت به فرسه، فألقاه في وسط المحجة، وذلك يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة، وحمل إلى داره، وبقي متألما إلى أن توفي يوم الاربعاء سابع عشرين الشهر المذكور، ويقال في الثامن والعشرين منه.

وفي تاريخ بيبرس: وكان سبب وفاته أنه تقنطر عن فرسه، فحمل إلى داره فمات بها.

وفي تاريخ الدولتين: وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه من الفرس، وكانت وفاته يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان ولده صلاح الدين غائبا عنه في بلاد الكرك والشوبك على الغزاة.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة نجم الدين أبيه، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه، ماعظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت بغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبرة، فياله فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء، وتخطفته يد الردى في غيبتي، هبني حضرت فكنت ماذا أصنع.

قال: فدفن نجم الدين الى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنين الى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الاصفهاني وزير الموصل، وكان جمال الدين المذكور مواخيا لاسد الدين شيركوه كما ذكرنا.

وفي تاريخ القاضي الفاضل: وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة يخبر بوصول تابوت الامير نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، واستقرارهما بتربتهما مجاورين الحجرة المقدسة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

الخامس: فيما يتعلق به.

خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الاسلام طغتكين ، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون، وقال عمارة اليمني يرثيه:

صفـــو الحيـــاة وإن طـــال المدى كـــدر
وحـــادث الـــدهـــر لا يبقـــي ولا يـــذر
ومـــا يـــزال لســـان الـــدهـــر ينـــذرنـــا
لـــو أثـــرت عنـــدنـــا الآثـــار والنـــذر
كـــم شـــامـــخ العـــز ذاق الموت مـــن يدهـــا
مـــا أضعـــف القـــدر ان ألـــوى القـــدر
أودى علي وعثمان تخلبهـــــــــــــــــــا
ولم يفتهـــا أبـــو بكـــر ولا عمـــر
ومـــن أراد التـــأسي في مصيبتـــه
فللـــورى في رســـول اللـــه معتبر
لا قـــدســـت ليلـــة كـــادت مصيبتهـــا
الأكبـــاد حـــزنـــا على أيـــوب تنفطـــر
كـــأنما صـــور اللـــه الكمال بـــه
شخصـــا ويـــوســـف منـــه السمـــع والبصر
إذا الليـــالي تجافـــت عـــن حشـــاشتـــه
فـــالجرح منـــدمـــل والـــذنـــب مغتفـــر
يـــا نـــاصر الحق والايـــام خـــاذلـــة
إن الغـــريـــب بغير الـــدمـــع ينتصر
مـــا مـــات أيـــوب الا بعـــد معجـــزة
في الحق لم يـــؤتها مـــن جنســـه بشر
مضـــى حميـــدا مـــن الـــدنيـــا وليـــس لـــه
في رتبـــة ارب منهـــا ولا وطـــر
صلى الالـــه على نجـــم اضـــاء لنـــا
مـــن نسلـــه النيران والشمـــس والقمـــر

وهي قصيدة طويلة، وله قصيدة أخرى في مرثيته واولها هو قوله:
هـــي الصـــدمـــة الاولى فمـــن بـــان صبره
على هـــول ملقـــاهـــا يضـــاعـــف أجـــره
أذم صبـــاح الاربعـــاء فـــإنـــه
تبســـم عـــن ثغـــر المنيـــة فجـــره

أصـــاب الهدى في نجمـــه بمصيبـــة
تـــداعـــى سماك الجو منهـــا ونسره
فـلا تعـذلـونـا واعـذرونـا فمـن بكـى
على فقـد أيـوب فقـد بـان عـذره
أقـــام بـــأعمال الفـــرات وخيلـــه
يـــراع بها نيـــل العـــزيـــز ومصره
إلى ان رمـــاهـــا مـــن أخيـــه بضيعـــم
فـــرى نـــابـــه أهـــل الصليـــب وظفـــره
تعـــاقبتها مصرا تعـــاقـــب وابـــل
يبيـــت بقطـــر النيـــل ينهـــل قطـــره
ووا خيتـــه في البر حيـــا وميتـــا
فقبرك في دار القـــرار وقبره
وقـــد شخصـــت أهـــل البقيـــع اليكما
والا فسكـــان الحجـــون وحجـــره
هنيئـــا الملـــك مـــات والعـــز عـــزه
وقـــدرتـــه فـــوق الـــرجـــال وقـــدره
وأدرك مـــن طـــول الحيـــاة مـــراده
ومـــا طـــال الا في رضـــى اللـــه عمـــره
وأسعـــد خلـــق اللـــه مـــن مـــات بعـــدما
رأى في بنـــي أبنـــائه مـــا يسره
رعـــى اللـــه نجما تعـــرف الشمـــس أنـــه
أبـــوهـــا ونـــور البـــدر منهـــا وزهـــره
وأبقـــى المقـــام النـــاصري فـــانـــه
لـــدولتكـــم كنـــز الـــرجـــاء وذخـــره
....

-١١١٤٩-

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، غير أنه توفي إلى رحمة الله في هذه السنة، على مانذكره عن قريب ان شاء الله تعالى.

فلنبدأ أولا بما جريات صلاح الدين ثم ماجريات نور الدين، ثم نذكر وفاته ان شاء الله.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها أنه ارسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها وارتفاعها مائة ألف دينار، ثم تجهز منها وسافر، ووصل زبيد، وقتل ابن المهدي صاحبها، وكان يلقب أمير المؤمنين، فلما قتله سير نواب الحصون مفاتيحها إليه، وهي واحد وأربعون حصنا.

وقال العماد: وفي رجب توجه توران شاه أكبر أخوة صلاح الدين الى اليمن فملكها، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني، شاعر القصر، وكان كثير المدح لتوران شاه، فتجهز وسار إلى مكة، ثم الى زبيد فملكها، وقبض على الخارجي بها وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ، ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد أخوته وقوة بأسهم، وكان بلغه ان باليمن انسانا

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم انه ينتشر ملكه الى الارض كلها، فاستتب أمره، فرأى ان يسير إليها اخاه الاكبر الملك المعظم توران شاه، وكان كريما اريحيا، حسن الاخلاق، فمضى اليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها، وكان اخو هذا الخارجي باليمن قبله.

وقال ابن أبي طي، وكان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا، وكان اقطاعه بمصر لايقوم بفتوته، ولاينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد الى مصر ومدح اصحابها، فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه، وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة اموالها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ومن جملة شعره قوله في القصيدة التي أولها:

العلم مذ كان محتاجا الى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الاجفان ظامئة
الى الموارد في الاعناق والقمم
امامك الفتح من شام ومن يمن
فلا ترد رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سومها
من الفرات الى مصر بلا سأم

الأبيات:

وله قصيدة أخرى منها قوله:

أفاتح أرض النيل وهي منيعة
على كل راج فتحها ومؤمل

-١١١٥١-

متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وأبين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل

الأبيات:

وقال ابن أبي طي: ووافق ذلك أن كاتبه رجل من أهل اليمن يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه لان صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه وتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ماكان في نفسه، وأصحبه جماعة من الامراء، ومقدار الف فارس خارجا عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر: في البر العساكر وفي البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات، فوصل الى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا، ثم خرج متوجها منها الى اليمن، فوصل زبيد في أول شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الاشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل الى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاها عز الدين بن الزنجيلي، ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد فيها الا شيخا او امرأة عجوزا، فأقام بها ثمانية ايام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة، فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك بن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ فساد أمره، فرأى المصلحة في قتله فقتله ابن منقذ بزبيد،

فلما بلغ شمس الـدولة قتله استصوبـه، ولما دخل شمس الدولـة في زبيد انفذ اليه صاحب الحمام[١٥] وصالحه هو وباقي الملوك على اداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقـلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بـذلك الى اخيه الملك النـاصر صلاح الدين، فـارسل الى نور الـدين يخبر بذلك، فـأرسل نور الـدين مهـذب الديـن أبا الحسـن علي بن عيسـى النقاش بـالبشارة بذلك الى بغداد.

وذكر العماد الأمير مجد الدين سيـف الدولة المبارك بن كامـل بن منقذ المستناب ووصفه بأنه من الكفاة الـرماة والدهاة وذوي الآراء، وانه فاضل من أهل بيت فضل، كتب الى العماد من شعره:

لما نـزلـت الـديـر قلـت لصـاحبـي
قـم فـاخطـب الصهبـاء مـن شماسـه

فـأتـى وفي يمنـاه كـأس خلتهـا
مقبـوسـه مـن نبراسـه

وكـان مـا في كـاسـه مـن خـده
وكـأنما في خـده مـن كـاسـه

وكـأن لـذة طعمهـا مـن ريقـه
وأريجهـا الفيـاح مـن أنفـاسـه

لم أنـس ليلـة شربها بفنـائه
إذ بـات يجلـوهـا على جـلاسـه

إذ قـام يسقيـنـا المدام وكلما
عـاتبتـه رد الجواب بـراسـه

ومدحه ابو الحسن بن الذروي المصري بقصيـدة غراء ذالية ماأظن انه نظم على قافية الذال ارق منها لفظا وأروق معنى، اولها:

لـك الخير عـرج على ربعهـم فـذي
ربـوع يفـوح المسك مـن عـرفهـا الشـذي

مبـارك عيـس الـوفـد بـاب مبـارك
وهـل منقـذ القصـاد غير ابـن منقـذ

وفي المرآة: لما سار شمس الدولة الى اليمن، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه ان يبعث اليهم بعض أهله، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صاحبها الى أبي قبيس فتحصن فيه بقلعة بناها عليه، وأغلق باب الكعبة، وأخذ المفاتيح، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصلى ركعتين، وصعد الى باب الكعبة وقال: اللهم ان كنت تعلم اني جئت الى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهيدها فيسر علي فتح الباب، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فلا تفتحه، ومد يده فجذب القفل بها، فدخل شمس الدولة الى البيت وصلى ودعا، فلما بلغ امير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتذر وقال: خفت منك، والآن فانا تحت طاعتك، فقال: إذا اخذت منك مفاتيح مكة فلمن اعطيها؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم وسار الى اليمن، فانهزم عبد النبي بين يديه الى زبيد، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد، وقتل خلقا كثيرا، وشق بطون الحوامل، وذبح الاطفال على صدور امهاتهم، وكان يرى رأي القرامطة، ويظهر انه داعية لصاحب مصر، ويتستر بالاسلام، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين وملك بعده ولده عبد النبي، ففعل باليمن أشد مما فعله أبوه وسبى نساءهم واستعبدهم، وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة وصفح حيطانها بالذهب الاحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها، وجعل فيها قناديل الذهب، وستور الحرير، ومنع أهل اليمن من زبيد الى حضرموت ان يحجوا الى الكعبة، وامرهم بالحج الى قبر أبيه، وكانوا يحملون اليه من الاموال كل سنة ما لايحد ولايوصف ويطوفون حوله مثلما يطاف بالكعبة، ومن لم يحمل مالا قتله، وكانوا يقصدونه من البحر فاجتمع فيه أموال عظيمة، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور وذبح الاطفال وسفك الدماء وسبى النساء الى ان دخل شمس الدولة الى اليمن، وجاء الى زبيد، فيقال انه حصر عبد النبي فيها وأمنه وقيده وقتله، ويقال انه انهزم بين يديه وجاء الى قبة ابيه فهدمها، وأخذ ماكان

فيهـا مـن المال والجواهـر والفضـــة، وكـان على ستمائة جمل ونبـش القبر وأحرق عظـام أبيه وذراهـا في الريح ومضـى الى صنعاء، فحلـف شمس الدولـة ان لاينتهي عنه حتـى يقتله ويحرقه كما فعـل بأبيه، وصـار خلفه فرجع الى زبيد، وعاد شمس الدولة اليهـا فظفر به وأخذ ماكان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه.

وفي تاريخ ابـن كثير: ولما وصل شمس الدولة الى زبيد خـرج اليه عبد النبي فقاتله فانهزم، وأسر شمس الـدولة، وأسر زوجته الحرة وكانت ذات أموال جزيلة، فـاستقرها على أشياء جزيلة وذخـائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثـم سار الى عـدن فقاتلـه صاحبها نـاشر فهزمـه توران شـاه وأخذ البلد بيسر ومنـع الجيش مـن نهبها وقـال: ماجئنا لنخرب البـلاد، وانما جئنـا لعمارتهاوملكهـا، ثم سـار في النـاس سيرة حسنـة عـادلة فـأحبـوه، واستوثـق له ملك اليمـن وخطب فيهـا للخليفة العباسي المستضيء بـأمر الله، وقتل الداعي المسمى بعبد النبي.

ومنها ارسال صلاح الدين بالهدايا الى نور الدين رحمه الله.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسـول نور الدين، وهو الموفق ابـن القيسراني، واجتمع بـالملك النـاصر، وانهى اليه رسـالة نـور الديـن، وطالبـه بحساب جميـع ماحصل وارتفـع اليه مـن ارتفاع البـلاد، فصعب ذلك على السلطـان واراد شق العصا، لولا مـاثاب اليه من السكينـة، ثم امـر النـواب بعمل الحسـاب وعـرضـه على ابن القيسراني، واراه جـريـدة الاجناد بمبلـغ اقطاع وكميات جـامكيتهم ورواتب نفقـاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك ارسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفـت على برنـامج شرحهـا بخط الموفـق ابن القيسراني، وهـي خمس ختمات: احداهـا ختمة ثـلاثون جزءا مغشـاة بأطلـس أزرق مضببة

بصفائح ذهب وعليها اقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمه بخط راشد مغشاة بديباج فسستقي عشرة اجزاء، وختمه بخط ابن البواب، في مجلد واحد بقفل ذهب، و ختمه بخط مهلهل جزء واحد، وختمه بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة احجار بلخش: حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: قصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وقصبة وزنها مثقالان ونصف وقصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وحجر وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ست وخمسون مثقالا وسدس ومائة عقد حوهر مختومة وزنها ثمانمائة وسبعون مثقالا، وقارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وقطعة جزع، وذكر تفصيلها ابريق يشم، طشت يشم، سقرق مذهب، صحون صيني وزبادي وسكارج وأربعون قطعة عود طيب: قطعتين كبار كرتان وزن احداهما ثلاثون رطلا بالمصري، والاخرى واحد وعشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس وأربعة وعشرون بقيارا مذهبة، وأربعة وعشرون ثوبا حريري، وأربعة وعشرون ثوبا من الوشي حريرية بيض. وحلة فلفلي مذهبة، وحلة مرايش صفراء مذهبة. وذكر غير ذلك انواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون الف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوابهذهالهدية فلم تصل الى نور الدين لانه اتصل بهم وفاته، فمنها ماأعيد ومنها مااستهلك لان الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعا عليهم من نهبهم واستبدا بأكثرها، وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردها.

قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية انه كان معها عشرة صناديق مال لايعلم مقداره.

ومنهـا أن صـلاح الديـن صلـب في رمضـان منهـا جماعة مـن أعيـان المصريين، فإنهم قصدوا الـوثوب عليه، واعادة الدولة العلـوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهـم، فمنهم: عبد الصمد الكاتب، والقـاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الشافعي.

وفي تاريـخ ابن كثير: اجتمع نجم الـدين عمارة الشاعر اليمنـي الفقيه الشافعـي مع جماعة مـن رؤوس الدولة الفـاطمية الذيـن كانوا حكـاما، فـاتفقـوا فيما بينهـم أن يعيـدوا الـدولـة الفـاطميـة، وكتبـوا الى الافـرنـج يستدعـونهم اليهم، وعينوا خليفة مـن ذرية الفاطميين، ووزيـرا وامراء في غيبة السلطـان صلاح الدين ببـلاد الكرك، ثم اتفق مجيئـه، وحرض عمارة اليمنـي شمـس الدولـة تـورانشـاه على المصير الى اليمن ليخـف الجيـش ويضعـف عـن مقـاومـة الفـرنـج إذا قـدمـوا لنصرة الفـاطميين، فخـرج تـورانشـاه، ولم يخرج عمارة الى اليمن بـل أقـام بـالقـاهرة يفيـض في هـذا الحديث ويداخـل المتكلمين فيه، وكان من أكـابر الدعاة اليـه المحرضين عليه، هـذا وقد أدخلوا معهم في هـذا الامر بعض من ينسـب الى الملك الناصر، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهـم، فخانهم احوج ماكانوا اليه وهو الشيـخ زين الـدين علي بن نجـا الواعـظ، جاء الى السلطـان الملك النـاصر فأخبره بما تمالأ القـوم عليه، وبما انتهـى أمرهـم اليه، فـأطلق لـه السلطـان امـوالا جزيلـة، وافـاض عليـه حلـلا جميلـة، ثم استـدعـاهـم السلطان واحـدا واحدا فقررهـم فأقروا لـه بذلـك فاعتقلهم، ثـم استفتى الفقهاء في أمـرهم فأفتـوه بقتلهم وتبدد شملهـم، فعند ذلك امـر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون اتبـاعهم وغلمانهم، وأمر بنفي من بقـي من جيش العبيديين الى اقـاصي البلاد، وأفـرد ذرية العاضـد وأهل بيتـه في دار، فلا يصل اليهـم اصلاح ولافساد، وأجرى عليهـم من الارزاق كفايتهـم، وقد كان عمارة معـاديا للقـاضي الفاضـل، فلما احضر بين يدي السلطـان قام القاضي الفـاضل فاجتمع بـالسلطان ليشفع فيـه، فتوهم انه يكلمـه فيه، فقال: يـامولانا السلطان لاتسمـع منه، فغضب القاضي الفـاضل ونهض

وخرج من القصر، فقال لـه السلطان: انه كان قد شفع فيـك، فندم ندما عظيما ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه فتغيب عنه فأنشد عند ذلك:

عبـــدالـــرحيـــم قـــداحتجـــب
ان الخلاص هـــــو العجـــــــب(١٦)

وفي تاريـخ الدولتين: وكان صلـب المذكوريـن يوم السبت ثـاني شهر رمضـان، وكان الـذيـن صلبوا منهـم: الفضـل بـن كامـل بـن الكامـل القـاضي، وابن عبـد القوي الـداعي، والعـويـرس، وكان قـد تولى ديـوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشهريـا كاتب السر، وعبد الصمد أحد امراء المصريين، ونجـاح الحـامـي، ورجـل منجـم نصراني أرمنـي قـال لهم: ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قال العماد في البرق: ووصل من صلاح الديـن يوم وفاه نور الدين إلى دمشـق كتـاب يتضمـن هـذه القضيـة، وهو بخـط ابـن قـريـش، يعنـي المرتضى.

وفي قضية عمارة يقول العلامة تـاج الدين الكند ي رحمه الله، قال أبو شامة: نقلته من خطه:

عمارة في الاســـلام أبـــدى خيـــانـــة
وبـــايـــع فيهـــا بيعـــة وصليبـــا
وأمســـى شريـــك الشرك في بغـــض أحمد
فـــأصبـــح في حـــب الصليـــب صليبـــا
وكـــان خبيـــث الملتقـــى إن عجمتـــه
تجد منـــه عـــودا في النفـــاق صليبـــا
سيلقـــى غـــدا مـــا كـــان يسعـــى لأجلـــه
ويسقـــى صـــديـــدا في لظـــى وصليبـــا

قلت: والصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع هودك العظام، وقيل هو الصديد أي يسقى مايسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وقال ابن أبي طي: وكان داعي الدعاة يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليعلم بها فامتنع من ذلك، فمات واندرست.

ذكر ماجريات نور الدين رحمه الله:

منها: أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح ابن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل الى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن قفجاق، صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من البلاد، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم من الفرات، فبذل له صاحبهاخمسين ألف دينار على سبيل الجزية ثم عاد إلى حلب، وأراد ان يسرع الى دمشق، فتوقف لمرض سريته، فتصدق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على أيدي الرجال، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه، ثم سار على طريق سلمية، فجاء الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرقوا، ودخل دمشق.

ومنها أنه في جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان، وكتب بذلك منشورا وعلامته بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن سنتنا العادلة، وسير آبائنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، واغاثة الملهوف. وانصاف المظلوم، واعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائرات الرسوم، ومانزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون في حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بشيوع المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ماجرت، العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير، وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه طلبا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهربا من انتقامه وأليم عقابه، وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره، والاستغفار من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره، وابطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعدها على تعاقب الايام والسنين».

ومنها أن نور الدين تكلف في هذه السنة بافادة الألطاف والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة نسوة الأيامى في أيامها، واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذل وعون الضعفاء، وتقوية المقترين بعدله.

ذكر وفاة نور الدين: والكلام فيه على أنواع.

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الجليل الملك العادل، أبو الغنائم نور الدين محمود بن الملك الأتابك، قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي ابن الملك الأتابك أقسنقر، الملقب بقسيم الدولة، أيضاً المعروف بالحاجب، ابن عبد الله، وكان آقسنقر مملوك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كما ذكرنا، فنور الدين أيضا تركي سلجوقي ولاء.

ولد قبل طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة احدى

عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرها من البلدان الكثيرة، وتعلم الفروسية والرمي.

الثاني: في ألقابه.

السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط نور الدين، وعدته ركن الدين، وسيفه قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومقرها، ورضي الامامة وأمرها، فخر الملة ومفتخرها، شمس المعالي وفلكها، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاما ودعا له فيه، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لاعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر، ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا مايدخله كذب ولامزيد، فكتب نور الدين على رأسها بخطه: مقصودي أن لايكذب على المنبر، أنا بخلاف كل مايقال، أفرح بما لاأعمل.

الثالث: في صفته:

قال ابن خلكان: كان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

وقال ابـن كثير: كان حلو العينين، واسـع الجبين، تركي الشكـل، ليس له لحية الا في حنكه.

وفي المرآة: وكان معتـدل القامة، واسـع الجبهة بلحيته شعـرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة.

الرابع: في سيرته.

كان ملكـاً مهيباً متواضعـاً، عليه جلالة نـور الاسلام، وتعظيم قـواعد الشرع.

وقال ابن خلكان: وكان ملكاً عـادلاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، مستمسكاً بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهدا في سبيل الله.

وفي تـاريـخ الـدولتين: ولقـد كـان مـن أوليـاء اللـه المؤمنين، وعبـاده الصـالحين، وجمع اللـه لـه مـن العقـل المتين والـرأي الثـاقـب الـرصين، والاقتداء بسيرة السلـف الماضين، والتشبه بـالعلماء الصالحين والاصغـاء لسيرة مـن سلف منهـم في حسن سمتهـم، والاتبـاع لهم في حفظ مـالهم ودقتهم، حتى روى في حـديث المصطفى صلى الله عليـه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعـه وجمعه حرصا منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحـديث، رجـاء أن يكون ممن حفـظ على الأمة أربعين حـديثا، كما جاء في الحديث.

فمن رآه شاهد مـن جلال السلطنة وهيبة الملك مايبهـره، فإذا فاوضه رأى من لطـافته وتـواضعه مـايحيره، يحب الصالحين ويـواخيهم، ويـزور مساكنهـم لحسن ظنـه فيهم، وإذا احتلم ممـاليكه أعتقهـم وزوج ذكرانهم بانـاثهم ورزقهم، ومتى تكـررت الشكاية إليـه من واحد من ولاتـه أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكايته، فمـن لم يرجع منهم إلى العدل قابله

باسقاط المنزله والعزل، فلما جمع الله لـه من شريف الخصال يسر له جميع مايقصده مـن الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقـلاع، ومكن له في البلدان والبقاع.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكـان ملكاً عظيماً جليـلاً، عابداً سخيـاً كريماً صالحاً، معدوداً من الأبدال.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكما اشتهـر من قلة ابتهـاجه بالشعـر لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمـر بن عبد العزيز رضي الله عنه، زاهد الخلفاء.

قال يحيـى بن محمد الـوهراني، في مقامة لـه، وقد سئل في بغـداد عن نور الدين: هـو سهم للدولة سديد، وركن للخلافـة شديد. وأمين زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعـده الافلاك، وتعضـده الجيـوش والاملاك، غير أنـه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيـل، وبالمحل الجدب للشاعر الاديب، فما يرزى ولايعـزى، وما لشـاعر ﴿عنده مـن نعمة تجزى﴾ [الليـل ١٩] واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطـاننـا زاهـد والنـاس قـد زهـدوا
فكـل على الخيرات منكمـش
أيـامـه مثـل شهـر الصـوم طـاهـرة
مـن المعـاصي وفيهـا الجوع والعطـش(١٧)

وقال صـاحب التـاريخ: ماكـان يبذل أمـوال المسلمين الا في الجهاد، ومايعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حـق عبد الله بن محيريز، وهو من سادات التابعين بـالشام، قال يعقوب بن الحافظ: حـدثنا ضمرة عن الشيباني قـال: كان ابـن الديلمي مـن أنصر الناس لأخوانـه، فذكـر ابن محيريز في مجلســه، فقال رجل: كـان رجلاً بخيـلاً، فغضب ابن الـديلمي وقال: كـان جوادا حيث يحب اللـه، بخيلا حيـث تحبون، وأما شعـر ابن

منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليله الميلاد يمدح نور الدين:

في كـــل عـــام للبريـــة ليلـــة
فيهـــا يشـــب النـــار بـــالايقـــاد
لكـــن لنـــور الـــديـــن مـــن دون الـــورى
نـــاران نـــار قـــرى ونـــار جهـــاد
أبـــداً يصرفهـــا انـــداه وبـــأســـه
فـــالعـــام أجمع ليلـــة الميـــلاد
ملـــك لـــه في كـــل جيـــد منـــة
أبهى مـــن الأطـــواق في الأجيـــاد
أعلى الملـــوك يـــدا وأمنعهـــم حمى
وأنـــداهـــم كفـــاً وأبـــذل تـــلاد
يعطـــي الجزيـــل مـــن النـــوال تبرعـــا
مـــن غير مســـألـــة ولاميعـــاد
لازال في سعـــد وملـــك دائم
مـــادامـــت الـــدنيـــا بغير نفـــاد(١٨)

ولقد أكثر ابن منير وابـن القيسراني والعماد الكاتـب وغيرهم في مـدح نور الدين بـالكرم والجود وذلك كله يرد قول الـوهراني وابن منقذ، على أن ابن منقـذ قد رددنا شعره بشعـره كما تراه، وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله في وصف قوم ﴿فإن أعطـوا منها رضوا وإن لم يعطوا﴾ في القرآن العظيم قوله: ﴿منها إذا هم يسخطون﴾ [التـوبة ٥٨] وما كل وقت يتفق العطاء، ويفعل الله مايشاء.

الخامس: في شجاعته.

كـان يقال: إنـه لم ير على ظهـر الفـرس أحسن ولا أثبـت منه، وكـان حسن اللعب بالأكرة، وربما ضربها ثم يسـوق وراءها ويأخذها من الهواء بيده ثم يرميهـا إلى آخر الميدان، ولم ير جو كانـه يعلو على رأسه، ولايرى الجوكـان في يـده لان الكم سـاتـر لها، وكـان شجاعـا صبـورا في الحرب

يضرب بـه المثل في ذلـك، وكان يقـول: قـد تعرضـت للشهادة غير مـرة، فقال لـه مرة الفقيـه قطب الـدين النيسـابوري: بـالله يـامولانـا لاتخاطر بنفسك، فـإنك لـو قتلت قتـل جميع مـن معك وأخـذت البلاد، فقـال: اسكت ياقطب الـدين، من هو محمود، ومن كـان يحفظ البلاد قبلي ﴿الله الذي لاإله إلا هو﴾ [الحشر ٢٢] قال: فبكى من حضر.

وكـان إذا حضر الحرب شـد تركـاشين، وحمل قـوسين، ويـاشر الحرب بنفسـه، وشجاعتـه ظاهـرة في غزواتـه، وفتـوحاتـه على ماذكـر في السنين المتقدمة.

السادس: في ورعه وزهده.

وقال ابـن الأثير في تاريخه: قد طـالعت تـواريخ الملوك المتقـدمين من قبل الاسـلام إلى يومنا هذا فلـم أر فيها بعد الخلفـاء الراشدين وعمـر بن عبد العـزيز رضي الله عنهـم ملكا أحسن سيرة مـن نور الديـن، ولاأكثر تحريا للعدل والانصاف منه.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه اللـه: وكان لايأكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه الا من ملـك اشتراه من سهمه من غنـائم الكفار، وكان يحضر الفقهـاء ويستفتيهم فيما يحل لـه مـن تناول الأمـوال فـأفتـوه من جهـات عينوها فلـم يتعد الى غيرها، ولم يلبس حـريرا قط ولاذهبا ولافضـة، ومنع من بيع الخمـر في بلاده، وكان يحدّ شاربها، والناس عنـده سواء في ذلك، وكـان كثير الصيـام ولـه أوراد في الليـل والنهـار، وكـان يقـدم أشغـال المسلمين عليها، ثم يتم أوراده، وكان قد تـزوج الخاتون بنت معين الدين أنـر، فطلبت منـه زيادة نفقـة، وقال: وقـد فـرضت لها مـايكفيها، واللـه لاأخـوض جهنم بسببهـا، وهذه الأمـوال ليست لي وإنما هـي للمسلمين وأنا خـازنهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمـص ثلاث دكاكين اشتريتهـا من الغنائم قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.

وكان أول من بنى دار العدل بدمشق وسماها دار الكشف، وسببه أن الامراء لما قدموا دمشق اقتنوا الامـلاك واستطالوا على الناس وخصوصاً أسد الدين شيركوه، وكثرت الشكاوى الى القاضي، فلم يقدر على الانصاف من أسد الدين، فشكوا إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه وديوانه وقال: إن نور الدين مابنى هذه الدا ر الا بسببي وحدي لينتقم مني، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب واحد منكم لاصلبنه، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى على جميع مافي يدي، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني نور الدين بعين الظالم ويسوي بيني وبين آحاد العوام، ففعلوا وأرضوا الخصوم، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي: ماأرى أحدا يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد فقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا، وكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل اسبوع أربعة ايام أو خمسة، ويحضر عنده العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويساءل الفقهاء عما أشكل عليه.

وكان إذا مات أحد من جنده، أو قتل وله ولد فإن كان كبيرا أقر الاقطاع عليه، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره الى ان يكبر، وما كان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيبته، فإذا دخل فيه فقير أو عالم أورب خرقة قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الاموال، فإذا قيل له في ذلك، يقول: هؤلاء لهم حق في بيت المال، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

وأسقط ماكان يؤخذ من دار البطيخ وسوق الخيل والغنم والكيالة وجميع المكوس، وعاقب على شرب الخمر، وكان كثير المطالعة في الكتب

الدينيـة متبعا الآثار النبويـة مواظباً على الصلوات الخمـس في الجماعات عاكفـاً على تلاوة القرآن، حريصـاً على فعل الخير، عفيف البطـن والفرج، مقتصدا في الانفـاق، متحريا في المطعـم والمشرب والملبس، لم تسمـع منه كلمة فحش قط لا في رضاه ولا في غضبـه، هذا مـع ماجمع الله فيـه من العقل المتين والرأي الصائب الرصين، والاقتـداء بسنة السلف الصالحين، حتى روى حـديث المصطفى وأسمعـه، وكان قـد استجيز له ممـن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير ونشر السنة والتحـديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمـة أربعين حديثـا كما جاء في الحديـث، وكان يكتـب خطا حسنـا، وكان عـارفـا بمـذهب أبي حنيفـة رضي اللـه عنـه، وليس عنـده تعصب على أحد، والمذاهب كلها سواء.

وقال ابن الأثير: كان يـوما يلعب بالاكره في ميدان دمشـق، فجاء رجل فوقف بازائه وأشار إليه، فقال للحاجب: اسـأله ماحاجته؟ فسأله، فقال لي مـع نور الـدين حكـومة، فـرمى الصـولجان من يـده وجاء إلى مجلـس القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك: لاتنزعج واسلك معه مـاتسلكه مع آحاد الناس، فلما سوى بينه وبين خصمه وتحاكما، فلم يثبـت للرجل عليه حق، وكان يـدعي ملكاً في يد نور الدين، فقال نور الديـن للقاضي والعدول: هل ثبت له عليّ حق؟ قالوا: لا، قال: فـاشهدوا أني قد وهبت له هذا الملـك، وقد كنت أعرف أنه لاحـق له عنـدي، وإنما حضرت معه لئـلا يقال عنـي أني دعيت الى مجلس الشرع فأبيت.

قال: ودخل يوما إلى خزائنه فـرأى مالا كثيراً فقال: من أين هذا؟ قال خازنـه: بعث بـه القاضي كمال الـدين مـن فائض الاوقـاف، فقال: ردوه اليـه وقولـوا لـه: إن رقبتـي دقيقة لاتقـدر على حملـة غـدا، وأنت رقبتـك غليظـة تقدر على حملـه، وكان لـه برسـم نفقته الخاص في كـل شهر مـن

الجزية مايبلغ ألفي قرطاس يصرفها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه، ويستفضل منها مايتصدق به في آخر الشهر، ويقال ان قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما، وقيل كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار.

قال ابن الأثير: وما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعثه الى القاضي كمال الدين يبيعه، ويعمر به المساجد المهجورة ولايتناول منه شيئاً.

وقال ابن الجوزي: وكان يتدين بطاعة الخلافة، والطرق آمنة في أيامه، والمحامد كثيرة، وكان يميل إلى التواضع ويحب العلماء وأهل الدين، وقد كاتبني مرارا، وقد صنف له كتابا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ، وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضا كتابا في الجهاد وهو بدمشق.

وقال السبط رحمه الله: كانت له عجائز بدمشق وحلب، وكان يخيط الكوافي ويعمل السكاكر للابواب وتبيعها العجائز ولايدري أحد، فكان يوما يصوم ويفطر على اثمانها.

وحكى شرف الدين يعقوب ولد المبارز المعتمد ان في دارهم سكرة من عمل نور الدين، وهي باقية الى سنة خمس وستمائة يتبركون بها.

وفي المرآة: قال: حكى لي رجل صالح من أهل حران، قال: لما قتل أتابك زنكي على قلعة جعبر، وملك نور الدين قلعة حلب تصدق وأزال المكوس، ورد المظالم، وأنا حديث عهد بعرس، وقد ركبني دين، فقالت لي زوجتي قد سمعت أوصاف نور الدين واحسانه الى الناس، فلو قصدته وأنهيت إليه ذلك لقضى دينك، قال: فخرجت من حران وليس معي سوى درهمين، فتركت عندها درهما وتزودت بدرهم وأتيت الفرات

وقت القائلة فعبرت جسر منبج وأبعدت عن أعين الناس، وخلعت ثيابي ونزلت فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين وإذا إلى جانبي شخص ملفوف في عباءة، فقال لي: يافقير من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وإلى أين؟ قلت: إلى حلب، قال: وماتصنع فيها؟ فقلت: أنا فقير مديون، وقد بلغني احسان نور الدين إلى الخلق فقصدته لعله يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نور الدين، ومن يوصلك إليه، كم عليك دين؟ قلت: خمسون دينارا فأخرج يده من العباءة وبحث الرمل وأخرج منه قرطاساً وألقاه إلي، وقال: خذ هذا فاقض به دينك وارجع إلى أهلك، قال: فأخذته فعددته وإذا به خمسون ديناراً، فالتفت فلم أره، فبهت وبت في مكاني أتفكر هل أرجع إلى حران أم أمضي إلى حلب، وترجح عندي المضي إلى حلب، وقلت في نفسي: فهذه أوفي بها ديني فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح، وقعدت تحت القلعة، وإذ فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والامراء بين يديه حتى جاء الى الميدان، فلما أراد ان يدخل نظر الي فرمقني طويلا وأشار الى خادم بين يديه، فجاء الخادم إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي الى القلعة، قال: فندمت على مجيئي حلب، وقلت: ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح، ولعل نور الدين توهم أني اسماعيلي.

قال: فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين الى القلعة وجلس في الإيوان، ومد سماط عظيم، ولم يمد يده اليه، وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل فوضعه بين يديه، وفيه غضارة عليها رغيف فتأملها من بعيد وهي ثردة فتناول منها شيئا يسيرا وأكل الناس وأكلت معهم، وصرف الناس وبقيت قاعدا خائفا فأومأ إليّ، فقمت وأتيت الى بين يديه وانا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وما الذي أقدمك؟ قلت: علي دين وبلغني احسانك إلى الناس فقصدتك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلت:

خمسون ديناراً، قال: أما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات خمسين ديناراً، هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير فلا يطلب شيئاً آخر، ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادته وكانت زرقاء، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة.

قال: فبكيت بكاء كثيراً وقلت: لا آخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، قال: هو أمر لايلزمك، فقلت: يامولاي أنا غريب وضيف ولي حرمة، فبالله عليك أخبرني، فقال: احلف لي أنك لاتتحدث بهذا في حال حياتي فحلفت له، فكشف القباء وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال: أنا ذاك الفقير، فقلت: بالله الذي أعطاك هذه المنزلة بأي شيء وصلت إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الانبياء ١٠١]، قال: لما التقينا بالافرنج على حارم ونصرنا الله عليهم وعدت إلى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي، وقال: يامحمود أنت من الأبدال، وقد أعطاك الله الدنيا فاشتر بها الآخرة وسله مهما شئت، ثم علمني كلمات، وقال: إذا طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: فبالله من أنت؟ فقاتل: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمت على أمر أو أردت أن أذهب إلى مكة أو المدينة أو إلى أي بلد شئت لبست العباءة، وتكلمت بتلك الكلمات وأغمض عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال السبط أيضاً: وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام، أحد عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله، قال: لما ملك الأشرف ابن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة وأفرده عن الدور، قال: وما صلى فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء إلى الآن، فقلت له: الله الله يامولانا مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات الخمس، فقال: من أين لك هذا؟ قلت: حدثني والدي ـ وكان من

أكابر عدول دمشق، وكان أبوه يلقب بالسعيد ـ أنه لما نزلت الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين شيركوه رحمه الله، وضايقوها وأشرفت على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايفطر الا على الماء، فضعف وكاد يتلف ، وكان مهيباً لايتجاسر أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلي به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن، وله عنده حرمته، فاجتمع إليه خواص نور الدين وخدمه وقالوا له: قد خفنا على السلطان ونحن من هيبته مانقابله، وأنت تدل عليه، ونحن نسألك أن تسأله أن يتناول شيئا مما يحفظ به قوته فقال: نعم إذا صليت به غداة الفجر سألته، قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: يايحيى بشر نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يارسول الله ربما لايصدقني، وأريد له أمارة، قال: قل له: «بعلامة يوم حارم».

قال: فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم شرع يدعو، ففاته أن يتحدث معه، فقال له نور الدين: يايحيى، قال: لبيك يامولانا، قال: تحدثني أو أحدثك؟ قال: فارتعد يحيى وخرس فقال له: أنا أحدثك، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم يامولانا، فقال: يامولانا مامعنى قوله عليه السلام: «بعلامة يوم حارم» فقال له نور الدين: لما التقى الصفان يوم حارم خفت على الاسلام لأني رأيت من كثرة الفرنج ماهالني، فانفردت عن العسكر ونزلت فمرغت وجهي على التراب وقلت: ياسيدي من محمود في الدين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم هو، فافعل مايليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

السابع: فيما فعله من الخيرات ومابناه من بيوت العبادات وغيرها.

وكان نور الدين رحمه الله بنى المدائن وأوقف الاوقاف، وبنى سور

دمشق والمساجد والمدارس، ووقف أوقافا على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان في دمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحاج، وأمر باكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من أحد من عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والخانات والقناطر، وجدد كثيراً من قني السبيل، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه، وأول من بنى دار العدل بدمشق، وقد ذكرناه، وبنى جامعا في الموصل، وفوض عمارته الى الشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، وإنما سمي الملاء لانه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الاجرة فيتقوت بها، وكان لايملك شيئا من الدنيا، وكان عالما بفنون العلوم، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل بمولد رسول الله عليه السلام في كل سنة، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ماشرع أحد في عمارتها الا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالا كثيرة، يقال ستون ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما تمّ جاء نور الدين إلى الموصل ـ وهي المرة الاخيرة ـ فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج، وقال: يامولانا أشتهي ان تنظر فيها، فقال له نور الدين: ياشيخ نحن عملنا هذا لله دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالأوراق في الدجلة.

وقال ابن الأثير: وبنى جامع حماة على العاصي وهو من أحسن الجوامع.

قال: ووقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ففدى نفسه بمال

عظيم، فشاور نور الدين أمرائه فأشاروا ببقائه في الاسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين، فعند وصوله الى مأمنه مات، وطلب الأمراء سهمهم من المال، فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لانكم نهيتم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسنيين: الفداء وموت اللعين، وخلاص المسلمين منه، فبنى بذلك المال مارستان دمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق، ووقف عليها الاوقاف.

قال ابن الأثير: وبلغني ان اوقاف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا، صحيح الشراء.

وقال السبط: أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه وتغيرت صفاته، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته

وقال ابن الأثير: وفي سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والاوقاف، وعمارة المساجد المهجورة، وإسقاط كل ماكان فيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج وماتحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج.

قال [العماد]: وأمرني بكتابة المناشير، فكتبت أكثر من ألف منشور وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور فكان ثلاثين الف دينار.

وقال العماد: بنى جامع قلعة دمشق ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرماحين، ومسجد سوق الصاغة ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، ومسجداً بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أخر.

وقال ابن الجوزي: وكان من عزمه أن يفتح البيت المقدس، فعمر

منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي قبل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب.

وحكي عن الشيخ أبي عمر شيخ المقادسة رحمه الله قال: كان نور الدين رحمه الله يزور والدي الشيخ أحمد رحمه الله في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن.

وقال ابن خلكان رحمه الله: وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل: دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج، والرحبة، وبنى جامع الرها، وجامع منبج، ودار الحديث بدمشق.

وقال النويري في تاريخه: وأحصيت أوقافه، وكانت في كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل: أما من إرث والده أو من سهمه في الغنيمة، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل: دمشق، وحمص وحماه، وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها، لما هدمت بالزلازل.

وقال ابن كثير: وبنى المارستان الذي بدمشق، وهو أحسن مابني من المارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها الا فيه، فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه مستوصفا، فلايمنع من شرابه،، ولهذا جاء نور الدين إليه وشرب من شرابه.

وقال ابن كثير: ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد النار فيه منذ بني الى زماننا هذا والله أعلم، وقد بنى الخانات في الطرقات والابراج والخفر في الاماكن المخوفة، وفيها الحمام الهوادي التي تطالع بالاخبار في أسرع مدة، وبنى الربط والخانقاهات.

وقال ابن الأثير: وهـو أول من بنى دار الحديث، ووقـف على من يعلـم الايتـام الخط، وجعـل لهم نفقـة وكسوة، وعلى مـن يقـرأ آي القـرآن وعلى المجاورين بالحرمين، وكان الجامع بـدمشق داثراً، فولى نظره للقاضي كمال الديـن محمد بـن عبد اللـه الشهرزوري الموصلي الـذي قدم عليـه، فولاه قاضي القضاة بدمشـق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعـة، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترق في سنة احدى وستين وأربعمائة.

وأضاف إلى أوقـاف الجامع الاوقـاف التي لايعـرف واقفوهـا، ولاتعرف شروطهم فيهـا، وجعلها قلها واحـدا، وسمي مـال المصالـح ورتب غليـه ذوي الحاجـات والفقـراء والمسـاكين والارامل والايتـام ومـاأشبـه ذلـك، وأحاط السـور على حارة اليهود وكـان خرابـاً، وأغلق باب كيسـان، وفتح باب الفرج ولم يكن هناك قبله باب بالكلية.

وحكى الشيخ شهاب الدين أن نور الـدين وقف بستان الميدان سوى الغيط الـذي قبليه، نصفـه على تطييب جـامع دمشـق، والنصف الآخـر يقسـم على أحـد عشر جزءاً جـزآن على تطييـب المدرسـة التي أنشـأهـا للحنفيـة والتسعة الاجـزاء الباقيـة على تطييـب المساجـد التسعة، وهـي: جامع الصالحيـة بجبل قاسيون، وجامع القلعـة، ومسجد عطية، ومسجد ابن لبيد بالفسقار، ومسجد الرمـاحين المعلق، ومسجد العباسي بالصاغة، ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جـدده نور الدين بجوار بيعة اليهود، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءاً من النصف.

الثامن: في فتوحاته وبلاده.

قال النويـري: وكأن قد اتسع ملكه جدا، وخطـب له بالحرمين ومصر والشـام وحلب وديـار بكـر والجزيرة، وكـذلك بـاليمـن لما ملكها الملـك المعظم تورانشـاه بن أيوب بن شادي، وطبق ذكـره الارض بحسن سيرته

وعـدله وكـرمه وصـدقاتـه، وتصدق في شهـر واحد بثـلاثين ألف دينـار، وقسم في يوم واحـد مائتي ألف دينار خلاف الـدواب والسلاح والخيام، وكان يحضر أماثل البلد عنده ويعطيهم الـذهب ويقول: تصدقوا به على من تعرفونه في جواركم من الارامل والايتام.

وقال ابن الجوزي: ولي نـور الدين الشام سنين وجاهد بـالثغور، وانتزع من أيـدي الكفار نيفـا وخمسين مدينة وحصنـا، منها: الـرها، وكـان محبا للعلماء وأهـل الديـن، وكاتبنـي مـراراً، وعاهـد ملـك الافرنـج صاحـب طرابلـس، وقد كـان في قبضته أسيراً، على أن يطلقـه بثلاثمائة ألـف دينار وخمسين ومائة حصـان، وخمسمائة زدرية ومثلهـا أتراس أفـرنجية، ومثلهـا قنطاريـات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وأنـه لايغير على بلاد الاسـلام سبع سنين وسبعـة أشهر وسبعـة أيام، وأخـذ منه في قبضتـه على الوفـاء بذلـك مائة من اولاد كبراء الافـرنج وبطـارقتهم، فإن نكـث أراق دمهم، وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية في شوال من هذه السنة.

وذكـر الحافظ ابـن عساكـر رحمه الله فتـح نـور الديـن رحمه الله نيفـا وخمسين حصناً، منها: تل باشر وعينتاب، واعـزاز، ومرعش، وبهسنى، وتل خالد، وحارم، والمرزبـان، ورعبان، وكيسون، والرها، وكسرابرنـس انطاكية وقتله، وقتـل معه ثـلاثة آلاف ، وأخذ مـن القومـص ثلاثمائة الـف دينار وخمسمائة زرديـة، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير، واتسـع ملكه، ففتـح الموصـل والجزيـرة وديـار بكـر والشام، والعـواصـم، ودمشـق، وبعلبـك وبانيـاس، ومصر، واليمن، وخطـب له في الـدنيا، وأظهـر السنة بحلـب، وأزال الأذان بحي على خير العمل، وكان يتعـرض للشهادة، ويسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

التاسع: في وفاته:

قال العماد: وأمر نـور الدين بتطهير ولده الملك الصالـح اسماعيل يوم عيد الفطر، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهر قصيدة منها:

عيـــدان فطـــر وطهـــر
وفتـــح قـــريـــب ونصر
كـــلاهما لـــك فيـــه
حقـــاً هنـــاء وأجـــر
وفيهما بـــالتهـــاني
رســـم لنـــا مستمـــر
طهـــارة طـــاب فيهـــا
أصـــل وفـــرع وذكـــر
نجـــل على الطهـــر نـــام
زكـــا الـــه منـــك نجـــر
محمـــود الملـــك العـــاد
ل الكـــريـــم الاغـــر
ويـــابنـــه الملك الصـــا
لـــح العيـــون تقـــر
مـــولى بـــه اشتـــد للـــد
يـــن والشريعـــة ازر

وهي قصيدة طويلة آخرها:

هـــذا الطهـــور ظهـــور
على الـــزمـــان وأمـــر
وذا الختـــان ختـــام
بمسكـــه طـــاب نشر

قال: وفي يـوم العيد ركـب نور الديـن على الرسم المعتـاد، محفوفاً من الله بالاسعـاد، والقـدر يقول لـه: هذا آخـر الاعيـاد، ووقف في الميـدان

الاخضر، ورمى القبـق، وكان قد ضرب خيمتـه في الميدان القبلي الاخضر، وأمر بوضـع المنبر، وخطب له القاضي شمـس الدين بن الفـراش، قاضي العسكر، بعد ان صلى به، وعاد الى القلعـة وأنهب سماطه العام، على رسم الاتراك وأكابر الاملاك.

قـال: ثم حضرنـا على خوانـه الخاص في يوم الاثنين ثـاني العيد، بكـر وركب ودخل الميـدان والعظماء يسايرونه وفيهم همام الديـن مودود، وكان قديما في أول دولته والي حلـب، فقال لنور الدين في كـلامه عظة لمن يغتر بأيـامه: هل نكون هـاهنا في مثل هذا اليـوم في العام القابل؟! فقـال نور الـدين: قـل: نكـون بعد شهـر، فـإن السنـة بعيدة، فجـرى على منطقهما ماجـرى به القضـاء السابـق، فإن نـور الديـن لم يصل إلى الشهـر، وهمام الدين لم يصل الى العام.

ثم شرع نور الـدين في اللعب بالاكـرة، فاعترضه أمير يقال لـه يرنقش وقال له: بـاش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، وكـان ذلك على خلاف مذهبـه، ونهره وزجره، ثم ساق ودخـل القلعة واحتجب فبقي اسبـوعا في منزله، ثم اتصل به مرض، وأشار عليـه الاطباء بالفصد فامتنع من ذلك، وكان مهيبـاً فما روجع، وانتقـل يوم الاربعـاء حادي عشر شـوال من دار الفناء الى دار البقاء.

وقال ابن شـداد: وكانت وفاة نور الـدين بسبب خوانيـق أعترته عجز الاطباء عن علاجها.

وقـال ابن الاثير: وكـان نـور الـدين قـد شرع بتجهيـز المسير الى مصر لاخذها من صلاح الـدين، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنـج من ناحيته فـأرسل الى الموصـل وديـار الجزيرة وديـار بكر يطلـب العسـاكر ليتركهـا بالشـام لمنعه من الافـرنج، ليسير هو بعسـاكره الى مصر، وكان المانـع من

صلاح الـدين من الغزو الخوف مـن نور الديـن، فإنه كان يعتقـد ان نور الديـن متى زال عـن طريقـه الفرنـج أخذ البـلاد منه، فكـان يحتمي بهم عليه، وكـان نور الـدين لايـرى الا الجد في غزوهـم بجهده وطـاقته، فلما رأى اخلال صلاح الـدين بالغزو، علـم غرضه فتجهز للمسير إليـه فأتاه أمر الله الذي لايرد.

قال: وحكـى لي طبيب بدمشـق يعرف بالـرحبي، وهو أحـذق الاطباء قـال: استدعـاني نـور الديـن في مـرضـه الذي تـوفي فيـه مع غيري مـن الاطبـاء، فـدخلنـا عليـه وهو ببيـت صغير بقلعـة دمشـق، وقـد تمكنـت الخوانيـق منه، وقـارب الهلاك، فلا يكـاد يسمع صـوته، وكـان يخلو فيـه للتعبـد في أكثر أوقـاته، فـابتدأ بـه المرض، ينتقل عنـه، فلما دخلنا عليـه ورأينا مـابه قلـت: كان ينبغي أن لايـؤخر إحضـارنا عنـدك إلى أن يشتد المرض الى هذا الحد، فـالآن ينبغي ان تنتقل الى مكـان فسيح، فلـه اثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء، ومات عن قريب.

قال ابن عسـاكر: وتوفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شـوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل الى تـربة تجاور مدرسته التي بنـاها لاصحـاب ابي حنيفة رضي اللـه عنـه جوار الخواصين في الشـارع الغربي.

وقال العماد: قلت في ذلك:

عجبـت الى الموت كيـف اهتـدى ... الى ملـك في سجـايـا ملـك

وكيـف ثـوى الفلـك المستـديـر ... في الارض والارض وسـط الفلـك

وقال ابن كثير: حصلت له علـة الخوانيق ومنعته عن النطق، فمات في التاريخ المذكور، وصلي عليه بجامع القلعـة ودفن بها حتى حُول الى تربته

التي بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية وقبره بدمشق مشهور، يزار ويخلق شباكه فيستطيب رائحته كل مار، وإنما يقول الناس: نور الدين الشهيد، لما حصل له من الخوانيق، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد، ويلقب بالقسيم، وكانت الافرنج يقولون له ابن القسيم.

وقال ابن خلكان: ويقول أهل دمشق ان الدعاء عند قبره مستجاب، وقال القاضي: ولقد جربت ذلك فصح، وكان عمره حين مات ثمانيا وخمسين سنة، وله في الملك ثمان وعشرون سنة.

العاشر: فيما رثي به، وما قيل له من الاشعار:

قال العماد: ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة:

لفقد الملك العادل
يبكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفا
ق لاشمس ولاظل
ولما غاب نور الديـ
ـن عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير
وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود
وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لما هان
أهل الفضل والفضل
وما كان لنور الدين
لولا نجله مثل

وقال أيضاً:

يـــاملـــك أيـــامـــه لم تـــزل
لفضلـــه فـــاضلـــة فـــاخـــره
ملكـــت دنيـــاك وخلفتهـــا
وسرت حتـــى تملـــك الآخـــرة

وكـان الـواعـظ أبـو عثمان المنتجـب بـن أبي محمـد الـواسطي مـن الصالحين الكبار أنشد لنور الدين بقوله:

مثـــل وقـــوفـــك أيها المغـــرور
يـــوم القيـــامـــة والسماء تمور
إن قيـــل نـــور الـــديـــن رحـــت مسلما
فـــاحـــذر بـــأن تبقـــى ومـــالـــك نـــور
نهيـــت عـــن شرب الخمـــور وأنـــت في
كـــاس المظـــالم طـــافـــح مخمـــور
عطلـــت كـــاس ســـالـــف المدام تعففـــا
وعليـــك كـــاســـات المظـــالم تـــدور
مـــاذا تقـــول إذا انقلبـــت الى البلى
فـــردا وجـــاءك منكـــر ونكير
وتعلقـــت فيـــك الخصـــوم وأنـــت في
يـــوم الحســـاب مسحـــب مجرور
وتفـــرقـــت عنـــك الجنـــود وأنـــت في
ضيـــق اللحـــود مـــوسـد مقبـــور
وددت أنـــك مـــاوليـــت ولايـــة
يـــومـــا ولا قـــال الانـــام أمير
وبقيـــت بعـــد العـــز رهـــن حفيرة
في عـــالم الموتـــى وأنـــت حقير
وحشرت عـــريـــانـــا حـــزينـــا بـــاكيـــا
قلقـــا ومـــالـــك في الانـــام مجير
أرضيـــت ان تحيـــى وقلبـــك دارس
عـــافي الخراب وجسمـــك المعمـــور

أرضيت ان يحظى سواك بقربه
ابدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها
يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمعها الملك نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر البلاد، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على نور الدين استعانته في الحروب بأموال المكوس، قال: وكيف تنصرون وفي عسكركم الطبول والخمور والزمور؟!

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد، وقال: هذا تفسير رؤياك، وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ويقول: إنما صرفت في قتال أعدائكم من الكفرة، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين، وكان يقول في سجوده: اللهم أنا العشار المكاس.

الحادي عشر: في تملك ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الاتابك زنكي بن آقسنقر.

ولما توفي نور الدين في التاريخ المذكور، ملك ولده المذكور دمشق وما معها بعد أن حلف له الامراء والمقدمون بدمشق، وكان عمره احدى عشرة سنة، وأطاعه أهل الشام، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر وضرب السكة باسمه، وأظهر له الطاعة، وتولى تربيته وتدبير دولته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، وقال له كمال

الـدين بـن الشهرزوري ولمن معـه مـن الامراء والمقـدمين: قد علمتـم أن صلاح الديـن صاحب مصر من أصحاب الشهيـد، والمصلحة ان نشاوره في الذي نفعلـه ولانخرجـه من بيننـا فيخرج عـن طاعتنـا، ويجعل ذلـك حجة علينا وهـو أقوى منا، لانه انفـرد اليوم بملك مصر، فلم يـوافق هذا القول أغراضهم، وخـافوا ان يدخل صلاح الدين فيخـرجهم، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنيه بالملك، وأرسـل دنانير مصر عليها اسمه، ويعـرفه أن الخطبة والطاعـة له كما كانت لأبيه.

ولما سار سيف الـدين غازي بن قطـب الدين، صاحـب الموصل، إلى الجزيرة وملـك البلاد الجزريـة على مانـذكره أرسـل صلاح الـدين يعتـب الملك الصـالح حيث لم يعرفـه قصد سيف الديـــن ابن عمه بـلاده قبل أخذهـا ليحضر في خدمتـه ويكفه عنـه، وكتب إلى الشهـرزوري والأمراء يقول لهم: لو كان نـور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقـامي أو يثق إليه ثقته إلي لسلـم إليه مصر التي هـي أعظم ممالكـه وولاياته، ولـو لم يعجل إليه الموت لم يعهد إلى أحـد بتربيته لولده والقيام بخـدمته غيري، وأراكم قد تفردتـم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خـدمته وأجازي انعام والـده بخدمة يظهـر أثرها له، وأجـازي كلا منكم بسـوء صنيعه في تـرك الذب عـن بلاده، وتمسـك ابن المقـدم وجماعـة من الأمـراء بالملـك الصالح ولم يـرسلوه إلى حلب خوفـا أن يغلب عليهم شمس الـدين علي ابـن الدايـة، فإنـه كان أكبر الامـراء النـورية، وإنما منعـه من الاتصـال بخدمتـه مرض لحقـه، وكان هـو وأخوه بحلب وأمـرها إليهـم وعساكـرها معهم في حياة نور الدين وبعده.

ولما عجز عن الحركـة أرسل إلى الملك الصالح يدعـوه إلى حلب ليمنع به البـلاد الجزرية من سيف الـدين ابن عمـه، فلم يمكنه الامراء الـذين معه من الانتقال إلى حلب.

وفي المرآة: وكان الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكان أبيه، وحضر القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري وشمس الدين ابن المقدم، وجمال الدين ريحان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمير الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأن شمس الدين بن المقدم إليه تقدمة العساكر وتربية الملك الصالح، ووصل كتاب صلاح الدين، من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه:

أدام الله أيام مولانا الملك الصالح، ورفع قدره، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره، أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وفيه أقيمت الخطابه بالاسم الكريم، وصرح بذكره في الموسم العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولاتأثيم، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه، ويديم النعمة عليه.

وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية:

وقال العماد: أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل، وهو مجذوذ الذوائب مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوفى كل قلب حزنه فاستوحش، وبعد ان تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته: «اسماعيل ابن محمود» وفيه: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل مذب الشام بل الاسلام، حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدم الجهاد ومقتني فضيلته ومؤدي فريضته، ومحيي سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعز ان يرى الزمان نظيره، وما هاهنا مايشغل السر ويقسم الفكر الا أمر الفرنج خذلهم

الله، ومـا كان اعتياد مـولانا العـادل وسكونـه إليه الا لمثـل هذا الحادث الجلل، والصرف الكـارث المذهل، فقد ادخـره لكفايات النـوائب، وأعده لحسم ادواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومـه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله الا صـورة، والمعنى باق، والله تعالى حـافظ لبيتـه واق، وهـل غيره دام سموه مـن مـؤازر، وهـل سوى السيـد الأجل الناصر من ناصر».

وفي تاريـخ ابن كثير: لما مات نـور الديـن، وتولى ابنه المذكـور، اختلف الامــراء، وحـارت الآراء، وظهــرت الشرور، وكثـرت الخمــور، وانتشرت الفواحش، حتى ان ابن أخيه سيف الديـن غازي ابن قطب الدين مودود صاحـب الموصل لما تحقـق موت عمـه، وكان محصـوراً منه نـادى مناديـه بالبلـد بالمسـاحة في اللعب واللهـو والشرب والطرب، ومـع المنادي دف وقدح ومزمار، وتحقق حينئذ قول الشاعر:

ألا فـاسقنـي خمراً ... وقـل لي هـي الخمـر
ولا تسقنـي سرا ... وقـد أمكـن الجهـر

وطمعـت الأعداء مـن كـل جانـب في المسلمين، وعـزم الافرنـج على قصـد دمشق، فبرز إليهـم الاتابـك ابن المقـدم فـواقفهم عنـد بانيـاس، فضعف عن مقـاومتهم فهادنهم مدة، ودفـع إليهم أموالا جزيلـة عجلها لهم، ولـولا خوفهـم مـن قـدوم السلطان الملـك النـاصر صـلاح الديـن، صاحب الديـار المصرية لما هادنوه، ولما بلغ ذلك صـلاح الدين كتب الى الامراء، وخـاصة الى ابن المقـدم يلومهم على ماصنعـوا من المهادنـة ودفع الاموال الى الافـرنج وهـم أقل وأذل ، وأنه عـزم على قصد البـلاد لحفظها من الافرنـج، فردوا إليه كتابـا فيه غلظة، وكلامـا فيه بشاعة، فلـم يلتفت

-١١١٨٥-

إليهم، ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفعوا به الملك الناصر صلاح الدين، فلم يفعل لانه خاف أن تكون مكيدة منهم له، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي سعد الدولة كمشتكين الذي كان قد جعله عنده نور الدين عيناً عليه، وحافظاً له من تعاطي مالايليق عليه، فلما سمع الخادم بموت استاذه خاف أن يمسكه، فهرب سراً، فحين تحقق غازي موت عمه بعث في طلب الخادم ففاته، فاستحوذ على حواصله، ودخل سعد الدولة حلب، ثم سار الى دمشق فاتفق مع الأمراء على أن يأخذ ابن استاذه الملك الصالح اسماعيل إلى حلب فيربيه هنالك، وتكون دمشق مسلمة إلى الاتابك شمس الدين ابن المقدم والقلعة إلى الطواشي جمال الدين ريحان، فسار معه الأمراء والأكابر من دمشق وذلك في الثالث والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وحين وصلوا إلى حلب جلس الصبي على سرير مملكتها، واحتاطوا على بني الداية شمس الدين وعلى أخيه مجد الدين الذي كان رضيع نور الدين وأخوته الثلاثة، وقد كان شمس الدين ابن الداية يظن أن يسلم إليه ابن نور الدين ليربيه، لانه أحق الناس بذلك، فخيبوا ظنه وسجنوه وأخوه في الجب، فكتب صلاح الدين إلى الامراء يلومهم على مافعلوا من نقل الولد إلى حلب، ومن سجن لبني الداية، وقد كانوا من خيار الامراء، ورؤوس الأمراء الاكابر، ولم ماسلموا الولد إلى مجد الدين بن الداية الذي كان أحظى الناس عند نور الدين.

فكتبوا إليه يسيئون الادب عليه، وكل ذلك مما يزيده حنقاً عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم، ولكنه في هذا الوقت في شغل شاغل بما دهم بلاده من الأمر الهائل، كما سنذكره إن شاء الله تعالى في السنة الآتية، إنه على ذلك قدير.

-١١١٨٦-

ذكر الأمور المزعجة:

ومنهـا أن ملـك الـروم خـرج مـن القسطنطينيـة، وقصـد بـلاد قليـج أرسلان، فجرت فيهـا حرب استظهر فيها المسلمـون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كبيرة.

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ثـم عادوا عنها، وقد قلنا إن هذا كان بعد مـوت نور الدين، وأن شمـس الدين محمـد بن عبد الملك خـرج من دمشق، وراسل الافرنج وبذل لهم، فعادوا.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السبعين بعد الخمسمائة:

ذكر تملك صلاح الدين دمشق وأخذها من الملك الصالح بن نور الدين:

ولما مات نور الدين في التاريخ الذي ذكرناه، وتولى عوضه ولده اسماعيل، وطمعت الفرنج في بلاد الشام، واختلفت آراء أمراء الشام، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى الشام لأخذها وحفظها من الأفرنج، ولكن عرض عليه أمران: الأول مجيء الافرنج إلى بلاد مصر، والثاني مخالفة الكنز المقدم بأسوان، فلنذكر الامرين اولا، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق.

أما الأمر الأول، فقد قال ابن كثير: استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول الى الشام ليحفظه من أيدي الافرنج المخذولين، ولكن قد دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج قدموا الى ساحل البلاد المصرية في اسطول لم يسمع بمثله في كثرة مراكبه ومافيه آلات الحصار، وكثرة الرجال والمقاتلة من جملة ذلك مائتا شيني في كل منها مائة وخمسون مقاتلاً، وأربعمائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر اسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها فقاتلوهم دونها قتالا شديداً، واستمر القتال أياماً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق مانصبوه من المنجنيقات والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الافرنج وفت في أعضادهم، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم فقتلوا من أحبوا وأرادوا وغنمواماشاءواواختاروا، وانهزم الكفار في كل وجه ولم يكن لهم ملجأ إلا

البحر والقتل، أو الأسر، واستحوذ المسلمون على أموالهم وأثقالهم وخيولهم وما ضربوه من الخيام لنزولهم، وبالجملة قتلوا خلقاً من الرجال وغنموا شيئا كثيراً من الاموال، وركب من بقي منهم في الاسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة قصد الافرنج ثغر الاسكندرية وجاءوا في مائتي شيني وطريدة، وأمد الملك الناصر صلاح الدين أهل الثغر بالعسكر وتحرك ليتوجه إليهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب فعادوا خائبين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ الدولتين: أما وصول الاسطول إلى اسكندرية فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين، وأرسل صلاح الدين كتاباً الى بعض الامراء بالشام وفيه وصول أول الاسطول وقت الظهر، ولم يزل واصلا الى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر، لا على خفاء من الخبر، واستنزلوا خيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب، فكانت الخيل ألفين وخمسمائة فارس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل، وكانت عدة الطرائد مائتا شيني، في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الازواد للرجال أربعين مركبا، وفيها من الرجال المتفرقين وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية مايتم خمسين ألف راجل، ولما تكاملوا نازلين على البر حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة مايناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرخ، وجدفت مراكب الافرنج داخلة

الى الميناء، وكـان به مراكـب مقاتلة، ومراكـب مسافرة فسبقهـم المسلمون فخسفوها وغرقـوها وغلبوهـم على أخذها وأحرقـوا مااحترق منها، واتصل القتال إلى المسـاء فضربوا خيامهم بـالبر، وكانت عدتهم ثـلاثمائة خيمة، فلما أصبحوا زاحفـوا وضايقوا وحاصروا ونصبـوا ثلاث دبابات بكبـاشها، وثلاثة مجانيق كباراً تضرب بحجارة سـوداء اصحبوها معهم من صقلية، والـدبابـات تشبه الابـراج في جفاء أخشـابها وارتفـاعها وكثرة مقاتلتهـا واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السـور، وألحوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منـزلة العسـاكر بفاقـوس يوم الثلاثـاء ثالـث يوم نزول العدو على جنـاح الطائر، فاستنهض السلطان العساكـر إلى الثغرين اسكندريـة ودمياط، وأما اسكندريـة فإنهم فتحوا على غفلة وخـرج منها من كـان بها من الأمراء، فأحـرقوا الدبـابات المنصوبة، وأنـزل الله النصر على المسلمين والخذلان على الكفـار، واتصـل القتال الى العصر مـن يـوم الاربعاء، وانهزم الافرنـج، واستمر القتل والجرح فيهم، ولم يسلـم منهم الا مـن نزع لبسـه، ورمـى في البحر نفسـه، وتقحـم المسلمون في البحـر على بعض المراكـب فخسفوهـا وأتلفوها، فـولت بقية المراكـب هاربـة، وبقي العدو بين قتل وغـرق وأسر، واحتمى ثلاثمائة فارس في رأس تـل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا، وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس».

وذكر ابن شـداد أن نـزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكـانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة مابين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك.

وأما الأمر الثاني: فهو نوبة الكنز.

وقـال بيبرس في تـاريخه: وفي هـذه السنـة خـالـف الكنـز بـأسـوان، وهومقدم من المصريين كـان قد انتزح إلى أسوان، فأقام بها، ولم يـزل يدبر أمره، ويجمـع السودان عليه، ويخيـل لهم أنه يملـك البلاد ويعيد الـدولة المصرية ويقطع خطبة الناصر صلاح الديـن، ويخطب لداود بن العاضد،

فاجتمع إليه جمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى الملك الناصر، فجرد عسكراً إليه، وقدم عليه أخاه الملك العادل وتوجه صحبته أبو الهيجاء السمين، فسار إلى الكنز وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والرعية وعربان البلاد، فالتقوا وقتلوا الكنز، وأبادوا جموعه، واطمأن الصعيد، وعاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهرة، ولقب من ذلك الحين بالملك العادل، والكنز المذكور من قبيلة ربيعة، وكان مسكنهم بجزيرة العرب ومستقرهم منها باليمامة، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتوكل العباسي، فسكنوا بيوت الشعر في صحارى هذه الأعمال، وكانت البجاة تشن الغارات في كل وقت، فمنعوهم من ذلك، ثم تزوجوا عندهم، وظفروا بمعدن الذهب بالعلاقي، فتمولوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ومما عوق الملك الناصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بالكنز، وسماه بعضهم عباس بن شادي، وكان من مقدمي الديار المصرية، ومن الدولة الفاطمية، وكان قد انتزح إلى أسوان وجمع عليه خلقاً من الرعاع من الحاضرة والعربان، وزعم لهم أنه سيعيد الدولة، ويدحض الدولة التركية، ثم ذكر قريباً مما ذكرناه.

وقال ابن أبي طي: خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شادي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان استنابه بمصر، فجمع له العساكر، وأوقع به وبدد شمله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

وأما توجه السلطان صلاح الدين إلى الشام فقد كان في هذه السنة، فخرج إلى البركة في مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس في ثالث عشر ربيع الاول، وكان عنده رسل شمس الدين

صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين ابن المقدم، ثم سار الى إيلة، ثم أناخ على بصرى فاستقبله صاحب بصرى، ولم يزل في خدمته الى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول، وسار في عسكره حتى دخل دمشق، ودخل إلى دار العقيقي، وكانت مسكن أبيه، وكان في قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم، فاستماله صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضاً، ونزل في القلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاء لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ ماله من المصالح، وجاء إليه أعيان البلاد منهم: القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فأكرمه السلطان وبالغ في اكرامه والامراء والاجناد والاتراك والاكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر، وفي بعض كتبه:

«وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول».

وفيه: «ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين، والأمير سعد الدين بن أنر يوم السبت السابع والعشرين منه، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء باطابة النفوس وإزالة المكوس».

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة خرج الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق، واستناب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية، وكان السبب في ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن ممدود صاحب الموصل، وإلى أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ليجتمعوا جميعاً على قصد صلاح الدين، وأخذ الديار المصرية منه.

فأما أخوه عماد الدين زنكي فانه امتنع منه لأن صلاح الدين كان قد كاتبه وأطمعه في ملك والده بحكم أنه الكبير، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى أخوه امتناعه سار إليه الى سنجار وحاصره بها، وامتنع عماد الدين، وجد في حفظ البلد والذب عنها، فدام الحصار عليه فبينا هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين، لأنه كان عند مسيره إلى سنجار قد رتبه مع عسكر بدمشق، وصحبته أمير كبير يسمى عز الدين محمود، فلما وصل صلاح الدين إلى دمشق أخذها وانهزم العسكر الذي بها، فراسل الملك الصالح أخاه عماد الدين وصالحه على مابيده، ورحل إلى الموصل إلى سيف الدين ابن عمه ليستنجده على صلاح الدين، فسار بنفسه، وسار صلاح الدين من دمشق إلى حمص، واستخلف عليها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وقاتل أهل حمص يوما واحدا فملكها وامتنعت القلعة عليه، فسار عنها إلى حماه وبها عزالدين جورديك، وهومن مماليك نور الدين فامتنع من التسليم، فسير إليه صلاح الدين يذكر أنه في طاعة الملك الصالح، وأنه ماخرج الا لحفظ البلاد من الفرنج، فاستحلفه على ذلك، وسلم إليه البلد، فلما تسلمها سار منها إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين، واتفق وصول سيف الدين غازي من الموصل منجداً له، وتقدمت عساكره لقتال صلاح الدين، فبذل له صلاح الدين تسليم حمص وحماة، وأن يقر بيده مدينة دمشق ويكون فيها نائباً من جهة الملك الصالح، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: لابد من تسليم جميع ماأخذه من بلاد الشام وعوده الى مصر، أو القتال، وكان صلاح الدين في أثناء المراسلة يجمع عساكره ويتأهب للقائه، فلما امتنع سيف الدين من اجابته لما بذل، سار بعسكره فالتقى هووعسكر سيف الدين غازي على قرون حماه، فهزمهم وتبعهم حتى حازوا معسكرهم، وغنم منهم غنائم كثيرة ودوابا وسلاحا، وعاد العسكر السيفي منهز ما إلى حلب فتبعهم صلاح الدين إليها، ونزل عليها محاصراً لها، فراسلوه في

الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام، ولهم مابأيديهم من بلاد حلب معاً، فأجابهم وانتظم الصلح، ورحل عن حلب في شوال منها، وقطع خطبة الملك الصالح من بلاده وأزال اسمه عن السكة.

وفي تاريخ النويري: وفي هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب كمشتكين الطواشي يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها، فسار الصالح إليه، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهورئيس حلب، واستبد كمشتكين بتدبير الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه، فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ووصل إلى دمشق، واستقر فيها، ولم ينتطح فيها عنزان، ولااختلف سيفان، وذلك أن نائبها شمس الدين ابن المقدم كان قد كتب إليه أولاً، فأغلظ ورمى الكتاب، فلما رأى أمره متوجهاً جعل يكاتبه ويستحثه على القدوم، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجد لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد، فنزل السلطان أولا في دار والده، وهي دار العقيقي، وهي التي بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس رحمه الله، ولما ثبت أمره بها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وأخذ ما في القلعة من الأموال، ثم سار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، ونزل عليها في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه، وإنما هو نائبه، وقصد جرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار جرديك إلى حلب للرسالة، واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب

قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم بذلك أخوه سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب، فنازلها على جبل جوشن وحصرها، فاجتمع أهل حلب، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب، ثم رحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، وذلك أن أهل حلب راسلوا القومص صاحب طرابلس، ووعدوا له بأموال جزيلة إن هو رحل عنهم السلطان صلاح الدين، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين ومعتقلاً مدة عشر سنين، ثم فاداه على مائة ألف دينار، وألف أسير من أسارى المسلمين، وكان لاينسى ذلك لنور الدين، فركب القومص لعنه الله من مدينة طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين، بل قصد حمص ليأخذها بغتة، وركب إليه السلطان، وقد أرسل سرية الى بلده، فقتلوا منها وأسروا وغنموا، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه، وكر راجعا الى بلده، وتراءى انه قد أجاب الى ماسألوا، فوصل صلاح الدين الى حماة، وسار الى حمص، فرحل الفرنج عنها، وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان المعظم، ثم سار إلى بعلبك فملكها، ولما استقر صلاح الدين في هذه البلاد أرسل الملك الصالح ابن نور الدين الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي، وجعل مقدم جيشه أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود، ولقبه سلفندار، ووصلوا إلى حلب، وانضم إليه عسكر حلب، وساروا الى صلاح الدين، وأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وأن تبقى بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح بن نور الدين، وانما فعل ذلك صلاح الدين لقلة الجيش الذي معه بالنسبة لجيش هؤلاء، فامتنع من المصالحة الخادم كمشتكين الا ان يجعل لهم الرحبة التي بيد ابن عمه

ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه، فقال: ليس لي ذلك ولا أقدر عليه، فأبوا الصلح وأقدموا على القتال، فجعل صلاح الدين جيشه كردوساً واحداً، وذلك يوم الاحد التاسع عشر من شهر رمضان عند قرون حماه، فصبر صبراً عظيماً، وجاءه في أثناء الحال ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ومعه أخوه فرخشاه في طائفة من الجيش، وقد ترجح دسته عليهم وخلص رعبه إليهم، فانهزموا مدبرين وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، فأسر منهم من أسر من رؤسائهم، ونادى ان لايتبع مدبر، ولايذفف على جريح، ثم أطلق من وقع في أسره، وسار على الفور حتى نازل حلب، فانعكس عليهم الحال، فبالامس كان يطلب منهم المصالحة، واليوم هم طلبوا منه أن يكف عنهم ويسير عنهم على أن له المعرة وكفر طاب وبارين زيادة على مابيده من أراضي حماة وحمص وبعلبك مع دمشق، فقبل منهم وكف عنهم وحلف أن لايغزو بعدها الملك الصالح، وأن يدعو له على سائر منابر بلاده وممالكه، وشفع في بني الداية أخوة مجد الدين أن يخرجوا من السجن، ففعلوا ذلك، ثم رجع مؤيدا منصوراً، فلما وصل الى حماه وصل إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه الخلع السنية والتشريفات العباسية، والاعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وأفيضت الخلع على أهله وأقاربه وأصحابه وأصهاره وأعوانه وانصاره، وكان يوما مشهوداً، واستناب على حماه ابن خاله وصهره ابن الامير شهاب الدين محمود، ثم سار الى حمص فاطلقها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، كما كانت لأبيه من قبل، ثم الى بعلبك، ثم الى البقاع، ثم الى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة.

وفي المرآة : لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق في مجيئه من مصر التقاه أهل دمشق بأسرهم، ونثروا عليه الدراهم والدنانير، وأحسن صلاح الدين إلى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري، ومشى إلى دار كمال الدين فانزعج وخرج إلى لقائه، ودخل صلاح الدين فجلس

وباسطه وقال: ياكمال الدين لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، وكان كمال الدين يكرهه وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه، فقال له صلاح الدين: ماشيت إليك إلا لأزيل مافي خاطرك من الوهم وأعرفك أن مافي قلبي لك ماتكره، فطب نفساً وقر عيناً، فالامر أمرك، والبلد بلدك.

وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق، ثم كتب إلى الملك الصالح كتاباً تواضع فيه له، وخاطبه بمولانا ابن مولانا، ويقول: إنما جئت من مصر خدمة لأؤدي مايجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك وماقصدي إلا جمع كلمة الاسلام على الافرنج، فعرض كتابه على أرباب دولته وفيهم خالد بن محمد بن القيسراني وغلمان أبيه وابن العجمي، فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة، فكتب إليه ينكر عليه وينسبه إلى كفر النعمة وجحد احسان والده، ووعده وتهدده، وبعث بالكتاب ينال بن حسان صاحب منبج، فأغلظ لصلاح الدين الجواب وقال: السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك، وأشار إلى سيفه، فغضب صلاح الدين وقال: والله لولا أنك رسول لضربت عنقك، والله ماجئت إلى هاهنا شرها ولاطمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك، فأنتم سبب زوال دولته، ثم طرده بغير جواب، فعاد إلى حلب، واستناب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين، وسار إلى حمص فأخذها، وفتح حماه، وسار إلى حلب فاستعانوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم مالاً وضياعاً، فأرسلوا إليه جماعة من فتاكهم، ورآهم ناصر الدين خمار تكين صاحب أبي قبيس، فعرفهم لانه كان مثاغراً لهم،وأنكر عليهم مجيئهم، وسبق إلى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين، وكان أمير جندار سيف الدين طغرل هناك، فجذب سيفه وقتل واحداً منهم، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم، ورحل صلاح الدين عن حلب في

أول رجب وجاء إلى حمص، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريحاني، ووصل عسكر الموصل إلى حلب وانضاف إليهم عسكر حلب، ونزلوا على تل السلطان، فساق عليهم صلاح الدين وبغتهم، وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا إلى حلب، وغنم أثقالهم، وأسر أبطالهم، وجاء فحصر حلب وهذه هي المرة الثانية من حصار حلب، والمرة الاولى من كسرة المواصلة، ورجع صلاح الدين فنزل بارين، وأخذها من ابن الزعفراني، وكان من أكابر أمراء نور الدين، ولقبه فخر الدين واسمه مسعود، واعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد السلطان الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين من الموصل، واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل ان ابن المقدم كتب إلى السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والاحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ماكان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرمات(١٩).

وقال صاحب الروضتين: وكان قد كتاب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهن أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة ونـدا

لا تستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدا وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من الـ
ـملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة
الابرار يلقاك جمعهم مددا
فهو فقير إليك يأمل أن
يصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النصر
كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك العدل
وأعطاك ما ملكت سدى

ومدح وحيش الاسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها هو قوله:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسة الايام إن وثبا
رأيت جلق بعز لا نظير له
فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها
وأرفع الخلق من أوطانها هربا
أحييها مثلما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الاسلام فاتضحت
سبله وأهان الكفر والصلبا

ويـوم شـاور والايمان قـد هـزمـت
جيـوشـه كـان فيـه الجحفـل اللجبـا
ويـوم دميـاط والاسكنـدريـة قـد
أصـارهـم مثـلاً في الارض قـد ضربـا
والشـام لـو لم يـدارك أهلـه انـدرسـت
آثـاره وعفـت آيـاتـه حقبـا

ولما نزل السلطان صلاح الدين على حلب أشير على ابن نور الدين أن يجمع أهل حلب في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه أنهم الوزر والملجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب الدرجة، وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: ياأهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجيء إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الاب وشابكم عندي بمنزل الاخ، وصغيركم عندي حل محل الولد، وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة وعلا نشيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أن يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على عادتهم القديمة، وأن يجهروا بحي على خير العمل، والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

وقال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحي على خير العمل، وصلى أبي في الشرقية مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا

في الأسواق، وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وصلوا على الاموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الامامية إليه وفعلوا جميع ماوقعت الايمان عليه.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم في هذه السنة العماد الكاتب، وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له: غدا تأتيك تراجم الاعاجم ومايحلها مثل العماد، فقال: مالي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا اسكتبت غيرك تحدث الناس، فقال الفاضل: هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك فإذا غبت قام مقامي فاستكتبه.

وقال العماد: وأول ماأهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان من هذه السنة بقصيدة منها قوله:

عاينت طودسكينة ورأيت شمـ ... ـس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا ... ببيانه ذيل الفخار كوائل
أبصرت قساً في الفصاحة معجزاً ... فعرفت أني في فكاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما ... حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه ... طامي العباب وماله من ساحل
وجميع مافي الارض سبعة أبحر ... وبحوره تسمى بعشر أنامل

في كفـــه قلـــم يعجـــل جـــريـــه
مـــا كـــان مـــن أجـــل ورزق آجـــل

الأبيات:

ومنها أن أخا السلطان المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وصل من اليمن الى دمشق وأقام بها مدة، ثم حضر الى الديار المصرية.

ومنها أن في غيبة صلاح الدين بالشام اجتمعت بالقاهرة طائفة من جند الارمن والاسماعيلية وجند المصريين، وغلمان العادل أبي بكر، ونادوا بشعار أبي طاهر بن العاضد، فلما سمع العادل بذلك أوقع بهم وقتل منهم جماعة، واعتقل جماعة، ونفى آخرين، وكان الذي حملهم على ذلك الشريف ابن هانىء...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين مقيم بمرج الصفر، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة، فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم السلطان أموراً فالتزموها، وكان الشام ذلك العام جدباً، فأذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل إلى بلادهم، وإذا استغلوا خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل، وعلى الصيد ومدحه العماد بقصيدة منها:

ســـواك لسهـــم العلى لـــن يـــريشـــا
فنســـأل رب العلى أن تعيشـــا
مـــن النـــاس بـــالبر صـــدت الكـــرام
وبـــالبـــاس في البر صـــدت الـــوحـــوشـــا

وكـم سرت مـــن مصر نحـــو العـــريـــش
فهـــدمـــت للمشركين العـــروشـــا
سرايــــاك تبعـــث قـــدامهـــا
مـــن الـــرعـــب نحـــو الاعـــادي جيـــوشـــا
ويـــوم حماة تـــركـــت العـــداة
كما طيرت بـــالفـــلا الـــريـــح ريشـــا

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازي بن مودود صاحب الموصل

وأصل ذلـك أن غازي هذا الـذي هو ابن أخـي نور الديـن كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ماوقع بينهـم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة، وأرسـل رسولاً إلى صلاح الديـن، ودفع له كتـابين: أحدهما إلى صلاح الـدين ليأخـذ منه عهدا للمواصلـة ويكشف ماعنـده، والكتاب الثـاني إلى الحلبيين يلـومهـم على الصلـح ويخبرهم أنـه واصـل بعسـاكـر الشرق، ولما دخل الـرسول على صلاح الـدين غلط ودفـع كتاب الحلبيين إليـه، وذلك لسعـادة صـلاح الـدين، فتـأملـه صـلاح الديـن وعلـم أن الرسول غلط، فلم يقل له شيئاً، وفهم الرسول، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك، وكتـب صلاح الدين إلى مصر إلى أخيـه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية إلى الشـام بسرعة، وجمع غازي العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زنكـي صاحب سنجار عاصياً عليه، مائلا لصـلاح الديـن، فصالحه، وكان أخـوه عز الـدين مسعـود وعسكره انهزموا في العام الماضي، لما التقـوا بصلاح الدين — كما ذكرناه - فصـالـح غـازي فـاجتمع معـه عسكـر كثير، عـدتـه ستة آلاف فـارس، وسـار إلى نصيبين في ربيع الاول، وأقـام بها حتى انقضـى الشتاء، فضجـر العسكر وفنيـت نفقاتهم، فصـار العـود الى بيوتهم مـع الهزيمـة أحـب إليهم مـن الظفر، ثم سار الى حلـب والتقاه الملك الصالح بن نور الـدين، فاعتنقه

سيف الـدين غـازي، وبكى ونزل بظـاهر حلـب بعين المباركـة، وصعد القلعة جريدة، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته.

وفي تاريخ النويري: وكان غازي في عشريـن ألف مقاتل، ثم رحل إلى تل السلطان، ومعه هؤلاء العساكـر: عسكر الشرق، وديار بكر، والحلبيون، وبلغ صلاح الديـن وهو بدمشق، ولم يكن عنده سـوى ستة آلاف فارس، كذا في المرآة.

وفي تاريـخ النويري: وسـار صلاح الدين نحـوهم ومعه ألـف فارس، ولكـن الجيوش قـد خرجـت من الـديار المصريـة وفي جحافـل كالجبـال ووصـل الى حماة، ونزل بها، وتـرك أثقـالـه بها، وساق الى جبـاب التركمان، وجاءه رسول الحلبيين بأنهم يخوفونه بأسهم، ويـأمرونه بالرجوع إلى أن قال رسولهم: فـوافيته وهو في خيمـة صغيرة، وهو على بساط، وتحتـه سجادة، وبين يديـه مصحف وهو مستقبل القبلـة، وإلى جانبه زرديتـه وسيفه بين يديـه، وقوسـه وتركـاشه معلـق في عمود الخيمـة، قال: فلما رأيتـه وقع في خاطري أنـه المنصور، لأني فارقت سيـف الدين غازي والأمـراء وهم على طنافـس الحرير والخمور تـروق وليس في خيـامهم خيمة الا وفيهـا أنواع المحـرمات، فـأديت إليـه الـرسالـة، وجـاء وقت الظهـر فضج العسكـر لصوت الاذان، وفي كل خيمـة إمام، فقال لي: الحق بأصحـابك وقل لهم يستعدون للقائي فإني عند طلوع الشمـس نازل عليهم و﴿يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ [الاعراف ٨٧].

قال: ففارقته وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم، وسقت عامة الليل فوافيتهـم وقت الفجر وهـم سكارى، فطلبت سيـف الدين غـازي فقيل لي: هو نائم، قـال: فوالله ماانبسطـت الشمس الا واعلام صلاح الـدين قد أقبلـت والكوسات تخفـق وأصحابنا نيـام، فقاموا مسرعين، وكـان يوم الخميس العـاشر من شوال، وكـانت مـلاقاتهم على تل السلطـان، وكان

على ميمنة السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى ميسرته صاحب بصرى، وهو في القلب، وكان في ميمنة المواصلة مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وعلى ميسرتهم الحلبيون وسيف الدين غازي في القلب.

وفي المرآة: وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها، ونزل صلاح الدين من التل، ورأى أن يباشر الامر بنفسه، وإلا اختل الامر، فساق عليهم، واتفق وصول العساكر المصرية في تلك ا لساعة مع تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات وحسن الاطلاب، والعدد الوافرة، والخيل العربية، فانخذلوا وولوا منهزمين.

وفي تاريخ النويري: وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة، فكانت باذن الله الهزيمة، فقتلوا من الحلبيين والمواصلة خلقاً، وأخذت مضارب سيف الدين غازي وحواصله وأسر جماعة من رؤوسهم، فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الافرنج في حال القتال، وليس هذا من صنيع الصناديد.

وفي تاريخ بيبرس: وكان غازي قد سبق، ووصل صلاح الدين وقت العصر، وقد تعب هووأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم على الارض ليس فيهم حركة، وأشار على غازي جماعة من أصحابه بقتالهم في تلك الساعة، فتأخر إلى الغد، فلما التقوا من الغد انكسر عسكر سيف الدين ورجع إلى حلب، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد، وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب، وسار إلى الموصل وهويظن أنه لاينجو، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة الحميدية

فمنعـه من ذلـك، وثبـت قلبـه، وعزل عـز الـديـن عن إمـارة العسكـر، واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز.

وفي تـاريخ النـويري وغيره: ووجـد السلطـان صلاح الـدين في مخيـم غـازي شيئا مـن الاقفـاص التي فيهـا الطيور المطـربـة وذلك في مجلـس شرابه، وكيـف ينصر من كان هـذا مسلكه، ومذهبه، فـأمر صلاح الـدين بردها عليه وقـال للرسول: قل له: اشتغالك بهذه الطيـور أحب إليك من الوقـوع فيما رأيت مـن المحذور، وغنـم السلطان مـن أموالهم شيئـا كثيرا، ففرقه على أصحابه وأنعم بخيمة الملـك سيف الدين غازي على ابن أخيه عز الـدين فرخشـاه بن شاهنشاه بـن نجم الديـن أيوب، ورد وطاقـه من الجواري والمغنيـات، وقد كـان معه أكثـر من مـائة مغنية، ورد الاقفـاص وآلات اللعب الى حلـب، وقال: قولوا لـه: هذه أحب إليـك من الحرب، ووجد عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والملاهي.

وفي المرآة: ولما انهزم غازي ومن معه ساق صـلاح الدين وراءهم وأسر أمراءهـم، ونجا غـازي بنفسه، وعـاد صلاح الـدين إلى خيـامهم، فـوجد سرادق سيـف الـدين غـازي مفـروشـا بـالـرياحين والمغـاني جلـوس في انتظـاره، والخمور تـروق، ومطابخـه بقدورهـا، وفيه أقفـاص الطيور فيهـا أنـواع من القماري والبـلابـل والهزارات، ثم فـرق صـلاح الديـن الخزائن والخيل والخيـام على أصحابه، وأعطـى عز الـدين فرخشـاه سرادق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاءا حسناً.

ذكر ماجرى لصلاح الدين بعد انتصاره:

قال النـويري: لما رجـع الحلبيون الى حلـب وهم منهـزمون نـدموا على نقضهم الايمان، ومخالفتهم لطـاعة الرحمن، وشقهم العصـا على السلطان، وتحصنوا بالبلـد خوفاً من وثـوب الاسد ابن أخي الاسـد، وأسرع صاحب

الموصل فوصلها وماصدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ماغنم أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التي حول البلد، ثم نعود إليهم فلا يمتنع علينا أحد منهم، فشرع يفتح الحصون حصنا حصنا ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بزاعة ثم سار إلى أعزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخلت طائفة منهم في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هي باللامة فسلمه الله، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان ليذبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوا رأسه، ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل ثم هجم آخر على بعض الامراء فقتل أيضاً، وهرب الرابع فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد ففتحه وأقطعه ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب لما أرسلوا من الفداوية، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن، وضرب خيمته على رأس الياروقية وذلك في خامس عشر ذي الحجة من هذه السنة، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ومنع أن يدخل البلد شيء أو يخرج منها شيء واستمر حصاره، إياها حتى انسلخت هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس: لما انهزم غازي وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره، سير طائفة إلى بزاعة فحصروها وقاتلوا من بها وأخذوها، ورتب بها من يحفظها، وسار إلى منبج فملكها عنوة وأخذ صاحبها أسيراً، وكان بينه وبين صلاح الدين عداوة قديمة، وهوقطب الدين ينال ابن حسان المنبجي، ثم أطلقه فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين

غازي الرقة، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها وهي من أحصن القلاع، وقتل عليها كثير من العسكر، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها.

وفي المرآة: لما نزل صلاح الدين على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان، فقاتله واتفق وقوع ثلمة في السور، فطلب الامان لنفسه، فآمنه فخرج سليباً وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة ألف دينار، وعرض عليه المقام عنده فامتنع، وسار الى صاحب الموصل، كما ذكرناه، ثم سار السلطان ففتح حصن بزاعة، ثم نازل أعزاز فأقام عليها ثمانية وعشرين يوماً، وفتحه في ذي الحجة من هذه السنة.

وفي تاريخ الدولتين: وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة منها:

فالحمد لله الذي أفضاله
حلو الجنا على السنا وضاحه
عاد العدو بظلمه في ظلمة
في ليلة ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال وما درى
أن الذي يجني عليه سلاحه

وقال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء.

وقال العماد: نظمت قصيدة والابيات منها:

نصر أنار لملككم برهانه
وعلا لذلة شانيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبوا المظفر يوسف سلطانه
الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه

والــــدهــــر يـــأتي بغير مـــرادكـــم
فعلى القضـــاء لأجلكـــم جـــريـــانـــه

فكـــأنما اللـــه في أحكـــامـــه
فلـــك على ايثـــاركـــم دورانـــه

فخـــراً بنـــي أيـــوب إن فخـــاركـــم
بـــذ الملـــوك الســـابقين رهـــانـــه

يكفـــي حســـودكـــم اعتقـــالاهمه
فكـــأنما أشجـــانـــه أشجـــانـــه

الـــديـــن عـــز الـــديـــن عـــز بنصركـــم
والكفـــر ذل بعـــونكـــم أعـــوانـــه

قـــد كـــان جيشهـــم كبحـــر زاخـــر
والـــلابســـون جـــواشنـــا حيتـــانـــه

الأبيات:

وقال العماد أيضاً في فتح منبج قصيدة منها قوله:

نـــــزولـــــك في منبـــــج
على الظفـــــر المبهـــــج

ونجحـــــك في المرتجي
وفتحـــــك للمـــــرتـــــج

دليـــل علـــى نجـــح مـــا
تحاول أو تـــــــرتجي

أمـــــورك فيما تـــــروم
واضحـــــة المنهـــــج

وشـــانيـــك دامـــي الشـــؤ
ون منـــك شقـــي شجـــي

وقال ابن أبي طي: لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه، وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله

ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ماينـاهز ألفي ألف دينـار، فحان من السلطان التفاته فرأى مكتوباً على الاكياس والآنية يوسف، فقيل له ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له، فقال السلطان: أنا يوسف، وقد أخذت ماخبيء لي، فتعجب من ذلك.

وقال العماد أيضاً قصيدة في فتح أعزاز منها:

أعطاه رب العالمين دولة ... عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلى ببأسه وجوده ... وهو أحق الخلق باحتيازها

إلى أن قال:

تهن من فتح عزاز نصرة ... أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها ... كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها ... كما انتفت بغداد من قيمازها

ذكر بقية الحوادث:

منها: أنه في رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام وأمره أن يكون في وجه الفرنج، لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج على عادتهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر لحلب، وقد ضجر الناس من طول الحصار، فترددت الرسل بينهم، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح ابن نور الدين، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب فسألوه الصلح فصالحهم على أن تكون حلب وعملها للملك الصالح بن نور الدين فقط، وكتب بذلك الكتاب، فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عزاز، وأرسل بأخت له صغيرة وهي الخاتون بنت نور الدين ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله، فحين رآها صلاح الدين قام قائماً وقبل الارض وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئا كثيرا.

ذكر رحيل صلاح الدين عن حلب:

ولما تعاقدوا على ماذكرنا رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشربقين من المحرم، وقصد بلد الاسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصيات، فقتل وخرب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، الذي كان نائب دمشق جماعة من أسارى الافرنج الذين عاثوا بالبقاع في غيبة السلطان واشتغاله بحصار مصيات، فجدد

له العزم على غزو الافرنج، فصالح الاسماعيلية أصحاب سنان ثم كر راجعاً إلى دمشق.

وفي تاريخ الدولتين: وكان الأسرى أكثر من مائتي أسير، وقال ابن أبي طي: وكان أكبر الدواعي في مصالحة صلاح الدين لسنان مقدم الاسماعيلية وخروجه من بلادهم خوفه من الفرنج أن يهيجوا في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

وقال العماد: وكان خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الافرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدة في الاسار منهم سيف الدين أبو بكر السلار، ووصل السلطان إلى حماه واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعانق الاخوان في المخيم بالميدان...... قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة، وعزم إلى مصر السفر... وفي هذا الشهر تزوج صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر، وكانت زوجة الملك نور الدين الشهيد رحمه الله، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرمة، وولي تزويجها منه أخوها الامير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومعه جماعة من العدول، وبات السلطان عندها تلك الليلة والليلة التي بعدها ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها.

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر:

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول، ونزل بمرج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين.

-١١٢١٢-

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة:

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين إلى عند بحر القلزم ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولاسيما من المآكل المتنوعة.

ذكر ماصدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة:

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب في القصر كل اسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وكانت كتب كثيرة جداً، قالوا إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار مايشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، وكانت خزائن مملوءة بها في القصر، وكان الحاكم على القصر ومتولي أموره الأمير بهاء الدين قراقوش، ولما حضرت الناس للشراء، كان الدلالون يخرجون عشرة من كل فن، كتباً مميزة وتباع بالهون، وتسام بالدون، وربما كان دلال يشارك مع واحد فتقوم عنده بعشرة ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة.

قال العماد: ولما رأيت الامر حضرت واشتريت كما اشتروا، واستكثرت من ذلك، ولما عرف السلطان بذلك، وكان بمئين، أنعم بها عليّ، وأبرأ ذمتي من ثمنها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ماعينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها، وقال: كنت طلبت كتباً عينتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت كلها وما استغني عنها فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقل نوال.

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة، ودور السور تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراع بالهاشمي.

وفي تاريخ الدولتين: ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لايمنعها، وقال: إن أفردت كل واحدة بسور أحتاج إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم.

وقال العماد: ومبلغ السور وهو دائر بالبلدين: مصر والقاهرة، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك مابين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل وقطع الخندق وحفر واديه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها، ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع، والعمارة مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

ومن ذلك أن السلطان رحمه الله أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها، وتولاه الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وأمر أيضاً باتخاذ دار في القصر بيمارستاناً للمرضى ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفاً كثيرة.

- ١١٢١٤ -

ذكر خروج صلاح الدين إلى الاسكندرية:

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب معه ولديه الافضل عليا والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دمياط فأقام بظاهرها يومين، ثم وصل إلى ثغر الاسكندرية.

قال العماد: وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد السلفي، وسمعنا عليه ثلاثة أيام :الخميس والجمعة والسبت رابع عشر شهر رمضان. قال: وشاهدنا مااستجده السلطان من السور الدائر ومااانصرفنا حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

وقال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها، رأى ان لايخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد اخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الاسطول وجمع له الأخشاب والصناع أشياء كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد مايحتاج الاسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له اقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا، وكتب الى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الاسطول وأن لايمنع من أخذ رجاله ومايحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لايارح البحر، ويُغزى إلى جزائر البحر.

ذكر مجيء الرسل إلى صلاح الدين:

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل، ورسول صاحب حصن كيفا، ورسول صاحب ماردين، فأولا جاءوا الى دمشق فاستوثقوا

بتحليف أخي السلطان صلاح الدين وهوشمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب الحصن في الأسر.

وقال ابن أبي طي: وصل رسول صاحب الموصل القاضي عماد الدين ابن كمال الدين الشهر زوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق وخرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج، وأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه وأحسن إليه.

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس من أعمال مصر:

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو، وهو يركب للصيد والقنص، ويتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص.

وقال في الخريدة : كنا مخيمين على مرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية تسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل في قيد الاسار، وسنذكر خروجه في الغزاة في السنة الآتية إن شاء الله.

وفي هذه السنة أبطل صلاح الدين الذي كان يؤخذ من الحج بجده مما يحمل في البحر، وعوض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف اردب قمحا تحمل إليه في البحر ويحمل مثلها فتفرق في أهل الحرمين.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن صاحب المرآة ذكر أن في هذه السنة كانت نوبة الكنز مقدم

السودان بالصعيد، جمع كل أسود بالصعيد، وسار إلى القاهرة في مائة ألف ليعيد الدولة المصرية، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وأبو الهيجاء الهكاري، وعز الدين موسك، والتقوا فقتل الكنز ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ماذكره في المرآة أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبك، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بها، فخرج وكمن لهم في الشعاري والغياض وأوقع بهم وقتل وأسر نحو مائتي رجل.

ومنها أن الروم قصدت بلاد قليج أرسلان بن مسعود في جمع من الحشود فالتقاهم وكسرهم وقتل منهم جماعة وأسر أسرى كثيرين، وبعث برؤوس القتلى وببعض الأسرى إلى الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

ومنها أنه عصى شهاب الدين محمد بن نزار صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان في طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متولي مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن نزار عداوة فأرسل إليه وزير سيف الدين كتابا حسناً يأمره بالعود إلى الطاعة، والرجوع عن المخالفة والمعصية، فلما وصل الكتاب إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل فأوجب ماجرى من ابن نزار.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضاة الشهرزوري: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله ابن أبي أحمد الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، قاضي القضاة بدمشق، وكان فاضلا ديناً أمينا ثقة ورعاً، ولي القضاء بدمشق لنور الدين محمود بن زنكي، واستوزره أيضاً فيما حكاه ابن الساعي، قال: وكان يبعثه في الرسائل، كتب مرة على أعلى القصة: محمد بن عبد

الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك: صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب، وعمر له المارستان والمدارس وغير ذلك من الأمور.

وقال ابن خلكان: وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل، وتوفي يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وقال: ولما ملك صلاح الدين الشام أقره على ماكان عليه في أيام نور الدين، وكان شهماً جسوراً كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وبنى بالموصل مدرسة للشافعية ورباطاً بمدينة الرسول عليه السلام، وتولى القضاء بالموصل أيضاً وله نظم جيد، فمن ذلك قوله:

ولقد أتيتك والنجوم رواصد
والفجر وهم في ضمير المشرق
وركبت من أهوال كل عظيمة
شوقاً إليك لعلنا أن نلتقي

وفي المرآة: قدم بغداد وتفقه على أسعد الميهني بالنظامية، وسمع الحديث ببغداد والموصل، وكان رئيس أهل بيته، وولي القضاء بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين وكان إليه أمر المدارس والمساجد والاوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنكية دمشق إليه، ولى فيها بعض غلمانه، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين، وكانت بينهما مضاغنة، وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها، فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين، وطيب قلبه، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أول من سكن جبل قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها، فاشترى كمال

الـديـن قـريـة الهامـة بـسـوادي بـردى، ووقـف نصفهـا على الشيـخ أحمد والمقادسـة والنصف الآخـر على الاسارى، وهي بـاقية إلى هلـم جرا، ولما مرض كمال الديـن وهو بدمشق بلغ ابن أبي عصرون، وهـو بحلب، فقدم دمشق ودخل على القـاضي كما الدين وعانقه وبكيا، فلما تـوفي كمال الدين تـولى ابن أبي عصرون أمـره، وخـرج في جنازتـه ماشيـاً هـو وجميع الملـوك مشاه: سيـف الاسلام، وتقي الديـن عمر، وشمس الدولـة وغيرهـم وصلى عليه بجامع دمشـق وحمل إلى قاسيون فدفن بسفحه قـريبا من الجادة عند مسجد البصار، ولم يكـن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنـده ابن أخيه ضياء الديـن أبو الفضائل، وكان كمال الـدين قد تصدق بجميـع ماكان عنده، وأوصى بمالـه ووقف أوقافا كثيرة على أبواب البر، وقيـل إنه لم يكن له كفن فكفن في احرامه، وأوصى بالقضـاء إلى ابن أخيه ضياء الدين مع وجود ولده، وكان لكمال الدين ولد اسمـه محمد بن عبد الله، ولقبه محيي الـدين، وكـان أبـوه ضياء الـدين قـاضيـا على حلب، وهـو تـاج الديـن الشهرزوري.

وفي تاريخ الدولتين: ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلـت هـذه السنـة والخليفـة هو المستضيء بـأمـر اللـه العبـاسي، والسلطان صلاح الديـن مخيم بمرج فاقوس ثم عـاد إلى القاهرة وأقام بها، ثـم قصد أنه يسير الى غزة وعسقلان.

ذكر غز وصلاح الدين عسقلان والرملة:

وفي جمادى الأولى سار السلطـان صلاح الـدين مـن مصر إلى ساحـل الشام لغزو الافرنـج، فوصل الى عسقلان والرملة في الـرابع والعشرين من الشهـر فنهـب، وتفـرق عسكـره في الاغـارة، وبقـي السلطـان في بعـض

العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليهم، فقاتلهم، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد حسن الصورة لما بدت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الافرنج، فحمل عليهم وقاتلهم وأثر فيهم أثراً كبيراً، فعاد سالماً، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج للسلطان، فمضى منهزما الى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للاغارة أسرى، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الاخر كما ذكرنا، فحزن على المقتول والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب وناح كما ناح داود، وكذلك أسر الفقيهان الاخوان: ضياء الدين عيسى وظهير الدين، وكانا من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين فافتداها السلطان بعد سنتين بسبعين ألف دينار، ووصل السلطان الى القاهرة في نصف جمادى الآخرة.

وفي المرآة: خرج صلاح الدين في جمادى الاخرة من مصر بالعساكر، ونزل على عسقلان، ثم نزل يريدتل الصافية، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج، فثبت تقي الدين عمر وقاتل ثم غلب، وقتل من المسلمين خلق كثير وانهزمت عساكر الاسلام، وأسر كثير منهم الفقيه عيسى وغيره، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد، وسار صلاح الدين في الليل إلى مصر من غير دليل ولاماء ولازاد، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة وكاد يتلف جوعاً وعطشاً، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله، وكان مقدم الفرنج أرناط، وكان من أكبر ملوك الافرنج، وماأتلف عسكر المسلمين الا انهم كانوا تفرقوا في الغارات، وكانوا زيادة على عشرين ألفاً، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين، ولم يكن لهم

حصن يأوون إليـه، فدخلوا الرمـل وتبعهم الفرنج قتـلا وأسرا، ومن سلـم منهم مات جـوعاً وعطشاً، وكان يومـاً عظيماً على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين، ورجع أرناط بجمعه إلى حماه كما نذكره ان شاء الله الآن.

وقال ابن الأثير: كتب صـلاح الدين بخط يده إلى أخيه تـورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله:

ذكـــرتـــك والخطـــي يخطـــر بيننـــا
وقـــد نهلـــت منـــا المثقفـــة السمـــر

ويقول فيه: لقـد أشرفنا على الهلاك غير مرة ومانجانا الا اللـه سبحانه وتعالى منه، إلا لأمر يريد سبحانه[١٩]

ذكر حصر الفرنج حماه: وذلك أنـه وصـل من الفـرنج كنـد كبير في البحر، فرآى صلاح الـدين وقد عاد منهزماً إلى مصر فـاغتنم خلو البلاد، وليس بها إلا شمـس الدين تورانشـاه بن أيـوب نائبـا عن أخيـه، وليس عنده كثير من العسكر، فجمـع الكند من بالشام من الفـرنج، وفرق فيهم الأمـوال، وسـار الى مـدينـة حماة وبها شهاب الـديـن محمـود بـن تكـش الحارمي خال صـلاح الدين، وهو يومئـذ مصاب بمرض شديـد، وكانت طائفة من العسكر الصلاحي بالقـرب منها، فدخلوا إليها وأغاثوا من بها، وقاتلوا الفرنـج قتالا شديداً، ودخل الفرنج البلد، فـاجتمع العسكر وأهل البلد وقـاتلوهم حتى أزاحـوهم منها وأخرجـوهـم إلى ظاهرهـا، فساروا الى حارم، واتفقـت وفاة شهـاب الديـن الحارمي على مـانذكـره إن شاء اللـه تعالى.

قال العماد: ومن شرط هـدنة الفرنج أنـه متى جاء ملك مـن ملوكهم كبير لايمكنهـم دفعه، فـإنهم يقـاتلون معـه ويـؤازرونـه وينصرونه، فـإذا انصرف عنهم عـادت الهدنة كما كانت، فقصـد هذا الملك وجملة الفـرنج معه مدينة حماة وصاحبها شهاب الديـن مريض، ونائب دمشق ومن معه

من الامـراء مشغولون بلـذاتهم فكادوا يأخذون البلـد، ولكن هزمهـم الله تعالى بعد أربعـة أيام، فانصرفوا إلى حصـن حارم فلم يتمكنوا مـن أخذه وكشفهم عنه الملك الصالح صاحـب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ماطلبه الكفرة النصارى.

وقال العماد أيضـاً: ووصل في هذه السنة إلى السـاحل من البحـر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طـواغيت الكفر، قلت: هذا هو الـذي ذكرناه الآن، الذي جرى منه ماجرى.

ذكر توجه صلاح الدين الى الشام:

لما سمع السلطـان بنزول الفـرنج على حـارم برز مـن الديـار المصرية قـاصـداً إلى بلاد الشـام لغـزو الفـرنـج، ونـزل في البركة حتـى خـرجـت العساكر، ورحـل من البركة يوم عيـد الفطر بعساكره، ووصـل إلى أيلة في عـاشر الشهـر، واستنـاب أخـاه بمصر الملـك العـادل، وأقـام بها أيضـاً القـاضي الفاضـل بنيـة الحج، وسافـر العماد معـه، ووصل السلطـان إلى دمشق في الـرابع والعشرين مـن شوال وبها أخـوه شمس الدولـة مشغولا بلذاتـه ولهوه، وكان قد بعـث إلى الفرنـج بمال مصانعة، فعـز على صلاح الديـن ولامه وقبـح فعله، وقـال: أنت مشغـول باللعـب وتضييع أمـوال المسلمين، وأقام صلاح الدين بدمشق.

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كمشتكين مدبر دولته:

قـال العماد: وقعت المنـافسـة بين الحلبيين مدبـري الملـك الصالـح ، واستولى على أمـره العدل ابـن العجمي أبـو صالـح، وكان سعـد الديـن كمشتكين الخادم مقـدم العسكـر وأمير المعشر، وهـو صـاحـب حصـن حـارم، وقد حسـده أمثالـه مـن الأمراء والخدام فسلمـوا لابن العجمـي

الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر فتكلم فيه حساده، وقالوا للملك الصالح: ماقتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فما زالوا عليه حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارم، فكتب إلى نوابه بها وأبوا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة وخوفوه بالصرعة، فلما طال أمره قصر عمره.

ونزل عليه الأفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولى بها مملوكاً يقال له سرخك.

وقال ابن الأثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين، فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعلقوه منكوساً ودخن تحت أنفه، فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم إنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شداد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الأفرنجية، ولما رأى أهل القلعة حصرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من رمضان، ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثم عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على الاختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أنه اجتمعت طائفة من الافرنج وقصدوا أعمال حمص، فقتلوا

وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه إليهم وسبقهم ووقف على طريقهم مكمنا لهم، فلما وصلوا خرج عليهم هو والكمين، ووضع السيف فيهم، فقتل أكثرهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا مثخنا بالجراح واسترجع منهم جميع ما أخذوه، ورده على أصحابه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان من خيار الامراء وشجعانهم، وقد أقطعه ابن أخته حماه حين فتحها، وقد حاصره الفرنج هناك وهو مريض، وكادوا يأخذون البلد ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام كما ذكرنا، فانصرفوا خائبين، وتوفي شهاب المذكور بعد ذلك في هذه السنة، وأعطى صلاح الدين حماه لناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب صهيون، وقيل إنما أعطاها لتقي الدين عمر، وكان ناصر الدين نائباً عنه والله أعلم.

كمشتكين الخادم، خادم نور الدين محمود بن زنكي، وكان من أكابر خدامه ولاه قلعة الموصل نيابه عنه، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، وأقطعه الملك الصالح حارم، وأقام بها وعصى عليه، فلما حصره الفرنج صالحه كما ذكرناه، ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين بالشام، وجاءه كتاب من القاضي الفاضل وهو بالديار المصرية يهنيه بولود مولود له وهو أبو سليمان داود، وهو موف لاثني عشر ولداً، وقد ولد بعده عدة ذكور أيضاً، فإنه توفي عن سبعة عشر ولداً

ذكراً، وابنـة صغيرة وهي مـؤنسة خـاتون التـي تزوجهـا ابن عمهـا الملك الكامل محمد بـن الملك العادل كما سيأتي بيانه إن شـاء الله تعالى، وذكر هذا في تاريخ الدولتين في السنة الماضية، نقلا عن العماد الكاتب.

وفي رمضـان وصلت الخلـع السنيـة مـن الخليفة إلى السلطـان صـلاح الدين، وهو بدمشق، وزيد في ألقابه: معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيـه تورانشاه ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة أسقـط صلاح الدين المكـوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهـم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، وربما فاتـه الوقـوف بعرفه، وعـوض السلطان أميرهـا بمال يحمل إليـه من مصر وبغـلال في كل سنـة ثمانية آلاف اردب ليكـون عونـاً له ولاتبـاعه، وقـرر أيضاً قدر ذلك للمجاورين يحمل إليهم في كل سنة.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله:

وفيها عصى شمس الدين بن المقـدم ببعلبك، وكان صلاح الدين قد أعطاه إيـاها، وقدم صلاح الـدين إلى دمشق فأرسـل يطلبه فاعتذر خـوفاً من شمـس الدولة لأنه طلـب منه بعلبك فـامتنع، فخرج صلاح الـدين من دمشـق ونزل على بعلبك، وأقـام سبعة أشهـر يحاصرها فنفد مـاعنده، فأرسل إلى السلطـان يطلب العوض، فأعطـاه بارين وكفر طـاب، وخرج شمـس الديـن بن المقـدم إليها، وسلـم صـلاح الديـن بعلبك إلى أخيـه شمس الدولة.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين نازلاً على ظاهر حمص ولم يجيء إلى خدمته ابن المقـدم المذكور لانه بلغه أن أخاه تورانشـاه طلب بعلبك منه فأطلقها له، فامتنع ابن المقـدم من الخروج إليه لذلك، وجاء السلطان إلى دمشـق ثـم حضر إلى بعلبـك بنفسه فحصره فيهـا مـن غير قتـال حتـى

جاءت الامطار والثلوج والبرد، فعاد إلى دمشق في رجب ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال، ثم حصل التعويض، فخرج كما ذكرنا.

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الافرنج:

وفي هذه السنة جهز صلاح الدين المذكور بين يديه لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين، وعاثوا في نواحي دمشق وقراها بالفساد، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ولايقاتلهم حتى يقدم عليه، فلما التقوا عاجلوه بالقتال فكسرهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وهو الكنفري، وكان من أكابر ملوكهم، وركب صلاح الدين رحمه الله في أثر ابن أخيه، فما وصل الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى.

وفي المرآة: بلغ صلاح الدين أن الكنفري يريد أن يغير على دمشق، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق، وقال له يقيم عند مرج عيون، فإن جاءوا فأرسل كتب الطيور إليّ ولاتواقعهم حتى آتيك، فسار ونزل مرج عيون، فلم يشعر الا بطلائع الكنفري قد خالطته، ووقع القتال فلم يقدر فرخشاه على اعلام صلاح الدين فقاتلهم بنفسه، وجرح الكنفري جراحة موثقة فأخذوه وانهزموا، وغنمهم فرخشاه، ومات الكن[illegible]ي بعد أيام، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب، وبعث السرايا والغارات إلى بلد الافرنج.

ذكر بناء الافرنج قلعة عند بيت الاحزان:

وفي هذه السنة بنت الفرنج لعنهم الله قلعة عند بيت الاحزان للداوية، فجعلوه مرصاداً لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم، ونقضت ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا

على نواحي البلدان من كل جانب ليشغلوا المسلمين عنهم، وتتفرق جيوشهم فلا تجتمع في بقعة واحدة، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر بثغر حماه، ومعه شمس الدين ابن المقدم، وسيف الدين علي ابن أحمد المشطوب، وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، وبعث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهو الملك العادل نائب مصر، يأمره أن يرسل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الافرنج، وكتب إلى الافرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن الذي بنوه للداوية فامتنعوا الا ان يبذل لهم ماغرموه عليه، فبذل لهم ستين ألف دينار، فلم يقبلوا، فوصلهم إلى مائة ألف دينار، فأبوا، فقال له ابن أخيه تقي الدين عمر: ابذل هذه في أجناد المسلمين، وسر إلى هذا الحصن، ففعل ذلك.

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة:

كان السلطان صلاح الدين نازلا بجيشه على تل القاضي ببانياس، ثم قصده الافرنج بقضهم وقضيضهم، فنهض إليهم فالتقاهم، فماهو الا ان تواجه الفريقان حتى أنزل الله تعالى نصره، فانهزمت الافرنج، وقتل منهم خلق كثير، وأسر منهم جماعة من ملوكهم منهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب الرملة، وصاحب طبرية، وقسطلان يافا وآخرون من ملوكهم، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ومن فرسان القدس جماعة كثيرون، تقريباً من ثلاثمائة أسير من فرسان النصارى.

وفي تاريخ بيبرس: وكان فيمن أسر بادين بن بارزان، وأود بن القومصية، وأخو صاحب جبيل، فحملوا إلى قلعة دمشق فاعتقلوا بها، فأما بن بارزان فاستفك نفسه بجملة عظيمة، وبألف أسير، واستفك ابن القومصية أيضاً، ومات أود في السجن.

وقـال العماد الكاتـب: لما أسر هؤلاء استعـرضهـم السلطان في الليـل حتـى أضـاء الفجـر، وصلى يـومئـذ الصبح بـوضـوء العشـاء، وقـد كـان السلطان ليلتئذ جالساً في نحو العشرين، وهم في هذه العدة، فسلمه الله منهـم، ثـم أرسلهـم إلى دمشـق ليعتقلـوا بقلعتهـا، فـافتـدى ابـن بـازان صـاحب الـرملـة نفسـه بعد سنـة بمائة ألـف دينـار وخمسين ألف دينـار صورية واطـلاق ألف أسير من بلاده، وكذا افتدى جماعـة منهم أنفسهـم بأموال جـزيلة وتحف جليلة، ومنهم مـن مات في السجن فانتقـل منه إلى سجين.

واتفق أنـه في اليوم الذي ظفـر فيه السلطـان على الفرنج بمـرج عيون هذا ظهـر الاسطول على بطسة لـلافرنـج في البحر وأخرى معهـا، فغنموا منها ألف أسير من السبي، وعاد إلى الساحـل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هـذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بـذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فـرحاً، وسروراً، وقد كان الملك المظفر تقـي الدين عمر غائباً عن هـذه الوقعة مشتغلاً بما هو أعجب منهـا، وذلك أن ملك الروم قليـج أرسلان بعـث يطلب حصـن رعبان، وزعـم أن نور الـدين محمـود اغتصبه منـه، وأن ولده قد أغضى لـه عنه، فلم يجبه إلى ذلـك السلطان، فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقـاتل يحصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فـالتقوا بهم فهـزموهـم باذن اللـه، فاستقـرت يد الملـك الناصر صـلاح الديـن على حصن رعبـان، وقد كان قـديما مما عوض بـه ابن المقـدم عن بعلبك، وكـان تقي الـدين عمر يفتخـر بهذه الوقعة، ويـرى أنه قـد هزم عشرين ألفاً، وقيـل ثلاثين ألفاً بثمانمائة، وكان السبب في ذلـك أنه بيتهم وأغار عليهم وهـم غارون، فما لبثوا أمامـه بل فروا منهزمين عـن آخرهم، فأكثر فيهم القتل واستحوذ على جميع ماتركوه في خيامهم.

ثم ركب صلاح الدين في جحافله إلى الحصـن الذي كانت الفرنج قد

بنوه في سنة أربع، وسبعين وخمسمائة وحفروا فيه بئراً وسلموه إلى الداوية، فقصده السلطان فحاصره ونقبه من جميع جهاته، وألقى فيه النيران فجعله دكاً وخربه إلى الأساس، وغنم مافيه من الحواصل، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكل كل شيء، وأخذ منه سبعمائة أسير، فقتل بعضاً وأرسل إلى دمشق الباقين، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً، غير أنه مات من أمرائه عشرة بسبب مانالهم من الحر والوباء في مدة الحصار، وكانت أربعة وعشرين يوماً، وعاد الناس إلى زيارة مشهد يعقوب عليه السلام على العادة القديمة، وكان الحصن المذكور الذي بناه الافرنج قريبا من صفد، وكان عرض سوره عشرة أذرع، وارتفاعه أربعون ذراعاً، وكان بيت الاحزان الذي يزعمون ان يعقوب عليه السلام كان ينفرد فيه ويبكي على يوسف، عليه كنيسة، فجعله السلطان مسجداً، وقد امتدحه الشعراء، فقال بعضهم وهو أحمد بن نقاده الدمشقي:

هلاك الفرنج أتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها
لما عمرت بيت أحزانها

ذكر الأمور المزعجة:

منها كان غلاء شديد بسبب قلة المطر وعمّ العراق والشام وديار مصر واستمر إلى سنة خمس وسبعين، فجاء المطر ورخصت الاسعار، ولكن تعقب ذلك وباء شديد وعم البلاد مرض واحد وهو البرسام، فما ارتفع إلا في سنة ست وسبعين، فمات في ذلك الوباء خلق كثير وأمم لايعلم عددهم الا الله عز وجل.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم متوكلين على الله لأنهم كانوا عدة قليلة، وصدقوا القتال فنصرهم الله، وانهزمت الافرنج وكثر القتل والاسر واستردوا منهم ماغنموا، ووصل صلاح الدين إلى حماه، فأمر باحضار الاسارى وقتلهم، فأحضروا وقتلوا.

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين، ويعرف بابن المجاور معلماً، وتسلم فرخشاه بعلبك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والسبعين بعد الخمسمائة:

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله:

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل إلى رعبان منجداً لنور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان بن مسعود ملك الروم، وسبب ذلك أن نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان، ثم أحب مغنية وتركها نسياً منسياً، فشكت حالها إلى أبيها، فعزم على قصد بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستنجده ويسأله كف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان في ذلك، فأعاد الجواب: إنني كنت عند تزويجه ابنتي دفعت إليه عدة حصون، ولابد من اعادتها إليّ، وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج فسار في عساكره نحو بلاد قليج أرسلان وهي: ملطية، وسيواس، وقونية، ومابينها، فلماسمع قليج أرسلان بقربه منه أرسل إليه بعض أمرائه، وذكر له بعض الحديث الذي جرى منه، فقال صلاح

الـدين للرسـول: قـل لصاحبـك لئـن لم تـرجع عـن بـلاده لاسيرن إلى ملطية ، ولاأنزل عن فـرسي الا في الباب، وكان الرسول قد عـاين جيشاً عظيما، وكـان عاقـلاً أريباً، فقـال لصلاح الـدين: أريـد أقول للسلطـان كلاماً لم يرسلنـي به استاذي؟ فقال له: تعطيني الأمـان؟ فقال: قل وأنت آمن، فقـال: يامـولانا أما هـو قبيح بمثلك وأنـت أعظم السـلاطين قدراً وأكبرهم شأنا ان يسمع الناس عنك أنـك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصـالـح المملكـة، وأعرضـت عـن كـل مـافيـه صلاح لـك ولـرعيتـك وللمسلمين عامة، وخسرت أنـت وعسكرك الأموال العظيمة لأجـل قحبة مغنية، مـايكون عذرك عنـد الله تعالى، ثـم عند الخليفة وملـوك الاسلام، وكافة العالم، وهـب أن أحداً مايواجهك بهذا، أما يعلمـون ان الامر كذا، ثم احسب أن قليـج أرسلان مات وهذه ابنته قـد ارسلتني إليك تستجير بك وتسألك أن تنصفها من زوجهـا، فإن فعلت فهو الظن، وإن لم يكن أفيحسن بك أن تـردها، فقال صلاح الديـن: الحق ببلدك وإن الامر لكما تقول، ولكـن هذا الرجل دخـل علي واستجار بي، ويقبح بي تركـه، ولكن اجتمع بـه وأصلح الحال بينكـم على ماتحبون وأعينكـم عليه، ووعـد من نفسه بكـل جميل، واجتمـع الرسـول بنور الـدين بـن قرا أرسـلان، وترددا القـول بينهم فـاستقـر له أن يخرج المغنيـة بعـد سنـة، وإن لم يفعل ينـزل صـلاح الديـن عـن نصرته ويكـون هو وقليـج أرسـلان عليه، ولما تقـرر الحال على ذلك قصـد صلاح الدين بـلاد ابن لاون، وذلك أنه كـان قد استمال قوماً مـن التركمان وبذل لهم الامان وأمرهم أن يرعـوا مواشيهم في بـلاده، وهـي بـلاد حصينـة منيعـة كثيرة الـوعـر، ثـم غـدر بهم، وسبـى حريمهـم وأخذ أمـوالهم، وأسر رجالهم وقتـل منهم جماعـة، فنزل صـلاح الدين على النهر الأسود، وبـث الغارات على بلاده، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبـل أن يؤخذ، فخربـه وأحرقه، وهو يسمـى حصن المناقير، وسمـع صلاح الـدين بذلـك فأسرع السير فـأدركه قبـل أن ينقل مافيه من ذخـائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بها غنموه، فـأطلق ابن

لاون من عنـده من أسرى التركهان، وأعاد السبـي والأموال، وعـاد صلاح الدين، وتوجـه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازي، والملـك العزيز ولداه واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أخيه.

ومنها أنـه في رجب قـدمت رسـل الخليفة النـاصر لديـن الله ومعهـم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق، وزينت له البلاد، وكان يوماً مشهوداً.

وفي المرآة: وفيهـا وصـل شيـخ الشيـوخ وصحبتـه رسـول الخليفـة إلى الملـك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بـن أيوب، ومعهما خلـع وهدايـا، فلبس السلطان الخلع بدمشق وزينت له المدينة، وكان يوما مشهوداً.

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الـديار المصرية لينظر في أحوالها وأمورها ويصوم بها رمضـان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلـك إلى بيت الله الحرام، واستناب على الشـام ابن أخيـه عز الديـن فرخشـاه بن شـاهنشاه ابن أيوب، وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمـن ومكه يعلمهم بعـزم السلطان على الحج في هـذا العام إلى المسجـد الحرام ليتأهبـوا للملك ويهتمـوا به، واستصحـب السلطان معـه صدر الدين أبـا القاسم عبد الرحيم بن شيخ الشيـوخ ببغداد، الذي قدم في الرسـالة مـن جهة الخليفة ليكـون في خدمتـه الى الديـار المصرية، وفي صحبته الى الحجاز الشريف، فدخـل السلطان مصر وتلقاه الجيش، وكان يومـا مشهوداً، وأما صدر الـدين فانـه لم يقم بها الا قليلا حتى تـوجه الى الحجاز الشريـف في البحر، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام.

وفي المرآة: وإنما ركب شيـخ الشيوخ البحر من مصر ومضـى الى مكة لنذر كان عليه، وأقام إلى أيام الموسم وحج وعاد الى بغداد.

-١١٢٣٢-

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

غـازي بن قطـب الـدين مـودود بـن عماد الديـن زنكـي بن أقسنقـر، صاحـب الموصل، تقلـد المملكة بعد وفـاة أبيه مـودود، وهو والـد سنجر شـاه صـاحب جـزيـرة ابـن عمـر، وأقام في الملـك عشر سنين وشهـوراً، وأصابـه مرض مـزمن، وتـوفي يوم الاحـد ثالـث صفر سنـة ست وسبعين وخمسمائة، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود.

وقال ابـن كثير: وكان سيف الـدين غازي شـاباً حسنا مليـح الشكل، تام القـامة مدور اللحية، مكـث في الملك عشر سنين ومات عـن ثلاثين سنة وكـان عفيفا في نفسه مهيبـاً وقورا لايلتفت إذا ركـب ولا إذا جلس، غيورا لايدع احدا من الخدم يدخـل على النساء، وكان لايقدم على سفك الدماء، وينسب الى شيء من البخل.

فأجلـس مكانـه في المملكة أخـوه عز الـدين مسعـود، وجعل مجاهـد الـدين قيماز نـائبه ومـدبر مملكتـه، وجـاءت رسل الخليفـة يلتمسون مـن صـلاح أن يبقي سروج والـرها والـرقة وحـران والخابور ونصيبين بيـده كما كانـت في يد أخيـه، فامتنـع السلطان مـن ذلك، وقـال: هذه البـلاد هي حفـظ ثغـور الاسلام، وإنما كنـت تـركتهـا في يـده ليسـاعدنـا على غـزو الافرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك.

وفي تاريـخ بيبرس: وكان مرض غـازي السل، وأراد أن يعهد بـالملك إلى ابنه الأكبر معـز الديـن سنجر شاه، وكـان عمره حينئـذ اثنتي عشرة سنة، فخاف مـن صلاح الدين يـوسف بن أيوب، ولم يجبـه أخوه مسعود إلى ذلك، فـأشار عليه أكـابر دولته بـأن يجعل الملـك في أخيه عز الـدين مسعود، وأن يجعل لولديه بعض البـلاد، وأن يكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما، والمتولي لأمـرهما مجاهد الدين قيماز، ففعـل ذلك، وأعطى جـزيرة

ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، وقلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين، وكان مجاهد الدين قيماز الحاكم في الجميع.

وقال ابن الأثير: كان قد علق به سل، وطالت علته وأجدبت البلاد قبل موته، وخرج الناس يستسقون، وخرج سيف الدين معهم فاستغاث إليه الناس، وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطي والمظالم بيننا، فقال: قد أبطلتها، ورجعوا الى البلد وفيهم رجل صالح يقال له أبو الفرج الدقاق، فأهرق الخمور لاغير، ونهب العوام دكاكين الخمارين، فاستدعى الدقاق إلى القلعة وقال له: أنت جرأت العوام على السلطان وضرب على رأسه، فانكشف رأسه وأطلق بعد قليل: ونزل مكشوف الرأس، فقيل له غط رأسك، فقال: والله لاغطيته حتى ينتقم لي ممن ظلمني، فمات الدزدار والذي ضربه بعد قليل، ومرض سيف الدين وتوفي.

ذكر حكايته مع الشيخ أبي أحمد الحداد الزاهد:

كان أبو أحمد قد انقطع في قرية من بلد الموصل يقال لها الفضلية ومنها أصله، وهي على فراسخ من الموصل، قال السبط: حدثني أبو بكر القديمي واسماعيل الشعار، وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد، قالا: كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد، فقال له يوما: ياسيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات، وتمكس المسلمين، فإن كنت تدع هذا وإلا فلا تجيء إلى عندي، فقال: ياسيدي انا تائب إلى الله من جميع ماقلت وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه.

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيىء من دمشق، قال: فبينما نحن عنده يوما إذا بسيف الدين قد أقبل وصعد على الدرج، فقال: يا أبا بكر أغلق الباب في وجهه وقل له: عندي شغل وادفعه إلى أسفل الدرج، قال أبو بكر القديمي: فخرجت فاستحييت منه، فقال

لي سيف الدين: ياشيخ افعل بي مـا أمرك الشيخ، وأدار ظهره اليّ، فدفعت في ظهره حتى أنزلتـه إلى أسفل الدرج فقعد يبكي وصاح الجنـد بأسرهم، فأشار إليهم أن اسكتوا، ثم قال لي: يـاشيخ اصعد الى الشيخ وقل له: فما لي توبـة؟ قال: فصعدت إليـه وأخبرته، فقال: قـل له يجوز قد أذنـت له، قال: فخرجـت وقلت له: بسم اللـه، فدخل على الشيخ فبكـى وقبل يده وتاب إلى الله تعالى، وعاد إلى الموصل، وأقـام مدة يسيرة ومات يوم الاحد ثالث صفر، ولم يبلغ ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً.

وأراد أن يعهد إلى ابنـه سنجرشاه فـامتنع أخوه عـز الدين مسعـود من ذلك، وقـال له مجاهـد الدين قيماز وأكـابر الأمـراء: قد علمـت استيلاء صلاح الديـن على البلاد وقربه منـا، وسنجرشاه صبي لارأي لـه، وأخوك عز الـدين كبير السن صـاحب رأي وشجاعة فـاعهد إليه واجعلـه وصياً على أولادك ففعـل، وكانـت الرعيـة قـد خافـت مـن عز الـدين مسعـود لاقدامه على سفـك الدماء وحدته، فلما ولي تغيرت اخلاقـه، فصار رفيقاً بالرعية قريباً منهم محسناً إليهم، ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حـدود الروم فـأرسـل إليه مجاهـد الـدين قيماز الفقيـه أبـا شجاع بـن الدهان البغـدادي، فطلب منه أن يكون مـع عز الدين كما كـان مع أخيه سيف الدين ويبقي عليـه الجزيرة ومابيده من حران والرها والـرقة وخابور ونصيبين وقاطـع الفرات، فقال صـلاح الدين: أما مـاخلف له مـن بلاد الموصل فهو باق على حاله، وأما ماذكـره من بلاد الجزيرة فإنها كانت بيده بشفاعـة الخليفة على شرط أن يقوي ثغـور المسلمين بالمال والعساكـر، أما الآن فالخليفة قد فوض أمرها إليّ، لا أفعل الا مأراه من المصلحة.

-١١٢٣٥-

الملك المعظم تورانشاه:

مات في هذه السنة.

قال ابن كثير: السلطان الأكبر، الملك المعظم شمس الدين تو رانشاه ابن أيوب، الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فمكث فيها حيناً، واقتنى منها أموالاً جزيلة ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه، وكان قدومه إليه في سنة احدى وسبعين وخمسمائة كما ذكرنا، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على اسكندرية، فلم توافقه وكان يعتريه القولنج فمات بها في هذه السنة فدفن فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بتربتها التي بالشامية البرانية بدمشق، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، والمؤخر قبرها رحمها الله، والتربة الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وهي إلى جانب المدرسة من غربيها.

وقد كان الملك تورانشاه كريما جواداً ممدحاً شجاعاً باسلا عظيم الهيبة كبير النفس، واسع الصدر، وقال فيه ابن سعدان الحلبي:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيراً فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه

ولاتحمـــل للسحـــائب منـــة
إذا هطلـــت جـــوداسحـــائب جـــدواه
ويـــرســـل كفيـــه بما اشتـــق منهما
فلليمـــــن يمنـــــاه ولليسر يسراه

ولما بلغ خبر موتـه إلى أخيه السلطان صلاح الـدين وهو مخيم بظـاهر حمص، حزن حـزناً شديـداً عليه وجعل ينشـد باب المراثي مـن الحماسة، وكانت محفوظته.

وقال ابن خلكـان: وكانت وفاة تـورانشاه يوم الخميس مستهـل صفر، ويقال خـامس صفر سنة سـت وسبعين وخمسمائة، وتورانشاه بضـم التاء المثناة مـن فوق، وسكـون الواو، وبعدهـا راء مهملة ثـم بعد الألـف نون ساكنـة وبعدهـا شين معجمة وألـف ساكنـة وهاء، ومعنـاه ملك الشرق، وشـاه لفـظ أعجمـي ومعنـاه الملك، وتـوران اسـم بـلاد الترك، والعجـم يسمون الترك تركمان، ثم حـرفوه فقالوا: توران، وقد علـم أن المضاف إليه يقدم على المضاف في لغتهم، فافهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة والخليفة هو الناصر لدين اللـه، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن الملـك الصالح بـن نور الـدين محمود مـات في هذه السنة.

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الملك الصالح اسماعيل بن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وماوالاها، وكان أبوه نور الدين رحمه الله قد عهد بالملك له، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، وكان مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب.

الثاني: في سيرته.

قال ابن خلكان: كان محسناً محمود السيرة.

وقال النويري: وكان من أعف الملوك، ومن يشابه أباه فما ظلم، وصف له الاطباء في مرضه شرب الخمر، فاستفتى بعض الفقهاء في شربها تداويا فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال: لا، قال: فوالله لاأشربها وألقى الله وقد شربت ماحرمه علي.

وفي تاريخ بيبرس: أفتاه بذلك فقيه من مدرسي الحنفية، فقال: أرأيت إن قدر الله قرب الاجل، أيؤخره شرب الخمر، فقال الفقيه: لا، فقال له ماذكرنا.

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد به المرض وضعف، وصف له الاطباء قليل خمر، فقال: لاأفعل حتى أسأل الشافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل.

وقال السبط: أخطأ الكاساني فإن الخمر لايباح عند أبي حنيفة رضي الله عنه وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا إن الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها.

وفي تاريخ المؤيد: وكان عفيف اليد والفرج واللسان ملازماً لامور الدين، لايعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب.

الثالث: في وفاته.

وقال ابن خلكان: وتوفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ودفن في المقام الذي بالقلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك.

وفي المرآة: وكان مرضه القولنج بدأ به في تاسع رجب

وقال المؤيد في تاريخه: في رجب توفي الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر، فمات ولم يستعمله.

وفي تاريخ ابن كثير: وكانت وفاته بقلعة حلب ودفن بها، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنب في الصيد، وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، وقيل في خشكنانكة، فاعتراه قولنج، فمازال كذلك حتى مات وهو شاب حسن الصورةبهي المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، ولما يئس من نفسه استدعى الامراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلايمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، فجاء إليهم، فدخل حلب في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلك في العشرين من شعبان من هذه السنة، فتسلم خزائنها وحواصلها ومافيها من السلاح،

وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج فهرب إلى حماة فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي، وقال: بيننا وبينه أيمان وعهود، وأنا لاأغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وتزوج بأم الملك الصالح في شوال ثم سار إلى الرقة فنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه ثم رضي على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج وغير ذلك من البلاد، وعاد عز الدين مسعود إلى حلب، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الامور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى الفرات.

وفي تاريخ بيبرس: تسلم عماد الدين صاحب سنجار حلب عوضاً عن سنجار، وذلك أنه لما رحل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه، عماد الدين يطلب أن تسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار فلم يجبه إلى ذلك فقال: إن لم تسلموا إليّ حلب، وإلا سلمت أنا بسنجار إلى صلاح الدين، فأشار الامراء على عز الدين بتسليم حلب إليه، فاستقر الأمر على تسليمها إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضا عنها، وبلغ ذلك صلاح الدين فخاف على دمشق، وبرز من مصر وسار إلى الشام في محرم السنة الآتية على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر بقية ماجريات صلاح الدين:

منها: أنه لما استهلت هذه السنة كان صلاح الدين مقيماً بالقاهرة مواظباً على سماع الاحاديث، جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه يهنيه بما منّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وبأن

الشام مخصب بإذن الله جبراً من الله تعالى لما كان أصابهم في العام الماضي من الجدب والغلاء.

ومنها: أنه في شوال منها توجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، وخيم بظاهرها عند عمود السواري، فشاهد ماأمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها وقصورها، وسمع موطأ الامام مالك رحمه الله على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطرطوشي، وسمع ذلك معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة يهنيه بهذا السماع.

ومنها أنه ولد لصلاح الدين ولدان وهما الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد، وكان بين ميلادهما سبعة أيام، ، فزينت البلاد، واستمر الفرح والسرور.

وفي تاريخ الدولتين: الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، وهو لأم الاشرف، والملك المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنة التي أخرب العدو من التتار مدينة حلب وغيرها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن الأفرنج غدرت ونقضت عهودها، وقطعت السبل على المسلمين براً وبحراً، سراً وجهراً، فأمكن الله من بطسه عظيمة لهم فيها نحو ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدودين، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط، قبل خروج السلطان صلاح الدين من مصر، فأحيط بها فغرق بعضهم، وحصل في الاسر ألف وسبعمائة منهم.

ومنها أن فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق،

سار إلى أعمال الكرك ونهبها لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لان يسيروا إلى مكة وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى بلدهم ونهبه وخربه، وعاد إلى بلاد الاسلام، وأقام بها ليمنع البرنس من التعرض إلى المسلمين، وأما الذين سيرهم الفرنج إلى الحجاز، فأهلك الله تعالى جميع من سيروا، وقتلوا وأسروا.

ومنها أنه استوت عدة جيش صلاح الدين على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين طواشية وقراغلامية.

ومنها أن صاحب ماردين حصر قلعة البيرة وكانت لشهاب الدين الارتقي، وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، فمات شهاب الدين الارتقي، وملك القلعة بعده ولده، وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما كان في هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين مسعود يستأذنه في حصر البيرة، وأخذها فأذن له فسار فنزل شميشاط وكانت له، وأرسل عسكره إليها فحصرها، فسير صاحبها إلى صلاح الدين يطلب منه أن ينجده، فسير رسولا فشفع فيه فرحل صاحب ماردين عن البيرة.

ومنها أن المسلمين فتحوا الشقيف من الفرنج، وذلك أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم يظفرون منه بفرصة، فخلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فرخشاه الخبر فجمع عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبورية ومايجاورها من القرى، وأسر الرجال، وسبى النساء وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة.

ومنها أن البرنس صاحب الكرك لعنه الله عزم على قصد تيماء من أرض الحجاز ليتوصل منها إلى المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فجهزت له سرية من دمشق تكون حاجزة بين وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده لعنه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام في خامس المحرم من هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بمصر لم يعد إليها بعد ذلك.

وفي تاريخ المؤيد: وفي خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل منهم يقول شيئا في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الفرنج، وغنم ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: وفي خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر، ونزل البركة قاصداً إلى الشام، وخرج أرباب الدولة لوداعه، وأنشد

الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم: تمتع... إلى آخره، وطلب القائل فلم يوجد، فوجم السلطان، ونظر الحاضرون فكان كما قال، اشتغل السلطان بالشرق والافرنج، ولم يعد بعدها إلى مصر، وسار السلطان على أيلة والحسا ووادي موسى، وكان فرخشاه بدمشق، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية، فقصدوه فالتقاهم وكسرهم وقتل منهم ألوفا وأسر وساق عشرين ألفاً من الانعام وغيرها، وفتح حصناً مشرفاً على السواد على شقيف يقال له حصن جلدك، وقتل من فيه وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع وساق إلى بصرى فالتقى السلطان عندها فسربه، ودخلا دمشق في صفر.

وفي تاريخ ابن كثير: أغار صلاح الدين في طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الدين بوري بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو، فالتقوا على الازرق بعد سبعة أيام، ووصل السلطان الى دمشق في حادي عشر صفر منها، وقيل في سابع عشر.

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق:

منها أنه خرج من دمشق في العشر الأول من ربيع الأول، ونزل قرب طبرية، وشن الاغارة على بلاد الافرنج مثل بيسان وجينين والغور، فغنم منها، وقتل جماعة.

وقال ابن كثير: واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، ولكن كانت الدائرة للمسلمين، ثم رجع مؤيدا منصوراً إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق.

وفي تـاريخ بيبرس: وفيهـا سـار صلاح الـديـن من دمشـق إلى بيروت فحاصرها ونهب مـاوجد، وأمر اسطول مصر أن ينزلـوا عليها ويحاصروها، فكان وصولـه لها قبل وصولهم، وكان عازما على حصـارها الى ان يفتحها، وأتاه الخبر بأن بطسـة عظيمة ألقاها البحـر إلى دمياط خرج من فيهـا من الفرنـج للحج الى بيت المقدس، فـأسروا من بها، فكان عـدة الاسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعون أسيراً فضربت بذلك البشائر.

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزريـة ليأخذها، وذلك أن المواصلة والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتى يغزو على أطراف البلاد ليشغلوا السلطان صلاح الـدين بنفسه عنهم، فكـان سيره على بلاد البقاع ثـم إلى حماه، ثم إلى حلـب فحاصرهـا ثـلاثاً، ورأى أن العـدول إلى غيرهـا أولى به، فسـار حتى قطع الفـرات من البيرة، وصار معه مظفـر الدين كوكبري صـاحب حران، وكاتـب ملوك تلك الاطراف، واستمالهم، فـأجابه نور الـدين محمد ابن قـرا أرسلان صاحـب حصن كيفا، وصار معـه ونازل السلطان مـدينة الرها وحاصرهـا وملكها وسلمها الى مظفر الدين كـوك بوري، ثم سار الى الرقة وأخذها من قطب الديـن ينال بن حسـان المنبجي، فسار هو إلى عز الـدين مسعـود صاحـب الموصـل، ثم صـار صـلاح الديـن إلى خابـور، وملكهـا وملك ايضـاً قرقيسيـا ومـاكسين وعربـان، واستولى على الخابـور جميعها، ثـم سار إلى نصيبين وحـاصرها وملـك المدينة، ثـم ملك القلعـة واقطعها أميراً كان معه يقال له أبـو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبهـا مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار، فـأقام عليهـا منجنيقا وأقـاموا عليـه من داخـل المدينة مجانيـق، وضايـق الموصـل، فلما رأى طـول الحصـار رحل عنهـا الى سنجـار وحـاصرهـا وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين، وكان من أكبر الامراء، ثم سار صلاح الـدين إلى حران وعزل عن نصيبين في طريقـه أبا الهيجاء السمين، ثم عاد إلى حلـب، وقد استحوذ على بلاد الجزيرة، وخضعت له

الملـوك هناك، ولما وصـل الى حلـب تسلمها مـن صـاحبهـا عماد الديـن زنكي، وقد كان قـايض أخاه عز الدين مسعـود بها إلى سنجار، كما ذكرنا في العام الماضي، فـاستوسقت الممالـك شرقاً وغربـاً، وبعداً وقربـاً، وتمكن حينئذ من قتال أعـدائه من الفرنج لعنهم الله، وتملكـه حلب وغيرها إنما كان في السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريـخ بيبرس: عبر صلاح الدين الفـرات وملك الديـار الجزرية، وسبب ذلـك أن مظفر الديـن كوكبري ابـن زين الديـن علي بن بكتكين مقطع حـران أرسل الى صـلاح الدين يعلمـه أنه معـه وأنه محب لـدولته، ووعده النصر، وأنـه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفـه أخذ البلاد، فرحـل عن بيروت، ورسل مظفـر الديـن متواتـرة إليه تحثـه على القدوم، فجـد السير يظهر أنـه يريد حصر حلـب، ولما قارب الفرات سـار إليه مظفر الـدين واجتمع بـه فقصد البيرة، وكان صـاحبها مع صـلاح الدين وفي طـاعته، فعبر هووأصحـابه من الجسر الـذي عند البيرة، وكـان عز الديـن مسعود ومجاهد الـدين قايماز لما بلغهما وصول صـلاح الدين إلى الشام قـد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة لئـلا يتعرض صلاح الدين إلى حلـب، ثـم تقـدمـا إلى دارا، فنـزلا عنـدهـا، فجـاءهما أمـر لم يكـن في الحسـاب، فلما بلغهما عبوره الفـرات عادا إلى الموصـل، وأرسـلا إلى الرهـا عسكراً يحميهـا ويمنعها، فلما سمـع صلاح الـدين ذلـك قوي طمعـه في البلاد وكاتب الملوك أصحاب الاطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجـابه نور الديـن بن قرا أرسلان صـاحب حصن كيفا لقـاعدة كـانت بينهما لما كـان عنده بـالشام، فقصـد آمـد وحصرها وقـاتلها أشـد القتال، وكـان بها مقطعها الامير فخـر الديـن الزعفـراني، فطلب الامـان وسلم البلـد، وصار في خدمة صـلاح الدين، ولما ملك المدينـة زحف إلى القلعة فسلمها إليـه الدزدار الذي بها على مال أخـذه، ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبـوري مع حران، ثم سار إلى الرقة وبها

مقطعها قطب الدين ينال المنبجي، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور وقرقيسياء وماكسين وعربان، فملك جميع ذلك، فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها، وحصر القلعة أياماً فملكها وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين، وسار عنها.

ومنها أنه لما ملك نصيبين جمع أمرائه وأرباب المشورة فاستشارهم بأي البلاد يبدأ، بالموصل أو بسنجار، أو بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين: لاينبغي أن نبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لامانع لها، وإن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية، ووافقه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيراً ليقطعه الموصل: إذا ملكها، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لما في نفسه.

وصار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكراً كثيراً من فارس وراجل وأظهرا من آلات الحصار ماحارت له الابصار، وبذلا الاموال الكثيرة وشحنا مابقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار، وغيرها بالرجل والسلاح والاموال، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ومعهم نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فرأى ماهاله من عظم البلد، ورأى السور قد ملىء من الرجال، وليس فيه شرافة إلا وعليها مقاتل، سوى من عليه من عامة البلد، فعلم أنه لايقدر عليه، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه، ثم رجع الى معسكره وصبح البلد فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كندة، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال فلم يظفر، وأقام أياماً، ولم ينل منها شيئاً،

وترددت الرسل إلى عز الدين مسعود ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين اعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلب إليه، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ولم ينتظم صلح ولاتم أمر، فلما رأى صلاح الدين أنه لاينال من الموصل غرضا، وان من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره وأصحابه، سار عن الموصل إليها، وسنذكر ماجرى بعد ذلك في السنة الآتية ان شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن البرنس صاحب الكرك عليه اللعنة عمل مراكب في بحر القلزم ليقطعوا الطريق على التجار والحجاج، وذلك لما عجز عن ايصال الاذى للمسلمين في البر، فوصلت أذيتهم الى عيذاب، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم فأمر العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين نائب مصر الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الاسطول أن يعمل مراكب في بحر القلزم لمحاربة البرنس، ففعل ذلك، فظفر بهم في كل موطن، وقتلوا منهم وحرقوا وغرقوا وسبوا وقهروا وأسروا في مواطن كثيرة ومواقف هائلة، وأمن البر والبحر بأذن الله، وأرسل صلاح الدين الى أخيه العادل أبي بكر يشكر من مساعيه، وأرسل الى ديوان الخليفة بما أنعم الله به عليهم من الفتوحات براً وبحراً.

وفي المرآة: في هذه السنة كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج، خرج ابرنس صاحب الكرك إلى أيلة فأقام بها ومعه الاخشاب على الجمال والصناع، فعمل المراكب، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر، فلما تم عملها ركب فيها، ووصل الى عيذاب في بحر القلزم، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسر، وسار يريد جده، وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخي السلطان، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ، فركب في

بحر القلزم، وسار خلفهم، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وهرب بعضهم في البر، وأسر الباقين فأخذ مائة وسبعين أسيراً، وخلص أموال التجار، وردها عليهم، واستولى على مراكبهم، وعاد الى القاهرة، وكتبوا الى صلاح الدين بذلك، فقال بضرب رقاب الاسرى بعضهم بالقاهرة، وبعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، ففعلوا وكتبوا بذلك إلى الخليفة.

وفي تاريخ المؤيد: وكان حسام الدين لؤلؤ مظفراً فيه، شجاعاً فسار في طلبهم مجداً وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة وسار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا أشد القتال، فظفر الله بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

ومنها أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هووشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين، وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة بالكف عن الموصل، ومايتعلق بعز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكاً له يقال له سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعده، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الاجابة رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولاصلة، وأبلغ صاحبه الخبر فسار إلى ماردين وصاحبها قطب الدين بن ألبي، وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عزالدين وحموه، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن، وسار

عز الديـن من الموصل في عسكره جـريدة من الاثقال، فلما سمـع صلاح الـدين بـاجتمـاعهم سيّـر الى ابن اخيـه تقي الـديـن، وهو بحمـاه يستدعيه ، ورحل الى رأس عين، فلما سمعـوا برحيلـه تفرقوا، فعـاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بأنه يجمع العساكـر ويعود، وعاد عز الدين الى الموصل، وأقـام قطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فـأقام تحت مـــــــــــارديــــــــــن أيـــــــــــامـــــــــــاً...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسـف بن أيوب في الشرق لاجل فتح البلاد التي ليست تحت يده.

ذكر فتوحات صلاح الدين رحمه الله في هذه السنة:

منها فتح آمد:

قـال ابن كثير: في الـرابـع عشر من محرم هـذه السنـة تسلم السلطـان صـلاح الديـن مدينـة آمد وحصنهـا بعـد قتال وحصـار شديـد من يـد صاحبها بعدما حمل ماأمكنه من حواصلـه وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلـم السلطـان البلـد وجـد فيـه شيئـاً كثيراً مـن الحواصـل وآلات الحرب والسلاح، حتى قيل إنـه وجد برجاً مملوءاً بنصول النشـاب، وبرجاً آخر فيـه مائة ألف شمعـة وأشياء يطول شرحها، ووجـد فيها خزانـة فيها ألـف ألف مجلـد وأربعـون ألف مجلـد فـوهبها كلهـا للقـاضي الفاضـل، فـانتخب منهـا حمل سبعين حماراً، ثم وهـب السلطان البلـد بما فيه لنـور الديـن محمد بـن قرا أرسلان، وكـان في خزانتها ثـلاثة آلاف ألـف دينار،

فامتدحه الشعراء على ذلك، وعلى حسن صنيعه الجميل، ومن أحسن ماقاله بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم
فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

وفي المرآة: وفي يوم الاحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد ودخل إليها، وجلس في دار الامارة، ثم سلمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالهما وحريمهما إلى الموصل، وأعانهما صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما، فحملا ماخف حمله وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والاسلحة.

وفي تاريخ المؤيد: في العشر الأول من محرم هذه السنة ملك صلاح الدين آمد بعد حصار وقتال وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا.

وفي تاريخ ابن العميد: وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين من مصر إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى الموصل فنازلها واستشفع صاحبها عز الدين مسعود بن مودود من الخليفة الناصر لدين الله، فشفع فيه الخليفة فرحل صلاح الدين عن الموصل، ونزل على سنجار فحاصرها ثم تسلمها وأحسن إلى رعيتها، ثم توجه إلى حرزم فأخربها، ثم كتب إلى الخليفة يطلب منه آمد، فأجابه الخليفة وبعث إليه بتقليدها، فوصل إليه التقليد في ذي الحجة من هذه السنة، ثم سار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة وفتحها بالامان في العشر الاول من محرم سنة ثمانين وخمسمائة وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

-١١٢٥١-

ومنها فتح عينتاب:

ولما فرغ صلاح الـدين من أمر آمـد سار وقطع الفرات قـاصدا حلب، واجتاز في طـريقه بعينتاب وبها نـاصح الـدين محمد بـن خمارتكين، فنزل إليه وقام بالضيافة، فأبقاها عليه.

وفي تاريخ المؤيد: لما فتح صلاح الدين آمد سار إلى الشام، وقصد تل خالد مـن أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عينتـاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخـو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الـدين محمود بن زنكـي، وكان قـد تسلم عينتـاب من نـور الديـن، فبقيت معـه إلى الآن، فحاصرها السلطـان وملكها بتسليم صاحبهـا إليه، فأقره السلطـان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب.

ومنها فتح حلب:

ولما فـرغ السلطـان مـن أمـر عينتـاب سـار إلى حلـب وحصرهـا وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود.

وقال ابـن كثير: سار السلطـان في بقية المحرم إلى مـدينة حلـب فنازلها وحصرها، وقاتله أهلها قتالاً جيداً وجـرح أخو السلطان تاج الملوك بوري ابن أيـوب جرحاً بليغـاً فمات منه بعـد أيام، ثم اتفـق الحال بين السلطان وبين صاحبهـا عماد الديـن زنكي بـن مودود بـن زنكي بـن آقسنقر على عوض أطلقـه السلطان وهـو أن يرد عليه سنجـار ويسلمه البلـد، فخرج عماد الدين زنكي وجاء إلى خدمـة السلطان وعزاه في أخيه ونزل عنده في المخيم، ونقـل أثقالـه إلى سنجار، وزاده السلطان خـابور والـرقة ونصيبين وسروج، واشترط عليه ارسـال العسكر في الخدمة للغزاة وودعـه السلطان، وكـان أهل حلـب ينادون على عماد الـديـن زنكي: «يـاحمار بعت حلـب بسنجـار»، وكان تسلـم السلطان حلـب في صفر، وصعـد إلى قلعتها يـوم

الاثنين السابع والعشرين من صفر، وعمل لـه الامير طمان وليمة عظيمة، وكـان يومـاً مشهوداً، ثـم إن السلطان رحمه اللـه أسقط عـن حلب وعـن سائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب، وكذلـك عن بلاد الشام ومصر، ثم أرسل الى عساكره ليجتمعوا إليـه ليتصدى لقتال الفـرنج الملاعين، لانهم عاثـوا في البلاد يمينـا وشمالاً في غيبة السلطـان واشتغالـه ببلاد الجزيـرة، وكان السلطـان قد بشر بفتـح بيت المقـدس حين فتح حلـب، وذلك أن الفقيه مجد الـدين ابن جهبـل الشافعي رأى في تفسير أبي الحكـم المغربي عند قـوله تعالى: ﴿ألم* غلبـت الروم* في أدنـى الأرض﴾ [الروم١-٣] الآيـة ، البشـارة بفتـح بيـت المقـدس في سنـة ثـلاث وثمانين وخمسمائة، واستـدل على ذلـك بـأشيـاء، فكتب في ورقـة وأعطـاهـا للفقيـه عيسـى الهكـاري ليبشر بها السلطـان فلـم يتجـاسر على ذلك خـوفـاً مـن عـدم المطابقة، فـاعلم بذلك القاضي فخر الـدين بن الزكي، فنظـم معناها في قصيدة يقول فيها:

وفتحكـم حلـب الشهبـاء في صفـر
قضـى لكـم بـافتتـاح القـدس في رجـب

وقدمها للسلطان، فتشوقـت همة السلطان إلى ذلك، فلما افتتحها ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ أمر القـاضي فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ولما بلغه ان ابـن جهبل هـو الذي اطلـع على ذلك أولاً، أمـره أن يـدرس، فدرس على الصخرة درساً عظيماً وأجزل له العطاء، وأحسن عليه الثناء.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة سار صلاح الـدين من تل خالد إلى حلب، واستدعى إليهـا العساكر من جميع الجهات، فـاجتمع عليها خلق عظيم، وتحقق عماد الدين أنه ليس بـه قبل، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع صلاح الدين في اعادة بـلاده إليه وتسلم حلب منه، فرفع الحديث، وتقـررت القاعـدة ولم يشعر أحـد من العسكـر ولا من الـرعية حتى تـم الامر واستفاض، فـاستعلم العسكر مـن عماد الدين فـأعلمهم

وأذن لهم في تيسير أنفسهم، فأرسلوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بكتكين فاستحلفوا صلاح الدين على العسكر وعلى أهل البلد، وخرجت العساكر إلى خدمته بالميدان الاخضر فخلع عليهم، ونقل عماد الدين أقمشته وآلاته من القلعة، ثم نزل إلى السلطان، وسيره معه في الميدان، وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له تقدمة سنية وخيلاً، وخلع على جماعة من أصحابه وسار من يومه إلى سنجار، وطلع صلاح الدين الى القلعة وتسلمها في صفر من هذه السنة.

وفي المرآة: نازل صلاح الدين حلب في سادس عشر المحرم، ونزل بالميدان الاخضر، وباشر القتال بكرة وعشياً، وزحف يوما أخوه تاج الملوك بوري فجاءه سهم في عينه، فوقع مريضاً، فمات في الثالث والعشرين من صفر، ثم علم عماد الدين زنكي، أنه لاطاقة له به، وقال لحسام الدين طمان: اخرج إلى صلاح الدين وسله في الصلح، فخرج سراً ولم يعلم به أحد، فقرر الصلح وأن يرد إليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين، وأنه يسلم إليه قلعة حلب، وعلم الناس بالصلح فخرجوا إلى صلاح الدين فخلع عليهم، وجعل أهل حلب تحت القلعة اجانة وثيابا وصابوناً وصاحوا عماد الدين: يافاعل، ياصانع، انزل فاغسل الثياب مثل المخانيث، مايصلح لك غير هذا، وعملوا فيه الاشعار، وغنوا بها في الاسواق، منها:

وبعت بسنجار خير القلاع
ثكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم الثالث والعشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان، فحزن السلطان عليه حزنا عظيما وجلس للعزاء، وكان يبكي ويقول: ماوفت حلب بشعرة من أخي، وقيل إنه قال: ماغلت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان لانه ماكان في البيت مثل بوري.

وسار عماد الدين إلى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم غير مكترث

بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثـم صعد القلعة سلخ صفر، فأنشده القاضي:

وفتحـه حلبـاً بالسيف في صفـر
مبشر بفتـوح القـدس في رجـب

فعجب الناس مـن رمية من غير رام، فكان كما قال، ولكـن بعد أربع سنين، وهـو الذي خطـب بـالقـدس لما فتحه السلطـان، وولى السلطـان القضاء بحلب مجير الدين ابن زكي الـدين، والقلعة سيف الدين أركش، والديوان ناصح الـدين اسماعيل بن العميد، فأعطى تل بـاشر وتل خالد لبدر الـدين دلـدرم بن بهاء الديـن بن ياروق، وأعطـى قلعة أعـزاز لعلم الدين سليمان بن جندر، ثم رحل عـن حلب يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الاولى.

وفي تاريخ المؤيـد: ولما استقر الصلح بين صلاح الديـن وعماد الدين، عمل عماد الديـن دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هـم في سرورهم إذ جاء انسان، فـأسر إلى السلطان بموت أخيـه بوري فـوجد عليه في قلبـه وجدا عظيماً وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الـوقت أحدا ممن كان في الدعـوة بذلـك حتى لايتكـدر عليهم ماهـم فيه، وكـان يقول: مـاوقعت علينا حلـب رخيصة بمـوت بوري، وكـان هذا مـن السلطان مـن الصبر العظيم.

ومنها: فتح حارم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حـارم وبهاسرخك الذي ولاه الملك الصالح بـن نور الدين محمـود في تسليم حارم، وجرت بينهما مـراسلات فلم ينتظم بينهما حـال، وكاتب سرخك الفـرنج، فوثب عليـه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها.

وفي تاريـخ بيبرس: وكان السلطـان: قد أنفـذ إلى حارم مـن يتسلمها، فـدافع الـوالي الذي بها، فسـار بنفسـه إليها فتسلمهـا، وعاد إلى حلـب، ورتب فيهاولـده الظاهر غازي ومعـه الامير يازكوج، ثم رحـل عنها وسار نحو دمشق.

وقـال ابـن كثير: رحـل السلطـان مـن حلـب في أواخـر ربيـع الاخـر بجيـوشه وعسـاكـره، وقد جعـل فيهـا ولده الملـك الظـاهر غـازي، وولى قضاءها لمحيـي الدين بن الـزكي، فاستناب لـه فيها نائباً، ورجـع هو مع السلطان في خدمته، فاجتاز بحماه ثم بحمص، ثم على بعلبك، ثم دخل دمشق في ثالث جمادى الاولى في أبهة عظيمـة، وفي نيته الخروج سريعاً إلى قتال الافرنج.

ذكر مافعل السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق:

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكـور وأقام أياما، برز منها في أول جمادى الآخرة في جحـافله قـاصداً نحو القـدس الشريف، فـانتهى إلى بيسان فنهبهـا وخربها، وشـن الاغارات على تلـك النواحـي، ثم سـار ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سريـه هائلة فيها الامير جرديك النوري، وطـائفة مـن النوريـة، وجاولي مملـوك عمه أسـد الديـن شيركوه فـوجدوا جيـش الكرك مـن الفرنـج قـاصديـن إلى أصحابهم نجـدة لهم، فتواقفوا معهـم فقتلوا من الافرنج خلقـاً كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سـوى شخص واحـد، ثم عادوا في آخـر ذلك اليـوم، وبلغ السلطـان، وأن الافرنـج قـد اجتمعوا للقتـال، وتصـدى لهم فنكلوا عنـه، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم، وجرح مثلهم، فـرجعوا ناكصين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة.

وفي تاريخ بيبرس: لما خرج السلطان من دمشق عبر نهر الاردن، ورأى أهل تلك النـواحي قد فارقوهـا خوفاً، فقصد بيسان فـأخربها، وأغار على

ماهنـاك، فاجتمـع الفرنـج وجاءوا إلى قتـاله، فلما رأوا كثـرة من معـه من العسكر لم يقـدموا عليـه، فأقـام عليهم، وأحـاطت بهم عسـاكره تـرميهم بـالسهـام وتنـاوشهـم القتال، فلـم يخرجـوا، وأغـار المسلمـون على تلـك الاعمال، ونالوا منها مـالم يكونوا يطمعون فيه من الغنـائم والنهب وعادوا فأعطـاهم دستورا ليستريحوا، ودخل دمشـق فأقام بها إلى شهر رجـب من هذه السنة.

وفي المرآة: لما وصل السلطان من دمشق إلى بيسـان هرب أهلها، فقدم بين يديه جـرديك النوري وجاولي الاسـدي، وجماعة من النوريـة، فجاءوا الى عين جالوت والفـرنج على الفولة، فصـادفوا على عين جالوت طـائفة مـن الافـرنج، فقتلـوا منهـم مقتلـة عظيمـة، وأسروا مائة فـارس، ورحـل السلطان الى الفـولة يطلب المصاف فتحصـن الفرنج بالـراجل، ولم يخرج منهـم أحـد، فلما كـان في الليـل ساروا طـالبين عكـا، ورحـل السلطـان خلفهم يقاتـل الساقة، فقتل منهـم جماعة، فدخلوا عكـا، وعاد السلطان على جينين فنهب وأحرق وعاد الى دمشق.

ذكر مسير السلطان الى الكرك:

وفي رجـب من هـذه السنة سـار السلطان إلى الكـرك فحاصرهـا، وفي صحبته تقي الديـن عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيـه الملك العادل أبي بكـرليحضر إليه ليوليـه حلب وأعمالها، وفـق مـاكـان طلبه منـه، فحضر العادل إليه، واستمر الحصار على الكرك مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه ان الافـرنج كلهم اجتمعوا ليمنعوا منه الكـرك، فكر راجعاً الى دمشق في منتصف شعبان، وسار معه أخوه العادل، وأرسل ابن أخيه الملك المظفـر تقي الدين عمـر الى مصر نائباً عنه، وفي صحبتـه القاضي الفـاضل، ووصـل السلطان إلى دمشـق، وبعث أخـاه العادل على مملكـة حلب وأعمالها، واستقـدم ولده الملـك الظاهر إليـه، وكذلـك نوابـه ومن

يعز عليه، وإنما أعطى السلطان صلاح الـدين آخاه العادل حلب ليكون قريباً منه، فـإنه كان لايقطع أمراً دون مشورتـه، واقترض السلطان صلاح الدين من أخيـه العادل مائة ألف دينار، وتألم الظاهـر على مفارقة حلب، وكانـت إقامتـه في حلب ستـة أشهر، ولكنـه لايظهر مـا في نفسه، ولكـن يظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وفي تاريـخ بيبرس: لما توجـه صلاح الـدين الى الكـرك استدعـى أخاه العادل أبـا بكر مـن مصر، وكان قد أرسـل إليه يطلب منـه مدينـة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوافاه إلى الكرك في العسكر المصري، فكثـر جمعه، وحصر الحصـن من الـربض، ونصـب عليه المجـانيق، ثم رحل عنـه، وعاد إلى دمشق واستصحب أخـاه العادل معه، وسير ابن أخيه تقي الدين إلى مصر نـائبا عنه، وأعطى أخاه العادل حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن عـز الديـن مسعود صاحـب الموصل قبض على نائبـه مجاهد الديـن قايماز، وكان إليـه الحكم في جميع البـلاد، وكان الذي أشـار عليه بـذلك عـز الـدين محمـود وشرف الـدين ابـن أبي الخير، وهما مـن أكابـر أمـرائه، لهوى بنفسيهما، ولما أراد القبـض لم يقدم على ذلـك لقـوة مجاهـد الدين، فـأظهر أنه مريـض، وانقطع عن الركـوب عدة أيام، فدخـل إليه مجاهد الـدين وحده، وكان لايمنـع من الدخول عليـه ولاعلى النساء، فلما دخل عليه قبض عليه وركب لـوقته إلى القلعة واحتوى على الاموال التي لمجـاهد الـديـن وخزائنـه، وولى عـز الـدين محمـود القلعـة، وجعل ابـن صاحـب الغراف أمير حـاجب، وكان تحت مجاهـد الديـن إربل وأعمالها ومعه فيهـا يوسـف بن زيـن الديـن علي وهو صبـي صغير ليس لـه من الحكـم شيء، والحكم والعسكـر إلى مجاهد الـديـن وتحت حكمه أيضـاً

جزيـرة ابن عمر، وهي لمعـز الدين سنجرشـاه بن غازي بن مـودود، وهو أيضاً صبي صغير، وبيـده أيضاً شهرزور وأعمالها ونوابه فيهـا، ودقوقا وبها نائبه، وقلعة عقر الحميدية، ونائبه فيهـا، ولم يكن بقي لعز الدين صاحب الموصل بعد أن أخذ صـلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصـل، وكانت قلعتها بيـد مجاهد الـدين، وهـو على الحقيقة الملـك، فلما قبض عليـه عز الدين امتنع صـاحب إربل والجزيرة من طاعته، وأرسـل الخليفة إلى دقوقا من حـاصرها وأخذهـا، ولم يحصل لعز الـدين مسعـود مماكان بيـد مجاهد الديـن قايماز غير شهـرزور، وصارت إربـل وجزيـرة ابن عمـر أضر شيء على صاحـب الموصل، وأرسـل صاحبهـا إلى صلاح الـدين بـالطاعـة له والكون في خدمته، وكـان الخليفة الناصر لدين الله قـد سير صدر الدين شيخ الشيـوخ،، ومعه بشير الخادم إلى صلاح الـدين في الصلح مـع عز الدين صاحـب الموصل، فأجاب صلاح الديـن إلى الصلح على أن تكون إربل والجزيـرة معه، ويقـرر الصلح، وإنما قـوى طمع صـلاح الديـن في الموصل لقبـض صاحبها على مجاهد الـدين، فلما تبين لعز الديـن مسعود الضرر الذي ترتب على امساك المجاهد قـايماز أمسك الذين أشاروا عليه باعتقـاله وأفرج عنـه في الاعتقال، ثم رحل صـلاح الدين عـن الموصل، ونازل سنجار على ماذكرناه عن قريب.

ومنها أنـه سار اسطول من مصر في البحـر فلقوا بطسة فيها نحـو من ثلاثمائة من الفرنـج، نجدة لفرنج الساحل فقاتلـوهم فظفر بهم المسلمون وأخذوهم أسرى، فقتلـوا بعضهم وأبقوا بعضهـم أسرى وغنمـوا ما معهـم، وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنهـا أنه سـارت جماعـة كبيرة مـن الفرنـج مـن نـواحي الـداروم إلى نواحـي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمـع بهم المسلمون فخـرجوا إليهـم على طريق صدر وأيلة، فأفرج الفرنـج من بين أيديهم على ماء يقال له العبلة، وسبقـوا المسلمين إليه، فـأتاهـم المسلمـون وهم عطـاش قد أشرفـوا على

الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سحابة عظيمة بلطفه، فمطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قيظا والحر شديداً وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم الا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله ورحمته.......

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير شاه أرمن:

اسمه سقمان بن ظهير الدين بن ابراهيم بن سقمان القطبي، صاحب اخلاط، توفي في هذه السنة، وعمره أربع وستون سنة، وكان ملكه لها في سنة احدى وعشرين وخمسمائة، وكان بكتمر مملوك أبيه بميا فارقين لما مات شاه أرمن، فلما سمع بموته سار من ميافارقين، ووصل الى أخلاط، وكان أكثر أهلها يريدونه، وكان مماليك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله استولى على أخلاط وملكها، وجلس على كرسي شاه أرمن، واستقر في ملكه حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، كما سنذكره إن شاء اله تعالى.

تاج الملوك بوري بن أيوب:

أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكنيته أبو سعيد، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة، وكان الله تعالى قد جمع فيه مكارم الاخلاق، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة وفضلا وفصاحة، وكان أديبا شاعراً مترسلاً، وله ديوان شعر، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه...

وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر من هذه السنة على مدينة حلب من جراحة أصابته لما حصرها أخوه السلطان صلاح الدين

يوسف كما ذكرناه، وعمره ثلاث وعشرون سنـة ـ بوري بضم الباء الموحدة وسكون الـواو، وكسر الراء، وفي آخره ياء سـاكنة، وهو اسم للـذئب بلغة الترك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة والخليفة هو الناصر لدين اللـه، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن صاحب ماردين وصاحب الغرب ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاه صاحب ماردين:

وهـو قطب الـديـن ايلغازي بـن نجـم الـدين ألبـي بـن تمرتاش بـن ايلغازي بـن أرتق صـاحب مـاردين كـان جوادا شجـاعاً عـادلا منصفا عاقلاً، توفي في جمادى الاخـرة من هذه السنة، وكان والده ألبـي قد ملك في سنة سبـع وأربعين وخمسمائة، وبقي في ملك مـاردين الى مـدة لم نقف على انتهـائها، وملـك بعـده ابنه ايلغـازي المذكـور، واستمر فيهـا إلى أن مات في هـذه السنة، وخلـف أولاداً أطفالا، فـأقيم في الملـك بعده ولـده حسام الـدين بـولق أرسـلان، وقام بتـدبير المملكة وتـرتيبها مملـوك والده نظام الـدين البقش حتـى كبر بولق أرسـلان وكان به هـوج وخبط، فمات وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الـدين أرتق أرسلان بن ايلغازي، ولم يكن لـه حكم، بل الحكـم إلى البقش والى مملـوك للبقش اسمه لـؤلؤ، وكان قـد تغلب على استاذه البقـش بحيث كان لايخرج البقـش عن رأي لؤلـؤ المذكور، ولم يكن لنـاصر الدين أرتـق أرسلان صـاحب ماردين من الحكم شيء، وبقي الامر كذلك الى سنة احدى وستمائة، فمرض البقش، وأتاه نـاصر الديـن يعوده، فلما خـرج من عنـده خرج معـه لؤلـؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفي تـاريخ بيبرس: لما مـات قطب الـديـن ايلغازي، ملـك بعده ابنـه حسام الديـن بولق أرسلان، وهـو طفل وقام بتربيته وتـدبير ملكه نظام الديـن البقش مملوك أبيـه، وكان شاه أرمن صـاحب خلاط، خـال قطب الدين، فحكم في دولته وأحسن البقش تـربية الولد، وتزوج بأمه، فلما كبر الولد لم يمكنه البقش من المملكة لانـه كان أهوج، ولم يزل كذلك إلى أن مات الـولد المذكور، وكـان له أخ صغير أصغر منـه اسمه قطب الـدين، فرتبه البقش مكانه، والله أعلم.

ذكر غزوة صلاح الدين يوسف الكرك مرة أخرى ثانية:

وذلـك لانه رأى ان فتحهـا الآن أنفع للمسلمين فـإن الفرنـج الذيـن فيها يقطعـون الطريـق على الحجاج والتجـار في البراري والبحار، فـأرسل إلى العساكـر الحلبية والجزرية والمصرية، فقـدم تقي عمر مـن مصر، وكان بها كما ذكـرنا ومعـه القـاضي الفاضـل وجاء مـن حلـب الملك العـادل أبـوبكر أخـوه، وقدم ملـوك الجزيرة وسنجـار وتلك النـواحي والاقطـار، وأخذهم كلهم في جيشه، فسار بهم إلى الكـرك فأحدقوا بها في رابع عشر جمادى الاولى مـن هذه السنـة، وركب عليهـا المجـانيق، وكـانت تسعـة، وأخذ في حصـارها، وضيـق على أهلها، واشتـد القتال، فملـك المسلمون الـربـض، وبقي الحصـن ولـه خنـدق عمقـه ستـون ذراعاً، فـألقـى فيـه الأحجار والاخشاب والاتـربة، ورأى الفرنج شـدة القتال وعرفوا عجـزهم عن حفظ الحصن، فأرسلوا إلى ملكهـم وفرسانهم يستنجدونهم، فاجتمعوا من كل مكـان، فلما بلغ صلاح الدين خبر مسيرهم رحـل عن الكرك الى طريقهـم ليقاتلهـم، ويعود بعـد أن يهزمهم إلى الكـرك، فقرب منهـم ولم يمكنه الدنو منهـم لضيق الارض وصعوبتها، وانتظر خروجهـم من ذلك المكان، فلـم يخرجوا، فـرحل وسـار إلى مدينـة نابلـس، ونهب كل مـاعلى طـريقه مـن البـلاد، فلما وصل الى نـابلس أحـرقهـا وأخربها، وقتـل وأسر

وسبى وسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام، وكان فيها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم، وكان بها الاقساء والرهبان وعندهم الاسرى والودائع، فطلبوا الامان فأمنهم على أن يطلقوا من عندهم من الاسرى، ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق.

وفي بيبرس: لما فرغ من سبسطية رحل إلى جينين فنهبها، وعاد إلى دمشق وبث سراياه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان صلاح الدين على الكرك بلغه أن الافرنج قد اجتمعوا له كلهم فارسهم وراجلهم ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها وقصدهم ونزل على حسي تجاههم، ثم صار الى ماعير فانهزمت الفرنج قاصدين الى الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالاغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة فنهبوا نابلس وماحولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان الى دمشق، وأذن للعساكر بالانصراف إلى بلدانهم، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر الملك المظفر أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك امر لاخيه العادل ان يعود الي حلب، وأقام السلطان بدمشق ليؤدي فرض الصيام.

وقدمت على السلطان خلع الخليفة فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وخرتبرت، وآمد، التي اطلقها له السلطان.

وفي المرآة: وكان عند صلاح الدين رسل الخليفة شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وبشير الخادم، وكانا مريضين فطلبا العود الى بغداد فاذن لهما، فمات بشير بالسخنة وشيخ الشيوخ بالرحبة.

وذكر في النوادر السلطانية أن دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق كان يوم السبت سابع جمادى الا خرة من سنة ثمانين وخمسمائة، وفي هذا الشهر وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع، وفيه أيضاً وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان يخبرون ان عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم.

ذكر بقية الحوادث:

منها انه وقع الصلح بين صلاح الدين وصاحب طرابلس، وذلك قبل مسيره الى الكرك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والثمانين بعد المائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين مخيم بظاهر حماة، وكان بلغه في أواخر السنة الماضية أن صاحب الموصل نازل إربل، فبعث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركب من فوره إليه في جنوده وعساكره، فسار إلى بعلبك، ثم حمص ثم حماة، فأقام بها أياماً، ثم سار إلى حلب، وتلقاه أخوه العادل، واجتمعت اليه العساكر، فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فقطع الفرات من البيرة، وجاء الى حران فقبض على صاحبها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين صاحب إربل، وكان وصول السلطان الى حران في الثاني والعشرين من صفر، وكان أمر لسيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، وكان قبضه على صاحب حران في السادس والعشرين من صفر وذلك لشيء كان جرى منه، وحيث كان

بلغّه عنه رسوله، فأنكر عليه، وأخذ منه قلعة حران والرها ثم اعتقله تأديبا له إلى مستهل ربيع الاول، ثم أخرجه وخلع عليه وطيب قلبه، وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان صاحب حران مظفر الدين قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران، فلم ير السلطان لذلك أثراً، فغضب عليه واعتقله، ثم سار السلطان من حران في ثاني ربيع الاول إلى رأس عين ووصل إليه في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان صاحب الروم يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصلها يوم السبت الثامن من ربيع الاول، وجاء إليه عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين، فالتقاهم السلطان وأكرمهم.

وقال ابن كثير: فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إليه عماد الدين أبوبكر بن قرا أرسلان صاحب بلاد بكر وآمد، ثم بلغه موت أخيه ابن قرا أرسلان، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه، ثم سار السلطان فنزل على الاسماعيليات قريباً من الموصل، وذلك يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الاول، وكان يصل من العسكر كل يوم نوبة جزيلة تحاصر الموصل، وجاء إليه هناك صاحب إربل زين الدين، وأرسل السلطان ضياء الدين ابن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الامام ونصرة الاسلام.

ثم سار السلطان ونزل على الموصل، وهو نزوله الثاني عليها، فحاصرها، وكان القتال يعمل كل يوم ويخرج المواصلة اليه عراة يقاتلون،

وأرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء الاتابكيات وجماعة معهن يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم خائبين، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لاسيما وفيهن بنت نور الدين، وضيق على أهل الموصل، فأشاروا عليه بقصد أخلاط، لما رأوا أنه لاطمع لهم في الموصل، وقالوا: ماتفوت الموصل، فسار إلى أخلاط، وفي مقدمته ناصر الدين محمد وتقي الدين عمر، فوصلوا ميا فارقين وبها يرنقش مملوك صاحب آمد، فامتنع عليهم وقال: أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين، وبعد هذا فالأمر للخاتون والدتهم، فأرسل إليها صلاح الدين خادما ووعدها أن يتزوجها ويزوج ابنه احدى بناتها، فأجابت وسلمت إليه ميافارقين، وأعطاها الهتاخ، وأعطى يرنقش جبل جور، وكان الحاكم على خلاط الوزير مجد الدين ابن الموفق وهو الذي كاتب السلطان، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال، فغالط وقال: في القلعة سيف الدين بكتمر، وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن، وربما جاء البهلوان، فعاد الفقيه إلى السلطان بغير شيء، وجاء البهلوان بعساكر اذربيجان وهمذان، فنزل قريباً من اخلاط، وأرسل الى السلطان يقول: هذه البلاد لابنتي وهي في القلعة، والمصلحة ان تبقى المودة بيننا ودوام الصداقة، فرجع السلطان الى الجزيرة، ورجع البهلوان الى بلاده بعد ان حمل إليه سيف الدين بكتمر أموالا وهدايا، وولى السلطان على ميافارقين ودياربكر مملوكه سنقر الخلاطي، وعاد إلى الموصل، وهذه المرة الثالثة، وهي الاخيرة، فنزل الاسماعيليات، وقيل نزل على كفر زمار بدجلة، وكان الحر شديداً، فأقام مدة، وعزم على أن يشتي بذلك المكان، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة، واستعد المواصلة للحصار، ومرض السلطان مرضاً شديداً خيف من غائلته، فرحل طالباً وهومريض، وكان يتجلد، ولم يركب في محفة، فوصل حران وهو شديد المرض، وبلغ غاية الضعف حتى أيس منه، وأرجف بموته، وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال من هذه السنة فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها.

وفي المرآة: ولما كان السلطان على كفر زمار أشار أمراء عز الدين مسعود عليه بأن يخرج إليه الاتابكيات يشفعن إليه فخرجن ومعهن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان وقرر عماد الدين الصلح، وخطب للسلطان بالموصل، وأعطى عز الدين شهرزور والبوازيج، ووقف عليها قرية تعرف بباقيلا، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان، واشتد الحر فمرض مرضاً شديداً فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل إنه سقي، وضعف ضعفاً خيف عليه منه، وأرجف بموته، وأقام على نصيبين وقد أيسنا منه، ثم حمل في محفة إلى حران، فنزل في ظاهرها، وبنى داراً سماها دار العافية.

وفي تاريخ النويري: وجاءت رسل صاحب الموصل إلى السلطان وهو بحران بالاجابة إلى ماطلب. وهو أن يسلم صاحب الموصل الى السلطان شهرزور وأعمالها وولاية القراميلي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل ومابيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، ورضي السلطان بذلك، وتقرر الصلح، وأمنت البلاد، ثم رحل السلطان من حران وقد عوفي وعاد إلى دمشق في السنة الآتية.

وقال ابن كثير: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وبين المواصلة - كما ذكرنا - انقطعت خطبة السلاجقة والارتقية بتلك البلاد كلها.

قال: ولما جاء إليه أخوه العادل من حلب، ورآه في غاية الضعف أشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ماأبالي وأنا أترك من بعدي: أبا بكر، وعمراً وعليا وعثمانا، وأراد بأبي بكر أخاه العادل صاحب حلب، وأراد بعمر تقي الدين عمر صاحب حماة، وهو إذ ذاك صاحب مصر

وبها مقيم، وأراد بعثمان وعلي ابنيه الملك العزيز عثمان والملك الافضل علي، ونذر السلطان في ضعفه لئن شفاه الله تعالى من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الكفار، ولايقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلن اكبر همته فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع مايملكه من الاموال والذخائر وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لانه نقض العهد الذي عاهد السلطان عليه، فغدر بقافله تجار من مصر فأخذ أموالهم وضرب رقابهم بين يديه صبراً، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم، وكان هذا النذر كله باشارة القاضي الفاضل، ثم إن الله عز وجل بكرمه وفضله عافاه مما كان ابتلاه به، فسارت البشائر بذلك في كل ناحية، ودقت البشائر وزينت.

قال ابن كثير: ثم ركب السلطان من حران بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماه وحمص حتى دخل دمشق، وكان دخوله حلب يوم الاحد الرابع عشر من المحرم سنة اثنتين وثمانين، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشر نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته، ومعه خدمة عظيمة، ومنّ عليه بحمص موضع والده بحكم وفاته، ثم سار إلى دمشق فدخلها في الثاني من ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، وكان يوماً مشهوداً وصباحاً محموداً.

وفيها كان المنجمون بدمشق قد حكموا بأن يهب هواء مزعج برمل يهلك الناس، فحفروا أسراباً واختفوا فيها، فظهر كذب المنجمين.

-١١٢٦٨-

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الامير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه

صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص، ثم نقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الاوسط بينها وبين أخيها الملك المعظم تورانشاه، صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الاموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف على الف الف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة.

وقال النويري: وفي هذه السنة، ليلة عيد الاضحى، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أبقى السلطان حمص وماكان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد بن شيركوه، وعمره اثنتي عشرة سنة، وخلف ناصر الدين محمد شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عودته من حران، وأخذ أكثرها، ولم يترك الا مالا خير فيه.

وفي المرآة: وكان السلطان صلاح الدين يخافه، لانه كان يدعي أنه أحق بالملك منه، وكان بلغ السلطان عنه هذا، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء إلى حمص، وتوفي يوم عرفة بقي يتناثر لحمه، وقيل انه سم، وقيل مات فجأة.

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود :

صاحب حصن كيفا وآمد، مات في هذه السنة، وملك بعده ولده

سقمان، ولقبه قطب الـدين، وكان صغيرا، فقام بتدبير دولتـه وزيره القوام ابن سماقا الاسعردي.

وفي تاريخ بيبرس: مات نور الدين محمـد المذكور، لماكان صلاح الدين محاصراً للموصل، وخلف ولديـن، ملك الاكبر منهما واسمه سقمان، ولقبه قطب الديـن، فلما بلغ أخاه وفاته سـار ليملك بلاده فتعذر عليـه أمرها، فســار إلى خرتبرت فملكهـا، وهي بيـد أولاده، ورجع صـلاح الديـن الى ميافـارقين، فحضر إليه ولد نـور الدين فأقـره على ملك أبيه، ومـن جملته آمد، وكانوا خافوا أن يأخذهـا منهم فلم يفعل، وردهم الى بلادهم وشرط عليهم أن يكـونوا تحت أمره وطـاعته، وجعـل معهم من جهتـه أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب والده.

الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر

وكان من الامراء الكبـار ايام نور الدين محمود وصلاح الـدين يوسف، كما ذكرنـا، توفي في دمشـق في جمادى الاخرى من هـذه السنة، مـن جرح أصابه وهو في حصار ميافارقين.

الست خاتون عصمة الدين بنت معين أنر:

نائب دمشق وأتابك عساكرها قبل نور الدين محمود ـ كما تقدم ـ وقد كـانت زوجـة نور الـدين ـ كما تقدم ـ ثم خلـف عليها مـن بعده صـلاح الديـن في سنة ثـلاث وسبعين وخمسمائة، توفيـت في هذه السنـة، وكانت من أحسن النساء وأعفهن، وأكثرهـن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية في محلة حجر الذهـب، وخانقـاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانيـاس، ودفنت بتربتهـا في سفح قـاسيون قـريبا مـن قبيات الشركسية، ولها أوقـاف كثيرة، فأما الخاتونية البرانيـة التي هي على

القنوات محلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان الذي هي به بتل الثعالب، فهي من انشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لامه، وكانت زوجة زنكي ونور الدين صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين كما تقدم.

وفي المرآة: ولها صدقات كثيرة وبر عظيم، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه في حجر الذهب، قريبة من حمام ازكش، وتعرف بمدرسة خاتون، وكانت وفاتها في رجب، وبلغ السلطان صلاح الدين وفاتها، وهو مريض بحران، فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف، وكان يصدر عن رأيها.

-١١٢٧١-

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر والشام وغيرهما، وكان قد تعافى من مرضه، ووجد نشاطاً، ورحل من البلاد الفراتية ووصل الى حلب يوم الاحد الرابع عشر من محرم هذه السنة، وكان يوماً مشهود الشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام فيها أربعة أياما ثم رحل في ثامن عشر من محرم نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخته، ومعه هدية هائلة، ومن عليه بحمص، فأقام أياما يعتبر تركة أبيه، وكان قد خلف أموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار، وكان القاضي نجم الدين ابن عصرون حاضر القسمة. فقام يوماً فوقعت من تحت ذيله منطقة مجوهرة، فنسبه العادل إلى ما لايليق به، وكان نجم الدين منزها عن ذلك لانه كان غنياً جواداً، شريف النفس، فحلف للعادل انني ماعلمت بها وصدق، وإنما الحساد وجدوا طريقاً للقول، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الاول، وكان يوما لم ير مثله فرحاً وسروراً، ثم قرر في ملك دمشق ولده الافضل علياً، ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته، الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملقب بالملك العزيز على ملك مصر، ويكون العادل أتابكه، وله اقطاعات عظيمة جدا، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم عمر على الدخول إلى بلاد إفريقية، فلم يزل السلطان يكاتبه ويتلاطف به، ويترفق له حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك بسنين، وزاده على ذلك مدينة ميافارقين.

وقال النـويري: ولما بعث السلطان ولـده الملك العزيز صحبـة العادل الى مصر، استدعى تقي الدين من مصر بسبب أن السلطان تجنى عليه في البـاطـن، فإنـه ظـن أنـه أخـرج ولـده من مصر ليملـك مصر إذا مـات السلطان، وقيل إنه توقف عن الحضـور، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفـريقية وبرقة من المغرب، وبلـغ السلطان ذلك فنهاه، وأرسـل يستدعيه ويـلاطفه، فحضر إليـه، ولما حضر إليه زاده على حماه منبج، ومعرة النعمان، وكفـر طاب، وميافارقين، وجبـل جور بجميع أعمالها، واستقر الملـك العادل أبو بكـر، والملك العـزيز عثمان بمصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

وفي تـاريخ بيبرس: سير السلطـان صـلاح الديـن الى ابـن أخيه تقـي الديـن عمر يستـدعيه مـن مصر إلى الشام والسبـب في ذلك أن صـلاح الدين لما استنابه بمصر ضم إليـه ولده الافضل، وكان أكبر ولده، فخاف صـلاح الديـن في مـرضه أن يتـولى تقـي الديـن البـلاد، ولايجلس ولـده الافضل، فأرسل في طلبه لهذا السبب، وأشـار عليه بعض أمرائه أن يعزل العادل من حلـب، فوقعت هذه الاشارة مـن نفسه موقعاً موافقـاً لغرضه، فلما حضر أخوه العادل إليه، أوصى صلاح الـدين ولده الظاهر غازي أن يلتمس من عمه حلب ليهبها له، فسأله ذلـك، فأجابه عمه العادل لوقته وكتب لـه بها، فتسلمها واستقـر بها وأولاده من بعـده، وكان تقـي الديـن يومئذ بمصر فبلغـه ان صلاح الدين يـريد عزله عنهـا، فأراد أن يهرب إلى المغرب، فإن قراقـوش فتح بالمغرب مدنا كثيرة فـأشار عليه أمراء مصر أن لايـروح إلى المغرب، وأن يمضي إلى عمـه ويستعطفه، فتجهـز وخرج مـن مصر، وسير صـلاح الديـن ولـده العزيـز صحبـة عمه العـادل الى مصر، ورتب ولده الظاهر غازي بحلب عـوضاً عن عمه العادل، ولما وصل تقي الدين الى صلاح الدين أنعم عليه بميافارقين.

وفي النوادر السلطانية: ولما تقرر الامر المذكور بين هؤلاء الملوك، قال العادل: اجتمعت بالملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم ان المفسدين كثير، ولاتخلو غدا ممن يقول عني مالايجوز، ويخوفك مني فإن كان لك عزم تسمع فقل إلي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع، وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: أنا أعرف أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا مالي الا أنت، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه، فقال مبارك، وذكر كل خير.

وفي النوادر أيضاً أن الملك الظاهر سار إلى حلب حتى أتى إلى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا عيسى بن بلاشو، فنزل في يوم الجمعة بعين المباركة، وخرج الناس الى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الاخرة من هذه السنة، وصعد القلعة المحروسة ضحوة النهار، وفرح الناس به فرحاً شديداً.

وأما تقي الدين فإنه لما وصل، سار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر في ثالث عشرين شعبان من هذه السنة وأعطاه حماة، وسار إليها.

وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من هذه السنة.

وفيها حضر القمص صاحب طرابلس الى الملك الناصر صلاح الدين، واتفق معه ان يفتح له جميع الساحل، وأطلق له الملك الناصر جميع الاسرى والذين كانوا عنده، وجرد معه عسكراً الى الساحل، وفتح

الطريق من مصر إلى الشام، وسار فيها التجار، ثم إن القمص(٢٠) المذكور نافق وأخذ قافلة من التجار، ودخل بلاد الفرنج، فحلف الملك الناصر لئن ظفر به ليقتلنه بيده، وكان ذلك سبب فتوح الساحل.

وفيها كانت فتنة بين التركمان والاكراد ببلاد الجزيرة، والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق مالايحصى ودامت عدة سنين، وانقطعت الطرق، ونهبت الاموال واريقت الدماء، ثم إن مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل جمع عنده رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم، وخلع عليهم، وانقطعت الفتنة العظيمة.

وفيها دخل سيف الاسلام الى مكة ومنع من الاذان بحي على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس، وأغلق أمير مكة باب البيت، وصعد إلى أبي قبيس، فأرسل إليه وطلب المفتاح من صاحب مكة، فأبى من انفاذه فقال سيف الاسلام لرسوله: قل لصاحبك: إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لاتأخذوا المفتاح، من بيت شيبة، فنأخذه ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه المفتاح.

وفيها قسم السلطان صلاح الدين البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل، فإنه لما مرض أشاروا عليه بذلك.

وفيها ظهر الخلاف بين الافرنج، وتفرقت كلمتهم، وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام.

وفيها غدر ابرنس الكرك واسمه ارناط، وكان أخبث الافرنج، وأشرهم، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام، وفيها خلق عظيم ومال كثير، فاستولى على الجميع قتلا وأسراً ونهباً، فأرسل اليه

السلطان يوبخه على مافعل ويقـول: أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت، فلـم يلتفت وشـن الغـارات على المسلمين وفتـك فيهم، فنـذر السلطـان دمه، وأقام السلطـان بدمشق يجهز للقـاء العدو، واستدعى العسـاكر من المشرق والمغرب.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنـة وكان أولها يوم السبت، وكـان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أنـه أول سنة الروم ايضاً، وهذا اليوم الـذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضاً.

قال ابن الاثير: وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

ذكر غزوات السلطان صلاح الدين وفتوحاته:

كان السلطـان رحمه الله قد جمع عسـاكره في آخر السنـة الماضية، ولما استهلت هـذه السنة التـي أولها يوم السبت بـرز السلطان مـن دمشق في هذا اليوم، وقيل برز في أثناء الشهـر، أعني محرم هذه السنة فسار إلى رأس الماء، فنزل ولـده الافضل هنـاك في طائفـة من الجيـش، وتقدم السلطـان ببقيـة الجيـش الى بصرى، ثـم خيـم على قصر أبي سـلامـة ينتظـر قـدوم الحجاج وفيهـم أخته ست الشـام وابنها حسام الديـن محمد بن عمـر بن لاجين ليسلموا من معرة ابرنس الكرك.

وفي تاريـخ بيبرس: وفي هذه السنـة تقدم أمر صـلاح الديـن إلى جميع البلاد بأن يحضروا للغزاة في سبيل اللـه، فحضر من الجند عسكر الموصل وعسكر ديـار بكر، مقدمهـم الامير زين الديـن صاحب حـران، وعسكر الشـام مقـدمهم ابـن دلـدرم، وعسكـر مصر وحلب وغيره، وخـرج مـن

دمشق وقصد الكرك، كما نذكر عن قريب، انشاء الله تعالى.

وفي المرآة: خرج السلطان مـن دمشق غرة المحرم بعساكـر الشام، ونزل بصرى يـرتقب وصـول الحاج، وقد كـان بلغه ان ابـرنس الكـرك يرتقـب وصـولهم، فخاف مـن غدره، ووصـل الحاج في اواخـر المحرم، وخـلا سر السلطان منهم فسار الى الكرك على مانذكره.

وذكر صـاحب النـوادر السلطانية: لما كـان المحرم سنـة ثلاث وثمانين وخمسمائة عـزم صـلاح الـديـن على قصـد الكـرك، فسير الى حلـب مـن يستحضر العسكر وبـرز من دمشق في منتصـف المحرم، فسار حتـى نزل بأرض بصرى منتظـراً لاجتماع العساكر المصرية والشـامية، وأمر العسـاكر المتواصلـة اليه بشن الغـارة على مافي طريقهم مـن بلاد الساحليـة ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتـى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفـل مصر الشتوي، ووصل معهم بيت الملك المظفر، وماكان لـه بالديار المصرية، وتأخرت عنه العسـاكر الحلبية بسبب اشتغالهم بـالفرنج، بـأرض انطاكية وبـلاد ابن ليـون، وذلك أنه كـان قد مات ملك الافـرنج الى لعنة الله ووصى لابـن أخته بالملك، وكـان الملك المظفر بحماة، وبلـغ الخبر السلطان، فأمـرهم بـالدخول إلى بـلاد العدو وإخماد نائرتـه، وكان وصول تقـي الديـن الى حلب في السابـع والعشرين من محرم هـذه السنة، فنـزل في دار عفيف الديـن بن زريـق، وأقام بها الى ثالث صفر، ثم انتقل الى دار طمان.

وفي تاسـع صفر سـار الملك المظفر بعسكـر حلب الى حـارم وأقام بها ليعلـم العدو أن هـذا الجانب ليـس بمهمل، وعـاد السلطان الى الشـام، وكان وصوله الى السواد في خامس عشر ربيع الاول من هذه السنة.

وفي يوم الخميـس سابـع عشر نزل بعشترا ولقيـه ولده الملـك الافضل، ومظفر الدين وجميع العساكر، ومـن منتصف ربيع الآخر عرض السلطان

العساكر على تل يعرف بتل تسيل، وتقدم الى ارباب الميمنة بحفظ موضعهم والى اصحاب الميسرة كذلك، والى اصحاب القلب بمثله، ثم ذكر صاحب هذا التاريخ وقعة حطين، ولم يذكر ماجرى قبل هذه الواقعة من الأمور، ونحن نذكرها مفصلة بعون الله ولطفه.

ذكر محاصرة الكرك:

لما قدم الحاج في أواخر صفر، نزل السلطان على الكرك، وقطع ماحوله من الاشجار، ورعى الزروع، وأكلوا الثمار، وجاءته العساكر المصرية، فتلقاهم بالقريتين، واجتمع عنده خلق كثير من العرب والترك والكرد وغيرهم، وكذلك فعل بشوبك مافعل بالكرك من المضايقة والمحاصرة واذهاب ضياء تلك الضياع، وازالة نقاء تلك البقاع، واقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العسكر.

وتوافت الجيوش الشرقية، فنزلوا عند الافضل، وقعدوا ينتظرون الاشارة من السلطان.

ذكر بعث الافضل الى اعمال طبرية سريته:

ثم ان الملك الافضل بعث سريته نحو أعمال طبرية وأمرهم بالغارة على حين غره، وجعل مقدمهم مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك، وجعل على عسكر دمشق قايماز النجمي، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي، فساروا وصبحوا صفورية، فخرج إليهم الفرنج في جمع عظيم من الداوية والاسبتارية وغيرهما، فوقع حرب عظيم، وكاد المسلمون أن ينهزموا وينفلوا، فثبت قايماز النجمي في صدورهم وكذلك مظفر الدين وحمل عليهم من ناحيته ودلدرم من ناحيته، فقتلوا وغنموا وأسروا وسبوا

ورجعوا سالمين غانمين، وجاء الخبر بالفتح والظفر للسلطان صلاح الدين وهو بالكرك، وكان هذا مقدمة الفتح.

وفي تاريخ بيبرس: ندب السلطان ولده الافضل للغارة على عكا والسواحل، وسير صحبته مظفر الدين كوكبري، فلما وصلوا صفورية التقوا الفرنج، ووقع القتال، فهزم الله عز وجل الافرنج، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، منهم مقدم الاسبتارية، وأسر الباقون وسيرت البشائر الى البلاد، ولما انتهى الخبر إلى السلطان رجع عن الكرك ولحق بالعسكر الذي مع ولده الافضل، وقد تلاحقت إليه العساكر والنجدات.

وفي المرآة: كان السلطان صلاح الدين قد أمر ولده الافضل عند مسيره الى الكرك أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ينتظر باقي العساكر الشرقية، فأنهض الافضل منهم طائفة للغارة على طبرية، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين، وعلى عسكر الشام صارم الدين قايماز النجمي، فنزلوا طبرية وتقدم بدر الدين دلدرم مقدم عسكر حلب الى طبرية، فخرج إليه مقدم الداوية والاسبتارية ومعهم جماعة فقاتلوهم فقتلهم دلدرم وأسر بعضهم، وسار إلى صفورية ففعل كذلك، وعاد بالأسارى الى الافضل وهو على شعب الشهاب، وجاء السلطان الى تسيل - قرية غربي نوى - وصعد على تلها وعرض العساكر، وسر بما رأى، واندفع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الاول نحو فيق، ورحل الافضل بالعساكر معه فالتقوا على الاقحوانة، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخطباء، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر الفاً من الفرسان، وأما الرجالة فيقال إنهم كانوا في ثمانين الفا مابين فارس وراجل، فنزلوا صفورية، وتقدم السلطان الى طبرية.

ذكر محاصرة طبرية وفتحها:

لما تقدم السلطـان الى طبرية نصـب عليها المجانيـق، ونقب أسـوارها، ففتحها يـوم الخميس الرابـع عشر من ربيـع الآخر، وتمنعت القلعـة عليه وبها زوجة القـومص، وتقدم الفـرنج فنزلـوا لوبيـة يوم الجمعة عنـد طلوع الشمس، وملـك المسلمون عليهم الماء، وكان يـوماً حاراً، والتهـب الغور عليهم، وأضرم مظفر الـدين النار في الزرع، وباتوا طـول الليل والمسلمون حولهم، فلما طلع الفجـر يوم السبت قاتلوا الى الظهر، ثـم صعدوا الى تل حطين على مانذكر الآن وقعة حطين.

وقال ابـن كثير: لما سار السلطان الى طبرية فتحهـا، وقد كانـت طبرية تقاسـم بلاد حـوران والبلقاء وماحـولها من الجولان وتلـك الاراضي كلها بالنصف، فاراح الله المسلمين من تلك المقاسم، وتوفرت عليهـم.

وقال العماد: وكانت الست صاحبة طبريـة قد حمتها ونقلت إليها كل ماملكتـه وحوتـه، فلما جاء إليها السلطـان أمنها على أصحـابها وأموالها، وخـرجت بنسـائهـا ورجـالها وسارت الســت إلى طـرابلـس بلد زوجهـا القومـص بمالها وحالها، وعـادت طبرية آهلة آمنـة بأهـل الايمان، ثم عين السلطان لولايتها صارم الدين قايماز النجمي، وهو من أعيان الامراء.

وقال ابن كثير: ولما اجتمـع السلطان بولده الافضـل، خيم على عشترا، وسمع الفرنج بـذلك فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهـم، ودخل بينهم قومـس صاحب طـرابلس، ونقض العهـد، وابرنس الكـرك في جمع عظيم قيل كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفاً، وقد خوفهم القومص بأس المسلمين، فـاعترض عليـه بـرنس الكرك فقـال لـه: لاشـك أنـك تحب المسلمين وتخوفنـا مـن كثـرتهم، والنار لاتخاف مـن كثـرة الحطـب، فقـال القومص لهم: مـا أنا إلا واحد منكم وسترون غـب ماأقول لكم، وكـانت

طبرية للقـومص، وكان قـد هادن السلطان، ودخـل في طاعته كما ذكـرنا، فأرسلت الفرنج إليه القسوس والبطريق ينهونه عن موافقة السلطان.

وأصل ملك القومـص طبرية أنه كان لطبرية ملك يقـال له أماري بن فلك، هلـك في آخر سنـة تسع وستين وخمسمائة وخلـف ولداً مجذومـاً قد سقطت أعضاؤه، فوضع الفرنج التـاج على رأسه ورضوا به مع عيبه حتى لايخرج الملك من بينهـم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكـاً مطاعاً، فلما حس بهلاكه أحضر البطريـق والقسوس وأكابر دولته وكان لـه ابن أخت صغير، وقال لهم: يكون هذا ملكاً ، ولكن القـومص أراد ان يستبد بالملك فلم يوافقـه الداوية، وقالوا: يلـزمك العمل بشروط الوصية وتكفـل بالأمر وهو مغلـوب في مقاومـة السلطان ومحاربتـه ليتقوى بـذلك على الملـك، فاشتد امره الى أن مـات الصغير، فانتقل الملك منه إلى أمه، وبطـل ماكان في نية القومص من استبداده بالملك، فانتقل الملك إليها، واجتمع الفرنج عليها، فقالـت لهم: زوجي أقدر على الملك وهو أحق بـه، وأخذت التاج مـن رأسها فـوضعتـه على رأسه، ثـم إن الملك الكبير طـالـب القومـص بحساب ماتولاه، فاستنصر القومص عليه بالسلطان صلاح الدين فهادنه وتقرب منـه، ثم لما اجتمعـت العساكر الاسـلامية مـن الشاميـة والمصرية والجزرية جـاء الملك الى القـومص بنفسه، وقبـح له رأيـه في مهادنتـه مع السلطان، ورجعه عن ذلك حتى اتفقت الافرنج كلهم على المسلمين.

ذكر وقعة حطين:

ولما اجتمـع الفـرنج لملتقـى السلطـان فـارسهم وراجلهـم وسـاروا الى السلطان ركب السلطان من عند طبريـة، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخـر والتقى الجمعان، واشتد القتـال، ولما رأى القومص شدة الامـر حمل على من قـدامه مـن المسلمين، وكان هنـاك تقي الـدين صـاحب حماة، فـأفرج لـه، وعطف عليهـم، فنجا القـومص ووصـل الى

طرابلس، وبقي مدة، ومات غما لعنه الله، وأخذ المسلمون الفرنج من كل ناحية، وأبادوهم قتلا وأسراً، وكان في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وابن الهنفري، ومقدم الداوية وجماعة من الاسبتارية، وما أصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن مصيبة مثل هذه الوقعة، وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

وقال ابن الاثير: وكان في جملة الاسارى جميع ملوكهم سوى القومص صاحب طرابلس فإنه انهزم في أول الواقعة، وأخذ صليبهم الاعظم عندهم، وهو الذي يزعمون أنه هو الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، ورصعوه باللآلي والجواهر النفيسة ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾[الفرقان ٢٦].

وقال ابن واصل: ذكر العماد أن السلطان الملك الناصر خلص في هذه النوبة ثلاثين ألف أسير من المسلمين، وأسر من الكفار مائة ألف أسير، وكان يوماً عظيماً حتى أنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل لبسها في رجله.

وفي المرآة: ولما فتح الله للمسلمين ونصرهم على الافرنج، جيء الى السلطان بصليب الصلبوت وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب، وهو عند النصارى مثل المسيح، والذي أسر الملك درباس الكردي، والذي أسر ابرنس ابراهيم غلام المهراني، فلما رآهم السلطان نزل وسجد شكراً لله تعالى، وجاء إلى خيمته فاستدعاهم فجلس الملك عن يمينه، وابرنس الكرك الى جانب الملك، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشاً، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشربه وسقى الابرنس،

فقال السلطان: ماأذنت لك بسقيه فلم سقيته؟ وكان السلطان قد نذر أن يقتل الابرنس بيده، فقال له: ياملعون ياغدار، خلعت وغدرت ونكثت، وجعل يعدد عليه غدراته، ثم قام إليه فضربه بالسيف حل كتفه، وتقدم المماليك وقطعوا رأسه، وأطعموا جثته الكلاب، فلما رآه الملك قتيلاً خاف وطار عقله، فأمنه السلطان وقال: هذا غدار كذاب، غدر غير مرة.

وقال ابن كثير: ولما تمت الوقعة أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى يسحبون في قيودهم، فضربت أعناقهم وفيهم جماعة من مقدمي الداوية والاسبتارية، بين يديه صبراً، ولم يترك فيهم من كان يذكر الناس عنه شرا، ثم جيء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه وبجنبه أرناط برنس الكرك وبقية الملوك عن يساره، فجيء السلطان بشراب من الجلاب مثلوج فشرب ثم ناول الملك فشرب، ثم ناول ارناط فشرب، فغضب السلطان وقال: أنا سقيتك ولم آمرك أن تسقيه، هذا لاعهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة، واستدعى أرناط، فلما وقف بين يديه قام إليه بالسيف، وقال: أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه، ثم دعاه الى الاسلام فامتنع فقتله.

وقال العماد: قام السلطان فضرب عنقه بيده.

قلت: إنما فعل ذلك بيده، إقامة لنذره الذي نذر حين مرض(٢١) كما ذكرناه.

ثم قتل السلطان جميع من كان في الاسرى من الداوية والاسبتارية صبراً، وأراح الله المسلمين من هذين الجنسين النجسين، ولم يسلم ممن

عرض عليه الاسلام منهم الا القليل، فيقال إنه بلغ القتلى ثلاثين ألفاً وكذلك الاسرى كانوا ثلاثين ألفاً، وكان جيش الافرنج ثلاثة وستين ألفاً، ومن سلم منهم مع قتلهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم، ثم أرسل برؤوس الاسرى ورأس أعيان القتلى، وبصليب الصلبوت صحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وذكر في النوادر ماملخصه أن صلاح الدين اندفع قاصداً نحو بلاد العدو في وسط نهار الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وكان بلغه أنهم اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا، فقصد نحو المصاف معهم، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل، وكان نزوله يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر، ولما رآهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو، وزحف على طبرية فأخذها في ساعة من النهار، ثم التقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في آخر الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وحال الليل بين الفريقين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرون منه، فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض تسمى اللوبية، فحال الليل بينهما أيضاً، ولما كان صباح السبت الرابع والعشرين منه ووقع القتال، نصر الله المسلمين بعونه ولطفه، فلم ينج منهم واحد، واعتصمت طائفة أخرى بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عند قبر شعيب عليه السلام، ثم ذكر ماذكرنا، ثم قال: ولما كان يوم الاحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل السلطان على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

ـ ١١٢٨٤ ـ
ذكر فتح عكا:

وفيها لغتان المدّ والنسبة إليها عكاوي، وعكة بالهاء، ولما فرغ السلطان من أمر طبرية سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر، ففتحها صلحاً يوم الجمعة، وأخذ ماكان بها من حواصل وأموال وذخائر ومتاجر، واستنقذ من كان بها من المسلمين، فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم، ففرج الله عنهم، وأمر بإقامة الجمعة بعكا، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو تسعين سنة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان جعل للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري كل مايتعلق بالداوية، من منازل وضياع فأخذها بما فيها من غلات ومتاع، ووهب عكا لولده الافضل، وقال: ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فأقمنا بها الجمعة، وأعدنا الكنيسة العظمى جامعاً، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب الشهرزوري، فإنه تولى بها القضاء والخطبة.

وفي المرآة: نازل السلطان صلاح الدين عكا يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وليس بها من يحميها، لأن وقعة حطين أبادتهم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرون على حمله فأمنهم فدخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وغنم المسلمون أموالاً لاتحصى، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها ومافيها، ولم يحضر بهذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان، وكان بمصر، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا، ويافا على مانذكره، وحضر الملك العزيزلانه قدم مع العسكر المصري، ومضى إلى مصر وماعاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان والسلطان على صور.

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أولـه: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الـذكر أن الارض يرثهـا عبادي الصالحون﴾ [الانبيـاء ١٠٥] والحمد لله على انجاز هـذا الوعد وعلى نصرته لهذا الـدين الحنيف من قبـل ومن بعد، وجعـل من ﴿بعـد عسر يسراً﴾[الطلاق ٧] وأحـدث بعد أمـر أمراً وهو الامـر الذي مـاكان الاسـلام يستطيع عليـه صبراً، وخوطـب الديـن بقولـه: ﴿ولقد مننـا عليك مرة أخـرى﴾ [طه ٣٧] فـأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحـابة، والاخرى في هذه الدولة التـي عتق فيها مـن رق الكآبـة، والـزمـان لهيبته قـد استـدار، والحق ببهجتـه قد استنـار، والكفـر قد ردّ مـاعنـده في استعـار، والخادم شرح في هذا الفتـح العظيـم والنصر الكريـم مايشرح صـدور المؤمنين ويسوء وجوه الكـافريـن ويورد من البشرى مـاأنعم اللـه من يوم الخميس الثالـث والعشرين مـن ربيع الآخر سلخه، وتلك ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ [الحاقة ٧] عدموا فيها نفوسـاً وجسوما، فأصبحـوا قد هووا في الهاوية ﴿كـأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقـة ٦٩] وأصبحت البلاد إلى الاسلام ضاحكـة، كما كانت بالكفـر باكيـة، ففي يوم الخميـس فتحت طبريـة، ويوم الجمعـة والسبت كانت الكسرة التي ماأبقت منهم بقية لايقـوم لهم بعدها قائمة ﴿وكذلك أخـذ ربـك إذا أخذ القـرى وهـي ظـالمة﴾[هود ١٠٢] وهـي أم البـلاد، وأخت ﴿إرم ذات العماد﴾[الفجر٧] إلى غير ذلك من الكلمات.

ذكر فتح مجدل يابا:

ثم إن السلطـان رحمه الله أرسل أخاه الملـك العادل فنازل مجدل يـابا وفتحه عنوة بالسيف.

وقـال ابن كثير: وجـاء العادل إلى السلطـان بعـد وقعة حطين، وفتـح عكا، ففتح بنفسه حصوناً كثيرة.

وقال العماد الكاتب: ولما فتح السلطان مدينة عكا، أقام ببابها مخيما، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً، وقد كان كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وهو بمصر، بما فتح الله له، فوصلت البشرى بوصول العادل باشراً، وللواء الحمد ناشراً، وأنه فتح حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، واغتنمها غزوة

ثم إن السلطان فرق أمراءه إلى فتح البلاد، ففتح كل واحد منهم حصناً أو قلعة على مانذكره الآن إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح الناصرة وصفورية:

أرسل السلطان مظفر الدين كوكبوري الى الناصرة وصفورية ومعه حسام الدين طمان، فاستباح حماهما واستبى دماءهما ففتحهما، وغنم مافيهما من الاموال والذخائر، وجاء الى السلطان والاسارى بين يديه مقرنين في الاصفاد ومقادين في الاقياد.

وفي تاريخ المؤيد: وفرق السطان عسكره ففتحوا الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ومعليا، والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن.

ذكر فتح قيسارية:

أرسل السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي، وغرس الدين قليج، وجماعة من الامراء إلى قيسارية، فافتتحوها بالسيف، وغنموا وأسروا وسبوا.

ذكر فتح نابلس:

أرسل السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس، ووصل الى سبسطية فتسلمها وتعجل مغنمها، ووجد مشهد

زكريا النبي عليه السلام، قد اتخذه القسوس كنيسة، وأعاده مشهداً ورده مسجداً ووضع فيه منبراً، ثم أناخ على نابلس وحاصرها، وطال عليه حصارها، ولم يزل عليها مقيماً ولقتالها مديماً إلى أن استأمنوا منه فأمنهم، ففتحوا له القلعة، وملكها حسام الدين، ثم إن السلطان استنابه على نابلس ومعاملتها.

ذكر فتح الفولة وغيرها من البلاد:

وكانت الفولة أحسن القلاع وأحصنها، وأملأها بالرجال والعدد، وهي للداوية حصن حصين، ومكان مكين، وكان فيها مشتاهم ومصيفهم ، فلما اتفق يوم المصاف، خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم، فلما كسروا أسروا وخسروا، وأسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان، وكانت فيه ذخائر عظيمة.

ثم تسلم السلطان جميع ماكان من تلك الناحية من البلاد مثل دبورية، وجينين، وزرعين، والطور، واللجون، وبيسان، والقيمون، وجميع مالطبرية وعكا من الولايات، والزيب والبعنة ومنوات، وغير ذلك.

ذكر فتح تبنين:

ولما حصلت تلك الممالك والأعمال للسلطان، رسم لابن أخيه المظفر عمر بن شاهنشاه بقصد حصن تبنين، وأن يتوكل على الله ويستعين.

وقال العماد: فوصلنا إلى تبنين في ثلاث مراحل، ونزلنا عليه بالنوازل، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل,فلما أيسوا من الحياة، وعاينوا المهات سألوا الامان من السلطان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، فأمهلوا، وأطلقوا أسارى المسلمين، فلما جلوا البقعة وأخلوا القلعة سيرهم السلطان ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور،

ورتب في الموضع مملوكه سنقر، ووصاه بتأنيس النافر، وتعكيس الكافر، وأن يصلح خندقها وسورها.

وفي النوادر: نزل السلطان عليها يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى، وهي قلعة منيعة وكان بها رجال ابطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وتسلمها يوم الاحد ثامن عشر الشهر المذكور عنوة، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا متوكلا على الله.

ذكر فتح صيدا:

نزل عليها السلطان بعسكره يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى، فجاء رسل صاحبها بمفاتيحها وفتحت أبوابها، ودخل فيها المسلمون، وأقيمت بها الجمعة والجماعة.

ذكر فتح بيروت:

ثم رحل السلطان من صيدا إلى بيروت، فنزل عليها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الاولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه، وذلك بعد قتال عظيم، وحصار شديد، ونقب لاسوارها، وظهر من تلك الايام ضراب شديد من الداوية فأخر الامر، ولما اشتد بهم الحال خرج أحد المقدمين يستدعي الامان، فأمنهم السلطان فنزلوا على الطاعة، وسلموا البلد في التاريخ المذكور.

وفي النوادر: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت، لأن العسكر كانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب، وكان اجتمع في صور كل فرنجي بقي من الساحل، فرأى قصد عسقلان لان

أمرها كان أيسر، وكان السلطان فتح جبيل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الاولى، وكان صاحب جبيل اسمه أوك، وهو الذي سلم جبيل الى السلطان وهو على بيروت.

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم:

ونـزل السلطان عليها يوم الاحد السادس عشر من جمادى الاخرة، واجتمع السلطان بأخيه العادل عليها، وامتنع أهلها أشد الامتناع، وقاتلوا قتالاً عظيماً فضيق السلطان عليها بالرجال والقتال، ونصب المجانيق ونقب الاسوار، فلما ضاق عليهم الحال راسلهم الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، فترددت بينهم الرسالات، فقال لهم الملك المأسور لاتخالفوا لما أشير عليكم من الامر، فاسمعوني وأطيعوني واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت أنقذت، وخرج المقدمون وشاوروا الملك فسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة. وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبار ابراهيم بن حسين الهذباني وهو أول أمير افتتح بالشهادة، وختم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه الى عسقلان الرملة ويبنى وبيت لحم، والخليل وأقام بها حتى أنه إذا سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة.

ثم اجتمع بالسلطان ابنه الملك العزيز صاحب مصر على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت والحاجب لؤلؤ المقدم فيها، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الاماكن وسبوا شيئاً كثيراً لايحد ولايوصف، واستبشر الاسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة، وترك السلطان جيوشه ترتع في هذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور ليستريحوا ويجموا أنفسهم وخيولهم ليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف.

واشتاع في النـاس أن السلطان على عـزم فتح بيت المقدس، فقصـده العلماء والصلحـاء والمتطـوعـة مـن كل فـج عميـق، فعنـد ذلـك قصـد السلطان بيت المقدس بمن معه على مانذكره ان شاء الله.

وفي تـاريـخ بيبرس: ولما فتح السلطـان عكـا فـرق عساكـره الى جميع الحصون الساحلية فتسلموها أولاً فأولاً، ولم يعد للفرنج قدرة على الدفاع، ولاسبيـل الى الاجتماع فتسلمـوا نابلـس وقيسـاريـة وصفوريـة والنـاصرة، واستخلف في عكـا ولده الافضـل، ثم رحـل على تبنين فحاصرهـا إلى أن تسلمهـا، ثـم نـزل على صيدا فتسلمهـا، ثـم سـار إلى بيروت فتسلمهـا، وتسلم أصحـابه جبيـل، ورحل إلى عسقلان فنـازلها وتسلمها ، ثـم تسلم الرملة: ثم الـداروم، ووصل إليه ولده العزيز مـن مصر وهو على عسقلان مهنيا بـالفتح، فـأقام عليها إلى أن تسلـم أصحابـه غزة. وبيـت جبريل، والنطرون بغير قتـال، وكان بين فتوح عسقـلان وبين أخذ الفـرنج لها ثمان وأربعون سنة.

وفي المرآة: وكان بين أخـذ الفرنج وبين خلاصهـا منهم خمسة وثـلاثون سنة، لانهم ملكوها في جمادى الاخـرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وفوض السلطـان القضاء والخطـابـة الى جمال الديـن عبد اللـه بـن عمر قـاضي اليمن، وتسلم السلطان هذه الاماكـن المذكورة في أربعين يوماً، أولها ثامن عشرين جمادى الاولى، وآخرها ثامن رجب.

وفي تاريـخ المؤيد: وفيها حضر المركيـس في سفينة إلى عكـا، ولم يعلم المركيس بذلـك، واتفق هجوع الهواء فراسل المركيس الملـك الافضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر، والملـك الافضل يجيب المركيس إلى ذلك إلى أن هب الهواء، فـأقلع المركيـس إلى صور، واجتمـع عليه الفـرنج الـذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطـلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بـلادهم بـالامان، وحملهـم الى صور مـن أعظم أسبـاب الضرر التي حصلت، حتى راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك.

ذكر فتح بيت المقدس شرفه الله واستعادته من أيدي النصارى بعد ثلاث وتسعين سنة:

ولما فتح السلطان صلاح الدين رضي الله عنه ماحول بيت المقدس من الاماكن المباركة، أمر العساكر فاجتمعت، والجيوش المتفرقة في البلدان للغنائم فائتلفت، وسارنحو البيت المقدس بتلك العساكر فنزل غربي بيت المقدس يوم الاحد الخامس عشر من شهر رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقد حصنت الفرنج لعنهم الله الاسوار بالمقاتلة، وكانوا ستين ألف مقاتل دون بيت المقدس أو يزيدون، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له باليان بن بارزان، وكان معه من سلم من وقعة حطين من الداوية والاسبتارية، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام، ثم سلم إلى كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور، ثم تحول إلى ناحية الشمال، لانه رآها أوسع وأنسب للمجال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، واستشهد بعض أمراء المسلمين فحنق عند ذلك كثير من امراء الاسلام واجتهدوا في القتال وقد نصبت المجانيق والعرادات، فبادر السلطان رحمه الله بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته.

وفي المرآة: وكان المنجمون قد قالوا للسلطان: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة، فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، وكان قد نزل على غربيه أولاً، ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية، ومن هذا المكان أخذه الفرنج، وكان مشحوناً بالبطارقة من الخيالة والرجالة على مايزيد على ستين ألفاً غير النساء والذرية، وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ بيبرس: قتل في أول يوم عز الدين موسى بن مالك، صاحب قلعة جعبر، فحزن السلطان عليه.

وفي النوادر: وكان نزول السلطان على القـدس يوم الاحد الخامس عشر من رجـب، ونصب عليـه المنجنيقات، وضايقـه بالـزحف والقتـال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في الســور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما شاهـد الفرنـج ذلك قصـد أكثرهـم السلطان وتشفعـوا إليه أن يعطيهـم الامـان فامتنـع وقـال: لاأفتحها إلا بـالسيف عنـوة كما فتحتمـوها عنـوة ولاأترك بها أحداً مـن النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتـم المسلمين، فطلب صاحبها باليـان بن بارزان من السلطان الامان ليحضره عنـده فأمنه، فلما حضر ترفق له، وتشفـع اليه بكل ممكن، فلم يجبه إلى الامـان لهم، فقالوا: لئـن لم نعط الامـان رجعنـا فقتلنا كـل أسير من المسلمين بـأيـدينا وهـم قـريب مـن أربعـة آلاف أسير، وقتلنا ذرارينـا وخربنـا الـدور والاماكـن الحسنة وأتلفنـا مابـأيدينـا من الامـوال والقينا قبـة الصخرة، وبعـد ذلك نقاتل قتال الموت فلا يقتل واحد منـا حتى يقتل أعداداً منكم، فما يرجى بعد هذا مـن الخير؟ فلما سمع السلطان ذلك أجـاب إلى الصلح على أن يبـذل كل رجـل منهم عـن نفســه عشرة دنانير، وعـن المرأة خمسة دنـانير، وعن كل صغير وصغيرة دينـارين، وأن تكون الغلات والاسلحـة والدور للمسلمين، ويتحولوا منها إلى مأمنهم، وهـو مدينة صور، فكتب الصلح على ذلك، ومن لايبذل ماشرط عليه إلى أربعين يـوما فهو أسير، فكان من أسر بهذا الشرط ستـة عشر ألف انســان من الـرجال والنســاء والولـدان، ودخل السلطـان والمسلمون البلد يوم الجمعـة قبل وقت الصـلاة بقليل، وذلك يوم التاسع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهـو ليلة الاسراء بـرسول الله صلى اللـه عليه وسلـم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى إلى السموات العلى.

وقال الشيـخ شهاب الدين أبـو شامة: وهذا أحـد الاقوال في الاسراء والله أعلم.

وكان في القدس بعض نساء الملوك من الروم، قد ترهبت ومعها من الاموال والجواهر والعبيد والخدم شيء كثير، فطلبت الامان لنفسها ولمن معها فأمنها السلطان وسيرها إلى مأمنها، وخرجت زوجة الملك المأسور، وهي ابنة الملك ماري، وكانت الاخرى قد ترهبت وتزهدت، ومعها من الاموال والجواهر والخيول والخدم شيء كثير، فخرجت واستأذنت السلطان في اجتماعها بزوجها، وكان محبوساً في برج نابلس، فأذن لها وسارت وأقامت عند زوجها حتى تخلص.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من الذهب، فتسلق المسلمون وقلعوه والفرنج ينظرون إليهم، فصاح الناس كلهم صيحة كادت الارض أن تميد بهم، أما المسلمون فصاحوا سروراً بالتكبير والتهليل، وأما الفرنج فصاحوا تغبنا وتوجعاً.

وقال ابن كثير رحمة الله عليه: ولم يتفق صلاة الجمعة يومئذ، يعني يوم دخولهم خلافاً لبعضهم ممن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ، والصحيح أن الجمعة لم يمكن إقامتها يومئذ لضيق الوقت وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين ابن علي القرشي، المعروف بابن الزكي، كما نذكره، ونظف المسجد الاقصى يومئذ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وخربت دور للداوية كانوا قد ابتنوها غربي المحراب الكبير، وكانوا قد اتخذوا المحراب هرياً ومستراحاً، فنظف المسجد من ذلك كله، وأعيد الى ماكان عليه في الايام الاسلامية، والدولة المحمدية، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة محجوبة عن الزائرين.

وفي المرآة: ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي، ومحا الصور منها، وقد كان الملك العادل نور الدين

محمود بـن زنكي رحمه الله قد عمـل منبراً بحلب وتعب عليه مـدة وقال: هذا لأجل القـدس الشريف، فأرسل السلطان صلاح الـدين وأحضره من حلب، وجعله في الجامع الاقصى، ولما كان في الجمعة الثـانية وأرادوا أن يقيموا بـه الجمعة حضر المسلمـون بالحرم الشريـف من كـل فج عميـق، فـاجتمع مـن الاعمال الاسلاميـة عـدد لايحصى، فلما أذن الظهـر حضر السلطـان بقبـة الصخـرة، وكـان جماعة مـن الكبـار والعلماء قـد رشحـوا أنفسهم للخطبـة في ذلك اليـوم وألفوا خطبـاً يخطبون بها، فلما كـان وقت الخطبة رسـم السلطان للقاضي محيـي الدين بـن زكي الديـن أن يخطب، فرقا المنبر بأهبـة السواد العباسية، وخطب خطبة بـديعة، ثم إن السلطان رحمه الله أقام حرمته فوق ماكانت.

وفي المرآة: وكان حضر مـع السلطان هذا الفتـح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الاجنـاس وتطاول جماعة من الأعيان إلى الخطابـة، فتذكر السلطان قول ابن زكي الدين:

وفتحكـم حلبـاً بـالسيـف فـي صفـر
مبشر بفتـوح القـدس في رجـب

قال القـاضي الفاضـل: فقد أنطق اللـه السلطان بـالغيب، فـأعطاه الخطابة، وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق.

وقال ابـن القادسي في ذيله: إن صلاح الـدين خطب بالبيـت المقدس وهو وهـم منه، ثم إن السلطـان فرق الأموال التي أخـذها من الافـرنج، وكانت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار، على العلماء والفقهاء والصوفية.

ذكر مافعله السلطان صلاح الدين بعد فتحه القدس:

فمن ذلك تفـرقته الأموال التي أخذها مـن الأفرنج - كما ذكرنـا - ومن ذلك أنه جلس بعد صلاة الجمعة بعد أن خطب الخطيب، ودعا للخليفة

العباسي وللسلطان الملك الناصر صلاح الـدين، وسمع وعظ الشيخ زين الديـن أبو الحسن علي بـن نجا المصري، لأنـه بعد صلاة الجمعـة جلس على كـرسي للوعـظ باذن السلطـان، فوعـظ الناس، وكـان وقتاً مشهـوداً، واستمر القـاضي محيي الـدين بـن زكي الـدين الخطيـب بالنـاس في أيام الجمع أربـع جمع، ثم قـرر السلطان للقدس خطيبـاً مستقراً، وأمـر الفقيه ضياء الـدين عيسى الهكـاري يعمل حول الصخرة شبـابيك من حـديد، ورتـب لها امـامـا وراتبـاً، ووقـف عليه رزقـاً جيـداً، وكـذلـك على امـام المحـراب الاقصى، وعمـل للشـافعية المدرسـة الصـلاحيـة، ويقال فيهـا الناصرية أيضاً، وكان موضعها كنيسـة حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصـوفيـة رباطـاً كـان دار البترك إلى جـانب القيامـة، وأجـرى على الفقهـاء والفقراء الجامكيـات والجرايـات، وأرصـد الختم والـربعـات في أرجـاء المسجد الاقصـى لمن يقـرأ أو ينظر فيهـا مـن المقيمين والزائريـن، وتنافـس بنو أيوب فيما يفعلونـه من الخيرات بالقدس الشريـف للقائمين والظـاعنين والقـاطنين، وعـزم السلطـان على هـدم قيامـة وجعلهـا دكـاً لتنحسم مادة النصارى عن بيـت المقدس، فقيل إن هؤلاء لايتركون الحج إلى هذه البقعة ولو تـركتها قاعاً صفصفا، وقد فتـح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه القـدس وترك القيامـة على حالها، فتركهـا صلاح الدين أيضاً تأسيا بأمير المؤمنين، أحـد الخلفاء الراشدين، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة أنفس يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كـانت لهم عند باب الرحمة وعفى آثارها، وهـدم ماكان هناك من القباب وعجل دمارها.

ومن ذلـك أن السلطان أمر للعماد الكاتـب أن يكتب كتابـاً إلى بغداد بـالفتح، وكـان القاضي الفـاضل بـدمشـق مريضـاً لم يحضر هذا الفتـح، فكتب في أوله: «﴿وعـد ا لله الذين آمنوا منكـم وعملوا الصالحات﴾ إلى قوله: ﴿من بعـد خوفهم أمنا﴾ [النور ٥٤ _ ٥٥] الحمـد لله الذي أنجز لعبـاده الصالحين وعـد الاستخـلاف، وقهر بـأهـل التـوحيد أهـل الشرك

والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، وبدل الامن به من المخافة، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوي ومنحه أخلص أوليائه، وأخص أصفيائه بعد أن انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وفوت ترجيه، وتقاصرت عنه الهمم، وتخاذلت عنه الامم، فله الحمد الذي حقق بفتحه ماكان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمسه، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس، وعباد الصليب والشمس، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الاحد، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل ﴿قل هو الله أحد﴾ وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس وجميع ماحوت مملكة الفرنج إلى نابلس، وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين، ونزع لباس اليأس بافاضة ثواب المحسنين، ورجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وطلع قمر الهدى من سراره، وعادت الارض المقدسة إلى ماكانت عليه من التقديس، وأمنت المخاوف بها، وفيها فصاحة صباح السرى ومناخ التعريس، وأقصى المسجد الأقصى الأقصون من الله الابعدون، وتوافد إليه المصطفون المقربون وخرس الناقوس برحيل المسيحيين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لاهله: مرحباً وأهلا، وشمل جماعة المسلمين ماجمع الله لهم فيه شملاً، ورفعت الاعلام الاسلامية على منبره، فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عزها: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف ١٣] وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين، وبعد أهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه».

وذكر العماد فصولاً في هذا المعنى:

نكتة غريبة: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن عن أبي محمد السنجاري في تفسير أبي الحكم

الاندلسي، يعني ابن حيان، في أول سورة الروم ـ أخباراً عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، قال السنجاري: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه مما زعم من قوله: ﴿غلبت الروم* في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين﴾ [الروم ٢ـ٤] فبنى الامر على التاريخ كما يفعله المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه الحالة وافقت اصابة إن صح أنه قاله قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولابد من باب الكرامات لانها لاتبان بحساب.

قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

ذكر رحيل السلطان من القدس طالباً صور:

لما قرر السلطان صلاح الدين أمور القدس الشريف انفصل عنه في الخامس والعشرين من شعبان وسار حتى أتى على عكا، ثم سار منها إلى صور، وكانت قد تأخرت من بين تلك النواحي، وقد استحوذ عليها من بعد وقعة حطين رجل من التجار ويقال مركيس، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدة استدعى بالاسطول من الديار المصرية في البحر، فاحتاط بها براً وبحراً، فعدت الفرنج في بعض الليالي على خمس شواني من الاسطول فملكتها، فأصبح المسلمون واجمين، وقد دخل البرد وقلت الازواد وكثرت الجراحات وكل الامراء من الحصارات، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق في هذا الوقت حتى يستريحوا، ثم يعود إليها بعد هذا الحين فأجابهم على تمنع منه، وذلك أن السور من صور كان قد هدم أكثره ولم يبق الا الفرج والنجح، فتوجه إلى دمشق.

وفي المرآة: وفي شعبان سـار السلطان إلى صـور فوصلهـا غرة رمضـان فوجدها مدينة حصينة وهـي في البحر مثل السفينة، والبحر محيط بها من جوانبهـا، وليس لها طريـق في البر إلا من مكـان واحد فيه سبعـة أبراج، وبها المركيس، وكان شجاعاً حازماً وقد انضـم إليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج.

وفي النـوادر: قدم الملـك الظاهـر غازي بـن السلطان صـلاح الديـن، صـاحـب حلب على أبيـه، وهـو على صـور في الثـامن عشر مـن شهـر رمضان، وسرّ بـوصولـه سروراً عظيماً، وكان قـد تركـه بحلب ليسـد ذلك الجانب لاشتغاله هـو بأمر السـاحل، وكان السلطـان خلف أخاه العادل في القدس لتقرير قواعده فاستدعـاه، فوصل إليه في خامس شوال، وسير من حاصر هونين فسلمت بأمان في الثالث والعشرين من شوال.

وكان السلطـان قد قدم على الاسطول انسـانا يقال له الفـارس بدران، وكـان نـاهضـاً جلـداً في البحـر، وكان رئيـس البحـريين يقـال لـه عبـد المحسن، وكان قد أكد الوصيـة في أخذ الحذر منهم، فغفلوا عن أنفسهم في الليل، فخـرج اسطول الكفار مـن صور، فكبسهم، وأخـذوا المقدمين، وأخذوا منهم خمس قطع وقتلوا قتلاً كثيراً مـن الاسطول الاسلامي، وذلك في السابـع والعشرين من شـوال، فلما علم السلطان مـاتم على المسلمين ضاق صدره، وأشار بـالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً مـن الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعدادا جديدا، فرحـل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها، وأحرق مـالم يمكن نقله، وكـان رحيله يـوم الاحد ثاني ذي القعـدة، ففرق العساكـر وأعطاهـم دستوراً، وسـار كل قـوم إلى بلادهـم، وأقام هـو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال ابن كثير: ولما وصل السلطان إلى عكـا نزل بقلعتها، وأسكن ولده الافضل برج الداوية، وولى نيابتها عز الـدين جرديك، وقد أشار بعضهم

على السلطان بتخريب عكا خوفاً من عود الفرنج إليها، فكاد أن يفعل ولم يفعل فليته فعل، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوي(٢٣)، ووقف دار الاسبتار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الاسقف مارستاناً، ووقف على ذلك كله اوقافاً دارة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين بن الشيخ أبي النجيب، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً رحمه الله.

ذكر ماجرى بعد دخول السلطان دمشق:

ولما انفصل السلطان عن عكا وتوجه إلى دمشق جاءته رسل الملوك بالتهاني من سائر الاقطار والامصار بالتحف والهدايا.

وفي المرآة: وصل إلى السلطان من بغداد تاج الدين أبو بكر، أخو العماد الكاتب، فالتقاه السلطان وأكرمه، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على أسباب منها أن الخليفة عتبه لاجل ابن البوشنجي، ويلقب بالرشيد، وكان صبياً ببغداد ولايؤبه إليه، فخرج الى الشام واتصل بصلاح الدين، وقيل له: هذا من بيت كبير، وكان أديباً فأعجب السلطان، فسأله أن يبعثه الى بغداد في رسالته فبعثه إلى الخليفة، فقال: ماكان عنده غير هذا؟ وقصر في حقه، فلما عاد إلى السلطان تكلم بكلمات، وقال: ماالتفت إلي، ومنها إن كل من هرب من بغداد لجأ إلى السلطان يقبل عليه مثل رئيس الرؤساء وابن هبيرة، وابن أبي النجيب وأمثالهم، ومنها مشاركته في لقب الخليفة بالناصر، وأشياء من هذا الجنس، ثم قال في آخره: يمن علينا بفتح القدس، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته، فاستشاط السلطان غضباً، وقد كان يرجو أن يأتيه كتاب الخليفة يشكره على مافعل، ثم قال السلطان لأخي العماد: أما ابن البوشنجي فمن عندكم جاء، وقيل لي إنه من بيت كبير وصحبني وسألني انفاذه إلى بغداد ليمن على أهله، ويتجمل بكم، فما

أمكنني رد سؤاله، وأما الذين التجأوا إلي من أرباب البيوت، فإن الانسان قد يلتجيء إلى كوخ عجوز في البرية فتجيره من القتل، فأنا فعلت فعل العرب، وحفظت الذمام، وعرفت حق من قصدني ولجأ إليّ وصنتهم أيضاً عن ألسن الناس فيصير ذلك عاراً عليكم، وأما مشاركتي في اللقب فوالله إنني مااخترته ولااقترحته، ولكن لما أزلت دولة عدوه القائمة من مائتي سنة وكسر وفعلت مافعلت لقبني المستضيء بهذا اللقب، وكتب من بغداد إلى نور الدين بذلك، ولم يكن في زمانكم، ثم لو وقع هذا ففي عسكري عشرة آلاف تركماني وكردي لقب كل واحد صلاح الدين فلم أنكر عليه، وأما قوله إنني فتحت القدس تحت راياته وعسكره، فأين راياته وعسكره؟ والله مافتحت إلا بعسكري وتحت راياتي، وأرعد السلطان وأبرق، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة باطنيا، وأمسك السلطان نفسه ظاهريا، فكتب كتاباً إلى الخليفة يقول فيه: «المحاققة توجب المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه، واندمال هذا الجرح خير وأولى من إتساعه وخرقة».

وقال السبط: وقد ذكر محمد بن القادسي قضية ابن البوشنجي، فقال: كان أمرداً في دروب بغداد، فطلعت لحيته فخرج إلى الشام، فخدم يوسف بن أيوب وسأله أن يرسل الى الديوان في رسالة فأرسله فقامت القيامة على الديوان، فلما عاد ابن البوشنجي الى الشام اكثر كلامه، فما مضى الا اسبوع حتى جاءته نشابة فذبحته، وكان ذلك عقوبة لما بسط به لسانه.

قلت: وهذه من هنات ابن القادسي، فإنه كان عالماً، يتعمد المثالب، وقد أساء الادب في مواضع منها قوله:

كان أمرداً في دروب بغداد، ومنها قوله على السلطان يوسف بن أيوب، وماذكره ببعض القابه، ومنها قوله: جاءته نشابة فذبحته، جعل

الشهـادة في سبيـل اللـه عقـوبـة، وهذه الـواقعـة في هـذه السنـة، وابـن البوشنجي استشهـد في سنة ست وثمانين وخمسمائة بعد أخذ الفـرنج عكا من السلطـان، ومن العجائب في هذه الـواقعة أنني اجتمعـت بشيخ دار الحديـث المظفريـة بـالموصل في سنـة خمس وستمائة، وجـرت مذاكـرة في غـزوات صلاح الـدين، فقـال: حضرت معه في بـرج عكا، والفـرنج قـد أخذوا عكـا، فبينما أنا قـاعد في سـوق العسكر، وإذا بشـاب من أحسـن الشباب قد جلس إلى جانبـي، فذاكرته فوجدته فاضـلاً فصيحاً من أهل بغداد مـن بيت البـوشنجي، قلت فما اللقـب؟ قال: يقبـح بي أن ألقب نفسي، فأقسمت عليه فقـال: يقال الرشيد، فقلت ومالـذي جاء بك إلى هـاهنا؟ فقـال: سمعت أن السلطـان يعرف مقـدار اولاد الناس ويحسـن إليهـم، ورغبت أيضـاً في الشهـادة فـأتيت إليـه، فـأحسـن إليّ وأكرمنـي وأعطاني، ثم قـال: أخاف ان تنقضي هذه الغزوات ومـاتحصل لي شهادة، فأسأل الله أن يرزقني الشهادة فقد تـاقت نفسي إليها، قال: فدعوت الله أن يختار لـه مافيـه الخيرة، ثم قلـت: ياسيـدي أنشدني شيئـاً من شعـرك فقال: نعـم...... ثم قام مـن عندي باكياً وقصـد الفرنج فـاستشهد رحمه الله تعالى.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير محمود أخو جاولي:

استشهد في هذه السنـة، وسبب ذلك أن السلطان وكلـه بحصن قلعة كوكب الذي على الغور وكانت فيها الاسبتـارية، وقد كانوا تمنعوا لشدتهم ومنعتهم.

وكانت جبلـة وأخذها في الثامن عشر من جمادى الاولى حـال وصوله على مانذكره.

وقال العماد الكاتب: وأشرفنا على جبلة يوم الخميس الثامن عشر، وتسلمنا الحصن في ذلك اليوم، وأقام السلطان بها أياماً.

وفي النوادر: ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل السلطان على تل قبالة حصن الاكراد، ثم سير الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا على تيزين في هذا التاريخ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بالسلطان في هذه المنزلة، فأقام في منزلته هذه ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه إلى حصن الاكراد وحاصره يوما يجسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره، واجتمعت العساكر من الجوانب، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية العساكر.

ولما كان يوم الجمعة الرابع من جمادى الاولى دخل على تعبئة للقاء العدو، ورتب الاطلاب، وسارت الميمنة اولا، وتقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الاخير ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار الثقل في وسط القلب حتى أتى المنزل، ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت، ورحل عنها يوم الاحد، ووصل إلى انطرطوس ضحوة نهار الاحد السادس من جمادى الاولى.

ذكر فتح انطرطوس:

ولما وصل انطرطوس في التاريخ المذكور، وقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاختيار، ثم اختار النزول، فأمر الميمنة والميسرة بالنزول على البحر من الجانبين، ونزل هو أيضاً في جانب آخر فأحدقت بها العساكر من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان حصينان كالقلعتين، ثم أمر الناس بالزحف والقتال، وشدوا عليها

جداً، ومـاستتم نصب الخيـم حتى صعد النـاس السور وأخذوهـا عنوة، وغنـم العسكر جميع مافيهـا، وخـرج الناس والاسرى بـأيديهم وأمـوالهم، وتـرك الغلمان نصب الخيـم واشتغلـوا بـالنهب والكسـب ووفى السلطـان بقوله، فإنـه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بـأنطرطوس إن شاء الله، وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً، ثم أمـر بتخريب سور البلد، وتخريب بيعة عظيمـة عندهم كانـوا يحجون إليها من اقطـار بلادهم، وأمر بـوضع النـار في البلد فـأحـرق جميعـه، فأقـام عليـه إلى الـرابع عشر مـن جمادى الاولى، ثم سار يريد جبلة، وكان وصـوله إليها في الثامن عشر من جمادى الاولى يوم الجمعة.

ذكر فتح جبلة:

ولما وصـل السلطـان الى جبلة في التـاريـخ المذكـور أخذ البلـدة يـوم وصوله، وكان فيها مسلمون مقيمون فيها، وقاض يحكم بينهم.

وفي المرآة: وكان قـاضيها منصـور بن بليـل فأرسـل الى السلطان يشير عليه بقصدها، وقيـل إن القاضي والاعيان خرجوا إليه وهونـوا عليه أمرها، وأخذ القـاضي من السلطان امانـا لاهل جبلة، وكـان ابرنس انطاكيـة قد سلمها الى القاضي ووثق به في حفظها فنـازلها وفتحها في التاريخ المذكور، وامتنع الحصـن عليه يـوما ثم سلمـوه اليه يوم السبـت بالامـان بعون الله وفضلـه وأقام عليهـا إلى الثالـث والعشرين مـن الشهر المذكـور ثم سـار عنها يطلب اللاذقية.

ذكر فتح اللاذقية:

نزل السلطـان عليها يوم الخميس الرابع والعشريـن من جمادى الاولى وهي بلدة لها ميناء وقلعتان متصلتـان على تل يشرف على البلد فنزل رحمه الله محدقاً بالبلـد، وأخذت العساكر منازلهم مستديـرين على القلعتين من

جميع نـواحيها الا من نـاحية البلد، واشتد القتـال وعظم الزحـف وأخذوا البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمـة، فإنه كان بلد التجار وفـرق بين النـاس الليـل، وأصبحـوا يوم الجمعـة مقـابلين مجتهـديـن في النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقـب حتى بلغ طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، واشتـد الزحف عليهم حتى صعدوا الجبـل وقاربوا السور، وتـواصل القتـال حتى صاروا يتحـاذفون بـالحجارة بـالايدي، فلما رأوا ذلك استغاثـوا وطلبوا الامان عشية الجمعة الخامـس عشر من الشهر المذكـور، وطلبوا قـاضي جبلـة فـدخل إليهـم ليقـرر لهم قـاعدة الامـان فـأجيبوا الى ذلـك، فدخـل القاضي وقـرر الحال معهم على أنهم يطلقـون بنفـوسهـم ونسـائهـم وذراريهم وأموالهم خـلا الغـلال والـذخـائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم السلطان دواب يركبـونها الى مأمنهم، ثم رقا عليهـا العلـم الاسلامـي المنصـور في بقيـة السبت السـادس عشر منـه، وأقاموا عليه إلى يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى.

وقـال العماد رحمه اللـه: ولما رحل السلطـان مـن جبلـة اتى الـلاذقيـة وفتحهـا في الـرابـع والعشريـن مـن جمادى الاولى، وهـي ثـلاث قـلاع متلاصقات على طـول التل، فلما عرفوا انهم مدركون طلبـوا الامان وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين عشية، ودخـل جماعة منهم في عقد الذمة، وانتقل الباقون إلى انطـاكية، ثم رتب السلطان جماعة مـن خواص مماليكه وأخـرج من القـلاع أهـل الكفر وأسكنهـا أهـل التـوحيد وولى بها سنقـر الخلاطي مملوكه، ثم ركب السلطان الى البلـد وطافه، وكانت قلعتهم هذه منيعة عـالية مـرتفعة، وللمملـك صلاح الديـن الساحـل وهلك البـاطل، وافتتحت طبرية وأعمالها، تمنعـت من ذلك قلعتان: قلعة صفد بـالداوية، وقلعـة كوكـب بالاسبتـاريـة، وتعذر فتحهما، ورتـب السلطان على صفـد جماعة يعرفـون بالناصرية، ومقـدمهم مسعود الصلتي، ورتـب على كوكب هـذا محمود المذكـور، وكان دينـا صـالحاً مشكور السيرة، فـأقام بحصـن قريب مـن كوكب يقال له عفـر بلا، وكان يسهر اكثر ليلـه متهجداً، وقد

جعل منزله مسجداً، فلما كان آخر ليلة من شوال، وكانت ليلة مظلمة مدلهمة خرج أهل كوكب وقت السحر، ومضوا إليه، والناس رقود، والحراس هجود، فما أحس محمود إلا وقد هجم الفرنج عليهم، فجاءتهم الشهادة، وبقي الامير حتى استشهد محصوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ونقلوا إلى القلعة ماوجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع، فلما عرف السلطان ماأصابهم ندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمي فضايقها وحصرها، ولم يزل عليها مقيماً إلى ان يسر الله فتحها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين مقيم على عكا.

ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته في هذه السنة:

وسار السلطان من عكا في المحرم، وحاصر حصن كوكب، فرآه منيعاً صعباً، ووقته مشغول بغيره، فوكل به الامير قايماز النجمي في خمسمائة فارس يضيقون عليه المسالك، وكذلك بصفد، وكانت للداوية، خمسمائة فارس مع طغرل الجاندار، يمنعون وصول الميرة والتقاوي، وبعث إلى الكرك والشوبك جيشاً آخر يحاصرونهما ويضيقون على أهليهما ليفرغ من أموره لقتال هذه الاماكن وحصارها، وسار منها في ربيع الاول ودخل دمشق ففرح الناس به، وكتب إلى ملوك الاطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام ثم خرج على مانذكره.

وفي المرآة: وكان الذي أرسله صلاح الدين إلى الكرك والشوبك صهره يقال له لوجيا.

وفي النـوادر: ولما خرج السلطـان نـزل على بحيرة قدس غـربي حمص، ووافته العساكر بها وأولهم عماد الدين زنكي بـن مودود بن زنكي صاحب سنجـار ونصيبين، ولما تكمـل عسكـره رحل ونـزل تحت حصـن الاكـراد وشـن الغارات على بـلاد الافرنـج، وسـار من حصـن الاكراد فنـزل على انطرطوس سادس جمادى الاولى فوجد الفرنج قد أخلوا انطرطوس، فسار إلى مرقـب فوجـدهم قـد أخلوهـا أيضاً، فسـار الى صوب جبلـة وهز إلى احسانها أعطافه، ثم رحل نحو صهيون.

ذكر فتح صهيون:

ولما سار السلطـان راحلاً من الـلاذقية نـزل على صهيون يوم الثـلاثاء التـاسع والعشريـن مـن جمادى الاولى، واستـدار العسكر بها مـن سـائر نواحيهـا بكرة الاربعاء، ونصـب عليها ستة منـاجيق، وهي قلعـة حصينة منيعـة في طرف جبـل، خنـادقها أوديـة هائلـة واسعـة عميقة، وليـس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقـدار طوله ستون ذراعا وهو نقر في صخر، ولها ثلاثة أسوار: سـوران دون ربضها، وسور دون القلة، وكان على قلتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الاسلامي وقع.

قال صـاحب النـوادر: شاهدت ذلـك حين وقع، فـاستبشر المسلمون بـذلـك، وعلمـوا أنـه النصر والفتـح، واشتـد القتـال عليهـا مـن سـائر الجوانب، فضربها منجنيق ولـده الملك الظاهر صاحب حلـب، وكان قد لحقه قبيـل فتح جبلـه بجحفله وعسكره، وحضر فتـوحها، ولما كـان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الـزحف، وركب وتقدم وأمر المنجنيقات بتـواتر الضربات، ومـا كان سـاعة الا وقد رقـا المسلمون على أسوار الـربض، واشتـد الزحف، وهجـم المسلمون الـربض، وانضـم من كـان فيه إلى القلعـة، واستدار المقـاتلة حـول أسوار القلعـة، فلما عاينـوا الهلاك طلبوا الامان، فبـذل لهم السلطان الامان على أن يسلموا بـأنفسهم

وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشر دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير دينارين، وسلمت القلعة، وأقام السلطان حتى تسلم قلاعا غيرها، وهي: بلاطنيس، وعيد، وقلعة الجماهير وغير ذلك .

وقال العماد: وكان تسلم عيد يوم السبت، وقلعة الجماهير يوم الاحد، وقلعة بلاطنيس يوم الاثنين، وقرر في كل حصن من تسلمه، ومامكنوا من الخروج حتى أحضروا ماقرر عليهم، وتولى جباية ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار.

وقال العماد: ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الامير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين.

ذكر فتح بكاس:

ولما رحل السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة وصل الى قلعة بكاس سادس جمادى الآخرة وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، ونزل السلطان على العاصي.

قال النويري: تسلمها يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور، وكان أهلها اخلوها قبل وصول السلطان وتحصنوا بقلعة شغر.

وفي النوادر: صعد السلطان جريدة الى القلعة، وهي على جبل مطل على العاصي، فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالا شديداً بالمنجنيقات والزحف الى يوم الجمعة، ثم يسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم، وغنم جميع ماكان فيها،

-١١٣٠٨-

ذكر فتح شغر

ولما تحصنت الفرنج بقلعة شغر، وهي قلعة شاخة منيفة، خيم السلطان بخيمة خفيفة الى الجبل لحصار القلعة فحاصرها في الثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الثلاثاء، ثم سلم السلطان حصن بكاس وحصن شغر الى غرس الدين قلج الساقي.

وفي النوادر: وكان لبكاس قليعة تسمى الشغر قريباً منها، يعبر اليها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الامان، وذلك في يوم الثلاثاء، وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، فأذن السلطان في ذلك، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة السادس عشر منه، بعون الله تعالى وفضله.

ذكر فتح سرمانية:

ولما فتح السلطان حصن شغر، أرسل ولده الملك الظاهر صاحب حلب، فحاصر سرمانية وأخذها بالامان، وهدم الحصن وعفى أثره.

وفي النوادر: أرسل صلاح الدين ولده المذكور الى قلعة تسمى سرمانية، يوم السبت سابع عشر جمادى الآخرة فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور، فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية في أيام الجمع، وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان رحمة الله عليه حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، ولم يتفق مثلها في تاريخ، وكان في هذه الحصون المذكورة من أسرى المسلمين عدد لايحصى، فأطلقوا وأعطوا النفقة والكسوة.

-١١٣٠٩-

ذكر فتح حصن برزية:

ثم سار السلطان من شغر إلى برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الأفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو تلها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً.

وقال العماد: وكان وصول السلطان إليها يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وملكها يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

قال: فأحدقنا بها وبالجبل ونصبنا عليها المجانيق في سفحها، ولما رأى السلطان أنه لاوصول إليها بالمجانيق، وأن الاشتغال بها يطيل الزمان، مال إلى الزحف، فقسم الناس ثلاثة أقسام، وجعل النوبة الاولى لعماد الدين زنكي صاحب سنجار، والملك العادل، وتقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية، واشتد القتال، وضاق بها الحال، ولما أيقنوا بأنهم ملكوا طلبوا الأمان، وكفوا عنهم، وكانت زوجة صاحب حصن برزية أخت زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال السلطان يطلبها حتى أظهروها وأحضروها فمنّ عليها بالاعتاق، وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق، وأحضر أيضاً ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم، وأدخلهم معها في الاطلاق وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على أهلهم، فسرت زوجة البرنس بأختها.

وفي المرآة: وكانت زوجة صاحب حصن برزيه عين للسلطان على الفرنج، والسلطان كان يرى إليها ويلاطفها، ولما فتحت القلعة أسرها السلطان وزوجها وأولادها، فأحسن إليهم وأطلقهم، وبعث معهم من أوصلهم إلى أنطاكية، فزادت محبتها للسلطان ومناصحتها له، وأنعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين المذكور عن قريب.

ذكر فتح قلعة دربساك:

ولما رحل السلطان مـن حصن برزية عبر من عنـد شقيف دركوش إلى شرقي العاصي، وجاء إلى جسر الحديد، وأقام هناك أيـاماً حتى تلاحق به العسكر، ثم سـار إلى دربساك، ونزل عليها يـوم الجمعة الثامن مـن شهر رجب وهي قلعة منيعة مرتفعة، وهي عـش الداوية، وقاتلها قتالاً شديداً، وضايقهـا مضايقة عظيمـة، وأمر بالنقـب تحت برج، وتمكن النقـب منها حتى وقـع، وحموه بالرجال المقاتلـة، ووقف في الثغـرة رجال يحمـونها ممن يصعد فيها.

قال صـاحب النوادر: ولقد شـاهدتهم وكلما قتل منهم رجـل قام غيره مقامـه، وهم قيـام عرض الجدار مكشـوفين إلى أن اشتد بهم الأمـر حتى طلبوا الامان فـأمنهم السلطان، وشرط عليهم أن ينزلوا بـأنفسهم وبثياب أبدانهم لاغير، فعنـد ذلك رقا عليهـا العلم الاسـلامي يوم الجمعـة أيضاً الثاني والعشرين مـن رجب وأعطاها لعلـم الدين سليمان بن جنـدر، ثم سار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من رجب متوجهاً إلى بغراس.

ذكر فتح قلعة بغراس:

وهـي قلعة منيعـة على رأس جبـل شامـخ قريبـة مـن أنطاكيـة، كثيرة العـدة والرجـال، فنزل العسكـر في مـرج لها وصعد السلطـان في جريـدة عسكره إلى الجبل، ووقف بازاء الحصن، فنصـب عليه المجانيق من جميع جهـاته، وعين يـزكاً لجانـب انطـاكية كيـلا يحصـل التشويـش من جهـة انطاكيـة، فضرب اليزك على بـاب انطاكيـة بحيث لايقـدر أحد أن يخرج منها.

وقال صـاحب النـوادر: وأنا كنـت في اليزك في بعـض الايام، ولم يـزل السلطان يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة حتى ضاق بهم الحال، فخرج

مقـدم الداويـة يستـأذنه في الحضـور، فـأذن لـه، ولما حضر طلب الامـان فـأمنهم السلطـان على حكـم دربساك، ورقـا العلـم السلطاني عليهـا في الثاني مـن شعبان، ثم سلـم السلطان قلعـة بغراس لعلم الـدين سليمان المذكور آنفاً، فتسلـم الحصنين: دربساك وبغراس، وكان علم الـدين هذا صاحـب أعزاز وتسلمها بـذخائرها، ووجد في بغـراس خاصة مـن الغلة اثني عشر ألف غرارة، سوى مافيها من سائر الاقوات.

ذكر مهادنة صاحب انطاكية:

ولما فرغ السلطـان من أمر بغراس عـزم على التوجه إلى أنطاكيـة، وكان الابرنس صاحبهـا عجل بارسال أخي زوجته يسأل مـن السلطان المهادنة والصلح على أن يطلق كـل أسير عنده، وأجابه السلطـان إلى ذلك، ووقع الصلح إلى ثمانية أشهـر، وكان الابرنس هـذا من أعظم ملوك الافـرنج في هذه ا لبلاد، وكان أهـل اطرابلس سلموا إليه اطرابلـس أيضاً بعد موت القومص صاحبها، وجعل الابرنس ابنه في اطرابلس.

وقال صـاحب النـوادر: وكانـت هدنتهـم إلى سبعة أشهـر على أنه إن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلدان إلى السلطان رحمه الله.

ذكر رحيل السلطان متوجها إلى دمشق:

لما فـرغ السلطان مـن أمـر بغراس ومهـادنـة صاحـب أنطـاكية رحـل قاصـداً الشام، فـأتى حلـب ودخلها في حـادي عشر شعبان، ثـم أعطى دستوراً للعسكـر، وودع عماد الديـن زنكي بـن مودود بـن زنكي بعـد أن أنعم عليـه بأنواع التحف والامتعـة والدواب، ويقال إنما دخـل السلطان حلب لان ولـده الملك الظـاهر سألـه ذلك، فـأتاها وأقـام بقلعتها ثـلاثة أيام، وولده يقـوم بالضيافة حق القيـام، ولم يبق من العسكر إلا مـن ناله شيء من نعمته، وبالغ في ذلك حتى أشفق عليه والده، ثم سار السلطان

من حلب في رابع عشر من شعبان قاصداً دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، واصطنع له طعاماً حسناً، وأحضر له سماع الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية، ثم سار على طريق بعلبك حتى أتاها، وأقام بمرجها يوماً ودخل إلى حمامها، ثم سار منها حتى أتى دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة، فأقام بها حتى دخل رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكن، وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها: صفد وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال ابن كثير: ولما دخل السلطان دمشق أشاروا عليه بتفريق العسكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير، والاجل غير مأمون، فخرج من دمشق لغزوته في أوائل رمضان يريد صفد.

ذكر فتح صفد:

ولما خرج من دمشق أتى على صفد في أثناء شهر رمضان، وهي قلعة منيعة قد تقاطع حولها بالاودية، فأحدق العسكر بها، ونصب المجانيق، ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلموها بالامان في الرابع عشر من شوال من هذه السنة.

ذكر فتح قلعة كوكب

ولما فرغ السلطان من أمر صفد سار إلى كوكب وعليها الأمير قايماز النجمي وقد ذكرنا ان السلطان خلاه عليها يحصرها، ونزل السلطان على سطح الجبل، وجرد العسكر وأحدقوا بالقلعة وضايقوها بالكلية، وكانت الأمطار متوالية، والوحول كثيرة بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة كبيرة، وعانى السلطان شدائدا وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار،

وكون العدو متسلطا عليهم بعلو مكان، وجرح خلق من العسكر وقتل جماعة، ولم يزل السلطان راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب على سورها، ولما أحسوا بالنقب وقد تمكن علموا أنهم مأخوذون فطلبوا الأمان إلى ذلك وأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع كلها في صور.

وقال ابن كثير: وكان حصن كوكب معدن الاسبتارية، كما ان صفد معدن الداوية، وكانوا أبغض أجناس الافرنج إلى السلطان، لايكاد يترك منهم أحدا إذا وقع من المأسورين، ولما فتحت قلعة كوكب عرضها السلطان على جماعة فلم يقبلوها، وتولاها قايماز النجمي عن كراهة.

ذكر فتح الكرك:

لما كان السلطان سار إلى البلاد الشمالية جعل على الكرك وغيرها من حاصرها أخاه الملك العادل في تلك البلاد يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الامان، فأمر العادل المباشرين لحصارها بأن يتسلموها فتسلموا الكرك والشوبك وغيرهما مما في تلك الجهات.

وقال العماد: وكان الملك العادل مقيماً بتبنين بالعسكر تحرزاً على البلاد من غائلة الفرنج، مقوياً للامراء المرتبين على الحصون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلا وبأهله منكلاً، فتوسلوا بالملك العادل حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم. وكان فتح الكرك في أثناء شهر رمضان.

وفي تاريخ بيبرس: قد كان الملك الناصر صلاح الدين رتب على الكرك العساكر صحبة سعد الدين كمشبه، صهر الملك العادل فحصروها ليلاً ونهاراً مدة حتى فنيت منها الازواد، وأكل أهلها جميع

الحيوان الذي عندهم، فأذعنوا للتسليم وسلموا، وكفى الله المسلمين شرهم.

ذكر مافعل صلاح الدين بعد هذه الفتوحات في هذه السنة:

قد ذكرنا أنه لما فرغ من أمر بغراس ومهادنة صاحب أنطاكية توجه إلى دمشق، وجعل طريقه على حلب، وكان معه الامير قاسم بن مهنا أمير المدينة، وكنيته أبو فليتة الحسني، وكان ميمون النقيبة، مبارك الطلعة، وكان السلطان قد تيمن بطلعته، فما حضر معه بلداً إلا فتحه، ثم جعل السلطان طريقه على المعرة، فزار قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، والشيخ أبا زكريا المغربي.

وقال العماد الكاتب: ولما خرجنا من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قصد السلطان زيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي أبي زكريا المغربي، وكان مقيما هناك، وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة، وكان القاضي الفاضل مع السلطان في هذه المواقف المذكورة، فكتب عن السلطان الى أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن يستدعيه إلى الشام لنصرة أهل الاسلام، فإنه قد عزم على حصار أنطاكية بنفسه، ويكون تقي الدين حاصراً طرابلس إذا نسلخ هذا العام، ثم عزم القاضي الفاضل على الدخول إلى الديارالمصرية،فسار السلطان معه لتوديعه، ثم عدل السلطان إلى القدس الشريف، فصام فيه الجمعة وعيد فيه عيد الاضحى، ثم سار ومعه أخوه الملك العادل إلى عسقلان، ثم أقطع أخاه الكرك عوضاً عن عسقلان، وأمره بالانصراف ليكون عوناً لابنه الملك العزيز في الديار المصرية، على حوادث الزمان، ثم عاد السلطان فأقام بمدينة عكا حتى انسلخت هذه السنة.

وفي النوادر: وكان دخول السلطان بيت المقدس، وصحبه أخوه الملك

العادل في ثامن ذي الحجة من هـذه السنة وصليا الجمعة في قبة الصخرة الشريفـة، وصليـا صـلاة العيـد بها يوم الأحـد، ثـم عـاد السلطـان إلى خيمتـه، وأمضى بقيـة يـومه، ثـم سـار يوم الاثنين الحادي عشر مـن ذي الحجة طالبـاً عسقلان لينظر في أحوالها ويـودع أخاه، فأقام بها أيـاما يلم شعثها، ويصلـح أحوالها، وودع أخـاه العادل، وأعطـاه الكرك وأخـذ منه عسقلان، ثم عاد يطلب عكا على طريق السـاحل، فأقام بها إلى أن مضى أكثر المحرم مـن السنة الآتية، ورتب بها بهاء الـدين قراقوش واليـاً، وأمره بعمارة السور والاطنـاب فيه، ومعـه حسام الـدين بشـارة، ثم سـار يريـد دمشق بعد وصول طائفة مـن عسكر مصر أودعهم في عكا مدد حفظها، ودخل دمشق في مستهل صفر من السنة الآتيـة على ماتذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن طـائفة من الـرافضية بمصر خرجـت يريدون ان يعيـدوا دولة الفاطميين الـذين حكموا في الديـار المصرية والشاميـة وغيرهما، واغتنموا غيبة الملـك العادل عـن مصر، واستخفوا بـأمر الملـك العزيـز عثمان ابن السلطـان صلاح الـدين فبعثـوا اثنـي عشر رجلا ينـادون في الليل: يـاآل علي، على أن العامـة تجيبهم إلى ماعـزموا عليـه، فلم يلتفت إليهـم أحد، فلما رأوا ذلك انهزموا فـأدركوا وأخذوا وقيدوا وحبسوا، ولما بلـغ أمرهـم إلى السلطان ساءه ذلك، وكـان القاضي الفاضل عنده بعد، ولم يفـارقه لاجل سفره إلى مصر، فقال له: أيها الملك ينبغـي أن تفرح ولاتحزن، فإنه لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتـك ولا التفتوا إليهم، ولو أنك بعثت من قبلك جـواسيس يختبرون رعيتك لسرك مابلغك عنهـم، فسرى به عنه ذلك، ورجع إلى قوله، ولهذا أرسله إلى مصر ليكون له عيناً وعوناً ومعينا...

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

أسامة بن منقذ: وهو أبو المظفر أسامة بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، الملقب مؤيد الدولة، مجد الدين، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم، له تصانيف عديدة في فنون الادب، وله ديوان شعر في جزئين، ذكره ابن المستوفي وأثنى عليه، وعده في جملة من ورد عليه، وأورد له مقاطيع من شعره.

وذكره العماد في الخريدة، وقال بعد الثناء عليه: سكن دمشق، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام بها حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فاستدعاه، وقد شيخ، فجاوز الثمانين، وقال العماد: وكنت أتمنى أبداً لقياه حتى لقيته في صفر سنة إحدى وسبعين، وسألته عن مولده فقال: يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بقلعة شيزر، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وتوفي والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وقال ابن خلكان: فرأيت ديوانه بخطه ونقلت منه:

لاتستقر جلدأعلى هجرانهم
فقواك تضعف عن صدودائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم
طوعاًو إلاعدت عودةراغم

وقال: ونقلت من خطه لنفسه وقد قلع ضرسه، وقال: عملتها ونحن بظاهر أخلاط، وهو معنى غريب يصلح أن يكون لغزاً في الضرس:

وصاحب لاأمل الدهر صحبته
ليشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم ألقـه مـذ تصـاحبنـا فحين بـدا
لنـاظـري افترقنـا فـرقـة الأبـد

ويروى: فمذ وقعت عيني عليه افترقنا فرقة الابد......

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الخامسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هـذه السنة والخليفـة الناصر لـدين الله والسلطان صـلاح الديـن يوسـف مقيم على عكـا، والامر مستقيـم، فوصـل إليه جماعـة من مصر، فأمرهم بالاقامة فيها محافظـة على الحماية، وأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بنـاء السور وولى الامير حسـام الديـن بشارة بعكـا والياً، ثـم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر من هذه السنة.

وفي تـاريـخ بيبرس أن السلطـان قـدم عكـا في أول هـذه السنـة، والصحيح أن السنة دخلت وهو مقيم على عكا.

وذكر صـاحب النوادر أنـه كان مـع السلطان، وأنه وصـل إلى عكا في أواخر ذي الحجـة من السنة الماضيـة، وأنه أقـام بعكا معظم المحـرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم سار حتى دخـل دمشق في مستهل صفر منها، وأقام حتى دخل ربيع الاول.

وفيه جاء رسل الخليفة إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى:

ذكر خروج السلطان صلاح الدين لأجل شقيف أرنون:

قال ابن كثير: أقام السلطان شهر صفـر في دمشق، ثم خرج منها في ثالث ربيع الأول يـوم الجمعة وأتى مرج برغوث، وأقـام به إلى يوم السبت حادي عشر الشهر، ثم رحل على سمت بـانياس، وأتى مرج عيون، وخيم

بقرب الشقيف وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الاول، وكان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، فنزل إلى خدمة السلطان، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان فقال له في التسليم، فقال: لايوافقني عليه أهل الحصن، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبس بها، ثم تحول السلطان من مخيمه إلى أعلى الجبل يوم الاربعاء الثامن من رجب لمحاصرة الحصن، ورتب له عدة من الامراء وأمرهم بملازمته في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه، وأجرى عليه حكم الحكيم.

وفي تاريخ بيبرس: لما نزل إلى السلطان صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، أظهر الطاعة والمودة، وقال: أنا محب لك ومعترف باحسانك، وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور مابيني وبينك، فينال أولادي وأهلي منه أذى فانهم عنده، وأشتهي ان تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم، وحينئذ أحضر أنا وإياهم إلى خدمتك ونسلم الحصن، وأكون في خدمتك، ونقنع بما تعطينا من اقطاع، فظن صدقه، فأجابه إلى ماسأل، وأقام بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب المدة، أعني مدة المهادنة التي بينه وبين صاحب أنطاكية، فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره وعساكر الشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء مدة الهدنة، وكان بلغه ان الفرنج اجتمعوا بمدينة صور، ومايتصل بهم من الامداد في البحر، وأن صاحب عسقلان الذي كان أسره ومن عليه اجتمع مع المركيس بصور وأنهم خرجوا في خلق لاتحصى، وكان يخشى أن يترك الشقيف وراء ظهره ويتقدم الى صور وفيها الجموع المتوفرة فتنقطع الميرة عنه، وكان أرناط صاحب الشقيف يجتهد في تحصينه وتحصيل مايقويه من الاقوات والسلاح، وبلغ ذلك الناصر فأحضره قبل انقضاء المدة فقال: تسلم الحصن، فاعتذر، وذكر ماذكرناه الآن.

وقال صاحب النوادر: نزل صاحب الشقيف بنفسه، فما حسسنا به الا وهو قائم على خيمة السلطان، فأذن له فدخل واحترمه وأكرمه، وكان من كبار الافرنج وعقلائها، وكان يعرف بالعربي، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده ثان، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وأنه يحب طاعته، وأنه يسلم المكان إليه من غير نقب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لايقدر على مساكنة الافرنج، وكان قد تردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي أتى إليه، وكان كل وقت يناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه.

ذكر ماتجدد للسلطان مدة اقامته بمرج عيون من الاحوال:

وبلغه أنه اجتمع من كان سلم من الافرنج على ملكهم الذي خلص من الاسر، وقالوا: نحن في جمع خارج عن الحصر وقد تواصلت الينا امداد من البحر فانهض بنا إلى ازالة هؤلاء عنا، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، فلم يمكنه من دخول البلد، ثم احتج أنه من قبل الملوك الذين من وراء البحار، وأنه منتظر لما يبرمونه من الامر، ثم اتفقوا على أن يقيم المركيس بصور، وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم، ويتساعدون على رم ماتشعث من أموالهم ويقصدون بلداً اسلامياً من الساحل والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع مايحتاجون إليه من الميرة والاسلحة والعدد، ووصل هذا الخبر يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاولى من اليزك، قالوا: إن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر، وأنهم

على قصد صيدا للحصر، فركب السلطان في الحال، فقبل وصول السلطان التقت اليزكية بهم فكسرتهم، وأسروا منهم سبعة من سباعهم، واستشهد من المماليك الخواص أيبك الاخرس، وقد كان شجاعاً شهماً، وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان، وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك، وأقام الى يوم الاربعاء تاسع الشهر، وركب في ذلك اليوم ليطلع في الجبل على القوم، ولم يكن له نية القتال، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال، وتبعه خلق كثير من غزاة البلاد بغير علمه وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال، وعلى عزمه، وكان الفرنج قد بصروا بالقوم فطمعوا فيهم، ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا، وحمل عليهم العدو فأسروهم وقتلوهم وختم الله لهم بالشهادة، وحمل الحاضرون من الامراء والعسكر على الافرنج حملة واحدة، وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر، والحرب سجال، فيوم لنا ويوم علينا، ولم يكن لاولئك الفرقاء بقتال الفرنج دربة، وممن لقي الله بالشهادة وختم له بالسعادة الامير غازي سعد الدولة بن مسعود ابن البصارو، وكان شاباً شجاعاً، فلم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة.

وفي النوادر: لما كان يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الاول بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا، وهي الارض التي نحن عليها، فركب السلطان وصاح الجاووش بالناس، فركب العسكر يريدون نحو اليزك، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر جماعة منهم الجسر، فنهض لهم اليزك الاسلامي، وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا، ورموا جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرس، وكان شجاعاً باسلاً مجرباً للحرب ممارساً، تقنطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا

عليه فقاتلوه، ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته، وعاد السلطان من الوقعة إلى مخيم ضرب لـه قريب المكان، وأقام هناك إلى يوم الاربعاء تاسع عشر جمادى الاولى المذكور، وركب يتشوف على القوم على عادته فتبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وأمر السلطان بردهم فلم يرتدوا، وذلك لأن المكان كان صعبا ليس للرجالة فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة على الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم، وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع من الفرنج خلق كثير فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيدا عنهم، ولم يكن معه عساكر، وأسروا من المسلمين جماعة وقتلوا جماعة، وعدّ من كان قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفر نج أيضاً عدة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية، وكان عندهم عظيماً.

ذكر مسير السلطان جريدة إلى عكا:

ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين في تلك الوقعة البادرة جمع أصحابه وشاورهم، وقرر معهم أنه يهجم على الفرنج ويعبر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ أو أزيد منه بشيء يسير، فلما صمم العزم على ذلك أصبح في يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الاولى على ذلك، وركب وسار وتبعه الناس المقاتلة والعساكر، ولما وصل أواخر الناس إلى اوائلهم وجدوا اليزك عائداً، وخيامهم قد قلعت فسئلوا عن ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها، معتصمين بقربها، ولما رأى السلطان ذلك منهم، رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي ويعود، فراح على تبنين، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى الى عكا ورتب أحوالها، وأمر بتتمة عمارة سورها، وأمر بالاحتياط، ثم عاد إلى

العسكر المنصور الذي بمرج عيون، وأقام منتظراً مهلة صاحب الشقيف.

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت السادس من جمادى الآخرة، بلغ السلطان أن جماعة من رجالة العدو يتبسطون ويصلون إلى تبنين يحتطبون، وفي قلبه مما جرى على رجالة المسلمين شيء عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم ويأخذهم فيه، ثم بلغه أن ورائهم خيلاً يحفظونهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير مغيرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها، وأن يكون ذلك صبيحة يوم الاثنين الثامن من جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسيروا حتى يكونوا وراء عسكر العدو، حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين في السلاح متجردين ليس معهم خيمة إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكرتبنين، وسار حتى قطع تبنين ورتب العسكر ثانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهر ويناوشوهم وينهزمون بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يقدمهم الملك، وكان قد بلغهم الخبر، فتعبوا تعبئة القتال، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الحرب بينهم إلى آخر النهار، ولم يرجع أحد منهم إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى، واتصل الخبر بالسلطان في آخر الأمر، وقد هجم الليل، فبعث إليهم بعوثاً كثيرة، ولما علم الفرنج بأوائل المدد عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين، وكان القتلى من الفرنج على ما ذكره من حضر زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة نفر: اثنان من اليزك، وأربعة من

العرب، منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسناً مقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه، ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً فرسه، وأسرهو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة، وكان للسلطان مملوك يسمى أيبك أثخن بالجراح، حتى اندس بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم يجدوه معرفوا السلطان، فأنفذ من يكشف خبره، فوجده بين القتلى فحملوه الى المخيم،وعافاه الله، وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر المذكور، منصورا فرحاً مسروراً، جزاه الله خيراً

وقال ابن كثير: وقتل مع زامل أمير العرب، الأمير حجي بن منصور ابن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن مرى بن ربيعة، وآخر معهم.

ذكر ركوب الأفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان إلى قبالتهم:

ولما وصل الخبر إلى السلطان أن العدو قد ركب نحو عكا، وذلك يوم الأربعاء ثامن رجب ـ وكان قد اجتمع بصور من أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان خلق عظيم حتى صاروا في عالم لايحصون كثرة وأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون، وصورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الفرنج في البحر عالم لايحصون كثرة، وساروا إلى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب، وضايقوا عكا، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين اليها طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريباً من الأفرنج بمرج عكا على تل كيسان.

وقال صاحب النوادر: كتب السلطان إلى سائر أرباب الأطراف بأن يتقدموا إلى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم، وقال: سار السلطان بالليل، وأصبح صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سائراً إلى عكا من طريق طبرية، إذ لم يكن ثمة طريق تسع العسكر إلاّ هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ويواصلوه بأخبارهم.

قال: وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له منية صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب، وفيه بلغنا أن الأفرنج نزلوا على عكا يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وسار هو جريدة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذهم على طريق تبنين، بمرج صفورية، فإنه كان واعدهم إليه، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث بعثاً بعد بعث حتى حصل فيه خلق كثير وعدد وافر، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً، وسار من الخروبة، وقد كان نزل عليها يوم الاربعاء خامس عشر الشهر، فسار منها حتى أتى تلاً يقال له تل كيسان في أوائل مرج عكا، وأمر الناس أن ينزلوا على هذه التعبئة، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة يقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخذول، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت، ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لايقدر أن يخرج منها واحد إلاّ ويجرح أو يقتل، وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، ومددهم من البحر لاينقطع، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والبعوث تتواصل من المسلمين والملوك والأمراء من الأقطار متتابعة، فأول من نزل ووصل الأمير الأجل الكبير تقي الدين صاحب حماه في

جحفله، وتتابعت الامراء والعساكـر الاسلامية، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الخلاطي باسهال شديد، فأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، فإنه كان شجاعاً دينا، ثم إن الفرنـج تكاثروا واستفحل أمـرهم واستـداروا بعكـا بحيث منعـوا مـن الـدخـول والخروج منها وذلـك يـوم الخميس سلخ رجـب، فلما رأى السلطان ذلك ضاق صـدره وثارت همته العـالية لفتـح الطريـق الى عكا لتستمـر السـابلة إليهـا بالميرة والنجـدة، فاستحضر أمـرائه وأصحاب الـرأي وشاورهـم في مضـايقة القـوم، واتفقوا على أن يضايقوا بحيث ينفصل الامر بالكلية او يفتح الطريق إلى عكا.

ذكر قيام الحرب لاجل فتح الطريق:

ولما أصبـح نهار يوم الجمعـة مستهـل شعبان مـن هـذه السنة أصبـح السلطـان على عزم القتـال، فرتـب عسكره ميمنـة وميسرة وقلباً واتفقـوا على أن تكـون الملاقـاة وقت الصـلاة والخطبـاء تخطـب، وهووقـت قبـول الدعـوات، فحملوا حملات عظيمة وهـم كالسـور المحيط مافيـه متسلق، والمسلمـون كالبنيـان المرصوص مـافيه خلـل، وكالحلقـة المفرغـة مااليهـا مدخـل، فلم يتحـرك الملاعين يوم من مـوضعهم، ودامـت الحرب بينهم وكلما قتـل واحد وقـف آخـر مكـانه حتـى دخـل الليـل وحجز بينهـم، فأصبحـوا يوم السبـت على الحرب كما أمسوا، واشتـدت الحرب أكثر ممـا كان، وأنفـذ السلطان طائفـة من شجعان المسلمين إلى البحـر من شمالي عكا، فلم يكن هنـاك خيم، لكن عساكرهـم ممتده من كـل ناحية، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة فـانهزموا الى تل المصلبين نحو القبة، وأخلوا ذلك الجانـب، وأصبح الطـريق الى عكـا من بـاب القلعة المسماة بقلعـة الملـك الى باب قـراقوش الـذي جدده، وصـار الطـريق مهيعـا يمر فيـه السـوقـي ومعه الحوائج، ويمـر بـه الـرجـل الواحـد والمرأة واليـزك بين الطريق وبين العـدو، ودخل السلطان رحمه الله في ذلك اليـوم عكا، ورقا على السـور ونظر إلى عسكـر العدو، وفـرح المسلمـون بنصر الله، وخـرج

العسكر الذين كانوا بها الى خدمة السلطان، ثم استدار العسكر الاسلامي حول عسكر الافرنج وأحدقوا بهم من كل جانب.

ذكر الوقعة العظمى:

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من شعبان من هذه السنة برزت الافرنج بأجمعهم وضربوا مع السلطان مصافاً، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى ان بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان إلى جانب وانضاف إليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج، واشتغلوا بقتال الميمنة، فصاح السلطان: ياللاسلام، فركبت الناس بأجمعهم، وحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب، وانعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان كل واحد من المسلمين قتل أربعين أو خمسين من الفرنج، وكان قتلى الفرنج تقدير عشرة آلاف، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية، وبعضهم وصل الى دمشق، ولم يكن وقف من المسلمين ثابتين نحو ألف نفس، فردت مائة ألف، وجافت الارض بعد هذه الوقعة من قتلى الفرنج، فلحق السلطان مرض، وحدث له قولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان الى الخروبة، فلما رحل السلطان تمكن الفرنج حينئذ من حصار عكار ، وانبسطوا في تلك الارض ، ولم يعلم السلطان أن ذلك كان من أكبر المصالح للعدو المخذول فإنهم اغتنموا هذه الفترة فحفروا حول مخيمهم خندقاً يجمع جيشهم من البحر الى البحر محدقاً ، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقاً ، وجعلوا له أبوابا يخرجون منها إذا أرادوا ، وتمكن الأمر وقوي الخطب .

وقال صاحب النوادر : واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة ، وفي القلب الملك ، وبين يديه الانجيل محمولا مستوراً بثوب أطلس مغطى ، يمسك أربعة أنفس أطرافه ، يسيرون بين يدي الملك ، وامتدت

الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها الى اخرها ، وكذا امتدت ميسرتهم في مقابلة ميمنة المسلمين الى اخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر ، والسلطان رحمه الله رتب عسكره في مقابلتهم ، فوقف هو في القلب ، وفي الميمنة ولده الملك الافضل ، ثم ولده الظاهر ، ثم عسكر المواصله يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايماز النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو مطل على البحر ، واما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي المشطوب وعلي بن أحمد من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج ورسلان بغا ، وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ، وفي مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه.

وهذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه ، يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النوال ، ويرغبهم في نصرة دين الله ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئا اطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً ، فأيده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ثم جاءت منهم حملة على عسكر ديار بكر ، وكانت بهم غرة عن الحرب ،

فلم يصبروا وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى كسرهم إلى انكسار معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضيه ، وصعدت طائفة منهم إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك ، وفي هذا اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة ، وأما الميسرة فإنها ثبتت ، فإن الحملة لم تصادمها ، وأما السلطان فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم يالـلاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الاطلاب ويخرق الصفوف، ثم أوى الى تحت التل الذي كان عليه الخيام وأما المنهزمون فإنهم بلغوا الى الاقحوانة فقطعوا جسر طبرية، وقوم وصلوا إلى دمشق، وأما المتبعون فاتبعوهم إلى العياضية ثم رجعوا عنهم، وقتلوا في الطريق جماعة من الغلمان والخربندية والساسة المنهزمين، ثم جاءوا على رأس السوق فقتلوا جماعة، وقتل منهم جماعة أيضاً، فإن السوق كان فيه خلق عظيم ولهم سلاح، ثم لما رأوا أن الميسرة الاسلامية ثابتة علموا أن الكسرة لم تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفريسير، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو، ولما رآهم نازلين من التل أرادوا لقاءهم فصبرهم السلطان إلى أن ولوا ظهورهم، فحملوا عليهم، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتراجع الناس من كل جانب فنصر الله الاسلام، وظل الناس في قتل وضرب وجرح الى ان اتصل المنهزمون الى عسكر العدو، ثم رجع الناس عنهم السالمون بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى وهم فرحون ومسرورون، وعاد السلطان إلى خيمته في ذلك اليوم فرحاً مسروراً، فافتقدوا المسلمين فكان مقدار مافقد من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى، وكان قد وقع من فرسه وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل أيضاً الامير مجلي، هذا الذي قتل من المسلمين، وأما في العدو فحزر سبعة آلاف نفر.

قال الراوي: ورأيتهم قد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم

بـدون سبعـة آلاف، ثـم إن السلطـان سـارع في الكتـب والـرسـل في رد المنهزمين مـن المسلمين حتى ردوا البعـض من عقبـة فيق، وكـان الغلمان والحواشي نهبـوا أموال النـاس، فـأمر السلطـان بجمـع ذلـك كله، وأمـر بـالنداء بـالـوعيد والتهـديـد، فأحضروا شيئـاً كثيراً حتـى صار بين يـدي السلطان مثـل التل، ثم أمـر بردها على أصحـابها، وصار من عـرف شيئاً واعطى عـلامته أعطـاه، وكان ذلـك يوم الجمعـة الثالـث والعشرين مـن شعبـان، ثم تحول السلطـان الى موضـع يقال لـه الخروبة، وهـو موضـع قريب من مكان الوقعة، ونزل هنـاك يوم السبت الرابع والعشرين منه، ثم في سلخ الشهـر استحضر أعيان عسكره وقـال: اعلموا أن هـؤلاء الكفار قد نزلـوا في بلادنا، ووطئوا أرض الاسلام، ولابد مـن الاهتمام بقلع هؤلاء، والله قد وجب علينا ذلك، وأنتم تعلمـون أن هذه عساكرنا، وليس وراءنا نجدة ننتظرهـا سوى الملك العادل، وهـو واصل انشاء الله، وهـذا العدو إن بقي وطـال أمره إلى أن ينفتح البحر، جـاءهم مدد عظيم، والـرأي كل الرأي عندي مناجزتهم، فليتكلم كل منكـم ماعنده في ذلك ، وكان ذلك في ثـالـث عشر تشريـن مـن الشهور الشمسيـة، فـامتحضت الآراء، ثـم اتفقـت على أن المصلحـة تـأخير العسكر إلى الخروبـة لتتراجـع أنفسهـم إليهـم، فقـد أخذ منهـم التعـب واستـولى على نفوسهـم الضجـر، ولهم خمسون يـوماً تحت السـلاح وفوق الخيـل، والخيل قـد ضجرت مـن عرك اللجم وسئمت نفـوسها ذلك، ويصل الملك العادل ويشـاركنا في الرأي، فوافقهـم السلطان على ذلك لكـونه قد حصل لـه مرض من كثـرة ماحمل على قلبه، ومـاعاناه مـن التعب، وحمل السلاح، فـأقام هناك ينتظـر أخاه الملك العـادل إلى يوم الاثنين عـاشر رمضان، ثـم إن السلطان أرسـل الى مصر يطلب أخاه العـادل ويستعجل الاسطول، فوصـل إليه الاسطول في خمسين قطعة مـع الامير حسام الديـن لؤلؤ، وكـان مظفراً شجاعـاً، وظفر ببطسـة للفرنـج فأخـذها ودخـل بها إلى عكا، فقـويت قلـوب المسلمين لذلك، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر في منتصف شوال.

وقال العماد: وكان وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء عشر من ذي القعدة في المراكب المستعدة بالبأس والشدة، وكانت عدته خمسين شينيا، فأول ماظفر الاسطول المنصور بشيني للفرنج عظيم الشان، فقتل مقاتلته، فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة واسعة، وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبأ في مدة هذا الحصار، ووصل إلى الافرنج في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنات الوجوه، اجتمعن من الجزائر، وسبلن أنفسهن لله تعالى بزعمهن، والتزمن أن لايمنعن أنفسهن ممن أراد بطانتهن من مقاتلي الفرنج، وزعمن أن هذه قربة للمسيح مافوقها قربة لاسيما إذا كان ممن اجتمعت فيه عزبة مع اقدام على القتال.

ذكر وصول خبر ملك الالمان لعنه الله:

وفي رمضان من هذه السنة وصل من حلب كتب من ولده الملك الظاهر غازي يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الالمان قد خرج إلى قسطنطينية في عدة عظيمة، قيل مائتا ألف، وقيل مائتان وستون ألفاً يريدون البلاد الاسلامية، وقيل إنهم في ثلاثمائة ألف مقاتل، وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع، وجاءت كتب أيضاً من صاحب قلعة الروم، مقدم الارمن يبدي نصيحة واشفاقاً وتخوفاً على البلاد واحتراقاً، ويقطع ان الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عثرة، وأبرق في كتبه وأرعد، وأبدع بخطابه وأبعد، ولاشك إلى دينه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا الخبر كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، واشتد ذلك على السلطان، وعظم عليه، ورأى استنفار الناس الجهاد واعلام الخليفة بذلك.

قال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم صاحب النوادر: استندبني السلطان لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب

سنجار، وصاحب الجزيرة، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى بغداد لاعلام الخليفة الناصر لدين الله.

قال: وكان مسيري في الحادي عشر من رمضان من هذه السنة ويسر الله الوصول إلى الجماعة المذكورين فأجابوا، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة، وسار ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة بنفسه بجر عسكره، وسير صاحب الموصل عز الدين ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره.

قال: وحضرت الديوان السعيد ببغداد، وأعلمت الخليفة بذلك، ووعد بكل جميل، ثم عدت إلى خدمة السلطان وكان وصولي إليه يوم الخميس خامس ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة، وكانت العساكر قد تجهزت فسبقتهم وعرفته باجابتهم بالسمع والطاعة، وتأهبهم للمسير، فسرّ بذلك وفرح فرحاً شديداً، وانسلخت هذه السنة والحال على ماهو عليه، ولاملجأ من الله إلا إليه.

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه في محرم أمر الخليفة أن يعهد الى ولده أبي نصر، وأن أمير المؤمنين أنعم النظر للمسلمين بتفويض عهده والإمامة من بعده إلى ولده عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد، لما علم من عقله الراجح وهديه الواضح، وبعث الخليفة مع ضياء الدين عبد الوهاب بن علي الصوفي، ويعرف بابن سكينة، نسخاً إلى صلاح الدين في الخطبة، وبعث إلى جميع الآفاق، فالتقاه السلطان وخطب له على المنابر، وكان الخطيب بدمشق عبد الملك بن زيد الدولعي، وبعث السلطان جواب الرسالة مع ضياء

الـديـن بـن الشهـرزوري، وبعث معـه بصليـب كـان على صخـرة بيـت المقدس، فجعل على باب النوبي تطأه الاقدام ويهان، وهو بحاله إلى هلم جرا.

وقال ابـن كثير: وفي صفر قدم من جهـة الخليفة رسل يعلمـون صلاح الديـن بولاية العهـد إلى عدة الديـن الملقب بالظـاهر ابن الامـام الناصر لديـن الله، فـأمر السلطـان لخطيب دمشـق أن يخطب لـه بعد الخليفـة، فخطب يوم الجمعـة ثالث صفر، ونثر عليـه الدنانير والدراهـم، ثـم جهز السلطان مع الرسل تحفاً عظيمة وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حـربهم، وأرسل بصليب الصلبوت ودفـن تحت عتبة باب النوبي من دار الخلافـة فكان يداس بعدما كان يقبـل ويباس، وصار يبصق عليـه بعدمـا كان يسجـد عليه، وكـان هذا الصليـب من نحـاس مطلياً بالذهب.

ومنها أن السلطـان صلاح الـدين ولى دمشـق بدر الـدين مـودود أخا العادل لأمه شحنكية دمشق.

ومنها أنه في جمادى الاولى ولـد للملك العزيز ولـد سماه محمداً، ولقبه ناصر الـدين، وهو الـذي اجتمع عليه أصحـاب العزيـز عند موتـه سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان مـلازما للسلطان صلاح الدين يـوسف حتـى تـوفي في ركابـه، وكـان ممن تفقـه على الشيـخ أبي القاسـم البزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والامراء الكبراء.

وقـال العماد: توفي الفقيـه عيسى بمنـزلة الخروبـة سحرة يـوم الثلاثـاء تـاسـع ذي القعـدة لسنــة خمس وثمانين وخمسمائة، وحمل مـن يـومـه إلى القدس فدفن به، وكان من الاعيان، ومن مقربي السلطان.

وفي المرآة: وكـان لقبه ضيـاء الديـن، وحضر فتـوح القدس والفـرات، وكان صلاح الديـن يحبه ويحسن الظن به ويستشيره، وكأن اللـه قد أقامه لقضاء حوائج الناس، ويفرج عن المكروبين مع الورع والفقه...

الأمير موسك بـن جلودا والد الامير عماد الدين داود بن مـوسك، ابن خال السلطـان صلاح الدين، حفـظ القرآن وسمع الحديث وكـان محسناً إلى النـاس يقضي حوائجهـم ويتلطـف بهم، وكـان ملازمـاً للسلطـان في غـزواته لم يتخلـف عنه في مشهـد منها، وكـان ديناً صـالحاً جواداً مـرض بمرج عكـا مرضاً شـديداً، فـأمره السلطان أن يمضي إلى دمشـق يتطبب، فجـاء إلى دمشق فتـوفي بها ودفن بقـاسيون رحمه اللـه، وكانـت وفاتـه في شعبان من هذه السنة.

الأمير حسام الـدين طمان ــ صاحـب الرقـة ـ كـان شجاعـاً جواداً محسناً محباً للخير، كثير الصـدقات مائلاً إلى العلماء والفقهاء، بنـى مدرسة بحلب لاصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، وكـان السلطان صلاح الدين يحبـه، ويعتمد عليـه، ولما احتضر والسلطان في مقـابلة الافـرنج، طلـب حصـانـه وزرديته ليركـب ويشهـد مـن حـرصـه على الغزاة، فلـم يقـدر لضعفه، فجعل يبكي ويتـأسف على موته على فراشه، وكـان من شجعان المسلمين، توفي في ليلة النصف من شعبان، ودفن في تل العياضية، وحزن السلطان والمسلمون عليه.

الأمير سنقـر الخلاطي: تـوفي في ليلـة الاثنين السـابع والعشريـن مـن رجـب من هـذه السنة، وذلـك أيضاً حين كـان السلطان على عكـا رحمه الله.

-١١٣٣٤-

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسطان صلاح الدين مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر في خيمته المضروبة، وعكا محصورة، وجموع الفرنج على حصارها محشورة، وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع خلق كثير لان القتال لم ينقطع والتواقع لم يرتفع.

ذكر وقعة الرمل:

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يركب أحياناً للصيد، ولكن لايبعد من المخيم، وركب يوماً في صفر على عادته، فتصيد وطاب له الصيد فأبعد، واليزك على الرمل وساحل البحر من الميسرة على حذرهم واحتياطهم فإذا الفرنج خرجوا في عدد لايحصى وقت العصر فتسامع المسلمون، فزحفوا إليهم، وحملوا عليهم وطردوهم إلى خيامهم من خلفهم وأمامهم، ولم يزل بينهم حملة وردة ورمية حتى فني النشاب، فلما علم الفرنج بذلك حملوا حملة واحدة ردوا بها المسلمين إلى النهر، فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، فوقع بينهم قتا ل عظيم واستشهد جماعة من الشجعان وذلك لانهم ردوا الفرنج إليهم فلقوا فرساناً وصرعوا شجعاناً، ونزلوا واشتغلوا بالغنيمة، فحملت الفرنج عليهم حملة منكرة، فأشغلتهم عن الوثوب والانتهاض، وأظلم الليل، وافترق الفريقان عن قتلى، وكان ممن استشهد من المسلمين الحاجب ايدغمش المجدي رحمه الله ومملوك للسلطان كان يدعى أرغش، وكان خيراً صالحاً، ومن عجائب هذه الواقعة أن مملوكاً للسلطان يسمى قرا سنقر كان من الأبطال المشهورين عثر به جواده فصار راجلاً، فقبض

عليه من أسره وسحبه من شعره، وجاء آخر وسل سيفه عليه ليضربه، فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتد يعدو وهم يعدون وراءه ليقتلوه، وفاتهم بعون الله تعالى.

ذكر فتح شقيف أرنون:

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم صلاح الدين بالامان شقيف أرنون، وكان الحصار مستمراً عليه من السنة الماضية، وكان السلطان حبس صاحبها أرناط في دمشق على مافصلناه، فلما تسلم السلطان شقيف أرنون أفرج عن أرناط، وصار الى صور، وكان هذا من أدهى الفرنج وأخبرهم بأيام الناس، كما قرأ في كتب الحديث وتفسير القرآن، ومع هذا كان غليظ الجلد كما في القلب قبحه الله.

وفي النوادر: لما كان التاريخ المذكور علم الفرنج المستحفظون بالشقيف أنه لاعاصم لهم من أمر الله، وأنهم أخذوا عنوه، فطلبوا الامان، وكانوا علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد العذاب، فاستقرت القاعدة على أن يطلق صاحبهم وجميع من فيه من الفرنج، ويترك مافيه من أنواع المال والذخائر، فأمنهم السلطان على ذلك وسلموا الشقيف، وعاد صاحبهم والفرنج الذين كانوا به إلى صور.

ذكر حال عكا وكيفية الوصول إليها:

كان السلطان قد قوى عكا بتسيير الغلات والاقوات إليها، وملأها، بالذخائر والاسلحة، ثم لما انقضى الشتاء وانفتح البحر، وحان زمان القتال كتب السلطان إلى العساكر يستدعيهم من الاطراف، ولما تواصل أوائل العساكر، وقوي جيش الاسلام رحل السلطان رحمه الله نحو العدو فنزل بتل كيسان، وذلك في الثامن عشر من ربيع الاول من هذه السنة،

ورتب عساكره، وكان خبر البلد قد انقطع عن السلطان، وامتنع عليه دخول البلد والمدد، فعند ذلك اشتد العوامون بالسباحة، وكانوا يحملون نفقات الاجناد على أوساطهم ويخاطرون بأنفسهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، وكان أهل عكا يكتبون إلى السلطان، ويكتب السلطان إليهم على أجنحة الحمام ويعرف الاحوال بذلك.

وقال ابن كثير: فلما انحسر الشتاء وانكسر البرد، وانتشر الربيع أمر السلطان باجتماع العساكر وكانوا قد تفرقوا فتوافوا، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم، ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان وحشود من العرب والتركمان، ثم رحل السلطان ونزل على كيسان في التاريخ المذكور، وترتبوا في النزول ميمنة وميسرة وقلباً، وكان الملك الافضل في أول الميمنة وأخوه الملك الظاهر في أول الميسرة.

ذكر وصول رسول الخليفة: لما كان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة وصل رسول من بغداد من عند الخليفة الناصر، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، وذلك في جواب رسالته مع ضياء الدين الشهرزوري، وأرسل الخليفة معه أحمالا من النفط والرماح الخطية، ومعه نفاطة متقنون لهذه الصناعة غاية الاتقان، ومرسوم بعشرين ألف دينار، وذلك في رقعة من الديوان العزيز تتضمن الاذن للسلطان في أن يقترض عشرين ألف دينار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز، فقبل السلطان جميع ماوصل واستعفى عن الرقعة.

وفي المرآة: ومع الرسول توقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة، فشق على السلطان، وقال: أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا

وأضعافه، وما أنا مضرور ، ورد عليه جميع ماجاء به، فأشار عليه بعض أصحابه بأخذ النفط للغزاة فأخذه، ورد التوقيع، وقال: يرحم الله العاضد وصل إليّ منه في عشرين يوما بمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ومعها عروض.

ذكر وصول الأمراء:

وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الآخر قدم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صاحب سنجار بمن استنهضه من العساكر، في جمع عظيم، ولقيه السلطان وأكرمه غاية الاكرام، ورتب له العسكر في لقائه، فكان أول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه، ثم لقيه أولاده بعد ذلك، ثم لقيه السلطان، ثم سار حتى أوقفه على العدو، ثم عاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له سماطاً لائقاً به، فحضر هو وجميع أصحابه، وكان قد بالغ في اكرامه حتى بسط له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوباً أطلس عند دخوله، ثم ضربت له خيمة على طرف الميسرة عند جانب النهر، وقدم إليه عشرة من الخيول العربية، وخمس عشرة بقجة قماش.

ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجرشاه بن غازي بن مودود، صاحب الجزيرة، بعساكره الكثيرة، وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الاخرى، ولقيه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمة ضربت إلى جانب عمه عماد الدين، ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خسروشاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود، وذلك يوم الجمعة تاسع جمادى الاولى، وكان أبوه أرسله نائباً عنه مقدماً على عسكره، ففرح السلطان بقدومه وتلقاه من بعد وأنزله عنده في خيمة ضربت له بين خيام ولديه الملك الافضل والملك الظاهر، وقدم له تحفاً سنية، وكان ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب والملك مظفر الدين بن علي كوجك،

صاحب حران، قدما قبل احتراق الابراج التي صنعها الافرنج.

وقضيتها أن البحر لما انفتح تواترت الافرنج والنصارى من كل جزيرة ينصرون أصحابهم ويمدونهم بالقوة والميرة، وعملت الافرنج ثلاثة أبرجة خشب وحديد عليها جلود مسقاة بالخل والخمر لئلا يعمل فيها النفط والنار، وطموا خندق عكا، وسحبوا الابراج على العجل إلى السور، فأقبلت أمثال الجبال، فأشرفت على البلد، وفي كل برج خمسمائة مقاتل، فأيس المسلمون من البلد، وقد حيل بينهم وبين السلطان، وركب السلطان والعساكر واجتهدوا في الوصول إلى البلد، فلم يقدروا ورماهم الزراقون الذين في البلد بالنفط، فلم يحترق منها شيء، فأهم أمرها المسلمين وكانوا عليها خائفين، فأعمل السلطان حيله وفكره في احراقها واهلاكها، فاستحضر النفاطين ووعدهم الاموال الجزيلة، فانتدب شاب نحاس من دمشق يعرف بعلي، عريف النحاسين، والتزم باحراقها واهلاكها، فأخذ النفط الابيض، وخلط إليه أدوية عرفها، وغلاه في ثلاث قدور من النحاس حتى صار ناراً تتأجج، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا، فأحرق الابراج الثلاثة باذن الله تعالى، حتى صارت ناراً لها ألسنة في الجو متصاعدة، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير واحترق في كل برج من مقاتلتهم سبعين كفوراً، ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان ٢٦] وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر فاحترقت في يوم واحد.

وفي المرآة: وكان هذا الشاب بعكا ليس له في الديوان اسم، وكان عارفاً بالنفط والحريق، وقال لقراقوش: انصب إليّ منجنيقاً أحرق هذه الأبراج، فقال له: قد عجز الصناع فمن أنت؟ فقال: قد عملت قدوراً لله تعالى، وأنا لاأريد منكم شيئاً، ومايضركم أن أرمي بها في سبيل الله فإن نفعت، وإلا فاحسبني واحداً منهم، فقال قراقوش: مايضرنا ذلك،

ثم نصب لـه المنجنيق، وكان قد هيـأ تلك القدور، فرمـى قدرة واحدة في برج فـاحترق بمن فيه، ثـم فعل ذلك بـالثاني والثالـث، فكبر المسلمون، وسمع السلطـان فكبر والعساكر وفـرح قراقـوش والأمراء وطموه بـالخلع والاموال، فلم يأخـذ شيئاً، وقال: أنا فعلت هذا لله تعـالى ولم يأخذ عليه شيئـاً من الـدنيا، وكـان السلطان أيضـاً قـد عرض عليـه العطية السنيـة فامتنع من قبـولها، وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه اللـه فلا أريد منكم جزاء ولاشكوراً.

ذكر وصول الاسطول من مصر:

وكان السلطـان قد أمر بتعمير اسطـول آخر من مصر، تصـل فيه الميرة والذخير والعدد الكثيرة، فلما كان ظهر يـوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهـر الاسطول فـركب السلطـان في جحافلـه ليشغـل الفرنـج عن قتـال الاسطول، وعمر الفـرنج أيضاً اسطولاً، وصفـوا شوانيه على البحر عـرضاً وطولاً، وأرادوا أن يـلاقوا الاسطـول المنصور، فجـاءت مراكـب الموحديـن ونطحت مـراكبهم وطحنتهـا، وأخذ المسلمـون لهم مركبـاً، وأخذ الافـرنج للمسلمين مركبـاً وكان التقصير مـن الرؤسـاء، واتصل الحرب في البر إلى حين غروب الشمـس، وعاد المسلمون مسرورين، وقتـل من الافرنـج عدد كبير لعنهم الله.

وقـال القـاضي بهاء الـديـن رحمه اللــه: التقـى الاسطـولان في البحـر والعسكران في البر، واضطرمـت نار الحرب، وباع كل فريق روحـه براحته الاخـرويـة، ورجح حيـاتـه الابـدية على حيـاتـه الـدنياويـة، وجـرى بين الاسطولين قتـال شديد أفصح عـن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخـذ منه شيني وقتـل من فيه، ونهب جميـع مافيه وظفر العـدو أيضاً بمركـب كان واصلاً من قسطنطينة، ورحل الاسطـول المصري إلى عكا، واتصل القتال بين العسكريـن من خارج البلد إلى أن حجـز بينهما الليل، وقد قتلـوا من

الافرنج خلقاً كثيراً، إلا أنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع في البحر والبر، ومن داخل عكا.

ذكر قصة ملك الالمان:

صح الخبر أن ملك الالمان عبر من قسطنطينية الخليج، وأنه وصل بجمعه إلى مضايق صعب عليه العبور، فقيل إنهم أقاموا في قفار ومواضع صعبة شهراً عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً، وكان التركمان الأوجية على طريقهم يمنعون.شريعتهم، فاضطروا إلى المقام بغير زاد، فصاروا يذبحون خيولهم ويأكلونها ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها، فترجلت منهم ألوف، وكان ذلك في البرد الشديد وزمان الثلج والجليد، وعدموا الدواب لحمل الاثقال، ونقلوا عدد الرجال فدفنوا من ذلك شيئاً كثيراً، وأحرقوا منها، وكان ظنهم أنهم إذا عادوا أخذوا مادفنوه، فأخذ المسلمون مادفنوه، وكانوا في عدد كثير، فما أثر فيهم ذلك ولاكسرهم عن مقصدهم ومازالوا يسيرون حتى بلغوا إلى بلاد صاحب الروم قونية وغيرها وهو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن (سليمان بن) قتلمش بن سلجوق.

وفي المرآة: وكانوا في ستمائة ألف مقاتل جاءوا من فرنجة، فخاف منهم ملك القسطنطينية فقالوا له: لاتخف نحن ماجئنا إلا لنخلص القدس وصليب الصلبوت، ونملك بلاد المسلمين، وكان بين السلطان صلاح الدين وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى السلطان بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة وجواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع في قسطنطينية، وكانت الخطبة أقيمت وأكرم الرسول اكراماً زائداً، وكان السلطان قد أنفذ مع الرسول خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوماً عظيماً، ولما رقا

الخطيب المنبر حضر هناك جمع كثير من التجار والمسلمين مقيمين بها، وأقام الخطيب الدعوة العباسية وبعد ذلك كله جاء رسول صاحب القسطنطينية الذي ذكرناه ومعه ترجمان يترجم، وهو شيخ حسن الوجه وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب مختوم بالذهب دون عرض كتاب بغداد مترجم في ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجه وضع فيها الختم من الذهب المطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع، وعلى الختم صورة الملك وصورة السطرين المذكورين:

«من ايتاكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله، المنصور العالي أبداً، فقتوس المدبر من الله، القاهر الذي لايغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس.

إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين».

وأما الذي في باطن الكتاب فإنه يتضمن اظهار المحبة والمودة، ثم ذكر خبر ملك الالمان، وقال: «لاتحمل على قلبك منهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم، وإنهم قد خسروا كثيراً من الاموال والدواب والرجال وبلغوا بالشدة، وقد تخلصوا من أجناد بلادي بالغصب، وقد ضعفوا بحيث أنهم لايصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً في شدة بعد شدة».

وأكرم السلطان رسوله وأقام بحقه كما هو العادة بين الملوك.

ووصل أيضاً كتاب إلى السلطان من مقدم الارمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات، وصورته: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس: مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين، سلطان

الاسلام والمسلمين أدام الله إقباله وضاعف جلاله وصان مهجته وكماله، وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله.

وأما أمر ملك الالمان فإنه دخل بلاد الهنكر غصبا، وأذعن له ملك الهنكر ودخل تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله مااختار، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأخلاها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فضة، وثياباً طلساً، مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، ورد الرهائن، وبقي سائراً ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع بينهم وبين التركمان، وضايقهم التركمان ثلاثة وثلاثين يوماً، ثم ذكر ماوقع بينه وبين قليج أرسلان على مانذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر ماجرى بينهم وبين قليج أرسلان:

ولما وصلوا إلى بلاد قليج أرسلان، وكان مملوكاً من ولده قطب الدين ملكشاه، وهويدبر أمره، عارضهم وتعرض لقتالهم وطاردهم ليضيق عليهم، ثم اندفع من بين أيديهم، ودخلوا قونية، واعتصم قليج أرسلان بقلعتها وتراسل هوومللك الالمان واتفقا بالمواثيق والايمان على ان يوافقه على العبور إلى الاقاليم الشامية والبلاد الاسلامية، وعلى أن يسير في بلاده إلى بلاد لافون ملك الأرمن، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى الماء، وأمر الناس بمبايعتهم على مايسومونه، وأقام لهم الاسواق، فساروا في رفق ورفاهية، ولماوصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الظعائن، واحتج عليهم بأن التركمان سرقوا منهم في طريقه.

وفي تاريخ بيبرس: ولما قربوا من قونية خرج إليهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان ليمنعهم، فلم يمكنه ذلك لكثرتهم، فراسله ملك الالمان، وأرسل إليه هدية وهادنه، وطلب منه من يسير معه إلى بيت المقدس، ثم سار إلى بلاد الارمن.

وفي المرآة: ولما دخلوا بلاد قليج أرسلان لم يكن له بهم طاقة، فاحتاج إلى مسالمتهم، وكتب إلى السلطان يعتذر بالعجز عنهم، وساروا طالبين الشام، ووقع فيهم الوباء وبدوابهم.

وذكر في النوادر: ولما قربوا من قونيه، جمع قطب الدين بن قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به الملك، وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرجت إليه جموع كثيرة من المسلمين فردهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف، وقتل منهم عالماً عظيما من المسلمين، وأقام بها خمسة أيام، فطلب منه قليج أرسلان الامان، فأمنه، واستمرت بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل ذلك وقبل منه.

وفي المرآة: ووصلوا إلى نهر طرسوس فتحصن منه ابن ليفون بقلعة من قلاعه لانه أرمني وهم روم.

قلت: التوفيق بين الكلامين أنه تحصن أولا منه خوفاً، ثم طلب منه الامان فأمنه، ونزل إلى خدمته، وأقام بواجبه.

ذكر هلاك ملك الالمان:

لماوصل ملك الالمان الى طرسوس، اجتاز هناك بنهر شديد الجرية، فدعته نفسه الخبيثة ان يسبح فيه، فنزل وصار فيه، فحمله الماء إلى جذم

شجرة هناك ففشخت رأسه، وأخذت أنفاسه، وراحت روحه إلى الهاوية، وأراح الله المسلمين منه، وكان شيخاً مسناً.

وفي تاريخ بيبرس: ثم سار إلى أنطاكية، وكان في طريقهم نهر، فنزلوا عنده، فعبر الملك النهر ليغتسل فمرض فمات، وكفى الله شره.

وفي المرآة: أراد الملك أن يسبح في نهر طرسوس، وكان ماؤه بارداً، فنهوه، وقالوا: لاتفعل فأنت متعوب، فقال: لابد من ذلك فسبح فيه، فأخذته الحمى، فأقاموا على النهر بسببه، فأوصى إلى ولده الذي كان في صحبته ومات فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوها في القدس.

وذكر صاحب النوادر: نزل على شط بعض الانهار، فأكل خبزاً ونام ساعة، وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج، وكان من أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

ولما شاهد لافون ملك الارمن هذا هرب وتحصن في بعض حصونه، واحتمى هناك.

ذكر إقامة ابن الملك مقامة:

ولماهلك اللعين المذكور أقيم ولده الاصغر في الملك بعده، وقد تمزق شملهم، وتفرق جمعهم.

وفي المرآة: ولما مات اختلفوا على ولده لانه كان له آخر آكبر منه، وكانوا يميلون إليه، فتأخر عنه أكثرهم، ودخل أنطاكية في جيش قليل.

وفي تاريخ بيبرس: وكان معه ولده فصيروه ملكاً عليهم، فاختلفوا

عليه، ومـال بعضهم إلى أخيـه، فسار فيمـن بقي معـه، وعرض جماعتـه، فكانـوا نيفاً وأربعين ألفـاً، ووقع فيهـم الوبـاء، وتخطفهم عسكـر حلب وغيرهم، ثـم ساروا إلى طـرابلس، فلـم يبق منهـم سوى ألـف، ثم ركبـوا البحر وقصـدوا عكا، ثـم أجمعوا على العود إلى بـلادهم في البحـر، فغرق بهم المركـب، ولم ينج منهـم أحد، وأرسـل قليـج أرسلان صـاحب الـروم يعلم السلطان صلاح الـدين بذلك، وبلغ الفرنج هـلاكه فأشعلوا النيران حزناً عليه.

وفي تاريـخ ابن كثير: وأمـا ولد ملـك الالمان فإنـه مرض أيـاماً في بلـد الارمن، وهلك أصحابه جوعـاً، ووقع الموت في خيلهم، وحمل الملك وهو مريض، وساروا أمامه في ثلاث نـوب لكثرتهم، ومعظـم رجالتهم حاملين العصي وركـاب حمير، وهـم غير عـارفين بـالطـريـق، والنـاس يلتقطـونهم ويتخطفونهم، ووصلـوا إلى أنطاكيـة وضاق بـالابرنـس صاحـب أنطاكيـة ذرعاً، ولم يجد عنـده مرتجى، وطلـب منه القلعة فـأخلاها لـه، ونقل مـاله إليها وسـأله أن يجعـل طريقه على حلـب، فخاف وأبـدى الخلاف، وقبل وصوله إلى انطاكية قلت جموعـه وجنوده، وبليت بحشد التركمان حشوده، واجتازت الفرقـة الاولى منهم على بغراس من تحت قلعتهـا، فخرج رجالها عليهم على قلتهم، فأسروا منهم أكثر مـن مائتي أسير، وقيل إنهم حسبوا أن بغـراس باقيـة على حالها بيـد الداويـة، فجاءوا إليهـم سحراً بـأحمالهم وأمـوالهم السنيه، فلـم يشعـر واليها إلا البغال على البـاب واقفة، فخـرج إليها وتسلمها بغير طعن ولاضرب، وتخلى عنهـا أصحابها لما عرفوا الحال، ولم يعـرجوا على حـرب، وهلك بـانطـاكية الكنـد الكبير مقدم العسكـر، وحصـل للابـرنس صـاحب انطـاكية أمـوال كثيرة من الـذخائر المودعـة وغيرها، ثـم سار هـؤلاء الملاعين على طريـق الساحـل، فخرجـت عليهم خيل الـلاذقية وجبلة وسقتهم أنـواع العذاب، فجدوا السير حتـى وصلوا إلى طرابلس وقـد نقص نصفهم، وخاف الملك مـن المسير على الطريق لما افترقت جموعه، فـركب البحر في عدديسير لايزيد على ألـف، واختلط مع

الافرنـج على عكا، فسقط اسمـه وبطل حكمه، وكـذلك شأن مـن يكفر بالله.

وقال ابن كثير: وصل ملك الالمان في خمسمائة ألـف مقاتل، وإن ملوك الافرنج كلهـم كرهوا قدومـه عليهم لما يخافون من سطـوته، وزوال دولتهم بدولتـه ولم يفرح بـه إلا المركيس صاحـب صور، الـذي حرك هـذه الفتنة وأثار هذه المحنـة لعنه الله، فانـه تقوى به وبكيده، وكـان خبيراً بالحروب والقتال، وقـد أحدث أشياء كثيرة، مـن آلات الحرب لم تخطر ببـال أحد، منها أنـه نصب دبـابات أمثال الجبـال تسير بعجل ولها زلـوم من حـديد ينطح السور فيكسر ويثلم جـوانبه، فمن الله العليم باحـراقها واتلافها، وأراح الله المسلمين من شـرهـا (٢٤)

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التي في طريق ملك الالمان:

لما تحقق السلطان صـلاح الدين رحمه الله وصـول ملك الالمان الى بلاد لافون، ملك الارمن، وقـربه من البلاد الاسلامية جمع أمـراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفـق الرأي على أن بعض العسكر يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العـدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو ببـاقي العسكر المنصور، فكان أول من سـار صاحب منبج، وهو نـاصر الديـن بن تقـي الديـن، ثم عـز الديـن بن المقـدم صاحـب كفرطـاب وبعريـن وغيرهما، ثم مجد الديـن صاحب بعلبـك، ثم سـابق الديـن صاحب شيـزر، ثم الياروقيـة من جملـة عسكر حلب، ثـم عسكر حماه، وسـار ولـده الملك الافضـل إلى دمشـق لمرض عـرض له، ثـم بـدر الدين شحنـة دمشق لمرض عرض له أيضـاً، وسار بعد ذلك ولـده الملك الظاهـر إلى حلب لحفظ الطـرق وكشف الاخبـار، وسار بعد ذلـك الملك المظفر لحفظ مايليـه من البلاد، وكان آخر من سافر ليلـة السبت التاسع

عشر من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة، ولما سارت هذه العساكر خفت ميمنة السلطان، فإن معظم من سار كانوا منها، فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميمنة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن زين الدين صاحب حران وشفي، ومرض بعده الملك الظاهر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الا كابر وغيرهم، إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، مع كونه مقروناً بموتان عظيم، وأقام السلطان رحمه الله مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو.

وفي تاريخ ابن كثير: عزم السلطان على استقبالهم بالرد، وصدهم عن القصد، ثم ثبت عزمه على أن يعود الذين لهم بلاد على طريق هؤلاء الملاعين، فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج، ثم فلان وفلان على ماذكرنا الآن، ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة، ورتب السلطان منازل العسكر الحاضره على ماذكرنا وتقدم، وهدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت.

وفي المرآة: وانقطعت أخبار عكا عن السلطان، فندب أقواما للسباحة وأعطاهم المال في أوساطهم والطيور في أعناقهم ليرووا الاخبار، فعلم بذلك الافرنج فاحترزوا بشباك نصبوها في الميناء، فإذا جاء سابح وقع فيها، فامتنع الناس، وبعث قراقوش يشكو قله الميرة، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا، فقال لهم: ارفعوا الصلبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج، ففعلوا ذلك، فخرج إليهم الافرنج في الشواني، فقالوا: نراكم قاصدين البلد؟ فقالوا: أو ما أخذتموه بعد؟ قالوا: لا، فقالوا وراءنا بطسة أخرى ردوها عن

البلـد، فـذهبوا عنهـم فـردوا القـلاع إلى البلد، ودخلـوا إلى الميناء، وكبر المسلمون وامتاروا أياماً.

ذكر الوقعة العادلية:

ولماكان يوم الاربعـاء العشرين من جمادى الآخرة من هـذه السنة، علم عـدو اللـه أن العسـاكـر تفـرقـت في أطـراف الـبـلاد للعـدو، وأن ميمنـة السلطـان قـد خفـت، أجمع رأيهم على أنهم يهجمـون على طـرف الميمنـة بغتة، فخرجوا ظهيرة يوم الاربعـاء، وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً، وانبثوا في الارض، وكـانوا عـدداً عظيماً، واستخفـوا طرف الميمنـة، وكـان في طرفهـا مخيم الملـك العادل، فلما بصر الناس بهم خـرجوا مـن خيامهم كـالاسود من آجـامها، وركـب السلطان صـلاح الديـن رحمه الله ونـادى مناديـه: ياللاسلام، وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب، وكان السلطان أول راكب.

وقـال قاضي القضـاة بهاء الـدين: ولقـد رأيته وقـد ركـب من خيمتـه وحوله نفـر يسير من خواصه، والنـاس لم يستتم ركوبهم، وهو كـالفاقدة ولدهـا الثاكلة، ثم ضرب الكـوس فأجابته كـوسات الامراء من أمـاكنها، وركـب الناس، وأمـا الفـرنج لعنهـم الله، فـإنهم سـارعوا في القصـد إلى الميمنة حتى وصلوا قبـل استتمام العساكـر حتى وصلـوا إلى مخيم الملـك العـادل، ودخلوا في وطـاقـه، وامتدت أيـديهم في السـوق وأطراف الخيـم بـالنهـب والغـارة، وقيــل وصلـوا إلى الخيمــة الخاص، وأخـذوا مــن شرابخـاناتـه شيئاً، وأمـا الملك العـادل لما علم بـذلك ركـب وخرج مـن خيمته واستركـب من يليه مـن الميمنة كـالطواشي قايماز النجمـي، ومن يجري مجراه مـن أسـود الاسـلام، ووقـف وقـوف مخادع حتـى تـوغـل بهم طمعهم في الخيـم، واشتغلوا بـالنهب مـن الاقمشة والفـواكه والمطـاعم، فعند ذلـك صاح العادل بالنـاس وحمل بنفسه يقدمه ولـده الكبير شمس الـدين، وحمل بحملتـه مـن كان يليـه مـن الميمنـة، وهجموا على العـدو

هجمة الاسود على فرائسها وأمكنهم الله منهم، ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين على أعقابهم، وسيف الاسلام يلتقط الارواح من الاشباح، ويفصل بين الاجساد والرؤوس، ويفرق بين الابدان والنفوس، ولما بصر السلطان بذلك نادى في الناس ياللاسلام، ياأبطال الموحدين، هذا عدو الله قد أمكن الله منه، وقد داخلهم الطمع حتى غشيوا خيامكم، فكان من المبادرين إلى إجابته جماعة من مماليكه وخاصته، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال، ووقف السلطان في القلب، فعند ذلك قامت الحرب على سوقها.

قال الراوي: فلم يك ساعة حتى رأينا القوم ﴿صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة٧] وامتدوا مطرحين، أولهم من خيام الملك العادل، وآخرهم عند خيامهم، وكانت المسافة بين المضربين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، وقتلى الافرنج مطرحين فيها ولم ينج منهم إلا النادر.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي فاجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد فيهم أ ربع نسوة يقاتلن، وأسرت منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير، فإن السلطان أمر أن لايستبقى أحد، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة، فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الامر، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، وانفصلت الحرب بعد العصر، ولم يفقد من المسلمين في هذا اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، وأما أهل عكا فإنهم كانوا يشاهدون الوقعة من أعالي السور، فخرجوا إلى مخيم العدو، وجرى بينهم مقتله عظيمة، وكانت النصرة للمسلمين، فأخذوا جمعاً من النسوان

والاقمشة حتى القدور فيها الطعـام، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فقيل كانوا ثمانية آلاف وقيل سبعة آلاف.

وقال قـاضي القضاة بهاء الديـن: ولقد شـاهدت منهم خمسـة صفوف أولها عند خيـم العادل وآخرهـا عند خيامهـم، ولقد رأيـت انساناً عـاقلاً جنديا يسعـى بين الصفوف من القتلى ويعدهم، فقلت لـه: كم عددت؟ فقال إلى هنا أربعـة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً، وكان قـد عدّ صفين وهو في الصف الثالث، لكن مامضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي.

ولما كـان يـوم الخميـس الحادي والعشريـن مـن جمادى الآخـرة ورد في عصره نجـاب مـن حلب، ومعـه كتـاب يتضمـن أن جماعة عظيمـة مـن العدو الشمالي خـرجوا لنهـب أطراف البـلاد الاسلاميـة، ونهض العسكر الاسلامي مـن حلب وأخذوا عليهم الطـريق فلم ينج منهـم أحد إلا من شاء الله عزوجـل، فضربت البشائر، ولم ير يوم أحسن منـه، وجاء في بقية ذلك اليـوم من اليـزك قيماز الحراني، وذكر أن العـدو قد سـأل من يصـل إليهـم ليسمـع منهم حديثاً في سـؤال الصلح، لضعف حـل بهم، ولم يزل أعـداء الله مـن ذلك الـوقت مكسـوري الجناح منهـاضي الجانب حتـى وصل إليهم كند يقال له كندهري.

ذكر وصول الكندهري:

هذا كـان ملكاً مـن ملوك الافـرنج ومـن أعيانهم، وصـل في البحر في مراكب عدة ومعـه من الاموال والذخائر والمير والاسلحة والـرجال عدد عظيم، فقوي بـوصوله جأش الافرنـج وحدثتهم نفوسهـم بكبس العسكر الاسلامـي ليلاً، وكثـر هذا الحديـث على ألسنة المستـأمنين والجواسيس، فجمع السلطان الامـراء وأرباب الرأي واستشارهـم فيما يفعـل، وكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخـرون عن العدو رجاء أن يخرجوا ويبعدوا عن خيامهـم فيمكن الله منهم، ووافقهم السلطان على ذلـك، فرحل إلى

جبل الخروبة بالعساكر بأسرها، وكان في يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ونزل بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة.

هذا والكتب متواصلة من عكا على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة منهم، وكان الكندهري المذكور قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ماتقل الجواسيس والمستأمنون ألفاً وخمسمائة دينار، وأعده ليقدمه على البلد، ولما رأى المسلمون أنهم سلطوا على البلد المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لايتعطل رميها لا ليلاً ولانهارا، وذلك في أثناء رجب من هذه السنة، وضيقوا على البلد، حركتهم النخوة الاسلامية، واتفقوا على أنهم يخرجون فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم، وكان مقدم العسكر الاسفهسلار الكبير حسام الدين أبو الهيجاء المقدم في الكرم والشجاعة، ووالي البلد وحارسه الامير الكبير بهاء الدين قراقوش، وفتحوا الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب، ولم يشعر الفرنج إلا والسيف فيهم حاكم، وسهم قضاء الدين فيهم نافذ، وتقدموا إلى أن ولجوا في خيامهم، ولما رأوهم كذلك ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها، فوصلت إليها شهب الزراقين والنفاطين حتى اضطرمت فيها النيران واحترق منها ماشيدته الاعداء في المدة الطويلة في أقرب أوان، وقتل منهم في ذلك اليوم سبعون فارساً، وأسر خلق عظيم، وكان في جملة الاسرى رجل مذكور فيهم ظفر به شخص من آحاد الناس، ولم يعلم بمكانته ولما انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حي أم لا، فعرف الذي عنده أنه رجل كبير، وخاف أن يغلب عليه ويؤخذ منه فسارع إلى قتله فقتله، وبذل الفرنج فيه أموالاً عظيمة، ولم يزالوا يسألون ذلك حتى رموا إليهم رأسه، فضربوا بنفوسهم الارض، وحثوا على رؤوسهم ووجوههم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة واستخفهم المسلمون بعد ذلك فهجموا عليهم من كل جانب، ولاسيما العرب،

فإنهم يدفون(٢٥) فيهم من كل ناحية يسرقون وينهبون ويأسرون ويقتلون، فانحلت عزيمتهم وضعفت قواهم، ولاسيما لما أحرق المسلمون ذلك المنجنيق العظيم الذي صنعه الكندهري، كما ذكرنا.

ذكر وصول البطس من مصر:

كتب الأمير بهاء الدين قراقوش متولي عكا إلى السلطان في العشر الأول من شعبان من هذه السنة أنه لم يبق عندهم من المؤن مايكفيهم إلى ليلة النصف، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسره في نفسه ولم يبده لأحد، خوفاً من شيوع ذلك فيبلغ إلى العدو فيقوى على المسلمين، وتضعف القلوب، وكان قد كتب إلى أمير الاسطول بالديار المصرية ليتقدم بمسيره إلى عكا، فوصلت ثلاث بطس ليلة النصف فيها من الميرة مايكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي في صحبة الأمير لؤلؤ الحاجب، فلما أشرفت على الناس، تقدم إليها اسطول الفرنج ليحاجز عن البلد، ويتلف البطس، فاقتتلوا في البحر قتالا عظيماً، والمسلمون في البر يبتهلون إلى الله تعالى عز وجل، والفرنج أيضاً يصرخون في البر والبحر، وقد ارتفع الضجيج، فنصر الله المسلمين، وسلمت مراكبهم وطابت الريح للبطس فسارت فأحرقت المراكب الافرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، وفرح بها أهل البلد والجيش فرحاً عظيماً، وكان السلطان رحمه الله قد جهز قبل هذه الثلاث بطس المصريات بطسة عظيمة من بيروت فيها أربعمائة غرارة قمح وشيء من الجبن والبصل والشحم والقديد والنشاب والنفط، وكانت هذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من التجار أن يتزيوا بزي الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدوا الزنانير، واستصحبوا معهم في البطسة شيئاً من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرمية، فحذرهم الفرنج غائلة الميناء من ناحية المسلمين، فاعتذروا بأنهم مغلوبون معها والريح قوية

لايمكنهم أن يقفوا ولاينصرفوا، ومازالوا كذلك حتى ولجوا الميناء، وأفرغوا ماكان معهم من الميرة ، والحرب خدعة.

قال صاحب النوادر: وكان ذلك في العشر الاخير من رجب.

ذكر احتراق بطسه عظيمة للفرنج:

كان ميناء عكا يكتنفه برجان يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذ الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه حركات، إذا أرادوا أن يضعوه على كل شيء من الاسوار والابرجة كليوه فيصل إلى ماأرادوه، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتارين حتى أرسل الله عليها شواظاً من نار فأحرقها وغرقها، وذلك أن الافرنج أعدوا فيها نفطاً كثيراً وحطباً جزلاً، وأخرى خلفها فيها حطب محض حتى إذا أراد المسلمون المحاققة عن الميناء بمراكبهم أرسلوا النفط على تلك البطسة الحطبية فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين فتحرقها، وبطسة أخرى لهم فيها مقاتلة تحت قبو قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان انعكس الامر عليهم بقدرة الرحمن وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الاخرى فغرقت، ووصل الى بطسة المقاتلة فتلفت وهلك من فيها، فأشبهوا من سلف من الكفار كما قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ [الحشر٢].

ذكر قصة عيسى العوام رحمه الله:

وكان عواماً، قيم في العوم يقال له عيسى، وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من الافرنج، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب مشمعة للعسكر، فنزل في

البحر، فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عن المسلمين، وذلك لان عادته أنه إذا دخل البلد أرسلوا طيراً يعرف بوصوله، فلم يجيء الطير فتحققوا أنه هلك، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طريق البحر في البلد إذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريباً فتسارعوا إليه فأخرجوه، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب المشمعة، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رؤي من أدى الامانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته الا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الاخير من رجب من هذه السنة.

ذكر اشتداد الحصار على عكا:

وفي ثالث رمضان من هذه السنة اشتد الحصار من الافرنج للبلد حتى نزلوا إلى الخندق، فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتمكنوا من حريق الكبش الذي اتخذوه لحصار الاسوار، وسرى حريقة الى السفود، فارتفعت له لهبة عظيمة في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل، فحصلوه عندهم وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام فكان فيه من الحديد مائة قنطار بالدمشقي.

وقال العماد الكاتب رحمه الله: وعمل الفرنج دبابة هائلة في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين العظيمين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فحاصل الكلام أبطل المسلمون سعيهم في ذلك وأحرقوها كما ذكرنا ولله الحمد.

وفي أثناء ذلك حصل للسلطان سوء مزاج من كثرة مايكابده من الامور التي هي أمر من الاجاج، فطمع العدو المخذول في الاسلام

فتجـرد منهم جماعـة للقتال، وثبـت آخرون على الحصـار، وأقبلوا في عـدد كثير، وعدد غزير.

وكانوا صوروا القدس في ورقة عظيمـة، وصوروا فيه صورة القمامة التي إليها يحجون ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه - على زعمهـم الفاسد - وذلـك القبر أصل حجهم، وهو الـذي يعتقدون نزول النور عليـه في كل سنة في عيد من أعيادهـم، فصوروا القبر، وصوروا عليه فرساً عليـه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطـىء قبر المسيح، وقد بـال الفـرس، وأظهروا هـذه الصـورة وراء البحـر في الاسواق والمجـامع والقسوس يحملـونها ورؤوسهم مكشفة، وعليهم المسـوح وينادون بالـويل والثبـور، فهاج بـذلك خـلائق لايحصـون، ولما كثروا على المسلمين رتـب السلطـان الجيش ميمنـة وميسرة وقلباً وجنـاحين، فلما رأى الفـرنج ذلـك فـروا مـن موقـف الحرب، فقتـل منهـم خلق كثير وجـم غفير، ولما دخـل فصـل الشتاء وانشمـرت مراكـب الافرنـج عـن البلد خـوفاً مـن الهلاك، وبسبـب الزمـان سـأل من في البلـد مـن المسلمين السلطان أن يخرجهـم ويريحهـم مما هم فيـه من الحصر العظيم والمقـاتلة ليلاً ونهاراً، وأن يـرسل إلى عكـا بدلهم، فـرق لهم السلطان، وعـزم على ذلك، وكـانوا قـريباً مـن عشرين ألف مسلم: مائتي أمير ومأمور، فجهز جيشاً آخر غيرهم.

قالوا: ولم يكن ذلك برأي جيـد، ولكن ماقصد السلطان إلا خيراً، لان هؤلاء الذين يـدخلون البلد جدد الهمم، ولهم قوة العـزم، وكانوا في راحة بالنسبة لاولئك، ولكـن اولئك كانت لهم خبرة بالبلد والقتـال، وكانوا قد تمرنوا على مـاهم فيـه من المصـابرة لـلاعداء بـراً وبحراً، وجهـزت لهؤلاء الداخلين سبع بطـس فيها ميرة تكفيهم سنة كاملة، فقـدر الله تعالى أنها لما توسطـت البحر واقتربـت من مينائهـا هاجـت ريح عظيمـة في البحر فتلقت بتلـك البطس على عظمهـا، فاختبطـت واضطربـت وتصادمـت وغرقـت وغرق من فيهـا من البحارة جميعهم، ومـافيها من الميرة، فـدخل

بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد مرض السلطان وازداد مرضاً إلى مرضه وكان ذلك عنواناً على أخذ البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب.

وذكر صاحب النوادر أن دخوله كان يوم الاربعاء السادس عشر من محرم سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء، ودخل مع المشطوب خلق كثير من الامراء وأعيان الناس.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة:

منها أن في يوم الخميس السادس عشر من رمضان من هذه السنة وصل الكتاب على جناح طير من حماه، وكان قد جاء إليها من حلب يذكر فيه أن الابرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية لشن الغارة عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر غازي، ولد السلطان، فكمنت الكمناء، وخرجوا عليهم، فلم يشعر الابرنس بهم الا والسيف قد وقع، فقتل من عسكره خمسة وسبعون نفراً، وأسر خلق كثير، واستعصم هو بنفسه في موضع يسمى شيحا حتى اندفعوا وساروا إلى بلدهم.

ومنها أن في أثناء العشر الاخير من رمضان ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة، وكانوا قاصدين نحو العدوفغنمهما المسلمون، وكانوا قد ظفروا ببركوس للمسلمين فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظفر بهاتين جبراً عن ذلك.

ومنها أنه قوي عزم الافرنج على الخروج إلى جهة المسلمين، وتغير

مـزاج السلطان بحمـى صفـراوية، فـاقتضـى الحال أن انتقلوا في عشيـة الاثنين تـاسع رمضـان من هـذه السنة، فنـزلوا على أعلى جبـل كفر عـم ورؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة عن الوحل.

وفي ذلك الـزمان مرض زيـن الدين يـوسف بن زيـن الدين صـاحب إربل مـرضاً شـديداً بحمتين مختلفتين، واستأذن في الـرواح فلم يـؤذن له، ثم استأذن في الانتقال إلى النـاصرة فأذن له في ذلك، وأقام بالنـاصرة أياماً وهو مـريض، فـاشتد بـه الأمر الى ليلـة الثلاثـاء الثامـن والعشرين مـن رمضان من هذه السنة، ثم توفي إلى رحمة اللـه، وعنده أخوه مظفر الدين، وحزن الناس عليه لشبابه وغربتـه، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده إربـل واستنزله عـن بلاده التي كـانت في يـده، وهي حران والـرها ومـايتبعها مـن البلاد والاعمال، وضـم إليـه شهـرزور أيضاً، واستـدعـى الملك المظفـر تقي الديـن عمر ابن أخيـه شاهنشـاه ليكون نازلاً مكـانه، وأقام مظفـر الدين كـوكبري بن زين الـدين علي بالمعسكـر المنصور إلى قدوم تقي الدين، وقدم ضاحي النهـار الثالث من شوال من هذه السنة، وفي صحبته معز الديـن سنجرشاه ابن سيف الدين غـازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيـرة، إذ ذاك، ثم تكرر سؤال عز الديـن هذا في طلب الدستور، والسلطـان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكـررة في معنى الصلح فلايجوز أن تنقص العسـاكر حتى يتبين على ماذا ينفصـل الحال من سلم أو حـرب، وهو لايـألوا جهـداً في طلب الـدستور، إلى أن كـان يوم عيـد الفطر مـن هذه السنة، وحضر سحـرة ذاك اليوم في باب خيمـة السلطان فـاستأذن في الـدخول فلـم يؤذن لـه، وكرر الاستئـذان فأذن لـه، فدخـل واستأذن في الـرواح شفاهـا، فذكر لـه السلطان وجوهـا تمنع مـن الرواح، فـانكـب على يده وقبلهـا كـالمودع لـه، ونهض مـن سـاعته وسـار وأمـر أصحـابـه أن اكفئوا القـدور وفيهـا الطعـام واقلعوا الخيـام، وتبعـوه على ذلك، فلما بلغ السلطـان إليه ذلك، كتب إليه: «إنـك قد قصدت الانتماء إليّ ابتداء وراجعتني في ذلـك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسـك وبلدك

من أهلـك، فقبلتك وآويتـك، ونصرتك، فبسطـت يدك في أمـوال الناس ودمائهـم وأعراضهـم،، فنفذت إليك ونهيتـك عن ذلـك مراراً فلـم تنته، فاتفـق وقوع هـذه الواقعة لـلاسلام فـدعونـاك فأتيت بعسكـر قد عـرفته وعرفـه الناس، وأقمت هذه المدة وقلقـت هذا القلق، وانصرفـت عن غير طيب نفس، وغير فصل حال مع العدو، فـانظر لنفسك وانظر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات».

وسلم الكتـاب إلى نجاب، فلحقـه قريباً مـن طبرية، فقـرأ الكتاب ولم يلتفـت إليـه، وسـار على وجهـه، وكـان الملك المظفـر تقـي الـديـن قـد استدعـي إلى الغزاة ـ كما ذكرنـا الآن ـ فلقيه في عقبة فيـق، وهو محث، وليست عليه امـارات حسنة، وسأله عن حـاله ففهم من كلامـه أنه سار والسلطـان غير راض عليـه، فقال لـه: المصلحـة أن تـرجع إلى خـدمتـه وتلازمها إلى أن يأذن لك السلطان، فأنـت صبي لاتعلم غائلة هذا الامر، فلم يلتفت إليـه، وأصر على الرواح، فخشن عليه الملك وقال: تـرجع من غير اختيار، وكان تقي الـدين شديد البأس مقدامـا على الامور، فلما علم معز الدين أنه قـابضه إن لم يرجع، فرجع باختياره، ورجـع معه حتى أتى العسكـر، وخـرج الملـك العـادل إلى لقـاء الملـك المظفـر، فـدخـلا على السلطان وسـألاه الصفح عنـه فعفا عنـه، وطلب أن يقيـم في جوار تقـي الديـن خشية على نفسه، فأذن في ذلـك، وأقام في جواره إلى حين ذهـابه، وكذلك عماد الـدين صاحب سنجـار، كان قد أصر على الرحيـل، ودخل على السلطان، فقبل يـده وسار من ساعته، فكتب السلطـان وراءه كتاباً، وكتب بيده في ظهره:

مـــن ضـــاع مثلي مـــن يـــديـــه
فليـــت شعـــري مـــا استفـــادا

فوقف عماد الدين عليه وانقطعت مراجعته بالكلية.

ومنها: أنه تواصلت الاخبار بضعف العدو المخذول، ووقع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى أن الغرارة من القمح بلغت في أنطاكية ستة وتسعين ديناراً صورية، ولايزيدهم ذلك إلا صبراً واصراراً وعناداً.

ومنها: أنهم ضاق بهم الامر وعظم الغلاء فخرج خلق عظيم مستأمنين لشدة الجوع، وقد ذكرنا أن السلطان كان قد عرض له مرض فطمعوا بذلك وظنوا أنه لايستطيع النهوض فخرجوا يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من هذه السنة بخيلهم ورجلهم متحملين أزواداً وخيماً، وكان خروجهم إلى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل العجول لما كانوا نازلين عليه، فأخذوا معهم عليق أربعة أيام، فأخبر السلطان بخروجهم على هذا الوجه، فأمر اليزك أن ينزاحوا من بين أيديهم إلى تل كيسان، وكان اليزك على تل العياضية، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور، وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل، فلما طلع الصبح جاء من أخبر السلطان رحمه الله بأنهم قد تحركوا للركوب، وكان رحمه الله قد أمر الثقل في أول الليل أن يسيروا إلى الناصرة والقيمون، فرحل الثقل وبقي الناس وأمر العسكر أن يركبوا ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال، وركب السلطان، وصاح الجاووش بالناس فركبوا، وسار حتى وقف بتل من جبال الخروبة، وابتدأت الميمنة بالمسير، فساروا حتى بلغ آخرها الجبل، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها إلى النهر، وقربت من البحر، وكان في الميمنة ولده الملك الافضل صاحب دمشق وولده الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وولده الملك الظافر صاحب بصرى، وولد عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه، ثم الملك العادل أخوه في طرفها، ويليه قريب منه حسام الدين بن لاجين والطواشي قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري، وحسام الدين بشارة صاحب نابلس، وبدر الدين دلدرم صاحب تل باشر الياروقي وجمع كثير من الامراء، وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة، وفي طرفها

الملك المظفر تقي الـدين ابـن أخيه، وسيـف الديـن علي بن المشطـوب وجميـع المهرانيـة والهكـارية وخشتريـن وغيرهـم مـن الأمراء الاكـراد وفي القلب الحلقة السلطانية، وأمر السلطـان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ليدور حـول العدو واليزك معهم، وأخفـى بعض الاطلاب وراء التلال، عسـاهم يجدون غـرة من العدو، ولم يـزل عدو اللـه يسير والناس يقاتلونهم من جميـع جوانبهم، ولم يزالوا سائرين حتى نـزلوا على تل هناك وضربوا خيـامهم ممتـدة منه إلى النهـر، وجرح منهـم في ذلك اليـوم خلق عظيم، وقتـل أيضاً خلق، وكانـوا إذا جرح واحد منهم حملـوه، وإذا قتل واحد منهم دفنوه وهـم سائرون حتى لايظهـر قتيل ولاجريح، وكان نزولهم يوم الثـلاثاء بعد الظهـر، وتراجعت العسـاكر عنهـم إلى مواطن المصـابرة ومواقف الحراسـة، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستديـر بهم بحيث يقع آخرهم على البحر، والميمنة تستدير بـالنهر من الجانب الشرقي، والجاليش يقـاتلونهم ويـرمـونهم بالنشـاب بحيث لاينقطـع النشـاب عنهم أصـلاً، وبات الناس تلـك الليلة على هذا المثال، وسـار السلطان إلى رأس جبل الخروبـة الذي كـان نـازلاً عليه في العـام الماضي، فنـزل في خيمة لطيفـة والناس حوله في خيم بمرأى العدو، وأخبارهـم تتواصل إليه في كل ساعة إلى الصبح.

ولما كان الصبح يـوم الاربعاء وصل من خبر أنهم تحركوا للـركوب عند الصبح، فركـب السلطان وذلك في صبيحة يوم الأربعاء الثـالث عشر من شوال ورتب الاطلاب، وسار حتى أتـى قرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهـد جميع أحـوالهم، وكان السلطـان رحمه الله ملتـاث المزاج، ضعيف القوة، قـوي القلب، ثـم بعث إلى العسـاكر وأمرهـم بالمقـاتلة والمضـايقة والحملة عليهم مـن كل جانب، وأمر الاطـلاب أن تحتاط بهم بحيث أن لاتكـون قريبـة ولابعيـدة ليكونـوا ردءاً للمقاتلـة الى ان تضـاحى النهـار، وسـاروا على شـاطيء النهـر مـن الجانـب الغـربي يطلبون جهـة خيمهـم والقتـال يشتد عليهـم مـن كـل جانـب، فـاشتـدوا في قتالهم مـن سـائر

الجوانب إلا من جانب النهر، والتحم القتال، فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم، وقد جعلوا راجلهم سوراً لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لايتركون أحداً يصل إليهم، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً والكوسات تخفق والبوقات تنفر والاصوات بالتهليل والتكبير، هذا والسطان يمد الجاليش بالاطلاب والعساكر إلى عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير، وعلم الفرنج مرتفع على عجلة، وهو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، حرفيه بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان، ولم يزالوا سائرين على هذا حتى وصلوا وقت الظهر إلى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش، وأخذ منهم التعب، واثختتهم الجراح، واشتد بهم الامر، ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً، وأعطوا الجهاد حقه، وهجموا عليهم هجوماً عظيماً واستداروا بهم كالحلقة، وهم لايظهرون من رجالتهم ولايحملون، وجرح في ذلك اليوم جماعة، منهم: اياز الطويل رحمه الله، وجرح جراحات معدودة وهو مستمر على القتال، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام وشجعانه، ولم يزل الناس حولهم في ذلك اليوم حتى نزلوا ظهيرة ذلك النهار عند جسر دعوق، وقطعوا الجسر وأخربوه خوفاً من عبور الناس إليهم، ورجع السلطان الى تل الخروبة، وأقام عليهم يزكاً يحرسهم، وبات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح، وعزم تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم، وكتب إلى البلد ـ أعني عكا ـ يعرفوا بذلك حتى يخرجوا هم من جانب، وعسكر السلطان من جانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب.

ولما كان صباح الخميس رابع عشر شهر شوال وصل من أخبر أن العدو في الحركة للرحيل، فركب السلطان وطلب الاطلاب، وكف الناس عن القتال خشية أن يغتالوا، وأوقف الاطلاب في الجانب الشرقي من

النهر يسيرون قبالة العدو، وكان ممن جرح من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس، وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كبير منهم، ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم بها أطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي، وحملت عليهم، وانتشب القتال بين اليزك وبينهم، وجرى فيه قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر، وقتل منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد إلى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب، فدفع إليهم جثته، وطلب رأسه فلم يوجد، وعاد السلطان إلى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلته، ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من هذه السنة رأى السلطان أن يضع للعدو كميناً، فأخرج جمعاً من كماة العسكر وشجعانهم وأبطالهم، وأمرهم أن يسيروا في الليل، ويكمنوا في سفح تل شمالي عكا بعيداً عن عسكر العدو، وأمرهم أن يظهر منهم نفر يسير ويقصدونهم في خيمهم، حتى إذا خرجوا انهزموا بين يديهم نحو الكمين، ففعلوا ذلك، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلاً، فكمنوا تحته، ولما علا نهار السبت الثالث والعشرين من شوال خرج منهم نفر يسير على خيل جياد، وساروا حتى أتوا مخيم العدو، ورموهم بالنشاب فانتخى منهم مقدار مائتي فارس، وخرجوا إليهم شاكين في السلاح على خيل جياد، وبعدة تامة، وليس معهم راجل واحد، وداخلهم الطمع فيهم لقلتهم، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم، حتى أتوا موضع الكمين، فخرج عليهم أبطال الموحدين، وصاحوا فيهم صيحة رجل واحد، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فرائسها، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فمكن الله المسلمين منهم، ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف حتى هلك منهم جمع عظيم، واستسلم الباقون للاسر، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم، وجاء البشير إلى السلطان، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير، وركب لملاقاتهم.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى تل كيسان واعتبر الاسارى، وكان فيهم مقدم عسكر الافرنسيس وخازن الملك أيضاً، ثم نزل السلطان في مخيمه فرحاً مسروراً، وأمر مناديا فنادى: ألا من كان عنده أسير فليحضر به، فأحضر الناس أسراهم، وأكرم المقدمين منهم، وألبس مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصاً، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية فإن البرد كان شديداً، وكانوا عرايا موتى من البرد، وأحضر لهم طعاماً فأكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق، وأذن لهم أن يراسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم مايحتاجون إليه من الثياب وغيرها، ففعلوا ذلك، وساروا إلى دمشق، وحبسوا هناك.

ومنها أن في اليوم التاسع من ذي الحجة من هذه السنة سقطت قطعة من سور عكا، وهي قطعة عظيمة.

وفي النوادر كان ذلك ليلة السبت السابع من ذي الحجة، فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة، فداخل العدو الطمع، وجاءوا إلى البلد كقطعة الليل المدلهم من كل جانب، فقام أهل البلد بهمم عالية، فقتلوا منهم جماعة، وجرحوا خلقاً عظيماً حتى أيسوا من أن ينالوا شيئاً من البلد، ووقف المسلمون موضع القطع كالسد، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع، ووضعوهم في ذلك المكان وحموهم بالنشاب والجروخ والمناجيق، فما مرت ليال يسيرة حتى فرغوا من بنائها بأحسن مما كان.

ومنها أنه وقع وباء عظيم في الجيشين :المسلمين والكافرين ، وكان السلطان يقول في ذلك:

اقتلــــــوني ومـــــــالكـــــــاً
واقتلــــوامــــالكـــــامعـــــي

ومنها أن في شهر ذي الحجة قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان، وكـان قد طال شـوق كل منهما إلى صـاحبه، فأفضـى كل واحد منهما إلى الآخـر ماكـان يسره ويكتمه من الآراء التـي فيها مصـالح المسلمين، وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق؛ قدس الله روحهما.

ومنهــا أن في يـوم الاثنين الثـاني والعشريـن مـن ذي الحجـة عـاد المستأمنـون من الفـرنج الـذين أنهضهـم السلطان في بـراكيس ليغـزوا في البحر، ويكونـوا أيضاً جواسيس للمسلمين ، فرجعوا وقـد غنموا ، وذكروا أنهم وقعـوا بحـراقــة كبيرة ومعهـا بـراكيـس، وفيهــا تجار معهـم أمـوال لاتحصى، فـأسروا التجار، وأخذوا الأمـوال وجذبوهـا إلى الساحل،فـأنعم السلطـان عليهـم بهذه الأكسـاب، فلما رأوا ذلـك مـن السلطـان أسلـم أكثرهم، وكانـوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضــة عظيمة وعليها مكبة بقيمة عـالية، ومعها طبـق يماثلها في الوزن، وكـل فضتها قاربـت قنطاراً، فقال السلطان: خذوها فأنتم بها أولى.

وقـال صاحـب النوادر: وكـان قـد استأمـن مـن الفرنـج خلق عظيـم أخرجهـم الجوع إلينا، وقـالوا للسلطـان: نحن نخوض البحر في بـراكيس ونكسب مـن العدو، فيكـون المكسب بيننـا وبين المسلمين ، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم براكيس، فساروا، ثم ذكر البقية مثلما ذكرنا.

قلت: البراكيس جمع بركوس، وهو المركب الصغير.

وفيها أن في الرابع والعشرين من ذي الحجة أخـذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسـون نفراً، وفي الخامس والعشرين منـه أخذ أيضاً بـركوس واحد فيـه من الفـرنج مقـدمون وروس وهـم نيف وعشرون، منهـم أربعة

خيالـة، ومعهم ملـوطة مكللـة باللؤلؤ بأزرار مـن الجواهر، قيـل إنها من ثياب ملـك الألمان، وأسر فيها رجـل كبير قيل إنـه ابن أخيـه، وهو كبير الشأن.

ومنها أنه لما هجـم الشتاء وهاج البحر أمنـت أهل عكا من أن يبـالغ العـدو في الحصار، وذلـك من شـدة الأمطار وتـواترهـا، فعند ذلـك أذن السلطـان رحمه الله للعسـاكر الاسـلامية في العـود إلى بلادهـم ليستريحوا ويريحوا خيولهم إلى وقـت العمل،فكان أول من سار عماد الديـن صاحب سنجارلما كان عنده من القلق في طلـب الدستور، وكان مسيره يوم الاثنين الخامس عشر من شـوال، وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيـه سنجرشاه صـاحب الجزيـرة، وذلـك بعد أن أفيـض عليهما مـن التشريف والانعـام والتحـف بما لم ينعـم بها على غيرهما، وسار عـلاء الـديـن ابن صـاحـب الموصل في مستهل ذي القعدة من هذه السنـة مشرفاً مكرماً، معه التحف والطرائف، وتأخـر من العساكر الملـك المظفر تقي الديـن إلى أن دخلت سنـة سبع وثمانين، وتـأخـر أيضـاً ولد السلطـان الملـك الظـاهر غـازي صاحب حلـب إلى أن سار إلى حلب ضاحي نهار الاربعاء تـاسع المحرم من السنة الآتية.

وسار الملـك المظفر في ثـالـث صفـر من السنـةالآتية وهـي سنة سبـع وثمانين ، ثم اشتغـل السلطان بـادخال البدل في البلـد، وأخرج مـن كان بها من الأمـراء الذيـن طالت شكـواهم إلى السلطـان من طـول الحصار وملازمـة القتـال ليـلاً ونهاراً، وأمر السلطـان بـإدخـال المير والـذخـائر والنفقات والعـدد إليها، وكـان مقدم بها يـومئذ الأمير حسـام الديـن أبو الهيجـاء، فخرج هـو وأصحابـه ومن كـان بها من الأمـراء ، وكان مقـدم الداخلين من الأمـراء الأمير سيف الدين أحمـد بن علي المشطوب ، وكـان دخولهم فـي يوم الاربعـاء السـادس عشر من المحـرم من السنـة الآتيـة، وأخـذ كل أميـر معه ميـرة سنـة كـاملة، وانتقـل الملك العـادل بعسكـره الـى حيفـا علـى

شاطىء النهر، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب، وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه، وأقام ثمة يحث الناس على الدخول، ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق إليها من العدومن يتعرض لها، وكان مما دخل إليها سبع بطس ملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان السلطان قد عينها من مدة مديدة، وكان دخولها يوم الاثنين الثاني من ذي الحجة من هذه السنة، أعني ست وثمانين، ولما علم العدو بذلك، وهم القائلون من جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد، فاندق بهم السلم، فتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وعادت بقيتهم خائبين خاسرين، وأما البطس فإن البحر هاج هياجاً عظيماً فضرب بعضها ببعض على الصخر، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها، وهلك فيها خلق كثير، قيل كانت عدتهم ستين نفراً، وكانت فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكانت كفت البلد سنة كاملة، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم، وحزن السلطان حزناً شديداً، وكان ذلك أول علامة أخذ البلد، والظفر به......

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بن بكتكين صاحب إربل، وهو أخو مظفر الدين بن زين الدين، كان عند السلطان صلاح الدين في هذه السنة على الخروبة، فمرض في رمضان، وارتحل من الخروبة إلى الناصرة، فأقام يمرض نفسه، وكان عنده أخوه مظفر الدين يمرضه، فيقال إنه سقاه سماً فمات، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك، فإنه لم يكترث لموته ولا تأسف عليه، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه كان صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه، وحزن المسلمون عليه لمكان عفته وشبابه وغربته، ظننا منا أنه قد حزن عليه حزن الأخ على أخيه، [وقصدناه معزين]فكأنا جئنا نهنيه، واذا به مشغول عنه

بحيازة أموالـه وأسبابـه، والقبض على عمـالـه وكتابـه، ثم أرسل مظفـر الدين الى السلطان يطلب منه إربـل، وينزل عن حران والـرها، فأجـابه الى ذلك وسألـه كتابا الى صـاحب إربل في هذا المعنى، وأضـاف اليه شهرزور واعمالها.

وقال ابـن كثير: وارتجع ما كـان بيد مظفر الـدين وهـو : حران والـرها وسميساط، وأعطـاها الملك المظفـر تقي الديـن عمر زيادة على مـابيده ، وهو ميافـارقين، وفي الشام حماه ومعرة النعمان وسلمية ومنبـج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس وديار بكر(٢٦).

الأمير سـوار: استشهـد على عكا في هـذه السنـة، وكـان من مماليـك السلطان الخواص.

وقال العماد: استشهـد على عكا سبعـة من الأمـراء من جملتهـم سوار المذكور، وكـذلك استشهد عدة من الاكراد وقـال: استشهد في اليوم التاسع من جمادى الأولى من هذه السنة....

ملك الألمان: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ، وقيل في ثلاثمائة ألف مقاتل كما ذكرنا، وقد أهلكه الله بالغرق كفرعون، كما ذكرنا.

ابن ملـك الألمان: الذي تولى بعد هـلاك أبيه على طرسـوس، هلك في آخر السنة، لعنه الله.

وقـال العماد: وهلك ابـن ملك الألمان بعلـة الجوف ولعلـه من مـرض الخوف في ثـاني عشر ذي الحجة مـن هـذه السنـة، وأدرك أباه في الـدرك الأسفل من النـار وأبصر في جهنم مصائر أمثاله مـن الكفار، وزاد لهلاكه ألم الألمانية، وانسـد بموته فـرج الأفرنجيـة، وتبعه في السفر إلى سقـر كند كبير يقـال له كنـد أرناط دافـع القدر فما قـدر، وهلك منهـم بالأمـراض المختلفة العدد الكثير، لعنهم الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مقيم على عكا والحصار مستمر على حاله من الجانبين، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد، والملك العادل أخو السلطان مخيم إلى جانب البحر ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم.

ذكر وقعات متعددة في هذه السنة بين المسلمين والأفرنج

الأولى: وقعت في مستهل ربيع الأول منها، خرج المسلمون من عكا فهجموا على مخيم الأفرنج، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا شيئاً كثيراً، وسبوا اثني عشر امرأة.

الثانية : وقعت في ثالث ربيع الأول بينهم وبين يزك السلطان ، وذلك أنه خرج إليهم من الأفرنج خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة قتل فيها من الأفرنج جماعة ، وقتل منهم رجل كبير على ما قيل، ولم يفقد من المسلمين إلا خادم كان للسلطان يسمى قراقوش، وكان شجاعاً عظيماً له وقعات كثيرة عظيمة استشهد في ذلك اليوم.

وفي بعض التواريخ: ولم يقتل من المسلمين في هذه الوقعة سوى طواشي صغير عثر به فرسه.

الثالثة: وقعة أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير صاحب حمص، وكان من حديثه أن السلطان رحمه الله كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس، ويأخذ بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية، وأنه قيل له إن أهل طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم وأبقارهم إلى مرج هناك، فخرج أسد الدين

على غرة منهم، وهجم على جشارهم فأخذ منه أربعمائة رأس من الخيل، ومائة رأس من البقر، فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقي، وعاد إلى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد، ولكن قتل منهم جماعة، ووصل كتابة بذلك إلى السلطان في الرابع من صفر من هذه السنة.

وفي ليلة هذا اليوم ألقت الريح مركباً لهم على الساحل فكسرته، وكان فيه خلق كثير منهم، فبصر به المسلمون فوثبوا عليهم وأخذوهم عن آخرهم.

وقال القاضي بهاء الدين: ولقد حضرت وقد عرض منهم على السلطان خمسة عشر نفراً.

الرابعة: وقعةالملك العادل أخي السلطان: وذلك أنه بلغ السلطان يوم السبت تاسع ربيع الأول منها أن العدو يخرجون طائفة بعد طائفة وينفسحون لبعد المسلمين عنهم، فاقتضى رأيه أن أنفذ أخاه الملك العادل، وفي خدمته خلق كثير من العساكر، وأمره أن يكمن وراء التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هوفكمن وراء تل العياضية، وكان معه من كبار أهله الملك المظفر تقي الدين وابنه ناصر الدين محمد والملك الأفضل ولده، ومعه من صغار أولاد ه الملك الأشرف محمد والملك المعظم تورانشاه والملك الصالح اسماعيل ، وكان من المتعممين القاضي الفاضل والديوان وقاضي القضاة بهاء الدين، وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد، وناوشوا العدو وباسطوه، فلم يخرج في ذلك اليوم أحد، وكأنه كان قد وشي إليهم بجلية الأمر، إلا أنه حصل في ذلك اليوم نوع نصرة للمسلمين، فإنه وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفراً من أسارى الفرنج، فإنهم كانوا قد أسروا في بيروت وسيروا إلى السلطان رحمه الله.

قال قاضي القضـاة بهاء الدين رحمه الله: ولقد شاهـدت من السلطان في ذلك اليوم رقة قلب ورحمة لم ير أعظم منها، وذلك أنه كان في الأسرى شيخ كبير طاعـن في السن، لم يبق في فمه ضرس ولا له قـوة إلا مقدار ما يتحرك بها لاغير، فقـال للترجمان: سله ما الـذي حملك على المجـيء وأنت في هذا السن، وكم مـن ها هنا إلى بلادك؟ فقال: أما بـلادي فبيني وبينها مسيرة عـدة أشهـر، وأمـا مجيئي فـإنـه كـان للحـج إلى القمامـة، فـرق لـه السلطان ومن عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو.

ولقـد سأل من السلطـان أولاده الصغـار أن يأذن لهم في قتـل الأسرى، فلم يـأذن لهم، قال القاضي بهاء الـدين: فسألتـه عن سبب المنـع وكنت حاجبهم فيما طلبوه، فقال: لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء.

ولقـد جـرت وقعـات أخـرى في هذه الأيـام إلى أن أخـذوا عكـا مـن المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر وصول ملك الافرنسيس

واسمـه فيليـب، وكـان وصـوله في الثـاني عشر مـن ربيـع الأول، يـوم السبـت في ست بطـس ملعونـة مشحـونه بعبـدة الصليب، وحين وصـل إليهم لم يبـق لأحد مـن ملوكهـم حكم، وذلـك لعظمته عنـدهم، وكـان الأفرنـج كل وقت يتواعدون المسلمين بقـدومـه ولاسيما لليزك ومـن يقاربهم من المسلمين، وكـان هذا الملعون من كبـار ملوكهم، لايتقدم عليـه أحد، ولما قدم كـان معه مـن الميرة ما يحتـاج إليه هـو وأصحابـه، وكذلـك من الخيل والسلاح ، وكان قد صحب معه مـن بلاده باز عظيم عنده ، هائل الخلق، أبيـض اللون، نادر الجنس، وكان يعـزه ويحبه حباً عظيماً فـانفلت من يده وطار وهـو يدعوه فلا يجيب حتى سقط على سـور عكا، فأمسكه أهلهـا وأرسلـوه إلى السلطان رحمه اللـه، وكـان لقـدومه استبشـار عظيـم بالظفر به، وتعالوا بذلك، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

ـ ١١٣٧١ ـ

ذكر قدوم كند فرند

قدم هذا اللعين بعد ملك الافرنسيس، وهو أيضاً من أكابر ملوكهم، وكان مقدماً عظيماً عندهم، مذكوراً، وكان حاصر حماه وحارم في عام الرملة.

ثم وصلت سفن عن ملك الانكتار ـ لعنه الله ـ واسمه جبلرت ، ولم يجيء هو لا نشغاله بجزيرة قبرس.

وقال العماد الكاتب: وصل الخبر أن ملك الانكتار وصل إلى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر في جمع عظيم ، وتقدمته إلى الجزيرة مراكب وشواني على قصد الجزيرة، فخرج صاحب قبرس إليها واستولى عليها وغنم اموالها، وصدم رجالها، فلما وصل مكث متحيراً، واشتغل بالقتال وأنفذ إلى الأفرنج الذين على عكا يطلب منهم نجدة فأنفذوا له جفري أخا الملك العتيق في جموع كثيرة، وامتدت الحروب بينهم، ثم تراسلوا في الصلح، واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتار، وحمل له هدايا وتحفاً، ووسع له الأزواد، وبذل له الأمداد.

وقال صاحب النوادر: وكان ملك الانكتار هذا شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوي الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحرب، ولكنه دون ملك الافرنسيس في الملك والمرتبة، ولكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة، وكان الأفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم. ولما كان يوم الأحد سلخ ربيع الآخر من هذه السنة وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة فيها خلق كثير من الرجال والنساء والميرة والأخشاب والآلات وغير ذلك، وفيها أربعون فرساً، وكان ذلك فتحاً عظيماً استبشر به المسلمون.

-١١٣٧٢-

ذكر وصول العساكر الاسلامية

لما انفتح البحر وطاب الزمان، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين قدم من العساكر الاسلامية خلق كثير، وكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر غازي، ولد السلطان صاحب حلب، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً، له وقائع ورأي حسن، والسلطان يحترمه ويكرمه لقدم صحبته، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه صاحب بعلبك، وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب.

ذكر زحف العدو إلى عكا

لما كان يوم الخميس الرابع من جمادى الأولى من هذه السنة زحف العدو إلى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعاً ، ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم، والتماس شغل العدو عنهم، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل إلى مضايقة العدو، فسار حتى وقف على الخروبة ورتب العساكر ميمنة وميسرة وقلباً، ثم بعث من كشف حال العدو، وحال خنادقهم، هل فيها كمين لهم أم لا، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين، فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم، وصعد تلاً كان يعرف بتل الفضول ، وهو قريب العدو ومشرف على خيامهم ، وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها، وهو بطال، ثم عاد سائراً إلى مخيمه.

قال قاضي القضاةبهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر، قد أخذوه من أمه وسرقوه.

ذكر قضية الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم ما قدروا عليه ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وكانوا سرقوه من مهده، وعرضوه على السلطان، وكان كل ما يأخذونه يعرضون عليه فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه، ولما علمت أمه بذلك وجدت عليه وجداً شديداً،، وباتت تلك الليلة مستغيثة بالويل والثبور حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها:إن سلطان المسلمين رحيم القلب، وقد أذنا لك بالخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك، فخرجت وهي تستغيث إلى يزك المسلمين ، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تل الخروبة.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاء شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها، ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون ، فأرضعته ساعة، ثم أمر بها السلطان فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم، فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة والشفقة الكاملة، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة:

ومليحة شهدت لها ضراتها
والحسن ليس لحقه من ناكر

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكري، وكان مقدماً عظيماً من أمراء الموصل، وصل مفارقاً لهم طالباً

خدمة السلطان، ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يمكث إلاساعة حتى وصل إليه الخبر بتجديد الزحف على عكا، فعاد وركب من ساعته، وسار نحو البلد فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين.

ذكر كيفية أخذ العدو مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان صبيحة يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى بلغ السلطان أن الأفرنج قد ضايقوا البلد وركبوا عليه المناجيق، فأمر الجاووش أن يصيح بالناس ، وركب وركب لركوبه العسكر فارسهم وراجلهم وسار حتى أتى الخروبة ، وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليهم، فلم يخرج العدو، واشتد زحفهم على البلد، فضايقهم السلطان مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً، وهجم عليهم في خنادقهم، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور، وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل بها من الشمس، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة، وقوى اليزك، وأمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ شيء من الراحة ، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف، لما أحسوا بانصراف السلطان عنهم، أشد مما كانوا أولاً، فأمر العسكر بالعود إلى جهة العدو أطلاباً أطلابا، وبات هو رحمه الله وجميع العسكر على تعبية القتال، ثم سار العسكر في أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى ا لأولى، إلى تل العياضية قبالة العدو، وضربت له خيمة لطيفة، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي، لكن جرائد مع بقاء الثقل على الخروبة، ونازل العدو في ذلك اليوم مجمعين على القتال الشديد على البلد من جميع جوانبه، والسلطان يدور بين الأطلاب، ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه، ولما رأى العدو تلك المنازلة خافوا من الهجوم على خيمهم فتراجعوا عن الزحف، وعاد السلطان إلى خيمته في تل العياضية، ورتب على خنادقهم من يخبر بحالهم ساعة فساعة، ثم إنهم بالغوا في مضايقة البلد،

ومبالغتهم في طم خندقه بالأتربة وغير ذلك حتى بموتى دوابهم، ونصبوا المجانيق والدبابات والسلالم، وجل همهم في طم خندق البلد،وألقوا فيه كل شيء، حتى آل أمرهم أنهم كانوا يلقون فيه موتاهم، وكانوا إذا جرح منهم واحد جراحة مميتة مؤيسة ألقوه فيه، وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساماً، فقسم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه، وقسم ينقلون ما يقطعون إلى البحر ويلقونه فيه، وقسم يذبون عنهم، ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار، ومع هذا قد أخذهم التعب والنصب ، وتكاثرت شكايتهم من ذلك، وقد ابتلوا ببلية لم يبتل بمثلها أحد، هذا والسلطان رحمه الله لايقطع الزحف عنهم، والمضايقة لخنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً، فحصلت هذه الأمور الشديدة ليلاً ونهاراً إلى أن وصل ملك الانكتار.

ذكر وصول ملك الانكتار

وقد وصل هذا اللعين يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى بعد مصالحته لصاحب قبرس كما ذكرنا، وكان في جمع عظيم في خمس وعشرين شينيا ملوءة بالرجال والسلاح والعدد، وأظهر الأفرنج بقدومه سروراً عظيماً وفرحوا فرحاً شديدا، حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم، وبلي الثغر منه بلاء لا يشبه ما قبله ، فعند ذلك حركت الكوسات في البلد، وكانت علامة بينهم وبين السلطان أيضاً كرسالة ، واقترب من البلد ليشغلهم عنه، وقد أحاطوا به من كل مكان، ونصبوا عليه سبعة مجانيق، وهي تضرب البلد ليلاً ونهاراً، ولا سيما على برج من جهة البر حتى أثر فيه أثراً بين وشرعوا في ردم الخندق بما أمكنهم من دواب ميتة ومن قتل منهم ومن مات أيضاً، وقاتلهم أهل البلد وهم ينقلون ما ألقوا فيه إلى البحر.

-١١٣٧٦-

ذكر ما جرى على البطسة الاسلامية

ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من هذه السنة وصلت بطسة عظيمة للمسلمين من بيروت مشحونة بالآلات والمير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها في بيروت وتسييرها، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكانت عدة رجالها ستمائة وخمسين رجلاً، فاعترضها ملك الانكتار اللعين في عدة شواني، وكان واقفا في البحر في أربعين مركباً لايترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية، فاحتاطوا بتلك البطسة من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها، وجرى القضاء والقدر بأن وقف الهواء، فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل من العدو خلق عظيم، وأحرقوا من شوانيهم شينيا كبيرا فيه كبير، فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً في الحرب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، ورأى أنهم لابد أن يقتلوا، قال: والله لا نقتل في أيديهم ولا نموت إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول، ولم يزالوا كذالك حتى فتحوا فيها من كل جانب مثل الأبواب ، فامتلأت ماء وغرق كل من فيها، وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك، ولم يظفر العدو بشيء منها أبداً، وكان اسم المقدم يعقوب، من أهل حلب، وتلقف العدو بعض من كان فيها وخلصوه من الغرق، ومثلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر حريق الدبابة الكفرية

وكان من لطف الله تعالى أن جبر المسلمين بأن مكنهم في اليوم الذي جرى على البطسة الاسلامية ما ذكرناه على حريق دبابة كان الفرنج قد اصطنعوها، وكانت هائلة عظيمة أربع طبقات: الأولى من الخشب،

والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت مشرفة على السور، وفيها المقاتلة، وقد قلق أهل البلد منها، وخافوا خوفاً شديداً بحيث أن أنفسهم حدثتهم من خوفهم من شرها أن يطلبوا الأمان من الأفرنج، ويسلموا البلد، وكان قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأي العين، وأخذ أهل البلد بتواتر ضربها بالنفط ليلاً ونهاراً حتى قدر الله حريقها واشتعال النار فيها، وظهرت لها ذؤابة نار نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، ورأى المسلمون ذلك جبراً لذلك الوهن، ونعمة بعد نقمة.

ذكر عدة وقعات بينهم وبين المسلمين من داخل وخارج

الأولى : كانت يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى ، فإنهم زحفوا على البلد زحفاً عظيماً ، وضايقوه مضايقة شديدة، وكان قد استقر بينهم وبين المسلمين أنه متى زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم، فضربوا كؤوسهم فأجابت كؤوس السلطان رحمه الله، وركبت العساكر وضايقهم السلطان من خارج وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم، وتجاوزوا خنادقهم، وأخذوا القدور من أثافيها، وحضر من الغنيمة المأخوذة عند السلطان شيء، ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنهم قد هجم عليهم وأخذوا فتراجعوا عن قتال البلد، وشرعوا في قتال العسكر، وانتشبت الحرب بينهم ، ولم تزل حتى قام قائم الظهيرة وغشي الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين، فتراجعت الطائفتان إلى خيامهم، وقد أخذ منهم التعب والحر. وانقضى القتال في ذلك اليوم.

الثانية: كانت يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، فدقوا الكؤوس على عادتهم فجاوبت كؤوس السلطان ، وثار القتال بين

الطائفتين، ولج العدو في مضايقة البلد ثقة منهم أن المسلمين لايهجمون على خيامهم وأنهم يهابونهم، فأكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً، ونهبوا منها فتراجعوا إلى قتال المسلمين ولحق من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرحت جماعة من الأفرنج.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: أعجب ما في هذه الواقعة أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير من أهل مازندران يريد الغزاة، فوصل والحرب قائمة، فلقي السلطان واستأذنه في الجهاد، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها في تلك الساعة ، ولما رأى الأفرنج دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم حركتهم الحمية وبعثتهم النخوة فخرجوا إلى ظاهر أسوارهم، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثباتاً عظيماً لم يتحركوا عن أماكنهم، والتحم القتال من الجانبين ، وصبر المسلمون صبر الكرام، ودخلوا في الحرب بالاقتحام، ولما رأى الأفرنج صبرهم وثباتهم أنفذوا رسولاً في غضون ذلك، فبلغ الرسول أولاً إلى الملك العادل، وأخذه وأتى به إلى خدمة السلطان، ومعه الملك الأفضل أيضاً، مضمون رسالته أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان، فأجاب السلطان في الحال بأن الملوك لايجتمعون إلا عن قاعدة، ولا يحسن الحرب بعد الاجتماع والمواكلة، وإذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة بترجمان يوثق به في الوسط، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى وينتظم.

الثالثة : كانت يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج فارسهم وراجلهم على المسلمين من جانب البحر شمالي البلد، ولما علم السلطان ذلك، ركب وركب العسكر وانتشب القتال بينهم، وقتل من المسلمين بدوي وكردي، وقتل من العدو جماعة وأسر آخرون

منهم واحد بلبسه وفرسه، ومثل بين يدي السلطان، ولم يزل القتال يعمل إلى أن حجز الليل بينهم.

الرابعة: كانت يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، فخرج منهم رجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو، فلقيتهم طائفة من اليزك، وجرى بينهم قتال عظيم، ووصلت رجالة المسلمين، والتحم الحرب، فأسروا مسلماً وقتلوه وحرقوه، وأسر المسلمون منهم واحداً، فقتلوه وحرقوه.

قال القاضي بهاء الدين: ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد، ثم مرض ملك الانكتار مرضاً شديداً أشفى منه على الهلاك، وخرج الأفرنسيس، وفارقهم المركيس، وسار إلى بلده صور خوفاً منهم أن يخرجوا ملكها من يده ، وبعث ملك الأنكتار إلى السلطان رحمه الله، فذكر أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نية ارسالها إليه، ولكنها قد ضعفت ، وهو يطلب لها دجاجاً وطيراً لتتقوى بذلك، فعرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه بتلطف وحيلة، وحمل إليه بشيء كبير من ذلك كرماً منه وسجية وحشمة، ثم أرسل يطلب فاكهة وثلجاً، فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الاحسان، بل لما عوفي عاد إلى أشر مما كان عليه، واشتد الحصار ليلا ونهاراً، وأرسل من بالبلد يقولون : إن لم تعملوا معنا شيئاً غدا وإلا طلبنا من الأفرنج أمانا، فشق ذلك على السلطان، وكان أمراً عظيماً، وذلك لأنه قد سير إليها أسلحة الشام والديار المصرية وسائر السواحل، وما كان من غنيمة وقعة حطين، ومن بيت المقدس وهي مشحونة بذلك، فعزم السلطان على مهاجمة العدو، فلما أصبح ركب في جيشه، وهذه هي الواقعة:

الخامسة: ورأى السلطان أن الأفرنج ركبوا من وراء خندقهم والرجالة منهم قد ضربوا سوراً حول الفرسان، وهم قطعة من حديد لا ينفذ بها

شيء، فأحجم عنهم لما يعلم من نكول جيشه، ولكنه ما رجع إلا عن قتال إلى أن حجز الليل.

ذكر قدوم بقية عسكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الأولى قدم فيه عسكر سنجار مقدمهم مجاهد الدين يرنقش، فلقيه السلطان فاحترمه وأكرمه، وكان دينا عاقلا محبا للغزو، وأنزله السلطان في الميسرة، وذلك بعد أن أنزله في خيمته، وفرح بقدومه فرحا شديدا، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر وفيهم علم الدين كرجي، وسيف الدين سنقر الدوادار، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل في عسكره فلقيه السلطان بالخروبة، ونزل هناك إلى بكرة الغد من اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة، ثم أصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو، فعرض عسكره هناك وأنزله السلطان في خيمته وحمل له من التحف ما يليق بكرمه،وأنزله في الميمنة، وفي يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا، واشتد مرض ملك الانكتار بحيث شغل الفرنج مرضه، وكان ذلك جبرا عظيما ولطفا جسيما من الله تعالى،فإن البلد ضعف من كان فيه ضعفاعظيما،واشتد الخناق شدةعظيمة،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل، ومع هذا فاللصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ويأخذون الرجال بأن يجيء جماعة إلى واحد منهم وهو نائم، ويضعون على حلقه السكين ثم يوقظونه ويقولون له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين، وجرى ذلك مرارا عديدة.

ذكر قوة زحفهم على البلد لعنهم الله

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب بتثقيل

أحجارها حتى خلخلوا أسوار البلد وأضعفوا بنيانها، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم، وكثرة الأعمال عليهم حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا لا ليلا ولا نهارا، والخلق الذين عليهم عدد كثيرة يتناوبون على القتال، ولما أحسوا بضعف المسلمين شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساما ، وتناوبوا فرقا كلما تعبت طائفة استراحت وقام غيرهم مقامهم ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم، وذلك في اليوم السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهارا، فلما علم السلطان بذلك ركب وركب العسكر بأسرهم وجمع الراجل والفارس ووعدهم ورغبهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين، والسلطان رحمه الله كالوالدة الثكلى يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد والملك العادل رحمه الله حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين، والسلطان يطوف بين الأطلاب وينادي باسمه يا للاسلام وعيناه تذرفان بالدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وإنما شرب بعض أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: وتأخرت عن حضور هذه الزحوف لما عراني مرض مشوش لمزاجي وكنت في الخيمة المضروبة في تل العياضية، وأنا أشاهد الجميع، ولما هجم الليل عاد السلطان إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والحزن فنام إلا من غفو، ولما كان وقت السحر أمر بدق الكوسات ، فركب وركبت العساكر من كل جانب، وأصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي هذا اليوم وصلت بطاقة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية، فما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ـ يعني يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة ـ إن لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان، ونسلم البلد، ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على سلاح جميع الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الاسلامية، واحتوت على كبار من أمراء الاسلام وشجعانهم كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما، وكان قراقوش ملازما لحراستها منذ نزل العدو المخذول عليها ، وحصل للسلطان من ذلك أمر عظيم وخيف على مزاجه التشوش، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك ، وهو صابرمحتسب ملازم مجتهد، ثم صاح في العسكر منادي من جهته، فركبت الأطلاب، واجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف في ذلك اليوم، ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم في الهجوم عليهم ، فإن الرجالة من الأفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعضهم من بعض الأطراف فثبت المسلمون وذبوا غاية الذب، ولم يزل الحرب يعمل بينهم بقتل وجرح حتى حجز الليل بين الطائفتين.

ومن الغرائب أن امرأة منهم واقفة داخل سورهم عليها ملوطة خضراء، ولم تزل ترمي المسلمين بقوس من خشب حتى جرحت جماعة منهم، فتكاثر عليها المسلمون الذين دخلوا أسوارهم فقتلوها وأخذوا قوسها وحملوه إلى السلطان فتعجب من ذلك عجبا عظيما.

وكذلك كان هناك أفرنجي راجل صعد سور خندقهم، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم، ولقد حكى من كان من الداخلين سورهم أنه وقع فيه زهاء خمسين حجرا وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه مسلم زراق بقارورة نفط فأحرقه.

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليه من كل جانب، وقلت

رجال البلد ضعفت نفوسهم لما رأو الهلاك حقيقة، واستشعروا الضعف والخذلان، وتمكن العدو من الخنادق فملأوها، وتمكنوا من سور البلد والباشورة فنقبوا وأشعلوا فيه النار، ووقعت بدنة من الباشورة ، ودخلوا فيها ، وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا ، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الباقية، وفي غد ذلك اليوم نادى الفرنج: احفظوا هؤلاء الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: قد قتلناهم، فحزنوا لذلك حزنا عظيما، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك ثلاثة أيام

ذكر خروج سيف الدين المشطوب إليهم

ولما قتل المسلمون الستة المذكورين حنق الفرنجة عليهم جدا، وجاء الليل فحال بين الفريقين، ولما أصبح الصباح خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين أحمد بن علي المشطوب، فاجتمع بملك الافرنسيس وطلب منه الأمان على أنفسهم ويتسلمون منه البلد، فلم يجبه إلى ذلك وقال له: بعد ما سقط السور جئت تطلب الأمان ؟، فأغلظ له الأمير سيف الدين في الكلام، ورجع إلى البلد في حال الله بها عليم، ولما أخبر أهل البلد بذلك خافوا خوفا شديداً،وأرسلوا إلى السلطان يعلمونه بذلك.

وقال صاحب النوادر:ولما جرى ذلك أخذ جماعة من أهل البلد بركوساً - وهو مركب صغير - وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الاسلامي، وذلك في ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان فيهم من المعروفين: أرسك وابن الجاولي الكبير وسنقر الوشاقي، فأما أرسك وسنقر فإنهما لما وصلا العسكر تغيبا ولم يعرف لهما مكان خشية من نقمة السلطان رحمه الله، وأما ابن الجاولي فإنه ظفر به ورمي في الزردخاناه.

وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعراً أنه يريد كبسة القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر، وتخاذلوا عن ذلك، وقالوا: نخاطر بأهل الاسلام كلهم ولا مصلحة في ذلك،وفي ذلك اليوم خرج من ملك الانكتار ثلاثة رسل، فطلبوا فاكهة وثلجاً وذكر وا أن مقدم الاسبتارية يخرج من الغد ـ يعني يوم الجمعة ـ فيتحدث معكم في الصلح، فأكرمهم السلطان، ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه، وهو أخو المشطوب، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم وقاتل قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري، وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً ، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً، ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة، خرج منهم ثلاثة رسل واجتمعوا بالملك العادل وتحدثوا معه ساعة زمانية وعادوا إلى أصحابهم، ولم ينفصل الحال في ذلك اليوم، ولما كان يوم السبت الحادي عشر من جمادى الآخرة لبست الأفرنج بأسرهم لباس الحرب،وتحركوا حركة عظيمة واصطفوا ، وتصرم هذا النهار ولم ينفصل الحال، ولما كان يوم الأحد الثاني عشر من جمادى الآخرة وصل من البلد كتب يقولون فيها: إنا قد بايعنا على الموت، فلا نزال نقاتل ولا نسلم هكذا البلد ونحن أحياء ، فانظروا أنتم كيف تصنعون في شغل العدو عنا، ولا تخضعوا لهؤلاء الملاعين، وبالله المستعان، فلما سمع السلطان هذا الخبر حط منديله على عينيه، وبكى بكاء شديداً وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة قدم الأمير سابق الدين صاحب شيزر، وفي يوم الأربعاء خامس عشر قدم بدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير، وكان السلطان قد نفذ إليه ذهباً كثيراً أنفق فيهم، وقدم في يوم الخميس سادس عشر أسد الدين شيركوه،

ومع هـذا اشتد الحال على أهل البلد، فـأرسل السلطان إليهـم أن يخرجوا من البلـد في البحر ولا يتأخـروا عن هـذه الليلة، فتشاغـل كثير منهم في جمع الأمتعـة والأسلحة، وتـأخـروا عـن المسير في تلك الليلـة، فما أصبـح الخبر إلا عند الأفرنـج من مملوكين صغيرين سمعا بما رسـم به السلطان، فهربا إليهم فـأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحـر احتفاظاً عظيماً، فلم يتمكـن أحـد من أهـل البلـد أن يتحـرك بحـركه، ولا خـرج منهـا شيء بالكلية، فلما أصبح السلطان بعث إلى ملـوك الأفرنج يطلب منهم الأمان لأهـل البلـد على أن يطلـق عـدتهم مـن الأسرى الـذيـن تحت يـده مـن النصارى، ويزيـدهم على ذلك صليب الصلبوت، فأبـوا إلا أن يطلق كل أسير تحت يده ويعيد إليهم جميع البلاد السـاحلية التـي أخذت منهـم وبيت المقـدس، فأبى السلطان مـن ذلك، وترددت المراسـلات في ذلك، والحصار يتـزايد على أسوار البلـد، وقد تهدم شيء كبير منهـا وكلما ينهدم شيء يعيد المسلمـون عوضه، وصبروا على ذلك صبراً عظيماً، ولما كـان يوم الجمعـة السـابع عشر مـن جمادى الآخـرة صـالحهم أهـل البلـد على أن يسلموا البلـد وجميع ما فيـه من العـدد والآلات والمراكب، ومائتـي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحـوال، ومائة أسير معينين وصليب الصلبـوت، على أن يخرجـوا بـأنفسهـم سالمين ومـا معهـم مـن الأمـوال والأقمشـة المختصة بهم وذراريهم ونسـائهـم، وضمنـوا للمركيـس اللعين بعشرة آلاف دينـار لأنـه كـان واسطـة، ولأصحـابـه أربعـة آلاف دينـار، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج.

ولما وقف السلطـان على ذلك أنكر انكاراً عظيماً وجمع أربـاب المشورة من أرباب دولتـه وعرفهم بذلـك، وعزم على أن يكتب في تلك الليلـة مع العوام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الـوجه، فما أحسوا بذلك إلا وقد ارتفعـت أعلام الكفـر وصلبـانه على أسـوار البلـد، وذلك في ظهيرة يـوم الجمعة المذكـور الآن، وصاح الأفـرنج صيحـة واحدة، وعظمـت المصيبة على المسلمين، واشتـد حـزن الموحـديـن، ووقـع مـن العسكـر الصيـاح

والعـويل والبكـاء والنحيـب، ودخل المركيـس اللعين البلـد ومعه أربعـة أعـلام للملوك، فنصـب علماً على القلعة، وعلما على بـرج الداويـة، وعلماً على برج القتـال عوضاً عن علـم الاسلام، وتحيز المسلمون الـذين بها إلى نـاحيـة من البلـد معتقلين مضيقـاً عليهـم، وقد أسرت النسـاء والأبنـاء، وغنمت منهم الأموال ، وقيدت الأبطال، وأهينت الرجال.

ولما رأى السلطان ذلـك، رأى التأخر عـن تلك المنـزلة التي هـو فيها مصلحة، فإنه لم يبق وجه من المضايقة، وأمر بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كـان عليها أولاً بشفـرعم، وأقـام هو جـريدة في مكـانه لينظـر ماذا يكون مـن أمر العـدووحـال أهل البلـد، فانتقـل الناس في تلـك الليلة إلى الصبـاح، وفي ذلك اليـوم خـرج ثلاثـة نفر ومعهـم أقـوش حاجـب بهاء الـدين قـراقـوش، وكـان بشأن محتـوى مـا وقـع عليه الصلـح مـن المال والأسرى، فـأقـامـوا ليلـة ثـم سـاروا إلى دمشـق يبصرون الأسرى، وكـان مسيرهـم يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة.

ولما كان يـوم الخميس سلخ جمادى الآخـرة خرج الأفـرنج من جـانـب البحـر شمالي البلـد ومـن جانـب القنـة وانتشروا انتشـاراً عظيماً راجلهـم وفارسهـم، وضربوا أطلابـاً للقتال، فأخبر اليزك بـذلك السلطان، فـدقوا الكوسات وركب السلطـان وأنفذ إلى اليزك وقواهم برجـال كثيرة، وتوقف هـو حتى تـركـب العساكـر الاسـلامية واجتمعـوا فـوقع بين اليـزك وبين الأفرنـج وقعة عظيمة وقتـال شديد قبـل اتصال العسـاكر باليـزك، فقتل اليزك منهـم زهاء خمسين نفـراً، وجرح خلق عظيـم،وفي ذلك اليـوم وصل رسل الفرنـج الذين مضوا إلى دمشـق لتفقد حال أسراهم، ووصـل معهم من أعيان أسراهـم أربعة نفر، ثم لم تزل الرسـل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب مـن هذه السنة، وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ومعـه اثنان من أصحاب ملك الانكتار، فأخبر أن ملـك الفرنسيـس سار إلى صـور، وطلبوا أن يشـاهدوا صليـب

الصلبوت وأنـه هل هـو في العسكر أو حمل إلى بغـداد، فأحضر صليـب الصلبـوت، فلما رأوه سجـدوا لـه وألقـوا أنفسهـم إلى الأرض ومـرغـوا وجـوههم في التراب، وبعثـوا يطلبون مـن السلطـان ما أحضر مـن المال والأسرى والصليب فـامتنع السلطان إلاّ أن يـرسلوا إليـه من بأيـديهم من الأسارى أو يبعثوا إليـه برهائن عنده على ذلـك، فقالوا : لا ولكن تـرسل ذلك وترضـى بأمانتنا فيهم فعـرف أنهم يريدون الغدر والمكر، فلـم يرسل ذلك إليهـم، وأمر برد الأسارى إلى دمشـق وبالصليب معهم مهـانا ، ولما رأوا ذلك أخـرجوا خيامهـم إلى ظاهـر خنادقهم مبرزيـن في نهار الأربعاء الحادي والعشريـن مـن رجب مـن هـذه السنـة، وكـان الذي بـرز ملـك الانكتار ومعه خلق عظيم من الخيالـة والرجالة، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين في صعيـد واحد فـأوقفـوهم وهـم موثـوقـون في الحبال، وحملـوا عليهـم حملة الـرجـل الواحـد فقتلـوهم صبراً ضربـاً وطعنـاً، وذلك يـوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب.

قال صاحب النوادر: وكانوا قدموا خيامهم حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وتل العياضية، وكان اليزك الاسـلامي قد تأخر إلى تل كيسان،ولما كان يـوم الخميس التـاسع والعشرين مـن رجب ركبت الأفـرنج بـأسرهم وقلعـوا خيـامهـم وحملـوها على دوابهم، وسـاروا حتـى قطعـوا النهـر إلى الجانب الغـربي وضربوا الخيـام على طريـق عسقلان، وأظهـروا العزم على المسير على شاطـىء البحر، ولم يستبقوا من المسلمين إلاّ مـن كان أميراً أو شريفاً أو مـن كان لـه صنعة هـم محتاجـون إليها أو امـرأة أو صبياً، ثـم رحلوا نحو عسقلان.

ذكر رحيل الأفرنج صوب عسقلان

لما كـان يـوم الأحـد مستهـل شعبان مـن هـذه السنـة اشتعلـت نيران الأفـرنج في سحـرة ذلك اليـوم، وكـانت عـادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيـل

أشعلوا النيران، ولما أخبر السلطان بذلك أمر أن لايبقى أحد إلا على ظهر مركبه، فهلك من الناس في ذلك اليوم قماش كثير، ولاسيما من السوقة لقلة الظهر، ثم سار الأفرنج في ذلك اليوم قاصدين عسقلان، وركب السلطان أيضاً بعساكره وهم يسايرونهم ويعارضونهم منزلة منزلة ومرحلة مرحلة، وكانت مدة إقامة السلطان على عكا صابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً، وجملة من قتل من الفرنج في هذه المدة خمسون ألفاً، وسار السلطان حتى آتي القيمون عصر ذلك النهار فنزل وقد ضرب له دهليز وشقة دائرة حوله لا غير، واستحضر الجماعة وأكلوا شيئاً، واستشارهم فيما يفعل فاتفقوا على أنهم يرحلون بكرة غد، وقد رتب حول الفرنج يزكاً يبيتون حولهم ويرقبون أمرهم ، ولما كان صباح الاثنين الثاني من شعبان أرسل السلطان الثقل، وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل اليه شيء من خبرهم حتى علا النهار، ثم سار في إثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها صباغين ، فجلس ساعة يترقب أخبارهم فلم يأت خبر، فسار حتى أتى منزلة يقال لها عيون الأساود.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ولما بلغنا المنزلة رأى السلطان خياً فسأل عنها، فقيل إنها خيم الملك العادل، فعدل إليه فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته، وفقد الخبز في هذا المنزل بالكلية وغلا الشعير حتى بلغ الربع بدرهم، وبلغ الرطل من البقسماط بدرهمين، ثم ركب السلطان وسار إلى موضع يسمى الملاحة يكون منزلاً للعدو إذا رحلوا من حيفا، وكان السلطان قد سبق ليتفقد المكان وأنه هل يصلح للمصاف أم لا، وتفقد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشعراء، وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء.

قال قاضي القضاة بهاء الدين: وكنت في خدمته، وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال: وصل إلينا من أخبرنا من أصحابنا أنهم ما رحلوا من حيفا إلى عصر يومنا هذا يعني يوم الاثنين ثاني شعبان، وبات تلك

الليلة وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو، ونادى بالعرض، فركب الناس على ترتيب المصاف ميمنة وميسرة وقلباً، ثم عاد إلى الخيمة، وعاد الناس وقد علا النهار، ثم صلى السلطان الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً وناقصاً، ثم اتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا، ونزل الثقل بالمجدل بكرة النهار، وأقام هو باليزك جريدة إلى الصباح، ثم رحلوا إلى جهة العدو، فرحل الثقل من وقت العشاء، ولم يبق مع السلطان إلاّ خف من الأقمشة، وبات في منزله إلى الصباح يوم الأربعاء الرابع من شعبان، ثم ركب وسار إلى رأس النهر الجاري إلى قيسارية، ونزل جريدة هناك، وبلغ الرطل من البقسماط إلى أربعة دراهم، والربع من الشعير إلى درهمين ونصف، ولم يوجد الخبز أصلاً، ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر وأكل شيئاً وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو، فلم يعد إلى أن دخل وقت العصر، فجلس ساعة ثم ركب في آخر نهار الأربعاء المذكور، ولما نزل أتى باثنين من الفرنج قد أخذهما اليزك فأمر بضرب رقابهما، وأصبح مقيماً بتلك المنزلة، ثم ركب في وقت عادته وأشرف على قيسارية وقد وصله الخبر بأن العدو لم يرحل من الملاحة، وأحضر عنده اثنان أيضاً فقتلا أشر قتلة، ثم أحضر بين يديه منهم فارس مذكور، وسأله عن أحوال القوم وعن السعر ، فأخبر الترجمان: إن أول يوم من رحيلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس، فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس، وسأله عن سبب تأخرهم في المنازل، فقال: لانتظارهم وصول المراكب بالرجال والميرة، وسأله عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم فقال: كثير، وسأل عن الخيل التي هلكت في ذلك، فقال: مقدار أربعمائة فرس، ثم أمر بضرب عنقه، ثم ركب السلطان بعد صلاة العصر يوم الخميس خامس شعبان إلى أن نزل ، واتى باثنين فأمر بقتلهما، وذكر له في وقت السحر أن العدو تحركوا نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد، فرحل إلى تل قريب من التل الذي كانوا عليه، وضربت الخيام، ومضى السلطان يرتاد الأراضي

الكائنة في طريق العدو لينظر أيها تصلح للمصاف، ونزل قريب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان بن جندر، وأخذرأيهما ، ثم صلى الظهر وركب للتشوف على العدو، وتنسم أخبارهم، وأتاه اثنان منهم قد أخذا فأمر بقتلهما، ثم باثنين آخرين كذلك في يوم الجمعة سادس شعبان، وجيء باثنين آخرين في آخر النهار فقتلا أيضاً، ثم لما أصبح نادى الجاووش لعرض أجناد الحلقة لاغير، فركب إلى جهة العدو، ووقف على تلول مشرفة على قيسارية، وكان الأفرنج قد وصلوا إليها يوم الجمعة ، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار، ثم نزل وأكل شيئاً، ثم ركب إلى أخيه، وعاد بعد صلاة الظهر فصلى الظهر، فأتي بأربعة عشر من الأفرنج وامرأة فرنجية بينهم أسيرة، وهي بنت فارس مشهور، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة، ورفع الباقون إلى الزرد خاناه، وهؤلاء أتي بهم من بيروت، أخذوا في مركب من جملة عدد كثير، فقتلوا في نهار السبت سابع شعبان، ولما كان صبيحة يوم الأحد الثامن من شعبان ركب السلطان على عادته، ثم نزل فجاء من أخبر أن العدو على حركة، وأتى ثان آخر وأخبرهم أنهم ساروا فأمر بالكؤوس فدقت، وركب الناس معه وساروا.

قال القاضي بهاء الدين: وكنت في خدمته حتى أتى بمن معه إلى عسكر العدو، فصف الأطلاب حوله وأمر بقتالهم، وأخرج الجاليش، وكان النشاب بينهم كالمطر، وكان على الفرنج اللبود الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع النشاب ولا يؤثر وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم يتغرز نشابة في ظهر واحد منهم ونشابتان وثلاثة إلى عشرة وأكثر وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وكانوا قد أنقسموا ثلاثة أقسام: الأول الملك العتيق كي وأهل الساحل معه في المقدمة، والانكتار والفرنسية معه في الوسط، وأصحاب طبرية

وطائفة أخرى في السـاقة، وفي وسط القوم برج على عجلة كـالمنارة عليها علمهـم، وسوق الحرب قـائمـة بين الطـائفتين، وهـم يسيرون سيراً رفيقـاً، ومراكبهـم تسير في مقابلتهم في البحـر إلى أن أتوا المنـزل ونزلوا ، وكـانت منازلهم قريبة لأجـل رجالتهم، فإن المستريحين منهم كانـوا يحملون أثقالهم وخيمهم على ظهـورهم لقلة الظهر بينهـم فانظر إلى هـؤلاء الأشقياء وإلى صبرهم على هذه الأعمال مـن غير أجر ومن غير دنيا وديـن، وكان منزلهم ذلك قـاطع نهر قيساريـة، ولما كانت صبيحـة الاثنين التاسع مـن شعبان وصل من أخبر أنهم ركبوا سائريـن وركب السلطان أول الصبح ، وسار يطلـب القـوم، وهـم سـائرون على عـادتهم ثـلاثـة أطـلاب، ثـم لم يـزل المسلمون يكـرون عليهم ويحملون عليهـم إلى أن أتوا إلى نهر يقـال له نهر القصـب، فنزلـوا عليه، وقـد قام قـائم الظهيرة، وفي ذلك اليـوم قتل مـن فرسان الاسلام وشجعـانهم إياز الطويل من مماليـك السلطان، ودفن على تل مشرف على البركـة، ونزل السلطـان بالثقـل على البركة، وهـو موضـع تجتمع فيـه مياه كثيرة، وأقـام هناك إلى بعد صـلاة العصر، ثم رحـل وأتى نهر القصب فنـزل عليه، وكان المسلمون يشربـون من أعلاه والأفرنـج من أسفله، وليـس بينهم إلا مسـافة يسيرة، وبلـغ الربـع من الشعير في هـذه المنزلة إلى أربعـة دراهم، والخبز كثير موجـود، والرطل منه بنصـف درهـم، وأقام السلطان ينتظر رحيـل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهـم، وباتوا تلك الليلـة هناك ووقـع حـرب بين طائفتين منهـم ومـن المسلمين، فقتل مـن الفـرنج جماعـة ومن المسلمين اثنـان وأسر منهـم ثلاثـة، فسأل السلطـان عنهم فأخبروا أن ملـك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنـان بدويان فأخبرا بقلة عـدد العسكر الاسلامي، ولما جـرى بالأمس ما جـرى طلب البدويين فضرب أعنـاقهما، وأخبروا أن المجروحين منهم كـانوا زهـاء ألف نفس، والمقتـولين جماعة ، ولما كان ظهـر يوم الثـلاثاء العاشر مـن شعبان رأى السلطان التقـدم على العدو فدق الكـؤوس ورحل ودخـل في شعراء أرسوف حتى تـوسطها إلى تل عند قريـة تسمى دير الراهـب، فنزل هناك وأقام ينتظـر بقية العسـاكر إلى صبـاح الأربعاء الحادي عشر مـن شعبان،

وجاء من أخبار العدو أنهم مقيمـون على نهر القصب، وأنه لحقهم نجدة من عكـا في ثماني بطس كبـار، ويزك الاسـلام حولهم يـواصلون بـالأخبار التي تتجدد، وجـرى بين اليزك وحشاشة الأفـرنج قتال، وجرحـت جماعة من الطائفتين، وكـان مقدم اليزك علم الـدين سليمان بن جندر، فـأرسلوا إليـه من يسمـع كلامـه، وحاصـل سـؤالهم الاستئذان بـالاجتماع بالملـك العادل، فأذن له السلطان في المضي إليهم، فجاء إلى اليزك وبلغ الخبر إلى ملـك الانكتار، فـاجتمعا بحـده مـن أصحابهما، وكـان يترجم بينهما ابـن الهنفري، وهو من فرنج الساحل من كبارهم.

قـال قاضي القضـاة: ورأيته يـوم الصلـح وهو شـاب حسن، إلا أنـه محلوق اللحيـة على شعارهم، وكـان كلام الـرسول في الصلح طلـب عود البلاد إليهـم كما كانـت، وأن المسلمين ينصرفون إلى بـلادهم، فلما سمـع العادل هذا الكلام أغلظ في الجواب وجـرت منافرة واقتضت أنهم رحلوا، وأما الأفـرنج فـانهم نزلـوا على موضـع يسمى البركـة مشرف على البحر ، وأصبح السلطان في صبيحة يوم الجمعة الثـالث عشر من شعبان في قرية تسمى بـركة وأقـام مطلب الاطلاب متطلعـاً إلى أخبار الافـرنج، وأحضر عنده اثنان منهم قد مسكهما اليزك فأمر بضرب أعناقهما.

ذكر وقعة أرسوف

ولما كان يـوم السبت الـرابع عشر مـن شعبان بلـغ السلطان أنهم قـد تحركوا للـرحيل نحـو أرسوف، فـركب ورتـب الأطلاب للقتـال، وعزم في ذلـك اليوم على مصـافـة القوم، وأخـرج مـن كل طلـب جـاليشاً وسـار الأفرنـج حتى قاربـوا شعراء أرسوف وبسـاتينها، وأطلق عليهـم الجاليش النشاب ولـزتهم الأ طلاب من كـل جانـب ، والتحم القتال واضطـربت نارهـا من الجانبين، وقتـل منهم طائفـة وجرح آخـرون، واشتدوا في السير

لعلهم يبلغون المنزلة فينزلون، واشتد بهم والسلطان رحمه الله يطوف من الميمنة إلى الميسرة، ويحث الناس على الجهاد.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: لقيته مراراً وليس معه إلاّ صبيان بجنبيه لا غير، ولقيت أخاه وهو على مثل حاله، والنشاب يتجاوزهما، ولم يزل الأمر يشتد بالفرنج، وطمع فيهم المسلمون طمعاً عظيماً حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف، ثم اجتمعت الخيالة وتواضعوا على الحملة فحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب، فاندفع الناس بين أيديهم.

قال قاضي القضاة: واتفق أني كنت في القلب ، ففر القلب فراراً عظيماً، فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إليّ فوصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة، ثم نويت التحيز إلى الميمنة فرأيتها وقد فرت أشد فراراً من الكل، ثم نويت التحيز إلى السلطان، وكان ردأ الاطلاب كلها كما جرت عادته بذلك، فأتيته ولم يبق معه إلا سبعة عشر مقاتلاً لا غير، لكن الأعلام كلها باقية، والكوسات تدق لاتفتر، ثم وقف الأفرنج خوفاً من الكمين، وقاتلوا وهم واقفون ،ثم حملوا حملة ثانية، ففروا وهم يقاتلون في فرارهم، ثم وقفوا وحملوا ثالثة حتى بلغوا إلى رؤوس رواب هناك وأعالي تلول، وقفوا هناك، وأما المسلمون بعد أن فروا فقالوا كل من رأى طلب السلطان واقفاً والكوسات تدق يستحي أن يتجاوزه، ويخاف غائلة ذلك، ويعود إلى الطلب، فاجتمع عند الطلب خلق عظيم، ووقف الأفرنج قبالتهم على رؤوس التلال والروابي والسلطان رحمه الله واقف في طلبه لايتحرك حتى رجعت الناس بأسرهم، وخاف الأفرنج أن يكون في الشعراء كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة ، وعاد السلطان إلى تل في أوائل الشعراء ونزل عليه بلا خيمة، وقال قاضي القضاة: ولقد كنت في خدمته وأسليه وهو لايقبل ، وظلل عليه بشيء ، وأحضر بين يديه شيء من الطعام فتناول شيئاً يسيراً، وبعث الناس خيولهم للسقي، فإن الماء كان

بعيداً، وجلس ينتظر حتى يعودوا مـن السقي، والجرحى يحضرون بين يديه وهو يـداويهم ويحملهم وقتل في ذلك اليـوم رجالة كثيرة وجرحـت جماعة من الطـائفتين، وكان ممـن ثبت في هـذه الوقعـة الملك العـادل والطواشي قـايباز النجمـي والملـك الأفضـل ولد السلطـان، صـدم في ذلـك اليـوم وانفتح دمـل كان في وجهـه، وسال منه دم كثير على وجهـه، وهو صـابر محتسب، وثبت أيضاً في ذلـك اليوم طلب الموصل، ومقدمه عـلاء الدين، وشكـره السلطان على ذلـك، وتفقد النـاس بعضهـم بعضاً، فـوجدوا قـد استشهد جماعة مـن العسكر عرف منهم أمير شكار موسـك، وكان رجلاً شجاعاً معـروفاً، وقايباز العادلي، وكـان مذكوراً، وأبقوش، وكـان شجاعاً

أسـف السلطان عليـه وجـرح خلق كثير وخيـول كثيرة وقتـل من العـدو جماعة وأسر واحـد فأحضر، فـأمر السلطـان بضرب عنقه، وأخـذت منهم خيـول أربعـة، ثم أمـر السلطـان أن يتقـدم الثقـل إلى العوجـاء ، وكـان الأفرنج نزلوا على قبلي أرسوف، ونزل الثقل قـاطع النهر المعروف بالعوجاء في منـزلـة خضرة على جـانـب النهر، ووصـل السلطـان في آخـر النهـار، وازدحـم الناس على القنطرة، ونـزل السلطان على تل مشرف على النهر، ولم يعبر الخيمـة، وأقام السلطـان إلى سحـرة ليلـة الأحد الخامـس عشر مـن شعبـان من هـذه السنة، ثـم دق الكـؤوس وركب وركـب الناس وسـار راجعاً إلى جهة العـدو حتى وصل إلى أرسوف ، وصـف الأطلاب للقتال وجاء خـروج الأفرنج ومسيرهـم حتى يصـادمهم، فلم يـرحل الملاعين في ذلك اليـوم لما نالهم من التعـب والجراحات، فـأقام السلطان قبـالتهم إلى آخرَ النهـار، ثم عـاد إلى منـزلتـه التـي بات بها، فبـات بها ليلـة الاثنين السـادس عشر ، ولما كـان يـوم الاثنين دق الكـؤوس، وركـب وركـب الناس، وسار نحـوهم ، وبلغ إليه خبرهـم أنهم رحلوا طالبين جهة يـافا، وسار حتى قاربهم جداً ورتب الأطـلاب ترتيب القتال، وأخرج الجاليش، وأحدق العسكـر الاسلامـي بالقوم وألقـوا عليهم مـن النشاب مـاكاد أن يسد الأفق، وقـاتلهم قتالاً عظيماً والملاعين لم يحملوا بل حفظـوا نفوسهم،

وساروا مصطفين على عـادتهم حتى أتـوا نهر العوجـاء، وهو النهـر الذي كـان منزل المسلمين أعـلاه، فنزلـوا في أسفله، وعبر بعضهـم النهر وأقـام الباقون مـن الجانب الشرقـي، وعـاد السلطان أيضـاً إلى الثقل، ونـزل في خيمته وأكـل الطعام ثـم أتي بـأربعة مـن الأفرنـج وقد أخـذتهم العرب، ومعهـم امـرأة، فرفعـوا إلى الزردخانـاه، وأقام السلطـان بقية اليـوم في تلك المنزلـةوكتب الكتب إلى الأطـراف باستحضـار بقية العساكـر، وحضر من أخبره أنه قتـل من الفـرنج يـوم أرسوف خيـول كثيرة وأن العرب يتبعـونها فعدوها فـزادت على مائة، وجرح أيضاً مـن خيل المسلمين شيء كثير، ثم أمر السلطـان برحيل الجمال إلى الـرملة، وبـات في تلك المنزلـة، ولما كان يـوم الثلاثـاء السابـع عشر من شعبـان صلى الصبح ورحـل ورحل معـه الثقل الصغير، وسـار يريـد الرملة، وأتي بـاثنين من الأفـرنج فـأمر بضرب أعناقهما، وجـاء خبر من اليـزك بأن الفـرنج رحلوا قـاصديـن يافـا، وسار السلطان إلى الـرملة ونـزل في الثقل الكبير وأتي باثنين مـن الأفرنـج أيضاً فسـألهما عـن أحوال القـوم فـذكـرا أنهم ربما يقيمـون في يـافا أيـامـاً وفي أنفسهـم عمارتها واشحانها بـالـرجال والعـدد، فـأحضر السلطان أربـاب المشورة وشاورهـم في أمر عسقلان هل تخرب أم تبقـى، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة مـن العسكر قريباً من العدو لأجل الأخبار ، وأن يسير السلطـان إلى عسقلان ويخربها خشيـة من أن يتـولاها الأفرنـج فيأخـذوا من بها من المسلمين، ويـأخذوا بها القـدس الشريف، ويقطعوا طـريق مصر، فعند ذلك أمـر السلطان برحيل الثقـل الجمالي من أول الليـل، وأمر ولـده الملك الأفضـل أن يسير عقيـب الثقل في نصـف الليل، ثم سـار السلطان في سحرة يوم الاربعاء الثامـن عشر من شعبان، ووصل إلى يبنـى فنزل بها، وأخذ النـاس راحة، ثـم رحل وسار حتـى أتى أرض عسقلان بعـد صلاة العصر، وقد ضربـت خيمته بعيـداً منها شمالي البلد في أرض طيبة، فبـات هنا مهموماً بسبب تخريب عسقـلان ، وما نام تلك الليلة إلاّ قليلاً.

قال قـاضي القضاة بهاء الدين: فطلبنـي في تلك الليلة وقـت السحر، وشرع في حديث عسقـلان وتخريبها وأحضر ولده الملك الأفضـل وشاوره في ذلك، وقال: والله لأن أفقد أولادي بأسرهـم أحب إليّ من أن أهـدم منها حجرا واحدا، ولكن إذا قضى الله بذلك، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع ؟!

ذكر تخريب عسقلان

ثم استخار السلطان فأوقع اللـه في قلبه أن المصلحة في تخريبها لعجز المسلمين عن حفظها عن الافرنج، فـاستحضر الوالي بها يدعى قيصر، من كبار ممـاليكه وذوي الآراء منهم، فأمـره أن يضع فيها المعـاول، وذلك في سحرة ليلة الخميـس التاسع عشر من شعبان، وقسـم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلـومة وبرجا معلوما يخربونه، ودخـل الناس البلـد، ووقـع فيه الضجيـج والبكـاء، وكـانت بلـدة نضرة حسنـة خفيفـة على القلب محكمـة الأسـوار عظيمـة البنـاء، مرغـوبـا في سكنها، فلحـق الناس حـزن عظيم، وعظـم عويـل أهلها وبكـاؤهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع مـا لا يمكن حمله، وبيع ما يساوي عشرة دراهم بـدرهـم واحد، ورمـى الناس أقمشتهم بـالثمن البخس حتـى بيع اثني عشر طيرا من الدجاج بدرهـم واحد، واختبط البلد، وخرج أهله إلى العسكـر بذراريهم ونسـائهم خشيـة أن يهجم الافـرنج البلـد، وبذلـوا في الكرى أضعاف ما يساوي، فقـوم إلى مصر و قوم إلى الشام، وقوم يمشون لم يقع لهم كـراء، وجرت أمـور كثيرة وبلية عظيمـة لعلها لم يكـن مثلها ، وكـان السلطان وولـده الملـك الأفضل يستعمـلان النـاس في التخريـب والحث عليـه خشيـة أن يسمـع الافـرنـج فيحضرون ولا يمكـن تخريبهـا، وبات الناس على أشد حال مـن التعب والنصب، وفي تلك الليلة حضر من الملـك العادل مـن أخبر أن الافرنج تحدثـوا معه في الصلـح، وأن ابن الهنفري جاء إليه وتحدث معه في ذلـك، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة

لما رأى في أنفس الناس من الضجر والملالة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك، وفوض أمر ذلك إليه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الاصرار على التخريب واستعمال الناس فيه، وأباح لهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من لحوق الأفرنج ، وأمر بتحريق البلد، وأضرمت النار في البيوت والآدر فاضطرمت النيران فيها ، ورمى الناس غالب أقمشتهم للعجز عن نقلها، وفي أثناء ذلك الأخبار تتواتر من جانب الافرنج بعمارة يافا، وأن كل وقت يجري بينهم وبين اليزك وقعات.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين: ولم يزل التخريب والتحريق يعملان في عسقلان وأسوارها إلى سلخ شعبان من هذه السنة، وكانت عظيمة البناء بحيث أن بعض سورها كان عرضه تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر ـ أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح.

قال القاضي: ووصل في أثناء ذلك جرديك بكتاب فيه أن الفرنج قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ غرضه منهم في غرتهم، فعزم السلطان على الرحيل ، وعلى أن يخلف حجارين في عسقلان ومعهم من يحميهم حتى يستقصوا في التخريب، ثم رأى أن يتأخر الى أن يحرق البرج المعروف بالاسبتار، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة، وأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه.

قال القاضي: ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لتحريق البرج، ولم يزل الناس ينقلون الأعشاب ويحشونها في البرج حتى امتلأ، ثم

اطلقت فيهـا النار، وبقيـت النار تشتعـل فيها يـومين وليلتين، ثم رحـل السلطان ليلـة الثلاثـاء الثاني مـن رمضان مـن نصف الليـل، ووصل إلى يبنى ضحوة نهار الثـلاثاء، ونزل في خيمة أخيه الملـك العادل ، واستعلم منه الأخبار، ثم قام ونزل في خيمته، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

ذكر رحيل السلطان إلى الرملة

ولما أصبح السلطـان يوم الأربعاء الثالـث من رمضان رحـل إلى جهـة الرملـة، فسار حتـى أتاها ضحـوة النهار ونزل بـالثقل الكبير هنـاك نزول اقامة، ورتـب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا، ومد السماط للنـاس، ثم أخذ بعض راحة ثم ركب بين الصلاتين وسـار إلى لد فرآها ورأى بيعتها وعظم بنـائها ، فـأمر بتخـريبها وتخريـب قلعـة الرملـة أيضا، ووقـع الخراب في الموضعين في ذلك اليـوم، وفرق النـاس لتخريـب المكانين وأبـاح ما فيهما من التبـن والشعير في الأهراء السلطانيـة، وأمر من كـان بهما من المقيمين بالانتقال إلى المواضـع العامرة ، وما كان بقي مـن المكانيين إلا نفر يسير، ثم عـاد السلطان إلى خيمته، ولما أصبح يـوم الخميس الرابع مـن رمضان أقام الحجارين في المكانين، ورتب عندهـم من يستخدمهم في ذلك وهو يتردد إليهم في الأصـايل، ثم وقع لـه أن يسير خفية في نفر يسير ليشـاهد أحوال القـدس الشريف، وخلـف أخاه العـادل في العسكر يحث النـاس على الخراب فسـار مـن أول الليـل حتى أتـى القـدس الشريـف في يـوم الجمعة خـامس رمضـان المذكور، وصلى الجمعـة وأقام ذلـك اليوم يتفقـد أحوال الناس وأحـوال القدس في عمارته وميرته وعدتـه وغير ذلك، وظفر بنفـر من النصـارى معهم كتب إلى الافـرنج، فضرب أعنـاقهم، ولم يـزل مقيما في القدس إلى يـوم الاثنين الثامن مـن رمضان، ولما كـان يوم الاثنين خرج قاصدا العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة.

-١١٣٩٩-

ذكر مجيء معز الدين صاحب ملطية

وفي يوم الاثنين المذكور وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه ابن قليج أرسلان وافدا على السلطان مستنصرا على أخوته وأبيه لأنهم كانوا قاصدين أخذ بلده منه، فلقيه الملك العادل عند لد واحترمه وأكرمه، ثم لقيه بعده الملك الأفضل ولد السلطان، وضرب خيمته قريبا من لد.

وفي تاريخ النويري: وسبب قدومه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك، فسار إلى السلطان ملتجئا إليه، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطع طمع أخيه منه.

وقال ابن الأثير: ولما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترجل معز الدين فترجل السلطان صلاح الدين، ولما ركب عضده قيصر شاه وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين في نفسه: ما بقيت تبالي يابن أيوب بأي موتة تموت: يركبك ملك سلجوقي ويصلح قماشك ملك أتابكي زنكي، وفي يوم قدوم معز الدين وصل الخبر إلى العسكر أن جماعة من الحشاشين من الأفرنج خرجوا يحشون، فحمل عليهم اليزك الاسلامي، ووصل الخبر إلى عسكرهم، فخرجت في نصرتهم جماعة وجرى بينهم وبين اليزك قتال، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم ملك الانكتار، وأن شخصا من المسلمين قصد طعنه، فحال بينه وبينه فرنجي، فقتل الفرنجي وجرح هو.

ذكر عودة السلطان إلى المعسكر

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان المذكور وصل السلطان إلى العسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه وأقام يحث على الخراب، ولم تزل أخبار العدو عنده، ولم يزل يقع بين اليزك وبين الأفرنج وقعات وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

وفي أثناء ذلك اليوم وصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالحهم بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذ ها منهم، فأجاب السلطان وسير إليه العدل النجيب، وكان المركيس هذا خشنا ملعونا، وكان لما استشعر من الافرنج أخذ بلده صور منه استعصم بها، وانحاز عن الفرنج، ولذلك أجاب السلطان إلى كلامه، وسير العدل النجيب مع رسوله يوم الجمعة ثاني عشر رمضان، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة عداوة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها من الأسرى، وكذلك من كان بصور من الأسرى، فإذا فعل ذلك يسلم إليه صيدا وبيروت.

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم إلى العلوفة، فإنهم كانوا على الرملة قريبين من الأفرنج، فنزل السلطان على تل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجميع العسكر ما عدا اليزك وذلك بعد خراب الرملة ولدّ، ويوم نزوله هناك أمر بتخريب النطرون، وكانت قلعة منيعة.

وفي السابع عشر من رمضان جاء الخبر من اليزك بأخبار طيبة منها خبر هلاك الأفرنسيس، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له، ومنها أن ملك الانكتار عاد إلى عكا، وذلك لما صح عنده مراسلة المركيس إلى السلطان فيما ذكرنا.

-١١٤٠١-

ذكر سير الملك العادل إلى القدس

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان اقتضى الحال تفقد أحوال القدس، والنظر في عمائره، فتعين لذلك الملك العادل، فسار إليه وعاد منه إلى العسكر يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان، وفي أثناء هذه الأيام وصل كتاب من الملك المظفر تقي الدين يخبر أن قزل أرسلان صاحب ديار العجم قفز عليه أصحابه فقتلوه، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة.

وفي هذا التاريخ وصلت مراكب العدو، وقيل إنها وصلت من عكا وأن ملك الانكتار فيها بجماعة عظيمة وقصده عمارة عسقلان، وقيل قصده أخذ القدس، ووصلت جماعة من الأسرى كانوا من عكا أخذهم اليزك من موضع يقال له الزيب، ووصل رسول قزل أرسلان، كان قد سيره قبل موته، ورسول ابن أخيه اينانج، ورسول ملك الانكتار ومعه حصانه إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه، ووصل خبر وفاة حسام الدين بن لاجين بدمشق بسبب مرض عرض له، فحزن عليه السلطان، ووصل كتاب من سامة يذكر فيه أن الأبرنس صاحب أنطاكية - لعنه الله- أغار على جبلة واللاذقية، وأنه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية مخذولا، ووصل رسول من ملك الانكتار يقول: خربت البلاد وهلك المسلمون والافرنج وتلفت الأموال، وقد بلغ الأمر غايته، وما ثم شيء في الوسط سوى القدس والصليب والبلاد وأما القدس فإنه متعبدنا ما نفرغ عنه ولو لم يبق منا أحد، وأما البلاد فتعاد إلينا من حد الأردن، وأما الصليب فإنه خشبة لا مقدار لها عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن السلطان بهذه الأشياء علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم، ولما وقف السلطان على هذا أجاب بأن القدس لنا كما هو لكم، بل هو أعظم عندنا مما هو عندكم فإنه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ومجمع الملائكة فلا يتصور أن نتركه ولا نقدر

على التلفظ بـذلـك بين المسلمين، وأما البـلاد فهـي لنـا في الأصـل واستيـلاؤكم عليها صار لضعف من كـان بها من المسلمين في ذلـك الوقت، وأما الصليب فحرقه عندنـا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام .

ذكر هروب شيركوه بن ما خل الكردي من عكا

وكـان أسيرا فيها ووصـل إلى عسكـر الاسـلام في أواخر يـوم الجمعـة السـادس والعشرين مـن رمضـان وكان مـن الأمـراء الأكراد الـزرزاريين، وأخبر أنه هرب ليلـة الأحد الحادي والعشرين من رمضـان، وكان ادخر له حبـلا في مخدة، وكان الأمير حسين بن باريـك ادخر له حبـلا في بيت الطهـارة، فاتفقـا على الهروب، ونزلا مـن طاقـة كانـت في بيت الطهـارة، وانحدرا مـن السور الأول، وعبر شيركوه من البـاشورة، وكان ابن بـاريك حالة نـزوله انقطع به الحبل، ونـزل شيركوه سليما، وأنه أتى إليـه وحركه فلم يتحرك، فخـاف إن مكث أخذ، فتركه وانصرف واشتد هـربا في قيوده حتى أتى إلى تل العياضية، وقد طلـع الصبح، فكمن في الجبل حتى علا النهار، وكسر قيـوده وسار، فستر اللـه عليه حتى أتـى العسكر في الـوقت المذكور، وأخبر أن سيـف الدين بن المشطـوب ضيقوا عليه وقطعـوا عليه قطيعـة عظيمة مـن خيل وبغـال وأمـوال ،وأن ملك الانكتـار أتى عكـا وأخذ كـل من كـان بها من خـدمه ومماليكه وأقمشتـه، ولم يخل له فيهـا شيئا، وأن فلاحي الجبل يمدونـه بالميرة مدا عظيما، وأن طغرل السلاحدار أخذ خواص مماليك السلطان فهربوا قبل هروب شيركوه.

ذكر بقية الأخبار

منها أن في يوم الاثنين التـاسع والعشرين من رمضان استـدعى الملك العـادل قـاضي القضاة بهاء الـديـن، وأحضر جماعـة من الأمـراء: علـم

الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم، وحسام الدين بشارة وقال لهم: إن ملك الانكتار أرسل إليه يقول له: إن العادل يتزوج بأخته، وكان قد استصحبها معه من صقلية، وكانت زوجة صاحبها ومات عنها، وأن يكون مستقرها بالقدس وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى يافا وعسقلان، وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن السلطان يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والاقطاعات، وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والاسبتار وأنا أفك أسراكم، وأنتم تفكون أسرانا، فإذا استقر الصلح على هذا يرحل ملك الانكتار إلى بلاده في البحر وينفصل الأمر

قال القاضي: فلما حضرنا عند السلطان عرضت عليه هذا الحديث فبادر إلى الرضى بهذه القاعدة معتقدا أن ملك الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا، وأن هذا منه هزو.ومكر.

قال: ثم عدنا إلى الملك العادل وعرفناه بذلك، ولما كان يوم الأربعاء الثاني من شوال سار ابن النحال رسولا من جانب العادل والسلطان أيضا إلى ملك الانكتار، فلما عرف بقدومه أنفذ إليه من قال له: إن الملكة أخت الملك عرض عليها أخوها حديث النكاح فسخطت من ذلك وغضبت وأنكرت أن يكون ذلك انكارا شديدا، وحلفت أنه لا يكون أصلا، ثم قال أخوها: إن الملك العادل يتنصر فأنا أتمم ذلك، فعاد الرسول بذلك وأخبر العادل والسلطان به، وتحقق ما قاله السلطان.

ومنها أن في يوم السبت خامس شوال وصل الخبر من الاسطول الاسلامي أنه استولى على مراكب للأفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وأكثر، وأنه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة أنفس وهم كبار مذكورون، فسر المسلمون بذلك وضربت البشائر.

ومنها أن في يوم الأحد سادس شوال جمع السلطان أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهم في أن الأفرنج قد أجمعوا على الخروج، وأنه كيف يصنع في ذلك، فاتفقت آراؤهم على الاقامة في منزلتهم بعد تخفيف الأثقال، فإن خرجوا لاقوهم، وفي عشية هذا اليوم استأمن من الأفرنج اثنان فارسان وأخبرا أنهم على عزم الخروج يوم الثلاثاء، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس، ولكن لا يعرف قصدهم، ثم جاء أسير مسلم هرب منهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم يتفقون فيها على موضع يقصدونه، ولما تحقق السلطان ذلك أمر بتجهيز العسكر، وشد الرايات وأن يقف قبالتهم إن خرجوا، وسار يوم الاثنين حتى أتى قبلي كنيسة الرملة فخيم هناك وبات ليلته، ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء الثامن من شوال رتب الأطلاب للقتال، وسلم اليزك للملك العادل، وتبعه من يريدون الغزاة ، فخرجوا في جملة من خرج، فلما وصلوا إلى خيام الأفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية ورموا عليهم بالنشاب، وقام الأفرنج وركبوا وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا في جمع كثير، فنجا من سبق به جواده، وظفروا بجماعة قتلوا منهم ثلاثة نفر على ما قيل، ونقلوا خيامهم إلى يازور وأقام السلطان بلقاء منازلهم إلى الصباح، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من شوال ركب السلطان نحوهم فأشرف عليهم ثم عاد.

قال القاضي: ثم استدعاني وجماعة من الأمراء،وأمر الناس بإبعادهم عن الخيمة، فأخرج كتابا من قبائه وفضه ووقف عليه، وبدرت دموعه، وغلبه البكاء والنحيب حتى وافقه الحاضرون على ذلك من دون علم، السبب، ثم ذكر أن الملك المظفر قد توفي إلى رحمة الله، وأمر بكتم ذلك عن الناس لئلا يصل الخبر إلى العدو، وكانت وفاته في تاسع عشر رمضان يوم الجمعة على ما نذكره انشاء الله.

ومنهـا: أن في يوم السبـت الثـاني عشر من شـوال وصـل من دمشـق كتـاب من النـواب بها، وفي طيه كتـاب من بغـداد مـن الديـوان العزيـز النبوي يتضمن فصولا ثلاثة:

الأول: الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر.

والثـاني في الانكـار على مظفر الـديـن في مسـك حسن بـن قفجـاق والأمر بإعادته إلى الكرخاني.

الثالـث: فيه الأمر بـإحضار القاضي الفاضـل إليهم ليقال لـه أشياء: فأجـاب السلطان عـن الأول بأنـا لم نأمـره بذلـك، وعن الثـاني بأن ابـن قفجاق لا يخفى مـا تصدى له من الفسـاد في الأرض، وعن الثالث بـأنه كبير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة.

ومنها أن في الســادس عشر من شوال أمـر السلطان للحلقـة بالكمين للعـدو في بطون أوديـة هنـاك واستصحبوا جمعـا مـن العرب، فلما استقـر الكمين في مـوضعه ظهـرت العرب في منـاوشتهـم، وكانـت منهم جماعـة تخرج لـلاحتشاش والاحتطـاب، فنـزل عليهـم العرب ووقـع الحرب وقـام الصياح، فركبـت جماعة من خيالـة الأفرنج، وانهزمت العـرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، فخـرج الكمين ووقع الصياح وانهزموا بين أيديهم نحو خيـامهم، ثـم ركب منهـم خلق عظيـم فـالتحم القتـال، وقتل جمع مـن الطـائفتين ، وأسرت جماعـة مـن العـــدو، وأخـذت منهـم خيـول كثيرة ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعـاء السادس عشر من شوال، واستشهد في هـذه الوقعة ايـاس المهراني، وكان شجـاعا معروفـا، وجاولي غلام الفيدي، وصرع إيـاز المعظمي، وجرح جماعة عدة، وقتـل من العدو زهاء ستين نفرا، وأسر فارسان معروفان، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما.

ومنها أنـه وصل في بقية هـذا اليوم رسـول من عند ملـك الانكتار إلى

الملك العادل يعتب عليه من جهة الكمين وأنه يطلب الاجتماع به، فأذن له، ولما كان يوم الجمعة الثاني عشر من شوال سار الملك العادل، ومعه من الأطعمة والتجملات والتحف ما يحمل من ملك إلى ملك، وجاء إليه ملك الانكتار في خيمته فأكرمه العادل واحترمه، ووصل معه أيضا من طعامهم الذي يختصون به، فأتحف به الملك العادل على وجه مطايبته، فتناول منه العادل وتناول هو وأصحابه من طعام العادل، وقدم إليه ما كان حمله معه، وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصلاعن تواد ومطايبة.

ومنها: أن في يوم السبت التاسع عشر من شوال حضر صاحب صيدا بين يدي السلطان ومعه جماعة وأكرمه السلطان اكراما عظيما، وقدم بين يديه طعاما، ولما رفع الطعام خلا بهم، وكان من حديثه أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور، وقد انضم إليه جماعة من أكابر الافرنج، وكان من شرط الصلح معه اظهار عداوته للأفرنج البحرية، وبذل له السلطان موافقة على ذلك.

ومنها أن في عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار وهو ابن الهنفري، وكان من أكابرهم وملوكهم، ومن أولاد ملوكهم، وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة، فأحضره السلطان، وكانت رسالته: إن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه، ونقسم البلاد بيني وبينه، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس، ومقصودي أن نقسم البلاد بحيث لا يكون عليك لوم من المسلمين، ولا علي لوم من الأفرنج، فأجابه في الحال بوعد جميل، ثم أذن لهم بالعود في الحال.

قال قاضي القضاة بهاء الدين رحمه الله: ثم التفت السلطان في

المجلس وقال لي: متى صالحناهم لم نأمن من غائلتهم، فإني لو حدث بي حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الأفرنج، والمصلحة الثبات على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه وغرضه رحمه الله.

ولما كان يوم الاثنين الحادي والعشرين من شوال جمع السلطان الأمراء الكبار وأرباب المشورة من الدولة،وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس، واستقر الأمر من جانبه عليها وهي أخذ صيدا، وأن يكون معنا على الفرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة، وذكر لهم القاعدة التي التمسها ملك الانكتار، وهي أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معينة، وتكون لنا الجبليات بأسرها، وتكون القرايا كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم أقساء في بيع القدس الشريف وكنائسه،وشرح لهم السلطان هاتين القاعدتين وأخذ رأيهم في ترجيح أحد القسمين.وهما من جانب ملك الانكتار ومن جانب المركيس، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن ملك الانكتار فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة، وصحبتهم غير مأمونه، وانفض الناس وبقي الأمر مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح، وهي أن ملك الانكتار كان قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية والفرنجية لهما، أما الفرنجية فلها من جانب الملك وأما الاسلامية فللملك العادل من جانب السلطان، وكان آخر رسائلهم من الملك أن قال:إن معاشر دين النصرانية أنكروا علي كون أختي تحت مسلم بدون مشاورة الباب، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير إليه رسولاً يعود في ستة أشهر، فإن أذن في ذلك فبها ونعمت، وإلاّ زوجتك ابنة أختي، وما أحتاج في ذلك إلى إذن الباب، هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عمال، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الأفرنج وقتال المسلمين لهم، وكلما رآه ا لأفرنج مع الملك العادل تحركوا للصلح خوفا من

انكسار الشوكة لهم، ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شوال، ففي يوم الجمعة أصبح السلطان عازما على الرحيل وسار إلى تل الجزر لارتياد المنزل، فنزلت الناس كلهم مع السلطان، ولما عرف الأفرنج بعود السلطان رحلوا عائدين، وأقام السلطان بتل الجزر، ثم رحل إلى جهة القدس الشريف، ورحل الأفرنج إلى بلادهم واشتد الشتاء وعظمت الأمطار، وأعطى السلطان دستورا للعساكر وأقام بالقدس في هذا الشتاء أجمع، ونزل السلطان في دار القساقس قريبا من القيامة، وكان نزوله في ذي القعدة من هذه السنة، وشرع في تحصينه وتعميق خنادقه، وعمل فيه بنفسه وأولاده وأمرائه، وعمل القضاة والعلماء والصوفية بأنفسهم، وكان وقتا مشهودا، واليزك حول البلد من ناحية الأفرنج، وفي كل وقت يستظهرون على الأفرنج ويقتلون ويغنمون منهم، وانقضت السنة والأمر على ذلك، وأرصد ملك الانكتار في يافا عساكر، ثم عاد إلى عكا لينظر في أحوالها وأقام مدة.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة

منها أنه استقر الحال مع الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه أن يأخذ الرها وحران وسمسياط وينزل عن كل الذي بالشام: بصرى، وعمان، والبلقاء، ومن حلب: المعرة ومنبج، والمستقر بيده حماه وسلمية واللاذقية وجبلة وبلاطنس وبكسرائيل، ثم لم يلبث أن أدركته الوفاة على مانذكره في الوفيات إن شاء الله تعالى.

ومنها أن السلطان صلاح الدين أرسل إلى ولده الظاهر أن يخرب حصن بغراس، فبلغ ذلك ابن ليفون صاحب سيس فسار إليها فأخذها بغير قتال.

ومنها أن السلطان أخرب عسقلان كما ذكرنا ، وأخرب غزة والداروم أيضا، واهتم بعمارة القدس الشريف.

ومنها أن السلطان عزل أبا حامد محمد بن عبدالله بن أبي عصرون عن قضاء دمشق، وولى محيي الدين بن زنكي الدين، قالوا: وسبب عزل ابن أبي عصرون مداخلته الجند واشتغاله بما يشتغل به الأمراء من اتخاذ الخيول والماليك والنزل ومباشرة الحروب، ومعاملة الأمراء ومداينتهم فتبرم السلطان منه وعزله...

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الأمير سليمان بن جندر: من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية، وهو والد علم الدين بن سليمان، وشهد سليمان مع صلاح الدين حروبه، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان، فطلب المسير إلى حلب فأذن له السلطان فسار فتوفي بغباغب في أواخر ذي الحجة وحمل إلى حلب فدفن بها.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين:صاحب نابلس، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين،واقفة الشاميتين بدمشق، توفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السلطان به وبابن أخيه تقي الدين عمر، لأنهما ماتا في ليلة واحدة، وقد كانا من أكبر الأعوان، وأعز الأخوان، ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي التي أنشأتها له بمحله العوينة، وهي الشامية البرانية، وكانت وفاته بدمشق، وكان شجاعا مقداما

الأمير الكبير الصفي بن القابض: نائب دمشق، وكان من أكبر أصحاب السطان صلاح الدين قبل الملك، ثم استنابه على دمشق

وفي المرآة: الصفي بن القابض: وزير صلاح الدين، واسمه نصر

الله، وكان خدم السلطان لما كان شحنة دمشق، وأمده بالمال، فرأى له ذلك، فلما ملك استوزه وكان شجاعا ثقة دينا أمينا، ولما نزل الفرنج داريا والسلطان في الشرق، جمع من أهل دمشق سوادا عظيما، وخرج إلى ظاهر البلد، فظنوهم عسكرا ، فرحلوا، وكان كبير المعروف، وكتب أملاكه لمماليكه لأنه لم يكن له ولد، وبنى بالعقيبة مسجدا ودفن به في رجب، ويعرف اليوم بمسجد الصفي، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب رحمه الله...

الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب: كان عزيزا عند عمه السلطان صلاح الدين، استنابه بمصر وغيرها من البلاد، ثم أقطعه حماه ومدنا كثيرة معها حولها، ومن بلاد الجزيرة، وكان مع عمه على عكا، ثم استأذنه في الاشراف على بلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها اشتغل وامتدت عينيه إلى أخذ غيرها من أيدي الملوك الذين يجاورونه، فقاتلهم، فاتفق موته وهو على ذلك، والسلطان متغضب عليه بسبب اشتغاله بذلك عنه.

وقال العماد الكاتب: توفي الملك المظفر تقي الدين عمر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رمضان، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية، وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته إلى أن أخرج من ذلك الاقليم سالما، وبعث إلى السلطان يسأله في ابقاء بلاد أبيه بيده، فلم يجب السلطان إليه.

وقال النويري: قد سار الملك المظفر تقي الدين عمر إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى البلاد المجاورة، واستولى على سويداء وحاني ، وتواقع مع بكتمر صاحب أخلاط فكسره

وحصره في أخلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونزل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به حتى توفي يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، فأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه فدفنه بها بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة مشهورة هناك، وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبي، وكان عنده فضل أدب وله شعر حسن.

ثم أرسل الملك المنصور إلى السلطان صلاح الدين، واشترط عليه شروطا، نسبه السلطان فيها إلى العصيان، وكاد أمره يضطرب بالكلية، فراسل الملك المنصور عمه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماه، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها، وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء الى القدس شرفه الله، ولما استقر ذلك، سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، فقررها وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، ولما قدم العادل على السلطان صلاح الدين كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور ابن تقي الدين عمر نهض واعتنقه وبكى وأكرمه وأنزله في مقدمة عسكره.

وقال بيبرس في تاريخه: توفي الملك المظفر تقي الدين بأرض أخلاط في حصار منازكرد، ودفن بميافارقين، ثم نقل إلى حماه رحمه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، وصاحب مصر والشام وغيرهما من البلاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو مقيم في القدس الشريف في دار الأقساء بجوار قمامة، وقد قسم السور بين أولاده وأجناده، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بينه وبين قربوس سرجه، والناس يقتدون به والعلماء والفقراء ويعملون بأنفسهم والأفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان وما ماوالاها لا يتجاسرون أن يتقدموا من اليزك والحرس الذين للسلطان حول القدس، إلاّ أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الاسلام مجمعون، وهم والحرس تارة يغلبون وتارةً ينهبون وتارة يُنهبون.

ذكر رحيل الفرنج إلى عسقلان

قال العماد الكاتب رحمه الله : رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها، وتشاوروا في اعادة عمائرها، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين في بعض أعمالها مجدين في نقل غلالها، وركب ملك الانكتار عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند ابليس، فشاهد دخانا على البعد، فساق متوجها إلى تلك الجهة، وتبعه عسكره، فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة بغتة، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار، وكانوا نازلين في موضعين، فلم ير العدو إلاّ أحد القسمين ، فقصده بحزبه، فعرف القسم الآخر بهجوم العدو، فركبوا إلى العدو فدفعوه من بين أيديهم، وساقوا أثقالهم قدامهم، وما فقد من المسلين إلاّ أربعة أنفس، ونجا الباقون وكانت نوبة عظيمة رفع الله خطرها.

ذكر السرايا الثلاث

بتاريخ يوم الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان صلاح الدين في

القدس على عـادته في نقل الحجارة والجد في العمارة، ومعـه أولاده الملوك والأمـراء والقضاة والعلماء والصـوفيـة والزهـاد والأوليـاء، ولما دخل وقـت الظهر نـزل في خيمة ضربها ولده الملك الظـاهر بالصحـراء، وأحضر فيها السماط ودعـا ناسـا من الأمـراء فحضروا وأكلـوا، وصلى السلطان الظهـر هناك وركب عائدا إلى داره وأمر بتجهيز السرايا، فنـزل عز الدين جرديك في سرية، فـأغار بهم يوم الأربعـاء الحادي عشر من من المحـرم على يبنى وفيها الأفرنج بنية السكن، فغنموا اثني عشر أسيرا وخيلا ودوابا كثيرة.

وفي يوم الثـلاثاء ثـاني صفر أغارت السريـة وفيها عز الـدين جـرديك وعسكر القدس وجماعـة من المماليك على ظاهر عسقـلان، وغنموا ثلاثين أسيرا وخيولا وبغالا.

وفي ليلة الأحد رابع عشر صفر باتت سريـة فيها فارس الدين ميمون القصري بتل الجزر، وساروا حتى أصبحـوا على يبنى وكمنوا وصبروا إلى أن استرسلـت الأفرنـج إلى الطـريق وأمنـت، ثم ظهـرت السريـة على قافلـة الأفرنج فكبسوها وأخذوها بـأسرها مع رجالها وأحمالها وبغالها وأثقالها، ثم أغاروا على يافا فقتلـوا وهتكوا وغنموا وعادوا بالغنيمة والسبـايا وعجزت جماعة من المشي فضربوا أعناقهم صبرا.

ذكر خروج سيف الدين بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

وفي ربيع الآخـر دخل الأمير سيـف الديـن علي المذكور إلى السلطـان بالقـدس الشريف وقد خلص مـن الأسر، وكان أسر حين كان نـائبا على عكا فـافتدى نفسه منهم بخمسين ألـف دينار، فأعطاه شيئـا كثيرا منهم، ثم استنابه على نابلس فتوفي بها في شوال منها.

وقـال العماد الكاتـب: قرر سيـف الديـن علي المذكور قطيعـة خمسين ألـف دينار، فـأدى منها ثـلاثين وأعطى رهـائن على عشرين، ووصـل إلى

القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، فقام إليه واعتنقه وأقطعه نابلس وأعمالها، ثم عين السلطان ثلث نابلس لمصالح البيت المقدس وتشييد سوره.

ذكر عصيان الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين وماجرى له وعليه في ذلك:

وفي النوادر: ويوم وصول المشطوب كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل بأن يسير إلى الفرات ويتسلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر تقي الدين، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف على نفسه من السلطان، وأظهر ذلك، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب، وكان قد سافر إليها: إنه إن احتاج أخوك إلى معاونة أعنه، وجهز السلطان صلاح الدين ولده الأفضل بجملة كثيرة، وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكراماً عظيماً،وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنية.

وأما الملك المنصور فإنه لما بلغه موجدة السلطان عليه أرسل إلى الملك العادل رسولاً يستشفع به ليطيب قلب السلطان ويعطيه إما حران والرها وسميساط، وإما حماه ومنبج وسلمية والمعرة، فراجع الملك العادل السلطان مراراً بسببه فلم يفعل ذلك، ثم كثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء، وهزت له شجرة الكرم، فرجع إلى خلقه الحسن، وحلف له على حران والرها وسميساط، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع المذكورة ويتخلى عن البلاد التي في يده، ودخل في هذا الضمان الملك العادل، ثم التمس العادل خط السلطان، فأبى وألح عليه، فخرق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، وانفصل الحال، وانقطع الحديث.

وقال قـاضي القضاة بهاء الديـن: كنت المتردد بينهما في ذلـك، وأخذ من السلطـان الغيظ كيـف يخاطب بمثـل ذلك مـن جانـب بعض أولاد أولاده.

قال القاضي: ثم أرسلني السلطـان إلى العادل والأمراء بأن يتشاوروا في أمر الملـك المنصور، فاجتمعـوا في خدمـة ا لعادل، فانتـدب الأمير حسام الديـن أبو الهيجـاء وقال: نحن عبيـد ا لسلطان ومماليكه، وذلـك صبي وربما حملـه خوفـه حتـى انضـاف إلى جانـب آخـر، ونحـن ما نقـدر على الجمـع بين قتـال المسلمين والكفـار، فـإن أراد السلطـان قتـال المسلمين يصالح الكفـار، ونسير نحن إلى ذلك الجانب ونقاتـل بين يديه، وإن أراد مـلازمة الغـزاة يصـالـح المسلمين ويسامحهـم، فـاتفـق الجميع على هـذا الكلام، فعنـد ذلك رق قلب السلطـان، وجددت نسخة يمين لابـن تقي الديـن، وحلف له بها، وأعطـى خطه بما استقـر من الأمر، ثـم إن العادل طلـب من السلطـان البلاد التي كـانت بيـد ابـن تقي الـدين وتكـررت مراجعات العادل في ذلك.

قـال القاضي: وكنـت الـرسول بينهما، وكـان آخر مـااستقـر عليه أنـه يتسلم تلـك البلاد وينزل عـن كل ماهـو شامـي الفرات، ماعـدا الكرك والشوبك والصلـت والبلقاء وخاصته بمصر، وذلك بعـدأن قرر على نفسه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس، وأخـذ خط السلطـان بذلك، ثـم سار بنفسـه ليصلح ابـن تقي الديـن ويطيب قلبـه، وكان مسيره في الثامـن من جمادى الأولى مـن هذه السنة.

ثم إن السلطـان سير إلى الملك الأفضل يـأمره بـالعود من قصـد تلك البلاد، وكـان قد وصـل إلى حلب كما ذكـرناه، فعـاد مع انكسـار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشـق معتباً ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الأفـرنج سير إليه وطلبـه، فما وسعه التـأخر، فسار مـع من

وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق، وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم ان السلطان سير إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد، وكان قد وصل إلى حلب كما ذكرناه، فعاد مع انكسار في قلبه وتشوش في باطنه، فوصل إلى دمشق معتبا ولم يحضر إلى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه، فما وسعه التأخر، فسار مع من وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة، فلقيه السلطان قريب العازرية، وترجل جبراً لقلبه وتعظيماً لأمره، وساروا في خدمته وكان فيهم أخواه الملك الظافر وقطب الدين إلى ظاهر القدس من جهة العدو.

وأما الملك المنصور فإنه قد تسلم البلاد التي عينها له السلطان، ووصل إلى خدمة السلطان الملك العادل يوم السبت الحادي عشرمن شعبان، فنزل عنده، ثم كتب العادل إلى السلطان يخبره بوصوله وسأله في احترامه واكرامه، وطلاقة الوجه له، ثم إن المنصور لما قرب من السلطان استأذن ولده الظاهر في لقائه فأذن له في ذلك، فتلقاه في بيت نوبة، فنزل عنده وفرح بلقائه وأقام عنده إلى العصر، وذلك في يوم الأحد، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان، فدخل عليه واحترمه واعتنقه وضمه إلى صدره، ثم غشيه البكاء فبكى بكاء كثيراً حتى بكى الناس لبكائه ثم باسطه وسأله عن الطريق، ثم قام وبات في خيمة ولده الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين، ثم ركب وعاد إلى عسكره، ونشروا الأعلام والبيارق، وكان معه عسكر جميل، فقرت عين السلطان بذلك، وكان ذلك في صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من شعبان، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة، وكان قدوم الملك الظاهر إلى خدمة والده السلطان يوم السبت الخامس من رجب من هذه السنة، ونزل في دار الاسبتار، وفرح السلطان به.

ذكر هلاك المركيس صاحب صور لعنه الله:

وفي ثالث عشر ربيع الآخر يوم الثلاثاء، قتل المركيس لعنه الله، أرسل إليه ملك الانكتار اثنين من الداوية، فأظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتى ظفرا بالمركيس فقتلاه.

وقال العماد الكاتب فمسكهما الفرنج فوجدوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما: من وضعكما على هذا التدبير؟ فقالا: ملك الانكتار، وذكرا أنهما تنصرا منذ ستة أشهر، وكان خدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس، فبهذا الطريق وصلا إلى المركيس فقتلاه، ثم قتلهما الأفرنج أشر قتلة.

ثم لما قتل المركيس وذهبت روحه إلى الهاوية، استناب ملك ا لانكتار على صور ابن أخته الكندهري، وهو ابن أخت ملك الأفرنسيس لأبيه، فهما خالاه، ولما سار إلى صور ابتنى بزوجة المركيس بعد موته بليلة واحدة وهي حبلة أيضاً، وذلك لشدة العداوة التي كانت بين ملك ا لانكتار وبينه.

وفي النوادر: وكان المركيس تغدى يوم الثلاثاء المذكور عند الأسقف، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين، وكان خفيفاً من الرجال، فمازالا يضربان حتى عجل الله بروحه إلى النار، وقام بالأمر اثنان، فحفظا القلعة إلى أن اتصل الخبر بالملوك، واعتمدوا الأمر وتدبروا المكان.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان ملك الانكتار يراسل السلطان صلاح الدين في المصالحة والمسالمة كلما كان يرى أن المركيس يراسله ويهادنه، ثم لما هلك المركيس —لعنه الله— طاب قلب ملك الانكتار، وذهب خوفه، وقوي عزمه، وأرسل إلى السلطان في طلب المناصفة على البلاد سوى

القدس، فإنه للمسلمين، سوى القمامة، فلم يجب السلطان إلى ذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة داروم:

وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها، وأسروا طائفة من الداوية بها.

وقال العماد: وكانت قلعة داروم ضرراً عظيماً لما كانت مع الافرنج، فلما فتحها المسلمون تركوها وأملوها بالذخائر والرجال، وخربوا عسقلان وغزة دون داروم، وتسلمها علم الدين قيصر على أن يحفظها، فلما شرع الافرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا إليها مراراً وأشرفوا عليها، وأنفق السلطان على جماعة وقواها بهم، ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم واشتد زحفهم عليها عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أحدثوا فيها نقباً، فطلب أهلها الأمان فلم يجابوا، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا، ولما عرف الوالي أنهم مأخوذون عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعقرها، وإلى ا لذخائر فأحرقها وفتحوها بالسيف وأسروا منها عدة يسيرة، ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها، ورحلوا عنها ونزلوا على منزل يقال له الحسي وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام، وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، ثم تركوا خيامهم وساروا قصدهم قلعة هناك يقال لها مجدل جناب، فخرجت عليهم أسد اليزكية المكمنة في الغاب فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير، وعادوا مفلولين مخذولين، ثم رحل الافرنج من الحسي يوم الأحد سابع عشر الشهر المذكور، وتفرقوا فرقتين: بعضهم عاد إلى عسقلان، وبعضهم جاءوا إلى بيت جبرين.

ذكر قصد الافرنج بيت المقدس شرفه الله:

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور نزلت الافرنج

بجموعهم الوافرة بتل الصافية، ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون، فأرجفت الألسن على أنهم على قصد بيت المقدس، ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة، وأمر السلطان صلاح الدين رحمه الله بنقل الأزواد، وفرق الأبراج على الأمراء والأجناد، وكان قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدو، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون فوقف عليهم عسكر للعدو وأخذوهم، وهرب منهم ستة نفر، فوصلوا إلى السلطان وأخبروه بالخبر، ووصلت الجواسيس وأصحاب ا لأخبار من جانب العدو أنهم مقيمون بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب، فإذا حصل عندهم مايحتاجون إليه قصدوا القدس، وكان السلطان رحمه الله قد سير إلى العساكر من سائر الأطراف يسابقون إلى الحضور، وكان أول من قدم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان، ولقيه السلطان وأكرمه، ثم وصل بعده عز الدين ابن المقدم بعسكر حسن وأطلاب جيدة، ثم أمر السلطان بخروج العسكر إلى البدو، فخرجوا إلى خيامهم يتخطفونهم وجرت وقعة بعد وقعة، وكبسوهم كبسة بعد كبسة، وكان الأمير دلدرم صاحب تل باشر في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين، فبعث من أصحابه إلى طريقهم من يافا، فجازت بهم فرسان من الفرنج، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا، وفي يوم السبت سلخ الشهر نزلت الناس إليهم وقاتلوهم في خيامهم، وركب العدو وساق إلى قلونية، وهي ضيعة من ضياع القدس على فرسخين، ثم عادوا بائدي الشأن باديـن الشين وعساكر الموحدين قد ركبوا أكتافهم ورجعوا سالمين.

وفي النوادر: وكان طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة إلى العدو، فأمر السلطان من في اليزك أن يعملوا معهم مايمكنهم، وكان في اليزك بدرالدين دلدرم، فكمن حول الطريق كمينا فيه جماعة جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة، فحمل عليهم وجرى قتال

عظيـم فقتلـوا منهـم ثلاثين نفـراً، وأسروا جماعـة، ووصلـت الأسرى يـوم السبت تاسع وعشرين جمادى الآخرة، وخرجت الأتراك على جماعة منهم فأخذوا منهم وقتلوا، وجرحت من الأتراك جماعة.

ذكر كبسة الأفرنج على عسكر مصر الواصلين

كـان السلطان صـلاح الديـن رحمه الله يستحـث عسكر مصر بكتبه ورسله يـدعوهـم نجده لأهـل القدس على أهـل الكفر، فضرب العسكـر خيـامهم على بلبيـس مدة حتـى اجتمع الـرفاق، وانضـم إليهم التجـار، وللفرنج جواسيس يجسون الأخبار ويعرفون ملكهم بذلك، وجاء الخبر من اليـزكية إلى السلطـان ليلة الاثنين التـاسـع من جمادى الآخرة أن العـدو ملك الانكتار ركـب في سبعمائة فارس مردفين بألـف راجل، وسار عصر يوم الأحـد، ولايدري أي جانب قصـدوا، فجرد السلطان أميراً وعـدة من العادلية، وأمرهم أن يأخـذوا في طريق البرية فعبروا على ماء الحسي قبل وصول العدو إليه، وكان مقدم العسكـر المصري فلك الدين أخو العادل لأمه، ولم يسـأل عن المنازل والمراحـل، وقصد أقرب الطـرق، وترك الجمال على طريـق أخرى سائرة، وجـاء ونزل على مـاء يعرف بالخويلفـة، ونادى تلك الليلة: إنا جـزنا مظان المخافة فلا رحيـل إلى الصباح، فاغتر الناس بذلـك ونامـوا مغفلين فصبحهم العـدو عند انشقـاق الصبح بـالصدمـة التامـة وبغتونهم بغتـة، فركـب كل منهـم الى وجهة، ومنهـم من ركـب فرسه عـريانا، فتفرقـوا في البرية وعاد معظمهم إلى مصر، وفيهـم من عاج إلى طريق الكرك، فأخذ الكفار جمالاً لاتعد وأحمالاً لاتحد.

وقال ابن كثير: فكبسـوهم ليلا وقتلوا منهـم خلقا كثيراً، وأسروا منهم خمسمائة أسير، وغنمـوا شيئـاً كثيرا من الأمـوال والجمال والبغـال والخيـل، وكانـت جملة الجمال ثلاثـة آلاف بعير، والتجار الـذين معهم نهبـوا كلهم فتقوى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً.

وفي النوادر: وكان السلطان قد أوصى عسكر مصر بالاحتراز عند مقاربة العدو، وكانت معهم قوافل كثرة، واتصل خبرهم إلى العدو من العرب المفسودين، وركب اللعين ملك الانكتار في ألف راكب مردفين بألف راجل، وسار حتى أتى تل الصافية فبات وعلق على خيله فيه ثم سار حتى أتى ماء يقال له الحسي، وكان السلطان قد أرسل جماعة وصلوا إلى الماء المذكور قبل العدو، لكن لم يقيموا عليه، وساروا حتى اتصلوا بالعسكر المصري والقوافل، ثم قصدوا قرب الطريق، فساروا إلى أن وصلوا إلى ماء يقال له الخويلفة، وتفرق الناس لأجل الماء، فأخبرت العرب العدو بذلك، وهم نازلون برأس الحسي، فقاموا من وقتهم وسروا حتى أتوهم قبيل الصبح فكبسوا عليهم، وكان الشجاع القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام: قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب، وعسكر الملك العادل، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من المذكورين كحسين الجراحي، وفلك الدين وبني الجاولي وآخرين، وقتل من العدو زهاء مائة فارس، وقيل لم يقتل سوى عشرة أنفس، ولم يقتل من المسلمين المعروفين سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير، وتفرق الناس في البرية ورموا أموالهم، وجمع العدو ما أمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة، وسائر أنواع الأموال، وكلف ملك الانكتار الجمالين بخدمة الجمال والخربندية بخدمة البغال والساسة بخدمة الخيل، وسار في جحفل من الغنيمة يطلب عسكره، فنزل على الخويلفة وسقى منها دوابه، ثم سار حتى أتى الحسي وكانت هذه الوقعة صبيحة يوم الثلاثاء الحادي عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ووصل الخبر إلى السلطان في عشية ذلك اليوم بعد عشاء الآخرة، وكنت جالساً في خدمته، فما مرّ بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه، ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه، وأخذت في تسكينه وهو لايقبل ذلك، ولكن يقول: الأمر كله لله ويكرر ذلك.

قال: وكان وصول العدو إلى مخيمهم في سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم أظهروا فيه من السرور والفرح مالايمكن وصفه، وأعادوا خيامهم إلى الوطأة على بيت نوبة، وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصل لهم من الغنائم والأشياء الواصلة من مصر، ورتبوا جماعة على لدّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من ا لمقاتلة ليصعدوا إلى القدس.

وفي المرآة: وكانوا قد قصدوا أن يسيروا إلى مصر، ثم عادوا عن ذلك وقووا عزمهم على القدس، واستدعوا الفارس والراجل فاجتمع عندهم خلق عظيم، فساروا إلى بيت نوبة.

ذكر تصميم الأفرنج على محاصرة القدس:

ولما جرى ماذكرنا شاور السلطان الأمراء في القدس وقال لهم: أنتم جند الاسلام ومنعته، ودماء المسلمين وأموالهم وأهاليهم متعلقة بكم، فإن جبنتم طووا البلاد طياً وكنتم المطالبين بذاك، فقالوا: نحن مماليكك ومانطير رؤوسنا إلاّ بين يديك، وافترقوا على هذا، ثم تهيأ السلطان لذلك، وأكمل السور، وعمق الخنادق، ونصب الآلات والمجانيق، وأمر بتغويرماحول القدس من المياه، ثم أحضر الأمراء ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الآخرة وفيهم أبو الهيجاء السمين والمشطوب والأسدية بكمالهم فاستشارهم السلطان فيما قد دهم من الأمر الفظيع، فأفاضوا في الكلام، وأشار كل برأي، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما كانت الصحابة رضي الله عنهم يفعلون، فأجابوا إلى ذلك كلهم، هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر، فسكت القوم حتى كأن على رؤوسهم الطير، ثم قال:«الحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم، وليس لهذا العدو من يلقاه غيركم، فإن

طويتـم أعنتكم— والعيـاذ بالله— طـووا البلاد كطـي السجل للكتـاب، وكان ذلـك في ذمتكم، وأكلتم بيـت مال المسلمين، فالمسلمـون في سائر البـلاد متعلقون بكم»، فـانتـدب لجوابه سيـف الـديـن المشطوب وقـال: يـامولانـا نحـن مماليكـك وعبيـدك وأنت الـذي أنعمـت علينا وأعطيتنـا وأعنتنا، وليس لنـا إلاّ رقابنا، وهي بين يديـك، والله مايرجع أحـد منا عن نصرتـك إلى أن يمـوت بين يديـك، فقـال بقيـة القوم مثلما قـال: ففـرح السلطان وطاب قلبـه، ومدّ لهم سماطاً حافلاً، وانصرفوا مـن بين يديه على ذلك، ثم بلغه بعـد ذلك عن بعض الأمراء أنه قـال: إنا نخاف أن يجري علينا في هـذه البلدة كما جـرى في عكا، ثـم يأخـذون بلاد الاسـلام بلداً بلـداً، والمصلحة أن نلقـاهم بظـاهر البلـد، فـإن هزمنـاهم أخـذنا بقيـة بـلادهـم وإن تكـن الأخـرى سلـم الله العسكـر ومضـى القـدس وقـد انحفظـت بلاد الاسـلام بدون القـدس مدة طـويلة، وكـان مما بعثـوا إلى السلطان يقـولون: إن كنـت تريـدنا نقيـم بالقـدس تحت حصر الأفرنـج فتكـون أنت معنـا أو بعض أهلـك حتـى يكون الجيـش تحت أمره، فـإن الأكـراد لايطيعون الترك، والترك لايطيعـون الأكراد، فلما بلغـه ذلك شـق عليه مشقة عظيمـة وبات ليلة ذلك أجمع مهمـوماً كئيباً يفكر فيما قـالوا: ثم انجلى الأمر واتفـق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحـب بعلبك مقيماً عندهـم نائباً عنه بـالقدس الشريـف، وكان ذلـك نهار الجمعة، فلما حضرت صـلاة الجمعــة وأذن المؤذنـون قــام فصلى ركعتين بين الأذانين وسجد وابتهـل إلى الله تعالى ابتهـالاً عظيماً، وتضرع لديـه وتمسكن وسـأله فيما بينه وبينه في كشف هذه الضائقة العظيمة.

وفي المرآة: وبعد افتراق الأمراء من عند السلطان بعد المشاورة اختلف الأمـراء في الليل، فقـال بعضهـم: مانقيـم حتـى يكـون السلطان معنـا، نخاف أن يجري علينا ماجرى على أهل عكا.

وبلغ السلطان ذلـك فبعث إليهم يقول: هـذا مجد الدين بن فـرخشاه

ابن أخي يكون عندكم، وأكون أنا من برا أذب عنكم، فقالوا: ماهذا برأي، وإنما نخرج ونصدقهم الحملة فان قهرناهم وإلاّ سلم العسكر ونمضي إلى دمشق، فعزّ عليه ذلك خوفاً على القدس ومن فيه من المسلمين، وبات ليلة الجمعة ساجداً باكياً متضرعاً، وبعث بالصدقات إلى الفقراء، وطلع الفجر فجلس إلى الضحى يدعو، ومضى إلى المسجد الأقصى فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع إلى الله تعالى.

وكان جرديك في اليزك فجاءت منه رقعة يقول: قد ركبوا بأسرهم، وبات السلطان ليلة السبت قلقاً ماعرف المنام، فلما طلع الصباح جاء جرديك مسرعاً فقال للسلطان: يهنيك رحلوا خلف الرملة، فسجد السلطان وانكشفت أخبارهم وسبب رحيلهم أن السلطان كان قد أمر بطم الصهاريج والآبار التي كانت حول القدس، فقال لهم ملك الانكتار: من أين نشرب؟ قالوا: من العيون التي حول القدس قالوا: يتخطفوننا.

وقال صاحب النوادر: قالوا: نشرب من نهر تقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ، فقال الملك: كيف نذهب إلى السقي؟ فقالوا: ننقسم قسمين: قسم يركب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في المنزلة، ويكون الشرب في اليوم مرة، فقال الملك: إذا يأخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب، ويخرج عسكر البلد على الباقين، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم، وحكم الاثني عشر ثلاثة على عادتهم في النوازل، فباتوا يتشاورون، فرجح عندهم الرحيل، وقالوا: السلطان حاضر ومعه العساكر فارحلوا فرحلوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما كان يوم السبت الحادي والعشرين من جمادى الآخرة جاءت الكتب من الحرس حول البلدان بأن الفرنج

اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس، فقال ملك الافرنسيس: إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس وقد بقي بيننا وبينه مرحلة، وقال ملك الانكتار: إن هذا البلد يشق علينا حصاره لأن المياه قد عدمت، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء تعطل أمر الحصار، ثم اتفق الحال بينهم على أن حكموا (٢٧)، إلى آخر ماذكرناه، فرحلوا صوب الرملة.

وقال في النوادر: وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة، وعلى أعقابهم ناكصين، ووقف عسكرهم شاكين في السلاح إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار، ثم نزلوا بالرملة، وتواتر الخبر بذلك، وركب السلطان والناس، وكان يوم سرور وفرح.

ذكر بروز السلطان بجيشه إلى خارج البلد

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس، وسارنحوهم خوفاً من أن يسيروا إلى الديار المصرية لكثرة مامعهم من الظهر والأموال، وكان ملك الانكتار لعنه الله يلهج بذلك كثيراً فخذلهم عن ذلك، وترددت الرسل من ملك الانكتار إلى السلطان في طلب الصلح، ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر، وأن يعيد إليهم السلطان عسقلان، ويهب لهم أكبر كنيسة ببيت المقدس، وهي القمامة، وأن يمكن الزوار من النصارى والحجاج إليها بلا شيء، فامتنع السلطان من اعادة عسقلان، وأطلق لهم قمامة، ولكن فرض على الزوار مالاً يؤخذ من كل منهم، فامتنع ملك الانكتار إلاّ أن تعاد إليهم عسقلان ويعمر سورها كما كان، وصمم السلطان على عدم الاجابة.

وقال صاحب النوادر: ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو، حضر رسول الكندهري فقال: إن ملك ا لانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية،

وهي الآن لي فأعد عليّ بلادي حتى أصالحك، و أكون أحد أولادك، فغضب السلطان لذلك غضباً شديد بحيث أنه أراد أن يبطش بالرسول، فأقيم من بين يديه، ولما كان يوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الرسول، وكان جوابه بأن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ماكان من المركيس.

ذكر فتح السلطان مدينة يافا

ثم ركب السلطان في جيشه العزيز حتى وافى يافا، فحاصرها حصاراً شديداً فافتتحها وغنم جيشه منها شيئا كثيراً، وامتنعت القلعة، فبالغ في أمرها حتى هانت ولانت ودانت، وكادوا أن يبعثوا إليه بأقاليدها ويأخذوا الأمان لكبيرها ووليدها، إذ أشرفت عايهم مراكب الانكتار على و جه البحر، فقويت رؤوسهم واستصعبت نفوسهم، وهجم اللعين ملك الانكتار فاستعاد البلد إليه وقتل من تأخر بها من المسلمين صبراً بين يديه، وتقهقر السلطان من منزلة الحصار إلى ماورائها خوفاً على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الانكتار يتعجب من شدة سطوة السلطان كيف فتح مثل هذا البلد العظيم في يومين وغيره لايمكنه فتحه في عامين، ثم ألح في طلب الصلح على أن يكون عسقلان داخلاً في الصلح فامتنع السلطان من ذلك أشد الامتناع.

وفي المرآة: أقام السلطان بالقدس حتى يتيقن وصولهم إلى عكا، وخرج فنزل على يافا وحصرها وتعلق النقابون في الأسوار، وملك المدينة، وأشرفوا على أخذ القلعة، فصاح أهلها الأمان، ونهب المسلمون البلد، فوقف مماليك السلطان على الأبواب، كل من خرج ومعه شيء أخذوه، وعز ذلك على الأمراء والأكراد، وسلموا القلعة، وبعث السلطان إليها جماعة من أصحابه، وبقي فيها من الفرنج أربعون رجلاً، وبينما هم كذلك إذ لاحت مراكب كثيرة فتوقفوا، وقويت نفوس الافرنج الذين في

القلعة، وعلموا أنها مراكب الانكتار، فرمى واحد نفسه في الماء وسبح إليهم وقال: تقدموا، فأرسوا إلى الميناء، وكانت خمسة وثلاثين مركباً، فهرب المسلمون من البلد، وتأخر السلطان إلى يازور، وجاء الانكتار فنزل في منزلة السلطان، ولم يكن معه سوى عشرين فارساً وثلاثمائة راجل، وعشرين خيمة، والسلطان في ألوف، فبعث إلى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ومعك هذا الجيش الكثير، ومعظم عساكر المسلمين فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي وليس معي أحد، فغضب السلطان، وبات على غضب، فلما أصبح ركب وركبت العساكر وملك الانكتار نازل على حاله لم يصل إليه من الافرنج أحد، فحمل عليه المسلمون، وهو في عشرين فارساً وثلاثمائة راجل فلم يتحرك، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة؟! فلم يجبه أحد، وقال له الجناح: قل لعلوقك الذين ضربوا الناس بالأمس، وأخذوا كسبهم، ويقال إن ملك الانكتار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة، فلم يعترض أحد، وساق السلطان من حينه إلى النطرون ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد، فلم يتجاسر أحد أن يكلمه وجاءت رسل الملك في طلب الصلح.

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان ملك الانكتار نازلاً في منزلة السلطان على ماذكرنا، كبس في بعض الليالي ملك الانكتار وهو في سبعة عشر فارساً، وقليل من الرجالة، فأركب السلطان بجيشه حوله وحصره حصراً لم يبق له منه نجاة لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا عن الحملة، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض عن شرب الدواء، هذا وملك الانكتار لعنه الله قد ركب في أصحابه، وأخذ عدة قتاله وحرابه، واستعرض الميمنة من أولها إلى آخر الميسرة فلا يتقدم إليه منهم أحد من الفرسان، ولايهش في وجهه بطل من الشجعان، فعند ذلك كر السلطان راجعاً، ثم حصل لملك الانكتار بعد ذلك مرض شديد، وبعث إلى السلطان يطلب منه

فاكهـة وثلجاً، فـأمده السلطـان بذلـك فتوة وكـرماً، ثـم عوفي لعنـه الله، وتكررت رسلـه إلى السلطان لأجل الصلح، وذلـك لكثرة شوقـه إلى بلاده (٢٨).

وعن قريب نذكر المراسلات واستقرار الصح إن شاء الله تعالى.

وذكر في النوادر: في فتح يافـا ماملخصه: أن السلطان رحمه الله بلغه في العـاشر من رجـب أن الافرنـج قـد رحلوا طـالبين نحو بيروت، فبرز مـن القـدس إلى منزلـة يقـال لها الجيـب، وكان ولـده الملـك الظـاهر غـازي صاحـب حلب قـد قدم إليه يـوم السبت الخامس مـن رجب، ثـم رحل السلطان من الحبيب إلى بيت نوبة، ثـم رحل يوم الأحد ثالث عشر رجب إلى الرملـة، فنزل بها ضحـوة النهار على تلال بين الـرملة ولـدّ، وأقام بها بقيـة يوم الأحـد، ولما كانـت صبيحة يـوم الاثنين الرابـع عشر من رجـب ركب جـريدة حتى أتـى يازور وبيت دجـن وأشرف على يافا، ثـم عاد إلى منزلته وأقـام بها بقية يوم، ولما كان صبـاح يوم الثلاثاء الخامـس عشر رحل إلى نحـو يافـا فخيم عليهـا ورتـب العسكر ميمنـة وميسرة وقلباً، وكـان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل، والعساكـر فيها بينهما، وزحفوا يـوم السادس عشر وأخـذ النقابـون النقب من شمالي الباب الشرقي في الزاوية طول البـدنة، وكان المسلمون قد هدوا ذلك المكان في الحصـار الأول، وبناه الأفرنج، ودخل النقابـون فيه، وكان الملك في عكـا قد توجـه إلى نحو بيروت، وهذا الـذي حمل السلطان على نزوله على يـافا، وأقام السلطان تلـك الليلة هناك إلى أن مضى مـن الليل مقـدار ثلثـه، وعـاد إلى المنـزلـة، ولما أصبـح السلطـان عـزم على القتـال فقاتلوه، وجرح من المسلمين جماعة بالنشـاب والزنبورك من البلد، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلج والي بعلبك، وأصيـب بعينه، وطغرل التاجر وقد استقـر في وجهه، وهما مـن خواص المماليـك ، وإيـاز جركـس وهو مـن كبارهم، ولما رأى العدو المخذول ماحل بـه أرسل رسولين نصرانياً وفرنجياً

يطلبان الصلح، فطلب السلطان منهم قاعـدة القدس قطيعة، فأجابوا إلى ذلك، ولكـن اشترطوا أن ينظـروا إلى يوم السبت التـاسع عشر مـن رجب فـإن جـاءتهم نجدة وإلاّ تمت القـاعـدة على مـااستقـر، فأبـى السلطـان الانتظار وصمـم على القتال والمضايقة، ولم يـزالوا يقاتلون في ذلـك اليوم إلى أن فصل الليل بينهم، ولم يقدر السلطـان على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقوب في البدنة، وضاق صـدره وندم على عدم اجابته للصلح، ولما كـان يوم الجمعـة الثامـن عشر من رجب زحف السلطـان وزحف ولـده الظـاهر زحفـاً شـديـداً، وزحف العـادل في الميسرة فـإنـه كان مـريضـاً، وارتفعت الأصـوات وضربـت الكـوسـات، وخفقـت البـوقـات ورمـت المنجنيقات، ووقعت تلـك البدنة، وانفتح الطريـق، ولما رأى العدو ذلك أرسلوا رسولين إلى السلطـان يطلبان الأمان، فقال: قـولا لهم يتجاوزوا إلى القلعـة ويتركوا البلـد، فـدخـل الناس البلـد ونهبـوا منـه أقمشة عظيمـة وغلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش من نهبهم من القافلة المصرية.

ولما كان عصر يوم الجمعة جاء إلى السلطان كتاب من قايماز النجمي، وكان في طرف الغـور لحمايته من العدو الذي في عكـا، يخبر فيه أن ملك الانكتار لماسمـع خبر يافا أعـرض عن قصـد بيروت وعاد إلى قصد يـافا، ولما كان سحر تلك الليلـة سمع المسلمون بوق الفرنج وقـد نعق، فعلموا بوصول النجدة، وكانوا نيفاً وخمسين مـركبا منها خمسة عشر شيني، فوهب رجل مـن أهل القلعـة نفسه للمسيـح، وقفز مـن القلعة إلى الميـنـاء وكان رمـلاً، فلم يصبـه شيء، واشتـد عدواً حتـى أتى البحـر فجـاء له شينـي فأخذه الملك فـأخبره بالخبر، ولما تيقن الملك أن القلعة ماأخـذت، اندفع يطلب الساحل، وان أول شيء ألقى مـن فيه إلى البر شينى الملك، وكان أحمر وقبته حمراء وبيرقه أحمر وكـان رنكه، ثم نزل كـل من في الشواني إلى الميناء .

قال القاضي بهاء الـدين: هذا كله وأنـاشاهد ذلك، وكـان تحتي فرس

فسقت حتى أتيت إلى السلطـان، وبين يديه الرسـولان وقد أخـذ القلم حتـى يكتب لهما الأمـان، فعـرفته في أذنـه مـاجـرى فامتنـع مـن الكتابـة وشغلهم بـالحديث فما كان إلاّ ساعـة حتى فر المسلمون نحـو السلطان، فصاح في الناس فـركبوا، وقبض على الرسل وأمر بتـأخير الثقل والأسواق إلى يازور، وبقي السلطان جريدة إلى الليـل، وبات في ليلته هناك، وخرج ملك الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي وأيبك العزيـزي، وسنقر المشطوب، وبدر الدين دلدرم وغيرهـم، وكان قد صادقهـم، فقال لهم: إن هذا السلطـان عظيم، ومـافي الأرض في الاسلام أكبر منـه ولا أعظـم، كيف رحـل عـن مكانـه بمجـرد وصولي، والله مـالبسـت لأمـة حربي، وليـس في رجلي إلا زربـول البحر؟! ثم قـال لأبي بكر: بالله عليك سلم على السلطان، وقل له يجيب إلى صلحي، فهذا أمر لابد منـه في الأخير، وقد هلكت بلادي وراء البحر، ومـادوام هـذا مصلحة لالنـا ولالكـم، وجـاء أبـو بكر وعـرف السلطـان بذلـك، وكان ذلـك في أواخر يـوم السبت التـاسع عشر مـن رجب، فلما سمع السلطـان أحضر أرباب المشورة وانفصـل الحال على كون الجواب: انـك كنـت طلبـت الصلـح أولاً على قـاعـدة، وكـان الحديـث في يـافـا وعسقلان، والآن فقد خـربت عسقلان، وهذه يـافا خربت أيضـاً، فيكون لك مـن قيساريـة إلى صور، فمضـى إليه وعـرفه مـاقال فـرده إليه ومعـه رسول فـرنجي، وان يقـول الملك:إن قاعـدة الفرنـج إنه إذا أعطـى واحد لواحد بلداً صـار تابعا له وغلامه، وأنـا أطلب منك هذين البلديـن: يافا وعسقلان، وتكون عساكرهما في خـدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخـدمتك كما تعلم خدمتي، وكـان جواب السلطان رحمه الله: حيـث دخلـت هذا المدخـل فـأنـا أجيبك إلى أن تجعـل البلـد قسمين: أحـدهما لـك وهو يـافـا ومـاوراءهـا، والثاني لي وهـو عسقـلان وماوراءها، ثـم سار الرسولان ورحـل السلطان وكان بيازور، ورتـب اليزك بها والنقـابين وأمر بخـرابها وخرب بيـت دجن، وسـار حتى أتـى الرملـة

فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر، فأمر باكرامه، وكانت الرسالة الشكر من الملك على إعطائه يافا، وتجديد السؤال في عسقلان، ويقول له: إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي هاهنا، فأجابه السلطان: أما النزول عن عسقلان فلاسبيل إليه، وأما تشتيته فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت منه بالضرورة، وإذا سهل عليه أن يشتي هاهنا وهو بعيد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين، وهوشاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، أما يسهل عليّ أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي ويحضر إلي ماأريده ومن أريده، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي عندي في الشتاء يكون غير العسكر الذي يكون في الصيف، ومع هذا أنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولاأزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، فلما سمع الرسول ذلك طلب ان يجتمع بالملك العادل، فأذن له في ذلك، فسار إلى خيمته، وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه على موضع يقال له مارخوان.

ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد، فجمع أرباب الرأي للمشورة، فوقع الاتفاق على قصدهم جريدة، ويرحل الثقل إلى الجبل، فأمر الثقل بالرحيل في عشية يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب، وسار هو رحمه الله جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها، وأن الملك قد نزل خارج يافا بنفر يسير وخيم قليلة، فوقع له أن يكبس عليه، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تقدمه إلى أن أتى وقت الصباح إلى خيام العدو، فوجدها يسيرة مقدار عشر خيم، فداخله الطمع، وحمل عليهم فلم يتحركوا من أماكنهم ودار السلطان على الأطلاب بنفسه يحثهم فلم يجب أحد إليه سوى ولده الملك الظاهر فإنه تأهب للحملة فمنعه، فلما رأى

السلطان ذلك رأى أن وقوفه وحده خسارة، فأعرض عن القتال، وسار حتى أتى يازور وهو مغضب، فنزل بها ذلك يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب، ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى النطرون فنزل به فأرسل إلى العسكر فحضروا عنده يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب فبات به، ثم أصبح يوم الجمعة، وسار إلى الملك العادل يفتقده، ودخل القدس وصلى الجمعة به، ونظر إلى العمائر ورتبها ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون.

وقدمت إليه العساكر، فأول من وصل علاء الدين ابن أتابك صاحب الموصل فتلقاه السلطان ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من رجب، فأكرمه وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له تقدمة جليلة، ثم سار إلى خيمته وأقام السلطان بالنطرون، ولما كان يوم الخميس التاسع من شعبان قدم عسكر مصر وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة من الأسدية، وكان في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، وكان يوما مشهودا، ثم أنزلهم عنده ومد الخوان، ثم ساروا إلى منازلهم، ثم قدم الملك المنصور بن تقي الدين في صبيحة يوم الاثنين ثالث عشر شعبان، ونزل في مقدمة العسكر، ولما رأى السلطان أن العساكر قد تجمعت، جمع أرباب الرأي وقال: إن ملك الانكتار مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد رجعوا إلى بلادهم، ونفقاتهم قد قلت، وأصبح يوم الخميس راحلاً إلى جهة الرملة.

ذكر كتاب الصلح

لما رضي ملك الانكتار بمارسم به السلطان صلاح الدين كتب كتاب الصلح في الثامن عشر من شعبان، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم وأسقف وجاثليق، وحلف الأمراء من المسلمين وكتبوا خطوطهم، واكتفي من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحاً عظيماً.

وفي تاريخ النويري:واستقر أمر الهدنة يوم السبت الثامن عشر من شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذروا بأن الملوك لايحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته على الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان، ومعهما جماعة من المقدمين،وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل والملكين: الأفضل والظاهر ابني السلطان صلاح الدين، والملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين ـلدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها ايلول الموافق لحادي عشرين شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج: يافا وعملها وقيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط السلطان دخول الاسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الافرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، واستقرت القاعدة على ذلك، وأرسل السلطان مائة ألف نقاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان واخراج من بها من الأفرنج والألمان.

ذكر توجه السلطان إلى القدس

ثم لما تمّ هذا الأمر رحل السلطان إلى القدس في اليوم الرابع من شهر رمضان، وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل كنيسة تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الاسلام دار علم قبل

أن يملك الأفرنج القدس ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد رحمه الله، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الأسبتار بقرب قمامة مارستانا للمرضى، ووقف عليها مواضع، وسير أدوية وعقاقير عزيزة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المذكور.

ثم عزم السلطان رحمه الله على أن يحج عامه هذا من القدس فكتب إلى الحجاز واليمن والديار المصرية والشامية ليعلموا ذلك وليتأهبوا له، وكان أخوه سيف الاسلام في اليمن، وكتب إليه أيضاً بذلك، ثم فنده الأمراء، وكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفاً على البلاد من استيلاء الأفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها والفساد، وذكر أن النظر في أحوال المسلمين واصلاح أمرهم ومصابرة عدوهم أفضل مما نوى والعدو المخذول مخيم بعد في الشام، فسمع السلطان منه وشكره على نصحه وعزم على ترك الحج عامه ذلك وكتب به إلى سائر الممالك، واستمر السلطان مقيما بالقدس جميع شهر رمضان، وكلما وفد أحد رؤساء النصارى للزيارة أولاه غاية الاكرام والاحسان تألفاً لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان، ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الايمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة قمامة متنكراً، ويحضر سماط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم بحيث لايرى، والسلطان يعلم ذلك جملة وتفصيلا، لهذا يعاملهم بالاكرام والاحسان.

ذكر خروج السلطان من القدس على عزم دمشق

ثم إن السلطان رحمه الله فوض ولاية القدس الشريف إلى عز الدين

جرديك ووصاه بتهذيب الأمور، والأخذ بالحزم في كل شيء، وكان فيه كفاية وشهامة وديانة، وكان الوالي قبله حسام الدين سياروخ وكان فيه دين ولين، وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وماوالاها، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة والعمران، وكان السلطان قد أعطى دستوراً للعسكر حين تم أمر الصلح، فكان أول من سار عسكر إربل فانهم ساروا في مستهل شهر رمضان، ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن، وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة ثم انصرف عائداً إلى الكرك لينظر في أحواله ثم يعود إلى بلاده الشرقية ليدبرها، فإنه كان أخذها من السلطان، وودع السلطان، فلما وصل إلى العازرية ونزل بها، أتى إليه من أخبره أن رسولاً من بغداد واصل إليه، فانفذ إلى السلطان وعرفه، وذكر أن يجتمع به، ثم جاء إليه يوم السبت الرابع والعشرين منه، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة وزارة بغداد، ومضمون كتابه أنه يستعطف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة، والانكار عليه في تأخر رسله عن العتبة الشريفة، وأن يسير القاضي الفاضل إلى الديوان في تقرير قواعد بينه وبين السلطان، ووعد العادل شيئاً كثيراً إذا قرر ذلك، ولما سمع السلطان ذلك كره انفاذ رسول يسمع كلام الديوان، ووقع كلام كبير بين السلطان والعادل ثم قوي عزم السلطان على انفاذ الضياء الشهرزوري، وعاد العادل إلى مخيمه بالعازرية، وعرف الرسول بما وقع عند السلطان، ومن اجابته إلى انفاذ الرسول، ثم سار العادل يوم الاثنين طالباً جهة الكرك، وسار الضياء متوجهاً إلى بغداد يوم الثلاثاء سادس عشرين رمضان، وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين منه توجه الملك الظاهر بن السلطان إلى جهة حلب بعد أن أوصاه السلطان بالتقوى فانها رأس كل خير، وبالبعد عن سفك الدماء ومظالم الناس.

وفي الليلة الخامسة من شوال من هذه السنة سار الملك الأفضل بن السلطان متوجهاً إلى دمشق، ثم إن السلطان رحمة الله عليه لم يزل ينظر في أحوال الناس، ويعطي اقطاعات لأناس ودستوراً لآخرين، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكتار متوجهاً إلى بلاده مستهل شوال، فعند ذلك حرر عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ثم يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل، ثم يعود إلى القدس ويزوره، ثم يسير إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها، وينظر مصالحها.

قال القاضي بهاء الدين: وأمرني بالمقام بالقدس لعمارة مارستان أنشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، ثم خرج السلطان من القدس ضحوة نهار الخميس السادس من شوال من هذه السنة.

قال القاضي: وودعته إلى البيرة، وهي قرية بين القدس ونابلس، ونزل بها وأكل فيها الطعام، ثم رحل منها وبات على بركة الداوية، ثم نزل على نابلس ضحوة نهار الجمعة السابع من شوال، وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها، وأنه زاد في رسومها ونوائبها، فأقام بها السلطان إلى ظهر يوم السبت الثامن من شوال حتى كشف مظالمها، وأسقط رسومها الجائرة، ثم رحل بعد الظهر ونزل بسبسطية وتفقد أحوالها.

قال ابن كثير: وبات ليلة الأحد عند عقبة ظهرحمار بموضع يعرف بالفرنديسة، وأصبح راحلاً ونزل ضحوة نهار الأحد على جينين وهناك ودعه المشطوب وداع الأبد، فإنه توفي بعد أيام، ثم رحل يوم الاثنين وجاء ضحوة إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية، فقال: الصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب، ولم يزل حتى بين كيفية بنائها، ثم رحل الظهر وبات على قلعة كوكب، ورحل عنها ضحوة الثلاثاء

ونزل بطبرية وقت العشاء وهناك جاء إليه بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر، وكان قد أسر فيمن أسر بعكا، وكان انفكاكه من الأسر يوم الثلاثاء الحادي عشر من شوال، ففرح السلطان به فرحاً شديداً لأنه كان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام، وأقام السلطان بطبرية يوم الأربعاء، ونزل بكرة الخميس، ونزل بقرب صفد تحت الجبل، وصعد السلطان إليها وأمر بتشييد مافيها من الخلل، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة، ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحش وهي عامرة، وسار منها وخيم على مرج تبنين ووصى الوالي بعمارة قلعتها، ثم رحل بكرة السبت وجاء على قلعة هونين، ونزل من الجبل وبات على عين الذهب، ورحل يوم الأحد وخيم بمرج عيون، ورحل عصر يوم الاثنين وعبر من عمل صيدا ميسرة وعمل وادي تيم يمنة، على الضياع والقرى وعرس على مرج تلفياثا مقابل مرج القنعبة، ثم أصبح يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفياثا فخيم على جسر كامد، ثم غدا يوم الأربعاء وخيم بناحية قب الياس، ثم رحل يوم الخميس إلى بيروت ونزلت الأثقال على مرج قلميطية بالبقاع، وأقام خمسة أيام على الاستراحة، ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة بكل ماتوفرت به الكرامة، وأحضر للسلطان ولكل من كان معه من أنواع التحف وأقسام الطرف [٢٩] .

ولما أراد السلطان أن يرحل من بيروت وذلك في يوم السبت الحادي والعشرين من شوال قيل له إن الابرنس والأنطاكية قد وصل إلى الخدمة، متمسكاً بحبل العصمة، داخلاً في حكم الذمة، فثنى السلطان عنانه ونزل وأقام، وأذن للابرنس في الدخول عليه، فدخل عليه وقربه ورفع مجلسه، وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً، ووهب السلطان كلا منهم تشريفاً سرياً، وكتب له من مناصفات أنطاكية بمبلغ عشرين ألف دينار، ثم ودعه يوم الأحد وفارقه.

وفي النـوادر: وأنعم عليـه بـالعمـق وزرعان ومـزارع تغـل عشرة آلاف دينار، ثم خرج السلطان يوم الأحد وبـات بالمخيم على البقاع، ورحل يوم الاثنين وعبر عين الجر، وبات على مـرج يبوس، ووصـل هناك مـن أعيان دمشق مـن تلقاه بأنواع التحـف من الفواكـه وغيرها، ورحل يوم الثـلاثاء وبـات بالعـرادة، وأصبح يـوم الأربعـاء السادس والعشريـن من شـوال، ودخل دمشق، وخرج كـل من بالمدينة، وحشر الناس ضحى، وكـان يوماً مشهوداً، وكـانت غيبتة عن دمشـق أربع سنين وهو في الجهـاد، وكان في دمشق أولاده: الملـك الأفضل، والملـك الظاهـر، والملك الظـافر، وأولاده الصغار، وكـان يحب البلد ويؤثـر الاقامـة فيه على سائر البـلاد، وجلس للناس بكـرة يوم الخميـس السابـع والعشرين منـه، وحضر الناس عنـده وتملـوا برؤيتـه وطلعتـه المبـاركة، وأنشـده الشعـراء، وعـم ذلك المجلـس الخاص والعام، وقـام بنشر جناح عـدله وبهطل سحـاب انعامـه وفضله، وبكشف مظالم الرعايا.

وفي يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملـك الأفضل دعوة للملك الظاهر، وأظهـر فيها من بديع التجمـل وغريبه مايليق بهمتـه، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما كـان خدمه به حين وصوله إلى حلـب، وسأل السلطان الحضور في دعوته فحضر، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الأربعاء السـابع والعشرين من ذي القعدة قـدم الملك العادل مـن الكرك، وخـرج السلطان إلى لقـائه، وقـام يتصيد حـول غباغـب إلى الكسوة حتى لقيـه، وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخـولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد مستهـل ذي الحجة مـن هذه السنة، وأقـام السلطان بـدمشق يتصيد هـو وأخوه وأولاده ويتفرجـون في أراضي دمشق، وماكـان ذلك إلا للوداع لأولاده وهو لايشعـر، ثم أذن السلطان لولده الملك الظـاهر لسفره إلى حلب محل ولايته، فودعه وداعاً لالقـاء بعده، وسار إلى حلب، وبقي

عند السلطـان ولده الملـك الأفضل وأخـوه وبقية أهلـه، وخرجـت السنة والأمر على هذا.

ذكر بقية الحوادث

.... ومنها أنه اتهم أمير الحجيج ببغداد مـن مدة عشرين سنة في غاية حسن السيرة، بأنه يكاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليـأخذهـا فإنـه ليس يمنعه أحـد، وقدكـان مكذوبـاً عليه في ذلك، ومع هذا حبس وأهين وصودر.

وفي المرآة: اعتقله تحت التاج وأخفى أخبـاره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر...... .

ومنها أنـه هربـت جماعة مـن العرب ودخلـوا مع الفـرنج، ثـم أرسلوا يطلبون الأمان من السلطان على أن يسرقوا ماقـدروا عليه من خيل الفرنج فساقوا خمسمائة فرس.

ومنهـا أن ملك الانكتـار جهـز مـن عدد المسلمين وأسلحتهـم التـي نهبوهـا شيئاً كثيراً في مـركب، وسفرهـا في البحر، فـأرسل الله تعـالى عليها ريحاً عاصفاً فغرق المركب، بما فيه ومن فيه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان.....

ابن الفراش القاضي شمـس الدين محمد بن محمد بـن موسى المعروف بـابـن الفراش، كـان قـاضي العسـاكـر بـدمشق، ويـرسلـه السلطـان في الـرسالات إلى ملـوك الآفـاق، وتـوفي بملطية عـائداً مـن عنـد ابن قليـج أرسلان.

وقال العماد الكاتب: أرسله السلطـان إلى قليج أرسلان وأولاده ليصلح

بينهم، فتردد سنة وعاد ووصل إلى ملطية وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بديار مصر، ثم صار من أكابر أمراء السلطان صلاح الدين، وهو الذي كان على نيابة عكا حين أخذها الفرنج، فافتدي منهم بخمسين ألف دينار، وتخلص إلى أن خلص إلى السلطان وهو بالقدس الشريف كما ذكرناه، فولاه نيابة نابلس، وكانت وفاته يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال بالقدس الشريف، ودفن في داره.

وقال العماد: وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال.

وقال المؤيد: وكانت نابلس اقطاعه وتوفي فيها، ووقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين وأميرين معه.

وفي المرآة: سيف الدين المشطوب، ملك الهكارية، واسمه علي بن أحمد الهكاري، كان شجاعاً صابراً في الحرب مطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث، وشهد فتح مصر، ولزم خدمة السلطان، واتفق أن السلطان اجتاز بنابلس في عوده إلى دمشق، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا، فقال: ماهؤلاء؟ قالوا: يتظلمون من المشطوب، وهو راكب بين يديه، فقال: ياعلي لو كان هؤلاء يدعون لك هيهات يسمع الله، فكيف وهم يدعون عليك، واختلفوا في وفاته، فقال العماد: ومات المشطوب في نابلس في آخر شوال، وقال القاضي ابن شداد: مات بالقدس، وصلي عليه في المسجد الأقصى، ودفن بداره.

راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد، وكنيته أبو الحسن، صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام، أصله من البصرة، توفي في هذه السنة.

قال بيبرس في تاريخه: كان عالماً فاضلاً أديباً، وكانت له معرفة وسياسة وحذق في اقامة الدعوة، واستجلاب للقلوب، ولم يقم أحد بعد مقامه.

وفي المرآة: وكان في حصن ألَمَوت، فرأى منه الآمر في تلك البلاد نجابة وشهامة ويقظة، فسيره إلى حصون الشام، وكان مجيئه إلى الشام في أيام نور الدين محمود، فأقام والياً ثلاثين سنة، وجرت له مع السلطان قصص، وبعث إليه جماعة وثبوا عليه، وكان في عزم السلطان قصده، ولم يعطه طاعة قط، ولما صالح السلطان الأفرنج وعزم على قصده توفي، وتحكى عنه العجائب والغرائب.

السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قلطمش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، صاحب بلاد الروم، توفي في يوم السبت منتصف شعبان من هذه السنة، وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة حسنة وهيئة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين، قد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور، وكان أبوه قد أعطاه سيواس، فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والانفراد بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه، وهجم على والده قليج الدين أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه وقال لوالده وهو في قبضته: أنا بين يديك أنفذ أمرك، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية، ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله بأمر والده، وخرج عسكر قيسارية

لحربه، فوجد أبـوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغـال العسكر بالقتال فرصة، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحـب قيسارية، فأكرمه وعظمه كما يجب عليـه، فـرجـع قطـب الـدين ملكشـاه إلى قـونيـة وخطـب لنفسـه بالسلطنة، وبقي أبوه قليـج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده، كلما ضجر واحد منهم انتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسـلان صاحب برغلـو، فقوى أباه قليج أرسـلان وأعطاه وجمع معه وحشـد وسار معـه إلى قونية وملكهـا وأخذها مـن ابنه ملكشـاه، ثم سـار إلى أقصرا فـاتفق أن عـز الـديـن قليـج أرسلان مـرض ومـات في التاريخ المذكور، فأخذه ولده كيخسرو وعـاد به إلى قونيه فدفنه بها، واتفق موت ملكشـاه بعد مـوت أبيه قليج أرسـلان بقليل، فـاستقر كيخسرو في ملك قـونية، وأثبت أنـه ولي عهد أبيه قليج أرسـلان، ثم إن ركن الـدين سليمان أخا غيـاث الديـن كيخسرو قوي على أخيـه كيخسرو وأخذ منـه قونية، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مـات ركن الديـن سليمان سنة ستمائة وملك بعـده ولـده قليـج أرسلان بـن سليمان، فرجع غياث الـدين كيخسرو بن قليـج أرسلان إلى بلاد الروم، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعاً، واستقرت لـه السلطنة ببلاد الـروم كذلـك إلى أن قتل، وملك بعـده ابنه عز الـدين كيكـاوس بن كيخسرو، ثـم توفي كيكـاوس وملك بعـده أخوه السلطان عـلاء الديـن كيقباذ بن كيخسرو، ثـم توفي عـلاء الديـن كيقباذ سنة أربـع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولـده غياث الديـن كيخسرو بن كيقبـاذ بـن كيخسرو، وكسره التتـار سنـة إحـدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقيـة ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو بـن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بـن قطلمش بن أرسـلان بن سلجـوق، وانقضى بمـوت كيخسرو المذكـور سلاطين بـلاد الـروم في الحقيقة، لأن مـن صار بعـده لم يكن لـه من السلطنـة غير مجرد الاسم، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فملكا

معا مـديدة، ثم انفرد ركـن الدين بالسلطنـة، وهرب أخوه عز الـدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين المذكور معين الدين البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر، ثـم إن البرواناه قتل ركـن الدين وأقـام ابن ركن الـدين يخطب لـه بالسلطنـة، والحكم للبرواناه، وهـو نائب التتر، كما سنـذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريـخ بيبرس: والذي كان قليج أرسـلان فرقة لأولاده مـن بلاده: ركـن الـديـن سليمان دوقـات وأعمالها، غيـاث الـديـن كيخسرو قـونيـة وأعمالها، قطـب الـديـن سيـواس وأعمالها، وأقصرا وأعمالها، فلما مـات اختلفت الأخوة وتحاربوا، واتفقت وفاة ولـده قطب الدين على إثره، فقوي ركن الدين على أخوته وملك هذه الممالك جميعها منهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في هذه السنة التاسعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هـذه السنة والخليفـة هو النـاصر لديـن الله، ويقال لها سنـة الملوك، لأنـه مات فيهـا ملوك كثيرة، وأعظمهـم وأجلهم السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب، والأتابـك عز الـدين مسعـود صاحب الموصل، وسيف الدين بكتمـر صاحب خلاط، وسلطانشـاه بن ألـب أرسلان صـاحـب خراسـان، وقيطرمـش المسجـدي شحنة بغـداد، والأمير داود صاحب مكـة، وسنذكر تراجمهم واحداً بعـد واحد بعون الله، ونذكر أولاً ترجمة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه.

ذكر وفاة السلطان صلاح الدين:

الأول في ترجمته: هويوسف بن أيوب بن شادي بن مروان.

وقال ابن خلكـان: ولقد تتبعت نسبهم كثيراً، فلم أجد أحـداً ذكر بعد

شادي أباً آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه وأيوب ابني شادي لاغير، ويقال شادي بن مروان.

قال: ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن عرنب بن عمران الجرشي يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنتر بن أسامة بن بيهس ابن الحارث صاحب الحمالة بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ابن سعد بن قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب إلى أن انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز يقال أنه ممدوح المتنبي وفيه يقول من جملة قصيدته:

شرق الجو بالغبار إذا سار علي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل ماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان، وكان .مه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي، بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أمية، وادعى الخلافة.

وقال ابن خلكان: سمعت شيخنا قاضي القضاة ابن شداد يحكي عن

السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال ليس هذا أصلي.

وذكر ابن القادسي وقال: كان شادي مملوك بهروز الخادم.

وقال السبط في المرآة: وهذه من هنات ابن القادسي، ماكان مملوكاً قط ولاجرى على أحد من بني أيوب رق، وإنما شادي خدم بهروز الخادم في قلعة تكريت استنابه فيها.

وكان صلاح الدين يوسف المذكور يقال له السلطان الأعظم أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية.

الثاني: في بيان ميلاده، وبلده وأصله، ولد صلاح الدين بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها في اثنتين وثلاثين وخمسمائة، واتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دوين—بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء، آخر الحروف، وفي آخرها نون— وهي بلدة في آخر أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وأنهم أكراد روادية—بفتح الراء والواو، بعد الألف دال مهملة ثم ياء آخر الحروف مشددة وبعدها هاء— والروادية بطن من الهدبانيه— بفتح الهاء والدال المهملة والباء الموحدة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء آخر الحروف مشددة، وبعدها هاء— وهي قبيلة من الأكراد.

وقال ابن خلكان: قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين: إن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان—بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة، وبعد الألف الثانية نون أخرى— وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد شادي والد أيوب والد صلاح الدين بها، أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها

وعلى قبره قبة داخل البلد، وكان شيركوه وأيوب لما كانا في بغداد خدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق، ورأى مجاهد الدين في نجم الدين عقلاً ورأياً حسناً، وحسن سيرة، فجعله دز دار تكريت—ودز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي المعجمة وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء— وهو لفظ أعجمي، ومعناه حافظ القلعة، وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ للقلعة، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين، ثم إن أسد الدين قتل انساناً بتكريت لكلام جرى بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليهما، فأخرجهما من تكريت، ثم إنهما قصدا عماد الدين زنكي، وكان اذ ذاك صاحب الموصل، فأحسن إليهما وأقطعهما اقطاعاً حسناً، وصارا من جملة جنده، ولما فتح عماد الدين بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً، فيقال إن الأخوين خرجا من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به، وتطيروا منه، فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وماتعلمون، فكان كما قال. ويقال ماخرجا من تكريت إلا بعد ولادة صلاح الدين مدة يسيرة، أو في بقية السنة التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة والله أعلم.

الثالث في بيان منشأه: ولم يزل صلاح الدين في كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود الشهيد ابن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ الذي ذكرناه، لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين يوسف وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين الشهيد يرعاه ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف، والاجتهاد في أمر الجهاد، حتى تجهز مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما ذكرنا مفصلاً.

الرابع: في سيرته.

قال العماد وغيره: قد كان السلطان صلاح الدين متشرعاً في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلايلبس إلاّ الكتان والقطن والصوف، ولايعرف أنه فعل مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصوده الأعظم نصر الاسلام وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك وآرائه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، هذا مع مالديه من الفضائل والفواضل، والفوائد والفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان مواظباً على الصلوات الخمسة في أوقاتها في الجماعة، ويقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى في مرض موته، كان يدخل الامام فيصلي به، ويتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم مايقال بين يديه من البحث والمناظرة، وشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها.

قال العماد: ورأى يوماً دواتي محلاة بالفضة فأنكر علي وقال: هذا حرام، فقلت له على سبيل المداعبة: أوليس تحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح، ودواتي هذه أنجع ومدادها أنفع، ويراعي بذراعي القصير أطول، وسنان قناتي أحد وأقتل، فقال: ليس هذا دليل صالح، قلت: ماجمعت هذه العساكر الاسلامية إلا بقلمي ولاتفرقت جموع الكفر إلاّ بكلامي، فقال: والله إن هذا مايعجبني ، فلم أعد أكتب بتلك الدواة بين يديه، وكان طاهر المجلس لايذكر أحد في مجلسه إلاّ بالخيرّ وكان طاهر اللسان لايذكر أحداً بسوء ولاشتم أحداً قط، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهراء، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، وماسمع منه كلمة فحش

قط، وكان يلين للمؤمنين ويغلظ على الكافرين، ومن جالسه لايعلم أنه جالس سلطاناً، بل يعتقد انه أخ من الاخوان، وكان شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية، وكان ممن يعرض عند الناس استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماع الحديث جلالاً له، وإن لم يكن ممن يحضر عند الناس ولايطرق أبواب الملوك سعى إليه وسمع منه، وروى عنه وتردد إليه، ولم يكن في عمره كتب بيده مافيه أذى مسلم، وماحضر بين يديه يتيم إلاّ وترحم على مخلفه وجبر قلبه، وأعطاه مايكفيه، فإن كان له كافل والاّ كفله وأعطاه مايكفيه، وإنه مات ولم تجب عليه الزكاة.

الخامس: في حسن عقيدته.

كان متوكلاً على الله في كل أمره ولايلتفت إلى قول منجم، وكان حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري، وعلمها أولاده الصغار لترسخ في أذهانهم من الصغر، وكان يأخذها عليهم.

وقال ابن كثير: وكان القطب النيسابوري جمع هذه العقيدة لأجله، وكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده، وكان يحب سماع القرآن العظيم، ويواظب على سماع الحديث، حتى أنه سمع في بعض مصافه جزءاً و هو بين الصفين، وكان يتبجح بذلك، ويقول: هذا موقف لم يسمع به أحدا حديثاً، وكان ذلك باشارة العماد، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان قد لجأ إلى ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له السهروردي، وكان يعرف الكيمياء والسيمياء وشيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات، فافتتن به ولده وقربه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، وبلغ ذلك أباه

السلطان، فكتب إليه أن يقتلـه لامحالة، فصلبه ولـده عن أمـر والده كما ذكرنا في سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

ومـن شدة محبتـه لسماع الحديـث مضى إلى الاسكنـدريـة وسمع مـن الحافظ السلفـي ومن ابن عـوف الضياء، وكـان مبغضاً لكتب الفـلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة.

وقـال ابـن كثير: وكـان رحمه الله قـرأ مختصراً في الفقـه تصنيـف سليـم الرازي (٣٠).

السادس: في حلمه وأخلاقه الحسنة.

وكـان حليما كثيراً يعفو عـن أصحاب الـذنوب، حسـن الخلق صبـوراً على مـايكره، كثير التغـافل عـن ذنوب أصحـابـه، يسمع مـن أ حدهـم مايكـره ولايعلمه بذلـك ولايتغير عليه، وكان يـوماً جـالساً فرمـى بعض المماليك بعضاً بسر مـوزه فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة ا لأخرى ليتغافل عنها.

وقال القاضي شهاب الـدين: نفرت بغلتي يوما مـن الجمال وأنا راكب في خدمتـه، فزحمت ركبته حتـى أقلقته من الوجـع، وهو يبتسم، وكـذلك سرق من خزانتـه كيسان من الذهب المصري وأبـدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين شيئا سوى صرفهم.

وقـال القاضي بهاء الـدين: كنـت يومـاً عنـد مجلس الحكـم بالقـدس الشريف إذ دخل رجل حسن الهيئة ومعه مكتوب حكمي وقال لي: ياأيها القاضي خصمـي السلطان، وهـذا بساط الشرع، فقـال له القـاضي: بأي سبب؟ قال: إن سنقـر الخلاطي مملوكي ولم يـزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يـده أموال عظيمـة كلها لي، فـاستولى عليهـا السلطان، وأخـرج

الكـلاسة التـي هي شمـالي جـامع دمشـق، ولهـا بابـان أحـدهمـا إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قال ابـن خلكان رحمه اللـه: ولقد دخلت إلـى هذه القبة مـن الباب الذي فـي الكلاسـة، وقرأت عنده وتـرحمت عليـه، وأحضرني قيـم القبة ومتولي أمرها بقجة فيها ملبوس بـدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير ورأس كميه بأسود فتبركت به.

قـال ابن القادسـي: ودفن معـه سيفه، وقـال القاضـي الفاضل: هـذا يتؤكأ عليه في الجنة.

وقال السبط في المرآة: هذا وهم مـن ابن القادسي لأن سيفه بعث به ولده الأفضل إلى بغداد.

وقال ابن كثير: ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لـرجـل صـالح، ونقلـه إليهـا يـوم عـاشـوراء سنـة اثنتين وتسعيـن وخمسمائة بعدمـا أدخله الجامع وصلى عليه صلاة ثـانية،وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

الثالـث عشر: في مـدة سلطنته ، ومـدة عمره، وكان عمـره قريبـاً من سبع وخمسين سنة، وقـد ذكرنـا أن مولـده كان في سنـة اثنتين وثـلاثين وخمسمائة.

وفي تـاريـخ ابن العميـد:وكـان عمـره ستـاً وخمسين سنـة وشهـوراً، وكانـت مدة مملكته للـديار المصـرية نحو أربـع وعشرين سنـة وللشام قريباً من تسع عشرة سنة، قاله ابن كثير.

وفي تاريـخ ابن العميد: وكانت مملكتـه اثنتين وعشرين سنـة وسبعة

المكتوب فتفحصته فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي، وأنه اشتراه من فلان التاجر في الوقت الفلاني، ولم يزل على ملكه إلى أن شذّ عنه في سنة كذا. قلت له: فما أخرك إلى هذا الوقت؟ فقال: الحقوق لاتبطل بالتأخير، قال القاضي: فأعلمت السلطان فأحضره، واستوى معه في المجلس حتى ساواه، وادعى الرجل وأظهر كتابه، فقال السلطان: عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان ملكي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس، ولم يزل في ملكي حتى أعتقته، ثم أحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء فشهدوا بذلك، فانكسر الرجل، فقلت للسلطان: يامولانا مافعل هذا إلا ليطلب صدقة السلطان فما يحسن أن يرجع خائب الأمل، فقال: هذا باب آخر، وأمر له بخلعة ونفقة جيدة وبغلة.

قال: وكان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ومعه قصص، فقدم له قصة، وكان السلطان قد مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح فداسها سنقر الخلاطي، ولم يعلم، وقال له: علم عليها فلم يجبه، فكرر عليه القول، فقال له: ياطواشي أعلم بيدي أو برجلي؟ فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم، ثم قال السلطان: هات القصة فعلم عليها، ومازال السلطان على هذه الأحوال دوماً حتى توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته ورضوانه.

وقدم إليه مملوك له قصة، فقال: أنا الساعة ضجر، فأخرها ساعة، فلم يؤخرها وقدمها إلى وجهه، فلما قرأ اسم صاحبها قال: أي والله رجل مستحق، قال: فوقع له، قال: ماثم دواة، ثم نظر فإذا الدواة بعيدة عنه، فامتد على يده اليسرى حتى أخذ الدواة ووقع له.

وقال القاضي: ولقد واجهه الجناح على يافا بالكلام القبيح فما قال له كلمة، واستدعاه فأيقن بالهلاك وارتقب الناس أن يضرب رقبته، فأطعمه فاكهة جاءته من دمشق، وسقاه ماء وثلجاً.

السابع: في شجاعته.

وكـان رحمه الله أشجع النـاس وأقواهـم بدنـاً وقلباً مـع ماكـان يعتري جسمه مـن الأمراض والأسقـام و لاسيما وهو مرابـط مصابـر مثاغـر عند عكا، فإنهم كـانوا كلما كثرت جموعهم وتـراكمت أمدادهم لايـزيده ذلك إلاّ قوة وشهامة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألـف مقاتل، وكان جملة من قتـل منهم مـائة ألف مقـاتل، وكـان يوم المصـاف يدور على الأطـلاب، ويقول: وهل أنا إلاّ واحد منكم، وكـان في الشتاء يعطي العساكر دستوراً وهونازل على مرج عكا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير.

وفي المرآة: وكان شجـاعاً شهماً جـواداً مجاهداً في سبيـل الله، وأقام على عكا مجاهداً مرابطاً قريباً من أربع سنين.

الثامن: في كرمه وجوده.

وفي المرآة: كان يجود بـالمال قبل الوصول إليـه. ويحيل به، ومتـى عرف وصول حمل وقع عليـه بأضعافه ومـاخيب أحداً بالـرد، وإن لم يكن عنده شيء لطف به كـأنه غريم يستمهلـه، وكان مغرماً بـالانفاق في سبيل الله، ووهب مدة مقامـه على عكا مرابطاً للفرنج، مـن رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة إلى يوم انفصاله عنهـا في شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة مدة ثـلاث سنين وكسر، فكـان اثنـي عشر ألــف رأس مـن الخيـل العـراب والأكاديـش الجياد للحاضرين معـه في الجهاد والقادمين عليه مـن البلاد غير ماأطلقه من الأموال في أثامن الخيل المصابة في القتال.

قال العماد: ولم يكن لـه فرس يركبه إلاّ وهو موهـوب، ولاجاءه قود إلاّ وهو مطلوب، ولارد سائلاً بلا، ولاأخجل ماثلاً، ولاخيب آملاً.

قال: وشكا إليه أيوب بن كنعان ديناً مبلغه اثنا عشر ألف دينار فقضاه عنه.

قال: وكتب إليه سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن بعض الضمّان انكسر عليه مال كثير، وربما وصل إلى الباب وتمحل، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب وتمحل وبلغ السلطان، فأرسل إليه يقول: احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ.

قال: وفتح آمد ووهبها لابن قرا أرسلان، واجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال، وفرق ثمنها فيهم، وأنه رحمه الله لم يخلف في خزانته إلاّ سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً صورياً، ولم يخلف عقاراً ولابستاناً ولاقرية ولاشيئاً من الأملاك، وحوسب صاحب ديوانه فخرج عليه تسعون ألف دينار باقراره، وماطلبها ولاأراه أنه عرفها، ولم يرض له بعد هذا بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

وكان إذا فتح بلداً أو أخذ اقليماً وهبه لبعض أقاربه وأمرائه وأتباعه.

التاسع: في معروفه.

قال ابن خلكان: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة كان مذهبها الامامية، فلم يكونوا بهذه الأشياء، فعمر بالقرافة الصغيرة المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي رحمه الله، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه، وجعل عليه وقفاً كثيراً طائلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل بن السلار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار جعلها وقفاً على الشافعية، ووقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل

القصر مارستاناً وله وقف جيد، وله بالقدس أيضاً مدرسة وقفها كثير، وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية.

وقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي في القرافة مايسميها الناس إلاّ للشافعي رحمه الله، والمجاورة للمشهد لايقولون إلاّ للمشهد، والخانقاه التي بالقاهرة لايقولون إلاّ خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة التي للحنفية لايقولون إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لايقولون إلاّ مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية، وهذه صدقة السرعلى مذهب الحنفية، والعجب أنه له بدمشق في جوار المارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة أيضاً للمالكية ولاتعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى.

العاشر: في فتوحاته وهي على أنواع:

الأول: في البلاد الاسلامية وهي: الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة واليمن من زبيد إلى حضرموت متصلاً بالهند، ودمشق وبعلبك، وحمص، وحماه، وحلب، وأعمال هذه البلاد.

الثاني: في البلاد الاسلامية الفراتية وهي: حران، والرها، الرقة، ورأس العين، وسنجار ونصيبين، وجملين، وسروج، وديار بكر، وميافارقين، وآمد وحصونها، وشهرزور، والبوازيج، وخطب له على المنابر من باب همذان إلى الفرات، ومن الفرات إلى حضرموت، ومن الغرب إلى إفريقية.

وفي المرآة: أول مافتح الديار المصرية.

الثالث: في البلاد التي أخذها من الأفرنج وغيرهم وهي: طبرية، وعكا، أما طبرية فهي على نهر الأردن فتحها بالسيف وأما عكا فهي مدينة على البحر الملح فتحها بالصلح والزيب ومعليا (٣١) ، واسكندرونة بين صور وعكا، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وحصن يحمور بالأمان، وتبنين بجبل عاملة بالتسليم، وهونين غربي بانياس بالأمان، والناصرة التي ينسب إليها النصارى، والغور قبلي صفورية بالتسليم، والصفورية غربي طبرية بالسيف والفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وجينين قبلي عفربلا بالتسليم، وزرعين ودبورية متاخمة صفورية بالسيف، وعفر بلا قبلي الطور بالتسليم، وبيسان والغور، وسبسطية من عمل نابلس بالتسليم، ونابلس مدينة مشهورة، واللجون وريحا وسنجل والبيرة بأرض القدس، ويافا بالسيف، وأرسوف بالأمان، وقيسارية بالسيف وحيفا وصرفند بأرض بيروت، وصيدا على البحر، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وجبل الجليل، وبيروت على البحر وجبيل، ومجدل يابا بأرض الرملة، ومجدل جاب، والداروم، وغزة وعسقلان بالأمان، وتل الصافية، والبرج الأحمر بساحل عكا بالسيف، وحصن النطرون غربي القدس بالأمان، وبيت جبريل بأرض الخليل بالتسليم، وجبل الخليل بالأمان، وبيت لحم مولد المسيح عليه السلام، واللدّ بأرض الرملة بالسيف، والرملة بالسيف، وقلعة السلع والوفيرة وقلعة الجمع وقلعة الطفيلة، وقلعة القرين. جميع ذلك في وادي موسى عليه السلام، وقلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف، وقلعة الشوبك بالأمان، وقلعة صفد بعد حصار مدة، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وحصن عفرى شمالي القدس بالأمان، وحصن العازرية شرقي القدس بالتسليم، وحصن قرية يابا بأرض قلنسوة شمالي لدّ بغير قتال، وحصن قاقون بغير قتال، وحصن قيمون شرقي حيفا بالسيف، وحصن يبنى قريب الرملة بالأمان، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وقلعة الفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وشقيف بالأمان وحصن جلدك، وحصن بلنياس بين جبلة والمرقب، وحصن صهيون وريفة بالسيف، وقلعة

بلاطنس من عمل صهيون، وحصـن الجماهرية شمالي صهيون، وقلعة عيد غربي جبل البرزين، وقلعة بكاس وقلعـة الشغر من أنطاكية وبكسرائيل، وقلعـة المروانيـة، وقلعة البـزريـن ودربساك وبغـراس، وحصن الـدامـور وأنطرسـوس، وجبلة، واللاذقيـة بالسيف، وقلعـة برزية والبيت المقدس، وغير ذلك من القرى والمعاقل التي لم تذكر.

وفي المرآة: ويقـال إنه فتـح ستين حصنـاً وزاد على نـور الديـن: مصر والحجـاز والمغرب واليمـن والقدس والسـاحل وبـلاد الفرنـج وديارهـم، ولوعـاش لفتح الدنيـا شرقاً وغرباً وبعـداً وقرباً، وإن كـان مبدأ فتوحـاته بمصر بهمة نور الدين وأمواله وعسـاكره ورجاله، وبينهما مقاربة في السيرة والعدل والأيام، واجتناب الآثام، وكلاهما لم يبلغ ستين سنة، والله أعلم.

الحادي عشر: في مرضه.

استهلـت هذه السنـة، وهـو في غايـة الصحة والسـلامـة، وخرج هـو وأخوه الملك العادل أبو بكر إلى الصيـد في شرقي دمشق،ولقد اتفق الحال بينه وبين أخيـه أنه بعـدما يفرغ مـن أمر الفـرنج هـذه المدة يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعـث أ خاه العادل إلى خلاط، فـإذا فرغا من شـأنهما سارا جميعاً إلى أذربيجان وبلاد ا لعجم.

ولما قدم الحجيـج من الحجاز الشريـف يوم الاثنين حـادي عشر صفر خـرج لتلقيهم، وقـدم معهـم ولد أخيـه سيف الاسـلام صـاحب اليمـن فأكـرمه واحترمه، وعـاد إلى القلعة فدخلها مـن باب الحديد، فكـان ذلك آخر ماركب في هـذه الدنيا، وذلك أنه اعتراه حمى صفراويـة ليلة السبت السادس عشر مـن صفر، فلما أصبح دخل عليـه القاضي الفاضـل وابن شداد وابنه الأفضل، فأ خذ يشكو إليهـم قلقه البارحة، وأ طال الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايـد به المرض واستمر، وفصده الأطباء في اليوم

الرابع فاعتراه يبس، وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، فقوي اليبس أيضـا، فأحضر الأمراء والأكـابر والرؤساء، فبـويع لولـده الأفضل نور الدين علي نائباً على ملك دمشق، وكـان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضـل وابن شداد، وقاضي البلـد ابن الزكي، وتفـاقم به الحال ليلة الأربعـاء السابـع والعشرين مـن صفر، واستـدعى الشيـخ أبو جعفـر امام الكـلاسة ليبيـت عنده يقـرأ القرآن ويلقنـه الشهادة إذا جـدّ جديـد بالأمر، فـذكر أنه كـان يقرأ عنـده وهو في الغمرات، فقـرأ:(هوالله الذي لاإلـه إلاّ هو عالم الغيب والشهـادة) (الحشر٢٢) فقال: هو كـذلك صحيح، فلما أذن للصبح جاء القـاضي الفاضل يدخل عليه وهـو بآخر رمق، فلما قـرأ القارىء:(لاإله إلاّ هـو عليه تـوكلت) (التوبـة١٢٩) تبسم وتهلل وجهه إلى رحمة الله تعالى.

وقـال العماد: وجلس السلطـان ليلـة السبـت السادس مـن صفـر في مجلـس عادتـه ومحل سعادتـه ونحن عنـده في أتم انبسـاط، وأتم نشـاط، حتى مضـى من الليل ثلثـه، وهو يحدثنا ونحن نحـدثه، ثم صلى بـه وبنا إمـامه، وحـال قيامـه انفصلنـا بإحسـانـه مغتبطين وبإنسـانه مـرتبطين، وأصبحنا يـوم السبت وجلسنـا في الايوان ننتظـر خروجـه لوضـع الخوان، فخرج بعض الخدم، وأمـر الملك الأفضل أن يجلس مـوضعه على الطعام، فجـاء وتـربع في دستـه، وجلـس بسيمتـه وسمته، وتطيرنـا بتلـك الحال، وتفللنـا بحد ذلـك الفـال، ودخلنا إليـه ليلة الأحـد للعيـادة ومرضـه في الزيادة، وتوفي إلى رحمة الله تعالى.

وقال النويري: خرج السلطان إلى شرقـي دمشق متصيداً، فغاب خمسة عشر يوما وصحبتـه أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشـق، وودعه أخوه العادل وداعـاً لالقاء بعـده، ومضى إلى الكرك، وأقـام السلطان بـدمشق، ثم ركب يوم الجمعة الخامس عشر صفر، ولقي الحجاج وبكى كيف فاته الحج معهم، ثـم عاد إلى القلعة فلحقه تلـك الليلة كسل عظيـم وغشيته

حمى وأخذ المرض في التـزايد، ثـم حدث بـه رعشة وغـاب ذهنه، واشتـد الارجاف بموته، وحزن أهل دمشق حزنا عظيماً لذلك.

وقال القاضي بهاء الدين: لما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده، فسألني عمن في الايوان، فقلـت: الملك الأفضل جالس في الخدمـة والأمراء والنـاس في خدمتـه، فاعتـذر إليهم على لسـان جمال الدولة إقبال.

ولما كان بكـرة يوم الخميـس استحضرني فحضرت عنده وهـو في صفة البستان وعنـده أولاده الصغار وقال لي: أكلت شيئـاً اليوم؟وكانت عـادته المباسطة، ثم قال: أحضروا لنا مايتيسر، فأحضروا رزاً بلبن ومايشبه ذلك، فأكل ومـاكنت أظن أن عنده شهوة لأن بـدنه كان ملتاثاً ممتلئـاً فلما فرغنا قال: ماالـذي عندك من خبر الحاج؟ فقلت: قد اجتمعـت بجماعة منهم في الطريـق، ولولا كثـرة الوحـل لدخلـوا اليوم، ولكنهـم في غد يـدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم فقمـت من عنده ولم أجد من النشاط ماأعرفه منه، ثـم بكر يوم الجمعة فركب للقاء الحجاج، وكـان فيهم سابق الـدين اليـاروقـي، وكان كبير الاحترام للمشـايخ، ثـم لحقـه ولده الملـك الأفضل، ثم رجع إلى القلعة وكان آخر ركوبه.

ولما كـانت ليلـة السبـت وجد كسـلاً عظيماً،فما انتصـف الليل حـى غشيته حمى صفـراوية، وأصبـح في يوم السبـت السادس عشر مـن صفر وعليه أثر الحمى، ولم يظهـر ذلك للناس، فدخلت أنا والقـاضي الفاضل وولده الأفضل عنده، وطـال الحديث بيننا، وأخذ يشكو من قلقـه بالليل، وطـاب له الحديـث إلى قريـب الظهر، ثـم انصرفنا والقلـوب عنده، ومـد الطعام في الايوان وجلـس الأفضل في موضعه خـالياً وولده فيه، ثـم أخذ مـرضه يتـزايد ونحـن نلازم التردد في طـرفي النهار، وأدخـل أنا والقـاضي الفاضل في النهار مـراراً، وكان طبيبه الذي ألف مزاجـه غائباً، وحضرت

الأطبـاء ففصدوه فـاشتـد مرضـه وقلـت رطوبـات بـدنه، ولم يـزل المرض يتزايد، فـاشتد في السادس والسابع والثـامن، ولما كان التاسع حـدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الـرجيف في البلد وخاف الناس، ونقلـوا الأقمشـة مـن الأسـواق، وغشي النـاس مـن الكـآبـة والحزن مالايـوصف، ولما كـان العاشر مـن مرضـه حقن دفعتين وتنـاول من مـاء الشعير مقـداراً صالحاً، وفـرح النـاس فرحـاً شـديـداً، وأقمنا على العـادة نتردد، ثم أ صبحنا في الحادي عشر من مرضه وهـو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا الباب، وسألنـا عن حاله، فأخبر جمال الدولة اقبال أنه عرق حتى نفذ عـرقه إلى الفراش، ثم إلى الحصر ثم إلى الأرض، وأن اليبس قد تـزايد تزايداً عظيماً وضعفت قوتـه، ولما رأى ولده الأفضل مـاحـل به وتحقـق اليـأس منـه شرع في تحليف النـاس، فجلـس في دار رضـوان المعروفـة بسكنـه واستحضر القضـاة فعملوا نسخـة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطـان مدة حياته، ثم لـلأفضل بعد وفاتـه، فأول من استحضر للحلف سعـد الدين مسعود الشحنـة أخو بدر الديـن مودود، ثم ناصر الـدين صاحب صهيون فحلف وزاد أن الحصـن الذي في يده له، ثم سابق الدين صاحب شيـزر فحلف ولم يذكر الطلاق، واعتذر بأنه مـاحلـف بـه، ثـم خشترين الهكـاري، ثـم أنـوشروان الـزرزاري فحلـف واشترط أن يكـون له خبـز يرضيـه، ثم حلـف علكان ومنكـلان، ثم مـد الخوان فأنهوا.

ولما كـان العصر أعيـد مجلس التحليف فـأحضر ميمـون القصري، وشمس الـدين سنقر الكبيـر، وقالا: نحـن نحلف بشرط أن لانسـل سيفاً في وجه أحـد من أخوتك، وحضر سـامة وقال: ليس لـي خبز فعلى أي شيء أحلف، فروجع فحلف بشرط أن يعطى خبـزاً يرضيه، وحضر سنقر المشطوب وأيبك الفـارس وأيبك الأفطس ولم يحلف بالطـلاق، وحضر سيـاروخ وحلف واشتـرط رضاه، وحضـر حسـام الـدين بشـارة وحلـف،

وكـان مقـدماً علـى هـؤلاء، ولم يحضـر أحـد من الأمـراء المصـريين، ونسخة اليمين:

« إنني مـن وقتي هـذا قد أصفيـت نيتي، وأخلصـت طويتـي للملك النـاصر مـدة حياتـه، وإني لا أزال بـاذلاً جهدي فـي الذب عن دولتـه بنفسي ومالـي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمـره، واقفاً عند مراضيـه، ثم من بعـده لولـده الملك الأفضل علي، ووالله انني فـي طاعتـه، وأذب عن دولته وبـلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجـالي وأمتثل أمره ونهيـه، وباطني وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل».

ثم لمـا كانـت ليلة الأربعـاء السابـع والعشرين مـن صفر، وهي ليلـة الثـانـي عشـر من مـرضـه، اشتـد مـرضـه وحـال بيننـا وبينـه النسـاء، واستحضرت أنـا والقاضي الفاضل وابـن الزكي في تلك الليلـة، وعرض علينـا الملك الأفضل أن نبيـت عنـده ، فلم يـر الفاضـل ذلك، وقـال: المصلحة نزولنـا واستحضـار الشيـخ أبي جعفر إمام الكلاسـة، فإنه رجل صالـح يبيت بالقلعـة حتى إذا استحضر السلطـان بالليل يحضـر عنده ويحول بينـه وبين النساء، ويـذكره بالشهـادة، ففعلوا ذلك، وكـان ذهن السلطان غـائباً من ليلة التـاسع لايكاد يفيق إلاّ في الأحيـان، وبات في تلك الليلـة على الانتقال والشيـخ أبو جعفـر عنده يقـرأ القرآن ويـذكره بالله إلى أن توفي رحمه الله.

الثاني عشر: في تاريخ وفاته.

قال القـاضي بهـاء الدين: كـانت وفـاته بعـد صلاة الصبح مـن يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي تاريخ بيبرس: وقيل توفي في الخامس والعشرين من صفر.

وفي المرآة وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد صلاة الفجر السابع والعشرين من صفر.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت وفاته بكرة يوم الأربعاء لثلاث بقي من صفر، وكلام الكل قريب بعضه من بعض.

وفي المرآة: وغسله الخطيب الدولعي وصلى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي، وبعث له القاضي الفاضل الأكفان والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه في قلعة دمشق.

وقال ابن خلكان: كان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمين مثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغسله الدولعي، وهو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين بن قائد بن جميل التغلبي الأرقمي الدولعي الشافعي، خطيب جامع دمشق، توفي في ثاني عشر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: ثم أخرج تابوت السلطان بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فقط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج، وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ثم إنه بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي

وأربعين يوماً، أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الأربعاء تتمة خمسمائة وثمانين سنة وسبعة وخمسين يوماً للهجرة ، ولتمام ستة آلاف سنة وستمائة وأربعة وثمانين سنة وستة أشهر وسبعة أيام للعالم شمسية.

الرابع عشر: فيما جرى يوم وفاته.

قال ابن كثير: وجلس الملك الأفضل للعزاء في القلعة وأرسل الكتب بوفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر، وإلى الملك الظاهر غازي بحلب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، وقد ذكرنا أنه كان سافر إلى الكرك قبل موت أخيه السلطان لينظر في أمرها.

قال المؤيد في تاريخه: ولما نقل الأفضل والده السلطان من القلعة حين بنى له تربة مشى بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل الجامع ووضع قدام النسر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيام في الجامع،وأنفقت ست الشام في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

وفي المرآة : وكتب الفاضل إلى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية يقول فيه: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» الآية: (الأحزاب ٢١) .

كتبت إلى الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه في مصابه، وجعل الخلف فيه لمماليك المرحوم وأصحابه، كتبت والدموع قد حفرت النواظر، والقلوب قد بلغت الحناجر،وإني ودعت أباك مخدومي وداعاً لانلتقي بعده، وأسلمته إلى الله طالباً فضله ورفده، ولم يدفع عنه جنوده المجندة القضاء ، ولاردت عنه الأسلحة والخزائن البلاء، فالعين

تدمع والقلب يخشع، ولا نقول ما يسخط الرب - وإنا عليك يايوسف لمحزونون».

وفي آخر الكتاب: « فإن اتفقتم فما عدمتم إلاّ شخصه الكريم، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبلة هولها عظيم».

قال السبط في المرآة: وقد فات الفاضل شيئان: أحدهما عند قوله: ودعته وداعاً لانلتقي بعده، وكان الأولى أن يقول: إلى جنات النعيم، والثاني: عند قوله: وهولها عظيم، وكان ينبغي أن يقول: (ذلك تقدير العزيز العليم) (يس : ٣٨).

وفي المرآة: وكان أخوه العادل لما توفي السلطان بالكرك، فقدم دمشق معزياً للأفضل، فأقام أياماً، ثم رحل إلى الجزيرة التي أعطاها إياه السلطان، وهي: حران، والرها، وسميساط، والرقة، وقلعة جعبر، وميافارقين، وديار بكر، وكان له بالشام : الكرك ، والشوبك.

وبعث الأفضل القاضي ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى الخليفة ومعه زردية السلطان، وسيفه، وحصانه،وكزاغنده، ودبوسه، وتحفاً كثيرة ، وعاب الناس عليه حيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد، وكتب كتاباً فمنه :« أصدر العبد خدمته هذه، وصدره معمور عليه بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء»، وذكر كلاماً طويلاً.

وأما العادل فإن المشارقة ثاروا عليه، واستشاروا عز الدين صاحب الموصل، واستشار هو أصحابه، فأشار عليه المجد ابن الأثير بالخروج، وأشار عليه مجاهد الدين قيماز بالمقام لتظهر حقائق الأمور، وتراسل جيرانه: ابن زين الدين صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب الجزيرة وعماد الدين صاحب سنجار، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعا على حران، واستنجد العادل بأولاد أخيه فجاءته عساكر الشام

ومصر، ومـرض عز الـدين على نصيبين بـالاسهال ، وتـرك العساكـر مع أخيه عماد الديـن ورجع إلى الموصل جريدة، فمات بها علـى ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى.

ثم إن الملـك العزيـز قدم إلـى الشام، وقـدمت معـه العساكـر على الأفضل، وبعث إليه العادل: ارحل إلى مرج الصفر، فرحل وهو مريض، وكان قصـد العادل أن يبعده عن البلد، لتصـل العساكر، فوصل الظـاهر من حلـب، والمنصور مـن حمـاة، وشيركـوه من حمـص، والأمجـد من بعلبك في نجـدة الأفضل، فقال العـادل: قد تقرر أنـه يرجع إلـى مصر، ويقع الاتفاق وتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

واشتد مـرض العزيـز، ولولا مـرضه لمـا صالح، فأرسـل العزيـز كبراء دولته: فخر الدين شركس وغيـره فحلف الملوك، وطلب مصاهرة العادل فزوجه ابنته خاتون، ورجع كـل واحد إلى بلده، وذلك في شعبان، وتمام هذه في السنة التالية انشاء الله تعالى.

قال العماد الكاتب: ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهـو واللعب، واحتجب عـن الرعيـة ، وانقطع إلى لـذاته، وفـوض الأمـر إلى وزيـره الجـزري، وحـاجبه الجمـال محـاسن بـن العجمي، فأفسـدا عليه الأحوال، وكـانا سببا لـزوال دولته، واستبدلا بكبـراء الأمراء الأجناد وأرذال الناس، ففسدت أمور العباد.

الخامس عشر: فيمن خلفه من الأولاد.

قـال العماد الكـاتب: خلف السلطـان سبعـة عشر ولـداً ذكراً، وابنـة صغيرة.

الأول: الملك الأفضل نور الدين علي، وهو أكبرهم، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ليلة عيد الفطر.

الثاني: الملك العزيز عماد الدين عثمان، أبو الفتح، ولد بمصر أيضاً، في جمادى الأولى سنة سبع وستين.

الثالث: الملك الظافر أبو العباس مظفر الدين خضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل.

قال ابن خلكان وكنيته أبو الكرام وأبو العباس الخضر، ويقال المشمر لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال: أنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده في القاهرة في خامس شعبان سنة ثمان وستين وخمسمائة، وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف بن الملك العادل.

الرابع: الملك الظاهر أبو منصور غياث الدين غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين.

الخامس: الملك المعز فتح الدين أبو يعقوب اسحق، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة

السادس: الملك المؤيد نجم الدين أبو الفتح مسعود: ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين، وهو شقيق العزيز.

السابع: الملك الأعز شرف الدين أبو يوسف يعقوب، ولد بمصر سنة اثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً.

الثامن: الملك الزاهر محيي الديـن أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الظاهر.

التاسع : الملك المفضل قطب الدين مـوسى، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الأفضل.

العاشر: الملـك الأشرف أبو عبد الله عـز الدين محمد، ولـد بالشام سنة خمس وسبعين.

الحادي عشر : الملك المحسن ظهير الـدين أبو العباس أحمد، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الأشرف المذكور.

الثاني عشر: الملـك المعظم فخر الدين أبو منصور تـوران شاه، ولد بمصر في ربيع الأول سنـة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلـى سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنـة التي أخرب فيها العدو من التتـار مدينة حلب وغيرها.

الثالـث عشر: الملك الجـواد ركن الـدين أبو سعيـد أيوب، ولـد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق المعز .

الرابع عشر: الملـك الغالـب نصير الدين أبو الفتـح ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعظم.

الخامس عشـر: الملك المنصور أبو بكـر أخو المعظم لأبويـه ، ولد بحران بعد وفاة السلطان.

السادس عشر: عماد الدين شادي لأم ولد.

السابع عشر: نصرة الدين مروان لأم ولد أيضاً.

وأما البنت مؤنسة خاتون، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته، كالملك المنصور حسن، والأمير أحمد، وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هلال كسفا
وأي غصن قصفا
كان سراجاً قد طفا
على الورى ثم انطفى
لم يركب الخيل ولم
يقلدوه مرهفا
قل للنحاة: ويحكم
أحمدكم قد صرفا
صبراً صلاح الدين يا
رب السماح والوفا(٣٢)

السادس عشر : فيما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان.

ولما توفي السلطان رحمه الله استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها: ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية: الملك العزيز عثمان، وبحلب وبلادها: الملك الظاهر غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية والفراتية : الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان، وبحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن

فرخشاه بن شاهناه بن أيوب ، وبحمص والرحبة وتدمر: شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي، وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى، وهو في خدمة اخيه الملك الافضل ، وبيد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون :منهم سابق الدين عثمان بن الداية ، بيده شيزر وأبوقبيس، وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية،وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر،وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون ، وعزالدين ابراهيم ابن شمس الدين ابن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وأفامية.

والملك الافضل هو الأكبر من أولاد السلطان . والعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الاثير، مصنف المثل السائر ، وهو أخو عز الدين ابن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل ، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في أخيه الأفضل ، فمال إلى ذلك ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز ، وكان اليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، أخي السلطان صلاح الدين ، ثم بعد ذلك شرعت الأمور تضطرب وتختلف ، وتفاقمت الأحوال حتى آل الأمر إلى ماإليه آل ، واستقرت الممالك واجتمعت المحافل على أخي السلطان صلاح الدين ، وهو الملك العادل ، وصارت الممالك في أولاده الا ماجد الأفاضل كما سنوضحه ان شاء الله تعالى.

السابع عشر : في مراثي السلطان صلاح الدين .

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة ، من أحسنها ماعمل فيه العماد الكاتب في آخر كتاب البرق الشامي ، وهي مائتان وثلاثون بيتاً وقد سردها الشيخ شهاب الدين في الروضتين...

الثامن عشر : في مدائحه

وقد مدحه جماعة من الشعراء منهم : ابن قلاقس ، وابن الذروي ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الشاتاني ، والبحراني الإربلي ، وابن دهن الخصا الموصلي ، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان وغيرهم ، ومدحه العماد الكاتب في غالب أحواله من غزواته وفتوحاته وغير ذلك ، ومدحه في فتح القدس بقصيدة هائية ذكرناها في موضعها ومدحه القاضي رشيد الدين بن النابلسي بقصيدة انشده اياها بمرج عكا....

التاسع عشر : في قضاته ووزرائه وكتابه .

وأما قضاته: كمال الدين بن الشهرزوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون ، وولده أبو حامد ، ومحيي الدين بن زين الدين ، وهؤلاء كانوا في الشام وحلب ، وأما قضائه في مصر ، فكان القاضي جلال الدين ابو قاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصوري وكان قدم من الشرق ، فولاه السلطان صلاح الدين ، وكان عنده بمكانة، وصرف بعد وفاة صلاح الدين ، وولي مكانه القاضي زين الدين علي بن سعيد الدمشقي في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة.

وأما وزيره فكان صفي الدين بن القابض.

وأما كاتبه فكان القاضي الفاضل ، العماد الكاتب ، وكان الفاضل

حاكماً على الجميع وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لايصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولايمضي في الأمور بمر إلا بمراجعته

قال ابن خلكان : كان القاضي الفاضل تعلق بالخدم في ثغر الاسكندرية ، واقام به مدة ، ثم آل أمره إلى أن وزر للسلطان صلاح الدين ، وترقى في منزلته عنده على ماانذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى.

العشرون :في ذكر من كان في البلاد ولاة الأمور في سنة وفاته

كان في دمشق الملك الأفضل ، وكان في حلب الملك الظاهر ، وكان في مصر الملك العزيز ، كل هؤلاء أولاد السلطان صلاح الدين رحمه الله ، وكان في القدس عز الدين جرديك النوري ، ولما بلغ العزيز وفاة والده صلاح الدين أرسل عشرة آلاف دينار إلى القدس الشريف لتنفق في العسكر المقيم به، فخطب له عز الدين جرديك بالقدس ، وخشي من نقض الهدنة بينه وبين الأفرنج فأرسل إلى القدس عسكراً احترازاً من الأفرنج ، وكان في الروم ركن الدين سليمان ابن عز الدين قليج رسلان السلجوقي ،وكان في الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر ، وكان في أخلاط وماوالاها بكتمر ، وكان في مرو وغيرها سلطان شاه، وكان في همذان وغيرها السلطان طغرل شاه السلجوقي ، وكان في غزنة وماوالاها شهاب الدين الغوري، وكان في بلاد سمرقند وغيرها خوارزم شاه، وكان في اليمن سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، وكان في مكة الأميرداود، وكان في بلاد المغرب يعقوب بن عبد المؤمن رحمهم الله، وهذا آخر ماانتهينا من ترجمة السلطان صلاح الدين رحمه الله.

الحواشي

١ـ الحديث هنا عن سقوط طرابلس الغرب لاطرابلس الشام التي احتلها الفرنجة سنة ٥٠٢ هـ/
٢ـ سلف الحديث في الجزء الاول من المدخل حـول قيام الاسرة المنقذية ، وأنهم ملكوا شيزر في أواخر عصر المرداسيين.
٣ـ ابو الفداء صاحب حماه ومصنف كتاب المختصر فـي أخبار البشر ويبدو أنه قد فاته أن بلدة شيـزر سقطت مع انطـاكية وجـزء كبير من سـاحل الشـام للبيزنطيين منذ أيام سيف الدولـة الحمداني .
٤ يبدو أن مصـدر العمري هنا كتـاب المفيد في أخبار صنعـاء وزبيد للشاعـر عمـارة اليمني ، انظر ص ٢٢٩ ـ ٢٣٧ ط. اليمن ١٩٧٩.
٥ـ الشاذياخ مدينة نيسابور نفسها . معجم البلدان، ولمزيد من التفاصيل حول حوادث نيسابور انظر الكامل لابن الاثير ط. القاهرة ـ مطبعة الاستقامة ج٩ ص ٥٩ ـ ٦٠.
٦ـ كذا ولا أدري من أين جاء بالنسب الصنهاجي الى أئمة الاسماعيلية في ألموت؟
٧ـ سورة البقرة ـ الآية . ٢١٦.
٨ـ سورة النساء ـ الآية: ١٢
٩ـ ديوان العرقلة ص ٥٢
١٠ـ سورة الانعام ـ الآية : ٤٤
١١ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٤٢
١٢ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٩٢ـ ١٩٥
١٣ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٢١٨
١٤ـ في المصادر الأخرى المتقدمة: سمى نفسه السلطان الناصر

١٥ـ مصدر العمري هنا الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣١
١٦ـ نسبت هذه الجماعة الى محمد بن كرام السجزي [ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م ، وكان يقول إن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر الاعلام للزركلي.
١٧ سورة آل عمران ـ الآية :٥٣
١٨ـ الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٢٤٩.

١٩ـ سورة الحجرات ـ الآية : ٣٠
٢٠ـ سورة الفرقان ـ الآية : ٦٣
٢١ـ سورة البقرة الآية : ٢٧٥
٢٢ـ أي قليل الماء.
٢٣ـ هذا وهم فالفرنجة لم يستطيعوا قط قهر مدينة حلب .
٢٤ـ سورة الزلزلة ـ الآتيان: ٧ـ ٨
٢٥ـ سورة يوسف ـ الآية :٢٣٩٢ـ سورة التوبة ـ الآية : ١١١
٢٣ـ ديوان عرقلة الكلبي ص ٨٧
٢٤ـ عفيف بن المبارك بن الحسين ـ انظر مرآة الزمان ج١ ص ٢٣٥
٢٥ـ سورة الرعد ـ الآية : ١١
٢٦ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢١٦
٢٧ـ سورة النساء ـ الآية : ١٢

٢٨ـ سورة النحل ـ الآية : ٩١
٢٩ـ سورة القصص ـ الآية :٨٣
٣٠ـ سورة يوسف ا الآية : ٧٧
٣١ـ زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين.
٣٢ـ البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٣
٣٣ـ انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٢
٣٤ـ زيد مابين الحاصرتين من الروضتين
٣٥ـ زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين
٣٦ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٢
٣٧ـــ هما الآن: ازرع والشيخ مسكيـن ، في حوران ســورية ، الشيـخ مسكين على الطـريق الدولي من دمشق الى درعا، وازرع الى الشرق منها على مسافة قصيرة.
٣٨ـ سورة المدثر ـ ـ الآيتان : ٥٠ـ ٥١
٣٩ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٢

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن التاسع (٢)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الخامس و العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن التاسع

١—من منتقى المقريزي من أخبار مصر لابن ميسر

٢—من اتعاظ الحنفا— للمقريزي

٣—تراجم من المقفى الكبير— للمقريزي

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

كان من مزايا الأحوال الثقافية لأواخر العصر المملوكي ظهور عدد كبير من المؤرخين المتميزين الذين لم يقتصر عملهم على التصنيف بل تعدى ذلك الى معالجة عدد كبير من القضايا التاريخية والاجتماعية، ففي هذا العصر عاش في القاهرة ودمشق ابن خلدون ، وفيه عاش المقريزي مؤرخ مصر الاسلامية.

والمقريزي هو: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥ م منحدرا من أسرة كانت تنتمي بالأصل الى بلدة بعلبك ، قيل انها كانت تقطن في حي من أحياء بعلبك عرف باسم حي المقارزة ، زالت الآن معالمه ، ولم يعد أحد يعرفه.

نشأ المقريزي في كنف جده لأمه، وعرف بابن الصائغ، وكان من فقهاء الحنفية ، لهذا تأثر الحفيد بالجد، فكان حنفيا حتى غدا شابا فتحول الى المذهب الشافعي.

حصل المقريزي على ثقافة عالية ، والتحق بعدد من الوظائف السامية، كما قام بزيارة عدد من بلدان المشرق العربي خاصة : دمشق ومكة، حيث أقام في كل منهما فترة طويلة، وقد انتهت حياته في القاهرة عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م.

كان المقريزي غزير الانتاج، وخاصة في ميادين التاريخ، وقد عاصر ابن خلدون وتأثر به كثيراً أثناء اقامته في القاهرة، وقامت بينهما وشائج

من القربى، ويمكن تصنيف نتاج المقريزي الى قسمين: المؤلفات الكبيرة والرسائل الصغيرة، وقد أوقف مؤلفاته الكبيرة إما على موضوع من مواضيع التاريخ الاسلامي العام، أو تاريخ مصر الاسلامية السياسي والعمراني ، عبر عدة مراحل ، أولها منذ الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية ، وثانيها تاريخ لهذه الخلافة حتى سقوطها ، وثالثها منذ نهاية العصر الفاطمي حتى أيامه.

وعالج المقريزي في الرسائل الصغيرة عدداً من القضايا الهامة جداً، وتظهر في هذه الرسائل أصالة المقريزي وعبقريته العظيمة، وصورة المقريزي في رسائله هي في كثير من الأحيان معاكسة لصورته في مؤلفاته الكبيرة، حيث أنه في غالبية هذه المؤلفات الكبيرة هو كحاطب ليل يغير على مصنفات الذين تقدموه فينقل عنها ما شاء له الحظ أن يفعل دون الاشارة الى مصادره، وهنا اذا حدث وورد ذكر مصدر من المصادر في نص من كتب المقريزي ، فهو في الغالب مصدر اعتمده صاحب الكتاب الذي أغار عليه المقريزي دون ان يسميه.

وعلى الرغم من هذا فان كتب المقريزي على اختلاف أحجامها على درجة عالية من الأهمية ، لأن جل المصادر التي اعتمدها هي محجوبة عنا الآن وتعد بحكم المفقود.

لقد تجمع عند المقريزي مادة تاريخية عملاقة ، أراد في أواخر أيامه تصنيفها في كتاب تاريخ كبير يؤرخ به لمصر وللوافدين اليها ، يجعله في ثمانين مجلده كبيرة مثل تاريخ دمشق لابن عساكر وقد لحق المقريزي بربه قبل أن يتاح له اكمال مشروعه الكبير هذا، الذي بوب مواده حسب حروف المعجم ، وقد قيل انه كتب منه ست عشرة مجلدة قبل ان يتوفى .

لاندري مـدى صحة هذه الروايـة ، وفي الوقت نفسـه لانعرف حجم المجلـدة لـدى المقـريزي ، والـذي أعـرفـه الآن هـو أنني وقفـت على خمس مجلدات من هـذا الكتاب لدي مصورة عنها جميعـا، أربع منها بخط المقريـزي ، وهذه المجلدات واحـد منها محفوظ الآن فـي مكتبة برتـو باشا في استانبـول ، ويضم جل الأول وربما بعض الثـاني ، وهذا المجلـد كبير جـدا، نسخـه صاحبـه ــ كما صـرح ــ عن نسخـة بخط المقريزي ، أما بقية المجلدات فأحدهـا في باريس، وثلاثة في ليدن في هولندا، واستخرجت من المجلدات مـواد عن الفاطميين، وعن القرامطة وعن العباسيين، والآن استخرجت ما تعلق بعصر الحروب الصليبية.

وكما سلف بي القـول ، أوقف المقريزي كتابه « اتعـاظ الحنفا» على التأريخ للخـلافة الفـاطمية، وعـدّ هذا الكتاب فيمـا مضى ومـازال يعدّ أفضل مصـادر التاريـخ الفاطمي وأكثـرها حيـادية، وأثـار هذا الكتـاب جدلاً حول المقريـزي وميوله المذهبية، عالجها اكثـر من باحث، بينهم المرحومـان : الدكتور جمال الـدين الشيال ، والدكتـور محمد مصطفى زيادة.

وقد تـم التعرف أولاً الى هذا الكتـاب عبر نسخـة خطية ناقصـة عثر عليها في مكتبة غـوطا الألمانية ، ونشرت هـذه القطعة أولا سنة ١٩٠٩ بعـناية المستشرق الألماني هوجربـونز، وقد أعاد المرحوم الشيال نشر هذه القطعة ثانية بعناية أكبر سنة ١٩٤٨ في القاهرة.

وبعد هذا بـوقت قصير تم التعرف الى نسخة كاملـة من الكتاب تقع في مائة وسبعون ورقـة ، وهي محفوظة الآن في مكتبة أحمـد الثالث في استانبول .

واهتم المـرحوم الـدكتـور الشيال مجـددا بالكتـاب ، واستطـاع قبل

وفاتـه نشر قسم من الكتـاب عام ١٩٦٧ في القاهـرة، وبعد وفاتـه بأمد أكمل نشر الكتاب فجاء في ثلاثة أقسام.

ومن المحزن حقـا أن الذين عملوا في نشـر هذا الكتاب شـروعا من المـرحوم الـدكتور الشيـال أخفقوا في قـراءة نصه، لهـذا جاءت الطبعـة محشـوة بـالتصحيفـات، وقـد تمكنـت مـن التمييـز بيـن التصحيفـات والأخطاء المطبعيـة ، فبعض التصحيفات جـاء مع سبق الاصـرار حيث وضع الصواب بالحاشية واستبدل بالخطأ بالمتن ، ويخيل لي أن الذين دونت أسمـاؤهم كمحققين للكتاب لـم يتولـوا ذلك، بل كلفوا طـلابهم بالعمل ،ولم يقوموا حتى بالمقابلة والمراجعة .

لقـد اعـدت الآن تحقيق الثلـث الأخير مـن اتعـاظ الحنفـا، وبنيتي تحقيق الكتاب ونشره بأكمله انشاء الله تعالى وأعان.

وكـانت مكتبة المقـريزي غنيـة ، ومصادره ثمينـة، من ذلك « أخبـار مصـر » لابن ميسر تـاج الـدين محمـد بن علي بن يـوسف بـن جلب راغب المتوفى سنـة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، وفي المكتبة الوطنيـة بباريس مخطـوط رقمـه «١٦٨٨ عـــربي » يتكـون مـن ٩٤ ورقـة يحتـوي علـى مختصر الجـزء الثاني من كتاب « أخبـار مصر» والذي تـولى الاختصار هـو المقريـزي، وهذا الكتـاب بالأصـل من أهم مصـادر المقريـزي في اتعاظ الحنفـا وغيره، وانتقيت مما انتقـاه المقريزي المواد ذات العـلاقة بالحروب الصليبية فضبطتها وحققتها مثل بقية مواد المقريزي .

- ١١٤٨٢ -

والحمد لله تعالى ومنه جل وعلا استمد العون وأطلب السداد والتوفيق ، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ١٤ـ جمادى ا لأولى ١٤١٦هـ

٨/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

من منتقى المقريزي

من

أخبار مصر لابن ميسر

ـ ١١٤٨٥ ـ

سنة تسعين وأربعمائة

فيها كان بمصر غلاء وجوع

وفي صفر قدم على الأفضل الرسل من عند فخر الملك رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية، وهو يبذل له الطاعة في إقامة خطبة المستعلي بالشام، فأجيب بالشكر والثناء، فخطب للمستعلي في يوم الجمعة سابع عشر رمضان، وكان الحامل لرضوان على ذلك أنه أراد أن يستعين بعساكر المصريين على أخذ دمشق من أخيه دقاق، فاتفق أن الأمير سكمان بن أرتق أنكر على رضوان ذلك فقطع خطبة المستعلي وأعاد الخطبة للعباسي، فكانت مدة الخطبة للمستعلي أربع جمع.

وفي شهر ربيع الأول ندب أمير الجيوش الأفضل عسكرا له عدة وافرة إلى ثغر صور، فمضى إليها وحاصرها حصارا عنيفا حتى أخذها بالسيف، ودخلها العسكر فقتل منها خلقا كثيرا وقبض على نائبها وحمل إلى الأفضل فقتله، وسبب ذلك أنه كان نائبا عن الأفضل فعصى عليه.

وفيها كان ابتداء

خروج الإفرنج من بلاد قسطنطينية إلى بلاد المسلمين

وكان أول مابدأوا به أنطاكية فملكوها، ثم ملكوا البلاد الساحلية كلها.

وفي يوم عاشوراء تجمع العامة عند مشهد السيدة نفيسة وأعلنوا بسب الصحابة وهدموا قبور الصالحين التي هناك، فسير الأفضل إليهم وردهم عن ذلك، وأدب والي القاهرة، وهو ذخيرة الملك بن علوان، جماعة، وذخيرة الملك هذا هو صاحب المسجد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل.

وفي محرم حرر الأفضل عيار الدينار وزاد فيه.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

في شعبان خرج الأفضل بعساكر جمة وسار إلى بيت المقدس، وكان به الأمير سكمان وإيلغازي ابنا أرتق في جماعة من أقاربهما ورجالهما وعساكر كثيرة من الأتراك، فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم بيت المقدس إليه بغير حرب، فلم يجيباه لذلك. فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانبا، فلم يجدا بدا من الإذعان إليه فسلماه إليه وخلع عليهما وأطلقهما، وعاد في عساكره وقد ملك بيت المقدس، فدخل عسقلان، وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، فأخرجه وعطره وحمله في سفط إلى أجل دار بها وعمر المشهد، فلما تكامل حمل الرأس على صدره وسعى به ماشيا إلى أن أحله في مقره، وقيل أن المشهد (بعسقلان) بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وكمله ابنه شاهنشاه الأفضل وكان حمل الرأس إلى القاهرة ووصوله إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة

في رجب حاصر الفرنج البيت المقدس، وكانوا قد ملكوا الرملة قبل ذلك في ربيع الآخر، فخرج إليهم الأفضل بعساكره، فلما بلغ الفرنج خروجه جدوا في حصاره حتى ملكوه يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان، وهدموا المشاهد وقبر الخليل، عليه السلام، وقتلوا(أهل) البلد جميعهم إلا اليسير، وانحازت طائفة إلى محراب داود، عليه السلام، فسلموا المحراب في الثالث والعشرين بالأمان وأحرقوا المصاحف، وأخذوا من الصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات مالا ينحصر.

ووصل الأفضل عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان، وبعث رسلا إلى الفرنج يوبخهم على مافعلوه، فأعادوا الجواب مع رسله، فلم يصل إليه الرسول إلا وهم في كثرة فهجموا على الأفضل وقتلوا من عساكره فانهزم بمن خف معه إلى داخل عسقلان، وحصل بأيدي الفرنج من الغنائم مالا يوصف وتعلق خلق كثير بشجر الجميز هناك، فأحرقوا اكثر الشجر، ونزل الفرنج على عسقلان وحاصروها فاتفق وقوع الخلف بينهم، فارتحلوا عنها، وسار الأفضل في البحر إلى القاهرة.

وفيها توفي ابو الحسن(علي بن الحسن) بن الحسين بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالخلعي، المحدث المشهور، في يوم السبت ثامن عشر ذي الحجة، وإليه نسب مسجد الخلعي بالقرافة، وبه دفن، وكان محدثا مقرئا سمع على جماعة كثيرة، وجمع له الحافظ أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي عشرين جزءا سماهاالخلعيات، وكانت ولادته في محرم سنة خمس وأربعمائة بمصر ، وقبره أحد المزارات بقرب النقعة من القرافة، وولي جده قضاء فامية.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة

فيها قدم إلى مصر خلق كثير من البلاد الشامية فرارا من الفرنج والغلاء.

وعم جميع البلاد الوباء، ومات بمصر خلق كثير.

وفيها مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجا، وتولى مكانه أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

-١١٤٨٨-

سنة أربع وتسعين وأربعمائة

في شعبان أخرج الأفضل عسكرا كثيفا للقاء الفرنج، فوصل إلى عسقلان في أول رمضان، فأقام فيها إلى ذي الحجة، فنهض إليه من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فكانت بينهما حروب كثيرة كسرت فيها ميمنة المسلمين وميسرتهم، وثبت سعد الدولة القواسي مقدم العسكر في القلب، وقاتل حتى قتل، وتراجعت عساكر المسلمين فهزموا الفرنج إلى يافا وقتلوا منهم وأسروا كثيرا.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة

في ليلة السابع عشر من صفر توفي أبو القاسم أحمد المستعلي بالله الخليفة ومولده لعشر بقين من محرم سنة ثمان وستين وأربعمائة، ومدة خلافته سبع سنين وشهران ونقش خاتمه (الإمام المستعلي بالله).

وفي أيامه خرجت الفرنج على بلاد الساحل والشام فملكوه.

ولم يكن له سيرة تذكر فإن مدبر أموره الأفضل.

وترك من الولد ثلاثة هم أبو علي ونعت بالآمر، وجعفر، وعبد الصمد.

وقضاته أبو الحسن بن الكحال، ثم أعاد محمد بن عبد الحاكم المليجي، ثم أبو الطاهر محمد بن رجا، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي، ثم صرف بعد وفاة المستعلي في ربيع الأول منها، وذلك أن ابراهيم بن حمزة الشاهد كان يعاديه، فبلغ الأفضل أنه أحدث في مجلس الحكم فصرفه، وتولى بعده حسين بن يوسف بن أحمد الرصافي وصرف، فولي بعده أبو النجم بن بدر الخوافي، ثم أبو الفضل نعمة بن بشير النابلسي المعروف بالجليس.

ويقال ان المستعلي قتل سرا وقيل أنه سم فمات.

وكان المستنصر عقد لست الملك ابنة بدر الجمالي على ابنه المستعلي فاتفق موت المستنصر وبدر في سنة واحدة، وكان بدر قد أكثر من شراء الجوهر الثمين فلما مات تفرقه أولاده نهبا.

ولما مات المستعلي أحضر الأفضل أبا علي، وبايعه بالخلافة، ونصبه مكان أبيه، ونعته بالآمر بأحكام الله، وعمره خمس سنين وشهر وأيام، وكتب ابن الصيرفي الكاتب السجل بانتقال المستعلي وولاية الآمر، وقرىء على رؤوس كافة الأجناد والأمراء.

سنة ست وتسعين وأربعمائة

في أول رمضان جرد الأفضل عسكرا وجعل عليه ابنه شرف المعالي، وسير الأسطول في البحر، وكان قد خرج في رجب سنة خمس وتسعين عسكر وعليه سعد الدولة القواسي فاجتمع العسكران بيازور والتقيا مع عسكر الفرنج فهزموهم وحاصر شرف المعالي قصرا كان الأفشين قد بناه قريبا من الرملة وملكه قهرا وقتل من كان به من الفرنج، وسير تسعمائة أسيرا إلى مصر، فحضر في البحر عدة مراكب نجدة للافرنج وحاصروا عسقلان فرحل شرف المعالي من الرملة إلى عسقلان، فارتحل الفرنج عنها، وكتب الأفضل إلى شمس الملوك دقاق، صاحب دمشق، يستنجده على الفرنج، فاعتذر عن ذلك ولم يحضر.

سنة سبع وتسعين وأربعمائة

فيها حاصر بردويل ملك الفرنج، وصاحب القدس، ثغر عكا وملكه، فخرج عن أيدي المسلمين ولم يعد، وكان ثغر عكا بأيدي نواب صاحب مصر، وكان الوالي يومئذ زهر الدولة نبا بن الجيوشي ففر إلى دمشق وأكرمه

ظهير الدين أتابك وأحسن مثواه مكرمة للأفضل، ثم جهز إلى مصر فشكره الأفضل.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة

فيها جمع الأفضل جمعا كثيفا من العرب وأنفق فيهم أموالا جمة وجهزهم مع عساكره وعليهم ابنه شرف المعالي، وكتب لظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، بمعاضدته فلم يتمكن من الحضور لانشغاله بمضايقة بصرى، فإن أرتاش بن تاج الدولة ، صاحب بصرى، كان قد كاتب الفرنج يغريهم بقتال المسلمين، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، ثم سير عسكرا لابن الأفضل نجدة له فاجتمعا بظاهر عسقلان وكان التقاؤهم بالفرنج في رابع عشر ذي الحجة فيما بين يافا وعسقلان، فحمل الفرنج على المسلمين فانكسروا وقتل والي عسقلان وأسر بعض المقدمين، وقتل كثير من الفريقين، ورجع وقد كانت الكرة لهم وعاد عسكر دمشق إلى بصرى، فكان القتل من الفريقين متقاربا.

وفيها مات كنز الدولة محمد في ثامن شعبان وقام مقامه أخوه فخر العرب هبة الله.

سنة تسع وتسعين وأربعمائة

في سادس عشرين جمادى الأولى قتل خلف بن ملاعب، صاحب أفامية بها، قتله قوم من الباطنية.

سنة خمسمائة

أهلت والخليفة ببغداد المستظهر بالله، ومدبر العراق السلطان غياث الدين محمد بن ملك شاه، والخليفة بمصر الآمر بأحكام الله أبو علي

المنصور بن المستعلي، وهو العاشر منهم، ومدبر مملكته القائم مقام السلطنة أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، والآمر ليس له حل ولاربط سوى اسم الخلافة، وهو مقام الوزير والذي في مملكته ديار مصر وغزة وعسقلان وصور وطرابلس.

وفيها بنى الأفضل دار الملك بشاطىء النيل على ساحل مصر، وفرغت في سنة إحدى وخمسمائة وسكنها وتفنن الشعراء في مدحها، وصارت هذه الدار دار متجر في أيام الكامل محمد، ثم عملت دار وكالة في أيام الظاهر بيبرس، وكانت دار الطاووس بستانا فكان الأفضل يتردد إليها وزخرف بها مجلسين ثم بنى بجوارها دارا سماها دار الملك، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف فأمر أن يؤخذ ماكان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية فكانت تقبض إلى آخر وقت.

وأنهت زيادة النيل إلى سبعة عشر ذراعا وأربعة أصابع.

سنة إحدى وخمسمائة

فيها جدد الأفضل ديوانا سماه ديوان التحقيق، واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن (أبي) الليث النصراني، وبقي فيه حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة، ولم يزل هذا الديوان حتى زالت الدولة فانقطع إلى أيام الكامل محمد، فأعاده في سنة أربع وعشرين وستمائة واستخدم فيه ابن كوجك اليهودي، ثم أبطله في سنة ست وعشرين وستمائة فلم يعد، إلا أنه تجدد أيام المعز أيبك، أن صفي الدين عبد الله بن علي بن المغربي، استخدم مستوفيا على مقابلة الدواوين وهو نوع منه.

وفيها نزل بردويل على ثغر صور، وكان النائب به سعد الملك كمشتكين أحد مماليك الأفضل، وعمر بردويل حصنا مقابل حصن

صور على تل المعشوقة، وصانع سعد الملك بردويل على سبعة آلاف دينار حتى رحل عن البلد.

وفيها أحضر أهل فخر الدولة ابن عمار إلى مصر من طرابلس، ومعهم أمواله وذخائره، وسبب ذلك أن فخر الدولة لما طال عليه حصار الفرنج له خرج من طرابلس في سنة خمسمائة بتحف وهدايا إلى دمشق فشكا إلى ظهير الدين طغتكين أتابك مانالة من حصار الفرنج فأكرمه وقام بأمره إلى أن أتفقا على المسير لبغداد ليستنصرا بالسلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فسارا بالهدايا، ثم بدا لطغتكين فرجع وكان قد بلغه أن السلطان غياث الدين يريد قصده لينزع منه ملك الشام، وسار فخر الملك بن عمار واجتمع بالسلطان وشكا إليه أمره فشق عليه عود طغتكين، وحلف أنه لم يكن عنده خبر مما نقل إليه، وعاد فخر الملك إلى دمشق وقد استوثق من السلطان أن يمده بالعساكر نجدة له، فبينما هو كذلك إذ نافق أبو المناقب ابن عمار على ابن عمه فخر الملك ونادى بشعار الأفضل، وسير إليه أن يحضر لتسليم طرابلس، فسير إليه الأفضل الأمير شرف الدولة ابن أبي الطيب، فلما وصلها نقل حريم فخر الدولة ابن عمار وأولاده وأمواله وذخائره إلى مصر، فاضطرب لذلك فخر الدولة وازداد ألمه وسير السلطان غياث الدين طائفة من عسكره وأمر مقدمهم بقصد الموصل وحصار جاولي، فنزل عليها وجرى بينه وبين عسكر الموصل.

ولم نجد في النسخة مايتم المعنى، ولانسخة مثلها نقابل بها، فكتبنا ماوجدناه على التوالي كذا على هذا المنوال .

وأقام الخليفة في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر، ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ماينقل إلى القصر، فوجد له من الذخائر النفيسة مالا يحصى.

فوجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتان وخمسون ألف دينار، وخمسون أردبا دراهم ورق، وثلاثون راحلة من الذهب العراقي المغزول، برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألوان وتسعمائة ثوب ديباج، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه، ولعبه عنبر على قدر جسده برسم مايعمل عليها من ثيابه ليكسب الرائحة ومن الطيب والنحاس والآلات مالا يحصيه عدد، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال مابلغ ضمان ألبانه ونتاجه أربعين ألف دينار في السنة، ودواة يكتب منها مرصعة بالجوهر قوم جوهرها بإثني عشر ألف دينار، وخمسمائة ألف مجلد من الكتب.

وكان سبب قتله، أنه قبض على رجل يعرف بالبديع، من الباطنية، وكان قد نفي قديما من مصر، ثم أعيد بشفاعة وقعت فيه، فصار له أتباع، وهم الأفضل بنفيه إلى اليمن إلى الحرة بنت الصليحي، فإن هذا المذهب كان عندها وفي بلادها ظاهرا، فحضر عشرة من الباطنية وأرادوا أن يكونوا معه في الاعتقال، وتتابع معهم جماعة، فقبض عليهم الأفضل وهم نيف وعشرون وقتلهم جميعا، وكثر تحرسه من الباطنية في ركوبه وخروجه.

فلما كان قبل عيد الفطر بيوم خرج من داره، دار الملك بمصر، إلى القاهرة لإخراج العدد والتجمل وقصب الفضة برسم العيد على العادة، فلما انقضى عمله وعاد إلى مصر وثب عليه رجلان من حانوت دقاق في طريقه وقد شهرا سكاكينهما، وكان هو قدام الناس والجند متفرقون عنه (في) عوده لكثرة من حوله فحين رآهم من بين يديه من الركابية بادروا إليهما وقتلوهما، وخف من حوله ودهشوا لما رأوا من الإقدام عليه فوثب رجل خياط، ذكر أنه من القاهرة، من خلفه فصاح الأفضل حين رآه

أقبل إليه وقال: إلى أين؟ فقال: إليك وشتمه وبادره فقبض على أطواقه وسقطت عمامته وضربه ضربات وقع منها، فارتج الناس ووثبوا عليه فقتلوه، وحمل الأفضل إلى داره وبه رمق وقد اثخنته الجراح، فلما وصل إلى داره بعث ابن البطائحي، وزيره المستولي على أموره، إلى الخليفة الآمر ليحضر، وكان الناس قد انزعجوا انزعاجا شديدا وهم بعض المقدمين أن يخرج بعض أولاد الأفضل ويجعله مكان أبيه، وكان الأفضل قد حبس سائر أولاده في دورهم ومنعهم التصرف فلم يكن يظهر منهم سوى أبي علي فإنه كان يركب، فخرج ابن البطائحي للناس، وقد اجتمعوا بدار الملك وأظهر أنه ركب ليسكن الناس بالقاهرة، وصار إلى الآمر فبادر للوقت وحضر بنفسه إلى دار الأفضل وختم الدار وبيت الأموال والخزائن والصناديق وسائر مافيها وعاد إلى القاهرة، فلما أصبح صلى بالناس صلاة العيد الداعي، والأفضل في داره ميتا، فلما كان بعد الصلاة غسل ودفن عند أبيه ونفذت المكاتبات إلى أعمال مصر بتطبيب قلوب الناس وإعلامهم الحال.

وأخذ الآمر في نقل مابدار الأفضل إلى القصر، وهو يرتب الأمر فيما يحمل بنفسه هو وأصحابه، واستمر ذلك مدة شهرين وأياما، والأموال تحمل على جمال وبغال إلى القصر، والآمر يطلع إلى القصر ويعود كل غداة ويقيم حتى يرتفع النهار، ويقرر مايفعل ويرتب مايحمل.

وذكر متولي الخزانة بالقصر أن ماوجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، وسبعمائة طبق فضة وذهب، ومن الآلات كالأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي والقطع من الذهب والفضة المختلفة الأجناس مالا يحصى كثره، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجوهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منثور، شيء كثير.

وكان الأفضل، في أوقات الشرب، يصف في مجلسه صواني الذهب وفيها البراني المملوءة بالجوهر، فإذا أحب فرغت البرنية في الصينية فيكون ملؤها، ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقي وشرب عمل بتنيس ودمياط على كل صندوق شرح مافيه وجنسه، وخزانة الطيب مملوءة بالأسفاط من العود وغيره مكتوب عليها أوزانها وأجناسها، وبراني المسك وبراني الكافور ومن العنبر مالا يحصى.

وكان له مجلس يجلس فيه للشرب، فيه صور ثمان جواري متقابلات، أربع منهن بيض من كافور، وأربع سود من عنبر قيام في المجلس عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي وبأيديهن أحسن الجواهر، فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات.

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارح والمخاد والمساند الديباج والدبيقي الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها، أربع حجر كل حجرة مملوءة من هذا الجنس.

ووجد له عدة صناديق ملو خزانة بها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال، وثمانمائة جارية منها حظايا له خمسون جارية لكل واحدة منهن حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات الديباج والذهب والفضة وغيره من كل صنف.

قال الخازن: هذا ماحضرني حفظه(مما) في داره، وأما ماكان في مخازنه وتحت يد عماله والجباة وضمان النواحي من المال وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك مما لايحصى.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط وستور حمل طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل، وألف عدل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب، يعني سرج.

وكان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ماسمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر في زمانه ولاقسط عليه، ولما حصر الاسكندرية كان بها يهودي يبالغ في سب الأفضل وشتمه ولعنه، فلما دخلها الأفضل قبض عليه وأراد قتله وقد عدد عليه ذنوبه فقال: إن معي خمسة آلاف دينار خذها مني واعتقني واعف عني، فقال: والله لولا خشية ان يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك وعفا عنه، ولم يأخذ منه شيئا، و(كان) إذا غضب على أحد اعتقله، فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان، فإنه كان إذا اعتقل أحدا نسيه ولايرى بإخراجه.

ومحاسنه كثيرة وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلقها في الحال، وكانت هذه من حسناته التي تفرد بها دون من تقدمه.

واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث في أيامه مما ينتظر وصول مستحقيه من مشرق الدنيا ومغربها ماقدره مائة ألف وثلاثون ألف دينار، فلما ولي القضاء القاضي ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي بن الرسعني، بعد وفاة القاضي الجليس، رفع إليه اني قد اعتبرت مافي مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار ورفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها، فوقع على رقعته «إنما قلدناك الحكم ولارأي لنا فيها لانستحقه فاتركه على حاله لمستحقيه ولاتراجع فيه» فأخذها عرفا.

وبقي هـذا القاضي، ابـن الرسعني إلى آخر أيـام الأفضل، فلما مـات الأمير السعيد محمود بـن ظفر والي قوص في أيام المأمـون، وحضر المأمون والقاضي عـزاءه وحضرت صلاة الصبح، أشار المأمـون للقاضي بـالتقدم للصلاة، فلما أحرم بالصلاة، أخذه هلع فلحن في الفاتحة وارتج عليه في (الشمس وضحـاها) فوقـف عند قولـه(ناقة الله و سقيـاها) فردهـا المأمون عليه فـزاد استبهاما، فكـرر الرد على القاضي فلم يهتـد، ثم صحف قـوله تعالى(ناقة الله وسقيـاها) فقال(وسقناها) بالنون فقرأ المأمـون عندها بقية السورة وسجـد وسجد الناس، ثـم قام إلى الركعة الثـانية وقد دهـش فلم يفتح عليه شيء، فقرأ الفاتحةو(قل هـو الله أحد) وقنت فلما انفض الناس وكـل المأمون عليـه حتى يحفـظ القرآن وصرفـه وقـرر عوضـه القاضي أبـا الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، قاضي الغربية.

وأمر الأفضل بعمل تقدير ارتفـاع ديار مصر، فعمل ذلك، وجاء خمسة آلاف ألف دينار وكان متحصل الأهراء ألف ألف أردب.

وبني في أيـامه كثير من المسـاجد والجوامع منهـا: جامع الفيلـة المطل على الجبـل المعـروف بسطـح الجرف، والمسجد الـذي على جبـل المقطـم المعـروف بـالجيوشي، وبنـى المأذنـه الكبيرة بجـامـع عمرو بـن العـاص، والمأذنة السعيدية والمأذنة المستجدة به أيضا وجامع الجيزة.

وعمـل خيمة سماهـا خيمـة الفرح، ثـم سميـت بـالقاتـول، لأنها إذا نصبت يموت تحتهـا من الفـراشين واحد أو اثنـان، اشتملت على ألـف ألف ذراع وأربعمائة ألـف ذراع، وقائمـهـا ارتفاعـه خمسون ذراعـا بذراع العمل، صرف عليها عشرة آلاف ألف دينار، ومدحها جماعة من الشعراء.

وكان الأفضل يقول الشعر فمنه في غلامه تاج المعالي:

أقضيـــب يميـــس أم هـــو قـــد
أو شقيـــق يلـــوح أم هـــو خـــد

أنـــــــا مثـــــــل الهلال سقما عليـــــــه
وهـــــو كـــالبـــــدر حين وافـــاه سعـــــد

وكان شديد الغيرة على نسائه، وله فيها أخبار منها: أنه طلع ذات يوم سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق فأمر بضرب عنقها، فلما جيء برأسها بين يديه قال:

نظـــــرت اليهـــــا وهـــي تنظـــر ظلهـــــا
فنـــزهـــت نفسي عـــن شريـــك مقـــارب
أغـــــار على أعطـــافهـــــا مـــن ثيـــابها
حـــــذارا ومـــــن مســـــك لها في الـــذوائب
ولي غيرة لـــــو كـــــان للبـــــدر مثلهـــــا
لما كـــان يـــرضـــى بـــاجتماع الكـــواكـــب

وكان عدة الوعاظ والقراء والمنشدين عند عزائه أربعمائة وعشرين شخصا، فخرج أمر الخليفة أن يعطى كل واحد منهم ثمانين دينارا، للصغير مثل الكبير، فقال ابن أبي قيراط: يامولانا هذا مال كثير، فقال: لايرد أمرنا فهذا من بعض حقه علينا، فجاء مبلغ مادفع نحوا من أربعة وثلاثين ألف دينار.

وهو الذي أنشأ بستان البعل، والمتنزه المعروف بالتاج، والخمس وجوه والبستان الكبير ببولاق، والبساتين بقليوب، وجدد بستان الأمير تميم ببركة الحبش، وأنشأ الروضة بحري الجزيرة فكان يمضي إليها كل يوم في العشاريات الموكبية، رحمه الله.

وفيها شرف القائد أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بابن البطائحي في الخامس من ذي الحجة، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ دولته وهو الذي قدمه إلى هذه الرتبة، واستقرت نعوته في سجله

المقروء، على كافة الأمراء والأجناد«بالأجل المأمون تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع فخر الأنام نظام الدين والدعاة»، ثم نعت بها كان ينعت به الأفضل وهو«السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين».

ولما كان يوم الثلاثاء سابع ذي الحجة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلس المأمون في داره عند آذان الصبح وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف والأقلام، ثم الأمراء والأستاذون المحنكون، والشعراء بعدهم، وركب إلى القصور فأتى باب الذهب فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له في موضعها الجاري به العادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف والأقلام، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، وعندما شاهدها، توقف عن الجلوس عليها، لأنها حالة لم يجر معه حديث فيها، ثم ألجأته الضرورة لأجل حضور الأمراء (إلى) الجلوس عليها، فجلس وجلس أولاده الثلاثة عن يمينه وأخواه عن يساره، والأمراء المطوقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه، فإنه لايصل أحد إلى هذا المكان سواهم، فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب وخرج عدة من الأستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين، وخرج إليه الأمير الثقة متولي الرسالة وزمام القصور، فعند حضوره وقف له أولاد المأمون وأخواه فطلع عند خروجه قبالة المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام، فوقف عند ذلك الأجل المأمون وقبل الأرض وعاد جلس موضعه، وتأخر الأمير إلى أن نزل من المصطبة وقبل الأرض، وقبل يد المأمون، ودخل من فوره من الباب وأغلق الباب على حاله على ماكان عليه الأفضل وكان الأفضل يقول: ماأزال أعد نفسي سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة والباب يغلق في وجهي والدخان في أنفي فإن الحمام(كانت) من خلف الباب في السرداب، ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر فدخل إلى المكان الذي هيء له، ودعا لمجلس الوزارة وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس

الخليفة واستفتح القراء واستدعى المأمون فحضر بين يديه، وسلم عليه أولاده وأخواه، ثم وصل الأمراء على قدر طبقاتهم أولهم أرباب الأطواق، وتلاهم أرباب العماريات والأقصاب والضيوف والأشراف، ثم دخل ديوان المكاتبات سلم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة، ثم ديوان الإنشاء سلم بهم الشريف ابن أنس الدولة، ثم نقيب الطالبيين بالأشراف، ثم سلم القاضي ابن الرسعني بشهوده، والداعي ابن عبد الحقيق بالمؤمنين، ثم سلم القائد مقبل الركاب الآمري بجميع المقدمين الآمرية، ثم سلم بعدهم الشيخ أبو البركات بن أبي الليث متولي ديوان المملكة، ثم دخل الأجناد من باب البحر وسلم كل طائفة بمقدمها، فلما انقضى ذلك دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلم كل منهما ببياض أهل البلدين، ثم البطرك بالنصارى وكتاب النصارى، ورئيس اليهود وكتاب اليهود، ثم سلم المقربون وقد قارب العصر، ودخل الشعراء على طبقاتهم وأنشد كل واحد منهم ماسمحت به قريحته، فكان هذا رتبة المأمون في هذا اليوم.

وفيها عمر المأمون الجامع الأقمر بالقاهرة وكان مكانه دكاكين علافين.

سنة ست عشرة وخمسمائة

في ربيع الأول أمر المأمون وكيله الشيخ أبا البركات محمد بن عثمان أن يتوجه إلى المساجد السبعة، التي بين الجبل والقرافة، وأولها مشهد السيدة زينب، وآخرها مشهد السيدة كلثوم ويجدد عمارتها، ويصلح ماتهدم منها، ويجعل على كل مشهد لوحا من رخام عليه اسمه وتاريخ تجديده، فمدحه الشعراء بقصائد عند فراغ العمارة.

وفيها أراد الآمر أن يحضر إلى دار الملك في النيروز الكائن في جمادى الآخرة في المراكب على ماكان عليه الأفضل، فأعاد المأمون عليه أنه

لايمكن، فإن الأفضل لايجري مجراه الخليفة، وحمل إليه المأمون من الثياب الفاخرة برسم(النوروز) للجهات ماله قيمة جليلة.

وفي شوال أمر المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة فعملت وضرب فيها، وأمر أن يكون الدينار أعلى ذهبا من كل دار ضرب فبنيت بالقشاشين

وفيها أمر ببناء دار وكالة بالقاهرة، لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وفي ذي القعدة صرف قاضي القضاة ثقة الملك ابن الرسعني ، وقد تقدم سبب صرفه، وتولى مكانه القاضي جلال الملك أبو الحجاج يوسف ابن أيوب المغربي، وكان قاضي الغربية، وأشهد ستة عشر نفسا بأمر المأمون فإنه خرج أمره للقاضي أن يستشهد من يقع عليه الاختيار، فاختار جماعة طالعه بأمرهم فانتقى منهم ستة عشر.

وفيها انتدب المأمون وحشي بن طلائع فمضى إلى صور، وقبض على مسعود بن سلار واليها، فإنه كان قد خالف وأحضره مقهورا.

وفيها جهز المأمون أسطولا في البحر، وأوسق المراكب بخمسة عشر ألف أردب قمح وأقوات كثيرة فمضت إلى صور وملكتها وأحضرت واليها مسعود بن سلار.

وفي رجب وصل الدوك من عسقلان، وأخبروا أن الباطنية فرحوا بقتل الأفضل.

وفيها نقل المأمون عمارة المراكب الحربية من الصناعة التي بجزيرة مصر، إلى الصناعة القديمة بساحل مصر، وبنى عليها منظرة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

فيها ورد من المغرب إلى الاسكندرية، طائفة من لواتة فأفسدوا في أعمالها فسادا كثيرا، فندب المأمون أخاه نظام الدين أبا تراب حيدرة الملقب بالمؤتمن لقتالهم فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا، وكسب خيولهم وأموالهم، ثم دخل مدينة الاسكندرية، وكانت مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وقتلوا وأسروا فحاربهم وأخذ الاسارى.

وفي جمادى الأولى كان وصول رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز بن باديس، صاحب المهدية، يخبر بانحيازة للدولة وأن رجار بن رجار، صاحب صقلية، تواصلت أذيته واستعد لمحاربته، وسأل أن يسير لرجار يمنعه، فسير من مصر إليه مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخد، فأصلح بينهما.

وفي شوال توجه هلال الدولة سوار رسولا الى حرة اليمن.

وفيها وصل رسول من ظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، ورسول من آق سنقر، صاحب حلب، بكتب للخليفة الآمر، فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك، وأوقفا عند باب البحر قدر ماجلس الخليفة، وكانت كتبهما تتضمن الأخبار بنزلة الفرنج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية، وأن الفرصة قد أمكنت فيهم، وسألا أن يجهز بعض العساكر والأساطيل، فنفق في العساكر، وجهز المأمون أربعين شينيا فيها عشرون أميرا وهدايا وأجوبة الكتب صحبة الرسل الواصلين، فسار العسكر إلى يافا وأقام عليها ستة أيام، ورحل عنها وقد تخاذل عنه ملوك الشرق، ورجع إلى مصر فوافاه الفرنج على يبنى في ثاني ربيع الآخر فانكسر العسكر المصري من غير مصاف.

وفي ربيع الأولى أغلق المأمون دار العلم التي بالتبانين مجاورة القصر

الصغير، وذلك أن رجلا يعرف بحميد بن مكي الأطفيحي القصار ادعى الربوبيةواجتمع معه خلق كثير، وكان يصعد الجبل المقطم ويحضر لأصحابه مايريدونه ويناول كل واحد مايشتهيه، وكان أولا جيد النظر في علم الكلام على طريق الأشعرية، ثم انسلخ من الاسلام وسلك طريق السحرة والموهين، فحكيت عنه حكايا كثيرة، فقبض عليه المأمون وقتله هو وجماعة كثيرة من أصحابه، وكان ذلك سبب إغلاق دار العلم فإنه أفسد عقول جماعة.

وفيها نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب النصر بالقاهرة، فتقدم شيوخ الصناعة الفلكية أبو عبد الله الحلبي، وابن العيثمي، وأبو جعفر بن حسداي، وابن سند، وأحمد بن مفرج الشاعر، وابن قرفة ومعهم جماعة فوجدوا الطارة الواحدة قد فسدت، فجمع السباكون واحضر لهم مايحتاج إليه من النحاس والذهب والفضة وسبكت الدائرة وأعيدت بحضرة الشيوخ بعد تعب كثير ومصروف كبير ونقلت إلى أعلى الباب فاستمرت إلى آخر أيام الآمر، فلما كثر الهرج أهمل وأفسد ثم نهب ماقدر عليه منه، فحمل إلى المناخ، فلما نهب المناخ كسرت الطارات بالفؤوس ونهبت وبقي منها طارتان على أحديهما اسم الأفضل وعلى الأخرى اسم المأمون خفي مكانهما وسلما فكانا بالمناخ.

وفيها توفي ولي الدولة (أبو البركات) بن عبد الحقيق داعي الدعاة، فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم، ثم صرف لحداثة سنه، وقرر أبو الفخر صالح، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ملك الفرنج مدينة صور، واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة، وكان أخذها بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم، فأغاثهم

ظهير الـديـن طغتكين، صاحـب دمشـق، ووصـل إلى بانيـاس ووراسـل الافرنج فـوقع الاتفاق على أن يتسلموهـا بالأمان فخرج أهلهـا بما خف حمله وتفـرقوا في البـلاد، وكان تسليمهم إياها في الثـامن والعشريـن من جمادى الأولى.

وفيها أمر ببنـاء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عنـد كسر السد بخليج القاهرة بالكراء، وذلك أن الناس عنـد كسر الخليج كانوا يعملون أخشابا يركبـون بعضها على بعض ليتفـرجوا عليها، فيحصـل لهم الضرر، ولم يكن هناك مـن الآدر سوى داريـن إحداهما لأبي عبـد الله محمد بـن المستنصر ولي العهـد، والأخرى دار ابـن معشر ولم تزل هـذه الـدور الثلاثـة إلى أن أحرقت في أيام شاور في كائنة سنة تسع وخمسين وخمسمائة ولم يبق لها أثر.

وفيها توفي بألموت الحسن بن صبـاح، رئيس الاسماعيلية وقد تقدم خبر قـدومه إلى مصر في أيـام المستنصر، ومسير ابـن صباح إلى المشرق وأخـذه قلعة ألموت.

فلما مات المستنصر مال ابن صباح إلى القول بإمامة نزار بن المستنصر، وانكر إمامة المستعلي وإمامة ابنه الآمر، وندب جماعة لقتل الأفضل.

فلما ولي المأمـون بلغه أن ابـن صبـاح والباطنيـة فـرحوا لموت الأفضـل وقتلـه، وأنهم قد امتـدت آمالهم لقتـل الآمر والمأمـون معا، وأنهم أرسلـوا رسلا لأصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال للتفرقة عليهم.

فتقدم المأمـون إلى والي عسقلان وصرفـه عنها وولى غيره، وأمـره بعرض أرباب الخدم بها، وأن لايبقـى فيها إلا مـن هو معـروف من أهـل البلاد، ووصاه بـالاجتهاد والكشـف عن أحـوال الواصلين مـن التجار وغيرهـم، وأن لايثـق بما يذكـرونه مـن أسمائهـم وكناهـم وبـلادهم وحـلاهم، بـل يكشـف عن بعضهـم من بعض ويفرق بينهـم ويبالغ في كل ذلـك، ومن

وصل ممـن لم تجر له عـادة بالـوصول إلى البـلاد فليعوقـه بالثغـر ويطالـع بحاله وبما معه من البضائع، وكذلك الجمالون لايمكن أحدا من الوصول إلى البلاد إن كان معـروفا مترددا، ولايسير قافلة إلا بعد أن يتقدمهـا كتابه إلى الديوان بعدة التجـار وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين، وذكر أصناف البضـائع، ليقابل بها في مدينـة بلبيس وعند وصـولهم إلى الباب، ويكرم التجار ويكف الأذى عنهم.

ثم تقدم أمر المأمون لواليي مصر والقـاهرة وأمرهما ان يسقعا له شارعا شارعـا وحارة حارة بـأسماء من فيها مـن السكان وأن لايمكنا أحـدا من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بما يعهداه فيه.

فلما وقف على أوراق التسقيع وفيهـا أسماء أهل مصر والقاهرة وكنـاهم وأحوالهم ومعايشهـم، ومن يصل إلى كل ساكن مـن سكان الحارات من الغرباء حينئـذ سير من قبله نساء يدخلـن هذه المساكن ويتعـرفن أحوال الباطنيـة، فكانـت أحوال مـن بالقـاهرة ومصر لايخفـى عليه منهـا شيء، ولـذلك امتنـع من يصـل إليه مـن البـاطنية، سـوى من يصـل من بـلاد العجم وغيرها لهذا القصد.

ثـم إنه ركـب في يوم مـن الأيام جماعـة من العسكـرية وفـرقهم وأمـر بمسك مـن عينه فمسك منه جماعـة كثيرة، منهم رجل كـان يقرىء أولاد الخليفة الآمر، ومسك رسلا معهم المال الـذي سيره ابن صباح برسم نفقة المقيمين بمصر فـأخذه، وكـانت هـذه الفعلـة من المأمـون من عجـائب الحذق، وبث مـع ذلك الجواسيـس في أقطار الأرض، وكـان الباطنـي إذا خـرج من ألموت لاتـزال أخبـاره تصل إلى المأمـون متعـاقبـة حتى يصـل بلبيس فيمسك بها ويحمل إليه فيقتله.

وقال للخليفة الآمر: كشفت الغطاء وفعلـت مالايقدر أحد على فعله،

وأما القصر فما لي فيه حيلة، ولوح للآمر أن أخت نزار وأولاده لايمكني كشف أمرهم، فبلغ أخت نزار القصة فحضرت (إلى الخليفة) الآمر لتبرىء نفسها، ورغبت أن تخرج للناس لتقول ماسمعت من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ماليس له، فاستحسن الآمر ذلك وأحضر المأمون، وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلي، واتفقوا على يوم يجتمعون فيه.

فلما كان في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة استدعى دعاة الاسماعيلية، وأحضر أبو الحسن علي بن أبي أسامة، كاتب الدست، وولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة وأبو محمد بن آدم متولي دار العلم بالقاهرة، وأبو الثريا بن مختار فقيه الاسماعيلية ورفيقه أبو الفخر، وجماعة من الأمراء وغيرهم، والشريف ابن عقيل، وقاضي القضاة، وشيوخ الشرفاء، وأولاد المستنصر، وجماعة من بني عمها ممن وقع عليه الاختيار.

وكان المأمون إماميا فاحتجوا بأن المستنصر نعت المستعلي ولي عهد المؤمنين وأفرده بذلك فدل على تخصيصه، إذ ولاية عهد المؤمنين تتضمن ولاية عهد المسلمين، لأن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس وكان المستنصر نعت المستعلي بهذا النعت لما عقد نكاحه على ابنة أمير الجيوش بدر.

واحتجوا بأن من يقول أنه ضربت السكة باسم نزار وأن الدينار المنقوط باسمه، قول باطل وأن المنقوط ضرب العزيز، ولو كان الأمر على مايقولون لما كان فيه حجة لأن الحاكم ضرب السكة باسم بعض بني عمه نيابة عنه وليس بإمام، وأن الوزير اليازوري سأل المستنصر أن يكتب اسمه على سكة نقش عليها «ضربت في دولة آل الهدى آل ياسين سنة كذا» وطبعت عليها الدنانير نحو شهر ثم بطلت، وأمر المستنصر بأن لايسطر في السير.

واحتجوا بأن المستنصر لما جرت على دولته الشدائد سير أولاده عبد الله إلى عكا لأمير الجيوش، وسير أبا القاسم والد الحافظ، لعسقلان، ونزار لثغر دمياط، وسير الأعلى إلى الأعلى، ولم يسمح بخروج المستعلي من قصره(لما أهله له من الخلافة).

وعند وفاة المستنصر بايع نزار المستعلي فجرى في هذا مفاوضة.

وكانت أخت نزار في قاعة صغيرة بجانب الإيوان بالقصر وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين، فلما جرى هذا الفعل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء الستر؟ فعرف بها اخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستار، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا علي ياجماعة الحاضرين، وبلغوا عني جماعة المسلمين، أن أخي شقيقي نزار لم يكن له إمامه، وإنني بريئة من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها، لما علمته من والدي وسمعته من والدتي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمية والدة عبد الله أخي إلى المنظرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحولا والبرياب للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجر في ولديهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما ، وقال: مايصل أحد من ولديكما إلى الأمر صاحبه معروف في وقته، وشاهدت والدي المستنصر، في المرضة التي توفي فيها، وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبل بين عينيه وأسر إليه طويلا وتدمعت عيناهما، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليله استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها فقبلها وعاهدها واشهد الله تعالى معلنا ومظهرا.

فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحتها الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد، ووقف بظاهر المقرمة ثم جلس وكلهم قيام وأخذ في التعزية، ثم قال: يامولاتنا من ارتضاه للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد

عاهـدني عليها، وأوصـاني بأن الخليفة مـن بعده ولـده أبو القـاسم أحمد، فحضر وبايعته عمتـي، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله، فـأشار الأفضل إلى نزار فبـايعه، وأمـر الأفضل بـالتوكيـل على نزار وتـأخيره فأخـر إلى مكان لايصلح له، واستدعى الأفضل الداعي وأمـره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذيـن، وسألـت عمتي الأفضـل في نزار فـرفع عنـه التوكيـل عليه بعـد أن كلمه بكلام فيه غلظـة، ووالله مامضى أخي نـزار إلى ناصر الدولـة أفتكين بالاسكنـدرية لطلب إمـامة ولالإدعاء حـق، ولكن طـالبا لزوال الأفضـل وإبطال أمره لما فعـل معه، والله يلعـن من يخالف ظـاهره باطنه، هذا آخر مانطقت به، فشكرها الناس على ذلك.

وأمر المأمـون ابن الصيرفي الكاتـب بإنشاء سجـل يقرأ على منبر مصر بذلك، فكتبه وانفض المجلس.

وأمـا النزاريـة فـإنها تقول إن المستنصر لما مـات، والأفضـل صاحـب الأمـر وهـو مستحوز على المملكـة والجنـد جنـده وغلمان أبيه لايعـرفـون سواه، وكـان نزار لما يـرى من الغلبـة من الأفضـل على الدولـة يتكلم بما يبلغـه فينكـره فتخوف شره، فلما مـات المستنصر ولى أحمد المستعلي لأنـه زوج أخته، وإنما ذكر هذا المجلـس هنا ليصير الكلام منسجما بعضه على بعض، ولم تزل الاسماعيليـة بجبل ألموت ومملكتهم يقولون بإمـامة نزار إلى أثناء الدولة التركية.

وأما ابـن صباح فإنـه لما قربـت وفاتـه أخرج فتـى، كان مختفيـا عنده، وسلم إليـه جميع قـلاعه، وكانـت عامـة من في دعوتـه تحت طاعتـه فلم يمت حتى ملك بـالشام جبل عاملة وحصن العليقـة والكهف ومصياف والخوابي وحصن الأكمة وقلعة العيد.

ثم امتـدت مملكته بعد وفـاته، فصار لهم عـدة بلاد ومملكة طـويلة إلى

حد شرقي أذربيجان وبحر طبرستان وجرجان، ولهم بخراسان مدينة كبيرة يقال لها رشيش، أخذها منهم شهاب الدين محمد في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وقتل كل من فيها، وبقي بأيديهم إلى آخر سنة اثنتين وستين وستمائة بالشام ثمان قلاع على جبل عاملة: قلعة الكهف، والعليقة، والقدموس، والخوابي، والمنيقة، ومصياف، والرصافة، والقليعة، وكان رئيسهم في سنة ست وخمسين وستمائة رضي الدين أبو المعالي، وقدم إلى مصر رسولا منهم قبل ان يرأس عليهم في شوال سنة خمس وستين، وفيها خرج من مصر فرأس عليهم.

ولما ملك التتر الشام سلموا إليهم أربع قلاع من هذه القلاع، فلما كسرهم المظفر قطز عادت الأربع قلاع إليهم، فتسلمها رئيسهم، وقتل أصحابه الذين سلموها للتتر، وتوفي في سنة ستين وستمائة، ورأس عليهم نجم الدين اسماعيل بن أبي الفتح الشعراني.

وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح وإلى سنة بضع وعشرين وستمائة عظيما، وجرى للناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب معهم أمور.

ثم إن الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية، ومن كان بألموت يقال لهم الباطنية والملاحدة، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم اسماعيلية، وكان للرئيس فيهم على كل ملك إقليم مال يحمل إليه تقية من شرهم.

ولما انفض المجلس أمر المأمون ابن الصيرفي فكتب لابن صباح كتابا طويلا يدعوه إلى الحق، فيرجعه عن القول بإمامة نزار ويحتج عليه بأمور مما ذكرنا، وسيره على يد ستة نفر من العربان فلم يسيروا غير مسير حتى وردت رسل الدعاة وعلى أيديهم كتب فيها الارعاد والابراق والازعاج مالم

تجر به عادتهم، ويـذكرون ان القوم قويـت عزائمهم وطالـت ألسنتهم بما يصل إليهـم من كتب أهـل البلاد متضمنة بـأن الله قد سهل الأمـر، وقد وجدوا السبيل إلى إظهار الحق، ومابقين العاقة إلا منكم لأنه قد تجرد من الركـوب والتوجه إلى البسـاتين والمنتزهـات والمقام بها ليلا ونهارا مـا اتسع فيه المجال وتحقـق به بلوغ الآمال، ويخاف أن يعود الحال إلى مـاكان عليه فيعود الطلب عسيرا، وقـد توجه إليكم جماعـة بمال كثير، وهم مقيمون في بلادكم عنـد جماعة يخفون أمرهم والقوم يسيرون المال مـع التجار، فجمع المأمون الجماعـة بين يدي الآمر وفاوضـه في أمرهم، وأخذ المأمـون في فعل ماتقدم ذكره من الضبط والحزم.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

في ليلـة السبت لأربـع خلـون من رمضـان قبـض الخليفة الآمـر على وزيره المأمـون بن البطائحـي، وعلى إخوته الخمسـة مع ثلاثين رجـلا من خـواصـه وأهلـه، واعتقلـه وصلبـه مـع إخـوتـه في سنـة اثنتين وعشريـن وخمسمائة.

واختلـف في سبب القبـض عليـه، فقيـل أنه بعـث إلى الأمير جعفـر، أخي الخليفة، يغريـه بقتل أخيه ليقيمه مكانه في الخلافـة، فلما تقرر الأمر على ذلك، بلـغ الشيخ الأجل أبا الحسـن علي بن أبي أسامة ذلـك، وكان خصيصا بالخليفة الآمـر قريبا منه، وأصابه أذى كثير مـن المأمون، فأعلم الآمـر بالحال، وأنـه سير نجيـب الدولـة أبـا الحسـن إلى اليمن وأمـره ان يضرب السكة ويكتب عليها «الإمام المختار محمد بن نزار».

وقيل بل سم مبضعا ودفعه لفصاد الآمر فأعلمه بالقصة فقبض عليه.

وكان مـولده في سنـة ثمان وسبعين وأربعمائة أو سنة تسـع، وكان مـن

ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدولة كريما، واسع الصدر، سفاكا للدماء، كثير التحرز والتطلع إلى أحوال الناس من العامة والجند، فكثر الوشاة في أيامه.

وذكر ابن الأثير في «تاريخه» عن أبيه: أنه كان من جواسيس الأفضل بالعراق وأنه مات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير بمصر، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا حسن الحركة حلو الكلام، فأعجبه وسأل عنه فقيل له: هو ابن فلان فاستخدمه مع الفراشين، ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته.

قال المؤلف: هذا وهم فإن والد المأمون توفي في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وولده مدبر ملك الأفضل، ورأيت جزءا فيه من مراثي والد المأمون شيء كثير، ومدح الأفضل في بعض المراثي وقد ذكرنا ذلك في سنة اثنتي عشرة.

ورأيت في كتاب «البستان بحوادث الزمان» أن المأمون كان يرش بين القصرين بالماء.

سنة عشرين وخمسمائة

فيها جهز الآمر الأمير المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنية، وتحف مصرية، وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي، صاحب الموصل، فسمع في الطريق بقتل المذكور فرجع بما معه إلى مصر.

وفيها قدم إلى مصر الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم

مصنف«سيرة الافرنج الخارجين إلى بلاد الاسلام» في هذه السنين، برسالة من حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب بمصر في مصادرات الناس.

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

فيها أحضر نجيب الدولة، داعي اليمن، وكان المأمون قد سيره إلى اليمن فبعث به صاحب اليمن فدخل على جمل وخلفه قرد يصفعه بدرة محشوا حصى في يوم عاشوراء، وصلب.

وفيها توفي قاضي القضاة أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل الأندلسي، وكان قد أقرأ المؤتمن أخا الوزير المأمون القرآن والنحو، فولاه قضاء الغربية، ثم نقل إلى قضاء القضاة بعد ابن الرسعني بوساطة المؤتمن، ولما مات استقر مكانه في القضاء أبو عبد الله محمد بن هبة الله ابن الميسر القيسراني.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها أحضرت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين قد وهب له بانياس خوفا من شره، فتضايق الحال وأفسد أصحابه بالشام، إلى أن جرت له حادثة فقتل وحملت رأسه إلى مصر.

وفيها رتب الآمر قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة بن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس، وعمل مصالحه فاستمر إلى أن قتل، فلم ينظر بعده أحد على هذه الجهة، واستمر ابن أبي الرداد بمفرده وأطلق له في كل سنة مائة قنطار جير لعمارة المكان.

وفي الليلة المسفرة عن العشرين من رجب، قتل المأمون بن البطائحي الوزير، وصالح بن العفيف، وعلي بن ابراهيم بن نجيب الدولة، وأخرجوا ثلاثتهم إلى قرب سقاية ريدان فصلبت أبدانهم بغير رؤوس، وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه، فشك الناس فيهم، فأخرجت رؤوسهم وحملت على أبدانهم.

وقيل بل كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة منها، ولقب «ثقة الدولة القاضي الأمين سناء الملك شرف الأحكام قاضي القضاة عمدة أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي الفرج هبة الله بن ميسر» فواصل الملازمة والدأب، وتوفر على الانتصاب للجلوس، واعتمد التثبت في الأحكام، وعدل جماعة فبلغت عدة الشهود في أيامه مايزيد على مائة وعشرين، ولم تكن عدتهم تبلغ الثلاثين، وردت إليه المظالم فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بها حضرة أمير المؤمنين، وكانت فيهم جماعة قد يئسوا من الفرج، فاستخرج أمر الخليفة بالإفراج عنهم وتكلم مع الخليفة في أمر التجار، فكتبت مناشير في معناهم تليت على المنابر.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها قتل أبو نجاح النصراني المعروف بالراهب، قتله الأمير مقداد، والي مصر، وصلبه عند الجسر، ثم أمر به فأنزل وربط على خشبة ورمي به في النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال بأن ينظروه كلما أوقفه التيار في مكان يحدرونه عنه، فلم يزل كذلك حتى خرج إلى البحر المالح.

وكان ابتداء أمره أنه كان يخدم ولي الدولة أبا البركات يحنا ابن أبي الليث، ثم اتصل بالآمر بعد قتل المأمون، وبذل له في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم وتسلسل الحال حتى عم

البلاء منه لجميع رؤساء مصر وقضاتها وكتابها وسوقتها، بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه من ضرب أو نهب أو أخذ مال، وارتفع عند الخليفة حتى كان يعمل له بتنيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض (المنسوج) بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيل مسك كل يوم، فكان يشتم ريحه من مسافة بعيدة، ويركب الحمير بسروج محلاة بالذهب، والفضة، ويجلس بقاعة الخطابة في الجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة، واتفق أنه طلب يوما رجلا من مصر يعرف بابن العرس من العدول المتميزين، وكان معظما عند الناس، فأهانه وأخرق فيه، فخرج من عنده ووقف بالجامع في يوم جمعة وقال: ياأهل مصر انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه(هذا) النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنه، فدخل خواص الآمر وخوفوه عاقبة ذلك وأعلموه ماحل بالمسلمين، فاستدعاه

وكان بحضرته رجل من الأشراف فأنشد:

إن الذي شرفت من أجله
يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الآمر: ماتقول ياراهب؟ فسكت فأمر به فقتل

ووجد له في مقطع ثلاثمائة طراحة سامان محشوة جددا لم تستعمل قد رصت إلى قرب السقف، هذا من نوع واحد فكيف ماعداه، وأصله من أشمون طناح وترهب أولا على يد أبي اسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولي الديوان بأسفل الأرض.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولد للآمر ولد فسماه أبا القاسم الطيب، وجعله ولي عهده وزينت مصر والقاهرة، وعملت الملاهي في الأسواق وبأبواب

القصور، ولبست العساكر، وزينت القصور، وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشا وصياغات وأواني ذهب وفضة، فزين بها وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوما، وأحضر الكبش الذي يذبح في العقيقة وعليه جل ديباج وقلائد فضة، وذبح بحضرة الآمر، وأحضر المولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله، ونثرت الدنانير على رؤوس الناس، وعملت الأسمطة، وكتب إلى الفيوم والشرقية والقليوبية، بإحضار الفواكه فأحضرت وملىء القصر من الفواكه وغير(ذلك) وامتلأ الجو بدخان العود والعنبر.

وفي يوم الثلاثاء الثاني من ذي القعدة، قتل بجزيرة مصر الخليفة الآمر أبو علي المنصور بن المستعلي بالقرب من المقياس، وثب عليه عدة من النزارية فقتلوه، وحمل إلى المركب وأحدر من الخليج إلى اللؤلؤة، وحمل منها إلى القصر، فتوفي بباقي يومه، وقبض على الجماعة فقتلوا وأحدروا في النيل، ونهب سوق الجزيرة.

وكان عمره يوم قتل أربعا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما، ومولده يوم الثلاثاء الثالث عشر من محرم سنة تسعين وأربعمائة، وبويع يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين، وقتل يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي القعدة وقيل ثاني عشره، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر ونصف، ولم يزل محكوما عليه حتى قتل الأفضل وتولى المأمون، فتزايد أمره عما كان عليه في أيام الأفضل، فلما قتل المأمون ظهر أمره وصار يتصرف ويركب في يوم الجمعة والسبت والثلاثاء، فإذا لم يركب في يوم من هذه الأيام ركب في يوم غيره، فكان الناس من القاهرة ومصر يخرجون بالمعايش للنظر إليه فيكون يوم ركوبه مثل يوم العيد.

ولم يستوزر بعد المأمون وزير سيف، بل استبد بأمره وباشرها بنفسه، وكان قبيح السيرة في الرعية مبالغا في ظلمهم وأخذ أموالهم واغتصاب

أملاكهم، كثير السفك للدماء، يرتكب المحظورات ويستحسن القبائح، وقد تقدم تمكينه الراهب.

وفي أيامه ملك الإفرنج كثيرا من المعاقل والحصون بساحل الشام مما كان بيد آبائه، فملكت عكا في شعبان سنة سبع وتسعين، وعرقة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة، وتسلموا طرابلس بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة وملكوا بانياس وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، ثم قلعة تبنين في سنة إحدى(عشرة) وخمسمائة، ثم تسلموا صور في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

ومن شعره:

أما والذي حجت إلى ركن بيته
جراثيم ركبان مقلدة شهبا

لأقتحمن الحرب حتى يقال لي
ملكت زمام الحرب، فاعتزل الحربا

وينزل روح الله عيسى بن مريم
فيرضى بنا صحبا ونرضي به صحبا

وكان قد تجهز ليسافر إلى الشام للغارة على بلاد خليفة بغداد، فعمل آلات السفر منها مخالي الخيل من الديباج وقال في ذلك:

دع اللوم عني، لست مني بموثق
فلا بد لي من صدمة المتحقق

وأسقي جيادي من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد تمزق

ووزراؤه: الأفضل ثم المأمون.

وقضاته: ابن ذكا النابلسي، ثم نعمة بن بشير الجليس النابلسي، واستقال فولى الرشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصقلي ومات، فتولى الجليس النابلسي ثانيا ثم صرف، وولي أبو الفتح مسلم بن الرسعني وصرف، فتولى أبو الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي ومات، فولى أبو عبد الله محمد بن هبة الله(بن) ميسر القيسراني، وقتل الآمر وهو على القضاء.

وكتابه في الإنشاء: الشريف سناء الملك أبو محمد بن محمد الحسيني الزيدي، والشيخ الأجل أبو الحسن بن أبي أسامة الحلبي، والشيخ تاج الرئاسة بن الصيرفي، وابن أبي الدم اليهودي.

ونقش خاتمه «الإمام الآمر بأحكام الله، أمير المؤمنين».

ولما قتل كتم الحافظ أمر ولده الذي ولد في هذه السنةفبايع الناس الأمير أبا الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، بولاية العهد إلى أن تنكشف أحوال نساء الآمر، هل فيهن حامل أم لا؟.

وثار الجند وأخرجوا ابن مولاهم أبا علي أحمد بن الأفضل الملقب بكتيفات وولوه إمرة الجيوش في يوم الاثنين وقيل الخميس سادس عشر ذي القعدة، فحكم واعتقل أبا الميمون صبيحة بيعته ودعا للإمام المنتظر.

ويها قبض الحافظ على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط الكاتب، وابراهيم السامري الكاتب، ونهب الجند دورهما، وحبسا بسجن المعونة ثم أخرجا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها رتب أبو علي أحمد بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، يحكم كل

قاض بمذهبه، ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية الفقيه سلطان وقاضي المالكية البني، وقاضي الاسماعيلية أبو الفضل بن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل، ولم يسمع بهذا قط في ماسلف.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

في يوم الثلاثاء سادس عشر محرم ركب أمير الجيوش أبو علي أحمد بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي إلى الميدان بالبستان الكبير، ظاهر القاهرة للعب بالكرة على عادته، فاتفق جماعة من الأجناد على قتله، فبدره بعض صبيان الخاص بطعنة ألقاه عن فرسه ونزل فاحتز رأسه ومضى بها إلى القصر، وأخرج الحافظ من الخزانة التي كان بها معتقلا وبويع بالخلافة بيعة عامة.

وكان أبو علي قد أسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق، الذي تنسب إليه الاسماعيلية، وأزال من الآذان «حي على خير العمل» وقطع ذكر الحافظ من الخطبة واختار لنفسه دعاء يدعو به على المنبر وهو «السيد الأجل الأفضل مالك أصحاب الدول، والمحامي على حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم بنصرته، بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش».

وكانت مدة حكمه سنة وشهرا وثلاثة عشر يوما ، وكان إماميا يكثر ذم الآمر والبغض له وكرهه الشيعة، ولما ولي جرى على منهاج أبيه في حب العدل وأعاد على الناس ماأخذ من أموالهم وأملاكهم، فحسده الأمراء وقتلوه، فدفن عند أبيه وجده، وكان يلقب بكتيفات.

وفي ثالث ربيع الآخر قرىء سجل بإمامة عبد المجيد، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزي الخلفاء، ورفع عن الناس بواقي مكس الغلة، وأمر أن يدعى على المنابر«اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا و إمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين».

واستوزر أبا الفتح يانس الرومي، من مماليك الأفضل أمير الجيوش، وكان أهداه باديس، جد عباس الوزير الآتي ذكره، إلى الأفضل، ولما ولي الوزارة لقبه الحافظ بأمير الجيوش، فتتبع الطائفة المعروفة بصبيان الخاص وقتل منهم جماعة منهم قاتل أبي علي كتيفات، وكان عظيم الهيبة بعيد الغور، كثير الشر، فخافه الحافظ وتخيل منه فأحس بذلك، فاستوحش هو أيضا من الحافظ وأخذ كل منهما يدبر على الآخر، فسبق تدبير الحافظ فيه وسمه في إبريق فاستعمل منه الماء وقت الطهارة فتلف منه، وتدارك نفسه بالعلاج حتى قارب النهوض والبرؤ، فشاور الحافظ بعض خواصه من الأطباء فأشار عليه أن يتوجه إلى زيارته وتهنئته بالعافية، فإن أمير المؤمنين إذا دخل عليه لابد أن ينهض للقائه ماشيا وإذا مشى لايكاد يبقى، فمضى إليه الحافظ فلما رآه يانس قام للقائه وخرج عن فراشه، ومضى الحافظ بعد زيارته فانتكس ومات من ليلته في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت وزارته تسعة أشهر وأياما.

وفي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول صرف عن قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، وتولى مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر، وأضيفت الدعوة إليه فصار قاضي القضاة وداعي الدعاة.

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية، فكانت حرب بينهم وبين العسكرية.

وفيها تولى نظر الدواوين الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان المعروف بابن أبي العساف.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

في شعبان كانت حرب بين أبي تراب حيدرة ابن الخليفة الحافظ، وبين أخيه حسن طالت واشتدت، فافترق لذلك العسكر فرقتين: فرقة مع أبي تراب، وفرقة مع حسن، وهما الريحانية والجيوشية، فكانت بينهم حروب بين القصرين قتل فيها من الطائفتين نحو عشرة آلاف نفس، وسبب ذلك أن الحافظ جعل ابنه حيدرة، ولي العهد من بعده، فلم يرض أخوه حسن بذلك، فكانت بينهما الحروب المذكورة، فاستظهر حسن على أخيه وهرب حيدرة والتجأ إلى أبيه، فبعث أبوه خلف ابنه حسن ليسكن أمره، فامتنع من المجيء إليه وطالبه بحيدرة أخيه، وضايق القصر وحاصره حصارا شديدا، هذا والحافظ يتلافى ولده حسن وولاه ولاية العهد من بعده وكتب بذلك سجلا قرىء، فتمكن حسن من الدولة وتصرف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم البتة.

وفي يوم الخميس الثامن من شوال قتل القاضي سراج الدين أبو الثريا نجم، وقتل معه الشريف أبو العينين وجماعة ، وورد حسن بن الحافظ القضاء لابن ميسر، وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وتوفي القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكناني، قاضي الاسكندرية بثغر رشيد، وهو

عـائد مـن مصر في جمادى الآخرة، ومـولـده سنـة اثنتين وستين وأربعمائة وكانت له مدة في القضاء، وهو الذي كان السبب في اعتقال أبي الصلت أمية ورثي بعدة قصائد، وذكره السلفي وأثنى عليه.

وفي جمادى الأولى توفي أبـو عبد الله الحسين(بـن) أبي الفضل عبـد الله ابن الحسين الـزاهد النـاطق بالحكـم بن بشرى، المعـروف بابـن الجوهري، واعـظ ابن واعـظ ابن واعـظ ابن واعـظ، قـرأ عليه السلفـي وكان حلـو الـوعـظ لم يكـن في بيتهـم أحلى كلامـا منـه، وتعـرض في آخـر عمـره لما لايعنيه، فوشي به إلى الخليفة فسيره إلى دميـاط وبها مات، وذلك أن الآمر ظهر له ولد يسمى قفيفة كان عند ابن الجوهري فعلم به الحافظ الخليفة.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها اشتـد أمر حسـن واستقل بتـدبير الدولـة، وكان الأمـراء والأجناد يميلون إليه، فلذلـك سألوا الحافظ أن يوليه أمرهـم، ففوض إليه ذلك كما مر، فحسده أخـوه حيدرة، وقال: أنا ولي العهد، فجمـع كل منهما واقتتلا فقتل بينهما جماعة مـن الأمراء وقتلهم بسبب قيامهـم مع أبي علي كتيفات وأقام غيرهـم، فخافه مـن بقي من الأمراء وعـزموا على خلع الحافـظ من الخلافة، وخلع ولده حسن، وتجمعوا بين القصرين وبعثوا للحافظ بما هم عليه، فسير إليهم واعتـذر وفر ابنه حسن إليه فمسكـه وقيده، وبعث إلى الأمراء يعلمهم، فسيروا إليه لابد من قتلـه فسقاه سما قتل به، وجعله على سريـر وأمر أن تـدخل إليـه الأمراء لتراه وهـو ميت، فـدخلوا عليـه، فلما شـاهدوه ميتـا سكنـوا واطمـأنوا وكـان ذلـك في يـوم الثلاثـاء السـادس والعشرين من جمادى الآخرة.

وقيـل إن الحافظ دس إلى الأمـراء والأجنـاد أن يثبـوا على ابنه حسـن، وقيل ان الحافـظ جعل ابنـه سليمان ولي عهده ليسد بـه مكان وزيـر كي يستريح مـن الوزراء فمات بعـد ولايته بشهـرين، فحـزن عليه وكـان أكبر

أولاده، فترشح أخوه حسن، وهـو يتلوه في العمر، لولاية العهد، فلـم يرضه ذلك، فدعا لنفسـه وكاتب الأمراء وعول على اعتقال أبيـه ليستبد بالأمر، وأطمع الناس فيما يواصلهم به إذا تم أمـره، فامتدت إليه الاعناق وكاتب الأمراء وكاتبـوه، ثم خشوا ألا يتم له أمـر مع وجود أبيه فـأعلموا الحافظ الخبر بمكـاتباتهم، فبعـث بها الحافظ إلى ابنـه حسـن وقال: لاتعتقـد ان معـك أحدا فـأوقع حينئـذ حسن بعـدة مـن الأمراء وقتلهـم وأخذ مـافي دورهم وقصد إضعاف أبيـه، وأخذ أبوه في إضعافه حتى أفسـد عليه أمره وافتقـر إلى أبيه، وكـان قد سير إلى بهرام الأرمنـي يستحثـه أن يصل إليـه بالأرمن، فلما التجأ إلى أبيـه وأعلم من بقي من الأمراء بمكـانه لخوفه منه فاجتمعـوا على طلبه مـن أبيه ليقتلـوه، وصار بين القصريـن من الفـارس والراجـل عشرة آلاف نفس، فـراسلهم الخليفـة وألان لهم في القول وقبـح مرادهـم من قتـل ولده وأنه قـد أزال عنهم أمره فـلا يتحكم فيهـم أبدا، ووعـدهـم بـزيـادة أرزاقهـم فـأبـوا إلا قتلـه أو خلـع الخليفـة، وأحضروا الأحطاب والنيران لحرق القصر وبـالغوا في الجرأة عليـه، فلم يجد بـدا من أن سألهم أن يمهلوه ثـلاثة أيام ليرى مايفعلـه، فأجابوه لـذلك، ولما علم أنه لابد من قتل ولده قصد أن يكـون قتله مستورا بشيء من السمومات، فأطلـع طبيبه ابـن قرفـة، على ذلك، فقـال: الساعـة ولاينقطع شيء مـن جسده بل تفيض نفسـه لاغير، فأحضر ابن قرفة شربة واستـدعى الحافظ ابنه حسـن ومازال بـه حتى شربها كرهـا من طائفـة من الصقـالبة جبروه على شربها فمات، وأعلـم القوم سرا بما كـان ليمضوا إلى دورهـم فأبـوا إلا أن يشـاهده منهـم مـن يثقون بـه، فـانتدبـوا أميرا اسمـه محمد، وينعـت بالأمير المقدم المعظم جلال الدين بـن عبد الله بن محمد، ويعرف بجلب راغب، كثير الشر والشغب والجرأة، دخل على حسـن وهو مسجى وعليه ملاءة فكشـف عن وجهه وأخـرج من وسطه سكينـا وغرسها في مـواضع خطيرة من جسده، فلم يتحرك فعلم حينئذ أنـه قد مات، فرجع إلى القوم وأخبرهم الخبر فتفرقوا، ثم إن الحافظ بعد ذلك قتل طبيبه ابن قرفة.

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة خلت منه قدم بهرام الأرمني من الغربية إلى الديار المصرية، فاستوزره الحافظ ونعته «بسيف الاسلام تاج الملوك» وكان نصرانيا، وذلك أنه لما وصل واجتمع بالحافظ رأى منه عقلا وافرا وإقداما في الحرب والسياسة وحسن تدبير.

وسبب وصوله أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه ممن ولي بعده فتعصب عليه جماعة من الأرمن ورفضوه وولوا عليهم غيره، فخرج من تل باشر مغضبا وقدم إلى القاهرة فندب للوزارة بها، وأخذ الحافظ يستشير من يثق به في ذلك فلم يشر به أحد عليه، وقيل: أولا هو نصراني فلا يرضاه المسلمون، والثاني من شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزرة الحاجبة بينه وبين الناس، والثالث أن القضاة نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة، فلم يصغ لذلك وقال: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف، وأما صعود المنبر فيستنيب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك، ويفعل ماكان يفعل قبل أمير الجيوش، واستوزره والناس ينكرون عليه ذلك، وقيل أنه ترقى في الخدم حتى ولي ولاية المحلة وأنه سار منها مجدا حتى وصل القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها، فقرر في الوزارة، وهو الصحيح.

وفي المحرم توفي الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الحزامي الاسكندراني المعروف بالحداد الشاعر بمصر.

-١١٥٢٤-

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها كان خروج بهرام من الوزارة واستقرار رضوان بن الولخشي، وذلك أن بهرام لما ثبت قدميه في الوزارة سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك، فأحضرهم من تل باشر ومن بلاد الأرمن، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان فاستطالوا على المسلمين، وأصاب المسلمين من النصارى جور عظيم.

وبنيت في أيامه كنائس وأديرة حتى صار كل رئيس من أهله يبني له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الاسلام، وكثرت الشكايات فيه وفي أهله، وكان أخوه المعروف بالباساك قد تولى قوص وجار على أهلها جورا عظيما واستباح أموال الناس وظلمهم، فعظم على أمراء المصريين ذلك وشق عليهم، فبعثوا إلى رضوان بن الولخشي—وكان والي الغربية— كتبهم يستحثونه على المسير إليهم وإنقاذهم مما هم فيه.

وكان رضوان أحد الأمراء بالقاهرة ويوصف بشجاعة وإقدام، فلما ولي بهرام الوزارة خافه وخشي وثوبه عليه، فأبعده عنه وأخرجه من مصر، وكان إذ ذاك يلي حجبة باب ابن الخليفة الحافظ، وخلع عليه بولاية عسقلان، في سلخ رجب سنة تسع وعشرين وخمسمائة، فوصل إلى عسقلان وأقام بها فوجد جماعة من الأرمن يتواصلون في البحر يريدون مصر، فناكدهم ورد بعضهم، فعظم ذلك على بهرام فصرفه عن ولاية عسقلان، واستدعاه إلى مصر، فشكره الناس على فعله في رد الأرمن فأخذ بهرام في إبعاده وولاه الغربية في صفر سنة إحدى وثلاثين، فلما وصلت إليه كتب الأمراء شمر لطلب الوزارة، وكان أول ما بدأ به أن رقي المنبر خطيبا بنفسه وخطب خطبة بليغة حرض الناس فيها على الجهاد، وكان ذلك بناحية سخا، وأخذ في حشد العربان وغيرهم فصار في نحو ثلاثين ألف فارس وسار إلى مصر لمحاربة بهرام، فلما قرب من القاهرة خرج

إليه بهرام بعساكر مصر، فلما تقاربا رفع رضوان المصاحف على الرماح فما هو أن رأى عسكر المسلمين المصاحف تركوا بهرام والتجأوا بأجمعهم إلى رضوان، وكان ذلك باتفاق منهم مع رضوان قبل قدومه، فلما رأى ذلك بهرام بعث إلى الحافظ يعرفه، فخاف من عاقبة ذلك، وسير إليه بالسير إلى الأعمال القوصية ليقيم بها عند أخيه حتى يرى رأيه، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ معه ماخف حمله وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وسار إلى قوص وبعث بالمراكب في البحر فوصل قوص وماهو إلا أن انفصل عن القاهرة نهب العامة سائر ديار الأرمن، وكانوا قد نزلوا بالحسينية ظاهر باب الفتوح وعمروها منازل للسكنى، ونهبوا كنيسة الزهري، ونبشوا قبر أخيه البطرك.

وانتشر الخبر بانهزام بهرام فطار إلى قوص قبل وصوله إليها، فثار المسلمون أيضا بقوص على الباساك أخي بهرام، وقتلوه ومثلوا به وجعلوا في رجله كلبا ميتا وألقوه على مزبلة، فلما كان بعد ذلك بيومين قدم بهرام في طائفة من أقاربه وجنده فرأى أخاه بتلك الحال فقتل من أهل قوص جماعة بالسيف ونهبها وسار عنها إلى أسوان فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة ففارقه جماعة من أهله وعادوا إلى بلادهم واستقر هو هناك، وإلى الباساك تنسب القرية التي بالقرب من إطفيح.

وأما رضوان فإنه لما خرج بهرام من القاهرة دخل إليها فوقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله إلى دار الوزارة فنزلها وأخلع عليه خلع الوزارة ونعته «بالأفضل» وذلك لاحدى عشرة خلت من جمادى الأولى.

فكان أول مابدأ به أن بعث أخاه ناصر الدين بعسكر إلى بهرام فسار إلى الأديرة وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها، وعاد الجند الذي كانوا معه إلى مصر وارتحلوا عنها إلى بلادهم.

وفي يوم الأحد لسبع خلون من المحرم في وزارة بهرام صرف عن قضاء القضاة بديار مصر، أبو عبد الله محمد بن ميسر، وأبعد إلى تنيس وقتل بها يوم الاثنين ثاني ربيع الأولى، وقدم من قيسارية إلى مصر مع أبيه وهو صغير في أيام أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر أيام الشدة، وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال وذي اليسار، وكان ممن أحضر والد القاضي، وكان له مال جزيل ففوض إليه أمر الخطابة بمصر، وفتح بمصر دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات فترقى ولده حتى ولي القضاء وتردد فيه عدة مرار وكان له كرم مشهور ورتبه جليلة وضرب باسمه دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الآمر.

وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى لأن أبا بكر محمد بن علي الماذرائي وزير الدولة الإخشيدية، عمل كعكا وسماه «افطن له» وعمل عوضا من حشو السكر دنانير، فلما حضر الناس في يوم العيد وأكلوا من طعامه، أراد بعض خدامه أن يؤثر إنسانا فقال له: افطن له، وأشار إلى الكعك، فتناول منه وصار يأخذ مافي حشوه من الذهب، فعمل القاضي ابن ميسر أيضا نظير ذلك صحفا فيه هيئة فستق ملبس حلوى على قلب فستق من ذهب وأطعمه أهل مجلسه، وسبب قتله أنه كان أسقط شخصا يعرف بابن الزعفراني فعاداه لذلك، وطلع إلى الخليفة الحافظ وذكره بأن كتيفات لما ولي الوزارة واعتقل الحافظ وجلس للهناء، ودخل الشعراء فهنوه بالوزارة، كان في جملة من أنشد علي بن عباد الاسكندري الشاعر قصيدة يذم فيها خلفاء المصريين وسوء اعتقادهم ذما قبيحا ، أولها:

تبسم الدهر بعد تعبيس

إلى أن قال منها في ذم الحافظ:

هذا سليمان كم قد رد خاتمه

واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فلما وصل (ابن) عباد إلى هذا البيت قام القاضي ابن ميسر وألقى عرضيته طربا لهذا البيت، فكان ذلك سببا لصرف ابن ميسر عن القضاء وقتله، وأمر بإحضار الشاعر، فلما قام بين يدي الحافظ قال له أنشدني قصيدتك، فأخذ في إنشادها حتى قال منها في بيت:

ولا ترضوا عن الخمس المناحيس

يعني الحافظ وأباه وابنية وجده— فأمر ان يلكمه الغلمان، فلكم حتى مات بين يديه، وكان ينعت «بجلال الدولة»، وكانت علامة ابن ميسر«الحمد لله على نعمه».

وفيها مات أبو البركات بن بشرى الجوهري الواعظ في جمادى الأولى عن إحدى وتسعين سنة، واستخدم في الحكم أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي عقيل، ونعت «بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم».

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بني سليم أدعى النبوة، فاجتمع عليه أناس كثير، وزعم أنه ينزل عليه قرآن منه« أيها الناس إنما الناس بالناس، ولولا الناس لم تكن الناس والجميع برب الناس»، ثم انفض عنه جمعه وانحل أمره.

وفي ذي القعدة جلس الوزير رضوان لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى، واستجد ديوان الجهاد، وأحضر جميع الدواوين وكشفها ورتبها، ودبر الأمور أحسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن الشاعر، فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه في ضمانه، فكتب له في مجلسه هذه الأبيات:

أنا شاعر وصناعتي الأدب

وضمان مثلي المال لايجب

-١١٥٢٨-

أنـــا مستميحكـــم وليـــس على مـــن
جـــاء يطلـــب رفـــدكـــم طلـــب
وإذا تـــأخـــر البـــاقـــي علي فما
مـــن حـــاصـــل ورق ولا ذهـــب

فسامحه مما عليه من الباقي.

وفي رمضان أحضر من الصعيد الأعلى جماعة يقدمهم رجل بجاوي يدعى فيه أصحابه أنه إله، فصلبوا أصحابه وقطعت رأسه.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها أطلق الوزير رضوان شمس الخلافة مختار الأفضل، صاحب باب بهرام، من اعتقاله وولاه الاسكندرية.

وفيها شدد رضوان على النصارى أصحاب بهرام وصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم.

وفيها أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين وموضع اليدين مثل الحلمتين، فأحضرها الوزير إلى مجلسه وأخبرته أنها تعمل برجليها ماتعمله بيديها من رقم وخط وغير ذلك، فأمر لها بدواة، فتناولت الأقلام برجلها اليسرى(وتأملتها) قلما قلما، فلم ترض شيئا منها فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشقته وقطعته واستدعت ورقة فأمسكتها بالرجل اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء، وحمدت الله في آخر الرقعة وناولتها الوزير، فإذا قد سألته فيها أن يزاد في راتبها، فزاد لها خلف رقعتها وأعادها لبلدها.

-١١٥٢٩-

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

في رمضان سير الحافظ من أحضر إليه بهرام الأرمني وأسكنه بالقصور عنده وأكرمه، فعظم ذلك على رضوان، وأخذ الحافظ يشغب عليه الجند حتى ثاروا به، فكانت بينهم وبين رضوان حرب بالقاهرة، فطلب السكن مع الحافظ في القصر، فلم يجبه، فازدادت الوحشة بينهما حتى ضعفت قدرة رضوان على لقاء العسكر ففر من مصر في خامس عشر شوال وقيل في ثالث عشره، وقصد كمشتكين، والي صرخد، وأقام عنده مكرما مبجلا.

وفي شعبان توفي الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن ابن أبي عقيل، فأقام منصب القضاء شاغرا ثلاثة أشهر.

ثم اختير في ذي القعدة أبو العباس أحمد بن الحطيئة، فاشترط أن لايحكم إلا بمذهب الدولة، فلم يتمكن من ذلك، فتقدم رضوان إلى الفقيه أبي (عبد الله) محمد بن عبد المولى أن يعقد الأنكحة.

ثم ولى الحافظ قضاء القضاة للقاضي فخر الأمناء هبة الله بن حسين الأنصاري في الحادي عشر من ذي القعدة.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

في سلخ المحرم عاد الأفضل رضوان بن الولخشي من صرخد، في جمع كثير، فبرزت له العساكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى إلى سطح الجرف ونزل بباب الرصد في يوم الثلاثاء مستهل صفر، ثم مضى إلى الصعيد، فسير الحافظ عسكرا يقدمه الأمير(سيف الدولة) أبو الفضائل ابن مصال ودفع إليه أمانا فسار إليه ولم يزل به حتى أحضره إلى القصر

في يوم الاثنين رابع ربيع الآخر، فعفا الحافظ عن الأتراك الذين حضروا معه، واعتقله هو بالقصر.

وفي سابع عشر جمادى الآخرة أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري الأوسي، المعروف بابن الأزرق، تدريس دار العلم، فمضى إليها، وكان مدرسها الفقيه أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرى بينهما مفاوضات أدت إلى المصافعة والخصام، فخرج القاضي إلى القصر ماشيا وقد تخرقت ثيابه وسقطت عمامته، فأعلم الحافظ بالخبر، فعظم عليه خروج القاضي في الأسواق على تلك الهيئة فصرفه عن الحكم ورسم عليه وغرمه مائتي دينار وألزمه داره، وولى عوضا عنه أبا الطاهر اسماعيل ابن سلامة الأنصاري، ونعته«بالموفق في الدين» في هذا اليوم بغير تقليد، فأقام إلى غرة المحرم سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فوفر جاري الحكم، وهو أربعون دينارا في كل شهر وخدم بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون دينارا في الخدمتين، فأجيب إلى ذلك واستمر.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر مات بهرام الأرمني بالقصر، وكان الحافظ قد أنزله عنده في دار بالقصر، ولم يمكنه من التصرف وكان يشاوره في تدبير الدولة فلما مات حزن عليه حزنا كثيرا بحيث ظهر على القصر كمده، وأمر بغلق الدواوين وأن لاتفتح ثلاثة أيام، وأحضر بطرك الملكية بمصر وأمره بتجهيزه، فأخرج عند صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته، وخرج الحافظ راكبا بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أحضر بغير طيلسان، فما زال الناس سائرين والأقساء يعلنون بقراءة

-١١٥٣١-

الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، فنزل الحافظ عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديدا.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان (بن) إبراهيم بن المسلم المعروف بابن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

في ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت ركن المنارة من الجامع العتيق بمصر.

وفي شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح تسعين درهما الأردب، والدقيق مائة وخمسين الحملة، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، والويبة الشعير سبعة دراهم، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم، والجبن كل رطل بدرهمين، والبيض كل مائة بعشرة دراهم، والزيت الحار الرطل بدرهم ونصف، والقلقاس كل رطل بدرهم، والدجاج والفراريج لايقدر على شيء منها، وكثر الوباء والموت.

وفيها مات أحمد بن مفرج بن أحمد (بن) أبي الخليل الصقلي الشاعر، المعروف بتلميذ ابن سابق كان فاضلا ذكيا يتصرف في فنون شتى، وله رسائل في غاية الحسن وشعر فائق، فمنه، وقد كان الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المديح وتناهوا في القصائد حتى صار الإنشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة باستماع أشعارهم لطول مثولهم بالخدمة، فأمروا لذلك بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد ابن مفرج، يخاطب الخليفة الحافظ:

أمـــــرتنـــــا أن نصــــــوغ المدح مختصرا
لم لا أمــــرت نــــدى كفيــــك يختصر
والله لا بــــــد أن تجري ســــــوابقنـــــا
حتـــى يبين لها في مـــدحــك الأثـــر

فأمروا بما كانوا عليه أولا.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها عظم الوباء بديار مصر فهلك فيه عالم لايحصى.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولا لرجار، ملك صقلية، بسبب محاربته أهل صقلية، وكان رجار يحب مديح الشعراء ويجزيهم، فذهب إليه جملة من الشعراء ومدحوه منهم ابن قلاقس وأمر أن يصنف له تأريخ فصنف له تأريخ كبير.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بالبحيرة في طائفة كبيرة من العربان، فسار إليهم طلائع بن رزيك، والي البحيرة، وحاربهم فكسرهم، وقتل أميرهم محمد بن رافع.

وفيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسن أحمد بن الزبير رسولا إلى اليمن بسجل يقرأه عليهم، فسار في ربيع الأول.

وفيها خرج أبو الحسين بن المستنصر إلى الأمير أبي المظفر خمارتاش، صاحب الباب الحافظي، وقال له: اجعلني خليفة وأنا أوليك الوزارة، فأعلم الحافظ بذلك فقبض عليه واعتقله.

وفي جمادى الآخرة قدم من دمشق إلى مصر الأمير مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ وإخوته وأولادهم، ونظام الدين أبو الكرام محسن، وزير صاحب دمشق، مغاضبين لصاحب دمشق.

سنة أربعين وخمسمائة

فيها أعيد نظر الدواوين والأتراك والخزائن للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار طالبا للوزارة بأرض الصعيد، فندب إليه عسكرا عليه سليمان بن يونس اللواتي، فمضى إليه وحاربه، فانهزم فاتبعه حتى أخذه أسيرا وقتله وصلبه.

ولسبع بقين من جمادى الآخرة قدم إلى مصر صافي الخادم، أحد خدام المتقي من بغداد فارا فأكرمه الحافظ.

وفيها منع الحافظ من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جواري المستخدمين وأن يكون ما يسيب، منها على البواقي والفاضل في هذه السنة.

-١١٥٣٤-

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

في ربيع الآخر أعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى أبي عبد الله محمد ابن الحسين الطرابلسي المعروف بالمحنك، وصرف أبو الكرم التنيسي.

وفيها بعث الحافظ لظهير الدين، صاحب دمشق هدايا وخلعا وتحفا.

وفي ليلة الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة خرج رضوان الوزير من نقب نقبه بالقصر، في الموضع الذي كان معتقلا فيه، وركب وحوله جماعة ممن كان يكاتبه، وسار إلى الجيزة فنزل بها، واستنجد بجماعة كثيرة من طوائف العربان، وسار إلى القاهرة، فخرج إليه عسكر الحافظ فحاربهم عند جامع ابن طولون، فانهزموا منه، ودخل إثرهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأقمر، فغلق الحافظ أبواب القصر في وجهه، فأحضر رضوان أرباب الدواوين وأرباب الدولة وأمر ديوان الجيش بعرض الجند، وأخذ أموالا كانت خارجة عن القصر في الدواوين وفي وظائف العسكر، وقيل أنه سير يطلب من الحافظ المال، فسير إليه عشرين ألف دينار، وبعث الحافظ خلف مقدمي السودان وأمرهم بالهجم على رضوان وقتله، فخرجوا إليه وهاجموه فلما رآهم هم بالركوب فبدره بعض السودان بسيفه، فقتله به وقتل معه أخاه، وأخذ السودان رأسهما ودخلا بهما إلى الحافظ فسكنت الفتنة.

وبعث الحافظ رأس رضوان إلى زوجته، فلما وضعت في حجرها قالت: هكذا تكون الرجال.

وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد، شجاعا شديد البأس، ثابت الجنان، ولد ليلة غدير خم من سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأول ولاية وليها قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

وفي يوم الأحد لعشر بقين من صفر توفي الشيخ الفاضل أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المنعوت بتاج الرئاسة، صاحب الرسائل، أخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج، صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسيني الزيدي، ثم تفرد بالديوان فصار فيه بمفرده، وكان أبوه صيرفيا وجده كاتبا، ومولده بمصر يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وله تصانيف عدة في الأدب والتاريخ والترسل، وله شعر.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

في ثالث صفر توجه العسكر لقتال لواته، وكان قد قام فيهم رجل قدم من الغرب ادعى أنه ابن نزار، فكانت بينهم وقعة على الحمامات انهزم فيها عسكر الحافظ، فسير إليهم عسكرا ثانيا ودس إلى مقدمي لواتة مالا جزيلا ليقتلوا ابن نزار، فقبلوا المال وقتلوا المذكور وبعثوا برأسه إلى الحافظ، وذلك في صفر، وعادت العساكر في ثاني ربيع الأول.

ولسبع خلون من المحرم صرف عن قضاء القضاة أبو الطاهر اسماعيل ابن سلامة الأنصاري واستقر على الدعوة فقط، واستخدم في القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن القرشي القدسي.

وفي رجب قطعت أيدي بني الأنصاري وصلبوا على بابي زويلة الكبير والصغير.

وفيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعا وأربعة أصابع، وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع (الأعظم) خارج القاهرة، فكان الناس يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر، فلما بلغ الحافظ أن الماء

وصـل إلى البـاب الجديد أظهـر الحزن والإنقطـاع، فـدخل عليـه بعـض خواصه وسأله عن هذا السبب، فأخـرج له كتابا وقال: انظر هذا السطر، فقـرأه الرجـل فإذا فيـه «إذا وصل الماء البـاب الجديد انتقـل الإمام عبـد المجيـد» ثم قـال هذا الكتـاب الذي نعلـم فيه أحـوالنا وأحـوال الدولـة ومايأتي بعدها فاتفق بعد ذلك مرض الحافظ إلى آخر السنة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشيـة والطائفة السودانية الريحانية، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيهـا عدة من الطائفتين، وامتنع النـاس مـن المضي للقاهـرة والطلوع إلى مصر، وكـان التقاؤهـم أولا يوم الخميـس ثـامـن عشر جمادى الأولى، ثـم في يـوم السبـت رابـع جمادى الآخـرة، فانهزمت الريحانية إلى الجيزة.

واشتغل النـاس بوفاة الخليفـة، وكان القصـد القيام عليه وإزالتـه من الخلافة فمات في ليلـة الخميس لخمس خلـون من جمادى الآخرة، ومـولده في المحـرم سنة سبـع وستين وأربعمائة، وقيل ثمان وستين، ومـدة خلافتـه من يوم بيعته عند قتل كتيفـات ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما،.

ولاقـى في أول أيامـه شدائد وحكـم عليه، فما زال يسـوس أمره حتـى مسك رضوان الوزيـر واعتقله ولم يستوزر بعده أحدا، بل كـانوا كتابا على سنة الـوزراء أرباب العمائم كأبي عبـد الله محمد بن الأنصـاري، والقاضي الموفق التنيسي، وصنيعة الخلافة أبي الكرم الأخرم النصراني.

وكان حـازم الرأي جامعـا للأمـوال لايحب أن يكون له وزيـر لما جرى عليه مـن وزرائه، ولم يل الخلافة أحـد من أهـل بيته من أبـوه غير خليفة

غيره ثم العاضد، وكان عنده سبعة من المنجمين منهم المحقوق وابن الملاح وابن القلعي وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطبلة التي كسرت في أيام السلطان صلاح الدين، وكانت إذا ضرب عليها من به قولنج تنفس عنه الريح.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل، ويوسف، وأبا المنصور اسماعيل، وتولى الخلافة بعده ولقب بالظافر.

فاستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال ولقبه «بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش» وهو يومئذ من أكابر أمراء الدولة.

وفي رابع شعبان اجتمع بالبهنساوية جمع كبير من السودان والمفسدين، فخرج إليهم الوزير ابن مصال وحاربهم فكسرهم.

ففي أثناء ذلك ثار عليه الأمير المظفر أبو الحسن علي بن السلار والي الاسكندرية وعاجله إلى مصر فدخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان المذكور، ووقف على باب القصر وسير إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء فأعلم بحاله، وكانت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة آلت إلى أن فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة ولقب (بالعادل) فبلغ ذلك ابن مصال فجمع من العربان جمعا صالحا، وقصد ابن السلار ومعه بدر بن رافع، مقدم العربان في تلك البلاد، فندب ابن السلار ربيبه عباس بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس في عسكر فنزل بركة الحبش، وسير ابن مصال طائفة من عسكره مع الأمير الماجد فجد في السير وكبس عسكره عباس فأكثر من القتل والجراح فيهم، فانهزم عباس إلى القاهرة وعاد الأمير الماجد إلى ابن مصال فأجمع رأيه على السير إلى بلاد الصعيد لجمع العربان والأجناد، فتوجه لذلك وأخذ ابن السلار في تجهيز عباس فجهزه في عسكر كثيف خوفا من اجتماع الناس

على ابـن مصال، فلحقـه عبـاس على دلاص وكان ممـن معـه طلائع بـن رزيك، وكـان مقدما في هـذه النوبة، فكانـت بينه وبين ابن مصـال وقعة انجلت عـن قتل ابـن مصال وبـدر بن رافـع في يوم الأحـد تاسـع عشر شوال وعاد عباس بمن معه إلى ابـن السلار برأس ابن مصال فطيف بها في القاهرة ومصر، وخلع على ابن السلار في ذلك اليوم.

وكان ابـن مصال من بـرقة وتعاطى أولا البيـزرة والصيد هو وأبـوه من قبله، تقدم في الدولـة حتى نال الـوزارة فاتفـق أن رأته في وزارتـه امرأة كـانت تعـرفه في حـال فقره، فقـالـت له: سليـم وزرت فقال لها: نعـم، فقالت له: والله ماوزرت وبقي أحد، فضحك وأمر لها بصلة.

وفي السادس والعشرين من رمضان أغلـق العادل بن السلار (أبواب) القاهـرة والقصور، وأمسـك صبيان الخاص وقتلهـم عن آخـرهم، وكـانوا جمعا كبيرا.

وصبيان الخاص هم أولاد الأجنـاد والأمراء وعبيد الدولة، فكـان الرجل منهـم إذا مات ولـه أولاد حملـوا إلى حضرة الخلافة ويـودعـوا في أماكـن مخصـوصة، ويـؤخـذ في تعليمهم الفـروسيـة ويقال لهؤلاء الأولاد صبيـان الخاص، وسبب قتل (ابـن) السلار لهم أنه بلغه عنهـم أنهم تعاقدوا على أن يهجموا في داره بـالليل ويقتلوه، فقبض عليهـم وقتل أكثرهـم وبعث بمن بقي منهم فركزهم في الثغور.

وفي يوم الجمعة رابع شـوال قتل العادل بن السلار أبا الكـرم محمد بن معصوم التنيسي، ناظر الـدواوين، وذلك أنه كان قبل الـوزارة من صبيان الحجـر، وكـان يعاود الـدخـول على الموفـق في الـرسائل ويكلمـه بكـلام غليـظ، فكرهـه الموفق لـذلـك، فاتفـق أنـه كتب لابـن السلار منشـورا بإقطاع فدخل به إلى الموفق فتغافـل عنه وأهمل أمره، فقال له ابن السلار:

ماتسمع، فقال له الموفق: كلامك مايدخل في أذني أصلا، فأخذ ابن السلار منشوره وخرج، وضرب الدهر ضرباته وصار ابن السلار ملكا فدخل عليه الموفق بن التنيسي وسلم فقال له: ماأظن كلامي يدخل في أذنك، فتلجلج الموفق وقال له: عفو السلطان، فقال: قد استعملت العفو من خروجي من عندك، وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارا من حديد عظيم الخلقة، فقال له: والله هذا أعددته لك من ذلك الوقت، وأمر به فجر وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، فأمر به فحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة وعلق عليها ميتا ثم أنزل بعد ذلك.

وفي سابع عشر شوال رمي برأس سعيد السعداء من القصر، وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق، وإليه نسب دويرة سعيد السعداء، وهي الآن خانقاه.

وفي رابع عشر صفر قتل تاج الرئاسة بن المأمون.

وفيها مات أبو الحسن علي بن الحسن البيساني، والد القاضي الفاضل بمصر، وكان قاضي عسقلان، والناظر فيها، ومولده ثامن عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة، وولد أبوه الحسن يوم غدير خم سنة ستين وأربعمائة، ومات مستهل ربيع آخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

في رجب غار جمع كبير من الفرنج على الفرما وأحرقوها وأخربوها ونهبوا أهلها.

ـ ١١٥٤٠ ـ

سنة ست وأربعين وخمسمائة

فيها جهز العادل بـن السلار المراكب الحربية بالرجـال والعدة فسارت في ربيـع الأول إلى يافـا، فـأسرت عدة مـن مـراكب الإفـرنـج، وأحرقـت ماعجـزوا عن أخـذه، وقتلوا خلقـا كثيرا من أهـل يافـا، ثم قـصـدوا ثغر عكـا وفتكوا فيـه، وساروا منـه إلى صيدا وبيروت وطـرابلس فـأبلوا بـلاء حسنا وظفروا بجماعة من حجاج الأفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وبلـغ ذلك نـور الديـن محمود بـن زنكـي، ملك الشـام، فهم بقصـد الفرنج في البر ليكون وهو في البر والأسطـول المصري في البحر، فعاقه عن ذلك الشغل بـإصلاح دمشق، ولو اتفق مسيره مع الأسطـول كان يحصل الغرض من الفرنج.

وكان جملة ماأنفقه العادل بـن السلار على هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار، وكان سبب تجهيزه مافعله، الفرنج في مدينة الفرما.

وفيهـا قطعـت جميع الكسـوات عـن النـاس مـن الأمراء والـدواويـن وغيرهم.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيهـا صرف العـادل بن السـلار عـن القضـاء أبـا الفضائل يـونـس، واستخدم عبد المحسن بـن محمد بن مكرم، ثم ولى بعده أبـا النجم بدر ابن ثمال بـن نصير، وقيل بل الذي ولي أبـو المعالي مجلي بن جميع بـن نجا الأرسوفي الشافعي.

-١١٥٤١-

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

في سادس المحرم قتل أبو الحسن علي بن السلار، سلطان مصر، قتله ربيبه عباس، وذلك أن العادة كانت جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر مصر لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد نزلوا عليها وحاصروها في السنة الماضية، فلما قدم البدل في هذه السنة، وكانت النوبة لعباس، خرج ومعه من الأمراء، ملهم، والضرغام، وأسامة بن منقذ وغيره، وكان لأسامة بعباس خصوصية.

فلما بُرزوا من بلبيس تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها وماهم خارجون إليه من شدة السفر ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك وأخذ يلوم العادل ويعتب عليه وكونه جرده، فقال له أسامه: لو أردت كنت سلطان مصر، فقال: كيف الحيلة؟ فقال: هذا ولدك بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فخاطبه على لسان ولدك أن تكون أنت السلطان موضع عمك فإنه يختارك ويكره عمك، فإن أجابك فاقتل عمك.

فأحضر عباس ابنه نصر وأسر إليه ماتقرر مع أسامة وسيره إلى مصر، فاتفق أنه وجد عند دخوله غفلة من العادل أمكنه فيها الاجتماع بالظافر، فأعلمه الحال فوافقه على ذلك، ومضى نصر إلى دار جدته، زوجة العادل،وأعلم العادل أن أباه سيره من بلبيس شفقة عليه من السفر.

فلما أصبح العادل مضى إلى مصر بكرة النهار وجهز المراكب الحربية وأنفق في رجالها وعرضها لتلحق عباسا وأقام نهاره ثم عاد آخر النهار إلى القاهرة وقد لحقته شدة من التعب، فنام على فراشه، فقام إليه نصر بن عباس على حين غفلة واحتز رأسه ومضى بها إلى الظافر بالقصر.

فسرح الطائر من فوره إلى بلبيس، فقام عباس لوقته ودخل إلى القاهرة

صبيحة نهار الأحد ثاني عشر المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد نفروا واستوحشوا مما وقع، فأخذ في تسكينهم فلم يطمئنوا إليه وخرجوا على وجههم إلى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصفا، ولما حملت رأسه إلى القصر أشرف الظافر من باب الذهب، ورفعت الرأس ليراها الناس، ثم أمر فحملت إلى بيت المال فوضعت في خزانة الرؤوس، فأودعت بها.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

في ليلة الخميس سلخ محرم خرج الظافر متنكرا ومعه خادمان إلى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بدار المأمون بن البطائحي، وهي الآن المدرسة السيوفية فاتفق أن نصرا قتل الظافر وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل معه أحد الخادمين وهرب الآخر.

وسبب ذلك أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن

لعباس أن يقتل عمه العادل، وهموا بقتله، فبلغه ذلك فأخذ يقول لعباس: كيف تصبر على ماتقول الناس في ولدك، واتهامهم له بأن الخليفة يفعل به مايفعل مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، واتفق أن الظافر أنعم على نصر بقليوب، فحضر نصر إلى أبيه وأعلمه بذلك، فقال أسامة بن منقذ ماهي بمهرك غالية، فقال عباس لابن منقذ: كيف تكون الحيلة في هذا الأمر؟ فقال له: الخليفة في كل وقت يأتي ولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه مرة يقتله، فأحضر عباس ابنه وأمره بذلك، فلما أتاه الخليفة في ليلة الخميس قتله كما ذكرنا.

وركب يوم الخيمس عباس الوزير في أوله إلى القصر على العادة، وقال

لبعض الخدم: أعلم مولانا لنجلس للاجتماع معه، فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقيل إنه خرج البارحة ولم يعد، وحضر في أثناء القضية الخادم الذي كان معه وأعلمهم الحال، وشدد عباس في طلب الخليفة، وقام بنفسه ودخل القاعات ومعه كبار الخدم، وقال لهم: لابد من مولانا الخليفة، فقيل له حينئذ أنت أعلم بحاله فأمر بإحضار أخويه: أبي الأمانة جبريل، ويوسف، وقال لهما: أنتما قتلتما الخليفة، فأنكرا ذلك وحلفا عليه، وهو يتمادى عليهم، فأحضر القاضي وداعي الدعاة أبا الطاهر بن اسماعيل بن عبد الغفار، والفقيه مجلي وعرفهم أنه صح عنده أن أخوة الظافر قتلوه، فأفتى الجماعة بقتلهم، فأمر حينئذ بهما فقتلا بين يديه، وقد أحضر عيسى بن الظافر، وهو طفل صغير، فبايعه بالخلافة وأخرجه للناس ونعته «بالفائز» فحصل له رجفة مما رأى من قتل عميه، فكان يصرع كل قليل.

وكان الظافر من أحسن خلق الله وجها، ولد يوم الأحد نصف ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وقتل ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين ، فكانت مدة ملكه أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، وعمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما.

وظن عباس أن الأمر استقام له، فكان الأمر بخلاف ذلك، وكثرت نياحة أهل القصر على الظافر وأخذوا في إعمال الحيلة على عباس، وكانت الأمراء والسودان قد نفروا عنه لإقدامه على القتل، فاختلفت الكلمة عليه وهاجت الفتنة بالقاهرة وتفرق العسكر فرقا ولبسوا السلاح، فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين عاشر ربيع الأول وحاربهم فكسرهم وقتل منهم جماعة، وبعثت عمة الفائز إلى طلائع بن رزيك، وهو على الأعمال الأسيوطية، بالكتب في طيها شعور النساء تستصرخ به على

عباس، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وحشد وسار من منية الخصيب يوم السبت لثمان خلون من ربيع الأول.

وبلغ عباس فجهز إليه عسكرا فسار من القاهرة عاشر ربيع الأول فوصل إطفيح بكرة الثلاثاء خامس عشره، وسارت عربان إطفيح إلى ابن رزيك فوافوه بأبويط، وسار فنزل دهشور من الجيزة، فوصلته الأخبار بخروج عباس من القاهرة فسار ونزل قبالة المقس عشية نهاره.

وخرج الناس للقائه فبات في عشاري، وأصبح فأقام به إلى يوم الأربعاء تاسع عشره، فركب ليريد القصر، فخرج إليه الأمراء، فمنهم من قابله ومنهم من التحق به، وبعد ساعة انجلى الأمر عن فرار عباس وأسامة بن منقذ بما خف من المال والتحف إلى جهة أيلة ليصير إلى الشام، ونهب الناس دورهم.

ودخل طلائع القاهرة وشقها بعساكره وهو لابس ثيابا سوداء، وأعلامه وبنوده سود، وشعور نساء القصر على الرماح حزنا على الظافر، فكان ذلك من عجيب التفاؤل فإن الدولة انتقلت عما قليل إلى بني العباس، ودخلت أعلامهم السود إلى القاهرة.

ونزل طلائع دار المأمون التي كان يسكنها عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل فأعلمهم مكانه فأخرجه وغسله وكفنه وعمله في تابوت مغشى، وحمله الأستاذون والأمراء، ومشى طلائع والناس حتى وصلوا به إلى القصر فصلى عليه ابنه الفائز، ودفن في تربةالقصر.

وجلس الفائز بقية النهار، وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده وإخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة ونعت

«بالملك الصالح» وعلى طرة السجل بخط الفائز مانصه: «لوزيرنا السيد الأجل الملك الصالح» وتتمة النعوت والدعاء ، من «جلالة القدر، وعظم الأمر وفخامة الشأن وعلو المكان، واستحباب التفضيل، واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحق مشايعتنا وطاعتنا، مابعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون»، والذي تضمنه هذا السجل من تقريظه وأوصافه، «فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه، ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلنا له من الكفالة، والله تعالى يعضد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمده بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غايات الاستمرار والتأييد إن شاء الله تعالى»، وهوسجل كبير جدا من إنشاء الموفق أبي الحجاج يوسف بن علي بن الخلال.

ودخل الشعراء على الصالح فهنوه بالوزارة وذكروا هذه الحالة والواقعة، وكانوا جماعة منهم: أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني، والقاضي الأجل الرشيد أحمد بن الزبير، والقاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الجباب، والقاضي السعيد جلال الملك أبو الحسن علي بن الأشرف بن كاسيبويه وأبو محمد يحيى بن خير الشاعر المسمى ديك الكرم.

وفيها أرسلت عمة الظافر للفرنج بعسقلان رسلا على البريد تعلمهم بالحال، وتبذل لهم الأموال في الخروج على عباس وأخذ مامعه، فخرجوا إليه وحاربوه فخذله أصحابه ونجوا مع أسامة ابن منقذ إلى الشام، فوقع في قبضة الفرنج فنهبوا ماكان معه وحملوه إلى عسقلان.

وفيها صرف عن قضاء القضاة أبو المعالي مجلي بن جميع الفقيه

الشافعي، واستقر مكانه القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله عبد الله بن كامل بن عبد الكريم في العشر الأخير من شعبان.

وفي يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول قبض الصالح على جماعة من الأمراء وقتلهم، وعلى عدة من أرباب العمائم منهم الخطير أبو الحسن علي بن سليم بن البواب، ناظر دواوين مصر، وكان عارفا بالهندسة والمنطق مليح الشعر حسن الترسل.

وفيها مات القاضي المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسن الأطرابلسي المعروف بالمحنك، وكان ممن ولي نظر الدواوين والخزائن وغيرها، وله «تاريخ خلفاء مصر» قطع فيه على الحافظ.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها مضى الأسطول لميناء صور فملكها وقتل من فيها وأحرقها، وعاد وقد ظفر بمراكب حجاج النصاري وغيرهم وبعدة أسرى وغنائم كثيرة.

وفيها خرج على الصالح الأمير تميم، والي إخميم وأسيوط، وجمع جمعا موفورا، فأرسل إليه عسكرا فقتل في يوم الأربعاء سابع عشر رجب.

وفيها قدم إلى مصر الفقيه عمارة بن علي بن زيدان الحكمي الشاعر، رسولا من أمير الحرمين، فمدح الفائز والصالح، ثم عاد بجواب رسالته في شوال، وقدم إلى مصر فاستقر بها وصار من جملة خدام الدولة.

وفيها مات بمصر الفقيه أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا القرشي المخزومي الأرسوفي الشافعي، وله مصنفات منها كتابه الكبير المسمى «بالذخائر» في الفقه.

-١١٥٤٧-

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها كان الغلاء بمصر فلحق الناس منه شدة.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج والصالح، فشرع في النفقة على العساكر وعربان البلاد للغارة على بلاد الفرنج، فأول سرية سيرها يوم السبت سابع عشرين جمادى الأولى فوصلت إلى غزة ونهبت أطرافها، وسارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بغنائم كثيرة إلى مصر في رابع عشر جمادى الآخرة، ثم سير عسكرا آخرا فمضى إلى الشريعة فأبلى بلاء حسنا وعاد مؤيدا، وندب مراكب في البحر فسارت إلى بيروت وغيرها فأوقعت بمراكب الفرنج فأسرت منهم وغنمت، وسير عسكرا إلى بلاد الشوبك والطفيل فعاثوا في تلك البلاد وغاروا، ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم عدة أسرى، ثم سير الأسطول فمضى إلى عكا فأسروا من أهله نحو سبعمائة نفس بعد حروب وعاد في رمضان وجهز سرية إلى بلاد الفرنج فغارت وعادت بغنائم في رمضان، وندب سرية وعادوا في سادس ذي الحجة.

وفيها قدم رسول محمود بن زنكي صاحب الشام.

وفيها كسر مركب فيه حجاج النصارى بثغر الاسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر وبعث بهم إلى القاهرة.

وفي سلخ ذي الحجة قبض الصالح على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم، بسبب أنه كاتب أخت الظافر، وقصد القيام على الصالح، وكان واليا على أعمال قوص وهو بالقاهرة وبقي حتى مات بالحبس في رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفيهـا أحضر إلى الصالـح رجل كـامـل الأعضاء قـويها سريع الحركـة ليس بضئيل الصوت، طوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشار وله أولاد.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

في محرم جهز الصالـح عسكرا عدته أربعة آلاف وعليـه شمس الخلافة أبو الأشبال ضرغام وجماعة من الأمراء للغارة على بلاد الفرنج، فساروا في رابع صفـر إلى تل العجـول فكانـت بينهم وبين الفـرنج وقعـة في نصف صفر انهزم فيهـا الفرنـج هزيمـة قبيحة، وسير سريـة واقعت الفـرنج على العريش في شعبان فكسرتهم وغنمت منهم خيولا وأموالا.

وفيهـا قدم رسـول محمـود بـن زنكي، ووصـل رسـول الفـرنج يطلـب الصلح، ورسـول من صاحـب قسطنطينية يطلـب مراكب نجـدة له على صاحب صقلية.

وفيها سـارت سرية من مصر إلى بيـت جبرين فغنمت وعـادت سالمة بالغنائم.

وسار الأسطول يوم الجمعة ثالث عشريـن ربيع الآخر فوصل إلى تنيس في ثامن شعبان، ومنه سار إلى بلاد الفرنج.

وفي سادس عشر ربيـع الآخر ورد أسطـول الاسكندريـة وقد امتـلأت أيديهم بالغنائم.

وفي ربيع الآخر سـار عسكر إلى وادي موسى، فحـاصر حصن الوعيرة ثمانية أيام وعاد بعـد ماتوجه إلى الشوبك وغار عليهـا وترك هناك أميرين على الحصار.

وفي تاسع جمادى الأولى سار عسكر إلى بيت المقدس فعاث وخرب وعاد بغنائم، وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية انكسر فيها الفرنج فشرع الصالح في النفقة على العساكر، فكانت جملة ماأنفق في مدة إلى عاشر شعبان في هذه السنة خاصة مائة ألف دينار.

فسار في خامس شعبان خمس شواني فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب للفرنج وعادت بعدة غنائم وأسرى في ثاني عشرين رمضان.

وورد الخبر بحركة ملك العريش إلى مصر للغارة على أطرافها، فجهز الصالح عسكرا فعاد ولم يأت مصر.

وفيها مات بمصر القاضي المفضل كافي الكفاة أبو الفتح محمود ابن القاضي الموفق اسماعيل بن حميد الدمياطي المعروف بابن قادوس في سابع المحرم، فحضر الصالح من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه ومشى في جنازته إلى تربته، عند مسجد الأقدام، وكان من أماثل المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكم وله «ديوان شعر».

وفيها عاد رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار، وعينا سبعون ألف دينار توسعة له على الجهاد، وندب مع الهدية أميرا من أمرائه، وكتب الصالح كتابا على يده وضمنه قصائد يحرضه فيها على قتال الفرنج، فوصلت الهدية في حادي عشر شهر رمضان.

ومضت في هذه السنة عدة عساكر في البر والبحر وعادوا بكثير من الأسرى منهم أخو القمص صاحب جزيرة قبرص، فأكرمه الصالح وسيره إلى ملك القسطنطينية فامتلأت الأيدي بالغنائم ، وقال الصالح في ذلك عدة قصائد:

-١١٥٥٠-

«والله أعلم»

تم

وقد وجدنا هكذا مكتوبا في آخر النسخة: آخر المنتقى

من اتعاظ الحنفا للمقريزي

المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهرلإعزاز دين الله أبي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور

ولد في ثامن عشر المحرم، وقيل في العشرين من المحرم، سنة ثمان وستين وأربعمائة، وبويع له في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، حين مات أبوه المستنصر، وذلك أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلي، وبعث فأحضر إليه نزارا،وعبد الله وإسماعيل،أولاد المستنصر، فلما حضروا وشاهدوا أخاهم أحمد وكان أصغرهم ، قد جلس على تخت الخلافة أنفوا من ذلك، فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض وقال لهم: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله وبايعوه ، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر قبل وفاته، للخلافة من بعده. فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم إن والده وعده بالخلافة، وقال نزار: إن قطعت ما بايعت من هو أصغر سنا مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وأنا أحضره، وخرج مسرعا ليحضر الخط، فمضى من حيث لا يشعر به أحد وتوجه في خفية إلى الإسكندرية، فلما أبطا أرسل الأفضل من يستعجله بالحضور، فلم يوجد، وفتش عليه في القصر فلم يوقف له على خبر ولا عرف كيف توجه. فاضطرب الأفضل لذلك، وانزعج انزعاجا شديد .

وقوم يذكرون أن المستنصر كان قد أجلس ابنه أبا المنصور نزارا ، لأنه أكبر أولاده، وجعل إليه ولاية العهد من بعده، فلما قربت وفاته أراد أن يأخذ له البيعة على رجال الدولة، فتقاعد له الأفضل ودافع حتى مات، وذلك أنه كانت بينه وبين نزار مباينة، وكان في نفس كل منهما مباينة من

الآخر لأمور، منها أن نزارا خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب، فصاح به: « انزل يا أرمني يا نجس»، فحقدها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما الآخر. ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارا في أموره أيام حياة أبيه ويرد شفاعاته ويضع من قدره، ولايرفع رأسا لأحد من غلمانه وحاشيته، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر، فلما عزم المستنصر على أخذ البيعة لنزار اجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشية وخوفهم من نزار، وحذرهم من مبايعته، وأشار عليهم بولاية أخيه أحمد فإنه صغير لا يخاف منه، ويؤمن جانبه، فرضوا بذلك وتقرر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكي، من قرية يقال لها لك[1] برقة، فإنه لم يوافق لأنه كان قد وعده نزار بأن يوليه الوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما اطلع على ما قرره الأفضل من ولاية أبي القاسم أحمد مع الأمراء وأنهم قد وافقوه على ترك مبايعة نزار طالعه بجميع ذلك.

وبادر الأفضل فأجلس أبا القاسم ولقب بالمستعلي بالله. وأصبح في بكرة يوم الخميس لاثني عشرة بقيت من ذي الحجة فأخرجه إلى الإيوان، وأجلسه على سرير الملك، وجلس هو على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الإمام علي بن نافع بن الكحال، والشهود، فأخذ البيعة على مقدمي الدولة وأمرائها ورؤسائها وجميع الأعيان، ثم مضى إلى عبد الله وإسماعيل ولدي المستنصر، وكانا في مسجد من مساجد القصر وقد وكل بهما الأفضل جماعة يحفظونهما، فقال لهما : إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا ؟ فقالا: السمع والطاعة، إن الله اختاره علينا، ووقفا قائمين على أرجلهما وبايعاه، وكتب كتاب البيعة وأخرج، فقرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء، على عادة الأمراء وجميع أهل الدولة.

وكانت الدعاة عندما بلغهم موت المستنصر اختلفوا فيمن يبايعونه من بعده، فدعا بركات، وهو أمين الدعاة، لعبد الله بن المستنصر ونعته بالموفق، فقبض الأفضل عليه وقتله هو وابن الكحال.

ووصل الخبر بلحاق نزار ومعه محمود بن مصال اللكي بنصر الدولة، وأن نصر الدولة أفتكين التركي ، أحد مماليك أمير الجيوش، وكان على ولاية الإسكندرية، قد بايعه، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عمار، وأهل الاسكندرية، وأنه تلقب بالمصطفى لدين الله، فأهم الأفضل ذلك وأخذ في التأهب لمحاربتهم.

وفيها توفي أبو عبد الحسين بن سديد الدولة، ذى الكفايتين، محمد الماسكي، وكان ممن وزر للمستنصر في سنة أربع وخمسين، فلما صرف عن الوزارة سار إلى مدينة صور من الشام فأقام بها عدة سنين، ثم إنه رجع إلى مصر وخدم مشارفا[٢] بالاسكندرية بعد الوزارة، ثم صرف عن المشارفة، وكان من أماثل الكتاب وأحد الأدباء الفضلاء. ومن شعره:

تـوصـل إلى رد كيـد العـدو
تـوصـل ذي الحيلـة الحازم
وصـانـع ببعـض الـذي حـزتـه
تعـش عيشـة الآمـن الغـانـم
ودع مـا نعمـت بـه في القـديـ
ـم، واعمـل لـذا الـزمـن القـادم
لعلـك تسلـم ممـا تخاف
ولسـت، إخـالـك، بـالسـالم

وله عدة مصنفات ورسائل.

-١١٥٥٦-

سنة ثمان وثمانين وأربعمائة:

في آخر المحرم خرج الأفضل بعساكره من القاهرة فسار إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين، فخرجا إليه في عدة كبيرة وحارباه، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما يريد القاهرة، فنهب نزار بمن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري .

ووصل الأفضل إلى القاهرة، وشرع يتجهز ثانيا لمسيره. ودس إلى أكابر من انتمى إلى نزار من العرب يدعوهم إلى التخلي عنه، واستمالهم بما حمله إليهم من الأموال وما وعدهم به من القطاعات وغيرها،وخرج وقد أعد واستعد، فسار إلى الإسكندرية وقد برزوا إليه، فكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة نزار والتجائه إلى المدينة، فنزل الأفضل عليها، وحاصرها، ونصب عليها المجانيق وألح عليها بالقتال، ومنع عنها الميرة.

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد الأمر على من بالإسكندرية جمع ابن مصال ماله وفر إلى جهة المغرب في ثلاثين قطعة، يريد بلده لك برقة من أجل رؤيا رآها، وهي أنه رأى في منامه كأنه قد ركب فرسا وسار والأفضل يمشي في ركابه، فقص هذه الرؤيا على عابر له فطانة وتمكن في علم التعبير، فقال له الماشي على الأرض أملك لها من الراكب وهذا يدل على أن الأفضل يملك البلاد.

وكانت الأنفس قد ملت طول الحصار ، فلما فر ابن مصال ضعفت نفس نزار وأفتكين وتخوفا ممن حولهما، فبعثا إلى الأفضل يسألان الأمان، فأمنهما، وتمكن من البلد، وقبض على نزار وأفتكين، وسير بهما مصر، فيقال إنه سلم نزارا لأهل القصر من أصحاب المستعلي، وأنه بني عليه حائط ومات، وقيل إنه قتل بالاسكندرية، والأول أصح.

وكان مولده يوم الخميس العاشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. والإسماعيلية وملاحدة العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته وتزعم أن المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدينار والطرز، وأن المستنصر قال للحسن بن صباح إنه الخليفة من بعده.

وكان للمستنصر أولاد فروا إلى المغرب، منهم محمد وإسماعيل وطاهر، وعاد منهم في خلافة الحافظ واحد إلى مصر ولا عقب له.

وأما أفتكين فإنه قتل بعد قدوم الأفضل إلى مصر. أما ابن مصال فإنه وصل لك ولقيه أهلها، وكان قد خرج منها صبيا فقيرا، فأقام عندهم أياما. واتفق أن رأى عجوزا عرفته، فقالت له: كبرت يا محمود! فقال لها: نعم. فقالت له: لعلك جئت مع صاحب هذه المراكب؟ فقال: أنا صاحبها. فقالت: ماذا يعمل عدم الرجال! ولم يزل يبعث إليه الأفضل بالأمان حتى قدم عليه، فلزم داره مدة، ثم رضي عنه الأفضل وأكرمه.

وكان الأفضل لما قبض على نزار وتمكن من الإسكندرية تتبع جميع من كان معه ومن مالأه أو أعانة، فقبض على كثير من وجوه البلد، منهم قاضي الثغر أبو عبد الله محمد بن عمار واعتقله مدة ثم قتله، وكان حسنة من حسنات الدهر ونخبة من نخب العصر، وحظي عنده بنو حارثة، وكانوا من عدول البلد، لأنهم لم يبايعوا نزارا ولم يدخلوا في شيء من ذلك، وكانوا يهادون الأفضل سرا، وولى قضاء الإسكندرية عوضا عنه القاضي أبا الحسن زيد بن الحسن بن حديد، وبالغ في إكرامه وإكرام أهل بيته.

وكان الأفضل وهو على حصار الإسكندرية يخرج أمه فتطوف في كل يوم، وهي متنكرة بالأسواق، وتدخل يوم الجمعة إلى الجوامع وتزور المشاهد والمساجد والربط تستعلم خبر ولدهاوتعر ف من يحبه ومن

يبغضه، فدخلت يوما إلى مسجد أبي طاهر وجاءت إلى ابن سعد الإطفيحي وقالت له: يا سيدي، ولدي في العسكر مع الأفضل، الله تعالى يأخذلي منه الحق،ما فعل خيرا، وأنا ما أنام خوفا على ابني،ادع الله أن يسلم ولدي، فقال لها: يا أمة الله، أما تستحين، تدعين على سلطان الله في أرضه، المجاهد عن دين الله تعالى، الله ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك، ما هو إن شاء الله إلا منصور مؤيد مظفر، كأنك به وقد فتح الإسكندرية وأسر أعداءه، وأتى على أحسن قضيةوأجمل طوية، فلا يشغل لك سر، فما يكون إلا الخير إن شاء الله.

ثم اجتازت بالفار الصيرفي بالسراجين من القاهرة، فوقفت عليه تصرف منه دينارا ــ وكان إسماعيليا متغاليا ــ فقالت له: ولدي مع الأفضل وما أدري ما خبره، فقال لها: لعن الله المذكور الأرمني الكلب العبد السوء بن العبد السوء، مضى يقاتل مولانا ومولى الخلق؟ كأنك والله يا عجوز برأسه جائزا من هنا على رمح قدام مولانا نزار ومولاي ناصر الدولة إن شاء الله تعالى[٣]، والله يلطف بولدك، من قال لك تخليه يمضي مع هذا الكلب المنافق

ثم وقفت يوما آخر على ابن بابان الحلبي، وكان بزازا بسوق القاهرة، تشتري منه شيئا ـ وكان نزاريا ـ فقالت له كقولها للفار الصيرفي، فقال لها كما قال أيضا، وبالغ في لعن الأفضل وسبه.

فلما أخذ الأفضل نزارا وناصر الدولة، وفتح الإسكندرية، وقدم إلى القاهرة في يوم[٤].... حدثته أمه الحديث بنصه. فلما خلع عليه في القصر بين يدي الخليفة المستعلي في يوم[٤] وعاد إلى مصر اجتاز بالبزازين وهو بالخلع، ونظر إلى ابن بابان الحلبي وقال: أنزلوا هذا، فنزلوا به، فضربت عنقه تحت دكانه، ثم قال لعبد علي، أحد مقدمي ركابه: قف هنا لا يضيع له شيء من دكانه إلى أن يأتي أهله فيتسلموا قماشه، ثم وصل إلى

السراجين، فلما تجاوز دكان الفار الصيرفي التفت إلى جهته وقال: انزلوا بهذا، فنزلوا به، فقال: رأسه، فضربت عنقه، وقال ليوسف الأصفر أحد مقدمي الركاب: احتط على حانوته إلى أن يأتي أهله ويتسلموا موجوده، وإياك ماله وصندوقه، وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه، كان لنا خصما أخذناه وفعلنا به ما نردع به غيره عن فعله، وما لنا في ماله ولا في فقر أهله حاجة.

ثم أتى إلى الشيخ أبي طاهر الإطفيحي، وقربه وتخصص به، وأطلعه على أغراضه وأكثر من التردد إليه،وأجرى الماء إلى مسجده، وبنى له فيه حماما وبستانا وغير ذلك من المباني. فعظم قدر الإطفيحي به، وكثر غشيان الناس مسجده، وطار ذكره، وشاع خبره، وكثرت حاشيته، وصار المشار إليه بالديار المصرية حتى مات.

وفيها قام ببغداد تاجر يعرف بحامد الأصفهاني فتكلم بأن نسب الخلفاء الفاطميين صحيح، فقبض عليه واعتقل حتى مات.

وخرج الأمر بجمع الناس إلى بيت النوبة، ببغداد، فجمعوا في تاسع ربيع الآخر، وحضر بنو هاشم وغيرهم إلى الديوان، وقرىء توقيع أوله خطبة تشتمل على حمد الله تعالى والثناء عليه، وتذكر طاعة الأئمة وفضل العباس وما جاء فيه من الأخبار، ثم قال: « أما بعد، فإنه لم يخل وقت ولا زمان من مارق على الدين، وسارع في تفرق كلمة المسلمين ليبلو الله المجاهدين فيهم والصابرين، ويصلى أكثر العاكفين نار جهنم التي أعدت للكافرين. وهذه الطائفة المارقة من الباطنية الملحدين، والكفرة المستسلمين، انتهكوا المحارم، واستحلوا الكبائر، وأراقوا الدماء، وكذبوا بالذكر، وانكروا الآخرة، وجحدوا الحسنات والجزاء، وفصلوا أعضاء المسلمين، وسملوا أعين الموحدين، وأنكروا الآخرة، وجحدوا، الدين وفقهاءه، وأعلنوا بالشرك ونداءه». ثم رماهم بالفسوق والإهمال

والانحلال، وقال: شاعرهم يقول:
حـــل بـــرقـــادة(٥) المسيح
حـــل بها آدم ونـــوح

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

فيها خرج خلف بن ملاعب من عند الأفضل لولاية فامية، فسار إليها وتسلمها.

وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا إسماعيلية، فقدموا إلى القاهرة وسألوا أن يجهز إليهم من يلي أمرهم، فوقع الاختيار على خلف بن ملاعب، وكان قد ولي مدينة حمص وساءت سيرته في أهلها، فبعث إليه السلطان ملك شاه من العراق من قبض عليه وحمله إليه بأصفهان، فاعتقله بها إلى أن مات، فأطلق وسار إلى مصر فأقام بها حتى خرج إلى فامية

سنة تسعين وأربعمائة

فيها وقع بمصر غلاء ومجاعة.

في سادس عشر صفر قدم على الأفضل رسول فخر الدولة رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية وهم.... بن الحلال و (٦) ابن البوين كاتب عز الدولة ابن منقذ(٧)، صحبة رسول الأفضل الشريف شجاع الدولة ابن أبي سوية وقدم معهم شرف الدولة ... الباهلي الشاعر،وكان قد قدم مصر ومدح أمير الجيوش بدر الجمالي، فأجيب بالشكر والثناء وخطب بها للمستعلي بالله في يوم الجمعة سابع عشر رمضان، وكان سبب هذا الفعل من رضوان أنه قصد أن يستعين بعساكر مصر على أخذ دمشق من أخيه دقاق. فاتفق أن الأمير سكمان بن أرتق أنكر على رضوان ذلك، فقطع خطبة المستعلي، وأعاد الخطبة لبني العباس، فكان

مدة الخطبة للمستعلي أربعة أشهر.

وفي ربيع الأول جهـز الأفضل عسكراني عـدة وافرة لأخذ صـور فسار إليها وحاصرهـا حصارا شديدا حتـى أخذت بالسيف، فـدخلها العسكر وقتلـوا منها بـالسيف خلقـا كثيرا، وقبـض على واليها وحمل إلى الأفضـل فقتله لأنه كان قد خرج عن الطاعة وعصى على الأفضل.

وفيهـا كان ابتـداءخـروج الإفـرنج مـن بـلاد القسطنطينيـة لأخذ بـلاد الساحـل من أيدي المسلمين، فوصلـوا إلى مدينة أنطـاكية ونازلوهـا حتى ملكوها، ومنها دبوا إلى بلاد الساحل.

وفيها تجمع الـرعاع والعامة في يـوم عاشوراء بمشهد السيـدة نفيسة(٨) وجهروا بسب الصحـابة، وهدموا عدة قبور، فسير الأفضـل إليهم ومنعهم من ذلك، وأدب ذخيرة الملك ابن علوان، والي القاهرة، جماعة وضربهم.

وفيها حرر الأفضل في المحرم عيار الدينار وزاد فيه.

[إعلم إن الفـرنج من ولد ريغـاث بن كومر بـن يافث بن نـوح، فهم أخوة الصقـالبة والخزر والترك، ويقـال بل هم مـن ولد عطريـا بن غـومر وهوكومربـن يافث، ويسكنون شمالي البحر الرومي مـن خليج رومه إلى ما وراءه غـربا وشمالا، وكـانوا أولا تحت أيـدي اليـونان والـروم، ثم استقلـوا بعدهم بملكهـم، وافترقوا، فكان منهم القـوط والجلالقة بالأندلـس حتى أخذهـا منهم المسلمـون، وكان منهم اللمانيـون بجزيـرة انكلطرة بـالبحر المحيط الغربي الشمالي، ومـا يقابله وما يحاذيـه، وكان منهم افرنسـة، وهم افـرنجـةفملكـوا مـا وراء خليـج روما غـربـا إلى الثنـايـا التـي تفضي إلى الأندلـس في الجبل المحيـط بها من شرقيها، وتسمـى هذه الثنـايا البرت، وعظمت دولتهم بعد الروم في أثناء الاسلام، وعـرفوا بالأفرنسيس، وتغلبوا على جـزائر البحر الـرومي في آخـر المائة الخامسة، وكـان ملكهم حينئـذ

اسمه بردويل، فبعث رجار إلى صقلية وملكها من المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة، ثم ساروا في البحر على قسطنطينية وعبروا من الخليج سنة تسعين وأربعمائة، حتى نزلوا عواصم الروم، وحاربوا قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن اسرائيل بن سلجوق،ملك قونية، فأخذوا منه أنطاكية، وهم خمسة ملوك: بردويل، وصنجيل، وكندفري، والقمص، وبيمند وهو مقدمهم، فولوه أنطاكية، ثم ملكوه معرة النعمان، ونازلوا حمص، ثم عكا، ثم حصروا القدس حتى أخذت كما سيأتي إن شاء الله](٩)

سنة احدى وتسعين وأربعمائة:

فيها خرج الأفضل في عساكر جمة، ورحل من القاهرة في شعبان، وسار يريد أخذ بيت المقدس من الأمير سكمان وإيلغازي، ابني أرتق، وكانا به في كثير من أصحابهما، فبعث إليهما يلتمس منهما أن يسلماه البلد ولا يحوجاه إلى الحرب، فأبيا عليه، فنزل على البلد ونصب عليها من المجانيق نيفا وأربعين منجنيقا، وأقام عليها يحاصرها نيفا وأربعين يوما حتى هدم جانبا من السور، ولم يبق إلا أخذها، فسير إليه من بها ومكناه من البلد، فخلع على ولدي أرتق وأكرمهما، وأخلى عنهما، فمضيا بمن معهما، وملك البلد في شهر رمضان لخمس بقين منه، وولى فيه من قبله، ثم رحل إلى عسقلان، وكان فيها مكان قد دفن فيه رأس الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام، فأخرجه وعطره وحمله في سفط إلى أجل دار بها، وعمر مشهدا مليح البناء، فلما تكامل حمل الرأس في صدره وسعى به ماشيا من الموضع الذي كان فيه إلى أن أحله في مقره. ويقال إن أمير الجيوش هو الذي أنشأ المشهد على الرأس بثغر عسقلان، وأن ابنه الأفضل شاهنشاه كمله، ثم حمل هذا الرأس إلى القاهرة، فوصل إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وفيها حدثت بمصر ظلمة عظيمة عشت أبصار الناس حتى لم يبق أحد يعرف أين يتوجه، ثم هبت ريح سوداء شديدة، فظن الناس أن الساعة قد قامت، واستمرت الريح سبع ساعات وانجلت الظلمة قليلا قليلا وسكنت الريح، ولم يصل في ذلك اليوم أحد صلاة الظهر ولا العصر، ولا أذن في القاهرة ولا مصر.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

فيها سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدي المسلمين، فملكوا مدينة أنطاكية وساروا إلى المعرة فملكوها، ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به، ووصلواعرقة فحاصروها أربعة أشهر فلم يقدروا عليها، ونزلوا على حمص، فهادنهم جناح الدولة حسين، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا، ثم أخذوا الرملة في ربيع الآخر، وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة، وبلغ ذلك الأفضل فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم، فجد الفرنج،عندما بلغهم مسيره إليها،في حصار المدينة، وكان نزولهم عليها في شهر ربيع الآخر، حتى ملكوها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان بعد أربعين يوما.

وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وقتلوا عامة من كان في البلد، وكان فيه من العباد والصلحاء والعلماء والقراء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر، فوضعوا السيف فيهم وأفنوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلا اليسير. وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام فحاصرهم الفرنج نيفا وأربعين يوما حتى تسلموه بالأمان في يوم الجمعة ثاني عشريه. وأحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والالآت، وكان مبلغا عظيما.ويقال إنه قتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم.

ووصل الأفضل إلى عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان، فبعث إلى الفرنج فوبخهم على ما كان منهم، فردوا إليه الجواب، وركبوا في إثر الرسل فصدفوه على غرة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيرا. وانهزم منهم بمن خف معه فتحصن بعسقلان وتعلق أكثر أصحابه هنالك في شجر الجميز، فأضرموا فيها النار حتى احترقت بمن تعلق فيها، فهلك خلق كثير وحاز الفرنج من أموال المسلمين ما جل قدره، ولا يمكن لكثرته حصره.

ونازلوا عسقلان، وحصروا الأفضل فيها حتى كادوا يأخذونه، إلا أن الله سبحانه أوقع فيهم الخلف فاضطروا إلى الرحيل عن عسقلان، فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر وقد ساءت حاله، وذهبت أمواله، وقتلت رجاله، وسار إلى القاهرة، ولم يعد بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه في حرب ألبتة.

وكان ملك الفرنج بالقدس كندفري.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلي الحنفي المحدث في ثامن عشر ذي الحجة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

فيها(جفل) عالم لا يحصى عددهم من البلاد الشامية فرارا من الفرنج والغلاء.

وفيها عم الغلاء أكثر البلاد، ومات من أهل مصر خلق كثير.

وفيها مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجاء، وتولى بعده أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ومات علي بن محمد بن علي الصليحي، قتله سعد بن نجاح الأحول، وقتل أخاه عبدالله وجميع بني الصليحي بمكة من ذي القعدة.

وولي الحسن بن علي بن أحمد الكرخي الحكم شهرا واحدا وثلاثة أيام، وصرف وصودر من أجل أنه أخذ عصابة من القصر في أيام الشدة لها قيمة، فظهرت عليه.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

في شعبان جهز الأفضل عسكرا كثيفا لغزو الفرنج، فساروا إلى عسقلان، ووصلوا إليها في أول رمضان، فأقاموا بها إلى ذي الحجة، فنهض إليهم من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فخرج إليهم المسلمون وحاربوهم، فكانت بين الفريقين عدة وقائع آلت إلى كسر الميمنة والميسرة وثبات سعد الدولة الطواشي، مقدم العسكر، في القلب، وقاتل قتالا شديدا، فتراجع المسلمون عند ثبات المذكور وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم إلى يافا، وقتلوا منهم عدة وأسروا كثيرا، وقتل كندفري ملك الفرنج بالقدس، فجاء أخوه بغدوين من القدس وملك بعده، وسار بالفرنج إلى أرسوف.

وفيها مات القمص رجار بن تنقرد، صاحب جزيرة صقلية، فقام من بعده ابنه رجار بن رجار.

وفيها نزل الفرنج على حيفا وقتلوا أهلها، وتسلموا أرسوف بالأمان، وملكوا قيسارية عنوة في آخر شهر رجب وقتلوا من بها، وملكوا مع ذلك يافا، مع ما بأيديهم من أعمال الأردن وفلسطين.

-١١٥٦٦-

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

فيها مات الخليفة أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بن المستنصر في ليلة السابع عشر من صفر، وعمره سبع وعشرون سنة وشهر واحد وتسعة وعشرون يوما، ومدة خلافته سبع سنين وشهر واحد وعشرون يوما.

نقش خاتمة« الإمام المستعلي بالله».

وفي أيامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج، فإنهم، خذلهم الله، دخلوا بلاد الشام، ونزلوا على أنطاكية في ذي القعدة سنة تسعين وأربعمائة وتسلموها في سادس عشر رجب سنة إحدى وتسعين، وأخذوا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين، وأخذوا الرملة ثم بيت المقدس في شعبان، ثم استولوا على كثير من بلاد الساحل، فملكوا قيسارية في سنة أربع(وتسعين) بعدما ملكوا عدة بلاد

وفي أيامه فر أخوه نزار إلى الاسكندرية، وقتل في الحروب التي كانت بينه وبين الأفضل خلق كثير، وأخذ وقتل بعد ذلك.

وفي أيامه أيضا افترقت الإسماعيلية فصاروا فرقتين: نزارية، تعتقد إمامة نزار وتطعن في إمامة المستعلي، وترى أن ولد نزار هم الأئمة من بعده يتوارثونها بالنص، والفرقة المستعلوية، ويرون صحة إمامة المستعلي ومن قام بعده من الخلفاء بمصر، وبسبب ذلك حدثت فتن، وقتل الأفضل فيما يقال وقتل الآمر، كما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يكن للمستعلي سيرة فتذكر، فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة.

وخلف المستعلي من الأولاد ثلاثة، هم الأمير أبو علي المنصور، والأمير جعفر، والأمير عبد الصمد.

وكانت قضاة مصر في خلافته: أبو الحسن ابن الكحال، ثم عزل بابن عبد الحاكم المليجي، ثم ولي أبو الطاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا، ومات المستعلي وهو قاض.

وقيل إن المستعلي مات مسموما، وقيل بل قتل سرا.

وكان [المستعلي بن] المستنصر (١٠) قد عقد نكاحه على ست الملك ابنة أمير الجيوش بدر، فمات قبل أن يبني عليها، وكان أمير الجيوش قد جهزها جهازا عظيما (١١) وأكثر من شراء الجواهر العظيمة القدر لها، فلما مات انتهب أولاده ذلك وتفرقوه(١٢)

وفيها أخذ صنجيل، أحد ملوك الفرنج، طرابلس، فصار للفرنج القدس وفلسطين إلا عسقلان، ولهم من بلاد الشام يافا، وأرسوف، وقيسارية، وحيفا، وطبرية، والأردن، ولاذقية، وأنطاكية، ولهم من الجزيرة الرها، وسروج، ثم ملكوا جبيل، ومدينة عكا، وأفامية، وسرمين من أعمال حلب، وبيروت، وصيدا، وبانياس، وحصن الأثارب

الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور بن المستعلي بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد ضحى يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة تسعين وأربعمائة، وبويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه وهو طفل له من العمر خمس سنين وشهر وأيام، في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين. أحضره الأفضل وبايع له، ونصبه مكان أبيه، ونعته بالآمر بأحكام الله.

وكتب ابن الصيرفي سجلا عظيما، أبدع فيه ما شاء، بانتقال الإمام المستعلي إلى رحمة الله وولاية ابنه الآمر، وقرىء على رؤوس الكافة من الأمراء والأجناد وغيرهم.

وأنشد ابن مؤمن الشاعر قصيدة طنانة يمدح الآمر. وركب الأفضل فرسا وجعل في السرج شيئا أركب الآمر عليه لينمو شخصه وصار ظهر الآمر في حجر الأفضل. (١٣)

سنة ست وتسعين وأربعمائة :

فيها ندب الأفضل مملوك أبيه سعد الدولة القواسي على عسكر لقتال الفرنج، فلقيهم بغدوين على يبنا، فكسرت عساكر الأفضل وتقنطر سعد الدولة فمات، وأخذ الفرنج خيمه فانهزم أصحابه. وبلغ (الأفضل) ذلك فجرد في أول شهر رمضان عسكرا قدم عليه ابنه شرف المعالي سماء الملك حسينا، وسير الأسطول في البحر، فاجتمعت العساكر بيازور، من بلاد الرملة، وخرج إليهم الفرنج، فكانت بينهما حروب هزمهم الله فيها بعد مقتلة عظيمة، ونزل شرف المعالي على قصر كان قد بناه الأفشين قريبا من الرملة فيه سبعمائة قومص من وجوه الفرنج، فقاتلوه خمسة عشر يوما ثم ملكهم وضرب رقاب أربعمائة، وبعث إلى القاهرة ثلاثمائة.

وكان أصحاب شرف المعالي قد رأى بعضهم أن يمضوا إلى يافا ويملكوها، ورأى بعضهم أن يسيروا إلى القدس، فبينما هم في ذلك وصل مركب من الفرنج لزيارة قمامة، فندبهم بغدوين للغزو معه، فساروا إلى عسقلان وقد نزلها شرف المعالي وامتنع بها، وكانت حصينة، فتركها الفرنج ومضوا إلى يافا، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة بعدما كتب إلى شمس الملوك دقاق، صاحب دمشق، يستنجده لقتال الفرنج، فتقاعد عن المسير واعتذر.

فجرد الأفضل أربعة آلاف فارس وعليهم تاج العجم[١٤] ... بمن معه عسقلان، ونزل ابن قادوس على يافا، وبعث يستدعي تاج العجم ليتفقا على الحرب، فلم يجبه، وتنافرا، فلما بلغ ذلك الأفضل بعث يقبض على تاج العجم، وولى الملك رضوان تقدمه العسكر وسيره إلى عسقلان، فأقام عليها إلى آخر سنة سبع وتسعين حتى قدم شرف المعالي بعساكر مصر.

وفيها مات تنكري ملك الفرنج بالساحل، فقام بعده سرجار ابن أخيه.

سنة سبع وتسعين وأربعمائة:

فيها نازل بغدوين، ملك الفرنج وصاحب القدس، ثغر عكا وحاصر أهله، وألح عليهم حتى ملكه. وكان فيه من قبل الأفضل يومئذ زهر الدولة نبا الجيوشي، ففر إلى دمشق، وصار إلى ظهير الدين[١٥] أتابك، فأكرمه وأحسن إليه، ثم جهز إلى الأفضل فأنكر عليه وهدده على تضييع الثغر، ولم تعد بعدها عكا للمسلمين.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

فيها جمع الأفضل جموعا كثيرة من العربان وأنفق فيهم أموالا عظيمة، وجهزهم صحبة العساكر مع ابنه شرف المعالي، وكتب لظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، بمعاونته ومعاضدته على محاربة الفرنج، فاعتذر عن حضوره بما هو مشغول به من مضايقة بصرى،فإن أرتاش ابن تاج الدولة صاحب بصرى كاتب الفرنج وأغراهم بقتال المسلمين وأطمعهم في البلاد، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، وجهز عسكرا إلى

شرف المعالي تقوية له على الفرنج، وقدم عليه إصبهبذ صباو بن جهارتكين، وعدته ألف وثلاثمائة فارس من الأتراك، وعدة عسكر مصر خمسة آلاف فارس.

وأتاهم بغدوين في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل. فاجتمعت عساكر المسلمين بظاهر عسقلان، ودارت بينهم وبين الفرنج حروب كان ابتداؤها في الرابع عشر من ذي الحجة فيما بين عسقلان ويافا، فانكسرت عساكر المسلمين واستشهد فوق الألف من المسلمين منهم جمال الملك ربيع الإسلام والي عسقلان، وأخذ الفرنج رايته، وأسر الفرنج زهر الدولة نبا الجيوشي، وقتل ألف ومائتان من الفرنج، ورجعوا وقد كانت الكرة لهم على المسلمين، وعاد عسكر دمشق إلى أتابك وهو على بصرى.

وفيها مات كنز الدولة (١٦) محمد في ثامن شعبان، وقام من بعده أخوه فخر العرب

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

في سادس عشر رجب قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية، قتله طائفة من الباطنية. وملك الفرنج عكا عنوة في سلخ شعبان من زهر الدولة نبا الجيوشي، فسار إلى دمشق ثم قدم مصر.

- ١١٥٧١ -

سنة خمسمائة

أهلت والخليفة بمصر الآمر بأحكام الله، ومدبر سلطنة مصر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وليس للآمر معه حل ولا ربط، وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة، والذي في مملكته: ديار مصر، وغزة، وعسقلان، وصور، وطرابلس لاغير .

وفيها بنى الأفضل دار الملك بشاطىء النيل من مدينة مصر.

وفيها سار متولي صور فأوقع بالفرنج على تبنين، فقتل وأسر جماعة، وعاد إلى صور، فسار بغدوين إليه من طبرية ، فركب طغتكين من دمشق، وأخذ للفرنج حصنا بالقرب من طبرية وأسر من كان فيه منهم.

وفيها ملك قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، صاحب قونية، الموصل في شهر رجب، فقتل في ذي القعدة منها، وقام بعده بقونية وأقصرا ابنه مسعود

سنة إحدى وخمسمائة:

فيها نزل بغدوين على ثغر صور وعمر حصنا مقابل حصن صور على تل المعشوقة، وكان على ولاية صور من قبل الأفضل سعد الملك كمشتكين، أحد المماليك الأفضلية، فصانع بغدوين على سبعة آلاف دينار وخرج من صور.

وفيها أحضر إلى القاهرة أهل فخر الدولة أبي علي عمار بن محمد بن ابن عمار من طرابلس، وكثير من أمواله وذخائره ، وذلك أن فخر الدولة حاصره الفرنج وأطالوا منازلته حتى ضاق ذرعه وعجز عن مقاومتهم، فخرج من طرابلس في سنة خمسمائة ومعه هدايا جليلة، فلقي ظهير

الديـن طغتكين أتابك بـدمشق، فأكـرمه ووافقه على السيرمعـه إلى بغداد ليستنجد بالسلطان غياث الدين محمـد بن ملكشاه، فسارا، ثم إن أتابك تركـه وعاد الـى دمشق، فثار في هـذه المدة أبـو المناقب ابـن عمار على ابن عمه فخر الدولة، ونـادى بشعار الأفضل وأرسل يطلب منه من يتسلـــم منـــــــه طـــــــرابلـــــس، فبعـــث إليه الأفضـل بالأمير شرف الدولـة ابن أبي الطيـب، فدخل إلى طـرابلس ونقل منها حريم فخر الدولة وأمواله، ففت ذلك فى عضد فخر الدولة

وفيهـا اتصل أبـو عبد اللـه محمد بـن الأمير نور الـدين أبي الشجـاع فاتك بن الأمير منجد الدولـة أبي الحسن مختار بن الأمير أمين الدولة أبي علي حسن بن تمام المستنصري الأحـول الإمامي الشيعي المعـروف بالمأمون ابن البطائحـي، بخدمة الأفضل أبي القـاسم شاهنشاه ابـن أمير الجيوش بدر المستنصري، وسبب ذلـك تغير الأفضل على تاج المعالي مختـار الذي كـان اصطنعه وفخـم أمـره وسلم إليـه خـزائن أموالـه وكسـواته، فسلـم لأخـويـه مـا يتـولاه واستعـان بهما فيـه، فحصـل لهم مـن الإدلال على الأفضـل ما حملهـم على مـد أيديهم إلى أمـواله وذخـائره، وشـاع أمرهـم وكتب إلى الأفضل بسببهـم ، فتغير عليهم، وأخرج مختارا لولايـة الغربية، وخلع عليـه، فلما انحدروا إليها سير صاحـب بابه سيف الملـك خطلخ، ويعـرف بالبغـل، وكـان من غلمان أبيـه، فقبض عليـه وعلى أخـوته مـن العشـاري، وكبـل بالحديـد ورمـي بـالاعتقـال، وأشيـع أن مختارا كـاتـب الفـرنج، وجعـل هـذا هـو العذر في القبـض عليـه، وأنـه كان أراد قتـل الأفضل.

فلما جرى لمختار وإخوته ما جرى ألزم الأفضـل أبا عبد الله بن فاتك بتسلم مـا كان بيد مختـار من الخدمة، فتصرف فيهـا، وقرر له الأفضـل ما كان باسـم مختار من العين خاصـة دون الإقطاع، وهو مائة دينـار في كل شهـر وثلاثـون دينارا عـن جاري الخزائن، مضـافا إلى الأصنـاف الراتبـة مياومـة ومشاهرة ومسانهة، وحسـن عند الأفضل مـوقع خدمته،فسلـم له جميـع أمـوره، وصرفهـا في كـل أحوالـه، ولما كثـر الشغـل عليه استعـان

بأخويه: أبي تراب حيدرة، وأبي الفضل جعفر، فأطلق لهما الأفضل ما وسع به عليهما، ونعت الأفضل أبا محمد ابن فاتك بالقائد

فيها فتح ديوان سمي بديوان التحقيق، تولاه أبو البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وكان يتولى ديوان المجلس رجل يعرف بابن الأسقف، وكان قد كبر وضعف فتحدث ابن أبي الليث مع القائد أبي عبد الله في الدواوين والأموال والمصالح، وفاوض في ذلك الأفضل، واتفق موت ابن الأسقف، فتسلم ابن أبي الليث الدواوين واستمر فيها حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وفيها تحدث ابن الليث في نقل السنة الشمسية إلى العربية، وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين، فأجاب الأفضل إليه، وخرج أمره إلى الشيخ أبي القاسم ابن الصيرفي بإنشاء سجل به، ثم رأى اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين، وتضررهم من حسبة ارتفاع إقطاعاتهم وسوء حالهم، وصار في كل ناحية للديوان جملة تجبى بالعسف وتتردد الرسل من الديوان بسببها، فحملت الإقطاعات كلها على أملاك البلاد، وأمر ضعفاء الجند بالزيادة في الاقطاعات التي للأقوياء، فتزايدوا إلى أن انتهت الزيادة، فكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم مدة ثلاثين سنة ما يقبل منهم فيها زائد، وأمر الأقوياء أن يبذلوا في الإقطاعات التي كانت بيد الأجناد ما تحتمله كل ناحية، فتزايدوا فيها حتى بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه، فكتبت لهم السجلات على الحكم المتقدم، فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم، وحصل للديوان بلاد مقورة [١٦] بما كان مفرقا في الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار.

وفيها فرغ بناء دار الملك، وكان الأفضل يسكن القاهرة فتحول إلى مصر، وسكن دار الملك على النيل واستقر بها، فقال الشعراء فيها عدة قصائد.

وفيها بـانت كـراهة الأفضل لأولاده واحتجـب عنهم أكثـر الأوقات، فانقطعوا عنه واستقـروا بالقاهرة في دار القباقب التي كـانت سكن أبيهم الأفضل، وهـي الدار التـي عرفـت بدار الـوزارة، ولم يبق مـن أولاده من يتردد إليه سوى سماء الملك فإنه كان يؤثره ويميل إليه.

وأفرد الأفضل للقائد أبي عبـد الله بن فاتك الموضع المعـروف باللؤلؤة (١٧).

وفيها وردت الأخبار بأن متملك النوبـة، قد تجهز برا وبحرا وعول على قصـد البلاد القبليـة، فسير الأفضـل عسكـرا إلى قوص، وتقـدم إلى والي قوص بـأن يسير بنفسه إلى أطراف بـلاد النوبـة، فورد الخبر بوثـوب أخي الملـك عليه وقتلـه. واشتدت الفتنـة بينهم حتـى باد أهـل بيت المملكـة وأجلس صبي في الملـك، فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضـل وتسأله ألا يسير إليهم مـن يغزوهـم، فكتب لـوالي الصعيدُ الأعلى بـأن يسير عسكرا إلى أطراف بلاد النوبة، ويبعـث إليهم رسولا يجدد عليهم القطيعة الجاري بها العـادة، وهي كـل سنةثلاثمائةوستـون رأسا رقيقـا بعد أن يستخلـص منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة.

فلما رحلـت العساكر نحوهم دخلـوا تحت الطاعة، وكتبوا المواصفـات وسـألـوا في الإعفـاء عما يخص السنين، وحملـوا مـا تيسر لهم، وعـادت العساكر كاسبة.

وفيها كثـر خوض الناس في القـرآن هل هـو محدث أو قديم، وتفـاقم الأمر فعرف الأفضل، فأمر بإنشـاء سجل بالتحذير من الخوض في ذلك، وركب بنفسـه إلى الجامع بمصر، وجلس في المحراب بجـوار المنبر، وصعد الخطيب أربع درجات منه وقرأ السجل على الناس.

وفيهـا مـات مسعود بـن قليـج أرسـلان بـن سليمان صـاحب قـونيـة

وأقصرا، فقام بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، وقسم أعماله بين أولاده (١٨).

سنة اثنتين وخمسمائة:

في رمضان ورد الخبر بأن أهل مدينة طرابلس الشام نادوا بشعار الدولة عند خروج فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن ادريس بن أبي يوسف الطائي منها، وقصده بغداد لطلب النجدة، لما اشتد حصار الفرنج لها، وغلا السعر بها.

وكان سماء الملك حسين بن الأفضل عندما كان بالشام في السنة التي كسر الفرنج فيها قد سام ابن عمار تسليمها إليه، فامتنع وغلق الباب في وجهه، وأقام سماء الملك عليها مدة بالعساكر إلى أن نازلها الفرنج ورحلوه عنها إلى عسقلان، فلما سمع الأفضل أن أهل الثغر نادوا بشعاره سير إليهم أميرين ومقدم الأسطول، وأمره بأخذ المراكب التي على دمياط وعسقلان وصور معه إلى الثغر المذكور نصرة للمسلمين

فلما وصل إليه وجد الفرنج قد ملكوا الحوش وأمهلوا المسلمين، فأنفذ من كان بها وحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم، وفيهم صالح بن علاق الطائي بعد هروبه من الأفضل، وحمل من دار ابن عمار ذخائره ومصاغه، وكان بقيمة كبيرة (١٩).

وحمل أخا ابن عمار المعروف بفخر الدولة وأهله إلى مصر، فأكرمهم الأفضل، واعتقل صالح بن علاق بخزانة البنود.

وفي العشرين من شوال كانت ريح سوداء من صلاة العصر إلى المغرب .

وفيها جدد حفر خليج القاهرة، فإن المراكب كانت لاتدخل فيه إلا بمشقة، وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه، فيحفر بأبقار كل بستان ما يحاذيه، فإن انتهى أمر البساتين عمل في البلاد كذلك، وأقيم له والٍ مفرد بجامكية، ومنع الناس أن يطرحوا فيه شيئا.

ولما تكاثرت الأموال عند ابن أبي الليث صاحب الديوان، رجية أن يتنجح على الأفضل بنهضته، وكان سبعمائة ألف دينار، خارجا عما أنفق في الرجال، فجعل في صناديق بمجلس الجلوس، فلما شاهد الأفضل المال قال: يا شيخ تفرحني بالمال وتريه أمير الجيوش، إن بلغني بئرا معطلة، أو أرضا بائرة أو بلدا خرابا، لأضربن رقبتك، فقال: وحق نعمتك لقد حاشى الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة، فتوسط القائد له بخلع، فقال: لا والله حتى أكشف عما ذكر.

وفيها وصل بغدوين إلى صيدا ونصب عليها البرج الخشب، فوصل الأسطول من مصر للدفع عنهم، وقاتلوا الفرنج وقهروا على مراكب الجنوية، فبلغهم أن عسكر دمشق خارج في نجدة صيدا، فرحل الأسطول عائدا إلى مصر.

وفي شعبان منها نزل الفرنج على طرابلس وقاتلوا أهلها من أول شعبان إلى حادى عشر ذي الحجة، ومقدمهم ريمند بن صنجيل[٢٠]، واسندوا أبراجهم الى السور، فضعفت نفوس المسلمين لتأخر أسطول مصر عنهم، فكان قد سار من مصر اليها بالميرة والنجدة فردته الريح لأمر قدره الله، فشد الفرنج في قتالهم وهجموا من الأبراج، فملكوها بالسيف في يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، فحازوا من الأمتعة والذخائر ودفاتر دار العلم وما كان في خزائن أربابها

مالا يحد عدده ولا يحصى فيذكر، وسلم الوالي لها في جماعة من جندها كانوا قد طلبوا الأمان قبل ذلك، وعوقب أهلها واستصفيت أموالهم واستثيرت ذخائرهم،ونزل بهم أشد العذاب.

وتقرر بين الفرنج والجنويين الثلث من البلد وما نهب منه للجنونيين، والثلثان لريمند بن صنجيل، وأفردوا للملك بغدوين ما رضي به.

ثم وصل اسطول مصر ولم يكن خرج فيها تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس فأرسى على صور في اليوم الثامن من أخذ طرابلس، وقد فات الأمر فيها، فأقام مدة، وفرقت الغلة في جهاتها، وتمسك أهل صوروصيدا، وبيروت به لضعفهم عن مقاومة الفرنج، فلم تمكنه الاقامة، وعاد إلى مصر.

سنة ثلاث وخمسمائة:

فيها سار الفرنج نحو بيروت، وعملوا عليها برجا من الخشب، وزحفوا، فكسره أهل بيروت. وقدم الخبر بذلك على الأفضل، فجهز تسعة عشر مركبا حربية، فوصلت سالمة إلى بيروت، وقويت على مراكب الفرنج، وغنمت، ودخلت إلى بيروت بالميرة والنجدة، فقوي أهلها بذلك، وبلغ بغدوين الخبر، فاستنجد بالجنوية، فأتاه(٢١) منهم أربعون مركبا مشحونة بالمقاتلة، فزحف على بيروت في البر والبحر، ونصب عليها برجين، وقاتل أهلها في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال، فعظمت الحرب، وقتل مقدم الأسطول وكثير من المسلمين، ولم ير للفرنج فيما تقدم أشد من حرب هذا اليوم، فانخذل المسلمون في البلد، وهجم الفرنج من آخر النهار فملكوه بالسيف قهرا، وخرج متولي بيروت في أصحابه وحمل في الفرنج، فقتل من كان معه، وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد، وسبوا من فيه وأسروا، واستصفوا الأموال والذخائر،

فوصل عقب ذلك من مصر نجدة فيها ثلاثمائة فارس إلى الأردن تريد بيروت، فخرج عليها طائفة من الفرنج، فانهزموا إلى الجبال، فهلك منهم جماعة.

وفيها سار الأسطول من مصر إلى صور ليقيم بها، فاتفق وصول ابن كند ملك الفرنج في عدة مراكب لزيارة القدس والجهاد في المسلمين، فزار القدس، وسار هو وبغدوين إلى صيدا، فنازلاها بجمعهما وعملا عليها برجا من خشب، وزحفا عليها، فلم يتمكن الأسطول من الوصول إليها(٢٢)

سنة أربع وخمسمائة :

في ثالث ربيع الآخر اشتد الحصار على أهل صيدا ويئسوا من النجدة، فبعثوا قاضي البلد في عدة من شيوخها إلى بغدوين يطلبون الأمان، فأجابهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق، وحلف على ذلك، فخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من الناس، وتوجهوا إلى دمشق، لعشر بقين من جمادى الآخرة. وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوما.

وفيها خرج جماعة من التجار والمسافرين من تنيس ودمياط ومصر وأقلعوا في البحر، فأخذهم الفرنج وغنموا منهم ما يزيد على مائة ألف دينار، وعاقبوهم حتى اشتروا أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها.

وفيها أغار بغدوين بعد عوده من صيدا على عسقلان، فراسله أميرها شمس الخلافة أسد حتى استقر الحال على مال يحمله إليه ويرحل عنه،

وقرر على أهل صورسبعة آلاف دينار تحمل إليه في مدة سنة وثلاثة أشهر، فقدم الخبر بذلك في شوال على الأفضل، فأنكر ذلك وكتمه عن كل أحد، وجهز عسكرا كثيفا إلى عسقلان، وقدم إليه عز الملك الأعز ليكون مكان شمس الخلافة، وندب معه مؤيد الملك رزيق، وأظهر أن هذا العسكر سار بدلا. فسار إلى قريب عسقلان،وبلغ ذلك شمس الخلافة فأظهر الخلاف على الأفضل وكتب إلى بغدوين يطلب منه أن يمده بالرجال ويعده بتسليم عسقلان وأن يعوضه عنها.

فبلغ ذلك الأفضل. فكتب إليه يطيب قلبه ويغالطه، وأقطعه عسقلان،وأقر عليه إقطاعه بمصر، وأزال الإعتراض عما له بمصر من خيل وتجارة وأثاث، فخاف شمس الخلافة على نفسه ولم يطمئن إلى أهل البلد، واستدعى جماعة من الأرمن وأقرهم عنده.

وفي يوم الأحد العشرين من شوال حدثت ريح حمراء بالقاهرة.

وفيها أمر أمير المؤمنين الآمر بأحكام الله أن ينعت جليسه أبو الفتح عبد الجبار بن اسماعيل، المعروف بابن عبد القوي بعماد الدولة زيادة على إخوته.

وفيها هبت بمصر وأعمالها في هذه الأيام ريح سوداء مظلمة، وطلع سحاب أسود أظلمت منه الدنيا حتى لم يبصر أحد يده، وسفت رمادا حتى ظن الناس أنها القيامة، ويئسوا من الحياة وأيقنوا بالبوار لهول ما عاينوه، ولم يزل ذلك من وقت العصر إلى غروب الشمس.ثم انجلى ذلك السواد وعاد إلى الصفرة والريح بحالها، ثم انجلت الصفرة، وظهرت الكواكب وقد خرج الناس من الأسواق والدور إلى الصحراء، ثم ركدت الريح وأقلع السحاب، فعاد الناس إلى منازلهم.

ـ ١١٥٨٠ ـ

سنة خمس وخمسمائة:

في يوم الجمعة ثـامن عشر ربيع الآخر نزل بغدويـن على صور وبها عز الملك أنوشتكين الأفضلي، وبنى عليها أبـرجة خشب، طول البرج سبعون ذراعا، يسع كل برج ألف رجـل، وهو موضوع على شيء يسمى اسقلوس وهو فخذان ملقيـان على الأرض، وفي كل برج من أسفلـه عشرون فرنجيا يصيـح أحدهـم بـالفرنجيـة:« صند مـاريـا»، فيصيح البـاقـون كذلـك، ويدفعـونه بأجمعهـم، فيسبح على ألواح عظيمة تجعـل بين يديه، وكـانت ستائر كل برج ومناجيقه كأنها بلد يزحف.

فخرج مـن أهل صور ألف رجـل وحملوا على البرج وطرحوا فيـه النار، فعلق بـالخشب، فلـم يتمكن الفـرنج مـن إطفائه وهـربوا منـه، واحترق، فتناول المسلمون بـالكلاليب ما قدروا عليـه من سلاحهم، فـوصل إليهم ثـلاثمائة درع، وكـان على هذا البرج كبشـا مـن حـديـد زنة رأسـه مـائة وخمسـون رطـلا، فظفر بـه المسلمـون، وكـانـت الريـح على المسلمين ثـم صارت معهم، وملأوا جـرارا بالعذرة ورموها على الفرنـج، فصاحوا وذلوا ورحلوا، فعاثوا، ثم عادوا وقد قطعوا النخل أنابيب ورموا بها في الخندق..

وسـار طغتكين من دمشـق لإعـانة أهـل صـور، فنـزل على يوم منهـم بحولة بانيـاس، ونفذ إليهم مائتي غلام تركي عليهـم جليل من الأتراك، فقـاتل الفـرنج وقتـل منهم ألفـا وخمسمائة، وأكثـر النكايـة فيهم، وأغـار طغتكين على بـلاد الفرنـج، فأخـذ لهم موضعـا، فرجعـوا عن صـور بغير شيء. وخرج أهل صور إلى أصحاب طغتكين، فخلعـوا عليهم وأعادوهم إليه في أحسن زي، وأخذ أهل صور في رم ماشعثه الفرنج في البلد.

وفيها حدث بمصر وباء مفرط، هلك به تقديرستين ألف نفس.

- ١١٥٨١ -

سنة ست وخمسمائة:

فيها حفر البحر المعروف ببحر أبي المنجا، فابتدىء في حفره في يوم الثلاثاء السادس من شعبان، واقام الحفر فيه سنتين، وكان أبو المنجا يهودياً وكان يشارف الاعمال الشرقية، فلما عرض على الافضل ما انفقه فيه استعظمه وقال: غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبي المنجا. فغير اسمه ودعي بالبحر الافضلي، فلم يتم ذلك ولا عرف إلا بأبي المنجا (٢٣).

وفيها أعلن شمس الخلافة أسد، والي عسقلان، بالخلاف، فعمد الى صاحب الترتيب والقاضي فأخرجها على أنه يرسلهما الى الباب في خدمة عرضت له، وإلى العسكر الذي كان يخاف شوكته، فأوهمهم انه يسيرهم إلى بلاد العدو، فلما حصلوا خارج الثغر امرهم بالمسير الى باب سلطانهم، وكان قد سير قبل ذلك العسكر من الباب على جهة البدل. فلما علم أسد المذكور بوصولهم الى مدينة الفرما أنفذ إليهم يخيفهم ويشعرهم أن العدو قد تعداهم فامتنعوا من التوجه الى عسقلان.

فلما بلغ الأفضل ذلك عزم على أن يسير بنفسه اليه، ثم رأى ان اعمال الحيلة أنجع، فخادعه وأنفذ الكتب إليه ويصوب رأيه فيما فعله في صاحب الترتيب والبدل، ولم يغير مكاتبته عن حالها، ولاتعرض لاقطاعاته ورسومه واصحابه، وسير في الباطن من يستفسد الكنانية والرجال المركزة ويبذل لهم الأموال في أخذه، ولم يزل يدبر عليه حتى اقتنصت المنية مهجته، وذلك أن أهل بيروت أنكروا أمره، فوثب عليه طائفة وهو راكب، فجرحوه، وانهزم الى داره فتبعوه واجهزوا عليه، ونهبوا داره وماله، وتخطفوا بعض دور الشهود والعامة، فبادر صاحب السيارة الى البلد وملكه، وبعث برأس شمس الخلافة الى الأفضل، فسر بذلك وأحسن الى القادمين به.

وكـان قدوم الـرأس في يـوم الأربعاء رابـع المحرم، صحبـة ثـلاثة مـن الكنانية، فخلع عليهم، وطيف بالرأس، وزينت البلد سبعة أيام.

وفيه خلـع على ولده مختار ولقب شمـس الخلافة، وأنعم عليـه بجميع مال أبيه،وسير بدله مؤيد الملك خطلخ، المعروف برزيق، واليا على الثغر.

وفيها وصـل يانـس الناسـخ من الشـام، فاستخـدم في خزانـة الكتب الأفضليـة بعشرة دنانير في الشهـر، وثلاث رزم كسـوة في السنة، والهبـات والرسوم.

وفيها كتب إلى عسقلان بمطالبة مـن نهب دار شمس الخلافة وماله بها أخذه، فقبض على جماعة وحملوا إلى مصر فاعتقلوا بها

وفيهـا تسلم نـواب طغتكين صور مـن عـز الملك أنـوشتكين الأفضلي خوفا من بغدوين أن يأخذها، وقـام بأمرها مسعود، فاستقرت بيد الأتراك وأقروا بها الدعوة المصرية والسكـة على حالها، وكتب طغتكين إلى الأفضل بأن بغـدوين قـد جمع لينزل على صـور، وأن أهلها استنجـدوني، فبادرت لحمايتها، ومتى وصـل من مصر أحد سلمتها إليه. فكتـب يشكره على ما فعل. وتقدم بتجهيز الأسطول إلى صور بالغلة معونة لها.

سنة سبع وخمسمائة

في أولها خرج الأسطـول من مصر بـالغلات والـرجال إلى صـور،وعليه شرف الدولة بدر(٢٤) بن أبي الطيب الدمشقـي متولي طرابلس عند أخذ الفرنج لها، فوصل إلى صور سـالما، ورخصت بها الأسعار، واستقام أمرها، وأنفـذ معـه بخلـع جليلـة إلى ظهير الديـن طغتكين وولـده تـاج الملـوك وخواصه، ولمسعـود متولي صور، ثم أقلع في آخر شهـر ربيع الأول. فبعث بغدوين يطلب المهادنة من مسعود، فأجابه، وانعقد الأمر بينهما.

-١١٥٨٣-

سنة تسع وخمسمائة:

في ذي القعدة قفز على الأفضل عند باب الزهومة(٢٥) من دكان صيرفي يعرف بالفار وسلم، فأخرجت الصدقات بسبب سلامته، وقتل الصيرفي وصلب على دكانه.

وورد الخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل الفرما، فسير الراجل من العطوفية، وسير إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين إليها، ويتقدم إلى العربان بأسرهم أن يكونوا في الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر، وأن يسير بنفسه، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي، فوصلت العربان والعساكر فطاردوا الفرنج، فخاف بغدوين من تلاحق العساكر، فنهب الفرما وأخرجها وألقى فيها النيران، وهدم المساجد، وعزم على الرجوع، فأدركته المنية ومات، فأخفى أصحابه موته، وساروا وقد شقوا بطنه وحشوه ملحا، وشنت العساكر الإسلامية الغارات على بلاد العدو، وخيموا على ظاهر عسقلان ثم عادوا.

وكانت الكتب قد نفذت من الأفضل إلى الأمير ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، يعتبه ويقول له: « لا في حق الإسلام ولا في حق الدولة التي ترغب في خدمتها والانحياز إليها تتوجه الفرنج بجملتها إلى الديار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم، ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد » . فلما وصل إليه الكتاب سار بعسكره إلى عسقلان، فتلقاه المقدمون، ونزل أعظم منزل، وحملت إليه الضيافات. وحمل إليه من مصر الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام، وسيف ذهب، ومنطقة ذهب، وطوق ذهب، وبدنة طميم، وخيمة كبيرة معلمة، ومرتبة ملوكية، وفرشها،وجميع آلاتها، وسائر ما تحتاج إليه من آلات الفضة، وجهز لشمس الخواص، وهو

مقدم كبير كـان معه على عدة كثيرة من العسكـر: خلعه مذهبـه، ومنطقة ذهب، وسيف ذهب، وجهـز برسم المتميزين من الـواصلين: خلع مذهبة وحـريريـة، وسيوف مغمـوسـة بالـذهـب، فتواصلـت الغارات على بـلاد العدو، وقتل منهم وأسر عدد كبير.

فلما دخل الشتـاء وتفرق العسكر والعـربان، استأذن ظهير الـدين على الإنصراف، فـأذن له، وسيرت إليـه وإلى مـن معه الخلـع ثـانيا، فحصـل لشمـس الخواص خاصـة في هذه السفـرة مـا مقداره عشرة آلاف دينـار، وتسلـم الأمير ظهير الديـن الخيمـة الكبيرة بفـرشـها وجميـع آلاتها، وكـان مقدار ما حصل له ولأصحابه ثـلاثين ألف دينار، وذكر أن المنفق في هذه الحركة على ركاب بغدوين مائة ألف دينار.

ورعشـت يـد الأفضـل، وصعـب عليه إمسـاك القلـم والعـلامـة على الكتب، فأقر أخـاه أبا محمد جعفر المظفر في العلامـة، وجعل له خمسمائة دينار في الشهر مضافا إلى رسمه، فعلم عنه.

واستهل شهـر رمضان، فجرى الأمر في نيـابة الأجل سماء الملـك، ولد الأفضل، عنه في جلوسـه بمحل الشباك، وقرر له على هذه النيـابة في هذا الشهـر خمسمائة دينار، وبـدلـة مذهبـة، ورزمـة كسوة فيهـا شقـق حريـر وغيرها، ولم يـزل هذا الرسم مستقـرا إلى أن أخذه عباس بن تميـم في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند تـوليته حجبة بابـه. والبذلة وحدهـا تساوي خمسمائة دينار.

وفيها استخـدم ذخيرة الملك جعفـر في ولاية القـاهرة والحسبـة، فظلـم وعسف، وبنى مسجدا عرف بمسجد لا بالله (٢٦).

سنة عشر وخمسمائة:

سنة احدى عشرة وخمسمائة:

في ذي الحجة خرج أمر الآمر بأحكام الله بنفي بني عبد القوي، فنفوا إلى الأندلس بأهاليهم.

وفيها وصل بغدوين إلى الفرما وأحرق جامعها وأبواب المدينة ومساجدها، وقتل بها رجلا مقعدا وابنة له ذبحها على صدره، ورحل وهو مثخن مرضا، فمات قبل العريش، فشق بطنه ورمي ما فيه هناك، فهو يرجم إلى اليوم، ويعرف مكانه بسبخة بردويل ودفنت رمته بقمامة من القدس.

وقام من بعده بملك القدس القمص صاحب الرها، بعهده إليه.

ونزل الفرنج حوران، وملكوا من أعمال حلب بزاعة وخرتبرت، وملكوا مدينة صور.

وفيها خرج محمد بن تومرت من مصر في زي الفقهاء ومضى إلى بجاية

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة:

فيها مات الأمير نور الدولة أبو شجاع فاتك، والد القائد أبي عبد الله بن فاتك، فأخرج له الأفضل من ثيابه بذلة حريرية وقارورة كافور وشققا مزيدي دبيقي، ونصافي، وطيبا وبخورا وشمعا، وحمل له من القصر أضعاف ذلك، وخرج الأفضل والأمراء، وجمع حاشية القصر، إلى الإيوان، فخرج الخليفة وصلى عليه، ثم أخرج فدفن. وتردد الناس إلى التربة، وفرقت الصدقات إلى تمام الشهر.

وكان بيد نور الدين: زمر الضاحكية، والفراشين، وصبيان الركاب،

والسلاح الخاص بجار ثقيل، ورسوم كثيرة، وهؤلاء الضاحكية(كانوا) يعرفون بهذه الرسوم قديما عند وصولهم مع المعزإلى مصر، وهم يلبسون المناديل ويرخون العذب، ويلبسون الثياب بالأكمام الواسعة، وفي أرجلهم الصاجات، وفي الأعياد يشدون أوساطهم بالعراضي الدبيقي، ولا يتقدمهم أحد إلى الخليفة على ما جرت به عادتهم في المغرب .

وفيها قفز على الأفضل ثانيا، وخرج عليه ثلاثة نفر بالسكاكين، فقتلوا، وعاد سالما، فاتهم أولاده، وصرح بالقول فيهم، وأخذ دوابهم، وأبعد حواشيهم، ومنعهم من التصرف، وبالغ في الاحتزاز والتحفظ.

وفيها وردت التجار من عيذاب ذاكرين أنه خرج عليهم في مراكب شنها قاسم بن أبي هاشم، صاحب مكة، فقطعت عليهم الطريق وأخذ جميع ما كان معهم، فغضب الأفضل وقال: صاحب مكة يأخذ تجارا من بلادي، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة، ثم تقرر الحال على مكاتبة الأشراف بمكة وإعلامهم ما فعله أمير مكة، وأقسم فيه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يقوم بجميع ما أخذه من أموال التجار، وكتب إلى والي قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه، إلى عيذاب، ومهما وصل من جدة من الجلاب لا يمكن أحدا من الركوب فيها، وأن يتشوف ما يدخل عيذاب من الشواني والحراريق، فمهما كان يحتاج إلى إصلاح ومرمة ينجز الأمر فيه، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية، وتقدم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز

فلما وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ولم يصل إليها أحد اشتد الأمر

عندهم وتحرك السعر، فبعثوا رسولا من أميرهم، فلما وصل ساحل مصر لم يؤبه له ولا أجري عليه ضيافة وقيل له: ما يقرأ لك الكتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم، وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار، وسأل التوقف قبل الإسراع بما عول عليه من قصد صاحبه، وأجل لعوده أجلاً قريبا، فأجيب إلى ذلك، وسار فلم ينقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال، فحملت إلى الجامع العتيق بمصر بمحضر من الرعايا، وهم يعلنون بالشكر والدعاء، واحتاط متولي الحكم عليه إلى أن تحضر جماعة التجار، ويجري الأمر على ما توجبه الشريعة. وخلع على الرسول وأحسن إليه ووصل.

ومرض الأفضل بحمى حادة ثم عوفي، فدفع للطبيب ثلاثمائة دينار (٢٧).

سنة خمس عشرة وخمسمائة:

فيها قتل الأفضل بن أمير الجيوش يوم الأحد سلخ شهر رمضان وعمره سبع وخمسون سنة، لأن مولده بعكا سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان سبب ذلك أنه لما كان ليلة عيد الفطر جهز ما جرت العادة بتجهيزه من الدواب والآلات لركوب الخليفة، وجلس بين يديه إلى أن عرضت الطبول على العادة كل سنة، والدواب والسلاح، ثم عاد وأدى ما يجب من سلام الخليفة فتقدم إلى القائد أبي عبدالله بن فاتك بأن يأمر صاحب الباب أن يصف العساكر إلى صوب باب الخوخة(٢٨) وركب الأفضل من مكانه والناس على طبقاتهم، وخرج من باب الخوخة قاصدا دار الذهب (٢٩)، فلما حصل بها وقع التعجب من الناس في نزوله ليلة الموسم، ولم يعلم أحدا ما قصد، وكان قصده أن يكمل تعليق المجلس

الذي يجلس فيه، فصلى بدار الذهب الظهر، فلما قرب العصر ركب منها وقد انصرف أكثر المستخدمين ظنا منهم أنه يبيت فيها، فسار إلى الزهري فإذا الأمراء والأجناد والمستخدمون والرهجية قد اتجهوا لخدمته، وكان قد ضجر وتغير خلقه ولاسيما في الصيام. فلما رأى اجتماع الناس وكثرتهم أبعدهم، فتقدموا ووقفوا عند باب الساحل، فأنفذ أيضا يخرج من أبعدهم، وبقي في عدة يسيرة، وأبعد صبيان السلاح من ورائه، فوثب عليه من دكان دقاق بالملاحين أربعة نفر متتابعين كلما اشتغل من حوله بواحد خرج غيره، فرمي من الفرس إلى الأرض، وضربوه ثمان ضربات. وكان القائد (٣٠) بعيدا منه لأخذ رقاع الناس، وسماع تظلمهم، وتفريق الصدقات على الفقراء بالطريق، فلما سمع الضوضاء أسرع إليه ورمى نفسه إلى الأرض عليه، فوجده قد قضى نحبه، وحمل على أيدي مقدمي ركابه والقائد راجل، وهم يبشرون الناس بالسلامة، وقتل من الذين خرجوا عليه ثلاثة وقطعوا وأحرقوا، وسلم الرابع، وكان اسمه سالما، ولم يعلم به إلا لما ظفر به مع غيره بعد مدة.

ولم يزل الأفضل محمولا ولا يمكن أحد من الوصول إليه إلى أن دخل به على مرتبته التي كان يجلس عليها أو يمطى. وقال (القائد): للخليفة أدركني وتسلم ملكك لئلا أغلب عليه، وصار أي من لقيه يهنئه بسلامة السلطان ويوهم أهله أن الطبيب عنده، ويأمرهم بتهيئة الفراريج والفواكه، وعاد إلى قاعة الجلوس فوجدها قد غصت بالناس، فرد عليهم السلام وهنأهم، وأظهر قوة عزم، ثم عاد إلى القاعة الكبيرة وقد حضر إليه متولي المائدة الأفضلية واستأذنه على السماط المختص بالعيد فقال له: اذبح ووسع، فالسلطان بكل نعمة وهو الذي يجلس على السماط في غد، ومع ذلك فكان في قلق وخوف شديد من أن يبلغ أولاد الأفضل فيجري منهم مالا يستدرك وتنهب الدار.

فلما أصبح الصباح وركب الخليفة ودخل إلى الدهليز الذي كان

يركب منه الأفضل ومعه الأستاذون المحنكون قال القائد أبو عبد الله للخليفة: عن إذن مولانا أفتح الباب، وكان قد منع من الدخول إلى الدار، فقال الخليفة: نعم ففتح على الأفضل وقال له القائد: الله يطيل عمر أمير المؤمنين ويفسح في مدته ويورثه أعمار مماليكه، هذا وزيره قد صار إلى الله تعالى، وهذا ملكه يتسلمه، ثم ضربت للوقت المقرمة (٣٦) على الأفضل، وأمر الخليفة بإحضار من بالقاعة من الأمراء والأجناد، فدخل الناس على غير طبقاتهم إلى أن مثلوا بين يدي الخليفة وهو قاعد على الحصيرعند المقرمة، فقال الخليفةللأمراء: هذا وزيري قد صار إلى الله تعالى، ومنكم إلي ومني إليكم، وقد كان القائد واسطته إليكم، وهو اليوم واسطتي إليكم. فشكر الحاضرون ذلك،هذا والقائد وولده مشدود الأوساط بالمناطق، وصاحب الباب على ما كانوا عليه. وتقدم إلى الشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة أن يكتب إلى الأعمال بذلك، وأمر الأمراء بالانصراف.

ثم قال القائد: يا مولانا، الأموال والجواهر على اختلافها في الخزائن الكبار عنده، وهي مقفلة ومفاتيحها عندي، وختم عليها وهي في بيت المال المصون، وكذلك المفضض التي عند المستخدمين برسم الاستعمال والميناء الذهب المرصعة والتي بغير ترصيع، والبلور التي برسم استعماله، جميع ذلك مثبت عند متولي دفتر المجلس إلا خزانة الكسوة التي برسم ملبوسه ما عندي منها خبر،فأمر من يدخل ويختم عليها، فأمر متولي الخزائن الخاص، وكان سيف الأستاذين، ومتولي بيت المال ومتولي الدفتر، وهم كبار الأستاذين المحنكين بأن يدخلوا ويجتمعوا، ولا يعترض غيرها لا لولده ولا لجهته ولا لبناته ولا لأحد من عياله.

فتوجهوا وقرعوا الباب، فلما شاهدهم النساء تحققوا الوفاة، وقام الصراخ من جميع جوانب المواضع، وكانت ساعة أزعجت كل من بمصر والجيزة والجزيرة، ثم أسكتوا. وأنفذت الرسل لختم الخزائن التي بمصر.

فبينما هم على ذلك في الليل إذ وصل إلى الخليفةرقعتان على يد أستاذ من القاهرة، من رجلين من جملة الحاشية، يذكران فيها أن أولاد الأفضل قد جمعوا عدة وشنعت حاشيتهم أن في بكرة هذه الليلة يستنصرون بالبساطية والأرمن ويثورون في طلب الوزارة لأخيهم الأكبر، فامتعض الخليفة لذلك، وهم بالارسال إليهم وقتلهم، ثم تقرر الأمر على أن يودعوا الخزانة [٣٢]من غير إهانة ولا قيود، فتوجه إليهم، فإذا جميع حاشيتهم وغيرها عندهم، والخيل قد شدت، فأودعوا الخزانة.

فلما أصبح الصباح كان قد حمل من القصر في الليل طيافير [٣٣] فيها عدة موائد للفطر في يوم العيد، وحمل برسم فطر الخليفة الصواني الذهب، وعليها اللفائف الشرب المذهبة، وكان قد هيىء للخليفة من الليل موضع للمبيت بحيث يبعد عن الأفضل، وعين من وقع الاختيار عليه لقراءة القرآن عند الأفضل.

فلما كان السحر من عيد الفطر جيء بين يدي الخليفة بما أحضر من قصوره في مواعينه الذهب المرصعة، وعليها المناديل المذهبة من التمر المحشووالجوارشينات بأنواع الطيب وغير ذلك،فاستدعى الخليفة القائد وأمره بالمضي إلى باب الحرم لإحضار الأجل المرتضى ابن الأفضل، فمضى لذلك، فأبت أمه من تمكينهم منه، فما زال حتى أسلمته إليه بعد جهد، فأتى به الخليفة فسلم به، وضمه الخليفة إليه وقبله بين عينيه، وأجلسه عن يمينه والقائد عن شماله، وبقية الخواص على مراتبهم.

ثم كبر مؤذنو القصر، فسمى الخليفة وأخذ تمرة وأكل بعضها وناولها للقائد، ثم ناول الثانية لولد الأفضل،فقام كل منهما وقبل الأرض ولم يجلس. وتقدم كل من الحاضرين فأخذ من يد الخليفة من التمر ووقف، فاستدعى القائد الفراش الذي معه الصينيتان النحاس، وأمر فراشي الأسمطة بنقل ما في الأواني التي بين يدي الخليفة في الصواني لتفرق في

الأمراء الـذين بالقـاعة والدهـاليز، فنقلت إليهـا وحملت إلى المقرمـة التي الأفضل وراءها وختم المقرئون.

ثم أظهـر الخليفة الحزن على فقـد وزيره، فتلثـم وتلثم جميـع المحنكين والحاشية، وجلـس الخليفة على المخـدة عند المقرمـة، وأمر حسـام الملك، حاجب البـاب، بإحضار القاضي والـداعي والأمراء، فدخـل الناس على طبقاتهم. فلما رأوا زي الخليفة اشتـد البكاء والعويل، وخرق كـل أحد ما عليه، ورميـت المناديل — يعني العمائم - إلى الأرض، وبكـى الخليفة وحاشيته ساعة، ثم سأل القـائد الخليفة أن يفطر على تمرة بحيث يشاهده جميع من حضر، ففعل ذلك.

ثم أشـار الخليفة إلى القائد أن يكلـم الناس عنـه: فقال: أمير المؤمنين يرد السـلام عليكم،وقـد شاهـدتم فعلـه وكونـه لم يشغله مصـابه بـوزيره ومـدبـر دولتـه ودولـة آبـائه عـن قضـاء فـرض هـذا اليـوم، وقـد أفطـر بمشاهدتكم، وأمـركم بالإفطار، فمسح الخليفة بيـده على الصواني، وتقدم القائد إلى الخليفة وصـار يناوله من الصـواني بيده، فأول ما بـدأ بالقاضي ثم الداعي، وتزاحـم الناس للأكل

ورفعت الصواني، فـأخذ القائد بيد الداعـي وقربه من الخليفـة، فناوله الخليفـة الخطبـة، وكـانـت على يساره ملفـوفـة في منـديـل شرب بيـاض مذهـب، فقبلها الـداعي وجعلها على رأسـه، وضمها إلى صـدره، وتقدم القـائد لحسـام الملك بـأن يـأخـذ الأمراء جميعهـم ويطلعـون إلى المصلى بـالقاهـرة لقضاء الصـلاة، فتوجهـوا في زي الحزن والمؤذنون بين أيـديهم، فصلى الداعـي بالنـاس، ثم صعد المنبر فـوقف على الدرجـة الثالثـة منه، وخطب، وكانت الخطبة مبيتة فيها الدعاء للأفضل والترحم عليه.

وعنـدمـا توجـه النـاس إلى المصلى أمـر ولـد الأفضل بـالمضي إلى إمـه وإخوته وجهات أبيه ليرد عليهم السلام من أمير المؤمنين ويفطرهم.

وخلا الخليفة بالقائد وأمره بإخراج جميع الجواهر، فقام إلى خزانة كانت عند بيت نوم الأفضل، فوجدها مختمه، ففتحها وأخرج قمطرين عليهماحلية ذهب مملوءين جواهر ما بين عقود مفصلة بياقوت وزمرد وسبح، وقمطرا فيه إحدى عشرة شرابة طوال كل شرابة شبران بجواهر ما تقع عليها قيمة، وصناديق فضة مملوءة مصاغات ما بين عصائب وتيجان ذهب مرصعة بجواهر نفيسة، ففتحت كلها، فشاهد الخليفة منها ما لايوصف، فسر بذلك سرورا كبيرا، وشكر القائد وقال:« والله إنك المأمون حقا، مالك في هذا النعت شريك» . فقبل الأرض ويديه.

ولهذا النعت قضية، وذلك أنه لما كان في الأيام المستنصرية، وعمر القائد يومئذ اثنتا عشرة سنة، وكان من جملة خاصة المستنصر يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة في مهماته، فيجد منه النهضة والأمانة، فيقول هذا المأمون دون الجماعة، ودرجت السنون، فذكرها الخليفة الآمر في ذلك الوقت فقال له: أنت المأمون على الحقيقة،لأجل ذلك.

ثم عاد حسام الملك أفتكين صاحب الباب، والداعي وجميع الأمراء من المصلى، ومثلوا بين يدي الخليفة، ووقع حينئذ الاهتمام بتجهيز الأفضل، وتقدم إلى زمام القصور بإخراج ما قد مازجه عرق الأئمة، وتقدم إلى ريحان متولي بيت المال بإخراج ما يجب إخراجه برسم المأتم، فمضيا، وتقدم إلى حسام الملك بإعلام الأمراء والأجناد والشهود والقضاة والمتصدرين والمقربين وبني الجوهري الوعاظ وغيرهم لحضور الجنازة وتلاوة القرآن. فعاد زمام القصور ومتولي بيت المال ومعهما عشرون صينية ملفوفة في عراضي دبيقي بياض مملوءة صندلا مطحونا ، ومسكا وكافورا وحنوطا وقطنا، وفي صدر الآخر منديل ديباج فيه ما رسم بإحضاره من ملابس الخلفاء وطيالسهم، ووصلت أيضا الموائد على رؤوس الفراشين، وهي مائة شدة،صحبة متولي المائدة الآمرية، فمد السماط بين يدي الخليفة، ومد سماطان، أحدهما بالقاعة وهو برسم الأمراء، والآخر برسم

القاضي والـداعي والشهود والمقربين والوعـاظ والمؤمنين، وحمل إلى الجهات الأفضليات شيء كثير.

فلما انقضى الأكل عاد الجميع بالقاعة، وذكر أنه ختم على الأفضل في هـاتين الليلتين واليوم نيـف وخمسون ختمـة، فلما انقضـى معظم الليلـة، الثاني مـن شوال، تقدم الخليفـة بإحضار داعي الـدعاة، ولي الدولـة ابن عبـد الحقيق، وأمـره بغسـل الأفضل على مـا يقتضيـه مـذهبه، وكفـن بما حضر من القصر، وأخرج للداعي بذلتان مكملتـان، مذهبة وحرير، عوضا عما كان على الأفضل من ثياب الدم، فـإنها لم تنزع عنه، وعند كمال غسله دفع للداعي ألف دينار.

فلما كان في الثـالثة مـن نهار يوم الثـلاثاء ثـاني شوال خـرج التابـوت بالجمع الذي لايحصى، والناس بأجمعهـم رجالة، وليس وراءهم راكب إلا الخليفة بمفرده وهـو ملثم، فلما خرج التابوت من بلـد مصر أمر الخليفة بركوب القـائد والمرتضى ولد الأفضل، وذكر أن الشيخ أبـا الحسن بن أبي أسـامة ركـب حمارا، فلما وصلـت الجنازة إلى بـاب زويلـة تـرجل القـائد والمرتضى ومشيـا، وبعث الخليفة خواصـه إلى أخويه: أبي الفضـل جعفر وأبي القاسـم عبد الصمد، وأمـرهما إذا وصل التابـوت إلى باب الزهـومة: يخرجا بغير مناديـل، بعمائم صغار وطاليس، فإذا قضيا مـا يجب من حق سلام الخليفـة يسلما على القائد أبي عبـد الله بمثـل ما كانـا يسلمان على الأفضل، ويمشيـان معه وراء التابـوت. فاعتمـدا ذلك فاستعظـم الناس هذه الحالة والمكـارمة، ولم يزالا مع الناس وراء التابـوت إلى أن دخل من باب العيد.(٢٤)

ورد على ورقة مفردة ما يلي:

....العنبر ومائة مسمار من ذهب زنـة كل مسمار مائتـا مثقال على كل

مسمار عمامة لون، وخلف عشرة صناديق فيها من نفيس الجوهر ومن القضيب الزمرد الذي قصبه لايوجد مثلها، وخلف خمسمائة صندوق من دق تنيس ودمياط وثمان مائة من الزبادي الصيني والبلور والمحكم وستمائة حملٍ وثلاثة آلاف ملعقة ذهبا، وعشرة آلاف زبدية فضية كبار وصغار، واربع قدور ذهب وزن كل قدر مائة رطل بالمصري، وستة آلاف خريطة ديباج.وثلاثة آلاف وسبعمائة خاتم ذهب بفصوص ياقوت وزمرد والف خريطة مملوءة دراهم— خارجا عن الادب — في كل خريطة عشرة آلاف درهم.ومن الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال والسروج المحلاة،ومن حلي النساء ما لايحصى عدده الا الله تعالى. واقام الآمر بدار الملك طوال شهر ايلول يحمل في كل يوم على مائتي جمل الى القاهرة من دار الملك دفعتين في النهار ودفعة في الليل طول الشهر، مائتي جمل كل يوم. وخلف الف حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة فضة، والف صدر ذهب والفي صدر فضة منقوشة،وثلاثمائة ثور ذهب واربعة آلاف ثور فضة والف بوق كبير من ذهب، وخلف من المراكب، يعني السروج، المرصعة مائة مركب،ومن الآلات والبسط الارمنية والاندلسية والطبرستانية ما ملىء به خزائن الايوان، وداخل قصر الزمرد من الجاموس وبقر الخيس والاغنام ما يباع لبنه في كل سنة بضمان ابي الحسين بن يزيد بثلاثين الف دينار، وفي حاصل الاهراء والمناخات ما لايحصى كثرة ولايعرف مقداره.

وورد ايضا على طرف الورقة:

وعند قوله والافضل هو الذي انشأ بستان البعل ما مثاله بخط المؤلف وعمل الافضل في داره...واقترح على الشعراء النظم فيها وانشد لنفسه فيها:

نــــزهـــــة عين الغــــاب والنــــاظـــر
وبجلــس للملــك النـــــــــــــــاصر
كـــأنمـــــا الأفضـــل فـــي أفقهـــــا
شمــــس الضحــى فــي الفلــك الــــدائر

ونزع السعـر في أيامـه بمصر، فأمر مشـارف الاهراء بفتح المخـازن وبيع القمح بثلاثين دينارا لكل مائة اردب. فقـال يا سيدي: القمح كل اردب بدينـار تبيع انت بثلاثين دينـارا المائة. فانتهره وقـال : يا شيخ، تـريد ان يسمع عن ايـامي شدة تعـرف بشـدة ابن عرس— وكـان هذا المشـارف يعـرف بابن عـرس— بع كما امرتك فعنـدي من البـذر ما يقـوم بالنـاس عشر سنين لاسيما القمح،فـامتثـل ذلك وبـاع بثـلاثين دينـارا كل مـائة اردب، وكان النـاس يشترون ويبيعون على باب المخزن كل اردب بـدينار، فحصل لهم من هــذا المتجر مــال عظيم وحسنت احــوالهم، وكثـرت الاموال في ايدي الرعية مدة ايـامه. وكان لايولي عملا من الاعمال الا لمن هو كـفء له، ويضع الاشيـاء في مواضعهـا، مع كثرة مـوافاتـه بما يعمله الولاة..واكثر رفاقـة للرعية وتبسطه للعـدل، فكان الولاة في ايامـه لاتمد يد واحد منهم الى مظلمـة خوفا منه فـانه كان اذا بلغـه عن احد منهم ميل عن سيرة العـدل نكل به، فـاستقامت لـذلك الامور وحسنت الاحـوال، ومات وامور الدولـة قد اسندها الى عدة من رؤساء اصحابـه، فاسند امور

العساكـر جميعا وامـارة الباب الى الامير حسـام الديـن افتكين، ورد امور الـرعية وشكـاواهم وظلامـاتهم والاخـذ والعطاء والمجلس الى القـائد ابي عبـد اللـه ابن فـاتك، ورد امـر الـدواوين والامـوال والعمال الى ابن ابي الليـث، ورد امـور الأجـر والصنـاعـات الى ابن ابي البيـان، ورد ديـوان

ـ ١١٥٩٦ ـ

المكاتبات والنظر في الاحكام والاعمال وما يخص الشريعة الى الشيخ ابي الحسن بن ابي عثمان..

فلما صار التابوت في وسط الإيوان هم الخليفة بأن يترجل، فسارع إليه القائد والمرتضى، وصاح الناس بأجمعهم: العفو يا أمير المؤمنين. عدة مرار، فترجل الخليفة على الكرسي، وصلى عليه، ورفع التابوت فمشى

وراءه، وركب الخليفة الفرس على ما كان عليه، ونزل التربة ظاهر باب النصر ووقف على شفير القبر إلى أن حضر التابوت

واستفتح ابن القارح المغربي وقرأ: « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم» (٣٥) الآية. فوقعت من الناس موقعا عظيما، وبكوا، وبكى الخليفة، وهم بنزول القبر ليلحده بيده، ثم أمر الداعي فنزل وألحده والخليفة قائم إلى أن كملت مواراته، ثم ركب من التربة والناس بأجمعهم بين يديه إلى قصره.

وأخرج من قاعة الفضة بالقصر ثلاثون حسكة، وثلاثون بخورا مكملة، وخمسون مثقال ند وعود، وشمع كثير، فأشعلت الشموع إلى أن صلى الصبح وأطلق البخور، واستقر جلوس الناس، فصلى القاضي بالناس، وفتح باب مجلس الأفضل المعلق بالستور القرقوبي الذي لم يكن حظه منه إلا جوازه عليه قتيلا، ورفعت الستور، وجلس الخليفة على المخاد الطبري التي عملت في وسطه، وسلم الناس على منازلهم، وتلي القرآن العظيم وتقدمت الشعراء في رثائه إلى أن استحق الختم فختم، ثم خرج القائد والأمراء إلى التربة فكان بها مثل ما كان بالدار من الآلات والبخور، وعمل في اليوم الثاني كذلك .

وكان عمر الأفضل يوم مات سبعا وخمسين سنة، ومدة ولايته ثمانية وعشرون عاما.

ويقال إن الآمر وافق المأمون على قتله، فرتب له من قتله.

ثم أمر أن يكتب سجل بتعزية الكافة في الأفضل والثناء على خصائصه ومساعيه، وإشعارهم بصرف العناية إليهم ومد رواق العدل عليهم، وتفريقه على نسخ تتلى على رؤوس الأشهاد وبسائر البلاد. فكتب ما مثاله:

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي، الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بما رآه وأمر به من تلاوة على كافة من بمدينة مصر - حرسها الله تعالى - من الأشراف والأمراء ورجال العساكر المؤيدة على اختلاف طبقاتهم، فارسهم ومترجلهم وراجلهم، والقضاة والشهود والأماثل، وجميع الرعايا، بأنكم قد علمتم ما أحدثته الأيام بتصاريفها، وجرت به الأقدار على عادتهاومألوفها من فقد السيد الأجل الأفضل ونعوته - قدس الله روحه، ونور ضريحه، وحشره مع مواليه الطاهرين الذين جعلهم أعلام الهدى ومصابيحه، الذي كان عماد دولة أمير المؤمنين وحمال أثقالها، وعلى يديه وحسن سيرته اعتمادها ومعولها، وتخطي الحمام إليه، واخترام المنية إياه وتسلطها عليه، وما تدارك الله الدولة به من حفظ نظامها، واستتار أمورها بعد هذا الفادح العظيم والتئامها، وما رآه أمير المؤمنين من تهذيبه للأمور بنظره السعيد، ومباشرته إياها بعزمه السديد، واهتمامه بمصالح الكافة، وإسباغ ظل الإحسان عليهم والرأفة، حتى أصبحت الدولة الفاطمية بذلك ظلية المناكب، منيرة الكواكب، محروسة الأرجاء والجوانب.

ولما كانت همة أمير المؤمنين مصروفة إلى الاهتمام بكم، والنظر في مصالحكم، والإحسان إليكم، وتأمين سربكم، وإعذاب شربكم، ومد رواق العدل عليكم، وإنصاف مظلومكم من ظالمكم، وضعيفكم من قويكم، ومشروفكم من شريفكم، وكف عوادي المضار بأسرها عنكم، وتمكينكم من التصرف في أديانكم على ما يعتقده كل منكم، جارين على رسمكم وعادتكم، من غير اعتراض عليكم - رأى ما خرج به عالي أمره من كتب هذا السجل وتلاوته على جميعكم، لتثقوا به، وتسكنوا إليه، وتتحققوا جميل رأي أمير المؤمنين فيكم، وأنه لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل، وأن باب رحمته مفتوح لمن قصده، وإحسانه عميم شامل، وله إلى تأمل أحوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة، وفي إحسان

سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة، والله تعالى يمده بحسن الإرشاد، ويبلغه المراد في مصالح العباد والبلاد، بمنه وعونه.

فاعلموا هذا من أمير المؤمنين ورسمه، وانتهوا إلى موجبه وحكمه وليعتمد الأمير متولي المعونة بمصر تلاوته على منبر الجامع العتيق بمصر ليعيه كل من سمعه، ويصل علم مضمونه إلى من لم يحضر قراءته، ليتحققوا ما ذكر فيه وأودعه،وليحمل الناس على ما أمر به فيه، وليحذر من مجاوزته وتعديه، وليقرأ بالجامع المذكور ليقع التصفح والتأمل في اليوم وما يليه، إن شاء الله تعالى».

ثم أمر الخليفة بإنشاء منشور يتلى، مضمونه:

« خرج أمر أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، بإنشاء هذا المنشور بأن يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة، قاصيها ودانيها، قريبها ونائيها، إمضاء ما كان السيد الأجل الأفضل قرره، وخرجت به توقيعاته الثابتة عليها علامته في الأحكام والأموال بتصاريف الأحوال، إذ أمر أمير المؤمنين راض بأفعاله، محقق لأقواله، حامد لمقاصده، ممض لأحكامه، عارف بسداد رأيه في نقضه وإبرامه، على أوضاعها وأحكامها، وتقريراته في كل منها، فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة ـ نصرهم الله وأظفرهم ـ وجميع النواب والمستخدمين، والكتاب والمتصرفين بجميع الأعمال من تأول فيه، أو تعقب فغير شيئا من أحكامها على ما قرره وأمر به. وليخلد هذا المنشور في ديوان التحقيق والمجلس بعد ثبوته في جميع الدواوين، وليصدر الإعلان به إلى كافة الجهات بهذا المرسوم، تثبيتا لهذا الأمر المذكور المحتوم، إن شاء الله تعالى».

وفي السادس والعشرين من شوال عمل تمام الشهر على تربة

الأفضـل، كما عملـت الصبحـة والثـالـث. فلما انقضـى الختـم وانصرف الناس ركب الخليفة بموكبه، ونزل إلى التربـة، وترحم عليه وعاد، ذكر هذا جمال الملك موسى بن المأمون البطائحي في تاريخه.

قـال ابن ميسر: وأقـام الخليفـة في دور الأفضل، وفي دار الملـك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما مدة أربعين يـوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصور، فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

فمما وجد له ستة آلاف ألف دينار عينـا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألـف دينار وفي البيـت البراني ثلاثـة آلاف ألـف ومائتـا ألف وخمسـون ألف دينار، ومائتين وخمسين إردبا دراهم ورقا، وثلاثين راحلة من الذهب العـراقي المغـزول برسـم الرقـم، وعشرة بيوت في كـل بيت عشرة مسـامير ذهـب كـل مسمار وزنـه مـائتا مثقـال عليهـا العمائم المختلفـة الألـوان، وتسعمائة ثوب ديبـاج ملونـة، وخمسمائة صندوق مـن دق دمياط وتنيـس برسم كسوة بـدنه، ولعبة من عنبر على قدر جسده برسـم ما يعمل عليها من ثيـابه لتكتسـب الرائحـة، ومن الطيـب والآلات ما لايحصـى عدده، ومن الأبقـار والجاموس والأغنـام والجمال ما بلغ ضمان ألبـانه ونتـاجه في سنة نحـو أربعين ألف دينـار، ودواية يكتب منهـا مرصعـة بالجواهـر،قوم جوهرها باثني عشرة ألف دينار، وخمسمائة ألف مجلدة من الكتب العلمية.

قال: وأخـذ الآمر في نقـل ما بـدار الأفضل إلى القصر،وهـو يرتـب ما يحمل بنفسه، هـو وأصحابه، واستمر ذلـك مدة شهرين وأيـام، والأموال تحمـل على بغـال وجمال إلى القصر، والآمر يطلـع إلى القصر ويعـود كـل غداة ويقيم حتى يرتفع النهار ويرتب ما يفعل.

وذكـر متولي الخزانـة بالقصر أن ممـا وجـد في دار الأفضل ستـة آلاف ألف وأربعمائة ألـف دينار، وورق قيمتـه مائتـا ألف وعشرون ألـف دينار،

وسبعمائة طوق ما بين ذهب وفضة، ومن الأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منثور شيء كثير.

وكان الأفضل في أوقات الشرب يصف في مجلسه صواني الذهب، وبينها ا لبراني المملوءة بالجواهر، فإذا أحب فرغت البرنية في الصينية فتكون ملئها.

ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتابي ونحوه تسعون ألف ثوب وثلاثة خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقي وشرب عمل تنيس ودمياط، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه. وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا، فيها العود وغيره، مكتوب على كل سفط وزنه وجنسه، وبراني بها المسك والكافور وشيء كثير من العنبر، ووجد مجلس يجلس فيه للشرب فيه ثمان جوار متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي، بأيديهن مذاب من أعظم الجوهر، فإذا دخل من باب المجلس ووطىء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له بحركات قد أحكمت، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات.

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارح والمخاد والمساند الديباج والدبيقي الحريري والذهب على اختلاف الأجناس أربع حجر، كل حجرة مملوءة من هذا الجنس. ووجد له عدة صناديق ملء خزانة فيها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال، ووجد له منقلات عدة تزيد على المائة، ملبسة بالذهب والفضة، مرصعة بالجوهر، وثمانمائة جارية منها خمسة وستون حظية لكل واحدة حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات والذهب والفضة من كل صنف.

وكان في مخازنه تحت يد عماله والجباة وضمان النواحي من المال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ما يتعب شرحه.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حملا طنافس، وخمسمائة قطعة بلور، وخمسمائة قطعة محكم برسم النقل، وألف عدل من متاع اليمن والمغرب، وتسعة آلاف سرج.

قال ابن ميسر: وكان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر ولا ضبط عليه.

ولما حصر الاسكندرية كان بها يهودي يبالغ في سبه وشتمه ولعنه، فلما دخل الأفضل البلد قبض عليه وقدمه للقتل وقد عدد عليه ذنوبه، فقال اليهودي: إن معي خمسة آلاف دينار، خذها مني وأعتقني واعف عني ، فقال: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئا، وكان إذا غضب على أحد اعتقله ولم يقتله، فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان، فإنه كان إذا اعتقل أحد نسيه ولا يرى بإخراجه.

وكانت محاسنه كثيرة. وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره في الحال بإطلاق ما ثبت له، واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث التي تنتظر وصول مستحقها من شرق الدنيا وغربها مائة ألف وثلاثون ألف دينار، فرفع إليه قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الرأس عيني لما ولي أن

« قد اعتبرت ما في مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار، ورفعها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع، فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها» . فوقع رقعته: « إنما قلدناك الحكم ولا رأي لنا فيها لا نستحقه، فاتركه على حاله لمستحقيه ولا تراجع فيه» فأخذها هذا القاضي عرفا.

وبلغ ارتفاع خراج مصر في أيامه لسنة خمسة آلاف ألف دينار، ومتحصل الأهراء ألف ألف إردب. وبنى في أيامه من المساجد والجوامع جامع الفيلة بالجرف المعروف بالرصد، والمسجد المعروف بالجيوشي على سطح الجبل، وبنى مئذنة جامع عمر بمصر الكبيرة والمئذنة السعيدة به أيضا والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة، وعمل خيمة الفرح التي سميت بالقاتول، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع من الثياب، وقائم ارتفاع العمود الذي لها خمسون ذراعا بذراع العمل(٣٦)، وبلغت النفقة عليها عشرة آلاف ألف دينار. وللشعراء فيها عدة مدائح.

وكان الأفضل يقول الشعر. فمن شعره في غلامه تاج المعالي:

أقضيب يميس، أم هو قد … أو شقيق يلوح، أو هو خد
أنا مثل الهلال خوفا عليه … وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه، اطلع من سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق، فأمر بضرب عنقها، فلما وضعت الرأس بين يديه أنشد:

نظرت إليها وهي تنظر ظلها … فنزهت نفسي عن شريك مقارب

أغـــارعلى أعطـــافهـــامـــن ثيـــابها
حـــذاراومـــن مســـك لهافي الـــذوائب
ولي غيرة لـــو كـــان للبـــدر مثلهـــا
لماكـــان يـــرضـــى بـــاجتماع الكـــواكـــب

قال: وكـان عدة الوعاظ والقـراء والمنشدين في عـزاء الأفضل أربعمائة وعشريـن شخصا فخـرج أمر الخليفـة أن يعطى كـل واحد منهـم ثمانين دينارا، الصغير مثـل الكبير، فقال ابـن قيراط: يا مـولانا، هـذا مال كثير، فقال: إنفاذ أمرنا هذا من بعض حقـه علينا، فجاء مبلغ ما دفع نحو من أربعة وثلاثين ألف دينار.

قال: والأفضل هـو الذي أنشأ بستان البعل، والمنتزه المعـروف بالتاج، والخمس وجوه [٣٧]والبستان الكبير، والبستان الخاص بقليوب[٣٨]، وجدد بستـان الأمير تميم ببركـة الحبش، وأنشـأ الـروضة بحـري الجزيرة، وكـان يمضي إليها في العشاريات الموكبية، رحمه الله.

في مستهل ذي القعـدة خلع على القائد أبي عبـد الله بـن فاتك بـذلة مذهبة بشدة الخليفة الداعية، وحلـت المنطقة من وسطه، وخلع على ولده بذلة مذهبة، وحلت منطقته أيضا، وعلى جميع إخوته بمثل ذلك.

واستمـر ينفذ الأمـور لا يخرج شيء عن نظـره إلى مستهل ذي الحجـة، ففي يوم الجمعـة ثانيه خلع عليـه من ملابس الخاص الشريفـة في فردكم مجلس العيـد، وطوق بطوق ذهـب مرصع، وسيـف ذهب مرصـع، وسلم على الخليفة، فأمر الخليفة الأمـراء وكافة الأستاذين المحنكين [٣٩] بالخروج بين يديه، وأن يركب من المكان الذي كان الأفضل يركب منه.

ومشى في ركابه القواد على عادة من تقدمه، وخرج بتشريف الوزارة، ودخل من باب العيد راكباً، ووصل الى داره، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات.

وفي خامسه اجتمع الأمراء واستدعى الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة، فحضر بالسجل في لفافة خاص مذهبة فسلمه الخليفة إلى الأجل المأمون من يده، فقبله وسلمه لزمام القصر، وأمر الخليفة المأمون فجلس عن يمينه، وقرىء السجل على باب المجلس، وهو أول سجل قرىء بهذا المكان، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان، ورسم للشيخ أبي الحسن ان ينقل نسبة الأمراء والمحنكين والناس جميعهم من الآمري الى المأموني، ولم يكن أحد قبل ذلك ينتسب للأفضل ولالأمير الجيوش، وقدمت للمأمون الدواة فعلم في مجلس الخليفة، وتقدم للأمراء والأجناد فقبلوا الارض وشكروا هذا الاحسان، واحضرت الخلع، فخلع على حاجب الحجاب حسام الملك، وطوق بطوق ذهب، وسيف ذهب ومنطقة ذهب، وخلع على الشيخ أبي الحسن بن أبي اسامة كاتب الدست، وعلى الشيخ أبي البركات بن أبي الليث، وعلى أبي الرضا سالم ابن الشيخ أبي الحسن، وعلى أبي المكارم أخيه، وعلى أبي محمد أخيهما، وعلى أبي الفضل أخيهما يحيى بن سعيد الميمذي (٤٠) ووصل بدنانير كثيرة بحكم انه قرأ السجل.

وخلع على أبي الفضائل بن أبي الليث صاحب مغفر المجلس. ثم استدعى غذي الملك سعيد بن عمار الضيف متولي امور الضيافات والرسل الواصلين الحضرة من جميع الجهات وأخذ اقلامه على التوقيعات فخلع عليه. وفي الايام الافضلية لم يكن احد يدخل مجلسه ولايصل لعتبته لامن الحجاب ولاغيرهم سوى غذي الملك هذا فانه كان يقف من داخل العتبة، وكانت هذه الخدمة اذ ذاك من اجل الخدم واكبرها.

وقال أبو الفتح بن قادوس [٤١] في مدح المأمون وقد زيد في نعوته:

قالوا اتاه النعت وهو السيد الـ ... مأمون حقاً والأجل الأشرف
ومغيث أمة أحمد ومجيرها ... ما زادنا شيئاً على ما نعرف

وذلك أنه نعت في سجله المقروء على الكافة «بالأجل المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين». ثم تجدد في نعوته بعد ذلك «الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين والدنيا». ثم نعت بما كان ينعت به الافضل وهو «السيد الأجل المأمون، امير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين».

ولما استمر نظر المأمون للدولة بالغ الخليفة في شكره، فقال له المأمون: ثم كلام يحتاج الى خلوة. فأمر بخلو المجلس. فقال: يا مولانا امتثال الأمر متعب، ومخالفته أصعب، وما تتسع خلافة قدام آمر الدولة وهو في دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده، وما في قواي ما يرومه مني، ويكفيني هذا المقدار، وهيهات أن أقوم به والأمر كبير، فتغير الخليفة وأقسم: ان كان لي وزير غيرك! فقال المأمون: لي شروط، وقد كنت مع الأفضل وكان اجتهد في النعوت وحل المنطقة فلم أفعل، وكان أولاده يكتبون إليه بكوني قد خنته في المال والأهل، وما كان والله العظيم ذلك مني يوماً قط، ومع ذلك معاداة الأهل جميعهم، والأجناد، وأرباب الطيالس والأقلام، وهو يعطيني كل ورقة تصل إليه منهم وما يسمع كلامهم، فقال الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته، إيش يكون فعلي أنا؟ فقال: يعرفني المولى ما يأمر به فأمتثله بشرط ألا يكون عليه زائداً، فأول ما ابتدأ به ان قال: أريد الأموال لاتبقى إلا بالقصر، ولاتصل الكسوات من الطراز [٤٠] والثغور إلا إليه ولا تفرق إلا منه،

وتكون أسمطة الأعياد فيه، وتوسع في رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رسم منديل الكم ، فقال المأمون: سمعا وطاعة، أما الكسوات والجبايات والأسمطة فما تكون إلا بالقصور، وأما توسعه الرواتب فما ثم من يخالف الأمر، وأما منديل الكم فقد كان الرسم في كل يوم ثلاثين دينارا، يكون في كل يوم مائة دينار، ومولانا سلام الله عليه، يشاهد ما يعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها، ففرح الخليفة.وقال المأمون: أريد بهذا مسطورا بخط أمير المؤمنين، ويقسم لي فيه ألا يلتفت لحاسد ولا ينقبض، ومهما ذكر عني يطلعني عليه، ولا يأمر في بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسي وانحطاط قدري، وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاتي، فإذا توفيت تكون لأولادي ولمن أخلفه بعدي.

فحضرت الدواة، وكتب ذلك جميعه، وأشهد الله في آخرها على نفسه، فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه، وكان الخط نسختين، فلما قبض الخليفة على المأمون في رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، كما سيأتي إن شاء الله، أنفذ الخليفة طلب الأمان ، فأنفذ إليه نسخة منها فحرقها وبقيت النسخة الأخرى فعدمت.

وفيها أنشأ المأمون الجامع الأقمر بالقاهرة[٤١]، وكان مكانه دكاكين علافين.

في هذه السنة هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام، فأهلكت شيئا كثيرا من الناس والحيوان [٤٢]

سنة ست عشرة وخمسمائة

في المحرم كان المولد الآمري، وتقرر السلام على الخليفة في يوم الاثنين والخميس فأما في يومي السبت والثلاثاء فيركب الوزير بالرهجية إلى

القصر، ويركب الخليفة إلى ضـواحي القاهرة للنزهة، وأمـا الأحد والأربعاء فيجلس الوزير المأمون في داره على سبيل الراحة.

وفي صفـر سب أحـد صبيان الخاص الآمـري صـاحب الشرع وشهـد عليه، فضربت عنقه وصلب.

فيـه وصـل فخر الملـك أبـو علي عمار بـن محمـد بن عمار، صـاحـب طرابلس. وكانـت الدولة، قد حولت الثغر في أيـديهم على سبيل الولاية، فلما جاءت الشدائد تغلبـوا عليه، ثم جاءت الـدولة الجيوشية فخـافوا مما قدمـوه فلـم يرمـوا أيديهم في يدها ولا وثقـوا بما بذل لهم من الصفـح عن ولاتهم، ومضى ذلك السلـف،وخلفهم القاضي فخر الملـك هذا في الأيام الأفضليـة فجـرى في تلك الـوتيرة، ودفـع إلى محاصرة الفـرنج مـدة سبـع سنين، فضاق خنـاقه، وأيـس، فخرج من طـرابلس إلى العـراق مستنجدا فلـم يجد ناصرا، واختلـت أحـواله، وعـاد إلى دمشق وقـد ملـك الفرنـج طـرابلـس فسار إلى مصر، وقـال في كتـابـه:« والمملوك لم يصـل إلى هـذه الوجهـة إلا وقد علم أن لـه من الذنـوب السالفـة ما يستحق بـه القتل، وقتله بسيـوف هذه الدولـة عدل وإحياء لـه وتشريف، وفخر يكفـر عنه بعض ذنـوبه من كفر نعمتهـا، فإن خرج الأمـر بذلك فمنة كـريمة، وإن خففت عنـه فتخليده في السجـن أحب إليـه من رجـوعه إلى تـأميل غير هذه الدولة».

فلما عـرض هـذا بـالحضرة أدركتـه الرأفـة بعـد أن أستفظـع كـل مـن الحاضرين أمره، وأشير بـإيقاع الحوطة عليه وإيـداعه خزانة البنـود، فقال المأمون للخليفـة: « قد أجـل الله عواطـف مولانـا ورحمته مـن أن يهاجر أحد إلى أبـوابه ويلجـأ إلى عفوه فيخيـب أمله ويـؤاخذ بـذنبه، ومـا بعد استسلامه إلا الشكر للـه والعفو عن جرمه،فإن العفـو زكاة القدرة عليه، ويشمله ما شمل أمثـاله»، فأعجب الخليفة الآمر ذلـك، وخرج الأمر بأن تعـدد على ابـن عمار ذنوبـه وذنـوب أسـلافـه، ويقـال له:« قـد أذهبـت

مهاجرتك ما كان يجب من عقوبتك». فإذا اعترف بذنوبه وذنوب أسلافه يقال له: «قد غفر ذنبك وأنت مخير بين أمرين: إما أن تعود فيصل إليك من الإنعام ما يبلغك إلى حيث تريد، ويصحبك من يوصلك إلى مأمنك، وإما أن تؤثر الإقامة بفناء الدولة فتقيم على أنك تلزم ما يعنيك وتقنع بما ينعم به عليك، وتقبل على شأنك، وتترك التعرض للمخالطات، وتتجنب جميع المكروهات».

فلما خوطب بذلك قبل الأرض وأبى أن يرفع رأسه ووجهه، وكلما خوطب في رفعه قال: «لست أرفعه حتى أتلقى كلمات العفو عن إمام زماني، وتمتلىء مسامعي بألفاظ مغفرته».

فبلغته الحضرة النبوية ما تمناه، وحصل له الأمن، وأمر به إلى دار أعدت له وجعل فيها شهوات السمع والبصر، وحملت إليه الضيافات الكثيرة، وجرد برسم خدمته حاجب معه عدة مستخدمين. فأقام أياما يسيرة ثم حملت إليه الكسوات التي لا نظر لها، ووصله من المواهب ما أربى على أمله. وقرر له، راتبا في كل شهر، ستون دينارا مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان، وصار يتعهد ما يفتقد به أعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة، وأنواع التحف المستظرفة ورسوم المواسم، ورفع عنه الحاجب والمستخدمون، وجعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميزه به عن أمثاله، ولزم طريقة حمدت منه، فاستمر إليه الإحسان، وصار يركب في يومي الركوب ويومي السلام وغيرهم.

فيه أفرج عن الأمير عضب الدولة عز الملك أبي منصور نبا، وكان له في الاعتقال ثلاث عشرة سنة، لأنه كان والي عكا وسلمها إلى الفرنج، فلما وصل رماه الأفضل في الاعتقال، فلما أفرج عنه أعيد عليه نظير ما كان قبض عنه للاصطبلات والخزائن، وولي البحيرة.

وأفرج عن جماعة أمراء كانوا معتقلين، منهم أبو المصطفى جوهر، ودخل السجن وهو شاب فخرج منه وهو شيخ، وكانت مدة اعتقاله خمس عشرة سنة.

فيه وصل رسول الشريف قاسم أمير مكة، الذي حضر في الأيام الأفضلية بسبب أموال التجار، ومعه كتاب بتهنئة المأمون، فجهز إلى الأعمال القوصية بالاهتمام بالجناب الديوانية وترميم ما يحتاج إلى المرمة، وتجديد عوض ما تلف، وأطلق له ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعون إردبا برسم مكة، وتحوت ثياب وخلع ومال وبخور.

وفيه غلا الزيت الطيب والسيرج، فكتب المستخدمون في الخزائن ومشارفة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود وفي المشاهد عوضا عن الزيت الطيب الزيت الحار، فخرج الجواب بالتحذير من ذلك وبألا يطلق إلا الزيت الطيب، ولا يلتفت إلى غلو السعر في الخدم التي هي من حق الله تعالى فلا يجب الرخصة فيه ولا ينقص من المطلق شيء. وبلغ المأمون أن مشارف الجوامع والمساجد اشترى من ماله صبرا وخلطه بالزيت لمنع القومة من التعرض لشيء منه، فأنكر ذلك وأمر بإحضاره وأن يقوم من ماله بثمن الزيت الذي فيه الصبر، ويطلق الزيت المستقر إطلاقه على تمامه. وقيل له: قومة الكنائس والمقيمون بها والطارقون لها لا يقتاتون إلا من فضلات وقود كنائسهم، ونحن نبيح لهؤلاء الأكل ونحرم عليهم البيع.

وتقدم الأمر بعمل حساب الدولة من الهلالي والخراجي على جملتين: إحداهما إلى سنة عشر وخمسمائة، والثانية إلى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة، فانعقدت على جملة كثيرة من عين وأصناف، وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها، فلما حضرت أمر بكتابة سجل بالمسامحة إلى آخر سنة عشر وخمسمائة، ومبلغ ما سومح به من البواقي ألفا ألف وسبعمائة

ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وستون دينارا، ومن الورق سبعة وستون ألفا وخمسة دراهم، ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون إردبا، ومن الأرز والكتان وورق الصباغ وزريعة الوسمة والصباغ والفوة والحديد والزفت والقطران والثياب والمآزر والغرابيل شيء كثير،ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفا وثلاثمائة وخمسة رؤوس، ومن البسر [٤٣] والسحيل[٤٤] والجريد والسلب[٤٥] والأطراف والملح والأشنان والرمان وعسل النحل والشمع وعسل القصب شيء كثير، ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفا ومائة وأربعة وستون رأسا، ومن الدواب والسمن والجبن والصوف والشعر شيء كثير.

وقد تقدم ذكر نسخة هذا السجل عند ذكر الخراج من هذا الكتاب.

وقرىء منشور بالجامع الأزهر وجامع عمرو بمصر بالمنع مما يعتمد في الدواوين من قبول الزيادة وفسخ عقود الضمانات، وإعفاء الكافة من المعاملين والضمناء من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم.

فيه تحول الخليفة الآمر إلى اللؤلؤة [٤٦] وأقام فيها مدة النيل على الحكم الأول، وأزال ما أحدث من البناء بالقرب منها، وتحول معه الوزير المأمون بن البطائحي والشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وحاجب الحجاب حسام الملك، ورتبت الرهجية والحرس، وأطلق لهم ما يقوم بهم، وصار الخليفة يمضي في السراديب من اللؤلؤة إلى القصر في يومي السلام، فلا يراه أحد سوى الأستاذين والخواص، ويحضر الوزير على عادته ويعمل الأسمطة، ويحضر الناس على العادة، ويركب في يومي الثلاثاء والسبت إلى المنتزهات.

فيه تقدم الوزير بتجديد المشاهد التسعة التي بين القرافة والجبل [٤٧]

وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية في آخر جمادى من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم، ويحذر من بيع الخمر، فرأى الوزير أن يكون ذلك في سائر الأعمال، فكتب إلى ولاة الأعمال وأن ينادى أن من تعرض لبيع شيء من هذين الصنفين أو لشرائهما سرا وجهرا فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها (٤٨)

لما كان مستهل رجب عملت الأسمطة على العادة فقال الآمر لوزيره المأمون: قد أعدت لدولتي بهجتها، وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك، وبقيت الليالي وقد كان بها مواسم وقد زال حكمها، وهي ليالي الوقود الأربع (٤٩). فامتثل الأمر، وعملت.

واستجد في كل ليلة على الاستمرار برسم الخاصين: الآمري، والمأموني قنطار سكر ومثقالا مسك، وديناران برسم المؤن ليعمل خشكنان، وبستندود (٥٠) في قعاب وسلاسل صفصاف، وكان يسمى بالقبعة، ويحمل ثلثا ذلك إلى القصر والثلث إلى دار المأمون.

ووصلت كسوة الشتاء، فكانت أربعة آلاف قطعة وثلاثمائة وخمس قطع، ووصلت كسوة عيد الفطر وتشتمل على نحو عشرين ألف دينار، وكان عندهم الموسم الكبير، ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجميع، وفي غيره للأعيان خاصة.

وعمل الختم في آخر شهر رمضان بالقصر، وعبىء سماط الفطرة في مجلس الملك بقاعة الذهب من القصر، فكان سماطا جميعه من حلاوة الموسم، وصلى الخليفة الآمر بالناس صلاة العيد في المصلى ظاهر باب النصر وخطب، وكان ذلك قد بطل في الأيام الجيوشية والأفضلية.

وكان الذي أنفق في أسمطة شهر رمضان عن تسع وعشرين ليلة،

خارجا عن التوسعة المطلقة أصنافا برسم الخليفة وجهاته، وخارجا عن العطية، وخارجا عن رسم القراء والمسحرين وخارجا عن الأشربة والحلاوات من العين ستة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وثلاثين دينارا. وجملة ما قدر على المنفق في شهر رمضان، بما تقدم شرحه، والتوسعة والصدقات والفطرة وكسوة الغرة والعيد، ومائة ألف دينار عينا، وضرب في خميس العدس ألف دينار عملت عشرين ألف خروبة، وكانت العادة أن يضرب في كل سنة خمسمائة دينارا[٥١].

وفي شوال هذا وصل شاور من أسر الفرنج، وكان مأسورا من الأيام الأفضلية وطالت مدة أسره، وبذلت عشيرته في افتكاكه جملة كبيرة، فلم يقبل منهم، وطلب فيه أسير من الفرنج، فلم يجبهم الأفضل إليه لأنه كان لا يطلق أسيرا أبدا، فلما ولي المأمون الوزارة وميز رديني، مقدم العربان الجذاميين، وقبيلته - وشاور من بني سعد، فخذ من جذام - فوقف مجير، أخو شاور، وإخوته للمأمون، وما زالوا به حتى أطلق الأسر، فأطلق الفرنج شاور في شوال، وأثبت في الطائفة المأمونية، وكان هذا ابتداء حديث شاور

وفيه تنبه ذكر الطائفة النزارية، وقرر بين يدي الخليفة بأن يسير رسولا إلى صاحب ألموت بعد أن جمعت فقهاء الإسماعيلية والإمامية، وهم: ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، وجميع دعاة الإسماعيلية، وأبو محمد بن آدم متولي دار العلم[٥٢]، وأبو الثريا بن مختار فقيه الإسماعيلية، ورفيقه أبو الفخر، والشريف ابن عقيل، وشيوخ الشرفاء، وقاضي القضاة، وأولاد المستنصر، وجماعة بني عم الخليفة، وأبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وجماعة من الأمراء، وقال لهم المأمون: ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية؟ فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا خرج عن المذهب وحل ووجب قتله، وإن كان و الده المستنصر نعته ولي عهد المسلمين

ونعت إخوته، منهم أبو القاسم أحمد بولي عهد المؤمنين، وكل مؤمن مسلم وما كل مسلم مؤمن ، وقد نطق بذلك الكتاب العزيز [٥٣].

وذكر حسين بن محمد الموصلي أن اليازوري لم يزل يسأل المستنصر إلى أن كتب اسمه على الدينار وهو ما مثاله:

ضربت في دولة آل الهدى
من آل طه وآل ياسين
مستنصرا بالله جل اسمه
وعبده الناصر للدين

في سنة كذا، ولم يقم بعد ذلك إلا دون الشهر، فاستعيدت وأمر ألا تسطر.

ودليل يعضد ذلك أنه لما جرت تلك الشدائد على الإمام المستنصر وسير أولاده، وهم: الأمير عبد الله إلى عكا إلى أمير الجيوش، ثم اتبعه بالأمير أبي علي والأمير أبي القاسم، والد الحافظ،إلى عسقلان، وسير نزارا إلى ثغر دمياط سير الأعلى إلى الأعلى ولم يسمح بسفر الإمام المستعلي ولا خروجه من القصر لما أهله له من الخلافة، ولا أبعده خوفا من حضور المنية، فلما وصل أمير الجيوش إلى البلاد بعد تهيئتها وتأمينها، ورغب الإمام المستنصر في عقد نكاح ولده الإمام المستعلي على ابنته، أخت الأفضل، وعقد النكاح بنفسه، سماه في كتاب الصداق مولى عهد أمير المؤمنين، وعلم عليه بخطه، ثم عند وفاة المستنصر بايع نزار الإمام المستعلي بما شاهده كل حاضر، وبما ذكرته السيدة ابنة الإمام الظاهر شقيقة الإمام المستنصر في صحة إمامته، فكتب الكتاب بجميع ذلك إلى صاحب ألموت مضمنا بشهادة الجماعة بذلك.

ثم وصل في أثناء ذلك كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قد قويت شوكتهم، واشتدت في البلاد طمعتهم، وأنهم يسيرون المال مع

التجـار إلى قوم يخبرون أسماءهـم، وأنهم سيروا ثـلاثـة آلاف دينار بـرسـم النجوى [٥٢] وبـرسم المؤمنين الـذين ينـزل الـرسل عنـدهم ويختفـون في محلهـم، فتقـدم المأمـون بالفحص عنهـم والاحتراز التـام على الآمـر في ركوبه ومتنزهاته، وحفظ الدور غيرها.

ولم يزل البحث التام في طلبهم إلى أن وجدوا عنـد قوم من أهل البلد، فاعترفوا بأن خمسـة منهم هم الرسل الواصلين بـالمال من البلاد المشرقية، فـراموا قتلهـم، فأشـار المأمون بتركهـم، وأحضر الشيـخ أبو القـاسم بـن الصيرفي، وأمر بكتب سجل يقرأ على رؤوس الأشهاد وتفرغ منه النسخ إلى البلاد بمعنـى ما ذكر مـن نفى نزار عن الإمـامة وشهر الجماعـة المقبوض عليهم وصلبـوا، وامتنع الآمر من قبـض الألفي دينار الواصلـة للنجوى وأمر بحملهـا إلى بيت المال، وأن تنفق في السـودان عبيد الشراء خـاصة، وأمر بـأن يحضرمن بيت المال نظير المبلغ، وتقـدم بأن يصاغ قنـديلين ذهبا وقنـديلين فضـة، وأن يحمـل قنديـلان، ذهبـا وفضـة، إلى مشهـد الحسين بعسقلان، وقنـديلان كـذلك إلى التربـة، وأطلق المأمـون من مـاله ألفـي دينار، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهـب وسلسلة فضة برسمه على قياس أحضر من عسقـلان، وأن يصاغ على المصحـف الذي بخـط علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمصر من فوق الفضة ذهب

وأطلق مـن حاصل الصنـاديق التي تشتمـل على مال النجاوي بـرسم الصدقـات عشرة آلاف درهم تفرق في الجوامـع الثلاثـة الأزهر بالقـاهرة، والعتيـق بمصر، وجـامـع القـرافـة [٥٣] وإلى فقـراء المؤمنين وعلى أربـاب القصور، وأطلـق من الأهـراء ألفا إردب قمحا وتصـدق عدةمـن الجهات بجملة كثيرة. واشتريت عدة جـوار من الحجر [٥٤] وكتب عتقهن وأطلق سراحهن .

قال ابن ميسر، وقد ذكـر هذا المجلس: وقد كانت أخـت نزار في قاعة

بجانب الإيوان من القصر،وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين. فلما جرى هذا الفصل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء هذا الستر؟ فعرف بها إخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستر، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا يا جماعة الحاضرين، وبلغوا عني جماعة المسلمين بأن أخي شقيقي نزارا لم يكن له إمامة، وأني بريئة من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها، لما علمته من والدي وسمعته من والدتي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمة والدة عبد الله أخي إلى المنظرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحولا والبرياب للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجرة في ولديهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما، وقال: ما يصل أحد من ولديكما إلى الأمر، صاحبه معروف في وقته، وشاهدت والدي المستنصر في مرضته التي توفي فيها وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبل بين عينيه، وأسر إليه طويلا وتدمعت عيناه، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليلته استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها فقبلها وعاهدها، وأشهد الله تعالى معلنا ومظهرا، فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحته الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد، ووقف بظاهر المقرمة، ثم جلس وكلهم قيام، وأخذ في التعزية، ثم قال: يا مولاتنا من ارتضاه للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد عاهدني عليها، وأوصاني بأن الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد، فحضر وبايعته عمتي، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله فأشار الأفضل إلى نزار فبايعه، وأمر الأفضل بالتوكيل على نزار وتأخيره، فأخر إلى مكان لا يصلح له، واستدعى الأفضل الداعي وأمره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذين، وسألت عمتي الأفضل في نزار فرفع عنه التوكيل عليه بعد أن كلمه بكلام فيه غلظة، ووالله ما مضى أخي نزار إلى ناصر الدولة أفتكين بالاسكندرية لطلب إمامة ولا لإدعاء حق، ولكن طالبا لزوال الأفضل وإبطال أمره لما فعل معه، والله يلعن من يخالف ظاهره باطنه، فشكرها الناس على ذلك.

وكان سبب حضور أخت نزار في هذا المجلس أن المأمون قال للآمر: قد كشفت الغطاء وفعلت ما لا يقدر أحد على فعله، وأما القصر فما لي فيه حيلة، ولوح أن أخت نزار وأولاده لا يمكنني كشف أمرهم، فلما بلغ أخت نزار ذلك حضرت إلى الخليفة الآمر لتبرىء نفسها، ورغبت أن تخرج للناس لتقول ما سمعته من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ما ليس له، فاستحسن الآمر ذلك منها وأحضر المأمون وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلي، واتفقوا على يوم يجتمعون فيه، فلما كان في شوال عمل المجلس المذكور.

وأما النزارية فإنها تقول: إن المستنصر مات والأفضل صاحب الأمر والمستحوذ على المملكة، والجند جنده، وغلمان أبيه لا يعرفون سواه، وكان نزارا، لما يرى من غلبة الأفضل على الدولة، يتكلم بما يبلغه، فينكره، فلما مات المستنصر والأفضل متخوف من شر نزار أقام أحمد (٥٥) المستعلي، لأنه زوج أخته ولأنه صغير.

وفيها أراد الآمر أن يحضر إلى دار الملك في يوم النوروز الكائن في جمادى الآخرة، ويركب إليها في المراكب على ما كان عليه الأفضل، فمنعه المأمون من ذلك وقال: يا مولانا، الأفضل لا يجري مجرى أمير المؤمنين، وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم جهاته ماله قيمة جليلة (٥٦)

وفي شوال بلغ المأمون أن جزيرة قويسنا (٥٧) ومنية زفتي (٥٨) ليس فيهما جامع، فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه، فسار وبنى جامعا على شاطىء النيل بمنية زفتي، وقرر فيه خطيبا وإماما ومؤذنين، وفرش، وأطلق برسمه نظير ما للجوامع.

وفيه وصل الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهري الطرطوشي من الإسكندرية بالكتاب الذي حمله: « سراج الملوك»، فأكرمه وأمر بإنزاله في

المجلس المهيأ لـلأخوة، وتقدم برفـع أدوية (٦٠) الكتاب وأوطئـة الحساب وسـلام الأمـراء، وعمل السماط، وسـارع إلى البـادهنـج(٦١)، واستـدعى بـالفقيه، فلما شـاهـده وقف، ونـزل عـن المرتبة، وجلس بين يـديه، ثـم انصرف، ومعه أخـو المأمون، إلى مكـان أعد لـه، وحمل إليه مـا يحتاج لـه وأمر مشارف الجوالي(٦٢) أن يحمل لـه في كل يوم خمسة دنـانير بمقتضى توقيع مقتضـب، فامتنع الفقيه وأبى أن يقبـل غير الدينارين اللذيـن كانا له في الأيام الأفضلية. وصـار المأمون يستدعيه في يومي راحتـه، ويبالغ في كرامته، ويقضي شفاعاته.

وكـان ا لسبـب في حضـوره أنـه تكلـم في الأيـام الأفضليـة في أمـر المواريث وما يأخذه أمناء الحكم مـن أموال الأيتام، وهو ربع العشر، وأمر توريث الابنـة النصف فلم يقبل ذلـك، ففاوض المأمون فيه وقـال: هذه قضية وجدتها وما أحدثتها وهـي تسمى بالمذهب الدارج، ويقال إن أمير الجيوش بدر هو الـذي استجدها، وهو أن كل من مـات يعمل في ميراثه على حكم مـذهبه، وقد مـر على ذلك سنـون وصار أمرا مشروعـا، فكيف يجوز تغييره.فقال لـه الفقيه: إذا علمت ما يخلصـك من الله غيرهـا فلك أجـرها. فقـال أنا نـائب الخليفـة، ومذهبـه ومـذهب جميـع الشيعة مـن الزيـدي، والإمامي والإسماعيلي أن الإرث جميعه لـلابنة خاصة بـلا عصبة ولا بيت مـال، ويتمسكون بأنه مـن كتاب الله كما يتمسك غيرهـم. وأبو حنيفـة، رحمة الله، مـوافقهـم في القضية. فقـال الفقيه: أنـا مـع موجـود العصبة فـلا بد من عدتها. فقـال المأمون أنا لا أقـدر أن أرد على الجماعة مذهبهم، والخليفـة لا يرى به وينقضه على مـن أمر به، بل أرى بشفـاعة الفقيه ان أراد الجميع على رأي الدولة فيرجـع كل أحد على حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله، ويبطل حكم بيت المال الذي لم يذكره الله في كتابه، ولا أمر به الرسول عليه السـلام، فأجاب إلى ذلك. وأمر الوزير أن يكتب بـه وأن يكتب بتعويض أمنـاء الحكم عما يقتضونه مـن ربع العشر بتقرير جار لهم في كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية(٦٣) .

وأخذ الفقيه في ذكر بقية حوائج أصحابه، وكتب منه توقيع فرغت منه نسخ، منها ما سير إلى الثغور وكبار الأعمال، وشملته العلامة الآمرية وبعدها العلامة المأمونية. ونسخته بعد البسملة: « خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجل المأمون أمير الجيوش - ونعوته والدعاء - وهو الخالصة أفعاله في حياطة المسلمين وذو المقاصد المصروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين، والهمة الموقوفة على الترقي إلى درجات المتقين، والعزائم الكافلة بتسديد أحوال الكافة أجمعين، شيمة خصه الله بفضيلتها جبلة أسعد بجلالها وشريف مزيتها، والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة وأنحاء للميامن كافلة ضامنة، من أمر المواريث وما أجراها عليه الحكام الدارجون بتغاير نظرهم، وقرروه من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد، وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته،فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم، و هو المنهج القويم لقول الله سبحانه: « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم » (٦٤). ويحمل من سواهن على مذهب مخلفيهن، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لمن بعدهم، عدولا عن محجة الدولة،وخروجا عما جاء به العباد بعدموت الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة، فهم قراء القرآن، وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان، وإليهم سلم المؤمنون، وعلى هديهم وإرشادهم يعول الموقنون، فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول، بعيدة من التحقيق خالية من المحصول، ولم ير إلا العود فيه إلى عادة آبائه المطهرين، وأسلافه العلماء المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين، وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالإيعاز إلى القاضي ثقة

الملك النائب في الحكم عنه، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال، دانيها وقاصيها، قريبها ونائيها، من الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة،وأسلافه الكرام البررة، وإعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأي الدولة فيها، والإفراج عنها برمتها لمستحقيها، من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، وأن يضربوا عما تقدم صفحا،ويطووا دونه كشحا، منذ تاريخ هذا التوقيع، وفيما يأتي بعده مستمرا غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعقب لما ذهب وانقضى».

« وليوعز الأجل المأمون، عضد الله به الدين، بامتثال هذا المأمور، والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذر كلا من القضاة والنواب، والمستخدمين في الباب، وسائر الأعمال، من اعتراض موجود أحد ممن يسقط بالوفاة وله وارث بالغ رشيد، حاضر أو غائب، ذكرا كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان بشيء من التأويلات، أو تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات، إلا ما أوجبته بينهم المحاكمات والقوانين الشرعيات الواجبات، نظرا إلى مصالح الكافة، ومداً لجناح العاطفة عليهم والرأفة ، ومضاعفة للأنام وإبانة عن شريف القصد إليهم والاهتمام .

فأما من يموت حشريا ولا وارث له حاضر ولا غائب، فموجوده لبيت المال بأجمعه عن الأوضاع السليمة، والقوانين المعلومة القويمة،إلا ما يستحقه زوج إن كان له ، أو دين عليه يثبت في جهته، وإن سقط متوفى وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطا حكميا، وقانونا شرعيا مصونا من الاصطلام، محروسامن التفريط

والاحترام، فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم بالباب، على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب، طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقبضه عليه.

كذلك نمي إلى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وجميع الأعمال إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولاها الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع، فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام، والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحا استمروا على فعله، واعتمادا لم يجر الأمر فيه على حكمه، فكره ذلك وأنكره، واستفظعه وأكبره، واقتضى حسن نظره في الفريقين، ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جاريا يقام لكل منهم من الإنعام، وأمر بوضع هذا الرسم وتعفيته، وإبطاله وحسم مادته، فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب، وليصدر الإعلام على سائر النواب، سلوكا لمحجة الدين، وعملا بأعمال الفائزين السعداء المتقين، بعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحاضر وباد، ولتفرغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال، وليخلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الآمري، وحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى حجة مودعة في اليوم وما بعده.

وكتب لليلتين بقيتا في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة».

ثم حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير، وعرفه ما عزم عليه من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فكتب إلى ابن حديد بموافقة الفقيه على موضع يتخيره، وأن يبالغ في إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة، وتوجه فبنى المسجد المذكور على باب البحر، وأما المسجد الذي بالمحجة فإن المؤتمن عند مقامه بالثغر بناه.

وذكر للمأمون أيضا أن واحات البهنسا (٦٥) ليس بها جمعة تقام، فأمر ببناء جامع بها، ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومة ومؤذنون، وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم.

وقيل إن الذي أنشأه المأمون في وزارته وفي أيام الأفضل أحد وأربعون مسجدا، مع ما أمر بتجديده، بعد وزاراته، بالقاهرة ومصر وأعمالها ما يناهز مائتي مسجد.

فيه بنيت دار ضرب بالقاهرة ودار وكالة (٦٦).

وفي ذي القعدة مات الأمير السعيد محمود بن ظفر، والي قوص. وركب المأمون إلى الجامع الأزهر، فلما كان وقت صلاة الصبح تقدم قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الراسعيني وصلى، فلما قرأ الفاتحة لحقه زمع شديد وارتعد، فلحن في الفاتحة، وقرأ:« والشمس وضحاها»، فلما قال:« ناقة الله وسقياها» أرتج عليه، فرد المؤتمن حيدرة، أخو المأمون، عليه، فاشتد زمعه فكرر عليه الرد، فلم يهتد وقال: «وسقناها» بالنون. فقرأ المأمون بقية السورة وسجد الناس. وقام في الركعة الثانية وقد دهش فلم يفتح عليه بشيء، فقرأ المأمون الفاتحة« وقل هو الله أحد»، وقنت وهو معه يلقنه. فلما انقضت الصلاة اشتد غضب المأمون وأمر متولي الباب بأن يختم المقرئون. وتخيل المقام وخرج من الجامع، فوكل بالقاضي من يمضي به إلى داره ويأمره بالمقام بها من غير تصرف حتى يحفظ القرآن، وقرر له راتبا فيما بعد، ولزم داره.

وأنفذ للوقت إلى القاضي أبي الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، من قضاة الغربية، فأحضره وخلع عليه في القصر بذلة مذهبة، وسلم به على الخليفة، وسلم إليه السجل في لفافة مذهبة بنيابته في الحكم العزيز، والخطابة، والصلاة وديوان الأحباس ودورالضرب بسائر أعمال المملكة،

ونعت فيه بالقاضي جلال الملك تاج الأحكام، فقبله ووضعه على رأسه. وتلي على منابر القاهرة ومصر.

وكان يحضر في يومي الاثنين، والخميس إلى مجلس المظالم بين يدي المأمون، ويستعرض القصص ويناقش فيها، ويباحث مباحثة الفقهاء العلماء، فزاد المأمون في إكرامه، ورد إليه وكالة الخليفة، وكتبت له الوكالة، وشرف بالخلع.

وتولى قوص الأمير مؤيد الملك وخلع عليه، وأمر أن يبني بقوص دار ضرب، وجهز معه مهندسين وضرابين وسكك العين والورق، وعشرين ألف دينار وعشرين ألف درهم فضة، فضربت هناك دنانير ودراهم، وصار كل ما يصل من اليمن والحجاز من الدنانير العدنية وغيرها يضرب بها.

وصار ما يضرب باسم الآمر في ستة مواضع: القاهرة، ومصر، وقوص، وعسقلان، وصور، والإسكندرية.

وقرر للشيخ أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه بن يوسف، الإسرائيلي الأصل، لما قدم من الأندلس وصار ضيف الدولة، جار وكسوة شتوية وعيدية ورسوم (٦٧)وأقطع دارا بالقاهرة، وكتب له منشورا نسخته بعد البسملة:

« ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره، وأنفس ما وشحت الدولة بجميل أثره، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها، وإظهار المعارف وإيضاح سرها، لا سيما صناعة الطب التي هي غاية الجدوى والنفع، وورود الخبر بأنها قرينة إلى الشرع. لقوله صلى الله عليه وسلم: (العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان)خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو

همته مـن إنماء العلوم وإشهـارها، واختصـاص الدولـة الفاطميـة بإحيـاء الفضـائل وتجديد آثـارها، ليبقـى جمال ذلـك شاهـدا لها على مر الأيـام، متسقا بما أفشاه لها مـن المآثر الجمة والمفاخر الجسـام، لشيخنا أبي جعفر يوسـف بن أحمد بـن حسديـه، أيده اللـه، لصرف رعايتـه إلى شرح كتب أبقراط التـي هي أشرف كتـب الطب وأوفاهـا، وأكثرهـا إغماضا وأبقـاها، وإلى التصنيـف في غير ذلـك من أنحـاء العلـوم، ممـا يكون منسـوبـا إلى الأوامر العـالية، ورسم التـوفر على ذلـك والانتصاب له، وحمل مـا يكمل أولا أولا إلى خزائن الكتـب، وإقراءجميـع من يحضر إليـه من أهـل هذه الصنـاعة، وعـرض مـن يـدعيها واستشفـافـه فيما يعـانيه، فمـن كملـت صنـاعته فليجـره على رسمـه، ومن كـان مقصرا فـليستنهضـه، واعتمدنـا عليه في ذلك لكونه مميزا في البراعـة في العلوم متصرفا في فنونها، مقدما في بسطهـا وإظهـار مكنـونها، ولأنـه يبلـغ الغـرض المقصـود في شرح هـذه الكتب ويـوفي عليه، ويسلك أوضـح السبل وأسـدها إليه، وفي جميـع ما شرع لـه، فليشرع في ذلك مستعينـا باللـه، منفسـح الأمل بـإنهاضنا لـه، وجميل رأينا فيه، بعد ثبوته في الدواوين إن شاء الله تعالى.

وكتب فـي ذي القعدة سنـة ست عشرة وخمسمـائة فانتصـب لطلبي علـم الطـب، وأقبـل أطبـاء البلـديـن إليـه، واجتمـع فـي أيدي النـاس من أمـاليه كثير، وجعل لـه يومين في الجمعـة يشتغل فيهما، ويتوفر في بقية الأسبـوع على التصنيـف، وحمل ذلك إلى الخزائن، واستخدم كاتبين لتبييض ما يؤلفه.

ولما أهـل ذو الحجة جـرى الحال في الهنـاء ومدائح الشعـراء في القصر بين يدي الخليفـة وبالدار المأمـونية على الحال المستقرة، واستقبلـه المأمون بالصيام، وأخرج مـن ماله ما زاد عن المستقر في كل عـام، برسم الأطفال من الفقـراء والأيتام، من أهل البلـدين وغيرهـم، ولم يتعرض لطلـب ذلك

مـن المميزيـن بحكم مـا يعملونـه مـن السنين المتقادمـة. ومما ابتكـره ولم يسبقه إليـه أحد استعمـل ميقاظ حريـر فيه ثلاث جـلاجل، وفتـح باب طـاقة في الـروشن مـن سور داره، فصـار إذا مضى شطـر الليل وانقطـع المشي طرحت السلسلـة ودلي الميقاظ من الطاق، وعلى هـذا المكان جماعة مبيتون بحقـه من المغـاربة، فمـن حضر من الـرجال والنسـاء متظلما شد رقعته في الميقاظ بيده ويحركه بعد أن يقف من حضره على مضمون الرقعة، فإن كـانت مرافعة لم يمكنوه من رفعها، وإن كانـت ظلامة مكنوه من ذلك ويعوق صاحبها إلى أن يخرج الجواب.

وكان القصـد بعمل ذلـك أنه من حـدث به ضرر مـن أهل الستر، أو كانت امـرأة من غير ذات البروز ولا تحب أن تظهر، أو كانـت مظلمة في الليل تتعجل مضرتها قبل النهار فلتأت لهذا الميقاظ.

وحضرت كسوة عيـد النحر، وفرقت الـرسوم على من جرت عـادته بها، خارجـا عما أمر به مـن تفرقـة العين المختص بهذا العيد وأضحيتـه،فكان منها سبعة عشر ألفـا وستمائة دينار برسم القصور جميعها، وجملـة ما نحر وذبح الخليفـة خاصـة، دون الوزيـر، في ثلاثـة أيام النحـر ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسـا، منها نوق مائة وثلاثة عشر، وبقـر ثمانية عشر رأسا، وجـامـوس خمسـة عشر، والبقيـة كبـاش، ومبلـغ المصروف على أسمطـة الثلاثـةأيام، خـارجا عـن أسمطة الـوزير، ألـف وثلاثمائة وستـة وعشرون دينارا، ومن السكر ثمانية وأربعون دينارا.

وعمل عيـد الغديـر [٦٨] على رسمه. وركب الخليفة إلى قليوب، ونزل بالبستـان العزيزي لمشاهـدة قصر الورود[٦٩] على العادة المستقـرة والسنة المتقدمة، وفـرقت الصدقات في مسافـة الطريق، وضربت الخيـم، وقدمت الأسمطة. ثم عاد في آخر النهار إلى قصره.

في هـذه السنة سير المأمـون وحشي بـن طـلائع إلى صور، فقبـض على مسعود بن سلار، واليها لمخالفته، وأحضره.

فيهـا تجهز الأسطـول وسارت المراكـب، فيهـا خمسة عشر ألـف أردب قمحا وأقوات كثيرة، إلى صور، فلما وصل خرج إليـه سيف الدولة مسعود واليهـا مـن جهة طغتكين، فلما سلـم عليهـم سـألوه النـزول إليهـم، فلما حصل في المراكـب اعتقل، وأقلع الأسطـول به إلى مصر، فأكـرم وأنزل في دار، وأطلق له ما يحتاج إليه، وسبب القبـض عليه كثرة شكوى أهل صور منه.

وفيها وصل البدل من ثغر عسقلان على العادة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

في غرتها عمل بـرسم أول العام (٧٠)، ثم حزن عاشوراء (٧١)، فالمولد الآمري على مـا جرى بـه الرسم. وخلـع على المؤتمن سلطان الملـوك نظام الديـن أبي تراب حيدرة، أخـي الوزير المأمـون، بدلـة مذهبة خـاص من لباس الخليفة، وطوق ذهـب، وسيـف ذهـب بغير منطقة، وشرف بتقبيل يد الخليفة في مجلسـه، وسلم إليه تقليـد في لفافة مذهبـة بولاية الإسكنـدرية والأعمال البحرية، وشـدت له الأعلام القصب والفضـة والعماريات(٧٢)، وحمل بين يديه الأكيـاس برسم التفرقة. وحجبه الأمـراء والأستاذون، وقبل أبواب القصر، ومضى إلى داره، وأطلق له من ارتفاع ثغر الإسكندرية على الولايتين في الشهر خمسمائة دينار.

وثار اللـواتيون وغيرهـم بالصعيد الأدنـى، وقتلوا زيـن الدولـة علي بن أبي تـراب الوالي،وعـاثوا فـي البلاد وأفسـدوا،فخرج إليهم المـؤتمن أخو الوزير وتاج الدولة بهرام زمـان (٧٣) الأرمن في عدة وافرة، فانهزموا بين يـديـه، واحاط بمـا خلفـوه من المـواشي.

وبلغه نـزول مراكب الـروم والبنادقـة، وهي بضع وعشرون مـركبا، على الإسكندرية، فبادر إليها، فلما شاهده العدو أقلع، فأخذ منهم عدة قطع، وقدم على المؤتمن مشـايخ اللواتيين والتزمـوا بحمل ثلاثين ألـف دينار في نظير جنـايتهم، وأن يعفى عنهم، فأجـابهم الوزير الـى ذلك، وحمل المال مع الرهائن.

وكان المؤتمن لما قـدم إلى الثغر خيم بظـاهره، وقبل مـن القاضي مكين الـدولة أبي طـالب أحمد بـن الحسـن بن حـديـد بن أحمد بـن محمد بـن حمدون، المعروف بـابن حـديدمتولي الأحكـام والإشراف بها، ما حملـه إليه على حكم الضيافـة ثلاثة أيام، ثم أمـره بإيقافها بعد ذلـك إلا ما يقتضيه رسمـه خاصـة، وأظهـر كتاب أخيـه الـوزير بـأن الغـلال بالثغـر وأعمال البحيرة كثيرة، وكذلـك الأغنام مـع قطيعة العـربان، فمهما دعـت الحاجة إليه بـرسم أسمطة العسـاكر يحمل ويساق، وتكتـب به الوصـول على ما جرت به العادة، وأمره ألا يقبل من أحد من التجار ضيافة ولاهدية .

وأظهر كتـابا آخـر إلى مكين الدولة بـأن يطلق في كـل يوم مـن ارتفاع الثغـر من العين مـا يبتاع بـه جميـع ما يحتـاج إليـه من الأصنـاف برسـم الأسمطة للعساكر، وكان يستخدم عليها من يراه من الشهود.

وكان تجار الثغـر قد حملوا ثـلاثة آلاف دينـار فأبى المؤتمن مـن قبولها، وأمر بإعـادتها إلى أربابها، فأخذ مكين الدولة يتلطـف في أن يكون عوض ذلك طرفا وطيبـا، فأقسم أنه لا يقبل منهم شيئـا، واستمرت الأسمطة في كل يوم، ولم يقبل لأحد هدية.

واتفق أن المؤتمن وصف له الطبيب دهـن شمع والقاضي مكين الدولة حـاضر، فـأمـر في الحال بعض غلمانـه بـالمضي إلى داره ليحضر الـدهـن المذكور، فلم يكـن أكثر من مسافـة الطريق حتى أحضر صرا مختـوما فك

عنه، فوجد فيه منديل لطيف مجاوم مذهب (٧٤) على مذاق بلور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر،بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور، وبيت دهن بغير طيب، ولم يسكن فيه شيء مصنوع لوقته.فلما رآه المؤتمن والحاضرون (تعجبوا) من علو همة القاضي وجليل رئاسته وسعة نفسه، فحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، فقال المؤتمن، قد قبلته منك ليس لحاجة إليه، ولا نظر في قيمته، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها، وذكر أن قيمة المذاق المذكور خمسمائة دينار.

وخلع المؤتمن على القاضي بذلة مذهبة بطيلسان مقور وثياب حرير، وقدم له دابة بمركب حلي ثقيل، ثم خلع عليه في اليوم الثاني والثالث كذلك، وخلع على أخيه حلتين مكللتين مذهبتين ورزمة فيها شقق حريرية مما يختص بالنساء، وأنعم على كل من حواشيه وأصحابه.

وعاد إلى القاهرة، فمدحه عدة من الشعراء.

وورد رسل ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وآق سنقر، صاحب حلب، بالحث على غزو الفرنج، وكبيرهم علي بن حامد، الحاجب، فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه، ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك، وأوقفا عند باب البحر (٧٥) قدر ما جلس الخليفة، فجهز عسكر في البر مقدمه حسام الملك النزني، وسار الأسطول في أربعين شينيا فوصلوا إلى عسقلان، وخرجت للغارات وعادت بالغنيمة.

فاجتمعت طوائف الفرنج، وكتب إلى حسام الملك أن يقيم بالثغر، ويلقى الفرنج عليه ولا يتعداه، فخالف ذلك، وتوجه مخفاً بغير ثقل ونزل على يافا فقتل وأسر، فعندما قصده الفرنج رحل وهم يتبعونه حتى وافى يبنا فلقيهم هناك، فانهزم العسكر من غير قتال، وقتل الراجل بأسره، وعاد من بقي مهزوما إلى عسقلان.

ووصل الخبر بذلك فأهم الآمر والمأمون، واشتد الحنق على حسام الملك لسوء تدبيره فآل أمره بعد أمور إلى أن قتل.

فيها خرج أمر المأمون إلى الواليين بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلا ونهارا، بالطواري والمساحي، وأن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما.

وعمل بعض التجار لابنته فرحا في إحدى الآدر المعروفة بالأفراح، فتسور ملاك الدار على النساء وأشرفوا عليهم والعروس في المجلى، فأنكر عليهم ذلك، فأساءوا وأفسدوا على الرجل ما صنعه، فخرج مستغيثا فخشوا عاقبة فعلهم، فما زالوا به حتى كف عن شكواهم. فلما حضر والي مصربالمطالعة في الصباح إلى الوزير على عادته، قيل له: لم لا ذكرت في مطالعتك ما جرى للتاجر الذي عمل فرح ابنته؟ فاعتذر بأن المرسوم له ألا يذكر ما يخرج عن السلامة والعافية ولم يتصل به ماجرى في الفرح. فأسمعه ما أمضه، وبين عجزه وتقصيره، وقال له: والسلامة والعافية أن يخرج بالرجل ويهان وتنتهك حرمته ولا يجد ناصرا؟!.

فرسم بإحضار شاهدين ومهندسين، وتوجهوا إلى سائر الدور المختصة بالأفراح وإحضار ملاكها، فمن رغب في استمرار ملكه على حاله فليزل التطرق إليه ويكتب عليه حجة بالقسامة بذلك، ومن لم يرغب فلتؤخذ عليه الحجة بألا يؤجر ملكه للأفراح ويتصرف فيه على مايريد، فامتثل ذلك.

وجرى الرسم في عمل المولد الكريم النبوي في ربيع الأول على العادة.

وكتب لجميع الأعمال، خلا قوص، وعسقلان، بمطالعة كل وال منهم

في مستهل كل شهر بمن حواه السجن والموجب لاعتقاله، ويبين كل منهم ذلك ويعتمد فيه الحق، وسبب ذلك أنه رفع إلى المأمون أن بعض الولاة يعتقل من لايجب عليه اعتقال، لطلب رشوة، فتطول مدته.

وفيه قرر برسم رش مابين البلدين، مصر والقاهرة، في كل يوم من اليومين اللذين يركب فيهما الخليفة مما يصرف للسقائين دينار واحد، فاستمر ذلك يطلق لهم إلى الأيام الحافظية، وكان سبب إطلاق هذا القدر أنه رفع للوزير المأمون أن واليي القاهرة ومصر يأخذان جميع السقائين أرباب الجمال والدواب لرش مابين البلدين سخرة بغير أجرة.

وفي جمادى الآخرة أعيد ثغر صور إلى ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وكتب له بذلك، وفخم فيه وعظم، ونعت بسيف أمير المؤمنين، وجهزت إليه الخلعة، وهي بدلة طميم منديلها(٧٦) طوله مائة ذراع شرب، فيه ثمانية وعشرون ذراعا مرقومة بذهب عراقي، وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقي، سلف المنديل والثوب ألف دينار، وثوب دبيقي وسطاني، وثوب سقلاطون(٧٧) داري، وثوب عتابي، وشاشية دبيقي، ولفافة، وجميع ذلك في تخت مبطن عليه لفافة دبيقي، وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه، وجهز لأمين الدولة جمشتكين، صاحب صلخد، بذلة مذهبة ومنديلها، وعدة ثياب، وغيرها.

في شعبان وصلت الأساطيل بمن فيها سالمين، وقد غنموا شينيين من شواني الفرنج وبطسة كبرى، وعدة من النساء والرجال، وذكر للمأمون أن الأسرى المذكورين يؤخذ منهم في الفداء مايزيد عن عشرين ألف دينار عينا، فقال: والله لاأبقي منهم أحدا، قد قتل لنا خمسمائة رجل يسوون مائة ألف، وقد أظفر الله بما يكون دية عنهم، لايشاع عنا أنا بعنا الفرنج وربحنا أثمانهم عوضا عن رجالنا.

وركب الخليفة بما جرت به العادة، واصطفت العساكر بالعدد والأسلحة، وعاد، وخلع على الأمراء وعلى زمام الأسطول والرؤساء.

وحضرت الحجاب، المندوبين لقتل الفرنج، بأنهم لما شاهدوا الحال بذلوا في خلاص أنفسهم ثلاثين ألف دينار، وأنه يرجى منهم أكثر من ذلك، فكتب الجواب بالإنكار وإمضاء السيف فيهم، فقتل الرجال بأسرهم وقد اجتمع الناس وضجوا بالتهليل والتكبير عند قتلهم، فكان أمرا مهولا، وقد ذكر هذا اليوم عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في أسمطة شهر رمضان، والركوب إلى الجمع، وفي كسوة غرة شهر رمضان على العادة.

وفيه سير هلال الدولة سوارا رسولا إلى حرة اليمن[٧٨] وصحبته برسمها من التشريف مما لبسه الخليفة ومازج عرقه من الحلل المذهبات والملاءات الشرب المذهبة والشقق النفوسي والمغربي المقصور والإسكندراني المطرز جملة كثيرة في تخوت مدهونة مبطنة، وسلال مملوءة من لحم الناقة التي نحرت بالمصلى، واثني عشر مجلسا[٧٩] من المساطير التي تقرأ كل خميس وعليها علامة الخليفة، وكثير من النحاس القضيب والمرجان، وكتب إليها كتابا في قطع الثلثين أوله:

«من عبد الله ووليه المنصور أبي على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين، ابن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين، صلى الله عليهما، إلى الحرة الملكة السيدة الرضية، الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن عدة الاسلام، خالصة الإمام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستجيرين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، أدام الله تمكينها ونعمتها، وأحسن توفيقها ومعونتها».

وفي آخره: «وأمير المؤمنين متطلع إلى علم أخبارك، ومعرفة أنبائك، فتواصلي بإنهاء المتجدد منها إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»، ويطوى مدورا ويختم بحرير وأشرطة ذهب وعنبر عجين ويجعل في خريطة.

فيه قرىء بالجامع العتيق منشور، نسخته بعد التصدير:

«بأننا لم نزل منذ ناطت بنا الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، الأمور، وعولت على كفايتنا في سياسة الجمهور، ووردت إلينا النظر فيما وراء سرير خلافتها، وفوضت إلى إيالتنا من مصالح دولتها، وعبيدها ورعيتها، في محاسن الأفعال ناظرين، وعلى بسط العدل والإحسان على الكافة متوفرين، وبحسن توفيق الله تعالى لنا واثقين، وبمراشده الهادية مسترشدين، فلا ندع وجها من دعوة البر إلا قصدناه، ولابابا من أبواب الخير إلا ولجناه، ولانعلم أمرا فيه قربى إلى الله سبحانه ونفع للرعية إلا أتيناه، ولا شيئا يعود بثواب الله وحسن الأحدوثه إلا اعتمدناه، شيمة خصنا الله تعالى بميزتها، وسجية أسبغ علينا جلاليب يمنها وسعادتها، وعملا في ذلك بشريف آراء الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، وجميل سيرتها، واستمرارا على منهج الدولة الزاهرة، خلد الله ملكها، وكريم عادتها، وذهابا في ذلك مع سجيتها الحسنى، ونشرا لأرج ذكرها في الأبعد والأدنى، والله تعالى المسؤول أن يعيننا على مصالح الدنيا والدين، ويقضي لنا بالفوز المبين، ويصلح لنا وبنا كل فاسد، وينظم لنا عقود السعود والمحامد بمنه.

ولما كان أحسن ماتطرز به محاسن السير، وتتناقل ذكره ألسنة البدو والحضر، وتجني ثمرته في الدنيا والآخرة، وتحمد مغبته في العاجلة والآجلة، التقرب إلى الله تعالى في كل أوان، وابتغاء ثوابه في كل زمان، لاسيما شهر رمضان، الذي تزكوا فيه أفعال البر والصلاح، وتتضاعف فيه

الحسنات في الغدو والرواح، رأينا ماخرج به أمرنا مـن كتب هذا المنشور بمسامحة كـافة سكـان الربـاع السلطانيـة[٨٠] بالقـاهرة ومصر مـن الأدر والحمامـات والحوانيت والمعـاصر والأفـرنـة والطواحين والعـرص، وجميـع مـايجري في الربـاع خارجـا مـن ربع الأحبـاس وربع المواريـث المنصرف مستخـرج ارتفاعهـا فيما يجري هذا المجـرى مـن وجوه البر، بـأجرة شهـر رمضـان مـن كـل سنـة، لاستقبـال رمضـان سنـة سبـع عشرة وخمسمائة ومـابعـدها، إحسـانـا يسير ذكـره كـل مسير، وتعظيما لحرمة هـذا الشهـر العظيـم الخطير، الـذي فضلـه الله على جميـع الشهور، وأنـزل فيـه قـرآنـه المجيـد، وفرض صيـامه على أهـل التـوحيد، وحضهـم فيه على الأفعـال المزلفة لـديه،ووعـد من عمـل فيه خيرا بمضـاعفة الجزاء عليـه، فليعتمد العمل بما تضمنـه هذا المنشـور، وحطيطة أجـرة شهر رمضـان عن جميـع سكان الـربع المذكور لاستقبـال التاريخ المقـدم منسوبا ذلـك إلى القرب الصالحة والتجـارة الرابحـة، ويفسح في جميـع الدواويـن حجة بمـودعه، وليخلد بالمسجد الجامـع العتيق بمدينة مصر، منعا لمن يروم التـأويل فيه، أو نقض شيء من وضعه، إن شاء الله ».

فلما قـرىء هذا المنشـور ضـج العامـة بـالـدعاء ونظـم فيـه عدة مـن الشعراء.

وجرى الـرسم في وصـول كسوة العيد، وهـي العدة الكثيرة، وتفـريقها على العـادة، وعمل الختـم في آخـر الشهر بـالقصر والجوامـع والمساجـد، وحصـل الاهتمام بـالعيد، وركـب الخليفـة إلى المصلى على العـادة، وصلى بالناس صلاة العيد، وخطب، وحضر السماط.

وجرى الحال في يوم عاشوراء، وفي المولد الآمري، على المألوف.

فيـه كـان المولد العيسـوي، ففـرق مـاجـرت بـه العادة مـن الجامـات

القاهرية والجامات السميذ، وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية، والبوري، على أصحاب الرسوم، وعمل في شهر ربيع الأول المولد الكريم وفرق المال على الرسم.

وفيها وصل رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز بن باديس، صاحب المهدية، يخبر بانحيازه للدولة، وأن رجار بن رجار صاحب صقلية تواصلت أذيته، وقد استعد لمحاربته، وسأل أن يسير لرجار يمنعه من ذلك، فسير إليه مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخد، فأصلح بينهما.

وفيها نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب النصر بالقاهرة.

وفيها توفي ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم، وكان يدعى بالقاضي لأبوته وسنه واشتهاره بالعلم، فبعث الآمر بأحكام الله إلى الوزير المأمون أن يستخدم أبا الفخر صالحا، فذكر المأمون أن أكثر المجالس التي كانت تعمل في أيام النعمان بخط أبيه، وأن أبا الفخر حدث السن ولايماثل المذكور في العلم، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

وورد الخبر بأن الفرنج افتدوا بغدوين رويس الملك بثمانين ألف دينار وثلاثين أسيرا من المسلمين، وكان صاحب حلب قد أسره في وقعة له مع الفرنج.

وعمل ماجرى به الرسم في مواسم السنة.

وفيها جرت عمارة سور الإسكندرية.

وفيها حمل إلى عسقلان ثلاثة وعشرون ألفا وستمائة وأحد وثلاثون إردبا من الغلال.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ملك الفرنج مدينة صور، واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة الفاطمية، وكان أخذهم إياها بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم، وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس وراسل الفرنج، فاستقر الأمر على أن الفرنج تستولي عليها بالأمان، فخرج أهلها بما خف حمله، وتفرقوا في البلاد، وكان تملكهم لها في يوم الاثنين ثالث عشري جمادى الآخرة.

وفيها أمر ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر خليج القاهرة بالكراء، وذلك أن الناس عند كسر الخليج[٨١] كانوا يصنعون أخشابا متراكبة بعضها على بعض، يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج، ولم يكن هناك غير دار الأمير أبي عبد الله محمد بن المستنصر ودار ابن معشر، ولم تزل هذه الآدر الثلاثة إلى أن احترقت في نوبة شاور.

فيها مات بألَموت الحسن بن صباح كبير الاسماعيلية، وقد تقدم أنه

ورد مصر في أيام المستنصر وسار إلى المشرق بدعوته، واستولى على قلعة ألموت واعتقد إمامه نزار بن المستنصر، وأنكر إمامة المستعلي وإمامة الآمر، وانتدب عدة لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش فلما تقلد المأمون البطائحي وزارة الآمر بعد قتل الأفضل بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا بموت الأفضل، وأنهم تطاولوا لقتل الآمر والمأمون وأنهم بعثوا طائفة لأصحابهم بمصر بأموال، فتقدم المأمون إلى والي عسقلان بصرفه

وإقامة غيره، وأمره بعرض أرباب الخدم بها، وألا يترك فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد، وأكد عليه في الاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم، وأنه لايثق بما يذكرونه، من أسمائهم وكناهم وبلادهم، بل يكشف من بعضهم عن بعض ويفرق بينهم ويبالغ في الاستقصاء، ومن يصل ممن لم تجر عادته بالمجيء إلى البلاد فليعوقه بالثغر ويطالع بحاله ومامعه من البضائع، ولايمكن جمالا من دخول مصر إلا أن يكون معروفا مترددا إلى البلاد، ولايسير قافلة إلا بعد أن يتقدم كتابه إلى الديوان بعدة من فيها وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين وذكر اصناف البضائع، ليقابل بها في مدينة بلبيس وعند وصولهم إلى الباب، وأنه يكرم التجار ويكف الأذى والضرر عنهم.

ثم تقدم المأمون إلى والي مصر ووالي القاهرة بأن يصقعا البلدين شارعا شارعا وحارة حارة وزقاقا زقاقا وخطا خطا، ويكتباأسماءسكانها، ولايمكنا أحدا من النقلة من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره، بما يعتمد في ذلك، فمضيا لذلك، وحررا الأوراق بأسماء جميع سكان القاهرة ومصر وذكر خططها، والتعريف بكنية كل واحد وشهرته وصناعته وبلده، ومن يصل إلى كل خط وحارة من الغرباء.

فلما عرفذلكالمأمون انتدب نساء من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعته بجميع مايشاهدنه فيها، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه، ولايكاد يخفى عنه منها شيء البتة، فامتنع لذلك الباطنية مما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بالآمر والمأمون لكفهم عن دخول البلد

ثم إنه مع ذلك أركب العسكرية وفرقهم في جهات البلدين، وأمرهم بالقبض على جماعة عينهم، فقبض على جماعة كثيرة، منهم رجل كان

يقرىء أولاد الخليفة الآمر، ومنهم رسل كان ابن صباح قد سيرهم بمال لينفق على من بمصر ممن يرى رأيهم، فكان هذا معدودا من عظيم الحزم، وقوة التدبير، ومع ذلك كان له القصاد والجواسيس وأصحاب الخبر في كل قطر، فإذا خرج الباطني من قلاع ألموت لاتزال أخباره ترد عليه شيئا بعد شيء منذ يخرج من مكانه حتى يرد بلبيس، فيسير إليه من يقبض عليه في مكانه الذي نزل فيه ويأتيه به فيقتله، وصار من أجل ذلك وبسببه يرد عليه أخبار كل جليل وحقير من سائر مملكته، حتى كان يرى ويسمع كل مايتفق في ليل أو نهار، وامتنع من الباطنية إلى أن مات رئيسهم الحسن بن صباح بعدما ملك من الشام جبل عاملة، وحصن العليقة والكهف،ومصيات، والخوابي، وحصن الأكمة، وقلعة العيدين، ثم امتدت مملكته بعد موته إلى حد شرقي أذربيجان، وبحر طبرستان، وجرجان.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون في ليلة السبت لأربع خلون من شهر رمضان، وقبض على إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من أهله وخواصه، واعتقله، فوجد له سبعون سرجا من ذهب مرصع، ومائتا صندوق مملوءة كسوة بدنه، ووجد لأخيه المؤتمن أربعون سرجا بحلي ذهب وثلاثمائة صندوق فيها كسوة بدنه، ومائتا سلة مابين بلور محكم وصيني لايقدر على مثلها، ومائة برنية مملوءة كافور قنصوري، ومائة سفط مملوءة عودا، ومن ملابس النساء مالايحد،حمل جميع ذلك إلى القصر، وصلبه مع إخوته في سنة اثنتين وعشرين.

ويقال إن سبب القبض عليه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلي، أخي الآمر، يغريه بقتل أخيه الخليفة ووعده أنه يعتمد مكانه في الخلافة، فلما تقرر ذلك بينهما بلغ الشيخ الأجل، أبا الحسن علي بن أبي أسامة،

كاتب الدست الخبر، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه، وكان المأمون يؤذيه كثيرا، فبلغ الخليفة الحال، وبلغه أيضا أنه بعث نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن، وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها: الإمام المختار محمد ابن نزار.

ويقال إنه سم مبضعا ودفعه لفصاد الخليفة، فأعلم الفصاد الخليفة بالمبضع.

ومولده في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة تسع، وكان من ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول، كريما واسع الصدر، سفاكا للدماء، شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس من الجند والعامة، فكثر الواشون والسعاة بالناس في أيامه.

ويقال إن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، وأنه مات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا، فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق بمصر، وأنه دخل مع الحمالين يوما إلى دار الأفضل فرآه خفيفا رشيقا حسن الحركة حلو الكلام، فأعجب به، فاستخدمه مع الفراشين بعد ماعرف بأنه ابن فلان، فلم يزل يتقدم عنده حتى كبرت منزلته، وعلت درجته.

وهذا ليس بصحيح فإنه من أخبار المشارقة، وقد تقدم أن أباه مات في زمن الأفضل بعد ماترقت أحوال ولده، وأنه كان ممن يعد من أماثل أهل الدولة، ورثي بعدة قصائد، وتقدم أن المأمون كان ممن يخدم المستنصر، وأنه الذي لقبه بالمأمون، على أن المشارقة زادوا في التشنيع وذكروا أنه كان يرش الماء بين القصرين، وكل ذلك غير صحيح.

وكان المأمون شديد المهابة في النفوس، وعنده فطنة تامة، وتحرز،

وبحث عن أخبار الناس وأحوالهم، حتى إنه لايتحدث أحد من سكان القاهرة ومصر بحديث في ليل أو نهار إلا ويبيت خبره عند المأمون، ولاسيما أخبار الولاة وعمالهم، ومشت في أيامه أحوال البلاد وعمرت، وساس الرعايا والأجناد أحسن سياسة، إلا أنه اتهم بأنه هو أقام أولئك الذين قتلوا الأفضل وأعدهم له وأمرهم بقتله ليجعل له بذلك يدا عند الخليفة الآمر، ولأنه كان يخاف أن يموت الأفضل فيلقى من الآمر مايكرهه لأنه كان أكبر الناس منزلة عند الأفضل ومتحكما في جميع أموره، وكان مع ذلك محببا إلى الناس لكثرة مايقضيه من حوائجهم ويتقرب به من الإحسان إليهم، ويأخذ نفسه بالتدبير الجيد والسيرة الحسنة، بحيث لو قدر موته في حياة الأفضل لزار الناس قبره تبركا به.

واتهم أيضا بأنه هو الذي قتل أولاد الأفضل، وأولاد أخيه الأوحد، وأولاد أخيه المظفر، وكانوا نحو مائة ذكر مابين كبير وصغير، فقتلوا بأجمعهم، ولم يبق منهم سوى صغير نحيف يسمى أحمد أبا علي، ويلقب بكتيفات، فيقال إنه احتقره لما كان يرى فيه من العي والانقطاع، فكان منه مايأتي خبره إن شاء الله تعالى.

واتهم أيضا بقتل الأمير حسام الملك أفتكين، صاحب الباب، في أيام الأفضل لتخوفه منه، وذلك أن حسام الملك دخل مرة على الآمر للسلام، فلما خرج قال الآمر: والله إنك لأمير حسن، فإنه كان جميلا تام القامة وفيه عجب وتيه، فبلغ ذلك المأمون فقامت قيامته وأخذ في العمل عليه حتى أخرجه في العساكر التي يقال إن عدتها عشرون ألفا، فكان من خبره على عسقلان مع الفرنج ماكان، وقتل من أصحابه يومئذ مايزيد على عشرة آلاف، وعاد حسام الملك فبعثه إلى الإسكندرية ودس عليه من قتله.

قال ابن الطوير: ولما دفن الأفضل استعمل الآمر هذا الرجل، وكان

يخاطب بالقائد حين خدمة الأفضل في الوساطة دون الوزارة، ونعته بجلال الاسلام واستمر على ذلك، ثم كمل له الوزارة وخلع عليه خلعة الوزارة إلا الطيلسان المقور، فباشرها، وكان متيقظا قد حذق الأمور ودبرها من صحبة الأفضل وطول خدمته إياه، وكان بالدار التي بالسيوفيين بالقاهرة، وهي اليوم مدرسة للحنفية، وأخذ يصب على قال الأفضل مع الآمر، فصار يتقلب على الآمر في واحدة بعد واحدة من الجفاء الإقدام، والآمر يملي له ويحتمله، حتى استوحش كل منهما من الآخر.

وكان له أخ ينعت بالمؤتمن أبي تراب حيدرة، فرأى من الرأي أن يولى أخاه جانبا عظيما من ديار مصر، ويجعل معه عسكر النجدة رد، إذا قصده الخليفة بضرر، فإنه مادام أخوه يكون حاميا له، فيكون هو من داخل وأخوه من خارج، وجرد معه مائة فارس من شدة الأجناد وكبرائهم، وأضاف إليهم أمثالهم، مثل: علي بن السلار، وتاج الملوك قايماز، وسيف الملك الجمل، ودري الحرون، وحسام الملك بسيل، وكل واحد من هؤلاء جيش بمفرده، والخليفة يعلم ذلك ولايرده عليه، وزاد في معناه حتى قيل إن الخليفة اطلع على أنه ادعى الخلافة، وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل عندما خرج نزار إلى الإسكندرية فانزعج الخليفة لذلك، ثم إنه سير إلى اليمن الموفق في الدين علي بن نجيب الدولة[٨٢] وكان من أهل الأدب فصيحا داهي، ليحقق لنسبه هناك ويدعو الناس إلى بيعته، فلما قيل للآمر هذا، ماشك فيه، وأخذ يتحيل في الإيقاع به بعد عود أخيه من ولايات الاسكندرية والغربية والبحيرة والجزيرتين[٨٣] والدقهلية والمرتاحي[٨٤] فاختلق الآمر قضية يلتمسها من الاسكندرية وهو مقيم بها، فسير أستاذا من ثقاته، ظاهره فيما ندبه إليه وباطنه في العمل على المأمون وأخيه، وقال له: « أحرص على اجتماعك بعلي بن السلار في المسايرة وسلم عليه عنا، وقل

له: إننـا مازلنا نلتفت إليـه وندخره لمهاتنـا ونتحقق فيه الموافاة لنـا، وإنا بحمد الله قادرون على المكافـأة بالخير أكثر من غيرنا، وقد تلـونت أحوال المأمون وبالغ في عقـوقنا بأشياء لايتسع لنا ذكرنا ومقصـودنا أن تكتم عنا مانقول لك».

فلما بلغه الأستـاذ ذلك عن الآمـر قال:«السمـع والطاعة لمولانـا، وأنا مملوكه وباذل نفسي في خدمته» فقال الأستاذ:«هكذا والله قال عنك» قال ابن السـلار:« فما يأمـر به»؟ قال:«تحدث رفقتـك بأجمعهـم في الانفصال عن المؤتمن، أنت ومن تثق به».

فلما تقرر ذلك اتفق علي بن السـلار هو، وقايماز، ودري الحرون، وكانوا أمـراء الجماعة فتفـرقوا عنـه وتبعهم البـاقـون، فانفـرد المؤتمن واستوحـش وكاتب أخاه المأمون بذلك، فما اتسـع له أن يتتبع الأمراء، ولاينكر عليهم ليرجعوا إلى أخيـه، لعلمه بتغير الخليفة عليه، مخافـة أن يفسد أمره ظـاهرا وباطنـا، فحضر إلى الخليفة يوم سـلام، على عادة الوزراء، وتقـدم وقال:« يامـولانا، صلوات الله عليك، وصـل كتاب أخي يتـذمم من طول مقـامه خارج القـاهرة وأسفه على مـايفوته مـن خدمة مـولانا بالمبـاشرة، ويسأل الفسحة لـه في العود إلى بـابه الكريـم» فقال:« مرحبـا وأهلا، وهـذا كان رأينا، ونحـن مشتاقون إليه، وإنما قصـدنا رضاك فيما رتبته لـه، يقدم على بركـة الله»، فكوتب عـن الخليفة بالعـود وأن يرتب في ولايـاته من يـرضاه فامتثل ذلك.

ودخل القـاهرة، فجلـس الخليفة لـه في غير وقت الجلـوس، فمثل بين يديه، وأكرمه وأدناه، وخلع عليه بالتشريف المفخم.

فلما دخل شهر رمضـان، وفيه السماط كل ليلة بقاعـة الذهـب، ويحضر الوزير وإخوته وأصحـابه، فحضر المأمون وأخوه المؤتمن السماط أول ليلة،

فأكرمهما الآمر بما أخرجه لهما مما كانت يده فيه، وأرسل رسالة إلى المؤتمن ليستأنس بحضوره السماط مع أخيه، فلم يتسع لهما مع هذه المكارمة الانقطاع.

وحضرا ثاني ليلة فزاد في إكرامهما، ثم أمر بأن يدخل المأمون لمؤاكلته خاصة دون أخيه، فدخل إليه، ولم يتقدمه أحد من الوزراء بمثل ذلك، يعني بهذه المنزلة، وخرج هو وأخوه وأكد عليهما ألا ينقطعا، وخلع عليهما من داخل الدار من الثياب الدارية، ثم حضرا ثالث ليلة، فاستدعى المأمون إلى الخليفة، فلما جلس معه على المائدة قال قد جفونا المؤتمن، واستدعاه، فدخل، وصارا في قبضته، وكان قد رتب لهما من يأخذهما، فعند خروجهما للمضي قبض عليهما واعتقلهما عنده في خزانة، وسير بالحوطة على دورهما، ثم أمر بإحضار الشيخ الأجل أبي الحسن بن أبي أسامة، كاتب الدست، لينشيء شيئا في معناهما يقرؤه على المنبر باكرا، فوجد الشيخ أبو الحسن بمصر لعيادة مريض، فتقدم إلى والي القاهرة في الليل بأن يمضي إلى مصر لإحضاره، فظن والي القاهرة أنه طلب لغير ذلك، وكان يقال له سعد الدولة الأحدب، فمضى إليه وأزعجه من مكانه، وسبه أقبح سب، وأراد إحضاره إلى القاهرة ماشيا، فأحضره إلى الخليفة وهو ميت لاحراك به،فقال له:ماهذا؟ فأخبره بقضيته مع الوالي، فغضب على الوالي وأمر بخلع أخفافه من رجليه وصفعه بهما، حتى تقطعا على قفاه، وصرفه من الولاية، وأطلع الشيخ أبا الحسن على قضية المأمون وأخيه، فقال يامولانا: هما نشو أيامك ومماليك دولتك، فقال لبعض الأستاذين خذ هذا الشيخ وصوبه إلى المذكورين لينظرهما في اعتقالهما وينقطع رجاؤه منهما، فأدخله إليهما، فرآهما مكبلين في الحديد، وعليهما احتياط عظيم، فأنشأ للوقت سجلا كان من استفتاحه:

«أما بعد، فإن محمد بن فاتك استنجح فما نجح، واستصلح فما

صلح، وجهل رفع قدره فغدا لهبوط، وقابل الإحسان إليه بدواعي القنوط» وكل ذلك في تلك الليلة.

فلما أصبح الصباح جلس الخليفة في الشباك بالإيوان، ونصب كرسي الدعوة أمامه، وطلع قاضي القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرتب والعوام، فلم ينتطح فيها عنزان.

ويقال إن الخليفة كان يقول: أعظم ذنوبه عندي ماجرى منه في حق صور وإخراجها من يد الاسلام إلى الكفر.

وبقيا في الاعتقال، هما وأميران اتهما، في خزانة البنود، وسير لإحضار الذي كان أنفذه المأمون إلى اليمن ليقتلهم جميعا، وتفرغ الآمر لنفسه، ولم يبق له ضد ولامداج، وبقي بغير وزير(٨٥).

وأقيم صاحبا ديوان الاستخراج(٨٦) بما يجب من زكاة ومكس، أحدهما مسلم يقال له جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامري يقال له أبو يعقوب ابراهيم، وأقيم معهما مستوف لهاتين المعاملتين وكان راهبا، فكانوا يستخرجون ذلك من أربابه، ويدخل صاحبا الديوان إلى الآمر في كل وقت ومعهما المصحف والتوراة فيحلفان له أنهما لايتعرضان إلا لمن يجب عليه لبيت المال حق، فيحملهما في ذلك على الصدق، وربما اشتطا على الناس وزيدا عليهم مالايجب زيادته، فتأذى بسببهما جماعة، والآمر لايطلع على ذلك ولاأشار به، واستمرا على ذلك مديدة.

ـ ١١٦٤٤ ـ

سنة عشرين وخمسمائة

فيها جهز الآمر المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنية وتحف مصرية وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي، صاحب الموصل، فلما كان في أثناء الطريق سمع بموته، فرجع بما معه إلى الآمر.

وفيها قدم الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم، مصنف «سيرة الفرنج الخارجين على بلاد الاسلام في هذه السنين» برسالة من صاحب حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب، وذلك أن راهبا من النصارى، يعرف بأبي نجاح بن متى كتب إلى الآمر رقعة في الكتاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها، وضمن أنه يحقق في جهاتهم مايملأ بيوت الأموال، فتقدم الخليفة بأن يمكن من الدواوين ويساعد على مايخرجه من الحسبانات، ولقب بالأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية، وسيد البطريركية، ثالث عشر الحواريين.

وكان الآمر لما انفرد بالأمر بعد القبض على وزيره المأمون، وبقي بغير وزير دانت له الدنيا، وكان معظما كثير الجود إلى الحد الذي لامزيد عليه، فكثر الخير في تلك الأيام، وفرح الناس بالفوائد، وتردد المسافرون والتجار، وجلبت البضائع، وزاد الحاصل في الخزائن من كل صنف مضافا إلى ماكان فيها، وحسنت السيرة في الرعية، وأباح للناس والجنود ماكان الأفضل حظره عليهم من الملبوس والتجمل، فما برح الناس في خيرات دارة ونعم متزايدة إلى أن تمكن الراهب من الدواوين واشتد في مطالبة النصارى وحقق في جهاتهم الأموال، وحملها أولا فأولا، وكان قد حصل لهم في أيام الأفضل والمأمون مايزيد عن الوصف، فلما تمكن الراهب من النصارى واستطاب ماتحصل منهم ابتدأ يعمل في المسلمين معاملي الديوان من المشارفين والضمناء والعمال.

فيها ركب الآمر لينظر جوسق البغدادي أبي الحسن علي بن محمد بن سعدون بالقرافة، فإنه كان من أحسن جواسق القرافة، وأفخرها بناء، فلما قرب منه سقط عن فرسه إلى الأرض فهنيء بالسلامة، وقيل في ذلك عدة أشعار.

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

فيها أحضر الموفق في الدين أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجيب الدولة، داعي اليمن، الذي سيره الوزير المأمون بن البطائحي، فدخل في يوم عاشوراء على جمل بطرطور، ومعه مشاعلية تصكه بلا كلل وخلفه قرد يصفعه، وهو يقول بقوة نفس: والله مابااليت ولا ألتفت، فأدخل خزانة البنود وسجن مع المأمون.

فيها كثرت مصادرة الراهب للكتاب والعمال، وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال، وندب معه مقداد والي مصر وسعد الدولة والي القاهرة للشد منه، فتنكد الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق، وأخذ الراهب يحسن للآمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم.

وفيها مات قاضي القضاة جلال الملك تاج الأحكام، أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل المغربي الأندلسي، وكان أولا قد أقرأ المؤتمن أخا المأمون القرآن والنحو، فولاه قضاء الغربية، ثم نقل منها إلى قضاء القضاة بعد واقعة ابن الرسعني بوساطة المؤتمن، واستقر بعد وفاته في قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن الميسر القيسراني.

وكان أبو الحجاج عاقلا، عرض عليه الآمر أن يلي الدواوين مضافا إلى مايتولاه من قضاء القضاة والمظالم، فاستشار في ذلك بعض أصحابه فأشار بالقبول، فقال: إني لاأحسن صنعة الكتابة، فقال له: تجعل بين

يديك من يوضح لك طرق التدبير ويدللك على سر الصناعة فقال: ألا ترى إلا أني قد رضيت أن أكون من الأسماء النواقص التي لاتتم إلا بصلة وعائد، واستحضرت من يدلني على ماأجهل، فكيف أصنع بين يدي السلطان؟ لقد حكمت إذا على نفسي بحكم حيف وأوردتها خطة خسف. رحمه الله.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها وصلت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين أتابك، الملقب ظهير الدين، قد وهب له بانياس خوفا من شره، فأفسد جماعة بالشام، وجرت له خطوب آلت إلى قتله، وحملت رأسه إلى الآمر.

وفيها رتب قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة ابن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس، وعمل مصالحه، فاستمر إلى أن قتل ابن ميسر ثم بطل، فلم ينظر أحد في هذه المشارفة.

وفي رجب عمل للآمر في الخاقانية[٨٨]، وكانت من خاص الخليفة، قصر من ورد، فسار إليها وحده بضيافة عظيمة، فلما استقر هناك خرج إليه أمير يقال له حسام الملك— أحد الأمراء الذين كانوا مع المؤتمن، أخي المأمون، في سفره في البلاد التي كان يتولاها وتخاذل مع ابن السلار عنه— وهو لابس لأمة حربه، والتمس المثول بين يدي الخليفة، فاستثقل ماجاء به في ذلك الوقت لأنه مناف لمافيه الخليفة من الراحة والنزهة، فمنع من ذلك وصد عنه، فقال لجماعة من حواشي الخليفة:

أنتم منافقون على الخليفة إن لم أصل إليه وهـو يطالبكم بذلك ويعاقبكم عليـه، فأطلعـوا الخليفة على أمـره، فأمـر بإحضـاره فقال: يـامولانـا، لمن تـركت أعـداءك —يعني المأمـون وأخاه— هـذا والعهد قـريب، أأمنـت الغدر؟ فما أجابـه إلا وهو على ظهور الرهاويـج من الخيل(٨٩)، فلم تمض ساعة إلا وهـو بالقصر يمضي إلى مكان إعتقال المأمون وأخيـه، فوجدهما على حالهما، فزادهما وثاقا وحراسة.

فلما كان في ليلة العشريـن منه قتل المأمون وصالح بـن الضيف، وكان مـن نشـو المأمـون وقـد سجـن معـه، وعلي بـن ابـراهيـم بـن نجيـب الدولة،المحضر من اليمن، وأخرجوا إلى سقاية ريدان(٩٠) في الرمل، قبالة البستـان الكبير خـارج بـاب الفتـوح، فصلـب أبـدانهم بغير رؤوس وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه، فبلـغ الأمر الناس فشكوا فيهم، وقالوا: هم غير المذكورين، فأمر بإخراج رؤوسهم وأقيمت على أبدانهم.

فيها كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة على ماذكر بعضهم ، وقيل بل كانـت كما تقدم، ولقب بثقة الدولة القـاضي الأمين سناء الملك، شرف الأحكـام، قاضي القضـاة، عمـدة أمير المؤمنين، أبي عبد الله محمـد ابـن القاضي أبي الفـرج هبـة الله بـن ميسر، فلازم الانتصـاب والجلـوس، واعتمد التثبت في الأحكـام، وعدل جماعة، فبلغت عدة الشهـود في أيامه مائة وعشرين شاهدا، وكانوا دون الثلاثين.

ثم وردت إليـه المظالم، فـاستوضح أحـوال المعتقلين وطالـع بهم الآمر، وكان فيهـم عدة قـد يئسوا مـن الفرج، فـاستأذن الخليفـة وأفرج عنهـم، وتكلم مع الآمر في أمـر التجار ومانزل بهم من المصادرات، فـأمر الخليفة بكتابة منشورهم في معناهم قرىء على المنابر.

فيهـا كثرت وقـائع أهـل السر على النـاس، وتقرب كثير مـن الكتـاب

الظلمة بعورات الناس إلى الخليفة، فاشتدت مطالبات الناس بالأموال، وقبل قول كل رافع شيئا على أحد، وأخذ الناس بما رموا به، وضمن عدة من الناس اشياء لم تجر عادة بضمانها، وأحدثت رسوم لم تكن فيها تقدم وذلك أنهم لم يقدروا على تصريح القول بالمصادرة، فعملوا ماذكر، فحصلت الشناعة، وخرج من بالبلد من التجار.

وكثرت مصادرات القاطنين بمصر والقاهرة، وعظم قدر ماحمل من أموال هذه الجهات، فاتسع عطاء الخليفة حتى وهب يوما لغلامه بزغش، المنعوت بالعادل ثمانين ألف دينار، ثم سأله بعد مدة يسيرة عما فعله فيها وهبه، فقال: يامولانا تصدقت ووهبت أكثر فأعجب ذلك الآمر، وفرح، وشكره على مافعله، ووهب مرة لغلامه هزاز الملك جوامرد، المنعوت بالأفضل، مثل ذلك، وكانا أخص غلمانه وأقربهم منه، وأشرفهم عنده منزلة، وكانا أسمح خلق الله، وكان الناس في أيامهما لايوجد فيهم من يشكو الفقر، لابمصر ولابالقاهرة، فإن هزار الملوك كانت صدقته في كل يوم جمعة راتبا قد قرره بالقرافة أربعة آلاف درهم في ألف كاغدة، على يد الثقة ابن الصعيدي وغزال الوكيل، وكانت عطاياه من يده لاتنقص عن عشرة دنانير أبدا، ولايخلوا ركوبه إلى القصر وعوده من أحد يقف له ويطلب منه، وكان بزغش يعطي الجمل الكبار التي يغني بها الطالب، من المائة دينار إلى المائتين وأكثر.

وبلغ علم التي يقال لها جمعة، مكنون الآمرية، أن الآمر سيدها قد وهب لكل من غلاميه المذكورين ثمانين ألف دينار، وكان الآمر يحبها وأصدقها أربعة عشر ألف دينار، وولدت منه ابنة سماها ست القصور، فلما دخل عليها عشية اليوم الذي وهبهما فيه هذا المال قامت وأغلقت عليها مقصورتها، وقالت: ماتدخل إلي أو تهب لي ماوهبت لكل منهما، فقال: الساعة، وأحضر الفراشين، وحمل كل عشرة كيسا فيه عشرة آلاف

دينار عينا، فلما صار إليها هذا المال، ومبلغه مائتا ألف دينار ذهبا، فتحت الباب له ودخل(٩١).

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها عم البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من الراهب، بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه، إما من ضرب أو نهب أو أخذ مال، وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص، ويستدعي الناس للمصادرة، فطلب في بعض الأيام رجلا يعرف بابن العُرس من العدول المميزين المبجلين في الناس فأهانه وأخرق به، فخرج إلى الجامع في يوم جمعة وقام على رجليه وقال: ياأهل مصر، انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة، فاتصل ذلك بخواص الخليفة، فأبلغوه إياه وخوفوه عاقبة ذلك، وطالعوه بما حل بالخلق.

وكان الراهب قد أخذ من شخص خادم يقال له جدّ نحو سبعين ألف دينار بخرج من مائة ألف دينار، فصار يشكو، وكان كثير البضائع والتجارات والمقارضين، فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبره إلى أستاذ من أستاذي القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة، يقال له لامع —وكان قد انقطع في منزله بالقصر بعد ماحج غير مرة، وأنشأ جلبة(٩٢) بعيذاب يقال لها اللامعية تحمل الحاج— فاتفق جواز الآمر على مكانه فسأل عنه، فقيل له: إنه لايستطيع النهوض إلى خدمتك، فدخل إليه وسأله عن حاله، فقال: شغلي بسمعة مولانا أشد علي من نفسي، فقال له الآمر: لأي شيء؟ فقال: ياأمير المؤمنين، إن الناس قد تم عليهم من الشدة مالا أحسن أصفه وربما نسب ذلك إليك، وشرح له أمر الراهب ابن أبي نجاح وصاحبي الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبي قيراط، وأبي يعقوب ابراهيم السامري الكاتب، وماأخذوه من جد

الخادم، فحلف الآمر إنه ماعلم أنهم بلغوا بالناس إلى هذا المبلغ، وأنه يستدعي صاحبي الديوان في كل وقت ويحلفهما على المصحف وعلى التوراة، وأن الراهب لم يجعل إلا مستوفيا لما يستخرج من المال وليس له معهما حديث ألبتة، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، إنهم قد اتفقوا على أذى الناس، وقد جعلك الله خليفة في الأرض واسترعاك على عباده، وكل راع مسؤول عن رعيته، فشق على الخليفة، وعمل فيه كلام هذا الأستاذ، وخرج، فما بات حتى صرف صاحبي الديوان واعتقلهما، ليستعيد منهما ما أخذاه للناس ظلما، واستدعى الراهب، وكان بحضرته رجل من الأشراف، فلما حضر الراهب أنشد الشريف:

إن الذي شرفت من أجله
يزعم هذا أنه كاذب

فقال الآمر للراهب: ياراهب، ماذا تقول؟ فسكت فأمر حينئذ والي مصر بأخذه إلى الشرطة وضربه بالنعال حتى يموت، فمضى به إلى شرطة مصر، ومازال يضرب بالنعال حتى مات، فجر بكعبه إلى عند كرسي الجسر[٩٣]مسحوبا، وسمر على لوح، وطرح في بحر النيل، فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر دفعوه إلى البحر، فلم يزل حتى خرج إلى البحر الملح، واشتهر ذكره، وسارت الركبان بهلاكه.

وكان هذا الراهب أولا من أشمون طناح[٩٤]وترهب على يد أبي إسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولي ديوان أسفل الأرض، ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولي الدولة أبي البركات يحنا بن أبي الليث، كاتب المجلس، ولما قتل الوزير المأمون اتصل بالخليفة الآمر، وبذل له في مصادرة الكتاب النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، واسترسل أذاه حتى شملت مضرته كل أحد.

وكان يعمل له في تنيس ودمياط ملابس مخصوصة من الصوف

الأبيض بالـذهب، فيلبسها ومن فـوقها غفارة[٩٥] ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيـل مسك في كل يوم فكـانت رائحته تشتـم من مسافة بعيـدة، وكان يركب الحمـر الفارهة بالسروج المحلاة بـالذهب والفضة، ويجلـس بقاعة الخطابة من جامع مصر.

ولما قتـل وجد لـه في مقطع ثـلاثمائة طراحـة سامـان محشوة جـددا لم تستعمـل، قد رصـت إلى قـرب السقف، وهـذا مـن نـوع واحد، فكيـف ماعداه؟.

ولما قتل وعـرف الآمر مـاكان يعمـل في الناس مـن أنواع الأذى خشي من الله واستحيـا من النـاس، وكره مسـاءلة الفقهـاء من الاسماعيليـة عن ذلك وعن كفارة هـذا الذنب لأنه إمام، وشرط الإمام أن يكـون معصوما، فسير إلى الفقيه سلطان بـن رشا شيخ الفقيه مجلي، وكـان خليفة الحكم، مع مـن يثق به يستفتيه في أمـر الراهب ومايكفـر عنه، فقال: يرد مـاصار إليه مـن الأموال إلى أربابها، فـرد عليه: إنـى والله ماأعرفهـم ولاأقدر على ذلك، ولكـن أعتق الرقاب وأتصـدق، فقال الفقيه: الخليفـة قادر على أن يعتق ويتصدق ولايتأثـر لذلك، ولكن يصوم فإنه عبـادة شاقة على مثله، فقـال: أصوم الـدهر؟، قـال: لا، ولكـن الصوم الـذي وصفه رسـول الله، صلى الله عليـه وسلـم، صوم يـوم وفطـر يـوم، فقال: لاأقـدر على ذلـك، فقال: يصوم رجـب وشعبان ورمضان، ففعل ذلك، وتحرج في صـومه وبره هذه الأشهر من كل ماينكر في الديانة.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولـد للآمـر ولد سماه أبـا القاسـم الطيب، فجعـل ولي عهده، وأمر فزينت القاهـرة ومصر، وعملت الملاهي في الإيوانات وأبواب القصور، وكسيـت العساكـر، وزينت القصـور، وأخرج الآمـر من خـزائنه

وذخائره قماشا ومصاغا مابين آلات وأواني من ذهب وفضة وجوهر، فزين بها، وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، واستمر الحال على هذا أربعة عشر يوما.

وأحضر الكبش الذي يعق به عن المولود، وعليه جل من ديباج، وفي عنقه قلائد الفضة، فذبح بحضرة الخليفة الآمر، وجيء بالمولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله، ونثرت الدنانير على رؤوس الناس، ومدت الأسمطة العظيمة بعد ماكتب إلى الفيوم والقليوبية، والشرقية فأحضرت منها الفواكه، وملىء القصر منها ومن غيرها من ملاذ النفوس، وبخر بالعنبر والعود والند حتى امتلأ الجو من دخانه.

فيها تواترت الأخبار بتخويف الآمر من اغتيال النزارية وتحذيره منهم، وإعلامه بأنه قد خرج منهم قوم من المشرق يريدون قتله، فتحرز احترازا كبيراً بحيث إنه كان لايصل أحد من قطر من الأقطار إلا ويفتش ويستقصى عنه، وأقام عدة من ثقاته يتلقون القوافل ليتعرفوا أحوال الواصلين ويكشفوا عنهم كشفا جليا، وكلما اشتد الأمر كثر الخوف، واتصل به أن جماعة من النزارية حصلوا بالقاهرة ومصر، فاحترز وتحيل في قبضهم فلم يقدر لما أراده الله، وفشا في الناس أمرهم، وكانوا عشرة فخافوا أن يظفر بهم، فاجتمعوا في بيت وقالوا إنه قد فشا أمرنا ولانأمن أن يظفر بنا، واشتوروا فقال احدهم: الرأي أن تقتلوا رجلا منكم وتلقوا برأسه بين القصرين لتنظروا إن عرفها الآمر فتتيقنوا أن حلاكم قد ذكرت له، فتعملوا الحيلة في فراركم من مصر، وإن لم يعرفها فتطمئنوا حينئذ وتعرفوا أن القوم في غفلة، فقالوا: مايتسع لنا قتل واحد منا ينقص عددنا ومابذاك أمرنا، فقال: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته، وما دللتكم إلا على نفسي، وشرع بسكين فذبح بها نفسه فمات، وأخذوا رأسه ورموها في الليل بين القصرين، وأصبحوا ينظرون مايتفق فلما رئيت الرأس واجتمع الناس عليها لم يقل

أحد أنا أعرفها، فحملت إلى الوالي، فأحضر عرفاء الأسواق على أرباب المعايش وأوقفهم عليها فلم يعرفها أحد، فأحضر أصحاب الأرباع بالحارات، فلم يعرفوها، ففرح النزارية واطمأنوا بالإقامة في مصر لقضاء مرادهم.

وكان الآمر كثير الفرج محبا للهو، فركب في يوم الثلاثاء الرابع من ذي القعدة يريد المضي إلى الهودج، الذي بناه بجزيرة مصر لمحبوبته البدوية، ومن العادة في الركوب أن يشاع في أرباب الخدم بالموكب جهة قصد الخليفة حتى لايتفرقوا عنه، فعلم النزارية أين يقصد فجاءوا إلى الجزيرة المذكورة ودخلوا فرنا قبالة الطالع من الجسر إلى البر، ودفعوا إلى الفران دراهم ليعمل لهم فطيرا بسمن وعسل، فبينما هم في أكله وإذا بالخليفة الآمر قد عبر من كرسي الجسر بمصر وجاز عليه وقد تفرق عنه الركابية ومن يصونه بسبب ضيق الجسر، فلما طلع من آخر الجسر يريد العبور إلى الجزيرة وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين، وواحد منهم صار خلفه على كفل الدابة وضربه عدة ضربات، فأدركهم الناس وقتلوهم، وكانوا تسعة، وحمل الآمر في عشاري إلى اللؤلؤة، وكانت أيام النيل، فمات من يومه، وحمل من اللؤلؤة وهو ميت إلى القصر.

وكان عمره يوم قتل أربعا وثلاثين سنة وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوما، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما، ومازال محكوما عليه حتى قتل الأفضل، فتزايد أمره عما كان عليه أيام الأفضل، فلما قبض على وزيره المأمون استبد بالأمور، وتصرف في سائر أحوال المملكة، وأكثر من الركوب، ورتب لركوبه ثلاثة أيام في كل اسبوع وهي: يوم الجمعة، ويوم السبت، ويوم الثلاثاء، فإذا لم يتهيأ له الركوب في أحد هذه الأيام ركب في يوم غيره، فكان يمضي أبدا في يومي الثلاثاء والسبت إلى النزهة في بستان البعل، والتاج، والخمس وجوه، وقبة

الهواء، من ظاهر القاهرة، أو إلى دار الملك بمصر، أو بالهودج الذي أنشأه بجزيرة مصر التي يقال لها اليوم الروضة.

وكان يتحول في أيام النيل من القصر بخدمه ويسكن في اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة، وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه، فيكون كيوم العيد، وصار الناس مدة أيامه التي استبد فيها في لهو وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه، لاسيما غلامه بزغش ورفيقه هزار الملوك جوامرد، حتى إنه لايكاد يوجد في مصر والقاهرة من يشكو زمانه لبسطهم الرزق بين الناس وتوسعهم في العطاءثم تنكد عيش الناس بقيام الراهب وكثرة مصادراته، وشره حينئذ الآمر في أخذ أموال الناس، فقبحت سيرته، وكثر ظلمه واغتصابه لأملاك كثيرة من أملاك الناس، مع مافيه من التجرؤ على سفك الدماء وارتكاب المحذورات واستحسان القبائح.

وفي أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل والحصون بسواحل البلاد الشامية، فملكت عكا في شعبان سنة سبع وتسعين، وعرقة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة، واستولوا على مدينة طرابلس الشام بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، وملكوا بانياس وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة منها، وملكوا قلعة تبنين في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتسلموا مدينة صور في سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وكثرت المرافعات في أيامه، واستخدم عدة من الكتاب الظلمة الأشرار، وضمن أشياء لم تجر العادة بتضمينها، وأخذ رسومالم تكن فيما تقدم.

وعمل دكة عليها خركاة في بركة الحبش، وعمر في بركة الحبش مكانا سماه تنيس وموضعا آخر سماه دمياط، وجدد قصر القرافة، وعمل تحته

دكة—مصطبة— للصوفية، فكان يجلس في أعلاه ويرقص أهل الطريقة قدامه، والشمع موقود والمجامر تعبق بالبخور،والأسمطة تمد بكل صنف لذيذ من الأطعمة والحلوى، وفرق في ليلة عند تواجد ابن الجوهري الواعظ وتمزيق رقعته على من حضر وعلى الفقراء ألف نصفية، ونثر عليهم من الطاق ألف دينار تخاطفوها.

وبنى الهودج لمحبوبته العالية البدوية في جزيرة الروضة، ولهذه البدوية وابن مياح، من بني عمها، مع الآمر أحاديث صارت كأحاديث البطال وشبهها قد ذكرتها عند جزيرة الروضة من هذا الكتاب.

وكان المنفق في مطابخة وأسمطته شيء كثير، فكان عدة مايذبح له في كل شهر خمسة آلاف رأس من الضأن خاصة، سوى مايذبح مما سوى ذلك، وثمن الرأس منها ثلاثة دنانير.

وكان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن، وخطه ضعيفا، وكانت نفسه تحدثه بالسفر إلى الشرق والغارة على بغداد، وأعد لذلك سروجا مجوفة القرابيص، وبطنها بصفائح من قصدير ليحمل فيها الماء، وعمل لها فما فيه صفارة فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس، فكان في كل سرج منها سبعة أرطال من ماء، وعمل عدة من مخالي الخيل من الديباج، وقال في ذلك:

دع اللوم عني، لست مني بموثق
فلا بد لي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد التفرق

ومن شعره أيضا:

أما والذي حجت إلى ركن بيته
جراهيم ركبان مقلدة شهبا

لأقتحمــن الحرب حتــى يقــال لي
ملكــت زمــام الحرب، فــاعتــزل الحربــا
وينـــزل روح الله عيســى بـــن مــريــم
فيرضــى بنــا صحبــا ونــرضــى بـه صحبــا

وكانـت وزارة الأفضل ابن أمير الجيـوش، وكان حـاجرا عليه ليـس له معه أمـر ولانهي، ولانفوذ كلمة إلى أن قتل، ثـم وزر له المأمون محمـد بن فاتـك البطائحـي، فصار له في وزارتـه أمر ونهي، وعـادت الأسمطة على ماكانت عليـه قديما، وكان الأفضل قد نقلها فصـارت تعمل أيام الأعياد والمواسم في دار الملك بمصر حيـث كان يسكن، فلما قتل المأمـون استبد ولم يستوزر أحدا، ودانت له الدنيا.

قضاته: ابن ذكـا النابلسي، ثـم ولى نعمة بن بشير،فطلب الإقـالة، فولى بعده الرشيد أبو عبد الله محمد بن قـاسم بن زيد الصقلي، ومات، فاستقر بعده الجليـس نعمة بـن بشير النابلسي مـرة ثانيـة، ثم صرف بـأبي الفتح مسلم بـن الرسعني، وعـزل بأبي الحجاج يـوسف بن أيـوب المغربي، فلما مات استقـر من بعده أبو عبـد الله محمد بن هبـة الله بن ميسر القيسراني، وقتل الآمر وهو قاض.

كتـاب الإنشاء في أيـامـه: سناء الملـك أبـو محمد بـن محمـد الزيـدي الحسيني، والشيخ الأجـل أبو الحسن بن أبي اسامة الحلبـي، والشيخ تاج الرئاسة أبو القاسم ابن الصيرفي، وابن أبي الدم اليهودي.

وكان نقش خاتمه: «الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين».

وفي أيامه نـزع السعر، فبلغ القمح كـل أردب بدينار، وكان النـاس قد ألفوا الـرخاء في أيـام الأفضل والمأمون، وبعـد عهدهـم بالغـلاء ، فقلقوا لذلك.

ومن نوادر الآمر أنه عاشر الخلفاء الفاطميين، وهو العاشر في النسب أيضا، ولم يـل عشرة على نسق واحد ليس بينه أخ ولاعم ولاابن عم غير الآمر.

وعرض عليه فصل في التوحيد من جملته:«وهو المحذر بقوارع التهديد، من يوم الوعد والوعيد» فقال: إذا حذر من الوعد كما يحذر من الوعيد، فما الفرق بينهما؟ وأمر أن يقال:« المحذر بقوارع التهديد ومن هول يوم الوعيد» واستدرك في فصل آخر في ذكر علي، رضي الله عنه، قوله:«وهو السابق إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجابته» فقال: إن قوله«السابق» غير مستقيم، لأنه إن أراد التخصيص فذلك غير صحيح، إذ كانت خديجة سبقت إلى الاسلام، والسابق منهم جائز أن يكون واحدا وأن يكون جماعة، والله تعالى يقول:«والسابقون السابقون(٩٧)» وليس في ذلك دليل على تخصيص واحد بالتقدم على الباقين، ثم ذكر مثالا فقال: خيل الحلبة إذا أقبلت منها عشرة لايخرج فيها واحد عن واحد قيل لها«السبق» وقيل لكل واحد منها سابق، وأمر أن يقال :«أول سابق إلى دعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإجابته».

-١١٦٥٨-

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد بعسقلان في المحرم سنة سبع، وقيل سنة ثمان، وستين وأربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة، فكان يقال له الأمير عبد المجيد العسقلاني، ابن عم مولانا.

ولما قتل النزارية الآمر كان كبار غلمانه العادل بزغش وهزار الملوك جوامرد، وينعت بالأفضل، فعمدا إلى الأمير أبي الميمون عبد المجيد، وكان أكبر الجماعة الأقارب سنا، وقالا: إن الخليفة المنتقل قال قبل وفاته بأسبوع عن نفسه: «المسكين المقتول بالسكين، وأشار إلى أن الجهة الفلانية حامل منه، وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولدا ذكرا وهو الخليفة من بعده وأن كفالته للأمير عبد المجيد أبي الميمون، فجلس المذكور كفيلا، ونعت بالحافظ لدين الله، في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، يوم قتل الآمر بأحكام الله، وتقرر أن يكون هزار الملوك وزيرا، وأن يكون الأمير السعيد يانس متولي الباب أسفهسلارا، وقرىء سجل في الإيوان بهذا التقرير والحافظ في الشباك جالس، تولى قراءته قاضي القضاة ابن ميسر على كرسي نصب له أمام الحافظ، بحضور أرباب الدولة.

وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة، وقد اجتمع في «بين القصرين» خمسة آلاف فارس وراجل، وفيهم رضوان بن ولخشي، أحد الأمراء المميزين أرباب الشجاعة، وهو رأس الجمع، وفي داخل القاعة بالقصر أيضا جماعة فيهم بزغش وقد شق عليه تقدم هزار الملوك وتقلده الوزارة، فنظر إلى أبي علي أحمد بن الأفضل، الملقب كتيفات، وهو جالس، فقال: يامولاي الأجل، أنا أشح عليك أن تطيل الجلوس حتى يخرج هذا

الفاعل الصانع وزيرا فتخدمه ويسومك المشي في ركابه، اخرج إلى دارك، وإذا قضى الله مضيت منها لهنائه.

وكان ظاهر هذا القول مكارمة أبي علي وباطنه أنه علم أن أكثر العسكر الواقفين بين القصرين لايرغبون وزارة هزار الملوك، فدبر أنهم إذا وقعت أعينهم على أبي علي تعلقوا به وأقاموه وزيرا، فيفسد أمر هزار الملوك، فقام أبو علي ليخرج، فمنعه طغج أحد نواب الباب، وكان فطنا ذكيا، فقال له بزغش: لم تمنع هذا المولى من الخروج؟ فقال: كيف لاأمنعه من الخروج إلى هذا الجمع، ولايؤمن تعلق العسكرية فيقع له ماوقع للآخر، فنهره بزغش وقال له: دع عنك الفضول، وقام بنفسه وأخرجه إلى آخر دهاليز القصر، فما هو إلا أن خرج من باب القصر ورآه رضوان بن ولخشي والجماعة، وقد علموا أن هزار الملوك قد خلع عليه للوزارة وأنه سيخرج إليهم، فتواثبوا إلى أبي علي وقالوا هو الوزير ابن الوزير ابن الوزير، وأراد أن ينفلت منهم، واعتذر أنه شرب دواء، فلم يقبل منه، وطلب له في الحال خيمة وبيت صدر، فضربت في جانب من بين القصرين، وأدخلوه فيها.

وقام الصائح وثار العسكر بموافقتهم على وزارته والرضا به، وصاحوا أن لاسبيل أن يلي علينا هذا الصانع الفاعل، وأعلنوا بشتمه، فغلقت أبواب القصر كلها واشتد الأمر، فأحضر ضرغام وأصحابه سلالم وأقاموها إلى طاقات المنظرة، وأطلعوا عليها أميرا يقال له ابن شاهنشاه، فلما أشرف على طاق المنظرة جاء أستاذو الخليفة وأنكروا عليه فعله، فقال هذه فتنة تقوم مايسواها هذا الذي خلعتم عليه، ويحصل من ذلك على الخليفة من الغرامة وسوء أدب جهال العسكر مالايتلافى، وماهذا مني والله إلا نصيحة لمولانا، فإنني قد علمت من رأي القوم مالاعلمتم، أخبروا مولانا عني بهذا.

فمضى الأستاذون إلى الحافظ وأبلغوه ماقال ابن شاهنشاه وهزار

الملوك بين يديه بخلع الوزارة يسمع القول، فقال له الحافظ: هاأنت تسمع مايقال، فقال: يامولانا، أنا في محلك ووزارتي بوصية خليفة قبلك، فاتركني أخرج لهؤلاء الفعلة الصنعة، فقال: لاسبيل لفتح باب القصر في مثل هذا الوقت، وقد فعلنا في أمرك مارتب لك، وهذه الخلع عليك، ولكن قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: لارأي لمن لايطاع.

واشتد الأمر وكثر تموير العسكر، فقيل لابن شاهشناه: قد أجبتهم إلى وزارة أبي علي ومانحن له كارهون، فأعاد ذلك على رضوان وأصحابه، فقالوا: قل له يسلم لنا هزار الملوك، فامتنع من ذلك وقد تكاثر القوم على سور القصر وعزموا على طلب المذكور ولابد، فقال الحافظ له: قم واحتجب في مكان عسى ندبر في قضيتك أمرا نصرف به هذا الجمع عنا وعنك.

فنزعت الخلع (التي) عليه وأحيط به، فصار إلى مكان قتل فيه قتلة مستورة وألقيت رأسه إلى القوم فسكنوا.

واستدعي بالخلع لأبي علي، فأفيضت عليه في يوم الأربعاء خامسه، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة في ركابه، فكانت وزارة هزار الملك نصف يوم بغير تصرف، وكان قد اصطفاه الآمر لنفسه هو وبرغش قبل موته بمدة، ورد له المظالم والنظر في أحوال الجند، وهو نوع من الوزارة، وكان ينعت بالأفضل.

ووقع النهب في القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، ونهبت القيسارية وكان فيها أكثر مايملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزنهم ومذ بنيت لم يكن فيها أمر يكره، فكان هذا أول حادث حدث على القاهرة من النهب والطمع.

وطيف بـرأس هزار الملـوك على رمح، واستقـرت الوزارة لأبي علي أحمد ابـن الأفضـل شـاهنشـاه بـن أمير الجيـوش بـدر الجمالي، وكـان يلقـب بكتيفات، في يـوم الخميس سـادس عشر ذي القعدة، فأول مـابدأ بـه أنه أحاط بالحافـظ وسجنه في خزانة فيها بين الإيـوان وباب العيد(٩٩) ويقال إن رضـوان بن ولخشـي دخل إليـه وقيده، فقـال له الحافـظ: أنت فحـل الأمراء فنعت بذلك.

وتمكن أبو علي واستـولى على جميع مافي القصر من الأمـوال والذخائر، وحمل الجميع إلى دار الـوزارة بعد أن فـرق أكثر مـا كان الآمـر جمعه مـن الغلال في النـاس على سبيل الإنعـام ، وكان السعـر غاليـا، يباع القمـح بنحو الدينـار كل إردب، فأراد أبو علي أن يحسن سمعته، فـأمر أن تفتح المخـازن وأطلق أكثـر ماكـان فيها، وكـانت مئين ألـوف ارادب، ورد على الناس الأموال التي فضلت في بيت المال مـن مال المصادرة التي كان قد أخذهـا الآمر في أيـام مباشرة الـراهب ومـاكتبت بـه الخطوط قبـل ذلك، وكان الـذي وجد خمسين ألـف دينار، فاستبشر النـاس به، وفـرحوا فـرحا طاشت منه عقولهم، وضجوا بالدعـاء له في سـائر أعمال الديار المصرية، وأعلنوا بـذكر معايب الآمـر ومثالبه، وأقطـع الحجرية البلاد، وظهـر فرح الناس وابتهاجهم.

وأكرم بزغش العادل الذي أشـار عليه بالخروج من القصر إكراما كثيرا، وكـانت قـد ضربت ألـواح على عدة أمـلاك في أيام الآمـر فأعيـدت إلى أربابها.

وكـان إماميا متشددا، فـالتفت عليـه الإماميـة ولعبوا بـه حتى أظهـر المذهب الإمـامي، وتزايـد الأمر فيه إلى التأذيـن فانفعل بهم، وحسنـوا له الدعوة للقـائم المنتظر، فضرب الدراهم باسمه ونقـش عليها:«الله الصمد الإمام محمـد»، وخطب بنفسه في يوم الجمعـة، وكان أكثر خلـق الله تخلفا

وأقلهم علما، فغلط في الخطبة غلطة فاحشة صحفها فلم ينكر عليه أحد.

واشتد ضرره على أهل القصر من الإرعاد والإبراق، وأكثر من إزعاجهم والتفتيش على ولد الآمر وعلى يانس، صاحب الباب، وعلى صبيان الخاص الآمرية، وأراد أن يخلع الحافظ ويقتله بمن قتله الآمر من إخوته، وكان الآمر لما احتاط على موجود الأفضل بعد قتله بلغه عن أولاد الأفضل كلام في حقه يستقبح ذكره، فأقام عليهم الحجة عندما مثلوا بحضرته، وقال: أبوكم الأفضل غلامي ولامال له،فسفه عليه أحدهم، فغضب وقتلهم، فأراد أبو علي بتفتيشه على الحمل الذي ذكر أنه من الآمر أن يظفر به ليقتله بإخوته، فلم يظهر الحمل، ولاقدر أيضا على قتل الحافظ ولاخلعه، فاعتقله كما تقدم، وخطب للقائم المنتظر تمويها، فنفرت قلوب أهل الدولة منه، وقامت نفوسهم منه، وتعصب قوم من الأجناد من خاص الخليفة، بترتيب يانس لهم، وتحالفوا سرا على قتله، وكانوا أربعين رجلا، وصاروا يرتقبون فرصة ينتهزونها.

فيها قبض على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط وعلى أبي يعقوب ابراهيم السامري، ونهب الجند دورهما، وحبسا في حبس المعونة(١٠١) ثم أخرجا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها رتب أبو علي بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، فصار كل قاضي يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية سلطان بن ابراهيم بن المسلم بن رشا، وقاضي المالكية أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللبني المغربي، وقاضي الاسماعيلية أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد القاضي فخر الأمناء الأنصاري الأوسي المعروف بابن الأزرق، وقاضي الإمامية

القاضي المفضل أبو القاسم بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد ابن أبي كامل، ولم يسمع بمثل هذا في الملة الاسلامية قبل ذلك.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

في يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم ركب أبو علي أحمد بن الأفضل إلى رأس الطابية ليعرق فرسا في الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة، وللعب بالكرة على عادته، فجاء وهو هناك عشرة من صبيان الخاص الذين تحالفوا على قتله متى ظفروا به جميعا أو فرادى، فصاح أبو علي (على) عادة من يسابق بالخيل: راحت، فقال العشرة: عليك، وحملوا عليه وطعنوه حتى قتل، فأدركه أستاذ من أستاذيه وألقى نفسه عليه فقتلوه معه.

واجتمع الأربعون عنانا واحدا وجاءوا إلى القصر وفيهم يانس، وكان مستوحشا من أبي علي، فأخرجوا الحافظ من الخزانة التي كان معتقلا بها، وفكوا عنه القيد وأجلسوه في الشباك على منصة الخلافة وقالوا، ماحركنا على هذا إلا الأمير يانس، فاجتمع الناس، وأخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه.

ونهب في هذا اليوم كثير من الأسواق والدور والحوانيت، وصار ذلك عادة مستقرة وشيئا معهودا في كل فتنة.

وحملت رأس أبي علي إلى القصر، وكان قد أسقط منذ أقامه الجند ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الطائفة الاسماعيلية، وأزال من الأذان قولهم فيه: «حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر» وأسقط ذكر الحافظ من الخطبة، واخترع لنفسه دعاء يدعى به على المنابر وهو: «السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، المحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين،

ناصر إمام الحق في حالي غيبته وحضوره، والقائم في نصرته، بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاته المؤمنين إلى واضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل أبي القاسم شاهنشاه أمير الجيوش».

وكانت مدة تحكمه سنة وشهرا وعشرة أيام، ثم حمل بعد قتله ودفن بتربة أمير الجيوش(١٠٢) ظاهر باب النصر.

وخلع على السعيد أبي الفتح يانس الأرمني، صاحب الباب، خلع الوزارة، وكان من غلمان الأفضل ابن أمير الجيوش العقلاء، وله هيبة، وعنده تماسك في الأمور وحفظ للقوانين فهدأت الدهماء وصلحت الأحوال، واستقرت الخلافة للحافظ، وحمل جميع ماكان قد نقل إلى دار الوزارة من الأموال والآلات وأعيد إلى القصر.

ولم يحدث يانس شيئا إلا أنه تخوف من صبيان الخاص، وحدثته نفسه أنهم قد جسروا على الملوك، وأنه ربما غضبوا منه ففعلوا به مافعلوا بغيره، وأحسوا منه بذلك فتفرقوا عنه.

فلما تأكدت الوحشة بينهم وبينه ركب في خاصته وغلمانه وأركب العسكر، والتقوا قبالة باب التبانين(١٠٣) بين القصرين، فقتل منهم مايزيد عن ثلاثمائة فارس من أعيانهم، فيهم قتلة أبي علي أحمد بن الأفضل، وكانوا نحو خمسمائة فارس، فكسر شوكتهم وأضعفهم، فلم يبق منهم من يؤبه له ولايعتد به، فقوي أمر يانس وعظم شأنه.

وكانت له في النفوس مكانة، فثقل على الحافظ وتخيل منه، فأحس بذلك، وصار كل منهما يدبر على الآخر، فبدأ الوزير يانس بحاشية الخليفة، فقبض على قاضي القضاة وداعي الدعاة أبي الفخر صالح بن

عبد الله بن رجاء، وأبي الفتوح بن قادوس فقتلهما، وبلغه شيء يكرهه عن أستاذ من خاص الخليفة، فقبض عليه من غير مشاورة الحافظ، واعتقله بخزانة البنود، وضرب عنقه من ليلته، فاستبدت الوحشة بينه وبين الحافظ، وخشي من زيادة معناه، فقال لطبيبه: إكفني أمره بمأكل أو مشرب، فأبى الطبيب ذلك خوفا من سوء العاقبة، ويقال إن الحافظ توصل إلى أن سم يانس في ماء المستراح، فانفتح دبره واتسع حتى مابقي يقدر على الجلوس، فقال الطبيب: ياأمير المؤمنين، قد أمكنت الفرصة وبلغت مقصودك، فلو أن مولانا عاده في هذه المرضة اكتسب حسن الأحدوثة، وهذا المرض ليس دواؤه إلا السكون ولاشيء أضر عليه من الحركة والانزعاج، وهو لما يسمع بقصد مولانا تحرك واهتم بلقائه وانزعج، وفي ذلك تلاف نفسه، فقبل ذلك وجاء لعيادته، فلما رآه يانس قام للقائه وخرج عن فراشه، فأطال الحافظ جلوسه عنده ومحادثته، فلم يقم حتى سقطت أمعاؤه، ومات من ليلته، في سادس عشرين ذي الحجة.

وكانت وزارته تسعة أشهر وأياما، وترك ولدين كفلهما الحافظ.

وكان يانس هذا قد أهداه (ابن) باديس جد عباس الوزير—الآتي ذكره إن شاء الله تعالى— إلى الأفضل ابن أمير الجيوش فترقى في الخدم إلى أن تأمر وتقدم وولي الباب، وهي أعظم رتب الأمراء، وكنى بأبي الفتح ولقب بالسعيد، ثم نعت في وزارته بناصر الجيوش سيف الاسلام، وكان عظيم الهمة بعيد الغور، كثير الشر، شديد الهيبة.

وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله، وبويع له بيعة ثانية لما علم الحمل.

قال الشريف محمد بن أسعد الجواني: رأيت صغيرا في القرافة

الكبرى، ويسمى بقفيفة، سألت عنه، قيل هذا ولد الآمر: لما ولى الحافظ ولى عهده من يولد، استولى على الأمر، وولد هذا الولد فكتم حاله، وأخرج في قفة على وجهها سلق وكرات، وستر أمره إلى أن ركب بعد ذلك ووشي به فأخذ وقتل.

ولما تمكن الحافظ قرئ سجل بإمامته، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزي الخلفاء، في ثالث ربيع الأول، ورفع عن الناس بواقي مكس الغلة.

وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذا الدعاء، وهو: «اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأعززت الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا، وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين».

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر عن قضاء القضاة، في أول ربيع الأول، وقرر مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر، وأضيفت إليه الدعوة، فقيل له قاضي القضاة وداعي الدعاة، وذلك وقت العشاء الآخرة من ليلة الخميس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة.

ولما مات يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزر أحدا وأحسن السيرة.

ويقال إن يانس لما قتل القاضي أبا الفخر سلم الحكم إلى سراج الدين أبي الثريا نجم بن جعفر.

وفيها جهز الحافظ الأمير المنتضى أبا الفوارس وثاب بن مسافر

الغنوي رسولا في الرابع من ذي القعدة بجواب شمس الملوك، صاحب دمشق، وأصحبه الخلع السنية وأسفاط الثياب والخيل المسومة، ومالا متوفرا، فوصل إلى دمشق وتلقي أحسن تلقي وقبلت الألطاف منه، وقرىء كتابه، وأقام إلى أن أعيد من القابلة.

وفيها خرج أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر، وكان قد توجه إلى المغرب مستخفيا وجمع هناك جموعا كثيرة وعاد، فبعث الحافظ إلى مقدمي عسكره يستميلهم، فلما وصل دير الزجاج والحمام اغتالوه وقتلوه، فانفض جمعه.

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية، فخرج إليهم عسكر كانت بينهم وبينه حروب.

وفيها سلم الحافظ أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان، المعروف بابن العساف، وصرف يوحنا بن أبي الليث لأشياء نقمها عليه، وسعوا فيه عنده بأنه كان سببا فيما عمله أبو علي أحمد بن الأفضل من تفريق مافرقه من الأموال لأهله وأقاربه، واستخدم الحافظ أيضا أخا معتمد الدولة في نقابه الأشراف وجعله جليسا، وكان عنده أدب ومعرفة بعلم الفلك، وكان الحافظ يحب هذا العلم.

وفيها قبض على ابن عبد الكريم، تربية الآمر، فوجد له ثلاثمائة وستون منديلا مذهبة، وعلى مثالها ثلاثمائة وستون بذلة مذهب، فكان يلبس كل يوم بذلة، وكل منديل، وهي العمامة، على مسمار فضة، ووجد له خمسمائة نرجسية ذهبا وفضة، ومائتا صندوق فيها ثياب ملونات، ومائة حسكة ذهبا وفضة، ومن الجوهر مايعجز عن وصفه.

-١١٦٦٨-

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

فيها عهد الحافظ إلى ولده سليمان، وكان أسن أولاده وأحبهم إليه، وأقامه ليسد مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إياه في أوامره ونواهيه، فمات بعد ولاية العهد بشهرين، فحزن عليه مدة، ثم جعل ابنه حيدرة ولي عهده ونصبه للنظر في المظالم، فشق ذلك على أخيه حسن لأنه كان يروم ذلك لكثرة أمواله وتلاده وحواشيه ومركبه، بحيث كان له ديوان مفرد، ومازالت عقارب العداوة تدب بينهما حتى وقعت الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية[١٠٤] وكانت شوكة الريحانية قوية والجند يشنئونهم خوفا منهم فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، وصاح الجند: ياحسن يامنصور، ياللحسنية.

والتقى العسكران، فقتل بينهما مايزيد على خمسة آلاف راجل، فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها، ولم يسلم من الريحانية إلا من ألقى نفسه في بحر النيل من ناحية المقس، واستظهر حسن وصار الأمر إليه، فانضم له أوباش العسكر وزعارهم، وفرق فيهم الزرد وسماهم صبيان الزرد، وصاروا لايفارقونه ويحفون به إذا ركب، ويلازمون داره إذا نزل.

فقامت قيامة الناس، وقبض على ابن العساف وقتله واختفى منه الحافظ وحيدرة،وجد في طلب حيدرة، وهتك بالأوباش الذين اختارهم حرمة القصر، وخرق ناموسه من كونه نغص على أبيه وأخيه، وصاروا يحسنون له كل رذيلة ويجروه على أذى الناس.

فأخذ الحافظ في تلافي الأمر مع حسن لينصلح، وعهد إليه بالخلافة في يوم الخميس لأربع بقين من شهر رمضان، وأركبه بالشعار، ونعت بولي

عهد المؤمنين وكتب له بذلك سجلا قرىء على المنابر، فكان يقال على المنابر:«اللهم شيد ببقاء ولي عهد المؤمنين أركان خلافته، وذلل سيوف الاقتدار في نصره وكفايته، وأعنه على مصالح بلاده ورعيته، واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته، الذين أطلعتهم في سماء مملكته بدورا لايغيرها المحاق، وقمعت ببأسهم كل مرتد من أهل الشقاق والنفاق، وشددت بهم أزر الإمامة، وجعلت الخلافة فيهم إلى يوم القيامة».

فلم يزده ذلك إلا شرا وتعديا، فضيق على أبيه وبالغ في مضرته، فسير الحافظ وفي الدولة إسحاق، أحد الأستاذين المحنكين، إلى الصعيد ليجمع ماقدر عليه من الريحانية فمضى واستصرخ على حسن، وجمع من الأمم مالايعلمه إلا الله، وسار بهم، فبلغ ذلك حسنا، فجهز إليه عسكرا عرمرما وخرج، فالتقى الجمعان، وهبت ريح سوداء في وجوه الواصلين، وركبهم عسكر حسن، فلم يفلت منهم إلا القليل، وغرق أكثرهم في البحر وقتلوا ، وأخذ الأستاذ إسحاق وأدخل إلى القاهرة على جمل برأسه طرطور لبد أحمر، فلما وصل بين القصرين رشق بالنشاب، حتى مات، ورمي إليهم من القصر الغربي أستاذ آخر فقتلوه، وقتل الأمير شرف الأمراء.

فلما اشتد الأمر على الحافظ عمل حيلة وكتب ورقة ورماها إلى ولده حسن، فيها: «ياولدي أنت على كل حال ولدي، ولو عمل كل منا لصاحبه مايكره الآخر ماأراد أن يصيبه مكروه، ولايحملني قلبي، وقد انتهى الأمر إلي أن أمراء الدولة فلانا وفلانا —وسماهم له— وأنك قد شددت وطأتك عليهم وخافوك، وأنهم معولون على الفتك بك، فخذ حذرك ياولدي».

فلما وقف حسن على الورقة قامت قيامته، فلما اجتمع أولئك الأمراء في داره للسلام عليه أمر صبيان الزرد الذين اختارهم وصار يثق بهم

فقتلوهم بأجمعهم، وأخذ مافي دورهم، فاشتدت مصيبة الدولة بفقد من قتل من الأمراء الذين كانوا أركان الدولة، وهم أصحاب الرأي والمعرفة، فوهت واختلت لقلة الرجال وعدم الكفاة.

ومن حين قتل حسن الأمراء تخوفه باقي الجند، ونفرت نفوسهم منه فإنه كان جريئا عنيفا بحاثا عن الناس يريد إقلاب الدولة وتغييرها لتقدم أصحابه، وأكثر من مصادرة الناس، وقتل سراج الدين أبا الثريا نجما في يوم الخميس ثامن شوال، وكان أبو الثريا في أول أمره خاملا في الناس، ثم سمع قوله في العدالة أيام الآمر، فلما قبض أحمد بن الأفضل على أبي الفخر وسجنه عنده بدار الوزارة، لأنه كان الداعي أيام الآمر، طلب من يكون داعيا، فاستخدم نجما هذا ولم يقف على ماكان عنده من الدهاء، فلما كان في وزارة يانس جمع إليه الحكم مع الدعوة، وصار يدبر الدولة، وحسن عنده نصرة طائفة الاسماعيلية والانتقام ممن كان يؤذيهم وجعل لهم زماما قتله حسن بن الحافظ لما قتل الشريف بن العباس، وأخذ نجم يعادي أمراء الدولة ورؤساءها ولاينظر في عاقبة —وكانوا قد حسدوه على قربه من الحافظ وتمكنه منه ومطاوعته له بحيث لايعمل شيئا إلا برأيه— فلما تمكن حسن بن الحافظ أغروه به فقتله وقتل معه جماعة، ورد القضاء لابن ميسر وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وفيها مات القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد بن حمدون الكناني قاضي الاسكندرية بثغر رشيد، وقد عاد من القاهرة في جمادى الآخرة، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وكانت له مدة في القضاء، وهو الذي كان سببا في اعتقال أبي الصلت أمية الأندلسي، وقد ذكره السلفي(١٠٥) وأثنى عليه، ورثي بعدة قصائد.

وفيها مات أبو عبد الله الحسين بن أبي الفضل بن الحسين الزاهد

الناطق بـالحكم، المعروف بابن بشرى الجوهـري، الواعظ ابن الـواعظ ابن الواعظ ابـن الواعظ، في جمادى الأولى، وكان حلو الوعـظ، إلا أنه تعرض في آخـر عمره لما لايعنيـه، فنفـاه الحافـظ إلى دمياط، وذلـك أن الآمـر لما مـات ترك جـارية حـاملا، فقـام الحافظ بعـده في الخلافة على أن يكـون كفيلا للحمل حتـى يكبر، فاتفق أنه ولـد وخافت أمه عليـه من الحافظ، فجعلتـه في قفة مـن خـوص وجعلت فـوقـه بصلا وكـراثـا وجزرا حتـى لايفطن به، وبعثته في قماطة تحت الحوائج في القفة إلى القرافة، وأدخل به إلى مسجـد أبي تـراب الصـواف، وأرضعتـه المرضعـة، وخفـي أمـره عـن الحافـظ حتى كبر، وكـان يعرف بين الصبيـان بقفيفة، فلما حـان نفعه نـم عليه ابن الجوهـري هذا إلى الحافظ، فأخذ الصبـي وفصده، فمات، وخلع على ابن الجوهري ثم نفاه إلى دمياط فمات بها.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها عظم أمر حسن بن الحافظ وقويـت شوكته، وتأكدت العداوة بينه وبين من بقي مـن الأمراء والأجناد واشتد خـوفهم منه، وعزمـوا على خلع الحافظ من الخلافـة وخلع ابنه حسن مـن ولاية العهد، وعزلـه عن الأمر، فاجتمعـوا بين القصرين، وهـم نحو العشرة آلاف مـابين فارس وراجـل، وبعثوا إلى الحافـظ فـشكوا مافيه ابنـه حسن وأرادوا إزالته عنهـم، فعجز حسن عـن مقاومتهم ولم يبـق بدا من الفـرار منهم إلى أبيه، فصـار إليه، وكان قد نـزل بالقصر الغربي، ففتح سردابا بين القصريـن ووصل إلى أبيه بالقصر الشرقي من تحت الأرض، وتحصن بـالقصر، فبادر الحافظ بالقبض عليه وقيـده، وأرسل إلى الأمراء يخبرهـم بـالقبض على حسن، فـأجمعوا على طلبه ليقتلوه، فبعث إليهم يقبح مرادهـم منه أن يقتل ولده، وأنه قد أزال عنهم أمره، وضمـن لهم أنه لايتصرف أبدا، ووعدهم بـالزيادة في الأرزاق والاقطاعـات، فلـم يقبلـوا ذلـك، وقالـوا: إمـا نحـن وإما هـو، وأحضروا الأحطاب والنيران لإحراق القصر، وبالغـوا في الجرأة على الحافظ، فلم يجد

من ينتصر به عليهم لأنهم أنصاره وجنده الذين يستطيل بهم على غيرهم، فألجأته الضرورة إلى أن استمهلهم ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل.

فرأى أنه لاينفك من هذه النازلة العظيمة إلا بقتل ابنه لتنحسم مادة المباينة بينه وبين العسكر التي لايأمن إن استمرت أن تأتي على نفسه هو، فإنهم لم يبرحوا من بين القصرين، فاستدعى طبيبيه: أبا منصور وابن قرقة، فبدأ بأبي منصور اليهودي وفاوضه في عمل سقية قاتلة فتحرج من ذلك وأنكر معرفته كل الإنكار، وحلف برأس الخليفة وعلى التوراة أنه لم يقف قط على شيء من هذا، فتركه وأحضر ابن قرقة، وكان يلي الاستعمالات بدار الديباج، وخزائن السلاح والسروج، وفاوضه في ذلك، فقال: الساعة، ولايتقطع منها الجسد بل تفيض النفس لاغير، فأحضرها من يومه، وألزم الحافظ ابنه حسنا بمن ندبه من الصقالبة، فأكرهوه على شربها، فمات في يوم الثلاثاء عشرين جمادى الآخرة.

وقيل للقوم سرا: قد كان ماأردتم فامضوا إلى دوركم، فلم يثقوا بذلك، وقالوا لابد أن يشاهده منا من نثق به، وندبوا منهم أميرا يعرف بالجرأة والشر يقال له المعظم جلال الدولة محمد، ويعرف بجلب راغب الآمري، فدخل إلى حيث حسن بن الحافظ فإذا هو مسجى بثوب ملاءة، فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكينا وغرزه في عدة مواضع من بدنه حتى تيقن أنه ميت، وانصرف إلى أصحابه فتفرقوا(١٠٦).

وكان تاج الدولة بهرام الأرمني قد انفلت من حسن بن الحافظ وولي الغربية، فلما علم أن النفوس جميعها من البدو والحضر قد انحرفت عن حسن، جمع مقطعي الغربية والأرمن والعربان وطلب القاهرة، ويقال كان ذلك بمباطنة من الحافظ، فما وصل إلى القاهرة حتى عابت حشوده في القرى والضياع ونهبوها.

وعندما وصل إلى القاهـرة، يوم الخميس وقت العصر، الحادي عشر من جمادى الآخرة التـف عليـه مـن بها مـن الأمـراء والأجنـاد وأبـادوا أكثر الجيوشيـة والاسكندرانيـة والفرجيـة ومن يقـول بقولهم مـن الغز الغـرباء، ونهب أبواش الناس ماقدروا عليه.

ولما قتل حسـن وسكنت الدهماء قبض الحافـظ على الطبيب ابن قـرقة وقتلـه بخـزانـة البنـود،و ارتجع جميـع أمـلاكـه ومـوجـوده، وكـان يلي الاستعمالات بـدار الـديبـاج وخـزائن السـلاح والسروج، وأنعـم على أبي منصور الطبيب وجعله رئيسا على اليهود وصارت له نعم جليلة.

وفيها كـانت وزارة بهرام الأرمنـي النصراني الملقب تـاج الدولـة، وكان السبب في ولايته الـوزارة أنه جرت فتنة بين الأجناد والسودان عنـدما قتل حسن بن الحافظ قوى فيها السودان على الأجنـاد وأخرجوهم من القاهرة، فإن السودان كانوا مع حسن دون الأجنـاد، فإنهم الذين حملوا أباه الحافظ على قتله، وقـدم بهرام بالحشد كما تقدم، فـوجد حسنا قد مـات، فمسكه الأجناد بظـاهر القاهـرة وأدخلوه على الحافـظ لدين الله في يـوم الخميس، بعد العصر، الحادي عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة، فخلع عليه في يوم الأحد، رابع عشرة، ثم خلع عليه ثانيا يوم الخميس ثامن عشرة، خلع الـوزارة، ونعت بسيـف الاسلام تـاج الخلافـة، وهو نصراني، مـع كراهـة الحافظ لذلك، لتسكـن الفتنة، ولم يرد إليه شيئا من الأمـور الشرعية، فلم يدخل في مشكل لأنه كان عاقلا سيوسا حسن التدبير.

وتقدم كثير من حـواشي الحافظ إليه ينكرون عليه ولاية بهرام مـع كونه نصرانيا، وقالـوا: لايرضى المسلمون بهذا، ومـن شرط الوزير أن يرقـى مع الإمـام المنبر في الأعيـاد ليـزرر عليــه المزررة الحاجـزة بينـه وبين النـاس، والقضاة نواب الـوزير من زمن أمير الجيـوش، ويذكرون دائما النيابـة عنه في الكتب الحكـمية النافـذة إلى الآفاق وكتـب الأنكحة فقـال: إذا رضينا

نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف، وأما صعود المنبر فيستنيب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك ويفعل فيها ماكان يفعل قبل أمير الجيوش.

فشق على الناس وزارته، وتطاول النصارى في أيامه على المسلمين، وكان هو قد أحسن السيرة وساس الرعية، وأدى الطاعة للخليفة، وأنفق في الجند جملة من الأموال، ودبر الأمور فاستقامت له الأحوال، وراسله الملوك، وزال ماكان في البلد من الفتن، فلم ينكر عليه سوى أنه نصراني.

وكان يقعد يوم الجمعة عن الصلاة فلا يحضر، بل يعدل إلى مكان بمفرده حتى يصلي الخليفة بالناس، وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار بها منهم عالم عظيم، ووصل إليه ابن أخيه، وكان يعرف بالسبع الأحمر، فكثر القيل والقال، وأطلق أسيرا من الفرنج كان من أكابرهم، فأنكر الناس ذلك ورفعوا فيه النصائح للحافظ، وأكثروا من الإنكار.

وكان رضوان بن ولخشي حينئذ صاحب الباب، وهو شجاع كاتب، فبلغ بهرام أنه يهزأ به في قوله وفعله، فثقل عليه وأخذ يعمل على إخراجه من القاهرة، وولى أخاه الباساك قوص(١٠٧).

وفيها توفي الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الجذامي الاسكندراني المعروف بالحداد(١٠٨) بمصر.

سنة ثلاثين وخمسمائة

فيها أخرج بهرام الأمير رضوان بن ولخشي من القاهرة لولاية عسقلان، وقيل بل كان خروجه في سلخ رجب من السنة الماضية، فلما وصل إليها وجد فيها جماعة من الأرمن قد وصلوا في البحر يريدون القاهرة ،

فناكدهم ومنع كثيرا منهم، فبلغ ذلك الوزير بهرام، فشق عليه، وصرفه عن عسقلان، واستدعاه، فقدم إلى القاهرة، وشكره الناس على منعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة، فلم يطق بهرام إقامته معه، فولاه الغربية في صفر إبعادا له عنه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية جربة(١٠٩)، ونازل طرابلس الغرب فانهزم عنها(١١٠).

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

فيها تكاثر حضور أقارب بهرام وإخوته، وأهله وقومه، ومجيئهم من ناحية تل باشر وكانوا مقيمين بها، ولهم فيها كبير منهم يتولى أمرهم، وقدموا أيضا من بلاد الأرمن، حتى صار منهم بديار مصر نحو الثلاثين ألف إنسان، فعظم ضررهم بالمسلمين وكثرت استطالتهم، واشتد جورهم، وتظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات، وصار كل رئيس منهم يبني له كنيسة بجوار داره.

وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الاسلامية، ويغلبوا على البلاد فيردوها دار كفر، فتتابعوا في الشكاية من أهل بهرام وأقاربه.

ووردت الأخبار من قوص بأن الباساك، أخا بهرام قد جار على الناس واستباح أموالهم، وبالغ في أذيتهم وظلمهم، فاشتد ذلك على الناس، وعظم على الأمراء ما نزل بالمسلمين، فبعثوا إلى أبي الفتح رضوان بن ولخشي —وكان مقدما (يعرف) فيهم لكثرة نعوته بفحل الأمراء، وهو يومئذ يتولى الغربية— يشكون إليه ما حل بالمسلمين ويستحثونه على المصير وإنقاذهم مما نزل بهم.

فلما وصلت إليه كتب الأمراء تشمر لطلب الوزارة، ورقى المنبر خطيبا

بنفسه فخطب خطبة بليغة حرض فيها الناس على الجهاد في سبيل الله، والاجتماع لقتال بهرام وشيعته النصارى من الأرمن، وكان حينئذ بمدينة سخا(١١١) ثم نزل وحشد الناس من العربان وغيرهم حتى استجاب له نحو من ثلاثين ألفا،فأخرج لهم كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدم بالمسير ونزع الوزارة من يد بهرام إذ تبين أنه ليس من أهل الملة، وسار بهم إلى دجوة(١١٢)، وبهرام لاينزعج.

فلما قرب رضوان جمع بهرام الأرمن إليه وقال لهم: اعلموا أننا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدولة، والآن فقد كثر بغضهم لأيامنا، وماكنت بالذي أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا، فلما بلغني الكبر أقاتلهم ، لاضربت في وجوههم بسيف أبدا، سيروا وأخذ امراء الدولة وعساكرها يخرجون شيئا بعد شيء إلى رضوان.

واجتمع بهرام بالخليفة وفاوضه في أمره، فقال:تغلبني الاسلام عليك فأيس حينئذ، وجمع الأرمن، وكانوا كلهم منقادين إليه لايخالفونه في شيء من الأشياء، وسار بهم نحو بلاد الصعيد يريد أخاه الباساك بقوص، قاصدا أنه يجتمع به ويمضون إلى أسوان فيتملكونها ويتقوون بالنوبة أهل دينهم، وقد ذكر أن بهرام خرج يريد محاربة رضوان في عساكر مصر.

فلما وصل بعسكر القاهرة إلى رضوان رأوا المصاحف قد رفعها رضوان فوق الرماح، فصاروا بأجمعهم إلى رضوان باتفاق كان بينهم وبينه من قبل ذلك، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ماخف حمله، وخرج من باب البرقية(١١٣) يوم الأربعاء، وقت العصر، حادى عشر جمادى الأولى، وسار يريد الصعيد وقد أوسق المراكب بما يحتاج إليه فعندما رحل اقتحم رعاع الناس وأوباشهم إلى دار الوزارة فنهبوها وهتكوا حرمتها، وعملوا كل مكروه، فكان هذا أول نهب وقع في دار الوزارة، وامتدت الأيدي إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح(١١٤)، فنهبوها، ونهبوا كنيسة الزهري(١١٥) ونبشوا قبر البطرك، أخي بهرام.

وطار خبر انهزام بهرام في سائر إقليم مصر، فوصل الخبر بذلك إلى قوص قبل وصول بهرام، فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثلوا به، وجعلوا في رجله كلبا ميتا، وألقوه على مزبلة، فلما كان بعد قتله بيومين قدم بهرام في طائفة الأرمن، وهم نحو الألفي فارس، رماة، فرأى أخاه على المزبلة كما ذكر، فقتل جماعة من أهل قوص ونهبها، وسار عنها إلى اسوان، فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة في غربي أخميم، فتفرق عنه عدة من الأرمن وساروا يريدون بلادهم.

وأما رضوان فإنه لما وصل إلى القاهرة وقف بين القصرين، واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله في دار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل، فاستدعى بالأموال من الخليفة، وأنفق في الجند، ومهد الأمر، ورضوان أول وزير لقب بالملك.

فلما كان في اليوم الثالث من استقراره في الوزارة سير أخاه الأوحد ابراهيم ومعه العسكر شرقا وغربا، والأسطول بحرا، في طلب بهرام، وبيده أمان له ليعود مكرما وطائفته على إقطاعاتهم، فسار إلى الأديرة، وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها، وذلك أن أسوان امتنعت عليه بكنز الدولة وأهلها، فاضطر إلى الإقامة بالأديرة وقد فارقه أكثر الأرمن، فمنهم من سار إلى بلاده ومنهم من أقام بأرض مصر ليكونوا فلاحين، فسأل لهم مواضع يسكنونها فأفردت لهم جهات، منها سملوط(١١٦) وإبوان(١١٧) وأقلوسنا(١١٨) والبرجين(١١٩) في صعيد مصر، وضيعة أخرى بأعمال المحلة، وأقام بهرام بالأديرة البيض ومعه أهله وولده.

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن ميسر عن قضاء القضاة في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم، والوزير إذ ذاك بهرام، ونفي إلى تنيس،

فأقام بها إلى يوم الاثنين ثاني ربيع الأول، وقتل، وهو من قيسارية، وقدم منها مع ابنه وهوصغير في وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر في سني الشدة، وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال واليسار، وكان من جملة من أحضر والد القاضي ، وكان له مال جزيل، ففوض إليه خطابة الجامع بمصر، وفتح دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات، فترقى ولده إلى أن ولي القضاء عدة مرار، وكان له أفضال ومكارم، وحصلت له وجاهة ورتبة جليلة، وضرب دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الآمر(١٢٠) وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى، فإنه بلغه أن أبا بكر محمد بن علي المادرائي عمل الكعك الذي قال له «افطن له» وعمل عوضا من حشو السكر دنانير، فلما مد السماط في يوم العيد قال أحد الخدام لصديق له كان على السماط: افطن له، ففهم عنه وتناول من ذلك، وصار يخرج الذهب من فمه ويخفيه حتى تنبه الناس لذلك، فتناولوا بأجمعهم منه، فأراد القاضي ابن ميسر أن يشبه بأبي بكر المادرائي في ذلك، فعمل صحنا منه لكن جعل فستقا قد لبس حلوى وذلك الفستق من ذهب، وأباحه أهل مجلسه، ولم يقدر على عمل ذلك سوى مرة واحدة.

ثم إنه لما تناهت مدته عاداه رجل يعرف بابن الزعفراني، فنم عليه عند الحافظ بأن أحمد بن الأفضل لما كان قد اعتقل الحافظ وجلس للهناء ودخل عليه الشعراء كان فيهم علي بن عباد الإسكندري، وأنه أنشد قصيدة يذم فيه خلفاء مصر ويذكر سوء اعتقادهم، منها في ذم الحافظ:

هذا سليمانكم قد رد خاتمه
واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فعندما قال هذا البيت قام ابن ميسر وألقى عرضيته طربا بهذا البيت،

فأمر الحافظ بإحضار هذا الشاعر، وقال: أنشدني قصيدتك: فأنشدها إلى أن بلغ فيها إلى قوله:

«ولاترضو عن الخمس المناحيس» يعني الحافظ وابنيه وأباه وجده، فأمر الغلمان بلكمه، فلكموه حتى مات بين يديه، وقبض على ابن ميسر ونفي ثم قتل، وكان ينعت بجلال الملك، وكانت علامته «الحمد لله على نعمه».وفيها مات أبو البركات بن بشرى الواعظ المعروف بابن الجوهري في جمادى الأولى عن إحدى وتسعين سنة.

وفيها ولي قضاء القضاة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، ونعت بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم.

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بني سليم وادعى النبوة، فاستجاب له خلق كثير، وأملى عليهم قرآنا منه: إنما الناس بالناس، ولولا الناس لم يكن الناس، والجميع رب الناس، ثم تلاشى أمره وانحل عنه الناس.

وفيها جلس الوزير رضوان في ذي القعدة لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى، واستجد ديوان الجهاد[١٢١] واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات،وأشاع الخروج إلى الشام لغزو الفرنج، وأظهر من الاعتناء بذلك مالايوصف، وكان قد مهد الأمور، وأعاد الناس إلى ماكانوا عليه من الطمأنينة بحسن سيرته، وكثرة عدله وعمارته البلاد، وقوة نفسه وشجاعته، وأحضر الدواوين وكتبها ورتبها،ودبر الأمور احسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن الشاعر، فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه مال في ضمانه، فكتب له في المجلس:

أنــــا شـــــاعـــــر وصنعتـــــي الأدب
وضهان مثلي المال لايجب
أنـــــا مستميحكـــــم وليـــــس على
مـــن جـــاء يطلـــب رفـــدكـــم طلـــب
وإذا تـــــأخـــــر البـــــاقـــــي علي فما
مـــــن حـــــاصـــــل ورق ولاذهـــــب

فسامحه فيما عليه من الباقي.

وفيها أحضر من الصعيد الأعلى في رمضان جماعة تقدمهم رجل بجاوي يدعى فيه أصحابه أنه إله فصلبوا.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها أفرج الوزير رضوان عن شمس الخلافة مختار الأفضلي، صاحب باب بهرام، من الاعتقال وولاه الاسكندرية.

فيها تشدد رضوان على النصارى من أصحاب بهرام وصادرهم، وقتلهم بالسيف، وأباد أكثرهم وتطلع إلى تقديم أرباب المعارف من أرباب السيوف والأقلام، وأحسن إليهم، وزاد في أرزاقهم.

ووجد نصرانيا قد توصل في أيام بهرام إلى ديوان النظر، يعرف بالأخرم، وبذل في كل يوم ألف دينار سوى المؤن والغرامات، فآذى المسلمين وشق عليهم، فصرفه رضوان واستخدم بدله رجلا يقال له المرتضى المحنك بغير ضهان.

وتقدم إلى ديوان الإنشاء بإنشاء سجل في الوضع من النصارى واليهود، فأنشأه أبو القاسم ابن الصيرفي، منعوا فيه من إرخاء الذوائب وركوب البغلات ولبس الطيالسة، وأمر النصارى بشد الزنانير المخالفة

لألوان ثيابهم، وألا يجوزوا على معابد المسلمين ركبانا، فما رئي في أيامه يهودي ولانصراني يجوز على الجامع راكبا، لكنه ينزل ويقود دابته، وأمر أن تؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها، ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر، وأن يبيضوا قبورهم وضمن ذلك كله السجل، فعمل به.

وفيها نزع السعر لتوقف النيل، فنال الناس مجاعة، فأمر الحافظ بفتح الأهراء، والبيع منها على الناس بأوسط الأثمان، فلم يمض الوزير بذلك، وأخذ يهين حواشي الخليفة إذا حضروا إليه ويقدح في مذهبه، لأنه كان سنيا، وكان أخوه الأوحد ابراهيم إماميا.

فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة ولم يظهر تغيرا ويعمل في الخلاص منه، فتنافر كل منهما من الآخر.

وكان رضوان خفيفا طائشا لايثبت، فهم بخلع الحافظ وقال ماهو بخليفة ولاإمام، وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح، وأحضر الفقيه أبا الطاهر بن عوف، وابن أبي كامل فقيه الامامية، وابن سلامة داعي الدعاة، وفاوضهم في الخلع واستخلاف شخص عينه لهم، وألزم كلا منهم أن يقول ماعنده فقال ابن عوف: الخلع لايجوز إلا بشروط تثبت شرعا، وقال ابن أبي كامل: السلطان، أبقاه الله، يحملني على أن أتكلم على غير مذهبي في الإمامة، قال: لابل عمل مذهبك؟ فقال: مذهبي معلوم، يعني أن الإمامية لايعتقدون حق الخلافة في بني اسماعيل ابن جعفر، لموته في حياة أبيه وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته، ولأنه لاينبغي لمن لم تكن له إمامة أن يخلع، فخلص من هذا وقال الداعي: أنا داعي القوم ومولى لهم، ومايصح لي خلعه، فإني أصير فيما مضى كأني أدعو لغير مستحق، فأكون قد كذبت نفسي فلا أقبل الآن، وأستخصم

بذلك، ولايؤثر قولي فيما تريدون، ولم تجر العادة على الفاطميين بخلع حتى ناتي به.

فقابله على هذا القول بالسب واقامه أقبح قيام، فقال الفقيه النحاس —وكان حاضرا— كل عظيمة، وحمله على خلع الحافظ، فبلغ ذلك المجلس الحافظ.

وفيها أحضرت من تنيس امرأة بغير ثديين وفي موضع ثدييها مثل الحلمتين، فصارت إلى مجلس الوزير رضوان وأخبرته أنها تصنع برجليها جميع مايعمل باليدين من رقم وخط وغير ذلك، فجاء لها في المجلس بدواة فتناولت برجلها اليسرى الأقلام قلما قلما، ثم تناولت السكين برجليها وبرت قلما، واستدعت ورقة وأمسكتها برجلها اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء، وحمدت الله في آخرها، وناولتها الوزير، فإذا فيها سؤال بأن يزاد في راتبها، فوقع لها خلف الرقعة بما سألت وأعادها إلى بلدها.

وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة (به) في ثغر الاسكندرية، وجعل في تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها زاد السعر وبلغ القمح ثلاثة دنانير للإردب، فبيعت الغلال التي كان الأفضل خزنها، وقد تغيرت وأرادوا رميها في النيل، فكانت تقطع بالفؤوس وتباع بأربعين دينارا كل مائة إردب، وكذلك الأرز الذي كان مخزونا بمصر فإنه أبيع بعشرة دنانير المائة، فوجد الناس بذلك رفقا.

فيها كثر سعي الوشاة بين الحافظ والوزير فتخوف كل منهما من

الآخر، وقبض الوزير على عدة من خواص الحافظ، منهم أبو المعالي بن قادوس، وابن شيبان المنجم، ورئيس اليهود، وجماعة، فقتلهم، فسير الحافظ من أحضر إليه بهرام في رمضان، فلما حضر أسكنه عنده بالقصر وأكرمه، وشق ذلك على رضوان، وكان الحافظ قد تلطف برضوان في أمر بهرام وقرر معه أن يستدعيه وينزله في القصر، وحلف له أنه لايوليه أمرا ولايمكنه من تصرف، فتسامح رضوان في أمره واستدعي فحضر بأهله وأنزل في دار بالقصر قريبة من المحول(١٢٣) وهو قريب من سكن الحافظ، فكان يستحضره في غالب الليالي ويستشيره ويعمل برأيه.

ولما كان يوم عيد الفطر ركب الوزير مع الحافظ وعليه من الملابس مالم يلبسه أحد من الوزراء في مثل ذلك اليوم، وعاد إلى القصر وفي نفس الحافظ منه أشياء تبينها رضوان في وجه الحافظ وعلمها منه، فاشمأزت نفسه مع ماكان فيه من الطيش، فركب في تاسع شوال وزحف إلى القصر، فكلمه الخليفة من بعض طاقات المنظرة التي تطل على باب الذهب، وجرى بينهما كلام اجترأ فيه على الخليفة ، وعاد إلى داره بعد أن احتاط بالقصر واحتفظ بالأبواب فامتعض الناس لذلك بالقاهرة ومصر، وكثرت الأراجيف.

وفي تلك الحالة نزل بعض أولاد الحافظ من القصر هاربا إلى رضوان، وكان شيخا ومعه ولد له، ليقيمه خليفة، فلم يكترث به، وأحضر اسماعيل بن سلامة الداعي، وقال له: ماتقول في هذا الرجل، هل يصلح لما التمسه؟ فقال: الخلافة لها شروط ونواميس مافي هذا منها شيء، وتحتاج إلى نصوص، ولولا أن مولانا الآمر نص على مولانا الحافظ وأودعه سر الخلافة لما ثبتت فيه ولااستجاب له الناس، فلم يحصل سوى أنه كان مشؤوما على نفسه وأهله، فإن الحافظ لما بلغه ذلك قتله وقتل جماعة منهم كثيرة.

ثم إن الحافظ لما رأى فعل رضوان وتعديه وكثرة من انضم إليه من العسكر عمل في التدبير عليه وأرسل إلى صبي من الجند يعرف بشومان، وكانت فيه شهامة وجرأة وهومن صبيان الخاص، فأحضره إليه من أحد السراديب سرا وأرسله إلى علي بن السلار، أحد أمراء الدولة، يأمره بالتدبير على رضوان، وأنفذ معه مالا إليه، ليستعين به على ذلك، وكان علي بن السلار عاقلا صاحب حزم ويقظة وحسن تأت مع قوة وصرامة.

فلما جاءه القاصد بالمال وبلغه عن الخليفة ماقال، انتهز الفرصة وأرسل إلى جماعة من صبيان الخاص وقرر معهم أن يجتمعوا ويدخلوا من باب زويلة كردوسا واحداً وهم يصيحون: الحافظ يامنصور، وفرق فيهم ماأرسله إليه الخليفة.

فلما كان يوم الاثنين، الثالث عشر من شوال، اجتمع بظاهر القاهرة منهم نحو العشرين وأقبلوا من باب زويلة يصيحون: ياللحافظ، الحافظ يامنصور، فما وصلوا إلى السراجين الذي يعرف اليوم بالشوائين، حتى صاروا نحو الخمسمائة، وماوصلوا بين القصرين إلا والعسكر جميعه من فارس وراجل معهم، ولم يبق من الصبيان والعوام أحد حتى خرج بالنساء، وأشرف النساء من الطاقات، وصاروا بأجمعهم يصيحون: ياللحافظية.

فلما سمع رضوان الضجيج أراد أن يركب، فمنعه بعض غلمانه، فأبى عليه لأنه كان واثقا بنفسه وبمن معه، وخرج وحده بغير سلاح ليس معه سوى سيف، فلقي الناس بنفسه وطردهم يمينا وشمالا، وظهر منه شجاعة تعجب منه من شاهدها، فإنه لقي ألوفا من الناس بمفرده ولم يزل يحمل عليهم حملة بعد حملة إلى أن قتل منهم عدة، وكان أخوه ابراهيم قد بلغه الخبر، فركب من داره وأمسك عنه من يجيئه من ناحية قصر الشوك، وشدت الريحانية ورجعوا إليه من ناحية زيادة الجامع الحاكمي ودرب الفرنجية.

فلما طال عليه وتيقن أن القوم بأجمعهم قد تمالئوا على حربه، وكان قد انقضى من النهار أربع ساعات، وأشرف عليه الأستاذون من ناحية باب الريح من أعالي القصر يرشقونه بالنشاب ويرمونه بالطوب، تحير، وكان ابن أخته والي مصر، فبلغه الخبر، فقام بجميع غلمانه وسار لنجدة خاله، فوجد عند باب زويلة من بلغه الخبر بأنه لايقدر على الوصول إليه، فسار من ناحية باب البرقية ومعه بوقات وطبول، فسمع ابراهيم، أخو رضوان، أصوات البوقات والطبول من جهة باب البرقية، فأنفذ إلى أخيه رضوان يقول له: قد تفرق علينا العسكر وجاء من ناحية قصر الشوك، وقد قاطع الراجل علينا من ناحية باب النصر.

فلما بلغ رضوان ذلك أيقن بالهلاك إن وقف، فما زال يتأخر قليلا قليلا، حتى صار في رحبة باب العيد عند دار سعيد السعداء، وبعث إلى داره، التي هي دار الوزارة من أخذ له شيئا منها على سبيل الخطف، وأوصى إلى أخيه ، فانضم إليه هو ومن معه من أصحابه وفيهم أبو الفوارس وفزارة بن أبي غرة، وشاور بن مجير السعدي، وجماعة من خواصه، وخرجوا من باب النصر، فما هو إلا أن صار بظاهر القاهرة اقتحم الناس دار الوزارة ونهبوها حتى لم يتركوا فيها شيئا.

وماوصل رضوان إلى تربة أمير الجيوش، إلا وقد تلاحق كثير من المغافرة، وكان قد أسلف عند العرب أيادي وأفاض عليهم نعما وأحسن إليهم إحسانا كثيرا في مدة وزارته، فأدركه رجل من العرب يقال له سالم ابن المحجل، أحد شياطين الإنس، وحسن له المسير إلى الشام.

واشتغل الناس بنهب دار الوزارة، وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر وشحنها بالذخائر وأنواع السلاح والعدد والآلات والغلال، فانتهب جميع ذلك، وأحرقت أخشاب تعب الملوك في تحصيلها، وكان نهب دار الوزارة أول ضرر دخل على الدولة.

وطلب رضوان الشام، فدخل عسقلان وملكها وجعلها معقلة، وتوجه أخوه إلى الحجاز وأقام بها حتى مات، وسار ابن أخته إلى بغداد فأكرمه أصحاب الخليفة هناك، ولم يزل عندهم إلى أن مات.

وخرج رضوان من عسقلان ولحق بصلخد، فنزل على أمين الدولة كمشتكين، صاحبها فأكرمه وأبره وأقام عنده ثلاثة أشهر، ثم أنفذ إلى دمشق، واستفسد من الأتراك بها من قدر عليه.

وفيها خربت الأثارب من زلزلة، وزلزلت دمشق أيضا.

وفيها مات الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل، في شعبان، فأقام منصب القضاء بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن الحطيئة في ذي القعدة، فاشترط ألا يحكم بمذهب الدولة، فلم يمكن من ذلك، وكان الوزير رضوان قد تقدم إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عقبة اللخمي، المعروف بابن اللبني(١٢٤)، المغربي المالكي، أن يعقد الأنكحة، فلما كان في الحادي عشر من ذي القعدة قرر الحافظ في قضاء القضاة القاضي فخر الأمناء أبا الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن محمد الأنصاري الأوسي، المعروف بابن الأزرق.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيها عاد الأفضل رضوان بن ولخشي من صلخد في جمع فيه نحو الألف فارس، وكان الناس في مدة غيبته يهتفون بعوده، فبرزت له العساكر ودافعوه عند باب الفتوح، فلم يطق مغالبتهم، فمضى إلى مصر ونزل على سطح الجرف المعروف اليوم بالرصد، وذلك يوم الثلاثاء مستهل صفر، فاهتم الحافظ بأمره، وبعث إليه بعسكر من الحافظية

والآمرية وصبيان الخاص، عدتهم خمسة عشر ألف فارس، مقدم القلب تاج الملوك قايماز، ومقدم الآمرية فرج غلام الحافظ، فلقيهم رضوان في قريب ثلاثمائة فارس، فانكسروا، وقتل كثير منهم، وغنم معظمهم، وركب أقفيتهم إلى قريب القاهرة، وعاد شاور إلى موضعه فلم يثبت، وأراد العود إلى صلخد فلم يقدر، لقلة الزاد وتعذر الطريق، فتوجه بمن معه من العربان إلى الصعيد، فأنفذ إليه الحافظ الأمير المفضل أبا الفتح نجم الدين سليم بن مصال في عسكر ومعه أمان، فسار خلفه، ومازال به حتى أخذه وأحضره إلى القصر آخر نهار الاثنين رابع ربيع الآخر، فعفا عنه الحافظ، ولم يؤاخذ أحدا من الأتراك الذين حضروا معه من الشام، واعتقله عنده بالقصر قريبا من الدار التي بها بهرام.

فيها أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري، في سابع عشر جمادى الآخرة تدريس دار العلم بالقاهرة، فمضى إليها، وكان مدرسها أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرت بينهما مفاوضات جرت إلى الخصام الشنيع، فخرج القاضي إلى القصر ماشيا وقد تخرقت ثيابه وسقطت عمامته، فعظم على الحافظ خروجه في الأسواق على هذه الهيئة، وغضب لذلك، فصرفه ورسم عليه، وغرمه مائتي دينار، وألزمه داره، وأمر بطلب أبي الطاهر اسماعيل بن سلامة الأنصاري، فخلع عليه وقرره مكانه، ونعته بالموفق في الدين، ولم يكتب له سجل، فأقام إلى آخر ذي الحجة، ولم يتناول على القضاء معلوما، وكان جاري الحكم في كل شهر أربعين دينارا، وقنع بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون دينارا في الشهر.

فيها ولى الحافظ لدين الله الأمير المفضل نجم الدين أبا الفتح سليم ابن مصال اللكي تدبير الأمور.

-١١٦٨٨-

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها هلك بهرام الأرمني بالقصر، وكان الحافظ لما أقدمه من الصعيد إلى عنده أنزله في القصر ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير أمور الدولة فيعجبه رأيه وحزمه وعقله،، فلما مات في العشرين من ربيع الآخر حزن عليه حزنا كثيرا ظهر بسببه على القصر غمة، وهم أن يغلق الدواوين ولايفتحها ثلاثة أيام، وأحضر بطرك الملكية وأمره أن يجهز بهرام، فقام يتجهيزه، وأخرج نصف النهار في تابوت وعليه ثوب ديباج أحمر، ومن حوله النصارى يبخرون باللبان والصندروس والعود، وجميع الناس مشاة، فلم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته.

وخرج الخليفة على بغلة شهباء وعليه عمامه خضراء، وثوب أخضر بغير طيلسان، فسار خلف التابوت، وسار والناس تبكي والأقساء يعلنون بقراءتهم، والخليفة سائر، إلى دير الخندق من ظاهر القاهرة(١٢٥) فنزل الخليفة عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديدا.

وكان عاقلا مقداما في الحرب، حسن السياسة، جيد التدبير، وكان أولا يقوم بأمر الأرمن، وسكناهم يومئذ في ناحية تل باشر، فتعصب عليه جماعة منهم وولوا غيره، فخرج مغضبا وقدم إلى القاهرة، فترقى في الخدم إلى أن ولي المحلة، فقام بولايتها، ومنها سار في نوبة حسن إلى القاهرة ومعه من الأرمن نحو الألفين يقولون بقوله، فاستوزره الحافظ.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان بن ابراهيم بن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

-١١٦٨٩-

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

في ليلة الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت ركن منارة الجامع العتيق.

في شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح كل إردب إلى تسعين درهما والدقيق إلى مائة وخمسين الحملة[١٢٦]، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم، والويبة من الشعير إلى سبعة دراهم المائة، والزيت الحار إلى درهم ونصف الرطل، والقلقاس كل رطلين بدرهم، وعدم الفروج والدجاج فلم يقدر على شيء منه، وعم الوباء وكثر الموتان.

وفيها مات أحمد بن مفرج بن أحمد بن أبي الخليل الصقلي[١٢٧] الشاعر، المعروف بتلميذ ابن سابق، وكان فاضلا ذكيا يتصرف في عدة فنون، وله رسائل حسنة وشعر جيد.

وكان الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المديح وتناهوا في إطالة القصائد حتى صار الإنشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة باستماع أشعارهم فيه، لطول مثولهم بالخدمة، فخرج الأمر إليهم بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد بن مفرج يخاطب الخليفة:

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

والله لابد أن تجري سوابقنا
حتى يبين لنا في مدحك الأثر

فأمروا بالاستمرار على ماهم عليه من الإطالة في الإنشاد.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها عظم الوباء بديار مصر، فهلك فيه عالم لايحصى عدده كثرة.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولا إلى رجار ملك صقلية لمحاربته أهل صقلية، وكان رجار فيه فضيلة، وأمر فصنفت له تصانيف، وكان عنده محبة للأدب، ومدحه ابن قلاقس الشاعر(١٢٨) وغيره.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بنواحي البحيرة، فاجتمع له عدد كثير من الناس، فخرج إليه طلائع بن رزيك، وهو يومئذ والي البحيرة، فكانت بينهما حروب قتل فها.

فيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسين أحمد بن الزبير(١٢٩) رسولا إلى اليمن بسجل يقرؤه عليهم، فخرج في ربيع الأول.

وفيها خرج أبو الحسين بن المستنصر إلى الأمير خمارتاش الحافظي صاحب الباب وقال له: اجعلني خليفة، وأنا أوليك الوزارة، فطالع الحافظ بذلك، فأمر بالقبض عليه، فقبض واعتقل.

وفيها قدم، في جمادى الآخرة، من دمشق الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وإخوته وأهله، ومعهم نظام الدين أبو الكرام محسن وزير أنر

صاحب دمشق، معاضدين له، فأكرم مثواهم وأنزلوا، وأفيضت عليهم العطايا، وتواترت عليهم الإنعامات.

سنة أربعين وخمسمائة

فيها أعيد نظر الدواوين والأتراك والخزائن إلى القاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار، يطلب الوزارة، بأرض الصعيد، فندب إليه عسكرا عليه سليمان بن يونس اللواتي، فمضى إليه وحاربه، فانهزم وهو من ورائه، حتى أدركه وأخذه أسيرا وقتله.

وفيها قدم صافي الخادم، أحد خدام المتقي، من بغداد فارا، في ثالث عشري جمادى الأولى، خوفا، فأكرمه الحافظ.

وفيها منع من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جرائد المستخدمين، وأن يكون مايسيب منها على البواقي والفاضل في هذه السنة.

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر حلب بعد أبيه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية مدينة طرابلس الغرب وولى عليها.......ابن مطروح.

-١١٦٩٢-

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فيها صرف أبو الكرم التنيسي في ربيع الآخر، وأعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى المحنك.

وفيها سير الحافظ لظهير الدين صاحب دمشق هدايا وخلعا وتحفا.

وفيها خرج رضوان من نقب نقبه بالقصر، وذلك أن الحافظ لما اعتقله بالقصر أرسل يسأله في أشياء، من جملتها زيارة نجم الدين بن مصال له في الوقت بعد الوقت، فأجابه إلى ذلك لثقته بابن مصال، فحضر في يوم من الأيام ابن مصال لخدمة الخليفة، وبدأ بزيارة رضوان، فدخل إليه ومعه مشدة فيها رِقاع بحوائج الناس ليعرضها على الحافظ، وكانت عادته ذلك، فاحتاج إلى الخلاء، فترك مشدته عند رضوان ودخل الخلاء، فأخذ رضوان الرقاع ووقع بخطه عليها كلها بما يسوغ التوقيع به، وأتربها وطواها في المشدة، وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ، وقد علم أنه كان عند رضوان فقال له: كيف ضيفنا؟ فقال: على غاية من الشكر لنعمة مولانا وجواره، وأخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التوقيع بخط رضوان، فأمسكها وأخرج غيرها، فإذا هي موقع عليها أيضا، وكان الحافظ يراه، فقال: ماهذا؟ فاستحيا ابن مصال عندما تداول الخليفة الرقاع وعليها توقيع رضوان، فقال له الحافظ: يانجم الدين، مازلت مباركا علينا والله يشكر لك ذلك، لقد فرجت عنا غمة، فقال: كيف يامولانا؟ قال: رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربما يشركنا في كثير من أمرنا، فالحمد لله إذ كان هذا وكتب على الرقاع أمضاها بخطه، وخلع على ابن مصال.

فلما طال اعتقال رضوان أخذ ينقب بحيث لايعلم به إلى أن انتهى النقب من موضعه الذي هو فيه إلى تجاه فندق أبي الهيجاء، وخرج

النقب عن سور القصر، وكان قياس ما نقبه خمسة وثلاثين ذراعا، فظهر منه بكرة يوم الثلاثاء، ثالث عشرين ذي القعدة، في الجيزة، فالتف عليه جماعة من لواته وعدة من الأجناد، وسمع به الطماعون، وكان للناس فيه أهوية، فندم الحافظ على تركه بغير حارس، وأخذ في العمل.

فلما كان ثالث يوم عدى رضوان من اللوق وسار إلى القاهرة، فخرج إليه عسكر الحافظ وتحاربوا معه عند جامع ابن طولون، فهزمهم، وسار في إثرهم إلى القاهرة، فدخلها في الرابعة من نهار الجمعة سادس عشريه، ونزل بالجامع الأقمر، فغلق الحافظ أبواب القصر وامتنع به، فأحضر رضوان أرباب الدولة والدواوين، وأمر ديوان الجيش بعرض الأجناد وأخذ أموالا كانت خارجة من القصر، وأنفق في طوائف العسكر، وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا، فسير إليه صندوقا فيه مال وقال له: هذا الحد الذي أراده الله، فاسترض على نفسك.

وأتت ضيافات الناس إلى رضوان، فاستعدى الحافظ أحد مقدمي السودان سرا وقال له: إني بكم واثق، فقال: ماادخرنا هذا إلا لمولانا، فقال: كم أصحابك؟ قال: عشرة، قال: لكم عشرة آلاف دينار واقتلوا هذا الخارجي علينا وعليكم، فأنتم تعلمون إحساننا إليه وإساءته إلينا، فقالوا: يامولانا السمع والطاعة، ورتبوا أنهم يصيحون حول الجامع الأقمر: الحافظ يامنصور، فلما فعلوا ذلك قلق وقال لمن حوله: ماكل مرة يصح لهؤلاء الكلاب مرادهم، فحسنوا له الركوب ظنا منهم أنه إذا ركب إلى بين القصرين لم يجسر أحد عليه، فعندما ركب ضربه واحد من السودان في فخذه ضربة شديدة، وتداركه آخر بضربة، وتوالت عليه الضربات، فقتل في الساعة الحادية عشرة من نهار الجمعة المذكور، وقطعت رأسه وحملت إلى الخليفة الحافظ، فسكنت الفتنة، وهدأت الغوغاء.

ثم إن الحافظ بعث بالرأس إلى امرأة رضوان، فلما وضعت في حجرتها قالت: هكذا يكون الرجال.

وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد، شجاعا، مقداما، قوي القلب، شديد البأس، ولد ليلة عيد الغدير من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وترقى في الخدم إلى أن ولي قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، إلا أنه كان مع حسن عبارته وغزارة أدبه طائش العقل قليل الثبات، لايحسن التدبير، ولايتأتى له سياسة الأمور لعجلته وجرأته، وكان أخوه الأوحد ابراهيم أثبت عقلا منه.

ومن جملة ماكتب له في تقليد الوزارة بعد بهرام من إنشاء أبي القاسم ابن الصيرفي: «...لأنك أذهبت عن الدولة عارها، وأمطت من طرق الهداية أوعارها، واستعدت ملابس سيادة كان قد دنسها من استعارها».

ولم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحدا، وأعاد النصراني المعروف بالأخرم إلى ضمان الدولة، على ماتقدم، ثم نقم عليه لكثرة المرافعين واعتقله، وطلب منه المال فلم يسمح بشيء، فركب الحافظ يوما ووقف على باب السجن الذي هو فيه من القصر، وأمر به، فأحضر إليه، وقال له: كم تتجالد؟ أريد منك مالي على لسان صاحب الستر، فبينما الخليفة يخاطبه إذ أخذ كفا من تراب وجعله في فيه ، فقال له الحافظ: ماهذا؟ فقال: مالاينبغي نقله إلى مولانا، صلوات الله عليه، فغضب عليه، وأمر بإحضار أبيه وأخيه، وكانا معتقلين، فأخرجا ، وقتل الأخرم وأخاه، وأبوهما ينظر قتلهما، ثم قتل الأب، وأحاط بأموالهم فحصل منهم مايزيد على عشرين ألف دينار عينا.

فيها مات الشيخ تاج الرياسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان، المعروف بابن الصيرفي الكاتب، في يوم الأحد لعشر بقين من صفر،

ومولـده في يوم السبـت الثاني والعشريـن من شعبـان سنة ثـلاث وستين وأربعمائة، وكان أبوه صيرفيـا وجده كاتبا، وأخـذ صناعة الترسل عـن ثقة الملك أبي العـلاء صاعـد بن مفـرج، وتنقل حتـى صار صـاحب ديـوان الجيش، ثـم انتقل معه إلى ديوان الإنشـاء، ومات الشريف سناء الملك أبو محمد الزيدي الحسينـي، ثم تفرد بالديوان فصار فيـه بمفرده، وله الإنشاء البديع والشعر الرائع، والتصانيف المفيدة في التاريخ والأدب.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها توجـه العسكر ، في ثالث صفـر، لقتال لواتة وقـد تجمعوا وعقدوا الأمر لـرجل قـدم من المغـرب وادعى أنـه ولد نـزار بن المستنصر، فسـار إليهـم العسكـر وواقعهـم على الحمامـات وانهزم منهـم العسكـر، فجهـز الحافـظ عسكرا آخـر، ودس إلى مقدمـي لواتـه مـالا جزيـلا ، ووعدهـم بالإقطاعات، فغدروا بابن نـزار وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الحافظ، ورجعت العساكر في ربيع الأول.

وفيها صرف القـاضي المكين الموفق في الدين أبـو الطاهر اسماعيـل بن سـلامة الأنصـاري عن القضـاء، لسبـع خلون مـن المحرم، واستقـر على الدعـوة الموفق الأمين، كمال الـدين، واستخـدم في وظيفة القضـاء، وكان كريم الأخلاق، حليما، عليه سكينة ووقار، مليح الشيبة، ظريف الهيئة.

(وفيهـا توفي) أبـو الفضـائل يـونس بـن محمـد بـن الحسن المقـدسي القرشي، المعروف بجوامرد، خطيب القدس.

وفيها بلـغ النيل تسعـة عشر ذراعا وأربعة أصـابع، ففـاض الماء حتى بلـغ إلى الباب الجديـد أول الشـارع، خارج بـاب زويلـة ، فكان النـاس يتوجهون مـن مصر إلى القاهرة على ناحية المقـابر لامتلاء الطريـق بالمياه، فلما بلـغ الحافظ ذلـك أظهـر له الحزن والانقطـاع، فسألـه خـواصه عـن

ذلك، فأخرج له كتابا وقال: انظر هذا السطر، فإذا فيه:«إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا، ومايأتي بعدها، فاتفق أنه لم تنسلخ هذه السنة حتى مرض الحافظ مرضة الموت.

وفيها انقرضت دولة بني باديس، وذلك أن الغلاء اشتد بإفريقية من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة اثنتين وأربعين حتى أكل الناس بعضهم بعضا، وخلت القرى، ولحق كثير من الناس بجزيرة صقلية، فاغتنم رجار متملكها الفرصة وبعث جرج، مقدم أسطوله، على نحو مائتين وخمسين شينيا، فنزل على المهدية ثامن صفر سنة اثنتين وأربعين، وبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، ففر بأخف حمله وتبعه الناس، فدخل جرج المهدية بغير مانع، واستولى على قصر الأمير حسن، وأخذ منه ذخائر نفيسة وحظايا بديعات.

وعزم حسن على المجيء إلى مصر، فقبض عليه يحيى بن العزيز، صاحب بجاية، ووكل به وبأولاده، وأنزله في بعض الجزائر، فبقي حتى ملك عبد المؤمن بن علي بجاية في سنة سبع وأربعين، فأحسن إلى الأمير حسن وأقره في خدمته، فلما ملك المهدية تقدم إلى نائبه بها أن يقتدي برأي حسن ويرجع إلى قوله.

فكانت عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناد تسعة، ومدتهم، من سنة إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة مائة واثنتان وثمانون سنة.

وفيها بعث رجار بن رجار ملك جزيرة صقلية إلى المهدية أسطوله، مائتين وخمسين من الشواني، مع جرجي بن ميخائيل، فجد في حصارها حتى أخذها في صفر منها، وملك سوسة وصفاقس وملك رجار بونة.

-١١٦٩٧-

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدة من الفريقين، وامتنع الناس من المضي إلى القاهرة ومن الذهاب إلى مصر، وابتدأت الحرب بينهم في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، وتوالت إلى يوم السبت رابع جمادى الآخرة، فانهزمت الريحانية إلى الجيزة.

وهم العسكر بخلع الحافظ من الخلافة، فمات بقصر اللؤلؤة، وقد نقل إليه وهو مريض، بكرة يوم الأحد، وقيل ليلة الاثنين، لخمس خلون من جمادى الآخرة، واشتغل الناس بموته.

وكان له من العمر يوم مات ست وسبعون سنة وثلاثة أشهر وأيام، منها مدة خلافته من يوم بويع بعد أحمد بن الأفضل ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

وأصابته في ولايته شدائد، واعتقل، ثم لما أعيد تحكم عليه الوزراء حتى قبض على رضوان فلم يستوزر بعده أحدا، وإنما أقام كتابا على سنة الوزراء أرباب عمائم ولم يسم أحدا منهم وزيرا، وهم: أبو عبد الله محمد بن الأنصاري، وخلع عليه بالحنك والدواة، فتصرف تصرف وزراء الأقلام، وصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد والجمع، والقاضي الموفق محمد بن معصوم التنيسي، وصنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم النصراني.

وكان الحافظ حازم الرأي، جماعا للأموال، كثير المداراة، سيوسا عارفا، ولم يكن أحد ممن ولي قبله أبوه غير خليفة سواه، وكان يميل إلى علم النجوم، وكان له من المنجمين سبعة، منهم: المحقوف، وابن الملاح، وأبو محمد بن القلعي، وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطبلة التي كانت إذا ضرب بها من به قولنج خرج عنه الريح، ومازالت بالقصر إلى أن كسرت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل، ويوسف، وأبا المنصور، اسماعيل، وكان مطعونا عليه، فإنه ولي بغير عهد وإنما أقيم كفيلا عن منتظر في بطن أمه، فلم يظهر للحمل خبر.

ومن محاسن مايحكى عنه أنه كان يخرج في كل ستة أشهر عسكر من القاهرة إلى عسقلان لأجل الفرنج تقوية لمن بها من المركزية الكنانية وغيرهم، ويقدم على العسكر عدة، فيجعل على كل مائة فارس أمير، ويقدم على الجميع أمير تسلم إليه الخريطة فيكون أمير المقدمين، وتشتمل الخريطة على أوراق العرض من الديوان بالحضرة ليتفق مع والي عسقلان على عرض العسكر بمقتضاها، ويصدر التعريف من كاتب الجيش هناك إلى الديوان بالحضرة بذلك، ويسلم إليه مبلغ من المال لنفقته معونة لمن فاتته النفقة من العسكر، فإن النقباء الذين للطوائف يجردون من كان من الطوائف حاضرا ومن كان مسافرا في إقطاعه، فيأخذ صاحب الخريطة أوراقا بمن سافر وهو في إقطاعة ليوصل إليه نفقته.

وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير، وللأجناد ثلاثون دينارا لكل جندي.

واتفق مرة خروج العسكر إلى عسقلان وفيهم خمسة أمراء من جملتهم جلب راغب، الذي اتفق في حسن ابن الحافظ بعد موته ماتقدم ذكره، فلما سير إليه مائة دينار، نفقته، تجهز للسفر في جملة الناس، وسلمت الخريطة لأميرهم، فلما دخلوا على الحافظ ليودعوه ويدعو لهم بالنصر والسلامة على العادة، قضوا حق الخلافة وانصرفوا إلا جلب راغب فإنه

وقف، فقال الحافظ: قولوا للأمير ماوقوفك دون أصحابك، ألك حاجة؟ فقال: يأمرني مولانا بالكلام، قال: قل، فقال: يامولانا ليس على وجه الأرض خليفة ابن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غيرك، وقد كان السلطان استزلني فسفهت نفسي وأذنبت ذنبا عظيما عفو مولانا أوسع منه وأعظم فقال له الحافظ: قل ماتريد غير هذا فإنا غير مؤاخذيك به، فقال: ياMولانا قد توهمت أنك تحققت أني ماض في حالة السخط، علي، فقال له الحافظ: أنت غني عن هذا الكلام، وقد قلنا لك إنا ماواخذناك، فأي شيء تقصد؟ فقال: لايسيرني مولانا تبعا لغيري، فقد صرت مرارا كثيرة مقدما، وأخشى أن يظن أن هذا التأخير للذنب الذي أنا معترف قال: لا، بل مقدما وصاحب الخريطة، وأمر بنقل الحال عن المقدم الذي تقرر للتقدمة والخريطة إلى جلب راغب، وأعطي مائتي دينار وقال: له استعن بهذه فعد هذا من الحلم الذي قلما سمع بمثله.

وكان الغالب على أخلاقه الحلم، وكان مقدم المطالبية يجيء إلى الخليفة الحافظ ويخبره بغرائب ماظهر، فجاء يوما وأخبر أنه وجد حوضا لطيفا قريبا من معلف الحمار، فلم يتعرض له، فندب الخليفة معه شاهدين حتى أتوا به، فإذا حوض مطبق بغطاء ففك عنه فإذا فيه صنم من رخام أبيض على هيئة الإنسان وهو واضع أصبعا في فيه وأصبعا أخرى في دبره فأمر الحافظ أحد الشاهدين أن يناوله ذلك، فلما أخذ الصنم ضرط ضرطة عظيمة، فألقاه من يده وقد اشتد خجله، فقام موفق، أحد الأستاذين المحنكين، ليناوله إياه فضرط أيضا، فأمر الحافظ بتركه وعلم أنه طلسم للقولنج.

ووجد في مقطع الرخام سرب تحت الأرض فيه جرة مسدودة أحضرت إلى الأستاذ مفضل، المعروف بصدر الباز، فإذا فيها حنش من ذهب زنته ستة مثاقيل ونصف مثقال، وعيناه من ياقوت أحمر، وفي فمه جرس من ذهب، فأعلم به الحافظ، فلم يزل يبحث عن خبره حتى أحضرت له

عدة أحناش كبار، وأخرج ذلك الحنش المذكور فجعلت الأحناش الكبار تخرج رؤوسها ثم تحركها مرة أو مرتين وتسقط ميتة.

وكان الحافظ حريصا على علم السيمياء، فظهر في أيامه الشيخ أبو عبد الله الأندلسي، شيخ بني الأنصاري أوحد زمانه في علم السيمياء فسأله الحافظ أن يريه شيئا من ذلك، فأراه ساحة القصر قد صارت لجة ماء، فيها سفينة متعلقة وشواني حربيات قد خرجت على تلك السفينة وقاتلت أهلها، والحافظ يرى لمعان السيوف ومرور السهام وخفقان البنود، ورؤوس الرجال وهي تسقط عن كواهلها، والدماء تسيل، حتى سلم أصحاب السفينة لأصحاب الشواني فساروا بها والأبواق تزعق والطبول تضرب، إلى أن غابت عن الأبصار في لجج البحار، ثم كشف عن الحافظ فإذا هو قصره، ثم أمره أن يريه شيئا آخرا: فقال: ليخرج من في مجلس أمير المؤمنين إلى منزله، فأمرهم، فخرجوا حتى صاروا إلى حيث خيولهم واقفة بباب القصر، فلما قدمت إليهم ليركبوا فما منهم إلا من رأى فرسه كأنه ثور وقرناه كأعظم مايكون من القرون، فعادوا إلى الحافظ وأعلموه بما رأوا، فضحك وقال: أفدوا دوابكم منه، فقطع كل واحد منهم على نفسه شيئا فأمر له به ومازال مقيما بمصر حتى مات.

وكان في أيام الحافظ أيضا ابن محفوظ، سأله أن يريه شيئا من أعماله، فأمر بأربعة أطباق فضة أن تحضر، فلما وضعت بين يديه امتلأت ياسمينا في غير أوانه، وصار يعلو على كل طبق وهو مرصوص متماسك بعضه فوق بعض، إلى أن صار كأربعة أعمدة من رخام متقابلة.

ـ١١٧٠١ـ

الظافر بأمر الله أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله

أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد ابن المستنصر بالله

ولد يوم الأحد، النصف من ربيع الآخر، سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وبويع في اليوم الذي مات فيه الحافظ لدين الله، وهو كما تقدم يوم الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وعمره سبع عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، بوصية من أبيه له بالخلافة، وكان أصغر أولا ده وفيهم أبو الحجاج يوسف وأبو الأمانة جبريل، وهما أسن منه، وركب بزي الخلافة واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم ابن محمد بن مصال، بوصية الحافظ بذلك أيضا، ونعت بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش وخلع عليه خلع الوزارة، وهو يومئذ من أكابر الأمراء، وهو شيخ لين متواضع، فسكن دار المأمون البطائحي، وصار أبو الكرم التنيسي من ذوي رأيه.

وأول مابدأ به الظافر أنه ركب بعد صلاة العشاء الآخرة، بالشمع في القصر، ووقف بباب الملك بالإيوان المجاور للشباك، وأحضر ابني الأنصاري، وهما أبو عبد الله وأبو....واستدعى متولي الستر، وهو صاحب العذاب، وأحضرت آلات العقوبة، وضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك، وثنى بأخيه كذلك، ثم أخرجا وقطعت أيديهما وسلت ألسنتهما من أقفيتهما، وصلبا على بابي زويلة الأول والثاني، فأقاما زمانا ثم وضعا.

وكان سبب قتلهما أنهما كانا من الكتاب فنبغا وتوصلا بالحافظ،

فاستخدمهما في ديوان الجيش، فوثبا على رؤساء الدولة وأعيان كتابها وخواص الخليفة من الأستاذين المحنكين، مثل الأجل الموفق كاتب الدست— وكان موضع سر الخليفة ومحل مشورته في الأمور العظام، من أحوال الممالك— ومن يليه، كالقاضي المرتضى المحنك، والخطير ابن البواب، وتجرآ على المذكورين وغيرهم مع قلة دربة، فكثر حسادهما وعمل عليهما فيما يخرج للأمراء والمقطعين من الخروجات في كل سنة، ويشتمل الخرج على نعوت ذلك الأمير، فيصير ذلك الخرج إلى عامل الإقطاعات، وهو تحته، فذكرا في أحد الخروجات كلاما ظريفا ليؤخذ عليه خطهما ليوقف عليه الخليفة حتى يتبين له جهلهما، وهو:«حبطست حبطست، وفي النهر قد غطست، بغلالة أرجوان، صفراء بزعفران»، فمشى عليهما ذلك وترجما الخرج بخطهما، وخرج من أيديهما، فأحضر إلى الأجل الموفق ابن الحجاج، كاتب الدست، فأخذه ودخل به إلى الخليفة الحافظ، وقال: يامولانا، الأمثال مضروبة بحفظ ديوان هذه الدولة ومن يتولاها، فكيف لو ظفر بهذا الخرج مخالف لها، يقصد التشنيع عليها، فقال له الحافظ: يامولاي الموفق، هبهما لي، فقال: يامولانا، كلنا مماليكك وخرج، ولم يبلغ الأعداء منهما ماأرادوا، فزاد أمرهما في الدولة على الخليفة والاستعلاء على الناس.

وأراد الأكبر منهما أن يدخل على الخليفة ويخرج ظاهرا ليراه الناس، فجدد له ديوانا سماه ديوان الترتيب، وجمع فيه من يخدم في ترتيب الأعمال صفقة صفقة، وأن يكون أميرهم بجار يقرر له— وهذا الترتيب يقال له في غير هذه الدولة صاحب البريد— فكان يكاتب متولي هذا الديوان بالأخبار بمطالعات تصل إليه مترجمة بمقام الخليفة فيعرضها من يده ويجاوب عنها بخطه، فورد كتاب بعض أصحاب الترتيب بقضية، فأجابه بكلام، وأراد الاستشهاد بآية من كتاب الله تعالى، فحرفها وقالها على غير ماأنزلت، ووقع الجواب للموفق، فأخذ في كمه مصحفا ودخل إلى الخليفة ومعه جواب ابن الأنصاري، وقال: يامولانا، هذا

كتاب الله تعالى قد حضر إلى مقامك، وهو المنزل على جدك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يشكو إليك جناية ابن الأنصاري عليه، فخذ بحقه فإن هذا(من) الجنايات، والحمد لله إذ وقع هذا الكتاب إلى المملوك دون غيره، فإن المملوك لم يزل يتتبع هذه الأمور لئلا يقع عليها أعداء الدولة فيشيعوا ذلك في الدول المخالفة لها، فقال له الحافظ: أنا أعلم منك هذا وأعلم من المذكورين ماذكرت، وقد كنت سألتك فيهما مرة، وهذه الثانية، فإن لهما علينا خدمة، فقال: العفو يامولانا،وانصرف ولم ينل منهما غرضا، فأمر الحافظ ابن الأنصاري الأكبر أن يمضي إلى الأجل الموفق ويخدمه في داره.

وكان يومئذ ديوان المكاتبات مقسوما بين أبي المكارم ابن أسامة وبين الموفق، إلا أن ابن أسامة لايلتفت لأمر الديوان لكثرة شغله بدنياه، فاستناب ابنه أبا المنصور عنه، وكان يلحق بأبيه في الاشتغال بأمر دنياه عن النيابة، فصار اعتماد الخليفة في الديوان بأجمعه على الأجل الموفق، وكان ينفذه ولايشق على ابن اسامه لما أسلفه من الخدم السابقة، ثم لما مات أبو المكارم أسامة، وكان في الظن أن ابنه أبا المنصور يستخدم مكانه، سبق ابن الأنصاري وسأل الحافظ فاستخدمه في النصف من ديوان المكاتبات فقط شريكا للموفق فيه، وانفرد الموفق بالإنشاء، ونعت ابن الأنصاري بالقاضي الأجل سناء الملك، وأمره الحافظ بخدمة الموفق وأن يقنع معه بمجرد الرتبة، فشق ذلك على الموفق وصبر على ضر وقرر أبو المنصور بن أسامه في ديوان الترتيب مكان ابن الأنصاري

وتجند ابن الأنصاري الأصغر وتأمر في يوم واحد، وخلع عليه بالطوق، ورتب في زم الإمرية، وهي طوائف الأجناد، فكثر الأعداء وتعددت الحساد، واشتغل الناس بهما وأطلقوا الألسنة بذمهما، فكان يقال: هذا الأمير الطاري، ابن الأنصاري، ولج الناس بالكلام فيهم وهم عاجزون عنهم، حتى مات الحافظ فكان من أمرهما مع ابنه الظافر ماتقدم ذكره.

-١١٧٠٤-

وفي يوم الثلاثاء رابع شعبان اجتمع كثير من السودان وعدة من المفسدين ببعض القرى، فخرج إليهم الوزير ابن مصال وحاربهم حتى كسرهم.

وكان الأمير المظفر سيف الدين معد الملك ليث الدولة علي بن اسحاق بن السلار واليا على البحيرة والاسكندرية وكان ابن زوجة ركن الاسلام عباس والي الغربية، فلم يرض ابن السلار بوزارة ابن مصال، وخرج من الاسكندرية إلى ربيبة بالغربية واتفقا على القيام وإزالة ابن مصال، فبلغه ذلك، فأعلم به الخليفة الظافر، فجمع الأمراء في مجلس الوزارة وبعث إليهم زمام القصور يقول: هذا نجم الدين وزيري ونائبي فمن كان يطيعني فليطعه، ويمتثل أمره، فقال الأمراء: نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون فرجع الزمام بهذا الجواب، فقال أمير من الأمراء، شيخ يقال له دري الحرون، وهو أحد أشرار القوم ومن رفقة ابن السلار: إن سمع مني ماأقول قلت، فقال له الوزير: قل، قال: مولانا، صلوات الله عليه، يعلم وأنت تعلم أن مافي الجماعة من يضرب في وجه ابن السلار بسيف، وأولهم أنا، فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده فالأمر لله وله، فلما سمع الجماعة ذلك قاموا وخرجوا من القصر، وشدوا على خيولهم، وساروا يريدون ابن السلار.

فلما غلب الظافر عن دفعه أعطى ابن مصال مالا كثيرا، وأمره أن يعمل لنفسه مايرى في الخيرة وهو يساعده، وسار ابن السلار فرأى ابن مصال أنه لاطاقة له به، فخرج إلى جهة الصعيد، وعدى إلى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان، عندما سمع بوصول المظفر، وقدم ابن السلار إلى القاهرة في يوم الأربعاء خامس عشر شعبان، فوقف على القصر وسير إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم بحاله، فجرت بينه وبين أهل القصر مراجعات كثيرة آخرها أنه فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع الوزارة، ونعت «بالسيد الأجل أمير الجيوش، شرف الاسلام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين».

وهو يحقد على الظافر ميلة مع ابـن مصال، وفي نفس الخليفة نفور منه أيضا وسكن دار الوزارة.

وجمع ابـن مصال كثيرا مـن السـودان ومن العـربـان ولـواته وغيرهـم، وانضم إليـه بدر بن رافـع، مقدم العربـان وسار بهم، فندب ابـن السلار ربيبه المظفر أبـا المنصور ركن الديـن عباس بن أبي الفتوح بـن يحيى بن تميم بن المعـز بن باديس في عسكر، فنـزل بركة الحبش، وقـدم ابن مصال أمامـه الأمير الماجد في عسكـر، فطرق عبـاسا علي حين غفلـة وقتل مـن عسكره كثيرا، وانهزم جماعة، وثبت عباس حتى أتتـه النجدة من الغدفكر على أصحاب ابـن مصال وقاتلهم، فلـم يفلت منهم إلا من سبحـت به فرسه في النيل، وأخذ الأمير الماجد نسيـب ابن مصال ضرب عنقه، فسار ابن مصال إلى بلاد الصعيد يجمع الأجناد والعربان.

وشرع ابن السلار يجهـز عباسا فجهزه في جيش كثيـف وبادر بالخروج خـوفا مـن الاجتماع على ابـن مصال، فسـار إلى دلاص ومعـه طلائع بـن رزيك، وهـو أحد المقـدمين، فبرز إليه ابـن مصال، وواقعـه عدة وجـوه، فانجلت الوقائع عن قتل ابن مصـال وبدر بن رافع مقدم العربان في يوم الأحد التـاسع عشر من شوال، ويقـال إنه بلغت عـدة القتلى سبعة عشر ألفا، فعاد عباس وقد قوي ومعـه رأس ابن مصال إلى القاهرة، فطيف بها على قنـاة القاهـرة ومصر يـوم الخميـس ثالـث عشري ذي القعـدة، وحمل أهله وولده إلى القصر وأخليت لهم قاعة، وخلع على ابن السلار.

وكـان ابن مصـال من أهـل برقـة، وخدم أولا في البيـزرة والصيد هـو وأبـوه، فتقدم في الخدم حتـى نال الـوزارة، واتفـق أنه مـر في وزارته مـرة فقالت له امرأة كانت تعـرفه في حال فقره: سليم وزرت؟ فقال لها: نعم، قالت: والله ماوزرت وبقي أحد، فضحك وأمر لها بصلة.

-١١٧٠٦-

وكـان العادل ابـن السـلار منذ استقـر في الـوزارة أخـذ ينظر في أمـر الأجنـاد المعروفين بـالنهضـة والعزم في أرزاقهـم، وتفقـد خزائن السـلاح، وحفظ النـواميس، وشد مـن مذهب أهل السنـة، فقدم عليه الحافـظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، فأكرمه وبنى له مدرسة بالاسكندرية.

وقدم عليه مؤيد الدولة أسامة بـن مرشد بن علي بن منقذ، فأكرمه، إلا أنه كان يستوحش من الظافر وخائفا على نفسه فاحترز بأن انتدب رجالا يمشون في ركـابه بالزرد والخوذ نحـو الستمائة ويجعلهم نوبتين بـزمامين في كل يـوم نوبـة، وتوهـم أن الخليفة خبأ له قـوما يغتـالونـه بالقصر، فنقـل جلوس الخليفـة من القاعـة التي يدخـل إليها مـن الدهاليـز المظلمة إلى الإيوان في البراح والسعة، فكـان إذا دخل إلى الخليفة يدخـل ومعه أولئك الذين انتدبهم كلهم، فيجلس الخليفة في الشباك بالإيوان ويجلس هو من خارجـه، ومع هـذا يبالـغ في الخدمة ويظهـر الطاعـة، ولايخل بها في قول ولافعل.

وكان للخليفـة غلمان نحو الخمسمائة رجـل يقال لهم صبيـان الخاص وفيهم مـن هو أمير، فبلـغ ابن السـلار أنهم قد تحالفـوا وتعاقـدوا على أن يهجمـوا عليـه وهـو في داره ليـلا ويقتلـوه، فلما كـان في سـادس عشري رمضـان أغلق القـاهـرة والقصور وأحـاط بصبيـان الخاص وقتلهـم، وفـر منهـم عدة، فكتب إلى الـولاة بقتل من ظفر به منهم، وأخـذ يتبعهم حتى أتى على أكثرهم.

وأصل هـذه الطائفة التـي كانـت تعرف بصبيان الخاص أن مـن مات من الأمـراء والأجناد وعبيد الـدولة وله ولـد فإنه يحمـل إلى حضرة الخليفة ويودع في أماكن مخصـوصة، ويؤخذ في تعليمه أنواع الفروسيـة من الرمي وغيره، ويقال لهم صبيان الخاص.

وأخذ ابن السلار في الاحتفال بأمر عسقلان وسد خللها، وحمل إليها من الغلال والأسلحة شيئا كثيرا.

وولي عضد الخلافة ناصر الدين نصر بن عباس ربيبه مصر بشفاعة جدته أم عباس، وكان فيه جرأة، فاستدعاه الخليفة الظافر وقربه واختص به.

وفيها قتل الموفق أبو الكرم محمد بن معصوم التنيسي في يوم الجمعة الرابع من شوال، وكان يتولى نظر الديوان، وذلك أن ابن السلار لما كان في بداية أمره من جملة الصبيان الحجرية دخل يوما على الموفق ابن معصوم برسالة وأعادها عليه مرارا وأغلظ له في القول فنفرت منه نفس ابن معصوم، فكتب له مرة منشور بإقطاع وجاء به إلى ابن معصوم ليثبته، فلما رآه تغافل عنه وأهمل أمره إهانة له وكراهة فيه، فقال له ابن السلار وقد تكرر سؤاله وهو يعرض عنه: ماتسمع؟ فقال له الموفق: كلامك مايدخل في أذني أصلا، فولى ابن السلار وخرج من غير أن يكتب له، وصرف الدهر ضرباته، وصار ابن السلار وزيرا وابن معصوم ناظر الدواوين، فلما دخل عليه قال له: ياقاضي، ماأظن كلامي يدخل أذنك، فتلجلج وقال: عفو السلطان، فقال: قد استعملت العفو بخروجي من عندك وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارا حديدا عظيم الخلقة، وقال: والله هذا أعددته لك من ذلك الوقت، وأمر به فجر وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة وعلق عليها ميتا، ثم أنزل بعد أيام.

وفيها رمي برأس سعيد السعداء الخادم من القصر في سابع عشر شعبان، ثم أخرج وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق، وهو هذا الذي تنسب إليه دويرة سعيد السعداء التي هي اليوم خانقاه برحبة باب العيد.

ـ ١١٧٠٨ ـ

وفيها قتل تاج الرئاسة ابن المأمون البطائحي في رابع عشر صفر.

وفيها مات أبو الحسن علي بن الحسن البيساني، والد القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي، وكان قاضي بيسان والناظر فيها، ومولده في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسمائة، ومولد أبيه الحسن يوم عيد الغدير من ذي الحجة سنة ستين وأربعمائة(١٣٠).

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

فيها أغار جمع كثير من الفرنج على الفرما ونهبوها، وحرقوها وأخربوها، في رجب.

سنة ست وأربعين وخمسمائة

فيها جهز أبو منصور علي بن إسحاق، المعروف بالعادل ابن السلار، المراكب الحربية بالرجال والعدد، وسيرها في ربيع الأول إلى يافا، فأسرت عدة من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقا كثيرا من الفرنج بها، ثم توجهوا إلى ثغر عكا فأنكوا فيه، وساروا منه إلى صيدا وبيروت وطرابلس فأبلوا بلاء حسنا، وظفروا بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وبلغ ذلك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، ملك الشام، فعزم على قصد الفرنج ومحاربتهم في البر، ولو قدر ذلك لقطع الله دابر الفرنج، لكنه اشتغل بإصلاح أمور دمشق.

وعاد الأسطول مظفرا بعدما انفق عليه العادل ثلاثمائة ألف دينار، وسبب مسير الأسطول تخريب الفرنج للفرما.

وفيها قطع العـادل بن السلار جميع الكسوات المقررة للنـاس في الدولة فعم ذلك الأمراء والدواوين وغيرهم.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها صرف ابـن السلار أبـا الفضائل يـونس عـن القضاء، وكـان من الأعيان النزهين الأنفس، الكبيريـن الهمم، العظيمين القدر، لم يشرب قط ماء النيل بـل ماء الآبار، ولم يأكـل خبز السلطان، وقرر عبـد المحسن بن محمد بـن مكرم مـن بعده؛ ثـم صرفه وولى بعـده بدر بـن ثمال بن نصير، وقيل بـل الذي تـولى بعده أبو المعـالي محمد بن جميـع بن نجـا الأرسوفي الشافعي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

فيها خرج العسكر من القاهرة لحفظ ثغـر عسقلان من الفرنج، وكانوا قد نزلوا عليها في السنة الخالية، وكانت العادة أن يخرج في كل ستة أشهر عسكر بدلاً من العسكـر الذي بالثغر. فلما قدم البدل كانت النـوبة لركن الدين المظفر أبي منصـور عباس بن تميم ربيب العادل، فخـرج ومعه من الأمراء ابنـه نصر بن عباس، والأمير ملهم، والضرغـام، وأسامة ابـن منقذ وغيره، وكان لأسامة بعباس اختصاص كبير.

فلما نزلـوا بعد رحيلهـم من القاهـرة على بلبيس تذكـر عباس وأسـامة مصر وطيبها وما هـم خـارجون إليه من مقاساة السفـر ولقاء العدو، فتأوه عباس أسفاً على مفارقته لذاته بمصر، وأخـذ يلوم العادل ويثرب عليه من أجل كـونه أخرجـه. فقال له أسامـة: لو أردت كنت أنـت سلطان مصر، فقال: وكيف لي بذلـك؟ فقال: هذا ولدك ناصر الديـن بينه وبين الخليفة مودة عظيمـة، فخاطبه على لسانـه أن تكون سلطان مصر موضـع عمك، فإنـه يحبك ويكره عمك؛ فـإذا أجابك فاقتـل عمـك، فوقع هـذا الكلام

من عباس بموقع وقبله، فاستدعى ابنه وأسر إليه بما تقرر بينه وبين أسامة وسيره سراً إلى القاهرة.

وكان العادل قد كره تخصيص نصر بن عباس بالخليفة الظافر، وقال لعباس (وأمه):والله ما ينبغي اجتماع نصر بالخليفة ؛ قولا له يقصر من اجتماعه فربما نتج من شابين ما لا ينبغي، وقال لأم عباس: لايدخل ابنك داري إلا بإذني. فكأنه يوحي بأنه قاتله.

فلما سار نصر من عند أبيه ودخل إلى القاهرة كان وقت غفلة من العادل أمكنته فيها الفرصة ، فاجتمع بالظافر وأعلمه بالحال التي قدم من أجلها، فأعجبه ذلك وأذن فيه، لما كان في نفسه من قتل ابن السلار لصبيان الخاص وغير ذلك. ففارق نصر الخليفة وقد قوي عزمه، وأتى إلى دار جدته السيدة بلارة بنت القاسم زوجة العادل، وأخبر العادل بأن أباه سمح له بالعود إلى القاهرة شفقة عليه وخوفاً من وعثاء السفر، فقبل ذلك ومشى عليه، فلما أصبح العادل يوم الخميس سادس محرم مضى من أول النهار إلى مصر لتجهيز المراكب الحربية والنفقة في رجالها وعرضها؛ فظل نهاره في تهيئة ذلك ليلحق عباساً، وعاد في أثناء النهار إلى داره بالقاهرة وقد لحقته مشقة وتعب تعباً كثيراً. فلما استلقى على الفراش لينام، وكانت امرأته جدة نصر قد توجهت إلى الحمام وخلا له البيت؛ فجاء إلى بيت السر ودخل منه ومعه سيف، فإذا العادل قد نام وقت القائلة ، فاخترط سيفه وضربه وهو خائف، فوقعت الضربة على رجله، فثار من فراشه وأبصره، فقال: إلى أين ياكليب! وخرج نصر يعدو، وكان قد أعد ستة من أصحابه، فلما صار إليهم وأعلمهم بما وقع قالوا له: قد قتلت نفسك وقتلتنا ودخلوا وهو معهم، فإذا به قد جاء أستاذ من خدامه وهو يحدثه فقتلوه وأخذوا رأسه، فطلع بها نصر إلى الظافر. وماج الناس في القاهرة.

وسرح الطائر للوقت بطلب عباس من بلبيس، فقام من فوره وصار إلى القاهرة، فدخلها بكرة يوم الجمعة سادس محرم، ثاني يوم قتله العادل؛ فوجد جماعة من الأتراك كان العادل اصطفاهم واختصهم قد نفروا وتوحشت قلوبهم مما وقع؛ فأخذ يسكن أمرهم، فلم يثقوا به ولا اطمأنوا إليه، وخرجوا يداً واحدة فساروا إلى دمشق.

وكانت قتلة العادل في يوم الخميس وقت الظهر السادس من المحرم، وله في الوزارة ثلاث سنين وستة أشهر.

ولما حملت رأسه إلى الظافر أشرف من باب الذهب، ونصبت الرأس ليراها الناس، ثم حملت إلى خزانة الرؤوس من بيت المال فأودعت فيها مع الرؤوس، وما تحرك لها ساكن، ولا تكلم أحد. إلا أن نائحة كانت تسمى خسروان كانت قد مهرت في صناعة النياحة على الأموات، وصارت تنشيء في نواحها الوقائع، فقالت فيه ترثيه سطرين أعجب بهما أدباء العصر من جملة قطعة:

مـــاتقبــــل الغفلــــة
يـــاشهيـــد الـــدار
يـــاشبيـــه ذي النـــوريـــن
صـــاحـــب المختـــار

ويطل مسير العساكر إلى عسقلان، فسر الفرنج ما جرى، وكانوا محاصرين لعسقلان فقالوا لأهلها: سلطانكم قتله ابنه وأنتم تقاتلون لمن؟ فلما صح الخبر لهم وهنوا لانقطاع المدد عنهم حتى أخذها الفرنج وقووا بأخذها. واستعرضوا كل جارية ومملوك بدمشق من النصارى، وأطلقوا قهراً من أراد منهم الخروج من دمشق إلى وطنه شاء صاحبه أو أبى.

ولما وصل عباس خلع عليه الظافر خلع الوزارة في يوم الجمعة المذكور،

ونعت بالأفضل ركن الإسلام، فباشر وضبط الأمور ، وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسيهم العادل.

واستمر ولده نصر على مخالطة الخليفة، فاشتغل به عن كل أحد، وأبوه لايعجبه ذلك، وواصل الخليفة الظافر نصر بن عباس بن تميم بالعطاء الجزيل،فأرسل إليه في يوم عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار، ثم أغفله أياماً وحمل إليه كسوة من كل نوع؛ وأغفله أياماً وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار؛ وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغل رحل وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها. وكان يتردد بينهما مرتفع بن فحل في قتل نصر لابيه عباس كما قتل زوج جدته العادل ابن السلار، فبلغ ذلك أباه على لسان أسامة بن منقذ فلاطفه واستماله. وزاد الأمر حتى كان الخليفة يخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس، التي هي اليوم المدرسة المعروفة بالسيوفية، فخاف عباس من جرأة ابنه وخشي أن يحمل الخليفة على قتله فيقتله كما قتل ابن السلار، فعتبه سرا ونهاه عن ملازمة الخليفة وأنّبه ، فلم يفد فيه القول.

وفيها وصلت مراكب من صقلية، فملكوا مدينة تنيس.

وفيها مات رجار بن رجار صاحب جزيرة صقلية، وقام من بعده ابنه وليالم بن رجار بن رجار، فاسترد المسلمون سواحل إفريقية والمهدية (١٣١)

(١٣١ ــ في هذا الموضع بنسخة الأصل ، عقب نهاية أحداث سنة ٥٤٨، طيارة جاء فيها: « بخطه : وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ورد الخبر أن الفرنج أشرفوا على أخذ عسقلان فأمر بحمل رأس الحسين بن علي بن أبي طالب إلى القاهرة، فأخرج وله رائحة كالمسك ولم يجف دمه، ثم حمل في عشاري من عشاريات الخدمة مع مكنون الخادم وخرج معه

الأمير سيف المملكة متولي عسقلان، والقاضي المؤتمن ابن مسكين، فسارا بها حتى وضعوه في الكافور، فأدخل به من السرداب إلى قصر الزمرد.

وكان الإمام الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ قد بنى المسجد المعرو ف اليوم بجامع الفكاهين ليجعله فيه، فجمع الظافر أهل بيته واستشارهم فأشاروا بأن يجعل الرأس عندهم في القصر، فدفن عند قبة الديلم من القصر بدهليز الخدمة، وصار كل من يدخل منه للخدمة يقبل الأرض أمام القبر، وكانوا ينحرون عنده كل يوم عاشوراء الإبل والبقر والغنم ويكثرون البكاء والنوح ويسبون من قتله، ولم يزالوا كذلك حتى زالت دولتهم، وكان وصول الرأس في يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة منها و حصل في القصر يوم الثلاثاء عاشره وأنشد القاضي ابن الزبير في دخول الرأس أبياتا نونية، منها:

مـــالنــــانطلـــبمـــــابيننـــــاولا
نطلـــب إلا الأمـــــن الــــذي يبقـــــى لنـــــا
لهف قلبـــــــــــي على رؤوس نقلـــــــــــت
بعــــد ســــواهــــا هنـــــا بعـــــدهنـــــا)

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فيها استدعى الظافر ناصر الدولة نصر بن عباس وأخرج له صينية من ذهب فيها ألف حبة ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرد أخضر ذباني، وأمر له من بيت المال بعشرة آلاف دينار مصرية، فقتله بعد هذه الهدية بستة أيام، وذلك أنه خرج الخليفة الظافر متنكراً من قصره في ليلة الخميس سلخ المحرم ومعه خادمان، وسار على عادته إلى دار نصر بن عباس، فقتله نصر، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل سعد الدولة، أحد الخادمين اللذين خرجا معه من القصر، وفر الآخر.

وكان سبب قتله أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ عندما علموا أنه هو الذي حسن لعباس قتل ابن السلار وتحدثوا بقتله، وقيل للظافر عنه إنه غريب ومن دولة أخرى وإن في تركه وقوع ما لا يمكن تداركه، فلما بلغ أسامة ذلك أخذ يغري عباساً بابنه نصر ويبالغ في القصة حتى قال له يوما: كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك واتهامهم الخليفة أنه يفعل به ما يفعل بالنساء. فشق على عباس ولام ابنه، فلم يصغ إلى لومه. فلما أنعم الظافر على نصر بناحية قليوب وحضر إلى أبيه ليعلمه بذلك قال أسامة، وكان حاضراً: ماهي بمهرك غالية، فامتعض لذلك عباس وقال لأسامة: كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به؟! فقال: هين؛ هذا الخليفة في كل وقت يأتي إلى عند ولدك في داره خفية، فمره إذا جاء أن يقتله، فاستدعى عباس ابنه وقال: يابني قد أكثرت من ملازمة الخليفة وتحدث الناس في حقك بما أوجع باطني، وقد يصل من هذا إلى أعدائنا ما لايزول، فاحتد نصر وقال له: أيرضيك قتله؟ فقال: أزل التهمة عنك كيف شئت. فأخذ حينئذ نصر يعمل الحيلة في قتل الظافر وسأله أن يخرج إلى داره ليلاً في سر من الخدم ليتفسحا في منزله ليلة واحدة؛ وكان منزله دار المأمون البطائحي. فخرج إليه في عدة يسيرة من الخدم؛ فلما تحصل عنده اغتاله، وقتل الخدم الذين معه بالجماعة الذين قتل بهم العادل ابن السلار، ورمى بهم في جب عنده، وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء فصارت من جملة رخام المجلس، فخفي أمره، ثم مضى نصر إلى أبيه وعرفه قتل الظافر.

وكان الظافر من أحسن الناس صورة، وقتل وله من العمر إحدى وعشرون سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً، منها مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأربعة عشر يوماً. وكان محكوما عليه من الوزراء.

وفي أيامه أخذ الفرنج عسقلان واستولوا عليها، وظهر الوهن والخلل في الدولة، فإنه كان كثير اللهو واللعب مع جواريه، مقبلاً على سماع

المغنى، وهـو الذي أنشأ الجامع المعـروف الآن بجامع الفكـاهين في خط الشوائين من القاهرة.

وفيهـا ملك نـور الـدين محمـود بـن عماد الديـن زنكـي بن آق سنقـر دمشق من مجير الـدين أبق بن محمـد بن بوري بن طغتكين ، فسـار أبق إلى بغداد، ومات بها.

وكان عنـد الإمام الظافـر ببغاء بيضـاء تقرأ المعوذتين وتستـدعي كثيراً من الأستاذين بأسمائهم ونعوتهم.

- ١١٧١٦ -

الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله أبي المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد

يقال في اسم أمه ست الكمال، ويقال إحسان، ولد يوم الجمعة حادي عشر المحرم، وقيل لتسع بقين من المحرم، سنة أربع وأربعين وخمسمائة؛ وبويع له عند قتل أبيه يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وعمره يومئذ خمس سنين وعشرون يوما وكان من خبره أنه لما قتل نصر بن عباس الخليفة الظافر في ليلة الخميس أصبح الوزير عباس متوجهاً إلى القصر في يوم الخميس على العادة، فلما صار إلى مقطع الوزارة، وطال جلوسه والخليفة لم يجلس استدعى زمام القصر مفلحاً وقال له: إن كان لمولانا ما يشغله عنا في هذا اليوم عدنا إليه في الغد، فمضى الزمام وهو حائر لايدري ما يعمل وأعلم أخوي الظافر: يوسف، وجبريل، وكانا رجلين وأحدهما مكتهل، فأخبرهما بالقصة، ولم يكن عندهما من خروج أخيهما إلى دار نصر بن عباس خبر ولا علما إلا في تلك الساعة؛ فلم يشكا حينئذ أنه قتل، وقالا للزمام: هبك اعتذرت اليوم هل يتم لك هذا مع الزمان؟ فقال: فما تأمراني؟ فقالا: اصدقه وحاققه. فعاد إليه وقال: ثم سر ألقيه إليك بحضور الأمراء الأستاذين. فقال: ما ثم إلا الجهر، فقال: إن الخليفة خرج البارحة لزيارة ولد لك فلم يعد بغير العادة. فقال: تكذب ياعبد السوء، وإنما أنت مبايع أخويه يوسف وجبريل اللذين حسداه على الخلافة واغتالاه فاتفقتم على هذا القول. فقال: معاذ الله. قال: فأين هما؟ فخرجا إليه ومعهما ابن عم لهما يقال له أبو التقى صالح بن حسن بن (عبد المجيد بن محمد بن المستنصر)، فقال: حضرا. فقال لهما: أين الخليفة؟ فقال الثلاثة: هو بحيث يعلم ابنك ناصر الدين، قال: لا، وإنما أنتما قتلتماه حسداً له. قالا: هذا بهتان منك لأن بيعة أخينا في أعناقنا وهؤلاء الأمراء الحاضرون

يعلمـون ذلك، وإننـا لفـي طاعتـه بـوصية أبينـا، فكـذبهما، وأمر غلمانـه فقتلوهـم، الثلاثة.

وكان في القصر ألف سيف مجردة، فشوهد أمر قبيح لم ير أشنع منه لما جرى فيه من البغي الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق.

وقال لزمـام القصر: أين ابن مولانـا؟ فقال: حاضر . قال: قـدامي إلى مكـانه. فـدخل بنفسـه إليه، وكـان عند جـدته لأمـه، فحمله على كتفـه وأخرجه للناس قبل أن يرفع القتلى، وبـويع بالخلافة، ولقب بالفائز بنصر اللـه؛ وعمـره يـومئـذ خمس سنين وعشرون يـومـاً؛ وصـار يشـاهـد القتلى فحصل لـه فزع واضطراب، ومـازال مدة خلافتـه لم يطب له عيـش لأنه كان يصرع كل قليل (١٣٢).

---

١٣٢ ـ في مقابلة هذا الوجه ورقة مفردة كتب عليها:

« بخط المصنـف في نصف ورقة ملفـوفة بهذا المحل: ولما فعـل عباس بـأولاد الحافـظ مـا فعـل حنقتْ عليـه قلـوب النـاس وأضمـروا العـداوة والبغضـاء. وكـاتب مـن في القصر من بنـات الحافظ فـارس المسلمين أبا الغـارات طلائع بـن رزيك يستصرخـون بـه، فحشد وخـرج من البهنسـا يريـد القاهرة، وبلـغ ذلك عباساً، فخـرج في العساكر يـوم الخامس عشر من صفر وجعل ابنـه ناصر الدين نصرا على القاهرة، فلما خـرج قام عليه الجنـد وغلقوا أبـواب القـاهرة ووقـع القتـال في الشـوارع، فأسرع النـاس وفتحوا أبواب القاهـرة. فلما جاءهم واستدناهم انهزمـوا، فلما تحقق عداوة الجند والأمراء علـم أنه لا مقام له بينهم وعزم على قصـد الشام واللحاق بنور الدين الشهيد ليستنجـده، هذا والرسل تتردد بين القصر وبين طلائع وهو يستهبـل الأمراء إليه ويبعث إليهـم، فلما بلغ ذلك عباسـا استحلف

الأمـراء أنهم لا يخونونـه ولا يخامرون عليـه، وأحضر مقدمـي العرب مـن رؤسـاء رزيـق وحـزام وسنبـس وطلحـة ولـواتـة وحلفهـم بـالمصحـف وبالطلاق على مثل ذلـك، واهتم بأمر سفره بخيله وجماله، وكـان له مائتا حصان وحجـرة مجنوبـة على أيدي الرجـالة كعـادة الوزراء بمصر ومـائتا بغل للرحلة وأربعمائة جمل لحمل أثقالـه ، وله بالنجوم يريد أن يخرج في يـوم السبـت خامـس عشر ربيـع الأول بطـالـع أخباره، فما راعـه بكـرة الجمعــة رابـع عشره إلا والنــاس قـد لبســوا السـلاح وزحفــوا إلى داره ورؤوسهـم الأمراء الـذيـن استحلفهم بـألا يخونوه، فـأمـر فشدت دوابـه وأوقفت على باب داره وصارت سـدا بينه وبين المصريين بحيث لايصلون إليه لازدحـام الدروب، فخـرج إليهم غـلامه عنبر الكبير، وهـو زمامهـم، وصاح عليهـم وسبهم وقـال:روحوا إلى بيـوتكم وبيتـوا الدواب، ومضـى الركـابية والمكـارية والحمالون وبقيـت الدواب مهملة فـوقع فيهـا النهب. وكـانت الأتـراك عنـد باب النصر والكتـاب تنفـق فيهـم، فبعث إليهـم عبـاس الأمير مؤيـد الـدولـة أسامـة بـن منقـذ ليحضرهم، وهـم ثمانمائة فـارس، فركبـوا كلهم وخـرجـوا من بـاب القـاهرة منهـزمين عن القتـال، وركب المماليـك، وهم أكثر مـن الأتراك، وخـرجوا أيضا مـن باب النصر وعاد أسـامة إلى عبـاس وعرفـه ذلك، فاشتغـل كل أحـد بإخـراج أهله، وخرجـت خدم عباس وقـد نهبت تلك الدواب بـأجمعها وخلت الطـريق ورجعـت عسـاكـر المصريين وأخـرجـوا عباسـاً ومـن معـه وهـم في قلـة والمصريـون في كثرة. فلما خـرج عباس مـن بـاب النصر أغلق المصريـون أبواب القاهـرة وعادوا إلى دور عباس وأصحابه فنهبوهـا، وتجمعت قبائل العربـان الذين استحلفهـم عباس وقاتلوا عبـاسـاً خارج بـاب النصر من ضحى يـوم الجمعة المذكـور إلى يوم الخميـس العشرين منـه وسار، وهـم يقاتلـونه النهار كلـه فإذا جن الليـل اغفلوا حتى ينـام - يركبـون في مائة فارس ويرفعون أصـواتهم بالصياح فيأخذون الخيل ويـأسرون الرجال، فلما كان يوم الأحد ثالث عشر صبحهـم الفرنج في جمعهم على المويلح فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك وأسروا ابنه ناصر الـدين وأخذوا خدامه وحريمه

وقتلوا من ظفروا بـه ، وأسروا نجم الدولة أبا عبدالله محمـد بن منقذ، وفر أسامـة في طائفـة إلى دمشق وهـم في أسوأ حـال، ودخلوهـا يوم الجمعـة خامس ربيع الآخر من سنة خمس وأربعين وخمسمائة »)

ومن طريف ما وقع في هذا اليـوم أن الوزير عباساً لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بـابه قد قفل مـن داخل، وكان متولى فتـح المجلس وغلقه أستاذ شيخ يقال له أمين الملك، فاحتـالوا في الباب حتى فتحوه ودخلوه، فإذا أمين الملك خلف الباب وهو ميت وفي يده المفتاح.

وفي أثناء ذلك حضر الخادم الذي أفلـت من نصر إلى القصر وحدثهم بكيفية قتله الظافر، فكثرت النياحـة عليه بالقصور ، وظن عباس أن الأمر قد استقام لـه، فجاء خلاف ما أمل، وأخذ أهـل القصور في إعمال الحيلة عليه؛ وكـان الأمراء والسودان قـد نافروه واستـوحشوا منه لما فعلـه بأولاد الحافـظ، وأضمـروا لـه العـداوة والبغضـاء ، فـاختلفـت عليـه الكلمـة ، وهـاجت الفتنـة، وصـار العسكر أحـزاباً ولبسـوا السـلاح، فخرج إليهـم عباس في يوم الاثنين العـاشر من ربيع الأول، فكانت بينـه وبينهم محاربة انكسروا فيها منه ، وقتـل منهم جماعة. هذا وأهـل القصر في تدبير العمل عليـه، فبعثت عمـة الفـائز إلى فـارس المسلمين أبي الغارات طـلائع بـن رزيـك، وكان واليـاً على الأشمونين والبهنسـا، بالكتـب وفي طيها شعـور النسـاء تستصرخ به على عبـاس؛ وكتب إليـه أيضا الجليـس بن الحبـاب فـامتعض عنـد وقوفـه على الكتب ورؤيـة شعور النسـاء، وجمع العربـان والأجناد مقطعي البلاد.

وبلـغ ذلك عبـاساً، فخـرج مـن القاهـرة بـالعساكـر في عاشر صفـر، وجعل ابنه ناصر بالقاهر ة،وأنفذ إلى طلائع بحسين بن أبي الهيجاء، زوج ابنته، ليرده عما عزم عليـه . فلما خلا به قال لـه : تقاتل عباسـاً وله خمسة

آلاف مملوك؟! قال: أقاتله بنفسي ونفسك. قال: أما الآن فنعم، وصار معه ففت ذلك في عضد عباس لشهرة حسين وشجاعته.

وعندما نزل عباس إلى إطفيح في بكرة يوم الثلاثاء، خامس عشره، لحق أعراب إطفيح بابن رزيك، فوافوه على أبويط (١٣٣) فسار بهم ونزل دهشور(١٣٤) فاضطرب عباس ورجع إلى القاهرة، وتفرق عنه الناس إلى طلائع بن رزيك، وصار من أهل البلد في مناكدة. وغلقوا أبواب القاهرة ووقع القتال في الشوارع، فاستظهر عليهم عباس وفتحوا الأبواب وقد تحقق عداوة الأمراء والجند له.

واتفق أنه مر يوماً فرمي من طاقٍ ببعض الشوارع بهاون، ورمي مرة بقدرٍ مملوءة طعاماً حاراً؛ فقال: ما بقي بعد هذا شيء، وعزم على الفرار فلم يقدر، وغلقت أبواب القاهرة.

واشتغل الناس بهذا الحادث وهو يدبر في الخروج من القاهرة، فأشار عليه بعض خواصه بتحريق القاهرة فأبى وقال: يكفي ما جرى، فلما عدى طلائع بن رزيك إلى صول (١٣٥) عول عباس وولده نصر على المسير من مصر بكل ما يملكانه من مال وسلاح وما قدرا عليه من حواصل الدولة - وكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجال، ومائتا بغل رحل، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله - في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأول بعد ما حلف الأمراء ألا يخونوه. وأحضر مقدمي العرب من رزيق وجذام وسنبس وطلحة وجعفر ولواته، وحلفهم.

فلما كان يوم الجمعة ركبوا عليه بكرة وتبعهما أسامة بن منقذ وجماعة؛ وبلغ ذلك طلائع فسار ونزل قبالة المقس في عشية نهاره، وخرج الناس إلى المقابر، وبات في عشاري، وأصبح، فأقام إلى يوم الأربعاء تاسع عشره، فركب يريد القصر وقد خرج الأمراء إليه، منهم من قاتله ومنهم

من انضم إليه، فلم يكن غير ساعة حتى انجلى الأمر عن فرار عباس وولده وابن منقذ، فنهب الناس دورهم.

ودخل طلائع إلى القاهرة وشقها بعساكره في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول، وهو لابس ثياباً سوداء ، وأعلامه وبنوده كلها سود، وشعور النساء التي أرسلت إليه من القصر على رؤوس الرماح، فكان هذا من الفأل العجيب ، فإن الأعلام العباسية السود دخلت القاهرة وأزالت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة.

ونزل طلائع بدار المأمون التي كان يسكنها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل، فأعلمه بالحال،، فمضى راجلاً من القصر إلى دار نصر بن عباس، واستخرج الظافر والأستاذ الذي كان معه، وغسلهما وكفنهما؛ وحمل الظافر في تابوت مغشى الأستاذون والأمراء ومشى طلائع وهو حاف قد شق ثيابه ومعه الناس بأجمعهم حتى وصل إلى القصر، فصلى عليه الخليفة الفائز، ودفن في تربة القصر مع آبائه.

وجلس الفائز بقية النهار وخلع على طلائع بن رزيك بالموشح والعقد والجوهر، وخلع على ولديه، ونعت بالأجل الناصر، سند الإمام، زعيم الأنام، مجير الإسلام، خدن أمير المؤمنين، وخلع على أخيه ونعت بنعوت الصالح قبل الوزارة؛ وخلع على حواشيه. وأجرى في الخلع مجرى الأفضل بالطيلسان المقور، وأنشىء له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح، ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك[١٣٦] ، وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر.

وكتب في سجله ، على طرته، بخط الفائز: « لوزيرنا السيد الأجل الملك الصالح، ناصر الأئمة، كاشف الغمة، أمير الجيوش، سيف الإسلام، غياث الأنام، كافل قضاة المسلمين ، هادي دعاة المؤمنين، أبي

الغارات طلائع بن رزيك الفائزي؛ عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى أبداً من كلمته، من جلالة القدر، وعظيم الأمر، وفخامة الشان، وعلو المكان، واستيجاب التفضيل، واستحقاق غايات المن الجزيل، ومزية الولاء الذي بعثه على بذل النفس في نصرتنا، ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحق مشايعتنا وطاعتنا، مما يبعثنا على التبرع له ببذل كل مصون، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له بكل شيء يسر النفوس ويقر العيون؛ والذي يضمه هذا السجل من تقريظه وأوصافه، فالذي تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعاف؛ ولذلك شرفناه بجميع التدبير والإنالة، ورفعناه إلى أعلى رتب الأصفياء بما جعلناه له من الكفالة، والله تعالى يعضد به دولتنا، ويحوط به حوزتنا، ويمده بمواد التوفيق والتأييد، ويجعل أيامه في وزارتنا ممنوحة غاية الاستمرار والتأبيد إن شاء الله تعالى».

وكان سجلاً في غاية الطول والكبر، من إنشاء الأجلّ الموفّق أبي الحجاج يوسف بن علي بن الخلال.

ونزل الملك الصالح بالخلع والأمراء وغيرهم من أهل الدولة مشاة في ركابه إلى دار الوزارة ، فجلس للهناء ، وتقدم الشعراء فأنشدوا عدة مدائح ذكروا فيها هذه الحالة والواقعة. وكانوا عدة، منهم عبد الرحيم بن علي البيساني، والقاضي الأجلّ الرشيد أحمد بن الزبير،والقاضي الجليس عبد العزيز بن الحسين بن الحباب، والقاضي السعيد جلال الملك الأشرف ضياء الدين أبو علي الحسن بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن كاسيبويه، وأبو محمد يحيى بن خير ، الملقب ديك الكرم الشاعر ، وغيرهم.

وأما عباس فإنه سار بمن معه يريد أيلة ليسير منها إلى بلاد الشام، فأرسلت أخت الظافر إلى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم

الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج إلى عباس، وأباحتهم جميع ما معه، وأن يبعثوا به إلى القاهرة، فأجابوها إلى ذلك، وخرجوا إليه، فلما أدركوه ثبت لهم ودافعهم عن نفسه، فخذله أصحابه وفروا عنه مع أسامة بن منقذ إلى الشام، فقاتل الفرنج حتى قتل؛ وأسر ابنه نصر فجعل في قفص حديد وحمل إلى القاهرة، فدخل به إلى القصر يوم الاثنين سابع عشري ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج منه يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الآخر قتيلاً مقطوع اليد اليمنى، وصلب سحراً على باب زويلة، فكان يوماً عظيماً عند الناس. واستولى الفرنج على جميع ما كان معهم.

ولما سير الفرنج بنصر بن عباس إلى القاهرة أنشد عندما عاين البلد:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

وخرج الناس عند قدومه إلى القاهرة ليروه فبالغوا في سبه ولعنه، وبصقوا عليه، حتى دخل القصر وهو في القفص وقتل؛ قتله الجواري نخساً بالمسال وصفعاً بالنعال وقطعوا لحمه واشتووه وأطعموه إياه حتى مات، ثم خرج وصلب على باب زويلة، وأحرق بعد ذلك.

وتتبع الصالح من كان مع نصر بن عباس في قتل الظافر، فقتل قايماز وفتوح الأخرس وابن غالب صبراً بين يديه في جماعة معهم، وثبتت أموره فنعت نفسه بفارس المسلمين نصير الدين، الصالح؛ ومدحه الشعراء بذلك.

وشرع الصالح في الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم؛ وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم نعمهم. وقبض على عدة من الأمراء وقتلهم في ثالث عشر ربيع الأول، وعلى عدة من أرباب العمائم، منهم أبو الحسن علي بن سليم بن البواب ناظر الدواوين، وكان عارفاً بالحساب والمنطق والهندسة، مليح الشعر والترسل، جيد الكتابة.

وأخذ يعمل على الأمراء المتقدمين في الدولة ، مثل ناصر الدين ياقوت، صاحب الباب، وكان قد ناب عن الحافظ مرة في مرضة مرضها مدة ثلاثة أشهر وكاد يوليه الوزارة؛ ومثل الأوحد بن تميم، والي دمياط وتنيس، فإنه كان قد تحرك لما سمع قضية عباس وسار يريد القاهرة ، فسبقه طلائع بن رزيك بيوم، فصار يحقد عليه كونه همّ بأمرٍ ربما نال به الوزارة، غير أنه لم يسعه إلاّ إعادته إلى ولايته وأضاف إليها الدقهلية والمرتاحية وهو يسر له المكر.

وكان من أمراء الدولة تاج الملوك قايماز، وهو من أكابر الأمراء، ويليه ابن غالب؛ فحمل الأجناد عليهما حتى قتلا ونهبت دورهما.

ثم إنه قلق من قرب الأوحد منه وأراد إبعاده عنه، فنقله من ولاية دمياط وتنيس إلى ولاية سيوط وأخميم؛ فخلت له القاهرة، وأظهر مذهب الإمامية وباع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعراً ومدةً ستة أشهر فقط؛ فتضرر الناس من كثرة ترداد الولاة عليهم.

وضيق مع ذلك على أهل القصر طمعاً في صغر سن الخليفة ، وجعل له مجلساً يحضره أهل الأدب في الليل وطارحهم فيه الشعر، فهرع إليه الناس ودوّنوا ما ينظمه من الشعر، وكان ابن الزبير يعينه على إصلاحه وتنميقه.

فيها صرف الصالح عن قضاء القضاة أبا المعالي مجلي بن جميع، الفقيه الشافعي، وولى القاضي المفضل أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم في أخريات شعبان.

فيها بلغ التليس ستة دنانير.

فيها مات القاضي المرتضى أبو عبد الله محمد بن الحسين الاطرابلسي،

المعروف بالمحنك، وكان قد ولي نظر الدواوين والخزائن ؛ وله تاريخ خلفاء مصر قطع فيه على الحافظ.

ومات ركن الخلافة أبو الفضل جعفر فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، أخو الوزير المأمون ابن البطائحي، وصلى عليه الصالح.

وفيها كتب المقتفي لأمر الله العباسي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي، صاحب دمشق بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمراكب وتحف وأمره بالمسير إليها لما بلغه قتل الظافر وإقامة الفائز من بعده وهو صغير، وقيل له قد اختلت أحوال الدولة بمصر.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها مضى الأسطول إلى ميناء صور فملكها وقتل من فيها وأخربها وأحرقها، وعاد مظفراً بعدة مراكب فيها حجاج من النصارى وغيرهم، وبعدة كبيرة من الأسرى وبغنائم جزيلة.

وفيها خرج على الصالح الأمير الأوحد بن تميم، والي إخميم وأسيوط، وجمع جمعاً موفوراً، فسير إليه الصالح عدة من العسكر ، فكانت بينهما عدة وقائع أسفرت عن قتله الأوحد في يوم الاربعاء سابع عشر رجب.

وفيها قدم الفقيه نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي اليماني الحكمي في شهر ربيع الأول، برسالة قاسم بن فليته أمير الحرمين؛ فأحضر في قاعة الذهب من القصر يوم السلام، وقد جلس الخليفة الفائز وحضر الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك والأمراء، على العادة؛ فأدى الرسالة وأنشد:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم
حمداً يقوم بما أولت من النعم

لا أجحد الحق، عندي للركاب يدٌ
تمنت اللجم فيها رؤية الخُطُم

قرَّبن بُعْدَ مزار العزِّ من نظري
حتى رأيت إمام العصر من أمم

ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفداً إلى كعبة المعروف والنِّعم

فهل درى البيت أني بعد فرقته
ما سرت من حرم إلاَّ إلى حرمِ

حيث الخلافة مضروب سرادقها
بين النقيضين من عفو ومن نقم

وللإمامة أنوارٌ مقدّسةٌ
تجلو البغيضين من ظُلْم ومن ظُلَم

وللنبوة آيات تنص لنا
على الخفيين من حكم ومن حكم

وللمكارم أعلامٌ تعلمنا
مدح الجزيلين من بأس ومن كرم

وللعلا ألسن تثني محامدها
على الحميدين من فعل ومن شيم

وراية الشرف البذاخ ترفعها
يد الرفيعين: من مجد ومن همم

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم

لقد حمى الدّين والدنيا وأهلها
وزيره الصالح الفراج للغمم

اللابس الفخر لم تنسج غلائله
إلا يد الصنعين: السيف والقلم

وجوده أوجد الأيام ما اقترحت
وجوده أعدم الشاكين للعدم

قد ملكته العوالي رق مملكة
تعير أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني
في يقظتي أنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أملي
ولا ترقت إليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها
عقود مدحٍ فما أرضى لكم كلمي
ترى الوزارة فيه وهي باذلة
عند الخلافة نصحاً غير متهم
عواطف علمتنا أن بينهما
قرابة من جميل الرأي لا الرحم
خليفةٌ ووزير مدَّ عدلهما
ظلاً على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما
فما عسى يتعاطى منَّة الدِّيم

فكان الصالح يستعيد أبياتها في حال الإنشاد مراراً، والأمراء والأستاذون يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم أفيضت عليه خلع الخليفة المذهبة، ومنح له الصالح خمسمائة دينار، وأخرجت إليه السيدة الشريفة بنت الحافظ مع الأستاذين خمسمائة دينار أخرى؛ وحمل المال معه إلى منزله، وأطلقت له من دار الضيافة رسوم جليلة؛ وتهادته أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم.

واستحضره الصالح للمجالسة، ونظمه في سلك أهل المؤانسة، وانثالت عليه صلاته، وغمره ببره. وصار يحضر في الليل عنده مع الشيخ الجليل أبي المعالي ابن الحباب، والشيخ الموفق ابن الخلال، وأبي الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبي محمد الحسن بن الزبير، وولد الصالح مجد

الإسلام (رزيك) ، وصهره الأجل المظفر الأمين ، سيف الدين حصن المسلمين، ذي الفضائل والمناقب، يمين أمير المؤمنين، أبي عبد الله الحسين بن الأمير فارس الدولة أبي الهيجاء الفائزي الصالحي، وأخيه فارس المسلمين بدر بن رزيك؛ وقريبه عز الدين حسام، وضرغام، وعلي ابن الزَبَد، ويحيى بن الخياط، ورضوان بن جلب راغب، وعلي هوشات، ومحمد بن شمس الخلافة ، وهؤلاء أهل مجلس الليل.

وأنشده يوما وهو في القبو من دار الوزارة قصيدة منها:

دعوا كل برقٍ شمتم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق نشره
وزوروا المقام الصالحي، فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها
فكل امرىء يرجى على قدر قدره

فرمى إليه الخريطة فوجد فيها خمسمائة وخمسين رباعياً، ومدحه في شعبان بقصيدة فدفع إليه الخريطة ، فإذا فيها ثلاثة وسبعون دينارا.

ثم لما عزم على الرجوع ودع الخليفة والصالح بن رزيك بقصيدة، فأوسعاه إكراماً وإنعاماً، ورسم أن يكون تسفيره خمسمائة دينار كما كانت وفادته، وبعثت إليه السيدة مثل ذلك؛ وخلع عليه للسفر، ودفع له الصالح مائتا دينار. وكتب له إلى ناصر الدولة والي قوص بمائة إردبّ من القمح وحملها من مال الديوان إلى مكة، وكتب له كتاب إلى محمد بن عمران، صاحب عدن، ببراءته من ثلاثة آلاف دينار وإسقاطها عنه.

وسار في شوال إلى مكة فتسلم القمح من قوص وحمل معه إلى مكة

من مال الديوان . ولما وقف صاحب عدن على الكتاب أبرأه من الثلاثة آلاف دينار وأسقطها عنه، فسير إلى الصالح بقصيدة من عدن يشكره على ذلك؛ فلما وقف عليها قال: قد فرّطنا فيه حين تركناه يخرج من عندنا، ولقد كان إمساكه للخدمة والصحبة أولى.

ثم عاد بعد ذلك بمدة، واستقر بعد ذلك من جملة خدام الدولة وخواصها.

فيها مات الفقيه أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا المخزومي القرشي الأرسوفي الشافعي، صاحب كتاب الذخيرة في الفقه.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها نزع السعر ووقع الغلاء بديار مصر، فلحق الناس منه شدّة.

سنة اثنين وخمسين وخمسمائة

فيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج وبين المصريين، فشرع الصالح في النفقة على العساكر وعربان البلاد للغارة على بلاد الفرنج. فأخرج سرية في سابع عشر جمادى الأولى وأتبعها بأخرى في رابع عشر جمادى الآخرة؛ فوصلت الأولى إلى غزة ونهبت أطرافها، ثم سارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت مظفرة غانمة، ثم ندب سرية ثالثة ، فمضت إلى الشريعة(١٣٧) فأبلت بلاءً حسنا وعادت مؤيدة، وسير المراكب الحربية فانتهت إلى بيروت وأوقعت بمراكب الفرنج وأسرت منهم وغنمت ، وسير عسكراً في البر إلى بلاد الشوبك فعاثوا فيها وغاروا ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم كثير من الأسرى، ثم سير الأسطول إلى عكا فأسروا نحواً من سبعمائة نفس بعد حروب كثيرة ، وعاد الأسطول في رمضان. وجهز سريةً فغارت على بلاد الفرنج وعادت بالغنائم في

رمضان، ثـم ندب سريـة في أول ذي القعدة وأردفهـا بأخـرى في خامسـه فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق وعادوا غانمين.

وفيها قدم رسول نور الدين محمود صاحب دمشق.

وفيها كسرت مراكـب للفرنج فيها حجاج منهم على ثغـر الإسكندرية، فقبض عليهم نائب الثغر وجهزهم.

وفي سلخ ذي الحجـة قبض الصالح على الأمير نـاصر الدولة يـاقوت والي قوص وعلى أولاده واعتقلهم مـن أجل أنه بلغه عنه أنه كـاتب أخت الظافـر وقصد القيام على الصـالح وأخذ الـوزارة، وكان ناصر الـدولة في ولايـة قـوص مـن أيـام عباس، ولما استـدعـى أهـل القصر طـلائع مـن الأشمونين لم يجسر على الحركة حتـى كتب إلى ناصر الدولة يعلمـه بذلك ويستدعيه ليكـون له الأمر، فأعـاد جوابه يظهر الـزهد في ذلك وأنه تـركه من أيام الخليفة عن قدرة، ظناً منه أن طـلائع لايصلح ولايتم له ما يريد مـن مقاومـة عبـاس؛ فخاب رجـاؤه، ولم يـزل به الصـالـح حتى أودعـه السجن، ولم يزل به حتى مات فيه في رجب من الآتية.

وفيها أحضر إلى القاهرة رجـل كامل الأعضاء سريع الحركة، طـوله من رأسه إلى قدمه أربعة أشبار، وله عدة أولاد؛ فدخل على الصالح حتى رآه.

في هـذه السنة زلـزلت الشـام زلازل عظيمـة أخربـت حصن شيـزر ، وأكثـر حماة وبعض كفـر طـاب وأفاميـة؛ وزلزلـت في حلـب وغيرها مـن البلاد؛ وكانت بدمشق خفيفة لم تخرب شيئا، ودامت مدةً بأرض الشمال.

وفيها سقطت دار بخـط سوق وردان من مدينـة مصر هلك بها جماعة من سكانها ، من جملتهم امرأة ترضـع ولداً أخرجت من تحت الردم ميتة،

وأخرج الطفل ابنها في ثـاني يوم وهو حي، فسلم إلى من تـرضعه، وعاش حتى بلغ مبالغ الرجال.

واتفق أيضاً في هذه السنة أن السديـد أبا النقاء صـالحاً كان يخدم في عمالـة الربـاع السلطانيـة بمصر، ومما يجري فيها دار ابـن معشر عند فـم السد الذي يفتح كل سنة عند كسر الخليـج إذا كان وفاء النيل، فإذا كان قرب الـوفاء رسم بمرمـة هذا الدار، فـرممت وأسكنت في موسـم الخليج ، فيتحصل من أجرتها في يوم وليلة ما يتحصل مـن أجرة سنة كاملة، فرمها في هذه السنة وأسكنها على العادة، وسكن في بيـت تحتاني منها، فامتلأت جميعها حتى لم يبق فيها ما يسع أحـداً، فسقطت وهلك جميع من فيها إلا هـو، فإنـه أخـرج بعد يـومين مـن تحت الردم فيـه رمـق فبرأ وعاش مـدة طويلة، ثم طلع يوما وهو عجـل إلى منزل سكناه بحارة الروم من القاهرة فاندق ساقه في درجة حدث بها خدش يسير فمات منه.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

في المحرم جهـز الصالـح أربعة آلاف وأمر عليهـم شمس الخلافـة أبا الأشبال ضرغاماً للغارة على بلاد الفرنج، فساروا في صفر إلى تل العجول (١٣٨) وحـاربوا الفـرنج في النصـف منه، فـانهزموا مـن المسلمين هزيمـة قبيحة عليهم، وسير عسكراً آخر في شعبان، فـواقعوا الفرنج على العريش وعادوا ظافرين بعدة غنائم ما بين خيول وأموال.

وفيها قدم رسول الملك العادل محمود بـن زنكي؛ وقدمت رسل الفرنج يسألـون في الصلح؛ ورسول صـاحب قسطنطينة يسـأل إسعافه بمـراكب نجدة له من صاحب صقلية.

وفيها خـرجت مـن القاهـرة سرية إلى بيـت جبريل وعـادت غانمـة ،

وسار الأسطول في يوم الجمعة ثالث عشري ربيع الآخر فانثنى إلى تنيس في الثامن من شعبان وأقلع منها إلى بلاد الفرنج.

وفي سادس عشري ربيع الآخر قدم أسطول الاسكندرية وقد امتلأت أيدي الغزاة بالغنائم. وفي ربيع الآخر سار عسكر إلى وادي موسى فنزل على حصن الوعيرة وحاصره ثمانية أيام ، وتوجه إلى الشوبك وأغار على ما هنالك؛ وأقام أميران على الحصار وعاد بقية العسكر.

وفي التاسع من جمادى الأولى سار عسكر إلى القدس فخرب وعاد بالغنائم. وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية كسر فيها الفرنج وانهزموا، فأخذ الصالح في النفقة على طوائف العسكر، وكان جملة ما أنفقه فيها مائة ألف دينار، فلما تكامل تجهيزهم سير خمس شوانٍ في الخامس من شعبان، ودوخت سواحل الشام، وظفرت بمراكب من مراكب الفرنج وعادت بكثير من الغنائم والأسرى في الثاني والعشرين من رمضان، وخرج العسكر في البر وقد ورد الخبر بحركة متملك العريش يريد الغارة على أطراف البلاد. فلما بلغه سير العسكر لم يتحرك ، ورجع العسكر.

وجهز رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج، وكتب إليه الصالح كتابا ضمنه قصيدة يحرضه فيها على قتال الفرنج، فوصلت إليه في سادس عشر من شهر رمضان، فلبس نور الدين خلعة الملك الصالح طلائع، وانقضت السنة في تجهيز العساكر في البر والبحر ومسيرها وعودها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة، منهم القمص صاحب قبرص ، فأكرمه الصالح وبعث به إلى ملك القسطنطينية. وكثرت الغنائم من الفرنج بالقاهرة حتى امتلأت الأيدي بها.

وقال الصالح في هذه الغزوات عدة قصائد مطوّلة.

وفيها مات القاضي المفضل كافي الكفاة محمود بن القاضي الموفق إسماعيل بن حميد القاضي، المعروف بابن قادوس، في سابع المحرم؛ فحضر الصالح إلى داره بمصر ومشى في جنازته حتى صلى عليه، ومضى إلى تربته عند مسجد الأقدام (١٣٨) بالقرافة، وكان من أماثل المصريين وأعيان كتابهم، مقدماً عند الملوك . وله ديوان شعر.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

في شهر ربيع الأول ، في خامسه، قدم رسول الفرنج بهدية لطلب الهدنة.

وقدم رسول نور الدين يخبر بأنه متوجه نحو بلاد الفرنج، وأشار بإخراج عسكر نحوهم؛ فخرجت سرية إلى غزة، وعاد رسول نور الدين ، وهو الحاجب محمود المسترشدي، وصحبته الأمير عز الدين أبو الفضل غسان بن محمد بن جلب راغب الآمري؛ وكانا قد توجها إلى نور الدين في السنة الخالية وخرجا من دمشق في نصف صفر، فندب الصالح العساكر للغارة، وأنفق في ستة آلاف وخمسمائة فارس، فساروا في سادس جمادى الأولى، وتوجه الأسطول في البحر، وذلك أن ملك القسطنطينية أراد غزو بلاد ابن لاون، صاحب أرمينية فبعث يعلم نور الدين بذلك، فكتب نور الدين يستنجد الملك الصالح على الفرنج، فأنجده بذلك. وفي سلخ جمادى الآخرة عاد العسكر غانما.

وفي (هذه السنة) خرج الأمير عز الدين أبو المهند حسام ابن الأمير الأسد جلال الدين فضة، وهو ابن أخت الملك الصالح، على عسكر لقتال طرخان بن سليط بن طريف والي الإسكندرية وقد جمع العربان وغيرهم وخلع طاعة الصالح.

وفيها بنى الصالح على بلبيس حصناً من لبن.

فيها توفي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الفضل بن منصور بن أحمد بن يونس بن عبد الرحمن بن الليث بن المغيرة بن عبد الرحمن بن العلاء بن الحضرمي في شهر رمضان بالإسكندرية. وقد حدث فسمع منه السلفي؛ وهو آخر من حدث عن الحبال. ومولده لست بقين من ربيع الآخر سنة ست وستين وأربعمائة.

وتوفي الفقيه أبو الحسن وحشي بن عبد الغالب العادلي السعدي بمنية زفتي؛ وأخذ عن الطرطوشي وغيره.

وتوفي بمصر أبو القاسم عبد السلام بن مختار اللغوي؛ وسمع من بركات وغيره؛ وقرأ على العقبي. وله مدائح في الصالح بن رزيك وكان متصدراً بالجامع العتيق.

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فيها خرج إسماعيل ، المعروف بروق، من القاهرة في ليلة الخميس حادي عشر المحرم، ولحق بأخيه طرخان والي الإسكندرية وقد جمع لحرب الصالح، فخرج إليه المظفر عز الدين حسام والأمير مجد الخلافة أسد الدين ورد على عسكر ، ولحقهم المظفر سيف الدين حسين.

وقد برز إسماعيل من الإسكندرية في جموعه وخيم على دمنهور، وتلقب بالملك الهادي؛ فطرقه العسكر، فهرب واختفى بالجيزة، فقبض عليه في سابع عشره. وعاد العسكر في ثالث عشريه، فهرب طرخان من معتقله في رابع ربيع الآخر، وظفر به في سادسه، فصلب على باب زويلة، ثم ضربت رقبة إسماعيل في ثامنه، وصلب إلى جانب أخيه.

وكان أبو طرخان فرّانا، فترقى طرخان في أيام الفتن حتى ولاه الصالح الإسكندرية في سنة ثلاث وخمسين . وقال الشعراء في صلبه عدة قصائد.

وفيها مات الخليفة الفائز بنصر الله ليلة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رجب؛ ومولده يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وستة أيام، منها مدة خلافته ست سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوماً ولم يلتذ بالخلافة ولا رأى فيها خيراً، فإن أباه لما قتل وبكر عباس إلى القصر وفحص عن الخليفة الظافر وقتل أخويه وابن عمه لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ودعي إلى القصر واستدعى ابن الظافر هذا وحمله على كتفه وله من العمر نحو الخمس سنين، ووقف به في صحن القاعة وأمر الأمراء فدخلوا عليه، فلما مثلوا بالقاعة قال لهم: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه، والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة اضطرب منها الطفل وداخله من تلك الصيحة، مع ما شاهده من رؤية عمه والخدام وهم في دمائهم، ما خبل عقله، وبال على كتف عباس، فسيروه إلى أمه؛ وأقام مختلاً يصرع وجدته تكفله.

وركب في الأعياد مغرراً به؛ وخطب عنه قاضي القضاة وهو معه على المنبر. وفتح الخليج في أيامه في الليل واعتذر عن ذلك بأن النيل عدا وقطع الجسر، إلى غير ذلك من التجويزات.

ثم وزر الصالح بعد عباس واستبد بجميع الأمور وليس له معه أمر ولا نهي، ولا نفوذ كلمة. فدبرت عمه الفائز في قتل الصالح، وفرقت في ذلك نحو خمسين ألف دينار. فبلغ ذلك الصالح، فأمسكها وقتلها بالأستاذين والصقالبة سراً، والفائز في وادٍ آخر من الاضطراب والاختلال. ونقل كفالته إلى عمته الصغرى، وطيب قلبها، وراسلها.

-١١٧٣٦-

العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد

ولد يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة؛ وبويع عند انتقال الفائز يوم الجمعة قبل الصلاة لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وعمره يومئذ تسع سنين وستة أشهر وسبعة أيام.

وذلك أنه لما مات الخليفة الفائز ركب الصالح بن رزيك إلى القصر بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر، وسأله عمن يصلح في القصر للخلافة؛ فقال: ههنا جماعة. فقال: عرفني بأكبرهم. فسمى له واحداً، فأمر بإحضاره. فتقدم إليه أمير يقال له علي بن الزبد وقال له سراً: لايكن عباس أحزم منك رأياً حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد بالأمر، فمال إلى قوله، وقال للزمام: أريد منك صغيراً، فقال: عندي ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ، فقال: علي به، فأحضر إليه بعمامة لطيفة وثوب مفوط، وهو مثل الوحش، أسمر، كبير العينين، عريض الحاجبين أخنس الأنف، منتشر المنخرين، كبير الشفتين، فأجلسه الصالح في البادهنج، وكان عمره إحدى عشرة سنة، ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء، وهي لبس ولي العهد إذا حزن على من تقدمه، وقام وألبسه إياها.

وأخذوا في تجهيز الفائز: فلما أخرج تابوته صلى عليه وحمل إلى التربة، وأخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه، وأمر أن تحمل إليه ثياب الخلافة، فألبسها؛ وبايعه، ثم بايعه الناس؛ ونعته بالعاضد لدين الله، وذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين. وأبوه أحد الأخوين اللذين قتلهما الوزير عباس.

ولما بويع العاضد ركب وحملت على رأسه المظلة؛ وركب الصالح بين يديه، وخرج من التربة قاصداً قصره، وكانت عادة الخلفاء أنه إذا ورد البشير إلى أخص أهل من يبايع يعطى ألف دينار، فلما بويع العاضد حضر المبشر إلى عمته فأعطته نزراً، فلما راجعها في الزيادة أبت عليه، فسئلت في السبب فقالت : هذا قاطع الخلفاء، وهكذا كان.

واستقر العاضد اسماً والصالح معناه، فتمكن وقويت حرمته، واستولى على الدولة وتمكن منها، ونقل جميع أموال القصر إلى دار الوزارة ، وأساء السيرة باحتكار الغلات، فوقع الغلاء وارتفعت الأسعار؛ وأكثر من قتل أمراء الدولة.

وفيها ولي الصالح شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس السعدي الصعيد، فظهرت كفايته واستمال الرعية.

وفيها بعث العاضد بالخلع إلى نور الدين محمود صاحب دمشق، فلبسها.

وفيها توفي بمصر أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن عمر بن قاسم، المعروف بنفطوية الحضرمي، المقرىء الأديب؛ رحل فسمع ببغداد وميافارقين وبمصر.

وتوفي بعيذاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب السعدي، أخو القاضي الجليس، رحل فسمع ببغداد وغيرها، وصنف كتاب مساوىء الخمر، وكتاب الحجة لسلف هذه الأمة في تسمية الصديق والردّ على من أنكر ذلك، وكتاب تهذيب المقتبس في أنباء أهل الأندلس. وكان من الصالحين.

وتوفي أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوار بن المختار بن الغرناطي

بمصر، وكان من أعيان غرناطة، وله معرفة جيدة بالنحو، وكتب عن السلفي.

سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها عقد العاضد على ابنة الصالح ابن رزيك في مستهله بعدما امتنع من ذلك فحبسه الصالح حتى أجاب، وقصد الصالح بزواجه ابنته أن يرزق منه ولداً فيجتمع لبني رزيك الخلافة مع الملك.

وفيها قدم محمد بن حسين بن نزار بن المستنصر إلى برقة من بلاد المغرب، ودعا إلى نفسه، فاجتمع عليه قوم كثير وتلقب بالمستنصر؛ وعزم على المسير إلى أخذ القاهرة، فخدعه الأمير حسام ابن فضة ووعده بالقيام بدعوته، ومازال يتلطف به حتى صار عنده في خيمته، فقبض عليه وحمله إلى القاهرة، فقتل في شهر رمضان.

وفيها قتل الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، أبو الغارات طلائع بن رزيك، وذلك أنه لما ثقلت وطأته وكثرت مضايقته لأهل القصر، أخذت السيدة العمة ست القصور، وهي أخت الظافر الصغرى، في العمل على قتله، ورتبت مع قوم من السودان الأقوياء أن يقيموا منهم في باب السرداب من الدهليز المظلم الذي يدخل منه إلى القاعة جماعة، ويقيموا آخرين في خزانة هناك وأرسلت إلى ابن الراعي، وإلى الأمير (المعظم) بن قوام الدولة صاحب الباب وقررت معه أن يخلي الدهاليز من الناس حتى لايبقى بها أحد. فأعدوا في حجرة في دهليز القصر، وردوا عليهم طرف الضبة .

فلما كان في يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ركب الصالح على عادته للسلام على الخليفة، فلما انفصل من خدمة السلام بقاعة

الـذهب وخـرج إلى الدهـاليز عرض لـه أستـاذ يقال لـه عنبر الريفـي، وأوقفه، وذكر له حديثاً طويلاً؛ فتقـدم رزيك ابن الصالح، فخرج رجلان وثبا على الصـالح، ووقعت الصيحـة، فعثر الصالح بـأذياله، فتقـدم إليه ابن الـراعي وطعنـه بسيف قطع أحـد وريديه، وضربـه العبيد بـالسيوف فقطعوا عـذبته ونـزلت في لحمـه وشلت سلسلـة ظهره. فـوضع يـده على جرحه وأنشد:

إن كـــان عنـــدك يـــا زمـــان بقيـــة
مـمـــا تهين بـــه الكـــرام فهـــاتها

وضرب رزيك في عضـده الأيمن. وتكـاثروا على الصـالح فسقـط على وجهه منكبا وتقيـأ بالدم فأدركه الأمير ابـن الزبد وألبسه منـديل ضرغام ابن سوار، وكـان قد نزع منديلـه عن رأسه، وحمل حتى أركـب على فرسه، وهـو لايفيق ، وبقـي حسين ابن أبي الهيجـاء في القصر يقـاتل السـودان حتى قتل منهم خمسين رجلاً.

ولما ركـب الصـالح وشدوا جـرحه تطلعـت السيدة العمة مـن القصور فرأتـه راكباً، فقالـت: رحنا واللـه، فلما صار إلى داره كان إذا أفـاق يقول: رحمك الله ياعباس، وبعث إلى العاضـد يعتب عليه كيف رضي بقتله مع حسـن أثره في إقـامته خليفـة؛ فأقسـم أنـه لم يعلم بـذلك ولا رضي بـه. وأنشد عند موته:

ومـــا ظفـــروا لما قتلـــت بطـــائل
فعشـــت سعيـــداً ثـــم مـــت شهيـــدا

فلما كان ثلـث ليلة الثلاثاء ، العشريـن من شهر رمضان، مـات ودفن بالقـاهرة، ثـم نقل منهـا بعد ذلك إلى القـرافة، والعـاضد راكـب والجند يمشون خلف تابوته.

ومولده في سنـة خمس وتسعين، وكانت وزارته سبـع سنين وستة أشهر

تنقص أياماً، وكان فاضلا، سمحاً في العطاء، سهلا في اللقاء، محباً لأهل الفضائل، جيد الشعر وخطه دون شعره. يقال إنه من المغرب، وقد قصد أبوه زيارة قبر علي بن أبي طالب بالنجف فرأى أمام المشهد علياً وأخبره عن طلائع أنه يلي مصر، فقدمها ، ومايزال يترقى في الخدم حتى نال ما نال.

وأنشد له ابن خلكان:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه
غيراً وفينا الصد والإعراض
ننسى الممات وليس يجري ذكره
فينا، فتذكرنا به الأمراض

وكان لأهل العلم عنده نفاق، ويرسل إليهم العطايا الكثيرة. بلغه أن أبا محمد ابن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شعره وهو :

تجنب سمعي مايقول العواذل
وأصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز له هدية سنية ليرسلها إليه، فقتل قبل إرسالها، وبلغه أن إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه فأرسل كتاباً يشكره، ومعه هدية.

وكان وافر العقل رضي النفس، بصيراً بالتجارب عالماً بأيام الناس، بصيراً بالعلوم الأدبية، محبباً إلى الناس لإظهاره الفضل والدين وإنكاره الظلم والفساد. إلا أنه كان من غلاة الإمامية مخالفاً لما عليه مذهب العاضد وأهل الدولة. فلما بايع للعاضد وركب من القصر سمع ضجة عظيمة، فقال: ما الخبر؟ فقيل إنهم يفرحون بالخليفة، فقال: كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا؛ وما علموا أنني كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم.

وجرى من بعض الأمراء في مجلس السمر عنده انتقاص بعض السلف، وكان الفقيه عمارة جالساً فقام وخرج معتذراً بحصاة تعتاده، وانقطع في منزله ثلاثة أيام، ورسول الصالح يرد إليه كل يوم بالطبيب، ثم ركب إليه بعد ذلك وهو في البستان مع جلسائه في خلوة، فاستوحش من غيبته، فأعلمه أنه لم يكن به وجع ولكنه كره ما جرى في حق السلف، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا كان في الأرض سعة وفي الملوك كثرة. فعجب الصالح من ذلك، وقال: سألتك بالله ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ فقال: أعتقد أنه لولاهما لم تبق للإسلام حرمة ولا علا له راية، وما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه. ثم قرأ: « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاَّ من سفه نفسه(١٣٩) » فضحك الصالح، وكان هذا من رياضته، فإنه مخالف لمذهبه مخالفة لايحتملها مثله إلاَّ كان مرتاضاً حصيفاً قد لقي الفقهاء وسمع كلامهم.

وبعث يوماً إلى عمارة ثلاثة أكياس من مال ورقعة بخطه فيها هذه الأبيات يدعوه فيها إلى مذهبه:

قل للفقيه عمارة: ياخير من
أضحى يؤلف خطبةً وكتابا
اسمع نصيحة من دعاك إلى الهدى
قل حطة، وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين، ولاتجد
إلاَّ لدينا سنة وكتابا
وعلي أن يعلو محلك في الورى
وإذا شفعت إلي كنت مجابا
وتعجل الآلاف، وهي ثلاثة
صلةً، وحقك لا تعد ثوابا(١٤٠)

فأجابه عمارة:

حـاشـاك مـن هـذا الخطـاب خطـابـا
يـا خير أمـلاك الـزمـان نصـابـا
لكـن إذا مـا أفسـدت علماؤكـم
معمـور معتقـدي وصـار خـرابـا
ودعـوتـم فكـري إلى أقـوالكـم
مـن بعـد ذاك، أطـاعكـم وأجـابـا
فـاشـدد يـديـك على صفـاء محبتـي
وامنـن علي، وسـد هـذا البـابـا

وهو الـذي بنى الجامـع خارج بـاب زويلة؛ ووقـف ثلثي المقس على الأشراف، وتسعـة قراريـط على أشراف المدينة، وقيراطـاً على بني معصـوم إمام مشهـد علي الذي بشره بالمنام. ويقـال إنه من ولد جبلـة بن الأيهم الغساني.

وكان أبـوه يسمى رزيك وقـدم مع أمير الجيوش بـدر إلى مصر؛ وتوفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ومن العجـب أنه ولي الـوزارة في التاسـع عشر، وقتل في التـاسع عشر، وزالـت دولتهم في التـاسع عشر. وهـو أول من خـوطب بـالملك في ديـار مصر ونعت به.

ومن عجيـب الاتفاق أن عمارة أنشد مجد الإسـلام رزيك بن الصـالح بدار سعيد السعداء في ليلة السادس عشر من شهر رمضان أبياتاً منها:
أبـوك الـذي تسطـو الليـالي بحـده
وأنـت يمين إن سطـا، وشمال
لـرتبتـه العظمـى، وإن طـال عمـره
إليـك مصير واجـب ومـآل
تخالسـك اللحـظ المصـون، ودونها
حجـاب شريـف لا انقضـى وحجـال

فانتقل الملك إليه بعد ثلاثة أيام.

قال عمارة: ودخلت على الصالح قبل قتله بثلاثة أيام، فناولني رقعة فيها بيتان من شعره وهما:

نحن في غفلة ونوم وللمو
تَ عيون يقظانة لا تنام

قد رحلنا إلى الحِمام سنيناً
ليت شعري، متى يكون الحِمام (١٤١)

فكان آخر عهدي به.

ومما رثاه عمارة به قوله:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني، لما بي، ذاهب العقل ذاهله

سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه، ويخرس قائله

فقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوباً وما فيه كافله

وأني أرى فوق الوجوه كآبة
سيأتيكم طل البكاء ووابله

ولم لا نبكيه وتندب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله

أيكرم مثوى ضيفكم وغريبكم
فيسكن، أم تطوى ببين مراحله

فياليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا، ما بنا الدهر فاعله

قال عمارة: وكانت أحوال الصالح تارةً له وتارةً عليه؛ فما هو عليه فرط العصبية في المذهب، وجمع المال واحتجانه، والميل على الجند

وإضعافهم والقص من أطرافهم. وأما التي له فلم تكن مجالس أنسه تنقضي إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. وكان مرتاضاً قد سمر أطراف المعالي وتميز عن أخلاق الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة.

وكان شاعراً يحب الأدب وأهله ، ويكثر من جليسه، ويبسط من أنيسه. وكان كرمه أقرب من الجزيل منه إلى الهزيل وصنف كتاباً سماه: « الاعتماد في الرد على أهل العناد.» وله قصيدة سماها: الجوهرية في الرد على القدرية.

ولما مات الصالح خرج ولده الناصر وهو مجروح وجلس في مرتبة أبيه، وبعث إلى العمة ست القصور من أهل القصور، فسلمت إليه، فخنقها بمنديل ورميت قدامه، فبعثت السيدة العمة أختها إلى سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء، صهر الصالح، وحلفت له أنها لم تدر بما جرى على الصالح وأن فاعل ذلك أصحاب أختها المقتولة، وحضر إليها مجد الإسلام أبو شجاع رزيك بن الصالح فخلع عليه للوزارة، فإن الصالح أوصى بها إليه وجعل من حسين بن أبي الهيجاء الكردي مدبر أمره، ونعت بالسيد الأجل مجد الإسلام الملك العادل الناصر أمير الجيوش؛ وفسح له في أخذ من ارتاب به في قتل أبيه، فأخذ ابن قوام الدولة وقتله وولده والأستاذ الذي شغل الصالح بالحديث.

واستحسن الناس سيرته ، وسامح الناس بما عليهم من البواقي الثابتة في الدواوين. وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وقام عن الحاج بما يستأديه منهم أمير الحرمين؛ وسير على يد الأمير محمد بن شمس الخلافة نحوا من خمسة عشر ألف دينار إلى قاسم بن هاشم، أمير الحرمين، برسم إطلاق الحاج. وظفر بقتلة أبيه ظفراً عجيباً بعد تشتتهم في البلاد.

وكان زفاف أخته إلى العاضد في وزارته فحمل معها بيوت الأموال. ونقل تابوت أبيه إلى القرافة.

وسير إلى والي الإسكندرية بحمل عبد الرحيم بن علي البيساني، الملقب بالقاضي الفاضل، واستخدمه بين يديه في ديوا ن الجيش.

وترامت الحال في أيامه بالأمير عز الدين حسام، قريبه، وعظم صيته، واستولى على تدبير كثير من أموره، وعظم غلمان أبيه. وكان فارساً شجاعاً، له مواقف معروفة.

وكان أبوه الصالح قد ولى شاور بن مجير بن نزار السعدي قوص، ثم ندم على ولايته وأراد عوده من الطريق، ففاته، وحصل بها؛ وطلب منه في كل شهر أربعمائة دينار، وقال لابد لقوص من وال، وأنا والله لا أدخل القاهرة، ومتى صرفني دخلت النوبة. فتركه. ولما جرح وأشرف على الوفاة كان يعد لنفسه ثلاث غلطات: إحداها ولاية شاور الصعيد الأعلى والثانية بناء الجامع على باب زويلة، فإنه مضرة على القاهرة، والثالثة خروجي بالعساكر إلى بلبيس وتأخيري إرسالها إلى بلاد الفرنج؛ وكان قد أنفق على هذه العساكر مائتي ألف دينار.

وأوصى ابنه رزيك ألا يتعرض لشاور بمساءة، ولا يغير عليه حاله فإنه « لا تأمن عصيانه والخروج عليك.» فلما استمر رزيك بن الصالح في الوزارة حسنت له بطانته صرف شاور عن قوص ليتم الأمر له، وأشار عليه سيف الدين حسين أبي الهيجاء بإبقائه، فقال: ما أنا آبي ولا لي طمع فيها آخذه منه ولكن أريده يطأ بساطي. فقيل له: ما يدخل أبداً فلم يقبل، وخلع على الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة بولاية قوص.

فيها خرج ملك النوبة إلى أسوان في اثني عشر ألف فارس وقتل من المسلمين عالما عظيما.

فيها مات بالقاهرة ، في يوم الأربعاء لاثني عشرة خلت من رجب، القاضي أبو الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل بن علي الصويبي، وصويب قبيلة من جذام. ولد بالقدس يوم الجمعة تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وقدم مصر بعد أخذ الفرنج القدس فنشأ بها واشتغل بالعلم، وتولى خزانة الكتب في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وولي قضاء فوة وعملها في محرم سنة سبع وأربعين.

ومات بالصعيد كنز الدولة أبو الطليق يوسف، وولي بعده رئاسة قبائله أخوه أبو العز فتوح في حادي عشر محرم.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

في عاشر المحرم أفرج العادل رزيك عن الأمراء الذين اعتقلهم أبوه الصالح بن رزيك في ثالث عشرى ربيع الأول سنة تسع وأربعين، وهم صبح بن شاهنشاه، وأسد الغاوى ومرتفع الطواس.

وفيها شاد الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية فعرف ببرج ضرغام.

وفي آخر ذي القعدة ورد الخبر بخروج شاور عن طاعة العادل رزيك، وذلك أن الأمير نصير الدين لما خلع عليه بولاية قوص كتب على يده كتاباً إلى شاور بتسليم البلاد إليه وحضوره إلى القاهرة، فلما وصل إلى إخميم كتب كتاباً إلى شاور وفي طيه كتاب رزيك، فلما وقف عليه بعث إليه أن أرجع ولا تحضر، قولاً واحداً، فرجع إلى القاهرة وجهر شاور بالعصيان[١٤٢].

-١١٧٤-

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها زالت دولة بني رزيك. وذلك أن مماليك الصالح وغلمانه، مثل يانس وورد وسعادة الأسود وبختيار، اشتد ظلمهم؛ وكان الصالح قد قدمهم حتى صار لكل منهم نحو المائتي مملوك، وطغوا في أيام رزيك حتى ضج الناس منهم. وقال بعضهم:

أمنتم يا بني رزيك جهلا ... فذاك الأمر يتبعه الأماني
أباد الله دولتكم سريعا ... فقد ثقلت على كتف الزمان

وكان شاور بن مجير السعدي لما بلغه أن الناصر رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك عزله عن ولاية قوص وولى غيره اضطرب وخرج من قوص في جماعة قليلة، فسار على طريق الواحات في البراري حتى صار في تروجة، فاجتمع عليه الناس وقوي أمره وتزايد. فاهتم لذلك رزيك ورأى في منامه وكأنه قد صار رواسا في حانوت؛ فلما قص هذه الرؤيا على حسين بن أبي الهيجاء نظر عابرا، كان بمصر حاذقاً، يعرف بابن الأرتاحي، وأخبره بما رأى، فغالطه في التفسير، وفهم ذلك حسين، فلما خرج ألزمه أن يصدقه بتأويل ما رآه رزيك، فقال يامولاي القمر عندنا هو الوزير كما أن الشمس الخليفة، والحنش المستدير عليه حبس مصحف، وكونه رواساً أقلبها تجدها شاورا مصحفاً؛ وما وقع لي غير هذا، فقال: اكتم هذا عن الناس، وأخذ حسين يحتاط لنفسه، وتجهز إلى الحجاز.

فكثر الإرجاف بمسير شاور إلى أن قرب من القاهرة. فوقع الصائح في بني رزيك، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس، فأسرع ضرغام ونظراؤه من وجوه الأمراء، وهم إخوته: ملهم وحسام وهمام، ويحيى بن الخياط

وبنو الحاجب ونظراؤهم، وصاروا إلى شاور فأسقط في أيدي العسكر الباقي مع بني رزيك.

وكان أول من نجا بنفسه حسين بن أبي الهيجاء، خرج فاراً ومعه حسام إلى الحوف واستجار بطريف بن مكنون أحد أمراء جذام، فأجاره وحمله من أيلة في البحر إلى المدينة النبوية، فجاور بها مدة ومات ، فدفن بالبقيع.

ولما فر حسين فت ذلك في عضد رزيك ولم يثبت ، وخرج رزيك من القاهرة في نصف المحرم ومعه جماعة من غلمانه وعدة بغال موقرة من المال والجواهر والثياب الخاص. وتحير فلم يدر أين يذهب، فوقع بظاهر إطفيح عند مقدم العرب سليمان بن الفيض، فأخذه وكل ما معه.

ودخل أبو شجاع شاور إلى القاهرة ومعه خلق كثير، ومعه أولاده: طي: وشجاع، والطاري، فنزل دار سعيد السعداء، وأحضر إليه ابن الفيض رزيك مكبلا، فاعتقله وأخاه جلال الإسلام. فبعث جلال الإسلام إلى من أعلم شاوراً أن أخاه طلب مبرداً من بعض غلمان أبيه وبرد القيد الذي في رجليه ليهرب، فدخلوا إليه وقتلوه. ومولده في ذي القعدة سنةثلاث، أو اثنتين، وخمسمائة.وأنفقوا على أخيه لهذه النصيحة، وبقي من جملة أرباب الإقطاع إلى أن مات، وقيل إن هذا كان من فعلات طي بن شاور ونميمتة حتى قتل العادل.

وكان سليمان بن الفيض من لخم، وهو ممن أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وخوله في نعم جمة ، فلم يرع عهده ، وقبض على ابنه العادل وأسلمه لشاور، ونهب أصحابه ماله، فلما قدم به عليه قال: ياسليمان ، لقد خبأك الصالح ذخيرةً لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا الآخر أخبئك ذخيرة لولدي . ثم أمر به فشنق.

وانقطع بنو رزيك ، وبزوالهم زالت الدولة، فكانت مدة بني رزيك في الوزارة تسع سنين وشهراً وأياماً.

وكان دخول شاور إلى القاهرةووزارته في يوم الأحد ثاني عشري المحرم، ولما استقر في الوزارة تلقب بأمير الجيوش. وانثالت عليه وعلى ولده طي أموال بني رزيك وودائعهم من عند الناس ، حتى كان في الناس من يتبرع بها عنده، فظفر هو من أموالهم - سوى السلاح والكراع وغيره، وسوى ما أخذه أولاده - بما ينيف عن خمسمائة ألف دينار عينا. فبعث بذلك كله مع جميع ما أدخل إليه إلى العربان، وأودعه عندهم وأنعم عليهم حتى كثرت أموالهم وصاروا يكيلونها كيلا ويقولون: لفلان قدحان ذهباً ولفلان ثلاثة أقداح. وزاد تمكنهم له حتى لم يكونوا يفارقون باب الفتوح وباب النصر؛ ونهبوا غلات الحوف، واستخفوا بالمقطعين؛ فلم ينكر عليهم وأراد أن يكونوا له عضداً ورداً.

وكان الصالح بن رزيك قد قرر للفرنج في كل سنة على مصر ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم، فوافت رسلهم تطلب ذلك، ولما قتل رزيك بن الصالح في رمضان قدمت رأسه في طشت إلى شاور وهو بدار الوزارة، فقال في ذلك الفقيه عمارة:

أعزز علي أباشجاع أن أرى ... ذاك الجبين مضرجا بدمائه
ما قلبته سوى رجال قلبوا ... أيديهم من قبل في نعمائه

وجلس شاور بعد قتل الناصر رزيك بن الصالح بدار الذهب، وقام الشعراء والخطباء ولفيف الناس إلا الأقل ينالون من بني رزيك، وفيهم ضرغام نائب الباب، ويحيى بن الخياط أسفهسلار العسكر، وغيره؛ فقال عمارة:

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت
والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوماً وعادلهم
في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
هم حركوها عليهم وهي ساكنة
والسلم قد تنبت الأوراق في السلم
كنا نظن، وبعض الظن مأثمة
بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان مجتمعاً في ذلك الرخم
ولم يكونوا عدواً ذل جانبه
وإنما غرقوا من سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك، فاعذرني ولا تلم
ولو شكرت لياليهم محافظةً
لعهدها لم تكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوماً بذمهم
لم يرض فضلك إلا أن يسد فمي
والله يأمر بالإحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

فشكر شاور عمارة على الوفاء لبني رزيك، ونقم عليه ضرغام قوله: « فمذ وقعت .....» البيت، وكان يقول له: نحن عندك من الرخم.

-١١٧٥١-

ثم أن شاور جهز الخلع إلى العادل نور الدين بالشام، فلبسها يوم الأثنين ثاني عشرين رمضان، وقبض المال المسير إليه.

وكتب للأجناد والعرب وحواشي القصر من الرواتب والزيادات نظير مالهم عشر مرات، وهو غير ظاهر للناس والأبواب مغلقة عليه خيفة. وذلك أن الصالح بن رزيك كان قد أنشأ أمراء يقال لهم البرقية، وجعل ضرغام بن عامر بن سوار المذكور الملقب أبا الأشبال فارس المسلمين مقدمهم، ثم صار صاحب الباب، فطمع في شاور ، وكان فارساً كاتباً، فجمع رفقته، وتخوف منه شاور، وصار العسكر فرقتين: ضرغام ومن معه فرقة، وحرب ومن معه حزب. فأما ضرغام فأظهر المباينة، وأما نظراؤه فاختصوا بطي بن شاور وكاثروه ولازموه. فلما كان بعد تسعة أشهر من وزارته ثار به ضرغام يوم الجمعة ثامن عشرين رمضان وقد جمع له، وكانت بينهما وقعة قتل فيها طي بن شاور، وهو أكبر أولاده، وقتل أخوه سليمان الطاري وهو الأصغر، وأسر الكامل فاعتقله ملهم ومنع منه أخاه ضرغاماً ليدٍ كانت له عنده. وكان بين قتل طي بن شاور وقتل العادل رزيك نيف وثلاثون يوماً.

وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل رضوان بن ولخشي، وقد كان رفيقاً له إذ ذاك، وذلك أول شوال، فنهبت داره ودور أولاده وحواشيه، وذهب جميع ما نالوه من مال بني رزيك. وقتل الكامل علي بين القصرين وتركت جثته يومين ملقاة ومعه ابن أخته وحسان تربية شاور. فكانت وزارته تسعة أشهر.

وكانت أخلاق شاور في وزارته هذه مستورة باستمرار العافية والسلامة، ولم يكن فيها أقبح من قتل رزيك بن الصالح فإنها أعربت عن ضيق عطنه وحرج صدره. وكان كرمه إليه المنتهى، وشدة بأسه في مواطن الحرب شهيرة، وكان شديد الثبات كثير الوثبات. ومما نقم عليه

أن ابنـه الكامـل عمل مظلـة كانـت تحمل على رأسـه، وتحكم على أبيـه، وترفع على الأمراء وعسفهم.

ولما فـر شـاور ونزل بفـاقـوس عنـد بني منصور استـولى ضرغـام على الوزارة وتلقب بـالملك المنصور، في سابع عشرين رمضـان، فشكر الناس سيرتـه، فإنـه كان فـارس عصره، كاتبـاً، جميل الصـورة، فكه المحـاضرة، عاقلاً كـريماً، لايضع كرمه إلا في سمعـة ترفعه أو مداراة تتبعـه. إلا أنه كان أذنـاً متخيلا على أصحابه، وإذا ظـن بإنسان شراً جعل الشك يقيناً. وكان في وزارته مغلوباً مع أخويه: ناصر الدين همام وفخر الدين حسام.

وقيل إن ملهماً وضرغاماً لما علما تغير الناس على شاور وأولاده أخذا في مراسلـة رزيك في سجنه وإفسـاد الناس لـه ؛ فبلغ الخبر طي بـن شـاور، فدخل إليه وقـال: بلغني أن ملهماًوضرغاماً قد تحدثا لـرزيك في الأمر وقد حلفاً له جماعـة من الأمراء ، وأنت غافـل عن هذا الأمر. فقـال له شاور: اسكن ولا تعجـل؛ أنا أكشف عن هـذا ، فإذا تحققته حسمتـه. فقال: لا غنى بي عن قتل رزيك فإني إذا قتله أمنـت. فقال له شاور: لايمكن قتله فـإنه أولاني جميـلا بسببه صرت في هذا المحـل، فمضـى طي إلى رزيـك وقتله، فقامـت قيامة شاور،وبلغ ذلـك ضرغاماً فثار وأثار مـن خلفه وقرر معهم أمـر رزيك وزحف بهم، فـانهزم شاور. فكـان في هذه السنة ثـلاثة مـن الوزراء هـم: رزيك بـن الصالـح بن رزيـك، وأمير الجيوش شـاور، والمنصور ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي أبو الأشبال.

وفيها اختلت الدولة وضعفت بذهاب أمرائها وأولي الرأي فيها.

فيها سار الفرنج إلى ديار مصر فـوصلوا إلى السدير، وورد الخبر في ثاني شوال بـوصولهم إلى فاقـوس، فأخـرج إليهم ضرغام أخـاه ناصر المسلمين هماماً، وكان شجـاعاً، فالتقى معهـم وحاربهم، فهزموه بعـد أن قتل منهم خلقاً، وكـان شاور قـد انضم إلى بني منصـور لأنه مـن فخذهـم، وكان

قائماً على كوم عال. ثم إن الفرنج صاروا إلى حصن بلبيس في شوال وملكوا بعض السور، فردهم عنه همام وبنو كنانة. وتفرق العسكر إلى الحوف فقال العرب: هؤلاء وقد انهزموا من الفرنج فقتلوا كل من ظفروا به. وعاد العسكر وقد قتل منهم العرب عدة، ورجع الفرنج إلى بلاد الساحل بمن أسروه من المسلمين وفيهم القطوري من أكابر الأمراء.

فلما صار همام بالقاهرة صار كأنه مشارك لأخيه في الوزارة، كل منهما يوقع ويقطع، ولم يظفر ضرغام من المال بكبير شيء فإنه نهب.

وفيه ولى الوزير ضرغام الأمير مرتفع الخلواص الإسكندرية برجاء إبعاده عنه، فلما صار إليها ظفر بقوم رتبهم ضرغام لقتاله، فتأكدت الوحشة بينهما، وجمع لمحاربة ضرغام وخرج من الإسكندرية فكتم ذلك.

وفيها قدم شاور دمشق في ذي القعدة وترامى على نور الدين، فبعث الوزير ضرغام إليه بعلم الملك ابن النحاس بأن يقبض على شاور، فأجاب في الظاهر وأضمر غير ذلك.

وفيها قتل ضرغام عدة من الأمراء في دعوة جمعهم فيها، وأعد لهم من خرج على الجميع وقتلهم في داره.

وكان قاع النيل خمس أذرع وثلاث عشرة إصبعاً، وبلغ أربع عشرة ذراعاً وثماني أصابع.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها وصل رسل الفرنج في طلب مال المدنة فماطلهم به ضرغام ودافعهم حتى شغل عنهم بقدوم شاور.

وفي ثامن عشر ربيع الأول قبض ضرغـام على صبح بن شاهنشاه عين الزمان وأسد الغالي وعلي بن الزبـد في عدة تبلغ نحو السبعين من الأمراء سوى أتباعهـم؛ وذلك أنه بلغه عنهـم أنهم قد حسدوه واحتقروه وكـاتبوا شاوراً ووعـدوه القيام معه. ثـم أخرجهم ليـلا وضرب أعناقهم؛ فـاختلت الدولة بقتل رجالها وذهاب فرسانها.

وفيها وجـه ضرغام بأخيـه ناصر الديـن همام على طائفة مـن العسكر لقتال الأمير مرتفـع بن مخلى المعروف بالخلواص، متولي الإسكنـدرية، وقد جمع وسار ، فعندما بلغ من معه مـن العربان قتل الأمراء البرقية فتروا عن القيام معه وطمعوا فيه، ووثب به قـوم من بني سنبس وقبضوا عليه، وأتوا به إلى همام، فقـدم به إلى القاهرة، فضرب ضرغـام عنقه يوم الجمعة ثـامن ربيع الآخـر، وصلبه على بـاب زويلة؛ فنفرت القلـوب من ضرغـام وكان شاور قد وصل في ثالث عشرين ذي القعدة من السنة الماضية إلى دمشق مترامياً على السلطان الملك العادل نور الـدين محمود بن زنكي، مستجيراً به على ضرغـام، فأكـرم مثواه وأحسن إليـه، فتحدث مـع السلطان في أن يرسل معـه العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبـه ويكون لنور الديـن ثلث دخل البـلاد بعد إقطـاعات العساكـر، ويكون معه مـن أمراء الشـام من يقيم معـه في مصر، ويتصرف هو بـأوامر نـور الديـن واختياره، فبقـي نور الديـن يقدم إلى هـذا الغرض رجـلا ويؤخـر أخرى، فتـارة يقصد رعـاية شاور كونـه التجأ إليه وكون مـا قاله زيادة ملكـه وتقويةً له على الفـرنج، وتارة يخشـى خطر الطـريق وكون الفـرنج فيـه ويخاف من شـاور أنه إذا استقرت قـدمه في مصر خـاس في قوله ويخلـف بما وعد. ثـم قوي عـزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها.

واتفق أن الـواعظ زين الديـن بن نجا الأنصاري، سمـع بسعة أرزاق مصر فقدم إليها في وزارة الصالح بن رزيك، فأقبل عليه وحصل له من إنعامه ومما أخذه له من العاضـد في ثلاث سنين ما يناهـز عشرين ألف

دينار، وسوغه عدة دور بتوقيع . فسمع بالزاهد أبي عمرو بن مرزوق يتحدث الناس عنه بأنه مهما قاله لهم وقع، وأنه يركب كل سنة في نصف شعبان حماراً له ويأتي معه جماعة إلى ذيل الجبل ويودعونه ويمضون، فيطلع أبو عمرو إلى الجبل، ويلقاه الناس في الليلة الثانية ويجتمعون كاجتماعهم للعيد، ويركب حماره، والناس تحته، وينتظر ، وينزل بعد صلاة المغرب إلى مسجده فقصد زيارته وقد تجمع الناس في الأسطحة والدكاكين والطرقات، والشيخ يعمل الميعاد، فوصل إليه وأقام حتى انفض الناس، فخلا به وتعرف إليه، فكان مما قال له: أتعرف بالشام أحداً يقال له شيركوه، فقال: نعم ، أمير من أمراء نور الدين، فقال: هذا يأتي إلى هذه البلاد ويملكها، وكل ما تراه من هذه الدولة يزول حتى لايبقى له أثر عن قريب. وانصرف ابن نجا عن الشيخ أبي عمرو وقد تعجب من قوله.

فلما قضى أربه من القاهرة وعاد إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين وحكى له قول الشيخ أبي عمرو؛ فقال له: لا تخبر أحداً بذلك. ومضى اليوم وما بعده، إلى أن قدم شاور على السلطان نور الدين وقوى عزمه على تجهيز العساكر معه، فوقع اختيار السلطان على الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان، أحد أمرائه، فاستدعاه من حلب، فوصل إلى دمشق مستهل رجب منها، وأمره بالمسير إلى مصر مع العساكر صحبة شاور، فامتنع وقال:لاأمشي بألف فارس، إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة شيني فيها عشرة آلاف مقاتل وعندهم أربعون ألف عبد لخمس خلفاء، وهم مستوطنون في أوطانهم قريبة منهم خزائنهم، ونأتي نحن من تعب السفر بهذه العدة القليلة، فتركه وأرسل إلى ابن نجا، فلما جاء قال له: حديث الرجل الزاهد الذي بمصر أخبرت به أحداً؟ فقال: معاذ الله؛ والله ما سمعه مني أحد سوى السلطان. فقال: امض إلى أسد الدين شيركوه واحك له الخبر، فمضى إلى شيركوه وقص عليه الحديث بنصه، فطابت نفسه للسفر.

وسار العسكر وصحبته شاور يوم الاثنين خامس عشر جمادى الأولى ، وقد أمر نور الدين شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه، وخرج نور الدين إلى أطراف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكر ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين، فكان قصارى أمر الفرنج أن يمتنعوا من نور الدين ويحفظوا بلادهم.

وأخذ شيركوه في سيره إلى مصر على شرقي الشوبك حتى نزل أيلة، وسار منها إلى السويس، فلم يدر ضرغام، وقد وصل إليه رسل الفرنج في طلب مال الهدنة المقرر لهم في كل سنة على أهل مصر وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار وهو يدافعهم ويماطلون، إلا بطيور البطائق قد سقطت من عند أخيه الأمير حسام الدين، متولي بلبيس، في يوم الأحد خامس عشرين جمادى الأولى، يخبر فيها بوصول شاور وأسد الدين شيركوه ومعهما من الأتراك خلق كثير، فانزعج وتأهب لتسيير العسكر، وأصبح الناس يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الأولى وقد شاع ذلك بينهم، فخافوا على أنفسهم وأموالهم وانتقلوا من مكان إلى مكان على عادتهم، وجمعوا عندهم الأقوات والماء.

وخرج الأمير ناصر المسلمين همام بالعساكر أول يوم من جمادى الآخرة، وهم نحو ستة آلاف فارس بالخيول المسومة والدروع الثمينة والسلاح العجيب، وقد أعجبوا بأنفسهم واطمأنوا بأنهم ظافرون، فوصلوا إلى بلبيس يوم الأحد ثانيه، فوافاهم شاور بالعسكر الشامي يوم الاثنين، فباتوا ليلة الثلاثاء، وأصبحوا وقد توهم منهم أسد الدين شيركوه وقال لشاور: ياهذا لقد غررتنا وقلت إنه ليس بمصر عساكر حتى جئنا بهذه الشرذمة؟ فقال: لايهولنك ما تشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاكة وفلاحون يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا، فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب، وأما الأمراء فإن كتبهم وعهودهم معي، وسترى إذا التقينا، لكني أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد.

فلما ترتبـوا نهاهم عن القتـال، فتحرك المصريون وتـأهبوا وأقامـوا حتى حمي النهار، فسخـن عليهم الحديـد ولم يروا أحداً يسير إليهـم فنزلـوا عن خيولهم وأقاموا الخيم، وألقى بعضهـم السـلاح، فلما عاين ذلك شاور أمر بالحملـة عليهم، فثار المصريون وحمل نـاصر المسلمين همام والأمير فارس المسلمين حسام على العسكر الشـامي، فجرح همام والتفت فلـم ير أحداً من عسكره، فكان أشجعهم من يصير على ظهـر فرسه، وانهزموا بأجمعهم إلى بلبيـس، وغنـم العسكـر الشـامـي جميع مـا كـان معهـم، فقـووا بـه، وتبعوهم وأسروا منهم جماعة الأمراء وغيرهم، ثم منوا عليهم وصير وهم في جملتهم.

ولحق الأمير همام بـالقاهـرة سحـر يوم الأربعـاء خـامسه وهـو مجروح، واختفى الأمير حسـام في مدينة بلبيـس فدل عليـه بعض الكنانيـة فأسر وقيد.

وسار العسكـر فوصلوا إلى القـاهرة بكرة يوم الخميس سادسه، فنـزلوا عنـد التاج بظـاهـر القـاهرة، وانتشر العسكـر في البـلاد يـريدون الأكـل والعلف

وكان ضرغـام قد كاتب أهـل الأعمال فوصلوا إليه لخوفهـم من الترك، فضمهم إليه ومعهم الريحانية والجيوشية وجعلهم في داخل القاهرة، فأقام شـاور بمن معـه على التاج حتـى استراحـت خيولهم، ثـم إنه استحلـف شيركوه ومـن معه أنهم لا يغـدرون به ولا يسلمونـه، ولا ينهزمـون إلا عن غلبة. ومـع هذا فـإن طوائف مـن العربـان كانـت تطارد عسكـر ضرغام بأرض الطبـالة، وخـرج أهل منية السيرج فقتلـوا من الترك جماعـة، فمالوا عليهم وانتهبوا المنية وأذاقوا أهلها نكالاً شـديداً، وأقام شـاور بمن معه في ناحيـة الخرقانية وشبرا دمنهـور، ثم سار مـن ناحية المقـس يريد القـاهرة، فخرج إليه عسكـر ضرغام وحملوا عليه، فخـاف من كان معه مـن الأمراء

الذين كانوا مع همام أخي ضرغام ولحقوا بالقاهرة فانهزم هزيمة قبيحة، فسر بذلك ضرغام، وأحضر قاضي القضاة وأمره بحمل ما في مودع الحكم من مال الأيتام، فحملها إليه.

وكان شاور لما انهزم سار إلى بركة الحبش وصار إلى الرصد فملك ما هنالك، وأخذ مدينة مصر وأقام بها أياما، ولم يبق مع شاور وشيركوه من الأمراء الذين كانوا مع همام سوى شمس الخلافة محمد وأولاد سيف الملك الجمل وابن ناصر الدولة وأولاد حسن، فقيد شيركوه ابن شمس الخلافة دون الناس كلهم.

وكره الناس من ضرغام أخذه أموال الأيتام مع ما سبق منه من قتل الأمراء وغيرهم، وعلموا عجزه عن شاور.

وكان شاور يركب كل يوم في مصر ويؤمن أهلها ويمنع الأتراك من التعرض إليهم، فمال الناس إليه، وبلغهم عن ضرغام أنه يتوعدهم إذا ظفر بشاور أنه يحرق مصر على أهلها من أجل أنهم أمكنوا شاوراً من دخول البلد وباعوا عليه وعلى من معه، فتحول شاور عن مصر ونزل اللوق، وطارد خيل ضرغام وقد خلت المنصورة والهلالية وثبت أهل اليانسية فقاتل الناس قتالاً خفيفاً. وصار شاور وشيركوه إلى باب سعادة وباب القنطرة من أبواب القاهرة، وطرحوا النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور. وكانت وقعة عظيمة بين الفريقين قتل فيها من العسكرين خلق كثير.

فلما كان الليل اجتمع مقدمو الريحانية وقد فني منهم كثير، وأرسلوا إلى شاور يطلبون الأمان ــ وكان قبل ذلك يبعث إليهم ويستميلهم ـ فأمنهم.

ولما رأى الخليفة العاضد انحلال أمر ضرغام بعث يأمر الرماة بالكف

عن الـرمي، فخرج الـرجال إلى شـاور في الصباح ، فسر بهم، وفترت همة أهل القـاهرة، وأعمـل كل منهم الحيلـة في الخروج، وخرج ضرغـام ومعه جماعة إلى خـارج القاهرة، وجعلوا يترددون مـن باب إلى باب، وفيهـم ابن ملهـم وابن فـرج الله وحـازم بن أبي الخليـل وجماعـة مذكـورون، فكانـوا يطاردون من طـاردهم، وأمر ضرغام بضرب البوقـات والطبل على الأسوار ليجتمع النـاس، فلم يخرج إليه أحد وانفـل الناس عنه. فعاد إلى القـاهرة وصـار إلى بـاب الرحبـة مـن أبـواب القصر، ولم يبق معـه سـوى خمسمائة فارس، فـوقف وطلـب الخليفة أن يشرف عليهـم من الطـاق، فبلغ ذلـك شـاوراً فسرح في الحال ابنـه سليمان الطـاري إلى بـــاب القنطـرة ليملكـه ويقف.

فلما طال وقوف ضرغـام نادى: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسـأله عما أفعل، فلـم يجبه أحـد. فصاح: يـامولانـا كلمني، يـامولانـا أرني وجهك الكريـم، يامولانـا بحرمة أجـدادك على الله، وهـو يبكي فلم يجبـه أحد، وقويت الشمس فصار إلى الظل حتى قـرب الظهر، فأمر بعض غلمانه أن يركـض في قصبة القاهـرة ويقول بصوت عـال: ما كانـت إلا مكيدة على الـرجال، قـد قتل الترك أصحـاب شـاور الريحانيـة. فما هو إلا أن سمـع الناس ذلك ــ وكانوا قد صـاروا إلى بيوتهم ـ فأسرعـوا إلى خيولهم وعادوا من كـل جانـب مثل السيـل، فرأوا ضرغـاما على تلـك الهيئة، والطـاق لم يفتح لـه والخليفة لم يكلمه، فسقـط في أيديهم وقالـوا:ارجعوا فهي كـذابة والغلبة لشاور، ورجعوا من حيث أتوا.

فوقف ضرغـام إلى العصر ولم يبق معه غير ثلاثين فـارساً، ووردت إليه رقعة فيها: خذ لنفسك وانج بها. فأيس من الظفر.

وبعـث شاور إلى الخليفـة العاضـد يستأذنـه في الدخـول إلى القاهـرة، فـأذن له، فبعـث شـاور يأمـر ابنه أن يـدخـل القاهـرة، وهـو عند بـاب

القنطرة، فدخل وضربت أبواقه، وكانت من أبواق الترك التي لم تعهد بمصر ، فما هو إلا أن علم به ضرغام، فمر على وجهه إلى باب زويلة، فتخطف الناس من معه، وعطعطوا عليه ولعنوه، فأدركه بعض الشاميين في غلمان شاور وطعنه فأرداه، ونزل إليه واحتز رأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، وذلك قريباً من الجسر الأعظم، في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، وفر ملهم إلى مسجد تبر، فقتل هناك وترك مطروحاً، وأتي برأسه إلى عند شاور، وقتل ناصر الدين أخو ضرغام عند بركة الفيل، وقتل فارس المسلمين. وبقي جسد ضرغام ملقى هناك يومين ثم حمل إلى القرافة فدفن بها.

وكان من الاتفاق العجيب أن ابن شاور قتل في يوم الجمعة حادي عشرين رمضان سنة ثمان وخمسين، فقتل ضرغام يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الآخرة سنة تسع، وقتل مع ابن شاور حسان ابن عمته فقتل مع ضرغام..... وكانت وزارة شاور الأولى تسعة أشهر ووزارة ضرغام بعده تسعة أشهر.

وكان من أعيان الأمراء وأحلى الفرسان، يجيد اللعب بالكرة والرمي بالسهام، ويكتب كتابة ابن مقلة، وينظم الموشحات الجيدة، كريما عاقلا يحب العلماء والأدباء ويقربهم، إلا أنه سريع الاستمالة يميل مع من يستميله ولا يكذب خبراً عن عدو بل يعاقب سريعاً.

ولما جيء برأسه إلى شاور رفعت على قناة وطيف بها، فقال الفقيه عمارة:

أرى حنك الوزارة صار سيفاً ... يجد بحده صيد الرقاب

كأنك رائد البلوى، وإلا ... بشير بالمنية والمصاب

فكان كما قال عمارة.

وأقام شاور وشيركوه بعد قتل ضرغام في مخيمهما بناحية المقس يومي السبت والأحد، فلما كان يوم الاثنين طلع الوزارة في ثالث شهر رجب، وخرج الكامل بن شاور من دار ملهم، أخي ضرغام، وكان معتقلاً بها، وخرج معه القاضي الفاضل، وكان معه في الاعتقال،وقد تأكدت بينهما مودة، فأدخله إلى أبيه ومدحه عنده وأثنى عليه، فسماه حينئذ بالقاضي الفاضل، وكان قبل ذلك ينعت بالقاضي الأسعد.

وفرح العاضد بدخول شاور، ولما خلع عليه سار من القصر إلى باب زويلة، وخرج منه إلى باب القنطرة فنزل بدار الوزارة. وركب شيركوه إلى مصر وراَها، وقصد الفقهاء مثل الكيزاني وابن حيطه، واجتمع بالشيخ أبي عمرو بن مرزوق وأخبره كما أخبر ابن نجا أنه يملك الديار المصرية ويزيل هذه الدولة، لكنه لا يملكها إلا بعد أن يرجع إلى الشام ويأتيها ثانيا، ثم يرجع ويعود إليها ثالث مرة وحينئذ يملكها، وسأله عن بيت المقدس فقال: لايكون فتحه على يدك وإنما يكون فتحه على يد بعض من في خدمتك من أقاربك، وهكذا جرى، فإن شيركوه لم يملك مصر إلا في مجيئه إلى القاهرة المرة الثالثة، ولم يفتح بيت المقدس إلا على يد صلاح الدين يوسف بن أخي شيركوه.(١٤٤)

وفي رابع رجب قرىء سجل شاور بالوزارة.

واستمر شيركوه في مخيمه ويخرج إليه في كل يوم عشرون طبقا من سائر الأطعمة ومائتا قنطار خبزاً ومائتا إردب شعيراً، وأعد له العاضد ملبوساً وسريراً مرصعاً بالجوهر له قيمة عظيمة كان الأمر قد عمله، وأمره بالدخول ليخلع عليه، فامتنع ، وأرسل إلى شاور يقول: « قد طال مقامنا في الخيم وضجر العسكر من الحر والغبار»، ويستنجز منه ما وعد به السلطان نور الدين. فأرسل إليه ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله وحفظه، فبعث يقول له: إن الملك العادل نور الدين أوصاني

عند انفصالي عنـه: « إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكـون لك ثلث مغل البـلاد، والثلث الآخـر لشاور والعسكـر، والثلث الثـالث لصـاحب القصر يصرفه في مصـالحه». فأنكـر شاور ذلـك وقال: إنما طلبـت نجدة وإذا انقضى شغلي عادوا، وقـد سيرت إليكم نفقة فخذوهـا وانصرفوا وأنا أرضي نور الديـن، فقال شيركوه: لايمكنني مخالفة نـور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره.

فأخذ شاور عند ذلك يستعد لمحاربة شيركوه، واستعد أيضا شيركوه ، وبعث بابن أخيه صلاح الدين بطـائفة من الجيش يجمع الغلال والأتبان وغير ذلك ببلبيـس، فغلق شـاور أبواب القـاهرة، وتغلـب صلاح الـدين على الحوف، وبـث خيلـه، وحـاز الأمـوال والغـلال، وتقـدم إلى جـزيـرة قويسنا، فخرج ثـلاثة من الأستاذين بأمر الخليفـة إلى استنفار الناس من الصعيد، وثـار ابن شاس، والي جزيـرة قويسنا، على الترك وقاتلهـم حتى هزمهم وغرق منهـم جماعة ، فعاد صلاح الدين إلى عمـه شيركوه، فتجهز ونزل بحري التاج.

وأخرج شـاور خيمه وضربها في أرض الطبـالة، فلما كـان يوم الأربعـاء الثـالـث والعشرون من شعبـان التقـى شـاور وشيركـوه في كوم الـريـش، فانكسر شاور إلى بـاب القنطرة ونهبت خيمه ، وأسر أخوه صبـح وجوهر المأموني، ودخـل القاهرة فرمـي بحجرٍ من بـاب القنطرةفدخل الكـافوري مغشياً عليه.

وفي ذلك اليوم أحرق صف الخليج، وكـاد شيركوه أن يدخل القاهرة ، وبقي الحصـار إلى يوم الخميس تـاسع رمضان، وورد الخبر إلى شـاور بأن الفرنج قاربـوا مدينة بلبيس يوم السبت حادي عشر رمضـان فأقام عليها وشيركوه بها، ولما كان في خامس عشر ذي الحجـة تقرر الحال مع شيركوه على أن يـدفع إليـه شـاور خمسين ألف دينـار ورهـائن على صبح، أخـي

شاور، وعاد إلى دمشق. ورجع الفرنج.

وقدم شاور إلى القاهرة في سادس عشر ذي الحجة، فكان مقامه على بلبيس نيفاً وتسعين يوماً.

وأخرج شاور العساكر والحشود مما يلي البستان الكبير خارج باب الفتوح ، وزحف شاور، فخرج إليه شيركوه وحاربه، فجرح أكثر عسكر شاور وغورت أعينهم، ووقعت نشابة في عين الطاري بن شاور، اليمنى ، فبقي معه النصل مدة إلى أن قلعت وخرج منها بكلفة. فانهزم شاور ودخل القاهرة وأغلق أبوابها، وحاصره شيركوه طول النهار.

فلما كان الليل أحرق من باب سعادة إلى ناحية اللؤلؤة، كما فعل أولا ، واشتد الأمر، وصار كل من يخرج من عسكر مصر يقتل، فركب شاور وخرج ثم عاد وقد ازدحم الناس على السور لتنظر إلى الحرب، فسقطت شرفة من شرفات السور على رأس شاور وغشي عليه، ودخلوا به إلى الكافوري وقد أيس منه، فجاء رئيس الأطباء وعصر في أنفه حصرما فأفاق . وأتاه الشراب من عند الخليفة فشربه وركب إلى داره وقد ورم وجهه.

واشتد قتال شيركوه على باب القنطرة وأحرق وجه الخليج جميعه، واحترقت الدور التي بجانبه من حارة زويلة، وانضم إليه بنو كنانة وكثير من عسكر المصريين، وبعث طائفة إلى حارة الريحانية وفتحوا ثغرة، فكان هناك قتال شديد. فجلس العاضد على باب الذهب وأمر بالخروج، فتسارع الصبيان وغيرهم إلى الثغرة وقاتلوا الترك والكنانية حتى أوصلوهم إلى منازلهم، وسدوا الثغرة.

وكان ضرغام عند قدوم شاور وشيركوه أرسل إلى الفرنج يستنجد بهم ويعدهم بزيادة القطيعة التي لهم، فامتنع ملكهم وقال: لانأتي إلا بأمر

الخليفة وأما من الوزراء فلا نقبل، فلما تحقق شاور أنه لا قبل له بشيركوه كتب إلى مري ملك الفرنج بالساحل يستنجده ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين من مصر، ويقول له: متى استقروا في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا بي، وضمن له مالاً وعلفاً، ويقال إنه جعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار، وسير إليه بذلك مع ظهير الدين بدران. فسر الفرنج بذلك وطمعوا في ملك مصر.

وخرج مري من عسقلان بجموعه فقبض عن مسيره سبعة وعشرين ألف دينار.

فلما بلغ ذلك شيركوه ارتحل عن القاهرة إلى بلبيس وبها ما أعد له ابن أخيه من الغلال وغيرها، وانضم معه الكنانية، فخرج شاور في عسكر مصر، فاجتمع بالفرنج وخيم على بلبيس وأحاط بها، فكانوا يغادون القتال ويراوحونه ثلاثة أشهر، وانقطعت الأخبار عن نور الدين ، وبلغه مسير الفرنج إلى مصر.

وسار ملك القدس بجمع كثير ممن وصل لزيارة القدس مستعيناً بهم، فبينا الفرنج في محاصرة شيركوه إذ ورد عليهم أخذ نور الدين لحارم ومسيره إلى بانياس، فسقط في أيديهم وعولوا على الرجوع إلى بلادهم، فراسلوا شيركوه في طلب الصلح وعوده إلى الشام وتسليم ما بيده إلى المصريين . فأجاب إلى ذلك. وندب شاور الأمير شمس الخلافة محمد ابن مختار إلى شيركوه، فقرر معه الصلح على ثلاثين ألفاً أخرى فحملها إليه، وكانت الأقوات قد قلت عنده، وقتل من أصحابه جماعة، وأبطأت نجدة نور الدين فلم يأته منه أحد، وخرج من بلبيس أول ذي الحجة.

وممن قتل معه من أصحابه على بلبيس سيف الدين محمد بن برجوان، صاحب صرخد، بسهم أصابه، فأنشد وهو يجود بنفسه:

يا مصر، ما كنت في بالي ولا خلدي
ولا خطرت بأوهامي وأفكاري
لكن إذا قالت الأقدار كان لها
قوى تؤلف بين الماء والنار

وقتل من الكنانية عالم عظيم، وحصل للفرنج من شاور أموال جمة، فإنه كان يعطيهم عن كل يوم ألف دينار.

وأقام شيركوه بظاهر بلبيس ثلاثة أيام وسار إلى دمشق، فدخلها يوم الأربعاء ثالث عشرين ذي الحجة.

فيها عزل شاور أبا القاسم هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد ابن أبي كامل، المعروف بالقاضي المفضل ضياء الدين بن كامل الصوري، عن قضاء القضاة، وولى مكانه القاضي الأعز أبا محمد الحسن بن علي بن سلامة، المعروف بالعوريس.(١٤٥)

سنة ستين وخمسمائة

فيها ركب البرنس أرناط، صاحب الكرك والشوبك، البحر إلى عسقلان وخرج منها إلى الكرك، وجمع عسكره وأقام ينتظر شيركوه،فعلم بذلك شيركوه ، فمر من خلف الموضع الذي فيه أرناط ، فلم يعلم به ونجاه الله منه، ووصل إلى دمشق فضعف أمر عسكر مصر عند نور الدين وهون عليه أمرهم، وحرضه على قصدهم، وأكثر من التحدث في أمر مصر.

وفيها عاد شاور إلى القاهرة، وخرج يحيى بن الخياط على شاور وحشد ونزل الجيزة يوم الأربعاء بعد أن حاصر الكامل بن شاور في طنبدى(١٤٦) ورحل عن الجيزة ، فكسروا يوم السبت سابع عشر صفر، وقبض شاور

على ابن فحل وابن أبي كامل وقتلا ليلة الاثنين تاسع عشره، وتتبع من كان يكاتب شيركوه أو يوادّه، وتشدد في طلب أصحاب ضرغام. وكان قد استفسد جماعة من أصحاب شيركوه، منهم خشترين الكردي فأقطعه شطنوف(١٤٧).

وفيها فر الشريف.. المحنك من شاور ولحق بنور الدين. وذلك أنه كان بعثه ضرغام إلى نور الدين في صرف رأيه عن نجدة شاور فوجد نور الدين مائلاً معه لأمور، منها: أنه تقرب إليه بذم مذهب الفاطميين، ووعده ملك مصر، وعرض له الأموال الكثيرة، فبالغ الشريف في الحط على شاور مع نور الدين، فأنفذه إليه، فلما اجتمعا عتبه شاور على ما كان منه، وقال له: أنت تعلم أيها الشريف أن سبب قيامي على آل رزيك إنما كان لأجل ضرغام وإخوته من الأمراء البرقية واتبعت غرضهم فيما نقموه على ابن الصالح، ولما حصلت بالقاهرة رفعت من أقدارهم وزدت في أرزاقهم، وبلغتهم أمانيهم، فلم يكن لهم إلا إزالتي ثم قتلهم أولادي ونهب أموالي وتشتت جماعتي، وبذل السيف في خاصتي وغلماني، فهل تعلم لي ذنباً إليهم؟ فقال له الشريف: أنت تعلم أيها الأمير أن ابنك طياً كان قد تعدى طوره وتجاوز حده حتى تعاظم عليك ونفذ أمره دون أمرك، وأنه بعد قتل رزيك بن الصالح أطلق لسانه في الأمراء ومد يده إلى أموالهم ونسائهم، وبهتهم في المجالس، وصاح عليهم في المواكب حتى حقدوا عليه، وشكوه إليك فلم تشكهم، وعامل أصحابك وغلمانك الناس بكل قبيح فمالت عنك الخاصة والعامة. فسكت عنه، ومازال في نفسه منه حتى تمكن من البلاد فأخذ يتطلبه، ففر منه(١٤٨).

سنة احدى وستين وخمسمائة

في أول المحرم مات الأمير هوشات. وفي ثالثه مات القاضي الجليس عبد العزيز بن الحباب(١٤٩).

-١١٦٧-

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

فيها جهز الملك العادل نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه من دمشق لقصد ديار مصر في جيش قوي، ومعه جماعة من الأمراء ، وكان كارهاً لمسير شيركوه لكثرة ما رأى من حرصه على السفر، فرحل يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول، وشيعه السلطان إلى أطراف البلاد خوفاً من معرة الفرنج، فسار على ميمنة بلاد الفرنج. وبعث مري ملك الفرنج إلى شاور يخبره بمسير شيركوه بالعسكر إلى مصر، فأجابه يلتمس منه نجدته وأن المقرر من المال يحمل إليه على ما كان يحمل في السنة الماضية.

فسار مري بعساكره، وقد طمع في البلاد، على الساحل حتى نزل بلبيس، فخرج إليه شاور، وأقاموا في انتظار شيركوه. فبلغه ذلك، فنكب عن الطريق وهبط في يوم السبت خامس ربيع الآخر من وادي الغزلان إلى أسكر(١٥٠) وخرج إلى إطفيح قبلي مصر فشن الغارة هناك.

واتصل الخبر بشاور، فرحل هو والفرنج يريدونه، ونزل شاور والفرنج بركة الحبش في يوم الأحد سادس جمادى الآخرة ، وتوجه في يوم الثلاثاء منه إلى دير الجميزة(١٥١) ، فاندفع سائراً في بلاد الصعيد حتى بلغ شرونه(١٥٢) وعدى منها إلى البر الغربي، وأدرك شاور ساقته فأوقع بهم، وعدى بعساكره وجموع الفرنج، ونزل شيركوه بالجيزة في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة تجاه مدينة مصر وأقام بها بضعاً وخمسين يوماً، وبعث الشريف أبا عبد الله الملقب بالرضي، ابن الشريف المحنك إلى الطلحيين والقرشيين يستفزهم ويدعوهم إليه، وكان قد بلغه أن شاور أساء إليهم ، فأتوه مسرعين.

وبعث إلى شاور بأني أحلف لك أني لا أقيم ببلاد مصر ولا يؤذيك

أحد من أصحابي، وأكون أنا وأنت على الفرنج وننتهز فيهم فرصة قد أمكنت وما أظن أن يتفق للإسلام مثلها أبداً. فأبى شاور من قبول ذلك، والتجأ شيركوه إلى دلجة [١٥٣] ونزل شاور في اللوق والمقس ظاهر القاهرة، وأنشأ الجسر بين الجيزة والجزيرة، وشحن المراكب والرجال لتسير من خلف عسكر شيركوه.

وكتب شيركوه إلى الإسكندرية يستنجد بأهلها على الفرنج وشاور، فقاموا معه وأمروا عليهم رجلاً يعرف بنجم الدين بن مصال، من ولد الوزير، فكتبوا إليه أنهم يمدونه بالسلاح والحديد، وجهزوا إليه خزانة من السلاح مع ابن أخت الفقيه ابن عوف، فأتاه الخبر بقرب شاور فلم يثبت، وترك خيامه وأثقاله، وسار سيراً حثيثاً ونزل قدر ما أطعم دوابه، ورحل من الليل فسار غير بعيد، ثم نادى في عسكره بالرجوع، فعاد إلى دلجة.

وسار شاور والفرنج في طلب شيركوه، فنزلوا الأشمونين وتبعوا شيركوه، فأمر شيركوه أصحابه بالتعبئة. فما طلع ضوء الصباح حتى أشرفت عساكر شاور وجموع الفرنج في عدد كبير، فقدم شاور فحملت على أصحاب شيركوه ، فانهزم منها عز الدين الجاولي من أصحابه فلم يرده إلا الإسكندرية، وتفرق منهم عدد، فولى شيركوه وقد قتل من أصحابه جماعة وقتل من أهل الإسكندرية كثير.

وكان سبب الخلل في عسكر شيركوه أنه فرق أصحابه فرقتين، فرقة معه وفرقة مع ابن أخيه صلاح الدين يوسف.

ثم إنهم تجمعوا وقت الظهر ووطنوا أنفسهم على الموت، وحملوا على شاور ومن معه فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأبلى يومئذ صلاح الدين يوسف بلاءً حسناً وحمل حملات فرق بها الجموع وبدد شملها. وحمل

شاور على عسكر شيركوه فكسر القلب، فتلاحقت الميمنة بمن كان في القلب، واستمر القتال حتى حال بين الفريقين الليل، فانهزم كثير من الفرنج وقتل منهم كثير، وكاد ملكهم أن يؤخذ، ووقع في قبضة شيركوه وأصحابه نحو السبعين أسيراً.

وبات الفريقان وقد تبين الوهن في الفرنج، فسار شاور بمن معه إلى منية بني خصيب . وكانت هذه الوقعة في موضع يعرف بالبابين، بالقرب من الأشمونين، في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

ثم إن شيركوه سار بأصحابه على طريق الفيوم إلى الاسكندرية وانتهب البحيرة، وأخذ عسكره غلالها ومواشيها،فخدمه ابن الزبير، متولي ديوان الإسكندرية، وحمل إليه الأموال وقواه بالسلاح، وأقام متخوفاً من مسير شاور إليه، فترك بالإسكندرية صلاح الدين يوسف وخرج إلى الصعيد وجبى أموال البلاد، فخرج شاور ونزل على الإسكندرية وحاصرها أشد حصار مدة ثلاثة أشهر ، ومنع عنها الميرة، فقلت بها الأقوات، هذا وشيركوه في جبايةأموال الصعيد وأخذ غلاله.

ودخل عليه شهر رمضان ، فلما أتمه وأهل شوال بلغه ما نزل بالإسكندرية وأهلها من البلاء وقلة الأقوات، وأنها قد قاربت أن تؤخذ، فسار من قوص ونزل على مصر يوم الخميس ثامن شوال، فبلغ شاور أن شيركوه حاصر مصر، فرحل من الإسكندرية ، وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح، ورحل عن مصر إلى الشام. فبعث إلى ملك الفرنج يلتمس منه ذلك، فأجابه إليه ، وقرر مع شاور أنه يحمل إلى شيركوه جميع ما غرم في هذه السفرة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. ووقع الحلف بالأيمان المؤكدة على ذلك.

فلما تقرر الصلح أرسل صلاح الدين إلى ملك الفرنج يقول إن لي

أصحاباً منهم القوي ومنهم الضعيف، فأما القوي فإنه يتبعنا في البر، وأما الضعيف فإنه يسير في البحر فنريد لهم مراكب، فأنفذ إليه عدة مراكب خرج فيها أصحابه.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية واجتمع بعمه أسد الدين شيركوه، ودخل شاور البلد، وجاءه مشايخ البلد للسلام عليه، ومري ملك الفرنج جالس معه، فلم ينظر شاور إلى الجماعة ولا أكرمهم، ولا أذن لهم في الجلوس، لأنهم كانوا قاتلوه قتالاً شديداً، فنقم عليهم ذلك. فقال له مري: أكرم قساك. فأذن لهم في الجلوس وعاتبهم على ما فعلوا من القتال وإظهار المخالفة. فسكتوا، وكان فيهم الفقيه شمس الإسلام أبو القاسم مخلوف بن علي المالكي، المعروف بابن جاره، شيخ الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر، فقال له: نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائنا من كان، فقال له مري: وحق ديني لقد صدقك هذا الشيخ. فسكت شاور وأكرمهم بعد ذلك اليوم.

وفر نجم الدين بن مصال والي الثغر إلى الشام، وقبض شاور على الأشرف بن الحباب قاضي الثغر وعاقبه، وأخذ منه مالاً جزيلاً، ولم يقنع بالرشيد بن الزين الناظر فولى القاضي الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن ابن منصور بن نجا النظر عوضه، فبعث شاور وقبض على جميع من كان مع صلاح الدين من أهل مصر، وعلى ابن مصال. فشق ذلك على صلاح الدين، واجتمع بملك الفرنج في ذلك، فأرسل إلى شاور ومازال به حتى أفرج عنهم. فخافوا من شاور وعزموا على الرحيل إلى الشام، فخرج إليهم شاور بنفسه وجمع وجوههم وطمأنهم، وحلف لهم أنه يضاعف لهم الإحسان ولا يتعرض لهم بسوء، فمنهم من إطمأن وأقام ، ومنهم من رحل إلى الشام.

ووصل الذين ساروا من ضعفاء أصحاب صلاح الدين في المراكب

إلى عكا، وأحاط بهم الفرنج واعتقلوهم بمعصرة القصب حتى (عاد) ملك الفرنج فأطلقهم.

وتسلم شاور الاسكندرية في نصف شوال ، وسار شيركوه ومن معه وقد استمال شاور منهم جماعة ومعه مري ملك الفرنج حتى نزل الجيزة وعدى إلى القاهرة من المقس، فأقام مري أياماً ورحل عائداً إلى بلاده، فخرج شاور يودعه إلى بلبيس، وعاد إلى القاهرة أول ذي القعدة، فخرج إليه العاضد يتلقاه إلى الطابية، وخلع عليه.

واستقر الأمر بينه وبين الفرنج أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عسكر إليها، وأن يكون لهم من دخل ديار مصر في كل سنة مائة ألف دينار. فقرر لهم شاور ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته ، فإنه كان ممنوعاً من التصرف، وشاور يستبد بأمور الدولة، فرحل الفرنج إلى بلادهم وتركوا بالقاهرة عدةً من مشاهير فرسانهم، ورتبوا بها ابن بارزان والياً.

ووصل شيركوه إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة وفي نفسه من مصر مالا ينفصل ، لأنه خبر متحصلها، وعرف بلادها واستخف بأهلها.

واستقر شحنة الفرنج أولاً بالقاهرة في الموضع المعروف اليوم بقصر بيسرى من الخرنشف، وبعث الكامل شجاع بن شاور إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي محبته وولاءه، ويسأل الدخول في طاعته، وضمن له عن نفسه أنه يفعل هذا ويجمع الكلمة على طاعته، وبذل له مالاً يحمله إليه كل سنة، فأجابه، وحمل إلى نور الدين مالاً جزيلاً.

وأخذ شاور بعد عوده من الإسكندرية في الإكثار من سفك الدماء بغير حق، فكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار. واشتد ظلم إخوته وأولاده

وغلمانه ومن يلوذ به، وكثر تضرر الناس بهم ، فكان من تأمل أحوال الوزراء فإنه يجد الصالح بن رزيك ربى رجال الدولة، وجاء الضرغام فأفناهم، ثم جاء شاور فأتلف أموال مصر وأطمع الغز في البلاد، وجرأ الفرنج عليها حتى كان ما كان ممايأتي ذكره إن شاء الله.

وفيها أحضر القاضي رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن القاضي رشيد الدين أبي الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الأسواني، وقد فر إلى قريب برقة، فدخل على حالةٍ سيئةٍ، فأمر به شاور فضربت عنقه، وصلب عند مسجد الزيني على الخليج، بالقرب من قبو الكرماني، في يوم الأربعاء العشرين من ذي العقدة.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فيها بعث شاور إلى نور الدين رسالة مع شهاب الدين محمود، خال صلاح الدين يوسف، تتضمن أنه يحمل إليه مالاً في كل سنة من مصر مصانعة ليصرف عنه أسد الدين شيركوه، فأجاب نور الدين إلى ذلك، وأعطى شيركوه مدينة حمص وأعمالها زيادة على ما كان بيده. وذلك في شعبان، وأمره بترك ذكر مصر، فأرسل شاور إليه كتاباً يشكر صنيعه.

وفيها قتل شاور القاضي الرشيد أبا الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم ابن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني، صاحب كتاب « الجنان ورياض الأذهان»، وكان من أهل العلم والأدب، وله رسالة أودعها من كل مشكله ومن كل فن أفضله. وسار إلى اليمن رسولاً ـ وكان أسود ـ في أيام الحافظ، وتلقب بعلم المهتدين، فقال فيه شاعر من أهل اليمن من قصيدة بعث بها إلى الحافظ:

بعثت لنا علم المهتدين
ولكنه علم أسود

وولي نظر الإسكندرية ، فقتله شاور في المحرم، بسبب أنه داخل شيركوه وصلاح الدين وخدمهما، بعد أن عذبه عذاباً شديداً، ثم ضرب عنقه.

فيها خرج يحيى بن الخياط يريد الوزارة ، فبعث إليه شاور عسكراً هزموه حتى لحق بالفرنج.

وفيها ولي خطابة الجامع العتيق بمصر لتاج الشرف حسن بن أبي الفتوح ناصر بن إسماعيل الحسيني بعد موت أبيه يوم عيد الفطر.

سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها تمكن الفرنج من ديار مصر وحكموا فيها حكماً جائراً، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم وقد تيقنوا أنه لا حامي للبلاد، وتبين لهم ضعف الدولة وانكشفت لهم عورات الناس. فجمع مري جموعه واستشارهم في قصد ديار مصر، فقووا عزمه على المسير إليها فأجمع على الرحيل، واستدعى وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه، ففرق قراها عليهم بعد ما كتب جميع قراها وارتفاع كل ناحية، واستنجد عسكراً قوى به جنده.

فورد الخبر إلى شاور بمسير الفرنج إلى مصر في نصف المحرم، فبعث إلى ملك الفرنج الأمير ظهير الدين بدران، وقيس بن طي بن شاور.

وكان نور الدين بحلب، فأسرع مري إلى المجيء إلى مصر ظناً أن نور الدين بعيد منه وعساكره متفرقة عنه، فبلغ ذلك نور الدين، فأخذ في جمع عساكره.

ووصل مري إلى الداروم. فبلغ شاوراً فارتاع وبعث أميراً يعرف ببدران

لكشـف الخبر، فلما اجتمع بمـري خدعـه ووعده بعـدةٍ من قـرى مصر ، نحـو الثـلاث عشرة قـرية، وأمـره أن يخبر شـاور أنهم إنما قصـدوا البلـد للخـدمة ، فلما عـاد إلى شاور جهـز إلى مـري شمس الخلافـة محمد بـن مختار،فعنـدما دخل عليه قـال له: مرحبـا بشمس الخلافة. فقال: فمـرحباً بالملـك الغدار، وإلا ما أقـدمك إلينا؟ قـال: اتصل بنا أن الفقيـه عيسى وصل إليكم ليزوج أختـاً للكامل بن شاور بصلاح الديـن يوسف ويتزوج الكامل بأخت صلاح الديـن، فحسبنا أن هذا عمل علينا، فقال:ما لهذا صحة، ولو فعل لما كان ناقضاً للهـدنة، فقال: الصحيح إن قوماً من وراء البحر انتهـوا إلينا وغلبوا على رأينا، وخـرجوا طامعين في بلادكـم، فخفنا من ذلك، فخرجـت لتوسط الأمر بينهم وبينكم. فقال لـه: فكم تريد أن يكون مبلـغ القطيعة التي نقـوم بها؟ قال: ألفـي ألف دينار، فقـال: حتى أعـود إلى شـاور بهذا الخبر وأرجـع إليكـم بـالجواب، فـلا تبرحـوا مـن مكانكم. فقال مري: بل ننزل على بلبيس حتى تعود.

وكان قد كتـب إلى شاور: إني قد قصدت الخدمة على ما قـررته لي من العطاء في كـل عام، فكتـب إليه شـاور: إن الذي قـررته إنما جعلتـه لك متى احتجـت إلى نجدتك أو إذا قـدم علي عدو، فأمـا مع خلو بـالي من الأعـداء فلا حـاجة لي إليـك ولا لك عنـدي مقرر، فـأجابـه : لابد مـن حضوري وأخـذي المقرر، فعلم شاور أنـه قد غدر وخـان الأيمان، ونقض العهود، وطمـع في البلاد، فجمـع الأجناد وحشـد العساكـر إلى القاهـرة، وسير إلى بلبيس حفنة من العسكر، ونقل إليهـا ما تحتاج إليه من الأقوات والعلف.

فنـزل مـري على بلبيس أول يـوم مـن صفـر، وكتـب عدة مـن أعيـان المصريين كتباً إلى مري يعـدونه المساعدة، لكراهتهم في شـاور، منهم علم الملك ابـن النحاس، ويحيى ابـن الخياط، وابـن قرجلـة، وجماعـة، فقـوي الفـرنـج، وعنـدمـا قـدم مـري

إلى بلبيس أرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلبيس ، أين ينزل؟ فقال لرسوله: قل له: تنزل على أسنة الرماح. فغضب من هذا وجعله سبباً لنقض ما قرره مع شمس الخلافة، وحاصر البلد حتى افتتحها قهراً بالسيف يوم الثلاثاء ثاني صفر، وأخذ الطاري والناصر، ابني شاور أسيرين، وقتل جميع من كان فيها وأسرهم وسباهم، ونهب سائر ما تحتوي عليه، وأسر المعظم سليمان بن شاور، وقيس بن طي بن شاور.

وأرسل إلى شاور يقول له: إن ابنك قال: أيحسب مري أن بلبيس جبنة يأكلها! نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة، فصعد شاور إلى العاضد وسأله مكاتبة نور الدين وطلب معونته فإن الفرنج قد ملكوا بلبيس والمسلمون يضعفون عن دفعهم، وأنه متى حصل التقاعد أخذت مصر وأسر الفرنج من فيها من المسلمين، ويحثه على إرسال من يتدارك هذا الأمر، فكتب العاضد إلى نو رالدين يستغيث به، وأرسل في طي كتبه شعور النساء والأطفال، وقال: هذه شعور نسائي وأطفالي من قصري مستغيثين بك لتنقذهم من الفرنج.

ويقال بل كان كتاب العاضد إلى نور الدين برأي شمس الخلافة، فإنه اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لايمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه، فلما حلف له قال: إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة، وآخر أمره يسلم البلد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد ، فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره، فصعد الكامل إلى الخليفة العاضد وكتبا الكتاب وأرسلاه إلى نور الدين، فقيل للعاضد لم لا أطلعت وزيرك على ذلك، فقال أعرف أنه لايوافقني عليه لكراهته في الغز، وأنا أعلم من أي باب أدخل عليه.

وأرسل إلى شاور يقول: أين استدعائي الغز من المسلمين لنصرة

الإسلام من استدعائك الفرنج لـلإعانة على المسلمين، فقال للرسول: قل لمولانا عني :أنـت مغرور بالغز واللـه لئن تثبت لهم رجل بـديار مصر لا كانـت عاقبته وخيمة إلا عليـك، فلما بلغه ذلك قال: رضيـت أن تكون إسلامية وأكون فداء المسلمين.

فوافت كتب العاضد، وكتب جماعة من الأعيان إلى نور الدين بحلب، فانزعج لذلك وجمع الأمراء للمشورة فـأشاروا بإرسال أسد الدين شيركوه. وكان بحمص وقـد وصلت إليه الكتب مـن مصر باستدعائه لإنجـادهم وإنقاذهم مما نـزل بهم، فخرج منها يريد السلطان بحلـب، وخرج رسول السلطـان من حلـب بطلبه، فتـلاقيا ببـاب مدينـة حلب، وعـادا فلما رآه السلطان عجـب من سرعة مجيئـه، فأعلمه بموافـاة الكتب إليه تستـدعيه إلى مصر، فسر بذلك وتفاءل بـه، وأعطاه مائتي ألف دينار وثيـابا وسلاحا ودواب، وحكمـه في العسكر فـاختـار ألفـي فارس، وجمع فسـار في ستـة آلاف فارس.

وخرج معه نـور الدين إلى دمشق، فـوصل إليها في سلخ صفـر، وجهز أسد الدين وأعطـى نور الدين كل فارس ممن معـه عشرين ديناراً مصرية غير محسوبـة عليه من جـامكيته وأضاف إليـه جماعة من الأمـراء، منهم : عز الـدين جـرديك، وغـرس الديـن قليج، وشرف الـدين بـزغش، وعين الدولة اليـاروقي، وقطب الدين ينـال المنبجي، وصلاح الدين يـوسف بن أيـوب، وكـان صلاح الـديـن كـارهاً في مسيره إلى مصر كـأنما يسـاق إلى الموت فأخـرجه نـور الديـن كرهـاً ليحق قـول الله سبحـانه إذ يقـول: (وعسـى أن تكرهـوا شيئاً وهـو خير لكـم وعسى أن تحبـوا شيئاً وهـو شر لكم) (البقرة ٢١) .

فإن نور الـدين أحب مسير صلاح الديـن إلى مصر فكان مسيره إليها

لخروج الملك عن أولاده، وكره صلاح الدين مسيره إلى مصر فكان في مسيره إليها تملكه إياها وغيرها من الأقاليم.

وسار شيركوه من دمشق في ثاني عشر ربيع الأول، وتقدم الفقيه عيسى الهكاري إلى العاضد سراً وخفية من شاور ليحلفه على أشياء .

وأما مري فإنه كثرت أمداد الفرنج عنده لقصد سكنى بلبيس، فنزلها بأبطاله، وأمر بإخراج الأسرى من أهل بلبيس إلى ظاهر البلد، وركب وقد اعتقل رمحه وحمل على الأسرى حتى فرقهم فرقتين، فجعل لنفسه الفرقة التي وقعت عن يمينه، وأنعم بالفرقة اليسرى على أهل عسكره، وقال لمن صار إليه من الأسرى: قد أطلقتكم شكراً لله على ما أولاني من فتح مصر فإني ملكتها بلا شك. وما زال واقفاً حتى عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل ، وأخذ عسكره أسراهم فاقتسموهم، فبقوا في أيدي الفرنج بعد ذلك نحو الأربعين سنة، وهلك كثير منهم هنالك، وأفلت بعضهم.

وكان شمس الخلافة قد صار إلى مري قبل أخذه مدينة بلبيس بإجابته إلى القطيعة التي طلبها، فعاقه عنده حتى أخذ بلبيس، كما تقدم ذكره، ثم أذن له في الانصراف إلى القاهرة، واعتذر بأنه بلغه عن (قيس) ابن طي أشياء أمضته حتى فعل ما فعل،وأنه باقٍ على ما تقرر معه، فعاد شمس الخلافة، وأشار على شاور بالاحتراز وقال: إن الرجل مخاتل، وأنفذت الكتب إلى نور الدين.

وكان شاور قد شرع في بناء سور على مدينة مصر واستعمل فيه الناس فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه، وحفر من ورائه خندقاً، فلم يكمل من ناحية النيل. وعمل في السور ثمانية أبواب أحدها بدار النحاس على ساحل البحر، وهدم في سنة....وخمسين وستمائة،

وآخر بجانب كوم البواصين، وثالث على سكة سوق وردان سقط سنة إحدى وستين وستمائة، وباب في طريق زين العابدين، وباب عرف بباب الصفاء، وباب بحري مصلى الأموات سقط قبيل سنة خمسين وستمائة، وباب عند أقمنة الجير مما يلي درب السرية، وباب بقنطرة بني وائل، وتحته قنطرة بني وائل التي تصب في بركة الشيعبية[١٥٤]، التي كانت قديماً بستان الأمير تميم بن المعز، وكان الماء يدخل إليها من خليج مصر.

وسار مري بعقيب مسير شمس الخلافة عنه يريد منازلة القاهرة بعد ما أقام ببلبيس خمسة أيام، فداخل الناس منه رعب شديد، وخوف عظيم، فاجتمعوا بالقاهرة ووطنوا أنفسهم على الموت، وكان هذا من لطف الله فإنه لو قدر أن الفرنج أحسنوا السيرة في أهل بلبيس لكان الناس لايدافعونهم عن القاهرة ألبتة لما في قلوبهم من كراهة شاور، فما هو إلا قصد مري القاهرة وإذا بشاور قد قام في حريق مصر، وأمر شاور الناس بالانتقال منها إلى القاهرة، وحثهم على الخروج منها، فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وحرمهم، وقد ماج الناس واضطربوا اضطراباً عظيماً.

ووقعت النار في الأسطول فخرج العبيد إلى مصر وقد انطلقت النار في مساكنها فانتهبوا سائر ما كان بمصر، وبلغ بالناس الحال أن كانت الدابة تكرى من مصر إلى القاهرة ببضعة عشر ديناراً، والجمل بثلاثين ديناراً ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها، وملأوا جميع الشوارع والأزقة، وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق وقد ذهبت أموالهم وسلبت عامة أحوالهم، وهم مع ذلك ينتظرون هجوم الفرنج على القاهرة وقتل رجالها وسبي من بها من الحريم والصبيان.

وكان ابتداء الحريق بمصر في يوم (الثلاثاء) التاسع من صفر الموافق

لـه ثـامـن عشر هتـور، واستمـرت النـار في المسـاكـن أربعـة وخمسين يوماً،والنهابة تهد ما هنالك وتحفر لطلب الخبايا.

ونزل مـري بعساكره على بـركة الحبش في يوم (الأربعاء) العـاشر من صفر، فخرج إليـه شمس الخلافة. فلما دخل إليه سـأله أن يخرج معه إلى بـاب الخيمة، فخـرج ، فأراه شمـس الخلافـة جهة مصر وقـال له: أتـرى دخانـاً في السماء؟ قال: نعـم. قال: هـذا دخان مصر مـا أتيتك إلا وقـد احترقت بعشريـن ألف قارورة نفط وفـرقت فيها عشرة آلاف مشعـل، وما بقي فيهـا ما يؤمـل بقاؤه ونفعه، فخل الآن عنـك. فقال مري: لابـد من النزول على القاهرة ومعي فرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها.

ثم رحل فنزل القاهرة في عاشر صفر مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ، تقع في خيمه(١٥٥).

---

١٥٥ ـ بهامش الأصل عدة أسطر مطمـوسة الآخر « بخط المصنف. ومن طـريف مـا وقع في هذه النـوبة أن شيخا مـن أجناد مصر يقـال له الأمير الصادق، عـرف بذلك لكثـرة كذبه، كـان مقدما على طـوائف من الجند، وكان يثير الفتـن على السلاطين، وهو الذي كان أبـدا يقول للجند صيحوا على السلطان: لا لا ، وإذا كان لقـاء في الحرب تحيز بطائفته على كوم أو مـوضع مـرتفع فـإذا رأى العدو قـد أقبل نـزل هاربـا وهو يقـول للجند: أرجلكم والطريق، فينكسر بحركتـه. فلما كانت هذه الحادثة سلم إليه بـرج من أبـراج سور القاهـرة، وهو بـرج البرقية، كما سلـم لغيره من مقدمي الأجناد بقيـة أبراج السور. وكان هذا المقدم لاينـزل من السور ولا يفارقه قـدر شبر لفزعه من الفـرنج، فإذا حمل الفرنـج على المصاف الذي قدام البرج الذي هو فيه يقول: الأوباش الذيـن أخذناهم من فوق السور

ولكـم خبطوهـم بالصراخ فيصرخـون للفرنـج وهو يصيـح خوفـاً ها هـم خـوذوهم ويظـن أن الفرنـج ينكسرون بذلـك، والفرنـج يضربون النـاس بالسيوف إلى السور، وهو مع خوفه يظن أنـه يحتمي من برصانيات الفرنج بالصراخ.

وقاتـل أهل القاهـرة قتالاً شديـداً وحفظوها وبـذلوا جهدهـم، واشتد الفرنـج في محاصرة القاهـرة وضيقوا على أهلهـا حتى تـزلزل النـاس زلزالاً شديداً وضعفت قواهم، وشاور هـو القائم بتدبير الأمور، فتبين له العجز عن مقـاومة الفرنـج وأنه يضعف عـن ردهم، وخـاف من غلبتهم فـرجع عن مقـاومتهم إلى مخادعتهم وإعمال الحيلـة ، فأرسل شمـس الخلافة إلى مري يطلـب منه الصلح على أن يحمـل إليه أربعمائة ألف دينـار معجلة، فـأجاب إلى ذلـك، ويقال إنـه خوفـه من نـور الديـن واعتذر بـأنه لـولا الخوف من العاضـد ومن معه من المسلمين وإلا سلمه البلـد، وإنه تقدم له بألف ألف دينار. فتقرر الصلح.

على أن مري قال:لا أسمع من كلام شاور فإنه غدار، ولابد من كلام الخليفة العاضد، فمشى أبو الفتح عبد الجبار بن عبد الجبار بن إسماعيل ابن عبـد القوي، المعروف بـالجليس قاضي القضـاة وداعي الدعـاة، ومعه الأستاذ صنيعـة الملك جـوهر، بين الفـرنج وبين النـاس حتى تقـرر الأمر على تعجيل مـائة ألف دينار وحمل البـاقي بعـد ذلك مع القطيعـة المقررة كل سنة، وزيادة عشرة آلاف دينـار وعشرة آلاف إردب غلة على ما يقترح من أصنـافها، فأرسـل العاضد القـاضي الفاضـل عبد الرحيـم إلى الشيخ الموفق ابـن الخلال كاتـب الدسـت، وكان مـريضاً والفـاضل ينـوب عنه بتعيين الكامل بن شاور، وقال لـه: استشره في هذا الأمر، فمضى الفاضل إليه ، وعرض ما تقرر عليه، وبلغه عن العـاضد ما أشار به من أخذ رأيه

في ذلك، فقال: قبل الأرض عني لمولانا وقل له عن مملوكه إن وجد المشتري منها وصبر البائع فليست بغالية، وبين قيل وقال يتصرم الوقت.

وشرع شاور في حمل المال، فلم يجد في حاصل الخبايا بالقصر سوى مائتي ألف دينار مدفونة في أحد كمى المجلس من ذخائر الحافظ، أطلعهم عليها أستاذ من استاذي القصر، فأخرجت وحمل إلى الفرنج منها على يد ابن عبد القوي مائة ألف دينار، فأخذوها بعد امتناع. ووقع الطلب من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل من الناس إلا نحو الخمسة آلاف دينار، لفقر أهل مصر، وسوء حالهم، وذهاب أموالهم في الحرق والنهب بحيث صاروا لا يجدون القوت عجزاً عنه، ولأن أهل القاهرة أكثرهم الجند وأهل الدولة وأتباعهم فقال الفقيه عمارة:

يا رب إني أرى مصراً قد انتبهت
لها عيون الليالي بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية
واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عوناً نستجير به
من فتنة يتلظى جمر وقدتها

فبينما الفرنج في استحثاث أهل القاهرة في حمل المال إذ وصل إليهم في مستهل ربيع الآخر خبر قدوم أسد الدين بالعساكر، فأزعجهم ذلك ورحلوا عن القاهرة يوم السبت، ثالث ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألفاً ما بين رجل وصبي وإمرأة. فنزلوا على بلبيس، وسارو ا منها إلى فاقوس.

ونزل أسد الدين بالمقس إلى اللوق خارج القاهرة يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر، فخرج إليه العاضد وتلقاه.

وكان شاور لما بلغه وصول شيركوه إلى صدر أخرج شمس الخلافة إلى

مري فقال له: قد وقف المال علينا، وقد جئت إليك أستوهب منك بعض ما قطعت علينا، فقال مري: اطلب ما شئت، قال: تهب لي من الألفي ألف ألف ألف. قال: قد فعلت فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكاً وهب مثل هذا لقوم هم في مثل حالنا، فقال مري: أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاوراً ملك، وأنكما ما سألتماني أن أهب لكما هذا المال العظيم إلا لأمرٍ قد حدث. فقال: صدقت، هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نصرة لنا وما بقي لك مقام، وشاور يقول لك :أرى أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لنا ولك، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذه الألف ألف بشيء وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال مري: أنا راض بذلك. فقال: وأن تطلق ابن طي بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى، ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئاً، فأجاب إلى ذلك، وأطلق ابن شاور ورحل.

ولما قارب شيركوه القاهرة خرج شاور إلى لقائه وقابله بالاحترام والإكرام، وأشار عليه باتباع الفرنج، فلم ير ذلك واعتذر بما هم فيه من التعب.

ونزل أسد الدين بظاهر القاهرة، ودخل على العاضد فخلع عليه في تاسعه بالإيوان، وعاد إلى مخيمه، وقد فرح الناس بقدومه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة والإقامات الوافرة، وثقل ذلك على شاور ولم يقدر على عمل شيء لما عرفه من ميل العاضد إلى شيركوه، وشرع يماطل بما تقرر لشيركوه ولنور الدين وهو يركب كل يوم إليه ويسير معه، ويعده ويمنيه.

وعزم على أن يعمل دعوةً ويحضر شيركوه وجميع أمرائه، فإذا صاروا إليه قبض عليهم واستخدم من معهم من الجند ليمنع بهم الفرنج، فنهاه

ابنه شجاع عن ذلك وقال: والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه، فقال: يابني، والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً. قال: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً، فترك شاور ما عزم عليه.

ولما طال مطال شاور على الغز اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك على قتل شاور.

واتفق أن شاوراً رأى في منامه كأنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواته وهو يوقع ، والحاجب بين يديه يتناول منه التوقيع، فقال: من هذا الذي جلس في مجلسي ووقع من دواتي؟فقيل له: هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: وما يصنع محمد عندي، أما كان له في مملكة غيري متسع؟!ثم إنه قام إليه وضربه بسيفه حتى قتله وألقاه بظاهر الدار ، فلما استيقظ هاله ما رآه، واستدعى أبا الحسن علي بن نصر الأرتاحي العابد، وكان نادراً في علمه، وقص عليه ما رأى، فقال له: هؤلاء الذين في القصر من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون هلاكهم على يدك، فأمره بكتمانه، فلم يظهر حتى قتل شاور.

ويقال إن العاضد خرج متنكراً إلى شيركوه وأمره بقتل شاور، فركب على عادته إلى شيركوه ومعه الطبل والبوق وخرج من باب القنطرة، فلما صار في مخيم الغز تلقاه صلاح الدين وجرديك في جماعتهم وأعلموه أن أسد الدين توجه إلى القرافة، فقال: نمضي إليه، فساروا جميعاً وصلاح الدين وجرديك عن يمينه وشماله، وكان اليوم كثير الضباب، فتناول صلاح الدين شاور على غرة هو وجرديك وألقياه عن فرسه إلى الأرض،

وأحاط أصحابهما بمن مع شاور فانتهبوهم وفروا عنه. وأخذ أسيراً إلى المخيم، وأرسلوا إلى شيركوه، فحضر، وبلغ ذلك العاضد فأنفذ في الحال إلى شيركوه أحد الأستاذين بسيف وقال: هذا غلامنا ولا خير فيه لك ولا لنا، فأمض حكم الله فيه، فقتل في يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر، وحملت رأسه إلى العاضد.

وفر الكامل شجاع بن شاور هو وأولاد أخيه إلى القصر، فكان آخر العهد بهم، وأحضرت رؤوسهم يوم الاثنين رابع جمادى الأولى، وبعث شيركوه يطلبهم، فأرسل إليه العاضد طبقاً من فضة مغطى، فلما كشف عنه وجد فيه رأس شجاع ورؤوس أولاد أخيه، فتأسف على قتل شجاع لما كان يبلغه عنه من منعه أباه من عزمه على الفتك بهم.

وكانت وزارة شاور هذه كثيرة الوقائع والنوازل فإنه أطمع الغز والفرنج في البلاد وجرهم إليها، فأحرق مصر وأزال نعم أهلها وأذهب أموالهم، وكان السبب في إزالة الدولة الفاطمية من ديار مصر وتملك الغز لها.

وكان مع ذلك منقاداً لولده الكامل قد أطاعه وسلم الأمر إليه بحيث إنه كان يأتي إلى داره فيحتجب عنه، وكان ضيق العطن، لايصبر على شيء مما ينقل إليه من الأخبار. وكان إذا سئل وهو في الخدمة لايرد سائلا في شيء، وكان شديد النكال إذا عاقب، فتكشفت في وزارته الثانية التي قتل فيها صفحاته، وأحرقت كافة أهل مصر لفحاته، وأغرقتهم نفحاته، فغصه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وكان عاقبة أمره القتل والعار، وسوء المنقلب والدمار.

ثم إن أسد الدين ركب بعد قتل شاور بجموعه ودخل إلى القاهرة في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر يريد لقاء الخليفة العاضد،فهاله ما

رأى من كثرة اجتماع الناس وتخوف منهم، فأراد أن يفرقهم، فقال لهم: إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فتسارعوا إليها وانتهبوا سائر ما كان فيها، فصعد شيركوه إلى القصر، وخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، ونزل إلى دار الوزارة حيث كان ينزل شاور ومن قبله من الوزراء، فلم يجد ما يجلس عليه، لما شملها من النهب، فجلس للهناء وغلب على الأمر.

وخرج إليه التوقيع بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقرأه الجليس ابن عبد القوي قاضي القضاة، على رؤوس الأشهاد، وفي أعلاه بخط العاضد: « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلا بحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزت بأن اعتزت إلى بنوة النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا، (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) (النحل ٩١). وهو توقيع كبير.

وكتب القاضي الفاضل إلى نور الدين محمود بن زنكي كتاباً بأن يقر شيركوه عنده بمصر فإنه فوض إليه الوزارة وأمر الجيوش، تاريخه سابع عشرين ربيع الآخر وكتب العاضد علامته بين سطريه الأولين بخطه « الله ربي»، فعاد الجواب بالامتثال.

وسلك أسد الدين مع العاضد مسالك الأدب حتى أعجب به، ومال إليه ، وركب إلى مصر فرآها مشوهة بالحريق وقد تلفت فيها أماكن وسلمت أماكن، وتشعث الجامع، فشق عليه، وعاد وقد حضر إليه الأمير ابن مماتي والقاضي الفاضل، فأمر بإحضار أعيان المصريين الذين جلوا عن مصر في الفتنة وصاروا بالقاهرة، فتغمم لما نزل بهم، وسفه رأى شاور فيما فعله، وأمرهم بالعود إلى مصر، فشكوا ما حل بهم من الفقر وذهاب

الأحـوال وخراب المنـازل، وقـالوا: إلى أي مـوضـع نـرجع وفي أي مكـان نأوي؟ فقـال: لا تقولوا هذا، وعلي بـإذن الله حراستكم وإعـادتها إليكم على ما كـانت عليه وأحسن فـاستدعوا مني كـل ما لكم فيه راحـة، فهي بلدي وربما أسكن فيها بينكم. فشكروا له ودعوا.

وأمر فنـودي على الناس بـالرجـوع إلى مصر، فتراجعوا إليهـا شيئاً بعـد شيء.

وجعل أسـد الدين اجتماعـه بالخليفـة العاضد في الشبـاك على العادة، فـأول ما اجتمـع بـه قال لـه الأستـاذ صنيعة الملـك جـوهر، وكـان أكبر الأستاذيـن وأفصحهم لسـاناً، وهـو قائم على رأس العـاضد: يقـول لك مولانا لقـد كنا نؤثر مقامك عنـدنا أول طروقك بلادنا، ولكـن أنت تعلم الموانع عنـه، ولقد تيقنا أن اللـه عز وجـل ادخرك لنا نصرة على أعـدائنا، فقال أسد الـدين شيركوه: يامـولينا - بإمـالة اللام - واللـه لأنصحنك في الخدمـة ولأجعلن دولتـك بعون اللـه قاهـرة. فقال الأستـاذ : يقول لـك مولانا: الأمل فيك هذا وأكثر، ثم جددت له الخلع وأفيضت عليه، ونزل إلى داره.

وحسن عنـده موقـع الجليس ابـن عبد القـوي، قاضي القضـاة وداعي الدعـاة، وأثنى عليه وشكره، وقـال: لولا مذهبـه، فقال: إنه ولد بـالمغرب وله دالـة على الخليفة، ولـولا ضبطه حواصـل القصر لخرجت كلهـا لكرم العاضد، لكنـه يحترمه ويقبل مشورته. فـازدادت مكانته عند أسـد الدين وأقره على حاله.

واستبـد أسد الـدين بـأمور المملكـة، وغلب على الـدولة ، واستعمـل أصحابـه وثقاتـه على الأعمال، وأقطع البـلاد لعساكـره. ولما أكب النـاس عليه بالتواقيع قلق من كثرة ما يوقع وقال: أظن مولانا استخدمني كاتباً.

في رابع جمادى الأولى قتل الكامل شجاع بن شاور، والمعظم سليمان ابن شاور، وركن الإسلام نجم أخو شاور، وأحضرت رؤوسهم إلى أسد الدين شيركوه.

ولما بلغ نور الدين وزارة شيركوه للعاضد واستبداده بالأمركره ذلك وأمضه، وظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وأخذ يتحدث في ذلك، وأفضى به إلى الأمير مجد الدين ابن الداية. وأخذ يعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين، وكاتب العاضد في ذلك غير مرة، ويلتمس منه أن يبعث إليه أسد الدين، يريد بذلك إخراجه عن مصر فلم يسمح العاضد بإرساله لأنه دبر الأمور وقام بحمل أعباء المملكة من غير أن يغير على أصحاب العاضد شيئاً من أحوالهم، ولا أنكر عليهم أمراً من أمورهم، بل أقرهم على عوائدهم سوى أنه أقطع البلاد لأصحابه.

وتولى عنه التدبير ابن أخيه صلاح الدين وقام بمباشرتها، فصار إليه الأمر والنهي حتى مات أسد الدين، بعد أن استقر في الوزارة ثلاثة وستين يوماً، يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بخناق تولد له من إكثاره أكل اللحوم الغليظة، ودفن في الدار فلم تخرج له جنازة.

وكان شجاعاً قوياً ، جلداً عفيفاً، متألهاً، يحب أهل الخير، وله إيثار، وفيه ضبط وإمساك. وأصله من دوين، بليدة من عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وهو من قبيل الروادية إحدى بطون الهذبانية من قبائل الأكراد. وقدم هو وأخوه نجم الدين أيوب، وكان أسن منه، إلى بغداد واتصلا بخدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق من قبل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولازماه، فبعث بأيوب إلى تكريت ، وكانت إقطاعه، فأقره فيها دزداراً - ومعناه حافظ القلعة، فإن « دز» بالفارسي القلعة، « ودار» الحافظ ــ فأقام بها ومعه أخوه

شيركوه، ولـه به إقطـاع،إلى أن انهزم عماد الديـن زنكي مـن العراق، مـن قراجا الساقـي، ووصل إلى تكريت، فأمكنه أيوب مـن قلعتها ورفعه إليها بالحبال، وخدمـه هو وأخوه شيركوه، فاعتدها يداً لهما. ثـم أقام له السفن حتى عبر دجلة، وتبعه أصحابه فأحسن إليهم وسيرهم إليه.

فبلغ ذلـك الأمير مجاهد الديـن أستاذه فأنكر عليـه وأخرجه مـن قلعة تكريـت، فسار هو وشيركـوه إلى عماد الدين زنكي، وهـو يومئذ صـاحب الموصـل، فأكـرمهما وأقطعهما إقطاعـاً، وتقـدما عنـده، فلما ملك بعلبـك جعـل نجم الـديـن دزدارها، فـأقام بها إلى أن قتـل عماد الـدين زنكـي، وحصر عسكر دمشـق بعلبك لأخذها لصـاحب دمشق، مجير الديـن أبق ابن محمـد بن بوري بـن ظهير الديـن طغتكين الأتابك، فبعـث إلى سيف الديـن غازي بن عماد الديـن زنكي بالموصـل يعرفه ويطلب منـه عسكراً فلم يجبـه، فسلم بعلبك لصـاحب دمشـق على إقطاع، وصار أحـد أمراء دمشق.

وأما شيركوه فإنـه لما خدم عماد الدين زنكي تمكن منه،بـواسطة الوزير جمال الدين الأصفهاني، إلى أن قتل، فتعلق بخدمـة ابنه نور الدين محمود ابن زنكي وتخصص بـه، حتى عظمت منزلته عنده، وصـار معه إلى حلب فأقطعه وأنعم عليه، ثم أعطاه مـدينة الرحبة وتدمر إلى أن جهزه إلى مصر وعاد منهـا وهو كثير الـذكر لها، فخـافه نـور الديـن وصرفه عنـه وأعطاه مدينـة حمص، وجعله مقـدم عسكره إلى قـدم مصر وملكها ــ كما تقدم ـ إلى أن مات، فدفن بالقاهرة، ثم نقل منها إلى المدينة النبوية بعد مدة.

ولما احتضر قـال: مـن ههنا؟ فقـال الطـواشي بهاء الـدين قـراقـوش: عبدك قـراقوش. فقال: بـارك الله فيك، الحمد للـه الذي بلغنا مـن هذه الديـار ما أردنـا، ومتنا وأهلهـا راضون عنـا،أوصيكـم:«لا تفـارقوا سـور القاهرة حتى تطير رؤوسكم، واحذروا من التفريط في الأسطول».

ولما توفي أسد الدين افترق أهل القصر وحواشي الخليفة العاضد من الأستاذين وغيرهم فرقتين: فأما إحداهما ـ وكبيرهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر ـ فإنهم قالوا: قد مات أسد الدين المهدد به في الشرق والغرب ولم يحدث إلا خير، ومن الرأي أن نمسك مخلفته ونضيف إليها من جياد فرسان الغز ما تكون جملته ثلاثة آلاف فارس، ونقدم عليهم بهاء الدين قراقوش، وننزلهم بالشرقية، ونجعلها بأجمعها إقطاعاً لهم يسكنون بها، فيصيرون بيننا وبين الفرنج الذين طمعوا في البلاد، يقاتلون عن حرمهم وإقطاعاتهم، ويرتب مولانا من أجناد الديار المصرية من ينتفع به، ولا يقيم وزيراً تثقل وطأته ويشارك الخليفة في أمره، بل يجعل صاحب وساطة بين الناس وبين الخليفة.

وقالت الطائفة الأخرى: لا وحق الله ، ما يكون وزير مولانا إلا ابن أخي وزيره الذي هو منه وإليه، يعنون صلاح الدين، وإذا بقي المذكور أقام معه قراقوش وغيره من المعتبرين.

وكذلك وقع في عسكر أسد الدين ، فإن شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، والأمير عين الدولة ياروق الياروقي، وأخاه الأمير بهاء الدولة، والأمير قطب الدين خسرو بن تليل، والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب طلب كل منهم الوزارة لنفسه وجمع أصحابه ليغالب عليها.

واجتمع مماليك أسد الدين، وهم خمسمائة، على صلاح الدين وطلبوا وزارته، وتحدثوا بأن أسد الدين أوصى إليه، فبعث العاضد إليهم وسأل الأمراء من يصلح للوزارة، فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي وأرشده إلى تولية صلاح الدين، وكان العاضد قد مال إليه وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم لما اختلفوا، كما تقدم ذكره: والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين، وما بلغت غرضاً في حقه لقرب عهد

مقام عمه؟ فأرسل إليه وخلع عليه خلع الوزارة بالعقد والجوهر، وحنكة، ونعته بالملك الناصر، وذلك في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة.

وصفة الخلعة ثوب أبيض دبيقي بطرازين ذهب، وطيلسان بطراز ذهب دقيق، وعمامة بيضاء مذهبة،وفي عنقه العقد الجوهر وقيمته عشرة آلاف دينار، وقد تقلد سيف الوزارة وقيمته خمسة آلاف دينار. وركب حجرة صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، وعليها سرفسار ذهب مجوهر، وأعلاقها من سبته، وفي عنقها مشدة بيضاء برأسها مائتا حبة جوهراً، وفي أربع قوائمها أربعة عقود من جوهر، وعلى رأسه قصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة ومشدة بيضاء بأعلام ذهب. وحمل بين يديه عدة بقج فيها أنواع من الثياب ، وقيد معه أيضا عدة خيول، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض بخط القاضي الفاضل ومن إنشائه، وقرأه الجليس ابن عبد القوي. وهو كبير جداً وعلى رأسه بخط العاضد: « هذا عهد أمير المؤمنين إليك: وحجته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضا بيمينك، ولمن مضى بجدنا رسول الله أحسن أسوة، ولمن بقي أعظم سلوة. (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) (القصص ٨٣). فكان آخر منشور كتب عن العاضد.

ولما نزل صلاح الدين إلى دار الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولا خدموه، فسعى الفقيه عيسى الهكاري في الإصلاح بينه وبينهم، وبدأ بالمشطوب فقال له: هذا الأمر لايصل إليك مع عين الدولة والحارمي (وابن تليل)، ثم قصد الحارمي وقال له: هذا صلاح الدين ابن أختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك، ومازال بهم حتى مالوا إليه وأطاعوا بأجمعهم إلا عين الدولة فإنه قال: لا أخدم يوسف أبداً، وخرج من

القاهرة بجماعة وصار إلى نور الدين بالشام.

فلما بلغ نور الدين استيلاء صلاح الدين أقام ثلاثة أيام لايقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه ذلك وأغضبه.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وساس الأمور، وكاتب الأطراف، وأقبل على الجد، وتاب عن الخمر، وأعرض عن اللهو، وتقرب إلى الخليفة العاضد بما يرضيه فأحبه وأدناه حتى كان يدخله إليه القصر راكباً ويقيم عنده بالقصر عدة أيام . وعظم في الدولة حتى حسده الأمراء وباينه جماعة منهم وتوجهوا إلى الشام، وشرع في استمالة قلوب الناس إليه فبذل فيهم المال وأخرج ما كان في خزائن عمه أسد الدين، واستدعى من العاضد فأمده بشيء كثير من المال، فكان أمره في زيادة وقوة وأمر العاضد في نقص وضعف.

وركب العاضد ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف في غرة شهر رمضان، وحمل العادل أبو بكر السيف، ثم ركب أيضا جمعتين في شهر رمضان إلى الجامع الأزهر والجامع الأنور على العادة، وركب في عيد الفطر.

وأرسل إلى نور الدين يسأله في إرسال أبيه وأخيه فلم يجبه إلى ذلك.

وصارت الخطبة بديار مصر للعاضد ومن بعده للملك العادل نور الدين، وهو في الظاهر ملك الديار المصرية، وصلاح الدين لايتصرف إلا عن أمره كالنائب في الأمر عنه، ونور الدين لايفرده بكتاب، بل يكتب : « الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا»، ويجعل علامته على رأس الكتاب تعظيماً لنفسه وترفعاً عن أن يكتب اسمه.

وعندما بلغه وفاة أسد الدين شق عليه استيلاء صلاح الدين، وتتبع أصحابه وأصحاب أسد الدين ، وأخذ إقطاع صلاح الدين وإقطاع أسد الدين، ومنع نوابه من التصرف في حمص، وأبعد أهاليهم واستثقلهم وطردهم عنه، وكتب إلى الأمراء بمصر بمفارقته وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره، وشرع يذمه ويذكره بالسوء ويعنته في الطلب بحمل الأموال إليه، وصار كثيراً ما يقول: « ملك ابن أيوب»، ويستعظم ذلك احتقاراً له.

وثقل ذلك على أهل الدولة وحواشي الخليفة العاضد ، فإنه أقطع أصحابه أجل البلاد وقواهم، وأبعد أهل مصر وأضعفهم، واستبد بجميع الأمور ومنع العاضد من التصرف، ففطن العاضد لما يريد من إزالة الدولة، فثار الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر، وهو يومئذ من أكابر خدام القصر، وبعث بمكاتبة إلى الفرنج يستنجد بهم على الغز، ويحثهم على قصد البلاد ليخرج إليهم صلاح الدين بعساكره فيثور عند ذلك بعبيد مصر وطوائف العسكر، ويصير صلاح الدين محصوراً بين الفرنج وبينهم فيأخذونه ويتلفون من معه، ووافقه على ذلك جماعة.

وبعث رجلاً بالكتاب إلى الفرنج بعد ما جعله في نعلٍ كي لا يعثر عليه، فلما وصل الرجل إلى البئر البيضاء(١٥٦) قريباً من بلبيس، ظفر به بعض أصحاب صلاح الدين ومعه نعلان جديدان في يده، فارتاب لما رآه من سوء حاله وحسن النعلين، وعلم أنهما لايليقان به، ولو كانا من ملابسه لكان تبين فيهما أثر الاستعمال، فأخذهما منه وشقهما فوجد فيهما الكتب إلى الفرنج، فتقرب بذلك إلى صلاح الدين ، وحضر بالرجل والكتب إليه، فكتم ذلك، وتتبع من كتب الكتب حتى أحضر إليه برجل يهودي، فلما خاف منه أسلم وأخبره الخبر.

فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة وخشي على نفسه، فلزم القصر وامتنع من

الخروج مدة وصلاح الدين لايلتفت إليه، فاغتر بإعراضه عنه وخرج إلى منظرة له على النيل، بستان بناحية الخرقانية قريباً من قليوب، فأرسل إليه صلاح الدين بجماعة من أصحابه هاجموه وقتلوه، وصاروا إليه برأسه، وذلك في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وجعل صلاح الدين زمام القصر عوضه الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، فغضب لقتله السودان وحرك منهم ما كانوا يتكتمونه، فاجتمعوا لحرب صلاح الدين في سادس عشرينه، صبيحة قتل مؤتمن الخلافة، وقد صاروا في جمع كثير من الأمراء المصريين وعوام البلد يزيد على الخمسين ألفاً، وزحفوا إلى دار الوزارة.

فبدر إليهم فخر الدين شمس الدولة توران شاه، وركب صلاح الدين بعساكره وقد تجمعت الريحانية والجيوشية والفرجية ومن انضاف إليها في بين القصرين، وخرجت إليهم الأرمن، فوقع بين الفريقين قتال عظيم استظهر فيه العبيد على الغز، والعاضد في المنظرة يشرف على الوقعة، فلما تبين الغلب للعبيد وكادوا أن يهزموا الغز رمى أهل القصر بالنشاب والحجارة حتى امتنعوا عن مقاتلة العبيد، فنادى شمس الدولة النفاطين وأمرهم بإحراق المنظرة التي فيها العاضد فطيب قارورة وصوب على المنظرة بها، فإذا بباب الطاق قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة، أحد الأستاذين الخواص، وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم. فلما سمع العبيد ذلك، وكان قد قتل أحد مقدميهم، وبعث صلاح الدين في أثناء محاربته لهم إلى حارة السودان خارج باب زويلة، المعروفة بالمنصورة، فأحرقها وتلفت أموالهم وهلكت أولادهم وحرمهم ، فضعفت لهذه الأمور أنفس العبيد، وانهزموا بعد ما ثبتوا يومين، وتبين لهم الغلب، فركب الغز أقفيتهم يقتلون ويأسرون، إلى أن وصوا إلى السيوفية وثبتوا هنالك ، فألقى شمس الدولة النيران في المواضع التي امتنعوا بها.

وأحرق أيضا دار الأرمن التي كانت بين القصرين، وكان بها خلق كثير من الأرمن كلهم رماة لهم جارٍ، وكانوا في هذه الحروب قد أنكوا الغز بشدة رميهم ومنعوهم أن يتجاوزوا من مواضعهم إلى محاربة العبيد، فلما احترقت عليهم الدار لم يكد يفلت منهم أحد، فالتجأ العبيد إلى عدة أماكن، وكلما امتنعوا بموضع ألقى فيه الغز النار وقاتلوهم، حتى صاروا إلى باب زويلة وأخذت عليهم أفواه السكك وقد وهنوا ولم يجدوا لهم ملجأ. فصاحوا وطلبوا الأمان، فأمنوا على ألا يبقى منهم أحد بالقاهرة، فخرجوا بأجمعهم إلى الجيزة. ومال الغز على أموالهم وديارهم واستباحوا جميع ما فيها ، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة، فما هو إلا أن صاروا بالجيزة حتى عدى إليهم شمس الدولة بالعسكر فأبادهم حصداً بالسيف، ولم ينج منهم إلا الشريد. وأمر صلاح الدين بتخريب المنصورة وصيرها بستانا، فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر.

وقوي صلاح الدين ، وتلاشى العاضد وانحل أمره، ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة، ووالى صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعفه، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك، حتى أن العاضد كان في بعض الأيام بالبستان الكافوري وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرساً وهو راكب، فقال: ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه، وشق خفيه ورمى بهما وسلم إلى القاصد الفرس وعاد إلى قصره ماشياً، فلزم مجلسه ولم يعد بعدها يركب حتى مات.

وأخرج صلاح الدين خاله الأمير شهاب الدين الحارمي إلى الصعيد يتبع من فر من العبيد فأفناهم، ولم يبق منهم بديار مصر إلا من اختفى، بعد أن كانت البلاد كلها لاتخلو ضيعة ولا محلة من أن يكون فيها مكان معد للعبيد، محمي لا يدخله والٍ ولا غيره. وكان منهم ضرر على الناس.

وأخـذ صـلاح الـدين في القبـض على دور العبيـد والأرمـن والأمـراء، وأسكن فيها أصحابه معه بالقاهرة.

وكـان قاع النيـل في هذه السنـة ست أذرع وثماني أصـابع، وبلـغ ثمان عشرة ذراعاً(١٥٧).

سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها قـدم من الشـام إخوة صـلاح الدين يـوسف وعيـاله، وقيـل كان قدومهم في سنة أربع .

فيها تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خوفاً مـن صلاح الدين ونور الدين، عندمـا بلغهم تمكنـه من ديـار مصر وقطع آثـار جند المصريين، فكـاتبوا فـرنـج صقـليـة وغيرهـم واستنجـدوا بهم، فـأمـدوهـم بـالمال والسـلاح والرجـال، وساروا بـالدبـابات والمنجنيقـات إلى دمياط، فنـزلوا عليهـا في مستهـل صفـر بألـفٍ ومـائة مـركـب، مـابين شيني ومسطـح وشلنـدي وطريدة، وأحاطوا بها براً وبحراً.

فبعث صلاح الدين بالأمير تقي الديـن (عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ ابن أخـي صلاح الـدين) ، وأتبعـه بالأمير شهـاب الديـن الحارمي، في عساكر إلى دمياط، وأمدهـم بالمال والميرة والسلاح.

وألح الفـرنج على أهـل دمياط وضايقـوهم، والنـاس فيها صـابرون في محاربتهـم، وبعث صـلاح الديـن إلى نور الـدين . يستنجـده ويعلم أنـه لايمكنـه الخروج من القـاهرة إلى لقـاء الفرنـج خوفـاً من قيـام المصريين عليه، فجهـز إليه نور الـدين العساكـر شيئاً بعد شيء، وخـرج بنفسه إلى بلاد الفرنج بالساحل وأغار عليها واسـتباحها.

واستمر الفرنج على دمياط أحداً وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها في الحادي والعشرين ، وقيل في الثالث والعشرين، من ربيع الآخر، خوفاً على بلادهم من نور الدين ولفناءٍ وقع فيهم، وغرق من مراكبهم نحو الثلاثمائة مركب. فأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها.

وبلغت النفقة من صلاح الدين على هذه النوبة ألف ألف دينار مصرية، وكان يقول: مارأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

وورد كتاب نور الدين إلى العاضد يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط، وكان صلاح الدين سير إليه يبشره برحليهم، وسير إليه العاضد يستقيله من الأتراك خوفاً منهم ويطلب الاقتصار على الملك الناصر صلاح الدين، فتضمن كتابه مدح الأتراك والثناء عليهم.

وفيها أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يبعث إليه بأبيه نجم الدين أيوب بن شاذي، فأرسله إليه في عسكر، وسار معه كثير من التجار ممن له هوى في مصر وغرض في صلاح الدين. فخرج ابنه صلاح الدين إلى لقائه ومعه الخليفة العاضد إلى صحراء الإهليلج خارج باب الفتوح ولقيه هناك، ولم تجر العادة بخروج الخليفة إلى لقاء أحد، وذلك في رابع شهر رجب، ولقبه العاضد بالملك الأوحد، وزينت القاهرة ومصر لقدومه فكان من الأيام المذكورة ، وبالغ العاضد في احترامه والإقبال عليه. ونزل اللؤلؤة.

وكان سبب تجهيز الملك العادل نور الدين لنجم الدين أيوب كثرة ورود مكاتبة الخليفة المستنجد بالله العباسي عليه من بغداد بمعاتبته على تأخير إقامة الخطبة العباسية بمصر، فوالى نور الدين كتابة الملاطفات إلى صلاح الدين يأمره بذلك، وهو يعتذر إليه من ترك الخطبة بما يخافه

مـن المصـريين . فـوردت رسـل المستنجـد إلـى دمشق بـالاستحثاث والعـزم على إقامـة الخطبة بمصر ولابـد ، فرأى نـور الديـن أن مثل هـذا المهم لايقوم بـه إلا نجم الديـن أيوب، وكـان يتولى قلعة بعلبك، فأرسل إليه وقرر معه الأمر وسيره.

وكـان وصـولـه إلى القـاهرة لسـت بقين مـن رجـب، وقيـل في جمادى الآخـرة، فقـررت له ولايـة الإسكنـدريـة وولاية دميـاط والبحيرة. وأقطـع الأمير فخـر الديـن شمـس الدولـة تـوران شاه، ابـن والـد الملوك الملـك الأفضل نجم الدين أيوب، قوص وأسـوان وعيذاب، وكانت عبرتها يومئذ في تلك السنة مـائتي ألف دينار وستـة وستين ألف دينار، فاستنـاب عنه في قوص الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار.

فيها ثار الأمير عباس بن شاذي بمرج بني تميم(١٥٨) من أعمال قوص، ومنع رسـلان دغمش المتوجـه لجباية خراج قـوص من التوجـه، واستباح عسكره.

وفيها أبطـل صلاح الديـن الأذان « بحي على خير العمـل محمد وعلي خير البشر»، فكانت أول وصمـة دخلت على الدولة، ثم أمـر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعـة الخلفاء الراشدون: أبو بكـر، وعمر ، وعثمان، ثم علي، وذلك يوم الجمعـة لعشر مضين من ذي الحجة.ثم أمر أن يذكـر العاضد في الخطبة بكلام التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك. لاغير.

وفي يوم الاثنين ، بعـد طلوع الشمـس، الثاني عشر مـن شوال جـاءت زلـزلة عظيمـة مهولـة بدمشـق سقـط منها بعـض شرف الجامع الأمـوي وتشقق رأسا المنارتين الشرقيةوالغربية، وكـانت المنارة الشمالية تهتز اهتزاز السعفة في الريح العاصفة، ثم جاءت زلزلة أخرى بعد ساعة، ثم جاءت

جاءت زلزلة ثالثة بعد العصر، وأثرت هذه الزلزلة آثاراً شنيعة بحلب، وبعلبك، وحمص، وحماة، وشيزر، وكفر طاب، وتل بارين، والمعرة، وتل باشر، وعزاز، وأفامية، وأبو قبيس، والمنيطرة، وحصون الباطنية بأسرها، وامتدت إلى الجزيرة والموصل، ونصيبين، وسنجار، ودنيسر، وماردين، والرها، وحران، ورأس العين، والرقة، وقلعة جعبر، وقلعة نجم، وبالس، ومنبج، وبزاعا، وعين تاب، وحارم، وأنطاكية، وما خلفها من الثغور وبيروت وأطرابلس، وعرقة، وطرطوس، وجبلة، والمرقب، واللاذقية، وعكا، وصور، وغيرها، فمنها ما دمر بأسره ومنها ما ذهب أكثره ومنها ماذهب بعضه، ومنها ما تشعث. وهلك بحلب عالم كثير من الناس وبعلبك، ولم يهلك بدمشق غير واحد أصابته قطعة من حجر فسقط على درج جيرون فمات، وجاءت بدمشق زلازل في عدة ليالي وأيام إلى يوم الجمعة عاشر ذي القعدة.

فيها ولي القاضي المفضل أبو القاسم هبة الله بن كامل قضاء القضاة في ذي الحجة، فرتب صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري بحكم القاهرة وابن كامل بحكم مصر.

سنة ست وستين وخمسمائة

فيها رفع صلاح الدين جميع المكوس بديار مصر وأبطلها.

وفيها أمر بهدم المعونة بمصر فهدمت، وعمرها مدرسة للشافعية، ولم يكن قبل ذلك بديار مصر مدرسة لأحد من الفقهاء فإن الدولة كانت إسماعيلية، وهذه المدرسة بجوار جامع عمرو بن العاص وعرفت أخيراً بالمدرسة الشريفية، وهي أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العلم، وأنشأ دار الغزل مدرسة للمالكية بجوار الجامع أيضا، وتعرف اليوم هذه المدرسة بالقمحية.

وفيها عزل صلاح الدين قضاء مصر من الشيعة، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي، وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر بعد ما أحضره من المحلة، وخلع عليه في يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة، فعزل من كان بها من القضاة واستناب عنه قضاة شافعية. ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعي، ومذهب مالك بديار مصروتظاهر الناس بهما، واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره.

وفيها ابتدأ صلاح الدين في غزو الفرنج، فجمع الجنود والعساكر، وخرج في أحسن زي إلى بلاد عسقلان والرملة فشن الغارات عليها، وهجم ربض مدينة غزة، وواقع ملك الفرنج على الداروم ففل جمعه وقتل منه كثيراً من الفرنج، ونجا ملكهم بحشاشته. وعاد صلاح الدين مظفراً غانماً.

ثم خرج في النصف من ربيع الأول ومعه مراكب مفصلة على الجمال، فسار إلى أيلة، وكان بها قلعة منيعة قد ملكها الفرنج، فألقى المراكب المحمولة معه بعد إقامتها وإصلاحها في البحر، وشحنها بالرجال والسلاح، وضايق قلعة أيلة في البر والبحر حتى افتتحها في العشرين من ربيع الآخر، وقتل من بها من الفرنج، وسلمها لثقات من أصحابه أقامهم فيها وقواهم بالسلاح والميرة ونحو ذلك.

ووردت عليه قافلة أهله فسار بهم إلى القاهرة، ودخلها في سادس عشرين جمادي الأولى. ثم سار إلى الإسكندرية لمشاهدة سورها وترتيب أمورها، فدخلها وأمر بإصلاح السور والأبراج، فعمر ما تهدم منه.

وفيها اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب منازل العز بمصر، في النصف من شعبان، وجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها عدة أماكن،منها الروضة تجاه مصر.

وفيها خرج الأمير شمس الدولة توران شاه إلى بلاد الصعيد، وأوقع بالعربان، وغنم منها غنائم تجل عن الوصف، وعاد إلى القاهرة.

وفيها ابتدأ صلاح الدين بعمارة السور الجديد على القاهرة.

وفيها كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وانكفت أمراء المصريين عن التصرف ومنعوا من كل شيء، فبسطوا ألسنتهم بالقول مع ما عليه صلاح الدين وأصحابه من التعمل في محو آثار الدولة الفاطمية وإزالة رسومها، وخلع العاضد وقتله، والدعاء للخليفة العباسي، فلما رأى أمره قد قوي وأوتاد دولته قد تمكنت من البلاد عزم على إظهار ما يخفيه، فواعد أمراء الشاميين على أن يمضوا إلى بيوت الأمراء المصريين في الليل، ويقف كل أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر، فإذا خرج للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذه لنفسه.

فأصبحواواقفين على منازل الأمراء المصريين بأجنادهم، فما هو إلا أن يخرج الأمير من منزله ليصير إلى الخدمة على عادته فإذا بالأمير الشامي الذي قد عين له وقد قبض عليه وأوثقه، وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه، وما يتعلق بصاحبها وينسب إليه من أهلٍ ومالٍ وخيولٍ وعبيدٍ وجوار، وماله من إقطاع، فلم ينتشر الضوء حتى علت الأصوات وارتفعت الضجات وثار الصياح من كل جانب، وصار الأمراء الشاميون في سائر نعم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم، فآل أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يسكنها، وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها، وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعاً له، ونحو ذلك من أنواع الهوان.

وبلغ ذلك العاضد فشق عليه وأرسل إلى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض على الأمراء، فبعث إليه بأن هؤلاء كانوا عصاة لأمرك والمصلحة قتلهم وإقامة غيرهم ممن يمتثل أمرك. فسكت.

وتقوى صلاح الدين وعظم أمره، وذهب من كان يخشاه ويخافه، وأخرج أكثر إقطاعات الأجناد بمصر، وزاد الأمير شمس الدولة على إقطاعه ناحية بوش ودهشور والمنوفية وغير ذلك. وانحل أمر العاضد.

فيها قبض صلاح الدين على جميع بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده، بحيث لم يبق له شيئاً، وقبض على القصور وسلمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وهو يومئذ زمام القصور من بعد قتل مؤتمن الخلافة، وصار له في القصر موضع، فلا يدخل شيء من الأشياء إلى القصر ولا يخرج منه إلا بمرأى منه ومسمع، وضيق على أهل القصر حتى قبض في هذه الأيام على جميع ما فيها، وصار العاضد معتقلاً تحت أيديهم.

وفيها أمر صلاح الدين بتغييرشعار الفاطميين، وأبطل ذكر العاضد من الخطبة وكان الخطيب يدعو للإمام أبي محمد، فتخاله العامة والروافض العاضد وهو يريد أبا محمد الحسن المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين الخليفة، ثم أعلن بالعزم على إقامة الخطبة العباسية.

وفيها مات الشيخ الموفق يوسف بن محمد أبو الحجاج ، ابن الخلال ، كاتب الدست وفي يوم الجمعة سلخ ذي الحجة عزم صلاح الدين على الإعلان بالأمر وكشف الغطاء فأحجم الخطباء عن ذلك تقية وحذراً، فانتدب لذلك رجل من أهل المغرب يقال له اليسع بن عيسى بن حزم ابن عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقي الأندلسي، فقصد المنبر مستعداً من الحديد بما يدفع عن نفسه إن أراده أحد بسوء، فخطب ودعا

للخليفة أبي محمد الحسن المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وذكر نسبه إلى العباس، وقيل بل كان ذلك في السنة الآتية (١٥٩).

سنة سبع وستين وخمسمائة

في أول المحرم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية لخلو هذه السنة من نوروز. ومنذ نقلت السنة في أيام الأفضل أمير الجيوش، كما تقدم ذكره، لم تنقل، وانسحب الأمر حتى تداخلت السنون، وصار التفاوت بين العربية والقبطية سنتين.

وفي رابعه جلس العاضد بعد الإرجاف بأنه اثخن في رمضه (١٦٠)، فشوهد على ما حقق الإرجاف من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء وظهور الحمى، وقيل إنها تفشت بأعضائه. وأمسك طبيبه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه، وامتنع من مداواته، وخذله مساعدة عليه للزمان، وميلا مع الأيام.

وفيها نزل نجم الدين أيوب بجماعة معه إلى الجامع وأمر الخطيب ألا يذكر العاضد، وقال إن ذكرته ضربت عنقك، فقال لمن أخطب؟ فقال للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، فلما خطب لم يذكر العاضد ولا غيره، بل دعا للأئمة المهديين والملك الناصر. فقيل له في ذلك، فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، وفي الجمعة الثانية أفعل ما يجب فعله وأذكره، فلما بلغ العاضد ذلك قال في الجمعة الأخرى يعينون اسم الرجل المخطوب له. فلما كانت الجمعة الثانية، وهي سابعه، خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله. وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة للفاطميين.

وذلك أنه لما ثبتت قدم صلاح الدين بالديار المصرية وأزال المخالفين له، وضعف أمر الخليفة العاضد بقتل رجاله وذهاب أمواله، وصار الحكم على قصره قراقوش، طواشي أسد الدين، نيابة عن صلاح الدين، وتمكنت عساكر نور الدين من مصر - طمع في أخذها. وكتب إلى صلاح الدين - وفي ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لايمتنع عليه - يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للمستضيء العباسي. فاعتذر بالخوف من قيام المصريين عليه وعلى من معه لميلهم - كان - إلى الفاطميين، ولأنه خاف من قطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمسضيء أن يسيرنور الدين إلى مصر وينزعه منها. فلم يقبل منه نور الدين وألح عليه وألزمه إلزاماً لم يجد مندوحة عن مخالفته، وساعدته الأقدار بمرض العاضد المرض الذي غلب على الظن أنه لا يفيق منه، فجمع صلاح الدين أصحابه إليه واستشارهم في ذلك، فاختلفوا، فمنهم من أشار بقطع خطبة العاضد، ومنهم لم يشر بها.

وكان قد دخل إلى مصر رجل يعرف بالأمير العالم، يزعم أنه عباسي فاطمي من أيام الصالح بن رزيك، ومازال يتقل في قوالب الانتساب وأساليب الاكتساب، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأن أحداً لا يتجاسر يخطب للمستضيء قال:أنا ابتدىء الخطبة له. فصعد يوم الجمعة المنبر بالجامع العتيق وخطب للمستضيء قبل الخطيب فلم ينكر أحد عليه ولا تحرك له، فتيقن حينئذ صلاح الدين ذهاب قوة القوم ومن وال يغريهم، فتقدم إلى جميع الخطباء بأن يخطبوا في الجمعة الآتية للمستضيء، وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر، فكان الذي ابتدأ بالخطبة للمستضيء في الجامع العتيق بمصر أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن الحسين بن أبي المضاء الدمشقي. وكان قدم به أبوه إلى مصر فنشأ بها وقرأ الأدب، ورحل إلى دمشق وبغداد وتفقه، وعاد إلى مصر، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين فولاه الخطابة بمصر، ثم بعثه رسولا إلى بغداد، فمات بدمشق، وولي الخطابة بعده الشيخ أبو إسحاق العراقي.

فكتم أهل العاضد ذلك عنه لشدة ما به من المرض، وكان ذلك من أعجب ما يؤرخ، فإن الخطبة بديار مصر أول ما خطب بها للمعز لدين الله، أول خلائف الفاطميين بمصر، عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو، كما تقدم ذكره، وكان الذي قطع خطبة العاضد، آخر خلائفهم، رجل عباسي، ومثله في الغرابة أن الفاطميين لم يتمكنوا من الديار المصرية حتى قصدوها بعساكرهم مرتين مع القائم بن المهدي ولم يفتح، وفتحوها في الثالثة على يد جوهر، وكذا حصل في زوالهم من مصر فإن شيركوه قصد مصر مرتين ورجع، ثم قصدها المرة الثالثة واستقر بها حتى أزالت عساكره الدولة.

في ثامنه أمر صلاح الدين بركوب عساكره كلها قديمها وجديدها، بعد أن تكامل سلاحهم وخيولهم، وخرج لعرضهم، وهي تمر عليه موكباً بعد موكب وطلبا بعد طلب - والطلب بلغة الغز هو الأمير المقدم الذي له علم معقود، وبوق مضروب، وعدة من الجند ما بين مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارس - واستمر طول النهار في عرضهم، وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلباً والغائب منها عشرون طلباً، ووتقدير العدة أربعة عشر ألف فارس.

في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم، عشية يوم عاشوراء ، نفذ حكم الله المقدور، وقضاؤه الذي يستوي فيه الآمر والمأمور، في العاضد لدين الله، في الثلث الأول من ليلة الاثنين يوم عاشوراء، وقامت عليه الواعية، وعظمت ضوضاء الأصوات النادبة، حتى كأن القيامة قد قامت. وكان بين وضع اسمه من أعواد المنابر ورفع جسمه على أعواد النعش ثلاثة أيام، فاعتنى به صلاح الدين عن أن يتبذل أو يهان بعد الموت، وكان من معه من الأمراء يريدون ذلك، وأمر بكف الأيدي واعتقال الألسنة عن التعرض إليه بسوء، وركب معزياً لأهل القصر، وأمر بتجهيزه وقد أظهر الكآبة والحزن وأجرى دمعه، ووعد أهله بحسن

الخلافة على أيتام العاضد وهم ثلاثة عشر ولداً: أبو الحسن، وأبو سليمان داود، وأبو الحجاج يوسف، وأبو الفتوح، وأبو إسحاق إبراهيم، وأبو الفضل جعفر، وأبو داود موسى، وأبو زكريا يحيى، وعبد القوي، وعبد الكريم، وعبد الصمد، وأبو اليسر، وأبو القاسم عيسى.

وأمر بإنشاء الكتب إلى البلاد بذكر وفاة العاضد، وأن الخطبة استقرت للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين العباسي، وألا يخوض أحد في شأن العاضد ولا يطعن في سلطان، وكتب إلى نور الدين بموت العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء كما أشار به مع ابن (أبي) عصرون.

وفي حادي عشره عمل الباقي بالإيوان، وحضر السلطان صلاح الدين، وكان محفلا حافلا وجمعاً حاشداً، فيه خلق من الزوايا وأهل التصوف وغيرهم، واهتم بما يحمل من أطعمة العزاء. وكانت النفوس متطلعة إلى إقامة خليفة بعد العاضد من أهله يشار إليه بالأمر ، فلم يرض ذلك صلاح الدين.

ومات العاضد وعمره إحدى وعشرون سنة غير عشرة أيام، منها في الخلافة إلى أن أعيدت دولة بني العباس في مستهل المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً، وكان كريما سمحا لطيفاً، لين الجانب، يغلب عليه الخير وينقاد إليه، وكان أسمر حلو السمرة كبير العينين أزج الحاجبين، في أنفه خنس وفي منخريه انتشار ، وفي شفتيه غلظ.

وترك العاضد من الولد: الأمير داود، والأمير عليا، ويقال أبوعلي، والأمير عبد الكريم، وتميماً ، وموسى، وعبد القوي، وجعفر، وعبد الصمد، وأبا الفتوح، وحيدرة، وإبراهيم، ويحيى ، وجبريل، وعيسى، وسليمان، ويوسف[١٦١]غير أن أيامه كانت ذات مخاوف وتهديدات، وقاسى شاوراً وبلوائه ومخاتلاته، ثم محاصرة الفرنج ومضايقته، وفي أيامه

احترقت مصر وذهبت أموال أهلها، وزالت نعمتهم بالحريق والنهب، وكان متغالياً في مذهبه شديداً على من خالفه، ولم يكن فيمن ولي من أبائه من أبوه غير خليفة سواه، ومن قبله الحافظ، وما عداهما فلم يل منهم أحد الخلافة إلا من كان أبو خليفة.

وقال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء: اكتب لنا ورقة تذكر فيها ألقاباً تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب، فكتب لهم ألقاباً كثيرة، وآخر ما كتب في الورقة العاضد، فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد، وهذا من عجيب الاتفاق.

قال: وأخبرني أحد علماء المصريين أيضاً أن العاضد رأى في آخر دولته في منامه كأنه بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغته، فلما استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبري الرؤيا وقص عليه المنام، فقال له: ينالك مكروه من شخص هو مقيم في هذا المسجد، فطلب والي مصر وأمره يكشف عمن هو مقيم في المسجد المذكور، وكان العاضد يعرفه، فمضى الوالي إلى المسجد فرأى فيه رجلا صوفيا، فأخذه ودخل به على العاضد، فلما رآه سأله من أين هو، ومتى قدم البلاد، وفي أي شيء قدم، وهو يجاوبه عن كل سؤال، فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه أعطاه شيئاً وقال له: ياشيخ ادع لنا، وأطلق سبيله، فنهض من عنده وعاد إلى المسجد، فلما استولى صلاح الدين وعزم على القبض على العاضد واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثرة الوقوع في الصحابة، وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد - وهو نجم الدين الخبوشاني - فإنه عدد مساوىء القوم وسلب عنهم الإيمان، وأطال الكلام في ذلك، فصحت بذلك رؤيا العاضد.

وحكى الشريف الجليس أن العاضد طلبه يوماً، فلما دخل عليه رأى عنده مملوكين من الترك عليهما أقبية، فسأله عنهما، فقال له: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا، فلما دخل الغز كانت هيئتهم كهيئة هذين المملوكين.

ومن العجيب أنه لم يمت بالقصر منهم إلا المعز أولهم بمصر والعاضد آخرهم، وعدتهم أربعة عشر دفنوا كلهم بالتربة في مجلس ، فلو اتفق أنه مات آخر لم يوجد له عندهم مكان يدفن فيه لامتلائه بقبور الأربعة عشر، وهذا أيضا من عجيب أمرهم.

ولما مات العاضد استولى صلاح الدين على جميع ما كان في القصر، فإن قراقوش قام بحفظه، فلم يجد فيه كثير مال، لكنه وجد فيه من الفرش والسلاح والذخائر والتحف ما يخرج عن الإحصاء، ووجد فيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر ما لا يوجد عند غيرهم مثله، منها جبل ياقوت زنته سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً، ونصاب زمرد طوله أربعة أصابع في عرض كبير، ولؤلؤ كثير،وإبريق من حجر مائع يسع مائه رطل ماء، وسبعمائة يتيمة جوهر، والطبل الذي صنع لإزالة القولنج، وكان بالقرب من موضع العاضد، فلما احتاطوا بالقصر ظنوه عمل للعب فسخروا من العاضد، وضرب عليه إنسان فضرط فتضاحك من حضر منهم، ثم ضرب عليه آخر فضرط، ثم آخر من بعد فضرط، حتى كثر ذلك فألقاه من يده فتكسر ، وقيل للسلطان عليه وأنه عمل للقولنج فندم على كسره.

ووجد من الكتب النفسية مالا يعد، ويقال إنها كانت ألف ألف وستمائة ألف كتاب، منها مائة ألف مجلد بخط منسوب، وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، فباع السلطان جميع ذلك، وأقام البيع فيها عشر سنين.

ونقل أهل العاضد وأقاربـه إلى مكان بالقصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج سائر ما في القصر من العبيد والإمـاء فباع بعضهم وأعتق بعضهم ووهب منهم، وخلا القصر من ساكنه كأن لم يغن بالأمس.

وكانت مدة الـدولة الفاطمية بالمغرب ومصر منـذ دعي للمهدي عبيد الله (١٦٢) برقادة مـن القيروان إلى حين قطعت من ديار مصر مـائتي سنة وتسعـاً وستين سنة وسبعـة أشهـر وأيامـا، أولها لإحـدى عشرة بقيت مـن ربيع الآخـر سنة سبـع وتسعين ومائتين، وآخـرها سلـخ ذي الحجة سنـة ســت وستين وخمسمائة، منها بـالمغـرب إلى حين قـدوم القائد جـوهـر إلى مصر إحدى وستون سنة وشهـران وأيام، ومنها بالقاهرة ومصر مـائتا سنة وثماني سنين. وما أعجب قول المهذب ابن الزبير في مدح العاضد:

بـــل عـــبادللـــدنيـــا الجهال
ويـــدا على الـــديـــن الجلال

أصبحـــت في الخلفـــاء را
بـــع عشرهـــم، وهـــو الكمال

فإن الشيء إذا كمـل بدأ نقصه، وبالعـاضد تم ملـك الفاطميين وزال بموته.

قال ابـن سعيد: ولم يسمع فيما بكيـت به دولـة بعد انقراضهـا أحسن من قصيدة عمارة بن علي اليمني الذي قتله صلاح الدين، وهي:

رميـت يـــادهـــر كـــف المجـــد بـــالشلـــل
وجيــــدة بعـــد حســـن الحلـــي بـــالعطـــل

سعيت في منهج الرأي العثور، فإن
قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الأقنى، فأنفك لا
ينفك ما بين قرع السن والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلا، أما تمشي على مهل!
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة
على فجيعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر، فأولتني خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف، ومن
كمالها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حين سما
رأس الحصان بهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش مكرمة
وخلة خرست من عارض الخلل
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زر ساحة القصرين، وابك معي
عليهما، لا على صفين والجمل
وقل لأهلها: والله ما التمت
فيكم جراحي، ولا قرحي بمندمل
ماذا عسى كانت الإفرنج فاعلة
في نسل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتم عليها، واسم جدكم
محمد، وأبوكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود، وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجهي خوف منتقد
من الأعادي، ووجه الود لم يمل
أسلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على مأثرات من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أضحت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض في وشي وفي شية
مثل العرايس في حلي وفي حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للأنس والجن
والضيف المقيم، وللطاري من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذي عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول

وللجوامع من أحباسكم نعم
لمن تصدر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا فمعقلها
منكم فأضحت بكم محلولة العقل
والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم
ولا نجا من عذاب الله غير ولي
ولا سقي الماء من حر ومن ظمأ
من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التي خلقت
من خان عهد الإمام العاضد بن علي
أئمتي، وهداتي، والذخيرة لي
إذا ارتهنت بما قدمت من عملي
تالله لم أوفهم في المدح حقهم
لأن فضلهم كالوابل الهطل
ولو تضاعفت الأقوال واستبقت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم، دنيا وآخرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى، ومصابيح الدجا، ومحل
الغيث إن ونت الأنواء في المحل
أئمة خلقوا نوراً، فنورهم
من نور خالص نور الله لم يفل
والله لا زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخر الله لي في مدة الأجل (١٦٣)

ووجد على بعض جدران القصر مكتوباً:
يا هذه الدنيا عجبت لمولع
بك كيف أضحى في هواك يقاد
ما صح منك لآل أحمد موعد
فكيف يصح منك لغيرهم ميعاد

أمـــــانعيمــــــكفهــــوظـــــل زائل
وصـــــلاحمـــــاتــــأتيــــهفهــــوفســــاد

ذكر طرف من ترتيب الدولة الفاطمية

اعلم أن الـدولة كـانت إذا خلـت من وزيـر صاحـب سيف يتغلـب عليها فإنه يجلـس صاحب الباب في باب القصر المعروف ببـاب الذهب، وهو أحد أبواب القصر، ويقف بين يديه الحجاب والنقباء، وينادي منادٍ: ياأرباب الظلامات،فيحضر إليه أرباب الحوائج. فمن كان أمره مما يشافه به، نظر في أمـره بمن يتعلق من القضاة أو الولاة، فيسير إلى ذلـك رسالة بكشف ظـلامته، فـإن كان مع المتظلـم قصة أخذهـا منه الحاجـب، فإذا اجتمع معه عـدة دفعها إلى الموقع بالقلم الـدقيق فيوقع عليهـا، ثم تحمل منه إلى الموقـع بالقلم الجليل ليبسـط ما أشار إليـه الموقع بالقلم الـدقيق، فإذا تكاملـت حملت في خريطة إلى الخليفـة فوقع عليها، ثـم أخرجت في الخريطـة إلى الحاجـب فيقـف بها على بــاب القصر ويسلـم لكـل أحـد توقيعه.

فإن كـان في الدولـة وزير صـاحب سيـف فإنـه يجلس يـومين في كل اسبوع في مكـان معد لـه في القصر، ويجلس قبـالته قـاضي القضاة، وعـن جانبيه شاهـدان معتبران، ويجلس في جانب الوزير الموقع بـالقلم الدقيق ويليـه صـاحـب ديـوان المال، وبين يـديـه صـاحـب المال واسفهسـلار العساكر، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم.

وكـان أجل الخدم صـاحـب الباب، وهـو مـن الأمـراء المطوقين، ثـم الأسفهسلار، وهـو زمام كـل زمام وإليه أمـور الأجناد، ثـم حامـل سيف الخليفة أيام الركوب، ثم زمام الحافظية والآمرية، وهما أجل الأجناد.

وكانت ولايـة الأعمال أجلها ولاية عسقلان، ثم ولاية قـوص. ثم ولاية الشرقية، ثم ولاية الغربية، ثم ولاية الإسكندرية.

وكان قاضي القضاة ينظر في الأحكـام الشرعية، فلما صارت الوزارة إلى أربـاب السيوف كـان يقلـد القضـاة نيابـة عنـه. والقـاضي أجل أربـاب العمائم رتبة، وتارة يكون داعي الدعاة، وتارة تفرد الدعوة عنه، ويجلس في يـومي الثـلاثاء والسبت بزيـادة جامـع عمرو بـن العاص، ولـه طراحـة ومسند حرير والشهود حوله، ولـه خمسة من الحجاب اثنان منهما بين يديه واثنـان على بـاب المقصورة وواحـد ينفـذ الخصـوم إليـه، وله أربعـة مـن الموقعين، ودواته بين يـديه على كرسي محلى بفضـة يحمل إليـه من الخزائن ولها عامـل بجارٍ سلطـاني في كل شهر. ويخرج إليـه من إصطبـل الخليفة بغلة شهبـاء، وهي مختصـة به دون غيرهـا، ويكون عليهـا سرج محلى ثقيل ورادفتين من فضة، ومكان الجلد حرير.

وتخلـع عليه الخلـع المذهبة، فيسير بغير طبـل ولا بوق إلا أن يضـاف إليه الدعوة فإنه يسير حينئذ بالطبـل والبوق، فإن ذلك من رسوم الداعي مع البنود. فإن كان إنما خلع عليه لوظيفـة القضاء فقط فإنه يسير بالقرى رجالاً حوله وبين يـديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفـة، أو الخليفة والوزير إن كـان ثم وزيـر صـاحب سيـف، ويـركـب معه يـومئـذ نواب البـاب والحجاب ولا يجلـس أحد فوقه ألبتـة، ولا يمكنه حضور جنـازة ولا عقد نكاح إلا بـإذن، ولايقوم لأحـد من النـاس إذا كان في مجلـس الحكم، ولا ينشيء عدالة ألبتـة إلا بإذن، فلا تثبت إذا أذن له في إنشائهـا لأحد حتى يزكيـه عشرون عدلاً من عـدول البلد بين مصر والقـاهرة ويرضـاه الشهود كلهم.

فـإن كان في الـدولـة وزير سيـف لايخاطب حينئـذ مـن يتولى الحكـم بقاضي القضاة فإنه من نعوت الوزير.

ويصعد القاضي إلى القصر في يومي الخميس والاثنين بكرة للسلام على الخليفة وله النواب، وإليه النظر في دار الضرب لتحرير العيار، ولا يصرف القاضي إلا بجنحة.

وكان في الدولة داعي الدعاة، ورتبته تلي رتبة قاضي القضاة، ويتزيا بزيه، ولابد أن يكون عالماً بمذاهب أهل البيت، عليهم السلام، وله أخذ العهد على من يتنقل إلى مذهبه، وبين يديه اثنا عشر نقيباً، وله نواب في سائر البلاد، ويحضر إليه فقهاء الشيعة بدار العلم ويتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة يقرأ في كل يوم اثنين وخميس بعد أن تحضر مبيضته إلى داعي الدعاة ويتصفحه ويدخل به الى الخليفة فيتلوه عليه إن أمكن، أو يأخذ خطه عليه في ظاهره. ثم يخرج فيجلس على كرسي الدعوة بالإيوان من القصر، فيقرؤه على الرجال، ثم يخرج ليقرأه على النساء، وله أخذ النجوى من المؤمنين بالأعمال كلها، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث، فيحملها إلى الخليفة.

كان متولي ديوان الإنشاء يخاطب بالأجل، يقال له كاتب الدست، وهو الذي يتسلم الكتب الواردة ويعرضها على الخليفة من يده، ثم يأمر بتنزيلها والجواب عنها. والخليفة يستشيره في أكثر أموره ولا يحجب عنه شيء متى جاء، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عنده، وجاريه في كل شهر مائة وعشرون ديناراً، مع الكسوة والرسوم، ولا يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكتابه إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء وفراشون ومرتبة هائلة، ومخاد ومسند ، ودواة بغير كرسي وهي من أنفس الدوي، ولها أستاذ من خدام الخليفة برسم حملها.

ولا بد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج إلى علمه من كتاب الله وتجويد الخط ومعرفة الأحاديث، وسير الخلفاء ونحو ذلك، يجتمع به أكثر أيام الأسبوع، وبرسمه أستاذ محنك يحضر ثالثهما، فيقرأ ملخص

السير ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ورتبته عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست، ويكون صحبته دواة محلاة. فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاساً فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة، وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق، كما تقدم، ويجلس حال التوقيع على طراحة ومسند، وله فراشون من فراشي الخاص تقدم له ما يوقع عليه، ويختص به موضع من ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن.

ورأس أصحاب دواوين المال من يلي النظر على الدواوين وله العزل والولاية، وهو الذي يعرض الأوراق على الخليفة أو الوزير، ويعتقل من شاء بكل مكان، ويجلس بالمرتبة والمسند، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة، وتخرج له الدواة بغير كرسي ويندب من يطلب الحساب، ويحث في طلب المال ومطالبة أرباب الضمانات.

وكان لهم ديوان التحقيق، ومقتضاه المقابلة على الدواوين، ولمتوليه الخلع والرتبة والحاجب، ويلحق بناظر الدواوين.

وديوان المجلس، وفيه علوم الدولة، وهو أصل الدواوين، وفيه عدة كتاب لكل منهم مجلس معد ومعتاد، وصاحب هذا الديوان هو الذي يتحدث في الإقطاعات، ويخلع عليه، وهو لاحق بديوان النظر، ويجلس بالمرتبة والمسند والدواة والحاجب.

والتوقيع بالقلم الجليل يسمى الخدمة الصغرى، ولمتوليها الطراحة والمسند بغير حاجب، بل ويندب له فراش لترتيب ما يوقع عليه، ولا يوقع الخليفة بيده إذا كان وزيره صاحب سيف إلا في أربعة مواضع: إذا رفعت إليه قصة وقع عليها: « يعتمد ذلك إن شاء »، أو كتب بجانبها الأيمن «يوقع بذلك»، فيخرج إلى صاحب ديوان المجلس دون غيره

فيوقع جليلا، ويدخل بها إلى الخليفة ثانيا فيضع علامته عليها، وكانت علامتهم كلهم « الحمد لله رب العالمين»، ثم يخرج بها فتثبت في الدواوين. أو يوقع في مسامحة، أو تسويغ ، أو تحبيس ما مثاله:« قد أنعمنا بذلك، أو قد أمضينا ذلك»، فإذا أراد الخليفة الاطلاع على شيء ووقع ليخرج الحال في ذلك، فإذا خرج الحال عاد إليه ليعلم عليه، فإن كان الوزير صاحب سيف وقع الخليفة بخطه: «وزيرنا السيد الأجل، واللقب المعروف به، أمتعنا الله ببقائه، يتقدم بإنجاز ذلك إن شاء الله»، فيكتب الوزير تحت خطه :«يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه»، ثم يثبت في الدواوين.

ولديوان الجيش مستوف مسلم له غيرة، ويجلس بطراحة لحركة العرض والحلي والشيات. وفي هذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد، فإذا عرض الجندي حلي وذكرت صفات فرسه ، ولا يثبت له إلا الفرس الجيد، ولا يثبت له برذون ولا بغل، ويقف بين يدي هذا المستوفي نقباء الأجناد لإنهاء أمور الأجناد، وفسح للأجناد في آخر الدولة أن يقايض بعضهم بعضاً.

وديوان الرواتب فيه أسماء كل مرتزق في الدولة ضمن له جار وجراية، وكاتبه يجلس بطراحة وتحت يده عشرة كتاب، وترد إليه التعريفات من سائر الأعمال باستمرار ما هو مستمر ، ومباشرة من يستجد، وموت من مات، ليوجب استحقاقه.

وفي هذا الديوان عدة عروض. أولها: راتب الوزير وهو في الشهر خمسة آلاف دينار،ولكل من أولاده وإخوته من ثلاثمائة دينار إلى مائتي دينار. وقرر لشجاع بن شاور خمسمائة دينار، ولكل من حواشي..... من خمسمائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، وذلك سوى الإقطاعات.

وثـانيهما : حـواشي الخليفـة ، وأولها الأستاذون المحنكـون، وهـم : زمـام القصر، وصاحـب بيت المال، وحـامل الرسـالة، وصـاحب الـدفتر، وشاد التـاج الشريف، وزمـام الأشراف الأقـارب، وصـاحب المجلس، ولكـل منهم مائة دينار في الشهر، ولمن يلي هـؤلاء يتناقص عشرة، وهكذا إلى من يكون جاريـه عشرة دنانير، وعدة هؤلاء ألف فما فوقهـا، وهم خصيصون ، ولطبيبـي الخاص مائة دينـار في الشهـر، ولعدة مـن الأطبـاء بـرسم أهـل القصر كل منهم عشرة دنانير.

ثـالثهما: أربـاب الـرتـب بحضرة الخليفـة، وأولهم كـاتـب الـدسـت الشريف، وجاريه في الشهـر مائة وخمسون دينارا، ولكل من كتـابه ثلاثون ديناراً ولمتولي مجالسة الخليفـة والتوقيع بالقلم الدقيـق في المظالم مائة دينار، ولصاحب البـاب مائة وعشرون ديناراً، ولكل مـن حامل السيف وحـامل الرمح سبعـون دينارا، ولكل من أزمـة العساكر والسودان مـائتان وخمسون دينارا إلى أربعين ديناراً إلى ثلاثين ديناراً.

رابعها: قاضي القضاة ، وله في الشهر مائة دينار، ولداعي الدعاة ما ئة دينار، وكـل من قـراء الحضرة من عشريـن ديناراً إلى خمسـة عشرإلى عشرة دنـانير، ولكل مـن خطبـاء الجوامع مـن عشريـن ديناراً إلى عشرة دنـانير، ولكل من الشعراء من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير.

خامسهـا: أرباب الدواوين، وأولهم متـولي ديوان النظر، ولـه في الشهر سبعـون دينـاراً، ولمتـولي ديـوان التحقيـق خمسـون دينـاراً، ولمتـولي ديـوان المجلس أربعـون ديناراً، ولصـاحب دفتر المجلس خمسـة وثلاثـون دينارا، ولكاتبه خمسة دنانير، ولمتولي ديوان الجيـش أربعون دينارا، وللموقع بالقلم الجليـل ثلاثـون دينارا، ولكـل مـن أصحاب دواويـن المعامـلات عشرون دينارا، ولكل معين عشرة دنانير وفيهم من له سبعة وخمسة.

سادسها: المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة الواليين، لكل منهم خمسون دينارا، ولحماة الأهراء، والمناخات، والجوالي والبساتين والأملاك لكل منهم من عشرين دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة.

سابعها: الفراشون برسم خدمة القصور، ومنهم برسم خدمة الخليفة خمسة عشر ، منهم صاحب المائدة وحامي المطابخ، وجاريهم من ثلاثين دينارا إلى ما حولها سوى الرسوم، ويليهم الرشاشون ونحوهم، وعدتهم ثلاثمائة فراش مولاهم أستاذ، وجارى كل منهم من عشرة دنانير إلى خمسة .

ثامنها: صبيان الركاب وهم ينيفون على ألفي رجل، ولهم اثنا عشر مقدما أكبرهم مقدمو الركاب، ومقدم المقدمين منهم هو صاحب ركاب الخليفة الأيمن، ولكل من المقدمين في الشهر خمسون ديناراً، وصبيان الركاب أربع جوق، جوقة لكل منهم في الشهر عشرون ديناراً، ويليهم من له خمسة عشر ثم عشرة ثم خمسة دنانير، وهم يندبون إلى الأعمال ويحملون المخلقات لركوب الخليفة في الأعياد والمواسم.

وكان لنقيب الأشراف اثنا عشر نقيبا، ويخلع عليه فيسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء، وله ديوان ومشارف وعامل ونائب ، وجاريه في الشهر عشرون دينارا، ولمشارف ديوانه عشرة دنانير، ولنائبه في النقابة ثمانية دنانير، وللعامل خمسة دنانير.

وللمحتسب عدة نواب بالقاهرة ومصر وسائر الأعمال، ويجلس بجامع القاهرة ومصر يوما بعد يوم، وتطوف نوابه على أرباب المعايش، ويخلع على المحتسب ويقرأ سجله على منبر جامع عمرو بن العاصي.

وكانت لهم خدمة يقال لها النيابة، ومتوليها يتلقى الرسل الواردين من الملوك، وكانت خدمة جليلة،لمتوليها نائب، ومن خواصه أنه ينعت أبداً

كل من يليها بغـذي الملك، وله النظر في دار الضيافة، ويعـرف هذا اليوم بالمهمنـدار. وكان له في الشهـر خمسون دينـاراً وفي كل يوم نصـف قنطار خبز مع بقية الرسوم.

والخدمة في ديـوان الصعيد عنده عـدة كتاب، ولأسفـل الأرض ديوان، وللثغور ديـوان، وللجوالي ديـوان، وللمواريـث ديوان، ولـديوان الخراجـي والهلالي عـدة دواويـن، منهـا ديـوان الربـاع، وديـوان المكـوس، وديـوان الصناعـة، وديوان الكراع وفيـه معامـلات الإصطبلات وما فيهـا، وديوان الأهـراء، وديوان المنـاخات، وديـوان العمائر ومحله بصنـاعة مصر لإنشـاء الأسطـول ومراكـب الغـلات السلطانيـة والأحطاب، وكـانـت تزيـد على خمسين عشاريـاً وعشرين ديماساً منها عشرة خـاصة برسم ركـوب الخليفة أيـام الخليـج والبقيـة بـرسم ولاة الأعمال تجرد إليهـم وينفـق عليهـا مـن الديوان ، وديوان الأحباس.

وكانت عادتهم إذا انقضى عيد النحـر عمل الاستيمار ويثبت فيه جميع ما يشتمل عليـه مصروف تلك السنة من عين وورق وغلـة وغيرها مفصلا بالأسماء، وأولهم الوزير حتى ينتهي إلى أربـاب الضوء، ثم يعمل في ملف حريـر بشرابة حريـر لشده، وكان يبلـغ في السنة مـا يزيد على مـائة ألف دينار عيناً ومائتي ألف درهم فضة وعشرة آلاف إردب غلة، ويعرض على الخليفـة ، فيستوعبـه، ويشطـب على بعضه وينقـص قـوماً ويـزيـد قوماً ويستجد آخرين بحسب ما يعين لـه. فيحمل الأمر على الشطب. وعمل مرة في أيـام المستنصر باللـه، فوقـع بظاهـره:« الفقر مـر المذاق، والحاجة تذل الأعنـاق، وحراسـة النعم بـإدرار الأرزاق، فليجروا على رسـومهم في الإطلاق، (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)» (النحل ٩٦).

وكان مـن عادتهم إخراج الكسـوة في كل سنة لجميـع أهل الدولـة من صغير وكبير في أوقات معـروفة، فبلغت كسـوة الصيف والشتـاء في السنة ستمائة ألف دينار ونيف.

وكانوا يتأنقون في المآكل ، حتى إن الخادم والسائس من غلمانهم ينفق في كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين ديناراً لسعة أحوالهم.

وكانوا يفرقون في أول كل سنة دنانير يسمونها دنانير الغرة تبلغ خمسمائة دينار في السنة ، فيتبرك بها من يأتيه منها برسوم مقررة لكل أحد.

وإذا أهل رمضان لايبقى أمير ولا مقدم إلا ويأتيه طبق لنفسه، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه أنواع الحلوى العجيبة الفاخرة.

وكانت خلعهم ثمينة جداً يبلغ طراز الخلعة خمسمائة دينار ذهبا، ويختص الأمراء في الخلع بالأطواق والأساورة الذهب مع السيوف المحلاة، ويتشرف الوزير عوضاً عن الطوق بعقد جوهر فكاكه خمسة آلاف دينار يحمل إليه، ويختص بلبس الطيلسان المقور.

ولايركب الخليفة إلا بمظلة منسوجة بالذهب مرصعة بالجوهر.

وسيأتي من إيراد جزيات ترتيبهم وحكاية أمور دولتهم عند ذكر خطط القاهرة إن شاء الله ما يعرفك مقدار ما كانوا فيه من أمور الدنيا وحقارة من جاء بعدهم. فلله عاقبة الأمور.

ذكر ما عيب عليهم

لاشك في أن القوم كانوا شيعة يرون تفضيل علي بن أبي طالب على من عداه من الصحابة، وكانوا ينتحلون من مذاهب الشيعة مذهب الاسماعيلية، وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وتنقلها في أولاده الأئمة المستورين إلى عبيد الله المهدى، أول من قام منهم بالمغرب وبقية الشيعة لايقولون بإمامة إسماعيل، وينكرون عليهم ذلك أشد الإنكار.

وكانوا مع انتحالهم مذهب التشيع غلاة في الرفض، إلا أن أولهم كانوا أكابر صانوا أنفسهم عما قرف به آخرهم. ثم إن الحاكم بأمر الله أكثر من النظر في العقائد وكان قليل الثبات سريع الاستحالة، إذا مال إلى اعتقاد شيء أظهره وحمل الناس عليه، ثم لايلبث أن يرجع عنه إلى غيره فيريد من الناس ترك ما كان قد أمرهم به والمصير إلى ما استحسنه ومال إليه. واقترن به رجل يعرف (بأنوشتكين) الدرزي فأظهر مذاهب الباطنية، وقد كان عند أولهم منها طرف، فأنكر الناس هذا المذهب لما يشتمل عليه مما لم يعرف عند سلف الأمة وتابعيهم ولما فيه من مخالفة الشرائع.

فلما كانت أيام المستنصر وفد إليه الحسن بن الصباح، فأشاع هذا المذهب في الأقطار ودعا الكافة إليه، واستباح الدماء بمخالفته، فاشتد النكير، وكثر الصائح عليهم من كل ناحية حتى أخرجوهم من الإسلام ونفوهم عن الملة.

ووجد بنو العباس السبيل إلى الغض منهم لما مكنوا من البغض فيهم وقاسوه من الآلام بأخذهم ما كان بأيديهم من ممالك القيروان وديار مصر والشام والحجاز واليمن وبغداد أيضا، فنفوهم عن الانتساب إلى علي بن أبي طالب، بل وقالوا إنما هم من أولاد اليهود، وتناولت الألسنة ذلك، فملئوا به كتب الأخبار.

ثم لما اتصل بهم الغز ووزر لهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وهم من صنائع دولة بني العباس الذين ربوا في أبوابها وغذوا بنعمها ونشئوا على اعتقاد موالاتها ومعاداة أعدائها، لم يزدهم قربهم من الدولة الفاطمية إلا نفوراً، ولا ملأهم إحسانها إليهم إلا حقداً وعداوة لها، حتى قووا بنعمتها على زوالها، واقتدروا بها على محوها.

وكانت أساسات دولتهم راسخة في التخوم، وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم، وأتباعهم وأولياؤهم لايحصى لهم عدد، وأنصارهم وأعوانهم قد ملؤوا كل قطر وبلد، فأحبوا طمس أنوارهم، وتغيير منارهم، وإلصاق العار والقبيح بهم، شأن العدو وعادته في عدوه.

فتفطن، رحمك الله، إلى أسرار الوجود، وميز الأخبار كتمييزك الجيد من النقود، تعثر إن سلمت من الهوى بالصواب. ومما يدلك على كثرة الحمل عليهم أن الأخبار الشنيعة، لا سيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لاتكاد تجدها إلا في كتب المشارقة من البغداديين والشاميين، كالمنتظم لابن الجوزي، والكامل لابن الأثير، وتاريخ حلب لابن أبي طي، وتاريخ العماد ابن كثير، وكتاب ابن واصل الحموي، وكتاب ابن شداد، وكتاب العماد الاصفهاني، ونحو هؤلاء، أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارها فلا تكاد تجد في شيء منها ذلك ألبتة. فحكم سلطان العقل، واهزم جيوش الهوى، وأعط كل ذي حق حقه، ترشد إن شاء الله تعالى.

ذكر ما صار إليه أولادهم

ولما مات العاضد غسله ابنه داود (١٦٤) وصلى عليه، وجلس على السدة، واستدعى صلاح الدين ليبايعه، فامتنع، وبعث إليه: أنا نائب عن أبيك في الخلافة ولم يوصني بأنك ولي عهده، وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في سادس شعبان سنة تسع وستين وخمسمائة، ونقله هو وجميع أقاربه وأهله إلى دار المظفر (١٦٥) من حارة برجوان في العشر الأخير من شهر رمضان، ووكل عليهم وعلى جميع ذخائر القصر، وفرق بين الرجال والنساء حتى لايحصل منهم نسل، وأغلقت القصور، وتملكت الأملاك التي كانت لهم، وضربت الألواح على رباعهم وفرقت على خواص صلاح الدين كثير منها وبيع بعضها، وأعطى القصر الكبير

لأمرائه فسكنوا فيه. وأسكن أباه نجم الدين أيوب في اللؤلؤة على الخليج، وصار كل من استحسن من الغز داراً أخرج صاحبها منها وسكنها.

ونقلوا إلى قلعة الجبل، وهم ثلاثة وستون نفراً، في يوم الخميس ثاني عشرين رمضان سنة ثمان وستمائة، فمات منهم إلى ربيع الأول سنة أربع وعشرين وستمائة ثلاثة وعشرون . وتولى وضع القيود في أرجلهم الأمير فخر الدين الطبنا أبو شعرة بن الدويك والي القاهرة.

قال المهذب أبو طالب محمد بن علي، ابن الخيمي: وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة عوقبت بالقلعة ، فوجدت بها من الأشراف أربعين شريفاً وهم : الأمير سليمان بن داود بن العاضد، وأبو الفتوح بن العاضد، وحيدرة بن العاضد، وجبريل بن العاضد، وعلى بن العاضد، وعبد القاهر بن حيدرة بن العاضد، وإسماعيل بن عيسى بن العاضد، وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد، وأبو القاسم بن أبي الفتوح بن العاضد، وقمر بن علي بن العاضد، ويحيى بن جبريل بن الحافظ، وسليمان بن يحيى المذكور ، وتميم بن يحيى المذكور، وعبد الله بن أبي الطاهر بن جبريل، وسليمان بن أبي الطاهر بن جبريل، وأبو جعفر بن أبي الطاهر، وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل، وأبو الحسن بن أبي اليسر بن جبريل، وأحمد بن أبي اليسر بن جبريل، وأبو الحسن بن أبي العباس حسن بن الحافظ، وإبراهيم بن عبد المحسن بن عبد الوهاب بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر، ويونس بن سليمان بن عبد الخالق بن أبي الحسن بن أبي القاسم، وأبو اليسر بشارة بن عبد المحسن ابن أبي محمد بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن المستنصر، وجعفر بن موسى بن محسن بن داود بن المستنصر، وعلي بن سليمان بن أبي عبد الله ابن داود بن المستنصر، ويحيى بن صدقة بن شبل بن عبد المجيد بن أبي

الحسن بن جعفر بن المستنصر، وعبد الله كمال بن داود بن داود بن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر، وأبو علي بن عبد الرحمن بن يحيى بن أبي علي بن جعفر بن المستنصر، وسليمان بن عبد الصمد بن أبي عبد الله بن عبد الكريم بن أبي اليسر بن جعفر بن المستنصر، وأبو علي ابن عبد الصمد، وأخوه، وعبد الكريم بن إبراهيم بن أبي الحسن بن عبد الله بن المستنصر، وعبد الغني بن أبي الرضا بن أبي الحسن بن عبد الله ابن المستنصر، وعبد الصمد بن سليمان بن محمد بن حيدرة بن عقيل بن المستنصر، وإسماعيل بن صدقة بن أبي اليسر بن إسحاق بن المستنصر،وأبو محمد بن موسى بن عبد القادر بن أبي الحسن بن إسحاق ابن المستنصر، وعبد الصمد بن حسن بن أبي الحسن من أولاد المستنصر.

ولم يزالوا معتقلين بقلعة الجبل إلى أن حولوا منها سنة إحدى وأربعين وسبعين وستمائة.

هذا آخر ما وجد بخط مؤلفه عفا الله عنه

آخر كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي.

من كتابة فقير رحمة الله محمد بن أحمدالجيزي الأزهري الشافعي، لطف الله تعالى (به) وغفر ذنوبه وستر عيوبه والمسلمين أجمعين.

في سنة أربع وثمانين وثمانمائة.

تراجم من

كتاب

المقفى الكبير للمقريزي

-١١٨٢٧-

الامام الظافر بأمر الله الفاطمي

إسماعيل بن عبد المجيد بن محمد بـن معد بن علي بن منصور بن نزار ابـن معدّ بـن إسماعيل بـن محمد بـن عبيد الله، الإمـام الظافـر بأمـر الله، أبوالمنصـور، أمير المؤمنين، ابن ا لحافظ لـدين الله أبي الميمـون، ابن الأمير أبي القاسم، ابن الظاهر، ابن الحاكم، ابـن العزيز، ابن المعزّ، ابن المنصور، ابن القائم، ابن المهديّ.

ولد يوم الأحد نصف ربيع الآخـر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وبويع بـالخلافة بعـد مـوت أبيه يـوم الأحـد خامـس جمادى الآخـرة سنة أربـع وأربعين وخمسمائة، وعمـره سبـع عشرة سنـة وأربعـة أشهـر وعشرة أيّـام، بعهدٍ من أبيه. وكـان أصغر إخوته، ولقّب بالظـافر بالله. واستوزر الأمير نجـم الديـن أبا الفتـح سليم بـن محمـد بن مصـال. فخرج عليـه الأمير المظفّر أبو الحسـن عليّ بن إسحاق ابن ا لسـلار واستولى على الوزارة إلى أن قتل.

فقام مـن بعده بـأمر الدولـة المظفّر أبـو نصر عبّاس ابـن أبي الفتوح، وكان الظافـر قد اختصّ بولده نـاصر الدين بن عبّاس وأتُّهم بـه. فأنكر عليه أبـوه مايقـال في حقّه. فـأراد البراءة ممّا رمـي به، وسـأل الظافـر أن يأتيـه ليلة ليتفسّحـا. فنزل إليه في ليلـة الخميس سلـخ المحرّم سنـة تسع وأربعين وخمسمائة وهو متنكرّ، ومعه خادمـان. فقتله ورماه في جبّ، ومعه أحـد الخادمين، وغطّـاه بـرخـامـة بيضـاء. وفـر الخادم الآخـر إلى القصر، فكانت مـدّته أربع سنين وسبعة أشهـر وأربعة عشر يوماً. وعمـرُه إحدى وعشرون سنة وعشرة أشهر تنقص خمسة أيام.

وكان محكـوماً عليـه من الوزراء، وفي خـلافته ملـك الفرنـج عسقلان، وظهر الخلل في الـدولة، وكان كثير اللهو واللعب مع جـواريه، مقبلاً على سماع الغناء.

وأنشأ الجامع الظافريّ بالقاهرة، المعروف بجامع الفكّاهين بخطّ الشّوائين. وقام في الخلافة بعده ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى.

-١١٨٢٩-

أيوب بن شاذي

أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب، الملك الرحيم الأفضل ابن شاذي بن مروان، من أبناء أعيان دوين،وكان بينه وبين جمال الدولة المجاهد بهروز صحبة. فاتفق أنّ بهروز أتهم بزوجة بعض أمراء دُوَيْن فخصَاه. فخرج منها واتصل بلالا أولاد السلطان غياث الدين مسعود السلجوقيّ. واختص به وصار يركب مع أولاد السلطان. فرآه السلطان يوماً مع أولاده فأنكره فقال اللالا: إنّه خادمٌ مثلي.

ثم صار يسيّره إلى السلطان فخفّ على قلبه، ولعب معه الشطرنج والنرد، وكان من أظرف الناس، فحظيّ عنده. ومات اللالا فأقامه مكانه. فاشتهر ذكره . واستدعى شاذي بن مروان، فلمّا قدم عليه أكرمه.

ثم إنّ السلطان بعث بهروز والياً ببغداد ونائبا عنه، فسار معه شاذي وأولاده. وكانت تكريت قد أعطاها السلطان لبهروز فأرسل إليه شاذي، فأقام بها مدّة ومات. فوليَ ابنُه نجم الدين أيوب عوضَه فنهض في أمرها وشكره بهروز.

فاتفق أنّ عماد الدين زنكي صاحب الموصل لمّا قصد حصار بغداد أيام الخليفة المسترشد بالله الفضل بن أحمد المستظهر بالله. وكان من محاربة المسترشد ماكان وانهزام عماد الدين وعبوره على تكريت. خدَمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن حتى عبر دجلة، وتبَعه أصحابه فأحسن إليهم وسيّرهم. فبلغ ذلك بهروز فأنكر على نجم الدين وقال: كيف نظفر بعدّونا وتحسن إليه؟

واتفق مع ذلك أن أسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب أتته امرأة باكية وذكرت أنّ فلاناً الاسفسهلار تعرّض لها وهي داخلة في باب القلعة، فقام وضرب الإسفسهلار بحربة قتله، فأمسكه نجم الدين

واعتقلـه وكتب يُعلـم بهروز بخبره. فعـاد جـوابُه:«إنّ لأبيكما شـاذي عليّ حقاً. ومـا يُمكنني أن أكـافِئكما بسوء، ولكن أتُـركا خدمتـي واخرُجـا من بلدي».

فخرج أيـوب وشيركوه من تكـريت وقصـدا عماد الدين زنكـي بن آق سنقر صاحب الموصل، فأحسـن إليهما وأقطعهما إقطاعاً جيداً. ومازالا في خدمته إلى أن ملك قلعة بعلبك، فاستخلف بها نجم الدين أيوب، فأقام بها وعمَّر بها الخانقاه النجميَّة.

فلما قُتل عماد الـدين زنكي، وحصر مجير الديـن آبق صاحـب دمشق بعلبك ضاق الأمر على نجـم الدين ولم تأته نجدة مـن أولاد عماد الدين زنكي، سلّـم آبق قلعة بعلبـك على إقطاع ذكره بعـدما حلف لـه، وانتقل إلى دمشق بأولاده وتسلّـم الإقطاع والمال، وقدّمه إلى آبـق وعمله من أكبر الأمراء.

واتصل أخوه شيركوه بنـور الدين محمود بن زنكي وخـدمه في أيام أبيه فحظي عنده، وجعلـه بعد موت أبيه مقدّم عسكـره بحلب، إلى أن ملك دمشـق. فأقرّ أيوب وشيركـوه بخـدمته. وبعـث شيركوه إلى مصر نجـدةً لشاور كما ذكـر في ترجمتها. فتـوجّه صلاح الـدين يـوسف بـن أيوب في خدمة عمّـه أسد الدين شيركوه إلى مصر، وكان مـن تملّك شيركوه مصر، ثمّ تملّـك صلاح الدين يـوسف بعدَه إلى أيّـام الخليفة العاضد لـدين الله ماكان.

فاستـدعى أباه نجم الـدين أيوب من دمشـق، فجهّزه إليه نور الـدين محمود في سنـة خمس وستين وخمسمائة. وخرج العاضـد فتلقّاه عنـد شجرة الإهليلـج خـارج بـاب الفتـوح، وأقطعـه: الإسكنـدريـة، ودميـاط، والبحيرة، وأقطـع ابنـه شمـس الـدولة تـوران شـاه بـن أيـوب: قـوص،

وأسـوان، وعيذاب، وعِبرتها في كـلّ سنة مـاتتـا ألف وستّـة وستّون ألـف دينار.

فسلك صـلاح الديـن مع أبيه مـن الأدب مايليـق به، وعـرض عليه الأمر، فأبى وقال: ياولدي، مااختارك الله لهذا إلاّ وأنتَ له أهل.

فلمّا استبدّ صلاح الـدين بسلطنة مصر بعد موت العـاضد، وخرج إلى حصار الفـرنج بالكـرك، ركب نجم الـدين أيوب في يـوم الثلاثاء ثـامن عشر ذي الحجّـة ليسير، وخرج مـن باب النصر، فشـبّ به فـرسه وألقـاه، فحمـل إلى داره بالقـاهرة ولـزم الفراش حتـى مات يـوم الخميس لثـلاث بقين مـن ذي الحجّـة سنـة ثمان وستّين وخمسمائة، ودفـن بجـانـب أخيـه شيركوه، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة، ودُفنـا بجوار الحجرة الشريفة في تُربةٍ هناك سنة ثمانين وخمسمائة.

وترك نجم الـدين أيوب من الأولاد: السلطـان صلاح الدين يـوسف، والملك العـادل سيف الديـن أبا بكر محمداً، وشمـس الدولة تـوران شاه، وشاهنشـاه، وسيف الإسـلام طغتكين، وتاج الديـن بوري، وسـتّ الشام، وربيعة خاتون.

وكان ديّناً خيّراً له صدقات وعقل رصين وكرم وسماح.

ورثاه الفقيه عمارة بقصيدتين.

- ١١٨٣٢ -

بغدوين صاحب القدس

بغدوين بن ... ملك بيت المقدس بعد قتل أخيه كندفَري على عكّا في سنةأربع وتسعين وأربعمائة. قدمها في خمسمائة فارس وراجل، فخرج من مصر في رجب سنة خمس وتسعين عسكرٌ لمنع الفرنج ممّا بقي بيد المسلمين من البلاد الشامية، فسار إليهم بغدوين في سبعمائة فارس وقاتلهم، فنصَرهُم الله عليه وقتلوا أكثرَ أصحابه، ونجا إلى أجمة قصب، فأضرموها عليه بالنار، ففرّ وقد احترق بعض جسدِه.

وصار إلى الرملةِ والمسلمون في إثره. فسار إلى يافا بعدما عظم القتل والأسر في أصحابه. ثم كانت بينه وبين سعد الدولة القوّاسيّ مقدّم عسكر مصر وقعة في سنة ستّ وتسعين انهزم فيها سعد الدولة وقُتل، وأخذ بغدوين أمواله.

ثمّ ظهر المسلمون عليه ففر بغدوين إلى الرملة ثمّ إلى يافا، وعاود الحرب مع ابن الأفضل مدّة، ثم ملك عكّا في سنة سبع وتسعين وسار إلى الفرما في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة فبعث الأفضل ــ ابن أمير الجيوش ـ الجيوش من القاهرة فأخذ بغدوين في نهب الفرما وخربها وأحرقها، وعزم على الرجوع، فأهلكه الله بها. وخاف الفرنج من اظهار موته فكتموه . وساروا به بعدما شقوا بطنه وملؤوه ملحا ودفنوا ما في بطنه بالسبخة التي عرفت به الى اليوم قرب الودادة، والعامة تسميها سبخة بردويل وترجم موضع قبره بالحجارة .

بهرام مقدم الباطنيّة

كان من أهل...فلمّا قتل خاله إبراهيم الأزداباديّ ببغداد في ... هرب إلى الشام وصار داعي الإسماعيليّة بها. وتردّد في البلاد يدعو أوباش الناس وطغامهم إلى مذهبه. فاستجاب له منهم مَن لاعقل له، وكثر جمعُه، إلاّ أنّه كان يخفي شخصَه فلايعرف، وأقام بحلب مدّة ونفق على إيلغازي صاحبها، وأراد إيلغازي أن يعتضد به لاتّقاء شرّ أصحابه، فإنّهم كانوا يقتلون كلّ مَن خالفهم، وأشار إيلغازي على طغتكين صاحب دمشق بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه وأخذه إليه، وأظهر حينئذ شخصه بدمشق وأعلن بدعوته، وكثر أتباعه من كلّ من يريد الفساد والشرّ، وأعانه الوزير كمال الدين أبو عليّ طاهر بن سعد المزدغانيّ قصداً للاستعانة به على مايزيده، فعظم شرّ بهرام واستفحل أمره في سنة عشرين وخمسمائة، وصار أتباعه أضعاف ماكانوا، إلاّ أنّه خاف عامّة دمشق لفظاظتهم وغلظتهم، فطلب من أتابك طغتكين حصناً يأوي إليه هو وأتباعُه، فأشار عليه الوزير طاهر بتسليم حصن بانياس إليه، فسلّمه إليه في ذي القعدة من السنة المذكورة وسار إليه، فاجتمع أصحابُه عنده من كلّ ناحية، وملك عدّة حصون، منها القدموس.

وأقام خليفته بدمشق يدعو إلى مذهبه، فكثر وانتشر، وعظم خطبه وحلّت المحنة بظهوره. وأشتدّ الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، إلاّ أنهم لايقدرون على أن ينطقوا فيه بحرف واحد، خوفاً من سلطانهم ومن شرّ الإسماعيليّة، فلم يقدر أحد على إنكار هذه الحالة، وشرع أصحابُ بهرام في قتل مَن يعاندهم ومعاضدة من يُؤازرهم بحيث لاينكر عليهم أمير ولاوزير.

فلمّا مات ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق في صفر سنة اثنتين

وعشرين وخمسمائة وقام من بعده ابنه تاج الملوك بوري في سلطنة دمشق أقرّ الوزير طاهر المزدقانيّ على وزارته، وبثّ بهرام دعاته من بانياس في سائر الجهات فاستغووا خلقاً كثيراً، وامتدت أيديهم وألسنتهم إلى الأخيار، وقتلوا كثيراً من الناس تعدياً وظلماً، وأعانه الوزير بغير رضى تاج الملوك.

فلّما أراد الله إنفاذ أمره خدع برق بن جندل مُقَدّم وادي التّيم حتى وقع في يده فقتله صبراً. وتألم الناس لقتله وأعلنوا لعنَ قاتله عامة، فحنق صخر بن جندل لقتل أخيه وثار في أخذ ثأره، وجمع لقتال بهرام. فخرج إليه وقاتله بوادي التّيْم، فقتل بهرام ومَن معه في يوم الجمعة سابع ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وحُمِل رأسُه إلى القاهرة، فخلع على مَن أحضرَه وأنعم عليه بمال جزيل.

بهرام تاج الملوك الأرمني

بهرام بن أسيد، الوزير سيف الإسلام، تـاج المُلوك، الأرمنيّ. كان يزعم أنّه من نسل داود عليه السلام. وكـان من جملة الأرمن الواصلين إلى ديار مصر مـن قلعة الـروم، وسكن مـع الأرمن في نـاحية تـلّ باشر مـدّةً. فلمّا مـات كبير الأرمن، كـان بهرام أحقّ بمكـانـه، فتَعصَّب عليـه جماعة مـن الأرمن وأقـاموا غيره، فغضب وخـرج من تل بـاشر، وقدم القاهـرة، وقتل يازمـان القائم بأمـر الأرمن في قلعة الـروم. وكان بهرام أحقَّهم بمـوضعه. فمُنـع وقـام غيره بتعصـب وقـع. فترك البلاد وخـرج منهـا مغـاضبـاً إلى القاهرة، وصار من الجند.

وكان ذا عقلٍ متوفّر ورأيٍ صائب وإقـدام في الحروب، فزيدَ في إكرامه لأجل ذلـك وترقّى في الخدم ولقب بتـاج الدولـة. وخرج مـع المؤتمن أبي تراب حيـدرة أخي الـوزير المأمون البطـائحيّ مقدَّمـاً على طائفـة الأرمن حين توجّه لغزو لواتة في سنة سبع عشرة وخمسمائة وشهد حروبه، ثمّ عاد إلى القاهرة.

ومازال بها إلى أن كـانت فتنـة الحسن، ابن الخليفـة الحافظ لـدين الله، ففـرّ منـه إلى الغربيّـة، وجمع مقطعيهـا والعـربـان والأرمـن، وسار يـريـد القاهـرة، وقد عـاثت حشودهُ في القـرى والضياع ونهبـوها. وكثـرت الفتن بـالقاهـرة بين الأجناد والسـودان حتى أخـرج السودان بعـد قتل حسـن الطائفة الجيوشيّـة والفرجيّة والإسكندرانيّة من القـاهرة، وقتلوا كثيراً منهم ونهبوا ماقدروا عليه.

فلمّا قدم بهرام بحشوده، تعلّـق الأجناد به وأدخلوه على الخليفـة وألزموه أن يُوَليَـه الوزارة، فلم يجد بـدّاً من إجابتهـم، وخاف أن تثور الفتنـة مرّةً أخـرى. فخلع عليـه يوم الجمعـة سادس عشر جمادى الآخـرة سنة تسع

وعشرين وخمسمائة —وقيل: لإحدى عشرة خلت منه— وهو باق على دين النصرانيّة ولُقِّبَ بسيف الإسلام، تاج الخلافة، فاشتد ذلك على الخليفة.

واقتضى الحال توليته، فقيل له: ياأمير المؤمنين، لايرضاه المسلمون، ومن شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليُزرِّرَ عليه المَزَرّرة الحاجزة بينه وبين الناس، والقضاة نوّاب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحُكميّة النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة.

فقال: إذا رضينا نحن، فمَن يخالفُنا؟ وهو وزير السيف وأمّا صعود المنبر، فيستنيبُ عنه قاضيَ القضاة. وأمّا ذكره في الكتب الحُكميّة فلا حاجة إلى ذلك، ويُفعل ماكان يُفعَل قبل أمير الجيوش.

فكثُر الإنكار من الناس لوزارة بهرام، إلاّ أنّه لم يدخل في شيء مشكل، وساس الأمور بعقل جيّد وتدبير حسن، وأنفق في الجند جملة من الأموال، فاستقامت أحوالهُ وراسله الملوك وزالت الفتن من البلاد في أيامه،فلم ينكر عليه شيءٌ سوى أنّه نصراني. وكان يقعد في يوم الجمعة عن الصلاة ويعدل إلى مكان بمفرده إلى أن تنقضي الصلاة. وسأل الخليفة أن يسمح له إحضار أهله، فأذن له في ذلك فأحضرهم من تلّ باشر ومن بلاد الأرمن حتى صار منهم بمِصر قدر الثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا على المسلمين، وكثر جَوْرهم وبنَوا عدّة كنائس وأديرة، حتى كان كلّ رئيس منهم يبني له كنيسة، فخاف أهل مصر منهم أن يغيّروا الملّة الإسلامية، وكثرت الشكايات فيه وفي أخيه الباساك وكان قد ولاّه قوص، فعظم ذلك على الأمراء.

وتفاقم أمر النصارى، ووصل إليه ابن أخيه المعروف بالسبع الأحمر،

فأطلـق الأسرى من الفرنـج، وشنعت القالة، وكـاتب أهلُ الـدولة الأمير رضوان بـن الولخشيّ والي الغربيّة، فحشـد لقتال بهرام، وخرج مـن سَخَا في ثلاثين ألفـاً حتى نـزل دجوة، وبهرام لاينـزعج. فلمّا قـرب من القـاهرة جمع بهرام الأرمـن وقال لهم: قـد علمتم بـأنّا غـرباء ولم نـزل نخدم هـذه الدولة، والآن فقد كثـر بغضهم لأيّامنا وماكنت باللذي أكون(عبد قوم) وأخدمهم مـن حال الصبا، فلمّا بلغت الكبر أقـاتلهم؟ والله لاضربت في وجوههم بسيف أبداً، سيروا بنا.

ثمّ اجتمع بالخليفة وفاوضه في أمره، فقال له: يغلبني عليك الإسلام.

فأيس حينئـذ وسار بالأرمن. وقيـل: بل ركب في عساكـر مصر، وخرج ومعـه الأرمـن، يريـد محاربـة رضـوان. فلمّا التقـى الجمعـان خامـر عليـه الأمراء ولحقوا برضوان، فانهزم بالأرمن. وأخذ ماخفّ من المال وخرج من بـاب البرقيّة في حـادي عشر جمادى الأولى سنـة إحـدى وثلاثين، وسـار يريد قوص، وبها أخوه الباسـاك، وأوسق مراكب كثيرةً وسيّرها في النيل بما يحتاج إليـه. فعندمـا خرج من القـاهرة تكاثـرت الغوغـاءُ على دار الوزارة ونهبوهـا وهتكوا حـرمتّها، وخرجـوا إلى آدر الأرمن بـالحسينية خـارج باب الفتوح فنهبـوها كلّها، ونهبـوا كنيسة الزهـري، ونبشوا قبر البطريـك أخي بهرام ومثّلوا برمتّه.

وطـار خبر هـزيمـة بهرام في سائر إقليـم مصر حتـى وصـل الخبر إلى قوص قبل وصولـه إليها، فثار المسلمون بالباسـاك وقتلوه. فقدم بهرام بعد قتلِه بيومين إلى قوص، ومعه من الأرمـن نحو الألفين، فرأى أخاه الباساك على مزبلـة وقد رُبـط معه كلـب. فحنق ووضـع السيف في أهـل قوص، فقتـل منهـم خلقاً كثيراً، ونهب البلـد وخـرج إلى أسـوان، ونزل بـالأديـرة البيض— وهي أماكن حصينة عدّتها ثلاثة ديارات في غربيّ مدينة إخميم. وتقدّم إليـه بأن يسرّح مَن معه مـن الأرمن إلى بلادهم، ومـن رضي منهم

أن يقيم بمِصر فلاّحاً فليفعل. فأقام بأهله وولده، وخرج جماعة ممّن معه إلى أرض الشام، وبقيت منهم بقيّة كثيرة وتمنّوا أن يكونوا فلاّحين. فردّت لهم جهات، منها سملّوط، وأثلُوسَنا، وإِبْوان، والبرجين في صعيد مصر، وضيعة أخرى بالمحلّة.

فسار إليه الأوحد ناصر الدين إبراهيم، أخو الوزير الأفضل رضوان بالعساكر شرقاً وغرباً، وقد تبعه الأسطول في النيل، ومعه أمانٌ لبهرام ليعود مكرّماً وطائفته على إقطاعاتهم. فلم يزل على الأديرة البيض. فتقرّر الحال مع بهرام على إقامته بها من غير أن تكون حرب. فلم يزل هناك إلى أن استدعاه الخليفة الحافظ في شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين، وأنزله معه في القصر وأكرمه، إلى أن هلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. فحزن عليه الحافظ حزناً كثيراً لأنه كان يشاوره في تدبير الدولة والأمور فيعجبُه رأيُه ويفتن بحزمه وعقله. وصار يوم موته على القصر غمّة وأمر بغلق الدواوين، واستحضر بطرك الملكيّة ليجهّزه، فقام بأمره، وأخرج وقتَ الظهر في تابوت عليه الديباج، وحوله النصارى يبخرون باللبّان والسندروس والعود. وخرج الناس كلُّهم مُشاةً، ولم يتخلّف عن جنازته أحدٌ من الأعيان، وخرج الخليفة راكباً بغلتَه خلف التابوت بعمامة خضراء وثوب أخضر من غير طيلسان، وسار والأَقِسَّاءُ يعلنون بقراءة الإنجيل، والخليفة على حاله إلى دير الخندق خارج القاهرة—وقيل: بل في الكنيسة المستجدّة ببنيان الزهريّ— فنزل الخليفة عن بغلته ونزل على شفير القبر وبكى بكاءً كثيراً، حتى دُفن. ثم عاد.

وكان بهرام عاقلاً حسن السياسة جيّد التدبير مقداماً في الحرب.

- ١١٨٣٩ -

أخو المأمون البطائحي

جعفر بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، الأمير ركن الخلافة، عز الملوك، أبو الفضل، ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع ابن الأمير مجد الدولة أبي الحسن، ابن الأمير أمين الدولة أبي عليّ، المعروف بأخي الوزير الأجلّ المأمون أبي عبد الله محمد البطائحي.

رتّبه أخوه لمّا ولي وزارة الخليفة الآمر بأحكام الله أبي علي منصور، بحمل السيف الخاصّ، وهي رتبة جليلة المقدار لايليها إلاّ أمير عظيم القدر، وهو أكبر حامل.

وهذا السيف حليته ذهب مرصّعة بالجواهر في خريطة مرقومة بالذهب لايظهر إلاّ رأسه، يخرج من خزائن السلاح الخاصّ عند ركوب الخليفة في يوم العيد ونحوهما، فيسلّم إلى حامله، وهو ممّن يرخي الذؤابة مادام حاملاً له. ويكون في وقت مسير الخليفة راكباً في الجانب الأيسر هو وحامل الدواة.

وولاّه أيضاً حماية خزاين الكسوات، وصناديق النفقات فجلّ أمره واتّسعتْ أحواله، بحيث إنّه توفيت له حظيّة من حظاياه فحصل للغاسلة من المصاغ الذهب المرصّع، والملبوس المذهّب، والفرش ماتزيد قيمته على ألف دينار، سوى مائة دينار عيناً، وجارية تحمل المصاغ والملبوس.

وكان ممّا عُمِل في عنق هذه الحظيّة لمّا كُفّنت عِقد فيه ثلاثة عشر حجراً فيهم خمسة ياقوت أحمر رمّاني، وثمانية مابين أزرق وأصفر يساوي جملة كثيرة، وجُعل في أذنَيها خرصان وزنهما مثاقيل ذهب وجوهر.

ثمّ لمّا قبض الآمر بأحكام الله على الوزير المأمون، قبض على جعفر

هذا في جملة مَن قبض عليه. ثمّ أفرج عنه. وتأخّرت وفاته إلى خلافة الفائز،فمات في أثناء سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وصلّى عليه الصالح طلائع بن رزيك في الإيوان.

وخلّف سبعة ذكور وأربع بنات فرقّت أحوالهم، وركبَهم دَيْنٌ ثقيل حتى احتاج بعضهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة إلى بيع تربتهم بالقرافة، ثم مضوا إليها وحفروا القبر الذي فيه حظية أبيهم المذكورة، وغربلوا ماتحتها من التراب، فوجدوا فيه من الذهب المسبوك ثلاثمائةوعشرين مثقالاً، ثم باعوا رخام القبر، والتابوت الساج حتى وفوا ماعليهم من الدين، فسبحان محيل الأحوال.

ـ ١١٨٤١ـ

حميد بن مكّيّ القصّار

حميد بن مكي، الإطفيحيّ، القصار.

كان رفيقاً لبركات الذي استغوى الناس بمصر في أ يام الأفضل بن أمير الجيوش. فلمّا مات بركات وقتل أصحابه بغد غلق دار العلم، فر حميد.

فلمّا مات الأفضل عاد حميد وسكن مصر، يدّق الثياب،وصار يتردّد إلى دار العلم بعدما فتحها الوزير المأمون أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحيّ، ويفسد عقول الناس، وأدّعى الربوبيّة فأتّبعه أستاذ وخيّاط وجماعة، فقام في أمره داعي الدعاة وليّ الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق وصار إلى الوزير المأمون وعرّفه عن حميد بأنّه قد عرف طرفاً من علم الكلام على مذهب الأشعري، ثمّ إنّه انسلخ من الإسلام، وسلك طريق الحلاج في ا لتمويه، واستهوى من ضعف عقله وقلّت بصيرته.

فقبض على حميد وعلى جميع أصحابه. ماخلا الخيّاط، فإنه فرّ، فنودي عليه وبُذل لمن يُحضِره المال فلم يقدر عليه، وأودع حميد وأصحابه السجن، وقُرروا فلم يعترفوا بشيء، فلمّا كان بعد أيّام تماوت فأمر بدفنه، فإذا به حيّ، فترك في السجن. وعرضت البراءة منه على أصحابه، فمن تبرأ منهم، خُلّي عنه، ومن أصرّ ترك في السجن، وعُرضت البراءة على الأستاذ فقال: إنّ القتل لايصل إليه.

فأمر بقطع لسانه فقطع ورمي قدّامه، فلم يرجع، وأخرج بحميد والخصيّ في مَن بقي من أصحابه فصلبوا وضربوا بالنشّاب حتى ماتوا، وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة سبع عشرة وخمسمائة. ثمّ ظُفر بالخيّاط فلم يتبرّأ من حميد، فصلب بجانبه. وصار أصحابه يأتون بالكافور ويلقونه قريباً من خشبته سراً، حتى إنّ مَن هناك يشمُّ ريح الكافور،

فيُشيع أصحابه أنّ هذا من كراماته التي ظهرت بعد صلبه، فلمّا اشتهر هذا أمر المأمون بحطّ رممهم عن الخشب ودفنهم، بحيث لم يعرف قبر حميد.

وكان حميد قصيراً دميم الخلقة، يَتَنَمَّسُ بالدين ويواصل طلوع الجبل في عدّة من أصحابه، ويصلّي ركعتين ثمّ يحضر إليهم المأكل من الجبل، فيرى أصحابه أنّه أحضر إليهم ذلك من الغيب. وكانوا يبالغون في تعظيمه حتى إنّهم يخافون الإثم في تأمُّل صورته، فلا يزالون مطرقين بين يديه، وهم مع ذلك يسألونه الحوائج، فما منهم أحد إلاّ ويستدعي منه بالجبل شيئاً على سبيل الامتحان فيحضره إليه لوقته.

وكانت معه سكين لاتقطع إلاّ بيده. فإذا أمسك طائراً أو قبضه أحدٌ ممّن عنده، يدفع السكّين التي معه إليه ويقول: اذبحه فلا تمشي في يده حتى يأخذها هو ويذبحه بها، فيجري دم الطائر. ثمّ يعود فيمسكه بيده ويسّرحُه فيطير.

وكان أصحابه يزعُمون فيه أنّ الحديد لايؤثر في جسمه.

-١١٨٤٣-

المؤتمن بن البطائحيّ

حيدرة بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمّام، المؤتمن، سلطان الملوك، نظام الدين، أبو تراب، ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع، ابن الأمير منجد الدولة أبي الحسن، ابن الأمير أمين الدولة أبي عليّ، أخي الوزير المأمون بن البطائحي.

نشأ بالقاهرة. فلمّا اتّصل أخوه عبدالله محمد بن فاتك بالأفضل ابن أمير الجيوش، استعان به وبأخيهما أبي الفضل جعفر. فاستصوب الأفضل فعله، ورتَّب لهما الرواتبَ الدارّة في اليوم والشهر والسنة.

فلمّا استقرّ أبو عبد الله بعد قتل الأفضل في الوزارة، صار إليه تقدمة العساكر وزمّ الأزمة. ثمّ ولاه الخليفة الآمر بأحكام الله: الإسكندرية، والأعمال البحريّة، والغربيّة، والجزيرتين، والدقهلية، والمرتاحيّة، في سنة سبع عشرة وخمسمائة، وخلع عليه بدلة مذهبّة من خاصّ لباسه وطوق ذهب، وقلّد بسيف قرابه وسفطه ذهب بغير منطقة، وشرّف بتقبيل يد الخليفة في مجلسه، وسلّم إليه تقليده في لفافة مذهّبة، وشدّت الأعلام والقصب والفضّة والعماريّات، وحمل على يديه أكياس المال برسم التفرقة، وحَجَبه الأمراءُ المطّوقون والأساتذة المحنكون. وقبّل أبواب القصور ومضى إلى داره. وأطلق له من ارتفاع الإسكندريّة على الولايتين في الشهر خمسمائة دينار.

فورد الخبر بأنّ رزين الدولة علي بن تراب والي الصعيد الأدنى وضامنَه قتلته لواته وعاثت في البلاد، فخرج المؤتمن ومعه طائفة من المأمونيّة، وتاج الدولة بهرام زمام الأرمن وجميع طائفته، وجرّد معه مائة فارس من خيرة الأجناد ومن أغنيائهم، وأضاف إليه أمثالهم مثل علي بن السلاّر،

وتاج الملوك قايماز، وسيف الملك الجمل، ودرّيّ الحرون، وحسام الملك بسيل، وكلّ واحد من هؤلاء له جيش بمفرده.

وسارت لواته إلى الفيّوم ونهبوها وأحرقوها ومضوا مغرّبين، فأخذ مواشيهم، وتبعهم إلى الموضع الذي يقال له الحمام وأخذ أموالهم وعزم على استئصالهم.

فبلغه أنّه قد وصل إلى الإسكندرية من مراكب الروم والبنادقة نيف وعشرون مركباً، فبادر إلى الثغر ودخله، فرأى الروم من عسكره ماهالهم فأقلعوا عن الثغر.

وأتاه مشايخ لواته ومقدّموهم وسألوه الوساطة بينهم وبين أخيه الوزير المأمون في الصفح عنهم، على أن يقوموا عن جناياتهم بثلاثين ألف دينار عيناً، أحضروها مع رهائنهم، فقرّر أمرهم على ذلك وقبض المال.

ولمّا اتّصل بأهل الإسكندرية قدومه خرج إليه الفقهاء والقاضي والشهود والتجار وكافة الناس، حتى النساء، ومعهم المصاحف والشموع، وسلّموا عليه. فخيّم بظاهر المدينة، وخرج إليه الإمام أبو بكر الطرطوشيّ للسلام عليه. فلم يقبل من أحد شيئاً سوى من القاضي مكين الدولة أبي طالب أحمد بن حديد قاضي الإسكندرية وناظرها، فإنّه قبل ماحمل إليه على حكم الضيافة ثلاثة أيّام، ثمّ أمره بأن لايعود إلى حمل شيء. وأخرج كتابين من الوزير المأمون، أحدهما يتضمّن أنّ الغلال بالثغر وأعمال البحيرة كثيرة، وكذلك الأغنام مع قطيعة العربان، فمهما دعت الحاجة إليه برسم أسمطة العساكر يحمل ويساق وتُكتب به الوصول على ماجرت به العادة، ويأمره فيه أن لايقبل من أ حد من التجّار ضيافة ولا هديّة.

والكتـاب الآخر إلى مكين الـدولة بـأن يطلـق في كلّ يـوم من ارتفـاع الثغر مايحتـاج إليه من الأصناف بـرسم الأسمطة للعساكر، وأن يستخدم عليها من يراه مـن الشهـود. وكان التجار قد جمعوا مـن بينهم ثلاثة آلاف دينار ضيـافة للمؤتمن وحملـوها إلى مكين الدولـة، فلمّا أحضرها إلى المؤتمن أنكر عليه وأمره بـردّها إلى أربابها. فأخذ مكين الدولـة يتلّطف به ويقول: تجعل عـوضها طيباً وطـرفاً ممّا عنـد التجّار فـإنّه لاكلفة عليهـم في ذلك. فأقسـم أن لايقبل منهم شيئاً، فـأعادها إلى أربابها. واستمـرّت الأسمطة في كلّ يوم تُعمل من مال الارتفاع.

وشرع المؤتمن في ترتيـب أحوال الثغر وعمارة مـاتشعّث منـه، ولم يقبل لأحدٍ هديّةً، ثمّ خلع على مكين الدولـة وسار لتمهيد مااختلّ من البلاد، فسدّد الأمر في ذلك، وعـاد إلى القاهرة. فمدحه عدّة مـن الشعراء، منهم أبو الفتح محمد بن قادوس، وأبو القاسم عليّ بن الصيرفيّ.

وكان سبـب عوده أنّ الخليفة الآمـر لمّا تغيّر على الوزير المأمون، بعث أستاذاً من ثقاتـه في أمر ندبه إليه، وأسرّ له أن يجتمـع بعليّ بن السلاّر في خفية، ويبلّغه سلام الخليفـة ويقول له: إنّنا مازلنا نلتفـت إليك وندّخرك لمهمّاتنـا ونتحقّق فيـك الموافاة لنـا. وإنّـا بحمد الله قـادرون على المكافـأة بالخير أكثرَ من غيرنا. وقد تلّونت أحـوال المأمون، وبالغ في عقوقنا بأشياء لايتّسع لنا ذكرها، ومقصودُنا أن تكتم مانقول لك.

فلمّا بلّغـه الأستاذ ذلـك عن الآمـر قال: السمـع والطاعـة لمولانا وأنـا مملوكه وباذل نفسي في خدمته.

فقال له الأستاذ: هكذا والله قال عنك.

قال: فما يأمر به؟

-١١٨٤٦-

قال: تحدّث رفقتَك بأجمعهم في الانفصال عن المؤتمن.

ثمّ تركه، ففارق ابن السلاّر المؤتمن، ومعه قايماز، ودرّيّ الحرون. فتبعهم بقيّة الأمراء، وصار المؤتمن مستوحشاً، وكتب إلى أخيه المأمون بذلك، وكان يشعر بتغيّر الخليفة عليه فلم يحرّك ساكناً، وتقدّم إلى الخليفة عند حضوره على العادة وقال: يامولانا، صلوات الله عليك. وصل كتاب عبدك أخي وهو يشكو من طول مقامه خارج القاهرة، وأسفه على مايفوته من خدمة مولانا بالمباشرة، ويسأل الفسحة له في العود إلى الباب الكريم.

فقال: مرحباً وأهلاً، وهذا كان ر أينا، ونحن مشتاقون إليه، وإنّما قصَدنا رضاك فيمَا رتّبته له، يقدم على بركة الله.

فكوتب عن الخليفة بالعود وأن يرتّب في ولاياته مَن يختار، فلمّا دخل جلس له الخليفة في غير وقت الجلوس تشريفاً له وخلع عليه.

فلمّا دخل شهر رمضان سنة(تسع) عشرة وخمسمائة، حضر المأمون والمؤتمن السماط بقاعة الذهب من القصر أوّل ليلة، فأكرمَهُما الخليفة بمَا أخرج إليهما ممّا كانت يدُه فيه، وبعث يستأنس بالمؤتمن لحضوره السماط مع أخيه.

فعاد في الليلة الثانية فزاد الخليفة في إكرامهما، وأذن للمأمون أن يدخل إليه ليؤاكِلَه، ولم يتقدّمه أحدٌ من الوزراء لذلك، فدخل. وهنّأه الناس بهذه المنزلة وخلع عليه وعلى أخيه المؤتمن من داخل الدار ثياباً داريةً، فلمّا حضرا في الليلة الثالثة السماط بالقاعة استدعي المأمون ليؤاكل الخليفة كما أكله البارحة، فعندما جلس على المائدة قال له: قد جفونا المؤتمن، واستدعاه فدخل وصارا في القبضة، وكان قد رتّب لهما

-١١٨٤٧-

مَن يأخذهما. فلمّا فرغ من الأكل وخرجا قبض عليهما واعتُقلا في خزانة، و أحيط بدورهما، ثمّ قُتل مع أخيه في ليلة العشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

-١١٨٤٨-

الأشرف خليل بن قلاوون

خليل بن قلاوون، السلطان الملك الأشرف، ابن الملك المنصور سيف الدين الألفيّ النجميّ.

ولد سنة سبعين وستّمائة. وأحبّه (أبوه) وفوّض إليه ولاية العهد وأركبه بشعار السلطنة من قلعة الجبل في يوم الجمعة حادي عشر شعبان سنة سبع وثمانين وستّمائة فسار إلى باب النصر من خارج السور، وشقّ القاهرة وصعد القلعة من باب زويلة، وسائر الأمراء في خدمته، ودقّت البشائر وخلع على أهل الدولة، وخُطب له بعد أبيه على منابر مصر والشام، وكتب بتقليده فتوقّف السلطان عن الكتابة عليه وقال لدغدي الدوادار لمّا قدم معه ليكتب عليه: خبئه عندك حتّى أطلبه.

فلمّا سافر السلطان في المحرّم سنة ثمان وثمانين وستّمائة لأخذ طرابلس من الفرنج، استخلفه على مصر وجعل معه الأمير الوزير بدر الدين بيدرا إلى أن عاد.

فلمّا مات أبوه الملك المنصور جلس بعده على تخت الملك بقلعة الجبل في يوم الأحد سابع شوّال سنة تسع وثمانين وستّمائة، ولم يختلف أحدٌ عليه. وحلف له الأمراءُ وأهل الدولة في يوم الاثنين ثامنِه، وخطب له على منابر مصر في يوم الجمعة ثاني عشرة، فطلب من القاضي فتح الدين ابن عبد الظاهر كاتب السرّ تقليده بولاية العهد. فأحضره إليه مكتوباً وليسَتْ عليه علامة السلطان، وكان قد طلبه الأشرفُ في حياة أبيه مراراً، وابن عبد الظاهر يقدّمه إليه، ويأبى أن يكتب عليه علامته. فلمّا تكرّر تقديمُه للعلامة ردّه وقال: يافتح الدين، أنا ماأوليّ خليلاً على المسلمين.

وبلغ ذلك الأشرف. فلمّا أحضر إليه ابن عبد ا لظاهر تقليد العهد

ورآه بغير علامة، قال: يافتح الدين، إنّ السلطان امتنع من أن يعطيني، فقد أعطاني الله وألقى إليّ التقليد.

ثمّ خلع على سائر الأمراء وجميع أهل الدولة.وركب من قلعة الجبل بشعار السلطنة في يوم الجمعة المذكور، وسيَّر بالميدان الأسودِ تحت القلعة على العادة وعاد سريعاً، فقد بلغه أنّ طرنطاي النائب يريد الفتك به. فعندما استقرّ بالقلعة استدعى طرنطاي وقبض عليه. ثمّ قبض على سنقر الأشقر، وجرمك الناصريّ، وكانا أكبرَ أمراء دولةِ أبيه.

وتجرّد للغزو فندب العساكر من البلاد الشاميّة للجهاد وكتب إليهم بتجهيز الزردخاناه وأعواد المجانيق والحجّارين. وخرج الأمير أيبك الأفرم لذلك فجهّز أعواد المجانيق من دمشق حتى كمل في ثاني عشر ربيع الأوّل وسيّرها مع الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وخرج الأمير لاجين نائب دمشق بعساكرها، وقدم صاحب حماه ونوّاب المالك.

وبرز السلطان من قلعة الجبل في يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأوّل سنة تسعين وستّمائة، وسار بعساكر مصر، وقدّم حريمه إلى دمشق، فوصل إلى عكّا في يوم الخميس ثالث ربيع الآخر. وقدمت عليه المجانيق يوم الجمعة وعدّتها اثنان وتسعون منجنيقاً، فتكامل نصبُها وأقيمت الستائر في أربعة أيّام.

وكان الفرنج قد استنصروا بأهل الجزائر، فقدمت إليهم جموع كثيرة، وأغلقوا أبواب عكّا، فوقع الحصار وعُملت النقوب إلى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، فركب السلطان ورتب الكوسات على ثلاثمائة جمل وأمر أن تضرب جملة واحدة، وزحف بعساكر المسلمين عند طلوع الشمس ودقّت الكوسات فارتجّت الأرض وهال الفرنج ماسمعوه من ضرب الكوسات ومشاهدة الكياة. وأنزل الله نصره على المؤمنين، فلم

ترتفع الشمسُ حتى علت الصناجق السلطانيّة على أسوار عكّا، وانهزم الفرنج إلى المراكب بالبحر، فهلك منهم في الزحام خلق كثير، والمسلمون تقتل وتأسر وتنهب وتسبي النساء والأولاد، فقُتل وأسر وسُبي مالايُحصى كثرةً، وأمر السلطان بتخريب عكّا، فابتدأ هدمها وإحراقها في يوم السبت ثامن عشره. فكانت مدّة حصارها أربعة وأربعين يوماً.

وأكرم الله بالشهادة من الأمراء: كشْتغدي الشمسيّ، وأيبك العزيّ نقيب الجيوش، وأقوش الغَتميّ، وبيليك المسعوديّ، وقيران السكّريّ، وأربعة من مقدّمي الحلقة، وجماعة يسيرة من الأجناد.

وفتح الله تعالى أيضاً صور في تاسع عشره، وصيدا في عشرينه، وحيفا وعثليت. كلّ ذلك بغير قتال. فأمر بهدم صور وحيفا وعثليت فهدمت كلّها.

وقبض علي الأمير لاجين نائب دمشق وبعثه إلى قلعة الجبل. ثمّ رحل عن عكّا إلى دمشق فدخلها يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة وقد زُيّنت زينةً عظيمةً وكان يوماً مشهوداً. وفيه ولّى الأمير سنجر الشجاعي نيابة دمشق.

وخرج السلطان من دمشق في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب، وسار إلى القاهرة، فوصلها يوم الاثنين تاسع شعبان ودخل من باب النصر وخرج من باب زويلة إلى القلعة، وقد زيّنت القاهرة زينة عظيمة لم يُرَ قبلَها مثلُها، وكان من الأيّام المذكورة.

وخرج الشجاعيّ من عكّا فأخذ بيروت من الفرنج في شعبان، ولم يبقَ في جميع الساحل أحد من الفرنج.

وفي يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر سار السلطان من قلعة الجبل

إلى ا لشام بعساكر مصر، ومعه الأمير لاجين بعدما أفرج عنه وأعاد إليه الأمر بمصر. فدخل دمشق يوم السبت سادس جمادى الأولى، وأنفق في العساكر يوم الاثنين ثامنه، وخرج في سادس عشره إلى حلب فدخلها في ثامن عشرينه. وسار منها يريد أخذ قلعة الروم في يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة. فنزل عليها يوم الثلاثاء ثامنه وحاصرها ونصب عليها عشرين منجنيقاً، وعملت النقوب وتحيّل الأمير سنجر الشجاعيّ نائب دمشق في عمل سلسلةٍ شَبَكَ طرفها بالغرب من شراريف القلعة وطرفها الآخر بالأرض، وطلع فيها المقاتلة وقاتلوا أهل القلعة قتالاً شديداً. ففتحها الله في يوم السبت حادي عشر رجب عنوة، فقُتلت المقاتلة وسُبيت النساء والذراريّ، وأسر بطرك الأرمن، فكانت مدّة الحصار ثلاثاً وثلاثين يوماً، وسمّى السّلطان هذه القلعة قلعة المسلمين، فعرفت بذلك إلى اليوم.

وكثرت الأسرى في أيدي العسكر، فكانت حصّة الزردخاناه السلطانيّة من الأسرى ألفاً ومائتي أسير، واستشهد من الأمراء شرف الدين الخطير وابن الأمير جاندار. وكتب بالفتح إلى البلاد، فزيّنت دمشق ودقّت البشائر.

ورحل السلطان عنها يوم السبت ثامن عشره، وأقام نائب دمشق لعمارة ما تهدّم منها بالمجانيق والنقوب، وتخريب ربضها وإعادته قريباً منها. فأقام بحلب إلى نصف شعبان، وعزل قراسنقر نائبها وولّى عِوضه بلبان الطباخي.

وخرج من حلب إلى دمشق فقدمها في العشرين منه، وبين يديه البطرك والأسارى، فكان يوماً عظيماً. ونزل بالقلعة، وجرّد الأمير بيدرا النائب بديار مصر على عسكر كبير إلى جبال كسروان فرجع بغير طائل.

ووقع في جمال العسكر وباء كثير فسار أكثر العسكر من دمشق إلى القاهرة في العشرين من رمضان.

فلمّا كانت ليلة عيد الفطر هرب الأمير لاجين الصغير(من داره بدمشق) خوفاً من القبض عليه، فنودي بدمشق: من أحضر لاجين فله ألف دينار،ومن أخفاه شُنق، وركب السلطان في خاصّكيجته وجماعةمن الأمراء، وترك سماط العيد وساق في طلبه وبعث الأمراء يميناً وشمالاً فلم يظفر به، وعاد آخر النهار وقد بلغ من التعب مبلغاً مشقّاً، فزاد قلقُه. واتّفق أنّ لاجين نزل عند العرب فأخذوه برمّته وحملوه إلى دمشق. فقبض السلطان على الأمير بيبرس طقصو حمي لاجين، وبعثهما إلى قلعة الجبل. وعزل سنجر الشجاعيّ عن نيابة دمشق وولّى أيبك الحموي.

(وفي الثلث الآخر من ليلة الثلاثاء تاسعه) خرج من دمشق(عائداً إلى مصر، بعدما رسم لجميع أهل الأسواق) أن يقفوا من باب النصر إلى جامع القدم وبيد كلّ منهم شمعة. فلمّا ركب أشعلوا الشموع كلّها وسار السلطان بين صفّين من شموع مشعلة من باب النصر إلى مسجد القدم، ونزل مخيّمه. ثمّ سار فدخل القاهرة من باب النصر، وخرج من باب زويلة وصعد قلعة الجبل في يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة، وقد عمل من الزينة والقلاع والتهاني، وأوقد من الشموع مايجلّ وصفه.

ثمّ خرج إلى بلاد الصعيد في المحرّم سنة اثنتين وتسعين فانتهى إلى مدينة قوص ونادى بها في العسكر أن يتجهّزوا لغزو اليمن، وعاد إلى قلعة الجبل.

ثمّ خرج إلى بلاد الشام مُخفّاً على الهُجن في خواصّه، وسيّر العساكر والخزائن صحبة الأمير بيدرا نائب السلطنة والوزير شمس الدين محمد ابن السلعوس، فدخل السلطان إلى مدينة الكرك وسلك البرّية إليها، فأقام بها حتى رتّب الوزير أحوالها. فدخل إلى دمشق فقدمها في تاسع

جمادى الآخرة، وقد وصل النائب والوزير قبله بثلاثة أيّام. وأمر بالتجهيز لأخذ بهَسْنا ومرعش وتلّ حمدون من الأرمن. فقدم عليه رسل سيس فسألوا العفو عنهم وأن يسلّموا البلاد المذكورة، فأجيبُوا إلى سؤالهم وسافروا ومعهم الأمير طوغان والي برّ دمشق ليتسلّم ذلك، فقدم البريد بأنّه تسلّمها في أوائل رجب، ودقّت البشائر بقلعة دمشق، وبعث إليها النّواب والقضاة والرجال، ثمّ قدم طوغان بالرسل ومعهم تقادم سيس والحمل في ثامن عشرينه بعدما توجّه السلطان من دمشق في ثاني رجب إلى حمص فأدركوه، وسار من حمص إلى سلميّة مخفّاً ونزل بغتة على الأمير مهنّا بن عيسى وقبض عليه وعلى إخوته وبعث بهم إلى دمشق في سابعه، وبعث الأمير أيبك الأفرم فهدم قلعة الشوبك. وخرج الأمير بيدرا والوزير ابن السلعوس من دمشق بالعسكر والخزانة في حادي عشره. وخرج السلطان يومَ السبت ثالث عشره في عدّة من خواصّه فدخل غزّة في سابع عشره، وقدم إلى القاهرة في ثامن عشرينه.

ثمّ خرج من قلعة الجبل في ثالث المحرّم سنة ثلاث وتسعين وستّمائة وعدّى النيل إلى برّ الجيزة وصحبته الأمير بيدرا النائب وغيره من الأمراء، وسار إلى الطرّانة، فقَدَّمَ الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس إلى الإسكندرية لتحصيل الأموال وتجهيز تعابي الثياب، فوجد نوّابَ بيدرا قد استوَلَوا على المتاجر والاستعمالات وغيرها، فكتب يعرّف السلطان أنّه لم يجد بالثغر مايكفي الإطلاقات الجاري بها العادة، وأنّ الصنف كلّه قد استولى عليه نوّاب الأمير بيدرا نائب السلطنة، فاشتدّ غضَبُ(السلطان) وطلب بيدرا وشتمه وأخرق به بحضور الأمراء، فدارى أمره حتّى خرج من بين يديه، وجمع الأمراء أصحابه وشاورهم، فأشاروا عليه بقتل السلطان.

وكان السلطان قد نزل بأرض الحمّامات للصيد، وأقام إلى يوم السبت ثاني عشر المحرّم. واتّفق أنّ السلطان كان قد أذن لأمرائه الخاصّكيّة أن

بتوجّهوا إلى إقطاعاتهم، وانفرد بمماليكه. وركب من تروجة ليتصيّد، وبعث إلى بيدرا أن يسير تحت الصناجق بالأمراء الذين تأخروا وبقيّة العسكر، وحملت الزردخاناه وسار بها أمير جاندار.

وسار السلطان في وقت العصر وليس معه غير الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشل أمير شكار فقط، يريد طيراً سمع به في ناحية تروجة، وساق ليسبقَ خناصَكيّته إلى أن رأى طيراً كثيراً فصرع منه بالبندق ماشاء الله، والتفت إلى أمير شكار وقال: أنا جيعان، فهل معك ماآكل؟

فقال: والله مامعي سوى رغيف واحد وفرّوج في صولقي(جزابي) ادّخرتُه لنفسي، فقال: ناولنيه، فتناوله وأكله جميعَه. ثمّ قال لأمير شكار: أمسك فَرسي حتى أنزل أبول— وكان أمير شكار كثيرَ التبسّط مع السلطان، فقال: مافيها حيلة: السلطان على حصان، وأنا على حجرة وما يتفقان، فقال السلطان: انزل أنت وأركب خلفي حتّى أنزل أنا.

فنزل أمير شكار وناوله السلطان عنان فرسه وأمسكه، ثمّ ركب خلف السلطان ونزل(السلطان) فقضى حاجته. ثمّ قام وركب حصانه ومسك فرس أمير شكار حتّى ركب، وإذا بغبار عظيم قد ثار إلى جهته، فقال لأمير شكار: أمضِ اكشف الخبر!

فساق يريده وإذا هو بالأمير بيدرا في طائفة من الأمراء، فسألهم عن سبب مجيئهم فلم يجيبوه، ومرّوا كما هم إلى السلطان، وبدره بيدرا بالسّيف فقطع يده وثنّى في ضربه فألقى كتفه. فتقدّم الأمير حسام الدين لاجين وقال: يابيدرا، من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضربته، وضرب السلطان على كتفه فحلّه، فسقط إلى الأرض. وجاء بهادر رأس نوبة فوضع السيف في دبره وأخرجه من حلقه، وتناوبه قراسنقر وأقسنقر الحسامي، ونوغاي، ومحمد خواجا، وطرنطاي الساقي، وألطنبغا رأس

نوبة حتّى شفَوا أنفسهم، وذلك يوم السبت المذكور، وتركوه وانصرفوا. فبقي مطروحاً في موضعه يومين حتى جاء الأمير أيدمر العجميّ متولّي تروجة وحمله في تابوت إلى تروجة وغسّله في الحمام وكفّنه وخلاّه في بيت المال بدار الولاية إلى أن حضر الأمير سعد الدين كوجبا الناصريّ وحمله في تابوته إلى المدرسة الأشرفيّة بجوار المشهد النفيسيّ خارج مدينة مصر، ودفنه بها سحر يوم الجمعة ثاني عشرين صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وكانت مدّة سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيّام، ومات عن ابنتين من زوجته خاتون أردكين، فورثه معهنّ أخُوهُ الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وكان كريماً شجاعاً مقداماً خفيف الركاب مظفّراً في حروبه، نظّف الساحل الشاميّ من الفرنج، وفتح عكّا وصور وبيروت وصيدا وبهسنا وقلعة الروم وجميع الساحل في أقرب مدّة، وكان حسن النادرة يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط، واتّفق له أنّه جلس في أيّام أبيه بالميدان والقرّاء يقرؤون القرآن، وكان أبوه يحاصر طرابلس، فقال الأشرف: في هذه الساعة أخذت طرابلس، فضبط ذلك فكان كما قال.

وقال محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر: مارأيت وماسمعت أسبق من ذهن الملك الأشرف إلى فهم، ولا أدرك منه إلى مايريد الوهم. لقد كتبت عنه واستكتبت فما علم على مكتوب قطّ إلاّ وقرأه جميعه، وفهم أصول المكتوب وفروعه، لابل استدرك عليّ وعلى الكتّاب، وخرّج أشياء كثيرة معه فيها الصواب، وذلك بحسن تعطّف وكثير تلطّف.

وعظم الأشرف في نفسه حتّى صار في آخر أيّامه يكتب موضع العلامة «خ» إشارة إلى الحرف الأوّل من حروف اسمه. ومَنَعَ كُتّاب الإنشاء أن يكتبوا لأحدٍ من الأمراء والنّواب «الزعيميّ» وقال: من زعيمُ الجيوش غيري؟

وكان يؤخذ في باب الجابية، أحد أبواب مدينة دمشق، على كلّ حمل من القمح خمسة دراهم، فأمر بإبطال ذلك، وكتب مرسوم المسامحة بهذا المكس، فكتب بخطّه بين الأسطر بقلم العلامة: ولنكشف عن رعايانا هذه الظلامة، ونستجلب لنا الدعاء من الخاصّة والعامّة.

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه
وأوّل الغيث قطرٌ ثمّ ينسكب

إلاّ أنّه رُمي بأنّه يشرب الخمرَ في رمضان، وأنّه يفسق بالمردان، ولايصلّي، فاستفتى بيدرا في قتله فأفتوا بإراقة دمه، وذكر أنّ بيدرا جلس معه على الأكل. فلمّا فرغ من أكله لعق أصابعه فأنكر عليه الأشرف ذلك، فقال: ياخوند، السنّة لعق الأصابع بعد الأكل، وذكر له قول رسول الله ﷺ:«إذا أكل أحدكم فلايغسل يده—أو قال:أصابعه— حتى يَلعقها».

فلمّا قال بيدرا الحديث قال الأشرف بالتركيّة: هَيْ طاط— فسأل بيدرا الفقهاء ممّن ذكر له حديث رسول الله ﷺ فقال: كذا، وهذا معناه بالعربيّة: فلاّح—يعني أنّ قائل هذا فلاّح— فقالوا: لهذا تنقيص، ويُقتل قائله لفساد طويّته وخبث نيّته.

ومن غريب ماوقع له أنّه كان مرّة راكباً للصيد، ولاجين يومئذ من جملة السلاح داريّة، وهو نوبتُه في حمل السلاح، فلمّا أقام السلطان الحلقة دفع لاجين السلاح السلطانيّ إلى بدر الدين بكتوت أ حد السلاح داريّة ومضى في شُغلٍ ندب إليه، فوقف بكتوت بالسلاح على العادة، وأطرق السلطان ساعةً كالمفكرّ ثمّ قال لبكتوت: يابكتوت، والله لقد التفتّ ورائي فرأيت لاجين خلفي وهو حامل سلاحي والسيفُ في يده، فخُيّل لي أنّه يريد أن يضربني به. فنظرت إليه وقلت له: ياشقير أعطِ السلاح لبكتوت يحمله، وتوجّه أنت مكانه.

قال بكتوت: فقلت للسلطان: أعيذ مولانا بالله أن يخطر هذا بباله، ولاجين أقلّ من هذا، وأضعف نفساً أن يخطر هذا بباله، فضلاً أن يقدم عليه، وهومملوك مولانا السلطان، ومملوك الشهيد، وتربية بيته الشريف، فقال: ماعرّفتك إلاّ ماخطر لي.

ثمّ إنّي اجتمعت بلاجين في خلوة وقلت له: بالله، تجنّب السلطان ولاتكثر من حمل السلاح، وأخبرته بما قال. فضحك وقال: والله لمّا نظر إليّ وقال لي: «ياشقير»، كنت قد عزمت على تجريد سيفه وقتله به.

فعدّ هذا من أعجب العجب، وصدق حدس السلطان وتولّى لاجين قتلَه.

ومن شجاعته أنّ كيختوا بن هولاكو بن ملك التتار بعث في سنة اثنتين وتسعين وستّمائة رسله بكتابه، وقالوا له مشافهة: القان يقصد دخول حلب والإقامة بها، فإنّها ممّا فتحه أبوه هولاكو بسيفه، وهي في ملكه، وإن لم يسمح بها، عبر إلى الشام.

فأجابهم في الحال من غير توقّف، وهو يبتسم وقال: الحمد لله قد وافق أخي القان ماكان في نفسي، وتحدّثتُ به مع أمراء دولتي: أنّي أسير أطلب من أخي بغداد، فإن لم يسمح بها ركبت وأخذتها بعسكري، وخربت بلاده، وقتلت رجاله وفتحتُها قهراً وأقمتُ بها نائباً عنّي، فإنّ بغداد هي دار الإسلام، وأرجو أن أعيدها للإسلام كما كانت، ولكن عرّفوه: سننظر من يسبق إلى بلاد صاحبه ويدخل إليها.

وأخرجهم إلى حيث أنزلهم، وكتب في الحال إلى نوّاب الشام بتجهيز الإقامات وأخذ العساكر الأهبةَ لعبور الفرات وغزو بغداد، وتقدّم إلى أمراء مصر وعساكرها بلبس آلة الحرب والحضور إلى الميدان. وأنزل بالرسل لمشاهدة العسكر، فخرج معظم أهل القاهرة ومصر ليروا عرض

العساكر، وكـان يوماً مشهوداً، ركـب فيه السلطان بعد أذانِ الظهـر وعليه قـرقلٍ وفـوق رأسه كـوفيّة وبيـده شطفـة، ودخل الميـدان، وبعده الأمـراء واحداً بعـد واحدٍ وعليهم أ فخـر آلات الحرب، وكلّ منهم يحمـل شطفة فيهـا رُنكــه، فكـرّوا وفـرّوا وأظهــروا أعمالهم الحربيّـة، إلى أن أذّن العصر، فدهش الرسل لما رأوا.

وكان هذا ثالث عرض عرضـه في مدّة سلطنته، فلمّا انقضى أمرهم نزل وخلع وأنعـم، واستدعى الـرسل وقـال لهم: أعلموا أخي كيختـوا أنّ مَن يكون معـه مثل هذا العسكر(لا) يتـوقّف في دخول بـلادك أو بلاد غيرك، والله، وتربـة أبي، لأدخلن إليـه و أخرّب بيوت جميـع المغل وأجعلهـا بلاد إسلام إلى يوم القيامة، إلاّ أن يدركني أجلي.

ثمّ خلـع عليهم وردّهم، وكتـب يستحثّ النّـواب فعاجلته منيّتـه قبل بلوغ أمله عقيب ذلك.

وكـان عزاؤه مـن الأمـور المذكورة: فـإنّ زوجتـه الخاتون أردكين بنـت نوكـاي استأذنـت في عمل العزاء، فمـرّت في القاهرة ومعهـا مائة جـارية وثـلاثون خـادماً وعدّة بـابيّـة ومماليـك صغـار، وقد حسر الجواري عـن وجوههـنّ وأرسلن شعـورهنّ مـن ورائهنّ محلـولة، وعليهـنّ جلال سـود، وعُبّي مخرّقة في أعناقهنّ، ومعهنّ عدّة جـوق من النوائح المحزنة أصواتهنّ وقـد أشعلت معهـنّ ستّين شمعة، وعـدّة كبيرةٌ من الفـوانيس يحملهـا الخدم والبابيّة والنـوائح يندبن، والجواري يصحن، وكان مـن قول النوائح بالأصوات الشجيّة:

جــــــدّدوا همّي وأحـــــــزاني
وافـــــرحـــــة الأعــــدا بسلطـــــاني
يـــا ضـــاربـــه بـــالسيـــف شلّـــت يـــداك
قـــد بلغـــت يمنـــاك منـــه منـــاك

لامـــــاتنـــــي ربي حتـــــى أراك
قـــد سمّـــروا عينيـــك وهـــذا جـــزاك

إلى غير هـذا. فأقمـن على هذا سـتّ ليـال، كل ليلـة من العشـاء إلى السحـر حتى قلـق الناس وكثـر توجّعهـم وبكـاؤهم، فهـاجت حفـائظ المماليـك الأشرفيّة واجتمعـوا إلى الأمير سنجـر الشجـاعيّ وبكـوا عنـده، فهيّجه بكـاؤهم، واجتمع بكتبغا النـائب وغيره من الأمراء حتى كـان من قتل الأمراء ماذكر في موضعه.

وكان بطلاً شجاعـاً مهاباً عالي الهمّة، يملأالعين ويـرجف القلب،وكان ضخماً سميناً، كبير الوجه، بديع الجمال، مستـدير اللحية على وجهه رونق الحسن وهيبة السلطنة.

وكان إلى جـوده وبذلـه الأموال في أغـراضه المنتهـى، تخافه الملـوك في أقطارها، أباد جماعة من كبار الدولة.

وكان منهمكـاً على اللذّات لايعبأ بالتحـرّز على نفسه لفرط شجـاعته. وكان كرمه زائداً وإطلاقاته عظيمة.

وكانت واقعتُـه تُسمَّى وقعة الأيدي والأكتاف لأنّ جميـع من وافق على قتله قطعـت أيديهم أوّلاً، وفيهم مـن سمّر، وفيهـم من أُحرق، وفيهـم من قتل.

ولم يجدّد في زمانـه مظلمة ولااستجـدّ ضمانَ مكس، وكـان يحبّ الشام وأهله، وكان عنـدما أقيم سلطانـاً، منع أن يكتب إلى أحدٍ بـدعاء في أوّل المكاتبـة مثل: حرس الله نعمـة المجلس، وماأشبـه ذلك، وقال: مـن هو الذي افتتح خطابه بالدعاء له؟

ولمّا توفّي فتح الدين ابن عبد الظاهر، وأقام بعدَه عمادَ الدين ابنَ الأثير في كتابة السرّ بعث إليه ورقة بخطّه فيها: ياعماد، أكتب كيت وكيت، ثمّ بعد مدّة جاءت إليه منه ورقة فيها بخطّه: ياعماد الدين، أكتب بكذا وكذا، ثمّ بعد مدّة جاءته ورقة فيها: ياعماد الدين كاتب سرّنا، أكتب بكذا وكذا.

وكان الموقّعون يكتبون في الطرّة إشارة إلى مايعلّمه السلطان، على قدر المكاتبة، إمّا أن يكتب: «آمره» أو يقولون«بيبرس» أو«قلاوون» أو «خليل» بحسب اسم السلطان. فأبطل ذلك ابن عبد الظاهر في أيّام الأشرف—أعني كتابة«خليل»— وكتب:«الاسم الشريف». فأعجب السلطانَ ذلك وأمر لكلّ حرف بألف درهم. ووجدت أوراق كثيرة عند شرف الدين فضل الله كاتب السرّ بخطّ الأشرف إليه وفيها مقاصد مايكتبه عنه بعبارة مسدّدة، ومقاصد مستوفاة للغرض المقصود، وفي بعضها بخطّ يده:عجباً عجباً لذهنك الوقّاد وفكرك النقّاد، كيف فاتك هذا؟

وكان فيها ماكتب إلى أبي نميّ، ومن جملته: فرَكَنتَ إلى الظاهر وهو أخبث الطير، وأنت أحذر الوحش.

وفيه يقول شمس الدين محمد بن سليمان بن غانم:

مَلِيكان قد لُقِّبا بالصَّلاح ... فهذا خَليلٌ وذا يوسُفُ
فيوسفُ لاشكَّ في فضلِهِ ... ولكنَّ خَليلٌ هوَ الأشرف

وذكر ابن عبد الظاهر أنّ شرف الدين البوصيريّ رأى في منامه قبل الحركة إلى عكّا في شوّال سنة تسع وثمانين وستّمائة—وقال ذلك لجماعة شهدوا بصحّة ذلك— وكأنّ قائلاً يُنشد:

قـــد أخـــذَ المسلمـــونَ عَكّـــا
وأشبَعـــوا الكـــافـــريـــنَ صَكّـــا
وســـاقَ سُلطـــانُنـــا إليهـــم
خيـــلاً تَـــدُكُّ الجبـــالَ دَكّـــا
وأقســـم التُّركُ منـــذُ ســـارت
لا تَـــرَكـــوا للفـــرَنـــجِ مُلكـــا

وقال فيه ابن دانيال لمّا فتح عكّا:
مـــا رأى النـــاسُ مثـــلَ مُلكـــكَ مُلكـــاً
مـــلأ الخافقَينِ للحـــربِ تُـــرْكـــا
وجُيـــوشـــاً لـــو صـــادمَـــت جبـــلَ الشِّرْ
كِ لـــدَكَّتـــهُ بـــالسَّنـــابـــكِ دَكّـــا

منها:
قـــد رأينـــا وأنـــت أنـــت صَـــلاحُ الـــ
ـــدين مـــا كـــان عـــن سَميـــك يُحكَـــى
صِـــدت صيـــدا قنصـــاً وصـــورَ وعَثْليـــ
ـــثَ وبيروتَ بعـــدَ فتحِـــكَ عَكّـــا

وله فيه أمداح كثيرة، من ذلك قصيدةٍ مدحه بها لمّا عمرّ الإيوان الذي بالقلعة وقد زخرفه وعلّى قُبَّته:
وقُبَّـــةٌ هـــي لـــلأفـــلاكِ عـــاشِرةٌ
ودُونَها في علـــوِّ الشـــأنِ كِيـــوانُ
كـــأنّها العـــالَمُ العُلْـــويُّ تحرسُهـــا
الأمـــلاكُ لم يـــدنُ منهـــا ثَـــمَّ شيطـــانُ
عَلَـــتْ فـــأفـــلاكُهـــا الأفـــلاكُ في شَرفٍ
وتبرُهـــا الشُّهـــبُ والأركـــانُ أركـــانُ
وأنـــتَ يـــا أشرفَ الأمـــلاكِ شمـــسُ عُـــلا
سمائهـــا وعلى ظنّـــي سُليمَانُ

وتحت دِهليزك الزاهي بزركشةٍ
مِن كُلِّ ما تتمنّى النفسُ ألوانُ
والجيشُ بالقَبَقِ المنصور قد ولعُوا
بكُلّ طائشةٍ والقوسُ مِرنانُ
كأنّما العرضُ يومَ العرضِ إذ عُرضوا
عليه صفاً ولا لإعطاء ميزانُ

وكان مُغرًى بالهدم، لأنّه هدم أماكن، وفيه يقول علاء الدين الوَداعيّ لمّا أمر بهدم الأماكن التي تجاور الميدان بدمشق، ووزّع عمارته على الأمراء. ومن خطّه نقلت:

إنْ أمَرَ السلطانُ في جِلَّقٍ
بهدم ما ضايقَ ميدانَه
فإنّه قد غارَ لمّا رأى
غير بيوتِ اللهِ جيرانَهُ

وقال أيضاً:

جُزيتُم أيّها الأمراءُ خيراً
على إتقانكم هذي البنيّهْ
فلا تخشَوا على الميدانِ شيئاً
سوى سَيلِ العطايا الأشرفيّهْ

فاتّفق أنّ السلطان حضر بعد ذلك، وأنفق في العساكر.

وقال الشهاب محمود، لمّا فتح عكّا، قصيدته البائيّة المشهورة، يمدحه بها وهي:

الحمدُ للهِ زالت دولةُ الصُّلُبِ
وعزّ بالتُّركِ دينُ المصطفى العَربي
هذا الذي كانت الآمالُ لو طلَبت
رؤياهُ في النوم لاستحيت من الطلبِ

مـــا بعــدَ عكّـا وقـد هُــدَّتْ قـواعــدُهـا
في البحـــر للشِّركِ عنـــدَ البرِّ مـــن أرَبِ
عَقيلــةٌ ذهَبَـــت أيــدي الخُطـــوبِ بها
دهـــراً وشُـــدَّتْ عليهــا كَــفُّ مُغتصِـبِ
لم يبــقَ مـن بعــدهـا للكُفــر مُــذْ خَربـت
في البرِّ والبحـر مـــا يُنجـي ســوى الهَربِ
كـــانـــت تُخيِّلُنـــا آمـــالُنـــا فنـــرى
أنّ التفكُّـــر فيهـــا غـــايـــةُ العَجَـــبِ
أمُّ الحُروبِ فكـــم قـــد أنشـــأت فِتَنـــاً
شـــابَ الـــوليـــدُ بها هـــولاً ولم تَشِـــبِ
سُـــورانِ، بَـــرّاً وبحـــراً حـــولَ ســـاحتِهـا
دارا وأدنـــاهُما أنـــأى مـــن القُطُـــبِ
خَـــرْقـــاءُ أمنـــعَ سُـــورَيها وأحصنَهـــا
غُلْـــبُ الـــرجـــالِ وأقـــواهـــا على النُّـــوبِ
مُصفَـــحٌ بصِفـــاحٍ حـــولَها أكَـــمٌ
مـــن الـــرِّمـــاح وأبـــراجٌ مـــن اليَلَـــبِ
مِثـــلُ الغمائم تهدي مـــن صَـــواعِقِهـــا
بـــالنَّبْـــل أضعـــافَ مـــا تهدي من السُّحُـــبِ
كـــأنّها كـــلُّ بُـــرْجٍ حـــولَـــه فَلَـــكٌ
مـــن المجـــانيـــقِ يَـــرمـــي الأرضَ بـــالشُّهُـــبِ
فَفـــاجـــأتْها جُنـــودُ اللهِ يقـــدُمُهـــا
غضبـــانُ للهِ لا للمُلـــكِ والنَّشَـــبِ
لَيـــثٌ أبـــى أن يـــردَّ الـــوجـــهَ عـــن أمَـــمٍ
يـــدعـــونَ رَبَّ العُلَى سُبحـــانـــه بـــأبِ
كـــم رامَهـــا ورمـــاهـــا قبلَـــه مَلِـــكٌ
جَـــمُّ الجيـــوشِ فَلَـــم يظفَـــرْ ولم يُجِبِ
لم يُلهِـــهِ مُلكُـــه بـــل في أوائلِـــه
نـــالَ الـــذي لم ينلْـــهُ النـــاسُ في الحِقَـــبِ

لم تَــرضَ هِمَّتُــه إلاّ الــذي قَعَــدت
للعجـز عنـه مُلـوكُ العُجْـمِ والعَـربِ
فـأصبَحـت وهـي في بحـرَيْـنِ مـائلـةٌ
مـا بينَ مُضطَـرِمٍ نـاراً ومضْطـربِ
جيـشٌ مـن التُّركِ تَـرْكُ الحربِ عنـدهُـمُ
عـارٌ وراحتُهـم ضَربٌ مـن الضَّرَبِ
خـاضُـوا إليهـا الـرَّدى والبحـرَ فاشتَبَه الـ
أمـرانِ واختلفـا في الحالِ والسَّبَبِ
تَسنَّمـوهـا فلـم يترُكْ تسنُّمهـم
في ذلـك الأُفـقِ بُـرجـاً غيرَ مُنقلـبِ
تسلَّمـوهـا فلـم تَخلُ الـرقـابُ بها
مـن فتـكِ منتقـمٍ أو كـفِّ منتَهـبِ
أتـوا حماهـا فلـم يمنـعْ وقـد وثَبـوا
عنهـا مجانيقُهـم شيئـاً ولم تَثِـبِ
يـا يـوم عكّـا لقـد أنسيـتَ مـا سَبقـت
بـه الفتـوحُ ومـا قـد خُـطَّ في الكُتُـبِ
لم يبلُـغِ النُّطـقُ حـدَّ الشكـرِ منـك فما
عسَـى يقـومُ بـه ذو الشعـرِ والخُطَـبِ
كـانـت تُمنِّـي بـكَ الأيّـامُ مبعِـدةٌ
فـالحمـدُ لله نلنـا ذاك عـن كثَـبِ
أغضَبْـتَ عُبّـادَ عيسَـى إذ أبَـدتَّهُمُ
للهِ أيُّ رضًـى في ذلـك الغضـبِ
وأطلـع الله جيـش النصر فـابتـدرت
طـلائعُ الفتـح بين السُّمْـرِ والقُضُـبِ
وأشرفَ المصطفـى الهادي البشيرُ على
مـا أسلـفَ الأشرفُ السلطـان مـن قُـربِ
فَقَـرَّ عينـاً بهذا الفتـح وابتهجَـت
بفتحـه الكعبـةُ الغـرّاءُ في الحجُـبِ

وسارَ في الأرض سير الريح شمعتهُ
فالبرُّ في طربٍ والبحرُ في حَرَبِ
وخاضت البيضُ في بحر الدماء وما
أبدتْ من البيض إلاّ ساق مختضبِ
وغاصَ زُرق القَنا في زُرق أعينهم
كأنّها شطنٌ تهوي إلى قُلُبِ
توقّدت وهي غرقى في دمائهمُ
فزادها الطّفحُ منها شِدّةَ اللهبِ
أجرتْ إلى البحرِ بحراً من دمائهمُ
فراحَ كالراحِ إذ غرقاه كالحبَبِ
وذابَ من حرها عنهم حديدُهمُ
فقيّدتهم به ذُعراً يد الرّهبِ
تحكّت وسطت فيهم قواضبُها
قتلاً وعفّت لحاويها عن السَّلَبِ
كم أبرزَت بطلاً كالطّودِ قد بَطَلَت
حواسّه فغدا كالمنزلِ الخربِ
كأنّه وسنانُ الرمح يطلبُه
بُرجٌ هوى ووراه كوكبُ الذّنبِ
بُشراكَ يا ملكَ الدنيا لقد شرُفتْ
بكَ الممالكُ واستعلَت على الرُّتَبِ
ما بعد عكّا وقد لانت عريكتُها
لديكَ شيءٌ تُلاقيه على تَعَبِ
فانهض إلى الأرضِ فالدّنيا بأجمعها
مُدَّتْ إليك فواصِلها بلا نَصَبِ
كم قد دَعَت وهي في أسر العدى زمناً
صِيدَ الملوكِ فلم تُسمَعْ ولم تُجَبِ
أتيتَها يا صلاح الدين معتقداً
بأنَّ داعي صلاح الدين لم يَخِبِ

أسَلْـتَ فيهـا كما سـالـت دمـاؤهُـمُ
مـن قبل إحـرازهـا بحـراً مـن الـذهـبِ
أدركـتَ ثـأرَ صـلاح الـديـن إذ غُصِبَـتْ
منـه لسرٍّ طـواهُ اللهُ في اللَّقَـبِ
وجئتهـا بجيـوش كـالسيـول على
أمثـالها بين آجـامٍ مـن القُضُـبِ
وحُطْتَهـا بـالمجـانيـقِ التـي وقفـت
إزاءَ جـدرانِها في جَحفـلٍ لجِبِ
مـرفـوعـةً نصبُـوا أضعـافهـا فغـدا
للكسر والحَطْـم منهـا كـلُّ منتصِـبِ
ورُضتَهـا بنقـوبٍ ذَلَّلـت شَمَماً
منهـا وأبـدَت مُحيّـاهـا بـلا تعَـبِ
وغنَّـت البيـضُ في الأعنـاق فـارتقصـت
ابـراجهـا العبـا منهـن بـاللعـب
وخلقـت بـالـدم الأسـوار فـانفغمـت
طيبـاً ولـولا دمـاءُ الخبـثِ لم تَطِـبِ
وأبـرزت كـلَّ خَـوْدٍ كـاعِـبٍ نثَـرت
رؤوسَهـم حين زفّـوهـا بـلا طَـربِ
بـاتـت وقـد جـاورتنـا نـاشـزاً وغـدَت
طَـوْعَ الهوَى في يَـدي جيرانها الجُنُـبِ
بـل أحـرزتهم ولكـن للسيـوف لكـيْ
لا يلتجـي أحـدٌ منهـم إلى الهَربِ
وجـالـت النـارُ في أرجـائهـا وعلَـت
فـأطفـأت مـا بصـدر الـديـن مـن كـرَبِ
أضحَـتْ أبـالهَبٍ تلـك البروجُ وقـد
كـانـت بتعليقِهـا (حمَّالـةَ الحطَـبِ)
وأفلـتَ البحـرُ منهـم مـن يخبّرُ مَـنْ
يلقـاه مـن قـومـه بـالـوَيْـلِ والحَرَبِ
وتمَّت النعمـةُ العُظمـى وقـد كمُلَـت
بفتـح صـورَ بـلا حصرٍ ولا نَصَـبِ

أختـــانِ في أنّ كـــلاًّ منهما جمعـــت
صَليبـةَ الكفـر لا أختـانِ في النَسـبِ
«لمّا رأت أُختَهـا بالأمـس قـد خَـرِبـت
كـانَ الخرابُ لها أعـدَى مـن الجرَبِ»
اللهُ أعطـاكَ مُلـكَ البحـر إذ جَمعـت
لـكَ السعـادةُ ملـكَ البرِّ والعَـربِ
مـن كـان مبـدؤه عكّـا وصـورَ معـاً
فـالصينُ أدنـى إلى كفّيـهِ مـن حلَـبِ
عـلا بـكَ الملـكُ حتـى إنّ قُبّتـه
على البرايـا غَـدت ممـدودة الطُنُـبِ
فـلا برِحـتَ قـريـرَ العينِ مبتهجـاً
بكـلِّ فتـحٍ مبينِ المنْـحِ مُـرتقَـبِ

- ١١٨٦٨ -

طغتين بن أيوب

طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملك العزيز، سيف الإسلام، ظهير الدين، ابن الأجلّ نجم الدين والد الملوك أبي الشكر، الأيوبي، الكرديّ.

قدم إلى القاهرة على أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وسمع بالإسكندرية من السلفيّ.

ثمّ جهزه السلطان إلى بلاد اليمن فخرج من القاهرة في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وسار إلى زبيد وملكها، وأخذ منها ماقيمتُه ألف ألف دينار، واستولى على عدن، ودانت له ممالكُها.

وشُكرت سِيرتُهُ وحسنت سياستُه. وقصده الناس من الآفاق فأفاض عليهم من بِرّه وغمرهم بإحسانه، ومدحه غير واحدٍ من الشعراء، منهم ابن عنين، وكان قد رحل إليه من دمشق.

ولم يزل باليمن حتى مات بها في شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

وقام من بعده ابنُه الملك المعزّ فتح الدين إسماعيل.

- ١١٨٦٩ -

شمس الدولة ابن منقذ

عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن عليّ بن مقلد بن منقذ، أبو الحسين، وأبو الحارث، ابن أبي سلامة، الشيزريّ، أمير أديب فاضل.

مولده بشيزر يوم الأحد سابع شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة. وقدم إلى القاهرة، وبعثه السلطان صلاح الدين يوسف رسولاً إلى المغرب عند حصار عكّا، فنزل الإسكندرية وسمع الحافظ السِلَفيّ. وسمع بفاس من أبي الحسن علي بن محمد بن فرخون، وعاد.

وكتب من الإسكندرية إلى سيف الدولة عند عوده من المغرب إليها:

ذكـرتُـك في سَـلاً والقلبُ عنكم
على فـرط التنـائي غيرُ سـال
وفي آسفـي خلي أسـف عليكم
وأشـواق تجدّدهـا الليـالي
على البحـر المحيـط حططـتُ رحلي
منـازل لم تكـن يـومـاً ببـالي
بـلاد لـو سرى طيـف إليهـا
لأعجـزه الـوصـول مـن الكـلال
ولـو ريـحُ الصبـا طلبـت هبـوبـاً
إليهـا لأستعـانـت بـالشمال
تملّ مـن المسير الشمـس حتّـى
تـوافيهـا على فـرط الملال
وأعجـب مـا رأيـت بها رجـوعـي
إليكـم وهـو أغـربُ مـا جـرى لي

وكتب إلى مجد الدين أسامة بن منقذ:

أأحبـابنـا عـزّ اللقـاءُ ومـا أرى
تمادي لهذا البين يُفضـي إلى حـدّ

إذا قلت قد آن التداني تجدّدت
خطوب من الأيّام تحكم بالبعدِ
ولستُ ألوم الدهر فيما أصابني
لأنّ التنائي كان منّي على عمدِ
وبُعدك مجدّ الدين أعظم خطّة
لقيتُ، وما حال المفارق للمجد؟

وكتب إليه:
إن كانت الكتب فيما بيننا انقطعَت
فإنّ حبلَ ودادي غيرُ منقطعِ
وإن تصدّعَ شملي عن جنابكُمُ
فإنّ شملَ تنائي غير منْصدع

وقال:
يَقولون: لو كان الهوى منه صادقاً
لأصبح مغرّى بالفراق وذمّه
ولولا احتجاجي بالتفرّق والنوى
لما فُزت في يوم الوداع بلثمه

وكانت وفاته بالقاهرة أول سنة ستمائة

- ١١٨٧١ -

المأمون البطائحيّ

محمد بن فاتك بن مختار بن حسن بن تمام، الوزير الأجل، المأمون،

تاج الخلافة، وجيهُ الملك، فخر الصنائع، ذخرُ أمير المؤمنين، عزّ الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، أمير ا لجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين—ثمّ استقرّ من نُعُوته: السيّد الأجلّ أمير الجيوش، سيف الاسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة ا لمسلمين وهادي دعاة المؤمنين، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أميرَ المؤمنين، وأدام قدرتَه وأعلى كلمته— أبو عبد الله، ابن الأمير نور الدولة أبي شجاع(فاتك)، ابن الأمير منجد الدولة أبي الحسن(مختار)، ابن الأمير أمين الدولة أبي عليّ، المعروف بابن البطائحيّ، الأحول، الشيعيّ، الإماميّ.

ولد في سنة ثمان —أو سنة تسع— وسبعين وأربعمائة.واتصل بخدمة الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجماليّ، في شهور إحدى وخمسمائة، عوضاً عن تاج المعالي مختار، وسلّم إليه ماكان بيد مختار من الخدمة، وتصرّف فيها، وأجرى له الأفضل ماكان برسم مختار من العين، وهو مائة دينار وثلاثون ديناراً في الشهر، سوى الأصناف الراتبة في اليوم والشهر. فحسُن عند الأفضل موقعُ خدمته وسلّم إليه جميعَ أموره وصرّفه في سائر أحواله، فاستعان بأخوَيه أبي تراب حيدرة، وأبي الفضل جعفر، ونُعِت بالقائد فصار عند الأفضل استاذ داره.

فلم يزل على ذلك إلى أن قُتل الأفضل، فخلع عليه الخليفة الآمر بأحكام الله أبو عليّ منصور في مستهلّ ذي القعدة سنة خمس عشرة وخمسمائة بمجلس اللعبة من القصر،والآمر جالس، ولم يخلع على أحد قبله بهذا المجلس. وكانت ا لخلعة بدلةً مذهّبة بشدّة الخليفة الدائمية،

وحلّت المنطقة من وسطه، و أخلع على ولده بدلة مذهبة، وحّلت منطقته، وخلع على أخويه بمثل ذلك.

واستمرّ ينفذ الأمور، ولايخرج شيء عن نظره، والخليفة يواصلُ الحديث معه في الوزارة وهو يمتنع، إلى مستهل ذي الحجة منها: ففي يوم ا لجمعة ثانية، خلع عليه من الملابس الخاصّ الشريفة في فرد كمّ مجلس اللعبة، وطوق بطوق ذهب مرصّع، وقلّد بسيف ذهب مرصّع، وسلّم على الخليفة وخرج، وكافّة الأستاذين المحّنكين والأمراء بين يديه، وركب من حيث كان الأفضل يركب، ومشى القوّاد في ركابه على عادة الأفضل، وخرج من باب العيد راكباً إلى داره، فضاعف الرسومَ وأطلق الهباتِ إلى يوم الاثنين خامس ذي الحجّة المذكور. فاجتمع أمراء الدولة لتقبيل الأرض بين يدي الخليفة على العادة التي قرّرها مستجدّة.

فاستدعى الشيخ أبا الحسن عليّ بن أحمد بن أبي أسامة كاتب الإنشاء، وأمره بإحضار السجّل، فأحضره في لفافة خاصّ مذهبة، وسلّمه الخليفة إلى المأمون من يده، فقبله وسلّمه لزمام القصر. وأمر الخليفةُ المأمون بالجلوس عن يمينه، وقُرىء السجّل على باب المجلس، وهو أوّل سجلّ قُرىء هناك، وكانت السجلاّت عادة تقرأ قبل هذا بالإيوان، ورسم للشيخ أبي الحسن ابن أبي أسامة أن ينقل نسبةَ الأمراء والأستاذين المحنّكين من الآمر إلى المأمون، ولم يكن أحدٌ قبل ذلك ينتسبُ إلى الأفضل ولا لأبيه أمير الجيوش، وإنّما ينتسبون إلى الخليفة، فصاروا ينتسبون إلى المأمون، وقدّمت للمأمون الدواة فعلّم في مجلس الخليفة، وتقدّم الأمراء والأجناد فقّبلوا الأرض وشكروا أمير المؤمنين على هذا الإحسان، واستدعى الخلع لحاجب الحجّاب حسام الملك فأحضرت وأفيضت عليه، وطوّق بطوق ذهب وقُلّد سيف ذهب، وخُلع على الشيخ أبي الحسن ابن أبي أسامة، وعلى أبي البركات ابن أبي الليث متولّي ديوان المجلس، وعلى أبي الرضا سالم ابن الشيخ أبي الحسن، وعلى

أخويـه أبي المكرم وأبي محمد، وعلى أبي الفضـل يحيى بن سعيـد المَيَّمَذيّ منشىء مايصدر عن ديوان المكاتبات ومحرّر مايؤمر به من المهمّات، وهو الذ ي قرأ السجلّ، ووصل بدنانير جزيلة، وخلع على أبي الفضائل ابن أبي البركات بن أبي الليث صاحب دفتر المجلس، وعلى غَذِيّ الملك سعيد بن عماد الضيف، متولّي دار الضيافة وأخذ العلامات على التوقيعات.

وانصرف المأمون إلى داره والموكب بين يديه. وقال القاضي أبو الفتح محمود بن قادوس يمدحه، وقد زيد في نعوته:

قالوا: أتاه النعتُ وهو السيّد الـ ــمأمون حقاً والأجلُّ الأشرف
ومغيث أمّةِ أحمدٍ ومجيرُها ما زادنا شيئاً على ما نعرف

ثمّ إنّه سأل الخليفة أن يتحدّث معه في خلوة، فأمر بخلّو المجلس، فقال: يامولانا، امتثال الأمر صعب ومخالفتُه أصعب، ومايتّسع قدّام أمراء دولة أمير المؤمنين، وهو في دست خلافته، ومنصب آبائه و أجداده، خلافةُ، ومافي قواي مايرومُه منّي، فيكفيني هذا المقدار—وهيهات أن أقوم به— والأمر كبير.

فتغيّر الآمر وحلف: لاكان لي وزير غيرك، وهو في نفسي من أيّام الأفضل، فأعاد الاستعفاء، فتغير الآمر وقال: مااعتقدْت أنّك تخرج عن أمري ولا أنّك تخالفُني، فقال المأمون عند ذلك: فلي شروط أذكرها، فقال: ماشئت فاشرِط،قال:قدكنت مع الأفضل، وهو يجتهد في أن يشرّفني بعدّة النعوت ويحلّ المنطقة من وسطي، فلم أفعل، فقال الخليفة: علمتُ ذلك في وقته، قال: وكان أولاد الأفضل يكتبون إليه بما يعلمه مولانا، من كوني قد خنته في المال والأهل، وماكان والله العظيم منّي يوماً قط، ثمّ مع ذلك معاداة الأهل جميعهم، والأجناد، وأرباب

الطيالس والأقلام، وهو يعطيني كلّ رقعة تصل إليه منهم، وماسمع كلام أحدٍ منهم فيّ، فعند ذلك قال له الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ماذكرتُه، إيش يكون فعلي أنا؟

فقال المأمون: يعرّفني المولى مايأمر به، فأمتثله بشرط أن لايكون عليه زائداً.

فأوّل ماابتدأ به الخليفة أن قال: أريدُ الأموالَ لاتُجبى إلاّ بالقصر ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور إلاّ إليه، ولاتُفرّق إلاّ منه، وتكون اسمطةُ الأعياد فيه، ويوسّع في رواتب القصور من كلّ صنف، وزيادة رسم المنديل برسم الكمّ.

فقال المأمون: سمعاً وطاعةً، أما الكسوات والجبايات والأسمطة فما تكون إلاّ بالقصر، وأمّا توسعة الرواتب فما ثمَّ مَن يخالف الأمر، وأمّا الزيادة برسم منديل الكمّ، فقد كان الرسمُ في كلّ يوم ثلاثين ديناراً وسيكون في كلّ يوم مائة دينار. ومولانا—سلام الله عليه—يشاهد مايُعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها في سائر الأيّام.

ففرح الخليفة وسرّ بذلك. فقال المأمون: أريد بهذا خطّ أمير المؤمنين ويُقسم لي فيه بآبائه الطاهرين أن لايلتفت لحاسدٍ ولامبغض، ومهما ذكر عنّي يُطلِعُني عليه، ولايأمرني بشيء سراً ولاجهراً يكون فيه ذهاب نفسي وا نحطاط قدري، وتكون هذه الأيمان باقيةً إلى وقت وفاتي. فإذا توفيت تكون لأولادي ولمن أخلّفه بعدي.

فحضرت الدواة وكتب ذلك جميعه وأشهد الله في آخرها على نفسه، فعندما حصل الخطّ بيد المأمون، وقفَ وقبلَ الأرض وجعله على رأسه، وكان الخطّ بالأيمان في نسختين، إحداهُما في قصبة فضّةٍ، فلمّا قُبض على المأمون أنفَذَ الخليفة طلب ا لأيمان، فنفّذ إليه الذي كان في القصبة

فحرقها لوقتها، قال ابن المأمون: وبقيت النسخة الأخرى عندي، فعدمت في الحركات التي جرت.

وعاد المأمون إلى مجلسه، وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات، وجملة العين ثلاثة آلاف وثلاثمائة(وسبعون) دينار، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع برسم الأمراء المطوّقين والأستاذين المحنّكين، وكاتب الدست، ومتولّي حجبة الباب وغيرهم، وعدّة ماذبح في ثلاثة أيام النحر وفي عيد الغدير ألفان وخمسمائة وواحدٌ وستّون رأساً، منها: نوق: مائة وسبعة عشر. وبقر: أربعة وعشرون. وجاموس: عشرون. هذا ماينحره الخليفة ويذبحُه بيده في مُصلّى العيد، وفي المنحر وباب الساباط ويذبح الجزّارون من الكباش ألفين وأربعمائة رأس، والذي أنفق على الأسمطة في هذه الأيّام خارجاً عمّا يعمل بالدار المأمونيّة من الأسمطة، وخارجاً عن القصور الحلوى والقصور المنفوخ التي تصنع بدار الفطرة ألفُ وثلاثمائة وستّة وعشرون ديناراً، ومن السكر برسم القصور والقطع المنفوخ أربعة وعشرون قنطاراً، منها عن قصرين في أوّل يوم خاصّةً اثنا عشر قنطاراً، و(عن) المنفوخ عن الثلاثة الأيّام اثنا عشر قنطاراً.

وكان الأفضل قد أبطل الموالدَ الأربعة: النبويّ، والعلويّ، والفاطميّ، والإمام الحاضر، فأعيدت في سنة ستّ عشرة وخمسمائة.

والذي استقرّ إطلاقه على حكم الاستئمار من الجرايات(المختصة) بالقصور،والرواتب المستجدّة، والمطلق من الطيب، وبذكر الطراز، ومايبتاع من الثغور ويستعمل بها:(فأوّلها) جراية القصور، والمطلق لها من بيت المال إدراراً لاستقبال النظر المأمونيّ ستّة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وأربعون ديناراً، وبرسم منديل الكمّ الخاصّ الآمري عن كلّ يوم مائة دينار، ومقرّر الحمّام في كلّ جمعة مائة دينار. وبرسم الإخوة والأخوات، والسيّدة الملكة والسيّدات والأمير أبي عليّ وإخوته، والموالي،

والمستخدمات ومن استجدّ من الأفضليات ألفان وأربعمائة وثلاثة وأربعون ديناراً. ولم يكن للقصور في الأيام الأفضلية من الطيب راتب، بل إذا وصلت الهديّة والنجاوى من بلاد اليمن تحمل كلّها إلى الإيوان، وينفذ منها للأفضل، ويطلق للخليفة من جملتها فصار في الأيام المأمونيّة الطيب مياومة ومشاهرة.

وماهوبرسم الخاصّ الشريف في الشهر: ندّمثلّث: ثلاثون مثقالاً. عود صَيفيّ: مائة وخمسة دراهم. كافور قديم: خمسة عشرة درهماً. عنبر خام: عشرون مثقالاً. زعفران: عشرون درهما. ماء ورد: ثلاثون درهماً.

وماهو برسم بخور المجلس في الشهر خمسة أيّام السلام: ند مثلّث: عشرة مثاقيل. عود: عشرون درهماً. كافور: ثمانية دراهم، زعفران شعر: عشرة دراهم.

وماهو برسم بخور الحمّام في كلّ ليلة جمعة عن أربع جُمَع في الشهر: ندّ مثلّث: أربعة مثاقيل. عود صيفيّ: عشرة دراهم.

وماهو برسم الإخوة والجهات والسيّدات على مايستقرّ بأسمائهم في كلّ شهر: ندّمثلّث: خمسة وثلاثون مثقالاً. عود صيفيّ: مائة وعشرون درهما. زعفران شعر: خمسون درهماً. عنبر خام: عشرون مثقالاً. كافور قديم: عشرون درهماً. مسك: خمسة عشر مثقالاً. ماء ورد: أربعون رطلاً.

وماهوبرسم المائدة الشريفة، ممّا تستلمه المعلّمة في كلّ شهر: مسك: خمسة عشر مثقالاً. ماء ورد: خمسة عشرة مثقالاً.

وماهو برسم خزانة الشراب الخاصّ في كلّ شهر لتطييب الماء: مسك: ثلاثة مثاقيل. ندّ مثلّث: سبعة مثاقيل. عود صيفيّ: خمسة وثلاثون درهماً. ماء ورد: عشرون رطلاً.

ومـاهو بـرسـم المواكـب الستّة، وهـي: الجمعتـان الكـائنتان في شهـر رمضـان برسـم الجامعَين بالقـاهرة، والعيـديـن، وعيد الغـدير، والجوامـع والمصلى: ندّ خاصّ: جملة كثيرة لم تضبط.

وعدّة المبخّريـن في الموكب ستّة:ثلاثة عن اليمين وثـلاثة عن الشمال، وكـلّ منهـم مشـدود الـوسـط(وفي كمّه فحـمٌ بـرسـم تعجيـل المدخنـة) والمداخن فضّة،وحامل الدرج الفضّة الـذي فيه البخور أحدُ مقدّمي بيت المال، وهو يبخرّ طـول الطريق، لهذا سوى مداخن كبـار في صواني فضة، منها ثـلاث صواني، في المحراب إحـداهنّ، وفي جانبـي المنبر اثنتان، وفي الموضع الذي يجلس فيه الخليفة إلى أن تقام الصلاة صينيّة رابعة.

والبَخـور المطلق بـرسم المأمـون في كـلّ شهر: نـدّ مثلّث: خمسـة عشر مثقـالاً. عـود صيفـيّ: ستّـون درهماً. عنبر خـام:ستّـة مثـاقيـل. كـافـور قديم:ثمانية دراهم. زعفران شعر:عشرة دراهم. ماء ورد: خمسة عشر رطلاً.

وكـان مبلغ الاستئمار في الأيّـام الأ فضلية في الشهـر اثني عشر ألـف دينـار، فبلغ في الأيـام المأمونيـة إلى سنـة ستّ عشرة وخمسمائة ستّـة عشر ألف دينار.

وكـانت تـذكـرة الطراز في أيّـام الأفضـل أحـداً وثـلاثين ألف دينـار، فبلغت في أيّام المأمون ثلاثةوأربعين ألف دينار.

وبلغت رواتـب الخاص وما يختص بـالقصور من السيـدات والجهات والمستخـدمـات والحواشي والأصحـاب والكتّـاب وصبيـان الخاص، وهومـاتشتمل عليـه جريـدة المطابـخ بما فيه مـن المواسم والأعيـاد وشهر رمضان ألف دينار، والركوبات الدائمـة في يومي السبت والثلاثاء، سبعة وخمسين ألف دينار، خارجاً عن البهائم المختصّـة بالوزارة فإنها تساق من المرَاحات السلطانية مع غيرها برسـم البطائحيّ. ومقرّر الوزارة في الشهر

عيناً مـن بيت المال ثلاثة آلاف دينـار، منها ماهـو عن النيابة في العـلامة عن الخليفة ألف دينـار، وماهو عن الراتـب: ألـف وخمسمائة دينار، وماهو عن مائة غلام بـرسم مجلسيه وخدمته: لكلّ غـلام خمسة دنانير في الشهر. وفي السنـة الإقطـاعـات: خمسـون ألفَ دينـار، منهـا: دهشـور، وجـزيـرة الذهب، وعدّة صفقات في البلاد.

ومـن البسـاتين ثـلاثـة: بستـان الأمير تميـم الـذي عُـرف بـالمعشـوق، وبستانان بكوم أشبين.

ومن الشعير والقمح في السنـة: عشرون ألف إردبّ، ومن الغنم بـرسم مطـابخه سيـاقةً مـن المراحـات: ثمانية آلاف رأس. والأحطـاب والتوابـل: العال والدون، فتطلق لمتولّي مطابخه بحسب مايستدعيه.

واستجدّ بعد الأفضل في الأيّام المأمونيّة مـن خزائن التفرقة في كل يوم: اثنا عشر مجمعـاً، كلّ بيـت مئة عيـارة رطل بـالميزان، ولكـلّ مجمع ثـلاثة أرطال جبن تشوير وفاكهة: نصف درهم.

ومن اللبن الراتب بهذه المجامع في كلّ يوم: خمسة وثمانون رطلاً.

واستجدَ أيضاً بـرسم الخاصّ في كلّ يوم من الحلوى: اثنـا عشر جاماً، رطبـة ويـابسة نصفين، وزنُ كـلّ جـام مـن الـرطب عشرة أرطـال، ومـن اليابس ثمانية أرطال.

وانتهـى مـرتـبُ دار التعبئـة في كـلّ يـوم إلى عشرة دنـانير سـوى ماهـوموظف على البسـاتين السلطانيّة، وهـو النرجس والنينـوفران، الأحمر والأصفـر، والنخـل المُرصَدُ بـرسـم الخاصّ، ومـايصـل من الفيّـوم وثغـر الإسكندرية، ومـن هذه الدار —يعني للقصور— ولدار الـوزارة، وللمناظر في أيّام الركوب والجمـع، بخلاف تعبئة الحمّامات، ومايحمل كـلّ يوم من

الزهر، وماهو برسم خزانة الكسوة الخاصّ، وبرسم المائدة، وتفرقة الثمرة الصيفية في كلّ سنة على الجهات والسيدات والحواشي والأصحاب، ومايحمل لدار الوزارة والضيوف وحاشية دار الوزارة.

وبلغ ثمن التوابل، العال منه والدون، وهي المرصدة لخزانة التوابل، إلى خمسين ألف دينار في السنة، سوى مايحمل من البقولات، فإنّه باب مفرد مع المستخدم في البستان الكافوريّ.

وأطلق من استقبال النظر المأمونيّ برسم الشراب من السكر:مائة وخمسة عشر قنطاراً، وبرسم الورد المربىّ: خمسة عشر قنطاراً. ومايطلق برسم استعمال الخَلَّيْن، الفاسد والحامض، وقفف البقولات في السنة: ستّة آلاف وخمسمائة دينار. وراتب الأوطية في كلّ شهر:ثمانون زوجاً، منها برسم الخاصّ: ثلاثون زوجاً،وبرسم الجهات: أربعون، وبرسم الوزارة: عشرة، خارجاً عن السباعيّات، فانّها تستدعى من متولي خزائن الكسوة، وفي كلّ موسم تكون مذهبةً.

وجهز المأمون التذاكر بما يُستعمل كل سنة برسم الخزائن بثغر الإسكندرية ويبتاع من الأصناف من تجار الروم والمغاربة، وهو من السقلاطون الخاصّ، والعتابيّ الخاصّ، والمصمّت الملوّن، والمناديل الصقّلي المرش الخاصّ، مابين مذهب وحرير، ومن الملاحف الخاصّ، المذهب الحريريّ، مابين مرقوم وساذج، ومن العراضي المشفّع المذهب، والحريري الخام، والتلاثيم المشفع، المذهب والحريريّ، ومن المقصور السوسيّ الإسكندرانيّ شيء كثير جداً، منها: ثمانية عشر ألف مقطع إسكندراني، وألفا منديل—يعني عمامة— وألفان وخمسمائة فوطة خاصّ حرير.

وخرجت التذاكر أن يبعث إلى الأندلس فيشترى من البلّور ومن

الحرير الخزّ، ومن المقاطع، ومن البسط، ومن الرصاص والحديد والمسمار والشمع.

وبعث إلى المهديّة ليشترى منها الزيت والصابون واللوز، ومقاطع السوسيّ وتشترى من صقلية الطيافر والموائد والمناديل والكيزان والفراء الفاقم والسنجاب والسفر الأدم.

ويشترى من بلاد الروم الفضّة النقرة والمصاغ والجوهر والديباج الأطلس والخشب والحديد والزفت والمراسي والقنب والنحاس والرصاص.

وخرجت التذاكر إلى مشارف الغربيّة بابتياع ماجرت به العادة في كلّ سنة من الأردية الريفيّة، ومناديل الأكمام، الخام والمقصور، وشقق محليّة خام، ومقصور عمل جوجر، والدميرتين، شيء كثير، منها من الشقق خاصّة: ثمانية آلاف شقّة.

واستدعى الشمع والعسل من الخلايا الجارية في الديوان بالأعمال.

واستدعى النوق من العربان، وتقدّم إليهم بتحصيلها ويقام لهم ثمنُها.

وبعث إلى عسقلان تذكرة باستعمال الشقق المطّرز الساذج، وابتياع مايرد من الشقق العتابيّ، والسقلاطون الدمشقيّ، والخز الحلبيّ، والنصافيّ، العال والدون مابين خام ومقصور، وابتياع القلوتات والقراصيا، والزيت، والسماق، ونحو ذلك، برسم الخزائن.

وندب إلى الوجه القبليّ من يحمل غلاّتها جميعها إلى الديوان بحكم أنّ جميعها محلول من الإقطاعات.

وحمل من الأعمال البحريّة والجيزة والجزيرتين والغربيّة والأعمال

الشرقيّة إلى ثغري صور وعسقلان ماجرت به العادة في كلّ سنة، وهومائةألف وعشرون إردبّ: برسم صور:سبعون ألف إردب. وبرسم عسقلان: خمسون ألف إردب، لتبقى بالثغور ذخيرة بها، ويُبَاع مابقي من المخزون عند الغنى عنه، وكان المتحصّل للديوان في كلّ سنة ألف إردب.

وندب من يحمل ماجرت به العادة من القشّة في كلّ سنة: وهي وسقُ خمسين مركباً، مابين نخل وجريد وسلب وسحيل وطوانس، تساق إلى الحواصل، خارجاً عمّا يقطع ويجدّد برسم الجسور.

وعمِل حُزن عاشوراء بالقصر، ومدّ السماط المعتاد، وجميعه بالخبز والشعير والحواضر، وتقدّم إلى واليي مصر والقاهرة بأن لايمكّنا أحداً من جمع ولاقراءة مصرع الحسين عليه السلام.

وأخرج الرسم المطلق للمتصدّرين والقرّاء الخاصّ والوعّاظ والشعراء وغيرهم، على ماجرت به العادة.

وعمل المولد الآمريّ، فقرّر أن تُعمل فيه أربعون صينيّة خُشْكان وحلوى، تفرّق.

وأطلق رسم المشاهد، لكلّ مشهد سكّر وعسل ولوز ودقيق وشيرج، وتقدّم بعمل خمسمائة رطل حلوى سوى ذلك، فرّقت على المتصدّرين والقرّاء والفقراء ومن معهم، فحُمل للمتصدّرين في صحون، وللفقراء على أرغفة السميد.

وأُخرج من بيت المال صندوق مختوم ضمنه مائة دينار عيناً، وألف وثمانمائة وعشرون درهما، برسم أهل القرافة ومساكينها.

وقام بأمور ركوب الخليفة في يومي السبت والثلاثاء.

وكان المأمـون يركب مـن داره في هذين اليومين بـالرّهجيّة فيتـوجّه إلى القصر، فيركـب الخليفة إلى ضـواحـي القاهـرة للنزهـة في مثـل الروضـة، والمشتهـى، ودار الملك، والتـاج، والبَغْل، وقبّـة الهواء، والخمسة الأوجـه، والبستان الكبير.

وسلّم الـرسوم لأربابها، وهـي بيد مقدّمـي ركاب الخليفة، لكـلّ منهم أحـد وعشرون دينـارٌ وخمسون ربـاعيـاً، ولتـالي مقدّم ركـاب اليمين مـائة كاغدة في كلّ كـاغدة ثلاثة دراهم، ومائة كـاغدة في كلّ واحدة درهمان، ولتالي مقدّم ركاب الشمال مثل ذلك.

فأمّـا الدنـانير فلكلّ بـاب يخرج منه الخليفـة من أبـواب البلد دينـار، ولكلّ بـاب يدخل منـه دينار، ولكلّ جـامع يجتـاز عليه دينار، إلاّ جـامع مصر، فإنّ رسمَه خمسة دنانير، ولكلّ مسجد يجتـاز عليه رباعيّ، ولكلّ من يقـف منهم كـاغدة. ولكـلّ فرس يـركبُه دينـاران، هذا ومتـولّي صناديـق الإنفاق يحجب الخليفـة وبيده خريطة ديباج فيهـا خمسمائة دينار لما عساه يأمر به. فـإذا حصل بإحدى المناظر، فـرّق من العين سبعة وخمسين ديناراً ومـائة وثمانين رباعيـاً، في الحواشي، والأستاذيـن، وأصحـاب الدواويـن، والشعراء، والمؤذّنين، والمقرئين، والمنجمين.

ومن الخراف الشـواء:خمسون رأساً، منهـا: طبقان حارّة مكملـة مشورة بـرسم المائدة الخاصّ، مضـافاً لما يحضر مـن القصور مـن الموائد الخاصّ والحلاوات، وطبق واحد برسم المأمونيّـة، والبقيّة بأسماء أربابها، ورأسا بقر برسـم الهرائس. فإذا جلـس الخليفة استـدعى على المائدة المأمـون وأولاده وإخوته، ومَـن جرت له عادة بجلوسـه معه، ومن تأخـرّ عن المائدة منهم حمل إليه مايكفيه.

فـإذا عـاد الخليفة إلى القصر يحاسـب الـوزيـر مقـدّمي الـركـاب على

ماصرف في مسافة الطريق على المساجد والجوامع وغيرها، وتقلّدوا الأمانة فيما فرّقوه في الصدقات، والذي يتولّى محاسبتَهم متولّي الدفتر.

وكان المأمون يجلس في يومي الأحد والأربعاء بداره على سبيل الراحة، والنفقة في العسكر الفارس البساطيّة إلى الظهر، ثـمّ ترتفع النفقة ويحطّ السماط للناس. فإذا كان بعد العصر، جلس، والكتّاب بين يديه فينفق في الراجل إلى آخر النهار.

وفي يومَي الاثنين والخميس يكون الركوب للسلام على الخليفة والخدمة بالقصر.

وفي يوم الجمعة يركب المأمون إلى القرافة أحياناً، ويطلق دائماً في كلّ يوم جمعة للمقرئين بالحضرة خمسة دنانير، ولكلّ من هو مستمرّ القراءة على بابه من الضعفاء والأضراء خمسمائة درهم، مقرّرة بأسماء. ولبقية الضّعفاء والمساكين خمسمائة درهم أخرى.

وبلغه أنّ أحد صبيان الخاصّ الآمريّ شتم صاحب الشريعة، فأخرج سيف النقمة وضرب عنقه به، بعد أن شهد عليه عدلان وجماعة كثيرة.

وتقدّم بعمل حساب الدولة من الهلاليّ والخراجيّ إلى آخر سنة ستّ عشرة وخمسمائة، فانعقدت على جملة كبيرة من عين وغلة، فأمر بكتابة سجلّ يتضمّن المصالحة بالبواقي، وجملتها ألفا ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار وسبعمائة دينار وسبعة وسبعون ديناراً وكسر، ومن الفضّة النقرة أربعة دراهم. ومن النوق سبعة وستّون ألفاً وخمسة دراهم وكسر، ومن الغلّة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وثلاثون إردبّاً وكسر، ومن الأرز أربعمائة وستّة وسبعون إردبّاً وكسر، ومن الأصناف شيء كثير يطول تفصيله.

ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وخمسة أرؤس.

ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفاً ومائة وأربعة وستّون رأساً.

وقد ذكرت تفصيل الأصناف في كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.

وجدّد عمارة المشاهد التسعة التي بين الجبل والقرافة، وبنى مسجداً تجاه باب الخوخة خارج القاهرة على الخليج. ورمّ جامع القرافة، وعمّر بجواره طاحوناً للسبيل، وأقام بها الدواب، وجعل عليها أميناً أطلق له ولعلف الدوابّ مايكفيه ويكفيها. فصار أهل القرافة يطحنون فيها قوتَّهم بغير أجرة.

وأمر في آخر جمادى الآخرة أن تغلق جميعُ قاعات الخمّارين بالقاهرة ومصر وتختم، ويحذّر من بيع الخمر، كما جرت به العادة في كلّ سنة احتراماً للأشهر الشريفة. فرأى المأمون أن يكتب بذلك إلى جميع ولاة الأعمال، فكتب به، ونودي: مَن تعرّض لبيع مسكر أوشرائه سراً أو جهراً فقد عرّض نفسه لتلافها، وبرئت الذّمة من هلاكها.

وعمل الأسمطة الجاري بها العادة ليلة أوّل شهر رجب. فلمّا جلس الخليفة على الأسمطة ومعه الوزير، بالغ في الثناء عليه وقال: قد أعدتَ لدولتي بهجتها، وجدّدت فيها من المحاسن مالم يكن، وقد أخذت الأيّامُ نصيبها من ذلك، وبقيت الليالي، فقدكان بها مواسم زال حكمها، وكان فيها توسعة وبر ونفقات وصدقات، وهي: ليالي الوقود الأربع، وقد آن وقتُهنَّ فأشتهي نظرهُنّ.

فامتثل الأمر وحمل إلى القاضي خمسين ديناراً لثمن الشّمع، وأن يعتدّ للركوب في الأربع الليالي، وهي: ليلة أول رجب ونصفه، وليلة مستهلّ

شعبان ونصفه، وتقدّم لمتولّي بيت المال بعمل الحلاوات برسم هذه الليالي.

واستجد في الأيّام المأمونية أيضاً في كلّ ليلة على الاستمرار برسم الخاصّين، الآمريّ والمأمونيّ، قنطار سكّر، ومثقالان مسك. وديناران برسم المونة تعمل خشكنان وبَسَنْدود وغيره، في قعاب وسلال صفصاف، وهي التي تسمّى اليوم العلب، فيحمل ثلثا ذلك إلى القصر، وثلثه إلى الدار المأمونيّة. وعمل أسمطة شهر رمضان.

فلّما انقضت خلع عليه خلعاً عظيمة، ونزل إلى داره فمدحه عدّة من الشعراء، وحضرت كسوة الشتاء ففرّقت، وكانت جملتُها أربعة عشر ألف قطعة وثلاثمائة وخمس قطع. ووصلت كسوة العيد في آخر شهر رمضان، وهي بنحو عشرين ألف دينار، وعُمل شعار عيد الفطر وأسمطته بزيادة كثيرة في التجمّل، وقد ذكرتُ ذلك في كتاب المواعظ والأعتبار.

ثم عاد المأمون إلى داره، فمدحته الشعراء، فأسنى جوائزهم. وبلغت النفقة على اسمطة شهر رمضان لتسع وعشرين ليلة ستّة عشر ألفاً وأربعمائة وستّة وثلاثين ديناراً، وبرسم القَعَبة(الجفنة) الخاصّة تسعة وثمانون قنطاراً سكّراً ومائة وثمانية وسبعين ديناراً، وبرسم المقرئين والمؤذّنين والمسحرّين تسعة وعشرين قنطاراً سكّراً وثمانية وخمسين ديناراً. والمنفق في شهر رمضان برسم الصدقات والرسوم والتوسعة المطلقة برسم الحاشية والأمراء وصدقات الأقوات بالباب والأعمال والفطرة، والكسوات المختصّة بالغرّة والعيد ماينيف على ستّين ألف دينار ويبلغ مائة ألف دينار، وضرب برسم خميس العدس ماجرت به العادة، وهوخمسمائة دينار عن عشرين ألف خرّوبة. فعمل المأمون ذلك ألف دينار ضربت عشرين ألف خرّوبة فرّقت على أربابها.

ولمّا تنبّه ذكرُ الطائفة النزاريّة، ووصلت الأخبار بأنّهم قد سيّروا مالاً مع التجّار إلى قوم، بأسمائهم، من أهل مصر والقاهرة، تقدّم بالفحص

وحفظ الدروب والأسواق حتّى وجد خمسة وصلوا بالمال من الإسماعيلية ببلاد المشرق، فقبض عليهم وصلبهم.

وعمّر بمنية زفتا جامعاً كبيراً وفرشه وقرّر فيه خطيباً ومؤذّنين، فصارت الجمعة تقام به.

وبنى أيضاً جامعاً بواحات البهنسا، فبلغت عدّة مابناه واستجدّه من المساجد أحداً وأربعين مسجداً.

وبنى بالقاهرة دار ضرب بالقشّاشين(وهي) التي تعرف اليوم بالخرّاطين.

ورتّب بداره قارئين يتناوبان قراءة القرآن الكريم ويصلّيان بمن في داره جماعة. ورتّب لها من الرسوم والكساوي شيئاً جزيلاً.

وأمر بعمل ميقاظ حرير فيه ثلاث جلاجل. وفتح طاقة من سور داره. فإذا مضى شطر الليل وانقطع المشي دُلّي الميقاظ، وهناك عدّة يبيتون تحته، فإذا ظلم أحدٌ في الليل جاء وشدّ رقعته في الميقاظ وحرّكه، فيرفعُ إلى المأمون. فإن كانت الرقعة مُرافَعَةً لم يمكّن البيّاتون من رفعها. وان كانت ظلامةمُكن صاحبها من رفعها، وعوّقه البيّاتون عندهم حتى يخرج الجواب.

وحضرت كسوة عيد النحر ففرّقت، وفرّقت رسومها على من جرت عادتهم بها. وجملتها سبعة عشر ألفاً وستّمائة دينار. ونحر الخليفة بيده في الثلاثة الأيّام تسعمائة وستّة وأربعين رأساً، وبلغ المصروف على الأسمطة في الثلاثة الأيّام، خارجاً عن أسمطة المأمون بداره، ألفاً وثلاثمائة وستّة عشر ديناراً وثمانية وأربعين قنطاراً سكّراً برسم قصور الحلاوة، والقطع المنفوخ.

وجلس المأمون في ثالث يوم العيد بداره للراحة، وحضر الأمراء لحوائجهم. فلّما كان يوم عيد الغدير هاجَر إلى باب المأمون الضعفاء والمساكين من البلاد، ومن انضاف إليهم من العوال والأدوان على عادتهم في طلب الحلال وتزويج الأيتام. وكان موسماً يرصده كلّ أحدٍ، ويرتقبه الغنيّ والفقير. فجرى في معروفه على رسمه، ومدحه الشعراء.

ووصلت كسوة عيد الغدير، وهي مائة وأربع وأربعون قطعة ففرّقت في أربابها، ومعها رسومها، وهي من العين سبعمائة وتسعون ديناراً.وفرّق المأمون من ماله بعد الخلع عليه ألفين وخمسمائة وثمانين ديناراً.

فلّما انقضى العيد خلع على المأمون وقلّده بالعقد الجوهريّ في عنقه بيده، ومضى إلى داره فمدحه عدّة من الشعراء، وحضر إليه متوليّ خزانة الكسوة الخاصّ بالثياب التي كانت عليه قبل الخلع، فأعطاه الرسم على العادة وهو مائة دينار، ثمّ حضر متوليّ بيت المال وصحبته صندوق ضمنه خمسة آلاف دينار برسم فكاك العقد الجوهر، والسيف المرصّع، ففرّقها.

وركب الخليفة إلى قليوب، ونزل بالبستان العزيزيّ لمشاهدة قصر الورد على العادة، ففرّقت الصدقات في مسافة الطريق وعملت الأسمطةُ، ثمّ عاد آخر النهار.

فلّما أهلّت سنة سبع عشرة وخمسمائة جرَى الرسم في غرّة العام(بحمل مايحضر من عين وورق من ضرب السنة المستجدّة) وتفرقتها والركوب على العادة، وعمل حُزن عاشوراء والمولد الآمريّ. وخلع على المؤتمن سلطان الملوك حيدرة أخي المأمون بولاية الإسكندريّة والأعمال البحريّة.

وفيها رتّب المأمون عدّةً من السقّايين، ستّون كلّ ليلة على باب كلّ معونة بالقاهرة ومصر، معهم عشرة من الفعلة بالطواريء والمساحي لمهمّ يقع من حريق في الليل، وألزم واليّي القاهرة ومصر أن يقوما بعشائهم من أموالهما، فتقرّر ذلك.

وجرت الرسوم في مواسم السنة على عوائدها، فكان المنفق عيناً من بيت المال من أوّل المحرّم سنة سبع عشرة وخمسمائة إلى آخر ذي الحجّة منها، في العساكر المسيّرة لجهاد الفرنج براً، وفي الأساطيل بحراً، والمنفق في أرباب النفقات مع العسكر بالحضرة، وفي جراية القصور، والمطابخ، ومنديل الكمّ، والأعياد، والمواسم، وعند الركوبات، وثمن الأمتعة المبتاعة من التجّار، والمطلق للرسل والضيوف، وبدار الطراز، ودار الديباج، وبرسم الصلات والصدقات، ومن يهتدي إلى الإسلام، ومَا ينعم به على الولاة عند استخدامهم، ونفقات بيت المال والعمائر، أربعمائة ألف وثمانية وستّين ألفاً وتسعمائة وسبعة وتسعين ديناراً ونصف دينار. والحاصِلُ بعد ذلك ممّا يُحمل إلى صناديق الخاصّ لما يتجدّد ثمانية وتسعون ألف دينار. ومائة وسبعة وتسعون ديناراً ونصف.

فجملة ماتحصل في سنة سبع عشرة وخمسمائة ألف ألف وسبعة وستّون ألفاً ومائة وأربعة وتسعون دنياراً. وذلك سوى المرتّبات في كلّ شهر، وهي في السنة ماتتا ألف ومائة دينار، بتتمّة جملة مال السنة سبعمائة ألف وسبعة وستّون ألفاً ومائتان وأربعة وتسعون ديناراً.

ولم يزل المأمون إلى أن قبض عليه ليلة السبت الرابع من شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، وعلى إخوته الخمسة، وثلاثين رجلاً من خواصّه وأهله، واعتقل الجميع.

ويقال إنّ السبب في القبض عليه أنّه راسل الأمير جعفراً أخا الآمر

وأغراه بأخذ أخيه الخليفة الآمر، ووعده أنّه يقيمه بدله. فلّما تقرّر ذلك بلّغ الشيخ أبو الحسن عليّ بن أبي سامة هذا إلى الآمر حتّى قبض عليه.

وقيل: إنّ المأمون بعث نجيب الدولة أبا الحسن عليّ بن إبراهيم إلى اليمن، وأمره أن يضرب السكّة باسم الإمام المختار محمد بن نزار.

وقيل إنّه سمّ مبضعاً يفصد به الآمر، ودفعه إلى طبيب الآمر وأمره أن يفصدّه به، فطالع الآمر بذلك.

ولم يزل في الاعتقال إلى أن قُتل في ليلة العشرين من شهر رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. وأخرج ومعه صالح بن العفيف، وعلي بن إبراهيم نجيب الدولة، فصلبت أجساد الثلاثة بالقرب من سقاية ريدان خارج القاهرة من غير رؤوس، وفي صدر كلّ واحد رُقعة فيها اسمه. ثمّ أخرجت رؤوسهم وجعل على كلّ جسد رأسه.

وكان المأمون من ذوي الآراء والمعرفة التامّة بتدبير الدول، كريماً، واسعَ الصدر. سفّاكاً للدماء، كثير التحرّز، مجتهداً في الاطّلاع على أحوال الناس من العامّة والجند في سائر البلاد. وكثر الوشاةُ في أيّامه.

وكانت مدة وزارته ثلاث سنين وتسعة أشهر ويومين. وعمره نحو أربع وأربعين سنة. وكان السبب في تلقيبه بالمأمون أنّه كان في خلافة المستنصر من جملة صبيان القصر فكان يرسله إلى بيت المال وخزانة الخاصّ في مهمّاته فيجد منه النهضة والأمانة فيقول: هذا المأمون دون الجماعة. فلّما قتل الأفضل واستدعى القائدُ أبو عبد الله محمدُ بن فاتك الخليفة الآمر بأحكام الله ليحضر إلى دار الأفضل ويتسلّم أمواله، حضر إلى دار الملك وسلّمه ابن فاتك الأموال كلّها، حتى أحضر إليه الجواهر، وكان شيئاً عظيماً. فلّما رآها الآمر سُرّ بها وشكر ابن فاتك وقال له: والله إنّك المأمون حقاً، مالك في هذا النعت شريك.

- ١١٨٩٠ -

فلّما قلّده الوزارة لقّبه بالأجلّ المأمون،فعرف به.

-١١٨٩١-

قاضي القضاة ابن الزكيّ

محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عليّ بن عبد العزيز بن عليّ بن الحسين، قاضي القضاة، محيي الدين، أبو المعالي، ابن قاضي القضاة زكيّ الدين أبي الحسن، ابن القاضي الأجلّ قاضي القضاة أبي المفضّل، ابن أبي الحسن، ابن أبي محمّد، المعروف بابن الزكيّ، القرشيّ، الأمويّ، العثمانيّ، الدمشقي.

ولد سنة خمسين وخمسمائة، وتفقه علي جماعة، وسمع من أبيه ومن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي الحسن الداراني، وأبي المظفرّ سعيد بن سهل الفلكيّ، وأبي المكارم عبد الواحد بن محمد بن هلال، وأبي القاسم عليّ، وأبي الحسين هبة الله، ابنيّ الحسن بن عساكر، وحدّث هو، وأبوه، وجدُّه، وجدُّ أبيه. وكان ذا فضائل عديدة، من الفقه والأدب وغيرهما. وله النظم المليحُ(والخطب) والرسائل.

وتولّى القضاء بدمشق، هو وأبوه وجدُّه وولداه، وكانت له عند السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب منزلة عالية، ومكانة مكينة، ولمّا فتح السلطان حلب في صفر سنة ثمانين وخمسمائة، أنشده محيي الدين هذا قصيدة، منها قوله:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كذلك، وفتح السلطان القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. فقيل له: من أين لك هذا؟

فقال: أخذتُه من تفسير أبي الحكم ابنْ برجان في قوله:﴿آلم*غُلِبَتِ الرُّومُ﴾(الروم١—٢).

ولمّا فتح السلطان القدس تطاول إلى الخطابة به في يوم الجمعة كلُّ أحدٍ من العلماء الذين شهدوا الفتح، وجهد كلّ منهم في عمل خطبة بليغة، ورجا أن يكون هو الذي يُعَيَّنُ لذلك، فخرج المرسوم إلى المحيي هذا أن يخطب، فخطب خطبة بليغة جداً في معنى فتح القدس، وذكر منتجب الدين أبو الفضل يحيى بن أبي طيء حميدة النجار: حدثني جماعة، منهم الركن بن جهبل العدل أنّ الفقيه مجد الدين(طاهر بن نصر الله) بن جهبل الشافعيّ وقع إليه تفسير القرآن الكريم لأبي الحكم المغربيّ، فوجد فيه عند قوله تعالى:﴿آلم*غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ الآية، أنّ الروم يُغلَبون في شهر رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقدّس وتصير دار إسلام إلى آخر الأبد. واستدلّ على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه. فلّما فتح السلطان حلب، كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشّره بفتح القدس على يديه، وعيّن فيها الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى الهكّاريّ. فلّما وقف عليها الفقيه عيسى، لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وأعلم بما في الورقة محيي الدين محمد ابن الزكيّ الدمشقيّ، وكان ابن الزكيّ واثقاً بعقل ابن جهبل، وأنّه لايقدم على هذا القول حتّى يحقّقه ويثق به. فعمل قصيدة مدح بها السلطان حين فتح حلب في صفر، وقال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

فلّما سمع السلطان ذلك، تعجّب من مقالته، ثمّ حين فتح السلطان القدس، خرج المجد بن جهبل إلى خدمته مهنئاً له بفتحه، وحَدّثَهُ حديث الورقة، فتعجب السلطانُ من قوله وقال: قد سبق إلى ذلك محيي الدين ابن زكيّ الدين، غير أنّي أجعل لك حظاً لايزاحمك فيه أحد، ثمّ جمع له من هناك من الفقهاء وأهل الدين، ثمّ أدخله إلى القدس.

ولمّا كانت... ولّى السلطان صلاح الدين محيي الدين قضاء حلب،

-١١٨٩٣-

وقـدم إلى القاهـرة رسولاً مـن الملك العـادل سيـف الديـن أبي بكر بـن أيّوب إلى الملك العـزيز عثمان بن صلاح الـدين يحثّه على قصد الفـرنج، فأقام بها أيّـاماً يسيرة، وعاد من القاهـرة يريد دمشق في يوم الأحـد ثالث صفر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعـاء سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بدمشق.

-١١٨٩٤-

العماد الأصفهانيّ

محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله ين علي بن محمود بن عبد الله بن أَلُه —بفتح الهمزة وضم اللام— اسم فارسّي معناه بالعربيّة: العُقاب—أبو حامد، عماد الدين— ويقال: أبو عبد الله—ابن صفيّ الدين أبي الفرج، ابن نفيس الدين أبي الرجاء، المعروف بابن أخي العزيز، الأصفهاني، الشافعيّ، الكاتب.

مولده بأصبهان يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة—وقيل: في شعبان— سنة تسع عشرة وخمسمائة، وأقام ببغداد يدرس الخلاف والمذهب بالمدرسة النظاميّة على أبي منصور سعيد بن الرزاز، وبعده على يوسف الدمشقي، وسمع بها من أبي الفتوح محمد بن الفضل بن محمد بن المعتمد الإسفراييني، وأبي المكارم المبارك بن عليّ بن عبد العزيز، وأبي منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون وأبي بكر أحمد بن عليّ بن عبد الواحد الدلال، وجماعة كثيرة.

وقرأ الأدب على أبي محمد بن الخشاب. وسمع بأصفهان أبا سعد محمد بن الهيثم الأديب وغيره، وقرأ الخلاف، وعاد إلى بغداد.

وتصرّف في الأعمال الديوانيّة أيّام المقتفي والمستنجد. ومدح الخلفاء والوزراء. ورحل في آخر أيّام الخليفة المستنجد إلى دمشق، ومدح الملك العادل نور الدين محمود، وقدم كاتباً في ديوانه. ثمّ وليَ الاستيفاء بجميع الأمور.

وقدم إلى القاهرة بعد موت نور الدين في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، فصار من خواصّه. وسمع بالإسكندريّة على الحافظ السلفي، وأبي الطاهر إسماعيل بن عوف. وحدّث. ولم يزل في خدمة السلطان إلى

أن مات. فلـزم منزلـه. واشتغل بتدريـس الفقه والخلاف وروايـة الحديث والأدب بدمشق إلى أن مات.

قال ابـن النجّار: كان من العلماء المتقنين فقهـاً وخلافاً وأصـولاً ونحواً ولغةً، وله معـرفة بالتواريخ وأيّـام الناس. وله في البلاغـة والانشاء والنظم والنثر اليدُ الطولى والباع الممتّد. وإليه تشـدّ الرحال في ذلك وعليه تعقد الخناصر وكان من محاسن الزمان لم تر العيون مثله.

وتوفي بـدمشق ليلـه الاثنين مستهل شهـر رمضان سنـة سبع وتسعين وخمسمائة. ودفن بمقابر الصوفيّة.

وكـان جامعـاً لفضائل مـن الفقـه والآداب والشعر الجيـد . وله اليـد البيضـاء في النثر والنظـم . وهـو طويـل النفـس في رسـائله وقصـائده . وصنـف تصـانيف مفيـدة منهـا : « خـريدة القصر وجـريـدة العصر في محاسن أهـل العصر » : عشر مجلدات . وديوان شعـره في ثماني مجلدات . وديوان رسائله في أربع مجلدات . وكتـاب « خطفة البارق وعطفة الشارق » ثلاث مجلدات . وكتاب « نصرة الفترة وعصرة القطـرة » مجلدان . وذيل الخريـدة ، مجلدان . وكتـاب « عتب الـزمان في عقبـى الحدثان » مجلـد . وكتـاب « الـذيـل والسيـل » . وكتـاب « الفتـح القسي في ذكـر الفتـح القدسي » . وكتاب « البرق الشامي » ، تـاريخ في سبع مجلدات . وكتاب أخبار ملوك السلجوقية . وكتاب العقبى والعتبى .

وله ديـوان دوبيت ، ومكاتبات القـاضي الفاضل إليه في جـزء ، وكان يكتب بـالعربية والفارسيـة . وكان محل الثقة من الفـاضل آمنا من تـوثبه عليـه ، ولهذا كان يطمئـن إليـه إذا غـاب مع السلطـان ، وكـان رحمه الله شديد الحرص على تحصيـل الدنيا ، وكان الفـاضل يلومه ويعتبـه ويعذله ويؤنبـه على ذلك ، فلا يـرعوي . فبعـث مرة يشكو إليـه ضرورة ، فكتب إليه الفـاضل : يـا سيد أخيـه ، لا تسمع الهر هـذه الشكوى فيستعـذبها

فيستمر على العدوى ، ولو أستغنينا بالله لكان يغنينا ، ولو قعدنا عن الرزق لأتانا لايعنينا ، وفي الحديث : اتقوا الله واجملوا في الطلب ، ولا يدرى كيف يكون المنقلب ، فبالله الا ما سمعت بهذا الأدب ؟

وله في هذا حكايات : منها أن رجلا من أهل حمص جاءه بطبق كيزان وتفصيلة كتان ، قيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً ، وسأل حاجة ، فأخذ قصته وقرأها على السلطان ، وكان قد بلغه الخبر . فلم يجبه . فأعاد العماد عرض القصة وقراءتها مرات في مجالس عدة ، والسلطان لا يأمر فيها ولا ينسى ، ففطن العماد وعلم أن الخبر قد اتصل بالسلطان فأعاد عرض القصة ، فلما لم يجبه عنها قال :

يا مولانا ، الطبق الذي أحضره صاحب هذه القصة باق إلى الآن لم اتصرف فيه . فما كان ما ينقضي شغله أعدت عليه طبقه .

فضحك السلطان وعجب من دناءة نفسه وأمر بقضاء شغل الرجل ، وكان شديد التهافت على أخذ الختوم الذهبية التي تجيء على كتب الفرنج ، فوصل منهم كتاب بغير حضوره ففتحه السلطان بيده ، وأخذ بعض الحاشية الختم . فلما جاء العماد قيل له : أكتب جواب هذا الكتاب

فقال : يكتب جوابه من أخذ الختم

فعز قوله على السلطان وقال : قم اخرج الوقت، ماهو محتاج إليك ، فأتى إلى الفاضل وعرفه ما كان . فقال له : رح إلى الخانكاه وأقعد بها مع الفقراء وألبس زيهم . فإذا طلبك السلطان قل : « أنا دخلت في أسر لا أخرج منه » . ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مترضياً .

ثم لم يلبث الفاضل حتى أتته رسل السلطان في طلبه ، فلما أتاه شكا

إليه العماد ، وقال له : أكتب جواب لهذا الكتاب ، فقال : والله ما أعرف ما أكتب فيه لأن العماد كان بصدد هذه الكتب فلا يعرفها سواه .

ولم يزل يتلطف بالسلطان حتى قال : أطلبه ، فبعث في طلبه فلم يحضر وأعتذر ، فعظم الفاضل الأمر ، وكرر الرسل في طلبه وهو لا يحضر ، فقال الفاضل : أنا أروح خلفه وأتلطف به . فوالله هذا باب ما يسده سواه .

ثم ذهب فأطال المكث ، وعاد إلى السلطان وقال : لقد حرصت به فلم يجب ، ورأيته مقبلا على ما دخل فيه إقبالا ما أظنه بقي يخرج عنه وما ضر السلطان لو زار الفقراء وترضى عبده ؟ ولم يزل به حتى أتاه وترضاه .

وما هذه الأيام إلا صحائف
نسطر فيها ثم نمحي ونمحق

ولم أر في عمري كدائرة المنى
توسعها الآمال والعمر ضيق

وقوله :

هي كتبي فليس تصلح من بعدي لغير العطار والإسكافي

هي إما مزواد للعقاقير وإما بطائن للخفاف

وكان ذا قدرة على النظم والنثر ، وشعره ألطف من نثره لأنه أكثر من الجناس فيه ، وبالغ حتى صار كلامه كأنه ضرب من الرقى والعزائم .

ومن محاسن نثره : « فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها ، والآية التي لا أخت لها ، فتقول : هي أكبر من أختها ، أفضت الليلة إلى

فجرها ، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها ، وجاءت بواحدها الذي تضاف إليه الأعداد ، ومالكها الذي له الأرض بساط ، والسماء خيمة ، والحبك أطناب ، والجبال أوتاد ، والشمس دينار ، والقطر دراهم والأفلاك خدم . والنجوم أولاد ».

ومن كلامه الذي أكثر فيه الجناس قوله : « ورد الكتاب الكريم الأشرف الذي كرم وشرف ، وأسعد وأسعف ، وأجنى العز وأقطف ، وأوضح الجد وعرف ، وقوى العزم وصرف ، وألهج بالحمد وأشغف ، وجمع شمل الحب وألف ، فوقف الخادم عليه وأفاض في شكر فيض فضله المستفيض ، وتبلج وجه وجاهته ، وتأرج نبأ نباهته ، ما عرفه من عوارفه البيض ، وأمنت بمكارمه المكاره ، وزاد في قدر التائه قدره النابه ، وافترت مباسم مراسمه عن ثنايا مناجحه ، ورفد طلائع صنائعه ، فسر بمنن منائحه » .

ومما أكثر فيه من رد العجز على الصدر قوله : « وسر أولياءه ، وأولي مسرته ، وأقدر يده وأيد قدرته ، وآزر دولته وأدال مؤازرته ، وبسط مكنته ومكن بسطته ، وأسعد جده وأجد سعادته ، وأراد نجحه وأنجح إرادته ، وأجل جيله وسر أسرته ، وحاط حماه وحمى حوطته ، ولا زال معروفه مواليا ، ومواليه معروفا . ووصفه حسنا وإحسانه موصوفا ، وإلفه بارا ، وباره مألوفا ، وعطفه كريما وكرمه معطوفا » .

وله رسائل التزم في واحدة الدال في كل كلمة ، والضاد في أخرى ، والميم في أخرى ، والشين في أخرى ، وأشياء من هذا النمط .

وديوانه أربع مجلدات كبار . وما أحسن قوله في أترجة :

وأترجة صفراء لم أدر لونها
أمن فرق السكين أم فرقة السكن ؟

بحــق عــرتها صفــرة بعــد خضرة
فمــن شجــر بــانــت وصــارت إلى شجــن

وقوله :

متلـــون كمـــدامعـــي متعفـــف
كضمائري، متعـــذر كـــوســائلي
أنــا في الضنــى كــالخصر منـــه يشتكــي
مـــن جــائر مــا يشتكــي مـــن جــائل

ويحكى أنه قال يوما للقاضي الفاضل : سر فلا كبابك الفرس ، فأجابه الفاضل : دام علا العماد ، وكلا الكلامين يقرأ مقلوبا .

واجتمعا يوما في موكب السلطان وقد ثار الغبار حتى سد الفضاء ، فأنشد ارتجالا :

أمــــا الغبـــار فـــإنـــه
ممـــا أثـــارتـــه السنـــابـــك
والجو منـــــــه مظلـــــم
لكـــن أنـــار بـــه السنـــابـــك
يـــادهـــرلي عبـــد الرحيـــ
ـــم، فلســت أخشــى مــس نــابــك

وكان قدم وهو ابن عشرين سنة إلى بغداد ، ونزل النظامية ، وبرع في الفقه ، وأتقن الخلاف والنحو و الأدب ، وسمع الحديث . فلما مهر تعلق بالوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ، فولاه البصرة ثم نظر واسط . فلما مات الوزير ضعف أمره واعتقل في جملة من اعتقل . فكتب إلى رئيس الرؤساء عضد الدين أبي الفرج محمد الأستادار :

قـــل لـــلإمـــام: عـــلام حبـــس وليكـــم
أولـــوا جميلكـــــم جميـــــل ولائه

أوليس إذ حبس الغمام وليه
خلى أبوك سبيله بدعائه

يشير إلى قصة العباس بن عبد المطلب في الاستسقاء

وكان إذا دخل عليه من يعوده في مرضه ينشد :
أنا ضيف بربعكم
أين أين المضيف ؟
نكرتني معارفي
مات من كنت أعرف

وقال القاضي الفاضل لجلسائه : بم تشبهون العماد ؟ — وكان عنده فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام ، فإذا أخذ القلم أتى بالنظم والنثر — فكلهم شبهه بشيء . فقال : ما أصبتم ، هو كالزناد ظاهره بارد ، وباطنه فيه نار .

ولما فرغ من كتاب الخريدة جهزها إلى القاضي الفاضل في ثمانية أجزاء فقال : أين الآخران ؟ — لأنه قال : خري ده ، يعني : خري عشرة ، فإن ده بالفارسية : عشرة . ومن هنا أخذ ابن سناء الملك قوله فيها :
خريدة أفيه من نتنها
كأنها من بعض أنفاسه
فنصفها الأول في ذقنه
ونصفها الآخر في رأسه

ولما قدم دمشق سنة اثنتين وستين وخمسمائة تعرف بمدبر الدولة القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وكان قد اتصل في طريقه بنجم الدين أيوب لمعرفة كانت بينه وبين عمه العزيز بتكريت . فاستخدمه كمال الدين عند السلطان نور الدين في الإنشاء . فجبن أولاً ، ثم ترقت منزلته عند السلطان ، وبعثه في رسالة إلى الإمام المستنجد بالله . وفوض إليه

تدريس المدرسة المعروفة بالعمادية بدمشق ، ورتبه في إشراف الديوان .

فلما مات نور الدين وقام من بعده ابنه تنكرت أحواله ، فعاد إلى العراق .

فلما بلغه وصول السلطان يوسف صلاح الدين إلى دمشق وأخذها ، عاد إلى الشام ، والسلطان على حلب ، فمدحه ولقي القاضي الفاضل على حمص ومدحه بقصيدة : فدخل على السلطان وقال له : غداً يأتيك تراجم الأعاجم وما يحلها مثل العماد .

فقال له : مالي عنك مندوحة ، أنت كاتبي ووزيري ، ورأيت على وجهك البركة ، فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس .

فقال العماد : يحل التراجم وربما أغيب أنا ، فإذا غبت قام مقامي . وقد عرفت فضله وخدمته لنور الدين .

فاستخدمه عند ذلك وأطلعه على سره ، وكان يضاهي الوزراء فإذا انقطع الفاضل بمصر لصالح السلطان قام العماد مقامه . فلم يزل على ذلك حتى مات السلطان واختلت أحواله ، ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً فلزم بيته وأقبل على التصنيف بقية عمره .

وتأخرت وفاته بعد الفاضل سنة .

- ١١٩٠٢ -

النجم الخبوشانيّ الصوفيّ

محمد بن موفّق بن سعيد بن علي بن الحسن بن عبد الله، الشيخ الزاهد، نجم الدين، أبو البركات، ابن أبي المطهّر، الخبوشانيّ، التبريزيّ، الصوفي، الشافعي.

مولده بأستُوا خبوشان في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة عشروخمسمائة. وتفقّه بنيسابور على محمد بن يحيى. وكان يقول: أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عُبيد الكذّابين، فقدم إلى مصر سنة خمس وستين وخمسمائة، ونزل في بعض مساجدها. فأتّفق أنّ الخليفة العاضد لدين الله أبا محمدّ عبد الله بن يوسف رأى في منامه أنّه بمدينة مصر وقد خرج إليه عقرب من مسجد معروفٍ بها فلدغه. فانتبه مذعوراً، واستدعى عابر الرّؤيا وقصّ عليه مارأى.

فقال: ينال أمير المؤمنين مكروهٌ من شخص مقيم بهذا المسجد.

فألزم الوالي بإحضار مَن في المسجد. فمضى إليه وأحضر منه رجلاً صوفياً. فسأله العاضدُ من أينَ هو، ومتى قدم مصر، وفي أي شيءٍ جاء.

فأجابه عن ذلك. ولم يظهر للعاضدِ مايريبه، بل تبيّن منه ضعف الحال مع الصدق، فدفع إليه مالاً وقال له: ياشيخ، أدع لنا، وخلاّه لسبيله، فعاد إلى مسجده.

ولم يزل به حتّى قدم شيركوه من دمشق، وقام في وزارة العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب وشرع في إزالة الدولة، فاستفتى فقهاء مصر فكان أشدَّهم مبالغة في الفُتيا، وعدّد مساوىء القوم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال القول في الحطّ عليهم، وعندما عزم صلاح الدين على قطع اسم العاضد من الخطبة لم يتجاسر أحد أن يأمُرَ

الخطيب بذلـك، إلاّ الخبوشانيّ، فإنّه قـام يومَ جمعة، وفي يده جـريدة وأمر بقطع اسم العاضد، وانقطع اسمُه من يومئذٍ، وصدقت الرؤيا.

فلمّا استبدّ السلطان صلاح الـدين بمملكة مصر، قرَّبه وأكرمـه، وبالغ في اعتقـاد دينه وعلمـه. فأشـار على السلطـان بعمارة المدرسة بجـوار قبر الامـام الشافعـيّ فامتثـل ذلك، وتبتّـل الخبوشـانيّ بعمارتها حتّى كملـت، ودّرس بها وسكن فيهـا إلى أن مات هنـاك يوم الأربعـاء الثاني والعشريـن من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، ودُفن تحت رجليّ الشافعيّ.

ولم يأكـل من وقف المدرسـة شيئاً قطّ، ولاأخـذ من مال الملـوك شيئاً، ودُفن في الكساء الذي صحبـه من خبوشان، وكان بمصر تاجـرٌ من بلده يأكل من ماله.

وحدّث عـن أبي الأسعد هبة الرحمن بـن عبد الواحد، ابـن الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيريّ. وكان فاضلاً ديّناً سليم الباطن، معـرضاً عـن معرفـة الأحوال الـدنيويّـة، شديـد الورع، فقيهـاً، يستحضر كتـاب المحيط في شرح الـوسيـط. وذكر عنـه أنـه عدم مـرّة فـأملاه مـن حفظه.وصنّف كتاباً في الفقه سمّاه«تحقيق المحيط» في ستّة عشر مجلداً.

وخُبُوشـان—بضمّ الخاء المعجمة والبـاء الموحّدة، وسكون الـواو، وفتح الشين المعجمة، ثم ألـف بعدها نون— بليـدة بناحية نيسابـور، وكان من ورعه إذا ركب الحمار يجعل تحته أكيسةً لئلا يصل إليه عرَقُه.

وأتاه السلطان الملـك العزيز عثمان، فصافحـه، فاستدعى مـاءً وغسل يديـه وقال: يـاولدي أنـت تمسك العنـان ولايتوقـىّ الغلمانُ النجاسـة، اغسل وجهك فإنّك بعد المصافحة لمستَ وجهك.

فقال: نعم، وغسل وجههُ.

ولمّا خرج السلطان صلاح الدين إلى القريع قرب الرملة، جاء إلى الخبوشانيّ ليودّعه. فالتمس منه أموراً من المكوس ليسقطها عن الناس، فلم يفعل. فقال له: قم، لانصرك الله، وكن بغضا.

فوقعت قلنسوة السلطان عن رأسه، فرجع السلطان، ثمّ توجّه إلى الحرب فانكسر، وعاد إلى الشيخ وظنّ أنّ ذلك بدعوته وأذعن لكلامه.

وكان لتقيّ الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين مواضع يباع فيه المزر. فكتب الشيخ ورقة إلى السلطان قال فيها: إنّ هذا عمر لاجبره الله يبيع المزر.

فسيّرها إلى عمر وقال: لاطاقة لنا بهذا الشيخ، فأرضِهِ.

فركب إليه. فقال له حاجبهُ: قف بباب المدرسة حتّى أسبقك إليه وأوطىء لك، ثمّ دخل وقال: تقيّ الدين يسلّم عليك، فقال: بل شقيّ الدين، لاسلّم الله عليه، فقال: إنّه يعتذر ويقول: ليس لي موضع يباع فيه المزر، فقال: يكذب، فقال: إن كان هناك موضع مزر فأرِنا، فقال: أدن، فأمسك ذؤابته وجعل يلطم وجهه، ويضربه ويقول: لست مزارا، فأعرفَ مواضع المزر، ثمّ تركه، وخرج إلى تقيّ الدين فقال: فَدَيْتُك بنفسي.

وأتاه القاضي الفاضل يوماً وهو يلقي الدرس على كرسيّ ضيّق. فجلس على طرفه، وجنبه إلى قبر الشافعيّ، فصاح به: قم، ظهرك إلى الإمام، فقال: إن كنت مستدبره بقالبي، فأنا مستقبله بقلبي، فصاح فيه وقال: ماتُعُبِدّنْا بهذا، فخرج وهو لايعقل.

ويقال أنّه كان يصرّح بسبّ الدولة المصريّة قبل انقراضها. فبعثوا إليه بأربعة آلاف دينار. فنهض إلى الذي أحضرها، وهو بذاك الزيّ الهائل

-١١٩٠٥-

وقال له وقد اشتد غضبه: ويلك، ماهذه البدعةُ؟ فألقى إليه مامعه بين يديه. فضربه على رأسه حتى تحلقّت عمامته في حلقه، وأنزله ورمى بالدنانير على رأسه، وسب أهل القصر.

-١١٩٠٦-

القاضي ابن ميسّرالقيسرانيّ

محمد بن هبة الله بن ميسّر، القيسرانيّ، القاضي الأمين، ثقة الدولة، سناء الملك، شرف الأحكام، قاضي القضاة، عمدة أمير المؤمنين، أبو عبد الله، ابن أبي الفرج.

قدم مع أبيه من قيساريّة، وهو صغير، في أيّام أمير الجيوش بدر الجماليّ، وولي أبوه خطابة جامع عمرو بن العاصي بمصر، وكان من أرباب اليسار.

فلمّا مات أبو الحجّاج يوسف بن أيّوب بن إسماعيل المغربيّ، قلّد الآمر باحكام الله أبا عبد الله هذا قضاء القضاة بديار مصر بعدَه، في ذي الحجّة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ورتّب مشارفا على ثقة الدولة... ابن أبي الردّاد في قياس الماء، وعمارة المقياس وعمل مصالحه. فبقي مستمرّاً فيها إلى أن قتل، فلم ينظر بعده أ حد على هذه الجهة، وانفرد ابن أبي الرداد، وأطلق له كلّ سنة مائة قنطار جير لعمارة المقياس.

وواصل الملازمة والدؤوب، وتوفّر على الانتصاب للجلوس، واعتمد التثبّت في الأحكام التصبّر على الخصوم، وعدّل جماعة كثيرة، مستكثرا من البياض والوجوه، فصار للقاهرة ومصر بذلك جمال، وللمسلمين انتفاع. وبلغت عدّة الشهود في أيّامه زيادة على مائة وعشرين، ولم تبلغ عدّتهم قبله ثلاثين. وردّت إليه أيضاً المظالم، فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بها حضرة أمير المؤمنين الآمر بأحكام الله، وكان منهم جماعة قد قنطت نفوسهم من الخلاص وساءت ظنونهم، فلا يتوقّعون لعقدتهم انحلالاً، فاستخرج أمر(الخليفة) بالإفراج عنهم، وأنهى ايضا إلى الآمر عن أحوال التجّار(فكتب) مناشير في معناهم تُليت على المنابر وصف فيها ابن ميسّر وشكر.

ولمّا ولـد للآمـر ولد ذكـر في سنـة أربع وعشريـن(وخمسمائة)، وأحضر الكبش ليـذبح في عقيقته، شرف ابن ميسّر بحمـل المولود حتّى عُـقّ عنه بحضره الآمر ونثرت عليه الدنانير، وكان يوماً مشهوداً.

ولم يزل إلى أن قتل الآمر وبويع من بعـده الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد، فتولىّ قراءة السجّـل الذي كتب بمبايعته، وهو على كرسيّ تجاه الحافظ، بحضور أرباب الدولة.

ثمّ صُرف في يوم الثلاثاء أوّل ربيع الأوّل سنة ستّ وعشرين وخمسمائة بـأبي الفخر صـالح بـن عبد الله بـن رجا، فلّما تغلّـب الأمير حسن بـن الحافظ على أبيـه وقتل قاضي القضـاة سراج الديـن أبا الثريّا بـن جعفر، أعاد ابن ميسّر إلى القضاء، وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة سنة ثمان وعشريـن. وصُرف في وزارة بهرام يوم الأحـد سابـع المحرّم سنـة إحدى وثـلاثين، وأخرج إلى تنيس، وقتـل بها عشيّة يوم الاثنين ثـاني شهر ربيع الأوّل سنة احدى وثلاثين وخمسمائة.

وسبب قتله أنّه كان أسقـط انسانا يُعرف بابن الزعفرانيّ فـوشى به عند الخليفـة الحافـظ ان أبـا عليّ أحمد بـن الأفضـل، لمّا ولي الـوزارة واعتقـل الحافظ وجلس للهناء، ودخـل الشعراء يهنّئـونه على العـادة، أنشده عليّ ابن عبّاد(الإسكندري) أبياته التي أولها:

تبسّم الدهر لكن بعد تعبيس

إلى أن قال:

هـذا سليمانكم قـد رُدَّ خـاتمه
واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فقام ابن ميسّر وألقى عرضيتّه(عمامته) طرباً لهذا البيت.

وكـان ابـن ميسّر كـريماً جـواداً سخيّـاً، لـه نعمـة وهمّة، وكـان يعمـل الاطعمـة والسماطات المختلفـة، والحلوى الكثيرة، وكـان نبيلا جليـلا، ضرب دنانير كبيرة باسمـه اقترحها على الخليفة الآمر بـأحكام الله، فبقيت بعده دهـراً طويـلاً، وهو الذي أخـرج الفستق الملّبـس بالحلـوى، لأن أبا بكـر محمـد بـن عليّ الماذرّائي وزيـر الـدولـة الإخشيـديّـة عمـل كعكـا سمّاه«افطن لـه»، وعمل منـه يوماً في صحـن، وجعل عـوضاً عـن حشوه بالسكـر، دنانير. فلّما حضر الناس في يـوم عيد وأكلـوا من طعامـه، أشار بعض الخدّام لشخص بقـوله:«افطن له» ليأكل مـن الكعك المذكور. فلّما بلغ ذلك ابـن ميسّر عمل نظيره صحنا فيه فستق ملبـس بحلوى، وجعل عوض قلب الفستق ذهباً، فأكل الحاضرون منه وأخذوا مافيه من الذهب.

وكان قليل العلم. وكان يركب بـالمنارة النحاس الرومية ذات السواعد التي عليها السبع في ليالي الوقود. فـاتفق أنّه اجتاز بها بين يديه من تحت سدرَة بـالقرافة، فـأمر بقطعها. فحذّر مـن ذلك، لما جاء في الحديـث من نهي عن قطع السـدر، فلم يعبأ بذلك وقطعها. ولم يمـض عليه إلاّ قليل حتى قُتل. وكانت علامتُه: الحمد لله على نعمه.

وولي قضـاء القضـاة بعده القـاضي الأعـزّ أبـو المكارم أحمد بـن عبـد الرحمن بن أبي محمد بن أبي عقيل.

-١٩١٠٩-

أبو بكر الطرطوشيّ

محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيّوب، ابن أبي رندقة—بفتح الراء المهملة، وسكون النون، وفتح الدال المهملة، وبعدها قاف، كلمة فرنجيّة معناها: رُدَّ تعال— الإمام العلاّمة، أبو بكر، الفهريّ، الطرطوشيّ، الفقيه المالكيّ.

ولد بطرطوشة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة. وتوفّي بثغر الإسكندريّة ليلة السبت لخمس بقين من جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة، ودُفن بمقبرة وعلة. وقبره إلى الآن يزار ويتبرّك به.

أخذ فقه الإمام مالك عن أبي الوليد الباجيّ بمدينة بسطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه فأجازه. وقرأ الفرائض والحساب بوطنه. وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم بمدينة إشبلية.

ورحل سنة ستّ وسبعين وأربعمائة. فسمع بثغر الإسكندريّة من أبي القاسم مهديّ بن يوسف. وببغداد من قاضي القضاة أبي عبد الله محمد ابن علي بن الدامغانيّ، وأبي الحسين عاصم بن الحسن، وغيره، وبواسط من أبي الحسن عليّ بن محمد المغازليّ. وبالبصرة ومكّة من غير واحد.

وحجّ سنة ستّ وسبعين وأربعمائة، وسار إلى بغداد والبصرة. وتفقّه على أبي محمّد الشاشيّ، واجتمع بالإمام أبي حامد الغزاليّ ببيت المقدس. وأقام بالإسكندريّة فتفقّه عليه أكثر فقهائها. وكانت إليه الرحلة. وقدم القاهرة مراراً، وآخر ماقدم إليها في شهر شوّال سنة ستّ عشرة وخمسمائة، والوزير يومئذ الأجلّ المأمون أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي، وكانت بينهما مودّة قديمة، وأهدى إليه كتاب«سراج الملوك»، وكان قد صنّفه للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، فقُتل قبل إتمامه.

فبالغ في كرامتـه، وأنزله بمجلسه، وقام عند رؤيتـه، وجلس بين يديه، وأجرى لـه في كلّ يوم خمسة دنـانير من مال الجوالي، فلم يقبـل منها غير دينارين كانا باسمه من الأيّام الأفضليّة.

وكان الداعي لحضوره أمر المواريث، ومـا يأخذه أمناءُ الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر وأمـر توريث البنت نصف المال. وكانـوا يورثونها جميع المال مـع وجود ا لعصبة، كما هو مـذهب آل البيت. فاعتـدّ المأمون بأنّ هـذه قضيّة لم يُحدثها، وأنّ أمير الجيوش بـدراً هو الـذي استجدّهـا، وهي تسمى با لمذهب الدارج: وهـو أن كلّ من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه، وقد مرّ على ذلك عدّة سنين.

فقال لـه الفقيه أبـو بكر: اذا علمـت أنّها ماتخلّصـك من الله فغيِّرهـا، ويكون لك أجرها.

فقال: أنـا نائب الخليفة، ومذهبـه ومذهب جميع الشيعة من الزيـديّة والإمامية والإسماعيلية أنّ الإرث جميعه للابنـة خاصّة بلا عصبـة ولابيت مـال، ويتمسّكون بـآية مـن كتـاب الله كما يتمسك غيرهـم، وأبو حنيفـة موافقهم في ا لقضيّة، يعني توريث ذوي ا لأرحام.

وطـال بينهما الكلام، إلى أن قـال المأمون للفقيـه أبي بكـر: أنا لاأريـد مخالفتك، ولا في قـدرتي أن أردّ على ا لجماعة مـذهبهم، والخليفـة يرى بـه وينقضه على مَن يـأمر به، بل أرى لشفـاعة الفقيه أن أردّ الجميع لـلابنة على رأي الدولـة فيرجع كلّ أحدٍ إلى حكـم رأيه في مذهبـه فيما يخلّصه مـن الله، ويبطل حكـم بيـت المال الذي لم يـذكره في كتـابـه ولا أمر بـه الرسول عليه السلام.

فأجاب الفقيه إلى ذلك. وأمر المأمون بأن يكتب بتعويض أمناء الحكم عن ربع العُشر من مـال المواريث الحشرية. وكتب توقيع شملتـه العلامة

الآمريـة والمأمونيّـة، نصّه، بعد البسملـة: «خرج (أمـر) أمير المؤمنين، الآمر باحكـام الله، أبو عليّ المنصور، صلوات الله عليـه وعلى آبائه الطاهـرين، بإنشاء هذا المنشور عندما طـالعه السيّد الأجل المأمون أمير الجيوش، وهو الخالصة أفعالـه في حياطة المسلمين، وذو المقاصـد المصروفة إلى النظر في مصالح الدنيـا والدين، والصمّة الموفوقة على الـرقّي إلى درجات المتّقين، والعـزائم الكفيلـة بتسـديـد أحـوال الكـافـة أجمعين، شيمـة خصّـه الله بفضيلتها، وجبلـة أسعده بخـلالها وشريف مـزيّتها، والله سبحـانه يجعـل آراءه للتوفيق مقارنة، وأنحاءه للميامن كـافلة، ضامنة من أمور المواريث، وماأجراها عليهـا الحكّام الدارجون بتغاير نظرهـم، وقرّروه من تغييرها عمّا كان يعهـد بتغلّب آرائهم، ومادخـل عليها منهم مـن الفساد والخروج بها عن المعهود والمعتاد: وهو أنّ كلّ خـارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتبـاين مـذاهبهـم واعتقاداتهم، يحمـل مايترك مـن مـوجوده على حكـم مذهبـه في حياتـه، والمشهور مـن اعتقاده إلى حين وفـاته. فيخلـص لحرم ذوي التشيّـع الوارثـات جميـع موروثهـم، وهو المنهـج القـويم لقـول الله سبحـانه ﴿وأولـو الأرحام بَعْضُهُـمْ أَوْلَى ببعْـضٍ في كتاب الله إنّ الله بكـلِّ شيءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفـال ٧٥)، ويحمل مـن سواهـنّ على مذهـب مخلّفيهنّ، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهـم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلّ الله لهنّ بعدهـم، عدولا عن محجّة الدولة، وخـروجاً عما جاء به الصـادقون الأئمـة الذيـن نزل في بيتهـم الكتـاب والحكمة، فهـم كرمـاء القـرآن، وموضّحـو غوامضـه ومشكلاتـه بـأوضح البيـان، وإليهم يسلّـم المؤمنون، وعلى هديهم وإرشادهم يقول الموفّقون.

فلم يرض أمير المؤمنين الاستمـرار في ذلك على قاعدة واهيـة الأصول، بعيدة مـن التحقيق، خاليـة من المحصـول، ولم ير إلاّ العود فيـه إلى عادة آبائه المطهّريـن، وأسلافه العلماء المهديين، صلـوات الله عليهم أجمعين. وخـرج أمـره إلى السيد الأجـل المأمـون بـالايعـاز إلى القاضي ثقـة الملـك النائب (أبو بكر مسلّم الرسعنيّ، قاضي القضاة) في الحكم عنه، بتحذيره،

والأمر له بتحذير جميع النوّاب في الأحكـام بالمعزّية القاهرة ومصر، وسائر الأعمال دانيها وقـاصيها، قريبهـا ونائيهـا، من الاستمرار على تلـك السنة المجدّدة، ورفض تلك القوانين التي كـانت معتمدة، واستئناف العمل في ذلك بما يـراه آباؤه الأئمـة المطهّرة، وأسلافـه الكرام البررة، وإعـادة جميع مواريـث الناس على اختـلاف طبقاتهم ومـذاهبهم، إلى المعهـود من رأي الدولة فيها، والإفراج عنها برمتّها إلى مستحقيها، من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، وأن يضربـوا عمّا تقدّم صفحا، ويطووا دونـه كشحا، منذ تـاريخ هـذا التوقيـع، وفيما يأتي بعـده مستمراً غير مستـدرك لما فات ومضـى، ولامتعقـب لما ذهـب حكمُـه وانقضـى. وليـوعـز الأجـل المأمـون—عضـد الله بـه الـديـن— بـامتثـال هـذا المأمـور والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذّر كـلاً من القضاة والنوّاب والمستخدمين في الباب، وسائر الأعمال مـن اعتراض موجود أحد ممّـن يسقط بالوفـاة، وله وارث بالغ رشيد، حاضر أو غائب، ذكراً كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان، بشيء مـن التأوّلات، أوتعقّب ورثته بنـوع من أنواع التعقبات، إلاّ ماأوجبته بينهم المحـاكمات والقوانين الشرعيّات الواجبات، نظراً في مصـالح الكافة، ومـداً لجناح العاطفـة عليهم والرأفة، ومضـاعفة للإنعام، وإبانة عن شريف النظر إليهم والاهتمام.

فأمّا من يموت حشريّاً، لاوارث حـاضر ولاغائب فموجوده لبيت المال بأجمعه على الأوضاع السليمة، والقوانين المعلـومة القويمة، الاّ مايستحقّه زوج إن كان له، أو دين عليه يثبـت في جهته. وإن سقط متوفيّ وله وارث غائب،فليحتط الحكّام والمستخـدمون على تركته احتياطاً حكميّـاً، وقانونا شرعيّاً، مصـونا من الاصطلام، محرومـا من التفريـط والاخترام. فإن حضر وأثبت استحقـاقه ذلـك في مجلس الحكام بـالباب على الأوضـاع الشرعيّة الخالصة من الشبـه والارتياب، طولع بـذلك ليخرج الأمر بتسليمـه إليه، والإشهاد بقبضه عليه.

وكـذلك أنهى حضرة أمير المؤمنين أن شهـود الحكم بـالباب وبجميـع الأعمال اذا شارف أحـد منهم بيع شيء ممّا يجري في المواريـث من الترك التـي يتولاّهـا الحكّام يـأخذون ربـع العشر مـن ثمن المبيـع فيعود ذلـك بـالنقيصـة في أمـوال الأيتـام، والتعـرّض إلى الممنـوع الحرام، اصطـلاحـا استمـروا على فعلـه، واعتماداً لم يجر الأمـر فيـه على حكمـه. فكـره ذلـك وأنكره، واستفظعـه وأكبره. واقتضى حسـن نظره في الفـريقين ماخـرج به أمره من توفير مـال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك مـن الشهود جارياً يقام لكـلّ منهم من الإنعـام. وأمر بوضـع هذا الـرسم وتعقيمه وإبطـاله وحسـم مادّتـه. فليعتمـد القاضي ثقـة الملـك ذلـك في الباب، وليصـدر الإعـلام به إلى سـائر النـواب، سلـوكا لمحجـة الـديـن، وعملا بأعمال الفائزيـن السعداء المتّقين، بعد تـلاوة هذا التـوقيع بالمسجـدين الجامعين بالمعـزيّة القاهـرة المحروسـة ومدينة مصر،على رؤوس الأشهـاد، ليتأدّى في معرفـة مضمونه كـلّ قريب وبعيد، وحـاضر وباد، وليفرّغ منـه النسخ إلى جميـع النّـواب عنه في الأعمال، وليخلّـد في مجلس الحكـم بعد ثبوتـه في ديواني المجلس والخاصّ الآمـريّ، وحيث يثبت إن شاء الله حجّـة مودعة في اليوم ومابعده.

وكتب لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستّ عشرة وخمسمائة».

ولمّا ودّع الفقيه أبـو بكر المأمون ذكـر له أنّه يريـد بناء مسجد بظـاهر الثغر على البحر، فكتب إلى مكين الدولة أبي طالب أحمد بن عبد المجيد ابن أحمد بن الحسن بن حديد قاضي الإسكنـدرية وناظرها بعمارة ذلك من مال ديوان المأمون، دون مال الدولة، فبنى مسجداً على باب ا لبحر.

ثمّ بنـى له أيضاً سلطـان الجيوش حيـدرة أخو المأمون مسجـداً آخر بالمحجّة من الثغر.

-١١٩١٤-

وكان إماما عالما زاهداً ورعا دّينا متـواضعا متقشفاً متقللاً مـن الدنيا راضياً منهـا باليسير. وكـان يقول: إذا عـرض لك أمـران، أمر دنيـا و أمر آخرة، فبادر بأمر الآخرة يحصل لك أمر الدنيا والآخرة.

وكان كثيراً ماينشد:

ان لله عبـــــادا فطّنـــــا طلّقـــوا الـــدنيــا وخـــافـــوا الفتنـــا
فكّـــروا فيهـــا فلّما علمـــوا أنّها ليســـت لحيّ وطنـــا
جعلـــوهـــا لجة واتخذوا صـــالـــحَ الأعمال فيهـــا سُفنَـــا

وحصّـل كثيراً وكتب بخطّـه، وصنّف عـدّة تصانيـف مفيدة، وحـدّث فروى عنـه جماعة وتخرّج به جماعة كثيرة مـن أعيان الفقها. وظهرت بـركته على من اشتغل عليـه. فإنّه كان قـدم مصر ولم يبق أحد ينتفع بـه غالباً، فكـان يعلّم الانسـان كتـاب الطهارة، ويخرجـه إلى بلـدٍ فيعلمهم ذلـك. ويعلّم آخر الصلاة، ويفعل به كذلـك، وآخر الزكاة، وآخر الصيام، حتّى كان من يستفاد منه غالبا إنما هم أصحابه أو أصحاب أصحابه.

وقال فيه أبو العبّاس العرشيّ:

لم يشمـــل الاســـلام بعـــد انصـــداع وتـــلاً في رثيثـــه تجديـــد
مثـــل مـــا لمن أبـــو بكـــر فعـــاد الطـــريـــف مثـــل التليـــد

وقال إبراهيـم بن مهدي بن قلنبـا المالكيّ الفقيه المتكلّم: شيخنـا أبو بكر الطرطـوشيّ، زهده وعبادتُه أكثـر من علمه. وكانـت الطلبة والفقهاء يقرؤون عليـه للتبرّك، وانتفع جماعـة به وتخرّجـوا عليه. وورد بغـداد، وكان

عليـه كساء وقلنسـوة، وكان معـه هِميـان فيه مـائتـا دينار. فـاتفق أنـه في الطريق أراد أن يتـوضأ، فوضعه في مـوضع فنسيه فوجـده رجل ديّن خيّر، فصبر يومين فـرآه لايضطرب ولايطلب شيئاً، فقـال له الرجل: هـل ضاع لك شيء؟ فقال: هِميـان فيه كذا، فأخـرج الهميان وقال: هذا لـك؟ قال: بلى، فأخذه منه. فقـا ل له الرجل: فما لك سكـت؟ قـال: إذا قلت ضاع منّي مائتا دينار، وعليّ هذه البزّة، من كـان يصدقني، وكان بالليل الفقهاء يكرّرون وينـامون، فيجيء الفقيه الطـرطوشيّ ويترك الدنـانير الصحاح في أفواههم. فإذا انتبه الفقيه منهم يجد الذهب في فيه ولايعلم من تركه فيه.

وأخـرج من الإسكنـدرية صبيحـة يوم السبـت لآخر ليلـة بقيت مـن جمادى الآخـرة سنة أربـع عشرة وخمسمائة، ومنع النـاس من الخروج معـه خوفـاً من فتنـة تكون، وغلّقـت وقت خـروجه عليهـم أبواب المدينـة فلم يقدر أحد يصحبة إلاّ أبـو طاهر إسماعيل بن مكّي بـن عوف، وعطيّة بن مسلم اللخمـيّ، وحسين بن ياسين الصعيديّ، وشبيـب العلاّف الأزدي، وعبد الله القـاضي المالكيّ، فـإنهم خرجـوا معه إلى القـاهرة. فـدخل على الأفضل ابن أمير الجيـوش يوم الاثنين ثامن رجـب، فأكرمه وفـرح به. ولم يبق متـولّي الثغر غير شهر حتى ورد عليـه كتاب الأفضل بعزلـه، فخرج باكياً حزينـاً في مثل اليوم الذي خرج فيه الطرطوشيّ. وكـان اسمه جوهر. مـن جملة الأرمـن الموالي، وقـرّر الأفضل للطـرطـوشيّ عشرة دنانير في كـلّ شهر مـن جوالي النصـارى. وأعطاه المحرس المعـروف بالشرف، ومـا برح بمصر حتى قُتـل الأفضل، وولي أبو عبد الله محمـد بن فاتك الـوزارة من بعـده. فـأذن له في الانصراف إلى الاسكنـدريّـة، وأكـرمه، وأضـاف إليـه عشرين فـدّانا مـن البهنسى بالصعيـد، كانـت لأبي شبل المعقليّ الـزعبيّ العابد بجـزيرة الاسكندريّة. ثمّ تـوفّر له أيضاً بعد عـوده إلى الاسكندرية خمسة دنانير في كلّ شهر من الخمس الروميّ. فسأل القاضي مكين الدولة أبا طالب أحمد بن حديد أن يجعلها على الجوالي.

ـ ١١٩١٦ ـ

وقال المنذري وقد ذكر وفاته: وصلّى عليه ولـده محمد بن محمد بن الوليد، وحضر القـاضي الموفّق بـن الموفّق أبـو الفتـوح متولّي الاحكـار والأشراف بالاسكنـدرية. ولم يتمكّن النـاس من دفنـه لكثرة من صلّى عليـه. وعمره تسـع وستون سنـة. وكـان استوطـن الاسكنـدريـة في حدود سنـة تسعين وأربعمائة.

وكان من الأئمة المشهورين، والزهّـاد المذكورين. ودرّس بالثغر وألف كتاب«تعليـق الخلاف» وكتاب«سراج الملوك»، وكتـاب«الحوادث والبدع» كتاب«بـرّ الوالديـن»، وكتاب «العمـدة في أصول الفقه»، وكتـاب«تحريم الغناء»، وكتاب«الزهد والتصوّف»، وكتاب«السعود في الردّ على اليهود».

حواشي اتعاظ الحنفا

١ـ لك عند ياقـوت : « بلدة من نواحي برقة بين الاسكندرية وطـرابلس الغرب » وأكد هذا ابن الاثير في اللباب

٢ـ أي تولــي الاشراف على احد الدواوين ، والمشـرف مثل الناظر ، ويختلف عنــه أنه يحتفظ بمستخرج الـديوان تحت حـوطته في خـزانته انظـر قوانين الـدواوين للاسعـد بن مماتــي ـ ط . القاهرة ١٩٩١، ص ٣٠٢.

٣ ـ يريد به أفتكين ، وتقدم من قبل انه نصر الدولة

٤ـ فراغ بالأصل بمقدار كلمة

٥ـ ماتزال بقايـارقاد، عاصمة الاغالبة، قائمة على بعد حـوالي الاثني عشر كم عن القيروان ، ووصفت في وقتها بالجمال الفائق.

٦ـ فراغ بالاصل

٧ـ عز الدولة هو نصر بن علي بن مقلد.

٨ـ هي ابنـة الحسين بن زيد بن الحسين علي بـن أبي طالب ، تزوجت مـن اسحق بن جعفر الصادق ، لقيها ـ من وراء حجـاب الامام الشافعي ، وقيل انها صلت عليه اثر وفـاته، توفيت بعده بأربع سنوات أي سنة ٢٠٨ هـ ودفنت بمنزلها الذي بات من زيارات مصر المشهورة.

الزيارات للهروي ـ ط . دمشق ١٩٥٣ ص ٣٥. خطـط السخاوي ـ ط . القاهرة ١٩٣٣٧ ص ١٢٥ ـ ١٣٦.

٩ـ كتب هذا النص الهام على ورقة مفردة وردت داخل المخطوط.

١٠ـ في هامش الأصل « كذا بخط مؤلفه» ، وتداركنا الأمر كتبناه بين الحاصرتين.

١١ـ في هامش الاصل « أمير الجيوش المستنصري»

١٢ـ فـي هامش الأصـل : « بياض نحو أربعـة أسطر» وكـان المقريـزي مثله مثل غيـره من المصنفين اعتاد على ترك بعض الاماكن الفارغة لاضافة معلومات مستجدة.

١٣ـ في هامش الأصل : بياض نحو ثلث صفحة.

١٤ـ فراغ بالأصل يمكن تقدير احدى كلماته « فنزل»

١٥ـ بالاصل « دولة » وهو تصحيف.

١٥ـ لقب اضفـاه الفاطميـون على حكام النـوبة من أمـراء ربيعة. انظـر تاريخ دولـة الكنوز الاسلامية لعطية القوصـي ـ ط . القاهرة ١٩٧٦ص ٥٥ـ ٥٧. مملكة ربيعة العربية في وادي النيل لعوض خليفات ـ ط. عمان ١٩٨٣ ص ٨٠ ـ ٨٢.

١٦ـ المقور: الشيء الذي قطع من جوانبه. القاموس.

١٧ـ قـال المقريـزي في خططه ج٢ ص ٣٥٢ (ط. العـرفان ـــ بيروت): « وكان للفـاطميين منظره تعرف بقصـر اللؤلؤة وبمنظره اللؤلـؤة على الخليج بالقرب من باب القنطـرة ، وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة، وهو احد منتزهات الدنيا»

١٨ـ كـذا بالأصل وفيه وهم ، فـالذي تولى التـوزيع السلطان مسعود الاول ، وقد ذكـر هذا الموضوع فيما تقدم من مجلدات موسوعتنا اكثر من مرة

١٩ـ لاتتوافق هذه الرواية مع ما قدمه ابن القلانسي في تاريخ دمشق ص ٢٦١ ـ ٢٦٣.

٢٠ـ من الـواضح ان المقريزي ينقل هنـا عن ابن القلانسي ص ٢٦١، وفـي الحقيقة ان ابن صنجيل هو برتراند الابن الأكبر لريموند الصنجيلي .

٢١ـ بالأصل : فأتاهم ، وهو تصحيف

٢٢ـ في هامش الاصل : بياض ربع صفحة.

٢٣ـ كـان من منتزهات الخلفـاء ، وسبب فتحه أن الماء كـان لايصل الى البلاد الشـرقية الا بصعوبة وبشكل غير كاف. خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧.

٢٤ـ زيد ما بين الحاصرتين من تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٠٠، وكان موضع الاضافة بالأصل فارغا.

٢٥ـ كان باب الزهومة أحد أبواب القصر الشرقي الكبير من الجهة الغربية ، حيث كان خدم القصر يدخلون الاطعمة واللحوم، والزهومة : الزفر. نصوص من اخبار مصر لابن المأمون ط. القاهرة ١٩٨٣ ص ١٦. خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٩٨.

٢٦ـ تقدم ذكره في المنتقى من ابن ميسر.

٢٧ـ بهامش الأصل : بياض نحو الورقة . بياض نحو صفحة.

٢٨ـ كان باب الخوخة أحد أبواب القاهرة في سورها الغربي المطل على الخليج . ابن المأمون ص ٣٧.

٢٩ـ كان يقال لها قاعة الذهب وقصر الذهب، وهي احدى قاعات القصر الكبير بنيت أيام العزيز ثم جددت أيام المستنصر ، كانت الخلفاء تجلس فيها أيام المواكب ، وبها كان يعمل سماط شهر رمضان وسماط العيدين ، وبها كان سرير الملك . خطط المقريزي بها ص ٣١٤.

٣٠ـ المأمون البطائحي الذي سيرد ذكره.

٣١ـ من انواع الستائر.

٣٢ـ كانت بالأصل خزانة للسلاح والرايات والأعلام ، ثم تحولت لتكون سجنا لكبار شخصيات الدولة وفيها كان يعدم بعضهم ويدفن . خطط المقريزي ج٢ ص ٢٧٧ ـ ٢٨١.

٣٣ـ أريد بالطيافير أحيانا الآنية الكبيرة، أو الصحون المقعرة، وأحيانا أخرى الموائد الحاملة لعدد من الآنية . نزهة المقلتين لابن الطوير ـ ط . بيروت ١٩٩٢ ص ١٣١.

٣٤ـ من ابواب القصر الشرقي الكبير ، وقيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه في يومي العيد الى المصلى بظاهر باب النصر . خطط المقريزي ٢ ص ٢٩٧

٣٥ـ سورة الأنعام ـ الآية .

٣٦ـ طوله ثلاثة اشبار بشبر رجل معتدل . صبح الاعشى ـ ط. وزارة الثقافة المصورة عن الطبعة الاميرية ـ القاهرة ج ٣ ص ٤٤٢ـ ٤٤٣.

٣٧ـ وصف المقريزي في خططه هذه المناظر ج ٢ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

٣٨ـ انظر وصفه في خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

٣٩ـ كانوا من ارباب الوظائف الخاصة بالخليفة ، وعرفوا بالمحنكين لأنهم يدورون عمائمهم على احناكهم كما تفعل الغرب والمغاربة، وكانت عدتهم تزيد على الألف . صبح الأعشى . ج٣ ص ٤٧٧.

٤٠ـ في هامش الأصل : الميمذي : نسبة الى ميمذ بفتح الميمين ، بينهما ياء، آخر الحروف ، وفي آخرها ذال معجمه ــ وهي كورة من كور أذربيجان ، قاله الرشاطي، وكان لابي الفضل ان ينشيء ما يصدر عن ديوان المكاتبات ويحرر ما يؤمر به من المهمات.

٤١ـ القاضي ابو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الفهري . خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني ـ قسم مصر، ط. القاهرة ١٩٥١ ج ١ ص ٢٢٦ـ ٢٢٤.

٤١ـ انظر حوله صبح الاعشى ج ٢ ص ٣٦١. خطط المقريزي ج ٣ ص ٢٥٥.

٤٢ـ في هامش الأصل : بياض نحو نصف صفحة.

٤٣ـ أول الثمر للنخلة : طلع ، ثم خلال ، ثم بلح، ثم بسر ، ثم رطب ، ثم تمر . عن الصحاح للجواهري

٤٤ـ السجيل ثوب لايبرم غزله، والحبل على قوة واحدة، وثوب ابيض . القاموس

٤٥ـ السليب : المستلب العقل ، وامرأة سليب: مات ولدها ، وشجرة سليب: سلبت ورقها واغصانها، والسلب: أطول اداة الفدان، وشجر طويل ، ومن القصبة قشرها القاموس.

٤٦_ كان قصـر اللؤلـؤة على الخليـج ، من احسن القصـور وأعظمهـا زخرفـة . وهو أحـد منتزهات الدنيا. خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٥٢.

٤٧_ هي مشاهـد : زين العـابديـن والسيدة نفيسـة والسبعة التـي تزار بـالقرافـة . خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٣٤_٣٥٢.

٤٨_ انظر خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٩١

٤٩_ هي ليالي : أول رجب ، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه . خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٩٠.

٥٠_ الخشكنـان خبز يابس ، بقسمـاط، وبات يعرف بمصـر باسم خشتنان، وهـو نوع من الحلوى مصنعة من الرقائق المجوفة المملوءة باللوز او الفستق، أما البستندود فطعام يصنع من الدقيق والبلح . صبح الاعشى ج ٣ ص ٥١٠.

٥١_ انظـر حول اسمطـة رمضان ثم الفطـرة وحلوى العيـد ، صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٢٤ _ ٥٢٥. خطط المقريزي ج ٢ ص ٢١٧ _ ٢١٨، ٢٨١ _ ٢٨٣ ، ٣٢٣ _ ٣٢٤.

٥٢_ المـال الذي كان يحصلـه الداعي الـذي كان يـواصل الجلوس بالقصـر بدعـوة الأولياء وشيـوخ الدولـة ومـن يختص بـالقصور وعـوام النـاس والطارئيـن على البلد والنسـاء. خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٢٤_ ٢٢٤

٥٣_ عـرف ايام المقريزي بـاسم جامع الاولياء بنتـه أم الخليفة العزيز سنـة ٣٦٦ هـ_ خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٧٥ _ ٢٧٨

٥٤_ انظر خطط المقريزي ج ٢ ص ٣١٠ حيث تحدث عن حجـر غلمان الخلفاء لكنه لم يذكر حجرا خاصة بالجواري .

٥٥_ بالاصل اقام أحمد بن المستعلي. وابن زائدة.

٥٦_ بهامش الأصل : بياض ثلث صفحة.

٥٧_ كانت معدة مـن اعمال الوجه البحري بين الفسطاط والاسكندريـة . القاموس الجغرافي للبلاد المصرية _ ط . القاهرة ١٩٩٤ ج ١ ص ٢١٧.

٥٨_ ذكر ابن الجيعان في كتاب التحفة السنية بـأسماء البلاد المصرية « منية زفيتي جواد» بين ما كان يتبع ثغر دمياط . ط القاهرة ١٩٧٤ ص ٩٦

٥٩_ طبع اكثر من مرة آخرها بدار رياض الريس _ لندن ١٩٩٠

٦٠_ ربما جمع دواة.

٦١_ بالفارسية : كوة ، نافذة فتحه لتجديد الهواء.

٦٢ الأموال التي كـانت تجبى كجزية علـى المعاهدين. صبح الاعشـى ج ٣ ص ٤٥٨. قوانين الدواوين ص ٣١٧ _ ٣١٩.

٦٣_ المـواريث الحشرية : مـال من يموت وليس لـه وارث خاص : بقرابـة او نكاح اوولاء او باقي بعـد الفرض من مال مـن يموت وله وارث ذو فـرض لايستغرق جميع المال ولا عـاصب له» صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٠. قوانين الدواوين ص ٣١٩ _ ٣٢٤

٦٤_ سورة الأنفال _ الآية :٧٥.

٦٥_ مدينـة كانت عامـرة بالناس من مدن الصعيـد ، شهرت بالنسيج . القامـوس الجغرافي للبلاد المصرية ق ٢ ج ٢ ص ٢١١ _ ٢١٢.

٦٦_ انظرهما في خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٢٣ _ ٣٢٤

٦٧_ بهامش الاصل : « وبخطه، ابو جعفر يوسـف بن أحمد بن حسدية الاسرائيلي الاندلسي احد أعلام فضلاء اليهود الأطباء اسلم في القاهـرة واختص بالمامون ، وترجم بعض كتب ابقراط وصنف كتابا في المنطق ومات في حدود الثمانين . وكان فيه دعابة»

٦٨ _ انظر حول الاحتفال به الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٩٤.

٦٩- كان بناحية الخاقانية ، وهي قرية من قرى قليوب . خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٨٧

٧٠- كان للخلفاء الفاطميين اعتناء بليلة أول محرم في كل عام ، وكان من رسومهم صنع اطعمة كثيرة وحلويات كانت توزع على رجالات الدولة . خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٨٩

٧١- كان الفاطميون يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الاسواق ، ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن . خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٨٩ - ٣٩٠

٧٢- بقي تقليد العماريات حتى الامس القريب وكان يحتفل به في حماه ، والعمارية هودج توضع عليه دمية البست أفخر الثياب ووضعت عليها الحلي الذهبية الثمينة ، وفي ذلك رمز للظعينة والدفاع عنها أو غير ذلك.

٧٣- أي مقدم

٧٤- الجام : اناء من فضة. القاموس : وقد اورد المقريزي هذه الحكاية في خططه ج ٢ ص ٣٨٢

٧٥- بناه الخليفة الحاكم ، وكان يخرج منه للتوجه الى مقس النيل وموضعه اليوم مدخل حارة بيت القاضي تجاه جامع الملك الكامل بشارع بين القصرين . صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٤٦ خطط المقريزي ج ٢ ص ٢١٨.

٧٦- غالبا ما كان المنديل يستخدم لشد الوسط . انظر صبح الاعشى ج ١٣٢

٧٧- من أنواع الحرير الملون الفاخر . صبح الاعشى ج ٣ ص ١٣٢

٧٧- من انواع

٧٨- السيدة اروى الصليحية ابنة أحمد [٤٢٤ - ٥٣٢ هـ / ١٠٥٢ - ١١٣٨] ملكة حازمة مدبرة ذات شهرة واسعة - الاعلام للزركلي

٧٩- المجالس سجلات دروس الدعاة بعد موافقة الامام عليها.

٨٠- الرباع السلطانية : الاملاك من عقارات وسواها وخاصة في مدينة القاهرة التي كانت جل بيوتها وعقاراتها ملك للدولة ، وقد شكلت ايجاراتها موردا هاما للخزينة.

٨١- بعد وفاء النيل وبلوغه ستة عشر ذراعا تجري الاستعدادات للاحتفال باسالة الماء وذلك بكسر الخليج في اليوم الثالث او الرابع من يوم التخليق ومما يحدث في يوم التخليق ان يسير العشاري الذي يركبه الخليفة في النيل من المنظرة المعروفة برواق الملك الى باب المقياس الحالي على الدرج ، فيطلع من العشاري ويدخل الى الفسقية التي فيها المقياس ، والوزير والاستاذون والمحنكون بين يديه، ويصلي هو والوزير ركعتين كل منهما بمفرده ، ثم يؤتى بالزعفران والمسك فيتناوله صاحب بيت المال ويعطيه لابن أبي الرداد، فيلقي بنفسه في الفسقية بثيابه ، فيتعلق بالعمود برجليه ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى والقراء يقرأون القرآن.
ثم يخرج الخليفة الى العشاري فيركبه الى دار الملك ومنها يركب الى القاهرة ، وفي كسر الخليج بعد ثلاثة ايام أو اربعة تنصب الخيمة الكبيرة المعروفة بالقاتول للخليفة في البر الغربي عند منظرة السكرة وحولها الخيام المختلفة الاحجام على قدر مراتب الامراء والمتفرجين.ثم يركب الخليفة في موكبه العظيم الكامل الأبهة حتى ينتهي بعد زيارات متتابعة الى منظرة السكرة بقرب الخيام المنصوبة ، ثم يطل استاذ محنك فيشير بيده بفتح السد فيفتح بالمعاول وتضرب الطبول والابواق من البرين ، ثم ينصب السماط ، ثم تتهادى العشاريات اللطاف وورائها العشاريات الكبار في الخليج بعد اعتدال الماء فيه ، واثر هذا يعود الخليفة بعد صلاة العصر الى قصره بالموكب المعتاد. صبح الاعشى ج ٣ ص ٥١٢ - ٥١٧، خطط المقريزي ج٢ ص ٣٥٧ - ٣٧٢

٨٢- سلفت الاشارة الى ان الافضل بن بدر الجمالي هو الذي بعث نجيب الدولة الى اليمن سنة ٥١٣ هـ لتأييد الملكة الحرة.

٨٣- ذكرها القلقشندي بين فرعي النيل في الوجه البحري واشتملت الاولى على المنوفية والغربية، وامتدت الثانية في بحر ابيار حتى الفرع الغربي من النيل وعرفت بجزيرة بني نصر. صبح الاعشى ج٣ ص ٨٨ - ٨٩.

٨٤- صاقبت الدقهلية والمرتاحية عمل الشرقية من جهة الشمال الى السباخ والى بحر تنيس . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٠١ - ٤٠٢

٨٥- نزهة المقلتين لابن الطوير - ط . بيروت ١٩٩٢ ص ١١-١٦

٨٦- استخراج المال وقبضه وكتابة الوصولات به . قوانين الدواوين ص ٣٠٤

٨٧- عدت الضرائب غير الشرعية مكوسا . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٨- ٤٦٧

٨٨- الخاقانية قرية من قرى قليوب ، كان من خاص الخليفة وبها جنان كثيرة للخليفة ، وكانت من احسن المنتزهات المصرية . خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٨٧.

٨٩- الرهاويج من الخيل : السريعة فلسرعتها تثير الغبار . القاموس .

٩٠- هي الآن بمنطقة العباسية في القاهرة ، وكانت بالاصل بستانا لريدان الصقلبي أحد خدام العزيز بالله نزار . خطط المقريزي ج ٣ ص ٢٤

٩١- كان الأمر قد بلي بعشق الجواري العربيات وصارت له عيون بالبوادي فبلغه أن جارية بالصعيد من اكمل العرب واظرفهم شاعرة جميلة،فتزيا بزي الاعراب وكان يجول في الاحياء الى ان انتهى الى حيها،وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره، وعاد الى دار ملكه وارسل الى اهلها يخطبها وتزوجها فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء حتى لا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة، فبنى لها البناء المشهور في جزيرة الفسطاط وكان غريب الشكل،ولكنها ظلت مغلقة الخاطر بابن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت اليه:

يابن مياح اليك المشتكي   مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حي مطاعا آمراً   نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مرصد   لا ارى الا خبيثا ممسكا

فأجابها ابن عمها:

بنت عمي والتي غذيتها   بالهوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها   لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الامر إليه اشتكي   مالكا وهو الذي قد ملكا

خطط المقريزي ج٢ ص ٣٨١.

٩٢- الجلبة (ج - جلاب) سفن تجلب التجار والبضائع في البحر الاحمر

٩٣- الجسر هنا الذي وصل بين الفسطاط وجزيرة الروضة وبين جزيرة الروضة وبر الجيزة وكان معمولا من مجموعة من المراكب المربوطة الى بعضها والمغطاة بألواح من الخشب فوقها طبقة من التراب .خطط المقريزي ج ٣ ص ٧٠- ٧٢

٩٤- هي المدينة في الاعمال الدقهلية .ابن الجيعان ص ٤٦- ابن مماتي ص ٨٩

٩٥- الغفارة : المعطف

٩٦- كذا بالاصل والاصح بالسين

٩٧- سورة الواقعة - الآية ١٠٠

٩٨- مار يمور مورا ، والمور : الموج والاضطراب والتحرك . القاموس.

٩٩- قيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه لدى مغادرته القصر الكبير متوجها الى المصلى بظاهر باب النصر . خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٩٧.

١٠٠- كان الحجرية جماعة من الشباب يناهزون خمسة آلاف نفر يقيمون في حجر منفردة لكل حجرة منها اسم يخصها ، وكانت حجرهم بمعزل عن القصر بجوار دار الوزارة. صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٧٧ خطط المقريزي ج ٢ ص ٣١٠- ٣١٢

١٠١ـ كان حبس المعونة بالقاهرة قبل جامع عمرو بن العاص : كان يسجن فيه ارباب الجرائم من العامة،حوله صلاح الدين فيما بعد الى مدرسة باتت تعرف بالشريفية وكان الخاصة يسجنون بخزانة البنود في قصر الخلافة الكبير بالقاهرة . خطط المقريزي ج ٢ ص ١٠٠ـ١٠١.

١٠٢ـ انظر حولها خطط المقريزي ج ٣ ص ٣٥٢.

١٠٣ـ هو أحد ابواب القصر الغربي الصغير . خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٣٧

١٠٤ ـ نسب الجيوشية الى امير الجيوش بدر الجمالي ويرجح انتساب الريحانية الى عزيز الدولة ريحان ، وكان قد تولى اخماد ثورة بني قره أيام المستنصر . خطط المقريزي ج ٢ ص ٤٢٨ ـ ٤٣٠.

١٠٥ ـ معجم السفر للسلفي ـ ط اسلام اباد ١٩٨٨ ص ٤٣ـ ٤٤

١٠٦ـ خطط المقريزي ج٢ ص ٤٢٨ـ ٤٣٠

١٠٧ ـ كانت قوص مدينة جليلة من البر الشرقي من النيل ذات ديار فائقة ، ورباع انيقة ومدارس وربط وحمامات ، يسكنها العلماء والتجار وذوو الاموال ، وبها البساتين والحدائق المستحسنة ولها عمل متسع ينتهي آخره الى أسوان .صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧

١٠٨ـ انظر ترجمته في الخريدة ـ قسم مصر ـ ج ٢ ص ١ ـ ١٧

١٠٩ـ ماتزال تحمل الاسم نفسه في جمهورية تونس

١١٠ـ في هامش الاصل : « بياض سطره

١١١ـ مدينة قديمة حسنة في اقليم الغربية . الانتصار لواسطة عقد الامصار لابن دقماق ، ط بيروت دار الآفاق الجديدة ص ٩١

١١٢ـ قرية بمصر على شط النيل الشرقي على بحر رشيد معجم البلدان

١١٣ـ انظر خطط المقريزي ج ٢ ص ٤١٨.

١١٤ـ حول حارة الحسينية انظر خطط المقريزي ج ٢ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٥

١١٥ـ وصفها المقريزي وحدد مكانها في خططه ج ٣ ص ٤٢٥ ـ ٤٣٢

١١٦ـ سملوط من مدن الصعيد ، تقع غربي النيل على بعد نحو خمسة وعشرين كليو مترا الى الشمال من مدينة المنيا .معجم البلدان،قوانين الدواوين ص ١٥١ ، ١٧٠

١١٧ـ ابوان : قرية بالصعيد الادنى غربي النيل، وتعرف بابوان عطية قوانين الدواوين ص ١٠٤ـ١٠٥

١١٨ـ من اعمال الصعيد تتبع الان مركز بني مزار بمحافظة المنيا معجم البلدان قوانين الدواوين ص ١٧٠

١١٩ـ من اعمال الجيزة قوانين الدواوين ص ١٠٢

١٢٠ـ كان الاشراف زمن الفاطميين على دار الضرب يسند الى قاضي القضاة وللقاضي ان ينيب عنه في مباشرة شؤون دار الضرب من يختاره من نوابه ثم اصبحت دار الضرب تحت اشراف ناظر الخاص بعد الغاء الوزارة . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ .قوانين الدواوين ص ٣٣١ ـ ٣٣٣

١٢١ـ كان يقال له ايضا ديوان العمائر ، وكان محله بدار الصناعة بمصر وفيه انشاء المراكب للاسطول وحمل الغلال السلطانية والاحطاب وغيرها ، ومنه ينفق على رؤساء المراكب ورجالها . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٢.

١٢٢ـ اختص ديوان النظر بالاشراف على ارزاق ذوي الاقلام وغيرهم يتولى عرضها على الخليفة والوزير واليه طلب الاموال واستخراجها والمحاسبة . عليها قوانين الدواوين ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠ . صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٩ خطط المقريزي ج٢ ص ٢٤٠

١٢٣- المحول هو مجلس الداعي ، ويدخل اليه من باب الريح وبابه من باب البحر ويعرف بقصر البحر. وكان في اوقات الاجتماع يصلي الداعي بالناس في رواقه . خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٩٤ - ٢٩٧

١٢٤- تدعوه العامة قصر الشوق وكان أحد أبواب القصر . خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٤٦

١٢٥- ظاهر القاهرة عمره جوهر الصقلبي عوضا عن دير هدمه في القاهرة كان بالقرب من الجامع الاقمر . خطط المقريزي ج ٢ ص ٤١٨

١٢٦- رطل بالمصري، والرطل المصري مائة درهم واربعة واربعون درهما او اثنتا عشرة اوقية . قوانين الدواوين : ٣٦٥ - ٤٥٥

١٢٧- في خريدة القصر قسم شعراء مصر : ٢ : ٦٤ - ٦٥ تعريف موجز به ويتضمن ابياتا خمسة من شعره منها البيتان المذكوران هنا

١٢٨- هو نصر الله بن عبد الله بن علي بن الازهري ، شاعر اسكندري [٥٣٢ - ٥٦٣هـ] رحل الى صقلية وأقام بها نحو عامين ، ثم عاد منها ليرحل الى اليمن حيث اقام بها مدة ، وقد توفي بعيذاب في طريق عودته . الخريدة - قسم مصر - ج ١ ص ١٤٥ - ١٦٥

١٢٩- ولد بأسوان ورحل الى مصر واتصل بوزرائها وخلفائها ، ومدحهم فتقدم عندهم ارسله الحافظ الى اليمن داعيه له فيقال انه دعا لنفسه وضرب السكة باسمه، فقبض عليه وارسل الى مصر ، فعفا الخليفة عنه وهو ابن اخت الموفق ابن الخلال كاتب الانشاء للفاطميين ترقي في الخدمة حتى تولى نظارة ديوان الاسكندرية سنة تسع وخمسين وخمسمائة في وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، وقتله شاور في وزارته لميله الى اسد الدين شيركوه. خريدة القصر قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠٢

١٣٣- أبويط من القرى القديمة من الاعمال البوصيرية أو من الاعمال البهنساوية . القاموس الجغرافي ، ق ٢ ج٣ ص ١٢٥.

١٣٤- دهشور من القرى القديمة ، واقعة في جنوب منف.القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص ٤٣.

١٣٥- كانت صول قرية واقعة على فم الخليج المتصل بأرض الفيوم ، واسمها الان المندرة بحري . القاموس الجغرافي ق ٢ ج٤ ص ٤٢

١٣٦- سلفت الاشارة الى ان رضوان بن ولخشي كان أول من تلقب بلقب ملك .

١٣٨ - على مقربة من غزة

١٣٩- في هامش الاصل : بياض ربع صفحة

١٤٠- سورة البقرة - الآية : ١٣٠

١٤١- ديوان طلائع بن رزيك - ط النجف الاشرف ١٩٦٤ ص ٥٨ مع فوارق ، وانظر ايضا سورة البقرة - الآية : ٥٨ قوله تعالى « وادخلوا الباب وقولوا حطة»

١٤٢- ليسا في ديوانه المطبوع.

١٤٣ - بهامش الأصل وبخطه « شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن سعد بن مخيس بن أبي ذؤيب عبد الله والد ذؤيب والدحليمة بنت أبي ذؤيب»

١٤٤- بهامش الأصل : بخطه « الارتاحي هو ابو محسن علي بن خير بن محمد بن عبد الله ابن مفرج الارتاحي المذحجي العابر ، ولد في سنة اربع وثمانين واربعمائة بمصر ومات بها في ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وستين وخمسمائة.

١٤٥- في هامش الأصل بخطه « ما نزل شاور دار الذهب وترك دار الوزارة بينه وبين شيركوه ... طمع... يستخدمهم ، فلما تحقق شيركوه من ....»

١٤٦- بهامش الأصل بياض صفحة

١٤٧- قرية بالصعيد الأدنى غربي النيل الى جوار اشنين : معجم البلدان
١٤٨- من اقليم الغربية يتفرع عندها النيل الى فرعين باتجاهي : تنيس ورشيد . معجم البلدان
١٤٩ - بهامش الأصل : بياض سطرين
١٥٠- بهامش الأصل : بياض صفحة وبالنسبة للقاضي الجليس انظر الخريدة - قسم مصر - ج ١ ص ١٨٩ - ٢٠٠
١٥١- من الاعمال الاطفيحية . قوانين الدواوين ص ١٣٨
١٥٢- في الصعيد الادنى في شرقي النيل من أعمال كورة البهنسا . معجم البلدان,قوانين الدواوين ص ١٥٨.
١٥٣ - من أعمال الأشمونين . معجم البلدان . قوانين الدواوين ص ١٤٠
١٥٤- كانت تجاور بركة الحبش.
١٥٦- قريبة من بلبيس ، على الطريق بين القاهرة وغزة . معجم البلدان
١٥٧- بهامش الأصل : بياض صفحة
١٥٨- بلد شرقي النيل من اعمال الصعيد يسكنها عرب من بلي
١٥٩- بهامش الأصل : بياض صفحة ونصف.
١٦٠- رمضه : اشتد حره ، والترمض: غثيان النفس : القاموس .
١٦١- سلف للمقريزي قبل اسطر ان ذكر أولاد العاضد على انهم ثلاثة عشر، وأعاد الآن ذكرهم فجاءوا ستة عشر ويشير هذا الى ان المقريزي صنف كتابه كمسودة ، ولم يعد النظر به.
١٦٢- كذا والصحيح « عبد الله» .
١٦٣- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة - القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب - ط . القاهرة ١٩٧٠ ص ٩٨ - ١٠٠ مع فوارق
١٦٤- لقبوه: الحامد لله وقد توفي في زمن العادل سيف الدين ابو بكر بن أيوب في الحبس، فقيل انها صارت من بعده لابنه سليمان بن داود بن العاضد، وكانت أمه قد ولدته بالصعيد حتى لايقع في أيدي الايوبيين ، فعلم الملك الكامل ابن العادل بخبره فظفر به وحبسه بقلعة الجبل ، وتوفي بها في سنة خمس واربعين وستمائة ايام الصالح نجم الدين بن الكامل . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - الجزء الأول - ط القاهرة ١٩٥٧ ص ٢١٠ - ٢١١
١٦٥- هي الدار التي انشأها بدر الجمالي لتكون سكنا له ومقرا لوزارته ، فلما جاء من بعده ابنه الافضل أنشأ دارا جديدة عرفت بدار الوزارة وظلت المقر الرسمي للوزارة الى أواخر الفاطميين . خطط المقريزي ج٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٤، ٤٠٤ - ٤٠٥.

المحتوى

ـ ١١٩٢٦ـ